الموسوعة الشاملة

في تاريخ الحروب الصليبية

المجلد الأول



تأليف وتحقيق وترجمة

د. سهيل زكار

مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية

(المشرق)

الجزء الأول

دمشق

١٤١٥ هـ — ١٩٩٥ م

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

١ ـ (اوضاع المشرق)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أصدرت منذ أكثر من عشرين سنة خلت كتابي «مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية» وكان بنيتي وقتها اتباع هذا المدخل بكتاب عن تاريخ الحروب الصليبية وفق منهج علمي جديد روحه عربية اسلامية ، ومرت الأيام وأنا أقوم بجمع المصادر والمواد لهذا الكتاب حتى كان عام ١٩٧٦ ، ففي تلك السنة أعرت للتدريس في جامعة فاس ، وفي فاس تعمقت معارفي بتاريخ الأندلس والمغرب العربي الكبير ، وتجلت لدي صورة الصراع الاسلامي الصليبي على انها كانت – وما زالت – صورة شاملة ، فالحروب الصليبية قامت على جميع الجبهات في الشرق والغرب والشمال والجنوب في البر والبحر ، ومن ثم إن قصر دراسة تاريخ الحروب الصليبية من حيث المقدمات لا بل حتى من حيث الوقائع على المشرق فيه نقص وتشويه ، وفي ساعة من ساعات الصفاء الفكري رسمت وأنا في فاس صورة مخطط لمشروع كتاب كبير عن تاريخ الحروب الصليبية يتضمن كتابة ـ مدخل آخر للحروب الصليبية أشرح فيه أوضاع المغرب والأندلس قبيل نهاية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد.

وهكذا تابعت عملي في الدراسة وجمع المصادر ، وهذه مهمة ثقيلة ومكلفة من جميع النواحي على الفرد أن يقوم فيها بدور عدة مؤسسات ، وهكذا يتقسط المشروع ويطول الزمن ، وكان لهذا بعض الفوائد ، من حيث تعميق التصور وتطوير طرائق معالجة

الموضوع ، وخطوت في عام ١٩٨٤ خطوة هامة في سبيل تنفيذ المشروع الذي خططت له وذلك باصدار كتابي « الحروب الصليبية» في جزأين ، ثم تابعت العمل وهنا عقدت النية على إصدار كتاب موسوعي كبير طورت خططه أصدره في عام ١٩٩١ ، وذلك بمناسبة مرور سبعة قرون على طرد آخر محتل فرنجي من أرض الشام إثر تحرير عكا وارسوف ، غير أنني لم أتمكن من تنفيذ ذلك وأصبت بلعنة رقم ـ ٩١ ـ ويؤسفني القول إن عدة سنوات بعد ١٢٩١ حملت رقم ـ ٩١ ـ كانت سنوات أسى وذل وتراجع للعرب والمسلمين ، ففي عام « ١٤٩١ » انتصرت الصليبية وطرد العرب من غرناطة في الاندلس وفي سنة « ١٩٩١ » ذهب العرب مرغمون الى مدريد لاستجداء السلم من الارهابي الصهيوني شامير ، وذلك في أعقاب وقائع مأساة التاريخ العربي والاسلامي على مر العصور ، وأعني بذلك حرب الخليج إثر اقدام صدام حسين بعمالة وصفاقة على احتلال الكويت وتدمير طاقات العراق العزيز وقتل شعبه بمختلف صنوف الافناء.

ومع هذا تابعت العمل بجد في سبيل تحقيق مشروع كتابي وقمت أكثر من مرة بادخال تعديلات على مخططه ، وكان هدفي تغطية مجمل وقائع قرني الصراع ، ولكن لم أتمكن من الوصول الى هذه الغاية حيث لم تتوفر لي مصادر أصلية كافية بغير العربية عما يعرف باسم«الحملتين الخامسة والسادسة» ولهذا إن كتابي سيتوقف في هذه المرحلة مع وقائع الحملة الرابعة ، واملي كبير في أن أتمكن في المستقبل القريب من الحصول على المصادر المرغوب بها مع المزيد من المصادر العربية الجديدة غير المنشورة .

لم ادخل سوى تعديلات طفيفة على محتويات كتابي «مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » وقد استخدمت جميع مواد كتابي الآخر «الحروب الصليبية »لكن لم أعتمد الترتيب التي أقمته عليه ، وبات قوام كتابي الجديد :

أولا : مدخل يأتي في ثلاثة أجزاء ،بحثت في الجزء الاول اوضاع

المشرق في القرن الخامس هـ ـ الحادي عشر م ، وتناولت في الثاني أوضاع المغرب والاندلس حتى غاية الفترة نفسها ، وسيحتوي الجزء الثالث على عرض مختصر موجه للاوضاع في أوروبا في العصور الوسطى والعوامل السياسية والعسكرية والدينية التي أدت الى توجه حشود شعبية هائلة من اوروبا نحو بلاد الشام محدثة ما عرف باسم الحروب الصليبية ، وسأبحث في هذا الجزء باختصار مراحل أحداث الحروب الصليبية وفق تفسير أراه وأعتمده ، وأعتقد أنه يمثل وجهة نظر عربية اسلامية تجاه الموضوع ، ولدى تقديمي لهذا العرض سأوضح مسوغاته ، وسأختتم هذا الجزء بالتعريف بالمصادر التي اعتمدتها وبأصحاب النصوص المنشورة ، وهذه النصوص من حيث الواقع الجغرافي : شرقية وأوروبية، والشرقية : عربية وسريانية ، والأوروبية : أغريقية ولاتينية ، ومن حيث الحجم تحتل العربية واللاتينية الحجم الأوفى والأكبر هذا وبالوقت نفسه يمكن اعتبار نصوصنا تنقسم من حيث الواقع الديني الى قسمين:

إسلامي ومسيحي ، وكتبت الاسلامية بالعربية حصرا أما المسيحية فكتبت بالسريانية واللاتينية والاغريقية وسيكون هناك في مستقبل الأيام عندما اتابع العمل بهذا المشروع بعض النصوص الأرمنية ، ويجمع بين النصوص المسيحية بشكل عام الانتماء الديني والهوى والعاطفة ،وهي تمثل ثلاث كنائس رئيسة ، ومعروف أن تاريخ الحروب الصليبية قد كتب في أيامنا هذه من وجهة نظر الكنيسة الاغريقية ، وكتب أكثر من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ، فهذه الكنيسة قد تحملت الوزر الاعظم في جميع وقائع الحروب الصليبية ، وجاء دور الكنيسة السريانية هامشيا ، وحتى الآن لم تجر أية محاولة – فيما أعرف ـ للتأريخ للحروب الصليبية من وجهة نظر هذه الكنيسة ، وفي الوقت نفسه ماتزال محاولات التأريخ للحروب الصليبية من وجهة نظر عربية اسلامية بدائية لم تتبلور لتفرض ذاتها في ميادين التأريخ المحلية والعالمية وأعد جهدي الذي اقدمه للقارىء العربي الآن محاولة جدية لارساء اسس هذا المسعى المنشود والمتوجب أيضا ذلك أن العدوان الصليبي وقع على

العرب المسلمين وعلى ديارهم ، وبفضل الجهود العربية الاسلامية أخفق المشروع الصليبي وتحررت الأرض وتحرر الانسان.

ودوافعي للبحث في الحروب الصليبية دوافع علمية خالصة وهي متأثرة الى أبعد الحدود بواقع الاحتلال الصهيوني القائم في بلاد الشام حاليا وبالحملة الصليبية ضد الأمة العربية والشعوب المسلمة ، وهي حملة شرسة جدا ، ثم ان نشري لعدد كبير جدا من المصادر الاصيلة لتاريخ الحروب الصليبية بعد تحقيق بعضها وترجمة بعضها الآخر فيه إسهام بناء في مشروع كتابة تاريخ الامة العربية ككل وتاريخ بلاد الشام بشكل خاص ، فالاساس لاعمال التأريخ تأمين المصادر وهذه هي المرة الاولى التي يوضع فيها تحت تصرف القارىء العربي المختص وغير المختص هذا الحشد الكبير من النصوص المتوائمة حينا والمتناقضة أحيانا لكنها جميعا تساعد على رسم صورة متوازنة للأحداث ومتكاملة ورتبت النصوص حسب الانتماء اللغوي والجغرافي ، ولقد وجدت من المفيد جدا بعد تأليفي لكتاب المدخل في أجزائه الثلاثة أن أتولى ترجمة كتاب «السعي وراء الفترة الالفية السعيدة» لنورمان كاهن ، وهو كتاب فريد في بابه ، لا يوجد له مثيل في أية لغة من اللغات ، موضوعه وصف الأوضاع الدينية في أوروبة في العصور الوسطى لا سيما ما تعلق بأحداث الحروب الصليبية ولامسها مباشرة ، وفائدة هذا الكتاب لن تقتصر على التعرف على الحركات المسائحية والشخصيات التي أدعى كل منها أنه المسيح المنتظر أو رب من الأرباب ، ومن ثم أدوارهم في صنع أحداث الحروب الصليبية ، بل الفائدة ستتجاوز هذا كله ، إنها ستمتد الى العديد من جوانب تاريخ العرب ، خاصة تاريخ بعض الفرق .

لهذا كله وزيادة رأيت أن محتويات هذا الكتاب تصلح كمدخل آخر للكتاب ، أخذا بعين الاعتبار أن وظيفة المدخل هي التمهيد لما يليه .

إن ضخامة حجم مشروع كتابي هذا وتدوع مشاربه جعلته يأخذ الشكل الموسوعي ، وبالنظر لاستقطاب أحداث الحروب الصليبية في

الشام قديم وحديثا والانتماء الى بلاد الشام بات أسم الكتاب«الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية».

إن تاريخ بلاد الشام من حيث العمق هو البداية في التاريخ الانساني والحضارة والعطاء وهو تاريخ لم يعرف التوقف أو الانقطاع ، ولهذا ولأسباب أخرى استعصت أرض الشام على القضم والابتلاع بشكل دائم من قبل المعتدين ، نعم لقد احتلت أجزاء من الشام من قبل الغرباء لبعض الوقت وادعى هؤلاء الغزاة أن الأرض ارضهم وأرض الآباء والأجداد ، لكن ما لبث أن زال العدوان ، فهوية الأرض العربية شامية ولم تستطع قوة من القوى أن تغيرها فيما مضى ولن تستطيع فيما لحق ، ذلك أن «الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ».

خلق الله الشام أرضا عربية مقدسة ، فهي أرض الابدال وأرض الابطال الغر الميامين ، أعتسادت على أنجابهم خاصة في أيام الأزمات ، فهذه الأرض المعطاء التي أنجبت أيام الحروب الصليبية أبطال التحرير ، ذوي الاصالة والاخلاق والشرف والحضارة ، أنجبت لهذا الجيل ولأزماته الحاضرة البطل الكبير ، العربي الأصيل ، رجل الدولة والحضارة والثقافة والشهامة العربية والكرم والاباء والمروءة والرجولة ، الرئيس حافظ الأسد ، فوجوده ورعايته أعطتني الدافع والأمل لاكمال مشروع هذا الكتاب الكبير والتخطيط لمشاريع أخرى أكبر يتصدرها اخراج تاريخ دمشق لابن عساكر وأنشاء مصرف للمعلومات التاريخية العربية والاسلامية من أجل كتابة كتاب في تاريخ الاسلام سياسيا وحضاريا سيكون فيما لايقل عن عشرين من المجلدات وفق منهج في التأليف جديد ومتطور ورؤية تاريخية عربية اسلامية علمية مؤمنة ، ذلك أن الايمان يصنع المعجزات.

لقد شجع السيد الرئيس على انجاز هذا المشروع وأمر بتأمين كل ما يلزم لطباعته ونشره ، فله الشكر الصادر من القلب ، و الى الله

تعالى أبتهل أن يمد في عمره وأن يمنحه الصحة والتوفيق والنجاح الدائم ، ففي ذلك وفاء بما تعهد به جل وعلا في قوله«إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون» فحفظ الذكر بالرجال المؤمنين والعلماء وهو حفظه الله عالم مؤمن ، يرعى العلم والعلماء ويرى أن مستقبل بقاء هذه الامة مرتبط بتقدمها العلمي والثقافي ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول:«طلب العلم فريضة على كل مسلم» وهوأيضا يقول:«إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء»، وقال الامام محمد بن الحسن الشيباني:«إن الله تعالى حكم ببقاء الشريعة الى يوم القيامة ، والبقاء بين الناس يكون بالتعلم والتعليم ، فيفترض التعليم والتعلم جميعا» وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الذين لا يعلمون والذين لا يتعلمون ».

اللهم أمنحنا العلم النافع ووفقنا الى ما فيه منفعة العرب والمسلمين ففي منفعتهم مرضاتك «رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا». يارب يا كريم يا من أمره بين الكاف والنون لك الحمد بلا حدود ، منك أستمد العون وأطلب الهداية يا إله العالمين.والصلاة والسلام على محمد النبي العربي وعلى اله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ - ٤ - ١٤١٣هـ / ١٧ - ١٠ - ١٩٩٢

سهيل زكار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

درج الذين عملوا على دراسة تاريخ الحروب الصليبية على الانطلاق من أوربة الغربية موطن الصليبيين. ولقد فعل هذا الباحثون الاوربيون وجرى على سننهم معظم الباحثين الشرقيين مقلدين إياهم فدرسوا الحياة في أوربة الغربية خلال القرنين العاشر والحادي عشر من كافة الوجوه والجوانب، ثم سايروا نشوء الحركة الصليبية والتبشير بها ، وبعد هذا واكبوا جموع الصليبين عبر أوربة الى القسطنطينية ثم آسية الصغرى فبلاد الشام.

من الطبيعي أن يقوم أوربي باتباع مثل هذا المنهج ،برغم ما فيه من تضليل وتغافل عن حقيقة الأمور ووقائع التاريخ ، ذلك أن الجيوش والجموع الصليبية عندما وصلت الشام لم تكن أول قوات نصرانية ــ دافعها الأساسي ديني ــ تغزو هذه البلاد ، ثم لم يكن الفرنجة ــ خاصة في جيش البارونات ــ يتعرفون لأول مرة على آسية الصغرى وأعالي بلاد الرافدين ، ذلك لأن عددا كبيرا من الفرنجة كانوا قد خدموا كمرتزقة في الجيوش البيزنطية ، وقاتلوا ضد المسلمين في الشرق ، وعرفوا طرائق الحرب وفنون القتال لديهم وما ورد في خطبة البابا أوربان الثاني ــ المبشر الأول بالحروب الصليبية ــ من نصائح قتالية لهو برهان كاف للتدليل على صحة هذا ولا حاجة للتذكير بأن الفرنجي الذي لم يسبق له القتال ضد مشاركة المسلمين ربما كان قد نال حظه في القتال ضد المغاربة .

لاريب أن الحملات الصليبية كانت حلقة من حلقات الصراع بين

الاسلام والمسيحية ، لكن الأوربي مهما تجرد تبقى هذه الحروب جزءا من تاريخه وامجاده ـ خاصة في عصر المناداة بالوحدة الاوربية ـ ورجالها هم ابطاله نشأ على حبهم واتخاذهم مثلا أعلى لذا قام الباحثون الاوربيون ـ سواء عن ادراك وقصد أو بدون ادراك وقصد ـ بتمجيد رجالات الصليبيين فأضفوا عليهم صورا من القدرة والشجاعة والطاقات هي في كثير من الاحيان فوق الصفات العادية للبشر ، مع أن واقع الحال لم يكن هكذا أبدا ، فالصليبيون كانوا بشرا أدنى من سواهم ثقافة وحضارة وحتى شجاعة ومعرفة بفنون القتال ، ولقد انتصروا ، حين وصلوا بلاد الشام ، لا لأنهم تمتعوا بصفات التفوق ، بل لأن الخصم الذي واجهوه كان من التفكك والهزال بحال لايستطيع معه أن يصمد لهبات النسيم العليل. فما بالك ببعض الريح العاتية؟!

في نصف القرن الذي سبق مجيء الصليبيين كان العالم الاسلامي يعيش في حالة من الفوضى والدمار لانظير لها ، ولقد نشأت هذه الحالة عن هجرة الغز البداة إليه مع التوسع السلجوقي ، وطالما أن مسرح الحروب الصليبية كان في بلاد الشام والجزيرة فلننظر بإمعان إلى حال هذين البلدين قبيل مجيء الصليبيين ، وإذا فعلنا هذا نجد الشام والجزيرة مثل الشطرنج فيه رقع كثيرة فيها دمى متفاوتة الحجوم متصارعة دائما ، ولقد سهل هذا التمزق مهمة الغز عندما دخلوا الشام والجزيرة فاستطاعوا بسهولة الاستيلاء عليهما ولم يجدوا كبير عناء في تهديمهما ، كما أن هذا التمزق ناسبهم ووافق طبيعتهم ، فالغز بالأصل كانوا عشائر بدوية يكرهون التوحد ويمجونه ، ويألفون الفرقة ويحبونها ، ولم يناسبهم أكثر من أن يجدوا بلدا كالشطرنج فيه مربعات كافية لكل العشائر مع زعمائها المتفاوتين في الاهمية مثل حال الدمى.

لكن من هم الغز ، ومن أين جاءوا ، ثم ما الذي فعلوه بالتحديد حتى كانوا هكذا من أسباب نجاح الصليبيين ؟ الجواب على هذه الاسئلة يتطلب المضي الى سهوب بلاد ما وراء النهر موطن الغز

الأول ، فمن هذه السهوب ينبغي ان ينطلق دارس الحروب الصليبية وهذا ما صنعته في هذه الدراسة.

ومفيد أن نتذكر هنا بأن البابا أوربان الثاني ، عندما بشر بالحروب الصليبيةودعا لها كان مدفوعا بشكل رئيسي للعمل على اتجاد بيزنطة النصرانية من الغز المسلمين وربما بالتالي ايجاد فرصة لتوحيد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تحت زعامة خلفاء القديس بطرس ، وجدير أن نذكر هنا أن الصليبيين قد وصلوا الشام جمعا واحدا ، ولكن ما أن توغلوا فيه وانتزعوا بعض أراضيه حتى فرض عليهم طبيعته في التمزق ، فانقسموا الى عدة دويلات ، وبما أن كثيرا من صليبي الحملة الأولى قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديد قد تمتع بصفات خاصة ، ولما كان تدفق الفرنجة من أوربة على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متمايزتين ، هما مجموعة البلديين ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة الى هذا فقد قام بين الصليبين تنظيمات ، غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية. ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن وازدادت الفرقة عمقا والخلافات حدة ، وزالت من بين الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الاولى خاصة بين صفوف الفقراء Tafurs منهم.

وفي الوقت الذي حصل فيه هذا بين صفوف الصليبيين كان المسلمون قد أصابهم انقلاب هائل ايضا ، حيث أن الضربة التي تلقوها أفاقتهم من رقدتهم وأثابت العاقلين منهم الى رشدهم ، وزالت القيادات القديمة وتكونت قيادات جديدة ، وخلق انسان مسلم جديد مع روح جديدة ، ولقد ظهر هذا خاصة زمن نور الدين محمود ابن زنكي حيث عاش الناس مع الجهاد ، نبذوا الفرقة ، وجاهدوا من أجل الوحدة ، ولقد استطاعت القيادات الجديدة مع الانسان الجديد المتشبع بروح الجهاد الجديدة احلال الوحدة بين المسلمين وازالة الفرقة ، فاتحدت الموصل مع حلب ، فزالت بفضل ذلك مملكة الرها الصليبية ، ثم انضمت دمشق الى هذا الاتحاد وتبع ذلك انضمام

مصر وازالة الخلافة الفاطمية ، وهكذا استطاع المسلمون نيل النصر في حطين واسترداد القدس ، ثم قامت مصر التي دخلت اليها الروح الجديدة بتحمل تبعات تصفية الصليبيين وقامت مع الشام بالتصدي للخطر المغولي فهزمته في عين جالوت...

إن مهمة هذا المجلد لن تتجاوز الحديث عن قيام السلطنة السلجوقية وبحث حالة الشام والجزيرة ، كجزء من العالم الاسلامي ، و ذلك قبيل مجيء الصليبيين ، وسنتوقف مع دخولهم الشام واحتلال بعض أراضيه ، وسأترك أمر دراسة المراحل التالية ، مراحل الاستفاقة ، والتوحد ، والاسترداد الى المجلدات القادمة إن شاء الله.

ولن أحاول القيام بتقديم سرد بأسماء المصادر التي اعتمدتها مع وصف لها وتقويم ، لأنني فعلت هذا في كتابي بالانكليزية

The Emirate of Aleppo 1004- 1094 Beirut 1971

كما أن كل من

Barthold في كتابه Turkestan Down to the Mongol invasion و Bosworth,

في كتابه The Ghaznavids

قد قاما باستعراض ودراسة لكل ما هو معروف من المصادر المتعلقة بتركستان مع بداية تاريخ التركمان ثم هجرتهم الى خراسان واستيلاء السلاجقة على هذا الصقع. ثم إن كتاب

Historians of the middle East

يحوي عددا من الأبحاث الجيدة المتعلقة بمصادر الحروب الصليبية خاصة الشرقية منها ، ولقد قام عزيز سوريال عطية في كتابه

The crusade. Historiography and Bibliography. London, 1962.

بتقديم احصاء كامل بأسماء ما كتب عن الحروب الصليبية ولشعوري بأنني لن أقدم الآن شيئا جديدا في هذا المجال ، لم أقم كما ذكرت باستعراض وتقويم للمصادر ، وربما سأفعل ذلك في المستقبل

لان هناك ما يزال يوجد الكثير من المصادر العربية التي لم تستخدم أبدا أو لم يستفد منها كما ينبغي.

واملي وطيد بأن تقدم هذه الدراسة للقارىء العربي في أيامنا هذه شيئا جديد يرى فيه أنه لايعيش الآن اسوأ حقب تاريخه الطويل لان هذا التاريخ قد مر بفترات أشد قسوة ومرارة.

ومهما يكن الامر فانه ينبغي التنبه الى وجود الفوارق بين العصور، والى ان وجود فترات ماضية أشد قسوة لايجوز أن تكون إلا دافعا لعدم اليأس، ثم معلما وحافزا نحو حذو خطا الأوائل وتبني حلولهم في التوحيد والاخلاص وخلق الانسان العربي المجاهد الجديد. والله الموفق.

دمشق ٩ رجب الفرد ١٣٩٢
١٨ اب ١٩٧٢

سهيل زكار

الفصل الأول

الهجرة الغزية واستيلاء السلاجقة على خراسان

تركستان وسكانها· الوضع السياسي في خراسان وبلاد ما وراء النهر في القرن العاشر والنصف الأول من الحادي عشر· الاسرة السلجوقية· الاجتياح السلجوقي لخراسان·

« وعاش الأمير سلجوق مائة سنة ، ورأى في منامه ذات ليلة أنه يبول نارا يتلظى شرارها في مشارق الأرض ومغاربها· فسأل المعبر ، فقال: سيولد من نسلك ملوك يملكون أقاصي الأرض »(١)·

« تعلق الامام الأعظم أبو حنيفة الكوفي رضي الله عنه بحلقات الكعبة في حجته الاخيرة – و- دعا الله قائلا: إذا كان اجتهادي صحيحا ومذهبي حقا فانصره، فلقد وضحت مسائل الشريعة الاسلامية من أجل وجهك ، فصاح هاتف من الكعبة قائلا: حقا قلت ، مازال مذهبك مادام السيف في يد الاتراك·، وحمدا لله تعالى أن قوى ظهر الاسلام به ، وها هم أصحاب أبي حنيفة هانذون ناعمون ، قريرو الأعين لأن السيف في يد الاتراك في بلاد العرب والعجم والروم والروس ، وقد رسخ سلطانهم في القلوب وهم سلاطين آل سلجوق ، رحم الله الماضين منهم وأبقى الباقين ، فلطالما اختصوا العلماء من أصحاب أبي حنيفة بالعطف والرعاية بحيث استقرت محبتهم في قلوب الناس جميعا شيبا وشبابا »(٢)

« يظهر عز الملك... بثلاثة أشياء : حفظ الأطراف مع دفع العدو عن الحوزة ، وأكرام العلماء واعزازهم ، وحب أهل الفضل ... وإن أجل النعم بعد نعمة الاسلام الصحة والامن ، والأمن إنما يكون من سياسة السلطان ، فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة ، وأن يكون مع السياسة عادلا لأن السلطان خليفة الله ، ويجب أن تكون هيبته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كان بعيدا »(٣) .

عندما يتفحص الباحث تاريخ بلاد الشام والجزيرة ، وذلك كجزء مما يعرف الآن باسم الشرق الأوسط ، يلاحظ المدى الذي تأثر به هذا التاريخ في العصور القديمة والوسطى- حسب المصطلحات السائدة - بتحركات الشعوب البدوية وهجراتها داخل آسية ، وفي الوقت نفسه يرى كيف نعمت بقاع هذين البلدين ، أو عانت ، أو تغيرت عقب وصول كل موجة جديدة من المهاجرين إليها ، ومن المعروف أن البداة الذين عرفتهم بقاع الشام والجزيرة كثر ، جاءوا من اتجاهات وأصول متعددة.

ليس في النية هنا التصدي لدراسة كافة الموجات البدوية التي جاءت في مختلف العصور الى بلاد الشام والجزيرة ، إنما الغرض سينحصر بتبيان بعض ما حدث بعد قيام الفتوحات الاسلامية في القرن السابع للميلاد ، حيث نجد أن العرب والترك كانا أشهر الشعوب البدوية التي هاجرت الى هذين البلدين وأكثرها أهمية ، وكانا ايضا أكثرها تأثيرا في حياتهما من كافة الجوانب.

وعلى الرغم من تفاوت العرب والترك من حيث الأصول العرقية ، واللغة والطبائع ،والوطن الأم ، فان كلا من هذين الشعبين قد ساهم في اقامة الحضارة الاسلامية وتطويرها مع نشر الاسلام والحفاظ عليه ، وليس من المغالاة القول في يومنا هذا: إنه إذا كان فضل نشر الاسلام وإقامة الخلافة الاسلامية يعود للعرب، فان كبير فضل حماية هذا الدين في اوقات المحن ، ثم التمكين من احياء السنة ، واخيرا تثبيت صبغة الدين الاسلامي الحالية يعود كله للترك.

إن الشطر الأول من هذا الكلام بديهي ومعروف بالنسبة للعرب وغيرهم لكن الشطر الثاني يحتاج ـ على الأقل بالنسبة لكثيرين من قراء العربية ـ الى توضيح وتبيان، كما يحتاج الى تقويم علمي وعلماني ، وهذا ما سأحاول صنعه وشرح بعض جوانبه في هذه الدراسة ،وأقول بعض جوانبه لان هذه الدراسة هي مدخل لتاريخ الحروب الصليبية التي كان مسرحها الاساسي الشام والجزيرة، والشام والجزيرة لم تكونا تعدوان أكثر من دارين من ديار الاسلام التي حكمها الأتراك، ثم إنني لن اتعرض ، إلا بقدر ما تمليه الضرورة، لتاريخ اتصال الترك بالاسلام منذ البداية، بل سأركز الجهد على الفترة ما بعد القرن الرابع للهجرة ـ العاشر للميلاد، لأن في القرن الخامس ـ الحادي عشر كان أمر ظهور الغز ـ التركمان ـ وفيه قامت السلطنة السلجوقية•

إن هجرة التركمان الى خراسان والعراق والجزيرة والشام واسية الصغرى مع الاجتياح السلجوقي هو حدث في غاية الخطورة لأنه قد افتتح مرحلة جديدة متباينة عما سبقها ليس فقط في تاريخ الاسلام ودياره وإنما في تاريخ المسيحية والامبراطورية البيزنطية مع عالم العصور الوسطى، فمنذ هذا القرن بدات اجزاء من العالم الاسلامي تخضع بصورة متوالية تحت الحكم التركماني السلجوقي حتى جاء وقت وجد فيه حكام أتراك الأصل في مناطق نائية عن موطنهم الأصلي كالجزائر والبنغال واليمن احيانا، ولقد استمر هذا وعاش طويلا وكان له اثاره حتى بات كثير من المسلمين يرون أن الحكم لايصح ولايمكن أن ينجح فيه إلا تركي(٤)، وهذا له ما يسوغه فالشام مثلا حكم من قبل الترك منذ أواخر القرن الحادي عشر وحتى أوائل هذا القرن•

والتغيرات التي أحدثها قدوم التركمان مع الاجتياح السلجوقي ـ كما سنرى ـ هي تغييرات هائلة تناولت جوانب الحياة في العالم الاسلامي، وصحيح أن الكثير من التغييرات التي

تمت كان له جذوره التي تعود الى ما قبل القرن الحـــادي عشر ، إلا أن التركمان بقيادة السلاجقة قد عجلوا في قيام التغيير ومكنوا مـــن احداثه واتمامه بنجاح ٠

وبالنسبة للمسيحية والامبراطورية الرومانية الشرقية، لقد تمكن التركمان من تحقيق ما أخفق الفرس والعرب من قبل في تحقيقه ، الا وهو احتلال الاناضول ، ومن ثم التمهيد للقضاء على بيزنطة واحلال تركية محلها ٠

لم يكن التركمان أول ترك يتصلون بالعالم الاســلامي وبيزنطــة، فمنذ قرون عديدة مضت قبل القــرن الحــادي عشر كان هناك تــرك كثيرون يعيشون داخل الأراضي الشرقية للخــلافة أو على تخــومها، ومعروف أن حركة الفتوح الاسلامية خاصة في العصر الامــوي قــد اصطدمت بالترك الذين وقفوا في وجه هذه الحركة وحالوا لزمن بينها وبين التقدم، والى أن تحول التــرك الى الاســـلام لم يكن له « دار حرب أشد شوكة من الترك »(١٠) ٠

ومعروف انه منذ القرن التاسع اعتمدت الخــلافة العبــاسية على تجنيد العبيد الترك في جيوشها، وأنه قد ظهر من بين صــفوف هؤلاء العبيد عدد كبير من الحكام والقادة، نجح بعضهم في التحكم بالخلافة، وبعضهم الآخر في إقامة دول مستقلة كمــا فعــل آل طــولون ثـــم الاخشيد في مصر، والغزنويون في افغانستان اليوم الحالي، ولما كان هؤلاء العبيد قد جلبوا الى العالم الاسلامي وهم اطفال ، فــانه مــن المرجح انهم قد كســبوا عادات وتقــاليد المجتمــع الذي ربـــوا فيه ونشأوا ، وانهم قد نسوا أو تخلوا عن معــظم ــإن لم يكن عن كل ــ تقاليد وعادات مواطنهم الأصلية واهليهم، لذا لايمكننا أن نعــدهم ــ حين أسسوا دولهم المستقلة، وحين تحــكموا ببغــداد والخلفــاء ــ ممثلين للعنصر التركي، وإنما ينبغي النظر اليهم مــن زاوية وضـــع الخلافة العباسية ومجتمعها ومشاكله ومشاكل قــومياته وعــناصره البشرية، ثم الدور الذي شغله الجند والقوى والجماعات العســكرية

في حياة هذه الخلافة، وهو دور قام بعد الهجرة النبـوية حين اذن بالقتال ، وأمر بالاعتماد على الجهاد كاحدى وسائل نشر الاســلام، ولقد بانت بدايات النتائج السلبية للاعتماد على الجند والقتــال، منذ زمن الخليفة الراشدي الثالث، وربما قبل ذلك، وتطورت وتعقدت مـــع تطور الدولة الاسلامية وتعقد نظامها الامبراطوري، وربما مــازالت مستمرة حتى يومنا الحالي٠

ولعله ليس من الغــريب أن ســنجد عند حــــديثنا عن الهجـــرة التركمانية مع الاجتياح السلجوقي أن العناصر العسكرية التــركية الاصل لدول الخلافة العباسية، وخاصة الدولة الغزنوية هـــي التــي وقفت في وجه هذه الهجرة، وتصدت لهــذا الاجتياح، ثــم عانت وخيم العواقب من آثاره٠ وينطبق هــذا الى حــد مــا على الامبــراطورية البيزنطية، لأنها عرفت الترك قبل القــرن الحــادي عشر، وكان لهــا علاقاتها معهم، فاستخدمت الكثيرين منهم كمرتزقة في جيوشها، لهذا كثيرا ماحدث ، أثناء القرن الحادي عشر وبعده، أن كان بعض قــادة القوات البيزنطية مع الكثير من العساكر التي كلفت وعملت في سبيل صد التركمان ومنعهم من التغلغل في أسية الصغرى والحيلولة بينهم وبين احتلال الاناضول كانت من أصل تركي٠

لقد أدرك الأوائل هذا الأمر وميزوا بين تركمان القــرن الحــادي عشر وأتراك القرون التـــي ســبقته، فعندمــا عبــر في عام ١٠٧١ م السلطان السلجوقي ألب أرسلان الفرات في طريقه إلى الشام قال له أحد مرافقيه(١): «يا مولانا احمد الله تعالى على ما أنعم بــه عليك ، فقال: وما هذه النعمة؟ فقال: هذا النهــر لم يقـطعه قــط تــركي إلا مملوك وأنتم اليوم قد قطعتموه ملوك »٠

إنه لمن الضروري قبــل الشروع في الحــديث عن وصــول الغــز التركمان الى الجــزيرة والشـــام ، ثــم عن الاجتياح الســـلجوقي والدويلات التي قامت بعد هذا الاجتياح، أن نذكر باختصار بعض ما يتعلق بأصل الغز وعاداتهم قبل تبنيهم للاسلام ودخولهم مهــاجرين

غزاة لدياره، ثم نبين كيف تم وصولهم الى بغداد وكيف اجتاحوا الشام والجزيرة.

قبل ان يتحول الغز الى الاسلام كانوا أعدى أعداء هذا الدين، ولكن ما ان تبنوه حتى أصبحوا حماته المخلصين، لذلك إن من العلامات المميزة لتبني التركمان للاسلام كمال هذا التبني، حيث أسلموا انفسهم كليا للاسلام، فتنازلوا عن ماضيهم، وعاشوا كليا مع الدين الجديد، ومرد هذا ربما بسبب انهم أخذوا الاسلام وتبنوه في ارض وأجواء الصراع بين الاسلام والكفر على الحدود الشرقية لبلدان الخلافة العباسية ، وربما ايضا بسبب انهم وجدوا انفسهم منذ لحظة اعتناقهم للدين الاسلامي ينخرطون بجهاد مرير ضد بني جلدتهم من كفار الترك، وهكذا نسي التركمان ماضيهم وأغرقوا شخصيتهم القومية في الاسلام، الأمر الذي لم يفعله العرب ولا الفرس.فليس لدى التركمان ذكريات «جاهليةتركية تعدل بأي حال او تشابه بأي محتوى الذكريات المجيدة لوثنيات الجزيرة العربية . او مفاخر الامجاد التليدة الماضية للفرس وماعدا بعض المقطوعات الشعرية الشعبية ، وبعض قصص للانساب ذات مسحة أسطورية» فان حضارة التركمان وثقافتهم وآدابهم وديانتهم قبل الاسلام قد جبها الاسلام جميعا فنسيت، وليس من الغلو والمبالغة القول بأنه لم يوجد بين الأمم التي اعتنقت الاسلام من عدل التركمان في ايمانهم المخلص به والذي لم يشبه ريب، لهذا ليس عجبا كما سنرى أن استطاع التركمان الاسراع في إحياء قوة الاسلام السني، وإقامة سيطرته ونشرها الى أجزاء بعيدة، ولقد صنعوا هذا ونجحوا به في الوقت الذي هدد الاسلام فيه مع الحضارة العربية الاسلامية بالزوال كليا من الشام والجزيرة ومصر، وكان التهديد داخليا نجم عن نشاط بعض الفرق غير السنية ، وخارجيا نجم عن مجيء الصليبيين الذين قدموا من اوربا الغربية الكاثوليكية ،ومفيد هنا أن ننبه إلى ان النجاحات التي حققها التركمان كانت باهظة التكاليف من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والسياسية وحتى الدينية .

انهى في عام ٤٦٦هـ ـ ١٠٧٣ م محمود بن الحسين الكاشغري تاليف اول معجم عربي تركي سماه ديوان لغات الترك، وحينما كان الكاشغري يصنف كتابه هذا كانت الدولة السلجوقية تحكم من قبل السلطان ألب ارسلان، ثاني سلاطنة السلاجقة، ومن أكثرهم شهرة وعظمة، وقبيل ذلك عندما كان الب ارسلان مايزال اميرا يافعا صنف له كتاب اسمه ملك نامه تحدث بـه صـاحبه عن أخبـار التـركمان والسلاجقة وذكر « انه استفاد انسابهم واحسابهم من الأمير اينانج بك ، إذ كان أسن القوم وأعرفهم بأنسابهم وأحسابهم »(٧) .

ويقدم هذا الكتاب بعض المعلومات شبه الاسطورية عن التركمان قبل تبنيهم للاسلام من ذلك ما يتعلق ببعض العقائد والعادات، فمـن العقائد على سبيل المثال أن « الترك تزعم أن أرواح الموتى تجتمع في كل سنة ليلا فتدخل الأمصار التي كانت فيها حياة أجرامها وتـزور أهاليها، فمن صادف ذلك الدوي ليلا مـات ...» والتـرك تـزعم أن الجمعين إذا تلاحما، فقبـل ذلك الجـن الذي يسـكن ولاية هـــذين الجمعين يتحاربان تعصبا لصاحب ولايتهما من الانس فمـن ظفـر منهما يكون الظفر لصاحب ولايته غدا، ومن انهزم منهما ليلا تـكون الدبرة على الملك الذي يسكن هذا الحـزب مـن الجـن في ولايتـــه، وجيوش الترك تتستر في ليلة الميعاد، وتدخل الخيام تـوقيا عن وقـع نبال الجن »(٨) .

ومن بعض الأخبار الأخرى يمكن تلمس أثـار عقـائد طـوطمية وشامانية:
« ذلك أن الترك اخذت أسماء أثني عشر صنفا من الحيوان وسـمت به اثنتي عشرة سنة ...» والترك تـزعم في كل سـنة منهـا حـكمه ويتفاءلون بها، فتقول: إذا كانت سنة (أوديلي اي سنة البقر تـكثر فيها الحروب لما أن في البقر نطاحا ، وإذا دخلت سنة الدجـاج يكثـر فيها الطعام ولكن يقع بين الناس التشـويب .... وإذا دخلت سـنة التمساح يكون الأمطار والخصب لأن مسكنه الماء، وإذا دخلت سـنة الخنزير يكثر فيها البـرد والثلج والفتـن ...» ولقـد كانت غالبية

اسماء رجالات التركمان التي وصلتنا هـي اسـماء حيوانات مـن جوارح الطير وغيرها من ذلك : جغري اي الصـقر، وطغـريل وهـو طائر أعلى منزلة من الصقر ، وارسلان اي اسد ****

ويبدو ان الغز كانوا في القرن العـاشر شـامانيين وهـذا يمـكن استخلاصه من كتابات الجغرافيين والرحالة العـرب ومـن أخبـار بعض المؤرخين (٩) ولعل في طبيعة التـطور الذي اصـاب الصـوفية الاسلامية بعـد قيام الامبـراطورية السـلجوقية دليل على أن هـذه الشامانية لم تزل باعتناق الغز للاسلام بـل جـاءت معهـم وقـامت بتأثيرها ، فمن المعروف أن الشامان هو كاهن أو رجـل دين، وهـو منجم وطبيب وسـاحر وله القـدرة على القيام ببعض الخـوارق ولا تزول هذه القدرة بزوال الحياة بل تنتقل معه إلى القبر، ومعروف أن الصوفي أصبح بعد القرن الحادي عشر ليس فقط رجل دين إنما يفهم السحر ويمارسه وينبيء بالمستقبل ، ويشـفي مـن الأمـراض، وله القدرة على فعل الخوارق ـ الكرامات ـ وتستمر هذه القـدرة حتـى بعيد الوفاة(١٠) .

واخيرا يمكن من الكاشغري تحصـيل بعض المعـرفة فيمـا يتعلق بعادات الصيد عند الترك، وأمور القتال لديهم مـع ايلاء اسـتخدام القوس اهمية خاصة ، ثم ما يتعلق بالخمر وطرق تحضيره الخاصة ، كما أن هناك بعض الأساطير ذات الصبغة الاخبارية العالمية مثل تلك التي تتعلق « بالاسكندر ذي القرنين » وغير ذلك(١١) .

إن الموطن الأصلي للشعوب التركية هو سهوب مـا وراء النهـر التي هي الآن مناطق تابعة إما للاتحاد السوفياتي سابقا أو للصين الشعبية ، ولقد عرف الجغرافيون العرب هذا الموطن باسم تركستان واعتبروا تركستان جزءا من منطقة بلاد ماوراء النهر، وطبعا عنوا بالنهر نهر جيحون الذي أصبح يعرف منذ العصر المغـولي باسم (اموداريا) ،وبعرف الجغرافيين العرب شملت منطقة ماوراء النهـر جميع الأصقاع الواقعة بين جيحون والصين ، وقد قطنت مـن قبـل البداة الاتراك والمغول(١٢) .

لقد كان جيحون في كثير من العصور اكثر من حد جغـرافي ، فهـو بالنسبة للفردوسي صاحب الشاهنامه كان حـدا تقليديا متفقـا عليه بين ايران وتوران، وكما أن هناك تمـايزا وعداوة أصـيلة بين الماء والنار، كذلك هي العـداوة والتمـايز بين الايرانيين والتـورانيين ، وحديث ووقائع هذه العـداوة هـو الموضـوع المسـيطر على الشاهنامه(١٣) .

ولكن على الرغم مما قاله الفـردوسي، ومـن أن دول ايران قـد قامت خلال عصورها التـاريخية بـالدفاع عن حـدودها الشـمالية الشرقية ضد غزوات البدو سـكان السـهوب فـان التمـايز بين الايرانيين والتورانيين ليس، ولم يكن قط بهذه الحدة نفسـها فلقـد عرف هذان الشعبان بعضهما بعضا منذ زمن طويل، وأقاما علاقات متعددة الجوانب ومتنوعة الوجوه بينهما ، وهي بـلا ريب لم تتسـم دائما بالصراع والروح القتالية ، ولقد كان هناك دائما ترك يقـطنون إيران حيث إما هاجروا إليها أو جلبوا أو خلفوا بعد كل غزوة قـام بها بداة السهوب .

لقد ذكرنا أن معظم سكان السـهوب الواقعـة في أعالي جيحـون وورائه كانوا من اصل تركي أو مغولي ، ولقد قامت في بلاد مـاوراء النهر مدن كثيرة ذات نظام يشبه انظمة دول المدينة ، كما قـامت فيه عدة امبراطوريات ، وكان من السهل دائما على شعوب ماوراء النهر التسلل والتغلغل في السهول الإيرانية أو الهندية او الهجرة إليهـا ، ولقد كان في أوائل العصور الاسلامية هناك عناصر تركية تسكن مـا نعتبره الآن شرقي افغانستان مع قبائل غزية وخلجية تجوب الهضبة الواقعة بين كابـل وغزنه، وهـكذا كان سـكان التخـوم الشرقية لخراسان دائما ممزوجين بالاتراك ، ونجد صدى هذا عند الجـاحظ في قوله :

« إن الخراساني والتركي اخوان ، وإن الحيز واحد، وإن حـكم ذلك الشرق ، والقضية على ذلك الصقع متفق غير مختلف ، ومتقارب غير

متفاوت . وإن الأعراق في الأصل إن لم تكن راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لم تكن متساوية فانها متناسبة ، وكلهم خراساني في الجملة ، وإن تميزوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعض الوجوه ...وإن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي والزنجي والحبشي، فضلا عما هو أبعد جوهرا وأشد خلافا ، بل كاختلاف ما بين المكي والمدني والبدوي والحضري والسهلي والجبلي ، وكالاختلاف مابين الطائي الجبلي والطائي السهلي ...."(١٤) .

ولقد كان لمراكز الحضارة والحياة المستقرة في بلاد ماوراء النهر صلات وثيقة مع البداة الأتراك سكان السهوب ليس فقط جغرافيا وإنما اقتصاديا وحضاريا وسياسيا، وعند قيام الفتح الاسلامي كانت بلاد ماوراء النهر ممزقة سياسيا ، وكانت المدن ومراكز الاستقرار فيها تحكم من قبل الدهاقين او التجار ، ولقد قاومت هذه العناصر الحاكمة دائما ـ بسبب مصالحها ـ أي تدخل خارجي مباشر واية محاولة لتبديل الأوضاع السائدة ، واهتمت بتأمين سلامة طرق القوافل واستمرار الحركة التجارية وتدفق البضائع والارباح، وحققت هذا باقامة علاقات طيبة مع سكان السهوب البداة وعندما كان يقوم أي تهديد أو عدوان خارجي ، أو عندما كانت تحدث اية مشاكل داخلية كان هؤلاء الحكام من التجار والدهاقين يستصرخون البداة الأتراك ويعتمدون على مساعدتهم، وبامكاننا أن نسوق مثالا يبرهن على هذا كله ماذكره النرشخي صاحب تاريخ بخارى ، أثناء تكلمه عن قيام هذه المدينة وسكناها وتطورها حيث يقول :« واجتمع الناس من كل صوب ، وازدهر ذلك المكان واقبل الناس من ناحية التركستان ، وكان بهذه الولاية كثير من الماء والشجر والصيد، فأعجب هؤلاء الناس بها وأقاموا فيها ، وكانوا أول الأمر يعيشون ويقيمون في الخيام والسرادقات فتجمعوا وتكاثروا على مر العصور وبنوا العمائر واختاروا من بينهم واحدا

اسمه « ابروي» نصبوه اميرا عليهم ...وبعد مدة كبـر « أبـروي » وسلك طريق الظلم في هذه الولاية ، فلم يستطع الناس الصبر طويلا، وفر الدهاقين والأغنياء منها الى التـركستان ـ أي الشرق ـ حيث بنوا شبه مدينة سموها « حمـوكت » لأن دهقـانا عظيمـا اسـمه « حموك » كان رئيس تلك الطائفة التي ذهبت الى هناك ... ثم ارسل الناس الذين بقوا في بخارى رسولا الى عظمائهم طالبين النجدة من جور « ابروي » فتوجه هؤلاء العظماء والفلاحون (الدهـاقين)الى ملك الترك ... واستنجدوا به فأرسل ...ابنه...مع جيش عظيم ، فلما وصل الى بخارى قبض على « ابروي »...وقيده ثم أمر فملأوا جوالا بالزنابير وادخلوا فيه « ابروي » حتى مات ...وأوفـد رسـولا الى « حموكت » لاعادة هؤلاء الذين هربوا مـن بخـارى مـع نسـائهم وأطفالهم ، ثم صدر فرمان باعتبار كل عائد من حمـوكت مـن جملة الخواص ، لأن كل من كان غنيا ودهقانا كبيرا كان قـد فـر، وبقـي المعدمون والفقراء »(١٥) .

لقد كان هناك علاقات تجارية كبيرة بين العالم الاسلامي والترك قبل تحولهم الى الاسلام وبعده، ويعود الى التجار فضل نقـل بعض صور الحضارة الاسلامية مع الدين الاسلامي الى اوسـاط البـداة سكان السهوب• إنما ـكما يبدوـ يعـود فضـل نشر الاسـلام بين سكان السهوب الى جهود عدد من رجال الدين من المتصوفة بشـكل خاص وليس الى جهود رسمية موجهة (١٦) .

ونتيجة لوجود العلاقات الحربية والسلمية والاقتصادية مع الترك فقد توفر لدى المسلمين خاصة منذ القرن العاشر بعض المعلومات عن قبائل وجماعات التـرك الذين كانوا عبـارة عن « عدة اجناس وعدة ممالك ...ولكل جنس مملكة منفردة ، ويحارب بعضهم بعضا ، وليس لها منازل ولا حصون وإنمـا ينزلون القبـاب التـركية المضـلعة ، ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر واغشـيتها لبـود، وهـم أحذق قوم بعمل اللبود، لأنها لبـاسهم ، وليس بتـركستان زرع إلا الدخن، وإنما غذاؤهم البـان الحجـور ، ويأكلون لحـومهم وأكثـر

ماياكلون لحوم الصيد، والحديد عندهم قليل، وهم يعملون سهامهم من عظام" (١٧) وأهم المجموعات التركية التي عرفها العرب دعوها باسم التغز غز أو الأغز وبشكل عام باسم الغز، فهم عرب الترك...وهم رماة الحدق (١٨) ويبدو أن الغز كانوا في القرن العاشر متحدين سياسيا لذلك كانوا أقل شأنا من الناحية السياسية من غيرهم من المجموعات التركية ·



انه لضروري قبل الاسترسال في الحديث عن الغز أن نبين بشكل موجز الوضع السياسي في منطقة خراسان وبلاد ماوراء النهر في القرن العاشر وبدايات القرن الحادي عشر·

عندما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد قامت في كثير من المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة ، وإنما كلها دان اسميا بالطاعة لخليفة بغداد العباسي، وأهم الدول التي قامت في المشرق في خراسان وبلاد ماوراء النهر هي : الدولة الطاهرية(٢٠٥-٢٥٩ هـ / ٨٢١ -٨٧٣ م)؛ والدولة الصفارية (حوالي ٢٥٣ - ٢٩٨ هـ / ٨٦٧ - ٩١١ -١٠٠٥ م)؛ والدولة السامانية (٢٠٤ - ٣٩٥ هـ / ٨١٩ - ١٠٠٥ م)؛ والدولة الخوارزمية (٣٠٥ - ٤٠٧ هـ / ٩٩٥ - ١٠١٧ م)؛ والدولة القراخانية(٣٨٢ - ٦٠٧ هـ / ٩٩٢ - ١٢١١ م)؛والدولة الغزنوية (٣٦٦ - ٥٨٢ هـ/ ٩٧٧ - ١١٨٦ م)·

والذي يعنينا هنا مباشرة هو الحديث عن الدولة السامانية ثم الغزنوية والقراخانية، دون سواهم · لقد كان سامان خداه جد الأسرة السامانية دهقانا من بلخ، اعتنق الاسلام في مرو- بعد ان فر إليها- على يد أسد بن عبد الله القسري والي خراسان المتوفى في بلخ سنة ١٢٠ هـ - ٧٣٧ م، وقد اكرم أسد سامان خداه « وحماه وقهر

اعداءه وأعاد إليه بلخ » ولما رزق سامان خداه بغلام أسماه أسـدا لحبته إياه » ولقد خدم أولاد أسد الأربعة الخليفة المأمون العبـاسي الذي كافأهم بأن عين نوحا واليا على سمرقند واحمد على فـرغانة ويحيى على الشاش والياس على هراة، وبهـذا وطـد السـامانيون انفسهم وحصلوا على مكانة طيبة في منطقة ماوراء النهر، وفي سـنة ٢٦٣ هـ/ ٨٧٥ م قام الخليفة المعتمد بتعيين نصر بن أحمـد واليا على كل بلاد ماوراء النهر، وبهذا التعيين قـامت الدولة السـامانية فعلا، وغدت منطقة ماوراء النهر الغنية قلبـا لهـا، ولقـد أخـذ السامانيون على عاتقهم أمر حماية الاراضي الاسلامية مـن غزوات بداة السهوب الاتراك، وتأمين استمرار التجارة وتـدفق البضـائع، ونجحوا في تحقيق ذلك بواسطة الدفاع : باقامة الرباطات في الثغور، وبواسطة الهجوم :بالقيام بحمـلات على مناطـق الاتـراك داخـل السهوب ، وبذلك أضعفوا تجمعات الاتراك ومدوا نفوذهم وهيبتهـم الى داخل السهوب ، وهكذاأمن السامانيون الاسـتقرار السـياسي والاقتصادي لبلادهم مما مكنهم بعد ذلك من الالتفات نحو خراسان، ومنذ القرن التاسع تدفق من اراضي السـامانيين سـيل مـن العبيد الاتراك على بغداد وغيرها من مراكز الاسلام وعواصم دياره ، ولقد استخدم غالبية هؤلاء العبيد في جيوش خلفاء بغداد وحكام الدويلات.

ولقد كانت مدينة بخـارى مـركز الدولة السـامانية، وفي بـلاط السامانيين في بخارى عاشت الثقافة العربية الاسـلامية مـزدهرة ، ولكن الأهم من هذا هو أن هذا البلاط شهد بعث اللغة الفارسية مع الثقافة الايرانية وأسهم في نموها ، ففـي زمـن السـامانيين بـدأ الفردوسي بنظم الشاهنامه ملحمة فارس القومية .

في عام ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م ربح إسماعيل بن أحمـد ثقـة سـلطات بغداد والخليفة وذلك بعد أن هزم عمرو بن الليث الصـفار، لذلك عين واليا على خراسان بالاضافة الى بلاد مـاوراء النهـر، وبهـذا غدا السامانيون قوة هائلة تحكم اراضي شـاسعة تمتـد مـن جهـة الى الأراضي والممتلكات البويهية في العراق ومن جهة أخرى الى اطـراف

افغانستان المتصلة بحدود الهند، ولما كان السامانيون سنة وكان البويهيون شيعة، وبسبب هذا الخلاف في العقيدة مع تضارب المصالح والمطامح بالتوسع فقد كان لابد من أن تصطدم قوى الطرفين ، وهذا أمر لايعنينا الحديث الآن عنه هنا٠

وفي منتصف القرن العاشر بدات علامات الضعف والتفتت تظهر على الامبراطورية السامانية ٠ ولقد بدا هذا في عدد من ثورات وانقلابات البلاط التي قادها بعض القادة العسكريين ٠ لهذا لم يكن صعبا أن انفصلت خراسان عن سلطة بخارى ، ثم لم يكن صعبا على الغزنويين والقراخانيين الاجهاز على الدولة السامانية ووراثتها: القراخانيون فيما وراء النهر ، والغزنزيون في المناطق الأخرى(١٩).



لقد احتلت بخارى عاصمة الدولة السامانية وطرد منها أخر امير ساماني من قبل بغراخان هارون (أو حسن) الذي كان يعرف بلقب إيلك خان، ولقد عرفت أسرة هارون باسم الايلك خانية ، ولكن بما أن الكثير من أفراد هذه الاسرة استعملوا كلمة قره ــ التي تعني أسود أو شديد القوة ــ رديفا لأسمائهم فقد أطلق المستشرقون اسم « القراخانية » على هذه الأسرة ، وهكذا فان اسم « القراخانية » إذن هو اسم محدث بديل للايلك خانية ٠

لقد ادعى افراد هذه الأسرة انهم من نسل أفراسياب البطل التركي الاسطوري للشاهنامه، ولكن يبدو انهم كانوا في الواقع عبارة عن البيت الحاكم لاحدى المجموعات التركية المعروفة باسم القرلق، وهي مجموعة قد قامت بدور هام ومؤثر في التاريخ القديم للترك سكان السهوب، ولقد اعتنق القراخانية الاسلام كما يبدو في منتصف القرن العاشر، وتبنوا اسماء ـ وحتى القابا ـ اسلامية ، ويظهر أن بغراخان جد محتل بخارى هو أول من اعتنق الاسلام وتسمى باسم عبد الكريم، ولقد اقام القراخانية بعد قضائهم على

السلطة السامانية امبراطورية واسعة سيطرت على أجزاء واسعة من بلاد ماوراء النهر واقامت هذه الدولة علاقات خاصة بالامبراطورية الغزنوية ولقد شكل نهر جيحون الحد الفاصل بين هاتين الامبراطوريتين.

ولقد كانت الامبراطورية القراخانية عبارة عن اتحاد قبلي ولم تكن قط دولة مركزية متحدة ، فعلى الرغم من أنه كان على راسها حاكم حمل لقب خان فلقد وجد أحيانا عدد من افراد الأسرة الحاكمة ادعوا لأنفسهم اللقب نفسه أو القابا من الدرجة الثانية، وبسبب انه وجد في الوقت نفسه أكثر من حاكم من الأسرة نفسها حمل الاسم نفسه واللقب ، ثم بسبب قيام الخلافات والحروب الداخلية بين امراء الامبراطورية فإنه من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، الوصول الى صورة واضحة يقينة مفصلة حول سلسلة حكام القراخانية(٢٠)



لقد ذكرنا بأن الدولة الغزنوية كانت شريكة الدولة القراخانية في الاستيلاء على ميراث الدولة السامانية، وتنسب هذه الدولة الى مدينة غزنة ـ احدى مدن افغانستان الحالية وتقع الى جنوب غربي كابل ـ، ومؤسس هذه الدولة هو سبكتكين الذي كان عبدا تركيا من ضباط الجيش الساماني ، ولقد كان استلامه لحكم غزنة في سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م.

في الحقيقة إن قصة قيام الدولة الغزنوية تبدأ قبل هذا التاريخ بعدة سنوات ، ففي عام ٣٥٠ / ٩٦١ توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح ، « ولما دفنوه ثار العسكر وتمردوا وطمع كل شخص في الملك وظهرت الفتن»(٢١) « وكان الاسفهسلار (أي القائد) البتكين في نيسابور حين بلغه خبر وفاة الأمير ..... فقصد الحضرة للقبض على الأمير » الساماني الجديد ومن ثم إحلال نفسه محل الأمير عبد الملك على عرش السامانيين ، وأخفق البتكين، واجبر على الفرار فذهب الى غزنة واستقر بها ، وكان بصحبته غلمانه وقواته الخاصة ، وبعد فترة تصالح البتكين مع الأمير

السامانى الجديد لبخارى وهو منصـور بـن نصر ، ونظـرا لقـرب الأراضي الأفغانستانية من أراضي الهند غير المسـلمة ، فقـد شـغل ضباط البتكين وجنده أنفسـهم بـالغارة على هـذه الأراضي، وكان القصد الأساسي من هذه الغارات هو كسـب المغـانم ولم يكن قـط هدفها نشر الاسلام ، مع أن الكثيرين ممن كان يقوم بها لقب نفسـه بلقب غازي . ولقد ظل البتـكين وضـباطه تـابعين أسـميا للدولة السامانية ، وبعد وفاته خلفه أحد ضباطه واسمه سبكتكين٠

وبعدما استلم سبكتكين زعامة الجيش لم تنقطع اعمـال الغـارة على السهول الهندية، واستمر بالاعتراف بالسيادة السامانية ، ولكن عقب وفاة سبكتكين في سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م، وعندما اصـبح ابنه محمودا صاحب السلطة في غزنة، غدت الدولة الغزنوية دولة مسـتقلة عن السامانية ، ونظم محمود أعمـال الغـارة على الأراضي الهندية وحولها إلى أعمال توسع وفتوح تحت عنوان الجهـاد ، وبـذلك نال محمود لقب غازي عن جدارة ، واصبح من اكثـر شـخصيات عصره شهرة ، فلقبته الخلافة العباسية بلقب يمين الدولة ٠

ولقد استطاع محمود توسيع رقعـة دولتـه ، فـأوصل حـدودها الشمالية الى جيحون وبعد ذلك تجاوزه فقام بضم واحة خوارزم الى امبراطوريته وحقق الاتفاق مع الدولة القراخانية ، ثم التفـت نحـو خراسان فأخذها ، وبات يتطلع نحو بغداد ونحو القضاء على الاسرة البويهية الشيعية فيها، وأخذ مكانها في التحكم بخلفاء بغـداد ، ذلك لأن محمود كان سنيا شافعيا متعصبا ٠

وعندمـا مـات محمـود في سـنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م كانت امبراطوريته من أضخم امبراطوريات عصره ومن أعظـم مـاقام في التاريخ الاسلامي ، وكان جيشه وقواته الحربية على غاية من القوة والعظمة وجودة التسليح ، وفي زمن محمود وبسبب طبعـه وشـغفه بالابنية تطورت التقاليد الفارسية الأوتوقراطية في الحكم مع الثقافة الايرانية ٠

ولقد واجه محمود في اواخر حياته بداية مشكلة التـركمان بقيادة السلاجقة فاستطاع أن يتدارك تفجيرها ، وتمكن من أن يؤجل هـذا التفجير ، وذلك بما أوتيه مـن حـزم وبصـيرة ، ولكن لما كان ابنه وخليفته مسعود لم يكن يتمتع بصـفات والده ، فقـد أخفـق في حـل مشكلة التركمان عندما واجهها ، ولقد استطاع التركمان كما سنرى أن يقهروا مسـعودا ويسـتخلصوا منه خـراسان ، ولكن هـزيمة الغزنويين لم تعن أبدا نهاية الدولة الغزنوية ، بـل اسـتمرت هـذه الدولة تحكم شرقي افغانستان وشمالي الهند واستمر هـذا الحـال حتى قيام الدولة الغورية التي استطاعت تصفية الغزنويين والقضاء على دولتهم في سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م(٢٢) .

لقد احتاجت الامبراطورية الضخمة التي أسسها محمود مع قواته العسكرية الكبيرة وبلاطه الضخم الى تكاليف باهظة ومبالغ من المال هائلة ، وما كانت المبالغ التي كانت تحصل مـن الغـارات على الهند لتكفي سد اكثر من جزء من النفقات ، لهذا فرض الغزنويون ضرائب ثقيلة على خراسان ، وحصلوها دون تهاون وبأعنف الوسائل ، ولقد افقرت هذه السياسة المالية خراسان وجعلت الحـكم الغـزنوي غير محبوب على كافة المستويات ، كما ان هذه السياسة سببت تـدهورا في اقتصاد خراسان وفقرا عاما ، مما ادى الى هجرة بعض التجـار والدهاقين من خراسان الى بلاد ماوراء النهر حيث دولة القراخانية ولاشك أن هذه الحالة كانت من اسباب نجاح السلاجقة ـ فيما بعد ـ في انتزاع خراسان لأنفسهم ، ورغم سوء الاحـوال الاقتصـادية وثقل الضرائب فقد كانت غالبية عامة الخراسانيين ساكتة عن الحكم الغزنوي أو راضية عنه ، لقوة هذا الحكم ولاستطاعته تأمين الحماية الخارجية مع الأمن الداخلي ، ولكن ما أن مات محمود حتى بدا بأن خليفته مسعود لايستطيع ، ولن يستطيع أن يؤمن هذه الأمور ، لذلك تطورت الأمور بسرعة ولغير صالح الغزنويين.



لم يكن جديدا بالنسبة لخراسان أن تتعرض لهجرات وغارات البدو الترك من سكان السهوب، والذي كان يحدث عادة إما أن تصد الغارات، أو أن المغيرين يحدث أن تمتصهم بعد فترة الحضارة والحياة في خراسان، لذلك لم يول الغزنويون في البداية أهمية كبيرة لبعض جموع الغز عندما أخذوا يعبرون نهر جيحون ويدخلون خراسان مهاجرين أو مغيرين(٢٣) علما بأن نشاط الغز على أطراف جيحون أقدم من الدولة الغزنوية·

يبدو أن الغزوا كانوا حتى القرن الثامن ـ عندما أصبح لهم نوع من الزعامة الخاصة ـ عبارة عن قبائل تابعة للامبراطورية الخزرية وفي نهاية القرن الثامن قام هؤلاء الغز ، وقد أصبح لهم زعامتهم الخاصة ، فتحركوا غربا عبر سهوب سيبيريا نحو بحر الأرال والى الفولغا وجنوبي روسيا ، وأغاروا في عهد الخليفة المأمون على أشروسنة ، وهكذا وصلت أخبارهم الى أسماع العلماء والكتاب المسلمين فأخذوا بالاهتمام بذكرهم، ومنذ ذلك الوقت أخذ الغز يتحركون الى قرب الأراضي الاسلامية وباتجاهها، وعندما قام الرحالة العربي ابن فضلان في ٣٠٩ ـ ٣١٠ هـ ٩٢١ ـ ٩٢٢ م برحلته نحو الفولغا قابل ورأى جماعات من الغز ، ولقد وصف ابن فضلان حالة الفقر والتعاسة التي كان يعاني منها هؤلاء القوم كما ذكر بأن زعيمهم كان يحمل لقب يبغو في حين أن القائد العسكري عندهم كان يعرف بسباشي ـ أي صاحب الجيش ـ وكان هناك قائد أدنى مرتبة منه دعي باسم ينال (٢٤).

إن حمل زعيم الغز للقب يبغو له دلالاته لأن يبغو أو « يغفو لقب من كان بعد الخاقان بدرجتين » ، و« الخان هو الملك الاعظم منهم ـ الترك ... وهو الخاقان »(٢٥).

وهذا يعني ليس فقط أن الغز لم يتطلعوا آنذاك نحو تشكيل امبراطورية ، بل لم يكونوا قد وصلوا بعد الى مرحلة من التطور

السياسي والحضاري تساعد على ذلك. ولقد كانوا في القرن الثامن مــؤلفين من تسع قبائل (٢٦) وكان لكل قبيلة أمير أو مقدم ــ بــك ــ دعاه المسلمون « دهقان » (٢٧). ويصف صاحب كتاب حدود العــالم وهو جغرافي فارسي مجهول من القرن العاشر ، بلاد الغــز بقــوله :« يقع الى الشرق منها بلاد الصين والى جنوبها تقع أجزاء من التيبت ... وهذه البلاد هي أوسع دار في موطن الترك ، ولقد كان الغز أكثــر الاقوام التــركية عددا ، ومنهــم كان في الأيام الخــالية ملوك جميع تركستان ، إنهم رجال حرب ، في حوزتهم الكثير من السلاح ، وهــم يرحلون في الشتاء والصيف من مكان الى آخر طلبا للمرعى وحســب الطقس الملائم» (٢٨).

ودعا العرب الغز احيانا باسم التركمان ، ونلحظ في البداية ــ في القرن العاشر ــ تمييزا بين الاسمين (٢٩). ولكن منذ أواخــر هــذا القرن اخذ بالاكثار من استعمال كلمة تركمان كبديل أو مرادف لكلمة غز ، ويقول محمود كاشغري :« اغز قبيلة من الترك وهم التــركمانية » ويقول ايضا :« تركمان هم الغزية » ويبدو أن اســم تــركمان كان اسما سياسيا شمل عددا من القبائل التركية ، لذلك كان ــ كما يبدو ــ بين التركمان عناصر غير غزية ، ويقول الكاشــغري متحــدثا عن القبيلة التي جاء منها القراخانية :« قرلق جيل من الترك اهل الوبــر سوى الغزية وهم التركمانية ايضا» (٣٠).

ويذكر الكاشغري بأن« التركمانية هم اثنان وعشرون بطنا لكل بطن منها علامة وسمة على دوابهم يعرف بعضــهم بعضــا بهــا ، وعندما عدد أسماء هذه البطون بين بأن قِنِق هي القبيلة المتقدمة بين كل القبائل » ومنها السلاطين » السلاجقة الذين يبدو أن اسرتهم لم تكن في الأصل أكبر اسر القنق او اكثرها قوة وشــهرة ولكنهــا غدت كذلك بفضل بعض الشــخصيات التي ظهرت منها (٣١) عندما جاءت الى أراضي الدولة السامانية.

إن مصدرنا الاساسي بالنسبة لأخبار واصل الأسرة السلجوقية ــ

كما ذكرنا من قبل ـ هو كتاب ملك نامه ، وعلى ما جـاء فيه اعتمـد المؤرخون العرب مثل ابـن الاثير في كتـابه الكامـل في التـاريخ والحسني في كتابه أخبار الدولة السلجوقية ـ أو زبـدة التـواريخ ـ وابن العديم في كتابه بغية الطـلب في تاريخ حلب وغيرهم ، ولعل مـا نقله ابن العديم أوضح النقول واكثرها أمانة ، ويقول ابن العـديم :« ذكر صاحب كتاب ملك نامه الذي صنفه لالب ارسلان محمد بن داوود انه استفاد انسابهم واحسابهم من الامير اينانج بـك اذ كان أسـن القوم واعرفهم بأنسابهم واحسابهم ، قال كان الامير سـلجوق بـن دقاق من أعيان ترك خزر ، وكان دقاق يلقب بتمر بـالغ اي شـديد القوس.

قال اينانج بك :« لما مر زمان على الامير دقاق ولد له مولود مبارك سماه سلجوقا ، وكان يلقبـه بسـباشي يعني مقـدم الجيش، وكان لسلجوق أربعة أولاد : ميكائيل وموسى وأرسلان الملقب بيبغـو اكلان واخر توفي في زمان شبابه ، وكان للامير ميكائيل بن سـلجوق ولدان طغر لبك وداود جغري بك » (٣٢).

لقد قدم ابن العديم نصه هذا عرضا أثناء ترجمته للسـلطان الب ارسلان ، لذلك جاء قصيرا لايفي بالغرض ، وما أورده ابن الاثير في الكامل أوفى بكثير مما جاء عند ابـن العـديم ، لكن ابـن الاثير على عكس ابن العديم لايصرح باسم مصدره ولعله نقـل بتصرف عن ملك نامه وأضاف الى معلومات هذا الكتاب معلومات من مصادر أخرى ، يقول ابن الاثير :« فأما تقاق فمعناه القوس الحديد، وكان شـهما ذا رأي وتدبير وكان مقدم الاتراك الغز ومرجعهم إليه لايخالفون له قولا ولا يتعدون أمرا ، فاتفق يوما من الأيام أن ملك الترك الذي يقـال له يبغو جمع عساكره وأراد المسير الى بلاد الاسلام فنهـاه تقـاق عن ذلك وطال الخطا ب بينهما فيه ، فأغلظ له ملك الترك الكلام فلطمـه تقاق فشج رأسه فأحاط به خدم ملك الترك ، وأرادوا أخذه، فمانعهم وقاتلهم واجتمع معه من أصحابه من منعه فتفرقوا عنه.

وأقام دقاق عنده وولد له سلجوق ، فإنه لما كبر ظهرت عليه امارات النجابة ومخايل التقدم ، فقرّبه ملك الترك وقدمه ولقبه سباشي ، ومعناه قائد الجيش ، وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من تقدمه وطاعة الناس له والانقياد اليه ، واغرته بقتله وبالغت في ذلك ، وسمع سلجوق الخبر فسار بجماعته كلهم ومن يطيعه من دار الحرب الى ديار الاسلام وسعد بالايمان ومجاورة المسلمين ، وازداد حاله علوا وامرة وطاعة واقام بنواحي جند ، وأدام غزو كفار الترك » ، ولقد حدث هذا ربما في حوالي سنة ٣٨٢ هـ/ ٩٩٢ م وهذا ما يمكن استنتاجه من بقية سياق الخبر لأنه في هذه السنة كان ارسلان بن سلجوق يساعد السامانيين ضد البغراخان هارون الذي أخذ في هذه السنة بخارى فأزال الحكم الساماني وأحل محله الدولة القراخانية ، هذا ويقدم الراوندي سببا أكثر اقناعا لتحرك السلاجقة نحو الأراضي الاسلامية فيقول :« وقد اضطر هؤلاء السلاجقة العظماء بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم أن ينزحوا من تركستان الى ما وراء النهر ». وواضح أن خبر سبب الخلاف بين تقاق والبيغو ثم سبب نزوح سلجوق قد لايعدوان أكثر من اختراع قد صنع بعد قيام الدولة السلجوقية لتحسين سمعة السلاجقة واعطائها نوعا من أنواع الهالة الاسلامية الروحانية ، ويستنتج مما نقله ابن العديم عن ملك نامة قول صاحبها « وأرسلان الملقب بيغو » أن السلاجقة مع أتباعهم عندما انفصلوا عن الغزية ادعوا لأنفسهم نفس الألقاب التي كانت لدى أمراء الغز الذين كانوا يدينون بالطاعة لهم.

ونتابع مع ابن الاثير رواية قصته :« وكان لسلجوق من الأولاد ارسلان وميكايل وموسى وتوفي سلجوق بجند وكان عمره مائة وسبع سنين ، ودفن هناك ، وبقي أولاده ، فغزا ميكايل الكفار الأتراك ، فقاتل وباشر القتال بنفسه فاستشهد في سبيل الله، وخلف من الأولاد يبغو وطغرلبك محمد وجغري بك داود ، فأطاعتهم عشائرهم

ووقفوا عند أمرهم ونهيهم، ونزلوا بالقرب من بخـارى على عشرين فرسخا منها ، فخافهم امير بخارى فأساء جوارهم واراد إهـلاكهم والايقاع بهم ، فالتجأوا الى بغراخان ملك تركستان واقاموا في بلاده واحتموا به وامتنعوا ، واستقر الأمر بين طغر لبك واخيه داود أنهما لايجتمعان عند بغراخان ، إنما يحضره أحدهما ويقيم الآخر في اهله خوفا من مكر يمكره بهم ، فبقوا كذلك ، ثم أن بغـراخان اجتهـد في اجتماعهما عنده فلم يفعلا ، فقبض على طغر لبك واسره ، فثار داود في عشائره فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان وكثر القتل فيهم وخلص أخاه من الأسر وانصرفوا الى جند وهي قـريب بخـارى فـاقاموا هناك».



إذن عندما أصبح السلاجقة مع اتباعهم في منطقة بخارى تورطوا في الاعمال والاضطرابات التي أدت الى تصفية الدولة السامانية ، كما وجدوا انفسهم طرفا في النزاعات بين أمراء القراخانية ، كل هذا يعني انهم كانوا دائما جاهزين لتقديم خدماتهم لمن يطلبها ويدفع اكثر ، ومع ازدياد الفوضى التي رافقت زوال الدولة السامانية كان هناك دائما حاجة ماسة الى المقاتلين ،وكان هناك دائما من يدفع بسخاء سواء في مناطق ما وراء النهر او الجهة الأخرى حيث محمود الغزنوي ومشاريعه التوسعية التي كانت تحتاج الى أعداد كبيرة من المقاتلين ، ونمضي مع ابن الأثير في رواية قصته:« فلما انقرضت دولة السامانية وملك إيلك الخان بخارى اعظم محل أرسلان بن سلجوق عم داود وطغر لبك بما وراء النهر ، وكان علي تكين ــ من امراء القراخانية ــ في حبس ارسلان خان وهو إيلك خان ، فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع ارسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما إيلك اخو ارسلان خان وقاتلهما فهزماه وبقيا ببخارى ، وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين فيما يجاوره في بلاده ويقطع الطريق على رسله المترددين الى ملك الترك ، فلما عبر محمود جيحون ... هرب علي تكين من بخارى وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود ، فرأى محمود قوة السلجوقية وما لهم من الشوكة وكثرة العدد فكاتب ارسلان بن سلجوق واستماله ورغبة ، فورد اليه فقبض يمين الدولة عليه في الحال ولم يمهله وسجنه في قلعة ، ونهب خركاهاته ــ خيمه ــ واستشار فيما يفعل بأهله وعشيرته ، فأشار أرسلان الجانب ، وهو من اكبر خواص محمود ، بأن يقطع ابهامهم ، لئلا يرموا بالنشاب ، أو يغرقوا في جيحون ، فقال له : ما أنت إلا قاسي القلب ، ثم أمر بهم فعبروا نهر جيحون ففرقهم في نواحي خراسان ، ووضع عليهم الخراج ، فجار العمال عليهم وامتدت الأيدي الى اموالهم واولادهم» (٣٣).

ويقدم لنا الراوندي صاحب راحة الصدور وآية السرور رواية

أخرى حكى فيها كيف تم الاتصال بين محمود والسلاجقة وقدم بعض التفاصيل الاضافية الجديرة بالاعتبار ، ولكنه اعتبار ينبغي أن يرافق بالحذر ، يقول الراوندي :« فلما اقبل اسرائيل بالغ محمود في اكرامه وأجلسه على العرش الى جواره وعني بتقريبه والترحيب به ، والاهتمام بأمره ، ثم قال له في أثناء الحديث : عندما نذهب الى بلاد الهند لغزو الكفار يلزمنا جيش جرار نسير به الى هذه الديار ، وينتج عن ذلك أن بلاد خراسان تبقى معطلة مهملة ، ولي رغبة في أن اعقد معكم ميثاقا وتحالفا على انه اذا خرج علي عدو أو ثار ثائر واحتجت الى مدد استعنت بخيلكم وفرسانكم » وأجاب اسرائيل قائلا : « لن يكون منا تقصير عن خدمتكم ، وقال محمود :واذا عرضت لنا حاجة فبأي امارة يصلنا المدد ، وما مقدار عدده ؟. وكان اسرائيل يعلق قوسه في ساعده ، ويتدلى من رباط ردائه سهمان ، فاخذ سهما منهما واعطاه لمحمود وقال له : أرسل هذا السهم الى جندنا اذا عرضت لك حاجة الينا يأتك منا مائة الف فارس ، قال محمود : واذا لم يكف هذا العدد فماذا نفعل ؟ فتناول اسرائيل السهم الآخر وقدمه الى محمود وقال : أرسل هذا السهم الى جبل بلخان يأتك على الفور خمسون الف فارس غيرهم . قال محمود : فاذا لم يكف هذا العدد ايضا فماذا نصنع؟ عند ذلك ناوله اسرائيل قوسه وقال : أرسل هذا الى امارة تركستان يأتك اذا شئت مائتا الف فارس ، وتدبر محمود هذا الحديث وشغل باله فاحتجز اسرائيل عنده ... وطلب محمود الطعام ، فلما تهيأ المجلس طعما وشربا وظلا يشربان ثلاثة أيام بلياليها، وخلع محمود على اسرائيل وفرسانه أطيب الخلع والهدايا ، ثم أمر كل واحد من أمراء جيشه أن يستضيف في معسكره واحدا من أمراء فرسان اسرائيل وأن يسقيه شرابا قويا ، حتى اذا لعبت الخمر برؤوس الضيوف قيدهم بالقيود الثقيلة وفعل محمود باسرائيل مثل ذلك ، وحمله في أثناء الليل الى بلاد الهند وحبسه في قلعة كالنجر .. فأما الرؤساء الآخرون من جيش اسرائيل ممن قبضوا عليهم فإن محمود قد أرسلهم الى القلاع الأخرى وأمنهم على حياتهم...

وبقي اسرائيل اسيرا في قلعة كالنجر مدة سبع سنوات ، ثم جاء اثنان من التركمان من فرسانه واشتغلا بالسقاية وحمل الماء الى هذه القلعة ، حتى اذا حانت لهما فرصة في أحد الأيام قابلاه ودبرا معه حيلة لكي يقوما بخطفه واخراجه من القلعة في اثناء الليل ، ولكن الطريق كانت ملأى بالغابات والأحراش ، فلما فعلا ذلك ضلوا جميعا الطريق .. فلما كان اليوم التالي وتنبه حارس القلعة للأمر سار في اثره ، وتمكن من القبض عليه ، وكان اسرائيل عندما أحس بأن الجيش يقترب منه قد قال للتركمانيين : اقطعا الامل في تخليصي واذهبا الى اخوتي وقولا لهم : اجتهدوا في طلب الملك ولا تيأسوا ولو اصبتم بالهزيمة عشرات المرات ، وحذار أن تتراجعوا فإن السلطان محمود ما هو الا ابن عبد لانسب له ، وهو رجل غدار لن يبقى الملك له وستذول دولته على ايديكم... وكان قتلمش بن اسرائيل يطوف متخفيا حوالي القلعة ، فلما بلغه الخبر بوفاة ابيه خرج .. حتى أتى الى بخارى وحكى لاعمامه سائر الأحوال ، وكان اعمامه يتأهبون لطلب الملك ويتحينون الفرصة للانتقام ... ثم ارسلوا الى السلطان محمود رسولا زودوه برسالة فحواها: إن مقامنا أصبح يضيق بنا ،

وإن مراعينا اصبحت لاتفي بحاجة مواشينا ،فاذن لنا أن نعبر النهر وأن نجعل مقامنا بين نسا وباورد ، ولكن أرسلان الجانب حاكم طوس ...قال للسلطان : ليس من الصواب أن تسمح لهم بالعبور الى

خراسان ، فإنهم فرسان كثيرون ويملكون العدة والعتاد، واني أخشى ان يكونوا سببا في متاعب لايمكن تلافيها وتداركها .. ولكن السلطان محمود لم يلتفت الى قوله وقال: انني لااهتم بأمرهم ولاخشية لي

من امثالهم ثم سمح لهم فعبروا النهر » (٣٤). إن هذه التفاصيل التي قدمها كل من ابن الأثير والراوندي لايمكن قبولها لغلبة الخيال والمبالغة عليها ، على أنه رغم ذلك فانها تدل على قيام علاقات متقلبة

بين محمود والسلاجقة وعلى ازدياد اضطراب الأحوال في بلاد ما وراء النهر مما اضطر قسما من التركمان الى عبور النهر الى بلاد خراسان.

ويبدو أن حادث العبور هذا قد وقع حوالي سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ م ، وسواء أكان عبور التركمان قد تم بالاكراه او بالاذن ، فإن التركمان ـ كما يبدو ـ كانوا منذ تحولهم الى الاسلام ، يحاولون ـ وهم تحت الضغوط المعاشية والسياسية الشديدة التي كانوا يحيونها ـ أن يجدوا مخرجا وارضا يهاجروا اليها ، ويروي عدد من المؤرخين انه في سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ او ٤١٢ / ١٠٢١ قاد جغري بك فرقة من التركمان وقطع معها المسافة الشاسعة نحو ارمينية وازربيجان ، ولعل الهدف من ذلك كان التحضير لاعمال غزو أو كان مجرد محاولة اكتشاف مكان مناسب يقدم اليه الغز مهاجرين (٣٥).

لقد كان التركمان الذين عبروا النهر هم جماعة أرسلان فقط وكان عددهم يقدر باربعة الاف أسرة ، ولقد عبروا مع حوائجهم واغنامهم وجمالهم وخيولهم وبغالهم ، وبعد عبورهم أسكنهم محمود داندانقان ، وهي « بلدة من نواحي مرو الشاهجان على عشرة فراسخ منها بالرمل .. وهي بين سرخس ومرو » (٣٦) ويروي المؤرخ الفارسي الراوندي بأن هؤلاء التركمان « قد لزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياة السلطان محمود ، وفي هذه الاثناء نشأ ولدان لميكائيل بن سلجوق احدهما « جغري بك ابو سليمان داود» والآخر « ابوطالب طغرل لبك محمد » وفاز كلاهما بمكان الصدارة والتقديم في جيوش السلاجقة (٣٧) ويبدو ان هذا لم يكن حقيقة ما حدث فالذين عبرو النهر كانوا جماعة اسرائيل فقط واما جماعة ميكائيل فقد بقوا في منطقة ما وراء النهر ، وبسبب ان اتباع اسرائيل قد حرموا من قياداتهم باعتقال محمود لها وبسبب تكوينهم البدوي وحالتهم المعاشية فقد تحولوا الى عصابات شغلت انفسها بأعمال الاغارة على مدن وقرى خراسان ونهبها ، مما أدى الى اضطراب حبل الأمن في خراسان وجعل الكثيرين من اهالي مدن خراسان يتوجهون بالشكوى الى محمود ويطلبون منه القيام بعمل حازم يضع حدا للاضطراب ، ويقول مصدر معاصر لمحمود :« فلما وصلت سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) الى نهايتها خرج اهل نسا وباورد الى

الحضرة (أي مدينة غزنة) وشكوا الى السلطان فساد التركمان ، فأمر السلطان محمود بكتابة رسالة الى أمير طوس ابي الحارث ارسلان الجاذب وامره أن يعاقب التركمان... فنفذ أمير طوس حكم السلطان واغار عليهم فتجمع التركمان وتقدموا اليه وحاربوه وقتلوا كثيرا من الخلق ، واغار عليهم أمير طوس بعد ذلك عدة مرات ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا ...وتراسل السلطان محمود مع أمير طوس فأجابه الأمير قائلا : لقد قوي شأن التركمان ، ولايستطاع دفع فسادهم الا اذا خرج اليهم السلطان بشخصه ... فلما قرأ محمود هذه الرسالة ضاق صدره وجرد الجيش، ثم خرج من غزنه في سنة ٤١٩ (١٠٢٨) فذهب الى بست ثم سار منها الى طوس وهنالك استقبله اميرها وبين له حقيقة الحال ، فأمر محمود بأن يخرج أمير طوس ومعه فوج كثيف من الجيش لمحاربة التركمان ، فلما وصلوا الى رباط فراوة تقابل الجيشان ... وكانت الغلبة لجيش محمود فأعملوا سيوفه في رقاب التركمان وقتلوا منه أربعة الاف من خيرة الفرسان ، وأسروا عددا كبيرا منهم وفر الباقون الى بلخان ودهستان ».

ويستخلص من ابن الأثير أن أعمال محمود وولاته العسكرية ضد التركمان والنجاحات التي حققت مع الانتصارات التي تمت لم تكن حاسمة ، فلقد سببت فقط تمزق التركمان وتوزعهم في مناطق خراسان مما زاد من اضطراب حبل الأمن ، ويبدو أنه خلال هذا الوقت لم ينقطع سيل تدفق التركمان وعبورهم لنهر جيحون الى خراسان في مجموعات متفاوتة الحجوم ولقد حدث أثناء تمزق التركمان أن جماعة من حوالي « الفي خركاه» توجهوا الى أصبهان باتجاه العراق العجمي واصبحت منطقة نشاطهم اصبهان والري وأصبحوا يعرفون منذ ذلك الوقت باسم العراقية (٣٨).

عندما عاد السلطان محمود من حملته ورجع الى غزنة ابقى ابنه مسعودا وراءه في خراسان ، ولقد قام مسعود أثناء وجوده في خراسان باستخدام بعض التركمان في قواته ، وفي سنة ٤٢١ هـ/

١٠٣٠ م توفي السلطان محمود الغزنوي ، ولقد كانت العـلاقات بين السلطان محمود في سنواته الأخيرة وبين ابنه الاكبر مسعود سـيئة الى حد أن محمودا حاول اكثر من مرة أن يلقي القبض على مسعود وقام محمود ايضا في اخريات أيامه فعين ابنه محمدا وليا للعهـد، وعندما توفي محمود كان مسعود في خـراسان ، لذلك سـارع اخـوه محمد الى غزنه وأعلن نفسـه سـلطانا جـديدا على الامبـراطورية الغزنوية ، وهنا قرر مسعود الزحف على غزنة ، واثناء مسيره نحـو غزنه أدخل مسعود عددا لابأس به من التركمان في قـواته ، وطبعـا استطاع مسعود دونما صـعوبة كبيرة أخـذ غزنه ونفـي اخـاه عن السلطنة وعنها (٣٩).

واثناء الصراع على العرش الغزنوي عاد التـركمان الذين كانوا قد « ذاقوا حلاوة غنائم خـراسان ...سـيرتهم الأولى مـن النهـب والسلب » وبعد أن أصـبح مسـعود سـلطانا على الامبـراطورية الغزنوية تتابع تدفق التركمان على خراسان وازداد نشاطهم فيهـا ، ويذكر البهيقـي انه في صـيف سـنة ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣ م « جلس السلطان مسعود ذات يوم للاستقبال ، وكانت رسالة مـن صـاحب بريد الري قد وصلت وفيها أن التركمان لايقر لهم قـرار ... وانهـم على وشك أن يفسدوا في الأرض». وحاول بتصرف صبياني ان يحل مشكلة التركمان بالري وغيرها، وذلك بأن يدبر اولا بنوع من التآمر أمر القبض على التركمان الذين كانوا في هراة ، ومن ثم ينقلون الى غزنة، وبعدها تتابع الخطة مع غيرهم من تركمان مـدن خـراسان ، ولقد بدت صورة مستقبل الامـور في خـراسان للذين كانوا على بينة ومعرفة ببواطن الأمور وهـم رجـال السـياسة والخبـرة في الدولة الغزنوية الذين وجدوا أنفسهم يقادون من قبل سلطان « مستبد برأيه عن غير روية » ، بدت هـذه الصـورة سـوداء لاتبشر بـالخير لا في خراسان ولا في غيرها مـن أراضي الغـزنويين ، ويروي البيهقـي ـ الذي شغل وظيفـة نائب رئيس ديوان الرسـائل في عهـد السـلطان مسعود ـ في كتابه صحائف مسعودي الذي ترجم الى العربية بـاسم تاريخ البيهقي ، بأنه عندما خطط مسعود للقضاء على تركمان الري

كما نكرنا اعلاه قـال له اسـتاذه ابـو نصر مشـكان رئيس ديوان الرسـائل :« اكتـب الى وكيل جـوزجان وكروان رسـالة مني لكي يعرض للبيع ، بمجرد قراءة هذه الرسـالة عشرة الاف مـن غنمـي كباشا ونعاجا ، وان يبيعها بسعر اليوم ويرسل ثمنها ذهبا وفضـة الى غزنة ، فكتبت الرسالة فنيلها بخطه ثم أودعت ظرفا ووضعت في بريد جوزجان ، ثم وضعت الحلقة في كيس البـريد واغلق وارسـل. واسترسل استاذي في تفكير عميق ، وكنت أحدث نفسي بأن السلطان اذا كان قد أمر بالقبض على التركمان في الري ، فمـا معنى بيع غنم رباط كروان بسعر اليوم؟! وقال لي استاذي : أراك قد استغرقت في التفكير في حديث التركمان والقبض عليهـم ، ورسـالتي لوكيلي لبيع الغنم ؟ فقلت : والله وحياة مولاي اني افكر في هذا . فقال : اعلم أن القبض على التركمان امر مخالف للصـواب ، لأن مـن المحـال ان تقبض على ثـلاثة آلاف أو أربعـة آلاف فـارس ، ولم يأت كتـاب للسلطان يبين الحيلة في القبض على التركمان ، ولكنه يسارع ويأمر بالقبض على نفر منهم في هراة وبأن تجلى خيامهم وامتعتهم وبهـذا يثيرون هؤلاء القوم الذين جاءوا مع رحـالهم وتصـل الأخبـار الى الري فيثيرون تركمانها ويجيء ابن يغمـر ــ احـد قـادة تـركمان خراسان ــ من بلكان كوه مع فرسان آخرين أقوياء فينضم التركمان بعضهم الى بعض ويدخلون خراسان ويسلبون كل ما يجـدون مـن الماشية ، لقد تنبأت بهذه الأمور فأمرت ببيع غنمي لأنهـا لو بيعـت بأقل من ثمنها الأصلي فاني سأحصل من ثمنها على شيء ، ولاتذهب أموالي سدى» (٤٠).

لقد كانت أوضاع خراسان سيئة بقـدر كبير ، لكن ليس بسـبب التركمان واعمالهم فقط وانمـا ــ اكثـر ــ بسـبب سـوء الادارة الغزنوية وسياستها المالية فقد كان حاكم خـراسان زمـن مسـعود اسمه سوري ، وسوري هذا « كان رجلا مشهورا بالظلم ، فإنه حين اطلقت يده في خراسان استأصل شأفة اعيانها ورؤسائها واستحوذ على أموال لاتحصى ، وامتـد ظلمـه الى الضـعفاء ، وكان يقـاسم السلطان ، يعطيه خمسة من كل عشرة دراهم يغتصبها ، اما الاعيان

فقد تقطعت بهم الأسباب فكتبوا الرسائل الى وراء النهر ، وأوفدوا رسلهم شاكين لامراء الترك كي يغروا التركمان بالغزنويين ، وأما الضعفاء فإنهم بثوا الله آلامهم» (٤١).

☆ ☆ ☆

واذا ما عدنا الى منطقة بلاد ما وراء النهر حيث بقية السلاجقة اتباع موسى وميكائيل ولدي سلجوق نجدهم في خدمة علي تكين خان بخارى ، ويبدو أن موسى كان قد أصبح البيغو لهؤلاء التركمان ، ولكن القيادة الفعلية والزعامة الحقيقية لم تكن له انما لولدي أخيه ميكائيل:جفري بك وطغرل لبك ، ويبدو مما رواه ابن الاثير أن العلاقات بين علي تكين والسلاجقة لم تكن دائما سليمة وذلك بسبب طبيعة التركمان البدوية ثم لتدفق أعداد كبيرة من الغز من السهوب على اراضي الدولة القراخانية والانضواء تحت راية السلاجقة.ومهما تكن الحال فإن علي تكين كان « ذكيا فذا محنكا يعرف كيف يعمل المداراة مع الجانبين ، وكان يتخذ له عدة من التراكمة والسلاجقة ويكسبهم لجانبه بالقول الطيب والمال فقد كان يرى انهم لو ابتعدوا عنه ضعف مركزه ». وفي سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥ م توفي علي تكين « ولما مات انتقلت أمور ــ ولايته ــ الى ولدين ضعيفين ... وساءت العلاقات بين السلاجقة من ناحية وبين هذين الولدين وقوذش سبسهلار ــ قائد قوات ــ علي تكين من ناحية أخرى »، ولم يعد باستطاعة السلاجقة البقاء في بلاد القراخانية ، ولم تكن لهم القوة الكافية للذهاب لخوارزم واحتلالها ، ولم يكن من المعقول عودتهم الى السهوب ،أو الهجرة نحو دربند لوجود دولة الخزر ، لذلك لم يكن « لهم مأوى في غير خراسان » فقد الجأتهم « الضرورة اليها ، وخاصة بعدما سمعوا عما حصل عليه اتباعهم « الذين عبروا قبلهم من المكانة (٤٢) لذلك قام « التركمان والسلاجقة مع جمع كبير من الرجال » قدر « بعشرة آلاف فارس تركي مع كثير من القادة ». فعبروا النهر وساروا الى مدينة نسا ، وبعد عبورهم كتبوا الى سوري حاكم خراسان الغزنوي كتابا نصه :« الى حضرة الشيخ الرئيس الجليل السيد مولانا أبي الفضل سوري . من العبيد بيغو وطغرل وداود موالي امير المؤمنين ، لقد استحالت علينا الاقامة في

بخارى ، في بلاد ماوراء النهر ، فقد كانت صلتنا بعلي تكين إبان حياته صلة مجاملة وود وصداقة ، واليوم وقد مات وآل الأمر الى ولديه ، وهما طفلان طائشان قد استولى عليهما وعلى الدولة والجيش السبهسلار قونش قائد والدهما ، وقد عادانا حتى استحال علينا العيش هناك ، وإن خوارزم مضطربة أحوالها ... مما يجعل مسيرنا اليها متعذرا ، ولذلك جئنا نلوذ بسلطان العالم ولي النعم ليكرمنا الشيخ سوري ...... والسلطان يقبلنا عبيدا له ، فيقوم احدنا بالخدمة في الدركاه وينفذ الآخران ما يأمر به السلطان من خدمات ، فنستريح في ظله الوارف ، ويمن علينا بولايتي نسا وفراوة ، وهما على حدود الصحراء حتى نستقر فيهما ويهدأ بالنا ، ولن ندع مفسدا يخرج على الدولة من بلخان كوه ودهستان وحدود خوارزم وجوانب جيحون ، وسنطارد تركمان العراق وخوارزم.

ولاندري إذا رفض السلطان ، والعياذ بالله ، التماسنا كيف تصير الأمور ، فليس لنا على وجه الأرض مكان نقيم بـه ». ويستخلص من هذه الرسالة عدة أمور خطيرة ، فقد اعتبر السلاجقة انفسهم جماعة مستقلة ، وذلك حين ذكروا بأنهم موالي امير المؤمنين وليس موالي السلطان مسعود ، ثم انهم لجأوا الى التهديد وطالبوا بالقبول بما كان قد حدث كأمر واقع ، وباختصار لقد قدموا الى خراسان لا كرعاة ابل بل كأمراء « ممن يلون الولايات ».

ولقد كتب سوري في رسالته التي ارسلها الى مسعود يخبره فيها بأمر عبور التركمان « أن عشرة الاف فارس من السلاجقة والينالين قد جاءوا الى نسا ». كما أن السلاجقة في رسالتهم الى سوري قد تعهدوا بمطاردة تركمان العراق ، ولقد كنا قد تعرضنا مسبقا لتركمان العراق فأشرنا الى أنهم كانوا جماعات التركمان الأولى التي توغلت نحو العراق العجمي ، وهؤلاء العراقية كانوا ــ كما يبدو من البهيقي وابن الاثير ــ مؤلفين من عصابات مستقلة من التركمان وقد بقوا هكذا فلم يعترفوا فيما بعد بسلطان الأسرة السلجوقية ، ويمكن أن يكون لهم صلة بالناوكية ، جماعة التركمان الأولى التي

دخلت بلاد الشام ، والتي سنأتي على دراستها ودراســة الدور الذي قامت به في الفصول المقبلة ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي نســمع بها بجماعة الينالية .

للوهلة الاولى توحي رسالة سوري بأن « الينالية » كان عبارة عن اسم اطلق على احدى اسر أو قبائل التركمان ، ولكن واقــع الحــال ليس كذلك ، فالينالية اســم اطلق على اتبــاع ينال أو إينال ، وينال عبارة عن لقب اطلق على « ولي عهد » البيغو إذ كان « لكل رئيس من رؤساء الترك من ملك أو دهقان ينال ،«أي ولي عهد » . وابراهيم كان هو اسم زعيم الينالية الذين عبروا النهر ، وتجعله المصادر أخا لطغر لبك من أمه ، وسيقوم ابــراهيم ينال ــ كمــا ســيمر معنا ــ بعــدة حركات تمرد وثورات ضد طغر لبــك خــاصة ســنة ٤٥١ هــ/ ١٠٥٩ م حيث أخفق ولقي حتفه ، وعلى هذا الاســاس ، وبســبب المكانة التي احتلتها الجماعة الينالية بين الســلاجقة ، لايجــوز أن تفسر الاعمال التي قام بها ابراهيم ينال حركات تمرد وإنما حركات هدفت لاستعادة حقه في السلطة التي اغتصبت من قبــل طغــر لبــك .(٤٣)

عندما وصلت اخبار عبور التركمان مع رسالتهم ورسالة ســوري الى السلطان مسعود قامت في بلاطه مشاورات طويلة حــول أنجــع الوسائل وافضل السبل لمعالجة هذه القضية الخــطيرة ، ويقــدم لنا البهيقي وصفا شاملا ودقيقا لما حدث من مناقشات ، فقد دعا مسعود اليه أركان دولته من مدنيين وعســكريين وخــاطبهم شــارحا لهــم الوضع بقوله :« ليس هذا أمرا هينا ، لقد جــاء عشرة آلاف فــارس تركي مع كثير من القادة ، واقاموا وسط بلادنا ويقولون لم يبــق لنا من مكان نأوي اليه ، والحق أنهــم اســتضعفوا بلدنا ، لن نمهلهــم ليجدوا في بلادنا مستقرا يترعرعون فيه ، انظروا ماذا كان من هؤلاء التراكمة من البلاء والازعاج بعد أن جاء بهم أبي ، واتاح لهم عبــور النهر واقامتهم في خراسان ، كانوا رعاة إبل ، وهم الآن ... طــالبوا إمارة ، فيجب ألا ندعهم يتنفسون في بلادنا ، والصــواب أن نســير

بأنفسنا لطردهم ... مع غلمان السراي وجند مختارين ... وان نزحف الى نسا زحفا قويا حتى نستأصل شأفتهم ».

لقد كان مسعود عندما وصله خبر عبور التركمان في مدينة جرجان « فلما قرأ رسالة سوري توجه الى نيسابور »، ولقد وجد بعد مناقشات طويلة واستعراض للأحوال ان مسعود « لايستطيع أن ينهض الى السلاجقة بشخصه » لأن « جيشه كان قد أصيب بوهن شديد بسبب السفر ... وفسد سلاحه بسبب الرطوبة فعلاه الصدأ ، وضعفت دوابه لأنها لم تأكل علف الربيع » لذلك اختار مسعود « جملة من امراء جيشه ،زودهم بالعدة والعتاد وأرسلهم لقتالهم ». لقد كان عدد هؤلاء الأمراء عشرة على رأسهم الحاجب بكتغدي الذي كان مسنا لكن صاحب تجربة وحنكة عسكرية ، وكانت جملة الجيش « خمسة عشر الف فارس من كل صنف في أهبة تامة والفين من غلمان السراي »، ومنذ البداية وقبل أن يتحرك الجيش كان بكتغدي يتوقع في رأيه « القدر لاينضج اذا كثر الشركاء » و« ينبغي أن يكون القائد الاعلى واحدا ».

وعرض الحال على السلطان مسعود فقال بعناد « لابد من أن يذهب بكتغدي » وهكذا تحركت الحملة في يوم الخميس التاسع من شعبان سنة ٤٢٦ هـ /١٩ حزيران ١٠٣٥ م صوب نسا ، وارسل معها عدد من الفيلة ، ولقد كان معسكر السلاجقة وتركمانهم قرب نسا ، وفي رمضان ـ سنة ٤٢٦ هـ أشرف الجيش الغزنوي على هذا المعسكر ، واعمل الغارة عليه دون أن يأخذ بالحيطة ويحذر طرائق البداة في القتال ، فلقد ترك التركمان قبيل دنو الجيش الغزنوي منهم معسكرهم شبه خال من المقاتلين ، وانسحب المقاتلون الى حافة الصحراء ، وهناك أعدوا المكامن ، وأدى هجوم الجيش الغزنوي على المعسكر التركماني الى افلات زمام القيادة فيه واختلاط الحابل بالنابل واختلال نظام تعبئته ، الفرصة التي أعدلها السلاجقة فاغتنموها بالانقضاض على أعدائهم « وكان اليوم شديد القيظ ، واشتعلت الرمضاء وجفت شفاه

الجند والدواب من العطش » ولقد كان الماء وراء الجيش الغزنوي فحاولت بعض فرقه التراجع نحو الماء « رويدا رويدا بالكر والفر » فلم يستطيعوا تدبر ذلك ، فولى الجيش مدبرا وتفرق أيدى سبأ ، وهكذا حقق السلاجقة أول انتصار رائع لهم بشر بأن خراسان ستكون لهم ، ولقد غنموا كل ما كان لدى الجيش من آلات وعدد ، ويقول الراوندي :« واستولى السلاجقة على ما قيمته عشرة ملايين من الدنانير من الألبسة والأسلحة والأمتعة والدواب».

لقد كانت « هذه أول هزيمة جدية وقعت » على السلطان مسعود « وتوالت الهزائم بعدها وهنا على وهن » ولقد تملكت التركمان الحيرة ودهشوا للنصر المؤزر الذي نالوه ، ولكثرة الآلات والنعم والدواب والذهب والفضة والألبسة والسلاح والعدد التي وقعت في أيديهم ، ولم يصدقوا أن هذا كله قد حدث فعلا ، لهذا « حين أمنوا عقدوا مجلسا وجلس الأعيان والمقدمون والشيوخ في خركاه وأخذوا يتشاورون ، قالوا: إننا قد ظفرنا بهذا كله دون تفكير أو تمهيد ، وان من المحال الوقوف عند هذا الحد ، ولسنا نحن الذين غلبنا هذا الجيش العظيم ، ولم يتجاوز الامر اننا حافظنا على انفسنا وانهم لم يحسنوا تدبير امرهم ، وقد اراد الله سبحانه وتعالى وقوع هذا وحتى لانذهب هباء دفعة واحدة ، فغنمنا بغير قصد كل هذه الالات ، وكنا فقراء فاصبحنا بفضل الله اغنياء ، والسلطان مسعود ملك عظيم ، وليس له في بلاد المسلمين نظير ، وقد حلت الهزيمة بجيشه لسوء التدبير وضعف القيادة ، ولكن له جندا وقادة كثيرين ، فعلينا ان لانغتر بنصرنا ، وعلينا ان نوفد اليه رسولا يتحدث اليه عن ولائنا له ، ويلتمس العذر ، ويبين ان رأينا هو دائما ما كنا عليه من قبل ، وانه لم يكن لنا من حيلة سوى المقاومة حين قصد الجند بيوتنا ومتاعنا ، ولنرى ما سيكون جوابه حتى نستطيع ان نتبين طريقنا بعد ذلك ».

على هذا الاساس ارسل السلاجقة رسولا الى السلطان مسعود مع رسالة ترجو العفو والاعذار ، ولقد وجدت الرسالة اذنا صاغية

لدى السلطان ، وادت الى تهدئة خاطره ومنعته مـن ارسـال حملة اخرى ، لهذا قام ـ ردا على رسالتهم ـ بـارسال رسـول مـن قبله يفاوضهم ، ومضى هذا الرسول الى معسكر السلاجقة وامضى فتـرة من الزمن لديهم ثم عاد الى السلطان ومعه ثلاثة رسل مـن مقـدمي السلاجقة ، احدهم يمثل طغر لبك ، والاخر جغري بك والثالث البيغو (٤٤) .

ان ارسال السلاجقة لهـذا العـدد مـن السـفراء يدل على ن التركمان ، على الرغم من ان البيغو كان مـن المفـروض، ولو على الاقل نظريا ، أن يكون المقدم عليهم جميعا ، لم يكن لديهـم في هـذه المرحلة قيادة موحدة ، او بالحري انهم لم يكن يدينون فعليا في هـذه المرحلة بالولاء لزعيم واحد ، بل لأكثر من زعيم ، وأن هـؤلاء الزعماء كانوا مستقلين الى حد ما عن بعضهم بعضا ، وليس لهـم سـياسة وهدف واحد يجمعهم ، ولنتذكر أن زعماء السلاجقة عندما ارسـلوا اولى رسائلهم الى سوري عنونوهـا» من العبيد يبغو وطغرل وداود».

إن التمزق هذا ـ كما سنرى ـ سيكون وسـيبقى احـدى مـزايا التركمان ، وسنجده من الاسـباب الكبـرى التـي اعاقـت قيام الامبراطورية السلجوقية ، ثم اعاقت تطورها الى دولة مركزية ، كما سيؤدي الى الانهيار السريع لهذه الامبراطورية ، وهذا التمـزق قـد لاءم خير ملائمة وضع العالم الاسلامي الذي كان في القرن الحـادي عشر ممزقا ، وسنرى كيف عمل عمله في بلاد الشام والجزيرة وكيف كان من الأسباب الرئيسـة التـي أدت الى نجـاح الحملة الصـليبية الاولى ، ثم كيف ساعد في انجاح الفرنجة في البقاء في بـلاد الشـام حتى زال أخيرا بفضل قيام الدولة الأتابكية التي نجحـت في تـوحيد الشام والجزيرة ثم في ضم مصر الى هذه الأجزاء الموحدة.

☆ ☆ ☆

لقد كانت نية السلطان مسعود آنذاك التوجه نحو الهند ، ولهذا استجاب لمطالب رسل التركمان واعطى ، متنازلا ، لمقدمي السلاجقة ولايات نسا وفراوة ودهستان وارسل لكل منهم خلعة ومنشورا ولواء كما أعطى كل واحد منهم رتبة غزنوية » ووجهت اليهم رسائل منه ، خوطبوا فيها بلقب « الدهقان » واعدت لهم ثلاث خلع كما هو الرسم في خلع الولاة ، تشتمل الواحدة على قلنسوة ذات ركنين ولواء وحلة مطرزة (برسم الدولة الغزنوية) وسرج وكمر من ذهب (برسم التركمان) وثلاثين ثوبا غير مخيطة لكل واحد منهم .

يروي ابن الاثير بان مراسلة السلاجقة للسلطان مسعود كانت مخادعة ، ويتضح من البيهقي ان رجال دولة مسعود كانوا مدركين لهذا الامر ، ولكن عناد السلطان وطغيانه ثم فراره من مواجهة الواقع المر بالحزم والجد قد حال دون القيام بعمل مجد (٤٥) . على ان مصادر اخرى توحي بأن السلطان قد حاول أن يفتت السلاجقة ويخلخل صفوفهم بان يفصل البيغو عنهم ، وبالوقت نفسه اراد أن يؤمن لنفسه بعضا من النفوذ عليهم باقتراح قيام علاقات زواج بين الزعماء الثلاثة والسلطنة ، فاقترح زواج البيغو من ابنة سوري عميد خراسان وزواج طغرل لبك من ابنة أحد أمراء الغزنويين ، وجغري بك من امرأة أخرى حرة ، وقبل البيغو الاقتراح بينما رفض الآخران وازدادا جرأة وثقة بالنفس (٤٦) . وأخذا يثيران الفتن ويخيفان الناس ويسلبان كل ما يجدانه ، ولقد أخفقت كل جهود والي خراسان في اخضاعهما (٤٧) وتقديرا منهما لقوة مركزهما ولضعف السلطنة عن نيلهما باذي ارسلا في أول سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م بعثة الى السلطان مؤلفة من رسولين أحدهما كان فقيها من اهل بخارى ، وكان الثاني تركمانيا يمت الى السلاجقة بصلة القرابة ، وكان مع الرسولين رسالة نصها « إننا الى الآن لم نتجاوز حدنا بشيء ، ولكن في خراسان ــ كما لايخفى ــ تركمان آخرون ، وهم لايزالون يفدون عليها لأن طريق جيحون وبلخان كوه مفتوحين امامهم ، وهذه الولاية التي منحها إيانا السلطان قد أخذت تضيق علينا ، واصبحت لاتكفي لسكنى من معنا من الناس، وكان يرجى

ان ... يمنحنا ــ السلطان ــ بعض المدن الصغيرة مثل مرو وسرخس وباورد ، على ان يكون صاحب البريد والقضاة وصاحب الديوان فيها من قبل السلطان ، فيجبوا الأموال ويصرفوا أرزاقنا ونكون نحن جند السلطان ، فنطهر أرض خراسان من المفسدين ، ونؤدي ما يوكل الينا من خدمات في العراق ، أو اية ناحية اخرى ، طائعين ، ونقدم على أخطر الأعمال بأمره ، ومن الجائز أن يرابط الحاجب سباشي بجيشه في نيسابور وهراة ، ولكن اذا قصدنا بسوء فسنضطر الى الدفاع عن انفسنا فتزول الهيبة من بيننا ، هذا هو ملتمسنا والامر للسلطان » (٤٨).

لقد عاد السلطان مسعود الى غزنة في سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م قادما من الهند ، ومن غزنة تحول الى بلخ ، والذي سبب تحوله هذا هو اخبار خراسان ونشاط التركمان فيها ، فوجه جيشا عظيما مع الحاجب سباشي ، وكان رد السلاجقة على تحرك مسعود وارساله جيش الحاجب سباشي حازما : المطالبة بالتخلي لهم عن أجزاء جديدة من خراسان ، وتجميد وايقاف الاعمال العسكرية ضدهم ، وعندما وصلت رسالة السلاجقة الى السلطان مسعود أثرت به واغضبته وقال لوزيره : « لقد تجاوز هؤلاء القوم الحد في تعديهم وتحكمهم فقد دمروا خراسان من جهة ، بينما يتحايلون بالمكر وزخرف القول من ناحية أخرى ، فيجب صرف هذين الرسولين بعد افهامهما بأن الحكم سيكون السيف وأن الجيوش قد سيرت للقتال ».

لقد كانت ردات فعل السلطان مسعود آنية ، ولم يكن لديه القدرة على مواجهة الأمور كما ينبغي ثم الأخذ بالحزم والتسلح بالمعاناة والصبر ، فما أن رجع رسولا السلاجقة من عنده حتى انصرف مسعود الى لهوه وخمره وصيده وتركت خراسان للقدر.

وفي مطلع سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م وصلت السلطان مسعود اخبار تفيد بمجيء دفعات جديدة من التركمان الى خراسان ونهبها لبعض مدن الاقليم مثل الطالقان وفرياب والري ، ومرة أخرى ثار مسعود للأخبار ولام الحاجب سباشي ووصمه بالتخاذل والتقصير وكتب إليه

امرا بان يلتحم بالعدو في معركة فاصلة ، وحاول سباشي ان يدافع عن نفسه ويدفع امر السلطان ويؤجل تنفيذه إلى أن تقوم الفرصة المواتية لانزال ضربة قاصمة بالتركمان ، ولقد ارسل سباشي الى السلطان وصفا للتركمان واحواله معهم قال فيه .انهم « قسموا رجالهم الى عشرين او ثلاثين فرقة، وهم يعتبرون الصحراء بمثابة الاب والام منهم ، كما هو حال المدن بالنسبة لنا، وإني سباشي لاازال في الحرب معهم حتى الآن، وواليت ارسال الطلائع ومواصلة القتال ، وقد تعرفت بحقيقة احوالهم واساليبهم في الحرب ، وقد حفظت الذخيرة ، ولم نستطيعوا تثبيت أقدامهم في أي بلد في خراسان حتى الآن ...وليس من الممكن أن يصمد جيش السلطان بغير مدد بعينه فإن خطة هؤلاء الخوارج من طراز خاص ....و- حرب التعبئة - ضدهم - ليست من الصواب ، والراي مايرى السلطان ، وإني منتظر جوابه وانا على اهبه تامة ، ولو راى السلطان ضرورة ضربهم ضربة قاضية والحملة عليهم حملة رجل واحد ، فليامر ...بوجوب المبادرة بالقتال ، إذ حين تصلني - الاوامر- لن أبقى يوما واحدا في نيسابور بل سأزحف فورا الى سرخس ومرو وأبادر بالقتال ».

وبعد مشاورات طويلة خرج امر السلطان مسعود: على الحاجب سباشي« أن يبادر بقتال العدو حتى نرى مايقدره الله لنا ، وإن رجاءنا في الله عز وجل أن ينصرنا والسلام ».

لقد كانت مرو قد غدت مركزا للسلاجقة انذاك ، وكانت نيسابور كبرى مدن خراسان واشهرها مركزا للجيش الغزنوي بقيادة سباشي ونفذ الحاجب سباشي اوامر السلطان مسعود والتحم بالسلاجقة « ولم يكد يبدأ المعركة حتى اصابته الهزيمة .ولنسمع سباشي، يصف ماحدث بنفسه:« لقد قامت حرب مع العدو لم ار اصعب منها ، وظلت المعركة من الصباح حتى صلاة العصر ... - لقد خان السلطان - المنهون - الأخبار - حين حدثوه عن الأعداء ، فهونوا من شانهم وكنت اعمل في صبر يؤدي الى فرارهم ، ولكن المنهين ضللوا

السلطان حتى أوغروا صدره علي ، فأمر جزما بوجوب حرب المصاف ، فلما لقيت الأعداء وجدتهم نخبة من المحاربين المعدين ، وقد اراحوا انفسهم من اثقالهم ، وجرت موقعة ليس أشد هولا منها

لقد كانت قوات التركمان خفيفة مرنة ليس معها أثقال ولا مؤن ولانساء بينما كان الجيش الغزنوي جيشا نظاميا يتحرك بثقل وحسب النظم العسكرية ، يتحرك فيتحرك بحركته الكثير من الأثقال والنساء والحاجيات (٤٩) ، لذلك كان حين يدخل المعركة كان لايستطيع التحرك بمرونة ولايستطيع ان يقاتل وهو خالي البال ، بل كان يقاتل وخاطره مشغول بما لديه من ذخائر وأهل اكثر مما هو مصروف لربح المعركة والانتصار على الخصم ، يضاف الى هذا أن التركمان كانوا يفضلون الجيش الغزنوي ليس بهذا فقط بل في الروح المعنوية مع المرونة والبراعة في القتال وايضا في نوعية الأسلحة ، لقد كان الفارس التركماني يعتمد بالدرجة الاولى على قوسه ، يقوم بالهجومات الخاطفة على خصمه فيصرع فرسه أولا بأنه يرميه ، ثم ينقض بعد ذلك على هذا الخصم المثقل بدرعه أو سابغته وأسلحته الثقيلة الخاصة التي يصعب استخدامها عليه وهو مترجل فيجهز عليه بسيفه أو دبوسه ، واذا ما حدث وكان جيش الخصم مؤلفا من فرسان ومشاة لحماية الفرسان ، كان التركمان يجهدون في البداية لفصل المشاة عن الفرسان ومن ثم كان يتم الاجهاز على كل سلاح على حدة، وفنون التركمان القتالية هذه سنراها في معركة دندانقان ثم بعد ذلك في معركة منازكرد ، وستظهر خلال جميع معارك الحروب الصليبية وخاصة في معركة حطين •

يعتبر ابن الأثير النصر الذي ناله السلاجقة ضد جيش سباشي نصرا حاسما فالمعركة التي خاضوها ضد هذا الجيش الضخم « هي الواقعة التي ملك السلجوقية بعدها خراسان ، ودخلوا قصبات البلاد » فدخل طغرلبك مدينة نيسابور بعد أن تخلى عنها سوري حاكم خراسان ، وبعد ان هجرتها الحامية الغزنوية ، ودخل داود جغري بك مدينة هراة ، وبعيد دخول طغرلبك الى نيسابور أعلن

نفسه سلطانا واصبح يعرف باسم ـ السلطان المعظم ركن الدنيا والدين ابو طالب ـ واستقبل مع أخيه واليبغو وفادة ارسلها الخليفة العباسي من بغداد مع رسالة ينهاهم فيها عن النهب والقتل والاضرار ويعظهم ، وربما يمنيهم بالاعتراف بهم كسلطة شرعية لخراسان ، ويرى مدى قوتهم ويتعرف بها على ماهية مشاريعهم واهدافهم بالنسبة للمستقبل •

ويذكر ابن الاثير وغيره بأن جغري بك أراد أن ينهب مدينة نيسابور فمنعه طغرلبك ، واحتج عليه بشهر رمضان الذي تم فيه أخذ نيسابور ، فلما انسلخ رمضان صمم جغري بك على القيام بعملية النهب ، ومرة أخرى منعه طغرلبك» واحتج عليه برسل الخليفة وكتابه ، فلم يلتفت داود إليه وقوى عزمه على النهب ، فأخرج طغر لبك سكينا وقال له : والله لئن نهبت شيئا لاقتلن نفسي، فكف عن ذلك ».

لقد حدث هذا سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٤٨ م ، ويدل هذا الخبر على الروح البدوية التي كانت تمتلك السلاجقة وتتحكم بهم انذاك ، هذه الروح التي كانت تحب النهب ولاتتخلى عنه ، كما ان هذا الخبر يشير الى ان طغر لبك كان قد اصبح الشخصية الاولى بين السلاجقة والى انه كان يعمل ويخطط من اجل بناء دولة سلجوقية كبرى ، عليها منذ البداية اقامة علاقات طيبة مع الرعية ومع الخليفة في بغداد ، واخيرا لاحاجة للتذكير على ان هذا الحدث يدل ايضا على مدى نفوذ الروح الاسلامية بين السلاجقة .

ويقدم لنا البيهقي وصفا وثائقيا دقيقا لاحتلال السلاجقة مدينة نيسابور ودخول طغر لبك اليها فيه :« بعد ان جاءت الاخبار بما حل بالحاجب سباشي اقبل ابراهيم ينال بعد اثني عشر يوما على حدود نيسابور ومعه مائتا رجل . وابلغ انذارا مع رسول له : بانه يمثل مقدمة جيش طغر لبك وداود وبيغو ، فاذا كنتم ستحاربون فانه يعود ليخبركم بالامر ، واذا كنتم مسالمين فليدخل المدينة وليغير

الخطبة ، فان جيشا كبيرا يسير في اثره » . انزل اهــل نيســابور رسول ينال في مكان لائق ، واخذ اعيان المدينة المؤلفين من القاضي والتجار وسواهم يناقشون ماالتاهم وتذكروا قول السلطان محمــود غزنوي لجماعة مثلهم واجهوا الحالة نفســها وقــرروا المقــاومة :« ماشأن الرعية بالقتال . . فان كل ملك يتسلط عليكم ــ ايتها الرعية ــ ويلزمكم بــالخراج ويؤمنكم ، عليكم ان تــدفعوا له الخــراج وتحافظوا على انفسكم » (٥٠) لهــذا قــر رأي اهــل نيســابور على الاذعان بالطاعة وتسليم مدينتهم ، فنادوا رســول ابــراهيم ينال وسلموه جواب رسالته : « باننا رعية ولنا ســلطان ، والرعية ليس من شأنها ان تحارب ، وللامراء السلاجقة ان يدخلوا المدينة فانها مفتوحة لهم ، فاذا كانت لازمة للسلطان فانه سياتي للمطالبة بهــا او سيرسل قائدا لهذا الامر ، ولكن عليكم ان تعــرفوا ان الناس قــد خافوا لما حدث منكم في بلاد اخرى من النهب والمثلة وقطع الرقــاب ، ولابد من انتهاج سبيل اخر ، فان هناك اخرة غير هذه الدنيا ، وقــد رات نيسابور كثيرا مثلكم ، وسلاح اهــل هــذه البقعــة هــو دعاء القوامين منهم بالليل ... فلما اطلع ابــراهيم ينال على الاجــواب ... ظهر ... مع اكثر من مائتي فارس وكان معه لواء وجنبيتان وكان في زينة ذابلة وبسيطة ... وكان شابا جميلا الطلعــة ، حلو الحــديث ... وبلغ طغرل نيسابور بعــد ثــلاثة ايام ، وخــرج الاعيان جميعــا لاستقباله ... كان مع طغرل ثلاثة الاف فارس اكثرهم مدرعون (٥١) وكان له قوس بنشاب معلق في كتفه ، وفي وسطه ثلاث ســهام ، وكان مدججا بالسلاح ... وكان السلاجقة كانهم من الغوغاء لانظام لهم ، وكان من يريد التحدث لطغرل يتجرأ عليه ويتحــدث اليه » ؛ وبعــدما دخل طغرل لبك قصر نيسابور « اعتلى سرير السلطان » ، وهكذا اعلن نفسه سلطانا جديدا لخراسان (٥٢)

كان السلطان مسعود قد عاد الى غزنة عقــب هــزيمة الحــاجب سباشي ، وفي غزنة تكونت لديه صورة كاملة عما تم في خراسان وبعد مناقشات تقرر ان يتحرك السلطان بنفسه على راس جيش كبير من اجل استرداد خراسان وطرد التركمان منها ، وكان اول مــا فعله ان

ارسل الى خراسان بالتصريح التالي : « إنا زاحفون مع خمسين الف فارس وراجل وثلاثمائة فيل ، ولن نعود الى غزنة مهما تكن الظروف حتى نخلص خراسان » ، وفي الأيام الأخيرة من سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨ م « استعرض ـ السلطان مسعود ـ الجيش، وكان جيشا كثيفا ، قيل انه ضمَّ أكثر من خمسين الف فارس وراجل كلهم مجهزون بالخيول القوية والسلاح التام » ، وفي الرابع من محرم سنة ٤٣٠ هـ/ ٧ تشرين الأول ١٠٣٨ م سار السلطان مسعود من غزنة ، وفي الرابع عشر من صفر / ١٥ تشرين الثاني وصل مع قواته الى مدينة بلخ ، وأطال السلطان الأقامة في بلخ وقامت عصابات من التركمان بقيادة بعض أمراء السلاجقة بالاغارة على أطراف بلخ حيث قوات مسعود ، وفي منتصف مايس تحرك مسعود نحو سرخس « وكان معه جيش كامل الأهبة وقد أجمع الناس على انه قادر على غلبة اهل تركستان اجمعين لو واجهوه» وتجمع السلاجقة مع قواتهم التي قدرت بعشرين الف فارس قرب منطقة سرخس ، ويبدو انهم كانوا يخشون الالتحام مع مسعود وقواته لذلك عقدوا مجلسا ناقشوا فيه الوضع وحاولوا ايجاد مخرج.

ولقد تشعبت آراؤهم حول هذا المخرج ، فكان رأي طغرلبك والينالبين التوجه غربا نحو العراق وهجر خراسان ، ولم يكن ذلك صعبا « لان ـ كما قالوا ـ حفنة من المرتزقة والديلم والكرد سيقابلوننا هناك ، والصواب ان نذهب ونغتنم الفرصة لأن ثغور الروم ليس فيها مقاتلون ، وأن نترك خراسان وهذه النواحي مع هذا السلطان العظيم القوي صاحب الجيوش الجرارة والرعية العديدة ، ورفض جغري بك هذا الراي قائلا : « ما افدح ما وقعتم فيه من الخطأ ، لو انكم تزحزحتم عن خراسان ، فلن يقر لكم على الارض قرار لغارات هذا السلطان علينا ، ولما سيثيره من كل جانب أعداء أشداء علينا ولقد رايت حرب ـ هذا السلطان وجنده في ـ الميدان ... لقد كان له كل ما يريد من رجال وعتاد ، ولكن الأحمال الثقيلة ليس في وسعهم ان يكونوا بعيدين عنها فبغيرها لاعيش لهم ، هي سبب عجزهم لأنهم مضطرون الى حماية انفسهم وحماية متاعهم ، اما

نحن فخفاف لامتاع لنا ، وقد حلت الهزيمة ببكتغدي وبسباشي بسبب ثقل متاعهم ، ومتاعنا خلفنا على مسيرة ثلاثين فرسخا ، ونحن بهذا قانعون ، فينبغي أن نمضي في الحرب كالرجال حتى نرى تقدير الله عز وجل ».

إن رأي جغري بك هذا كان فيه الصواب كله، وهو يدل على فهم عسكري ممتاز ، فيه تقدير لمزايا الصديق ومعرفة بمساوىء ونقاط ضعف العدو وكيفية استغلالها.

لقد قدر عدد جند السلاجقة في هذه الآونة ـ كما أسلفنا الذكر ـ بعشرين الف فارس وهناك إشارات إلى أن هذا العدد في الواقع لم يتجاوز الستة عشر الفا، ولقد حافظ هؤلاء التركمان ما امكنهم على تقاليدهم في القتال ، فكانوا فارغي البال ـ كما ذكرنا ـ من الأثقال والأمتعة لهذا عمدوا الى عدم الالتحام بقوات مسعود في اشتباك مباشر بل اخذوا، بعد أن تخلوا عن نيسابور وغيرها من المدن ، يجرون جيش مسعود المثقل هنا وهناك ، ويعملون الاغارة عليه فيتعبون افراده جسديا ومعنويا . وهكذا كان الحال الى أن جاء صيف عام ٤٣١ هـ/١٠٣٩ م، حيث سار السلطان من نيسابور فسار الجند وراءه متخاذلين «، كأنهم حقا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، وكان اليوم شديد القيظ ، والمؤن قليلة، والعلف لاوجود له، والدواب هزيلة، والناس صيام، وقد مر السلطان في الطريق على كثيرين يجرون جيادهم ويبكون فامتلأ قلبه حسرة، وقال: ما أسوأ حال هذا الجيش ». لقد كانت وجهة مسعود نحو مرو ، وفي الطريق لم يتركه السلاجقة يتحرك بحرية ، بل كانوا يعملون الغارات المفاجئة على أطراف قواته، يقتلون ويأسرون ويعودون بالغنائم ، وأكره جيش مسعود على التوجه حسب مشيئة السلاجقة والتحرك والتصرف حسبما أرادوه أن يفعل ، وهكذا سيق هذا الجيش العرمرم نحو حواف صحراء الدندانقان، وجعل يعسكر في مكان قليل الماء كثير الرمال لاكلأ فيه ولاحوله، وكان التركمان قد القوا الجيف في كافة آبار المنطقة ، ولم يبق هناك سوى آبار حصن دندانقان فأخذ

الجند يتخاصمون على شربة ماء ويتصارعون من اجل الوصول الى بئر داخل الحصن ، وهكذا انعدم النظام داخل صفوف الغزنويين وفر الكثيرون نجاة بأرواحهم ، او انضموا الى صفوف التركمان الذين اخذوا يغيرون غارات شعواء : ويحملون حملات منكرة على من بقي مع السلطان ، واستمرت المعارك عدة أيام كاد السلطان مسعود نفسه أن يفقد حياته فيها• لذلك لاذ حفاظا على حياته بالفرار ، وتوجه نحو غزنة ليخلع ثم يلقى حتفه ـ وهكذا تخلى نهائيا عن خراسان للسلاجقة(٥٣). ولقد آذن نصر الدندانقان هذا بقيام امبراطورية اسلامية جديدة، وبانحسار ظل واحدة، وتعتبر هذه المعركة من كبريات المعارك الفاصلة في تاريخ الاسلام ، ولم تنحصر نتائجها في حدود عالم الاسلام، إنما تعدته فأثرت على عالم العصور الوسطى كله•

لقد كانت الغنائم التي كسبها الغز في معركة دندانقان اكثر من أن تحصى، وليس هذا بالمهم ، إنما المهم أن طغرلبك عاد بعد نصره الى نيسابور ودخلها مع جموعه في آخر سنة ٤٣١ هـ او اوائل سنة ٤٣٢ هـ /١٠٤٠ م ولم تنج نيسابور هذه المرة من النهب ، ويقول الراوندي :« فلما أحرز السلاجقة النصر في هذه المعارك ازدادوا قوة ولحقت بهم جيوشهم المتفرقة في أطراف خراسان ، فاشتد وقعهم في القلوب، وتقرر الملك لهم ، وسخرت الدنيا لامرتهم، واستحقوا السلطان عن جدارة واستحقاق ...واجتمع بعد ذلك الاخوان :جغري بك وطغرلبك مع عمهما موسى بن سلجوق(٥٤)الذي يطلق عليه اسم « يبغو اكلان » ومع ابناء أعمامهم وكبار قومهم وقواد جنودهم ،و تعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم، ولقد سمعت أن طغرلبك أعطى لأخيه سهما وقال له: اكسره ، فتناول أخوه السهم ، وكسره في هوادة، ثم جمع له سهمين فكسرهما أيضا في هوادة، ثم أعطاه ثلاثة فكسرهما بصعوبة فلما بلغ عدد السهام اربعة تعذر عليه كسرها، فقال له طغرلبك: إن مثلنا مثل ذلك ، فاذا تفرقنا هان لأقل الناس كسرنا ، وأما إذا اجتمعنا فلا يستطيع احد أن يظفر بنا• فاذا دشأ خلاف بيننا لم يتيسر لنا فتح العالم، وتغلب علينا الأعداء

وذهب الملك من أيدينا »(٥٥).

أرسل السلاجقة بعد ذلك رسالة الى الخليفة العباسي القائم بأمر الله(٤٢٢ هـ/ ١٠٣١م-٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥م) يخبرونه بها بما تم في خراسان، ويسوغون حربهم ضد السلطان مسعود ويعلنون تعلقهم بالخلافة العباسية والاسلام السني ، ومما قالوه في رسالتهم كما رواها الراوندي:« إننا معشر آل سلجوق قوم اطعنا دائما الحضرة النبوية المقدسة واحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائما في غزو الكفار واعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة، وكان لنا عم مقدم محترم بيننا اسمه اسرائيل بن سلجوق ، قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين بغير جرم أو جناية، وارسله الى قلعة « كالنجر » ببلاد الهند، فبقي في أسره سبع سنوات حتى مات. واحتجز كذلك في القلاع الاخرى كثيرا من أهلنا واقاربنا ، فلما مات محمود وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب...فلا جرم إذا طلب منا اعيان خراسان ومشاهيرها أن نقوم على حمايتهم . ولكن مسعودا وجه إلينا جيشه ، فوقعت بيننا وبينه معارك تناوبنا فيها كر وفر وهزيمة وظفر.حتى ابتسم لنا الحظ الحسن ...وظفرنا بالغلبة بمعونة الله عز وجل وبفضل اقبالنا على الحضرة النبوية المقدسة المطهرة، وانكسر مسعود وأصبح ذليلا، وانكفأ علمه وولى الأدبار تاركا لنا الدولة والاقبال...وشكرا لله على ماأفاء علينا من فتح ونصر ، فنشرنا عدلنا وانصافنا على العباد، وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد، ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقا لتعاليم الدين ولأمر أمير المؤمنون » (٥٦).

بعد هذا قام السلاجقة بتقسيم خراسان بينهم ، بحيث أخذ جغري بك جزءا منها وترك لليبغو وبقية الأمراء بقية الأجزاء، وكانت الخطة تهدف الى احاطة الدولة الغزنوية والحيلولة بينها وبين محاولة استعادة خراسان ، ثم تهدف الى ترك طريق جيجون مفتوحا من أجل قدوم مهاجرين غز جدد من أجل العمل على اكمال احتلال

اراضي الخلافة العباسية وغيرها من ديار الاسلام ، والأراضي البيزنطية، لقد أوكل لطغرلبك تحقيق هذه المهمة الأخيرة وترك معه ابراهيم ينال وأتباعه، وابن عمه قتلمش (قطلمش) بن ارسلان بن سلجوق وأتباعه، وياقوتي بن جغري بك، وتيسر لطغرلبك احتلال الري – قرب طهران الحالية- فاتخذ منها قاعدة لملكه، ومنها اخذ يبث قواته لاكمال احتلال الهضبة الايرانية٠

إن ما أوكل الى طغرلبك ، ثم ما حققه من نجاحات في الوصول الى بغداد واقامة الامبراطورية السلجوقية هي أعظم منجزات السلاجقة وأخطرها وابعدها تأثيرا ليس فقط بالنسبة للتاريخ الاسلامي وإنما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ايضا٠

لقد كانت مهمة طغرلبك ذات شقين، أو بالحري كان عليه تأمين غرضين أساسين : الأول الوصول الى بغداد وبالتالي تأمين طريق الحج الى مكة ، والثاني تأمين الطريق نحو ارمينية فممتلكات بيزنطة في أسية الصغرى وممتلكات الخلافة الفاطمية في الشام وغيره، ويدل هذا على مطامح واضحة لطغرلبك ثم على فهم سياسي جيد ، وبين ٤٣٢ – ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٠ – ١٠٤٤ م استطاع طغرلبك احتلال المناطق الواقعة على شواطيء البحر القزويني، وبعد ذلك مد سلطانه على باقي اجزاء الهضبة الايرانية ، فاحتل بعد الري همذان ثم اذربيجان وقضى على كل مقاومة، خاصة من قبل الكرد والديلم، وأصبح الآن الطريق مفتوحا أمامه نحو بغداد وكذلك الطريق نحو ارمينية٠

أن يهتم طغرلبك ويعمل للسيطرة على بغداد ذلك أمر مفهوم ، فكل الذين سبقوه في السيطرة على خراسان كان دائما هدفهم السيطرة على بغداد والتحكم بالخلافة العباسية، وفي تاريخ الدولة السامانية والدولة الصفارية وأعمال محمود الغزنوي أمثلة كافية للبرهان على هذا ، ولكن لماذا اهتم طغرلبك بطريق ارمينية؟

لقد كان طغرلبك يقود جماعة من البداة الغــز، وكان هناك سـيل غير منقطع من المهاجرين من بلاد مــاوراء النهــر الى خــراسان ، والبداة الغز كغيرهـم من بني جلدتهم من البداة كان ما يهمهم دائمــا هو تأمين المراعي والقيام بالسلب والنهب ، ومن الصعب الســيطرة على البدوي ووضعه تحت سيطرة سلطة مركزية، أو ضــمن أنظمــة محددة معينة، وكان طغرلبك بعد معــركة دنداذقــان بصــدد اقــامة امبراطورية سنية ذات سمعة طيبة فيها أمن ونظام وكان من المحــال والحالة هذه أن يترك بداته ينهبون، ولكن بــداته كانوا أقــوى منه ، لهذا وجد طغرلبك ان أفضل الحلول للتخلص من بداته هو تــوجيههم نحو فتوح خارجية في بلدان غير اسلامية أو بلدان لاتدين بــالاسلام السني، ولقد كانت أرمينية وبيزنطة البلد الكافــر، وكانت الجــزيرة والشام البلد الذي لايدين بالسنة، والتوجه نحو الفتوح الخارجية لم يخلص فقط طغرلبك من مشاكل البداة ، واشــباع رغبــات هؤلاء في السلب والنهب والحصول على الغنائم، بل كان تــوجيههم بــالنسبة لطغرلبك عملا في سبيل مد رقعة دار الاسلام ، وكانت اعمالهم جهادا في سبيل الله لذا كان كل واحد من التركمان يطلق على نفســه لقــب « غازي »!

يروي سبط ابــن الجــوزي وغيره مــن المؤرخين انه في ســـنة ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م « قصد الغز نيسابور ، فقال لهم ابــراهيم ينال: هذه البلاد خربت وما تحملكم، اطلبوا بلاد الروم فهــي أحمــل لكم ، فساروا الى الروم ...فاوغلوا في بــلاد الروم فقتلوا وأسروا ونهبــوا أشياء كثيرة ، وعادوا الى اطراف ارمينية• وقيل انهــم بلغــوا الى خليج القسطنطينية ، وكان معهم محمد بن ابراهيم ينال، فغنم ابــن ينال وحده مائة الف رأس ، وأخذوا من السلاح والمال ماحملوا على عشرة آلاف عجلة ، وقيل بل كان ابراهيم ينال بنفسه معهم »(٥٧)

في هذه السنة تعرضت أراضي الجزيرة لاول مرة لغارات التركمان واصطدمت دولها بهم ، وإنه لمن الضروري قبل القيام بدراسة ذلك ان نتعرف أولا على الوضع الســياسي والديني والاجتمــاعي الذي

كان سائدا آنذاك في الجزيرة والشام ، وبنفس الوقت نتعرف الى اوضاع بغداد والخلافة العباسية في هذه الآونة التي كان طغرل لبك يجهد نفسه للسيطرة عليها ، وهذا سيكون موضوع الفصل التالي.



الفصل الثاني

قيام السلطنة السلجوقية

اوضاع بلاد الشام والجزيرة واحوالهما قبل السلاجقة ، تأسيس السلطنة السلجوقية من قبل طغرلبك

كاني بالترك قد اتتكم على برانين مخدمة الآذان حتى يربطوها بشط الفرات . (عبد الله بن مسعود) .

اتركوا الرابضة ما تركوكم ، فانهم سيخرجون حتى ينتهوا الى الفرات فيشرب منه اولهم ، ويجيء أخرهم فيقولون قد كان هـا هنا ماء

(معاوية بن ابي سفيان)[1]



الشام عند الجغرافيين هو صقع يحده من الشرق الفرات ومن الغرب البحر المتوسط ، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل طويلا حتى ما بعد طرسوس في تركية اليوم ، وقد جعل العرب المسلمون، بعد فتحهم للشام ، هذه البلاد خمسة اجزاء او مناطق عسكرية اطلق على كل

منطقة منها اسم جند وهي جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص، وجند قنسرين ، ومن حيث الواقع العملي كان عمر هذا التقسيم قصيرا واستمر نظريا ليس اكثر (٢).

سكن الشام قبل الفتوحات الاسلامية من قبيل عدد من القبائل العربية كان اكثرها – تبعا لروايات النسابين العرب – منحدرا من اصل يماني ، ومن أشهر هذه القبائل قبيلة كلب ، ولقد استقرت كلب جنوب بلاد الشام وكان لها دورها البالغ الأهمية في العصر الأموي ، كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القبائل الى شمالي بلاد الشام ، ولقد كانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال من اصل قيسي، وكان من اشهر هذه القبائل قبيلة كلاب ، وفي سنة ٦٤ هـ /٦٨٣ م بعد وفاة الخليفة الأموي ، يزيد بن معاوية التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك بن قيس بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط ، ولقد هزمت قيس وانتصرت اليمن ، وكانت قبيلة كلاب اكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة ، ولقد فر زعيمها زفر بن الحارث شمالا واعتصم في قرقيسيا (البصيرة في سورية حيث يلتقي الخابور مع الفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة ، ولم يستطع مروان ان يقسره على مثل هذا الاعتراف(٣).

ولعل من اهم نتائج هذه المعركة انها قسمت بلاد الشام الى قسمين : شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية ، وخاصة كلب وتسيطر عليه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعيا عبارة عن دارين دار لكلب في الجنوب ودار لكلاب في الشمال ،وكان الحد الفاصل بين ديار كلب وديار كلاب نقطة وهمية تقع جنوب حمص وغالبا ما كانت عند الرستن على نهر العاصي.

لقد كانت كلاب كما ذكرنا قبيلة قيسية وكلب يمانية وتبعا للنسابين العرب ، انحدر العرب من ابوين : واحد جنوبي وأخر

شمالي ، ومن العجيب ان تقطن القبائل ذات الأصل الجنوبي جنوب بلاد الشام وتقطن القبائل الشمالية شمالي بلاد الشام ، متبعين هكذا نمط التقسيم الذي كان موجوداً ، في الجزيرة العربية - الوطن الأم - قبل الاسلام ! ويتساءل المرء أحدث هذا بعامل الصدفة ، ام تم عن قصد وعمد ، أم أن القضية كلها عبارة عن جزء من اسطورة الانساب العربية المخترعة ؟

إن قضية الأنساب العربية مع تشكل القبائل قبل الاسلام ، وتأثر هذا التشكل بالهجرة بعد الفتوحات الأسلامية بحاجة الى دراسة علمية حديثة على ضوء الدراسات الاجتماعية الحديثة وقوانينها ،

انما يبدو أن من الاسباب التي ساعدت على تركز القيسيين وسكناهم شمال الشام هو أن اليمانيين دخلوا بلاد الشام واستقروا في جنوبيها قبل الفتوحات الاسلامية ، ثم إن هجرة القيسيين تمت بالاتجاه الى الشام عن طريق بلاد الرافدين فالجزيرة فالشام.

المهم اننا لم نسمع بعد معركة مرج راهط بسكنى اية قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام والعكس هو الصحيح ايضا ، ومع مرور الزمن اعتبرت قبيلة كلاب شمالي بلاد الشام ديارا لها واعتبرت اي تحرك قبلي من الجنوب هو عملاً عدائيا موجها ضدها ، ويلحظ المرء هذا بشكل واضح في القرن الخامس للهجرة حينما اقام الكلابيون الدولة المرداسية في حلب ، فقد دخلت الدولة المرداسية في صراع مستمر مع الخلافة الفاطمية ، واستعان الفاطميون بالكلبيين في حملاتهم ضد حلب ، وقاتلت كلاب بضراوة ضد الحملات الفاطمية لأن جنودها كانوا كلبيين وليس لسبب حماية حلب فقط ، ويمكن ايجاد شواهد على هذا في شعر ابن أبي حصينة ، شاعر المرداسيين ، وفي ما عمله المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي حينما أرسل من القاهرة في سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م لمساعدة البساسيري في ثورته ، فبعدما وصل المؤيد في الدين الى دمشق جاءته التعليمات من الوزير في القاهرة بتجنيد قوة كلبية واصطحابها معه والتوجه شمالا الى حلب

ومنها الى الرحبة حيث كان البساسيري ، ولقد تجاهل المؤيد اوامر القاهرة ، وراسل ثمال بن صالح أمير حلب ليسمح له بدخول أراضيه ، لأنه كان يعلم بأن اصطحاب قوة كلبية وادخالها الى ديار كلاب سيؤدي الى إخفاق مهمته .

ويلحظ المرء انه منذ القرن الخامس ـ الحادي عشر ان اسم الشام بات يطلق احيانا ليعني القسم الشمالي منه ، وكلمة الشام الأعلى لتعني القسم الجنوبي ، روى غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء في تاريخه بأن |السلطان ملكشاه كتب في سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م الى اخيه تتش «ان لا يتعرض الى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب» (٤) .

لقد كانت مدينة حلب دائما مركزا لشمالي بلاد الشام وفيها قام عدد من الدويلات المستقلة ، ولقد كانت دمشق كبرى مدن جنوبي بلاد الشام ، واقول كبرى وليس مركزا لان الجنوب انقسم الى قسمين : قسم فلسطيني ومركزه الرملة والنفوذ فيه كان لقبيلة طيء ، وقسم دمشق والنفوذ فيه بقي لقبيلة كلب . ولقد كان الصراع دائما بين دمشق وحلب ، وكانت بلاد الشام ممزقة دائما سياسيا ، ولم تنعم بالوحدة السياسية ولا حتى الدينية والاجتماعية في تاريخها ابدا ، وغالبا ما تورطت طيء بمشاكل ذات صلة بمصر وسياستها .



في القرن الخامس للهجرة /الحادي عشر للميلاد كانت اجزاء كبيرة من سواحل شمال بلاد الشام وشمالها الغربي خاضعة للحكم البيزنطي . ولقد كانت انطاكية ، واللاذقية وجبلة اهم المدن في هذه الأجزاء . وكانت هذه الأجزاء قد دخلت تحت الحكم البيزنطي في القرن الرابع للهجرة /العاشر للميلاد زمن الصراع مع الدولة الحمدانية بحلب بزعامة سيف الدولة .

وكأن الجزء الجنوبي من بلاد الشام مع سوأحله رغم وجود طيء وكلب فيه خاضعا في القرن الخامس هلحكم الخلافة الفاطمية ، وهذه الخلافة كانت اسماعيلية لها سياستها الخاصة تجاه هـذا الجـزء . وكانت هذه السياسة جزءا من السياسة الخارجية العـامة للخـلافة الفاطمية تجاه بلاد الشام ككل والعالم الاسلامي بأسره . وقد نبعت هذه السياسة من مصدرين اساسيين :

واحد نظري والآخر عملي ، وقد قام النظري على عقيدة هـذه الدولة التي هدفت للسيطرة على العالم الاسلامي – لا بل على العـالم كله – ولاسقاط الخلافة العباسية وازالتها من الوجود . ولتحقيق هـذا الهدف ، وحتى تصل القوات الفـاطمية مـن مصر الى العـراق كان عليها ان تبسط سيطرتها اولا على بـلاد الشـام . وفعـلا مـا أن استولى الفاطميون على مصر وسيطروا عليها حتى تابعت جيوشهم سيرها نحو بلاد الشام ، وبعد صعوبات جمة استـطاع الفـاطميون احتلال دمشق مع القسم الجنوبي مـن بـلاد الشـام (٥) . ولكنهـم اخفقوا في بسط نفوذهم بشكل دائم على شمالي بلاد الشـام ، وذلك بسبب مواجهتهم لعدة عقبات لم يستطيعوا تجـاوزها ، وكان اهـم هذه العقبات : أولا بعد شمالي بلاد الشام عن مصر . ثـانيا ضـعف الطاقات العسكرية والموارد الحربية للخلافة ، ثالثا وهو أكثر اهمية وجود بيزنطة في جوار شمالي بلاد الشام ، فهذه الامبـراطورية لم ترض ابدا بوجود الفاطميين على حدودها ، وحـالت بينهـم وبين احتلال حلب وشمالي بلاد الشام ، ولقد رغبت بيزنطـة بـوجود دولة اسلامية صغيرة مستقلة او شبه مستقلة تقـف حـائلا بينهـا وبين الخلافة الفاطمية ، واخيرا لقد قاوم اهـالي بلاد الشام مثلهـم مثـل اهل الجنوب ـ رغم ان غالبيتهم كانت تدين بالتشيع ـ محـاولات التوسع الفاطمي ، ورفضوا وجود الفـاطميين في بـلادهم ، وكانوا يبغضون الحكام الفاطميين بسـبب السـياسة المالية والاقتصـادية والادارية للخلفاء والولا ة الفـاطميين الذين اعتمـدوا على العناصر البربرية التي جلبوها معهم من شمالي افـريقيا ، ولقـد كان بـداة شمال بلاد الشام ، كجزء من السكان ملكت قبائله خاصة كلاب قوة

مؤثرة ، لايكرهون ويرفضون الحكم الفاطمي فقــط بــل كانت لهم مطامحهم الخاصة في اقامة دولة خاصة بهم ، وعندما اقام صالح بن مرداس الدولة المرداسية في حلب ـ كما سنتحدث بعد قليل ـ تحالف مع حسان بن المفرج امير طيء وســنان بــن عليان زعيم كلب ، على طرد الفاطميين من الشام ومن ثم اقتسامه بين قبائلهم بحيث تقام دولة طائية في فلسطين مركزها الرملة ودولة كلبية في دمشــق وثــالثة كلابية في حلب ، ولقد حقق هذا الحلف الثلاثي بعض النجاحات وطرد الفاطميين لفترة من الشام ، ولكن الخلافة الفاطمية استطاعت بعــد فترة في سنة ٤١٩ هــ ـ ١٠٢٨ م هــزم قــوات الحلفــاء واعادت سيطرتها على جنوبي بلاد الشام ، ولكن ليس على الشمال .

في الواقع كانت السياسة الفاطمية تجاه بلاد الشام ، وان اتخذت من العقيدة الاسماعيلية لبوسا ، هي في الحقيقة امتــدادا للســياسة الخارجية لمصر الاسلامية المستقلة التي سعت دائما للســيطرة على الشام ، ذلك ان مصر كما هــو معلوم ليس لهــا حــدود طبيعية مــع سورية وقد غزيت دائما عن طريقها لذلك عمل حكام مصر المســتقلة دائما على احتلال سورية ومــواجهة الغــزاة بعيدا عن ارض مصر . ومعروف أن هذه السياسة التي تبنتها مصر المستقلة في كل أدوارها التاريخية وما حققته من نجاحات قــد أثــارت الرغبــة في اقـــامة امبراطورية مصرية تحكم سوريا وغيرها .

ولقد أدى اخفاق الفاطميين في احتلال شمال بلاد الشــام بشــكل دائم إلى تعديل ســياستهم النظــرية وإلى تبني واحــدة عملية تقنع بالولاء الأسمي في شمال بــلاد الشــام ، ولكن لا تتســاهل مــطلقا باستقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الاســتقلال كان تهــديدا مبــاشرا وخطيرا للوجود الفاطمي كله في مصر ، ويكفي أن نســوق هنا كدليل وصية يعقوب بن كلس أعظــم وزراء الدولة الفــاطمية ، وهــو على فراش الموت ، للعزيز الفاطمي وفيها يقول : «سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبق على دغفل بن جــراح إن عرضت لك فيه فرصة (٦) .

لقد استولى الفاطميون على سواحل جنوبي بلاد الشام ، وكان للفاطميين اسطولهم القوي الذي مكنهم ، لفترة ، مع حامية دمشق وقوات فلسطين من الاحتفاظ بالسيطرة على مدن هذا الساحل التي كان اهمها طرابلس ، وصور ، وصيدا ، وعكا ، وفي النصف الثاني للقرن الخامس هـ -الحادي عشر للميلاد ضعف الفاطميون وبدأ نفوذهم ينحسر ، وقد أفسح هذا المجال لقيام بعض من انواع «الجمهوريات» المستقلة في كل من طرابلس وصور .

تولى عين الدولة بن أبي عقيل قاضي صور عليها ، وامتنع بها عن الأعتراف بالنفوذ الفاطمي ، وعقب موته ولي صور أولاده واستمروا يحكمونها حتى سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م حيث جاءت حملة فاطمية قوية استطاعت انتزاع المدينة منهم وأعادتها للحظيرة الفاطمية (٧) .

لقد كانت الدولة التي قامت في طرابلس اطول عمرا وابعد شهرة واكثر اهمية من دولة صور ، ويعتقد أن مؤسس هذه الدولة هو القاضي ابو طالب الحسن بن عمار الذي كان من شخصيات الشام البارزة ، ومن المرجح انه استقل بحكم طرابلس بعد سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٩ م وبعد وفاته في سنة ٤٦٤ هـ/١٠٨٢ م ، استبد ابن اخيه جلال الدولة ابو الحسن علي بن عمار بحكم طرابلس وظل يحكمها حتى سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م ويعد جلال الدولة أعظم أفراد آل عمار الذين تولوا حكم طرابلس ، وفي عهده ازدهرت طرابلس ، ولقد استطاع جلال الدولة الحفاظ على استقلال طرابلس وحماها ودفع عنها الفاطميين والسلاجقة . بعد وفاة جلال الدولة خلفه أخوه فخر الملك ابو علي الذي ظل محتفظا بطرابلس حتى قبيل سقوطها بيد الصليبيين في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م (٨) .

وكما ضعف النفوذ الفاطمي في القرن الحادي عشر وانحسر عن مناطق الساحل الجنوبي لبلاد الشام ، كذلك حصل بالنسبة للنفوذ البيزنطي في بقية مناطق الساحل الشامي ، الفرصة التي استغلها

البعض لاعلان الاستقلال ، كما فعل منصور بن صليحة قاضي جبلة ، وعقب وفاة منصور خلفه ابنه عبيد الله في حكم جبلة ، ودافع عبيد الله عن جبلة ضد آل عمار حكام طرابلس وضد الصليبيين ، واخيرا تنازل عنها الى طغتكين اتابك دمشق وذلك في سنة ٤٩٤ هـ/١١٠٦م (٩) .



هكذا كانت اوضاع جنوب بلاد الشام وساحله في القرن الخامس الهجري الحادي عشر للميلاد أما الشمال حيث كانت حلب مركزه فقد حكم معظم الوقت من قبل الدولة المرداسية التي اسسها صالح إبن مرداس أمير قبيلة كلاب ، ومفيد قبل اعطاء تاريخ موجز لهذه الدولة أن نقف قليلا لننظر بشيء من الأمعان أكثر مما فعلنا من قبل سابقا الى القاعدة القبلية لهذه الدولة ، هذا وبسبب طبيعة أصل هذه القبيلة ، وبسبب علاقاتها بغيرها من القبائل خاصة في الجزيرة ، فإننا سنضطر هنا الى توسيع هذه النظرة لتشمل الوضع القبلي ليس في شمال الشام فقط بل في الجزيرة أيضا .

كانت قبيلة كلاب قبل قيام الاسلام إحدى مشاهير القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية ، وكانت تقطن في منطقة المدينة ، وبعد قيام الاسلام هاجر جزء من كلاب مع من هاجر من القبائل العربية ، وقطن هذا الجزء شواطيء الفرات الشامية (١٠) ومد نفوذه وسيطرته على شمالي بلاد الشام كما سلف البيان ، لكنه لم يعمل لاقامة حكم دولة مستقلة تحكم شمال بلاد الشام حتى جاء القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد ،ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى اوضاع الخلافة العباسية وقوتها آنذاك ، ثم إلى التأثيرات الحضارية التي لابد وقد أثرت في الكلابيين ، إنما أصاب قبيلة كلاب منذ مجيء القرن العاشر للميلاد تغييرات كبيرة ، ففي هذا القرن الذي شهد حركات القرامطة ونشاطها في شبه الجزيرة العربية

والشام والعراق والجزيرة وصل إلى شمالي بلاد الشام واعالي الجزيرة موجة كبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة وهي : كلاب وعقيل ونمير وقشير وخفاجة ، وبعد فترة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها ، فعقيل قامت بسكنى منطقة الموصل ، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها ، حيث استطاعت بعد أمد وراثة الدولة الحمدانية في الموصل وإقامة الدولة العقيلية مكانها ، وسنتعرض بعد قليل لتاريخ هذه الدولة ، أما نمير فقد أتخذت من منطقة حران والرها ديارا لها ، واتخذت من حران مركزا لنفوذها ، وأما قبيلة قشير فقد توطنت حول قلعة دوسر التي تبدل أسمها الى قلعة جعبر نسبة إلى جعبر بن سابق احد شيوخ قشير الذين حكموها ، ويقول ابن حوقل الذي عاصر وصول الموجة الجديدة واصفا حال الجزيرة في ايامه :

«وبالجزيرة براري ومفاوز وسباخ بعيدة الاقطار تنتجع لامتيار الملح والاشنان والقلي ، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، أهل خيل وغنم وابل قليلة ، واكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة ، فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير وعقيل وبني نمير كلاب ، فأزاحوهم عن بعض ديارهم بل جلها ، وملكوا غير بلد واقليم منها ، كحران وجسر منبج والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسيا والرحبة في ايديهم يتحكمون في خفائرها ومرافقها»(١١) .

وكما استقرت قبائل عقيل ونمير وقشير في الجزيرة فقد استقر الكلابيون الجدد في شمالي بلاد الشام مع اخوانهم الكلابيون القدماء لكن عملية استقرار هذه القبائل كلها لم تمر بسلام ، بل أن هجرة هذه القبائل قد سببت الكثير من الفوضى وبعض الدمار لاراضي شمالي الشام والجزيرة ، وقد هيأت الفوضى السياسية التي نشأت الفرصة لظهور عدد من المغامرين مثل المتنبي الشاعر والأصفر الغازي . كما اكرهت عددا من القبائل القديمة في الجزيرة وخاصة بقايا قبيلة تغلب على الهجرة إلى الأراضي البيزنطية

ويتحدث ابن حوقل عن خروج بني كُبيب «بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم وخفهم الذي يمكن بمثله النقلة ، ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من العصب لعقارهم في نحو عشرة الاف فارس » إلى الأراضي البيزنطية حيث استقروا ثم « تنصروا بأجمعهم وأوثقوا ملك الروم من انفسهم بعد ان احسن لهم»
ذكر ابن العديم ان قبيلة بني نمير وصلت الجزيرة في سنة ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م كما روى انه في ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وصلت كلاب الى شمالي بلاد الشام ، وبين ان قبيلتين من هؤلاء الكلابيين الجدد وهما سبيعة وذؤيبة قد اغارتا في سنة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ م على معرة النعمان وذلك بعد ان نخروا الشام الشمالي

لقد تالفت كلاب من عدة قبائل متفاوتة الحجوم ولابد أن قدوم المهاجرين الجدد واختلاطهم بالقدماء قد اثر عليها فغير من تركيبها ، إنما على العموم تميزت هذه القبيلة مثلها مثل بقية قبائل عامر بن صعصعة بتحكم روح الفوضى والفرقة بينها ، فلقد آثر الكلابيون وغيرهم دائما التمزق ولم يدينوا باخلاص لقائد واحد ، ولقد كانت لديهم «مثلهم» الخاصة في الأخلاص السياسي .

وكانت جميع قبائل عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية ، ونحن لا نعرف مدى التعلق الجدي بهذا المذهب ، سوى أن بعض الأسماء الشيعية ، مثل علي ، عليان، علوان ،و جعفر قد تبناها بعض افراد هذه القبائل ، وفيما خلا هذه الاسماء التي كانت قليلة جدا فإن أسماء الكلابيين والقشيريين والنميريين والعقيليين كانت عربية صرفة وغير متاثرة بالاسماء التي عم انتشارها بعد قيام الاسلام خاصة الأسماء المركبة التي تبدأ بعبد وتنتهي باسم أو صفة من صفات الله(١٢)

استولى في سنة ٣٩٩ هـ /١٠٠٨ م صالح بن مرداس على بلدة الرحبة (الميادين الحالية في سورية) على الفرات ، وبعدما فعل هذا ، اعترف صالح بن مرداس بسلطان الخليفة الفاطمي في القاهرة(١٣) ولقد كانت الرحبة من اكثر مدن الشام اهمية نظرا لموقعها

الأستراتيجي الخطر ، فقد كانت هذه البلدة تقع على الفرات ، وهــذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية ، كما كانت قريبة من العراق غير بعيدة عن حلب ولا عن دمشق أيضا ، ثــم إن البــادية كانت وثيقــة الصلة بها ، وفي البادية اقامت العشائر البدوية التي شــغلت أعظــم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام ، وبايجاز لقد كانت الرحبــة أول محطة نحو الشام للبداة المهاجرين من شبه الجزيرة العــربية ، وكان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال بلاد الشام واجــزاء من الجزيرة ، وهذا ما حدث لصالح بن مرداس .

ولقد حافظت الرحبة على اهميتها هذه ومــكانتها حتــى اواخــر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م حيث حلت محلها مدينة الموصل ، التي كانت احدى كور الجزيرة الثلاث : ديار بــكر وديار مضر وديار ربيعة ، والجزيرة كانت أصلا تشــتمل على البــلاد التــي بين دجلة والفرات Mesopotamia ولقد ضم بعض من الجغرافيين العرب قسما من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات مــن بــر الشام إلى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها.

وكانت الموصل أعظم مدن الجزيرة(١٤) وكانت دائمــا متــورطة في مشاكل العراق السياسية وغيرها ، وقلما كان لها دورها في مشــاكل الشام ، وظل الحال هكذا حتى أواخر القرن الحادي عشر م عندمــا أزداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغــز مــن اتجــاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وكانت الموصل أول محطة لهــم نحــو الشام ، وسبب هذا تحولا هاما في تاريخ الموصل مع الجزيرة والشام فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف وغدت هذه المدينة بــالتدريج جزئا من الشام ، وتــورطت في مشــاكله ، واصــبح الاســتيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بــلاد الشام وربما على الشام بأسره ، وســنرى في تــاريخ الدولة العقيلية والدولة الاتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

وبعدما أحتل صالح بن مرداس الرحبة أخذ يتطلع بمطامحه نحو

حلب ، فتورط من اجلهـا في صراع طـويل اثمـر في سـنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٥ م عن احتلال حلب وإقامة الحكم المرداسي فيهـا . ولم تقف مطامح صالح عند حدود حلب وشمال بلاد الشام بل إنتـزع بعض اجزاء الساحل الشامي من الفاطميين وساهم في العمـل مـن اجل طرد الفاطيين من الشام ، فذهب ضحية مطامحه حيث قتـل في سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٩ م في معركة الأقحوانة ، في وادي الأردن قرب طبرية(١٥)ومقتل صالح لم يزل من الوجود الدولة التي اقـامها ، فقـد احتفظ اولاده بحكم حلب فحكم ثلاثة منهم بعده بشكل متوالي وهم : نصر ثم ثمال ثم عطية ، ثم حكم بعد عطية حفيد صالح محمـود بـن نصر ، ثم نصر بن محمود ، واخيرا سابق بن محمـود الذي سـقطت الدولة المرداسية في زمنه .

بعد وفاة ثمال في سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م دخلت أول جمـاعة غزية بلاد الشام وسندرس هذا في الفصـول المقبلة بشـكل مفصـل وسنوضح آثاره وكيف انه سبب سقوط الدولة المرداسية وعمل على إزالة القوة العربية من الشام .

لقد كانت الدولة المرداسية دولة بدوية . تطبعت بالأخلاق العربية ، وبالمفهوم العربي البـدوي في الحـكم ، لذلك إزدهـرت في ظـلالها الحضارة العربية وثقافتها ، ففي زمن المرداسـيين وفي ظلهـم عاش المعري وكتب نثره وشعره ، وكذلك فعل ابن ابي حصـينة الشـاعر وابن سنان الخفاجي الكاتـب الشـاعر ، وأخيرا ابـن حيوس كبير شعراء الشام في أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م.

ولقد كانت علاقات الدولة المرداسية بـالخلافة الفـاطمية سـيئة بشكل عام ، برغم ان المرداسيين قد اعترفوا رسميا بسلطان خليفـة القاهرة ، ولم يكن لهم اية علاقـة ــ حتـى مـا قبـل ١٠٧٠ م ــ بالخلافة العباسية ، ولكن بنفس الوقت الذي اعترف فيه المردا سيون بسلطان الفاطميمن كانت علاقتهـم بـالامبرطورية البيزنطية جيدة

بشكل عام ، وغالبا ما وضع الامــراء المرداسـيون انفسـهم تحـت الحماية البيزنطية ودفعوا جزية سنوية للقسطنطينية

أعتادت بيزنطة أن تقيم دولا على حدودها ، لحماية هـذه الحـدود من غارات البدو بشكل عام ، ولتكون هذه الدول حاجزا بين بيزنطـة وقوى كبرى أخرى . وعلى هذا فقد عمدت بيزنطة للعمل على حمـاية الدول البدوية التي اقامتها وعلى مسـاندتها بـالمال وغير ذلك مـن الأسباب ، أما أن تدفع دولة بدوية الجزية لبيزنطة . فـلا بـد ان ذلك حالة شاذة لها أسباب غير اعتيادية !ويعود سبب دفـع المرداسـيين الجزية للامبراطورية البيزنطية إلى وجود التهديد الفـاطمي الدائم ، ثم إلى طبيعة قبيلة كلاب من فوضى وتمزق وعدم اخلاص وعدم انقياد لزعيم واحد



لقد عاش مع كلاب في شمال بلاد الشام قبائل أقل شأنا منها وقوة .إنما يذبغي التعرض لها لأن بعضها قد قام بدور سياسي هام ، لقد كان هناك بنو أسد الذين عاشوا في منطقة معرة مصرين ، وجبل السماق ، وذقرة بني أسد بين خناصره والأحص وفي أطراف وادي بطنان كجيران لبني عبس الذين سكنوا هذا الوادي مع حيار بني القعقاع ، ولقد قطن قسم من عبس في حاضر قنسرين ، وفي معرة النعمان عاشت بقايا تنوخ

ويهمنا اكثر من هؤلاء جميعا بنو منقذ الذين سكنوا المنطقة الشمالية الغربية لمدينة حماة ، وكان مركزهم بلدة كفر طاب ، وذلك حتى سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ م عندما تمكنوا من احتلال قلعة شيزر وخرائب كفر طاب ، ما تزال قائمة وهي على بعد حوالي ٣ كم إلى الغرب من خان شيخون الواقعة على الطريق العام الواصل بين دمشق وحلب . وقد زرت موقع هذه البلدة وشاهدت ما بقي من أثارها .

ولقد كان لبني منقذ من القوة والعدد ما مكنهم من شغل دور هام في تاريخ الشام في اواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م ثم في القرن السادس هـ /الثاني عشر م. ومن أشهر رجالات بني منقذ في القرن الحادي عشر علي بن مقلد الذي كان اخا بالرضاعة لمحمود بن نصر بن صالح بن مرداس امير حلب ، وقد قام علي بدور هام في امور حلب السياسية وفي امور مدينة طرابلس وكان هو الذي احتل قلعة شيزر واقام حكم الأسرة المنقذية فيها . وفي القرن الثاني عشر اسامة بن منقذ الفارس الشاعر صاحب كتاب الاعتبار وغيره من الكتب (١٦) .

كان غالبية سكان بلاد الشام في القرن الخامس هـ -شيعة معظمهم من اتباع المذهب الاثني عشرية ، وكان بين الشيعة بعضا من الاسماعيلية في الشمال والجنوب ، وبعضا من الدروز في شمالي

غربي حلب ، وكان هناك النصيرية في جبل بهراء - العلويين الآن - وكان السنة يقطنون في المدن الكبرى وكانوا في جنوب بلاد الشام اكثر منهم في الشمال ، وكالعادة وجد نزاع حاد بين الجماعات الاسلامية وكان هذا النزاع من الاسباب التي زادت تجزؤ بلاد الشام عمقا وقوته ضعفا ، وبالاضافة للمسلمين وجد في المدن الكبرى كدمشق وحلب طائفة لا بأس بحجمها من اليهود ، وكان النصارى منتشرين في ريف الشام ومدنها الكبرى ، وكانوا كثرة مؤثرة في شمالي البلاد وغربها وكان بعض هؤلاء النصارى من أصل أرمني ، ولم تكن العلاقات بين النصارى واليهود والمسلمين دائما سليمة بل غالبا ما توفرت اسباب الخلاف ووجد النزاع ، إنما كانت الحرية الدينية على العموم متوفرة ، وكانت أحوال النصارى المعاشية جيدة وكانت معظم اعمال الادارة في ايديهم ، ويمكننا أن نعد القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م العصر الذهبي لنصارى الشام ، ذلك أن قدوم الصليبيين إلى الشام ادى إلى بعض ردات الفعل العنيفة ضد النصارى الشاميين (١٧) .



لقد عرف مجتمع مدن بلاد الشام في القرن الخامس وقبله بعض التنظيمات الشعبية البلدية ، ويمكن تقسيم هذه التنظيمات من حيث الأطر العامة إلى قسمين رئيسيين : واحد صغير مثل القشرة العليا من المجتمع من تجار وأثرياء واشراف وبعض من شغلوا الوظائف الدينية من قاضي ومحتسب ، وقسم كبير مثل الجزء الاكبر من الناس وعرف باسم الأحداث ، ولقد قام التعاون والتآلف أحيانا بين هذين القسمين ، ولكن نظرا لطبيعة القسم الأول الخاصة وبالتالي بسبب مصالحه الذاتية المتميزة فإن دوره كان في الغالب سلبيا ، اتسم بالمداهنة للحكام والاعتدال في المنهج .

وفي التاريخ الاسلامي إذا كان من السهل تصور قيام اتحاد بين أغنياء وتجار واشراف مدينة ما ، وبالتالي تكوين شريحة إجتماعية وتنظيم جامع ، فإنه لمن الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، التعرف إلى بداية نشوء منظمة شعبية ثم كيفية تطور هذا التنظيم وتكامله . والسبب الرئيسي لهذا هو أن المؤرخ المسلم كان غالبا من الشريحة العليا ونادرا ما أولى المحكومين اهتمامه ، فلقد تحدث فقط عن الأمراء والملوك ذوي المؤسسات الظاهرة التي كانت تميز الدول .

وينطبق هذا على أصل منظمة الاحداث في بلاد الشام ، حيث إنه من الصعب تحديد تاريخ لقيامها ، ثم أسباب هذا القيام ، وبعد ذلك المراحل التي اجتازها التنظيم حتى تكامل واخذ شكله . ويقترح المستشرق الفرنسي كلود كاهن بأن من الممكن أن تكون منظمة أحداث الشام ذات صلة ، أو بالحري هي امتداد للمنظمات التي عرفتها الامبراطورية البيزنطية التي كانت تحكم الشام قبل الفتح الاسلامي

ليس هناك شواهد مادية تؤيد هذا الاقتراح ، وبتصوري : إن منظمة الاحداث قد ولدت في بلاد الشام المسلمة ونمت في إطار هذه البلاد ونبعت من مشاكلها الخاصة السياسية والاجتماعية الاقتصادية ، ولم يكن لمنظمة الاحداث أية علاقة بمنظمات الامبراطورية البيزنطية ، فلقد نشط الاحداث أكثر مانشطوا في حلب ودمشق، وكانت هاتان المدينتان ، وخاصة حلب، مدنا من الدرجة الثانية زمن البيزنطيين، لأن القدس وأنطاكية كانتا تحتلان مركز الصدارة ، ولقد قلل الفتح الاسلامي من مكانة القدس وأنطاكية وزاد من اهمية دمشق وحلب، ثم إنه ليس من الضرورة أبدا أنه عندما تتحكم امبراطورية أجنبية بأمة من الامم أن تنجح في فرض عاداتها وأحزابها ومنظماتها على الأمة المحكومة، يضاف الى هذا أن بلاد الشام كانت دائما المؤثرة في بيزنطة من كافة النواحي وخاصة النواحي الاجتماعية والدينية منها، ثم إن بلاد الشام كانت مشغولة قبل الفتح الاسلامي بالمشاكل الدينية التي كانت ناجمة عن

الانقسامات داخل الكنيسة ، علما بأنه لم يرد في أي مصدر من المصادر إشارة الى وجود منظمات محلية سياسية أثناء الفتح الاسلامي وزمن الحكم الاموي٠

بعد سقوط الخلافة الأموية كان ظل الحكم العباسي في الشام دائما ضعيفا ولما ازداد ضعف الحكم العباسي تعرض الكثير من مدن الشام لعديد من المخاطر، وربما لما وجد اهالي هذه المدن أن العباسيين ليس بمكنتهم درء هذه المخاطر ، قام بعضهم بانشاء بعض التنظيمات الدفاعية، وإليك مثالا موضحا . لهذا : في سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ ـ ٩٠٢ م، اخفق جيش عباسي عداده عشرة ألاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار المدينة ، ولما رأى الحلبيون اخفاق الجيش العباسي ووقوعهم تحت الحصار كونوا قوة محلية لم تتول فقط الدفاع عن المدينة ، إنما قامت بهجوم مفاجيء على القرامطة نتج عنه هزيمتهم وفك الحصار عن حلب٠



عقب قيام الدولة العباسية وجعلها من العراق مركزا لها ثم لانشغالها بمشاكل الشرق ، اعتمدت هذه الدولة على النظام الدفاعي في علاقاتها مع بيزنطة ، فاقامت عددا من الحصون والقلاع التي وضعت فيها الحاميات العسكرية للتصدي لأي هجوم بيزنطي ، وبات اسم خط الحدود الأول مع بيزنطة يعرف باسم العواصم ، ولقد تطور في هذه العواصم نظام دفاعي خاص، كان ذا اسس عسكرية تعتمد على سكان كل ثغر من الثغور، ومن حسن الحظ انه وصلنا جزء كبير من كتاب اسمه سير الثغور كتبه ابو عمرو الطرسوسي

المتوفى في حوالي سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م، وذلك ضمن المجلد الأول من كتاب بغية الطلب لابن العديم (الذي قمت أخيرا بتحقيقه)٠

لقد قدم أبو عمرو في كتابه سير الثغور وصفا رائعا مفصلا للحياة العسكرية في الثغور وكان أروع وصف ذاك الذي تناول به هذه الحياة في مدينة طرسوس ،كبرى مدن الثغور وابعدها شهرة: لقد كان غلمان طرسوس يدفعون قبل بلوغهم الحلم الى بعض الشيوخ الأساتذة الثقات من أهل المدينة، فيقوم هؤلاء بتصنيف الغلمان الى فئات ثم يأخذون في تدريبهم على الشؤون العسكرية، ويستمر ذلك حتى يبلغ هؤلاء الغلمان سن الرجولة حيث يلتحق انذاك كل فتى منهم بسرية من سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر(١٨) .

إنه لمن المتصور والحالة السياسية كما وصفت من حيث الاضطراب ، وتجارب العواصم العسكرية كما بينت، أن قام اهالي كل مدينة و بلدة في الشام بتشكيل منظمات عسكرية شعبية لأغراض الدفاع ، ثم إن الاضطراب السياسي مع التبدل السريع في الدول الذي شهدته المنطقة لابد وقد جعل بعض العسكريين الذين فقدوا مناصبهم مع قيام كل دولة جديدة يلتحقون بمثل هذه المنظمات، وهكذا اعاروها خبراتهم وساعدوا على تطويرها وزيادة صبغتها العسكرية ، إلى أن غدت نوعا من « الميليشيا الشعبية »، ثم إن ضعف جميع الحكومات التي قامت في الشام منذ ماقبل القرن العاشر لابد وأن جعل الحكام لايتغاضون فقط عن نشاط هذه « الميليشيا » بل يستخدمونها من اجلَ مآربهم واغراض حكمهم الخاصة، وهذا لابد ايضا قد اثر في تطور منظمة الأحداث وساعد على توطدها، وإن في بعض الأمثلة التي سأقدمها عن نشاط الأحداث مايكفي للتدليل على صحة جميع ماافترضته٠

إن الفترة المحصورة مابين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وأواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م قد شهدت ذروة نشاط الأحداث ، وتجلى هذا بصورة واضحة بشكل

رئيسي في مدينتي دمشق وحلب، وخلال هذه الفترة خضعت اجزاء كبيرة من الشام للحكم الفاطمي، ولما كان الفاطميون قد قام مذهبهم في الحكم على اطاعة الامام بشكل مطلق، فانهم لم يسمحوا بوجود اي هيئة او تنظيم الى جانبهم، لهذا اصطدموا عندما حاولوا الاستيلاء على جنوبي بلاد الشام بالأحداث ولم يتمكنوا من دمشق إلا بعد القضاء بشكل مبرم على غالبية افراد منظمة الأحداث، وبرغم ذلك فقد بقي للأحداث قوتهم في شمالي بلاد الشام وخاصة في حلب، وعندما قدم السلاجقة الى الشام والحقوه بامبراطوريتهم التي اتخذت من الأوتوقراطية العسكرية قاعدة لحكمها قاموا بتصفية الأحداث ، لذا عندما جاء الصليبيون الى الشام وجدوه خاليا من جميع القوى والتنظيمات الشعبية المحلية فاستطاعوا انتزاع اجزاء كثيرة منه ومن مدنه دون كبير عناء.

بعيد ان استولى الفاطميون على مصر زحف في سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م جيش فاطمي على راسه القائد البربري جعفر ابن فلاح، نحو بلاد الشام كي يعمل على ضمها الى الحكم الفاطمي ولقد لقي هذا الجيش اثناء زحفه في فلسطين مقاومة من الجيوش الاخشيدية، لكنه تغلب عليها، وتابع سيره نحو دمشق ، وقبيل وصوله إليها فر حاكمها الاخشيدي منها، فخلت المدينة « من السلطان، فطمع الطامع وكثر الذعار وحمال السلاح ». ونظم الدمشقيون امور الدفاع عن مدينتهم بأن اغلقوا ابوابها ، واوقفوا الرماة على شرفات الأسوار، واقاموا الحواجز داخل المدينة، وكسروا قني الماء،وحفروا الخنادق.ولقد اشترك الرجال والنساء والصبية في الاعداد للدفاع عن دمشق، وكاد اهالي دمشق أن يتمكنوا من صد قوات الفاطميين عندما هاجمت مدينتهم لولا ان جماعة من التجار والأشراف قامت فشكلت وفدا قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح، واخذ يبث التخاذل بين المدافعين مما سبب إيقاف المقاومة وفتح أبواب دمشق لجيش ابن فلاح.

لقد كان القائم بأمر الدفاع عن دمشق رجلا من اهلها اسمه ابو

اسحق محمد بن عصودا، وبعدما دخل جعفر بن فلاح دمشق هرب محمد بن عصودا الى الأحساء فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الأعصم، فحضه على مساعدة دمشق، فلقي الاستجابة منه، وجاء جيش قرمطي نحو دمشق فالتقى بجيش ابن فلاح فهزمه، ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة• وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي، وعين القرامطة عليها من يحكمها وتابعوا اسيرهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي، ولكنهم اخفقوا وهزموا، وجردت الجيوش الفاطمية مجددا في إثرهم لملاحقتهم ولاعادة جنوب الشام الى حظيرة الخلافة الفاطمية•

وحدث هذا كله سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يحكم في القاهرة لذا قام بتعيين ظالم بن مرهوب (أو موهوب) العقيلي حاكما على دمشق ، وحاول ظالم العربي الأصل أخذ دمشق بالحديد والنار فأوقع الحرائق بعدة أماكن من المدينة، لكن ذلك لم يفت من عضد الدمشقيين بزعامة الأحداث، وأخيرا تم الوصول الى تسوية غادر بموجبها ظالم بن مرهوب المنطقة ، وسمح الأحداث لحاكم فاطمي أخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم، وكان هذا حلا مؤقتا وغير ناجع، إذ حالما عادت الاضطرابات الى دمشق ، وهنا تدخل المعز لدين الله بالأمر فأوعز إلى واليه على طرابلس بالقدوم الى دمشق لحل مشاكلها فقام هذا بصرف القوات الفاطمية واجلاها عن دمشق ، وهكذا تم الوصول الى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق الذين احكموا قبضتهم على المدينة وأمورها، ولقد كان زعيم الأحداث في هذه الآونة عاميا عرف باسم ابن الماورد، وكانت منطقة باب الصغير هي نقطة تمركز الأحداث او مكان ثكنتهم •

حدثت في هذه الآونة مشاكل سياسية كبيرة في بغداد ادت الى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ / ٩٤٦ ـ ٣٦٣ / ٩٧٤) واستخلاف ولده الطائع ودفع هذا بعض العسكريين الاتراك الى القيام بهجر بغداد• وكان من بين هؤلاء البتكين الحاجب، الذي ترك

العراق وجاء نحو دمشق، وعندما وصلها عسكر مع غلمانه خارجها، فخرج إليه شيوخ المدينة وأشرافها فرحبوا بـه، وسألوه» الاقامة عندهم، والنظر في احوالهم ، وكف الأحداث الذين بينهم، ودفع الأذية المتوجهة عليهم منهم »· وقبل البكتين العرض ودخل دمشق فرتب امورها، إنما بالاتفاق مع الأحداث الذين كانت علاقته بهم جيدة ولم تتأثر اوضاعهم بدخوله دمشق ولم يضعف نفوذهم بها، لأنه اهتم بالمشاكل الخارجية وترك امور المدينة الداخلية لزعماء الأحداث ومقدميهم، وكان اكبر هؤلاء رجل عرف باسم قسام التراب، وقسام هذا كان اصله من احدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون، وقد نشأ في دمشق وكان يعمل في التراب، ثم انضم الى الأحداث فتزايد امره بينهم حتى غدا اول رجل فيهم·

وهكذا سارت امور دمشق بشكل جيد لكن الخلافة الفاطمية ماكانت لتسمح باستمرار الأوضاع هكذا، لما قد يسبب لها من مشاكل ، لهذا جرد الخليفة العزيز قواته بإمرة جوهر الصقلبي فاتح مصر، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن ، واخفق جوهر واستطاع البكتين صد الفاطميين وهزمهم في اكثر من معركة، مما اضطر العزيز الى الخروج بنفسه لحربه، واستطاع العزيز إيقاع الهزيمة بالبكتين، واخذه اسيرا وعاد به الى مصر في سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م· لكن ماحل بالبكتين لم يؤد الى سقوط دمشق ، بل حافظت المدينة على استقلالها، واستبد قسام واحداثه بأمورها فضبطوها ضبطا جيدا، وكاجراء احتياطي قام قسام بمراسلة الخليفة العزيز فاعترف اسميا بسلطانه، ودافعه عن دمشق، وتظاهر العزيز بالرضى، إلا انه قام في السنة التالية ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م بارسال جيش قوامه اربعة الاف مقاتل من اجل استعادة دمشق ، وقدم هذا الجيش نحو دمشق ، لكنه اخفق في دخولها، واضطر الى الانسحاب راضيا بتعهد من قسام واحداثه ان لايسلموا البلاد لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين، ودام الحال على هذه الصورة حتى سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م، حين جهز جيش فاطمي جديد لاعادة السيطرة على دمشق، وذلك بعد ما اخفقت محاولات

اخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها، وإثارة الاعراب ضدها في اسقاط حكم قسام٠

ووصل الجيش الفاطمي إلى اسوار دمشق، واخذ بحصارها، وطال الحصار واشتدت مقاومة قسام واحداثه، وفي ذروة المعركة قام اشراف واثرياء دمشق بالاتصال بقائد القوات الفاطمية، ثم أخذوا بتثبيط الناس عن قسام ، و ضغطوا عليه كي يوقف المقاومة ويسلم المدينة، وفي لحظة إعياء نفسي وجسدي شديد وخوف قبل قسام بتسليم دمشق للفاطميين على شرط الأمان له ولاصحابه، و هكذا فتحت دمشق أبوابها ودخلت القوات الفاطمية واخذت بمقاليد الامور بها، ولكن سلطتها لم تتعد الواقع النظري، فقد احتفظ الأحداث بسيطرتهم الفعلية وبنفوذهم المؤثر، ودام الحال هكذا حتى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م زمن الخليفة الحاكم بأمر الله ، حين ثار أحداث دمشق على واليهم الفاطمي وطردوه من مدينتهم٠

ويبدو ان مدن الشام الأخرى قد وجدت فيها في هذه الفترة تنظيمات مشابهة للأحداث لها قوتها، ففي صور تزعم الأحداث رجل اسمه العلاقة الملاح، وثار هذا الملاح ايضا بالفاطميين وطردهم من صور، واعلن استقلال صور، وضرب نقوده الخاصة به، وهنا كانت ردة فعل الدولة الفاطمية شديدة ، حيث جهزت قواتها البرية والبحرية من أجل القضاء على أحداث جنوب الشام، واستطاع الاسطول الفاطمي اخذ صور، وأوقع الهزيمة بالعلاقة واخذه اسيرا، حيث تم حمله الى القاهرة، وهناك سلخ هذا الثائر حيا وصلب بظاهر القاهرة، ولانعرف بالدقة موقف أحداث دمشق من ثورة العلاقة، كما انه ليس لدينا مايشير الى ان هناك صلات وتعاون وتنسيق بين احداث مدن بلاد الشام٠

ويبدو أن هذه الضربة القاسية التي حلت بأحداث صور قد اثرت على معنويات احداث دمشق، لذلك عندما وصل الجيش الفاطمي الى دمشق لم يقاوموه، بل استقبلوه بالطاعة المشروطة، ورضي الجيش الفاطمي بذلك، أو على الأقل تظاهر بالرضا، ولم يدخل المدينة

وعسكر خارجها، وأخذ يحضر لضربة قاصمة ضد دمشق واحداثها وارسلت القاهرة واليا جديدا لتولي شؤون دمشق مع خطة غدر للقضاء على الأحداث، وكان اسم الوالي الجديد بشارة الاخشيدي الذي وصل دمشق في سنة ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م، لكنه لم يدخلها بل اقام خارجها في إحدى قراها، وأخذ يقيم علاقات الود والصداقة مع مقدمي الأحداث الذين كانوا الآن اثنا عشر رجلا، على راسهم زعيم اسمه الدهيقين، وكان بشارة يدعوهم دائما الى ولائمة حتى اطمأنوا له، ووثقوا به.وفي شتاء هذا العام دعا بشارةمقدمي الأحداث مع حوالي مائتي رجل منهم الى وليمة، وكان بالوقت نفسه قد اعد قواته مع أوامر بالاستعداد للهجوم على دمشق، وعين لكل قائد من قادة جيشه حيا من أحياء المدينة كي يبطش به وبأهله ، وعندما فرغ الأحداث من تناول الطعام ودخلوا الحمام من اجل غسل ايديهم ، أغلقت عليهم الأبواب ، وفتك بهم جميعا بطريقة ليس من الصعب تصورها(١٩) حيث تكرر وقوع مايشابهها مرارا في تاريخ الاسلام ، سواء حين جرى ذبح الأمويين من قبل العباسيين أو أخيرا حين فتك محمد علي بالمماليك في قلعة القاهرة.

لقد كانت ضربة مروعة قضت على احداث دمشق واخمدتهم ، فلم نعد نسمع بوجودهم المؤثر فيها، ورزحت دمشق تحت الحكم الفاطمي حتى انتزعها اتسز الزعيم التركماني كما سيمر معنا بالتفصيل ، وكانت الحامية الفاطمية في دمشق مؤلفة من جند من أصل بربري، وإن وجود حكم مكرو مع حامية شبه اجنبية ، ثم خلو المدينة من التنظيمات المحلية كان من أسباب تعثر دمشق واخذها دورا سلبيا في بداية تاريخ الحروب الصليبية ، وهذه مسالة ستنال حظا أوفى من البحث في المستقبل ، على اننا إذا ماتركنا جنوب بلاد الشام وتوجهنا نحو شماله ، نجد الأحداث يشغلون في حلب دورا هاما جدا، فالأحداث هم الذين ساعدوا صالح بن مرداس على الاستيلاء على حلب ، وكانوا إذا ماقام صراع بين اميرين من آل مرداس انتصر الذي ساندوه، ولقد وقف الأحداث من التركمان موقف المعادي، وسيمر معنا بالتفصيل ما قاموا به من اعمال

ضدهم، ثم كيف ان قيام أول حكم تركماني في حلب قد اذن بانتهاء وجودهم ونفوذهم فيها.

لقد كان الأحداث يتقاضون احيانا بعض المرتبات، وكانوا يقومون بوظائف الشرطة البلدية، يسهرون على الأمن ويراقبون النظافة والنظام العام في المدينة (٢٠).

إن القضاء على الاحداث في بلاد الشام يمكننا من الاجابة على احدى مشاكل تاريخ هذا البلد الاجتماعية والعمرانية، فلو نظرنا الى مدن الشام وخطط البناء الفوضوي بها ثم تطور عمران هذه المدن، وقارنا تطور الحياة الاجتماعية في المدينة الشامية باحدى مدن اوربة لشاهدنا فوارق ضخمة، وحين نبحث عن السبب نجد ان المدينة الأوربية قد عرفت منذ زمن التنظيمات البلدية ونجد ان هذه التنظيمات التي رافقت تطور المدينة في اوربة واشرفت عليه كانت معدومة حتى اواخر القرن الماضي في بلاد الشام.

إن القضاء على الاحداث وإزالتهم من مدن الشام قد حرم هذه المدن من هيئة اجتماعية كان ـ ربما لو كتب لها الحياة والاستمرار ـ وضع المجتمع والمدينة في الشام مخالف لما عليه الآن بشكل كبير.



حكمت الجزيرة في اوائل القرن الرابع للهجرة -العاشر للميلاد من قبل الدولة الحمدانية في الموصل، وأيام حكم هذه الدولة وصلت قبيلة عقيل الى الجزيرة مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بن صعصعة كما أسلفنا الحديث، وعندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م سهل القضاء عليها وورثتها دولتان واحدة كردية في الشمال عرفت باسم الدولة المروانية، وأخرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية.

استولى في سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م محمد بن المسيب العقيلي على نصيبين وبلد ، ثم ضم بعد سنة الموصل الى املاكه وذلك بعدما قتل الأمير الحمداني أبو طاهر بن ناصر الدولة الحمداني (٢١). واعترفت السلطة البويهية في بغداد بحكم محمد بن المسيب ، لكن ما لبثت أن عزلته في سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، وباشر البويهيون حكم الموصل بأنفسهم ، لكنهم فقدوها في سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م حين تمكن المقلد بن المسيب أخو محمد من الاستيلاء عليها واقامة الدولة العقيلية فيها(٢٢). وظل المقلد بن المسيب يحكم الدولة العقيلية حتى اغتيل في سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م (٢٣) وخلف عقب اغتياله من قبل ابنه قرواش الذي ظل يحكم حتى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م حين سجنه أخوه بركة.وحكم بركة قرابة السنة، ثم توفي ، وهنا أجمعت عقيل على انتخاب قريش بن بدران اميرا جديدا، فأخرج قريش عمه قرواش بن المقلد من السجن ودبر قتله.

ولقد كان قرواش بن المقلد من اعظم شخصيات عصره البدوية ، فقد كان اديبا شاعرا، نهابا وهابا على دين الأعراب وجاهليتهم، وقد جمع بين اختين في الزواج، فلامته العرب على ذلك لانه محرم بالاسلام ، فقال لهم: « خبروني بالذي نستعمله مما تبيحه الشريعة، وكان يقول في مجالسه : ماعلى رقبتي غير خمسة أو ستة من البادية قتلتهم، وأما الحاضرة فلا يعبأ بها الله ». وقد استطاع قرواش أن يقيم علاقات شبه متوازية بين الخلافتين العباسية والفاطمية(٢٤) وفي أيام قرواش تعرضت الموصل لاول غارة غزية،الأمر الذي سنأتي على ذكره بالتفصيل بعد قليل.

حكم قريش بن بدران حتى سنة ٤٥١هـ / ١٠٦١ م حيث خلفه ابنه مسلم بن قريش اعظم شخصيات الأسرة العقيلية، وعقب مقتل مسلم خلفه اخوه ابراهيم في سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ولم يطل حكم ابراهيم فقد قتل في الصراع مع السلاجقة ، وتوزع إمارة الموصل ولدا اخيه محمد وعلي ، وبقي الحال هكذا حتى ازال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل نهائيا في سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٦ م.

ان تاريخ الدولة العقيلية منذ ان استلم امارتها قريش بن بدران حتى يوم سقوطها هو جزء من تاريخ هجرة التركمان الى الجزيرة والشام ، جزء من الصراع العربي السلجوقي للسيادة على هذين البلدين . ولكن قبل ان ناخذ في دراسة هذا الصراع علينا ان نكمل حديثنا عن الوضع السياسي في الجزيرة .

لقد ذكرنا بأن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها عندما سقطت بالاضافة الى الدولة العقيلية الدولة المروانية الكردية . فلقد سكنت المناطق الواقعة شمال الموصل من قبل عدد من القبائل الكردية ، وغالبا ماكانت هذه القبائل تغير على الاراضي البيزنطية ، ولقد ظهر بين افرادها عدد من الغزاة الذين تجمع حولهم عصابات خاصة ، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع هـ/ العاشر م ، ولقد استغل باذ ضعف الدولة الحمدانية ثم ضعف السلطة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي (٣٧٢ هـ/ ٩٨٣ م) فاخذ يقيم لنفسه دولة ، فاستولى على اهم بلدان منطقة ديار بكر ، مثل آمد ونصيبين وميافارقين » ودخل باذ الموصل واستولى عليها ، وقويت شوكته ، وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وازالة الديلم عنها ، وخرج من حد المتطرفين وصار في عداد اصحاب الاطراف » واثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ ببقايا الحمدانيين وبقبيلة عقيل ، وحصلت بين الفريقين عدة معارك كان من اهمها واحدة في سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م فقد باذ فيها حياته بعدما انهزمت قواته الكردية (٣٥) .

بعدما قتل باذ ورث مملكته ابن اخته الحسن بن مروان الذي بقي في الحكم حتى مقتله سنة ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م ، وفي زمن حسن توطد حكم المروانيين في منطقة ديار بكر ، وبعيد مقتله خلفه اخوه سعيد الذي عرف بلقب ممهد الدولة ، وحكم ممهد الدولة حتى قتل سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١١ م وهنا خلفه احمد الذي عرف باسم نصر الدولة .

ويعد نصر الدولة المرواني من اشهر حكام الاسرة المروانية ، وقد

استمر حكمه لمدة زادت على الخمسين عاما ، استطاع خلالها ان يرفع من مكانة الدولة المروانية ، وبالتالي ان يبسط نفوذها حتى على بعض من اجزاء جورجيا الحالية (في الاتحاد السوفياتي) ، ولقد احسن استغلال الموقع الاستراتيجي لديار بكر الذي كان يتحكم بطرق المواصلات والتجارة بين العراق وبلاد المشرق الاسلامي من جهة وبلاد الشام والاناضول من جهة اخرى .

كما تمكن ببراعته السياسية وحكمته الدبلوماسية من المحافظة على دولته وعلى استمرار حكمه بين قوى متعادية قوية كان كل منها يطمح ويسعى للتوسع والسيطرة ، ولقد كانت علاقاته مع الخلافة العباسية في بغداد جيدة ، وكذلك كانت هي الحال مع الامبراطورية البيزنطية، وايضامع الخلافة الفاطمية حيث كانت العلاقات طيبة مع أن آل مروان كانوا سنة وكانت رعيتهم على العموم شوافع .

لم تكن العلاقات بين الدولة المروانية والدولة العقيلية في الموصل على العموم جيدة ، ومع ذلك فقد جهد نصر الدولة في تجنب الاصطدام المباشر او المستمر مع عقيلي الموصل فتنازل لهم سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م عن مدينة نصيبين كما دفع لهم الجزية لفترة من الزمن . وكانت علاقة نصر الدولة بالدولة المرداسية في حلب طيبة بشكل عام وكذلك كان الحال بالنسبة لعلاقاته بالقوى البدوية الأخرى التي كانت موجودة في الجزيرة كقشير اصحاب قلعة جعبر، وقبيلة نمير اصحاب حران ، ولقد استطاع نصر الدولة التخفيف من آثار مضار هجرة التركمان على بلاده ، فقام بمراسلة طغرلبك واعترف له بالسلطة والسيادة واقام الخطبة باسمه .

وكانت آمد وميافارقين وحصن كيفا اشهر بلدان الدولة المروانية، فازدهرت في عهد نصر الدولة ازدهارا كبيرا ، وشهدت قيام نهضة ثقافية وتطور اقتصادي عظيم ، ويقدم لنا المؤرخ ابن الأزرق الفارقي في كتابه تاريخ الفارقي (أو تاريخ ميافارقين) صورة جيدة عن هذا الرفاة الاقتصادي مع الازدهار الحضاري الذي كان ذا ملامح واصول عربية واسلامية .

وبعد وفاة نصر الدولة في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م قسمت اراضي دولته ـ كما سيمر معنا ـ بين اولاده ، وبدات قوة المروانيين تسير في طريق الانحدار والضعف واستمرت آخذة بالاضمحلال شيئا فشيئا حتى تمكن السلاجقة اخيرا من القضاء عليها نهائيا سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م(٢٦) .



لقد اتينا في الفصل المتقدم على ذكر التركمان العراقية، كما ذكرنا أن السلاجقة قد فوضوا لطغرلبك ـ بعد نصرهم على مسعود ـ أمر الوصول الى بغداد ،وان طغرلبك عمل على تامين الطريق الى بغداد والطريق الى ارمينية، وعندما نجح طغرلبك في تأمين هذه السبل أخذت جموع التركمان تتدفق باتجاه العراق وباتجاه أرمينية ، وقد ضغط هذا التدفق على التركمان العراقية ودفعهم نحو الولوج الى ارمينية والتفتيش على مواطن واراضي جديدة ، لهذا توجه بعضهم نحو الجزيرة إما للاستقرار بها أو للذهاب منها نحو الشام ، ويقول ابن الاثير :« في سنة ٤٣٣ هـ . (١٠٤١ ـ ١٠٤٢م) فارق الغز اذربيجان ، وسبب ذلك ان ابراهيم ينال ـ وهو اخو طغرلبك ـ سار الى الري، فلما سمع الغز الذين بها خبره اجفلوا من بين يديه ، وفارقوا بلاد الجبل خوفا، وقصدوا أذربيجان، ولم يمكنهم المقام بها لما فعلوا بأهلها، ولأن ابراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه... فأخذوا بعض الاكراد وعرفهم الطريق ، فأخذ بهم في جبال وعرة ... وخرجوا الى جزيرة ابن عمر »، ويذكر ابن العميد ان عدد هؤلاء الغز كان « الفا وستمائة وخمسون فارسا ومعهم أربعة أمراء »، وعندما وصلوا الى الجزيرة اتصلت بهم الدولة المروانية وتم بينها وبينهم الاتفاق « في المصالحة والمقام بأعمال الجزيرة الى ان ينكشف الشتاء، ويسير...الغز الى الشام »، لكن المروانيين حاولوا الغدر بالغز ، ونجحوا فقط في اسر احد مقدميهم واسمه منصور ، وهنا تفرق الغز في انحاء الجزيرة مغيرين على املاك المروانيين واراضي العقيليين ، وتجمعت قوات عقيلية عربية مع قوات كردية مروانية ضد الغز واشتبكت معهم في معركة انجلت عن نصر الغز،

فازداد عيثهم في الجزيرة ، وتوجهت القبائل العربية البدوية نحو العراق كي تشتوا به» فأخربت الغز ديار بكر ونهبوا وقتلوا ، فأخذ نصر الدولة منصورا أمير الغز... وراسل الغز وبذل لهم مالا واطلاق منصور ليفارقوا عمله، فأجابوه، فاطلق منصورا وارسل بعض المال، فغدروا وزادوا في الشر، وسار بعضهم الى نصيبين وسنجار والخابور فنهبوا ••• فدخل قرواش الموصل خوفا منهم »، ويبدو من حديث للعظيمي حول هذه الحادثة ان حكم قرواش لم يكن شعبيا في الموصل وان بعضا من اهالي الموصل قد راسلوا الغز وشجعوهم على غزو الموصل وامتلاكها:« فلما راوا ذلك تقدموا الى الموصل فأرسل اليهم يستعطفهم ويلين لهم ، وبذل لهم ثلاثة الاف دينار ، فلم يقبلوا فأعاد مراسلتهم ثانية، فطلبوا خمسة عشر الف دينار، فالتزمها• واحضر اهل البلاد ، واعلمهم الحال، فبينما هم بجمع المال وصل الغز الى الموصل ونزلوا بالحصبا ، فخرج اليهم قرواش واجناده والعامة • فقاتلوهم عامة نهارهم، وأدركهم الليل ، فافترقوا، فلما كان الغد عادوا الى القتال ، فانهزمت العرب واهل البلد ، وهرب قرواش في سفينة نزلها من داره ، وخرج من جميع ماله إلا الشيء اليسير ، ودخل الغز البلد فنهبوا كثيرا منه ، ونهبوا جميع ما لقرواش من مال وجوهر ، وحلي وثياب وأثاث ونجا قرواش في السفينة ، ومعه نفر، فوصل الى السن واقام بها ، وارسل الى دبيس ابن مزيد والى غيره من أمراء العرب والأكراد يستمدهم ويشكو مانزل به ، وعمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من القتال ، وهتك الحريم ونهب المال ••• فلما استقروا فيها قسطوا على اهلها عشرين الف دينار وأخذوها، ثم تتبعوا الناس، واخذوا كثيرا من أموالهم بحجة أموال العرب، ثم قسطوا اربعة الاف دينار اخرى »، وهنا لم يعد باستطاعة اهالي الموصل التحمل اكثر فثاروا بالغز فقتلوا بعضا منهم وقذفوا ببعضهم الآخر خارج مدينتهم ، وعندما حصل هذا جمع الغز جموعهم التي كانت متوزعة في الجزيرة ، ودخلوا الموصل عنوة » ووضعوا السيف في اهله ، واسروا كثيرا ، ونهبوا الأموال واقاموا على ذلك اثني عشر يوما يقتلون وينهبون وبقي القتلى في الطريق فأنتنوا لعدم من يواريهم » وطال هذا

الحال بالموصل اكثر من عامين»، وهنا كتب جلال الدولة البويهي الى طغرلبك حول هذا البلاء وكتب اليه نصر الدولة المرواني يشكو اليه منهم ، فأجاب طغرلبك بالاعتذار ووعد بالعمل على طردهم وملاحقتهم حتى تنتهي اذيتهم وقال في صدد ذلك:« إن هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيدا وخدما ورعايا وتبعا يمتثلون الأمر ويخدمون الباب ،.ولما نهضنا لتدبير خطب آل محمود بن سبكتكين، وأنتدبنا لكفاية أمر خوارزم ، انحازوا الى الري فعاثوا فيها وأفسدوا ، فزحفنا بجنودنا من خراسان اليهم مقدرين انهم يلجئون الى الامان، ويلوذون بالعفو والغفران ، فملكتهم الهيبة ، وزحزحتهم الحشمة ولابد أن نردهم الى راياتنا خاضعين ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين ، قربوا ام بعدوا ، أغاروا أم انجدوا »٠

في هذه الأونة كان قرواش قد تمكن أخيرا من جمع جيش عربي من قبيلة عقيل وإمده ال مزيد وحكام اسفل وادي الرافدين وعشائرها العربية ، فتوجه نحو الموصل ، فانسحب الغز منها وجمعوا جموعهم المتفرقة في الجزيرة ، ويبدو ان هذه الجموع كان قد زاد عددها الى درجة كبيرة حتى ان ابن الأثير يروي بانهم اصبحوا — نيفا وثلاثين الفا واشتبكت القوات العربية بالغز«فاستظهرت الغز ، وانهزمت العرب حتى صار القتال عند حللهم ، ونسائهم يشاهدن القتال ، فلم يزل الظفر للغز الى الظهر، ثم انزل الله نصره على العرب،وانهزمت الغز واخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وقتل ثلاثة من مقدميهم ،وملك العرب حلل الغز وخركاواتهم وغنموا أموالهم » ٠ ولوحق الغز في الجزيرة حتى اضطر من نجا منهم الى الهرب نحو الأراضي الارمينية او الأراضي البيزنطية(٢٧)٠ وسيمر ما يزيد على العشر سنوات قبل أن تطرق الجزيرة مرة أخرى من قبل جماعة كبيرة من الغز،وسيكون الذين سيطرقون اراضي الموصل من اتباع طغرلبك وذلك أثناء دخول طغرلبك بغداد وسعيه من أجل اقامة الامبراطورية السلجوقية المتحكمة بالخلافة العباسية ، والوارثة للاسرة البويهية٠



كانت بغداد مع خليفتها في هذه الآونة تحت سلطان امير الأمـراء البويهي وكان اسمه ابو كاليجار، وكان ابو كاليجار هـذا قـد وقـع تحت تأثير الدعاية الفاطمية الاسماعيلية بعد أن اتصل بـه المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله بـن موسى بـن داود الشـيرازي (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م)، ولاعتبارات كثيرة اضطر ابو كاليجـار الى نفي المؤيد في الدين الى ماوراء الفرات حيث تابع سيره نحو القاهرة

وفي سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م ـ بعدما توفي ابو كاليجار ـ خلفـه في إمرة الامراء في بغداد اكبر اولاده ابو نصر خسرو الذي حصـل مـن الخليفة القائم على لقب الملك الرحيم ، ولم يصف الحال للملك الرحيم ونازعه سلطانه في كرمان اخوه فولاستون وفي البصرة اخوه ابو علي، ولايهمنا هنا التبسط بالحديث عن نزاعات البيت البويهي هذه (٢٨)

إنما مايهمنا هو أن نلتفت نحو بغداد كي ندرس احوالها والأسباب التي أدت الى مجيء طغرلبك اليها ، ومن ثم إزالتـه للدولة البـويهية واقامته السلطنة السلجوقية .

من الناحية السياسية لم تكن السلطة في بغداد والمناطق التـابعة لها والمحكومة من قبلها مباشرة في يد امير الأمراء البويهي فقـط او في يد الخليفة ، بل وجد في بغداد عدة قوى تصارعت على السلطة فيها. ويمكن ـ على العموم ـ تقسيم القوى التي كانت تتصارع في بغداد الى قوتين رئيسيتين ، واحدة عسكرية والأخرى مدنية ، ولقـد مثـل الجانب العسكري ضابط اسمه البساسيري ، ومثل الجـانب المدني ابن المسلمة وزير الخليفة القائم ، ولقد كان البساسيري شيعيا مـن الاثني عشرية وكان ابن المسلمة سنيا حنبليا ، وهكذا ايضا كان أهل بغداد مقسمين بين شيعة اكثرهم اثني عشرية وسنة اغلبهـم حنابلة.

والبساسيري هو ابو الحارث ارسلان التركي ، نسب الى بسـا بلدة بفارس « والعرب تسميها فسا، وينسبون اليها فسوي، واهـل فارس يقولون بسابين الباء والفاء وينسـبون اليهـا البسـاسيري، وكان مولاه رجل من أهل بسا، فنسب الغلام اليه ، واشـتهر بهـذه النسبة »، ولقد بدأ البساسيري حياته كعبد تركي في خدمة الحـاكم

البويهي بهاء الدولة فيروز (٣٨٨ ــ ٤٠٣ هـ / ٩٩٨ ــ ١٠١٢ م) وتدرجت به المناصب حتى أصبح ــ ربما ــ في سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٣٣ م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد ، وفي سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٤ م كان قد أصبح من كبار شخصيات بغداد وهكذا ومع الأيام « عظم شأنه واستفحل أمره ، وقويت هيبته وانتشر ذكره »٠

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه مكانة البساسيري ترتفع وسلطته تقوى قام الخليفة القائم بتعيين رئيس الرؤساء ابو القاسم بن المسلمة كاتبا له، وكان هذا سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٣٤ م،وكان ابن المسلمة « عنده ــ أي القائم ــ في منزلة عالية »، وفي السنة التالية « خلع الخليفة علي ابي القاسم علي بن الحسن بن المسلمة واستوزره، ولقبه رئيس الرؤساء » وكان طبيعيا أن يمارس ابن المسلمة سلطاته ويشارك ــ إن لم يأمرــ البساسيري، ولاختلاف طبيعة الرجلين وطبيعة منصبيهما وعقائدهما ثم لكونهما من أصحاب المطامح والاهواء كان لابد من حصول اصطدام بينهما ، خاصة وان الخلافة مع الأسرة البويهية كانتا قد وصلتا الى درجة من الضعف عجزتا فيه عن ان تقيما توازنا بين الطرفين او تسخرهما حسب مصلحة الدولة، ومما ساعد على اتساع رقعة الخلاف بين ابن المسلمة والبساسيري ، الأوضاع السياسية الخارجية التي كانت محيطة ببغداد ، فقد كانت هناك قوة الدولة الفاطمية ومطامحها والمؤيد في الدين داعي الدعاة في القاهرة ، ثم من جهة أخرى كانت هناك القوة النامية الطموحة لطغرلبك السني٠

وأثناء الصراع اتهم كل من المتصارعين خصمه بالاتصال بدولة خارجية : اتهم البساسيري ابن المسلمة بالاتصال بطغرلبك والعمل لجلبه لبغداد، وهذا طبعا كان يعني الخروج عن السلطة البويهية وخيانتها ، واتهم ابن المسلمة بدوره البساسيري باتصاله بالقاهرة سرا والتمهيد للاطاحة بالخلافة العباسية ، وفي أثناء أزمة الصراع هذه فتش كل من المتخاصمين عن حلفاء محليين وغير محليين ، فتحالف ابن المسلمة مع قريش بن بدران صاحب الموصل ، لما ملكه

من قوة ، ولما تمتع موقع الموصل بـه مـن اهمية ، ذلك ان اي عمـل فاطمي ضد بغداد كان بامكان الموصل اضعافه إن لم يكن إحبـاطه ، واخذ البساسيري يسعى لايجاد حلفاء لنفسه ، وتوجه بأنظاره نحو بني أسد وزعيمهما دبيس بن علي بن مزيد.

وفي شعبان سنة ٤٤٦ هـ /تشرين ثـاني ١٠٥٤ م« حصر الأمير ابو المعالي قريش بن بدران صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحهـا ، وخطب لطغرلبك فيها وفي سائر أعمـاله، ونهـب مـاكان فيهـا للبساسيري وغيره ، ونهب حلل اصحابه بالخالص وفتحوا بثـوقه ، فامتعض البساسيري من ذلك »، وفي رمضان من السنة ذاتها قـدم بعض من أصحاب قريش الى بغداد فانزعج البساسيري مـن ذلك ، وقال :»هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل اصحابي ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا في اهلاك الناس ، واراد اخذهم ، فلم يمكن منهم ».

وبدا البسايري ينتقم ويعد العدة للتخلص من ابن المسلمة وللتفرد بالتحكم في بغداد ، فكان أول ماقام به ان احتجز سفينة كانت لاحـد أقرباء ابن المسلمة ثم قام بعد فترة وجيزة بـاسقاط « مشـاهرات الخليفة ـ اي رواتبه ـ من دار الضرب ـ اي مركز الخـزانة وكذلك مشاهرات الرؤساء وحواشي الدار ».

وبالطبع لم يقف ابن المسـلمة مـكتوف اليدين تجـاه تصرفـات البساسيري هذه، ولم يلق سلاحه بل تابع صراعه معه ، ففي السـنة التالية ٤٤٧ هـ / ١٠٥٤ م سافر البساسيري الى واسط ، فاستغل ابن المسلمة تغيبه عن بغداد وبدا يعمل على اثارة اهالي بغداد السنة وسواهم ضده ، وقام « جماعة من اهل السـنة ، واظهـروا الامـر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحضروا الديوان وطلبوا ان يؤذن لهم في ذلك وان يتقدم الى اصحاب الديوان بمسـاعدتهم ، فـأجيبوا الى ذلك »، واخذت هذه اللجنة تمارس عملها ، وصدف « ان ابـا سـعد النصراني صاحب البساسيري حمل في سفينة ستمائة جـرة خمـرا ليحدرها الى البساسيري بواسط »، وسمع جماعة الامر بـالمعروف

والنهي عن المنكر بهذا فتوجهوا فورا في مظاهرة كبيرة مثيرة نحو السفينة ، فكسروا جرار الخمر ، وبصرف النظر عن إراقة ٦٠٠ جرة من الخمر كانت تكلف مبلغا كبيرا من المال وتحبط الكثير من مشاريع الطرب والمتعة، فان هذه الحادثة قد أضرت بالبساسيري وزادت سمعته سوءا،وزادت شقة الخلاف بينه وبين ابن المسلمة اتساعا ، ولم يكتف ابن المسلمة بهذا القدر بل أخذ يعمل على اثارة الجند ضد البساسيري واخذ يتدخل في شؤون العساكر ـ رغم كونه رجلا مدنيا ـ ، فقد اغتنم تأخر وصول بعض ارزاق حامية بغداد ، فنسب ذلك الى عمل متعمد من البساسيري ، وأخبر وفدا من الجند جاء يشكو اليه أن البساسيري هو السبب في ذلك وأنه هو الذي يقف وراء مشاكلهم التي يعانون منها ، وقال لهم : إن أموالكم قد اخذها البساسيري وهي محجوزة في داره ، واذا أردتم أخذها فنحن معكم ، فطمع الجند « واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها ، فأذن لهم في ذلك ، فقصدوها ونهبوها واحرقوها ، ونكلوا بنسائه وأهله ونوابه ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه ببغداد».

وفي هذا الجو المشحون عزم ابن المسلمة على توجيه ضربته القاضية ضد البساسيري ، فأطلق « لسانه في البساسيري وذمه ونسبه الى مكاتبة المستنصر صاحب مصر » وذلك أمام الخليفة القائم ، و« صح عند الخليفة سوء عقيدته ، وشهد عنده جماعة من الأتراك أن البساسيري عرفهم ـ وهو اذ ذاك بواسط ـ عزمه على نهب دار الخلافة ، والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة أبا طالب محمد بن مكيال المعروف بطغر لبك أمير الغز ، وهو بنواحي الري ، يستنهضه على المسير الى العراق »، « وأرسل الى الملك الرحيم يأمره بابعاد البساسيري فأبعده »، « وانفض اكثر من كان مع البساسيري ، وعادوا الى بغداد ... ومضى البساسيري على الفرات الى الرحبة » ،« وأقبل ... طغر لبك في مائة الف وعشرين الفا من الترك والغز والأعاجم والكرد والديلم وغيرهم من الأجناس فوصل بغداد وهاجمها وقتل منها خلقا عظيما ونهبها » « ولم يترك الترك وردا الا شفهوه ، ولاحسنا الا شوهوه ولانارا الاأرشوها ، ولادارا

الا شعثوها ، ولاعصمة الا رفعوها ، ولاوصمة الا وضعوها». وكان دخول طغر لبك بغداد في أواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ / أواخر كانون الأول سنة ١٠٥٥ م وفر جند بغداد الترك والديلم منها ، وتلاحق خلق كثير بالبساسيري في الرحبة (٢٩).

عندما لحق البساسيري بالرحبة « لقيه معز الدولة ـ يعني ثمال ابن صالح ـ (أمير حلب الذي كانت الرحبة احدى بلدان امارته) وأكرمه ، وحمل اليه مالا عظيما ، وكان قد وصل في قلة » ، ولم يكن اختيار البساسيري لبلدة الرحبة قد تم عن عبث ، فقد كان بامكانه البقاء في العراق في بلاد « نور الدولة دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما» لكنه آثر المضي الى الرحبة لما تمتعت به هذه البلدة من مزايا كنا قد أتينا على ذكرها ، ومن الرحبة اتصل ـ او ربما جدد اتصالاته ـ البساسيري بالخلافة الفاطمية في القاهرة ، ووعد الخليفة المستنصر أنه اذا أرسل اليه مالا كافيا ، فسيقوم بطرد الغز من العراق وبازالة الخلافة العباسية واحلال الدعوة الفاطمية مكانها ، ويذكر المقريزي أن البساسيري قد طلب من الخليفة المستنصر أن يسمح له بالقدوم الى القاهرة لشرح خططه ، لكن أشير على الخليفة المستنصر رفض طلبه هذا ، كما أشار رجال دولته عليه أن يرسل اليه الأموال اللازمة ، وفي سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م « جهز الوزير اليازوري خزائن الأموال على يد المؤيد في الدين لأبي الحارث البساسيري ، بحيث لم يبق في بيوت الاموال بالقصر شيئا الا أخذ لفتح بغداد ». ويذكر المقريزي بأن ٠٠٠ر ٣٠٠ر ٢ من الدنانير هو قيمة ما جهز للبساسيري وأرسل اليه من عين ومتاع ، ولنستمع الى المؤيد بالدين يصف رحلته من القاهرة الى حلب :« وسرت في جلبة عظيمة قد التف فيها من الوحش والركابية المقودين وسفساف الناس من البالغين والحمالين عسكر لو لم يمسني غير عذابهم عذابا لكان فيه مايغني ويكفي ، وكان الناس يتعجبون من أمري ، وقد كان موضع العجب لعمري كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتي من دون أن يتبعني من شيء يسمى العسكر اثنان ... فكان

فيما مثل لي انني استتبع ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين أطأ بهم بلاد ابن صالح وأبلغ بهم الى الرحبة ، فكثت طول المسافة ما بين مصر ودمشق ارتأي في هذا الباب ، فحدثتني نفسي بمنافاته للصواب ، فلما وصلت الى صور واجتمعت مع ابن عقيل ، وجرى بيني وبينه الحديث في مثل ذلك ، وجدت عنده من تهجين ذلك الرأي مثل ما عندي ، ووجدت قصده في التدبير ، بغير ذلك التدبير ، قصدي ، وبلغت الى دمشق ، وعرضته على والي الموضع اخذا بفضل الاستظهار ، فلم يكن الراي واقعا موقع الاختيار ، فحينئذ كاتبت ابن صالح اشعره بالنصبة التي انا مامور بها ، وذكرت انني متوقف عنها تصونا من ان اوطىء اقدام خصومه بلاده ، وامتطي مطية امر ربما ضمن فساده ، واقول له : هل لك في خدمة سلطانك بما يكشف عن اخلاصك غاشية التهمة والظن ، ويغشي عيناك وسن الامان والامن ، وذلك اني اسلم نفسي وهذه الاموال والخزائن كلها اليك ، ولا استظهر الا بمروتك وانسانيتك في حفظي وحفظها عليك ... وكتبت الى الوزير اذكر توجهي الى ابن صالح غير مستتبع من الكلبيين احدا ، وان العدول عن نصبة ما مثل من استصحابهم اقرب الى الصواب رشدا ، فقامت قيامته في هذا الباب ، وكاتبني يحذرني من تبديل قوله وتعدي حده ورسمه ، فلم يجد كلامه مني اذنا سميعة ولا نفسا مطيعة » ، « وتردد من المكاتبات الكثيرة والمخاطبات الطويلة بيني وبين الوزير نهيا عن المسير الى ابن صالح على غير المثالة التي مثلها ، وابساء مني له وامتناعا عنه ... وسرت بما صحبني من الاموال العظيمة والسلاح والخيول ، ولقد شققت العصا بالخلاف عليه ، وانا على تخوف مما ينتهي الحال اليه اخشى اكل لحمي ونهش عظمي في سقيفة كلب وكلاب من قبل دخول ترك وتركمان ، فلا ادري بأيهما انا اكثر فرحا بالسقيفة ام بالدار ، وكلاهما محيط به سرادق من نار

وتواعدنا انا وابن صالح على ان يلقاني الى موضع يلي حمص يقال له الروستان (الرستن) على جسر نهر العاصي ، فما زلت اسير عن دمشق مرحلة ، وهو يسير عن حلب مرحلة ، ومعي صليبة

عسكر الشام ، ومعه جمهرة بني كلاب الى ان التقت الفئتان منا ومنهم في المكان المذكور ، فضرب عسكرنا مصافهم على شاطىء الوادي من العدوة الغربية ، ووقف عسكرهم من العدوة الشرقية ، وكان الموقف موقفا عجيبا حسنا ، والناس يظنون الظنون ، ويحسبون حساب ماكان وما يكون ، فسقت جمال الخزائن والاموال والسلاح امامي وسرت في اعقابها على هون وسكينة ووقار ، وسكون ، وابيت ان يمشي بين يدي الا اثنان من الشاكرية (المرافقين) لايحملون بايديهم حديدة ، حتى التقيت بوجه ابن صالح بوجهي ، والقيت عليه السلام في نفسي ، وما يشتمل عليه صحبي ..

ومن الرستن انطلق موكب ثمال بن صالح برفقته المؤيد في الدين ، انطلق هذا الموكب شمالا نحو حلب ، وعند وصوله الى معرة النعمان التقاهم وفد من رجالات البساسيري ومن جنده ، فطلب منهم المؤيد التوجه الى الرحبة لاخبار سيدهم بوصول الامداد ، وما أن وصل المؤيد الى حلب حتى بدا نشاطاته في تأليب جميع حكام وامراء الجزيرة ضد التركمان وتجميع قواهم الى صف قوى البساسيري ، فراسل نصر الدولة المرواني ، وراسل مانع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران وامير قبيلة نمير ، وبعد هذا انحدر الى الرحبة وبرفقته ثمال بن صالح وجموع قبيلة كلاب ، وفي الرحبة التقى المؤيد بالبساسيري واوصل اليه كل ما جلبه من القاهرة ، وهنا اخذ البساسيري بمساعدة المؤيد في تجنيد جيش من العرب البدو والكرد والديلم مع اتراك بغداد ، ويذكر المؤرخ العظيمي ان الجيش الذي جمعه البساسيري قد بلغ خمسين الفا ، وعوضا عن ان يعبر هذا الجيش الفرات نحو العراق فقد لزم شاطىء الفرات مصعدا شمالا ، وبدأت هذه القوات بالضغط على ثمال بن صالح واخذت بتهديده ، فسلم ثمال الى البساسيري بلدة الرحبة وتنازل له عنها ، فاتخذها البساسيري مقرا وجعل فيها ماله واهله .

ويتساءل المرء هنا لماذا قبل ثمال بن صالح بالبساسيري وسمح له بالدخول الى اراضيه ، ثم لماذا قام بعد ذلك باستقبال المؤيد في

الدين ورافقه الى الرحبة ؟ او لم يرى ثمال في حـركة البسـاسيري تهديدا لوجوده ودولته ؟ يبدو ان ثمال الذي كان بدويا من قبيلة كلاب قد راى في حركة البساسيري ضمانا لحكمه وعونا لدولته ضد الخطر التركماني ، وهذا يعطي تعليلا لما رواه ابـن العـديم مـن ان بعض رجالات بني كلاب قد ارادوا القاء القبض على البسـاسيري عندمـا جاء الرحبة فارا من العراق فمنعهم ثمال مـن ذلك ، ولكن لماذا اراد الكلابيون القاء القبض على البساسيري ، هل لمسوا فيه خطرا على سلطانهم ، ام انهم ارادوا القبض عليه باعتباره شخصية سـياسية هامة يمكن بيعها للخلافة في بغداد او لطغر لبك بمبلغ كبير ؟ لعل هذا هو السبب وان الكلابيين ارادو تحصيل مبلغ من بغداد ، فان لم يكن منها فمن القاهرة التي كان يمكن ان تساوم على حياة البساسيري . يضاف الى كل هذا ان كون ثمال كان شيعيا وحـركة البسـاسيري كانت شيعية ضد التركمان السنة يمكن ان يكون من الاسباب الهامة التي دفعت بثمال للتورط في الثورة واعمالها .

تابع المؤيد في الدين نشاطه واتصالاته ، فكاتب دبيس بـن مـزيد امير بني اسد الذي كان قد سافر الى بغداد ، وحاول ان يقيم تسوية مع طغر لبك ، ذلك انه كان يخشى تحريك طغر لبك وتركمانه بـاتجاه الشام ، لان مثل هذا التحرك كان سيسبب الكثير من المضـار ولقـد اقنع المؤيد في الدين دبيس بالتخلي عن اتصالاته بـطغر لبـك وبـان ينضم الى معسكر البساسيري . وفي الوقت نفسه انضم بعض امراء عقيل ، وخاصة مقلد ـ الاخ الاصـغر لقـريش ـ بـن بـدران ، الى معسكر البساسيري ، والذي دفعهم الى هذا هـو خصـوماتهم مـع قريش الذي اعترف الان بسلطان طغر لبك ، متابعا بذلك السير على محور تحالفه القديم مع ابن المسلمة ، والتصدع الذي اصاب صفوف قبيلة عقيل قد اضعف من مركز قريش واثر على قوته ، خـاصة وان العقيليين تابعوا التخلي عنه والانخـراط في معسـكر البسـاسيري حيث وجدوا اموالا طائلة وجـوائز ثمينة ، وامـالا زاهية في مغـانم كثيرة ستاتي عند اخذ بغداد ونهب دار الخلافة (٣٠).

يقدم لنا المؤيد في الدين في سيرته لنفسه وصفا مفصلا لكل الحوادث التي وقعت في أراضي الدولة المرداسية أثناء ثورة البساسيري وبزهد شاذ وصوفية غريبة كتب المؤيد رواياته ، فلقد حرص دائما أن يظهر أنه هو ولا أحد سواه كان وراء كل حادث ، وأنه فعل كل شيء بدون تكلف أو مشقة بل كل ما حصل كان بسبب التوفيق الرباني لمبعوث الامام الذي أكرمه بكرامة صنع المعجزات ، كما ألان لنبيه داود الحديد ، ونظرا لهذا الشذوذ وهذه البساطة والسذاجة المتكلفة ينبغي أخذ روايات المؤيد بعين الحذر ومعارضتها على سواها من الروايات قبل قبولها .

بعد أن أكره ثمال بن صالح على التنازل عن الرحبة للبساسيري أكره مرة أخرى على التخلي عن مدينة الرقة لمانع بن شبيب بن وثاب أمير نمير ولقد أغضب هذا التنازل قبيلة كلاب وسبب بعض التصدع بين صفوفها تصدعا سيتطور الى انشقاق القبيلة وتصارعها مما سيؤدي الى إزالة الحكم المرداسي وقطعه مؤقتا من حلب.

بعد ما دخل طغرلبك بغداد القى القبض على الملك الرحيم آخر أمير للأمراء من الأسرة البويهية ، ونفاه الى حيث لقي حتفه ، وهكذا زالت الدولة البويهية من الوجود ، وقام مكانها السلطنة السلجوقية ، لكن اركان هذه السلطنة ماكانت لتثبت قبل القضاء على حركة البساسيري ، لهذا تقدم الخليفة في سلخ ربيع الأول ٤٤٨ هـ/١٨ حزيران ١٠٥٦ م «الى السلطان بالمسير الى الشام ، ويبدأ بالرحبة ، ويأخذ البساسيري ، ويعبر الفرات ويقيم الدعوة على منابر الاسلام ، فأمر السلطان العساكر بأن يتجهزوا ويبعثوا ليحضروا خركاواتهم وأولادهم واهلهم يكونوا بالعراق ويتوجهوا معه الى الشام ، فقالوا: هذه بلاد خربة وليس بها اقوات ولا علوفات ، ولم يبق معنا نفقات ونحن عاجزون عن المقام على ظهور خيولنا ، فكيف إذا جاء أهلنا وخيولنا ودوابنا ، وقد طالت غيبتنا ولا بد من الالمام باهلنا ونحن نستأذن في العود اليهم ، ونعود حيث يرسم لنا ، فقبض السلطان على جماعة منهم وضربهم وقيدهم

أياما ، ثم شفع فيهم فاطلقوا ، وضمن عليهم انهم بعد المهرجان يسيرون الى الشام». وفي هذا الخبر دليل على وضع بغداد وعلى ان سلطة طغر لبك على عساكره لم تكن متمكنة او فعالة ويعود سبب ذلك الى ان هذه العساكر كانت عبارة عن افراد العشائر البدوية الغزية الذين لم يتعوّدوا ـ ولن يتعودوا ـ على النظام والأوامر التي ينبغي أن تنفذ دونما مراجعة ، «وقل العسكر ببغداد ومضى اكثرهم الى خراسان... وكثرت الأراجيف بانضمام جماعة من العرب الى البساسيري...وانهم على عزم قصد بغداد». وزادت احوال بغداد اضطرابا ونزل الكثير من جند طغر لبك في بيوت اهالي المدينة واغتصبوها مع اشياء اخرى ، وقد سبب هذا وقوع اصطدامات كثيرة بين الغز واهالي بغداد مما جعل موقف طغر لبك والخليفة في غاية التحرج لذلك "استدعى الخليفة رئيس الرؤساء واظهر التذمر والامتعاض مما عليه الرعية وقال: قد انهي إلي ما سمعته اذني وشاهدته عيني ومن ارتفاع الدعاء ما أنا به مطالب ، هذا الى ما اخافه من سريع المكافاة ، وأنا من ركن الدين بين قسمين: إما اعتماد الحق واستعمال العدل وانصاف الرعية واعفائهم من كل اذية واعادتهم الى مساكنهم وصيانتهم في معايشهم وامانتهم في نفوسهم وحراسة اموالهم ، او المساعدة على مفارقتي لهذا البلد وبعدي عن هذه البدع ، ولا أقل من اعتزالي عنها والتبري عند الله منها" وابلغ طغر لبك بقول الخليفة وغضبه فقال: «إن هذا العسكر كثير لا قدرة لي على حفظه ، وربما بدت منهم افعال لا أرضاها وسأتقدم فيما يبين أثره ويحسن موقعه».

في هذا الوقت الذي كانت فيه احوال بغداد تزداد سوءا ، وبنفس الوقت تصبح اكثر ملاءمة للبساسيري قام الأخير بالاصعاد نحو الموصل ربما كي يدخلها تحت نفوذه فيحمي ظهره عندما أحس قريش بن بدران بدنو الخطر منه «بعث الى بغداد...يطلب نجدة ومالا يفرقه في العشيرة» ، «وعزم السلطان على الخروج بنفسه إلى البساسيري فمنعه القائم وقال : اقم وابعث العساكر »، «وجرد السلطان ابن عمه قتلمش والحاجب الكبير وغيرهما في الفي فارس

من الأتراك والغز والتركمان ، وعشرة آلاف دينار ومائتي ثوب ليفرقها قريش في بني عقيل ، وخلعه جميلة لقريش وفرس بمركب ذهب ومنجوق ، ولمسلم بن قريش مثل ذلك »، وسار قتلمش« من بغداد بالغز فنهبوا بلاد العرب وسبوا نساءهم فمالوا إلى البساسيري .... وزاسل دبيس بني عقيل الذين مع قريش وبذل لهم العطاء ، وخوفهم ما يؤول إليه أمر العرب مع الغز » فاستجاب العقيليون لدبيس وأخذوا بالتخلي عن قريش والانضواء إلى معسكر البساسيري أولاً وقليلا حتى « بقي قريش في عدد يسير من أصحابه وحاشيته » . وعندما وصلت الحملة الغزية إلى سنجار اشتبكت بقوات البساسيري « فحمل البساسيري ودبيس ومن معهم عليهم حملة واحدة فهزموهم » بعدما «نهلت السيوف من دمائهم كما ينهل العطشان من الماء البشيم ، وقتل منهم الخلق الذي لا يحصى عددا ، ولم يسلم إلا بقية يسيرة أصبحوا شعاعا بددا ، ولولا هجوم الليل لأحاط بصغيرهم وكبيرهم سرادق الويل» ، وكان من جملة من «قتل الحاجب الكبير ، وهرب قتلمش ومن - بقي - معه وغنم البساسيري وأصحابه غنائم كثيرة . وهرب قريش بن بدران ونجا بنفسه نحو الموصل وبعد هذا سار «إلى دبيس ونزل عليه فتكفل بأمره وإزالة الوحشة بينه وبين أخيه والبساسيري ، ولبس قريش خلعة آتية من مصر وأخذ مالا بعث به إليه»(٣١) .

وفي بغداد جاء الخبر الى السلطان طغرلبك بهزيمة قتلمش ومقتل أكثر قواته و« بأن البساسيري دخل الموصل وخطب لصاحب مصر بها » وهنا قرر السلطان أن يقود قواته بنفسه نحو الموصل «وراسل الخليفة في الخروج إلى الموصل فما أمكنه دفعه لأنه دفعه مرات فقال: « افعل ما تراه فنحن ما نؤثر بعدك عنا ، ثم بعث إليه رئيس الرؤساء وهو بالمخيم وقال : إن أمير المؤمنين ما يؤثر خروجك ، وإذا أقمت وبعثت العساكر كان أكثر للهيبة ، فقال : قد كان الصواب أن أخرج الى هؤلاء وعسكري متوفر والهيبة قائمة فمنعت فأشير علي بإنفاذ العساكر إليهم والمقام ، فجرى ما جرى ، وقد قووا وكثروا ولابد من سيري اليهم قبل أن يتفاقم الأمر » ، وتحرك طغرلبك على رأس

قواته نحو الموصل ، ولم يصلها قبل انقضاء سنة ٤٤٨ هـ ودخول سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٤ م وقبل أن يصل الموصل انسحب منها البساسيري مع قواته وابتعد عنها مقدار عشرة فراسخ . وعندما وصل طغرلبك الموصل هرب اكثر اهلها منها وعبر إليها «فنزل دار الامارة ، ونزل أصحابه دور الناس وكانت قد خلت منهم ، وكتب السلطان إلى الخليفة يخبره بنزوله الموصل » ثم غادرها « فطالبه العسكر بنهبها – فتمنع – ... فقالوا : إما أن تاذن لنا في نهبه وإلا انصرفنا ، وسأله هزار سب – أحد شخصيات دولته – في حريم المسلمين واموالهم ، فقال : قد دافعت عنهم وما أطقت ولا بد لهم من اقامة أو عطاء وما معي مال فتمضي الليلة وتخرج من في البلدة إلى معسكرك ليحرزوا نفوسهم ، فأرسل إلى اهل البلد وأخبرهم فارتاعوا وخرج من قدر منهم ، وأصبح العسكر فدخلوا البلد فما أمسى إلا وهو خراب دارس ».

وقربت قوات طغر لبك من عساكر البساسيري وعسكر الجيشان مقابل بعضهما ، وخشي كل من الفريقين الالتحام في القتال ، وقام الوزير الكندري وزير طغر لبك بمراسلة زعماء القبائل العربية في جيش البساسيري ومعسكره واخذ « يدس الى القوم دسائس المكر وينصب لهم شرك الغرور بما يؤدي الى تفريق الشمل وتعكيس الأمر ، ويضمن لواحد منهم ولاية الموصل ، و الآخر ولاية البصرة وواسط فاصاب سهم مكره المقتل ، وضرب سيفه منهم المفصل ، ولعب بعقول القوم فعصفت بها عاصفات التفريق والتمزيق » و «جاءت رسل قريش ودبيس الى السلطان يسألان العفو والصفح ويدخلان في الطاعة » ، واراد هؤلاء الرسل أن يساوموا السلطان على البساسيري وعلى حياته فأجاب السلطان « اما البساسيري فالعفو فيه راجع الى امير المؤمنين فإن عفا عفونا » ، وقد ازعجت هذه الاتصالات البساسيري واخافته فرحل « إلى الرحبة ومعه الغلمان البغدادية ومن تبعه من بني شيبان والأكراد ومقلد وجماعة » .

وعندما أحس طغرلبك بزوال البساسيري خيل إليه أن قضيته باتت بحكم المنتهية ، لذلك قرر أن يهاجم أراضي الدولة المروانية ويخضعها لسلطانه ، لذلك انساح الغز في أراضي نصر الدولة ، فما كان منه إلا أن راسل طغرلبك عارضا اعترافه بسلطانه واستعداده لدفع المبالغ التي تفرض عليه ، ووصل إلى طغرلبك في الموصل « ابراهيم ينال من همذان في عشرين الف رجل ، فخرج الناس للقائه ولم يتخلف إلا السلطان ، ولما وقعت عينه على عميد الملك – الكندري وزير طغرلبك – قال له بالتركية : صالحت بين العرب والسلطان وجعلتهم أهلا لذلك ، وإنما يكون الصلح بين النظراء ، ومن هؤلاء الكلاب حتى لايقلع أصلهم ؟ » بعد هذا رضي ابن مروان أن يدفع مبلغ « ١٠٠ » ألف دينار للسلطان ، لذا سار السلطان طغرلبك نحو سنجار في طريقه إلى بغداد « ففتحها عنوة وسبى نساءها وأطفالها ونهب أموالها وأحرق جامعها ، ونقضت أخشابها ودرست آثارها ، وقيل أن القتل أتى على أربعة آلاف نفس وأكثر وجاف المنزل فارتحل السلطان » نحو بغداد عائدا إليها وقبل عودته « سلم إلى ابراهيم ينال الموصل وأعمالها » .

وبعيد وصول طغرلبك إلى بغداد بقليل طلب أن يسمح له بمقابلة الخليفة ، وبعد فترة قبل الخليفة القائم بمقابلة عبده وسيده الجديد والتعرف إليه لأول مرة ، ويقدم لنا غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء الذي عاصر هذه الأحداث وعاش تفاصيلها وصفا حيا لهذه المقابلة يقول فيه : وجلس « الخليفة جلوسا عاما مشهودا ، وجلس رئيس الرؤساء في صحن السلام واستدعى النقباء والقضاة والشهود والأعيان ... وعميد العراق وحواشي السلطان وبعث إلى السلطان ... واستدعاه إلى دار الخليفة ، فنزل في طيار – قارب – الخليفة وكان قد زين وأرسل إليه ، وانحدر خواصه في الزبازب ، وعلى الظهر فيلان يسيران بازاء الطيار والعساكر والناس من جانبي بغداد ، ثم قدم له مركب من مراكب الخليفة ، فنفر من الفيلين ، فقدم له من خيله فرس أشهب فركبه وعليه قباء ديباج أسود ، وعمامة مثلثة مذهبة ، ودخل الدار وبين

يديه أولاد الملوك ... وقتلمش ابن عمه واشراف القواد والديلم ونحو من خمسمائة غلام من غلمان الترك والكل بغير سلاح ، فلما بلغ باب دهليز صحن السلام وقف طويلا على فرسه إلى أن فتح له الباب فنزل ودخل ماشيا وتلقاه رئيس الرؤساء ، وكان الخليفة في بيت في صدر البهو وعلى بابه ستور ديباج ، فرفعت وإذا بالخليفة جالس على سرير ارتفاعه من الأرض سبعة أذرع في دست ديباج منقوش وعليه العمامة والقميص المصمتان وعلى منكبه بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده القضيب ، فلما رآه السلطان قبل الأرض دفعات كثيرة ، ونصب له كرسي دون السرير لطيف ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : أصعد ركن الدين إليه ، وأصعد معه محمد بن منصور الكندري مفسرا له معبرا عنه ، فصعدا ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل لركن الدين امير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفعلك ، زائد لشغفه بك وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد اليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته في ذلك واجتهد في عمارة البلاد وصلاح العباد ونشر العدل وكف الظلم » ، ثم أفيضت بعد هذا عليه الخلع وتوج وخوطب بملك المشرق والمغرب ومنح لقب سلطان فكان أول من منح هذا اللقب رسميا في تاريخ الاسلام ، وبعد أن قبل طغرلبك الأرض عدة مرات سمح له بتقبيل يد الخليفة والمغادرة ، ولكن قبل أن يغادر قيل له : « إن الله تعالى أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك من بعضها » وقصد من هذا أن تزاد أعطيات الخليفة ومخصصاته وصلاحياته ، لكن طغرلبك تجنب أن يعد بأي شيء جديد ملزم .

ولم تطل إقامة ابراهيم ينال في الموصل حيث تركها وقدم إلى بغداد في مطلع سنة ٤٥٠ هـ/آذار ١٠٥٨ م وقد اغضب هذا السلطان وأزعجه فأراد القاء القبض عليه لولا توسط الخليفة واصلاح الحال بينهما حيث عاد ابراهيم أدراجه الى الموصل ، وفي نفسه الحقد والاستعداد للثورة ضد طغرلبك .

ولقد عرف البساسيري مع المؤيد في الدين بوجود خلافات بين ابراهيم ينال وطغر لبك فعملا على استغلال هذه الخلافات

وتوسيعها ،وكان البساسيري قد استغل عودة طغرلبك الى بغداد ثم سفر ابراهيم ينال إليها فجمع قواته قبل سفر الأخير وتحرك من الرحبة شمالا نحو بالس (مسكنة الحالية) على الفرات واعاد الاتصال بقريش بن بدران الذي كان قد فقد الموصل ، فانضم قريش مع قبيلة عقيل اليه ، وكان القصد من تحرك البساسيري نحو بالس الاستيلاء عليها وذلك ضمن خطة مرسومة لتصفية الدولة المرداسية وضم أملاكها إلى الأراضي التي كانت تحكم حكما مباشرا من قبل الفاطميين في القاهرة.

يروي المؤيد بأن القاهرة قد قامت أنئذ بارسال بعض المبالغ الجديدة الى حلب ، وان ثمال بن صالح قد أعطى هذه المبالغ الى اخيه عطية بن صالح وطلب منه حملها الى الرحبة ، لكن عطية عوضا عن أن يوصل هذه المبالغ كما كلف قام باحتجازها لنفسه ، وقد كان لصنيعه هذا اثراً خطيراً على المؤيد في الدين والبساسيري واتباعه ، لهذا قرر المؤيد مغادرة الرحبة والتوجه الى حلب ، وفي طريقه الى حلب وقبل أن يصلها لقي عطية بن صالح فأصلح اموره معه – أو هكذا تظاهر – ووعده باستصلاح شأنه مع الخليفة الفاطمي ،ويقول المؤيد :« ولما كان ثاني يوم التقائي به صادفت أخاه ثمال بن صالح وقد حشد من حشود عشيرته الكلابية من كان استنهضهم الى حلة عطية ليحملها حملا ويلهب النار فيها فتكا وقتلا ، فتناولته بلسان وعظ صادق موقعا من قلبه ومنطقه ، ونهيته عما هم به نهيا كثر من الصلاح موقعه ودفعت به عن حمى الفريقين دفعا احتمت به حلب واعمالها من الهلكات وامنت من بغتات الأذى بمشيئة الله » ، ويستطرد المؤيد في قصته فيقول :« ولحق أبو الحارث – البساسيري – على إثري فنزل ببالس ‥‥ ومعه قريش بن بدران ونخبة وجوه عقيل » ، ويعطي المؤيد سببا لتحرك البساسيري هذا بأنه قد سبق له – أي البساسيري – وطلب من نصر الدولة المرواني أن يمنحه ملجأ في مملكته ، وقبل أن يأتيه الجواب« قصر باع صبره » فتحرك شمالا ، وما كانت بالس إلا محطة في طريقه.

عندما يقوم المرء بفحص قصة المؤيد في الدين هذه فحصا نقديا يجد بأن المؤيد قد جافى فيها الصدق وقارب التزييف ، فلقد كان هدف البساسيري هو بغداد، وكانت الرحبة احسن قاعدة له للنجاح في مهمته ، ذلك أنها كانت غير بعيدة عن بغداد ، قريبة من الصحراء الشامية التي كان يمكن استخدامها ملاذا، واهم من هذا كانت نبعا لاينضب من الرجال البداة المستعدين للقتال إذا ما حضر الذهب ، وكان الذهاب الى الدولة المروانية يعني التخلي عن الثورة ، ولو أنه كان فعلا قد قرر التخلي عن ثورته لما صحب معه جنده مع قريش بن بدران وقواته العقيلية ، لهذا يبدو ان تحرك البساسيري هذا كان تنفيذا لخطة مرسومة.

يذكر غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء بأن بالس قد كانت من أملاك عطية بن صالح ، أو بالحري كانت اقطاعا له، ويقدم هذا سببا موضحا لتحرك البساسيري، وهو : لقد تحرك البساسيري وعساكره مع قريش بن بدران وشيوخ عشيرته واتباعهم نحو بالس للاستيلاء عليها ولانتزاعها من الرجل الذي استولى على الأموال التي أرسلت إليهم من القاهرة، وهنا لابد من التساؤل : لكن لماذا قابل المؤيد في الدين عطية وصالحه وطمأنه ، ثم قابل ثمال ومنعه من القيام بأي عمل ضد أخيه؟ والجواب على هذا السؤال نجده في سياق الحوادث التي تمت بعد الاستيلاء على بالس وادت الى فقدان ثمال لملكه في حلب

ويتحدث المقريزي عن خطة وضعها الوزير اليازوري لانهاء حكم ثمال ويقول في ترجمته لثمال في كتابه المقفى التي استقى مادتها كما يبدو ــ رغم عدم تصريحه ــ من كتاب بغية الطلب لابن العديم مؤرخ حلب الكبير ذلك ان المقريزي كان احد رواة هذا الكتاب وممن حاذوا نسخته الأصلية بخط المؤلف :« فلما ولي الوزير الناصر للدين ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وزارة المستنصر لم يرض من معز الدولة بما رضيه منه الوزراء قبله ، ورأى ان الحيلة والخديعة أبلغ فيما يريده ، فاستعمل السياسة وبعث خفايا التدبير،

وندب لذلك رجلا من ثقاته ، فسار الى حلب وساس الأمر واحكم التدبير مع كاتب معز الدولة بكثرة ما وعدوه به ومناه الى نزل معز الدولة من القلعة وسلمها الى الأمير مكين الدولة أبي علي الحسن ابن علي بن ملهم بن دينار العقيلي نائب المستنصر».

ولاريب في معرفة المؤيد بخطط اليازوري هذه ويبدو انه اراد حين قابل عطية ثم ثمال واجتمع بهما ان يخفي ملامح هذه الخطة مع خبر تحرك البساسيري ذلك ان كشفها كان بدون شك سيزيل الشقاق بين الأخوين ويوحدهما ويوحد جهديهما وقواتهما ضد العدو المشترك ، وبعد ان قابل ثمال المؤيد في الدين عاد ادراجه الى حلب دون ان يتصالح مع اخيه ، وعند عودته تفرقت قواته البدوية كما ان قوات عطية كانت قد تفرقت ايضا ، ومما لاريب فيه ان هذا قد افسح الطريق امام البساسيري لتحركه شمالا ومكنه من الاستيلاء على بالس دونما مقاومة ، ويروي المؤيد في الدين بانه عندما دخل الى حلب وجد الأمير ثمال كان لايزال غاضبا «لما اتفق عليه ما اتفق من خروج اخيه عليه وخيانته له في المال الذي سلمه اليه ، وتقاعد عشيرته عنه لما ارادهم في ساعة العسرة ، وتبرمه بالعسكر العراقي الذين جاوروه لما لقيه منهم من سوء العشرة ، ودعته هذه الدواعي كلها الى ان يورث سلطانه خلد الله ملكه ارضه ودياره ، ويتفيأ ارضه ويسكن جواره ، فكاتبه يستدعي شحنة يشحن بها قطر حلب، ويقضي بها من تسليمها وتسليم قلعتها كل ارب » .

غالبا ما تكون كثرة السذاجة وشدة البساطة في رواية اخبار الأمور السياسية مدعاة للشك والريبة لأنه ليس في التاريخ من تنازل عن حكمه دونما إكراه فعلي وتحت ضغط ظروف ليس فيها امل للمقاومة ، وهكذا ما اظن امر تنازل ثمال عن ملكه تم بهذه البساطة التي رواها المؤيد في الدين الذي كان كبير المسؤولين عن العقيدة الفاطمية التي استخدمت التقية بكثرة وكان لديها لكل ظاهر باطن.

لقد كانت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م سيئة ، لهذا ارسل الخليفة

المستنصر الى الشام جيشا لجبا على راسه الحسن بن علي بن ملهم، ولقد اشتبك هذا الجيش في عدة مواقع مع القوات البيزنطية لانطاكية ، وفي هذه الأثناء جهد ثمال بن صالح في اصلاح ما بين الخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية وايقاف القتال بينهما، فاخفق فعسكرت قوات ابن ملهم في افامية قرب الحدود البيزنطية وليس بعيدا عن حلب

لقد كان لثورة البساسيري وتحركات الغز اثر بالغ السوء على الوضع الاقتصادي في شمالي بلاد الشام ، يضاف الى هذا ان سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ - ١٠٥٨ م كانت سنة جفاف ذات مواسم رديئة. ويعتبر الذهبي هذه الحالة السبب الرئيسي الذي اجبر ثمال بن صالح على التخلي عن امارته . اذن القضية : جفاف ومواسم في غاية السوء مع تدمير للأرض ولما جاء من المحاصيل ، وتوقف للتجارة وحركة القوافل ، والبساسيري وقواته تضغط على حلب من المشرق وابن ملهم وجيشه من المغرب ، وقبيلة كلاب ممزقة منقسمة على نفسها ومتوزعة في البادية وسواها . هذه هي الظروف التي عاش تحت كابوسها ثمال بن صالح عام ٤٤٩ هـ ويمكن ان يضاف اليها سبب آخر هام وهو ان الامبراطورية البيزنطية كانت مشغولة في تلك الأوقات بمشاكلها الخاصة التي نجمت عن هجرة التركمان ، وتوغلهم في الاناضول .

عندما غدت الامور على هذه الصورة التي شرحتها ، سارع الوزير اليازوري لاقتناص فرصة ما أعد له من خطط وما ساعدته الاقدار على انجاحه فارسل ابن عقيل قاضي صور الذي كان انذاك من شخصيات الشام المرموقة وسبق له أن توسط بين ثمال بن صالح والخليفة المستنصر ، أرسله الى حلب للاجتماع بثمال لمحاولة اقتناعه بالتخلي عن حلب مقابل اقطاعه بيروت وعكا وجبيل ، ونجح ابن عقيل في اقناع ثمال ، وفي الثالث والعشرين منن كانون الثاني لعام ١٠٥٨ م ترك ثمال حلب متوجها نحو القاهرة ودخل ابن ملهم مع قواته الفاطمية الى المدينة ، وهكذا دخلت حلب مع شمالي بلاد

بلاد الشام تحت السلطان الفاطمي وحققت حركة البساسيري خطوة نجاح هامة نحو القضاء على الخلافة العباسية ومنع السلاجقة من اقامة امبراطوريتهم ومد السلطان الاسماعيلي على العالم الاسلامي.

ويبدو ان مجيء جيش ابن ملهم الى الشام قد خدم اكثر من غرض ، فبالاضافة لاشتباكاته مع بيزنطة وأخذه لحلب ، لاشك ان وجود هذا الجيش في شمالي بلاد الشام كان يقدم حماية ومساندة لحركة البساسيري ، وكان بامكانه تقديم النجدة والمساعدة حين الطلب وأثناء الحاجة ، هذا وكان في تحرك البساسيري شمالا فوائد كثيرة اضافة للقضاء على الدولة المرداسية اذ كان يجعله قريبا من ابراهيم ينال لاستعادة الموصل منه ، ولتوسيع الخلافات بينه وبين طغر لبك .

ويبدو مما رواه الخطيب البغدادي الذي عاش هذه الاحداث أن ابراهيم ينال عندما ترك بغداد راجعا نحو الموصل تبعه اخوه طغر لبك « وكان البساسيري راسل ابراهيم يشير عليه بالعصيان لاخيه ويطمعه في الملك للتفرد به ، ويعده بمعاضدته ومضافرته عليه ، وارسل ابراهيم ينال..رسولا من الموصل الى...ابي الحارث البساسيري وقريش بن بدران...وهما يومئذ في ...بالس بأن أسوق ـ انا المؤيد في الدين ـ اليه ما يلتمسه من الحضرة النبوية الفاطمية من الاموال الجزيلة والخلع والالقاب والالوية حتى يبطش بطغر لبك البطش الشديد الذي يهد قوته ويطفي نائرته ، فتصير جميع ممالكه في قبضته وحوزته ويكون هو ملكها ، وعلى أن تكون الخطبة لنا بالخلافة والامامة مقدمة على خطبته.

وأثناء سير السلطان خلف ينال نحو الموصل القي القبض على أحد الجواسيس الذي كان يحمل رسائل متبادلة بين ينال والبساسيري ، وعلم ينال الخبر فتحرك لفوره مع « قطعة عظيمة

من الجيش الى همذان ، ولم يشعر السـلطان لانه كان بعيدا عنه ، ولما علم سار فعدا خلفه خـوفا أن يسـبقه الى همـذان وبهـا حال التركمان فيملكها ويأخذ من همذان ما بها مـن خـزائن السـلطان وامواله وسلاحه.



اما وقد خلت الجزيرة الآن من التركمان فقد تحرك على الفور قريش بن بدران يسانده البساسيري نحو الموصل فاستعادها، «ولما تمهد امر قريش بالموصل رجع البساسيري الى مركزه بالرحبة» ، وفي الرحبة «علم ان بغداد فريسة لمن طلب وقبضة لمن رغب فزحف اليها بالرايات المستنصرية ، وصادف منها ارضا تعج الى الله تعالى من ظلم التركمانية» ، ودخلت طلائع البساسيري بغداد يوم الجمعة السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ / ٢٥ كانون اول ١٠٥٨ م ، «ثم دخل البساسيري بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطى دجلة ونزل هناك والعسكر معه ، واجمع اهل الكرخ (وكانوا شيعة) والعوام من اهل الجانب الغربي على مضافرة البساسيري، وكان قد جمع العيارين واهل الرساتيق وكافة الذعار واطمعهم في نهب دار الخلافة ، والناس اذ ذاك في ضر وجهد قد توالت عليهم سنون مجدبة والاسعار غالية والاقوات عزيزة» ، وحالما دخل البساسيري بغداد امن لنفسه السيادة على نصفها الغربي حيث كان اكثرية سكانه شيعة ، وحتى يكمل فتحه لبغداد والسيطرة عليها كان عليه ان يجتاز دجلة الى الجانب الشرقي حيث قامت دار الخلافة التي كانت عبارة عن شبه مدينة ، وقد قام الخليفة القائم بترميم أسوار هذه المدينة وبتحصينها ، وشحنها بالرجال والسلاح ، ولمدة عشرين يوما حاول البساسيري العبور الى الجانب الشرقي ولكن دونما نجاح وكان «القتال في كل يوم يجري بين الفريقين في السفن بدجلة» ، واخيرا ضعف أعوان الخليفة وتمكن البساسيري وأتباعه من العبور الى الجانب الشرقي «واحاطوا بدار الخلافة فنهب ما لايقدر قدره» ، واثناء سقوط دار الخلافة ونهبها ارسل الخليفة الى قريش بن بدران كيما يقوم بتسليم نفسه اليه ثم قرر ان يتوجه بذاته اليه ، فركب وعليه السواد وعلى كتفه البردة وبيده سيف مجرد ، وعلى رأسه اللواء والهاشميون حوله والجواري حاسرات ناشرات الشعور معهن المصاحف على رؤوس القصب وبين يديه الخدم بالسيوف المسللة» ، وعندما وصل الى

الساحة الكبرى لداز الخليفة وجد قريش بن بدران هناك ، فنادى رئيس الرؤساء ابن المسلمة قريش وصاح : « يا علم الدين امير المؤمنين يستدنيك ، فدنا...فقال: قد آتاك الله رتبة لم ينلها امثالك وأحللك منزلة لم يحلها اشكالك ، فان امير المؤمنيين يستذم منك على نفسه واهله وأصحابه بذمام الله تعالي وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العرب ، فقال قريش قد اذم الله له ، قال: ولي ولمن معه ، قال: نعم وخلع قلنسوة من تحت عمامته واعطاها ذماما للخليفة ، وأعطى مخصرته لرئيس الرؤساء ذماما...ونزل الخليفة ورئيس الرؤساء الي قريش وحصلا معه ، فقبل قريش الأرض دفعات...وبلغ البساسيري ، فارسل اليه يقول: أتذم لهما وقد أستقر بيني وبينك ما استحلفتك عليه ، وكانا عند انحدارهما قد تحالفا ان لا ينفرد أحدهما عن الآخر بشيء ، ويكون العراق بينهما نصفين فقال قريش: ماعدلت عما أستقر بيننا ، عدوك ابن المسلمة ، يعني رئيس الرؤساء، فخذه وأنا أخذ الخليفة ، فرضي بذلك" ، «وخرج الخليفة معه ــ قريش ــ من الدار راكبا وبين يديه راية سوداء ، وعلى الخليفة قباء أسود وسيف ومنطقة ، وعلى راسه عمامة تحتها قلنسوة...وضرب قريش للخليفة خيمة...فدخلها...وماشى البساسيري وزير الخليفة ابا القاسم بن المسلمة ويد البساسيري قابضة على كم الوزير «وهو يقول له: «مرحبا بمدمر الدول ؛ ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد » ، واعتذر أبن المسلمة للبساسيري وسأله العفو والغفران لكن البساسيري رفض قبول معاذيره وقال له :« قد قدرت فما عفوت وانت تاجر صاحب طيلسان ، ولم تبق على الحريم والأطفال والأموال ، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف وقد اخذت اموالي وعاقبت حرمي ونفيتهم الى البلاد والقلاع واعتقلتهم فيها وقتلت أصحابي ودرست دوري وسبيتني وأبعدتني وفعلت تلك الأفاعيل » وحاول الناس (العامة) تخطف ابن المسلمة ليقتلوه فمنعهم البساسيري ونقله الى حيث سجنه.

أما الخليفة الذي انزله قريش في خيمة بين اتباعه فقد لحقه «ذرب عظيم فامتنع من الطعام والشراب ، فسأله قريش وألح عليه حتى

اكل وشرب وفي يوم عرفة (٩ ذي الحجة سنة ٤٥٠ هـ) «أخرج الخليفة من الموضع الذي كان به ،وحمل الى الأنبار ومنها الى حديثة عانه على الفرات ، فحبس هناك وكان صاحب الحديثة والمتولي خدمة الخليفة بنفسه هناك مهارش البدوي» العقيلي الذي كان ابن عم لقريش بن بدران.

وعندما استقرت الأمور للبساسيري في بغداد قام بايقاف الخطبة للخليفة العباسي واحل محلها الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمي ، وضرب دنانير جديدة باسم المستنصر ، وبهذا كان البساسيري قد قام بالغاء الخلافة العباسية وازالها من الوجود ، وبذلك حققت الدعوة الفاطمية الاسماعيلية غاية أمانيها ووصلت رقعة دولتها الى اقصى حدودها ، ولقد كانت فرحة القاهرة بما تم لاتوصف ، وفي بغداد لم تتوقف احتفالات البساسيري ايضا وذلك في سبيل اظهار سطوة الحكم الجديد وقوته فبعد نفي الخليفة بأيام جيء بابن المسلمة واخرج من تحت العذاب فوضع «على جمل وطيف به في محال الجانب الغربي – من بغداد ، ثم صلب حيا ... وجعل في فكيه كلوبان من الحديد وعلق على جذع فمات»

ولم يزل الخليفة في محبسه بحديثة عانه الى ان ظفر طغرلبك بأخيه ابراهيم ينال وقتله ، وقد تم هذا على النحو التالي: فعندما لاحق طغرلبك ابراهيم ينال وصل قبله الى همذان وكانت القوات التي معه قليلة لذلك عندما وصل ينال الى همذان اخذ بحصار هذه المدينة وطال الحصار وامتد ، وفي هذه الأثناء كانت زوجة طغرلبك قد تمكنت من جمع بعض القوات التركمانية وتوجهت بها نحو همذان لفك الحصار عن زوجها ، وفي الوقت نفسه استنجد طغرلبك بالب أرسلان ابن أخيه جغري بك ، فخف بما لديه من قوات نحو همذان ، والتقى ابراهيم ينال بهذه القوات واشتبك بقتال مرير معها نجم عنه هزيمة قواته ووقوعه بالأسر ، وجلب ينال بعد أسره الى طغرلبك فقام بخنقه بوتر قوسه ، وحالما حصل هذا قرر طغرلبك التوجه بقواته نحو بغداد لطرد البساسيري منها ولاحياء الخلافة

العباسية . وكاتب طغر لبك مهارش وطلب منه ان يجلب الخليفة اليه ووعده وتوعده ، فقام مهارش بأخذ الخليفة معه وتوجه به نحو طغرلبك الزاحف بجيوشه نحو بغداد ، ويبدو ان البساسيري كان قد أراد أن يبعث بالخليفة الى مصر لكن سجان الخليفة العقيلي رفض تسليمه اياه لارساله الى مصر .

وعندما وصلت اخبار انتصار السلطان طغرلبك على اخيه ومن ثم زحفه نحو بغداد ، الى البساسيري،قام بترك بغداد والتحق بحلة دبيس بن مزيد أمير بني أسد وأخذ يحضر نفسه للعبور الى الرحبة ، لكن ما أن وصل السلطان طغرلبك بغداد حتى ارسل بعضا من قواته لمطاردة البساسيري ومنعه بنفس الوقت من العبور الى الشام ، ونجحت قوات طغرلبك في مهمتها هذه حيث لحقت بالبساسيري فقتلته وعندما جيء بجثته الى السلطان وجد «في جيبه خمسة دنانير فدفعها السلطان الى من قور راسه واخرج مخه ، ...فترك على قناة وطيف به ـ في بغداد ـ وضربت بين يديه الدبادب والبوقات وعلق مدة ثم حمل الى خزانة الرؤوس.

لم تتجاوز الفترة التي سيطر بها البساسيري على بغداد أيام سنة هجرية واحدة ، وعاد الخليفة الى داره المشعثة وعاصمته المهدمة بعد سنة سجن (٣٢) ، وبالقضاء على حركة البساسيري تم لطغر لبك ارساء قواعد الامبراطورية السلجوقية ، ولقد نجم عن اخفاق ثورة البساسيري وقيام العهد الجديد نتائج على غاية من الخطورة ، فقد طويت الآن صفحة من تاريخ العرب والاسلام وبدأت واحدة جديدة ، وهكذا يمكن اعتبار سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م سنة فاصلة في تاريخ الاسلام ، ويمكن ايضا اعتبار مقتل البساسيري من الأحداث ذات الأثر الحاسم بالنسبة للدين الاسلامي وخاصة الجانب الفكري والحضاري منه ، وليس من المغالاة أن يطلق المرء على الفترة التي سبقت مقتل البساسيري وقيام الامبراطورية السلجوقية بكل ما لها وما عليها اسم «فترة الحرية» والفترة التي تلتها اسم«فترة الحتمية».

لقد كان السلاجقة سنة متعصبين لسنتهم وكان لهم طرقهم الخاصة للدفاع عن السنة ولجلب الناس إلى حظيرتها ، وغالبا ما اعتمدت هذه الطرق على العنف والقمع والتهديد بالموت ، ونادرا ما اتخذت من الحجة والاقناع وسيلة ، وقبل الاستطراد بهذا مفيد أولا ان نتذكر بأن القسم الأعظم من العالم الاسلامي كان حتى وفاة البساسيري يدين معظمه إما بإحدى عقائد الشيعة أو كان يخضع لحكم او لنفوذ إحدى الدول الشيعية ، ولقد كانت الدولة الفاطمية هي أعظم القوى العقائدية والسياسية للشيعة وكان القضاء على ثورة البساسيري انحسارا للمد الشيعي وبداية حاسمة للعودة نحو السنة ، ولا تكمن القضية في أمر انتصار السنة على الشيعة وإنما في الطرائق التي استخدمت ومكنت من هذا الانتصار

وأمر الصراع بين الفكر السني والعقيدة السنية من جهة والحركات الشيعية من عقائد وافكار من جهة أخرى هو ليس بالجديد في التاريخ الاسلامي ، وقيام الثورات الشيعية والقضاء عليها أمر عادي ايضا في تاريخ الاسلام ، إنما الجديد هو نوع الملاحقة المستمرة التي لقيتها الحركات الشيعية منذ الآن فحولتها من حركات ذات اهداف توسعية ، وبرامج ذات نظرة شاملة ، إلى طوائف همها المحافظة على مالديها من مكاسب ، وغدت الأفكار والعقائد التي كانت جزءا من برامج للنشر على الناس قاطبة عبارة عن أشياء محاطة بأطواق من السرية المميتة ، ولعل ما اصاب العقيدة الاسماعلية بعيد القضاء على ثورة البساسيري بفترة وجيزة كاف للتدليل على هذا،فلقد قامت حركة جديدة بين الاسماعيلية اسسها حسن الصباح الذي اتخذ من قلعة الموت مركزا له ، ولقد تبنت هذه الحركة ــ للانتصار والانتشار والقضاء على أعدائها ــ عقيدة الاغتيال السياسي بواسطة المدية ، وعملية الاغتيال السياسي هي وسيلة دفاعية لاتلجأ إليها الحركات ذات الاهداف الثورية التوسعية ، وكل حركة ذات طابع دفاعي هي حركة منكمشة تزول بزوال خط الدفاع وبتحطمه .

ولقد أنتج الصراع بين السنة والشيعة في السابق نتاجا ثقافيا له

قيمة حضارية كبيرة ، ولكن السلاجقة الآن تخلوا عن قرع الحجة بالحجة واتخذوا السيف ، وبنفس الوقت اقاموا المدرسة النظامية في بغداد وكان لهذه المدرسة فروعا في اغلب اصقاع وبلدان الامبراطورية السلجوقية ، ولقد ارتبطت المدرسة النظامية بالدولة ووجهت من قبلها ، وقامت بتخريج علماء بثوا افكارها ونشروها ، وطبيعي أن هذا شيئا خطيرا جديدا في تاريخ العقيدة الاسلامية ، فقد اعتادت هذه العقيدة منذ قيامها على إقامة الدول وتوجيهها ولم تحتج قط إلى مساندة حاكم او صاحب نفوذ كي تنتشر ، اما الآن وقد أخضعت لتوجيهات الدولة (دولة اوتوقراطية عسكرية) بشكل منظم ومنهج ومدعم بقوة السلاح فهذا امر خطير ، صحيح انه مكن من جعل معظم الشيعة سنة (وكان هذا سيتم حتما إنما بوقت أطول) لكنه الآن وقد تم بهذه الوسيلة فإن ماجره على السنة كان فادح الثمن ، لقد تحولت السنة نفسها بعد حين إلى طائفة كبيرة اغلق فيها باب الاجتهاد ، فزال الابداع من بين صفوفها واختفى أعلام الفكر الكبار ، وكم كان الأمر خطيرا أن تفقد السنة حيويتها وإبداعها وتنقلب إلى محافظة وقياس بحت وتتحول كتبها إلى شروح وحواشي ليس أكثر .

القضية بالغة الخطورة فمازال العالم الاسلامي يعيشها ، لذا يكفي هنا للبرهنة سوق المثالين التاليين فقط : في سنة ٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م ، اي قبل أن يدخل طغرلبك بغداد ، « وقف طغرلبك السلجوقي على مقالات الأشعري ... فأمر بلعن الأشعري على المنابر » ، « فضج من ذلك ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وعمل رسالة سماها شكاية أهل السنة لما نالهم من المحنة ، وقال فيها : أيلعن إمام الدين ومحي السنة ؟ ! وحاول عدد أخر من علماء المسلمين إيقاف عملية اللعن هذه فأخفقوا (٣٣) .

عاش ابو العلاء المعري قبل وفاته سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م في معرة النعمان التي كانت من أملاك المرداسيين الذين اعترفوا

بالخليفة الفاطمي ، وبشر المعري في المعرة بفلسفته وأفكاره ، وكتب وقال ما اراد دون خشية أو خوف ، ولم يحاول واحد من معاصريه الضغط عليه أو تهديد حياته باستخدام العقوبة أو السيف ضده ، حتى المؤيد في الدين داعي الدعاة (أي السكرتير الأول للحزب الفاطمي) الفاطمي فإنه رغم معرفته بأن أفكار المعري تعارض آراء العقيدة الفاطمية لم يحاول أبدا استخدام العنف معه ، ولم يوح به ، رغم أنه كان يستطيع فعل ذلك ، والذي فعله المؤيد هو اتباع الوسيلة الجدلية وقرع الحجة بالحجة بالمناقشة ، ولقد وصلنا العديد من الرسائل التي تبادلها المعري والمؤيد بينهما ، هذا وإن جميع الذين قالوا بتكفير المعري او زندقته لم يكونوا من معاصريه بل كانوا جميعا ممن جاء بعده ، أي كانوا من نتاج عصر الحتمية عصر النصر السلجوقي والمدرسة النظامية) (٣٤) .

ويجدر بنا أن ننهي هذا الفصل بنهاية سلطنة طغرلبك فبعد ان عاد إلى بغداد واعاد إحياء الخلافة العباسية ، شعر انه لم يبق أمامه من القوى مايخشى ، وأن ما بقي عليه هو التوجه إلى الشام لاخضاعه ومن ثم إلى مصر للقضاء على الخلافة الفاطمية ، لكنه قبل أن يقوم بهذا اراد أن يرفع من مكانة نفسه ، ويزيد من نفوذه وسيطرته ، فبعد أن قابل الخليفة العباسي طلب من الخليفة الزواج من ابنته ، والخليفة العباسي ذلك الانسان المتحضر كان مهما علت نظرته إلى طغرلبك ومهما خافه وهابه ، كان يعتبر طغرلبك بدويا شبه متوحش وحديث عهد بالنعمة ، ولايعدو عبدا من عبيد الخلافة العباسية وجندها ، وهو قبل كل شيء كان أعجميا لايمت إلى العرب وقريش وبني هاشم بصلة ، لذا كان زواجه بابنة الخليفة أمر لايكاد العقل يتصوره ، ورغم كل هذا فلقد استجاب الخليفة ـ بعد ضغوط شديدة ومعاتبات وتهديدات واسعة ووعود ـ مكرها لطلب طغرلبك الذي كان قد جاوز السبعين من عمره فوافق على زواجه من ابنته التي كانت لم تكن تتعدى بعد العشرين من عمرها ، وليت ان الامور قد توقفت عند هذا الحد ، فالخليفة الذي وجد أن الزواج أمر لابد منه اراد أن تتم مراسيم هذا الزواج حسب التقاليد الاسلامية العباسية

وفي مدينة بغداد ، لكن طغرلبك رفض ذلك واصر على ان يتـم الزواج في أصفهان وحسب الأعراف والتقاليد التركية ، ومرة أخرى رضخ الخليفة وأذعن لرغبة سيده « وعبده » طغرلبك فـأرسل ابنتـه إلى أصفهان ، ولم ينجم عن هذا الزواج شيئا فقد كان طغرلبك بالاضافة إلى تقدمه بالسن عقيما ، كما أنه كان وقت الزواج عليلا لذا لم ينعم بابنة الخليفة طويلا ، فبعد ثلاثة او اربعة أشهر توفي طغـرلبك وكان ذلك سنة ٤٥٥ هـ /١٠٦٣ م ، دون أن يتـرك وراءه ولدا يخلفـه في السلطنة ، وبموت طغرلبك برزت مشكلة خلافته إلى الوجـود ، غير أن هذه المشكلة حسمت بتولي الب ارسلان ابـن أخيه جغـري بـك السلطنة ، ويعد الب ارسلان من أعظم الحكام واشهرهم في التاريخ الاسلامي وهو مع ابنه ملك شاه كانا أعظم سـلاطنة بني سـلجوق على الاطلاق (٣٥) .



الفصل الثالث

الاجتياح السلجوقي للجزيرة والشام

ابن خان . التاوكية . حملة الب ارسلان على الشام والجزيرة . اتسز . تتش بن ألب ارسلان . مسلم بن قريش وسقوط الدولة المرداسية . حملة ملك شاه على الشام والجزيرة

وكان من عجائب الزمان أن انطاكية خربتها زلزلة عظيمة قبل فتحها (من قبل الفرنجة) بمدة أربع سنين ، وسقط من سورها عدة أبرجة .

حكى القاضي حسن بن الموج الفوعي قال : كنت قد هربت من المجن (بركات بن فارس الفوعي رئيس أحداث حلب في زمن رضوان ابن تتش) ووصلت إلى انطاكية وخدمت بها الأجل مسعود وزير يغي سغان (أمير انطاكية) فتركني على العمارة ، قال : فعدنا إلى ما قد اخربته الزلزلة من السور فعمرناه ، فعاد أحد الابرجة هبطا وعاب ، فأشير علينا بنقضه ، وأن يقرر أساسه ، فهدمناه ، ونزلنا على اخر دمس في أساسه ، فوجدنا جرنا قد انكسر عليه طابق عظيم فكشفناه ، فوجدنا فيه سبعة أشخاص من نحاس على خيل من نحاس على كل واحد ثوب من الزرد معتقلا ترسا ورمحا، قال : فعرفت الأجل مسعود بذلك ، فنفذ ثقته فاخرج الأشخاص وكشف ما تحت

الجرن فلم يجد شبيئا سـواها ، فحمـل الأشـخاص إلى الوزير ، فأخذها واحضرهـا إلى مجلس الامير يغـي سـفان ، فقـال بعض الحاضرين : لو أحضر الأمير من مشايخ المدينة من يكشف له حقيقة هذا الأمر ، فتقدم بأحضار جماعة وابرزت إليهم الأشـخاص ، وقيل لهم : تعرفون ما هذه الاشخاص ؟ قالوا : ما نعرف بـل إننا نحـكي للأمير ما يقارب هذا الأمر ، لنا دير يعرف بدير الملك واسع الهـواء عاب علينا في سنة سبع وسبعين واربعمائة ، فتكسر اكثـر خشـبه ، فنقضناه وتطلبنا له خشبا بمقداره فلم نجد بأنطاكية وبلدها شـيئا ، فأشار علينا بعض الصناع بتقديم الحائط فحفرنا اساس الحـائط الجديد ، فلما انتهينا إلى أسفله وجدنا أشخاص أتراك من نحاس في أوساطهم القسي والنشاب فلم نحفل بذلك ، وعمرنا الحـائط ، فمـا مضى لنا غير مدة قصيرة حتى سرق المدينة سليمان بن قتلمش في أول شعبان سنة سبع وسـبعين واربعمـائة في اربعمـائة غلام أو دون ، وملكنا كما سمع الأمير ، وهذه الأشخاص ربما كانت من أمة هـذه اشكالهم من العرب أو غيرهم من المسلمين ، ووروا عن خبر الفرنج وكان قد وصلهم عنهم اخبار شاذة وما يجسر احـد يفـوه بهـا ، فشتمهم يغي سفان اقبح شتم وقال : يا كفار في الارض غير الاتراك وامر بإخراجهم ، فما حال الحـول حتـى قيل الفـرنج قـد نزلوا القسطنطينية (١).

عندما تعرضت الموصـل لأول غارة غزية في تـاريخها ، وصـلت اصداء هذه الغارة إلى حلب التي كانت تحكم انذاك من قبـل ثمـال ولقد سجلت هذه الأصداء في شعر ابن ابي حصينة شاعر ثمال بقوله

أموا وهموا بالورود فراعهم
من دونه هذا الهمام الأروع

من مبلغ الأتراك ان امامهم
بحرا يغرق موجه من يشرع

يتيقنوا ان الشام واهله
أحمى بلاد الخافقين وامنع (٢)

كان الغزاة الجدد بالنسبة لابن أبي حصينة أتراكا فكروا بغـزو الشام ، لكنهم تراجعوا عن القيام بذلك بسبب قوة ثمال ومتانة حكمه وطبعا الشعراء كما هو معروف «يتبعهم الغاوون» ، فقد سقط ثمال وزال حكمه كما رأينا نتيجة لدخول الغز بغداد وتسلمهم زمام الأمور بها .

بعيد مقتل البساسيري قام عطية بن صالح بـالاستيلاء على بلدة الرحبة وحاز على جميع ما تركه البساسيري فيهـا ، وتمـكن في تلك الأثناء محمود بن نصر بـن صـالح مـن الاسـتيلاء على حلب

وطردالنائب الفاطمي منها ،ولما عجزت الدولة الفاطمية عن استعادة حلب طلب الخليفة المستنصر من ثمال بن صـالح مغـادرة القـاهرة وعينه مرة جديدة أميرا على حلب ، وعينه مـرة جـديدة أميرا على حلب ، ولقد استطاع ثمـال بعد عناء دخـول حلب يوم الاثنين ٢٩ ربيع الأول عام ٤٥٣ هـ ٢٣ نيسـان ١٠٦١ م ، فـأستأنف أمارته فيها وجدد حكم الأسرة المرداسية في شمالي بلاد الشام . لكن حكمه هذه المرة كان قصيرا ، ففي ١٣ ذي القعدة من العام التالي ٤٥٤ هـ ١٨ تشرين ثاني ١٠٦٢ م توفي ثمال ، وخلفـه – بناء عل وصيته – أخوه عطية بن صالح في إمـارة حلب (٣) . لكن ذلك لم يرض محمود بن نصر فقام ينازع عمه على الامـارة .

تبعا لابن العديم لم يدخل احد من الغز بلاد الشام حتى بعد وفاة ثمال بن صالح ، وذلك أثناء الصراع الذي تبع وفاته من أجل حـكم حلب بين أخيه عطية بن صالح وابن أخيه محمود بن نصر الذي ثـار ضد عمه مدعيا بأنه أحق من عمه في حكم حلب ، وقام محمود بجمـع قبيلة كلاب حوله وتـوجه على رأسـهانحو حلب ، وفي رجـب سـنة ٤٥٥ هـ/تموز ١٠٦٣ م حاصر محمود وقواته الكلابية مـدينة حلب في محاولة لاستحواذها وانهاء حكم عطية واحلال نفسه محله .

ويبدو أن عطية بن صالح كان اقل مكانة من سـواه مـن اخـوانه في قبيلة كلاب ، لذلك أيد الكلابيون ابن أخيه ضده ، ولكن عندما حاصر الكلابيون حلبا هذه المرة ، كان الزمان الذي احتجزت فيه قبيلة كلاب القوة المؤثرة والكلمة الفصل في المنازعات من اجل سيادة شمال بلاد الشام قد ولى إلى غير عودة ، فقد كانت المنطقة وما جاورها تمـوج بقوى الغز الجديدة ، وستكون الكلمة الفصل منذ الآن لهذه القـوى ، وكان الآن بإمكان عطية وسواه الاستغاثة باحدى مجمـوعات الغـز ودعوتها لمساندته ، وهذا ما حصل .

عند اشتداد الحصار على عطية وجـه الدعوة الى احـد زعمـاء التركمان الذي عرف باسم ابن خان ودعاه للقـدوم إلى حلب ، وكان ابن خان مقيما في الجزيرة ، وما أن وصلته دعوة عطية حتى تحـرك مع اتباعه نحو حلب ، لكن ما ان وصـلت أخبـار تحـركه هـذه الى محمود بن نصر واتباعه الكلابيين حتى سارع معهم للعمل على فـك الحصار عن حلب ، وتحرك عطية بسرعة فطلب من ابـن خـان عدم متابعة سيره نحو حلب ، كما قام بصنع نوع من المصالحة مـع ابـن اخيه محمود بن نصر ، وهكذا لم يدخل أحد من التركمان حلب هـذه السنة .

ولقد كانت هذه التسوية التي تمـت بين عطية ومحمـود تسـوية مؤقتة تمت تحت ضغط ظروف استثنائية ، ففي الأسـبوع الأول مـن شهر ايار للعام التالي (١٠٦٤ م) تحرك محمود من جديد ضد عمـه واستولى على حماة ومعرة النعمان مع حصن كفر طـاب ، ثـم قـاد قبيلة كلاب نحو حلب ، ولقد اخفق عطية في صـد محمـود وقـواته ، ووقعت حلب تحت الحصار ، وكان الحصار حصارا قـاسيا أجبـر عطية على تجديد استغاثته بابن خان واتباعه من الغز ، واسـتجاب ابن خان لطلب عطية وجاء نحو حلب ، ودخلها ، ولقد سـبب قـدومه ودخوله إلى حلب انسحاب محمود مع قواته الكلابية ، وهكذا تحـرر حكم عطية من الخطر الكلابي ولكنه وقع في الوقت ذاته تحـت خـطر جديد اشد مما تقدمه سيكون حتفه على يديه .

وما ان دخل ابن خان حلب حتى بدا على الفور يباشر سلطانه عليها وعلى جميع شؤون الامارة ، ولم يسترح اهالي حلب للسادة البداة الجدد ، وكره أحداث حلب الغز الذين بداوا ينازعونهم سلطانهم التقليدي ويعملون لازالتهم من الوجود ، وعطية نفسه وجد انه أخذ يفقد سلطته كأمير ، لذلك سارع لاقامة صلح جديد مع ابن اخيه محمود ، تقاسم على اساسه معه اراضي الامارة ، ، وبدا عطية بعد هذا يعمل للتخلص من ابن اخيه واتباعه وتوجه نحو الاراضي البيزنطية فأعمل الغارة فيها ، ثم توجه عائدا نحو حلب ، وكان يخيل له بأن ابن خان لن يعود معه ، لكنه عاد ووجد عطية نفسه امامه بلا حول ولا طول فقبله مرة اخرى في حلب .

وبدا عطية يفكر في طريقة جديدة مجدية للخلاص من ابن خان واتباعه ، وفي احدى ليالي كانون الثاني لعام ١٠٦٥ م وجد عطية الفرصة للخلاص من الغز ، فقد كان ابن خان انذاك خارج حلب ، وهنا أمر عطية الأحداث أن يغيروا فجأة على محلات الغز ، ونفذ الأحداث الأوامر ، فنهبوا خركاوات الغز وقتلوا عددا من رجالهم واسروا بعضا من النساء ، واستولوا على خيول واسلحة الغز ، وأجبروا من بقي حيا منهم على الفرار إلى خارج أسوار حلب ، وعندما سمع ابن خان بما حدث ورأى ما حل باتباعه جمع فلولهم ، وأراد التوجه بهم شرقا نحو أعالي الجزيرة ، لكن القبائل البدوية التي كانت قاطنة حول حلب تخطفتهم وحالت بينهم وبين الوصول إلى غايتهم ، وهنا اتخذ ابن خان قرارا خطيرا بأن قام بالسفر إلى سرمين حيث كان يعسكر محمود بن نصر فالتجأ اليه ووضع نفسه ومن بقي معه من أصحابه تحت تصرفه .

ولقد شجع هذا محمود بن نصر كثيرا ، فقام بجمع قواته الكلابية وتوجه على رأسهم نحو حلب فحاصرها لمدة ثلاثة اشهر ، ولقد كان الحصار قاسيا ، وكان ابن خان والغز من اكثر الناس تأثيرا به ، ولما شعر عطية بأنه لن يستطيع متابعة المقاومة ، تنازل عن حلب وسلمها لابن اخيه الذي دخلها في التاسع من اب ١٠٦٥ م (٤) .

بعدما دخل محمود حلبا لم يدخل ابن خـان واتبـاعه إلى المدينة لأنهم كانوا يخشون الاصطدام بالأحداث ، ولقد سافر ابن خان نحو الجزيرة والعراق وعاد الى أمـارة حلب في العـام التـالي ١٠٦٦ م ومعه فوجا جديدا من الاتباع كان مؤلفا من أصول مختلفة فيه بـالاضافة إلى التـركمان كرد وديلم واوج (الأوج اسـم اطلق على سكان الحدود الأسلامية البيزنطية) ، ولقد اقطع محمود ابن خـان بلدة معرة النعمان ، فدخلها مع اتباعه واستقر بها (٤) .

بعد هذا الحديث لابد للمرء أن يتساءل من هو ابن خان هذا ؟ وسأحاول الاجابة على هذا السؤال ، ثم اتابع بعـدها الحـديث عن الأعمال التي قام بها هذا التركماني في بلاد الشام ، لكن قبل البدء في الاجابة ينبغي التنبه إلى الأمر التالي وهـو أنه عند قيام اي هجـرة بدوية يكون في العادة من أصعب الامور على الباحث التعرف بشـكل يقيني على زعماء الهجرة فردا فردا وبالتالي تبيان أعمال كل واحـد منهم ، وعلى هذا الأساس يمكننا ان نقول منذ البدء بأنه قد يكون قد وجد بين التركمان أكثر من ابن خـان أي ان ابـن خـان الذي دعاه عطية أول مرة قد يكون غير ابن خان الذي دخل حلب لأول مرة ، ثـم إن الأعمال التي سننسبها إليه قد تكون صنعت من قبل غيره،إن أوفى معلومات وصلتنا عن ابن خان هي التي أوردها ابن العديم (هذا وإن لفظة ابن خان توحي بمكانة صاحبها ، كما لو نقـول ابـن الأمير او ابن الملك). ويروي ابن العديم بأن ابن خـان كان ابنا لملك التـرك ، وانه غاضب اباه وهجره نحو الأراضي المروانية في أعالي الجـزيرة ، وفي الوقت الذي لا يبين فيه ابن العديم مـن كان ملك التـرك هـذا ، يبدو كأنه ينقل بلا شعور كلمة ابن خان إلى العربية ، وعلى كل حال نحن نستخلص من ابن العديم بأن هارون كان هو الاسم الأول لابن خان ، واتباعه كانوا عبارة عن الف من الرماة من أصـول مختلفـة كان التركمان العنصر الغالب بينها .

لقد ذكرنا بأنه نتيجة لمؤامرة عطية اضطر ابن خان مـع الناجين من اتباعه للالتحاق بمحمود ، ثم ذكرنا بعد ذلك توجه محمـود نحـو حلب وحصاره لها ، واشرنا بأن الغز اتباع ابـن خـان كانوا الأداة

الفعالة و والمؤثرة التي ادت إلى سقوط حلب بيد محمود وبالتالي إلى انهاء حكم عطية ، ومعلوم ان اعمال الحصار وفتح المدن كانت في العادة تحتاج إلى عدد كبير من الجند ، ولما كان اتباع ابن خان الذين نجوا من حلب كانوا لايتجاوزون حفنة من الرجال فإن هنا غموضا يحتاج للجلاء .

يحدثنا كلا من العظيمي وابن القلانسي بانه بعد ان التحق ابن خان بمحمود قام كلاهما بالسفر الى طرابلس ، وبعد أن مكثا هناك بعض الوقت عادا وتوجها مع قواتهما نحو حلب فحاصراها حصارا كان ابن خان واتباعه من الغز السبب الكبير الذي ادى الى سقوط المدينة الى محمود بن نصر ، ان هذا الخبر يفيد بان محمودا وابن خان ربما قاما ـ عندما كانا في طرابلس ـ بتجنيد جيش غزي ، واذا صح هذا ففيه اشارة ودليل الى وجود تركمان آنذاك في منطقة طرابلس ، وهذا بدوره يعني أن بعض الغز كانوا قد دخلوا جنوب غربي بلاد الشام قبل دخولهم حلب .

تتحدث مصادرنا وعلى الاخص كتاب مرآة الزمان (القسم الذي يحوي تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء الذي عاصر الاحداث التي نحن بصددها فسجلها بشكل مفصل) عن مجموعات من التركمان اطلق عليها اسم الناوكية ، وتروي هذه المصادر بأن معظم الناوكية قد هاجر الى الاراضي البيزنطية ، وجنوب غربي بلاد الشام مع فلسطين ، ويبدو أن الناوكية كانت أول جماعات التركمان التي دخلت بلاد الشام ونشطت فيها ، وانها جاءت الى الجنوب الغربي من بلاد الشام قبل سواها من المناطق ، ويبدو انها سلكت الطريق الساحلي عن طريق انطاكية .

لقد كان زعيم الناوكية سنة ١٠٧١ م في جنوبي غربي بلاد الشام يدعى قرلو ، ويتحدث ابن العديم عن قرلو هذا كابن اخ لابن خان ، ولقد هجر ابن خان حلب سنة ١٠٧٠ م ، وتوجه نحو صور حيث دخل في خدمة قاضيها ابن عقيل الذي كان حاكمها ايضا ، . ولقد دبر ابن عقيل في السنة نفسها أمر اغتيال ابن خان بواسطة احد اتباعه

التركمان ، ويمكن الاستنتاج من كل هذا بأن ابن خان كان من جماعة الناوكية ، وربما كان زعيم جميع الناوكية الذين دخلوا بلاد الشام في أيامه .

ويبدو أن كلمة ناوكية لم تكن اسما لاحدى عشائر التركمان ، ولكنها كانت اسما أطلق على جماعات محددة من المرتزقة الذين لم يدينوا بالطاعة للسلطان السلجوقي ، ولقد كان التركمان يشكلون الأكثرية العددية في هذه الجماعات ، وحوت الأقلية عناصر مختلفة من السكان المحليين لخراسان والعراق والجزيرة ومن بقايا جند الدول التي زالت مع انتصار السلاجقة وقيام امبراطوريتهم ، هذا ولقد مر معنا كيف أن ابن خان ذهب بعد فتح محمود بن نصر لحلب . ذهب شرقا نحو الجزيرة والعراق ثم عاد بعد قرابة سنة ومعه ألف من الرماة من غز وكرد وديلم وأوج .

لم تقدم الناوكية الطاعة للسلطان السلجوقي ، فلقد هجر ابن خان مدينة حلب سنة ١٠٧٠ م عندما سمع بتوجه السلطان الب ارسلان نحوها للاستيلاء عليها ، ذلك انه خاف على حياته لذلك هرب ناجيا بها نحو صور حيث لقي حتفه ، وعندما وصل السلطان الب ارسلان إلى حلب قام بحصارها لفترة من الزمن (هذه قضية سنتعرض لها بالدراسة بعد قليل) ثم تصالح مع محمود بعدما اخفق في الاستيلاء عليها ، ولقد أتهم الب أرسلان ابن خان بأنه كان السبب الذي جعل محمودا يقاتل ضد السلطان ويرفض الخضوع له .

هذا ويبدو أن الناوكية كانت لهم علاقة بالتركمان العراقية ، او هم انفسهم بأسم جديد (٦) هاجروا تحت ضغط السلاجقة وتركمانهم من العراق إلى بيزنطة والجزيرة ، وعندما تدفق هؤلاء على الأراضي البيزنطية توغل الناوكية اكثر فاكثر داخل بيزنطة وجاء بعضهم إلى بلاد الشام ، وظلوا في هذه البلاد حتى ذابوا في جسم التركمان اتباع السلاجقة الذين جاؤوا الى الشام بعد عام١٠٧٠ م كما سنرى ، ومع اننا سنتحدث عن اعمال الناوكية في جنوب

الشام وشماله بكثير من التفصيل إلا انه من المفيد ان نذكر هنا بانه على الرغم من أن الناوكية لم تخضع للسلطان السلجوقي إلا أن اعمالهم في بلاد الشام قد مهدت للاستيلاء السلجوقي وساعدت على انجاحه (٧) .

ولقد كان ابن خان واتباعه اداة فعالة في يدي محمود بن نصر ، فبوساطتهم نال منصب الامارة ، وبقوتهم استطاع تدعيم نفسه في منصبه كما تمكن من إخضاع كافة القبائل البدوية التي كانت تسكن في إمارته ، وفي عمله هذا كان محمود - ربما بدون شعور - يمهد السبيل لتبديل سياسي هائل في بلاد الشام ، الا وهو إزالة القبائل العربية من على مسرح السياسة وإحلال التركمان محلها .

يروي ابن العديم أن محمودا تحرك في عام ٤٥٩ هـ /١٠٦٧ م جنوبا نحو مدينة حماة ، وكان على راس قوة مؤلفة من بعض اتباعه من الكلابيين ومن ابن خان واتباعه ، ولقد كان هدف محمود اخضاع جميع البدو القاطنين في منطقة حماة أنذاك ، حيث ان هؤلاء البدو حاولوا خلق فتنة بينه وبين عمه عطية بن صالح الذي كان موجودا أنذاك في مدينة حمص (٨) .

لقد كان مركز عطية بعد تركه لحلب كما جرت عادته إما في الرقة أو في الرحبة (٩) . هذا ولا يوضح ابن العديم حين روى خبره هذا لماذا كان عطية سنة ١٠٦٧ م في مدينة حمص التي كانت انذاك تحت الحكم الفاطمي !

ويقدم كلا من غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء وابن تغري بردي شرحا للسبب الذي دعا عطية للوجود في حمص ، فقد رويا بأن المستنصر الخليفة الفاطمي كتب سنة ١٠٦٧ م إلى محمود بن نصر طالبا منه : أن يرسل خراجا سنويا عن إمارة حلب إلى القاهرة ، وأن يقوم بغزو الأراضي البيزنطية ، وأن يقوم بطرد ابن خان واتباعه من إمارته ويتوقف عن استخدامه في اعماله ، ولقد رد محمود على المستنصر موضحا له بانه كان لا يستطيع تنفيذ واحد من مطالبه

الثلاثة هذه ، ذلك لأنه كان لا يملك اي فائض من المال حتى يرسله إلى القاهرة ، حيث انه انفق مبالغ كبيرة اثناء عمله لانتزاع حلب من عمه عطية ، وكان القسم الاكبر من هذه المبالغ قد استدين من بعض الناس ومن الامبراطورية البيزنطية التي عقد بينه وبينها معاهدة صداقة وأودعها أحد أولاده رهينة من أجل الوفاء بالمعاهدة ومن أجل تسديد الديون ، لهذا كان من غير المعقول الاغارة على الأراضي البيزنطية ، ثم لم يكن هناك اسباب مسوغة للحرب ، وفيما يختص بابن خان وأتباعه قال محمود في جوابه للمستنصر :«واما ابن خان والغز الذين معه فيدهم فوق يدي ، وإنما أستخدمتهم مصانعة لهم وكفا لفسادهم فإن رؤي صرفهم فينفذ إليهم من هو اقوى عليهم مني وانا اساعده »، ولما وصل جواب محمود إلى المستنصر كتب إلى بدر الجمالي واليه على دمشق : «إن ابن الزوقلية (أي محمود بن نصر) قد خلع الطاعة وإنه مال الى الجهة العراقية ، فتسير وتقاتله ».

ولما كان بدر غير قادر على تشكيل اية حملة او قيادة اية قوات ضد حلب فقد كتب « إلى عطية وهو بالرحبة ان يسير إلى حلب ووعده بالمساعدة ».

وعندما استلم عطية رسالة بدر ترك الرحبة وجاء إلى حمص حيث بدأ يجند جيشا من بين قبيلة بني كلاب وغيرها من القبائل ، وعندما وصلت اخبار تحركات عطية هذه واعماله إلى محمود ترك مدينة حلب و«اتى حماة ووطىء جميع العرب واذلها » ومرة أخرى كاد محمود أن يصطدم بعطية لكن عطية لم يجرؤ على القتال « لمعرفته بغدر االعرب به مرة بعد أخرى وأراد أن لا ينهدم مجد ال مرداس » ، ومع ذلك كان لا بد من إيجاد مخرج يعود على اساسه محمود إلى حلب ، ويتوقف به عطية عن اعماله ، وبالوقت نفسه ترضى به القاهرة ونائبها في دمشق ، وهنا تدخل ابن عمار قاضي طرابلس وحاكمها «بينهم واصلح الحال ، واستحلف محمود وعطية لصاحب مصر ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه على أن الرحبة وبالس والرقة والبلاد الفراتية لعطية وحلب لمحمود ، وسار عطية إلى دمشق فاقام في خدمة صاحب مصر» (١٠).

ليس لدينا معلومات عن الاسباب التي جعلت قسما كبيرا من قبيلة كلاب مع غيرها من القبائل تتجمهر في عام ٤٥٩ هـ/١٠٦٧ م في منطقة حماه، ذلك ان اماكن تجمهر كلاب كانت في العادة في أطراف حلب ومعرة النعمان او في مناطق الرقة والرحبة، وبرغم ندرة المعلومات فانه من المتصور أن ما كانت تتعرض له الجزيرة مع شمالي بلاد الشام آنذاك من ضغط بسبب هجرة التركمان اليهما وتوغلهم فيهما جعل الكثير من القبائل تترك ديارها غربا وجنوبا، ولقد كانت اعالي الجزيرة وخاصة منطقة الموصل في هذه الآونة معرضة للضغط المباشر الناجم عن الهجرة، ولقد تأثرت قبيلة عقيل التي كانت تحكم الموصل تأثرا كبيرا بسبب تدفق التركمان، وكان مسلم بن قريش هو امير الموصل، ولقد وجد مسلم مع قبيلته انفسهما مكرهين على الانزياح تدريجيا عن ديارهم والتحرك غربا، ولقد كان التركمان يشعرون أن الموصل والدولة العقيلية هما العقبة الرئيسية في طريقهم لمد نفوذهم على الشام والجزيرة، ولكن لما كانت هجرة التركمان عبارة عن تدفق بشري له هدف، ولكن ليس له ناظم واحد، فإن الكثير من التركمان توغلوا في الشام وغيره قبل الاستيلاء كليا على الموصل، ومع ذلك ما كانت الشام والجزيرة لتصفو مشاربهما للغز قبل إنهاء قوة العقيليين وتحطيمها مع غيرها من قوى البدو العرب.

وأخذت عقيل تتحرك تدريجيا نحو الغرب، ولقد كانت الدولة المرداسية هي العقبة الرئيسية التي اعترضت سبيل هذا التحرك، لذا كان لا بد من احتلالها والقضاء عليها وهذا ما حصل، والأمر الذي يعجب منه الباحث هو كيف سعت القبائل العربية في الجزيرة والشام إلى «حتفها بظلفها» حيث انها ليس فقط لم تستطع إقامة تعاون ووحدة بين صفوفها ضد الغزاة التركمان بل صرفت معظم قواها وبددتها في نزاعاتها الداخلية فمكنت خصمها من رقابها وأعطته بحماقتها وجهلها ديارها وسيادتها.

لقد اوردنا اعلاه بأن عطية بعدما تصالح مع ابن اخيه محمود سار إلى دمشق، واثناء وجوده في دمشق قام مسلم بن قريش سنة

١٠٦٨ م بغزو بلدة الرحبة فاحتلها وضمها إلى املاكه ، كما قـام بعد هذا بعامين في سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ - ١٠٧١ م بغـزو بلدة الرقة فاحتلها أيضا وضمها إلى املاكه .

الآن وقد خسر عطية جميع أملاكه طلب مـن الخـلافة الفـاطمية مساعدته من أجل استعادتها ، ولكن هذه الخلافة ما كان بإمـكانها تجنب مشاكلها الداخلية فما بالك بمد يد المساعدة الخـارجية ؟! لذا ترك عطية دمشق وهجر الشام إلى بيزنطة ، وقدمت بيزنطـة ، بعض المساعدات له ، فقام في عام ١٠٧١ م بغزو اراضي حلب ، لكنه اخفق في تحقيق اي شيء لوجود التركمان ، ولما كانت بيزنطة انذاك تعـاني من التركمان فإنه لم يكن بإمـكانها مسـاعدة عطية بقـوات كبيرة ، فاضطر هو الى السفر الى القسطنطينية حيث توفي فيها في حـزيران عام ١٠٧٣ م(١١).

ويبدو أن بيزنطة كانت تستهدف حين قبلت عطية بـن صـالح في اراضيها واستخدمته ضد أراضي إمارة حلب أن تحـد مـن نشـاط تركمان محمود أو تطردهم من بلاد الشام وأن تحتـل حلب ، ولقـد كانت حلبا قبل عام ٤٦٣ هـ ١٠٧١ م - وايضـا بعـد ذلك - مركزا هاما بالنسبة للتركمان الذين كانوا يتوغلون داخـل الأراضي البيزنطية في أسية الصغرى ، فبعض من التـركمان اسـتقر في حلب كما رأينا وبعضهم الآخر قد عد حلبا مركزا هاما من أجـل بيع مـا كانوا يحتاجونه من مؤن ومعـدات ، و لقـد كانت كميات المؤن التـي حصل عليها التركمان من الأراضي البيزنطية هائلة ، ويكفي أن نسوق هنا مثلا ما ذكره ابـن العـديم في حـوادث سـنتي ٤٥٩ - ٤٦٠ هـ ١٠٦٦ - ١٠٦٧ م ، ففي هـاتين السـنتين : «طلعت طائفة كبيرة مـن التـرك ، فنزل بعضـها على دلوك - مـن نواحي حلب - وتقدم منهم نحو ألف نهبوا بلد أنطاكية عن أخـره ، وأخذوا نحو أربعين الف جاموس ، وقيل أكثر ، حتى أن الجـاموس كان يباع بدينار ، وأكثره بدينارين وثلاثة ، وأما البقر والغنم والمعز والحمير والجواري فلم يقع على ذلك احصاء مـن الكثـرة ، وكانت

الجارية تباع بدينارين ، والصبي بتطبيقه نعال للخيل ، وخرب بلد الروم خرابا لم يسمع بمثله ، وبقيت الغلات في البيادر ما لها من يرفعها منهم ، حتى كان الفلاحون وسائر العوام يمضي الواحد منهم ويأخذ ما يريد ، فلا يجد من يدافعه عن ذاك ، لأن الروم تحصنوا في الحصون والجبال والمغاير . وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئاً ، لأن الترك اتوهم على غفلة .... وكان مقدمهم أفشين بن بكجي .... قطع الفرات إلى بلاد الروم ، ثم خرج إلى اعمال حلب وباع الغنائم التي كانت معه ... وقيل أن أصحاب مؤونة السوق بحلب حصل في دفاترهم نحو سبعين الف مملوك ومملوكة سوى ما بيع بغير مؤونة في بلد الروم وسائر البلدان . واخذ من أصحاب انطاكية مائة الف دينار ومثلها من ثياب الديباج والآلة »(١٣).

وأمام أعمال التركمان هذه جهدت بيزنطة التي كان امبراطورها الآن رومانوس دايجينوس لايقاف التركمان ومنعهم من غزو اراضيها وارادت اغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الاستراتيجية الحصينة داخل الأراضي الاسلامية ، ولما كان التركمان ينفذون الى داخل الأراضي البيزنطية ويخرجون منها من ثلاثة مناطق كانت هي : ثغور شمالي بلاد الشام وثغور أعالي الجزيرة وبلاد أرمينية ، فقد وضع رومانوس كما يبدو خطة تستهدف اغلاق هذه المنافذ على ثلاث مراحل ، وفي هذا السبيل قام بنفسه بقيادة ثلاث حملات ضد بلاد الشام وأعالي الجزيرة وحدود أرمينية وذلك في السنوات ٤٦١ - ٤٦٣ هـ/١٠٦٨ - ١٠٧١ م ، ولقد وجهت الحملتان الاول ضد اراضي امارة حلب في الشام والجزيرة وكانت معركة مناز كرد الشهيرة نتيجة الحملة الثالثة وطبعا كانت اهمها على الاطلاق لان نتائجها كانت حاسمة بالنسبة للعالمين الاسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، ولناخذ قبل دراسة معركة مناز كرد بدراسة حملتي الامبراطور رومانوس اللتين قادهما قبلها ضد امارة حلب .

لم يكن لهاتين الحملتين نتائج خطيرة وكل ما حصله رومانوس

منهما هو اعمال الغارة في اراضي حلب واحتلال مدينة منبج ، وليس من الواضح بشكل اكيد في المصادر العربية فيما اذا كان احتلال منبج قد تم اثناء الحملة الاولى أم اثناء الحملة الثانية ، هذا وان مخائيل بسللوس المؤرخ الفيلسوف البيزنطي ، الذي كان يعمل في القصر الامبراطوري في القسطنطينية والذي عاش هذه الاحداث وشارك فيها ، لايساعدنا كثيرا فيما كتبه على حل هذه المسالة وكان كل ما قاله حول الحملة الاولى هو : « ترك (رومانوس) مدينة (القسطنطينية) يصحبه جيشه كله ، وزحف ضد البرابرة ، دون ان يعرف الى اين سيمضي او ماذا سيعمل ، لقد جاب الفيافي بخطط ليمضي في طريق لكنه كان يزحف على آخر ، توغل في اراضي سورية والجزيرة ، والنجاح الذي حققه كان فقط قيادة جيشه داخل هذه الاراضي ، والقيام بمركزة بعضا من رجاله في اعالي بعض الهضاب ثم احدارهم وتقطيعهم في ممرات ضيقة ، ومن ثم معاناة فقدان عدد كبير من الجرحى خلال هذه التحركات ، ومهما يكن الحال فلقد عاد وعليه مظاهر النجاح مع انه لم يجلب لنا اية غنائم لامن اهل الجزيرة والشام ولا من الفرس ، وكان كل ما قام به هو انه زحف ضد العدو » ، وبسللوس متحامل في حديثه هذا على رومانوس ومع ذلك يستخلص من روايته هذه بان هدف رومانوس كان مطاردة التركمان وتعقبهم في أراضيه ولايمكن لاية عملية تعقب ان تخضع لنظام مناورة محدد تبعا لقواعد عسكرية ثابتة بل ذلك يسير في العادة حسب الوضع وما يحتاجه ساعة ساعة : وعلى كل حال يبدو ان احتلال منبج قد تم اثناء الحملة الثانية ، لان المؤرخين العرب يروون بان المدينة عندما سقطت سقط معها الكثير من اهلها في الاسر ، وهذا ما يؤيده بسللوس – الذي اشترك في هذه الحملة – بقوله : «وقد اخذ حفنة من رجال الأعداء أسرى » .

ويبدو من روايات المؤرخين العرب بأن رومانوس قد قام في الحملة الأولى بغزو امارة حلب من منطقة أنطاكية ، فاستولى على بعض حصون الامارة وهزم محمودا وقواته العربية التركية ، لكنه اكره على الانسحاب بسبب ورود أخبار اليه بأن أحد مقدمي

التركمان و اسمه افشين قداستولى على مدينة عمورية وانه على نية متابعة توغله داخل الأراضي البيزنطية نحو القسطنطينية ،ويبدو أن رومانوس غزا امارة حلب في الحملة الثانية من اراضي الجزيرة فاستولى على بلدة منبج وهدمها وعمر فيها حصنها القديم حيث ترك فيه حامية ثم أخذ طريقه عائدا نحو القسطنطينية بسبب قلة المؤن في المنطقة (١٣) . .

لم ينجم عن حملتي رومانوس مع هجرة التركمان حتى الآن اي خطر حقيقي على الدول التي كانت قائمة في الشام والجزيرة ، ولكن الخطر جاء مع الحملة الثالثة ، لكن ليس بسببها ولا من الاراضي البيزنطية ، انما من خراسان وبسبب ما كان يجري في مصر ، او بالحري في القاهرة انذاك ،فلقد كانت القاهرة تعيش في هذه الآونة فترة من المنازعات السياسية من أجل السلطة فيها وبغية التسلط على الخليفة المستنصر ، وكان ناصر الدولة الحمداني (أحد احفاد ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل والاخ الاكبر لسيف الدولة ممدوح المتنبي وامير حلب) أبرز اطراف النزاع في القاهرة وكان قد « قصد ابطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فندب الفقية ابا جعفر محمد بن البخاري قاضي حلب ، وبعثه رسولا الى السلطان الب ارسلان ابي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان يساله ان يسير اليه عسكراً ليقيم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى ابو جعفر الى خراسان ، وبلغ السلطان الب ارسلان رسالة ناصر الدولة بن حمدان ، فتجهز من خراسان في عساكر عظيمة » . وتحرك الب أرسلان على راس قواته غربا ، وكان تحركه بطيئا ، وعلى كل حال لم يكن بامكان الب ارسلان بسبب طبيعة قواته وطبيعة الحواجز التي اصطدم بها الوصول الى مصر ، فلم يتجاوز اسوار حلب .

ولقد كانت الرها أولى العقبات التي اعترضت سبيل تقدم قوات هذا السلطان ، وكانت هذه المدينة انذاك تحت الحكم البيزنطي ، وقد وصلها الب ارسلان في خريف ١٠٧٠ م واخذ بحصارها وشدد

الهجوم عليها من جهة الشرق « وكان فيها يومئذ دوقس يسمى باسيل بن اسار بن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك ، وكان بالرها يومئذ ثمانية الآف أرمني وعشرون الف سرياني ، وستة الآف رومي والف افرنجي »، واخذ السلاجقة بقطع اشجار الحدائق وبطمر الخنادق بجانب الأسوار الشرقية ، واخذت مجانيقهم بقذف الأسوار مع من كان عليها ، وشرع النقابون في فتح فجوات في السور والأبرجة ، ودام ذلك خمسين يوما (وفي روايات اخرى ثلاثين يوما) « وكان يقاتلهم بالافيلة وعليهم الرجال لابسين الحديد ، فاذا دنوا ليقربوا الحصن طرحوا عليهم الصخور العظيمة فيقتلوا منهم ...ثم انه زحف اليها بسبع دبابات عظيمة ، فعملوا عليها صواري عظيمة وشحم وزفت ونفط ، وطرحوا عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها ، وقتلوا كل من كان فيها .

ثم أمر الملك العادل بقطع الاشجار والاخشاب ورميها في الخندق الذي على الحصن حتى يمشي الخيل والرجال عليهم إلى الحصن ، فتوصلوا اليها من داخل المدينة من النقوب واطلقوا فيها النيران فتأججت النار حتى صار الخندق نيران تلتهب ، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافتراء والشتيمة ، فانفذ اليهم رسولا يقول لهم : ما يحسن بي أن ارحل عنكم بعد قتالكم ، وقد اطاعتني جميع البلاد ، الا بعد ان يستقر لي عليكم مال يسير ، واذا ارحل عنكم ، لئلا يصير علي فضيحة » ويبدو ان اتفاقا ما قد تم عقده بين أهالي الرها والسلطان الب ارسلان ، على اساسه اوقف القتال ضد المدينة وسحب قواته غربا نحو حلب ، وعند وصوله إلى الفرات قدم له جميع أمراء دويلات الجزيرة واصحاب السلطة فيها الولاء وفروض الطاعة ، وفي الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ التاسع عشر من كانون الثاني ١٠٧١/م عبر الب ارسلان وقواته الهائلة نهر الفرات ، وقبل عملية العبور هذه ارسل الب أرسلان وراء محمود بن نصر يدعوه اليه كي يقدم اليه الطاعة ويفتح أبواب حلب لاستقباله ، ولقد رفض محمود ـ بتحريض من ابن خان ـ الاستجابة لطلب السلطان وآثر الاعتصام بحلب واتخاذ موقف

الدفاع ، وذلك بعدما شحن مدينة حلب بالرجال الذين هبوا للدفاع عنها من سائر انحاء بلاد الشام . وزحف الب ارسلان بقواته نحو حلب ، وكان تحركه في غاية البطيء ، لذلك احتاج الى اكثر من مدة شهرين حتى وصلها ، وجدد الب ارسلان في هذه المدة مراسلاته مع محمود بن نصر ، وارسل له اكثر من بعثة تدعوه لترك حلب والقدوم إلى معكسر السلطان «لخدمته ودوس بساطه» ، وكان كلما اقترب السلطان من حلب كلما ازداد إصرار محمود على المقاومة ، ولما كان الب ارسلان هو سلطان الاسلام ، وقد فوض الخليفة العباسي إليه امر اخضاع بلدان الأسلام وردها الى حظيرة السنة ، فقد قرر عندما وصل حلب ووجد الأمير محمود بن نصر مصرا على عدم الخضوع، قرر أخذ المدينة بقوة السلاح ، لذلك قامت قواته بمحاصرتها .

وكما حدث من قبل في الرها حاصرت قوات التركمان مدينة حلب لمدة تزيد على الشهر ، وبذلت كل جهد ممكن لاقتحام اسوار المدينة فأخفقت ، وتعود الأسباب الرئيسية لهذا الاخفاق إلى : المقاومة العنيدة والدفاع المستميت الذي بذله اهالي حلب ، والى متانة اسوار حلب وقوة ابراجها وحصانتها ، ثم إلى الطبيعة البدوية للجيش السلجوقي وإلى نوعية تكوين أسلحته ، فقد كان التركمان معتادين على المعارك المكشوفة لمهارتهم الفائقة في استخدام القوس والنشاب ولم يكونوا قد اتقنوا بعد استخدام أسلحة دك الاسوار أو تسلقها ، ثم إنه كان ضد مزاجهم النفسي البقاء في مكان واحد لفترة طويلة ، من اجل اخذ مدينة واحدة مهما ضخمت غنائمها فانها لن تعدل تكاليف الاقامة والبعد عن الأهل ، ثم لماذا تحاصر المدن واراضي بيزنطة وريف الشام والجزيرة فيهما من الغنائم السهلة التناول الشيء الكثير ؟!.

وبرغم كل هذا فقد شعر السلطان ألب ارسلان أن اخفاقه في أخذ حلب بعد إخفاقه في الاستيلاء على الرها سيحط من سمعته ، وسيكون له نتائج غير محمودة ، على امبراطوريته الناشئة ، لذلك أصر على اقتحام المدينة مهما كلف الثمن ، وقامت – بناء على

هذا - قواته بعدة زحوف على المدينة ولكنهـا كانت كل مـرة تصـد خائبة مع خسائر كبيرة ، ولقد كانت معنويات المدافعين عالية جـدا ، وكانوا واثقين من موقفهم وقوة دفاعهم ، ولقد عبر اهـالي حلب عن ذلك بأسلحتهم وبطرائق خاصة اخرى فيها نوع مـن الغـرابة إن لم نقل الشذوذ .

لقد كان اقوى ابراج اسوار المدينة بـرج يدعى بـرج الغنم وقـد ركزت القوات السلجوقية معظم جهودها على هذا البرج وعملت مـن اجل اخذه او خرقه ، وكانت مجانيق السلاجقة تقذف هذا البرج بـلا انقطاع ، ولقد استطاع الحلبيون رد جميع الهجمات التي وجهت ضد هذا البرج ، ثم قاموا في أحد الأيام فعصبوا هذا البرج» بشقة اطلس وكان السلطان نازلا بميدان باب قنسرين ، فسـأل عن ذلك فقيل : هؤلاء الحلبيون يقولون على سبيل المزاح ، قد صدع البرج راسه من حجارة المنجنيق فقد عصبوه ، فغضب ، وفـرق في تلك الليلة ثمـانين الف فردة نشاب .... غير ما رمـاه بقية العسـكر . واصـبح وامـر بالزحف ، فجد الناس في قتال البلد ، وحمل السلطان بنفسـه في ذلك اليوم ، فوقعت يد فرسه في خسـف كان هناك ، واصـاب في الحـال فرسه حجر المنجنيق فركب غيره ، وعاد وصرف الناس عن الحـرب .... وكان عسكره دائرا بالبلد من جميع وجـوهه » ، وعندمـا ادرك السلطان صعوبة اخذه لحلب بالقوة «راسل الامـراء مـن بني كلاب وأحضرهم من البرية فوصلوا إليه ، وعول على تقليد بعضهم وتـركه في مقابلة محمود ».

عندما وصلت اخبار هذا العمل إلى محمـود بـن نصر الذي كان يعرف جيدا أخلاق افراد قبيلته ، لاحظ مدى الخطر الذي هـو فيه ، لذلك بادر من طرفه بالتحرك بسرعة ، وسعى للتوصل إلى مصـالحة مع السلطان يصون بها ملكه في حلب مع كرامة السلطان وسـمعته ، لذلك كتب إلى إيتكين السليماني الذي كان مـن حـاشية السـلطان والذي كان قد جاء إلى حلب رسولا أكثر من مرة ، فأخبره بـأنه على استعداد للخروج من حلب «لدوس بساط السلطان وخدمته»، واشعر

محمود بالايجاب وشجع ، وعلى هذا الاساس خرج سرا من حلب في ليلة الاول من شعبان ٤٦٣ هـ / ٤ ايار ١٠٧١ م ، مرتديا زيا تركمانيا ومعه امه التي كانت تعرف باسم السيدة ، وتوجه وهي معه الى معسكر السلطان فقابلاه وتم بينهم الاتفاق على : بقاء محمود في إمارته ، وعلى أن يخرج في اليوم التالي علنا فيقدم فروض الطاعة للسلطان الذي بدوره يعلن رضاه وموافقته على بقائه اميرا لحلب ، وفعلا تم اعداد الترتيبات لذلك « فخرج - محمود - إلى السلطان بنفسه ، ومعه والدته علوية ، المعروفة بالسيدة .... واخذ مفاتيح البلد معه ، فدخلا والعسكر سماطان بين يديه فخدماه ، وسلما عليه ، فأكرمهما وأحسن إليهما .... واطلق له البلد ، وشرفه ، وخلع عليه ، وكتب له توقيعا بحلب ، وتردد خروج محمود إلى خدمته مرة بعد أخرى و قرر معه السلطان أن يخرج بعسكره ، ويضيف إليه السليماني وأن يتوجها إلى بلاد دمشق والاعمال المصرية لفتحها ، ففعل ما أمر به ، وعاد السلطان إلى بلاده » .

ولكي يعلل السلطان إخفاقه في احتلال حلب بالقوة ، ولكي يسوغ انسحابه صرح قائلا : «أخشى أن افتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم » وطبعا إن هذا تسويغ تافه ومرفوض فبيزنطة كانت تعرف حلبا وتعرف مدى قوتها وكان في الغالب من سياستها إبقاء هذه المدينة مستقلة ، وفي الحقيقة نحن لسنا متأكدين فيما إذا كان السلطان الب ارسلان قد قال هذا حقا ، او انه كان نوعا من الدعاية الرسمية ، أم أن القضية كلها كانت اختراعا من قبل احد المؤرخين ، وليس لدينا أيضا ما يقص تفاصيل اتفاقية محمود مع السلطان ، وكل ما نعرفه أن السلطان لم يدخل حلب كما لم يدخل احد من جنده إليها ، وانه بعد تصالحه مع محمود قرر العودة إلى خراسان وعدم متابعة سيره إلى مصر .

وعندما عبر الب ارسلان الفرات مرة ثانية وصلته (كما هو مرجح) الأخبار بتحرك جيش بيزنطي هائل نحو بلاد الاسلام بقيادة الامبراطور رومانوس دايجينوس، لهذا غير الب ارسلان وجهته

وانحرف شمالا لمواجهة هذا الجيش الزاحف ، ولقد تصدى الب ارسلان لقوات بيزنطة واشتبك معها في أرمينية عند موقع اسمه منازكرد (قرب بحيرة وان في تركية الآن) فهزمها ، ولولا هذا النصر الخطير والبعيد التأثير لكانت حملة الب ارسلان كلها بلا ثمرات .

ونظرا للأهمية القصوى لهذه المعركة ولكونها من معارك التاريخ الفاصلة في عالم العصور الوسطى ، ولأنها تعدل – إن لم تفق – معركة اليرموك بالنسبة للعلاقات الاسلامية البيزنطية فلا بأس أن نوليها الاهتمام ، ثم نعود بعد ذلك لمتابعة دراسة التركمان واعمالهم في بلاد الشام والجزيرة .

لقد مثل بيزنطة في هذه المعركة الامبراطور رومانيوس دايجينوس الذي تحدثنا عن حملتيه على بلاد الشام ، ويعود رومانوس في أصله إلى عائلة أرستقراطية عريقة أصلها من اسر اسية الصغرى ، ولقد وجد دايجينوس نفسه منذ أصبح امبراطورا في سنة ١٠٦٨ م يواجه عدة مشاكل داخلية وخارجية ، فأولى معظم وقته وطاقات امبراطوريته للمشاكل الخارجية حيث انها كانت اكثر الحاحا ، ولقد تمثلت المشاكل الخارجية في الخطر الذي ابرزه التركمان في هجرتهم وفي أعمال اجتياحهم للأراضي البيزنطية ، ومن اجل إيقاف التركمان ووضع حد لتغلغلهم وتخريبهم للأناضول قاد رومانوس الحملتين المتتاليتين اللتين تحدثنا عنهما ، ثم أخذ بعد ذلك يعد العدة لحملة كبيرة جدا أراد أن يجتث بها التركمان من بلاده ويكتسب بعض المواقع داخل الأراضي الاسلامية ليشحنها بالجند حتى يقفوا للتركمان بالمرصاد ، ولقد قاد رومانوس قواته التي اعدها تجاه ارمينية في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، ويبدو انه أراد أن يستغل فرصة غياب السلطان الب ارسلان في بلاد الشام .

وبلغ الب ارسلان خبر تحرك القوات البيزنطية بعد فراغه من أمر حلب وأثناء عودته – او اعداده العدة للعودة – شرقا ، هذا ويروي غرس النعمة بأن السلطان استقبل قبيل مغادرته منطقة حلب بعثة

بيزنطية أرسلها الامبراطور رومانوس ، وأن هذه البعثة عادت إلى الأمبراطور اثناء تحرك السلطان شرقا بعد ما سايرت جيوشه مسافة كبيرة .

ولا يخبرنا غرس النعمة بالتفصيل عن مهمة هذه البعثة البيزنطية التي جاءت من أجلها ولا عن نوع المباحثات التي اجرتها مع السلطان الب ارسلان ، إنما يذكر فقط بأنها حملت عرضا « برد منبج وارجيش ومنازكرد إليه وبحمل الهدية »(١٤) لكن مقابل ماذا ذلك مالا يوضحه .

ويذكر المؤرخ البيزنطي ميخائيل بسللوس ما يفيد بأن الامبراطور بعد أن تحرك من القسطنطينية تابع سيره حتى وصل إلى قيسارية وهناك توقف عن التحرك وبدأ يفكر بالتراجع إلى القسطنطينية ، لكنه حاول - قبل تراجعه - ان يتوصل إلى اتفاقية مع عدوه ربما بهدف وضع حد لغارات التركمان على بلاده ، هذا ولا يوضح بسللوس الوسيلة التي اتبعها الامبراطور البيزنطي من أجل هذه الغاية ، إنما يبدو مما رواه غرس النعمة أن الأمبراطور أرسل بعثة إلى السلطان وصلته وهو في منطقة حلب وعرضت عليه عرضه الذي ذكرناه قبل قليل ، ولئن لم يقدم لنا كلا من غرس النعمة وبسللوس - وهما ممن عاصر هذه المعركة - تلميحا او تفصيلا لشروط الأمبراطور فإننا نجد عند ابن العبري الذي ذكر - خلافا لما رواه غرس النعمة - بأن الامبراطور عندما راسل السلطان اقترح عليه أن يتنازل له عن ملكية منازكرد وارجيش مقابل تخلي الامبراطور عن منبج ودفعه جزية سنوية اذا ما أوقف السلطان غارات التركمان ضد الأراضي البيزنطية ، ولقد ذكر ابن العبري بأن السلطان قد قبل بمقترحات الامبراطور وتنازل له - تنفيذا للاتفاق - عن جميع الأراضي حتى بلدة اخلاط .

لم يتابع تنفيذ هذا الاتفاق (هذا ان كان قد نفذ في الواقع منه اي شيء) إذ انه من المتصور ان يكون السلطان الب أرسلان قد قبل

بمقترحات الامبراطور ووعد بالتنازل له عن الاراضي حتى اخلاط، ولكن هل كان لديه القدرة على إيقاف التركمان ومنعهم من الاغارة على الأراضي البيزنطية ؟ هذا أمر مشكوك به ! على كل حال ان تسارع الاحداث لم ييسر الفرصة لتنفيذ شروط الاتفاق، واصطدمت قوات ألب ارسلان بقوات رومانوس.

وقبل الحديث عن اسباب عدم تنفيذ الاتفاق ثم عن الحرب التي وقعت لابد من الاشارة الى ان السلطان الب ارسلان قد قبل بمقترحات الامبراطور البيزنطي لاخشية من الاصطدام معه، ولاتقديرا بان قواته لن تستطيع منازلة القوات البيزنطية ، ولكن كان هدف هذا السلطان وهمه آنذاك مد نفوذه وسيطرته على بلدان العالم الاسلامي ، ولم تكن لديه مطامح بالتوسع داخل بيزنطة او سواها من البلدان غير المسلمة ، ويبرهن على هذا انه بعد نصره الساحق في منازكرد لم يحاول استغلال هذا النصر ، وانما جهد في التعجيل لايجاد تسوية عاجلة مع رومانوس ، ثم عاد الى بلدان العالم الاسلامي وتابع جهده في مد سيطرته عليها حتى لقي حتفه .

اما اسباب عدم الأخذ بالاتفاق فان بسللوس الذي عاصر الأحداث وشارك في المعركة فيقول :« عوضا ـ عن تنفيذ الاتفاق ـ واما في ياس اوبسبب انه (اي الامبراطور)كان واثقا بنفسه اكثر مما ينبغي ، زحف الى القتال » . ان في كلام بسللوس هذا بعض الغموض وهو لايفي بالغرض ، لكن على الرغم من هذا فان الامبراطور عندما استأنف زحفه ، كان ـ كما يبدو ـ قد صنع ذلك ليس وهو يائس إنما وهو موقن بان النصر سيكون حليفه ، وربما فعل ذلك بناء على المعلومات التي نقلتها اليه بعثته التي عادت من عند السلطان ، فوصفت له رحيل السلطان وحالة الفوضى التي حلت في جيشه اثناء الرحيل ، ويقول غرس النعمة :«وضجر السلطان من المقام بحلب ، فكر راجعا ، فقطع الفرات ، وهلك اكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شبه الهارب ولم يلتفت الى ما ذهب من الارواح والدواب ، وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه،

فقوى ذلك عزم الروم على اتباعه وحربه » .

لقد كان تراجع الب ارسلان هذا «شبه الهارب »قد تم تبعا للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغرير به ، فالتركمان كبدو كانت لديهم خططهم الخاصة في الزحف كما كان لهم مواريثهم المتميزة ، في فن السوقية العسكرية ، وتنطلق هذه المبادىء من الاعتماد على طبيعة البدو وخفتهم ومرونتهم في الحركة ، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة ، فيها يعطي القائد امرا عاما يحدد فيه لقواته البدوية نقطة لقاء وليلة لهذا اللقاء ، ويندفع البداة زمرا وافرادا في اتجاهات مختلفة ، وهنا يظن العدو بانهم تفرقوا الى غير عودة ، لكنه لايدري ان تفرقهم يفيد قائدهم بتحريره من قضايا التموين ، ثم يدمر اراضي العدو ويضلل قيادته ويجبرها في كثير من الأحيان على توزيع قواتها ، ثم عندما تصطدم اولى طلائع قوات البدو بجيوش عدوها يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خططه لسحق بضعة الاف من البدو ، ولكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل الى اضعاف مضاعفة ، لذا تنهار معنويات قواته ، ويتم عامل المفاجأة وهكذا يحقق النصر .

هذا ما طبقه الب ارسلان الذي عندما التقت قواته لاول مرة بقوات رومانوس كان عددها أقل بكثير من القوات البيزنطية ولكن بعد مضي ليلتين تضاعفت هذه القوات ذلك ان الب ارسلان وصل الى قبالة الامبراطور رومانوس في يوم اربعاء واشتبك معه ظهر الجمعة، وقبل الاشتباك ارسل بعثة لمقابلة الامبراطور والتفاوض معه وذلك من حيث الظاهر ، لكن لاستكشاف أحوال الجيش البيزنطي وللاتصال بالعناصر الغزية غير المسلمة فيه من حيث الباطن ، ولقد اعد العديد من الكمائن وهيأها لساعات الحاجة وللمفاجأة .

ونظرا لأن قوات الب ارسلان كانت من الفرسان الرماة، وقوات بيزنطة كانت من الفرسان الثقال مع المشاه ، فقد قامت خطة السلاجقة على مبدا فصل المشاة عن الفرسان (يمكن تشبية

الفرسان الثقال بدبابات العصر الحالي التي تفقد الكثير من قيمتها بدون حراسة من المشاة ، وايضا لاقيمة كبيرة للمشاة بدون دبابات) وقتل خيول الفرسان ثم القضاء على المجموعتين كل على انفراد، ولقد حصل هذا في معركة منازكرد كما حصل في سواها من المعارك .

لقد بالغت المصادر العربية في تقدير عدد الجيش البيزنطي فجعلته يفوق المليون مقاتل ، ثم ان هذه المصادر لم تقدر عدد قوات الب ارسلان باكثر من ١٥ الف مقاتل ، ولهذا كان النصر الذي تم بالنسبة لها قد تم بفضل مساعدة السماء أي انه كان عبارة عن معجزة وكرامة «للسلطان العادل »واستجابه لدعاء المسلمين يوم الجمعة ساعة المعركة .

لم تكن الصورة هكذا ابدا ، ولم يكن هناك اية معجزة كل ما في الأمر أن قوة بيزنطة التي كانت ربما في حدود الخمسين الفا قد لاقت قوة تركمانية مساوية لها بالعدد نفسه ، انما بميزات قد تم شرحها، يضاف الى هذا ان قسما كبيرا من قوات بيزنطة كان مؤلفا من مرتزقة من عناصر غزية غير مسلمة وكان عدد من ضباط الجيش متآمرين ضد رومانوس يعدون انقلابا للاطاحة به وتنصيب امبراطور جديد مكانه ، لذا عندما اصطدمت جيوش رومانوس بقوات الب ارسلان دارت معركة قصيرة ـ انما حاسمة ـ تخلى فيها الغز عن البيزنطيين وانضموا الى بني جلدتهم ، وهرب المتآمرون مع عدد كبير من الجند نحو القسطنطينية ، وترك رومانوس في لجة الفوضى والدمار فسقط اسيرا في يد التركمان ، فكان اول امبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم .

لقد حطمت هذه المعركة قوى بيزنطة العسكرية وكانت البداية الفعلية لتحول بيزنطة الى تركية ، ثم ان الغنائم التي حازها التركمان كانت اكثر من ان تحصى ، ولم يحاول الب ارسلان استغلال نصره المؤزر هذا بمطاردة فلول البيزنطيين والزحف على القسطنطينية نفسها ، بل اكتفى بان احضر رومانوس الى حضرته

«وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : ألم أرسل إليك رسل الخليفة أطال الله بقاءه في امضاء الهدنة فابيت ؟ ألم أرسل إليك بالأمس اسألك الرجوع فقلت : قد انفقت الاموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت الى هاهنا وظفرت بما طلبت ، فكيف ارجع إلا أن افعل ببلاد المسلمين مثل ما فعلوا ببلادي ؟ ولقد رأيت أثر البغي ! وكان قد جعل في رجليه قيدين وفي عنقه غلا ، فقال: ايها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الاجناس وانفقت الأموال لأخذ بلادك ، ولم يكن النصر الا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا ، فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ماتريد . فقال له السلطان : فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي فقال : القبيح ، فقال : أه والله صدق ، ولو قال غير هذا لكذب ! هذا رجل عاقل جلد ولايجوز ان يقتل ، ثم قال له : ما تظن الآن ان افعل بك ؟ قال : أحد ثلاثة أقسام : أما الأولى فقتلي والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، وأما الثالث فلا فائدة في ذكره فانك لاتفعله ، قال : وما هو قال : العفو عني وقبول الأموال والهدية واصطناعي وردي إلى ملكي مملوكا لك وبعض اسفهسلاريتك ونائبك في الروم ، فان قتلك لي لايفيدك ، هم يقيمون غيري

فقال السلطان : ما نويت الا العفو عنك فاشتر نفسك ، فقال يقول السلطان ما يشاء ، فقال : عشرة الاف الف دينار فقال : والله انك تستحق ملك الروم اذ وهبت لي نفسي ، ولكن قد انفقت اموال الروم واستهلكتها مذ وليت عليهم في تجريد العساكر والحروب وأفقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتردد الى ان استقر الأمر على الف الف وخمسمائة الف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة الف دينار وستين الف دينار في كل سنة ، وان ينفذ من العساكر الروم ما تدعو الحاجة اليه ، وذكر اشياء فقال : اذا مننت علي عجل سراحي قبل ان تنصب الروم ملكا غيري فيفوت المقصود ولااقدر على الوصول اليهم ، فلا يحصل شيء مما شرطته علي ، فقال السلطان : اريد ان تعيد انطاكية والرها ومنبج

ومنازكرد فانها اخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن اسارى المسلمين ، فقال : اما البلاد فان وصلت سالما الى بلادي انفذت اليهم بالعساكر وحاصرتهم واخذتها منهم وسلمتها اليك ، ... واما اسارى المسلمين فالسمع والطاعة اذا وصلت سرحتهم وفعلت معهم الجميل ، فأمر السلطان بفك قيوده وغله ، ثم قال : اعطوه قدحا ليسقينيه ، فظنه له فأراد ان يشربه ، فمنع ، وامر بأن يخدم السلطان ويناوله القدح ، فساوما الى تقبيل الأرض ، وناول السلطان القدح فشربه ، وجز شعره ، وجعل وجهه على الأرض ... فلما كان من الغد احضره السلطان وقد نصب له سريره ودسته الذي اخذ منه ، فاجلسه عليه وخلع عليه قباءه وقلنسوة والبسه إياهما بيده ، وقال له : قد اصطنعتك وقنعت بامانتك وانا اسيرك الى بلادك واردك الى ملكك ، فقبل الأرض ... وعقد له السلطان راية فيها مكتوب «لاإله الا الله محمد رسول الله » ، وانفذ معه حاجبين ومائة غلام ... وركب معه وشيعه قدر فرسخ ، فأراد ان يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه اليه وتعانقا وعاد السلطان عنه ».

ولقد اخفق رومانوس في دخول القسطنطينية ، وجهد بعد ذلك من اجل الوفاء بما التزم به للسلطان ومن اجل استعادة عرشه فاخفق وفقد حياته (١٥) وبعد أيام من مغادرة الب ارسلان لمنطقة حلب قاد محمود بن نصر وايتكين السليماني قواتهما وتوجها جنوبا لغزو دمشق ، وفي الطريق توقفا عند بعلبك ، وهناك وصلت الى محمود اخبار فيها ان عمه عطية تعاونه قوات بيزنطية من انطاكية اخذ يعمل الغارة في اراضي حلب ، لذا ترك محمود السليماني وكر راجعا نحو حلب ، ولقد اشتبك محمود مع القوات البيزنطية في اكثر من معركة فانتصروا عليه وهزم .

وعندما وجد محمود نفسه غير قادر على دفع البيزنطيين عن بلاده استغاث بزعماء الناوكية الذين كانوا مع اتباعهم في جنوب بلاد الشام يعملون للاستيلاء على فلسطين ، ولقد لبى هؤلاء دعوة

محمود وجاؤوا اليه ، ولقد تمكن محمود بفضل مساعدتهم ليس فقط من صد البيزنطيين وايقاف اعمالهم ضد اراضي امارته ، بل استطاع ايضا ان يرد الرحبة الى املاكه مستخلصا إياها من مسلم ابن قريش العقيلي ، ويبدو أن هؤلاء الناوكية قد مكثوا لدى محمود فترة طويلة من الزمن لأن استرداد الرحبة قد تم سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م ، وبعد هذا الصنيع سرح محمود التركمان فتركوه الى فلسطين بعد ان اخذوا منه مبلغا من المال وعددا من الخيول وذلك كاجر لهم ، ويبدو انهم تركوا قسما صغيرا منهم في خدمته ذلك ان القوات البيزنطية لأنطاكية اغارت في سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣ م على اراضي حلب فاستطاع محمود صدها كما تمكن من الاستيلاء على قلعة السن البيزنطية وضمها الى املاكه .

وفي جمادي الاولى من السنة التالية ٤٦٧ هـ/كانون ثاني ١٠٧٥ م توفي محمود بن نصر وقبل وفاته بعامين تقريبا كان السلطان الب ارسلان قد توفي (٤٦٥ هـ/ ١٠٧٤ م) . وبوفاتهما انتهت مرحلة من مراحل التاريخ السلجوقي العام مع هجرة التركمان الى بلاد الشام والجزيرة ، وبدأت مرحلة جديدة وحاسمة هي مرحلة تصفية الناوكية وسقوط الدولة المرداسية ومن ثم اخضاع الشام والجزيرة نهائيا للحكم السلجوقي المباشر (١٦) .

لقد اوردنا بان جماعة الناوكية كانت اول جماعة تركمانية تدخل بلاد الشام كما بينا طبيعة تكوينها البشري ، وكيف انها ناصبت السلطان السلجوقي العداء ، لذلك عندما دخلت الشام انضوت تحت لواء الدول التي كانت قائمة فيه ودخلت في خدمة حكام هذه الدول كما انها عملت في سبيل مصالحها الذاتية ، ومع اننا استنتجنا وجود الناوكية في جنوب بلاد الشام وفي مناطق الساحل في طرابلس وصور وسواهما فان المصادر التي وصلت الينا لاتسعفنا بأي شي عن اعمالهم ونشاطاتهم في هذه المناطق قبل حملة السلطان الب ارسلان على حلب ، وكل ما جاء في مصادرنا المتوفرة يشير إلى أن الناوكية تركت شمال الشام الى جنوبه والى سواحله تحت ضغط

زحف السلطان الب ارسلان مع قواته الهائلة ، لذلك نجد انفسنا مضطرين للحديث عن الفترة ما بعد ١٠٧٠ م .

عندما غادر ابن خان مدينة حلب ذهب «الى ابن ابي عقيل الى صور واقام عنده ، فاحسن اليه ووصله واعطى اصحابه ، وجاء بدر الجمالي فحاصر صور ، فنافق ابن خان وخرج الى بدر، فعسكر عنده فدس ابن ابي عقيل الى غلمان ابن خان وقال لهم : قد عرفتم ما فعلت مع صاحبكم من الجميل ، وما انفقت عليه من الأموال ، وما صلح لي ولاجازاني على احساني اليه ، ولكم علي ان قتلتموه كذا وكذا من المال ، فوثب عليه اثنان فقتلاه وحملا راسة الى ابن أبي عقيل فطيف به في صور ، وكان عند ابن ابي عقيل جماعة من الغز ففارقوه الى بدر فقوي بهم»(١٧). ولقد كان حصار بدر هذا لصور سنة ٤٦٢ هـ/١٠٧٠ م، وشدد بدر الحصار على صور ، فأرسل ابن أبي عقيل « الى الأمير قرلو مقدم الاتراك المقيمين بالشام يستنجده ، فسار اليه في اثني عشر الف فارس فحصر مدينة صيدا وهي لأمير الجيوش بدر فرحل حينئذ بدر فعاد الاتراك » ويصف المؤرخ المصري ابن ميسر قرلو بأنه كان « مقدم الاتراك القادمين من العراق»(١٨). ولقد استطاع بدر الجمالي في سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م استمالة معظم الناوكية الى صفه فادخلهم في خدمته واستخدمهم ضد القبائل العربية لفلسطين فقاموا« وطردوا العرب الذين كانوا قد استولوا على بدر ، ونهبوا الشام ، وطلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكا ، فقال: ما عندي مال ، وما سلطتكم على العرب الا لأنكم تقتنعوا بنهبهم وما أقطعتكم من الشام فقالوا: نحن أخذنا البلاد بسيوفنا.

ثم جاءوا فنزلوا طبرية واقتسموا البلاد واخذوا غلالها وراسل بدر العرب بالرجوع الى الشام وانه معهم بنفسه وماله فاجتمع من العرب خلق عظيم وقربوا من طبرية ، وعرف الناوكية كثرتهم ، فكرهوا لقاءهم ، فاسروا اليهم وكبسوهم فاسروا وقتلوا ما شاؤوا ، وعادوا الى طبرية ونزلوا من بعد طرابلس ».

وكانت حلب في هذا الوقت تتعرض لغارات بيزنطية ، كما سبق وذكرنا وعندما اخفق محمود في صد البيزنطيين استنجد بالناوكية فهبوا لنجدته ، وكان اكبر مقدميهم هو قرلو ولقد استطاع الناوكية مساعدة محمود وعندما انتهت مهمتهم تركوه وعادوا الى اماكن نشاطهم في الجنوب لكنهم تركوا عند محمود قوة مؤلفة من الف فارس ولعل قائد هذه القوة هو احمد شاه الذي سنتعرض لاعماله في حلب في الصفحات التالية .

وعندما عاد الناوكية الى مناطق نشاطهم السالفة في جنوبي بلاد الشام استانفوا اعمالهم « فنزلوا على حصن عمان بالبلقاء وفيه ذخائر العرب واموالهم وهو معقلهم ولم يكن عليه لأحد طاعة وهو عز العرب فاحتالوا عليه وملكوه وملك التركمان الشام بأسره وجاؤوا الى الرملة وهي خراب ليس بها احد ولا لسوقها أبواب فجلبوا اليها الفلاحين وعمروها وضمنوا جزء السلطان عن الزيتون الموجود بثلاثين الف دينار وقرروا قسمة البلاد على النصف ، فقيل انهم باعوا من الزيتون في هذه الدفعة بثلاثمائة الف دينار واعطوا التركمان منها ثلاثين الف دينار وأخذوا الباقي.

اراد الناوكية الآن احتلال دمشق ثم احتلال عكا وطرد بدر الجمالي منها لذلك ذهبوا من الرملة الى دمشق وحصروها واخربوا الضياع ولقد تمكن والي دمشق الفاطمي من ارضائهم بمبلغ خمسين الف دينار ، فتركوا دمشق» ورحلوا الى عكا وبها بدر الجمالي فحصروه وكان متقدمهم يقال له قرلو ، فسكن اليه جماعة من بني كلب وأمرائهم من بني القرمطي . وخالطوه وقاربوه واتفق أن قرلو مات على حصار عكا ، فنهب التركمان من قرب من العرب ... وكان بدر الجمالي تأتيه الميرة في المراكب في البحر ، فما كان يبالي في الحصار ، فلما يئسوا منه ساروا الى مصر ووصلوا بلبيس وشنوا الغارات على اعمال مصر ، فلم يجدوا مايأكلون ولاما تأكل خيلهم وقيل إن جماعة منهم وصلوا الى وادي القرى وتيماء ووصل منهم سبعة عشر غلاما الى المدينة وزاروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم(١٩) .

وتعرضت الناوكية بعد سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م بعدما توفي قرلو الذي خلف كما يبدو ـ ابن خان في زعامتها ، الى مشاكل وانقسامات داخلية حيث ظهرت بين صفوفها زعامات جديدة متنازعة ويظهر ، أيضا انها تعرضت لضغط جاء من قبل التركمان الذين جلبتهم حملة الب أرسلان أو خلفتهم وراءها ، فلقد كانت حملة الب أرسلان في الواقع اكثر من حملة عسكرية بحتة ، لقد كانت أول موجة تركمانية تأتي الشام والجزيرة بقيادة السلاجقة وتحت زعامتهم ، هذا ولقد ترافق ظهور التركمان الجدد في جنوب الشام مع اختفاء بدر الجمالي الذي ارتبط اسمه بنشاط الناوكية ، حيث أن بدر سيذهب الى القاهرة ليستولي على مقاليد الامور بها وليتحكم (٣٠) بالخلافة الفاطمية وبذلك يكون أول طاغية عسكرية في تاريخ هذه الخلافة التي ستدخل الآن مرحلة النهاية مرحلة تحكم العسكريين بمقاليد الامور بها كما كان قد حدث للخلافة العباسية في بغداد قبل ذلك بقرون.

تتحدث مصادرنا عن أن أتسز بن أوق الخوارزمي كان أبرز زعماء التركمان الذين خلفوا في الشام بعد حملة الب أرسلان وقد سار ومعه أخوته جاولي ، والمأمون ، وقرلو ، وشكلي الى أعمال دمشق وكان هذا عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ولقد ضايق دمشق بقصد تملكها وواصل الغارات عليها وعلى أعمالها وقطع الميرة عنها ورعى زرعها ثم جمع الاتراك في جنوب بلاد الشام وتزعم عليهم » وسار الى فلسطين جنوب بلاد الشام وتزعم عليهم وسار الى فلسطين ففتح مدينة الرملة وسار منها الى البيت المقدس وحصره وفيه عساكر المصريين ففتحه ، وملك مايجاورهما من البلاد ما عدا عسقلان». كما استولى على طبرية وحين استولى اتسز على مدينة القدس جعل منها مركزا له وقام بالغاء الدعوة الفاطمية وأحل محلها الدعوة للخليفة العباسي مع السلطان السلجوقي ولقد بعث الى بغداد يخبر بما حققه في الشام.ومن 149 ـ ن اخذ أتسز يغير كل سنة على دمشق فيحاصرها ويرعى زرعها وهكذا ندرت المؤن في دمشق واضطربت فيها الاحوال وأخذ الكثير من اهلها يهجرونها ، ومع ذلك

فقد صمدت وتماسكت ولم تمكنه من رقبتها الى ان نشب خلاف بين اهل المدينة وحاكمها الفاطمي مع قـواته ، وعندمـا اسـتحكم هـذا الخلاف بات امر سقوط دمشق مسألة وقت لااكثر (٢١)

لقد غدا الان اتسز «متقدما على جميع الترك والناوكية بـالشام ولقد حرص على الايقاع » على زعامته هذه مهما ارتفع الثمن ففـي سنة ٤٦٧ هـ/ ١٧٠٤ – ١٠٧٥ م تمـكن شـكلي بـن أوق مـن انتزاع مدينة عكا بعد حصار طويل وكان بدر الجمالي قد غادر هـذه المدينة الى مصر وخلف فيها أهله واكثر امواله ونخـائره فـاستولى شكلي على جميع ماتركه بدر واسر زوجة بدر مع ابن له وابنة فتزوج من الابنة وحصن أسوار عكا وقواها وراسل حيدرة بـن المعلى بـن منزو الحاكم الفاطمي لدمشق وصاهره على أخته ، (أي اخـت ابـن منزو) ، كما اتصل ببعض زعماء قبيلة كلب فتعاهد معهم » وتقـوى بهم واستحلفهم واخذ رهائنهم واعطاهم رهـائنه» ولقـد ازعج كل هذا اتسز وأغضبه فأرسل اليه « ابعث لي زوجة بدر وابنه ونصـف ما أخذت من المال فامتنع عليه وخاطبه بما لم يكن خاطبه به من قبل»

وقرر اتسز التحرك ضد شكلي ، وفي رمضان من السـنة نفسـها (نيسان – ايار ١٠٧٥ م) اشتبك معه «في الساحل فهـزمه ، فجـاء شـكلي منهـزما الى رفنيه «التـي كانت « بلدة عند طـرابلس »ولم يطارده اتسز بل توجه الى دمشق ليحاصرها حسب عادته ومن ثـم عاد الى القدس .

ومن رفنيه – كما يبدو – كتب شكلي «الى ابـن لقتلمش التـركي وكان في اطراف الروم يحثه على قصد الشام لينضاف اليه ، وابـن قتلمش هذا كان ابن عم السلطان الب ارسلان،وكان في كتاب شكلي اليه : انت من السلجوقية وبيت الملك واذا أطعناك وكنا في خـدمتك تشرفنا بك وافتخرنا ، وأتسز ليس مـن بيت الملك ولانرضى بـاتباعه وطاعته ، وهون عليه امر اتسز والشام ، وقال : وقد جاءتنا من مصر وعود بالأموال اذا كسرناه وابعدناه عن الشام .

فجاءه ابن قتلمش فاجتمعا وسارا الى طبرية واظهرا طاعة صاحب مصر فسار اليهم اتسز من القدس ، وخرجوا اليه وساعدهم اهلها واقتتلوا فهزمهم اتسز وقتل شكلي وولده صبرا بين يديه ، واسر ابن قتلمش واخا له صغيرا وابن عمه ».

ووصل الى أتسز بعد نصره هذا ثلاثة الاف من قوات السلطان ملك شاه الذي خلف اباه الب ارسلان بعد مقتله ، فتقوى بهم وبدأ يعد العدة لاحتلال دمشق حيث إنه غدا الآن سيد جنوبي بلاد الشام بلا منازع ، وقبل ان يتحرك نحو دمشق ورد الى الشام اخ لابن قتلمش «ونزل بأرض سلمية وراسل اتسز في معنى اخيه فقال أتسز: قد راسلت السلطان بسببه ، وانا متوقع الجواب ، فان رسم انفذته اليه ، وان رسم شيئا آخر كان ». ولم يستطع ابن قتلمش هذا ان يصنع شيئا فقصد منطقة انطاكية عائدا الى الأراضي البيزنطية (٢٢) .

وجاء الآن دور دمشق وكانت احوالها قد بلغت حدا لا مثيل له من السوء والاضطراب والفقر وندرة المؤن ، وكان اميرها الفاطمي قد «أساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم فكثر الدعاء عليه وثار به العسكر ، وأعانتهم العامة فهرب منها الى بانياس ثم منها الى صور ، ثم أخذ الى مصر فحبس بها فمات». وعقب فرار معلى قامت فئة المصامدة (نسبة الى مصمودة إحدى قبائل البربر التي اعتمد عليها الفاطميون في جيوشهم) من الجند فعينت مقدمها انتصار بن يحيى المصمودي المعروف برزين الدولة مكان معلى ، ولم يرض هذا أهل دمشق وبعض فئات الجند الفاطمي الأخرى ، وقامت الفتن من جديد وأشتدت في دمشق ، ولم يكن أتسز ينتظر احوالا افضل من هذه ، وكان متوقعا لمثل ذلك ، فنزل عليها في المضايقة لها الى ان اقتضت الصورة ، وقادت الضرورة الى تسليمها اليه بالأمان ، وتوثق منه بوكيد الايمان ، فلما دخلها في ذي القعدة سنة ثمان وستين واربعمائة هـ/حزيران ١٠٧٦ م وحصل بها نزل بأهلها

منه قوارع البلاء بعدما عانوه من ابن منزو لعنه لله ، واشتداد من انزال الجند دورهم واخراجهم منها ، واغتصاب املاكهم والقبض لها ، واستعمال سوء السيرة وخبث النية والسريرة ، وتواصلت الدعوات عليه من سائر الناس وعلى اصحابه واتباعه في جميع الأوقات وأعقاب الصلوات والرغبة الى الله تعالى ذكره باهلاكه وتعفية آثاره».

لقد عانت دمشق اثناء حصار اتسز وزمن حكمه محنا لم تر ما يماثلها منذ الفتح الاسلامي ، ومرت بفترة من احلك فترات حياتها واصعبها[٢] ، ويكفينا هنا أن نسوق ما اورده غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء في وصف احوالها ، وهو وصف ربما اعتمد به على تقارير شهود عيان ارسلت اليه الى بغداد ، يقول غرس النعمة:

«ولم يبق بها – دمشق – من اهلها سوى ثلاثة الاف إنسان بعد خمسمائة الف افناهم الفقر والغلاء والجلاء ، وكان بها مائتان واربعون خبازا فصار بها خبازان ، والأسواق خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة الاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان الذي كان يساوي الف دينار ما يشترى بدينار ، وكان الضعفاء يأتون الى الدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيضربون فيها النار فتحترق ويجعلون اخشابها فحما يصطلون به ، وأكلت الكلاب والسنانير ، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم•

وكان لامرأة داران قد أعطيت قديما في كل دار ثلاثمائة دينار او اربعمائة ، ولما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفار ، فاحتاجت الى سنور ، فباعت إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطا ، وأشترت بها سنورا»(٢٣) .

هذه صورة محزنة وقاتمة لدمشق ، وهي بالوقت نفسه معبرة ومفسرة ، إنها تفسر الموقف السلبي الذي ابدته هذه المدينة عند

مجيء الغزاة الصليبيين الى الشام وبعد احتلالهم لبعض اجزائه بفترة طويلة.

لقب اتسز نفسه بالملك المعظم ، واوقف في دمشق الدعوة للفاطميين «وازال الاذان منها بحيي على خير العمل ، بعد ان كان يؤذن به على منابر دمشق وسائر الشام مائة وست وستين ، وكان على ابواب الجوامع والمساجد مكتوب لعنة الصحابة رضي الله عنهم فامر...المؤذنين والخطباء أن يترضوا عن الصحابة اجمعين».

اما وقد أصبح اتسز سيد جميع جنوبي بلاد الشام تقريبا ، فقد اخذ يتطلع ببصره نحو الشمال ، ويقول ابن العديم:«ووصل في سنة ثمان وستين واربعمائة أتسز بن أوق التركي الى اعمال حلب القبلية...وجفل اهل الشام بين يديه ، وكان قد سمى نفسه الملك المعظم ، فنهب كل ما قدر عليه وملك رفنيه ، وسلمها الى اخيه جاولي ، وترددت سراياه في جميع الشام وتمادى فساده» ، وراسل امير حلب اتسز وحاول ارضاءه ببعض المال ، لكنه لم يصل معه الى أي اتفاق ، ورجع اتسز الى دمشق وترك جاولي وراءه في رفنية ، واعتمد جاولي مدة مقامه برفنية اساءة المجاورة وشن الغارات والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب» ، وكان ما يزال في حلب قوة من الناوكية بقيادة رجل اسمه احمد شاه ، ولقد ارسل احمد شاه ضد جاولي ، واستطاع احمد شاه مع ناوكيته بعد جهد إيقاع الهزيمة بجاولي وقواته ، فهرب جاولي أولا « الى رفنية ، وسار بعد ذلك الى أخيه بدمشق».

واقلع الآن اتسز عن تطلعاته نحو شمالي بلاد الشام ، لوجود الناوكية هناك ، ثم لما سمعه عن عزم السلطان ملك شاه على اقطاع شمالي بلاد الشام لاخيه تتش ، واخذ اتسز يتطلع نحو ملك جديد ، ولم يكن ذلك اقل من مصر كلها(٢٤) .

كان سيد مصر الفعلي في هذه الآونة بدر الجمـالي ، وكان بـدر يعمل على تقوية حكمه وتوطيد مـركزه ، وقـد سـبب هـذا لبعض رجالات السلطة الذين كانوا في الحكم في مصر قبل استلام بـدر مـع عدد من الجند العمل على الهرب من مصر والالتجاء الى الشـام الى أتسز ، ويقول المقريزي عن هـذا الأمـر :« وكثـر عسـكره – اي اتسز – بمن فر اليه مـن مصر خـوفا مـن أمير الجيوش بـدر الجمالي ، وحدثته نفسه بأخذ مصر » وكان من جملة من فر اليه ابن يلدكوز كبير قادة الجيش الفاطمي في القاهرة قبل بـدر الجمـالي . فأغراه بأخذ مصر ، واطمعه في اهلها ، فحشـد ، وهـم على حين غفلة» ، «وبـرز مـن دمشـق ونهض في جمـع عظيم الى ناحية الساحل ، ثم منها الى ناحية مصر ، طامعا في ملكتها ، ومجتهدا في الاستيلاء عليها ، والدعاء عليه من اهل دمشق متواصل واللعـن له متتابع متصل».

وبلغ اتسز أطراف مصر في أوائل ربيع الأول لسـنة ٤٦٩ هـ / تشرين أول سنة ١٠٧٦ م ، وكان معه حسـب رواية غرس النعمـة محمد بن هلال الصـابيء عشرين الفـا «مـن التـركمان والاكراد والعرب » ، ووصل الى ريف مصر ، وكان بدر الجمالي وقتئذ غائبـا عن القاهرة مشغولا باخضاع القبـائل العـربية في الصـعيد ، ولم يتوجه اتسز الى القاهرة لأخذها بـل «اقـام – في الريف – نيفـا وخمسين يوما يجمع الأموال ويسبي الحريم ويذبح الأطفال ، وهـو يراسل بدر الجمالي ، ويطلب المال...فضمن له بدر مائة وخمسـين الف دينار ، واستدعى مـن كان بـالصعيد مـن العسـاكر والسودان ، وكان مع اتسز بدر بـن حـازم الكلبـي في الفـي فارس ، فاستماله بدر ، فانتقل الى القاهرة ثـلاثة الاف رجـل في المراكب لنية الحج ، فقال لهم بدر: دفع هذا العدو أفضل من الحـج وأعطاهم المال والسلاح».

وعندما توجه اتسز نحو القاهرة لأخذها ، كانت هذه المدينة قـد

امتلات بالمقاتلة من جند الخلافة وممن جلا اليها من الريف وجاءها من المتطوعة ، «وخرج – بدر – من القاهرة في ثلاثين الف مـا بين فارس وراجل في يوم الخميس لثـلاث عشرة بقيت مـن رجـب (١٥ شباط ١٠٧٧ م) وسير المراكب بالميرة » ، «فخافه اتسز وعزم على العود عن مصر الى الشام ، فلم يوافقه اصحابه على ذلك ، وقـالوا له: قد وطئت ديارهـم وتعـود بغير فـائدة ، فلم يلتفـت الى قولهم ، فقال له أخوه المأمون وابن يلدكوز: لا تغرنك كثرتهم ، فانما هم سوقه وصيحة واحدة تهزمهم ، فلا تـرجع عن هـذا الملك الذي أشرفت على اخذه » ، ووافق أتسـز مـكرها ، واشـتبك بقـوات بدر ، ودارت معركة حلت فيها الهزيمة به وبقواته ، ذلك ان قـوات بدر الجمالي هاجمته من امامه وأغارت قوات بدر بن حـازم الكلبية من ورائه ، على معسكره وضربـت « النار في الخيم والخـركاوات فانهزم أتسز وقتل من كان حوله ، وانهـزم التـركمان ، «وتبعهـم السودان والعرب اسرا وقتلا الى الرملة ، وغنمـوا منهـم غنائم لم يغنمها احد قبل ذلك ، وكان فيما اخذ ثلاثة الاف حصان ، وعشرة الاف صبي وجارية ، وأما من الأموال والثياب فما لا يحصى».

ومضى أتسز مهزوما» في نفر يسير ، فلما وصل غزة ثار اهلها به فقتلوا جماعة ممن كان معه ، فهرب الى الرملة ، فخرج اليه اهلهـا فقاتلوه وقتلوا بعض من كان معه ، فهرب الى دمشق في بضع عشرة نفسا ، فخرج اليه ولده ومسمار احـد امـراء الكلبيين ، وكان قـد استخلفهما بدمشق في مائتي فارس من العـرب...وخرج اليه اهـل البلد فخدموه وهنـوه بالسلامة».

وحدثه أهل دمشق وشكو اليه اوضاع بلدهم وقال له احدهم:« قد عرفت أنه لم يبق في هذا البلد عشر العشر من الجوع والفاقة والفقـر والضعف ولم يبق لنا قوة» ، فوعد اهالي البلد خيرا «ثم أقام بدمشق وجاء التركمان من الروم ولم يستخدم غيرهم ، وعصى عليه الشام ، وأعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام ، وقام بذلك المصـامدة

والسودان ، وكان اتسز واصحابه قد تركوا أموالهم وأولادهم بالقدس ، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم ونسائهم فنهبوها ، ، وقسموا التركيات بينهم ، واستعبدوا الاحرار من الأولاد واسترقوهم ، فخرج من دمشق فيمن ضوى اليه من التركمان ووصل الى قريب القدس ، وراسلهم وبذل لهم الأمان فاجابوه بالقبيح وتوعدوه بالقتال فجاء بنفسه الى تحت السور وخاطبهم فسبوه ، فقاتلهم يوما وليلة وكان ما له وحرمه في برج داود ، ورام السودان والمصامدة الوصول اليهم فلم يقدروا وكان في البرج رتق الى ظاهر البلد فخرج اهله منه اليه ودلوه عليه ، فدخل منه ومعه جماعة من العساكر وخرجوا من المحراب ، وفتحوا الباب

ودخل العسكر فقتلوا ثلاثة الاف انسان ، واحتمى قوم بالصخرة والجامع ، ، فقرر عليهم الاموال حيث لم يقتلهم لأجل المكان واخذ من الأموال شيئا لايبلغه الحصر بحيث بيعت الفضة بدمشق كل خمسين درهما بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهما بدينار وقتل القاضي والشهود صبرا بين يديه وقرر امور البلد وسار الى الرملة فلم ير فيها احدا ، فجاء الى غزة فقتل كل من فيها فلم يدع بها عينا تطرف ، وجاء الى يافا فحصرها ثم دخلها وهدم اسوارها ثم اخذ عائدا الى دمشق ، وكتب الى بغداد «بانه على نية العود الى مصر وانه يجمع العساكر » .

ولم يهمله بدر الجمالي هذه المرة حتى يعد العدة لحملة جديدة ضد القاهرة بل اخذ بزمام المبادرة فأعد جيشا سيره في سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م نحو الشام بقيادة نصر الدولة (يرد اسمه احيانا ناصر الدولة واحيانا نصير الدولة)الجيوشي ووصلت القوات الفاطمية دمشق فاخذت بحصارها ومضايقتها واستولى الجيش الفاطمي على اعمال دمشق واعمال فلسطين واقام على دمشق «مدة مضايقا لها وطامعا في تملكها ، واضر على منازلتها اضرارا اضطر اتسز صاحبها الى مراسلة تاج الدولة(تتش بن الب ارسلان وكان منازلا لحلب يجهد لاخذها) يستنجده ويستصرخ به ، ويعده بتسليم دمشق

اليه ويكون في الخدمة بين يديه ، فتوجه نحوه في عسكره ، فلما عرف نصر الدولة الخبر وصح عنده قربة منه رحل عنها مجفلا وقصد ناحية الساحل وكان ثغرا صور وطرابلس في ايدي قضاتهما قد تغلبا عليهما ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش (بدر الجمالي) بل يصانعان الاتراك بالهدايا والملاطفات ووصل السلطان تاج الدولة الى عذراء في عسكره لانجاد دمشق ، فدخلها واقام بها مديدة «وقرر تتش ان يتخلص من اتسز وينفرد بحكم دمشق «فقبض عليه في شهر ربيع الأول منها (ايلول ـ تشرين اول ١٠٧٨) وقتل اخاه اولا ، ثم امر بخنقه فخنق بوتر في المكان المعتقل فيه ، وملك تاج الدولة دمشق واستقام له الأمر فيها » .



عندما قام تتش بهذا طوى صفحة حالكة من تاريخ دمشق وجنوب بلاد الشام وذلك بقتله لأتسز مع أخيه وكان أتسز وثلاثة مــن إخــوانه الأربعة قد قتلوا ، فهو ــ أي أتسز ــ قتل شكلي ، وفي حملتــه على مصر فقد واحدا من إخوانه ، وجاء تتش الآن فأجهز على الثالث . لقد كره أهل دمشق أتسز هذا كثيرا ولعنوه في كتــاباتهم ، وســموه إقسيس ومع ذلك فإن ابن كثير وهو من متأخري مؤرخي دمشق فقد اعتبره بأنه « كان مــن خيار الملوك وأجــودهم سـيرة وأصـــحهم سريرة . أزال الرفض عن أهل الشام ، وأبطل الأذان بحي على خير العمل وأمر بالترضي عن الصحابة أجمعين ،وعمــر بــدمشق القلعــة التي هي معقل الاسلام بالشام المحروس فرحمه الله ، وبل بالرحمة ثراه ، وجعل جنة الفردوس مــأواه » . مــا أظــن أن الله تعــالى ســيستجيب لدعاء ابــن كثير هــذا الذي سر لتغيير جملة في صــيغة الأذان ، ولم يتأثر أو يتألم لآلاف الأرواح التي أهدرت ، ثم للتهــديم الذي أصاب الناس والأرض ، ولا لأجيال من الآلام والخزي تحــت الحكم الصليبي ، وهو ابن كثير نفسه حين تحدث بشكل مفصل عن بناء قلعة دمشق قال ناقضا ماذكره من قبل بأن أتســز : « شرع في بناء هذا الحصن المنيع » ، ثم بين بأن مكان القلعة كان أحد أبــواب دمشق وكان يعرف بباب الحديد ، ومعروف أن البــوابات كانت عادة عبارة عن أبراج تتفاوت في القوة والحجم ، ويبــدو أن كل مــا فعله أتسز أنه رم سور دمشق للدفاع عن نفسه ومتن بــرج بــوابة بــاب الحديد أكثر من سواه ، وبقي الحال هكذا حتــى ملك تتش دمشــق فأكمل بناء القلعة«وأحسن عمارتها » كما قال ابن كثير نفسه(٢٥).

أما وقد رأينا ما حل بدمشق وجنوبي بلاد الشام ، فلنعــد نحــو الشمال حتى نشهد بقية المأساة ونستوفي القصة ، ونســدل الســتار على الشام كبلد فيه للبدو العرب دور سياسي مؤثر.

قبل أن يتوفى محمود بن نصر أمير حلب ، أوصى بالامارة من بعده لولده الأصغر شبيب ، ولكن بعد وفاته لم تراع وصيته هــذه ، وعين رجال الدولة مــع عساكرها ابنه الكبير نصر(٢٦) وكانت غالبية هــذه العساكر مؤلفة من التركمان الذين كانوا يعيشــون في حلب ، ولقــد

كان مقدم هؤلاء التركمان يعرف باسم احمد شاه ، هذا ويروي ابن العديم ما يفيد بأن احمد شاه كان مخلصا في خدمته لنصر بن محمود (٢٧)ففي سنة ١٠٧٥ م ارسل نصر بن محمود أحمد شاه مع تركمانه لاسترداد بلدة منبج من البيزنطيين الذين كانوا قد احتلوها منذ ايام الامبراطور رومانوس دايجينوس كما سبق ومر معنا من قبل .

وفي الحادي والعشرين (او ٢٤) من أيلول سنة ١٠٧٥ م سلمت الحامية البيزنطية في منبج حصن البلدة للجيش الحلبي وذلك بعد حصار دام فترة طويلة من الزمن . وبعد هذا بفترة وجيزة تعرضت الاجزاء الجنوبية من إمارة حلب ـ كما سبق وذكرنا ـ لغارات قام بها اتسز مع أخيه جاولي ، ولقد بينا كيف أن نصر بن محمود لما اخفق في كف عادية أتسز وجاولي بالمال والهدايا أرسل احمد شاه مع تركمانه فتصدوا لاتسز وجاولي واشتبكوا معهما في اكثر من معركة ، ولقد هزم أحمد شاه في الأول ، وعول اتباعه على العودة إلى حلب لكنه أبى إلا ان يعاود القتال وقال لاتباعه : « ما بقي لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة ، فإن راجعتم الحرب واظفرنا الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظفر ، وإن ابيتم ذلك فانا اسير إلى الفرات ، واستدعي أهلي ـ حتى اقاتل بهم ـ فما لي وجه القى به نصر بن محمود ، وإنما أعطى ومنح وأكرم لمثل هذا الموقف .

فاجمعوا امرهم على معاودة الحرب فاسرى من موضعه إلى عسكر جاولي ، وكبسه ، فاستئار منهم ، ونهب عسكره ، واسر منهم مايزيد على ثلاثمائة نفس ، وسيرهم في الوثاق إلى حلب مشاة ، وهرب جاولي»(٢٩) .

ولاسباب غير معروفة قبض نصر بن محمود « على أحمد شاه واعتقله بقلعة حلب في عيد الفطر من سنة ثمان وستين واربعمائة » (٩ ايار ١٠٧٦ م) ، ويبدو ان احمد شاه جاء ثاني يوم العيد لتهنئة نصر ، وصعد إلى القلعة لوحده ، فانتهز نصر الفرصة فالقى القبض عليه ، وبعد ان فعل ذلك « جلس فشرب إلى العصر ، وحمله السكر على الخروج إلى الاتراك ، وسكناهم في

الحاضر ، واراد أن ينهبهم ، وحمل عليهم ، فرماه تركي بسهم في حلقه فقتله » . لقد كان الحاضر يقع خارج أسوار حلب ، وكان نصر أهوجا ، وعندما زحف على الحاضر كان لوحده وقد سمع وهو يصرخ « نريد الوجوه الملاح » ، ويبدو أن التركمان كانوا مستنفرين ومتوقعين الشر بعد أن سمعوا بإلقاء القبض على مقدمهم ، وزحف التركمان بعد مقتل نصر « إلى البلد يطلبون احمد شاه » ولقد أزعج خبر مقتل نصر اهالي حلب الذين كانوا يحتفلون بعيدهم وكانوا قد تجملوا بأفخر ملابسهم « وكان الزمان ربيعا والأرض نضرة » ، فتدفق الناس نحو حلب وتدفق من كان داخل المدينة إلى بيوتهم ، وما إن سمع من كان في المدينة من رجال الامارة بمقتل نصر حتى اسرعوا فاغلقوا ابواب حلب وعملوا على تدارك الأمور (٣٠) .

كان نصر بعدما اصبح اميرا على حلب قد اوكل معظم شؤون دولته إلى عمه في الرضاعة علي بن المقلد بن منقذ الذي كان يعرف باسم سديد الملك وإلى وزيره أبي « نصر محمد بن الحسن التميمي المعروف بابن النحاس الحلبي » ، وكانت العلاقة بين ابن النحاس وسديد الملك علاقة جيدة ، قد متنها حبهما للأدب ، وما أن علم ابن النحاس وسديد الملك بمقتل نصر حتى تصرفا بسرعة « فاستدعوا اخاه سابق بن محمود » وكان سابق ساكنا في المدينة وكان ايضا قد أمضى نهاره يحتسي الخمرة لذلك عندما جلب ليتسلم منصبه الجديد في القلعة لم يدخلوه من بابها بل « رفع إلى القلعة بحبل من السور وهو سكران ونادوا بشعاره واطاعته الاجناد ، وأشاروا عليه بإطلاق احمد شاه فأطلقه في الحال ، وخلع عليه؟

ونزل احمد شاه إلى العسكر بالحاضر ، فسكن الثائرة ، واخمد الفتنة ، فكان سابق بن محمود بعد ذلك يعين الاتراك ويقربهم ، ويحسن إليهم، ويقدمهم على أهله بني كلاب ، وينصرهم عليهم (٣١) ولقد أصبح أحمد شاه الآن سيد إمارة حلب الفعلي وأخذ يمارس سلطانه « وفي كفالته سابق بن محمود بن نصر » وكان سابق من متخلفي بني مرداس ، ولما « عرف بنو كلاب تخلفه ، اجتمعوا إلى

اخيه وثاب وحسنوا إليه اخذ حلب ، وانضاف إليه اخوه شبيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما » ، وعندما راى علي بن مقلد ابن منقذ تدهور الأوضاع في مدينة حلب بتحكم احمد شاه بسابق ، وبقرار قبيلة كلاب مهاجمة حلب لخلع سابق ، عندما راى كل هذا هجر حلب إلى بلدة كفر طاب حيث اخذ يخطط للاستيلاء على شيزر ومن ثم إقامة حكم الأسرة المنقذية في هذه القلعة .

وجمعت قبيلة كلاب كل رجالها ، فاجتمعوا « في جمع عظيم ما اجتمعوا قط في مثله ، يقال إنهم كانوا يقاربون سبعين الف فارس وراجل » .
وعسكرت هذه الجموع في منطقة قنسرين تعد انفسها للزحف على حلب ، وفي داخل حلب « لما تحقق سابق ذلك استدعى احمد شاه امير الاتراك ، وكانوا الف فارس وشاوره » . واخذ احمد شاه يعمل لصد قبيلة كلاب وتفريق جموعها .

ويستنتج من قصيدة القاها ابن حيوس اثناء هذه المحنة ان الناس كانوا يخشون عواقب تحرك قبيلة كلاب ، وانه قد وجد ضغط على سابق كي يحاول تجنب الاصطدام مع آله لأن في ذلك تهديم لقوة العرب ومجد آل مرداس ، ويقول ابن حيوس :

بني عامر لاتمتطوا البغي ضله
فلم يعله المغرور إلا ليسفلا
ولاتتبعوا الأهواء فهي مضلة
وإن سوف الشيطان فيها وسولا
ولاتقتفوا من جار عن منهج الهدى
فأدمى يدا من حقها ان تقبلا
وكونوا كأشياخ لكم غالها الردى
ترى الموت من نقض المواثيق اسهلا
ففي آل ذبيان وأبناء وائل
مواعظ لاتخفى على من تأملا

اعلوا صحيح الراي واتبعوا الهوى
فأيتم منهم كيف شاء وأرملا
وقد حدثت في الأرض والأمر واضح
نوائب تنهاكم عن الهجر والقلا

☆☆☆

فلا ترض يا عز الملوك بذلهم
وان يردوا من غير بحرك منهلا
وصنواك لا تعص ابن عمك منهما
وكن غير مأمور إلى السلم أميلا
فما رضيا بالبعد عنك زهادة
ولا ابتغيا ما عز إلا تذللا
وهل طلبا الانصاف من غير أهله
وهل اوعرا في السوم إلا ليسهلا

لم يكن سابق الذي كان بلا حول ولا طول ليقدر على المبادرة للعمل على إحلال السلم مع قومه ، لقد كان أحمد شاه هو الذي يستطيع إنهاء المشكلة ، وهكذا عمل حيث أنفذ « إلى رجل من الاتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، وضمن له مالا كثيرا ، فوصله محمد بن دملاج في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان وستين (٧ حزيران ١٠٧٦ م) » ، وتحالفوا ، وخرجوا إلى بني كلاب المجتمعين مع وثاب في غداة يوم الخميس مستهل ذي الحجة من سنة ثمان وستين وأربعمائة (٧ تموز ١٠٧٦ م) » .

وكان بنو كلاب غارين واثقين بعددهم لذلك أخذوا بالمفاجأة « فعند معاينتهم الاتراك انهزموا من غير قتال وخلفوا حللهم وكل ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم ، فغنم أحمد شاه وأصحابه ومحمد بن دملاج وأصحابه كلما كان لبني كلاب ، فيقال

انهم أخذوا لهم مائة الف جمل واربعمائة الف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة ، ومن إمائهم أكثر ، وكلما كان في بيوتهم ، وعفوا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون على عشرة آلاف عبد مقاتل ، ولم يقتلوا أحدا منهم ، وكان الذي غنمه الغز من العرب في ذلك اليوم مالا يحصى كثرة »(٣٢) .

بعد ثلاثة عشر يوما من هذا النصر المؤزر قامت فرصة جديدة أمام سابق لتدارك بعض ماحدث وللتخلص من التركمان « فبعد انهزام العرب بثلاثة عشر يوما دعا محمد بن دملاج التركي احمد شاه ، فخرج إليه ، وكان نازلا بشمالي حلب ، فلما أكلوا وشربوا قبض محمد بن دملاج على أحمد شاه وأسره ، وكان في نفر قليل ، فأقام في أسره تسعة أيام » ، وعوضا عن أن ينتهز سابق فرصته هذه فيثير اتباع احمد شاه ويحثهم على تخليص سيدهم ، وهكذا يوقع الحرب بين فئتي التركمان فتضعفا فيمكن الخلاص منهما بسهولة ، عوضا عن القيام بمثل هذا ، آثر سابق أن يبقى محكوما من قبل أحمد شاه ، لذلك سعى لتحرير سيده وفك أسره ، « فاشترى أحمد شاه من محمد بن دملاج بعشرة الاف دينار وعشرين فرسا »(٣٣) .

وترك وثاب بن محمود مع بقية المهزومين من أمراء بني كلاب منطقة حلب ، وتوجهوا شرقا إلى خراسان « إلى السلطان ملك شاه ابن ألب أرسلان وشكوا حالهم ، وسألوا منه أن يعينهم على سابق ، فوعدهم واقطعهم في الشام ، وأقطع الشام أخاه تتش ، فساروا معه جموع الترك ووثاب ومبارك بن شبل » ، وكان تحرك تتش غربا « إلى الشام في أوائل سنة سبعين وأربعمائة (١٠٧٧ م) ، وتقدم السلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجي ، وصندق التركي ، ومحمد بن دملاج ، وابن طوطو ، وابن بريق ، وغيرهم من أمراء الترك بالكون مع تاج الدولة ـ تُتُش ـ والمسير في خدمته » ، وعندما وصل تتش إلى ديار بكر التقت به قبيلة كلاب فالتحقت به وسلمته قيادها ليسير بها إلى قتال حلب لاسقاط الدولة المرداسية الكلابية وإحلال حكمه التركماني محلها ! والأحمق دائما يفعل كل

منكر ويسعى إلى حتفه بظلفه ويجني ثمرات حمقه ، ويقتل لصالح عدوه وفائدته ، وليس أبلغ من أن نسوق هنا كتعليق قوله تعالى: « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (الكهف ١٨ / ١٠٣ ـ ١٠٤).

وعندما وصل تتش إلى حلب وصل إليه والتحق به « شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش في عسكر كثير بأمر ملك شاه ونزل معه على حلب معينا له »(٣٤) وقبل أن تصل هذه القوات كلها إلى حلب كان سابق قد أخذ احتياطاته ، فقد كان أحمد شاه خارج حلب يحاصر انطاكية ، فاستدعاه وطلب منه ترك انطاكية التي تعاني من شدة تضييقه الحصار عليها ، ومن الطريف ذكره أن أحمد شاه لم يترك حصار انطاكية إلا بعد أن قبض من أهلها مبلغ ٠٠٠ ر٥ دينار .(٣٥).

وما أن وصل تتش مع قواته أسوار حلب حتى بدأ يحاصرها ، وبعد بدء الحصار بأيام قام تتش برفعه وانسحب مسافة عدة أميال عن أسوار المدينة ، ومن المحتمل أن هذا الانسحاب قد تم لغاية عسكرية هدفت إما إلى استدراج المدافعين للخروج من المدينة للايقاع بهم ، أو أن تتش هدف إلى إعادة تنظيم قواته لتقوم بحصار حلب لفترة طويلة حتى تسقط ، المهم أن تتش عاد الى اسوار حلب وعاود حصار المدينة ، ولقد استمر محاصرا اياها مدة ثلاثة أشهر ، وعلى كل حال لم يكن هذا الحصار قاسيا ، فقد « كان هوى شرف الدولة ابي المكارم مع سابق ، وكان يسير اليه في الباطن بما يقوي نفسه ، وكان ينكر على بني كلاب خلطتهم بعسكر الترك »، وعمل مسلم على أن تتخلى قبيلة كلاب عن تتش فترحل نحو البادية أو يدخل رجالها مدينة حلب للمساعدة في الدفاع عنها ، ولقد سهل مهمته هذه أحمد شاه حيث أصيب بضربة أثناء الحصار أودت بحياته ، وراسل سابق بني كلاب « فتالفهم ، وقال لهم : اني انما اذب واحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا » .

واثمرت جهود مسلم بن قريش فتخلت قبيلة كلاب عن تتش بـان رحل القسم الاكبر منها نحو البادية ، ودخل قسم منها مدينة حلب ، وهنا اخبر مسلم تتش بانه سيرحل هو ايضا عائدا نحو الموصل ، «. ورحل وجعل عبور عسكره على باب حلب (ربما باب العراق) وباع اصحابه اسل حلب كل ماكان في العسكر عصبية وتقوية لهم ، وقـوى نفوسهم ونفس سابق ، وسار بعد ان قوي اهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضعف الشديد الى بلاده »(٣٦) .

وتابع تتش بعد انسحاب قبيلة كلاب ومسلم بن قريش وتخليهم عنه . حصاره لمدينة حلب ، ويبدو انه كان متوقعا لمثل هـذا الانسـحاب ، لذلك حاول مسبقا تفادي مخاطره فراسل اخاه ملك شـاه وطلب منه المساعدة بالعساكر وبشكل خاص طالب بامداده بآلات للحصار ودك الأسوار : ولقد التقى مسلم بن قريش ، وهو في طريقه الى الموصل ، عند سنجار بقوة غزية مؤلفة من الف من الجند يقودها رجل اسـمه تركمان ، وكانت وجهة هذه القوة مدينة حلب ، وكانت تحمـل معهـا ادوات الحصار التي طلبها تتش من اخيه ملك شاه ، وحاول مسـلم أن يقنع تركمان بعدم متابعة سيره الى حلب لكنه اخفـق ، وعندهـا انذر سابق وساعده على تشكيل قوة عربية بدوية من مختلف القبائل فيها حوالي الف فارس وخمسمائة راجل ، وكمنت هذه القوة العربية للعساكر الغز فهزمتهم وقتلت اكثـرهم . ولقـد كان الشـاعر ابـن حيوس يعيش هذه الأحداث ويتفاعل بصدق معها ومما قـاله حـول هذه الحادثة :

وكانت الترك بالأعراب جاهلة
حتى اتحت لها أن تعرف العربا

ولم يفت منهم الا اغيلمة
نجت بهم مقربات تحمل الأربا

لولا كلاب لما جاشت جيوشهم
هذي البلاد ولا مدوا بها طنبا

راموا المودات من أعدى عداتهم
وذاك رأي الى غير الصواب صبا

وعندما وصلت أخبار ما حل بالغز الى تتش ترك أسوار حلب وقاد معظم ما كان لديه من قوات ضد البدو العرب الذين كانوا في ريف حلب ، وما أن بعد عن حلب حتى خرجت القوات التي كانت موجودة داخل المدينة فهاجمت معسكراته فقتلت حرسها واغتنمت ما كان فيها ، ويبدو أن تتش لم يحقق اي نجاح في مطاردته للبدو العرب وعندما سمع بنهب معسكره قرر عبور الفرات ليغير على ديار مسلم بن قريش وينتقم منه ، لكنه بعدما عبر الفرات علم بأن مسلم يتوقعه وهو متأهب للقائه والتصدي له ، لذا اضطر مكرها التخلي عن خططه ، وذهب الى ديار بكر حيث أمضى الشتاء » (٣٧).

ومع رحيل الشتاء واقبال الربيع رحل تتش من ديار بكر مع قوات جديدة من التركمان كان قد جندها ، واقبل على راس هذه القوات نحو حلب يريد اخذها وقد خطط لذلك خطة جديدة ، فلقد هدف الى تجريد حلب من جميع المواقع الحصينة التي كانت تابعة لها ، ومن ثم ينقض على حلب نفسها فيأخذها ، وفي هذا السبيل احتل منبج وحصن الفايا ، وفتح حصن بزاعا » بالسيف وقتل كافة من كان فيه ونهبه ، وشحنه بالرجال ، ورحل الى عزاز وقد انضوى الى قلعتها خلق عظيم ، ومنعهم الوالي بها من الصعود اليها ، فالتجئوا الى سند القلعة بأقمشتهم والناس عليها... فزحف العسكر الى القلعة ، وقاتلها ، وضربها بالنار ، فاحترقت اقمشة الناس وغلاتهم وحرمهم وأولادهم »، ورحل تتش بعد هذا نحو حلب فوصلت قواته صباحا ، وقبل أن تستعد هذه القوات وتنظم صفوفها لمهاجمة المدينة انقضت عليها عساكر حلب ففاجأتها « وهزم الله عسكر تتش ... ولو عاد عسكر حلب في إثرهم ما كان افلت منهم إلا من سبق به فرسه».

ولم يحاول تتش ــ على الاقل لبعض من الوقت ــ ان يهاجم مدينة حلب بل توجه جنوبا الى دمشق ــ كما سلف الحديث ــ فتسلمها واسس لنفسه حكما فيها (٣٨)

الآن وقد مر بنا عدة مشاهد من فصول الصراع من أجل السيادة على بلاد الشام والجزيرة لابد للمرء من ان يتساءل عن طبيعة هـذا الصراع وبواعثه ومحركاته؟.

انه لمن الواضح مما جاء في روايات المؤرخين الذين كتبـوا حـول هذا الصراع ودونوا احداثه، ومما جاء في شـعر الشـعراء العـرب المعاصرين للأحداث بأن المحرك الذي كان وراء مسلم في هـواه مـع المرداسيين وفي أعماله لمساعدتهم ضد السـلاجقة والتـركمان ، هـو رابطة العصـبية القبلية،ولقـد واجهنا في روايات المؤرخين وشـعر الشعراء مجموعتين من الناس تتصـارعان مـن اجـل السـيطرة والسيادة ، ولقد مر معنا بأن « ملك العرب » كان يحتـاج ان يحمـى ويصان قبل أن يزال من قبل التركمان الأجانب .

وروى ابن العديم بأنه عندما كان تتش يحاصر مـدينة حلب كتب سابق بن محمود ــ كما مر معنا ــ الى أخويه شـبيب وثـاب وبقية امراء ومقدمي قبيلة كلاب قائلا :« إنني انما اذب واحامي عن بلادكم وعزكم ، ولو صار هذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا »، ولقـد ترددت نغمة هذه الرسالة في شعر ابن حيوس وفي رسالة نظمها ابـو نصر بن النحاس على لسان سابق وتم ارسالها الى محمد بن زائدة الذي كان احد البارزين بين امراء قبيلة كلاب ، ومما جـاء في هـذه الرسالة :

وقل لكلاب بدد الله شملكم
أو يحكم ما تتقون المعايبا

اتستبدلون الذل بالعز ملبسا
وتمسون اذنابا وكنتم ذوائبا

وها انا لاانفك ابذل في حمى
حماكم مجدا مهجتي والرغائبا

ويروي سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان بأن سابق بن محمود قد كتب في سنة ١٠٧٩ م الى مسلم بن قريش يستغيث به ضد تتش

الذي بعد أن استقامت أمور دمشق له « حشد ليقصد حلب » ، ومما جاء في رسالة سابق قوله :« أنت أولى بي من الغير والعربية تجمعنا فإن كنت ماكولا فكن أنت أكلي »، وسبط ابن الجوزي نفسه ينقل في كتابه مرآة الزمان عن غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء بأن مسلم بن قريش جاء الى حلب في سنة ١٠٨٠ م وحاول احتلالها (كما مر معنا)ولقد تمكن من اخذ المدينة وحاصر سابق بن محمود واخوانه في القلعة ، وطال أمر القلعة وكان في صحبة مسلم مقدمي قبيلة كلاب ، لذلك لما امتد أمر حصار القلعة جمعهم مسلم اليه وخاطبهم:« قد علمتم أني أنفقت اموالي وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم واموالكم ، وكف عادية الغز عنكم ، وهذه مقابلة ما أعرفها فإن كنتم رجعتم فها أنا راجع الى بلادي ومتبرىء منكم ، فأنكروا ما جرى وشرطوا السعي فيه وازالة ما تجدد منه».

إن كلمة « عرب » التي ورد ذكرها في المصادر كانت تشير فقط الى القبائل البدوية العربية لبلاد الشام والجزيرة وليس الى جميع سكان هذين البلدين ، وبنفس الوقت أشارت كلمة « ترك » واستخدمت للتدليل على التركمان الذين رافقوا الفتح السلجوقي لبلدان العالم الاسلامي في القرن الحادي عشر .م ولقد مر معنا بأن بلاد الشام والجزيرة كانت تحكم قبل مجيء التركمان من قبل أسر بدوية عربية من عقيل ونمير وقشير وكلاب مع وجود طيء وكلب وسواهما في جنوبي بلاد الشام ، وبعد سنين من الصراع سنجد التركمان يتمكنون أخيرا من تجريد هذه الاسر من سلطانها وقبائل هذه الأسر من أراضيها وممتلكاتها.

واعتمادا على هذا يمكننا القول بأن الصراع كان صراعا من أجل السلطة والسيطرة بين قوتين بدويتين مسلمتين واحدة عربية تدين بالتشيع وأخرى تدين بالسنة وهي وافدة تريد أن تحل نفسها محل الأولى.

لقد كان البدو يمثلون قسما صغيرا من سكان بلاد الشام والجزيرة وكانت الغالبية تقطن في المدن والأرياف ، ولا بد للباحث الحديث أن يتساءل عن موقف هذه الغالبية من الصراع ومن

المؤسف أن المؤرخ العربي لم يول هذه الغالبية اهتمامه ولم يعرها انتباهه ، وهو حين تحدث عن البدو العرب تحدث عنهم كاصحاب سلطة ، وبنفس الوقت حين تحدث عن التركمان تحدث عنهم كجماعة كانوا يستولون على السلطة وكانوا يقيمون لأنفسهم دولا جديدة ، ولقد تعود الانسان العادي أن يحكم وان يعاني دون إن يشارك في مصيره ، ومع ذلك يمكن القول بان غالبية سكان الشام والجزيرة قد وقفت ضد التركمان وكرهتهم لأسباب دينية ، ولما الحقوه بها من المصائب والويلات.

ولا بد لنا من ان نذكر هنا بانه قد ورد في مصادرنا بعض ما يشرح موقف تنظيمات الأحداث ، وخاصة في حلب ، من الصراع بين البدو العرب والبدو التركمان ، ولقد كان الأحداث دائما ضد التركمان ، لكن ينبغي أن نعرف بأن الأحداث لم يكونوا يمثلون جميع سكان المدن والأرياف في الشام وإنما بعضا منهم ، وانهم وقفوا ضد التركمان لا للدفاع عن الناس العاديين وانما على الأغلب للدفاع عن مصالحهم ومكانتهم وسلطاتهم التي هددها مجيء التركمان بالزوال (٣٩) .

اذا كان الخطر الذي واجهته القبائل العربية جعلها احيانا تقف ضد التركمان كي تحافظ على ملكها واملاكها ، لكن لماذا قاتل ابن خان التركماني واتباعه ثم احمد شاه واتباعه ضد بني جنسهم ولماذا ساندوا الدولة المرداسية وسواها ضد الخطر الغزي والغزو السلجوقي ؟ يكمن الجواب على هذا في طبيعة الجماعة التي انتسب اليها ابن خان وأحمد شاه ، وهي جماعة الناوكية التي قلنا عنها بأنها لم تدن للسلطان السلجوقي بالطاعة ، لذلك خدمت في ظل الدول التي كانت موجودة في الشام والجزيرة .

وعلى الرغم من الناوكية قد ناصبوا السلاجقة العداء فلم يعترفوا بسلطانهم ، إنهم قد خدموا قضية السلاجقة ومهدوا السبيل نحو استيلائهم على بلاد الشام . ومنذ مجيء السلطان الب ارسلان الى بلاد الشام وخوضه معركة منازكرد ، دخل الشام والجزيرة

جماعات جديدة من التركمان دانت له ولخلفائه بالطاعة ، لذا فـانها اختلفت عن الناوكية اختلافا جوهريا فهي طالما كانت تدين بـالطاعة للسلطان فانها لم تكن بحاجة للانضواء تحت لواء اية حـكومة مـن حكومات الشام والجزيرة أو للعمل كمرتزقة لديها ، لقد دخلت هـذه الجماعات إلشام دخول الغزاة وتصرفت تصرف الفاتحين ، وقـالت بأنها كانت مرسلة من قبل السـلطان ومفـوضه مـن قبله ومنفـذه لأوامره ، ولقد كانت طرائق هذه الجمـاعات في الفتح تعتمـد على التخريب والتهديم والتحريق والقتل وتبغي السلب والنهب دونما تأثر بالآلام التي تلحق بالناس ، لأنها كانت بلا ضوابط وبلا اعتبـارات انسانية أو خلقية ، وذلك بسبب طبيعتهـا البـدوية وبسـبب المرحلة الحضارية ودرجة الثقافة التي كانت فيها ، وينبغي ان يضـاف الى هذا كله أن هؤلاء التركمان كانوا ، بسبب تعصبهم الشديد للسـنة ، يحسبون أنفسهم مجاهدين في سبيل الله يقاتلون ضد كفـار مـرتدين ليس لهم الا السيف والنار.

من اشهر اسماء زعماء جماعات التركمان التي وصلتنا اسـمين هما صندق وافشين ، ولقد دخل صندق الشام في سنة ١٠٧٠ م مـن الأراضي البيزنطية ، فشعث المناطق ما بين حمص ومعرة النعمان ، ولقد كان افشين قبل هذا الوقت يعمل داخل الأراضي البيزنطية ، وقد التحق كل من افشين وصندق بتتش عندما دخل بلاد الشام وحـاول فتح حلب ، (٤٠) وبقي افشين في خدمة تتش ورافقه حينما تـوجه الى دمشق لاغاثة اتسز (٤١) ، لكنه هجره بعدما فتك بأتسز وتملك دمشق وانفرد بحكمها ، ربما خشية أن ينال نفس المصير ، وعندمـا تخلى عن تتش وهجره أخذ معه الجزء الاكبر مـن التـركمان الذين رافقوا تتش الى دمشق ، هذا ويمكن القول بلا تردد بأن افشين كان أكثر مقدمي التركمان الذين دخلوا بلاد الشام تهديما وأكثرهم قسوة وأشدهم وطئًا وفظاظة على الناس والبـلاد . ويروي كل مـن غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء وابن العديم تفاصيل مـا قـام بـه افشين بعدما تـرك تتش وتـوجه شـمالا يريد الأراضي البيزنطية . ويقول ابن العديم: « ثم فسخ مـن عسـكره ـ اي تتش ـ افشـين

التركي ، ومعه اكثر العسكر وعاد شمالا ونهب عسكره ضياعا في اعمال بعلبك.

ووصل رفنيه في اليوم العاشر من جمادى الأولى (٤٧٢ هـ/٨ تشرين ثاني ١٠٧٩ م) وفيها جماعة كثيرة من التجار والقوافل متوجهين الى طرابلس فهاجمنها بغتة ، وقتل ممن كان بها جماعة ، واستباح اموالهم وحريمهم ، واقام بها عشرة ايام ، ثم سار فنزل حصن الجسر ـ قرب شيزر ـ فأكرمه ابو الحسن بن منقذ ، فاعلمه بما عول عليه من نهب الشام ، فسأله في بلدة كفرطاب الا يعترضها فأجابه.

وسار فنزل قسطون ـ من قرى جسر الشغور ـ فجرى امرها في النهب والعقوبة مجرى رفنيه ، واقام بها نيفا وعشرون يوما ، ثم تنقل وعسكره بالمنجنيقات على ابراج جبل السماق وغيرها ، حتى لم يبق بها موضع ولا برج الا افتتحه وأهلكه ، واستباح حريمهم وأولادهم ، وأستغرق أحوال اهل سرمين والمعرة بالقطائع ، وطلع الى جبل بني عليم (جبل الزاوية الآن) فلم يتم له بها شيء .

وسار فنزل ضياع معرة النعمان الشرقية بالمنجنيقات ، ففتح ابراجها وحصونها بالسيف ، واخذ مالايمكن إحصاؤه ، وغلب اهلها فهلك منهم خلق ، ونزل تل منس ـ قرب المعرة ـ وقطع عليها خمسة الاف دينار ، ولم يتمكن من اخذها .

وانتقل إلى عمل معرة النعمان ففعل مثل ذلك . وسار إلى معرتاح ـ من عمل كفر طاب ـ فتحصن اهلها في ابراجها ، وتعذرت عليه فأحرقها ، وهلك جميع من كان فيها ...

وحين رجع أفشين من الشام ولم يبق في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب ، توجه إلى بلد إنطاكية فخرب ماقدر عليه ، ونهب وسبى ماوجد ، وحمل إليه من إنطاكية مال ، وتوجه إلى الشرق بعد إمتلاء صدره وصدر عساكره من النهب » .

ويتابع ابن العديم ، الذي شهد الغزو المغولي ورأى بأم عينه مافعله التتر في بلاد الشام ، حديثه فيقول : « وجرى من هذا

الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله ، وتلف أهله بعد ذلك بالجوع ، ووجد قوم قد قتلوا قوما وأكلوا لحومهم ، وبيعت الحنطة ستة أرطال بدينار وما سوى ذلك بالنسبة .

وجلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مسلم ابن قريش ، فأحسن إليهم وتصدق عليهم ، وكان ذلك الاحسان منه أكبر الأسباب في مملكته حلب» (٤٢) .

بعد قرابة عشرين سنة من هذه الأعمال استولى الصليبيون على انطاكية ، ثم مروا في هذه المنطقة الجبلية الصعبة ـ في طريقهم إلى القدس ـ دون أن يلقوا اية مقاومة تذكر ، ويشير هذا إلى حقيقة مؤلمة هي انه حتى بعد عشرين عاما لم تستطع هذه المنطقة أن ترمم بعض مالحقها من تشعيث وتهديم ، ولكن بعد بضع سنوات من استيلاء الصليبيين عليها لقد كان من أصعب الأمور على نور الدين محمود بن زنكي ومن جاء بعده من أمراء المسلمين استخلاص هذه المنطقة من الصليبيين

لقد اقتنع كل إنسان في شمال بلاد الشام ـ وحتى في الجنوب ـ بأن سابق بن محمود ليس لديه من الطاقة والعزيمة ما يمكنه من صنع اي شيء يحسن به الوضع ويواسي به الناس ويخفف من آلام المصائب التي حلت بهم ، لهذا أخذ الناس ـ ومن جملتهم قبيلة كلاب ـ ينظرون حولهم علهم يجدون قائدا قويا وعادلا ، لقد كان امامهم : السلطان ملك شاه ، وتتش بن الب ارسلان ، ومسلم ابن قريش العقيلي امير الموصل .

لم يكن السلطان ملك شاه ليفي بالغرض ويلبي الرغبات ، فهو قد كان بعيدا عن مسرح الأحداث مشغولا بسوى الشام والجزيرة من القضايا ، يضاف إلى هذا أن التخريب قد تم باسمه وربما كان هو راض عما حدث لأن ذلك كان سيمكنه من اخذ الشام وضمه مع الجزيرة إلى املاكه .

اما تتش فقطعا لم يكن بالشخص الذي رجا الناس على يديه العدل والرحمة ، فهو لم يكن احسن بكثير من افشين .

ولقد بدا لكل الناس بأن مسلم بن قريش العقيلي هو الرجل الذي يمكنه أن يشغل الدور الذي رجوه منه ويؤديه بإخلاص احسن اداء ، وعلى هذا الأساس توجهت نحو الموصل عدة وفود وجماعات تمثل مختلف طبقات الناس من أهالي الشام مع أعداد هائلة من اللاجئين ، ولقد استغاث هؤلاء بمسلم بن قريش وطلبوا منه التحرك نحو الشام لتخليصه .

عندما نستعرض ديوان ابن حيوس الذي أمضى قرابة الستين سنة من عمره يمدح بها حكام دمشق الفاطميين ثم الأمراء المرداسيين في حلب مع عدد من الوزراء والقادة الفاطميين ، عندما نستعرض هذا الديوان يسترعي نظرنا قصيدة متميزة بصدق عاطفتها وشدة تعبير أحاسيس قائلها ، وقد نظم ابن حيوس هذه القصيدة في أخريات أيام حياته ، ومدح بها مسلم بن قريش عندما فتح مدينة حلب واسقط الدولة المرداسية ، وفيها يقول :

يا رحمة بعثت فاحيت أمة
قد طالما منيت بمن لم يرحم

جليت ظلم النائبات كما جلا
ضوء الغزالة جنح ليل مظلم

واطرت طير الخوف حتى ماله
بالشام منذ طرقته من مجثم

إن الرعايا في جنابك أمنت
كيد الغشوم وفتكه المتغشرم

لاالظبية الغيداء تخشى القسور الضـ
اري ولا الذمي حيف المسلم

فخصصت بالاذلال كل مقلنس
وعممت بالاعزاز كل معمم

وغدا ستخلي الشام منهم مثلما
اخلت خزاعة مكة من جرهم

ولم يتحقق حلم ابن حيوس في إخلاء الشام من التركمان ، وسنرى بالتفصيل كيف اخفق مسلم في تحقيق ما صبا إليه ، وكيف هزمه التركمان وقتلوه وهو يجاهد في سبيل إقامة دولة عربية تشمل الشام والجزيرة مع اجزاء واسعة من العراق (٤٣) .

بعدما سمع تتش بالأعمال التي جناها افشين ترك دمشق وتوجه شمالا بحجة انه يريد مطاردة افشين ليوقفه عن متابعة اعماله التدميرية ، لقد كان هذا ما تظاهر به تتش ، ويبدو ان قصده الحقيقي كان الاستفادة من الفرصة التي اوجدتها اعمال افشين لكي يهاجم حلب ويحتلها ، وفعلا وصل تتش إلى حلب وحاصرها أياما لكنه عندما أدرك عدم استطاعته اخذ المدينة بقوة السلاح رفع الحصار وانسحب متوجها شمالا حيث نهب القرى المحيطة بالمدينة ممن كان له حظ النجاة من افشين ، ثم عاد بعدها مع غنائمه إلى دمشق (٤٤) .

وفي مدينة الموصل استقبل مسلم بن قريش وفدا حلبيا مع رسالة من أحداث حلب فيها تجديد للاستغاثة والدعوة للقدوم الى حلب لانقاذها ، كما استقبل ايضا وفدا من أمراء قبيلة كلاب عملوا له نفس المطالب ، ووعدوه بالمساعدة والسير في ركابه ،وتبعا لما رواه عدد من المؤرخين العرب كتب سابق بن محمود الى مسلم بن قريش لا ليطلب منه المساعدة فقط وانما ليعرض عليه التنازل له عن الامارة.

وهنا قرر مسلم بعد تسلمه لكل هذه الطلبات لا العمل للاستيلاء على شمالي بلاد الشام فقط وإنما على جميع مناطق الشام ومدنه ، ولقد كانت إحدى زوجات مسلم أختا للسلطان الب ارسلان اي عمة للسلطان ملك شاه ، وخشية أن يقوم السلطان ملك شاه أو احد قادته بمهاجمة الموصل بعدما يتركها مسلم حينما يتوجه إلى الشام ، قام مسلم بإجراء احتياطي ، « فانفذ ولده من خاتون عمة السلطان ملك شاه إليه ، وشرط على نفسه في كل سنة ثلاثمائة الف دينار ، فأجابه وامره بقصدها – اي حلب – فسار إلى قلعة جعبر فحصرها ، وكان بها جعبر واصحابه يقطعون الطرق ،

فصالحوه على انهم لايعودون إلى شيء من ذلك ، وسار إلى حلب فوصلها ثاني عشر ذي الحجة (٥ حزيران ١٠٨٠ م) ومعه بنو كلاب وكلب ونمير وجميع القبائل ، وقد اطاعوه خوفا من الغز ، وانفق عليهم الأموال ، فكسر الأحداث الابواب يوم الجمعة لعشر بقين من ذي الحجة ، ودخل اصحابه اليها ولم يتأذ احد من اهلها ولا اغلق فيها دكان .

وراسل سابق بن محمود وهو في القلعة مراسلة انتهت إلى أن يزوجه سابق باخته ويعوضه مالا على ان يسلم القلعة ، فرضي وحط سابق رحله وماله إلى البلد ، ولم يبق إلا ان ينزل ، فوثب عليه أخواه شبيب ووثاب فقبضا عليه واستوليا على القلعة » .

وهنا اخذ مسلم بحصار القلعة وطال الحصار ودام اكثر من اربعة اشهر ، وضاق مسلم ذرعا وتبرم من ذلك ونوى التخلي عن حلب والعودة إلى الموصل ، لكن التشجيع الذي لقيه من اهالي حلب ، ثم الوعود التي لقيها من مقدمي قبيلة كلاب ، مع ما كان يقوم به شخصيات الامارة بالتوسط بينه وبين الأمراء المرداسيين في القلعة اقنعه بالبقاء في حلب ومتابعة حصار القلعة

ووقعت بعض الخلافات بين الأمراء المرداسيين ، وكان ذلك فرصة اقتنصها علي بن المقلد بن منقذ فتوسط بينهم وبين مسلم بن قريش ، وقد استطاع أن يقنعهم بالتخلي عن القلعة وتسليمها إلى مسلم مقابل تعويضات مالية مع اقطاعات لكل واحد منهم ، وهكذا نزل الامراء المرداسيون من القلعة وتسلمها مسلم يوم الأحد العاشر من ربيع الآخر سنة ٤٧٣ هـ (او يوم الثلاثاء الخامس منه) ٢٧ ايلول ١٠٨٠ م ، فزالت بذلك دولة بني مرداس (٤٥) . واصبح الآن مسلم بن قريش سيدا على شمالي بلاد الشام مع الجزيرة واجزاء من العراق ، وكان لهذا فوائده ولكنه حوى مخاطره ايضا ، فالدولة الجديدة قد تعلق استمرار وجودها باستمرار مسلم بن قريش وبقائه حيا ، وكانت اية ضربة تزيل مسلم من الحياة تزيل في نفس الوقت الدولة التي اقامها وتجعل اراضيها لقمة سائغة للتركمان . وهذا ما حصل .

قبل أن تسقط الدولة المرداسية ، واثناء حكم سابق بن محمود ذكرنا بأن علي بن مقلد الامير المنقذي صاحب كفر طاب كان قد هجر مدينة حلب وذهب إلى كفر طاب فاخذ يخطط لاحتلال قلعة شيزر المنيعة • وكانت هذه القلعة تحكم انئذ من قبل اسقف البارة الذي كان يدين بالطاعة للامبراطور البيزنطي ، ولما كانت شيزر من امنع المواقع في بلاد الشام ، فقد كان من المحال اخذها بالقوة ، لذلك وضع علي خطة هدفت إلى حصار شيزر حتى تسقط من قبل نفسها بعد أن ينفد ما فيها من مؤن وذخائر ، وفي سبيل هذه الغاية بنى علي قلعة على العاصي قريبا من شيزر اصبحت تعرف باسم قلعة الجسر ، وبعد ما سقطت الدولة المرداسية عاد علي إلى قلعة الجسر وصرف جهوده كلها في سبيل فتح قلعة شيزر ، واخيرا وبعد ان ضاق الحال بالمدافعين عن شيزر واشتد بهم الأمر استطاع علي ان يقنع أسقف البارة بالتنازل له عن شيزر مقابل مبلغ من المال ، وفي يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٤٧٤ هـ / ١٩ كانون اول ١٠٨١ م ، تسلم علي بن مقلد قلعة شيزر ، وغدا سيدها فأسس بذلك حكم الأسرة المنقذية في شيزر ، هذه الأسرة التي كانت من ابرز الأسر العربية زمن الحروب الصليبية (٤٦) .

وفي حلب عندما سمع مسلم بن قريش بخبر سقوط شيزر لعلي بن مقلد ، تحرك بسرعة وعمل من اجل انتزاعها منه ، وكان أول ما عمله هو أن جهز جيشا ارسله ضد شيزر بقيادة اخيه علي بن قريش ، وعندما وصل علي بن قريش مع جيشه إلى شيزر بدا يحاصرها ولكن دونما جدوى فقد كان أميرها المنقذي قد شحنها بكل ما كانت تحتاج إليه من سلاح ومؤن وعتاد كي تقف وتقاوم لفترة مديدة .

ولما لم تسقط شيزر لعلي بن قريش تحرك مسلم نفسه مع قوات جديدة نحوها ، واخذ يحاصرها ، ومرة اخرى لما وجد مسلم بأن الأمر سيطول ترك منطقة شيزر حتى تسقط ، وفي حمص استقبل مسلم بن قريش وفدا منقذيا عرض عليه مبلغ ٠٠٠ ر ١٠ دينار مقابل رفع الحصار عن شيزر ، وقبل مسلم بالعرض فاستلم المبلغ واصدر اوامره إلى اخيه برفع الحصار والانسحاب .

ويذكر ابن العديم أن الذي دفع مسلم بن قريش على حصار شيزر هو حسده لابن منقذ (٤٧) . وهذا في الحقيقة وهم ومبالغة ، ذلك أن الحوادث التي وقعت كلها تبرهن على أن دوافع مسلم كانت أبعد من الحسد . لقد كان مسلم يكمل ما بدأ به في حلب . لقد كان يعمل على جعل الشام كله قطعه من دولته ، وفي هذا السبيل كان عليه أن يجعل جميع القوى تتحد راغبة أو راهبة تحت رايته ، فبعد أن استولى مسلم على حلب التفت نحو الامارة النميرية في حران فأتى عليها وضمها إلى أملاكه (٤٨) وقام بعد هذا بتجريد جميع أمراء الأسرة المرداسية من املاكهم ، كما استولى على جميع القرى والأراضي الحلبية التي كانت في ايدي التركمان ، ونظف شمالي الشام حتى مدينة حماه من التركمان وحال دونهم ودون الدخول الى أراضيه حتى ولو مرورا ، وإتوج أعماله هذه بأن مد نفوذه على مدينتي الرها في المشرق وانطاكية في الغرب وكانت من أملاك الامبراطورية البيزنطية (٤٩).

وبعدما ترك مسلم شيزر وتوجه نحو حمص كان يريد الاستيلاء على هذه المدينة من خلف بن ملاعب الذي كان قد امتلكها وكان قصده من أخذ حمص أن يجعل ذلك خطوة أولى ممهدة للاستيلاء على بقية الشام وخاصة دمشق وطرد تتش منها ، ولقد استطاع مسلم احتلال مدينة حمص وبدأ في حصار قلعتها ، واثناء الحصار علم بأن تتش يعد عدته للتحرك ضده من دمشق .
ولما لم يكن مسلم قد أعد أموره للاصطدام مع أخي السلطان في هذه المرحلة فقد آثر عدم متابعة حصار القلعة حمص ، لذا تصالح مع خلف بن ملاعب وتركه وترك حمص له ، وقبل ذلك كان قد استقبل وفد شيزر وتصالح معه ، ثم سحب نفسه شمالا إلى حلب ، ثم شرقا إلى الموصل ليجهز قواته لمرحلة دمشق ، والقتال ضد تتش .

لقد كان مسلم بن قريش يدين بالتشيع على مذهب الامامية الاثني عشرية ، وكانت الخلافة الفاطمية هي الدولة الشيعية الوحيدة في منطقة – مايسمى الآن بالشرق الأوسط – وكانت هذه الدولة قد تضررت كثيرا من التركمان ، لهذا كان من الطبيعي أن تتلاقى

مصالح هذه الخلافة مع مصالح مسلم بن قريش ، وان توفق بينهما المبادىء العامة للتشييع ، لذلك عندما كان مسلم يعد عدتـه للحملة على دمشق قامت اتصالات بينه وبين بدر الجمالي في القاهرة وتم الاتفاق بينهما على ان ترسل القاهرة جيشا فاطميا يساعد مسلم بن قريش في الاطباق على دمشق عندما يصلها مسلم ويأخذ في حصارها ٠

ولم يكن مسلم انئذ هو الذي يتحرك فقط ، فقد استلم هذا الوقت تتش رسائل من امراء الأسرة المرداسية ، ومن خلف بن ملاعب صاحب حمص ، ومن الأمير المنقذي لشيزر ، فيها الشكاية ضد مسلم بن قريش وفيها عروض للتعاون معا ضده لطرده من بلاد الشام ، ولتسليم املاكه لتتش ، ولقد تجاوب تتش مع العروض التي بذلها هؤلاء الامراء له فجمع قواته وقادها شمالا نحو انطاكية ، وذلك في الوقت الذي كانت قد تجمعت فيه قوات الامراء العرب وتحركت شمالا تريد حلب ، ولقد احتلت هذه القوات حماه ثم اخذت معرة النعمان وارادت ان تتابع سيرها نحو حلب ، هذا وان تحرك تتش نحو انطاكية مع المنحى الذي تحركت عليه القوات العربية يوحي بوجود خطة مرسومة للاستيلاء على حلب ، وربما بنيت هذه الخطة على ان يستولي تتش على المناطق الشمالية الغربية لامارة حلب في حين تستولي القوات العربية على المناطق الجنوبية ، وعند الفراغ من ذلك تلتقي القوتين عند حلب فتطبق عليها وتنتزعها ، وبذلك يطرد مسلم من الشام ٠

ولم ينفذ الا جزء من هذه الخطة المفترضة ، فقد سمع مسلم بن قريش بنبأ تحرك تتش وحلفائه العرب ، لذلك سارع بعبور الفرات على رأس قوات كبيرة وقصد اولا مدينة حلب ومنها كان يريد دمشق ، ولقد اجبر تحرك مسلم السريع تتش وحلفائه على الاقلاع عن متابعة اعمالهم والتراجع كل الى بلده وموقعه الحصين للدفاع عنه ضد مسلم بن قريش ٠

وفي حزيران سنة ١٠٨٣ القى مسلم بن قريش الحصار على مدينة

دمشق ، وبهذا كان ينفذ اهم اعماله كلها ، ويقوم بـالخطوة الاخيرة والمهمة نحو تأسيس دولة عربية تضم الشام والجزيرة مع اجزاء من العراق : ولقد اخفق مسلم في اخذ دمشق وذلك بعد ان حاصرها قرابة شهر ، كما انه اجبر على الانسحاب ، وان الاسباب الرئيسية التي كمنت وراء اخفاقه هي :

١ ـ التركيب القبلي لقواته ، ذلك ان هذه القوات قد ضمت عناصر من معظم قبائل الشام ، فقد كان فيها بالاضافة الى عقيل عددا لابأس به من كلاب ونمير ، كما انها ضمت اعدادا من اكراد الجزيرة ، ثم انضاف اليها عندما وصلت دمشق اعداد من طيء ، وعليم ، وكلب ، ولقد كان العقيليون هم ـ ربما ـ الجزء الوحيد في قواته الذي اخلص له ، اما باقي اجزاء هذه القوات فقد دخلت في خدمة مسلم اما عن رغبة او عن رهبة ، رهبة منه وخوفا من بطشه ، ورغبة في نيل بعض الغنائم عندما تسقط دمشق ، وكان هذا حال عليم ، وكلب ، وطيء .

ومفيد ان ننبه هنا الى انه حتى وقت حادثنا هذا لايمكن تقدير التركمان الذين استقروا في الشام باكثر من ١٥٫٠٠٠ ، لقد كان هناك عدد صغير من المقدمين ، وكل مقدم كان اتباعه اما ٥٠٠ رجل او ١٫٠٠٠ مقاتل ، وهكذا كان عدد التركمان مجتمعين اقل بكثير من عدد اي قبيلة عربية من قبائل الشام والجزيرة ، ولكن بينما فاق العرب التركمان بالكمية والعدد ، لقد فاق التركمان العرب بالكيفية والقدرة القتالية،لقد احسن التركمان فنونا من القتال واجادوا استخدام اسلحة لم يبارهم العرب ولا سواهم بها ، وخاصة استخدام الاقواس ، فقد كان التركماني فارسا يرمي وهو على ظهر فرسه في مختلف الاوضاع الى الامام والخلف والجوانب ، واهم من كل هذا لقد كان التركمان بدوا بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، كانت لديهم روح البداوة العنيفة ، وكان لديهم اقدام البدو وقسوتهم ، وكان التركماني يعتمد على نفسه في المعركة ولم يكن لديه اتباع او خدم يصاحبوه في المعركة ، وكان البدو العرب لا يشبهون التركمان في اي

شيء تقريبا ، لقد كانوا بعيدي العهد بالبداوة الحقة ، كانت روح القتال لديهم قد خبت جذوتها ، فاستخدموا العبيد المقاتلة . كانت الدنيا ومتاعها شاغلهم وكان تعلقهم بالحياة ومتعها قد جعلهم ينسون كيف يخططون او يفكرون بعقل ، ولقد مر بنا العديد من الامثلة ورأينا كيف ان ٥٠٠ ر١ تركماني هزموا ٠٠٠ ر٧٠ كلابي وسيمر بنا امثلة اخرى اضافية تزيد في البرهان .

ب ــ مقاومة تتش الفعالة ، وهجوماته المفاجئة التي كان ينقض بها على بعض اجنحة عسكر مسلم فيحطمها ثم يعود الى داخل دمشق ، ويقول ابن الاثير :« وفي بعض الايام خرج اليه ــ اي الى مسلم ــ عسكر دمشق وقاتلوه وحملوا على عسكره حملة صادقة ، فانكشفوا وتضعضعوا ، وانهزمت العرب ، وثبت شرف الدولة ــ مسلم بن قريش ــ واشرف على الاسر ».

ت ــ عدم وفاء الخلافة الفاطمية بوعودها ، « وكان شرف الدولة قد اعتمد على معونة عسكر المصريين على دمشق ، ومعاضدته بالعسكر المصري على اخذها ، فوقع التقاتل عليه بالانجاد والتقاعد عنه بالاسعاد اشفاقا من ميل الناس اليه ، وعظم شأنه بتواصلهم ووفودهم عليه .

فلما وقع يأسه مما امله ورجاه وخاف ماتمناه وورد عليه من اعماله ما شغل خاطره في تدبيره واعماله ، وتواترت الأخبار بما ازعجه واقلقه ، راى ان رحيله عن دمشق الى بلاده وعودته الى ولايته لتسديد احوالها واصلاح اختلالها اصوب من مقامه على دمشق واوفق من شأنه ».

ج ــ لقد كان الذي ازعج مسلم واقلقه وجعله يقلع عن متابعة حصار دمشق هو خبر قيام ثورة في حران ضده ، ويقول الذهبي : « عصا اهل حران على شرف الدولة مسلم بن قريش ، واطاعوا قاضيهم ابن جبلة الحنبلي ، وعزموا على تسليم حران الى جبق امير التركمان لكونه سنيا ولكون مسلم رافضيا »، وعندما « وصل الخبر الى مسلم بان اهل حران عصوا عليه ... رجع كارا الى حمص وصالح في

طريقه ابن ملاعب وحالفه واعطاه مضافا الى حمص رفنية وسلمية ، واقطع شبيب بن محمود بن الزوقلية حماه ، واستخلفه في تلك الاعمال .

وعاجل حران فوصلها يوم الجمعة ثامن ربيع الاول فوجد قاضيها ابن جلبة الحنبلي قد استغل اهلها وادخل اليها جماعة من بني نمير ... وانفذ ... الى جبق امير التركمان ، وكان قريبا فاستدناهم اليه ليسلم اليهم البلد ...

وشرع القاضي يعلم مسلما ويمنيه خديعة منه ليصل التركمان ، وعلم مسلم فحاربهم ورمى قطعة من السور ، وبينما هو كذلك وصل التركمان ، فترك اقواما يقاتلون البلد ، وركب هو بمن معه ، فأشرف على التركمان ، واتصل الطراد ، وقال للعرب ، املكوا عليهم النهر المعروف بالجلاب واجعلوه وراءكم ، وحولوا بين التركمان وبينه ، ففعلوا ، وعطشوا وخيلهم ، وهجرت الشمس عليهم ، فمالوا بجمعهم طالبين رأس الماء على ان يشربوا ويسقوا خيولهم ويعودوا على العرب ، فلما عطفوا خيولهم لم يشك العرب انها هزيمة ، فألقوا نفوسهم عليهم ، فانهزموا ، فتبعوهم وغنموهم وقتلوا واسروا .
واقام مسلم على حصار حران ، وكان كلما رمى قطعة من السور نصب ابن جبلة بإزاء الثلمة مجانيق وعرادات منعت من يروم القرب منها .

وطال حصار حران وتمكن مسلم اخيرا من اختراق الاسوار ودخل حران « فقتل خلقا كثيرا من اهل البلد ... ثم طلب القاضي فوجد في كندوج) فيه قطن فأخذ وولديه ، وقبض على اعيان اهل حران ونهب البلد الى اخر النهار ، ثم رفع وصلب القاضي وولديه واعيان الحرانيين على السور ، وقتل خلقا من العوام ، وعاد الى منزله بأرض الموصل » (٥٠) .

وصل في هذه الآونة الى الشام والجزيرة موجة من المهاجرين التركمان ، وكان ابرز مقدمي هذه الموجة أُرْتُق وجبق ، وفي الواقع كان ارتق هو الاهم بين مقدمي هذه الموجة والاكثر شهرة ، ذلك انه

شغل دوراً مؤثراً في انزال ضربة قاصمة بالقوة البدوية العربية في الجزيرة ، كما شارك في الصراع بين التركمان من اجل السيادة على بلاد الشام ، يضاف الى هذا كله انه كان جد الاسرة الارتقية التي حكم افراد منها في حلب والجزيرة وكانوا من اهم قادة المسلمين ايام الحملة الصليبية الاولى ثم اثناء الفترات التالية .

وعندما كان التركمان يؤسسون امبراطوريتهم ويعملون من أجل مد سيطرتها على دول العالم الاسلامي القرن الحادي عشر م ، لم يكن مقدمي جماعات التركمان هم وحدهم الذين بذلوا غاية جهودهم من اجل اقامة دويلات لانفسهم ، بل صنع عدد من رجال الادارة الاسلامية المحترفين الشيء نفسه ، ولقد كانت اسرة آل جهير بين هؤلاء ، وكان محمد بن احمد بن جهير هو رب هذه الاسرة ، وقد بدأ حياته الادارية في مدينة الموصل حيث شغل منصب الوزير فيها ، ثم ترك الموصل فذهب الى حلب حيث عمل بنجاح فائق وزيراً لثمال بن صالح ، وبعد ان خدم ثمال فترة طويلة من الزمن ترك مدينة حلب مخافة ان يوقع حساده بينه وبين سيده ، وتوجه الى ميافارقين فعمل وزيرا فيها ، ومن ميافارقين طارت شهرة ابن جهير فطلبه الخليفة القائم واستدعاه الى بغداد ليكون وزيراً له ، وذهب ابن جهير الى بغداد فعمل في خدمة القائم ثم في خدمة خليفته المقتدي .

وكان محمد بن احمد بن جهير هذا يعرف بلقب فخر الدولة ، ولقد تمكن خلال عمله في بغداد من إقامة علاقات ود متينة مع نظام الملك وزير السلطان الب ارسلان ومن بعده ابنه ملك شاه ، وأشهر وزراء الدولة السلجوقية ، وبدون شك أعظم رجال الادارة والتشريع في تاريخ الاسلام ، فهو مؤسس المدرسة النظامية ، ومطور نظام الاقطاع العسكري ، واليه ينسب كتاب سياسة نامة الشهير .

وكان من ثمرات العلاقات بين فخر الدولة ونظام الملك زواج ابنه محمد – اي ابن فخر الدولة – الذي كان يعرف بلقب عميد الدولة بابنتين من بنات نظام الملك واحدة بعد اخرى .

وعندما صرف فخر الدولة عن وزارة المقتدي خلفه ولده عميد

الدولة وذلك بفضل جهود نظام الملك وبسبب مابذله من ضغوط على دار الخلافة ، ولقد بقي عميد الدولة وزيراً حتى عزل يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ٤٧٦ هـ / ١٤ تموز سنة ١٠٨٣ م ، وهنا غادرت اسرة آل جهير مع اسبابها ومن تعلق بها مدينة بغداد وأخذت طريقها الى اصفهان حيث استقبلت بحفاوة ، ورحب بها من قبل السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك .

وفي تشرين الاول من نفس السنة (١٠٨٣ م) فوض السلطان ملك شاه الى فخر الدولة الامر في ان يقود جيشا سلجوقيا من جيوش السلطان يذهب على راسه الى الجزيرة لفتح ديار بكر ومن ثم القضاء على الدولة المروانية . ولقد عين السلطان ملك شاه أق سنقر قسيم الدولة الذي سيكون اول حاكم سلجوقي لحلب ــ كما سنرى في أول الفصل التالي ــ عينه كمسؤول عسكري عن شؤون الحملة

وعندما وصلت انباء هذه الحملة الى الجزيرة سببت قيام تحالف بين قوتي الجزيرة المتخاصمتين ، اي بين الدولة المروانية وبين مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب ، ولقد دفعت الدولة المروانية لمسلم بن قريش مدينة آمد وذلك في سبيل تحالفه معها ووقوفه الى جانبها عوضا عن الوقوف ضدها ، وتجمعت قوات مسلم بن قريش مع القوات المروانية قرب آمد للتصدي لابن جهير ، وعندما وصلت اخبار التحالف المرواني العقيلي الى ابن جهير أخبر به السلطان ملك شاه واستمده « فأردفه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير ارتق بن أكسب ابو الملوك الأرتقية » ، وجاءت القوات التركمانية الى قرب آمد وعسكرت أمام القوات العقيلية المروانية ، وحاول ابن جهير ان يقنع مسلم بالتخلي عن القتال والانسحاب وقال : « لااوثر ان يحل بالعرب بلاء على يدي » ، « ووقعت المراسلة ــ بينه وبين مسلم ــ وكل اشار على مسلم بالرجوع الى اعماله ، فقال : ترجعون مرحلة الى ورائكم وارجع انا لئلا يقال انني عدت منهزما ، فامتنع ارتق بك وقال : انا لاارد رايات السلطان على عقبها ، وعرف التركمان ما يجري فقالوا : نحن جئنا من البلاد البعيدة لطلب

النهب ، وهؤلاء يسارعون في الصلح ، وركبوا نصف الليل مـن غير اعلام ارتق ، وأشرفـوا ... على العـرب وكانوا أضـعافـ الغـز ، فأخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب ، واحتـاطوا بهـم ، ولم يكن لمسلم سبيل الى الهرب ، فطلب صوب آمـد ، وتبعـه ابـن مـروان وجماعة من أصحابهما ، فدخلوا آمد.

وأشرف ابن جهير وارتق بك على القوم ضـاحي النهـار ، وقـد استولى التركمان على الحلل والأموال والمواشي، وكان ممـا لايحـد ولايحصر ، وأخذوا النساء وفضحوهن ، وربـطوا أمـراء بني عقيل بالحبال ، وباعوهم بالقراريط ، وأشعل التركمان عشرة آلاف رمـح تحت القدور ، وجرى على العرب ما لم يجر عليهم قبله مثله ، وسبوا نسـاءهم ، وبلغ الفـرس الجيد دينارا ، وكذا الجمـل والفـرس ، والرأس الغنم نصف قيراط ، والعبيد والاماء من دينار الى دينارين وما سوى ذلك فما اشتري ولابيع ».

وتحرك ابن جهير الآن بسرعة ، وارادا استغلال ما حدث لصالحه وصالح السلطان فبعث « الى ارتق بك يقول : قد حصلت بنو عقيل في أيدي التركمان ، ويجب أن تجمعهم وتنفذهم الى السـلطان ، وتقيم على هذا الانسان ، يعني مسلم بن قريش ، وتسـتنزله ، وقـد ملكت الأرض الى مصر ». ولقد كان هذا مـا تخيله ابـن جهير وتمناه لكن الأقدار وارتق بك أرادا شيئا آخر. وفي أصفهان عندما سمع السلطان ملك شاه أخبار ما تم عند آمد خيل اليه هـو الآخـر بـأن الجـزيرة والشام غدتا من أملاكه، لهذا سارع الى اسـتغلال هـزيمة مسـلم وتمتين نصر التركمان فقاد قواته وتوجه نحـو الجـزيرة ، وعندمـا وصلها دخل مدينة الموصل وأخذ يعد نفسه لاكمال زحفه على الشام ، ومرة أخرى لقد أراد ملك شاه شيئا وارادت الأقدار وارتـق شـيئا أخر . فبعدما دخل مسلم مدينة آمد محتميا بـأسوارها كتـب الى « ارتق بك وقال : لمثل هذا اليوم خبـأتك ، ولمثله تسـتحب الصـنيعة ، وأريد أن تمن علي بنفسي ، وبذل له مالا أرغبـه فيه »، ورضي ارتـق بعرض مسلم ووافق على أن يفسح له سبيل النجاة،لذلك عندما طلب ابن جهير منه التشدد في حراسة اسوار آمد واخذ الحيطة لمنع مسلم

من النجاة أجابه « هذا امر ما اليك منه قليل ولاكثير ، وانا صـــاحب الحرب ، وليس من عادتنا مع من نأسره أن نحبسه بل نبيعه ونطلقه وكانت نية ارتق بك مع السلطان غير مستقيمة ». وقبـل أن يدخـل السلطان مدينة الموصل بلغه أن مسلما قد نجا مـن آمـد يوم الأحـد ٢٧ تموز ١٠٨٤ م ، وبعدما دخل الى الموصل جاءته الأنباء مـن خراسان بأن أخاه تكش بن الب ارسلان قد استغل ابتعاده عن هذه البلاد فأعلن الثورة واخذ يعمل للاستيلاء على مـدن خـراسان بغية اعلان نفسه سلطانا مكان ملك شاه ، ولقد أجبرت هاتان الحادثتان ، خاصة الثانية منهما ، ملك شاه على أن لايتابع زحفه على الشـام ، بل الى صنع تسوية مع مسلم بن قـريش كي يعـود الى خـراسان فيتدارك أوضاعها ، ويقول غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء :« وجاء للسلطان من ناحية اخيه تكش ، فرأى اعادة مسلم الى بلاده ، فأرسل اليه أبا بكر بـن نظـام الملك وكان نازلا بمقـابل الرحبـة ، فتوثق منه ، وعاد به الى السلطان ، فخلع عليه وأعاده الى أعماله ، ورجع الى اصفهان ».

وعندما التقى مسلم بن قريش بالسلطان ملك شاه قدم اليه مبلغا كبيرا من المال مع كمية من الهدايا الثمينة والخيول من جملتها فرسه الخاص ، وهكذا عادت الى مسلم املاكه رغم الضربة القاصمة التي نزلت به ، ونجت مع نجاة مسلم الدولة المروانية من السـقوط ، ولم تحقق حملة ابن جهير ما تمناه فخر الدولة وابتغاه](٥١).

وعلى الرغم من التسوية التي صنعها مسلم بن قريش مع السـلطان ملك شاه ورغم أنه لم يفقد شيئا من أراضيه ، لقـد كان مسـلم غير قادر بسهولة على استرداد قوته والتعافي ممـا نزل بـه ، وهنا مـرة أخرى توجه مسلم ببصره نحـو القـاهرة حيث الخـلافة الفـاطمية وسيدها وصاحب الأمر فيها بدر الجمالي ، فقام بارسال عمه مقبـل ابن بدران الى مصر كرسول له كي يقابل بدر الجمالي ويحاول تجديد الأحلاف معه ، ويروي سبط ابن الجوزي بأن مقبل بن بدران أخبـر بدر الجمالي بأنه اذا ما استلم بعض المسـاعدات المالية ، واذا مـا ارسل جيش فاطمي الى الشام فسـيعبر مسـلم الفـرات ويسـاعد

الجيش الفاطمي ليس فقط على اخذ الشام بل حتى على اخذ العراق والجزيرة ايضا ، ويروي سبط ابن الجوزي ايضا ما يفيد بأن ارتق الذي كان يخشى ان يعاقبه السلطان ملك شاه بسبب ما قام به في امد كان متورطا منذ البداية في خطط مسلم هذه ، ولقد امل كلاهما في توريط تتش وادخاله في مخططاتهما ، ومفيد أن نذكر هنا بأنه قبل قيام هذه الاتصالات مع القاهرة كان هناك بعض الاتصالات بين القاهرة وتتش وأن تتش كان سيتزوج ابنة بدر الجمالي في سنة ١٠٨٣ م(٥٢).

لقد جاءت تحركات مسلم هذه جد متأخرة ، وما كان بامكان القاهرة أن تنقذه مما ألم به ، فعندما عاد مقبل بن بدران من مصر الى الشام يرافقه وفد فاطمي مؤلف من الوزير ابن المغربي وأحد أولاد بدر الجمالي وجماعة من أعيان الدولة الفاطمية ، وجدوا شرف الدولة مسلم بن قريش قد قتل ، وكانت قصة مقتله كالتالي :

بعد أيام من نجاة مسلم بن قريش من أمد ، تمكن سليمان بن قتلمش وهو أحد أفراد الأسرة السلجوقية الذين كانوا يعملون داخل الأراضي البيزنطية من احتلال « نيقية ، وهي بلد بالساحل تضاهي انطاكية ، و- استولى ايضا على - جميع ما يليها من طرسوس وأذنة ومصيصة وعين زربة » اي مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية التي كانت بيزنطة قد انتزعتها في منتصف القرن العاشر من سيف الدولة الحمداني بفضل جهود نقفور فوكاس ، وحين صنع سليمان هذا كان قد أسس دولة سلاجقة الروم الشهيرة التي ورثتها الدولة العثمانية بعد عدة قرون ، وبعد احتلال سليمان لنيقية وماجاورها توجه بانظاره نحو مدينة انطاكية التي كانت ايضا قد احتلها البيزنطيون في منتصف القرن العشر .

ويقدم لنا ابن العديم رواية مفصلة حول احتلال سليمان لانطاكية جاء فيها :« وفي سنة سبع وسبعين واربعمائة (١٠٨٤) شرع سليمان بن قطلمش في العمل على انطاكية والاجتهاد الى ان تم له ماأراد ، فأسرى من نيقية في عسكره وعبر الدروب وأوهم أن

الفلاردوس (الحاكم البيزنطي لانطاكية) استدعاه ، واسرع السير الى ان وصل انطاكية ليلا ، فقتل اهل ضيعة تعرف بالعمرانية جميعهم لئلا ينذروا به ، وعلقوا حبالا في شرفات السور بالرماح ، وطلعوا مما يلي باب فارس ، وحين صار منهم على السور جماعة نزلوا الى باب فارس وفتحوه ، ودخل هو وعسكره من الباب واغلقوه ، وكانوا مائتين وثمانين رجلا ... ولم يشعر بهم أهل البلد الى الصباح ، وصاح الأتراك صيحة واحدة فتوهم اهل انطاكية أن عسكر الفلاردوس قد قاتلوهم فانهزموا ، وعلموا أن البلد قد هجم فبعضهم هرب الى القلعة ، وبعضهم رمى بنفسه من السور فنجا » . وبعد أن أصبح سليمان سيد مدينة انطاكية توارد اليه التركمان فحاصر قلعة انطاكية قرابة شهر ففتحها ، واتخذ سليمان انطاكية مقرا له « وفتح الحصون المجاورة لها بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج »، ثم اخذ يتطلع نحو مدينة حلب للاستيلاء عليها وضمها الى مملكته الجديدة الناشئة"(٥٣).

ولقد جلب استيلاء سليمان بن قتلمش على انطاكية معه تهديدا جديدا وهائلا لوضع مسلم بن قريش وحكمه في حلب ، فقد أخذ سليمان بعد توطيد نفسه في انطاكية يعمل على احتلال اراضي حلب ، كمقدمة لأخذ حلب نفسها ، ولقد انضم اليه في انطاكية عدد من الأمراء المرداسيين مع أتباعهم ، كما جاء اليه عدد لابأس به من عساكر مسلم ، لأن مسلما كان قد انقص أعطياتهم بعد هزيمته في أمد .

وعندما سمع مسلم بأخبار هذه المحنة الجديدة جمع بعض القوات البدوية العربية وجاء الى حلب ، وأخذ يعد العدة للاصطدام بسليمان ابن قتلمش ، فاستدعى اليه المقدم التركماني جبق واستأجره مع اتباعه ، واخذ مسلم يغير على اراضي انطاكية ، وما كان من سليمان الا أن رد على غاراته بغارات انتقامية مماثلة على أراضي حلب ، ولقد تضرر أهالي قرى حلب وفلاحيها كثيرا من هذه الغارات ، واحتجوا الى سليمان على أعماله ضدهم ، فأجابهم بأنه ليس من حقه نهب المسلمين ولكن مسلم بن قريش أكرهه على ذلك.

وعلى الطرف الآخر علل مسلم بن قريش غاراته على انطاكية ، فجعل أسبابها عدم تلبية سليمان بن قتلمش لطالبيه ، فقد كان مسلم يتقاضى من البيزنطين أصحاب انطاكية مبلغا من المال كجزية سنوية. وقطع فتح سليمان لانطاكية هذا المال عنه ، وطالب مسلم الآن سليمان بدفع ما كان البيزنطيون يدفعون « فلم يجبه الى ذلك وقال : تلك جزية كانت على الروم لتمسك عن جهادهم ، وقد قمت أنا بفريضة الجهاد ، وصارت انطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها اليك جزية »؟!

ونصح مسلم أن يتجنب الحرب مع سليمان الذي لم يكن له علاقات طيبة مع السلطان ملك شاه ، وقيل له بأن من الأفضل التصالح معه والتحالف ، لكن مسلم ركب رأسه فرفض ما أسدي اليه من نصائح وقرر أن يهاجم انطاكية في سبيل انتزاعها من سليمان ، لذا قاد جيشه الذي شكله ، وكان فيه قرابة ٦٠٠٠٠ مقاتل ، قاده نحو انطاكية ، وعلى الطريق اعترضه سليمان بن قتلمش قرب عفرين ، وفي ظهيرة يوم السبت ٢٤ صفر ٤٧٨ هـ/ ٢١ حزيران ١٠٨٥ م اشتبكت قوات سليمان بقوات مسلم فانتصرت عليها ، لأن الشمس كانت في وجوه أصحاب مسلم ، ولأن قوات جبق الغزية تخلت في بدء المعركة عن مسلم وانضمت الى جيش سليمان ، ولأن أصحاب مسلم وأتباعه من عقيل وغيرها من القبائل هربوا من ساح المعركة وتركوا مسلم يعاني مصيره ، ولم يصمد مع مسلم سوى احداث حلب وكانوا ستمائة ، وحاول مسلم الانسحاب الى حلب ، وجهد الأحداث في تغطية انسحابه فسقط منهم اربعمائة ، واخفق مسلم بن قريش في تأمين النجاة لنفسه وتلقى ضربة افقدته حياته (٥٤).

ولقد انهى مقتل مسلم بن قريش جميع المشاريع التي خطط لها ، كما أنهى الفترة التي كان المتصارعون فيها للسيادة على الشام هم البدو العرب من جهة والبدو التركمان من الجهة الثانية ، ولقد اصبح من الآن فصاعدا الصراع من أجل السيادة على الشام بين التركمان انفسهم حيث أن القبائل العربية قد أزيحت عن مسرح الأحداث

المؤثرة ، ولم يعد لها شأن يذكر في احـداث التغييرات السـياسية في الشام.



كان مسلم بن قريش قد جاء لاخذ حلب ـ كما مر معنا ـ بعـد ان استدعاه أحداث المدينة وقد تمكن مـن اخـذها بعـد ان فتحـوا له بواباتها عندما وصل إليها ، ولقد كان مقدم احداث حلب خلال هـذه الحقبة هو الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي ، ولقد غدا الحتيتـي زمن مسلم الحاكم الفعلي لمدينة حلب ، ولقد تضاعفت قـوة أحـداث حلب خلال هذه الفترة ، ويكفي برهان على مدى ضـخامة الاحـداث وقوتهم أن ٦٠٠ منهم كانوا في جيش مسلم بن قريش اثناء قتـاله ضد سليمان بن قتلمش ، ولقد شارك الحتيتي في ادارة حلب سالم بن مالك ابن عم مسلم ، وكان قد عينه حاكما لقلعـة حلب ، ولكن مهمـا يكن الحال لقد اصبح مصير حلب بعد مقتل مسلم بين يدي الحتيتـي واحداثه.

وحمل سليمان بن قتلمش جثة مسلم بن قريش واتى بها فطرحها امام سور حلب ، وكان يأمل بـأن تسـلم المدينة له ، لكن الحتيتـي رفض التسليم وأصر على المقاومة ، وهنا بدا سليمان بحصار مدينة حلب ، وقام الحتيتي اثناء الحصار بمـراسلة السـلطان ملك شـاه فأعلمه بمصرع ابن قريش ، ودعاه للقدوم الى حلب ليتسلمها .

ولما لم يكن للحتيتي سيطرة على قلعة حلب وكان بحاجة الى موقع حصين يتخذه مركزا له فقد قام ببناء قلعة لنفسـه واحـداثه داخـل المدينة ، ولا يزال موقع هـذه القلعـة معـروفا ، فـأحد أحياء حلب الواقعة الى جنوبي القلعة الكبيرة يعرف الآن باسم « قلعـة الشريف»
واتخذ الحتيتي من قلعته الجديدة مقرا لحكومته وثـكنة لاحـداثه . وهكذا اديرت حلب ادارة شبه شعبية ووجـد فيهـا نوع مـن انواع الجمهوريات.

ولم يركز سليمان كل جهوده على حصار حلب، لأنه ادرك ان الأمر سيطول ، لذلك قام بترميم ، أو بالحري باعادة بناء ، قطعة من مدينة قنسرين المجاورة لحلب ، وجعل مقر قيادة قواته فيها ، وأخذ يعمل على احتلال اراضي وبلدان امارة حلب الجنوبية ، فاستولى على معرة النعمان وكفر طاب ، ولطمين ، واستمر في نفس الوقت في محاصرته لحلب ، وإن كان بشكل جزئي .

وفي خراسان استجاب السلطان ملك شاه لدعوة الشريف الحتيتي وتحرك على رأس قوات كبيرة غربا نحو حلب ، لكن تحركه كان بطيئا ، مما أعطى الفرصة لسليمان بن قتلمش للتضييق أكثر على حلب ، وهنا وجد الحتيتي نفسه مكرها على التوجه بنظره نحو دمشق حيث كان تتش ، فاستدعاه ليسلمه مدينة حلب .

ولم يكن تتش ينتظر أكثر من مثل هذه الدعوة ، وكان عنده حين وصول هذه الدعوة اليه ارتق مع اتباعه ، لهذا تحرك تتش وارتق واتباعهما من التركمان شمالا يريدون مدينة حلب ، وكان ذلك في محرم سنة ٤٧٩ هـ / نيسان ١٠٨٥ م وقبل أن يصل تتش وقواته الى حلب اعترضه سليمان بن قتلمش مع قواته ، والتحم الجيشان السلجوقيان في معركة تمخضت عن نصر تتش ومقتل سليمان بن قتلمش وهزيمة قواته ، ولقد كانت هذه المعركة التي وقعت بعد قرابة سنة من مقتل مسلم بن قريش (٥٥) أول معركة اقتتل فيها جيشان سلجوقيان من أجل السيادة على احدى مناطق الشام ، ومن هنا تأتي اهميتها ذلك انها افتتحت فترة جديدة في تاريخ الشام والتاريخ السلجوقي ، وسببت وضع حلب لأول مرة في تاريخها تحت حكم السلاجقة المباشر ، وبذلك خلص معظم الشام للسلاجقة ، وبات بامكانهم تطويق الجزيرة والاجهاز على ما بقي فيها من قوة .

إن سقوط الشام ووقوعه تحت الحكم السلجوقي المباشر حدث في غاية الخطورة وذلك لما جلبه معه من تغيرات هائلة في ميادين الحياة السياسية والدينية والاجتماعية ، وحتى العرقية ، تغيرات تأثر بهما

جميع سكان بلاد الشام على مختلف طبقاتهم واختلاف انمساطهم في الحياة وتعدد عقائدهم .

وبعدأن انتصر تتش على سليمان بن قتلمش تحرك نحو حلب أملا بأن يجد بواباتها مفتوحة والناس قد خرجوا من المدينة لاستقباله والترحيب به ، ولكن شيئا من هذا لم يحصل ، فعندما وصل تتش حلب وجد الأبواب مغلقة والأسوار محروسة من قبل الحتيتي واحداثه ، وعندما استوضح تتش اسباب هذه المعاملة جاءه الجواب بأن ركب السلطان قريب الدنو من حلب ، وأنه بعث يحظر تسليمها لاي انسان سواه ، ولم يقنع تتش بهذا الجواب ، لذلك أمر قواته بأن تحاصر المدينة حتى تسقط ، وفي ٢٦ ربيع الأول ٤٧٩ هـ/ ١١ تموز ١٠٨٦ قام جماعة من تجار حلب واتباعهم ممن كانوا يكرهون الحتيتي ويناصبونه العداء لما سببه من ضرر لمصالحهم ، قام هؤلاء بفتح احدى بوابات حلب ، فمكنوا تتش وجيشه من دخولها والاستيلاء عليها .

لقد كان حصار تتش لحلب هذه المرة أقصر حصار حاصرها به ، لكن دخوله الى المدينة لم يعن ابدا انه أصبح سيدها فقد كانت هناك قلعة الشريف حيث تمركز الحتيتي والاحداث وذلك بالاضافة الى القلعة الكبيرة حيث اعلن سالم بن مالك بأنه لن يسلمها الا للسلطان نفسه ، لأن مسلم بن قريش كان قد أوصاه بذلك ، واستطاع تتش بعد أيام من دخوله حلب تسلم قلعة الشريف ، والقى القبض على الحتيتي ونفاه الى القدس حيث لم يسمح له بمغادرتها والعودة الى حلب ، وبعد استسلام قلعة الشريف صرف تتش جهوده كلها لحصار القلعة الكبيرة ودام هذا الحصار قرابة الشهر ، واثناء ذلك وصلت الى أطراف حلب طلائع قوات ملك شاه ، لهذا آثر تتش أن لايصطدم مع أخيه وأن لايلتقي به بأي حال من الأحوال ، لذلك جمع قواته وانسحب على راسها عائدا الى دمشق (٥٦) .

ووصلت الى حلب فرقة كبيرة من قوات ملك شاه قبل أن يصل السلطان نفسه ، وكان على رأس هذه الفرقة عدد من المقدمين منهم

برسق ، وإياز ، وبوزان ، وفي يوم الثـالث مـن كانون الأول لسـنة ١٠٨٦ م وصل ملك شاه الى مدينة حلب فتسلمها ، وتسلم قلعتهـا الكبيرة من سالم بن مالك ، ولقد عوضه عنها قلعة جعبر حيث أعطاه اياها كاقطاع ، وبنفس الوقت منح ابن عمته محمد بـن مسـلم بـن قريش الرحبة ، والرقة ، وحران ، وسروج ، والخابور كاقطاع ايضا وحين صنع السلطان ملك شـاه هـذا احيا ـ ولو جـزئيا ـ مملكة مسلم بن قريش (٥٧).

ولقد امضى السلطان ملك شاه عدة أيام في حلب ، ثـم ذهـب الى انطاكية فتسلمها ، وبقي فيها بضعة ايام ، وقبـل عودتـه الى حلب عين أحد ضباطه واسمه يغي سيان حاكما على انطـاكية ، وفي حلب عيد ملك شاه عيد الفطر لسنة ٤٧٩ هـ (كانون ثاني ١٠٨٧) ثـم غادرها متوجها شرقا نحو خراسان . وقبل أن يغادر ملك شاه مدينة حلب جاءته رسالة من نصر بن علي أمير شيزر يعترف فيها بالطاعة للسلطان ويتنازل له عن اللاذقية وأفامية وكفـر طـاب . وخلف ملك شاه وراءه أق سنقر قسـيم الدولة واليا على حلب يسـاعده تـركي اسمه نوح في ولاية القلعة ، وترك عند قسيم الدولة حامية مؤلفة مـن ٤,٠٠٠ فارس ، وفي طريقه الى خراسان عين ملك شـاه بـوزان على مدينة الرها (٥٨) .

لقد كانت حملة ملك شاه هـذه ثـاني حملة كبيرة يقـودها أحـد سلاطنة السلاجقة حتى حلب ، ولقد سـارت هـذه الحملة على نفس الطريق الذي سلكته حملة الب ارسلان من قبل ، انما حققـت مـا لم تحققه تلك الحملة ، فقد أوصلت الأمبراطورية السلجوقية الى ذروتها في الاتساع ، فقد استطاع ملك شاه أخذ الرها وحلب وانطاكية الأمر الذي أخفق أبوه في تحقيقه.

في الحقيقة لقد كانت حملات الب ارسـلان ثـم حملة ابـن جهير وحملة ملك شاه هذه أكثر من حملات عسكرية ، لقد كانت حلقات من حلقات تدفق التـركمان على بـلاد الشـام والجـزيرة ، فحملة الب

ارسلان جابت إلى الشام أتسز وتتش وافشين مع أتباعهم ، وتركت حملة ابن جهير وراءها ارتق وجبق وفتحت الطريق أمامهما وأمام أتباعهما للدخول الى الشام ، ومع حملة ملك شاه الاخيرة أصبحت الشام والى حد ما الجزيرة أجزاءا من الامبراطورية السلجوقية الواسعة ، وقد افتتحت هذه الحملة عهدا جديدا في تاريخ الشام والجزيرة هو عهد الحكم السلجوقي المباشر ، وسيكون هذا العهد موضوع فصلنا المقبل.



الفصل الرابع

بلاد الشام والجزيرة
تحت الحكم السلجوقي المباشر

حكم آق سنقر في حلب • تتش ومحاولاته لنيل السلطنة •حكم رضوان بن تتش في حلب.حكم دقاق بن تتش في دمشق • نهاية حكم اسرة تتش في الشام•

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (الرعد ١٣/١١)•
سنة تسعين واربعمائة :

في مستهل شهر ربيع الأول منها اجتمع ستة كواكب في برج الحوت وهي: الشمس والقمر والمشتري ، والزهرة والمريخ ، وعطارد ، وذكر اهل صناعة النجوم انهم لم يعرفوا اجتماع هذه الكواكب في برج في قديم الزمان وحديثه ولا سمعوا ذاك...وفي السنة كان مبدأ تواصل الأخبار بوصول عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية في عالم لايحصى عدده كثرة ... وفي شعبان ظهر الكوكب ذو الذؤابة من الغرب ، واقام طلوعه تقدير عشرين يوما ثم غاب (١)

إن ما نملكه من معلومات عن حكم تتش في دمشق قليل ولايفي

بالغرض، ذلك أن ماجاء من معلومات في مصادرنا المعروفة، وخاصة تاريخ دمشق لابن القلانسي تتناول العلاقات الخارجية لتتش مع أعماله التوسعية، ولا تتحدث عن طبيعة حكمه في دمشق، ولا عن علاقاته بالدمشقيين ثم هي لاتبين كيف صارت أحوال هذه المدينة في زمنه بعدما حل بها ما حل على يد اتسز.

هذا ولم تصلنا ترجمة مطولة لتتش. فترجمته عند ابن عساكر قصيرة وغير كافية، ثم إن المجلد الذي يحوي حرف التاء من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم يعد في حكم المفقود، يضاف الى هذا أن ما من أحد من المؤرخين ـ في حدود معرفتي ـ قام بوقف مؤلف خاص حول حكم تتش واسرته في بلاد الشام.

إن أهم ما في حكم تتش هو علاقته بآق سنقر قسيم الدولة الذي خلفه السلطان ملك شاه وراءه واليا على حلب، وفي إطار هذه العلاقة تدخل أعمال تتش التوسعية ثم مساعيه لنيل السلطنة. ومن حسن الحظ أن ماوصلنا من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب يحوي ترجمة جيدة لآق سنقر، ومن هذه الترجمة التي نشرت مع ملاحق هذه الدراسة، التي تنشر لأول مرة، ثم مما جاء في مصادرنا من معلومات ـ وهي كمية لابأس بها، لأن آق سنقر كان أبا لزنكي مؤسس الدولة الأتابكية وجدا لنور الدين الشهيد بطل الحروب الصليبية الحقيقي ـ يمكننا أن نكون صورة مفيدة وشبه وافية عن حكم آق سنقر في حلب وبالتالي عن علاقته بتتش.

لقد دام حكم آق سنقر في حلب ما يقارب السبع سنوات، وكانت فترة الحكم هذه فترة هامة في تاريخ حلب وشمالي بلاد الشام لأنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة، ونحن نجد آق سنقر في روايات المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه الفترة واضح الشخصية، بارزا وراء كل حدث، ممدوحا بشكل كبير لا لأنه كان والد زنكي وجد نور الدين محمود بل لأنه «أحسن فيها ـ حلب ـ السياسة والسيرة، وأقام الهيبة، وجمع الذعار، وأفنى قطاع الطرق ومخيفي السبل، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع،

فاستأصل شأفتهم، وكتب الى الأطراف ان يفعلوا مثل فعله لتأمن الطرق، وتسلك السبل، فشكر بذلك الفعل وامنت الطرق والمسالك، وسار الناس في كل وجه بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار وعمرت حلب في ايامه بسبب ذلك، بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم. ورخصت الأسعار في ايامه الرخص الزائد عن الحد، وقرب الحلبيين وأحبهم الحب المفرط، واحبوه اضعاف ذلك واقام الحدود، واحيا احكام الاسلام وعمر الأطراف، وامن السبل، وقتل قطاع الطرقات، وطلبهم في كل فج، وشنق منهم خلقا، وكان كلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده، وأخذه، وصلبه على ابواب المدينة، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار، وعامل اهل حلب من الجميل بما احوجهم ان يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر».

«وفي ايامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين (١٠٨٩م) واسمه منقوش عليها الى اليوم، وهو الذي امر ببناء مشهد قرنبيا، ووقف عليه الوقف، وأمر بتجديد مشهد الدكة» (٢).

لقد كان آق سنقر أول حاكم سلجوقي لحلب اخذ فعليا مكان اميرها العربي، وفي حين اننا نجد ان نفوذ آق سنقر وسيطرته ينفذان عميقا في كل جانب من جوانب الحياة في شمال بلاد الشام، نجد أن سلفه الأمير العربي كان يعيش في قلعة حلب شبه منعزل عن مباشرة الحكم بنفسه، ولم يكن ليهتم إلا بسلامة حكمه وجمع الضرائب ولذة عيشه، لهذا أثر الأمراء البدو قليلا في الحلبيين، وفي الواقع كانت حلب تدار من قبل رجالات المدينة، فالأمير البدوي يهتم عادة بحماية قبيلته من الخطر الخارجي وليس من شأنه التدخل في الشؤون الفردية والخاصة بأفراد القبيلة، وعلى عكس هذا تماما كان آق سنقر الذي فرض نفسه على كل امر وتدخل في كل قضية، وصرف اهتمامه الى شؤون الامارة من صغيرة وكبيرة، واشرف بذاته على تنفيذ كل أمر، ولم يتساهل حتى مع الديوانات في مخالفة

أوامره ، وأخذ بفكرة المسؤولية العامة، كما طبق مبدا العقوبة الجماعية.

يروي ابن العديم بأن آق سنقر « كان قد شرط على اهل كل قرية في بلاده متى اخذ عند احدهم قفل، او أحد من الناس، غرم اهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده القوا رحالهم وناموا، وقام اهل القرية يحرسونهم الى ان يرحلوا، فامنت الطرق، وتحدث الركبان بحسن سيرته »، ونادى آق سنقر ، في بلد حلب لايرفع احد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده،فخرج يوما يتصيد فمر على قرية من قرى حلب، فوجد بعض الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله الى القرية، فقال له : الم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لايرفع احد متاعا ولا شيئا من موضعه ؟ فقال له: حفظ الله قسيم الدولة قد أمنا في ايامه، وما نرفع هذه الآلة خوفا عليها ان تسرق، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي الى النير فتأكل الجلد الذي عليه، فنحن نحفظه منها ، ونرفعه لذلك.

فعاد قسيم الدولة من الصيد، وأمر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في بلد حلب، فصادوها حتى افنوها من بلد حلب.

قلت(أي ابن العديم) وهي الى الآن (القرن السابع هـ / الثاني عشر م) لايوجد في بلد حلب منها شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد » (٣) .

لقد كان آق سنقر يتصرف في حكمه تصرف حاكم مطلق له مبادئه الخاصة ومفاهيمه الذاتية، ولاغرابة في هذا، فهو قد نشأ وتدرب في البلاط السلجوقي في ايران، وفي هذا البلاط تكونت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة، ولقد كانت تقاليد هذا البلاط « اوتوقراطية ، قد نبعت من اصول تركية تاثرت تاثرا شديدا بتقاليد ايران المسلمة، ولقد جاء تطبيق هذه المبادىء في شمالي بلاد الشام لأول مرة، بتجربة جديدة جد خطيرة على اناس اعتادوا منذ قرون عديدة على طرائق البدو العرب في الحكم وعلى مبادئهم في السياسة والادارة .

ففي اثناء فترات الحكم العربي التي سبقت هذه التجربة الجديدة اعتمد الامير البدوي على رجال عشيرته بشكل رئيسي وتأثر بهم، لذلك كانت دولته دولة بدوية، ولقد بقيت هكذا دونما تغيير لأن فترة الحكم المرداسي مثلها مثل الفترة الحمدانية التي سبقتها كانت متقطعة لم يتح فيها السبيل ، ولم تقم بها الفرصة ، لاحداث أي تغيير مؤثر ولقد كان شيوخ العشيرة في الفترة البدوية العربية المرداسية هم الشخصيات البارزة في الدولة، وشغلت هذه الشخصيات أدوارا سياسية هامة في حياة الامارة وطبعوها بطابعهم وعاداتهم ، ولقد فضل شيوخ القبائل مع اتباعهم عدم النظام، وآثروا الفوضى، وكان لهم اعتباراتهم ومقاييسهم الخاصة فيما يختص بمسألة الاخلاص السياسي، وذلك بأن تأرجحوا بين الفئات المتصارعة، واحبوا الفتنة وكرهوا الأمن والمركزية والاستقرار والديمومة، ولقد مكن هذا الوضع فئات كثيرة داخلية وخارجية من التجمع وانشاء المنظمات، ثم ممارسة النفوذ والمشاركة في تقرير الأمور ، كما أن هذا قد ترك الباب دائما مفتوحا على مصراعيه أمام اي جماعة اجنبية لها بعض القوة والتنظيم حتى تتغلغل ثم تستلب بعد ذلك الحكم والسيادة لنفسها، كما فعل التركمان ، ولقد مر بنا خبر هذا كله.

رغم ماتميزت به فترة الحكم العربي من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي لقد كانت هذه الفترة خصبة من الناحية الفكرية والحضارية، ففيها عاش المعري ونظم شعره وبشر بفلسفته ومبادئه الخاصة، وفيها وجد ابن سنان الخفاجي وابن أبي حَصِينة وابن حيوس وغيرهم من الشعراء العظام، ومع الحرية السياسية والفكرية وجدت ايضا الحرية الدينية حيث مارس الناس معتقداتهم دونما ملاحقة او تنكيل.

ويعتمد كل حكم « أوتوقراطي » على قوات محترفة ، او شبه محترفة ،، وهكذا لقد كان حكم آق سنقر وحكم غيره من التركمان في الشام حكما عسكريا ، فآق سنقر كان أحد ضباط جيش السلطان

ملك شاه، ومثله كان يغي سغان صاحب انطاكية وبوزان صاحب الرها، فبعد ما عين السلطان ملك شاه آق سنقر حاكما على حلب ترك عنده قوة عسكرية مؤلفة من ٤٠٠٠ فارس، ثم لما كان حكم آق سنقر قد خلف الحكم البدوي العربي فان الفراغ الذي تركه شيوخ القبيلة قد ملأه ضباط الحامية العسكرية، وهكذا اصبح الضباط الشخصيات المرموقة في البلاد، وبذلك نشأت طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الضباط، ولقد نمت هذه الطبقة، واضطردت قوتها وتطورت بسرعة مذهلة، حتى غدا الضباط رجال الجماعة الذين يملكون القدرة على إحداث التغيير السياسي وحتى غير السياسي ومع ظهور كل ضابط طموح، ظهر شيء جديد، لم يكن في الغالب اقل من اسرة حاكمة جديدة، ويكفي دليلا على هذا ان نتذكر ان زنكي مؤسس الدولة الأتابكية ثم صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية كانا ضباطا٠

ومن طبائع الحكم « الأوتوقراطي » الاستبداد المقرون بالأبهة والعظمة، وعلى هذا الاساس نجد ان جماعة الأحداث في حلب اخذوا يفقدون قوتهم وسيطرتهم التقليدية مع قيام التوسع السلجوقي وتوطد حكم آق سنقر في شمال بلاد الشام٠

ولقد جاء عن المؤرخ الحلبي ابي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي في حوادث سنة ثمانين واربعمائة هـ (١٠٨٧م) قوله: « فيها استقرت الرتبة بحلب للامير قسيم الدولة أق اسنقر من قبل السلطان العادل أبي الفتح، وتوطدت له الأمور بها، واقام الهيبة العظيمة التي لايقدر عليها احد من السلاطين، واظهر فيها من العدل والانصاف مع تلك الهيبة مايطول شرحه وإقامة » الهيبة العظيمة لايتم بدون قوات مسلحة ، والاحتفاظ بالعساكر يكلف الكثير من الأموال ، والأموال في العادة تأتي من جيوب المحكومين ، وهذا بالتالي يعني ان الحكم السلجوقي الجديد قد جلب معه الى الشام زيادة في الأعباء المالية، وليتصور المرء حالة بلد عانى من التهديم والسلب والنهب سنين طويلة، ثم عندما استقرت فيه الأمور ابتلي

يحكم « اوتوقراطي » عسكري مبتز، وبعد هـذا كان عليه والحـالة هذه أن يتصدى لغزو خارجي جديد !

جاء عن محمد بن عبد الملك الهمذاني،مؤرخ القـرن الثـاني عشـر ميلادي،في كتابه"عنوان السير في محاسن أهل البدو والحضر» في ثنايا حديثه عن حكم آق سنقر قسيم الدولة في حلب قـوله:« واسـتغلهاـ يعني مدينة حلب فقـط ـ في كل يوم ألف وخمسـمائة دينار »· وفي سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م وصل السـلطان ملك شـاه الى بغـداد ، ووصل اليه أخوه تتش،وقسيم الدولة آق سنقر وغيرهما مـن حـكام الامبراطورية، وفي بغداد تم اجراء بعض الاحتفـالات الكبيرة التـي تخللها عرض للعساكر والمواكب، ولقد كان موكب آق سـنقر قسـيم الدولة من العظمة بمكان بحيث « لم يكن في عسـكر السـلطان مـن يقاربه »(٤)·

من العادة ان يتصنع الحاكم« الاتوقراطي » التقوى ، ويتـظاهر بالاهتمام بمصالح « رعيته» ومنافعهـم ، ويحـرص على أن يبـدو مهتما بالأمن ، كارها للظلم ، وان كل حركة من حـركاته وسـكناته فيها عدل وتقوى وصلاح ونزاهة نابعة مـن القلب ولهـا الكثير مـن الصفات القدسية الربانية، وعلى هذا يبدو كل حاكم « أوتوقراطي » وعليه مظاهر التعقل والاعتدال، ولهذا يحارب كل تطرف، ويقـف في وجه كل« النزعات والبدع الجـديدة » مهمـا كان نوعهـا وهـدفها، فالبدعة هرطقة وعليه أن يحارب كل هرطقة، ولقد مـر معنا بـأن آق سنقر « جدد في أيامه عمارة منارة حلب بالجامع » كمـا أمـر ببناء عدد من المشاهد الجديدة مع ترميم بعض المشـاهد القـديمة رغم أن هذه القديمة كانت مشاهد شيعية وكان هو سنيا من أهدافه« إقامة الحدود الشرعية » وإعادة حكم السنة، ولكن لما كان غالبية أهل حلب شيعة اثنا عشرية فقد تقرب إليهم بترميم بعض أماكنهم المقدسة ذلك أن مقتضيات السياسة هي فوق كل اعتبار·

وعندما يظهر الحاكم « الاتوقراطي » التدين، فان ذلك يسـتلزمه تقريب المتدنيين منه والاعتمـاد عليهـم، ولقـد كان الأمير البـدوي

العربي يقرب الناس إليه لابداعهم ولتفوقهم في فن من الفنون، لا لتقواهم وتدينهم، لذلك كانت حاشية الأمير المرداسي ومن قبله حاشية الأمير الحمداني فيها من الناس كل نموذج مما اعطاها صفة الحياة المتدفقة والشمول والحضارة المبدعة، لكن عندما اخذ الحاكم المطلق يقرب المتدينين إليه اضطر الى إضفاء صفة محددة على الدولة، وهذه الصفة غالبا لم تتعد التزمت والجمود، ثم إن في عملية تقريب فئة في العادة فيه إضرار بالفئات الأخرى، ولقد كان لذلك نتائجه غير المحمودة على الحضارة، ثم لم يكن لذلك نتائج حميدة حتى على الدين نفسه لأن العملية تمت حسب أهواء ومقتضيات السياسة ، ومهما يكن الحال إن تقريب رجال الدين من الحاكم قد خلق تدريجيا طبقة جديدة في المجتمع ، وفي الاسلام، الا وهي طبقة « الكهنوت » وهذا امر جديد وخطير في تاريخ الاسلام ، لطالما حرص هذا الدين منذ بدايته على تجنبه، ولكن الذي حد ثان طبقة من رجال الدين المحترفين قد وجدت وتطورت ، واصبح لها مكانتها ونفوذها وسياستها ومصالحها الخاصة، حتى اتى وقت اصبحت هذه الطبقة تضم فيه عددا من الأسر يرث فيها الولد وظيفة ابيه ومنصبه، مثلما كان الاقطاعي وسليل الأسر النبيلة يرث ويورث، وفي غالب الأحيان قامت هذه الطبقة باعطاء تفسيرات للدين تتماشى ومصالحها ومنافعها، ولقد جمد هذا الدين ، وخلق فراغا غالبا ما استغل من قبل اصحاب الأهواء، ونادرا من قبل ثوار حقيقيين أرادوا أن يرجعوا للاسلام روحه وحيويته وأهدافه الحقة ٠



في تاريخ بلاد الشام كان هناك دائما تنافس، أو بالحري صراع من أجل السيادة بين الشمال والجنوب، ولقد مثلت دمشق ـ منذ القرن السابع م ـ الجنوب كما مثلت حلب الشمال في هذا الصراع، ولقد كانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية لكن غالبا ماكانت سياسية حيث حاول حكام دمشق من طرفهم وحكام حلب من الطرف الآخر مد سيطرتهم كليا

على الشام ،ومما يدهش أن الشام نادرا ماعرف الوحدة السياسية لفترة طويلة ، بل تعود على التمزق والدويلات ، وتبعا لهذه القاعدة « المؤسفة » حدث صراع بين تتش وآق سنقر، وسنجد تتش ينتصر على آق سنقر ويقتله، ومن ثم يوحد شمال الشام مع جنوبه، لكن تتش لن يلبث طويلا حتى يقتل فيرثه في حلب ابنه الأكبر رضوان وفي دمشق ولده الآخر دقاق ، ومن جديد يبدأ الصراع بين دمشق وحلب ، وفي غمرة الصراع هذا تصل الحملة الصليبية الأولى الى الشام.

لقد جهد تتش منذ أن اصبح حاكم دمشق في العمل على مد سلطانه على بلدان الشام ومدنه خاصة الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للخلافة الفاطمية او تحكم من قبلها مباشرة ، ويروي سبط ابن الجوزي بأن تتش طلب في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من اخيه السلطان ملك شاه ان يمده بما يمكنه من طرد الفاطميين من الشام واحتلال بلدان الساحل الشامي واخضاعها للحكم السلجوقي وبأن السلطان استجاب لنداء تتش هذا فأوعز الى قسيم الدولة آق سنقر والي حلب، والى بوزان صاحب الرها بأن يقدما الى تتش كل ما كان يحتاجه من مساعدات(٥) .

ويبدو انه لم تنفذ أوامر السلطان هذه، فلم يذهب بوزان ولا آق سنقر الى مساعدة تتش، كما ان تتش لم يقم بأي عمل عسكري ملحوظ ضد بلدان الساحل، لكن جيشا فاطميا وصل في سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩ م الى الساحل الشامي وتمكن من اخذ صيدا وصور وجبيل وعكا، ثم قام بحصار بعلبك، واثناء الحصار هذا وصل الى المعسكر الفاطمي خلف بن ملاعب صاحب حمص وافامية حيث قابل قائد القوات الفاطمية واعترف له رسميا بسلطان الخليفة الفاطمي وسيادته عليه، ولقد استولت الحملة الفاطمية اثناء وجودها في الشام على بعض اراضي تتش (٦) ونتيجة لهذا كرر تتش ندائه لطلب المساعدة، وهنا أمر السلطان ولاته في الشام بالتحرك لمساعدة تتش، وأن يتحدوا معه للقيام بعمل تأديبي ضد خلف بن ملاعب

صاحب حمص، ولكي يقوموا بمحاولة للاستيلاء على جميع املاك الفاطميين في الشام.

ويبدو ان السلطان ملك شاه قد عهد الى تتش بقيادة القوات المتجمعة، كما يبدو ان آق سنقر وبوزان قد قبلا بذلك مكرهين، فهما لم يرغبا بقيادة تتش لاسباب شخصية، ذلك ان كل ماكان سيربح كان سيكون مآله الى تتش، وعدم رغبتهما هذه سببت نجاحا جزئيا لخطط تتش، ولقد كانت اسباب القيام بالعمل التاديبي ضد خلف بن ملاعب ليس فقط لاعترافه بالخليفة الفاطمي كسيد له وإنما بسبب سلوكه العام والشكاوى التي رفعها اهل الشام الى السلطان ضده، ذلك انه كان « جبارا ظالما، يقطع الطريق، ويخيف السبيل ».

في سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م اجتمعت قوات بوزان، وآق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وتتش على حمص، وسبقهم بوزان، فلم يمكن خلف بن ملاعب من الخروج من حمص» فاقتحموا حمص وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد الى السلطان ملك شاه ولقد طلب كل واحد من الامراء حمص لنفسه» فكتبوا جميعا الى السلطان ، فانعم بها على اخيه تاج الدولة ».

ليس من الواضح مما جاء في روايات المؤرخين ما هي كانت الخطوة الثانية التي قام بها تتش وبقية الحكام، فلقد جاء في هذه الروايات بأن مدينة طرابلس قد حوصرت من قبل الامراء الأربعة في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، وان افامية قد تم الاستيلاء عليها في العام نفسه من قبل آق سنقر قسيم الدولة ، ونحن لانعرف فيما اذا كانت القوات السلجوقية قد تابعت سيرها نحو طرابلس بعد ان استولت على حمص ام ان كل قائد من القادة الأربعة عاد الى ولايته ثم اتحد في العام التالي مع الباقين للزحف ضد طرابلس ومهما كان الحال فانه من المرجح انهم زحفوا على طرابلس مباشرة بعد الاستيلاء على حمص.

يبدو ان منح حمص لتتش قد اغضب آق سنقر، لذلك عندما ذهب

مع تتش للاستيلاء على طرابلس كان في قرارة نفسه يعمل للابقاء على طرابلس مستقلة ولمنع تتش من الاستيلاء عليها ومن ثم ضمها الى املاكه، وفي طرابلس لقد كان ابن عمار قاضي المدينة وحاكمها قد اعد عدته للدفاع عن طرابلس، واول ما قام به هو انه اختج ضد الحصار وابرز وثائق موقعة من قبل السلطان ملك شاه فيها يعترف له بسلطانه على طرابلس• ويبدو انه كان على بينة بما كان بين تتش واق سنقر من التحاسد والتباغض ، لذلك اتصل سرا بآق سنقر قسيم الدولة وعرض عليه مبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار إن هو ساعده في وقف حصار طرابلس، وهنا أخبر آق سنقر تتش بان الوثائق التي ابرزها ابن عمار هي صحيحة وانهم على هذا بحصارهم لطرابلس يخالفون اوامر السلطان ملك شاه•

ووقع جدال بين تتش وآق سنقر قسيم الدولة تطور الى خصام ، قام على إثره آق سنقر بسحب قواته والتوجه بها نحو حلب• وتخلى بوران ايضا عن تتش وانسحب مع قواته ، وهنا وجد تتش نفسه لايملك القدرة على متابعة حصاره لطرابلس لذلك جمع هو ايضا قواته وعاد خائبا الى دمشق (٧) .

وعلى طريقه الى حلب، قام أق سنقر قسيم الدولة ــ كما يبدو ــ بالاستيلاء على افامية التي كانت جزءا من املاك خلف بن ملاعب• وبعد ان استولى عليها لم يحتفظ بها لنفسه بل سلمها الى نصر بن علي الأمير المنقذي لشيزر، وهذا يوحي بان العلاقات بين اق سنقر قسيم الدولة واسرة آل منقذ كانت طيبة، وفي الواقع لم تكن العلاقات دائما طيبة بينهما ففي سنة ١٠٨٨ م سبق لآق سنقر ان قام بحملة ضد شيزر وحاصرها محاولا الاستيلاء عليها (٨) وعلى كل حال يبدو ان منح آق سنقر قسيم الدولة افامية للحاكم المنقذي لم يكن بدافع حب وطيب علاقات معه بل بسبب سوء علاقاته مع تتش• ففي استيلائه على افامية كان يحرم تتش من اخذها وهكذا يبعده عن حدود حلب، ولكن لما كان يقدر انه لن يستطيع الاحتفاظ بها، لذلك منحها للحاكم المنقذي، وبذلك ابقى تتش محروما منها وبالوقت نفسه زاد في قوة الامارة المنقذية التي وقعت بين اراضي تتش

وأراضي حلب وكانت بامكانها ان تقوم بدور حاجز بين شمالي بلاد الشام وبين جنوبه ذلك إن لم يقف حكامها الى جانب آق سنقر في الصراع الذي لابد انه واقع بينه وبين تتش.

في هذه الاثناء قام السلطان ملك شاه باستدعاء جميع ولاته في بلاد الشام والجزيرة إليه، ففي ٢٨ رمضان ٤٨٤ هـ / ١٣ تشرين ثاني ١٠٩١ م كان ملك شاه قد وصل الى بغداد حيث بقي فيها عدة أشهر يحتفل ويستعرض قواته ويستقبل ولاته ويبحث معهم مشاكل مناطقهم وقضاياها، وفي بلاط ملك شاه تلاقى تتش مع قسيم الدولة في حضرة السلطان ،وقام تتش برفع شكواه ضد آق سنقر وقال : « كان من الأمر كذا وكذا، فقال له قسيم الدولة : تكذب، فقال السلطان : تقول لأخي كذا ! قال: نعم، يطلع الله في عينيه مايريده لك، ويطلع في عيني ماأريده لك »، وقنع السلطان بحجج آق سنقر وحكم له على أخيه تتش.

لقد روى هذا كل من المؤرخين علي بن مرشد بن منقذ، وابن الاثير، وسبط ابن الجوزي، لكن سبط ابن الجوزي قام بعد أن روى هذا الخبر بالتعليق عليه بقوله:« وهذا بعيد، فان السلطان وصل حلب ولم يلتقيه تتش لانه كان مستوحشا منه »، ولقد روى كل من العماد الأصفهاني وابن واصل الحموي خبر وصول السلطان ملك شاه الى بغداد مع احتفالاته ومجيء آق سنقر وبوزان إليه لكن لم يذكرا اسم تتش بين من جاء الى بغداد، ولم يتعرض العماد لمسألة الخلاف بين تتش وآق سنقر، لكنه وابن واصل مثلهما مثل بقية المؤرخين ذكرا بأن السلطان ملك شاه قد عهد الى اخيه تتش بالعمل على الاستيلاء على املاك الخلافة الفاطمية في الشام. ومن أجل هذا « امر مملوكيه بزان صاحب الرها واق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض ويساعداه على اداء هذا المفترض »، ولقد مر معنا خبر احتلال حمص وكيف أن السلطان ملك شاه قد « أنعم بها على اخيه تاج الدولة ».

إن في تعيين تتش قائدا للقوات السلجوقية المهاجمة لحمص

ومنحه بعد هذا حكم هذه المدينة إشارة توحي بأن تتش كان قد توصل ، بعد تركه لحلب وتجنبه الالتقاء باخيه، إلى التصالح مع السلطان ملك شاه، وإذا كان هذا قد وقع فعلا وتم حدوثه فليس هناك سبب يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن تتش قد سافر فعلا الى بغداد، وعرض قضية خلافه مع آق سنقر على اخيه السلطان ،وخسر هذه القضية نتيجة لاتهام آق سنقر له بالكذب، ثم لفضحه نواياه السيئة وخططه تجاه السلطان.

وعندما اراد تتش العودة الى دمشق اجبر على ترك احد اولاده رهينة عند السلطان، ولقد ملأ هذا قلب تتش حقدا على آق سنقر، لذلك سنجده في سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م يقوم بقتل آق سنقر بيديه صبرا، وسناتي على بحث هذا بالتفصيل، والمهم ان نذكر هنا ان آق سنقر قد ترك بغداد ايضا وعاد الى حلب لكن بمكانة اعلى ومركز اقوى واثبت(٩).

لم تكن قضية الصراع بين تتش وآق سنقر هي القضية الوحيدة التي عاشها البلاط السلجوقي للسلطان ملك شاه اثناء وجوده في بغداد ثم بعد تحركه منها، لقد كان سيد الامبراطورية السلجوقية الفعلي زمن ملك شاه وزيره نظام الملك، وكان ملك شاه يريد الخلاص من نظام الملك للانفراد بالسلطة لوحده ، كما أراد ملك شاه في ذات الوقت إخراج الخليفة العباسي من بغداد إلى مكة أو المدينة ، وتآمرت أطراف التنازع هذه ضد بعضها بعضا، وسقط الوزير نظام الملك أولا ، ثم لحقه بعد فترة وجيزة مسموما السلطان ملك شاه في ٦ شوال ٤٨٥ هـ / ٢٩ تشرين الثاني ١٠٩٢ م، واخيرا لم تطل ايام الخليفة المقتدي بعد ملك شاه حيث توفي هو الآخر في سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ « فجاة وعمره ثمان وثلاثون سنة وتسعة اشهر ».

عندما مات ملك شاه كان عمره« ثمان وثلاثون سنة وثلاثة اشهر وسبعة وعشرون يوما » وقد خلف عددا من الاولاد ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه اعتلاء عرش السلطنة الشاغر، وقام صراع

بين السلاجقة من اجل خلافة ملك شاه واحتضنت كل فئة وحزب احد الصبية وجهدت ـ باسمه ـ من اجل السيطرة على الامبراطورية(١٠) .

ولقد اتخذ آق سنقر قسيم الدولة وبوزان صاحب الرها وحران لنفسيهما موقفا موحدا ، وتارجحا بين الفئات السلجوقية المتصارعة حتى واجها الموت نتيجة لحادث واحد، ويروي ابن العديم ان آق سنقر ـ وطبعا معه بوزان ـ قد اعترف أولا بسلطنة محمود الابن الأصغر لملك شاه(١١) لكنه لم يلبث أن بدل اعترافه وتحول بولائه.

عندما اخبر تتش بوفاة اخيه السلطان ملك شاه أعلن نفسه خليفة له وسلطانا للامبراطورية السلجوقية ، وحتى ينال السلطنة فعلا ويعترف به الجميع ، ولكي يمتن مركزه قام تتش بتجنيد جيش كبير.

وفي حلب لاحظ آق سنقر قسيم الدولة مدى خطورة تحركات تتش هذه، وفي الوقت نفسه علم بأن أولاد ملك شاه يحاربون بعضهم بعضا من أجل خلافة أبيهم وليس هناك مايشير بشكل قاطع الى رجحان كفة فئة على اخرى، وفي هذه الظروف ومن زاوية ادراكه انه لايملك القوة الكافية لمقاومة تتش او التصدي له قام اق سنقر مكرها بالاعتراف بتتش واعلن عن استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه، وفي سنة ١٠٩٣ م ـ ربما في شباط ـ مر تتش باراضي حلب متوجها شرقا يريد خراسان، وفي الطريق التحق به آق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وبوزان ، واثناء تحركهم هذا استولوا على الرحبة ونصيبين واكثر مناطق الجزيرة، وقرب الموصل خاضوا معركة كبرى اتوا بها نهائيا على قوة عقيل ثم على الدولة المروانية.

عقب وفاة مسلم بن قريش العقيلي « استولى على الموصل ابراهيم بن قريش اخو مسلم »، وفي سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م استدعى السلطان ملك شاه ابراهيم إليه « ليحاسبه، فلما حضر عنده اعتقله، وانفذ فخر الدولة ابن جهير الى البلاد فملك الموصل وغيرها ». وبقي ابراهيم مع السلطان ملك شاه ، وسار معه الى

سمرقند، وعاد الى بغداد، فلما مات ملك شاه اطلقته تركان خاتون إحدى أرامل ملك شاه من الاعتقال ، فسار الى الموصل.

واثناء حياته كان ملك شاه قد اقطع عمته صفية مدينة بلد، وكانت صفية هذه زوجة شرف الدولة مسلم بن قريش ولها منه ابنه علي، وكانت قد تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه ابراهيم ، فلما مات ملك شاه قصدت الموصل ومعها ابنها علي واستطاعت أخذ الموصل، وهنا وصل إليها زوجها ابراهيم « فسلمت البلد إليه فأقام به فلما ملك تتش نصيبين ارسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة، فامتنع ابراهيم من ذلك ، فسار تتش إليه »، فلما عرف ابراهيم « خبره جمع وحشد واستصرخ واستنجد « ثم تقدم نحو تتش » في ثلاثين الفا، وكان تتش في عشرة الاف ، وكان اق سنقر على ميمنته وبوزان على ميسرته »، والتقى الجيشان في مكان يعرف بالمضيع على نهر الهرماس نهر مدينة نصيبين» واختلط الفريقان واشتد القتال ، وانكشفت المعركة عن قتل جماعة من الاتراك والعرب، وعاد كل فريق منهما الى مكانه ، فلما استقر بالعرب المنزل، عاد عسكر تاج الدولة إليهم وهم غارون، وحمل عليهم وهم غافلون، فانهزمت العرب وأخذهم السيف، فقتل منهم العدد الكثير، والأكثر من الرجالة المقيمين في المخيم، وقتل الامير ابراهيم بن قريش وجماعة من الأمراء والمقدمين من بني عقيل وغيرهم، وقيل أن تقدير القتلى من الفريقين عشرة الاف رجل، واستولى النهب والسلب والسبي على من وجد في المخيم ، وامتلأت الأيدي من الغنائم، والسواد والمواشي والكراع بحيث بيع الجمل بدينار واحد، والمائة شاة بدينار واحد.

ولم يشاهد أبشع من هذه الواقعة، ولااشنع منها في هذا الزمان ،وقتل بعض نسوان العرب انفسهن اشفاقا من الهتيكة والسبي ، ولما عادوا بالأسرى والسبي وحصلوا بشاطىء الفرات القى جماعة من الأسرى انفسهم في الفرات فهلكوا ».

لقد حدثت هذه المعركة سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، وكان ضمن قوات ابراهيم بن قريش بعض القوات الكردية ،فلقد قتل مع

ابراهيم حسين بن نصر الدولة بــن مــروان ، لذلك ارتـــأى تتشان يتابع احتلال جميع مناطــق الجــزيرة وأن يقــوم بتصـــــفية الدولة المروانية قبل أن ينحدر شرقا ، وعلى هذا تحرك نحو« آمد وملكها ، واقام اياما قلائل ، وسار إلى أن وصل إلى ميافارقين » فتسـلمها هي الأخرى بالأمان وبذلك اتـى على الدولة المروانية وانهــاها مـن الوجود.

إن الانتصارات التي حققها تتش قد حسنت من وضـعه وقـوت مركزه ،لذلك كتب إلى الخليفة في بغداد يطلب منه أن يأمر بأن يخطب له بالسلطنة على منابر بغداد وبلدان الخلافة العباسية ، ويتوعده إن لم يستجب لطلبه ، فلم يعبأ الخليفة بتهديداته ولم يعر طلبه اهتماما كبيرا بل كتب إليه« إنما تصلح للخطبة إذا حصـلت الدنيا بحـكمك والخزائن التي بأصبهان ، وتكون صاحب المشرق وخـراسان ، ولم يبق من أولاد أخيك من يخالفك ،أما في هذه الحال فلا سبيل الى مـا التمسته ، فلا تعد حـد العبيد ، وليكن خـطابك ضراعة لاتحـكما ، وسؤالا لا تجبرا ، وإن ابيت قاتلناك ورديناك ، واتاك من الله مـا لا قبل لك فيه ».

وامام هذا الموقف قرر تتش التوجه مباشرة إلى خـراسان وعدم الذهاب الى بغداد ، وفي خراسان كانت ملامح الصراع بين ابناء ملك شاه قد توضحت بأن رجحت الكفة لصالح بركياروق الأبـن الكبير، وعندما وصل تتش إلى مدينة تبريز« فصل عنه قسيم الدولة صاحب حلب ، وعماد الدولة بوزان صاحب الرها مغاضبين ، وقصدا ناحية السلطان بركياروق بـن ملك شـاه ، مخـــالفين له ،وعاصـــيين عليه » ،والتحقا ببركياروق عند مدينة الري ـ قرب مـدينة طهـران الحاليةـ وقدما له المساعدات ، فقوي مـركزه بهمـا ، وكانت فلول قبيلة عقيل قد التحقت أيضا بمعسكر بركيا روق.

وضعفت بهذا صفوف تتش واضطر أمام الحال الجديد ان لايتابع سيره نحو الري للقتال ضد بركياروق بل عاد ادراجه نحو ديار بكر ، وحرض أق سنقر قسيم الدولة وبوزان بركياروق ضد تتش وحـذراه

من ان يهمل امره ، وطلبا منه أن يعاجله» قبل إعضال خطبه وتمكنه من الغلبة على السلطنة ، والاستيلاء على اعمال الملكة، واشارا عليه بالمسير في هذا الوقت «وطلبا منه أن يسير معهما، وفعلا صحبهما الى مدينة الرحبة ، ويبدو أن تتش قد كان في الرحبة عندما توجهوا نحوها، لكنه عندما علم بزحفهم إليها تركها وتوجه صاعدا على طرف الفرات قاصدا بلد انطاكية، وتوقف بركياروق في الرحبة، وفيها قام بعقد تحالف بين أق سنقر قسيم الدولة وبوزان من جهة وبين علي بن مسلم بن قريش العقيلي من جهة اخرى، وكان علي هذا قد خلف عمه ابراهيم بن قريش في زعامة قبيلة ـ أو بالحري ما بقي من قبيلة ـ عقيل • وتوجه بوزان الى الرها ، وسار قسيم الدولة الى حلب وبرفقته بعضا من عساكر بركياروق ومن افراد قبيلة عقيل وغيرها من القبائل، ولقد وصل اق سنقر الى حلب في تشرين الثاني من العام نفسه ـ ١٠٩٣م ـ(١٢) .

وانتهى خبر وصول اق سنقر الى حلب الى تتش، وورد عليه نبأ « بانكفاء السلطان ـ بركياروق ـ من الرحبة الى بغداد، وأن عزمه ان يشتو بها، واقام تاج الدولة بانطاكية مدة، فقلت الأقوات وارتفعت الاسعار وخوطب في العودة الى الشام فلم يفعل، وعاد الى دمشق آخر ذي الحجة من السنة (٤٨٦ هـ / أواخر كانون ثاني ١٠٩٤ م) وفي جملته الأمير وثاب بن محمود بن صالح، وبنو كامل، وجماعة من العرب لم يجسروا على الاقامة بالشام خوفا من قسيم الدولة »، وفي دمشق أخذ تتش يعمل من جديد على تقوية جيشه بتجنيد قوات جديدة، وعلى إعداد مايلزم من العدة كي ينال السلطنة، وفي حلب قام أق سنقر بدوره بالاعداد للتصدي لتتش ومنعه من مغادرة بلاد الشام إن لم يكن لانتزاع دمشق منه، وكاتب آق سنقر السلطان بركياروق وطلب منه المساعدة، كما استنجد بمن جاوره من حكام السلاجقة في مدن الجزيرة « فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل، وبزان صاحب الرها، ويوسف بن آبق صاحب الرحبة في الفي فارس وخمسمائة فارس» •

وقام آق سنقر ايضا بتجنيد قوات اضافية من قبيلة كلاب، وجدير بالملاحظة أن معظم قوات تُتُش التي جندها هو ايضا في جيشه كانت من بين القبائل البدوية العربية ومن جملة ذلك قبيلة كلاب التي يبدو أن افراد الأسرة المرداسية كانوا قد فقدوا قسما كبيرا من سلطانهم عليها بعد سقوط اسرتهم في حلب . ففي ايام آق سنقر التي نحن بصدد الحديث عنها كان أبرز امراء قبيلة كلاب هو شبل بن جامع وكانت له السيادة على الجزء الأكبر من القبيلة ولقد قطن هذا الجزء في المنطقة الجنوبية الغربية لحلب، اما ما تبقى من القبيلة فقد كان تحت إمرة الأمير المرداسي وثاب بن محمود الذي كان على علاقات طيبة مع تتش، لذا انخرط واتباعه تحت لوائه.

ولم تكن العلاقات بشكل عام جيدة بين آق سنقر وقبيلة كلاب، لكنه ـ أي آق سنقر ـ كان مجبرا على تجنيد الكلابيين في جيشه، لأن ما كان لديه من القوات التركية، لم يكن كافيا، ثم إن ما جاءه من مساعدات، ونجدات، كان دون الحاجة، ويبدو أن قبيلة كلاب كانت المصدر الأفضل، إن لم يكن الفريد، في شمالي بلاد الشام للتجنيد، ولقد كان آق سنقر على بينة ومعرفة تامة بميول الكلابين ومشاعرهم غير الودية تجاهه وكان لهذا دائما يشك بهم، ويرتاب بتصرفاتهم، واخلاصهم له.

« وفي شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين واربعمائة (آذار ـ نيسان ١٠٩٤ م) خرج تاج الدولة تتش من دمشق ومعه خلق عظيم من العرب، ولقي يغي سغان بعسكر انطاكية بالقرب من حماه، واقاموا هناك اياما، وزوج ولده رضوان من ابنة يغي سغان وسيره عائدا الى دمشق، وسار تاج الدولة بعساكره »، فتهيأ آق سنقر للقائه، والخروج إليه، واستدعى منجما ليأخذ له الطالع ، فحضر عنده واختار له وقتا، وقال: تخرج الساعة، فركب ومعه النجدة التي وصلته، وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل، وكان أطلقهما من الاعتقال، ومحمد بن زائدة، وجماعة من احداث حلب، والديلم والخراسانية، في أحسن زي،

واكمل عدة، وقيل إنه قدر عسكره بعشرين الف فارس، وقيل كان يزيد عن ستة الاف ، وقصد تاج الدولة يوم السبت التاسع من جمادى الأولى من السنة (٤٧٨ هـ / ٢٦ مايس ١٠٩٤م)٠

وقطع آق سنقر سواقي نهر سبعين (على بعد ستة فراسخ من حلب) قاصدا عسكر تتش(وكانت عساكر كربوقا وبوزان لم تتمكن من قطع بعض السواقي) فأقاموا على حالهم، وكان أول من برز للحرب آق سنقر، فالتقى الفريقان٠

ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من البداة العرب، فنقلهم من الميمنة الى الميسرة في وقت المصاف، ثم نقلهم الى القلب، فلم يغنوا شيئا، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت، وانهزمت البداة العرب وعسكر كربوقا وبزان، وكربوقا وبزان معهم الى حلب، ووقع فيهم القتل ، وثبت قسيم الدولة ، فاسر وأكثر أصحابه٠

وحمل الى تاج الدولة تتش فلما مثل بين يديه قال له:« لو ظفرت بي ما كنت صانعا في ؟ قال: اقتلك، قال: فاني احكم عليك بحكمك في »، وقام تاج الدولة إليه« فضرب رقبته بيده، وقطع راسه »،« واصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه راس الأمير قسيم الدولة »، وكان كربوقا وبوزان قد عولا على الاعتصام بحلب وانتظار وصول نجدة من السلطان بركياروق« لأن كتاب الطائر وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل، وقررا مع الاحدا ث ذلك »،ووصل تتش الى حلب والأمور لم تقرر بعد بشكل نهائي، وسببت سرعة وصول تتش الى اسوار حلب ارتباكا بين صفوف اهاليها واحداثها وتركمانها، وفي ساعة الحيرة هذه وثب« قوم من الأحداث ممن لايعرف ولايذكر ففتحوا باب انطاكية ونادوا بشعار تاج الدولة، فدخل وثاب بن محمود بن صالح »« في مقدمة اصحاب تاج الدولة الى حلب، وسكن البلد، فنزل الوالي بقلعة الشريف وسلمها الى تاج الدولة، فدخلها وبات فيها، فراسله نوح والي القلعة الكبيرة وسلمها إليه بعد أن توثق منه، وطلع تاج الدولة إليها في الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة ٠

وقبض تاج الدولة على بوزان فضرب رقبته صبرا، واخذ كربوقا واعتقله بحمص، واقطع الشام لعسكره، واقطع معرة النعمان واللاذقية ليغي سغان »·

« ورحل السلطان تاج الدولة عن حلب في العسكر الى ناحية الفرات، وقطعه وقصد حران فاستعادها، وكذلك سروج والرها، وقصد دياربكر، وعدل عن طريق السلطان بركياروق لأنه كان نازلا بأرض الموصل طالبا لخاتون زوج السلطان ملك شاه والدة أخيه محمود، وكانت مستولية على أصفهان وجميع الأموال، لمكاتبات ومراسلات ترددت بينهما في معنى الوصلة بينها وبينه -اي تتش- واستقر الملك له ولها، وكانت قد منعت السلطان بركياروق التصرف في تلك الاعمال والنقود فيها·

وفي هذا الوقت حدثت زلازل في يوم وليلة دفعات لم يسمع بمثلها في كل زلزلة منها تقيم وتطول بخلاف ماجرت بمثله العادة· ورحل تاج الدولة عقيب ذلك، ولم يتمكن من الاتمام على سمته، وعرفت خاتون الخبر فخرجت من اصفهان في عساكرها للقاء تاج الدولة، فعرض لها في طريقها مرض حاد ، فتوفيت، وتفرق عسكرها الى جهة السلطان بركياروق والى غيره».

وحين عرف بركياروق ذاك سار في الحال الى اصفهان فدخلها وملكها، «ووصل من عسكر خاتون الى تاج الدولة خلق كثير، وكذلك من عسكر بركياروق، فتضاعفت عدته، وقويت شوكته، ودعي له على منابر بغداد، ووصل الى همذان، وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه فيمن بقي من الاجناد في الشام، فسار الى حلب، ومن حلب الى العراق، ومعه الأمير نجم الدين ايل غازي بن ارتق، والأمير وثاب بن محمود بن صالح وجماعة من امراء العرب، واتراك حلب القسيمية(نسبة الى قسيم الدولة آق سنقر)، وتوجه صوب بغداد على الرحبة »·

وبعث تتش يوسف بن ابق على رأس قوة نحو مدينة بغداد للاستيلاء عليها،اما هو فتوجه نحو اصفهان، وفي أصفهان كان

آلسلطان بركياروق مريضا بعد اصابته بالجدري، لذلك سار تتش نحو الري، وراسل أمراء التركمان الذين كانوا في أصبهان يدعوهم الى طاعته ويبذل لهم البذول الكثيرة» فأجابوه يعدونه بالانحياز اليه وهم ينتظرون ما يكون من بركياروق، فلما عوفي ارسلوا الى تتش ليس بيننا غير السيف، وساروا مع بركياروق من اصبهان » نحو الري، وقبل أن يصلوها» اقبلت إليهم العساكر من كل مكان حتى صاروا في ثلاثين الفا، فالتقوا مع جيش تتش بموضع قريب من الري، فانهزم عسكر تتش، وثبت هو فقتل، قتله ـ غيلة ـ بعض اصحاب أق سنقر صاحب حلب ـ أو بوزان صاحب الرها ـ أخذا بثأر صاحبه (١٣) .

وكان هذا في شهر صفر سنة ثمان وثمانين واربعمائة (شباط ١٠٩٥م).

إن مقتل كل من آق سنقر قسيم الدولة، وبوزان، ثم تتش قد ختم مرحلة من مراحل تاريخ بلاد الشام والجزيرة تحت الحكم السلجوقي، وفي الواقع إنه قد ختم حقبة متميزة من تاريخ الشام والجزيرة وابتدأ حقبة متميزة جديدة هي حقبة بداية الحروب الصليبية ونشاط الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسن الصباح(١٤) ولقد كان تتش وبوزان واق سنقر ورجال طبقتهم تركمانا قاموا بالحاق بلاد الشام والجزيرة بالامبراطورية السلجوقية ولقد كانت مواطن ولادتهم خارج الشام والجزيرة وجاءوا هم غزاة الى الشام والجزيرة مواكبين للهجرة التركمانية الكبرى.

وبموتهم انتهت طبقتهم ومعها ختمت المرحلة التي عاشوها ، وبدات بعدها مرحلة جديدة،حكام الشام والجزيرة فيها من السلاجقة ،لكن كلهم ولد في إحدى مدن أو بلدان الشام والجزيرة وفيها نشأ ، وفي الوقت الذي تبدأ به مرحلة الحكام السلاجقة» الشاميين والجزريين » هذه تعرضت الشام لهجرة بشرية وغزو جديدين ، المهاجرون الغزاة الجدد كانوا مثلهم مثل التركمان من اصول غير شرقية عربية ،إنما وإن اختلفوا عن التركمان في المعتقد والوطن

الأم فقد وجدت أوجه تشابه كثيرة تجمعهم بالتركمان ، يقول المؤلف المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى وكتب عنهـا :« لقـد كان حقا ما قيل من أنه لايجوز لأحد ما ان يسمى بالفارس إن كان مـن غير الفرنجة أو الترك (١٥) .

ولن يتمكن ــ كما سنرى ــ السلاجقة « الشاميين الجـزريين » من صد الصليبيين ، وسيمر وقت تزول به « بالموت » طبقة الحـكام السلاجقة هذه ويخلق جيل جديد من الحكام السـلاجقة والناس فيه حقنت روح جديدة،وبنفس الوقت تـزول ايضـا طبقـة قـادة الحملة الصليبية الأولى ويجيء إلى الوجود جيل من الصليبيين« الشاميين الجزريين » له صفات وملامح فيها الكثير من الجدة ، وهنا يتمـكن الجيل المسلم الجديد البدء بكسب الجولة ، وتأخذ حـركة التحـرير والاسترداد الاسلامية صفة الفعالية والتأثير .

ستكون هذه المراحل مما سيدرس في مجلد يلي هذا ، وسـأكتفي هنا بدراسة فترة حكم كل مـن رضـوان بـن تتش واخيه دقـاق في الشام ، لان حكمهما يشكل جسرا بين فترة ماقبل الحروب الصليبية والمراحل الأولى لهذه الحروب !

بعد أن استولى تتش على مدينة حلب عقب قتله لآق سنقر قسـيم الدولة ، وقبل أن يغادر هذه المدينة متوجها شرقا حيث لقي حتفـه ، قام باسناد امور السلطة في حلب إلى ابي القاسم بن بديع وكان مـن اهالي مدينة حلب ، وقد أسند تتش إليه منصـب وزارة حلب ، وكان حكم مدينة حلب بنفسها بيد رئيسها بركات بـن فـارس الذي عرف باسم المجن الفرعي ، وكان المجن الفوعي هذا هو مقدم أحداث حلب وصاحب الكلمة الأولى فيهم .

وكان تتش قبل أن يصل الى حلب ويفتحها قد أعاد ولده الأكبـر رضوان إلى دمشق ، والى رضوان أوصى بالأمور من بعده إن أصابه مكروه ، وكان رضوان آنئذ صبيا في الثالثة عشر من عمره ، ذلك انه ولد في دمشق سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، وفيها نشـأ في حجـر ابيه ، وكان ابوه قد زوج امه الى إحدى شخصيات تركمانة الكبار ،

وكان اسم هذه الشخصية حسين وعرف عادة باسم جناح الدولة ، وأحيانا باسم باقي الدولة .

كان جناح الدولة اتابكا لرضوان بن تتش ، وكلمة اتابك تعني في الأصل الأمير الأب ، فهي كلمة مركبة من « اتـا » ومعناها اب أو عم ،و« بك »وتعادل امير او مقدم أو سوى ذلك من الفاظ الزعامة ،فلقد كان من عادة السلاجقة كتركمان أن يطلقوا بعض زوجاتهم عقب انجاب احداهن لغلام ، وكانوا ينعمون بالمطلقة« كزوجة » على احدى شخصيات دولتهم من التركمان ، والطلاق كان يحصل لأسباب دينية وسياسية ، دينية عدم سماح الشرع بالجمع بين أكثر من أربع زوجات حرائر ، وسياسية حيث كان الحاكم السلجوقي يجد نفسه راغبا او مرغما على الزواج بأكثر من أربع فتيات إما للشهوة أو للمكانة السياسية والاجتماعية للفتاة او للامرين معا ، وحين كان يتم تطليق إحدى الزوجات ومن ثم تزويجها كان الأمير السلجوقي يحقق بعض الغايات السياسية ايضا فهو يربط المنعم عليه« بالمطلقة » بالأسرة الحاكمة ثم هو يؤمن بنفس الوقت مربيا جيدا لولده مع حزب وقوة تحميه ، ومع مرور الايام ، وتقلب الدول ،تطور منصب « أتابك » وتمتع بصفات ومزايا أخرى غير التي ذكرت كما أدخل عليه الكثير من المزايا الجديدة ، ليس هنا المجال للحديث عنها بشكل مفصل .

لقد كانت مدينة حمص هي أقطاع جناح الدولة حسين ، ويبدو أن تتش كان قد اسند إليه أمور الاشراف على أعمال حلب ، وليس من المؤكد فيما اذا كان جناح الدولة قد كان برفقة تتش في خراسان عند مقتله أم انه كان في مدينة حلب ، ومن الأرجح أنه كان في مدينة حلب ولم يكن برفقة تتش.

وعندما كان تتش في خراسان متوجها لحرب ابن اخيه بركياروق ، ارسل عند وصوله الى همذان كتابا الى ابنه رضوان « يستدعيه اليه من دمشق وأمره أن يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتثل امر أبيه وخرج من دمشق بالعسكر متوجها الى

أبيه، ووصل الى عانة ،وقيل الى الانبـــار، فبلغــه قتــل ابيه تتش ، فحط خيمه وسار مجدا عائدا، فوصل الى حلب وتسلمها مــن وزير أبيه ابي القاسم بن بديع في ســنة ثمــــان وثمــــانين واربعمــــائة (١٠٩٥م) وتولى حسين زوج أمه تدبير ملكه »٠

واخذت فلول قوات وعساكر تتش ومـؤيديه تتــوارد الى حلب ، وهنا اراد كل واحد من رجالات دولة تتش وحلفائه ــ وخاصة يغـــي سغان صاحب انطاكية ويوسف بن أبــق وبعض اولاد ارتــق ــ ان يتفرد بالتحكم برضوان وبالتالي السيطرة على ميراث تتش في الشام والجزيرة ، ولقد ابتغوا جميعا اعادة بلدان الجزيرة مع دمشــق الى الحظيرة٠

ولقد كان من بين فلول جيش تتش التـــي فـــاءت الى حلب دقـــاق الابن الثاني لتتش ، وخاف دقاق على نفســه مــن اخيه رضـــوان ، وكان نائب القلعة في دمشق يدعى ســـاوتكين ، واراد ســـاوتكين ان يحتفظ بسلطانه واستقلاله في دمشق ، لكنه كان يحتاج الى اضـــفاء نوع من أنواع الشرعية على حكمه ، لهذا راسل دقـــاق بـــن تتش ، فهرب المذكور سرا من حلب الى دمشـــق ، حيث دخلهـــا ، واصـــبح حاكمها الشرعي ، وهكذا عاد التمـــزق الســـياسي مـــرة ثـــانية الى الشام ، واصبح الآن اعادة السيطرة على دمشق الشـــغل الشـــاغل لرضوان ، وله صرف الكثير من جهده ووقته وطاقات دولته٠
وكان لتتش ولدين آخرين ، وخشية أن يفعلا فعلا يشابه ما صنعه اخوهما دقاق قام رضوان باعدامهما٠

وقامت مفاوضات بين رضوان بن تتش والســـلطان بـــركيا روق ادت الى ان اطلق رضوان الاسرى الذين كان والده قـــد اخـــذهم في حربه مع اق ســـنقر ، وبـــالمقابل اطلق الســـلطان بـــركياروق سراح الاسرى الذين اخذهم في حربه مع تتش ، وكان من بين الذين كسبوا حريتهم طغتكين ، وطغتكين هذا الذي عرف باسم أتابك ظهير الدين كان من المع ضباط تتش ، وقد حظي عنده بمكانة عالية نظرا لطاقاته ونشاطه ونبوغه» وسلم إليه ولده الملك شمس الملوك دقاق، واعتمـــد

عليه في تربيته وكفالته » ، وتزوج طغتكين خاتون صفوة الملك أم دقاق، وهكذا أصبح أتابكا حسب ما جرت عليه العادة.

وعقب خلاصه من الأسر توجه عائدا الى دمشق فوصلها» في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م فتلقاه الملك شمس الدولة دقاق، وعسكره، وارباب دولته، وبولغ في اكرامه واحترامه، ورد إليه النظر في الاسفهسلارية، واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسة البيضة، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك وامراء الدولة العمل على ساوتكين والايقاع به، وتمم عليه الأمر ،وقتل ».

ولما كان رضوان بن تتش « مائلا الى دمشق ، ومحبا لها، ومؤثرا للعودة اليها، ولايختار عليها سواها لمعرفته بمحاسنها، وترعرعه فيها، فجمع وحشد، واستنجد بالأمير سكمان بن ارتق »، وكان اقطاع سكمان سروج في الجزيرة، فسار سكمان نحو حلب وقطع الفرات، وفي طريقه لقيه يوسف بن أبق ففرض نفسه عليه، لكن عندما وصل حلب استطاع بمساعدة جناح الدولة حسين الخلاص من يوسف حيث ذهب إلى انطاكية الى يغي سغان صاحبها.

واقطع رضوان سكمان بلدة معرة النعمان وأعمالها ،ثم سار معه نحو دمشق، وكانت سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م قد دخلت ، وحاصر رضوان دمشق لكنه اخفق في أخذها نظرا لتدابير الدفاع الجيدة عنها، ولما وجد رضوان أنه لاجدوى في حصاره لها، توجه جنوبا فنهب أعمال حوران ، وهنا تركه سكمان حيث ذهب الى مدينة القدس وكانت اقطاعا لاخيه ايل غازي فتسلمها، وعاد رضوان الى حلب كي يجدد الاستعداد لحملة ثانية على دمشق(١٦) .

وعقب عودة رضوان الى حلب راسله يوسف بن آبق ، واستأذنه في المجيء الى حلب للدخول في خدمته فأذن له، ووصل يوسف الى حلب وسكنها، » ثم خاف رضوان وحسين منه، فتقدما الى بركات ابن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن الفوعي بقتله، فهجم عليه واصحابه فقتلوه، ونهبوا داره، واخذوا راسه وسيروه الى بزاعا ومنبج فتسلموها من اصحابه »، وبعد هذا خرج جناح الدولة حسين

ورضوان فأغارا على بعض أعمال انطاكية التابعة ليغي سغان، واحتلا تل باشر وشيح الدير، ولقد اغضب هذا ـ مع مقتل يوسف بن آبق ـ يغي سغان الذي اخذ يعد العدة للثأر.

ومرة ثانية توجه رضوان مع حسين وبصحبتهما عساكر حلب نحو دمشق، وهنا تحرك يغي سغان بسرعة نحو دمشق منجدا لدقاق « فضعفت نفس رضوان عن دمشق، فسار الى البيت المقدس ، فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سغان ـ واقاموا متحابسين مدة ـ واشرف عسكر رضوان على التلف، فهرب حسين على البرية واتبعه رضوان، ثم وصل سكمان ايضا على البرية الى حلب، ووصل دقاق وطغتكين الى ناحية حلب واستنجد رضوان بسليمان بن ايلغازي صاحب سميساط ، فوصل الى حلب بعسكر كبير، واجتمع العسكران بقنسرين على نهر قويق، وتحاربا فهرب دقاق وطغتكين الى دمشق، ويغي سغان الى انطاكية ».

ولقد استغلت الخلافة الفاطمية في القاهرة أمور واحداث النزاع هذه فارسل أمير الجيوش الافضل بن بدر الجمالي حملة عسكرية استطاعت بعد جهد انتزاع القدس من الأسرة الأرتقية، ثم اكدت النفوذ الفاطمي على مناطق الساحل الشامي، مثل مدينة صور، وطلدته، وكان هذا سنة الحملة الثانية على دمشق ٤٨٩ ـ ٤٩٠ هـ / ١٠٩٥ ـ ١٠٩٦ م ، ومن قبل في سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م بعيد وفاة السلطان ملك شاه، واثناء انشغال تتش واق سنقر في الصراع من أجل السلطنة، استغل بدر الجمالي والد الأفضل تلك الحالة فأرسل حملة عسكرية الى الساحل، واستطاعت تلك الحملة احتلال مدينة صور، واعادتها الى حظيرة الخلافة الفاطمية.

واستغل اهالي افامية ايضا الصراع بين ولدي تتش، فثاروا بحاكمهم التركي الذي كان تتش قد خلفه فيها بعد انتزاعه لها من الاسرة المنقذية اثناء سعيه للسلطنة. واستطاع الفاميون الذين كان غالبيتهم اسماعيلية مستعلية من اتباع القاهرة طرد حاكمهم التركي

في سنة ٤٨٨ هـ ،وذهب وفد منهم الى القاهرة، فرجعوا بخلف بن ملاعب، الذي كان قد نجا من سجنه في خراسان، رجعوا به واليا عليهم.

واثناء فترة الصراع هذه استطاع كربوقا بعدما أطلق رضوان سراحه من السجن الذي كان تتش قد أودعه به عقب انتصاره على أق سنقر، استطاع كربوقا تجنيد جيش من التركمان في الجزيرة، وبوساطة هذا الجيش احتل حران، ثم أخذ نصيبين من محمد بن مسلم بن قريش العقيلي، ثم احتل مدينة بلد وغرق محمد بن مسلم، وسار الى مدينة الموصل، وكانت في حوزة علي بن مسلم بن قريش العقيلي، فحاصرها حتى « عدمت الأقوات بها، وكل شيء حتى ما يوقدونه ، فلما ضاق بصاحبها علي الأمر فارقها، وسار الى الأمير صدقة بن مزيد – أمير بني أسد – بالحلة، وتسلم كربوقا البلد بعد أن حصره تسعة أشهر » وبعد هذا، وبعد ان وطد نفسه في الموصل اراد اتمام مد نفوذه على الجزيرة ،وكان حاكم جزيرة ابن عمر قد اعترف بسلطانه ، فسار الى بلدة الرحبة على الفرات فاحتلها وضمها الى مملكته الجديدة(١٧) .

إن اخفاق رضوان في أخذ دمشق للمرة الثانية لم ينه مطامعه في هذه المدينة، كما لم يوقفها« تواصل الأخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية في عالم لايحصى عدده كثرة »· ولقد قلق الناس في بلاد الشام وسواها لسماع هذه الأخبار وانزعجوا لاشتهارها، لكن رضوان كان ما يزعجه، هو أن يبقى محروما من دمشق، وكان امر المحافظة على حكمه في حلب هو الذي يشغل باله ويقلقه· ويبدو انه اراد ان يتخلص من جناح الدولة حسين وينفرد بحكم حلب،« واستشعر حسين من رضوان، واحس بتغير نيته تجاهه، فاضطر الى الهرب من حلب ليلا الى حمص ومعه زوجته أم رضوان، وهنا عول على قصد مدينة حمص لانتزاعها من جناح الدولة حسين »، ثم قصد مدينة دمشق لانتزاعها من أخيه دُقَاق، وراح رضوان يفتش عن حلفاء ، فكان أن التفت الى يغي سغان صاحب انطاكية فتصالح معه وتحالف، ثم توجه بأنظاره نحو القاهرة،

ووصلت إليه بعثة فاطمية أرسلها الأفضل أمير الجيوش ووزير مصر وصاحب الكلمة فيها، وكان مع البعثة بالاضافة الى الهدايا الكثيرة رسالة من الخليفة الفاطمي المستعلي وأخرى من الأفضل ·وتم الاتفاق بين رضوان والبعثة الفاطمية على ان يقيم رضوان الدعوة في بلاده للخليفة المستعلي والأفضل بن بدر الجمالي · وان تقوم القاهرة بارسال جيش يساعده لاسترداد حمص واحتلال دمشق · وفعلا أمر رضوان باعلان الدعوة للفاطميين وتوجه جنوبا، وعند شيزر حدثت خلافات بين امراء جيشه ، فلم يتابع سيره جنوبا بل عاد الى حلب، وبنفس الوقت ضغط عليه من قبل امراء التركمان للاقلاع عن الدعوة للفاطميين والعودة للطاعة العباسية ففعل، ولم تستمر الدعوة للفاطميين سوى أربع جمع ومن ثم قطعت ولم تعد ابدا بعد هذا (١٨) ·

ووصلت جموع الفرنجة الى انطاكية وأخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، اخفق خلالها حكام الشام والجزيرة في توحيد جهودهم، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة، وأخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة أحد كبار العساكر، عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه، وعندما دخل الصليبيون انطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين، وفر يغي سغان، وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به، ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين، وأخيرا تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة ووصلت الى انطاكية، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار، وكان من الممكن ايقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين ، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الأسوار، لكن انانية قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الفشل والهزيمة·

ويصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان، الحالة اثناء

الحصار بقوله:«أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز، ولايشرب الماء لمن معه الماء، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمانينتنا، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ٠٠٠٠ أما حامية القلعة فقد دابت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا، تاركة أيامهم مابين جريح وقتيل بسهامها، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها إلا ليلا أو خفاءا، وبذلك كنا نعاني الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف »٠

وفي ذروة المحنة هذه أدعى أحد الفرنجة واسمه بطرس أن القديس أندراوس قد تراءى له، وقال له :« إنني الحواري أندراوس، اسمع يابني: عرج على كنيسة القديس بطرس ــ القسيان ــ وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح الذي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب »، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة واتباعهم، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير« داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه، وعفا أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: ابشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى

بتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكن من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما، فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم، وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم »٠

إن في رواية ابن الأثير من أن الهزيمة قد تمت على المسلمين» ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم « مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك أن صاحب اعمال الفرنجة، وهو شاهد عيان، يذكر خلاف ذلك، فهو يقول:» بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في شتى الكنائس، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه، ثم وزعوا الصدقات، وأقاموا القداسات٠

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندر وفي الثانية دوق جودفري ورجاله ، وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة اسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص، وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه، ومنعا لهم من النزول الى المدينة، وكان في الفريق الخامس تنكريد ـ ابن المركيز ـ بصحبة رجاله، وفي الكتيبة السادسة بوهيمند الفطن مع فرسانه٠

ولما تدثر أساقفنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ، ولما

تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة.

ولما رأى كربو قاما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة في اثر الأخرى قال :» دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في ايدينا « ، الا انه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجبة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة أن يعلن الارتداد اذ شاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، اذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في اثره بنفس الخطى ، ثم انشطر الترك شطرين : اتجه احدهما ناحية البحر ، بينما اقام رجال الفريق الآخر في مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بمايبيته العدو لهم ففعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفري وكونت نرمندي، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب اخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين واحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها، ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر أن لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم ويلوذوا بالفرار. فلما تبين هؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم، وكان تقدمهم شطر معسكره، وذرع الدوق جودفري وهيج العظيم وكونت فلاندر الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس، اما نحن فقد مجدنا الاله الحي الصادق، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس، والتحمنا واياهم في القتال، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب.

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين، ومضى رجالنا في آثارهم حتى خيامهم وآثر فرسان المسيح ان يقصوهم، ورأوا أن قصهم إياهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة..وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي.....فخلى العدو وراءه خيمه وذهبه وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبيذ والطحين، وكثيرا غير ذلك مما كان يلزمنا ».

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة انطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م، واخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوبا، وكان قبل أن تسقط انطاكية ، وحتى قبل أن يصل الصليبيون إليها أن انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين أخو جودفري ـ الذي سيكون أول ملك لمملكة القدس اللاتينية ـ وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية، وأخيرا وصلت الى الرها فاحتلتها، واتخذت منها قاعدة لاحدى إمارات الصليبيين في المشرق، وكان من اسباب نجاح هذه الفئة ومن اسباب النجاح عند أنطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا يدينون بالمسيحية وكانوا إما سريانا أو من أصل ارمني(١٩) يضاف الى هذا أن سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية، مكروهة وليس لها قواعد متينة ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر، ثم إن الأرض لم تكن « بعد » أرضا تركمانية، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان.

زحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، وذلك بعد ان جعلوا انطاكية مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا اثناء زحفهم هذا ان ينتزعوا من دولة حلب الكثير من اراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية فلقد استولوا على البارة ، واتوا على معرة النعمان وعلى معظم من كان فيها من سكان ، واخذوا يجردون حلب من اراضيها واملاكها حتى وصلوا الى اسوار المدينة ، ولقد ضعف

امر رضوان في حلب كثيرا ، فاخذ يفتش عن مخرج يحتفظ به بحكمه في حلب ، وبات يبحث عن حلفاء يساعدوه في الابقاء على حكمه ، واذا امكن في الاستيلاء على بعض الاراضي التي كانت في ايدي بعض الحكام المسلمين مثل افامية وحمص ودمشق ، ولقد وجد في اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسن الصباح الحليف . ومنح رضوان اتباع هذه الدعوة ودعاتها حرية العمل والتصرف بحلب ، ولقد اغضب هذا كله اهالي حلب ، ودفعهم للعمل للتخلص من رضوان ، ولقد قاد المجن الفوعي بركات بن فارس ، رئيس حلب ومقدم احداثها الحركة ضد رضوان ، « وكان هذا المجن اولا من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطرق الذعار ، فاستتابه قسيم اق سنقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الاخرة بالفوعة (٣٠) ، ويسري الى حلب ويسرق منها شيئا ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة فاذا اتهم بالسرقة احضر من يشهد له انه صلى العشاء بالفوعة والصبح ، فيبرئونه .

واستمر على رئاسة حلب في ايام قسيم الدولة، وايام تاج الدولة ، وبعده في ايام رضوان ، وامتدت يده ، وحكم على القضاة ومن دونهم ... وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء ، واخذ الاموال وارتكاب الظلم ».

واعلن المجن الثورة على رضوان ، وتعصب معه الحلبيون وساعدوه فسيطر على مدينة حلب ، وحصر رضوان في القلعة ، وهنا « امر رضوان مناديا نادى بالقلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن بديع ، فانقلب الاحداث عنه » وخذله الحلبيون وتخاذلوا عنه ، وايد الاحداث الرئيس الجديد واعطوه ولاءهم ، وقد أضعف هذا موقف المجن فاضطر الى الاختفاء وبعد فترة القى رضوان القبض عليه وعلى اولاده ونوبه ، واودع رضوان المجن السجن ، وهناك « عذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، واراد بذلك ان يستصفي ماله ، فمما عذبه به انه احمى الطشت حتى صار كالنار ، ووضعه على راسه

ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ، وضرب فيها الرزز والحلق.

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال: ويلك لاتعرف ، احضر خشبة وضعها على الكعب فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب.

فلما فرغ قيل له: كيف تجد طعم الحديد ؟ فقال:قولوا للحديد: كيف يجد طعمي، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلا ما أقربه غلام أو جارية، وذلك شيء يسير، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله.

ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله، فأخرج الى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله.وهو ينظر إليهما ولا يتكلم.

ثم قتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين (١٠٩٨م) وسلمت رئاسة حلب الى صاعد بن بديع، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عال: يامعشر أهل حلب من كان لي عنده مال، فهو في حل منه »(٢١) .

وازدادت مع الأيام قوة الصليبيين في الشام، فتمكنوا من احتلال مدينة القدس، حيث اقترفوا مذبحة شنيعة مروعة ذهب ضحيتها سكان المدينة، ولقد ترك لنا صاحب أعمال الفرنجة وصفا لسقوط القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ م، فقال:« تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة، وماكاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها فتعقبهم رجالنا واخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى... ولما ولج حجاجنا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم... وانطلق الصليبيون في جميع انحاء

المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات.

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم. ثم سجدوا امام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساءا، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل.... وصدر الأمر.... بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم، ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم امام الأبواب ، وتعالت اكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا وما تاتى لأحد قط ان سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي الت بالشعب «المسلم».

ومع ازدياد قوة الصليبيين تقلصت قوة حكام الشام من التركمان ونقصت مساحة أراضي دولهم، كما ازدادت خلافاتهم وتأصلت فرقتهم، ففي شعبان ٤٩٣ هـ/حزيران ١١٠٠ م حقق الصليبيون انتصارا كبيرا على رضوان بن تتش وعسكر حلب» فقتلوا خلقا من الناس واسروا خلقا »، وفي هذا الوقت كان دقاق بن تتش وعساكره يحاربون في الجزيرة وطبعا ليس ضد الفرنجة، إنما ضد التركمان حكام الرحبة وديار بكر وميارفارقين، واحتل دقاق ميافارقين ثم رتب فيها من ينوب عنه وعاد الى دمشق.

ولم ينس رضوان ما حل به حمص ، ولم تمت مطامعه فيها ، فدبر مع مقدم الاسماعيلية اتباع الدعوة الجديدة (أو الحشيشية كما دعاهم اهل الشام) في حلب، أمر اغتيال جناح الدولة حسين، وفي رجب سنة ٤٩٦ هـ/مايس سنة ١١٠٣ م وثب قوم من الباطنية كانوا في زي الصوفية عليه فأردوه قتيلا في جامع حمص عندما وقف ليؤدي صلاة الجمعة، ولم يحصل رضوان من هذا الاغتيال على حمص، فقد راسل الذين تسلموا زمام الأمور بها بعد الاغتيال دقاق صاحب دمشق فأسرع بالمجيء إليها » وتسلمها، واحسن الى أولاد

جناح الدولة، وسار بهم الى دمشق، فأقر عليهم اقطاع ابيهم "٠

ويبدو أن عملية اغتيال جناح الدولة شجعت طغتكين اتابك دمشق للتخلص من دقاق، ولقد تولت أم دقاق - زوج طغتكين - مهمة التخلص من ابنها، فزينت " له جارية، فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ثقبته بابرة فيها خيط مسموم "، وكان هذا في العام الذي تلا عام اغتيال جناح الدولة(٢٢) .

وفي العام الذي تلا وفاة دقاق - اي ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٥ م أوقع الصليبيون برضوان بن تتش وأهالي حلب هزيمة كبيرة جديدة قرب ارتاح - وهو حصن كان يقع قرب حلب - ، ولقد قتل من المسلمين في هذه المعركة " مقدار ثلاثة الاف ما بين فارس وراجل، وهرب من بارتاح من المسلمين، وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل اهله، ونهب من نهب، وسبي من سبي، واضطربت أحوال حلب ...وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون» وجرد الفرنجة حلب من معظم املاكها الى درجة انه« لم يبق في يد الملك رضوان من الاعمال القبلية إلا حماه، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية وهي غير أمنة "٠

وضاق الأمر بأهل حلب «فمضى بعضهم (في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م) الى بغداد واستغاثوا في ايام الجمع، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج، وكسروا بعض المنابر فجهز السلطان محمد بن ملك شاه (الذي خلف بركياروق)مودود صاحب الموصل، وأحمديل الكردي، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة، ومات سكمان قبل وصوله الى حلب، ووصلت العساكر الى حلب، فأغلق رضوان ابواب حلب في وجوههم، وأخذ الى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور، ومنع الحلبيين من الصعود إليه،٠٠٠ وبقيت ابواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة، وأقام الناس ثلاث ليال لايجدون ما يقتاتونه، وكثرت اللصوص

وخاف الأعيان على انفسهم، وساء تدبير الملك رضوان، فانطلق العوام السنتهم بسببه وتعييبه، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد، وترك الركوب بينهم، وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر ـ أي عساكر مودود واصحابه ـ فيأخذونه »·

واضطر مودود واصحابه الى الرحيل جنوبا، وقرب شيزر انتصروا على فئة من الصليبيين، وقام تحالف بين مودود وطغتكين اتابك دمشق لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ / ١٥ تشرين الأول ١١١٣ م، وكان مغتاله من الحشيشية، ولاندري مدى حصة رضوان في الاعداد لهذا الاغتيال، ومهما يكن الحال فان رضوانا لم ينعم بالحياة طويلا بعده حيث توفي هو الآخر في كانون الأول من السنة نفسها ـ ١١١٣ م·

ولقد« كان الملك رضوان بخيلا شحيحا يحب المال، ولاتسمح نفسه باخراجه، حتى ان امراءه وكتابه كانوا ينبزونه بأبي حبه، وذلك هو الذي اضعف امره وافسد حاله مع الفرنج والباطنية، وجدد في حلب مكوسا وضرائب لم تكن »· وعندما توفي رضوان ترك شمالي بلاد الشام في حالة لاتحسد عليها، ولقد خلفه في حكم حلب ابنه ألب ارسلان، وكان الب ارسلان هذا صبيا في التاسعة عشر من عمره « الثغا لايحسن الكلام، فدعي بالاخرس لذلك، وكان مهورا قليل العقل سفاكا للدم منهمكا في المعاصي ».

ولقد افتتح حكمه بقتل اثنين من اولاد ابيه، وتدهورت أحوال حلب في زمنه كثيرا، ولقد سبب حمقه انفضاض من بقي من الناس من حوله ، وفي زيادة الدمار في شمالي الشام، وخاف رجال الحكم في حلب على انفسهم منه، فدبروا اغتياله، وكان ذلك بعد سنة من وفاة والده رضوان(٢٣) وبمقتله طويت آخر صفحات حكم أسرة تتش في الشام، ولقد كانت صفحات قاتمة ليس فيها إلا الدمار والقتل·

وفي ساعات الظلام الدامس هذه التي كانت مخيمة على الشام،

كانت هناك تبـــاشير للنور أخـــذت تلوح مشرقـــة مـــن المشرق حيث الموصل، ومن الموصل أخذ النور يزداد حتى عم الشام كله ثم انتقـــل الى مصر • إن هذا سيكون موضوع مجلدات قادمة تلي هـــذا المجلد إن شاء الله•

ملاحق الكتاب

أبو محمود القائد الكتامي

(من المقفى المقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

ابراهيم بن جعفر بن فلاح بن مروان ، أبو محمود القائد الكتامي ، قدم الى القاهرة مع أبيه جعفر بن فلاح ، ومازال بها الى ان قتل أبوه بدمشق في سنة ستين وثلاثمائة عند محاربة القرامطة ، وقدم القرامطة بعد قتله الى القاهرة وأخرج اليهم المعز ابنه عبد الله فقاتلهم وانهزموا ، فأحب المعز أن يبعث في أثارهم من يأخذهم فوقع اختياره على أبي محمود ابن فلاح ، فجهزه .

وسار لخمس بقين من شعبان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من القاهرة على عسكر بلغت عدتهم عشرين الفا . فسار الى الشام وظفر في طريقه بجماعة من أصحاب القرامطة بعثهم الى القاهرة.

ودخل الرملة فاستأمن اليه جماعة من عسكر القرامطة وملكها بغير قتال وسار يريد دمشق وقد سار عنها الحسن بن أحمد القرمطي واستخلف عليها أبا المنجى في طائفة من الجند. فنزل أبو محمود أذرعات. وسار ظالم بن مرهوب من بعلبك بمكاتبة المعز له الى دمشق. فلما نزل عقبة دمر خرج أبو المنجى الى الميدان ليقاتله ، وهو في الفي رجل . فبعث اليه ظالم يخادعه ويقول :« إنما جئت مستأمنا اليكم ». فسار عدة من جند أبي المنجى الى ظالم فقوي بهم واقبل الى ابي المنجى واحاط به فلم يمكنه الهرب . فأخذه وابنه ، وصار عسكره كله مع ظالم ، فملك دمشق يوم السبت لعشر خلون من شهر رمضان ، وقبض على جماعة من اصحاب ابي المنجى وأخذ اموالهم ، وطلب ابا بكر محمد بن أحمد بن سهل النابلسي حتى ظفر به.

ونزل أبو محمود على دمشق يوم الثلاثاء لثمان بقين منه فأنس به ظالم وأكرمه وخرج اليه وأسلمه ابا المنجى وابنه وابن النابلسي ،

فعملهم ابو محمود في اقفاص من خشب وجهزهم الى القاهرة.

وامتدت ايدي أصحاب ابي محمود يأخذون من يلقونه في الطرق وينهبون القرى ويأخذون القوافل ، ولايقدر ابو محمود على ردهم.

وصار ظالم في المدينة يأخذ اموال السلطان ولايدفع لأبي محمود شيئا ويرى انه صاحب البلد ، هذا وقد كثر في البلد حمال السلاح من الغوغاء ، وقتلوا اصحاب المشايخ ، فامتنع الناس من الذهاب والمجيء ، وفر أهل القرى الى المدينة وخلت ظواهر دمشق.

فلما كان يوم الخميس النصف من شوال نزل أصحاب ابي محمود لنهب القصارين عند الميدان ، فوقع الصارخ في المدينة وخرج الناس بالسلاح ، وفيهم أصحاب ظالم فاقتتلوا ثم افترقوا ، وكثر بعد ذلك حمال السلاح في البلد.

وقدمت قافلة من حوران على طريق الحرجلة فأخذها اصحاب ابي محمود وقتلوا ثلاثة ممن كان فيها ، فحملهم اصحابهم وطرحوهم بالجامع داخل المدينة ، فاجتمع عليهم الناس وغلقت الحوانيت وخلت الأسواق ، واجتمع العالم وضرب اصحاب ابي محمود قرية حجيرا (١) فدخل أهلها الجامع وهم يصيحون ، واستمر الخوف الى يوم الاثنين سابع عشر ذي القعدة فوقع الصوت في البلد: النفير ! فلبس الناس السلاح وخرج أصحاب ظالم معهم ، فقاتلوا اصحاب ابي محمود يومهم الى الليل ، ثم اصبحوا يوم الثلاثاء فاقتتلوا الى الليل ، واصبحوا يوم الاربعاء فاقتتلوا الى العصر ، ووقع الحريق فانهزم اهل البلد وقتل منهم كثير . فخرج ظالم من دار الامارة ، ولم يكن خرج في هذه الحروب ، وانما يبعث أصحابه ويظهر انه انما يريد الدفع عن البلد ولايحب القتال ولا الخلاف ، وهو مداهن في ذلك . فلما رأى أهل دمشق منهزمين والمغاربة خلفهم ، وقد ازدحم أصحابه في الجسر حمل ، ومعه طائفة ، على أوائل المغاربة حتى ردعهم عن الرعية . ثم تكاثر المغاربة عليه فعبر الجسر ، وأخذ المنهزمون نحو البيوت فأدركهم المغاربة وقتلوا منهم كثيرا . فضج الناس بالنفير من المآذن والاسطحة ، وكثر الرمي

بالنشاب من الأسطحة ، فأحرق المغاربة الفراديس ، وكان بناء حسنا فشعت النار وأتلفت شيئا كثيرا ، وانهزم ظالم وسار الى بعلبك . وجن الليل ، وبات الناس خامدين فزعين لما يأتيهم من الغد، وتمكنت النار تلك الليلة وأحرقت ما شاء الله ، وتصاعد لها السنة وشرار عظيم وصارت كأنها فرس يجري.

واصبح الصبح وقد احترق قصر عاتكة وقصر حجاج وما هنالك فلم يبق له أثر . هذا والناس طول ليلهم يعارضون الخشب في الأسواق ويضيقون الدروب ويحفرون الخنادق في الطرق خوفا من دخول الخيل والرجالة الى المدينة ، وعملوا على أنهم يقاتلون على أبواب البلد وبات المغاربة فرحين بأخذ البلد.

فلما أصبحوا اقبلوا الى المدينة فخارت قوى كثير من الناس لما داخلهم من الفزع ، وتحيروا . فعندما اقبل المغاربة وقع النداء بالنفير ، وخرج أهل دمشق فاقتتل الفريقان مليا.

ثم أن مشايخ البلد ساروا الى أبي محمود وهو نازل بالميدان يسألونه الرفق ، وقد تبعهم خلق كثير . فلما دخلوا عليه لطفوا به وداروه وضرعوا اليه ، فقال : ما نزلت لقتالكم ، وانما نزلت لأرد هؤلاء الكلاب عنكم – يعني أصحابه – وما أنا ممن يقاتل رعية.

فاستبشر الناس واختلطوا بأصحابه وانتشر قوله في البلد فزال الخوف ، ودخل المغاربة الى المدينة في ما يحتاجون اليه. وولى أبو محمود الشرطة لرجل يقال له حمزة من المغاربة ولابن كشمرد من الاخشيدية فدخلا البلد في جمع عظيم وطافا بالمزاهر والزمر وجلسا في الشرطة ، وصارت رجالهما تطوف المدينة في الليل في عدة وافرة .

هذا وحمال السلاح ممن يطلب الفتنة لم يكفوا فكان الطوف يجد دروبا قد ضيقت لايمكنه أن يدخل فيها . فشكا صاحب الشرطة ذلك الى أبي محمود وقال : إن القوم على ماكانوا عليه من العصيان ، واشدهم قوم في باب الصغير .

فقال بعض من حضر عند أبي محمود من أهل دمشق :انما كان الأمر والنهي للرعية – وأهل هذا البلد قد غلبوا عليه.

وكثر الكلام في هذا فعظم ذلك على أبي محمود واضطرب . فلما حضر مشايخ البلد اشتد عليهم وهددهم وقال :« انتم مقيمون على العصيان »، فاعتذروا بأن سد باب الصغير وغيره انما كان خشية من أن يدخل منه من لايعلم به القائد من أصحابه ممن يطلب الفتن فتثور جهال الناس ، فاقسم أبو محمود لئن لم يفتح هذا الباب ليركبن اليه وليحرقنه وليقتلن من فيه . فقال الشيوخ : نعم ، نفعل مايقول القائد.

واجلهم ثلاثا فخرجوا من عنده حائرين لايدرون كيف يسوسون جهال الناس ، ولاما يعملون في أمر السلطان . واتوا الى باب الصغير وقد اجتمع أهل الشر فيهم ابن الماورد ، راس الشطار ، فبلغهم الشيوخ ما قال أبو محمود فكثر اختلافهم . ثم إنهم فتحوا الباب من وقتهم.

واتفق أن بعض المغاربة في هذا اليوم جرى بينه وبين بعض أهل الشر من الدمشقيين نزاع في صبي أراد المغربي أن يغلب عليه ، فرفع الدمشقي السيف وقتل المغربي في السوق . فاضطرب البلد وغلقت الأسواق وثار العسكر ، فسد أهل البلد باب الصغير ، واشتد حنق أبي محمود ، وفرق السلاح على أصحابه في الليل ، وأصبح العسكر يريد باب الصغير ، فصاح النفير في البلد وكبر الناس على الأسطحة فطرح العسكر النار في الدور التي خارج المدينة . وخرج ابن الماورد في جماعته ومعه سوقة ونظارة أكثرهم بمقاليع ، ودار المستنفرون في أزقة المدينة ينفرون الناس للقتال ، فأقبلوا افواجا الى باب الصغير والقتال قد حمي بين الفريقين.

ونزل أبو محمود في محراب المصلى واضطجع لوجع كان به في باطنه وهو يتأوه ، فكانت في هذا اليوم عدة وقائع آلت الى انهزام أهل البلد ، وطمع المغاربة في أخذها ، فضج الناس بالنفير من الاسطحة والمآذن ، وعلا صياح الرجال والنساء والصبيان ، وكثر الحريق ، واشتد الرمي على المغاربة من فوق الدروب بالنشاب والحجارة . فردوا عن دخول البلد . وخرج مشايخ البلد من باب

الجابية وفيهم ابن أبي هشام وأبو القاسم احمد بن الحسين العقيقي العلوي ـ وكان أبو محمود يجله ويعظمه ـ فتوجهوا الى أبي محمود وقالوا له : « الله ! الله ، أيها القائد في الحرم والأطفال ومازالوا به حتى رد العسكر عن المدينة بعدما أشرفوا على اخذها»
وصرف العقيقي من كان من الرعية يريد أن يقاتل ، وسار أبو محمود بعسكره الى حيث كان ينزل ، وذلك في آخر ذي الحجة (٣٦٣ هـ) فصلح الأمر وسكن الشر.

وخرج الناس الى أبي محمود ودخل أصحاب الشرط المدينة ، الا انه كان قد فر من الغوطة خلق كثير الى المدينة ، وفيهم طائفة ذعار وطماع صاروا مع أهل الشر من أهل المدينة ، وفيهم طائفة يقال لها الهياجنة (٢). من قرى المرج ، لايعرفون سوى الفساد ، فصار هؤلاء يأكلون أهل السلامة والمستضعفين والذمة ، ويجبون مستغلات الأسواق ويكبسون المواضع فينهبون ما فيها . فأكلوا بذلك ولبسوا وحسنت أحوالهم ، وصاروا يكرهون أن يتمكن السلطان لئلا يزول ما هم فيه ، فهلك كثير من الناس بين العسكر وبين أهل الشر.

فلما كان في بعض الليالي مر صاحب الشرطة على عادته فاذا بصبي صباغ معه سيف فأخذه وقتله ، فخشي اهل الشر أن تمتد يد السلطان فيهم فينفيهم ، فثاروا عند الصباح بصاحب الشرطة ، ففر بمن معه الى أبي محمود واقبلت الهياجنة الى الخضراء (٣). وجمعوا البواري والقصب وقالوا : « هذه البواري والقصب أراد المغاربة أن يجعلوها في بطائن الجامع ليحرقوه ». وقال أهل الشر لجهال العامة : « اصعدوا المآذن ونادوا الذفير الى الجامع !». ففعلوا ذلك وثار الناس بالسلاح الى الجامع ، فلم يروا غير بواري وقصب مطروحة في الخضراء ، وركب العسكر وطرحوا النار في كل موضع بقي فيه عمارة واقتتلوا على الابواب ، فكان يوما عظيما شره من شدة القتال وقوة الحريق . فاشتد الخوف على البلد ، وعلا الضجيج الى ان اظلم الليل ، وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة اربع وستين وثلاثمائة.

واصبحوا على ذلك . فظهر في أهل الشر غلام يقال له « ابن شرارة » قد تراس وصار له قدمة في الشنيرة (٤) والقتال فاخذ جهة من البلد يقاتل عليها ووقف على باب الجابية عبيد الحوراني في جماعة ، وعلى باب الفراديس ابن بزيزات وابن المغنية وقسام ، وكل جر من هؤلاء باعلام وأبواق . فاستمر القتال في أكثر المحرم وفني فيه خلائق الى أن خرج المشايخ الى ابي محمود وشكوا اليه ما الناس فيه ، وأنه لم يهلك الا أهل الستر والمستضعفون . وكان قد علم ذلك وأن الفساد انما هو من أهل الشر فقط ، فأجابهم ووقع الصلح ، وصرف حمزة المغربي وابن كشمرد الاخشيدي عن الشرطة ، وولى رجلا من بانياس كان اميرا على التركمان يقال له « أبو الثريا » على الشرطة وذلك لأول من صفر فعبر من باب الصغير ، ومعه رجالة من الاكراد ، وقد كمن له ابن الماورد أحد الشطار فثار به وخرج عليه فقتل من اصحاب ابي الثريا عدة ، وانهزم فيمن بقي معه الى ابي محمود ، وقد انتشر الناس حول البلد بمعايشهم وضروراتهم.

فركب العسكر واخذوا الطرق واتوا على كثير ممن ظفروا به ليقتلوهم ووقع النفير في البلد ، فخرج الناس واشتد القتال مدة صفر وشهر ربيع الأول الى أن بقي من شهر ربيع الآخر ليال فوقع الصلح وولى أبو محمود ابن أخيه جيش بن الصمصامة البلاد ، ونزل في قصر الثقفيين وانصلح الحال أياما الى أن عبر بعض المغاربة من الفراديس فعاثوا هناك فثار الناس بهم وقتلوا من لحقوا منهم وعادوا الى قصر الثقفيين ففر جيش بمن معه فنهبوا ما كان معهم ، وصار جيش الى ابي محمود ، وأركب معه العسكر وزحف على المدينة بالنفأطين فأحرق مواضع حتى لم يبق لها أثر ، وقصد اهل الشر ، وكانوا في موضع بالمدينة يعرف بسقيفة جناح بالقرب من باب كيسان ، فقاتل هناك الى باب شرقي قتالا شديدا من أول جمادى الأولى في كل يوم من بكرة النهار الى آخره ويبيت العسكر حول المدينة يطلبون الغفلة فيقع النفير من البلد الى تلك الجهة حتى تحمى فاذا أصبحوا عاودوا القتال .

فتعب أهل المدينة بحصار العسكر من باب الى بـاب ، والقصـد انما هو باب كيسان ، فتارة يكون للعسكر وتارة يكون لأهـل البلد ، ولايكل أحد من الفريقين ، وقتل خلق كثير ومـات في البلد مـن دواب أهل الغوطة التي دخلوا بها سشيء كثير ، وصار العسكر يتخطف من يظفر به من أهل الغوطة ويقتلونه فخربت الغوطة .

ودخلت القرى حتى إن العسكر كان يجول بها فـلا يجـد أحدا . فصاروا يحرقون الابواب ويأخذون المسـامير والحصر ، ولايقعـون على احد الا قـطعوا راسـه .ومنع الواصـل الى المدينة فغلت بهـا الأسعار ، وبطل البيع والشراء ، وانقطع الماء عن البلد فعدمت القنى والحمامات ، وصار الانسان اذا مر بمدينة دمشق لايجد غير أسواق مغلقة ونساء جلوس على الطرقات وقوم يصيحون : النفير !.

فانتهك في هذه الفتنة اكثر الناس وساءت احـوالهم ومـاتوا على الطرق من الضر والبرد ، والقتال لايزداد الا شدة طول الليل والنهار الى أن اجهد الناس البلاء وقوي على أهـل البلد أشرارهـم واكلوا اموال اهل السلامة . فقالوا : نخرج الى هذا السـلطان وندخله الى المدينة يفعل فيها ما يشاء ونستريح مما نحن فيه!.

ففتح اهل التوراة توراتهم وأهل الانجيل انجيلهم وصـاروا الى المسلمين ففتحوا القرآن ، واجتمع الكل في الجامع وضجوا بـالدعاء واستغاثوا الى الله يطلبون الفرج ، وداروا المدينة وهي منشورة على رؤوسهم . فتجمع الشيوخ والأشراف وراسلوا أبا محمود في الصلح وخرج اليه خلق كثير من الرعية وداروا حـول فـرسه وقـالوا له : ادخل أيها القـائد ، ونحـن بين يديك ، والبلد لك ، افعـل فيه مـا اخترت!.

فأحسن في القول وجامل في الرد . فـاستبشر الناس واجتمعوا في الجامع ، واحضروا ابـن الماورد وابـن شرارة واكابـر أهـل الشر والزموهم بالكف عن معارضة السـلطان في البلد ، وانهـم يلزمـون بيوتهم . فأذعنوا لذلك وانصرفوا ، الا رجل من أهل الشر فانه شمخ وطلب الفتنة فأخذه أهل البلد وقتلوه فانكف أهل الشر .

وكانت الأخبار ترد على المعز بما يجري على اهل دمشق من خراب البلاد وكثرة القتل وطول الحصار ، وأن العسكر لاينضبط لأبي محمود . فكتب الى ظالم وهو ببعلبك يستجيد رايه ويوبخ أبا محمود وكتب الى ريان الخادم والي طرابلس في النصف من شعبان سنة أربع وستين وثلاثمائة أن يسير الى دمشق وينظر في أمر الرعية ويصرف أبا محمود عن دمشق.

فسار ريان من طرابلس الى دمشق ، وأمر ابا محمود ان يرحل الى الرملة ، فسار عنها في عدد قليل وبقي العسكر مع ريان . فنزل أبو محمود طبرية .

فلما قدم هفتكين الشرابي من بغداد الى دمشق وملكها من ريان ونزل عليه متملك الروم خرج اليه . وبلغ ذلك ابا محمود فجهز جيش ابن الصمصامة من طبرية في الفي رجل الى دمشق . فلما وصل البثنية وجد شبل بن معروف العقيلي نازلا عليها في عربه ، فاقتتلا ساعة وكانت الكرة فيها على جيش فأخذ اسيرا وقتل أصحابه ، وبعث شبل بجيش الى هفتكين فسلمه الى متملك الروم وهو مقيم على عين الجر ينتظر المال الذي طلبه من أهل دمشق ، فلما أخذ المال ورحل من دمشق الى بيروت بعث هفتكين شبل بن معروف الى طبرية ، ففر أبو محمود الى الرملة بمن معه من المغاربة فقصدهم العرب وواقعوهم نحو بيت المقدس ، فكانت العرب على المغاربة وقتلوا منهم كثيرا وأسروا جماعة وبعثوهم الى دمشق ، فطوفوهم على الجمال وضربوا أعناقهم.

وأقام أبو محمود بالرملة الى أن قدم القرامطة الى دمشق ، ثم ساروا منها الى الرملة ، ففر أبو محمود الى يافا وتحصن بها فنازله القرامطة وقاتلوه حتى كل الفريقان من القتال وصار يحدث بعضهم بعضا.

ومات المعز وهم على ذلك ، وقام من بعده ابنه العزيز بالله نزار في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة ، فبعث جوهرا القائد الى الشام فانهزم القرامطة من طريقه وساروا الى الاحساء.

ونزل جوهر على دمشق في ذي القعدة ومعه أبـو محمـود وقـاتل هفتكين الى أن رحل عنها بغير طائل في جمادى الاولى سـنة سـت وستين . فأدركه القرامطة وهفتكين فقاتلوه بالرملة حتى التجـأ الى عسقلان . وخرج العزيز من القاهرة ونزل الرملة وأخذ هفتكين وولى دمشق حميدان بن حواس العقيلي ، وكان قد غلب عليها قسام فصار حميدان من تحت يد قسام ثم طرده وأخرجه مـن البلد ، فـولى أبـو محمود بعد حميدان وصار اليها في نفر يسير ، وبقي تحت قسام من غير أن يكون له امر ونهي .

فقدم أبو تغلب عبد الله بن حمدان الى دمشق فمنعه قسام منهـا وأقام على المزة شهورا ، وقد ثقل على قسام مقامه فقاتله وأخذ عدة من أصحابه ، وكتب الى العزيز بذلك ، فأخرج الفضل بن صالح الى الشام وقاتل ابا تغلب حتى قتل في صفر سنة تسع وستين .

ثم أنفذ العزيز الى دمشق سليمان بن جعفر بن فلاح فمنعه قسام وكتب الى العزيز يسأله في دمشق فكتب الى سـليمان بـن فـلاح أن يرحل عن دمشق ، فرحل . ورجع أبو محمود الى دمشق بعد مسـير أخيه سليمان في رسم وال من طبرية ومعه نفر يسير فأقام تحت مذلة قسام ، وقد طمع العرب في عمل دمشق حتى كانت مـواشيهم تـدخل الغوطة .

ومات أبو محمود على ذلك بدمشق في صفر سنة سبعين وثلاثمائة ولم يكن فيه تدبير ولا عنده ثبات ، بل كان عديم السياسة قليل العقل.

أبو نصر التستري

(من المقفى للمقريزي - مجلدة برتو باشا)

ولي ابراهيم بن الفضل بن سهل التستري اليهودي: خزانة الخاص بعد أخيه ابي سعد بسهل التستري في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين واربعمائة

وأرادته أم المستنصر أن يتولى نظر ديوانها مكان أخيه فامتنع من ذلك خوفا من الوزير ومن الأتراك ، وهي تريد منه ذلك مدة ثلاثة أشهر ، ولايوافقها ، حتى ضجرت منه وأقامت اليازوري بواسطة الاستاذ عدة الدولة رفق.

فلما كانت سنة أربعين وأربعمائة سهل شجاع الدولة جعفر بن كليد وغيره على الوزير ابي البركات الحسين بن محمد الجرجرائي أمر حلب وانه اذا سير عسكرا من مصر أخذت. فكتب الى ناصر الدولة الحسن بن حمدان متولي دمشق ، والى الكلابيين وغيرهم ، والى جعفر بن كليد بالمسير ، فساروا الى المعرة ، وتسلمها جعفر ، ومضى ابن حمدان الى حلب فقاتلوه وانهزم الى دمشق.

فبعث ثمال بن صالح بن مرداس يطلب من الخليفة المستنصر العفو ، وانه يقوم بما عليه من الحمل . فتوسط امره ابو نصر هذا ، الى ان اجيب بالصفح والرضى عنه . وخرج رسوله بذلك من القاهرة فورد الخبر بان ثمال بن صالح بعث مقلد بن كامل بن مرداس فاوقع بجعفر بن كليد وقتله في يوم الاربعاء لست بقين من شهر رمضان ، وحمل راسه الى حلب وشهرها ، واسر عدة من عسكره . فاعيد رسول ثمال واخذت منه الكتب . واغرى الوزير ابو البركات الخليفة بابي نصر وانه يسعى فيما يضر الدولة ويعود عليها بالوضيعة من توسطه في امر ثمال لما في نفسه من الحقد لقتل اخيه ابي سعد . ومازال بالخليفة حتى قبض على ابي نصر وسجنه واخذ سائر

امواله وعاقبه حتى هلك تحت العقوبة في اخر سنة اربعين واربعمائة

أحمد شاه

(من بغية الطلب لابن العديم)

احمد شاه التركي مقدم الاتراك بحلب ، وقيل انه شيباني ، كان يسكن مع الاتراك بالحاضر السليماني ، وكان مطاعا مذكور شجاعا له مواقف حسنة مع الفرنج (ه) . وهو الذي استعاد منبج من ايدي الروم سنة ثمان وستين ، وبعد ان كان ميخائيل بن اخت ارمانوس الرومي استولى عليها في ثامن محرم سنة ستين واربعمائة ، ففتحها احمد شاه ، وصاحب حلب اذ ذاك نصر بن محمود في يوم الاحد لخمس خلون من صفر سنة ثمان وستين واربعمائة .

ولما افضى الامر بحلب الى نصر بن محمود بن نصر بن صالح قبض على احمد شاه واعتقله بقلعة حلب في عيد الفطر من سنة ثمان وستين واربعمائة وشرب نصر الى العصر ، وحمله السكر على الخروج الى الاتراك الى الحاضر بظاهر حلب ، فحمل عليهم ، فرماه تركي بسهم فقتله ، وزحف الاتراك الى البلد يطلبون احمد شاه وكان والي القلعة (١٦٥ ــ ظ) ورد وعنده الامير ابو الحسن بن منقذ وجماعة من الخواص ، فلما احسوا بذلك استدعوا بسابق بن محمود من البلد الى القلعة ونادوا بشعاره واشاروا عليه باطلاق احمد شاه فأطلقه في الحال وخلع عليه .

ونزل احمد شاه الى العسكر بالحاضر فسكن النائرة واخمد الفتنة ، فكان سابق بن محمود بعد ذلك يعين الاتراك ويقربهم ويحسن اليهم ويقدمهم على اهله بني كلاب وينصرهم عليهم .

قرأت بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين : استولى على البلد ــ يعني حلب ــ احمد شاه التركي وفي كفالته سابق بن محمود بن نصر .

وقرأت بخط منصور بن تميم بن الزنكل السرميني : انه لما ملك

سابق اجتمعت بنو كلاب الى اخيه وثاب وعولوا على معونته عليه واخذ حلب له من اخيه سابق ، فلما تحقق سابق ذلك استدعى احمد شاه امير الاتراك - وكانوا الف فارس - وشاوروه ، فانفذ احمد شاه الى رجل من الاتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، وضمن له مالا كثيرا ، فوصله محمد بن دملاج في يوم الاربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان وستين وتحالفوا ، وخرجوا الى بني كلاب المجتمعين مع وثاب في غداة يوم الخميس مستهل ذي الحجة من سنة ثمان وستين واربعمائة ، وكان بنو كلاب في جمع عظيم ماجتمعوا قط في مثله ، يقال انهم كانوا يقاربون سبعين الف فارس (١٦٦ - و) وراجل فعند معاينتهم الاتراك انهزموا من غير قتال ، وخلفوا حللهم وكل ماكانوا يملكونه واهاليهم واولادهم ، فغنم احمد شاه واصحابه ومحمد بن دملاج واصحابه كل ماكان لبني كلاب ، فيقال انهم اخذوا لهم مائة الف جمل واربعمائة الف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة ومن إمائهم اكثر ، وكل ماكان في بيوتهم ، وعفوا عن قتل عبيدهم المقاتلة ، وكانوا يزيدون على عشرة الاف عبد مقاتل ، ولم يقتلوا احدا منهم ، وكان الذي غنمه الغز من العرب في ذلك اليوم مالا يحصى كثرة .

وبعد انهزام العرب بثلاثة عشر يوما دعا محمد بن دملاج التركي احمد شاه فخرج اليه ، وكان نازلا شمالي حلب ، فلما اكلوا وشربوا قبض محمد بن دملاج على احمد شاه واسره ، وكان في نفر قليل ، فاقام في اسره تسعة ايام ، ثم ان سابق بن محمود اشترى احمد شاه من محمد بن دملاج بعشرة الاف دينار وعشرين فرسا يوم السبت .

ووجدت بعض التواريخ يقول جامعة فيه : سنة سبعين واربعمائة : فيها حصر تاج الدولة تتش حلب ورحل عنها وعاد اليها ، وخرج منها احمد شاه وكبس العسكر وعاد .

ثم قال : سنة احدى وسبعين واربعمائة : قتل احمد شاه .

وذكر ابو يعلي حمزة بن اسد بن القلانسي قال في حوادث سنة إحدى وسبعين واربعمائة : وفي هذه السنة قتل احمد شاه مقدم الاتــراك في الشام (٦) (١٦٦ ــ ظ).

المستعلي الفاطمي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلة برتو باشا)

احمد بن معد بن علي بن منصور بن نزار بن معد بن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله ، الامام المستعلي بالله ، امير المؤمنين ، ابو القاسم ، ابن الامام امير المؤمنين المستنصر بالله ابي تميم ، ابن الامام امير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن ،ابن الامام امير المؤمنين الحاكم بامر الله ابي علي ، ابن الامام امير المؤمنين ابي منصور العزيز بالله نزار ، ابن الامام امير المؤمنين المعز لدين الله ابي تميم ، ابن الامام امير المؤمنين ابي الطاهر المنصور بنصر الله اسماعيل،ابن الامام امير المؤمنين القائم بامر الله ابي القاسم محمد ، ابن الامام امير المؤمنين المهدي ابي محمد .

ولد في ثامن محرم ـ وقيل : في عشرين محرم ـ سنة ثمان وستين واربعمائة ، وبويع بالخلافة بعد موت ابيه في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين واربعمائة .

وذلك ان الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش بدر الجمالي ، سلطان مصر ، لما بلغه موت المستنصر ، بدر الى القصر واجلسه ولقبه بالمستعلي بالله ، واستدعى اخوته ، الامير نزار ، واسماعيل ، وعبد الله ، ليبايعوه ، فانفوا من ذلك لصغر سنه ، فقال لهم الافضل : قبلوا الارض لله تعالى ولمولانا الامام المستعلي بالله وبايعوه ، فهو الذي نص عليه مولانا الامام المستنصر قبل وفاته ، بالخلافة من بعده

فامتنعوا وادعى كل منهم ان اباه وعده بالخلافة . وقال نزار : لو قطعت ما بايعت من هو اصغر سنا مني ، وخط والدي عندي باني ولي عهده ، وانا احضره .

وخرج مسرعا لياتي بالخط ، فمضى من حيث لم يشعر بـه احـد الى الاسكندرية ، كما هو مذكور في ترجمته .

ويقال ان الافضل قرر مع اخت المستنصر ان تقول بان المستنصر نص في مرضه على خلافة ابنه ابي القاسم . ووعدهـا بـانها تـكفله ويكون الامر لها في الباطن ، وللافضل في الظاهر ، فاجابت الى ذلك ، وشهد عليها اربعة من الاستاذين المحنكين عند قاضي القضاة وداعي الدعاة .

واجلسه على سرير الخلافة واخذ البيعـة له على مقـدمي الدولة ورؤسائها واعيانها . ثم مضى الطلب الى اسماعيل وعبد الله ، وهما في المسجد قد وكل بهما ، فقال لهما : ان البيعة تمت لمولانا المستعلي بالله ، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما : تبايعاني ام لا ؟

فقالا : السمع والطاعة ! ان الله اختاره علينا .

وقاما وبايعاه . وكتب بذلك سجلا ، قراه على رؤوس الاشهاد من الامراء وغيرهم الشريف سناء الملك محمـد بـن محمـد الحسـيني الكاتب بديوان الانشاء .

وقال الاديب حظي الدولة ابو المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي في ذلك :

ان كان قد اودى معد فانظروا
المستعلي العالي ابنه وتبصروا

تجدوا الامام ابا تميم نيرا
ما غاب حتى لاح منه نير

وكذا الامامة كالحديقة لم يزل
غصن بها يذوي وغصن يثمر

واقام المستعلي في الخلافة، ليس له مع الافضل امر ولانهي ، انما يخطب له على المنابر وينقش اسمه على السـكة ، وسـائر الامـور مرجعها الى الافضل .

وفي خلافته خرج الفرنج من القسطنطينية ، وملكوا كثيرا من بلاد الساحل ، واستولوا على القدس في ثاني عشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين واربعمائة ، وملكوا الرملة ، وحصروا عسقلان ، ثم ملكوا حيفا وارسوف وقيسارية ويافا في سنة اربع وتسعين ، مع ما بايديهم من اعمال الاردن وفلسطين .

وتوفي ليلة الثلاثاء سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين واربعمائة ، فكانت مدة خلافته سبع سنين وشهرين إلا يومين . ولم تكن له سيرة تذكر لاستيلاء الافضل على الامر .

وترك ثلاثة اولاد ، هم : الامير جعفر ، والامير عبد الصمد ، وابوعلي المنصور .

وقضاته : المؤيد بنصر الامام ابو الحسن علي بن يوسف بن نافع بن الكحال . ثم اعيد فخر الاحكام ابو الفضل محمد بن عبد الحاكم بن وهيب المليجي ، ثم بعده ابو الطاهر محمد بن رجاء . فلما مات في سنة ثلاث وتسعين ، ولي ابو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي ومات المستعلي وهو قاض .

وكان المستعلي قد تزوج بابنة أمير الجيوش بدر ، التي يقال لها « ست الملك » . واعتنى ابوها بجهازها وأكثر من تعبئة الجواهر لها . فلما مات تناهب اخوتها ذلك الجوهر .

ويقال انه مات مسموما . وقيل : قتل سرا ، واتهم الافضل بذلك . واقيم بعده في الخلافة ابنه ابو علي المنصور ، وعمره خمس سنين .

أحمديل الكردي

(من بغية الطلب لابن العديم)

احمد يل بن ابراهيم ، صاحب مراغة (٧) . قيل كان اقطاعه في كل سنة اربعمائة الف دينار ، وجنده خمسة الاف فارس .

سيره السلطان محمد بن ملكشاه الى الشام مع سكمان القطبي ، ومودود بن التورتكين صاحب الموصل ، ومودود مقدم العساكر ، في سنة خمس وخمسمائة ، في عسكر عظيم لقتال الفرنج ، واجتازوا على بالس ، ومضوا بالعساكر ، وافتتحوا حصونا ، وقصدوا حلب ، فغلقت ابواب المدينة في وجوههم .

ومرض سكمان بن التورتكين ، وعاد فمات ببالس ، ثم تفرقوا بعد ذلك ، وعاد احمديل الى بغداد .

وفي المحرم من سنة عشر وخمسمائة كان احمديل في مجلس السلطان محمد ، فجاءه رجل ومعه قصة يشكو فيها الظلم وهو ينتحب ، وسأله ان يوصل قصته الى السلطان ، فتناولها منه فضربه بسكين كانت معدة ، فوثب عليه الامير مودود فتركه تحته ، فجاء اخر فضرب مودودا ، وجاء ثالث فتممه .

وهذا ممدود (٨) ليس بابن التورتكين ، لان ذلك قتل بدمشق في سنة ست وخمسمائة على مانذكره في ترجمته ان شاء الله تعالى ...(١٦٨ ـ و) .

البساسيري

(من بغية الطلب لابن العديم)

ارسلان التركي ابو الحارث ، وقيل ابو منصور البساسيري منسوب الى بسا بلدة بفارس والعرب تسميها فسا ، وينسبون اليها فسوي ، واهل فارس يقولون بسا بين الباء والفاء ، وينسبون اليها البساسيري . وكان مولاه رجل من اهل بسا ، فنسب الغلام اليه ، واشتهر بهذه النسبة ، وكان احد الامراء الاصفهسلارية فعظم شأنه واستفحل امره ، وقويت هيبته ، وانتشر ذكره ، ومكنه القائم من البلاد ، وكثر منه العيث والفساد ، وآل امره الى العصيان على القائم ، ونهب بغداد وكان راس الاتراك بها ، فخرج عليه ، وهون امره بكل ماوصلت قدرته اليه ، حتى كان يأخذ الجاني من حرم الخليفة ، ولايلحقه في سوء فعله نظر في عاقبة ولاخيفة .

وقرات في تاريخ ابي غالب همام بن جعفر بن المهذب المعري (٩) انه كان اذا وصلت هدية من خراسان وغيرها من البلاد اعتقلها شهرا قبل ان يطلقها له بسؤال ، واشياء كثيرة تجري هذا المجرى في حق الخليفة فعلها ، فلما زاد الامر على الخليفة بعث الى طغرلبك ملك التركمان والغز ، ابو طالب محمد بن ميكال ، (١٩٦ ــ ظ) وكان مقيما بالري وقد ملك من جيحون الى بغداد ، واذل الملوك من اولاد محمود والترك وغيرهم ، فوصله الرسول من الخليفة يأمره بأن يصل الى بغداد ليستنجد به على البساسيري ابي منصور ، فاقبل اليه طغرلبك في مائة الف وعشرين الف من الترك والغز ، والاعاجم ، والكرد ، والديلم ، وغيرهم من الاجناس ، فوصل بغداد وهجمها ، وقتل منها خلقا عظيما ، ونهبها ،وذلك انهم قاتلوه ، وانهزم البساسيري منه فحصل في ارض الرحبة ، ولقيه معز الدولة ــ يعني ثمال بن صالح ــ واكرمه ، وحمل اليه مالا عظيما ، وكان قد

وصل في قلة ، فحــدث مــن شــاهده مــن بني كلاب انه لم ير مثله في الشجاعة والمكر والحيلة ، وكان اذا ركب معز الدولة قفز اليه ليمسك له الركاب ويصلح ثيابه في السرج ، وهمت بنو كلاب بأخذه فمنعهــا معز الدولة ، وندم بعد ذلك عليه ، ثــم انه تقــدم الى ان حصــل على الفرات ، وفزع منه معز الدولة وكثر عسكره ، فسلم اليه الرحبــة لما طلبها من معز الدولة ، ليجعل فيها ماله واهله .

قلت : وكان حصوله على الفرات بأرض بالس فانني قـرات في بعض تعاليق الشاميين في التاريخ ماصورته : ظهور البساسيري الى الشام ، ونزوله ارض بالس مدة سنة وشهرين ، سنة تســع واربعين واربعمائة .

وقرات في تاريخ همام بن المهذب في حوادث (١٩٧ ــ و) ســنة خمسين واربعمائة فيها : اضطرب الامر في خراسان على طغــرلبك ، فسار لاصلاحه، فجمع البساسيري من قدر عليه من الكرد والديلم ، واجتمعت اليه بنو عقيل ، وكان علم الدين قريش بن بدران زعيمها ، وبنو اسد زعيمها نور الدين دبيس بن مزيد ، وقصد بغداد ، وزحــف معهم اهل الجانب الغربي من بغداد الى دار الخليفة القائم بأمر الله امير المؤمنين ابي جعفر بن القادر ، فنهبوا جميع مافيها ، واستدعى الخليفة من فوق القصر علم الدين قريش بن بدران ، فجــاءه فخــرج اليه الخليفة وهو مبرقع ، وعليه بردة النبي صلى الله عليه وســلم ، وفي يده قضيبه ، فأجاره ولم يمــكن منه أحــد ، ومنعــه مــن البساسيري ، وسيره الى حصن عانة ، وقيل الحديثة ، وهو حصن منيع في وسط الفرات ، وصاحبه رجل يعرف بمهارش ، أحد أمراء بني عقيل ، فأكرمه اكراما عظيما ، وخدمه خدمة مرضية ، فبقي فيه عند مهارش شهورا .

قال ابن المهــذب : — يعني ســنة احــدى وخمســين — دعا البساسيري للمستنصر صاحب مصر في جــامع المنصــور ببغــداد ، وبقيت الدعوة شهورا .

وفيها : عاد طغرلبك ملك التركمان ابو طالب محمد بن ميكال الى بغداد فانحاز البساسيري وجماعته العرب ، وخرج معهم من التجار ببغداد وغيرهم خلق عظيم لا تحصى اموالهم ، وذكر انهم كانوا زهاء عن (١٩٧ - ظ) مائة الف وعشرين الفا ، وتبعهم من أصحاب طغرلبك زهاء عن عشرين الفا ، فقتل البساسيري وخلق كثيرا لا يحصى عدده ، ونهبت تلك الأموال وكان الذين تبعهم ولقيهم من عسكر طغرلبك نحو عشرين الفا .

وسار مهارش العقيلي الى بغداد في محمل ، فأعطاه من الأموال والاقطاع شيئا عظيما ، حتى انه صار مهارش ايسر بني عقيل .

وسار الأمير ابو ذؤابة عطية بن أسد الدولة صالح بن مرداس الى الرحبة ، فأخذ جميع ما تركه البساسيري بها من السلاح الذي لم ير مثله كثرة وجودة واموالا جزيلة كانت للبساسيري ، ثم ولى فيها بعض اصحابه .

اخبرنا ابو اليمن زيد بن الحسن الكندي أذنا قال : اخبرنا ابو منصور عبد الرحمن القزاز قال : اخبرنا ابو بكر احمد بن علي بن ثابت الخطيب قال: ولم يزل امر القائم بأمر الله مستقيما الى ان قبض عليه في سنة خمسين واربعمائة ، وكان السبب في ذلك ان ارسلان التركي المعروف بالبساسيري ، كان قد عظم امره واستفحل شأنه لعدم نظرائه من مقدمي الاتراك المسمين الاصفهسلارية ، واستولى على البلاد ، وانتشر ذكره ، وطار اسمه وتهيبته امراء العرب والعجم ، ودعي له على كثير من المنابر العراقية ، وبالأهواز ونواحيها وجبى الأموال ، وخرب الضياع ، ولم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقطع (١٩٨ - و) أمراً دونه ، ولا يحل ويعقد الا عن رأيه

ثم صح عند الخليفة سوء عقيدته ، وشهد عنده جماعة من الاتراك ان البساسيري عرفهم ـ وهو اذ ذاك بواسط ـ عزمه على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة ابا طالب محمد بن ميكال المعروف بطغرلبك أمير الغز ، وهو بنواحي الري يستنهضه على المسير الى العراق وانفض اكثر من كان مع البساسيري ،

وعادوا الى بغداد ، ثم اجمع رايهم على ان قصدوا دار البساسيري وهي بالجانب الغربي في الموضع المعروف بدرب صالح، بقرب الحريم الطاهري ، فأحرقوها وهدموا ابنيتها ، ووصل طغرلبك الى بغداد في شهر رمضان من سنة سبع واربعين واربعمائة ،ومضى البساسيري على الفرات الى الرحبة ، وتلاحق به خلق كثير من الأتراك البغداديين ، وكاتب صاحب مصر يذكر له كونه في طاعته ، وانه على اقامة الدعوة له بالعراق ، فأمده بالاموال وولاه الرحبة .

واقام طغرلبك ببغداد سنة الى ان خرج منها الى الموصل ، واوقع باهل سنجار وعاد الى بغداد ، فاقام بها مدة ، ثم رجع الى الموصل ، وخرج منها متوجها الى نصيبين ومعه اخوه ابراهيم ، وانصرف بجيش عظيم معه بقصد الري ، وكان البساسيري راسل ابراهيم يشير عليه بالعصيان لاخيه ويطمعه في (١٩٨ – ظ) الملك والتفرد به ، ويعده بمعاضدته ومضافرته عليه ، فسار طغرلبك في اثر اخيه ابراهيم ،وترك عساكره ، فتفرقت ، غير ان وزيره المعروف بالكندري وربيبه انوشروان وزوجته خاتون وردوا بغداد بمن بقي معهم من العسكر في شوال من سنة خمسين واربعمائة ، واستفاض الخبر باجتماع طغرلبك ، وحصره في مدينة همذان ، فعزمت خاتون وابنها انوشروان والكندري على المسير الى همذان لانجاد طغرلبك ، واضطرب امر بغداد اضطرابا شديدا ، وارجف المرجفون باقتراب البساسيري ، فبطل عزم الكندري على المسير فهمت خاتون بالقبض عليه وعلى ابنها لتركهما مساعدتها على انجاد زوجها ، ففرا الى الجانب الغربي من بغداد ، وقطعا الجسر وراءهما ، وانتهبت دارهما واستولى من كان مع خاتون من الغز على ما تضمنتا من العين والثياب والسلاح وغير ذلك من صنوف الأموال ، ونفذت خاتون بمن ضوى اليها ، وهم جمهور العسكر ، متوجهة نحو همذان وخرج الكندري وانو شروان يؤمان طريق الاهواز ، فلما كان يوم الجمعة السادس من ذي القعدة تحقق الناس كون البساسيري بالانبار ، ونهضنا الى صلاة الجمعة بجامع المنصور فلم يحضر الامام واذن المؤذنون بالظهر ونزلوا من (١٩٩ – و) المئذنة ، فاخبروا انهم راوا

عسكرا للبساسيري حذاء شارع دار الرقيق ، فبادرت الى ابواب الجامع فرايت الاتراك البغداديين اصحاب البساسيري نفرا يسيرا يسكنون الناس، ونفذوا الى الكرخ ، فصلى الناس في هذا اليوم بجامع المنصور ظهرا اربعا من غير خطبة ، ثم ورد من الغد ، وهو يوم السبت ، نحو مائتي فارس من عسكر البساسيري .

ثم دخل البساسيري بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة ، ومعه الرايات المصرية ، فضرب مضاربه على شاطيء دجلة ، ونزل هناك والعسكر معه ، واجمع اهل الكرخ والعوام من اهل الجانب الغربي على مضافرة البساسيري ، وكان قد جمع العيارين واهل الرساتيق وكافة الذعار واطمعهم في نهب دار الخلافة ، والناس اذ ذاك في ضر وجهد قد توالت عليهم سنون مجدبة ، والأسعار غالية والأقوات عزيزة ، واقام البساسيري بموضعه والقتال في كل يوم يجري بين الفريقين في السفن بدجلة .

فلما كان يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة دعي لصاحب مصر في الخطبة بجامع المنصور ، وزيد في الاذان «حي على خير العمل» وشرع البساسيري في اصلاح الجسر فعقده بباب الطاق وعبر عسكره عليه وانزله بالزاهر ، وكف الناس عن المحاربة اياما ، وحضرت الجمعة يوم العشرين من ذي القعدة فدعي لصاحب مصر في جامع الرصافة كما دعي له في جامع المنصور (١٩٩ – ظ)
وخندق الخليفة حول داره ، ونهر المعلى خنادق واصلح ما استرم من سور الدار ، فلما كان يوم الأحد لليلتين بقيتا من ذي القعدة حشر البساسيري اهل الجانب الغربي عموما ، واهل الكرخ خصوصا ونهض بهم الى حرب الخليفة ، فتحاربوا يومين ، فقتل بينهما قتلى كثيرة .

واستهل هلال ذي الحجة ، فدلف البساسيري في يوم الثلاثاء ومن معه دار الخلافة ، واضرم النار في الأسواق بنهر معلى وما يليه ، ولم يكن بقي في الجانب الغربي الا نفر ذو عدد ، وعبر الخلق للانتهاب ، واحاطوا بدار الخلافة ، فنهب مالا يقدر قدره ، ووجه الخليفة الى

قريش بن بدران البدوي العقيلي ، وكان ضافر البساسيري ، واقبل معه ، فائتم قريش للخليفة في نفسه ، ولقيه قريش فقبل الأرض بين يديه دفعات ، وخرج الخليفة معه من الدار راكبا ، وبين يديه راية سوداء ، وعلى الخليفة قباء أسود وسيف ومنطقة ، وعلى راسه عمامة تحتها قلنسوة ، والأتراك في أعراضه وبين يديه ، وضرب قريش للخليفة خيمة ازاء بيته بالجانب الشرقي ، فدخلها الخليفة ، واحدق بها خدمه .

وماشى البساسيري وزير الخليفة ابا القاسم بن المسلمة ويد البساسيري قابضة على كم الوزير ، وقبض على قاضي القضاة ابي عبد الله الدامغاني وجماعة معه (٢٠٠ -و) وحملوا الى الحريم الطاهري ، وقيد الوزير وقاضي القضاة .

فلما كان يوم الجمعة الرابع من ذي الحجة لم يخطب بجامع الخليفة ، وخطب في سائر الجوامع لصاحب مصر ، وفي هذا اليوم انقطعت دعوة الخليفة من بغداد ، ولما كان يوم الأربعاء تاسع ذي الحجة ، وهو يوم عرفة ، أخرج الخليفة من الموضع الذي كان به ، وحمل إلى الأنبار ومنها إلى حديثة عانة على الفرات ، فحبس هناك وكان صاحب الحديثة والمتولي خدمة الخليفة بنفسه هناك مهارش البدوي ، وحكي عنه حسن الطريقة وجميل المعتقد .

فلما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ذي الحجة شهر الوزير على جمل وطيف به في محال الجانب الغربي ، ثم صلب حيا بباب خراسان ازاء الترب ، وجعل في فكيه كلوبان من الحديد وعلق على جذع ، فمات بعد صلاة العصر من هذا اليوم ، واطلق قاضي القضاة ابو عبد الله الدامغاني بمال قرر عليه . وخرجت من بغداد يوم النصف من صفر سنة احدى وخمسين .

فلم يزل الخليفة في محبسه بحديثه عانة الى ان ظفر طغرلبك باخيه ابراهيم وقتله ، ثم كاتب قريشا في اطلاق الخليفة واعادته الى داره ، وذكر لنا أن البساسيري عزم على ذلك لما بلغه أن طغرلبك

متوجه الى العراق ، واطلع البساسيري أبا منصور عبد الملك بن محمد بن يوسف على ذلك ، وجعله (٢٠٠ – ظ) السفير بينه وبين الخليفة فيه ، وشرط ان يضمن الخليفة للبساسيري صرف طغرلبك عن وجهه .

واحسب أن طغرلبك كاتب مهارشا في امر الخليفة ، فاخرجه من محبسه وعبر به الفرات ، وسار به في البرية قصد تكريت في نفر من بني عمه ، واغذ السير حتى وصل به الى دجلة ، ثم عبر به وسار في صحبته قصد الجبل ، وقد بلغه أن طغرلبك بشهروز فلما قطع اكثر الطريق عرف ان طغرلبك قد حصل ببغداد ، فعاد سائرا حتى وصل الى النهروان ، فأقام بالخليفة هناك ، ووجه اليه طغرلبك مضارب ورحلا وأثاثا ، ثم خرج لتلقيه فانتهى الينا ونحن بدمشق في يوم عيد الأضحى من سنة احدى وخمسين وأربعمائة ان الخليفة تخلص من محبسه ، وانتهى إلينا لسبع بقين من ذي الحجة خبر حصوله ببغداد في داره .

وكتب إلي من بغداد من ذكر ان الخليفة حصل في داره في يوم الخامس والعشرين من ذي القعدة ، وأسرى طغرلبك إلى البساسيري عسكرا من الغز ، وهو في بلد ابن مزيد بسقي الفرات ، فحاربوه الى أن ظفر به ، وقتل وحمل رأسه الى بغداد ، فطيف به وعلق إزاء دار الخلافة في اليوم الخامس عشر من ذي الحجة سنة احدى وخمسين (٢٠١ – و) .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

ذكر ابو الوفاء الأخشيكثي في تاريخه ، وحكاه عن الأديب ابي العباس احمد بن علي ابن بابه القاشي في ذكر ابي الحارث ارسلان التركي البساسيري قال : هو منسوب إلى بسا مدينة بفارس ، والعرب تقول فسا ، وينسبون إليها فسوي ، واهل فارس ينسبون إليها البساسيري ، وكان مولاه رجلا من اهل بسا ، فنسب الغلام اليه واشتهر بهذه النسبة (١٠)

قرات بخط العماد الكاتب ابي حامد محمد بن محمد الأصبهاني

في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة : وقتل في هذه السنة البساسيري فإن السلطان سير أنو شروان ، وازنم ، وساوتكين الخادم ، وانضاف اليهم سرايا بن منيع الخفاجي ، فقصدوا نور الدين دبيسا والبساسيري عنده ، فمضى نور الدين ووقف البساسيري في جماعة ووقعت في فرس البساسيري نشابة فاجتهد في قطع تجفافها ، ورمته فرسه ، ووقع في وجهه ضربة ، واسره كمشتكين دواتي عميد الملك ، وحز راسه ، وحمله إلى السلطان .

أخبرنا ابو هاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال اخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني قال : دفع إلي ابو الحسن (٢٠٢ –ظ) علي بن احمد بن الحسين اليزدي الفقيه جزء في أخره بخط محمود بن الفضل بن ابي نصر الأصبهاني دعاء الامام القائم بأمر الله امير المؤمنين رضي الله عنه لما أخذ» البساسيري وحمله إلى الحديثة ، وهو في السجن ، فعمل هذا الدعاء وسلمه إلى بدوي وامره أن يعلقه على الكعبة :

الى الله العظيم ، من عبدك المسكين ، اللهم انك العالم بالسرائر والمحيط بمكنونات الضمائر ، اللهم انك غني بعلمك واطلاعك على أمور خلقك عن إعلامي بما انا فيه ، عبد من عبيدك قد كفر بنعمتك وما شكرها ، والقى العواقب وما ذكرها ، أطغاه حلمك ، وتجبر بأناتك ، حتى تعدى علينا بغيا ، واساء إلينا عتوا وعدوانا .

اللهم قل الناصرون لنا ، واعتز الظالم ، وانت المطلع العالم ، والمنصف الحاكم ، بك نعتز عليه ، واليك نهرب بين يديه ، فقد تعزز علينا بالمخلوقين ونحن نعتز بك يا رب العالمين .

اللهم إنا حاكمناه إليك ، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ، وقد رفعت ظلامتي إلى حرمك ووثقت في كشفها بكرمك ، فاحكم بيني وبينه ، وانت خير الحاكمين ، وارنا منه ما نرتجيه ، فقد اخذته العزة بالاثم .

اللهم فأسلبه عزه ومكنا بقدرتك من ناصيته يا أرحم الراحمين .
فحملها البدوي وعلقت (٢٠٣ –و) على الكعبة فحسب ذلك اليوم ،

فوجد أن البساسيري قتل وجيء برأسه بعد سبعة أيام من التاريخ
نقلت من كتاب الربيع تاليف غرس النعمة محمد بن هلال الصابىء ، وأنبأنا به عبد اللطيف بن يوسف عن ابي الفتح بن البطي قال : انبأنا ابو عبد الله الحميدي عنه قال : حدثني المسعود بن ابي المعالي الفضل ، وكان احد حجاب البساسيري ، في المحرم من سنة اثنتين وخمسين واربعمائة بالرحبة ، وقد خرجت اليها خوفا من جريرة فعل البساسيري بالقائم بأمر الله ، قال : رايت في منامي في ذي الحجة كأن البساسيري جالسا في داره وانا قائم على رأسه اذ دخل عليه غلامان بثياب حسان ، فنهض اليهما وخدمهما وقبل ايديهما وأرجلهما ،وجلس بين ايديهما ، فقالا له : يا هذا قصدت البصرة فعضدناك ، والانبار فأعناك ، وسنجار فساعدناك ، والموصل فقويناك ، وبغداد فنصرناك ، ومالا بأيديهما يضمانها ويبسطانها ما معناه ، فما آخرناك وإلى متى ؟ يكررانه دفعات ، فاستطرف ذاك ، وجاء خبره بعد أيام الى الرحبة بقتله وزوال امره .

قرات بخط ابي منصور اسبهدوست بن محمد اسفار الديلمي في ديوان شعره يرثي أبا الحارث البساسيري .

أقسمت بعدك لا اقول مديحا
حتى أصافح في التراب صفيحا

كلا ولا صاحبت غيرك صاحبا
الا الأسى والحزن والتبريحا

الصبر يحسن عند كل مصيبة
واراه بعدك يا اجل قبيحا

لهفي على دمك العزيز وقد غدا
فوق التراب مضيعا مسفوحا

ان كنت لم تسكن ضريحا
فالحشامني لذكراك لا يزال ضريحا

ولقد علمنا اذ طرحت على الثرى
ان الذى امسى هناك طريحا

أطسز بن أوق

(من المقفى للمقريزي – مجلدة برتو باشا)

أطسز بن أوق الخوارزمي التركي ، مقدم الأتراك ، ومعنى أطسز ليس معه فرس ، وهي كلمة تركية ، وبعضهم يقول اتسز بالتاء عوضا عن الطاء ، وأصله كما قلت لك اولا .

كان أمير دمشق ، لقب نفسه بالملك المعظم ، وهو أول من ملك دمشق من الأتراك وقطع منها دعوة الخلفاء الفاطميين ،و أعاد دعوة خلفاء بني العباس.

وكان سبب قدوم الأتراك إلى الشام أنه لما تغلب ناصر الدولة بن حمدان في سنة إثنتين وستين واربعمائة على مصر ، قصد ابطال دعوة المستنصر بالله وتغيير دولته ، فندب الفقيه أبا جعفر محمد بن احمد بن البخاري ، قاضي حلب ، وبعثه إلى السلطان الب ارسلان ابي شجاع محمد بن داود ملك العراق وخراسان ، يسأله ان يسير اليه عسكرا ليقيم الدعوة العباسية وتكون له مصر ، فمضى ابو جعفر إلى خراسان . وبلغ السلطان الب أرسلان رسالة ناصر الدولة بن حمدان ، فتجهز من خراسان ، في عساكر عظيمة ، ونزل الرها في أول سنة ثلاث وستين واربعمائة . وبعث إلى محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس صاحب حلب يستدعيه ، فخاف منه ولم يتجاسر عليه ، فقطع السلطان الفرات فقال له الفقيه أبو جعفر : يا مولانا احمد الله تعالى على ما انعم به عليك ، فإنه لم يقطع هذا النهر تركي إلا مملوك وانتم اليوم قد قطعتموه ملوكا ، فأحضر الأمراء والمماليك وامره فأعاد الحديث ، فحمد السلطان الله على ذلك

ثم خرج إليه محمود بن نصر فأكرمه ورده إلى حلب بعدما نزل السلطان عن حلب وحاصرها شهر في جمادى الآخرة ، فقطع محمود

خطبة المستنصر من حلب واقام الدعوة العباسية ، وعزم السلطان على المسير الى مصر فاتته الأخبار بأن ملك الروم قطع بلاد ارمينية يريد خراسان . فعاد من حلب إلى بلاده .

وخلف طائفة من الترك ببلاد الشام فيهم اطسز ، فسار ومعه اخوته جاولي والمامون وقرلو وشكلي إلى أعمال دمشق ونزل عليها وحاصرها في يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة تسع (١١) وستين وأربعمائة ، ثم انصرف عنها يوم الثلاثاء النصف من شوال ومعه اخوته ففتحوا أعمال فلسطين .

ثم اختلف الأتراك فصار بعضهم مع أمير الجيوش بدر الجمالي بعكا وبلاد الساحل التي في يده ، وبعضهم مع القاضي عين الدولة ذي الرئاستين ابي الحسن محمد بن القاضي ابي محمد عبد الله بن القاضي أبي الحسن علي بن عياض بن أحمد بن ابي عقيل صاحب صور .

وبقي أطسز وأخوته بفلسطين ، وفتح الرملة وطبرية وبيت المقدس (٣٠٧ -و) وصار يحاصر في كل سنة دمشق ويرعى زرعها ومنع الزراعة حتى صارت الغرارة القمح تباع بعشرين دينار .

فلما كانت سنة سبع وستين حاصر شكلي بن اوق ثغر عكا واخذه بالسيف وقتل الوالي ، فسارت إليه عساكر دمشق وحاربوه على طبرية .

وفي سنة ثمان وستين حاصر اطسز بن اوق دمشق في يوم السبت سلخ ذي الحجة عقيب هروب معلى بن حيدرة ، ورحل عنها يوم الجمعة لأربع خلون من صفر سنة ثمان وستين ، وذلك أن معلى بن حيدرة بن منزو لما أساء السيرة بدمشق وثار الناس عليه فر منها الى بانياس ، فاقاموا عليهم الأمير رزين الدولة إنتصار بن يحيى المصمودي إمام عسكر معلى بن حيدرة في يوم الأحد مستهل المحرم منها .

واشتد الغلاء ، وقدم اطسز الى دمشق في شعبان ، ولم يزل محاصرا لها حتى غلت الاسعار ، ولم يقدر على شيء من الأقوات ،

وبلغت غرارة الحنطة نيفا وعشرين دينارا ، ثم إنه فتح البلد صلحا ، ودخلها هو وعسكره يوم الاثنين من ذي القعدة منها ، وقطع خطبة المستنصر منها ، وابطل الاذان بحي على خير العمل ، واقام الخطبة للامام المقتدي بامر الله ابي القاسم بن الذخيرة بن القائم بامر الله العباسي في يوم الجمعة خامس عشرين ذي القعدة ونظر في أمور دمشق وأحوالها .

وكثر عسكره ، بمن (١٢) فر إليه من مصر خوفا من امير الجيوش بدر الجمالي ، وحدثته نفسه بأخذ مصر فسار اليها في سنة تسع وستين وأربعمائة وقد صار اليه ناصر الجيوش ابو الملوك تركان شاه بن سلطان الجيوش يلد كوز ، وأهدى إليه ستين حبة لؤلؤة تزيد زنة الحبة منها على مثقال ، وحجر من ياقوت زنته سبعة عشر مثقالا في تحف كثيرة مما كان قد اخذه ابوه من خزائن القصر ، واغراه بأخذ مصر ، واطمعه في اهلها ، فحشد ، وهم على حين غفلة ، وكان امير الجيوش قد خرج لقتال العرب بالصعيد ، فنزل أطسز في أرياف مصر ، واقام بها شهر جمادى وبعض شهر رجب ، ومعه نحو الخمسة آلاف ، فلما بلغ ذلك امير الجيوش قدم الى القاهرة واستعد للقائه ، وخرج في يوم الخميس سابع عشر رجب وسير المراكب في النيل بالعلوفات والميرة ، وسار في نحو الثلاثين الفا ما بين فارس وراجل ، فخافه أطسز وعزم على العودة عن مصر إلى الشام ، فلم يوافقه اصحابه على ذلك ، وقالوا له : قد وطئت ديارهم وتعود بغير فائدة ، فلم يلتفت إلى قولهم ، فقال له اخوه المأمون وابن يلدكوز : لا يغرنك كثرتهم فإنما هم سوقة ، وصيحة واحدة تهزمهم ، فلا ترجع عن هذا الملك الذي أشرفت على أخذه ، وما زال به أخوه حتى تقدم للقتال في يوم الثلاثاء ثاني عشر منه ، وقدم الجيوش ، فتراخى أطسز عن الحرب إلى الليل بعدما استظهرت ميمنته ، فأحاطت العرب به من ورائه ونهبوا سواده ، فانهزم وقتل اخوه المأمون ، ولحق أطسز نفر ، واقام بالرملة حتى وصل إليه من بقي من عسكره ، ودخل دمشق يوم السبت العشرين من شعبان .

وعاد أمير الجيوش مظفرا ، فندب بالعساكر مع ناصر الدولة

الجيوشي ، وبعثه إلى دمشق فحاصرها أياما ، وعاد في سنة سبعين ، فلما خاف أطسز من ظفر اهل مصر به راسل تاج الدولة تتش بـــن الب ارسلان يستنجده ، فتحرك لذلك وسأل اخاه السلطان ملك شاه بن الب ارسلان ان يوليه الشام ، فاقطعه السلطان ابـــو الفتـــح ملك شاه بن الب أرسلان الشام ، (فسار) اليها ونزل حلب سنة إحـــدى وسبعين ، فلم يقدر عليها ، فشتا بـــديار بـــكر ، وســـار إلى دمشـــق وتسلمها من اطسز ، ثـــم قبض عليه في ربيع الآخـــر ســـنة احـــدى وسبعين واربعمائة ، فكانت مدة ملكه بدمشق ثـــلاث ســـنين وســـتة أشهر وواحد وعشرين يوما.

آق سنقر قسيم الدولة

(من بغية الطلب لابن العديم)

آق سنقر بن عبد الله ، المعروف بقسيم الدولة ، مملوك السلطان أبي الفتح ملك شاه ، وقيل أنه لصيق له ، وقيل اسم أبيه آل ترغان من قبيلة ساب يو ، نقلت ذلك من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وأنبأنا به ابو اليمن الكندي وغيره عنه .

وتزوج آق سنقر داية السلطان ادريس بن طغان شاه ، وحظي عند السلطان ملك شاه ، وقدم معه حلب في سنة تسع وسبعين واربعمائة حين قصد تاج الدولة تتش أخاه ،فانهزم عن حلب ،وكان قصدها وملكها السلطان ملك شاه في شهر رمضان من سنة تسع وسبعين وخرج عنها الى انطاكية وملكها وخيم على ساحل البحر اياما ، وعاد الى حلب ، وعيد بها عيد الفطر ، ورحل عنها ، وقرر ولاية حلب لقسيم الدولة آق سنقر في اول سنة ثمانين واربعمائة ، فاحسن فيها السياسة والسيرة ، واقام الهيبة ، وجمع الذعار ، وافنى قطاع الطرق ، ومخيفي السبل ، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع ، فاستأصل شأفتهم ، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله لتأمن الطرق وتسلك السبل ، فشكر بذلك الفعل وأمنت الطرق والمسالك (٢٦٧ -ظ) وسار الناس في كل وجهة بعد امتناعهم لخوفهم من القطاع والأشرار ، وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك بورود التجار اليها والجلابين من جميع الجهات ، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي اظهره فيهم رحمه الله .

وفي أيامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين واربعمائة واسمه منقوش عليها الى اليوم ، وهو الذي أمر ببناء مشهد قرنبيا ووقف عليه الوقف ، وأمر بتجديد مشهد الدكة

اخبرني عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري

قال : كان قسيم الدولة أق سنقر احسن الأمراء سياسة لرعيته ، وحفظا لهم ، وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وأمن واسع ، وكان قد شرط على اهل كل قرية في بلاده متى اخذ عند احدهم قفل ، او احد من الناس ، غرم اهلها جميع ما يؤخذ من الاموال من قليل او كثير ، فكانت السيارة اذا بلغوا قرية من بلاده القوا رحالهم وناموا ، وقام اهل القرية يحرسونهم الى ان يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته.

سمعت والدي القاضي ابا الحسن رحمه الله يقول لي فيما يأثره عن اسلافه: إن قسيم الدولة اق سنقر كان قد نادى في بلد حلب بان لا يرفع احد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الامن في بلاده.
قال : فخرج يوما يتصيد ، فمر على قرية من قرى حلب ، فوجد بعض الفلاحين (٢٦٨ -و) قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله إلى القرية ، فقال : الم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع احد متاعا ولا شيئا من موضعه ؟!
فقال له حفظ الله قسيم الدولة قد امنا في أيامه ، وما نرفع هذه الآلة خوفا عليها ان تسرق ، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي الى هذا النير فتاكل الجلد الذي عليه ، فنحن نحفظه منها ، ونرفعه لذلك

قال : فعاد قسيم الدولة من الصيد ، وأمر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في بلد حلب فصادها حتى أفنوها من بلد حلب .
قلت : وهي إلى الآن لا يوجد في بلد حلب منها شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد .

قرأت في كتاب عنوان السير تاليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : واقطع السلطان حلب وقلعتها مملوكه أق سنقر ، ولقبه قسيم الدولة ، وذلك في سنة تسع وسبعين واربعمائة فأحسن السيرة ، وظهر منه عدل لم يعرف بمثله ، واستغلها في كل يوم الف وخمسمائة دينار ، ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة تتش بن الب ارسلان في سنة سبع وثمانين واربعمائة .

قلت وكان تاج الدولة تُتَش قتله صبرا بين يديه بسبعين ، قرية من قرى حلب من نقرة بني أسد على نهر الذهب ، وقيل بكارس الى حذبها وذلك أن تتش كان قد حصل في نفسه شيء من قسيم الدولة ، وكان (٢٥٨ -ظ) قسيم الدولة يستصغر أمر تتش حتى انني قرات بخط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه ، سنة اربع وثمانين واربعمائة وفيها :

نزل تاج الدولة إلى السلطان ، يعني نزل تتش إلى ملك شاه ، فلما رآه ترجل له ، وكان في الصيد ، خيفة أن يتخيل منه ، وحضر هو وقسيم الدولة في حضرته ، فقال تاج الدولة تتش: كان من الأمر كذا وكذا ، فقال له قسيم الدولة : تكذب ، فقال له السلطان : تقول لأخي كذا ' قال : نعم ،يطلع الله في عينيه ما يريده لك، ويطلع في عيني ما اريده لك .

قلت : وعاد تتش من خدمة اخيه إلى دمشق ، فلما توفي السلطان ملكشاه برز تاج الدولة تتش في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين ، وخر جمعه خلق من العرب ، ولقيه عسكر انطاكية بالقرب من حماة مع يغي سغان ، وسار تاج الدولة ، وقطع العاصي في شهر ربيع الآخر من السنة ، ورعى عسكره الزراعات ، ونهب المواشي وغيرها ، واتصل الخبر باق سنقر وهو بحلب ، وكاتبه السلطان بركيارق وخطب له بحلب ، فجمع وحشد ، واستنجد بمن جاوره ، فوصل اليه كربوقا صاحب الموصل ، وبزان صاحب الرها ، ويوسف ابن ابق صاحب الرحبة في الفي فارس وخمسمائة فارس، منجدين قسيم الدولة على تتش ، وحصل الجميع بحلب ، ووصل تاج الدولة تتش الى الحانوتة ، ورحل منها إلى الناعورة ، واغارت خيله على المواشي بالنقرة ، واحرقوا بعض زرعها ، ورحل من الناعورة قاصدا نهر الوادي (٢٦٩ -و) وادي بزاعا ، فتهيأ آق سنقر للقائه ، والخروج إليه ، واستدعى منجما ليأخذ له الطالع ، فحضر عنده واختار له وقتا ، وقال : تخرج الساعة ، فركب ومعه النجدة التي وصلته ، وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع و مبارك بن

شبل ، وكان اطلقهما من الاعتقال ، ومحمد بن زائدة ، وجماعة من أحداث حلب ، والديلم والخراسانية ، في أحسن زي ، وأكمل عدة ، وقيل أنه قدر عسكره بعشرين الف فارس ، وقيل كان يزيد عن ستة آلاف ، وقصد تاج الدولة يوم السبت التاسع من جمادى الأولى من السنة ، وقطع أق سنقر سواقي نهر سبعين قاصدا عسكر تتش (١٣) فاقاموا على حالهم ، وكان اول من برز للحرب اق سنقر ، فالتقى الفريقان .

ولم يثق أق سنقر بمن كان معه من العرب ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصاف ، ثم نقلهم إلى القلب ، فلم يغنوا شيئا ، وحمل عسكر تتش على عسكر أق سنقر ، فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبزان معهم إلى حلب ، ووقع فيهم القتل ، وثبت قسيم الدولة ، فأسر وأكثر أصحابه وحمل إلى تاج الدولة تتش فلما مثل بين يديه أمر بضرب عنقه وأعناق بعض خواصه ، ودخل تتش إلى حلب وملكها على ما نذكر في ترجمته إن شاء الله .

وبلغني أن تاج الدولة تتش قال لقسيم الدولة اق سنقر لما حضر بين يديه : لو ظفرت بي ما كنت صنعت ؟(٢٦٩ ظ) قال : كنت أقتلك ، فقال تتش : فأنا احكم عليك بما كنت تحكم علي ، فقتله صبرا .

وقرأت بخط بعض الحلبيين أن السلطان ملك شاه بن العادل وصل ، يعني الى حلب ، في شعبان سنة تسع وسبعين ، فتسلم البلد والقلعة وسلمها إلى قسيم الدولة أق سنقر ، فاقام بحلب ثمان سنين فقتل بكارس من ارض النقرة ، نقرة بني أسد ، في صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتله تاج الدولة بن العادل .

وقرأت بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين الشيباني في تاريخه: في جمادى الأولى ، يعني سنة سبع وثمانين ، كان المصاف بين تاج الدولة تتش وبين الأميرين أق سنقر وبوزان ومن امدهما به بركيا روق قريبا من حلب ، فلما التقى الصفان استأمن ابن أبق الى تتش ، وانهزم الباقون ، وأسر اق سنقر فجيء

به الى تتش فقال له تتش : لو ظفرت بي ما كنت صانعا؟ قال: اقتلك ، قال: فاني احكم عليك بحكمك في ، وقتله.

قال : وكان اق سنقر من احسن الناس سياسة ، وآمنهم رعية وسابلة .

وقرات بخط ابي منصور هبة الله بن سعد الله بن الجبراني الحلبي: الصحيح أن قسيم الدولة قتل يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين واربعمائة .

ونقلت من خط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه سنة سبع وثمانين واربعمائة ،فيها : كانت وقعة قسيم الدولة (آق) سنقر وتاج الدولة يوم السبت تاسع جمادى الأولى (٢٧٠ - و) وذلك أن تاج الدولة لما اراد العبور مختفيا ليمضي إلى خراسان ، فبلغ خبره قسيم الدولة ، فخرج إليه ،فقال لاصحابه الحقوني بحبال لكتاف الاسرى استصغارا لهم ، فقال له سكمان بن ارتق : حركش هم - اي ارانب هم -؟ ولم يتمهل إلى حين تصله خيله ، فمضى واستعجل ، فكسره تاج الدولة بارض نبل ، واسره ورحل من موضع الكسرة إلى حلب فملكها ، واستولى على المواضع التي كانت لقسيم الدولة وجلس في قلعة حلب ، وشرب فيها ، واحضر قسيم الدولة ، كما حدثنا رومي بن وهب ، قال : حضرته وقد احضر قسيم الدولة ، فدخل وفي رقبته بند قبائه يسحب ، فلا والله إن انكرت من عزة نفسه شيئا مما كنت اعرفه ، فما زال يمشي حتى وقعت عينه على تاج الدولة فجلس وادار ظهره إليه فسحبوه وكلموه ، فما رد جوابا ولا تحرك ، فقام إليه تاج الدولة فكلمة ، فلم يرد له جوابا مرتين او ثلاثة فضرب رقبته بيده ، وقطع راسه فطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قرنبيا .

وبقي ليلتين ، وسار تاج الدولة إلى خراسان ، وبقي قسيم الدولة في قبره ، وقد طوف براسه إقليم الأرض من الشام ، من سنة خمس وثمانين إلى سنة ست وعشرين ، إلى حين ولى السلطان ، والخليفة المسترشد بالله ، ولده زنكي بن اق سنقر وهو عماد الدين ، ملك

الأمراء بهلوان جهان ، عمر له مدرسة تولى أمرها الشيخ الأجل الفقيه الامام ابو طالب بن العجمي ووقف عليها ضيعتين (٢٧٠ – ظ) يساوي مغلهما الف دينار كل سنة ، وعمر بها عمارة معجزة ، ونقل رمته اليها ، رايتها في سنة سبع وعشرين ، ولم تكن كملت ، وهي تزيد عن الوصف ، وجعل قبره قبالة البيت المسجد من الشمال ، وأجرى إليها قناة ماء ، وغرس وسطها ، وجعل القبر مثل قبر ابي حنيفة رضي الله عنه .

هكذا نقلت من خط ابن منقذ وفيه اوهام من جملتها انه قال: «فكسرة تاج الدولة بارض نبل » وليس كذلك ، بل بارض سبعين أو كارس من نقرة بني أسد ، ونبل ليست من هذه الكورة وبينهما مسافة يوم ، ومن جملة اوهامه انه قال :«جلس في قلعة حلب وضرب رقبة أق سنقر فيها وليس الأمر كذلك ، بل ضرب رقبته عقيب الكسرة بسبعين ، او كارس ،ورومي بن وهب حكى له صورة قتلة ، لأنه كان بحلب والذي قتله تاج الدولة صبرا بحلب هو بُزان صاحب الرها ، وكان انهزم في هذه الوقعه الى حلب ، فلما دخلها تاج الدولة احضره وقتله وقيل بل أسره ، وحمله الى حلب فقتله على ما نذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى :وقال : «بقي قسيم الدولة في قبره من سنة خمس وثمانين إلى سنة ست وعشرين»

وهذا طغيان من القلم ، فان قسيم الدولة قتل سنة سبع وثمانين ، وقد ذكره كذلك، وقال :« عمر – يعني ولده زنكي له – مدرسة ، ووقف عليها ضيعتين ، والمدرسة لم يعمرها زنكي ، بل عمرها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ، وابتدا في عمارتها في سنة سبع عشرة ، واسمه وتاريخ عمارتها على جدارها ، لكن قسيم الدولة أق سنقر (٢٧١ – و) لما قتل دفن الى جانب مشهد قرنبيا بالقبة الصغيرة المبنية بالحجارة من غربي المشهد ، وكان قسيم الدولة بنى مشهد قرنبيا لمنام رآه بعض أهل زمانه ، ووقف عليه وقفا ، فدفن الى جنبه ، وعمر على قبره تلك القبة ، فلما ملك زنكي حلب اثر أن يبني لأبيه مكانا ينقله اليه ، وكانت المدرسة بالزجاجين لم تتم وكان شرف الدين ابو طالب بن العجمي هو الذي يتولى عمارة هذه

المدرسة ، فأشار على زنكي ان ينقل أباه اليها فنقله ، وتم عمارة المدرسة ، ووقف على من يقرأ على قبره القرية المعروفة بشامر ، وهي جارية الى الآن ، وأما كارس التي هي وقف على المدرسة ، فاظنها وقف سليمان بن عبد الجبار .

واخبرني أبو حامد عبد الله بن عبد الرحمن بن العجمي قال : اراد اتابك زنكي أن ينقل أباه إلى موضع يجدده عليه ، ويليق به ، فقال له أبي :اناقد عمرت هذه المدرسة بالزجاجين ، وسأله أن ينقل إليها ففعل ، واتخذ الجانب الشمالي تربة لأبيه ، ولمن يموت من ولده وغيرهم .

وحكى لي والدي رحمه الله أن اتابك زنكي لما نقل أباه من قرنبيا ، وادخله إلى مدرسة الزجاجين لم يدخل به من باب من ابواب مدينة حلب ، وانهم رفعوه من بعض الأسوار ودلوه الى المدينة ، لأنهم يتطيرون بدخول الميت الى البلدة .

قال لي أبي : ووقف زنكي القرية المعروفة بشامر على تربة ابيه آق سنقر رحمه الله .

قرات بخط ابي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي وانبأنا به عنه المؤيد بن محمد الطوسي وغيره قال . سنة (٢٧١ـ ظ)ثمانين واربعمائة دولة قسيم الدولة وزيره أبو العز بن صدقة؛ فيها استقرت الرتبة بحلب للأمير قسيم الدولة آق سنقر من قبل السلطان العادل ابي الفتح ، وتوطدت له الامور بها ، واقام الهيبة العظيمة التي لايقدر عليها احد من السلاطين ، واظهر فيها من العدل والانصاف مع تلك الهيبة ما يطول شرحه ، ورخصت الأسعار في ايامه الرخص الزائد عن الحد ، وقرب الحلبيين واحبهم الحب المفرط ، واحبوه اضعاف ذلك ، واقام الحدود ، واحيا احكام الاسلام وعمر الأطراف ، وأمن السبل ، وقتل قطاع الطرقات؛ وطلبهم في كل فج ، وشنق منهم خلقا ، وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قد قصده ، واخذه وصلبه على ابواب المدينة ، وكثرت في ايامه الأمطار ، وتفجرت العيون والأنهار ، وعامل أهل حلب من

الجميل بما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر .

قال : وفيها يعني سنة إحدى وثمانين واربعمائة ، خرج الأمير قسيم الدولة أق سنقر رحمه الله يودع تابوت زوجته داية السلطان أبي الفتح ، ماتت بحلب ، وقيل إنه جلس وفي يده سكين ، فأومأ بها إليها ، فوقعت في مقتل وهو غير متعمد لها ، فماتت في الحال ، فوضعها في تابوت ، وحملت الى الشرق ، وخرج لوداعها يوم الاثنين مستهل جمادي الآخرة .

وقال : سنة أربع وثمانين واربعمائة ، فيها تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة افامية من يد ابن ملاعب يوم الخميس ثالث رجب ، وشحن بها بعض بني منقذ (٢٧٢ - و) .

وقال : سنة ست وثمانين وأربعمائة ، فيها فتح الأمير قسيم الدولة آق سنقر ومعه تاج الدولة مدينة نصيبين يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، وقيل في صفر ، حدثني بهذا والدي الرئيس أبو الحسن علي بن محمد العظيمي قال : كنت مع الأمير قسيم الدولة في هذا الفتح .

قال: وفيها شرق قسيم الدولة رحمه الله الى بغداد الى عند السلطان بكيارق (١٤) بن أبي الفتح ، وعاد الى حلب في شوال سنة ست وثمانين.

قال : سنة سبع وثمانين واربعمائة ، وكان قسيم الدولة عاد الى حلب والتقى هو وتاج الدولة ، فكسر تاج الدولة قسيم الدولة وقتله على نهر سبعين شرقي حلب سابع جمادي الأولى ، وقيل يوم السبت تاسع جمادى الأولى ، واصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه رأس الأمير قسيم الدولة رحمه الله ، فتسلم تاج الدولة مدينة حلب العصر من يوم الأحد عاشر جمادى الأولى ، وتسلم القلعة يوم الاثنين ، وقتل مع قسيم الدولة رحمه الله أربعة عشر مقدما منهم نختكين شحنة بغداد ، وقجقر شحنة حلب ، وطغان واسرائيل ، وقتل بحلب غلامه طغريل ، وله حكاية معروفة

وعلي بن السليماني ، واخوه ومحمد البخـاري الذي قفـز على انطاكية ، واخـواجه ابـو القـاسم ، والطندكيني مـع سليمان ، والطرنطاس خاص ملك شاه ، وانهـزم الى حلب بُـزان وكربوقا ، ويوسف بن أبق ، فأما بُزان فانه قتل(١٥).

السلطان الب ارسلان

(من بغية الطلب لابن العديم)

الب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن دُقاق بن سلّجوق وقيل سَلّجُق ، وله ولكل واحد من أبنائه اسم أخر بالعربية ، اسمه بالعربية محمد بن داود بن ميكائيل بن سليمان ، ابو شجاع بن أبي سليمان الملقب بالعادل النوري ، أصلهم من قرية يقال لها النور .

وتقاق أول من دخل منهم في الاسلام ، وتقاق بالتركية القوس من الحديد وقيل في نسب سلجق الأعلى :هو سلجق بن داود بن أيوب بن دقاق بن الياس بن بهرام بن يوسف بن عزيز.

ملك الب ارسلان خراسان بعد أبيه جغري بك ، وفتح العراق من يد ابن عم أبيه قلطمش بن اسرائيل سنة ست وخمسين وأربعمائة واستقر في السلطنة حين توفي عمه السلطان طغر لبك في الثامن من شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وكان ولي عهد عمه ، لأن عمه لم يكن له نسل ، فملك ألب أرسلان بعده ، وهو أول من ذكر على منابر بغداد بالسلطان .

وقدم حلب محاصرا لها وفيها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، فدام على حصارها الى أن خرج اليه محمود مع والدته السيدة ، فأنعم عليه بحلب ، وسار الى الملك ديوجانس ، وقد خرج من القسطنطينية ، فالتقاه وأسره ، ثم من عليه واطلقه ، وغزا الخزر والأبخاز ، وبلغ ما لم يبلغ أحد من الملوك ، وكان ملكا عادلا مهيبا مطاعا (٢٧٩ ـ ظ).

حدثني والدي رحمه الله يأثره عن سلفه قال : قدم السلطان،

- يعني الب ارسلان - وحاصر حلب ، وكان نازلا بميدان باب قنسرين ، ونصب على برج الغنم منجنيقا وتواتر ضرب المنجنيق عليه ، فأخذ عوام حلب شقة أطلس وربطوها على ذلك البرج إستهزاءا به ، يعنون أن البرج قد صدعه راسه من ضرب المنجنيق ، فسأل السلطان عن ذلك ، فقالوا : إنهم قد عصبوا البرج ، يعنون ان البرج قد صدعه رأسه من ضرب المنجنيق ، وقد عصبوه على رأسه ليستريح من الصداع الذي يلحقه من ضرب المنجنيق .

قال فاستشاط السلطان غضبا وفرق تلك الليلة في عسكره كذا وكذا الف فردة نشاب من الخلنج (١٦) غير ماكان من غيرها ، وباكر البلد بالزحف حتى أشرف على الاخذ ، فخرجت اليه السيدة أم محمود ومعها ابنها محمود ، وحملا مفاتيح البلد والقلعة ودخلا تحت طاعته ، ووطئا بساطه ، والناس في خدمته بالميدان صفان ، فدخلت وابنها بين الصفين ، وجعلا يقبلان الارض خدمة له حتى انتهيا اليه ، فأكرمهما وقال للسيدة ، أنت السيدة؟ فقالت: سيدة قومي ، فاستحسن ذلك منها ، ورد البلد على ابنها وأكرمه ، وعاد الى المدينة مكرما مسرورا.

قال : وقصد بتطويل الحصار تعظيم البلدة لكونها مجاورة للروم ، فيقع عندهم أن هذا السلطان مع عظم قدره ، وكثرة عساكره نزل عليها هذه المدة ، ولم ينل منها ما أراد ، فلا يطمع فيها العدو .(٢٨ـ و).

وقيل إن السيدة أقامت في البلد ، وخرج محمود اليه ، وان دخولها عليه كان بالرها ، توجهت اليه وهو متوجه الى حلب . فسألها : أنت السيدة ؟ فأجابته بما ذكرناه

وقرأت بخط ابي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم (١٧) : إن محمود ووالدته خرجا اليه ، فعفا لهما عن حلب بعد أحد وثلاثين يوما من مقامه.

وسمع أن ملك الروم ديوجانس قد خرج من القسطنطينية على

طريق الثغور والدروب ، فرحل عن حلب بعد خروج محمود اليه بخمسة أيام وقصده حتى لحقه على منازكرد ، فحاربه حتى هزمه ، وأسر ملك الروم ، وغنم معسكره ، وكانت عدة الترك ستمائة الف رجل .

وقرأت في بعض التواريخ التي لم يسم جامعها ان الب ارسلان العادل نزل على حلب محاصرا لها في سنة ثلاث وستين واربعمائة وبها محمود بن نصر بن صالح ، ثم ملكها بالأمان ، خرج اليه محمود بن نصر في يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الآخرة من السنة فأنعم عليه وأمنه ، وولاه حلب من قبله .

ثم رحل عنها في الثالث والعشرين من جمادى الأخرة قاصدا بلد الروم في طلب ملكهم وقد توجه الى منازكرد ، فلحقه في عساكره وأوقع به ، فهزمه ، الأتراك ، وحصل ملك الروم اسيرا في أيدي المسلمين ، وصار الى الب ارسلان ، فلم تزل المراسلات بينه وبينه الى أن تقرر إطلاقه (٢٨٠ ـ ظ)على مهادنة منها أن لايعرض لبلاد المسلمين ، ثم سيره الى بلاده ، فيقال إن أهل مملكته قتلوه لأمور نقموها عليه .

قرات بخط الحافظ ابي الخطاب عمر بن محمد العليمي وانبانا به ابو عبد الله بن أحمد بن محمد النسابة عنه قال: وجدت بخط ابي الحسن يحيى بن علي بن محمد بن زريق: ذكر اخبار السلطان الشهيد المعظم الب ارسلان ، ابي شجاع محمد بن داوود ، برهان أمير المؤمنين، نضر الله وجهه، والسبب في وصوله الى الشام:

كان هذا السلطان رحمه الله ولي بعد وفاة عمه السلطان الأعظم ابي طالب طغرلبك بن ميكائيل في سنة سبع وخمسين واربعمائة ، وعمر السلطان طغرلبك على ما ذكر قد اناف على ثمانين سنة ، ونازع السلطان المذكور في المملكة قتلمش ابن عمه ، ولم يثبت لمقاومته ، وذكر أنه لقيه في تسعين الفا ، ومع السلطان يومئذ اثنا عشر الفا ، فكسره ، وانهزم قتلمش على وجهه ، وسقط عن دابته في هزيمته ، فوجد ميتا ، وحمل ودفن

بالري. وكانت الدامغان دار مملكته ، وقيل إن اللقاء بقرب ضيعة تعرف بده نمك ، وكان اخو السلطان قاورت متملك كرمان ، وكان بينهما منازعات ، والت الحال بينهما الى الصلح والاتفاق.

وفي ايامه اغمدت سيوف الفتنة بخراسان ، وبطل ما كان عليه الترك من الفساد والعيث قبل استقرار المملكة ، وانتشر عدله ودعوته.

وكان سبب ظهوره الى الشام ما حدثني به الفقيه ابو جعفر محمد ابن أحمد بن البخاري رسول ناصر الدولة بن حمدان ، المتغلب على مصر اليه ، يستدعي عساكره ليسلم ديار مصر ، ويغير الدعوة ،وذلك لما كان بينه وبين جماعة من الأمراء بمصر منهم يلدكوز وغيره بمصر ، وامير الجيوش بدر الجمالي بالشام ، وكانت المراسلة في سنة اثنتين وستين على يد الفقيه المذكور ، فحين ورد عليه الى خراسان ، جهز العساكر التي تملأ الفضاء وتضيق بها الدهناء ، عُدّة وعِدّة ، ووصل من بلاده على طريق ديار بكر ، ونزل الرها في اول سنة ثلاث وستين ، واقام عليها نيفا وثلاثين يوما ، وسير الفقيه المذكور رسولا الى محمود بن نصر بن صالح صاحب حلب يستدعيه الى وطيء بساطة وخدمته أسوة بمن وفد عليه من الملوك ، مثل شرف الدولة مسلم بن قريش ، وابن مروان ، وابن وثاب وابن مزيد ، وامراء الترك والديلم ، فلم يفعل ، وخاف منه .

فسار عن الرها الى الشام قاصدا له ، وقطع الفرات في النصف من شهر ربيع الآخر من السنة ، وهو اليوم التاسع عشر من كانون الثاني ، وكان قد راسله السلطان في سنة اثنتين وستين يأمره باقامة الدعوة العباسية ، والمسارعة الى الخدمة ، وانفذ له خلعا وتشريفا ، فامتثل امره من إقامة الدعوة للامام القائم بأمر الله امير المؤمنين ، والسلطان المعظم بعده ، ولبس الخطيب السواد ، وبطلت الدعوة المصرية من الشام في شوال من سنة اثنتين وستين.

ولما قطع السلطان المعظم الفرات من نهر الجوز نزل بعض المروج

على الفرات ، فرآه حسنا ، فاعجب به ، فقال له الفقيه أبو جعفر: يامولانا احمد الله تعالى على ما انعم به عليك ، فقال: وما هذه النعمة؟ فقال: هذا النهر لم يقطعه قط تركي الا مملوك وانتم اليوم قد قطعتموه ملوك ، قال: فلعهدي به وقد احضر جماعة من الامراء والملوك ، وامرني باعادة الحديث ، فاعدته ، فحمد الله هووجماعة من حضر عنده حمدا كثيرا.

ونزل السلطان المعظم نقرة بني اسد الى ارض قنسرين الى الفنيدق ، والرسل مترددة الى محمود ليخرج الى الخدمة ، وهو خائف منه ممتنع عليه ، وتمادى الأمر نحو شهرين ، وحصن محمود حلب وجفل الناس من سائر الشام اليها ، ودخل الرعب في قلوب الناس لعظم هيبته وبأسه ونجدته وما اجتمع اليه من العساكر الجمة والجيوش الكثيفة الضخمة ، وكان الأمر بخلاف ما ظن الناس من ذلك الخوف ، وانه رحمه الله لما يئس من خروج محمود إليه عاد منكفئا من منزل يعرف بالفنيدق ، ونزل حلب في أخر جمادى الآخرة من السنة ، وكانت الخيام والعساكر من حلب ، الى نقرة بني أسد الى عزاز الى الأثارب ، متقاربة بعضها من بعض ، وبعض العساكر ببلد الروم وسائر مروج الشام.

وسار بعض عساكره مع ابن جابر بن سقلاب الموصلي أحد الكتاب الى طرابلس لتقرير امرها.

واقام محاصرا لحلب شهر واحد ويومين ، ولم يقاتلها غير يوم واحد ، فحدثني من كان مع محمود صاحب حلب وهو داخل السور لتحريض الناس على القتال في وقت الزحف ، انه لم يعبر محلة من محال حلب الا واهلها قد اشرفوا على الهجم عليهم ، ونقب البرج المعروف ببرج الغنم ، وهو احصن برج بها ، وعلق فظفر اهل حلب بمن دخل ذلك النقب ، فاخذوا بعضهم ووقع الردم على الباقين. وحمل السلطان في ذلك اليوم ، فوقعت يد فرسه في خسف كان هناك ، واصاب في الحال راس فرسه حجر المنجنيق فركب

غيرهـــا وعاد وصرف الناس عن الحــرب بعـــد ان اشرف البلد على الأخذ.

وذكر عن هذا السلطان انه قـــال: اخشى ان افتــح هـــذا الثغـــر بالسيف فيصير الى الروم ، وراســـل الســـلطان امـــراء بني كلاب واحضرهم من البـــرية ، فـــوصلوا إليه ، وعزم على تقليد بعضـــهم وتركه في مقابلة محمود ، وعوده لأجل ما بلغـــه مـــن ظـــهور متملك الروم ووصوله في الخلق العـــظيم الى بـــلاد ارمينية طـــالبا لبـــلاد خراسان ، فشعر محمود بوصول امراء العـــرب ، وانه إن تـــم ذلك خرج الشام مـــن يده ، فـــراسل الســـليماني المتـــردد إليه ، كان في المراسلة ، يعلمه انه قد عزم على وطىء بساطة وخدمته خـــوفا ممـــا اشرف عليه ، وخرج الى السلطان على غفلة منه في أول شعبان مـــن الســـنة ، فـــراى منه مـــن الاكرام والتشريف والخلع مـــا زاد على امنيتـــــه ، وفي الحـــــال رده الى حلب ، وقـــــال: ارجـــــع إلى والدتك ، وكانت والدته المعروفة بالسيدة علوية بنت وثاب قد خـــرجت اليه برسالة ابنها عند كونه بالرها وتردد خروج محمود دفعـــة بعـــد اخرى ، وقرر معه الســـلطان أن يخـــرج بعسكـــره ويضـــيف إليه السليماني ، وأن يتـــوجها الى بـــلاد دمشـــق والأعمـــــال المصرية ليفتحها ، ففعل ما امره به.

وحكى الأمير ابو الحسن علي بن منقـــذ أن خـــواجا بـــزرك (١٨) الوزير سأله عند حضوره عنده وقت خروج محمـــود اليه عمـــن قتـــل بحلب يوم الحرب ، فقال: انهم نفر يسير ، فتعجب من ذلك ، وقـــال: في ذلك اليوم رمي من الخزانة بثمانين الف نشاب ، سوى ما رمـــاه بقية العسكر ، ودفع الله عن أهـــل الشـــام ، ولم يقـــاتل فيه مـــدينة ولاحصن ولا سبيت حرمة ، ولاا عترض لأخذ من المسلمين وذلك مـــن حسن سيرة هذا السلطان ، وعظيم هيبته ، تغمده الله بالغفران.

وعاد السلطان منكفئا الى بلاده على طريق العراق ، معـــرجا منه نحو بلاد ارمينية قاصدا لمتملك الروم ، واسرع في سيره بمـــن خـــف معه ، ووصل فـــالتقى متملك الروم بـــــالقرب مـــــن خـــــلاط وتلك

البلاد ، فاعتبر من وصل معه من عسكره فكانت عدتهم ثلاثة عشر الفا ، وتصاف العسكران في يوم الجمعه ، ووقف السلطان عن قتاله انتظارا لوقت الصلاة والدعاء على منابر الاسلام ، وترقبا للاجابة في نصرة المسلمين ، فلما صلى الظهر ناجزهم الحرب فاظفره الله تعالى بعسكر الروم ، وأجراه على جميل العادة في الظفر ، ومكنه ممن بغى وكفر ، ونهب العسكر بأسره ، واسر متملك الروم ، واقامه بين يديه ومعه باز وكلب صيد ، ثم انعم عليه ، وخلع واكرمه ، واصطنعه وسيره مع قطعة من عسكره ليعده الى بلاده ومملكته ، فاختلت الأمور عليه ، ولم يتم له ما اراد ، وذكر انه كحل ومات بعد مدة.

ولم يجر في الاسلام منذ ظهر مثل هذا الظفر ، ولا أسر للروم متملك قبل هذا في الاسلام ، وكان السلطان سأل متملك الروم عند حضوره بين يديه ماسبب خروجه وتعريضه نفسه وعسكره لهذا السبب ، فذكر انه لم يرد إلا حلب ، إذ كان كلما جرى على الروم كان محمود هو السبب فيه ، والباعث عليه لمن قصدها من الترك . وغنم من هذا العسكر ما يفوت الاحصاء والعد ، وتجاوز الأمد والحد ، وبيع من غنائمه ما يساوي مائة دينار بدينار واحد ، فلله الحمد على ذلك كثيرا .

قلت : ومن ذلك اليوم عرف تل السلطان بتل السلطان لنزول الب ارسلان على التل (٢٨٣ ــ ظ) وكان يعرف المكان أولا بالفنيدق ، وكان فيه فندق صغير يأوي إليه الناس ، شاهدته قبل أن يجدد الأمير سيف الدين علي بن سلمان بن جندر هذا الخان الذي هو الآن موجود .

قرات بخط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه ، في سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، في ذكر العادل الب أرسلان وحصاره حلب قال : حدث الأمير طغتكين صاحب دمشق ابي قال : كنت حامل وراء السلطان حين ضربه حجر المنجنيق ، ولو

سلم ساعة لأخذها ، وكان قد وصل الشام يريد الطلوع الى مصر ليفتحها ، ولو طلع لأخذ البلاد جميعها ، وأخذ مصر.

قال: وحدثني مولاي ابي قال: كانت خيامه من شمالي مسجد مرج دابق الى قناطر قنسرين ، اي موضع عبرت فيه ورايت السرادق والخيام قلت في هذه السلطان.

وقال: قال ابي: وحدثني وزير تاج الدولة أبو النجم (١٩) قال: شرب السلطان على حلب وسكر ، وضل رشده بالسكر ، فقال هاتو الأمير البدوي ، يعني محمود ، لأضرب رقبته ، فجاء الغلمان إلى خواجا بزرك وقالوا : قد قال السلطان كذا وكذا ، فمضى إليه خواجا بزرك ، وقال له : يا سلطان العالم يظهر عنك مثل هذا وكان السلطان قد بلغ منه السكر ، فضربه بالمغسل الذي في دست الشراب ، وقال : اريده ، ففتح أثراً في وجهه (٢٨٤ ـ و) فمضى خواجا إلى جانب السرادق إلى خاتون فقال ، بادرينا يا خاتون وإلا الساعة يتلف العسكر وينهب بعضه بعضا ، كان كذا وكذا ، فقامت تمشي إليه ، فقال لها : خاتون ما جاء بك ؟ فقالت : نم انت سكران ، وتفرقوا ، فلما اصبحت قالت له : ما تحتشم تفتح عليك باب غدر ' قال : لا إن شاء الله ، قالت : بلى البارحة ، اردت تحضر الأمير البدوي وتضرب رقبته ، وأنت قد أعطيته امانك ، هذا وأنت تريد تفتح مصر وما دونها ، وفعلت كذا وكذا بخواجا بزرك قال : والله ما معي علم من هذا جميعه ، ولما حضر عنده خواجا قال له : يا حسن ما هذا الأثر في وجهك ؟ فقال : يا سلطان العالم هذا اثر ، وقعت البارحة وانا خارج من خيمتي ضربني عمود الخيمة ، ولم يعلمه بذلك ، فاستحسن الناس منه ذلك ، ثم رحل السلطان من حلب يريد مصر ، فرحل مرحلة واحدة فجاءه الخبر بأن ملك الروم ديوجانس قد خرج لما راى البلاد خالية من العساكر ، فرحل على ادراجه يريد ملك الروم .

قرات بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين : سار السلطان الب ارسلان ، يعني في سنة ثلاث وستين واربعمائة ، إلى ديار

بكر ، فخرج إليه نصر بن مروان وخدمه بمـائة الف دينار ، وقصـد حلب وحاصرها ، فخرج إليه محمود بن نصر ليلا ، ومعه والدتـه ، فدخلا على السلطان ، فقالت له : هذا ولوي فـافعل بـه مـا تحـب ففعل معه الجميل وخلع عليه ، وغزا السلطان الب ارسـلان بـلاد الروم ، وخرج أمر (٢٨٤ ـ ظ) الخليفة القائم إلى الخطباء على المنابر بالدعاء له بما صيغته :

اللهم أعلي راية الاسلام وناصره ، وانحض الشرك بجب غاربة ، وقطع اواصره ، وامـدد المجـاهدين في سـبيلك الذين في طـاعتك بنفوسهم سمحوا ، وعلى متابعتك فـازوا وربحـوا ، بـالعون الذي تطيل به باعهم ، وتملأ بالأمن والظفر رباعهم ، وأحـب شـاهنشاه الأعظم بـرهان امير المؤمنين بـالنصر الذي تنشر بـه أعلامـه ، وتستبشر بمكانه من اختلاف الظـلال ايامـه ، واوله مـن التـاييد الضاحكة مباسمه ، القائمة اسواقه ومواسمه ما تقوي بـه في إعزاز دينك يده ، ويقضي بأن يشفع يومه في الكفـار غده ، واجعـل جنوده بملائكتك معضودة ، وعزائمه على اليمن والتوفيق معقودة ، فإنه قد هجر في كريم مرضاتك الدعة ، وتاجرك مـن بـذل المال والنفس ما انتهج فيه مسالك أوامـرك الممتثلة المتبعـة ، فإذك تقـول ، وقـولك الحق : « يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسـوله وتجـاهدون في سـبيل الله بـأموالكم وانفسكم" (٢٠) .

اللهم فكما أجاب نداءك ولباه ، واجتنب التثـاقل عن السـعي في حياطة الشريعة وأباه ، ولاقى أعداءك بنفسه وواصل في الانتصـار لدينك يومه بأمسه ، أنت اخصصه بالظفر ، وأعنه في مقاصده بحسن مجاري القضاء والقدر ، وحطه بحرز يدرأ عنه من الأعداء كل كيد ، ويشمله من جميل صـنعك بـأقوى أيد ، وبسر له كل (٢٨٥ ـ و) مطلب يرومه ويزاوله حتى تكون نهضته الميمونة عن النصر مسفرة ، ومقلة أحـزاب الشرك مـع إصرارهـم على الضـلال غير مبصرة فابتهلوا معاشر المسلمين إلى الله تعالى في الدعاء له بنية صافية ، وعزيمة صـادقة ، وقلوب خـاشعة ، وعقـائد في رياض الاخـلاص

رائعة ، وواصلوا الرغبة إلى الله في إعزاز جانبه ، وفل غرب مجانبه ، وإعلاء رايته ، وانالته من الظفر أقصى حده وغايته

وأنفذ السلطان في مقدمته أحد الحجاب ، فصادف عند خلاط صليبا تحته متقدم الروسية في عشرة الاف من الروم ، فحاربوهم ، وأعطى الله المسلمين النصر عليهم ، فأخذ الصليب واسر المقدم ، وتقارب السلطان ، وعظيم الروم في مكان يعرف بالزهرة بين خلاط ومنازكرد في يوم الاربعاء خامس ذي القعدة ، وكان السلطان في خمسة عشر الفا ، وصاحب الروم في مائتين الوف.

وراسل السلطان ملك الروم في الهدنة ، فقال ملك الروم : لاهدنة الا بالري ، فعزم الله على السلطان على الرشد، ولقيه يوم الجمعة وقت الزوال ، وهو سابع ذي القعدة ، وأعطى الله المسلمين النصر فقتلوا منهم قتلا ذريعا ، وأسر ملك الروم ، وضربه الب ارسلان ، ثلاث مقارع ، وقطع عليه الف الف وخمسمائة الف دينار ، واي وقت طلب السلطان عساكر الروم نفذها ملكهم اليه ، وأن يسلم كل أسير من المسلمين عنده (٢٨٥ ــ ظ)(٢١)

ذكر صاحب ملك نامه الذي صنفه لألب ارسلان محمد بن داود أنه استفاد انسابهم وأحسابهم من الأمير اينانج بك اذ كان أسن القوم واعرفهم بأنسابهم واحسابهم ، قال : كان الأمير سلجوق بن دقاق من أعيان ترك خزر ، وكان دقاق يلقب بتمر بالغ اي شديد القوس .
قال اينانج بك : لما مر زمان على الأمير دقاق ، ولد له مولود مبارك سماه سلجوقا ، وكان يلقبه بسباشي ، يعني مقدم الجيش ، وكان لسلجوق اربعة اولاد : ميكائيل ، وموسى ، وارسلان الملقب بيبغو اكلان ، وأخر توفي زمن شبابه.

وكان للأمير ميكائيل بن سلجوق ولدان: طغرلبك ، وداود جغري بك فعلى هذا يكون الب ارسلان محمد بن جغري داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق.
وقرات في بعض التواريخ أن اباه جغري بك عهد اليه في سنة إحدى وخمسين واربعمائة حين مرض باليرقان، وضعف مزاجه ، وجهز

اليه السلطان مودود(٢٢)جيشا الى خراسان ، ففوض ولاية عهده الى ابنه الب أرسلان ، فاقام الب ارسلان ببلخ مدة حتى انكشف عنه وعثاء السفر.

ولما سمع مودود بذلك جمع الجنود ، ولزموا مكانهم ، فحمل عليهم السلطان الب ارسلان حمله ساق التقدير منها الى جيوش غزنة قتلا ذريعا ، وانهزاما سريعا ؛ واسر الب ارسلان الف رجل من القواد ، وغنم من الخيل والسلاح مالا يدخل في الحساب ، فلما دخل على ابيه جغري بك سر بذلك وزال (٢٨٦ ـ ظ) مرضه ، ثم سار بعد ذلك جغري بك الب ارسلان الى ترمذ ووالي القلعة بها الكاتب البيهقي (٢٣) ، فخرج منها ، وتوجه الى غزنة ، وسلمها الى جغري بك ، ففوض جغري بك ولاية بلخ وطخيرستان وترمذ وخشوولوالج الى الب ارسلان ، وشد ازره بوزارة ابي علي بن شاذان ، فعمر بلاده بحسن كفايته ، ولما قرب موته سال الب ارسلان ان يفوض الوزارة بعده الى نظام الملك

ثم ورد خاقان الترك ترمذ وخربها ونهبها ، فطرده الب ارسلان عنها فمضى الخاقان وخيم على جيحون من جانب بخارى ، وطلب المصالحة ، مصالحة جغري بك ، واجتمع به ، ثم افترقا ، واثر المرض في جغري بك ، وزاد ضعفه ، وكان عمره سبعين سنة ، فقضى نحبه في صفر سنة اثنتين وخمسين واربعمائة في سرخس ، وقام مقامه في الملك السلطان الب ارسلان ، وكان ملكشاه حينئذ ابن ست سنين ، وعاش طغر لبك السلطان بعد جغري بك ثلاث سنين .

قرات في كتاب الربيع تاليف غرس النعمة ابي الحسن محمد بن هلال ابن الحسن بن ابراهيم بن هلال الصابيء ، واخبرنا به ابو محمد إبن عبد اللطيف بن يوسف بن علي البغدادي وغيره اجازة عن ابي الفتح محمد بن عبد الباقي بن البطي قال : انبانا ابو عبد الله الحميدي قال : اخبرنا غرس النعمة ابو الحسن قال : حدثني بعض الخراسانية ، قال : خرج الب ارسلان بن داود ، الملقب عضد الدولة ، وهو صبي الى الصيد فرأى شيخا ضعيفا على رأسه شوك قد قطعه

وتعب به ، وهو ذا يقاسي (٢٨٧ ـ و)من حمله شدة وصعوبة فقال له:ياشيخ قال : لبيك ، قال : اتحب ان اريحك مما انت فيه من هذا الكد والتعب والنصب مع الشيخوخة وكبر السن ؟ فظن الشوكي انه يعطيه ما يكفه به عن ذاك ويعينه ، فقال : اي والله يا مولاي ، فرماه بنشابة قتلته مكانه .

وهذا صدر من الب ارسلان في حال الصبوة والجهل ، وحمله عليه سكر الشباب ، اما في حالة اكتهاله واستقراره في الملك ، فكان من اعدل الملوك واحسنهم سيرة وارغبهم في الجهاد ونصرة الدين .

قرات في منتخب من كتاب زبدة التواريخ للامير ابي الحسن علي بن الشهيد ابي الفوارس ناصر بن الحسيني قال : لما استبد السلطان الب ارسلان بالامر ، واستوى على سرير الملك بسط على الرعايا جناح العدل ومد عليهم ظل الرافة والبذل ، وقنع من الرعايا بالخراج الاصلي في نوبتين من كل سنة ، وكان يتصدق في كل سنة في شهر رمضان باربعة الاف دينار ببلخ ، والف بمرو ، والف بهراة ، والف بنيسابور ، ويتصدق بعشرة الاف في حضرته .

وكتب السعاة اليه سعاية بنظام الملك ، وتعرفا بمكاسبه ، ووضعوه على طرف مصلاه ، فدعا السلطان نظام الملك وقال له : خذ هذا الكتاب فان صدقوا فيما كتبوه فهذب اخلاقك ، واصلح احوالك ، وان كذبوا فاغفر الجارم ، واشغل الساعي بمهم من مهمات الديوان حتى يعرض عن الكذب والبهتان (٢٤).

قرات بخط ابي غالب بن الحصين : في شهر رمضان ـ يعني من سنة ست وخمسين واربعمائة ـ وصل ركابي من تبريز بكتاب من نظام الملك يخبر ان السلطان الب ارسلان اوغل في الغزاة ببلاد الخزر ، وبلغ حيث لم يبلغ احد من الملوك ، وافتتح بلدا عظيما يسمى اسد شهر ، وقتل نحو ثلاثين الف رجل ، وسبى ما يوفي على خمسين الف مملوك ، وهادن ملك الابخاز ، وعاد من ذلك الثغر ، ونزل على مدينة آني من بلاد الروم ففتحها عنوة وهي مدينة عظيمة تشتمل على سبعمائة الف دار ، واسر منه خمسمائة الف انسان .

قال : وهو اول من ذكر على منابر مدينة السلام بالسلطان عضد الدين الب ارسلان .

وقرات بخط ابي غالب ايضا ، سنة خمس وستين واربعمائة : في اولها غزا السلطان الب ارسلان جيحون ، وكان معه زيادة على مائتي الف فارس ، وعبر عسكره اليهم في نيف وعشرين يوما من صفر ، وكان قد قصده شمس الملوك تكين بن طمغاج ، واتاه واصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمي ، وحمل الى قرب سريره ، وهو مع غلامين ، فتقدم بان يضرب له اربعة اوتاد ، وتشد اطرافه اليها ، فقال : يا مخنث مثلي يقتل هذه القتلة ! فاحتد السلطان الب ارسلان ، واخذ القوس والنشابة ، وحرص على قتله ، وقال للغلامين : خلياه فخلياه ورماه ، فاخطاه ، ولم تخطىء له قط نشابة غير هذه ، فعدا يوسف اليه وكان السلطان جالسا على سدة ، فنهض ونزل فعثر ووقع على وجهه ، وقد وصله يوسف فبرك عليه وضربه (٢٨٨ ــ و) بسكين كانت معه في خاصرته ، ودخل السلطان الى خيمته وهو مثقل ، ولحق بعض الفراشين يوسف فقتله بمروة كانت في يده ، وقضى الب ارسلان نحبه ، وجلس للعزاء به ببغداد ثامن جمادى الاخرة ، ومولده سنة اربع وعشرين واربعمائة ، وبلغ من العمر اربعين سنة وشهرين ، ودفن السلطان الب ارسلان عند قبر ابيه بمرو .

اخبرنا ابو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي قال : اخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني قال : ملك البلاد الب ارسلان وهو محمد بن داود ، كسر قتلمش بنيه نمك في ذي الحجة سنة خمس وخمسين ، واستخلص الملك ، وغزا الروم في شعبان سنة ثلاث وستين ، وكسر الروم ، واسر ملكهم ، ونودي عليه في السوق ، ثم من عليه وخلاه ، ورده الى ملكه ، وقتل ببليدة يقال لها نرزم على طرف جيحون ، سلخ صفر ، او غرة شهر ربيع الاول من سنة خمس وستين واربعمائة ، وحمل الى مرو ، ودفن بجنب ابيه .
انبانا عمر بن طبرزد عن ابي القاسم بن السمر قندي عن محمد

ابن هلال قال : حدثني ابو الحسن البصروي الشاعر قال : رايت ابا طاهر بن ابي قراط العلوي في المنام وانا اقول له : ما فعل الله تعالى بك ، وكنت اعلم فساد اعتقاده ، فلم يجبني ، فلما كررت عليه القول وهو في حاله في ترك الاجابة قال لي : دع عنك هذا فقد ضرب الله نيسابور اثنتين وسبعين عصا ، وانتبهت ، ففسرته على بعض من يدخل الي ممن له بذلك معرفة ، فقال : عد يا سيدنا اثنين وسبعين يوما وانظر ما يتجدد بنيسابور ، فكان قتل عضد الدولة الب ارسلان ابن داود سلطانها على جيحون في الجانب الشرقي ، وقد عبر لقتال شمس الملك بن بوريخان صاحب سمر قند وبخارى وتلك الاعمال في اليوم الثالث والسبعين من المنام ، وكان ذلك عجيبا ، ويقال ان اهل بخارى وسمر قند وما يتاخمها من الاعمال اجتمعوا بسمر قند لما اظلتهم من عساكر الب ارسلان وكانت عظيمة ، والاكثر يقول :انها قاربت مائتي الف فارس ، وان لم يكن لسلطانهم ولهم به قوة ، وبدا الاجتياح والنهب في الاعمال ، وبات صلحاء الناس بسمر قند في الجامع مدة اسبوع يصومون ويفطرون على الرماد والملح ، ويدعون الله كفايتهم ما قد اظلهم وامر من قد قصدهم ، فلم تنسلخ ايام الاسبوع حتى ورد اليهم خبر قتله ، وان يوسف احد اصحاب شمس الملك لما اخذ من قلعة هناك احضر بين يديه ، فتهدده وتوعده ، ثم ضرب اليه نشابة ، وقال لغلامين اتراكا كانا يمسكانه: خلياه ورماه فلم يصبه ، وعدا اليه يوسف فبرك عليه وجرحه بسكين كانت في خفه جراحة عاش منها ثلاثة ايام ومات.

الب ارسلان بن رضوان بن تتش

(من بغية الطلب لابن العديم)

الب ارسلان ، ويسمى محمد ايضا ، بن رضوان بن تتش بن الب ارسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق ، ابو شجاع ، الملقب تاج الدولة ، الاخرس ، والب أرسلان الذي قدمنا ذكره جد ابيه.

ملك حلب حين مات ابوه رضوان وهو صبي ، وتولى تدبير امره خادم ابيض كان من خدم ابيه اسمه لؤلؤ (٢٨٨ ـ ظ) ويعرف باليايا ، فلم تتم له سنة حتى قتله غلمانه بالمركز من قلعة حلب ، ووافقهم على ذلك لؤلؤ اليايا .

وكان الثغ لايحسن الكلام فدعي بالاخرس لذلك . وكان مهورا قليل العقل ، سفاكا للدم منهمكا في المعاصي .

سمعت والدي رحمه الله يقول : جمع تاج الدولة الاخرس بن رضوان جماعة من الامراء والاجناد وادخلهم الى موضع بالقلعة شبيه بالسرداب او المصنع لينظروه ، فلما حصلوا كلهم فيه قال لهم: ايش تقولون فيمن يضرب رقابكم كلكم ها هنا ، فتضرعوا اليه ، وايقنوا بالقتل ، وقالوا : يامولانا نحن مماليكك وبحكمك ، وخضعوا له حتى اخرجهم ، ثم انهم خافوا على انفسهم منه فاجمعوا على قتله فقتلوه .

وقال لي الامير بدران بن جناح الدولة حسين بن مالك بن سالم : كان جدي مالك من جملة الامراء الذين فعل بهم ذلك ، فلما نزل من القلعة سار عن حلب الى قلعة جعبر ، وترك المقام بحلب خوفا على نفسه .

قال : ومضى اكثر الامراء من حلب من خدمته الى ان قتل ، عمل

عليه لؤلؤ الخادم مملوك ابيه مع جماعة من الامراء ، فقتلوه .
قال : ثم ان لؤلؤ خاف فاخذ الاموال من قلعة حلب ، وسار طالبا بلاد الشرق ، فلما وصل الى دير حافر قال سنقر الجكرمشي : تتركونه يقتل تاج الدولة ، وياخذ الاموال ، ويمضي! فصاح بالتركية ـ يعني ـ الارنب الارنب ، فضربوه بالسهام فقتلوه .

قال : ولما هرب لؤلؤ (٢٨٩ ـ و) اقامت القلعة في يد أمنة خاتون بنت رضوان يومين فلما قتل لؤلؤ ، ملكوا سلطان شاه بن رضوان . هكذا قال لي ، ولؤلؤ، هو الذي نصب سلطان شاه بعد قتل اخيه ، وبقي سنة وثمانية اشهر يدير دولته .

وقرات في كتاب عنوان السير تاليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وولي بعده ـ يعني رضوان ـ ابو شجاع محمد بن رضوان ، وكان لايحسن ان يتكلم ، واستولى على حلب وله من العمر تسع عشرة سنة ، وقتل خلقا من اصحاب ابيه ، فاغتاله خادم كان خصيصا به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمسمائة ، وكان ملكه بحلب سنة واحدة.

قال لي بدران بن حسين بن مالك : بلغني ان تاج الدولة الاخرس خرج يوما الى عين المباركة ، ونصب بها خيمة ، واخذ معه اربعين جارية ، ووطئهن كلهن في ذلك اليوم .

انبانا ابو نصر محمد بن هبة الله بن محمد القاضي قال : اخبرنا الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن الدمشقي قال : الب ارسلان بن رضوان بن تتش بن الب ارسلان التركي ولي امرة حلب بعد موت ابيه رضوان في جمادى الاخرة سنة سبع وخمسمائة وهو صبي عمره ست عشر سنة ، وتولى تدبير امره خادم لابيه اسمه لؤلؤ ، ورفع عن أهل حلب بعض ما كان جدد عليهم من الكلف ، وقتل اخويه ملك شاه وميريجا (٢٥) ، وقتل جماعة من الباطنية ، وكانت دعوتهم قد ظهرت في حلب ايام ابيه ، ثم كاتب (٢٨٩ ـ ظ) طغتكين امير دمشق ، ورغب في استعطافه ، فأجابه طغتكين الى ذلك ، ودعا له على منبر دمشق في شهر رمضان من هذه السنة ، ثم قدم الب ارسلان في

هذا الشهر دمشق ، وتلقاه طغتكين واهـل دمشـق في احسـن زي ، وانزله في قلعة دمشق ، وبالغ في اكرامه ، فاقام بها ايامـا ، ثـم عاد الى حلب في اول شوال ، وصحبه طغتكين ، فلمـا وصـل حلب لم ير طغتكين ما يحب ففارقه وعاد الى دمشق .

وساءت سيرة الب ارسلان بحلب وانهمك في المعاصي واغتصـاب الحرم ، وخافه لؤلؤ اليايا ، فقتله بقلعـة حلب في الثـامن مـن ربيع الاخر من سنة ثمان وخمسمائة ، ونصب اخا له طفـلا عمـره سـت سنين ، وبقي لؤلؤ بحلب الى ان قتل في اخر سنة عشر وخمسمائة (٢٦).

قرات في مدرج وقع الي بخط العضد مرهف بن اسامة بـن منقـذ فيه تعاليق من الحوادث في السنين قال : وفيها ـ يعني سنة ثمـان وخمسمائة ، قتل الاخرس ابن الملك رضوان في يوم الاثنين خـامس شهر ربيع الاخر .

قلت : ومن العجب العجيب الذي فيه عبرة لكل اريب ان رضـوان لما ملك حلب قتل اخوين كانا له ، فقـوبل في عقبـه ، فلمـا ولي الب ارسلان قتل اخويه ابني رضوان .

نقلت من خط ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، وانبـانا بـه ابو اليمن الكندي عنه قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها : مات الملك رضوان بحلب ، وجلس موضعه ولده تاج الملوك الب ارسلان ، وصار اتابكه لؤلؤ الخادم ، وقتلوا من الخدم والخواص جمعا حتى استقام امرهم ، وقبض على اخوته ،وفيها قتل تاج الدولة بن الملك رضـوان اخوته ملك شاه وابراهيم صبيين احسن الناس صورا ، وقتل خادم ابيه التونتاش المجني ، وقتل الفتكين الحاجب وخافه الناس ، فالب عليه خادمه اتابكه لؤلؤ من قتله .

ثم قال : سنة ثمان وخمسـمائة ، فيهـا ، قتـل تـاج الدولة الب ارسلان بن رضوان صاحب حلب بداره في قلعة حلب بتدبير اتـابكه لؤلؤ ، واجلسوا موضعه اخاه الملك سلطان شاه بن رضوان (٢٧).

كذا قال العظيمي :« ملك شاه وابراهيم » وهــو وهــم وانمــا هــو وميريـبا ، واما ابراهيم فانه اخر من بقي من ولد رضوان ، ولم يبق من ذرية رضوان الا عقبة الى يومنا هذا.(٢٩٠ ــ و).

بدر الجمالي

(من المقفى للمقريزي ــ مجلدة برتو باشا

بدر ابو النجم الجمالي المنعوت بالسيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين . كان مملوكا ارمنيا لجمال الدولة ابي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس الشام ، وما زال ياخذ نفسه بالجد من زمن الشبيبة فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم ، وينتقل في الخدم الى ان ولي دمشق من قبل المستنصر بالله في يوم الاربعاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الاخر سنة خمس وخمسين واربعمائة ، فتسلمها ومعه الشريف القاضي ثقة الدولة ذو الجلالين (٢٤٢ ــ و) ابو الحسين يحيى بن زيد الحسيني الزيدي ناظرا في الاعمال ، واقام بها الى ان خرج منها كالهارب من اهلها في ليلة الثلاثاء لاربع عشرة خلت من شهر رجب سنة ست وخمسين ، ثم وليها ثانيا يوم الاحد السادس من شعبان سنة ثمان وخمسين ، فاقام بها الى ان بلغه قتل ولده بعسقلان ، فخرج منها ونزل على مسجد القدم خارج دمشق في شهر رمضان سنة ستين واربعمائة ، فخرج الاحداث والعسكرية الى قصره واحرقوه .

وفي سنة اثنتين وستين نزل على صور وحاصر القاضي عين الدولة ابا الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن ابي عقيل الغالب عليها ، ثم حصره في سنة ثلاث وستين.

وتتابع وصول الاتراك من العراق الى اعمال فلسطين والساحل وبلاد الشام مع اتسز بن اوق الخوارزمي واخوته جاولي والمامون وقرلو وشكلي ، واخذوا اعمال فلسطين ، واختلفوا هناك فصار بعضهم مع امير الجيوش بدر بعكا وبلاد الساحل التي هي في يده ، وبعضهم مع القاضي عين الدولة محمد بن ابي عقيل صاحب صور ، .

وبقي اتسز بن اوق الخوارزمي واخوه بفلسطين ، واستولى على الرملة وطبرية والقدس ، فلم يزل امير الجيوش بعكا الى ان انتهكت حرمة المستنصر بتغلب ناصر الدولة الحسن بن حمدان الى ان قتل ، فاستطال عليه الامير يلد كوز والاتراك والوزير ابن ابي كدينة ، فكتب الى امير الجيوش كتابا من املاء الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر بن المغربي ، وهو يومئذ يتولى الانشاء ، يستدعيه للقدوم عليه وانجاده من جملته :

«فإن كنت ماكولا فكن خير اكل »، والا فادركني ولما امزق

فلما بلغه الكتاب قال : لبيك وكررها ثلاثا ، وكتب الى المستنصر يشترط عليه انه لايقدم الا بعسكر معه ، وانه لايبقي على احد من عساكر مصر ، فانعم له بذلك ، فسار من عكا بمائة مركب مشحونة بالارمن وغيرهم من العسكر ، فنهاه الناس عن ركوب البحر من اجل ان الوقت شتاء في كانون الاول ، فابى ونزل على دمياط بعد (٢٨) يومين من اقلاعه ، فزعم البحرية انهم لم يعرفوا صحوة تمادت اربعين يوما في الكوانين الا هذه ، فكان هذا الامر بدء سعادته ، واستدعى تجار تنيس واقترض منهم مالا ، واقام له سليمان اللواتي بالعليق وغيره من الضيافة ، وسار الى ظاهر قيلوب ، وبعث الى المستنصر يقول له : لاادخل الى القاهرة ما لم يقبض على يلد كوز ، فامسكه ، وعبر امير الجيوش عشية يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ست وستين واربعمائة ، ودخل على المستنصر ، فاستدعاه وقربه ، ودعا له وشكر سعيه ، وبالغ في كرامته ، وقرر ان يكون السفير بينه وبين امير الجيوش الوزير ابن المغربي كاتب الانشاء ، فصار ابن المغربي اليه وعرفه ما فيه الغرض ، وصار من خواصه ، ولم يكن عند اهل الدولة علم من ان المستنصر استدعاه وظنوا انه قدم زائرا فلم يتاخر احد منهم عن ضيافته والقيام بما يتعين من كرامته وقدموا اليه اشياء كثيرة (٢٩). وحين كملت خدمة الجميع استدعى الامراء الى دعوة صنعها لهم وقرر مع خواصه انه اذا بات الامراء ، وجهم الليل ، فانه لابد لكل واحد منهم ان يصير الى الخلاء لقضاء حاجته فمن صار منهم الى الخلاء يقتل فيه ،

ووكل بكل امير منهم واحدا من اصحابه(٣٠)وجعل له سائر ما هو بيد ذلك الامير من اقطاع وجار ودار ومـال وجـواري وغير ذلك ، فلمـا حضر الامراء عنده وقام لهم بما يليق بهم ظلوا نهارهم عنده(٣١)وهم في ارغد العيش ، وباتوا مطمئنين اليه .فلم يطلع الفجر حتى استولى اصحاب امير الجيوش على بيوت الأمراء . وصارت رؤوس الامراء بين يديه ، فقويت شوكته وانبسطت يده ، وخلت الديار له من منازع ، فاستدعاه حينئذ المستنصر وقرره في الوزارة ، ورد اليه الامور كلها ، وعاهده على ذلك ، وكتب له سـجل نعـت فيه بـالسيد الاجـل امير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين ، وصار القاضي والداعي نائبين عنه يقلدهما (٢٤٢ ـ ظ) هو ، وكان من جملة ما في سجله بعد التقـريظ الكبير : وقـد قلدك امير المؤمنين مـن ذلك ، مدبرا للبلاد ، مصلحا للفساد ، ومدمرا لاهـل الفسـاد ، وخلع عليه بالعقد المنظوم بـالجوهر بـدل الطـوق الذي كان للامـراء ، وزيد له الحنك الذي يعرف اليوم باللثام مع الذؤابة المروحاه ، وهـي التـي يقال لها العذبة ، وجعل له الطيلسان المقور ، ويعرف اليوم بالطرحة وهي التـي يلبسـها قـاضي القضـاة ، ونزل الى داره ، فحضر اليه المتصدرون بالجامع للسلام عليه ، وقرأ القارىء : « ولقد نصركم الله ببدر»(٣٢)وسكت عن تمام الآية ، فقال له بـدر : والله لقـد جـاءت في مكانها ، وجاء سكوتك عن تمام الآية احسن ، وانعـم عليه وشرع في تدبير الاحوال ، واستبد بأمور الدولة وحجرعلى المستنصر أتم حجر وكبر أمره واخذ في تلافي ما انتهك من حرمته ، وكانت الاحوال قـد فسدت والامور قد تغيرت ، وطوائف العسكر قد انتشرت ، والوزراء (٣٣) «يقنعون بالاسم دون نفاذ الامر والنهي ، والرخاء قد ايس منه ، والصلاح لايطمع فيه ، ولو انه قد ملكث الوجه البحري كله ، والعبيد في الصعيد ، والطرقات قد انقطعت برا وبحرا الا بـالخفارة الثقيلة ، والخراب قد شمل مدينة مصر والعسكر .

فتجرد لازالة الفساد ، وساعدته الاقدار حتى اشاد دولة جـديدة واستعاد ما كان قد تغلبت عليه امراء البلاد وقضاتها مثل عسـقلان وصور وطرابلس وقتل سائر اهـل الفسـاد ، وانشـا داراً بحـــارة

برجوان من القاهرة ، وسكنها فعرفت بعده بدار المظفر ، وقتل من اماثل المصرين وقضاتهم (٣٤) ووزرائهم واعيانهم خلقا كثيرا ، وقدم اليه عدة من طوائف الارمن تقوى بهم .

فلما دخلت سنة سبع وستين حاصر شكلي اخو اطسز الخوارزمي ثغر عكا واخذه بالسيف ، وكان بـه اولاد امير الجيوش واهله ، فلم يعترضهم بسوء واحسن اليهم ، وبعثهم اليه .

وفيها سار امير الجيوش الى الوجه البحري ، واوقع بعرب لواته وهزمهم ، وقتل مقدمهم سليم اللواتي وولده ، واستصفى اموالهما ، ثم سار الى دمياط وقتل عدة من المفسدين واحرقهم ، واصلح سائر البر الشرقي من مصر ، ثم عدا الى البر الغربي ، وقتل من الطائفة الملحية واتباعهم بالاسكندرية عددا كبيرا ، بعدما اقام اياما على الاسكندرية يحاصرها حتى اخذها من الملحية عنوة ، وعفا عن اهل البلد ، فلم يضرهم بشيء .

وفي سنة تسع وستين اجتمع كثير من عرب جهينة ، والجعافرة ، والثعالبة وغيرهم بمدينة طوخ العليا من صعيد مصر ، واتفقوا على محاربة امير الجيوش ، فخرج اليهم ، وسار حتى كان قريبا منهم ونزل تجاههم واقام الى نصف الليل ثم امر فضربت طبوله ، واشتعلت المشاعل ، واكثر من وقود النار ، وضرب الطبول والبوقات وصرخ كل من في عسكره ، وحملوا حملة واحدة على العرب ، فقتل اكثرهم بالسيف ، وانهزم باقيهم فغرقوا ولم ينج منهم الا القليل ، واحتوى من اموالهم على ما لايحد كثرة وبعثها للمستنصر .

ثم سار الى اسوان وبها كنز الدولة محمد قد تغلب عليها ، وعظم شانه ، وكثرت اتباعه ،فقاتله وقتله ، وبنى في موضع الوقعة مسجدا سماه مسجد النصر ، ثم عاد الى القاهرة ، وقد صلحت ارض مصر كلها اعلاها واسفلها ، وزالت العربان والعساكر المفسدة منها . وقدم اتسز بن اوق الخوارزمي في مدة غيبته ببلاد الصعيد الى القاهرة يريد الاستيلاء عليها ، فقابله (٣٥) المستنصر وهزمه

ثم خرجت عرب قيس وعرب فزاره وسليم عن الطـاعة ، فخـرج اليهم وقاتلهم وهزمهم الى برقة .

ثم ندب في سنة سبعين واربعمائة العساكر الى دمشق وقدم عليها نصر الدولة ايتكين الجيوشي، فسار اليها وحاصرها مدة ايام ، ثـم رجع ، فلما كانت سنة اثنتين وسبعين سير عسكرا اخر فحاصرها (٣٤٢ ـ و)حتى اشرف على اخذها ، ثم عاد خوفا مـن قـدوم تـاج الدولة تتش .

وفي سنة سبع وسبعين عصى الاوحد بـن امير الجيوش على ابيه بالاسكندرية وصار في جمع كبير مـن العـرب فسـار اليه وحـاصر الاسكندرية الى ان اخذها وقبض على ولده ، وقتل كثيرا من الناس واغرم اهل البلد مالا كثيرا ، وبنى بها الجـامع المعـروف بجـامع العطارين ، وقتل ابنه .

فلما كانت سنة اثنتين وثمانين واربعمائة جهز جيشا اخذ صـور وصيدا ، وفتح جبيل وعكا ، وكانت بيد تاج الدولة تتش ، واخـذ عدة من اصحابه وقبض منهم مالا كثيرا من ذخائر تتش .

وفي سنة خمس وثمانين انشا باب زويلة الكبير على ما هـو عليه الان ، وانشا باب الفتوح ، وباب النصر ، بناها له ثلاثة اخـوة مـن اهل الرها ، ولم يزل على قوة وسداد من امره الى ان مـات ، بعـد مرض طويل اسكت فيه مدة ولم يقـدر على الكلام ، في ذي القعـدة ، وقيل في شهر ربيع ، وقيل في جمـادى الاولى سـنة سـبع وثمـانين واربعمائة عن ثمانين سنة ، منها مدة تحكمه بـديار مصر زيادة على عشرين سنة ، وكان شديد الهيبة ، مخوف السـطوة ، كثير البـطش قتل في سلطنته خلقا لاتعد مـن كبـار المصريين وقـوادهم وكتـابهم ووزرائهم ، وقد ذكره الشريف ابو يعلي محمد بن محمد بن الهبارية في كتاب الصادح والباغم فقال :

كان بمصر بدر

له عليها الامر

يقتل كل ساعة
من اهلها جماعة
ويشرب الدماء
حتى تخال ماء
اصلحها بسيفه
وجوره وحيفه
جزاء كل فعل
لديه سوء القتل
لما عصاه ولده
وبان منه نكده
خنقه بيده
ثم رمى بجسده
فغضب المستنصر
وقال هذا منكر
فقال : لو عصاني
قلبي من جثماني
نزعته من صدري
ولم يكن بنكر
ثم غزا لواته
اذ ظنهم حماته
فحين قيد الاسرى
قال اقتلوهم صبرا
عشرين الفا كانوا
حتى جرى الميدان
في النيل من دمائهم
ولج في افنائهم

وهو على ظهر الفرس
كضيغم اذا افترس

ومات حتف انفه
لم يعتسف بعسفه(٣٦).

وكان واسع النفس بحيث انه كان عنده وهو بعكا ثلاثمائة قنطار بالشامي سكرا ، فعز في سنة اثنتين وستين واربعمائة السكر بعكا ، وبلغت قيمة القنطار الى خمسين دينارا وطلب فلم يوجد في اول شهر رجب منها ، فقيل لبدر ثمن السكر الذي عندك خمسة عشر الف دينار تبيعه او بعضه ، فامتنع وقال : نحن نحتاج اليه في هذه الشهور ، يعني رجب وشعبان ورمضان ، فاستعملت كلها(٣٧) في مطابخه ، وسمحت نفسه باتلاف هذا المبلغ الكبير من الذهب .

وعلى يده صلحت ارض مصر وعمرت بعد تحكم الفساد بها وخرابها ، ومن محاسن سيرته انه اباح الارض لمن يزرعها مدة ثلاث سنين حتى تراجعت الى الفلاحين احوالهم واستغنوا في ايامه ، ومنها انه بسط العدل فامنت الطرق .

وحضر الى القاهرة ومصر كثير من التجار وارباب الاموال بعد انتزاحهم عنها في ايام الشدة .

ومنها كثرة كرمه وقد حكى ان علقمة بن عبد الرزاق العليمي قصده فاذا على بابه اشراف الناس واكابرهم فلم يتجاسر على العبور الى مجلسه وبقي اياما الى ان (كان) خروج امير الجيوش يريد الصيد فوقف له على تل رمل واشار برقعة في يده وانشد :

نحن التجار وهذه اعلاقنا
در وجود يمينك المتاع
(٢٤٣ ــ ظ)
قلب وفتشها بسمعك انما
هي جوهر تختاره الاسماع

كسدت علينا بالشآم وكلما
قل النفاق وتعطل الصناع

فأتاك يحملها اليك تجارها
ومطيها الآمال و الاطماع

حتى اناخوا ببابك والرجا
من دونك السمسار والبياع

فوهبت ما لم يعطه في دهره
هرم ولا كعب ولا القعقاع

وسبقت هذا الناس في طلب العلى
والناس بعدك كلهم اتباع

يا بدر اقسم لو بك اعتصم الورى
ولجوا اليك بعدك كلهم ما ضاعوا (٣٨)

قال العليمي : وكان بيده باز فدفعه لاحد مماليكه وجعل يستعيد الابيات وانا معه الى ان استقر في مجلسه ، فلما اطمأن (٣٩) قال للحاضرين: من احبني فليخلع عليه فخرجت من عنده ومعي سبعون جملا يحملون انعامه،وأمر لي من ماله بعشرة الاف درهم •

وهو اول من ولي في الدولة الفاطمية الوزارة من ارباب السيوف واقام دولة الأرمن بديار مصر •

بشارة الاخشيدي الخادم

(من المقفى المقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

فلما مات سيف الدولة بن حمدان بحلب سار بتابوته الى ديار بكر بشارة الخادم وتقي ، في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاثمائة وكان بينهما منافرة ، فاذاع تقي (٤٠) عن بشارة انه كاتب حمدان بن ناصر الدولة وكان قد غلب على الرقة (٤١) عند وفاة عمه سيف الدولة وحثه (٤٢) على أخذ حلب وكتب تقي الى قرعوية القائم بضبط حلب نيابة عن سعد الدولة ابي المعالي شريف بن سيف الدولة فقبض قرعوية على اسباب بشارة بحلب.

فما بلغ ذلك بشارة داخل تقي ووانسه ، فأنس به ، وصفي بنيته له واطلعه على انه يريد ديار بكر ليعمل على ابي المعالي شريف بن مولاه ويقبض عليه، ويملك التدبير وضمن لبشارة انه يسلم له ميافارقين ، فاظهر له بشارة القبول ، وسار بمسيره الى قريب من ميافارقين فكتب بشارة مع من يثق به الى ابي المعالي يحذره الخروج الى (٢٤٨٧ ـ و) لقاء تابوت ابيه ويعرفه ما عزم عليه تقي

فلما قرب تقي كتب اليه بخبر التابوت وان يخرج لتلقيه ، فاظهر ابو المعالي علة وامتنع عن الركوب ، واخرج كل من في البلد لتلقيه ، وضرب تقي مضاربه ولم يدخل المدينة(٤٣)، ووكل بابوابها الرجال ، فطلع بشارة على السور، وغلق الابواب وخاطب اصحابه عن الامير ابي المعالي بكل جميل ، فانقلبوا عن تقي ، وبطل ما دبره ، وسلمه الى بشارة فقتله.

وسار الى حلب في رجب منها ومعه بشارة فلم يزل عنده اسيرا الى ان مات في رمضان سنة احدى وثمانين وثلاثمائة وبايع اجناده كلهم ابنه ابا الفضائل سعيد بن شريف الا بشارة استأمن الى

العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله (٤٤) معد الفاطمي في نحو اربعمائة غلام ، وقدم عليه بالقاهرة ومعه وفاء الصقلبي ايضا في ثلاثمائة غلام ، فقبلهم العزيز ، وكان يميل الى الاتراك اكثر من المغاربة لاسيما الحمدانية لشدة باسهم، وفضل النجدة فيهم •

وولي بشارة طبرية وولي وفاء ثغر عكا ،وولي رباحا قيسارية وذلك في سنة احدى وثمانين وثلاثمائة فاستجلب بشارة من جند حلب عدة وضبط الامور وعمل وقوي امره بطبرية ولما خرج بلتكين التركي من القاهرة على عسكر كبير لقتال (دغفل)(٤٥) بن الجراح سار اليه بشارة من طبرية ليكون عونا له على ابن الجراح فلقيا ابن الجراح وهزماه عن الرملة ، وسارا الى دمشق وفيها قسام فقاتلاه وابلى اصحاب بشارة في القتال بلاء حسنا لكثرة الرماة فيهم الى ان اخذ قسام وحمل الى مصر،ولم يزل في طبرية الى ان كتب له من من القاهرة بولاية دمشق فسار ونزل عليها يوم الجمعة رابع رجب سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فاجتمع جيشه مع عسكر جيش بن الصمصامة على دمشق ، فاستخلف على البلد •

وسار مع جيش في رابع عشر رجب الى افامية ، وقد نزل عليها الدوقس (٤٦) متملك انطاكية فقاتلوه قتالا شديدا انهزم فيه عسكر جيش وملك الروم ما معهم ، فانهزم من كان مع بشارة من بني كلاب وغيرهم من العرب ، وتفرقوا على طريق جوسية (٤٧) الى بعلبك وعلى طريق الجادة الى دمشق ، فلما رأى جيش وبشارة لما نزل بالناس حملا فيمن معهما على الروم فانهزموا واخذهم السيف فقتل منهم نحو الخمسة الاف وقتل الدوقس وذلك يوم الثلاثاء لتسع بقين من رجب ، وتفرق المنهزمون في الجبال ووصلوا الى انطاكية.

ونفر الناس بعد ذلك من دمشق واعمالها ومن الساحل الى عسكر جيش ، فسار بهم الى مرعش وسار بشارة الى دمشق فنزلها يوم الاثنين النصف من شوال وقدم جيش لتسع بقين من ذي القعدة فنزل بيت لهيا (٤٨) وكان الشتاء قد هجم ، فكتب من مصر بصرف بشارة عن دمشق الى طبرية وولاية جيش •

ثمال بن صالح بن مرداس

(من المقفى للمقريزي ــ مجلدة برتو باشا)

ثمال بن صالح بن مرداس بــن ادريس • الأمير معــز (٤٩) الدولة ابو علوان الكلابي تغلب ابوه صالح بــن مــرداس على حلب الى ان قتله امير الجيوش انو شتكين الدزبــري بــالاقحوانة على الاردن في محاربته العرب في ربيع الاخر سنة عشرين وأربعمائة ، فاقتسم مــن بعده ابناه معز الدولة هذا واخذ القلعة ، واقــام اخــوه شــبل الدولة نصر في المدينة ثــم ان معــز الدولة جــرى بينه وبين زوجتــه كلام ، فغضبت عليه وخرجت الى الحلة بظاهر حلب فــأمر ان يصــاغ لهــا لالكة من ذهب مرصعة بالجوهر فلما تهيأت اخذها في كمه وخرج الى زوجته فبادر اخوه نصرورکب واخذ القلعة وقال : ان من قدم اخــي علي اساء لأنني أولى بمداراة الرجال ، وهو أولى بمداراة النساء.

وانفرد نصر بن صالح بأمر قلعة حلب والمدينة ، وجعل لاخيه ثمال بالس والرحبة ، وذلك في سنة احدى وعشرين واربعمائة ، فــاستمر نصر في ملك حلب الى أن قتله الدزبري في نصف شعبان ســنة تســع وعشرين وملك حلب من بعده ، فلما مات في النصــف مــن جمــادى الاولى سنة ثلاث وثلاثين قدم معز الدولة ثمال بتــوقيع ســيره اليه امير المؤمنين المستنصر بالله ابو تميم معد بن الظــاهر بــولاية حلب فتسلم البلد لليلتين بقيتا من جمــادى الاخــرة (٢٩١ ــ ظ) وكان الوزير بمصر يومئذ علي بن احمد الجرجرائي ، فقرر عليه في كل سنة مالا يحمله ، فلما صارت الوزارة الى الوزير صــدقه بــن يوســف الفلاحي ثم وزارة ابي البركات الحسن بن محمد الجرجرائي فــأخر الحمل سنتين باربعين الف دينار ، فسير اليه الامير ناصر الدولة ابا محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان متولي دمشق بعــد الدزبري ، فوصل الى حلب ، ورجع عنها الى دمشق من غير ان يقدر

على ثمال فنقم عليه ذلك وقبضه الامير منير الدولة،ثم ان معز الدولة بعث الى المستنصر بالقسط على يد شيخ الدولة علي بن احمد بن الايسر، وسير معه ابنه الامير وثاب وزوجته السيدة علوية بنت وثاب ومعها من مال القلعة اربعين الف دينار وهدايا فاخرة فاكرمها المستنصر ، وكتب لمعز الدولة بحلب واعمالها وسير اليه بتشريف ولجميع بني عمه (٥٠) .

ولما اندفع الامير ابو الحارث ارسلان البساسيري من بغداد الى الشام في سنة سبع واربعين منهزما من طغرلبك وحصل في ارض الرحبة،وقد وصل في قل من الرجال،فلقيه ثمال واكرمه؛وحمل اليه مالا عظيما ، فقيل عن البساسيري انه لم ير مثله في الشجاعة والمكر، وكان اذا ركب معز الدولة قفز اليه ليمسك له الركاب ويصلح ثيابه في السرج،وسلم اليه معز الدولة الرحبة في سنة ثمان واربعين ليجعل فيها ماله واهله .

فلما ولي الوزير الناصر للدين ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري وزارة المستنصر لم يرض من معز الدولة بما رضيه منه الوزراء قبله وراى ان الحيلة والخديعة ابلغ فيما يريده فاستعمل السياسة وبعث خفايا التدبير وندب لذلك رجلا من ثقاته فسار الى حلب وساس الامر واحكم التدبير مع كاتب الدولة معز بكثرة ما وعده به ومناه الى ان نزل معز الدولة من القلعة وسلمها الى الامير مكين الدولة ابي علي الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي نائب المستنصر وسار من حلب الى مصر . فلما بلغ رفح سمع بالقبض على اليازوري ، فقال : والله اني اموت بحسرة نظرة الى من استلبني من ذلك الملك ، واخرجني بلا رغبة ولارهبة الا بحسن السياسة ولو رام ذلك مني قسرا ربما تعذر عليه : وسار حتى قدم على المستنصر بالقاهرة في المحرم سنة خمسين واربعمائة ، فعوضه عن حلب مدينة عكا وبيروت وجبيل فاتفق في مدة اقامته بمصر قتل البساسيري ، فسار اسد الدولة ابو ذؤابة عطية بن صالح بن مرداس الى الرحبة واخذ جميع ما تركه البساسيري بها من السلاح

الذي لم ير مثله كثرة وجوده،فطمع بنو كلاب في حلب وقدموا عليهم محمود بن نصر بن صالح بن مرداس،فسار اليها في جمادى الاولى سنة اثنتين وخمسين وتسلمها فانحاز مكين الدولة بن ملهم الى القلعة وانفذ الى المستنصر يطلب النجدة فوصل اليه ناصر الدولة ابو علي الحسين إبن ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان وكانت وقعة الفنيدق وهو المعروف بتل السلطان ، واسر ابن حمدان وعاد محمود بن نصر الى حلب •

فلما بلغ ذلك المستنصر صرف معز الدولة عن عكا وبيروت وجبيل وقال له : ان هذه اخذتها عوضا عن حلب وقد عادت الى ابن اخيك ، فامضي الى حلب واستعدها منه،فعاد الى ان وصل معرة النعمان، فسير محمود ابا محمد عبد الله بن محمد الخفاجي رسولا الى ملك الروم يستنجد به على عمه معز لدولة.ثم صالح محمود عمه وسلم اليه حلب يوم الاثنين اول شهر ربيع الاخر سنة ثلاث وخمسين،فلم يزل بها حتى مات فيها يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة سنة لربع وخمسين واربعمائة،فدفن في مقام ابراهيم الفوقاني بقلعة حلب وبقي الى ايام(٥١) الملك رضوان فقلع وبلط عليه •

و كان معز مع الدولة كريما حكيما حكي، ان العرب اقترحوا عليه مضيرة فتقدم (٢٩٢ ــ و) الى وكيله ان يطبخها لهم وسأله كم ذبحت لاجلها فقال : سبعمائة وخمسين راسا فقال والله لو اتممتها الفا لوهبت لك الف دينار •

ويحكي عن حلمه ان فراشا صب يوما على يده ماء بابريق كان في يده فصادفت انبوبة الابريق بعض ثنية معز الدولة فكسرتها وسقطت في الطشت وهم به الغلمان فمنعهم ، وامر برفعها وعفا عنه ، فقال ابن ابي حصينة فيه من ابيات :

حليم عن جرائمنا اليه

وحتى عن ثنيته انقلاعا(٥٢)

وقدم عليه الوزير فخر الدولة ابو نصر محمد بن محمد بن جهير

فاستوزره وفوض اموره اليه جميعها فحسد على مكانته وقربه منه ، وسعي به اليه وكان معز الدولة له وفاء وذمه ، فنبهه على ما سعي به عليه فاستأذنه ابو نصر في المفارقة فأذن له وسار من حلب ، وذلك في سنة ست واربعين واربعمائة .

ولما مات معز الدولة ولي بعده حلب اخوه اسد الدولة ابو ذؤابة عطية بن صالح بن مرداس •

جعفر بن فلاح

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

جعفر بن فلاح بن مروان ، ابو الفضل الكتامي ، من أرقى الكتامين بيتا واجلهم قدرا ، كان ابوه قائدا جليلا ولي مدينة طرابلس وبرقة وباجة ، وكان حسن السيرة في الرعية ، مات في رجب سنة خمس واربعين وثلاثمائة . ونشأ ابنه جعفر بالمغرب في خدمة المعز لدين الله وهو أحد الجعفرين اللذين أرشد ابن هانيء الشاعر الاندلسي اليهما فإنه لما امتدح جوهر القائد أعطاه مائتي درهم فاستقلها ، وسأل عن كريم يمدحه فقيل له عليك بأحد الجعفرين : جعفر بن فلاح ، وجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية ، فمدح جعفر بن فلاح فأعطاه مائتي دينار ومن شعره فيه:

كانت محادثة الركبان تخبرني
عن جعفر بن فلاح اطيب الخبر
حتى رأيت فلا والله ما سمعت
اذناي بالعشر مما قد رأى بصري

ثم انتقل الى جعفر بن الاندلسية وهو يومئذ أمير الزاب ، فلم يزل عنده الى أن استدعاه المعز لدين الله فبعث به اليه في جملة تحف وطرائف.

ولما جهز المعز لدين الله القائد جوهر من بلاد المغرب لأخذ مصر سار معه جعفر بن فلاح الى أن وافت العساكر الجيزة وقد نزل الاخشيدية بالجيزة التي تعرف اليوم بالروضة لقتال جوهر ، وضبطوا الجسرين وتقدم منهم عدة الى الجيزة ، فلما شاهد جوهر ذلك عاد الى منية شلقان فعبر مصر من هناك ، وبعث فاستقبل المراكب الواردة من تنيس ودمياط واسفل الأرض فأخذها ، وتولى العبور اليهم جعفر بن فلاح عريانا في سراويل ومعه جمع من المغاربة

فوقع القتال، وقتل خلق من المصريين ، وكان الفتح ودخول جـوهر وبنائه القاهرة في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .

فأقام جعفر بن فلاح بالقاهرة الى ثاني عشر المحرم سـنة تسـع وخمسين وثلاثمائة ، وسار الى الشـام في عسـكر كبير الى أن قـدم الرملة وبها الحسن بن عبيد الله بن طغج وجعفر بن القرمطي وفاتك ودرامك وعدة من قواد الاخشيدية ورجالهم ، فقاتلهم قتـالا شـديدا وأسر الحسن بن عبيد الله وجعفر القرمطي وابن الرياحـي وفـاتك وعدة من الأعيان في يوم الثـلاثاء لسـبع خلون مـن ربيع الآخـر ، وانفذهم الى القاهرة في القيود مع ابنه ، واخذ السيف بقيتهم فقتـل كثيرا منهم ، وتمكن من الرملة وذلك للنصف من شهر رجب ، واقـام يتبع ما للحسن بن عبيد الله ولأصحابه من الأموال حتى استخلصها، ثم سار الى طبرية واخـذ يبني قصرا عند جسر الصـنبرة ، وكان على طبرية فاتك غلام ملهم من قبل الاخشيدية ، فكاتبه جعفر وقعده حتى قعد عن الحسن بن عبيد الله ، وكاتب شمول الاخشيدي وهـو على دمشق قد استخلفه عليها الحسن بن عبيد الله واستماله ووعده فتمكن من طبرية ، وثقل عليه امراء بني عقيل اهـل بـلاد حـوران والبثنية الذين اقامهم كافور الاخشيدي وهم شبيب بن ... وظالم بن موهوب بن ...(٥٣) فاستجلب اليه عرب مـرة وعرب فـزارة وأوعز الى من يفتك بفاتك غلام ملهم ، فوقف له عدة من المغاربة ووثبوا بـه على حين غفلة ، فجرد سيفه وضرب رجلا منهم رمى نصف رأسـه ، وكثروا عليه وقتلوه ، فتبرأ جعفر من قتله ، واظهر جزعا عليه وقبض على الجماعة الذين قتلوه وبعـث الى ابن ملهم ، فقال لما وصـلوا اليه (٣٠٠ ظ) : هو غلامي ومملوكي وقد وهبته للقائد ، واطلق الجماعة الذين قتلوه.

واتفق من الأمر الرديء اهل دمشق ، أن مشايخ اهلها لما بلغهـم قدوم جعفر بن فلاح الى طبرية خرجوا الى لقـائه وفيهـم عقيل بـن الحسن بن الحسين العلوي و (ابو القاسم) (٥٤) بـن ابـي يعلى العباسي ، فوافوا يوم دخولهم الى طبرية قتل فاتك وقد ثـارت فتنة ،

والمغاربة ركبانا وفيهم من يأخذ الناس، فقصدوا أهل دمشق فأخذوهم وجردوهم من ثيابهم وسبوهم وتوعدوهم وقالوا لهم : أو ذا نحن سائرون اليكم . فصاروا في أسوا حال قد أخذت أثقالهم وثيابهم فلقوا جعفر بن فلاح وعادوا الى دمشق ، فأخبروا الناس بما جرى عليهم من الوعيد ، وأنهم لقوا قوما جفاة قباح المنظر والزي والكلام ناقصين العقول ، فاستوحشت قلوب أهل دمشق من المغاربة ، وكان شمول قد خرج الى لقاء جعفر بن فلاح ، وخلت مدينة دمشق من السلطان ، فطمع الطامع وكثر الذعار وحمال السلاح(٥٥) إتفق ايضا ان جعفر لما قتل فاتك عمل في قلع بني عقيل من ارض حوران والبثنية ، فانفذ اليهم مرة وفزارة ، وجهز بعدهم جيشا من المغاربة فالتقى القوم وادركهم المغاربة فانهزم العقيليون وتبعوهم الى ارض حمص، ثم عادوا عنهم ومالوا على جبل سنير الذي يقال له اليوم جبل الثلج فنهبوا ونزلوا الغوطة ، فجالوا فيها وساروا حتى نزلوا على نهر يريد نحو الدكة ، فثار عليهم اهل دمشق وقاتلوهم وقتلوا منهم كبيرا (٥٦) من العرب يقال له عيسى بن دهاس الفزاري وهزموهم عن دمشق ، وذلك يوم الخميس لثمان خلون من ذي الحجة ، فاقبل صبيح بطلائع(٥٧) عسكر جعفر بن فلاح ونزل خارج دمشق ، فخرج الناس اليه مستعدين في خيل ورجل فاقتتلوا يومهم ذلك ثم انصرفوا واصبحوا يوم الجمعة فاقتتلوا وصاح الناس في جامع دمشق بعد الصلاة النفير ، فخرج النفير واشتد القتال الى أخر النهار ، ونزل جعفر يوم السبت لعشر خلون من ذي الحجة يوم عيد الاضحى فقاتله الناس على الشماسية والقطيعة ولم يصل الناس يومئذ صلاة العيد ، وخرج ابن ابي يعلى فلم يزل القتال الى بعد العصر ، فكلت الدماشقة ، وحمل عليهم المغاربة فانهزموا وركبت المغاربة اقفيتهم وبذلوا فيهم السيف فقتلوا من ظفروا به ، وقام بأمر البلد ابو اسحق محمد بن عصودا ، واغلق الابواب واوقف الرماة على شرفات السور فرموا المغاربة بالنشاب ، ونزل العسكر ارض عاتكة وطرحوا النار فيما هنالك من الأبنية ، فانهزم ابن ابي يعلى وانفصل(٥٨) من كان معه فقتل خلق ودخلت(٥٩) فرقة من المغاربة باب

الجابية فتكاثر الناس عليهم واخرجوهم واغلقوا البـاب ، فـاحاط العسكر بالبلد من كل ناحية ووقعت المضـاربات ، وارتفـع ضـجيج الرجال والنساء والصبيان بالبكاء والنفير ، وظنوا ان القوم يدخلون البلد بالسيف ، وكان قد قرب غروب الشمس، فامسك العسـكر عن القتال وتقدم رجل من العسكر واشـار الى مـن فـوق الأسـوار ، وحدثهم فامسكوا عن الرمي ، وبات اهل دمشق ليلة الأحـد في سـد الأبواب وتضيق الدروب وكسر القني في الأسـواق وحفـر الخنادق ، وعزموا على القتال وباتوا على خوف فلما اصبحوا خـرج المشـايخ الى جعفر بن فلاح ليتحدثوا معه في الصلح ، فما هـو الا أن سـاروا عن البلد قليلا خرج عليهم فرسان من المغاربة اخذوا ما عليهـم مـن الثياب وقتلوا منهم رجلين ، فلما راى من كان فوق المآذن والأسطحة ذلك صاحوا : اضبطوا الأبواب فقد شلحوا المشايخ فـظن الناس ان العسكر يريد الركوب ، ودخل المشايخ عريا فارتاع اهل البلد واشتد خوفهم وتحيروا ، ثم جرت بينهم مراسلة فخرجوا الى جعفر فـرعب عليهم (٣٠١ ــ و) ووعد البلد بالنار والسـيف فعـادوا خـائفين وجلين ، وبلغوا أهل البلد ما اقلقهـم ، فـاشتد اضـطرابهم ، وعاد المشايخ ثانيا الى جعفر فاشتد عليهم وأرعد وابرق فسألوه العفـو ، فقال : ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إلي ومعـكم النسـاء فيتضرعن ويكشفن شعورهن ويمرغنها في التراب بين يدي ، فقالوا : نفعل مـا يقول القائد ، ورجعوا الى البلد ، وخرجوا اليه بما طلب مـن تضرع النساء وكشفهن الشعور بين يديه وهو مع ذلك يرهبهم ثم بـاسطهم وقال : اريد أدخل يوم الجمعة الى الصـلاة ، فـانصرفوا عنه وركب يوم الجمعة في عسكره ودخل البلد ، فلما خرجوا من الجامع وضـع جماعة من العسكر ايديهم في السوق ونهبوه ، ثـم ارادوا أن يدخلوا الى الأزقة فثار بهم الناس وقتلوا كثيرا من الرجال ، فاشتد جعفـر على المشايخ ووعدهم بكل مكروه وقال لهم :دخل رجال امير المؤمنين إلى الصلاة فقتلتموهم لأسـوين بهـذا البلد الأرض، فلطفـوا بـه وداروه فقال : اريد دية من قتل من رجـال امير المؤمنين ، فـاذعنوا لذلك ، وكان الذي يتولى خطابه الشريف ابـو القـاسم احمـد بـن

الحسين العقيقي و ... (٦٠) بن أبي هاشم ، ودخلوا البلد وقسطوا المال على الناس، وشرع العسكر في البناء فوق نهر يزيد عند الدكة وعملوا مساكن وأسواقا حتى صارت تشبه المدينة ، وبنوا قصرا عظيما شاهقا في الهواء غريب البنيان .

فلما استقر في الدكة طلب حمال السلاح وضرب أعناق كثير منهم وصلب جثثهم وعلق رؤوسهم على أبواب المدينه ، منها رأس إسحق ابن عصودا .

وبعث يازرق إلى حمص وسلمية فخرج إليه أهل السلمية بكتاب عبيد الله المهدي جد المعز لدين الله بترك الخراج لهم متى ملكهم ، فبعث بذلك إلى جعفر فأمره بالوفاء لهم .
وقدم ابن عليان العدوي وقد قبض على (أبي القاسم) (٦١) بن أبي يعلى العباسي لما انهزم من نحو تدمر وهو يريد بغداد ، فأمر به جعفر فشهر في العسكر على جمل ، ثم حمله إلى القاهرة .

وأما محمد بن عصودا فإنه لما انهزم سار إلى الاحساء هو وظالم بن مرهوب العقيلي ، وحثا القرامطة على المسير إلى الشام فوافق ذلك منهم الغرض لأن الاخشيدية كانت تحمل في كل سنة إلى القرامطة مالا ، فلما أخذ جوهر مصر انقطع المال عن القرامطة فأخذوا في الجهاز للمسير إلى الشام .

وجهز جعفر غلامه فتوحا في عسكر إلى انطاكية وكانت بيد الروم ، فسار في صفر سنة ستين ، وطلب أهل أعمال فلسطين وطبرية ، وسير عسكرا بعد عسكر إلى إنطاكية فنازلوها ، وكان الوقت شتاء إلى أن دخل الصيف وهم يداومون القتال ، وبعث سرية فيها أربعة الاف إلى إسكندرونة وعليهم عرايس ومعهم ابن الزيات أمير طرسوس ، وكان عليها عسكر للروم ، فظفروا في طريقهم بمائتي بغل تحمل علوفه لأهل إنطاكية فقووا بها ، وساروا إلى مرج إسكندرونة وفيه مضارب الروم الديباج فتسرع إليها رجاله تنهبها ، فحمل عليهم الروم فانهزموا وأخذهم السيف ، ونجا عرايس وابن الزيات في طائفة ولحقوا بجعفر ، وهلك كثير ممن كان في السرية .

فكثرت الأخبار بمسير القرامطة إلى الشام ، وانهم نزلوا على الكوفة ، وكتبوا إلى الخليفة ببغداد ، فانفذ إليهم خزانة سلاح ، وكتب لهم بأربعمائة الف درهم على ابي تغلب عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان من مال الرحبة ، وانهم ساروا من الكوفة إلى الرحبة واخذوا من ابن حمدان المبلغ ، فكتب جعفر إلى غلامه فتوح وهو على انطاكية يأمره بالرحيل ، فوافاه الكتاب مستهل شهر رمضان فشرع في شد أحماله (٦٢) ، ونظر الناس إليه فجفلوا ورموا خيمهم ، وأراقوا طعامهم وأخذوا في السير مجدين إلى دمشق ، فلما وافوا جعفر اراد أن يقاتل بهم القرامطة فلم يقفوا ، وطلب كل قوم موضعهم ولم يبالوا بالموكلين على الطرق .

وعندما نزل القرامطة على الرحبة اكرمهم ابو تغلب ، وبعث إلى الحسن بن أحمد بن ابي سعيد الجنابي المعروف بالأعصم كبيرهم يقول له : هذا شيء اردت أن أسير انا فيه بنفسي ، لكني مقيم في هذا الموضع إلى أن يرد إلي خبرك ، فإن احتجت إلى (٣٠١ ـ ظ) مسيري سرت إليك ، ونادى في عسكره من اراد السير من الجند الاخشيدية وغيرهم إلى الشام مع الحسن بن احمد فلا اعتراض لنا عليه وقد اذنا له في المسير ، والعسكران واحد ، فخرج إلى القرامطة كثير من الاخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين ممن فر من جوهر ومن جعفر بن فلاح ، وكان جعفر لما أخذ طبرية بعث إلى ابي تغلب بن حمدان بداع يقال له ابو طالب التنوخي يقول له : إنا سائرون إليك فتقيم لنا الدعوة ، فلما قدم الداعي على ابي تغلب وهو بالموصل وادى (٦٣) الرسالة ، قال له هذا ما لايتم لأنا في دهليز بغداد والعساكر منا قريبة ، ولكن إذا قربت عساكركم من هذه الديار أمكن مباذكرته ، فانصرف بغير شيء .

ثم إن الحسن بن أحمد القرمطي سار عن الرحبة إلى أن قرب من دمشق فجمع جعفر خواصه واستشارهم فاتفقوا على أن يكون لقاء القرامطة في طرف البرية قبل أن يتمكنوا من العمارة ، فخرج إليهم

ولقيهم فقاتلهم قتالا كبيرا ، فانهزم عنه عدة من أصحابه ، فولى في عدة ممن معه ، وركب القرامطة اقفيتهم وقد تكاثرت العربان من كل ناحية ، وصعد الغبار فلم يعرف كبير من صغير ، ووجد جعفر قتيلا لايعرف له قاتل ، وكانت هذه الوقعة في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة ، فامتلأت أيدي القرامطة بما احتووا عليه من المال والسلاح وغيره ، وخرج محمد بن عصودا إلى جثة جعفر بن فلاح وهي مطروحة في الطريق ، فأخذ رأسه وصلبه على حائط داره ، أراد بذلك أخذ ثأر أخيه إسحق بن عصودا ، وملك القرامطة دمشق ، وورد الخبر بذلك على جوهر القائد ، فاستعد لحرب القرامطة .

وكان جعفر أحمقا هذارا كثير الكلام ، أكثر كلامه بغير طائل ، وكان يحسد جوهر القائد لتقدمه عليه ، وكانت العرفية لجوهر كما هو مذكور في ترجمة جوهر .

جوهر الصقلبي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

جوهر بن عبد الله ، القائد ، ابو الحسن الصقلبي (٦٤) الرومي الكاتب ، مولى المعز لدين الله ابي تميم معد ، ولد في سنة إثنتي عشر وثلاثمائة ، وصار إلى ملك غلام لهم يقال له صابر ، ثم انتقل إلى خادم لهم يقال له خيران ، ثم إلى خادم يقال له خفيف ، فاهداه خفيف إلى الامام المنصور بالله ابي الظاهر إسماعيل ، فحمله (إلى) (٦٥) ابنه الامام المعز لدين الله وهو صغير ، فرباه حتى بلغ مبالغ الرجال في خدمته ، وكناه بأبي الحسن ، ورقاه في الخدم إلى ان قام في الخلافة بعد ابيه (٦٦).

ولما كانت (سنة) (٦٧) خمس واربعين وثلاثمائة ارتفع أمر جوهر ، وصار إلى رتبة الوزارة ، ثم اخرجه المعز في يوم الخميس لتسع خلون من صفر سنة سبع وأربعين على عسكر عظيم بالعدة والقوة ليتوجه به إلى جعفر بن علي الأندلسي ، وزيري بن مناد الصنهاجي ، ويعلى بن محمد الزناتي ، فخرجوا معه بعساكرهم ، حتى وصلوا إلى تاهرت (٦٨) ، فتلقاه يعلى بن محمد الزناتي ، وكان صاحب المغرب ، وأكرمه وقام له بالوظائف والعلف اياما غير أن أهل مدينة (٦٩) افكان (٧٠) كانوا إذا باعوا أهل عسكر جوهر شتموهم واستخفوا بهم ومع (٣٠٦ ـ ظ) ذلك فإن (٧١) يعلى لم يسارع بالمسير مع جوهر ، فلما رحل جوهر بعساكره من عند يعلى ، مشى يعلى ليشيعه ، فسار جوهر ، وأخذ العسكر في رفع اثقالهم إذ سمع صياحا عظيما فقال : ماهذا ؟ فقيل له : اصحاب يعلى قد ضربوا على ساقة (٧٢) العسكر ، وقد شغبوا ، فقال يعلى : أنا أمضي لأفرقهم ، فمنعه جوهر من المضي ، وزاد الصياح ، فأمر جوهر بيعلى فارجل عن فرسه واركب بغلة ، ثم زاد الأمر ، فامر جوهر بيعلى فانزل عن البغلة ومشى بين يديه راجلا ، فاشتد

الأمر ، ونهبت الزوامل (٧٣) فأتى أبو طاعة بن يصل الكتامي إلى جوهر وقال : السيف يعمل في عسكرنا وهذا حي ؟ فجرد سيفه فضرب يعلى اطار راسه ، ورفعها على قناة وحملها إلى موضع القتال ، فلما راها أصحابه انهزموا ، فمال عليهم العسكر حتى بلغوا إلى افكان والسيف يعمل فيهم ، فدخلوا افكان بالسيف ، فقتل اكثر اهلها ، ونهب كل ما فيها وأسر يدو بن يعلى ، ثم هدمت افكان ، وحرقت بالنار ، وذلك كله يوم الاثنين الثاني من جمادى الأولى .

ورحل جوهر حتى انتهى إلى فاس وبها أحمد بن بكير ، فامتنع من جوهر وقاتله مدة ، فلم يقدر عليه جوهر ، ورحل عن فاس إلى سجلماسه ، فلما قرب منها فر عنه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر لله امير المؤمنين ، وكان قد تغلب عليها ست عشرة سنة ، ثم أخذ اسيرا وحمل إلى جوهر في يوم الأربعاء لثمان خلون من رجب بغير حرب .

فمضى جوهر الى البحر المحيط وامر أن يصطاد له من حيتانه وجعلها في قلة فيها ماء ، وكتب الى المعز كتابا في قصبة من ضريع (٧٤) البحر المحيط ، وبعثه بذلك اليه ، يشير أنه انتهى الى البحر المحيط.

ثم عاد الى فاس بعد ان ملك تلك البلاد كلها ، فنزل عليها وقاتل اهلها مدة قتالا طويلا حتى يئس منها ، ثم جد فيها الى ان ملكها ونهب عسكره ما فيها ، وسبوا ذراريها ، واخذ احمد بن بكير وقيده وجعله مع محمد بن الفتح امير سجلماسة ، وذلك لعشر بقين من رمضان ، وعمل قفصين من خشب سجن فيهما المذكورين وقفل الى افريقية بعدما فتح الفتوح ،واداد البلدان الى البحر المحيط ،ولم يتعرض لسبتة وكانت بيد بني امية .

فلما قدم تاهرت ولى عليها زيري بن مناد وضمها الى يده فقوي امره وتركه بها ، وسار الى المسلية (٧٥) فترك عليها عاملها جعفر ابن علي الاندلسي ، ورد كل قوم الى مواضعهم ، ووصل الى

المنصورة (٧٦) ومعه أحمد بن بكير امير فاس (٧٧) ومحمد الزناتي أمير تاهرت وكثير من الأسرى في يوم الجمعة لاثنتي عشرة بقيت من شوال.

ثم اخرجه المعز في سنة سبع وخمسين لاصلاح المغرب في عسكر عظيم ، وليحشد كتامة الذين ينهض بهم الى المشرق ، ويجبي من البربر خمسمائة الف دينار ويدوخ المغرب ، وقدم يوم الاحد لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسين بعساكر عظيمة من كتامة والجند والبربر فاقام خارج المنصورة لتجتمع اليه الحشود والعساكر وفتح المعز بيت المال وأعطى الأموال من الف دينار الى عشرين دينارا .

ثم دخل في يوم السبت لاربع عشرة مضت من ربيع الأول بالعساكر ومعه زيادة على مائة الف فارس ، وبين يديه أكثر من الف ومائتي صندوق فيها المال ، فنزل برقادة (٧٨) وخرج الى المعز وخلا به ، واطلق يده ليتصرف في بيوت امواله كيف شاء ، ويأخذ منها زيادة الى مامعه ما أحب واختار.

فقال المعز وجوهر قائم بين يديه ، والعساكر مجتمعة والله (٧٩) لو خرج جوهر هذا وحده بسوطه لفتح مصر وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب ولينزلن في خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا.

وامر المعز اولاده واخوته وسائر الأولياء وعبيد الدولة ان يمشوا بين يدي جوهر وهو راكب ، وكتب (٣٠٧ - و)الى جميع من يمر عليه جوهر من العمال يامرهم اذا قدم عليهم ان يترجلوا اليه عند لقائه ، ويمشوا في خدمته ، ثم تقدم الى جوهر بالمسير ، فرفع من مناخه والمعز واقف ، ثم اكب على جوهر وقد ركب فرسه فساره طويلا ، ثم التفت الى الأمراء أولاده واخوته فقال : ودعوه فنزلوا عن خيولهم ، ونزل بنزولهم كافة الناس فودعوه على قدر

مراتبهم واحدا بعد واحد فلما فرغوا من وداعه اقبل جوهر فقبـل يد المعزوحافر فرسه فقال له المعز :اركب فركب وسار والمعـز يسـايره طويلا ثم وقف وقال له :سر فسار ثم التفت والمعز قائم ، فأومأ اليه بكمه ان امضى ، فتحرك جوهر يريد عسكره حتى لحق بهم ثـم نزل منزله وعاد المعز الى منزله فنزع ثيابه وانفذها كلها الى جـوهر مـا عدا السراويل والخاتم ، وانشد ابو القاسم محمد بن هانى قصيدة بديعة في يوم رحيل جوهر ، وكان من ايام الله العظيمة المهولة منها:

رايت بعيني فوق ما كنت اسمع
وقد راعني يوم من الحشر اروع

غداة كان الأفق سد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم ادر اذ ودعت كيف اودع
ولم ادر اذ شيعت كيف اشيع

الا ان هذا حشد من لم يذق له
غرار الكرى جفن ولا بات يهجع

اذا حل في ارض بناها مدائنا
وان سار على ارض ثوت وهي بلقع

تحل بيوت المال حيث يحله
وجم العطايا والرواق المرفع

وكبرت الفرسان لله اذ بدا
وظل السلاح المنتضى يتقعقع

وعب عباب الموكب الضخم حوله
وزف كما زف الصباح الملمع

رحلت الى الفسطاط اول رحلة
بأيمن فأل بالذي انت تجمع

فان يك في مصر ظماء لورد
فقد جاءهم نيل سوى النيل يهمع

ويمسهم من لايغار بنعمة
فيسلبهم لكن يزيد فيوسع (٨٠)

وفي غد رحيل جوهر هرب من البربر خمسمائة فارس فخرج في طلبهم ففاتوه فقال المعز : الله اكرم من ان ينصرنا بأرازل البربر وإني لأرجو ان يكون بزوالهم زوال النحس عن عسكرنا ، واقام جوهر بمكانه الى يوم الاحد لست بقين من شهر ربيع الأول ، ثم رحل بجميع العساكر في قوة عظيمة ومعه من الأموال والسلاح والعدد والكراع مالا يوصف كثره فلم يزل سائرا حتى وصل الى برقة ، فافتدى منه أفلح الناشب الصقلبي متولي برقة بخمسين الف دينار يحملها اليه ويعفيه من ان يمشي راجلا بين يديه ، فلم يجد أفلح بدا من المشي لما لقيه حتى نزل .

واتت الاخبار الى مصر في جمادى الآخرة بمسير جوهر اليها وكان في عامة ارض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء امر لم يعهد قبله مثله بحيث انه أحصي من مات في ايام يسيرة فكانوا ستمائة الف انسان ، وكانوا يلقون الغرباء في النيل وبلغ الفروج دينارا والبيضة درهما وبيع الأردب القمح بثمانين دينارا ، مع كثرة الفتن وتغلب كل واحد من العمال وغيرهم على ما يليه واختلاف اهل الدولة بمصر من الاخشيدية والكافورية وكثرة تحاسدهم ، وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر ، وكانوا قد انتشروا ببلاد الشام ، فاختلت من اجل هذا وشبهه الاحوال بديار مصر واتضعت امور الناس ، وتغيرت نياتهم ، وساءت معاملاتهم (٣٠٧ ظ)وفسدت اكثر اوضاعهم وشمل الخراب عامة ارض

مصر لموت اهلها وقلة اموالها وتعذر وجود الأقوات وكثرة الخوف .

وكان بمصر جماعة من دعاة المعز قد(٨١) استمالوا خلائق من القواد ووجوه الرعية ، وانفذ اليهم المعز بنودا ففرقوها فيمن استجاب لهم وأمرهم أن ينشروها اذا قاربت عساكره مصر ، فعندما قرب جوهر من أرض الاسكندرية جمع الوزير ابو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات ، المعروف بنبن حنزانة الناس بداره من مصر واتفقوا على مراسلة جوهر وأن يشترطوا عليه أن يقرهم على ما بايديهم من الضياع التي يتولوها ، وشرط نحرير شويزان أن لايجمع مع جوهر وارسلوا اليه بذلك الشريف ابا جعفر مسلم ، والشريف ابا اسماعيل ابراهيم بن أحمد الرسي والقاضي ابا الطاهر محمد بن احمد بن عبد الله بن نصر النهلي ، وابو الطيب العباسي بن أحمد العباسي الهاشمي ، في جماعة ، فبرزوا الى الجيزة في يوم الاثنين ثامن عشر رجب ، وساروا فلقوا جوهر في تروجة(٨٢) فوافقهم واجابهم الى مالتمسوه وكتب لهم كتابا نصه بعد البسملة:

هذا كتاب جوهر عبد امير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة اهل مصر الساكنين بها من اهلها ومن غيرها :

إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم: ابو جعفر مسلم الشريف اطال الله بقاءه، وابو اسماعيل الرسي ايده الله ، وابو الطيب الهاشمي ايده الله ، وابو جعفر أحمد بن نصر اعزه الله ، والقاضي ابو طاهر اعزه الله ، وذكروا عنكم انكم(٨٣) التمستم كتابا يشتمل على امانكم في انفسكم واموالكم وبلادكم وجميع احوالكم ، فعرفتم ما تقدم به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه (٨٤) وحسن نظره اليكم.

فاحمدوا الله على ما اولاكم ، واشكروه على ما اتاكم ، وادابوا فيما يلزمكم ، وسارعوا الى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم والعصمة الشاملة لكم ، وهو انه صلوات الله عليه

لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة الا لما فيه اعزازكم وحمايتكم ، والجهاد عنكم ، اذ قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المستدل واطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه واسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم واموالكم حسب ما فعله في غيركم من اهل بلدان المشرق ، وتاكد عزمه واشتد طلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر ، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة لمقاتلته دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزي ، وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصائب وتتابعت لديهم الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغثهم الا من ارمضه امرهم ، ومضه حالهم وابكى عينه ما نالهم ، واسهرها ما حل بهم وهو مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه فرجا بفضل الله (٨٥) واحسانه لديه ، وما عوده واجراه عليه استنقاذ من اصبح منهم في ذل مقيم وعذاب اليم ، وان يؤمن من استولى عليه الوجل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل ، وآثر اقامة الحج الذي تعطل واهمل العباد فروضه وحقوقه من الخوف المستولي عليهم واذ لايأمنون على انفسهم ولا على اموالهم مع اعتماد ما هي عادته من اصلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليتطرق الناس آمنين ويمشوا مطمئنين ويتحفوا بالاطعمة والاقوات ، اذ كان قد انتهى اليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، اذ لازاجر للمعتدين ، ولادافع للظالمين.

ثم تجديد السكة وضربها على العيار الذي (٣٠٨ـ و)عليه السكة الميمونة المنصورة المباركة وقطع الغش منها اذ كانت هذه الثلاث خصال ما يسع من ينظر في امور المسلمين الا اصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها

وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المسلمين (٨٦) صلوات الله عليه الى عبده من نشر العدل وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع

العدوان ، ونفي الأذى ، ورفع المؤن ، والمناداة في الحق ، واعانة المظلوم . والتقريب والاشفاق والاحسان ، وجميل النظر ، وكريم الصحبة ، ولطف العشرة ، وافتقاد الاحوال ، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم ، وحسن تصرفهم في أوان ابتغائهم معايشهم ، حتى لاتجري أمورهم الا على ما لم شعثهم ، واقام اودهم واصلح بالهم ، وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

وما أمر به مولاه من اسقاط الرسوم الجائرة التي لايرتضي صلوات الله عليه باثباتها عليكم.

وأن اجريكم في المواريث على كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم (٨٧) لبيت المال عن غير وصية من المتوفى بها ، فانه لا استحقاق لتصييرها ببيت المال.

وأن أتقدم في رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ، فلا اقطعها عنهم ، ولاأدفعها الا من بيت المال ، الا باحالة على من يقبض منهم.

واما غير ما ذكره مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه مما نصه من ترسل عنكم ايدهم الله انكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها في كتاب امانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لانفسكم وان لم يكن لذكرها معنى ولانشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهي اقامتكم على مذاهبكم وان تتركوا على ما (٨٨) انتم عليه من اداء الفروض في الاشتغال بالعلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ماكان عليه سلف الائمة من الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين بعدهم ، وفقهاء الامصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وان يجري فرض الأذان

والصلاة وقيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما امر الله به ، ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم في سننه ، واجراء اهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم علي امان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد (٨٩) والمتأكد على الأيام وكرور الأعوام في انفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى انه لايعترض عليكم معترض ، ولايجتني عليكم مجتني ولايتعقب ، وعلى انكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ، ويمنع منكم ، فلايتعرض الى اذاكم ، ولايسارع احد في الاعتداء عليكم ، ولا في الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لاأزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ، ويشملكم نفعه ، ويصل اليكم خيره ، وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

ولكم علي الوفاء بما الزمته نفسي ، واعطيتكم اياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة انبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا امراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا امير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف اليها ، وتخرجون وتسلمون علي ، وتكونون بين يدي الى ان اعبر الجسر ، وانزل في المناخ المبارك وتحفظون (٣٠٨ ـ ظ) وتحافظون من بعد على الطاعة ، وتثابرون عليها ، وتسارعون الى فروضها ، ولاتخذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ما أمرتم به ، وفقكم الله وارشدكم اجمعين .

وكتب جوهر القائد هذا الأمان بخطه في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار.

م ١١ ـ ج١

وفي آخره قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه (٩٠) الأكرمين : كتبت هذا الأمان على ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى الوفاء بجميعه لمن اجاب من أهل البلد وغيرهم على ما شرطت فيه والحمد لله رب العالمين ، وحسبي الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين، وكتب جوهر بخطه وأشهد جوهر على نفسه جماعة الحاضرين وهم : ابو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني (٩١) وابو اسماعيل ابراهيم بن أحمد الرسي الحسني (٩٢) . وابو الطيب العباسي بن احمد الهاشمي ، والقاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد وابنه أبو يعلى محمد بن محمد ، ومحمد بن مهذب بن محمد وعمرو بن الحارث بن محمد .

واخذ منه أبو جعفر مسلم كتابا الى جماعة منهم : الوزير ابو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات ، وأجاز جوهر الجماعة ، وحملهم ، فلم يقبل أبو جعفر مسلم منه شيئا ، وطعم الجماعة عنده معه وودعوه وانصرفوا. فبلغهم أن الجماعة بمصر قد نقضوا الصلح فأسرعوا في الانصراف ، وبلغ ذلك جوهر فأدركهم بمحلة حفص وقال لهم : قد بلغني أن القوم قد نقضوا الصلح فردوا علي أماني ، فرفقوا به فقال لابي طاهر : يا قاضي ما تقول في هذه المسألة ؟ فقال : ما هي ؟ قال ما تقول فيمن أراد العبور الى مصر ليمضي الى الجهاد ويقاتل الروم فمنع ، اليس له قتالهم ؟ فقال القاضي: نعم ، فقال جوهر : وحلال قتالهم ؟ قال : نعم ، فسار عبد العزيز بن هيج الكلابي من عسكر جوهر فدخل الفيوم ، وأقام الدعوة ، ففر منه مبشر الأخشيدي الى الفسطاط ، ووافى الشريف مسلم والجماعة من عند جوهر ، في ثامن شعبان ، ونزل بداره فأتاه الناس فيهم الوزير ابن الفرات ، فقرأ عليهم (أمان) جوهر ، وأوصل الى ابن الفرات وغيره كتبهم ، فامتنع الاخشيدية والكافورية وقال فرج البجكمي :لو جاءنا يا شريف جدك محمد صلى الله عليه وسلم بهذا ضربنا وجهه بالسيف ، فلامهم ابن الفرات على ذلك وقال لهم : أنتم سالتم الشريف في هذه

الرسالة فلم يتمنع حتى اخذ معه ابا اسماعيل وهو حسني ، واخذ معه قاضي المسلمين ، واخذ رجلا عباسيا ، هذا وابو جعفر مسلم ساكت لم يزد على اكثر من قوله : خار الله لكم ، واشتغل بمساررة ابن الفرات ، والكافورية مع الأخشيدية في خوض ، وقالوا كلهم: ما بيننا وبين جوهر الا السيف ، فقال ابو منجل : فتكون حرب بغير أمير ؟ فقالوا : هو كذلك ، فقال : ترضوا بمن ارضى؟ فقالوا: (٩٣) نعم ، فقام قائما واستقبل نحرير شويزان وقال : السلام عليك ايها الأمير ، وقاموا كلهم فسلموا عليه ، وخرجوا يحجبوه الى داره ،

فانعقد له الأمر ، وأحمد بن الأمير علي بن الأخشيد لايفكر فيه ولايعتد به ، واستعد القوم للقتال ، وساروا في عاشره ونزلوا بالجزيرة ، وضبطوا الجسرين ، فلما راى ذلك جوهر عاد الى منية شلقان (٩٤) ليعبر من هناك ، وبعث جعفر بن فلاح لاستقبال المراكب الواردة من تنيس (٩٥) ودمياط أسفل الأرض ، فأخذها ،فبعث الأخشيدية نحرير الأزغلي ويمن الطويل ، ومبشر وبلال الطائي في خلق ليمنعوا من العبور فابتدي القتال في يوم الخميس حادي عشر شعبان ، فقتل من المصرين كثير ، وانصرف الناس عشية الأحد النصف من شعبان ، فلما كان نصف الليل انصرف من كان بالجزيرة

الى دورهم ، وأصبحوا فارين الى الشام وكان ممن قتل نحرير الأزغلي ومبشر (٣٠٩ ـ و) الأخشيدي ، ويمن الطويل ، وبلال الطائي في خلائق ، فلما كان يوم الاثنين اجتمع احمد بن محمد الروذباري الكاتب ، وعبد الله بن احمد الفرغاني وغيره من الوجوه عند الشريف ابي جعفر مسلم ، وسالوه ان يكتب الى جوهر في اعادة الامان ، فكتب كتابا باملاء الروذباري وبعثه ، وكتب مع غلامه سعادة الأسود كتابا اخر وجلس الناس عنده لانتظار الامان نهارهم فطاف علي بن الحسين بن لؤلؤ صاحب الشرطة ومعه رسول لجوهر ومعه جابر بن محمد الداعي ، ومعهم بند عليه المعز لدين الله وبين ايديهما الأجراس : بأن لامؤنة ولا كلفة ، وامن الناس ، وكان جابر قد فرق البنود التي عنده ، فنشر كل من عنده بند في دربه ، فلما

كان وقت العصر وافى سعادة بجواب جوهر ونصه بعد البسملة :

وصل كتاب الشريف الجليل ، اطال الله بقاءه ، وأدام عزه وتأييده وعلوه ، فهو المهنى بما هنأ به من الفتح الميمون ، ووقفت على ما سأل من اعادة الامان الأول ، وقد أعدته على حاله ، وجعلت الى الشريف أيده الله ان يؤمن كيف رأى وكيف أحب ، ويزيد على ما كتبته كيف شاء ، فهو أماني وعن اذني واذن مولانا وسيدنا (٩٦) امير المؤمنين صلوات الله عليه ، وقد كتبت الى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين الى أن يرجعوا الى الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ، ويعمل الشريف ايده الله على لقائي في يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان .

فاستبشر الجماعة ، وعملوا على الغدو الى الجيزة ، ثم سأل الشريف غلامه عمن قتل ؟ فقال : نحرير الأزغلي ، ومبشر الأخشيدي ، ويمن الطويل وبلال ، فقال له : تدري ويلك ما تقول ؟ فقال : رأيت رؤوسهم في طشيت فضة فقال له : ومن ؟ فقال : وخلق كثير قد جمعت رؤوسهم ، فبات الناس على هدوء وطمأنينة

ولما كان في غداة يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان خرج الشريف ابو جعفر مسلم ، والوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات ، وسائر الاشراف والقضاة واهل العلم والشهود ، ووجوه التجار والرعية الى الجيزة ، فلما تكامل الناس اقبل القائد جوهر في عساكره ، فصاح بعض حجابه الأرض الا الشريف والوزير ، وتقدم الناس وابو جعفر أحمد بن ناصر التاجر يعرفه بالناس واحدا واحدا فلما فرغوا من السلام عليه مضى الى فسطاطه ، فأقام الى زالت الشمس فسارت العساكر ، وعبرت الجسر أفواجا أفواجا ، ومعهم صناديق بيت المال على البغال ، واقبلت القباب ، ثم جاء القائد جوهر في حلة مذهبة ، مثقل يحف به فرسانه ورجالته ، ومد العسكر بأسره الى المناخ الذي رسم به المعز ، وهو موضع القاهرة .

فلما استقرت به الدار جاءته الالطاف (٩٧) والهدايا ، فلم يقبل من احد شيئا الا طعام الشريف مسلم وحده ، فلما أصبح انفذ علي بن الوليد قاضي عسكره وبين يديه احمال مال ومنادي ينادي : من اراد الصدقة فليصر الى دار ابي جعفر احمد بن نصر فاجتمع خلق من المستورين والفقراء فصار بهم الى الجامع العتيق لصلاة الجمعة وخطب بالناس (٩٨) هبة الله بن احمد خليفة عبد السميع بن عمرو العباسي ببياض حتى بلغ الى الدعاء قرأ من رقعة ما نصه : اللهم صلي على عبدك ووليك ثمرة النبوة وسليل السادة المهدية ، عبدك معد ابي تميم المعز لدين الله ، امير المؤمنين ، كما صليت على ابائه الطاهرين واسلافه الائمة الراشدين .

اللهم ارفع درجته وأعلي كلمته ، واوضح حجته ، وأجمع الأمة على طاعته ، والقلوب على موالاته ومحبته ، وأجعل الرشاد في موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها ، واحمده مبادىء الأمور وعواقبها ، فانك تقول وقولك الحق: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» (٩٩) فقد أمتعض لدينك ولما انتهك من حرمتك ودرس من الجهاد في سبيلك ، وأنقطع من الحج الى بيتك وزيارة قبر رسولك صلى الله عليه وسلم ، فأعد للجهاد عدته ، وأخذ لكل خطب أهبته ، فسير الجيوش لنصرتك ، وانفق الأموال في طاعتك ، وبذل المجهود في مرضاتك ، فارتدع الجاهل ، وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل.

فانصر اللهم جيوشه التي سيرها وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين ، وجهاد الملحدين ، والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرمين ، وازالة الباطل ، وبسط العدل في الأمم ، اللهم فاجعل راياته عالية مشهورة ، وعساكره غالبة منصورة ، واصلح به وعلى يديه.

وضرب السكة الحمراء ونقشها: دعا الامـام معـد لتـوحيد الاله الصمد ، في سـطر ، وفي السـطر الآخـر : المعـز لدين الله أمير المؤمنين ، وفي السطر الثـالث ، ضرب هـذا الدينار بمصر في سـنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. وفي الوجه الأخر لا اله الا الله محمد رسول ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. علي(١٠٠) أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين.

وجلد متزانيين وطاف بهما وظهر المرأة مكشوف.

وكاتب مزاحم بن محمد بن رائق ، وكان قد سافر فيمن سار يريد الشام ، فرجع عن الحوف (١٠١) في عسكر كبير.

وفي هـذا الشـهر ابتـدأ بنيان القصر ، وبني المصـلى الذي للعيد ، وأفطر جـوهر في عيد الفـطر على عدد بغير رؤية ، وصـلى صلاة العيد بالقاهرة ، صلى بـه علي بـن الوليد الاشـبيلي قـاضي عسكره ، وخطب ، فلم يصل أهل مصر ، وصلوا من الغد في الجامع العتيق وفيهم القاضي أبو طاهر ، وكان قد التمس الهلال على عادته في سطح الجامع ، فلم يره ، فلما بلغ ذلك جوهر انكره وعاتـب عليه وتهدد فيه.

وجلس المظالم في كل سـبت ، ثـم رد المظـالم الى أبـي عيسى مرشد ، وصرف علي بن الحسين عن الشرطـة وردهـا الى شـبل المعرضي وإلى ابن عروبة المغـربي ، واشرك بين علي بن يحيى بـن العرمرم وبين رجاء بن صولات في الخراج ، واشرك بين محمد بـن احمد الشداني وبين موسى بن الحسين الصنهاجي في ديوان الضياع الاخشيدية ، واشرك بين محمد بن سالم وبين أبي اليمن قزمان بـن مسهناخي في الضياع الكافورية

ووردت كتب الاخشيدية والكافورية مـن الشـام بـطلب الأمـان فأمنهم ، ووافى منهم في ذي الحجة ستة الاف فأنزلهم جوهر خـارج القاهرة.

وفي يوم الجمعة ثامن ذي القعدة زيد في الخطبة: اللهم صلي على النبي محمد المصطفى وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا. اللهم صلي على الأئمة الراشدين أباء أمير المؤمنيين الهادين.

ونودي على التوابيت في الجامع العتيق برفع البراطيل وقسائم الشرطيين ، وكذلك نودي في سائر البلد.

وورد الخبر بقدوم القرامطة الى الرملة.

وقدم كتاب المعز لدين الله من المغرب بوصول راس نحرير ومبشر ويمن وبلال.

وفي ذي الحجة فر فاتك الهنكري الى الشام ، وبلغ جوهر أن المستأمنة من الاخشيدية والكافورية قد عزموا على القيام ، فحضر جنازة في خامسه ، وانصرف منها وهم معه ، فلما بلغ القصر من القاهرة قال للاخشيدية والكافورية: انزلوا ، فنزلوا ، فقبض على ثلاثة عشر من وجوههم ، واعتقلهم ستة أشهر حتى سيرهم الى المعز بالمغرب مع الهدية ، وقبض على أموال نحرير الأزغلي وغيره.

ودخلت سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، فضرب أعناق جماعة وصلبهم ، وندب جعفر بن فلاح لأخذ الشام ، فسار في ثاني عشر المحرم وملك الرملة ، وبعث علي بن عقبايا (١٠٢) الى الصعيد في البر ، وعلي بن محمدالخازن في البحر.

وفي ربيع الأول قبض على دواب الاخشيدية والكافورية وصرفهم مشاة ، وأمرهم بطلب المعيشة.

وتعذر الخبز لغلاء السعر ، فضرب جماعة من الطحانين وطيف بهم.

وفي يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الأولى صلى في جامع أحمد بن طولون ، وخطب به عبد السميع بن عمر العباسي بقلنسوة وشي وطيلسان وشي ، واذن المؤذنون حي على خير العمل ، وهو اول ما أذن به مصر ، وصلى به عبد السميع فقرأ سورة الجمعة وإذا جاءك المنافقون ، وقنت في الركعة الثانية وانحط ساجدا ، ونسي أن يركع ، فصاح به علي بن الوليد قاضي عسكر جوهر: بطلت الصلاة ، اعد ظهرا أربع ركعات. ثم أذن بحي علي خير العمل في سائر مساجد العسكر ، وانكر جوهر على عبد السميع انه يقرأ البسملة في كل سورة ، ولا قراها في الخطبة فصلى به الجمعة الأخرى ، وفعل ذلك، وكان عبد السميع قد دعا لجوهر في الخطبة ، فأنكر جوهر عليه ، ومنعه من الدعاء له.

وقبض على الاحباس من يد القاضي ابي طاهر وردها الى غيره ، ولأربع بقين منه اذن في الجامع العتيق بحي على خير العمل ، وجهروا فيه بالبسملة في الصلاة ، وكانوا لا يفعلون ذلك بمصر ، وامر في المواريث بالرد على ذوي الأرحام ، وأن لا يرث مع البنت اخ ولا اخت ولا عم ولا جد ولا ابن اخ ، ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد ذكر كان أو أنثى الا الزوج والزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم الا من يرث مع الولد.

وخاطب ابو الطاهر القاضي القائد جوهر في بنت واخ وأنه قد كان حكم قديما للبنت بالنصف وللأخ بالباقي ، فقال: ما أفعل ، فلما الح عليه قال: يا قاضي هذه عداوة لفاطمة عليها السلام ، فأمسك ابو الطاهر ولم يراجعه بعد ذلك ، واشار الشهود على القاضي ابي الطاهر أن لا يطلب الهلال لأن الصوم والفطر على الرؤية قد زال ، فانقطع طلب الهلال وصام القاضي في هذه السنة مع القائد جوهر كما يصوم ، وافطر كما يفطر.

ولسبع عشرة خلت من جمادى الآخرة انفذ جوهر ابنه جعفر بن جوهر بهدية الى المعز فيها تسع وتسعون بختية ، وإحدى وعشرون قبة بأجلة الديباج المنسوجة بالذهب ، ومناطق الذهب المكللة

بالجوهر ، ومائة وعشرون جملا عرابا ، وستة وخمسون جلا ، وثمانية وأربعون فرسا عليها أجلة (١٠٣) الديباج المنقوش ، والسروج على جميعها أصناف الحلية من الذهب ، ومنها ماهو من الفضة مموه بالذهب ، ولجمها منها ماهو بالذهب ومنها ماهو بالفضة مموه بالذهب ، وعودان عظيمان من عود كأطول مايكون من الصواري كان جوهر قد وجدهما فيما وجد لنحرير الأزغلي ، وأنفذ مع الهدية جماعة من قواد الاخشيدية ، وقواد الكافورية ، ومن أنفذه جعفر بن فلاح من الشام وهم : الحسن بن عبيد الله بن طغج ، وجعفر بن غزوان صاحب القرامطة ، وفاتك الهنكري ، والحسن بن جابر الرياحي ـ كاتب الحسن بن عبد الله ـ ونحرير شويزان ، ومفلح الوهباني ، ودري الخازن ، ودرامك ، وقيلغ التركي الكافوري ، وأبو منجل ، وجكل الاخشيدي ، وفرج العجمكي ، ولؤلؤ الطويل ، وفنك الخادم ، فخرجوا في القيود وساروا إلى رشيد ففكت قيودهم هناك ، وأركبوا المحافل في البر إلى القيروان .

ومنع جوهر من (١٠٤) الدينار الأبيض ، وكان بعشرة دراهم ، وأمر أن يجعل الدينار الراضي ، وهو الذي عليه اسم الخليفة الراضي بالله ـ هو محمد بن المقتدر العباسي ـ بخمسة عشر (٣١٠ ـ ظ) درهما ، والدينار المعزي بخمسة وعشرين درهما ونصف ، فلم يرض الناس بذلك فرد الأبيض إلى ستة دراهم ، فتلف بعد ذلك إلى آخر الدهر ، وافتقر خلق كثير .

وضرب أعناق عدة من الأخشيدية والكافورية ، وصلبهم عند كرسي الجسر ، فأقاموا إلى أن دخل المعز إلى مصر .

وفي ذي الحجة أنفذ عسكرا وعشرين حمل مال وأحمال متاع إلى الحرمين بمكة والمدينة .

وفي المحرم سنة ستين وثلاثمائة اشتدت الأمراض والوباء بمصر والقاهرة ، ومنع جوهر من بيع الشواء إلا بعد سلخ الغنم ، وكان يباع مسموطا بجلده .

وفي جمادى الآخرة نقل مجلس المظالم عن يوم السبت إلى يوم الأحد وأطلق لأصحاب الراتب الف دينار فرقت فيهم .

وورد الخبر بقدوم الحسن بن أحمد الأعصم القرمطي (١٠٥) إلى دمشق وقتل جعفر بن فلاح واستيلاء القرامطة على دمشق وقصدهم مصر ، فتأهب جوهر لقتالهم ، وحفر جوهر خندقا ، وعمل بابين من حديد وبنى القنطرة على الخليج ظاهر القاهرة ، وحفر خندق السري ابن الحكم ، وفرق السلاح على العساكر فوجد رقاعا في الجامع العتيق فيها التحذير منه ، فجمع الناس ووبخهم فاعتذروا له فقبل عذرهم ، ونزل القرامطة عين شمس في المحرم سنة إحدى وستين فاستعد جوهر وضبط الداخل والخارج .

وفي مستهل ربيع الأول التحم القتال بين القرامطة وبينه على باب القاهرة ، فقتل من الفريقين جماعة وأسر كثير ، ثم استراحوا في ثانيه ، والتقوا في ثالثه فاقتتلوا قتالا كثيرا قتل فيه ماشاء الله من الخلق ، وانهزم القرمطي يوم الأحد ثالث ربيع الأول ، ونهب سواده ومر على طريق القلزم ، ونودي في مدينة مصر: من جاء بالقرمطي أو برأسه فله ثلاثمائة الف درهم وخمسون خلعة ، وخمسون سرج محلى على دوابها ، وثلاث جوائز .

وقبض جوهر على تسعمائة رجل من جند مصر في ساعة واحدة وقيدهم وسجنهم بالقاهرة في دار ، ووجد عدة ودائع لقواد الاخشيدي فأخذها .

ورفع المعاملة بالدنانير المتقية وهي التي عليها اسم المتقي لله ابراهيم بن المقتدر العباسي ، وجعل قيمة الدينار الأبيض ثمانية دراهم .
وأمر الا يظهر يهودي إلا بغيار ، فاعتمد ذلك .

وفي شعبان منها دخل أبو محمود ابراهيم بن جعفر الرملة ، وفيه مرض الشريف أبو جعفر مسلم ، فأرسل إليه القائد جوهر ابنه حسينا لعيادته ، ولتسع خلون من رمضان فرغ القائد جوهر من بناء

الجامع بالقاهرة وجمعت فيه الجمعة.وفي شوال ابتدأ القائد جـوهر بحفر الخندق بالقرافة ، وبدايته مـن بـركة الحبش (١٠٦) والقـى الأموات حتى تلقى (١٠٧) إلى قبر الشافعي فعدل بـه عنه ثـم شـق مشرقا إلى الجبل على المقابر إلى قبر كافـور الاخشـيدي ليحفـظ طريق مصر من السفح حتى لايرد أحد من القلزم .

وفي ربيع الآخر سنة إثنتين وستين وثلاثمائة تـواترت الأخبـار بقدوم المعز لدين الله إلى مصر ، فتـأهب جـوهر واخـذ في عمـارة القصر ، وفي اول رجب تقدم إلى الناس بلقـاء المعـز ، فخـرجوا في ثامنه ، وقدم المعز في سـابع رمضـان فنزل قصره مـن القـاهرة ، وجلس على سرير الذهب في الايوان وجـوهر قـائم بين يديه يقـدم الناس قوما بعد قوم حتـى انقضى السـلام ، ومضى واقبـل بهـدية وهي : من الخيل مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها بذهب ، ومنها مرصع ومنها بعنبر ، وإحدى وثلاثون ناقة من البخاتي عليها قباب بالثياب والديباج والمناطق والفرش ، منها تسعة بديباج مثقل ، وتسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل ، وثلاثة وثلاثون بغلا منهـا سـبعة مسرجة ملجمة ومائة وثلاثون بغلا للحمل ، وتسعون نجيبا ، واربعة صناديق مشبكة (٣١١ ـ و) يرى مـافيها ، وتحتـوي على أواني ذهب وفضة ، ومائة سيف محلى بذهب وفضة ، وتسـعمائة مـابين سفط وتخت فيها سائر ما أعده من ذخائر مصر .

ولما خطب المعز يوم العيد كان جوهر معه على المنبر ، وخلع عليه في سابع شوال خلعة مذهبة وعمامة حمراء ، وقلده سيفا ، وقاد بين يديه عشرين فرسا مسرجة ملجمة ، وحمـل بين يديه خمسـين الف دينار ومائتي الف درهم ، وثمانين تخت ثياب ، وكان إذا ركب المعز سار خلفه ، واستقر خليفة للمعـز بـديار مصر محـكم في القـاهرة ومصر ، ثم صرفه عن الخراج في سادس عشر المحـرم سـنة ثـلاث وستين ، فكانت مدة تدبيره أمور مصر اربع وعشرين يوما ما صـدر عنه فيها بخطه توقيع ملحون .

واقام بالقاهرة حتى مات المعز في ربيع الآخر سنة خمس وستين

واستخلف بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار ، فانتدبه إلى الخروج إلى الشام ، وحمل إليه خزائن السلاح والأموال ، وسار من القاهرة في عسكر لم يخرج إلى الشام قبله مثله ، بلغت عدتهم عشرين ألفا ، فبلغ هفتكين(١٠٨) الشرابي وهو على عكا مسير جوهر ، والقرامطة على الرملة ، فولت القرامطة منهزمين عجزا عن مقاومته ، وسار هفتكين إلى دمشق وجوهر في إثره إلى أن نزل بين داريا وبين الشماسية ظاهر دمشق يوم الأحد لثمان بقين من ذي القعدة سنة خمس وستين ، وحفر على عسكره خندقا عظيما وجعل له أبوابا ، وبنى البيوت من داخل الخندق ، وكان قد انضم إليه ظالم ابن مرهوب العقيلي ، فأنزله خارج الخندق ، وجمع هفتكين الذعار وحمال السلاح من عوام دمشق ، وقدم عليهم قسام السناط(١٠٩) التراب ، وأجرى له الأرزاق ، وأخرجه إلى قتال جوهر ، فاستمرت الحرب بين جوهر وهفتكين من يوم عرفة ، فجرى بينهم ثنتي عشرة وقعة إلى سلخ ذي الحجة ، ولم تزل الحرب إلى يوم الخميس حادي عشر ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، فانهزم هفتكين ، وعزم على الفرار إلى انطاكية ، ثم ثبت عندما بلغه قدوم الحسن بن أحمد القرمطي إليه فاستظهر ، وبلغ ذلك جوهر فدعا إلى الصلح ، وكان الشتاء قد هجم عليه وهلك أكثر ما معه من الكراع ، وصار معظم أصحابه رجالا بغير خيل ، وقلت العلوفات عنده ، واشتد وقوع الثلوج فامتنع هفتكين من إجابته ثم أذعن وأنفذ إلى جوهر بجمال ، ورحل عن دمشق بعدما أحرق ما عجز عن حمله من الخزائن والأسلحة، وسار يوم الخميس ثالث جمادى الأولى مجدا لخوفه أن يدركه القرمطي، فهلك كثير من عسكره لشدة الثلج، وأخذ القرمطي يسير خلفه من طبرية الى الرملة، فتحصن جوهر بزيتون الرملة، وخرج هفتكين من دمشق ولحق بالقرامطة ، واجتمعوا على قتال جوهر فجرت بينهم حروب طويلة شديدة آلت الى التجاء جوهر الى عسقلان وقد فني معظم عسكره ونهبت أثقاله، فنزل هفتكين عليه وحصره حتى بلغ منه الجهد الشديد، وغلت عنده الأسعار بعسقلان فبلغ قفيز القمح أربعين دينارا، وتنكر عليه من معه من الكتاميين واحتقروه وتنقصوه وشتموه، وكانوا قبل ذلك تخاذلوا ولم

يصدقوا في القتال، وكايدوا القائد جوهر، فضاقت بجوهر ومن معه الأرض، ولاذ الى الصلح، فبعث اليه هفتكين:إن أردت الخروج بمن معك فأنا أومنك حتى تنصرف الى صاحبك، فتعاقدوا على ذلك، وصالح هفتكين على مال، وخرج وقد علق هفتكين سيفه على باب عسقلان حتى يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه، فسار(٣١١ ـ ظ) الى القاهرة وقد بلغ العزيز ما هو فيه من الجهد، فبرز يريد السفر الى الشام، فسار معه، وكانت مدة قتال القرامطة وهفتكين لجوهر على الزيتون ظاهر الرملة وعلى عسقلان سبعة عشر شهرا، فلما قدم جوهر على العزيز وبلغه تخاذل الكتاميين غضب من ذلك غضبا شديدا، وعذر جوهر واظهر أنه قد تنكر له وعزله عن الوزارة وصير مكانه يعقوب بن كلس •

فلما فرغ العزيز من قتال هفتكين وعاد الى القاهرة لم يزل جوهر بها الى أن مات يوم الخميس لاحدى عشرة بقيت، وقيل بل مات لسبع بقين من ذي القعدة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، فبعث العزيز بالله إليه بالحنوط والكفن، وبعث إليه الأمير المنصور بن العزيز، وبعثت إليه السيدة العزيزة أيضا ، فكفن في سبعين ثوبا ما بين مثقل ووشي مذهب، وصلى عليه العزيز،

وكان له من الولد: حسين، وحسن، وابو احمد جعفر، فأما الحسين بن جوهر فإن العزيز خلع عليه وجعله في مرتبة أبيه، وله ترجمة كبيرة في هذا الكتاب، وأما حسن فإنه مات بالمغرب، وصلى عليه المعز لدين الله في سنة ستين وثلاثمائة، وأما ابو احمد جعفر فبعثه ابوه من القاهرة الى المغرب بهدية، وله ترجمة أيضا•

ولما مات جوهر لم يبق شاعر بمصر من أهلها ولا طارىء (١١٠) غريب إلا رثاه، ووصف مآثره وما فتحه من البلاد شرقا وغربا•

جيش بن الصمصامة
القائد ابو الفتح
(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

قدم الى القاهرة فيمن قدم اليها مع المعز ، وخرج مع خاله ابي محمود ابراهيم بن جعفر بن فلاح الى الشام ، فولاه مدينة دمشق لأيام بقيت في ربيع الآخر سنة اربع وستين وثلاثمائة ، وقتال اهلها فنزل عليها اياما ثم عبر اصحابه الى جهة باب الفراديس فثار بهم اهل دمشق وقتلوا منهم ، وساروا الى الجيش ففر منهم ، وغنموا ما كان له فاصبح جيش ونازل المدينة ومعه نفاطون فضرب مواضع بالنار وقتل من قدر عليه الى ان اهل جمادي الأولى ، فناصبه الناس وجدوا في قتاله يوما خلف يوم من بكرة النهار الى الليل والى ان صرف ابو محمود عن دمشق بريان الخادم ، وسار الى الرملة فسار معه .

ثم لما قدم هفتكين الشرابي الى دمشق وملكها بعثه ابو محمود (١١١) في نحو الألفين الى دمشق فسار حتى قرب من سنير (١١٢) وبها شبل بن معروف العقيلي في جمع من العرب فقاتله واسره واسلمه الى هفتكين فاسلمه هفتكين الى الدمستق ملك الروم وهو يومئذ نازل على دمشق ينتظر ما يجبى اليه اهلها من المال ، فما زال عنده حتى رحل عن دمشق بالمال ونزل طرابلس فهلك في طريقه ونجا جيش وصار الى خاله ابي محمود ، وقدم القاهرة فاقام بها الى أن ورد على العزيز كتاب منجوتكين بنزول بسيل (١١٣) ملك الروم على حلب فسيره على عسكر كبير في اول شهر رجب سنة خمس وثماني وثلاثمائة الى الشام فمات العزيز بعد(٣١٣ ـ و) قليل وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله وصرف منجوتكين عن الشام بسلمان (١١٤) بن جعفر بن فلاح ثم عزل سلمان بن جعفر بعد تسعة اشهر بجيش بن الصمصامة.

فسار من القاهرة في تاسع ذي القعدة سنة سبع وثمانين ونزل على دمشق بعدما اقام بالرملة مدة في يوم الجمعة لأربع خلون من رجب سنة ثمان وثمانين وقدم اليه بشارة متولي طبرية وسارا بالعساكر الى فامية يوم الاثنين رابع عشره ، وقد نازلها الروم فقاتلاهم قتالا كثيرا قتل فيه من الروم نحو خمسة الاف وانهزم باقيهم في يوم الثلاثاء لتسع بقين من رجب.ومضى جيش الى نحو مرعش يحرق ويهدم،ونزل على انطاكية وبها الروم وقاتلهم اياما،ثم سار الى شيزر وعاد الى دمشق فنزل المزة يوم الثلاثاء لتسع بقين من ذي القعدة ونزل بشارة القصر الذي بدمشق على انه ولي دمشق فقدم الكتاب من مصر باستقرار جيش على امارة دمشق .

وكانت دمشق قد خربت وقل ناسها وضعفوا وثار قوم من الجهال وصاروا يأخذون الخفارة من الناس فكثرت اموالهم ، وركبوا الخيل ومشت الرجالة بين أيديهم وزاد عجبهم واظهروا انهم تحت طاعة السلطان وفي خدمته ، فأمنهم جيش ووعدهم بالأرزاق حتى اطمأنوا اليه فقبض عليهم وقيدهم وحبسهم وشدد العقوبة عليهم حتى استصفى اموالهم وتتبع من استتر منهم وضرب اعناقهم وصلبهم على ابواب المدينة حتى خلا البلد منهم .

ثم طمع في بقية الناس من اهل المدينة والقرى وجبى منهم الأموال الى ان(١١٥)شمل ضرره الكافة فكثر الدعاء عليه وهو يطرح الأموال على القرى وعلى اهل المدينة ويعدهم ببذل السيف فيهم .

وبينما هو في ذلك اذ ورد الخبر بمسير الروم اليه في طلب ثارهم بفامية ، فجمع العربان وغيرهم وانزلهم في حرستا الى القابون ونزل الروم على شيزر وقاتلوا اهلها وملكوها ثم اخذوا مدينة حمص وسبوا وحرقوا ، وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وهي دخلة الروم الثالثة حمص ،ثم ساروا الى طرابلس ونازلوها مدة ، ثم افرجوا عنها وتوجهوا الى الثغور الجزرية فاشتد بأس جيش عند رحيلهم وزاد ضرره لأهل دمشق .

وكان به طرف جذام فتزايد به حتى تمعط (١١٦) شعره ورشح

بدنه وا سود ثم انحتت سحنة وجهه وداد كله ، ونتن جميع جسده فصار يصيح: ويحكم اقتلوني اريحوني الى أن هلك (١١٧) يوم الأحد لسبع خلون من ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة ، وكان مقامه على دمشق ستة عشر شهرا وستة عشر يوما.

ووصل ابنه عبد الله بتركته في جمادى الآخرة ، ودفع درجا الى زيدان الصقلبي حامل المظلة بخط ابيه جيش يتضمن وصيته وتعيين ما خلفه مفصلا مشروحا ، وفيه ان ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله . لايستحق احد من اولاده في ذلك درهما واحدا فما فوقه وتبلغ قيمة ذلك زيادة على مائتي الف دينار ما بين عين ورحل ومتاع، فلما مثل ابنه عبد الله بن جيش بحضرة الحاكم قال زيدان: ان التركة كلها قد حزتها وهي على البغال محمولة تحت القصر واستأذن الحاكم فيمن يتسلمها فاخذ الحاكم منه الدرج واوصله الى ابني جيش بن الصمصامة وقال لهما بحضرة اوليائه ووجوه دولته: قد وقفت على وصية ابيكما رحمه الله من عين ومتاع مما وصى به فخذوه هنيئا مباركا لكما فيه، وخلع عليهما فانصرفا بجميع التركة

الحسن بن الصباح

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

الحسن بن صباح ، الرازي، رئيس الاسماعيلية، المعروف بالكيال •

كان رجلا شهما كافيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك • فمال الى دعوة الباطنية ، وصار تلميذا لأحمد بن عبد الله بن عطاش الطبيب • وكتب للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالري • فاتهمه أبو مسلم رئيس الري بدخول جماعة من المصريين عليه ، فخافه ابن الصباح وخرج من الري ، فطلبه ابو مسلم فلم يدركه •

ومضى ابن الصباح فطاف في البلاد • فقدم الى مصر في سنة تسع وسبعين واربعمائة في زي تاجر واجتمع بالخليفة المستنصر بالله ، وحدثه في إقامة دعوته ببلاد خراسان، فوصله بمال ، واقام عنده مدة • فبلغه عنه ما أوجب اعتقاله • ثم اخرجه وانعم عليه ، وكتب له بخطه جوابا عن مسائل سأله عنها على مذهب الاسماعيلية •

وخرج من القاهرة الى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم • ورجع الى خراسان ودخل كاشغر وماوراء النهر ، وهو يطوف على الناس ويدعو الى المستنصر وينشر الدعوة ببلاد الجبل وقزوين واصبهان حتى شاعت • وسير دعاته ورسله الى بلاد العجم والقى عليهم مسائلهم التي منها :

لم كانت الأيام سبعة ؟
والبروج اثني عشر ؟
والسماوات سبعا ؟
والأرضون سبعا ؟

والشهور اثني عشر ؟
وفي كل كف من الانسان خمس اصابع ؟
وفي كل إصبع ثلاثة شقوق ؟
وفي ظهر الانسان اثنتا عشرة خرزة ؟
وفي عنقه سبع خرزات ؟
ونحو ذلك •

وادعى انه استاثر من إمامه بغوامض علوم وبديع اسرار • وكانت الدعوة الاسماعيلية هناك قديمة فقبلها كثير من الناس • واخذ في ابتياع الاسلحة والعدد الحربية سرا • وواعد أصحابه ممن استجاب له على ليلة عينها لهم من شعبان سنة ثلاث وثمانين واربعمائة • والسلطان يومئذ ملك شاه بن الب ارسلان • واخذ قلعة المَوت(١١٨) وهي بنواحي قزوين ، ولها بلاد كثيرة بأصبهان وقلاع عديدة • وكانت قديما قبل الاسلام وفي صدر الاسلام لملوك الديلم ، وهي من الحصانة والمناعة على غاية ، لاترقى الهمم الى بلوغها وتحيط بها بحيرة • فبعث نظام الملك عسكرا الى قلعة الموت فحصر ابن الصباح الى ان ضاق ذرعه بالحصر • فارسل من قتل نظام الملك ، فلما قتل رجع العسكر عنه •

ولما ملكها اجتمع باطنية اصبهان ونواحيها مع رئيس دعاتهم احمد بن عطاش ، واخذوا قلعتين عظيمتين فعظم أمرهم وكثر عملهم بالسكين • وكان اول عملهم بالسكين أن الحسن بن الصباح لما بث دعوته وصار معه طائفة اظهر التدين والزهادة وقال لأصحاب قلعة الموت : نحن قوم ضعفاء زهاد نريد عبادة الله عندكم • فبيعونا نصف هذه القلعة !

فباعوها منهم بتسعة الاف دينار وسكنوا فيها • فاستولى عليها ، وبلغ خبره ملك تلك الناحية فقصده بعسكره ليحاربه • فقال علي اليعقوبي للحسن بن صباح ولمن معه : اي شيء يكون لي عندكم إن كفيتكم أمر هذا العسكر ؟

فقال : نذكرك في تسابيحنا •
فقال : رضيت •

ونزل بهم • وقسمهم أرباعا في أرباع العسكر : وجعل معهم طبولا وقال : إذا سمعتم الصائحة فاضربوا الطبول •

ثم هجم على صاحب العسكر في الليل وقتله • فوقع الصياح في العسكر ، فضرب أولئك الطبول ، فلم يثبت العسكر لما ملأ قلوبهم من الخوف وفروا بأجمعهم وتركوا خيامهم ، فنقلها اصحاب ابن الصباح الى قلعة الموت •

ومن ذلك الوقت سنوا سنة السكين ، واغتالوا الملوك والرؤساء ، وكثر قتلهم للناس •

فاستدعي الامام ابو حامد الغزالي الى نيسابور واقام بالمدرسة النظامية فيها واشتغل بمناظرة اصحاب ابن الصباح والف كتاب « المستظهري (١١٩)وأجاب عن مسائلهم • وجد السلطان ملك شاه في قلعهم فلم يتمكن من ذلك •

فلما مات المستنصر بالله في ذي الحجة سنة سبع وثمانين واربعمائة ، ادعى الحسن بن الصباح انه قال المستنصر لما كان عنده :« من الامام بعدك ؟ قال : ولدي نزار » • وانكر إمامة المستعلي ودعا لنزار بن المستنصر • فلما قتل نزار في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين قال اصحاب ابن الصباح له : إنك تدعي حضوره •

فقال لهم : الآية في ذلك ان يطلع القمر في غير وقته من غير مطلعه •

ثم عمد الى جبل بجانبهم شديد الارتفاع • وعمل بعض مخاريقه فصار يرى كالقمر قد طلع من وراء الجبل • فعند ذلك صار بعضهم يبشر بعضا بالامام نزار • وأقرفوا(١٢٠)من أهل مصر وشرعوا في افتتاح الحصون فأخذوا قلاعا ، واشتغلوا بعمل السكين التي سنها لهم علي اليعقوبي • واخذ ابن الصباح يقول لأصحابه : إن الامام نزارا بين أعداء كثيرة ، والأعداء محيطة به ، والبلاد بعيدة ، ولم

يتمكن من الحضور ، وقد عزم على أن يستخفي في بطن امرأة ويستأنف الولادة ليجيء سالما ٠

فصدقوه في ذلك ، وأخرج إليهم جارية حبلى وقال لهم :« إن الامام قد اختفى في هذه » ٠ فعظموها حتى ولدت ذكرا وسماه حسنا وقال :قد تغير الاسم بتغيير الصورة ٠

وفي المحرم سنة ثلاث وخمسمائة سير السلطان محمد بن ملك شاه وزيره احمد بن نظام الملك الى قلعة الموت لقتال الحسن بن الصباح ، فحصره وهجم عليه الشتاء فعاد بغير طائل ٠

وفي سنة خمس وخمسمائة ندب ايضا لقتاله الأمير انوشستكين شيركير صاحب ساوة فملك عدة قلاع للحسن بن الصباح ونزل على قلعة الموت بعساكره ، وامده السلطان محمد بعدة من الأمراء ، فجد في قتال الحسن وبنى له مساكن يسكنها هو ومن معه ٠ فضاق الأمر على الحسن وقلت الأقوات عنده حتى كان يجري لكل من اصحابه رغيفا وثلاث جوزات في اليوم ٠ فبيناهم في ذلك إذ مات السلطان فرحل العسكر وغنم الحسن ما تخلف عنهم ٠

ثم إن ابن صباح ندب لقتل الأفضل ابن امير الجيوش من اصحابه ، فلما قتل في شهر رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة وولي القائد ابو عبد الله محمد بن فاتك المعروف بالمأمون البطائحي وزارة الخليفة الآمر بأحكام الله بعد قتل الأفضل ، اتصل به أن النزارية والحسن بن الصباح فرحوا بموت الأفضل ، وأن آمالهم امتدت إلى قتل الآمر والمأمون (١٢) وقد بعث ابن الصباح رسلا لمن في مصر من اصحابه بأموال تفرق فيهم ٠

فضبط حينئذ المأمون امر مصر ضبطا عظيما حتى قبض على جماعة كثيرة من اصحاب ابن الصباح ٠ وعقد مجالسا بالقصر للنظر في أمر النزارية ٠ وكتب الى الحسن بن الصباح يعظه ويأمره بالرجوع عن القول بإمامة نزار ، فلم يقنع بذلك ، واقام على دعوته الى أن مات بناحية الموت في سنة ثماني عشرة وخمسمائة

وكان ذا سمت وزهد ، وله اتباع من جنسه ٠

وقام من بعده بألموت ديلمي يعرف بـزرك أميد، وهـذه الطـائفة الاسماعيلية يقال لها ايضا الباطنية ، وأصـل دعوتهـا مـأخوذ عن القرامطة ٠

واول ما عرف أمرها أنه اجتمع منها ثمانية عشر رجلا يوم العيد في مدينة ساوة ، وقد فطن بهم الشحنة ، واخذهم وسجنهم ثم سـئل فيهم فخلى عنهم ، وكان ذلك في سلطنة ملك شـاه ٠ثـم إنهـم دعوا مؤذنا من أهل ساوة كان بأصبهان فلم يجبهـم فقتلوه فـأمر الوزير نظام الملك بتتبعهم ٠ فأخذ رجل نجار اسمه طاهر وقتل ومثـل بـه وجرت العامة برجله في الأسواق ٠

فحنق الباطنية ودسوا على نظـام الملك حتـى قتلوه بـالنجار ، ثـم اجتمعوا في موضع بالقرب من قاين واخذوا قافلة عظيمة مرت بهـم من كرمان ، وقتلوا سائر من بها إلا رجلا تـركمانيا ، فإنه فـر الى قاين وأعلم الناس فخرجوا إليهم فلم يقدروا عليهم ٠ وعظم أمـرهم واشتدت شوكتهم بنواحي أصبهان ، وصار دعاتهم يسرقـون مـن قدروا عليه ويقتلونه حتى اتلفوا خلقا كثيرا ، وانتشرت دعوتهم ٠

ثم إن الفقيه ابا القاسم مسعود بن محمـد الخجندي الشـافعي تجرد لهم بمدينة أصبهان ، وجمع الجمع الغفير بالأسلحة وتـطلبهم واخذ منهم عالما كبيرا ، وحفر لهم اخاديد واضرمهـا نارا ، وجعلت العامة تأتي بالباطنية أفواجا وفرادى وتلقيهم في النار ، وقد أوقفوا على رأس الأخاديد رجلا سموه مـالكا ٠ فقتـل منهـم خلق كثير في شعبان سنة أربع وتسعين وأربعمائة ٠

وكان الباطنية قد اجتمعوا على أحمد بن عبـد الملك بـن عطـاش والبسوه التاج وجمعوا له الأموال وقدموه عليهـم ، مـع جهله ، لأن اباه كان مقدما فيهم ٠ فاتصل بدزدار قلعة أصـبهان التـي بناهـا السلطان ملك شاه ، وبقي معه فوثق به الدزدار وقلده الأمور ٠ فلما مات الدزدار بعد موت ملك شاه في أيام خاتون الجلالية أم السـلطان محمد بن ملك شاه ، استولى أحمد بن عبد الملك بـن عطـاش على

القلعة بعده ، ونال المسلمين منه ضرر عظيم من اخذ الأموال وقتل الأنفس وقطع الطريق والخوف الدائم •



وفي الحسن بن الصباح يقول الشريف أبو يعلى محمد بن محمد ابن الهبارية العباسي ، وكتب بها من كرمان في سنة ست وسبعين واربعمائة إلى أمين الدولة ابي سعد ابن الموصلايا نائب الديوان ببغداد ، فعرضها على الخليفة المستظهر بالله ، وهي :

عز على المنصور والسفاح
ظهور امر الحسن الصباح

يدعو الى ميمونه القداح
بألسن الصفاح والرماح

انائم انت أبا العباس؟

ناحت دعاة القوم في النواحي
فدعوة الصباح كالصباح

قد صرحت بشرها الصراح
قائلة بألسن فصاح :

حي على قتل بني العباس!

فاكثر العالم مستجيب
إلا امرو محقق نجيب

بقلبه من خوفهم وجيب
وذاك في هذا الورى عجيب

وكلهم شارب هذا الكأس

لم يبق في ظهورهم خفاء
قد ذهب النفاق والرياء

ولعبوا بالملك كيف شاؤوا
واستذابت للجرة الجماء
إذ غابت أسد عن الأخياس
فالباطل اليوم جهارا ظاهر
شيطانه للمسلمين قاهر
بكذبه معالن مجاهر
سيفه على العباد شاهر
مفتخر بمكره في الناس
حذار من شرهم حذار
فإنهم كالأسد الضواري
قانية الأنياب والأظفار
ليس لها في الغاب من قرار
شوقا الى العراك والمراس
فنارهم تستعر استعارا
ترمي إليك الجمر والشرار
ترى فراش ضوءها الأعمارا
فاحذر أبيت اللعن ثارا
فهي بلا أس ولا نحاس
حقرتم الشرار في الرماد
فعاد كالجمر في الاتقاد
وحره والله في فؤادي
وسائر القلوب والأكباد
قلوب أهل السنة الأكياس
كأننا نبصر ما يكون
إن اللبيب ظنه يقين

هونه قوم وما يهون
والاحتقار لهم جنون
واحزنا ليس لجرحي أس!
إن تم أمر القوم في كرمان
دب إلى الاقطار والبلدان
وانكشفت سريرة السلطان

وجاء بغداد بلا احتباس

نظام الملك
أحد أفراد الدنيا

(من بغية الطلب لابن العديم)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

الحسن بن علي بن اسحق بن العباس ابو علي الطوسي، الوزير المعروف بنظام الملك ويعرف بخواجا بزرك ، وخواجا بالفارسية الوزير ، وبزرك العظيم ، وزر للسلطان العادل الب ارسلان بن جغري بك ، وقدم معه حلب في سنة ثلاث وستين وأربعمائة حين قدمها محاصرا لها .

ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه أبي الفتح ، وقدم معه حلب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وسمع بحلب أبا الفتح عبد الله بن اسماعيل بن الجلي الحلبي ، وروى عن أبي عبد الله بن محمد الطوسي، وابي بكر محمد بن يحيى بن ابراهيم المزكي ، وابي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، وابي حامد احمد بن الحسن الأزهري ، وابي بكر محمد بن أحمد بن محمد الصفار ، وأبي بكر محمد بن أحمد بن الحسن الطاهري ، وابوي منصور شجاع بن علي بن شجاع المصقلي الشيباني ، ومحمد بن احمد بن علي القاضي وابي نصر علي بن عبد الله الكاغدي ، وابي بكر احمد ابن منصور بن خلف المقرىء ، وابي القاسم اسماعيل بن زاهر الطوسي ،وابي الحسن علي بن عبد الله بن محمد ، وابي مسلم محمد ابن علي بن مهر برد الأديب ، واميرك بن احمد ، واحمد بن عبد الرحمن الصائغ ، وابي عبد الله عبد الرحمن بن عبد الله المذكر ، وابي الحسن علي بن محمد بن يحيى المرندي ، و غيرهم

روى عنه أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف بن عمر الارموي ،

وأبو الصمصام (٢٨٥ -ظ) ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسني وأبو الفتح نصر الله محمد بن عبد القوي اللاذقي ، وابو نصر محمد بن محمود الشجاعي ، وابو محمد الحسن بن منصور السمعاني ، وأبو القاسم نصر بن نصر الواعظ العكبري ، وابو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي ، وأبو الفتح محمد بن محمد ابن عبد الله البسطامي ، وابو سفيان محمد بن احمد العبدوسي، وابو بشر مصعب بن عبد الرزاق المصعبي ، وابو الحسين محمد بن محمد بن محمد السهلكي ،وابو القاسم :علي طراد الزينبي ،واسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ ، وأبو الفضل محمد بن أبي نصر ابن المسعودي ، وابو غالب محمد بن ابراهيم الصيقلي ، وأبو نصر علي ابن هبة الله بن ماكولا ، وغيرهم .

وعقد مجلس الاملاء لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان وزيرا عادلا سائسا قيما بأمور المملكة فاضلا ، عالما ، جوادا ، حليما ، كثير الصدقة والمعروف ، ووقف عدة مدارس لطلبة العلم ، وكان كثير المخالطة لأهل العلم ، مكرما لهم ، حسن الأخلاق .

اخبرنا ابو البركات داود بن احمد بن محمد بن ملاعب البغدادي قراءة عليه بدمشق قال : أخبرنا القاضي ابو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموي ، ح.

وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن عبد الله بن موهوب ابن البناء بدمشق قال : اخبرنا أبو القاسم نصر بن نصر الواعظ العكبري قال : حدثنا الصاحب الأجل العالم العادل نظام الملك قوام الدين غياث الدولة وشمس الملة اتابك أبو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي (٢٨٦ -و) امير المؤمنين إملاء في يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم من سنة ثمانين وأربعمائة بالمدرسة ببغداد قال : أخبرنا الشيخ ابو بكر احمد بن منصور بن خلف المقرىء بنيسابور قال : حدثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن اسحق بن خزيمة قال: حدثنا أبو العباس محمد بن اسحاق السراج قال : حدثنا قتيبة ابن سعيد قال : حدثنا مالك بن أنس عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن

عمرو بن سليم الانصاريي عن ابي قتادة السلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اذا جاء احدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس.

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : أخبرنا أبو سعد المروزي قال : أخبرنا أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق قال : أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير بأصبهان قال : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد الطوسي قال : حدثنا أبو عبد الله بن محمد الخازمي قال : حدثنا عبد الله بن عمر بن علك قال : حدثنا عبدان بن محمد الزاهد قال: حدثنا علي بن عيسى قال : حدثنا خلف بن تميم قال : حدثنا عبد الله بن السري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اذا لعن آخر هذه الأمة أولها ، فمن كان عنده علم فليظهره ، فان كاتم العلم يومئذ ككاتم ما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم »(٢٨٦ –ظ).

اخبرنا عمي أبو غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة بقراءتي عليه قال : أخبرنا والدي أبو الفضل هبة الله بن محمد ، ح .

وأخبرنا أبو هاشم الحلبي قال :أخبرنا عبد الكريم بن أبي المظفر قالا: أخبرنا أبو الصمصام ذو الفقار بن محمد بن معبد الحسني بقراءتي عليه بالموصل قال : أخبرنا أبو علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير بأصبهان قال : حدثنا أبو بكر محمد بن يحيى بن ابراهيم المزكي قال : حدثنا أبي قال :حدثنا محمد بن داود بن سليمان قال : حدثني ابراهيم بن عبد الواحد قال : حدثنا وريزة بن محمد الغساني قال : حدثنا الفضل بن محمد عن أبيه عن جده قال: قيل لعبد الله بن عباس:كم تكتب العلم ؟ فقال : إذا نشطت فهو لذتي واذا اغتممت فهو سلوتي .

قرأت في كتاب زينة الدهر لأبي المعالي سعد بن علي الحظيري الكتبي وذكر نظام الملك وقال : وبلغني انه كان يقول الشعر ، والذي وقع إلي من شعره ، وهو بديع ، وكان عند كبره يتكىء على عصا :

بعد الثمانين ليس قوة

لهفي على قوة الصبوة

كأنني والعصا بكفي

موسى ولكن بلا نبوة

قال الحظيري : وله :

أتذكرها وقد خرجت عشيا

باتراب لها كالعين رود

فمدت من اصابعها وقالت

خضبناهن من علق الوريد (٢٨٧ -و)

نقلت من مجموع بخط ولد أسامة بن مرشد بن منقذ ، وقال خواجه بزرك رحمه الله :

احبابنا لا شتت الدهر شملكم

ولا ذقتم من لوعة البين ما عندي

تحملتم لي كلكم شوق واحد

وحملتموني شوق كلكم وحدي

اخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا ابو سعد السمعاني قال : قرات بخط ابي محمد عبد الله بن احمد بن السمرقندي : مولده - يعني الصاحب نظام الملك - يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثماني واربعمائة .

أنبأنا أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل القاضي عن أبي محمد عبد الكريم بن حمزة عن أبي نصر علي بن هبة الله بن ماكولا قال في كتاب الاكمال : بزرك بفتح الباء ، وبعدها زاي مضمومة ، ثم راء ساكنة ، فهو نظام الملك قوام الدين غياث الدولة رضي أمير المؤمنين أبو علي الحسن بن علي بن اسحق يعرف بين العجم بالبزرك ومعناه العظيم ، سمع الكثير ، وحدث ، وأملى بخراسان جمعا ، وبالثغور ، وبقوهستان وغيرها من البلاد ،

وسمعت منه إملاء بالري ، وسمعت منه بنواحي خت ، وبقراءة غيري وكان ثقة ، ثبتا ، متحريا ، فهما ، عالما (١٢٢).

وقال ابن ماكولا في موضع آخر من الكتاب المذكور : اما نظام فهو نظام الملك ، قوام الدين ، غياث الدولة (٢٨٧ -ظ) وزين الوزراء ، ابو علي الحسن بن علي بن اسحق ، ولد بطوس ، وسمع الكثير ، وحدث بمرو ، ونيسابور ، والري ، واصبهان ، وبغداد ، وجميع بلاد خراسان ، وبلاد اران وهي جنزه وبرذعة ، وبيلقان ، وسائر البلاد (١٢٣). اخبرنا ابو هاشم عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن ابي بكر السمعاني قال : الحسن بن علي بن اسحق ابن العباس الطوسي ابو علي الوزير نظام الملك العالم العادل ، كعبة المسجد ، ومنبع الجود ، ومعدن الكرم والافضال ، ذو القلم الماضي ، واللسان القاضي ، والمعدلة ، والامانة ، والصلاح ، والديانة ، وكان صاحب اناة ، وحلم ، ووقار ، وصفح ، وصمت ، وكان مجلسه عامرا بالقراء والفقهاء ، وائمة المسلمين واعلام الدين ، واهل الخير ، والستر ، والصلاح ، وصار مثل الكعبة ، يقصده كل احد من الاقطار وأمر ببناء المدارس في الامصار ، ورغب في العلم كل احد ، سمع الحديث الكبير ، واملى في البلاد ، وحضر مجلسه أكثر الحفاظ والمحدثين ، ورغبوا في السماع منه لعلو رتبته ، وارتفاع درجته .

وأما ابتداء حالته : فإنه كان من أولاد الدهاقين : وارباب الضياع بناحية بيهق ، وقصبة الراذكان من نواحي طوس ، قيل انه نفي عن والدته رضيعا ، وان اباه كان يطوف بـه على المرضعات فيرضعنه حسبة حتى شب ولم يدر أحد مكنون سر الله في (٢٨٨ -و) امره ، فنشأ ، وساقه التقدير إلى ان علق به شيء من العربية ، وقاده ذلك إلى الشروع في رسوم الاستيفاء ، فلم يزل الدهر يعلو به ، وينخفض حضرا وسفرا ، وكان يطوف في بلاد خراسان ، ووقع إلى غزنة في صحبة بعض المتصوفين إلى أن تنبه بخته ، وحان وقته ، ووقع في شغل أبي علي بن شاذان المعتمد عليه ببلخ من جهة الأمير جفري حتى حسن حاله عند ابن شاذان . وظهر اثر خدمته ،

ولاحت آثار كفايته ، وصار معروفا عند ذي امره ، إلى ان توفي ابــو علي بن شاذان ، فذكر انه اوصى إلى الملك الب ارسلان بــه ، وذكر له كفايته وأمانته واستصلاحه لشغله ، فنصبه مكانه ، وصار وزيرا له والحال بعد مستورة ، والدولة مغمورة إلى أن انتهت الدولة الركنية (١٢٤)نهايتها ، وكانت ولاية مــرو لألب ارســلان ملكا ، وهــو الوزير المتمكن من الامر ، فاتفقت وفاة طغرلبك ، ولم يكن له من الأولاد من ينوب منابه ، فتوجه الامر إلى الب ارسلان ، وتعين للسلطنة فتحرك عن مرو ، والوزير يرتب أمره ، ويرتب قواعد ملكه حتــى زحــف الى نيسابور ، والى العراق ، وخطب له على منابر خراسان ، والعراق .

وارتفع امر الصاحب . وصار سيد الوزراء ، صافيا له الورد مــن سنة خمس وخمسين واربعمــائة ، وانقضــت ايام فتــرة المذاهــب والرسومالمقوتة في الدولة الماضية ، واظهر الله مــكنون سره في دولة نظام الملك (٣٨٨ ظ) فجرى له من الرســوم المســتحسنة ، ونفــي الظلم ، واسقاط المؤن والقسم ، وحســن النظــر في أمــور الرعية ، وتقدير المعاملات على سنن الانصاف والعدل .

وضبط الأمور ، واستقامت الأحوال ، ورتبــت الدواوين أحســن ترتيب ، وتزينت الاقطار بآثار العدل والانصاف ، وكان من اكفــى الكفاة والســلطان مــن أعدل الولاة ، فصــفي العيش ، واطــردت التجارات ، واهلت الطرق ، وقل أهل العيث والفساد ، واخــذ الوزير في بذل الصلات ، وبناء المدارس والمســاجد والربــاطات وتحصــين العمارات بالأوقاف الدارة ، وتزيين المدارس بخزائن الكتــب المودعة فيها ، المشتملة على نفائس الأعلاق ، ثم اسكان البقاع طلبــة العلم والمدرسين في كل فن من الفنون ، وكل ذلك من الأسباب الموثقة للملك والبذور .

حتى انقضت النوبة للسلطان الب ارسلان بعــد اســتكمال عشر سنين ، إلى ســنة خمس وســتين وأربعمــائة ، وطلع نجــم الدولة الملكشاهية ، وظهرت كفاية نظام الملك بعد تقــدير الله في تقــرير تلك المملكة ، مع اتفاق الوقعة الهائلة للسلطان عند قصــدهم مــا وراء

النهر ، وطفاء الخصوم اللد من كل ناحية ، وتزاحم الأولاد المستعدين للملك ، حتى توطدت أسباب الدولة ، واستقام الأمر ، فصار الملك حقيقة لنظامه ورسما واسما للسلطان ، فما كان له إلا إقامة رسم (٢٨٩ –و) التخت والاشتغال باللهو والصيد ، وكان تحمل إليه الأحمال المجلوبة من الأقطار ، والدهر وسنان ، والسعد جذلان ، والنحس خزيان ، واستمر على ذلك عشرون سنة اتفقت لهم فيها غزوات إلى الروم ، وظفر منها بطرف الدنيا من الأموال ، والعبيد ، والدواب وغيرها ، ثم نهضات الى الموصل ، وحلب وتلك الديار ، وحركات إلى ما وراء النهر ، وكان في اثناء ذلك ظهور خصوم من الأطراف يتمنون اماني فلا يدركونها ، ويتحركون عن مواضعهم ، وكانت عاقبتهم تؤول إلى انهم يتركونها ، وكل ذلك بكمال كفاية نظام الملك ، وتمهيده القواعد ، وبركة أيامه ، وسعادة جده .

إلى أن انتهى الحال الى الكمال ، فما رضيت تلك النوبة المباركة ، والدولة الميمونة إلا وان تختتم بعاقبة تليق بها ، وما كانت إلا الشهادة ، فأدركه قضاء الله في شهر رمضان صائما شهيدا ، ووجىء في الطريق بين أصبهان ومدينة السلام ليلة ، ومضى إلى رحمة الله سنة خمس وثمانين واربعمائة وما كانت الازوال بركته وحشمته حتى تغيرت الأمور واضطربت المملكة ، وتشوشت أمور العالم ، ونسيت تلك الرسوم ، وما ركدت بعد سنين اثار تلك النائرة والظن أنها لا تعود إلى مثل ذلك والله اعلم .

قال أبو سعد : سمع بأصبهان ابا مسلم محمد بن علي بن مهر برد الأديب وابا منصور شجاع بن علي بن شجاع المصقلي ، وبنيسابور أبا القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري وابا أحمد بن أحمد بن الحسن الأزهري ، وخلقا يطول ذكرهم .

روى لنا عنه عمه الشهيد ابو محمد الحسن بن منصور السمعاني وابو بشر مصعب بن عبد الرزاق المصعبي بمرو ، وابو نصر محمد ابن محمود الشجاعي بسرخس ، وابو الحسين محمد بن محمد بن

محمد السهلكي ببسطام ، وابو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان ، وابو القاسم علي بن طراد بن محمد بن علي الزينبي ببغداد ، كتب عنه املاء بجامع الرصافة ، وابو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي اللاذقي بدمشق ، ، وابو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله البسطامي ببلخ .

انبأنا ابو اليمن زيد الحسن عن أبي منصور بن الجواليقي عن الخطيب أبي زكريا التبريزي أن فخر الملك بن نظام الملك حدثه أن والده كان يكتب (٢٨٩ -ظ) للأمير ياخر صاحب بلخ ، وفي راس كل حول يصادره ، ويأخذ ما معه ، ويقول له: قد سمنت ، ويدفع اليه فرسا ومقرعة ، ويقول : هذا يكفيك ، فلما طال عليه هرب منه ، ولقيه أصحاب ياخر فأخذوه وهو على فرس بطيء فلقي ركابيا فأعطاه فرسه ، فقويت نفسه ، وهرب منهم ودخل إلى داود بن ميكائيل ، فلما رآه اخذ بيده ، وسلمه إلى ولده الب ارسلان وقال له : هذا حسن الطوسي فتسلمه ، واتخذه والدا ، ودخل ياخر في الحال وقال : هذا كاتبي وقد اخذ اموالي ، وكان قد ركب خلفه فقال له داود : لا خطاب لك معي ، والخطاب لولدي محمد ، فلم يتمكن من خطابه ، ولما خاطبه فيه لم يسمح به .

داود بن ميكائيل هو جغري بك ، ومحمد ابنه هو الب ارسلان ، ولكل واحد من الملوك السلجوقية اسمان ، اسم عربي واسم تركي .

اخبرنا عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا ابو سعد السمعاني قال : سمعت ابا منصور علي بن علي بن عبد الله الأمين يقول : سمعت الأمير ابا الحسن العبادي يقول : حين جاءنا نعي نظام الملك في شهر رمضان سنة خمس وثمانين - قال : كنت بسرخس في مجلس شيخي أبي علي الفارمذي فقال في اثناء كلامه : وهذا الحسن سد للفتن ، مشفق على المسلمين ، وكان يشير إليه ، فنظرت فإذا النظام جالس تحت سريره - ثم قال الامير العبادي : اخاف بعد قتله ظهور (٢٩٠ -و) الفتن ، فان الشيخ قال : هو سد للفتن .

اخبرنا عبد المطلب قال : أخبرنا ابو سعد بن ابي بكر بن ابي

المظفر قال : قرات بخط والدي رحمه الله : سمعت الفقيه الأجل أبا القاسم يعني عبد الله بن علي بن اسحق اخا نظام الملك يقول : كان اخي نظام الملك يملي بالري ، فلما فرغ قال : إني أعلم اني لست أهلا لما اتولاه من هذا الاملاء ، لكني اريد ان اربط نفسي على قطار بغلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : قال والدي رحمه الله ، وسمعته - يعني الفقيه الأجل - يقول : سمعته - يعني نظام الملك - يقول : مذهبي في علو الحديث غير مذهب اصحابنا ، انهم يذهبون إلى ان الحديث العالي ما قل رواته ، وعندي : إن الحديث العالي ما صح عن رسول اللله صلى الله عليه وسلم ، وان بلغت رواته مائة .

قرات بخط الحسن بن جعفر بن عبد الصمد بن المتوكل ، وانبأنا به الحسن بن المقير عنه ، قال : حدثني الشيخ الامام أحمد بن محمود بن ابراهيم الضرير الأزجي المعروف بابن الصياد صاحب الشيخ ابي سعد المعمر بن علي بن المعمر الواعظ المعروف بابن أبي عمامة قال : سمعت من لفظ الشيخ الحسن بن علي بن اسحق ، نظام الملك ، وفي سنة ثمانين واربعمائة ، قصد الناس نظام الملك ، واستجدوه ، وكثر عليه الناس والشعراء ، فلم يرد احدا ممن قصده ، حتى قيل انه لما خرج إلى(النهروان) تقدم بأن يثبت ما خرج منه (٢٩٠ - ظ) مدة قبل مقامه ، فكان مائة ألف ونيف واربعين الف دينار .

اخبرنا ابو هاشم بن ابي المعالي الحلبي قال : اخبرنا عبد الكريم ابن محمد بن منصور قال : وقرات بخط والدي : سمعت الفقيه الأجل يعني ابا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول : كنت بمكة واردنا الخروج إلى عرفات ، فأخبرني رجل أن انسانا من الخراسانية مات في بعض الزوايا ، وانه انتفخ وفسد ، ولزمني القيام بحقه لما اديت من الأمانة إلي فيه ، فتمكثت لذلك .

قال : فرآني بعض من كان يأتمنه الصاحب نظام الملك على أمور الحاج فقال لي : ما وقوفك ها هنا والقوم قد ذهبوا ؟! فقلت : أنا

واقف لكذا وكذا ، فقال : إذهب ولا تهتم لأمر هذا الميت ، فــان عندي خمسين الف ذراع من الكرباس لتكفين الموتى من جهــة الصــاحب نظام الملك .

اخبرنا ابو هاشم بن ابي المعالي قال : اخبرنا تاج الاسلام ابــو سعد السمعاني قال : وكان أكثر ميله إلى الطـائفة المتصـوفية مـع الأيمان بما كانوا يتوسلون به إليه مــن فنون الرؤيا ، فيقبلهـم على ذلك ، ويقربهم ، وينجح حوائجهم ، ويوصل إليهم مآربهــم ، ويقضي ديونهم ويدر عليهم الادرارات والمرسومات .

وحكي عن بعض المعتمدين انه قال : حــاسبت مــع نفسي وطـالعت الجرائد فبلغ ما قضاه الصدر من ديون واحد من المتنمسين المقبولين عنده في مدة سنين يسيرة ثمانين الف دينار حمر ، وكان صادقا فيما حكاه .

نقلت من خط عماد الدين ابي عبد الله محمد بن محمد بن حـامد الكاتب ، وانبأني عنه ابو الحسن محمد بن ابي جعفر وغيره ، قال : ومناقب نظام الملك اكثر من أن تحصى ، وحكى من احضر محـاسبة ابن اسمحا اليهودي بإحالاته وتـوقيعاته فـوجدها في اشـهر قــد اشتملت على ثلاثين الف دينار ، ليس فيها توقيع إلا لفقيه ، او فقير او شريف ، او لرجل من أهل بيت (٢٩٠ ـو) .

اخبرنا أبو هاشم قال : اخبرنا أبو سعد قال : سمعت ابــا الفضــل مسعود بن محمود الطرازي ببخارى يقول : سمعت شــيخنا الحسن بن الحسين الأندقي يحكي عن عبد الله الساوجي انه قــال : كان الوزير نظام الملك أستأذن السلطان ملك شاه في ســفر الحــج ، فأذن له ، وكان ببغداد ، فعبر الدجلة ، وعبروا بالقماشات والآلات ، وضربت الخيام على شط الدجلة ، فكنت أريد أن ادخل إليه يومــا ، فرأيت على باب الخيمة واحدا من الفقراء يلوح مــن جبينه ســيماء القوم ، فقال لي : يا شيخ أمانة توصلها إلى الصاحب ، قلت نعــم ، فأعطاني رقعة مطوية ، فدخلت ، ولم أنشر الرقعة ، وما نظرت فيها ، وحفظت الأمانة ، فوضعت الرقعة بين يدي الوزير فنظر فيها ، فبكى

بكاء كثيرا حتى ندمت ، وقلت في نفسي : ليتني كنت نظرت فيها ، فإن كان شيء يسوءه ما دفعته اليه ، ثم قال لي : يا شيخ ادخل علي صاحب الرقعة ، فخرجت فلم أجده ، فطلبته فلم اظفر به ، فأخبرت الوزير أني لم أجده ، فدفع إلي الرقعة ، فإذا فيها : رايت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وقال لي : اذهب الى الحسن وقل له اين تذهب إلى مكة ، حجك ها هنا أما قلت لك اقم بين يدي هذا التركي واغث أصحاب الحوائج من امتي ؟ فرجع النظام وما خرج .

قال : وكان يقول لي الوزير مرات :لو رايت ذلك الفقير حتى نتبرك به ، فرأيته يوما على شط الدجلة وهو يغسل (٢٩١ -ظ) خريقات له ، فقلت له : إن الصاحب يطلبك ، فقال : ما لي وللصاحب كانت عندي أمانة فأديتها .

قال أبو سعد : وعبد الله الساوجي هو عبد الله بن حسنويه بن اسحق الساوجي من أهل ساوة ، نفق سوقه على الوزير نظام الملك حتى أنفق عليه وعلى الفقراء بإشارته واقتراحه في مدة يسيرة قريبا من ثمانين ألف دينار حمر .

قرات بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين وانبأنا عنه صديقنا ورفيقنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار قال : وفيه – يعني محرم سنة خمس وثمانين وأربعمائة– مرض نظام الملك ، فلم يداو نفسه بغير الصدقة فعوفي .

اخبرنا ابو هاشم بن الفضل العباسي قال : أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني قال : وأما ميله – يعني نظام الملك – إلى أهل العلم ، ورغبته في أولي الفضل فهو أنه لا يخلو مجلسه عنهم في اي قطر كان ، وكان بابه مجمع الأفاضل من الفقهاء للمناظرة بين يديه ، والشعراء والمترسلين يعرضون بضائعهم عليه ، فيقابل كل احد بما يليق به من خلعة او صلة . أو إدرار على قدر حاله .

قال: سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن حماد الطحان بقاسان يقول : سمعت عبد الله بن هرون البزاز يقول : كان نظام الملك في مجلس الشيخ أبي علي الفارمذي ، فبكى حتى ابتل ثيابه ،

فقال له : لا تبك كي ترشوي (٢٩٢ -و) يعني تصير ثيابك مبلولة : ثم قال بعد ساعة : لو كانت الدنيا بحذافيرها لانسان وانفقها في المصالح وسبل الخير لا يصل إلى الله بها ، ثم قال بعد ساعة : ينتقل من الدست إلى موضع الحساب ، وقال بالفارسية : اربيكشاه بحساب كاهت خواهند برد (١٢٥) .

وقال ابو سعد السمعاني : سمعت ابا البركات اسماعيل بن ابي سعد الصوفي ببغداد مذاكرة يقول : سمعت محمد الأصبهاني ، وكان مختصا بنظام الملك ، قال : كان النظام اذا دخل عليه الأستاذ ابو القاسم القشيري ، والامام ابو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو ، واذا دخل عليه ابو علي الفارمذي يقوم اليه ويجلسه في مكانه ، ويجلس بين يديه ، فقال لي ابو المعالي الجويني يوما ، قل للصدر عني : يدخل عليك الأستاذ ابو القاسم وهو إمام في كذا وكذا علم ، لا تكرمه هذا الاكرام الذي تكرم به هذا الشيخ يعني ابا علي الفارمذي ؟!

قال محمد الاصبهاني : وفي ضمن هذا الكلام تعريض بنفسه أيضا ، فاغتنمت خلوة من النظام وقلت يا مولانا إمام الحرمين قال لي : كذا على كذا ، وحكيت له ما قال لي ، فقال النظام :هو وأبو القاسم القشيري وأمثالهما اذا دخلوا علي يقولون لي أنت : كذا وانت كذا ، ويثنون علي ويطرونني بما ليس في ، فيزيدني كرمهم عجبا وتيها في نفسي ، واذا دخل علي هذا الشيخ - يعني أبا علي الفارمذي - (٢٩٢ -ظ) يذكر لي عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم ، فتتكسر نفسي وارجع عن كثير مما انا فيه ، ذكر لي هذا او معناه ، فإني كتبته من حفظي .

وقال السمعاني : قرات في بعض مسودات والدي رحمه الله بالري بخطه : سمعت : الفقيه الأجل ابا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول : سمعت الصاحب نظام الملك يوصي ابني ويقول : انك شرعت في أمر - يعني الفقه - فلا تقنع فيه بالاسم ، واذا تناهيت فيه فلا تغرر بنفسك ، وايقن أن ما لا تعلم اكثر مما تعلم ، ثم حكى

الصاحب أن الامام ابا حامد الغزالي الصوفي كان رحل إلى ابي نصر الاسماعيلي بجرجان ، وعلق عنه ، ثم رجع الى طوس ، فقطع عليه الطريق ، وأخذ تعليقه ، فقال لمقدم قطاع الطريق : ردوا علي تعليقتي ، فقال : وما التعليقة ؟ قال : مخلاة فيها كتب علمي ، وقصصت عليه قصتي ، فقال لي : كيف تعلمت وانت تأخذ هذه المخلاة تتجرد من علمك ، وبقيت بلا علم ! فردها علي ، فقلت : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدني لأمري ، قال : فدخلت طوس ، واقبلت على أمري ثلاث سنين حتى تحفظت جميع ما علقت ، فصرت بحيث لو قطع الطريق لا احرم علمي .

قال ابو سعد : قرأت في كتاب سر السرور لصديقنا القاضي ابي العلاء محمد بن محمود الغزنوي أن نظام الملك كان في بعض أسفاره اذ صادف راجلا في زي (٢٩٣ -و) العلماء قد مسه الكلال ، واضجره التعب ، فقال له نظام الملك : أيها الشيخ اعَيِيت أم أعْيَيْتَ ؟ فقال الرجل : أعييت يا مولانا فتقدم إلى حاجبه ليقرب إليه بعض الجنائب ويصلح من شأنه ، واخذ في أصطناعه ، وانما أراد ليمتحن فضله وعلمه باللغة ، فان عيي في اللسان وأعيي في المشي .

قال : وذكر انه ولى رجلا قضاء سرخس فلم يرتض طرائقه فيه فصرفه بآخر وتوسل المعزول بشفاعة بعض الأكابر ، فوقع نظام الملك على ظهر كتاب الشفاعة قلدناه أمرا عظيم الخطر ليوم الفزع الأكبر ، فأثاقل وتقاعد عن حسن القيام به ، ولم يبال بالتفريط في جنب الله ، الم يعلم انه المقلد لا المخلد !

اخبرنا ابو هاشم قال : اخبرنا أبو سعد قال : سمعت أبا الحسن علي بن احمد بن الحسين اليزدي الفقيه قال : سمعت أبا نصر محمود بن الفضل الاصبهاني يقول : سمعت نظام الملك ابا علي الحسن بن علي بن اسحق الوزير برد الله مضجعه يقول : رأيت في المنام ابليس في صورة رجل طوال مصفار اللون كوسجا (١٢٦) فلما وقع بصري عليه عرفت أنه ابليس ، فقلت : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، فلم يبرح من موضعه ، فأعدت هذه الكلمة عليه مرات

بصوت ، وانا اقول في نفسي ما اعجب ذلك ، هذا ابليس ولا يهرب من قول «لا حول ولا قوة إلا بـالله العـظيم » فـسكنت في ذلك وانا رافـع صوتي (٢٩٣ -ظ) بها اذ ترآى لي ببيت خلف ظهره فدخل . فقلت له : يا لعين انت خلقك الله وامرك بسجدة واحدة ، فخـالفته ، حتـى لعنك ولعن متابعيك ، وانا الحسن بن علي بن اسحق امرني بالسجدة فاسجد له كل يوم سجدات ، لا جرم ما من حاجة ارفعهـا عليه إلا ويستجيبها لي وانا في كل نعمة وراحة منه ، فقال :

من لم يكن للوصال اهلا

فكل احسانه ذنوب

أخبرنا ابو هاشم قال : اخبرنا ابو سعد قال : قرات بخط والدي رحمه الله سمعت الفقيه الاجل ابا القـاسم عبـد الله بـن علي بـن اسحق يذكر أن الصاحب نظام الملك أخاه كان يقول : كنت أتمنى أن يكون لي قلاية خالصة ومسجد أتخذ فيه لطاعة ربي ، ثـم بعـد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة من الأرض بشربها ، ، أتقـوت بـريعها ، ومسجد أتخلى فيه لعبادة ربي في جبل ، ثـم الآن اتمنى أن يكون لي رغيف كل يوم ، ومسجد أتعبد فيه لربي .

قال ابو سعد : قال والدي رحمه الله وسمعته يقول : كنت ليلة من الليالي عنده وانا على احد جانبيه ، والعميد خليفـة على الجـانب الأخر ، وبجنب العميد الخليفـة فقير مقـطوع اليد اليمنى ، قـال : فشرفني الصاحب بالمؤاكلة ، وجعل يلحظ العميد خليفـة كيف يؤاكل الفقير ، قال : فتنزه خليفة من مؤاكلة الفقير لما رآه يأكل بيساره ، فقال لخليفة : تحول (٢٩٤ -و)إلى هذا الجانب ، وقال للفقير : إن خليفة رجل كبير في نفسه يستنكف من مؤاكلتك ، فتقدم إلي ، واخـذ يؤاكله .

وقال : قرات بخط الامام والدي رحمه الله : سـمعت الفقيه أبـا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق الطوسي يقول : دخل أخي نظـام الملك على الامام ابي الحسن الداوودي وقعد بين يديه . وتـواضع له

غاية التواضع . فقال له الامام أبو الحسن : أيها الرجل إن الله سلطك على عبيده . فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم .

قلت : هذا أبو الحسن الداوودي هو عبد الرحمن بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد البوسنجي كان من العلماء الأبرار ، وهو يروي كتاب البخاري عن الحموي .

قرأت بخط أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ، وأخبرنا أبو الحسن بن أبي جعفر إجازة عنه . قال : وكان نظام الملك من طوس ، وأهل طوس ، يقال لهم في اصطلاح الناس بقر طوس ، و كان للخزانة صائغ يقال له حسين ، حسن الصناعة في الصياغة ، قال : استدعاني يوما نظام الملك . وقال : احضر لي قوالب لعمل سخوت ، فأحضرتها له فأول ما وقعت يده على قالب فيه صورة البقر ، وقد كنت غفلت عن الحديث ، فعجل وقال : يا استاذ ما تخلينا من يدك ، فلم يترك الظرف واللطف مع جلالة قدره ، وكبر سنه

اخبرني أبو علي الحسن بن اسماعيل القيلوي بحلب قال :قرأت في بعض مطالعاتي أن الشريف أبا يعلى (٢٩٤ –ظ) بن الهبارية كان له رسم على الوزير نظام الملك فنظم قطعتين من الشعر ، احديهما يمدحه فيها ويقتضيه رسمه ، والأخرى يهجوه فيها ، وترك الورقتين اللتين فيهما الشعر في عمامته ، وحضر عند نظام الملك ، وأراد أن يدفع إليه الرقعة التي فيها الاقتضاء ، فدفع إليه الأبيات التي هجاه فيها ، واذا فيها مكتوب :

لاغرو أن ملك ابن اسحق وساعده القدر
وصفا لدولته وخص أبا الغنائم بالكدر
فالدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

يعني بأبي الغنائم تاج الملك ، وكان من أصحاب السلطان ملكشاه ، وكان بين نظام الملك وبينه عداوة .

قال : فلما قرأ نظام الملك الأبيات وقع على رأسها:يطلق لهذا القواد رسمه مضاعفا ، وناوله إياها ، فأخذ ابن الهبارية الرقعة ، فلما

نظرها اخذ يعتذر ، فقال له النظام : لا تقل شـيئا ، وخـذ الرقعـة ، وامضي إلى الديوان ، فمضى وأخذ رسمه
قال : إن ابن الهبارية هجاه بعد ذلك بقوله :

لايشمخن بأنفه
غير الكريم المفضل

اهون بفقري والكلاب
على عيال ابي علي

فأهدر دمه ، ثم عفا عنه ، والقصة قد ذكرناها في ترجمة أبي يعلى بن الهبـــــارية (١٩٥ –و) ، وقيل إن الأبيات الرائية للأبيوردي ، والصحيح انها لابن الهبارية .

قرات بخط عبد المنعم بن الحسن بن اللعيبة في دستور جمعـة قـال الفقيه الابيوردي يهجو خواجا بزرك وزير السلطان ملك شاه رحمـه الله ، وهو الوزير ابو علي الحسن بن اسحق :

لا غرو أن وزر ابن اسحق وساعده القدر
وصفت له الدنيا وخص ابو الغنائم بالكدر
فالدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

ولما تمت هذه الابيات إلى الوزير رحمه الله اسـتدعى الأبيوردي وكانت اياديه عنده جمة ، وله عليه رسوم في كل سنة لها قيمة كبيرة ، فلما مثل بين يديه قال له : يا هذا بـم اسـتوجبن منك أن تهجـوني تعصبا بعدوي علي ؟

وهذا ابو الغنائم الذي ذكره هو تاج الملك عدو الوزير ، فانكر أن هذا شعره ، فقال له الوزير : إن لزمت الانكار احضرت من انشـدنيها ، فواقفك عليها ، ومع هذا فأنت تعلم ما لي عندك من الأيادي التـي لا تذكر ، وما كنت تسألني فيه من الحوائج التي تؤخذ عليها الأمـوال مع الرسوم ، فلاذ الفقيه بالعذر ، واعترف انها من جملة غلطاته التي لا تستقال ، وعثراته القبيحة ، فقال له الوزير : لا شك أن الرسـوم

التي لك لا تكف و لاتكفي ، وقد تقدمت باضعافها لك ، فـاقبضها ولا تغلط بعد ذلك .

ونقلت من خط العماد الكاتب ابي عبد الله محمد بن محمـد بـن حامد وذكر شعرا (٢٩٥ -ظ)..... (١٢٧) العجم فيه - يعني في نظام الملك - :إن الله اقام الأرض على قرن ثور وملكها الثور

اخبرنا ابو هاشم الصالحي قال : اخبرنا عبد الكريم بن ابي بكر المروزي قال : انشدني كيخسره بن يحيى بن بساكير الفـارسي مـن حفظه املاه علي قال : انشدني ابو زكريا يحيى بـن علي التبـريزي للسيد العلوي البلخي :

تولى الأرض اعجاز لئام
وباد سوالف كرمت وهاموا(١٢٨)

كذاك الدور إن خربت واقوت
تولاهن اصداء وهام

قال عبد الكريم : قال لي كيخسره بن علي : قـال لي ابـو زكريا التبريزي : قال السيد البلخي لما افضـت الوزارة إلى نظـام الملك في حقه ، فلما بلغ البيتان إليه ارسل بي إليه ، واستأذن في زيارته ، فأذن فزاره وحمل معه بمائة الف درهم أغراضـا ودنانير ، واعتـذر إليه وكأنه هجاه بهذين البيتين ، ثم تعاهدا على أن يعود على شـغله في الاستيفاء فوفيا بالعهد إلى ان مات .

أخبرنا أبو هاشم قال : أخبرنا أبو سعد قال : سمعت محمد بـن يحيى بن منصور الجنزي الامام يقول : سمعت في حياة والدي رجلا يقول : اقام والدي في حجرة النظام الوزير ثلاثة أيام بلياليها ما اكل فيها ولا شرب ، وكان الفراش قد نسي أن يقدم له شيئا إلى أن تنبـه النظام لذلك ، فقام بنفسه وحمل إليه الطعام بنفسه .

قال الامام محمد بن يحيى : فحكيت هذه الحكاية لوالدي .فسكت.
قرات بخط ابي الحسن علي بن مـرشد بـن علي بـــن منقــذ

(٢٩٦ -و) في تاريخه قال : حدثني أبي عنه - يعني نظام الملك - قال : كان رجلا يصوم الدهر ، وله في اصبهان اربع ذسوة يعمل له في كل دار طعام ولأصحابه ومن يكون عنده بقيمة وافية ، فأي دار أراد ان يجلس بها كان الطعام الكثير معدا له - كما قال - : عشرة رؤوس غنم مشوية ، وعشرة الوان وعشرة جامات حلواء .

سمعت القاضي ابا عبد الله محمد بن يوسف بن الخضر الحنفي قاضي العسكر رحمه الله ، وقد جرى ذكر نظام الملك وميله إلى اهل العلم ، يقول : كان نظام الملك يتعصب للشافعية كثيرا ، فكان يولي الحنفية القضاء ، ويولي الشافعية المدارس ، ويقصد بذلك ان يتوفر الشافعية على الاشتغال بالفقه ، فيكثر الفقهاء منهم ويشتغل القضاة بالقضاء ، فيقل اشتغالهم بالفقه ويتعطلون .

قرأت بخط ابي عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب ، وانبأنا عنه ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن القاضي وغيره قال : كان عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك رئيس مرو ، وهناك شحنة مرو مملوك السلطان بردي فقبض عليه لأمر جرى منه ، ثم اطلقه ، فجاء مستغيثا ، فنفذ السلطان تاج الملك ، ومجد الملك وجماعة ارباب دولته وقال لهم : امضو إلى خواجه حسن وقولوا له : إن كنت شريكي في الملك فلذلك حكم، وإن كنت تابعي فيجب أن تلزم حدك ، وهؤلاء أراذل قد استولى كل واحد منهم على مملكة ، فواحد ببلخ ، وواحد بهراة ، وواحد ببلد كذا ، ثم لا يقنعهم ذلك حتى يتجاوزوا (٢٩٦ -ظ) حدودهم في سفك الدماء ، وقال للأمير بكبرد وكان من خواصه ، كن معهم حتى لا يحرفوا ما يقول .

فاتوا إلى نظام الملك وقالوا له ، فقال : نعم ، قولوا له : أما علم انني شريكه في الملك ، أو ما يذكر حين قتل أبوه كيف قمت بتدبير امره ، واعلموا أن ثبات القلنسوة معنوق بفتح هذه الدواة ، ومتى اطبقت هذه ، زالت تيك التي يقر ، فقال له الرسل : قد كبرت يا مولانا وقد ضجرت ، وقد أثر فيك الأمران وعدلا بك عن الرأي الذي ما زالت الآراء معه ، فقال لهم : قولوا للسلطان عني ما أردتم ، فقد

دهمني ما لحقني من توبيخه فلما خرجوا من عنده قالوا : الصــواب ان لا نذكر ما قاله ، وعرفوا بكبرد حرمة مكانه ، وسألوه أن لا يخبر بما جرى ، فلم يفعل ، ومضى بكبرد من حــاله ، وأخبــر الســلطان ، وبكر الجماعة فوجدوا السلطان جالسا ينتظرهم فقال لهم : ما قــال لكم ؟ قالوا : قال : أنا وأولادي عبيد دولته ، فقال السلطان : لم يقل هكذا ، ثم وقع التدبير في أمره .

وقال : في ليلة السبت عاشر شــهر رمضـــان قتــل نظــام الملك في نهاوند ، بين نهاوند والسحنة وهو سائر مع العســكر إلى بغــداد ، وذلك بعد أن فرغ من افطاره ، وتفرق من كان على طبقه من العلمــاء والفقراء والأجناد ، وحمل في محفة إلى مضرب حرمه ، فأتاه صــبي ديلمي في صورة مستميح أو مستغيث ، فضربه بســكين كانت معــه فقضى عليه ، وهرب ، فوقع في عثرة عثــرها بــطنب خيمــة فــأدرك (٢٩٧ –و)فقتل ، وركب السلطان ملك شاه إلى مخيم نظــام الملك ، وسكن معسكره [٢٢٥] .

وحكي أن أحد الصالحين قال لنظام الملك وهم في الافطار : رأيت في بارحتنا كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاك وأخذك فتبعته ، فقال : ارجع أيها الرجل فلهذا أبغي ، فأولها .

نقلت من خط أبي غالب عبد الواحد بن مســعود بــن الحصــين وأنبأنا به عنه رفيقنا الحافظ أبو عبد الله محمــد بــن محمــود بــن النجار قال : وفي ليلة السبت عاشر شهر رمضان – يعني من ســنة خمس وثمانين – قتل نظام الملك قوام الدين أبو علي الحسن بــن علي بن اسحق رضي الله عنه قريبا من نهاوند وهو سائر مع العسكر في محفة ، فضربه صبي ديلمي في صــورة مســتميح أو مســتغيث ، بسكين كانت معه ، فقضى عليه ، وادرك فقتل ، وجلس لعــزائــه عميد الدولة ابن جهير ببغداد .

وفضائله المشهورة في كل مكان وزمان تنوب عن لسان مــادحه ، وافعاله الصالحة من المدارس ، والربــط ، والقناطــر ، والجســور والصدقات الدارة باقية على الأيام .

وتحدث الناس ان قتل نظام الملك كان برضى من السلطان وتــدبير تاج الملك ابي الغنائم ، واشارة تركان خاتون لأنهم كانوا عزموا على تشعيث خاطر المقتدي ، وكان نظام الملك يمنعهم من ذلك .

قال ابن الحصـين : وبلغني انا ابـا نصر الكندري لما عزل عن وزارة السلطان ، وفوضت الوزارة إلى نظام الملك ، وحبس وسـعى (٢٩٧ - ظ) نظام الملك في قتله ، فلما هم الجلاد بقتله ، قال له : قل للوزير نظام الملك : بئس مـا فعلت ، علمـت الاتـراك قتـل الوزراء واصحاب الدواوين ، ومن حفر مغواة وقع فيها ، ومن سن سـنة فله وزرها ووزر من عمـل بهـا الى يوم القيامـة ، ورضي بقضـاء الله المحتوم ، فكان الامر كما قال .

قرات بخط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه قال : سنة خمس وثمانين واربعمائة فيها : قفز باطنية على خـواجا بزرك ببغداد وهو محمول في محفته التي كان يحمل فيها من ضـعفه وكبره في تاسع شهر رمضان ، فجرحه وحمل الى داره التي ببغداد ، فجاء السلطان ملك شاه يفتقـده ويتـوجع له ، فقـال له خـواجا : ياسلطان العالم كبرت في دولة ابيك ودولتـك ، كنت تمهلت علي فمـا بقي من عمري الا القليل ، او صرفتني ولا امرت ان يفعل بي هكذا ، فاخرج السلطان مصحفا في تقليده ، وحلف له بما فيه انه لم يأمر ، ولم يعلم ، ثم قال : وكيف استجيز هذا وانت بركة دولتي ، وبمنزلة ابي : وكان الذي اتهم بذلك متولي الخزانة تاج الملك ابا الغنائم . قال ابن منقذ : حدثني ابـي عنه قـال : فمـات خـواجا ، ومضى السلطان فمات في العشر الاخير من شوال .

قال : وذكر ان السلطان لما مات اجتمع مماليك خـواجا بـزرك ، وكانوا في سـبعة الاف مملوك مـزوجين الى سـبعة الاف مملوكة ، فقتلوا تاج الملك على ما نذكر في ترجمة تاج الملك (٢٩٨ - و) . كذا قال ابن منقذ انه قتل ببغداد وحمل الى داره التي ببغداد . وهو وهم ، والصحيح انه قتل بقرب نهاوند وهو متوجه الى العراق . نقلت من كتاب الاستظهار في التاريخ على الشهور تاليف القاضي ابي

القاسم علي بن محمد السمناني قال : في شهر رمضـان مـن سنة خمس وثمانين واربعمائة قتل الشيخ الكبير قوام الدين نظـام الملك ابو علي الحسن بن علي بن اسحق رضي امير المؤمنين رضي الله عنه في ظاهر نهاوند وهو سائر الى العراق ، قتله انسان ديلمي غيلة بعد الفطر ليلة الجمعة حادي عشر منه .

وكان مولده في ذي القعدة من سنة ثمان واربعمائة ، وبقي في الامر وزيرا ، وناظرا ، ومشرفا نحو خمسين سنة . وبلغ في الوزارة مـا لم يبلغه احد من وزراء الدولتين . وكان يضرب له الطبل والقصـاع ثلاث صلوات حضرا وسـفرا ، وهـو الذي بنى الدولة السـلجوقية واسس قواعدها ، وتفتحت الدنيا على يديه . وكان صدوق اللسـان جيد الراي كبير النفس حليما وقورا يصلي بالليل . ويصوم في اكثر الاوقات .

وهـو اول وزير بنى المدارس في البـلاد . واجـرى على المدرسين ،والمتفقة ، والأدبـاء والشـعراء ، وأهـل البيوتـات ، والرؤساء ، ولم ينظر قط إلى ظهر محروم ، وما قصده أحد في أمـر إلا ناله أو معظمه ، فأما الحرمان فلا ، ولم يبق عليه مـن عظيم الملك غير ما فعله وبناه وخلد به ذكره في العالم ، وفاق بـه على جميع مـن تقدم ، رضي الله عنه وارضاه (٢٩٨ – ظ) واحسن له الجزاء عني

فلقد وصلني في سبع سفرات بالف واربعمائة دينار من مـاله ،غير الثياب والنزلة والاقامة ، واجرى علي من بيت المال سبع مائة دينار وعشرين دينارا في كل سنة ، وولاني قضاء الرحبة والرقـة وحـران وسروج وحلب وأعمال ذلك كله ، وخاطبني بالقاضي السديد العـالم ، بحر العلماء ، عين القضـاة في مـكاتبته إلي ، فـأحسن الله له عني الجزاء .

وكان يكرم العلماء على اختلاف مـذاهبهم ، وله فضـل وكرم وبصيرة بالرجال ، قريب من القلوب ، لا يتشاغل إلا بتلاوة القـرآن وسماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومناظـرة الفقهـاء بين يديه ، وتقدم في زمانه من لم يكن متقدما من الرجال ، وتأخر من

كان متقدما ، واسترجع الممالك كلها ، وقبضها إلى السلطان .

وهو اول من اقطع البلاد والضياع للعساكر والأجناد ، وكان يرعى لأهل البيوتات بيوتهم وللعلماء علمهم ، وللشعراء شعرهم ، وللادباء ادبهم ، وللاشراف شرفهم ، وكان امر الدولة في الزيادة إلى ان شاركه في الراي غيره ، وداخل السلطان سواه ، فهلكت الدولة ، ولم يبق السلطان بعده إلا نيف وثلاثون يوما رضي الله عنه .

ذكر ابو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني في كتاب عنوان السير في محاسن اهل البدو والحضر وقال : نظام الملك ، ابو علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي، وزر للسلطان ألب أرسلان ، ولولده السلطان ملك شاه تسعا وعشرين سنة (٢٩٩ ــ و) وقتل بالقرب من نهاوند في الليلة الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، وعمره ست وسبعون سنة ، وعشرة اشهر ، وتسعة عشر يوما ، اغتاله احد الباطنية وقد فرغ من فطوره.
وقيل ان السلطان ملك شاه ولف عليه من قتله لانه سأم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة ايام .

وتقدم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم ، وافضل على الخلق الافضال الكثير ، وعم الناس بمعروفه ، وبنى المدارس لاصحاب الشافعي ، ووقف عليهم الوقوف ، وزاد في الحلم والدين على من تقدمه من الوزراء ، ولم يبلغ احد منهم منزلته في جميع اموره ، وعبر جيحون فوقع على العامل بانطاكية مـا يصرف الى الملاحين ، وملك من الغلمان الاتراك الوفا عدة ، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

وتحدث ابو محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي قال : سالته عن السبب في تعظيمه الصوفية ، فقال : اتاني صوفي وانا اخدم ابن ياخر الامير التركي ، فوعظني وقال : اخدم من تنفعك خدمته ولا تشتغل بمن تاكله الكلاب غدا ، فلم اعرف معنى قوله ، فاتفق ان ابن ياخر شرب من الغد ، واغتبق ، وكانت له كلاب كالسباع تفرس السباع بالليل ، فغلبه السكر وخرج وحده ، فلم تعرفه الكلاب ، فمزقته ،

فعلمت ان الرجل كوشف ، فانا اطلب أمثاله .(٢٩٩ ـ ظ).

اخبرنا ابو القاسم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن رواحة الحموي بحلب ، وابو يعقوب يوسف بن محمود الساوي بالقاهرة عن الحافظ ابي طاهر احمد بن محمد بن احمد الاصبهاني نزيل الاسكندرية قال : سمعت صواب بن عبد الله الخصي النظامي ببغداد يقول : قتل مولاي الوزير ابو علي الحسن بن علي بن اسحق شهيدا في رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، بقرب نهاوند ، وكان اخر كلامه ان قال : قل للعسكر : لاتقتلوا قاتلي فاني قد عفوت عنه ، وتشهد ومات ، فمضيت انا فاذا هو قتل ، ولو قلت لهم لما قبلوا قولي.

اخبرنا الشريف عبد المطلب بن الفضل قال : اخبرنا الامام تاج الاسلام ابو سعد السمعاني قال : سمعت أبا الفضل محمد بن ناصر ابن محمد بن علي السلامي الحافظ يقول : استشهد ابو علي الحسن ابن علي بن اسحق الوزير وهو متوجه الى العراق بقرية يقال لها سحنة ، في شهر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة.
قلت: وزرت قبره باصبهان.

وقال ابو سعد : قرأت بخط والدي رحمه الله بالري : سمعت الشيخ الفقيه الأجل أبا القاسم عبد الله بن علي بن اسحق يقول : حكى لي بعض من رآه ــ يعني اخاه نظام الملك ــ في المنام ، فسأله عن حاله ، فقال : لقد كاد أن يعرض علي جميع عملي لولا الحديدة التي اصبت بها .

اخبرنا أبو يعقوب يوسف بن محمود بن الحسين بالقاهرة قال : انبأنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي قال : سمعت أبا مسلم داود بن محمد بن الحسن القزويني ، بقزوين ، يقول : سمعت (٣٠٠ ــ ظ) أبا بكر الطحان الصوفي بهمذان يقول : رأى الشيخ ابو عمر عثمان الكرجي الصاحب أبا علي الحسن بن علي بن اسحق الطوسي الوزير في المنام وكأنه في الجنة وهو متوج بتاج مرصع بالجواهر ، قال : فقلت : بأي شيء بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : بفضل الله وحده .

أخبرنا عبد المطلب بن أبي المعالي قال : أخبرنا عبد الكريم بن محمد قال : انشدنا ابو مضر طاهر بن مهدي الطبري املاء بنيسابور قال : وانشدني ابو عبد الله محمد بن الحسن الأرزني املاء من حفظه ، قال أبو مضر بمرو ، وقال أبو عبد الله: بجبل تروع ، قالا : انشدني شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطية البكري لنفسه في مرثية نظام الملك :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزت ولم تعرف الأيام قيمتها
فردها غيرة منه الى الصدف

الحسين بن علي بن ملهم

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

الحسن بن علي بن ملهم بن دينار العقيلي أبو علي الأمير مكين الدولة وأمينها أحد الأمراء في الأيام المستنصرية ، انتدبه الوزير الناصر للدين ابو محمد الحسن اليازوري للتوجه الى رياح وزغبة بخلع سنية وانعام كثيرة ليصلح بينهم ، وكانت تنزل بطرابلس المغرب وما والاها ، وقد حدثت بينهما حروب فسار وتلطف حتى تحمل ما بينهما من الديات وازال الضغائن من بينهما ، وكان رجلا سديدا عاقلا مستحكم الرجحان ، فلما تم له ما اراد من ذلك زاد في اقطاعاتهم وبعثهم على معاندة معز بن باديس صاحب افريقية (٣٧٠ ـ ظ) حتى ساروا اليه وحاربوه واخرجوه منها ، واخربوا القيروان الى اليوم .

ثم انه لماحدث الغلاء بمصر سنة سبع واربعين واربعمائة جهز ميخائيل متملك الروم بالقسطنطينية مائة الف قفيز غلة الى انطاكية حتى تحمل الى مصر توسعة للناس ، وجهز هدية الهدنة على العادة وهدية سنية من ماله فثار به الروم وقتلوه ، واقاموا بعده ابن سقلاروس (١٣٠) فمنع من ماله الهديتين والغلة من المسير الى مصر وقال انا انفق ذلك على حرب المسلمين فبلغ ذلك الوزير الناصر للدين ابا محمد الحسن اليازوري فسير مكين الدولة بن ملهم الى اللاذقية في عسكر كبير فحاصرها مدة ، فبعث اهلها الى ابن سقلاروس بما هم فيه ، وكاتب المستنصر في ذلك ، وما الذي اوجبه فاجيب بان المقتضى لهذا تعويق الغلة والهدية ، وطالت المكاتبات بينه وبين المستنصر فبعث الوزير جيشا ثانيا عليه الامير السعيد ليث الدولة ، ففتحت ا للاذقية ، ووقع العيث فيها ، وجال ابن ملهم في اعمال انطاكية ، ثم اردفه بجيش ثالث عدته ثلاثة الاف وعليهم الامير موفق الدولة حفاظ بن فاتك ، والامير ابو الجيش عسكر ، ومقادة جميع

الجيوش الى الامير مكين الدولة ، فساروا اليه ، واوغل في بلاد الروم يقتل ويأسر حتى أنكى النكاية البالغة ، وما زال على ذلك حتى قتل الوزير البازوري ، فحمل ابن سقلاروس ثمانين قطعة في البحر ، فحاربت ابن ملهم واسرته ومن معه من اعيان العرب لليلتين بقيتا من شهر ربيع الاخر سنة خمسين واربعمائة : ثم انه تسلم قلعة حلب من معز الدولة ابي علوان ثمال بن صالح بن مرداس ، وسار ثمال الى مصر فلم يزل بحلب الى ان اخذ المدينة محمود بن نصر بن صالح في جمادى الاولى سنة اثنتين وخمسين فانحاز الى القلعة ، وكتب الى مصر يطلب نجدة ، ثم تسلم محمود القلعة في شعبان من السنة المذكورة .

جناح الدولة حسين

(من بغية الطلب لابن العديم)

حسين ، ويلقب باقي الدولة ، كان تاج الدولة تتش بن الب ارسلان قد ولاه حلب ومكنه فيها ، واستولى عليها حين قتل تاج الدولة ، فلما بلغ خبر قتله رضوان بن تتش ، وكان متوجها الى ابيه عاد الى حلب فسلمها اليه ، وتسلمها رضوان منه . ومن وزير ابيه ابي القاسم ابن بديع في سنة ثمان وثمانين واربعمائة .

انبانا ابو نصر القاضي قال : اخبرنا ابو القاسم علي بن الحسن قال كان بدمشق ، يعني رضوان بن تتش عند توجه ابيه الى ناحية الري ، فكتب اليه يستدعيه ، فخرج اليه ، فلما كان بالانبار بلغه قتله فرجع الى حلب فتسلمها من الوزير ابي القاسم وكان المستولي على امرها باقي الدولة (١٩٧ ـ ظ) حسين في سنة ثمان وثمانين واربعمائة .

كذا ذكر الحافظ الدمشقي (١٣١) وهو حسين جناح الدولة صاحب حمص اتابك رضوان بن تتش ومدبره ، كان تاج الدولة تتش حين قتل قسيم الدولة اق سنقر وتسلم البلاد ، سلم حمص الى جناح الدولة حسين ، وجعله اتابك (١٣٢) عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة تتش كان حسين يدبر امر رضوان وهو صبي بحلب ، فاستشعر جناح الدولة حسين من رضوان فهرب وانفصل عنه ومضى الى حمص ومعه زوجته أم الملك رضوان ، وعند هربه في الليل كسر باب العراق وخرج منه ، وبعد وصوله الى حمص كبس عسكر رضوان على سرمين ، واسر ارباب دولته وديوانه ووزيره أبا الفضل ابن الموصول ، ومات صاحب الرحبة زوج آمنة بنت قمار ، فخرج جناح الدولة اليها لياخذها ، فوجد دقاق قد سبقه اليها في سنة ست وتسعين ، فعاد منها ، ونزل نقرة بني أسد ، وخرج اليه رضوان الى النقرة ، واصطلحا واخذه معه الى ظاهر حلب ، وضرب له خياما ،

واقام في ضيافته عشرة ايام ، ولم يصف قلب أحد منهما لصاحبه ، وسار جناح الدولة حسين الى حمص واقام بها الى أن نزل يوما لصلاة الجمعة فهجم عليه جماعة من الاسماعيلية ، تقربا الى الملك رضوان ، لما كان قد تجدد بينه وبينه من الوحشة ، وكان حسين رجلا شجاعا باسلا ذا راي سديد وفيه دين وخير .

انبأنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي عن الأمير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ قال : وتسلم قسيم الدولة أق سنقر مدينة حمص ، يعني من خلف بن ملاعب ، وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة ، قتله تاج الدولة ، وتسلم البلاد ، وسلم حمص الى جناح الدولة حسين ، وهو اتابك عسكر ولده رضوان ، فلما قتل تاج الدولة بالري استشعر جناح الدولة حسين من الملك رضوان ، وانفصل عنه ووصل الى حمص فنزل من القلعة الى الجامع يوم الجمعة للصلاة فلما وصل مصلاه اتاه ثلاثة نفر من عجم (٢٩٧ ـ ظ) الباطنية في زي الصوفية يستميحونه ، فوعدهم ، فهجموا عليه بسكاكينهم ، فقتلوه رحمه الله ، وقتلوا معه قوما من أصحابه ، وقتلوا وقتل نفر كانوا في الجامع ، من الصوفية العجم بالتهمة وهم ابرياء ، وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب سنة ست وتسعين واربعمائة : واختبط البلد ، وخافوا من الافرنج ، فراسلوا شمس الملوك (١٣٣) يلتمسون منه انفاذ من يتسلم حمص وقلعتها قبل أن يخرج إليها ويتسلمها من الافرنج من تمتد اطماعهم ، فتوجه شمس الملوك إليها وتسلمها ، واحسن إلى أولاد جناح الدولة ، وسار بهم إلى دمشق ، فاقر عليهم إقطاع ابيهم .

قرات في تاريخ ابي المغيث منقذ بن مرشد بن منقذ ، وفيها ، يعني سنة ست وتسعين واربعمائة وثب قوم من الباطنية على جناح الدولة حسين فقتلوه وذلك يوم الجمعة ثامن وعشرين رجب ، وكان ذلك من تدبير أبي طاهر الصائغ ، وخدمة للملك رضوان ، واستولى بعده قراجا على حمص .

قرات في مدرج وقع إلي بالقاهرة بخط العضد مرهف بن اسامة بن

مرشد بن منقذ يتضمن ذكر واقعـات وقعـت ذكرهـــا على وجـــه الاختصار ، قال : سنة ست وتسعين ، يعني واربعمائة ، فيها قتل جناح الدولة بحمص في يوم الجمعة .

قلت : وكان قتله في الثاني والعشرين من شهر رجب بتدبير الحـكيم أبي الفتح المنجم الباطني ، ورفيقه ابي طاهر ، وقيل كان ذلك بأمر رضوان ورضاه ، وبقي المنجم الباطني بعده أربعـة وعشرين يومـا ومات .

انبانا أبو اليمن الكندي عن أبي عبد الله العظيمي ، ونقلته من خـطه قال :

سنة ست وتسعين واربعمائة فيها قتل الباطنية جناح الدولة بحمص في الجامع يوم الجمعة ، ستة نفر (١٣٤)، احـدهم يعـرف مـن اهـل سرمين .

وفيها مات الحكيم العجمي المنجم الباطني بحلب . (١٩٨ ـ و) .

حميدان بن حواس العقيلي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

ويقال فيه حمدان ، والأول أشهر • ولي دمشق من قبل العزيز بالله ابي منصور نزار بن المعز لدين الله سنة ثمان وستين وثلاثمائة ، بعد ظفره بهفتكين الشرابي • بعثه إليها في نحو مائتي رجل • وكان قسام إذ ذاك متغلبا على دمشق ، فلم يكن لحميدان مع قسام أمر • ولم تطل مدته حتى وقع بينه وبين قسام ، فأطرده العيارون من أصحاب قسام ، وخرج هاربا من البلد ،فنهبوا داره • وقوي أمر قسام • فجاءت القرامطة جعفر وإخوته ، فنزلوا على دمشق فمنعهم قسام من البلد وعمل على قتالهم فساروا الى الرملة •

فولي دمشق بعد حميدان أبو محمود •

ويقال إنه ولي دمشق في سنة واحدة ، وهي سنة ثمان وستين هذه ، ظالم بن مرهوب العقيلي ، والقرمطي ، ووشاح وحميدان وأبو محمود •

حيدرة بن حسين

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

حيدرة بن حسين بـن مفلح ، الأمير المؤيد ، مصـطفى الملك ،معـز الدولة ذو الرئاستين ، ابن الأمير عضب الدولة ٠

ولاه المستنصر بالله إمرة دمشق ، فخرج من القاهرة في مستهل شهر رجب سنة إحدى وأربعين واربعمائة وصرف بناصر الدولة ابي عبد الله الحسن ، ابن ناصر الدولة ابي محمد الحسن بن الحسـين بـن حمدان في نصف رجب سنة خمسين واربعمائة ٠

خلف بن ملاعب

(من بغية الطلب لابن العديم)

خلف بن ملاعب الأشهبي الملقب سيف الدولة ، كان كريما شجاعا ، جبارا ظالما ، يقطع الطريق ، ويخيف السبيل ، وإليه تنسب قبة ابن ملاعب ، وهي حصن دثر في طرف بلد حلب ، بينها وبين سلمية ، وكان في يده حمص وافامية ، فكتب الولاة بالشام إلى السلطان ملك شاه ، وشكو إليه خلف بن ملاعب ، فكتب الى اخيه تاج الدولة تتش صاحب دمشق والى قسيم الدولة آق سنقر صاحب حلب ، وإلى (٢٢٠ ـ ظ) بزان صاحب الرها ، وإلى يغي سغان صاحب انطاكية يأمرهم بمحاصرته ، وانتزاع معاقله من يده وحمله إليه .

فاجتمعوا عليه وهو بحمص ، وسبقهم بزان فلم يمكنه من الخروج من حمص ، فافتتحوا حمص ، وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد إلى السلطان ملك شاه ، فأطلق حمص لأخيه تتش ، وحبس ابن ملاعب : وبقي في حبسه إلى أن أطلقته خاتون امرأة السلطان ملك شاه .

فمضى إلى مصر ، إلى الأفضل أمير الجيوش جماعة من أهل افامية في سنة تسع وثمانين ، وقيل سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، وكان ولائهم فيها (له) ، والتمسوا منه واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم على ابن ملاعب .

فوصل في ذي القعدة من إحدى السنتين ،ودخل افامية وملكها ،وتجددت وحشة بينه وبين ابن منقذ ،اظنه ابا المرهف نصر ابن علي بن منقذ ،وكان قسيم الدولة آق سنقر حين فتح افامية جعله بها ،واتصلت غارات ابن ملاعب على شيزر ،وكفر طاب ،والجسر ،وزحف ابن منقذإليه ومعه خلق ورجالة ،فظفر بهم ابن ملاعب ،وكان في نفر يسير ،فقتل جماعة واسر جماعة ،وباعهم انفسهم ،واستقرت الحال بينهم بعد ذلك .ثم عمل الباطنية حيلة

على القلعة وعليه حتى قتلوه في سنة تسع وتسعين وأربعمائة ·

قرأت في تاريخ أبي المغيث منقذ بن مرشد بن علي بن منقذ الذي ذيل به تاريخ أبي غالب همام بن المهذب المعري ،قال :سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فيها : كتب ولاة الشام الى السلطان ملك شاه يشكون مايلقونه من خلف بن ملاعب(٢٢١ ــ و) بحمص من قطع الطريق ،واخافة السبيل ،فأمر السلطان أن يسير إليه بوزان ،وقسيم الدولة ، وتاج الدولة ،ويغي سغان ، فسبق إليه بزان فنزل قريبا من حمص فكتمه ما يريد حتى بلغ منه غرضا ، ودخل إليه رسوله ، فقال : عاش لك ملاعب ، ثم حضر بزان المدينة ، واجتمع عليها كل من في الشام ، فافتتحت ، وكل من الامراء المذكورين طلبها ، فكتبوا جميعا الى السلطان فانعم بها على اخيه تاج الدولة ، وأمر السلطان بحمل خلف بن ملاعب في قفص من حديد الى قلعة اصبهان ،فحمل وحبس بها حتى مات السلطان ·

وقال : سنة اربع وثمانين فيها : نزل قسيم الدولة أق سنقر على افامية وملكها ، وسلمها إلى عمي عز الدولة أبي المرهف نصر بن سديد الملك ، وذلك في شعبان ·

انبأنا أبو محمد بن عبد الله الاسدي قال :كتب إلينا ابو المظفر اسامة بن مرشد بن علي بن منقذ قال : كانت حمص في سنة اثنتين وثمانين واربعمائة لسيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبي ، فنزل على سلمية ، واخذ الشريف إبراهيم الهاشمي فرماه في المنجنيق الى برج سلمية ،واخذ قوما من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم واستغاثوا عليه بالخليفة والسلطان ملك شاه فخرج أمر السلطان الى أمراء الشام : تاج الدولة تتش صاحب دمشق ، وقسيم الدولة صاحب حلب ، وبزان بن ألب صاحب الرها ،ويغي سغان صاحب انطاكية ، بالنزول على حمص والقبض على سيف الدولة خلف بن ملاعب(٢٢٢ــب) وتسييره إليه ، فنزلوا على حمص وحاصروه ، واخذوه الى السلطان ، فأقام في الحبس إلى أن توفي ملك شاه في شوال سنة خمس وثمانين واربعمائة ، فأطلقته خاتون امرأة

السلطان ؛ وتسلم قسيم الدولة اق سنقر مدينة حمص وقلعتها ، فلما قتل قسيم الدولة؛ قتله تاج الدولة ، تسلم البلاد ، وسلم حمص الى جناح الدولة حسين ·

انبانا أبو اليمن زيد بن الحسن قال : كتب إلينا أبو عبد الله محمد بن علي العظيمي وقال : سنة ثلاث وثمانين واربعمائة ؛ وفيها سار الأمير قسيم الدولة ، وبزان وغسيان وتاج الدولة ، ونزلوا حمص وفتحوها من يد ابن ملاعب ، وحملوا ابن ملاعب في قفص حديد الى عند السلطان فلما هلك السلطان ، خلص ابن ملاعب وصعد الى مصر ، وعاد منها تسلم قلعة افامية واقام بها سبعة عشر سنة وقتل ·

وقال : سنة اربع وثمانين واربعمائة : فيها : تسلم الأمير قسيم الدولة قلعة افامية من يد ابن ملاعب ، وترك فيها بعض بني منقذ ، وعاد الى حلب في العاشر من رجب(١٣٥)

قلت هكذا ذكر العظيمي ونقلته من خطه في كتاب في التاريخ جمعه وسماه المؤصل على الأصل المؤصل ، وقال : « وعاد منها، يعني من مصر ، تسلم قلعة افامية سبعة عشر سنة »؛ وهذا وهم ، فإن قتل ابن ملاعب ظنه تسع وتسعين وعوده من مصر فيها ، وإن كان اراد ولايته الأولى ، فالكلام غير مستقيم لانه اخبر (٢٢٢ـ و)أنه تسلم قلعة افامية واقام بها سبع عشرة سنة وقتل ، وقد خرجت عن يده في سنة اربع وثمانين واربعمائة ، وقتل سنة تسع وتسعين ،فبقيت خارجة عن يده قبل قتله اربع سنين وثلاثة اشهر ، وكانت افامية في يد ابن ملاعب مع حمص في ايام ابي المكارم مسلم ابن قريش؛ فانني قرات في كتاب العظيمي بخطه قال : سنة خمس وسبعين واربعمائة ، وفيها في صفر حاصر شرف الدولة ابن ملاعب بقلعة حمص ،وفيها عاد شرف الدولة الى حلب ، وقد صالح ابن ملاعب (١٣٦)

قرات في تاريخ ابي المغيث منقذ بن مرشد الذي ذيل به تاريخ ابن المهذب قال : في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، وفيها ، طلع قوم من

أهل افامية إلى الأفضل يسألونه أن يولي عليهم سيف الدولة خلف ابن ملاعب ، فنهاهم وقال : لاتفعلوا وحذرهم من فسقه ، فقالوا : نحن نجعل عيالاتنا لنا ليلة وله ليلة ،فسيره معهم ووصل افامية ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من ذي القعدة •

قلت : هؤلاء أهل تلك الجبال أكثرهم دهرية د رية يستبيحون ذوات الأرحام ، ولا يعتقدون تحريم الحرام •

قرأت بخط عمر بن محمد العليمي المعروف بابن حوائج كش الحافظ ، وأخبرنا به إجازة عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن النسابة ، وذكر العليمي انه نقله من خط ابن زريق ، يعني أبا الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف بن زريق ، وكان عالما بالتاريخ ، قال : وقدم الى افامية ، يعني خلف ابن ملاعب ، من مصر سنة تسع وثمانين واربعمائة ، لأن أهل افامية مضوا الى مصر (٢٢٢ ـظ) يلتمسون واليا يكون عليهم ، ووقع اقتراحهم عليه ، فوصل في يوم الأربعاء الثامن من ذي القعدة ، ودخلها وملكها •

قال : ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ، قتله جماعة وصلوا من حلب من أصحاب أبي طاهر الصائغ القائم بمذهب الباطنية ، بعد موت المنجم المعروف بالحكيم بحلب ، وكانوا من أهل سرمين ، وقاموا فيها بموافقة رجل داع كان بافامية يقال له ابن القنج أصله من سرمين ، واقام بأفامية يحكم بين أهلها ، وقرر ذلك مع أهلها ، وأحضر هؤلاء ، ونقب أهلها نقبا في سورها حتى قارب الوصول ، فلما وصل هؤلاء لقيهم ابن ملاعب ، فأهدوا له فرسا وبغلة كانوا أخذوها من افرنج لقوهم في الطريق ، فأعلموه انهم جاءوا بنية الغزو الى بلد الروم ، وباتوا بظاهر الحصن الى الليل ، ودخلوه من ذلك النقب ، ورتبوا بعضهم على دور أولاده لئلا يخرجوا ينجدونه ، وصعدوا ، فخرج إليهم فطعن في بطنه ، فرمى بنفسه من القلة يريد دار بعض أولاده ، فطعن اخرى ، ومات بعد ساعة ، وحين صاح الصائح على القلة ، ونادى

بشعار رضوان بن تاج الدولة ، ترامى اولاده وخاصته من السور ، فبعضهم قتل ، واخذ اكثرهم فيمـا بين افـامية وشـيزر ، وقتلوا ، وسلم الله مصبح ،ووصل الى شيزر وأقام عند ابـن منقـذ مـدة ، واطلقه .

ودخل طنكلي إلى افامية عقيب هذا الحـادث طمعـا في الحصـن ومعه اخ لهذا ابـن القنج مـن سرمين (٢٢٣ــ و)كان مـأسورا ، فقرروا له شيئا ، وعاد عنها ، فوصل بعض اولاد ابن مـلاعب الذين كانوا بدمشق ، والذي كان بشيزر فذكروا لطنكلي قلة القوت بهـا ، فعاد في رمضان فنزل عليها ، فأقام إلى آخـر السـنة ، وفتحهـا في الثالث عشر من محرم سنة خمسمائة ، واسر ابن القنج والصايغ ، وعاقب ابن القنج وقتله ، واطلق بعض اهل افامية .

انبأنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي الفنكي قال : اخبـرنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني في كتابه أن قوما من أهل افامية من الاسماعيلية عملوا على مالكها وتحيلوا عليه بأن جاء منهم ستة نفر وقد حصلوا حصـانا وبغلة وعددا افـرنجية وتراسا وزرديةوخـرجوا مـن بلد حلب الى افـامية بتلك العـدة والدواب ، وقالوا لسيف الدولة خلف بن ملاعب ــ وكان رجلا كريما شجاعا ــ جئنا قاصدين خـدمتك ، فلقينا فـارسا مـن الافـرنج ، فقتلناه ، وجئنا إليك بحصانه وبغلته وعدته ، فـأكرمهم وانزلهـم في حصن افامية ، في دار مجاورة السور ، فنقبـوا السـور ، وواعدوا الفاميين الى ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمـادى الأولى سـنة تسع وتسعين وأربعمائة ، فطلع الفاميون مـن ذلك النقـب ، فقتلوا خلف بن ملاعب ، وملكوا حصن افامية ــ .

قرأت بخط العضد أبي الفوارس مرهف بن اسامة بن مرشد بـن منقذ :

سنة تسع وتسعين واربعمائة (٢٢٣ــ ظ) فيها قفز أهل افامية مع القاضي ابن القنج على سيف الدولة خلف بن ملاعب وقتلوه ، وقتلوا أولاده في الرابع والعشرين من جمادى الأولى .

نقلت من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي في تاريخه ، وانبأنا به ابو اليمن زيد بن الحسن الكندي ، والمؤيد بن محمد الطوسي وغيرهما عنه قال : سنة تسع وتسعين واربعمائة : وفيها : عمل الباطنية على قلعة افامية ، وقتلوا ابن ملاعب بها غيلة ، وملكوا القلعة ، فعاجلهم الفرنج ونزلوا عليهم ، وحصروهم بها الى أن أخذوها (١٣٧).

خلف بن ملاعب الاشبهي

(من المقفى المقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

خلف بن ملاعب الأشهبي الكلابي ، الأمير ابو منصور ، سيف الدولة أصله من قبيلة من بني كلاب يقال لها الأشهب .

استولى على مدنة حمص في ولاية معلي بن حيدرة على دمشق من قبل المستنصر بالله ابي تميم معد بن الظاهر ، في صفر سنة ست وستين وأربعمائة فلما صار نصير الدولة بعساكر امير الجيوش من مصر ، وفتح صور وصيدا ، ونزل بعلبك ، قدم عليه خلف بن ملاعب ودخل في الطاعة ووجه بابن عمه إلى أمير الجيوش ،فقبله ، وبعث إلى خلف بالخلع والطوق ، فاقام بحمص ، وكان الضرر به عظيما ، ورجاله يقطعون الطريق في جميع النواحي وكان في صحبته جماعة من اللصوص ، فشمل الناس في أيامه مضرة شديدة فلما سار تاج الدولة تتش بن الب ارسلان من دمشق ، ومعه الأمير أق سنقر صاحب حلب ، والأمير بوزان صاحب حران ، وعولوا على قصد مصر ، مضوا إلى حمص وقبضوا على خلف هذا وعلى ولديه ، وحصل في حيز الأمير أق سنقر فبعث به إلى تركان خاتون الجلالية زوجة السلطان ملك شاه ، فاعتقله بأصبهان ، ثم افرج عنه بعد موت ملك شاه ، فورد بغداد على أسوا حال .

فاجتمع عليه التجار وادعوا عليه اموالا اخذها منهم فوكل به من دار الخلافة ، فتوصل القائد علي بن كتاش في إطلاقه وأدى عنه من ماله ثلاثمائة وخمسين دينارا ، ثم دبر له في الخروج من بغداد فتم له ذلك ولم يكافئه عنه ، وذهب ما أدى عنه ضياعا ، ومضى إلى مصر فلم يلتفت إليه ، وأقام بها ومعه أهله وأولاده سنتين .

فكتب القائم بفامية من جهة الملك رضوان بن تتش الى المستنصر ، وكان يميل إلى مذهب المصريين ، يستدعي من يتسلم أفامية منه ، وكانت على غاية الحصانة .فواصل ابن ملاعب السعي في ذلك اليوم ،

ووعد أنه يحارب الفرنج رجاء المثوبة من الله تعالى . وكانت البلاد يومئذ اكثرها معهم ، فأجيب بأنه رجل كافر النعمة مخفر الأمانة لا يملك عنان فرسه فيرى لأحد عليه طاعة ، فقال : انا أعطي اولادي رهينة وانصرف على السمع والطاعة لكم .

فوقع الاتفاق عليه وقلد افامية في سنة تسع وثمانين واربعمائة فلما وصل وتمكن منها خلع الطاعة . فكتبوا إليه يعرفونه حال رهينته وما يحل بولده عند معصيته .فأجاب بأني متمسك بمكاني مدافع عن تسليمه وانني أوثر ان تطبخوا أولادي وتنفذوا إلي بعض اعضائهم حتى آكله .

فيئسوا منه وأعرضوا عنه ، واقام بافامية على حالته من التخليط ، ومال اليه المفسدون ، وعظم قطع الطريق من جهته ، فاتفق ان استولى الفرنج على سرمين فتفرق من كان بها ، وكانوا غلاة في التشيع ، وصار اكثرهم إلى رضوان متملك حلب ، وفيهم شجاعة وقوة ، والغالب عليهم حمل السلاح ، ومضى قاضيهم أبو الفتح السرميني إلى ابن ملاعب في فريق منهم واقام عنده وحظي لديه وتقدم تقدما زائدا ، فصار يطلعه على سره ويشاوره في اموره ، والقاضي يدبر عليه ويكاتب أبا طاهر الصائغ بحلب ، وهو من خواص الملك رضوان ليستخدمه في تدبيرها ويرد إليه النظر في أمورها ، فاتفق ان أولاد ابن ملاعب تسللوا من مصر خفية ووصلوا إليه فأخبروه بأن القاضي أبا الفتح السرميني المقيم عنده قد اشتهر عندهم أنه يعمل عليه ويروم الفتك به ، وأشاروا بابعاده . فاستدعاه ابن ملاعب فحضر وقد أيقن بالفتك به ومعه مصحف . فلما جلس اعترف بما أولاه ابن ملاعب من الجميل ، وانكر ما قيل في حقه وحلف بالمصحف على صحة ما يعتقده من جميل ولائه . وسأله أن يطلقه عريانا إن كان قد داخله فيه شك . فقبل قوله وانخدع له وتركه على حالته .

فأخذ القاضي من تلك الساعة في الجد ، وكاتب الصائغ بأن يوافق الملك رضوان على تسيير ثلاثمائة رجل من اهل سرمين وصحبتهم

شيء من خيل الفرنج وبغالهم وسلاح من أسلحتهم . وعرفه مكيدة يفهمها لهم ليقولوها عند حضورهم . ففعل ذلك الصائغ ، وحضر أولئك الخيالة وقالوا: كنا نخدم رضوان وفارقناه على حالة غير مرضية من قلة إنصافه ،وتوجهنا نحو الفرنج فأخذنا منها براءة للأمير إن رضينا له خدما – وقدموا له ما كان معهم من الخيل الفرنجية والبغال والسلاح - فتم ذلك عليه وظنه صحيحا ، واستخدمهم وقربهم وأسكنهم ربض القلعة . فاجتمعوا مع القاضي أبي الفتح على التدبير ، فواعدهم . فلما كانت تلك الليلة طاف العسس كجاري العادة ومضوا وناموا فثار من بالحصن من أهل سرمين ودلوا الحبال إلى الواصلين فرفعوهم . وقام السيف فقتل ابن ملاعب وأولاده، لأربع بقين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وملكت القلعة ، وأفلت صبح ونصر ولدا خلف ابن ملاعب ، فتوجه صبح إلى شيزر وأقام عند ابن منقذ .

وبعث القاضي أبو الفتح إلى أبي طاهر سعيد الصائغ ، فسار إلى أفامية لا يشك أنها له ، فأكرمه القاضي وامتنع من تسليمها إليه وقال: هذا الموضع نحن محترمون ما دام لنا وإذا خرج إلى غيرنا أمتهنا – فيئس منه .

وكان لخلف ابن يقال له مصبح في خدمة طغدكين بدمشق قد أعطاه حصنا بالبرية يحفظه فعرف بعده بقبة ابن ملاعب فأفسد هناك فهدده طغدكين .فلحق بالفرنج وأوى إلى طنكري متملك انطاكية ، وحسن لهم قصد أفامية . فساروا معه ونازلوها فسير إليهم القاضي أبو الفتح عشرة آلاف دينار . فرحلوا فلامهم ابن خلف وما زال بهم حتى أقاموا عليها إلى أن مات من بها من الجوع ، فملكها الفرنج وقتلوا القاضي وأسروا الصائغ وحملوه إلى انطاكية معهم وقتلوه بها . فأخذ رضوان ماله وأولاده بحلب .

دقاق بن تتش

(من الحزء السادس من تاريخ دمشق لابن عساكر ـ
مخطوط الظاهرية ٣٤٥٠)

دُقاق بن تُتُش بن الب أرسلان ابو نصر المعروف بالملك شمس الملوك.ولي إمرة دمشق بعد قتل أبيه تاج الدولة في سنة سبع وثمانين واربعمائة ، وكان بحلب ، فراسله خادم لابيه أسمه ساوتكين كان نائبا في قلعة دمشق ، سرا من أخيه رضوان بن تتش صاحب حلب ، فخرج دقاق الى دمشق وحصل بها ، واجلسه ساوتكين في منصب أبيه ، ثم دبر هو وطغتكين المعروف بأتابك (١٢٨) زوج أم الملك دقاق على ساوتكين فقتل.

واقام دقاق بدمشق ، وقدم أخوه رضوان فحاصرها فلم يصل منها الى مقصود فرجع الى حلب ، ثم عرض لدقاق مرض تطاول به وتوفي منه في الثاني عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين واربعمائة ؛ وإن أمه زينت له جارية فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ، ثقبته بأبرة فيها خيط مسموم ، وإن أمه ندمت على ذلك بعد الفوت ، وأومأت الى الجارية أن لاتفعل ، فأشارت إليها أن قد كان ، وتهرى جوفه فمات ...(٥.ـ ظ).

رضوان بن تتش

(من بغية الطلب لابن العديم)

رضوان بن تتش بن الب ارسلان بن جغري بن سلجوق بن دقاق ، ابو المظفر التركي السلجوقي ولد سنة خمس وسبعين واربعمائة ، ونشا في دمشق في حجر ابيه ، وكانت امه ام ولد فزوجها ابــوه مــن جناح الدولة حسين ، وجعله ابوه اتابكا له ومربيا ، ولما توجه ابــوه تتش لمحاربة بركيارق ووصل الى همذان كتب الى ولده رضوان الى دمشق ، وكان قد تركه بها ، يستدعيه اليه مــن دمشــق ، وامــره ان يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتثل امر ابيه وخــرج من دمشق بالعسكر متــوجها الى ابيه ، ووصــل الى عانة وقيل الى الانبار ، فبلغه قتل ابيه تتش ، فحــط خيمــه وســار مجــدا عائدا ، فوصل الى حلب وتسلمها من وزير ابيه ابي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، وتولى حسين زوج امه تدبير ملكه .

ووصل اخوه دقاق الى حلب ، ومضى سرا من رضوان الى دمشق فملكها وقدم يغي سغان ، ويوسف بن ابق بعسكرهما مــن انطــاكية الى خدمة رضوان ، وسارا (٨٩ ــ و) معه الى الرها ليستلمها من نواب والده ، فارادا القبض على حسين لينفردا بتــدبير رضــوان ، فبلغ حسين ذلك ، فهرب الى حلب ، وتبعه رضوان اليها واستوحش رضوان منهما ، فرجعا الى انطاكية .

وسار رضوان الى دمشق ليأخذها مــن اخيه دقــاق ، ونزل جناح الدولة حسين بحلب ، وسار معه سكمان بــن ارتــق ، فلمــا وصــل رضوان الى دمشق اعتقل دقاق نجم الدين ايلغازي بــن ارتــق ، ولم يستتب لرضوان امر دمشق فرجع الى حلب ، وتــوجه ســكمان الى البيت المقدس ، وتسلمه من نواب اخيه ايلغازي.

ووصل يوسف بن ابق الى رضوان الى حلب وسكنها فخــاف منه

رضوان وحسين فتقدما الى المجن الفوعي (١٣٩) فهجم عليه فقتله .

وخرج رضوان وحسين فتسلما تل باشر ، وشيح الدير من نواب يغي سغان ، واغارا على بلد انطاكية ، ثم توجها الى دمشق ،وسار يغي سغان اليها منجدا دقاق ، فضعفت نفس رضوان عن دمشق ، فسار الى البيت المقدس فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سغان ، واشرف عسكر رضوان على التلف فهرب حسين على البرية الى حلب ، ووصل دقاق وطغتكين الى ناحية حلب ، واستنجد رضوان بسليمان ابن ايلغازي صاحب سميساط ، فوصل الى حلب بعسكر كبير واجتمع العسكران على نهر قويق ، وتحاربا ، فهرب دقاق وطغتكين الى دمشق ويغي سغان الى انطاكية .

وتغيرت نية رضوان على حسين فهرب من حلب الى حمص ومعه زوجته ام رضوان .

ثم تجدد بعد ذلك خروج الفرنج (٨٩ ـ ظ)الى انطاكية ، ووصل يغي سغان الى الملك رضوان الى حلب الى خدمة رضوان ، وتزوج رضوان بابنته خاتون جيجك ، ونزل الفرنج على انطاكية ، وشنوا الغارات على بلد حلب ، ووصل ابن يغي سغان الى حلب مستنجدا على الفرنج ، فسير رضوان معه عسكر حلب وسكمان ، فلقيهم من الفرنج دون عدتهم ، فانهزم المسلمون الى حارم ، وغلب اهل حارم من الارمن عليها ، وعاد سكمان بن ارتق مفارقا رضوان ، وصار مع دقاق .

واستولى الفرنج على انطاكية ، وضعف امر رضوان ، واستمال الباطنية وظهر مذهبهم بحلب ، وشايعهم رضوان ، واتخذوا دار دعوة بحلب ، وكاتبه ملوك الاسلام في امرهم ، فلم يلتفت ، ولم يرجع عنهم ، ودام على مشايعتهم .

وقوي الفرنج عليه فباع من املاك بيت المال عدة مواضع للحلبيين ، وقصد بذلك استمالتهم ، وان يتعلقوا بحلب بسبب املاكهم فيها حتى انه باع في ساعة واحدة ستين خربة من مزارع حلب لجماعة من اهلها وكتب بها كتابا واحدا ، يذكر حدود كل خربة ومشتريها وثمنها

وكان الكتاب عندي في جملة الكتب التي كانت لوالدي رحمه الله .

وكان الملك رضوان بخيلا شحيحا يحب المال ، ولا تسمح نفسه باخراجه ، حتى ان امراءه وكتابه كانوا ينبزونه بابي حبه ، وذلك هو الذي اضعف امره ، وافسد حاله مع الفرنج والباطنية . وجدد في حلب مكوسا وضرائب لم تكن ، ومع هذا كله كان فيه لطف ومحاسنة (٩٠ ــ و) للحلبيين حتى بلغني انه مر يوما راكبا ليخرج من باب العراق ، سمع امراة تنادي اخرى يازليخا تعالي ابصري الملك ، فامسك راس فرسه ووقف ساعة ، ثم نظر فلم ير احدا ، فقال : اين هي زليخا قولوا لها تأتي تبصرنا او نمشي ، وهذا من ابلغ اللطافة من ملك مثله .

وحدثني والدي قال : اخبرني ابي قال : وقع بين والدي ابي غانم وبين القاضي ابي الفضل بن الخشاب مشاجرة في التخم الذي بين قرية والدي اقدار وبين قرية ابن الخشاب عيطين ، وال الامر في ذلك الى مواحشة وغلظة ، فبلغ الملك رضوان فقال : انا اخرج بنفسي واقف معكما على التخم ، فخرجا مع الملك ووقف معهما وقال لاحدهما : الى اين تدعي فقال : الى ها هنا ، وقال للاخر : الى اين تدعي . فقال : الى ها هنا ، فقال لكل واحد منهما : اريد ان تهب لي نصف ماتدعي على صاحبك ، فأجاباه جميعا الى ذلك ، واصلح بينهما على ان نزل كل واحد عن نصف المدعى به ، وجعل بينهما تخما اتفقا عليه ، ورجع الى المدينة ، وهذا ايضا من المآثر التي ينبغي ان تكتب وتسطر وتنقل في التواريخ وتذكر .

قرات بخط الشريف ادريس بن الحسن الادريسي الاسكندراني قال الشيخ ابو الحسن بن الموصول ، واملانيه بدار الشريف امين الدين ابي طالب احمد بن محمد النقيب الحسيني الاسحاقي من تعليق لبعض (٩٠ ــ ظ)اسلافه قال : وفي شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسمائة وصل الى حلب رجل كبير فقيه تاجر يقال له ابو حرب عيسى بن زيد بن محمد الخجندي ومعه خمسمائة جمل عليها احمال أصناف التجارات ، وكان شديدا على الاسماعيلية مسعدا لمن

يقصدهم ، مبالغا في بابهم ، انفق في المجاهدين لهم بسببهم اموالا جليلة ، فقام في غلمان له يستعرض احماله وحوله جماعة من مماليكه وخدمه ، وكان قد اصحب من خراسان باطنيا يقال له احمد بن نصر الرازي ، وكان اخوه قتله رجال هذا الخجندي ، فدخل الى حلب ، واستدل على ابي الفتح الصايغ رئيس الملاحدة بها ، وكان متمكنا من رضوان ، فصعد الى الملك رضوان ، وعرفه ما جرى بينهم وبين الفقيه ابي حرب ، واطمعه في ماله ، واراه انه بريء من التهمة في بابه اذ كان معروفا بعداوة الملحدة ، فطمع رضوان وانتهز الفرصة فيه ، وطار فرحا ، فبعث بغلمان له يتوكلون به ، فبرز الى ابي حرب عيسى الفقيه احمد بن نصر الرازي وهجم عليه ، فقال لغلمانه واصحابه : اليس هذا رفيقنا ؟! فقالوا : هو هو ، فوقعوا عليه فقتلوه ، وهجم جماعة من اصحاب ابي الفتح الباطني الحلبي على ابي حرب فقتلوا عن اخرهم ، ثم قال ابو حرب : الغياث بالله من هذا الباطني الغادر ، امنا المخاوف وراءنا وجئنا الى (٩١ ـ و) الامنة ، فبعث علينا من يقتلنا ، فرجعوا الى رضوان ، فاخبروه بما قال ، فابلس ، وصار السنة والشيعة الى هذا الرجل ، واظهروا انكار ما تم عليه ، وعبث احداثهم بجماعة من احداث الباطنية فقتلوهم ، وانهي ذلك الى الملك رضوان فلم يتجاسر على انكاره ، واقام الرجل بحلب ، وكاتب اتابك ظهير الدين(١٤٠)وغيره من ملوك الشام فتوافت رسلهم عند رضوان بكتبهم ينكرون عليه ما جاءه في بابه ، فانكر وحلف انه لم يكن له في هذا الرجل نية ، وخرج الرجل عن حلب مع الرسل ، فخيروه في التوجه نحو الرقة ، وعاد الى بلده ، ومكث الناس يتحدثون بما جرى على الرجل ، ونقص في اعين الناس فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم .

انبانا زيد بن الحسن عن ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي في حوادث سنة احدى وخمسمائة قال : وفي هذه السنة بلغ فخر الملوك رضوان ما ذكر به عن مشايعة الباطنية واصطناعهم ، وحفظ جانبهم وانه لعن بذلك في مجلس السلطان ، فلما بلغه الخبر امر ابا الغنائم

ابن اخي ابي الفتح الباطني بالخروج عن حلب فيمن معــه ، فــانسل القوم بعد ان تخطف جانبهم ، وقتل منهم افرادا (١٤١)

قلت ولما ملك رضوان حلب قتل اخوين له كانا من ابيه ، فلما مات رضوان وملك ابنه الب ارسلان قتل اخوين له كانا من احسن الناس صورة فانظر (٩١ ـ ظ)الى هذه المؤاخذة العجيبة .

انبانا المؤيد بن محد علي الطوسي عن ابي عبد الله محمــد بـن علي العظيمي قال :وفيها ــ يعني سنة تسعين واربعمائة ــ عصى المجن الموفق على الملك رضوان ، وتعصب معه الحلبيون ثم تخــاذلوا عنه ، واختفى ، فقبض عليه الملك رضوان ، وعلى ذويه وبنيه ، واستصفى امواله في ذي القعدة وعذبهم بــانواع العــذاب ، ثــم قتله بعــد ذلك ، وقتلهم حوله .

قال : وفيها وصل رسول مصر الى الملك رضوان ، يعني من المستعلي بالتشريف والخلع ، وخطب للمصريين شهرا ، ثم عاد عن ذلك(١٤٢)

وقال : سنة ثلاث وتسعين ، وفيها كسرت الافرنج للملك رضــوان على موضع يقال له كلا ، وكان المســلمون في خلق وكان الافــرنج في مائة فرس ، فقتلوا خلقا من الناس ، واسروا خلقا ، وكانت الكسرة يوم الجمعة خامس شعبان(١٤٣)

وقال : سنة ثمان وتسعين واربعمائة ، فيهــا كسر الفــرنج الملك رضوان على عين تسيلوا من ارض ارتاح ، وكان سبب ذلك حصــن ارتاح ، خرجوا اليه لياخذوه ، وجمع الملك رضوان الخلق العــظيم ، وخرج لنجدة الحصن ، ومعــه مــن الرجــالة الخلق العــظيم ، وكان المصاف يوم الخميس ، فانهزمت الخيل ، واسلموا الرجالة ، فقتــل منهم الخلق العظيم ، وفقد من الحلبيين جماعة كثيرة غزاة رحمهــم الله ، وانهزم اكثر من به (١٤٤)

قلت : وبلغني انه قتل من المسلمين مقــدار ثــلاثة الاف مــا بين فارس وراجل ، وهرب (٩٢ ــ و)من بارتاح من المسلمين ، وقصــد الفرنج بلد حلب ، فاجفل اهله ، ونهب من نهب ، وسبي من ســبي ،

واضطربت احوال بلد حلب من جبل ليلون الى شيزر ، وتبدل الخوف بعد الامن والسكون وهرب اهل الجزر وليلون الى حلب ، فادركتهم خيل الفرنج فسبوا اكثرهم وقتلوا جماعة ، وكانت هذه النكبة على اعمال حلب اعظم من النكبة الاولى على كلا ، ونزل طنكريد الفرنجي على تل اعذى من عمل ليلون واخذه ، واخذ بقية الحصون التي في عمل حلب ، ولم يبق في يد الملك رضوان من الاعمال القبلية الا حماه ، وليس في يده من الاعمال الغربية شيء ، وبقي في يده الاعمال الشرقية والشمالية وهي غير أمنة .

وضاق الامر باهل حلب ، ومضى بعضهم الى بغداد واستغاثوا في ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الاسلامية على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر ، فجهز السلطان محمد بن ملكشاه مودود صاحب الموصل واحمديل الكردي ، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة ، ومات سكمان قبل وصوله الى حلب ، ووصلت العساكر الى حلب ، فاغلق رضوان ابواب حلب بوجههم ، واخذ الى القلعة رهائن عنده من اهلها لئلا يسلموها ، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور ، ومنع الحلبيين من الصعود اليه ، وضبر(١٤٥)انسان من السور (٩٢ ــ ظ)فامر به فضرب عنقه ، ونزع رجل ثوبه ورماه الى اخر ، فامر به فالقي من السور الى اسفل ، وبقيت ابواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، واقام الناس ثلاث ليال لايجدون ما يقتاتونه ، وكثرت اللصوص ، وخاف الاعيان على انفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فاطلق العوام السنتهم بسبه وتعييبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية ان يسلموا البلد ، وترك الركوب بينهم ، وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر فياخذونه ، وعاث العسكر فيما بقي سالما ببلد حلب بعد نهب الفرنج له ، ورحل العسكر الى معرة النعمان بعد استيلاء الفرنج عليها في اخر صفر من سنة خمس وخمسمائة واقاموا عليها ، وقدم عليهم اتابك طغتكين ، فراسل رضوان بعضهم حتى افسد مابينهم ،وظهر لأتابك طغتكين منهم الوحشة، فصار في جملة ممدود(١٤٦)وثبت له ممدود، ووف له ، وحمل

لهم اتابك هدايا وتحفا ، وعرض عليهم المسير الى طرابلس والمعونة لهم بالأموال، فلم يعرجوا ، وسار أحمديل وبرسق بن برسق ، وعسكر سكمان الى الفرات ، وبقي مودود مع اتابك ،فرحلا من المعرة الى العاصي ، فنزلا على الجلالي ، ونزل الفرنج أفامية: بغدوين ، وطنكريد ،وابن صنجيل ، وساروا لقصد المسلمين ،فخرج ابو العساكر سلطان بن منقذ من شيزر(٩٣و)بأهله وعسكره ،واجتمعوا بمودود وأتابك ،وساروا إلى الفرنج ، ودارت خيول المسلمين حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسي تمنعهم الورد ،فأصبحوا هاربين سائرين تحمي بعضهم بعضا .

ونزل طنكريد على قلعة عزاز وبذل له رضوان مقطعة عن حلب ، عشرين الف دينار وخيلا وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، ورأى رضوان أن يستميل طغتكين اتابك اليه ، فاستدعاه الى حلب ، فوصل اليه وتعاهدا على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال واستقر الأمر على أن أقام طغتكين الدعوة والسكة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر من رضوان الوفاء بما تعاهدا عليه ، ووصل مودود الى الشام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان ، فتاخرت الى ان اتفق للمسلمين وقعة استظهر فيها الفرنج ، ووصل عقبيها نجدة للمسلمين من رضوان دون المائة فارس وخالف فيما كان قرره ووعد به ، فانكر اتابك ذلك وتقدم بابطال الدعوة والسكة باسم رضوان من دمشق في اول شهر ربيع الاول سنة سبع وخمسمائة .

انبانا سليمان بن الفضل بن سليمان قال : اخبرنا الحافظ ابو القاسم علي بن الحسن قال : رضوان بن تتش بن الب ارسلان بن جغري بك بن سلجوق بن تقاق التركي كان بدمشق (٩٣ - ظ)عند توجه ابيه الى ناحية الري ، فكتب اليه يستدعيه ، فخرج اليه ، فلما كان بالانبار بلغه قتله ، فرجع الى حلب فتسلمها من الوزير ابي القاسم ، وكان المستولي على امرها جناح الدولة حسين في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، ثم قدم دمشق بعد موت اخيه دقاق ،

فحاصرها وقرر له الخطبة والسكة ، فلم تستتب اموره وعاد الى حلب ، واقام بها ، وجرت منه امور غير محمودة في قتال الفرنج ، وظهر منه الميل الى الباطنية ، واستعان بهم بحلب ، ثم استدعى طغتكين اتابك الى حلب ولاطفه ، واراد استصلاحه ، وقرر بينهما امورا واقام له طغتكين الدعوة والسكة بدمشق ، فلم يظهر منه الوفاء بما وعد ، فابطلت دعوته .

وكان لما ملك حلب قد قتل اخويه أبا طالب وبهرام ابني تتش ، ومات في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة (١٤٧)

انبانا ابو اليمن الكندي عن ابي عبد الله محمد بن علي العظيمي ، ونقلته من خطه ، قال : سنة سبع وخمسمائة ، فيها مات الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب بحلب . وفيها قتل تاج الدولة ابن الملك رضوان اخويه ملك شاه وابراهيم صبيين احسن الناس صورا (١٤٨)

كذا وجدته ، وابراهيم بقي زمانا ، ورايت ولده بحلب ، واظنه مبارك والله اعلم .

وقرات في كتاب تاريخ وقع (٩٤ — و) إلي بماردين جمعه الرئيس ابو علي الحسن بن علي بن الفضل الداري ، وشاهدته بخطه ، قال : وفيها ، يعني سنة ثمان وخمسمائة مات الملك رضوان بن تتش بحلب وتولى ولده الاخرس .

وقرات في بعض ما علقته من الفوائد ، مرض رضوان بحلب مرضا حادا ، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الاخرة سنة سبع وخمسمائة ودفن بمشهد الملك ، فاضطرب امر حلب لوفاته ، وتأسف اصحابه لفقده ، وقيل انه خلف في خزانته من العين ، والآلات ، والعروض ، والاواني ما يبلغ مقداره ستمائة الف دينار .

قرات في كتاب عنوان السير تاليف محمد بن عبد الملك الهمذاني قال : وملكها ، يعني حلب بعده — يعني بعد قتل ابيه تتش — في سنة ثمان وثمانين واربعمائة ابو المظفر رضوان بن تتش تسع عشرة سنة وشهورا ، وتوفي في سحرة يوم الاربعاء آخر يوم من جمادى الاولى

سنة سبع وخمسمائة ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، وخلف عينا وعروضا تقارب الف الف دينار .

سابق بن محمود

(من بغية الطلب لابن العديم)

سابق بن محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس بن ادريس بن نصر ابو الفضائل الكلابي ، وتمام نسبة نذكره في ترجمة جد ابيه صالح بن مرداس ان شاء الله تعالى ، وامه بنت الملك ابي طاهر بن فناخسروه ابن بويه.

ملك حلب في الليلة الثانية من شوال سنة ثمان وستين واربعمائة ، وكان اخوه قد قتل يوم عيد الفطر بعد العصر على ما ذكرناه في ترجمته ، وكان قد فوض نصر اموره الى سديد الملك ابي الحسن علي بن منقذ بعد عوده من طرابلس ، وفوض اليه اموره ، وكان الوزير ابن النحاس بقلعة حلب ، وفي القلعة وال يقال له ورد وعندهما جماعة من الخواص ، فلما علموا بقتل نصر استدعوا اخاه سابق بن محمود ، وكان ساكنا في العقبة في الدار التي تنسب الى عزيز الدولة فاتك ، وكان قد شرب فيها وسكر ، فحمل من العقبة وهو سكران ، ورفع من السور (١٤٣ ـ ظ) بحبل الى القلعة وهو سكران ونادوا بشعاره وأطاعه الأجناد ، واشاروا عليه باطلاق احمد شاه من الاعتقال ، وكان نصر اعتقله ، فاطلقه ، وخلع عليه . فنزل احمد شاه الى العسكر بالحاضر فسكن الفتنة .

واستقرت قاعدة سابق ، ولقب عز الملك ابو الفضائل . ودخل عليه ابو الفتيان بن حيوس ، فمدحه بقصيدته التي اولها :

علي لها انْ احفظ العهد والودا

وان لم تفد إلا القطيعة والصدا (١٤٩)

فاطلق له سابق الف دينار ، وجعل له كل شهر ثلاثين دينارا .

وكان سابق من متخلفي آل مرداس ، وكان ينظم الشعر ، فانني

وقفت في ديوان شعر ابن النحاس على ابيات يخاطب بها سابق بن محمود وقد انشده شعرا لنفسه فيه :

كنت انشدتني من الشعر نظما
بحتريا يفوق لفظا ومعنى

لما ملك سابق وعرف بنو كلاب تخلفه اجتمعوا الى اخيه وثاب ، وحسنوا له اخذ حلب ، وانضاف اليه اخوه شبيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما : فسير سابق واستدعى احمد شاه امير الاتراك ، وكان في الف فارس ، واستعان به ، فانفذ الى رجل من الاتراك يعرف بمحمد بن دملاج كان نازلا في طريق بلد الروم في خمسمائة فارس ، ويضمن له مالا ، فوصل ابن دملاج في يوم الاربعاء مستهل ذي القعدة من سنة ثمان (١٤٣ ـ و) وستين واربعمائة ، وتحالفوا ، وخرجوا الى وثاب وبني كلاب في يوم الخميس مستهل ذي الحجة ، وكان بنو كلاب في جمع يقارب سبعين الف فارس ، وراجل ، وكانوا بقنسرين ، فعندما عاينوا الاتراك ، انهزموا من غير قتال وخلفوا حالهم ، وأموالهم. ونسائهم وأموالهم ، فغنم احمد شاه وابن دملاج واصحابهما جميع ذلك ، فيقال انهم أخذوا لهم مائة الف جمل ، واربعمائة الف شاة ، وسبوا من حرمهم الحرائر ، وامائهم وعبيدهم مالا يحصى كثره ، وعادوا بالاسرى الى حلب فأطلقهم سابق وانزل اخته زوجة مبارك بن شبل في دار واكرمها.

فسار وثاب ومبارك بن شبل الى السلطان ملك شاه بن الب ارسلان ، وشكوا حالهم ، وسألوا منه ان يعينهم على سابق ، فوعدهم واقطعهم في الشام ، واقطع الشام اخاه تتش ، فسار ومعه جموع الترك ووثاب ومبارك بن شبل ، ووصل اليه بنو كلاب ، فنزل على حلب سنة احدى وسبعين واربعمائة ، ووصل اليه ابو المكارم مسلم بن قريش ، ونزل معه عليها ، وكان هواه مع سابق ، فكان يسير اليه بما يقوي نفسه ، وينكر على بني كلاب خلطتهم ، ودام الحصار ثلاثة اشهر ، واحس ابو المكارم بتغير النية فيه ،

وتحقيق التهمة به من مراسلة سابق واهل حلب ، فاستاذن تاج الدولة في الرحيل ، ورحل . وجعل رحيله وعبوره بعسكره على باب حلب .

وباع (١٤٣ ـ ظ) اصحابه اهل حلب كلما كان في عسكره عصبية وتقوية لهم ، وقوى نفوسهم ونفس سابق ، وسار بعد ان قوي اهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضعف الشديد الى بلاده ، ورحل معظم بني كلاب ،وبقي مع تاج الدولة تتش من بني كلاب وثاب وشبيب اخو سابق ومبارك بن شبل في عدد يسير فاشار عليهم ابو المكارم بن قريش بالاحتياط على انفسهم او الهرب الى حلب وكاتبهم سابق ، وتالفهم ، وقال لهم : انما انب واحامي عن بلادكم وعزكم . ولو صار هذا البلد الى تتش ، ازال ملك العرب وذلوا واستوحشوا من الاتراك ، فهربوا الى حلب ، وصاروا الى سابق ، وكتب سابق الى الامير ابي زائدة محمد بن زائدة قصيدة من شعر وزيره ابي نصر بن النحاس يعرفه ما هو فيه من الضيق ، ويسأله الاقبال عليه . والقيام بمعونته ، ويحذره من التخلف عنه فيكون ذلك سببا لزوال ملك العرب ويعتب عليه في التوقف عنه ، والقصيدة :

دعوت لكشف الخطب والخطب معضل
فلبيتني لما دعوت مجاوبا
ووفيت بالعهد الذي كان بيننا
وفاء كريم لم يخن قط صاحبا
وما زلت فراجا لكل ملمة
اذا المحرب الصنديد ضجع هايبا
فشمر لها وانهض نهوض مشيع
له غمرات تستقل النوائبا
وقل لكلاب بدد الله شملكم
او يحكم ما تتقون المعائبا (١٤٤ ـ و)
تستبدلون الذل بالعز ملبسا
وتمسون اذنابا وكنتم ذوائبا

وما زلتم الاساد تفترس العدى
فما بالكم مع هؤلاء ثعالبا
ثبوا وثبة تشفي الصدور من الصدا
ولا تخجلوا احسابنا والمناقبا
ولا بد من يوم يحكم بيننا
وبين العدى فيه القنا والقواضبا
أرى الثغر روحا انتم جسد له
اذا الروح زالت اصبح الجسم عاطبا
وقد ندت عنه طالبا حفظ عزكم
اباء ولاقيت المنايا الشواغبا
وها انا لا انفك ابذل في حمى
حماكم مجدا مهجتي والرغائبا
اأنخر مالي عنكم ونخائري
اذا بت عن طرق المكارم عازبا
شكرت صنيع ابن المسيب اذ اتى
يجر مغاوير تسد السباسبا
منها :

ايا راكبا يطوي الفلاة بحسرة
هملعة لقيت رشدك راكبا
الا ابلغ ابا الريان عني الوكة
تريح من الايلاف ما كان واجبا
اخا شخصه لا يبرح الدهر حاضرا
تمثله عيني وان كان غائبا
متى تجمع الايام بيني وبينه
اشد عليه ما حييت الرواجبا
واهد الى شبل سلامي وقل له :
لك الخير دع ما قد تقدم جانبا

فتلك حقود لو تكلم صامت
لجاء اليها الدهر منهن نائبا

وقد امكنتكم فرصة فانهضوا لها
عجالا والا اعوز الدر جالبا (٤٤١ ـ ظ)

فاني رايت الموت اجمل بالفتى
واهون ان يلقي المنايا مجاوبا

وكان قد بلغ سابقا ان اميرا من امراء خراسان يقال له تركمان التركي قد توجه منجدا تاج الدولة تتش ومعه عسكر ، فاخرج سابق منصور بن كامل الكلابي ، احد امراء بني كلاب ، من حلب ليلا واعطاه كتابه الى ابي زائدة وفيه هذه الابيات ، ومعه بعض اصحاب سابق ، ومعهم مال فاتفق مع منصور ونائب سابق ، وجمعوا ما يزيد على الف فارس وخمسمائة راجل من بني نمير . وقشير ، وكلاب وعقيل بتدبير ابي المكارم بن قريش والتقوا تركمان التركي في ارض الفايا . فكبسوا عسكره وقتلوه .

وبلغ ذلك تاج الدولة تتش فرحل عن حلب الى الفرات وشتى بديار بكر . ثم عاد الى حلب وافتتح منبج في طريقه وبزاعا وعزاز ، وصبح حلب صباحا فخرج عسكر حلب فالتقوا على الخناقية ، وانهزم عسكر تتش بغير قتال .

وكان ابو زائدة وابن عمه شبل بن جامع بن زائدة في قدر خمسين فارسا مقابلهم فحملوا عليه واتفقت هزيمتهم فقتلوا من الغز جماعة وغنموا : وتقدم محمد بن زائدة الى الشيخ ابي نصر منصور بن تميم السرميني المعروف بابن زنكل ان يجيب ابا الفضائل سابق بن محمود عن القصيدة التي انفذها اليه ، ويعرفه ما لبني كلاب من الايام المعروفة . ويذكر هذه الوقائع فعمل :

دعوت مجيبا ناصحا لك مخلصا
يرى ذاك فرضا لا محالة واجبا (٤٥ ـ و)

فلبيت لا مستنكفا جزعا ولا
هدانا اذا خاض الكريهة هائبا

قال فيها في ذكر هذه الوقائع :

ولما دعاني المدركي ابن صالح
شققت ولم ارهب اليه الكرائبا

اسابق صرف الدهر في نصر سابق
الى تركمان الترك ازجي النجائبا

فلما التقيناهم غدا البعض سالبا
لانفسهم والبعض للمال ناهبا

فيا لك من يوم سعيد بيمنه
عن الثغر اضحى عسكر الضد هاربا

وكان يرى في كفه الشام حاصلا
ويوم بزاعا رد ما ظن خائبا

وفي يوم خناقية قد خنقتهم
بعثير ذل رد ذا الشرخ شائبا

عطفت لهم اذ خام من خام منهم
بفتيان كالعقبان شامت توالبا

فلله قومي الصادرون لو انثنوا
معي او فريق كنت للجمع ناكبا

فولوا وقضبان المخافة فيهم
مسابقة ارماحنا والقواضبا

فكم فارسا منهم تركنا مجدلا
يباشر ترب القاع منه الترائبا

وإذ أيقنوا ان ليس للكسر جابر
تولوا وعن جبرين حثوا الركائبا

وخلوا بها كسبا حووه وابصروا
سلامتهم منا اجل مكاسبا

ورحل تاج الدولة تتش من جبرين ، وكان نازلا بعسكره عليهـا الى دمشق .

ولما جرى هذا الحادث طمع شرف الدولة . ابو المكارم ، مسلم بن قريش في الشام وكاتبة سابق بن محمود يبذل له تسليم حلب اليه . ووفدت (١٤٥ ــ ظ) عليه بنو كلاب باسرها ، فتوجه الى حلب ، ونزل عليها في السادس عشر من ذي الحجة من سنة اثنتين وسبعين واربعمائة ، فغلقت ابوابها في وجهه . وكان عند سابق اخواه شبيب ووثاب بحلب ، فلم يمكناه من التسليم ، فلم يقاتلها ، واهلها يحرصون على التسليم اليه لما هم فيه من الجوع ، وعدم القوت ، وسلم البلد اليه ولد الشريف الحتيتي ، على ما نذكره في ترجمة ابي المكارم مسلم بن قريش فانحاز سابق الى القلعة ، واخواه شبيب ووثاب في القصر لضيق القلعة ، وحصر ابو المكارم القلعة الى ان دبر شبيب ووثاب وهما في القصر على سابق ، وقفزا في القلعة وصاح الاجناد بها شبيب يامنصور ، فقبض سابق فحبس ، وتسلم شبيب ما كان بها من المال وسفر سديد الملك ابن منقذ بين مسلم بن قريش وبين شبيب الى ان تسلم القلعة في شهر ربيع الاخر من سنة ثلاث وسبعين واربعمائة ، وانقضى امر سابق بعد حصار القلعة اربعة اشهر . وانقضت دولة ال مرداس .

دفع إلي القاضي ابو محمد بن الخشاب جزءا بخطه وذكر لي انه نقله من خط ابي الحسن علي بن عبد الله بن ابي جرادة في ذكر ملوك حلب . وكتب الينا المؤيد بن محمد بن علي الطوسي عن ابي الحسن قال بعد ذكر نصر بن محمود وقتله بظاهر حلب ثاني عيد الفطر من سنة ثمان وستين : بعده اخوه سابق بن محمود اقام اربع سنين ، وسلم البلد الى شرف الدولة ابي المكارم مسلم (١٤٦ ــ و) ابن قريش العقيلي سنة اثنتين وسبعين واربعمائة ــ يريد البلد دون القلعة .

قرات بخط ابي عبد الله العظيمي . وانبانا ابو اليمن الكندي وغيره عنه : سنة ثماني وستين واربعمائة فيها : قتل نصر بن محمود صاحب حلب يوم الاحد ، يوم عيد الفطر . وجلس سابق بن محمود مكانه .

قال : وفي هذه السنة يعني سنة اثنتين وسبعين واربعمائة . وصل

شرف الدولة الى حلب وتسلمها من سابق بـن محمـود ، وامتنعـت القلعة عليه ، وكان بالقلعة سابق واخوه شبيب ، فقبض شبيب على سابق يوم السبت ثاني عشر من صفر ، وتولى الأمر بنفسـه يومـا واحدا ، ثم عاد سابق فقبض على أخيه شبيب وتولى الأمر كما كان اولا ، وبقي الحصار اربعة اشهر ، ثم سلم القلعة سـابق الى شرف الدولة يوم الأحد عاشر ربيع الآخـر ، وقيل جمـادى الآخـر وهـو الأصح ، يعني من سنة ثلاث وسبعين واربعمائة (١٥٠) .

نقلت من خط ابي الحسن علي بن مرشد بن علي بن منقذ في تاريخه قال : واقام نصر مالكا الى سنة ثمان وستين ، فلمـا كان يوم عيد الاضحى عيد وخرج العصر لنهب الاتراك ابـن خـان واصـحابه ، ويأخذ نساءهم فانه قال : « نريد الوجـوه الملاح » فضربـه واحـد فقتله . واختبطت حلب ، وقفلت ابـوابها ، وقفـل بـاب القلعـة ، فجاءالامير ابو الحسن سديد الملك ، وكان قد نزل لما مـات محمـود وقال له نصر : « ما يرب هذه الدولة غيرك » : فلمـا قتـل نصر لم يجسر ان يذكر للوزير ابن النحـاس ، وكان صـديقه ، ذلك ظـاهرا فقال له وهو في القلعة من تحت السور : الامير نصر (١٤٦ . ظ) سالم كما تحب ولكن سألتني عن شيء قبل خروجي وهو : القيل فاد ، معناه :القيل الملك ، وفاد مات .

فاحتفظ ابن النحاس من القلعة ، واجلسوا بعدهاخاه سابقا ، وكان سابق كما قيل لي من احسن الناس محاضرة ، واصبحهم وجهـا ، واسواهم فعلا في نفسه وافعاله .

حدثني مولاي رحمة الله قال : من طـريف عمله انه مـدحه الشريف ابو المجد بثلاث قصائد ، فتأخرت الجائزة ، فكتب اليه وقد ضـاع له دنانير ثم وجدها .

قل للأمير ابي الفضائل سابق
قولا يفوه به لسان الناطق

فبحق من رد الدنانير التي
ضاعت بتقدير الاله الخالق

اريد علي مدائحا انشدتها

ذهبت لديك ذهاب خلب بارق

قال : فانفذ له قصيدة وكتب اليه على ظهرها نحن نسأل عن الباقي وننفذه اليك .

واقــام بحلب مستضعفا يغير بنو كلاب على بــاب حلب تــاخذ منه الغسالات والقوافل ، ولا يخرج احــد الا بخفــارة ، ولا يدخــل الا كذلك .

والامير سديد الملك مقيم بالجسر لعلمه ان الداء قد اعضــل : قــال : فاشتغل عنهم بحصنه وبلده كفر طاب ، يشتو بــالجسر ، ويصــيف بكفر طاب الى ان غلب سابق ، واستحكم يأسه ، انفذ اليه وقال : اشتهي ان تحضر ، تفصل بيني وبين اخوتي ، وما قــد دهمنا مــن شرف الدولة ، فمضى حينئذ وقد امن غائلتهم .

وقال : سنة ثلاث وسبعين واربعمــائة : فيهــا تســلم شرف الدولة (١٤٧ ــ و) قلعة حلب . شهر ربيع الآخر ولم يكن فيها ما يؤكل . قلت انقطع ذكر سابق بعد اخــذ حلب منه . فلم نقــع له على ذكر ولا خبر والظاهر انه لم تطل مدته وانه توفي بعد ذلك بقليل .

سالم بن مالك

سالم بن مالك بن بدران بن مقلد بن المسيب بن رافع بن مقلد بن جعفر بن عمرو بن المهيا بن زيد بن عبد الله بن زيد بن قيس بن جوثة ابن طخفة ابن ربيعة بن حزن بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن خصفة بن عكرمة بن قيس بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ابو الذمام ، وقيل ابو الزمام ، العقيلي الامير ، كان ابو المكارم مسلم بن قريش حين ملك حلب ، ولاه زعامتها لحكم ما بينهما من النسب ، فلما قتل ابو المكارم ولي حلب مع الشريف الحتيتي في سنة ثمان وسبعين واربعمائة .

واقام سالم بالقلعة والشريف بالمدينة . واتفقا على ان كاتبا السلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب ويحثانه على الوصول ، او وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .

ونزل سليمان على حلب وطال انتظار السلطان فاتفق الشريف الحتيتي ومبارك بن شبل الكلابي على استدعاء تاج الدولة تتش ، فوصل ، والتقى بسليمان وقتله ، ونزل على حلب وفتحها . وعصى (١٩٧ ـ ظ) سالم في القلعة ، فوصل الخبر بوصول ملك شاه . فتوجه تتش الى دمشق ، ووصلت مقدمة عسكر ملك شاه ، فسارع سالم بن مالك الى طاعة الواصل وخدمته .

ووصل ملك شاه الى قلعة جعبر بن سابق القشيري ، فتسلمها منه وقتله ، ووصل الى حلب ، فتسلم حلب وقلعتها من سالم بن مالك سنة تسع وسبعين واربعمائة ، وعوض سالم بن مالك بقلعة جعبر ، واقطعه الرقة وعدة ضياع .

ويقال إن سالم بن مالك لم يذكرها للسلطان ، وانما سير اليه يقول:

ان لي ولدا وعائلة كبيرة وقد اردت ان ينظر السلطان لهم فوق نظري لهم ، فشاور في ذلك نظام الملك ، فقال له : ان قلعة جعبر تريد منا في كل عام جملة من المال وليس لها عمل جيد ، وهو يرضي بها ، فكتب نظام الملك يعرف سالم بن مالك ما جرى ، فطار سالم فرحا بما سمع فبعث الى نظام الملك بخادمه اقبال ، وكان احسن خادم يكون ، له في الفروسية اسم ، وفي الكتابة يد طولى ، الى خط بديع من طريقة ابن البواب ، يترسل عن مولاه وفي صحبته خمسون الف درهم . فقال نظام الملك ما اسديت اليك شيئا تعتاض به عن اقبال . ورد الدراهم عليه ؛ وبعث بجاريتين بكرين احديهما افرنجية والاخرى اندلسية . ليس لهما نظير في الحسن والجمال والادب . والصنائع الحسنة ، فبعث بهما نظام الملك مع اقبال الخادم الى السلطان ، فلما دخل بهما على السلطان قال للحاجب : رد اقبال (١٩٨ — و)لا يدخل علي ،فعجب منه بطانته واستحسن ذلك منه : فبلغ نظام الملك قوله . فبعث به في عشرة من الخدم ، فقبلهم الا اقبال فانه اعادة بعد ان رمى بين يديه ، وكتب وتبذل في الحوائج ، فقال : ان بنظام الملك اليك اشد حاجة . فخدم اقبال واجاب السلطان احسن جواب عن قوله ، وانصرف .

نقلت من خط الرئيس ابي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي في حوادث سنة تسع عشرة وخمسمائة قال : وفي يوم الاربعاء العشرين من شوال مات شمس الدولة سالم بن مالك بقلعة جعبر .

قرات بخط حمدان بن عبد الرحيم : رايت في بعض التعاليق بحلب ان الامير سراج الدين سالم بن مالك بن بدران العقيلي مالك الدوسرية ، وهي قلعة جعبر ؛ كانت وفاته فيها في العشرين من شهر شعبان سنة تسع عشرة — يعني — وخمسمائة .

انبانا ابو الحسن محمد بن ابي جعفر عن ابي المظفر اسامة بن مرشد بن منقذ قال : ان الامير شمس الدولة كان نائبا للامير شرف الدولة مسلم بن قريش في قلعة حلب ، فلما قتل شرف الدولة في ربيع الاول سنة ست وثمانين واربعمائة حفظ الامير شمس الدولة قلعة

حلب وقال : لا اسلمها الا بامر ملكشاه ، فسار اليها السلطان مـن خراسان فسلمها اليه ، وكان السلطان لما اجتاز بقلعة جعبر وفيهـا سابق الدين جعبر القشيري فقبضه (١٩٨ ــ ظ) السـلطان وقتله لما بلغه عنه من الفساد . فلما سلم شمس الدولة سالم بن مالك قلعة حلب الى السلطان عوضه عنها قلعة جعبر . فـاقام مـالكها الى ان توفي فيها يوم الاربعاء العشرين مـن شـوال سـنة تسـع عشرة وخمسمائة .

طغتكين أتابك دمشق

(من المجلد الثامن من تاريخ دمشق لابن عساكر
مخطوط الظاهرية ٣٣٧٢)

طغتكين ، ابو منصور ، المعروف باتابك ، كان من رجال (تـاج) (١٥١) الدولة ،وزوجه بام ابنه دقاق . وكان مع تاج الدولة لما ذهب الى الري لقتال ابن اخيه(١٥٢) ثم رجع (١٥٣) الى دمشق بعد قتل تاج الدولة وكان اتابك دقاق مدة ولايته ، فلما مات دقاق استولى على دمشق ، وكان شهما مهيبا ، مؤثرا لعمارة ولايته ، شـديدا على اهـل العيث والفساد ، وامتدت ايامه الى ان مات يوم السبت السابع ، ويقـال الثامن من صفر . سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ودفن عند المسجد الجديد قبلي المصلى .... ٢٥٧ -]

علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ ابن نصر بن هاشم ، أبو الحسن الأمير الكناني

المعروف بسديد الملك ، صاحب شيزر

(من تاريخ دمشق لابن عساكر)

أديب فاضل. له شعر حسن سائر. ورد دمشق غير مرة ، وأقام بطرابلس سنوات ، وعمر حصن الجسر ثم اشترى حصن شيزر من الروم.

كان سديد الملك علي بن مقلد بن نصر بينه وبين ابن عمار مودة كبيرة ، وكان بينهما كاتب ، وكان سبب ذلك أنه كان له مملوك أرمني يسمى رسلان ، وكان زعيم عسكره ، فبلغه عنه ما أذكره ، فقال: اذهب عني ، وأنت آمن مني على نفسك ، فذهب الى طرابلس ، وقصد ابن عمار ، فنفذ الى سديد الملك وسأله في حرمه وماله ، فأمر باطلاقهم ، وما اقتناه من دوابه . فلما خرج لحقه سديد الملك ، فقال له الرسول: غدرت بعبدك ، ورغبت في ماله ، فقال : لا ، ولكن كل أمر له حقيقة ، حُطوا عن الجمال أحمالها ، وعن البغال اثقالها ، ففعلوا ، فقال: أثبتوا كل ما معه ليعرف أخي قدر ما فعلته ، فكان ما أخرج له من ذهب عين خمسة وعشرين الف دينار في قدور نحاس ، وكان له من الديباج والفضة ما يزيد على القيمة ، فقال للرسول: ابلغ ابن عمار سلامي ، وعرفه بما ترى لئلا يقول رسلان أخذته بغير علم مولاي ، ولو دري لم يمكني منه ، فزاره سديد الملك في بعض السنين. فلما فارقه كتب اليه:

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم
من الصبابة ما لاقيت في ظعني

لأصبح البحر من أنفاسكم نفسا
كالبر من أدمعي ينشق بالسفن

قال أبو الحسن ما عرفت أني أعمل الشعر حتى قلت:

يجني ويعرف ما يجني فأنكره
ويدعي أنه الجسن فأعترف

وكم مقام لما يرضيك قمت على
جمر الغضا وهو عندي روضة انف

ومابعثت رجائي فيك مستترا
إلا خشيت عليه حين ينكشف

وله:

في كل يوم من تجنيك لي
تعنت يعزب معناه

إني لأرثي لك من طول ما
تفكر فيما تتجناه

وكتب الى سابق بن محمود بن نصر بن صالح صاحب قلعة حلب شفاعة في أبي نصر بن النحاس الكاتب الحلبي:

إيها أبا النصر يقيك بنفسه
خل يجلك أن يقيك بماله

سل ما بقلبك عن ذخائر قلبه
فلسان حالك مخبر عن حاله

كيف استتر ضياء فضلك كاملا
مايستر البدر عند كماله

لاتجزعن اذا غربت فانه
ليل دجا سيضيء من أذياله

أتخاف من عز الملوك جناية
وخصيمه فيها كريم خلاله

حاشاه يسلب ماكسا احسانه
فكثير وجدك من قليل نواله

ملك يحب العدل في أحكامه
الا مع الراجي على أقواله

لو تنصف الدنيا لكان ملوكها
عماله والأرض من أعماله

ياأيها الملك الذي آياته
في المجد بين يمينه وشماله

فيد تشب النار في سطواته
ويد تصب الغيث من أفضاله

ارجع لعبدك صافحا عن جرمه
فالملك مفتقر الى امثاله

عقم النساء فما يلدن نظيره
في فضل صنعته وفضل مقاله

دع رتبة لم تلفه أهلا لها
وازدده في المعروف من أشغاله

توفي الامير أبو الحسن سنة تسع وسبعين واربع منه.

معركة منازكرد

(من تاريخ ميخائيل بسللوس ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦)

اما بالنسبة للامبراطورة فقد عاملها الامبـراطور وكأنهـا أمـة أسرت في الحرب ، وكان على استعداد للموافقة حتى على طـردها الى خارج القصر وكان يرتاب بالقيصر ، وسارع في عدة مناسـبات لالقاء القبض عليه ومن ثم اعدامه ، لكنه غير رأيه بعـد ذلك وتخلى عن الفكرة ، وكان قانعا في الوقت الحالي بـربطه مـع ابنه بحلف يمين بانهما سيبقيان مخلصين له ، وعندمـا وجـد نفسـه لايمتلك سببا مسوغا لتنفيذ خططه التي رعاهـا سرا ودبـرها ضـد القيصر، انطلق في حملته الثالثة ضد البرابرة ، الذي اتخذوا موقفا معاديا بكل وضوح ، فقد كانوا منهمـكين في الاغارة على الأراضي الرومية، وما ان حل الربيع حتى اجتاحوها ثانيةبقوات معتبرة ، ولهـذا غادر رومانوس مجددا العاصمة ليقاتلهم ، مصـطحبا بتشـكيلات كبيرة من الحلفاء والقوات المحلية كانت اكبر من ذي قبل

ووفقا لما اعتاد عليه في رفض جميع النصائح سواء حول المسائل المدنية او العسكرية انطلق بالحال مع جيشه واسرع نحو قيسـارية وبعدما وصل الى غايته وجد نفسه كارها لمتابعة الزحف وحـاول ايجاد عذر للعودة الى القسطنطينية ، واراد هذا لامن اجـل نفسـه فقط بل من اجل جيشه ، وعندما شعر بالعار الذي سيتورط فيه اذا قام بهذا التراجع ، وان ذلك لايمكن التساهل به ، رأى ان عليه ان يتوصل على الأقل الى اتفاق مع أعدائه فيوقف غاراتهم واعتداءاتهم السنوية ، لكنه عوضا عن ذلك زحف يريد الحرب ولاادري سبب ذلك هل كان مصدره اليأس او انه كان واثقا من نفسه اكثر مما ينبغـي، زحف دون ان يتخذ ما يكفي مـن اجـراءات لحمـاية سـاقته، وعندما رأى العدو زحفه قرر التغرير به واجتذابه مسـافة ابعـد

وتصيده بالحيلة والخديعة ، وبناء عليه ظهر الأعداء امامه ثم تراجعوا ثانية ، وكان واضحا ان هذا التراجع كان مخططا له، واستطاعوا بتطبيقهم هذا التكتيك مرارا ان ينجحوا في عزل بعض قادته الذين اخذوهم أسرى .

وكنت الآن عارفا ـ مع انه لم يكن كذلك ـ ان السلطان نفسه، ملك الفرس والكرد كان موجودا شخصيا مع جيشه وان معظم انتصاراتهم يعود الفضل في حيازتها لقيادته ، ورفض رومانوس ان يصدق اي انسان حاول ان يبين له مدى تأثير السلطان على هذه النجاحات ، في الحقيقة انه لم ير السلم ، وقد خيل اليه انه سيتمكن من الاستيلاء على معسكر البرابرة بدون قتال ، ولسوء حظه وبسبب جهله بالعلوم العسكرية وزع قواته وفرقها ، وفقط تجمع حوله قلة منهم ، اما الآخرين فقد أرسلوا بعيدا ليتمركزوا في مواقع أخرى ، وهكذا قام بمواجهة اعدائه فعليا باقل من نصف قواته بدلا من مواجهتهم بها موحدة جمعا واحدا .

ومع انني لاأستطيع ان امتدح تصرفاته المقبلة انه من الصعب بالنسبة لي توجيه النقد له ، والحقيقة هي انه حمل بنفسه ثقل المخاطر جميعها ، ويمكن تفسير عمله بطريقتين ، ويمثل رايي الشخصي طريقا وسطا بين طريقين متباعدين جدا ، فمن الجانب الأول اذا ما اعتبرته بطلا لم يهتم بالمخاطر وقاتل بكل شجاعة فهنا انه لمن المنطقي مدحه ، ومن الجانب الآخر عندما يقدر المرء ان قائدا عسكريا متوجب عليه لدى تقبله لقوانين الاستراتيجية ان يبقى بعيدا عن خطوط القتال يشرف من عل على تحركات جيشه ويصدر الأوامر الضرورية للرجال تحت قيادته ، وعلى هذا سيظهر ما قام به رومانوس في هذه المناسبة حماقة الى ابعد الحدود لأنه عرض نفسه للمخاطر دون تفكير في النتائج ، واميل انا شخصيا الى المدح اكثر مني الى توجيه اللوم له على ما حصل .

ومهما يكن من امر لقد لبس سابغته وتسلح بشكل كامل مثله مثل اي عسكري عادي ،وامتشق حسامه ضد أعدائه ، وتبعا لما حكاه

عدد من رواتي لقد قتل عددا كبيرا منهم وجعل بعضا منهم يلوذ بالفرار ،وفيما بعد عندما تعرف الذين كانوا يقاتلوه الى شخصيته وعرفوا من هو طوقوه من جميع الجوانب ،وقد أصيب بالجراح وسقط من على فرسه ،وطبعا اعتقلوه ،والآن اقتيد إمبراطور الروم بعيدا كأسير الى داخل معسكر العدو ،وتمزق جيشه وتفرق ،وكان عدد الذين نجوا ضئيلا بالنسبة للمجموع العام ،واخذ بعض الأكثرية اسرى ،وجرى قتل الباقين .

ليس في نيتي في هذه الساعة ان اكتب عن الوقت الذي قضاه الامبراطور فيما بعد ،وبعد عدة ايام من المعركة وصل احد الناجين الى المدينة ووقف امام رفاقه وروى لهم الأخبار المرعبة ، وما لبث ان وصل بعده رسول آخر ثم آخر ، ولم تكن الصورة التي رسموها واضحة ابدا ، لأن كل واحد منهم وصف الفاجعة بطريقته ، وهكذا قال بعضهم ان رومانوس قد مات ، وقال آخرون هو أسير فقط.
واكد آخرون ثانية انهم راوه يصاب بالجراح ثم يجر الى الأرض ، وقال آخرون انهم رأوه يقاد مقيدا بالسلاسل بعيدا الى داخل معسكر العدو ، وفي ضوء هذه المعلومات عقد مؤتمر في العاصمة ، واتفق المؤتمرون وقرروا بالاجماع ان عليهم ان يتجاهلوا الآن مسألة فيما اذا كان الامبراطور سجينا او ميتا ، وان على يودوشيا وابنها تحمل مسؤوليات حكومة الامبراطورية .

معركة منازكرد

(من مرآة الزمان نقلا عن تاريخ غرس النعمة محمد بن هلال الصابي ١٤٦ ـ ١٥١)

وضجر السلطان من المقام بحلب فكر راجعا فقطع الفرات وهلك اكثر الدواب والجمال وكان عبوره شبه الهارب ولم يلتفت الى ما ذهب من الأرواح والدواب وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه فقوى ذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه ...

وجاءه (اي السلطان الب ارسلان)خبر ملك الروم انه قد تجهز في العساكر الكثيرة وانه قاصد بلاد الاسلام ، وكان السلطان في قليل من العسكر لأنهم عادوا جافلين من الشام ، وتلك الجفلة استهلكت اموالهم ودوابهم فطلبوا مراكزهم وبقي السلطان في اربعة آلاف غلام ولم ير الرجوع لجمع العساكر فتكون هزيمة ، فانفذ بخاتون السفرية مع نظام الملك والأثقال الى همذان ، وامره بجمع العساكر وانفاذها اليه ، وقال لوجوه عسكره الذين بقوا ، انا صابر صبر المحتسبين وصائر في هذه الغزاة مصير المخاطرين فان نصرني الله فذاك ظني في الله تعالى ، وان تكن الأخرى فانا اعهد اليكم ان تسمعوا لولدي ملك شاه وتطيعوه وتقيموه مقامي فقالوا : سمعا وطاعة ، وبقي في جريدة مع العسكر الذي ذكرنا ، ومع كل غلام فرس يركبه وآخر يجنبه ، وسار قاصدا ملك الروم ، وارسل احد الحجاب الذين كانوا معه في جماعة من الغلمان مقدمة له ، فصادف عند خلاط صليبا تحته مقدم للروم في عشرة آلاف فحاربهم فنصر عليهم واسر المقدم ، وكان من الروم ، واخذ الصليب وبعث به الى السلطان بذلك فاستبشر وقال : هذه امارة النصر ، وارسل بالصليب الى همذان وانف المقدم ، ثم امر بان يحمل الى الخليفة

ووصل ملك الروم الى منازكرد فـاخذها بـالأمان وقصـد ناحية السلطان في موضع يعرف بالزهرة بين خلاط ومنازكرد لخمس بقين من ذي القعدة ، فبعث اليه السلطان بان يرجـع الى بـلاده ويتمـم الصلح الذي توسطه الخليفة فقال : لاارجع حتى افعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم ، وقد انفقت الأموال العظيمة فكيف ارجـع وكان اليوم الأربعاء ، واقام السلطان الى نهار الجمعة وجمع وقـت الصلاة اصحابه وقال :

الى متى نحن في نقص وهم في زيادة اريد ان اطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التـي جميع المسـلمين يدعون لنا على المنابـر ، فـان نصرنا عليهم والا مضينا شـهداء الى الجنة فمـن احـب ان يتبعني فليتبع ، ومن احب ان ينصرف فلينصرف مصاحبا فما ها هنا اليوم سلطان وانما انا واحد منكم وقد فتحنا على المسلمين مـا كانوا عنه غناء فقالوا : ايها السلطان نحن عبيدك ومهما فعلت تبعناك ، وكان قد اجتمع اليه عشرة آلاف من الأكراد ، وانمـا اعتمـاده بعـد الله تعالى على اربعة آلاف الذين كانوا معـه ، وملك الروم في مـائة الف مقاتل ومائة الف نقـاب ، ومـائة الف جـرخي ، ومـائة الف صانع ، واربعمائة عجلة تجرها ثمـانمائة جـاموس عليهـا نعـال ومسامير ، والفا عجلة عليها السلاح والمجانيق وآلة الزحف ، وكان في عسكره خمسة وثلاثون الف بطريق ومعه منجنيق يمده الف رجـل ومائتا رجل ، ووزن حجره عشرة قناطير ، وكل حلقة منه مائتا رطل بـالشامي ، وكان في خـزانته الف الف دينار ومـائة الف ثـوب ابريم ، ومن السروج الذهب والمناطق والمصاغات بمثل ذلك،وكان قد اقطع البطاركة البـلاد:مصر.والشـام.وخـراسان.والري.والعـراق واستثنى بغداد فقال : لاتتعرضوا لذلك الشيخ الصالح فانه صديقنا ــ يعني الخليفة ــ وكان عزمـه ان يشـتي بـالعراق ، ويصـيف بالعجم ، واستناب في القسطنطينية من يقـوم مقـامه ، وعزم على خراب بلاد الاسلام ، فلما كان يوم الجمعة وقت الصلاة وقد شـاور السلطان اصحابه قام قائما ورمى القوس والنشاب مـن يده وشـد ذنب فرسه بيده ، واخذ الدبوس ، وفعل اصحابه كذلك وبغتوا الروم

فقاتلوهم وما لحق الملك بان يركب فرسه ، وما ظن انهم تقدموا عليه فنصر الله المسلمين عليهم فانهزموا وتبعهم السلطان بقية نهار الجمعه . وليلة السبت يقتل ويأسر فلم ينج منهم الا القليل ، وغنموا جميع ما كان معهم ورجع السلطان الى مكانه فدخل عليه الكوهرائين فقال : ان احد غلماني قد اسر ملك الروم ، وكان غلامي هذا قد عرض على نظام الملك فاحتقره واسقطه ، فكلمته فيه فقال مستهزئا به ، لعله يجيئنا بملك الروم اسيرا فاجرى الله تعالى اسر ملك الروم على يده ، واستبعد السلطان لذلك وارسل خادما يقال له شاذي كان قد راسله به فلما رآه عرفه ، فرجع واخبر السلطان فامر بانزاله في خيمة ووكل به ، واستدعى الغلام وساله : كيف اسرته ؟ فقال : رايت فارسا وعلى رأسه صلبان وحوله جماعة من الخدم الصقالبه فحملت علية لاطعنه فقال لي واحد منهم : لاتفعل فهذا الملك . فاحسن السلطان اليه وخلع عليه وجعله من خواصه فقال : اريد بشارة غزنة فاعطاه اياها .

ثم ان السلطان احضر الملك واسمه ارمانوس وضربه ثلاث مقارع ورفسه برجله ووبخه وقال : الم ارسل اليك رسل الخليفة اطال الله بقاءه في امضاء الهدنة فابيت ؟ الم ارسل اليك بالأمس اسألك الرجوع فقلت : قد انفقت الأموال وجمعت العساكر الكثيرة حتى وصلت الى هاهنا وظفرت بما طلبت فكيف ارجع الا ان افعل ببلاد المسلمين مثل ما فعلوا ببلادي ؟ ولقد رايت اثر البغي وكان قد جعل في رجليه قيدين وفي عنقه غلا فقال : ايها السلطان قد جمعت العساكر من سائر الاجناس وانفقت الأموال لآخذ بلادك ولم يكن النصر الا لك ، وبلائي ووقوفي على هذه الحال بين يديك بعد هذا فدعني من التوبيخ والتعنيف وافعل ما تريد. فقال له السلطان :فلو كان الظفر لك ما كنت تفعل معي ؟ فقال القبيح ، فقال: آه والله صدق ولو قال غير هذا لكذب ، هذا رجل عاقل ولا يجوز أن يقتل ، ثم قال له :ما تظن الآن ان افعل بك؟ قال أحد ثلاثة اقسام :أما الاولى: فقتلي ، والثاني اشهاري في بلادك التي تحدثت بقصدها ، واما الثالث فلا فائدة في ذكره فانك لا تفعله ، قال : وما

هو ! قال :العفو عني وقبول الأموال والهدية واصطناعي وردي الى ملكي مملوكا لك وبعض اسفهسلاريك ونائبـك في الروم ، فإن قتلك لي لا يفيدك ، هم يقيمون غيري. فقال السلطان: ما نويت الا العفــو عنك فاشتر نفسك ، فقال: يقول السلطان ما يشاء فقال: عشرة آلاف الف دينار فقــال :والله انك تسـتحق ملك الروم اذ وهبت لي نفسي ولكن انفقت أموال الروم واسـتهلكتها منذ وليت عليهــم في تجـريد العساكر والحروب وافقرت القوم ، ولم يزل الخطاب يتـردد الى أن استقر الأمر على ألف الف وخمسمائة الف دينار ، وفي الهـدنة على ثلاثمائة الف دينار وستين الف دينار في كل سـنة ، وأن ينفـذ مـن العساكر الروم ما تدعو الحاجة اليه وذكر أشـياء فقـال: اذا مننت علي عجل سراحـي قبـل أن تنصـب الروم ملكا غيري فيفـوت المقصود ، ولا اقدر على الوصول اليهم فلا يحصل شيء مما شرطتـه علي . فقال السلطان: أريد أن تعيد أنطاكية والرها ومنبج ومنازكرد فانها أخذت من المسلمين عن قرب ، وتفرج عن أساري المسـلمين.

فقال : اما البلاد فان وصلت سالما الى بلادي انفذت اليهم بالعساكر وحاصرتهم واخذتها منهم وسلمتها اليك ، فأما القوم فلا يسـمعون مني واما أسارى المسلمين فالسمع والطاعة اذا وصـلت سرحتهـم وفعلت معهم الجميل ، فأمر السلطان بفك قيوده وغله ثم قال: أعطوه قدحا ليسقنيه ، فظنه له فأراد أن يشربــه فمنع وأمــر بـأن يخـدم السلطان ويناوله القدح ، فأومأ الى تقبيل الأرض وناول السـلطان القدح فشربه وجز شعره وجعل وجهه على الأرض وقال: اذا خـدمت الملوك فافعل هكذا وانما فعل السلطان ذلك لسبب اقتضاه وهـو: أن السلطان لما كان بالري عزم على غزو الروم فقال لفراموز بن كاكوية ها أنذا أمضي الى قتال ملك الروم واخذه اسيرا واوقفـه على رأسي ساقيا فحقق الله قوله ، واشترى جماعة من البطارقة ، واستوهب آخرين ، فلما كان من الغد احضره السلطان وقـد نصـب له سريره ودسته الذي أخذ منه ، فأجلسه عليه وخلع عليه قبـاءه وقلنسـوته والبسه اياهما بيده ، وقال: قـد اصـطنعتك وقنعـت بـأمانتك وأنا اسيرك الى بلادك واردك الى ملكك فقبـل الأرض ، وكان لما بعـث

الخليفة ابن المحلبان اليه امره بكشف راسه وشد وسطه وان يقبل الأرض بين يديه فقال له السلطان: الست الفاعل بابن المحلبان رسول الخليفة كذا وكذا فقم الآن واكشف راسك وشد وسطك وأومىء الى ناحية الخليفة وقبل الأرض ، ففعل ، فقال السلطان: اذا كنت انا وانا اقل الملوك الذين في طاعته فعلت بك ما فعلت وانا في شرذمة من جندي وقد حشدت دين النصرانية ، فكيف لو كتب الخليفة الى ملوك الأرض يأمرهم فيك بأمر؟ وعقد له السلطان راية فيها مكتوب (لا اله الا الله محمد رسول الله) وانفذ معه حاجبين ومائة غلام فوصلوا به الى القسطنطينية ، وركب معه وشيعه قدر فرسخ فأراد أن يترجل فمنعه السلطان وحلف عليه وضمه اليه وتعانقا وعاد السلطان عنه.

ثم حكى ملك الروم فقال: العادة جارية أن الملك الخارج من القسطنطينية اذا اراد الخروج الى حرب دخل البيعة الكبرى واستشفع بصليب ذهب بها مرصع بالياقوت ، قال: فدخلت البيعة لما عزمت على هذه السفرة واستشفعت اليه واذا بالصليب قد زال عن موضعه الى القبلة الاسلامية فعجبت من ذلك وسويته الى المشرق ، واتيته من الغد واذا به قد مال الى القبلة فأمرت بشده بالسلاسل ثم دخلت اليه في اليوم الثالث واذا به قد مال الى القبلة ، فتطيرت وعلمت أني مغلوب ، ثم غلبني الهوى والطمع ، فسرت الى بلاد الاسلام فكان مني ما كان.

معركة منازكرد

(من تاريخ العظيمي «مخطوطة بيازيد ١٨١ ظ»)

سنة ٤٦٣.

حصر السلطان العادل حلب ، وخطب بها محمود للمستنصر ، ثم انصلح امره ، وخرجت امه السيدة الى السلطان ، وخرج محمود ووطىء بساطه ، فأنعم عليه بالبلد.

ورحل ـ السلطان ـ قاصدا القــاء ملك ديجــانس ملك الروم لأنه كان قد عاث في البلاد فلقيه بأطراف منازكرد فكسره السلطان وأسره وباعه بدينار ، واطلقه السلطان ورده الى بلاده ، فكحله الروم.

معركة منازكرد

(من كتاب المنتظم لابن الجوزي ٢٦٠ ـ ٦٥)

ثم دخلت سنة ثلاث وستين واربعمائة.

فمن الحوادث فيها ورد على السلطان خبر ملك الروم في جمعه العساكر الكثيرة ومسيره نحو البلاد الاسلامية ، وكان السلطان في قل من العساكر لأنهم عادوا من الشام جافلين الى خراسان للغلاء الذي استنفد أموالهم ، فطلبوا مراكزهم راجعين ، وبقي السلطان في نحو اربعة الاف غلام ، ولم ير مع ذلك أن يرجع الى بلاده ولم يجمع عساكره فيكون هزيمة على الاسلام ، وأحب الغزاة والصبر فيها فأنفذ خاتون السفرية ونظام الملك والأثقال الى همذان وتقدم اليه بجمع العساكر وانفاذها ، وقال له ولوجوه عسكره: أنا صابر في هذه الغزاة صبر المحتسبين ، وصائر اليه مصير المخاطرين ، فان سلمت فذاك ظني في الله تعالى ، وان تكن الاخرى فانا أعهد اليكم ان تسمعوا لولدي ملك شاه وتطيعوه وتقيموه مقامي وتملكوه عليكم ، فقد وقفت هذا الأمر عليه ورددته اليه ، فأجابوه بالدعاء والسمع والطاعة. وكان ذلك من فعل نظام الملك وترتيبه ورأيه.

وبقي السلطان مع القطعة من العسكر المذكورة جريدة ومع كل غلام فرس يجنبه ، وسار قاصدا لملك الروم فحاربهم فنصر عليهم واخذ الصليب ، وهربوا بعد أن اثخنوا قتلا وجراحا ، وحمل مقدمهم الى السلطان فامر بجدع أنفه وانفذ الصليب وكان خشبا وعليه فضة واقطاع من فيروزج وانجيلا كان معه في سفط من فضة ، الى همذان ، وكتب معه الى نظام الملك بالفتح وامر أن يحمل الى حضرة الخلافة •

ووصل ملك الروم فالتقيا بموضع يقال له الزهرة في يوم الأربعاء

لخمس وخمسين من ذي القعدة ، وكثر عسكر الروم ، وجملة من كان مع السلطان يقاربون عشرين الفا ، واما ملك الروم فانه كان معه خمسة وثلاثون الفا من الافرنج وخمسة وثلاثون.....في مائتين بطريق ومتقدم مع كل رجل منهم بين الفي فارس الى خمسمائة وكان معه خمسة عشر الف روز جاري ، واربعمائة عجلة عليها السلاح والسروج والعرادات والمجانيق منها منجنيق يمده الف رجل ومائتا رجل.

فراسل السلطان ملك الروم بأن يعود الى بلاده: واعود انا وتتم الهدنة بيننا التي توسطنا فيها الخليفة ، وكان ملك الروم قد بعث رسوله يسأل الخليفة ان يتقدم الى السلطان بالصلح والهدنة ، فعاد جواب ملك الروم بأني انفقت الاموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول الى مثل هذه الحالة ، فاذا ظفرت بها فكيف اتركها ، هيهات لا هدنة الا بالري ، ولا رجوع الا بعد أن افعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم.

فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع ، وقال لهم: نحن مع القوم تحت الناقص وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر ، فاما أن ابلغ الغرض ، واما أن أمضي شهيدا الى الجنة فمن احب أن يتبعني منكم فليتبعني ومن احب أن ينصرف فليمض مصاحبا عني فما هاهنا سلطان يأمر ، ولا عسكر يؤمر فانما انا اليوم واحد منكم وغاز معكم ، فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة والغنيمة ، ومن مضى حقت عليه النار. والفضيحة . فقالوا له : أيها السلطان نحن عبيدك ومهما فعلته تبعناك فيه واعناك عليه فافعل ماتريد ، فرمى القوس والنشاب ولبس السلاح وأخذ الدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وركبها ، ففعلوا مثله وزحف إلى الروم وصاح وصاحوا ، وحمل عليهم وثار الغبار واقتتلوا ساعة اجلت الحال فيها عن هزيمة الكفار ، فقتلوا يومهم وليلتهم القتل الذريع ونهبوا وسلبوا النهب والسلب العظيم ، ثم عاد السلطان إلى موضعه فدخل عليه الكهرائي الخادم فقال : ياسلطان

احد غلماني قد ذكر ان ملك الروم في اسره ، وهذا الغلام عرض على نظام الملك في جملة العسكر ، فاحتقره واسقطه ، فخــوطب في أمــره فأبى أن يثبته وقال مســتهزئا : لعله أن يجيئنا بملك الروم أســيرا فأجرى الله تعــالى أسر ملك الروم على يده ، واســتبعد الســلطان ذلك ، واستحضر غلاما يسمى شاذي كان مضى دفعات مــع الرسـل إلى ملك الروم فأمره بمشاهدته وتحقيق امره ، فمضى فراه ، ثم عاد فقال : هو هو ، فتقدم بضرب خيمة له ونقله إليهــا وتقييده وغل يده إلى عنقه ، وأن يوكل به مائة غلام ، وخلع على الذي أسره وحجبــه واعطاه ما اقترحه واستشرحه الحال ، فقال : قصدته ومــا اعرفــه وحوله عشرة صبيان من الخدم ، فقال لي احــدهم : لاتقتله إنه الملك فأسرته وحملته .

فتقدم السلطان بإحضاره ، فأحضر بين يديه ، فضربــه بيده ثـلاث مقارع او اربعا ، ورفسه مثلها ، فقال له : الم أذن لرسل الخليفة في قصدك وإمضاء الهدنة معــك ، وإجــابتك في ذلك إلى ملمســك ؟ الم أرسل لك الآن وابذل لك الرجوع عنك فأبيت إلا ما يشــبهك ، فــأي شيء حملك على البغي ؟ فقال : قد جمعت ايها السلطان واســتكثرت واستظهرت وكان النصر لك فافعل ماتريد ، ودعني مــن التــوبيخ ، قال : فلو وقعت معك ماذا كنت تفعل بــي ؟ قــال : القبيح ، قــال : صدق والله ، ولو قال غير ذلك لكذب ، وهذا رجل عاقل جلد لاينبغــي أن يقتل . قال : وما تظن الآن أن يفعل بــك ؟ قــال : أحــد ثـلاثة اقسام : الأولى : قتلي ، والثانية : إشهاري في بـلادك التي كدت بقصدها واخذها ، والثالثة : لافائدة في ذكره فإنك لاتفعله ، قــال : فاذكره ، قال : العفو عني وقبول الأموال والفدية مني واصــطناعي وردي إلى ملكي مملوكا لك نائبــا في ملك الروم عنك ، قــال : مـــا اعتزمت فيك إلا هذا الذي وقع يأســك منه وبعــد ظنك منه ، فهــات الأموال التي تفك رقبتك فقال : يقول السلطان ماشاء . فقال : أريد عشرة آلاف الف دينار فقال : والله انك تســتحق مني ملك الروم إذ وهبت لي نفسي ، ولكني قد انفقت واستهلكت من أموال الروم عشرة الاف الف دينار منذ وليت عليهم في تجديد العساكر والحروب التــي

بليت بها إلى يومي هذا فأفقرتهم بذلك ، ولولا هـذا مـا اسـتكثرت شيئا تقترحه ، فلم يزل الخطاب يتردد إلى أن استقر الأمر على ألف ألف دينار في كل سنة ، وإطلاق كل أسير في الروم ، وحمـل الطـاف وتحف مضافة إلى ذلك ، وأن يحمل من عساكر الروم المزاحـة العلل ما يلتمس أي وقت دعت حاجة إليها ، فقـال له : إذا كنت قـد مننت علي فعجل تسريحي قبل أن تنصب الروم ملكا غيري ، ولايمكنني أن أقرب منهم ، ولا أفي بشيء مما بذلته .

فقال السلطان أريد أن تعيد أنطاكية والرها ومنبج فإنها أخذت مـن المسلمين عن قرب وتطلق أسارى المسلمين ، فقال : إذا رجعـت إلى ملكي فأنفذ إلى كل موضع منها عسـكرا ، وحـاصره لأتـوصل إلى تسليمها ، فأما أن ابتدىء بذلك فلا يقبل مني ، وأما الأسارى فـأنا أسرحهم وأفعل الجميل معهم .

فتقدم السلطان بفك قيده وغله ، ثم قال : أعطـوه قـدحا ليسـقينيه فأعطي فظن أنه له فـأراد أن يشربـه فمنع منه ، وأمـر أن يخـدم السلطان ويتقدم إليه ويناوله إياه وأومأ إلى الأرض إيماءا قليلا على عادة الروم ، وتقدم إليه فأخذ السلطان القدح وجـز شـعره فجعـل وجهه على الأرض وقال : إذا خدمت الملوك فافعل هكذا ، وكان لذلك سبب اقتضاه وهو أن السلطان قال في الري:ها أنا أمضي إلى قتـال ملك الروم وآخذه أسيرا وأقيمـه على رأسي سـاقيا ، وانصرف ملك الروم إلى خيمته فاقترض عشرة آلاف دينار فـأصلح منهـا شـأنه وفرق في الحواشي والأتباع والموكلين بـه ، واشـترى جمـاعة مـن بطارقته واستوهب آخرين .

فلما كان من الغد أحضره وقد ضرب له سريره وكرسيه اللذان أخـذا منه فأجلسه عليهما وخلع قباءه وقلنسوته فألبسه إياهما وقـال له : قد اصطنعتك وقنعت بقولك وأنا أسيرك إلى بلادك واردك إلى ملكك ، فقبل الأرض ، وقال له ، ألم ينفذ إليك خليفة الله تعـالى في أرضـه رسولا يجملك به ويقصد إصلاح أمرك فأمرت بـأن يكشـف رأسـه ويشد وسطه ويقبل الأرض بين يديك ؟ وكان بلغه أنه فعل هذا بـابن

المحلبان فقـال : أليس الأمـر على مـايقول ؟ وبـان له منه تغير ، فقال : ياسلطان في أي شيء وفقت حتى أوفق في هذا ؟ وقام وكشـف رأسه واومأ إلى الأرض ، وقال : هذا عوض عما فعلتـه بـرسوله ، فسر السلطان بذلك وتقدم بأن تعقد له راية عليهـا مـكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فرفعها على رأسه ، وانفذ حـاجبين ومـائة غلام يسيرون معه إلى قسطنطينية وشيعه نحو فرسخ ، فلمـا ودعه أراد أن يترجل فمنعه السلطان واعتنقا ثم افترقا .

وهذا الفتح في الاسـلام كان عجبـا لانظير له فإن القـوم اجتمعـوا ليزيلوا الاسلام واهله ، وكان ملك الروم قد حدثته نفسه بالمسير إلى السلطان ولو إلى الري ، واقطع البطارقة البلاد الاسلامية ، وقـال لمن اقطعه بغداد لاتتعرض لذلك الشيخ الصالح فإنه صـديقنا ، يعني الخليفة ، وكانت البطارقة تقول : لابد ان نشتو بـالري ، ونصـيف بالعراق ، ونأخذ في عودنا بلاد الشام .

فلما كان الفتح ووصل الخبر إلى بغداد ضربت الدبـادب والبـوقات وجمع الناس في بيت النوبة ، وقرئت كتب الفتح .

ولما بلغ الروم ماجرى حالوا بينه وبين الرجوع إلى بـلادهم وملكوا غيره ، فأظهر الزهد ولبس الصوف ، وانفذ إلى السلطان مائتي الف دينار وطبق ذهب عليه جـواهر قيمتهـا تسـعون الف دينار، وحلف بالانجيل أنه ما يقدر على غير ذلك ، وقصد ملك الأرمن مستضيفا به وكحله ، وبعث إلى السلطان يعلمه بذلك .

معركة منازكرد

(من تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الاصفهاني ـ الذي هذبه البنداري: ٣٧ ـ ٤٢)

وبلغ السلطان خروج ارمانوس ملك الروم في جمع لايحصى عدده ، فلما سمع هذا الخبر اغذ السير الى اذربيجان اذ شمع ان متملك الروم اخذ على سمت خلاط ، وكان السلطان في خواص جنده فلم ير ان يعود الى بلاده ليجمع عساكره ويستدعي من الجهات للجهاد قبائل الدين وعشائره ، فسير نظام الملك وزيره وخاتون زوجته الى تبريز مع اثقاله ، وبقي في خمسة عشر الف فارس من نخب رجاله ومع كل واحد فرس يركبه وآخر يجنبه ، والروم في ثلاثمائة الف ويزيدون ما بين رومي وروسي وغز ي وقفجاقي وكرجي وابخاتي وفرنجي وارمني ، ورأى السلطان انه ان تمهل لحشد الجموع ذهب الوقت وعظم بلاء البلاد وثقلت اعباء العباد ، فركب في نخبته وتوجه في عصبته وقال : انا احسب عند الله نفسي ، وان سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي ، وان نصرت فما اسعدني وانا امسي ويومي خير من امسي .

ثم توكل على الله وسار بهذه العزيمة الماضية القوية والصريمة الصارمة الروية ، وكان متملك الروم قد قدم رؤساء مقدمين من الروس في عشرين الف فارس ومعهم عظيمهم الاصلب وصليبهم الاعظم ، وخالطوا بلاد خلاط بالبلاء والسلب والسباء ، فخرج اليهم عسكر خلاط ومقدمهم صندق التركي ، فصب صبح البيض على ليل النقع المظلم وخاض الى العز مشمرا نار الحريق المتضرم ، وقتل منهم خلقا كثيرا وقاد قائدهم في القيد اسيفا اسيرا فامر السلطان بجدع انفه وارجاء حتفه ، وذلك يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة

٤٦٣ وعجل الصليب السليب الى نظام الملك ليعجل انفاذه الى دار السلام مبشرا لسلامة الاسلام ، وتلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ، واهلها واثقون بالله الذي لم يزل لدينه ناصرا ، ونزل متملك الروم على مناز كرد في انصار نصرانيته وعمداء معموديته ، فانزعج سكانها وعلموا انه ليست لهم بما نزل بهم طاقة وان دماءهم لاشك بسيوف الكفر مهراقة ، فخرجوا بامان وسلموا البلد فبيتهم تلك الليلة عند بلاطه تحت احتياطه ، فلما بكر يوم الاربعاء سيرهم بامرهم في اسر ، واردفهم بعسكر مجر ، وخرج ليشيعهم بنفسه وهو في جماعة حماته وحمسه ، ووافق ذلك وصول اوائل العسكر السلطاني ووقعت العين في العين واجتمعت في المجالدة اجادل الجمعين وجرى الخيل وجرف السيل وانجر من الارض على السماء الذيل ، وصحت على الروم كسرة اردتهم وصدفتهم عن مقصدهم وصدتهم فانعكسوا الى مجثمهم في مخيمهم ، وانكشفوا بما تم من عرس الاسلام بما تمهم ، وشرعت المنازكردية بالتسلسل فقتل الروم منهم من ادركه اجله ونجا الباقون ، وعرف الروم انهم للموت ملاقون ، وعاد متملكهم الى مضاربه وبات تلك الليلة والكوسات تصرخ والبوقات تنفخ ، ولما اصبحوا بكرة الخميس وصل السلطان الب ارسلان ونزل على النهر ومعه من المقاتلة خمسة عشر الف فارس لايعرفون سوى القتل والقهر ، وكلب الروم نازل بين خلاط ومنازكرد في موضع يعرف بالزهرة وهو في مائتي الف فارس من ذوي القلوب المدلهمة والوجوه المكفهرة ، وبين العسكرين فرسخ وبين مجرى التوحيد والتثليث برزخ ، فارسل الب ارسلان رسولا وحمله سؤالا ، ومقصوده ان يكشف سرهم ويتعرف امرهم ويقول للملك ان كنت ترغب في هدنة اتممناها ، وان كنت تزهد فيها توكلنا على الله في العزمة وصممناها ، فظن انه انما راسله عن خور فسابى واستكبر ونبا وتعسر ، واجاب باني سوف اجيب عن هذا الراي بالري،وانتهى الى غاية الغي ، فاغتاظ السلطان وارتفعت بينهما المخاطبة وانقطعت المواصلة ، ولبثا يوم الخميس يعبيان ولداعي المنون يلبيان ، والشمس تشكو حر ما تصاعد اليها من زفرات

الاحقاد وكانما شعاعها دم اراقته على الافاق وخزات تلك الصعاد ، والطلائع على المطالع ، والنوايا على الثنايا ، والعزم السلطاني الى اللقاء مشرئب وللمضاء مستتب فقال له فقيهه وامامه محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : انك تقاتل عن دين الله الذي وعد باظهاره ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر ، فلما اصبحوا يوم الجمعة ارتجت الارض بالضجاج وارتجت السماء بالعجاج ولقد لقحت الحرب العوان بالمهندة الذكور والمسومة الفحول والكماة الحماة يحمون حمى الحمام ويحومون حول الدخول ، ووقعت الطوالع في الطوالع ، وقرعت القواطع ، وغنت الظبى ، ورقصت المران ومال القنا وجالت الفرسان ، ودارت الكؤوس وطارت الرؤوس ، وما فتئت الفتيان تجور وتجول والخرصان تصوب وتصول الى ان دنا وقت الزوال ، ودان لمقت الدين وقت النزال وصدحت اعواد المنابر بالخطباء وصدقت نيات اهل الجمعة للمجاهدين ، ثم ركب جواده وثبت فؤاده وقوى قلبه ، وفرق اصحابه اربع فرق كل فرقة منهم في كمين ، وراح له من الروح الامين مجير امين ، ولما علم ان الكمين مكين وان الضمير شاهد بما يشهده من النصر ضمين ، تلقى بوجهه الحر حر الحرب واستحلى طعم الطعن وضرب الضرب . وحمل متملك الروم بجمعه واخذ ببصر الدهر وسمعه ، واقبل كالسيل يطلب القرار والليل يسلب النهار ، وثبتت لهم خيل الاسلام ثم وثبت وجالت وما وجلت ، واستجرت الروم الى ان صار الكمين من ورائها ووقفت المنون بازائها ، ثم خرج من خلفها وذوو الاقدام من قدامها ووقعت نار البيض في حلفاء هامها فاذنت بانهزامها ، وانكسرت كسرة لاتقبل جبرا ، فطائفة لم تثبت للقتال ولم تصبر ، وطائفة ثبتت فقتلت صبرا فما نجت من اولئك الالوف احاد وما سلمت من اعداء الاسلام اعداد . وملك الملك وقيد وقيدا واسر ولم يجد له معينا ولامعيذا ، وركب المسلمون اكتافهم وقتل الاحاد آلافهم وطهرت الارض من خبثهم وفرشت بجثثهم وصارت الوهاد باشلاء القتلى اكما ، والمروت من قصد القنا اجما .

قال : وكانت مع الروم ثلاثة الاف عجل تنقل الاحمال وتحمل الاثقال

ومن المنجنيقات التي تحملها منجنيق هو اعظمها واثقلها له ثمانية اسهم ويمد فيها الف ومائتا رجل ويحمله مائتا عجل يرمي حجرا وزنه بالرطل الكبير الخلاطي قنطار وكانه جبل له في الجو مطار . قال : وشملهم باسرهم القتل والاسر ، وبقيت اموالهم منبوذة بالعراء لاترام معروضة لاتسام ، وسقطت قيمة الدواب والكراع والسلاح والمتاع حتى بيعت بسدس دينار اثنتا عشرة خوذة ، وبدينار ثلاثة ادرع .

ومن عجيب ما حكي في اسر الملك انه كان لسعد الدولة كوهرائين مملوك اهداه لنظام الملك فرده عليه ولم ينظر اليه ، فرغبه فيه كثيرا فقال نظام الملك : وما يراد منه عسى ان ياتينا بملك الروم اسيرا ، وذكر ذلك استهزاء به واستصغارا لقدره واحتقارا لامره ، فاتفق وقوع ممتلك الروم يوم المصاف في اسر ذلك الغلام ووافق تصديق قول النظام ، وخلع عليه السلطان وقال : اقترح من العطاء ما اعطيك فطلب بشاره غزنه .

قال : ودخل السلطان الى اذربيجان بملكه وايده والملك في قيده وصيده وهو اسيف جهده واسير جهله (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله)(سورة فاطر- الآية: ٤٣) .
فانه خرج وفي نيته فتح الدنيا وحتف الدين وقهر السلاطين ونصر الشياطين ، ثم ذل بعد العز وهان وتعرض للابتذال كل ما صان ، ثم تعطف عليه السلطان واحضره بين يديه وقال : اخبرني بصدقك في قصدك وما الذي قدرت لو قدرت ؟ فقال : كنت احسب اني احبس من اسرته منكم مع الكلاب ، واجعله من السبايا والاسلاب ، وان اخذتك مأسورا اتخذت لك وقد ساه جوري،ساجورا . فقال السلطان : قد عثرت على سر شرك ، فماذا بك الان نصنع ونحن منك بما نويته فينا لانقنع ، فقال : انظر عاقبة فساد نيتي والعقوبة التي جرتها الى جريرتي ، فرق له قلب الب ارسلان وارسله وفك قيده ووصله ، وافرج عنه معجلا وسرحه مبجلا ، ولما انصرف الملك ارمنانوس مانوسا رمى قومه اسمه ومحوا من الملك رسمه وقالوا : هذا من عداد الملوك ساقط ، وزعموا ان المسيح عليه ساخط .

معركة منازكرد

(من تاريخ دمشق لابن القلانسي ٩٩)

وفي هذه السنة ـ ٤٦٣ هـ ـ نزل السلطان العادل الب ارسلان بن داود اخي السلطان طغر لبك بن سلجوق رحمه الله على حلب محاصرا لها ، وبها محمود بن صالح ، في يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الاخرة وضايقها الى ان ملكها بالامان ، فخرج محمود اليه فامنه وانعم عليه وولاه البلد . ورحل عنه ثالث وعشرين رجب قاصدا الى بلاد الروم طالبا ملكهم وقد توجه الى منازكرد فلحقه ، واوقع به وهزمه ، وكان عسكره على ما حكي تقدير ستمائة الف من الروم وما انضاف اليهم من سائر الطوائف ، وعسكر الاسلام على ما ذكر تقدير اربعمائة الف من الاتراك وجميع الطوائف ، وقتل من عسكر الروم الخلق الكثير بحيث امتلأ واد هناك عند التقاء الصفين وقد حصل الملك في ايدي المسلمين اسيرا ، وامتلئت الايدي من سوادهم واموالهم والاتهم وكراعهم ، ولم تزل المراسلات مترددة بين السلطان الب ارسلان وبين ملك الروم المأسور الى ان تقرر اطلاقه والمن عليه بنفسه بعد اخذ العهود والمواثيق بترك التعرض لشيء من اعمال الاسلام ، واطلاق الاسرى ، واطلق وسير الى بلده واهل مملكته ، فيقال انهم اغتالوه وسملوه واقاموا غيره في مكانه لاشياء انكروها عليه ونسبوها اليه .

معركة منازكرد

(من زبدة التواريخ للامير ابي الحسن علي بن الشهيد ابي الفوارس ناصر بن علي الحسيني ٤٦ ـ ٥٣)

وفي سنة ثلاث وستين واربع مائة مر السلطان الب ارسلان بالشام ، وخلف ابنه مع فوج من عساكره بكورة حلب ، وعبر ماء الفرات بسنابك الجياد دون السفائن والزواريق ، وورد نواحي خوي وسلماس ، فقرع سمعه ان ملك الروم قد فوض المملكة الى رجل من اولاد الملوك النصارى ، وجهز له جيشا يربي على ثلاثمائة الف فارس وراجل ، ورمت الروم الى السلطان افلاذ كبدها واخرجت الارض اثقالها من عديدها وعددها ، واجتمع على هذا الملك من اوباش الروم والأرمن والفرس والبجناك والغز والفرنج اقوام اطالت الفتن بهم سواعدها ، واعلت النصرانية باجتماعهم قواعدها

وحلفوا على انهم يزعجون الخليفة ويقيمون مقامه الجاثليق ، ويخربون المساجد ، ويبنون البيع ، فأنفذ السلطان الى زوجته ووزيره نظام الملك وقال : اني صائر بهذا القدر الذي معي الى العدو فان سلمت فنعمة من الله تعالى ، فان استشهدت فرحمة من الله تعالى فخليفتي ابني ملكشاه ، وهو في خمسة عشر الف فارس من الشجعان الرجال ومع كل واحد فرس يركبه . وتقارب السلطان من ملك الروم في موضع يعرف بالزهرة بين خلاط وملازكرد في يوم الاربعاء خامس عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين واربع مائة فراسله السلطان في الهدنة فأجاب : ان الهدنة تكون بالري فانزعج من ذلك السلطان ، فقال له امامه وفقيهه ابو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : انك تقاتل عن دين الله وأنا أرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر على الكافرين

والدعاء مقرون بالاجابة ، فتوقف السلطان الى يوم الجمعة عند خطبة الخطباء وقرأ قوله تعالى (وما النصر الا من عند الله) (سورة الأنفال ـ الآية: ١٠) وقال السلطان : ربما يكون في الخطباء من اذا قال في اخر خطبته: اللهم انصر جيوش المسلمين وسراياهم حقق الله ببركات دعائه مقاصد الغزاة ومبتغاهم.

وعاد الوزير نظام الملك الى همذان صيانة للعراق وخراسان ومازندران عن اهل العبث والفساد ، والقى السلطان نفسه في المهالك وقال السلطان : من اراد الانصراف فلينصرف فما هاهنا السلطان يأمر وينهى غير الله ، ورمى بالقوس والنشاب ، واخذ السيف وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل جميع عسكره مثل فعله ، فلما التقى الجمعان حفر الروم الخندق حول العسكر فقال السلطان : انهزموا والله فان حفر الخندق لهؤلاء مع كثرة عددهم دليل على الجبن والفشل ، وضرب قيصر الروم فسطاطا من الاطلس الاحمر وخيمة مثلها واخبية من الديابيج ، وجلس على سرير من الذهب وفوقه صليب من الذهب مرصع بجواهر لاقيمة لها ، وبين يديه بشر كثير من الرهابيين والقسيسين يتلون بالانجيل .

والتقى الفريقان يوم الجمعة عند طلوع خطيب المسلمين في المنبر وعلت الاصوات بالقرآن واصوات الكوسات من عسكر السلطان واصوات النواقيس من عسكر الروم ، وهبت اعصار عمت عيون المسلمين وكاد ينهزم عسكر السلطان ، فنزل السلطان من الفرس وسجد لله تعالى وقال : اللهم توكلت عليك وتقربت بهذا الجهاد اليك وعفرت وجهي بين يديك وضرجته بعصارة كبدي وعيناي نضاحتان من البكاء وسالفتاي رشاحتان من الدماء فان كنت من ضميري خلاف ماأقوله بلساني فأهلكني ومن معي من أعواني وغلماني ، وان كان سرا لعلانيتي فأمددني على جهاد الأعداء واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا وصير العسير علي يسيرا ، وكان يردد هذا التضرع حتى انعكست مهاب الرياح وأعمت عيون الكفار واجتث التقدير شجرة البغي ، واصطلم أنف الغي ، ودرس اعلام النصارى

" وترى الناس سكارى وما هم بسكارى" (سورة الحج ـ الآية:
(٢) وانجلت عند اصفرار الشمس غبرة المعركة وأحاطت بملك الروم يد الاسر والهلكة.

وكيفية ذلك انه عار فرس لبعض غلمان السلطان فتبع ذلك الغلام أثر فرسه فوجد فرسا مع لجام مرصع وسرج من ذهب ورجلا جالسا عند الفرس وبين يديه مغفر من الذهب ودرع مسرودة من الذهب ، فهم الغلام بقتله فقال له الرجل : انا قيصر الروم فلا تقتلني فان قتل الملوك شؤم ، فشد الغلام يديه وجره الى معسكر السلطان ، فما رآه اسير من أسرى الروم الا الصق جبهته بالتراب فورد المبشر حضرة السلطان ، والسلطان يصلي المغرب ، فأدخلوه على السلطان والحجاب آخذوه من ضفيرته وجيبه يجرونه الى الارض بين يدي السلطان لما استهواه من زهو الملك والأبهة فقال السلطان : دعوه فحسبه معاينة هذا اليوم ، وكان لسعد الدولة كوهرائين مملوك اهداه الى الوزير نظام الملك فرد عليه ولم ينظر اليه ، ورآه حقيرا ، فرغبه فيه كثيرا ، فقال الوزير نظام الملك : وماذا يراد منه عسى ان يأتينا بملك الروم قيصر اسيرا فكان كما قال الوزير نظام الملك .

وحضر يوم الوقعة الغلام بين يدي السلطان وأحضر ملك الروم اسيرا فأمر بتقييده ، ومني الغلام فتمنى بشارة غزنين فبذل ذلك له .

سمعت من خواجا امام مشرف الشيرازي التاجر على شاطيء جيحون مقابل درغان ونحن منحدرون الى خوارزم قال : سمعت مشائخي انه لما تقابل عسكر السلطان الب ارسلان وعساكر الروم سير ملك الروم رسولا الى السلطان وقال له : انني قد اتيتك ومعي من العساكر مالا قبل لك فيه فان انت دخلت في طاعتي فأنا ادفع لك من البلاد مايكفيك وتأمن سطوتي وبأسي ، وان انت لم تفعل ذلك فان معي من العساكر ثلاثمائة الف فارس وراجل ، ومعي اربعة عشر الف عجلة عليها خزائن الاموال والسلاح ، وليس يقف بين يدي احد من عساكر المسلمين ، ولايغلق بوجهي مدينة من مدائنهم ولاقلعة من

قلاعهم ، فلما سمع السلطان هذه الرسـالة اخـذته عزة الاسـلام ، وتحركت في صدره نخوة الملك فقال للرسول : قل لصـاحبك انك انت ماقصدتني ولكن الله سبحانه حملك الي وجعلك وعسـاكرك طعمـة المسلمين فأنت أسيري وعبدي ، وعساكرك بعضهم قتلاي وبعضهم اسراي وخزانتك كلها ملكي ومالي ، فاثبت للمقارعة وتهيأ للمكافحة فسوف ترى ان عساكرك هي رقاب تساق الى ضاربها ، وخـزانتك هي اموال تحمل الى ناهبها ، وفي بكرة غد كان الحرب بينهما وجرى جميع ماقاله السلطان بعون الله وتوفيقه .

ولما احضر الملك امام سدة السلطان قال ملك الروم للترجمان : قل للسلطان ردني الى دار ملكي قبـل ان تجتمـع الروم الى ملك أخـر يجاهرنا بالمكافحة ، ويدرس كتاب العدوان ويبرز صفحة العصـيان وانا اطوع لك مـن عبيدك ، ولك علي كل سـنة أن أودي على سـبيل الجزية الف الف دينار ، فأجابه السلطان الى سؤاله بعد مـاعرضه النخاسون على معرض البيع في الاسواق ثم اعتقه السـلطان وخلع عليه وعلى من بقي معه من الاسارى ، وعاد الملك الى دار ملكه ووفى بما عاهد .

معركة منازكرد

(من بغية الطلب لابن العديم « ٣ ـ ٢٨٠ و ٢٨٥ ظ » مـــن مخطوطة احمد الثالث)

الب أرسلان بن جفري بك بن سلجوق بن تقاق بـــن سلجوق وقيل سلجق ، ولكل واحد من ابائه اسم آخر بالعربية ، محمد بن داوود بن ميكائيل بن سليمان ... وقدم حلب محاصراً لها وفيها محمـــود بـــن نصر بن صالح بن مرداس سنة ثلاث وستين واربع مائة ، فدام على حصارها الى ان خرج اليه مع والدتــه السـيدة ، فـأنعم عليه بحلب وسار الى الملك ديوجانس وقد خرج من القسطنطينية فالتقاه واسره ثم من عليه واطلقه ...

وقرات بخط ابي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم:وسمع ان ملك الروم ديوجانس قد خرج من القسطنطينية على طريق الثغور والدرب فرحل عن حلب بعد خروج محمود اليه بخمسة أيام وقصـده حتـى لقيه على منازكرد فحـاربه حتـى هــــزمه واسر ملك الروم ، وغنم معسكره وكانت عدة الترك ستمائة الف رجل .

وقرات في بعض التواريخ التي لم يسم جـامعها ان الب ارسلان العادل .. رحل عنها ــ حلب ــ في الثالث والعشرين من جمـــادى الآخرة قاصداً بلد الروم في طلب ملكهم وقد توجه الى منازكرد فلحقه في عساكره واوقع به فهزمه وقيل إن ملك الروم كان في ستمائة الف ، والب ارسلان في اربع مائة الف مـــن الاتـــراك ، وحصـــل ملك الروم اسيراً في ايدي المسلمين وصار الى الب ارسلان فلم تزل المراسلات (بينهما) الى ان تقرر اطلاقه على مهادنة منها انه لايعرض لبـــلاد المسلمين ، ثم سيره الى بلاده .

وقرأت بخط الحافظ ابي الخطاب عمر بن محمد العليمي وانبانا بـــه

ابو عبد الله محمد بن احمد بن محمد النسابة عنه قال : وجدت بخط ابي الحسن يحيى بن علي بن محمد زريق ، ذكرَ اخبار السلطان الشهيد المعظم الب ارسلان ابي شجاع محمد بن داود برهان امير المؤمنين نضر الله وجهه ...

وعاد السلطان منكفئا الى بلاده على طريق العراق معرجا منه نحو بلاد ارمينية ، وأسرع في سيره بمن خف معه ، ووصل فالتقى متملك الروم بالقرب من خلاط وتلك البلاد ، فاعتبر من وصل معه من عسكره فكانت عدتهم ثلاثة عشر الفا ، وتصادف العسكران في يوم الجمعة ، ووقف السلطان عن قتاله انتظارا لوقت الصلاة والدعاء على منابر الاسلام وترقبا للاجابة في نصرة المسلمين ، فلما صلى الظهر ناجزهم الحرب فأظفره الله تعالى بعسكر الروم ، وأجراه على جميل العادة في الظفر ، ومكنه ممن بغى وكفر ونهب العسكر بأسره ، واسر متملك الروم وأقامه بين يديه ومعه باز وكلب صيد ثم انعم عليه وخلع وأكرمه واصطنعه ، وسيره مع قطعة من عسكره لتعده الى بلاده ومملكته ، فاختلت الأمور عليه ولم يتم له ما أراد ، وذكر انه كحل ومات بعد مدة ، ولم يجر في الاسلام منذ ظهر مثل هذا الظفر ، ولا اسر للروم متملك قبل هذا في الاسلام ، وكان السلطان قد سأل متملك الروم عند حضوره بين يديه ما سبب خروجه وتعريضه نفسه وعسكره لهذا الأمر ؟ فذكر انه لم يرد الا حلب اذ كان كلما جرى على الروم كان محمود هو السبب فيه والباعث عليه لمن قصدها من الترك ، وغنم من هذا العسكر ما يفوق الاحصاء والعد وتجاوز الأمد والحد ، وبيع من غنائمه ما يساوي مائة دينار بدينار واحد فلله الحمد على ذلك كثيرا.

قرأت بخط ابي غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين . وغزا السلطان الب ارسلان بلاد الروم ، وخرج أمر الخليفة القائم الى الخطباء على المنابر بالدعاء له بما صيغته : اللهم اعل راية الاسلام وناصره وادحض الشرك بجب غاربة وقطع أواصره ، وأمدد المجاهدين في سبيلك الذين في طاعتك بنفوسهم سمحوا وعلى متابعتك

بمهجهم فازوا وربحوا بالعون ، الذي تطيل به باعهم وتمـلأ بـالأمن والظفر رباعهم ، واحب شـاهنشاه الأعظـم بـرهان امير المؤمنين بالنصر الذي تنشر به أعلامه وتستنسر بمكانه من اختلاف الظـلال أيامه ، واوله من التأييد الضاحكة مباسمه القائمة أسواقه ومواسمه، ما تقوي به في اعزاز دينك يده ، ويقضي بأن يشفع يومه في الكفـار غده ، واجعل حدوده بملائكتك معضودة وعزائمه على اليمن والتوفيق معقودة ، فإنه قد هجر في كريم مرضاتك الدعة وتاجرك من بذل المال والنفس ما انتهج فيه مسالك أوامرك الممتثلة المتبعة فإنك تقول : - وقولك الحق - (يا أيها الذين امنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بـأموالكم وأنفسكم).(سورة الصف ، الآية ١٠)

اللهم فكما أجاب نداءك ولبـاه واجتنب التثـاقل عن السـعي في حياطة الشريعة واباه ، ولاقى أعداءك بنفسه وواصـل في الانتصـار لدينك يومه بأمسه ، أنت أخصصه بالظفر واعنه في مقاصده بحسـن مجاري القضاء والقدر وحطه بحـوز يدرأ عنه مـن الأعداء كل كيد ، ويشمله من جميل صنعك بـأقوى أيد ، ويسر له كل مـرام يحـاوله ومطلب يرومه ويزاوله حتى تكون نهضته الميمونة عن النصر مسفرة، ومقلة احزاب الشرك مـع اصرارهـم على الضـلال غير مبصرة ، فابتهلوا معاشر المسلمين الى الله تعـالى في الدعاء له بنية صـافية وعزيمة صادقة وقلوب خاشعة وعقائد في رياض الاخلاص رائعـة ، وواصلوا الرغبة إلى الله في اعزاز جانبه وفـل غرب مجـانبه واعلاء رايته وأنالته من الظفر أقصى حده وغايته .

وانفذ السلطان في مقدمته أحد الحجاب فصادف عند خلاط صليبا تحته متقدم الروسية في عشرة الاف من الروم ، فحاربوهم واعطـى الله المسلمين النصر عليهم فأخذ الصليب وأسر المقـدم ، وتحـارب السلطان وعظيم الروم في مكان يعرف بالزهرة بين خـلاط ومنازكرد في يوم الأربعاء خامس ذي العقدة ، وكان السلطان في خمسـة عشر الفا وصاحب الروم في مائتي الف ، وراسل السـلطان ملك الروم في الهدنة ، فقال ملك الروم : لا هدنة إلا بالري فعزم الله على السلطان

على الرشد ، ولقيه يوم الجمعة وقت الزوال وهو سابع ذي العقدة وأعطى الله المسلمين النصر ، فقتلوا منهم قتلا ذريعا وأسر ملك الروم وضربه الب ارسلان ثلاث مقارع ، وقطع عليه الف الف وخمس مائة الف دينار ، واي وقت طلب السلطان عساكر الروم نفذها ملكهم اليه ، وان يسلم كل أسير من المسلمين عنده ،

معركة منازكرد

(من كتاب زبدة الحلب لابن العديم ٢ / ٢٣ ـ ٣٠)

وقصد ـ السلطان ـ ملك الروم واسرع في السير لانه بلغه ان ملك الروم خرج في جموع لاتحصى ، وأنه وصل الى قاليقلا وهي أرزن الروم ، فوصل السلطان الى أزربيجان حين بلغه أن ملك الروم قد أخذ على سمت خلاط ، وكان السلطان في خواص جنده وجموع عساكره بعيدة عنه ولم ير العود الى بلاده فسير وزيره نظام الملك وزوجته الخاتون الى تبريز مع اثقاله ، وبقي في خمسة عشر الف فارس من نخبة عسكره مع كل واحد فرسه وجنيبه ، والروم في زهاء ثلاثمائة الف أو يزيدون ما بين فارس وراجل ، من جموع مختلفة من الروم والروس والخزر واللان والغز والقفجق والكرج والابخاز والفرنج والأرمن ، وفيهم خمسة الاف جرخي وفيهم ثلاثون الف مقدم ما بين دوقس وقومس وبطريق ، فرأى السلطان أن الامهال الحشد والجمع مضر فركب في نخبته وقال : انا احتسب نفسي عند الله وهي اما السعادة بالشهادة واما النصر (ولينصرن الله من ينصره)(سورة الحج ـ الآية :٤٠) ثم سار مرتبا جيشه قاصدا جموع الروم.

وكان ملك الروم قد قدم مقدما في عشرين الف مدرع من شجعان عسكره ومعه صليبهم ، فوصل الى خلاط فنهب وسبى ، فخرج اليه عسكر خلاط معه صندق التركي الخارج الى بلاد حلب في سنة اثنتين وستين على ماقدمناه ذكره ، فكسر صندق وأسره وصادف ذلك وصول السلطان فأمر بجدع أنفه ، وعمل على انفاذ الصليب الذي كان في صحبته الى نظام الملك ، وأمر بتعجيل انفاذه الى دار السلام مبشرا بالفتح ، وتلاحق عسكر الروم فنزلوا على خلاط محاصرين ، ونزل الملك على منازكرد فسلموها اليه بالأمان خوفا من

معرة جيوشه ان استولوا عليهم وذلك في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة ثلاث وستين واربعمائة.

فلما كان يوم الأربعاء سير اهل منازكرد ، وخرج بنفسه ليشيعهم وهو في جموعه ، وحشوده ، ووافق ذلك وصول العسكر السلطاني ووقعت العين في العين فحمل المسلمون حملة رجل واحد فردوهم على أعقابهم ، وشرع أهل منازكرد يتسللون من بينهم ، فقتل الروم بعضهم ونجا الباقون وترك الروم طريقهم الذي كانوا سالكين وعاد ملكهم فنزل في مضاربه بين خلاط ومنازكرد وباتوا ليلتهم على أعظم قلق واشده .

فلما اصبحوا بكرة الخميس وصل السلطان الب ارسلان في بقية عساكره ، فنزل على النهر ، وملك الروم على موضع يعرف بالزهرة في مائتي الف فارس ، والسلطان في خمسة عشر الف ، فأرسل السلطان رسولا حمله سؤالا وضراعة ، ومقصوده أن يكشف أمرهم ويختبر حالهم ويقول لملك الروم : أن كنت ترغب في الهدنة اتممناها، وإن كنت تزهد فيها وكلنا الامر الى الله عز وجل ، فظن الرومي أنه انما أرسله عن ضرورة فأبى واستكبر واجاب بأني سوف أجيب عن هذا الراي بالري ، فغاظ السلطان جوابه وانقطعت المراسلة بينهما ، واقام الفريقان يوم الخميس على تعبئة الصفوف ، فقال أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي فقيه السلطان وامامه : أنت تقاتل عن دين الله الذي وعد باظهاره على الأديان ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر في أقطار الأرض ، فلما أصبحوا يوم الجمعة ركب السلطان بجموعه وركبت الروم فتواقفوافلما حان وقت الزوال نزل السلطان عن فرسه وأحكم شد حزامه وتضرع بالدعاء الى الله تعالى ، ثم ركب وفرق أصحابه فرقا كل فرقة منهم لها كمين ثم استقبل بوجهه الحرب .

وحمل ملك الروم بجمعه فاستطرد المسلمون بين أيديهم ، واستجروا الروم إلى أن صار الكمين من ورائهم ، ثم خرج الكمين من خلفهم ، ورد المسلمون في وجوههم ، فأنزل الله نصره ، وكسرت

الروم وأسر الملك واستولى المسلمون على عساكرهم وغنموا مالا يعد كثرة ولا يحصى عددا وعدة ، وقيد الملك أسيرا إلى بين يدي السلطان فأقامه بين يديه ومعه بازي وكلب صيد .

وكانت مع الروم ثلاثة آلاف عجلة تحمل الأثقال والمنجنيقات ، وكان من جملتها منجنيق بثمانية أسهم تحمله مائة عجلة ويمد فيه ألف ومائتا رجل وزن حجره بالرطل الكبير قنطار ، وحمل العسكر من أموالهم ما قدروا عليه ، وسقطت قيمة المتاع والسلاح والكراع حتى بيعت اثنتا عشرة خوذة بسدس دينار ، ولم يسلم من عسكر الروم إلا العسكر الذي كان محاصرا خلاط ، فلما بلغهم الكسرة رحلوا عن البلد جافلين فاتبعهم المسلمون وتخطفوا أطرافهم ، فلم يلو أولهم على آخرهم .

فمن عجيب الاتفاق ما حكي : أنه كان لسعد الدولة كواهرائين مملوك هداه لنظام الملك فرده عليه فجعل يرغبه فيه فقال نظام الملك : ومـاذا عسى أن يكون من هذا المملوك يأتينا بملك الروم أسيرا ، مستهزئا به .

ثم أنسي هذا الحديث الى أن كان في هذه الحادثة فاتفق وقوع ملك الروم في أسر ذلك الغلام ، فخلع السلطان عليه وبالغ في إكرامه ، وحكمه في طلبه واقتراحه فطلب بشارة غزنة فكتب له بذلك .

ثم رحل السلطان الى أذربيجان والملك في قيده ، فأحضره السلطان بين يديه ، وسأله عن سبب خروجه وتعريضه نفسه وعسكره لهذا الأمر ؟ فذكر أنه لم يرد إلا حلب ، وكلما جرى علي كان محمود السبب فيه والباعث عليه ، فقال : اصدقني عما كنت عازما عليه ان لو ظفرت بي ؟ فقال : كنت أجعلك مع الكلاب في ساجور ، فقال السلطان : ما الذي تؤثر ان يفعل بك ؟ فقال انظر عاقبة فساد نيتي واختر لنفسك ، فرق له قلب السلطان فمن عليه واطلقه وأكرمه وخلع عليه بعد أن شرط عليه أن لايعترض لشيء من بلاد الاسلام ، وأن يطلق أسرى المسلمين كلهم ، وسيره الى بلاده وسير معه قطعة من العسكر توصله فلما انصرف ديوجانس الى قسطنطينة خلعوه من

الملك ، ولم يتم له ماأراد ، وقيل انه كحل ومات بعد مــدة ، ولم ينقــل أنه أسر للروم ملك في الاسلام قبل هذا .

معركة منازكرد

(من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ٨ / ١٠٧ - ١١٠)

في هذه السنة (٤٦٣٠ هـ) خرج ارمانوس ملك الروم في مائتي الف من الروم والفرنج والغز والروس والبنجاك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، فجاؤوا في تجمل كثير وزي عظيم وقصد بلاد الاسلام ، فوصل الى منازكرد من اعمال خلاط فبلغ السلطان الب ارسلان الخبر وهو بمدينة خوي من اذربيجان قد عاد من حلب ، وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع ، فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو ، فسير الاثقال مع زوجته ونظام الملك الى همذان ، وسار هو فيمن معه من العساكر وهم خمسة عشر الف فارس وجد في السير وقال لهم : انني اقاتل محتسبا صابرا فان سلمت فنعمة الله تعالى وان كانت الشهادة فان ابني ملكشاه ولي عهدي ، وساروا فلما قارب العدو جعل له مقدمة فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة الاف من الروم فاقتتلوا فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم ، وحمل إلى السلطان فجدع أنفه ، وانفذ بالسلب إلى نظام الملك وأمره أن يرسله الى بغداد ، فلما تقارب العسكران أرسل السلطان الى ملك الروم يطلب منه المهادنة فقال : لا هدنة إلا بالري ، فانزعج السلطان لذلك ، فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الأديان وارجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فانهم يدعونَ للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالاجابة ، فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ، ودعا ودعوا معه وقال لهم : من

اراد الانصراف لينصرف فما ها هنا سلطان يأمر وينهى والقى القوس والنشاب واخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط وقال : اذا قتلت فهذا كفني وزحف إلى الروم وزحفوا إليه ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى واكثر الدعاء ، ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا ، وانزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم مالا يحصى حتى امتلات الارض بجثث القتلى ، واسر ملك الروم واسره بعض غلمان كوهرائين ، فأراد قتله ، ولم يعرفه فقال له خادم مع الملك : لا تقتله فإنه الملك ، وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك فرده استحقارا له فاثنى عليه كوهرائين فقال نظام الملك : عسى ان يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك ، فلما أسر الغلام الملك احضره عند كوهرائين ، فقصد السلطان واخبره بأسر الملك فأمره بإحضاره ، فلما احضر ضربه الب أرسلان ثلاثة مقارع بيده وقال له: الم ارسل إليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما تريد ، فقال السلطان ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟

فقال : افعل القبيح ، فقال له : فما تظن انني افعل بك قال : إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الاسلام والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبا عنك قال ما عزمت على غير هذا ، ففداه بألف الف دينار وخمسمائة الف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها وأن يطلق كل اسير في بلاد الروم ، واستقر الأمر كذلك .

وانزله في خيمة وارسل اليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، فاطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد ، فقال ملك الروم اين جهة الخليفة ؟ فدل عليها ، فقام وكشف راسه واوما الى الأرض بالخدمة ، وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره الى بلاده ، وسير معه عسكرا اوصلوه الى مأمنه وشيعه السلطان فرسخا.

معركة منازكرد

(من تاريخ ابن ابي الدم « مخطوطة البودليان ١٣٣ ــ و)

وفيها (٤٦٣ هـ) وصل الملك العادل الب ارسلان الى الرها راستدعى الأمير تاج الملوك ابا سلامة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، فلم يجبه ، فقطع الب ارسلان الفرات ، ونزل على حلب في جيش ما جر مثله في الليالي ، وقابلها يومين ثم كف عنها خوفا من الخراب والقتل ، ثم اتفق خروج ملك الروم ارمانوس يريد بلاد الب ارسلان بخراسان ، فلما سمع الب ارسلان بذلك رفق بتاج الملوك محمود بن نصر و راسله حتى خرج اليه فاكرمه وخلع عليه ، وفارقه. وتوجه الب ارسلان فلقيه ملك الروم ارمانوس بارض ملازكرد فأوقع به ونصره الله تعالى ، وقتل منهم خلقا عظيما ونهب من الأموال مالا يحصى ، وروي انه أسر ارمانوس ملك الروم ، وقرر الف الف وخمسين الف دينار حمر ، وتسلمها منه واطلقه ، ولما وصل الب ارسلان الى حلب واناخ عليها لم يتأذ أحد من اهل الشام بعسكره ، ولاتعرضوا لمال أحد ، ولا لامراة مع كثرتهم

معركة منازكرد

(من تاريخ الفارقي وهو أحمد بن يوسف بن علي بن الازرق ١٨٩ ـ ١٩٠)

ثم إن السلطان سمع ان ملك الروم عاد ، فنزل الى الموصل ، فنزل خلفه جماعة كثيرة من اهل اخلاط ومنازكرد يعلمونه ان ملك الروم قد عاد الى البلاد ، فرجع السلطان وصعد الى ارزن وبدليس وكان معهم قاضي منازجرد ، فوصل اخلاط وملكها واقام بها اياما ، ثم وصل ملك الروم الى ولاية منازجرد فخرج السلطان وسار ونزل على باب منازجرد ، وحصلت المراسلات تمضي بينهما ، وكان ملك الروم في خلق لايحصى ، ومضى ابن المحلبان من عند السلطان الى ملك الروم فسأله عن البلاد وحالها وقال : أخبرني ايما أطيب أصفهان ام همذان ؟ فقال : أصفهان ، فقال له : قد بلغنا أن همذان شديدة البرد ، فقال : هو كذلك ، فقال الملك : نشتي نحن في أصفهان والكراع في همذان ، فقال له ابن المحلبان : أما الكراع صحيح يشتي في همذان ، وأما انت فلا اعلم ذلك ، ثم ابتعد عنه ، والتقوا للقتال فعبات الروم صفوفها في ثلاثمائة الف فارس والسلطان في نفر يسير فضيق الوقت للقتال ، وكان يوم الجمعة ، الى وقت ما علم السلطان أن الخطيب على المنبر وحان وقت نزوله ، فقال للناس : احملوا فحملوا كلهم وكبروا ، وقال السلطان : هذا وقت الدعاء على جميع المنابر لجيوش المسلمين وباقي الناس يؤمنون على دعائهم فلعل الله يستجيب من واحد منهم ، ثم حملوا وكبروا فأعطاهم الله النصر ، فانهزم ملك الروم وقتل من أصحابه خلق عظيم ، وغنموا اموالهم بحيث تقاسموا الذهب والفضة بالارطال ، وغنم اهل اخلاط ومنازجرد من أموالهم ما استغنوا به الى الآن . فانهم خرجوا واقاموا مع الجيش وقاتلوا ونهبوا أكثر النهب.

معركة منازكرد

(من أخبار مصر لمحمد بن علي بن يوسف بن جلب المعروف بابن ميسر « ٢ / ١٩ ــ ٢٠ »)

فيها (سنة ٤٦٢ هـ) بعث ناصر الدولة ابن حمدان الفقيه ابا جعفر محمد بن احمد البخاري رسولا الى السلطان الب ارسلان ملك العراق . يسأله أن يسير اليه عسكرا من قبله ليقيم الدعوة العباسية وتكون مصر له ، فتجهز الب أرسلان من خراسان في عساكر جمة . وسير لصاحب حلب أن يقطع دعوة المستنصر ويقيم الدعوة العباسية فقطع دعوة المصريين ولم تعد ، وسار الب ارسلان فوصل الى حلب في جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين واربعمائة وحاصرها شهرا. فخرج اليه صاحبها محمود بن صالح وكان قد امتنع من لقائه فاكرمه واعاده الى ولايته ، فقوي عزمه على المسير الى دمشق ثم مصر ، فبينما هو على حلب اذ جاءه الخبر بأن ملك الروم قد قطع بلاد أرمينية يريد خراسان فرجع الى بلاده ، والتقى مع عساكر الروم على أخلاط وهزمهم اقبح هزيمة .

وأسر ملكهم ، وكان قد خلف طائفة من الأتراك ببلاد الشام فملكوا بلاد الشام ، وخرجت كلها من أيدي المصريين.

معركة منازكرد

(من تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع

" ٢ / ٣ / ١٨٩ ـ ٢٠١ ")

وفي سنة ستة آلاف وخمس مائة وستين للعالم ، وهي سنة سبع مائة وثمانية وثمانين للشهداء ، وصل الملك العادل الب أرسلان من المشرق في عساكر عظيمة عددها ستمائة الف فارس سوى أتباعهم فاضطربت البلاد وقلقت المملكة بمصر ، وفتح في الشام الفوقاني بلادا كثيرة ، وفي بلاد الروم ، الى أن حسن له أصحابه فتح المدينة الجليلة الرها ، وكان فيها يومئذ دوقس يسمى باسيل بن اسار ابن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك ، وكان بالرها يومئذ ثمانية آلاف أرمني وعشرين الف سرياني وستة آلاف رومي والف افرنجي ، فنزل عليهم في ستمائة الف مقاتل وضرب خيمته وانفذ الى أهلها يخدعهم قائلا:

ما غرضي فتح بلدكم ، بل تقطعوا لي عليكم مال وأرحل عنكم ، فلما سمعوا هذا اهتموا بجمع المال وهو ينقب تحت حصن المدينة ، ومن بعد سبعة أيام كان في عسكره صبي سرياني ، فكتب رقعة يقول فيها لأهل الرها : هو يخادعكم وقد نقب تحت البرج الفلاني والموضع الفلاني حتى وصف لهم أحد عشر موضعا فيها النقابين ينقبوا ، وقد بلغوا تحت الحصن وتجاوزوه ، وجعل الرقعة في نشابة ورماها الى المدينة فأخذوها ووقفوا عليها ، ونقبوا قبالة تلك المواضع ، وكان الوالي المذكور يأخذ البوق ويجعل رأسه فيما يلي خارج البلد على الأرض وطرفه عند أذنه فيسمع حس النقب ، فالتقوا النقابين بغتة في النقوب ، فقتل من نقابين الرها ثلاثة ومن نقابين الب أرسلان بن داود المنعوت بالعادل عشرون رجلا ، واستأسروا تسعة فقتلوهم ،

ورموا رؤوسهم اليه في المنجنيقات والعرادات ، وكان عندهم تسعين منجنيق وعرادة ، وشتموه وصاحوا عليه ياغدار يامكار يانكاث ، واكثروا من شتمه بكل قبيح ، فنصب عليهم القتال الشديد ثمانية وثلاثين يوما ، وكان يقاتلهم بالافيلة وعليهم الرجال لابسين الحديد فاذا دنوا ليقربوا الحصن طرحوا عليهم الصخور العظيمة فيقتلوا منهم ، واستظهروا عليه بقوة السيد المسيح لانها المدينة التي دعا لها توا التلميذ ولابجر ملكها.

ثم انه زحف اليها بسبع دبابات عظيمة ، فعملوا عليها صواري عظيمة وشحم وزفت ونفط ، وطرحوا عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها وقتلوا كل من كان فيها .

ثم أمر الملك العادل بقطع الأشجار والاخشاب ورميها في الخندق الذي على الحصن حتى يمشي الخيل والرجال عليه الى الحصن ، فتوصلوا اليها من داخل المدينة من النقوب واطلقوا فيها النيران فتأجج النار حتى صار الخندق نيران تلتهب ، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافتراء والشتيمة ، فأنفذ اليهم رسول يقول لهم : ما يحسن بي أن أرحل عنكم بعد قتالكم ، وقد اطاعتني جميع البلاد ، الا بعد أن يستقر لي عليكم مال يسير ، وانا ارحل عنكم لئلا يصير علي فضيحة ، فأنزل الوالي رسوله في دار واكرمه ، فلما كان بالغداة تخير عشرة الاف رجل احداث مقاتلين من المدينة ، والبس جميعهم الحديد حتى لم يبق منهم الا جفون عينهم ، واوقفهم صفين في الموضع الذي يعبر فيه الرسول الى باب الرها ، وقال للرسول : اركب عائدا الى صاحبك ، فركب ولم يزل سائر فيما بين أولئك الأحداث وهم يزعقوا ويصيحوا الى أن انتهى الى باب المدينة ، فقال له باسيل الوالي : قل لهذا الكلب الغدار الذي أرسلك : كنا نظن أن لك قولا صادقا واذ أنت غدارا كذوبا نكاثا ، وما عندنا الا السيف ، لأن كذبك وغدرك قد عرفناه ، وما تحتاج الى نقب ولادبابات ، هو ذا باب المدينة مفتوح ووحق سيدي يسوع المسيح لااغلق باب هذه المدينة في هذا النهار الا بعد مغيب الشمس ، فان أردت القتال فتقدم ، ولم يزل باب هذه المدينة مفتوح ، واولئك

الاحداث قيام ، والحصن معمر بالرجال الى بعد الغروب ، وأغلقوا الباب وصاحوا عليه من فوق السور.

وفي تلك الليلة رحل عنهم بعد ان اقام خمسة واربعين يوما ، ومضى الى مدينة سروج والى حلب ، وحاصرها فكانوا يعيروه بما لقيه من اهل الرها ، وبعد هذا خرج اليه محمود بن صالح ليلاً في زي الفز حتى وصل الى خيمته فتطارح عليه ، فقبله واحسن اليه واخلع عليه واعاده الى مدينته .

ثم عاد ايضا الى الرها في شهر بشنس واقام اربعة ايام بلا قتال ، وكتب اليه نصر بن نصر الدولة يقول له : انت نازل على الرها وما تقدر تفتحها وديوجانس ملك الروم قد اهلك بلد الاسلام الى ان قارب بلاد خراسان ، فرحل ليلا وسار الى ان وصل الى خلاط مجاور منازكرد بلاد الأرمن ، وبين المدينتين نهر عظيم ، وكان ديوجانس ملك الروم نازل على نهر منازكرد بعسكره ، وهو ايضا في ستمائة الف فارس مقاتلة فالتقى الملكان في ايام من بوونة ، فعمل مقدمين عساكر ديوجانس الرومي عليه منصوبة بدسيسة من ميخائل ابن مارية الذي كان ملك قبله عمه قيصر ، فلما حمل الملك ديوجانس على عسكر الغز وصار في وسطهم وهو يظن ان اصحابه وعساكره يحملوا معه ، وهم طائعين له ومناصحين ، فلما خذلوه وتخلوا عنه قتل بيده جماعة من الغز ، ولم يزل يقتل ويدفع عن نفسه الى ان قبضوه أسير وتفرقت عساكره بعد ان قبض منهم جماعة ، ودخل بعضهم الى منازكرد فاحضره الملك العادل بين يديه وقال : أتريد أن ابيعك او اقتلك او اعتقلك ؟ فقال : له ديوجانس : ما ملكتني بقتال وانما اجنادي خذلوني وتخلوا عني ولم ينصحوني ، والآن فان كنت جزارا فاقتلني ، وإن كنت صيرفيا فبيعني ، وإن كنت ملكا فاعف عني ، فقام اليه فاعتنقه واجلسه معه في مرتبته وخلا به ثلاثة ايام يأكل ويشرب ويتحدث معه ويوادده ، وقرر معه عهود وهدية وسير معه ثلاثة الاف فارس حتى اوصلوه المصيصة وعادوا.

معركة منازكرد

(من تاريخ العالم لابن العبري « مترجم عن الترجمة الانكليزية ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢ »)

« ثم جمع الملك دايوجنيس قوات هائلة ومضى زاحفا من جهة أرمينية بأبهة عظيمة وجاء الى امام منازكرد ، فطرد قوات السلطان منها ، لكنه لم يقتلهم ، واستولى على المدينة ، وعندما علم السلطان بهذا ، مال بنظره نحو الأراضي الرومية ، وبسبب أن التركمان كانوا قلة ، كان السلطان الب ارسلان خائفا فأرسل رسولا الى دايوجيذس اميرا اسمه ساوتكين لعلهما يصنعان سلما ويقولان لبعضهما سنمضي كل منا عائدا الى بلاده ، لكن دايوجنيس تبجح وقال : الآن وقد أخرجت جميع كنوزي وجمعت كل هذه العساكر ، والنصر لي ، انصرف ؟ ليس لكم معي الا السيف ، ثم إن الله له الحمد ، الذي يجلب الخفض الى الأرعن ، اعطى القوة للسلطان ، الذي هيأ عساكره وخاطبهم بكلمات التشجيع ، ورمى القوس والنبال من يده ، ولبس درعه ، وأخذ مجنه ورمحه بيده وعقد ذيل حصانه واعتلاه ، ومثله فعل جميع الترك ، وهجموا على الروم في اليوم السادس للاسبوع (الجمعة) عند الظهر في مكان بين خلاط ومنازكرد ، وصرخوا صرخة مدوية واندفعوا بينهم وسقط الرعب على الروم ، وبعد أن قتل الكثير منهم بدأوا يفرون وأخرون أخذوا أسرى . وعند المساء جاء مملوك اسمه كوهرائين من بين الأمراء الترك الى السلطان وقال له : لقد ذكر أحد عبيدي بأنه قد أخذ ملك الروم أسيرا وإنه معه ... ومع ان السلطان لم يصدق ذلك فانه لم يصر على قوله ، بل أرسل أحد الغلمان الذي كان اسمه شاذي الذي غالبا ما سافر مع الرسول الى ملك الروم ، ليذهب ويتأكد منه ، وعندما ذهب شاذي ورأى دايوجنيس سجد احتراما للملك ، ثم

ركض عائدا الى السلطان فاخبره بأن الأسير هـو الملك ، وأعطـى السلطان اوامره فنصبوا خيمة ملوكية لدايوجنيس واخذوه الى هناك ووضعوا قيودا حديدية حول معصميه ورقبته ، وارسل مئة من الترك ليقيموا الحراسة حوله.

وفي الصباح أمر السلطان فـأحضر دايوجنيس أمـامه فضربـه بيده اربعة مقارع وخاطبه :

يا هذا كيف لم تصغ لي عندما خاطبتك مـن أجـل السـلم ؟ ثـم إن دايوجنيس الذي كان حكيما ورجلا حاذقا قال كلمات متـزنة : لقـد قصرت في كل هذه الأشياء التي هي ممكنة لرجل والتي يمكن للملك أن يصنع ، ولكن الله تمم ارادته ، والآن افعل ما تريده وجانب التـوبيخ فقال له السلطان : اصدقني ماذا كنت فاعل بي فيمـا لوسـقطت في يديك ؟ فأجابه (كل سوء لأن عدوا لايقابل عدوا الا ليعمل الشر له). فقال السلطان : لقد تكلم هـذا بـالصدق ، ولو انك أجبت بـطريقة تختلف عن هذه كنت سأقطع راسك ، والآن اخبرني ايضا ماذا تظن اني صانع بك ؟ فأجابه الملك واحد من ثلاثة أمور :

اولها : أن تقتلني ، وثانيها يمكن لك أن تشهرني في ممـالكك حتـى يعلم كل انسـان بنصرك ويراه ، وثـالثهما ليس مـن الضروري لي قولها لأنها ضرب من الخيال وبعيدة عن كل شيء يمكنك أن تصـنع . فقال السلطان : ولماذا تمنع نفسك عن قولها ؟ فأجاب دايوجنيس تلك ان ترسلني الى المدينة الملكية ، وانا ساكون كأحد اتبـاعك وعندمـا تطلبني سأتي ، وعندما تقول لي اصـنع هـذا سـأصنعه . فـأجاب السلطان : ليس لي نية في أن أصنع غير ذلك لأنك لم تكن جازعا.

ثم طلب السلطان منه دفع عشرة آلاف الف دينار حتى يفدي نفسـه. فقـال دايوجنيس لو أني أعطـي كل مملكة الروم ذلك شـيئا قليلا بالنسبة لما سأربحه ، لكن منذ أن اصبحت ملكا للروم قمـت بصرف اموال مملكة الروم على الجيوش التي قدتها.
ثم اطلق سراح دايوجنيس على شرط أن يدفع الف الف دينار كفدية وجزية سنوية قدرها ثـلاثمائة وسـتين الف دينار . وهـكذا أمـر

السلطان أن تنزع القيود الحـديدية عنه، وجلسـا معـا على مـرتبة واحدة كانت قد انتزعت منه . وأكل دايوجنيس وشرب مع السـلطان وطلب السلطان منه انطاكية والرها ومنبج ومنازكرد التي كان الروم قد أخذوها من العرب.

فأجاب دايوجنيس : عندما أعود الى مملكتي أرسل جيشا وقاتل من أجلهم وأنا سأرسل لهم بأن يسلموا ، ولكن اذا أرسـلت لهـم الآن فانهم لن يصغوا لي ، ثم تابع قوله اذا كنت سترسلني ابعثني بسرعة قبل أن يعين الروم ملكا ، وافعل ذلك حالا حتى وان كنت لاأسـتطيع أن أنفذ واحدا من هذه الشروط . وفعلا حصل هذا ، وأمر السلطان وعين مئة عبد وأميرين ليركبوا معه حتـى القسـطنطينية ، ورافقـه السلطان مسافة فرسخ واحد وعندما أراد السلطان أن يعـود ، أراد دايوجنيس أن يترجل ، ولكن السلطان منعه من الترجل ، وهكذا قبلا بعضهما وهما راكبين جنبا الى جنب وافترقا.

معركة منازكرد

(من تاريخ المسلمين لابن العميد « مخطوطة المتحف البريطاني ١٤٧ ـ و.ظ »)

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة سار السلطان الب أرسلان نحو اخلاط في اربعين الف فارس للقاء الروم ، فخرج اليه بطريق في جموع عظيمة ، فنصر عليهم السلطان وأسر مقدمهم فجدع انفه ، ثم وصل ملك الروم بنفسه فلقيه السلطان بمكان يعرف بالزهرة ، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة ، فقاتلهم السلطان يوم الجمعة فهزمهم ، وقتل المسلمون منهم يومهم وليلتهم مالا يحصى ، وأسر ملك الروم ، فاطلقه السلطان على أن يحمل الف الف وخمسمائة الف دينار ، وتقرر عليه قطيعة في كل سنة ثلاثمائة الف وستين الف دينار ، واطلاق كل اسير في الروم من المسلمين.

فلما وصل ملك الروم الى بلاده وجد الروم قد ملكوا غيره ، فأظهر الزهد ولبس الصوف ، وبعث الى السلطان مائتي الف دينار وجوهر قيمته تسعون الف دينار ، وحلف انه لايقدر على غير ذلك ، ثم قصد ملك الأرمن مستضيفا به فأجاره ملك الأرمن ، ونزل عليه ، فبعث الى السلطان أعلمه بذلك.

معركة منازكرد

(من كتاب البداية والنهاية لابن كثير " ١٢/ ١٠٠ ـ ١٠١ ")

وفيها (٤٦٣ هـ) اقبل ملك الروم ارمانوس في جحافل امثال الجبال من الروم والكرج والفرنج وعدد عظيم وعدد ، ومعه خمسة وثلاثون الفا من البطارقة مع كل بطريق مائتا الف فارس ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون الفا ومن الغز الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر الفا ، ومعه مائة الف نقاب وحفار والف روزجاري ، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير والف عجلة تحمل السلاح والسروج والعرادات والمناجيق ، منها منجنيق عدته الف ومائتا رجل ، وكان من عزمه قبحه الله أن يبيد الاسلام وأهله وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد ، واستوصى نائبها بالخليفة خيرا فقال له : ارفق بذلك الشيخ فانه صاحبنا ، ثم اذا استوثق ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام واهله ميلة واحدة فاستعادوه من أيدي المسلمين والقدر يقول :« لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون» (سورة الحجر ـ الآية: ٧٢) فالتقاه السلطان الب ارسلان في جيشه

وهم قريب من عشرين الفا بمكان يقال له الزهرة في يوم الاربعاء لخمس بقين من ذي القعدة ، وخاف السلطان من كثرة جند ملك الروم فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري أن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين ، فلما كان نلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفتيان نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره ، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، واسر ملكهم ارمانوس اسره غلام رومي فلما أوقف بين يدي الب ارسلان ضربه بيده ثلاث مقارع وقال : لو

كنت انا الأسير بين يديك ما كنت تفعل ؟ فقال : كل قبيح ، قال : فما ظنك بي ؟ فقال : اما أن تقتلني أو تشهر بي في بلادك واما أن تعفو عني وتأخذ الفداء وتعيدني قال : ما عزمت على غير العفو والفداء ، فافتدى نفسه منه بالف الف دينار وخمسمائة الف دينار ، فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض الى جهة الخليفة اجلالا واكراما ، واطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها واطلق معه جماعة من البطارقة ، وشيعه فرسخا ، وأرسل معه جيشا يحفظونه الى بلاده معهم راية مكتوب عليها لا اله الا الله محمد رسول الله ، فلما انتهى الى بلاده وجد الروم قد ملكوا عليهم غيره ، فأرسل الى السلطان يعتذر اليه وبعث من الذهب والجواهر ما يقارب ثلاثمائة الف دينار.

معركة منازكرد

(من تاريخ دول الاسلام للذهبي «مخطوطة المتحف البريطاني ٥٩ - و-ظ»)

وفيها تم مصاف لم يسمع مثله بين الاسلام والشرك خرج أرمانوس طاغية الروم في مائتي الف من الروم والفرنج والغز الكفرة والروس والكرج وهو في تجمل عظيم يقصد بلاد الاسلام ، فوصل إلى اعمال خلاط ، وكان الب ارسلان ببلد خوي فبلغه كثرة العدو وهو في خمسة عشر الفا فقال : انا التقيهم وأستعين بالله فإن سلمت بنعمة الله وان كانت الشهادة فالأمر لله وابني ملكشاه ولي عهدي ، فوقعت طائفة على طلائع رومانوس فأسر المسلمون مقدمهم فأحضر إلى السلطان فقطع أنفه .

فلما إلتقى الجمعان بعث السلطان يطلب المهادنة فقال ارمانوس لا هدنة إلا بإعطاء الري ، فإنزعج السلطان فقال له إمامه : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على الأديان وأرجو أن يكون الله قد كتب اسمك بهذا الفتح ، فلما كان وقت الساعة التي يكون خطباء الاسلام يوم الجمعة على المنابر صلى السلطان وبكي وبكى الامراء ودعا وأمنوا ، فقال : يا أمراء من أراد أن ينصرف فلينصرف فما ها هنا سلطان يأمر وينهي ، والقى قوسه ثم جرد سيفه وعقد ذنب فرسه بيده وفعل الجيش مثله ولبس البياض وتحنط للموت ، ثم زحف بجيشه فلما خالطوهم ترجل السلطان وعفر وجهه بالتراب واكثر الدعاء والبكاء ، ثم ركب وحمل هو والجيش فحصلوا في وسط العدو وقتلوا فيه كيف شاؤوا ، ونزل النصر وامتلأت الارض بالقتلى فإنهزم العدو وأسر ملكهم الأعظم ارمانوس ، فلما حضر بين يدي السلطان ضربه بالمقرعة وقال : الم ابذل لك في الهدنة ؟ قال : دعني من التوبيخ ، قال : فما كان عزمك أن تفعل بي لو أسرتني ؟ قال : كل

قبيح ، قال : فما تظن انني افعل بك ؟ فقال : إما أن تقتلني أو تشهرني في بلادك والثالثة بعيدة وهي العفو ، وقبول المال واصطناعي ، قال : ما عزمت على غير ذا ، ففدى نفسه بألف الف وخمسمائة الف دينار وأن يطلق كل اسير في ممالكه ، فأنزل في خيمة وخلع عليه واطلق له جماعة من بطارقته ، فكشف ارمانوس رأسه وسجد إلى جهة الخليفة ، وهادنه السلطان خمسين سنة .

معركة منازكرد

(من كتاب اتعاظ الحنفا للمقـريزي «حـوادث سـنة ٤٦٢ مـن مخطوطة أحمد الثالث »)

فيها (٤٦٣ هـ) بعث ناصر الدولة حسين بـن حمـدان الفقيه أبـا جعفر محمد بن أحمد البخاري رسولا إلى السلطان الب ارسلان ملك العراق ، يسأله أن يسير إليه العسكر ليقيم الدعوة العباسية بـديار مصر وتكون له ، فتجهز الب ارسلان من خراسان في عساكر عظيمة وبعث الى محمود بن نصر بن صالح بن مرداس صـاحب حلب أن يقـطع دعوة المسـتنصر ، ويقيم الدعوة العبـاسية ، فقـطعت دعوة المستنصر من حلب ولم تعد بعد ذلك.

وانتهى الب ارسـلان إلى حلب في جمـادى الأولى سـنة ثـلاث وستين ، وحاصرها شهرا فخرج إليه صاحبها محمود بن صالح بـن مرداس ، فأكرمه وأقره على ولايته ، وأخذ يريد المسير إلى دمشـق ليمر منها إلى مصر ، وإذا بالخبر قد طرقه بأن متملك الروم قد قـطع بلاد أرمينية يريد أخذ خراسان ، فشغله ذلك عن الشام ومصر ورجع إلى بلاده ، فواقع جمائع الروم على خلاط وهزمهم ، وكان قد تـرك طائفة من عسكره الأتراك ببلاد الشام فامتدت أيديهم إليها وملكوها كلها ، فخرجت – من – أيدي المصريين ولم تعد إليهم .

معركة منازكرد

(من الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية لابـن أيبـك الدواداري . « ٣٩٢ - ٣٩٦ »)

ثم وردت الأخبار على السلطان الب ارسلان أن ملك الروم خرج في جمـوع عظيمـة وورد الى منبـج وارجيش ومنازكرد ، فـرجع السلطان وبلغ ملك الروم أن السلطان في عسكر خفيف فطمع في لقائه ووصل الخبر الى السلطان بما عزم عليه ملك الروم وطمعـه فيه لقلة جيوشه ، وكان قد بقي في اربعة آلاف فارس فقال لوجوه عسكره:

انا صابر في هذه الغزاة صـبر المحتسـبين وصـائر إلى مصـير المخاطرين فإن سلمت فذلك ظني بالله تعالى وإن تكن الأخرى فـأنا أعهد إليكم أن تسمعوا وتطيعوا لولدي ملك شـاه وتقيمـوه مقـامي فقالوا : سمعنا واطعنا . وقصد الروم جـريدة مـع كل غلام فـرس يركبه وآخر يجنبه ، وسـار بنية خـالصة لا يخـالطها كدر الغـزاة المشركين وقدم قدامه احد حجابه في جماعة من الجند ، فصادف عند اخلاط مقدمة الروم عشرة آلاف من الروم ، فالتقاهم ذلك الحـاجب وكان في ثمان مائة فـارس فنصره الله عز وجـل على تلك الجمـوع بمعونة الله تعالى ، واسر مقدم الجيش وكان مـن الروس ، واخـذ صليبهم وانفذ الجميع إلى السـلطان فسره ذلك وعلم انهـا علامـة النصر .

وصل ملك الروم الى منازكرد في تلك الجموع العـظيمة ممـا يزيد عن مئة الف فارس ومئة الف جرخي واربع مـئة الف عجلة تجـرها ثمان مئة جاموسة عليها نعال ومسامير بـرسم الخيول والف عجلة أخرى عليها السلاح والمناجيق والات الحصار . وكان في خزائنه الف الف دينار ومئة الف ثوب ابرسيم وخرج في نية انه يطأ الأرض ويفتح

مصر والشام واقطعها للبطارقة وأوصى على بغداد وقال : لا يتعرض أحد الى دار الشيخ الصالح يعني الخليفة فإنه صديقنا.

وكان قد اجتمع مع السلطان الب ارسلان تقدير عشرة الاف من الاكراد والمجتمعة من سائر الناس ، فلما كان نهار الجمعة قال السلطان وقد جمع وجوه أصحابه إلى متى هذا التأخير ؟ أريد أن أطرح نفسي عليهم هذا اليوم وقت الصلاة الذي الناس جميعهم من المسلمين يدعون لنا بالنصر على المنابر ، فإن نصرنا الله عز وجل عليهم وإلا متنا شهداء ، فمن احب أن يتبعني فليتبع ، ومن أحب الحياة فلينصرف و لا عتب عليه فما ها هنا اليوم سلطان وإنما انا واحد منكم ، فقالوا جميعهم : لا حياة لنا بعدك ومهما اخترته لنفسك اخترناه لأنفسنا ، فلما كان وقت الصلاة اصطفت العسكران ، فعندها قام السلطان في سرجه ورمى القوس من يده وتناول لت حديد وفعل جميع أصحابه كفعله ، وصاح الله أكبر فتح الله ونصر ، وحمل على الروم حملة صادقة وحملوا جميع أصحابه بقلوب موافقة فلم يقف الروم قدامهم و لا طرفة عين لتلك الحملة المذكرة ، ونصر الله الاسلام وكسروا عبدة الصلبان والاشخاص والأصنام ، وركبوا أكتافهم قتلا وأسرا ، وتبعهم السلطان بقية يوم الجمعة مع ليلة السبت وهو يقتل ويأسر ، فلم ينج منهم إلا القليل النادر وغنم جميع ما كان معهم ورجع إلى مكانه ، فدخل عليه بعض الأمراء الذي له ، وقال : إن احد مماليكي أسر ملك الروم ، وكان هذا المملوك قد أعرض على نظام الملك فاحتقره ولم يجز عرضه واسقطه وقال مستهزئا به : لعله يأتينا بملك الروم ، فأسر الله ملك الروم على يده لكسر قلبه ، فأمر السلطان بعض الخدام عنده ممن كان يعرف ملك الروم أن يتوجه ويكشف عن حقيقة أمره ، فلما رآه عرفه ، فعاد إلى السلطان واخبره بذلك ، فأمر له ووكل به من يحفظه ، وأحضر السلطان الغلام الذي أسره واخلع عليه وأعطاه وقدمه واقطعه غزنة وجعله من خاصته .

ثم إن السلطان احضر ملك الروم يرفل بقيوده فرفسه برجله ثم

قال له : ما الذي تريدني أن افعل بك ؟ قال : إحدى من ثلاث ، الأولى قتلي واعدامي الحياة ، والثانية إشهاري وسجني والثالثة لا فائدة من ذكرها فانك لا تفعلهاقال السلطان : وما هي ؟ قال : تعفو عني وتصطنعني وتتخذني خادما ما بقيت من عمري فقال السلطان : إني لم أنو الا العفو عنك فاشتر الآن نفسك فقال :يقول السلطان ما شاء فقال الف الف دينار ، ثم استقر بينهما الحال على ما احب السلطان الف الف دينار وان يتقدم إلى عساكر الروم بجميع ما يحتاج اليه المسلمون من سائر ما في بلاد الروم ، ثم حل وثاقه واخلع عليه ونصب له سرير إلى جانب سريره فقال ملك الروم : عجل بانفاذي قبل أن تقيم الروم لهم ملكا غيري.فقال له السلطان : اريد أن تعيد الينا ما أخذته من بلادنا وهو الرها ومنبج ومنازكرد وتطلق سائر اسير عندك من المسلمين فقال : أما البلاد فإذا وصلت سالما الى بلدي انفذت بتسليمها اليكم فانهم الآن لا يسمعون مني ، وأما أسارى المسلمين فاني قد كنت عاهدت الله عز وجل ونذرت من قبل أن تعفو عني اني متى رديت الى بلادي سالما أعتقت كل أسير عندي وانا فاعل ذلك .

ثم أن السلطان رده الى خيمته ، ورتب له ما يصلح لمثله من سائر ما يحتاج اليه ، ثم انه اقترض عشرة آلاف دينار وفرقها على الحاشية
فلما كان بعد ثلاثة ايام أحضره السلطان وتلقاه ، وقام له قائما وأجلسه على سريره الذي كان له وكسب منه ، واخلع عليه ثانيا بأحسن من الأولى وعقد له راية بيضاء مكتوب عليها بالسواد لا إله إلا الله محمد رسول الله وانفذ معه حاجبين ومئة غلام مع سائر ما يحتاج اليه الملوك من الآلات ، وركب معه بنفسه وشيعه مقدار فرسخ وتعانقا وتودعا وسار الى القسطنطينية .

الحواشي والهوامش

الفصل الأول

إن مهمة هذا المجلد لن تتجاوز الحديث عن قيام السلطنة السجلوقية بداية تاريخ التركمان ثم هجرتهم إلى خراسان واستيلاء السلاجقة على هذا الصقع .

١ ـ أخبار الدولة السجلوقية ، ٢ .
٢ ـ الراوندي ، راحة الصدور ، ٥٦ .
٣ ـ الغزالي ، التبر المسبوك ، ٦٤ ـ ٦٥ .
٤ ـ ما تزال بقايا هذا الاعتقاد قائمة وتظهر بشكل عفوي وتصدر من أفواه الكثيرين من مواطني هذا البلد ، ولكم سمعت بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ : «ان على العرب أن يتركوا محاولات التحرير والحرب ويسألوا الأتراك وتركية القيام بهذا العبء عنهم» ، بل أغرب من هذا ما يردد بين صفوف كثير من الناس حتى المثقفين منهم : «لو بقيت البلاد العربية قطعة من الامبراطورية العثمانية التركية لما قامت اسرائيل ولما عاشت» ، ناسين أن الذي أقام اسرائيل وأمدها بالحياة وما زال يمدها ـ يحكم تركية بشكل فعلي منذ أمد غير قصير .
٥ ـ صورة الأرض لابن حوقل ، ٣٨٧ ، المسالك والممالك للاصطخري ، ١٦٣ ، وينصح بقراءة كتاب D.M.Dunlop, The History of the Jewish Khazars, New York, 1967.
٦ ـ هو أبو جعفر محمد بن أحمد البخاري ، أرسله ناصر الدولة الحمداني من مصر كي يستدعي ألب أرسلان ليقوم بالقضاء على الخلافة الفاطمية ، وهي مسألة سيتعرض لها في المستقبل بشكل أكثر تفصيلا ، انظر زبده الحلب ٢/٢٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٨٣ و .
٧ ـ وصلنا كتاب الكاشغري كاملا وقد طبع في ثلاث مجلدات في الأستانة سنة ١٣٣٣ هـ ، ولم يصلنا كتاب ملك نامه سوى خلال بعض النقول عنه ، انظر بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٨٦ . ظ .
٨ ـ لعل وجود الاعتقاد بالجن لدى المسلمين كان من الأسباب التي ساعدت على اعتناق التركمان لهذا الدين لتوفر هذه العقيدة لديهم ، وربما استغلت هذه العقيدة من قبل الدعاة الصوفية الذي سببوا تحول التركمان إلى الاسلام .
٩ ـ انظر الكاشغري ، ١/٢٣٨ ، ٢٩٠ ، ٢١ ، ٣٤٦ ـ ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣/٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، مختصر كتاب البلدان ، ٣٢٩ ، الكامل ، ٨/٩٨ ،

The Ghaznavids, 205

١٠ ـ هذه مسألة هامة تحتاج إلى مزيد من البحث ، وكتاب Mircea Elide بالفرنسية والمترجم إلى الانكليزية باسم Shamanism Archiac Techniques of Ecatasy, London 1964 هو خير كتاب أعرفه يعالج الديانة

الشامانية معالجة علمية جيدة ، وقراءة هذا الكتاب قد تساعد على فهم وحل بعض مشاكل التاريخ الفكري للاسلام ، كما تساعد أيضاً على فهم تاريخ المغول الذين تحركوا بزعامة جنكيز خان .

١١ - الكاشغري ، ١/٤١ - ٤٢ ، ٥١ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٨٣ - ٨٥ ، ١٠١ - ١٠٣ ، ١٦٩ ، ٣٠٣ ، ٣/٣٠٤ - ٣٠٧ .

١٢ - مختصر الكتاب البلدان ، ٣٢٩ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٣٦ ، صورة الأرض لابن حوقل ، ٣٨١ ، الاعلاق النفيسة ، ٢٩٥ ،

Hudud al- 'Alam 94,99; Turkestan, 64-65; The Lands of the Eastern caliphate 433-4.

١٣ - الشاهنامه ، الترجمة العربية ، ١/٤٢ - ٤٣ ، ١٠١ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ١٥ - ١٦ ، The Ghaznavida, 205 .

١٤ - رسالة في مناقب الترك ، ٥ - ٦ .

١٥ - تاريخ بخارى ، ١٩ - ٢١ .

١٦ - انظر أحسن التقاسيم ٣٢٥ - ٣٢٦ ، Hudud al-'Alam, 111-120

Turkestan, 235-8, 255-6 Four studies on the History of central Asia, 1, 19-20.

١٧ - الاعلاق النفيسه ، ٢٩٥ .

١٨ - مختصر كتاب البلدان ، ٣٢٩ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٣٦ ، الاعلاق النفيسه ٢٩٥ .

١٩ - تاريخ بخاري ، ٨٦ - ٨٧ ، ١٠٥ - ١٤٩ ، ،

Four studies on the History of central Asia 1,12-13, 21; Turkestan, 222-45; The Cambridge History of Iran, V, 10-11; The Ghaznavids, 27-34; the Islamic Dynasrties, 101-102.

٢٠ - تاريخ بخاري ١٤٣ - ١٤٩ ، الكاشغري ، ١/٣٩٣ ،

Four studies on the History of central Asia 21-26; Turkestan, 245-305; The Islamic Dynasties, 112-114; the Cambridge History of Iran, V, 11-12.

٢١ - تاريخ بخاري ، ١٣١ - ١٣٣ ،

Four studies on the History of central Asia 1, 25-26; Turkestan, 274-302; The Cambridge History of Iran, V. 11-16; The Islamic Dynasties, 181-183; ان كتاب C.E.Bosworth The Ghaznavids, Edinbergh, 1963, هو أحسن ما كتب حتى الآن عن تاريخ الغزنويين . Four studies on the History of central Asia 1,25 .

٢٢ - تاريخ بخاري ١٣١ - ١٣٣ ،

Four studies on the History central Asia 1,25-26; Turkestan, 274-302; The Combridge History of Iran, V. 11-16; the Islamic Dynasties, 181-183; The Ghaznavids .

٢٣ - مصادر الحاشية الماضية ، تاريخ البيهقي ، ٤٣٧ .

٢٤ - ابن فضلان ، ٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ ،

The Combridge History of Iran, V. 16-17.

٢٥ - الكاشغري ، ٢/٢٤ ، ٣/١١٧ .

٢٦ - The Ghaznavids, 210; The Cambridge History of Iran, V. 16.

٢٧ - صورة الأرض لابن حوقل ، ٣٨٧ .

٢٨ - Hudud al'Alam, 44.

٢٩ - انظر المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ٢٧٤ .
٣٠ - الكاشغري ، ١/٢٧ - ٢٨ ، ٥٦ ، ٣٩٣ ، وفي ٣/٣٠٤ ، يقدم الكاشغري قصة اسطورية طويلة تذكر بأن الاسكندر ذي القرنين هو أول من أطلق هذا الاسم ، ويوحي هذا بقدم الاسم ، كما توحي القصة بشموله لعدد من طوائف الترك ، انظر أيضاً The Ghaznavids, 214 .
٣١ - الكاشغري ، ١/٥٦ - ٥٨ ،

The Ghaznavids, 219; The Cambridge History of Iran, V, 17.

٣٢ - بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٨٦ ظ ، ورسم ابن العديم في مكان آخر من كتابه ٣/٢٧٩ ظ اسم دقاق بالتاء «تقاق» ، وقال : تقاق بالتركية معناه القوس من الحديد ، وهذا ما نقله ابن الأثير ٨/٢٢ ، والحسيني في أخبار الدولة السلجوقية ، ١ ، انظر أيضاً راحة الصدور ، ١٤٥ - ١٤٦ وعنده أن يونس هو اسم الذي توفي في زمان شبابه ،

The Ghaznavids, 219; the Combridge History of Iran, V. 17.

٣٣ - دولة آل سلجوق ، ٥ - ٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١ - ٣ . الكامل ٧/٢٩٦ - ٩٧ ، ٢٢/. - ٢٣ ، راحة الصدور ، ١٤٥ - ١٥٣ .
٣٤ - راحة الصدور ، ١٤٨ - ١٥١ .
٣٥ - .The Ghaznavids, 223-224 وقد شك المستشرق الفرنسي كلود كاهين بأن شيئاً من هذا القبيل قد وقع في مثل هذا التاريخ وقد فعل ذلك في معرض رده على مقال كان ابراهيم كافس أوغلو أستاذ التاريخ التركي في جامعة استانبول قد برهن فيه على صحة تاريخ هذا الحادث ولقد ذكر لي الاستاذ ابراهيم شخصيا بأنه مؤخراً على أدلة جديدة تثبت ما ذهب اليه وتدحض شكوك كاهين .
٣٦ - أخبار الدولة السلجوقية ، ٣ ، دولة آل سلجوق ، ٥ ، الكامل ، ٨/٢٢ - ٢٣ ، ياقوت معجم البلدان ، The Ghaznavids, 224 .
٣٧ - راحة الصدور ، ١٥٤ .
٣٨ - الكامل ، ٧/٢٣٧ - ٣٣٩ ، راحة الصدور ، ١٥٤ .
٣٩ - البيهقي ، ١٢ - ١٣ ، ٦٧ ، ٧٣ - ٧٤ ، ١٣٩ - ١٤١ ،

The Ghaznavids, 227-228.

٤٠ - البيهقي ، ٦٨ ، ٤٢١ - ٤٢٣ .
٤١ - البيهقي ، ٤٣٧ .
٤٢ - البيهقي ، ٤٧٤ - ٤٧٥ ، الكامل ، ٨/٢٣ ، راحة الصدور ، ١٥٤ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ ،
The Ghaznavids, 225-226 the Combridge History of Iran, V. 18-19.
٤٣ - البيهقي ، ٤٤٩ - ٥٠٢ - ٥٠٦ ، الكامل ٧/٣٣٨ - ٣٣٩ ٨/٢٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، راحة الصدور ، ١٥٤ - ١٥٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ ، رسالة ابن فضلان ٩٧ ، الكاشغري ، ٣/١٩ ، مفاتيح العلوم ، ٧٣ ،

The Ghaznavids, 225-226; the Combridge History of Iran, V. 19-20.

٤٤ - البيهقي ، ٥٠٢ - ٥٢٨ ، راحة الصدور ، ١٥٥ - ١٥٦ ، الكامل ، ٨/٢٣ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤ - ٥ ،

The Ghaznavids, 241-242; the Combridge History of Iran, V. 19-20.

٤٥ - البيهقي ، ٥٢٨ - ٥٣١ ، راحة الصدور ، ١٥٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٥ ، الكامل ، ٨/٢٣ -

، ٢٥
The Ghaznavids, 242; the Combridge History of Iran, V. 20.

٤٦ - The Ghaznavids, 243.

٤٧ - البيهقي ، ٥٣٥ - ٥٣٦ ، راحة الصدور ، ١٥٧ .

٤٨ - البيهقي ، ٥٤٤ - ٥٤٥ ، أخبار الدولة السجلوقية ، ٧ ،
The Ghaznavids, 242-234.

٤٩ - البيهقي ، ٥٤٥ ، ٥٨١ - ٥٩٣ ، الكامل ١٧/٨ ، ٢٤ - ٢٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٥ - ٩ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦ ، راحة الصدور ، ١٥٨ ،
The Combridge History of Iran, V. 20.

٥٠ - هذه حادثة صارخة عن طبيعة العلاقات بين الحاكم والمحكوم والمحكوم في دول الخلافة العباسية ، وتبين النظرية والقاعدة السياسية للحكام ، وهي جديرة بالاهتمام والتعقب .

٥١ - ربما مما ربحوه من القوات الغزنوية ولاظهار الأبهة فقط .

٥٢ - البيهقي ، ٥٩٤ - ٦٠٤ ، الكامل ، ٢٥/٨ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٩ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦ - ٧ ،
The Ghaznavids, 244-245; the Combridge History of Iran, V. 20.

٥٣ - البيهقي ، ٦٠٥ - ٦٠٧ ، ٦١٥ ، ٦٢١ ، ٦٢٤ - ٦٢٥ ، ٦٨٠ - ٦٩١ ، راحة الصدور ، ١٦٢ - ١٦٥ ، الكامل ٢٥/٨ - ٢٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٩ - ١٢ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ ،
The Ghaznavids, 243-258; the Combridge History of Iran, V. 21-23.

٥٤ - يبدو أنه كان زوجا لامها ولم يكن أخا لوالدها .

٥٥ - راحة الصدور ، ١٦٥ هذا وان مثل هذا النوع من القصص التي تحض على التوحيد كثيرة في الادب العربي منها ما قام به المهلب بن أبي صفرة مع أولاده قبيل وفاته وسوى ذلك ، ولعل الراوندي أو سواه قد اخترع هذه القصة !!

٥٦ - راحة الصدور ، ١٦٦ - ١٦٧ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧ - ٨ .

٥٧ - هناك خلاف بين المؤرخين حول تاريخ هذا الحادث فالبعض يجعله ٤٣٥ هـ . انظر : أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ ، راحة الصدور ، ١٦٧ - ١٦٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ ، ابن القلانسي ، ٨٣ ، تاريخ العظيمي ، ١٧١ ظ - ١٧٣ ظ ، المنتظم ، ٩٩/٨ ، ١٠٧ ، ١٣٧ ، الكامل ، ٣٨/٨ ، ٤٤ ، مرآة الزمان - مخطوطة المتحف البريطاني ، ٢٣٣ و ، البستان الجامع ، ٨٧ - ظ ، التاريخ المنصوري ، ٧٢ - ظ ، الاعلاق الخطيرة - قسم قنسرين مخطوطة المتحف البريطاني ، ٨١ - ظ ، ابن العميد ، ٥٤٠ - ٥٤١ ، ابن جنغل ، ٢٢٠/٤ - ظ ، عيون اخبار الاعيان لاحمد البغدادي - مخطوطة المتحف البريطاني ، ٢١٩ - ظ .

الفصل الثاني

١ - كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد المتوفي سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤١ م ، مخطوطة لندن ١٩١ وظ ، نسخة تركية ، ١٢٢ ظ - ١٢٣و .

٢ - صورة الارض لابن حوقل ، ١٥٣ ، الاعلاق النفسية ، ١٠٧ ، مختصر كتاب البلدان ، ٩١ - ٩٢ ، الاصطخري ، ٤٢ ، أحسن التقاسيم ، ١٨٦ ، معجم البلدان ، مادة الشام .

٣ - انظر تاريخ خليفة ، ٣٢٦/١ ، الطبري ، ٥٤٠/٥ - ٥٤٢ ، ابن عساكر ، ٢١١/٦ و - ٢١٢ ظ .
Hudud al-'Alam 148; Nuzhat al-Qulub, 262.

٤ - ديوان ابن أبي حصينة ، ١٥٩/١ - ١٦٣ ، وخاصة قوله :

فما رعت حقنا كلب ولا حفظت ... لنا الصنيعة قحطان ولا أدد
قصدت الشام اذ غابت فوارسه ... والذئب يرقص حتى يحضر الاسد
وأطمعتم جاه في ممالكنا ... والمطمع السوء مقرون به الحسد

انظر أيضاً ، مرآة الزمان حوادث سنتي ٤٥٢ هـ و٤٧١ هـ (مخطوطة أحمد الثالث) ، سيرة المؤيد في الدين ، ١٠١ ، هذا وسنبحث ثورة البساسيري ودور المؤيد في الدين فيها في فصل مقبل بشيء كبير من التفصيل .

٥ - انظر ابن القلانسي ، ٢ - ٢٤ ، مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، ٨٧ - ٩٥ .

٦ - The Emirate of Aleppo, 37-42 96-101.
الحمدانية هم حكام حلب زمن العزيز الفاطمي ودغفل بن جراح كان أمير طيء وقد حاول أكثر من مرة أن يستقل بفلسطين وينفرد بحكمها دون الفاطميين .

٧ - ابن القلانسي ، ٩٦ - ٩٧ ، ١٢٠ ، الكامل ١٥٠/٨ .

٨ - انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، ٦٤ - ٧٦ .

٩ - ابن القلانسي ، ١٣٩ ، الكامل ، ١٩٩/٨ - ٢٠٠ .

١٠ - صبح الأعشى ، ٣٤٠/١ ، قلائد الجمان ، ١١٦ .

١١ - صورة الأرض ، ٢٠٥ ، انظر أيضاً جمهرة ابن حزم ، ٢٧٤ - ٢٧٥ ، بغية الطلب ، أياصوفيا ، ٤٨٢ - ٤٨٤ ، ابن خلدون ٥٤٥/٤ ، صبح الأعشى ، ٣٤٠/١ - ٣٤٣ .

١٢ - صورة الأرض ، ١٩١ - ١٩٢ ،

The Emirate of Aleppo, 69-84.

١٣ - The Emirate of Aleppo, 89.

١٤ - أحسن التقاسيم ، ١٣٥ - ١٣٧ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٩٤ - ٩٧ ، الاعلاق النفيسة ، ١٠٦ ، مختصر كتاب البلدات ، ١٢٨ ، الاصطخري ، ٥٢ ، صورة الارض ، ١٨٩ ، معجم البلدان ، آثار البلاد للقزويني ، ٣٥١ ، تقويم البلدان ٢٢٣ ، نخبة الدهر ، ١٩٠ . Hudud al-'Alam,140 .

١٥ - The Emirate of Aleppo, 97-101.

١٦ - ابن القلانسي ، ١٠٦ - ١٠٧ ، العظيمي ، ١٨٩ و ، تاريخ ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، الكامل - طبعة ليدن - ٣٣٣/٩ - ٣٣٤ ، مرآة الزمان حوادث سنة ٤٣٣ هـ و٤٧٤ هـ اتعاظ الحنفاء حوادث ٤٣٣ هـ ، زبدة الحلب ، ٣٤/٢ - ٣٦ - ٤٠ - ٤١ ، ٧٥ - ٧٩ ، بغية الطلب - أحمد الثالث - ١٤٣/٧ و ، ابن

العميد ، ٥٦٨ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و - ظ ، تاريخ الاسلام للذهبي - OR 50 - ١١٧ ، النجوم الزاهرة ١١٣/٧ - ١١٤ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٧٤/١ .

١٧ - انظر The Emirate of Aleppo, 235-254 ومثال على ردات الفعل ما حدث في حلب سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م ، فلقد كان في حلب عدداً من الكنائس أشهرها واحدة ينسب أمر بنائها الى القديسة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الكبير المتوفية سنة ٣٢٧ م ، وفي سنة ٥١٨ هـ حوصرت حلب من قبل جيش صليبي ، وقام هذا بنبش بعض مقابر المسلميـن التي كانت واقعة خارج أسوار حلب ، فما كان من قاضي حلب محمد بن يحيى الخشاب إلا أن استولى على أربعة كنائس من الست كنائس التي ملكها نصارى حلب وحولها جميعاً الى مساجد ، وما زالت هذه المساجد معروفة في حلب . انظر زبدة الحلب ، ٢/٢٢٤ ، الاعلاق الخطيرة ، ٣١/١ ، ٤١ ، ٤٥ - ٤٦ ، الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ، ٥٩ - ٦٢ ، ٦٧ .

١٨ - معجم الادباء (عثمان بن عبدالله الطرسوسي) ، بغية الطلب ، أبا صوفيا ، ٥١ و ٧١ ظ ، تاريخ أخبار القرامطة ، ٩٢ .

Encyolopaedia of Islam, hew Edn, London 1960, Ahdath.

١٩ - ابن القلانسي ، ٣ - ٥٤ ، مختارات من كتابات المورخين العرب ، ٨٧ - ٩٥ ، تاريخ أخبار القرامطة ، ٩٥ - ١٠٨ ، المقفى ، مخطوطة برتو باشا ، ٣٠٦ و- ٣١١ ظ ، ٣١٢ ظ - ٣١٣ و .

٢٠ - لقد بحثت أمر أحداث شمال بلاد الشام بشكل مفصل في كتابي بالانكليزية .The Emirate of Aleppo pp .255-261 فليراجع .

٢١ - انظر ذيل مسكوية ، ١٧٦ - ١٧٩ ، الكامل ٩٨/٧ . دولة بني عقيل في الموصل ، ٥٠ - ٥١ .

٢٢ - ذيل مسكويه ، ٢٨٠ - ٢٨٤ ، الكامل ١٨١/٧ - ١٨٢ .

٢٣ - ذيل مسكويه ، ٢٨٩ - ٣٩٠ ، الكامل ٢٠٩/٧ - ٢١٠ .

٢٤ - دولة بني عقيل بالموصل ، ٥٧ - ٥٨ .

٢٥ - ذيل تجارب الامم ، ١٧٦ - ١٧٨ ، تاريخ الفارقي ، ٤٩ - ٥٨ ، الكامل ، ١٢١/٧ - ١٢٢ ، ١٤٢ .

٢٦ - صورة الأرض ، ١٩٥ ، ذيل تجارب الامم ، ١٧٨ - ١٨٠ ، الكامل ، ١٤٣/٧ - ١٤٤ ، تاريخ الفارقي ، ٥٩ . . . . ،

The Islamic Dynasties, 53-54.

٢٧ - المنتظم ، ١١٧/٨ ، العظيمي ، ١٧١ ظ - ١٧٢ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٥ ظ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ ، الكامل ، ٣٤١/٧ - ٣٤٤ ، التاريخ المنصوري ، ٧٢ ظ ، تاريخ دول الاسلام للذهبي ، ١٩٩/١ ، البستان الجامع ، ٨٧ و ، حوادث السنين ، ١٤٢ و ، ابن العميد ، ٥٤٠ - ٥٤١ ، الدرة المضية ، ٣٥٥ .

٢٨ - المنتظم ، ١٣٦/٨ ، الكامل ٥٠/٨ ، ٩٣ .

The Buwayhid Dynasty of Baghdad, 112-13.

٢٩ - المنتظم ، ١١٩/٨ ، ١٢٧ ، ١٥٩ - ١٦٥ ، العظيمي ، ١٧٧ ظ - ١٧٨ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٦ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٨ - ٩ ، تاريخ الدولة العباسية - لمؤلف مجهول - ، ٩٤ ظ - ٩٦ و ، الكامل ، ٤٠/٨ ، ٤٢ ، ٦٧ - ٦٨ - ٧٠ - ٧٢ ، العبر للذهبي ، ٢١٢/٣ ، النجوم الزاهرة ، ٥٧/٥ ، انظر أيضاً ترجمة البساسيري الملحقة في آخر الكتاب ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ - ١٨ ، راحة الصدور ، ٦٩ - ١٧٠ ،

Bar Hebraeus, 207; The Buwayhid Dynasty of Baghdad, 113-115; Pre-Ottoman Turkey, 23-24;

History of the crusades, by, M.W. Balduin, I,143-145.

٣٠ ـ مسيرة المؤيد في الدين ، ١٠٠ ـ ١٢٩ ، العظيمي ، ١٧٨ و ، المنتظم ، ١٦٣/٨ ، ابن ميسر ، ٨/٢ ، الكامل ٨١/٨ ، ترجمة البساسيري الملحقة بهذا الكتاب ، مرآة الزمان ، سويم ، ـ ٥ ، النجوم الزاهرة ، ٥٧/٥ ، العبر ، ٢١٢/٣ ، ٢١٥ ،

The Emirate of Aleppo, 148-150.

٣١ ـ سيرة المؤيد ، ١٢٩ ـ ١٣٥ ، الكامل ، ٧٧/٨ ، مرآة ، سويم ، ٤ ـ ١٤ ، العبر للذهبي ، ٢١٥/٣ .

٣٢ ـ سيرة المؤيد في الدين ، ١٢٩ ـ ١٨٤ ، العظيمي ، ١٧٨ و ـ ظ ، ١٨٤ و ، ابن القلانسي ، ٨٦ ، المنتظم ، ١٦٤/٨ ـ ٢١٢ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٦ و ـ ١٢٧ و ، ابن ميسر ، ٧/٢ ـ ٨ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ١٧ ـ ٢١ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٩ ـ ١٧ ، راحة الصدور ، ١٧٢ ـ ١٧٦ ، تاريخ الفارقي ، ١٥٢ ـ ١٦٠ ، الكامل ، ٧٢/٨ ـ ٨٧ ، تاريخ الدولة العباسية ، ٩٥ و ـ ٩٦ و ، مرآة الزمان ـ سويم ، ٤ ـ ٦٧ ، زبدة الحلب ، ٢٧٣/١ ـ ٢٧٤ ، ترجمة البساسيري الملحقة في آخر هذا الكتاب ، ابن العميد ، ٥٤٤ ـ ٥٤٥ ، اتعاظ الحنفا ، حوادث سنة ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ هـ ، المقفى ـ مجلد برتو باشا ، ٢٩٢ و ، تاريخ الاسلام الذهبي ، OR 50 ٢٤ ظ ، دول الاسلام ٢٠٦/١ ، العبر للذهبي ، ٢١٥/٣ ـ ٢١٨ ، المختصر في أخبار البشر ، ١ ـ ١٤٩ ، ١٧٨ ، الدرة المضية ، ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، ابن خلدون ، ٥٨٥/٤ ، عقد الجمان ، ٥٧٨/١١ ، ابن جنغل ٢٠١/٤ ظ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ، البستان الجامع ، ٨٩ و ، النجوم الزاهرة ، ٦٧/٥ ،

Bar Hebraeus, 207, Pre-Ottoman Turkey, 24-25.

٣٣ ـ المنتظم ٨ ـ ١٨٥١ ، البداية والنهاية ، ٦٤/١٢ ، النجوم الزاهرة ، ٥٤/٥ ـ ٥٥ .

٣٤ ـ ارجع إلى كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء .

٣٥ ـ الكامل ، ٩٢/٨ ـ ٩٤ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ١٨ ـ ٢٧ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٢١ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٧٨ ـ ١٠٢ ، راحة الصدور ، ١٧٦ ـ ١٧٨ ، المنتظم ، ٢١٨/٨ ـ ٢٣٤ .

الفصل الثالث

١ - بغية الطلب ، أيا صوفيا ، ١٩٥ و ، ظ - ١٩٦ و .
٢ - ديوان ابن أبي حصينة ، ١/٣٤ - ٣٧ .
٣ - انظر تفاصيل هذه الأمور في .The Emirate of Aleppo, 155-162
٤ - ابن أبي الهيجاء ، ١٢٨ ظ ، ابن القلانسي ، ٩٢ - ٩٣ ، العظيمي ، ١٨٠ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٤/٩ - ١٦٥ ، زبدة الحلب ، ٢٩١/١ - ٢٩٧ ، ٩/٢ ، مرآة الزمان أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٥ - ٤٥٧ هـ ، الذهبي ، OR 50 ، ٣ ر ، ١١٢ و ، ابن كثير ، ١١٣/١١ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، عقد الجمان ، ٥٨٠/١١ - ٥٨١ ، ابن خلدون ٥٨٦/٤ - ٥٨٧ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .
٥ - ابن القلانسي ، ٩٣ ، العظيمي ، ١٨٧ ظ ، زبدة الحلب ، ١٠/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٧ هـ .
٦ - أخبرني أحد الأساتذة الأتراك في جامعة استانبول بأن أحد الباحثين الأتراك فسر كلمة ناوكي على أنها تعني خارجي . ولقد اعتبر السلاجقة جماعة التركمان العراقية والناوكية خوارج على سلطتهم ، هذا وفي معاجم اللغة الفارسية جاءت كلمة ناوك بمعنى القوس .
٧ - العظيمي ، ١٨٠ و - ظ ، ابن القلانسي ، ٩٢ - ٩٣ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ١٦٤/٩ - ١٦٥ ، ٤٠/١٠ - ٤١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ، ١٦٦ و ، زبدة الحلب ، ٢٩٤/١ - ٢٩٧ ، ١٠/٢ ، ٣١ - ٣٢ ، ٥٥ - ٥٨ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، ابن خلدون ، ٥٨٦/٤ - ٥٨٧ مرآة الزمان ، سويم ، ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٤٣ - ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٤٣ ،

History of the crusades, setton, I,147-148; Pre-Ottoman Turkey, 27; sevim, 1,19; The Emirate of Aleppo, 168.

٨ - زبدة الحلب ، ١٠/٢ .
٩ - الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، ابن خلدون ، ٥٨٧/٤ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .
١٠ - مرآة الزمان ، سويم ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، زبدة الحلب ، ١٠/٢ ، النجوم الزاهرة ٧٩/٥ .
١١ - ابن القلانسي ، ١٠٦ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ٣٨/١٠ - ٣٩ ، العظيمي ١٨٢ و ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٥٩ هـ و ٤٦٨ هـ ، زبدة الحلب ، ٣١/٢ - ٣٢ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٣ و ، ابن خلدون ، ٣٢٨/١ ، ٣٢٨/٤ .
١٢ - زبدة الحلب ، ١١/٢ - ١٢ .
١٣ - بسلوس ، الترجمة الانكليزية ، ٣٥٢ - ٣٥٦ ، ابن القلانسي . ٩٤ ، تاريخ آل سلجوق ، ٣٥ ، العظيمي ، ١٨١ و - ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٨ ظ ، ابن العميد ٥٥٤ - ٥٥٥ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٦١ - ٤٦٢ هـ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ، الذهبي ، OR 50 ، ٥ و ، دول الاسلام ٢٠٨/١ ، العبر للذهبي ، ٢٣١/٣ ، ٢٤٨ - ٢٤٩ . ابن كثير ، ٩٩/١١ ، ابن جنغل ، ٢٢٤/٤ ظ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ ،

History of the crusades, setton, 148- 149, 192-193; Bar Hebiaeus, 218-219.

١٤ ـ أي الجزية .

١٥ ـ تاريخ آل سلجوق ، ٣٦ ـ ٣٧ ، ابن ميسر ، ١٩/٢ ـ ٢٠ ، المنتظم ، ٢٦٠/٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٩ ظ ، الكامل ـ ط ليدن ـ ٤٢/٩ ـ ٤٤ ، ابن العميد ـ ٥٥ ـ ٥٦ ، العظيمي ، ١٨١ ظ ، زبدة الحلب ، ١٦/٢ ـ ٢٣ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٨٠/٣ و ـ ٢٨٥ ظ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٤٦ ، ٥٣ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٣ هـ ، راحة الصدور ، ١٨٨ ـ ١٩٠ ، تاريخ الفارقي ، ١٨٩ ـ ١٩٠ ، ابن القلانسي ، ٩٩ ، أتعاظ الحنفا ، حوادث سنة ٤٦٢ هـ ، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ، ١٩٨ ـ ٢٠١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٢ ظ ـ ١٣٣ و ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، ٣٨٨ ـ ٣٩٢ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ، ابن كثير ، ١٠١/١١ ، المختصر ، ٥ ظ ـ ٦ و ، العبر OR 50 في أخبار البشر ، ١٩٦/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، للذهبي ، ٥٠/٣ ، دول الاسلام للذهبي ، ٢٠٩/١ ـ ٢١٠ ، النجوم الزاهرة ، ٨٦/٥ ـ ٨٧ ، ابن خلدون ، ٧٨٧/٤ ، Michael Psellus, 352-356; Bar hebraeus, 220; Setton, 1,148, 191; Pre-Ottoman Turkey, 29; Edessa, 220-21; هذا ولقد جمعت ما جاء حول منازكرد في المصادر العربية وغيرها من مطبوع ومخطوط ونشرته في كتاب مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، ٩٦ ـ ١٥١ . ومفيد أن ننبه هنا بأن ما شرحناه في النص عن السوقية لدى التركمان يمكن الاستفادة منه حين تدرس الفتوحات العربية وعلى الأخص معركة اليرموك .

١٦ ـ ابن حيوس ، ٥١١/٢ ـ ٥١٢ ، ابن القلانسي ، ١٠٦ ـ ١٠٧ ، العظيمي ، ١٨٢ و ـ ظ . مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٦٤ ـ ٤٦٧ هـ ، زبدة الحلب ، ٣٠/٢ ـ ٣٢ ، ٤٢ ، المنتظم ، ٣٠٤/٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ٧٢/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦١ ـ ٥٦٢ ، النجوم الزاهرة ، ١٠٠/٥ ـ ١٠١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ و ، حوادث السنين ، ١٥٤ و ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٠ و ١١٢ و ، دول الاسلام للذهبي ، ٢/٢ ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، ٢٠٢ ، ابن كثير ١١٢/١١ ، ابن جنغل ، ٢٣٢/٤ ، عقد الجمان ، ٥٨٠/١١ .

١٧ ـ مرآة الزمان ، سويم ، ١٤٣ .

١٨ ـ الكامل ، ط ليدن ، ٤٠/١٠ ـ ٤١ ، ابن ميسر ، ٢٠/٢ . انظر أيضاً ترجمة بدر الجمالي مع ترجمة أتسز في ملاحق هذا الكتاب .

١٩ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٢٩ ظ ـ ١٣٠ و ، ابن ميسر ، ٢٠/٢ ، الكامل ، ط ليدن ، ٤٠/١٠ ـ ٤١ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٤ هـ (مخطوطة أحمد الثالث) .

٢٠ ـ انظر ترجمة بدر الجمالي المنشورة في آخر هذا الكتاب بين الملاحق .

٢١ ـ ابن القلانسي ، ٩٨ ـ ٩٩ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٠ ظ ، ابن الاثير ، ط . ليدن ، ٤٦/١٠ ، مرآة الزمان ، مخطوطة أحمد الثالث ، حوادث ٤٦٢ و٤٦٦ هـ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ٦ ظ ، النجوم الزاهرة ، ٨١/٥ انظر أيضاً ترجمة أتسز في آخر الكتاب بين الملاحق .

٢٢ ـ مرآة الزمان ، سويم ، ١٧١ ـ ١٧٥ .

٢٣ ـ ابن القلانسي ، ١٠٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ـ ١٣١ و ، ابن ميسر ، ٢٤/٢ ، الكامل ، ١٢٢/٨ ، مرآة الزمان ، سويم ، ١٧٨ ـ ١٧٩ ، ١٨٥ ـ ١٨٦ ، ابن العميد ، ٥٦٥ ـ ٥٦٧ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٠ و ، دول الاسلام للذهبي ٣/٢ ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٠١/٥ ـ ١٠٢ ، ابن كثير ١١٢/١١ ـ ١١٣ ، ابن خلدون ، ١٣٦/٤ ـ ١٣٧ . انظر أيضاً ترجمة أتسز في آخر الكتاب بين الملاحق .

٢٤ - زبدة الحلب ، ٤٦/٢ - ٤٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ، مرآة الزمان ، سويم ١٧٨ - ١٧٩ .

٢٥ - ابن القلانسي ، ١٠٩ - ١١٢ ، ابن عساكر ، ٤٣٣/١٠ - ٤٣٤ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢١ و ، الكامل ، ١٢٣/٨ - ١٢٤ ، ابن ميسر ، ٢٥/٢ - ٢٦ ، ابن أبي الدم ، ١٢٤ و ، زبدة الحلب ، ٦٥/٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ١٨٠ - ١٨٥ ، ١٩٧ - ٢٠١ ، ابن العميد ، ٥٦٥ - ٥٦٧ ، تاريخ الاسلام للذهبي OR 50 ، ١٠ و- ١١ و ، العبر للذهبي ، ٢٦٩/٣ - ٢٧٥ ، ابن كثير ، ١١٢/١١ - ١١٩ . انظر أيضاً ترجمة بدر الجمالي مع ترجمة أتسز بين الملاحق في آخر الكتاب .

٢٦ - ابن القلانسي ، ١٠٨ ، المنتظم ، ٣٠٤/٨ ، الكامل ، ط ، ليدن ، ١٦٥/٩ ، ١٠/١٠ ، حوادث سنة ٤٦٧ هـ ، حوادث السنين ، ١٨٤ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ١١٢ و ، العبر للذهبي ، ٢٢٦/٣ ، المختصر في بخبار البشر ١٤٩/١ ، ٢٠٢ ، ابن العميد ، ٥٦٣ - ٥٦٥ ، النجوم الزاهرة ، ١٠٠/٥ - ١٠١ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، ابن جنغل ، ٢٣٣/٤ و .

٢٧ - انظر زبدة الحلب ، ٤٦/٢ - ٤٨ .

٢٨ - ابن حيوس ، ٢٠٥/١ - ٢٠٧ ، العظيمي ، ١٨١ ظ ، ١٨٣ و ، زبدة ، ٤٦/٢ - ٤٧ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٦٩/١٠ ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٦٨ هـ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٠ و ، دول الاسلام للذهبي ، ٣/٢ ، ابن كثير ، ١١٢/١١ ، ابن جنغل ، ٢٣٢/٤ و .

٢٩ - ابن حيوس ، ٢٧١/١ - ٢٧٣ ، زبدة ، ٤٦/٢ - ٤٨ ، مرآة الزمان حوادث سنة ٤٦٨ هـ .

٣٠ - ابن القلانسي ، ١٠٨ - ١٠٩ ، العظيمي ، ١٨٣ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ابن العميد ، ٥٦٣ - ٥٦٥ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ١٦٦ و ، ١٤٦/٧ و- ٣ ، زبدة الحلب ، ٤٩/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٦٨ هـ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، المختصر في أخبار البشر ، ١٤٩/١ ، ٢٠٢ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ظ ، البستان الجامع ، ٩١ ظ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١١٢ و ، العبر للذهبي ، ٢٦٦/٣ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .

٣١ - ابن القلانسي ، ١٠٩ ، العظيمي ، ١٨٣ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ابن العميد ، ٥٦٢ - ٥٦٣ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ ، ١٤٢/٧ ظ - ١٤٣ و ، ١٤٦ و- ١٤٧ و ، زبدة الحلب ، ٤٨/٢ ، ٥٣ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ظ ، البستان الجامع ، ٩١ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٢/١ . عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .

٣٢ - ابن حيوس ، ٤٨٢/٢ - ٤٨٣ - ٤٨٣ ، ٦٤٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٥/٢ ظ - ١١٦ و ، ١٤٣/٧ ظ - ١٤٤ وظ زبدة ، ٥٣/٢ - ٥٥ .

٣٣ - بغية الطلب ، أحمد الثالث ١٦٦/٢ و ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ .

٣٤ - ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، ابن القلانسي ، ١١٢ ، المنتظم ، ٣١٣/٨ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٧١/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦٧ ، بغية الطالب ، أحمد الثالث ، ١٤٣/٧ و- ١٤٤ و ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ - ٥٦ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ، ٤٦٨ هـ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٣/١ ، ابن خلدون ١٣٧/٤ .

٣٥ - ابن حيوس . ١٣٩/١ - ١٤٠ ، المنتظم ، ٣٠٧/٨ ، زبدة الحلب ، ٥٥/٢ - ٥٦ .

٣٦ - ابن القلانسي ، ١٢ ، العظيمي ، ١٨٣ ظ ، إبن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، الكامل ط و ليدن ، ٧١/١٠ ، ابن العميد ، ٥٦٧ - ٥٦٨ ، المنتظم ، ٣١٢/٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٦٦/٢ و ، ١٤٣/٧ ظ -

١٤٤ و ، زبدة الحلب ، ٥٦/٢ ـ ٥٨ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٧١ هـ ، البستان الجامع ، ٩١ و ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٠ ، الدرة المضية ، ٤٠٥ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٣/١ ، ابن خلدون ١٣٧/٤ .

٣٧ ـ ابن حيوس ، ٥٢/١ ـ ٥٣ ، ابن القلانسي ، ١١٢ ، زبدة الحلب ، ٥٨/٢ ـ ٦٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٤/٧ هـ ـ ١٤٥ ظ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

٣٨ ـ ابن القلانسي ، ١١٢ ، ابن عساكر ، ٤٣٣/١٠ ـ ٤٣٤ ، زبدة الحلب ، ٦٢/٢ ـ ٦٥ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٥/٧ و ـ ظ ، الاعلاق الخطيرة ـ قسم قنسرين ، مخطوطة المتحف البريطاني ـ ٦٠ و ـ ظ ، ابن العميد ، ٥٦٦ ـ ٥٦٧ .

٣٩ ـ ابن حيوس ، ٥٢/١ ـ ٥٣ ، ٤٨٢/٢ ـ ٤٨٣ ، ٥٧٠ ـ ٥٧٥ ، العظيمي ، ١٨٣ ظ ، ابن القلانسي ، ١١٤ ، زبدة الحلب ، ٥٧/٢ ـ ٦٥ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٣/٧ ظ ـ ١٤٦ ظ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٧٢ هـ ، أبي خلدون ، ٥٨٨/٤ .

٤٠ ـ زبدة الحلب ، ١١/٢ ـ ١٣ ، ١٦ ، مرآة الزمان ، سويم ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٩٧ ، المنتظم ، ٢٥٤/٨ ـ ٢٥٥ .

٤١ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ و ، العظيمي ، ١٨٣ ظ ، الكامل ، ط ، ليدن ، ٧١/١٠ ـ ٧٢ ، ابن ميسر ، ٢٦/٢ ، زبدة ، ٦٥/٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، ابن العميد ، ٥٦٦ ـ ٥٦٧ ، البستان الجامع ، ٩٠ و ـ ظ ، دول الاسلام للذهبي ، ٤/٢ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١١ و ، ابن كثير ، ١١٩/١١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٣/١ ، ابن خلدون ، ١٣٧/٤ ـ ١٣٨ .

٤٢ ـ زبدة الحلب ، ٦٥/٢ ـ ٦٧ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

٤٣ ـ ابن حيوس ، ٥٧٠/٢ ـ ٥٧٠ ، زبدة الحلب ، ٦٧/٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٦/٧ و ـ ١٤٨ ظ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ابن خلدون ، ٥٨٨/٤ .

٤٤ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣٠ و ، الكامل ، ط ليدن ، ٧٤/١٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٥/٧ ظ ، زبدة الحلب ، ٦٦/٢ ـ ٦٧ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٣٠١ ، ابن خلدون ، ٥٧١/٤ .

٤٥ ـ ابن القلانسي ، ١١٣ ، العظيمي ، ١٨٤ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٦٥/٩ ، ٧٤/١٠ ، المنتظم ، ٣٢٣/٨ ، ابن العميد ، ، ٥٦٨ ، زبدة الحلب ، ٦٧/٢ ـ ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٥/٧ ظ ـ ١٤٧ ظ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ، تاريخ آل سلجوق ، ٦٦ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ظ ، المختصر في أخبار البشر ١٤٩/١٥ ـ ١٥٠ ، ٢٠٣ ، دول الاسلام للذهبي ، ٤/٢ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١١ و الدرة المضية ، ٤٠٦ ، ٤٠٦ ، عقد الجمان ، ٥٨١/١١ ، ابن خلدون ، ٥٧١/٤ ـ ٥٧٢ ، ٥٨٨ ، منجم باشي ، ٣٢٨/١ ظ .

٤٦ ـ العظيمي ، ١٨٤ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، ابن العميد ، ٥٦٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٤٧/٧ و ـ ظ ، زبدة الحلب ، ٧٥/٢ ، ٧٧ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٧٤ هـ ، التاريخ المنصوري ، ٧٤ ط ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١١ ظ ، ابن أبي الدم ١٢٤ و ـ ظ ، دول الاسلام للذهبي ، ٤/٢ ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ ـ ١١٤ .

٤٧ ـ زبدة الحلب ، ٧٧/٢ ، مرآة الزمان ، سويم ٢١٥ .

٤٨ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٧٨/١٠ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٨ ، دول الاسلام ، ٤/٢ ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ .

٤٩ ـ الكامل ، ط . ليدن ، ٧٨/١٠ ، زبدة الحلب ، ٧٥/٢ ، ٧٨ ـ ٧٩ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٨ ، ٢١٦ .

٥٠ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣١ ظ ، ابن القلانسي ، ١١٤ ـ ١١٥ ، العظيمي ، ١٨٤ ظ ـ ١٨٥ و ، الكامل ، ط : ليدن ، ٨٢/١٠ ، ٨٤ ، زبدة الحلب ، ٧٨/٢ ـ ٨٣ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ـ ٢١٦ ، ٢١٩ ـ ٢٢٣ ، وفيات الاعيان مسلم بن قريش ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٢ و ، ١٦٥ ظ ، العبر للذهبي ، ٣٨٣/٣ ، ابن خلدون ، ٥٧٢/٤ ـ ٥٧٣ ، البستان الجامع ، ٩١ ظ ـ ٩٢ و ، ابن كثير ١٢٤/١١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ و ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ ـ ١١٥ .

٥١ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، العظيمي ، ١٨٥ ظ ، المنتظم ، ٧/٩ ، ١٤ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٨٣/١٠ ، ٨٦ ، ٨٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٩ ـ ٧١ ، زبدة الحلب ، ٨٤/٢ ـ ٨٦ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٦٣ ـ ٦٤ ، ابن القلانسي ، ١١٧ ، تاريخ الفارقي ، ٢٠٦ ـ ٢١٠ ، مفرج الكروب ، ١١/١ ـ ١٤ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٣ ـ ٢٢٩ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٤/١ ـ ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٢ ظ ـ ١٣ و ، ١٦٥ ظ ، ابن كثير ١٢٤/١١ ـ ١٢٦ ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ٥٩/١ ، ابن خلدون ، ٥٧٣/٤ ـ ٥٧٥ ، Bar Hebraeus, 228 .

٥٢ ـ زبدة الحلب ، ٨٤/٢ ـ ٨٥ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

٥٣ ـ العظيمي ، ١٨٣ و ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن القلانسي ، ١٧ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٦٣ ، زبدة الحلب ، ٨٦/٢ ـ ٨٨ ، الكامل ، ١٣٦/٨ ، مفرج الكروب ، ١٤/١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٥/١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ ظ ، ابن كثير ، ١٢٦/١١ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٤/٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٣ و ، Bar Hebraeus, 229; Pre-Ottoman Turkey, 75-77.

٥٤ ـ العظيمي ، ١٨٥ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن العميد ، ٥٦٨ ـ ٥٦٩ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٩٠/١٠ ـ ٩١ ، الباهر ، ٧ ، زبدة الحلب ، ٨٨/٢ ـ ٩٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، مفرج الكروب ، ١٥/١ ، ابن أبي الدم ، ١٣٥ و ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٥/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٣ ظ ، ابن خلدون ، ٥٧٥/٤ ـ ٥٧٦ ، ابن كثير ، ١٢٦/١١ ، النجوم الزاهرة ، ١١٩/٥ ، Bar Hebraeus, 229-230 .

٥٥ ـ العظيمي ، ١٨٥ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٢ و ، ابن العميد ، ٥٦٩ ـ ٥٧١ ، الكامل ، ٩٦/١٠ ، الباهر ، ٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧ و ١٩٨ ظ ، زبدة الحلب ، ٩٤/٢ ـ ٩٨ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٣٦ ـ ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ابن أبي الدم ، ١٣٥ و ، مفرج الكروب ، ١٥/١ ـ ١٦ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٦/١ ـ ٢٠٧ ، الدرة المضية ، ٤٢٣ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٤/٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٤ ظ ، ابن كثير ، ١٣٠/١١ ، ابن خلدون ، ٥٨٩/٤ ، Bar Hebraeus, 230 .

٥٦ ـ ابن أبي الهيجاء ، ١٣٣ و ، ابن العميد ، ٥٧٠ ـ ٥٧١ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٩٦/١٠ ـ ٩٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٧ ظ ـ ٩٨ ظ ، زبدة الحلب ، ٩٨/٢ ـ ٩٩ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٣٩ ، مفرج الكروب ، ١٦/١ ـ ١٧ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، ابن خلدون ، ٥٨٩/٤ .

٥٧ ـ الكامل ، ط . ليدن ، ١٠٥/١٠ ، الباهر ، ٨ ، العظيمي ، ١٨٦ ظ ، زبدة الحلب ، ١٠٠/٢ ـ ١٠١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٨/٧ و ـ ٣ ، مفرج الكروب ، ١٨/١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ١٥ ظ ، ابن خلدون ، ٥٩٠/٤ ، ابن كثير ، ١١ج١٢١ ، البستان الجامع ، ٩٢ و .

٥٨ ـ العظيمي ، ١٨٦ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٣ و ، الكامل ، ط . ليدن ٩٨/١٠ ، ١٠٧ ، الباهر ، ٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٣ ظ ، ٢٦٨ ظ ، ٢٧٢ و ، زبدة الحلب ، ١٠١/٢ ـ ١٠٢ ، مرآة الزمان ، سويم ، ٢٤٠ ـ ٢٤١ ، مفرج الكروب ، ١٨/١ ـ ١٩ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٤ ظ ، ابن أبي الدم ، ١٢٦ ظ ، البستان الجامع ، ٩٢ و ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ و ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٧/١ ، ابن كثير ، ١٣٠/١١ ـ ١٣١ ، ابن خلدون ، ٥٩٠/٤ ، الروضتين ، ٦١/١ ، Bar Herbaeus, 231 .

الفصل الرابع

١ ـ ابن القلانسي ، ١٣٣ ـ ١٣٤ .

٢ ـ ابن القلانسي ، ١١٩ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٠٧/١٠ ، الباهر ، ٨ ، زبدة الحلب ، ١٠٢/٢ ـ ١٠٣ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٢ ظ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ، مرآة الزمان ، سويم ٢٤٤ .

٣ ـ بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٨/٣ و ـ ظ ، زبدة الحلب ، ١٠٤/٢ ـ ١٠٥ .

٤ ـ الكامل ، ط . ليدن ، ١٣٣/١٠ ـ ١٣٤ ، الباهر ، ٨ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧٥ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٣ ظ ـ ٢٧٢ ظ .

٥ ـ مرآة الزمان ، سويم ، ٢٢٤ ، الكامل ، ط . ليدن ، ٧٨/١٠ ـ ٩٤ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٧/٣ ظ ـ ٢٧٢ ظ ، ابن أبي الدم ، ١٣٤ و ـ ١٣٦ ظ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ و ، النجوم الزاهرة ، ١١٣/٥ ، ١١٦ ، ١٢٥ .

٦ ـ الكامل ، ط . ليدن ، ١١٦/١٠ ـ ١١٧ ، ابن ميسر ، ٢٨/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٧ و ، النجوم الزاهرة ، ١٢٨/٥ .

٧ ـ ابن القلانسي ، ١٢٠ ـ ١٢١ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٣٦/١٠ ـ ١٣٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٢٠/٥ ظ ـ ٢٢٢ ظ ، زبدة الحلب ، ١٠٦/٢ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٢ ـ ٤٨٤ هـ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ـ ٢٣ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٩ و ـ ظ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢١٢/١ ، ابن كثير ، ١٣٩/١١ ـ ١٤٠ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٨/٥ ، ١٣٠ ، ١٣٢ طرابلس الشام ، ٧٠ ـ ٧٢ .

٨ ـ ابن القلانسي ، ١٢١ ، العظيمي ، ١٨٧ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١١/١٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٧٢ و ، ٢٢١/٥ ظ ـ ٢٢٢ و ، زبدة الحلب ، ١٠٥/٢ ـ ١٠٦ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨١ ، ٤٨٤ هـ ، مفرج الكروب ١٩/١ ـ ٢١ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢٠٨/١ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ١٩ و ـ ظ ، النجوم الزاهرة ، ١٣٢/٥ .

٩ ـ الكامل ، ط . ليدن ، ١٣٣/١٠ ـ ١٣٤ ، الباهر ، ٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٦٩/٣ و ، مرآة الزمان ، حوادث سنة ٤٨٥ و ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٥ ـ ٦ ، ٧٥ ، مفرج الكروب ، ١٩/١ ، النجوم الزاهرة ، ١٢٢/٥ .

١٠ ـ ابن القلانسي ، ١٢٥ ، تاريخ الدولة العباسية ، ١٠٥ ط ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٦٤ ، ٧٥ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٧١ ، زبدة الحلب ، ١٠٦/٢ ، مفرج الكروب ، ٢٣/١ ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٤٢/١٠ ـ ١٤٣ ، الروضتين ، ٦٥/١ .

Bar Hebraeus, 231-32.

١١ ـ زبدة الحلب ، ١٠٦ .

١٢ ـ ابن القلانسي ، ١٢١ ـ ١٢٤ ، تاريخ الفارقي ، ٢٣١ ـ ٢٣٧ ، العظيمي ، ١٨٧ ظ ـ ١٨٨ و ، الكامل ، ط . ليدن ، ١٤٩/١٠ ـ ١٥١ ، الباهر ، ١٣ ، المنتظم ، ٧٧/٩ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٤ و ـ ظ ، ابن العميد ، ٥٧٤ ، زبدة الحلب ١٠٦/٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٧٢/٢ ظ ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٦ هـ ، الروضتين ، ٢١٤/١ ، البستان الجامع ، ٩٢ ظ ، النجوم الزاهرة ، ١٣٧/٥ ـ ١٣٨ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ٢٠ ظ ـ ٢١ و ، ابن كثير ، ١٤٤/١١ .

١٣ ـ ابن القلانسي ، ١٢٦ ـ ١٣٠ ، أخبار الدولة السلجوقية ، ٧٥ ـ ٧٦ ، ابن عساكر ، ٤٣٤/١٠ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ٧٦ ـ ٧٩ ، راحة الصدور ، ٢١٤ ـ ٢٢٠ ، العظيمي ، ١٨٧ ظ ـ ١٨٨ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٣٤ ، و ـ ظ ، الكامل ، ١٤٩/١٠ ـ ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، الباهر ، ١٣ ، المنتظم ، ٧٧/٩ ، ابن العميد ، ٥٧٤ ـ ٥٧٧ ، زبدة الحلب ، ١٠٦/٢ ، ١٠٨ ـ ١١٠ ، ١١٩ ـ ١٢٠ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٢٧٢/٣ ظ ، ٨٩/٤ و ـ ٩٥ و ، مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، ٢٧٢/٣ ظ ، ٨٩/٤ و ـ ٩٥ و ـ مرآة الزمان ، أحمد الثالث ، حوادث ٤٨٦ ـ ٤٨٨ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ ظ ، مفرج الكروب ، ٢٢/١ ـ ٢٥ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢١٤/١ ـ ٢١٧ ، البستان الجامع ، ٩١ ظ ـ ٩٢ ظ ، النجوم الزاهرة ، ١٣٧/٥ ـ ١٣٨ ، ١٥٥ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ٢٠ ظ ، الروضتين ، ٦٥/١ ، ابن كثير ، ١٤٤/١١ ، Bar Herbraeus, 232 .

١٤ ـ ارجع إلى الدعوة الاسماعيلية الجديدة للمستشرق الكبير برنارد لويس الذي نقلته إلى العربية . ط . بيروت ١٩٧١ .

١٥ ـ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، الترجمة العربية ، ط . القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤١ .

١٦ ـ ابن القلانسي ، ١٣٠ ـ ١٣٢ ، ابن عساكر ، ٥٠/٦ ظ ، العظيمي ، ١٨٨ ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٧٥/٨ ـ ١٧٦ ، زبدة الحلب ، ١١٩/٢ ـ ١٢٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٤ و ـ ظ ، ٨٩/٦ و ـ ظ ، ابن أبي الهيجاء ، ١٢٤ ظ ، التاريخ المنصوري ، ٧٥ ـ ظ ، المختصر في أخبار البشر ، ٢١٦/١ ـ ٢١٧ .

١٧ ـ ابن القلانسي ، ١٢٤ ، ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ابن ميسر ، ١٩/٢ ، العظيمي ، ١٩٠ ـ و ـ ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٦٨/٨ ، ١٧٩ ـ ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، زبدة الحلب ، ١٢٢/٢ ـ ١٢٧ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٨٩/٦ و ـ ظ ، تاريخ الاسلام للذهبي ، OR 50 ، ٢١ ـ و . انظر ترجمة خلف بن ملاعب بين الملاحق آخر الكتاب .

١٨ ـ ابن القلانسي ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، العظيمي ، ١٩٠ ـ و ـ ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٨٤/٨ ـ ١٨٥ ، زبدة الحلب ، ١٢٧/٢ ـ ٩ ١٢ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ١٩٧/٤ ظ ، ٨٩/٦ ـ ظ

١٩ ـ أعمال الفرنجة ، ٨٢ ، ٨٥ ـ ٨٦ ، ٩٢ ـ ٩٦ ، ابن القلانسي ، ١٣٣ ـ ١٣٦ ، العظيمي ، ١٩١ و ـ ظ ، الكامل ، ، ط . القاهرة ، ١٨٦/٨ ـ ١٨٧ ، زبدة الحلب ، ١٢٩/٢ ـ ١٣٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٨٩/٦ ظ ـ ٩٠ و ، الحروب الصليبية لرفيق التميمي ، القدس ١٩٤٥ ، ص ٤٤ ـ ٥٠ ، الحركة الصليبية ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ٢٠٠/١ ـ ٢١٨ ،

The cursades, by A. Archer and C.L. Kingsford, London 1894, pp 65-75; H. Lamb, the crusades, London 1970, 138-162; S. Runciman, A History of the crusades, penguin, 1, 213-236; A History of the crusades, editor-in-chieh, K. Setton; vol.1, 308-326; the crusades, Edited by R. Pernoud, English translation, new york 1964, pp 64-73; crusading warfare, by R.C. Smail, Cambridge 1967, p. 118.

٢٠ ـ الفوعة الآن تتبع ناحية معر تمصرين التابعة لمحافظة ادلب ، وهي تبعد عن معر تمصرين مسافة ٤ كم وعن ادلب ١٣ كم ، انظر التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٥٨ ، ص ٢٥٠ .

٢١ ـ ابن القلانسي ، ١٣٥ ، العظيمي ، ١٩٠ ـ ظ ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٧٩/٨ ، زبدة الحلب ، ١٣٨/٢ ـ ١٤١ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٩٢/٦ ـ و .

٢٢ ـ أعمال الفرنجة ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ابن القلانسي ، ١٣٧ ، ابن عساكر ، ٥٠/٦ ظ ، العظيمي ، ١٩١ و ـ ١٩٣ و ، الكامل ، ط . القاهرة ، ١٨٧/٨ ـ ١٩٠ ، زبدة الحلب ، ١٤١/٢ ـ ١٤٧ ، بغية الطلب ،

أحمد الثالث ، ٤/١٩٧ ظ ـ ١٩٨ و ، ٦/٩٢ ـ و ، الحروب الصليبية تأليف رفيق التميمي ، ٥٤ ـ ٦١ ، الحركة الصليبية ، ١/٢٣٨ ـ ٢٤٦ ،

The cursades, by Archer and Kingsford, 77-92; The History of the crusades by Charles Nills, 80-88; the crusades by Harold Lamb, 186-206; A History of the crusades by Steven Runciman, 1, 279-288; Pennsylvania History of the crusades, 1,326-337; the crusades, by Regine pernoud, 81-91.

٢٣ ـ ابن القلانسي ، ١٤٢ ـ ١٩٢ ، العظيمي ، ١٩٢ و١٩٧ و ، الكامل ، ط . القاهرة ، ٨/٢٢٢ ـ ٢٦٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٣/٢٨٨ ظ ـ ٢٩٠ و ٦/٨٩ ـ و ـ ٩٤ ـ ظ ، زبدة الحلب ، ٢/١٤٦ ـ ١٧٢ .

مصـــادر الكتــاب

ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي)
١ ـ الكامل في التاريخ ، ط . ليدن ـ
، ط . القاهرة ١٣٤٨ هـ
٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ،
حققه عبد القادر طليمات .
القاهرة ١٩٦٣

ابن الأثير الحلبي (اسماعيل)
عبرة أولي الأبصار في ملوك الامصار
المتحف البريطاني رقم Add.23-334

الاصطخري (ابراهيم بن محمد)
المسالك والممالك .
القاهرة ١٩٦١ .

الأصفهاني (محمد بن محمد)
البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان
مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٩٥٩ .
Bulletin d'Etudes orientaes, tomes VII - VIII, Institut Francais de Damas, 1938.

الاصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب)
١ ـ تاريخ دولة آل سلجوق ـ هذبه الفتح
البنداري ـ القاهرة ١٩٠٠ .
٢ ـ خريدة القصر وجريدة العصر . تحقيق
شكري فيصل . دمشق ، ١٩٥٥ ـ
١٩٥٩ ـ ١٩٦٤ .

ابن ايبك الدواداري (عبد الله)
الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية . حققه
صلاح المنجد . القاهرة ١٩٦١ .

بدران (عبد القادر)
تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ دمشق ١٩١٣ .

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز
معجم ما استعجم . حققه مصطفى السقا .
القاهرة ١٩٤٥ .

البيهقي (أبو الفضل)
تاريخ البيهقي ـ صحائف مسعودي ـ الف
بالفارسية وترجمه الى العربية : يحيى
الخشاب وصادق نشأت . القاهرة .
(بدون تاريخ) .

ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ .

ابن جنغل (محمد بن علي)
تاريخ ابن جنغل . المتحف البريطاني OR. 5912

ابن الجوزي (عبد الرحمن)
المنتظم في تاريخ الملوك والامم . حيدر اباد ١٩٤٠ .
الجواليقي (ابو منصور موهوب بن احمد)
المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم .
تحقيق احمد محمد شاكر القاهرة ١٣٦١
حاجي خليفة .
كشف الظنون ليبزغ ١٨٣٧
ابن حزم الاندلسي (محمد بن علي)
جمهرة أنساب العرب . القاهرة ١٩٦٢ .
الحسيني (ابو الحسن علي بن ابي الفوارس ناصر بن علي) .
اخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ) تحقيق محمد اقبال . لاهور ١٩٣٣ .
ابن أبي حصينة . تحقيق اسعد طلس دمشق ١٩٦٥ .
الحموي (محمد)
التاريخ المنصوري — موسكو ١٩٦٠
الحموي (ياقوت بن عبد الله)
١ — ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (معجم الأدباء) القاهرة ١٩٠٧ — ١٩٢٧ .
٢ — معجم البلدان . بيروت ١٩٦٨ .
ابن حوقل (ابو القاسم النصيبي)
كتاب صورة الارض . بيروت . دار مكتبة الحياة .
ابن حيوس (محمد بن سلطان)
ديوان ابن حيوس . تحقيق خليل مردم بك .
دمشق ١٩٥١ .
ابن خرداذبه (ابو القاسم عبيد الله ابن عبد الله)
المسالك والممالك ليدن ١٨٨٩ .
خسرو (ناصر)
سفرنامه . نقله الى العربية يحي الخشاب القاهرة ١٩٤٥ .
ابن خلدون (عبد الرحمن)
العبر وديوان المبتدأ والخبر بيروت ١٩٥٨ .
ابن خلكان (احمد بن محمد) .
وفيات الاعيان القاهرة ١٣١٠ .
الخوارزمي (ابو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف)
مفاتيح العلوم المطبعة المنيرية في القاهرة .
ابن خياط (خليفة)
تاريخ خليفة بن خياط تحقيق سهيل زكار .
دمشق ١٩٦٧ — ١٩٦٨ .
ابن ابي الدم (ابراهيم)
تاريخ ابن ابي الدم .
مكتبة البودليان
الذهبي (محمد بن احمد)
١ — تاريخ الاسلام . المتحف البريطاني
٢ — العبر في خبر من غبر . تحقيق فؤاد السيد . الكويت ١٩٦١ .
٣ — دول الاسلام المتحف البريطاني حيدر اباد ١٩١٩ .
الراوندي (محمد بن علي بن سليمان)
راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية . الف بالفارسية ، ونقله الى العربية : ابراهيم الشواربي ، وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد الصياد . القاهرة ، ١٩٦٠ .
ابن رسته (ابو علي احمد بن عمر)
الاعلاق النفسية . ليدن ١٨٩١ .

ابن الزبير (القاضي الرشيد)
الذخائر والتحف - الكويت ١٩٥١ .
مختارات من كتابات المؤرخين العرب .
دمشق ١٩٧١ . زكار (سهيل)
سبط ابن الجوزي (ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي) .
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان . المتحف البريطاني
مكتبة احمد الثالث ٢٩٠٧ س .
المكتبة الوطنية بباريس ١٥٠٦ .
الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٥٦ - ١٠٨٦ تحقيق علي سويم ، انقرة ١٩٦٨ .
السمعاني (عبد الكريم بن محمد)
الانساب . طبع بالتصوير ، لندن ١٩١٢ .

ابن سنان الخفاجي (عبد الله بن محمد بن سعيد)
ديوان ابن سنان الخفاجي . بيروت ١٨٨٦
ابن شاكر الكتبي (محمد)

١ - فوات الوفيات . حققه محيي الدين عبد الحميد . الحميد القاهرة ١٩٥١ .
ابو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية تحقيق محمد حلمي احمد القاهرة ١٩٥٦
ابن الشحنة (محمد)
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب .
بيروت ١٩٠٩ .
الاعلاق الخطيرة ، قسم مدينة دمشق : دمشق
١٩٥٦ . قسم مدينة حلب : دمشق ١٩٥٣ .

شيخ الربوة (ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الانصاري)
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ليبزغ ١٩٢٣ .
الصابي (ثابت بن سنان مع ابن العديم والمقريزي)
تاريخ اخبار القرامطة . تحقيق سهيل زكار بيروت ١٩٧١ .
الصيرفي (على بن منجب)
الاشارة الى من نال الوزارة . القاهرة ١٩٢٣
الطبري (محمد بن جرير)
تاريخ الرسل والملوك ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١ .
ابن العديم (كمال الدين عمر بن احمد
١ - بغية الطلب في تاريخ حلب . مجلد في ايا صوفيا برقم ٣٠٣٦ ، ٨ مجلدات في احمدالثالث برقم ٢٩٣٥ ، ومجلد في فيض الله برقم ١٤٠٤ . استانبول
٢ - الانصاف والتحري (نشر في داخل كتاب تعريف القدماء بابي العلاء) .
٣ - زبدة الحلب من تاريخ حلب حققه سامي الدهان دمشق ، ١٩٥١ ١٩٥٤ - ١٩٥٨ .
ابن عساكر (علي بن الحسن)
تاريخ مدينة دمشق ، مخطوطة المكتبة الظاهرية : ٣ / ٣٣٦٨ : ٦ / ٣٤٥٠ : ٨ / ٣٣٧٢
المجلد الأول والمجلد الثاني حققهما صلاح المنجد دمشق ١٩٥١ . المجلد العاشر حققه احمد دهمان دمشق ١٩٦٣ .
العظيمي (محمد بن علي)
تاريخ العظيمي . مكتبة بيازيد رقم ٣٩٨ .

العمري (احمد بن يحي)
مسالك الابصار . ايا صوفيا ٣٤١٧
العمري (ياسين بن خير الله)
الدر المكنون في مآثر الماضية من القرون
المتحف البريطاني
ابن العميد (جرجس)
تاريخ المسلمين ليدن ١٦٢٥ .
العيني (البدر محمد بن احمد)
عقد الجمان في تاريخ الزمان مكتبة بيازيد
رقم ٢٣١٧ .
الغزالي (ابو حامد)
التبر المسبوك في نصيحة الملوك القاهرة
١٩٦٨ .
الفارقي (ابن الازرق)
تاريخ الفارقي . حققه الجزء الاكبر منه
بدوي عبد اللطيف عوض . القاهرة
١٩٥٩ .
ابو الفداء (اسماعيل بن محمد بن عمر)
١ ـ تقويم البلدان باريس ١٨٤٠
٢ ـ المختصر في اخبار البشر استانبول
١٨٦٩ .
الفردوسي (ابو القاسم)
الشاهنامه. ترجمها نثرا الفتح بن علي
البنداري .
حققها الدكتور عبد الوهاب عزام
القاهرة ١٩٣٢ .
ابن الفقية (ابو بكر احمد بن ابراهيم
الهمذاني)
مختصر كتاب البلدان ليدن ١٣٠٢ .
ابن فضلان (احمد بن فضلان بن العباس
بن راشد بن حماد) رسالة من فضلان
حققها سامي الدهان .
دمشق ١٩٦٠ .

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود
اثار البلاد واخبار العباد بيروت ١٩٦٠
ابن القلانسي (حمزة)
ذيل تاريخ دمشق بيروت ١٩٠٨
الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد
كتاب ديوان لغات الترك استانبول ١٣٣٣
ابن كثير (اسماعيل بن عمر)

البداية والنهاية القاهرة ١٩٣٢ .
ابن ماكولا (ابو نصر علي بن هبة الله
الاكمال حيدر اباد ١٩٦٢ . ١٩٦٧
مجهول
اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس
ترجمة حسن حبشي القاهرة ١٩٥٨
مجهول
حوادث السنين مكتبة احمد الثالث ٢٩٨١

مسكويه (احمد بن محمد)
تجارب الامم القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩١٥
المقدسي (محمد بن احمد)
احسن التقاسيم ليدن ١٨٧٧
المقريزي (احمد بن علي)
١ ـ اتعاظ الحنفا باخبار الائمة
الفاطميين الخلفاء احمد الثالث ٣٠١٣ .
٢ ـ خطط المقريزي القاهرة ١٩٠٦ ـ
١٩٠٨
٣ ـ المقفى مجلد باريس مجلدات ليدن
مجلد برتو باشا .
ابن المقفع (ساويروس)
تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية القاهرة
١٩٥٩
منجم باشي (احمد بن لطف الله)
تاريخ رئيس المنجمين مكتبة نور عثمانية
٣١٧١ .
المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى)
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة تحقيق
محمد كامل حسين القاهرة ١٩٤٩ .

Anonymous Geographer, Hudud Al-Alam. English translation. London 1937.

Bar Hebreausr (Abu'l-Faraj Son of Aron). History of the world English translation by Ernest A. wallis Budge, Oxford 1937

Comnena, Anna, the Alexiad, English translation by E Dawes. London 1967 English translation by E. Sewter, London 1969.

Nustawfi (Hamd-Allah) Nuzhat-Al-Qulab. English Translation London 1919

Nizam Al-Mulk, The book of Government. English Translation by Harbert Drabe. London 1960.

Psellus (Michael) Fourteen byzantine Rulers (Eng. Trans Penguin Ed., London 1966).

Archer, T, A, The crusades, London 1894.

Atiya, Aziz, The crusades, Historiography and Bibliography 1962.

Barthold (W)

1 — Four studies on the History of central Asia English Traaslation; Liden 1962.

2 — Turkestan down to the Mongol invasion, English Translation London 1968.

Bosworth (Clifford Edmend)

1 — The Ghaznavids. Edinburgh 1963.

2 — The Islamic Dynasties, Edinburgh 1967.

Cahen (Claude)

1 — Mouvements Populaire et Autonomisme Urbains dans l'Asie Musulmane du Moyen Age I. Arabica vol. V. pp 225-250, 1958

2 — Pre Ottoman Turkey (Eng. Trans) London 1969.

3 — D. Souvaget's Introduction to the History of Muslim East, (Recast, California, 1965).

ابن ميسر (محمد بن علي)
أخبار مصر تحقيق هنري مساسيه
القاهرة ١٩١٩ .
النرشحي (أبو بكر محمد بن جعفر)
تاريخ بخاري . عربه عن الفارسيه : أمين
بسدوي ونصر الله الطرازي . القاهرة
١٩٦٥ .
ابن الهبارية (أبو يعلي محمد بن محمد
ديوان الصادح والباغم القاهرة ١٢٩٢
هـ .
ابن أبي الهيجاء
تاريخ ابن أبي الهيجاء المكتبة الاحمدية
بتونس رقم ٩٥١٤ .
ابن الوردي (عمر)
تتمة المختصر في أخبار البشر القاهرة
١٨٦٨
ابن واصل الحموي (محمد بن سالم)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب المجلد
الأول حققه جمال الدين الشيال
القاهرة ١٩٥٣ .
اليافعي (محمد بن عبد الله)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان . حيدر أباد
١٩١٩ .
(أمين حسين)
تاريخ العراق في العصر السلجوقي بغداد
١٩٦٥ .
تعريف القدماء بأخبار أبي العلاء القاهرة
١٩٤٤ .
التميمي (رفيق)
الحروب الصليبية القدس ١٩٤٥
الجندي (سليم)
تاريخ المعرة دمشق ١٩٦٣
الزركلي (خير الدين)
الاعلام الطبعة الثانية ـ القاهرة .

سالم (السيد عبد العزيز)
طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي
الاسكندرية ١٩٦٧ .
سرور (محمد جمال الدين)
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق
القاهرة ١٩٦٤
الضابط (شاكر صابر)
موجز تاريخ التركمان في العراق بغداد
١٩٦٠ الطباخ (محمد راغب)
أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء حلب
١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ .
طلس (محمد بن أسعد)
الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب .
دمشق ١٩٥٦ ١

عاشور (سعيد عبد الفتاح)
الحركة الصليبية القاهرة ١٩٦٢
الفريني (السيد الباز)
مؤرخو الحروب الصليبية . القاهرة
١٩٦٢
غرايبة (عبد الكريم)
العرب والاتراك دمشق ١٩٦١
الغزي (كامل بن حسين)
نهر الذهب في تاريخ حلب . حلب ١٩٢١
كحالة (عمر) .

معجم المؤلفين دمشق ١٩٥٧ ـ ١٩٦١
المعاضيدي (خاشع)
دولة بني عقيل في الموصل بغداد ١٩٦٨
المكتب المركزي للاحصاء في سورية
التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية
السورية دمشق ١٩٦٨
ناجي (عبد الجبار)
الامارة المزيدية البصرة ١٩٧٠

1 — Cambridge Medieval History, vol. IV, Ed Jaon M. Hussey. Cambridge, 1966-67.
2 — Cambridge History of Islam. Cambridge 1970.
3 — The Cambridge History of Iran, Vol. V, Cambridge 1968.
Cohn, Norman, The Pursuit of the Millezium, London 1970.
Dunlop (D.M.), The History of the Jewish Khazars, New York 1967.
Ederhard Wolfram, A History of Chaina, London 1967.
Ensyslopaedia of Islam, New Eden, London 1960.
Historians of the Middle East, Ed. B. Lewis and P.M. Holt, Oxford 1964.
A History of the crusades, I, Ed. K. M. Setton, Philadelphia 1955.
Kabir (Mafizullah), The Buwayhid Dynasty of Baghdad. Calcutta 1964.
Lam, Harold, The Crusades, Iron Nen and Saints, London 1970.
Lambton (A.K.S.), Landlord and peasant in Persia, Oxford 1969.
Lewis, B. The Assassins, London, 1967.
Millo, Clarles, The History of the crusades, Philadelphia, 1944.
Ostragosky, D, History of the Byzantine state, Eng. Trans., J. Hussey, Oxford 1968.
Pearson, J. D., Idex Islamicus, Cambridge 1961, 1962, 1967.
Pernoud, Régime, The crusades, Eng. Trans., New york 1964.
Rice (Tamara Talbot), The Sljuks, London 1966.
Rosenthal, F., A History of the Muslim, Histography, Leiden, 1968.
Runciman, Steven, A History of the crusades, Penguim Eden.
Segal, J. B., Edessa, The blessed city, Oxford 1970.
Sevim, Ali, Suriye Selcuklulari, I, Ankara, 1965.
Smail, R. C., Crusading warfare, 1097 - 1193. Cambridge, 1957.
Le strage (Guy)
1 — The land of the Eastern Caliphate, London 1966.
2 — Palestine under the Muslim, Beirut 1965.
Vasiliev, A., History of the Byzamine Empire, winsconsin 1964.
Zakkar, Suhayl, The Emirate of Aleppo, 1004 - 1094, Beirut 1971.

مناحي هجرة التركمان

الدولة القراخانية
سيحون
خوارزم
بخارى
ترمذ
جيحون
بلخ
مرو
كابل
غزنة
هراة
نيسابور
خراسان
الري
همذان
أصفهان
كرمان
بغداد
الموصل
الفرات
تفليس
جورجيا
أرمينية
القسطنطينية
نيقية
أنطاكية
حلب
دمشق
القدس
البحر الأبيض المتوسط
الدولة الفاطمية
البحر الأحمر
مكة
المحيط الهندي

المحتـــــــــــــــوى

المحتوى

ملاحق الكتاب

معركة منازكرد

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية

المغرب والاندلس والبحر المتوسط

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الثاني

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

(٢ ـ المغرب والأندلس والبحر المتوسط)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أقدم فيما يلي الجزء الثاني من كتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، وذلك أخذا بالخطة الموضوعة ، وقد عالجت في هذا الجزء أوجه العلاقات فيما بين أحداث تاريخ الغرب الاسلامي واوروبة الغربية ، وإلى حد ما الشرقية ، ليس باسهاب بل بما يكفي مقاصد التاريخ للحروب الصليبية ، وكان الباعث على كتابة هذا الجزء ليس وحدة المواجهة الاسلامية مع اوروبا الصليبية شرقا وغربا فحسب ، بل للبرهنة على أن الأمة العربية تمتلك تاريخا واحدا تفاعلت احداثه ـ وما زالت ـ وتداخلت في المشرق والمغرب ، وأنه من المحال تقديم بحث تاريخي مقبول علميا انطلاقا من القاعدة الاقليمية .

واهتممت بشكل خاص بقيام دولة المرابطين وبشخصية يوسف ابن تاشفين واعماله في الأندلس بالنسبة لمعركة الزلاقة ومن ثم إزالته لدول الطوائف ، وأثرت خلال البحث عدة مسائل جديدة ثم توصلت إلى إجابات فيها أيضا بعض الجدة ، ومكنني من ذلك سعة الأفق القومي وسلامته وخلوه من الشوائب مع توفر ما يحتاجه البحث من مصادر مخطوطة ومطبوعة ومراجع حديثة ، ففي اثناء إعارتي للتدريس في فاس بذلت خلال ثلاث سنوات كل جهد ممكن ليس لتعميق معارفي بتاريخ الغرب الاسلامي وإنما لاقتناء مصادر هذا التاريخ ، وعلى سبيل المثال في مكتبتي الآن ثلاث نسخ من كتاب روض القرطاس واحدة مطبوعة واثنتان مخطوطتان ، ذلك أن عبد الوهاب بن منصور تلاعب بنص هذا الكتاب حين حاول اضفاء بعض الحداثة عليه ، وصحيح انني اسهمت في تحقيق كتاب الحلل الموشية ، إنما امتلك نسخة خطية جديدة منه ، لم استخدمها اثناء

التحقيق ، ثم إنني إهتديت ـ مع من أهتـدي ـ الى معـرفة مـؤلف الكتاب يضاف الى هذا إن صلاتي بأقطار المغـرب العـربي متينة ـ والحمد لله ـ وهذا ما مكنني ـ ومازال ـ من الحصول على الجـديد من كتب التراث والدراسات الحديثة ، خاصة مطبوعات دار الغـرب الاسلامي ، حيث تربطني بصاحب الدار صداقة قوية العرى .

ولقد اوليت البحـر المتـوسط والصراعات للسـيطرة عليه وعلى جزره عنايتي ، ثم الحقت بهذا الجزء مـلاحق مفيدة فيهـا تـوثيق وتوضيحوتبيان .

الله جل وعلا يهدي الى سـواء السـبيل ، له تبـارك وتعـالى الشكر ، والحمد ، ومن كرمه وفضـله وقـدرته أسـتمد العـون واستجدي التـوفيق ، واسـتلهم الصـواب ، واطلب البـركة والمثوبة ، وصلي الله علي سيدنا ونبينا المثل الأعلى بين البشر ولكل البشر ، محمد بن عبد الله وعلي آله وصحبه وسلم .

دمشق ١١ / ١٢ / ١٩٩٢

سهيل زكار

الفصل الأول

المغرب والأندلس من الفتح حتى العصر المرابطي

كان لفتح بلاد الشام على يد العرب المسلمين ثم اتخاذ هذه البلاد مقرا للخلافة الاموية ابعد الآثار على حركة انتشار الاسـلام عالميا فالاسرة الاموية كانت تعرف بلاد الشام من قبل، وتدرك اهمية سواحلها المتوسطية وموقعها البري الفريد الذي مكنها من الاتصال بأوروبة الشرقية عبر آسية الصغرى وبأفريقية عبر مصر وبالهضبة الايرانية وخراسان وبلاد المشرق الأقصى عبـر العـراق وبـارمينية واذربيجان وعالم بحر الخزر وكذلك البحر الاسود مع اجـزاء مـن اوروبة الشرقية عبر الجزيرة .

وكان سكان سواحل الشام لعصور ما قبل الاسلام قد وصلوا عبر المتوسط الى حيث وصلت الفتوحات فيما بعد ، كما ان النسـاطرة والسريان كانوا قد وصلوا شرقا الى حيث وصلت الفتوحات العربية أيضا فيما بعد ، وكأني بأهل الشام الأوائل قد قاموا بحكم تواصل حلقات أحداث التاريخ بالتمهيد لنجاح حركة الفتوحات العربية ، في تقبل سكان البلاد المفتـوحة لدعوة التـوحيد الجـديدة ، فـالفارق الأساسي بين حركة الفتوحات العربية وغيرها من اعمـال التـوسع العسكري لمختلف الشعوب عبر العصور ، هو في تحول سكان البلاد التي عرفها أهل الشام قبل الاسلام الى الاسلام (١) .

ولاتعنينا الآن مسألة الفتوحات العربية في آسية بـل الذي يهمنا هو المواجهة العربية الأوروبية ، وبالتحديد المواجهة مـع الأجـزاء الغربية من أورووبة ، ذلك انه سبق لنا الحديث في الجزء الأول مـن كتاب المدخل عن العلاقات مع أوروبة الشرقية ممثلة بـالامبراطورية البيزنطية قبيل قيام ما يعرف باسم الحـروب الصـليبية ، وسـترد

إشارات كثيرة الى استمرار هذه العلاقات في الجزء الثالث المقبل ، كما ان مختلف النصوص فيها مواد غنية عن هذا الموضوع مع إشارات مفيدة للعلاقات مع الكرج(جورجيا) حيث والحروب الصليبية مشتعلة بأرض الشام كان الصراع الصليبي مع الكرج على اشده حاملا الالوان نفسها والسمات ، وكان له انعكاساته المؤثرة على ساحات بلاد الشام ،فهذا الصراع كان وراء قيام الحكم الأيوبي في بلاد الشام.

وتمت المواجهات بين العرب واوروبة الغربية في الأراضي المطلة على حوض البحر المتوسط وعلى مياه هذا البحر وفي سبيل التحكم به والسيطرة عليه وعلى جزره ، ومما يلفت الانتباه هو أن معاوية ابن أبي سفيان اهتم بالبحر المتوسط ونشط فيه منذ أن كان واليا أيام حكم الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (٢)، كما أن المتفحص بعمق لحركة الفتوحات في العصر الأموي يرى بكل وضوح وجود خطة استهدفت السيطرة بشكل كامل على هذا البحر ، فبعد اكمال فتح المغرب تم فتح الأندلس والسيطرة الكاملة على واحد من منفذي البحر المتوسط ، وأعقب هذا محاولة فتح القسطنطينية والسيطرة على المنفذ الثاني .

وانجز العرب فتح بلدان المغرب العربي بعمليات برية استهدفت اولا وقبل كل شيء السيطرة على سواحل المتوسط ، ولهذا شابها بعض المناوشات والمعارك البحرية ، وبفضل البحرية جازت الجيوش المسلمة الى الأندلس وهكذا لم يكتف العرب بتطويق بلدان اوروبة الغربية ، بل غزوها فافتتحوا شبه الجزيرة الايبيرية ، ومن ثم جهدوا في سبيل فتح فرنسا وسواها ، وظل النشاط العسكري العربي في أوروبة كبيرا جدا حتى ما بعد انتهاء القرن العاشر للميلاد ، حيث تغيرت الأحوال في القرن الحادي عشر بظهور النورمان وبتمزق الأندلس واشتداد حركة الاستغلاب الصليبية فيها ، ومع نهاية هذا القرن تحركت الحشود الهائلة من سكان اوروبة الغربية تريد بلاد الشام ، وهو ما عرف باسم الحروب

الصليبية ، لهذا هناك حاجة لدراسة ما شهدته ساحات المغرب والأندلس وجزر المتوسط من مواجهات ، فكما ان اوروبة اجتمعت تحت راية الصليب لتحقيق غاية واحدة متفق عليها ، فان الذي الم بالوطن العربي ، الم به شرقا وغربا ، فالوطن العربي وطن واحد ، قطنه شعب واحد تفاعلت أحداثه وشؤونه بشكل دائم ٠

وهكذا كما درسنا في الجزء المتقدم أوضاع المشرق العربي مع عمقه الاسلامي في القرن الخامس هـ -الحادي عشر، علينا - حتى تستكمل الصورة - أن نتولى بالدراسة أوضاع المغرب والأندلس وجزر المتوسط في هذه الفترة عينها ، إنما هنا أشعر بوجود الحاجة لتقديم عرض موجز لفتح المغرب والأندلس ، ثم تاريخ الأندلس حتى عصر دول الطوائف ، فبدون هذا العرض يصعب فهم العديد من القضايا ، لاسيما أن الوطن العربي في المغرب لم يمتلك انذاك عمقا اسلاميا كما الحال في المشرق .

فتح المغرب

اطلق العرب على البلاد الواقعة الى الغرب من مصر اسم المغرب ، وهي البلاد التي تتضمن الدول العربية في الشمال الافريقي : ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب وموريتانيا وتبعا لروايات المصادر العربية احتك العرب بعد قيام الاسلام ، بهذه البلاد بعد سنة ٢٢ هـ وقبل ٢٦ هـ (٦٤٣ ـ ٦٤٧ م) ، وعرف العرب سكان المغرب قبل الفتح باسم البربر ، ولعلهم حين عرفوهم بهذا الاسم قد ورثوا التسمية الرومانية « Barbari » التي استخدمها الرومان ومن قبلهم الاغريق ثم اخيرا بيزنطة ، واطلقوها على جميع الشعوب ذات الأنظمة القبلية والحياة البدوية .

وحاول الكتاب العرب تفسير هذه التسمية الشاذة على قاعدة علم الانساب ، مع أن البربر انفسهم لم يسموا انفسهم هكذا بل «الأحرار» وتعرف بقاياهم الآن باسم «الشلوح» ، وهم بشكل عام عند العرب الأوائل كانوا يتألفون من كتلتين بشريتين رئيستين هما : البرانس والبتر ، وقد ضمت كل كتلة منهما عددا كبيرا من القبائل المتفاوتة الأحجام والأدوار ، ومن المرجح أن قبائل البربر جميعا قد تكونت عبر فترات التاريخ من العرب الذين هاجروا الى الشمال الافريقي بحرا من سواحل الشام مثل الفينيقيين وسواهم واهم من هذا من موجات المهاجرين عبر مصر ، فقد قيل إن «المور» هم من بقايا الهكسوس ، والهجرة من مصر الى بلدان الشمال الافريقي لم تتوقف أبدا ، ولذلك عندما قام الفتح العربي للمغرب وجد العرب قبائل البربر تشابههم في العادات وأنماط العيش والطبائع والأشكال ، وبناء عليه عدت حركة فتوحات المغرب حركة تحرير مثل تحرير بلاد الشام والعراق ومصر .

ووجد العرب الحياة المدنية في المناطق الساحلية أما الداخل

فسادتها الحياة البدوية ، وفي هذا المقام يلاحظ ان جل مـدن بلدان المغرب الداخلية تأسست بعد انتشار الاسلام هناك ، ومن المقـرر ان غالبية المدن الساحلية كانت قد تأسست على أيدي الفينيقيين .

وعاني العرب كثيرا أثناء فتح بلدان المغـرب ، وبـذلوا جهـودا كبيرة في تحريرها ثم في تعريبها بشكل نهائي ، ويمكن تقسيم تاريخ المغرب في الاسلام الى فترتين واحدة سبقت قيام الهجرة السـليمية والهلالية ، واخرى جاءت بعدها ، فهذه الهجرة كانت حدثا فيصلا في تاريخ المغرب الكبير وصبغته نهائيا بالصبغة العربية .

وجاءت المؤثرات اللغوية والحضارية والثقافية الى بلدان المغـرب من مصر والمشرق العربي ، ومع هذا جاءت بعض المؤثرات من روما ثم روما الشرقية ، إنما كانت ضعيفة وسـلطوية فقـط ، ومـع أن الامبراطورية البيزنطية كانت تدين بالمسيحية ، فـان المسـيحية لم تصل الى المغـرب بـوساطتها وكانت الكنائس في المغـرب معـادية لكنيسة القسطنطينية ولكنيسة روما ، وحين طـرق العـرب أبـواب الشمال الافريقي كانت المناطـق السـاحلية خـاضعة لحـكم بيزنطة ، وهناك انتشرت المسيحية ، وعلى العموم شـابه المغـرب المشرق من حيث المواريث الدينية ، فقد كانت هناك مؤثرات مـانوية مع المؤثرات الكتابية وكانت هناك وثنية طـاغية ومنتشرة في مناطـق الداخل ، وكما في المشرق ارتبطت الوثنية في المغرب بالبداوة كنمـط للحياة .

ومن المفيد الاشارة الى انه نظـرا لأن بلدان الشـمال الافـريقي ارتبطت بشكل مباشر بأفريقيا السوداء ، فقـد وجـد فيهـا عناصر سوداء ذابت في جسم المجتمعات المغـربية ، وبلدان المغـرب تـولت دوما التأثير الكبير على سكان القارة الافريقية ، وبعد قيام الاسلام وانتشاره في المغرب منه انتقل الى شعوب القارة الافريقية ، وساعد قرب سواحل المغرب من سـواحل شـبه الجـزيرة الايبيرية في قيام هجرات بشرية احيانا كهجرة الوندال ، كما ان المواجهة القريبة من سواحل أجزاء هامة من غربي اوروبـا ـ خـاصة ايطـاليا ـ اغرت

بعض المهاجرين الأوروبيين بالقدوم الى بلدان المغرب ، لكن لم ينجم عن هذا تغييرات عرقية او اجتماعية عميقة .

وبعد هذه المقدمات العامة إذا ما انتقلنا الى الحديث عن فتوح المغرب نجد أنه بعد ما فرغ عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ - ٦٤٣ م من فتح الاسكندرية زحف نحو ليبيا فافتتح طرابلس ولبدة وصبراته ، وانتزعهم من أيدي البيزنطيين ، ثم أخذ يوجه سراياه في غزوات استطلاعية للفتح الاستراتيجي ، وهكذا امتلك العرب ما احتاجوه من معلومات عن أوضاع تونس التي دعوها باسم إفريقية ، وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في الزحف نحو إفريقية ، لكن الخليفة رفض خشية التغرير وقال : «لاإن إفريقية غادرة مغدور بها»(٣) .

ويستفاد من هذا النص وسواه أن العرب قد توفرت لديهم معلومات كافية عن ارض إفريقية مع السكان ، وأنهم وضعوا خططهم لفتحها لكنهم تريثوا لجمع ما يكفي من قوات ولتأمين قاعدة التقدم والزحف العسكري ، واتخذت طرابلس قاعدة ، لكن كان لها مخاطرها لوقوعها على الساحل المتوسطي ، فقد كانت بيرنطة ما تزال تملك قدرات بحرية كبيرة ، ونجد على العموم انه إذا كان فتح مصر وليبيا اشبه بنزهة عسكرية ، فإن فتح بقية أجزاء المغرب كان من اقسى المهام واكثرها عنفا.

وكان بعدما توفي امير المؤمنين عمر بن الخطاب استخلف عثمان ابن عفان ، وتبع هذا التغيير تغييرا آخر في جهاز الولاية في مصر ، فقد قام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية الفسطاط ، وافرد ولاية مصر مع ولاية المغرب الى عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وكان قبل ذلك شريكا لعمروبن العاص في الولاية ، لكن حين أبى عمرو أن يبقى «كماسك البقرة بقرنيها واخر يحلبها» عزله عثمان ، وذكر خليفة بن خياط ان عزل عمرو جاء سنة ٢٧ هـ - ٦٤٨ م ، وأوضح ابن عبد الحكم أن ابن أبي سرح أخذ بعد تسلمه لمنصبه « يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا

يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية » ، وعندما أكملت القوات العربية أعمال استطلاعها تقرر القيام بالعمل الاستراتيجي ، فبعث ابن ابي سرح الى عثمان يستأذنه في غزو إفريقية ويستمده ، وكانت إفريقية تحكم من قبل البيزنطيين ، وكان على رأس السلطة فيها قائد اسمه جرجير ، وتبعا للمصادر العربية كان جرجير هذا قد ثار على الامبراطور البيزنطي واعلن استقلاله ، واتخذ من مدينة سبيطلة مقرا لملكه ، وبعدت سبيطلة هذه قرابة السبعين ميلا عن قيروان المستقبل وكانت على درجة عالية من القوة والحصانة

واولى الخليفة عثمان الجيش الذي امد به ابن ابي سرح عناية كبيرة ، فجعله يحوي مشاهير رجال العرب واشرافهم مع عدد من الصحابة وكبار أبناء مشاهير الصحابة مثل العبادلة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، وذلك بالاضافة الى مروان بن الحكم ، ومعبد بن العباس ابن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن ابي بكر وغيرهم كثير

وعندما التقى الجيش العربي بجيش جرجير ، وجد العرب انفسهم امام جيش اكثر عددا واحسن تسليحا وعددا ، وقامت مناوشات بين الطرفين لعدة ايام ، ثم قام ابن ابي سرح بوضع خطة محكمة للالتحام بأن قسم قواته الى قسمين قسم شارك في الالتحام بينما كمن القسم الآخر ، وعندما تعب المتحاربون خرج الكمين العربي فأوقع هزيمة ساحقة بالبيزنطيين ، وسقط جرجير بين القتلى ، ففي المشرق عندما هزم العرب جيوش بيزنطة في الشام وجيوش الفرس في العراق وإيران خلصت لهم البلاد ، ودان لحكمهم السكان المحليون ، لكن هنا في المغرب اختلفت الاوضاع ، فقد أراد العرب فتح البلاد ساحلا وداخلا ، وحين هزموا البيزنطيين سيطروا على السواحل ، وبقي عليهم خوض معارك مريرة للسيطرة على المناطق الداخلية التي لم يكن لبيزنطة سيطرة عليها،ودانت كل بقعة منها لزعامة قبلية محلية.

هذا ولم يتمكن ابن ابي سرح من استغلال نصره المبين بـالتوغل داخل الاراضي المغربية ، وسبب هذا ما واجهه من قلاقل داخل صفوف جيشه ، فقد روي انه حصل على غنائم عظيمة ، وجاء توزيع هذه الغنائم بشكل غير عادل ، مما اثار حفيظة الجند ، وكان بالتالي بمثابة شرارة أولى أدت بعد تطورها الى المساهمة في الثورة على عثمان وقيام أحداث الفتنة الكبرى ، ومن المرجح على هذا أن النصر على جرجير كان اخر معركة كبرى خاضها العرب في المغرب في العصر الراشدي ، وبما أن الغنائم كانت توزع بعد القتال مباشرة ، فإن القلاقل الناجمة ارغمت ابن أبي سرح على عدم متابعة زحفه واستغلال نصره ، حيث تصالح مع بقايا البيزنطيين على « ثلاثمائة قنطار من الذهب ، على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم » (٤) .

وتفجرت احداث الفتنة الكبرى التي اودت بحياة الخليفة عثمان ابن عفان ، وفي اثناء خلافة الامام علي بن ابي طالب ، تقلب على ولاية مصر عدد من الولاة ، لم تخلص الولاية لواحد منهم ، وعندما آلت الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان أعطى ولاية مصر الى عمرو ابن العاص ، وفق بنود تحالفهما قبيل الحرب في صفين ، وبعودة عمرو بن العاص الى الفسطاط عاد النشاط العسكري العربي واستؤنفت حركة الفتوح ، ففي سنة ٤١ هـ ـ ٦٦١ م (عام الجماعة) «ولي عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، عقبة بن نافع الفهري ـ وهو ابن خالة عمرو ـ إفريقية » وقام عقبة بعدة غارات في داخل إفريقية ، وفعل الشيء نفسه في العام التالي ، ثم في العام الذي تلاه ، وهو العام الذي توفي فيه عمرو بن العاص (٥) .

ويرجح أنه في سنة ٤٥ هـ ـ ٦٦٥م أفرد الخليفة معاوية بن ابي سفيان اسمية معاوية بن حديج شؤون إفريقية ، وبهذا فصلها عن ولاية مصر وأفردها ، وجاء هذا نتيجة لعدة عوامل كان منها ـ كما يبدو ـ قيام واحد من قادة جرجير واسمه جناديوس بـالقبض على ناصية الأمور هناك بعده ، وظل وفيا للوعد الذي قطع للعرب من قبل

بقيادة ابن أبي سرح ، إنما في أثناء انشغال العرب بالحروب الأهلية حاولت بيزنطة إعادة نفوذها الى إفريقية ، فبعثت بواحد من قادتها الى هنا لكنه أخفق بعدما التقى مع جناديوس في معركة ومن ثم اضطر الى مغادرة الشمال الأفريقي والعودة الى حيث أتى ، على أنه ما لبث جناديوس نفسه أن واجه تحركا داخليا لم يستطع التغلب عليه ، لذلك غادر إفريقية واتجه نحو معاوية بن أبي سفيان ، فكان أن أرسل معه جيشا بقيادة ابن حديج قيل بلغ تعداده عشرة الاف مقاتل ، وضم بين صفوفه عددا من مشاهير العرب كان منهم عبد الملك بن مروان ، وزحف جيش ابن حديج ـ بعد ما وصل الى مصر ـ من الاسكندرية الى برقة وطرابلس ، وتوغل هذا الجيش حتى المنطقة التي ستقام فيها مدينة القيروان ، وهناك علم بنزول حملة بيزنطية في منطقة غابات الزيتون بين سفاقس وسوسة ، فأرسل ضدها وحدة من قواته طردتها ، واحتل ابن حديج عدة مواقع واقام مدة سنة تقريبا يبث سراياه ويعمل الغارة داخل إفريقية ، وإثر هذا عاد الى مصر ، ولا ندري ما الذي حل بجناديوس الذي كان برفقته، وكل الذي نعرفه أن ابن حديج عاد الى مصر دون أن يبرم عهدا أو اتفاقية مع طرف من الأطراف ذات السلطة في إفريقية ، وعلى الرغم من عودة ابن حديج الى مصر يرجح أن بعض القوات العربية بقيت معسكرة في طرابلس ، ومن هناك كانت تقوم بالغارات الاستطلاعية (٦) .

هذا ويمكن عد ماتم حتى الآن من أعمال عسكرية في الشمال الافريقي مجرد أعمال تمهيدية للفتح الدائم ونشر الاسلام وتعريب البلاد ، وكان هذا العمل الحاسم قد بدأ مع سنة ٥٠ هـ ـ ٦٧٠ م،وارتبط باسم عقبة بن نافع الفهري ، ففي هذه السنة « وجه معاوية عقبة بن نافع الى إفريقية فخط القيروان واقام بها ثلاث سنين »، ومع أن عقبة لم يكن قائد الجيش الوحيد الذي عمل في هذه السنة في الأراضي المغربية ، حيث أن مسلمة بن مخلد والي مصر بعث معاوية بن حديج على رأس جيش توغل داخل الأراضي المغربية ، فإن الذي حققه عقبة بن نافع كان بعيد الأثر ، وعلى

راس ما حققه كان إقامة مدينة القيروان ، التي اقيمت بعيدا عن الساحل في موقع استراتيجي داخل البر المغربي فغدت قاعدة عربية متقدمة للفتوح عسكريا وثقافيا ودينيا واقتصاديا ، والمركز الأول الذي حمل مسؤوليات اعمار الشمال الافريقي وتعريب الأرض والسكان بشكل دائم وثابت.

ولهذا يحيط العرب اخبار بناء القيروان بهالة خاصة وقدسية فائقة ، فقد كان مع عقبة بن نافع « في عسكره خمسة وعشرون من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » وأنه حينما وقع اختياره على موقع القيروان اقبل يدعو لها ويقول في دعائه: اللهم املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا لمن كفر بك ، واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض » ، وبعد هذا وقف على واديها فقال : «يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون ، وإنا من وجدناه قتلناه» « ونظر الناس بعد ذلك الى امر معجب من أن السباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه والحيات تحمل أولادها» وهنا نادى عقبة في الناس « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا».

يبدو أن هذا ما كان الا تحريفا اسطوريا لما قام به عقبة حين شرع في اتخاذ معسكره حيث أنه أمر كما يبدو بطرح النار في البقعة التي اختارها لتنظيف ما كان بها من اشجار واعشاب وغير ذلك ، وتطور هذا المعسكر الى مدينة حملت اسم القيروان ، وهي لفظة معربة مثلها مثل لفظة فسطاط تعني معسكر الجيش أو القافلة أو معظم الجيش.

وظل عقبة في منصبه حتى سنة ٥٥ هـ ـ ٦٧٥م ، ففي هذه السنة أو قبلها وضع الخليفة معاوية بن أبي سفيان ولاية إفريقية تحت لواء والي مصر مسلمة بن مخلد ، فقام بعزل عقبة وأرسل جيشا الى إفريقية جعل على راسه خالد بن ثابت الفهمي « وامره أن يستخلف أبا المهاجر دينارا » وكان الوالي الجديد من

الأنصار ، وكان مولى لسلمة بن مخلد ، ويبدو انه اساء معاملة عقبة عندما تسلم أعماله منه (٧) .

ولا نمتلك تفاصيل كثيرة عن أعمال ابي المهاجر ، سوى انه لم يقم في قيروان عقبة ، واتخذ لنفسه معسكرا خاصا على ميلين منها عرف باسم تيكروان ، وظل ابو المهاجر في منصبه حتى ما بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان ، وقيل غير هذا ، لكن يرجح أن معاوية اشرك معه غيره في الولايةففي سنة ٥٧ /٦٧٧ «وجه معاوية بن ابي سفيان حسان بن النعمان الغساني الى إفريقية ، فصالحه من يليه من البربر ، ووضع عليها الخراج ، فلم يزل عليها حتى مات معاوية»(٨) .

وبعدما عزل عقبة من منصبه ، توجه نحو بلاد الشام حيث لقي معاوية بن أبي سفيان فعاتبه على عزله ، فطيب معاوية نفسه ومناه ، ومكث عقبة في دمشق حتى ما بعد وفاة معاوية واستتباب الأمور لابنه يزيد ، حيث قام بإعادته إلى ولاية إفريقية ، وربما تم هذا سنة ٦١ هـ ــ ٦٨١ م ، وفي ولاية عقبة هذه وصلت الفتوحات العربية إلى اقصى المغرب ، وفي ذروة النجاح هذه اصيب العرب بنكسة كبيرة كادت تفقدهم كل ما حصلوا عليه في السنين المتقدمه .

خرج عقبة من الشام مسرعا نحو مصر ، وكان بصحبته بعض القوات الشامية ، وعندما مر بمصر اعتذر له مسلمة بن مخلد من فعل أبي المهاجر » فقبل عقبة منه ومضى سريعا لحنقة على أبي المهاجر حتى قدم إفريقية ، فأوثق أبا المهاجر بالحديد ، وامر بخراب مدينته ، ورد الناس إلى القيروان » .

ثم عزم بعد هذا على الغزو ، وعندما تحرك ترك في القيروان جندا استخلف عليهم زهير بن قيس البلوي ، وتحرك عقبة فاجتاح في تحركه المغرب الأوسط فهزم من تصدى له من بقايا القوات البيزنطية والقبائل البربرية ، ودخل المغرب الأقصى فهزم كل من اعترض سبيله ، ودخل طنجة » فلقيه رجل من الروم يقال له اليان » وبعدما حصل عقبة على بعض المعلومات توجه نحو السوس

الأدنى فهزم من قاومه من البربر » ومضى كذلك حتى دخل السـوس الأقصى فاجتمع به البربر في عدد لايحصى فلقيهم فقاتلهم قتالا شديدا ما سمع أهل المغرب بمثله ، وقتل منهم خلقا عظيما وأصـاب منهـم نساء لم ير الناس في الدنيا مثلهن » .

وكان هدف عقبة الأسـاسي في حمـلاته دعوة الناس إلى الاسـلام ، ويرجح أن كثيرا من قبـائل البـربر أعلنت إسـلامها ، وحين قـال المؤرخون العرب إن عقبة قد وصـل إلى السـوس الأقصى ، وهناك اقتحم المحيط بفرسه حتى وصل الماء إلى تلابيبه وقـال · يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سـبيلك ، هـذا يعني أنه كان يرنو ببصره نحو أوربة ، ولم يفكر قط في التـوغل داخـل افـريقيا السوداء ، أضف إلى هذا أن المقصود بالسوس الأقصى هنا مصـب نهر السنغال في المحيط الأطلسي .

ولقد كانت الانجازات التي حققها عقبة عظيمة جدا ، وكانت الغنائم كبيرة، وعندما فكر عقبة في العودة نحو القيروان أرسل القسم الأكبر من قواته مع العيال والغنائم ، وأبقى لنفسه قوة صغيرة ، وكان معه احد زعماء البربر واسمه كسيلة ، وقـد اسـتطاع كسـيلة هـذا أن يهرب ، ومن ثم قام بحشد رجال قبائله ، وبالوقت نفسه تحالف مـع بقايا بؤر المقاومة البيزنطية ، وقبـل أن يصـل عقبـة إلى منطقـة القيروان سعى للاستيلاء على مدينة تدعى تهودة ، ويبدو أن حصاره لهذه المدينة أتاح الفرصة أمام كسيلة للتحـرك وقـطع الطـريق على عقبة، وعلى مقربة من تهودة، وعلى حين غرة وجد عقبة نفسه امـام جموع كسيلة ، فلم يتردد في الاشتباك مع هـذه الجمـوع في معـركة انتحارية سقط فيها هو وجميع من كان في صحبته ولعـل هـذا كان سنة ٦٨٤ م ، ودفن عقبة حيث استشهد ، وبعد فتـرة غلب اسـمه على الاسم القديم للمدينة ،فأصبحت تهودة تعرف بسيدي عقبة،وقبر عقبة له مكانة عالية في نفوس أهل المغرب العـربي الكبير، وصـورة عقبة هناك صورة المثل الأعلى للبطل العربي المسلم.

وعقب مصرع عقبة زحـف كسـيلة بجمـوعه نحـو

القيروان « فخرجت العرب منها ولم يكن لهم بقتاله طاقة لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، واسلموا القيروان ، وبقي بهما اصحاب الذراري والأثقال ، فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان فأمنهم وأجابهم ، وأقام كسيلة حتى نزل القيروان ، وأقام أميرا على إفريقية ، وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده ، فما زال على ذلك إلى أن ولي عبد الملك بن مروان » (٩) .

ولقد توافق مصرع عقبة مع الفترة التي تمخضت عن وفاة يزيد بن معاوية والحروب الأهلية في الشام والعراق والجزيرة العربية ، لكن ما إن استقرت الأمور وخلصت الخلافة لعبد الملك بن مروان حتى بادر بالايعاز إلى زهير بن قيس البلوي نائب عقبة في القيروان ، والذي كان قد انسحب منها ورابط في برقة فبعث إليه « بأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ القيروان ومن فيها من المسلمين ، وكتب له زهير بن قيس يعرفه بكثرة من اجتمع إلى كسيلة من البربر والروم ويستمده الرجال والأموال » واستجاب عبد الملك لطلبه فأوعز إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر بتوجيه الامدادات إلى زهير وقام هو بدوره « فوجه إليه وجوه أهل الشام .... وبعث إليه الأموال » وكان هذا سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، وزحف زهير باتجاه القيروان وعندما دنا منها انسحب كسيلة من قربها إلى مكان يدعى ممش على مسيرة يوم واحد من القيروان ، وكانت قوات كسيلة أكبر من قوات زهير ، والذي دعاه إلى الانسحاب خشيته أن يخرج عليه أهالي القيروان من العرب فيقع بين فكي الكماشة ، والتقى الجيشان في ممش والتحما « في القتال ، ونزل الصبر ، وكثر القتل في الفريقين حتى يئس الناس من الحياة ، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل » وقامت قوات زهير بملاحقة فلول جيش كسيلة وبإعادة السيطرة العربية على المغرب ، واستمر هذا حتى سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م حيث « رحل زهير قافلا إلى المشرق » وكان السبب في عودته ما بلغه من أخبار عن قيام بيزنطة بإنزال قوات أغارت على برقة وغيرها عن المناطق مستغلة غياب زهير ، وأصاب البيزنطيون سبيا وأموالا للمسلمين كثيرة ، وعندما

شرع زهير بالعودة « امر العسكر ان يمضوا على الطريق ، واخذ على ساحل البحر في عدة من اشراف الناس مجدين مبادرين رجاء أن يدرك سبي المسلمين ، فأشرف على الروم ، فرآهم في خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع ، واستغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه « النزول رحمكم الله » فنزلوا « وكانوا رؤساء العابدين وأشراف العرب ، فنزل إليهم الروم فتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال واعانوا بعضهم بعضا ، وتكاثر عليهم الروم فقتلوا زهيرا ومن معه من المسلمين جميعا فما افلت منهم رجل » .

ووصلت انباء مصرع زهير وصحبه إلى الشام إلى عبد الملك « فعظم ذلك عليه ، وبلغ منه لفضله ودينه ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة » وكانت جهود عبد الملك مصروفة انذاك كليا للقضاء على ابن الزبير ، لذلك كان لابد من الانتظار لاعداد حملة جديدة ، وستأتي هذه الحملة مع استتباب امور الدولة الاموية في المركز ، مما سيمكن من صرف الجهود لتثبيت السلطة العربية ولنشر الاسلام بين سكان المغرب (١٠) .

وبعدما توطدت الامور لعبد الملك ، وتم له القضاء على ابن الزبير التفت نحو قضية المغرب ، فجهز جيشا كبيرا ، عهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني ، ويبدو أن هذا كان سنة ٧٢ هـ / ٦٩٢ م ، وبعدما وصل إلى مصر غادرها إلى طرابلس ، ومن هنا قرر التوجه نحو قرطاج طبقا لخطة جيدة وواضحة ، فقد أراد أولا القضاء نهائيا على الوجود البيزنطي في المغرب ، وكان هذا القضاء يزيل من الوجود القوى العسكرية الأجنبية النظامية ، ولعل حسان ظن أنه إذا نجح بذلك سهل عليه ما بقي ، وهو القوات البربرية للقبائل المتمردة .

وفعلا نجح حسان في فتح قرطاج ، وذلك بعد جهود كبيرة ، بيد أنه ماكاد يخيل إليه أن المغرب قد دان له حتى عرف بقيام تحالف بين قبائل الأوراس تحت زعامة امرأة عرفت بالكاهنة والتقى

بقواتها في معركة عنيفة انهزم فيها حسان بعدما فقد عددا كبيرا من افراد قواته ، وقام بالانسحاب نحو طرابلس ، وهكذا تخلى العرب مرة اخرى عن إفريقية ، واقام حسان في طرابلس ما يقرب من خمس سنوات حتى وصلته إمدادات كبيرة من الشام ، فعاود اخذ طريق إفريقية ، والتحم مع قوات الكاهنة فاستطاع أن يوقع فيها الهزيمة ويقتل الكاهنة نفسها ، ولقي حسان في صراعه مع الكاهنة مساندة بعض البربر وغيرهم من السكان المحليين ، ذلك أن الكاهنة عمدت إلى سياسة تدميرية مريعة للعمران في إفريقية ، فقد قالت لاتباعها « إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي ، فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها، ويقل طمعهم فيها » .

وبعد القضاء على الكاهنة خلص المغرب للعرب ، ودخلت أعداد كبيرة من سكانه في الاسلام ، ونعمت البلاد بقسط وافر من الاستقرار ، وبدأ العرب ينظمون أحوال البلاد ويقيمون إدارة خاصة بها ، وكان حسان بعد هزيمته للكاهنة قد تخلى عن مدينة قرطاج ـ العاصمة القديمة لافريقية ـ وبعد هذا قام ببناء مدينة جديدة ، على مقربة منها ، جعلها مركزا جديدا لافريقية ، ودارا لصناعة المراكب ، وعرفت هذه المدينة باسم تونس ، واستعارت هذا الاسم من قرية كانت قريبة منها عرفت باللاتينية بـ Tynis

ويبدو أن نجاحات حسان وإنجازاته بالمغرب قد ضايقت عبد العزيز بن مروان ، اخو الخليفة وولي عهده وحاكم مصر ، فقام عبد العزيز بعزل حسان وولى مكانه موسى بن نصير ، ولعل هذا كان سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م (١١) .

ولئن عد حسان بن النعمان الفاتح الذي أوجد شخصية المغرب العربي ، فإن موسى بن نصير ثبت ملامح هذه الشخصية ووضحها ، هذا وتختلف المصادر حول تحديد سنة استلام موسى بن نصير لولاية المغرب ، فبعضها يذكر انه استلمها ايام عبد الملك بن مروان ، اي قبل وفاة عبد العزيز بن مروان ، وكان عبد العزيز قد توفي سنة

٨٤ هـ / ٧٠٣ م ، وكان ذلك قبل وفاة عبد الملك بعـامين ، ويمـكن القول إن موسى ولي إفريقية لعبد العزيز ، ثم وليها منفصلا عن ولاية مصر منذ سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، اي منذ بداية خلافة الوليد بن عبد الملك .

وجاء حكم موسى للمغرب حدثا حاسما في تاريخه ، فقد نشط هذا الوالي المجرب نشاطا عسكريا كبيرا إلى اقصى المغـرب ، إلى حيث وصل عقبة من قبل ، وتمكن هكذا مـن الحصـول على طـاعة جميع قبائل المغرب وإعلان قبولها للاسلام ، كما انه استطاع تصفية جميع ما تبقى من جيوب المقاومة في المدن والقلاع والحصون ، ولم يقتصر نشاط موسى على البر فقط ، بل قـامت بعض قـواته بغـارات على سواحل صقلية وشبه الجزيرة الايبيرية ، وبعدما دان المغرب جميعه لموسى ، وبعدما تجمعـت لدى مـوسى الامـكانات البشرية والمادية ، وبعدما غدا بإمكانه تجنيد بعض القوات مـن البـربر الذين دخلوا في الاسلام ، شرع في تنفيذ خطط جديدة تتواءم مـع أهـداف الخـلافة بالسيطرة على البحر المتوسط ، وتماشيا مع ما تفرضه الجغـرافية على التاريخ ، فما من قوة وحدت المغرب إلا وحاولت السـيطرة على شبه الجزيرة الايبيرية ، هذا من جانب ومن جانب اخر عندما كانت قوى شبه الجزيرة هذه تخفـق في التـوسع داخـل القـارة الأوربية تنعطف نحو الشمال الافريقي (١٢) .

فتح الأندلس والتوسع في أوربة

من المقرر أن فتح الاندلس قد جاء مثل غيره من الفتوحات العربية تنفيذا لخطط الفتح التي اعتمدت في ايام الوليد ، واستهدفت فيما استهدفته السيطرة على حوض البحر المتوسط وعلى منفذيه مضيق جبل طارق والبوسفور ، ومع ذلك إن هذا الفتح يختلف بعض الشيء عن الفتوحات الأخرى ، ولهذا السبب نحن بحاجة للبحث فيه ضمن أطر خاصة وموازين ذاتية ، ذلك أنه إذا كانت الفتوحات في اسية وأفريقيا اعمال توسع للدولة العربية ونقلا للاسلام الى اراضي متاخمة للأراضي الاسلامية ومتصلة بها ومتداخلة معها ، فإن ما تم هنا هو الانتقال من قارة الى قارة ، ويواجهنا هنا سؤال هو: لماذا قصر العرب فتوحاتهم على الشريط الجغرافي المقطون بسكان بيض البشرة ، ولماذا لم يتوسعوا في وادي النيل للوصول الى الحبشة ، ثم لم يتوسعوا داخل افريقيا السوداء بعد اكمال سيطرتهم على الشمال الأفريقي؟

وقبل أن نقدم الاجابات المعللة لهذا السؤال من المفيد الاشارة الى ان هناك من ذهب في أيامنا الى القول إن العرب لم يفتحوا بلاد الأندلس ، ولم يكن هناك اعمال عسكرية بقيادة طارق أو موسى ، بل الذي حدث هوتوسع حضاري وعقائدي ، والحجج المقدمة هنا فيها ثغرات كبيرة واغفال لحقيقة أن فتح الأندلس مثل غيره من الفتوحات ما كان لينجح ويكتب له الاستمرار والعطاء بدون الاسلام عقائديا وحضاريا وثقافيا ونظما.

وجاء انكار عملية الفتح في كتاب حمل عنوان« العرب لم يغزوا الأندلس رؤية تاريخية مختلفة» (١٣) وهذا الكتاب ترجمة ممسوخة لكتاب الف بالاسبانية وصدر عام ١٩٧٤ لباحث اسباني اسمه اغناسيو اولاغي وتولى الترجمة بتصرف واختصار اسماعيل الأمين ومـــــــــــن

الواضح أن المترجم يمتلك معلومات فقيرة جدا عن التاريخ العربي بشكل عام والتاريخ الاندلسي بشكل خاص ، ولهذا عجز عن ضبط جل الأسماء العربية ، واستهدف الترويج عن طريق الاشارة على قاعدة مخالفة المألوف ، وليس مَن اجل خدمة الحقيقة العلمية ، ثم إنه ليس لديه خبرة بعلم التاريخ عند العرب في المشرق ثم الأندلس ، مع جهل بما حدث خلال العصور الوسطى الاسلامية.

وإذا ما عدنا للاجابة على السؤال نجد ابن خلدون يروي في تاريخه « أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر اسلامهم حتى اجاز طارق موسى بن نصير الى الأندلس ، بعد أن دوخ المغرب ، وأجاز معه كثيرا من رجالات البربر وأمرائهم برسم الجهاد ، فاستقروا هناك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة ».

هذا وفي الوقت الذي جعل فيه ابن خلدون فتح الأندلس حلا لمشاكل المغرب نجد قبله الرقيق القيرواني يجعل هذا الفتح يقوم لحماية المغرب من مخاطر هجوم يأتي عن طريق الأندلس ، فجاءت ـ هكذا حملة المسلمين على الأندلس بمثابة هجوم وقائي ، وليس توسعا مثل بقية الفتوحات.

إن في كل من هذين التعليلين الكثير من الصواب ، إنما يمكن أن يضاف إليهما تعليلات أخرى يجلها المؤرخ المعاصر ويستخرج أدلتها من سياق الحوادث ، فبالاضافة لسياسة العرب تجاه البحر المتوسط نلاحظ أن التوسع في الشمال الافريقي كان حركة تحرير للجزء الأفريقي من الوطن العربي ، الذي تمتد جذور وجوده في أعماق التاريخ ، وتحددت معالمه وترسخت بفضل الاسلام ، وتعليل هذه الظاهرة مرتبط بانشطار العالم الاسلامي الى شطرين: عربي وأعجمي ، ثم إن العرب لم يتوسعوا داخل أفريقية السوداء لأسباب اقتصادية واجتماعية بشرية حضارية ، ثم هناك مشكلة التصور الجغرافي والمعرفة بأقاليم الأمم الأخرى وبلدانها ، فلقد كانت

افريقيا السوداء عالما مجهولا بالنسبة للعرب ، كما أنه كان عالما في غاية الفقر ، مرابحه قليلة ، يحتاج نشر الاسلام بين شعوبه الوثنية الى وقت طويل وجهود متواصلة ، يضاف الى هـذا أن فتحـه كان سيكون على درجة عظيمة من الصعوبة بالنسبة للعرب الذين اعتادوا على الأرض المكشوفة والأقاليم المعتدلة ، فهناك مـن يقـول: يعيش العربي حيث يعيش الجمل وحيث ينبت الزيتون ، هذا وكان للعـرب تجارب مريرة غير مشجعة حينما حاولوا التـوسع في أراضي النوبـة والتوغل في وادي النيل ، وبالمناسبة انتشر الاسلام في افريقيا بفضل قوة وفعالية معطياته العقائدية والحضارية مع نظمه ، ولهـذا جـاء هذا الانتشار بدون تعريب ، لكن الذي حدث بالأندلس كان تعـريبا كاملا لقرون طويلة.

وفي الوقت الذي جهل فيه العرب الى حد كبير افـريقيا السـوداء كانت لديهم معلومات جيدة عن أوروبة وخاصة عن الأندلس وصقلية وبعض جزر المتوسط ، فمنذ أن فرغ العرب من بناء قوتهم البحرية في عهد عثمان بن عفان أخذت أساطيلهم تجـوب البحـر المتـوسط وتعمل الغارات وتخوض المعـــارك ضـــد أســـاطيل بيزنطـــة وغيرها ، ولهذا كانت لديهـم معلومـات عن الأحـوال السـياسية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية والدينية لشبه الجزيرة الايبيرية وصقلية ، والواقع أن هذه الأوضاع هي التي دعتهم الى العبور الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وهي التي سببت لهم النجاح ، وهنا نجـد انفسنا بحاجة للقيام باستعراض لاحوال شـبه الجـزيرة الايبيرية وتاريخها قبل قيام الفتح الاسلامي وأيام حدوث الفتوح.

كانت شبه الجزيرة الايبيرية تحـت حـكم الفيزقـوط (القـوط الغربيون) الذين كانوا قد دخلوها في سنة ٤١٤م ، وذلك بعد هجرة الفندال اليها ، وقد تملكوا المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد ، ثم مدوا نفوذهم عليها جميعا وتسببوا في هجـرة الوندال الى الشـمال الافريقي ، ومن الوندال نالت الأندلس تسميتها (فندلسـيا) وكان القوط مثـل غالبية القبـائل ذات الأصـــل الجـــرماني ، يؤمنون

بالنصرانية إنما تبعا للعقيدة الاريانية ، التي اختلفت عن غيرها من العقائد بنظرتها الى طبيعة السيد المسيح وتأليهه ، هذا في حين كان السكان المحليون (الهسبوروما) يؤمنون بالكاثوليكية ، لذلك كان الوفاق منعدما بينهم وبين الفيزقــوط ، ولم يكن في شــبه الجــزيرة الايبيريةوحـــدة وطنية او اجتمـــاعية ، وفي عام ٥٨٩ اعتنق ملك الفيزقوط الكاثوليكية ، وهــكذا أمــكن بعــد ذلك قيامَ دولة مــوحدة تسيطر على جميع شبه الجزيرة الايبيرية ، اي اســبانية اليوم مــع جزء من جنوب فرنسا الحالية.

في هذه البلاد كان هناك طبقة من النبلاء العليا احتكرت لنفســها الســلطات الزمنية مــع الكنيســة ، وكانت الدولة دولة ملكية ، لكن المؤسسة الملكية فيها كانت ضعيفة ، لان الملك كان ينتخب مــن بين رجالات طبقة النبلاء وبوساطتهم ، وهكذا لم يكن هناك قانون ثابت للملكية ، ولا مبدأ مقرراً لوراثة العرش ، وقد جرت بعض المحاولات من قبل عدد من الملوك لتأمين العرش لأبنائهم بعد مــوتهم بــوساطة إشراكهم في الحكم ايام حياتهم او بالتنازل عن العرش ، ولم تمر هذه المحاولات دون معارضة شديدة من قبل النبــلاء أصــحاب المطــامع والنزعات السلطوية والاستقلالية ، مما كان يســبب الاضــطرابات الدائمة والقلاقل المستمرة ، وكان هناك مؤامرات مســتمرة لتــولي الحكم بعد وفاة الملك.

يضاف الى هذا أن ملوك الفيزقوط كانوا يعانون مــن الضــعف بسبب طبيعة جيوشهم واحوالها ، فقد كان ـ نظريا ـ على كل حر قادر على حمل السلاح القيام بخدمة الملك ، لكن بسبب تركيب طبقة النبلاء وعلاقاتها بالعرش واســباب اخــرى نجــد الملوك مـــن الفيزقوط ، يجدون ـ فعليا ـ منذ القرن السابع من الصعب جــدا جمع جيش قادر.

والى جانب النبلاء ، تشكل شعب شبه الجزيرة من الأحرار الذين انحدروا من أصل اسباني ـ روماني ، اي كانوا نتاج المستعمرات الرومانية في اسبانيا ايام الامبراطورية الرومانية ، وبــالاضافة الى

طبقة الأحرار وجد الكثير الكثير من الأقنان والفلاحين الفقراء التعساء ، وكان هناك ظلم اجتماعي واستغلال وبالتالي كانت هناك شكوى مع تذمر دائم ، ولا شك أن هذا سهل عملية الفتح العربي حيث نظر الناس الى المسلمين كمحررين ، ويرجح أن أخبار ما أحدثه الاسلام في الشمال الأفريقي مع مؤثرات اسلامية قوية قد وصلت الى شبه الجزيرة الايبيرية قبل وصول الفاتحين ، ولهذا ساعد بعض الاسبان العرب ، وقبلوهم عموما ولم يقاوموهم ، كما كانت الكنيسة الاسبانية مستبدة تتميز بالطغيان والجهل وشدة التعصب ، وكانت المدن الاسبانية أيام الفيزقوط تعيش في احوال متردية ، ذلك ان هؤلاء المتسلطين كانوا قوما بدائيين مهملين للتجارة والصناعة والثقافة ، بل لكل ما هو متصل بالحضارة ، وكان في المدن الاسبانية جاليات كبيرة من اليهود ، وقد اساءت السلطات الاسبانية مع الكنيسة معاملة اليهود ، ونظرت اليهم نظرة سوء وأصدرت عدة قوانين وقرارات لتنصير اليهود ، وهكذا جعلتهم في اوضاع أصبح فيها من المستحيل عليهم متابعة ممارسة العمل بالتجارة وغيرها من صناعات المال ، وقيل: جعل هذا يهود اسبانيا يتآمرون مع يهود شمال افريقيا ضد الحكم الفيزقوطي ، لكن لم يكن لهؤلاء اليهود أي سلطان أو نفوذ من أي نوع على السلطات العربية في المغرب ، إنما يلاحظ أن يهود اسبانيا قدموا للعرب ما احتاجوا اليه من معلومات عن اسبانيا ، وبعد ما نزل العرب الى البر الأندلسي وقهروا الفيزقوط قدم اليهود لهم بعض المساعدات المفيدة وعملوا بمثابة ادلاء لجيوشهم.

وحين نستعرض أخبار العرش الاسباني قبيل الفتح نجد حسب المواريث الجرمانية ابا وابنا يحكمان شبه الجزيرة الايبيرية منذ عام ٦٨٧ م ، وقد أراد الابن واسمه ويتزا أن يخلفه احد أولاده واسمه أخيلا فقام بتعيينه دوقا على القسم الشمالي الشرقي من المملكة ، وعندما مات ويتزا في عام ٧١٠ م رفض فريق من النبلاء الاعتراف بأخيلا ، وقيل إنهم انتخبوا رودريك (عند العرب لذريق) ملكا ، ومع هذا احتفظ أخيلا بدوقيته حتى انه ضرب نقوده

الخاصة ، واعتبر رودريك مغتصبا ، وسعى الى خلعه عن العرش واعتلائه هو بنفسه.

وخاض رودريك ضد اخيلا اكثر من معركة ، وعندما نزل المسلمون في شبه الجزيرة الايبيرية كان رودريك منشغلا في الحرب بالشمال ، هذا وحين تتحدث المصادر العربية عن فتح الأندلس نرى بعضها يذكر ان أخيلا ، أو واحدا من اخوانه ، اتصل بطارق بن زياد الذي كان معسكرا في طنجة مع قوة مؤلفة من اثني عشر الف مقاتل ، وقال له: «ان ابي مات ووثب على مملكتنا بطريق (اي نبيل) يقال له لذريق ، وبلغني أمركم فجئت اليكم ادعوكم اليها (اسبانيا) واكون دليلكم عليها» ولاقت هذه الدعوة أذنا صاغية من طارق وقوت عزيمته «على غزو الأندلس ، واستنفر البربر......وجعل يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف الى الأندلس ، ولا يشعر بهم اهل الأندلس ، ولا يظنون الا انها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجا فوجا الى ساحل الاندلس....فلما لم يبق الا فوج واحد ركب طارق ومن بقي معه فجاز الى أصحابه ، فنزل بهم جبلا من جبال الاندلس حريزا منيعا ، فسمي ذلك الجبل من يومئذ جبل طارق ، فلا يعلم الا به ، وموسى بن نصير بافريقية لا يعلم شيئا من هذا» وتذكر روايات أخرى اكثر عددا أن الذي اتصل بالعرب هو حاكم سبته البيزنطي واسمه اليان (يوليان.جوليان) وانه هو الذي حرض المسلمين على غزو شبه الجزيرة الايبيرية لأسباب شخصية بحتة ، فهو قد اراد أن ينتقم من رودريك لانه كان قد أودعه في بلاطه ابنته ، فاعتدى رودريك عليها ودنس شرفها ، فعادت الى ابيها فشكت اليه ما بليت به ، وبما أن يوليان كان في وضع لا يملك فيه من القوة ما يكفي لينتقم من رودريك ، فقد حرض العرب على حربه ، وامدهم بما ارادوه من معلومات عن الأندلس ، ثم أعارهم سفنا عبروا بها الى شاطىء الأندلس.

وتكمن مشكلة هذه الرواية في طابعها الخيالي ، فيوليان كان

بيزنطيا ، إن تبع لبلاط فلبلاط القسطنطينية ، وهكذا هو لم يتبع بلاط رودريك ان وجد لديه بلاط وكان من غير المعقول لبيزنطي في الشمال الأفريقي أن يرسل ابنته الى عند الفيزقوط البدائيين ، ويترك القسطنطينية البلد الحضاري المتقدم ، ولنتذكر أن سبتة مدينة ساحلية مغربية ، وأن ارض المغرب بأكملها دانت بالطاعة للعرب ، وعلى هذا ان وجد يوليان فقد اصبح من اتباع الدولة العربية ، يضاف الى ذلك أن العرب ملكوا قوة بحرية خاصة بهم منذ قرابة سبعة عقود من الزمن ، وخاضوا بهذه القوة عددا كبيرا من المعارك وهاجموا صقلية وقبرص وغيرها من جزائر المتوسط ، هذا البحر الذي بدأ يتحول الى بحر شامي اسلامي.

ولقد شك بعض المؤرخين الحديثين في أن تكون شخصية يوليان شخصية تاريخية ، هذا وحين نرجع الى أخبار عقبة بن نافع نسمع باسم شخصية بيزنطية اسمها اليان ، اتصلت به قرب طنجة وامدته بمعلومات عن بحر الأندلس « بأنه محفوظ لا يرام» كما أمدته ببعض المعلومات عن بربر السوس الأدنى.

ونحن إذا ما عدنا الى القصة الأولى يصعب علينا أن نصدق قيام طارق بالعبور الى شبه الجزيرة الايبيرية دون الرجوع الى رأي موسى بن نصير وأوامره ، ثم أيضا يصعب علينا أن نتصور أن يقدم موسى على المغامرة بغزو شبه الجزيرة الايبيرية دون أخذ موافقة الخليفة في دمشق ، ولعل الذي حصل هو انه تجمع عند العرب معلومات جيدة عن احوال الأندلس ، كما تلقوا دعوات ووعود بالعون من قبل التجار اليهود وسواهم ، كما شجعهم الوضع المتردي في شبه الجزيرة الايبيرية سياسيا واجتماعيا ودينيا ، وكانت هناك عمليات فتوح على جميع الجبهات وفق خطط سبق وضعها.

وقيل عن موسى بن نصير حبه الشديد للغنائم ، وشهوة طاغية للشهرة واكتساب المجد ، لذلك حين وجد نفسه وقد دان له المغرب ، وتجند في صفوف قواته عدد كبير من البربر ، اراد أن يقوم

بمغامرة مربحة ، فكان أن أخذ موافقة دمشق ، ثم قام عام ٩١هـ - ٧١٠ م بارسال أحد قادته واسمه طريف بن مالك على راس قوة تتالف من اربعمائة مقاتل للقيام بغارة استطلاعية على شواطىء جنوب اسبانية ، ونجحت غارة طريف التي وقعت في مكان مايزال يحمل اسم طريف ، وعاد طريف يحمل الغنائم والمعلومات ، وشجعت المعلومات موسى على الاقدام ، ومع ذلك لم يترك موسى جانب الحذر ، فقام في عام ٩٢ هـ - ٧١١ م بارسال طارق بن زياد ، وكان قائدا بربريا أدخله موسى في قواته ، قام بارساله على راس سبعة الاف مقاتل ثم أمده بخمسة الاف مقاتل أخرين من البربر لغزو شبه الجزيرة الايبيرية ، ولم يرسل موسى جندا عربا مع طارق ، لأنه أراد أن لايضحي بعربه ، وأن ينتظر فإن كان النصر ، استغله لصالحه وصالح جنده العرب ، وهذا ما كان .

في هذه المقولة وصم لموسى بالانتهازية واللامسؤولية ، وقصر النظر لأن إرسال الجند البربر لوحدهم والتفرير بهم يدل على انعدام الشعور بالمسؤولية ، وأن هؤلاء إذا ما أخفقوا وقتلوا سيثور أهليهم وقبائلهم وموسى الذي كان شيخا مجربا ما كان له ليقدم على مثل هذا العمل ، ثم اين أمراء جيشه وأعوانه من التابعين المسلمين الأتقياء ، وهل لنا أن نتجاهل رقابة إدارة دمشق وصرامتها ؟ ! وهكذا نقرأ في مخطوط مجهول المؤلف حمل عنوان « ذكر بلاد الأندلس »«لما انتهى ملك الأندلس إلى لذريق القوطي ، وانتهت خلافة المسلمين إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان الوليد حازما فاضلا مواظبا للجهاد ناظرا في ضبط ثغوره ومصالح رعيته ، فلما ولي واستقام له الأمر ، أمر قواده بغزو الروم في البر والبحر ، وولى على إفريقية موسى بن نصير اللخمي ، فخرج موسى غازيا من إفريقية إلى طنجة ، فلما وصل إلى بلد طنجة فرت قبائل البربر أمامه إلى المغرب والسوس الأقصى خوفا منه ، فسار في أثرهم يفتح البلاد والحصون ويؤمن من آمن ويقتل من كفر حتى فتح جميع بلاد السوس الأقصى ، ثم رجع إلى إفريقية وقد استقام له أمر المغرب ،

وترك واليا على طنجة مولاه طارق بن زياد وبصحبته ... من العرب وإثني عشر الفا من البربر وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك معه جماعة من القراء والفقهاء يعلمون البربر القران وشرائع الاسلام ، فاقام طارق بن زياد بطنجة ففتح الأندلس ، وكان طارق من البربر من قبيل جذزه ، وكان محبا في الجهاد ، فعزم على غزو الأندلس ، فدعا برجل اسمه طريف ويكنى أبا زرعة ، فعقد له على اربعمائة رجل ومائة فارس ، وجوزهم إلى الأندلس في اربع سفن برسم الجهاد والتطلع على أحوال الأندلس ومن بها ، فجاز ابو زرعة ، ونزل بطريف ، وبه عرفت طريف إلى اليوم ، فلما نزل بطريف اغار على الخضراء ، فغنم وسبى وقتل ورجع إلى طنجة ، فأخبر طارقا بسعة البلاد وكثرة نعمها وخيراتها ، فأخذ طارق في إنشاء السفن والاستعداد إلى الجواز إليها – يعني الأندلس – برسم غزوها ، فجاز إليها في شهر رمضان المعظم من سنة اثنتين وتسعين للهجرة في جيش من اثني عشر الف مقاتل : عشرة الاف من البربر والفين من العرب وسبعمائة من السودان .... وقيل إنه لما جاز طارق وجيوش المسلمين نزلوا في أصل جبل طارق ، وهو جبل الفتح ، ثم صعد إلى الجبل فبنى بقمته حصنا منيعا ، فتحصن به هو ومن معه من المسلمين » .

على هذا لم تكن العملية مغامرة فيها تغرير ، بل تمت وفقا لتحضير طويل ، ففي طنجة تعرب الجند البربر وحسن اسلامهم ، وجازوا إلى الأندلس ومعهم الفين من العرب وسبعمائة من السودان ، وذكر السودان له دلالاته التي قد تفيد أنهم قد جندوا من أطراف السوس الأقصى أو غير ذلك من الأطراف ، وأنه توفر لدى المسلمين ما احتاجوا إليه من وسائل العبور .

هذا وفي بعض مصادرنا العربية المتأخرة ، خاصة نفح الطيب للمقري ان طارقا عبر مع جنده على سفن قدمها له يوليان ، وبعد العبور قام طارق بخرق السفن أو بخرقها ، ثم وقف بجنده خطيبا بعربية على درجة عالية من الوضوح والفصاحة ، وكان مما قاله : « البحر من

وراءكم والعدو امامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » .

وشكك الباحثون في أيامنا في صحة هـذه القصـة وقـالوا إنهـا مصنوعة ، ولعل صانعها استعارها مـن قصـة مشـابهة وردت في الاغاني في أثناء الحديث عن غزو الأحبـاش لليمـن ، هـذا وإن كنا نشكك بصحة حرق السفن أو خرقها لانستبعد قيام طارق بالخطبة في جنده ، لأن الجيوش الاسـلامية كان مـن عادتهـا وجـود المذكرين فيها ، وقيام الخـطباء بحض الجند وتشـجيعهم وشـحذ هممهـم ونقرأ في سراج الملوك للطرطوشي ، وهو مؤلف اندلسي صنف كتابه في مصر في القرن الخامس هـ / الحـادي عشر للميلاد : « ولما عبـر طارق مولى موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس ليفتحها ، ومـوسى إذ ذاك بإفريقية ، خرجوا في الجـزيرة الخضراء وتحصـنوا في الجبـل العظيم ، فطمعت الروم فيهم .... ولقيهم طـارق ، وعلى خيله مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، فاقتتلوا ثلاثة ايام اشـد قتـال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام فحضـهم على الصـبر

ورغبهم في الشهادة وبسط في آمالهم ثم قال : اين المفر البحـر مـن ورائكم والعدو أمامكم ، فليس إلا الصبر منكم ، والنصر من ربكم ، وأنا فاعل شيئا فافعلوا كفعلي ، فوالله لاقصدن طـاغيتهم فإمـا أن اقتله وإما أن اقتل دونه ، فاستوثق طـارق مـن خيله ، وعرف حلية لذريق وخيمته وعلامته ، ثم حمـل مـع أصـحابه عليه حملة رجـل واحد ، فقتل الله لذريق بعد قتل ذريع في العدو ، وحمى الله المسلمين فلم يقتل منهم كثير شيء ، وانهزم الروم » .

ومهما يكن من أمر لقد نزل طارق في جنوبي الأندلس في نيسـان ، او مايس من سنة ٧١١ م ، وكان التوقيت قد اختير بشكل دقيق ، فقـد كان رودريك انذاك غائبا في الشمال ومعه قـواته ، وقـد خلف وراءه بعض الحراسة على الشاطيء ، يقـول ابـن الكردبـوس : في نص فريد : « ووجد بعض الروم وقوفا في موضع وطيء كان قد عزم على النزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلا إلى مـوضع وعر

فوطأه بالمجاذف وبراذع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لايعلمــون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم ورحل نحو قرطبة».

وهكذا تمكن طارق وجنده من تــأسيس قــاعدة لهــم في منطقــة الجزيرة الجنوبية ، وشرعت القوات المسلحة في أعمال الاســتطلاع البعيدة والاغارة على المناطق الداخلية ، وبذلك انتشرت اخبارهم في ارجاء شبه الجزيرة كلها ، وحين سمع رودريك بخبر طــارق أسرع نحو الجنوب فالتحم مع المسلمين في معركة في ١٩ تموز ، اي بعــد انقضاء قرابة الثلاثة اشهر على جوازهم ، وهي فترة لاشــك انهــا كانت كافية بالنسبة لهم لاكمال خططهم ومشاريعهم وجلب النجدات والمؤن والمعدات وشراء الأعوان او العملاء .

واستمر القتال بين رودريك والمسلمين قرابة الأسبوع ، وتعــرف المعركة بــاسم معــركة وادي لكة ــ اي وادي البحيرة ــ ويقــال ان قسما من جنده تخلى عنه ايام القتال ، وكانت المعركة معركة حامية اقتتل فيها الطرفان «قتالا شديدا ، فوقع الصبر حتى ظن الناس انه الفناء ، وتــــواخذوا بــــالأيدي، وضرب الله عز وجـــل وجــــوه اعدائه ، فــانهزموا ، وأدرك لذريق فقتــل بــوادي الطين وركبــت اثارهم ، وكان الجبــل وعرا ، فــكان البــربر اسرع منهـــم على اقدامهم ، ووضعوا فيهم السيف» لعدة ايام فأبادوهم .

لقد قضى طارق في هذه المعركة على القــوة العســكرية الرئيســية للفيرقوط ، كما دمر نظامهم واجهز على جهاز مــؤسسة الحــكم في شبه الجزيرة الايبيرية ، ولاشك انه لاحظ ان الأندلس أصبحت بلدا مفتوحا امامه ، لن يحول بينه وبين تملكها قوة لها اثر يذكر ، فاندفع أولا نحو مدينة قرطبة فأخذها ، ثــم قــرر الاندفــاع نحــو طليطلة عاصمة البلاد ، وأهــم المراكز الاســتراتيجية فيهــا ، ونال في تلك الأثناء بعض المساعدات المحلية ، كما واجه بعض المقاومة ، واحتل طارق طليطلة دون مقــاومة كبيرة ، وبعــد ذلك أرســـل بعثـــات استطلاعية نحو سرقسطة .

وكان موسى بن نصير يتابع اخبار طارق ، وقد اتخذ استعداداته

للتدخل ، وهكذا عندما بلغه ما تحقق لطارق من انتصارات تحرك هو بدوره من إفريقية نحو طنجه ، ثم عبر على راس قوة عربية قـوامها ثمانية عشر الفا من الرجال ، وكان ذلك في تموز سنة ٧١٢م ، وهنا لم نسمع بأخبار مشكلة تعلقت بوسائل العبور مـن سـفن وسـوى ذلك .

واندفع موسى نحو مدينة اشبيلية فافتتحها بعد مقاومة، ثم افتتح مدنا اخرى صغيرة ، وبعد ذلك اتجه شمالا ضـد بقية مـن القـوط كانت قوية تجمعت بعد انسحابها في مـاردة ، حيث تحصـنت وظلت تقاوم الحصـار الاسـلامي حتـى يوم الفـطر لسنة ٩٤ هـ ــ ٣٠ حزيران لسنة ٧١٣م .

وبعد ما اتجه موسى نحو ماردة يرجح أنه التقى بـطارق ، ولعـل هذا اللقاء وقع في جهات طلبيرة ، وتعطي مصادرنا هذا اللقـاء لونا دراميتيكيا خاصا ، حيث تذكر غالبيتهـا أن مـوسى عاتـب طـارقا ووبخه ، لابل عاقبه بضربه ، ويبدو أن شـيئا مـن هـذا القبيل لم يحصل ، وكل الذي كان لم يتجاوز عتاب لطـارق على تـوغله دون الوقوف عند أوامره ، فترضاه طارق بقوله«إنما هذا الفتح لك وانما انا مولاك» ، فقبل موسى منه ، وسـار بعـد ذلك الاثنان الى طليطلة حيث امضيا شتاء ٧١٣ ــ ٧١٤ م ، وفي هذا الوقت بالذات بـدأت أولى الأعمال التنظيمية للبلاد المفتوحة ، وضرب موسى أول النقـود الاسلامية في اوروبا .

ومن طليطلة ارسل موسى التابع علي بن رباح مع مولى الخـلافة مغيث الرومي الى دمشق ليخبرا الخليفة الوليد بن عبد الملك بـأخبار الفتح ، وفي السنة التالية سار موسى ومعه طـارق شـمالا فـافتتحا سرقسطة ، ومن المحتمل انهما ارسلا من هناك حملة اسـتكشافية وصلت حتى أربونة ، لأن المملكة الفيزقوطية كان من ضمنها اراضي من جنوبي شرقي فرنسا ، بمـا في ذلك امـاكن واقعـة على البحـر المتوسط .

ويبدو أن موسى ارتأى هنا أن مشـاكل المناطـق الغـربية لشـبه

الجزيرة الايبيرية كانت اكثر الحاحا واهمية ، ولهذا تحرك نحو هذه المناطق فتوغل في منطقة استوريش الساحلية ، وكان في تلك الأثناء قد قام طارق باحتلال ليون واستورقة كما أخضع ارغون ، وتشير بعض المصادر الى أن موسى اخذ يعد العدة للتوغل في داخل اوروبا ، وذهب بعض المعاصرين الى القول انه كان في راسه خطة للوصول الى القسطنطينية وحصارها وبالتالي فتحها ، يقول المؤرخ الفرنسي رينو في كتابه عن غزوات العرب وفتوحاتهم في فرنساوايطاليا وسويسرا : «ان خطة موسى بن نصير كانت تقضي بان يعود هو وجيشه الى دمشق عن طريق المانيا ومضيق القسطنطينية واسيا الصغرى بحيث يحيط بالبحر الأبيض من كل جانب ويصبح بحيرة اسلامية تسوفر طرق المواصلات بين مختلف الولايات الاسلامية» .

وهناك من يرى أن هذا القول ضرب من الخيال يشير بالبنان الى جهل القائلين فيه بجغرافية أوروبا ، ولاشك ان موسى كان يعرف ماالديه من قوات ، وكان لايعرف ما وراء البيرنيه من أراضي وشعوب ، ولايدرك مدى قوتها .

ومع قوة هذه الحجة ، علينا أن نتذكر انه بعد موسى بعدة قرون تمكنت جحافل الصليبيين من العبور من اوروبا الغربية ووصلت الى فلسطين على الرغم مما لاقته من مقاومة ، اضف الى هذا انه إثر وفاة الوليد بن عبد الملك ارسل أخوه وخليفته سليمان حملة برية وبحرية لحصار مدينة القسطنطينية ، ومما لاشك فيه أن قطع الاسطول التي اشتركت في هذه الحملة مع المعدات وربما القوات جرى اعدادها منذ ايام الوليد ، ففكرة الفتح هذه كانت موجودة ، ثم ان امتلاك المسلمين للمعلومات الكافية عن أوضاع أوروبة أمر لاريب فيه ، لهذا يمكننا ترجيح امكانية تفكير موسى بمتابعة الفتح ، ويقول رينو : «من المؤكد أن المسيحية قد واجهت أعظم الخطر في ذلك الوقت ، وإن المرء ليرتعش عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو لم يقع الشقاق في وقت مبكر بين المنتصرين» .

وقصد رينو هنا بمسألة الشقاق ، ماروى عن حدوث خلافات بين موسى وطارق ثم المشاكل التي وقعت فيما بعد في بداية عصر الولاة ، وتذكر المصادر العربية أن موسى بعدما «انتهى الى أربونة أراد لقاء ملك افرنجة ، فأخذ حنش الصنعاني ـ وكان من كبار التابعين ـ بلجامه وقال سمعتك أيها الأمير تقول حين فتحت طنجة : لم يكن لعقبة ولا لأبي المهاجر من ينصحهما ، حتى أتيت انصحك اليوم ، فارجع فقد توغلت بالمسلمين» .

ولاشك أن رينو ارتعش تعصبا ، مع أن عدم فتح أوروبا حرمها من نعمة نور التوحيد والحضارة والقيم الاسلامية وابقاها تعيش في ظلام العصور الوسطى لقرون مديدة ، اضف الى هذا أن جل أوروبا لم يكن مسيحيا بعد بل كان وثنيا .

والذي حدث انه في نهاية صيف ٧١٤ م تم استدعاء طارق وموسى الى دمشق ، ونحن لانملك معلومات مؤكدة عن اسباب هذا الاستدعاء ، ويرجح أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يعرف من موسى أخبار ما فتح الله على المسلمين ، ويدرس معه خطط المستقبل ، ولعله اراد ايضا ان يحاسبه على ما حصله من غنائم وما انفقه ، يضاف الى هذا لعل الوليد خشي من النزعات الاستقلالية لدى موسى ، خاصة بعد ما رأه يعين ولده عبد الله على افريقية وولده عبد الملك على المغرب ، ثم ولده عبد العزيز على اشبيلية ليحكم شبه الجزيرة الايبيرية منها ، وبعد ما سمع عن تصرفات موسى التي تشابه تصرفات الملوك وعن انفاقه كميات كبيرة من الأموال ، متذكرين في هذا المقام أن موسى كان زبيري الهوى ، شارك في معركة مرج راهط ضد مروان بن الحكم .

خلاصة القول سار موسى مع مولاه طارق من شبه الجزيرة الايبيرية في خريف ٧١٤ م ، وكان بصحبته قافلة كبيرة أفرط الكتاب العرب في وصف ما حوته من أموال وتحف وجواهر وجوار حسان وزعماء بربر وقوط واسبان

وتتحدث المصادر غير الشامية انه بعد ما جاوز موسى مصر وكان

«بالعريش جاءه كتاب الوليد يستعجله ، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص، وكان سليمان ولي عهده ، وكان الوليد مريضا بدير من غوطة دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ، ودفع الأموال الى الوليد ... فلما رأى ذلك طارق دخل على الوليد وهو مريض ... واخبره ان موسى تعدى في اموال المسلمين وانفقها ... فصدقه الوليد ... وكذب موسى وامر بحبسه ... ولم يلبث الوليد الا ثلاثة أيام حتى مات ..

وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة حين توفي الوليد ، فسخط على موسى ، وقال له : يا يهودي كتبت اليك فلم تنظر في كتابي ، هلم مائة الف، قال : ياأمير المؤمنين قد أخذتم جميع ما في يدي ، فمن أين لي بمائة الف ؟ قال : لابد من مائتي الف دينار ، فاعتذر اليه ، فقال : لابد من ثلاثمائة الف ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فلجأ موسى بن نصير الى يزيد بن المهلب فاستجار به ، وكانت ليزيد ناحية من سليمان فاستوهبه دمه ، فقال : يؤدي ما عنده» .

والثغرات في هذه الرواية عديدة ، فمحورها من حيث المبدأ مسألة الخلاف بين طارق وموسى ، ومحاولات طارق للانتقام من موسى باتهامه بالتصرف بالأموال وغير ذلك ، ثم كيف لنا أن نصدق توقعات سليمان بن عبد الملك وفاة الوليد الذي كان دون الخمسين من عمره ، الا اذا اعتقدنا بأنه تآمر على حياته ، وهذا ما لم يرد ذكره ، أضف الى هذا أن سليمان بن عبد الملك الذي كان يعيش في فلسطين بعيدا عن دمشق لم يمتلك جهازا اداريا ولم يتمتع بأية صلاحيات حتى يراسل الولاة والقادة ويتدخل بشؤون الخلافة ، وأكثر ثقة من هذه الرواية ما أورده ابن عساكر في تاريخه في ترجمته الموسعة لموسى ، قلت أكثر ثقة لأن موسى قضى السنوات الأخيرة من حياته في دمشق ، والمصادر الشامية لهذا مرجحة على غيرها ، وفي رواية ابن عساكر ليس لطارق بن زياد سوى اشارة عرضية ، ولم يعرف رواة ابن عساكر على كثرتهم وقدمهم شيئا عن خلاف بين طارق وموسى ، أو عن كتابة سليمان لموسى وغير

ذلك ، فهناك اجماع على أن موسى« سار متوجها الى الشام حتى قدم على الوليد وتحين يوم الجمعة ، فلما جلس الوليد على المنبر اتى موسى بن نصير وقد البس ثلاثين رجلا تيجانا على كل رجل منهم تاج وثياب ملك ذلك التاج ، ثم دخلوا المسجد في هيئة الملوك ، وأمر بملوك الجزائر اكابر الروم فهيئوا وابناء ملوك البربر وملوك الاسبان ، واقبل موسى بن نصير بالثلاثين الذين البسهم التيجان حتى دخل بهم مسجد دمشق والوليد يخطب ، فلما راهم نهض اليهم ، فاقبل حتى سلم على الوليد ، ووقف الثلاثون على يمين المنبر وشماله بالتيجان ، فأخذ الوليد في حمد الله والثناء عليه والشكر بما أيده وفتح عليه ونصره ، فأطال حتى فات وقت الجمعة ، فصلى وانصرف ، وأجاز موسى بجائزة عظيمة ، واقام موسى بدمشق حتى مات الوليد » .

ويرجح أن وصول موسى الى دمشق قد كان بعيد اكتمال بناء الجامع الأموي ، هذا ولم يترجم ابن عساكر لطارق بن زياد ، غير انه ذكر أن سليمان بن عبد الملك طالب موسى ابن نصير ببعض الأموال وعندما حج سليمان سنة سبع وتسعين ، حج معه موسى ، فمات موسى بالمدينة في هذه السنة ، وقيل توفي بوادي القرى« وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وذلك انه ولد سنة تسع عشرة .

هكذا كانت نهاية موسى ، ولاندري بشكل اكيد ما حل بطارق ، ولاشك ان الزمن قد طواه بعدما طوى موسى لكن ما كان للتاريخ أن يطوي اخبار جليل ما حققاه من فتوح (١٤).

عصر الولاة:

دعا العرب البلاد الجديدة التي فتحوها باسم الاندلس ، وكما سلف بي القول يعتقد أن هذا الاسم صدر عن كلمة Vandalicia نسبة الى الغزاة من قبائل الفندال ، وقد استخدم هذا ليشمل ما فتحه العرب وحكموه من شبه

الجزيرة الايبيرية ، وهو يطلق الآن على الجزء الجنوبي الشرقي من اسبانيا حيث عاش بقية العرب في الفترة ما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر م.

وجادل بعض الذين بحثوا في تاريخ الأندلس وقالوا إن العرب لم يتركوا الأندلس بعدما فتحوها ، الأمر الذي تخيله بعض الذين دعوهم اليها وحرضوهم على فتحها ، واثارة هذه المسالة فيها مغالطة وتشويه فالعرب ذهبوا الى الأندلس فاتحين مجاهدين في سبيل الله ولم يذهبوا كمرتزقة ، وليس في تاريخهم ما يشير الى انهم تقبلوا فكرة الارتزاق ، والذي اشرف على فتح الأندلس هو الخلافة الأموية التي كانت اعظم دولة في عصرها واكثرها رقيا وتنظيما وثقافة ، لهذا تحولت الأراضي المفتوحة في شبه الجزيرة الايبيرية لتشكل جزءا من ولاية من ولايات دارالاسلام ، وقاعدة لمزيد من الفتوح في أوربا الغربية وجزائر المتوسط ، والولاية التي غدت الأندلس جزءا منها هي ولاية إفريقية أو المغرب ،وشملت الآن الشمال الأفريقي مع شبه جزيرة ايبيريا ، وكانت الدولة العربية دولة تمتد من حدود الصين الى شواطىء عدن ، ومن شواطىء المتوسط في بلاد الشام حتى جنوب فرنسا ، وكانت هذه الدولة الشاسعة هي التي جمعت لأول مرة في التاريخ أراضي وشعوب من القارات الثلاث للعالم القديم تحت لواء أسرة واحدة وعقيدة توحيد واضحة الاسس والمعالم ولغة مقدسة فيها حيوية وامكانات للعطاء غير محدودة ، محققة بذلك للمرة الأولى الأممية العقائدية.

ومعروف ان هذه الدولة قد اديرت من قبل خليفة كان مقره الرسمي مدينة دمشق ، لكن على الرغم من ذلك ، ولأسباب عديدة ، كان بلاط هذا الخليفة متحركا ، وكان النظام الاداري لهذه الدولة بسيطا في طور التطور ، لكن بكفاءة عالية وحزم وسداد ، وكان كل شيء في هذه الدولة الشاسعة متعلقا بالخليفة ، وتميز الخلفاء من بني امية بشكل عام بالرجولة وبالقدرات الادارية والسياسية المتميزة وكان لكل منهم جهاز

استشاري واسع الخبرة والفهم ، ومع هذا تـــأثر اشراف الخليفـــة على الادارة والسلطات في الولايات بـــطبيعة العصر وبمـــا تـــولد عن أحوال المواصلات وعن حـــال العـــلاقات بين الخليفـــة وبين القـــوى الفعالة التي أحاطت بعـــرشه ، أو كان لهـــا وزنهـــا الســـياسي والعسكري ، وأعني بهذا القبائل العـــربية واشرافهـــا ، ولم يســـد الوئام بين هذه القبائل وعاشت دوما في صراعات أطلق عليها اســـم العصبيات القبلية.

وعين الخلفاء عددا من الأعوان لممارسة بعض الوظائف المختلفة بالدولة ، وكان أهم هذه الوظائف وظيفة أمراء الجند ، وكان قـــائد كل جيش يتحول بعد انتهاء عملية من عمليات الفتوح قام بهـــا ، الى حاكم مدني يعاونه جهاز اداري يتولى أمور المال والقضاء وغير ذلك من الوظائف ، وكانت الخلافة تعين أحيانا الجبـــاة والقضـــاة ، أو تترك أمر تعيينهم الى القادة ، وكان كل واحـــد مـــن هؤلاء القـــادة يعرف بالعامل أو الوالي ويحمل لقب أمير ، ونظـــرا لطبيعـــة الدولة والعصر كان كل واحد من الولاة حاكما مستقلا الى أبعد الحدود.

وفي الدولة الاســـلامية منح حـــق المواطنة للمســـلمين ، وعرفـــت الجماعات غير المسلمة باسم الذمة ، وكان للذمـــة أوضـــاع خـــاصة وادارة شبه ذاتية ، فقد أديرت الشـــؤون الداخلية لكل طـــائفة مـــن طوائف الذمة من قبل رئيس الطائفة ، الذي غالبـــا مـــا كان رجـــل دين ،وكان على كل فرد من أهل الذمة دفع ضرائب محددة عن النفس والأملاك مقابل حماية الدولة له ورعايته من جميع الجوانب.

وشكل العرب نواة المســـلمين في كل ولاية جـــديدة ، وكان هؤلاء العرب بالوقت نفسه هم الجند ، وعلى هذا غالبـــا مـــا انحصر حـــق المواطنة في كل ولاية جديدة بالعرب ، والمستعرض لتـــاريخ الولايات المشرقية وغيرها يرى كم هو حجم المشاكل التي قد تولدت بعد دخول أعداد من السكان المحليين في الاسلام ومـــطالبتهم بحقـــوق المواطنة الكاملة.

وكان لكل واحد من الجند وعيالاته عطاء خاص كان هو الأعلى في

العالم في حينه وذلك مع نصيب محـــدد شرعيا في الغنائم ، كمـــا كان يحق للحاكم منح ـ أو اقطاع ـ بعض الأراضي ذات الوضع الخاص للمسلمين ، وعلى هذا شكل العرب منذ البداية شريحة عليا في السلم الاجتماعي في كل ولاية واستمروا كذلك حتـى بعـد تـوقف حـركة الفتوحات ، حيث حازوا ملكيات الكثير من الأراضي الغنية ، وتحول الأشراف منهم الى ملاك كبار ، وحين صار قادة الجند ـ مع بعض الجند ـ ملاكا انصرفوا عن التفرغ لخـدمة مهنتهـم الأولى ، وغدا العطاء بالنسبة اليهم ليس بذي بال أو كبير اعتبار ، وبات كل واحد منهم يعمل جاهدا في سبيل زيادة رقعة أملاكه على حسـاب أمـلاك غيره ، وخلق هذا تنافسا أو صراعا داخليا صرف الطـاقات نحـو الداخل وحولها عن الخارج.

وجعل ما ناله الجند وما تمتعوا به رجالات هذه الفئة لا يشجعون سكان البلاد المفتوحة على الدخول في الاسلام ، لا بل وجدت حالات حيل فيها دون الدخول بالاسلام ، وقد دفع تملك الأراضي الجند الى سكنى المدن ، ونظرا لاستمرار الحاجة الى جيش وقوات مقاتلة فقد قام مبدأ قبول تجنيد غير العرب في الجيش إنما على اساس قـاعدة الولاء ، فقد بات على غير العربي ان ينال النسب العربي بعد دخوله بالاسلام على اساس عرفي اسمه الولاء وكان الولاء مـوجودا قبـل الاسلام ، ثم تطور بعده تطورا خاصا ومنح الولاء والاسـلام المولى حق المواطنة إنما بدرجة أدنى مـــن درجـــة المســلم العـــربي الصريح ، ونشد الموالي رفع درجتهم وطـالبوا بـالمساواة ، وكانت هناك حركات وثورات سعت نحو هذا الهدف.

وإذا كانت هـــذه الحـــالة العـــامة في جميع ولايات الدولة الأموية ، فإن الحالة في الأندلس قد اختلفـت بعض الشيء ، ذلك ان كل من موسى وطارق بن زياد كانا من الموالي والجيوش التي تـولت فتح الأندلس كانت عربية وبـربرية وهـكذا كان الفتـح اسـلاميا صرفا ، فـأكثرية الذين تحملوا أعبـاء الفتـح الأولى كانوا مـــن البربر ، وجاءت اكثرية العرب فيمـا بعـد لتشـارك في قـطف

الثمار ، وهكذا اضطر العرب منذ البداية لمشاركة البربر ، وعليه صارت أسس الصراعات الأولى ليس صراعا عربيا عربيا على قاعدة العصبية ، بل صراعا عربيا بربريا ، ثم ترافق هذا بصراع عربي عربي على قاعدة العصبية ، وكان لهذا دوره المقرر لمصير الوجود الاسلامي في أوروبا ، يضاف الى هذا إن أوضاع بلاد الأندلس الخاصة وما أحاط بها من قوى فرضت على العرب اعطاء بعض التنازلات حتى وإن خالف ذلك الرائج من أحكام الاسلام وقواعده ، فبعد ما نزل العرب في شبه الجزيرة الايبيرية تعذر عليهم في البداية فتح مدينة المرسية التي عرف صاحبها انذاك باسم تدمير Theodemir ، وقاوم تدمير العرب ورفض الدخول بالاسلام ، كما رفض دفع الجزية وقبل حكم السيف ، وبعد ما هزمه العرب لم يعاملوه معاملة المقهور بل عقدوا معه معاهدة سنة ٧١٣ م تعهد المسلمون بها بالمحافظة له على نفسه وماله مع نفوس رعيته وأموالهم مع السماح بممارسة الحرية في العقيدة والعبادات.

وكان سليمان بن عبد الملك قد عزل ولاة الوليد بن عبد الملك واستبدلهم بولاة جدد وهكذا عزل موسى بن نصير وعين مكانه محمد ابن يزيد مولى قريش واليا على افريقية ، ويروى أنه بعدما تسلم ابن يزيد منصبه كتب سليمان اليه «أن يأخذ ال موسى بن نصير وكل من التبس بهم حتى يوفوا ثلاثمائة الف دينار ، ولا يرفع العذاب عنهم ، فقبض على عبد الله بن موسى فحبسه في السجن » ثم قتله بناء على تعليمات اخرى وردت اليه من الخليفة.

وكان عبد العزيز بن موسى يحكم الاندلس منذ رحيل ابيه ، وقد اتخذ عبد العزيز اشبيلية قاعدة لحكمه متخليا بذلك عن طليطلة العاصمة القوطية للبلاد ، وذات افضل موقع حصين متوسط لحكم شبه الجزيرة الايبيرية ، وقام عبد العزيز باكمال اعمال ابيه الحربية في الأندلس ، كما اكمل تنظيمات الولاية الادارية ، وتذكر مصادرنا أنه تزوج بامرأة فيزقوطية اختلفوا في تحديد اسمها

الحقيقي ، واتفقوا على انها عرفت بـاسم « أم عاصـم » وذهـب بعضـهم الى القـول إنهـا كانت ارملة رودريك الملك الفيزقـوطي المقتول ، وقال بعضهم الآخر إنها كانت ابنته ، ومهمـا كان وضـع هذه المرأة ومنزلتها الاجتماعية ، إن زواج عبد العزيز منهـا له عدة دلالات أولاها أن العرب الذين عبروا الى الأندلس فاتحين لم يجلبوا معهم أهليهم او زوجات لهم ، اي أن الفتـح هنا تميز عن سـواه في انه لم يأخذ شكل هجرة بشرية ، وعلى هذا تزوج الجند العرب مـن نساء الأندلس المحليات ، وسيكون لهذا اثاره الواضحة على حوادث مستقبل الأندلس والتكوين الاجتماعي هناك.

وقيل « بلغ عبد العزيز بن مـوسى مـا نزل بـأبيه واخيه واهـل بيته ، فخلع طـاعة بني مـروان وخـالفهم ، فـأرسل إليه ـ سليمان ـ يتهدده فلم يرجع الى الطاعة »،وهنا راسـل سـليمان وجوه العرب في الأندلس وطلب منهم قتله ، فـاغتاله احـدهم وهـو يؤدي صلاة الصبح ، وكان ذلك في سنة ٩٧ هـ ـ ٧١٦ م .

وأنهى اغتيال عبد العزيز بن موسى مـرحلة الفتـح مـن تـاريخ الأندلس وابتدأ مرحلة جديدة عرفت بـاسم عصر الولاة ، وقـد دام هذا العصر اكثر من اربعين سنة توالى على الحكم خـلالها قـرابة العشرين من الولاة ، حكم بعضهم أكثر من مرة ، وفقط ثلاثة منهم حكم كل واحـد منهـم لمدة زادت على خمس سـنوات ، وكانت ولاية بعضهم قصيرة جدا ومؤقتة حيث غالبا ما تسـلموا مناصـبهم بعـد مصرع أحد الولاة المعينيين في حـرب خـارجية جهـادية أو في فتـن اهلية ، وقد تبع هؤلاء الولاة والي القيروان وارتبطوا به لكن نظـرا لبعد الشقة-مابين الأندلس والقيروان عاش هؤلاء الولاة في الأندلس شبه مستقلين ، لكن هذا الاستقلال لم ينج ولايتهم من انعكاسات ما كان يجري في الشمال الأفريقي بشكل خاص وفي دار الخلافة بشكل عام ، ومع أن الفتح الاسلامي للأندلس قد ربط هذا الجزء الأوروبي بعالم المشرق الآسيوي إلا أنه أستمر يتأثر من جميع الجوانب بمـا كان يجري في الغرب ويؤثر فيه. وعندما اغتيل عبد العزيز بن مـوسى لم يكن قد تم للمسلمين إخضـاع جميع أجـزاء شـبه الجـزيرة

الايبيرية ، ففي الشمال الغربي من البلاد بقيت مساحات واسعة لم يدخلها العرب ، كما أن بعض أطراف البلاد كان الحكم الجديد فيها غير راسخ القواعد ويحتاج إلى تدعيم .

هذا ولما كان الفتح الاسلامي في الأندلس لم يمر دون إحداث أصداء واسعة في الغرب مع ردات فعل عنيفة ، فقد كان على ولاة الأندلس بعد عبد العزيز أن يكملوا السيطرة على أراضي شبه الجزيرة الايبيرية ، وأن يدعموا الحكم الاسلامي حيثما كان ضعيفا وكان عليهم تمتين الوشائج ووسائل التعاون مع الشمال الأفريقي وبقية اجزاء العالم الاسلامي بشريا واقتصاديا وعسكريا بالدرجة الأولى ، لأن إمكانات العالم الاسلامي وحدها هي التي كانت كافية لمواجهة إمكانات أوربا الغربية ، فقد توجب على مسلمي الأندلس متابعة أعمال الفتوح المنظمة الهادفة أو على الأقل التصدي بالهجمات الوقائية لردات فعل أوربة الغربية التي كانت قد شرعت منذ بعض الوقت في اكتشاف نفسها والتحول من بلاد محور الحياة فيها حوض البحر المتوسط إلى بلاد تتجه نحو الشمال ونحو شعوب الشمال ذات الامكانات القتالية الهائلة ، يضاف إلى هذا كله كان على حكام الأندلس مواجهة مشاكل إنشاء مجتمع إسلامي جديد في جزء من أوربا الغربية . (١٥) .

وسنرى أن ولاة الأندلس قد عجزوا عن إكمال الفتح ، كما أنهم لم يستطيعوا تحقيق النجاح في التوغل داخل اوربا ، فكان ذلك من مقدمات الخسران وفقدان الأملاك .

وبعدما اغتيل عبد العزيز بن موسى قدم أهل الأندلس ايوب بن حبيب ، وكان ابن أخت موسى بن نصير ، قدموه ليؤمهم في الصلاة ويدير أمورهم ريثما يصلهم عامل معين بصورة رسمية من قبل والي إفريقية ، وبقي أيوب في منصبه بضعة أشهر إلى أن وصل الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة من سنة ٩٧ هـ ـ آب ٧١٦ م ، ولعل اهم ما حدث أيام أيوب هو تحويل مركز إدارة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وحين فعل العرب ذلك كانوا كمن يحدد مصيره في أي بقعة من الأرض سيكون .

وشغل الحر بن عبد الرحمن الثقفي منصبه حتى رمضان سنة ١٠٠ هـ - نيسان ٧١٩ م ، ويبدو أن ما من شيء له أهميته قد وقع في عصره ، وقد جاءت نهاية ولايته في موكب التغيرات التي المت بالدولة الأموية بعد موت سليمان بن عبد الملك وتسلم عمر بن عبد العزيز لمنصب الخلافة ، وقام عمر بن عبد العزيز بفصل الأندلس عن ولاية إفريقية حيث جعلها ولاية تتبع دار الخلافة مباشرة ، وعين عليها السمح بن مالك الخولاني « وامره ان يحمل الناس على طريق الحق ولايعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ماغلب عليه من ارضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وانهارها ، وكان رايه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين ، واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقيل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها فاضرب عن ذلك » .

وما أن تسلم السمح منصبه حتى أخذ يعمل على توطيد اركان الولاية الجديدة ، والعناية بمدينة قرطبة التي صارت حاضرة لها ، ولعل أهم عمل قام به في قرطبة بناء جسر على نهرها ، على انه يبدو من مصادرنا أن السمح قد أوقف معظم جهوده على الجهاد في سبيل إكمال الفتح العربي لشبه الجزيرة الايبيرية ، ولقد تقدم بنا القول إن المملكة القوطية كانت تشمل رقعة كبيرة من جنوبي فرنسا ، وبعدما سقطت هذه المملكة اصبح الجنوب الفرنسي فارغا مع منطقة واسعة حملت اسم « غوثيا » نسبة إلى القوط أو سبتمانيا ، واتصلت بما يعرف اليوم بالريفيرا الايطالية ، وكانت مدينة اربونة (نربونة) حاضرتها ، ومن المرجح أن السمح قد استولى على هذه المدينة سنة ٧١٩ م ، وقيل قد فتحت من قبل العرب قبل السمح ، ومن أربونه زحف السمح سنة ١٠٢ هـ - ٧٢١ م ضد مدينة طولوشة (تولوز) عاصمة اكوتين وحاصرها مدة شهر وضربها بالمنجنيقات ، وظلت هذة المدينة تقاوم حتى وصل الدوق أود الفرنجي حاكم المقاطعة لنجدتها ، ووقعت معركة صليبية عنيفة كان السمح خلالها يشد من ازر جنده بتلاوته قوله تعالى: « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » وكان الرهبان ورجال الدين النصارى يثيرون

حماس اتباعهم بتعاويذ وتمائم باركها البابا ، وأصيب السمح أثناء القتال بطعنة أودت بحياته ، ففت ذلك من عضد الجند المسلمين فتراجعوا مرتدين إلى أربونة .

ولم توقف هذه الانتكاسة المسلمين عن العمل في سبيل فتح الأجزاء الجنوبية من فرنسا (الأرض الكبيرة) وتابعوا نشاطاتهم من أربونة في عدة محاور ، واندفعوا في وادي الرون ، واستهدفوا بالدرجة الأولى الأديرة ، وروي أنهم وصلوا إلى مقربة سانت جايل (سيكون كونت سانت جايل صنجيل من أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى) قرب آرل .

ومفيد أن نذكر أنه بعدما نال السمح بن مالك الشهادة اختار الجند عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أميرا مؤقتا يدير شؤونهم ، حتى يتم تعين أمير رسمي ، وبقي عبد الرحمن في منصبه المؤقت من كانون الثاني لسنة ٧٢١ م حتى شهر آب من العام نفسه ومرت إثر هذا عشرة أعوام تقلب فيها على ولاية الأندلس سبعة ولاة كان بينهم عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية ، وكان هؤلاء الولاة هم :

١ ـ عنبسة بن سحيم الكلبي :
من صفر ١٠٣ إلى شعبان ١٠٧ هـ ـ اب ٧٢١ ـ كانون ثاني ٧٢٦ م

٢ ـ عذرة بن عبد الله الفهري :
من شعبان ١٠٧ إلى شوال ١٠٧ هـ ـ كانون ثاني ٧٢٦ ـ آذار ٧٢٦ م

٣ ـ يحيى بن سلمة الكلبي :
من شوال ١٠٧ إلى ربيع الأول ١١٠ هـ ـ آذار ٧٢٦ شباط ٧٢٨ م

٤ ـ حذيفة بن الأحوص :
من ربيع الأول ١١٠ إلى شعبان ١١٠ هـ ـ شباط ٧٢٨ ـ تشرين ثاني ٧٢٨ م

٥ ـ عثمان بن ابي نسعة :
من شعبان ١١٠ إلى محرم ١١١ هـ ـ تشرين ثاني ٧٢٨ ـ نيسان ٧٢٩ م .

٦ ـ الهيثم بن عبيد الكناني :
من محرم ١١١ إلى ذي القعدة ١١١ هـ ـ نيسان ٧٢٩ ـ شباط ٧٣٠ م

٧ ـ محمد بن عبد الله الأشجعي :
من ذي القعدة ١١١ إلى صفر ١١٢ هـ / شباط ٧٣٠ ـ نيسان ٧٣٠ م

٨ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :
من صفر ١١٢ إلى رمضان ١١٤ هـ / نيسان ٧٣٠ ـ تشرين اول ٧٣٢ م .

وفي أيام عنبسة استأنف العرب نشاطهم بشدة وحماس أكثر من ذي قبل وارسلوا كتائبهم في مختلف الجهات ، وتميز العرب بالبراعة والحنكة ، واتت المصادر المسيحية على ذكر عدد كبير من الأديرة التي استولى عليها العرب أيام عنبسة وبعده ، تهمني الاشارة منها إلى اسمين هما اسقفية بوي Puy وكليرمونت ، Clermont فمن كليرمونت دعا البابا أوربان الثاني الى الحروب الصليبية ، وقد اناب عنه ادهمر أسقف بوي في مرافقة جيوش الحملة الأولى والاشراف عليها.

وعلى الرغم من وفرة أخبار النشاطات العربية في الأرض الكبيرة ، فانهم لم يصرفوا طاقاتهم كلها في سبيلها ، حيث يلاحظ انه في فترة السنوات العشرة التي اشرنا اليها أعلاه عاشت الأندلس في ظل بدايات الصراع الدموي بين العرب من جهة والبربر من جهة أخرى ، ثم الصراع بين المجموعات القبلية العربية ، وقد تطرف المستشرق دوزي في بحث جوانب هذا الصراع حتى جعل منه محورا أدار عليه جميع حوادث تاريخ الاندلس وفسرها ، وقد فات دوزي أن مادعاه

باسم العصبية القبلية ما كان صراعا بين قبائل لاختلاف انسابها ، بل كان صراعا بين مجموعات من الناس رافقت الفتح واستقرت كل واحدة منها في مكان او بقعة محددة وادعت لنفسها نسبا جامعا يمت الى احدى القبائل العربية المعروفة ، ولقد قام صراع بين المجموعات المتجاورة بالموطن المتباعدة المصالح من أجل ملكية الأرض ومن أجل السلطة في ولاية الأندلس وفي سبيل المزيد من المرابح.

وفي الفترة ما بين ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى والثانية دافع اود عن نفسه وعن اراضيه مستغلا احيانا النزاعات بين العرب والبربر وبين العرب انفسهم ومسهما فيها احيانا اخرى ، وخلال ذلك الوقت صنع زواجا « دبلوماسيا » مع عثمان بن أبي نسعة ، حيث زوجه ابنته ، وعقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمن بها من غارات العرب ولكن الى حين.

وبعدما تسلم عبد الرحمن الغافقي لمنصبه في الأندلس قام بالطواف على جميع مقاطعات الولاية حيث نظم شؤونها ، وكان عبد الرحمن صاحب كفاءات عالية ، وقد تمتع بسمعة عالية وبشعبية واسعة بين صفوف الأندلسين لشجاعته وزهده وكرمه ، ولما أدرك عبد الرحمن استقرار أحوال ولايته ، رأى أن يقوم من جديد باستئناف حركة الفتوحات واكمالها ، وذلك انسجاما مع خطط الخلافة انذاك التي ظهرت بشكل خاص على جبهتي الخزر والأندلس.

وقرر عبد الرحمن الغافقي أن يوجه طاقاته ضد اود ، وبدأ تحركه بأن بعث الى عثمان ابن ابي نسعة ، وكان قائدا لمنطقة الحدود مع اراضي حميه كونت اود ، بعث اليه بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش ، ويروى أن هذا الأمر قد وقع من عثمان موضع الكراهية الشديدة حسدا لعبد الرحمن وضننا بحميه والد زوجته الحسناء التي كان يحبها حتى ما فوق درجة الهيام ، وعندما وصل أمر عبد الرحمن الى عثمان « وقع في حيص بيص » وراجع الأمير عبد الرحمن قائلا له إنه لايقدر أن يخفر

جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء اجله ، وغضب عبد الرحمن من مراجعة عثمان له ولم يرضه التلكؤ الذي بدا منه ، فأرسل اليه يشدد عليه بتنفيذ اوامره ، وهنا لما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن اشعال الغارة في بلاد اود أرسل الى حميه يخبره بما وقع حتى يأخذ حذره ، ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان ، فأرسل جيشا الى مقر عثمان بقيادة واحد من أوثق رجاله وأمره أن يأتيه بعثمان حيا كان أم ميتا ، وبغت الجيش مقر عثمان فهرب في الجبال ومعه بعض أعوانه وزوجته ، واستطاع الجيش ملاحقته وقتله ، وأخذت زوجته الحسناء الى عبد الرحمن ، فكان أن بعث بها الى دمشق.

ولما وصل خبر مصرع عثمان الى كونت أود أيقن أن الحرب واقعة لامحالة ، فتأهب للدفاع ، واندفع عبد الرحمن يقود جيوشه من جبال البيرانية ، فاحتل عددا من المواقع وحصل على كميات من الغنائم ، قالت المصادر الغربية إنها كانت هائلة ، وحاول أود ايقاف الزحف العربي فلاقى الاخفاق ، وهنا التفت مرغما نحو خصمه شارك مارتل ، الذي عرفه العرب باسم « قارله ـ كارل » ، وعندما وصل العرب قريبا من تور الواقعة على نهر اللوار ، علم عبد الرحمن أن جيشا عظيما يزحف للتصدي له ، وهنا تفحص عبد الرحمن أحوال جيشه ، وقد بات بعيدا جدا عن قواعده ، فرأى هذا الجيش مثقلا بالغنائم والأعتدة وأن الحفاظ على الغنائم هو الشغل الشاغل للجند ، وادرك في هذا مخاطر لاحصر لها ، ولعله هم باعطاء الأمر للجند بتخليف الغنائم الثقيلة وراءهم ، لكنه خشي الفتنة ، ولعدم امتلاكه لقاعدة ثابتة ، ولايثاره الحفاظ على جميع قواته اثر المغامرة ، فتابع الزحف ، وبعدما اقتحم بقواته مدينة تور عسكر على مقربة منها ، وفيما بين تور وبواتيه ناجز عبد الرحمن بقواته شارل مارتل وقواته ، واستمرت المعركة عدة ايام تخلخل فيها وضع الجند العربي ، لأن قوات شارل مارتل كانت أكثر عددا ، مرتاحة تقاتل في اراضيها ، وفي اليوم الأخير للقتال دب الخلل وسط الجيش العربي ، وحاول الفرنجة مهاجمة مؤخرة هذا

الجيش ، وهنا القى عبد الرحمن بنفسه في وسط المعمعة ، فنال الشهادة ، ومع حلول الظلام توقف القتال ، وعندما حل صباح اليوم التالي فوجيء الفرنجة بمعسكر العرب قائما كما كان ، لكنه خاليا من الجند ، فاعتقدوا أن في الأمر خديعة ، ثم عرفوا فيما بعد أن العرب انسحبوا تحت جنح الظلام ، فاكتفوا بذلك ولم يجربوا ملاحقتهم . هذا ولاقت أخبار هذه المعركة عناية كبيرة من مؤرخي العصر الحديث في اوربا وعدوها احدى معارك التاريخ العالمي الفاصلة ، وقالوا إنها أبقت نصرانية اوربة وحالت دون انتشار الاسلام فيها ، وفي هذا الكثير من التطرف والشطط ، ذلك أن الفتح العربي كان في كثير من الحالات شيئا وانتشار الاسلام شيئا أخر ، فقد حكم العرب ، وبعدهم بعض القوى المسلمة أقاليم كثيرة لفترات طويلة دون أن يؤدي ذلك الى انتشار العقيدة الاسلامية والأخذ بها.

إن الذي ربحته فرنسا واوربا هو الحفاظ على حالة التخلف الحضاري والاجتماعي ، وكسبت التعصب واستبداد الكنيسة الكاثوليكية بشؤونها ثم صراعها مع الساسة والملوك والحكام ، ونماء نظام الاقطاع وتحويله الناس الى اقنان.

يضاف الى هذا إن هذه المعركة لم تغلق بوابات فرنسا في وجه العرب ، فقد تابع العرب غزواتهم داخل فرنسا وتوغلوا فيها ، كما أنهم وصلوا الى مابعد بحيرة جنيف في سويسرا ، انما كانت العمليات العربية منذ الأن ، على مستوى صغير ، وبامكانات متدنية ، غير مدعومة من حكومات أو دول قوية كافية الموارد ، ولعل من بين دروس هذه المعركة القاسية انه من الصعب الحصول على غنائم من فرنسا ، وهنا ينبغي أن نقف قليلا عند مسألة الغنائم ، التي غالى الأوربيون في رفع شأن تأثيرها ، لنبين قائلين إن فرنسا القرن الثامن لم تكن بلدا غنيا أو ناميا يمكن للمغير عليه أن يحصل منه على غنائم ثمينة ، ولم تمتلك الكنائس والأديرة ثروات واسعة ، فعبادة الأيقونات لم تكن قد قامت بعد ، ولم يكن

هنالك ثروات أو ذهب وفضة ومجوهرات ، لقد توفرت امكانات جمع الأرقاء للبيع والاستخدام ، هذا وماكان عرب القرن الثامن - وقد فترت حمية الجهاد في أنفسهم بعض الشيء - ليغامروا داخل فرنسا ويتحملوا الشدائد والمصاعب دونما مقابل وارباح كبيرة مضمونة ، ولقد أدرك العرب أن نفقات أعمال الفتوح داخل فرنسا أعلى بكثير من المرابح ، لهذا ركزوا اهتماماتهم على بعض المراكز الساحلية ، ثم إن العرب لم يعجبهم مناخ فرنسا البارد ، وآثروا دوما العيش في المناخ المتوسطي ، اضافة الى كل ما تقدم وأعلى أهمية عانى العرب في الأندلس وافريقيا الشمالية والمشرق بعد معركة بواتيه من مشاكل كثيرة مزقت صفوفهم وشتت قواتهم، وانتشرت الفتن بينهم ، لذلك لم يحاولوا الثأر لما لحقهم في معركة بلاط الشهداء وظلوا يعانون من المشاكل والانقسامات والحروب الداخلية حتى قامت الثورة العباسية ، فنجم عن ذلك تغيير كبير ألم بشؤون السلطة في الأندلس ، وانعكس على علاقاتها مع أوربا.

لقد كانت معركة بواتيه او بلاط الشهداء نهاية لتيار المد العربي الفاتح في فرنسا ، وبعدها تحول اتجاه التيار ، ولم تكن الغزوات التي توغلت بعيدا داخل فرنسا وكذلك سويسرا إلا أمواجا شاردة ذهبت قواها وانهدرت محصلاتها حيث وصلت دون أن تترك أثرا دائما ، وبالمقابل استمر مع الأيام تيار الجزر المعكوس حتى غطى الأندلس بقعة بقعة (١٦).

ولما وصل خبر مصرع عبد الرحمن الغافقي الى مسامع والي افريقية انفذ عبد الملك بن قطن الفهري واليا جديدا على الأندلس ، وأنفذ معه قوة من خيل ورجل ، وبعث الى الخليفة الأموي يعلمه ويستمده ، ويبدو أن عبد الملك أخفق في اثارة همم الناس ودفعهم الى الغزو من جديد ، وهنا عزل من منصبه وكان هذا في سنة ١٢١ هـ/ ٧٣٩ م ، وعين مكانه عقبة بن الحجاج السلولي ، وتم هذا التعيين من قبل والي افريقية عبيد الله بن الحبحاب.

وكانت جموع كبيرة جدا من بربر المغرب قد دخلت الاسلام ، غير أن ابن الحبحباب أساء معاملة البربر ، فقد كان فظا ثقيل الضرائب ، شديد التحصيل ، وفي الوقت نفسه انتشرت أفكار الدعوة الخارجية بين صفوف قبائل من البربر ، وجاء هذا الانتشار لأسباب عديدة ما من واحد منها كانت مضامينه نزعات استقلالية ، وكان ما أن تهيأت الفرص حتى ثار خوارج البربر سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م بزعامة احد هم وعرف باسم ميسرة المدغري ، وبذل عبيد الله غاية جهده للقضاء على هذه الثورة واستنجد بوالي الأندلس ، ومع ذلك لاقت جهوده الاخفاق ، وقام بعض خوارج البربر باغتيال زعيمهم ميسرة المدغري وانتخبوا زعيما جديدا اسمه خالد بن حميد الزناتي ، واستطاع خالد هذا الحاق هزائم ماحقة بالقوات العربية التي كانت مرابطة بالمغرب ، وهكذا زالت السيطرة العربية عن معظم اجزاء المغرب ، واضطر ابن الحبحباب الى مغادرة المغرب الى دمشق ، حيث أخبر الخليفة هشام بن عبد الملك بما الت اليه الأمور ، فانفعل وتأثر كثيرا حتى قال :« والله لأغضبن غضبة لهم عربية ولأبعثن اليهم جيشا أوله عندهم واخره عندي ».

وكان لثورة البربر في المغرب انعكاسات مباشرة على اوضاع الأندلس ، حيث تأثر بربر الأندلس وقاموا بالثورة بدورهم ، وكان من مسوغات الثورة انهم تحملوا العبء الأكبر في فتح الأندلس ، لكن على الرغم من هذا كان مانالوه من ثمرات الفتح أدنى بكثير مما ناله العرب ، ذلك انه عندما وزعت أراضي الأندلس على الفاتحين أعطي البربر اراضي جبلية مع بعض الأراضي الواقعة في مناطق الحدود ، هذا في حين نال العرب أحسن الأراضي الأندلسية واكثرها خصبا ، وكانت الأحوال السيئة التي عاشها بربر الأندلس - مقارنة مع احوال العرب- وراء تحركهم وقيامهم بالثورة .

وكان عقبة بن الحجاج قد قام عند تسلمه لمنصب ولاية الأندلس بايداع سلفه واليها المعزول عبد الملك بن قطن مع أعوانه ومؤيديه السجن ، وقد مثل عبد الملك حزب اهل المدينة المنورة في

الأندلس ، وحين أخفق حاكم المغرب في القضاء على ثورة البربر ، وبعدما أعلن بربر الأندلس ثورتهم ضعف موقف عقبة بن الحجاج ، واصيب عام ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بمرض شديد حتى أرجف الناس بموته ، وهنا قامت جماعة الحزب المدني فأرغمته على استخلاف عبد الملك بن قطن ، وهكذا وللمرة الثانية تسلم ابن قطن منصب ولاية الأندلس انما بموجب ارادة قوى أندلسية ، وليس تبعاً لارادة والي افريقة أو الخليفة الأموي ، وستنمو هذه الظاهرة في المستقبل القريب الى حد قيادة الأندلس الى الانفصال السياسي عن جسم الخلافة .

ومع تسلم عبد الملك لولاية الأندلس استشرت ثورة البربر وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد بعث جيشا كبيرا على راسه كلثوم ابن عياض القشيري ، وعهد اليه بولاية افريقة ، وأمره أن يعمل على القضاء على الثورة الخارجية فيها ، وزحف كلثوم نحو المغرب وجعل على مقدمة جيشه وعلى الفرسان ابن أخيه بلج بن بشر وكان في بلج رعونة وحمق وتعصب لقومه من قيس ، وقد نجم عن تصرفاته وسلوكه وقوع خلافات بين صفوف العرب من قوات كلثوم وقوات العرب التي بقيت مرابطة في افريقة ، لذلك عندما التقت القوات العربية بقوات الثورة البربرية حلت الهزيمة بالعرب ، وفر بلج مع ما يقارب من عشرة آلاف مقاتل من جنده نحو سبتة ، وهناك اتخذ موقف الدفاع . وتحت الحصار ضاقت الحال ببلج وجنده ، وحينئذ طلب بلج من عبد الملك أن يعينه على القدوم الى الأندلس ، ولم يكن ثم من يميل لتلبية مطلبه هذا ، وعبثا حاول استدرار عطفه عليه ، بما كان يذكره في رسائله من انه هو رفاقه يموتون جوعا في سبتة ، وانهم قبل كل شيء عرب مثله ، فلم يلن بؤسهم قلب ذلك« الشيخ المدني العجوز » أعني عبد الملك الذي ربما حمد الله تعالى ان أتاح له ، وهو في التسعين من عمره ، فرصة تذوق لذة الانتقام بمشاهدة أبناء الجفاة القتلة وهم يشرفون على الموت جوعا ، أو ليسوا هم الذين قتلوا في وقعة الحرة رفاقه وأبناء عشيرته ، والذين أوشكوا أن يذيقوه ـ هو نفسه الموت

بسيوفهم ، والذين نهبوا المدينة المنورة واستباحوها ودنسوا حرمة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومسجده ، افيطمع ابناء اولئك الفتاة الرعناء ان يرق لهم عبد الملك ؟! وهل لروح الانتقام ان تموت عند ذلك المدني ، وهل يمكن لآلام الشامي أن تحرك شفقة من عاش ينتظر يوم الثأر وهكذا لم يكن لعبد الملك سوى هم واحد ورغبة فريدة ، وشغل شاغل وحيد ، هو الحيلولة بين من هم دونه كراهية لأهل الشام وبين مدهم بالميرة او اي نوع من المساعدات ، وعلى الرغم مما اتخذه من الاحتياطات ، استطاع شريف رؤوف من قبيلة لخم أن يفلت من رقابته ، وان يرسي في ميناء سبته مركبين مشحونين بالحنطة ، فلم يكد يتناهى خبر ذلك الى عبد الملك حتى قبض على اللخمي الكريم وجلده سبعمائة جلدة ، ثم امر بسمل عينيه وقتله متهما إياه بتضريب الجند عليه ، ورفعت جثته على سارية وقد صلبوا الى يمينها كلبا إيغالا في النكاية به والشماتة ، وهنا خيل للشاميين انه قد حكم عليهم بالموت جوعا ، غير انه جد فجاة امر لم يكن في الحسبان ، ارغم عبد الملك على تغيير مسلكه .

فلقد استشرت ثورة البربر في الأندلس ، وزاد بربر الأندلس حماسا صعوبة وضع العرب في المغرب بعد الانتصارات التي حققها البربر هناك «وتحرج موقف عرب الأندلس إذ ذاك ، واصبح حالهم ينذر بالخطر ، واوشك ملكهم على الزوال حتى وجد عبد الملك نفسه – على الرغم مما يجيش في جوفه – مضطرا لالتماس معونة اهل الشام المحاصرون في سبتة ، اهل الشام ذاتهم الذين تركهم حتى هذه الساعة يكابدون مصيرهم التعس دون أن تأخذه فيهم شفقة او رحمة ، إلا انه اتخذ لنفسه الحيطة ، فوعدهم أن ينفذ إليهم مراكب تنقلهم على شرط ان يقطعوا العهد على انفسهم بمغادرة الأندلس حالما يتم القضاء على الثورة ، وان يسلمه كل فريق منهم عشرة من شيوخهم يضعهم في إحدى الجزر رهائن تكون رؤوسهم ضمانا لصدق تنفيذ الاتفاق ، واشترط الشاميون من جانبهم على عبد الملك

أن ينقلهم جملة الى افريقة وأن ينزلهم على ساحل ليس للبـربر فيه سلطان ».

واقر الجانبان الاتفاق . وهكذا ابحر اهل الشام من سبتة ودخلوا الأندلس «عراة لا يواريهم إلا دوابهم ، وقد بلغ بهم الجهـد غايتـه ، وكانوا نحو عشرة الاف من عرب الشام ، فلما دخلوا كسـاهم عرب الأندلس »، وبعدما استقر بهم المقام في الأندلس وذقهوا زحفوا ضـد البربر فهزموهـم في أكثر من معركة ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وفي تلك الأثناء تعرف عرب الشـام على الأندلس . فـأعجبتهم البـلاد ، وأعجبهم غناها ، وادركوا مدى قوتهم وقوة عبد الملك بن قطن .

وما أن تلاشت ثورة البربر في الأندلس وقضي عليها ، حتـى طلب عبد الملك من بلج وصحبه تنفيذ الاتفاق ومغادرة الأندلس والعـودة نحو افريقية ، وهنا اختلق بلج اسبابا للبقاء والخلاف مع عبد الملك ، وتمكن من الاستيلاء على مقاليد الأمور في قرطبة ، واودع عبـد الملك **السجن وأثناء هذا حدث أن مات بعض رهائن الشاميين ، فثار جند بلج ، وأخرجوا عبد الملك من السجن» كأنه فرخ نعامة مـن الكبـر ، وهم ينادونه: أفلت من سيوفنا يوم الحرة ، فـطلبتنا بثـأرنا في أكل الدواب والجلود ثم اردت اخراجنا الى القتل ، ثـم قتلوه وصـلبوه ، وصلبو خنزيرا عن يمينه وكلبا عن شماله».**

ولم يمض حادث استيلاء بلج على السلطة وقتله لعبد الملك دونمـا جـــرائر ، فقـــد انقســـم عرب الأندلس الى قســـمين متصارعين : شـاميين وبلديين قـدماء ، وقـامت معـارك بين الطرفين ، ولقـي بلج مصرعه في الحـرب ، لكن أصـحابه حققـوا لأنفسهم النصر ، فاستمروا متسلمين لمقـاليد الأمـور ، وخلف بلج ثعلبه بن سلامة العاملي ، وكان هذا سـنة ١٢٤هـ/٧٤٢م ، وجـاء اختيار ثعلبة بسبب «أن هشام بن عبد الملك كان قد عهـد أن يتـولى أمر الجيش اذ جهزه من الشام كلثـوم ، فـان اصـيب فـابن اخيه بلج ، فان أصيب فثعلبة» ،

واستمرت الحرب الأهلية ايام ثعلبة ، وكانت ساعة صراعا بين العرب والبربر ، واخرى بين العرب انفسهم شاميين وبلديين ، وبقي النصر حليفا للشاميين ، ووقع اثناء هذه الحروب في أيديهم عدد كبير من الأسرى كما أقدم ثعلبة على اقتراف إثم لم يعهده العرب في تاريخهم الا وهو سبي نساء المهزومين واسترقاق أطفالهم ، وكان ذلك حدثا لاسابقة له ولهذا جاء في منتهى الفظاظة والقسوة .

واخاف تدهور أوضاع الأندلس عقلاء المسلمين من شاميين وبلديين والتمسوا مخرجا لذلك ، فتوجهوا بأبصارهم نحو المغرب ، وكانت الأوضاع قد عادت الى الاستقرار النسبي ، بعدما وجه اليها الخليفة هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان واليه على مصر ، وحدث ذلك بعد ما بلغه ما صار اليه جيش كلثوم بن عياض ، ولما اتصل عقلاء أهل الأندلس بحنظلة سألوه أن يندب اليهم واليا يكون قادرا على اعادة النظام والأمن والطمأنينة الى الأندلس ، فاستجاب لطلبهم ، واستعمل ابا الخطار الكلبي حسام ابن ضرار ، ووصل ابو الخطار الى قرطبة على حين غرة ، فالفى ثعلبة بن سلامة «وهو يبيع السبي بالنداء ، ويعبث ويبطر ، فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لاممن يزيد» .

وتسلم ابو الخطار ولاية الأندلس دونما معارضة ، وقام بمعالجة مشاكل ولايته بأن انهى الحرب الأهلية ، فنفى عددا من شخصيات القوى المتصارعة وكان من جملة المنفيين ثعلبة بن سلامة ، واعاد النظر في توزيع اراضي الأندلس على العرب ، فأعطى طالعة بلج الشامية املاكا اندلسية خاصة ، فصار رجال هذه الطالعة من اهل الأندلس وسكانها الدائمين .

ونجح ابو الخطار في ادارته فجمع سكان الأندلس من العرب حوله ، وكسب طاعتهم ، لكنه لم يمتع نفسه بذلك طويلا ، حيث ما لبث أن تخلى عن مصالحه ورزانته وتعصب لليمانية ضد الجماعات القيسية وبهذا اعاد الانقسام من جديد الى صفوف عرب

الأندلس ، وتزعم الجماعات القيسية الصميل بن حاتم الكلابي ، وكان حفيدا لشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي في كربلاء ، وكان أعرابيا عنده عنجهة البداوة وصلفها ، ولم يكن صاحب ثقافة أوحتى معرفة بالاسلام ، كما كان لايحسن القراءة والكتابة ، ويروى أنه (مر بمؤدب يقرىءولدا له القران فسمع منه الآية «وتلك الأيام نداولها بين الناس » فوقف الصميل وقال للمؤدب : نداولها بين العرب ، فقال له المؤدب :« بين الناس» فقال الصميل وهكذا نزلت الآية ؟قال له : نعم ، هكذا نزلت ، فقال الصميل : والله إني أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل) .

وجمع الصميل أعوانه من قبائل قيس ، ووثب بأبي الخطار فانتزع منه ولاية الأندلس ، وبعد شي من الفوضى والصراع عين الصميل يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان من أحفاد عقبة بن نافع ، عينه واليا على الأندلس ، ولم يلق اتباع الحزب اليماني السلاح فخاضوا بزعامة أبي الخطار عدة معارك ضد القيسيين ، كان أشهرها واحدة وقعت سنة١٣٠هـ /٧٤٧م بمكان عرف بشقندة ، وكان على مقربة من قرطبة ، وقد تلاقى رجال الفريقان المتصارعان «حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح ، وثبتت الخيل وحميت الشمس ، ثم تداعوا الى البراز فتنازلوا بالسيوف حتى تقطعت ، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ، ولم يكن في الاسلام صبر مثله» وعندما أصيب الطرفان بالانهاك أسرع الصميل نحو قرطبة فاستنجد بأهل سوق المدينة من عمال وجزارين وسواهم ، وحسم هؤلاء بحضورهم المعركة لصالح الصميل وصحبه ، وأعقب المعركة تصفية دموية لرجالات الحزب اليماني .

وحين وقعت هذه الأحداث كانت الخلافة الأموية في المشرق تمر بدور الحشرجة النهائي ، لذلك سارت الأمور في الأندلس دون ان يكون للخلافة أو والي افريقية أي دور في ايقاف المذابح التي

وقعت ، وازدادت أحـــوال الأندلس ســـوءا أنه حـــــل بهـــــا سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م وســنة ١٣٦ هــ / ٧٥٣ م قحــط شـــديد ومجاعة دفعت بالعديد من ســكان الأندلس مــن العــرب الى هجــر الأندلس والعودة الى المغــرب ، وكان ذلك فــرصة اهتبلهـــا رجـــال المقاومة الاسبانية ، فبدأوا حرب الاستغلاب التي ســتستمر اجيالا طويلة ، وتنتهي بسقوط الأندلس وطرد العرب منها .

لقد تهيأت الظروف للعرب منذ ولاية عبد الملك بن قــطن للانتقـــام لفاجعة بلاط الشهداء واستئناف حركة الفتوحات ، لعــدة اســباب كان منها توفر عناصر كثيرة في بروفانس وسواها تعاونوا مع العرب لكراهتهم لشارل مارتل ، ولانشغلال شارك مــارتل نفســه في نشر سلطانه في أماكن أخرى ، لكن حالة التمزق التي سادت بين صفوف العرب والمسلمين في الأندلس ،وعدم تــوفر قــوى بحـــرية كافية لدى العرب ، وأخيرا الفوضى التي حلت بـــالشام والمشرق منذ اســتيلاء يزيد الناقص على الخلافة ، وبعد هذا أحــداث الثــورة العبــاسية حرمت العرب من فرصهم ، ومعروف انه كان مــن بين نتـــائج قيام الدولة العباسية توقف الحركة الهجــومية للفتــح وشروع المســلمين باعتماد خطط الدفاع .

وبالفعل جرى تحصين بعض المواقع الاسلامية في جنوب فــرنسا ومقاطعة بروفانس ومع هذا نجح الفرنجة والاسبان بالاستيلاء على بعض المواقـــع الاســلامية مثــل افينون Avignon «صــخرة أبينون» لكنهم لم يتمكنوا من اخذ نربونه ، حتى شارل مارتل نفسه أخفق في الاستيلاء عليها مع انه حاصرها لبعض الوقت (١٧) .

وكان لسقوط الدولة الأموية في المشرق وحلول الخلافة العبـــاسية محلها أوسع الآثار واكثرها حسما بـــالنسبة للأندلس ، فتـــاريخيا انهى الانتصار العباسي العصر الذي كانت فيه الأندلس ولاية وسبب قيام عصر جديد ، غدت فيه بلاد الأندلس اول قطر اســلامي يخـــرج عن الاجماع الاسلامي بالطاعة لخليفة واحــد ، واضــطرت هــكذا الأندلس للاعتماد على طــاقاتها الذاتية لمواجهــة طــاقات القـــارة

الأوروبية ، مضاف الى هذا أحيانا دسائس ومؤامرات حيكت في دار الاسلام ، لذلك لاعجب أن ترافق وصول الأندلس الى ذروة القوة مع الانهيار السريع .

عصر الامارة الأندلسية

بعد معركة شقندة خلصت ولاية الأندلس الى يوسف بن عبد الرحمن ، لكن ذلك ظاهر فقط ، ذلك ان يوسف لم يكن له من منصب ولاية الاندلس إلا لقب الأمير الاسمي فقط لاستئثار الصميل بن حاتم بالسلطة الفعلية ، ومع مرور الايام تبرم يوسف وأظهر انزعاجه لمكانته الثانوية ، ففكر في التخلص من الصميل ، واستطاع ذلك بأن ابعده عن قرطبة الى سرقسطة في الشمال ووصل الصميل الى هذه المدينة سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م ، وكانت غالبية سكان سرقسطة من العرب من جماعات الحزب اليماني.

ولم يلق الصميل وقت وصوله الى سرقسطة معارضة تذكر ، ويعود سبب ذلك الى أن وصوله تزامن مع احتدام القحط والمجاعة هناك وعمل الصميل طوال فترة المجاعة على تقديم العون من طعام وكساء ومأوى الى جميع المحتاجين دونما تمييز ، وهكذا مضت حقبة من الزمن ساد فيها الهدوء والتفاهم وانعدام الشغب والنزاعات بين القيسية واليمانية. لكن ما أن زال الجفاف وعاد الخصب ، وزال الجوع حتى تحركت النفوس بأحقادها من جديد ، وعقدت عدة تحالفات ضد الصميل ومؤيديه من قيس ، وما لبثت الثورة أن تفجرت ضد الصميل في منطقة سرقسطة ، وبالوقت نفسه واجه يوسف بن عبد الرحمن تحركات مضادة له في قرطبة وما جاورها ، وحين وقع الصميل في الضيق ، اتخذ موقف الدفاع ، ثم اعوزته الحاجة الى التماس العون من يوسف فطلب منه انجاده ، ولم يكن يوسف في حالة تمكنه من تلبية طلب الصميل ، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في تلبية هذا الطلب ، ذلك أنه كان يرغب فعلا في التخلص من الصميل ومن نفوذه.

وضاق الحصار على الصميل واضر به حتى يئس من الحياة وهم

بالالقاء بيده ، وعندما لم يلق من يوسف الاستجابة ، كتب الى زعماء قيس ، فتحرك هؤلاء الزعماء بفعل الروابط القبلية وبفضل عوامل جديدة دخلت الى مسرح أحداث الأندلس ، وتجيشت قوة من قبائل قيس ، ومن جماعة عرفت بموالي بني أمية ، وانطلقت نحو سرقسطة ، وكان برفقة هذه القوة رجل طرق الأندلس حديثا ، عرف ببدرمولي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

وتخلص الصميل من الحصار ، وتوجه مع القوة التي جاءت لنجدته نحو قرطبة ، وفي سرقسطة قام بدر بالاتصال بالصميل وأخبره انه رسول مولاه إليه ، وعرض عليه أن يعاون ابن معاوية على تسلم الحكم في الأندلس ، واحياء الملك الأموي بعد انقطاعه في المشرق ، واستجاب الصميل في البداية ، واتفق مع الأمويين على نصرة أبن معاوية وأن يزوجه من ابنته ، ثم رجع في قوله ، وقال: تأملت الأمر فوجدته صعب المرام » وهنا انقطع رجاء بدر من قبائل قيس وزعيمها الصميل.

وتحول بدر نحو عناصر القبائل اليمانية التي كانت تعاني من القهر والتحكم القيسي فوجدهم « قوما قد وغرت صدورهم ، يتمنون سبيلا لطلب ثأرهم ، وأعدت العدة ورتبت الأمور لدخول ابن معاوية الى الأندلس ، وعاد بدر الى مولاه ومعه خمسمائة دينار وبعض الرجال مع مركب خاص ليعبر به مضيق جبل طارق.

وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذ العبور، وجاءت هذه الفرصة سنة ١٣٨ هـ ـ ٧٥٥ م عندما تغيب يوسف بن عبد الرحمن ومعه الصميل وقوات الولاية ،عندما تغيبوا عن قرطبة حيث توجهوا الى طليطلة لامضاء البعوث ضد البشكنس وسواهم ، وفي أول ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ ١٤ ـ اب من سنة ٧٥٥ م نزل عبد الرحمن بن معاوية في ميناء المنكب بين المرية ومالقة ، وعلى الفور اتخذ لنفسه مقرا في قرية قريبة دعيت بُطُرّش ، ومن هناك بدأ نشاطه ، وهنا لابد لنا قبل متابعة الحديث عما آلت اليه امور عبد الرحمن مع امور الأندلس بعد نزوله فيها من الوقوف قليلا كيما نعود الى الوراء

- ٥٥٤ -

لنتعرف الى شخصية عبد الرحمن مع الأسباب التي حملته على ترك المشرق والقدوم الى الأندلس.

عبد الرحمن الداخل

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، يرجح أنه ولد في منطقة دمشق سنة ١١٣ هـ /٧٣١ م ، وكانت أمه بربرية من سبي المغرب تسمى « راحا » أو « رواحا » وقد توفي أبوه وعبد الرحمن ما يزال طفلا صغيرا ، فعني به جده هشام عناية خاصة ، وفي مصادرنا كان سبب ذلك أن عبد الرحمن ذهب مرة الى قصر هشام بن عبد الملك ومعه أخوته الأطفال ، وعندما كانوا بالباب ، جاء عم أبيه مسلمة بن عبد الملك الى القصر ، وعند دخوله سأل عن الأطفال ، فأخبر بأنهم أيتام معاوية بن هشام ، فنظر اليهم متفحصا واستعرضهم واحدا واحدا ، وعندما مر به عبد الرحمن احتضنه وضمه الى صدره بحنان ، وصادف أن خرج ساعتئذ الخليفة هشام فرآه يفعل ذلك بحنان فسأله:« من هذا يا أبا سعيد ؟ فأجابه مسلمه: ولد لمعاوية ابنك ، ثم مال عليه وأسر اليه بصوت سمعه عبد الرحمن ، وكان مما قاله: دنا الوقت ، وهذا هو ، فسأله هشام:« أهو»؟ فأجابه مؤكدا:« اي والله وقد عرفت العلامات والامارات بوجهه وعنقه».

والقبول بهذه الرواية يعني أن هشام بن عبد الملك كان لا يعرف احفاده ، وهذا أمر من الصعب تصديقه ، وتفسير الرواية:إن بني امية كانوا يعرفون عن طريق النبوءات أن ملكهم أيل الى الزوال في المشرق،لكنه سيبعث في المغرب على يد رجل صاحب صفات معينة ، وكان مسلمة بن عبد الملك أكثر اهله معرفة بما سيحل بملك بني أمية وبما ستكون عليه الأحوال فيما بعد.

وتبعا لهذه الرواية لقي عبد الرحمن عناية جده ، وعندما زال ملك بني أمية ، وقامت الدولة العباسية تنذكر ، فتوجه الى المغرب ليعمل على إحياء الحكم الأموي ، ونجح في ذلك.

لا شك أن طابع الصنعة والتزوير واضح على هذه القصة التي

استهدفت اضفاء الشرعية النابعة عن الارادة الالهية على نجاح أعمال عبد الرحمن ، ولا ريب أن مثل هذه الأقاصيص كانت تلقى بعض القبول في المجتمع الاسلامي ، وقد وجد من روج لها ، ففي عصور الاسلام المبكرة كثرت النبوءات وتعددت الى حد عجيب غريب ، وكان هناك من أمن بحتمية الأقدار وأن الانسان مسير محكوم عليه بقدر لا يتغير ولا يتبدل ، ولو صحت مثل هذه النبوءات لاختلف موقف بني أمية من الحركة العباسية وثورتها حين اندلعت.

لكن يقال هنا: يؤيد هذه النبوءة توجه عبد الرحمن نحو المغرب فالأندلس ، والاجابة هنا: ليس عبد الرحمن وحده من بني أمية الذي توجه نحو المغرب ، ولو كان هناك نبوءة أخذ بها لما أمضى ـ كما سنرى ـ فترة طويلة بالمغرب قبل أن يجرب حظه في الأندلس.

لقد فر عبد الرحمن الى المغرب لأنه لم يجد سبيلا أخر ، وكان عبد الرحمن وقت تفجر الثورة العباسية قد تخفى في إحدى القرى القريبة من الفرات ، والذي دفعه الى التستر هو البطش العباسي وعمليات الابادة الشاملة التي مارسها العباسيون ضد جميع افراد الأسرة الأموية ، واقام عبد الرحمن قرب الفرات بسبب إقامة هشام عبد الملك أيام خلافته في رصافة الرقة ، وحدث أنه في أحد الأيام فوجيء عبد الرحمن بثلة من الجند العباسي تقتحم القرية التي كان فيها ، فهرب من وجهها مع أخ له والقى بنفسه في الفرات فاجتازه سباحة ، في حين لم يستطع أخوه متابعة السباحة فوقع في يد الجند العباسي فذبحوه على الفور ، ومن هناك هرب عبد الرحمن نحو فلسطين ، ولعله تخفى عند أحد أنصار بني أمية أو مواليهم ، وفي فلسطين لحق به مولاه بدر مع سليم مولى أخته أم الأصبغ ، وهناك زوداه بمال ومجوهرات بعثت بهم إليه أخته ، ومن فلسطين توجه الى مصر فاجتازها الى المغرب.

وكان المغرب لم يدخل بعد تحت السلطة العباسية ، وكانت أموره بيد عبد الرحمن بن حبيب الفهري من أحفاد عقبة بن نافع ، وكان

عبد الرحمن بن حبيب هذا قد استولى على امـور المغـرب واسـتبد بالسلطة هناك استيلاءالا تفويضا ، فقـد كان بـالأصل مـن اهـل الاندلس ، هرب منها الى المغرب ، ثم تدبر اموره فـأحدث انقـلابا استولى فيه على حكم المغرب كله.

وشجع بعد المغرب ووضعه السياسي افراداً من البيت الأموي على اللجوء إليه ، ويبدو أن عبد الرحمـن رحـب في البـداية بـالعناصر الاموية التي وصلت الى المغرب ، وقدم لها المساعدة ، ولعـل عبـد الرحمن بن معاوية كان أحد هؤلاء الأمويين الذين وصلوا الى المغرب ولقوا مساعدة ابن حبيب ، لكن ابن حبيب ما لبث أن غير سـياسته تجاه الامويين ، ذلك أنه كان فيمـن قـدم عليه مـن الأمـويين ولدان للوليدبن يزيد بن عبد الملك ، يقال لأحدهما القـاضي والأخـر المؤمن.....فأنزلهما عبد الرحمن بـدار....وكانت معهمـا عجـوز في الدار ، فدس إليها عبد الرحمن بـن حبيب أن تـوصله إلى مـوضع تسمعه منه كلامهما ، فقـالت:إن البيت الذي همـا فيه ، في سـقفه غرفةفإن شئت فأنا اوصلك ليلا إلى ظهر البيت حتى تطلع عليهما ولا يعلمان ، فقال: افعلي ، فلما كان في الليل أطلع عليهمـا وهمـا على نبيذ لهما ، ومولاهما يسقيهما ، إذ قال القـاضي: مـا اغفـل عبـد الرحمـــن ، أيظـــن أنه يتمنى معنا ولاية ونحـــــن أولاد الخليفة «؟! وبعدما سمع عبد الرحمن هذا الكلام بطش بـالأميرين الامويين ، وأخذ بملاحقة بقية الامويين فبادروا الى الفرار والتجأ بعضهم الى القبائل البربرية ، وكان ممن فعل ذلك عبد الرحمن بـن معاوية .

قد تكون قصة التصنت هذه مختزعة وهي مجرد صدى لتغيير ابن حبيب لسياسته تجاه من لجأ إليه من بني أمية بسبب خشـيته مـن مطامح بعضهم مع رغبته في التقـرب إلى العبـاسيين ، الذي يعنينا هنا هو أن عبد الرحمن بـن معـاوية مضى« ينتقـل مـــن قبيلة إلى أخرى ، ومن بلد إلى أخر ، وذرع إفريقية الشمالية من ادناهـا إلى اقصاها ، فاختفى حينا في برقة ، ولاذ حينا أخر ببلاط بني رسـتم

ملوك تاهرت (من المغرب الأوسط) كما ذهب إلى قبيلة مكناسة البربرية ، ولجأ إليها مستظلا بحمايتها ، وهكذا انقضت خمس سنوات ـ وهي فترة غير قصيرة ـ دون أن يخطر ببال عبد الرحمن أن يجرب حظه في إسبانيا ، بل كانت إفريقية هي شغل هذا الشاب البهي الطلعة ، المملق ، العديم الأصدقاء ، ودأب على اصطناع كل وسيلة للحصول على انصار له ، فطردته مكناسة من أرضها فتركها إلى قبيلة نفزه البربرية التي منها أمه ، وكانت تسكن قرب سبتة » .

ومن هناك تعرف عبد الرحمن إلى أحوال الأندلس ، وكان طموحا ، لاتنقصه روح المغامرة ، فأرسل مولاه بدر إليه ، فاتصل بدرهناك بجماعة كانت من موالي الأسرة الأموية ، وكان هؤلاء الموالي زهاء أربعمائة أو خمسمائة شخص ، ونجحت جهود بدر ، وأعدت العدة لجواز عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ، وكان أبرز الزعماء الذين تعاونوا مع بدر يدعى عبيد الله بن عثمان .

وتلفت شخصية بدر الانتباه ، ويبدو أن نشاطه في الأندلس والاستعدادات التي عملت من أجل عبور عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس لم تكن سرا البته ، والذي كان سرا هو وقت العبور وموضعه ، ذلك أنه بعدما نزل عبد الرحمن ساحل الأندلس ووصل خبر ذلك إلى قرطبة ، كتبت زوجة يوسف بن عبد الرحمن إليه تقول : « ابن معاوية قد دخل ونزل بِطُرُّش عند الفاسق عبيد الله بن عثمان ، واصفقت بنو أمية معه ، وإن خليفتك على إلبيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه ، فهزم وضرب أصحابه » .

وشاع الخبر بين صفوف جند يوسف فانفض اكثرهم عنه ، وعاد بعضهم إلى مواطنه وانضم بعضهم الآخر إلى عبد الرحمن بن معاوية ، وبذل يوسف غاية جهده لجمع قوة مناسبة تسير معه ضد عبد الرحمن ، وكان الوقت موائما لذلك ، فأخفق على الرغم من بذله المال والوعود ، وعاد يوسف إلى قرطبة وحل الشتاء فصار من الصعب عليه القيام بأي تحرك عسكري ، ولقد سعد عبد الرحمن بن معاوية بضعف يوسف و بالتمزقات السياسية في الأندلس ، ولم

يضع الفرصة التي واتاه بها حلول الشتاء ، فـزاد مـن نشـاطه ، وصار يبيت في المناطق الجبلية ويتحرك بسرعة غير مفوت لفرصة من الفرص ، وهكذا ازداد عدد أعوانه ويبدو أن حركته قد أخذت بعض السمات الاجتماعية ، ولعلها بذلت الكثير من الوعود الاصـلاحية ، فلاقت التجاوب وانضم إليه الكثير من الفقراء والمظلومين مـن عرب وبربر ، ونستخلص هذه الصورة من نص رسالة وجهها يوسف إلى عبد الرحمن جاء فيها : « أما بعد فقد انتهـى إلينا نزولك بسـاحل المنكب ، وتأبش من تـأبش إليك ونزع مـن السراق وأهـل الختـر والغدر ، ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبـه جل وعلا نستعين عليهم ، ولقـد كانوا معنا في ذرى كنف ورفـاهية عيش حتى غمصوا ذلك واستبدلوا بـالأمن خـوفا ، وجنحـوا إلى النقص ، والله مـن ورائهـم محيط ، فإن كنت تـريد المال وسـعة الجناب ، فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، اكنفـك وأصـل رحمـك ، وانزلك معي إن أردت ، أو بحيث تريد ، ثم لك عهـد الله وذمتـه الا اغدر بك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره » .

وعرض يوسف على عبد الرحمن أن يزوجه ابنتـه ، ولاشـك أن عروض يوسف هذه ابتغت تضليل عبد الرحمن والتغـرير بـه ، لكن عبد الرحمن كان اكثر نباهة وحذرا ، فرفض طلب يوسف ، وأهمـل عروضـه ، وطلب منه التنازل عن حـكم الأندلس ، وخيره بين ذلك وبين المحاكمة إلى السيف .

ومع الأيام ازداد اتباع عبد الرحمن ، فأخذ يعد العـدة للزحـف على قرطبة ، وعندما تحرك نحوها حاول يوسف إيقافه فأخفق ، وفي مشارف قرطبة التقى جيش عبد الرحمن بجيش يوسف والصـميل ، فاستطاع عبد الرحمن إيقاع هـزيمة مـاحقة بهمـا وبقـواتهما وأجبرهما على الفرار ، وهكذا تمكن عبد الرحمن من دخول قرطبة ، وكان ذلك صباح يوم عيد الأضـحى لسـنة ١٣٨ هـ / ١٤ ـ أيار ٧٥٦ م .

وقام جند عبد الرحمن اليمنيون بنهب قـرطبة ، وعندمـا حـاول

إيقافهم عن النهب ومنعهم من القيام بعمليات الانتقام من خصومهم القيسيين غضبوا غضبا شديدا ، دفعهم إلى التآمر على عبد الرحمن ومحاولة التخلص منه ، ولحسن حظ عبد الرحمن انه علم بخبر المؤامرة عليه ، فاحتاط لنفسه ودبر حمايتها ، مما دفع المتامرين للتخلي عن خططهم .

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة ، ألقيت الخطبة باسمه يوم الجمعة ، ولم يتم الدعاء في هذه الخطبة للخليفة ، ذلك أن الخليفة كان انذاك هو أبو جعفر المنصور وكان المنصور عدوا للأسرة الأموية ، لذلك كان من غير المنطقي أن تتم الخطبة باسمه ويعترف بخلافته ، وخلق هذا حالة جديدة ذلك أن عبد الرحمن احتفظ لنفسه بلقب أمير ، فكان بذلك مثله مثل من سبقه في حكم الأندلس ، ولم يعلن عبد الرحمن نفسه خليفة ، ذلك أنه لم يكن في وضع يمكنه من فعل ذلك ، مع أن عبد الرحمن لم يكن أول حاكم في تاريخ الأندلس يستولي على السلطة استيلاء أولا ثم يتم تعيينه من قبل السلطات الاسلامية الشرعية ، إلا أنه كان أول أمير للأندلس يقوم بفصل هذه الولاية عن جسم الدولة الاسلامية فصلا سياسيا كاملا ، ويسعى إلى تأسيس حكم أسرة وراثية مستقلة فيها ، والجديد الجديد في هذا الأمر هو الجانب النظري التشريعي أكثر من الجانب العملي ، فعمليا كانت الأندلس دائما مستقلة ، يربطها خيط واهي بالسلطات الشرعية لافريقية أو دمشق ، فقام عبد الرحمن بقطع هذا الخيط ، فابتدأ بذلك عهدا جديدا في تاريخ الأندلس ، وخط سابقة خطيرة في تاريخ الاسلام ووحدة اراضيه السياسية ، ورسم بداية النهاية للوجود العربي في شبه الجزيرة الايبيرية ، لأن المواجهة الآن باتت بين قارة وحدها الصليب وبين فئة صغيرة دانت بالتوحيد لكن نادرا ما التزمت بوحدة الصف.وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة واجه العديد من المسائل الفائقة الأهمية ، فلقد كان عليه أن يكمل سيطرته على بقية اجزاء الاندلس وأن يقوم بمعالجة قضايا الصراع بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم من قيسية ويمانية ، كما كان عليه أن يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والزراعية لولايته ، فلقد

وافق تسلم عبد الرحمن لحكم الأندلس بداية حدوث تحولات كبيرة في المجتمع الأندلسي ، وخاصة بين صفوف السكان الأصليين ، ذلك أن اعدادا لابأس بها من هؤلاء بدأوا بالتحول إلى الاسلام ، وكانت أسباب التحول هذه أسبابا نجمت عن قناعات خاصة حركتها المطامح والمصالح المالية والسياسية مع هزيمة الكنيسة الاسبانية وإفلاسها أمام الدعوة الاسلامية والحضارة العربية الناشئة المتدفقة بالحياة والتجديد ، ودعي هؤلاء الذين دخلوا في الاسلام باسم المولدين ، وشكلوا جماعة خاصة تميزت بعض الشيء عن جماعات الموالي في الشرق كما شابهتها في بعض الوجوه .

وبهرت قوة العرب ، وحيوية لغتهم ، وجوانب الابداع في ثقافتهم وحضارتهم معظم بقية السكان الأصليين للأندلس ، فتخلى هؤلاء عن تراثهم ولغتهم وعاداتهم لما قبل الفتح الاسلامي وتبنوا كل ما كان للعرب إلا دينهم ، وعرف هؤلاء باسم المستعربين .

لقد ضمت كل فئة من فئات سكان الأندلس جماعات راضية وجماعات ساخطة ، لذلك واجه عبد الرحمن وخلفاؤه العديد من الثورات ، ولجأ عبد الرحمن إلى اعتماد وسيلة العنف للقضاء على مناوئيه ، وسعى في البداية للابقاء على نوع من التوازن بين القيسيين واليمانيين وفي الوقت نفسه أخذ في إعداد جيش من المرتزقة والعبيد ، وهكذا بدأ بنسف نظام الخدمة العسكرية السالف ، كما أن تجنيده لجيش خاص جعله يختلف عن متقدميه من حكام الأندلس ، إذ استغنى عن الاعتماد على واحد من الحزبين العربيين ، وبدلا من أن كانت العصبية هي الرابط الذي يشد قوى الحكم والمعارضة ، صارت الآن شخصية الأمير هي محور العمل السياسي في الأندلس والرابط الذي يجمع القوى ،واستدعى هذا إنشاء بلاط ، وإضفاء صفات خاصة على الأمير .

وكان لانشاء البلاط واقامة الجيش المحترف نتائج سياسية وحضارية كبيرة ، كما أن ذلك كان يحتاج إلى نفقات كبيرة مما دعا إلى العناية بموارد البلاد الاقتصادية وإلى تنويع الضرائب وزيادتها

وكل هذا لم يكتب له أن يقوم دون ردات فعل ؛ ومشاكل مستجدة معقدة .

وبسبب ان عبد الرحمن كان قد استولى على قرطبة بفضل مؤيديه من رجالات الحزب اليماني فقد وجد ان عليه أولا أن يعالج مشكلة الحزب القيسي ، ذلك انه بعدما دخل قرطبة ، سيطر على عاصمة الاندلس ، لكن ليس على جميع أجزاء البلاد ، فقد هرب يوسف بن عبد الرحمن إلى طليطلة ومضى الصميل إلى عشيرته في جندجيان ، واخذا يعدان العدة لجولة ثانية مع عبد الرحمن ، وقام عبد الرحمن بدوره بالاستعداد ، وسار أولا ضد يوسف ، وبعد اشتباكات عدة كسبها عبد الرحمن ،استطاع عبد الرحمن أن يجبر خصماه على الاستسلام له ، وجلبهما معه الى قرطبة ، حيث عاملهما بمعاملة كريمة وكان يشاورهما احيانا ويستعين بخبرتهما ، وعندما تمكن عبد الرحمن من خصميه يوسف والصميل صار سيد الأندلس بدون منازع ، ولو كان ذلك لفترة من الزمن ، ولم يستطع يوسف تحمل اقامته الجبرية في قرطبة فهرب سنة١٤١هـ - ٧٥٨ م منها ، واخفق جند عبد االرحمن في تعقبه والقاء القبض عليه ، وقام عبد الرحمن باعتقال الصميل وحمله وزر هرب يوسف والقاه في السجن مع ولدي يوسف ، ولقي الصميل حتفه في السجن بصورة اختلفت أخبارها .

وتمكن يوسف من جمع جيش كبير قدر بعشرين الف من عرب وبربر ، وزحف على قرطبة ، وكان أن اصطدم أولا باشبيلية ، وهناك هزم ولوحق فقبض عليه قبيل طليطلة وهناك قتل ، واثر ذلك اجهز عبد الرحمن على أبي زيد بن يوسف وأبقى الولد الآخر حيا في السجن .

وكان هذا الولد يعرف بأبي الأسود ، وقد تظاهر بفقدانه بصره فانطلى ذلك على سجانيه ، وهيأ له الفرصة للهرب ، وقد اثار هربه بعض المتاعب لعبد الرحمن وهذا ما سنأتي على ذكره فيما بعد .

ولم ينعم عبد الرحمن بالاستقرار طويلا بعد تفرغه من معالجة مشاكل الحزب القيسي فقد إنجر نحو معالجة مشاكل الحزب

اليماني، فقد ساعد رجالات هذا الحزب عبد الرحمن لا حبا بـه بـل سعيا وراء الانتقام من الحزب القيسي وحبا لنيل السلطة ، وكان من حسن حظ عبد الرحمن وجود تنافس بين زعماء الحزب اليماني حال دون اتفاقهم ، وكان عبد الرحمن يدرك نوايا اليمـانيين ، إلا أنه كان مضطرا للتعاون معهم ، ولهذا نجده يلجأ إلى سـياسة التـوازن فلم يحاول ابادة الحزب القيسي ، وكانت غالبية العناصر اليمانية تسـكن في الجنوب الغربي من أراضي الأندلس وخاصة في منطقة سرقسطة ، وواجه عبد الرحمن عدة ثورات يمانية أخمدها واحدة تلو الأخرى .

ولعل أخطر الثورات التي واجهها عبد الرحمن وأهمها تلك التـي قادها العلاء بن مغيث الجذامي سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م بتحـريض من الخليفة أبي جعفر المنصور وتأييد منه ،وكادت هـذه الثـورة أن تقضي على جهود عبـد الرحمـن وتعيد الأندلسس ولاية مـن ولايات الخلافة ، لكن حزم عبد الرحمن وشجاعته مكناه مـن تحقيق النصر على أصحاب الرايات العباسية السود ، فقتل العلاء كما قتل أعدادا كبيرة من الثوار وبعث بعـدد مـن رؤوس القتلى فـرميت بسـوق القيروان ، ويقال أنه بعث ببعض الرؤوس الى مكة ، وكان المنصـور حاجا انذاك فرميت قريبا من خيمته ، فلما رآها وعرف رأس العـلاء بينها أصابه الذعر وقال : «إنا لله ، عرضنا بهذا المسـكين للقتـل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان »

وفي سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م واجه عبد الرحمـن ثـورة يمـانية أخرى بقيادة سعيد اليحصـبي ،الذي عرف بـالمطري ، واسـتطاع المطري احتلال اشبيلية ، فسار عبد الرحمن ضده وهزمه وقتله ، وفي السنة نفسها قتل عبد الرحمن زعيما يمانيا اخر هو أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ،وفي سنة ١٥٦ هـ - ٧٧٢ م واجه عبـد الرحمـن ثورة يمانية أخرى في منطقة اشبيلية بقيادة عبد الغـافر اليحصبي فقضى عليها أيضا وقتل العديد من الثوار .

ولقد تورط في الثورات التي واجهها عبـد الرحمـن الكثير مـن البربر ، كما خرج البربر في ثورات منفردة قضى عليها عبد الرحمـن جميعا ، وقد دفع الحقد على عبد الرحمن بعض العناصر المتنافرة لا

الى التحالف ضده فقط بل حتى إلى طلب العون الخارجي واستعداء قوى غير عربية وغير مسلمة ، فقد تحالف سليمان بن يقظان العربي الكلبي حاكم برشلونة مع عبد الرحمن بن حبيب الفهري صهر يوسف الذي عرف باسم الصقلبي «لانه كان طويلا ،أشقر ،أزرق امعر » وأبي الأسود بن يوسف الذي تظاهر بالعمى وهرب من سجن عبد الرحمن ، وقام الثلاثة بالسفر الى بلاط شارلمان وكان ذلك سنة ١٦٠ هـ ـ ٧٧٧ م ،فاتفقوا معه ووضعوا معه خطة محكمة تمكن شارلمان من اخذ سرقسطة كما تمكنهم من اشغال عبد الرحمن في مناطق اخرى من البلاد حتى تتم هزيمته والقضاء على حكمه .

وعبر شارلمان جبال البرانس بقواته وفق الخطة الموضوعة ، وعندما دخل الاندلس عرف بأن الصقلبي قد لاقى حتفه ، وان ابا الأسود لا حول له ولا طول ، ومع هذا سار نحو سرقسطة التي كا ن سليمان بن يقظان قد استولى عليها ، يريد أخذها منه حسب الاتفاق المعقود .

وحين علم عرب سرقطسة بخطط سليمان بن يقظان وقفوا ضده واستعدوا للدفاع عن مدينتهم ، وفر سليمان من سرقسطة إلى شارلمان ووضع نفسه تحت تصرفه ، وبينما كان شارلمان يتأهب للشروع في حصار سرقسطة تسلم خبرا قضى بالاخفاق على جميع خططه ودفعه نحو العودة مسرعا الى مملكته ، فقد عاود السكسون الثورة ضده مغتنمين فرصة غيابه .

لكن كيف تمكن شارلمان من الوصول الى سرقسطة مباشرة ؟ لقد تمكن من ذلك بسبب أن العرب كانوا قد فقدوا سيطرتهم على مقاطعة سبتمانيا وخسروا حصنهم المنيع في أربونه ، فقد توفي شارل مارتل سنة ٧٤٧ م ،فخلفه ابنه بيبن ، وقد اعترف البابا ببيبن ملكا شرعيا الأمر الذي لم يحظ به شارل مارتل نفسه ،وسعى بيبن في السنين الأولى من حكمه للسيطرة على اكيتانية وانتزاع حكمها من ابناء اود ، وهيأ هذا النزاع فرصة ثمينة امام العرب ، غير أن ما شهدته

ساحات الاندلس من الصراعات الاهلية لم تحـل فقـط دون اغتنام الفرصة بل دفعت نحو توريط حاميات الثغور في الصراعات ، وعندما خلت المنطقة اهتبل الفرصة بقايا القوط واخذوا يسعون للاستقلال ، وانتز ع الفرنجة عدة مواقع هامة من العرب ثم حـاصروا اربـونة ، وعجزت نجدة أرسلها عبد الرحمن الداخل عن التفـريج عنهـا ،وفي سنة ١٤٢ هـ ـ ٧٥٩ م اسـتسلمت هـذه المدينة لجيوش بيبـن ، وبذلك لم يعد للعرب وجود في سبتمانيا وغيرهـا مـن أجـزاء المملكة الفرنجية .

واخذت قوة مملكة الفـرنجة تـزداد مـع مـرور الايام ،وغيرت سياستها تجاه عرب الأندلس من الدفاع الى االهجـوم ، وزاد الطين بلة أن بعض زعماء العرب وضعوا أنفسهم تحـت تصرف الفـرنجة واستدعوا شارلمان ليستولي على سرقسطة وسواها ، واخفقت حملة شارلمان واضطر الى الانسحاب .

وفي طريق العودة أثناء عبور شارلمان وقواته للممر الجبلي الوعر في جبال البرانس انقض رجال البشكنس ومعهم بعض العـرب على مؤخرة قـواته حيث مـؤن الجيش وذخـائره ،فـاتلفوا المؤن وقتلوا القوات التي كانت تتولى حراستها ، وهـكذا أوقعـوا كارثـة كبيرة بجيش شارلمان ،وكان بين القتلى عدد من النبلاء مـن بينهـم رولاند الذي قيل انه كان ابن اخت شارلمان نفسه وحاكما لمنطقة الثغور .

وعبر عدة قرون ظلت الأجيال الأوربية تتناقل اخبار الكارثة التي حلت بجيش شارلمان ،محيطة ذلك بهالة خـاصة أثـرت على الفـكر الأوربي للعصور الوسطى ودفعت نحـو كتـابة واحـدة مـن أشـهر ملاحم العصور الوسطى الا وهي الملحمة المعـروفة بـاسم «نشـيد رولاند» وكان للحظ الفضل الأكبر في حماية عرش عبد الرحمن هـذه المرة ،وكانت حملة شارلمان اخر محنة خـطيرة يتعـرض لهـا عبـد الرحمن فيما بقي من سني حياته حيث تـوفي في ٢٥ ربيع الأخـر سنة ١٧٢ هـ ـ ٣٠ أيلول ٧٨٨ م عن عمر قارب الستين ، وذلك بعدما قضى حوالي ثلث قـرن يعمـل على تـأسيس ملك لبني أمية في

المغرب بعدما انقطع في المشرق ،وقد جلب نجاحه اعجاب معاصريه به فدعاه المنصور بصقر قريش ، كما أثار هذا النجاح اعجاب الكتـــاب والمؤرخين الذين وجدوا وما زالوا يجدون في حياته الكثير مما يمـــكن الكتابة عنه (١٨) .

هشام الرضا

وبعدما توفي عبد الرحمن تولى حكم الأندلس ولده هشام ، ويعرف هشام هذا عادة بلقب الرضا ، ذلك أنه يوصف بالتقوى وبعلو الثقافة ودعوته بالرضا لا شك انها كانت متصلة بتيارات الربع الاخير للقرن الثاني السياسية والدينية مع النبوءات وتطلعات الامة الاسلامية ، فالفترة هذه بالذات هي الفترة التي ظهر فيها الامام الرضا بين الشيعة الاثنا عشرية ، والذي عينه المأمون وليا لعهده فترة من الزمن .

فهشام أراد أن يقطف ثمار ما صنعه والده ، ويتمم العمل في احلال رابطة الامير محل رابطة العصبية ، وجعل شخصية الامير محور الأمور في الأندلس تدور حوله وليس حول سواه ، ولقد كان من الضروري أن يتسم خليفة عبد الرحمن بالتدين والتقوى ومحبة السلم وكراهية البطش ، فالأندلس كانت بحاجة الى الهدوء والامن بعدما فقدت ذلك فترة مديدة .

ويشبه هشام الرضا بعمر بن عبد العزيز ، وهو قد نال بتقواه شهرة كبيرة وصلت إلى المشرق حتى تمناه بعض المشارقة ان يكون إمامهم بدلا من الامام العباسي ، فهذا مالك بن أنس يقول : « وددت أن الله زين موسمنا - أي موسم الحج - به » .

وشهد عهد هشام الذي امتد حتى سنة ١٨٠ هـ - ٧٩٦ م الكثير من التطورات في المجتمع الأندلسي أعطت جوانب عدة دينية وحضارية وسياسية ، فهو قد نجح في البداية في التغلب على منافسة اخوته له وسعيهم لنيل الملك وانتزاعه منه كما روي أن قواته تمكنت من استرداد مدينة أربونة ، واستأنف النشاط داخل اوربة في فرنسا وسويسرة واهتم هشام بقرطبة فاكمل ما كان والده قد شرع فيه من بناء جامع قرطبة ، كما شيد قنطرة على نهر قرطبة ، ورمم اسوار

المدينة ، ولعل من أهم الحوادث التي حصلت في عصره واحـدة كانت تتعلق بـانتشار المذهـب المالكي في الأندلس وحلوله محـل مـذهب الأوزاعي وغيره ، وكان للأخذ بهذا المذهب نتائج كبيرة على مستقبل الأندلس والمغرب معا ، كما انه يمكن أن يقوم ضمن اطار السـياسة الدينية لهشام ،والسـياسات الدينية للدول التـي عاصرت هشـام ، فمعظم الدول التي كان للأندلس بها علاقة ما ، مثـل الامبـراطورية الكارلونجية ، والامبراطورية البيزنطية ، واخيرا الخلافة العباسية ، اتجه حكامها نحو تبني مذهب ديني واحد تجتمع عليه الأمـة سـواء أكان ذلك قسرا أم تم بـالرضا ، وممـا يثير الانتبـاه أن السـياسة الدينية لهشام نالت حظا اكبر من النجـاح ، ممـا نالتـه محـاولات اباطرة بيزنطة بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغـربية وايجـاد صيغة مقبولة لدى الجميع حول عبادة الايقونات وغيرها من المسائل ومما نالته ايضا سياسة المأمون العباسي بتبنيه للاعتـزال واعلانه عن أن القرآن مخلوق ، وسعيه لاجبار الناس للأخذ بهذا الرأي .

وحين توفي هشام كان ما يزال في مقتبل الشباب ، كان لتـوه قـد جاوز سن الأربعين ، فهـو كان قـد ولد سـنة ١٣٩ هـ ـ ٧٥٦ م، وكانت أمه أم ولد تدعى جمال ، ومن ينظر في تاريخ الأسرة الأمـوية في الأندلس يجد أن غالبية افرادها انحدروا من إماء ، وهذه الظاهرة كانت إحدى سمات مجتمـع الأندلس بشـكل عام ، فـالعرب الذين دخلوا الأندلس دخلوها رجالا بـدون نسـاء ، وحين تـزوجوا كانت زوجاتهم في غالب الاحيان من شقراوات أوربة تم الحصول عليهن من أسواق النخاسة ولم يؤثـر هـذا على مـلامح وأعراق الأندلسـيين فحسب ، بل كانت له آثـار خـطيرة على بنية البيت الأندلسي ، وعلى مجتمع الأندلس وعادات افراده في الملبس والمطعم وحتـى في طـرق التفكير وتقدير الأمور وتقويمها (١٩) .

الحكم الربضي

قبلما يتوفى هشام الرضا أوصى بالحكم من بعده لابنه الثاني الحكم ، ولم يوص به لابنه الأكبر عبد الملك ، ويعرف الحكم عادة بلقب الربضي ، نسبة إلى ربض قرطبة ، حيث واجه ثورة عارمة فيه سنتحدث عنها ، وقضى عليها وبطش بعناصرها وسفك دماءهم ، ولعل أهم سمات عهد الحكم حمامات الدم التي أقيمت ، وكثرة الثورات التي وقعت ، وقد قاد بعض هذه الثورات عما الحكم اللذان كانا قد ثارا على أبيه وأجبرا بعد إخفاقهما على مغادرة الأندلس إلى المغرب .

فعندما بلغ خبر وفاة هشام إلى المغرب عاد أخواه عبد الله وسليمان ، إلى الأندلس ، ودخل عبد الله أولا ، حيث توجه نحو سرقسطة ومن هناك رحل نحو بلاط شارلمان يستنجده ويستعديه ، وكان هذا سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م، وفي سنة ١٨٢ هـ/٧٩٨ م عاد سليمان (وبعضهم يقول عاد قبل ذلك) وأعلن الثورة ضد الحكم ، وخاض ضد قوات الحكم عددا من المعارك هزم فيها ، وكان آخر المعارك سنة ١٨٤ هـ ـ ٨٠٠ م ، حيث أسر فأتي به الى الحكم فقتله ، وفي السنة التي قتل فيها سليمان عاد عبد الله من بلاد شارلمان فأعلن الثورة في منطقة سرقسطة ، فلم يصب النجاح ، ومع ذلك تابع نشاطه ضد ابن أخيه حتى سنة ١٨٧ هـ ـ ٨٠٣ م حيث تم عقد تسوية بينه وبين الحكم أوقفت نشاطه وأنهته .

وأهم من هذه الثورات ما حدث في كل من طليطلة وربض قرطبة ، وكانت طليطلة عاصمة الأندلس قبل الفتح الاسلامي ، كما أنها تميزت بحصانة موقعها وسهولة الدفاع عنها ، وجعلها هذا مأوى لذوي الأهواء والمطامح ، وأوجد فيها الاستعداد للثورة بشكل متواتر ويروى ان ثورة اعلنت فيها سنة ١٨١ هـ ـ ٧٩٧ م بزعامة رجل عرف بعبيد بن حميد ، وقام الحكم بارسال جيش بقيادة قائد عرف

بعمروس بن يوسف ، واخفق عمروس في الاستيلاء على طليطلة بالقوة ، وهنا لجأ الى الخديعة ، فاستطاع تدبير اغتيال عبيد وتخلي أهل طليطلة عنه ، واستطاع بعد هذا أن يقنع أهل المدينة بفتح باب المدينة له وادخاله إليها ، وتذكر المصادر الاندلسية أنه بنى قصرا عند مدخل طليطلة ، وعند ما قدم الناس لتهنئته أعدم أشرافهم ورجالاتهم ، وبلغ عدد الذين أعدمهم ما بين « ٧٠٠ الى ٥٣٠٠ » وبحمام الدم هذا ضمن طاعة طليطلة واستقرار الحكم الأموي فيها .

واهم من ثورة طليطلة واكثر شهرة ثورة ربض قرطبة ، والربض هو الضاحية التي تقوم قرب المدينة ، فمدينة قرطبة كانت محدودة المساحة ذلك انها كانت مدينة مسورة ، وبعدما صارت عاصمة الأندلس وفدت إليها عناصر كثيرة من السكان لتستوطن بها ، وعادت الهجرة الداخلية إلى المدن المركزية أمر مألوف ، ويبدو أن غالبية العناصر التي هاجرت الى قرطبة اضطرت إلى السكنى خارج الأسوار ، وكونت مع الأيام ما يشبه أن يكون مدينة جديدة عرفت بربض قرطبة ، وتميزت المدينة الجديدة بعناصرها ومجتمعها عن قرطبة .

وحين نقوم بالبحث في ثورة الربض لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار شخصية الحكم وطبيعة عصره ، فلقد تسلم الحكم مقاليد الأمور وهو في ريعان الشباب ، في السادسة و العشرين من عمره ، وكان أشبه الناس بجده عبد الرحمن بن معاوية باقدامه ، وبأخذه بمبدأ العنف ، ولم يكن مثل أبيه في تقاه وتمسكه بأمور الدين من حيث الباطن والظاهر ، ومن الملاحظ أن مجتمع الأندلس كان قد اخذ في أيام هشام الرضا بالتحول نحو الأخذ بأسباب الدين ، ولقد رأينا كم نال هشام من التوفيق والشهرة بسبب تقاه وتمسكه بالاسلام ، ووصف ابن عذاري الحكم بأنه كان «شديد الحزم ، ماضي العزم ، ذا صولة تتقى ، ...وكانت له الف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر ، عليها عشرة من العرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر في أطرافه أمر ، عاجله قبل استحكام أمره، فلا يشعر حتى يحاط به ».

وأكمل الحكم عملية تطوير اسس الحكم في الأندلس مع ربط الوحدة بشخصية الامير ، كما استخدم العنف للاحتفاظ بسلطانه ، وبدأت التحركات ضد الحكم في الربض منذ فترة مبكرة ففي سنة ١٨٩ هـ ـ ٨٠٥ م كشف مؤامرة استهدفت الاطاحة به ومبايعة احد اقربائه ، وقد قام هذا القريب بإفشاء سر المؤامرة ودل الحكم على المتآمرين ، فالقى القبض عليهم ، وكان عددهم اثنان وسبعون رجلا واعدمهم جميعا جملة واحدة ،ثم «اتقن سور قرطبة ، وحفر خندقها».

وجلب هذا الاعدام السكينة والهدوء ولكن إلى حين ، فقد لجأت عناصر الثورة الى المقاومة السلبية ، وكان فقهاء قرطبة وربضها على رأس هذه العناصر ذلك انهم «انكروا عليه اشياء رابتهم فأرادوا خلعه »، واحدث هؤلاء الفقهاء «انشاد اشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع ،أعني صوامع المساجد وراوا أن يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به مثل أن يقولوا : «أيها المسرف المتمادي في طغيانه ، المصر على كبره ،المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك ».

ولم يستطع الحكم تحمل هذا التعريض ، ولعله احتار في ايجاد السبيل لايقافه ، فلقد كان من الصعب التدخل في شؤون الصلوات ومنع الناس من التعبد ، ويبدو انه القى القبض على بعض المحرضين مما أدى إلى شحن الأجواء وتوترها .

وفي سنة ٢٠٢ هـ ـ ٨١٧ م تفجرت الثورة في الربض ضد الحكم وكانت ثورة عارمة ،ولئن كان من الصعب الحديث عن مؤثرات خارجية حرضت عليها ، فمن السهل وصف نتائجها على مناطق خارج الأندلس .وحاول ثوار الربض قطع الجسر الواصل بين الربض وقرطبة ، وبعد جهد طويل مضني استطاعت قوات الحكم دفعهم عن الجسر ثم تمكنت بعض هذه القوات من الالتفاف حول الثوار ، فهاجموا مساكنهم وأهليهم ، وبلغ خبر ذلك الثوار فتفرقت عناصرهم عائدة نحو بيوتها للدفاع عنها ، وهنا أطبقت قوات الحكم

على الربض وطوقته ، وجرى حمام دم هـائل ، قتـل فيه آلاف مـن العشرين ألف الذين كانوا يسكنون الربض حسب بعض التقديرات ، وعندما تم اطفاء الثورة ، فرق الحكم ما بقي من عناصر الثورة على أقاليم الأندلس ، كما سـمح للقسـم الاكبـر بمغـادرة الأندلس إلى المغرب حيث اسهموا في تأسيس مدينة فاس وفي المغرب لم يسـتطع جميع هؤلاء العيش طويلا ، فتوجه قسم منهم نحـو الاسـكندرية « فملكوها وذلك في أول ولاية الرشيد ، وسطوا بأهلها سطوة منكرة » ، وقامت الدولة العباسية بتوجيه واحد من كبـار قـادتها إلى مصر ، منعهم من الاستيلاء على مصر وحصرهم في الاسكندرية ، وتفـاوض معهم بعد ذلك على ترك الاسكندرية على أن يزودهم بـالسفن والمؤن والسلاح ويدعهـم يذهبـون حيث شـاءوا ، وغادروا الاسـكندرية ، وتوجهوا نحو جزيرة كريت فاستولوا عليها ، واقاموا فيهـا حـكما عربيا استمر قرابة القـرن والنصـف حيث قـام في سـنة ٣٥٠ هـ ـ ٩٦١١ م الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس بمهاجمة كريت وانتزاعها من العرب .

لقد تـم الاسـتيلاء على كريت سـنة ٢١٢ هـ ـ ٨٢٧ م ،وكان الحكم قد توفي منذ عدة سـنوات ،أي في سـنة ٢٠٦ هـ ٨٢٢ م، وكانت ثورة أهل الربض أخر ما واجهه من مخـاطر داخلية ، وبعـد وفاته خلفه ابنه عبد الرحمن .

وسلفت الاشارة إلى التجاء عبد الله عم الحكم إلى بلاط شارلمان وإلى إخفاقه ، لكن هذا الحدث لم يكن خاتمة المطاف في العلاقات مع الفرنجة ومع حكام جليقية ، فقد قام الملك الفونسو (ادفـونش) ملك جليقية بحملة ضد اشبونة واسر جمـاعة من المسـلمين ، وفي سـنة ٨٠٠ م،السنة التي كان شارلمان يستعد فيهـا في رومـا لنيل تـاج الامبراطورية اعلن لويس بن شارلمان عن نيته في انتـزاع بـرشلونة عاصمة كتالونية في شمال اسبانية من المسلمين ، وبالفعل حـوصرت هذه المدينة وقطعت المنافذ إليها لمنع النجدات من الوصـول إليهـا ، وبعد حصار طويل ودفاع مستميت استسلمت برشلونة سنة ٨٠١ م

بعدما بقيت بأيدي العرب تسعين سنة ، وعلى الفور حولت مساجد المدينة إلى كنائس حسب قاعدة حرب الاستغلاب وارسل لويس إلى ابيه ببعض الغنائم والاسرى ، والمثير للانتباه ان المصادر غير العربية تذكر انه في السنة التي استولى فيها الفرنجة على برشلونة استقبل شارلمان سفارة من هارون الرشيد ، الخليفة العباسي الشهير ، وتحدثت المصادر عن تحالف فرنجي - عباسي ضد الحكم الاموي في الاندلس ، قابله تحالف اندلسي بيزنطي ضد العباسيين والفرنجة معا .ومفيد ان نذكر انه مع قيام الحكم الاموي بالأندلس انشأ عبد الرحمن الداخل عدة دور لصناعة السفن ، وما لبثت الاندلس ان امتلكت اسطولا قويا للدفاع عن سواحلها وللنشاط داخل البحر المتوسط ، ففي ايام الحكم هاجم الاسطول الاندلسي جزيرة سردينية سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٨ م ثم هاجم سواحل بروفانس وجزيرة كورسيكة (٢٠) .

عبد الرحمن الثاني

وكان عبد الرحمن الثاني هذا في الثلاثين من عمره ، وعندما تسلم الحكم «الفى الملك قد مهد ووطد ، فخلا بلذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التي جمع فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ».

لقد قطف عبد الرحمن ثمار نتائج التحول الحضاري الذي بدا في عهد اسلافه ، فنعم بالاستقرار ونعمت الأندلس بقسط كبير من الأمن والازدهار ، وفي الواقع باشر عبد الرحمن الحكم في الأندلس في ايام أبيه الأخيرة التي قضاها بالمرض، وكان انسانا متحضرا ، ورجلا لينا، طيب الأخلاق مرنا ، كما كان عالي الثقافة ، يجيد قرض الشعر ، ويمكن القول انه قد تم في عصره التحول السياسي الذي بدأ مع عبد الرحمن الأول ، وابتغى القضاء على العصبية القبلية واقامة الوحدة حول شخصية الأمير .

ولم يخل عصر عبد الرحمن الثاني من بعض الثورات ، إنما لم تكن اي من هذه الثورات بدرجة ما حدث إيام أبيه ، ولعل من ابرز دلائل الرفاه والأزدهار في عصره قيام حركة عمرانية كبيرة في الأندلس في قرطبة وغيرها .

وفي زمن عبد الرحمن الثاني استقرت حدود الأندلس، وبنيت اماكن دفاعية على هذه الحدود ، واهتم عبد الرحمن بتحصين شواطيء الأندلس ، لأن عصره كان عصر نشاط شعوب الشمال (الفايكنغ)، كما اهتم بانشاء اسطول خاص بالأندلس

وقام عبد الرحمن باعادة بناء الهيكل الاداري لدولته ، فعدد مناصب الوزراء وجعل لكل وزير وظيفته الخاصة ويومه المحدد االذي يقابل به الأمير ، وشعر عبد الرحمن الثاني اذاك انه من القوة بمكان سمح له بالتدخل في شؤون المغرب .

وفي زمن عبد الرحمن شهدت الأندلس نشاطا فكريا كبيرا خاصة

في مجالات الفلسفة والدين وعلم الكلام ، ولعل من أبـرز الشـواهد على رقي بلاط قرطبة وشهرته أن زرياب ، مغني الأمين ، ترك بغداد إثر مقتل الأمين ، ووفد على امير قـرطبة ، الذي اسـتقبله بحفـاوة بالغة واكرمه خير اكرام

وكان الامبراطور شارلمان قد توفي سـنة ٨١٤ م ، وخلفـه ابنه لويس التقي ، الذي افتقر الى مؤهلات أبيه وحزمه ، لهذا فـان عرى الامبراطورية التي شيدها شارلمان بعد جهود مضنية شرعت بالتفكك وكان لهذا اثره بالنسبة للضغط الفـرنجي على الأندلس ولنفـاذه وتاثيره

فقد بدا المسيحيون من سكان الشمال الاسـباني يشـكون مـن تعسف التسلط الفرنجي فثاروا ولقوا التأييد من قرطبة ، وبـالمقابل حاول لويس الانتقام فانتهز قيام ثورة في ماردة فأرسل إلى سكانها يقول : «باسم الرب وباسم منقذنا المسيح ، نحـن لويس بعناية الرب امبراطور .الى القساوسة وإلى شعب مـاردة تحية بـاسم مـولانا المسيح :

بلغتنا محنتكم وما تحملتموه على يد عبد الرحمـن الذي لم ينفـك عن اضطهادكم وعن الطمع في ثرواتكم ، انه يصنع مثلما كان يصـنع معكم أبوه (ابو العاصي) الذي كان يريد أن يرغمكم على دفع مبـالغ غير مستحقة من المال ، والذي جعـل مـن اصـدقائه اعداءا ومـن الطائعين ثوارا ، إنه يريد أن يحـرمكم مـن حـريتكم ويرهقـكم بـالضرائب مـن مختلف الأنواع ويهينكم بجميع الطـرق ، ولكنكم لحسن الحظ قمتم برد ظلم ملوككم وعدوانهم بشجاعة ، ولقد قاومتم ببسالة وحشيته وجشعه ، وهـذا الخبـر وصـل إلينا مـن مختلف المصادر ، ونتيجة لذلك اعتقدنا أن من الواجب كتابة هـذه الرسـالة لمواساتكم ، وأحثكم عل مواصلة النضال الذي بـدأتموه مـن اجـل الدفاع عن حريتكم ، وبالنظر إلى ان هذا الملك المتوحش عدونا بقـدر ما هو عدوكم ، فإننا نقترح عليكم التعاون والتنسيق لمحاربة ظلمـه ، ونحن ننوي أن نرسل في الصيف القادم بعون الرب ، جيشـا ليعبـر

جبال البرينيز ونضعه تحت تصرفكم ، وإذا وجه عبد الرحمن جيشه إليكم ، وحاول هـذا الجيش الزحـف عليكم فإن جيشـنا سـيقوم بتحركات واسعة لصرفه عنكم ، ونحن نصرح انكم إذا خلعتم طاعته واعلنتم طاعتنا فسوف نرد إليكم حريتكم التي كنتم تتمتعون بها من قبل دون أن تمس ، وإننا لن نفـرض عليكم اقـل ضريبـة ، ولكم أن تختاروا القانون الذي تودون العيش في ظله ، وسـنعتبركم اصـدقاء يريدون أن يشـاركوا في الدفـاع عن امبـراطوريتنا ، ندعو الرب أن يحفظكم في صحة وعافية »

والملفت للانتباه انه على الرغم مـن تـوجه لويس بـالخطاب إلى رجال الدين المسيحي في مـاردة لم يكن في مقـدوره تـوجيه تهمـة للتعصب ومنع الحريات الدينية إلى المسلمين ، علمـا أن الفـرنجة كانت هذه سياستهم والاسبان في حروب الاستغلاب ، وامضى اهـل ماردة ثلاث سنوات في الثورة على قرطبة ، وكانوا يأملون في وصـول النجدات التي وعدهم بها ملك الفرنجة ، وعندما لم يصل منه اية قوة استسلموا وفتحوا أبوابهم لجيوش قرطبة .

وتردت الأوضاع في امبراطورية لويس التقي وتهيات الفرص امام المسلمين لاسترداد ما فقدوه ، لكن طاقات الأندلس لم تـكن لتسـمح وحدها بذلك ، لا سيما إذا ما ذكرنا استمرار العلاقات التحالفية مـا بين الفرنجة والعباسيين ، وقد ساعد على تسهيل هذه العلاقات قيام حكم الأغالبة في إفريقية (تونس) منذ أيام الرشيد .

وتحدثت المصادر الفـرنجية عن علاقـات تجـارية مـا بين مصر وسورية من جهة وامبراطورية الفرنجة من جهة ثانية ، وانه وصل في سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م سفارة مكونة من ثلاثة اعضـاء ، ارسـلهم الخليفة المأمون الى فرنسة ، وقد حمـل هؤلاء الرسـل هـدايا إلى امبراطور الفرنجة كان من بينها اقمشة حريرية وعطور

لقد قام المسلمون أيام عبد الرحمن الثـاني بعـدة غزوات بـرية لأراضي مقاطعة بروفانس واستولوا لبعض الوقت عن طريق البحـر على مرسيليا،غير أن غزواتهم لم تكن منظمة وشاملة ، بل عابـرة ،

وكان من بين اسباب ذلك ما تعرضت إليه الأندلس من مشاكل بعد وفاة عبد الرحمن الثاني

ففي سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م توفي عبد الرحمن الثاني ، وكان عمره اثنتان وستون عاما وقد خلف من البنين الذكور خمسة واربعين ومن الأناث ثلاثا واربعين ، وبعدما توفي خلفه ابنه محمد الاول ، وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الأندلس (٢١) .

من الامارة الى الخلافة

عندما توفي عبد الرحمن الثاني خلفه ابنه محمد بن عبد الرحمن، وكان شابا، ذلك انه ولد سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٣ م، وكانت امه ام ولد اسمها بهير، وعندما كان عبد الرحمن الثاني حيا وعند وفاته اوحت المظاهر الخارجية للدولة بأنها كانت تنعم بالقوة والاستقرار، لكن الحوادث التي وقعت بعد وفاته برهنت على أن هذه الصورة كانت خداعة، وأن بناء الدولة كان متماسكا لكن بروابط ضعيفة، وكان فقط ينتظر حدوث بعض الأزمات الحادة لتعصف بهذا البناء ولتأتي عليه.

وحين يفحص المرء تاريخ الأندلس بعد عبد الرحمن الثاني يجد فترة مميزة حكم فيها ثلاثة أمراء، واحدا تلو الآخر، وكانوا:

أ- محمد الأول ٨٥٢ - ٨٨٦ م

ب- المنذر ٨٨٦ - ٨٨٨ م

ج- عبدالله: ٨٨٨ - ٩١٢ م

فبنهاية فترة هؤلاء الأمراء أطلت الأندلس على عهد جديد، وهو عصر الخلافة والوصول إلى ذروة القوة والمجد والحضارة، وشهدت الأندلس في عصر هؤلاء الأمراء عددا من الثورات، ولقد سارت هذه الثورات على المنحى نفسه الذي انتحته الحركات الثورية منذ عهد الحكم الربضي، اي ان الثورات قامت في المدن ومن قبل سكان المدن، وقامت هذه الثورات لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وغير ذلك، ذلك ان سكان المدن كانوا غير راضين لسبب او لآخر، وكان التعبير عن عدم الرضى يتم بالثورة ضد السلطة المركزية، ومع وضوح أسباب الكثير من الثورات، ونيلها الكثير من التأييد نراها تخفق في النهاية لأنها عجزت عن تقديم أفكار أصيلة يمكن أن تحل محل أفكار الوضع القائم والنظام الحاكم، والعجز في تقديم مثل هذه

الأفكار وانعدام البرامج الواضحة الطويلة وسم الثورات بـأنها ما كانت إلا ردات فعل لبعض الأمور استغلت من قبل بعض الشخصيات ذات المطامح الواسعة ، وقبل نهاية القرن التاسع للميلاد ظهر على مسرح احداث الاندلس عدد من الشخصيات الطموحة التي استفادت من عدم الرضا الشعبي ، واستغلته لماربها في سبيل إقامة حكومات مستقلة أو نصف مستقلة عن قرطبة .

ويبدو أن أول أعمال التمرد ضد السلطة المركزية قد بدأت في مناطق الثغور ، خاصة مناطق الثغور الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وساعد على ذلك وضع الثغور البشري والعسكري ، والجغرافي ، فمن الناحية البشرية كانت مناطق الثغور كثيفة السكان ، كما كان سكانها أخلاطا ، صلاتهم أكثر متانة وتفاعلا مع الجانب الأوربي أكثر من الجانب المسلم من البلاد ،ثم إن هذه المناطق كانت من الناحية العسكرية حصينة ، فيها المنعة والسلاح والجند المدرب ، يضاف إلى هذا أن وضع الثغور العسكري كان يمنح بشكل دائم ، حكام الثغور صلاحيات استقلالية واسعة وكبيرة ، وغالبا ما كان قادة الثغور افراد اسر توارثت السلطة واحدا تلو الآخر ، ويرى بعضهم أن نظام ثغور الأندلس تأثر بشكل واسع بالنظام الاقطاعي الأوربي وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مفصل ، وسنفعل شيئا من هذا بعدما نبين أن منطقة الثغور في الأندلس كانت مقسمة إلى ثلاثة اقسام هي الثغر الأعلى ، ويبدأ في الشمال الشرقي بمدينة سرقسطة ، ثم الثغر الأوسط ويشمل منطقة طليطلة ، وأخيرا الثغر الأدنى و كانت مدينة ماردة مركزا له ثم حلت محلها مدينة بطليموس

وكانت أشهر اسر الثغور اسرة القسي ، وكانت في الثغر الأعلى وقد برز من هذه الأسرة عدد من الرجال كان أشهرهم موسى بن موسى.

وقد بدأ بتحركه الاستقلالي منذ أواخر أيام عبد الرحمن الثاني ، وبعد وفاة عبد الرحمن اعتبر نفسه مستقلا وبدرجة الملك الثالث للأندلس ، وكانت له علاقات زواج مع الأسر الاسبانية النبيلة ، وكان له اقرباء عدة من الاسبان وخاصة مع افراد الأسرة التي كانت تؤسس مملكة ستعرف فيما بعد باسم مملكة نافار ، وكانت هذه

الأسرة تؤسس مملكتها حول مدينة بامبلونا ، واعطت علاقات الزواج مع آل القسي هذه الأسرة الشيء الكثير من القوة في وقت كانت فيه في غاية الضعف ، وهنا لا بد لنا من وقفة نتبين فيها أسس هذه العلاقات ، إذ كيف لنا أن نفهم قيام رابط زواج بين أسرتين واحدة مسلمة واخرى نصرانية ، خاصة وان الأسرة المسلمة لم تكن في مركز ضعف ؟ لقد راق لبعضهم ان يفسر هذه العلاقات على اساس النظام الأقطاعي الذي كان سائدا اذذاك في اوربة الكارلونجية ، وفي ظل هذا النظام كانت هناك علاقة مصلحة بين سيد وتابع ، والمصلحة هي التي ربطت السيد بالتابع ، وعلى هذا اعتبر اثر الدين ومكانته في درجة ادنى من مصالح الطرفين ومنافعهما المتبادلة ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن تغيير الدين في تلك المنطقة لم يكن يشكل مشكلة خطيرة ، وبذلك نستطيع ان نفهم بعض ما اورده المؤرخين عن تحول بعض المسلمين إلى النصرانية .

وهذا الامر يقودنا الى طرح سؤال اكبر هل سياسة الدولة الأموية في الأندلس كانت سياسة لا تعتمد الدين رابطا اساسيا يشد ازرها ، كما انه ما مدى سعي هذه الدولة إلى نشر الأسلام ؟ ولقد رأينا أن امراء الأندلس قد سعوا نحو جعل شخصية الأمير محور الحياة في الأندلس والرابط الذي ترتبط به الأمة ، وفي الوقت نفسه لم يتخذ أمراء بني امية القابا دينية كما لم يقوموا بالسعي الدائي نحو إحاطة انفسهم بهالة من القدسية كما صنع خلفاء بني العباس ، لذلك كثرت الثورات ضد أمراء قرطبة ، ذلك انه عندما كان يحدث ما يعكر صفو العلاقة القائمة على العقد بين امير قرطبة واحدى الشخصيات حتى كان صاحب هذه الشخصية يسارع إلى نقض العقد واعلان عدم الاعتراف بسيادة امير قرطبة ، ويلاحظ أن عددا من أمراء قرطبة أدركو خطورة الحال ، فعملوا من اجل احلال رابطة الاسلام محل الروابط الأخرى ، فأحاطوا انفسهم بعدد كبير من علماء الدين ورجالاته ، واثر هؤلاء العلماء على سياسة الدولة وساعدوا على نشر الاسلام ، ولا شك انهم هيأوا السبل نحو تبدل

الوضع السياسي في الأندلس بالتخلي عن لقب أمير وابداله بلقب إمام وخليفة .

وفي الوقت الذي بدأت فيه هـذه السـياسة ، قـام بين صـفوف الأسبان حركة معارضة دينية ، أو بالحري حركة إحياء ديني جديد ، واعتمدت هذه الحـركة على ظهـور عقيدة تعـرف بعقيدة القـديس جيمس كومبـوستلا ، وكانت هـذه العقيدة مسـيحية بـالأساس ، اعتمدت على افكار دينية ايبيرية قديمة ، وكانت هذه تـؤمن بـالتوام الألهي ، وهكذا اعتبرت هذه العقيدة جيمس اخا تواما للمسيح .

ولقد قدمت هذه العقيدة قوة إيمانية شديدة للاسـبان ، ذلك انهـم اعتقدوا بأن الله ارسل جيمس مع مسـاعدة سـماوية للاسـبان في حروبهم ضد المسلمين ، وانه حتما سينتصر الاسبان ، وقد اعتبـرت هذه الحركة اساس القوة الروحية لحرب الاستقلال الاسبانية .

وعجز امراء قرطبة عن هزيمة موسى بن موسى القسي فـظل سـيد سرقسطة والثغر الأعلى حتى سنة وفـاته في ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م ، وحاول من بعده ثلاثة من أولاده ثم عدد من احفاده الاحتفاظ بأملاكه فلم يوفقوا كثيرا .

وفي الوقـت الذي كانت فيه اسرة آل القسي صـاحبة السـيادة في الثغر الأعلى كانت أسرة الجليقي صـاحبة النفـوذ في الثغـر الأدنى وظلت كذلك حتى استردت حكومة قرطبة قوتها زمن عبـد الرحمـن الثالـث .

ومهما بلغت ثورات أسر الثغور من خطر فإن ذلك لم يعادل جزءا مما نجم عن ثورة عرفت بثورة ابـن حفصـون تفجـرت أيام الأمير محمد الأول واحتاجت الى وقت مديد حتى قضي عليها ، وتمثل هـذه الثورة احدى حركات جماعة المولدين في الأندلس ، ومع اننا سبق لنا وعرفنا هذه الجماعة ، لكن لا بأس من أن نقوم مرة أخرى بالتعرف إليها مع غيرها من جماعات المجتمع الأندلسي ، فعندما قـام الفتـح الاسلامي للأندلس ، اصبح مجتمع هـذا البلد يضـم : (١) العـرب (٢) البربر (٣) السكان الأصليون ، ومع الأيام خاصة بعد تأسيس

الأسرة الأموية انضاف عنصر جديد من الرقيق الذي استخدم في الجيش وكان ابيض واسود ، ولقد حدث تمازج بين العرب والبربر أو بين العرب والسكان الاصليين ، وجاء من هذه النماذج فئة جديدة عرفت بالأبناء ، ثم إن بعضا من السكان الأصليين اعتنق الاسلام ، وبعض تبنى الثقافة العربية وبقي بعضهم الآخر على حاله ، ودعي الذين اعتنقوا الاسلام باسم المولدين ، كما دعيت الجماعة الثانية بالمستعربين ، وحينما يستعرض المرء أخبار الاندلس يجد أن كل جماعة من جماعات مجتمع الأندلس قامت بأكثر من حركة ، ولقد قمنا حتى الآن بالتعرف إلى حركات الجماعات العربية مع نشاط البربر وسنسعى للحديث عن حركات بعض الجماعات الأخرى ، وسنكتفي بحركة ابن حفصون كنموذج لأهميتها وشهرتها .وابن حفصون هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ......، ويعود به نسبه إلى احدى أسر اسبانيا المحلية التي صارت اسرة ذمية بعد الفتح الاسلامي ثم قام احد أفرادها ولعله جعفر بتبني الاسلام .

وبدا ابن حفصون حياته بداية غير مرضية ، حيث كان رجل شر وعصابات ، شارك في العديد من أعمال القتل والسلب ، مما جعل السلطات تقوم بملاحقته فاضطر إلى مغادرة الاندلس والهرب إلى المغرب ، وعاش هناك عدة سنوات ثم رجع إلى الأندلس وحل بجبل بيشتر ، وكان هذا سنة ٢٦٧ هـ - ٨٨٠ م ، ويوصف جبل بيشتر بالحصانة وتوفر الماء والأشجار والعديد من القلاع الحصينة فيه ، هذا وقد اختلف تحديد مكانه الآن ، وأقام ابن حفصون بهذا الجبل فترة وجيزة حيث ألقي القبض عليه وسيق إلى قرطبة فظل بها حتى سنة ٢٧١ هـ - ٨٨٤ م حيث هرب منها وعاد الى بيشتر .

وكان ابن حفصون صاحب شخصية مميزة ، فقد تمتع بصفات الزعامة والقدرة على تجنيد الأنصار واصطناع الرجال وتأمين ولائهم ، وكان يعرف كيف يتحبب إلى اتباعه ، كما استطاع تأمين النظام والأمن في منطقته وبين صفوف انصاره .

ولا نملك الآن معلومات عن مضامين افكار ابن حفصون وشعاراته ، إنما نعلم أن حركته لاقت تأييدا شديدا من المولدين ، وبهذا فهي تذكرنا بثورات الموالي في المشرق ، ذلك أن الشبه شديد بين موالي المشرق ومولدي الأندلس .

ومع الأيام ازدادت ثورة ابن حفصون اتساعا ، وعجزت سلطات قرطبة واخفقت في التصدي لها ، وإذا ما صدقنا ما كتبه بعض المؤرخين العرب ، نستنتج أن ثورة ابن حفصون كانت حركة وطنية اسبانية محلية ، مصبوغة بالصبغة الاسلامية ، ابتغت الانتقام من العرب ، وارادت التخلص من حكمهم ، ومن هنا نجدها تشبه حركات الموالي المشرقية التي تأثرت بأفكار الشعوبية ، هذا وان عمليات الانتقام والثأر تختلف عن عمليات الاصلاح الاجتماعي ، كل ذلك على الرغم مما تلقاه من تأييد ، لكن يحكم عليها بالافلاس والخسارة النهائية .وبالفعل استجاب كثير من الناس لدعوة ابن حفصون كما أوى إليه زعماء العصابات ، وكان يسلم زعيم كل عصابة حكم حصن من الحصون أو منطقة من المناطق التي دخلت في حوزته ، وكان يحسن فيه التعامل مع الناس وارضاء جميع الرغبات ، ولقد ترك زعماء العصابات احرارا واعطاهم صلاحيات جمع المال والنهب كيفما شاؤا ،ولكن بما أن غالبية زعماء العصابات يتصفون بما يسمى «الشهامة» ، فقد استغل ابن حفصون هذه الناحية لحماية الأخلاق وعدم التعرض للنساء ،وكان صارما للغاية بالنسبة للنساء حتى يقال بأن المرأة كانت تسافر ، وهي محملة بالحلي والمتاع ، من حصن إلى اخر فلا يعترضها معترض .

وواتت ابن حفصون العديد من الظروف المشجعة ، كان أهمها الأزمات التي قامت في أواخر حكم محمد الأول ثم في عهد المنذر القصير ، فقد حكم المنذر قرابة العامين فقط ، وكان التبدل السريع في الأمراء وعدم استقرار السلطة داخل قرطبة من الأمور المشجعة والمساعدة لابن حفصون .

وكان ابن حفصون عندما يشعر بقوة وتماسك سلطة قرطبة ،

ينكمش ويتخذ موقف الدفاع ، وحينما كان يشعر بضعف هذه السلطة كان يمارس سياسة الهجوم .

و في عهد الامير عبدالله ارتفع شأن ابن حفصون وازدادت قوته ، في حين ازداد فيه حال الأمير عبدالله ضعفا وتدهورا ، والذي ساعد على بقاء الحكم الأموي وسانده تحرك العرب الذين قامت بين صفوفهم ردات فعل شديدة ضد حركة المولدين الموجهة ضدهم ، فاتحد هؤلاء العرب ، وتجمعت قواهم حول الأمير ، فمتنوا سلطة قرطبة وساعدوها على البقاء ثم على التحرك نحو القضاء على ثورة ابن حفصون .

لقد حقق ابن حفصون نجاحات كبيرة ووصل إلى حالة كان بإمكانه ان يقضي بها على امارة قرطبة ويقيم حكما جديدا فيها ، لكنه لم يقدم على ذلك ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه لم يملك من المطامح ما يدفعه لتسلم إمارة الأندلس ، ثم إن تركيب قواته واعوانه وعدم وضوح خطط وعقائد ثورته ، وعجزها عن تقديم الحلول الدائمة ، وأخيرا لكن ليس اخرا انعدام النظام العقائدي الهادف ، كان كله من المهالك التي أودت بثورته ، ذلك انه لم يكتب لأي ثورة في التاريخ النجاح حين اعتمدت على رجال العصابات ذوي الأهواء الشخصية ، وتنجح الثورات عندما تعتمد على رجال مؤمنين بها ، ملتزمين بخطط واضحة لها ، وعاملين على تطبيق مباديء معينة لها كما كان الحال بالنسبة للثورة العباسية

اما في حال ابن حفصون فقد ظل زعماء حركته من رجال العصابات ملتفين حوله ما دام بإمكانه تحقيق الربح والغنائم لهم ، ثم ما دام يتمتع بالقوة وخصمه ضعيف متفكك ، لكن مع اول بادرة ضعف وانقسام ، وضرب لمصالحهم ، او اضرار بها كان العقد سينفرط ، وهذا ما حصل

فلقد بلغت ثورة ابن حفصون الذروة زمن الأمير عبدالله بن محمد ، وقام هذا الأمير بمراسلة ابن حفصون يطلب منه ان يقدم له الطاعة ، فرفض ، فراسله مرة أخرى طالبا منه تقديم الطاعة له شرط ان

يسمح له الأمير بأن يحتفظ بجميع الاراضي والأماكن التي كانت بحوزته ، ومرة أخرى رفض ابن حفصون وركب راسه وتمادى في غروره وشططه ، واخذ يعمل غاراته ويوجهها ضد قرطبة ، وجعل هذا الأمير عبدالله اسير قصره ومدينته ، وعندها لم يحاول ابن حفصون قطف ثمار ما حققه .

وفي سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩٠ م يئس الأمير عبدالله من الحال التي كان فيها ، وقرر أن يقوم بعمل انتحاري ضد ابن حفصون فجمع جيشا وقاده نحو منطقة عرفت ببلاي ، وهناك التحمت قواته بقوات ابن حفصون التي ركبها الغرور وحل بين صفوفها التناقض ، وحقق الأمير عبدالله في هذه الملحمة نصرا ساحقا ، كان له اثره المحول على حركة ابن حفصون ومستقبل تاريخ الأندلس ، فقد أخذت الحياة تدب من جديد في جسم الادارة المركزية في قرطبة ، وتحسن من جديد وضع أمير قرطبة ، وأخذ عقد ابن حفصون بالانفراط ، فقد بدأ الكثير من اتباعه بالتخلي عنه ، حيث قامت سلطات قرطبة بشراء بعضهم واستدراجهم ، وعندما بدأ الضعف يحل بابن حفصون وضاقت به الأحوال ، تطلع نحو الحصول على مساعدات خارجية ، وكان امامه افريقية وأمراء الثغور واوربة ، فاتصل بالأغالبة ومناهم بأن يدعو للخليفة العباسي ، لكنه لقي الأهمال وعدم الاستجابة وحاول الاتفاق مع ال القسي والتحالف معهم فلم يوفق ، كل هذا في الوقت الذي اخذت فيه أعداد كبيرة من المولدين بالتخلي عنه ، ونجحت قرطبة في تثبيط الثوار ، وضرب فئاتهم بعضها **ببعضهم**الآخر ، ووصل الضيق بابن حفصون إلى حال دفعه للعمل على الاستعانة بالمستعربين مع نصارى الأندلس ، فقام في سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م بإعلان نصرانيته وردته عن الاسلام ، ومع أن ذلك اكسبه عطف بعض المستعربين وتأييدهم ، لكن جعله يخسر جميع المولدين وأعطي الذريعة الكاملة لسلطات قرطبة لاعلان الجهاد ضده ، واستمر حكام قرطبة في ارسال الحملات ضده ومضايقته عسكريا ، وفي سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م حاول ابن حفصون ان يهاجم قرطبة فهزم ومزقت قواته ، واستمرت

الحملات ضده ، فانتزعت اراضيه قطعة تلو الأخرى ، وضعف شأنه وتضاءل خطره .

وفي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م توفي الأمير عبدالله فخلفه حفيده عبد الرحمن الثالث الذي كان شابا في الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين، فاستطاع عبد الرحمن هذا أن يصفي حركة ابن حفصون ، وأن يعيد الحياة والقوة والوحدة إلى جسم الأندلس ، وأن يقلب الامارة الى خلافة .

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م توفي ابن حفصون ، واحتفظ أولاده ببقايا ملكه الصغير مدة عشر سنوات حيث استطاع عبد الرحمن الثالث ، الذي سيعرف بالناصر ، أن يصفي هذه الحركة نهائيا (٢٢) .

ولئن كانت الصورة في الأندلس قبل وفاة الأمير عبدالله مضطربة وبدت تسير لغير صالح الحكم الأموي هناك ، فإن الأوضاع في الشمال الأفريقي وحوض البحر المتوسط وفرنسا وسويسرا وايطاليا قد شهدت تغييرات جمة سيكون لها جميعا انعكاساتها على عصر عبد الرحمن الثالث والعصور التي تلته ، فقد كان العرب قد افتتحوا منذ أمد طويل كل من جزيرتي كريت وصقلية - الأمر الذي سنقف عنده في فصل مستقل - وكانت دولة الاغالبة قد زالت من افريقية وحل محلها الخلافة الفاطمية بمشاريعها التوسعية التي لم توفر الأندلس من حساباتها ، وكانت دولة الأدارسة في فاس قد بدأت بالتلاشي ، ولنقتصر حديثنا أولا عن نشاطات العرب في فرنسا وسويسرا ، وذلك قبل العودة إلى سياق الحديث عن عصر عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة في قرطبة .

توفي الامبراطور لويس التقي سنة ٨٤٠ م ،فوقع صراع مرير بين أولاده من بعده وحروب طويلة كان لها اثرها المأساوي على أوربا ، وزاد من اضطراب أحوال أوربا الغربية تعرض سواحلها وبعض مناطقها الداخلية لغزوات الفايكنغ المدمرة ، والذي يعنينا هنا هو استيلاء العرب على مقاطعة بروفانس الفرنسية ، وتوسعهم حتى ما بعد جنيف في سويسرا والى حدود المانيا ايضا ، وسأدع الحديث

عن النشاطات العربية في جنوبي إيطاليا إلى حين البحث في افتتاح صقلية وما اعقب ذلك من احداث .

دخل العرب إلى مقاطعة بروفانس عن طريق البحر ، واغاروا على بعض المواقع فيها ، وخاصة على مرسيليا مع نهاية النصف الأول من القرن التاسع للميلاد ، لكن بعد هذا التاريخ شرعوا في تنفيذ خطة استهدفت الاستيلاء على المنطقة بشكل كامل .

والمثير للانتباه أننا لا نملك معلومات كافية في مصادرنا العربية بشأن هذا الموضوع وعلينا الاعتماد على الروايات الاوربية ، ويبدو ان العرب الذين اجتاحوا بروفانس لم يتلقوا توجيها حكوميا او مساندة او تغطية سلطوية ، ويفسر هذا طبيعة الأحداث والنتائج .
في حوالي سنة ٨٨٩ م كانت بروفانس ودوفيني تخضعان لزعيم اسمه بوزون Boson ،ولم يكن من أسرة شارلمان ، ومع هذا حصل على لقب ملك ارل ، في ايام هذا الملك قام عشرون من الملاحين العرب على ظهر سفينة بالانطلاق من الأندلس ، وقد اضطرتهم عاصفة شديدة الى الالتجاء الى خليج غريماد Grimad ،وصعدوا الى البر دون أن يعترضهم احد ، وكانت هناك غابة كثيفة قرب الخليج ، والى الشمال منه امتدت سلسلة من الجبال الصالحة لبناء القلاع ، ويبدو ان هذا كان في كونتية نيس ، وقام على قرية هناك ثم اسسوا قاعدة لهم واخذوا باستدعاء الأعوان من الأندلس وإفريقية ، وكثر عدد العرب ، وما لبثوا أن تحكموا بأهم ممرات وحصون بروفانس ، وفي العقد الثاني من القرن العاشر شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت ومنتفرات Montferrat، وعندما سنقرأ اخبار الحروب الصليبية سنجد أن بارونات مونتفرات كان لهم الدور المبرز فيها .

لقد غدت بروفانس كلها خاضعة للعرب ، ومن ثم غدت سويسرا مسرحا لنشاطاتهم ، وكان من بين المدن الفرنسية التي استولى عليها العرب مدينة غرينوبل Grenoble وهذه المدينة يسكت لها

اقامة مؤسسة جامعية مبكرة فيها سيكون للعرب القادمين من الأندلس دورا عظيما فيها

وأخذ الفرنسيون وسواهم يجمعون قواهم لاخراج العرب من سويسرا وبروفانس ، وحالفهم الحظ بعد وفاة عبد الرحمن الناصر خليفة قرطبة ، ففي سنة ٩٦٥ م تم اجلاء العرب من غرينوبل ، وكانوا حوالي سنة ٩٦٠ م قد أخرجوا من مضيق سان برنارد الجبلي ، وحدث في سنة ٩٧٢ م أن أسر العرب القديس مايول رئيس رهبان ديركلوني الشهير ، فأثار ذلك مشاعر المسيحيين وتجمعت قواهم واخذت تسعى لاجلاء العرب ، ولم تأت نهاية العقد الاول من القرن الحادي عشر حتى كان العرب قد فقدوا ممتلكاتهم الفرنسية وسواها ، ومع هذا لم تتوقف البحرية الأندلسية وغيرها عن الاغارة على شواطىء فرنسا حتى سنة ١٠٤٧ م ، اي حتى قبيل جيل واحد من مؤتمر كلير مونت ودعوة البابا اوربان الثاني للحروب الصليبية (٢٣) .

عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة

عندما وصل عبد الرحمن الثالث إلى العرش كانت «الفتنة قد طبقت أفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحدا ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حماتها ، واستذل رجالها ، وهدم معاقلها ... حتى دانت له البلاد وانقاد له العباد ».

لقد كان على عبد الرحمن أن يواجه المخاطر الداخلية للأندلس وأن يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء أشدها من إفريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية ، وجاء ثانيها من مملكة ليون ،ومع ذلك فقد تمكن عبد الرحمن بقوة شخصيته ، ثم بطول المدة التي حكم فيها ليس فقط من القضاء على الثورات والفتن الداخلية ، وتوحيد الأندلس وابعاد المخاطر الخارجية ، بل أوصل الأندلس الى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة .

وعبد الرحمن هو ابن محمد بن عبدالله ، كان ابوه محمد قد قتله اخوه مطرف ، فقتله ابوه عبدالله به.وقام الأمير عبد الله بضم حفيده اليه ، واخذ يعده منذ صباه لخلافته والحكم من بعده ، فكان يجلسه في مجلسه وكان يسكن قصره ، وبعد وفاة جده بويع بالامارة وكان هدفه الأول بعد تسلمه لمنصبه اعادة إقامة الوحدة الداخلية للأندلس ، وفي سبيل ذلك قاد في السنتين الأول من حكمه عددا من الحملات كما وجه العديد وكانت هذه الحملات جيدة التنظيم والخطط ، وقد وجه بعضها ضد بعض مؤيدي ابن حفصون فأوقعت الهزيمة بهم ، كما قام في الوقت نفسه بمصالحة من أمكن مصالحته من هؤلاء المؤيدين ، ووضع عبد الرحمن القلاع والحصون التي استولى عليها في ايدي امينة مخلصة له .

واستطاع سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م استعادة مدينة اشبيلية ووضعها مرة أخرى تحت الحكم المركزي لقرطبة ، وضعف مركز ابن حفصون ضعفا شديدا ، وبعد وفاته سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م تنازع أولاده من بعده فتمكن عبد الرحمن من انتزاع أملاكهم قطعة تلو الأخرى حتى تم له القضاء عليهم نهائيا سنة ٩٢٨ م.

وخلال هذا كله أولى عبد الرحمن مناطق الثغور اهتماما شديدا وسعى نحو إعادة سيطرة قرطبة عليها ، وقام عبد الرحمن سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م باعلان نفسه خليفة ، وشجعه على القيام بهذا العمل ضعف الخلافة العباسية بالمشرق ، ونجاح الاسماعيلية في المغرب وإعلانهم عن اقامة الخلافة الفاطمية ، وبعد قرابة عامين على اتخاذه هذه الخطوة الحاسمة استطاع إعادة السيطرة على الثغر الأدنى ، ثم توجه بهمته نحو طليطلة فحاصرها عامين واستولى عليها سنة ٣٢٠ هـ /٩٣٢ م ، بعد هذا توجه بأنظاره نحو الثغر الأعلى فتمكن من استعادته .

ويلاحظ المرء أن عبد الرحمن الثالث ، الذي لقب نفسه بالناصر بعد عامين من اتخاذه لقب خليفة ، استطاع خلال العشرين سنة الأولى من حكمه اعادة توحيد الأندلس ، وقد استهلك هذا جل نشاطه ووقته ، ومع ذلك نجده خلال هذا الوقت لا يغفل الحرب ضد النصارى على الأخص في مملكتي نافار وليون.

وكانت هذه الممالك قد انتابها الضعف بعد تمزق الامبراطورية الكارلونجيه (امبراطورية شارلمان) ، وفي البداية استطاع عبد الرحمن أن يوقف نشاط النصارى ضد الأندلس ، ونحن حين نتحدث عن مملكة ليون ....نقصد بذلك المملكة التي شملت منطقة اشتورش....... التي وقعت في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية ، وكان ملك ليون منذ سنة ٩٣٢ م حتى سنة ٩٥٠ م يعرف برذمير .... ،وتصدى رذمير هذا لحملات عبد الرحمن ضد مملكته ويذكر أنه انتصر عليه انتصارا ساحقا سنة ٣٢٧ هـ/ ٩٣٩ م مع أن جيش عبد الرحمن ضم آنذاك حوالي المئة

الف مقاتل ، وعلى الرغم من هـذا فإنه لم ينجم عن هـزيمة عبد الرحمن نتائج كبيرة ، فقد انشغل رذمير بمشاكل داخلية مما مكن عبد الرحمن من استعادة قوته ونشاطه ، وبعد وفاة رذمير سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ م أضعفت الخلافات الداخلية الدول النصرانية ، فازداد نفوذ عبد الرحمن عليها ، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء وقبول بالتحكم ودفع الجزية •

ويمكن القول إنه منذ منتصف القرن العاشر للميلاد وحتى نهايته سيطر المسلمون لأول مرة تماما على جميع اجزاء شبه الجزيرة ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه ، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف الجزيرة قهرا وليس فتحا ، ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطراف ، وهكذا بقي حكام هذه الممالك تابعين لقرطبة القوية مستعدين للعمل ضدها عندما تسنح الفرصة ، ولم يستقر العرب في الاراضي الشمالية لشبه الجزيرة الايبيرية ، لعدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسا ، لصعوبة العيش في هذه الأراضي ، ولعدم وجود المكاسب ولطبيعة المناخ الصعبة ، والعرب كما هو ملاحظ أحبوا سكنى المدن الكبيرة ذات المناخ المتوسطي ، واستقر بعض البربر في هذه المناطق ، لكن صعوبة الحياة الجبلية ووجود الخطر الدائم دفعاهم الى الانسحاب نحو داخل شبه الجزيرة •

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن على الاندلس فقط بل اخذ بالتوسع في شمال افريقية ، فشجع على الثورة ضد الخلافة الفاطمية ، ونجح بعد بذله لبعض الجهد في السيطرة على أجزاء من المغرب الاقصى ، وفي زمن المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥ م) استطاع قائده جوهر الصقلبي استرداد معظم املاك قرطبة ما عدا طنجة وسبته ، وبقي الحال هكذا حتى وفاة عبد الرحمن الثالث ذلك أن الفاطميين انصرفوا نحو مصر وشغلوا بمشاغل الشام والمشرق فضعف نفوذهم

في المغرب ، ومع هذا كان للصراع الفاطمي - الأندلسي على المغرب آثاره الحضارية والثقافية مثل السياسية وأكثر ، فازدياد أهمية المغرب الأقصى كان له بعض انعكاساته على الصحراء الكبرى وقبائلها ، وهذا ما سنرصده في قيام حركة المرابطين ، ودور الأندلسيين في ادارة المرابطين ثم دور المرابطين في الأندلس وتحويلهم هذه البلاد الى ولاية مغربية ٠

ومن الواضح ان اتخاذ عبد الرحمن الثالث للقب الخلافة له علاقة واضحة بظهور الفاطميين ، وتسمية نفسه بلقب الناصر لدين الله له معاني الرد على الفاطميين ، ولقد ساعد هذا ثوار إفريقية وأعطاهم الفرص والمجال للتحرك ٠

وبصرف النظر عن كل هذا فإن نجاحات عبد الرحمن وتوسعه الامبراطوري مع اتخاذه لقب الخلافة قد فرض عليه اوضاعا جديدة وقاده نحو الأبهة والأخذ بمظاهرها من بناء ورسوم ، فالخليفة غير الأمير ، صار عليه الاحتجاب والتعالي واتخاذ الحرس والسير بالمواكب الفخمة ، وبالوقت نفسه ايكال الأمور الى رجال الادارة وعدم مباشرة الأعمال بنفسه ، وهنا ازدادت قوة الادارة ، مع قوة الجيش المحترف ، ذلك أن روح الجهاد كانت قد خبت منذ زمن وكادت تختفي وحل محل المتطوعة جند من المرتزقة والعبيد ، ومع ازدياد قوة الادارة والجند تهيأت الفرص لاضعاف قوة الخليفة وانتقاص نفوذه ثم حبسه في قصره والتحكم به ، ولما جاء اتخاذ لقب الخلافة متأخرا وحيث أنه لم يقرن بدعاية دينية طويلة مثلما حدث بالمشرق مع العباسيين ، فإنه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة بني العباس من التحكم والحجر على الخلفاء نجد انه سهل القضاء على الخلافة الأموية ، وصعبت إزالة الخلافة العباسية لأنها نالت صفة القدسية والشرعية المرتبطة بالسماء ٠

واستطاع الناصر خلال النصف قرن الذي قضاه في الحكم ان يوطد أركان الادارة في قرطبة وأن يقطف ثمار ما صنعه من امن واستقرار في الاندلس ، ولقد عاشت الأندلس ذروة مجدها ايامه ثم

أيام ابنه الحكم التي كانت امتدادا لأيام الناصر ونتيجة مبـــاشرة لما تحقق فيها ٠

ووقع الناصر سنة ٣٤٩ / ٩٦٠ م مريضا وظـل المرض يلازمــه حتى توفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وعقب وفاته خلفـه ابنه الحـكم الثاني٠(٢٤) .

الحكم الثاني

لقد جاءت خلافة الحكم الثاني ، الذي عرف بالمستنصر بالله ، استمرارا لخلافة ابيه ونتيجة لها ، فقد استمرت الأحداث تسير على المناحي نفسها ، ففيما يتعلق بالثغور تابعت قرطبة السيطرة على شؤونها وشؤون ممالك ليون ونافار كاستلا ، وحالت دون هذه الممالك ودون التحرك نحو الاستقلال •

واهتم الحكم بأسطول بلاده خاصة من أجل حمايتها من غزوات شعوب الشمال (الفايكنغ) ، كما تابعت سلطات قرطبة التدخل في شؤون المغرب والصراعات من أجل السيطرة فيه بين قوى كانت تابعة للأدارسة وأخرى للخلافة الفاطمية وسواها •

ولعل أهم الانجازات التي تمت أيام الحكم المستنصر تلك التي تعلقت بالجوانب الثقافية ثم الاقتصادية والعمرانية ، فلقد كان الحكم مغرما بالعلم ، شغوفا بجمع الكتب ، له عناية فائقة بالعلماء ونشر الثقافة بين عامة الناس وخاصتهم ، استطاع أن يكون مكتبة ضمت بين خزائنها من الكتب ما لم تضمه مكتبة أخرى سواء اكان ذلك من ناحية الكم أو النوع ، وجاء الى بلاطه عدد من علماء المشارقة كما نبغ في هذا البلاط عدد كبير من العلماء ، وكان من أبرز علماء المشارقة القالي صاحب الأمالي ، ويمكن القول بأن الفكر الأندلسي شبه المستقل والمتميز عن الفكر المشرقي بدا يترعرع زمن الحكم ، ونمت الحركة العمرانية زمن الحكم ، ولعل اهم المنجزات العمرانية التي تمت في عصره ، تلك التي اقيمت في قرطبة ، وفي مسجدها بالذات •

وكانت أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية أيام الحكم وزيره وحاجبه جعفر بن عثمان المصحفي ثم قائده غالب بن عبد الرحمن

وفي زمن الحكم كان ابتداء ظهور محمد بن ابي عامر ثم ارتفاع شأنه ٠

كما ازدادت أيام الحكم اهمية رجال الدين ، وعظم تأثيرهم على مجرى الأحداث ، وتوفي الحكم سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م ، وعندما مات كانت الخلافة الأموية في ذروة قوتها ، لكن أحداثا كثيرة ابتدأت ساعة موته وتعلقت بمسألة الحكم من بعده ، كان لها تأثيرا مفاجئا ومحولا على مستقبل هذه الأسرة وبالتالي مستقبل الأندلس السياسي (٢٥) .

هشام الثاني والاستبداد العامري

وجاءت وفاة الحكم بعد مرض الم به واقعده مدة من الزمن عن مباشرة الأعمال بنفسه ، وقد ناب عنه أثناء مرضه وكفاه مؤونة الحكم وزيره المصحفي ولم يكن المصحفي هذا يرغب في الاحتفاظ بمكانته فقط بل كان يسعى لرفعها ، وعلى هذا الاساس بنى خططه في حال وفاة الحكم .

ولم يكن المصحفي صاحب المطامح الوحيد بين رجالات السلطة ، فقد كانت هناك قوى عدة منها غلمان القصر وخصيانه وكان هؤلاء صقالبة الأصل ، وكان يؤيدهم العديد من أبناء جنسهم الذين كانوا يعملون في الجيش ويتسلمون قياداته ، وكان ابرز صقالبة القصر يعرفان بفائق وجؤذر ، واخفى جؤذر وفائق خبر وفاة الحكم عند حدوثه ، وأرادا تولية الخلافة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، أخي الحكم ، حيث كان شابا يستطيع أن يباشر الأمور ، في حين كان هشام بن الحكم ولي عهده صبيا في الحادية عشرة من عمره ، وخطط جؤذر وفائق لقتل المصحفي واعلان خلافة المغيرة بشرط أن يكون هشام بن الحكم ولي عهده .

وعندما علم المصحفي باخبار هذه الخطة تحرك بسرعة ، يعاونه شاب كان في الثامنة والثلاثين من عمره ، وكان صاحب مواهب ومطامح واسعة ، وعرف هذا الشاب بابن ابي عامر ، وارسل المصحفي ابن ابي عامر مع قوة من الجند الى دار المغيرة بن عبد الرحمن فقتله خنقا ، وهنا سهل تنصيب هشام بن الحكم خليفة، وبقي المصحفي سيد الأندلس ، ولكن إلى حين ، واستطاع المصحفي في البداية الحد من نفوذ صقالبة القصر وأثرهم ، وساعده في ذلك ابن ابي عامر ، وقد تم التخلص من الصقالبة بالبطش وبالتامر معا، ولما تم لابن أبي عامر تدبيره في الصقالبة جعل يتوصل

الى تقلد جيش المملكة » فحقق ما صبا له ، واخذ يرقى في مصاعد السلطة والشهرة حتى وصل الغاية وتفرد بسيادة الاندلس٪ ، ولعله من المفيد الاكتفاء هنا بهذا الموجز عن ابن أبي عامر لانني سأعود للحديث عنه بشيء من التفصيل في مكان اخر ٠

لم تكلل محاولات دمج العناصر البشرية في الأندلس لانتاج مجتمع عربي واحد ، وعلى هذا ما أن الغيت الخلافة الاموية حتى تمزقت البلاد شر ممزق ، وظهر فيها أعداد لاتحصى وأنواع لاتعد من المغامرين والطامحين لنيل السلطة ، وانغرست في النفوس طبائع الفرقة وعادات التمزق ، ونادرا ما اصاخ الأندلسيون الى نداءات الوحدة وهجر الفتنة ، وباتت ساحات الأندلس لاتعرف غير الحروب والصراعات واعمال التامر ، وافاد من هذا الحال حكام اسبانيا النصرانية ، وزادوا من نشاط حركة الاستغلاب وانتزعوا من المسلمين المدينة تلو الأخرى وابتذوهم بدون رحمة ، ولا شك أن هذا كله انعكس على الأوضاع الاقتصادية العامة والخاصة لمسلمي الأندلس ، واشتملت اسبانيا النصرانية في الشمال على ثلاث ممالك هي : ليون، ونافار ، وأراغون ، ومنذ مطلع القرن الحادي عشر للميلاد تقدمت نافار بين هذه الممالك ، ولايعنينا هنا الحديث عن ملوك نافار وسواهم ولا عن نشاطاتهم ، بل المهم الاشارة الى أن **الفونسو السادس (الفنش) ابن فرناندو الاول** (٤٦٥ ـ ٥٠٢ هـ / ١٠٧٢ ـ ١١٠٩ م)، استدعي لتسلم الحكم سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م بعد وفاة أخيه شانجة ، وكان انذاك ملتجئا الى مدينة طليطلة ، حيث أمضى فيها تسعة أشهر ، وستكون هذه المدينة الحصينة أولى ضحاياه في معارك حرب الاستغلاب التي خاضها ٠

وحينما تمزقت الأندلس قام في كل مدينة من مدنها متغلب» وذهب اهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق الى حيث لم يذهب كثيرين من اهل الاقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب ، ليس لاحدهم في الخلافة ارث ، ولا في

الامارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الامامة مكتسب ، اقتطعوا الاقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والامصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الالقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الاعلام ، وانشدهم الشعراء ، ودونت باسمائهم الدواوين وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بابوابهم العلماء ، وتوسلت اليهم الفضلاء ، وهم مابين مجبوب ، وبربري مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ، مامنهم من يرضى ان يسمى ثائرا ، ولالحزب الحق مغايرا ، وقصارى احدهم ان يقول : اقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقي خيرا لديه ، ولكنهم استوفوا في ذلك أجالا وأعمارا ، وخلفوا اثارا وإن كانوا لم يبالوا اغترارا من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل............» (٢٦) .

وكان أهم دول الطوائف :

مملكة سرقسطة ـ الثغر الأعلى : بنوهود
إمارة قرطبةـ وسط الأندلس : بنوجهور
مملكة طليطلة ـ الثغر الأوسط : بنوذي النون
مملكة بطليوس ـ الثغر الأدنى : بنو الأفطس
مملكة إشبيلية ـ غربي الأندلس : بنو عباد
مملكة بلنسية ـ شرقي الأندلس : تداولها اكثر من حاكم
مملكة غرناطة ـ جنوبي الأندلس : بنوزيري

وقد تدهورت قرطبة التي كانت حاضرة الأندلس ودار الولاية والخلافة ، وتقدمت عليها وعلى سواها اشبيلية ، وحكمت اشبيلية من قبل اسرة بني عباد التي ادعت الانتساب الى ملوك الحيرة ، وتأسست الأسرة من قبل القاضي أبي الوليد اسماعيل بن محمد بن عباد ، الذي شهر بحزمه وقوته ، وقد توفي سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م وورثه ابنه أبو عمرو عباد الذي تلقب بالمعتضد ، وكان المعتضد على

درجة كبيرة من الدهاء ، سعى الى توسيع ملكه بشتى الوسـائل ، وصرف في هذا السبيل جهودا عسكرية وسياسية ومالية كبيرة ، لكن في سبيل الصالح الفردي المحض ، فهو استخدم طاقاته ضد اهـل الأندلس ، لكنه تذلل لفـرناندو الاول وذهب بنفسـه الى معسـكره ليترضاه ويطلب منه الصلح والمهادنة مقـابل مبلغ كبير مـن المال ، وأمضى المعتضد في الملك ثمـان وعشرين سـنة حيث تـوفي سـنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وخلفه ابنه أبو القاسم محمد الذي عرف بالمعتمد على الله ، وكان شاعرا مجيدا« من الملوك الفضـلاء ، والشـجعان العقلاء »« اجتمع له من الشعراء واهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الاندلس.............ولي امر اشبيلية بعد ابيه وله سبع وثلاثون سنة ، واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه واخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ »(٢٧) .

واتسم جل ملوك دول الطوائف بالبذخ وتبديد الامـوال والرعونة والصغار مع انعدام الشعور بالمسؤولية ، وقد تحدث ابـن بسـام في الذخيرة طويلا عن بعض هؤلاء الملوك ، وكان منهم المأمون بـن ذي النون صاحب طليطلة ، فقد اراد المأمون يوما أن يبني قاعة خـاصة به ، أرادها ان تكون على درجة لانظير لها من الجمـال والأبهـة ، ووقع اختياره على بناء ماهر فيه دل وصـلف لتنفيذ هـذه المهمـة ، واستطاع هذا البناء ان يذل المأمون اكثر من مرة ، وبينما المأمـون مهتم ببناء القاعة « اتفق أثناء ذلك أن ضربت خيل الطاغية فـرذلند (فرناندو الأول) على بلاد المظفر بن الأفطس ، وطئها وطأة محـت رسومها ، واسـتباحت حـريمها ، واجتـاحت حـديثها وقديمها ---- وأيأست من البقاء ، وأذنت بشمول البلاء ، فأخبرت عن وزيره أبي المطرف بن مثنى انه كان يومـئذ بمنزله بين الوجـوم والاطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، إذ وردت رسـل المأمـون عنه تترى ، وهجمت عليه زمرة بعد أخرى ، فدخل عليه فـوجده قـد استشاط حنقا ، حتى كاد يتميز شققا ، فظن أن ذلك الضـجر ، لما كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، واخفار الذمم ، وزلة القدم ، وانتهاك الحرم ، فطفق ابن مثنى يبسـطه ويقبضـه ،

تارة يسليه وتارة يحرضه ، وطورا يقول له : فيك الخلف مما فات ، ومرة يقول : قد آن لك أن تنكر على الطاغية هذا الافتيات ، فلما فهم منحى ابن مثنى منه ، أعرض عنه ، وقال : الا ترى هذا الضالع الفاعلي الصانع ـ يعني عريف بنيانه ـ صبرت له واغضبت ، وفعلت به كيت وكيت ، فما زاد إلا تنغيصا للذتي ، واستخفافا بإمرتي وتصغيرا لشأني ، واجتراء على سلطاني » وحاول الوزير مداراته وتهوين الأمر عليه ،ثم خرج لمقابلة البناء ، فلم يأبه به ، وأخذ « يداوره ويداريه ، والصانع مقبل على شأنه ، ما أمره بالجلوس ، ولا زاده على التجهم والعبوس » ثم عاد الوزير إلى المأمون ووعده خيرا وخرج بعد ذلك من عنده وهو « لايدري من أي الثلاثة يعجب : أمن اغترار ابن ذي النون وجهله ، أم افضاء الضرورة بنفسه إلى خدمة مثله ، أم من جرأة ذلك الصانع القصير اليد ، النزر العدد ، على ذل ابن النون ودله .

قال ابن بسام : فتبارك من احاط بالاشياء ، ولم يخف عليه شيء في الأرض ولا في السماء ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب بنيانه ، الهادم ـ كان ـ للدين والدنيا شأنه ، مربطا للأفراس ، وملعبا للأعلاج الأرجاس ، من رجال الطاغية اذفونش ابن فرذلند ، بدد الله شيعته »(٢٨) .

لقد استجاب الله تعالى لدعاء ابن بسام فبدد قوى الفونسو السادس بعد ما كاد أن يلتهم الاندلس جميعا ويأخذها من ملوك الطوائف (٢٩) استجاب جل وعلا بأن أرسل المرابطين فخاضوا معركة الزلاقة وغيرها من المعارك فأخروا بذلك سقوط الأندلس عدة قرون ، وقد آن الأوان للحديث عن المرابطين وقيام حركتهم .

الفصل الثاني

قيام حركة المرابطين

يظهر البحث في تاريخ الاسلام أن قضايا هذا التاريخ قد تفـاعلت وتشابكت على الرغم من سعة الرقعة الجغرافية والمسافات الطـويلة بين المناطق والبلدان ، وعلى هـذا إن الواقعـة التـي حـدثت مثلا في المغرب قد نجـد أسـبابها المبـاشرة في بلد اسـلامي وغير المباشرة في بلد اسـلامي اخـر ، ونضرب هنا مثـلا بتـاريخ الدولة الفاطمية ، حيث أن هذا التاريخ مرتبط في مـرحلة مبـكرة بتـاريخ التشيع حتى منتصف القرن الثاني للهجرة ، ثم بحوادث بلاد الديلم والعراق ، فالشام فاليمن فمصر فإفريقية فسجلماسة فمصر والشام من جديد ، لذلك من العبث البحث في أي قضية تاريخية اسلامية دون أخذ هذا الأمر بالحسبان ٠

وتنطبق هذه القاعدة على حوادث قيام حـركة المرابـطين في قلب الصحراء الأفريقية الكبرى ثم تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى وإثر هذا تدخلهم في شؤون الأندلس ،فالبحث في تاريخ المرابطين تـرتبط بداياته بحـوادث الاسـتفاقة الاسـلامية السـنية أولا في المشرق الاسلامي ثم انتقالها الى بلدان المغـرب العـربي خـلال القـرن الخامس ، وذلك مثلمـا تـرتبط بـواقع الحياة القبلية اجتمـاعيا واقتصاديا وسياسيا في الصحراء الكبـرى وفي البلدان المجـاورة في المغرب الأقصى وافريقية ، والمثير للانتباه ان الاستفاقة السنية للقرن الخامس توافقت في المشرق مع هجرة البداة التركمان من بلاد ماوراء النهر وتاسيس السلطنة السـلجوقية في المشرق ، وكان ايضـا مـن جملة نتائجها في المغرب هجرة قبائل الصحراء نحو المغـرب الأقصى والأندلس وتأسيس دولة المرابطين ، وتعلق هذا كله بتعميق التبدلات الكبرى على صعيد العلاقات مع أوربة بشطريها الشرقي والغربي ،

ففي الشطر الشرقي كانت ـ كمـا رأينا ـ معـركة منازكرد التـي عدت فيما بين أسباب قيام الحروب الصليبية ، وفي الغـرب معـركة الزلاقة وازالة دول الطوائف من الأندلس وتوحيد هذه البـلاد تحـت راية المرابطين والاستعداد ليس فقط لاسترداد ما فقده المسلمون من بلدان الأندلس بل لاستئناف حركة الفتوحات داخل اوربة من جـديد مما كان له أبعد الآثار في قيام الحروب الصليبية ايضا ، فهذا كله قد هيأ الأجواء الأوربية حتى جاءت ساعة الانفجار •

في الحقيقة ماتزال مسألة قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهـم من الأحداث التي تحتاج الى المزيد من الأبحـاث المعمقـة ، ذلك انه على الرغم من الدور التـاريخي المشرق الذي شـغله المرابـطون في الغرب الاسلامي ، وبرغم كثـرة عدد المؤرخين الذين دونوا اخبـار أحداث هذا الدور ، فإن ما آلت إليه نهاية المرابطين المأساوية بقيام دولة الموحدين ، قد أدى إلى طمس آثار المرابطين واخبارهم طمسـا كاد أن يكون كاملا •

ومع هذا لايفقد الباحث الامل ، فبين يوم وآخـر يكتشـف اثـر مرابطي مباشر ، أو غير مباشر ينقل عن احد الآثار المحجوبة عنا ، وبذلك تتضح الصورة أكثـر فـأكثر ، وعلى كل حـال حين تتحـدث المصادر عن قيام حركة المرابطين نراها تجمع على أن الحركة كانت دينية اسلامية تولى قيادتها بالاساس داعية اسلامي بعث من المغرب الى قلب الصحراء ، هو عبد الله بن ياسـين ، بيد أن ابـن ياسـين توجه الى الصحراء مرسلا اولا من قبل عالم اسمه ابو عمران الفـاسي ثم ثانيه من قبل عالم اخر اسمه واجاج بن زلو ، وتحت اشراف ابن زلو وتوجيهه عمل ابن ياسين حتى لاقى النجاح •

وابن زلو لم يبادر الى ارسال ابن ياسين من عنده بل جـاء هـذا أيضا بناء على توجيهات من شيخه ابو عمران الغفجـومي الشـهير بالفاسي ، وعلى هذا بين ايدينا في البـداية شـخصيات دينية ثـلاثة يتوجب علينا التعرف إليها واحدا تلو الآخر •

وكان من أقدم من ترجم لأبي عمران الفـاسي القـاضي عياض في مداركه ، وتتميز هذه الترجمة مع قدمها بكونها وافية من كثير مـن الجوانب وعظيمة الفائدة فهو : مـوسى بـن عيسى بـن أبـي حاج ــ الغفجومي » وغفجـوم فخـذ مـن زناتـه » وفي رواية اخرى» من هوارة ــ أصله من فاس وبيته بها مشهور ، ويعرفون ببني أبي حاج ، ولهم عقب وفيهم نباهة إلى الآن ، واستوطن القيروان ، وحصلت له بها رئاسة العلم » (١)٠

وفي مقابل هذه الرواية نجد نصا على درجة عالية من الاهمية عند صاحب » بيوتات فاس الكبرى » المنسوبة بعض مواده الى اسماعيل ابن الاحمر حيث جاء :» ومنهم ــ أهل فـاس ــ بيت أبـي الحـاج القرشي ، بيتهم بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة ، ولهـم زقـاق بفاس يقال له درب أبي حاج ، منهم الفقيه الامـام العـلامة المدرس المفتي الخطيب الصالح ولي الله تعالى ابو عمران موسى بـن أبـي حاج القرشي ، المعروف بأبي عمران الفاسي ، كان يأمـر بـالمعروف وينهى عن المنكر ، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة مـن اهلهـا العاملين عليها لمغراوة ، فاستقر بالقيروان إلى أن توفي سنة ثلاثين واربعمائة ، وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن ابـراهيم اللمتـوني الصنهاجي الى قتال الطغاة من اهل المغرب وجهاد أهل برغواطة من السوس »(٢)٠

ولئن اتفق القاضي عياض مع صاحب بيوتات فاس حـول مـكانة اسرة ابي عمران الفاسي ، فالخلاف بينهمـا حـول نسـبه ، فهـو غفجومي عند القاضي عياض وقرشي عند صاحب بيوتات فاس ، وقد يميل الباحث نحو ترجيح رواية صاحب البيوتات على رواية القاضي عياض على قدمها ، وذلك على قاعدة » أهل مكة أدرى بشعابها » ، ويقوي هذا الاحتمال الدور الذي شغله الفاسي في كل من مدينة فاس ثم القيروان وفي أصل قيام حركة المرابطين ٠

ونص القاضي عياض صراحة على ان الفاسي قد ولد سنة » ثلاث وستين وثلاثمائة » وقيل ايضا إنه ولد سنة ٣٦٥ أو حتـى سـنة

٣٦٨ •(٣) وعلى هذا « عاصر الغفجومي منذ صباه الأحداث الخطيرة الغامضة في تاريخ المغرب من هجوم الصنهاجيين خلفاء العبيديين ، والعامريين خلفاء بني امية ، وقيام زعماء البربر بالدعوة لهؤلاء تارة ولأولئك اخرى ، وفي طليعتهم زيري بن عطية المغراوي ، ويدو بن يعلى اليفرني ، وابو البهار الصنهاجي ، ففي هذا الظرف الحرج المتقلب ولد وعاش سنواته الأولى.. وشب وترعرع... ونال مكانة سامية في العلم والفتوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تضايق من وجوده رجال السلطة فخرج من وطنه مهاجرا كارها للوضع القائم وتصرفات رجاله في البلاد» (٤) •

يبدو أنها كانت فرصة بالنسبة للفاسي ، وقد ارغم على مغادرة بلده أن يرحل في سبيل العلم ، فكان ان قصد قرطبة ، وبعدما اخذ عن علمائها قصد القيروان ، ومن القيروان توجه الى المشرق فقضى فريضة الحج ثم دخل بغداد حيث لقي فيها وفي مدن العراق الأخرى قادة رجال اليقظة للقرن الخامس ، وقد تأثر كثيرا بأبي بكر الباقلاني ، فعليه درس الأصول مع علم الكلام بردوده الشديدة على حركات الغلاة ، ومثل هؤلاء في الشمال الأفريقي دولة برغواطة في سواحل المغرب الأقصى مع بقايا الاسماعيلية في إفريقية ، وكان المعز بن باديس نائب الفاطميين في إفريقيةقد ملك النزعات والرغبةفي الغاء الانتماء للفاطميين ، والاستقلال عنهم وإعادة الخطبة للعباسيين •

وكان الفاسي بعد ما غادر المشرق الى المغرب استقر في مدينة القيروان ، وفيها نشط وحظي بمكانة مرموقة ومؤثرة،وهكذا شغل دورا فعالا في اقناع المعز بن باديس بالانقلاب على الفاطميين وايقاع مذبحة بالمؤمنين بالعقيدة الاسماعيلية في إفريقية •

كان الخليفة في القاهرة المستنصر بالله وكانت دولته اضعف من أن تتمكن من اتخاذ اجراء عسكري مباشر ضد المعز بن باديس ، لكنها لم تعدم الوسيلة للانتقام منه ، وكان الانتقام في تحريض قبائل هلال وسليم بالزحف نحو إفريقية،وأحدث هذا الزحف أوسع الآثار

السياسية والاقتصادية والعمرانية على جل بلدان المغرب العـربي ، وفيها ثبت طابع العروبة بشكل ابدي مطلق (٥) .

وإذا كان الفاسي قد أسهم بنصيبه في أسباب تفجر الأحداث التي شهدتها إفريقية . فإن شهرته لم تصدر عن هذا الاسهام ولا حتـى عما صنفه أورواه في ميدان الفقه والحديث ، لقد صدرت عن دوره في قيام حركة المرابطين ، ففي القيروان قيل اتصل به في طريق العـودة من الحج يحيى بن ابـراهيم الجـدالي ، وكان يحيى زعيمـا لقبيلة جدالة احدى كبيرات قبائل الصحراء ، ديارها واقعة على مقربة من شواطىء المحيط الأطلسي ومصب نهر السنغال ·

واعجب الجدالي بالشيخ ابي عمران الفاسي، ورأى ابو عمـران فيه رجلا « محبا في الخير ، فأعجبه حاله ، فسأله عن اسـمه وبلده ونسبه فأخبره بذلك ، وأعلمه بسعة بلاده ومافيها من الخلق ، فقـال له . وما ينتحلون من المذاهب ؟ فقـال له :إنهـم قـوم غلب عليهـم الجهل ، وليس لهم كثير علم ، فاختبره الفقيه وسـأله عن واجبـات دينه ، فلم يجده يعرف منها شيئا ولايحفـظ مـن الكتـاب والسـنة حرفا ، إلا انه حريص على التعلم ، صحيح النية والعقيدة واليقين ، جاهل بما يصلح دينه ، فقال له : ما يمنعك من التعلم العلم ؟ فقـال له : ياسيدي إن اهل بلادي قوم عمهم الجهل ، وليس فيهم من يقرأ القرآن ، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسـعون إليه لو وجدوا من يقرئهم القـرآن ويدرس لهـم العلم ويفقههـم في دينهـم ويدعوهم الى العمل بالكتاب والسنة ، ويعلمهـم شرائع الاسـلام ، ويبين لهم سنن النبي عليه السلام ، فلو بغيت الثواب من الله تعالى بتعليمهم الخير لبعثت معي الى بلادنا بعض تلاميذك يقرئهم القـرآن ويفقهم في الدين فينتفعون به ويسمعون له ويطيعوه فيكون لك في ذلك الاجر العظيم والثواب الجسيم عند الله ، أن تكون سببا لهدايتهم ، فندب الشيخ الفقيه ابو عمران تلاميذه إلى ذلك فـامتنعوا واشـفقوا من دخول الصحراء ، ولم يجبه منهم أحد ممن يرضاه الشيخ ، فلما يئس منهم قال : إني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيهـا

حاذقا تقيا لقيني هنا ، واخذ عني علما كثيرا وعرفت ذلك منه واسمه واجاج بن زلو اللمطي ، من أهل السوس الأقصى ، وهو الآن يتعبد ويدرس العلم ، ويدعو الناس الى الخير في رباط هناك وله تلاميذ جمة يقرؤون عليه العلم ، اكتب له كتابا لينظر في تلاميذه من يبعثه معك ، فسر إليه» (٦) .

ونستخلص من هذه الرواية أن المبادرة بارسال عالم الى الصحراء جاءت من عند الجدالي ، وأن الذي قام به الفاسي هو مجرد الاستجابة ، وهذا يعني انعدام أية خطط للدعوة في الصحراء لدى الفاسي ، وأن كل ما حدث نجم عن عامل الصدفة : فريق من حجاج الصحراء التقى بواحد من كبار العلماء في القيروان ، وهكذا سارت الامور ، لكن يبدو أن القضية لم تكن ابدا بهذه البساطة ولم تسر على هذه الشاكلة .

تحدث صاحب بيوتات فاس عن اللقاء الذي قام بين الرجلين في القيروان فقال :« وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن ابراهيم اللمتوني الصنهاجي الى قتال الطغاة من أهل المغرب وجهاد أهل برغواطه من السوس »(٧) وقال المصنف نفسه في مكان أخر من كتابه تحدث به عن أسرة عبد الله بن ياسين في فاس :« وهم من بني عبد الله بن ياسين الفقيه الذي انتدب لمتونة الى قتال برغواطة من السوس » ، وبعد ايراده لبعض المعلومات عن كل من برغواطة وقبيلة لمتونة بين أن ديار لمتونة في « صحراء المغرب التي بين بلاد السودان المغربية وبلاد المغرب........ وذلك مسيرة شهرين طولا وعرضا..... وليس لهم مدينة يأوون إليها إلا مدينة غانة من بلاد السودان المغربية.....وأما غانة فكانوا على دين النصرانية الى سنة تسع وستين واربعمائة ، فأسلم أهلها على يد عبد الله بن ياسين عند خروجه مع يحيى بن عمر اللمتوني إلى قتال أهل برغواطة ، وحسن اسلامهم .

وكان السبب في دخول لمتونة المغرب انهم على دين الاسلام منذ أسلموا على يد الامام ادريس ، وكانوا يحاربون السودان ، ثم إن

يحيى وابا بكر بن عمر خرجا الى الحج مع قومهما فمروا بمدينة القيروان يتبركون بالعلامة أبي عمران الفاسي حيث بلغهم أن أهل فاس أخرجوه من مدينة فاس لنهيه لهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم..... ولما اجتمع مع يحيى بن عمر ندبه أبو عمران الى قتال برغواطة ببلاد السوس وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم ، واستنزال رؤسائهم من الولاية ، فوعده يحيى بن عمر بالنهوض الى ذلك ، وطلب منه أن يوجه معه الى بلاده بعض طلبته لينظر في أمور ديانتهم واخراج زكاتهم وأعشارهم وفيمن تصرف مع أخماس غنائمهم ، فحرص ذلك أبو عمران على طلبته فامتنعوا من المسير مع يحيى بن عمر بن ابراهيم لبعد البلاد والمشقة ، وانقطاع الصحراء عن بلاد إفريقية ، ثم قال له أبو عمران : نكتب لك رسالة الى فقيه بالسوس مما يلي بلادك ، يدعي بوجاج ـ ممن كان قرأ عليه بفاس قبل ارتحال أبي عمران عنها ـ فكتب له رسالة يطلب منه فيها أن يوجه معه فقيها الى بلاده ، فسار يحيى بن عمر بن ابراهيم مع قومه الى وجاج ، إلى أن وصلوا إليه فدفعوا إليه كتاب أبي عمران ، فلما قرأه رحب بهم وأكرمهم واختار لهم عبد الله بن ياسين من أصحابه » (٨) .

الجديد في هذه الرواية أن الذي التقى بالفاسي وفد من لمتونة وليس من جدالة بقيادة يحيى بن عمر بن ابراهيم ، وحدث هذا اللقاء في القيروان ، والفاسي هو الذي ندب الوفد ليس لقتال برغواطة فحسب بل لقتال زناتة وكانت أنذاك تشكل خطرا كبيرا على حكم المعز بن باديس ، وأن وجاج تتلمذ على الفاسي في مدينة فاس ، وسنرى أن يحيى بن عمر اللمتوني سيتولى زعامة المرابطين حتى وفاته حيث سيخلفه أخوه أبو بكر بن عمر .

وجاءت وفاة يحيى بن عمر سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م حيث قتل في معركة كبيرة ضد قبيلة جدالة (٩) .

والاشكالية التي تواجهنا هنا ليست مقصورة على كيفية انتقال زعامة المرابطين من جدالة الى لمتونة بل أمر أخر يتعلق بشخصية

اخرى يروى من قبل مصادر مبكرة جدا انها التي التقت اولا بـأبي عمران الغفجومي •

يحدثنا البكري في كتابه المسالك والممالك بقوله :« وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه احد ، وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين واربعمائة بدعوة الحق ، ورد المظالم ، وقطع جميع المغارم ، وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن انس رضي الله عنه ، وكان الذي نهج ذلك فيهم ، ودعا الناس الى الرباط ودعوة الحق عبد الله ابن ياسين ، وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن ابراهيم من بني جدالة ،وحج في بعض السنين ، ولقي في صدره عن حجه الفقيه أبا عمران الفاسي ، فسأله ابو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من المذاهب ، فلم يجد عنده علما بشيء إلا أنه راه حريصا على التعلم صحيح النية واليقين ، فقال له : ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال له : لايصل إلينا إلا معلمون لاورع لهم ولا علم بالسنة عندهم ، ورغب إلى أبي عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم احكام الشريعة عندهم ، فلم يجد أبو عمران فيمن رضيه من يجيبه الى السير معه ، فقال له أبو عمران : إني قد عدمت بالقيروان بغيتكم ، وإن بملكوس فقيها حاذقا ورعا قد لقيني وعرفت ذلك منه يقال له وجاج بن زلو ، فمر به فربما ظفرت عنده ببغيتك ، فجعل ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه ، فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبي عمران ، فاختار له وجاج من أصحابه رجلا يقال له عبد الله بن ياسين ، واسم أمه تين يزامارن من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت في طرف صحراء مدينة غانة ، فوصل به إلى موضعه ، واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له في سبعين رجلا فغزوا بني لمتونة وحاصروهم في جبل لهم فهزموهم ، فلم يزل امرهم يقوى...... وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم...... وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه اشياء يطول ذكرها وكأنهم وجدوا في احكامه بعض التناقض ، فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن

سكم مع رجلين مـن كبـرائهم... فعزلوه عن الراي والمشـورة ، وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وانتبهـوا مـا كان فيها من اثاث وخرثي ، فخرج مستخفيا من قبائل صنهاجة إلى ان اتـى وجاج بن زلو فقيه ملكوس » (١٠) .

عاش البكري في الأندلس ، وكان من الأمراء العلمـاء ، وهـو لم يزر المغرب ، والمعلومات التي دونها في كتابه كانت ممـا نقـل إليه ، وقد قام هو بدمج التقارير التي حصل عليهـا ، وعلى هـذا لم تخـل معلوماته من شيء من التناقض والخلل ، لكنهـا مـع هـذا هـامة لايستغنى عنها ، وتـزداد فـائدتها لدى الحصـول على بعض المواد المعاصرة لها او من طبقتها .

ومعلومات البكري تؤكد هنا على ان الذي اتصل بالفاسي كان من قبيلة جدالة ، وقد انفرد بايراده خبر طرد عبد الله بن ياسين وعودته الى رباط وجاج بن زلو ، وهام جـدا اتيانه على ذكر الجـوهر بـن سكم ، فلقد حاول بعض الباحثين تجاهل وجود هذه الشخصية ، او المطابقة بينها وبين يحيى بن ابراهيم الجدالي ، والمطـابقة صـعبة لعدم التقارب بين الاسمين ولأن جـوهرا وصـف بـالفقيه ولم يأت الحديث عنه كزعيم سياسي .

وسلف بي الذكر أن جل المصادر المرابـطية قـد ناله التلف ، لكن يبدو أن بعضها نجا ووصل الى مكتبات المشارقة فنقلوا عنه، وهكذا نجد كل من ابن الاثير والنويري والمقريزي يأتون على ذكر جوهر بن سكم ، ومن عادة ابن الأثير أن لايذكر مصادره وكذلك المقريزي لكن النويري ذكر مصدره بكل وضوح وهـو كتـاب « الجمـع والبيان في أخبار المغرب والقيروان »لأبي محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس ، وقد ذكر ابو محمد هذا « بسند يرفعه الى القاضي ابي الحسن علي بن قنون ، قاضي مراكش ، أن رجـلا مـن قبيلة جدالة من كبرائهم اسمه الجوهر اتى من الصحـراء الى بـلاد المغرب طالبا للحج » فالتقى بأبي عمـران الفـاسي » فلمـا حـج وانصرف قصد المسجد الذي كان فيه الفقيه ، وسـمع الكلام فيمـا

تقتضيه ملة الاسلام من الفـرائض والسـنن والاحـكام ، فقـال الجوهر : يا فقيه ما عندنا في الصحراء من هـذا الذي تـذكرونه إلا الشهادتين في العامة ، والصلاة في بعض الخـاصة ، فقـال الفقيه فاحمل معك من يعلمهم عقائد ملتهـم وكمـال دينهـم ، فقـال له الجوهر :فابعث معي أحد الفقهاء ، وعلي حفظه وبـره وإكرامـه ، وكان للفقيه ابن أخ اسمه عمر ، فقال له : إذهب مع هذا السيد الى الصحراء ، فعلم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الاسـلام ، ولك الثواب الجـزيل مـن الله عز وجـل ، والذكر الجميل مـن الناس ، فأجابه الى ذلك ، فلما اصبح عمر من الغد جاء الى عمـه فقـال له : أعفني من الدخول الى الصحراء فإن اهلها جاهلية ، قد الفوا سيرا ذشئوا عليها ، فمتى نقلوا عنها قتلوا من امرهم بخلافها ، وكان من طلبة الفقيه رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولي ، فـراى الفقيه وقد عز عليه مخالفة ابـن اخيه فقـال : يافقيه ارسـلني معـه والله المعين ، فأرسله معه وتوجها إلى الصـحراء ، وكان عبـد الله بـن ياسين فقيها عالما ورعا دينا شهما قوي النفس حازما ذا راي وصبر وتدبير» •

فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين الى الصحراء ، فانتهوا الى قبيلة لمتونة ، وهي على ربوة عالية ، فلما راوهـا نزل الجـوهر عن جمله ، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين تعظيما لدين الاسلام ، فـأقبلت أعيان لمتونة واكابرهـم للقاء الجوهر والسلام عليه • فـراوه يقـود الجمل فسألوه عنه فقال :« هو حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء يعلم اهل الصحراء مـايلزمهم في دين الاسـلام »• فرحبوا به وانزلوه اكرم نزل •

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة في محفل وفيهم ابو بـكر ابن عمر • فقالوا :« تـذكر لنا مـا اشرت إليه انه يلزمنا ؟ » فقص عليهم عبد الله عقائد الاسلام وقـواعده وبين لهـم حتـى فهـم ذلك اكثرهم ثم اقتضاهم الجواب ، فقالوا : اما ما ذكرته مـن الصـلاة والزكاة فذلك قريب واما قولك : من قتل يقتل ، ومـن سرق يقـطع ، ومن زنا يجلد ، فأمر لانلتزمه ولا ندخل تحته اذهب الى غيرنا •

فرحلا عنهم والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين•••• قال: وكان بالصحراء قبائل•••• ، كل قبيلة قد حازت أرضا تسرح فيها مواشيها ، ويحمونها بسيوفهم••••

قال : وسار الجوهر حتى انتهى بعبد الله الى قبيلة جدالة ، فخاطبهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم ، فمنهم من سمع واطاع ومنهم من أعرض وعصى ، ثم إن المخالفين لهم تحزبوا وانحازوا •

فقال عبد الله للذين قبلوا منه الاسلام : « قد وجب عليكم ان تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وانكروا دين الاسلام ، فاستعدوا لقتالهم ، واجعلوا لكم حزبا ، واقيموا لكم راية ، وقدموا لكم اميرا فقال له الجوهر : أنت الأمير ، فقال عبد الله : لايمكنني هذا إنما أنا حامل أمانة الشرع ، اقص عليكم نصوصه وابين لكم طريقه ، وأعرفكم سلوكه • ولكن انت الامير »• فقال الجوهر : لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتي على الناس ولعاثوا في الصحراء ، ويكون وزر ذلك علي ، لا رأي لي في هذا • فقال عبد الله : « فهذا أبو بكر بن عمر ، رأس لمتونة وكبيرها ، وهو رجل جليل القدر ، مشكور الحال ، محمود السيرة ، مطاع في قومه ، نسير إليه ونعرض تقدمة الامرة عليه ، فلحب الرياسة يستجيب الى ذلك بنفسه ، ولمكان الجاه ستجتمع إليه طائفة من قبيلته نقوى بها على عدونا ، والله المستعان •

ذكر ولاية ابي بكر بن عمر اللمتوني

قال : فاتوا ابا بكر بن عمر فاجاب ، وعقدوا له راية وبايعوه بيعة الاسلام ، وتبعه زمرة من قومه ، وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين •

ورجعوا الى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن اسلامهم • ومن الاقوام الذين تالفت قلوبهم ، وحرضهم عبد الله على الجهاد في سبيل الله ، وسماهم المرابطين • وتألبت عليهم احزاب من الصحراء معاندين من أهل الشر والفساد ، وجيشوا لمحاربتهم ، فلم يناجزوهم الحرب ولا بادروهم بلقاء بل تلطف عبد الله وابو بكر في أمرهم ، واستمالوهم ، واستعانوا على أولئك الأشرار المفسدين بالمصلحين من قبائلهم يسبونهم قوما بعد قوم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهم تحت زرب عظيم وثيق ما ينيف على الفي رجل من المفسدين وتركوهم فيه أياما بغير طعام وهم يحفظون الزرب من سائر جهاته ، وقد خندقوا حوله ، ثم أخرجوهم قوما بعد قوم وقتلوهم عن آخرهم •

فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء وهابهم كل من فيها ، وقويت شوكة المرابطين ، هذا وعبد الله بن ياسين يعلم الشريعة ويقرىء الكتاب والسنة ، حتى صار حوله فقهاء ، وكل من انقاد الى الحق على طريق الورع والتقى والخشية لله والمراقبة ، فرتب له أوقاتا للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد ، فاستقام منهم خلق كثير ، وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم ، وصفت قلوبهم •

ذكر مقتل الجوهر الجدالي

قال : كان الجوهر أصح القوم عقيدة ، وأخلصهم لله دينا ، وأكثرهم صوما وتهجدا ، فلما استبد أبو بكر بالأمر دونه ،وعبد الله ينفذ الأمور بالسنة ، فصارت الدولة لهما • وبقي الجوهر لاحكم له فداخله الحسد ، وأزله الشيطان ، فشرع في إفساد الأمر سرا ، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس ، فثبت عليه ما ذكر عنه ، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة ، -وشق العصا ، وهم بمحاربة أهل الحق ، فقال الجوهر : وأنا أيضا أحب لقاء الله عز وجل حتى أرى ما عنده »• فاغتسل وصلى ركعتين ، وتقدم طائعا ، فضربت عنقه رحمه الله تعالى •

قال :وكثرت طائفة المرابطين ، وتتبعوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهب والسبي إلا من أسلم منهم وسالم ، وبلغت الأخبار الفقيه بما جرى في الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الحريم ، فعظم ذلك عليه واشمأز منه وندم على ارساله ، وكتب له في ذلك ، فأجابه عبد الله بن ياسين :أما انكارك علي ما فعلت وندامتك على إرسالي ، فإنك أرسلتني الى امة كانت جاهلية ، يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام فيعزبان في المرعى ، فتأتي المرأة حاملا من أخيها ولا ينكرون ذلك ، وليس دابهم إلا إغارة بعضهم على بعض وقتل بعضهم لبعض ، ولا دية لهم في الدماء ، ولا حرمة عندهم للحريم ، ولا توقي بينهم في الأموال ، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم ، فمن قبل واليته ، ومن تولى أرديته ، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته • والسلام »(١١) .

إن نص ابن شداد هذا على درجة عالية من الأهمية ونقاط

التوافق بينه وبين مادة البكري كبيرة ،فهما قد اتفقا على كون شخصية الجوهر شخصية تاريخية ،وعلى انه كان اشبه بالفقهاء الامر الذي أكده ابن الاثير بقوله «وكان ـ الجوهر ـ محبا للدين (١٢) واهله»وكذلك اتفقا على حصول خلاف فيما بين الجوهر وابن ياسين وروى ابن الاثير ايضا خبر اعدام الجوهر بعدما«بقي لاحكم له تداخله الحسد ،وشرع سرا في فساد الأمر، فعلم بذلك منه ،وعقد له مجلس وثبت عليه مانقل عنه فحكم عليه بالقتل ،لأنه نكس البيعة وشق العصا وأراد محاربة اهل الحق فقتل بعد أن صلى ركعتين» (١٣).

ومن الواضح ان كل من ابن الاثير والنويري قد نهلا من المصدر نفسه ، وهكذا أوردا أن الجوهر بن سكم صحب معه عبد الله بن ياسين من القيروان ، نضيف الى هذا أن التادلي حين ترجم لوجاج ابن زلو أوضح أنه لحق بالفارسي الى القيروان ، اسمعه يقول: «وجاج بن زلو اللمطي.
من اهل السوس الأقصى ، رحل الى القيروان فاخذ عن ابي عمران الفاسي ، ثم عاد الى السوس ، فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه» (١٤) .

لقد طارت شهرة ابي عمران الغفجومي اثناء اقامته بالقيروان ، وعلى هذا يرجح أن الطلبة قصدوه اليها ، وانه لأمر مرجح أن يكون كل من عبد الله بن ياسين ووجاج بن زلو التقيا بالقيروان ، وهناك تعرفا الى بعضهما في حضرة شيخهما الغفجومي ، وبناء عليه أرى أن صورة الاحداث ربما وقعت على الشكل التالي :

اصطحب الجوهر بن سكم معه عبد الله بن ياسين من القيروان الى الصحراء وبعد شيء من النجاح اختلفا ، وهكذا أرغم ابن ياسين على الالتجاء الى رباط وجاج بن زلو في السوس الأقصى في طرف الصحراء ، ومجددا مر بالقيروان ركب جديد من حجاج الصحراء فيه ـ أو على رأسه ـ يحيى بن ابراهيم الجدالي ، وأن موضوع أوضاع الصحراء أثير من جديد ، وهكذا تم الاتفاق أن يمر هذا الأمير برباط

وجاج ويصطحب معه عبد الله بـن ياسـين ، وهـذا مـاكان ، وعلى أساسه يمكن أن نفهم مسألة اعدام الجوهر بن سكم . وكان عبد الله ابن ياسين كما رأينا من أهل الصحراء ، وكان قد رحل في سبيل طلب العلم حتى أنه زار الأندلس ومكث فيها سبع سنوات(١٥) وكان أصله وتكوين شخصيته وثقافته التي حصلها تؤهله أكثر من غيره للعمل في الصحراء ومن ثم النجاح.

وهناك خلاف كبير بين المصادر حول تاريخ هذه الحوادث ، ولابد أنها حدثت قبل وفاة أبي عمران الفاسي في سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩ م وأميل هنا الى الأخذ برواية صاحب روض القرطاس حيث ذكر أن يحيى بن ابراهيم الجدالي تـوجه الى الحـج سـنة سـبع وعشرين وأربعمائة «(١٦)وقد يكون لقيه في هذه السنة أو في السنة التالية .

في الصحراء حقق ابـن ياسـين بـرفقة الأمير الجـدالي بعض النجاحات غير أن رجالات جدالة مالبثوا أن أخذوا بالاعراض عنه ، وهنا فكر بالرحيل عنهم « الى بلاد السودان» (١٧) ، والسؤال الذي لابد من طرحه هنا لماذا الى بلاد السودان ، وليس مجددا الى بـلاد رباط واجاج بن زلو؟ لعل السبب هو لجوءه قبل هذا الىواجـاج ثم تفكيره بالعودة الى بلدته او المناطق المجاورة لهـا ، لكن لماذا اعرض عنه الجداليون ، هل فقط أنهم لما « راوه قد شدد عليهم في ترك ماهم عليه من المنكرات تبراوا منه وهجروه ونافـروه ، وثقـل ذلك عليهـم» «(١٨)

القضية أكبر من هذا ، كان مشروع عبد الله بن ياسـين مشروعا سياسيا ، وقف في سبيله في المرحلة الأولى الفقيه جوهر بـن سـكم ، والآن بمعاونة الأمير الجدالي ، أو بالحري امير جـدالة تخلص مـن الجوهر باعدامه ، ولابد أن ردات الفعل القاسية جدا على ذلك هـي التي أرغمت ابن ياسين على قرار النزوح ، لابل أكثر من هذا أفقدت يحيى بن ابراهيم سلطانه ومكانته ، فقد كان يحيى بـن ابـراهيم « على رئاسة صنهاجة وحروبهم مع أعدائهم «(١٩) .

وصنهاجة كما سنرى كان اسم « الجد الجامع » لقبائل الصحراء

خاصة جدالة ولمتونة ، ولايفقد الأمير سلطانه الا بسبب كبير جـدا ، ومن هنا لم يسمح يحيى بن ابراهيم لابن ياسين بالذهاب وتمسك بـه ووضع خطة يستطيع بوساطتها استعادة قواه ومـن ثـم الانتقـام مجددا واسترداد سلطانه فقال لابن ياسين :« إن هـاهنا في بـلادنا جزيرة في البحر اذا انحسر البحر دخلنا اليهـا على اقـدامنا ، واذا امتلا دخلناها في الزوارق ، وفيها الحلال المحض الذي لاشك فيه من اشجار البرية وصيد البر ... فدخلاها ودخل معهما سبعة نفر مـن جدالة ، فابتنيا بها رابطة ، واقام بها مع اصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة اشهر ، فتسامع مع الناس بأخبارهم ... فكثرو الوارد عليهم ... فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تـلاميذه نحـو الف رجل من اشراف صنهاجة فسماهم المرابطين للزومهم رابطته »(٢٠).

ومعروف أن تجربة المرابطة في الثغور تجربة مبـكرة قـامت منذ العصور الأموي وتـركزت أولا على شـواطىء البحـر المتـوسط الشامية ، ومن اشهر النماذج الأولى لهـا ربـاط بيروت الذي عاش فيه الامام الأوزاعي ، وفي حياة الأوزاعي وعدد من ائمـة الزهـد في الاسلام مثل عبد الله بن المبـارك وعلاقـاتهم مـع السـلطات بعض التعليل لنمو حركة المرابطة وتطويرها وتنظيمهـا حيث غدا الربـاط مؤسسة عسكرية فقهية ، له مقوماته وادواره في جميع المجالات حتى الاقتصادية منها ، فالفقهاء والصلحاء فروا من التعامل مع السلطان وأخذوا بقوله تعالى :« ياأيها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »(٢١) .

ومن سواحل الشام انتقلت تجربة الرباط الى شواطىء افـريقة وهناك تطورت تطورا عجيبا وشغلت أوسـع الأدوار(٢٢) وظلت كذلك حتى قيام الخلافة الفاطمية والقضاء على حكم الأغالبـة وتـأسيس مدينة المهدية ، فقد سدد هذا ضربـة مـوجعة للربـاط المتـوسطي وبالتالي أدى الى انتقال التجربة الى سواحل الأطلسي والى داخـل الأراضي المغربية ، ومنذ هذا التاريخ شغل الربـاط اهـم الأدوار في اقامة الدول والحكومات واسقاطها ، فقد اقام ربـاط عبـد الله بـن ياسين دولة الرباط ، وكان لرباط تينملل الدور الحاسم في اسـقاط

دولة الرباط واقامة الدولة الموحدية ، وهكذا من رباط الى أخر ومن دولة الى أخرى حتى رباط درعة سجلماسة واقامة دولة الأشراف العلويين الحاكمة الآن في المغرب.

وتباينت الآراء والروايات حول تحديد موقع رباط بن ياسين ، وأقرب ماروي الى القبول ماذكره ابن خلدون ، حيث يستخلص أن ذلك كان قرب مصب نهر السنغال (٢٣) .

واستبعد بناء رباط محصن عسكريا ، فعدد الذين جاءوا الى الموقع أولا كان ضئيلا وكانوا جميعا من بداة الصحراء بلا تجربة أو خبرة بأعمال البناء ، ولعل الأمر لم يتعد نوعا من أنواع المعسكرات أو المخيمات المؤقتة فيها خضع الملتحقون لبعض التدريبات خاصة في المجالات التثقيفية الدينية ، طبعا حسب مذهب الامام مالك ، ولعل دروس الوعظ كانت بالبربرية مع شيء من العربية . وخلال عدة أشهر اجتمع لابن ياسين حوالي الألف وهنا شعر مجددا بالقوة والقدرة على التحرك ، انما لم يلجأ هذه المرة الى استخدام السلاح مباشرة ، فقام في أصحابه « وقال لهم : يامعشر المرابطين انكم جمع كثير ، وأنتم جم كبير ، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم اله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ، فقالوا : أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ، ولو أمرتنا بقتال ابائنا لفعلنا ، فقال لهم : اخرجوا على بركة الله ، وانذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ، فإن تابوا ورجعوا الى الحق واقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فسار كل رجل منهم الى قومه وعشيرته ، فوعظهم وانذرهم ودعاهم الى الاقلاع عما هم بسبيله ، فلم يكن منهم من يقبل يرجع ، فخرج اليهم عبد الله بن ياسين ، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم ،

وقرا عليهم حجة الله ودعاهم الى التوبة ، وخوفهم عقاب الله ، فاقام يحذرهم سبعة ايام ، وهم في كل ذلك لايلتفتون الى قوله ولايزدادون الا فسادا ، فلما يئس منهم قال لاصحابه : قد ابلغنا الحجة وانذرنا ؛ وقد وجب علينا جهادهم فاغزوهم على بركة الله »(٢٤) .

وبلغ الآن تعداد أتباع ابن ياسين ثلاثة آلاف مقاتل فغزا بهم أولا قبيلة جدالة ، فهزمها وأوقع بين صفوفها اصابات كبيرة جدا ، ثم التفت الى قبيلة لمتونة فاذعنت له وكذلك فعل بقبيلة مسوفة وغيرها من قبائل الصحراء ، وتضاعف عدد أتباع ابن ياسين وملك الأموال ، واتخذ بيت مال « اخذ يركب منه الجيوش ويشتري السلاح ، ويغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء واستولى على قبائلها »(٢٥) .

وأرسل عبد الله بن ياسين « بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس الى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها »(٢٦) وفي عمله هذا مؤشر على تطلعاته المستقبلية في التوجه نحو المغرب الأقصى ، فقد حال بينه في الصحراء وأراضي المغرب الاقصى جبال الأطلس الكبير (درن) حيث توطنت خلفه قبائل مصموده ، وكان شراء رضاء مصموده أمرا استراتيجيا ، وفي مستقبل الأيام أحسن المهدي بن تومرت استغلال عامل الجغرافيا هذا مع انعكاساته في سبيل اسقاط دولة المرابطين .

ويقتضي هذا منا وقفة نتأمل فيها أوضاع بلاد الصحراء ، مسرح العمليات التي أتينا على ذكرها ، ولنتعرف على الأوضاع القبلية هناك والاجتماعية .

بلاد الصحراء التي شهدت حركة المرابطين هي اليوم اقليم مقفر ، قليل السكان ، وذلك بعدما قضى الاستعمار على العمران الموروث الذي كان فيه ، وهذا الاقليم موزع اليوم بين المملكة المغربية وموريتانيا ومالي وغانة مع معظم النيجر ، وقد عاش في هذا الاقليم مجموعة من القبائل ، ووجدت فيه بعض المدن والواحات ومراكز العمران ومحطات القوافل (٢٧) .

وانتمت قبائل الصحراء الى جد قبلي كبير عرف باسم صنهاجة ، واعتقدت صنهاجة انها من أصل عربي مـن قبـائل حمير اليمـن ، وحتى يومنا هذا مايزال المنتمون اليها يستخدمون لغة خـاصة بهـم اسمها الحسانية ، يرون انها لغة حمير لما قبل الاسلام ، واطلق على قبائل صنهاجة اسم « قبائل الملثمين » لأن من عادة كل واحـد مـن الرجال وضع لثام على وجهه لايرفعه مطلقا ، ومـع أن عادة اللثـام نشأت ــ كما هو مرجح ــ عن طبيعـة الحياة في الصـحراء ، غير أن الصنهاجيين تمسكوا بها تقليدا واعطوها مسحة تقديس ، وتصـدر قبائل صنهاجة : لمتونة وجدالة ومسوفة ، ومسراته ، ومـداسة وبنو وارث (٢٨) .

وتحدث الشريف الادريسي عن قبائل لمتونة بقوله :« وهم أصحاب إبل ونجب عتاق رحاله لايقيمون بمكان واحد ، ولباس الرجال منهم والنساء اكسية الصوف ، ويربطون على رؤوسهم عمـائم الصـوف المسماة بالكرازي ، وعيشهم من البان الابل ولحومها مقددة مطحونة وربما جلبت اليهم الحنطة والزبيب ، لكن الزبيب أكثر ، لانهم كثيرا ماينقعون الزبيب في الماء بعد الدق ويشربون صفوه نقيعا حلوا : وفي بلادهم العسل كثير ، وجل طعامهم واحفله الطعام المسمى بالبربرية أسلوا ، وهو انهم يأخذون الحنطة فيقلونها قليا معتدلا ، ثم يدقونها حتى تعود جريشا ، ثم يمزجون العسل ، بمثله سـمنا ويعجنون بـه تلك الحنطة على النار ، ويضعونه في مزاود لهم ، فيأتي طعاما شهيا وذلك أن الانسان منهم اذا أخذ من هذا الطعـام مـلء كفـه وأكله وشرب عليه اللبن ، ثم مشى بقية يومـه لم يشـته طعـاما الى الليل ، وليس لهم مدينة يأوون اليها الا مـدينة نول لمطـة ... وبهـذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لاشيء ابدع منها ولا أصلب منها ظهـرا ، ولاأحسن منها صنعا ، وبها يقاتل أهل المغـرب لحصـانتها وخفـة محملها ؛ وبهذه المدينة قوم يصنعون السروج واللجم والأقتاب المعدة لخدمة الابل ، وتباع بها الاكسية (٢٩) على هذا كان بداة لمتـونة بعيدين عن أسباب المدينة الى حد أنهم لم يعرفوا صـناعة الخبـز ، وكانوا جمالة ، لم يبرعوا في استخدام الخيول ، والصـناعات التـي

وجدت في مدينتهم الرئيسية قد ارتبطت بتقديم الخدمات الاساسية البسيطة للبداة

واوفى من وصف الادريسي ما اودعه البكري في كتابة المسالك والممالك حيث ذكر ان « لمتونة ظواعن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ، ويصيفون في موضع يسمى امطلوس واخر يسمى تاليوين ، وهم الى بلاد السودان اقرب ... وليس يعرفون حرثا ولازرعا ولاخبزا ، انما اموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ، ينفد عمر احدهم ومارأى خبزا ولااكله الا أن يمر بهم التجار من بلاد الاسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق ، وهم على السنة مجاهدون للسودان ... وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة ، وهم يجاورون البحر ، ليس بينهم وبينه أحد ... ولهم ـ لمتونة ـ في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام ، ولايحفظ لهم فرار من زحف ، وهم يقاتلون على الخيل والنجب واكثر قتالهم رجالة صفوفا بأيدي الصف الأول القني الطوال للمداعسة والطعان ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطيء ، ولايشوى ، ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وإن أمالها الى الارض جلسوا جميعا ، فكانوا اثبت من الهضاب ومن فر امامهم لم يتبعوه » (٣٠) .

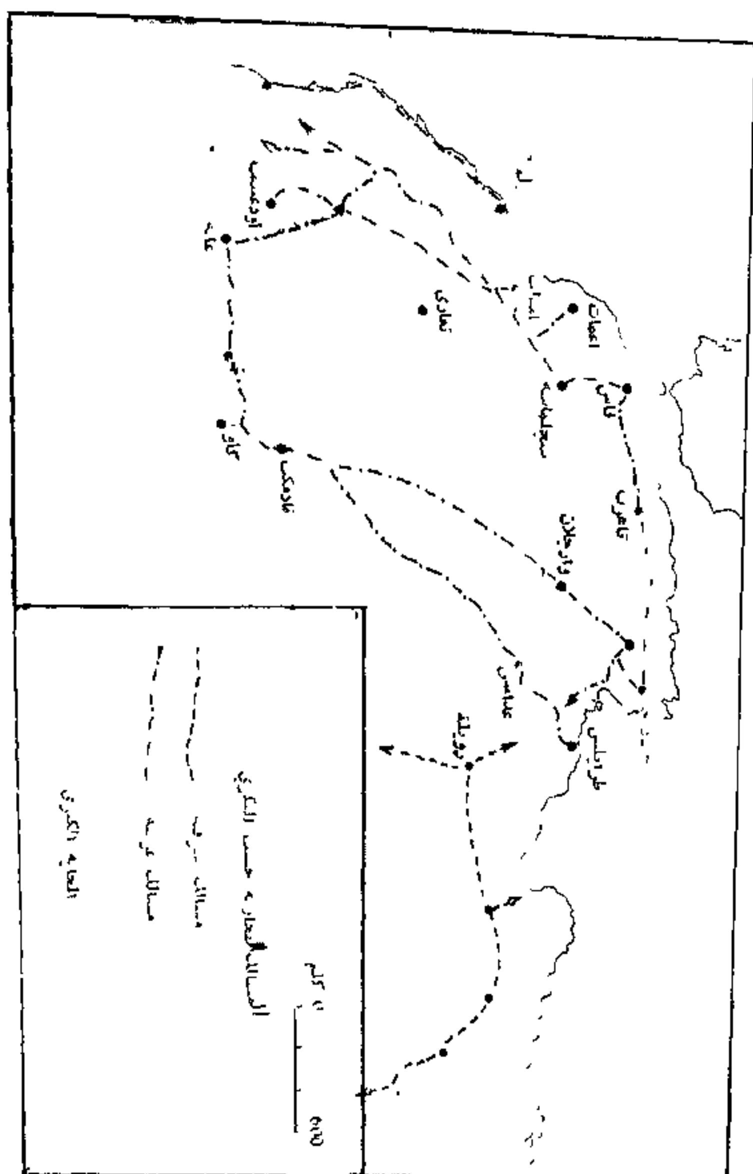
واجمعت المصادر التي تحدثت عن الجانب العسكري لدى قبائل الملثمين على الحديث عن الدرق اللمطية ،ووصف أبو عبد الله محمد الزهري هذه الدرق في كتابة الجغرافية بقوله .« وهذه الدرق من أعجب ما يكون ،وذلك انه اذا ضرب فيها برمح او سيف او سهم وتبخش منها موضع بقيت بعد ذلك يسيرا ،فتفتش فلا يوجد فيه اثر الا رجع صحيحا كما كان وهذه الدرق تهدى لملوك المغرب والأندلس.

واللمط حيوان على قدر العجل أو أقل منه ، طويل العنق ، رأسه كرأس الاشكر ، له أذنان كأذني المعز ، في رأسه قرون طوال سود أو

مزوقة الخلقة خارجة من يافوخه راجعة الى خلفــه ، تبلغ الى كفله ، ولايوجد الا في هذا الصقع ، ومن جلده تصنع الدرق اللمطية ، وانمــا سميت بهذا الاسم لانها نسبت اليه »(٣١) .

ووصل الاسلام الى الصحراء منذ أيام الفتــوحات ، ومــع الأيام ازداد تسربه وانتشاره وعمق الأخذ به ، وكأن لتأسيس النواة الأولى لمدينة فاس ، ثم قيام دولة الادارسة واسع الآثار على تعاظم انتشار الاسلام ، ومن الملاحظ في تتبع تاريخ انتشــار الاســلام والثقــافة العربية في بلدان افريقيا خاصة الشمال الافريقي أن القيروان بعــد تأسيسها قامت بالدور القيادي بالنسبة للدين الاســلامي والثقــافة العربية ، انما مع سعة الانتشار قامت مدينة فاس ، بعــدما تــأسس فيها جامع القرويين بدور الوارث الكبير لنشــاط القيروان ، وبعــد تأسيس مراكش شاركت هذه فاس في حمــل اعبــاء العمــل الثقــافي والديني ، ثم كان أن قامت شنقيط ايضا بــالمشاركة بشــكل قيادي فعال ، لكن دور شنقيط عطله الاستعمار الأوربي .

ومنذ ما قبل قيام الخلافة الفاطمية وجد على أطــراف الصــحراء وفي قلبها عدة مراكز حضارية ، كان اهمها سجلماسة ، فلقد شابهت هذه المدينة بنفوذها التجاري وحتى السياسي على سكان الصــحراء مكة ما قبل الاسلام بالنسبة لشبه جزيرة العرب (٣٢) ومع سجلماسة والى الجنوب منها عند أطراف الصحراء مــع الســودان (افــريقيا السوداء) قامت مكة أخرى هي أودغشت التي ارتبط ازدهــارها « بازدهار سجلماسة ، فقد كانت تمثل محط رجــال قــوافل التجــارة الكبرى بين سجلماسة باعتبارها اخــر مــدينة مغــربية في اتجــاه الجنوب وبلاد غانة ، هدف القوافل التجارية لتوريد الذهب والرقيق ، ولكنها لم تكن محط رحال القوافل لمجرد الاستراحة ، ثــم مــواصلة السير ، فذلك أمر لايكفي لخلق حركة تجارية دائبة وازدهار عمراني ، بل كان سوقها نقطة لقاء يغير فيها تجار قوافل الشمال بضــائعهم المستوردة الى أودغشت من بلاد غانة ولاســيما الذهــب»(٣٣) ومــع الذهب الملح ، وربما ايضا الرقيق.



أودغست
غانا
تغازى
كاو
تادمكة
أغمات
فاس
سجلماسة
تاهرت
ورجلان
غدامس
طرابلس
زويلة
المسالك التجارية حسب البكري
الصحراء الكبرى
٥٠٠
٠ كلم

وعدت مدينة اودغشت مدينة لمتونية ، وقد شدت أودغشت مع تجارة الذهب قبيلة لمتونة نحو السودان ، وهكذا ارتبط التاريخ المبكر لهذه القبيلة بالصحراء والسودان ، وظل مرتبطا حتى بعد قيام دولة المرابطين وتأسيس مدينة مراكش .

وسكن الملثمون داخل المدينة في بيوت بسيطة من الحجارة والطين أوداخل أكواخ من الخوص والشجر او في خيم من الشعر والوبر ، وكان اثاث البيوت مثله مثل البسة الناس من الصوف ، وكان للمرأة بين الملثمين مكانة سامية ، وعدت احيانا مساوية للرجل ، اقتنت الثروات وتمتعت بنفوذ كبير ، ولم يباشر النسوة الأعمال المنزلية ، حيث قام بها العبيد ، وسيمر بنا خبر زينب النفزاوية زوجة يوسف ابن تاشفين ومكانتها لديه ، وصدوره عن رأيها ومشورتها وانقسم مجتمع كل قبيلة أو عشيرة الى فئتين اجتماعيتين امتازتا عن بعضهما : السادة والأمجاد أو الرقيق ، ورست مقاليد الأمور والرساميل التجارية وقيادة الجيوش بأيدي السادة وكان الأمجاد لايباعون ولايعتقون ولكن يورثون ، ويقومون بمختلف الوظائف من رعي وأعمال يدوية ، ولهم الحق بالكسب وامتلاك الثروات شريطة دفعهم لنصيب محدود منها لسادتهم .

وكان الملثمون بشكل عام طوال القامة ، فيهم رشاقة ، لهم وجوه سمراء ، لايمشي الرجل منهم بدون سلاح وقد يحمل رمحين قصيرين لكل منهما سنان طويل مشحوذ من فولاذ جيد (٣٤) .

وقد قرانا في صفحات تقدمت اخبار انطلاق عبد الله بن ياسين ومعه الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ، واخضاعهما لقبيلة جدالة ثم قبائل لمتونة داخل الصحراء ، وطارت شهرة حركة المرابطين ونجاحات رجالها وعمت الأخبار « في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة ، وبلاد المصامدة وسائر بلاد المغرب ، وانه قام رجل بجدالة يدعو الى الله والى طريق مستقيم ، ويحكم بما أنزل الله ، وانه متواضع زاهد في الدنيا ، واشتهر ذلك ببلاد السودان»(٣٥)وفي هذه الأثناء توفي يحيى بن ابراهيم الجدالي ، ويرجح أن ذلك كان سنة

٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م وهنا عقد عبد الله بن ياسين مؤتمرا لمقدمي المرابطين واقدم على اختيار الأمير اللمتوني يحيى بن عمر اللمتوني ، ودلل عبد الله بن ياسين بقراره هذا على أنه ملك بصيرة تاريخية ، ولعل علاقاته المتقدمة ، مع قبيلة جدالة ، وقدرات قبيلة لمتونة ، ولأنها كانت « اكثر قبائل صنهاجة طاعة لله تعالى ودينا وصلاحا ، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويشرفهم ويقدمهم على قبائل صنهاجة ، وذلك لما أراد الله من ظهور أمرهم وتملكهم على المغرب والأندلس» (٣٦) .

« وكان يحيى بن عمر أشد الناس انقيادا لعبد الله بن ياسين وامتثالا لما يأمره به ، ولقد حدث جماعة أن عبد الله قال له في بعض تلك الحروب : أيها الأمير إن عليك حقا أدبا ، فقال له يحيى : ما الذي اوجبه علي ؟ قال عبد الله : اني لااخبرك به حتى أؤدبك واخذ حق الله منك ، فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته ، فضربه الفقيه ضربات بالسوط ، ثم قال له : الأمير لايدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم» (٤) .
وعلى هذا كان « عبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة ، لأنه هو الذي يأمر وينهي ويعطي ويأخذ »(٣٨) .

ويروى أن عبد الله بن ياسين تلقى مع الأمير الجديد رسائل من بعض مناطق الصحراء ، وخاصة من أهالي سجلماسة ، تشكو سوء الأوضاع وظلم الحكام ، وبالتالي تدعو المرابطين ليتولوا أعمال الانقاذ ، ويبدو أن هذه الدعوات لاقت هوى في نفوس قادة المرابطين لكن يستخلص من مواد البكري أن مدينة أودغشت خضعت في هذه الآونة لملك غانة السوداني ، ورأينا من قبل أن هذه المدينة عدت مدينة لمتونية ، ولعل لمتونة فقدت هذه المدينة في مجرى أحداث الصحراء ودخول لمتونة تحت ظل عبد الله بن ياسين ، لهذا أثرت القوات المرابطية التوجه أولا نحو أودغشت لاستردادها ، ويرجح أن هذا كان سنة ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م وتم الاستيلاء على أودغشت عنوة ، ونهبت ، واستباح « المرابطون حريمها ، وجعلوا جميع ما اصابوا فيها فيئا »، واثر هذا بدأت تفقد أهميتها الاقتصادية ليس فقط

نتيجة لما لحقها من دمار وانما بسبب التحول الذي ألم بطرق التجارة ومسالكها لاسيما بعد تأسيس مدينة مراكش وتأسيس دولة المرابطين والاستيلاء على الأندلس (٣٩) .

ولم تحسم معركة أودغشت مسألة الصراع مع السودان ، أو ماعرف انذاك باسم غانة ، وظلت هذه الجبهة مشتعلة تستحوذ على قسط وافر من الامكانات العسكرية لقبيلة لمتونة ، وسيكون لهذا الجانب مع جانب استيلاء المرابطين على المغرب الاقصى وأجزاء من المغرب ثم الأندلس أبعد الآثار على تحديد مصير الدولة المرابطية ، ولاأقصد هنا الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية العامة ، بل أعني الطاقة البشرية ، فقد غدت طاقة لمتونة أدنى من أن تفي بمتطلبات الصحراء وجبهتها والدولة المرابطية واتساعها ، ولنتذكر في هذا المقام ما قدمه ابن خلدون في مقدمته حول عصبية الدولة .
والذي يعنينا الآن هو أن عبد الله بن ياسين بعدما فرغ من شؤون أودغشت بات بامكانه الالتفات نحو سجلماسة .

إن بقايا أودغشت موجودة في موريتانيا وبقايا سجلماسة في المملكة المغربية في اقليم تافللت أو الراشدية ، وكانت سجلماسة تحكم من قبل قبيلة زناتة واسم حاكمها مسعود بن وانودين المغراوي ، ولم يكن حكمه يحظى بالقبول من قبل علماء سجلماسة والصلحاء فيها ، وهكذا اجتمع سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م « فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم فكتبوا الى الفقيه عبد الله بن ياسين والى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما هم فيه بها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي .

فلما وصل الكتاب لعبد الله بن ياسين ، جمع رؤساء المرابطين ، وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر ، فقالوا له : أيها الشيخ الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فسر بنا على بركة الله تعالى ،

فأمرهم بالجهاز ، وخرج بهم في الموفي عشرين لصفر سنة سبع واربعين واربعمائة (٢١ ـ أيار ١٠٥٥) في جيش عظيم من المرابطين ، فسار حتى وصل بلاد درعة ، فوجد عامل امير سجلماسة فأخرجه عنها ووجد بها خمسين الف ناقة كانت بها في مراعيها لصاحب سجلماسة مسعود المغراوي ، فعلم الأمير مسعود بذلك ، فجمع جيوشه وخرج نحوهم ، فالتقى الجمعان ، فكانت بينهم حروب عظيمة منح الله تعالى المرابطين فيها النصر على مغراوة ، فقتل مسعود بن وانودين المغراوي واكثر جيوشه وفر الباقون ، فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم واسلحتهم مع الابل التي اخذ في درعة ، فأخرج منها خمس جميعه ففرقه في فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائها ، وقسم الباقي على المرابطين ، وارتحل من فوره حتى دخل مدينة سجلماسة فقتل من وجد بها من مغراوة ، واقام بها حتى هدنها واصلح أحوالها ، وغير ما وجد بها من المنكرات ، وقطع المزامير ، واحرق الديار التي كانت تباع بها الخمر ، وازال المكوس ، واسقط المغارم المخزنية ، وترك مااوجب الكتاب والسنة تركه ، وقدم عليها عاملا من لمتونة وانصرف الى الصحراء» (٤٠) .

وبعدما انتهى عبد الله بن ياسين من مهامه في سجلماسة غادرها عائدا الى الصحراء ، غير أن أهل سجلماسة مالبث أن وجدوا أن حكامهم من بداة لمتونة أشد قسوة وخشونة ممن تقدمهم ، فشعروا بالخيبة والندم ، وعقدوا العزم على استعادة استقلالهم ، وشجعهم على هذا أن قبيلة زناتة أعادت جمع قواها ، وأن عبد الله بن ياسين يعاني من مشاكل كثيرة مع قبيلة جدالة ومع اللمتونيين ، وهكذا ثارت سجلماسة وتم الفتك بالحامية المرابطية فيها .

ولما عرف ابن ياسين بما جرى في سجلماسة قرر استعادتها بأي ثمن ، فندب « المرابطين الى غزو زناتة ثانية فأبوا عليه ، وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا الى ساحل البحر ، فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة ، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ ، في طوله ستة أيام وفي عرضه مسافة يوم ، وهناك حصن ازقي حوله نحو

عشرين الف نخلة ، كان بناه يانوا بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر ، فصار يحيى في جبل لمتونة ، وذهب عبد الله بن ياسين الى سجلماسة في مائتي رجل من قبائل صنهاجة ، ونزل موضعا يقال له تامدولت ، حصن فيه مياه ونخل كثير»(٤١) .

ومن موقعه الحصين استطاع ابن ياسين ان يجمع جيشا من قبائل الملثمين سرطة وترغة كما أنه استدعى اليه الأمير أبو بكر بن عمر ، وهو اخو يحيى بن عمر ، وكان معسكرا في درعة ، وبهذا امتلك مايكفي من القوات لاسترداد مدينة سجلماسة ، وهكذا توطد سلطان المرابطين في اقليم الواحات ، وعين ابن ياسين يوسف بن تاشفين واليا على سجلماسة ،« ولما ولي يوسف بن تاشفين أحسن الى الرعية واقتصر منهم على الزكاة » (٤٢) .

وفي الوقت الذي كان ابن ياسين فيه في سجلماسة كانت قبيلة جدالة قد جمعت قواها وأرادت اغتنام الفرصة فعادت نحو « يحيى ابن عمر فحاصروه في الجبل وذلك سنة ثمان واربعين وهم في نحو ثلاثين الفا » وقاوم يحيى بن عمر جدالة ، غير انه عبثا فعل حيث قتل « وقتل معه بشر كثير » (٤٣) .

وأمام الوضع الجديد عين عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر خلفا لأخيه ، وسعى للانتقام من جدالة ثم للخروج من الصحراء لقتال برغوطة ، تنفيذا لوصية أبي عمران الغفجومي ، ويرجح أن سجلماسة باتت الآن حاضرة مؤقتة للمرابطين أو لنقل لدولة المرابطين الناشئة فقد وصلنا ديناران ضربا في سجلماسة ويحملان اسم الأمير ابي بكر بن عمر ، وتاريخ الأول منهما سنة ٤٥٠ هـ والثاني ٤٥٦ هـ ، ونعرف مماجاء على الدينارين أن الدولة الجديدة التي قامت الآن في سجلماسة اعلنت الولاء للخلافة العباسية في بغداد (٤٤) .

وازداد تعداد القوات المرابطية ، ووجدت القيادة الموزعة مابين أبي بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين من الضرورة بمكان الخروج من الصحراء الى الأراضي المغربية ، وهكذا تورطت الحركة المرابطية في

حماة مادخلته جميع الثورات والحركات الاصلاحية وسواها في الاسلام بتوجيه امكاناتها نحو داخل أرض الاسلام ، وبسط سلطانها على المسلمين ، وقد يرى بعض الباحثين نوعا من الاستثناء في تاريخ المرابطين ، حيث سنجد فيما سنرويه بعد قليل انشطار القوات المرابطية ، وعودة قسم كبير منها الى الصحراء بقيادة أبي بكر بن عمر ، لكن أبابكر عاد لغايات دفاعية عاد للدفاع عن الصحراء ضد السودان ، وليس للتوسع في بلادهم ، ذلك انه اتخذ من الصحراء مقرا له ، ومن سجلماسة عاصمة ، وقد تكرس هذا بعد بناء مدينة مراكش ، وفي الصحراء مات أبو بكر بن عمر فخلفه في سلجماسة ابنة ابراهيم ، فقد وصلنا من دنانير ابراهيم دينار ضرب في سلجماسة سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ م (٤٥) .

وكانت مسوغات الخروج من الصحراء الى المغرب القتال ضد زناته وضد برغواطة وبعض القوى المتطرفة الأخرى ، وازالة الفوضى والظلم ، والسيطرة على المناطق الساحلية لمزيد من التحكم بالتجارة الخارجية وعجل باتخاذ قرار الخروج تعرض الصحراء للجفاف ، روى النويري عن ابن شداد قوله :« وفي سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلاد الملثمين ، وماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة ، فأمر عبد الله ضعفاءهم بالخروج الى السوس الأقصى وأخذ الزكاة ، فخرجوا وقالوا : نحن مرابطون خرجنا اليكم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم ، فجمعوا لهم شيئا له بال ، فرجعوا به الى الصحراء ثم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشظفها وكثرتهم ، فطلبوا اظهار كلمة الحق ، فخرجوا الى السوس الأقصى ، فتسامع بهم أهل البلاد فاجتمعوا وجيشوا وخرجوا لقتالهم »(٤٦) .

لقد اصطدم المرابطون أولا ببعض قوات مصمودة ، لكن هدفهم كان اقليم تامسنا المغربي حيث وجدت دولة برغواطة ، وبرغواطة بالأصل من قبائل المصامدة ، وقامت دولة برغواطة على أساس ديني مزج بين بقايا الوثنية لما قبل الاسلام لدى البربر وأفكار الشيعة والخوارج والرافضة والمعتزلة ، وقيل اسس الدولة صالح بن طريف وكان طريف من موالي موسى بن نصير بعثه كما رأينا في بعثة

استطلاعية الى الاندلس قبل فتحها ،وقامت هذه الدولة على سواحل المغرب الأقصى وامتدت فيما بين نهري سلا (قرب الرباط الحالية) الى نهر ام الربيع ، وعاشت منذ أواخر القرن الأول للهجرة حتى بعد تاريخ غزوها من قبل عبد الله بن ياسين ممارسة سياسة رعب في البر والبحر ، وقد كان القضاء عليها مطلبا دينيا وسياسيا ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين .

ومهما يكن من أمر سار الأمير ابو بكر بن عمر على رأس جيوش المرابطين وبرفقته فقيهه عبد الله بن ياسين وخاضت الجيوش المرابطية قتالا قاسيا ضد برغواطة استمر حتى عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وفي اثناء القتال اصيب عبد الله بن ياسين باصابات مميتة توفي اثرها وقد دفن بكر يفلة ، ومازال قبره معروفا في المملكة المغربية أقيم عليه ضريح كبير يزوره المغاربة .

وبعد وفاة عبد الله بن ياسين تابع المرابطون القتال حتى حققوا النصر ، ولذلك توجهأبو بكر عائدا مع جيوشه نحو أطراف الصحراء فعسكر في مدينة أغمات ، وكانت أكبر حواضر قبائل مصمودة ، وفي اغمات تزوج أبو بكر من زينب النفزاوية ، وكانت امرأة جميلة ثرية ، ارملة لواحد من كبار التجار أو الأعيان ، لكن ابا بكر لم يقم طويلا في أغمات حيث وردت عليه الأخبار من داخل الصحراء باختلال امورها ، فاتخذ قراره بالعودة الى الصحراء وصحب معه شطرا من جيوشه ، وقبل سفره عين مكانه يوسف بن تاشفين ، وطلق زوجته فتزوجها يوسف ذلك أنها كانت « امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور ، حتى كان يقال لها الساحرة ».

كان ابو بكر « رجلا صالحا كثير الورع ، فلم يستحل قتال المسلمين وسفك دمائهم » لذلك آثر العودة الى الصحراء « ليصلح احوالها ويقيم بها ليجاهد الكفار من السودان ، فلما عزم على الخروج الى الصحراء طلق زوجته زينب وقال لها عند فراقه لها : يازينب انك ذات حسن وجمال فائق ، وأنت لطيفة لاطاقة لك على بلاد الصحراء ، واني مطلقك فإن تممت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين ،

فهو خليفتي على بلاد المغرب » واخذ ابو بكر الطريق الى سجلماسة ويبدو أن الأمور لم تستقم له فيها لسنوات طوال فقد قال البكري « وامير المرابطين الى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة أبو بكر بن عمر ، وامرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم بالصحراء» (٤٧) .

إن مسالة تأسيس مدينة مراكش ، ودور يوسف بن تاشفين - الذي لم يذكره البكري - في اقامة الدولة المرابطية في المغربين الأقصى والأوسط ، ثم مد الحكم المرابطي الى الأندلس هو ماسنتناوله في الفصول التالية ، ولعله من المفيد أن نختتم هذا الفصل بالتعرف الى نهاية ابي بكر بن عمر ، حيث قيل إنه مكث في الصحراء حتى استقرت الأمور فيها ، وهنا عرف بالنجاحات التي حققها يوسف بن تاشفين في المغرب ، فقدم الى مراكش وفي نفسه عزل يوسف ، لكن ابن تاشفين احتاط للأمر وأخذ بنصيحة زوجته زينب ، مما أدى الى نجاحه ، فما كان من ابي بكر بعدما تسلم هدايا كثيرة من يوسف ، وبعدما عرف انه لن يتخلى عن عمله ما كان منه الا أن سلم للأمر الواقع فالتقى بيوسف وخاطبه قائلا :« يا يوسف اني وليتك هذا الأمر ، واني مسؤول عنه ، فاتق الله في المسلمين وأعتقني واعتق نفسك ، ولاتضيع من أمور رعيتك شيئا فانك مسؤول عنهم ، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك ، وهو خليفتي عليك وعليهم ، ثم ودعه وانصرف الى الصحراء » (٤٨) .

والسؤال الذي يواجهنا الآن متى حدث هذا ؟ من الصعب الحصول على تاريخ متفق عليه ، فقد ذكر ابن عذاري صاحب الحلل الموشية أن ذلك كان سنة ٤٦٥ هـ ، وأن ابا بكر عاش بعد عودته الى الصحراء ثلاث سنوات حيث قتل أثناء حروبه ضد السودان ، ولاشك أن أبا بكر عاد من الصحراء بعد سنة ٤٦٠ ، لكن ليس سنة ٤٦٥ هـ ذلك أن زينب النفزاوية توفيت في سنة أربع وستين وأربعمائة » (٤٩) ولم يذكر ابن خلدون سنة عودة أبي بكر لكنه متفق مع رواية روض القرطاس في انه توفي سنة ٤٨٠ هـ ، وكذلك فعل لسان الدين بن الخطيب (٥٠) .

وقد نفترض أن زينب النفزاوية توفيت بعد سـنة ٤٦٤ هـ لكن هنالك مشكلة أخرى تتمثل في وصول دينار ذهبي ضرب في سجلماسة ٤٦٢ هـ جاء عليه فقط اسم الأمير ابراهيم بن أبي بكر (٥١) ومقدر أن في ذكر ابراهيم لاسمه وحده دون اضافة اسم أبيه ، أن الأب كان في سنة ٤٦٢ هـ في عداد الأموات ، فهل كان فعلا ؟ إن هذا ماأكده كل من ابن الأثير والنويري نقلا عن ابن شداد (٥٢) .

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالمغرب والجواز الأول الى الاندلس

مر معنا من قبل أن البكري الذي كان يكتب عن المرابطين سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م لم يعرف يوسف بن تاشفين مع أن الرجل كان كما توحي المصادر الأخرى كان في العقد السادس من عمره وكان من أبرز زعماء المرابطين ، وجاء لدى كل من صاحبي روض القرطاس والحلل الموشية ما يفيد ان ابن تاشفين كان ابن عم ابي بكر بن عمر ، ابن عمه لحمة ، يجتمع معه في جدهم «ابراهيم بن تورقيت » والد كل من تاشفين وعمر . لكن والرجل بهذه المكانة وهذا النسب لماذا لم يعرفه البكري ؟

والمثير للانتباه أن الادريسي عندما تحدث عن اهم قبائل صنهاجة أوحى الينا بأمر اخر حول القرابة فيما بين ابن تاشفين والأخوين ابي بكر ويحيى بن عمر . يقول الادريسي « ومن قبائل صنهاجة بنو منصور وتمية وجدالة ولتونة ، وبنو ابراهيم وبنو تاشفين. وبنو محمد وجمل من صنهاجة » (١).فهل ياترى انحدر يوسف من بني تاشفين وانحدر ابو بكر مع اخيه من بني ابراهيم ؟ إذا صح هذا ففيه تبيان لنوع القرابة التي ربطت يوسف بالأميرين اللذان تقدماه .

وترجم ابن خلكان في وفيات الأعيان ليوسف بن تاشفين، واستقى معلوماته من كتاب حمل اسم «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» لم يهتد الى مؤلفه غير انه وجد في مطلع النسخة التي نقل عنها انها كتبت في الموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة «وجاء في

هذه النسخة " كان بـــر المغـــاربة الجنوبـــي لقبيلة تســـمى زناتة ، فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البـلاد المتـاخمة لبـلاد السودان الملثمون يقدمهم أبو بكر بن عمر ، وكان رجلا ساذجا خير الطباع ، مؤثرا لبلاده على بلاد المغـرب ، غير ميال الى الرفـاهية،
وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين ، فاخذ البلاد من أيديهم من باب تلمسان الى ساحل البحر المحيط ، فلمـا حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر المذكور ســمع أن عجـوزا في بـلاده دهبت لها ناقة في غداة فبكت وقالت ضيعنا ابـو بـكر بـن عمـر بدخوله الى بلاد المغـرب ، فحمله ذلك على أن اسـتخلف على بـلاد المغرب رجلا من أصحابه اسمه يوسف بـن تـاشفين ، ورجـع الى بلاده ا لجنوبية ، وكان يوسف هذا رجـلا شـجاعا عادلا مقـداما، اختط بالمغرب مدينة مراكش"(٢).

وكنا قد سمعنا عن يوسف بن تاشفين للمـرة الأولى لدى تـوليته سجلماسة ثم في الحملة ضد برغواطة ، ولقد عاد مع ابي بكر بن عمر وعسكر معه في أغمات ، وكانت حاضرة ديار قبائل مصمودة ، ولم يعش أبو بكر بن عمر طويلا في اغمـات بـل عاد نحـو الصـــحراء.
وحين فعل ذلك اوكل الأمور في بلاد المغرب الى يوسف بن تاشفين حتى انه طلق زوجته زينب النفراوية واوصاها بالزواج من يوســف ففعلت

لم تمحض قبائل مصمودة الولاء للمرابطين ، وكانت أغمات التي اتخذت الآن حاضرة لهم بلدة مـزدهرة غير أن سـكانها كانوا مـن مصمودة ، وكانت منقسمة الى بلدتين هما اغمات وريكة واغمـات هيلانة ، وكان ان تخلص اغمات للمرابطين معناه اخراج أهلها منها واسكان المرابطين محلهم ثم تـوحيد المدينة وتحصـينها بـالأسوار وغير ذلك من الوسائل الدفـاعية ، ولم يكن هـذا ممـكنا ، يقـول الزهـري :" والمصـامدة خلق كثير ، مســيرة بـلادهم عشرون يوما ، وعندهم بالمغرب الكسـب الكثير مـن بقـر وغنم ، والزرع قليل ، واكثر فاكهتهم العنب والزيتون والتين ...

واما مدينة اغمات التي هي في اقصى هــذا الصــقع فهــي مــدينة موسومة بالقدم ، وكانت حاضرة المصامدة ، وبالقرب منها البــركة العظيمة التي تجتمع فيها مياه أغمات كلها ، وهــي كثيرة الفــواكه والكروم والزرع والضرع» (٣) .

لذلك توجب على المرابطين اتخاذ حاضرة لهم خاصة بهم بدلا من اغمات ، فجرى استطلاع المنطقة فوقع الاختيار على موقع مراكش.

وجاء عند صاحب الحلل الموشية :« لما خرج ـ ابو بكر بن عمر ـ من الصحراء باللمتونيين ، واحتلوا بأغمات وريكة ، وكثر الخلق بها وضيقوا على اهلها ، وكانوا على حال صعبة ، شــكا اشــياخ وريكة وهيلانة الى الأمير ابي بكر بن عمر مــا يلحقهــم في ذلك مــن العناء والمشقة وانهوه اليه المرة بعد المرة ، الى ان قال لهم : عينوا لنا موضعا نبني فيه مدينة ان شاء الله.

فاجتمعوا على أن يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك الأمير ابا بكر بن عمر ، وقالوا له : قد نظــرنا أيهــا الأمير موضعا صحراء ، رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك، وقالوا له :(وادي) نفيس جنانها ، وبلاد دكالة فــدانها وزمــام جبل درن بيد أميرها» .(٤) .

ولعل النقطة الهامة في هــذا ليس تبيان الامــكانات الاقتصــادية للموقع المرتاد وانما «زمام جبــل درن» فهنا مفتــاح الســيطرة على المنطقة وضمان التواصل مــع الصــحراء ، ويســتخلص ممــا رواه صاحب الحلل الموشية ان بداية هذا المشروع العــظيم جــاءت ســنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٥٨ م ، وذلك في ظل قيادة أبي بكر بن عمر ، فهو كان موجودا في اغمات ، ويضيف صاحب الحلل انه شرع في بناء المدينة الجديدة «سنة اثنتين وستين واربعمائة » وانه بينما «الأمير ابو بكر ابن عمر قد نزل بها وأخذ في بناء الديار ، اذ وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء ، يعلمونه أن جدالة أغارت عليهم ، وكانت بينهــم فتنة دائمة ، فاستخلف ابن عمه يوسف بن تــاشفين على المغــرب، ودخل الى الصحراء لاصراخهم ولأخذ ثارهم من عدوهم»(٥) .

وليس من السهل الركون الى هذه الرواية والاعتماد على ما جاء بها من تواريخ . فلقد راينا من قبل ان ابا بكر بن عمر عاد الى الصحراء للحرب ضد السودان وعلى جبهة السودان قضى ، ثم إن دينار ابنه ابراهيم وما ذكره ابن الأثير والنويري قد دعانا الى مراجعة الروايات المعطاة الينا وبعض المصادر حول تاريخ وفاته

ذلك أن المعتمد دوما هو الوثيقة لاسيما اذا دعمتهما بعض الروايات . هذا وجعل صاحب روض القرطاس تاريخ تاسيس مراكش سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م (٦) .

ومهما يك من أمر يبقى تاريخ مراكش مرتبط بيوسف بن تاشفين

لابل أكثر من هذا إن تاريخ حكم المرابطين بالمغرب ثم بالأندلس مرتبط بشخصية يوسف بن تاشفين ، وبعد يوسف عاشت دولة المرابطين بداية النهاية .

وجاء رسم اسم مراكش في المصادر المبكرة «مروكش» أو ما يشابه ذلك ، وقد اختلف حول تأويل هذه التسمية وتركيبها وارجح الآراءالحديثة أن معناها «هو حمى الله أو المكان الذي ترعى فيه عهود الله»(٧)أو المرعى فقط .

وبنيت المدينة الجديدة بدون تصور موحد او خريطة ، مثلما فعل المنصور العباسي عندما بنى بغداد ، واستخدم الناس في بناء دورهم الآجر ، إنما بني ليوسف دار من الحجر (قصر الحجر) وعلى مقربة منه شيد المسجد الجامع ، وحول هذا المسجد قامت بعض الأسواق.

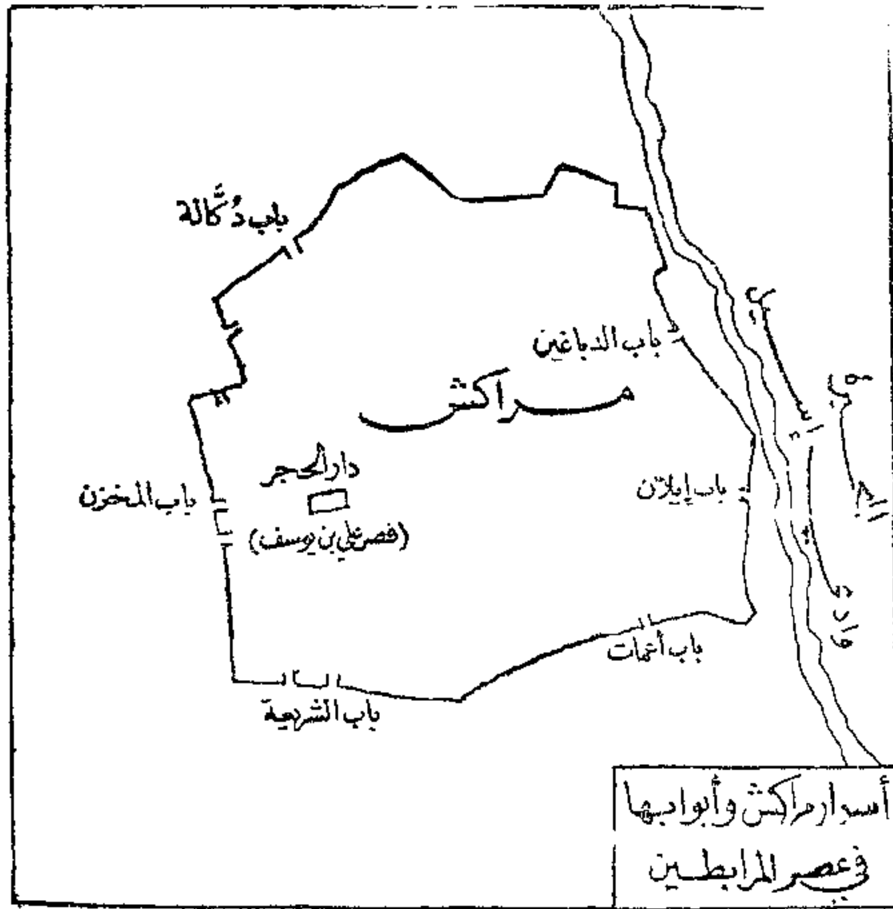
إنما يبدو أن هذه المدينة وإن حصرت بأسوار دفاعية تكونت بالأصل من عدة أحواز كان كل منها أشبه بقرية منفردة ، ومرد هذا الى أن كل عشيرة أو مجموعة بشرية متجانسة اتخذت لنفسها رقعة من الأرض اختطت عليها مساكنها ، وحين قلت مجموعة بشرية متجانسة هدفت الى الاشارة الى أن أعداد كبيرة من الأندلسيين سكنت المدينة ، انتقل بعضهم من اغمات وقدم بعضهم الآخر بعدما ما جذبته الدولة الجديدة ، والهجرة من الأندلس الى المغرب تصاعدت وتيرتها بنتائج حرب الاستغلاب والاضطراب السياسي في

ظل دول الطوائف ، وفيما بعد بسبب اعتماد دولة المرابطين على خبرة الأندلس في جميع المجالات ، وكان لهؤلاء الأندلسيين أعظم الآثار في تكوين شخصية المغرب الأقصى حضاريا وعمرانيا وثقافيا.

ومن المرجح أن يوسف بن تاشفين لم يحسن العربية ولاالقراءة والكتابة وأن الأندلسيين تعلموا بسرعة لغة اللمتونيين فقاموا بدور الاداري والمترجم ،جاء عند ابن خلكان :«وكان يوسف بن تاشفين لايعرف اللسان العربي ، ولكنه كان يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية»(٨) .

وسكن مراكش بعض الأندلسيين وسواهم من غير المسلمين عملوا كمرتزقة في قوات المرابطين ، (٩) ويبدو أن الموقع الذي اختير لبناء المدينة المرابطية الجديدة كان معروفا وقع على طرق التجارة ، وكان فيه وقت وقوع الاختيار عليه « قرية صغيرة في غابة من الشجر» (١٠) وفي الحقيقة لانعرف فيما اذا كان الأندلسيون قد شغلوا دورا ما في خطط المدينة المرابطية الجديدة وفي تطويرها كما أننالانعرف كم استغرق العمل فيها ، والمهم لدينا انه بتأسيس مراكش امتلك المرابطون قاعدة انطلقوا منها لبناء دولتهم المغربية الأندلسية ، وامتلك ـ بالوقت نفسه ـ المغرب الأقصى مدينة غدت مع الأيام قاعدة متقدمة للأسلام وحاضرة هي الأكبر والأهم في الشمال الأفريقي .

من مدينة مراكش انطلق يوسف بن تاشفين نحو بناء دولة المرابطين المغربية ، وقد توجب عليه انتزاع معظم بلدان المغرب من قبيلة زناتة(١١) . لكن لم يكن بامكانه الانصراف ضد زناتة حتى يتخلص من خطر برغواطة التي جمعت فلولها ، وتولى أمرها امير عرف بأبي حفص عبد الله(١٢) . وقام يوسف بن تاشفين اولا بمراسلة برغواطة فبعث بوفد من علماء المالكية الى بلاد تامسنا ، والتقى هذا الوفد مع رجالات برغواطة في مدينة انفا (الدار البيضاء حاليا) المطلة على المحيط الاطلسي ، وقرر البرغواطيون«اعدام السفراء ونفذوا قرارهم ، وعبأوا بعد ذلك



أسوار مراكش وأبوابها
في عصر المرابطين

جيشا قوامه خمسون الف محارب قاصدين طرد قبيلة لمتونه من مراكش ومن المنطقة كلها ، وعندما علم يوسف بذلك انتابه أشد غضب انتابه في حياته ، فجمع جيشا عظيما ولم ينتظر قدوم العدو الى مراكش ، ووصل خلال ثلاثة ايام الى الاقليم بعد أن عبر نهر أم الربيع ، وعندما راى اهل تامسنا هذا الجيش الزاحف لمواجهتهم بحمية شديدة ، انتابهم الخوف وتحاشوا المعركة وعبروا نهر أبي الرقراق في اتجاه فاس ، تاركين اقليمهم ، وحينئذ اباح الملك يوسف هذا الاقليم وسكانه لجيشه ، فأصبح طعمة للنار والدم والنهب والتقتيل للكبار والصغار حتى الأطفال الرضع.

وفي خلال الأشهر الثمانية التي جاس فيها البلاد عمل على تخريبها حتى لم يبق فيها سوى بعض اطلال من المدن التي كانت قائمة فيها ، أضف الى ذلك أن ملك فاس الذي بلغه نبأ قصد أهل تامسنا عبور نهر أبي الرقراق زاحفين باتجاه فاس ، عقد هدنة مع قبائل زناته ، واتجه نحو النهر المذكور على رأس جيش لجب ، وهناك واجه ملك تامسنا البائس الذي كانت قواته منهوكة القوى تماما بسبب الجوع والبؤس ، ولما حاول ملك تامسنا عبور النهر وجد الممر مسدودا في وجهه بتأثير قوات ملك فاس ، وهكذا اضطر هؤلاء البؤساء بعد أن أصبحوا مطاردين ويأسوا من قضيتهم إلى التشتت في الغابات وبين الصخور التي يعسر اجتيازها ، وبعد أن طوقوا وحوصروا من قبل الجيوش الملكية أبيدوا بثلاث طرائق ، فبعضهم غرقوا فعلا في مياه النهر ، وبعضهم الآخر طوردوا في مناطق الجروف الصخرية فدقت أعناقهم بعد سقوطهم في الفراغ ، وحتى الذين استطاعوا أن يخرجوا من الماء سقطوا في أيدي رجال الملك حيث قطعت رؤوسهم بالسيف ، وهكذا راح سكان تامسنا يتناقصون ثم ابيدوا قاطبة في مدة عشرة أشهر ، ويقدر أن عدد الضحايا بلغ المليون بين رجال ونساء وأطفال.

وعاد يوسف ملك لمتونة إلى مراكش كي يعيد تنظيم جيشه ضد ملك فاس وترك تامسنا مأوى للأسود والذئاب والبوم» (١٣) .

وقرأنا قبل قليل ما نقله ليون الافريقي من أن يوسف بن تاشفين عاد الى مراكش بعد القضاء على برغواطة ليعد العدة للزحف ضد فاس ويعطينا ابن عذارى سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م على أنه التاريخ الذي استولى فيه يوسف على فاس بشكل نهائي ، وأيده بهذه الرواية صاحب الحلل الموشية (١٤) ويعني هذا ان الحملة على برغواطة انتهت قبل هذا التاريخ بوقت قريب ، لكن يضعف هذه الرواية ما ذكره البكري الذي كان يكتب سنة ٤٦٠ هـ أن « جميع برغواطة اليوم على ملة الاسلام» (١٥) هذا وروى صاحب روض القرطاس أن الاستيلاء النهائي ليوسف بن تاشفين على مدينة فاس كان» يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين واربعمائة (١٦) (١٨ أيار ١٠٧٠ م) وكانت عمليات يوسف ضد فاس قد بدأت منذ سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢م ، وارجح أن ابن تاشفين انفرد منذ هذه السنة بحكم المغرب ، وانه في هذه السنة عاد إلى مراكش من الصحراء ابو بكر ابن عمر ناويا عزل يوسف فأخفق وسلم له بالأمر ومن ثم عاد إلى الصحراء ، يقول صاحب روض القرطاس وفي سنة أربع وخمسين « تقوى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته ، وفيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة ، فسكن الموضع بخيام الشعر ، وبنى فيه مسجدا للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه.....وفي سنة أربع وخمسين المذكورة جند يوسف الأجناد واستكثر القواد ، وفتح كثيرا من البلاد ، واتخذ كثيرا من الطبول والبنود ، وأخرج العمال وكتب العهود ، وجعل في جيشه الأغزاز والرماة ، كل ذلك ارهابا لقبائل المغرب ، فكمل له من الجيش في تلك السنة أزيد من مائة الف فارس » (١٧) .

واعطانا صاحب الحلل الموشية مزيدا من التفاصيل حول تطوير يوسف بن تاشفين لقدراته العسكرية حتى « قوي أمره ، وعظمت شوكته ، فاشترى جملة من عبيد السودان ، وبعث إلى الأندلس فاشترى منها جملة من العلوج فأركبهم ، وانتهى عنده منهم ماثنتان

وخمسون فارسا ، شراء بما له ، ومن العبيد نحو الفين ، فأركبهم فرسانا ، فغلظ حجابه ، وعظم ملكه »(١٨) .

ولا شك أن شعور يوسف بالخطر على ذاته قد دفعه لشراء أعداد كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود أتخذهم حرسا له ، ومقدر أن مصدر الخطر على يوسف كان أبو بكر بن عمر فهو صاحب عصبية لمتونة والمرابطين.

وبهذه القوة دفع يوسف بن تاشفين خطر أبي بكر بن عمر ثم دفع ايضا بسهولة اكثر خطر إبراهيم بن ابي بكر بن عمر الذي قدم من الصحراء بعد وفاة والده « يطلب ملك أبيه فنزل بخارج أغمات في خلق كثير من أخوانه لمتونة ، فسمع بذلك أمير المسلمين ، فبعث إليه الأمير مزدلي فقال ما الذي تريد يا ابراهيم؟ قال اطلب ملك ابي الذي غصبنا فيه عمي يوسف ، قال مزدلي: إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا ، فان كنت عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بها الى بلدك ، وإن طلبت غير هذا أخاف أن يجعل على رجلك قيدا ، ويحبسك عنده عبدا ، وما قلت لك ذلك إلا بوجه الشفقة عليك ، فقال له: يا عمي مزدلي رضي الله عنك ،عسى أن تجتمع معه في أمري وتبين له حالي .

وكان الأمير مزدلي حسن السياسة ، صحيح المذهب ، عارفا بخدمة الملوك ، فهدن ابراهيم المذكور ، وقال له أقم في موضعك حتى اتيك بكل ما يرضيك ، فانصرف عنه ووصل الى الأمير يوسف بن تاشفين فحسن كلامه إليه ، وانعم الأمير يوسف عليه بمال وخيل وكسى وغير ذلك بعدما بولغ في كرامته وضيافته ، واحتمل له ذلك مزدلي ، فشكره الولد على ذلك وانصرف عنه من هنالك ولم يجتمع بالأمير يوسف وما راه وانصرف إلى الصحراء وبقي بها إلى أن مات »(١٩) .

ونعود ثانية إلى مسألة استيلاء يوسف بن تاشفين على

فاس ، ذلك أن هذا الاستيلاء هو الذي جعل دولة المرابطين دولة مغربية ، فقد كانت فاس دوما حاضرة المغرب الأقصى من كافة الجوانب وكانت أحوالها مضطربة قبيل الاستيلاء عليها ، ولقد رأينا أن اضطراب الأحوال فيها كان وراء مغادرة أبي عمران الفاسي لها ، وكانت فاس تتألف من مدينتين هما: عدوتي الأندلسيين والقرويين ، لكل مدينة أسوارها وموقفها المعادي من الأخرى ، وقد حكمتا قبيل استيلاء يوسف بن تاشفين عليهما من قبل أخوين هما: الفتوح بن دوناس وعجيسة بن دوناس اللذان انتميا إلى قبيلة زناتة ، وتحصن الفتوح في عدوة الأندلسيين وعجيسة في عدوة القرويين « وكانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما وبين أهل العدوتين...وكثر الهرج بسبب ذلك في أرض المغرب واشتد الغلاء إلى أن ظهر أمر لمتونة في أطراف المغرب ، وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله...وبعد أن ظفر بأخيه أتاه لمتسونة فنزلوا عليه وحاصروه ، وتخلى عن المدينة فوليها معنصر ابن عمه ، إلى أن دخلها لمتونة وقتل من بها من زناتة» (٢٠) .

وبعد استيلاء يوسف على فاس « أمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين: عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصرا واحدا ، وأمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، وبنى الحمامات والفنادق والأرحاء ، وأصلح **أسواقها وهذب بناءها»** (٢١) .

بعد استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس شعر أن عليه إكمال مد سلطانه في مختلف الاتجاهات ، وهكذا سيطر على تلمسان وعلى مناطق أخرى من المغربين الأوسط والأقصى ، وكان بعد الاستيلاء على إقليم تامسنا قد تملك شواطيء المغرب الأقصى الأطلسية ، فالتفت نحو الشواطيء المتوسطية فانتزع ملكية طنجة وسبتة ، وشرع يتخذ لنفسه أسطولا خاصا (٢٢) .

والآن وقد غدا يوسف بن تاشفين سلطان دولة واسعة الأرجاء

بحث عن مجالات جديدة للتوسع ، وعن لقب يليق بـه وعن الشرعية أيضا .

كان هناك مجال واحد امام يوسف للتوسع هو الأندلس ، وكان ذلك عملا مسوغا ومرغوبا به ، ولقد كان التوسع باتجاه المغـرب الأدنى مغامرة غير محمودة العواقب ، وكانت العـودة إلى الصـحراء غير واردة ، وتوجب على يوسف إشغال قواته القبلية في جبهة فيها جهاد ومنافع ، وكان مثل هذا ما واجهه قادة السلاجقة بعد الاستيلاء على خراسان ، وإيقاف رجال القبائل الصحراوية وسواها عن الأعمـال العسكرية المربحة كان أمرا لايمكن ليوسف تحمله ، ولعله مثله مثـل رجالاته من قادة المرابطين رأى من واجبه الجهـاد في سـبيل الله ، وتوفر هذا فقط في جبهة الأندلس ، مثلما رأينا مقد تـوفر للتـركمان فقـط في الأراضي البيزنطية بعـد الاسـتيلاء على ديار المسـلمين في الشام والجزيرة والعراق وخراسان .

وكانت بلاد الأندلس بجبهاتها مـوائمة تمـاما لمقـاصد يوسـف والمرابطين ، وكما فعل بداة التركمان حين حاربوا في الشام والعراق والجزيرة حاربوا ضد الهرطقة ، وحين قـاتلوا بيزنطـة كان ذلك في سبيل الله ، ودار عيش وهجرة وسكن في المستقبل ، والشيء نفسه في الأندلس ، كان القتال في الداخل قتالا ضد حكام كلهم فساد وتقصير وظلم وفرقة وفتنة واضطهاد ، والقتال ضد النصارى كان جهـادا في سبيل الله .

ولهذا زاد يوسف من الاعتماد على العناصر الأندلسية في إدارته ، ولم يكتف بذلك بل إنه اشترى بعض النصارى وجند منهم مرتزقة في قواته كما استورد السلاح من الأندلس واوربة وخاصة السـيوف ، ويبدو أن حكام الأندلس من ملوك الطوائف كانوا يرقبـون بقلق مـا كان يجري على ارض المغرب ، ورأينا من قبل أن أفضل المعلومـات عن حركة المرابطين حتى سـنة ٤٦٠ هـ تلك التـي دونهـا الأمير الأندلسي أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممـالك ، والبـكري لم

يرحل إلى المغرب بل استقى معلوماته مما وصل من المغرب إلى الأندلس .

جاء في ترجمة يوسف بن تاشفين لدى ابن خلكان أن كاتبه قال : « له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك انهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لاتجعلهم في منزلة الأعادي فإنهم مسلمون ، وهم من ذوي البيوتات فلا تغير عليهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لايحتمل العساكر ، فاعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب » .

وتداول يوسف مع كاتبه حول شكل الجواب الذي سيبعث به فجاء حسبما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ــ من يوسف بن تاشفين : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم إليكم ، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم بما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام » (٢٣) .

وهام التمعن في الفقرة الأخيرة من إجابة يوسف خاصة قوله « فاستديموا وفاءنا بوفائكم » .

فهنا تهديد مبطن وإنذار ، ولم يرد في الرسالة ادنى وعد بعدم التدخل في شؤون الأندلس ، لكن المسألة ارتبطت بالفرصة المناسبة وباستكمال الاعدادات البرية والبحرية .

وطور يوسف إدارة دولته الناشئة وضرب نقوده ، وكتب « إلى أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة ، والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه ، فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال ، ثم خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ويتفقد

احوال الرعية ، وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من امور الناس » (٢٤) .

وكان يوسف بن تاشفين حتى الآن « يدعى بالأمير ، فلما ضخمت مملكته واتسعت عمالته اجتمع إليه أشياخ قبيلته ، وأعيان دولته ، وقالوا له : أنت خليفة الله في هذا المغرب ، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم : حاشى لله أن نتسمى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وانا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به ، وبعدما أجاب إلى أمير المسلمين وناصر الدين ، خطب له بذلك على المنابر ، وخوطب به من العدوتين ، وامر كتابه أن يكتبوا عنه في ذلك »(٢٥) .

وبات على يوسف بن تاشفين الآن الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد والحصول منها على تفويض له بحكم المغرب واعتراف بشرعية سلطانه ، وكان كاتب الخلافة آنذاك ابن موصلايا ، وهناك نسخة خطية من رسائل هذا الكاتب في تونس لم استطع الوقوف عليها ، لكن اخبرت انها تحتوي على نصوص المراسلات مع يوسف بن تاشفين .

واعرف أيضا ان ابن تاشفين قام في مرحلة لاحقة بإرسال بعثة إلى بغداد قوامها أبو بكر بن العربي ، الفقيه المشهور وصاحب العديد من المصنفات من بينها العواصم من القواصم ، مع ابيه ، وأودع أبو بكر بعض أخبار ما حدث معه في المشرق في مؤلفاته لاسيما في كتابه العواصم ، وكتب كتابا مفردا عن رحلته ، عثر على أجزاء منه ونشرت ، وكنت قد رايت في فاس نسخة كاملة من هذه الرحلة نسخت بخط ردىء في عدة دفاتر ، قيل لي وقتها انها نسخت عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة الزاوية العياشية قرب فاس .

وطبعا حصل يوسف بن تاشفين على الاعتراف العباسي المطلوب

وقيل إن اخباره ارضت كبار الفقهــاء في العــراق وخــاصة الامــام الغزالي حتى روي أن مراسلات تمت بين الغزالي ويوســف ، وذلك على الرغم من أن المرابطين عارضوا نشر كتــاب إحياء علوم الدين للغزالي إلى حد انهم أمروا باحراق نسخه .

ومن الواضح أن جميع مــا عرضــناه حتــى الآن عن التــاريخ المرابطي كان الهدف منه التوطئة للحديث عن دخــول المرابــطين إلى الأندلس وما نجم عن ذلك من نتائج في توحيد الأندلس ، ودفع خــطر السقوط عنها ، وجعلها ولاية مغربية الأمــر الذي نجــم عنه نتــائج خطيرة على صعيد الشمال الأفــريقي والأندلس معــا وعلى صــعيد علاقات الغرب الاسلامي بأوربا الغربية .

لم تكن الاستعانة الأندلسية بقبائل البربر المغربية هي الأولى من نوعها ، فبصرف النظر عن المشاركة البربرية الفعالة في فتح الأندلس استمر تدفق البربر على هذه البلاد ، وازداد ذلك في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد إثر الصراع بين قرطبة والمهدية ، واحتلال القوات الأندلسية لأجزاء هامة من اراضي المغرب الأقصى.

لقد حدث التدخل الأندلسي في ايام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، واستمر ايام ابنه الحكم ، وشهدت الأندلس بعد وفاة الحكم تطورات سياسية خطيرة جدا تمثلت بشاستيلاء المنصور العامري على السلطة وحجره على الخليفة هشام بن الحكم.

والمنصور العامري هو محمد بن عبد الله بن عامر بن ابي عامر ، ينتمي الى قبيلة معافر الحميرية اليمنية ، وأمه سيدة اصلها من قبيلة تميم واسمها بريهة ، وقد ولد سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م في قرية طرش ، موطن اجداده الذين دخلوا الأندلس في أيام فتحها ، وقد نشأ منذ صغره متميز النباهة اهتم بثقافته وعلومه ، طموحا ، أراد اول حياته أن يكون قاضيا لكن طموحه دفع به نحو ارتقاء المناصب ليكون سيد الأندلس بلا منازع (٢٦).

التحق محمد بن أبي عامر بمدينة قرطبة حاضرة الاندلس ودار خلافتها ، وكان الخليفة وقتها الحكم بن عبد الرحمن ، وكان هذا الخليفة قد تسلم الخلافة بعدما تقدم به السن ، ولم يحظ بولد الا بعد أمد طويل ، وانجبت له الولد السيدة صبح وكانت من اصل بشكنسي ، وحمل هذا الولد اسم عبد الرحمن ثم انجبت له هشام الذي سيكون آخر خلفاء بني أمية في الأندلس.

لم تطل الاقامة بابن ابي عامر في قرطبة حتى التحق بخدمة السيدة صبح ليشرف على إدارة أملاكها مع املاك ولي

العهد ، وحظي ابن عامر باعجاب السيدة صبح واسعدها وادخل السرور على حياتها ، وكان كريما متلافا ، وقد تهيأت أمامه السبل ليترقى بالمناصب فاستلم ادارة السكة(٢٧) ثم ما لبث أن تولى وظائف أخرى منها رئاسة الشرطة الوسطى ، وبذلك عرض جاهه وتوثقت صلاته بالوزير الأول المصحفي وبغيره.(٢٨) .

وفي سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م توفي الأمير الصغير عبد الرحمن ، فأسند لابن عامر ادارة أملاك أخيه هشام المؤيد ، وفي هذه الأثناء كلف ابن عامر من قبل الخليفة الحكم بالذهاب إلى المغرب لمرافقة وفد بربري كبير من زناتة على راسه يحيى بن علي بن حمدون ، وبذلك تعرف أبن عامر للمرة الأولى من حياته على قبائل المغرب الأقصى وكسب خبرة بشؤون الحرب والجيوش وقامت علاقات بينه وبين القائد غالب ، الذي كان فارس الاندلس واعلى العسكريين فيها شأنا (٢٩) .

ومع الأيام شعر الحكم بأعباء تقدمه بالسن وبثقل المرض ، فأراد ان يوصي بالخلافة من بعده ، وكان ابنه هشام ما يزال طفلا بدون مؤهلات ، ومع هذا اثر الحكم هواه في محبة ابنه فسماه في سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م وليا لعهده ، مع أنه كان بامكانه تسمية واحد من أله فيه الأهلية ، وتسمية هشام وليا لعهد هذا المسمى(٣٠) .

واستفاد ابن ابي عامر من بيعة هشام بولاية العهد نظرا لعلاقاته الوثيقة به وبأمه ، وتعاون ابن ابي عامر مع الوزير جعفر بن عثمان المصحفي ، وفي سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م توفي الخليفة الحكم ، وكتم نبأ وفاته ، وحاول كما ذكرنا من قبل غلمان القصر من الصقالبة خلع هشام وعدم بيعته ، ورد الأمر إلى الأمير المغيرة بن عبد الرحمن اخو الحكم(٣١) ولم تفلح خطة الصقالبة ، وتعاون المصحفي مع ابن ابي عامر على تصفية قوى الصقالبة الذين تحكموا بالدولة وذلك بعدما تمت بيعة هشام وقتل الأمير المغيرة.

وبعد هذا سعى ابن ابي عامر إلى التخلص من الوزير المصحفي فتحالف مع القائد غالب وصاهره ، وشاركه في عدة عمليات عسكرية

ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وفي سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٨ م صرف المصحفي عن عمله ، وأودع السجن مع أهله (٣٢) وظل يعاني من النكبة حتى توفي مسجونا.

وطبعا عندما عزل المصحفي حل محله ابن أبي عامر ، فعمل في سبيل تقوية سلطانه والتخلص من كل نوع من انواع المعارضة بمختلف الوسائل من قمع وشراء للذمم ومؤامرات ، وأستحوذ على رضى الفقهاء والقضاة إنما بكل صعوبة ، ولم يبق أمامه غير القائد غالب واحتاج التخلص منه إلى جهد كبير وأستعدادات خاصة.

قام ابن عامر اولا بالحجر على الخليفة وعزل دار الخلافة ـ مدينة الزهراء ـ كليا ، وابتنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة غدت مقر السلطة التي رست كلها بيد ابن أبي عامر الذي تلقب الآن بالمنصور ، وهو لقب له مضامين مهدوية ويمانية ، ولم يبق عليه سوى التلقب بإمرة المؤمنين والخلافة ، لكنه لم يقدم على هذه الخطوة لمخاطر ذلك أنذاك ، إنما مهد لذلك السبيل ، وخط سابقة الانتزاء على السلطة ومن ثم تمزيق الأندلس.

لقد كان ابن أبي عامر مجاهدا من الدرجة المثلى قاد اكثر من خمسين حملة ضد الدول الأسبانية في الشمال ، وهزم قوى هذه الدول وجعل ملوكها يذقادون إليه ، غير أنه لم يقض على اي منها ، وتصاهر مع اكثر من ملك من ملوكها ، وهكذا مع ظهور بوادر الضعف على الأندلس وتمزقها انقض هؤلاء الملوك عليها وقادوا حملات مدمرة ضدها.

واهتم عدد من الباحثين بالحياة العسكرية الجهادية لابن ابي عامر ، ويروى أن ابن حيان ـ مؤرخ الأندلس الكبير ـ أوقف كتابا خاصا على أخبار حملات ابن ابي عامر ، وهذا الكتاب بحكم المفقود ، وفي مخطوط جغرافي تاريخي مجهول المؤلف اسمه ذكر بلاد الأندلس أتى المؤلف على اخبار حملات ابن أبي عامر جميعها لكن بشيء من الاختصار.

ونعود الآن نحو مسألة تصفية ابن أبي عامر للقائد غالب ، لقد

فعل هذا بفضل امتلاكه لقوات عسكرية خاصة بـه جندهـا وأشرف على تسليحها وقادها في حملاته ، وجاءت عناصر هذه القوات مـن المغرب الأقصى خاصة من قبيلة زناته ، ووصلت إلى الأندلس على شكل قبائل وافراد حتى بلغ تعدادهم الآلاف ، وتعلق المغـربة بـابن ابي عامر لكرمه ولشدة اهتمامه بهم (٣٣) .

وهام جدا مسـألة اعتياد الأندلسيين على التقـوي بـالمغاربة والاستعانة بهم ، لا بل إنه لمن المثير أن نعرف ان السيدة صبح وقد ضاقت باهمال ابن ابي عامر لها وانصرافـه عنهـا ، فبحثـت عن شخصية تستعين بها للتخلص من أبن ابي عامر ، فوقع اختيارهـا على زيري بن عطية المغـراوي الخـزري أول ملوك زناتـة بـالمغرب الأقصى ، فاتصلت به وعملت على ارسال الأموال لياتي إلى الأندلس لازاحة ابن ابي عامر ، لكن هذه المؤامـرة كشـفها أبـن أبـي عامر ، وأرسل بالقوات إلى المغرب الأقصى فتمكنت من انزال هزيمة ساحقة بزيري بن عطية (٣٤) .

وكان القائد غالب قد ضاق بتصرفات ابن أبـي عامـر ، خـاصة تجنيده لرجالات قبائل زناتة ، فتحـالف مـع ملوك الشـمال مـن الاسبان ، لا بل هم بقتل أبن أبي عامر بيديه ، وجـرحه في وجهـه وابان بعض انامله ، ونجا منه أبن أبي عامر ، وأخذ بجمع قـواته وفي ٣٧١هـ / ٩٨١ م نازله وقامت معـركة شـديدة بين الطـرفين انجلت عن مقتل غالب وتمزق قواته (٣٥) .

وهكذا غدا ابن ابي عامر سيد الأندلس بلا منازع ، غير أنه ظـل عرضة للمؤامرات حتى أن ابنه عبد الله تآمر عليه ، فاعتقله وأعدمه. (٣٦) ولا شك أن المنصور بن ابي عامر قد حقق كل ما طمح إليه وأمن الحماية والمنعة للأندلس ، لكنه جاء في وقت كان المجتمع الأندلسي قد قطع فيه مراحل واسـعة نحـو الوحـدة والوئام والاكتفـاء الذاتي ، وكانت طـاقات أهـل البـلاد العسـكرية كافية ، غير أن المنصور أبعد الأندلسيين عن الميدان العسكري وأسقط العرب مـن الديوان واقتصر بالاعتماد على القبائل البربرية مـن زناتـه بشـكل

خاص ، فأخل هذا بالبنية العامة ، يقول الفتح بن خاقان « وأذل قبائل الأندلس باجازة البرابر ، واخمل بهم اولئك الأعلام الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي اعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا ، وملأها وحشا وذئابا ، وأعراها من الأمان» (٣٧) .

وتحدث الأمير عبد الله أخر ملوك بني زيري في غرناطة وهو الذي عزله يوسف بن تاشفين ـ كما سيمر معنا ـ تحدث في مذكراته عن المنصور بن أبي عامر وسياسته العسكرية ونتائجها بقوله : « وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذا كانوا صنفا واحدا وتألبهم على معصية أمره ، متى أمر بما احبوا أو كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة ، إن هم احد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقويه عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء ، فاستجلب رؤساء البربر وحماتها وانجادها من بلغه فروسيته وشدته ، وتسامع الناس بالجهاد ، فبادر اليه من شرق العدوة من كان لهم من الاثار والمكارم والبأس على النصارى ما لاخفاء به ؛ وبهم كان يصول ابن ابي عامر على العدو ، وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقا ، ومعترك الوغا.....

فرتب ابن ابي عامر الرتب ، واظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشرك ، وحض المسلمين عامة على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الاندلس، وشكوا اليه ضعفهم عن الملاقاة ، وشغلهم بالغزوات عن عمارة ارضهم ، ولم يكن القوم اهل حرب ، فقاطعهم على ان يشتغلوا بعمارة ارضهم ، ويعطوا من اموالهم كل عام ما يقيم به من الاجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم ، فضرب عليهم الاقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها عليهم ، وفرض بينهم مالا يرتزق منه الجيش ، فبقيت تلك الاقطاع عليهم الى ان

عمت الاندلس عدة الثوار ، واتبعوهم على تلك الاثار ، ودأبــه في ذلك إنما كان على ما وصفناه ......

فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته ، وتحصن في حصنه بعد تقــدمة النظــر لنفســه ، واتخــاذه العساكر ، وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الاخر ، وكذلك لايصح أمر بين نفســين ، فــكيف ســلاطين كثيرة واهواء مختلفة(٣٨) ».

على هذا إن التدخل الاندلسي في شؤون المغرب الأقصى ، قد مهــد السبل لتحويل الأندلس الى ولاية مغربية ، وهكذا صــار كلمــا تغير الوضع السياسي في المغرب تغير بالاندلس ، ففي ايام زناته وحــكمها للمغرب ، تحكم الزناتيون بــالاندلس ، وعندمــا قــامت دولة لمتونــة ازاحت زناتة عن حكم المغــرب ، فــكان بــالتالي ان الت الأمــور في الاندلس الى لمتونة وبعد امد استطاع المهدي بن تومرت وخليفته من بعده القضاء على لمتونة ودولة المرابطين بوساطة قبيلة مصمودة فما لبثت الأندلس أن غدت ولاية موحدية حكامها من مصــمودة ، وبعــد زوال ملك مصــموده وحلول المرينيين في ملك المغــرب الأقصى ، تغير الحال في الأندلس مجددا وظلت الأمور تسير على هذا المنوال حتــى سقوط غرناطة وطرد العرب من الأندلس.

صحيح رأينا من قبــل ان عبــد الرحمــن الداخــل عزل الاندلس سياسيا عن بقية دار الاسلام ، وجعلها تتحمل بــطاقاتها لوحــدها مواجهة قوى اوربا الصليبية ، غير ان عبد الرحمــن اوجــد شرعية استقطب أهل الاندلس حولها بدلا من العصــبية القبلية والصراعات العرقية ، وفي ايام عبد الرحمن الثالث تحولت الشرعية الى خــلافة ، وتسارعت التحولات وتعمقت ، فجاء المنصور بن أبي عامر فــأوقفها وجلب المرتزقة البربر الى البلاد ، وبدد غطاء الشرعية ، لذلك مــا أن زالت الدولة العامرية كما قال الأمير عبد الله : « وبقــي الناس بــلا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينته وتحصن في حصنه بعد تقــدمة النظــر لنفسه ، واتخاذه العساكر وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ،

وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لايصبح أمر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة »(٣٩) .

وإنه لأمر مثير ان نقرأ مقدمات سقوط الأندلس في سيرة أعظم حكام الأندلس وأشدهم نكاية في العدو ، وأكثرهم حنكة ودهاء : إنها حقائق التاريخ ، وغالبا ما كانت الحقائق مرة المذاق ، والفارق كبير بين عبادة البطل بعين غير مبصرة وبين بصيرة التاريخ : ومهما يك من أمر واجه المنصور بن أبي عامر منيته سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م وهو عائد من حملة جهادية في الشمال ، وتوفي في مدينة سالم ، وكان قد اتخذ لنفسه الاكفان من رزق كله حلال وجمع ما تعلق بثيابه من غبار في مغازيه ، واستدعى وهو على فراش الموت ابنه عبد الملك فأوصاه ونصحه وارسله لتسلم مقاليد الامور في قرطبة ، وقرر أن يكون ابنه الآخر عبد الرحمن وليا لعهد أخيه ، ثم استدعى قادة جنده وغلمانه فودعهم واوصاهم ، وقد توفي في ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ / ١١ ــ آب ١٠٠٢ م ، وكان يوم توفي « ابن خمس وستين سنة وعشرة اشهر ......فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة الى أن توفي خمسا وعشرين سنة واربعة واربعين يوما ، وترك من الاموال الناضة بالزاهرة اربعة وخمسين بيتا ، وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها ، الذين حارب بهم الحروب عشرة الاف وخمسمائة ، واجناد الثغور قريبا من ذلك ؟ (٤٠) .

وتسلم السلطة عبد الملك بن المنصور ، وحمل لقب المظفر بالله ، وقد نعى الى الخليفة المؤيد وفاة ابيه واخبره بتوليه تدبير الدولة مكانه ، فاقره الخليفة وساعده على النجاح بعمله وخلع عليه وكتب له عهدا بولايته ، « فاستوسق له الامر ، ولم يرد أحد ... طاعته واجتمع الناس على حبه »(٤١) .

ولم يكن عبد الملك مثل ابيه لغلبة « النبيذ عليه واستغراقه في لذاته (٤٢).

ومع هذا تابع الخطط الجهادية لأبيه وبذلك حفظ للاندلس التفوق العسكري والسياسي،واستمر ورود الزعماء من زناتة على الأندلس وظهرت بوادر الضعف على الكيان العامري ،وتعرض عبد الملك

لأكثر من أزمة ،وهكذا لم تطل مدته وقد توفي في السنة السابعة لحكمه « وقيل إنه مات مسموما ، وقيل إنه مات من علة الذبحة..! سنة تسع وتسعين وثلاثمائة»(٤٣) (١٠٠٩) .

واستحوذ على الملك اثر وفاة عبد الملك أخوه عبد الرحمن ، وكان لقبه شنجول ، وكانت أم شنجول ابنة شنجة (ســانشوغارسيس الثاني) ملك بنبلونة ، ومن اسم شنجة نال عبد الرحمن لقبه ذلك انه « كان اشبه الناس بجده »(٤٤) وحصل عبد الرحمـن مـن الخليفـة هشام على التقليد بولاية الحجابة والانفراد بالسلطة « وتلقب للحين بالناصر ثم بالمأمون ، فكان يدعى بـالحاجب الأعلى المأمـون ناصر الدولة ، فنظر في الأمور نظرا غير سـديد ، وانفـق الأمـوال في غير وجهها ، واعان على كثير مـن الناس ، وبسـط يده عليهـم وأخـذ اموالهم ، ونسب اليهم اباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به وابغضوه في الله ، وابتهلوا لله تعالى في الدعاء عليه » (٤٥) .

وبعد مضي شهر ونصف الشهر على ولايتـه طلب مـن الخليفـة هشام « أن يوليه العهد من بعده وأن يتسمى بولي عهـد المسـلمين ففعل ذلك هشام معه لضعفه وسوء نظره ، ونقصان فطرته ، فـولاه عهده ، فكان سبب انحراف اكابر الاندلس عن عبد الرحمـن لماتبين لهم من سخف عقله ، وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه »(٤٦).

من الصعب القول ان عبد الرحمن طمع ان يتملك الاندلس ليجمع حوله بحكم نسبه المسلمين والنصـارى ، حيث يبـدو انه كان غير متوازن فيه نسولة وبدون مؤهلات قيادية أو عزيمة جهـادية ، وكان اقرب الى الخلاعة والمجانة يعاشر رجال الشراب والغناء والضـحك والتسلية واشرك معه الخليفة هشـام في بعض هـذه النشـاطات ، واغضبت تصرفات عبد الرحمن الناس جميعا خاصة رجالات الدولة لانه عرضهم للمهانات حتى أنه امرهم بتغيير ازيائهـم وشـاراتهم واذلهم .

وفي سنة ٣٩٩هـ ١٠٠٩ م ثار في قرطبة محمد بن هشام بن عبـد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقب نفسه بالمهدي ، فخلع الخليفـة

هشام واستولى على الأموال ، وكان عبد الرحمن بن المنصور العامري غائبا في الشمال ، وعندما وصلته الاخبار قرر العودة الى قرطبة وفي الطريق تخلى عنه جنده وأعوانه لذلك بعد ما وصل الى احواز قرطبة القي عليه القبض ثم تم التخلص منه وبهذا زالت الدولة العامرية من الوجود .

ولم يتملك محمد بن هشام الكفاءة او القدرات على النهوض بالاندلس واعادة رونق الدولة والخلافة لهذا « لقبته العامة المنقش لهشاشته وطيشه وخفته ، (٤٧) وهكذا انتشرت الفوضى بالاندلس وزالت وحدتها السياسية وزالت الخلافة ، ولم تفوت دول الشمال الفرصة بالشروع بحرب استغلاب لاتعرف الرحمة وتدخلت هذه الدول ايضا في صراعات القوى الداخلية في الاندلس وسلف بنا القول أن الفترة التي تلت عصر الخلافة عرفت باسم عصر دول الطوائف ، واسس هذه الدول متغلبون عرب وبربر وصقالبة (٤٨) .

ودخل ملوك الطوائف في صراعات متواصلة وطمح بعض الملوك فيها بالتوسع لكن لم يسع واحد منهم لاحياء الخلافة باخلاص وفي سبيل اعادة الوحدة للبلاد ، وتابعت الأندلس في هذه الآونة لكن لبعض الوقت ازدهارها الاقتصادي،واهم من هذا الازدهار الفكري والحضاري ، وتعددت مراكز السلطة ، واختص كل بلاط بعدد من الشعراء والأدباء والعلماء والكتاب ، وكان هناك بذخ كبير وانفاق هائل وتميز العصر بكثرة المغامرين وبالأخذ بالانتهازية السياسية وهكذا انعدم الوفاء والشعور بقداسة الارض وحب الوطن ، واخذ الجميع بسلوك سياسي كان بعيدا كل البعد عن الاخلاق والمثل ، وتبارى ملوك الطوائف بالالقاب وكان هناك اكثر من خليفة .

قال صاحب المعجب يصف ما حدث : « واما حال سائر الاندلس بعد اختلال دعوة بني امية ، فان أهلها تفرقوا فرقا ، وتغلب في كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه ، وتقسموا القاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم تسمى بالمأمون ، وأخر تسمى بالمستعين والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ،

والموفق ، والمتوكل » الى غير ذلك من الالقــاب الخــلافية ، وفي ذلك يقول ابو علي الحسن بن رشيق :

مما يزهدني في ارض أندلس
سماع مقتدر فيها ومعتضد

القاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد »(٤٩) .

وحين فقدت الأندلس وحدتها تبددت طاقاتها العسكرية وانشغلت جيوشها بالدفاع عن الحكام وبــالفتن الداخلية ، وكانت الاندلس في عصر الخلافة تمتلك قــدرات بحــرية كبيرة جــدا ، ففقــدت الآن اساطيلها ، وحدث هذا في مطلع القرن الخامس للهجــرة / الحــادي عشر للميلاد ، الفترة التي انبعثت فيها الطاقات البحرية لدول اوربا خاصة دول مدن ايطاليا ، واندفع النورمان نحــو فــرنسا وســواها وزادت الروح الصليبية التهابا وحــدة وتعصــبا وفقــد المســلمون السيطرة على البحر المتوسط ، ولم تقتصر آثار هــذا الفقــدان على الجانب العسكري والسياسي بل تعدته الى الجــانب التجــاري ثــم الصناعي ، وكان لهذا أسوأ الآثار على ازدهار الاندلس وقــدراتها على التماسك والصمود .

وخفت الضغوط الصليبية احيانا على ملوك الطوائف لدى مــوت واحد من كبار ملوك الشمال وحدوث خلافات حول وراثته من ذلك ما حدث اثر وفاة شانشو (شنجه) الكبير ، حيث انهار صرح الوحدة التي اقامها واقتسم اولاده الاربعــة امــلاكه وهــم : غارســـيا ، وفرناندو ، وراميرو ، وجونثالو ، وقام صراع بين هؤلاء وبرز مــن بين صفوفهم فرناندو صــاحب قشــتالة الذي اســـتطاع ســـنة ٤٢٩ هــ / ١٠٣٧ م أن يســتولي على مملكة ليون ، ثــم قــام منذ ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م بشن عدة حملات ناجحة ضد امراء المســلمين في سرقسطة وطليطلة وبطليوس كما استولى على عدد مــن القــلاع والحصون واجبر بعض ملوك الطوائف على دفع الجزية والاتــاوات له(٥٠) وتوفي فرناندو سنة ٤٥٨ هــ / ١٠٦٥ م فقــام صراع بين

اولاده حول توزع املاكه واستطاع سانشو الثاني الذي كان من نصيبه مملكة ليون ان يهزم أخاه الفونسو السادس ، وبعدما اسره نفاه الى ديار المسلمين فالتجأ الى طليطلة ، وقد سلفت الاشارة الى هذه المسالة ، ومفيد ان نعود هنا لنبين أن الفونسو السادس امتلك بعد وفاة اخيه سانشو قشتالة وليون ثم ضم اليهما جيلقية ، ومن ثم اقلع في حرب ضروس ضد المسلمين الذين انغمس امراؤهم « في الملذات وصارهمهم الوحيد منافسة بعضهم بعضا في البذخ والترف ، وكانوا في حسد دائم مع بعضهم وحرب مستمرة بالخنجر والانغماس في الحضارة »(٥١) .

ومعروف ان الحضارة عند ما تغدو انغماسا في الملذات تفرغ من محتواها الاخلاقي وتصبح عرضة للسقوط بسرعة على ايدي القوى الهمجية ، وقام ابن الطقطقي صاحب الفخري في الاداب السلطانية بوصف درجة الحضارة التي وصلت اليها الخلافة العباسية وقت تعرضها لغزو هولاكو ، وتحدث عن الانغماس في الملذات ، ثم حكى عن واحد من امراء الجند الذين تصدوا لجيش هولاكو قال : « كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج الى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة ، قال : فالتقينا بنهر بشير من اعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج الى المبارزة ، وتحته فرس عربي ، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج اليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار ، وفي يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من راه ، ثم ماتم النهار حتى كانت لهم الغرة ، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الامر ما كان »(٥٢) .

لقد ملكت الهمجية الاسبانية الصليبية المتعصبة القدرة على الفتك بالحضارة الاسلامية والوجود العربي بالاندلس ، وكان فقط يمكن لقوة من السوية الحضارية نفسها مع التعصب أن تتصدى لها ، ووجدت هذه المؤهلات لدى لمتونة المرابطين ، لكن لمتونة ما لبثت أن

تأثرت بحضـارة الأندلس أو تصـادمت معهـا ، وكان لذلك نتـائج خطيرة .

لقد اخذت حرب الاستغلاب التي قادها الفونسو السادس سـمة صليبية واضحة ، شارك فيها متطوعون مـن كل طـرف اوروبـي ، وباركت البابوية هذه الحروب ودعمتها بصكوك الغفـران ، وهـكذا اشتعلت الحروب الصليبية على ارض الاندلس وامتدت الى صـقلية قبل أن تشتعل في أرض الشام ، ومع هذا امتزجت حرب الاستغلاب في الأندلس بشيء من المشاعر القومية او الوطنية « فقد عد ملوك ليون انفسهم ورثة الملوك القوط للأندلس قبل الفتح الاسلامي لهـا ونقـل احد رسل الفونسو السادس الى الامير عبد الله صاحب غرناطة قول الفونسو :« انما كانت الاندلس للروم في أول الأمر ، حتى غلبهـم العرب والحقوهم بأنحس البقاع : جليقية ، فهم الآن عند التمـكن ، طامعين في أخذ ظلاماتهم »(٥٣) .

وكان الفونسو على بينة بأحوال حكام الأندلس وبتدهور أحـوال الناس فيها ، وبهدف زيادة اضعاف البـلاد بنى خـطة في حـروب الاستغلاب ، فقد نقل عنه قـوله :« انا مـن غير الملة ، وكل الناس يشنأني ، فبأي وجه اطمع في اخذها ، ان كان من بـاب الطـاعة ، فأمر لايمكن ، وان كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتـذهب اموالي وتكون الخسارة علي اكثر مما نرجـوه إن صـارت الي ولو صارت لم تتمسك إلا بأهلها ، ثـم لا يؤمنون ، ولا مـن الممـكن ان نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ، ولكن الراي ، كل الراي تهـديد بعضهم ببعض ، وأخذ اموالهم أبدا ، حتى ترق وتضعف ، ثم هـي تلقي بيدها اذا ضعفت ، وتأتي عفوا كالذي جرى بـطليطلة ، انمـا كان من فقر اهلها وتشتتهم ، مع اندبار سـلطانها ، وصـارت الي بلامشقة »(٥٤) .

والمثير للانتباه ان أمراء دول الطوائف كانوا على بينة بـاهداف الفونسو وخططه ومع هذا « كان الجميع يساير الأمـور ، ويدافـع الأيام ويقول : من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا .... يأتـي

الله بالفرج وينصر المسلمين »(٥٥) وكان كل منهم يشتري رضى الفونسو ، ويطلب منه ان يكون معتدلا في مطالبه حتى لا تسقط دولتهم لآخر من ملوك الطوائف فيصبح قويا في وجه الفونسو ، فقد حاصر الفونسو غرناطة وطلب مبلغ خمسين الف مثقال مقابل انصرافه « على خير » فأجابه الأمير عبد الله :«إن ذلك لايقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد ، فانه لو اخذ غرناطة قوي عنصره ، ولم ينطع لك ، فخذ ما نقدر عليه ، واترك رمقا لانستأصل من اجله ، وما تركت تجده عندنا متى ما طلبت » (٥٦).

لقد استنزف ملوك الطوائف اموال اهل الأندلس في شراء السلم من الفونسو وفي بذخهم غير المحدود ، ولعل الحكاية التالية تكفي في أن تكون شاهدا ، التقى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بفتاة من عامة الشعب فأعجب بها وخلبت عقله فتزوجها ، وكان اسمها اعتماد ، وتعرف عادة باسم روميكيا ،وقد « رأت مرة نسوة من المتهنات قد وضعن ارجلهن في معجن فيه طين لضرب اللبن ، فدفعها هذا الى البكاء ، فأثر ذلك في نفس المعتمد وسألها : ما الذي يبكيك ؟ فقالت له : اه إني لتعسة ، ومنذ انتزعتني من الحياة الحرة الطليقة المرحة ايام أن كنت انعم بكوخي الحقير ، وانا سجينة هذا القصر العابس ، اسيرة الحياة المقطبة ، مثقلة بسلاسل التقاليد وعادات القصر المملة ، انظر الى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطىء النهر ، وانظر الى أرجلهن منتعلات بالطين ، ليتني كنت عارية القدمين مثلهن اعجن الطين ، وليتني حرمت الغنى والسلطان ، واعطيت الحرية التي استطيع بها أن أفعل ما اريد ، فأجابها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة لطيفة : بل انك عما قليل ستستطيعين .

ونزل في اللحظة نفسها الى فناء القصر ، وأمر باحضار مقدار عظيم من المسك والعنبر وبعض الاعطار ، ووضع ذلك كله في معجن ، وامر أن يمزج بماء الورد ، ويداف ويسحق ، الى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كن يضربن اللبن ، ولما تهيأ له كل ما اراد من ذلك صعد الى اعتماد وقال لها :

لتتفضلي بالنزول الى فناء القصر انت وجواريك ، فـان معجـن الطين في انتظارك فنزلت الأميرة الى ساحة القصر ، وخلعـت هـي وجواريها نعالهن وصرن يعجن باقدامهن ذلك الطين المسكي المدوف وهن في مرح وسرور

ومما لا ريب فيه ان تحقيق هذه الرغبة قد كلف المعتمد ثمنا باهظا واموالا طـائلة ، وقـد كان في اسـتطاعته ان يغضي عن هـذه الحادثة »(٥٧) .

وقد تذكرنا هذه الحادثة بحادثة ميسون ابنة بحدل زوج معـاوية بن ابي سفيان حين ضاقت ذرعا بحياة القصر ، غير ان الفارق كبير جدا فهذه جبل لها المسك والعنبر لتعبث به وتلك قالت :

ولبس عباءة وتقر عيني

احب إلي من لبس الشفوف

وتوالت المصائب على عرب الأندلس ، وعندما كان الضعف ينتاب الفونسو او يحتـاج الى المال والمؤن ، كان ملوك الطـوائف يهبـون لنجدته والتفريج عنه ، لذا حق له أن يتسمى بملك الملتين وأن يحمـل لقب امبراطور ، وحدث في عام ٤٧٨ هـ /١٠٨٥ م أن حاصر مـدينة طليطلة ، وكان ذلك في فصل الشتاء وكان ذلك الشتاء قاسيا جـدا ، فيه اشتد البرد وكثر المطر مما سبب انقطاع المواصلات بين شـمال الأندلس وطليطلة الواقعة بالوسط ، وهكذا تعذر وصـول المؤن الى جيش الفونسو ، واصيب جيشه بمجاعة حقيقية ، وعندمـا اصـبح الفونسو في هذا الوضع المخيف هب ملوك الطوائف لقتـاله واغتنام الفرصة بدفعه عن طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بل للتفريج عنه وعن جيوشه « ولولا اهتبال ملوك الطوائف بـاقامة مـرافقة ، واصغاؤهم الى هدر شقاقه لطار شعاعا ، وذهب ضياعا »(٥٨) .

وسقطت طليطلة ، ودخل الفونسو عاصمة القوط القديمة وانتهـت دولة بني ذي النون ، ورثى احد الشعراء طليطلة بقصيدة منها قوله :

طليطلة اباح الضد منها
حماها إن ذا نبأ كبير

محصنة محسنة بعيد
تناولها ومطالبها عسير

الم تك معقلا للدين صعبا
فذلله كما شاء القدير

واخرج اهلها منها جميعا
فصاروا حيث ساء بهم مصير

وكانت دار ايمان وعلم
معالمها التي طمست تنير

مساجدها كنائس اي قلب
على هذا يقر ولا يطير(٥٩) .

لقد غدت الآن طليطلة عاصمة لدولة قشتالة فانقلبت الموازين وتغير الوضع الاستراتيجي بالاندلس ، فمن قبل كان مقر هذه الدولة في اقصى الشمال ، أما الآن فبات في وسط الأندلس ، في موقع مسيطر على جميع انحاء شبه الجزيرة الايبيرية ، يقول ابن الكردبوس : « ولما حصل الطاغية الفنش لعنة الله بطليطلة ، شمخ بانفه ورأى أن زمام الاندلس قد حصل في كفة ، فشن غاراته على جميع اعمالها حتى فاز باستخلاص جميع اقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات (البلدات) والقرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة الى طلبيرة وفحص اللج واعمال شنتمرية كلها ، ولم يكن بالجزيرة من يلقى اقل كلب من كلابه ، فعند ذلك وجه كل رئيس بالاندلس رسالة الى الفنش مهنئين ، وبانفسهم واموالهم مفتقدين وفي أن يشركهم في بلاده له عاملين ، ولاموالهم اليه جابين ، حتى ان صاحب شنتمرية حسام الدولة ابن رزين نهض اليه بنفسه ، وتحمل هدية عظيمة القدرسنية ، متقربا اليه ، وراغبا ان يقره في بلده عاملا بين يديه

فجازاة على هديته بقرد وهبه اياه ، فجعل ابن رزين يفخر بـه على سائر الرؤساء ويعتقد انه جنته مما كان يحذر من الفنش من وقـوع الباساء .

وانتحى الفنش انتخاء الجبابرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما احتقر به كل ماشي على التـراب ، وتسـمى بالانبراطور ، وهو بلغتهـم امير المؤمنين ، وجعـل يكتـب في كتبـه الصادرة عنه : من الانبراطور ذي الملتين »(٦٠) .

واجمل ابن الكردبوس وصف علاقات الفـونسو السـادس مـع حكام الاندلس بقوله « واسـتحكم في المسـلمين طمعـه ، وصـح في قياسه الفاسد ان يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه فلم ينم عن شـن الغارات ومواصلة الغزوات .

وصادف ايام ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا عظيمـا ، وضعف بعضهم عن البعض الا بمعـونة الروم ، فبـذلوا للفنش مـا يحبه من الاموال ليعينهم على مناوئهم بانجاد الرجـال ،واللعين في اثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور ، وهم عن ذلك مشتغلون بشرب الخمور ، واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرأت من المشرق ، كي يوجهها الى الفنش هدية ليتقرب بها اليه ويحظى دون مطالبه لديه ، الى أن ضعف مـن أولئك الثـوار الطـالب والمطلوب ، وذل الرئيس والمرؤوس وافتقرت الرعية ،وفسدت أحوال الجميع بـالكلية ،وزالت من النفوس الأنفة الاسلامية ،واذعن من بقي منهم خارج الذمـة الى اداء الجزية ،وصاروا للفنش عمالا يجبون له الأموال ،لايخالف أمره احد ،ووكلوا أمور المسلمين الى اليهود ،فعاثوا فيهـم عيث الأسـود وجعلوهم حجابا ووزراء وكتابا .

وتطوف الروم في كل عام على الأندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون»(٦١) .

وبعدما صار الفونسو سيد طليطلة اخذ يتطلع بجدية نحو اشبيلية للاستيلاء عليها وازالة ملك آل عباد منهـا ، واتبـع في سـبيل ذلك

خططه المعروفة في التهديد واستنزاف الموارد ، واشعار الناس بعدم وجود منفذ ، وحاول ابن عباد دفع الفونسو السادس عنه فراسله وحاول شراء رضاه بالأموال والقلاع وغير ذلك ، وبعث اليه في احدى المناسبات برسول يهودي «يعرف بابن مشعل فقال له : كيف اترك مجانين (ج.ماجن) تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم : المعتضد والمعتمد ،والمعتصم ،والمتوكل، ،والمستعين ،والمقتدر ،والأمين ،والمأمون ، وكل واحد منهم لايسل في الذب عن نفسه سيفا ، ولايرفع عن رعيته ضيما ولاحيفا ، قد اظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المغاني والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحدا ، وأن يدعها بين أيديهم سدى»(٦٢) .

وكذلك بعث الفونسو الى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية بوفد من عنده ليجبي منه الجزية ، وترأس هذا الوفد يهودي اسمه«ابن شالب ، ونزل رجال الوفد «خارج اشبيلية ، فوجه اليهم المعتمد ابن عباد المال المعلوم مع بعض اشياخ اشبيلية ، منهم ابن زيدون (ابن الشاعر المشهور) وغيره ، فلما وصلوا الى خبائه واخرجوا اليه المال العين والسبائك ، قال لهم اليهودي : والله لاأخذ منه هذا العيار ، ولاأخذ منه الا مشحرا ، ولايؤخذ منه في هذا العام إلا أجفان البلاد ، وزاد في كلامه ونقص ، واساء الأدب ، فبلغ المعتمد خبره ، فدعا بعبيده وبعض جنوده ، وأمرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شالب ، واسر من كان معه من النصارى ففعلوا ما امرهم به من ذلك .

فلما بلغ ذلك انفنش ، اقسم بأيمان مغلظة أن لايرفع يده عنه وانه يحشد من الروم عدد شعر راسه ، ويصل بهم الى بحر الزقاق ، فكان ذلك .

وخرج أنفنش في جيش لايحصى كثره ، وافسد في الشرف (ربض اشبيلية) فسادا كبيرا ، وحرقه ، واجتاز عليه قاصدا حصن طريف ، فوقف على شاطى بحر الزقاق ، والبحر يضرب ارساغ

فرسه»(٦٣) ومن هناك بعث برسالة فيها تحديات وقحة الى يوسف بن تاشفين .

وكيف لايفعل هذا ولايشتط حيث لم يجد في الأندلس من يقاومه او يدفعه ، فقد«انتشر الروم على جميع الأقطار ، وعاشوا في جميع الأمصار ، وصارت لهم اقصى بلاد الاسلام مرتعا ، ولقد بلغ الروم ان اغاروا في ثمانين فارسا ممن لاخلاق لهم على نظر المرية ، فأخرج ابن صمادح قائدا من قواده ، ومعه من خيار جنده اربعمائة ، فلما التقوا بالعدو ،انهزموا، وما وقفوا ولا اقدموا»(٦٤).

والمثير للانتباه هنا إن المستعرض لتاريخ الأندلس حتى نهاية الفترة العامرية أن القوات المسلمة كانت تلقى في الشمال مقاومة عنيدة ، وان ملوك الشمال لم يلق أيا منهم السلاح ولم يستسلم بل لم يتعد واقع الحال كما قالت العرب « هدنة على دخن».

ويئس اهل الأندلس من ملوكهم فكان أن توجهوا بأبصارهم نحو المغرب الأقصى حيث يوسف بن تاشفين ، وقصدته وفود اندلسية «وشكوا اليه ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بامدادهم واعانتهم وصرفهم الى أوطانهم»(٦٥) .

وشدد الفونسو من ضغوطه على ابن عباد «وسأله ان يخلي له معاقل كان الموت عنده اولى من اعطائها ، فوجست نفسه منه بالجملة» (٦٦) .

وقال ابن الكردبوس «ولما تيقن كل من ثار ورأس ، ولاسيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس ، مذهب الفنش فيهم وانه لايقنع منهم بجزية ولاهدية ، رأوا أن الرجوع الى الحق أحق فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، على أن ينخرطوا في سلكه ، ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له بابا الى الجهاد كانوا قد سدوه ، فأجابهم الى ما رغبوه ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، اذ كان في جهاد المشركين والذب عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التأييد من خلال غمامه»(٦٧)

لم تكن الأمور بمثل هذه الدرجة من السذاجة ، وفي الحقيقة لم يرجع ملوك الطوائف قط الى جادة الصواب ، وابدا لم يروا أن الرجوع الى الحق أحق ، بل ارادوا الحفاظ على ملكهم من خلال حرب يخوضها الصديق ضد العدو فتضعفهما معا فتحصل الفائدة لهم ، فقد رام ابن عباد كسر الفونسو«بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض»(٦٨) .

غير أن يوسف بن تاشفين تنبه لهذا ، ربما بوساطة مستشارية من اهل الأندلس وأثر هذا التنبه على طبيعة المواجهة العسكرية بينه وبين الفونسو وعلى استثمارها ثم على مستقبل ملوك الطوائف .

ولم يرد يوسف على نداءات الاستغاثة بالاستجابة الفورية ، وكذلك فعل عندما بلغته رسالة الفونسو التي جاء فيها:

«لم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل والاهمال للرعية ، والاخلاد الى الراحة ، وانا اسومهم الخسف فأخرب الديار ، واهتك الأستار ، واقتل الشبان واسر الولدان ، ولاعذر لك في التخلف عن نصرهم إن امكنتك فرصة هذا ... فان كنت لاتستطيع الجواز فابعث الي ما عندك من المراكب لأجوز اليك ، وانا اقاتلك في احب البقاع اليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة»(٦٩) .

واخذ يوسف بن تاشفين يعد العدة للجواز الى الأندلس ، واقتضى الحال منه تأمين ما يكفي من القوات البرية للجواز والقتال ، وتأمين الأساطيل اللازمة لنقل القوات مع الأعتدة والمؤن والأسلحة وجلب الامدادت اذا لزم الأمر ، وهكذا» شرع في تجديد العساكر ووفورها ، وبعث الى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم ، يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب ، وطاعة أهله ، ويؤكد عليهم في القدوم اليه ، فوفد عليه منهم جموع كثيرة ، ولاهم الأعمال ، وصرف اعيانهم في مهمات الأشغال ، فاكتسبوا الأموال ، وملكوا رقاب الرجال ، وكثروا

بكل مكان ، وساعدهم الوقت والزمان ، وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم ، وعظم ملك يوسف بن تاشفين ، وضم من جزوله ولمطه ومصمودة وقبائل زناتة جموعا كثيرة ، وسماهم بالحشم ، وضم طائفة أخرى من أعلاجه وأهل داخلته وحاشيته فصاروا جموعا كثيرة ، وسماهم الداخليين ، فاجتمع له في الطائفتين ثلاثة الاف فارس»(٧٠) .

ولم يكتف يوسف بهذا فقد وجد نفسه بحاجة الى السلاح والعتاد من الأنواع المستخدمة في الأندلس مع خبراء بشؤون القتال لدى الأندلسيين وأعدائهم ، ولهذا «بعث الى الأندلس برسم شراء العدة وآلات الحروب ، فاشتري له منها كثيرا » وأمضى عاما في «اقتناء العدة واتخاذ السلاح واقتناء الأجناد واختيار الرجال فبلغ جيشه الى اثني عشر الف فارس ، كلهم نخبة أنجاد»(٧١) .

ولم يكتف يوسف بهذا بل تبادل الرسائل مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف يطلب منهم جمع قواتهم وتوحيد طاقاتهم العسكرية لتجتمع اليه بعد عبوره الى الأندلس لقتال العدو ، وطلب يوسف من ابن عباد تسليمه الجزيرة الخضراء يتخذها قاعدة لقواته التي ستجوز الى الأندلس ، وجاء هذا الطلب بناء على نصيحة واحدا من كتابه اسمه عبد الرحمن بن أسباط ، وكان اندلسيا من اهل المرية ، فقد روي انه قال له:« أيد الله الامير تعلمون أن الاندلس جزيرة مقطوعة في البحر ، ويعمر المسلمون منها الثمن وسبعة اثمان يعمرها النصارى وهي ضيقة حرجة ، سجن لمن دخلها ، لايخرج إلا تحت حكم صاحبها ، وإن انت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء ، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه متات قديم ، ولاصداقة متصلة ، ويبقى إذا قضى الله الغرض من العدو أن يمسك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكتب إليه إنك لايمكنك الجواز إليه إلا ان يعطيك الجزيرة الخضراء ، فتجعل فيها ثقاتك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت » (٧٢) .

وكتب يوسف إلى المعتمد بن عباد يطلب منه التخلي له عن الجزيرة الخضراء وأن يخليها له ويكتب بذلك صكا عليه توقيعه مع شهادات رجال الدولة والقضاة والفقهاء ، وكانت ولاية الجزيرة الخضراء مسندة إلى الراضي يزيد بن المعتمد ، لهذا عارض تسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين ، وكان الرشيد الابن الثاني للمعتمد قد عارض من قبل ايضا فكره الاستعانة بالمرابطين ، وأيده في هذا وجوه دولة اشبيلية ، فقد أشار هؤلاء على المعتمد « بمداراة الأنفنش ملك قشتالة ، وطلب معاهدته ، وعقد السلم معه على ما يذهب إليه من الشروط ، وكيف ما أمكن ، وإن ذلك أولى من تجويز المرابطين .

ثم إنه خلا بعد ذلك بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، وقال له : يا عبيد الله إنا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس لنا فيهم نفع ولا ترجى منهم نصرة ولا جنة إن نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ثقيل ، وهذا اللعين أذفنش قد أخذ طليطلة من يد ابن ذي النون بعد سنة سبع وسبعين ، وعادت دار كفر ، وهاهو قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بكلكله ما يقلع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذا الصحراوي ، ملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لاقدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف مجبانا وتبددت اجنادنا ، وابغضتنا العامة والخاصة ، فقال له ابنه الرشيد : يا أبت اتدخل علينا في اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا ؟ فقال : يا بني ، والله لايسمع عني ابدا أني أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثلما قامت على غيري ، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير » (٧٣) .

لاندري مدى صحة هذه الرواية اخذين بعين الاعتبار أن الحديث جرى على خلوة بين اب وابنه ، والمهم معرفته الآن هو أن المعتمد ابن عباد جمع (٧٤)» القاضي والفقهاء ، وكتب عقد هبة الجزيرة

الخضراء ليوسف بن تـاشفين وتسـليمها له بمحضر ذلك الجمـع ، وبعث به إليه » (٧٥) .

وقام المعتمد بن عباد بمخاطبة جاريه المتوكل عمر بن محمـد بـن الافطس ملك بطليوس ، وعبد الله بن حبوس ملك غرناطـة ، وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضي حاضرة دولته وحين فعلا استحضر قاضي قرطبة وأضاف إلى هؤلاء القضاة وزيره ابن زيدون وبعث بهم وفدا للتعاقد مع يوسف بن تاشفين حول ترتيبات دخوله إلى الأندلس وبعد مفاوضات تم الاتفاق والتعاقد على أن تتصـل الأيدي على غزو الروم بمعونته ، وألا يعرض لأحدنا ببلده ولايقبل عليه رعيته ، ومن يروم الفساد عليه » . (٧٦) .

وتأهب يوسف بن تاشفين وقاد قواته نحـو سـبته للعبـور إلى الجزيرة الخضراء ، وفعـل هـذا بعـدما وردت عليه رسـل المعتمد « تعلمه انه يتأهب للجهـاد ، وتعـده بإخـلاء الجـزيرة الخضراء ، وانه لايصل إلى سبتة إلا ويخسعها في يديه ، فلما وصـل متأهبا لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدم رسله إلى المعتمد ..... فأمسكهم بإشـبيلية مـدة طـويلة ، وامير المسـلمين في ذلك متقلق لورودهم ، فأرسل معهم من شيوخ اشبيلية من يقول له : تـربص في سبتة مدة من ثلاثين يوما إلى أن نخلي لك الجـزيرة فـأجابهم إلى هذا » (٧٧).

لقد ظل المعتمد بن عباد حتى هـذه السـاعة يراوغ وسيء الذوايا باتجاه يوسف بن تـاشفين ، ونبـه يوسـف الى هـذا وقيل له:« لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء الا لانه يريد أن يرسل الى الفـونس يعلمه بقدومك ، ولعله يتأتى له منه ما يرغب ، ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزية أعواما فإن فعل استجاش عسـكره على الجـزيرة ، ومنعك الجواز ، فاسبقه اليهـا ، وإن كان النصراني لايتـأتى له ، أرسل اليك في الجواز» (٧٨) .

قيل هذا ليوسف ورسل ابن عباد عنده في سبته ، وبناء عليه ، لما

انفصل الرسل عنه بنية التربص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوما ، جهز عسكرا مقدما من نحو خمسمائة فارس ، وارسلهم في اثرهم ، فلم تصل الرسل إلى الجزيرة اخر النهار إلا والعسكر في أثرهم قد عدوا ونزلوا بدار الصناعة ، فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت محلتها ، لم يدر متى اقبلت ، ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها يزيدون ويترادفون ، حتى انكمل العسكر كله على الجزيرة مع داود ابن عائشة ، واحدقوا حواليها يحرسونها ، ونادى داود بالراضي ، وقال له : وعدتمونا بالجزيرة ، ونحن لم نات لاخذ بلدة ولا ضرر بسلطان ، إنما اتينا للجهاد ، فإما ان تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا ، وإلا فالذي تقدر عليه فاصنع .

وخاطب امير المسلمين ابن عباد يعلمه بما صنع ويقول له : كفيناك مؤنة القطائع وإرسال الاقوات لاجنادنا كما وعدت ، فأرسل المعتمد لابنه الراضي في إخلائها لهم ، وحصل فيها داود ، وأتى الأمير إليها ودخلها ناظرا إليها ، ثم انصرف إلى سبتة إلى وقت إقباله » . (٧٩) .

إن ما حدث حتى الآن يساعد على تفسير ما اسفر عنه العبور الأول الأول ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وبعد هذا موقفه من ابن عباد وحقده عليه وعدم مسامحته له ، ولعدم وثوق يوسف بابن عباد تفقد الجزيرة الخضراء بنفسه ، وعلى الفور » شرع في بناء اسوارها ، ورمم ما تشعث من ابراجها وحفر الحفير (الخندق) عليها ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة ، ورتب فيها عسكرا انتقاه من نخبة رجاله واسكنهم بها » (٨٠) .

وبسيطرة يوسف بن تاشفين على الجزيرة الخضراء حدث تبدل استراتيجي بشأن احد منفذي البحر المتوسط ، فقد كان العرب قد امتلكوا منفذ الزقاق (مضيق جبل طارق) من طرفيه في العصر الأموي ، وذلك بامتلاكهم لكل من سبتة وطنجة من جانب المغرب والجزيرة الخضراء من الجانب الاندلسي المقابل ، وبعدها حاولوا

فتح القسطنطينية للاستيلاء على المنفذ الآخر ، ومع تأسس الحكم الأموي بالأندلس امتلك هذا الحكم الجانب الأندلسي فقط ، ومنذ أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر تملك الحكم الأندلسي الممر كله بطرفيه ، إنما بعد انتهاء فترة الاستبداد العامري فقد الأندلسيون الطرف المغربي ، والآن مع حلول قوات المرابطين في الجزيرة الخضراء صار بحر الزقاق مغربيا ،(٨١)وآنذاك كان المسلمون يمتلكون مع بحر الزقاق مضيق مسينا قرب صقلية ، لكنهم سيفقدون السيطرة على هذا المضيق الهام بعد أمد قصير وذلك بسقوط صقلية للنورمان ، الأمر الذي سيكون له ابعد الآثار وأخطرها على مسار أحداث الحروب الصليبية وسيتضح ذلك أثناء الاعداد لما سيعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، بعدما حرر صلاح الدين مدينة القدس ، ولنتذكر في هذا المقام أن دول المشرق كانت ذات إمكانات بحرية متدنية .

وكان بعدما عاد يوسف بن تاشفين إلى سبتة أشرف بنفسه على عبور قواته إلى الجزيرة الخضراء ، وقارب عدد هذه القوات العشرة الاف فارس ، وكان القائد العسكري لها داود بن عائشة ، وعندما تمت عملية العبور كان الفونسو السادس بعيدا في الشمال ملقيا الحصار على مدينة سرقسطة ، وكانت أجزاء من قواته منشغلة بحصار طرطوشة وبلنسية ، وقد فوجىء بأخبار المرابطين فأوقف أعمال الحصار وجمع إليه قواته ليتوجه نحو يوسف بن تاشفين (٨٢) .

وتحرك يوسف بن تاشفين وراء قواته نحو إشبيلية « فتلقاه ابن عباد على مرحلة من الجزيرة فسلم عليه ، فهم ابن عباد بتقبيل يديه ، فبادر لمعانقته ، وسأله عن حاله ، وانبسط معه في الحديث ، وهنأه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت ضيافات ابن عباد ، فعمت جميع المحلة على حال كبرها ، وركب ابن عباد ودار بالمحلة ، ونظر إلى العسكر فراى عسكرا نقيا ومنظرا بهيا ، فلم يشك أن ذلك الجمع لايخلو من بركة » (٨٣) .

وبعدما وصل يوسف بن تاشفين إلى إشبيلية اقام بها ثلاثة

ايام ، ثم ارتحل نحو مدينة بـطليوس ، لكن لماذا نحـو هـذه المدينة وليس نحو سرقسطة أو طرطوشة أو بلنسية ؟

لعل السبب هو أن المتوكل على الله ابن الافطس صاحب بطليوس كان أول ملوك الطوائف كتابة إلى يوسف يستنجد بـه قـائلا « الا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، الا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ، وإنا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه مـن ذل ، فإنهـا الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء(٨٤) .

ومن قبل هذا مـا كنت خـاطبتك أعزك الله بـالنازلة في مـدينة قورية(٨٥) أعادها الله للاسلام ، وانها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم مازال ذلك التخاذل والتدابر يتـزايد حتى تخلطت القضـية ، وتضـاعفت البلية ، وتحصـلت بيد العـدو ومدينة سرية(٨٦) وعليها قلعة تجـاوزت حـد القـلاع في التحصـين والامتناع ، وهي مـن المدينة كنقـطة الدائرة تـدركها مـن جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويسـتوي في فيء الأرض بهـا قـاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهـق اسـتولى عليه عدو مشرك وطاغية منافق ، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا ، وتبـادروا ركبانا ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، ومـا احضـكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فإنكم له أتلى ، ولا بما في حـديث رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته اهدى » (٨٧) .

على هذا جاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للدفـاع عن ثغـور مملكة ابن الافطس ، ولهذا توجه إلى بطليوس (وهي منطقـة تقـع الآن على مقربة من الحدود البرتغالية) لقد جاء للتفـريج عن هـذه المملكة ولدفع العدو عنها ، وليس للتوغل داخـل الأراضي التـي غلب عليها الفـونسو ، ويؤكد هـذا التعليل مـا ذكره الأمير عبـد الله في مذكراته ، فبعدما حل يوسف بـن تـاشفين بـأرض الأندلس واثناء وجوده بإشبيلية راسل ملوك الطوائف للالتحاق به ومعهم قـواتهم ، ففعلوا باستثناء المعتصم ابن صمادح صاحب المرية حيث بعث بابنه

وبقي هو « متربصا ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم ، واعتذر بكبر السن مع الضعف » .

وتحدث الأمير عبد الله عن خروجه من مملكته للالتحاق بيوسف ابن تاشفين وانه التقى به في الطريق إلى بطليوس وقال : « ورأينا من اكرامه لنا وتحفيه بنا مازادنا ذلك فيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلا على أموالنا ، ولقينا المتوكل بن الأفطس محتفلا بعسكره ، كا. يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ووطن على الموت نفسه ... والعجب في تلك السفرة من حسن النيات ، وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك » (٨٨)

هذا من جهة يوسف بن تاشفين أما من جهة الفونسو السادس فقد عاد إلى طليطلة ، ومن هناك حشد قواته كما تلقي نجدات من المناطق الشمالية ومن فرنسا وسواها فاجتمع لديه أعداد كبيرة من المقاتلين ساروا تحت راية الصليب وبمباركة بابوية ، وقد بالغت المصادر العربية في تقدير تعداد القوات الصليبية ، يقول صاحب الحلل الموشية « واحتفل – الفونسو – في الاستعداد ، وخرج ومعه ثمانون الف فارس لابسين الدروع دون غيرهم حتى انتهى إلى فحص الزلاقة ، وكان عسكر المسلمين يناهز خمسين الف فارس ، اربعة وعشرون الفا من فرسان الأندلسيين ما بين مدرع ولابس ، ومثلها أو أكثر منها مرابطون وأهل العدوة » (٨٩)

وارى في هذه الرواية مبالغة كبيرة ، وسبق أن نقلنا عن روض القرطاس أن تعداد المرابطين كان عشرة الاف ، ونقلنا من قبل عن صاحب الحلل نفسه أن تعداد جيش يوسف بن تاشفين وصل إلى اثني عشر الف فارس ، ولا يعقل أن يجلب يوسف إلى الأندلس كل ما ملكه من قوات ، وهكذا نجد الحميري صاحب الروض المعطار يقول في مادة « زلاقة » اختار الفونسو ممن اجتمع إليه انجادهم » وقال حين نظر إلى ما اختاره من جموعه : بهؤلاء اقاتل الجن والانس ، وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : كان هؤلاء

المختارون من أجناده أربعين الف دارع ، ولابد لمن هــذه صــفته أن يتبعه واحد أو اثنان ، وأمــا النصــارى فيعجبــون ممــن يزعم ذلك ويقوله ، واتفــق الكل أن عدة المســلمين كانت اقــل مــن عدة المشركين » .

والذي أراه أن عدد المسلمين لم يتجاوز العشرين الف مقاتل وأن عدد الصليبيين زاد على هذا العدد قليلا ، لكن ليس أكثر مــن خمس وعشرين الفا ، ونزلت القوات الاسلامية قرب أســوار بــطليوس ، فهي جاءت للتفريج عن أراضي هــذه الدولة ، وهناك وردت الأخبــار بزحف الفونسو نحــوها على رأس جيش كبير ، يقــول الأمير عبــد الله : « وتلومنا ببطليوس أياما حتى صح عندنا اقبال الفــونسو في حفله ، يروم الملاقاة ، ويظن أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبــل ، وساقه القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعــد عن أنصــاره ، ونحن بازاء المدينة متربصون ، إن كانت لنا فيهــا ونعمــت ، وإن لم تكن كانت وراءنا حرزا ومعقلا نأوي إليها ، وأمير المســلمين يدبــر هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوي عسى تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحوج إلى التوغل في بلادهم ، وهم دخلوا الأندلس لا يعرفون من لهم أو عليهم ، ورجــا بــأن يكون الرومــي لا يخــرج إليه أحد فينصرف طريقه ،ويكفي الله المؤمنين القتال»(٩٠)على هــذا تمنى يوسف بن تاشفين عدم زحف الفونسو نحــوه ،لكن الفــونسو ركب رأسه وساق قواته مسافة واسعة ،وجاء بعدما أكل الطــريق قــواته ليقاتل قوما اتخذوا موقف الدفاع في متسع من الوقت والمكان ،وكتب الفونسو الى يوسف يقول :« هاأنا قــد اقبلت اريد مــلاقاتك ،وانت تتربص وتختبيء » (٩١) .

وكان من المتوجب على المسلمين مهاجمة الفونسو قبل ان تــرتاح قواته وتتخذ معسكرا خاصا بها ، لكن يوسف لم يفعل هذا ، وترك الجيش المعادي يعسكر على مسافة ثلاثة أميال من معسكره ، وكتب يوسف إلى الفونسو كتابا « يدعوه فيه إلى الجــزية أو الاســلام او

الحرب ، فلما وصل كتابه إلى الفونسو أدركته الأنفة وداخله الكبر وقال للرسول: قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك »

وجاء في كتاب يوسف إلى الفونسو السادس: « وقد بلغنا يا اذفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بك وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد أجتزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ـ سورة الرعد ـ الآية: ١٤

فلما وصل الكتاب إلى اذفنش وسمع ما كتب به إليه جاش بحر غيظه ، وزاد في طغيانه وكفره ، وقال ابمثل هذه المخاطبة يخاطبني ، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة ، وأقسم أن لا يبرح من مكانه الذي نزل فيه ، وقال: يزحف إلي فإني أكره أن القاه قرب مدينة تعصمه ، وتمنعني منه ، فلا أشفي نفسه بقتله ، ولا أبلغ أملي فيه وبيني وبينه هذا البسيط المتسع ، فأعلم السفراء أمير المسلمين بانتخائه وما أظهر من طغيانه وكبريائه » (٩٢) .

وأثناء تراشق الرسائل بين المعسكرين وتبادل الوفود كتب الفونسو « إلى أمير المسلمين مكرا منه يقول: إن غدا يوم الجمعة ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثير في محلتنا ، ونحن نفتقر اليهم ، وبعده الأحد عيدنا فنحترم هذه الأعياد ، ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال أمير المسلمين: اتركوا اللعين وما أحب » (٩٣) .

وحذر ابن عباد يوسف بن تاشفين ، ويلاحظ أن يوسف اتخذ معسكرا خاصا به بعيدا عن معسكر الأندلسيين الذين عسكروا في وجه جيوش الفونسو ، فقد عسكر يوسف خلف تلة في تلك المنطقة ، ويبدو أن المسلمين صدقوا ما كتب به إليهم الفونسو ، وفقط المعتمد اتخذ الاحتياطات اللازمة وبث العيون والطلائع وأمضى الليل يقظا خشية هجوم مفاجيء ، وجاء فجر الجمعة الثاني عشر لرجب الفرد سنة تسع وسبعين وأربعمائة(٩٤) « (٢٣ – تشرين أول ١٠٨٦ م) دون قيام هجوم ليلي فمال المسلمون إلى الراحة مع إبقاء قوات الاستطلاع واتفاق على خطة القتال ، أنما خطة دفاعية حيث يرجح أن المسلمين لم يفكروا بمهاجمة الفونسو وقواته ، وفي صباح يوم الجمعة استعد الفونسو للهجوم « وارتقى في ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصر أعداد جيوشه ، فأعجبه ما راى من كثرتهم ولمعان دروعهم...فعند ذلك تقدم بجيشه قاصدا محلة المسلمين فأقبلت طلائع ابن عباد تنادي

وتقـول إن الروم في أذيالنا ، والناس على طمـأنينة ، وقـد كانوا اتفقوا على أن يكون المعتمد بن عباد في قلب المقدمة ، والمتوكل بـن الأفطس في ميمنتها ، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها ، وسائر أهل الأندلس في الساقة ، والمرابطون وأهل العدوة كمائن متفرقة تخـرج من كل جهة عند اللقاء.

فلما علم ابن عباد بقـدوم الطـاغية عليه بـادر الركوب على غير تعبئة ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسـيل ، وعمتهـم كقـطع الليل ، وظنوا أنه وهية لا ترقع ، فوافق محلة ابن عبـاد في طـريقه بأهل أشبيلية وسائر عماله ، فوقعت بينهـم حـروب صـعبة كانت الدائرة فيها على أهل أشبيلية ، استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرحمة وخطبتها الجنة ، وخرج ابن عبـاد بجـراحات وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا....قال ثم ثاب العسـكر مـن المسـلمين لأنفسـهم وحملوا على محلة أذفنش حملة صادقة.

وقد كان أمير المسلمين يوسف بن تـاشفين على حين غفلة ، ولم يكن عنده علم بمـا وقـع ، إذ كانت محلتـه بعيدة عن محلة ابـن عباد ، حتى بعث إليه ابن عباد كاتبه ابن القصيرة فأخبره ، فـركب وأحدق به زعماء لمتونة ، وكبراء صنهاجة وسائر عسكره «(٩٥) .

واحتاج ايصال الخبر إلى معسكر يوسـف بـن تـاشفين بعض الوقت ، وهدر المزيد من الوقت في ركوب القوات المرابطية واتخاذها الوضع القتالي ، يضاف إلى هذا أن يوسـف تبـاطىء في ارسـال النجدات إلى ابـن عبـاد ، ولعله أراد التخلص مـن القـوات الأندلسية ، قال ابن الكردبوس: « فأعلم أمير المسـلمين بـانهزام الرؤساء فقال أتركوهم قليلا للفنا فكلا الفريقين من الأعداء(٩٦)ومع هذا بعث بعد حين بعدد صـغير مـن الجند للوقـوف إلى جـانب الأندلسيين والتفريج عنهم ، ويبدو أن الفونسو قد تصور أنه اشتبك بالقتال ضد جميع القوات المسلمة ولم يعرف بوجود معسكر منفصل للمرابطين ، ولهذا شدد الضغط على القوات الأندلسـية واسـتنفد طاقاته ضدها ولم يتخذ ما ينبغي من احتياطات ، لهذا ما أن وصلت

طلائع القوات المرابطية حتى تغير التوازن وفيما الحـال هـكذا كان يوسف بن تاشفين قد بعث بالجسم الأعظم من قواته لتقوم بحـركة التفاف وتهاجم معسكر العدو ، وتمكنت القوات المرابطية بيسر مـن ذبح المدافعين عن المعسكر الصـليبي والقـاء النار فيه ، وفـوجيء الفونسو وقواته ، وتمزق الجيش الفرنجي بعدما حـاول الفـونسو ارسال بعض كتائبه نحو المعسكر ، وفي هذا الوقت التقـت القـوات المرابطية بالقوات الأندلسية ، فطوقت القوات الصليبية ، ومع هـذا جمع الفونسو بقاياه وصمد وقاتل بشراسة ، فقام يوسف بتـوجيه حرسه الشخصي من مقاتلي السودان فقصفوا صـفوف الصـليبيين وأصيب الفونسو بفخذه بجـراحة كبيرة ، وحـدث هـذا ورجـالات الفونسو « كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة » فانهزموا « فاقتفى المسلمون اثارهم وركبوهم بالسيف ، ومات مـن جيشـهم خـلائق وتبددوا في الطريق ، فمن بين قتيل،وميت مثقل صريع »(٩٧) وتسلل الفونسو من بين الجرحى ومعه عدد ضئيل مـن جنده وهـم جميعـا مثقلين بالجراح ، وكما بالغت المصادر العربية في تقدير عدد القوات الصليبية بالغت في تعداد خسـائر هـذه القـوات وأوحـت أن جيش الفونسو قد دمـر وأبيد ، وتحـدث الأمير عبـد الله عن الخسـائر الفادحة التي لحقت بالصليبيين وقال: « ولم يفقد مـن المسـلمين إلا الأقل ، وانصرف أمير المسلمين راجعا إلى اشبيلية على حال سلامة ونصر»(٩٨) ويعني هذا أن القوات المسلمة لم تطارد فلول العـدو ولم تحاول استثمار النصر المبين الذي أحرزته ، وكان اقـل مـا هنالك محاولة استرداد طليطلة ، فلماذا حدث هذا؟

الشبه هنا شديد بين مـا حـــدث في معـــركة منازكرد وهـــذه المعركة ، فالمعركتان كانتا من النوع الدفـاعي ولم يمتلك المسـلمون أية خطط للتوسع أو الهجوم ، فبعـد انقضـاء معـركة منازكرد لم يحاول الب أرسلان حتى إسترداد المواقع الشامية التي قد اسـتولى عليها أسيره الامبراطور رومـانوس دايجينوس ، وهنا في الأندلس جاء يوسف بن تاشفين للتفريج عن بطليـوس ، ولم يأت لاسـتعادة

طليطلة أو غيرها ، يضاف الى هذا أنه كان من عادات لمتونة عدم مطاردة فلول المنهزمين من أعدائهم ، قال البكري لدى حديثه عن عادات الملثمين القتالية «ومن فر أمامهم لم يتبعوه» (٩٩)وطبعا لم تقم القوات الأندلسية بأعمال المطاردة أو محاولة استرداد طليطلة لعدم توفر الامكانات ، ولخوف كل واحد من ملوك الأندلس على ملكه ، ويمكن ان نضيف معرفتهم أكثر من سواهم بامكانات الأعداء العسكرية ، فنحن سنجد بعد وقت ضئيل معاودة الفونسو حملاته على المسلمين ومن ثم الاستنجاد ثانية بيوسف بن تاشفين .

ويستوحى تأييد لهذا مما رواه صاحب الحلل الوشية لدى حديثه عن فرار الفونسو قال :« ففر ...وسيوف المسلمين تتبعه حتى لجأ الى ربوة عالية اعتصم بها لتعذر مرتقاها ، وأحدقت بها الخيل ، فقال لهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : الكلب اذا ارهق لابد أن يعض،قد سلم الله المسلمين من معرته ، ولم يقتل منهم الا القليل ، فان هجمنا على هؤلاء أبلوا بلاء عظيما ، ولكن اتركوهم ولاحظوا حالهم ، فلما جن الليل فروا وأصبحوا يوم السبت فلم يوجد لهم أثر ، ثم ثنى أمير المسلمين عنانه ، فنزل الناس بنزوله ، وقد أبان الله بصارمه تلك الشوكة ، واستأصل أولئك الجموع المشركة»(١٠٠) .

ومع هذا فعند الحميري صاحب الروض المعطار روايات وأراء جديرة بالاعتبار ، قال الحميري :« ولما انحاز الطاغية بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : إن اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين الينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع الينا أصحابنا ، ويجتمعون بنا ، ثم نرجع اليه فنحسم داءه ، وابن عباد يرغب في استعجال اهلاكه ويقول : إن فر أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه ، ويوسف مصر على الامتناع من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند ، وهو لايلوي على شي ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدا بعد واحد من أثر جراحهم ، فلم يدخل طليطلة الا في دون المائة .

وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقالت شيع ابن عباد : لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الراي في جلته ، لكن خاف أن يهلك العدو الذي من اجله استدعاه فيقع استغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : إنما اراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الأندلس ، وقال آخرون : كلا الرجلين اسر حسوا في ارتغاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب»(١٠١) .

المهم ان سوء النوايا وانعدام الثقة بين الفرقاء والحرص على الملك ضيع على المسلمين مكاسب هذا النصر المؤزر ، وهكذا تبدد الوقت وضاعت الفرصة ، قال صاحب الحلل الموشية :« ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، اقام المسلمون في جمع اسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلات ايديهم بالغنائم الوافرة والسبي الكثير ، واكتسب الناس فيها من آلات الحروب والأموال وسيوف الحلي ، ومناطق الذهب والفضة ما اغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية ، سياله من فتح ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان اكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم الدين بعد زلاقها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزبها رؤساء الأندلس ، فجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ابا يعقوب يوسف بن تاشفين ، افضل الجزاء ، بما بل من ارماق ، ونفس من خناق، ووصل لنصر هذه الجزيرة من حبل وتجشم الى تلبية دعائها؛ واستبقاء ذمائها من حزن وسهل حتى هزم على يده أعداء الله المشركون ، وظهر امر الله وهم كارهون » (١٠٢) .

وعاد يوسف الى اشبيلية ومعه ملوك الطوائف ، وقد شعر هؤلاء الملوك بتزلزل مواقعهم خاصة في أعين شعوبهم ، وانهم شبه تابعين ليوسف بن تاشفين ، يقول الأمير عبد الله :« ولما انقضت غزوته تلك جمعنا في مجلسه ـ أعني رؤساء الأندلس ـ وامرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تفترصنا

الا للذي كان مـن تشـتتنا واسـتعانه البعض بهـم على البعض،
فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره ممـا يجمـع الكل على الطاعة والجري الى الحقيقة، ثم تحدث عن شـكاوى قـدمها بعض الحكام ضد بعضهم بعضا وعن موقف يوسف بن تـاشفين مـن ذلك كله ، ثم أخذ يوسف يعد العدة للعودة مع قواته الى المغرب ، «وقـد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا مـا لم ير وجهـا لبقـائنا في الجـزيرة ، وانس الجميع ، ولم يتـربص في البـلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيتهم اليه ، فكل مـن شـكا اليه ذلك الوقت من رعيته يقول له : لم نأت لهذا ، والسلاطين أعلم بما يصنعوه في بلادهم ، حتى ازداد بذلك محبة الى مـا كان عليه في قلوبنا ، واليه استنامة وميلا ، ورجع الكل الى وطنه»(١٠٣).

وقيل الكثير عن الأسـباب التـي دعت يوسـف الى العـودة الى المغرب ، من ذلك ما نقله صاحب الحلل الموشية :« ولما فـرغ مـن وقعة الزلاقة وانصرف أهل الأندلس الى بلادهم ، ورد عليه خـطب أوجعه ، ونبأ أفجعه بموت ابنه أبي بكر سير ، فتعجل إيابـه مـن العدوة وصدره ، وقد قضى في عدو الملة وطره ، »(١٠٤) .

وقيل السبب الذي عجل بعودة يوسف هو موت أبي بكر بن عمـر وتحرك ابنه ابراهيم ، ولقد عالجنا مسألة الوفاة من قبل ، يضاف الى هذا أن الزلاقة وقعت سنة٤٧٩هـ وذهبت المصادر التي بحضـنا رواياتها الى ان أبا بكرقد توفي سنة ٤٨٠هـ ، وقـد تحـدث صـاحب روض القرطاس عن عودة يوسف بن تاشفين فقال :« واتصل بأمير المسلمين يوسف ...وفاة ولده أبي بكر ، وكان تركه مريضا بسـبتة فاغتم لذلك وانصرف راجعا الى العدوة بسبب وفـاة ولده ، ولولا ذلك لم يرجع ، فجاز الى العدوة ودخل حضرة مراكش ، فأقام بها الى سنة ثمانين وأربعمائة ، فخـرج في شـهر ربيع الآخـر منهـا يتطوف على بلاد المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر في أمـور المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته»(١٠٥).

ويرجح ان جولة يوسـف على آعمـاله كانت روتينية ، أو انهـا

ارتبطت بتفجر مشاكل خطرة مع الناصر بن علناس صاحب قلعة بني حماد (في جزائر اليوم) فقد أغار ابن حماد على الأراضي المرابطية ، ويقال حدث هذا أثناء وجود يوسف بن تاشفين في الأندلس ، وهذا وفي محفوظات الفاتيكان نص رسالة مرسلة من البابا غريغوار السابع الى ابن حماد ، كما حفظ لنا ابن بسام في كتابه الذخيرة نص رسالة تقريع بعث بها يوسف بن تاشفين الى ابن حماد (١٠٦) .

وعلى جميع الأحوال شكل جواز القوات المرابطية الى الأندلس نقطة تحول في تاريخ هذا البلد وفي تاريخ المغرب أيضا ، فقد أعاد نصر الزلاقة التوازن العسكري والسياسي الى ديار الأندلس، وأجل سقوط هذه الديار عدة قرون ، كما أن ظهور المرابطين على أرض الأندلس اتاح الفرصة أمام مسلمي الأندلس وعلى رأسهم بعض الفقهاء للشكوى ضد ملوك الطوائف ثم التمرد على سلطانهم ، وسنرى أنه لولا ذلك لما سهل على يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وازالة ملوك الطوائف .

ولقد رفعت جملة الحوادث من مكانة المعتمد بن عباد في الأندلس واظهرت أنه أقوى ملوك الطوائف وأكثرهم جدارة ، وأنه بالتالي منافس حقيقي للتوسع المرابطي في الأندلس ، لذلك وضعت الخطط لالازالته فحسب بل الحط من شأنه ونفيه ومعاملته بسوء كبير .

ولقد وقعت هذه المعركة بعد ست عشرة سنة من وقوع معركة منازكرد ، فمعركة منازكرد كانت الفيصل في العلاقات البيزنطية الاسلامية ـ أو لنقل العلاقات بين أوروبا الشرقية والمشرق الاسلامي ـ منذ القرن الرابع هـ / العاشر للميلاد ، بعدما انتاب الضعف الدولة العباسية وصارت اليد العليا في جبهة الثغور ، لابل داخل الشام والجزيرة ، لبيزنطة ، والشي نفسه حدث الأن في جبهة المواجهة الاسلامية مع اوروبا الغربية ، فبعد انتكاسات متوالية طوال ثلاثة أرباع القرن تلقت القوات الأوروبية ضربة ما حقة على بسيط الزلاقة ، ومع أن المسلمين في المشرق والمغرب لم يستثمروا ما كسبوه مباشرة ، لكن صوت الهزيمة طرق بشدة وعنف أبواب

أوروبا من الشرق ومن الغرب ، لاسيما وقد اجتاح التركمان اسية الصغرى بعد منازكرد ، ونشأت لهم دول على بعد أميال من القسطنطينية كذلك الحال في الأندلس ، فسنقرأ في الفصل التالي قصة إعادة الوحدة الى الأندلس واخذ المسلمين مجددا بزمام المبادرة العسكرية ، ولاشك أن هذا كله شحن أجواء أوروبا الغربية ، وزادها تعصبا وتأثرا بالنشاطات الدينية ، وهكذا استجابت شعوبها بسرعة لدعوة البابوية ـ كما سنرى ـ وحمل الاوروبيون شارة الصليب وخرجوا بحشود هائلة نحو المشرق لازالة الاسلام منه وتحويله الى وطن لاتيني وراء البحار .

الفصل الرابع

يوسف بن تاشفين وتوحيد الأندلس وازالة دولة الطوائف

رأينا في الفصل المتقدم أن الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، كان من بين ملوك الطوائف الذين استقبلوا الأمير يوسف ابن تاشفين وشاركوا في معركة الزلاقة ، ومذكرات هذا الأمير الأندلسي على درجة عالية من الأهمية ، حيث أن موادها وثائقية ، وحين أجمل الأمير عبد الله نتائج الجواز الأول ليوسف ابن تاشفين قال :« وأخذ أمير المسلمين في الانصراف الى بلاده ، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجها لبقائنا في الجزيرة»« (١)

ونظرا لعدم قيام المسلمين باستثمار ما منحهم اياه نصر الزلاقة ما لبث الفونسو السادس أن سعى الى لم شعثه وتدارك بعض ما خسره ومتابعة نشاطاته التوسعية بشكل أو آخر ، واستغل قيام صراعات حول بلنسية بين ابن عباد وآخر تغلب عليها اسمه ابن رشيق ، وفي الوقت نفسه نشطت بعض العصابات الاسبانية في منطقةمرسية وأعمال لورقة وبسطه ، وهي الكورة التي عرفها المسلمون باسم تدمير ، وقام على مقربة من لورقة «حصن حصين على راس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم يملكه العدو»(٢) واسمه لييط ، شحنه الفونسو السادس بأعداد وافرة من العساكر وأمرهم بالاغارة على الأراضي الاسلامية ، وهكذا كانت سراياه تغير شرقا وغربا ، اذ كان في موسطة بلاد المسلمين »(٣)

وخلال عامين انقضيا بعد معركة الزلاقة تردت الأوضاع كثيرا وشرعت الوفود الأندلسية بالتوجه الى مدينة مراكش والالتقاء بيوسف بن تاشفين حيث شكت اليه سوء الأحوال الأمنية في الأندلس ، «فلم يزل وجوه الأندلس من تلك البلاد ، يترددون اليه

بالشكوى حتى وعد بالجواز اليهم ، اذا »(٤)ابرمت الاتفاقات مع ملوك الطوائف .

وكنا قد رأينا أن المعتمد بن عباد قد تصدر يوم الزلاقة ملوك الطوائف ، وادراكا من الفونسو لهذا الحال « عمد الى حصن لييط الموالي لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والرجال والرماة ، وامرهم أن يدخلوا من حصن لييط المذكور فيغيرون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس ... فكانوا يدخلون منه خيلا ورجالا فيقتلون ويأسرون في كل يوم ، جعلوا ذلك وظيفة عليهم ، فساء ابن عباد ذلك وضاق ذرعا»(٥) .

ومن المقدر أن ابن عباد عرف بتفاصيل اتصالات الأندلسيين بيوسف بن تاشفين ، وأن يوسف أبدى استعداده للجواز الى الأندلس شريطة عقد اتفاق رسمي حول هذا الموضوع ، ونظرا لتبدل الأوضاع بعد الزلاقة ولأن يوسف بن تاشفين لم يعد الآن «الصحراوي ملك العدوة» بل أمير المسلمين والسيد القوي ، لم يقدم ابن عباد على مراسلته واستدعائه ، بل توجه اليه شخصيا فغادر اشبيلية على رأس وفد كبير وجاز البحر والتقى بيوسف بن تاشفين على مقربة من تطوان وليس في مدينة مراكش ، ويفيد هذا وجود ترتيبات مسبقة أعدت لهذه الزيارة حتى جاء يوسف الى هذه المنطقة ، وروى صاحب الحلل الموشية أن يوسف بن تاشفين «قابله بالسلام والترحيب بوجه طلق وصدر رحب واكرام جم ، وقال له : ما السبب الذي دعاك الى الجواز الينا ، وهلا كتبت بحاجتك فقال له : جئتك احتسابا وجهادا ، وانتصارا للدين ، وقد أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت به الحظ الأوفر وقد اشتد ضرر النصارى المستولين على حصن لييط ، وعظم اذاه بالمسلمين ، لتوسطه في بلادهم ، ولاجهاد أعظم منه أجرا ، ولاأثقل منه وزنا ، فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقبول ، ووعده بالحركة والجواز ، فاستحثه واستوثق منه ، وصدر الى حضرة اشبيلية ، وتقدم الى كل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد وأكثر أعمال السهام والمطارد ، وعمل العرادات وغير ذلك من الآلات » (٦)

في رواية صاحب الحلل هذه مسحة دعائية واضحة ، واكثر واقعية منها ما حكاه الأمير عبد الله في مذكراته حيث قال : «وإن المعتمد بن عباد لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وانه أراد ان يضع ابنه الراضي بمرسية عوضا عن الجزيرة ، صار بنفسه الى أمير المسلمين ، وجاز اليه البحر ، يريد الطمأنينة ويحكم معه ما شاء من عمل في مرسية وغيرها ، وعظم له شأن لييط ، وانه في قلب البلد ، وان لاراحة للمسلمين الا بفقده ، وعاقده على ان يأتي عليه بنفسه ورجاله لكي يتهيأ سلاطين الأندلس حربه بعددهم واجماعهم فيأمنوا من يقلعهم عنه» (٧) .

«وفي سنة احدى وثمانين واربعمائة جاز امير المسلمين الى الأندلس الجواز الثاني برسم الجهاد ... فركب البحر من قصر المجاز الى الجزيرة الخضراء ، فتلقاه ابن عباد بها بألف دابة تحمل الميرة والضيافة ، فلما نزل يوسف بالخضراء ، كتب منها الى امراء الأندلس يدعوهم الى الجهاد ، وقال لهم : الموعد بيننا حصن لييط ، ثم تحرك يوسف من الجزيرة الخضراء ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة (حزيران ١٠٨٨ م) فنزل على حصن لييط» (٨) .

وتجمعت القوات المرابطية والاندلسية امام حصن لييط «وكان بداخله من الروم الف فارس ، واثنا عشر الف راجل واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمادى القتال على الحصن ليلا ونهارا مدة أشهر ، وكل أمير من امراء الاندلس يقاتل في يوم بخيله ورجله .

واجتمع المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ، وظهر لهما من حصانته ومنعته واستعصامه ما ايسهم عنه ... وانه لايتأتى لهم أخذه الا بالمطاولة ، وقطع مادة القوت عنهم ، وكان من جملة من وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق صاحب مرسية الثائر بها على المعتمد بن عباد ، فشكا ابن عباد بابن رشيق لأمير المسلمين وذكر انتزاءه عليه ، وأنه دفع جبايتها مصانعة للطاغية اذفنش ، فحضر

ابن رشيق ، واستفتى يوسف بـن تـاشفين في أمـرهما الفقهـاء فوجب الحكم على ابن رشيق ، فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه واسلامه في يد ابن عباد ، ونهاه عن قتله ، فثقفـه ابـن عبـاد فهرب للحين اصحاب ابـن رشـيق وقـرابته وجميع محلتـه الى مرسية ، وانتزوا بها ، ومنعوا الميرة عن المحلة ، فاختلت امورها ووقع الغلاء بها ، وارتفع السـعر فيهـا ، فضـاقت بـالناس الأحوال .

وفي اثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم ، فأخذ في الحشد ويمم الحصن في امم لاتحصى ، فاقتضى راي يوسف بـن تـاشفين التوسعة على الحصن والتأهب للقائه ، فتأخر بمحلته ... وظهر له أن الأذفنش اذا وصل فغايته تخليص قومه واخلاء الحصـن ويزول ضرره ، ورأى أن الصواب اخلاء الطريق له .

ولما وصله اللعين وجد قوما جياعا لايقدرون على امساك الحصن فأحرقه وأخرج من كان فيه من قومه» (٩) .

ومثير للانتباه اخفاق هذه الحملة لحصانة ليبط ولتفجر مشـكلة مرسية ، ومن اجل هاتين المسألتين جاز يوسف بـن تـاشفين الى الأندلس ، والمثير اكثر أن ابـن تـاشفين تجنب الصـدام بقـوات ألفونسو السادس ، وفعل الشيء نفسه الفونسو وقـد نعلل تصرف الفونسو هذا نتيجة ما كان قد نزل به في الزلاقـة ، لكن لماذا تجنب يوسف بن تاشفين الصدام معه ؟ لعل السبب قـد كمـن في وضـع القوات الأندلسية وفي أوضاع الأندلس بشكل عام ، ووصف ذلك كله الأمير عبد الله بقوله : "وكانت تلك سفرة أخرج الله فيهـا أضـغان سلاطين الاندلس ورعيتهم في ذلك ياتون افواجا شاكين لما وجدوا لمن اسندوا اليه فـالراضي منهـم يلتمس الزيادة ، والسـاخط يرجـو الانتقام ، وجعلوا في شكاويهم فقهاءهم وسائط يقصدون نحـوهم منهم الفقيه ابن القليعي قد صار خبـاؤه بتلك المحلة مغنطيسـا لكل صادر ووارد يجد السبيل الى الطلب للقدر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهـم

من مغارم الاقطاع التي كانت عليهم مع احتياجهم الى الانفـاق مـا قلق به وساء الظن من اجله ، جيش يكلفـونه كل عام ، ومجـاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتجف متوالية لو فرط منها في شي لانخرمت عليهم الأحوال ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصـوفة فلا حيلة الا بين صبر يؤدي الى ملامة توجب عقـوبة ، أم امتناع يؤدي الى استئصال كالذي جرى .

ونسمع في هذا كله من أهل جهاتنا تهديدا وعصيانا انكرناه لاتتم به مملكة ، ولايتهيأ معه قضاء حاجة ، ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا الا يعطونا شيئا ، ويعدهم بما كان ، فلما كان يأتيهم الخفر منا يقعدون بنا ، ونحن احوج ما كنا اليه للانفاق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدمنا فيهـا الأقـوات الا بالشراء كل يوم ، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع .

وطالت تلك المحلة الملعـونة ... وكشـفت العـورات ، فلم يزدد الرؤساء الا توحشا ولاالرعية الا تسـلطا ... وحـق لهـم ، مـع اختلاف كلمة الرؤساء وهم في أسباب الغرق ، فمن اغتر منهم طالب صاحبه وهو المطلوب ، وشغله ذلك عما هـو في سـبيله ... وكانت مقدمات سوء ، وزمانا على السلاطين عسيرا وسـعدا للمـرابطين مقتبلا »

ثم قدم الأمير عبد الله تفـاصيل جيدة عن مسـألة ابـن رشـيق وبين «أن أمير المسلمين ، لما رأى حال ابن عباد مع ابن رشـيق واختلاف ما بينهما ، أعمل في ذلك عقله ، ودبر برأيه وقال : ما تنبغي لنا مفاسدة ابن عباد من اجل ابـن رشـيق ، لاحتياجنا اليه فيما نحن بسبيله ونحن لم نأمن أمـر الرومـي ،والأوكد علينا في هذا الوقت مداراة ابن عباد حتى ترينا الأمور وجوهها »(١٠) .

ويستخلص الانسان من صورة التفاصيل التي حكاها الأمير عبد الله أن المسلمين انشغلوا أثناء حصارهم لحصـن لييط بخـلافاتهم وليس بالشؤون الحربية ، وان قدرات المرابـطين في القتـال ضـد الأماكن الحصينة كانت متدنية ، ومن المقدر أن يوسف بن تاشفين

كان مــدركا لهــذه الناحية وكان يعــرف أن جميع المدن الأندلســية حصينة لايمكن لقواته الاستيلاء عليهــا ، ولهــذا تغــاضى ، الآن عن واحيانا شجع على تمرد عامة الأندلسيين على حكامهم ، وتحــالف بالوقت نفسه مع الفقهاء ، فلم يبخلوا بإصدار الفتــاوى بخلع ملوك الطوائف ، ولابد أن تردي الأوضاع داخل الأندلس كان مريعا حتــى تخلى الأندلسيون عن استقلالهم لصالح المرابطين .

وشــجع الفقهاء شــعب الأندلس علي الامتناع عن دفع الضرائب لملوكهم ، ووجد هؤلاء الملوك الآن بحاجة إلى المزيد من الأموال لتنفق على تحصين ممتلكاتهم وتقوية جندهم واســترضاء بعض القضــاة والفقهاء ، ونيل رضى رجالات المرابطين وفي الوقت نفسه الاستمرار بدفع الجزية لألفونسو السادس ،(١١) وهكذا تعقــدت الأمــور كثيرا وجاءت المحصلات جميعا لصالح المرابطين .

في الجواز الأول لم يتدخل يوسف بن تاشفين في المسائل الداخلية للأندلسيين ، لكنه في هذه المرة لم يكتف بأن أصبح يقوم بــالاصغاء إلى الشكاوى بل مارس صلاحيات السيادة ، فهو الذي أمر باعتقال ابن رشيق ، وهو الذي استفتى الفقهاء ، وحين لم يعترض أحد على ممارساته جاء ذلك بمثابة إقرار بتفويضه بحــكم الأندلس ، ويحــق للمفوض بالسلطة اتخاذ الاجراءات المناسبة من عزل وتعيين وعقوبة وغير ذلك ، وهذا ما كان .

وامضى ابن تاشفين في الأندلس أربعة أشهر ، وحين عاد نحو المغرب عاد وقد اتخذ قراره بإزالة ملوك الطوائف ، ووضــع الأندلس تحــت حكمه المباشر ، وسيكون هذا في الحقيقــة تنفيذا للرغبــة المرابــطية الاساسية في التوسع بالأندلس ، لكن الذي حدث أن هــذا التــوسع تموه بلون الجهاد وإنصاف المظلومين وبالتحالف مع رجــال الدين ، ولقد ادهشت اوضاع الأندلس وتقدمها وغناها يوسف بن تــاشفين والمرابطين ، ولعله راى انه إن تركها الملوك الطوائف لابد وأن تسقط للأعداء ، وهنا تمازجت المصالح والرغبات مــع القناعات الجهــادية والدينية ، قال عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجــب وهــو يصــف

احوال يوسف بن تاشفين بعد عودتـه إلى المغـرب إثـر الجـواز الثاني : « ورجع امير المسلمين إلى مراكش وفي نفسـه مـن أمـر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغني أنه قـال لبعض ثقـاته مـن وجـوه أصحابه : كنت اظن اني قد ملكت شـيئا ، فلمـا رايت تلك البـلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصـيلها ؟ فـاتفق رأيه وراي أصحابه على أن يراسلوا المعتمـد يسـتاذنوه في رجـال مـن صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ، ومجـاهدة العـدو ، والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يمـوتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك فأذن لهـم ، بعـد أن وافقـه على ذلك ابـن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما اراد يوسف واصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بـالجزيرة في بـلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهـار لملكتهـم وجـدوا في كل بلد لهـم اعوانا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس قد أشربت ـ كما ذكرنا ـ حب يوسف واصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمـر عليهم رجلا من قرابته يسمى بلجين ، وأسر إليه مـا أراده ، فجـاز بلجين المذكور ، وقصد المعتمد مـن ملوك الجـزيرة ، فقـال له أين تأمرني بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصـحابه مـن ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم ، فنزل حيث انزلوه هو واصحابه ». (١٢) .

على هذا استفاد يوسف بن تاشفين مـع المرابـطين مـن درس لبيط ، لكن ملوك الطوائف لم يأخذوا حذرهم ، او لعلهم تصوروا أن هؤلاء المرابطين سيوفرون عليهم مادة بشرية تحميهم داخـل المدن ، وذلك بعد سحب الحاميات كلها أو بعضها مـن الحصـون وإحـلال المرابطين محلها ، والمهم ان خطة يوسف بـن تـاشفين هـي التـي نجحت .

بعد عودة يوسف إلى المغرب إثر الجواز بدأ يعد العدة لتصفية ملوك الطوائف ، فهو واقعيا قد اعتـرف بـه الجميع سـيدا للمغـرب والأندلس ، ولكنه من حيث الواقـع الشرعي لم يختلف وضـعه عن

اوضاع ملوك الطوائف فالجميع كانوا من أهل السنة ، ولأهل السنة خليفة واحد هو مصدر الشرعية لديهم واعني بذلك الخليفة العباسي ، وبالنسبة للخلافة العباسية كان الوضع في الأندلس تعوزه من البداية الشرعية ، والآن بعد سقوط الخلافة الاموية لم يكسب ملوك الطوائف اية سمة شرعية ، فقد عدوا من الثوار المتغلبين ، لذلك توجب خلعهم ، وطبعا لم يحاول ايا من ملوك الطوائف الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد للحصول على اعتراف بحكمه وتفويض لابل انكى من هذا سعى بعضهم للحصول على الشرعية والتفويض من عند الفونسو السادس .

فبعد العودة من لييط دفع الأمير عبد الله لالفونسو جزية ثلاث سنوات تقدمت ، وهو يعرف تمام المعرفة أن المرابطين سيوجهون إليه اللوم الشديد على فعله، وقد اخبره الفونسو مطمئنا له : « حتى ادرككم في ذلك طلب ، فعلي الذب عن مدينتكم » .(١٣) .

وحاول الأمير عبد الله عبثا التعاون مع الفقهاء وشراء رضاهم ، لهذا التفت نحو جنده وقلاعه وحصونه ، وأراد استخدام الجند وسيلة قمع ، وهكذا اعتقل بوساطة الجند الفقيه القليعي ، وأغدق على الجند الأعطيات فوثق بهم ، وهكذا قال : « واراني جميع الجند من التأتي والانقياد والمناصحة ما حسبت أنهم يقاتلون عني الدجال فسررت بهذه الحالة واطمأننت إليها ، وقلت : هؤلاء أمة لايرون بي بديلا لانصافي لهم ورغد عيشهم معي ، وهم قد رأوا جند العدوة ، وإن أقل عبد لهم أغنى من غيرهم ، وأصلح حالة ، فلا يمكن استبدال الأدنى بالأفضل » .

وشغله أيضا أمر المغاربة من المرابطين الذين اسكنهم في القلاع فسعى لشراء رضاهم ايضا ، غير أن همه الحقيقي ظل متعلقا بشعب مملكته وهكذا قال : « وإنما وجست نفسي من الرعية لطمعهم في حط المغارم ، وللذي شاع من الزكاة والعشر عند المرابطين » وطمأن نفسه أنه مع وجود الجند على رؤوس الشعب لن يحدث ما يخشى منه ، ثم حدثته نفسه بناء على ما رآه في لييط أن

يزيد من مناعة قلاعه ، فقلعة واحدة قد تعرقل مسـيرة جيش كامـل اسمعه يقول : « وكم عسى يستطيع الجيش القادم على أن يعم جميع البلاد ، ومحاولة معقل واحد منها تطول ..... فصرفت وجه اهتبالى إلى تشييد الحصون وبنيانها وإعداد ما يصلحها لحصـار إن كان ، فلم أدع وجها من وجوه الحزم إلا فعلته : مـن إقـامة الأجبـاب ، وإعداد المطاحن ، وانواع العدد مـن التـراس والنبـل والعـرادات وجميع الأقوات ، وقلعتها من القرى ، وأعددت لكل حصن قوته لأزيد من العام ، وفعلت أكثر من ذلك في المدينة حضرتي ، مـاأستغني عن تحديده لاشتهاره »

وحدثته نفسهأن يوسفبن تاشفين لن يقدمعلى اتخاذ إجراء بحق ملوك الطوائف قبل « إبرامه لأمر الروم ، ولابد عند مناظرتهم مـن فرج : إن غلب المرابـط لم يفتنا الدخـول في طـاعته .... وإن غلب الرومي كنا منه على حذر » وصرف وجهه في الوقت نفسه نحو إعداد سفن في ميناء المنكب القريب حتى إذا « تغلب الرومـي ، أكون على البحر متصلا بالمسلمين ، ندافـع منه جهـدنا ، إلى أن نضـطر إلى الجواز وطلب السلامة بحشاشة انفسنا وننتف من أموالنا » .(١٤).

كان هم كل واحد من المتغلبين في الأندلس ملكه ، وقد انعدم مـن قلوبهم شعور الارتباط بالأرض أو بالشعب ، والاهتمام بـالقلاع في هذه المرحلة امر جديد في تاريخ الأندلس ، تشابهت به مع ما شـهدته بلاد الشام في الفترة نفسها ثم ما تلاهـا من الاهتمام بالقلاع ، فحتى قيام الحروب الصليبية صنعت المدن الشامية الكبرى تاريخ البـلاد ، وعاش الحكام في قصور خاصة بهم ، لكن منذ أواخر القرن الحادي عشر أخذت كل مدينة شامية تمتلك قلعـة حصـينة ، فيهـا اسـتقر الحكام ومنها حكموا ، وفي أيام الحروب الصليبية تم بناء المزيد مـن القلاع ، أو بعث قلاع جديدة ، وهـكذا انتـزعت القـلاع مـن المدن دورها ، وأخذ التاريخ السياسي والعسكري يستقطب حول القلاع .

وفي عودة إلى سياق الأحداث نجـد أن إجـراءات الأمير عبد الله وأمثاله لم تكن مجدية ، ذلك أن يوسف بن تاشفين تمكن من مراسلة

الخلافة العباسية في بغداد ، وحصل من الخليفة على الاعتراف مع التفويض بحكم المغرب والأندلس ، وهكذا بات بالامكان اتخاذ أي إجراء ضد ملوك الطوائف لكن بشكل محكم جدا فيه ضمان للنجاح . ففي سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م دخل يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة.

لكن جاء دخوله هذه المرة بمبادرة شخصية منه دون الحاجة الى استدعاء وابرام عهد مع واحد من ملوك الطوائف ، لقد دخل الى بلاد هو مالكها الشرعي ، يريده الشعب فيها ويدعمه الفقهاء الذين افتوه جميعا «بخلعهم – اي خلع أمراء الأندلس – وقالوا ليوسف: نحن خصماؤك عند الله ، لأن هؤلاء لاتجوز طاعتهم لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم ، وضيعوا غالب البلاد»(١٥) .

ولدى وصول ابن تاشفين الى الجزيرة الخضراء «وافاه المعتمد ابن عباد ، فتلقاه بعادته من التعظيم ، واحتفل في التضييف والتكريم .

وتوالت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده (١٦) ذلك أن ابن تاشفين سأل المعتمد «عما لهج الناس به من مداخلة الرومي ، فشهد بذلك للذي كان في نفسه ... وأرسل أمير المسلمين الينا كتابا يقول فيه : ·أقبل الينا ، ولاتتأخر ساعة واحدة

فرابني ذلك وهو موضع الانقباض ، لما تقدم من الطلب ، وأن بمحضره جميع اعدائنا ، والحاحة علينا في الوصول ، واعتذرت اليه بتوجيه رسل : احدهما ولد حجاج والآخر ابن ما شاء الله فساعة وصولهما قرعها بكل ما نقل اليه ، وأمر بثقافهما في الحديد على المقام ، وقال لهما : بالله ، اني غزوته كما نغزو الفونش والذي يقدر عليه فليصنع ، واتاني بعض الفرسان الناهضين مع الرسل على أسوا حالة ، مضروبين ملهوفين ... فدهمني من هذا الأمر مالا مرفع فيه ولاحيلة ، ولاظننته أن يجرى على هذه الرتبة .

وارسل على المقام كتبا الى اليسانه ، فأول ما طاعت له ، والى

جميع حصون الغرب ، ... وكان من كتبه اليهم : أمـا بعـد فقـد (جاء الحق وزهـق البـاطل ان البـاطل كان زهوقا) (١٧) ان لم تطوعونا(فأذنوا بحرب من الله ورسوله)(١٨)وان خـطابه لم يرد على معقل منها الا والقى بيده ، وقام اهله على اخـراج قـائدهم حتـى تناثرت المعاقل كلها كانتثار العقد ... ومن امتنع منها قاتلته الرعية ... حتى يلقي بيده .

فلم ندر مانصنع ، واتسع الخرق على الراقع ، وقلت : لاطاقة لي بجميع اهل البـلاد ، اذ غدروا وخـرجوا عن الطـاعة ، فبمـن نمسك الحضرة ، ليس فيها خلق من غير جنس ممن كان في المعاقل ... ولاحيلة مع الرجل أكثر من رغبتـه في خلعنا ، ولااثـم غيره يسند اليه فنستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطـامة الكبـرى ولامنالمكن ان نوجه الى الرومـي ... وان شـعر بـذلك اهـل حضرتنا كانوا اول من يقاتلنا قبل المرابطين»(١٩) .

وبذل الأمير عبد الله غاية جهـده لنيل الرضى مـن ابـن تـاشفين فأخفق وطلب منه المثـول بين يديه وبعـث اليه رسـولا يقـول له : «لاطاعة ولاصلح الا بالخروج «وذلك مع امان «في النفس والأهل دون المال» ، وبعد مراسلات كتب يوسف اليه «ان كنت استوحشت من النزول الينا فتخير من بلادك موضعا تصـير فيه ، ولتـكن غير غرناطة لنرى فيها رأينا»(٢٠) .

ووصف الأمير عبد الله الأحوال داخل غرناطة فبين ان الجند مـن البربر فقد هجروا طاعته ، واعلنوا عن سرورهم بقدوم المرابطين ـ وباتوا «طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية ، واتفق رايهم على الا يلقوه بحجر ، وقدموا كتبهم بـالطاعة» ووعدوه بـالخروج اليه وتسليمه الأمير عبد الله والتبرؤ منه ، وبالوقت نفسه أعلن التجـار انه لاطاقة لهم بـالحرب وغادر كثير منهـم غرناطـة «وامـا الرعية فبخ بخ ذلك ما كانت تبغي ، طمعا منها في الحرية وانها لايلزمها غير الزكاة والعشر «وتخلى عن امير غرناطة الجميع «حتى الخدم من النساء والخصيان»

وبعث يوسف بن تاشفين بفرق من قواته لحصار غرناطة فهجر المدينة الى الأرياف جل سكانها وعلم الامير عبد الله بإقبال يوسف نحوه فأسقط بيده ، وبعد تقليب لجميع أوجه الاحتمالات رأى عبد الله أنه لامفر أمامه من مغادرة دار ملكه والنزول الى مخيم يوسف بن تاشفين مسلما نفسه وملكه ، وطلب يوسف من الأمير عبد الله تسليم ما لديه من أموال ودفائن ، ففعل ، ومالبث أن تعرض لاهانات شخصية وأعمال تفتيش جسدية ، ثم نفي بعد هذا كله الى المغرب الأقصى ، فأقام فترة في سبتة ثم في مكناسة الزيتون وبعدها في اغمات .(٢١) .

وقيل بعد هذا ليوسف بن تاشفين «ثقفت صاحب غرناطة وأخوه منه ، وإن تركته ينصرف الى بلده ، طالبك بالثار ، وأفسد عليك ما ترجو صلاحه ، مع شرته وحدته فهو بذلك مرسوم معروف ، فعاجل بثقافه يصفى لك ماتؤمل» ، وفوجى الأمير صاحب مالقه والقى القبض عليه وصودرت ممتلكاته ومقتنياته ، ثم «القي في الحديد ، وأمر به الى السوس ، ولما كان طريقه على مكناسة لقيناه ، فأخبر بهول ما قاسى وبصرنا وهو على تلك الحال قد شقي بالكبل لعظمه ، أن يتحرك به ، فأوجب ذلك ما وسم به من الشر ، وان اهل مالقة رفعوا اليه حينئذ افعالا قبيحة ، وأيادي سيئة أسداها اليهم » ثم بعث الى السوس ليعيش هناك منفيا(٢٢).

وإثر تنفيذ هذه العملية عاد يوسف بن تاشفين الى سبتة ليتولى من هناك الاشراف على تصفية بقية ملوك الطوائف ، وقبل تبيان هذه الأعمال لابد من سؤال عن موقف ملوك الطوائف تجاه ما حدث في غرناطة ؟

اما صاحب الحلل الموشية فقد أورد أن « المعتمد بن عباد والمتوكل ابن الأفطس قدما عليه ـ يوسف ـ بغرناطة يهنئانه بما تهيأ له من ملك غرناطة ومالقة ، فلم يقبل عليهما وأعرض عنهما ، وانصرفا عنه الى بلادهما ، وأدرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين الى الاندلس ، وقال لخليفة المتوكل بن الأفطس : والله

لابد له أن يسقينا من الكأس التي سقى عبد الله بن بلقين»(٢٣) .

لقد اورد صاحب الحلل هنا بعض حقيقة مـا حـدث ، واوفى منه واكثر امانة وقربا من الأحـداث الأمير عبـد الله صـاحب غرناطـة المعزول ، فقد ذكر أن يوسف بن تاشفين وعد المعتمد بن عباد عندما التقاه إثر جوازه الثالث ، بغرناطة «وقـال له : أنا رجـل مغـربي وليس قد مني اخذ مال ولابلاد ، وقد ترى ما رفـع على صـاحب غرناطة ، ونتوقع عليها مـن الرومـي ، وليس غرضي أكثـر مـن تخليصها ، فاذا صارت في يدي ، ولايمكنني إمسـاكها لبين بـلاد الاندلس من العدوة ، وضعتها عند ذلك في يدك ، فتـكون أعلم بمـا تصنع بها ، واقعد لما يصلح المسلمين

فلم يشك المعتمد أن ذلك منه كائن ، وعمل حسابا اخر ان قال في نفسه : إن لم يتهيأ أخـذها بقعود صـاحبها عن الخـروج اليه ، فليست مما تؤخذ من وقفة واحـدة ، ستنجر الحـال مـن اجلها ، وتشيخ عليها المحلات كما صنع بلييط ، وتـدخل الشـتوة فيحتاج الى الانصراف ، وتبقى هذه المعاقل التي طاعت للأمير اكون زعيمها ، وفي خلال ما يتلوى أمـر غرناطـة احتيج الي ، وكان لي بذلك الصولة على الفريقين،ولانخلى من بركتها»(٢٤)لكن ما ان حقق يوسف بن تاشفين نجاحاته الأولى ضـد غرناطـة حتـى بـدا يغير سياسته تجاه ابن عباد وحليفه ابن الأفطس ، وفقد الرجلان زمـام المبادرة ، لابل فقدا استقلالهما ، وهكذا لم يتمـكنا مـن فعـل شي لصالح ابن بلقين ، وعندما خاطب كل واحد منهما بمـا نصـه«هذا الأمر منجر اليكم ، واليوم بي وغدا بكم ، فلم يمكنهم قراءة الكتـب دونه ـ ابـن تـاشفين ـ وعرضـوها عليه ، فحنق علي ، وكتبـت الأجوبة باملائه يقولون : إنما تريد ان تلطخنا بأفعالك ، ونحن قـد برأنا الله »، ولم يكن هذا الموقف غريبا بالنسبة للأمير عبد الله ، فقد أملاه «الطاعة للمرابط والطمـع ، عسى يحصـل لأحـد مـزيد في بلاده ، ولايمكن لأحد منهم معونتي ولا الاستفساد من أجلي فنحـن لم يعن بعضنا بعضا على الرومي فكيف على المسلم (٢٥) .

وبعد سقوط غرناطة ليوسف بن تاشفين طالبه المعتمد بن عباد بتسليمها له فلم يلتفت اليه ، وشعر المعتمد بالتهديد «وجزع جزعا شديدا ، وخاف أن يثني به» فسارع بالفرار نحو قرطبة ، وحاول يوسف ثنيه ورده اليه فأخفق ووصل الى قرطبة ، وهناك حذر ابن الافطس وقال له: « انج بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة وغدا بنا.

ثم انه بعد ان ظهر للأمير نفوره ، وجه اليه يأمره بالقدوم عليه ، ويقول له : نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله ، ليقول لا، فيجد السبيل ، كما فعل ، فراجعه ابن عباد : إن ذلك كان وقت كنت ضيفا وتريد الغزو ، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع اموالي ، والآن انما انت لي جار مثل باديس وحفيده ، وانت اقدر مني على الشر بجنودك ، فلا يمكنني التغرير بنفسي ، عسى انك تريد اخذ بلدي ، اذ لاتصح لك غرناطة الا بما يضاف اليها من الأندلس»(٢٦) .

وهكذا توترت العلاقات بين المرابطين وبين المعتمد بن عباد واستولى المرابطون على جزيرة طريف ثم وجهوا التعليمات الى المرابطين بالحصون فثاروا عليه(٢٧)وقامت عليه الرعايا بكل قطر ، فأرسل اذ ذاك الى الرومي ، يستغيث به ، فقعد عنه خيفة من التغرير ، ... فلما تبين للأمير خلافة وقعده عنه شاور الفقهاء في امره ، فأشاروا عليه بغزوه»(٢٨) .

وسيرت الجيوش المرابطية ضد مدينتي قرطبة واشبيلية وسقطت قرطبة وكان المدافع عنها عباد بن المعتمد وكان يعرف بالمأمون ، وقتل عباد مع عدد من شخصيات المدينة ، ثم توجهت الجيوش ضد اشبيلية ، وبعد مقاومة شديدة سقطت للمرابطين يوم الأحد ٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ ٩ ـ ايلول ١٠٩١ م(٢٩) .

واستباحت القوات المرابطية اشبيلية «ولم يترك البربر لأحد من اهلها سبتا ولالبدا ، وانتهبت قصور المعتمد نهبا قبيحا واخذ هو قبضا باليد» وارغم على الطلب من ولديه المعتد بالله والراضي تسليم

الحصنين اللذين كانا بأيديهما ، ففعلا وأما المعتمد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ماكان يملكه ، وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفي جسده ، ورحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله ببلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة بطنجة ، فأقام بها أياما »(٣٠) ثم أخذ إلى مكناسة الزيتون ، فبقي بها مدة ثم أخذ إلى أغمات (٣١) حيث أمضى بقية حياته في فقر مدقع وذل لم يرتفع حتى موته .

وفي الربع الأول من هذا القرن زار صاحب أزهار البساتين اغمات حيث أمضى المعتمد بن عباد بقية حياته مع أسرته ، فقال : « في هذا المكان الساحر الذي تقع فيه أغمات حيث تنحدر المياه الصافية من أعالي الجبال المقاربة ، فتجعل من هذا المكان موضعا ساحرا فتشت عن قبر المعتمد طيلة صباح من أيام الربيع .... فلم أعثر على أثر ، ولا أتأسف على ذلك فقبره هو كل هذا المكان الجميل ، هو هذه الأشجار المخضرة ، هو هذه المياه الجارية ، هو هذه الشمس المحرقة ، هو هذه الظلال الكثيفة ، هو تلك الثلوج التي نراها تبرق عن بعد ، هو ذلك الشيء لايوصف والذي يبعث في النفس متعة ولذة ، ويفصلها عن هذا العالم الفاني ، هو ذلك النسيم الذي استنشقته ذلك الصباح في هذا المكان الفردوسي » (٣٢) .

وكان يوسف بن تاشفين قد وجه بعض قواته ضد المرية ، وذلك بعد الفراغ من أمر غرناطة ، وعرف صاحبها المعتصم بن صمادح أنه لن يقدر على مقاومة جيوش المرابطين ، فبعث ابنه معز الدولة إلى معسكر المرابطين للتفاوض مع يوسف بن تاشفين ، وكان هذا الأمير فقيها ، وقد خيل لأبيه أنه سيؤثر على ابن تاشفين ، لكن تقديره هذا لم يصب ، فالأمور كانت مشتعلة وكان يصعب إطفاء لهبها بالوعظ ، لذلك أمر يوسف بن تاشفين باعتقال هذا الأمير ساعة وصوله إليه ، وهنا تحيل المعتصم في تخليص ولده من الأسر فافلح ، وبالنظر لانشغال ابن تاشفين بأمر المعتمد بن عباد ، فتر

الضغط على المرية ، وكان ابن صمادح متقدما بالسن عليل الصحة ، ولما شعر بدنو منيته أوصى ابنه وولي عهده بقوله : « امتسك في هذه القصبة طول مقام ابن عباد في ملكه بإشبيلية ما استطعت ، فإن رأيت ابن عباد قد خرج ، فلا تتربص ساعة واحدة وانج بنفسك إلى القلعة ، وادخل البحر بما قدرت عليه من ذخائرك ، إذ لامطمع لك في البقاء بعده » .

وبعد سقوط اشبيلية للمرابطين وفي السنة نفسها ركب البحر فوراوتظاهر أنه يريد النهوض إلى يوسف بن تاشفين ، وفي وسط البحر ، وبعدما بعد عن أعين الأسطول المرابطي تحول نحو الجزائر وهناك التجأ إلى قلعة بني حماد » واكرمه صاحب القلعة وأمنه في ذخائره ، وأكرم ضيافته ، وخيره حيث يحب السكن فاختار تدلس لأنها على البحر ، وليغيب عن عين السلطان خوفا من الطلب ، وانخمل في ذاته (٣٣).

وباستيلاء المرابطين على المرية باتوا سادة لمعظم ديار الأندلس ، وبيدهم كبريات مدنها مثل : اشبيلية وقرطبة ، وغرناطة ومالقة ، والمرية ، وجيان .

وفي سنة الاستيلاء على اشبيلية استولى المرابطون أيضا على مرسية ودانية وشاطبة (٣٤) وبعد هذا أعدو العدة للاستيلاء على بلنسية وأعمالها ، وكان الحكم في بلنسية بيد الأمير يحيى بن ذي النون ، وكانت الولاية تحت حماية مملكة قشتاله وقد عسكر فيها المغامر الاسباني السيد الكنبيطور مع فرسانه وقوات متنوعة من المرتزقة ، ومع هذا تمكنت جيوش المرابطين من الاستيلاء على بلنسية ، وقد فقد اثناء ذلك أميرها حياته ، وبموته انتهى حكم أسرة ذي النون ، أصحاب طليطلة ثم بلنسية وكان ذلك سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م.

وبقي على المرابطين الآن تصفية ملك المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو الذي كان أول من استنجد بالمرابطين ، وفي اراضيه قامت معركة الزلاقة ، واحتاج المرابطون لثلاث سنوات حتى تمكنوا

من إزالة ملك ابن الأفطس ، وذلك بوساطة إثارة الفقهاء والشعب ضده بسبب سياسته فهو كان يخاطب يوسف بن تاشفين « باظهار الطاعة والمشاركة في أمر الرومي ، ويخاطب الفونش ليستعين به على ملمة إن دهته من المرابطين »(٣٥) .

وكان ابن الأفطس شيخا يتبع هواه ويقدمه على عقله ، وعلى عكسه كان ابنه المنصور ، وقد حذره ابنه من اتباع هواه ، ونصحه بالتخلي عن بطليوس وقال له:« هذا التردد لا يجزئك ، ولا يغني عنك ما ترى من اظهار الطاعة للمرابط ، ولا طاعة أهل بلدك لك ومحبتهم التي كانوا يعرضون عليك ، فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة لما أبقوا عليك ، كالذي رأيت صنع بغيرك ، فأما أن تصفي للمرابط فلن تبلغ مرضاته إلا بالانخلاع له ، ووضع البلد في يديه ، وتقنع بأن تكون متحريا متخليا عن الرياسة فعاجل ذلك تجد عنده الأمان ، وإن نفرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن الفرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ، يجعلك الرومي في أي بلد شئت ، وربما سوغها لك ، كما فعل بابن ذي النون في بلنسية ، وتترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين داخلة ، فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ، فقال له أبوه ، وسفه رأيه :لا أترك موضعي وعسى أن تهيىء الأقدار ضد ما تظن ، فخرج عنها ابنه ، ونجا بماله وأهله ، وأخذ لنفسه بالرأي الذي أشار به على أبيه ، فبقي الشيخ لحينه حتى نفذ أمر الله فيه »(٣٦) .

وحاك المرابطون مؤامرة للاستيلاء على بطليوس ، بأن أطلقوا من سجنهم ابن رشيق صاحب المعتمد بن عباد ، وطلبوا منه أعداد خطة للاستيلاء على مدينة بطليوس وتوجه ابن رشيق الى هذه المدينة ، وهناك عمل على شراء بعض الحرس وزعماء المدينة ، « حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلا ، ويفتحون له الباب ، فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلقوا بالسور عند الامارة التي كانت مع من داخله ، وتقبض على الشيخ وابنيه: الفضل

والعباس ، واحتوى له على أموال جسـيمة ، وأمـر.... بـإخراجه للقتل بعد أن راى في نفسه هوانا عظيما ، وشدة على المال ، ونقـم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التي أعطـاهم ، فـأمر بقتله مع أبنيه:الفضل والعباس.

وطـاع جميع ذلك الثغـر للمـرابطين ، كأنه لم يكن قـط لغيرهم ، ...ثم صار ابنه المنصور من جملة الروم حنقا لما جرى على ابيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين "(٣٧) .

لم تبق دولة من دول الطوائف لم تخضع للمرابطين غير دولة بني هود في الثغر الأعلى في سرقسطة ، وكانت سرقسطة محـاصرة مـن قبل قوات الفونسو يوم دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الأولى ، واستفادت هذه المدينة بشكل غير مباشر من التحضـيرات لمعركة الزلاقة ، بأن رفع عنها الحصار ، فهيأت أمـامها الفـرص للتماسك ، وخاصة بعد نصر الزلاقة ، وشكلت دولة بني هود سـدا منيعا في وجه الاسبان ، وكانت اراضيها متداخلة مع ممتلكات ملوك قشتالة ، وكانت هذه الأراضي نائية في الشمال ، لم يكن من السـهل على المرابطين الوصول إليها ، اللهم إلا عن طريق شرقي الأندلس.
وكان المرابطون بحاجة للوقت لتنظيم الأندلس إداريا وعسـكريا وامنيا ، وذلك قبل الدخول في اية مغامرة عسكرية جـديدة ، اضـف إلى هذا انهم اعلنوا دوما انهم ازالوا ملوك الطوائف لتتاح امـامهم الفرصة للجهاد ضد الأعداء ، وكان لسان حالهم دوما يقـول : « إنه لا ينبغي لنا قتال الروم ، ونترك وراءنا الأعداء ، ممـن يوامي علينا معهم » (٣٨) .

وكان العمل على إزالة ملك بني هود فيه خدمة للأعداء وضرر على المسلمين وأدرك المستعين بالله ابو جعفر احمـد بـن هـود هـذا « فحصن بلاده ، وملك زمام رعيته ، فخيف أمره ، ولم تدخل عليه بسـبب ذلك داخلة ، وكان مـع ذلك يهـادي أمير المسـلمين ويكاتبه ، وقال له في مكاتبته:

نحن بينكم وبين العدو سـد لا يصـل إليكم منه ضرر ، ومناعين

تطرف ، وقد قنعنا بمسالمتكم ، فاقنعوا منابها ، إلى ما نعيدكم به من نفيس الذخائر....فأجابه يوسف بن تاشفين إلى ما اراده...فأقام ابن هود رضي البال ، يهدد النصارى بالمسلمين ، ويهدد المسلمين بالروم ، لكونه حائلا بينهم وبين بلاد الأفرنج والأردمانيين (النورمانديين)....وكان يتحف امير المسلمين يوسف بن تاشفين ويهاديه مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر ، ورفيع الدنانير»(٣٩) .

على هذا تأخر اسقاط دولة بني هود ، ولم يقدم المرابطون على اخضاعها لانه كان لديهم في الداخل ما يكفيهم من مشاكل ، فلقد سقط جل بلاد الأندلس سياسيا وعسكريا بيد المرابطين ، وكان لهذا نفقاته الهائلة في مواجهة أوربا التي جاشت فيها بشدة روح الحروب الصليبية ، ولم تقتصر المشاكل على هذا الجانب ، فقد كان على المرابطين مواجهة المشاكل التي نجمت عن سقوط المغرب الأقصى في أيدي الأندلسيين إداريا واجتماعيا واقتصاديا وحضاريا بشكل عام ، ولهذا كله « تركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين ، لكونهم اخبر بأحوالها ، وأدرى بلقاء العدو ، وشن الغارات ، ولم يمكنوا من ولايتها احدا سواهم ، مع الاحسان إليهم ، وكانوا متى ما وصلتهم خيل من العدوة ، بعثوا بها الى اهل الثغور »(٤٠) .

وبعد مضي عدة سنوات على إزالة دول الطوائف قام يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٦ هـ/ ١١٠٣ م بزيارة رابعة الى الأندلس ، وبرفقته ولداه ابو طاهر تميم ، وأبو الحسن علي ، الذي تولى الملك بعده ، وتجول في اقطار الاندلس وتفقد بقاعها ونظر في احوالها فشبهها « بعقاب راسه طليطلة ، ومنقاره قلعة رباح ، وصدره جيان ، ومخالبه غرناطة » وجناحه الأيمن بلاد الغرب ، وجناحه الايسر بلاد الشرق »(٤١) .

وبعد هذا عاد يوسف الى المغرب ليرتب شؤون الملك من بعده ، وذلك بعدما طعن بالسن وقارب المائة عام ، وفي سنة

٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م توفي يوسف بن تاشفين ، وحين تـوفي كان قـد مضى على أحداث الحروب الصليبية في المشرق أكثر مـن عقـد مـن الزمان ، توفي يوسف بن تاشفين بعدما عمر لمدة قرن من الزمـان ، وبعـــــدما طبـــــع تـــــاريخ هـــــذا القرن في المغرب والأندلس بـطابعه الشـخصي ، فعلى يديه جـاءت شخصية المغرب الأقصى الى الوجـود الفعلي ، وبتـوحيده للأندلس وضمها للمغرب الأقصى أعطى هذه البلاد هوية ماتزال قـائمة حتـى يومنا هذا ، قال عبد الواحد المراكشي يصف هذا الأمـر: «وحين ملك يوسف أمير المسـلمين جـزيرة الأندلس وأطـاعته بـأسرهـا ، ولم يختلف عليه شيء منها عُدّ من جملة الملوك ، لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعـامة الفضلاء من اهل كل شأن منسوبون اليها ، ومعدودون منها ، فهي مطلع شمس العلوم واقمـــارها ، ومـــركز الفضـــائل وقـــطب مدارها ، وأعدل الأقاليم هـواء وأصـــفاها جـــوا ، وأعذبهـــا ماء ، وأعطرها نبتا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبهـا بـكرا مسـتعذبة وأصالا.

.....فانقطع الى امير المسلمين من الجـزيرة مـن أهـل كل علم فحوله ، حتى اشـبهت حضرتـه حضرة بني العبـــاس في صـــدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة مـا لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار »(٤٢) .

بعدما قدم يوسف بن تـاشفين الى أرض المغـرب الأقصى وحـد البلاد وازال منها الفســاد والاضـطراب، وسـعى الى محـو الظلم والاستغلال ، وهذا أيضا ما فعله في الأندلس ، فلقـد كانت أنظمـة الحكم في كل من الأندلس والمغرب مهترئة لا تتمتع بأي رضى أو قناعة شعبية ، وكان شعب المغرب والأندلس ينشد الخلاص مـن الفـرقة والذل والضرائب الثقيلة والمغارم ، أراد شعب الأندلس أن يحصـل على شيء من الأمن وان يسترد المسلم هناك كرامتـه ، وصـحيح أن إزالة ملوك الطوائف تم بكثير من العنف ، ومرد هـذا ليس لطبـائع

المرابطين الاجتماعية وتسويتهم العقائدية ونظرتهم الاسلامية إلى الأمور فقط ، بل لأن ملوك الطوائف كانوا من السوء بدرجة ليس بعدها درجة ، ولم يكن من الممكن التعامل معهم بغير العنف الشديد .

أما موقف الأندلسيين بعد أمد من حكامهم من بداة الصحراء فذلك موضوع اجتماعي حضاري ، ولابد لكل تحول اجتماعي وحضاري وسياسي من ردات فعل ، المهم أن المرابطين تمتعوا أيام يوسف بن تاشفين بقسط كبير من الشعبية في الأندلس لأنهم « أظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقر العيون ، فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم ، ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش ، والخيل إثر الخيل ، ويقول في كل مجلس من مجالسه : إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم الغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم – يعني الروم – خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعة ، ولاعلم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته » (٤٣) .

وطبعا لم يعش يوسف بن تاشفين ليحقق هذا الحلم الكبير ، ولم تتح الفرصة للمرابطين من بعده في استئناف النشاط الاسلامي في الشمال لأسباب كان منها طبيعة أهل الأندلس ، ثم قيام حركة الموحدين التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين ، فشعب الأندلس سلم القياد للمرابطين بعدما عانى كثيرا من ملوك الطوائف ومن العدوان الخارجي ، فاستسلم بذلك للأمن المنفذ من قبل رجال الصحراء بكل خشونة وجفاف وقسوة ، لكن والحياة تتطور والأفكار

تتبدل ، ما أن استرد الأندلسيون أنفاسهم حتى باتوا غير راضين عن حكم الصحراويين لهم فكانت هناك الثورات المتوالية .

لا شأن في هذا المدخل بما حدث بعد يوسف بن تاشفين ، ومفيد أن نختم حديثنا عنه بما وصفه به مؤرخ أندلسي غرناطي من أهل القرن الثامن ، ثم بالانطباعات التي خلفها رؤية قبره على صاحب كتاب أزهار البساتين : قال صاحب الحلل الموشية تحت عنوان « سيرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » : « كان رجلا فاضلا ، خيرا ، ذكيا فطنا ، حاذقا سيبا ، زاهدا ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ، ينيب إلى الخير والصلاح ، كثير الخوف من الله عز وجل ، وكان أكبر عقابه الاعتقال الطويل ، وكان يفضل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي على نفسه بفتياهم .

أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة، في رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، ولم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله ، وكان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة ، من مدة آل عامر ، إلى حين دخوله إليها ، قدم أشياخ المرابطين فيها ، وكانوا أقواما ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ، ولا مخالطة الأسافل » (٤٤) .

وبعدما فرغ صاحب أزهار البساتين من زيارة أغمات قصد مدينة مراكش ، قال : « فدخلت في ذلك المساء نفسه لمراكش ، وهنا ذهبت لزيارة قبر آخر ، فإذا رجعت من أغمات ومررت بباب أكنو تمر في طريق طوله ثلاثمائة متر ، تتبع في مشيك حائطا من الطين فتصل إلى باب الواحه غير متصلة ، وكلها مرقعة عليها سمة الفقر ، وتبصر من ثنايا ذلك الباب تحت ظل شجرة من المشمش على الأرض لبنات متجمعة بغير فن مسح عليها بالجير الأبيض : هذا هو قبر يوسف ابن تاشفين مؤسس مراكش ، وقائد المجاهدين اللثمين في فتح غرناطة وقرطبة .

وفي كثير من الأحيان حاول بعض أهـــل الفضــل بناء قبـة على ذلك القبر ، ولكن ذلك الدفين العظيم المتعود على الهواء الطلق ، والعيشة تحت الخيام كان في كل مرة يهدم ما يبنون على قبره ، لأنه لايقدر أن يرى فوقه في نومه الأبدي سقفا من غير الأوراق المتحركة .

مات وسنه يفوق المائة ، وزاد ملكه على الخمسين ســنة ، وخــطب باسمه على منابر افريقيا والأندلس ، أي على ألف منبــر ، وتســعة منابر ، وامتدت مملكته من بلاد فرنسا إلى مضيق جبل طــارق ، وفي المغرب من طنجة إلى جبل الذهب بالسودان ، أي على مسافة ثــلاثة أشهر طولا وعرضا ، وكان لايكنى إلا بأمير المسلمين »(٤٥) .

الفصل الخامس

العرب والصراع للسيطرة على البحر المتوسط

امتلك الوطن العربي شواطيء طويلة جدا على سواحل البحر المتوسط ، وأبحر العرب منذ أقدم العصور في داخل هذاالبحر ، ووصلوا بين أطرافه ، فقد أبحر الفينيقيون بين سواحل الشام وسواحل المغرب وأسسوا المدن والمراسي والمحطات التجارية ومسألة تأسيس قرطاج معروفة وكذلك حروب قرطاج مع روما ، وقامت هذه الحروب من أجل السيطرة على البحر المتوسط ، وانطلقت شراراتها الأولى من صقلية.

وكان عرب شبه الجزيرة قبل الاسلام يعرفون البحر المتوسط ويدركون مدى أهميته خاصة بالنسبة للتجارة ، فقد أعتاد أهل مكة على رحلتي الشتاء والصيف ، وأوصلتهم رحلاتهم التجارية أحيانا إلى سواحل الشام ، فهاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم توفي في غزة.

واهتم النبي صلى الله علية وسلم ببلاد الشام ومصر ، وفي أيامه راسل عليه الصلاة والسلام هرقل وملوك الغساسنة ومقوقس مصر ، ووجه اكثر من حملة عسكرية ضد بلاد الشام وكانت أخر حملة جندها بقيادة أسامة بن زيد صممت لترسل ضد بلاد الشام، وهذا ما كان بعد وفاته.

وفي أيام أبي بكر بعثت الجيوش لفتح بلاد الشام ، فور الفراغ من حروب الردة ، ورسمت خطة فتوح الشام على أساس اهتم بشواطيء المتوسط أولا ثم بداخل البلاد ثانية ، فجيش يزيد بن أبي سفيان تكلف بالشواطيء الشمالية ، وجيش عمرو بن العاص تكلف

بالجنوب ثم بفتح مصر ، ومن ثم توبعت أعمال الفتوح حتى الأندلس فجنوب فرنسا وشواطئها المتوسطية.

وشرع العرب منذ العصر الراشدي بالاهتمام بركوب البحر المتوسط والمرابطة عل شواطئه ، ومن مزايا البحر المتوسط كثرة الجزر فيه ، وللسيطرة على هذه الجزر فوائد جمة ، تتخذ قواعد للملاحة ومحطات للتجارة وللتزود بالمؤن ولأعمال عسكرية وسواها.

ففي ولاية معاوية على الشام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب جرت المحاولات الأولى لركوب البحر المتوسط ، أو ربما لتصنيع أسطول عربي يدافع عن شواطىء الشام ومصر ويحول دون أية عمليات إنزال بيزنطية ، وفي أيام عثمان بن عفان ، أذن هذا الخليفة الراشدي لمعاوية سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م بركوب البحر لغزو جزيرة قبرص ، وبالفعل قاد معاوية أسطولا تألف من عدة مئات من السفن بني بعضها في بلاد الشام وبعضها الأخر في مصر ، ووصل الاسطول قبرص ، وتمكن من فرض الصلح عليها دون قتال ، وتبعا لشروط خاصة بأن يدفع القبارصة للمسلمين جزية سنوية قدرها سبعة الاف دينار ، وأن ينذروا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ، وأن يقوم إمام المسلمين بتعيين البطريرك على قبرص ، وليس للمسلمين حق طلب النصرة العسكرية من القبارصة ، وعليهم أن يسمحوا لهم بدفع مبلغ سبعة الاف دينار سنويا للامبراطورية البيزنطية ، وفي مرحلة تالية من حكم معاوية وضعت حامية عسكرية مسلمة في قبرص ظلت فيها حتى أيام يزيد بن معاوية (١) .

وفي أيام معاوية بعدما الت إليه الخلافة ، استؤنفت حركة الفتوح العربية في الشمال الأفريقي ، وامتلك العرب استراتيجية متوسطية ، استهدفت تحويل هذا البحر الى بحيرة شامية ، وهكذا ربح العرب الحرب ضد الأساطيل البيزنطية في ذات الصواري ، ثم حاصروا القسطنطينية في محاولة لفتحها.

وفي أيام الوليد بن عبد الملك أكمل العرب فتح الشمال الافريقي ثم فتحوا الأندلس فسيطروا على أحد منفذي البحر المتوسط ، وفي أيام

سليمان بن عبد الملك خليفة الوليد حوصرت القسطنطينية مجددا برا وبحرا لمدة سبع سنوات ، ولم يفلح العرب في الاستيلاء عليها.

وحكي الكثير عن نتائج هذا الاخفاق ، وانه حمى أوربا النصرانية وحضارتها ، وتحدث أميل لودفيغ في كتابه البحر المتوسط عن هذه المسالة بقوله: « وإذا ما تركنا جانبا حروب الاسلام ضد فارس ومصر لعدم وجود علاقة مباشرة لهما بحياة البحر المتوسط ، وجدنا العرب يحاربون فريقين من الدول فيما بين القرنين السابع والتاسع ، يحاربون بيزنطه والجرمان ، وماالتفق لسلطان ابناء الصحراء من سرعة نشوء في قوتهم البحرية يقضي بالعجب ، ومن قول محمد (صلى الله عليه وسلم): « نصر فوق البحر يعدل عشرة انتصارات فوق البر » ومن الواقع أن العرب غلبوا اسطول بيزنطة عدة مرات ، فتقدموا حتى رودس وقبرص ، ووجدوا بيزنطة مفتوحة امامهم ، وهم لم يوقفوا إلا امام هذه المدينة نتيجة لمقاومة أسوار ثيودور ، وبفعل النار اليونانية ، التي اخترعت حديثا ، وكان حصار العرب لبيزنطة الذي دام سبع سنين أطول حصار تم في تلك الزاوية من العالم منذ عسكر اشيك أمام طروادة ، أي أطول من حصار صور وكورنثة وقرطاجة وسرقوسة ، ومع ذلك فإن بيزنطة قاومت ، فأنقذت أوربة كمايقال عادة ، ومن أي شيء أنقذت في العادة؟ لو صارت أوربة مسلمة منذ اثني عشر قرنا ما أصبحت أقل حضارة ولا اقل سعادة...وذلك إلى أن جميع البحر المتوسط كان يحيى بحركة ثقافية ، وما كانت سنتنا سنة تمران حتى كانت الامم المسنة قد تلقت من العرب علم الجبر والحساب العشري والرقاص ، واستعمال الآلات الفلكية والأدوية المخدرة ، وكما تعلمت منهم الصباغة والدباغة والوشي وصنع الزجاج والخزف والبسط والورق ، كما تعلمت منهم البستنة والري وزراعة الأثمار الجديدة ، وفي فن البناء اقتبست أوربة من العرب الأقواس المصنوعة على شكل نعل الفرس ، والنقوش على هيئة النباتات والحيوانات وفن الترصيع ، ثم إن العرب فجروا الماء داخل البيوت وفي الساحات والحدائق وفي كل مكان » (٢) .

وكان العرب بعدما أسسوا مدينة القيروان في داخل إفريقية وتقدموا في فتوحاتهم عادوا نحو ساحل المتوسط حيث أعادوا تأسيس مدينة تونس في موقع قرطاج ، واتخذوا هناك دار صناعة ،وامتلكوا أساطيل خاصة بهم نشطت ضد الشواطيء الايطالية وضد صقلية وغيرها من جزر المتوسط وكانت أهم النشاطات حسبما يلي:

ـ حملة سنة ٨٤ هـ /٧٠٣ م بناء على أوامر عبد العزيز بن مروان والي مصر ، وقد قادها ابن رافع الهذلي ، وقدمت الحملة من مصر الى سوسة ، وكان والي إفريقية موسى بن نصير ، ومن سوسة توجهت ضد سردينية ، على الرغم من تحذيرات موسى بن نصير ، فقد كان الموسم خريفا ، ولهذا تدمرت السفن أثناء العودة نتيجة لتعرضها للعواصف ، وحاول موسى استرداد بعض السفن المدمرة.

ـ حملة سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م ، أرسلها موسى بن نصير وقادها ابنه عبد الله، وسميت غزوة الأشراف ، لكثرة الشخصيات العربية التي شاركت فيها ، وقد تكللت هذه الحملة بنجاح كبير.

ـ حملة سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، أرسلها موسى بن نصير وقادها عياش بن أخيل ، وسارت ضد سرقوسة.

ـ حملة سنة ٨٩ هـ/ ٧٠٧ م ، بعث بها موسى بن نصير ضد سردينية ، وقادها عبد الله بن مرة ، وقد عادت بأعداد كبيرة من الأسرى وكميات من الغنائم.

ـ حملة سنة ٩٢ هـ /٧١٠ م بناء على أوامر موسى بن نصير توجهت أيضا ضد سردينية ، وقد غرقت في طريق العودة.

وتوقفت الحملات اعتبار من هذا التاريخ ضد صقلية وسردينية ، لانشغال الأساطيل في عمليات فتح الأندلس.

ـ حملة سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م قادها محمد بن أوس الانصاري ضد صقلية ، وعاد محملا بالغنائم الى إفريقية فوجد والي البلاد يزيد بن

ابي مسلم الانصاري قد قتله حرسه ، فعرضت عليه أعمال الولاية ريثما يعين الخليفة واليا جديدا.

ــ حملة سنة ١٠٩ هـ /٧٢٧ م قادها والي إفريقية بشر بن صفوان نفسه.
ــ حملة سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م وجهها والي إفريقية الجديد عبيدة إبن عبد الرحمن السلمي ضد صقلية فاصطدمت بالقوات البيزنطية وهزمتها.
ــ حملة سنة ١١١ هـ / ٧٢٩ م وجهها الوالي نفسه ، شاركت بها مائة وثمانون سفينة ضد صقلية ، لكنها تعرضت لكارثة بسبب العواصف وقلة احتياط قائدها.

ــ حملة سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م وجهها الوالي نفسه ضد صقلية ، وعادت مظفرة.
ــ حملة سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م وجهها أيضا الوالي نفسه ضد سردينية وكانت أيضا مظفرة.
ــ حملة سنة ١١٥ هـ / ٧٣٣ م وجهها مجددا الوالي نفسه واصطدمت مع القوات البيزنطية ففقدت عددا من السفن.
ــ حملة سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤م وجهها والي إفريقية الجديد عبيد الله إبن الحبحاب ضد صقلية فاصطدمت بالاسطول البيزنطي ونشبت معركة غير حاسمة.

ــ حملة سنة ١١٧ هـ/ ٧٣٥ م وجهها عبيد الله بن الحبحاب ضد سردينية
ــ حملة سنة ١١٩ هـ/ ٧٣٧م وجهها الوالي نفسه واستهدفت سردينية
ــ حملة سنة ١٢٢ هـ/ ٧٣٩ م وجهها الوالي نفسه واستهدفت فتح صقلية ، وبعدما حققت بعض النجاحات استدعيت للعودة بسبب ثورات الخوارج التي تفجرت
ــ حملة سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م أمر بها عبد الرحمن بن حبيب الفهري المتغلب على المغرب ، فتوجهت ضد صقلية ،

ـ حملتان سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م بعث بهما عبد الرحمن بن حبيب ضد كل من سردينية وصقلية ، وفي هذه الآونة سقطت دولة بني أمية (٣) ، وشهدت بلدان المغرب مرحلة تاريخية جديدة ، ولم تعرف البلاد الاستقرار حتى تأسيس دولة الاغالبة ، وفي عصر الاغالبة في القيروان ورقاد تمت عملية فتح صقلية ولم يقد جيوش الفتح الى صقلية قائد عسكري بل قادها قاضي المسلمين أسد بن الفرات ، وهاكم الحكاية :

نقرأ في كتب الأخبار التي اتت على ذكر الامام أسد بن الفرات وفتح صقلية انه في احد أيام سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م تجمهر اهالي مدينة سوسة في تونس يتقدمهم امير البلاد زيادة الله بن الاغلب ومعه اركان دولته ، تجمهروا قرب مرسى المدينة لوداع الامام أسد بن الفرات ، الذي كان متوجها على راس اسطول كبير لفتح جزيرة صقلية .

وخاطب أسد المتجمهرين قائلا :« والله يامعشر المسلمين ماولي لي أب ولاجد ولاية قط ، ولارأى احد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ماترون الا بالأقلام ، فأجهدوا انفسكم ، واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته ، فانكم تنالون به الدنيا والآخرة » . ودلالات هذه العبارات وان قيلت بمناسبة عسكرية ، هي غير عسكرية ، ومرد هذا الى طبيعة اختصاص قائلها ، فأسد بن الفرات كان قبل ان يكلف بقيادة حملة صقلية يشغل وظيفة قاضي المسلمين في افريقية ، وعد أول علماء الغرب الاسلامي وأكثرهم فقها ، والبحث في سيرة أسد بن الفرات وأعماله يقتضي لأهميته اثارة عدد من القضايا البالغة الخطورة، ذلك انه على كثرة عدد العلماء والفاتحين في التاريخ الاسلامي، يكاد أسد بن الفرات ان يكون وحيدا ، في تفرده بالجمع بين الفقه والاجتهاد والقضاء ، والامارة ، وحياته على هذا مرتبطة وثيق الارتباط بتاريخ دولة الأغالبة في تونس ، وبمسألة انتشار فقه المالكية في الغرب الاسلامي ، وبالصراع للسيطرة على البحر المتوسط وفتح جزيرة صقلية .

وعلى الرغم من جلالة هذه الأمور ، واهميتها القصوى ، فان المصادر العربية شحيحة المعلومات حولها ، ومن المثير للدهشة ان مصنفات التاريخ الاسلامي العامة لم تتعرض بشكل يشفي الغليل لهذه الأحداث الجسام ، فقد اهتمت بشكل مكثف بأحداث الأقاليم المركزية لديار الخلافة ، ولم تحفل كثيرا بسرد تفاصيل اخبار ما جرى في الأقاليم النائية عن بغداد ، كإفريقية مثلا ، حتى وان وقعت هنالك أحداث على درجة عالية من الخطورة وعميق الاثر مثل فتح صقلية !

وهنا نفزع الى كتب التاريخ المحلية مع مصنفات التراجم ــ ان وجدت ــ لنحصل منها على ما نحن بحاجة اليه من معلومات ، ومعلوم ان الغرب الاسلامي عرف حركات تاريخ نشطة ، وتدوينا غنيا نسبيا للأخبار ، ولكن المشكلة هنا ان هذه الحركة ولدت متأخرة عن وقت الحوادث المبكرة ، ثم ان عددا من المدونات المبكرة مازالت محجوبة عنا ، لم تصلنا كاملة او لم تصلنا بالكلية .

ولحسن الحظ ان كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشي قد وصلنا كاملا ، ومع أن صاحبه صنفه في مطلع القرن الثامن للهجرة (٧١٢ هـ) فإنه اعتمد بتفاصيله الهامة على كتابات المؤرخين الذين سبقوه مثل ابراهيم الرقيق القيرواني وغيره ، ومعلومات ابن عذارى عن دولة الأغالبة في القيروان وفتح صقلية على درجة عالية من الأهمية والفائدة ، ومثل ابن عذارى يأتي بعده ابن خلدون ، فالذي أودعه في مقدمته ومتن كتابه العبر عن الغرب الاسلامي عظيم الفائدة ، بسبب اطلاعه الواسع على مؤلفات مؤرخي المغرب والأندلس الذين تقدموا على عصره ، ثم بسبب اشتغاله بالسياسة وتقلبه في عدد من الوظائف ونظرا لرحلاته الواسعة .

وقد قام في القرن الماضي العالم الايطالي ميكائيل عماري بنشر (سنة ١٨٥٨) كتابه الحافل «المكتبة العربية الصقلية» وفيه جمع اغلب ما تناثر في كتب العرب من أخبار عن صقلية والصقليين أيام دولة المسلمين ، وألف كتابا أخر بالايطالية بعنوان «تاريخ العرب

بصقلية» جاء في خمسة اجزاء ضخمة ، ومن بين العرب يأتي المؤرخ الجزائري الاستاذ احمد توفيق المدني على رأس الذين كتبوا عن صقلية وخاصة كتابه«المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا» ثم الدكتور احسان عباس الذي كتب أطروحة عن صقلية اهتم بها بالجوانب الأدبية والحياة الثقافية للعرب فيها ، وجاء بعدهما عزيز احمد فكتب تاريخ صقلية الاسلامية » هذا واولت بعض الدراسات حول الدولة الأغلبية مثل كتاب محمد الطالبي موضوع صقلية أهمية خاصة .

ولدت الخلافة العباسية ولادة خراسانية مشرقية ، وقد ظلت هذه الخلافة طيلة حياتها غارقة في بؤرة مشاكل المشرق ، ولذلك يلاحظ ان اهتمام هذه الخلافة بالجناح الغربي من ديار الخلافة كان من الدرجة الثانية ، كما انها عجزت منذ أيام ولادتها عن مد سيطرتها عليه جميعا ، يضاف الى هذا كانت الدولة العباسية دولة قارية نادرا ما اهتمت بالبحر المتوسط أو فكرت ببناء أساطيل للنشاط فيه .

وفي العصر العباسي المبكر ارسلت بغداد عدة حملات نحو الشمال الافريقي ، وقامت بمحاولات متعددة للحيلولة دون استقلال جميع بلدانه ، ولكنها أخفقت ونجح الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية في تأسيس حكمه في الأندلس ، كما نجح عبد الرحمن بن رستم في اقامة إمامة تيهرت الاباضية (في عمالة وهران جزائر اليوم)ونجح بنو مدرار الصفرية في تأسيس امارتهم في سجلماسة على طرف الصحراء ، ونال ال سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب التوفيق في تأسيس دويلة لهم في منطقة تلمسان ، وتمكن ادريس أخو سليمان من تأسيس دولته في المغرب الاقصى ، وكانت هناك من قبل دولة برغواطة على الساحل المغربي في بلاد تامسنا

وادراكا من بغداد لهذا كله وخشية أن تمتد الحركات الاستقلالية الى بلدان المغرب الأدنى ومصر ساعدت على قيام دولة الأغالبة وذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة ، ولقد حازت دولة الأغالبة على

استقلالها ، لكنها لم تقطع قط وشائجها بالولاء للخلافة العباسية،

ولم تنعم دولة الأغالبة بصداقة أي من دول الشمال الأفريقي ، وكان نفوذها الفعلي على القبائل البربرية في الداخل غير قائم عمليا ، ثم انها لم تنعم بالاستقرار الداخلي الا بشكل نسبي، فقد عانت دوما من الاضطرابات الداخلية والضغوط الخارجية، وحفل تاريخها بفتن الجند ، وهكذا عندما وجدت نفسها محاصرة من الداخل انشدت نحو سواحل البحر المتوسط ، وتورطت في صراعاته السياسية والتجارية .

وكما سلفت الاشارة شغل البحر المتوسط منذ فجر التاريخ دور القلب النابض بالنسبة للحضارات ، فعلى شواطئه قامت ثم تطورت الديانات السماوية والفلسفات ، ومن بلدانه انتشرت الى بقية اجزاء العالم، وكان هناك صراع دائم بين القوى المختلفة حوله للتحكم بشؤون الملاحة فيه والسيطرة عليه وتحصيل الثروة .

ورأينا انه بعد قيام الاسلام ، ومع انتشاره في المشرق والمغرب باتت أوربا محاصرة من قبل العرب ، وخاصة اوروبا الغربية، ونطاق الحصار الذي فرضه العرب كان جديدا كليا : لغويا وقانونيا وحضاريا ودينيا ، مما ادى الى تغيير جذري للنظم الاقتصادية والقانونية والحضارية العامة والدينية في أراضي روما الغربية ، ذلك أن جميع الطرق لم تعد تقود الى روما بل الى حواضر الاسلام ، وتعطلت سياسة استيراد القمح وسواه الى أوروبا، فوجدت أوروبا الغربية نفسها مضطرة الى الاعتماد على الذات بالانتاج المحلي ، ومن ثم اكتشاف الأجزاء الشمالية منها ، وإزالة الغابات لزراعة الحبوب مكان الاشجار ، وهكذا قيل انتهت فعليا العصور الكلاسيكية القديمة وبدأت العصور الوسطى ، فحلت اللهجات ذات الجذور الجرمانية محل اللغة اللاتينية ، وأخذت النظم الاقطاعية بالظهور ، وهذا موضوع سنعود اليه في الجزء الثالث المقبل من كتاب المدخل .

ولم يقتصر عمل العرب في سبيل السيطرة على المتوسط بالاعتماد

على الاساطيل بل اهتموا بتحصين شـواطىء بـلادهم ، فـأقاموا المواقع الدفاعية ، ومنائر الانذار ، وبعد سقوط الخلافة الامـوية وحلول الخلافة العباسية محلها ، ولعدم اهتمام هذه الدولة القـارية بالبحر والسفن ضـعفت السـيطرة العـربية على شـواطى المتوسط ، وزاد الاعتماد على أنظمة الدفاع ، مما أدى الى تـطور كبير في قواعد هذا النظام ، واخذت اعدادكبيرة من العلماء والزهاد بالالتجاء الى مواقع الدفاع والمرابطة فيها ، وهكذا بـدأت مـواقع الدفاع هذه تعرف باسم الرباطات ـ جمع رباط ـ ومع الأيام اخذت الرباطات تـؤدي وظـائف دينية ثقـافية ، وذلك بـالاضافة الى مقاصدها الحربية ، وصارت الرباطات مـراكز للعلم أقبـل عليهـا الطلاب ، وحوت المكتبات ، وشغل رجـالاتها أنفسـهم بـالتعليم والتثقيف والنسخ وغير ذلك ، ونجم عن هذا تـأثير مـزدوج داخلي وخارجي ، بحيث صار بامكان اصحاب الرباطات التأثير بـالرأي العام ، وفي رسم السياسة العامة واتخاذ القرارات الهامة (٤) .

ولقد كان لنظام الربـاطات دوره الاهـم على شـواطى الشـمال الأفريقي ، خاصة في أرجاء سواحل دولة الأغالبة ، ولقـد ازدهـر هذا النظام بشكل رائع ومعطاء خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، ومازالت شواطي تونس تحوي آثار عدد من الرباطات مثل رباط المنستير وسواه .

واهتمت دولة الاغالبة بتأمين مـوارد اقتصـادية كافية ، وملكت جيشها الخاص ، ورعت الحركات الثقافية في القيروان ، واعتنت بالعلم والعلماء ، وقلدت السـياسة الدينية للخـلافة العبـاسيه في المركز ، وكانت حركة المواصلات بين بلدان المغرب والمشرق نشـطة جدا ، حيث تدفق التجار والحجـاج وطـلاب العلم مـن الشـمال الأفريقي على بلدان المشرق ، وكان لهذا أعظم الآثار على مسـتقبل الغرب الاسلامي وافريقيا وحتى على أوروبا .

وحينما يعرض المرء تاريخ قيام الاسلام يلاحظ أن موقع مكة على طرق قوافل التجارة العالمية قبل الاسلام مـع وجـود الكعبـة فيهـا

دفعها نحو تزعم عالم شبه جزيرة العرب ،ثم هيأها لتكون مركز قيام الاسلام ،ومرة ثانية بعد قيام الاسلام وانتشاره في الشمال الافريقي والأندلس ،وجد المسافرون من الغرب نحو الشرق أن المدينة المنورة هي محطتهم الأولى والعظمى قبل التوجه نحو العراق

وهكذا نال القادمون للتعلم والتفقه دروسهم الاسلامية الأولى في المدينة ، ثم ذهبوا نحو استكمال التعليم في العراق ، وكثير منهم لم يذهب ، بل اكتفى بما نهله من دار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومعروف أن المدينة كانت عاصمة الاسلام الأولى ، فيها عاش كبار الصحابة ، وفيها تأصلت معارف الشريعة الاسلامية ، وفي المدينة نشطت الاعمال الفكرية في القرن الأول للهجرة ، وأثمرت في القرن الثاني بقيام مدرسة أهل المدينة في الفقه على يد الامام مالك ابن أنس ، وحين جاءت هذه المدرسة الى الوجود ، كانت مدرسة أخرى كبيرة قد قامت بالكوفة في العراق على يد الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت .

ومن الملاحظ ان الخلافة العباسية كان لها سياسة دينية خاصة، فأبو جعفر المنصور ، وهو المؤسس الفعلي للخلافة العباسية، ادرك بفكره المخطط مكانة الأداة الدينية في خدمة المقاصد السياسية والمصالح الاستراتيجية للدولة ، لذلك اهتم بالدين وبرجاله ، يضاف الى هذا ان عالم القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع للميلاد) قد عرف تيارات فكرية سياسية نادت بوحدة المذهب العقائدي للدولة ، وهذا ما نراه في الامبراطورية البيزنطية في حركة عبادة الصور ، وفي حياة شارلمان وتأسيسه للامبراطورية الكارلونجية في الغرب الأوروبي وعلاقته بالبابوية،

وطبيعي ان نجد لدى العباسيين الاهتمام بالدين ، فهم قد وصلوا الى السلطة بوساطة ثورة انطلقت من مفاهيم الاسلام القائمة على المزج بين العمل الديني والدنيوي ، واختلف حالهم عن بني أمية،

فمعاوية نال الخلافة اغتصابا بقوة السلاح ، بينمـا نالوهـا عن طريق شرعية الثورة وحق الوراثة .

وبعد شيء من التردد اعتمد العباسيون على مدرسة العراق الفقهية التي أسسها أبو حنيفة ، وفي الغرب الاسلامي ، خاصة في الأندلس والدول المستقلة ، وجد الأمراء والحكام أنفسـهم بحـاجة إلى تقليد طرائق العبـاسيين ، أو لنقـل إن الحـكم الذي تـم نيله ــ هنا وهناك ــ بالاعتماد على الصراع بين العصـبيات القبلية وسـواها وجد نفسه بحاجة إلى دعائم لسلطته غير عمليات التوازن بين القوى القبلية ، فكان أن لجأ إلى اعتماد سياسة دينية خاصة ، وطبعـا إن هذا العمل أمـر لابـد منه في أية دولة اسـلامية وخـاصة لدى دول المواجهة مع أعداء الاسلام ، ولابد من القول هنا إن الدين بكل تأكيد لم يكن قط أفيون الشعوب ، فـالأفيون يخـدر ، بـل كان محـركا للشعوب ، وكان بلا شك أخطر الأدوات الاسـتراتيجية في التـاريخ ومازال كذلك

وفرضت ظروف المواجهة في الغرب الاسلامي التشدد والتعصب والتظاهر بالمثالية ، ومثالية الاسلام كانت تؤخذ مـن مـدينة النبـي صلى الله عليه وسلم لامن كوفة أبـي حنيفـة ، وتلميذ المدينة ظهيره أعلى وأمتن مـن ظهير تلميذ الكوفـة ، يضـاف إلى هـذا إن تبني الخلفاء العباسيين لفقه أهل العراق قد جعل القائمين على مـدرسة المدينة يفتشون على مناطق نفوذ لهم ، ويمكن أن نجد شـواهد على هذا في حياة الامام مالك بن انس ، فهو قد اظهـر اكثـر مـن مـرة المعارضة للسلطة العباسية والتحبيذ لأمراء من الغرب الاسلامي .
من هذا كله نخلص إلى القول بأن العالم الاسلامي عاش بعـد قيام الثورة العباسية مباشرة وطوال سنين عديدة في القرن الثاني للهجرة في ظل مدرستين للفقه والتشريع ، وهما مـدرسة المدينة ، ومـدرسة الكوفة (أو العراق) ومن الملاحظ انه بعد وقت ليس بالطويل بذلت محاولات لدمج المدرستين في مدرسة جديدة واحدة .

واستهدفت عملية المزج الوصول إلى حل وسط بين الطرفين بشـكل

منطقي مؤصل ، وهذا ما نشهده في سيرة كل من الامامين الشافعي واسد بن الفرات ، وكما هو مشهور نجح الامام الشافعي في عمله ، واخفق ــ كما سنرى ــ أسد بن الفرات ، لأن الشافعي نجا من ظلمة الوظيفة ، ولم يعش في دياجير الولاية إلا لوقت قصير ، وهكذا أوقف حياته على العلم ، وأما ابن الفرات فإنه في الوقت الذي كان عليه فيه العطاء تولى وظيفة القضاء أولا ، ثم جمع إلى القضاء إمارة الجيش الذي توجه إلى صقلية لفتحها ، وقد توفي اثناء تأدية هــذه المهمــة ، فهل ياترى جاء تعيينه في وظائفه بناء على خطة مسـبقة ، أم أن ذلك جاء بالصدفة ؟

وفي سبيل الحصول على الاجابة لنبدأ أولا بالتعرف إلى سيرة حياة الامام أسد بن الفرات : ولد الامام أسد في مدينة حران الشــامية ، التي كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية قد اتخذها مقرا له ، وحدثت ولادته كما هــو مــرجح ســنة اثنتين واربعين ومــائة للهجرة (٧٥٩ م) وكان والده جنديا من جنود العباسيين اصله من خراسان ، وقد ترك هذا الجندي مدينة حــران إلى إفــريقية في حملة عسكرية وجهتها بغداد ضد خوارج المغرب من الاباضية الذين كانوا مسيطرين آنئذ على أجزاء كبيرة من المغــربين الأدنى والأوســط ، ودخل أسد بن الفرات مدينة القيروان وله من العمر عامــين ، وقــد أقام فيها مع أسرته خمس سنوات ، ثم تحولت أسرتــه إلى مــدينة تونس ، فأقامت بها نحو تسع سنين ، وخــلال هــذه الســنين تعلم القرآن ، واخذ يختلف إلى حلقات مشاهير علماء تونس ، وفي مطلع سن الشباب يمم أسد وجهه نحو المشرق ، فحــل بــالمدينة المنورة ، والتحق بحلقة الامام مالك بن انس ، فأخذ عنه علوم اهل الحجاز ، وروى عنه كتاب الموطأ ، وكان ابن الفرات كثير الســؤال ، شــديد الالحاح يلتهم العلم التهاما ، ويود لو أن الامام مالكا أوقف وقته كله عليه ، ولما تعذر هذا نصحه الامــام مــالك بــالذهاب إلى العــراق للالتحاق بالامام محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب الامــام ابــي حنيفة وخليفته .

وبالفعل توجه ابن الفرات نحو العراق ، والتحق بالأمام محمد بن

الحسن ، وأكمل على يديه تحصيله لعلوم الامام مالك بحكم أنه كان من تلاميذه السالفين ، كما أخذ عنه علوم مدرسة أهل العراق ، ومكث ابن الفرات في العراق مدة لابأس بها ، ولقد أولى الامام الشيباني ابن الفرات عظيم عنايته ، فقد عرف فقره ، لذلك اسكنه معه في دار واحدة ، وقام بتأمين نفقته ، وخصه بمجالس التدريس خاصة ، وتحدث ابن الفرات عن علاقته بالامام الشيباني ووصف حاله معه بأنه قال له :"إنني غريب ، قليل النفقة ، والسماع منك نزر ، والطلب عندك كثير ، فما حيلتي ؟ فقال لي : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتأتي فتبيت عندي وأسمعك ، قال ابن الفرات : فكنت أبيت عنده ، وكنت في بيت في سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل إلي ويجعل بين يدي قدحا فيه ماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل وراني نعست ، ملا بيده منه ونفح به في وجهي فأنتبه ، وكان ذلك دابي ودابه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه » .

لقد زق الامام الشيباني ابن الفرات بالعلم زقا ، ورعاه طوال إقامته في العراق ، وعندما أكمل ابن الفرات تحصيله ، وكان الامام مالك بن أنس قد توفي ، أخذ ابن الفرات الطريق نحو المغرب ، فحط رحاله في مصر ، والتحق بالامام عبد الرحمن بن القاسم ، احد كبار تلاميذ الامام مالك ورواة علمه القدماء ، ولازمه ابن الفرات « فكان يغدو إليه كل يوم ويسأله ويجيبه ابن القاسم ، حتى دون ستين كتابا وسماها الأسدية » وقد حوت هذه المدونة الأسدية راي مدرسة أهل المدينة حول جميع المسائل التي تعلمها ابن الفرات في العراق .

وعاد ابن الفرات إلى القيروان يحمل معه علوم مدارس الاسلام ، ويروى أنه « لما عزم على الرحيل من مصر وجه معه ابن القاسم بضاعة وقال له : إذا قدمت إفريقية فبعها واشتر بثمنها رقوقا ، وانسخ الكتب » ، ولما حل أسد بن الفرات في القيروان ، اظهر ما كان لديه من أسديته وأسمعها الناس ، وانتشرت العلوم التي حملها أسد إلى القيروان ، وانتشر معها صيت أسد بن الفرات ، وذاعت

شهرته ، ولعل أهم الذين سمعوا الأسدية منه هو الامام سحنون ، فبعدما مضى أسد بن الفرات إلى صقلية قام الامام سحنون باستخراج مواد مدونته من أسدية ابن الفرات ، ومعروف أن مدونة الامام سحنون هي أعظم كتب المالكية في الغرب ، وأنه إلى الامام سحنون يعود الفضل في توطيد أقدام المالكية في الشمال الأفريقي ، فبعدما تغيب أسد بن الفرات غدا الامام سحنون أعظم علماء إفريقية مكانة ، وأكثرهم نفوذا وشعبية وشهرة .

واثناء عمل ابن الفرات في القيروان سعى نحو وضع قواعد مدرسة للفقه جديدة قوامها مبادىء مدرستي العراق والحجاز ، لكن النجاح لم يتحقق له لأسباب منها أنه لم يملك الوقت الكافي للتفرغ لمهمته ، فقد كلف سنة أربع ومائتين (٨١٩ م) بمهمة القضاء من قبل الأمير زيادة الله بن الأغلب ، ثم إنه في هذه الفترة وسنوات عدة مقبلة عانت امارة الأغالبة من اضطرابات للجند كادت أن تودي بالحكم الاغلبي ، ونجا ابن الفرات خلال سنوات الفتنة من التورط فيها ، وكان دائما مع ماتمليه عليه الشريعة لا أهواء القوى المتصارعة ، وعندما قضي على اضطرابات الجند رأت الادارة الاغلبية انه من الأسلم للمستقبل اشغال الجند بنشاط حربي خارجي ، وفي هذا نرى احدى خلفيات الحملة ضد صقلية (٥).

شكلت جزيرة صقلية بموقعها الجغرافي مكانا استراتيجيا هاما ، وحصنا منيعا وسط البحر هيمن على حركة الملاحة بين شرقي البحر المتوسط وغربيه ، كما كانت بمثابة جسر انتقلت عبره الحضارات ، وعنت السيطرة على صقلية دائما القدرة على مراقبة كل السواحل الأفريقية والايطالية ،كل هذا بالاضافة لما تنعم به صقلية ذاتها من ثروات ، وماتدره أراضيها من خيرات ، وصقلية كانت دائما موضع صراع بين قوى ايطاليا وافريقيا .

لقد رغب العرب دوما في فتح صقلية وانتزاعها من الامبراطورية البيزنطية ، وتحين الأغالبة فرصهم لفتحها عام ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م ، وساعدهم على الشروع في قهر أراضيها ما وصلت اليه أحوالها

انذاك من اضطراب وتدهور وفساد ، ذلك ان الولاة البيزنطين كانوا قد أسرفوا في استغلال مواردها دون عناية بأحوال السكان ، لذلك اجدبت الأراضي الزراعية وهجرها الفلاحون ، واشتغلوا بالرعي ، كما كسدت التجارة والصناعة بسبب الضرائب الباهظة ، لذلك انهارت الأحوال عامة ، واضطربت أمور المجتمع بسبب ما اعتادت بيزنطة عليه من نفي المجرمين والخارجين على القانون اليها من جموع المنبوذين واعداد كبيرة من العبيد ، وكانت أحوال الكنيسة سيئة ، ومكانتها متداعية لتخليها عن مهامها الأساسية وانصراف رجالاتها والقائمين عليها الى مباهجهم الدنيوية .

ولاشك أن هذه الأحوال قد شجعت الأغالبة على التخطيط لفتح صقلية ، حيث يتحدث المؤرخون عن انفجار العديد من الاضطرابات في الجزيرة في مطلع القرن الثالث للهجرة ، وكان أهمها حركة اوفيماس (فيمي في المصادر العربية) فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه الكامل « ان ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقا اسمه قسطنطين سنة احدى عشرة ومائتين ، فلما وصل اليها استعمل على جيش الاسطول انسانا روميا اسمه فيمي ، كان حازما شجاعا ، فغزا افريقة ، وأخذ من سواحلها تجارا ونهب ، وبقي هناك مديدة ، ثم إن ملك الروم كتب الى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي مقدم الاسطول وتعذيبه ، فبلغ الخبر الى فيمي ، فأعلم أصحابه فغضبوا له ، وأعانوه على المخالفة ، فسار في مراكبه الى صقلية واستولى على مدينة سرقوسة ، فسار اليه قسطنطين ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين الى مدينة قطانية ، فسير اليه فيمي جيشا فهرب منهم فأخذ وقتل ، وخوطب فيمي بالملك ، واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلا اسمه بلاطة ، فخالف على فيمي وعصى ، واتفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل ــ وهو والي مدينة بلرم ــ وجمعا عسكرا كثيرا فقاتلا فيمي وانهزم فاستولى بلاطة على مدينة سرقوسة ، وركب فيمي ومن معه في مراكبهم الى افريقة ، وأرسل الى الأمير زيادة الله يستنجده ويعده بملك جزيرة صقلية ، فسير معه جيشا في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين »(٦)

في الحقيقة كان بلاطة قد راسل الأمير زيادة الله ، بعد التجاء فيمي اليه ، وعرض عليه طلبا فيه عدم مساعدة فيمي والوقوف على الحياد ، ولم يعلن زيادة الله عن قراره في الوقوف الى جانب واحد من الطرفين ، فهو بالأصل كان يريد الاستيلاء على الجزيرة ، والآن تهيأت الفرصة ، لكن الحملة تحتاج الى نفقات كبيرة ، واعداد للراي العام في دولته ، ولم يكن يطمع بالحصول على مساعدات من الخلافة العباسية ، مع أن هذه الخلافة كانت الآن في ظل حكم المأمون نشطة عسكريا في منطقة الثغور مع بيزنطة ، ولذلك التفت الأمير زيادة الله نحو الفقهاء ، وعلماء الدين ، فعن طريقهم كان من الممكن اعلان الجهاد ، وتجنيد العساكر ، وجمع الأموال اللازمة ، لهذا عقد مجلسا لبحث مسألة صقلية والصراع فيها ، وحضر المجلس الى جانب رجال الدولة عدد من الفقهاء مع القاضي الامام أسد بن الفرات ، وقام المجتمعون بفتح ملف العلاقات الاسلامية الصقلية ، فذكر بعض الفقهاء بأنه توجد معاهدة للهدنة بين المسلمين والبيزنطين قديمة ، ينبغي التمسك بها ، وقام الامام أسد بن الفرات برفض هذا الموقف وافتى بأن المعاهدة هي بحكم الملغاة ، لأن الجانب البيزنطي خرقها اكثر من مرة ، ولم يتمسك بشروطها ، وانه من واجبات الأمير اعلان الجهاد ، ونفذ الأمير الأغلبي قرار قاضي المسلمين ، فأعد اسطولا كبيرا من سبعين سفينة ،شحنها بعشرة الاف مقاتل من الرجالة ، وسبعمائة من الفرسان ، وببراعة متناهية وفهم سياسي عميق اسندت قيادة هذه الحملة الى القاضي أسد بن الفرات ، فاجتمعت له بذلك الامارة والادارة والقضاء في آن واحد .

وفي ربيع شهر ربيع الأول من عام ٢١٢ هـ/ حزيران ٨٢٧ م أقلعت الحملة العربية من ميناء سوسة تريد جزيرة صقلية ، وتوقفت أولا أمام مدينة مازر ، وهناك التقت بالاسطول البيزنطي للجزيرة فسحقته ، ودخل المسلمون الجزيرة ، وأخذوا يحتلون مواقعها الواحد تلو الآخر ، وشرع ابن الفرات بحصار مدينة سرقوسة برا وبحرا ، بعدما ما أتاه المدد من القيروان ،ومن المفيد هنا ملاحظته أن

قاضي افريقية رفض حين توجه لغزو صـقلية أن يصـطحب فيمـي وأعوانه

وأثناء حصار سرقوسة وصل اسطول بيزنطي كبير لفك الحصار عنها ، وأمده اسطول من البندقية ، وبسبب ذلك ولتأخر النجدات من القيروان ، أصيب جيش الأغالبة بانتكاسة ، لكن على الرغم من ذلك لم يتوقف عن متابعة الجهاد ، ثم أصـيب بـانتكاسة ثـانية ، حيث انتشر الطاعون بين صفوفه ، وأثناء هذا مات أسد بن الفرات قـائد الحملة ، وكان ذلك سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٩ م (٧)

لقد استغرقت اعمال فتح صقلية اكثر من سـبعين سـنة خـاض العرب خلالها ملاحم رائعة حتى خلصت الجـزيرة لهـم ، وأخفقـت جميع جهود الأمبراطورية البيزنطية في الحفاظ عليها ، وقبل الحديث عن مراحل الفتح ثم تاريخ الجزيرة ومحاولات التوسع مـن هناك في ايطاليا مفيد أن نقدم وصفا موجزا لجغرافية هذه الجزيرة.

قام عماري في كتابة "المكتبة الصقلية " بجمع مـاجاء في المكتبـة العربية عن جغرافية صقلية في قرابة ١٦٠ صـفحة ، ومـن هـذه المواد :

قول ابن حوقل :" وأما صقلية فجزيرة طولها سـبعة أيام في أربعـة أيام ، والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون ، وليس لهـا مـدينة مسكنة ، معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم ، وهي قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال ، ... عليها سور من حجارة مـانع شـامخ ، يسكنها التجار ، وفيها المسجد الجامع "

وتحدث الشريف الادريسي عن صقلية باسهاب ، ومن ذلك قوله :" جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلا ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيبـا ومساكن ، وقديما دخلها المتجولون من سائر الأقطار ، والمتـرددون بين المدن والأمصار ، وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها ، وأعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعتـه مـن متفرق المحاسن ، وضمنته من خيرات سائر المواطن ...

فأما صقلية المقدم ذكرها ، فـأقدارها خطيرة ، واعمالها كبيرة ، وبلادها كثيرة ، ومحاسنها جمـة ، ومناقبهـا ضـخمة ، فإن نحـن حاولنا احصاء فضائلها عددا وذكرنا احـوالها بلدا بلدا ، عز في ذلك المطلب ، وضاق فيه المسلك ، لكنا نورد منهـا جمـلا يسـتدل بهـا ، ويحصل على الغرض في المقصود فيها إن شاء الله تعالى . فنقـول : إن هذه الجزيرة .. مائة بلد وثلاثون بلدا بين مدينة وقلعة ، غير مابها من الضياع والمنازل والبقاع» (٨).

ووصف ابو حامد الغرناطي جزيرة صـقلية وقـد لفـت انتبـاهه بركانها المشهور فقال :« وفي بحر الروم جزيرة يقال لها صقلية فيها جبل قريب من البحر تخرج منه نار تضيء بالليل الى عشرة فـراسخ ... لايحتاج معها احد في تلك المواضـع الى ضـوء ولا الى سراج في طريق ، ولا في قرية لكثرة ذلك الضوء ، ويخرج مـن تلك النار جمـر كبار كأعدال القطن يتقطع ، فيقع بعضها في البر فيصير حجرا أبيض خفيفا يطفو على الماء لخفته ، والذي يقع في البحر يصير حجرا أسود مثقبا تحك به الأرجل في الحمام ، يطفو على الماء أيضـا ، وإن وقـع جمر من تلك النار على حجر أو رمل احترق الحجر ، واشـتعل كمـا يشتعل القطن حتى يقع ذلك الحجر ويصير غبارا كالكحل» (٩).

ومن أشهر مدن صقلية :

بلرم : هي من اهم مدن الجزيرة قديما وحديثا ، جميلة الموقع والمنظر معتدلة المناخ ، مياهها متدفقة ، وهي فينيقية التـأسيس ، اتخـذها العرب حاضرة لحكمهم في صقلية ، وغدت مـركزا حضـاريا هـاما خاصة في ظل الكلبيين في العصر الفاطمي ، وماتزال بعض مـواقعها تحمل الطابع العربي الاسلامي من ذلك:

قصر الفواره ـ ويقع فوق جزيرة تحيط به بركة صناعية من جهـاته الثلاث ، وقد بني ايام حكم الأسرة الكلبية ، واتخذه فيما بعـد الملوك النورمانديين مكانا للهوهم وخلاعاتهم ، وماتزال خرائبه ماثلة حتى الآن ، ونضيف الى هذا القصر قصر العزيز ثم قصر القبـة والقصر الملكي ، وهو اية من ايات الفن والجمال ، كان مقر الدولة والأمـراء

العرب ، وفي ضواحي بلرم العديد من الابنية العربية والآثار الهامة .
مسينا: وهي ايضا مدينة جميلة الموقع ، وذات اهمية عالية ، لها ميناء واسع النشاط ، اتى زلزال في مطلع هذا القرن على مبانيها وسكانها.
ترميني: هي مدينة تكاد ان تكون اسلامية خالصة بحاراتها وأزقتها ودورها ، وطرائق العيش فيها ، وهي نشطة الحياة فيها الكثير من الحمامات الحارة.
مازره: وكانت مدينة اسلامية حافلة الشهرة والنشاط ، ماتزال تحتوي على بعض المؤثرات الاسلامية .
مرسى علي : وكانت هذه المدينة من اكثر الموانىء نشاطا وحركة ، لأنها ربطت صقلية بافريقية.
اطرابنش: من مشاهير المدن أيام المسلمين بها مرسى على شكل هلال كان نشطا وله علاقات مع افريقية .
طبرمين: وكانت اهم المعاقل البيزنطية ، قاومت العرب طويلا ، وبعدما افتتحوها دكوها دكا ، وعلى مقربة منها قرية القنطرة العربية ثم قرية الزعفرانة ، ومازا لأن تحتفظان بهذين الاسمين .
سرقوسة : وكانت قبل الفتح العربي أشهر مدن صقلية ، تعرضت دوما لغاراتهم ، وهي مدينة ذات جمال رائع وبهاء وجلال.
نوطس : كانت ايام المسلمين مركز ولاية ، وذات اهمية عالية وظلت هكذا حتى القرن السابع عشر (١)

وسارت عمليات فتح صقلية في البداية بنجا ح كبير ، فبعد ثلاثة أيام من الاقلاع من سوسة وصلت القوات العربية الى مرسى مازره ، وبذلك قطعت في كل يوم مسافة مائة كليومتر ، ونزل العرب في مازره وفتحوها ، ذلك أنهم لم يجدوا من يدافع عنها ، وهكذا اتيح لهم انزال معداتهم وماحملوه معهم .

في هذا الوقت بلغت الأخبار بلاطة فخف نحوهم على رأس قوات عملاقة ، قيل بلغت عشرة أضعاف القوات العربية ، واعلن بلاطة انه سيقذف بالعرب الى البحر ، وتصدى له العرب واعترضوا سبيله

خارج مازرة ، وتقدم أسد بن الفرات على رأس القوات العربية وبيده اللواء ، وهو يتلو أيات من القرأن الكريم ، وشجع جنده ورفع من معنوياتهم ، وحمل المسلمون معه بصدق وعزيمة ، فهزموا عدوهم هزيمة ساحقة .

وفرت فلول قوات بلاطة نحو سرقوسة، ولاحقها المسلمون بدون تمهل وبذلك استولوا على جنوب صقلية ، ووقفوا أمام أسوار هذه المدينة ، واخفق المسلمون في اقتحام هذه المدينة الحصينة ، وطال الحصار وقلت المؤن لدى المسلمين ، وطالب بعض الجند أسد بن الفرات بالعودة الى تونس ، فأدبهم ، وتابع الحصار ، واخذت المؤن والمساعدات تصل الى داخل سرقوسة وكذلك وصلت بعض المساعدات الى العرب ، واستمر أسد بن الفرات يناضل حتى أجهده القتال فتوفي شهيدا ، ودفن تحت أسوار سرقوسة .

واختار المسلمون أميرا جديدا اسمه محمد بن أبي الجواري ، وكانت معنوياتهم قد تدنت فاتخذ الأمير الجديد قرارا بالانسحاب واخلاء الجزيرة والعودة الى افريقية ، وفيماهم منسحبين واجههم اسطول كبير قدم من القسطنطينية نجدة لسرقوسة ، وسد الاسطول البيزنطي الطريق أمام المسلمين ، فعادوا مضطرين الى الجزيرة ، وعزموا على الجهاد والصبر حتى الشهادة ، ووصلت في ساعات الشدة هذه بعض الامدادات من افريقية ، والأهم انه وصل الى الجزيرة اسطول اندلسي قوي بقيادة أصبغ بن وكيل الذي اشتهر باسم « ابن فرغلوش ».

واتفق المسلمون معا على متابعة الجهاد في الجزيرة وصد الروم عنها ، على أن تكون الامارة عند تحقيق النصر لابن فرغلوش ، وحقق العرب عدة انتصارات وتوجهوا الآن لفتح مدينة قصر يانة ، فحاصروها ، وفي سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م حل الوباء بين صفوف المسلمين فمات بسببه ابن فرغلوش ، ثم مات محمد بن ابي الجواري، فولى المسلمون أمورهم أميرا جديدا اسمه عثمان بن قهرب.

في هذه الاثناء انسحب الاندلسيون الى بلادهم فبادر زيادة الله ابن الاغلب بارسال جيش جديد الى صقلية قوامه ثلاثين الفا بقيادة امير عرف باسم زهير بن عوف ، فاشتد ساعد المسلمين واستؤنفت حركة الفتوح ، وسار العرب من نصر الى نصر .

وتوجه العرب الآن ضد مدينة بلرم ، وقاومهم الروم من داخلها مقاومة شديدة ، وحدث اثناء الحصار أن تمكنت قوة عربية سنة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م من فتح مدينة مسينا ، مما كان له اكبر الآثار على الوضع في بلرم ، وهكذا في سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م تفاوض الروم مع العرب على أن يسلموهم بلرم شريطة السماح لهم بالانسحاب بحرا الى القسطنطينية ، وهذا ماكان واتخذ العرب بلرم عاصمة لهم في الجزيرة ومنها اخذوا يتابعون أعمال الفتح.

وبات الروم الآن والقوات المسيحية محصورين في مثلث من صقلية يمتد من الشرق نحو الجنوب الغربي من مسينا الى قصريانة ثم يرجع من قصريانة نحو الجنوب الشرقي الى مدينة نوتو ، وحاول المسلمون خرق هذا المثلث أولا باحتلال قصريانة فأخفقوا ، ثم باحتلال سرقوسة فأخفقوا ايضا ، وفي سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م توفي الأمير زهير بن عوف ، فولى أمر الجزيرة اغلبي هو أبو الأغلب ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب .

راى الأمير الجديد أن وضع المسلمين وقواهم في نمو مضطرد ، لكن المساعدات البيزنطية لم تنقطع عن الجزيرة فقرر عزلها بحريا ، وحقق الاسطول العربي نجاحات واسعة حيث دمر السفائن البيزنطية واستولى على بعض منها ونشر الرعب في قلوب جميع الأعداء.

وتمكن المسلمون سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م من احتلال جزء من قصر يانة ثم انسحبوا منها ، وفي هذه الآونة وزع العرب نشاطاتهم بين اكمال فتح صقلية وفتح الجنوب الايطالي ، وبالفعل تدخل العرب في ايطاليا أولا لصالح مملكة نابولي واستطاعوا احتلال اجزاء واسعة من ايطاليا واستولوا على مدينة باري الساحلية ، ووصلت

قواتهم الى أرباض روما لاحتلالها ، لكن نشوب بعض الخـلافات الداخلية بين صفوفهم ردتهم .

ومنذ سنة ٢٣٨ هـ/ ٨٥٣ م غدت مدينة باري مقرا لامارة عربية مستقلة تحـكم الجنوب الايطـالي ، واليه نقلت المعـارف العـربية والفنون على اختلاف الوانها ، وهكذا عبرت الحضارة العربية عبـر صقلية والجنوب الايطالي الى داخل اوربا مما سيكون له فيما بعـد ابعد الآثار واهمها.

وفي سنة ٢٣٩ هـ/ ٨٥٤ م حاول العـرب مجـددا فتـح رومـا والاستيلاء ايضا على جميع سواحل ايطاليا ، وفتح جزيرة كريت ـ وهذا موضوع سنعود له بعد قليل ـ وحقق العرب نجـاحات كبيرة في البحر ضد الأساطيل الأوربية ، ومجددا بدا البحر المتوسط يتحـول الى بحيرة عربية ، وتوالت النجاحات داخل صقلية ، وتمكن العـرب ايضا من فتح جزيرة مالطة ، لكن المؤسف أن امكانات دولة الأغالبة كانت لاتسمح بمتابعة الانفاق على مشاريع الجهاد البحرية والبرية ، ولنتذكر أن فتح صقلية احتاج سبعين سنة ، وقد نجـم عن الذفقـات الكبيرة وسواها أزمات خانقة داخل أوساط الأغالبـة وفي افـريقية عامة ، وفيما جهود الأغالبة منصرفة الى ايجاد الحلول للمشاكل الداخلية ولمتابعة الجهـاد في صـقلية وفي الجنوب الايطـالي (١١) ، استغل دعاة الدعوة الاسماعيلية هـذا الوضـع ، فنشـطوا في ديار كتامة وسواها ، وأخيرا تمكن أبو عبد الله مـن الاطـاحة بـالحكم الاغلبي واقامة الخلافة الفاطمية في المغرب.

إنه قدر لايعرف الرحمة ، كيف أطيح هكذا بدولة الاغالبة العربية وجبهات الجهاد بالمتوسط بأمس الحاجة اليها والى قواها ، والشيء نفسه تكرر فيما بعد على أرض المغرب العربي ، فعندما تفرغت دولة المرابطين لاسترداد الاراضي العربية ، تعرضت هي الاخرى لما نجـم عن دعوة المهدي بن تومرت ، وسقطت دولة المرابـطين للمـوحدين ، وذهبت بعض الآراء حديثا الى ابن تومرت كان باطنيا؟ (١٢).

لقد بحثت في تاريخ قيام الدولة الفاطمية في أكثر من كتاب ، وليس بودي البحث في هذا الموضوع مجددا الآن ، بل الذي أبتغي تبيانه أن عبد الله المهدي ، أول خلفاء الدولة الفاطمية لم يستقر طويلا في مدينة القيروان ، ولم يتخذ مدينة تونس عاصمة له ، بل أنشأ مدينة المهدية على ساحل المتوسط . ولقد كان للفاطميين سياسة بحرية خاصة بهم وامتلكوا أساطيلهم ، لكنهم لم ينشطوا مثل الأغالبة ، ذلك أن أعينهم كانت ترنو نحو المشرق للانتقال إليه ، ومع ذلك لم يقصروا في الحفاظ على هيبة ملكهم ، وقد انعكس هذا كله على أوضاع صقلية .

بعيد دخول أبي عبدالله الداعي الى رقاد ، وازالته لملك بني الأغلب ، راسله بعض المتنفذين في صقلية بالاعتراف بالسلطة الجديدة ، وكانت الأوضاع في الجزيرة أنذاك على درجة عالية من الاضطراب ، واستمرت كذلك وزاد الفاطميون بسياستهم الاستبدادية الخرقاء في اضطراب الأحوال فيها واضعافها ، ففي سنة ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م بعث المهدي الفاطمي الحسن بن أحمد بن ابي خنزير واليا من قبله على صقلية ، وكان ابن ابي خنزير هذا من زعماء كتامة ، فيه جفاء و جهل وعصبية ، أراد تغليب العنصر البربري على الجزيرة ،فقاومه أهلها وطردوه ، وعين المهدي واليا جديدا على الجزيرة ، لكن الامور لم تعرف الاستقرار ، وأعلنت صقلية استقلالها وسلمت الحكم لأحمد بن زيادة الله بن قرهب ، وكان من أقرباء الأغالبة ، وانتمى ابن قرهب بالولاء الى الخلافة العباسية مما اثار خوف المهدي الفاطمي ، وفي سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م بعث المهدي باسطوله وجيشه ضد صقلية ، فرده أهل صقلية بعدمادمروابعض سفنه وفي سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م أرسل المهدي حملة ثانية ضد صقلية ، واستخدم وسائل الأرهاب وجيش دعاته ، فكان لذلك أثاره ، حيث دانت الجزيرة مجددا للفاطميين واعتقل ابن قرهب وحمل إلى افريقية حيث أعدم ، ومع هذا ما لبثت الأمور أن عادت إلى الاضطراب في الجزيرة ، وكان لهذا تاثيرات مدمرة ، وقد تزامن مع ذلك مع بدايات نشاطات شعوب النورمان ، فأخذ هؤلاء ينشطون قرب صقلية ويسعون للتعاون مع

مسيحييها لكسب قاعدة في أطراف الجـزيرة ، وكان المسـلمون قـد شغلتهم شؤونهم الداخلية وصراعاتهم عما سوى ذلك .

استمرت الأحوال المتردية في صقلية حتى سنة ٣٣٥/ ٩٤٦ م ، ففي هذه السنة عين الخليفة الفاطمي الثالث – المنصور اسـماعيل الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي الكتامي أميرا على صقلية ، فاسس فيها حكم أسرة وراثية استمرت تحكم الجزيرة حتى تـاريخ سقوطها للنورمان ، وعرفـت هـذه الأسرة بـالأسرة الكلبية ، وقـد استمر حكم هذه الأسرة أكثر من قرن ، وخلال ذلك عاشت الجـزيرة خيرة أيامها ، فقد تعربت ، وازدهـرت فيهـا الثقـافة العـربية ، واستطاع أمراء الكلبيين الدفاع عن صقلية ضـد محـاولات القـوى البيزنطية والأوربية وهزموها في عدة معـارك مشرفـة وهـكذا ظـل الجنوب الايطالي بأيدي المسلمين ، لا بل حاولوا فتح روما .

لقد ارسل الحسن بن علي عدة حملات ضد الجنوب الايطالي ،وفي سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م خاض ضد الجيوش البيزنطية معركة المجاز التي عدت من اعظم معارك التاريخ الاسلامي ، فيها دمر القـوات البيزنطية ، فقد التقتهذه القوات بشرذمـة قليلة مـن المسـلمين ، صمدت امام تفوق العدو العددي فانتصرت ، وقتـل المسـلمون مـن البيزنطيين «خلقا عظيما حزت منهم رؤوس عشرة الاف » والطريف في خبر هذه المعركة أن الحسن بن علي «اعتل .... لفرط الفرح بما انعم الله به عليه ، فكانت وفاته من حمـى حـادة لسـبعة أيام (١٣) ، وهكذا اعيقت أعمال استثمار نتائجها الكبيرة ، وليت الأمـر اقتصر على هذا !

حدثت هذه المعركة أيام المعز لدين الله الفـاطمي ، وكانت الخـلافة الفاطمية مشغولة بمد سلطانها على جميع بلدان المغرب ، اسـتعدادا لتوجيه جيوشها ضد مصر ، لذلك عندمـا وصـل الى المهـدية وفـد بيزنطي للتفاوض على الصـلح اسـتقبل بـالترحاب ، وتعـاقد البيزنطيون مع المعز لدين الله على عدم معاودة الهجوم على صقلية ، وذلك مقابل ان يخلي المسلمون لهم طبرمين ورمطة التي كان سكانها

من المسيحيين ، أي أن ما أخفقت بيزنطة في الحصول عليه في معركة المجاز بقوة السلاح نالته بالمفاوضات ، وهكذا نال العدو قاعدة على أرض صقلية ، كانت نقطة الانطلاق لاسقاط هذه الجزيرة .

فبعد معركة المجاز بأمد قصير تمكنت جيوش الفاطميين من الاستيلاء على مصر ، والى مصر ارتحل المعز لدين الله الفاطمي ، وهناك تورطت الخلافة بالصراع ضد القرامطة ومن أجل السيطرة على بلاد الشام ، وتركت صقلية بامكاناتها لوحدها لتواجه قوى أوربا المتنامية خاصة في المجال البحري لدى النورمان ولدى جمهوريات ايطاليا الناشئة .

وتأثرت صقلية بتردي أحوال الخلافة الفاطمية ، وبتمزق الأندلس وبقيام حكم دول الطوائف ، ثم بما شهدته ساحات المغرب من رفض للولاء الفاطمي ، وهجرة قبائل هلال وسليم وقيام دعوة الرباط ، ورسم صورة ملخصة للأحوال في صقلية لسان الدين بن الخطيب بقوله :«ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت إلى أن انقطع عنهم امداد المسلمين ، لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن ، فكان استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين وأربعمائة (١٠٩٢ م) .

وكان عدو الله الذي تغلب عليها الملك رجار ، وهو الداهية ، العديم النظير في ابناء جنسه : حزما ودهاء وسياسة »(١٤)

وتحدث الشريف الادريسي عن سقوط صقلية في كتابه نزهة المشتاق الذي قدمه لروجر الثاني بن قاهر صقلية فقال :«ولما كان في سنة أربعمائة وثلاث وخمسين سنة من سني الهجرة ، افتتح غرر بلادها وقهر بمن معه طغاة ولاتها وأجنادها الملك الأجل والهمام الأفضل المعظم القدر ، السامي الفخر رجار بن تنقريد ، خيرة ملوك الافرنجيين ، ولم يزل يفرق جموع ولاتها ، ويقهر طغاة حماتها ، ويشن عليهم الغارات في الليل والنهار ، ويرميهم بصنوف من الحتوف والبوار ، ويعمل فيهم ماضي الشفار ، وعوامل القنا الخطار

إلى أن استولى على جميعها غلبة وقهرا وفتحها قطرا فقطرا ، ، وملكها ثغرا فثغرا ، وذلك في مدة ثلاثين عاما .

واقرهم على اديانهم وشرائعهم ، وامنهم في انفسهم وأموالهم واهليهم وذراريهم ، ثم اقام على ذلك مدة حياته إلى ان وافاه الأجل المحتوم »(١٥)

لقد قاومت صقلية مدة ثلاثين سنة لوحدها ، وحين سقطت ؛ سقطت عسكريا ، ولم تسقط من جوانب الحضارة والنظم ، ولم تقم محاولات جادة لاستردادها ، وقد ورث النورمان املاكها في إيطاليا ، ولم يكتفوا بهذا بل احتلوا مالطة وهاجموا سواحل الشمال الافريقي فاحتلوا المهدية وغيرها ، ولا شك أن هذا التراجع العربي كان له ابعد الآثار في أحداث الحروب الصليبية ، ولقد أعطى الحكام النورمان لجمهوريات ايطالية البحرية امتيازات تجارية واسعة في جزيرة صقلية ، وسمحوا لهم باستثمار مؤسسات التجارة والصناعة التي كان العرب قد شيدوا صروحها بكل عناية وبراعة ، وفي المحصلة، «إن اعتداءات النورمان على ايطاليا وصقلية وشواطىء الأدرياتيكي ، وهجمات جنوى وبيزا في المياه الغربية للبحر المتوسط وهجمات الأقطاعيين الفرنسيين في الأندلس ، وحركات البنادقة في المياه البيزنطية ، بالاضافة إلى التشجيع القوي الذي بذلته البابوية واتباع الاصلاح الكلوني للقيام بهجوم عام على المسلمين من اجل دوافع دينية ، ثم العاطفة الدينية التي دفعت بالآلاف من مسيحي غرب أوربا لزيارة الأماكن المقدسة ، هذه الاتجاهات كلها تفاعلت فيما بينها لانتاج ما نسميه بالحرب الصليبية الأولى ، ويمكن القول بعبارة أخرى : إن الحرب الصليبية الأولى تمثل خليطا مركبا من عدة عناصر كانت تعمل منذ أمد في احداث غرب البحر المتوسط ، وتتلخص في العاطفة الدينية ، وجشع البحارة الايطاليين والمغامرين الاقطاعيين للحصول على السلب والنهب ، والرغبة في كسب الامتيازات في ميداني النقل والتجارة»(١٦)

★ ★ ★

ولم ينتزع العرب من الامبراطورية البيزنطية جزيرة صقلية فقط بل فتحوا ايضا جزيرة كريت (أقــريطش)وحــولوها إلى قــاعدة بحرية عربية متقدمة وظلوا محتفظين بها لفترة طويلة ، وبــالاضافة الى كريت امتلكوا جزر الأندلس الشرقية – البليار – ومن المفيد ان نختم هذا الفصل بــالحديث عن كريت ، ذلك أن الحــديث عن جــزر البليار هو مرتبط بتاريخ الأندلس والمغرب ، ولا يعنينا بهذا المدخــل مباشرة (١٧)

وتعد جزيرة كريت بين اهم جزر المتوسط عرفت الحضارة قبــل ان تعرفها بلاد الأغريق ، وكانت لها عبر التاريخ علاقات مــع مصر والشام وسواها ، وبعد قيام الاسلام ونجاح حركة الفتوحات حاول العرب اكثر من مرة فتح هذه الجزيرة ، لكن بيزنطــة دافعــت عنهــا وحالت بينهم وبين ذلك حتى مطلع القرن الثالث للهجرة .

واختلفت حكاية هذا الفتح عن غيرها من الفتوحات البحــرية ، فقــد كان فتحا «شعبيا» – اذا جاز التعبير – ولم يكن فتحــا رســميا ، وراءه دولة أو نظام حاكم ، ونحن نذكر ان فتح الأندلس كان بحــريا من بعض الجوانب ، وقد امتلك أهل الأندلس اســاطيلهم منذ فتــرة مبكرة ، ولا صحة لما ذهبت إليه بعض الآراء مــن أن الأندلس صــار لديها أساطيلها بعدما تعرضت لمخاطر الفيكونكغ ، وجــابت الســفن والأساطيل الأندلسية جميع بقــاع المتــوسط للتجـــارة والنقـــل والأغراض الأخرى ، وجرت العادة في الأندلس أن «كل بلد يتخذ فيه السفن أسطول ، يرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمــر حــربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر أمر جريه بــالريح أو بــالمجاذيف ، وأمر ارسائه في مرفئه »(١٨)

وبما أن الأساطيل العربية قد ملكت السيطرة على البحر المتوسط ولامتداد الشواطىء العربية شرقا وغربا ، فقــد اعتــادت الســفن الأندلسية على الرسو في اي بلد اسلامي .ارادت ، يقول ابــن خلدون: « والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعــانون مــن احواله ما لا تعانيه امه من أمم البحار ، فقد كان الروم والأفــرنجة

والقوط بالعدوة الشمالية من هــذا البحــر الرومــي ، وكانت اكثــر حروبهم ومتاجرهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبــه والحــرب في اساطيله ....

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمــم العجــم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حــاجاتهم البحــرية أممــا وتــكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، اســتحدثوا بصراء بهــا ، فشرهــوا الى الجهاد فيه ، وأنشأوا السفن فيه والشــواني وشــحنوا الأســاطيل بالرجال والسلاح ، وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر مــن أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر ، وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس .....

وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هــذا البحــر من جميع جوانبه ،وعظمت صــولتهم وســلطانهم فيه فلم يكن للأمــم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتــح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومــة مــن الفتــح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه "(١٩)

وكانت بعض الاساطيل الأندلسية قد اعتادت على الرســو امــام ميناء الاسكندرية عند قفولها من الغزو « ليبتــاعوا مــا يصــلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان ، وكانت الامــراء لا تمــكنهم مــن دخــول الاسكندرية ، انما كان الناس يخرجون اليهم فيبــايعونهم»(٢٠)لقــد روى هذا الكندي في كتابه ولاة مصر ،وعرض ذلك لدى الحــديث عن وقائع سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م ،وكانت أوضاع مصر أنذاك مضطربة بدأت المشاكل فيها منذ أواخر ايام الرشيد واشــتدت أثناء الصراع على الخلافة بين الأمين والمأمون ،واضطرمت في الفترة التــي مــكث فيها المأمون في مدينة مرو، واستولى اثناء بعضها ابراهيم بن المهدي على عرش الخلافة في بغداد.

وكان والي مصر المطلب بن عبد الله الخزاعي ، وعهد هذا الوالي

إلى محمد بن هبيرة بن هاشم بـن حـديج بـولاية الاسـكندرية ؛ واستخلف هذا الوالي عمر بن عبد الملك (ويقال له ايضا عمـر بـن هلال) على ولاية الاسكندرية التي لم تنعم بالاستقرار ، ووجد فيها عدة قوى تصارعت من أجل السلطة في الاسكندرية .
وقام والي الفسطاط المطلب بن عبد الله ، بعزل عمر بن عبد الملك عن الاسكندرية وعين بدلا عنه أخاه الفضل بن عبد الله ، وغضب عمر بن عبد الملك من عزله وتعيين المطلب لأخيه بدلا عنه وأراد الاستيلاء على السلطة في الاسكندرية والخروج على والي مصر المقيم في الفسطاط .
في هذه الأونة كان قد تغلب على بلدة تنيس القريبة أحد قـادة الجند واسمه عبد العزيز الجروي ، وطمع بالاستيلاء على مصر ، وعندمـا سير والي الفسطاط ضده حملة نهـرية هـزمها عند شـطنوف على النيل وأسر اميرها السري بن الحكم ، ودعا الجروي عمر بـن عبـد الملك للتحالف ، فاستجاب وقرر الثورة بالفضل بن عبد الله وطـرده من الاسكندرية ، ولكي يحقق هدفه رأى أن يسـتعين بـالأندلسيين المرابـطين أمـام ميناء الاسـكندرية .وكان عدد هؤلاء الأندلسـيين يتراوح مـابين الأربعـة الاف الى الخمسـة وكان قـوام اسـطولهم أربعين سفينة ، ويرجح انهم لجأوا الى الاسكندرية في مطلع الخريف لذلك العام ، واستجاب هؤلاء لطلب عمر بن عبد الملك فاستولوا معه على الاسكندرية ، ونادى عمر بن عبد الملك الآن بالجروي واليا على مصر ، لكن أهل الاسكندرية غضـبوا مـن تـدخل الأندلسـيين في شؤونهم فثاروا بهم وأخرجوهم من المدينة بعدما قتلوا عددا منهـم ، وهكذا عاد الفضل بن عبد الله الى عمله ٠

ولم يجلب هذا الأمن والاسـتقرار الى الاسـكندرية ، حيث قـام المطلب بن عبد الله بعزل أخيه الفضل وعين بـدلا عنه اسـحق بـن ابرهة بن الصباح ، ثم مالبث أن عزله وعين بدلا عنه ابـا بـكر بـن جنادة بن عيسى المعافري ، الذي انتمى الى عشيرة قوية ، ومع هـذا لم يعد الاستقرار الى الاسكندرية لأن الأوضاع اضطربت بشـدة في الفسطاط حيث تحالف الجروي مع أسيره السري بن الحـكم ضـد المطلب واجتذبا بعض جند الفسطاط إليهما مما اضطر الفضـل الى

مغادرة مصر الى الحجاز بحرا ، وتسلم الولاية في الفسطاط السري ابن الحكم بناء على اجماع الجند وكان ذلك في رمضان سنة ٢٠٠ هـ/ ٨١٥ م ٠

وفي هذه الأثناء تمكن عمر بن عبد الملك من طرد المعافري من الاسكندرية واستولى على مقاليد الأمور فيها من جديد ، وبذلك أتاح مجددا السبيل للأندلسيين للنزول في بر الاسكندرية ودخول المدينة ، والتسلط على أهلها ، الذين كانوا قد أخرجوهم من قبل ونقموا عليهم سلوكهم ونسبوا إليهم مفاسد كثيرة ٠

وظلت خواطر أهل الاسكندرية غير مرتاحة لتسلط الأندلسيين ، ولهذا قرر عمر بن عبد الملك اخراجهم الى سفنهم ، وهكذا فسدت العلاقة بين الطرفين ، وتربص الأندلسيون شرا بعمر بن عبد الملك ٠

وساعدت أوضاع الاسكندرية الأندلسيين على احكام قبضتهم عليها ففي ظل الأوضاع المضطربة والنزاعات على السلطة خرج من بين صفوف أهل المدينة حركات شعبية كان أبرزها واحدة عرفت بالصوفية ، تبنى أفرادها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصاروا يسيرون في المدينة وقد علقوا على أعناقهم المصاحف » ويعارضون السلطان في أمره ، فترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي ، فصاروا مع الأندلسيين يدا واحدة ، واعتضدوا بلخم ، وكانت لخم أعز من في ناحية الاسكندرية ، فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفي الى عمر بن هلال في امرأة ، فقضى على أبي عبد الرحمن ، فوجد في نفسه من ذلك ،وخرج الى الأندلسيين ، وألف بينهم وبين لخم ، ورجا أهل الأندلس أن يدركوا من عمر بن هلال ، فساروا الى عمر وهم زهاء عشرة آلاف من لخم ومن الأندلسيين ، ومن ضوى إليهم فحصروه في قصره ، فعلم عمر أن القصر لايمنعه منهم ، وخاف أن يدخل عليه عَنوة ، فيفضح في حرمه ، فاغتسل وتحنط وتكفن ، وأمر أهله أن يدلوه إليهم فدلي ، فأخذته السيوف فقتل ، ثم دلي إليهم أخوه محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج فقتل ، ثم دلي إليهم ابن

عمه ابو هبيرة الحارث بن عبد الواحد فقتل ، ثم ولي إليهم حديج بن عبد الواحد فقتل وانصرف القوم ••••

وكان مقتل عمر بن هلال واهله في ذي القعدة سنة مائتين ، ثم فسد امر لخم والأندلسيين عند مقتل عمر بن هلال ، وقام بأمر لخم رباح بن قرة ، وسار الى الأندلسيين فحاربهم فانهزمت لخم ، وظهر الأندلسيون بالاسكندرية عنوة في ذي الحجة سنة مائتين ، فولوها ابا عبد الرحمن الصوفي ، فبلغ من الفساد بالاسكندرية والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله ، فعزله الأندلسيون عنها ، وولوا رجلا منهم يعرف بالكناني ، ثم حاربت بنو مدلج أهل الأندلس ، فظفر بهم الأندلسيون فنفوهم عن البلاد »(٢١)

وكانت انباء تغلب الأندلسيين على الاسكندرية قد وصلت الى عبد العزيز الجروي المتغلب على تنيس ، ولم يرضه ما حدث لحليفه عمر ابن هلال ، وقرر استرجاع الاسكندرية من الأندلسيين ، وقام بعدة حملات ضد هذه المدينة وحاصرها اكثر من مر ة فأخفق ، ثم إنه « سار الى الاسكندرية مسيره الرابع ،فأغلق الأندلسيون حصنها ، فحاصرهم الجروي أشد الحصار ، ونصب عليهم المنجنيقات ، وأقام على ذلك سبعة أشهر من مستهل شعبان سنة اربع ومائتين الى سلخ صفر سنة خمس ، فأصاب الجروي فلقة من حجر منجنيق ، فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين ، ومات السري بن الحكم بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر »(٢٢)

لقد مكث الأندلسيون يتحكمون بالاسكندرية اكثر من عشر سنوات ، حيث ظلت الأمور مضطربة في مصر وفي المشرق ايضا ، ويبدو ان عدد الأندلسيين في الاسكندرية ازداد كثيرا بوصول اندلسيين جدد اليها لاسيما من سكان ربض قرطبة الذين ثاروا ضد الأمير الحكم بن هشام في سنة ٢٠٢ هـ/ ٨١٧ م فبطش بهم ، وهدم الربض واجلى اهله (٢٣) فجاء بعضهم الى المغرب الاقصى « فصعدوا الى مدينة فارس ، وكانوا ثمانية الاف بيت ، فنزلوا عدوة الأندلس وشرعوا بها في البناء يمينا وشمالا ... فسميت عدوة الأندلسيين »(٢٤)

وترجم ابن الابار في الحلة السيراء للحكم بن هشام فتحدث عن فتنة ربض قرطبة ووصف تدمير الربض وشتات سكانه حيث ساروا « كل بحسب ما أمكنه ، واستمروا ظاعنين على الصعب والذلول ... متفرقين في قصي الكور واطراف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة أهلها الحكم ، ولجأ أخرون الى سواحل بلاد البربر ، واصعدت منهم طائفة عظيمة ــ نحو الخمسة عشر الفا ــ في البحر نحو المشرق ، حتى انتهوا الى الاسكندرية » (٢٥)

وفي المشرق ترك المأمون مرو وجاء الى بغداد ، واعاد هيبة الدولة العباسية واستقرارها في المركز ، واهتم بشؤون مصر ، فوجه عبد الله بن طاهر بن الحسين الى مصر ، فأقبل على راس قوة برية بحرية ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة الفسطاط ودخل اليها « يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة احدى عشرة » ثم قرر الزحف ضد الاسكندرية ، ونزل عليها « في ربيع الاول سنة اثنتي عشرة ، وحصرها بضع عشرة ليلة ، فخرج اليه اهلها بأمان ، وصالح الاندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا ، على أن لايخرجوا في مراكبهم احدا من مصر ، ولاعبدا ولاأبقا ، فإن فعلوا فقد حلت له دماؤهم ، ونكث عهدهم ، وتوجهوا ، فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم ، فوجد فيها جمعا من الذين اشترط عليهم أن لايخرجوهم ، فأمر ابن طاهر باحراق مراكبهم ، فسألوه أن يردهم الى شرطهم ففعل » (٢٦)

وسار الأندلسيون نحو جزيرة كريت حيث تمكنوا من فتحها ، لكن لماذا نحو كريت ، ومن أين ولدت هذه الفكرة لديهم ؟ يبدو أن الأندلسيين كانوا اثناء سيطرتهم على الاسكندرية قد تابعوا نشاطاتهم داخل البحر المتوسط ، وقد اضطروا لذلك لتأمين المؤن واسباب الاستمرار ، وهكذا اغاروا على كريت عدة مرات ، ولربما اغاروا على صقلية ايضا ، وفي السنة التي نزل فيها عبد الله بن طاهر الفسطاط بعثوا ضد كريت « عشر سفن أو عشرين ، عادت بكثير من الاسرى والغنائم ، بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة» (٢٧)

ولعلهم قصدوا كريت بعد مغادرتهم الاسكندرية لأنهم عرفوا أخبار مشروع الاغالبة لفتح صقلية الذي شرع في تنفيذه في العام نفسه ، وكان الأندلسيون حين قصدوا كريت تحت لواء قائد منهم اسمه ابو حفص عمر بن عيسى البلوطي ، ونزلوا على شاطيء كريت دون أن يلقوا مقاومة ، ولانعرف هل نزلوها للاغارة فقط أم للفتح ، وينقل فسازلييف عن المصادر البيزنطية انه « لم يكد جند العرب يبتعدون عن الشاطيء الى الداخل قليلا حتى امر ابو حفص بحرق السفن ، فلما رجع العرب الى الشاطيء كادوا يثورون لما احسوا من يأس خوفا على نسائهم واطفالهم، فهداهم ابو حفص حينئذ وامتدح لهم غنى الجزيرة ، وجمال الكريتيات وصلاحهن للزواج.

فلما استقر العرب في الجزيرة ابتنوا حصنا حصينا أحاطوه بخندق عميق ، فسمي لهذا بالخندق ، ومن هنا جاء كما نعرف الاسم الحديث كاندى «(٢٨) واذا صحت هذه الرواية لم تكن فكرة الاستقرار في كريت موجودة إلا في رأس البلوطي ، ومهما يك من أمر اكمل العرب فتح كريت ، ويقول فازلييف « واخذ العرب تسعا وعشرين مدينة لم تحفظ لنا أسماؤها ، واسترقوا سكانها ولم يسمحوا للمسيحين بالاحتفاظ بدينهم إلا في مدينة واحدة » وانتمى الأندلسيون بعد استقرارهم في كريت الى الخلافة العباسية (٢٩)

كان على عرش القسطنطينية الامبراطور ميخائيل الثاني من الأسرة العمورية (٨٢٠ ــ ٨٢٩ م)وحاول هذا الامبراطور الحيلولة بين العرب وبين فتح صقلية ،كما جهد في سبيل استرداد كريت فأرسل لهذا الغرض ثلاث حملات بحرية باءت جميعا بالاخفاق (٣٠) وكانت في هذه الأونة جبهة الثغور العربية البيزنطية مشتعلة ، ففي منطقة الثغور اقام الخليفة المأمون وهناك قضى ، وبعد المأمون قام المعتصم بحملة عمورية الشهيرة ، ولاشك أن هذه الضغوط الشديدة على بيزنطة قد ارغمتها على توزيع امكاناتها العسكرية وهذا قد سهل بعض الشيء فتح كل من صقلية وكريت .

لقد احتفظ العرب بجزيرة كريت مدة تبلغ قرنا ونصف القرن

خاضوا خلالها معارك شديدة ضد الأساطيل البيزنطية ، واستطاع البيزنطيون استرداد كريت في الفترة التي تلاشت بها قوى الدولة العباسية ، وفي المقابل عاشت الامبراطورية البيزنطية في ظل حكم الأسرة المقدونية فترة ازدهار وقوة عسكرية ، وانجبت هذه الأسرة واستخدمت عددا من كبار القادة العسكريين كان من اشهرهم نقفور فوقاس ، واستطاع نقفور أن يجتاح منطقة الثغور الشامية ، ولم تثمر جهود سيف الدولة الحمداني في التصدي له حيث اقتحم على راس قواته مدينة حلب واحدث فيها مذبحة مهولة ودمارا مروعا وساق منها قطارا من الأسرى فيه أكثر من عشرين الف فتى وفتاة ، ونقفور هذا نفسه استغل الضعف العربي فقام بحملة كبيرة ضد كريت في سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م واستطاع الاستيلاء عليها بعد ما واجه مقاومة هائلة ، وعندما وصل خبر سقوطها إلى القسطنطينية تقبله شعبها بفرح عظيم ، وعلى العكس شعر المسلمون بحزن عميق وأسى كبير ، ومع انهم في إفريقية وفي مصر ملكوا ما يكفي من الامكانات لاسترداد الجزيرة تواكلوا واهملوا الأمر ، واكتفى المعز بكتابة رسالة تهديد إلى بيزنطة وتقريع إلى كافور الاخشيدي ، لكن ذلك لم يجد ، والمشكلة هنا أن هموم المعز كانت منصرفة نحو احتلال مصر ، وهموم كافور كانت مستقطبة حول الدفاع عن ملكه ، (٣١) وكانت الأندلس منصرفة نحو همومها مع أعداء الشمال والصراع أيضا مع الفاطميين في بر المغرب الأقصى والبحر مع مشاكل أخرى •

لقد توالت الانتكاسات العربية في البحر المتوسط ، ومن الجانب الآخر كانت قوى أوربا تتصاعد ، وقد اثر هذا تاثيرا كبيرا على مسار أحداث الحروب الصليبية ، وتعاظم التدهور في هذا المجال في المشرق اكثر منه في المغرب ، وقد أجمل ابن خلدون حكاية العرب والبحر المتوسط بقوله :« والمسلمون ٠٠٠قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج ، وتثخن في

ممالكهم ...وانحـازت أمـم النصرانية بـأساطيلهم الى الجـانب الشمالي الشرقي منه ، من سواحل الأفرنجة والصـقالبة وجـزائر الرومانية لايعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربـت عليهـم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسـيط هـذا البحـر عدة وعددا ، واختلفت في طرقه سلما وحربا ، فلم تسـبح للنصرانية فيه ألواح ٠

حتى إذا ادرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن ، وطرقها الاعتلال مد النصارى ايديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صـقلية واقريطش ومالطة ، فملكوها ، ثم الحوا على سواحل الشـام في تلك الفترة ، وملكوا طرابلس وعسقلان وصـور وعكا ، واسـتولوا على جميع الثغور بسواحل الشام ، وغلبوا على بيت المقدس ، وبنوا عليه كنيسة لاظهار دينهم وعبادتهم ، وغلبوا بني خزرون على طرابلس ، ثم على قابس وصفاقس ، ووضعوا عليهم الجزية ، ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيديين من يد أعقاب بلكين بـن زيري ، وكانت لهـم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر ،وضعف شـأن الأسـاطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ، ولم يعتنوا بشيء من امره لهذا العهد ، بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كمـا هـو معروف في أخبارهم ، فبـطل رسـم هـذه الوظيفـة هنالك ، وبقيت بإفريقية والمغرب فصارت مختصة بها ٠٠٠٠

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسـلمين في الأسـاطيل لضـعف الدولة ونسيان عوائد البحر ، بكثرة العوائد البدوية بـالمغرب ، وانقـطاع العوائد الأندلسية ، ورجع النصارى فيه الى دينهـم المعـروف مـن الدربة فيه ، والمران عليه ، والبصر بأحواله ، وغلب الأمـم في لحته وعلى أعواده ، وصار المسلمون فيه كالأجـانب إلا قليلا مـن أهـل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجـدوا كثـرة مـن الأمصـار والأعوان ، أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا ، وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا »(٣٢)

ملاحق الكتاب

أسد بن الفرات

(من المقفى للمقريزي - مجلدة برتو باشا)

أسد بن الفرات بن سفيان ، ابو عبد الله ، مولى بني سليم ، قاضي إفريقية ٠

أصله من ابناء جند خراسان ٠

ومولده في سنة اربع واربعين ومائة ، واقام بالكوفة ٠ وكتب عن اهلها وكتب بالري عن جرير بن عبد الحميد ٠

واخذ الموطأ عن مالك بن انس ، وروى عنه المسائل الأسدية ، وهو معدود من كبار أصحاب مالك ٠
قدم مصر ، ومضى الى إفريقية ، وولي القضاء بها من قبل زيادة الله ابن إبراهيم بن الأغلب شركة مع أبي محرز محمد بن عبد الله بن قيس في ٠٠٠٠

ثم غزا جزيرة صقلية وذلك أن اهلها كانوا معاهدين ٠ فنزع بعض اهلها الى زيادة الله يستدعيه الى دخول الجزيرة ، وذلك أن ملك الروم سخط عليه ، وكتب الى صاحب صقلية أن يعاقبه ويمثل به ٠ فلما خافه استدعى أصحابه الى الخلاف معه فأجابوه ٠ فمضى في مراكبه نحو سرقوسة إحدى مدائن جزيرة صقلية ، فنزل بمرساها وقاتل البطريق الذي كان بها حتى قتله ، ثم لبس الديباجة التي يلبسها الملوك والخف الأحمر ، وأخذ الأموال التي بسرقوسة ، واستولى عليها ، واعطى أصحابه الأموال ، ثم رغب الى زيادة الله في أن يمده ٠

فجمع زيادة الله العلماء وشاورهم في غزو صقلية ٠ وكان في

عهدهم أنهم إذا دخل عندهم رجل من المسلمين مرتدا أن يسلموه الى المسلمين فأحضر زيادة الله اسد بن الفرات وابا محرز ،في أخرين وسألهم عن ذلك ، فقال اسد : نسأل رسلهم إن كانوا احتبسوا احدا من المسلمين ارتد عندهم •

فسألوهم فقالوا نعم ، فعلنا ذلك ، ولا يحل لنا في ديننا رد من اتى إلينا ودخل في ديانتنا •

فقال اسد : قد نقضوا عهدهم وجاز لنا أن ننقض ما عقدنا لهم ، وإنما تتآدى إلينا الحقائق عنهم برسلهم فبهم عاهدناهم وبهم نجعلهم ناقضين ، وقد قال الله تعالى :« فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الأعلون »(١)• فكما لاندع السلم ونحن الأعلون فكذلك لانتمسك به ونحن الأعلون •

فأخذ زيادة الله بقول اسد وأمر بإنشاء المراكب والاستعداد للغزو • وعرض اسد نفسه على زيادة الله للخروج في الغزاة ، فولاه على الجيش ، وفيهم أشراف أهل إفريقية من قريش ، والعرب ، والجند ، والبربر ، والاندلسيين ، وأهل العلم والبصائر ، وأقره على القضاء مع قيادة الجيش • فخرج في حفل عظيم ، وعدة جليلة في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين • فقال لمن حوله والله ما ولي ابي ولا جدي ولاية قط ، ولا رأى أحد من أهل بيتي ولا سلفي مثل هذا الجمع يتبعه ، ولا بلغت ما ترون إلا بطلب العلم فأجهدوا انفسكم في طلبه ، فإنكم تنالون به الدنيا والأخرة •

واجتمع لزيادة الله من المراكب سبعون مركبا ، وجعل فيها سبعمائة فرس ، ثم فصل اسد بالعساكر يوم السبت للنصف من شهر ربيع الآخر ، فكانت طريقه على قلعة البلوط ، ثم على قرى الريش ، ثم سار الى قلعة الدب وقرية الطاووس • وذلك انهم اصابوا في القلعة دبا انيسا ، وفي القرية طاووسا • ثم سار الى معركة بلاطة فظهر له فيها جمع من الروم فنازلهم وواضعهم الحرب فانهزم المشركون ، واصيب لهم خيل وسلاح • ومن ذلك اليوم

سميت معركة بلاطة • ثم دخل الى حصون الروم ومدنهم وقراهم ينسفها ويغير عليها • وبعث السرايا الى قصور صقلية وقراها فأصابوا سبيا كثيرا ، ومن الدواب والمواشي ما لا يحصى كثرة • وكثرت الغنائم عند المسلمين فصاروا في رغد من العيش ، حتى نزل على سرقوسة ، وحصر اهلها اشد الحصار ، ونصب عليهم المجانيق وقاتلهم برا وبحرا •

وكانت المراكب تاتيهم من القسطنطينية لتنصرهم ، فربما تغلب المسلمون عليها قبل دخولها • وبث السرايا من كل جهة ، واختلط الناس المنازل من سرقوسة الى قطانية وما حولها ، وتزوج المسلمون في الروم وسكنوا القرى ، وسارع الناس الى إمدادهم والغزو إليهم من إفريقية والأندلس وغيرهما ، واتتهم مراكب من الأندلس فيها كليب الأعرج ورجل يقال له المشاط فنزلوا وافتتحوا قلعة تعرف بقلعة حفص • واحرق اسد مراكب سرقوسة وقتل جماعة من اهلها فانقطعت المواد عن سرقوسة ، واشتد عندهم الغلاء وذبحوا خيولهم • واشير على اسد ان يرجع وقيل له . سلامة مسلم واحد خير من الروم بأسرهم ، فأبى أن يرجع وقال : ما كنت لأضيع على المسلمين غزاة وفيهم خير كثير •

وامر بالزحف واخذ اللواء بيده وقرا سورة يس حتى فرغ منها ، ثم قال : ايها الناس ، لاتهابوهم ، إنهم عبيدكم ، هربوا من ايديكم ، ثم هم قد وقعوا لكم يشير الى من انهزم من الروم عند فتح إفريقية •

ثم إنه زحف وقاتل قتالا كثيرا ، واشتدت الحرب ، وهزم الله المشركين ، وكانوا في مائة الف وخمسين الفا ، وقتل بلاطة ملكهم في خلق كثير منهم • وجرح أسد، فلم تزل به جراحته حتى مات وهو على حصار سرقوسة في شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين فدفن بمدينة بلرم •

جرجي الأنطاكي وزير روجار

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

جرجي بن ميخائيل الانطاكي ، وزير روجار ملك الافرنج بجزيرة صقلية • كان من جملة النصارى وعمل هو وأهل بيته لملك القسطنطينية مدة ورفع عليه وعلى أهله فأمر الملك بوصولهم إليه بالأهل والولد ، فجمعوا في مركب وخرجوا في أربعين نفسا فلقيهم أسطول السلطان تميم بن المعز بن باديس صاحب بلاد الغرب ، وذلك في سنة نيف وثمانين وأربعمائة ، وهو راجع من غزو جزائر القسطنطينة ، فأخذهم واتي بهم الى المهدية من ارض إفريقية • فسألوا الحضور بين يدي تميم فأمر بإحضارهم فذكروا انهم حساب وأن السلطان ينتفع بهم في الخدم. فأحسن تميم اليهم وقدلهم الامور. فظهر نصحهم وولى جرجي هذا عاملا على مدينة سوسة وجعل سمعان اخاه بين يديه وكان لم يبلغ الحلم. فجعل يلتقط الاخبار من اخوته ومن غيرهم ويوصلها اليه. فبلغ السلطان يحيى ابن تميم عن سمعان انه نقل عنه كلاما. فضاق به صدره وثقل على يحيى بن تميم فأمر من خنقه ليلا.

ومات السلطان تميم وقام من بعده ابنه يحيى بن تميم فخافه جرجي ، وكتب الى السلطان عبد الرحمن (٢) وزير الملك روجار بن روجار ملك الفرنج المعروف بأبي تليس صاحب جزيرة صقلية يأمره فيه أن يبعث له شينيا غزوانيا ليهرب فيه • فوصل الشيني الى المهدية في سنة اثنتين وخمسمائة ، وفيه رسول الى السلطان يحيى ابن تميم • فأخذ جرجي وجميع اقاربه وسار بهم بحيث لم يعلم به أحد •

فلما قدموا عليه أحسن إليهم وولاهم الدواوين بصقلية فأظهروا النصح فصار لهم عنده منزلة • وشب الملك روجار وشارك عبد الرحمن الوزير في الأمر والنهي • فتقرب إليه جرجي بكل ما يوافقه • فبعث جرجي رسولا الى مصر كرات متعددة •

ولم يزل جرجي يسعى بالسلطان عبد الرحمن حتى أخذه روجار وجعله في قفص حديد وقتله • وولى وزارته أبا الضوء كاتب إنشائه ، وكان من أهل الأدب ، فلم ينهض بالأمر فولى جرجي الوزارة فجمع الأموال ورتب قواعد الملك وحجب روجار عن الرعية ، وجعل له زيا كزي المسلمين ، لا يركب ولا يظهر للرعية إلا في الأعياد ، وبين يديه الخيل المسومة بسروج الذهب والفضة ، والأجلة المرصعة بالأحجار ، والقباب بالهوادج ، والبنود المذهبة والمظلة والتاج على رأسه •

ونعت جرجي بالسيد الأجل المرتضى عز الملك المظفر فخر الجلال نظام الرئاسة زعيم الجيوش شرف الوزراء أمير الأمراء • وأوقف روجار على سير الملوك ، وأمر كاتبا من كتابه يعرف بالحذش فجمع له سيرة •

فلما كانت سنة ثلاث واربعين وخمسمائة عند اخذ المهدية بلغت شوانيه مائتي شيني ومائة طريدة ، غير الحمالة • فخرج جرجي في الأسطول بنفسه وفتح الجزائر التي بين المهدية وصقلية •ثم صار في ملكه من سواحل إفريقية ما بين أول طرابلس الى الحمامات بقرب تونس ، وفي البر الى قرب القيروان • واتسعت دولة روجار بتدبير جرجي • فلما وقع الغلاء في المغرب مع الفتن ، رحل إليه من الأمراء والقضاة والفقهاء والأدباء والشعراء عالم كبير ، فأوسعهم جرجي وروجار رفدهما وأنزلاهم عندهما ، فعمرت الجزيرة أحسن عمارة وقصدها السفارة من كل البلاد بأنواع البضائع وطرف التجارة ، الى أن كانت سنة ست واربعين وخمسمائة ، مات جرجي الوزير وهو في التسعين • فأقر روجار ولده ميخائيل بن جرجي في الوزارة •

ثم مات روجار في العشر الأول من ذي الحجة سنة ثمان واربعين وخمسمائة .

جعفر بن محمد الكلبي الصقلي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

جعفر بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين ،الكلبي ،الصقلي ، امير صقلية ٠

كان من امراء بني ابي الحسين بصقلية يتوارثون إمارتها مدة سنين واول من ولي منهم الحسن بن علي في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة من قبل الامام المنصور بنصر الله أبي الطاهر إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله بن عبيد الله (٣) المهدي الفاطمي ٠

ثم ولي بعد الحسن بن علي ابنه أبو الحسين أحمد بن الحسن ، ثم ابو القاسم علي بن الحسن بن علي ، ثم ابنه جابر بن أبي القاسم علي ، ثم جعفر بن محمد هذا ٠

وكان ابوه أبو عبد الله محمد بن الحسن قد قدم الى مصر مع المعز لدين الله ، ومات بالقاهرة. فلما مات المعز واستخلف من بعده ابنه العزيز بالله أبا منصور نزار بن المعز ، ونافق حمزة بن ثعلة الكتامي بأسوان في سنة ثمان وستين وثلاثمائة أخرج اليه جعفر بن محمد هذا ، فأخذه ودخل به القاهرة ومعه أمواله وجواهره ونعمه ، فلما قتل أبو القاسم علي بن حسن أمير صقلية لعشر بقين من المحرم سنة اثنتين وسبعين في الجهاد،وقام من بعده ابنه جابر كتب قوم من أهل صقلية الى العزيز يعرفونه عجز جابر عن القيام بأمر صقلية ٠ فأمر العزيز جعفر بن محمد هذا أن يمضي من مصر الى صقلية وعقد له بولايتها ٠ وقد كان في رتبة ابيه من الوزارة والحال الجليلة ٠ فخاف منه الوزير يعقوب بن كلس وأراد إبعاده ، فحسن للعزيز

ولايته صقلية وعرفه أن الثغر يتلف ما لم يله ، فتمت حيلته وولاه العزيز •

فخرج من القاهرة في البر ، ومعه خيل يسيرة فوصل الى مدينة المنصورية يوم الأربعاء لخمس خلون من صفر سنة ثلاث وسبعين وبين يديه عشرون فرسا بالسروج المحلاة المثقلة ، وخمسة بنود مذهبة وخمس عماريات ، ومه سبكتكين التركي فلقيه عبد الله بن محمد الكاتب وأنزله • فنادى مناديه في الناس بإعطاء الأرزاق السنية ، فأتاه جماعة من الناس فلم يحمل ذلك عبد الله ونادى :« من مضى الى جعفر بن محمد بن الحسن فقد حل دمه » • واخذ قوما سائرين نحوه فضرب اعناقهم • فرحل عند ذلك للنصف منه يريد المهدية ، ورحل معه عبد الله فأتته ثاني يوم وصوله خمسة مراكب حربية من صقلية بهدايا جليلة وعدة عظيمة بعث بها إليه ابن عمه جابر بن ابي القاسم • فركب فيها يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر وسار الى صقلية فتسلمها من جابر بغير مدافعة واستقامت له اموره •

وكتب إليه العزيز في سنة خمس وسبعين يأمره أن يدفع الى الراهب الذي هو ابو جاريته السيدة العزيزية ، القلاع التي افتتحها جده الحسن علي بن بي الحسين، وأن يدفع إليه كل شيء عنده من قديم وحديث فقدم الراهب الى صقلية فأنزله جعفر ووكل به ومنع ان يدخل عليه أحد ، حتى إنه كان إذا عبر الحمام صحبه عدة من المسلمين حتى يدخل ويخرج فيردونه الى موضعه • فأقام على هذا نحو اربعة اشهر • ثم جمع له كل شيخ وعجوز وعليل من النصارى ودفعهم إليه ، وهم نحو مائة نفس وأمره بالرحيل ،(فأفلت وما صدق بنجاته) فمضى الى القسطنطينية ، وكتب الى العزيز بما كان فيه مع جعفر • وأمر جعفر بعد مسير الراهب فاشترى مركبا اندلسيا وشحنه بطرائف الأندلس واظهر أن ابن أبي عامر بعثه إليه، وكتب الى العزيز بأن صاحب الأندلس قد كتب إليه يدعوه الى طاعته ويعده ان يقطعه من الاندلس كل ما يسأله • فكتب إليه العزيز بأن

سلفه من بني أبي الحسين ما عرفوا قط إلا طاعته وطاعة آبائه - يحضه عليها - فبقي جعفر يداري أمره ، والقلاع بأيدي المسلمين ، فلم يرم أن مات في يوم (...) سنة خمس وسبعين وثلاثمائة فولي بعده أخوه عبد الله بن محمد.

تاج الدولة الكلبي

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

جعفر بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين ،الكلبي ، أبو محمد ، ابن أبـي الفتـوح ـ ويقـال أبـي الفتح ـ الأمير تاج الدولة ، سيف الملة ابن الأمير ثقة الدولة •

أحد أمراء صقلية المعروفين بـ« بني أبي الحسين »• قام بـأمر صقلية نيابة عن ابيه الأمير ابي الفتـح ثقـة الدولة يوسـف لما فلج وتعطل جانبه الأيسر في سنة ثلاث واربعمائة ، فلقبه الحـاكم بـأمر الله منصور بن العزيز بـ« تاج الدولة وسـيف الملة » فـاستقر على ولايته •

وفي أخر رجب سنة خمس واربعمائة خالف عليه اخوه الأمير علي ابن يوسف ، فقتله بمعونة أخويه أحمد وحسن •

ثم خرج اهل صقلية عن طاعته لظلمه وحصروه ، فخـرج إليهـم ابوه يوسف في محفة حتى ردهم عن محاربته ، وصرفه عنهم ، وولى عليهم ابنه تأييد الدولة احمد الأكحل بن يوسف في سـادس المحـرم سنة عشر واربعمائة ، وسيره من صقلية الى القـاهرة فقـدمها • وسار ابوه من بعده إليها بأموالها وكانت كثيرة جدا •

جوهر الجدالي

(من المقفى للمقريزي ــ مجلدة برتو باشا)

اصله من قبيلة جداله احدى قبائل البربر في صحراء بلاد المغرب التي يخرج اليها من السوس الأقصى.

قدم مصر حاجا في عشر الخمسين واربعمائة ، ومر في طريقه بالسوس الأقصى على رجل يقرأ عليه مذهب الامام مالك وحديث النبي صلى الله عليه وسلم . فسمع منه فأعجب به . فلما عاد من الحج الى السوس قصد ذلك الفقيه . فلما سمع كلامه قال له : يا فقيه ، ما عندنا من هذا الذي تذكره شيء إلا الشهادتين والصلاة .

فقال له الفقيه : فاحمل معك من يعلمهم عقائد الاسلام وكمال دينهم . قال : فابعث معي أحد الفقهاء ، وعلي حفظه وبره واكرامه.

فأرسل معه فقيها من طلبته يقال له عبد الله بن ياسين فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين الى الصحراء ، وفيها قبائل ، منهم لمتونة ، وجدالة ولمطة ومسوفة وغيرهم ، فنزلا على قبيلة لمتونة ، وهي على ربوة عالية . فلما عاينا القبيلة نزل الجوهر عن جمله واخذ الجمل الذي عليه عبد الله بن ياسين ، تعظيما له .

وأقبلت أعيان لمتونة يتلقون الجوهر الجدالي ليهنئوه ــ كما جرت العادة ــ بالسلامة ، وكان من اكابر تلك الصحراء . فرأوه يقود ذلك الجمل فقالوا له : من هذا ؟

فقال : حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الله من الاسلام .

فرحبوا بهما وأنزلوهما . ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة وقالوا : تذكر لنا ما أشرت اليه انه يلزمنا .

فقص عليهم عبد الله عقائد الاسلام وقواعده وبين لهم ، حتى فهم ذلك اكثرهم . ثم اقتضاهم الجواب فقالوا : اما ذكرت من الصلاة والزكاة فذلك أمره قريب ، واما قولك : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ، ومن زنى يجلد ، فأمر لانلتزمه ، ولاندخل تحته . اذهب الى غيرنا !

فرحل عبد الله والجوهر عنهم ، والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين . فنظر اليه شيخ كبير السن من لمتونة ، فقال : ارايتم هذا الجمل ؟ لابد أن يكون له في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم .

وانتهوا الى جدالة قبيلة الجوهر ، فتكلم عبد الله بن ياسين فيهم وفيمن اتصل بهم من القبائل . فمنهم من سمع وأطاع ، ومنهم من عصى . ثم إن المخالفين لهم تحيزوا وتحزبوا . فقال عبد الله بن ياسين للذين اقبلوا عليه وقبلوا سنة الاسلام : قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء المخالفين للحق ، الذين انكروا دين الاسلام واستعدوا لقتالكم . فالفوا لكم حزبا واقيموا لكم راية ، وقدموا عليكم أميرا .
فقال الجوهر : انت الأمير .

قال عبد الله : لايمكنني هذا ، إنما انا حامل أمانة الشرع واقص عليكم نصوصه ، وابين لكم طريقه ، واعرفكم سلوكه ، ولكن كن أنت الأمير ! فقال الجوهر : لو فعلت هذا لتسلط قبيلي على الناس وعاثوا في الصحراء ، ويكون وزر ذلك علي .

فقال عبد الله بن ياسين : فهذاابو بكر بن عمر راس لمتونة وكبيرها يفعل ذلك .

فأجاب . فعقدوا له راية وبايعوه بيعة الاسلام ، وتبعته زمرة من قومه وسماه عبد الله بن ياسين امير المسلمين ، وعادوا الى جدالة وجمعوا اليهم من امكن من الطوائف الذين حسن اسلامهم وسماهم عبد الله « المرابطين ».

وتألبت عليهم احزاب من الصحراء معاندون من أهل الشر والفساد (فلم يقاتلهم المرابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على اولئك الاشرار بالمصلحين من قبائلهم ، فاستمالوهم وقربوهم حتى حصلوا منهم تحت زرب عظيم وثيق نحو الفي رجل من أهل البغي والفساد) (٤) وتركوهم اياما بغير طعام. ثم أخرجوهم شيئا بعد شيء وقتلوهم عن اخرهم. ومن ذلك الوقت دانت لهم أكثر القبائل واستقام خلق كثير.

ولما ولي الأمر ابو بكر بن عمر استبد به دون الجوهر فداخل الجوهر الحسد وشرع في فساد الأمر سرا . فعلم ذلك ، وعقد له مجلسا وثبت عليه ما ذكر عنه فحكم فيه بأنه يجب عليه القتل لأنه نكث البيعة وشق العصا ، وهم بمحاربة أهل الحق . فقال الجوهر :« وأنا ايضا أحب لقاء الله حتى أرى ما عنده ».

ثم كثرت طائفة المرابطين ، وساروا لقتال الفرنج فقتل عبد الله ابن ياسين ، وذلك في عشر الستين واربعمائة . ثم جمع أبو بكر بن عمر قبائل السوس حتى اخذ مدينة سلجماسة ، وولى عليها يوسف ابن تاشفين اللمتوني ، من بني عمه ، وعهد اليه من بعده . فلما مات ابو بكر ، خلفه يوسف بن تاشفين ، ودعي بأمير المسلمين . فافتتح بلاد المغرب شرقا وغربا بأيسر سعي ، وبنى مدينة مراكش . ثم أخذ المعتمد بن عباد ملك الأندلس . ثم مات فقام من بعده ابنه علي بن يوسف ، ثم اسحاق بن علي بن يوسف . وقتل اسحاق سنة اثنتين واربعين وخمسمائة ، وانقضت دولة الملثمين التي انشأها الجوهر الجدالي بقيام دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت.

الوزير اليازوري

(من المقفى للمقريزي ـ مجلدة برتو باشا)

الحسن بن علي بن عبد الرحمن ، ابو محمد اليازوري ، الوزير الأجل الأوحد المكين ، سيد الوزراء وتاج الأصفياء ، قاضي القضاة وداعي الدعاة ، علم المجد ، خالصة امير المؤمنين ، الناصر للدين .

كان ابوه من اهل ضيعة من ضياع فلسطين يقال لها «يازور» ، وله بها حال متسعة كبيرة . فلما اتسعت حاله ، وكثر ماله ، انف من المقام بها وتحول الى الرملة وسكنها فشهر بها . وعرف بالصدق في القول وسماحة النفس ، فتقدم الشهود بها ، ورد اليه قضاء أكثر اعمال الرملة . ونشأ له ابنان أصغرهما الحسن هذا . فخلف أخاه القائم بعد أبيه ، واربى على ابيه وأخيه في حسن الطريقة وجميل السيرة وشرف الأعلاق .

واتصل بخدمة خيرة جارية الوزير علي بن احمد الجرجرائي فأحسنت اليه واعتنت به ومنعت من التعرض لصرفه من الحكم الى ان توفيت ، فصرف عن الحكم .

وقدم الى القاهرة وتلطف بكثرة مداخلته وتوصل الى خدمة السيدة أم الخليفة المستنصر وواظب خدمتها وخدمة حواشيها ولازم بابها للسعي في عوده الى الحكم بفلسطين . وصار يتردد الى الوزير ابي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي حتى اختص به وأفضى اليه بما يجده من استبداد أبي سعد سهل التستري بأمور الدولة وما يلقى من امتهانة له ، فيشاركه في التدبير عليه ويلقنه من ذلك ما يجد

به سبيلا الى المكر به . فنفر منه أبو سعد ومقته وهم بالايقاع به ، فعوجل وقتل ، واليازوري مع ذلك يتردد الى قاضي القضاة وداعي الدعاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان ولاينقطع عنه ليرده الى الحكم ببلده . ففهم القاضي سوء رأي أبي سعد التستري فيه فانحرف عنه ولم يلتفت اليه . واستمر عليه لهذا بعد قتل أبي سعد.

فاتفق ان قاضي القضاة حضر يوما بباب البحر، أحد ابواب القصر، على عادته في كل اثنين وخميس ، وجلس ينتظر خروج السلام اليه ، وجلس معه من الشهود من جرى رسمه بذلك ، فدخل اليازوري وجلس معهم فالتفت اليه القاضي وقال له . بأمر من جلست ههنا ؟ اتظن أن المجالس كلها مبذولة لكل احد أن يجلس فيها ؟ لهذا مجلس لايجلس فيه الا من اذنت له حضرة الامامة وشرفته به . اخرج ، فوالله لاتصرفت على ايامي أبدا.

فخرج ورجلاه لاتكادان تحملانه ، ووقف على باب البحر الى ان خرج قاضي القضاة ، فسار في أعقابه وسبقه ووقف بباب داره ، فلما نزل صقع (*) له استعطافا لئلا يريه أنه وجد من كلامه ، فلم يعره طرفه ودخل ، فانصرف اليازوري . ولقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي خليفة قاضي القضاة فقال له : ياأبا محمد ، قد كان يجب أن لاتريه وجهك عقيب ما جرى لك معه اليوم .

ثم انصرف عن القضاعي واقبل على ابي عبد الله احمد بن محمد ابن أبي زكريا خليفة قاضي القضاة فخاطبه بأجفى من خطاب القضاعي له . فتركه وقد عظم همه .

ووافى منزله فوجد قد حضر اليه من ضياعه ثلاثون حملا من التفاح لتباع بمصر ، فأنفذ منها خمسة احمال الى الوزير الفلاحي ، وبعث لقاضي القضاة خمسة احمال وللقائد الأجل عدة الدولة رفق خمسة أحمال ولابن ابي زكريا ثلاثة أحمال وللقضاعي خمسة أحمال ، وفرق حملين على حواشيهم ، وكان ثمن هذه الأحمال يبلغ جملة ثلاثمائة دينار فلم يلتفت احد منهم اليه ولاعطف

عليه .. (٦) ولاتقدم منا اليه مــن الجميل مــا يوجــب ان يكافــئنا عليه . وهذا رجل حر له مروءة توجب ان نصطنعه ونحقق حسن ظنه بنا .

وركب اليازوري من الغد ووقف عند باب البحر فلما اقبل رفق من داره يريد القصر تلقاه وسلم عليه ، فاكرمه ورحــب بــه وســأله عن حاله ، ثم دخل الى القصر وقضى حق الخدمة وخــرج فوجده واقفــا على حاله. فسلم عليه. وسار معه الى داره حتى وصل اليها ، فانثنى اليازوري راجعا. وأقام على ذلك اياما.

فخف على قلب رفق ، وقويت رغبته في اصــطناعه . وصــار اذا وصل الى داره امــر اليازوري بالنزول معــه ، فينزل ويجلس معــه ويحادثه ، وكان حلو الحديث فــكه المحــاضرة . فــأطال جلوســه معه ، وبقي رفق اذا غاب عنه يشتاق اليه ، واذا هــم بــالقيام عنه امسكه الى ان تحضر المائدة ، وأكثر منه حتى عد من خواصه .

ولما ضجرت أم المســتنصر مــن عرض خــدمتها على ابــي نصر ابراهيم أخي ابي سعد سهل التستري ، وامتناعه ، حتى وقفــت امور خدمتها وبقي بابها مغلوقا مدة ثلاثة اشهر ، قال رفق في بعض الأيام لليازوري ، وقد افضى به الحديث الى كثرة رغبة الســيدة أم الخليفة في أبي نصر وامتناعه : إني أرى رايا ، فما عندك فيه ؟

قال اليازوري : ما هو ؟

قال : تكتب رقعة تلتمس خدمة السيدة وتعرض نفسك عليها .

فقال اليازوري : كنت اظن جميل رايك في وإيثارك مصلحة حالي فأكذبني ظني .

فقال : بماذا ؟

قال : لهزئك بي . فاني قد اجتهدت في العود الى قرية كنت فيها فبخل علي بها . فــكيف إذا تعــرضت لهــذا الأمــر الكبير ومناوأة الوزراء ؟

فقال له : اما ترضى بي سفيرا لك في هذا الأمــر وعلي اســتفراغ

الوسع لوجوب حقك علي ؟ فإن قضت الاقدار ببلوغ الغــرض في ذلك، فقد ادركنا ما نؤثره . وإن تكن الأخرى ، فعلى اكثر من العطلة ما نحصل .

فاستجاب الى ذلك ، وكتب رقعـة يعــرض نفســه ومـــاله على السيدة ، ويخطب خدمتها ويبذل الاجتهاد فيها . فأخذ رفق الرقعــة وركب من الغد الى القصر ، ودخل الى السيدة وقد احضرت ابا نصر وعاودته في الخطاب وهو على حاله مــن الامتناع الى أن أضــجرها، فانتهز رفق الفرصة بضجرها وقال : يا مولاتنا قد طال غلق بابك ووقوف خدمتك وكثرة امتناع الشــيخ ابـي نصر ممـــا تــــريدينه منه . وهـهنا من أنت تعرفينه ، وهو رجل مســلم وقـــاض ، وكثير المروءة ، وهو مستغن بماله وأملاكه عن التعرض لمالك ، وهو ثقــة ناهض كاف .

فقالت: من هو؟
فقال القاضي أبو محمد اليازوري وهذه رقعته ، فأمرته بتسليمها الى أبي نصر. وقالت: ما تقول فيه؟

فلم يصدق بذلك وقال: يامولاتنا ، هو والله الثقة الأمين الناهض الذي يصلح لخدمتك ، وفيه لها جمال ، وما تظفرين بمثله .
فوقع ذلك منها بالموافقة لما كان في نفسـها مــن الغيظ بــامتناعه عليها ، وقالت لرفق : قل له يجلس في داره غدا الى أن أنفذ اليه .
فسر رفق بذلك سرورا كبيرا وخــرج ، فــرأى اليازوري فقــال له : أقمح أم شعير ؟

قال : بل بر يوسفي ــ وقص عليه وقــال له : أغد الى دارك فــلا حاجة الى الاجتمــاع اليوم ، واذا كان الغــد فــاجلس حتــى يأتيك رسول السيدة .

ففعل ، وجاء من الغد الرســول يســتدعيه . فــركب الى بــاب السيدة وقد جلست له وراء المقطع ، وردت اليه امر بابها والنظــر في ديوانها الذي هو باب الريح ، فبلغ ذلك الوزير أبا نصر صدقة بــن يوسف الفلاحي فشق عليه كون هذا الأمر لم يكن على يده مع علمــه

انه لايقدر عليه ، فإن السيدة لم تكن تسمع قـوله لما في نفسـها منه بقتل ابي سعد ، ولم يسعه الا المجاملة . واستدعى امراء الاتراك وامرهم بالمضي اليه وتهنئتـه ، فلمـا دخلوا على اليازوري تلقـاهم واعظمهم لسـعيهم اليه ، وعندمـا هنؤوه شـكرهم واثنى عليهـم وقال : ما انا الا خادم ونائب لموالي الأمراء . أسأل في تشريفي بما يعن لهم من خدمة انهض فيها وأبلغ الغرض فيما يرسمون .

فنهضوا ، وقام لوداعهم واتوا الى الوزير (الفلاحي) واعلمـوه بما كان من اليازوري ، فقلق لذلك . ولم تـطل الأيام حتـى قبض على الوزير وقتل ، واقيم بعده في الوزارة أبو البركات الحسين بـن محمد الجرجرائي . فأقبلت حال اليازوري تـزيد ومنزلتـه تـرتفع وامره يتأكد وخلعت عليه السيدة خلعة ثانية ، ولقب بـالمكين الأمين عمدة أمير المؤمنين . وأمرته أن لايقوم لأحد ، فان خـدمته لاتقتضي اعظام أحد اذا دخل اليه . فـكان يعتـذر الى مـن يأتيه مـن الجلة الرؤساء والأكابر عن ترك القيام ويقول : لو ملكت اختياري لبالغت في تكرمتكم بما تستحقونه ـ الى أن تمهد عذره في ذلك ، مـا خـلا القائد الأجل عدة الدولة رفق الذي كان سفيره : فانه كان اذا اقبـل اليه وثب قائما ووفاه حقه مـن الاعظـام فبلغ ذلك السـيدة فقـالت له : لاتتحرك لأحد بالجملة !

فكان بعد ذلك اذا جاء ، يعتذر اليه فمـكث كذلك مـدة ، وحـاله أخذة في الترقي ورئاسته تزداد اجلالا الى أن صـار يحضر بحضرة الخليفة المستنصر اذا اراد ان يستدعي الوزير كما كان قد تقرر لأبي سعد التستري مع الوزير الفـلاحي فشـق هـذا على الوزير ابـي البركات . وذلك انه كان اذا حضر اليازوري عند المستنصر تحـدث طويلا ، وتكون السيدة من وراء المقـطع فيدور بينهـم الكلام فيمـا يحتاج ثم تستدعي الوزير ابي البركات فاذا دخل وعرض ما يريد من امور الدولة لايجيبه الا اليازوري ، ثم يلتفت الى الخليفة بعـد مـا يجيب الوزير ويقول : اليس هو الصواب ؟

فيقول الخليفة : نعم .

ويخرج الرسول من وراء المقطع ويقول عن السيدة : هو الصواب . فصار الوزير كأنه انما يعرض على اليازوري لاعلى الخليفة والسيدة،ولايقدر على الاعتراض فيما يقوله ولايجد بدا من امتثال ذلك .

فشق عليه ما صار اليه واخذ في اعمال الحيلة فأشار عليه ابو الفضل صاعد بن مسعود أن يحسن للخليفة تولية اليازوري القضاء ، فاذا تقلد القضاء وقع في هور كبير وشغله عن ملازمة السيدة فيصل الوزير حينئذ الى استخدام ولده مكان اليازوري ، ويستوي له الأمر ويملك جهتي السلطان والسيدة .

فاتفق حضور قاضي القضاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عند الوزير وتقلقة من خليفتيه ابي عبد الله محمد القضاعي وأبي عبد الله احمد بن ابي زكريا وشكوى المذكورين من قاضي القضاة مع توعك ابي محمد اليازوري وتخلفه في داره اياما فخلا الوزير بالخليفة وأعاد عليه ما ذكره كل من القاضي وخليفتيه وشنع أمر قاسم وقبحه . فقال الخليفة : فمن نستبدل به ؟

فقال : عبيدك كثير ، وبين يديك من يتجمل الحكم به مع ثقته وأمانته وقربه من خدمتك.

فقال : ومن هو ؟

قال: القاضي أبو محمد.

قال :ذاك في خدمة مولاتنا الوالدة ، ولاتفسح له في ذلك

فقال: ياأمير المؤنين هي ـ خلد الله ملكها ـ اغير على دولتك واحسن نظرا اليها من ان تحول بينها وبين ما يجملها ومع هذا فلم ينقل مما هو فيه الى ما هو دونه ، بل الى ماهو أوفى منه .

فأجاب الى ذلك وقام وقد استقر لهذا وتم له ما أراده ، وشرع في الحال في كتابة سجله واعداد الخلع له ليخلع عليه في غد ذلك اليوم خوفا من نقض ما استقر .

وبلغ ذلك كله القائد رفق فأنفذ الى اليازوري وقص عليه الخبر وقال له : تلطف في أمرك كما تريد ـ فعظم هذا على اليازوري وخاف

من ابعاده عن خدمة السيدة ، فانها كانت اجل الخدم واوفاها واسناها محلا واغناها : فان كل من كان في الدولة من وزير وأمير وغيرهما محتاج اليه .

فلما كان مع عشاء الآخرة حمل على نفسه وهو محموم ، وركب الى باب الريح ، ودخل وأعلمها مكانه، فأكبرت حضوره في مثل ذلك الوقت مع ماتعلمه من توعك بدنه ، فخرجت وراء المقطع وسألته عن حال مرضه وما الذي دعاه إلى العناء في هذا الوقت على ماهو عليه ، فرمى نفسه بين يديها وقص عليها القصة كلها وقال : إنما الغرض إبعادي عن خدمتك وحرماني السعادة التي الحقتني بها ليقع التمكن مني .

قالت : وما الذي تكره من ذلك ؟

فقال : يامولاتنا ، هور الحكم واسع ، وأحوال قاضي القضاة قاسم بن النعمان فيه مشهورة ، ولو كانت جارية على النظام المستقيم لشغلت عن خدمتك ، فكيف والحاجة داعية إلى تجديد إصلاحه وإحكام نظامه ، وفي هذا شغل كبير ؟

فقالت : لايضيق صدرك بهذا الأمر ، فبابي لك ، وخدمتي موفورة عليك ولاأستبدل بك أبدا .

فقال : يامولاتنا ، قد قدمت القول إن هور الحكم كبير واسع ، واشتغالي به يحول بيني وبين ملازمة بابك .

فقالت : خلفاؤك في الحكم ، القضاعي وابن أبي زكريا هما ينفذان من الاحكام مايجوز تنفيذه . فإذا تحررت الأحكام نزلت ففصلت ذلك ، وقرر لنزولك يومين في الجمعة لفصل الأحكام . فإذا نزلت كان ولداك ينوبان عنك في تنفيذ أمور خدمتي . وهذا التقرير لايغلبك فعله.

فقبل الأرض لها ودعا وشكر وانصرف .

فلما كان في غد ذلك اليوم وهو الثاني من المحرم سنة إحدى واربعين واربعمائة ، استدعي إلى حضرة أمير المؤمنين وخلع عليه وقرىء سجله في الإيوان ، وخرج والدولة بأسرها بين يديه ، فأقام في تنفيذ

الاحكام عدة ايام وولداه ينوبان عنه في بـاب الريح . وجعـل الوزير يبعث للسيدة من يطارحها في ذكر بـابها ويعـرض لهـا بـذكر ولد الوزير . فقالت : وما هو الأمر الذي يعجز ولدا القاضي أبي محمـد عنه ، وقد لقنا فعل ابيهما وفهما منه مايحتاجان إليه ، ومع ذلك إلى أن يجيء ابوهما ، وما كنت بالذي يستبدل به بوجه ولاسبب .
فلما سمع ذلك الوزير ابو البركات ، أسقط في يده وقـال : اردنا وضعه ، والله تعالى يريد رفعه .

فقال له ابو الفضل صاعد : اما إذا جرى الأمر بخلاف مـا ظنناه واملناه ، فليس إلا مجـاملة الرجـل ومـواثقته على السـلامة ، فتواثقاوتعاهدا . وصار لايسلم على الوزير ولايجتمعان إلا يومـا في الشهر ، يحضر إليه في داره . فإذا صار إليه احتجب الوزير عن كل احد ، وخلا به ، وبالغ في إكرامه ، وهو في الباطن يدبر عليه ، فكفاه الله أمره ، وقبض عليه وشغرت رتبـة الوزارة عدة ايام ، والسـيدة تعرضها على اليازوري وهو يمتنع . فاقيم ابو الفضل صـاعد وخلع عليه وعمل واسطة لاوزيرا فصار إذا أحب أن يعرض على الخليفـة امرا مما يتعلق به يتقدم اليازوري إلى الحضرة ، ثم يستدعي بـأبي الفضل ، فإذا عرض ما احب لايجيبه إلا اليازوري ، فصار في نفسه منه مثل ماكان في نفس غيره من الوزراء . وأقبل ينصب عليه ويحمل الرجال على مكروهه ويوهمهـم انه إذا سـأل لهـم زيادة أو ولاية ، يعترضه اليازوري بما يبطل رايه ويفسده . فـاستدعى ناصر الدولة حسين بن حمدان بعض خواص اليازوري وقال له : اعلم أن القاضي له من الثناء الجميل كثير ، ونحن شاكرون له ، معتـذرون بجميله ، مفتقرون إلى جاهه في جميع امورنا .وأعتقاؤه من هذا الأمر لايبرئه من ذمنا إن وقفت حوائجنا ، ويكون الشـكر فيه لغيره إن قضيـت . وهذا الرجل عميد الملك هوذا يحمل الرجال عليه ويشعرهم أنه يجهد في قضاء حوائجهم ، وانه يعترضه بما يبطلها عليهم ، وفي هذا الأمر ما يعلمه . فقل له عني : ياسيدنا ، اما إذ تريد شكر الرجال وسلامة صدورهم لك وخلاص نياتهم في طاعتك ، فادخل في هذا الأمـر . فإن احسنت عرفوا ذاك لك وشـكروه منك ، وإن اسـأت كان لك ضرره

وشره . وإلا فاعتزل جانبا ولاتلعب بروحك مع الرجال لئلا يتلفك ابو الفضل . وإن اذن لي في المثول بحضرته ذكرت له ذلك .

فلما بلغ هذا لليازوري قال له : امهلني الليلة وبكر إلي .

فبكر إليه وهو خال فقال له : أعد علي قول ناصر الدولة .

فأعاده فقال : اقره عني السلام وقل له : والله إلا ادخل فيه ويكون لي خيره وشره !

فأبلغ ذلك ناصر الدولة ، فقال : هذا هو الصواب .

فلما كان بعد يومين قرئ سجله بالوزارة ولقب بالوزير الأجل ، الأوحد ، المكين ، سيد الوزراء ، وتاج الأصفياء ، وقاضي القضاة ، وداعي الدعاة ، علم المجد ، خالصة امير المؤمنين ، وخلع عليه في اليوم السابع من المحرم فنظر في الوزارة ، ومضى فيها مضي الجواد ، ونهض مسرعا بنهوض غبر به في وجوه من تقدمه .

وكاتب ملوك الاطراف فأجابوه بما يليق بقدره ووفور حقه من الرئاسة ، ما خلا معز بن باديس صاحب إفريقية ، فإنه قصر به في المكاتبة عما كاتب به من تقدمه من الوزراء ، وكان يكاتب كلا منهم « بعبده » ، فجعل مكاتبته « صنيعته » . وكان لابن باديس بالقاهرة نائب ، فاستدعاه اليازوري وعتب صاحبه وقال له : اظنه انتقصني عمن تقدمني إذ لم اكن من اهل صناعة الكتابة . وإن لم اكن أوفى منهم ، فما أكون دونهم . ومن رفعه السلطان ارتفع و إن كان خاملا ، ومن وضعه اتضع وإن كان جليلا نبيلا ، فاكتب إليه بما يرجعه إلى الصواب .

فكتب إليه بذلك ، وقد أذكى اليازوري عليه عيونا يطالعونه بما يتفوه به ، فلما وقف ابن باديس على كتاب وكيله قال : ما الذي يريد مني هذا الفلاح ؟ اكتب له « عبده » وهو أكار ؟ والله لاكان هذا أبداً ! وإن الذي كتبت به إليه لكثير .

فطالعه عيونه بقول ابن باديس . فأحضر الوكيل وقال له : قد جرى صاحبك على عادته في الجهل . فاكتب إليه بما يردعه ، وإلا عرفته بنفسي إذ لم يعرفني .

فكتب إليه بذلك فأجاب بأقبح من الأول . فدس اليه اليازوري من تلطف حتى أخذ سكين دواته . فلما وصلت إليه أحضر الوكيل وقال له : قد كنت أظن بصاحبك أن الذي حمله على ما كان منه نزوة الشبيبة وقلة خبرة بما تقضي به الأقدار ، وأنه إذا نبه تنبه . فإذا الجهل مستول عليه ، وظنه بأن بعد المسافة بيننا وبينه يمنع من الانتصاف منه ، والوصول إليه بما يكره . وقد تلطفنا في أخذ سكينه من دواته ، وهاهي ! فأنفذها إليه وأعلمه أنا كما تلطفنا في أخذها فإننا نتلطف في ذبحه بها ـ ودفعها إليه ، فكتب الوكيل بذلك إليه فازداد شرا وبطرا وطغيانا . فدس إليه من أخذ نعله ـ وكان يمشي في الأحذية السندية ـ فلما وصلت أحضر الوكيل وأعلمه بما انتهى إليه من جهل صاحبه ، وقال : اكتب إلى هذا البربري الأحمق وقل له : إن عقلت وأحسنت أدبك ، وإلا جعلنا تأديبك بهذه

فكتب إليه ، فجرى على عادته في إطلاق الكلام القبيح ، فتشمر له حينئذ اليازوري ، وبعث مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم ، أحد الأمراء ، إلى طرابلس المغرب ، وبها من العرب زغبة ورياح وقد حدثت بينهما حروب ، فسار إليهما بخلع كثيرة وأموال وافرة ليصلح بينهما . فتحمل ماكان بينهما من الدماء ، ودفع إليهم الديات ، وزاد في إقطاعاتهم . وبعثهم على محاربة إفريقية وأباحهم ديار ابن باديس،وقام في هذا قياما عظيما حتى سار المذكورون واستولوا على أعمال القيروان وضايقوا ابن باديس وحصروه إلى أن نفدت أمواله وقلت عدده،وتفلت منه رجاله وأشرف على التلف ففر بحشاشته في زي امرأة من القيروان إلى المهدية ، وترك حرمه وداره وأمواله وغلمانه . فأخذ العرب المدينة وقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا ماكان في قصوره وجالوا في المدينة وأخربوها . وحمل مانهب إلى القاهرة من الآلات والأسلحة والعدد والخيام ، وكان لدخول ذلك يوم عظيم .

وكان في البحيرة طائفة يقال لها بنو قرة قد اقتطعوها وملكوها وعمروا ضياعها ، واشتدت شوكتهم ، وخشن جانبهم وعظم أمر

مقدميهم حتى انتشر ذكرهم وذل لهم عدوهم وثقل أمرهم حتى (على) ولاة الاسكندرية ، واجتمع معهم الطلحيون فصاروا يدا واحدة . وكانت لهم واجبات على الدولة ، ولم يكن لهم إقطاع ، بل كان مايستحقونه من واجباتهم يحمل مع واجبات العسكر بالاسكندرية إلى الوالي فينفقه فيهم . وكان الوالي بالاسكندرية في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ناصر الدولة حسين بن حمدان والد ناصر الدولة الثائر بالقاهرة على المستنصر . فلما انقضت سنة أربع وأربعين وأربعمائة استحق الطلحيون على الدولة عن واجباتهم ثلاثة الاف دينار ، فواصلوا اقتضاء ناصر الدولة إنفاقها فيهم ، فوعدهم ، وكتب إلى الحضرة يلتمس لهم ذلك . فوعده الوزير انه إذا حمل إلى رجال العسكر استحقاقاتهم حمل ذلك في جملته ، وكان قد بقي لحمل المال مدة شهرين ، فاستبعدوا الصبر إلى ذلك الوقت وواصلوا مطالبته ، وحملوا بني قره على معونتهم عليه ، فاضطهدوه والزموه بالمسير معهم ومع جيرانهم الطلحيين إلى الحضرة لالتماس ذلك . فلم يجد بدا من إجابتهم ، وسار معهم إلى الجيزة وطلع إلى الوزير وعرفه الحال . فقال : ما أخرنا ذلك عنهم إلا لأن السنة كثيرة النفقات والطوارىء . ولكن هذه الف دينار ، فخذها وانفقها فيهم إلى أن نحمل باقي مالهم مع مال العسكر .

فأخذ الألف وعاد إليهم وعرفهم ما قال الوزير . فامتنعوا من اخذ الألف ، وذكروا أنهم قد تعبوا وكلفوه المسير معهم ولايرجعون إلا بعد قبض الثلاثة الاف . والزموه بالعود . فعاد وعرف الوزير ما كان منهم . فغضب وأمر لهم بألف أخرى وقال : قد ذكرنا لك أنا لم نؤخر عنهم ذلك إلا لضيق الحال وانتظار ما يصل من الريف فنحمل إليهم باقي استحقاقهم . ولم يبق الآن إلا الف ، ونحن نحمل اليهم ذلك بعد هذا .

فعاد اليهم ناصر الدولة ، فأبوا إلا اخذ الجميع ، وانهم لايبرحون من مكانهم إلا بجميع مايستحقونه وجفوا في الخطاب . فعاد الى الوزير وعرفه ما كان منهم. فاشتد غضبه وقال: اجابتهم

الى ماالتمسوه دفعة بعد أخرى طمعهم. ووالله لاأطلقت لهم درهمـا واحدا! ــ واستعاد الالفي دينار من ناصر الدولة ، وتقـدم بتجـريد العسكر لهم. فتسرع من خف مع يمن الدولة كافور الشرابي وساروا اليهم ، اذا بهم متأهبين للقائهم ، فجرت بينهم نوبة قتل فيهـا اثنان من العسكر ، وحال بينهمـا الليل. فلمـا بلغ ذلك الوزير عظـم عليه اقدامهم على العسكر ، سيما بني قرة ، فانهم كانوا أشد حربا مـن الطلحيين.

وكان بالقاهرة من مقدميهم ثلاثة نفر ، وهم ضيوف مـكرمون ، فأشير على الوزير بقبضهم ليكف عادية باقي بني قرة • فـاستدعى صاحب الستر سيف الدولة مبشر ، ومتولي الشرطـة سـنان الدولة ابن جابر ، ومتولي الصناعة عظيم الدولة عطـاء ، وامـرهم بـأخذ الثلاثة ليلا وتسييرهم تحت الحفـظ والحـوطة الى الجيزة والتحيز بهم عن العسكر الى حيث يأمنون على انفسهم ، وتخلية سـبيلهم • ففعلوا ذلك • واصبح الناس وقد علموا بمضيهم • وكلموا الوزير في ذلك فقال : قبح السمعة في القبض عليهم وهم في ضيافتنا منعني من ذلك • فهم في هذه الحال كالحـرم • فلم اسـتجز فعـل ذلك ، بـل اطلقتهم ، ووالله لا اخذتهم إلا من ظهور دوابهم !

فقال شخص من الأكابر يعرف بعجلان بن مطر اللواتي : قد فعل هذا الوزير شيئا لم يسبقه إليه أحد ، مـن إطـلاق هؤلاء القـوم ، واستحيى فيهم بما فعله • ووالله ليظفرن بهم لأن هذا تقليد البغي ، فإن كان فيهم بعد ذلك كائن فالدائرة عليهم •

فكأنما نطق بالغيب : فإنهـم تشـمروا عند وصـول الثـلاثة الى الحاجر ونزلوا به • واخذ الوزير يجر العساكر لهم حتى كمل له مـا أراد ، وسيرها وقد تجمعت حشود بني قرة • فالتقوا بـكوم شريك فكانت الدائرة عليهم وقتـل منهـم خلق كثير وانهـزموا • فتبعهـم العسكر ظنا أنهم يعـودون الى اللقـاء ، فلم يثنهـم شيء عن قصـد برقة ، وأسلموا أموالهم وكل ما في أيديهم للنهب ، ففاز به العسـكر وغنموه ، وانقلعت شـأفة بني قـرة والطلحيين مـن البحيرة ، الى

اليوم ، وبقوا مشردين مطردين يجاورون العربان على اقبح صورة اربعين سنة ٠

وقد كان الوزير لما اخرج العسكر لقتال بني قرة ، فند اهل الدولة رايه ، وحكموا انهم لاينتقلون من البحيرة أبدا لقوة بـأسهم وشدة شوكتهم ولائتلافهم بالطلحيين ٠ فأكذب جميل فعله ظنهم ٠ ثـم إنه رأى في كون العساكر في أعمـال البحيرة كلفـة كبيرة ٠ فنقـل بني سنبس من الداروم بفلسطين ، وكانوا قد ثقلت وطأتهم بتلك الأعمال وصعب أمـرهم ، فسدّى بهـم الى البحيرة ، وهـم أعداء قيس، وأوطأهم ديارهم واقطعهم أرضهم ، فامتحى اسم بني قرة ٠

وكان تجهيزه العساكر لبني قرة في شهر رمضـان سـنة ثـلاث واربعين واربعمائة ، وتسييرهم في مستهل شوال ٠ فخـطأه الناس كلهم وغلطوه في فعله وحكموا بانه لم يجرد قـط عسكر في شـوال فظفر ، وأنهم لايأمنون على العسكر أن يهزم وينكسر ٠ وكان يمـن الدولة له زم القصور والخدمة في الرسالة ، وهو أيضا زمام الأتراك والقيصرية ، وليس في الدولة من يجري مجراه جـلالة ، وبينه وبين الوزير مباينة شديدة ، ويتوقع له الشر ويتربص به الدوائر ٠ فصار ينتظر انهزام العسـكر ليقبض عليه ، والأقـدار تـؤيده بـالسعادة العظيمة ٠ فلما أراد أن يسير العسكر من الجيزة رتـب على الميمنة سنان الدولة بـن جـابر ، وعلى الميسرة حصـن الدولة حيدرة بـن منزوي ، وجعل في القلب ناصر الدولة بـن حمـدان ، وهـو المقـدم عليهما. وقرر معه أن يكون اللقـاء في يوم الخميس الخـامس مـن شوال ،بطالع تخيره له ٠ وبعث معه عدة من طيور الحمام ليطـالعه بما يكون منه ومنهم يومـا بيوم ٠ فلمـا كان اليوم الذي تقـرر فيه اللقاء ، جلس الوزير في داره وهو شديد القلق كثير الاهتمـام بـأمر العسكر ، واحتجب عن الناس لشـغل سره بهـذا الأمـر ٠ وجلس ينتظر سقوط الطائر بما يكون ٠ فلم يزل كذلك الى الساعة الخامسة من النهار ٠ فقام ليجدد طهارته وعبر بـالبستان وقـد أطلق الماء في مجاريه ، فرأى ورقة تمر على وجه الماء فأخذها متفائلا بها فوجدها

اول كتاب كان وصل من القائد فضل الى الحاكم بأمر الله ، قد ذهبت طرته وعنوانه وبقي صدره ، وهو : كتب عبد مولانا الحاكم بأمر الله امير المؤمنين من المخيم المنصور في الساعة الخامسة من نهار يوم الخميس الخامس من شوال ، وقد اظفره الله عز وجل بعدو الله تعالى وعدو الحضرة المطهرة أبي ركوة المخذول • وهو في قبضة الاسار ، والحمد لله رب العالمين •

فلما وقف على ذلك سجد الى الأرض شكرا لله تعالى واستشعر الظفر وعجب من موافقة اليوم وعدة الأيام من شوال والاعلام بالظفر • ثم تجهز للصلاة ، فما فرغ حتى سقط الطائر بانكسار بني قرة وانهزامهم وبما من الله تعالى به من الظفر بهم • فأخذ الكتاب والورقة التي وجدها في الماء وركب الى القصر ودخل الى الخليفة المستنصر بالله وأوقفه على الكتاب ، فسر وابتهج • واراه الورقة التي وجدها في الماء وقال : هذا أعجب يا امير المؤمنين — وحدثه حديثه •

فعجب من هذا الاتفاق ثم تواصلت الاخبار من ناصر الدولة بالبشرى وشرح الحال في الظفر وانهزام القوم • فخلع على الوزير ، وزيد في ألقابه : الناصر للدين ، غياث المسلمين • فقوي أمره ، وذل خائب أعدائه ، وعادوا يتقربون إليه بالخدمة ، فأغضى عنهم ولم يؤاخذ أحدا منهم • وقدمت الرؤوس ممن قتل وأموال كثيرة من أموال اهل البحيرة •

فلما خلا سر الوزير من أهل البحيرة ، نظر في أمر مدينة صقلية فإن اهلها كانوا أعلنوا خلافهم ، وكاتبوا ابن باديس صاحب إفريقية وملكوه عليهم ، فأساء فيهم السيرة • فثاروا به واخرجوه وكاتبوا ملك الروم فبعث إليهم بطريقا فحكم فيهم مدة ، فلم يصبروا له ووثبوا به وأخرجوه عنهم ، وبعثوا إلى المستنصر يطلبون عفوه ويستصرخونه فكتب الى مستخلص الدولة الكلبي ابن ابي الحسين ، فوليهم مدة • ثم بعثوا يشكون منه ، فسير الوزير صمصام الدولة ابن لؤلؤ ، أحد الأمراء — وكان رجلا عاقلا — ومعه

خلع نفيسة وأمره أن يصلح ذات بينهم ، فإن رضوا بابن أبي الحسين خلع عليه وقرأ سجله بتجديد ولايته ٠

وإن امتنعوا من الطاعة له ، لبس هو الخلعة وقرأ سجلا كتب له بولاية صقلية ، وان يتلطف في إخراج بني ابي الحسين من جزيرة صقلية ويحملهم الى القاهرة- فسار الى صقلية وتحدث في الصلح ٠ فامتنعوا من ذلك ولم يجد فيهم حيلة فاظهر سجله ولبس خلعته فرضوا به ٠ واخرج جميع من كان بصقلية من بني ابي الحسين ، وهم زيادة على ثلاثين رجلا ، وخلت منهم ٠ فاستقام أمره ٠

وبعث الوزير رسله الى اليمن ، وقد ثار فيها علي بن محمد الصليحي ٠ فما زالوا به حتى دخل في طاعة الدولة وبعث النجاوى الى القاهرة ، ومعها هدية جليلة تبلغ عشرة الاف دينار ٠ فجاء من ذلك ما ليس في المظنون ولم ير مثله فيما تقدم ٠

ثم إنه عطف على النوبة واضعف عليهم البقط فحملوه واستمر بعده وكانت الهدنة قد انعقدت مع الروم في وزارة أبي نصر الفلاحي ، وقدم من قبلهم رسولان ، أحدهما يعرف بابن اصطفانوس هو المتكلم ـ وكان داهية اديبا شاعرا نحويا فيلسوفيا نظارا ، ولد ببلاد الروم ونشأ بأنطاكية ، ودخل الى العراق وأخذ عن العلماء والأدباء ، فاشتهر ذكره وبعد صيته ٠

والآخر صاحب حرب يعرف بميخائيل ٠ فأعجبهما حسن زي الدولة وكريم افعالها وجميل سيرتها ، سيما ميخائيل فإنه أطربه ذلك ، وكان خيرا عاقلا ٠ فلما عادا الى بلادهما ، قضت الأقدار بموت متملك الروم وتملك ميخائيل هذا بعده ٠ فاقام في المملكة نحو الخمس سنين ٠

وقصر النيل بمصر في سنة اربع واربعمائة ، ولم يكن بالمخازن السلطانية شيء من الغلال ، فاشتدت المسغبة وغلا السعر.
وكان لخلو المخازن سبب :وهو أن الوزير الناصر للدين أبا محمد اليازوري لما اضيف إليه القضاء في وزارة أبي البركات الجرجرائي ، كان ينزل الى جامع عمرو بن العاص بمصر في يومي

السبت والثلاثاء من كل اسبوع ليجلس في الزيادة منه للحكم ، على رسم من تقدمه من القضاة، فإذا صلى العصر طلع الى القاهرة • وكان في كل سوق من اسواق مصر عريف على ارباب كل صنعة يتولى امورهم • ومن عادة اخباز مصر في ازمنة الغلاء انهما متى بردت لم يرجع منها الى شئ لكثرة ما تفش به • وكان لعريف الخبازين دكان يبيع الخبز ،وبجانبها دكان رجل صعلوك يبيع بها الخبز ايضا ، والسعر يومئذ اربعة ارطال بدرهم وثمن • فرأى الصعلوك ان خبزه قد كاد يبرد ، فخاف من كساده فنادى عليه :اربعة ارطال بدرهم ليرغب الفقير فيه • فمال الناس إليه لأجل تسمحه بثمن درهم ، واشتروه بأجمعه ، وبقي خبز العريف لم يعطف عليه احد ففضب، ووكل بالرجل عونين من الحسبة اغرماه عشرة دراهم • فلم يطق ذلك ومضى الى الجامع واستغاث بقاضي القضاة وكان هناك• فأحضر المحتسب وأنكر عليه فقال :العادة جارية باستخدام عرفاء في الاسواق على ارباب الصنائع ، وتقبل قولهم فيما يذكرونه ، وقد حضر عريف الخبازين بالسوق الفلاني واستدعى عونين من الحسبة ، فوقع الظن انه انكر شيئا يوجب فعل ذلك ، فاستدعى القاضي الخباز وامره ، فقص على المحتسب خبره • فقال القاضي للمحتسب :رجل يرخص على الناس اقواتهم فيجازى على ذلك بما يؤذيه ــ ثم سأل الخباز كم اخذ منه • فقال : اخذ مني العريف خمسة دراهم ، وكل ما في يدي مائة درهم •

فقال :يصرف هذا العريف عاجلا ، ويغرم ما اخذه من هذا المسكين ويعاد إليه •

والتفت الى صاحب دواته فقال له : انظر ما معك فادفعه الى هذا الخباز فناوله قرطاسا فيه ثلاثون رباعيا ، فكاد عقل الخباز يذهب من شدة فرحه • وعاد الى دكانه فإذا عجنته الثانية قد خبزت فنادى عليها : خمسة ارطال بدرهم ! فمال الناس إليه واشتروا خبزه لرخصه • فخاف من هناك من الخبازين تلاف اخبازهم ، فإنها بردت ، وباعوا مثل بيعه • فنادى : ستة ارطال بدرهم !فقادتهم

الضرورة الى بيع أخبازهم كذلك • وصـار يريد مـكايدة العـريف بإرخاص السعر ويزيد رطلا رطلا ، والخبازون يتبعونه في بيعه خوفا على بوار أخبـازهم ، الى ان بلغ النداء : عشرة أرطـال بـدرهم ، وانتشر ذلك في سائر البلد ، وتسامع به الناس فتسارعوا إليه ، حتى إنه لم يخرج قاضي القضاة مـن الجـامع إلا والخبـز في جميع البلد عشرة ارطال بدرهم •

وكانت العادة أنه يشترى للديوان السلطاني في كل سنة غلة بمائة الف دينار وتجعل متجرا، فلما عاد قاضي القضاة الى القـاهرة مثـل بحضرة الخليفة المستنصر ،وعرفه ما من الله تعالى به في هذا اليوم من إرخاص السعر ، وتـوفر الناس على الدعاء لأمير المؤمنين ، وأن الله – جلت قدرته – فعل ذلك ، وحل إسـعاد الناس بحسـن نية أمير المؤمنين في رعيته بغير موجب ولا فاعل له ، بل بلطف الله تعالى واتفاق قريب يسير • وقص عليه الخبر ثم قال :يا أمير المؤمنين ،إن المتجر الذي يقام بالغلة فيه اوفى مضرة على المسلمين ، وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها ، حتى تتغير في المخازن وتتلف . والمصلحة ان نقيم متجرا لاكلفة على الناس فيه ويفيد اضعاف فائدة الغلة ولايخشى عليه من تغير في المخازن ولا انحطاط سعر : وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما اشبه ذلك . فامضى المستنصر له ما رآه ، واستمر ذلك ودام الرخـاء على الناس مدة سنين .

ثم قصر النيل في سنة سبع واربعين بعد خمس سنين من نظره في الوزارة ، ولم يكن بمخازن السـلطان مـن الغلة الا مـا ينصرف في جرايات من في القصور ومطبخ الخليفة وحواشيه لا غير . فورد على الوزير من ذلك ما شغل سره وكثر له فكره . ونزع السعر الى ثمانية دنانير التليس(٧) الدوار ، واشتد الامر على الناس .

ففتح الله له من التدبير ان نظر في امـر النواحـي . وكانت عادة التجار أن يقرضوا المعاملين حين اعسارهم وضيق الحال عليهـم في المقام للديوان بما يجب عليهم من الخراج ، مالاً يبتاعون بـه منهـم

غلاتهم عند ادراكها ليصيبوا فيها ربحا. فـاذا استقرت مبـايعتهم حضروا مع المعاملين الى الديوان وقاموا عنهم للجهبـذ بمـا كتب عليهم ، ويثبت ذلك في روزنامج الجهبذ مع مبلغ الغلة . فـاذا ادركت غلاتهم وصارت في الجرون (٨) اكتالها التجار وحملوها الى مخازنهم يريدون فيها السعر الغالي . فمنع الوزير من ذلك في هـذه السـنة ، وكتب الى العمال بسـائر النواحـي ان يستعرضوا روزنامجـات الجهابذة ويحصروا منها ما قام به التجار عن المعـاملين ومبلغ الغلة الذي وقـع الابتياع عليه وان يقـوموا للتجـار مـا وزنوه للديوان ويربحوهم في كل دينار ثمن دينار، تـطييبا لقلوبهـم ، وان يضـعوا ختومهم على المخازن ويطالعوا بمبلغ ما يحصل تحت أيديهم فيها .

فلما تحرر ذلك جهز المراكب لحمل الغلات من النواحي ، واودعها في المخازن السلطانية بمدينة مصر ، وقرر ثمن التليس ثـلاثة دنانير بعد ما كان بثمانية دنانير . وسلم الى الخبازين ما يبتاعونه لعمارة الاسواق ، ووظف ما تحتاج اليه مصر والقاهرة ، فـكان الف تليس دوار كل يوم :مصر ، سبعمائة . والقاهرة ثلاثمائة . فاستمر لهـذا التدبير مدة عشرين شهرا حتى ادركت غلة السنة الثانية ، فتـوسع الناس بها وزال عنهم الغلاء ،وما كادوا يتالمون لحسن هذا التدبير .

وبلغ ميخائيل متملك الروم (٩) ما بمصر من الغلاء المذكور ، فراى لكثرة محبته في الدولة ان يحمل الى القاهرة مائة الف قفيز من الغلة وقدم كتـابه وعين الغلة والكيل الذي تسـتوفى بـه عند وصـولها ، وسيرها الى انطاكية ، واعد هدية الهدنة على العـادة وهـدية مـن ماله ، فضعّف هدية الهدنة . فلما راى الروم ذلك منه نفرت قلوبهـم وظنوا به الميل الى الاسلام وقتلوه واقاموا بعده رجلا يعـرف بـابن سقلاروس(١٠) من اهـل انطـاكية ، وكان عسـيرا لجـوجا خبيث الطباع . فقبض على الهديتين وقال : انا انفـق ثمنهـا على قتـال المسلمين .

وكان للوزير عيون بالقسطنطينية فكتبوا اليه بذلك . فسير مـكين الدولة ابن ملهم الى اللاذقية في عسكر ، فسار اليهـا وحـاصرها .

ونودي في بلاد الشام بالغزو الى بلاد الروم . فلما اشتد الامـر على أهل اللاذقية بعثوا إلى ابن سـقلاروس بمـا هـم فيه . فـكتب إلى المستنصر يستوضح ما الذي اوجب ذلك ؟ ـ فـكتب إليه بـأن الذي فعله في نقض ما استقر مع من تقدمه من الهدنة وقبضة الهدية اوجب ذلك . فأجاب بأنه يحمل الهدية . فـاشترط عليه إطـلاق كل مـن في بلاده من الأسرى . فأجاب بأنه إذا أطلق من لهم في بلاد الاسلام من أسرى الروم ، أطلق من عنده من المسلمين . فأجيب بـأنه لايصـح التماسه لذلك : فإن من أسر من بلاد الروم تفرقوا في الممالك بالعراق والدولة الفاطمية والمغرب واليمن وغير ذلك ، ولا حـكم للحضرة على جميع الممالك حتى يرتجع منها من صار في أيدي اهلها . وبلاد الروم بخلاف ذلك ، ومن حصل فيها من المسلمين كان كمن هـو معتقـل في دار واحدة لايمكنه الخرو جمنها إلا بإرادتهم ، وبين الحـالين فـرق كبير . فاجاب بإنه يطلق من في بلاده من أسرى المسلمين . فاشترط عليه مع ذلك النزول عمـا صـار في أيدي الروم مـن الحصـون الاسلامية ، فامتنع من ذلك وقال : إذا أسلم إلينا ما صـار في ايدي المسلمين من حصون الروم ، سلم مـا في أيديهـم مـن حصـون المسلمين . فثقـل اليازوري الجيش بجيش اخـر وقـدم عليه الأمير السعيد ليث الدولة ففتحت اللاذقية . وأجيب ابن سـقلاروس بـأنه لايصح أن يسلم إليه ما صار في ايدي المسلمين من الحصون لانهـم قد ابتنوا فيها العمارات وانشأوا البسـاتين فـلا يصـح تسـليمها اليهم . فإنه يصير المسلمون لهم ذمة ، فاجاب بأنه يدفـع إليهـم ثمن أملاكهم وينقلهم إلى بلاد المسلمين . ثم اجابوا إلى تسليم ما في أيديهم من الحصون الاسلامية .

وكانت العادة جارية بأنه إذا وصلت هدية الروم ان تقـوم في بيت المال ، وتحمل إليهم هدية قيمتها نحو الثلثين مـن هـديتهم ليصـير للاسلام مزية عليهم بالثلث . فاشترط الوزير على ابن سـقلاروس أن تكون قيمة ما يحمل إليهم من الهدية عوضـا عن قيمـة هـديتهم النصف من ذلك . فأجابوا إليه .

فاشترط الوزير أن يؤدي إليه جزية كل من تضمه دار البلاط ، التي هي دار الملك ومحل الملك ومكانه . فامتنع من ذلك . فثقل الجيش بجيش ثالث ، فأوغلوا في بلاد الروم يقتلون ويأسرون وينهبون ، فاشتدت بلية الروم ، وبعث ابن سقلاروس مكاتباته بالاذعان إلى القيام بالجزية عن دار البلاط ، وشرع في تجهيزها فبلغت نيفا وثلاثين الف دينار ، وحمل ذلك إلى انطاكية . فبلغه صرف الوزير اليازوري ، فأعيدت إلى القسطنطينية . وزينت بلاد الروم لموته وكثر فرحهم بما صرف عنهم من خشونة جانبه .

واتفق انه كان بالعراق رجل يعرف بأبي الحارث البساسيري صار اسباسلار كبير القدر يبلغ اقطاعه نحو ثلاثين الف دينار ، فوقع بينه وبين الوزير رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وزير القائم بأمر الله العباسي في سنة سبع واربعين واربعمائة وعانده الى ان اخرجه من بغداد ، فقصد ديار بكر • وكاتب المستنصر ، وهو بأعمال حلب يرغب في الخدمة ويعرض نفسه ويستأذن في الوصول الى الحضرة ، وانه في ثلاثمائة غلام . فأخذ الوزير الكتاب وقبله احسن قبول. واستشار أهل الدولة في الاذن له، وكلهم أشار بذلك وان في قدومه ما يوجب مجيء غيره طمعا فيما ناله من الكرامة ، وفيه زيادة في عدد رجال الدولة . فلم يوافق على مجيئه وقال · هذا الرجل قد كان اقطاعه بالعراق ما يزيد على ثلاثين الف دينار ، ومعه اولاد مولاه الملك ابي طاهر بن كاليجار وغيرهم من أولاد الملوك ، وأجلهم اقطاعه الف ومائتا دينار ، فإن اقتصر به على مثل ما لهم من الواجب لم يرض ، وإن زيد عليه كان قبيحا . وايضا فإنا لانطيق من عندنا اليوم من الاتراك ، فكيف اذا انضاف اليهم مثل هذه العدة؟ والصواب أن يبقى بحيث هو ، ونحسن اليه ونقيمه لمناصبة أعداء الدولة. فإن نهض بذلك كان الدفع للدولة والاسم لها. وإن قصر عنه كان ذلك برأسه.

واتفق وصول طغر لبك السلجوقي من خراسان بالغز الى بغداد في هذه السنة ، وللوزير بها أعين . فكتبوا اليه بوصوله وانه مزمع

على المسير من بغداد الى بلاد الشام ليملكها كما ملك بغـداد . فقلق من ذلك لعظم أمر طغر لبك ، وانه دوخ الممالك وقتل الملوك واحتـوى عليها وانتشر صيته وكبر في نفوس الملوك شأنه ولم يبـق له معـاند يخافه .فرأى أن الحيلة أبلغ في مراده من دفعه عن البلاد بالاستعداد لكثرة ما معه من العساكر . وكتب اليه يهنئه بقـدومه الى العـراق ويبذل له من الخدمة ما يوفي على أمله ، وان أرض مصر كلها بحكمه وانه وإن كان مستخدما لدولة ويدعو اليها ، فإنه يعلم كثرة الاختلاف ممن يجاورها في نسبها واتفاق الكلمة ووقوع الاجمـاع على الرضى بالخليفة الصحيح النسب الصريح الحسب الهاشمي العباسي. وانه لايمتنع من الاقرار له بـذلك ــ واعطـاه صـفقة يديه على مبـايعته وتسليم الدولة اليه ، وانه قد اتصل به ازماع حضرتـه على التـوجه الى الشام ، وانه اشفق من تسليمها اليه ان تـطأها عسـاكره مـع كثرتها وتجمعها فتخربها وتعفي اثارها . فإن رأى اعفاءها من وطء العساكر لها ووصول ركابها اليها على وجـه الفـرجة والنظـر الى دمشق وحسنها ، فلها عالي رايها.

فلما وقف طغر لبك على كتاب اليازوري قال . هذا كتـاب رجـل عاقل ، يجب أن يعتمد ما أشار به ــ وأذن للعسـاكر في العـود الى بلادها . فمضى كل عسكر الى وطنه ، وقوض خيامـه وضربهـا على الجانب الغربي يريد الشام . فـكتب عيون الوزير اليه بـذلك ، فقلق شديدا وكتب الى طغر لبك لا تغرنك الأماني والخدع بأن اسلم اليك اعمال الدولة وأخون أمـانتي لمن غذاني فضـله وغمـرني احسـانه وتتعين علي طاعته وموالاته . فإن كنت تسلم الي ما في يدك لصاحبك من بلاد العراق وأعمـالها ، سـلمت اليك مـا في يدي لصـاحبي . والواجب أن تكون كلمة الاسلام مجموعة لابن بنت النبي ، الذي هو أولى بمكانه مـن غيره . وإن رغبـت الى مـا في الموادعة والمهـادنة انتظمت الحـال بين الدولتين وأمـن الناس بينهمـا . فإن ابيت إلا الخلاف ونزع بك الهوى الى الظنون الفاسدة والأطمـاع الكاذبـة ، فليس لك عندي إلا السيف . فإن شئت فأقم ، وإن شئت فسر

ففاظ ذلك طغر لبك وقال . خدعني هــذا الفــلاح وســخر مني ــ وكتب الى ابــراهيم ينال أخيه . رد إلي العســكر مسرعا ــ فــأنفذ ابراهيم ليردهم فلم يرجع احد منهم وقالوا : فينا من بينه وبين وطنه شهران وثلاثة وخمسة ، وقد سرنا معه حتى وطــىء الأعمــال وملك البلاد وفتح المدن وإحتوى عليها وفاز فيها ، ولم نحصل منه الا على التعب والنصب والخيبة . واذا كنا لم نصب في طول سفرنا خيرا فما عسى أن نؤمله اذا عدنا ؟ ــ ومضوا . هذا وقــد بــث البازوري عيونه وجواسيسه في عسكر طغر لبك واستفسد أعيانهم والطفهــم واكثــر امانيهم ومواعيدهم ، وتوصل الى زوجة طغر لبك ، والى ابــي نصر منصور الكندري وزيره ، والى ابراهيم ينال أخيه وصاحب جيشه فمالوا اليه وتقاعسوا عن طغر لبك . ومــا كفــاه ذلك حتــى حمــل الخاتون زوج طغر لبك على قتله ، فقالت : امــا بيدي فــلا ، ولكني أتحيز عنه بغلماني ، وهم حمية عسكره ــ وكانت عدتهم نحــو اثني عشر الفا ــ وفي اعتزالي بهم عنه ضعف لجانبه . واعتزلت عن طغــر لبك بهم ، وكان ذلك سبب الظفر به .

ثم أن طغر لبك بعث في سنة خمسين واربعمائة الى سنجار الفين وخمسمائة من الغز الى البساسيري فقدمها وظفر بها وقتل جميعها وافلت منهم نحو المائتي فــارس . فلم يقــاتل بعــدها رجــال الدولة الفاطمية ، وعاد عن بغداد ، فقــوي البســاسيري وكثــف جمعــه . وقصد أعمال العراق يفتحها بلدا بلدا، والوزير يمده بما يستعين بــه على ذلك من المال والراي والتدبير ، الى أن وصل الى بغداد وناصب القتال ، وقسم عسكره فرقتين ، فرقة تقاتل في النهار،واخرى تقاتل من صلاة المغرب الى الفجر ، حتــى دخلهــا واقبــل يملك محــالها وشوارعها الى أن وصل دار الخلافة وحصرها ونصب عليها القتــال من كل جانب وفرق النقــابين في جميع جهــاتها . فلمــا أشرف على اخذها صعد القائم بأمر الله الى أعلى الدار واستشرف على الناس واقبل ينادي : يا أهل بغداد ! ــويحضهم على نصرتــه والدفــاع عن حوزته . واستذم من قريش بن بدران وطلب منه الامــان ، فــأخذه ومنع منه البساسيري ، وأسلمه الوزير ابــن المســلمة . واســتولى

البساسيري على دار الخلافة بما فيها وكسر منبر الجامع وقال : هذا منبر يعلن عليه ببغض آل محمد ــ وانشأ منبرا اخر وخطب عليه للمستنصر . ثم لف ابن المسلمة في جلد ثور وصلبه حتى جف عليه فمات . واقامت الخطبة للمستنصر أربعين جمعة ، والقائم معتقل في قلعة الحديثة عند مهارش نحو عشرة اشهر . وعزم اليازوري أن يحمل الى مهارش عشرة الاف دينار ويستخلص الخليفة من يده ويحمله الى القاهرة على حال جميلة ، فاذا قرب منها تلقاه بأهل الدولة أحسن لقاء وبالغ في اكرامه وانزله في القصر الغربي وحمل اليه ما يناسبه واقام له الراتب السني في كل يوم وجعل له مائة دينار في كل يوم وجعله يركب في موكب المستنصر بين يديه يحجبه . فاذا ركب بين يديه عدة ركبات وانتشر في الأقطار خبر هذا الحال ، خلع عليه وعقد له الوية الولاية للعراق وكتب عهده بتقليده اياه وسيره اليه وأعاده الى مملكته وخلافته من قبله . فمنعه حادث القدر ، الذي حل به قبل ادراك ما في نفسه.

وكانت حلب قد تغلب عليها صالح بن مرداس من امراء بني كلاب في أيام الظاهر لاعزاز دين الله علي بن الحاكم ، وكثف امره ، الى أن ولي امير الجيوش أنوش تكين الدزبري دمشق واعمال الشام فحاربه وقتله . فقام من بعده ابنه شبل الدولة ــ نصر فحاربه الدربزي وقتله ايضا ، وملك حلب واستخلف عليها من غلمانه رضي الدولة منجوكتين فاقام بها عدة سنين . فلما مات الدزبري تغلب على حلب ثمال بن صالح بن مرداس في وزارة الجرجرائي . فكتب اليه بولايتها وقرر عليه مالا يحمله في كل سنة . وتمادى الحال على ذلك الى أيام الوزير الناصر للدين ابي محمد اليازوري ، فلم يرض بذلك . وعلم انه لايطيق صرفه ، فرجع الى عادته في اعمال الحيلة واستعمال الخديعة ، وبعث اليه بقاضي مدينة صور ، فساس الأمر مع ثمال واحكم التدبير فيما قرر معه ، ووعده ومناه حتى نزل من قلعة حلب وسلمها الى وال من قبل المستنصر ، وسار من حلب يريد القاهرة . فلما بلغ الى رفح بلغه القبض على اليازوري فقال :والله ــ اني أموت بحسرة نظرة الى من استلني من ذلك الملك

واخرجني بلا رغبة ولا رهبة الا بحسن السياسة . ولو رام ذلك مني لتعذر عليه .

وكان له من المآثر المرضية والخلال والأفعال الجميلة والأخلاق الرضية ما يتجمل الملوك بذكرها : منها انه كانت له مائدة يحضرها كل قاض وفقيه واديب وجليل القدر ، فيجتمع عليها قريبا من عشرين نسمة . حدث القاضي عمدة الدولة ابن حميد قال : كنت اجلس على يساره . فاذا ازدحموا وكثر تضايقهم على المائدة ، جذبني اليه حتى يكاد ينحرف عن مجلسه . فاذكر يوما ونحن مجتمعون ، اذ استؤذن على الفقيه ابي عقبة ، فأمر بدخوله . فلما دخل لم يجد موضعا فجذبني اليه بحيث صرت اذا مددت يدي الى المائدة لا ارجعها الى فمي الا بكلفة ، خوفا أن أصيبه بها . فبينا انا كذلك وقد مددت يدي ورجعتها ، وهو قد مد يده فلم أمهل حتى ترجع فأصاب مرفقي جؤجؤ(١١) صدره ، فورد علي امر عظيم من ذلك ، وتأخرت وقبلت الأرض وقلت : قد بسطنا إنعام سيدنا الى حيث لانستحقه ، واخرجنا الى سوء الأدب . ولو انعمت بنصب مائدة نجتمع عليها بحضرته لكان لنا في ذلك الشرف الأوفى والفخر والأسنى ، ولم ننته الى هذا الحد في سوء الأدب.
فقال : وما الذي أوجب قولك هذا حتى ذكرت ما ذكرت ؟ ولقد نكدت بايراده .

فقلت : ياسيدنا نسيء آدابنا فتغفر ونعترف بالخطأ فتتذكره علينا ، ونعتذر عن ذلك فتلومنا عليه . فما ندري بماذا نقابل احسانك ، ولا بأي لسان نشكر تفضلك .

فقال : وما الذي كان حتى تحتاج الى كل هذا ؟ ـ واقبل يجذبني وانا اتقبض ، حتى زاد تمكني باجتذابه لي فوق ما كنت عليه أولا ، وقرب كتفي من صدره ، وهو منطلق الوجه ظاهر البشر . وكان قبل ذلك اليوم يسمع حديثنا على المائدة ولايكاد يجيب لانه كان كثير الصمت قليل الكلام لانسمع منه الا اللفظ القليل عن الكلام الكثير . فابتدأ ذلك اليوم يتحدث بما يستطاب حتى يزيل عني ما اعتراني من

الغم بما كان مني ، واقمت معه خمس عشرة سنة قبل وزارته ملازما له في المبيت والصباح ، فكنت اراعيه في حالاته كلها ليلا ونهارا فلا اراه يتغير علي منهـا شيء ، ولايتبين لي منه غضـب مـن رضى . فحدثت أبي بذلك فقال : يا بني ، اني لم أكن لأوثر سماع ذلك منك ، فكيف سماع غيري له ؟ فلا تحدث به أحدا ، وتلطف في تأمل ذلك الى ان تقف عليه ، فانك اذا حدثت به نسـبت الى غلظ الطبـع وثخـانة الحس ، والبله .

فاقبلت ادقق التأمل له في حالتي غضبه ورضاه ، شهورا قبـل أن يتبين لي : فـكان اذا رضي اوردت وجنتـاه بحمـرة . واذا غضـب اصفرت محاجر عينيه . فعرفت ابي بذلك فقال : يا بني، هذا غاية في سكون النفس وصحة الطباع واعتدال المزاج.

وكانت طبائعه قريبة من الاعتدال ، فاذا احس بميل طباعه عمـا يعهده ، أخذ في اصلاحه حتى تعود الى الاستقامة.
وحدثت بعض من كانت تقوم بخدمته من النساء قالت : كنت اتـولى صلا ح ما يشربه من الدواء في كل يوم، وكان لايعـطل شربـه يومـا واحدا .

وذلك أنه كان يشرب السكنجبين والورد أسبوعا ، ثم يريح نفسه ثلاثة ايام ، ثـم يشرب النقـوع المغلي في الشـتاء ، والمنجـم في الصيف ، اسبوعا لكل منهمـا ، ويشرب مـاء البـزور اسـبوعا ويشرب ماء الجبن ثلاثة أيام ، ويشرب ماء البقل اسبوعا ، ثـم يشرب المراو ند المنقوع كذلك ، ويريح نفسه بين كل دواءين ثلاثة أيام ولا يخل بذلك في صيف ولاشتاء .

وكان ندي الوجه كثير الحياء لايكاد يرفع طرفه الا لضرورة . ولم يسمع منه قط في سؤال لفظة «لا» ، بل كان اذا سئل فيما يرى اجابة سؤاله اليه يقول «نعم» بإخفاض من طرفه وخفوت من صوته . فإذا سئل فيما لايرى الاجابة اليه يطـرق ولايرفـع بصره . وعرف هـذا منه ، وكان لايراجع فيه الا بعد مدة .

وكان كل من يحضر مائدته يستدعي منه الحضور بين يديه ليلا ليسمروا عنده ، وكان فيهم من يشرب المسكر ، فإذا حضروا عرف كل منهم مجلسه الذي تقرر له . وكان كل من لايشرب النبيذ يجلس عن يمينه ، ومن يستعمله يجلس عن يساره ، وتوضع بين يدي كل منهم الفواكه الرطبة واليابسة ، ويتفرد من لايشرب بحلاوة توضع بين يديه ، ومن يشرب يعمل بين يديه ما يستعمله ، وستارة الغناء مضروبة . فيجلسون بين يديه ، وهو مشغول يوقع ، وهم يتحدثون همسا وإشارة ، الى أن ينقضي أربه من التواقيع ، فيسند ظهره وينشطهم للحديث فيتحدثون . ويقول لمن عن يمينه : قد تجدد اليوم كذا وكذا ، فما عندكم فيه ؟ - فيقولون : سعادة حضرة سيدنا تمهد له صواب الآراء ، وقد خصها الله تعالى من ذلك بما لاتهتدي عبيدها اليه .

فيقول : بل يقول كل منكم ما عنده في ذلك ، ولايقوم في نفس واحد منكم أن ما راه خطأ فيمسك عن ذكره ، فربما كان الصواب مقرونا بذلك الراي وهو ضالة تصيب من لم تجر عادته بإنعام الفكرة فيه .

فيصقع أحدهم ويقول : الذي يراه العبد على وجه الخدمة كذا وكذا فلا يزال يسمع من واحد واحد حتى يستكمل الجماعة . ثم يعطف على شماله فيقول : قولوا ! - فيفعلون كفعل الأولين ، وهو يسمع ولا يرد على احد شيئا ، فلا يصوب المصيب ولايخطي المخطي ، ويبيت يضرب الآراء بعضها ببعض حتى يتمحض له الصواب ، ويصبح يرمي فلا يخطيء . وهكذا كانت افعاله طول مدته ، لم يستبد قط برأيه ولاأنف من المشورة ، بل يقول: المستبد برأيه واقف على مداحض الزلل ، وفي الاستشارة حل عقول الرجال .

وبهذا العقل تم له ماكان يدبره حتى أثر في جميع ما رامه من أطراف الدنيا آثارا بقي ذكرها دهرا طويلا .

وأراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات ليقايس

بينهما . فتقدم الى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجري في ديوانه ، وما عليه من النفقات فعمل ذلك وتسلمه متولي ديوان المجلس وهو زمام الدواوين ، فنظم عليه عملا جامعا واختصره أيام (دولته)فجاء ارتفاع الدولة الفي الف دينار ، منها الشام : ألف الف دينار ونفقاته بازاء ارتفاعه ،ومنها الريف وباقي الدولة : الف الف دينار ، يقف منها عن مغلول وينكسر عن موتى وهراب ومفقود ابواب : مائتا الف دينار وتبقى ثمانمائة الف دينار ، ينصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلاثمائة الف دينار ، وعن ثمن الغلة للقصور : مائة الف دينار، وعن نفقات القصور مائتا الف دينار . وعن عمائر ، وما يقام للضيوف الواصلين ، من الملوك وغيرهم ، مائة الف دينار ، ويبقى بعد ذلك مائتا الف دينار حاصلة يحملها كل سنة الى بيت المال المصون ، فحظي بذلك عند الخليفة ، وتمكن منه ، وارتفع قدره عنده . وكانت الدولة طول نظره في عرس ، لتوالي الفتوحات في ايامه وعمارة الأعمال بحسن تدبيره واستخدام الكفاة فيها بجودة اختياره .

وكان المستنصر يحضر عنده في كل يوم جمعة ويبيت عنده في لذة ومسرة ، فيحضر اليه من التحف والطرف والغرائب ما لايكاد يقدر عليه غيره . فاستمر على ذلك ثماني سنين . فكثر الحاسد له على ما يتأتى له من السعادة وتعينه عليه الأقدار . واستطال حساده مدته فابتغوا له الغوائل ونصبوا له الحبائل ، وركبوا عليه المناصب حتى كان هلاكه بأقل الناس قدرا وأحقرهم ، وأدناهم منزلة واضعفهم قدرة ، وهم من أطراف الخدام ، ليبين الله اياته للناس ليعلموا أن الله على كل شي قدير : وذلك ان اثنين من اطراف المستخدمين ، احدهما خادم يعرف بفرج المغراوي كان في حاشيته ، والآخر خازن في بيت المال يتولى خزانة الفرش يعرف بتنا ، تمحلوا له الأباطيل ونمقوا الأحاديث وزخرفوا القول وحكوا انه نقل الأموال الى الشام في التوابيت وفي شمع سبكه ، وانفذه الى القدس والى الجليل ، وانه قد عول على الهرب الى بغداد . فصدق

ذلك وقبض عليه بغير ذنب الا الملل والحسد الذي جرت عادة الملوك به . وان مللهم بغير علة وحسدهم على تظافر من ينعمون عليه بما يصير في يديه ليتجمل به ، فيكون ذلك سبب حسدهم ومللهم .

واتفق ان المستنصر التمس من صفي الملك ولد الوزير عمل دعوة يدعوه اليها ، فدافعه عن ذلك ، استعظاما لحضوره عنده . فأقام مدة حتى بعثه الوزير الناصر للدين على تكلف عملها ، فاهتم لذلك وصنع ما يليق إعداده . وتقرر الحال على يوم . فلما تهيأ ذلك حضر صفي الملك الى ابيه وأعلمه بإنجاز ما يحتاج اليه ، فصار معه الى الدار بخواصه فرأى ما تقصر عنه كل صفة من ذلك انه فرش مجلسين بديباج بياض كله وفيه جامات كبار حمر بنقوش كأجل من الأعدال ، وفي كل مجلس ثلاث مراتب وبساط ملء المجلس وسرادقين — يعني : ستارتين — وحجلتين للصدر — يعني شخانتين — وكل مرتبة ثماني قطع ، ثمن ذلك خمسة الاف دينار .

فأقبل كل من حضر يبالغ في صفته ، الا ابن حميد فانه صار ساكتا فلحظه الوزير . وطاف المجالس واستعرض كل ما أعده ، وهو يقول : يزاد لههنا كذا ، ويترك هنا كذا — ثم عدل الى بيت الطهارة فدخله ، وقد اعد في دهليزه من الفرش والآلات والطيب وفي داخله من الفواكه والمشمومات كل مستحسن .

واستدعى ابن حميد منفردا ، وجلس في دهليزه وقال : ياعمدة الملوك ما لي لم اسمعك تؤمن على ما قالته الجماعة ؟
فاعتل بما لم يقبله الوزير ، والزمه أن يصدقه فقال : ياسيدنا عندي أحد رايين : إما أن تأمر بإزالة لهذه الفرش ونصب غيرها مما هو مستعمل ، أو تحمله الى الخليفة اذا انقضى جلوسه عليه .

فقال : وما هو هذا ؟ اليس هو مما انعم به وصار الي من فضله ؟ وما قدره حتى تمتد عينه اليه وتتطلع نفسه له ؟ أما إزالته ونصب غيره ، فما كنت لاكسر نفس هذا الصبي . وإن امرت بإزالته حزن وانكسرت نفسه — وقام

فحضر المستنصر واقام يومه في الدار ، واحضر اليه مـا اعد له من الطرف . وركب اخر النهار وعاد الى قصره . وحضر خـواص الوزير عنده على عادتهم . فانفرد بـابن حميد وقـال له : ياعمـدة الدولة ، والله ما اخطأ حزرك فيما قلته بالأمس : منذ دخل الخليفة الى الدار الى ان خرج لم يطرف طرفة عن تـأمل الفـرش ، فـاذا وجهت طرفي نحوه اطرق وتشاغل .

فقال : ياسيدي ، اذ فات الأمر الأول ، فلا يفوت الثاني .
فقال: والله لافعلت ، ولاغممت صفي الملك بحرمانه اياه !

واتفق ايضا ان ابن حميد دخل على الوزير في يوم بـكرة ، وقـد قدمت الدابة الى باب المجلس ، فخرج ليركب ، وعليه ثوب اسـمر اللون مليح السمرة . فدنا منه ليصلح ثيابه لما ركب ، وجعل يلمس الثوب . فسار الوزير وعاد . فلما انقضت المائدة قـال لابـن حميد قد لحظتك اليوم تنظر الثـوب الذي كان علي ، فعجبت مـن ذلك فلما مثلت بحضرة مولانا كنت بحيث جرت العادة . فأقبل يتـأمل الثوب ، ولم يزل يزحف من الدست حتـى قـرب مني فتغـافلت عنه ، ولحظته وقد مد يده الى الثوب ليلمسه ، فقلت في نفسي : زال عجبي من عمدة الدولة اذا كان الخليفة على هذه الصفة ، وهو ثوب ملحم خراساني .

فقال : الملوك اذا انعموا على احد ممن في دولتهم نعمـة وتـظاهر بها ، استحال الاحسان والاصطناع حسدا ومللا .

وكان الوزير شريف الأخـــلاق ، عالي الهمـــة ، كريم الطباع ، وطيء الأكتاف ، مستحكم الحلم ، واسع الصدر ، ندي الوجه ، يستقل الكثير ويستصغر كل كبير . فكان راتب مـائدته في كل يوم كموائد الملوك في الأعياد والولائم . وكان لايبتاع لمطبخه من الطير ماهو معرق ، ولامصـدر ، وسـعر المعـرق سـتة اطيار بدينار ، والمصدر اربعة بدينار ، والمسمن ثلاثة بـدينار ، والفـائق اثنان بدينار ، فيعمل المسمن لداره ومن فيها ، واما مـائدته فـلا يقدم عليها الا الفائق .

فاتفق حدوث الغلاء في سنة سبع واربعين واربعمائة ، وصار الخبز طرفة من الطرف لقلته وغلاء السعر من قصور النيل ، والمستنصر يحضر دار الوزير في كل يوم ثلاثاء على عادته ، وتقدم اليه المائدة ، فيراعي حالها فيجدها على ما يعهد لم يختل منها شيء، حتى الدجاج الفائق . فقال لصاحب مطبخه : ويلك ! يكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق ومائدتي دون ذلك ؟

فقال : يامولانا ، ما ذنبي اذا قصر بك اصحاب دواوينك ومطابخك ولم (يطلقوا لمائدتك ما التمسه منهم ؟ والوزير ، فلا يتجاسر وكلاؤه أن) (١٢) يقصروا في شيء مما جرت به العادة في راتب مائدته وغيرها ، مع تقدمه اليهم في كل يوم بالزيادة فيها وفي راتب داره.

وكان الوزير ايضا اذا اعطى هنأ ، واذا انعم على انسان اسبغ ، واذا اصطنع احدا رفعه الى ما تقصر عنه الآمال والأماني. مع عظيم الصدقة وجزيل البر الذي عم به اهل البيوتات بما اقامه لهم من المشاهرات على مقاديرهم ، والأشراف سكان المنامة ، والفقراء واهل الستر بالقرافة بما يواصلهم به من البر والكسى ، ويجري ذلك على يد ابن عصفور احد الشهود بمصر ووكيل السيدة الوالدة ، فكانوا يظنون ان ذلك من انعامها وبرها او من انعام المستنصر . فلما قتل الوزير انقطع عنهم ما كان يصل اليهم من بره ، فاستنصروا بذلك (الوكيل) وواصلوا الخطاب فيه وقالوا : قد جفينا من مولانا ومولاتنا وانقطع برهما عنا ، فلو اذكرتهما بنا ؟ - واكثروا من ذلك على ابن عصفور . فقال لهم: الذي كنتم ترون ماكان ليجيئكم حتى يبعث الله ناصر دين آخر ! فحينئذ يأتيكم منه ماكان يصلكم به .

فقالوا : نحن التمسنا من مولانا ومولاتنا ، ولم نلتمس من ناصر الدين ، فقال : ما كان يجيئكم ذلك الا من الوزير ، فان بعثه الله لكم فعساه يبركم بما كان يبركم به ، فعجبوا من ذلك ،

واكثروا من الترحم عليه .

ولما تظافر الغلامان على الوزير حتى تم من القبض عليه ماتم ، لم يشعر مستهل المحرم سنة خمسين واربعمائة الا وقد قبض عليه فكتب رقعة الى ابي فرج البابلي ، لموضع تقدمته له ، وبما احسن به اليه وانعم عليه ، وانه هو الذي رفعه على جميع اصحاب الدواوين ، واستخلصه دونهم ، وظن انه يجازيه على ما صنع اليه ، ويفي له فخاب ظنه ، ونص الرقعة بعد البسمله : عرفنا يا أبا الفرج ، أطال الله بقاءك وادام عزك ، تغير الرأي فينا ، وسوء النية والطوية فان يكن هذا الأمر صائر اليك ، فاحفظ الصحبة وار ع واجب الحرمة . وان يكن صائرا الى غيرك فابتغ لنفسك نفقا في الأرض . على أنانشير عليك اذا دعيت اليه الا تتأبى عنه ، فانه اصلح لك واعود علينا ، والسلام .

فدعي البابلي واستقر في الوزارة بعد اليازوري ، فتجرد لمقابلة احسان مصطنعه بكل قبيح ، وذكره في مجالسه بما لايستحقه منه . وكانت هذه الرقعة اعظم ذنوبه عنده ، فكان يقول . يخاطبني وهو على شفير القبر بنون العظمة ! ـ ولايذكره الا بالسفيلة والسقائط

ولم يقنعه كونه في الاعتقال بمصر حتى نفاه الى تنيس في صفر هو واولاده ونساؤه وحاشيته ، فاعتقلوا بها . وشرع في التدبير على قتله خوفا من الرضى عنه .

فحدث عظيم الدولة متولي الستر قال : كنت في جملة الصقالبة الموكلين على الناصر ثم على البابلي بعده ، فكنت ارى من رئاسة الناصر ـ على شبيبته ـ ورجاحته ، وسكون جاشه ، ومن طيش البابلي وخفته ونقصه ، ما اعجب منه . وهو أني لماكنت موكلا بالناصر ، كنت اراه ملازما بالعتبة بباب المجلس في القاعة لايتغير مكانه ، وكان البابلي يتعلى عليه ويراسله بما يمض ويوصينا اذا مضينا اليه بالجلب على فتح الباب والاكثار من قلقلته عند الفتح ، لنرعبه بذلك ، فوالله ما يكترث اليه ولا ينزعج . واذا دخل

اليه تذكار متولي الستر يكون جلوسه منه في الاعتقال كجلوسه منه في وقت وزارته ، ويخاطبه بما يرضى به فيجيبه عنه بسكون وهدوء كأنه في الدست جالسا . فاذكر وقد دخل اليه يوما فجلس ونحن وقوف بين أيديهما أكثر من ثلاثين صقلبيا ، فأدى إليه ما أوصاه البابلي به ، واجابه عنه . فنهض ولبس نعله وقال له. يا سيدي ، صرفتني عن الستر بغير ذنب ثم أعدتني إليه بغير مسالة . فما كان معناك في ذلك ؟

فرفع طرفه إليه كانه والله يخاطبه من دست الوزارة وقال له: كان صرفك في الأول برأيي واختياري . ثم اعدتك كذلك برايي لما عرفته من ميل مولانا إلى استخدامك .

فخرج تذكار وهو يقول : انظروا إلى هذا الرجل في سكون جاشه وقلة احتفاله في الجواب مع حاجته إلي في مثل هذا الوقت الذي تحقق قدرتي على الاحسان إليه فيه وعلى الاساءة . فوالله ما خاطبته إلا وانا أظن انه سيجيء بما يمهد عندي عذره فيه ، فلم يكن منه غير ما سمعتوه . ووالله ما أجد سبيلا إلى مقابلته بغير الجميل ، لما كنت اشاهد من افعاله وجميل سيرته .

وكان أكثر وقته صائما ، ولا يكاد يفطر إلا اقله ،ذاك ، وهوكثير التلاوة ، ولا يسأل عن شيء من طعام ولا شراب .وكنت من حاله عجبا .

كان في حال وزارته كثير الصمت ، مواصل الاطراق ، شديد سكون النفس ، هادىء الطبائع .فكنا نحمل ذلك منه على التيه والصلف والاعجاب وقلة احتفاله بالناس .فلما صار في حالة القبض والخوف كانت حاله على مثل ما كنا نشاهده منه ونتهمه فيه .

واخذ البابلي كلما حضر بين يدي المستنصر يكثر التشريب على اليازوري ، إلى ان كان اليوم الذي شغبت عليه الاتراك ووطئوا دراعته . فإنه لما دخل على المستنصر قال: يا أمير المؤمنين ، إنه لا ينفذ لك امر ، ولا يتم لي نظر ، وهذا الكليب في قيد الحياة .

فقال: ومن هو هذا الكليب ؟

فقال: الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري .

فقال : ايها الوزير ، أعلم أني لم أصرف اليازوري عن خدمتنا ولنا في إعادته رغبة . فطب نفسا ودع ذكره ، فأنت أمن مما تخافه من جهته .

فقال : والله ، إن هذا لعجب فيمن حسن متابك ، يا أمير المؤمنين ، عنه ، مع قبيح فعله وماهم به من قتلك ، حتى إن السقية اقامت تدور في قصرك اسبوعا كاملا .

(فقال : أيها الوزير ، اقامت السقية تدور علي في قصري اسبوعا كاملا ؟) (١٣) .

قال : نعم.

فأطرق متعجبا وبقي متفكرا وامسك . فظن البابلي بإمساك الخليفة انه راض مما يفعله مع اليازوري ، وخرج ، واستدعى طاهرا كاتب السر وسير هلقتله . فنمى الخبر إلى أم المستنصر وقالت : انت يا مولانا أمرت البابلي بقتل اليازوري ؟

فقال : لا.

قالت : قد سير طاهرا ابن غلام رشيد لقتله .

فاستدعى المستنصر سعيد السعداء وانفذه إلى البابلي وقال: قل له : لم نأمرك بقتله ، فأنفذ من يعيد طاهرا ويمنعه من النفوذ .

فالفاه سعيد السعداء في الحمام ، فأعتذر إليه. فقال : لابد من الدخول إليك! ـ ودخل وأدى الرسالة إليه. فقال : نعم ، هوذا اخرج وأسير من يعيده .

وطول في الحمام. ثم خرج ، فإلى ان يكتب الكتاب ويسير النجاب ، جد طاهر في السير ووصل قبله إلى تنيس . فلم يدخل النجاب حتى نفذ الحكم في اليازوري . وذلك أن طاهرا لما وصل دفع كتاب البابلي إلى الأمير جمال الدولة صبح والي تنيس وفيه . إنا قد سيرنا طاهرا فيما انت تقف عليه من جهته ، فتثبت منه فيه وتحضر معه لانجازه وتحذر من تأخيره من اليوم إلى غد .

فقال: وما الذي وصلت فيه ؟

فأخرج تذكرة بخط البابلي فيها : إذا وصلت يا طاهر أعزك الله ، إلى تنيس ، وقد شقيت ولهثت من العطش ، فلا تبل ريقك بقطرة دون أن تحضر حسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري إلى دار الخدمة وتمضي حكم السيف فيه . فقد كتبنا إلى الأمير جمال الدولة بمعونتك على ما نستدعيه من ذلك ، فقدمه ولا تؤخره إن شاء الله.

فقال له الوالي : أنت خليفة صاحب الستر ، ومرسل من جهة السلطان ، والأمر الذي وصلت فيه ممتثل . فامض الحكم فيه .

فقال : بحضورك.

قال : وما معنى حضوري إذا بلغت غرضك فيما وصلت فيه ؟

فقال : لا بد من حضورك!

وانفذ من أحضر اليازوري من الدار التي أعتقل به . فلما حضر اجلس على مصطبة باب الدهليز ، وطاهر على مقابلته في مصطبة ، والصقالبة والسعدية خدام الستر وقوف ، والسياف قائم .وقال طاهر : ياحسن ، يقول لك مولانا : أين اموالي ؟

فلم يجبه ولم يرفع طرفه اليه. فقال له: لك أخاطب ياحسن بن علي بن عبد الرحمن. يقول لك أمير المؤمنين: اين أموالي؟ فلم يجبه ورفه طرفه ونظر الى طاهر والى الجماعة القيام وقال لطاهر: يا كلب تجيء وهذا معك ـ وأشار الى حيدرة السياف ـ وتسألني بعد ذلك ؟ ولكن قل له: يا مولانا ، قبض علي وأنا آمن على نفسي فإن كان عندي مال ، فقد وجدته في داري. وكتب داعيك وثقتك المؤيد في الدين في القمطرة الفلانية تشهد بذكر مالك أين هو.

فأشار طاهر إلى الذين معه فأخذوا اليازوري وضربت عنقه في الحال . وسار لوقته عائدا ، ومعه رأس اليازوري ، الى القاهرة ، فبلغ ذلك المستنصر فاغتم لقتله ، وحقد على البابلي حتى صرفه . وكان قتله في ليلة الثاني والعشرين من صفر سنة خمسين

واربعمائة . والقيت جثته على مزبلة إلى ان ورد امر المستنصر بعد ثلاثة ايام بتكفينه وتجهيزه والصلاة عليه . فغسل في مسجد وحنط بحنوط كثير وكافور ، وحمل بين العشاءين ومعه المشاعل ودفن .ثم حضر صقلبي بعد ذلك ومعه الرأس فدفنت معه في القبر .

ولم يتمكن احد في الدولة المصرية بعد الوزير يعقوب بن كلس تمكن اليازوري .وحكي انه حج في صباه .فلما زار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم نام في الحجرة النبوية ، فسقط عليه شيء من الخلوق الملطخ بحائط الحجرة . فأتاه بعض خدام الحجرة وأيقظه وقال له : أيها الرجل ، إنك ستلي ولاية عظيمة . وقد بشرتك ، ولي منك الحباء والكرامة .

فصار إلى ما صار حتى إنه سأل المستنصر بالله أن يكتب اسمه على سكة الذهب والفضة فأذن له في ذلك . وطبعت باسمه نحو شهر ثم بطلت . وأمر المستنصر الا يسطر هذا في السير . وكانت صفة سكته :

ضربت في دولة آل الهدى
من آل طه وآل ياسين
مستنصر بالله جل اسمه
وعبده الناصر للدين

في سنة كذا

ومن طريف التخلصات في المكاتبة ما وقع له ، وهو ان العالي بالله إدريس ابن المعتلي بالله يحيى بن الناصر علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله /بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب صاحب الأندلس كتب إلى المستنصر بالله من مدينة مالقة مكاتبة فيها :« من امير المؤمنين العالي بالله إلى امير المؤمنين المستنصر بالله ».

فعيب عليه بمصر قلة تصوره ومعرفته بأنه لا يجوز أن يكون امير

المؤمنين في زمان واحد إلا واحدا . ثم الجأت الضرورة إلى مــكاتبته بنحو ما كتب ، وكان البازوري إذ ذاك في الوزارة وتدبير أمور مصر فقال : أنا أخلص لكم هذه القضــية وأعلقهــا بمعنى دقيق لا يبين للمكاتب ــ وكان صــاحب حيل ــ فــكتب إليه . مــن أمير المؤمنين المستنصر بالله معد إلى العالي بالله أمير المؤمنين بمالقة.

الحسن بن عمار الكلبي

(من المقفى للمقريزي - مجلدة برتو باشا)

الحسن بن عمار بن علي بن أبي الحسين - واسمه محمد بن الفضل بن يعقوب أمين الدولة أبو محمد الكلبي ، أحمد شيوخ كتامة كان أبوه في خدمة الامام القائم بأمر الله ابي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي ، فبعثه على رجال كتامة الى تونس في فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذكاري ، وقد سبقه اليها مسنويه بن بكر الهواري من قبل ابي يزيد ، ودخلها في عاشر صفر سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة ، فقتل وسبى وهدم الدور ، ولقي عمارا فقاتله وهزمه عمار وتبعه الى تونس وقتل كثيرا من اصحابه وأخذ ثلاثة آلاف جمل تحمل طعاما وغيره ، وعاد الى القائم بالمهدية ، فأمره أن يقيم بسوسة. ثم مات القائم ، وكان مع ابنه المنصور بالله ابي الطاهر اسماعيل حتى مات وقام من بعده ولده المعز أبو تميم معد. فسار من قبل أخيه الحسن بن علي متولي صقلية على اسطول الى بلاد الروم وعاد ، فخرجت عليه ريح شديدة بالقرب من صقلية فعطب الاسطول بأسره وغرق القائد في يوم الجمعة لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ودفن من الغد بصقلية.

ثم إن الحسن بن علي افتتح في سنة اثنتين وخمسين قلاعا بجزيرة صقلية ونزل على قلعة رمطة فحار بها فطال عليه أمرها فرجع إلى جزيرة صقلية وترك على رمطة ابن أخيه أبا محمد الحسن ابن عمار صاحب الترجمة ، فاقام عليها وطال مقامه . واستغاث الروم بصاحب القسطنطينية. فوجه إليهم عسكرا في البر وعسكرا في البحر ، والتقى ابن عمار مع مقدمة الروم في نصف شوال منها بشرذمة يسيرة فرزقه الله الظفر وقتل قائد الروم صاحب عسكر البر

واسر صاحب عسكر البحر ، وانهزمت عساكرهم فتبعهم المسلمون فحزوا منهم عشرة الاف راس ، وغرق منهـم في البحـر خلق كثير. وكان في طريقهم خرق عميق في الأرض فحال بينهم وبين رؤيته الغبار فتواقعوا فيه وقت الهزيمة وسقط الخيل والرجال وصار بعضهم على بعض فهلك فيه مـن الروم خلق لايحصيهم إلا الله فماتوا كلهم ، واسر منهم بعد هذا كله الفا اسير فيهم مائة بطريق . واخـذ من أموالهم وسلاحهم وكراعهم ما يقصر عنه الوصـف . ونزل مـن قلعة رمطة نحو الف علج خوفا وجزعا.

واقام الحسن بن عمار محاصرا لها ، ووجه بالقائد والبطارقة والرؤوس وكتاب الفتح إلى مدينة صقلية ، فخرج إليهم الحسن بـن علي بالعدة والعساكر فتلقاهم فرأى مـا سره وفـرح بـذلك فـرحا شديدا ، ثم انصرف فاعتل من إفراط الفرح بحمى حادة ومات بعـد ذلك بسبعة أيام لاثنتي عشرة بقيت من ذي القعدة من هـذه السنة. وفتح الله قلعة رمطة على يد الحسن بن عمار لثلاث بقين منه ، فقتل جميع من كان بها من الرجال وسبى النساء ، واستولى على جميع ما فيها من نعمة ومتاع وغير ذلك.ثم قدم من صقلية على المعز في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بالمهدية ، فخرج معه لحرب ابي خزر يعلى الزناتي الثائر.

ثم عاد فبعثه في يوم الثلاثاء لتسع خلون من شـوال سـنة تسـع وخمسـين (وثـلاثمائة) على الأسـطول إلى مصر. فـانتهى إلى طرابلس . واقلع منها يوم الخمسين لثمان بقين مـن شـوال سـنة ستين وثلاثمائة. ثم قدم إلى القـاهرة يوم الاثنين رابـع ربيع الأول سنة إحدى وستين ، ثم لما قدم الأسطول في ذي القعدة مـن المغـرب خرج عليه ابن عمار في ذي الحجة وسار إلى تنيس ولقـي اسـطول القرامطة فأخذ منه سبع قطع واسر خمسمائة رجل.

ثم سار في رجب سنة إثنتين وستين إلى الحوف على عشرة الاف فواقع القرامطة.

ومازال بالقاهرة بقية أيام العزيز ، ولما احتضر العـزيز بـالله

بمدينة بلبيس استدعى القاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار هذا واوصاهما بولده ابي علي المنصور ومات. فاقيم في الخلافة بعده ابو علي ولقب بالحاكم وسار إلى القاهرة وسنه إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر . فأنفق في المغاربة وكتامة وشرطوا أن لا ينظر في امورهم إلا ابن عمار. وذلك انه أعطى لكل واحد من شيوخ كتامة لما انفق فيهم من خمسة الاف دينار الى ما دونها ، وأعطى شبابهم على اقدارهم . وكان العزيز قد غضب عليهم لخذلانهم القائد جوهر في نوبة هفتكين وعرف الوزير يعقوب بن كلس ذلك فاطرحهم حتى ضاعوا وساءت حالاتهم وتفرق كثير منهم في الصناعات . فتنبه ابن عمار (إلى) حالهم فاجتمع شيوخ كتامة عند المصلى خارج القاهرة ، وقد خالفوا على الحاكم . فخرج إليهم ابن عمار وما زال بهم حتى احضرهم إلى القصر وقرر لهم ما ارضاهم به وانفق فيهم ، وحلف للحاكم ثم حلفهم وحلف عليه الحاكم بأمر الله في يوم الثالث من شوال سنة ست وثمانين وثلاثمائة . وقلده سيفا من سيوف العزيز بالله وحمله على فرس بسرج من ذهب ، وكناه ، ولقبه « امين الدولة ». وقال له: « انت اميني على دولتي ورجالي ». وقاد بين يديه عدة خيول ، وحمل معه خمسين ثوبا من سائر البز الرفيع . ونزل من القصر إلى داره في موكب عظيم. وقرا سجله قاضي القضاة محمد بن النعمان بجامع مصر في خامسه . فاستكتب ابا عبد الله (•••) الموصلي واستخلفه على اخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم. وألزم سائر الناس بالترجل له فترجل كل رئيس في طائفته . وقرر لكتامة سبعة أعطية في السنة وأنفق فيهم وحمل رجالاتهم ــ وهم نحو الألف ــ على دواب الاصطبل التي خلفها العزيز ، ولم يترك احدا من الشيوخ حتى حمله على الفرس والفرسين بالمراكب الحسنة من خزائن القصر.

وسير سلمان بن جعفر بن فلاح إلى الشام على عسكر ، وخلع عليه ، وقلده سيفا مذهبا ، وحمله على فرس ، وقاد بين يديه أربعة افراس بمراكبها ، وانعم عليه إنعاما زائدا ، وانفق في المغاربة السائرين معه ، وبعث إليه بخزانة مال على ثمانية وستين بغلا فيها

أربعمائة ألف دينار وسبعمائة ألف درهم ، وبعث إليه بستة وأربعين حملا من السلاح وعشر جمازات عليها الدروع وست قباب بفـرشها وأجلتها ومناطقها وسائر آلاتها ، وست جمازات بجنب آلة الديبـاج الملون وثلاثين جمازة بـأجلةوعشرة أفـــراس وثـــلاث بغـــلات بمراكبها ، ومنديل يحمله خادم فيه ثياب من ثياب العزيز وسيف من سيوفه.

وصار ابن عمار ينزل ويركب من باب الحجرة التي فيها الحـاكم فيشق القصر راكبا ، والزم سائر الناس بالتبكير إلى داره ، وكانوا يزدحمون على بابه وفي دهاليزه ، وبابه مغلق . ثم يفتـح بعـد حين فيدخل الأعيان إلى قاعة الدار ويجلسون على حصير ، وهو جالس في مجلسه لا يدخل إليه أحد مقدار ساعة . ثم يأذن للأعيان كالقاضي ووجوه كتامة القواد فيدخـل أكابـرهم .ثـم يؤذن لسـائر الناس فيزدحمون ولا يقدر أحد على الوصول إليه ، فمنهم من يومـيء إلى تقبيل الأرض ، وهو مع ذلك لا يرد السلام على أحد.

فإذا خرج لا يتمكن من تقبيل يده إلا قوم بأعيانهم . وباقي الناس يقبل بعضهم الركاب ، وبعضهم يوميء إلى تقبيل الأرض .

وانفد ما في الأصطبلات من الخيول فـأنعم على كتـامة بـألفين وخمسمائة فرس ، وأخرج للحملان والقود شيئا كثيرا ، وحمل من الخيل والبغال والنوق لسلمان بن فلاح زيادة على ألف رأس ، وباع من الخيل والبغال والنجب والحمير ما يتجاوز الوصف حتى بيعت الناقة بستة دنانير .وقطع أكثر الرسوم التي كانت تطلق للأولياء من الأتراك وغيرهم .وقطع أكثـر مـا كان مـن المطـابخ واقتصر على البعض .وقطع أرزاق جماعة من أصحاب الراتب ، وفرق كثيرا من جواري القصر على الناس ، وكان فيه من الجواري والخـدم عشرة آلاف جارية وخادم ، فباع من اختـار البيع وأعتـق مـن سـأل العتق ، كل ذلك طلبا للتوفير .

وحمل إلى سلمان بن فلاح جل رحل العزيز وأمتعتـه ،واصـطنع أحداث المغاربة ، فكثر عبثهم وامتدت أيديهم إلى أخذ الحـرم مـن

الطرقات ، وسلبوا الناس في الشوارع وغيرهـا .فـكثرت شـكاية الناس منهم فلم يشكهم . ثم إنه فرط في الأمر حتى تعرضوا لغلمان الأتراك يريدون أخذ ثيابهم .فثار بسبب هذا شر قتل فيه واحد مـن المغاربة وغلام من الأتراك .فـاجتمع شـيوخ الطـائفتين وصـاروا احزابا .فقام ابن عمار في نصرة المغـاربة ، ووقعـت الحـرب بين الفريقين ، وقتل جماعة منهما .فانطلقت الألسـنة مـن كل منهمـا بالقبيح في حق الآخـر ، واقـاموا على المصـاف يوم الثـلاثاء ويوم الأربعاء تاسع شعبان فركب بينهمـا ابـن عمـار يوم الخميس بآلة الحرب وحفت به المغاربة .وتجمعت الأتراك ، وكانت بينهما وقـائع قتل فيها عدة رجال وجرح كثير ، وجمعـت الرؤوس بين يدي ابـن عمار .فأنكر ذلك وعرف انه أخطأ في ركوبه ، فعاد إلى داره .

ونزل إليه برجوان ليصلح بينه وبين الأتراك .فعندمـا دخـل إليه برجوان ركب غلمان الأتراك دار ابـن عمـار فعـاد بـرجوان إلى القصر ، وامتدت أيدي النهابة إلى دار ابن عمار واصطبلاته ، وإلى دار رشأ غلامه ، فأخذوا منها ما لا يحصى كثرة . وكان أكثـر مـن نهب المغاربة الذين اصطنع أحداثهم .فسقط في يده ونجا بنفسه إلى داره بمصر ليلة الجمعة لثلاث بقين من شعبان سنة سـبع وثمـانين وثلاثمائة وعزل عن النظر ، فكانت مدة أيام نظره أحد عشر شـهرا تنقص خمسة أيام .ولزم داره بمصر سبعة وعشرين يوما .ثم خـرج إليه الأمر بعوده إلى القاهرة فعاد وترك داره ليلة الجمعـة خـامس عشرين شهر رمضان .واقام بهـا لا يركب ولا يدخـل إليه أحـد إلا اتباعه وخدمه .ورسم بإطلاق رسومه وجرايات حشمه وكل مـا كان له في أيام نظره من فاكهة وثلج وغيره ، ومبلغ ذلك من ثمـن اللحـم والحيوان والفواكه والتوابل خمسمائة دينار في كل شـهر ، وسـلة فاكهة في كل يوم بدينار ، وعشرة أرطال شمع كل يوم وحمل ثلج عن يومين .

فلم يزل ملازما لداره إلى أن اذن له الركوب يوم السبت الخامس من شوال سنة تسعين .فركب إلى القصر ونزل موضع نزول الناس

بأسرهم ،وواصل الركوب الى يوم الاثنين رابـــع عشرة ، فــأحضر عشية إلى القصر وجلس بـــه إلى عشـــاء الآخــرة ، ثـــم اذن له في الانصراف .فعندما قام ثار به جماعة مــن الاتـــراك قــد أعدوا لقتله فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنوه مـــوضعه .ثــم ســـأل اهله في نقله إلى تربته ، فحمل إليها بالقرافة .وكانت مدة إقامته بعد عزله عن النظر إلى أن قتل ثلاث سنين وشهرا واحدا وثمانية عشرَ يوما.

محمد بن حسن الكلبي

(من المقفى للمقريزي – مجموعة ليدن)

محمد بن الحسن بن علي بن ابي الحسين ، ابو عبد الله ، الصقلي ، احد امراء صقلية المعروفين ببني ابي الحسين ولد سنة تسع عشرة وثلاثمائة ٠

وقدم من صقلية الى المهدية على المعز لدين الله في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة عندما كتب المعز الى الأمير ابي القاسم احمد بن الحسن بن علي أن يرحل الى إفريقية بأهله وماله وجميع من يتعلق به ، فاستخلف على صقلية يعيش مولى ابيه الحسن بن علي٠

وقدم ابو عبد الله هذا الى مصر مع المعز ، وكان اخص الناس به واقربهم إليه ٠ فلم يزل بالقاهرة الى أن مرض ، فعاده المعز في مرضه ٠ ومات لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، فغسله القاضي النعمان بن محمد وصلى عليه المعز ، وفتح تابوته ،واضجعه بيده هو وابنه الأمير عبد الله بن المعز ودفن في داره بالقاهرة .

واجاج بن زلو اللمطي (١٤)

من أهل السوس الاقصى • رحـل الى القيروان فـأخذ عن ابـي عمران الفاسي ثم عاد الى السوس فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه واذا أصابهم قحط استسقوا به • فسـمعت الشـيخ أبـا مـوسى (عيسى) بن عبد العزيز الجـزولي يقـول : أصـاب الناس جـدب بنفيس • فذهبوا الى واجاج بن زلو اللمطي وهو بالسوس • فلمـا وصلوه ، قال لهم : ما جاء بكم ؟ فقالوا له : قحطنا وجئناك لتـدعو الله لنا ان يسقينا • فقال لهم : إنما مثلكم كمثل قوم أبصروا جبـح نحل فظنوا أن فيه عسـلا ! ولكن انزلوا عندي فـانكم اضـياف • فأضافهم ثلاثة ايام • فلما عزموا على الانصراف وجـاؤوه لوداعه ليرجعوا الى بلادهم قال لهم : إياكم ان ترجعوا من طـريقكم الاولى التي اتيتم فيها فارجعوا مـن طـريق اخـرى لتسـكنوا في الغيران والكهوف من الأمطار • فلمـا انصرفـوا عنه أرسـل الله عليهـم السحائب بالامطار ودامت عليهم الامطار فلم يصلوا الى بلادهم إلا بعد ستة أشهر ......

رسالة جوابية من الخليفة الحكم المستنصر الى الامبراطور البيزنطي تيوفيل (١٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تـذكر فيه الذي كان عليه مـن مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة ، وانه قد دعاك ذلك إلى مـكاتبتنا ، وإرسال قرطيوس رسـولك إلينا لتجـديد تلك المودة ، وتـرتيب تلك المصادقة ، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ، ونتواصل له ، ونبعث رسلا من عندنا إليك ، ليعلموك بـالذي نحـن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت إليه ، لتثبت بقـدومهم عليك مودتنا ، وتتم به صداقتنا .

وفهمنا ماذكرته من أمر الخليفـة مـروان رضى الله عنه وصـلى عليه ، ومن وشائج قرابتنا منه ، وأسيت لما استلب مـن سـلطانه ، واستبيح من حرمه ، واستحل من دمه ، وماكان مـن الفـاجر ابـى جعفر تربه الله ، وجـراءته على الله ، واغتـراره بـه ، وانتهـاكه لمحارمه ، والله قـد أحصى عليه ذلك ، فاسـفه منه ، فهـو لامحـالة يجازيه جزاء سعيه .

ثم الذي ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراجل وابـن مـاردة أخيه بعده ، من إلحادهما في نحلتهما ، وإساءتهما لسيرتهما ، ورغبتهما في رعيتهما ، وشدة وطـأتهما عليهـم ، واسـتحلالهما دمـاءهم واموالهم ، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مـدة سلطانهم ، وتأذن الله برد دولتنا ، وسـلطان ابـائنا ، الذين نبـأت عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل ، وأوجب لهـم الاجمـاع ، وحـازه إليهم البرهان ، والذي حضضت عليه من الخـروج إليهـم ، وطلب

الثأر منهم ، ووعدته من نصرتك لنا ، بما ينصر الصديق صديقه ، ومن يعلم هواه فيه ومودته له ، وما عطفت عليه من امر ابي حفص، ومن معه من جالية بلدنا ، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك ، وخضوعهم لابن ماردة ودخولهم في طاعته ، وما سألت من اهل الانكار لذلك والانفة منه ، وحكيت من امراء إفريقية في نزعهم عن ابن ماردة ، وخلافهم عليه ، واستثقالهم لدولته ، وكل ما حكيت من ذلك وقصصته في كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

وأما ما رغبت من مودتنا ، واحببته من مصادقتنا ، واردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، مما كان عليه أولوك لأولينا ، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا ، وان نتمسك من ذلك ، بما كان عليه سلفنا ، وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعض لبعض ويشدون ايديهم به .

وأما ما ذكرت من امر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فإن الله تعالى احب أن يكرمه بما انتهك من حرمته ، ونكث من بيعته ويسوقه إلى رحمته ، وان يشقي بذلك من ركبه منه ، ويخزيه ويعذبه عليه .

وأما ماكان عليه الفاجر ابو جعفر في تعذيبه العباد ،وظلمه وجرائه على الله ، وانتهاكه لمحارمه ، فإن الله قد اخذه بذنبه ، واستدركه ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله ، إلى ما لاإنقطاع له ، ولاتخلص منه ، جزاء بما اجترح ، وكذلك حكم الله في اهل معصيته ، واولي الاجتراء والافتراء عليه .

وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شامنا واندلسنا واجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم

نزل نسمع ونعترف ، أن النقمة تنزل بهم والدائرة تحل عليهم من اهل المغرب بنا وعلى ايدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الاندلسي ، ومن صار معه من اهل بلدنا ، في خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته وما سألت من النظر في أمورهم ، والانكار لفعلهم ، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلهم وسوادهم وفسقتهم وأباقهم ، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة ، لمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولاتصعب عن نكايتهم ، ولاتتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك ، وإذ ترى مكانهم به من موضعك وإن الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد إلينا سلطاننا بالشرق وما كان تحت أيدي أبائنا منه نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما دعوت إليه ، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ، ولم يضع لك عندنا مارعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا .

وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا ، وكشفناه على الذي اوصيت به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا إليك بكتابنا مع هذا رسولين من صالحي من قبلنا ، فاكتب إلينا معهما بالذي انت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا ، والذي يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك لننظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله .

رسالة الراهب الفرنسي يشوع ورد الباجي عليها (١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى اله

رسالة الراهب من أفرنسة ــ دمرها الله ــ الى المقتدر بالله صاحب سرقسطة .

الى الصديق الحبيب الذي نؤمله أن يكون خليلا مدانيا ،المقتدر بالله على دولة هذه الدنيا الملك الشريف ،من الراهب احقر الرهبان ، الراغب في الانابة والايمان بالمسيح يسوع ،ابن الله سيدنا'''

لما انتهى الينا ــ ايها الأمير العزيز ــ امرك الرفيع في الدنيا وبصيرتك في تبين أحوالها المتغيرة ،رأينا أن نراسلك وندعوك ،لتؤثر الملك الدائم على الملك الزائل الفاني . وإنك قد رأيت كتابنا اليك الذي راجعت عليه مراجعة نبيلة على حسب نظر أهل الدنيا ،ولم تكن بحسب مطلوبنا من المراجعة الروحانية ، ولذلك تراخى زماني بمراجعتك اذ توقعنا أن نتكلف تعبا لا نجتني به ثمرة ، وحقا إن القادر على الكل الذي اصطفى أولياءه قبل خلق العالم ،ولم يسبق ــ في علمه ــ هلاكهم ،قد أنار قلبك ،واشعره للايمان بالاله المسلم لك ، وهو الرحمن الرحيم ،الغفور ،الذي يهديك لمعرفته ،وليس يسعنا أن نتراخى عن الاجتهاد في تتميم هذه المصلحة بجميل معونته لتشترك معنا في ملكوته إن اثرت ذلك ' ولهذا الأمر ،اشخصنا اليك من اخواننا من يورد عليك كلاما الهيا ــ على مايوفقهم الله اليه ــ ويشرحون لديك حقيقة دين النصارى ،ويقرون عندك معرفة المسيح سيدنا الذي لاينبغي لنا الايمان بأحد سواه ،ولانرتجي النجاة إلا به

.فهو الاله الذي اتخذ حجابا على صورتنا لينقذنا ـ بدمه الطـاهر ـ من هلكة ابليس

ولقد كنا ـ ايها الملك الشريف (نود ان)(١٧) نورد كثيرا من هـذا القول لولا ما نتوقعه من تألك بسـماعه ، وفي ذلك كله بـرهان الملة المسيحية ، وبيان جلالتها ، وإن الاحاطة بكنهها مما يعجـز دونه ادراك الانسان وملك الله ـ تعالى ـ احل واعظم من ان يدركه فهـم الانسان او يصل اليه بعلم الكلام الان من أيات الله القـادر على كل شيء أن يشرح صدور الأدميين ويدخل روح العلم في قلوبهـم ليتمـكن الايمان في نفوسهم

ولما كانت الدنيا ـ من قبل ـ معمورة بالضلال ، والعالم مـدنسا بعبادة الأوثان ، حسن عند الله القادر في ـ اخـر العهـد ـ أن يعيد الزمان جديدا ، ويستدرك الصلاح الذي فـات العـالم في ادم الوالد الأول ، وذلك امر قد اهتدى اليه اباؤنا من قبل ابـراهيم واسـحق ويعقوب ، والأنبياء افصحوا به من بعدهم ، وهو عهد من الله مؤكد قبل التوراة وبعد تنزيل التوراة ان يكون الالتحام المقـدس معلومـا، وليس هذا مما تختص به مصاحفنا فقط بـل هـو منصـوص في مصاحف اليهود والمخالفين لنا ببيان واضـح، وان الشيطان اللعين الذي عرض أهل هذه الدنيا للموت ، بجسده لأدم ، حاول تغيير هذه الملة المقدسة بعد اقبال الحوار بين الذين هدوا اهل الأرض بـالموعظة، وبعد ظهور الشهداء الأصفياء على ابليس بالغلبة ، الذين هرقوا دماءهم في اقطار الأرض في ذات الله ، وفي سبيل شريعتـه المقـدسة، فلم يستطع أن يغري اهل الدنيا ، ويحملهم على ضلالهم القديم من عبادة الأوثان فشبه على بني اسـماعيل في أمـر الرسـول الذي اعترفوا له بالنبوة ، فساق بذلك انفسا كثيرة الى عذاب الجحيم .

وقد كان فيما سلف من ذنوب ابليس وتضـليله للعبـاد مـا يلقيه العذاب الأليم يوم القيامة من الله سـيدنا ايشـوع المسـيح ، وقـد ضاعف تلك الذنوب بما أوبق فيه هذه الذمم العظيمة .

فاعتبر ـ ايها الملك الشريف ـ ولاتؤثر شيئا على نجاة نفسك يوم

الحكم والجزاء ، فإنا مخلصون في تخدم أمورك ، ومسارعون الى تفديتك بنفوسنا ، ومتى قبلت قولنا وعملت برأينا ، وتقررت عندنا إجابتك الى ما ندعوك اليه من قبول كلمة النجاة الذكية التي نعرضها عليك لم نتوقف عنك عن اللحاق بك ،فتأمل أيهـا الحبيب ،مـا يحـق عليك العمل به والمسارعة اليه واغتبط بما يدين عليه اخواننا في هذا القطر من الدعاء ، وبذل الصدقات الزاكية عنك ، ومامنهم احد راك ولا شاهدك ، وانما يتبرع بذلك رغبة في أن يهديك الله الى مـرضاته.

والسلام عليك – ياأيها الحبيب – من سيدنا المسيح الذي أذهـب الموت ، وقهر الشيطان ، ورحمة منه وبركة باستنقاذك من حبـائل ابليس التي كنت فيها متورطا الى الآن ، ونسأل الله الذي له القدرة والعظمة ، الذي من أجله خلق كل شيء ، ومن دونه لم يخلق شـيئا ان يهديك ويثبت في نفسك ما دعوناك اليه ، وحضضناك عليه .

وإن لم يظهر لك ياأيها الحبيب مراجعتنا بجوابك على ما تضمنه كتابك لدفات الكتب ، فأودع ذلك إخواننا هؤلاء واطلعهم على سرك.

وما يتمثل في نفسك ، ونحن نضرع الى سيدنا ايشوع المسيح أن يتولى رعايتك ، ويتـكفل سـلامتك ، ويهـديك الى دينه المقـدس. ويسعدك بالايمان الصحيح به أمين .

وهذا جواب الفقيه القاضي الجليل الفاضل ابي الوليد الباجي ـ رحمة الله عليه ورضوانه على هذه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على محمد وعلى اله وسلم

العزة لله والصلاة على رسوله

تصفحت ـ أيها الراهب ـ الكتاب الوارد من قبلك ، ومامننت به من مودتك ، واظهرته من نصيحتك ، وابديته من طويتك ، فقبلنا مودتك لما بلغنا من مكانتك عند اهل ملتك ، واتصل بنا من جميل ارادتك ، ونبهتنا ـ لعمر الله ـ بنصيحتك ، على ما يلزمنا من ذلك لك ، ولولا ما كنا نعتقد من بعد مستقرك ، وتعزز وصول كتبنا اليك لكنا احرياء أن نأتي من ذلك ما يلزم ، ونسلك منه السبيل الأوجب ، ولكنت عندنا جديرا بعرض الحق عليك ، وايصاله اليك فقد قرر لدينا من وصل من رسلك ، واهل ملتك علينا ما تظهره من حرصك على الخير ، ورغبتك في الحق ، مما قوى رجاءنا في قبولك له ، واقبالك عليه ، واخذك به ، وانابتك اليه ، وقد كان ورد علينا ـ قبل هذا ـ كتابك وما اقترن به من دعوى حاملة المحال الذي كان يجب الا يخاطب به من له اقل حس بالاحساس او يختلج بخاطر من له أدنى فهم من احياء اموات ، واعظم رفات ، فسألنا القول واوليناه الاعراض والصفح ، وجاوبناك جواب من يعتقد ما ظهر منك ، وبلغنا عنك ، من خطرات الغفلة انك أرسلتها دون تأمل واظهرتها دون تحصيل ولاتحقق ، مع انه يجوز على ضعفاء المسلمين من ذلك ما يجوز على جماعتكم من تجويز محال وتصحيح ما هو غاية الابطال ، فقصدنا الرفق والتأنيس لك ، وكان ذلك

أفضل ما روجع به من ترجى عودته ، وينتظر انابته وفيئته ، فانما يستعمل الاغلاظ لمن يتيقــن عناده ، ويتبين اصراره ، ولم يرج انقياده ، ونحن نرجو ان نرفعك عن هذه المحطة ، ونخلصـك مـن هذه الوصمة ، بفضل الله وعونه وتأييده ونصره .

ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك تعينت علينا مفاوضتك ، بما رضيناه من مسائلك ، ومعارضتك فيما اخترناه مـن منهجـك في النصح ، الذي يجرى اليه اهل الفضل ، وامرنا الله به على السنة الرسل ،وكففنا عن معارضتك على مـا استقبحناه مـن خـطابك، وسخطناه من كتـابك ، مـن سـب الرسـل الكرام ، والأنبياء المعظمين عليهم السلام ، وانحرفنا عن ذلك الى ان نحـذرك وننذرك ونعذرك فيما لم يبلغك علمه ، ولم يتحقق لديك حـكمه ، ونبـالغ في الرفق بك ، والتبيين لك على منهج الخـطب والرسـائل ، ولاعلى طريق البـراهين والدلائل ، مسـاعدة على مـذهبك في كتـابك، وموافقة لك في مقصدك ، فعسى ان يكون اقرب الى استمالتك ، وابلغ في معارضتك ومعالجتك.

وأنا لنربأ بمثلك ، ونرفع قدرك عما استفتحت به كتـابك مـن أن عيسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن لله تعالى ، بل هو بشر مخلوق وعبد مـربوب لا يعـدو عن دلائل الحـدوث مـن الحركة ، والسكون ، والزوال ، والانتقال ، والتغيير من حال إلى حال ، وأكل الطعام والموت الذى كتب على جميع الأنام مما لا يصح على إله قـديم ، ولا يمـكن عند ذي راي سـليم ، ولو جـوزنا كونه ، صلى الله عليه وسلم ـ مـع هـذه الصـفات ، والاحـوال المحدثات ، إلهـا قـديما ، لنفينا أن يكون العـالم أو شيء ممـا فيه محدثا مخلوقا لأنه ليس في شيء مما ذكرنا من البشر والعالم ، ومـا فيه من الحيوان والجماد من دلائل الحدوث غير ما في عيسى ـ صلى الله عليه وسـلم ـ وإن الله ـ تعـالى ـ خلق عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب كما خلق ادم ـ صلى الله عليه وسلم ـ مـن تراب ، وقد حملت بعيسى أم ، ولم تحمل بادم أنثـى ولا ذكر ، فإذا

لم يكن آدم الاهـا ـ وهـو الأب الأول ـ بـل مخلوق ، فعيسى أولا أن يكون الاهـا وهـو من ذرية آدم وولده ، بل هـو عبد مربوب ، وإن هـذا لواضح لمن جهل معنى الحدوث ، ولم يميز الخالق من المخلوق!

وأما من نظـر في شيء مـن أبـواب العلم ، وأيد بـاعتبار وفهم ، فعلامات الحدوث أوضح ، ودلائلها أصح من أن تخفى أو تشكل أو يمتري في أمرها من له من العلم أدنى محل وقد ظهـر على أيدي سائر الرسـل ـ عليهـم السـلام ـ مـن الآيات الواضحة ، والمعجزات الباهرة مثلما ظهـر على يدى عيسى ـ عليه السلام ـ وأكثر ، فلو جاز أن يدعى لعيسى ـ عليه السلام ـ بشيء مما ظهر على يديه من إحياء ميت وإبراء أكمه وأبرص ، بـأنه ابـن لله ـ تعالى ـ لجاز أن يدعى ذلك لأبراهيم لما ظهـر على يديه مـن سلامته من النار بعد أن قذف فيها ، ولم ينجح عيسى من عدد يسير من البشر راموا ـ بزعمكم ـ صـلبه وقتله ، ولجـاز أن يدعى ذلك لموسى عليه السـلام لما ظهـر على يديه مـن قلب العصـا حية وفلق البحر ، ولجاز أن يدعى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما ظهـر على يديه من انشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتسـبيح الحصى في يده ، وحنين الجذع إليه وغير ذلك مـن الآيات لكن الآيات لا تقتضي تجويز المحال ، وإحالة الجائز الممكن.

وإذا كان ربنا ـ تعالى ـ قديما ـ سبحانه أن يكون محـدثا أو مخلوقا ، وكان من وجـدت فيه دلائل الحـدوث مـن الأكل والشرب والزوال والانتقال لا يكون إلا مخلوقا مـربوبا لم يدل إحياء الموتـى على يديه أنه إله معبود وإنما يدل ظهور ذلك على يدى مدعي النبـوة أنه نبي صادق لأن ما فيه من صفات الحدوث لا تحيل كونه نبيا .

ولو جاز أن يقال إن عيسى ـ عليه السلام ـ هو الخالق لما ظهـر من ذلك على يده والمنفـرد بفعله لجـاز أن نقـول إن آدم وإبـراهيم وموسى ومحمدا وسائر الأنبياء ـ عليهم السـلام ـ انفـردوا بخلق مـا ظهر من ذلك على أيديهم ، وأن جميعهـا مـن خلقهـم وأنهـم

ـ لذلك ـ الهة معبودون ' وذلك محـــال ، فــلا خـالق إلا الله ، ولا معبود سواه ، وهؤلاء انبياء مكرمون ، ورسل مؤيدون صدقهم الله ـ تعالى ـبما ظهر على ايديهم من المعجزات التـي لا يقـدر عليهـا غيره ، ولا يصح ان يخلقها سواه ، وامر الدنيا احقر وشأنها انفـر وأنذر من أن يغتر بها ذو عقل او يسكن الي غرورها ذو لب ، وإنمـا هي دار اختبار واعتبار ، وليست بدار جزاء ولا قرار ، فالسعيد من عمل فيها وتزود منها الى دار المقام الذى لا ينقضي بل يتـأبد ، حيث ينفرد ربنا بالملك ، ويصير من اطاعه وافرده بالعبادة وامن بـرسله وكتبهإلى رضاه في دار النعيم ، ويصير من أشرك به وكفر بشيء مـن كتبه أو أحد من رسله الى سخطه في دار الجحيم ، ونرجـو أن الله ـ تعالى ـ يجنبك بـالاسلام منهـا ، ويبعـدك بـالانتقال الى دين محمد ـ عليه السلام ـ عنهـا ، وإن الله ـ تعـالى ـ أنار قلوب جماعة المسـلمين بـالاسلام ، واعزنا بــه واكرمنا بـــاتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضـينا له ، وخصـنا بـالقرآن الكريم (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (١٨) أفضل الكتب والخـاتم لهـا ، والحـاكم عليها ، والمصدق لها .تضمن علم الأولين والآخـرين ، وأنار قلوب المؤمنين بالحق المبين ، نحمد الله على مـا خصـنا بـه ، وهـدانا له ، (وماكنا لنهتدي لولا أن هـدانا الله)(١٩)ويلزمنا الاجتهـاد في النصح لك والرفق بك ، والحرص على أن تكون من جملة هذه الأمـة المكرمة ، ومن أهـل هـذه الملة المعـظمة ، الناسـخة لجميع الملل ، والحاكمة على سائر الفرق ، فتفوز برضى رب العالمين،وتنجـو من سخطه ، وتنال ثواب يوم الدين ، وتتخلص من معرته ، وتسـعد في الدنيا بالكون من جملتنا ، وتحظى بالقرب من نفوسنا

وأما ملكوت رب العالمين فهو المنفرد به – تعالى – لا ينبغـي أن يشركه فيه طائع ولا عاصي ، ولا بر ولا فـاجر ، وإن أردت بـذلك أن يكون من أطاعك في ملك الله –تعالى – فذلك حال من عصاه ، وحال أهل الدنيا ، والأخرة ، لا يخـرج احـد عن ملكه ، ولكنهـا الفـاظ تستعملها في غير مواضعها لانك لا تعرف مقتضـاها ، ولـوددنا أن

الله - بفضله - ييسر لك الهجرة إلينا ، والمثول لدينا ، فتسمع الكلام على حقيقته في معاني هذه الألفاظ ، وتقيم وجوهها واستعمالها على ترتيبها ، وتسمع الكلام الالهي على الحقيقة ، كلام رب العالمين ، تولى حفظه ربنا - عز وجل - وعمر به السنتنا وقلوبنا ، فلا يمكن أحد تغييره ولا تبديله ، ولا صرفه عن وجهه ولا تحريفه ، فلو قرع سمعك منه سورة واحدة ، او اية كاملة ، لرجونا أن يكون ذلك مما ينور قلبك ، ويستولي على نفسك ، ويعود بك الى الدين الأفضل والسبيل الأمثل (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) (٢٠) وقد وردا متحملا كتابك فما أوردا إلا كلام البشر الذي جرت عادة أهل الضعف بايراده عند العجز والفشل ، والتبلد والخور ، مع التحير والانقطاع ، والاضطراب في الدعاوى والأقاويل ، وادعيا في أول الأمر من المحال قريبا مما ادعى الوارد قبلهما مع تكذيبهما له فيما نقل عنك ثم آلت حالهما الى مثل ما آلت حاله إليه من تكذيب انفسهما ، وتكذيب المعبر عنهما فيما نقل عنهما ، وترجمه من قولهما .

وعندنا من علم شريعتكم ، واختلاف اخباركم في ملتكم ، وما تورده كل طائفة من شبهكم في الاقانيم والاتحاد ومعنى اللاهوت والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميقات اناجيلكم ما لو أبدينا اليهما اليسير منه لحيرهما وبهرهما ، وعلما أن عندنا من جملهما وتفاصيلهما ما لم ينته اليه أحد من أهل ملتكم ، ولا وصل الى تفريعه وتتبع معانيه أولكم وآخركم ، لكنا آثرنا الرفق بهما والاخفاء عليهما ، والتأنيس لهما ، وألنا لهما القول ، وأبدينا اليهما نبذة خفيفة من الامر مما لا تنفر منه نفوسهما ، ولاتنزعج من سماعه خواطرهما ، آخذين في ذلك بادب الله - تعالى - في أمثالهما.

وقد رأينا ما في كتابك مما خالفت فيه جميع أهل ملتك فإنه ليس في فرق النصارى من يقول إن المسيح لا ينبغي الايمان بأحد سواه ، بل هو الايمان بالآب عندكم واجب ، والآب لم يتحد بالناسوت عندكم ، وإنما اتحد به الابن ، فمن لم يؤمن بغير الابن

كفر بالأب ، وقد تقدم في كتابك ان المسيح ابـن الله ، وهـذا نقض لقولك إنه لا ينبغي الايمان بغير المسيح الذى هو الابن.

ولو تتبعنا مـا في كتـابك مـن التناقض ، وفسـاد الوضع ، ومسـتحيل القبـول ، لما سـلم منه الا اليسـير الحقير ، لكنا ـ وفقنا الله وإياك ـ حملنا ذلك منك على ما عهدناه من أهل ملتك من قلة العلم ، والبعد عن مقاصد المناظـرة ، وتـرك المدارسة والمحاورة مع تمويهات لا تصح ، وتلفيقـات لا تثبـت ولا تنصر ، وارجـو أن يوفقـك الله ، بإرشـادنا لك ، إلى تـرك التمـويه ، والتعلق بـالمغالطة والكذب ، ويعـوضك علم الحقائق ، وصحيح المقاصد ، وأدب المناظـرة التـي تفضي بـك الى السبل اللائحة، والحقائق الواضحة ،وقد جـرى مـن كلام الواردين من أصحابك اللذين اخترتهما للنيابة عنك من هذا النحو مـا اتبعـاه بالتحير والتبلد والانكار له بعد الاقرار به ، ولوددنا أن تصـير إلينا فنبلغ الغرض من تعليمك ، ونتمكن مـن تفهيمـك ، ونبين لك مـن تحقيق الكلام وتحـريره ، وتفصـيله وتـوجيهه ، وتـرتيب الأدلة ومقتضاها ، وإحكام البراهين ومنتهاها ، مايزيل كل سخيفة مـن نفسك، ويطهر من دنسها قلبك ، فتعاين الحق جليا واضحا ، والدين قويا لائحا على أن ملك الله تعالى أعظم من أن يحيط به فهم إنسان أو تستوعب صفاته بكلام او بيان ، فمن عظمته ـ تعالى ـ وقدرته وعزته ، انفراده عن الأشراك والأنداد ، واستغناؤه عن الصـاحبة والأولاد. (ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق) (٢١) تفـرد بـالخلق والانشـاء ، وكشـف الضر والبلوى ، وبعـث النبيين مبشرين ومنذرين ، فـأخبروا عن ربنا بعظيم قـدرته ، وعلو كلمتـه ، وإتمـام مشـيئته ، وبينوا شرائعه ، وأوضحوا من تأملها إلى الحق ، وتنكب من خـالفها إلى الشرك ، ولولا الكلام ما عرف الجائز من المحال ، ولا تبين الهـدى من الضلال.

وما نحلة ولا ملة الا وهـي تـزعم ان نفـوسها نيرة بمـا

تعلمه ، منشرحة بما تعتقده ، وكذلك تقول البراهمة الذين يكذبون الرسل ، والدهرية الذين يدعون الازل ، والفلاسفة القائلون بقدم العالم ، والثنوية المثبتون لخلق النور والظلام ، فما أحد من هذه الفرق إلا وهو يدعي أن نفسه أسكن إلى ما تعتقده ، وأوثق بما تنتحله ، وأنور بما تزعم انه يعلمه من نفوس مثبتي الرسل ، ومتبعي الكتب لكن وضع الكلام ونشره ، وتمييزه ووصفه يعلي الحق ويثبته ، ويدحض الباطل ويمحقه ، وإن الله ـ تعالى ـ جعل الدنيا دار تكليف وفتنة ، ليبلونا أينا أحسن عملا ، وجعل الآخرة دار ثواب وعقاب ليثبت المؤمنين المحسنين ، ويعذب الكافرين المشركين ، وجعل من أسباب الفتنة إبليس اللعين ، وبعث النبيين يهدون إلى صراط مستقيم (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (٢٢) فهدى بالنبيين من شاء بفضله ، وخذل بابليس اللعين من شاء بعدله.

فأول الرسل إلى أهل الارض ابونا أدم ـ عليه السلام ـ دعا الى عبادة الله وحده لا شريك له ولا ولد ، وكذلك الرسل بعده. كلما نسيت شريعة ، وتقادم عهدها ، بعث الله رسولا الى أهل الأرض يجددها ويؤكدها ، إلى أن بعث الله ـ تعالى ـ نبيا اسمه عيسى ـ عليه السلام ـ فدعا قومه إلى عبادة ربه ومنشئه وخالقه ، فأمن به اليسير ، والعدد القليل الذين لم يطيقوا منعه ممن اراده من أعدائه الكافرين المكذبين لما جاء به من قبلم ، حتى رفعه الله إليه ، واختار له ما لديه ، (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)٠ (٢٣) وقد بذل دمه ـ بزعمكم ـ حرصا على استنقاذ الناس من الضلالة فما آمن به الا العدد اليسير ، وقد آمن بغيره من الأنبياء ممن لم يبلغ هذا المبلغ أمثال من آمن بعيسى ، فما إن توفي محمد ـ عليه السلام ـ حتى آمن به العدد العظيم الذي استحوذ به البلاد ، وتغلب على آفاق ، وأظهره الله على الدين كله(ولو كره المشركون) (٢٤) ثم استفتح بعده باثر وفاته أصحابه بلاد الفرس على بعدها عن مكانه ، وتمكين سلطانها ، وعظم شأنها وقدرها ، واستفتحوا بلاد الشام وهي كانت افضل بلادكم ومكان

شريعتكم ، وإليها ينتهي حججكم وعبادكم فما صار لمن تـزعمون أنه إلهكم مع بذل دمه إلا أقل ما صار للمربوبين الآدميين من النبيين مع إعزاز الله لهم ، وحمايته إياهـم ، ولو كان عيسى إلهـا قـادرا لما احتاج إلى ذلك ، ولخلقهم مؤمنين ، ولو شـاء الله أن لايعصى مـا خلق الفتـن ولا إبليس اللعين ، ولكن الله ـ تعـالى ـ خلق للجنة أهلا للجنة بتوفيق الله ـ تعالى ـ يعملون ، وخلقَ للنار أهلا للنار بخذلان الله يعملون ، ولو علم الغيب عيسى ـ علية السلام ـ لما بذل دمه طمعا فيما لم يتم له ، ولا حصـل له منه شيء فـاعتبر ـ أيهـا الراهب ـ ضعف ماأنت عليه ، وفضـل مـا ندعوك إليه ، فعسى أن يوفقك الله ويهديك ، فتصير بعلم الله بكونك مـن جملتنا ، وفيئتـك إلى ملتنا ، فقد بلغنا من إرادتك للخير ورغبتك فيه وحرصك عليه ما حرصنا به على إرشادك وهدايتك ورجـونا سرعة انقيادك وإنابتـك (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت) (٢٥).

ومن أغرب ما تأتون به قـولكم إنه بـذل دمـه في خـلاص العبـاد ، وكيف يكون للرب دم ، والدم مـن الأجسـام المحـدثة المخلوقـة ، ولو حـررتم الكلام لزعمتـم أنه دم الناسـوت دون اللاهوت ، وللزمكم أن تقولوا: إن المصلوب هو الناسوت دون ابـن الله ـ تعالى ـ لكنكم حققتم أن إلهكم صلب ومات ، وهذه صـفة لا تصح إلا على محدث مخلوق ، لأن الحياة القديمة لا يصح عدمهـا . ولئن جاز هذا عليه ليجوزن على أبيه ـ بزعمكم ـ لأنه على صـفة ابنه بل هو عندجماعة منكم ، فكيف يكون إلها قـديما حيا قيمـا لم يزل من يجوز عليه الموت ، وعدمت حياته؟ وكيف لم يذهب عن نفسه الموت ، ولم يقدر على دفعه عنها وأذهبه ـ بزعمكم ـ على ما ذكرته في كتابك ؟ وإن جاز أن يموت ويكون مع ذلك إلها فما نمنع على هذا أن يكون من رأيناه أو سمعنا خبره ـ قديما ـ لم يزالوا آلهة ، وإن كان لهم أب أو ماتوا وفنيت حياتهم وعدمت ؟ وهل يصح أن يبلغ منه هذا المبلغ من الجهل الواضـح ، وتجـويز قلب الحقـائق ، ودعوى المحال إلا من سقطت مقالته واستحكمت جهالته وعميت بصـيرته ؟ فكيف يكون من هذه حاله يدعو إلى ما هو عليه ، ويندب إليه ؟ وهل

يمكن أن يكون في المقالات المستحيلة أو المحال المرذولة أشد فسادا من هذه التلفيقات التي تخجل من يوردها ، ولا يكاد يصح تكليف من يجوزها ويعتقدها ؟ وإني لا أعتقد أن مثل هذا لا يخفى عليك مع قلة المعرفة ، والبعد عن النظر في الأدلة لأن هذا ليس مما يدرك بدقيق النظر ولا يحتاج فيه إلى تأمل ، بل هو مما تناله أوائل العقول أو يدركه ببديهة من له أدنى تحصيل ، واظن أن الحامل لك على هذا احد أمرين: إما أنك لم تر من الشرائع غير ما قد نشأت عليه ، فاعتقدت أن سائر الشرائع تجرى هذا المجرى في الاستحالة والفساد ، فرأيت أن تستمر على ماوجدت عليه سلفك ، إذ لم يظهر لك سبيل إلى ماهو افضل منه ، أو رأيت انك قد نلت بهذا المحال عند جهال أهل ملتك منزلة تكره أن تنحط عنها ، وتبعد منها إذا انتقلت إلى الدين الصحيح لعلمك انك لا تنال درجة أدونهم منزلة في العلم ، فكيف بدرجة أعلامهم وائمتهم وذوي التقدم منهم ؟.

ومن طريف ما تأتون به وتضحكون سامعه منكم قولكم:

« إن عيسى ابن الله » ـ تعالى عن ذلك ـ وتقولون إنه من ولد داوود ـ عليه السلام ـ وهذا ثابت في إنجيلكم ، ومتلو من كتابكم ، وتزعمون أن جبريل إذ بشر مريم به قال لها: « إنه يكون عند الله عظيما ، ويكون اسمه يسوع ، ويدعى بابن الله ، ويورثه الله ملك ابيه داود » ولا تحملون ذلك على أن داود أبوه من قبل مريم لأنها لم تكن من ذرية داود ، وإنما تحملون على أنه أبوه من قبل يوسف النجار الذي تزعمون أنه كان زوجا لمريم ، فإذا كان عيسى من ولد داود ، وداود عبد مخلوق وجد بعد أن لم يكن ، ومات بعد أن حيا ، فكيف يكون عيسى الابن خالق أبيه وإلهه ؟ وكيف يكون أبا لداود المخلوق وابنا لله الخالق ؟وهل هذا إلا جهل بمعرفة الابن من الأب ، والقديم من المحدث والخالق من المخلوق ؟ ومن بلغ هذا الحد من الجهل لم يصح له اعتقاد شرع ، فكيف يدعو إليه ويتكلم عليه ؟ ولكن قلة التأمل مع حب الظهور يوجب التفريط ، ويورث التبلد والتحير ، نسأل الله العصمة.

وقد اختلفت فرقكم في الاتحاد الذي سميتموه التحاما اختلافا لعلة لم تبلغك ، ولو كنت لدينا لأريناك في هذا من كلام متقدمي أهل ملتك ثم من تقريع المسلمين على ذلك ، وتتبع الحجج لهم وعليهم بما لم يبلغه أحد منهم قط ، ولأسمعناك من غرائبه وعجائبه وتلفيقاته وتناقضه وفضائحه واضطراب رواة الأناجيل ما يملا سمعك ، ويطيش له لبك ، لكن الكتاب لا يحتمل التطويل لا سيما لمن لم يرد التأليف وإنما اراد التقريب وخاف تحير من ورد عليه الاكثار بالشرح والتفسير ، وما أحد من أهل الملل ، واتباع الرسل ممن تقدم عيسى ـ عليه السلام ـ ولا ممن تأخر عنه يقر بأنه وجد الالتحام الذى تدعونه في كتب ولا تنزيل ، ولا أخبر به نبي ولا رسول. وقد انزل ربنا في كتابه الكريم أن عيسى بشر بنبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإما أن يكون علم هذا عندكم، وإلا فقد كتمه أحباركم ، ومحوه من اناجيلكم ، فقد قرأناها معربة وعلمنا من اختلافها واضطرابها مادلنا على أنه قد دخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.

ومن ذلك ما في الانجيل من رواية متى انه بين ابراهيم ويوسف الذي تزعمون انه زوج مريم اثنتان واربعون ولادة.وفي رواية لوقا بين ابراهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلا ليس فيهم من اسماء الذين في رواية متى الا عدد يسير . ولاتكاد هذه الروايات تتفق في شيء. والايمان بها عندكم واجب على اختلافها لأن الانجيل كتابكم واصل شرعكم ، فكيف يصح لكم الايمان بما يختلف ولايتفق ، ويتباين ولايتعاضد ، وكتابنا المحفوظ يحفظه الصغير والكبير لايمكن أحد الزيادة فيه ولاالنقصان . والذي يقراه ممن في ابعد المشرق هو الذي يقرأ به ممن في ابعد المغرب دون زيادة حرف ولالفظة ولا اختلاف في حركة ولانقطة .

واني لأعجب أيها الراهب ـ على ماينقل الينا من فضلك في قومك ، وتقدمك عند اهل ملتك ، مما يبدو من فرط غفلتك وعدم معرفتك فيما تضمنه كتابك من أن إبليس اللعين يقدر أن يضل من

شاء الله أن يهديه الى الدين القويم مع قولنا وقولك في كتابك (إن الله على كل شي قدير)(٢٦)

فأي قدرة له اذا كان قد بذل دمه في نقض مـا شرعه ابليس وغيره من خلقه ، فلم يقدر على اصلاح مـا أفسـده ، ولااسـترجاع مـا احدثه ، ولاتقويم ماعوجه ، وإبليس اللعين لم يبلغ فيما ناله من ذلك سفك دمه ، ولاتغير حاله، ولاتجسد لغير جسده ، ولاانتقل الى غير ماكان عليه ؟ إن هذا لما كان يجب أن لايجوز على اضـعف الناس علما ، واقلهم فهما ، ولكن ليس هذا باغرب مـن قـولكم إن إبليس عرج بعيسى الاله بزعمكم ، ورقى به اعلى جبـل وأراه زهـرة الدنيا وقال له إن عبدتني ملكتك جميع هذا ، فلما سمع بذلك المسيح من كيد إبليس اللعين عاذ من شره واستجار من فتنتـه بصـيام اربعين يوما ، واربعين ليلة ، فأمسك إبليس عنه فهل لمن حور هذا على ربه واخبر به عنه مسكة أو بقيت بينه وبين التمسـك بـالحقائق والديانة نسبة ؟ أليس الاله هو الخالق لابليس والقـادر على هـلاكه متـى شـاء ، والمالك للأرض والسـموات ومـا بينهمـا دون شريك ولاتمييز ، فكيف يخاف من هذه صـفته بعض خلقـه أن يفتنه ؟ أو كيف تحمل ابليس الأرض او تظله السماء وهو يخاطب ربـه ويدعوه الى عبادته ؟ وبعد أن يثيبه على ذلك ويملكه زينة الحياة الدنيا وهي ملكه ومن خلقه ، وربه يخاف فتنته ويستجير منه بالصيام ؟

وكيف يقول إنه يعاقبه في الآخرة بالعذاب الأليم ونار الجحيم وهو لايستطيع أن يخلص نفسه منه ومن فتنته في الدنيا ؟ وهل قـدرته في الآخرة الا كقدرته في الدنيا ؟

وكيف تزعم انه سليم من حبائل إبليس وخدعه وهو يخـاف على نفسه ويحتاج الى من يسـلمه منه وهـو القـاهر والخـالق لابليس ، كيف شاء ، والمهلك له اذا شاء ، تعـالى الله عمـا يقـول الظالمون علوا كبيرا

وإن الله ـ تعالى ـ بلطفه وحكمته ، وعطفـه ونعمتـه ، بعـث

محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ فختم به الرسالة واكمل به النبوة وجعله آخر المرسلين ، وبعثه الى جميع العالمين ، ففضله بهذه الدرجات الرفيعة ، وابقى شريعته الى يوم الدين ، واكرمه بهذه المنة العظيمة . بعثه على حين فترة من الرسل ، ودروس من السبل ، وجهل بالشرائع ، وبعد عن معرفة الأديان والمذاهب وقد دخل جميعها التبديل والتغيير ، وقد خالفت اليهود وسائر الملل عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ وردت ما جاء به ، وانكرت ما دعا اليه ، واختلفت النصارى بعده على فرق ، كلها قد ضلت عن السبيل المستقيم والمنهج القويم ، واظهرت من الجهالات ما تحيله العقول ، وعبدت المجوس نيرانها ، وادعوا لله الصاحبة والأولاد ، وجعلوا له الأشراك والأنداد فابتعثه الله من خير الأمم وهم بنو اسماعيل ــ عليه السلام ــ ثم من خير بني اسماعيل وهم قريش قطب العرب وافصحها السنا واخلصها عنصرا وارجحها في معاني الدنيا عقولا ، واثقبها افهاما ، واتمها دهاء ، واعظمها غناء ، واكرمها اخلاقا ، واجودها اكفا واطيبها اعراقا ، فقام منفردا فيهم يدعوهم الى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان فخالفه في ذلك القريب والبعيد ، والعدو والصديق ، فآتاهم بالآيات المعجزات التي لايصح فيها تمويه ولاتلبس ، ولاتخييل ولاتحريف ، من انشقاق القمر بحضرة جميع من امن به وكفر ، ممن غاب عنه ومن حضر ، ونبع الماء من بين أصابعه في قدح صغير حتى توضأ منه العدد الكثير ، وتسبيح الحصى في يده ، وحنين الجذع اليه ، وإطعام العدد الكثير من الطعام اليسير ، وري الجيش العظيم من الماء القليل الذي لايكفي النفر اليسير ، وإبراء العيون بإمرار اليد عليها وغير ذلك من المعجزات التي لوشئنا أن نتتبعها لعظم بذلك الكتاب وخرجنا عما قصدنا من الاختصار ، وقد تتابع ذلك في مقامات جمة بمعاينة جميع الأمة ، والاخبار بالغيوب على وجه تباين التكهن

والاتيان بقصص الماضين ، وذكر الأنبياء المتقدمين على حقيقة ماكانوا عليه ــ مما لايبلغه من افنى عمره في تعلم ذلك ومدارسة اهل العلم به ــ من غير أن يعلم بمدارسة كتاب ولامذاكرة أصحاب وقد

علم أن مثل هذا لايخفى لمن تناوله وإن رام ستره وكتمانه . ثم أكرمه الله ـ تعالى ـ بالمعجز الذي فضله الله على جميع النبيين والمرسلين وهو القران الذي تحدى به الأنس والجن أجمعين . قال الله تعالى: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرأن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(٢٧) فتحدى به العرب والعجم وجميع الامم ، والعرب في ذلك الوقت أهل فصاحة وبيان وتناه في ذلك الشأن ، فلم يستطع أحد منهم على أن يأتي بسورة من مثله مع ماأخرجهم اليه خلافهم له من سفك دمائهم ، وهتك أستارهم ، وأخذ أموالهم ، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم ، وخروجهم عن أوطانهم ، ومفارقتهم أباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم ، وكان إتيانهم بسورة من مثله لو استطاعوا ذلك أسهل عليهم من تكليف الحرب ، والصبر على ألم الجراح ، فكيف بالصبر على جميع ما ذكرناه مع انه نشأ معهم وبينهم ، ولم يتعلم مالم يتعلموه ، ولالقى من لم يلقوه ، ولاانفرد بالدرس دونهم ، والقراءة بينهم ، فقد قرأ غيره ودرس وعلم وتعلم وكتب ، والى زماننا هذا ، لم يستطع أحد أن يأتي بسورة من مثل سوره ، ولاباية من أياته ، وهذه أعظم معجزة على يدى نبي لأن كل معجزة كانت قبله قد امتنعت مشاهدتها ، وانقضى وقتها ، وانما ينقل الينا ذكرها ، ونخبر عنها ، والخبر يدخله الصدق والكذب ولولا أن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلمنا بصحتها وهو الصادق لما وقع لنا العلم بوجودها ، ومعجز القران باق بين أظهرنا ، ودائم عندنا ، لاينقطع وقته ولاينقضي الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، يدل في كل وقت وأوان على صحة ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شريعته ، التي اختارها له ، أفضل الشرائع وابينها حكمة ، وأوضحها احكاما ، واتمها قواما ، فأمرنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن نؤمن بالله وحده لاشريك له ولاظهير ، ولاند ولاصاحبة ولاولد ، ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله وأن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، ونؤمن بالبعث بعد الموت ،والحساب والثواب والعقاب

وان من امن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما جاء به فلا بد له من الجنة ، وان من كفر بـه او بشيءٍ ممـا جـاء بـه فإنه مخلد في النار ، وشرع لنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة والصيام والحج وجهـاد مـن كفـر ، وصـلة الأرحـام ، ورغب في التـواضع والعـدل والاحسـان ، والبـذل ، والتسـاوي في الحـق ، واداء الأمانة ، والصدق ، والتناصـف والتعـاطف والتعـاون على البـر والتقوى ، والأخذ بمحاسن الأخلاق في السر والجهر ، والتـزهد في الدنيا والتنفل فيها ، والتجافي عنها ، والانقياد لها ، وحضـناعلى تعلم العلم واوجبـه علينا ، وندبنا اليه ، والى الارتحـال في طلبه ، والتتبع لدقيقه ، ودفع الشبه المعترضة عليها ، والمعـارضة لها ، واعلمنا أن ذلك من ارفع أبواب شريعتنا ، وافضل ما يصرف اليه همته اولو الفضل منا ، ونهـانا عن المنكر والفحشـاء واتبـاع الضلالة والأهواء ، والكبر والخيلاء ، والظلم والعدوان ، والكذب والبهتان واخذ من ذلك كله في خاصته بأبلغ غاية من إتعاب نفسـه في العبادة ، وتكلف منها مالم يستطع عليها غيره ممـن عاصره واتـى بعده ، ووقايته لأصـحابه بنفسـه في الحـروب وأوقـات الشـدائد ، واجتناب كل مـانهى عنه مـن المأثـم وقبيح الأحوال ، ومذموم الخلال من حيث لو كان من امة توارثوا الشرائع من أول الأزمان ثم لم ينتقلوا عنها ولاتبـدلوا بهـا بـل دونوا فيهـا الدواوين وصنفوا فيها التصانيف والتواليف ، وكثر فيها علمـاؤهم وائمتهم ، وكثر الوارث لذلك عنهم ممـن قـطع عمـره بقـراءة ذلك ودرس كتبها ، وملازمة علمائها لقصر عما ظهـر منه مـن صـحيح الأحكام ورفيع الأحوال، والاصابة في الأقوال والافعال ، والتصرف والزي والأكل والشرب ، والجلوس والمشي ، والأخـذ والاعطاء ، وجميع الحركات والسكنات واللحظات وذلك كله ممـا يشهد عنه من فهم معانيه وتأمل في ذلك مقاصده وعرف وجه الصواب فيها ، وانه مـن عند الله الذي يوفـق انبياءه ، ويرشـد رسـله واولياءه ، ويشرع لهم الشرائع التي تشهد بصدقهم صـحتها وتبين الحكمة في تفاصيلها وجملها .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع ذلك ـ متقللا من الدنيا ، مؤثرا غيره بها حين تعذرها ووقت الشح بيسيرها ، مطرحا لها ، معرضا عنها حين إقبالها مع عظيم ما فتح عليه منها وبسط له فيها ، يبثها في أهل ملته والمستحق لها من غيرهم لم يمنعهم انحرافهم عنه ، وتكذيبهم له من اتيانهم العدل، وانصافهم بالقول والفعل ،وكان حظه وحظ أهله وأقاربه من الدنيا وما فتح عليه منها أقل حظ ،لم يشبع هو وأهله من طعام ثلاثة أيام متوالية ولالبس ولاالبسهم الا أخشن الثياب ، ولاسكن ولااسكنهم الا أدون المساكن ، ولايدعي محالا ولايقول انه يعلم من الغيب الا ماأعلمه الله تعالى ، فان سئل عن غيره صرف علمه الى الله تعالى ، ولايدعي انه يغفر ذنب احد من أمته ، فأن سئل الدعاء دعا للسائل بالمغفرة ، وأعلمنا انه لايغفر الذنوب الا الله ، ولايؤاخذ بها سواه ، يجالس العبد ، ويزور الضعيف، ويرحم الصغير ، ويوقر الكبير .

لو جاز عليه مع ذلك الكذب لجاز على موسى وعيسى وسائر الأنبياء ، فإنا لانعلم صدقهم ، ولاميزنا ما جاؤوا به من الحق مما جاءنا به الكاذبون والمتخيلون من الباطل والكذب الا بما ظهر على أيديهم من الآيات البينات ، وما اتى به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابين واوضح ، واتم وابلغ ، ولو جاز لكم ان تقولوا : إن ماأتى به محمد من جملة التخيل لجاز للدهرية والفلاسفة والبراهمة والثنوية الذين يكذبون الرسل ان يقولوا : ان جميع ما جاء به موسى وعيسى وسائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من ذلك الباب وهو قولهم ، ولما كذبتهم اياتهم ومعجزاتهم ، ووجب عليهم تصديقهم لزمكم وجميع الأمم تصديق محمد ـ عليه السلام ـ فما جاء به أبين وأظهر وأعظم .

وإنك أيها الراهب الذي تحرص على تخليصك من الضلالة ان سمعت نصحنا لك وأطعتنا فيما به أمرناك وردت الآخرة في جملتنا من اتباع محمد ـ عليه السلام ـ النبي المكرم

فتسعد بشفاعته ، وتشرب من حوضه ، وتسكن الجنة معه ، ونحن نسأل الله - تعالى - أن لا يعدل بنا عن الطريقة المثلى ، ولا يصرفنا عن سبيل الهدى ، وأن يستنقذك من مكائد إبليس التي انت فيها متورط ، وبحبائلها متعلق ، وبخدعها متحير ، من تمادى عليها نال الشقوة ، وطول الحسرة في عرصة القيامة ، ويوم الندامة ، يوم لاينفع نصح ، ولايقبل عذر(ويوم يعض الظالم على يديه) (٢٨) (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) (٢٩) ولامستقر يومئذ الا الجنة أو النار ، فمن آمن وعمل صالحا فالجنة مأواه ، ومن جعل لله صاحبة أو ولدا فدرك النار مثواه ، أعاذنا الله منها ، وأماتنا على الاسلام المبعد عنها.

فلا يغرنك - أيها الراهب - حظوتك عند أهل ملتك ، ومكانتك في مكانك ، واستجلاف نفوسهم ، واستمالة قلوبهم بألفاظ تزخرفها ، لا تعلم معانيها ، ولا تعرف حقيقة المراد بها ، ولا مقتضى القول فيها من قولك : «الجواب الروحاني ، والكلام الالهي » وما اشبه ذلك من الفاظ كثيرة سمعتها فنقلتها إلى غير موضعها ، واستعملتها على غير وجهها ، فإنك لو سئلت عن مقتضى ذلك لاسلمتك عدم معرفتك الى العي والحصر والعجز عن التقدم والتأخر ، فإن استعمالك لها على غير وجهها دليل على جهلك بها .

فإن قبلت نصحي ، وسمعت موعظتي ، اخرجناك بعون الله من ظلمة الجهل الى نور العلم ومن حيرة الشك إلى تيقن الحق ، وأريناك من طرق الاستدلال ، وتمييز البراهين ما يشرح صدرك ، وينور قلبك وتعلم به الحقائق ، ومعاني هذه الألفاظ التي انت بها معجب ومخطىء في ايرادها على غير وجهها ، وتتيقن انها من اقل ابواب الكلام ، واضعف ما يتمسك به ذوو الاحلام ، وإن ابيت إلا الاستكبار والعتو ، والاصرار والغلو ، والالحاد والطغيان ، والعناد والعصيان ، فانك لن تعجز ربك ، ، ولن تنجو من ذنبك وذنوب من اتبعك وضل بك ، والكلام بغير علم في الدين كذب وإفك على رب العالمين (ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على

ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين) (٣٠)

فلا تؤثر على خلاص نفسك ، وخلاص من تبعك شيئا مـن عرض الدنيا وزخرفها ، فإنك لا ينفعك جهل من اغتر بـك فيهـا يوم الورود على ربك .

وقد أودعنا صاحبيك الواردين علينا سرا وجهرا ، وبـدءا وعودا مـا نعتقده مما أعزنا الله به من الأسلام ، وخصنا بـه مـن بين الأنام ، وأكرمنا به من اتباع نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - (قـل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبـد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فإن تـولوا فقولوا اشهدوا بـأنا مسـلمون) (٣١) « فقـل تعـالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» (٣٢) والله نسأله أن يهديك ويهدي بك مـن قبلك فتفوز بأجورهم وتكون سـببا الى اسـتنقاذهم ، فأنت ـ فيمـا بلغنا ـ مطاع فيهم (والسلام على من اتبع الهدى) (٣٣) .

كمل جواب الفقيه الأجل القاضي الاعدل ابي الوليد الباجي ـ رحمه الله وغفر له ونضر وجهه ـ بمنه وكرمه وجـوده ، إنه ذو رحمـة واسعة ورب غفور.

رسالتا المعز لدين الله الفاطمي الى الامبراطور البيزنطي بشأن كريت والى كافور الاخشيدي حول الشأن نفسه(٣٤)

فصل من كتاب كتب به المعز (صلع) الى طاغية الروم في امر اهل اقرطيش

قال : وكان طاغية الروم قد رغب الى امير المؤمنين المعز لدين الله (ص) في الموادعة ، وبذل له على ذلك اموالا ، وكانت رغبته اليه في الموادعة مدة طويلة او ابدية إن وجد ذلك ، فرأى الامام لما تبين له ان ذلك خير للاسلام والمسلمين وليستجمعوا فيقووا على حرب المشركين ، ان أجابه الى موادعة خمس سنين .

ثم اتصل به بعد ذلك ، وقبل أن تنقضي مدة الموادعة ، انه أرسل الدمستق — الذي هو أقرب رجاله درجة اليه واخصهم به — في عدة من السفن كثيرة وجيوش ثقيلة حتى اناخ بها على جزيرة اقرطيش ، وهم في دعوة بني العباس . فلما حل بهم من ذلك ما لا قوام لهم به ، وعلموا انه ليس عند بني العباس نهضة ولا لهم لديهم نصرة ، ارسلوا مركبا فيه رجال من قبلهم مع وجه من وجوههم الى أمير المؤمنين المعز لدين الله يستغيثون به ويسألونه استنقاذهم واغاثتهم فلم ير صلوات الله عليه — وإن كانوا تنكبوا عنه — أن يخيب رجاءهم عنده ، ولا أن يسلمهم للمشركين . فأمر عندما اتصل به خبرهم وقبل أن يصل اليه رسولهم ، بالأخذ في الأهبة والعدة ليكون نفوذ الأساطيل اليهم في أول زمان الامكان . ثم قدم الرسول عليه وادى عنهم ماارسلوه به اليه .

فرأى أن ينبذ الى المشرك عهده كما أمر الله (تع) بذلك في كتابه ، إن هو أصر على حربهم ، وامر بكتاب في ذلك اليه ، واملا على الكاتب بحضرة من بين يديه بكلام ما سمعت اجزل ولا أبلغ منه .

فقال بعد أن خيره بين آن يقلع عن حرب اهل اقرطيش وبين ان ينبذ اليه عهده ــ كما نبذ رسول الله (ص) الى مشركي العــرب عهــدهم وأرسل عليا ببراءة فقراها في الموسم عليهــم ــ ولقــول الله أصــدق القائلين :« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم » (٣٥) .

ثم قال له في كتابه (عم):
ولاترى أن دعوة أهل اقرطيش قبل اليوم الى غيرنا وقد انابوا اليوم الينا واستغاثوا بنا ، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة بتركهم اليك وترك اعتراضك فيهم . إن امتناع اهل الباطل من اهــل الحــق ليس بمزيل حقهم وإن تغلبوا عليه دونهم ، بل هو لهم بتصيير الله (تــع) اياه اليهم . فاقرطيش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها وأقامنا له فيها ، اطاعنا منها من اطــاع وعصــانا مــن عصى، وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ولابعصيانهم يحق علينا أن نترك ، ولو كان ذلك لكان الأمر اليهم لا لله (تع) الذي خــولنا ولا لنا ، إن شاؤوا اعطونا وإن احبوا منعــونا ، كلا ! إن ذلك لله الذي له مــا في السموات وما في الأرض وهو الذي أصطفانا وملكنا واعطــانا ، ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا قتال من امتنع منهــم ولا رد مــا انتــزعوه بالغصب من ايدينا اذا اقدرنا الله على ذلك وبه قوانا .

فإن قلت أنت غير ذلك ، وأنت ترى ما في يديك لك ، فقد كان رومانس تغلب عليك وعلى أبيك من قبلك ، ثــم دارت لكمــا عليه الدائرة. فإن رايت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه ، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ولا انتزاع مــاصار اليه من بين يديه فهذه سبيل أهل الحق عندنا ، فإن اعترفت لها فقــد انصفت وإن جهلتها فلم يكن جهلك اياها حجــة على مــن عرفهــا . وعهدك إن تماديت على حرب مــن اناب الينا منبــوذ اليك ، فــانظر لنفسك ولأهل ملتك فإنا مناجــزوك واياهــم الحــرب بعــون الله لنا وتأييده ، ولاحول ولاقوة إلا به .

وفي مثل ذلك الى صاحب مصر :
قال واستمد اهل اقرطيش هؤلاء صاحب مصر وهم من أهل دعوتــه

تجمعهم دعوة آل عباس ، ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتهسا تمير أهل مصر ، وهداياهم تصل الى عمالها ، فعجز عن نصرتهم . وسأل من ينظـر لأمير المؤمنين فيمـا قبله في أن يكتـب اليه (صـلع) في اغاثتهم واستنقاذهم ، وارسل قوما كانوا منهـم قبله ليسـألوا أمير المؤمنين (صلع) ويرغبوا اليه في ذلك ، ثم أظهر انه ينصرهم ورمـى بعض مراكب في البحر لما اتصل بـه انكار العـامة عليه للتخلف عن نصرتهم .

فكتب أمير المؤمنين المعـز لدين الله (ص) الى مـن يكاتبـه بمصر جوابا عن كتابه اليه بذلك يخبره انه قد أمر باخراج الأساطيل واخذ في عدتها .

وكان فيما كتب به اليه : أن قل لصاحبك : إن الله ـ سـبحانه ـ قـد خولنا من فضله وأمدنا من معونته وتأييده بما نرى أنا بحوله وقوته ونصره ولنا واظهارنا على عدونا نكف أيدي الكفرة عما تـطاولت اليه من حرب هذا الصقع والايقاع بأهله . وقد انتهى الينا انك أظهـرت الحركة الى الجهاد وامداد هؤلاء القوم بمـراكب مـن قبلك ، وانت لعمري بذلك أجدر لقربهم منك واتصالهم بك وميرهـم بلدك وكونهـم واياك في دعوة واحدة . ولو أسلمناهم اليك وقعدنا عنهـم لما كان لك ولا لهم علينا حجة في ذلك ، ولكنا آثرنا نصرة أمة جدنا محمد (ص) ولم نر التخلف عن ذلك وقد رجونا له ، والقـوا بـأنفسهم الينا فيه . ونحن لانحول بينك وبين الجهاد في سبيل الله ، ولانمنعك من تمام مـا أملت منه ، فلا يكن مايتصل بك من انفاذ أسـاطيلنا يريثك عن الذي هممت من ذلك ، وأن تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا ، فلك علينا عهد الله وميثاقه أنا لانكون معهم الا بسبيل خير ، وانا نحلهم محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ونشركهم فيما أفاء الله علينا ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا حتى يفتح لنا إن شاء الله ، ثم ينصرفوا اليك على ذلك أو يكون مـن أمـر الله وقضائه ما هو فاعله . فاعلم ذلك وثـق بـه منا ، ففـي تـظافر المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم اعزاز لدين الله وكبت لأعدائه . فقد سهلنا لك السبيل ، والله على مانقول وكيل .

فإن وثقت بذلك ورأيت ايثار الجهاد فاعمل على ان تنفذ مراكبك الى مرسى طبنة من أرض برقة ، لقرب هذا المرسى من جزيرة أقـرطيش ، ويكون اجتماعهم مع أســاطيلنا بهـذا المرسى مسـتهل ربيع الأخـر بتوفيق الله وقوته وتأييده ونصره وعونه.

والا ترى ذلك فقد ابلغنا في المعذرة اليك والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا اليك . ونحن بحول الله وتأييده ونصره وعونه مسـتغنون عنك وعن غيرك ،وعلى عزم وبصيرة في انفاذ اسـاطيلنا ورجــالنا وعدتنا وماخولنا الله إياه واقدرنا عليه مما نرى بحوله وقــوته انا نبلغ بــه مانؤم اليه بذلك ونصمده نحوه . فبــالله نسـتعين ، وعليه نتــوكل ، وعلى تأييده نعول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

رسالة من الخليفة الحافظ الفاطمي الى روجر المتغلب على صقلية

(من صبح الأعشى للقلشندي ج ٦ ص ٤٥٨ ــ ٤٦٣)

من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الامام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين الى الملك بجزيرة صقلية وانكورية وأنطالية وقلورية وسترلو وملف ومـا انضـاف الى ذلك ، وفقـه الله في مقـاصده ، وارشده الى العمل بطاعته في مصادره وموارده •

سلام على من اتبع الهدى ، وامير المؤمنين يحمـد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويساله ان يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمـة المهـديين ، وسلم تسليما •

أما بعد،عرض بحضرة امير المؤمنين الكتاب الواصل من جهتك ، ففض ختامه واجتلي • وقرىء مضمونه وتلي ، ووقعـت الاصـاخة الى فصوله ، وحصلت الاحاطة بجمله وتفاصيله • والاجـابة تـأتي على أجمعه ، ولا تخل بشيء من مستودعه •

أما ما افتتحته به من حمد الله تعالى على نعمه ، وتوسيعك القول فيما أولاك من إحسانه وكرمه ، فان مواهب الله تعالى ومننه التـي جعل تواليها اختبار شكر العبد وامتحانه على انه بخائنة الاعين وما تخفي الصدور عليم. وهو القائل فيمـن أثنى عليهـم:(أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقـوى لهـم مغفـرة وأجـــر عظيم)(٣٦) لايزال مضاعفها ومرادفها ومتبعا سالفها آنفها ، وهو يوليها كلا من عبيده بقدر منزلته عنده ، ويخص أصفياءه بأوفى مما تمناه الآمـل المبـالغ

ووده ، والله تبارك وتعالى يمنح أمير المؤمنين وآباءه الأئمة الراشدين ما غدت مستقدمات الحمد والشكر عند لوازمه مستأخرة ، اذ كان أفردهم دون الخليقة أعطاهم الدنيا ثم أعطاهم معها الآخرة. واختصهم من حبائه بما لايحصيه عد،وخولهم من الائه بما لايقوم بشكره أحد.

وأما ما ذكرته ، من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحته من عدوان أهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها ، واجترائهم في الطغيان على أسباب لايجوز التغافل عن مثلها واستعمالهم الظلم تمردا ، وتماديهم في الغي تباهيا في الباطل ، وغلوا يأسا من الجزاء لماالستبطنوه ، فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية ، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه اخذة رابية ، كما انه من كان من اهل السلامة وسالكا سبيل الاستقامة ،ومقبلاعلى صلاح شأنه ، وغير متعد للواجب في سره واعلانه ، تعين أن توفر من الرعاية سهمه، وتجزل من العناية نصيبه وقسمه ويؤمن ما يقلقه ويزعجه ، ويقصد بما يسره ويبهجه ،ويصان عن أن يناله مكروه ، ويحمى من أذى يلم به ويعروه .

وأما شكرك لوزيرك الأمير تأييد الدولة وغضدها عز الملك وفخره نظام الرياسة أمير الأمراء ، فإن من تهذب بتهذيبك وتخلق بأخلاقك وتأدب بتأديبك لا ينكر منه إصابة المرامي ، ولا يستغرب عنده نجح المساعي ، وواجب عليه أن لا يجعل قلبه إلا مثوى للنصائح ، وأن لا يزال عمره بين غاد في المخالصة

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيله ذاكرا ما اعتمده مقدم اسطولك من صونه وحمايته ، وحفظه ورعايته ، واعادة ما كان أخذ منه قبل المعرفة بأنه جار في الديوان الخاص الحافظي ، ففعل يجمل عنك صدره ، ويليق بك أن ينسب إليك ذكره وخبره ، ويدل على علم اصحابك برايك وإحكام معاقدة المودة ، ويعرب عن إيثارك إبرازها كلما تقادم عهدها في ملابس بهجة مستجدة ، وهذا الفعل من خلائقك

الرضية غير مستبدع ، وقد نخرت منه عند أمير المؤمنين ماحصل في اعز مقر واكرم مستودع ، لاجرم أن اوامره خرجت الى مقدمي اساطيله المظفرة بما يجنيك ثمرة ما غرسته ، ويعلي منار ثنائك الذي قدرته على أقوى أصل اسسته ، وقد نفذت مراسميه بإجرائك على غلاتك المستمرة في المسامحة بما وجب للديوان عما وصل بـرسمك على مراكبك ، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرك ، والرسولين الواردين عن حق الورود الى ثغر الاسكندرية ، حماه الله تعالى ، ثم الى مصر ، حرسها الله تعالى ، وحق الصدور عنها وكل ما يصل من جهتك فعلى هذه القضية ٠

واما شكرك على الاسرى الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابة لرغبتك ورسم بتسييرهم إليك محافظة على مرائك وبغيتك فـأوزعنا شعارهم انهم عتقاء شفاعتك وارقاء منتك ، فذلك من الدلائل على ما ينطوي عليه من جميل الراي وكريم النية ومن الشواهد بأنه يوجب لك مالايوجبه لأحد من ملوك النصرانية.

واما سؤالك الآن في إطلاق من تجدد أسره، وإنهاؤك أن ذلك مما يهمك امره فقد شفعك أمير المؤمنين بالاجابة إليه على ما ألف من كريم شيمته ، وسير إليك مع رسولك من تضمن الثبت ذكر عدته ٠

وقد علمت ما كان من امر بهرام ووصوله الى الدولة الفاطمية ــ خلد الله ملكها ــ شريدا طائرا ، قد نبت به أوطانه ، وقذفته دياره ، لامال له ولا حال ، ولا عشيرة ولا رجال ، فقبلته أحسن قبول ، وبلغت به في الاحسان ما يزيد على السول ، وغمرته من الأنعام ما يقصر عن اقتراحه كل امل ، وجعلته فواضلها يقلب الطرف بين الخيل والخول ، وكانت أموره كل يوم في نمو وزيادة ، وأحواله توفي على البغية والارادة ، إلى أن جرت نوبة اقتضى التدبير في وقتها أن عذقت به الوزارة ، ونيطت به السفارة ، فوسوس له خاطره ما زخرفه البطر وزينه ، وصوره الشيطان وحسنه ، واظهر ما ظهرت اماراته ووضحت أدلته وعلاماته ، فاستدعى قبيله وأسرته ، وجنسه وعشيرتهَ بمكاتبات منه سرية ، وخطوط عثر عليها بالأرمنية ،

فكانوا يصلون أول أول إلى أن اجتمع منهم عشرون الف رجل من فارس وراجل ، ومن جملتهم ابناء أخيه وغيرهما من أهله ، فدلوه بالغرور ، وحملوه على ما قضي بالاستيحاش منه والنفور ، وقووا عزمه فيما يؤدي الى اضطراب الأحوال واختلال الأمور ، فامتعضت العساكر المنصورة مما أساء به سياستهم ، وأبوا الصبر على ما غير به رسمهم وعادتهم ، فلما رأى أمير المؤمنين ذلك استعظم الحال فيه ، وتيقن أن التغافل عنه يقضي بما يعسر استدراكه وتلافيه ، فكاتب وليه وصفيه الذي ربي في حجر الخلافة ، وسما به استحقاقه الى أعلى درج الانافة ، وحصلت له الرياسة باكتسابه وانتسابه ، وغدا النظر في أمور المملكة لايصلح لغيره ولا يليق إلا به السيد الاجل الأفضل ، وهو يومئذ والي الأعمال الغربية ،وصدرت كتب أمير المؤمنين تشعره بهذا الأمر الصعب ، وتستكشف به ما عرا الدولة من هذا الخطب ، فأجاب دعاءه ولبى نداءه ، وقام قيام مثله ممن أجزل الله حظه من الايمان ، وجعله جل وعز حسنة هذا الزمان واختصه بعناية قوية ،وأمده بمواد علوية ، وأيده بإعانة سماوية ،تخرج عن الاستطاعة البشرية • فجمع الناس وقام خطيبا فيهم بأعمالهم على ما يزلفهم عند الله ويحظيهم ، وموضحا لهم ما يخشى على الدولة من الأمر المنكر ، فاجتمعوا إليه كاجتماعهم يوم الحشر ، وغصت النجود والأغوار ، وامتلأت السهول والأوعار ، وضاقت الأرض على سعتها بالخلائق ، وارتفعت في توجههم لطلب المذكور الأعذار والعوائق ، ولم يبق فضاء ، الا وهو بهم شرق ولاأحد الا وهو منزعج بقصده وعلى تأخر ذلك قلق ، وكان بهرام وأصحابه بالاضافة اليهم كالشامة في اللون البسيط ، وكالقطرة في البحر المحيط ، وساروا مع السيد الأجل نحوه مسارعين وعلى الانقضاض عليهم متهافتين . فلما شعر بذلك لم يبق له قرار ، ولاذ بالهرب والفرار ، يهجر المناهل ويطوي المراحل ويرى الشرود غنما ، ويعد السلامة حلما . واستقرت وزارة أمير المؤمنين لهذا السيد الأجل الافضل الذي لم تزل فيه راغبة ، وله خاطبة ، ونحو توليه اياها متطلعه ، والى نظره فيها مبادرة متسرعة ، ولم تنفك لزينة دستها

مستبطنة وفي التلهف على تأخر ذلك معيدة مبدئة ، فأحسن الى الكافة قولا وفعلا ، وعمل في حق الدولة ما لم يجعل له في الوزراء شبها ولا في الملوك العظماء مثلا ، وغدا للملة الحنيفة حجة وبرهانا ، واولى الأولياء اعزازا وتكريما ، والأعداء اذلالا واهوانا وصان الخلافة عن نفاذ حيلة وتمام غيلة، ومخادعة ماكر ، ومخاتلة غادر ، فلذلك انتضاه أمير المؤمنين حساما باترا ماضي الغرار ، واجتباه هماما في المصالح لايطعم جفنه غير الغرار ، واصطفاه خليلا وظهيرا لتساوي باطنه وظاهره في الصفاء ، واستخلصه لنفسه لمفاخره الجمة التي ليس بها من خفاء ، وانتظمت الأمور بكفالته في سلك الوفاق ، وعمت الخيرات بوزارته عموم الشمس بأنوارها جميع الآفاق ، فسعدت بنظره الجدود ، وتظاهرت ببركاته الميامن والسعود واصبح غصن المعالي بيمنه مورقا ، وعلى الملة من يمن آرائه تمائم من سس الحواد ثورقى ،فآثاره توفي على ضياء الصباح ، وعزماته تزري بمضاء المهندة الصفاح ، وماثره تفوت شأو الثناء وغاية الامتداح . فالله تعالى يحفظ النعمة على الخلافة الحافظية ، ويوزع شكره على سبوغها كافة البرية بكرمه وفضله ومنه وطوله.

ولما امعن بهرام في الهرب وجدت العساكر المنصورة وراءه في المطلب وضاقت عليه المسالك ، وتيقن أنه في كل وجهة يقصدها هالك ، عاد لمكارم الدولة وعواطفها وسأل أمانا على نفسه من متالفها ، فشملته الرحمة وكتب له الأمان فعاودته النعمة ، واختلط برجال العساكر المنصورة ، وصار حظه بعد أن كان منحوسا من الحظوظ الموفورة. وأما اعتذار الكاتب عما وجه اليه بأن من الكلام ما اذا نقل من لغة الى لغة أخرى اضطرب معناه فاختل معناه ، ولاسيما ان غرس فيه لفظ ليس في إحدى اللغتين ، فقد أبان فيما نسب اليه السهو فيه عن وضوح سببه ، وقد قبل عذره ولم تفك يده على التمسك به .

وأما ما سيرته الى خزائن أمير المؤمنين تحفة وهدية ، وأنبت به عن همة بدواعي المجد ملية ، فانه وصل وتسلم كل صنف منه متولي الخزائن المختصة به بعد عرضه على الثبت المعطوف كتابك عليه

وموافقته ،وقد أجري رسولك في إكرامه وملاحظته على افضـل مـا يعتمد مع مثله بمنزلة من ورد من جهتـه ، وعلى قـدر مـن وصـل برسالته • وقد سير أمير المؤمنين مـن أمـراء دولتـه ، ووجـوه المتقدمين بحضرته ، الأمير المؤتمـن المنصـور المنتجـب ، مجـد الخلافة ، تاج المعالي ، فخر الملك ، مـو لى الدولة وشـجاعها ، ذا النجابتين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبا منصور جعفرا الحـافظي ، رسولا بهذه الاجابة ، لما هو معروف من سـداده ، ومـوصوف مـن مستوفق قصده ومسـتصوب اعتمـاده ، والقـى إليه مـا يذكره ويشرحه ، وعول عليه فيما يشافه بـه ويوضـحه ، وأصـحبه مـن سجاياه والطافه ما تضمنه الثبت الواصـل على يده ، إبـانة لمحلك عنده وموقفك منه ، ومكانك لديه ، وامير المؤمنين متـطلع الى ورود كتبك متضمنة من سار انبائك وطيب أخبارك ما يسكن الى معرفته ، ويثق بعلم حقيقته ، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى •

تعميم صدر عن يوسف بن تاشفين بشأن اتخاذه للقب أمير المسلمين

(من الحلل الموشية ص ٢٩ ـ ٣٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى اله وصحبه وسلم تسليما .

من أمير المسلمين، وناصر الدين، يوسف بن تاشفين .
الى الاشياخ والاعيان والكافة والخاصة من أهل « الفلانه » ادام الله كرامتهم بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه .
سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

اما بعد : حمداً لله أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وأنا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، في منتصف محرم سنة ست وستين واربعمائة ، وانه لما من الله علينا بالفتح الجسيم ، واسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، برود النعيم ، وهدانا وهداكم الى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه وعلى اله افضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص انفسنا بهذا الاسم ، لنمتاز به عن سائر أمراء القبائل ، وهو« أمير المسلمين وناصر الدين » فمن خاطب الحضرة العلية السامية ، فليخاطبها بهذا الاسم ان شاء الله تعالى ، والله ولي العدل بمنه وكرمه ، والسلام.

رسالة جوابية من المتوكل على الله بن الأفطس الى الفونسو السادس

(من الحلل الموشية ص ٣٦ ـ ٣٧)

وقد وصل الينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير ، وأحكام العزيز القدير ، يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ويفرق، ويهدد بجنوده الوافرة ، واحواله المتضافرة ، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم ملة الاسلام ، واظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام :
« اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم(٣٧) » ، بالتقوى يعرفون ، وبالتوبة يتضرعون وينصرون ، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فباذن الله« وليعلم المؤمنين(٣٨) »« وليميز الله الخبيث من الطيب(٣٩) »« وليعلمن المنافقين(٤٠) » •

واما تعييرك للمسلمين فيما وهن من احوالهم ، وظهر من اختلالهم ، فبالذنوب المركوبة ، والفرقة المكتوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الاملاك ، لعلمت اي صاب اذقناك ، كما كانت اباؤك مع ابائنا تتجرعه ، فلم تزل تذيقها من الحمام ، وضروب الآلام ، شر ما تراه وتسمعه ، وأداء المال تتوزعه ، وبالامس كانت قطيعة المنصور(٤١) على سلفك اهداء ابنته اليه ، مع الذخائر التي كانت تفد في كل عام عليه •

وأما نحن ، وان قلت أعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه ، الا سيوفا تشهد بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره في ليلك ويومك ، وبالله تعالى وملائكته المسومين ، نتقوى عليك ، ونستعين ، ليس لنا سوى الله

مطلب ، ولا لنا الى غيره مهرب ، ومـــا « تـــربصون بنا إلا إحـــدى الحسنيين(٤٢) »: نصر عليكم ، فيالها من نعمة ومنة ، أو شـــهادة في سبيل الله ، فيالها من جنة ، وفي الله العوض مما به هددت ، وفـــرج يبتر ما مددت ، ويقطع بك فيما أعددت •

رسالة المتوكل على الله بن الافطس الى يوسف بن تاشفين يستنجد به

(من الحلل الموشيه ص ٣٤ ـ ٣٥)

لما كان نور الهدى ـ ايدك الله ـ دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ، ووضحت في الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بأنك لدولة الاسلام اعز ناصر ، وعلى غزو الشرك اقدر قادر ، وجب أن تستدعى لما اعضل الداء ، وتستغاث فيما احاط بالجزيرة من البلاء.

فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها وشدة ظلمها ، واستشرائها ، تلاطف بالاحتيال وتستنزل بالاموال ويخرج لها من كل ذخيرة ، وتسترضى بكل خطيرة •

ولم يزل دأبها التشطط والعناد ،ودأبنا الاذعان والانقياد ، حتى نفد الطارف والتلاد ، واتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت اطماعهم في افتتاح المدن ، واضرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين اسنتهم وشفارهم ، ومن اخطأه القتل منهم ، فإنما هم في ايديهم اسارى وسبايا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه من التوثب ، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ، فيالله ، ويالله‌لمسلمين ، ايسطو هكذا بالحق الافك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الايمان الكفر ، ولايكشف هذه البلية إلا النصر •

الا ناصرا لهذا الدين المهتضم ، الا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ؟ وانا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه من ذل ،فانها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء •

ومن قبل هذا مــاكنت خــاطبتك ، أعزك الله بــالنازلة في مــدينة قورية (٤٣) ، أعادها الله للاسلام ، وأنها مؤننة للجزيرة بالخلاء ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ،ثــم مــارال ذلك التخــاذل والتــدبير يتزايد ، حتى تخلطت القضية ، وتضــاعفت البلية ، وتحصــلت بيد العدو مدينة سرية (٤٤) ، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصن والامتناع ، وهي مــن المدينة كنقطة الدائرة ، تــدركها مــن جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويســتوى في فيء الارض بهــا قــاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهق ، استولى عليه عدو مشرك ، وطاغية منافــق ، ان لم تــدركوها بجمــاعتكم عجــــالا ، وتبادروا ركبانا ورجالا ، وتنفروا نحــوها خِفــافا وثقــالا ، ومــا أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فــانكم له أتلى ، ولا بمــا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانكم الى معرفته أهــدى ، وفي كتابي هذا(الذي يحمله اليكم) الشــيخ الفقيه الواعظ (مسائل مجملة)يفصلها ويشرحهــا ، ومشــتمل على نكت هــو يبينهــا لكم ويوضحها فإنه ـ لما توجه نحوك احتســابا ، وتــكلف المشــقة اليك طالبا ثوابا ـ عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة بيانه ، والسلام.

رسالة من الفونسو السادس الى المعتمد بن عباد وجواب المعتمد عليها

(من الحلل الموشية ص ٣٨ ـ ٤١)

من الكنبيطور ، ذي الملتين ، الملك الفاضل ، الأذفنش بن شانجه ، الى المعتمد بالله سدد الله أراءه ، وبصره مقاصد الرشاد : سلام عليك ، من مشيد ملك شرفته القنا ، ونبتت في ربعه المنى ، فاعتز الرمح بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة واقطارها ، وما سار بأهلها حين حصارها ، فأسلمتم اخوانكم ، وعطلتم بالدعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل الوقوع في الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا ، نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء امامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو وارده ، لكن الانذار ، يقطع الاعذار ، ولايعجل الا من يخاف الفوت فيما يرومه ، أو يخشى الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا الرسالة اليكم القرمط البر هانس ، وعنده من التسديد الذي يلقى به امثالك ، والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك ، مما اوجب استنابته فيما يدق ويجل ، وفيما يصلح لافيما يخل وانت عندما تأتيه من أرائك ، والنظر بعد هذا من ورائك ، والسلام عليك ، يسعى بيمينك وبين يديك .

ولما وصل هذا الكتاب الى المعتمد بن عباد ، جاوب عنه بخطه من نظمه ونثره ، بما نصه:

الذل تأباه الكرام ودينناً
لك ما ندين به من الباساء
سمناك سلما ما اردت وبعد ذا
نغزوك في الاصباح والامساء

الله اعلى من صليبك فادرع
لكتيبة حطمتك في الهيجاء

سوداء غابت شمسها في غيمها
فجرت مدامعها بفيض دماء

مابيننا الا النزال وفتنة
قدحت زناد الصبر في الغماء

فلتقدمن اذا لقيت أسنة
زرقا ترى بالوجنة الوجناء

في ابيات كثيرة.

وبعد ذلك : من المنصور بفضل الله ، المعتمد على الله ، محمد بـن المعتضد بالله ، ابى عمرو بن عباد ، الى الطاغية الباغية اذفنش بـن شانجة ، الذي لقب نفسه بملك الملوك ، وسماها بذى الملتين ، قـطع الله دعواه.

سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد :

فإنه اول ما نبدأ به من دعواه ، انه « ذو الملتين » والمسلمون احق بهذا الاسم ، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد ، وعظيم الاستعداد ، ومجبى المملكة ، لاتملكه قدرتكم ، ولاتعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك ، واغفل عن النظر السديد جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة ، قلت في اثنائها : ليس ، ولاتستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا لنعجب من استعمالك برأي لم تحكم انحاؤه ، ولاحسن انتحاؤه ، واعجابك بصنع وافقتك فيه الاقدار ، واغتررت بنفسك اسوأ الاغترار ، اما تعلم انا في العدد والعديد ، والنظر السديد ، ولدينا من كماة الفرسان ، وجيل الانسان ، وحماة الشجعان ،يوم يلتقي الجمعان ،رجال تدرعوا الصبر وكرهوا الكبر ، تسيل نفوسهم على حد الشفار،وتتعاهم الهام في القفار (٤٥) يديرون رحى المنون بحركات العزائم ، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم (٤٦) قد أعدوا لك

ولقومك جلادا ، رتبه الاتفاق ، وشفارا حدادا ، شحذها الاصـــفاق ، وقد يأتي المحبوب من المكروه ، والندم من عجلة الشرور، نبهت مـــن غفلة طال زمانها ، وايقظت من نومـــه تجـــدد أمـــانها ، ومتـــى كانت لاسلافك الاقدمين مـــع أســـلافنا الاكرمين يد صـــاعدة ، أو وقفـــة متساعدة ، الا ذل تعلم مقداره ، وتتحقق مثاره ، والذي جـــراك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمـــر :« لايقـــاتلونكم جميعـــا الا في قـــرى محصنة أو مـــن وراء جـــد ر (٤٧) » ، ظنوا المعـــاقل تعقـــل ، والدول لاتنتقل ، وكان بيننا وبينك من المســـالمة ، مـــا أوجـــب القعـــود عن نصرتهم ، وتدبير أمرهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما اتيناه في انفسنا وفيهم ، من ترك الحزم ، واسلامهم لأعاديهـــم ، والحمـــد لله الذي جعل عقوبتنا تـــوبيخك وتقـــريعك ، بمـــا الموت دونه ، وبـــالله نســـتعين عليك ، ولانســـتبطيء في مســـيرتنا اليك ، والله ينصر دينه الكريم :« ولو كره الكافرون »(٤٨)، والسلام على من علم الحق فاتبعه واجتنب الباطل وخدعه.

رسالتا استصراخ من المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين وجواب يوسف عليهما

(من الحلل الموشية ص ٤٥ ـ ٥٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما

الى حضرة الامام ، امير المسلمين ، وناصر الدين ، محيي دعوة الخليفة ، الامام امير المسلمين ، ابي يعقوب يوسف بن تاشفين .

من القائم بعظيم اكبارها ، الشاكر لاجلالها ، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، اللائذ بحرمها ، المنقطع الى سمو مجدها ، المستجير بالله ، وبطولها ، محمد بن عباد .

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية ، المعظمة السامية ، ورحمة الله وبركاته .

وكتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين واربعمائة ، وانه أيد الله امير المسلمين ، ونصر به الدين ، انا نحن العرب في هذه الاندلس ، قد تلفت قبائلنا ، وتفرق جمعنا ، وتغيرت انسابنا ، بقطع المادة عنا من معيننا ، فصرنا شعوبا لاقبائل ، واشتاتا لاقرابة ولاعشائر ، فقل ناصرنا ، وكثر شامتنا ، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش ، واناخ علينا بكلكله ، ووطئنا بقدمه ، واسر المسلمين ، واخذ البلاد والقلاع والحصون ، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ، ولاأخيه ، ولو شاؤوا لفعلوا ، الا أن الهوان منعهم عن ذلك ،

وقد ساءت الأحوال ، وانقطعت الآمال ، وانت أيدك الله ، ملك المغرب أبيضه وأسوده ، وسيد حمير ، ومليكها الاكبر ، واميرها وزعيمها (٤٩) ، ونزعت بهمتي اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت بحرمكم ، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيوا شريعة الاسلام وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر الجسيم ، ولاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، والسلام الكريم على حضرتكم السامية ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

الى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين ،وناصر الدين ،وزعيم المرابطين ، أبي يعقوب بن تاشفين نور الله به الآفاق ، وجمع به الجيوش والرفاق.

من الملك المفضل بنعمة الله ، المستجير برحمة الله ، المعتمد على الله ، محمد بن عباد ، سلام على حضرةتجرد ايمانها ، واشتهر أمانها ، أما بعد :

فإن الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف ، وحرم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف ، وأنعم على عباده بأمير جديد « وقوم أولى بأس شديد »(٥٠) وتطول علينا بمعلوم جدك ، ومشهور جدك ، وقد جعلك رحمة يحيي غيثها ربوع الشريعة ، وخلقك سلما الى الخير وذريعة ، وقد طرأ على الاسلام حادث أنسى كل هم ، وهمت النكبات بوقوعه وهم ، وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين ، واختلاف سببه لم تطرف له في الدعة عين ، يقوى ونضعف ، ويتفق ونختلف ، وننام مطمئنين من آفات الزمان ، وتناسخ الأمان ، وقد جاءنا ابراقة وارعاده ، ووعده وايعاده ، لنسلم له المنابر والصوامع ، والمحارب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويستنيب بها الرهبان ، ومما يطمعه استمالته ايانا بالدعة ، واملاؤه في الرحب والمتعة ، استجرارا لما أبطنه ، واهجاما علينا وطنه .

وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه ، جهادك ، وقيامك بحقه

واجتهادك ، ولك من نصر الله خير باعث ، يبعثـك الى نصر مناره ، واقتباس نوره وناره ، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته ويحضر الحرب بآلاته ، فإن شـئت الدنيا فقـطوف دانية ، وجنات عالية وعيون آنية وإن أردت الأخرى فجهاد لايفتـر ، وجـلاد يحـز الغلاصم ويبتر ، هذه الجنة ادخرها الله لظلال سـيوفكم ، واجمـال معروفكم ، نستعين بالله و ملائكته ، وبكم على الكافرين ، كما قـال الله سبحانه ، وهو اكرم القائلين :« قاتلوهم يعـذبهم الله بـأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (٥١) .

والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ،ونعمة الاسلام نشكرها ورحمة الله نتحد شبها وننشرها ،والسلام الموصـول الجـزيل على أمير المسلمين ،وناصر الدين ،ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما.

من أمير المسلمين ، وناصر الدين ، محيي دعوة أمير المؤمنين . الى الأمير الاكرم المؤيد بنصر الله ، المعتمد على الله ، أبي القاسم ابن عباد ، أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، اما بعد :

فانه وصل خطابكم المكرم ، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك ، وما ذكرته من كربتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك ، فنحن يمين لشمالك ، ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك من الشرع ، وكتاب الله تعالى ، وإنه لايمكننا الجواز الا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء ، تكون لنا ، لكي يكون جوازنا اليك على أيدينا متى شئنا ، فإن رأيت ذلك فاشهد به على نفسك ، وابعث الينا بعقودها ، ونحن في اثر خطابك ، إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

رسالة الفونسو السادس الى يوسف بن تـاشفين ورد يوسف عليها قبل وقوع معركة الزلاقة

(من كتاب أعمـــال الاعلام للســـان الدين ابـــن الخـــطيب ج ٣ ص ٢٣٩ - ٢٤٠)

من امير النصرانية أذفونش بن فرلند إلى يوسف بن تاشفين ، اما بعد فانك اليوم امير المسلمين ببلاد المغـرب وسـسـلطانهم ، وأهـل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي ، وقد أذللتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر ، وانا لا أقنع إلا بأخذ البلاد وقد وجب عليك نصرهم لأنهم اهل ملتك ، فأما أن تجـوز إلي ، وأمـا أن تـرسل إلي المراكب أجـوز اليك ، فـــان غلبتني كان ملك الأندلس والمغرب اليك ، وان غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك اياهم فان نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم ».فلما وصل اليه كتابه امر أن يكتـب له على ظهر كتابه:«من أمير المسلمين يوسف الى أذفونش ، أمـا بعـد فان الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه باذنك ، والسـلام على مـن اتبع الهدى ، واردف الكاتب بيت ابي الطيب :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا
ولا رسل إلا الخميس العرمرم

رسالة من الفونسو السادس الى يوسف بن تاشفين

(حسب رواية صاحب الحلل الموشية ص ٤٢ – ٤٣)

من أمير الملتين أذفنش بن شانجة بن فراندة إلى الأمير يوسف بن تاشفين ، أما بعد :

فلا خفاء على ذي عينين انك أمير المسلمين ، بـل الملة المسـلمة ، كما انا أمير الملة النصرانية ، ولم يخـف عليك مـا عليه رؤسـاؤكم بالأندلس من التخاذل ، والتواكل ، والاهمال للرعية ، والاخـلاد الى الراحة ، وانا أسومهم الخسف ، ، فأخرب الديار ، وأهتك الاستار ، واقتل الشبان ، واأسر الولدان ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم ، ان امكنتك فرصة هذا ، وانتم تعتقدون ان الله تبارك وتعالى ، فرض على كل واحد منكم قتال عشرة منا ، وان قتلاكم في الجنة ، وقتلانا في النار ، ونحن نعتقد ان الله اظفرنا بكم ، واعاننا عليكم ، ولا تقدرون دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا ، وبلغنا عنك انك في الاحتفـال ، على نية الاقبال فلا ادري أكان الجبن يبطىء بك ، أم التكذيب بمـا انزل اليك ، فان كنت لا تستطيع الجواز ، فابعث إلي ما عندك من المراكب لأجوز اليك ، وانا اقاتلك في أحب البقاع إليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت اليك ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتـك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الامارة ، والله يتم الارادة .

فأمر أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين ، أن يكتب اليه على ظهـر كتابه : جوابك يا اذفنش ما تراه لا ما تسمعه ، ان شاء الله ، وأردف الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبي :

ولا كتب الا المشرفية والقنا
ولا رسل الا الخميس العرمرم (٥٢)

رسالتا بشارة بنصر الزلاقة من المعتمد بن عباد الى اهل اشبيلية

(من الحلل الموشية ص ٦٣- ٦٦)

لما فرغ الناس من القتال في الزلاقة ، تناول ابن عباد اضبارة كاغد ، على عرض الأصبع وكتب فيها سطرين :«الى ابني الرشيد وفقه الله اعلم انه التقت جموع المسلمين بالطاغية اذفنش اللعين ، ففتح الله للمسلمين ، وهزم على ايديهم المشركين ، والحمد لله رب العالمين ، فاعلم بذلك من قبلك من اخواننا المسلمين ، والسلام .

وكان ذلك عند الزوال من الجمعة ، وعلق الاضبارة في جناح حمام كان احتمله معه لهذا الحال ، فكان الناس باشبيلية اقنط ما كان في ذلك اليوم ، فوصل الحمام من يومه ، وقرئت على الناس بمسجد اشبيلية ، فعم السرور ، وكثر الدعاء......

ولما كان يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين واربعمائة ، سنى الله امرا يسر اسبابه ، وفتح لنا الى الفرج والفتوح بابه ، وعطف علينا القابل للتوب ، الغافر للذنب ، والتقينا مع الطاغية الباغية ، الذي اجاب الموت داعيه واخزى التوفيق مساعيه ، بعد غدر ابداه ، وجرى فيه مداه ، وكان تواعدنا معه لنلتقي في سواه ، فأتى والنقض يجرر ذيل مخزاه ، والغيب يشهد عليه بما ارداه ،والغدر يعلمنا انه طعمة من نواه ، فاستبشرنا انه ابتدأ بالغدر الذي يرديه ، وتعجل سلوك طريق لا تهديه ، وتحققنا أنها مقدمة فتح سبقت ، ونواسم سعد عبقت ، والنصر لا تخفى دلائله ، واليمن لا تستره غلائله ، فتدارك اخواننا المسلمون بالنصاف ، وتصافحوا بالاعتراف والانصاف ، وجرت البسائط

ذيول الزرد وشكرت الشفار فعل الصقيل الفرند ، ولما احلولك ليل الحرب واغطش ، وغار ماء ثبجها فأعطش ، طلع فجر السعادة فانجح ، ونادى من كتب السلامة : أصبح ، أصبح ، وعن قريب طلعت شمسها تشرق ، وتهلك الكافرين وتحرق ، وليس دونها حجاب يستر شعاعها ، ويحجب لماعها ، ولما تسامتت الرؤوس ، واحدق الرئيس بالمرؤوس ،ظللنا نرتب الجماجم ، وكأنها من أعجب احلام نائم ، ولما صعد المؤذنون أكواما بنتها أيدي الأيد من هاماتهم وحصدتها بواتر قطعتها بلاماتهم ، أعلنوا بكلمة الاخلاص فوق آذان وعت ، ماكانت عنه صمت ، وأدمغة أنزلها الندم على ماكانت به همت ، وقرت العيون وانشرحت الصدور ،« وأشرقت الأرض»(٥٣) كلها بهذا النور ، وهذا وفقكم الله فتح الفتوح ، أنذر بين يدي نجواه (٥٤) ، بنصر يعجز عنه الحصر.

وقد كان في أول اللقاء جولة على المسلمين ، قضى الله بالشهادة فيها ، لمن اهتم بأمانيها ، ثم انزل سكينته ، فخطبت نصال المسلمين، رقاب الكافرين ، فانكحتها ابكارا ، صانتها حجال المغافر ، وحجبتها ستور الطوارق عن عيون البواتر ، ولا مهر الا ما نووه من كرم نفوس ، جادت متطوعة ، ومشت الى الخيرات مسرعة فنفلهم الله أنفالا ، ووعدهم بالنصر ، فأوفى لهم .

فتلقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر ، كما تلقينا ، وقولوا الحمد لله رب العالمين على نعم اصبحنا فيها ، وامسينا ، والله يصلها بالتأييد ، ويتبعها بالتوفيق والتسديد ، والسلا م .

ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، اقام المسلمون في جمع اسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة ، والسبي الكثير ، واكتسبت الناس فيها من الات الحروب ، والأموال ، وسيوف الحلى ، ومناطق الذهب والفضة ما اغناهم .

وكان يوما لم يسمع بمثله من يوم اليرموك والقادسية ، فياله من فتح ما كان اعظمه ، ويوم كبير ما كان اكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم

الدين بعد زلاقها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقهـا ، نفسست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتز بها رؤوساء الأنداس ، فجـزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسـف بـن تـاشفين ، افضل الجزاء ، بما بل من أرماق ، ونفس مـن خناق ، وصـل لنصر هذه الجزيرة من حبـل ، وتجشـم الى تلبية دعائهـا ، واسـتبقاء ذمائها (٥٥)، من حـزن وسـهل ، حتـى هـزم على يده اعداء الله المشركون . وظهر أمر الله وهم كارهون .

رسالتنا بشارة بنصر الزلاقة ارسلتا الى اشبيلية

(من النخيرة لابن بسام ق ٢ ج ١ ص ٢٤١)

كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين واظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين ، بما يسر الله في امسه وسناه ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة انفونش بن فرذلند ، أصلاه الله – إن كان طالح الجحيم ، ولا أعدمه – إن كان أمهل – العيش الذميم كما قنعه الخزي العظيم ، واتيان القتل على اكابر رجاله وحماته ، واخذ النهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به الى جميع محلاته ، وحضور العدد الوافر بين يدي رؤوسهم ، ولم يحتز منها إلا ما قرب ، وامتلاء الأيدي مما قبض ونهب ، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والتتبع بعد اثارهم ، وتمادي الطلب من وراء فرارهم ، والذي لا مرية فيه أن الناجي منهم قليل ، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ولم يصبني بحمد الله إلا جرح أشوى ، وعنت رغب حسن المآل عندي وزكى ، فلا يشتغل لك بال ، ولاتتوهم فيه غير ما أشرت اليه ، والحمد لله على ما صنع حق حمده ، وهو أهل المزيد الذي لايرجى الا من عنده.

وقد علم ماكنا عليه قبل مع عدو الله اذفونش بن فرنلند قصمه الله ، من تطاطؤنا واستعلائه ، وتقامئنا وانتخائه ، وانا لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلائه انقضاء ، ولا لمدة الامتحان به فناء ، إلى أن سنى الله تعالى من استصراخ امير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، معقلي الأحمى – أيده الله – ما سنى ، وأدنى من ناي دياره وشحط مزاره ما أدنى فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب ، واستفتح إلى ما كنت اتخيل من نصره الأبواب ، الى أن

ارتفعت الموانع قبله ، وانتهجت السبل القصية له ، ثم أجـاز - على بركة الله وعونه - يريش ويبري ، وصار بعد قـدما يخلق ويفـري ، ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقري ، وانا انجده بوسعي واسعده على حسب ما يطيقـه ذرعي ، الى أن صرنا معشر الحلفـاء ببطليوس - حرسها الله - واتفق رأينا بعـد تشـاور على قصـد قورية - حرسها الله - وسمع العدو - لعنه الله - بـذلك فصـمد من محتشده اليها في جيوش تملأ الفضاء ، وتسد الهواء ، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذكاء ، قد تحصنوا بالحديد من قـرونهم إلى اقدامهم ، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جـرأتهم واقـدامهم ، ولما اشرف على جنابها ، ولسنا بها ، ودنا من أعلامها ، ولم يتجه لنا بعد ما أردنا من المامها ، دعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا ، وحمله نفجه وتهوره على السلوك في مدرج سيولنا .

وفي فصل منها : فـدنونا اليه بمحـلاتنا - نصرهـا الله - ثـم اضطربناها بإزائه ، وأظللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزهـا بفنائه - لعنه الله - ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه ، فأجمع مضـطرا على اللقاء ، وقدم بعض اخبيته دهشا في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساطة الفضاء ، وقـد تيقـن أنه إن أخـذ المسـلمون مصافهم ، ورتبوا في مواقعهم كوافهم ، اصطلم عن اخره جمعـه ، و اجتث أصله وفرعه ، فاهتبل فيما قدره غرة ، وحمـل ولم يكن - بحمد الله - ما اسـتشعره مـرة ، فتنادى المسـلمون بشـعارهم المنصور ، واقبلوا عليه وعلى من معـه في حـال مـؤذنة بـالظهور و الوفور ، فتواقف قليلا الجمعان ، وتجول مليا الفريقان وللسـيوف حكمها ، ومن الحتوف حدها المفهـوم ورسـمها ، ثـم صـدق أمير المسلمين وناصر الدين - أيده الله - الحملة ، وصدم في جمـع لم يكثـر عدد الجملة ، فلم يلبـث أعداء الله أن ولوا الأدبـار ، واستصرخوا الفرار ، واتبعهم خيل المسـلمين - نصرهـم الله - بقية اليوم والليلة ، تقتلهم في كل غور ونجد وتقتضي أرواحهم على حالين مـن كالىء ونقـد ، ولم يخلص منهـم على أيدي المتبعين - اجرهم الله - إلا من سيلتهمه البعد ، ويأتي على حشاشته الجهد ،

و اما محلتهم فانتهبت في أول وهلة ، وشربت بأسرها في نهلة .

وفي فصل منهما :

ولم يصب بحمد الله من المسلمين – وفرهم الله – على هـول المقام ، وشدة الاقتحام ، كثير ، ولا مات مـن أعلامهـم تحـت تلك الجولة إلا عدد يسير ، فإن كان أذفـونش – لعنه الله – لم يمـت تحت السيوف بددا فسيموت لا محاله أسفا وكمدا ، ونحمد الله على مايسره من هذا الفتح الجليل وسناه ، ومنحـه مـن هـذا الصـنع ا لجميل وأولا ه .

رسالة تهنئة من أبي عبيد البكري الى المعتمد بن عباد بعد نصر الزلاقة

(من الذخيرة لابن بسام ق٢ ج١ ب٢٣٧)

اطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر ، الجميل الذكر ، ذي الأيادي الغر ، والنعم الزهر ، وهنأ ما منحه من فتح ونصر ، واعتلاء وقهر ، بطابع السعد يا مولاي ابت ، وبسانح اليمن عدت ، وبكنف الحرز عذت ، وفي سبيل الظفر سرت ، وبقدم البر سعيت ، وبجنة العصمة أتيت ، وبسهم السداد رميت وأصميت ، صدر عن اكرم المقاصد ، واشرف المشاهد وعود بأجل ما ناله عائد ، وآب به وارد ، فتوح أضحكت مبسم الدهر ، وسفرت عن صفحة البشر ، وردت ماضي العمر ، واكبت واري الكفر ، وهزت أعطاف الأيام طربا ، وسقت اقداح السرور نخبا ، وثنت آمال الشرك كذبا ، وطوت احشاء الطاغية رهبا ، فذكرها زاد الراكب وراحة اللاغب ، ومتعة الحاضر ونقلة المسافر :

بها تنفض الأحلاس في كل منزل
وتعقد أطراف الحبال وتطلق

شملت النعمة ، وجبرت الأمة ، وجلت الغمة ، وشفت الملة ، وبردت الغلة ، وكشفت العلة.

كان داء الاشراك سيفك واشتـ
ـدت شكاة الهدى وكان طبيبا

فغدا الدين جديدا ، والاسلام سعيدا ، والزمان حميدا ، وعمود

الدين قائما ، وكتاب الله حاكما ، ودعوة الايمان منصورة ، وعين الملك قريرة فهذا الله مولانا وهنانا هذه المنح البهية مطالعها ، الشهية مواقعها المشهورة آثارها ، المأثورة أخبارها ، ونصر الله اعلامه ففي البر تحل وتعقد ، وعضد حسامه ، فبالقسط يسل ويغمد وايد مذاهبه فبالتحزم تسدى وتلحم ، وأمد كتائبه ففي الله تسرج وتلجم.فكم فادح خطب كفاه ، وظلام كرب جلاه ، وميت حق أحياه ، وحي باطل ارداه وكم جاحم ضلالة أطفأ ناره ، وناجم فتنة قلم اظفاره ، ومغلول اسنة أرهف شفاره ومستباح حرمة حمى ذماره.

فلله هذه المساعي الكريمة ، والمنازع القويمة ، المتبلجة عن ميمون النقيبة ومحمود العزيمة ، فقد تمثل بها العهد الأول والقرن الأفضل الذي أخرج الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والذي سطع هذا السراج ، وانتهج هذا المنهاج ، فلا زالت الفتوح تتوالى عليه ، وصنائع الله تتصل لديه ، إدالة من مشاقيه وإذالة لمحاربيه ، وإبادة لمناوئيه ، وإن أجل هذه النعم في الصدور ، وأحقها بالشكر الموفور ، ما من الله به سلامة مولاي التي هي جامعة لعز الدين ، وصلا حكافة المسلمين ، بعد أن صلى من الحرب نيرانها ، فكان اثبت اركانها ، وأصبر اقرانها :

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

فلله الحمد والابداع والالهام ، وله المنة وعلينا متابعة الشكر والدوام ، وفازت الكف الكليم ، بأعلى قداح المكلوم لدى المقام الكريم ، وإنها لهي التالية للأصبع الدامية ، في المنزلة العالية :

بصرت بالراحة العليا فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب

الخطاب الذي بعث به يوسف بن تاشفين الى أشياخ المغرب حول معركة الزلاقة (نقلا عن روض القرطاس المنسوب لابن ابي زرع)

« أما بعد حمدا لله تعالى المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه ، فإن العدو الطاغية لعنه الله لما قربنا من حماه وتواقفنا بإزائه ، لقناه الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الرابع عشر لرجب ، وقال : الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فتفرقنا على ذلك ، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خدع ونقض عهود ، فأخذنا اهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا احوالهم ، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة (الحادي؟) الثاني عشر من رجب المذكور بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين ، فانتدبت إليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين ، فتعشته قبل أن يتعشاها وتغدته قبل أن يتغداها ، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة ، في سائر المشاهد المشهورة ، في جيوش لمتونة نحو الفنش ، فلما أبصر النصارى رايتنا المشتهرة المنتشرة ، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة ، وغشيتهم فروق الصفاح ، وأظلتهم سحائب الرماح ، وزلزلت حوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح ، التحم النصارى بطاغيتهم الفنش ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، فتلقاه المرابطون بنية صادقة

خالصة ،وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب ، ووكفت ديم السيوف والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج ، واقبل سيل الدماء في هوج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ، وولى الفنش مطعونا في إحدى ركبتيه طعنة افقدته إحدى ساقيه في خمسمائة فارس من مائة وثمانين الف فارس ومائتي الف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك ، ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب ، وهو من اعلى الجبل ينظرها شزرا ، لم يجد عنها صبرا ، ولا يستطيع عنها دفاعا ولا لها نصرا ، فأخذ يدعو بالثبور والويل ، ويرجو النجاة في ظلام الليل ، وامير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مراكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده المنتشرة ، منصور الجهاد مدفوع الاعداء ، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، وقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها وتستلم ذخائرها واسبابها وتريه راي العين دمارها ونهابها ، والفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه ، ويعض غيظا واسفا على أنامل كفيه ، وحين تمت الهزيمة وتتابع الفرار ، عاد رؤساء الأندلس المنهزمون نحو بطليوس والغار ، وتراجعوا حذرا من العار ، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواعد ، ابو القاسم المعتمد بن عباد ، فاتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح ، مريض عناء وجراح ، فهنأه بالفتح الجميل ، والصنع الجليل ، وتسلل الفنش تحت الظلام ، فارا لا يهدأ ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق اربعمائة ، فلم يدخل طليطلة إلا في مائة فارس ، والحمد لله على ذلك كثيرا ، وكانت هذه النعمة العظيمة ، والمنة الجسيمة ، يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

رسالة يوسف بن تاشفين الى الزيريين في افريقية سنة ٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٣

حول الجواز الى الأندلس ومعركة الزلاقة (من مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨ ـ ٤٩ و ـ ٥٣ ظ)

«الحمد لله الذي من علينا بالاسلام ، وفضلنا بمحمد نبيه عليه السلام ، احمده حمدا يوجب المزيد من الائه والسبوغ من سرابله ونعمائه ، كان من قضائه ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ـ لما اراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب سبب لنا اليهم المطلب فقفونا اثارهم واخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقومنا الدين ، ومهدناها للمسلمين ، فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت الى الله تعالى نياتهم وسرائرهم حتى وصلنا طنجة الركاب ، واذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبنا ، وهو خير الفاتحين وأسرع الحاسبين لااله غيره وهو أرحم الراحمين .

ولما بلغنا من استحواذ النصارى ـ دمرهم الله ـ على بلاد الأندلس ومعاقلها ، وإلزام الجزية لرؤسائها واستئصال اقاليمها ، وإيطائهم البلاد دارا دارا لا يتخوفون عسكرا يخرج اليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساءوالصبيان ، فخوطبنا على الجواز الى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، والوينا الأعذار الى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز بابا ، ولالدخول البحر أسبابا ، فانضم لنا منهم الرئيس الأجل المعتمد على الله ،المولى بنصر الله ،أحسن الله في كل الأمور عونه ،واقر بكل صالحة عينه ـ فعزمنا على الغزو وجوزنا للعدو أسودا ضارية وسباعا عادية

وشيبا وشبانا ، بسواعد قوية ، وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحروب وجربوها ، فهي أمهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزأرون اليها زئير الأسود ، فشحنا بهم القوارب ، وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل أفق اليهم ، ووفدوا من كل قطر اليهم ، متعجبين من هيأتهم محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لايروعهم منهم حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لاينالون الا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا انهم طعم للسيوف وغرض للحتوف وسعد للأرماح ونهب للسلاح فكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ الينا أخبارهم وأقوالهم وتنتهي الينا افعالهم ، ثم أتبعناهم جيشا بعد جيش بخيول كالفحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد يتسابقون الى اللقاء في الفضاء ، تسابق الحين والقضاء ، ومع هذا كله فان أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا وازاحة غيمتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان أخر من جاز منا ومعنا قطعة من صنهاجة بني عمي ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الامواج ، فاستخرنا الباري تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامي حتى سهل الله المركب وقرب المطلب ، فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة والتأم شعبنا مع من جاز من عساكرنا ، فعملنا على السير ، وكان قد تقدم الينا بالعدوة من قبل الأذفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز الينا اذ عجزنا عنه ، وفرقنا منه - نعطوه - المراكب ونسلموا - اليه الشواني والقوارب ليرد علينا ويقاتلنا في مأمننا ، فلم نلتفت اليه ، ولاعرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالرئيس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية استيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن في ذلك كله لما نقل الينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطئين سريرة المخبتين لابسين كسوة

الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرة عمرت ببقائه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ،فصرنا الى مدينة بطليوس ،واقمنا بها اياما منتظرين لوفد الرؤ ساء من جميع قظار اللاندلس ،فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلوهم في بلادهم وأضعفوهم وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد واستنقاذ العباد ، فجمعنا عساكرنا وسرنا اليه ، وصرنا الى قفل قورية من بلاد المسلمين ، صرفها الله ، فسمع بنا وقصد قصدنا وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظرا لنا فبعثنا اليه نحضه على الاسلام ، ودخوله في ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى وبين لنا في كتابه ، من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون فأبى وتمرد ، وكفر ونخر وعمل على الاقبال علينا ، وحث في الورود علينا فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ فلما كان بعد ذلك ، بـرزنا عليه أياما ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلا ئع اليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبنينا على لقائه يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة فلما كان يوم الجمعة ثانية ورد علينا بكتائب قد ملات الآفاق ، وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأى من الخمور يقدرون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن في أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل مناساه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عودا ، وانجدهم عديدا محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم لايقدرون عسكرا الا عسكره ، ولارجالا الا رجاله ، ولاعديدا الا عديده ، وداود من أصحابنا منا الى إزائه ، فهبطوا اليه لفيفا واحدا ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل فلما رآهم من كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يذخرون من قبله الأموال والضياع ، استكت أذانهم واضطربت

أضلاعهم ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم وطارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فروا يطلبون معقلا يعصمهم ولاعاصم الا الله ، ولاهاربا منه الا اليه ، فلحقوا من بطليوس بالكرمات ، لما عاينوا من الامور المعضلات ، واسلموه ـ ايده الله ـ وحده في طرف الأخبية مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد استسلموا للقضاء فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرائس ، يعظمون الكنائس ، فحبسهم حينا وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من الكل الا البعض ولجأ في الأخبية ، بعد ان عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغ أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لاأحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع اليه ، لايروعه أحد منهم فيهزم ، ولايهابهم فيسأم ثم قصدت كتيبة سوداء كالجبل العظيم أو الليل البهيم عسكر داود واخبيته فجالوا فيها جولانا ، وقتلوا من الخلق الوانا ، واستشهد الكل بحمد الله ، وصاروا الى رضوان الله ، ونحن في ذلك كله غافلون ، حتى ورد علينا وارد ، وقصد الينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب ، كقطع اللهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن الطعن والضراب ، فلما راونا ، ووقعت أعينهم علينا ظنوا ان الدائرة فينا ولدينا ، وأنا طعم اسيافهم ، ولقاء رماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ، مبتهلين لله وحده لاشريك له ، ونهضنا للمنون الذي لابد منه ولامحيص لأحد عنه ، وقلنا هذا اخر يومنا من الدنيا فلنموتوا شهداء ، فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله اقدامنا ، وقوى افئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولي النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا ذاهلين ، وتساقط اكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولاضربة تثخنه ، واضعف الرعب أيديهم ، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالابر ، وضاقت بهم الارض بما رحبت حتى أن هاربهم لا يرى غير شي الا ظنه رجلا ، وفتكت فيهم السيوف ، على رغم الأنوف ، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها وعلى البيضات فتبريها ، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح ، فشكوهم بها

فرمحت بهم ، فما كنت ترى منهم فارسا الا وفرسه واقف على راسه لايستطيع الفرار ، الكل يجر عنانه ، كأنه معقل بعقالة ، ونحن راكبون على الجواد الميمون العربي المصون ، السابق اللاحق المعد للحقائق وما منا الا من له جرابان فيه سيفان وبيدنا الثالث عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا في الارض مجدلين ، موتى معفرين ، وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار ، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلونها بإزاء المحلات حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لايقدر ، ومدد لايحزر ، والتجريد فيهم والأيدي متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابرهم ، وحلنا دون اباطيلهم وأمانيهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، وانقطع من عسكرهم نحو الفي رجل أو أقل ، والأذفونش فيهم على ما اخبرنا ، قد اتخذوا جراحا بإزاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب في المقام ، ووالله لقد كان الفرسان والرجالة يتخللون محلتهم ، ويعثرون في اخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم ، وهم ينظرون شزرا نظر التيوس الى شفار الجزارين الى ان جن الليل وأرخى سدوله ، ولوا هاربين ، وأسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على النقاع رائضة . ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الافراس أو أزيد ، وأما البغال والحمير فاكثر من ذلك ، وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ولايكلون من الانتقال ، ولايسأمون من تشريط الأموال ، ولحقوا (قورية) ومنها حيث رحلها أم قشعمهم فصححنا ضمائرنا ، واخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين

ولم يستشهد منا الا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وترامبهم للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعادا بيننا وبينهم ، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن اشتهرت نجدته في المغرب ، وانقلب خير منقلب ، ولحقنا

اشبيلية حضرته عمرت ببقــائه ، واقمنا عنده اياما ، ورفعنا عنه مودعين لاتوديع قاطع ، ولايمنعنا منه متـى احـب مـانع ، ولحقنا الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد اشياء أسأل الله تمامها وإنجـازها وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهـم متنفس ، أو رجع الى أحـدهم نفس ، يذكرون مـــالقوا ، ويتـــذاكرون مـــا بقوا ، و(سنستدرجهم من حيث لايعلمـون ٠ وأملي لهـم إن كيدي متين . (٥٦)حتى لايبقــى على اديم الأرض منهـم حــي ، ولايحس منهم انس ، والحمد لله رب العالمين على مـا قضى وخـول وأعطـى.

وهذا كله منا منه علينا لامنا منا عليه ، وصـلى الله على محمـد خـاتم النبيين وقـائد الغـر المحجلين الى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته .

رسالة من يوسف بن تاشفين الى المستعين بالله أحمد ابن يوسف بن هود صاحب الثغر الأعلى

(من الحلل الموشية ص ٧٥)

من امير المسلمين ،وناصر الدين يوسف بن تاشفين ،إلى المستعين بالله احمد بن هود ،ادام الله تأييده ،من حضرة مراكش ، حيث ايات شرفك ، وماثر سلفك ،ونحن نحمد الله بجميع المحامد ،ونستهديه احسن الموارد ، ونسأله اتم الفوائد ، وأنجح المقاصد ، ونصلي على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم صفوة أوليائه ، وخاتم انبيائه ، واما الذي عندنا ـ أيدك الله ـ لجانبك الكريم ، وبحرك الطامي ،ومجدك الصميم ، ومحلك المعلوم فود صريح ، وعقد ـ في ذات الله تعالى ـ صحيح ، ووردنا نشأة السيادة والنبل والنباهة والفضل ،أبو مروان عبد الملك ،ابنك ولادة وتنسبا ،وابننا ودادا وتقربا ،زاد الله به عينك قرة ، ونفسك مسرة ،ومعه خاصتك الوزيران : ابو الأصبغ ،وابو عامر ، اكرمهما الله بتقواه ،وكلا وفيناه حق نصابه ، واتيناه بره من بابه ،واديا الينا كتابك الجليل الخطير المقبول المبرور ، فوقفنا منه على وجه شخوصهما ، وأصغينا في تفصيل جملته الى تخليصهما ، فألقينا اليهما مراجعة في ذلك ما لقنوه ، وسفرنا إلهما عن وجه قصدنا فيه حتى استبانوه ، وجملته الوفاق ، وجماعة الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والاتساق ، إن شاء الله تعالى ، والسلام .

رسالة البابا غريغوار السابع الى صاحب قلعة بني حماد

(عن تاريخ المغرب الدبلوماسي لعبد الهادي التازي ج ٥ ص ١٩٤ ـ ١٩٥)

من عند الراهب غريغوار ،خادم عباد الله ،إلى الناصر ملك موريطانيا من إقليم ستيف بإفريقيا .. تحية وبركة بابوية .

لقد تفضلت فخامتكم بالكتابة إلينا في هذه السنة طالبين منا أن نرسم كاهنا وذلك حسب القوانين التي تفرضها علينا المسيحية ،فبادرنا باختيار الأسقف سرفان لأن طلبكم هذا كان صائبا . وبعثتم لنا في نفس الوقت بهدايا ،كما انكم احتراما لبيتر ـ أمير الرسل ـ وحبا لنا قد حررتم الأسرى المسيحيين ووعدتم أيضا بالعفو عن الآخرين الذين قد يوجدون عندكم .

إن الله خالق كل شيء والذي بدونه لانستطيع شيئا ، قد الهمكم الطيبة وهياكم لهذا العمل النبيل .

إن الله العلي القدير الذي يحب السلام لكل الناس ولايريد أن يهلك أحدا ،لا شيء أحب إليه تعالى اكثر من حبنا لبعضنا ،بعد حبنا له سبحانه وكذلك من التمعن في هذا المبدأ : « عامل غيرك بما تحب أن تعامل به »

فينبغي لنا أن نمارس فضيلة المحبة هذه أكثر من غيرنا من الشعوب .فنحن جميعا ،على أوجه مختلفة ، نعبد إلها واحدا ، وإننا كل يوم نسبح بحمده ونجل فيه خالق العصور ورب العالمين .
فعندما أخبرنا شرفاء مدينة روما بالصنيع الذي الهمكم الله إياه ،قد أعجبوا بسمو قلبكم وأذاعوا مدحكم ، وإن اثنين من بينهم هما

اللذان يشاركانا الأكل والشراب عادة ،البيرك وسنسيون ،وقد تربيا معنا في قصر روما منذ كانا في سن المراهقة .

وهما يودان ،بحمية ،أن يربطا معكم صداقة ومـودة ، وسـيكونان سعيدين بإرضائكم في هذه البـلاد .سـيبعثان لكم ببعض رجـالهم ليبرهنوا لكم على مدى تقدير أسيادهم لخبرتكم ولعظمتكم وليظهروا لكم رغبتهم في خدمتكم هنا .

وإننا نوصي جلالتكم بهم ونطلب منكم أن تكنوا لهم الحـب والوفـاء مثل الحب والتفاني الذي سنخصكم دائما به وبأي أمير يعينكم .
إن الله العلي القدير يعلم أن عبادته تلهم الصداقة التي محضناكم بها .

وكم نتمنى لكم السلامة والنصر في هذه الدنيا وفي الآخرة ، وإننا نتوسل إليه تعالى من أعماق قلوبنا أن لايأخذكم إليه إلا بعـد عمـر طويل ، إلى صدر ونعيم سيدنا ابراهيم عليه السلام » .

رسالة يوسف بن تاشفين الى صاحب قلعة بني حماد يقرعه فيها على تعامله مع البابوية

(من الذخيرة لابن بسام ق ٢ ج ٢ ص٢٥٧)

ورد كتابك الذي أنفذته من وادي منى منصرفك من الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك ،واجحفت فيها بطارفك وتلادك ،واخفقت من مطلبك ومرادك ،فوقفنا على معانيه ،وعرفنا المصرح به والمشار إليه فيه ،ووجدناك تتجنى وتثرب على من لم يستوجب التثريب ،وتجعل سيئك حسنا ، ومنكرك معروفا ، وخطاك صوابا بينا ،وتقضي لنفسك بفلج الخصام ، وتوليها الحجة البالغة في جميع الاحكام ،ولم تتأول أن وراء كل حجة أدلتها ما يدحضها ،وإزاء كل دعوى أبرمتها ما ينقضها ،وتلقاء كل شكوى صححتها ما يموضها ،ولولا استنكاف الجدال ، واجتناب تردد القيل والقال ، لنصصنا فصول ما يبطله ،ويخجل من ينتحله ،حتى لايدفع لصحته دافع ولا ينبو عن قبول ادلته راء ولا سامع ، ولايختلف اعترافا به دان ولاشاسع .

وفي فصل منها :ونذشدك الله الذي ماتقوم السماء والأرض إلا بأمره ،الم نكن عندما نزع الشيطان بينك وبين أبي عبد الله محمد ابن يوسف رحمه الله ، وتفاقم الشنآن ، قد توفرنا على ماكان بالحال من إقلاق ، وتاخرنا عما كانت النصبة تستقدم من بدار او سباق ، ولم نمد الجهة حق إمدادها ولاكثرنا فوق ما كان يلزم من جماهير اعدادها ولاعدلنا عن جهاد المشركين ، ولا اقبلنا إلا على مايحوط حرب المسلمين ، رجاء أن يثوب استبصار ، أو يقع إقصار ، وأنت خلال ذلك تحتفل وتحشد ، وتقوم بحمية وتقعد ،

وتبرق غضبا وترعد ، وتستدعي نؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب ، فتعطيهم ما في خزائنك جزافا ، وتنفق عليهم من كنزه أولئك إسرافا ، وتمنح أهل العشارات مئين وأهل المئين الافا كل ذلك تعتضد بهم ، وتعتمد على تعصبهم لك وتألبهم ، وتعتقد أنهم جنتك من المحاذير وحماك دون المقادير ، وتذهل عما في الغيب من أحكام العزيز القدير .

ونحن أثناء مافعلت ، وخلال ما عقدت وحللت ، نؤم العدو - قصمه الله - فنجبهه ونكافحه ، ونقعده ونناطحه ، ونتحيفه من أقطاره ونغزوه بدءا وتعقيبا في عقر داره إلى أن استجمعت أخيرا واستجشت وتراجعت إلى عرفانك وأجهشت ولولا ماؤك الذي تمدوه ، وشارفوا إلى أن يستنفدوه ، ما أووا لشكواك ، ولزادوك ضغنا على إبالة بلواك ، وإنك لمتداو منهم بسم ، ومستريح إلى غم ، فبلغت معهم ما بلغت ، وأرغت بهم ما أرغت ، واستقبلتنا بما أثبت عن العدو ولقد أخذناه بمخنقه ، وأضفنا انشوطة وهق الهزي على عنقه ، وأشفى على انقطاع ذمائه ورقمه ، ففرجت عنه كربة لم يظنها تنفرج ، ونهجت له منها وجه مخلص لم يحسبه ينتهج ، وأخليت وجهه لأذى المسلمين يبدئه ويعيده وبسطت فيهم يده وكانت في جامعة تقصره عما يريده ، ولو أن صاحب رومة المشتمل معه بعباءه الكفر والشرك المنتحل ما ينتحل من كلمة الزور والافك ، يكون مكانك جوارنا ، ويصاقب كما صاقبت قاصية دارنا ، ما اتى من نصره فوق ما أتيت ولاتولى من انتشاله ، والسعي في استقلاله ، إلا بعض ما توليت ، ولا أنحى على المسلمين من مضاره إلا بدون ما أنحيت ، ولا بغاهم خبالا بأكثر مما بغيت .

وما في تلك الجزيرة - عصمها الله - من صالح ولاطالح إلا ما يعرضك على الله تعالى ويرفع إليه فيك عقيرته بالشكوى ، وكل ما سفك من دم ، وانتهك من محرم واستهلك من نعم ، فإليك منسوب ، وعليك محسوب ، وفي صحيفتك مكتوب وموعد الجزاء غدا وإنه لقريب فانظر ما أنجح أثرك ، واربح متجرك ، وأصلح موردك ومصدرك ... » .

عهد من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ليوسف بن تاشفين

وهذه نسخة « الرسالة البرنامج » بعد البسملة الشريفة(٥٧) :

هذا ما عهد به عبد الله ووليه ، عبد الله القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، إلى فلان حين انتهى إليه ما هو عليه من ادراع جلابيب الرشاد ، في الاصدار والايراد . واتباع سنن من أبدى وأعاد ، فيما يجمع خير العاجلة والمعاد : والتخصيص من حميد الأنحاء والمذاهب ، بما يستمد منه أصناف الآلاء والمواهب والتحلي من السداد الكامل ، بما فاز فيه بامتطاء الغارب من الجمال والكاهل واتضح ما هو متشبث به من صحة الدين واليقين ، والمواظبة من اكتساب رضا الله تعالى على ما هو اقوى الظهير والمعين : في ضمن ما طوى عليه ضلوعه . وادام لهجه به وولوعه : من موالاة لأمير المؤمنين يدين لله تعالى بها ، ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها : ومشايعة لدولته ساوى فيها بين ما أظهر واسر ، وأمل في اجتناء ثمرها كل ما ابهج وسر ، فولاه الصلاة

بأعمال المغرب ،والمعاون ،والأحداث ،والخراج ،والضياع ،والجهبذة والصدقات ،والجوالي ،وسائر وجوه الجبايات ،والعرض ،والعطاء والنفقة في الأولياء ،والمظالم ،وأسواق الرقيق ،والعيار في دور الضرب ،والطرز ،والحسبة ،ببلاد كذا وكذا : سكونا الى استقلاله بأعباء ما استكفاه اياه ،واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر ذكره ويطيب رياه ،وثيقة بكونه للصنيعة اهلا ،وبأفياء الطاعة الامامية مستظلا ،وتوفره على مايزيده بحضرة أمير المؤمنين حظوة ترد باع الخطوب عنه قصيرا ،وتمد مقاصده من التوفيق بما يضحي له في كل حالة نصيرا ،وعلما بما في اصطناعه من مصلحة تستنير

اهلتها ،وتستنير من شبه الغي شواهدها وادلتها ، والله تعالى يصل مرامي أمير المؤمنين بالاصابة ويعينه على ما يقر كل امرىء في حقه ويحله نصابه ،ويحسن له الخطرة في كل ما يغدو له ممضيا ،ولمطـايا الاجتهاد في فعله منضيا ومـا تـوفيق أمير المؤمنين إلا بـالله ،عليه يتوكل واليه ينيب .

وأمره باعتماد تقوى الله تعالى في الاعلان والاسرار ، وبـاعتقاد الواجب من الاذعان بفضلها والاقـرار ، وان يأوي منهـا إلى أمنع المعاقل واحصنها ، ويلوي عنان الهدى فيهـا إلى أجمـل المقـاصد واحسنها ، ويجعلها عمـدته يوم تعـدم الأنصـار ، وتشـخص الأبصار ، ليجتني من ثمرها ما يقيه مصارع الخجل ، ويجتلي مـن مطالعها ما يؤمنه من طوارق الوجل ، ويرد بها من رضا الله تعـالى أصفى المشارب ويجد فيها من ضوال المنى أنفس المواهب ، فإنهـا أبقى الزاد ، وادعى في كل امر إلى وري الزناد ، وقد خص الله بهـا المؤمنين من عباده ، وحض منهـا على مـا هـو أفضـل عدة المرء وعتاده ، فقال تعالى :(يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وانتم مسلمون) (٥٨) .

وأمره أن يأتم بكتاب الله تعالى مستضيئا بمصباحه ، مسضيما لسلطان الغي بالوقوف عند محظوره ومباحه ، ويقصد الاسـتبصار بمواعظه وحكمه والاستدرار لصوب التـوفيق في الرجـوع إلى متقنه ومحكمه ، ويجعله أميرا على هواه مطاعا وسميرا لا يرى أن يكشف عنه قناعا ، دليلا إلى النجاة من كل ما يخـاف أثـامه وسـبيلا إلى الفوز في اليوم الذي يسفر عن فصل الحساب لثامه ، ويتحقق مـوقع الحظ في إدامة درسه ، وصلة يومه في التأمل بـاسمه ، فإنه يبـدي طريق الرشد لكل مبدىء في العمـل بـه معيد :(وإنه لكتـاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٥٩)

وأمره أن يحـافظ على الصـلوات قـائما بشروطهـا وحدودها ، وشـائما بـروق التـوفيق في أداء فـروضها وحقوقها ، ومسارعا إليهـا في أوقـاتها بنية عائفـة مناهـل الكدر

والرنق ، عارفة بما في إخلاصها من نصرة الهدى وطاعة الحق ، وموفرا عليها من ذهنه ، ماالحظ كامن في طيه وضمنه ، وموفيا لها من الركوع والسجود ، ماالرشاد فيه صادق الدلائل والشهود ، متجنبا أن يلهيه عنها من هواجس الأفكار ووساوس القلب العون منها والابكار ، وما يقف فيه موقف المقصر الغالط ، وينزل فيه منزلة الجاحد للنعم الغامط ، وقد أمر الله تعالى بها وفرضها على المؤمنين واوجبها وحث من إقامتها ، على المساجد ما يفضي إلى صلاح المقاصد واستقامتها ، فقال عز من قائل :(فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) (٦٠) .

وامره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعة ، وفي الأعياد الى المصليات الضاحية ، بعد أن يتقدم في عمارتها ، وإعداد الكسوة لها ، بما يؤدي إلى كمال حلاها ، ويحظى من حسن الذكر بأعذب الموارد واحلاها ، ويوعز بالاستكثار من المكبرين فيها والقوام ، وترتيب المصابيح العائذة على شمل جمالها بالاتساق والانتظام ، فإنها بيوت الله تعالى التي تتلى بها اياته ، وتعلى فيها اعلام الشرع وراياته .وان يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ، أدام الله تعالى به الامتاع ، واحسن عن ساحته الدفاع ، ثم لنفسه جاريا في ذلك على ماألف من مثله ، وسالكا منه اقوم مسالك الاهتداء وسبله ، وقد بين الله تعالى ما في عمارتها من دلائل الايمان ، والفوز بما يعطي من سخط الله تعالى أوثق الأمان في قوله سبحانه :(إنما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة واتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) (٦١)وقال في الحث على السعي إلى الجوامع التي يذكر فيها اسمه ، ويظهر عليها منار الاسلام ورسمه (يا ايها الذين امنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله)(٦٢).

وامره ان يعتمد في إخراج الزكاة ما امر الله تعالى به ، وهدى منه ارشد فعل وأصوبه ، ويقوم بذلك القيام الذي يحيطه بجميل

الذكر ، وجزيل الاجــــر ، ويشـــــهد بــــزكاء المغـــــرس وطيب النجر ، ويقصد في اداء الواجب منه مـــا يصــل امســـه في التـــوفيق بيومه ، ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه ، متجنبا من إخــلال بما نص عليه في هذا البـــاب ، أو إهمـــال فيه لما يليق بـــذوي الديانة واولي الالباب ، ومتوخيا في المسارعة إليه مـــا يتــطهر بـــه مـــــن الأدناس ، ويتوفر به حسن الاحدوثة عنه بين الناس ، فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لا سبيل إلى المحيد عنهـــا ، ولا دليل في الفوز اوفى منها ، وامر رسوله صلى الله عليه وسلم بأخذها مــن امنه ، وابان عن كونهـــــا ممـــــا يجتني كل مــــرغوب فيه مــــــن ثمرته ، ووصل له في ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله :لما فيه من الحظ الكامل في استنارة غرره وحجــولة ، في قـــوله ســبحانه : (خذ من اموالهم صدقة تزكيهم بها وصل عليهم إن صـــلاتك ســكن لهم والله سميع عليم)(٦٣) .

وامره ان يهذب مــن الدنس خــلاله ، ويصــل بـــاقواله في الخير افعاله ، ويمتنع من تلبية داعي الهوى المضل ، ويتبع سنن المتفـــيء بالهدى المستظل ، ويقبض يده عن كل محرم تــوثق أشراكه وتـــوبق غوائله ، وتؤذن بسوء المنقلب شواهده ودلائله ، ويجعل له من نهاره رقيبا على نفسه يصونها عن مراتع الغي ومــطارحه ، وامينا يصـــد عن مسارب الاثم ومسارحه ، فإنها لا تزال امارة بالسوء إن لم تقد الى جدد الرشد ، وتقم لها سوق من الوعظ فيها أقصى الغاية والأمر فالسعيد من اضحى لها عند سورة الغضب وازعا ، وانحى عليهـــا بلوم يغدو معه عن كل ما يســخط الله تعـــالى نازعا ،وان يتنزه عن النهي لما هوله مرتكب والأمر بما هو له مجتنب اذ كان ذلك بـــالهجنة خاليا وبين المرء وبين مقاصد هـــديه حـــــائلا ،قــــال الله تعـــالى: (اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افــلا تعقلون)(٦٤) .

وامـــر ان يضــــفي على مـــن قبله مـــن اولياء امير المؤمنين وجنوده ، اصناف جلابيب الاحسان وبروده ، ويخصهم من جـــزيل

حبائه بما يصلون منه إلى ابعد المدى ويملكون بـه نواصي الآمـال ويدركون قواصي المنى ، ويميز من أدى واجبه في الطـاعة وفـرضه وأبدى صفحته في الفناء بين يديه بمزيد من الاشتمال يرهق بصـيرة كل منهم في التوفر في ما وافقـه ، ووصـل بانفـه في التقـرب إليه سابقه ، ويدعو المقصر إلى الاستبصار في اعتماد ما يلحق فيه رتبـة من فازت في الحظوة قـداحه ، وفـاتت الوصـف غرره في الزلفـة وأوضاحه ، ليمرح به في الاغتذاء بلبان النعمة ، كمـا انتهـج بهـا مسترشدا ، وطالبا ضوال الرأي الثاقب ومنشدا وقد بين الله فضل المشورة التي جعلها لقاحا ، وفي حنادس الشكوك مصـباحا ، حيث أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بها ، وبعثه منها على أسد الأفعال وأصوبها ، فقال تعالى :(وشاورهم في الأمر فإذا عزمـت فتـوكل على الله) (٦٥) .

وامره ان يعدل في الرعايا قله ، ويحلهـم مـن الأمـن هضـابه وقلله ، ويمنحهم من الاشتمال ، ما يحمـي بـه أمـورهم مـن الاختلال ، ويحوي به طيب الذكر بحسـب مـا اكتسـب مـن رضى الأنحاء والخلال ، ويضفي على المسلم منهم والمعاهد من ظل رعايته ما يساوي فيه بين القوي والضعيف ، ويلحق التليد منهم بالطريف : ليكون الكل وادعين في كنف الصـون ، راجعين الى الله تعـالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعـون . وأن ينظـر في مـظالمهم نظرا ينصر الحق فيه ، وينشر علم العدل في مطاويه ، وينصف معـه بعضهم من بعض ، وينصب به بهم مـن اهتمـامه أسـنى قسـم وحظ ، مليئا لهم في ذلك جانبه ،ومبينا ما يظل بـه كاسـب الأجـر وجالبه ،ويزيل عنهم ما شرعه ظلمة الغلمان بتلك الأعمـال . ويديل من تلك الحال باستئناف ما يوطنهم كواهل الآمال ، جامعا لهم بين الدليل والبرهان ، قال الله تعالى :(إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعـظكم لعلكم تذكرون) (٦٦) .

وامره بأن يكون بالمعروف امرا ، وعن المنكر زاجرا ، ولله تعالى

في إحياء الحق وإماتة الباطل متاجرا . وأن يشد من الساعين في ذلك والداعين إليه ، ويعد القيام بهذه الحال من أفضل ما يتقرب بــه الى الله تعالى يوم العرض عليه . ويتقدم بتعــطيل مــا في أعمــاله مــن المواخير ودحضها ، وإزالة أثـارها ومحــوها ، فإنهـا مـــواطن بالمخازي أهله ، ومن مشارب المعاصي ناهله ، وقد أسست على غير التقوى مبانيها ، وأخليت من كل ما يرضي الله تعالى مغانيها ، وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التــي ظلت بــالمعروف أمــرة وعن المنكر ناهية ، وضــنت بمـا تــرى فيه عن مقــاصد الخير ذاهلة لاهية ، فقال: :(كنتم خير أمة أخرجت للناس تـأمرون بــالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(٦٧) .

وأمره أن يرتب لحماية الطـرقات مــن يجمـــع الى الصرامـــة والشهامة ، سلوك محاج الرشاد والاستقامة ، ويجعل التعفــف عن ذميم المراتع شاهدا بتوفيق الله إياه، وعائدا عليه بما تحمــد مغبتــه وعقباه ، ويأمر بحفظ السابلة ، واختصاصهم بالحراسة الســابغة الشاملة ، وحماية القوافل واردة وصادرة ، واعتمادها بما تغدو به الى السلامة مفضية صائرة :لتحــرس الدمـــاء ممـــا يبيحهـــا

ويريقها ،والأموال مما يقصــد فيه ســبيل الاضـــاعة وطــريقها وان يخوفهم نتائج التقصير ،ويعرفهم مناهج التبصير ،وأن عليهم رقباء يلاحــظون أمـــورهم ويوضــحونها : ليكون ذلك داعيا الى التحــوط والتحرز ،واعتماد الميل الى جانب الصحة والتحيز . ويوجب لهم من بعد ما يكفي أمثالهم مثله ،ويكف أيديهم عن الامتداد الى ماتذم سبله فإن أخل أحدهم بما حد له ،أو مزج بالسوء عمله جزاه بحسب ذلك وموجبه . قال الله تعالى:(من يعمل سوءا يجز به)(٦٨)وأمره أن يتقدم الى نوابه في الأعمال بوضع الرصد على من يجتاز بهــا مــن العبيد الاباق والاستظهار عليهم بحسب العدل والاســتحقاق ،واســتعلام اماكنهم التي فصلوا عنها ،ومواطنهم التي بعدوا منها ،فاذا وضحت احوالهم وبانت ،وانحسمت الشكوك في بابهم وزالت ، اعادوهم الى مواليهم أبوا أم شاءوا .وأن يقصدوا انشاد الضوال ،ويجتهدوا مــن

اظهار أمرها بما يغدو جمال الذكر به في الظلال ،ويتجنبوا ان يمتطوا ظهورها بحال ،أو يمدوا أيديهم الى منافعها في اسرار وإعلان ،حتى اذا حضر اربابها سلمت اليهم بالنعوت والأوصاف ،واجري الأمر في ذلك على ما يضحي به علم العدل عالي المنار حالي الأعطـاف ،فقـد أمر الله تعالى بأداء الأمانات الى أهلها وهدى من ذلك الى اوضـح محاج الصحة وسبلها فقال :(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) (٦٩) .

وامره أن يختار للنظر في المعاون والأجلاب مـن يرجـع الى دين يحميه من مهـاوي الزلل والصـلف ، عن مـد اليد الى أسـبـاب المطامع ، وكلف بمـا تعـود على مـا كلف إياه بصـلاح مشرق المطالع ؛ ومعرفة بما وكل اليه كافية وافية ، ولما يوجب الاستزادة له ما حية نافية ؛ و يوعز اليهـم بـالتشمير في طلب الذعار ، مـن جميع الأماكن والاقطار ، وحسـم مـواد العـار في بـابهم والمضار ، وأن يمضوا فيهم حكم الله بحسب مقاصدهم في الضـلال، وتجـري امـورهم على قـانون الشرع المنير في حنادس الظـلام، ممتنعين ان يراقبوا من لم يراقب الله تعالى في فعله ، ويجـانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن شهدت أثـاره بـذميم سـبله ؛ وإذا وقع الظافربجان قد كشف في الغي قناعه ، واظهرت مسـاعيه إبـاءة من إجابة داعي الرشد وامتناعه ،اقيم حد الله تعالى فيه من غير تعد الواجب ، ولاتعر من ملابس السالكين للجدد اللاحب (ومـن يتعـد حدود الله فأولئك هم الظالمون) (٧٠) .

وامره ان يوعز الى أصحاب المعاون بأن يشـدوا مـن القضـاة والحكام ، ويجـدوا في إجـراء امـورهم على أوفى شروط الضـبط والاقدام ، ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ احكامهم وإمضـائها، والمسارعة الى حث مطايا التشـمير في ذلك وانضـائها ، والتصرف على امثلتهم في إحضـار الخصـوم اذا امتنعـوا ، وسـوقهم الى الواجب اذا زاغوا عنه وانحرفوا ، وان يتقدم بإمداد عمال الخراج بما يؤدي الى قوة ايديهم في استيفاءمال الفيء واجتبائه، واعتماد ما

ينصر الحقوق في مطاويه واثنائه ، اذ كان في ذلك من الصلاح الجامع وكف المضار وحسم المطامع ، ما المعونة عليه واجبة ، وللتوفيق مقارنة مصاحبة ، قال الله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب)(٧١)

وامره بعرض من تضمه الحبوس من اهل الجرائم والجرائر ، وتأمل أحوالهم في الموارد والمصادر والرجوع الى متولي الشرطة في ذكر صورة كل منهم والسبب في حبسه والتعيين من ذلك على ما يعرف به صحة الأمر من لبسه ، فمن الفي منهم للذنوب الفا ، وعن سنن الصواب منحرفا ، ترك بحاله ، وكف بإطالة اعتقاله عن مجاله في ميادين ضلاله ، وان وجد منهم من وجب عليه الحد ، أقيم فيه بحسب ما يقتضي الحق ، ومن اعترضت في بابه شبهة تجوز اسقاط الحد عنه ودرأه ، اعتمد الحاقه في ذلك بمن اتصل اليه صوب الاحسان ودره،ومن لم يكن له جرم وتظهر صحة شاهده ودليله ، قدم الأمر في إطلاقه وتخليه سبيله ، وان غدا لأحدهم سعي في الفساد واضح وبان ، وغوى به في محاربة الحق وخان قوبل بما امر الله تعالى به في كتابه حيث يقول :(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا او تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) (٧٢) .

وأمره باختيار المرتب للعرض والعطاء ، والنفقة في الأولياء من ذوي المعرفة والبصيرة ، والمشهورين في العفة بتساوي العلانية والسريرة ،وممن تحلى بالأمانة جيدة ،واعتضد بطريقه في الرشاد تليده وكان بما يسند اليه قيما ،وفي الكفاية ثاويا مخيما وإن يتقدم اليه بضبط حلى الرجال وشيات الخيول ، وان يقصد في كل وقت من تجديد العرض ما يشهد بالاحتياط السابغ الأهداب والذيول ، فإذا وضح وجه الاطلاق ، وسلم مال الاستحقاق ، كانت التعرفة على قدر المنازل في التقديم والتأخير ، وبحسب الجرائد التي تدل على الصغير من ذلك والكبير ، ومتى طرق أحدهم ماهو محتوم على خلقه ، أعاد على بيت المال من رزقه بقدر قسطه وحقه ، وأن يلزمهم

إحضار جياد الخيول وخيار الشكك ، ويأخذهم من ذلك بأوضح ما نهج المرء الطريق فيه وسلك.فإن اخل احدهم بما يلزمه البروز فيه يوم العرض ، أو قصر في القيام بالواجب عليه الفرض ، حاسبه بذلك من الثابت باسمه ، والمطلق برسمه ، تنبيها له على تلافي الفارط ، وتبصيرا في البعد عن مقام المخطي الغالط ، اذ كان في قوتهم وكمال عدتهم ارهاب الأعداء والأضداد والأمداد . قال الله تعالى :(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٧٣) .

وأمره باختيار عمال الخراج ، والضياع ، والأعشار، والجهبذة والصدقات ، والجوالي وان يكونوا محتضنين من الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراك في علمه ، ومتقمصين من ملابس العفة ما تحمد العواقب في ضمنه ، ومتميزين بما يغنيهم عن الأفكار بنتائج الاتعاظ والاعتبار ، ويغريهم بالاستمرار على السنن المنجي لهم من مواقف التنصل والاعتذار . وان يأمر عمال الخراج بجباية الأموال ، على اجمل الوجوه والأحوال ، سالكين في ذلك جددا وسطا ، يحمي من مقام من ضعف في الاستخراج اوسطا ، و(ان يتقدم) الى الناظرين في الضياع بتوفية العمارة حقها والزراعة حدها ، والتوفير من حفظ الغلات الحاصلة على ما يقتضي فيه أرشد المذاهب وأسدها ، متحرزين من أمر ينسبون فيه الى العجز والخيانة ، فكل من الحالين مجز في وضوح أدلة الفساد ومخز، والى الجهابذة بقصد الصحة في القبض والتقبيض وحفظ النقد و من التدليس والتلبيس ، اداء للأمانة في ذلك ، واهتداء فيه الى أقوم المسالك ، والى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من مواشي المسلمين السائمة دون العاملة والجزي في ذلك على السنة الكاسبة المحمدة الوافية الكاملة ، متجنبين من أخذ فحل الابل وأكولة الراعي ، وعقائل الأموال المحظورة على سائر الأسباب والدواعي ، فإذا استوفيت على المحدود من حقها ، أخرجت في المنصوص عليه من وجهها وسبلها ، والى جباة جماجم أهل الذمة بأخذ الجزية منهم في كل سنة ،على قدرات ذات ايديهم في الضيق

والسعة ،وبحسب العادة المألوفة المتبعة ،ممتنعين من مطالبة النسوان ومن لم يبلغ الحلم من الرجال وممن علت سنه على الاكتساب وتبتل من الرهبان ،ومن غدا فقره واضح الدليل والبرهان، وفاء بالعهد المسؤول ،وتلقيا لأمر الله تعالى بالقبول حيث يقول :(واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا)(٧٤) .

وأمره أن يرد أمر المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة الى من عضد بالظلف الورع ، وانتظم له شمل الهدى واجتمع : فكان ذا معرفة بما يحرم ويحل ، وبصيرة يتفيأ بها من عوارض الشبه ويستظل ، وأن يكون النظر في ذلك مضاهيا للحكم ملائما ، ولن يقوم به الا من لايرى عاذلا له في فعله لائما . وأن يتقدم الى من يلي المظالم بتسهيل الاذن للخصوم في الدخول عليه ، وتمكين كل منهم من استيفاء الحجة بين يديه ، والتوصل الى فصل ما بينهم بحسب ما يقود الحق اليه ، وان يقصد فيما وقع الخلف معهم فيه ، والكشف الذي يقوم به ويستوفيه ، فان وضح له الحق انفذه وقطع به ، والا ردهم الى مجالس القضاء لامضاء ذلك على مقتضى الشرع وموجبه والى المرتبين في أسواق الرقيق بالتحفظ فيما يبتاع ويباع ، وأن يستعمل في ذلك الاقتفاء للسنن الجميل والاتباع: ليؤمن اختلاط الحر بالعبد ، وتحرس الانساب من القدح والفروج من الغضب ، في ضمن حفظ الأموال ، والمنع من مزج الحرام بالحلال ، والى ولاة العيار بتصفية عين الدرهم والدينار من الغش والادغال ، وصون السكك من تداول الأيدي الغريبة لها بحال من الأحوال متحذرين من الاغترار بما ربما وضح الفساد فيه عند الاعتبار ،ومانعين التجار المخصوصين بالايراد من كل قول مخالف للايثار في الصحة والمراد ،ومعتمدين اجراء الأمر فيما يطبع على القانون بمدينة السلام ،من غير خلاف لمستقر القاعدة في ذلك ومتسق النظام ،وان يثبت ذكر أمير المؤمنين ،وولي عهده في المسلمين على ما يضرب من الصنفين معا ،والمسارعة في ذلك الى الافضل مابادر اليه المرء وسعى ،والى المستخدمين في الطرز بملاحظة احوال

المناسج والأشراف عليها ،واخذ الصناع بالتجويد على العادة التي يجب الانتهاء اليها ،واثبات اسم امير المؤمنين على مايذسج من الكسا والفروش والأعلام والبنود ،جريا في ذلك على السنن المرضي والمنهاج المحمود والى من يراعي الحسبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق ،والانتهاء في ذلك الى ما ينتهي به من شمل الصلاح الى الانتظام والاتساق ،وان يتقدم اليهم بما يوجب من تعيير ما يختص بهم من المكاييل والموازين ،وحملها على قانون الصحة الواضحة الدلائل والبراهين ،وان يقصد تبصيرهم مواضع الحظ في الاستقالة ،ويحذرهم مواقع الانتقام الذي لاتفيد فيه أسباب الاستصفاح والاستقالة ،فان عرف من أحد منهم اقداما على ادغال فيما يزن أو يكيل ،قوبل من التأديب بما هو الطريق الى ارتداعه والسبيل ،قال الله تعالى · (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)(٧٥) .

وامره أن يعرف قدر النعمة التي ضفت عليه برودها، وحلت جيدة عقودها ، وزفت منه الى أوق اكفائها ، وحفت بجزيل القسم من جميع اكنافها وارجائها ، وان يقابلها بالاخلاص في الطاعة يساوي فيه بين ما يبدي ويسر ، وسعي في الخدمة يوفي على كل مجاز ومبر، ويبدأ أمام مايتوخاه بأخذ البيعة لأمير المؤمنين وولى عهده على نفسه وولده ، وكافة الأجناد والرعايا في بلده ، عن نية صفت من الكدر والقذى ووفت للتوفيق بما ضمنت من خذلان البغي ونصرة الهدى ، ويتبع ذلك بالحقوق في كل خدمة ترضى ، والوقوف عند الأوامر الامامية في كل مايؤدي الى الوفاق ويفضي ، وان يحمل الى حضرة امير المؤمنين من الفيء والغنائم ما أوجبه الله تعالى وفرضه ، من غير تأخير لما يجب تقديمه من ذلك ولاتقصير منه فيما يقتضي التلافي والاستدراك : ليأمر أمير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار اليها ، ووجوهه المنصوص عليها ، قال الله تعالى :(واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)(٧٦) .

ثم إن أمير المؤمنين آثر ان يضاعف له من الاحسان ، ما يقتضيه مقاله لديه من وجيه الرتبة والمكان ، وشرفه بما يرفل مـــن حـــلاه في حلل الجمال ، وتكفل له علاه ببلوغ منتهى الآمال ؛ وأبوأه بما أولاه محلا تقصر عن الوصول إليه الأقدام ، وتعجز عن حـــل عراه الأيام ؛ ولقبه بكذا ، واذن له في تـــكنيته عن حضرتـــه ، وتـــأهيله مـــن ذلك لما يتجاوز قدر امنيته ؛ إنافة به على من هو في مساجلته مـــن الاقـــران طالع ، وإضافة للنعمة في ذاك إلى ما اقترن بها فيما هو لشمل الفخر عنده جـــامع ؛ وانفـــذ لواء يلوي به الى الطـــاعة ابـــي الاعناق ، ويحوي به من العز ماانواره وافية الاشراق .

فتلق يافلان هذه الصنيعة الغراء ، والمنحة التـــي اكســـبت زنادك الايراء؛ بالاستبشار التام ، والاعتراف فيها بسابغ الطول والانعام ؛ وأشع ذكر ذلك عند كل أحد ، وأنته في الابـــانة عنه إلى ابعـــد امـــد ؛ واعتمد مكاتبة حضرة أمير المؤمنين متســـميا ، ومـــن عداه متلقبـــا متكنيا ؛ وتوفر على شكر تستدر به صوب المزيد ، وتستحق به إلحاق الطريف من الاحسان بالتليد ، والله تعالى يقـــول : (لئن شـــكرتم لأزيدنكم)(٧٧) .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، والحجة لك وعليك ؛ قـــد أوضـــح لك (فيه) الصواب ، واذل به الجوامح الصعاب ؛ وحباك منه بمـــوهبة كفيلة بخيري البدء والمعـــاد ، وفيه فيهـــا المنى بســـابق الضـــمـــان والميعاد ؛ وضمنه من مواعظه ما هدى به الى كل ما الجني ثمـــره ، وغدا محظيا بما تروق اوضاحه في المجد وغرره ؛ ولم يألك فيه تجملا يكسبك الفخـــر النامـــي ، ويجعـــل ذكرك زينة المحفـــل والنادي ؛ وتقديما ينبيء عما خصصت به من المنح المشرقـــة اللآلي ، واكرامـــا يبقي صيته على تقضي الايام والليالي ، وتبصيرا يقـــي مـــن فلتـــات القول والعمل ويرتقي المستضيء بانواره الى ذرى الامن مـــن دواعي العثار والزلل ، فاصغ الى ما حواه ، اصغاء الفائز بـــأوفى الحـــظ ، وتدبر فحواه ، الناطق بفضـــل الحـــث على الهـــدى والحض ، وكن لأوامر امير المؤمنين فيه محتذيا ، ومن تجاوز محـــدوده في مـــطاويه

محتميا ، وبمواعظه الصادقة معتبرا وفي العمـل بمـا قـارن الحـق مستبصرا ، تفز بالغنم الاكبر وبالسلامة في المورد والمصـدر ، واياك واعتماد ما تذم فيه مكاسبك ، فـان لك بين يدي الله تعـالى مـوقفا يناقشك فيه ويحاسبك .

واعلم ان امير المؤمنين قد قلدك جسيما وخولك جزيلا عظيمـا ، فلا تنس نصيبك من الله تعـالى غدا ، ولاتجعـل لسـلطان الهـوى المضـل عليك يدا ، وان خفـي عليك الصـواب في بعض مـا انت بصدده ، او اعترض فيه من الشبه ما يحول بينك وبين طريق الرشاد وجدده : فطالع حضرة امير المؤمنين به ، واستنجد الله في ذلك بأسد راي و اصوبه ، يبدلك من الشك يقينا ، ويبد لك ما يغدو لكل خير ضمينا : ان شاء الله تعالى .

نص المذكرة التي رفعها ابن العربي الى الخليفة المستظهر بالله العباسي (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠١٤ ـ ١١١٨ م) يلتمس تقليدا خلافيا ليوسف بن تاشفين ، والرد الخلافي مع رد الوزير ابن جهير (٧٨)

الخادم بالأدعية ، تقبلها الله ، ابن العربي الأندلسي .
بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي :

اسعد الله الدنيا وأهلها بدوام انوار المواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية ، وضاعف مددها ولارى المسلمين امدها بغرائب مجد تبدعها حوادث أيام تذلل صعابها ، ومستأنف سعود تحرس جنابها ، ولازالت الأيام التي هي لأيامها غرر ، وفي إكليل الخلافة درر للدهر تمائم ، وفي المحل غنائم ، والحمد لله الذي جعل للمواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية شرائط السواد ، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب ، كابرا عن كابر الى اعلى خندف فهي أعلاها عمادا ، واوراها في مواقف الفضل زنادا ، اورمة الرسالة ، وجرثومة الخلافة ، اليها ينزع هاشم ، وعنها أخذت المكارم ، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل ، وعهد بتخليدها مخبرا عن الوحي في آله وعقبه النبي المرسل قد آمنت بعصمة الله من الغير ، وتحققت أواخرها على سنن، أولها في هداية البشر بحسن السير ، أوزعنا الله الشكر على مامن به من توفيقنا للتمسك بعراها الوثيقة ، والاهتداء بهداها الى واضح الطريقة ، فهم في الدين أمتنا ويوم الدين وسيلتنا ، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي الى مرضاته ومرضاتهم ، انه الموفق الهادي لارب غيره .

وإن الخادم بالأدعية المتقبلة للمواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية ، الهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع ان بيعة الامام العادل من اركان الديانة ،ومما يتعين ما يحتمل من رعاية الأمانة هاجر الى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من اقصى المغارب ،معتقدا أن عمله فضل القرب والرغائب ،واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر ،واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر ،ولم يثنه بحر يزخر ولا فقر يذعر ،يحتسب في ذلك اثره ،ويرجو أن يقيل الله يوم الجزاء عثره ،الى أن انتهى هو وابنه الى مدينة السلام ،لازالت محروسة من غير عاصمة لمن التجأ اليه من مهتضمي الأنام .

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته ، ويتقرب بخلوص علانيته ، ويسأل تشريف رقاعه ، بملاحظتها ، والنظر من انقطاعه رغبة في الحظ الجسيم ، الى ان وصل الى المجلس السامي ، وخدم البساط العالي ، زاده الله تشريفا وتعظيما ، وانهى اغراض وفادته ومقاصد ارادته ، فنفذت الأوامر الشريفة أدام الله سموها وتشريفها واضفى على الجميع ستر سلطانها وكنف احسانها بقبول وسائله والحاح مطالبه ، وافاضة الاحسان عليه .

ولما بسط له في الأمل ، كان هو وابنه في محل الكرامة والجذل ، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، القائم بدعوة مولانا امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى ابائه الطاهرين ، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد ، المتجهز الى المسلمين باستئصال فئة العناد ، وملة الفساد ، قام بدعوة الامامة العباسيةوالناس اشياع وقد غلب عليهم قوم دعوا الى انفسهم ليسوا من الرهط الكريم ، ولامن شعبة الطاهر الصميم ، فنبه جميع من كان في افق قيامه بالدعوة الامامية العباسية ، وقاتل من توقف عنها منذ أربعين عاما الى ان صار جميع من في جهة المغارب على سعتها وامتدادها له

طاعة ، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفقة الجماعة ، فيخطب الآن للخلافة ، بسط الله أنوارها ، وأعلى منارها على أكثرمن ألفي منبر وخمسمائة منبر ، فإن طاعته ، ضاعفها الله من أول بلاد الله الافرنج ، استأصل الله شأفتهم ، ودمر جملتهم الى آخر بلاد السوس مما يلي بلاد الله غانة وهي بلاد معادن الذهب ، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة اشهر ، وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الافرنج وغيرهم قد فللت غربتهم وقللت حزبهم والفت جموعه حربهم ، وهو مستمر على مجاهدتهم ، ومضايقتهم في كل افق وعلى كل الطرق وقد استرجع كثيرا من المعاقل التي استباحها الروم من امور المسلمين وسبت اهلها قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة ، وقد أعادها جده بحمد الله الى اولها ، واحترمت لحرمة المسلمين والاسلام ، وعز سلطانه ، وهذا دابه وهجيراه الذي لاعمل له سواه .

وعدة جيوشه اذا جمعها لحركته ستون الف فارس ، وكان أمله مواصلة حماية دين المسلمين ، واقباله على مجاهدة المشركين ، الا ان الحائل المانع دون ذلك لاتفاقه ، ولم يزل محافظا على ماهو عليه من اقامة الدعوة السعيدة ، الاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله . ولقد وصل الى ديار المشرق في هذا العام قاض من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم ،وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته ،ويؤيد ما شرحته ، وأشاع القاضي المذكور ذلك بمكة ، وصل الله تشريفها وتعظيمها ، وذكر لي أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم ، وحصاره لهم ، وقد تكرر اعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة اولي الأمر لاسيما هذا الأمير ، وقد خص بفضائل منها الدين المتين ، والعدل المستبين ، وطاعة الامام ، وابتدأ جهاده بالمحاربة على اظهار دعوته ، وجمع المسلمين على طاعته ، والارتباط بحماية ثغور المسلمين ، وهو ، ممن يقسم بالسوية ، ويعدل في الرعية ووالله ما في طاعته مع سعتها دان منه ، ولاناء عنه من البلاد ما يجري فيه على أحد من المسلمين رسم

مكس ، وسبل المسلمين آمنة ، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشرب ، مطرزة باسم الخلافة ، ضاعف الله تعظيمها وجلالها .

هذه حقيقة حالة ، والله يعلم اني ما اسهبت ولالغوت ، بل لعلي اغفلت أو قصرت ، ولمولانا امير المؤمنين المستظهر بالله ، صلوات الله عليه وعلى ابائه الطاهرين ، الطول العميم في الأمر ، تشريفه بقبول تأميله ، وفي الاشارة اليه بما يقوي أمره ، ويشد ازره ، ويؤيد سلطانه ، ويعلي شأنه ، مجريا له على السنن الكريم الطول العميم . فوالله ما في الأمراء ولافي شيع النصحاء الأولياء من يجوز في الولاء وصحة الانتماء سبقه ، ولايلبس من النصيحة طرقه ، والله يمنحه من الخلافة المقدسة المبنية على الطرق النبوية ما يصل يده ويقوي أيده ويشد عضده بمنه وطوله .

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعد الامتنان بإباحة الصدر لهما الى الوطن ، فقد بعدا عنه سبعة اعوام واقاما في الجناب المخصب الظليل والكنف الرحب المأهول مدة عامين ، يستدران النعم الحافلة جملا بعد جمل ، ويكرعان في المشارب الجمة العذبة عللا بعد نهل ، فلله الهمام الشريعة التي مسحت على شكايتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرام ، فأزاحت عنهما جميع الشكايات و الآلام وهذه نبذة من الصنائع المشكورة وفلذة من جزيل الأجر عبقة بأرج النشر ، وان الشكر ليقل في جانبها ويقصر عن أنزر لازمها فانها ضمنت حياة نفسين واثرت دفيني رسمين ، فكأنها قد أجبت ضعف الورى ونشرت امثل المستودعين في الثرى فمن أحيا النفس الواحدة(فكأنما أحيا الناس جميعا)(٧٩)وعند الله تعالى كفاء ما أولاه مولانا الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى ابائه الأكرمين من جميل الفعل وجزيل ما آتاه في سبيل الفضل ، والخادم العامر القلب هو وعقبه بالمحبة الناصفة والطاعة الخالصة صادر في جملة الحامدين ويرجو أن لايكون مقصرا عن درجة السابقين ويضرع في وسمه ووسم الملوك

ابنه عين التشريف السـامي ، لازال الفمـم(٨٠)الكرام تيجانا على قسماتهم العـز والكرامـة عنوانا ليعيد حيث جـلا الى النبـاهة ذكرهما ، والي البر والكرامة قـدرهما ، ويظهـر مـزية وفـادتهما ورعاية هجرتهما ويثبت لهما من المفـاخر مـا يحبـذ عليه البـر الموازر ، ويتضاءل له الحسود المكاشر ، ويبقى للشريعة على مـر الأيام ، ويضرع ان يتضـمن التشريف العـزيز بثبـوت اسـمه في الديوان الشريف ضاعف الله علاه ونماه بما خص بـه والمملوك ايسر من الكرامات والنعمة ، وانه متى وفد هو او ابنه المملوك كان للوافد منهما تجددا على مر الأيام مؤكدا مخلدا حسب العـادة الكريمـة له ولسلفه الأكرمين رضي الله عنهم أنهم متى انعموا بنعمة ، أو خصوا بكرامة ومنة ثبتت مؤبدة ، وجددت مخلدة ، وليمتثل بالأمر العـالي والتشريف السامي فيهما جميع مـن يردان عليه في كل الأفـاق مـن جميع الأطباق وامتثالا لما يعد لهمامن الاكرام واحتمالا على ماتأصل بجنبتيهما من التنويه والانعام ، وان ذلك يرثه الخلف منا عن السلف وتكون لنا مزية التشرف بالوصول إلى مهاد العـز المأمـول ، لاأعدم الله مولانا الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين ، صـلوات الله عليه وعلى ابائه المنتجبين مبرة تتضاعف بها المعالي ، وسـعادة تحـرز أسنى الأماني، وكفاية يستمد بها حـرية الأيام والليالي، فـذلك بيده وغير معجزه ، وهو المنعم الجواد ، وكل خير من طـوله مسـتفاد ، لاشريك له ، ولاتوفيق إلا به والحمد لله حق حمده ، وصـلواته على سيد المرسلين رسوله وعبـده وعلى اله الطيبين ، وعتـرته المنتجبين الراشدين ، أباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهـم اجمعين إلى يوم الدين ، (وحسبي الله ونعم الوكيل) (٨١) .

رد الخلافة

فراجعه عنه على ظهره بتوقيع عزيز أعدد أسطره سبعة وثلاثون سطرا بخط فسيح كتابي مليح بين السطر الأول منه والثاني منه العلامة العزيزة بخط أمير المؤمنين بالقلم الغليظ بمداد ممسك «المستظهر بالله»:

عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة، ومواقف الامامة المطهرة المكرمة ، زاد الله في جلالها وسبوغ ظلالها ، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولي الذي أضحى بحبل الاخلاص معتصما ولشرطه ملتزما ، وإلى اداء فروضه مسابقا . وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق مساوقا ، لاريبة في اعتقاده ، ولاشك في تقلده من الولاء ، طويل نجاده ، إذ كان من غدا بالدين تمسكه ، وفي الزيادة عنه مسلكه ، حقيقيا بأن يستتب صلاح النظام على يده ، ويستشف من يومه حسن العقبى في غده ، وافضل ما نحاه ، وعليه من الاجتهاد دار رحاه ، جهاد من يليه من الكفار وإتيان ما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار ، اتباعا لقوله تعالى : (الذين يلونكم من الكفار)(٨٢) فهذا هو الواجب اعتماده ، الذي يقوم به الشرع عماده ، وان يؤلف شمل من في جملته من الأجناد على الطاعة الامامية التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى ، واستقراء قوله تعالى والعمل به ، والبدار إلى التشبث بسببه (يا أيها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم) .(٨٣) .

وليكن دابه الجهاد فيما يكسب عند الله تعالى الزلفى ، ويمنحه من رضاه القسم الاكمل الأوفى ، « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » .(٨٤) وأن يختص رافعها وولده بالارعاء الذي يضفو عليهما برده ، ويصفو لهما ورده ، ليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر ويؤول امرهما فيما يرجو انهما إلى استقامة النظام وضم النشر ،

فليقابل الأمر الأسنى في ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال إن شـــاء الله .
وكتب في رجب سنة إحدى وتسعين واربعمائة .

من الوزير الأجل السيد الأعدل ، عميد الدولة بهذه الملة ، شرف الأمة ، ولي النعمة ، خلاصة أمير المؤمنين محمد بن محمد بن جهير ، إلى أمير المسلمين ، ومناصر الدين ، القائم بدعوة أمير المؤمنين ، أزكى الرغائب بأرض المغارب ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، أطال الله بقاءه ، ومدته ، وضاعف بسطته ، وكبت أعداءه ، وحسدته ، أمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابي من حضرة مولانا أمير المؤمنين ، أبي العباس ، المستظهر بالله ، ادام الله ايامها ، واوضح أعلامها ، واعز انصارها ، وأعلى منارها ، الأحوال مستقيمة بإقبال دولته ، منتظمة بيمن تدبيره وسياسته ، تجري على افضل ما عودها الله تعالى من نفاذ الأمر ، ومضائه ، وانبساط السلطان واعتلائه ، ونحن مقابلون نعمته بالشكر ، والاعتراف ، مستديمون مددها بالعدل ، والانصاف ، متحققون إجابة رغبتنا في توفيق اولياء مولانا المخلصين ، وأهل الطاعة من كافة المسلمين لما يقرب من طاعته ، ويوزع شكر نعمته ، السابغة عليهم بولايته ، فلقد استخلف عليهم عنه اكرم مستخلف وعطف عليهم بولايته افضل مستعطف ، فأصبح وقد أطاعته الأمة العاصية وامكنته الغايات فذلل الصعب وراب الشعب ، وقرب النازح ، وارضى الجامح ، وقوم المائد وأصلح الفاسد ، وأعاد معالم الحق عامرة بعد دثورها ، ومشاربه صافية بعد ركودها وبضائع الخير نافقة بعد كسادها واحوال الأمة صالحة بعد فسادها ، مبتغيا فيما أتاه الله مصلحة أخراه ، غير ناس نصيبه من دنياه ، طامحا بطرفه إلى أعلى الدرجات ، في داريه ، أخذا بأفضل الاقبال في حاليه ، فلباس التقوى شعاره ، والعمل الصالح دثاره ، نهاره مقسوم بين تلاوة القران وإقامة إحسان ، وغوث مكروب ، وفك عار محروب ، وسد ثغر ، وصلاح أمر ، وتدبير شرق وغرب ، وبر وبحر ، فأعين الرعية قائمة بشهادته ، وانفس البرية مستريحة

باجتهاده ، ولاجرم أن الله يصلح باله ويحسن ماله تصديقا لما قال جل جلاله : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما)(٨٥) وحقيق لمن جمعت فيه هذه الأخلاق الطاهرة ونطق القرآن بأمانته الباهرة فإن الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا)(٨٦) فالحمد لله الذي أنجز لأمير المؤمنين ما وعده وحقق له التمكن وأيده وأمن السبل بخلافته ، وأقام الحق بإمامته ، وسخر له من أوليائه من تنفذ بطاعته أوامره ، ويؤازره على فعل الخيرات ويضافره وينشر رحمته ودعوته ، ويظهر سعده وكلمته ، وينتهي إلى ما فرض سبحانه عليه من طاعة ولاة الأمر المقترنة بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم إذ يقول تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)(٨٧). استمناحا لنعم الله التي لاتحد ، واستمدادا من عوارفه التي لاتنفد ، ولما كان الأمير أطال الله بقائه ، وأدام تمكينه ورفعته وسموه وسلطته ، وكبت عدوه وحسدته ممن صح عنده خلوص عقد ولايته ولزوم طاعته لأمير المؤمنين والعزوف عن أعدائه وإظهار العدل في الرعية ، فخرا بآرائه وتمسكا بما أمر الله تعالى به من مجاهدة أعدائه وتحريض عساكر الاسلام على مجاهدة عدوهم وبذل نفوسهم ومشاركته لهم في نعيمهم وبؤسهم ، وما فتح الله لأمير المؤمنين على يده من ثغور الاسلام بجزيرة الأندلس وما جاورها مما كان العدو قد تغلب عليه واستباحه ، واستأصل شأفته واجتاحه عند اختلاف الخوارج بها وتباين مقاصدهم وعدولهم عن الواجب في مصادرهم ومواردهم ، أنهيت إلى المواقف المقدسة العلية الشريفة النبوية المستظهرية زاد الله في جلالها وامتداد ظلالها هذه الجملة فخرج من الشكر للأمير أطال الله بقاءه وأعلاه وأحمد طرائقه وحسن سيرته وجميل مقاصده والدعاء بمثابرته على جهاد عدو المسلمين وتصديق ما جاء به عن سيد المرسلين « لايزال أهل الغرب

على الحــق ظــاهرين » وذلك لنصــوع عقــائدهم في خلوص اليقين واقترار مذهبهم على صحة الدين ، على يد الشيخ الفقيه أبي محمــد عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي وابنه الفقيه أبي بكر محمــد أدام الله عزتهما ما يزدهي به الغافر وتتأرجح بــه ســطور الدفــاتر وتنتعش به جدود العواثر ، ولقد بالغ هذا الفقيه وولده في الثناء على الأمير وأطنبا في وصف ما يعتمــده مــن لزوم قــوانين العــدل والانصـــــــــــــــــــــــــاف ، ومجانبة طرق العسف والاعتساف ، ولما كان رأينا في هذه الطــائفة التي تأخذ في الحــدود الشرعية بقــولها وتســتوصي في الســياسة السلطانية برأيها ، جميلا ، وتميزنا بالبر لمن انســنا منه الطـريقة القويمة وجنوحنا إلى من عرفناه بصــدق العــزيمة ، شــكرنا لأمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، اقتداء بهذه الطائفة في أرائه ورجوعا إلى قولهم في الحالة ، أخذا بأراء المواقف المقــدسة زادهــا الله مضــاء وامتثالا لقصدها ، وكذلك هــذا الفقيه وولده المقــدم ذكرهمــا ممــا شاهدنا من خلالهما وحسن هديهما بما يقتضي تقريبهما وأدناهما ، فرايناهما واعتمدنا برهما وإكرامهما وأصدرنا هذه الجملة القاضية باحلال الأمير محله المنيف على استحقاقه الاجلال والتشريف نظرا لمقالهما وإحسانا ، وتعطفا عليهما وامتنانا ، فليعتمد الأمير أطال الله بقاءه مصالح امورهما ، وليتوخ ما تعود بــاستقامة شــؤونهما وليولهما حسن موقع النيابة عنه وليبدلهما صــفحة الاقبــال بمنه ، وليلزم تقوى الله فيما يجري من الأمور على يديه وليراقبــه تعــالى فيما فرض من أحوال الرعية إليه ، وليعلم أن المصير والمرجــع إليه ويطالع بأخباره وما احتاج إلى علم من بجهته إن شاء الله ، وكتــب في عشر من رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة والحمــد لله وحــده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الخطاب الذي وجهه ابن عربي الى حجة الاسلام الامام الغزالي ورد الغزالي عليه ، مع رسالة بعث بها الغزالي الى يوسف بن تاشفين(٨٨)

قال ابن العربي .

وكان من اشهر من لقينا من العلماء في الآفاق ، ومن سارت بذكره الرفاق ، لطول باعه في العلم ورحب ذراعه ، الامام ابو حامد ابن محمد الطوسي الغزالي ، فاستدعينا منه فتيا وكتبا ، اختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها ، لكن أنبه على معناها وهو في علم الامام ماذكر في وصف خلال امير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين امير المغربين الأندلس والعدوة ، وما اوضحت لديه من إعزاز الدين ، والذب عن المسلمين وهو حميري النسب وقبيله المرابطون ، قد وقفوا انفسهم على الجهاد . وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة اربعمائة ، عدة ثوار تسوروا على البلاد وضعف أهلها عن مدافعتهم ، وتلقبوا بالقاب الخلفاء ، وخطبوا لأنفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم ، واثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه ، واستنابوا الفساق من الأرقاء ، والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضا واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه احق من صاحبه ، وعند ذهاب شوكة المسلمين ، وحينما انكشف للنصارى ضعف المسلمين ، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين . طلبوا المعاقل واخذوا بالحرب كثيرا منها من غير مؤونة ولامشقة ، ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم امير المسلمين ووصل إلى البحر . فاستوقف بعض الرؤساء وفاء للمشركين ، وحنقا على المسلمين في استدعائهم له ، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله النصر ،

وألجم الكفار السيف ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح ، فتهيبه العدو ، وتحصن منه ، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه ، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء ، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء عن البلاد والمعاقل وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس ، حالفوا النصارى أو صاروا معهم إلبا ، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد ، والدخول في بيعة الجمهور ، فقالوا لاجهاد إلا مع إمام من قريش ، ولست به ، أو مع نائبه عن إمام وما أنت ذلك ، فقال أنا خادم الامام العباسي ، فقالوا له أظهر لنا تقديمه إليك ، فقال أوليس الخطبة في جميع بلادي له ؟ فقالوا ذلك احتيال ، ومردوا على النفاق . فهل يجب قتالهم ؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم ؟ وهل على مسلم حرج في قتالهم ؟ وهل على الامام العباسي أن يبعث له بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم ، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه وهو يخطب له على اكثر من الفي منبر ، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك . ومتى وصف نفسه قال : لست مستبدا ، وإنما أنا خادم امير المؤمنين المستظهر ، وهذا اشهر من أن يؤكد بالتحلية ، واظهر من أن يجدد بالتزكية .

فللشيخ الامام الأجل الزاهد الأوحد ابي حامد اتم الأجر ، وأعم الشكر في الانعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله
فأجاب الامام الغزالي رضوان الله عليه :

لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى مع شهادته عن غيره ، وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم ، من سيرة هذا الأمير اكثر الله في الأمراء امثاله ، ما أوجب الدعاء لأمثاله . اصاب الحق في إظهار الشعار الامامي المستظهري ، حرس الله على المستظهرين ظلاله ، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من اقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للامام الحق ، وإن لم يكن قد بلغهم صريح التقليد من الامام او تأخر عنهم ذلك لعائق . وإذا نادى الملك المستولي

بشعار الخلافة العباسية ، وجب على كل الرعايا والرؤساء الاذعان والانقياد ، ولزمهم السمع والطاعة وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الامام ، ومخالفته مخالفة الامام وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة ، فحكمه حكم الباغي ، وقد قال الله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله)(٨٩)والفيئة إلى أمر الله ، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الامام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية فكل متمرد على الحق ، فإنه مردود بالسيف إلى الحق ، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين اوليائهم ، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله ، فمن اعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية .

ومهما تركوا المخالفة ، وجب الكف عنهم ، وإذا قاتلوا ، لم يجز ان يتتبع مدبرهم ، ولاان يذفف على جريحهم بل مهما سقطت شوكتهم وانهزموا ، وجب الكف عنهم أعني عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لايبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين . وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم او على وريثهم ، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لاضمان فيها ، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة ، حكم الباغي على نائب الامام .

فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال ، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من اقطار الأرض ، في أن يخطب عليه ، وينادي بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل والنصفة ، ولاينبغي أن يظن بالامام توقف في الرضا بذلك والاذن فيه .

وإن توقف في كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن إنشائها

وإيصالها المعاذير ، وأما الاذن والرضى بعدما ظهـر حـال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين ، فلا رخصة في تركه وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهورا لايشك فيه وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق ، وكانت هذه الفتنة لاتنطفيء إلا بأن يصل إليهم صريح الاذن والتقليد بمنشور مقرون بما جـرت العادة بمثله في تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك . فإن الامام الحق عاقلة أهل الاسلام ، ولايحل له ان يترك في اقـطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن . قال عمر رضي الله عنه « لو تركت جرباء على ضفة الفرات لم تطل بالهناء ، فـأنا المسؤول عنها يوم القيامة » . وقال سليمان بن عبد الملك يوما وقـد احدق به الناس : « قد كثر الناس » . فقـال عمـر بـن عبـد العزيز « خصماؤك يا أمير المؤمنين » ، يعني انك مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو اقمته . فلا رخصة في التوقف عن إطفاء الفتنة في قرية تحوى عشرة . فكيف في اقاليم واقـاليم إلا ان يعوق عن ذلك عائق ، ويمنع منه مانع المواقف القدسية الامـامية المستظهرية حرس الله جلالها ابصر بها . ونحن نعلم أن لانسـتجيز التوقف على إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على اهل الغـرب ان لايعتقدوا في حضرة الخـلافة إلا ذلك ، فإن المسـافة إذا بعـدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق ، لم يبعد ان يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد اليها أعين أعداء الدولة فضلا عن أيديهم.

وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمير قـد ظهرت شوكته وعرفت سياسته ، وتناطقت الألسن بعدله ، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه ، ويسد في هذا الحال مسده ، فهـذا اعتقاد فاسد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصـور ، أو تقتضي في نصرة أهل العدل المتمسكين بخـدمتها ، والمعتصـمين بعروتها ، القائمين في اقطار الأرض بإنفـاذ شـعائرها وأوامـرها المعلومة بقرائن الأحوال ، فهذا حكم كل أمير عادل في اقطار الأرض وحكم من بغى عليه ، والله اعلم .

رسالة الغزالي الى يوسف بن تاشفين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وسائر النبيين وعلى اله واصحابه اجمعين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل خير من عباده سبعين سنة »... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم"سبعة يظلهم الله بظله يوم لاظل إلا ظله"، وعد الامام العادل أولهم ، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الاسلام وناصر الدين ظهير أمير المؤمنين من المستظلين بظل عرشه يوم لاظل إلا ظله فإنه منصب لاينال إلا بالعدل في السلطنة ، وقد اتاه الله السلطان وزينه بالعدل والاحسان ولقد استطارت في الأفاق محامد سيره ومحاسن اخلاقه على الاجمال حتى ورد الشيخ الفقيه الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي الاشبيلي حرس الله توفيقه فاورد من شرح ذلك وتفصيله ما عطر به ارجاء العراق ، فانه لما وصل إلى مدينة السلام وحضرة الخلافة لم يزل يطنب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الاندلس من الذل والصغار والحرب والاستصغار بسبب استيلاء اهل الشرك وامتداد ايديهم إلى الاسلام بالسبي والقتل والنهب ،وتطرقهم إلى اهتضام اهل الاسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالامارة ، وتقاتلهم على ذلك حتى اختطف من بينهم حماة الرجال بطول القتال والمحاربة والمنافسة ، وأفضى الأمر بهم إلى الاستنجاد بالنصارى حرصا على الانتقام.إلى أن اوطنوهم بيضة الاسلام،وكشفوا إليهم الأسرار حتى اشرفوا على التهائم والأغوار فرتبوا عليهم الجزاء وجزوهم شر الجزاء ، ولما استنفدوا من عندهم الأموال أخذوا في نهب المناهل وتحصيل المعاقل ،

واستصرخ المسـلمون عند ذلك بـالأمير ناصر الدين وجـامع كلمـة المسلمين ظهير أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين ليأسهم عن مداراة المشركين ، فلبى دعوتهـم ، وأسرع نصرتهـم وأجـاز البحر بنفسه ورجاله وماله ، وجاهد في الله حق جهاده ، ومنحه الله تعالى استئصال شافة المشركين والافراج عن حوزة المسلمين جزاه الله تعالى أفضل جزاء وأمده بـالنصر والتمـكين ، وذكر متـابعته العدوة إلى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشـهورة ، وقتل كل من ظهر من النصارى بـالجزيرة المذكورة مـن الخـارجين لامداد ملوكها على عادتهم أو من سراياهم في أي جهـة يممـوا مـن جهات المسلمين وقذف الله الرعب في قلوب المشركين حتى أغناه ذلك عن جـر العسـاكر والجنود وعقـد الألوية والبنود ، وذكر أن أولئك الثوار لما أيقنوا قـوة الأمير ناصر الدين وغلبتـه لحـزب المشركين وسألهم رفع المظالم عن المسلمين التي كانت مـرتبة عليهـم لجـزية المشركين وإمدادهم بها لهم مداراة لبقاء إمرتهم عادوا إلى ممـالاة المشركين والقوا إليهم القول في جهـة الأمير وجـراوهم على لقـائه، وصح ذلك عنده وعند المسـلمين ، فسـأله المسـلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد وتداركها ومن فيها مـن المسـلمين قبـل أن يسري الفساد ، ففعل ذلك ، ولما تملكها ورفع المظالم واظهر فيها من الدين المعالم وبدد المفسدين واستبدل بهم الصالحين ورتب الجهـاد وقطع مواد الفساد ، ثم أضـاف إلى ذكر ذلك مـا شـاهده مـن تلك السجية الكريمة في إكرام أهل العلم وتوقيره لهم ، وتزينه بإسـمهم واتباعه لما يفتون إليه من أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه وحمله عماله على السمع والطاعة ، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقـديمة بالخطبة لأمير المؤمنين أعز الله أنصاره ، وإلزامه للمسلمين البيعة ، وكانوا من قبل منكبين عن البيعة ، والنداء بشعار الخليفـة إلى غير ذلك مما شرحه من عجائب سيرته ومحاسن أحواله ومكارم أخلاقه ، وكان منصبه في غزارة العلم ورصـانة العقـل ومتـانة الدين تقتضي التصديق له في روايته ، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته ، ومـا أفاضه من هذه الفضائل إلى حضرة الخـلافة أعز الله أنصـارها ،

فوقع ذلك موقع الاحماد ، ثم ذكر مع ذلك توقف طـائفة مـن الثـوار الباقين في شرق الأندلس عن مشايعة الأمير ناصر الدين ومتـابعته ، وأنهم حالفوا النصارى واستنجدوا بهم فأعلن المسـلمون بـالدعاء عليهم والتبرؤ منهم ليتوب عليهم أو ليقطع شافتهم •

وكتب هذا الشيخ سؤالا على سبيل الاستفتاء ، وافتيت فيه بمـا اقتضاه الحق واوجبه الدين واعجلني المسـير الى سـفر الحجـاز وتركته مشمرا عن ساق الجـد في طلب خـطاب شريف مـن حضرة الخلافة يتضمن شكر صـنيع الامير ناصر الدين في حمـايته لثغـور المسلمين ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب اليه ليكون رئيسـهم ورؤوسهمتحت طاعته ، وان من خالف امره فقد خـالف امـر امير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسـلمين ولم يبالغ احد في بث مناقب قوم مبالغة الشيخ الفقيه ابـي محمـد في بث مناقب الامير واشياعه المرابطين ، ولقد شاع دعاؤه في المشـاهد الكريمة بمكة حرسها الله لحضرة الأمير وجماعة المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه الى ان كلف جميع من رجا بركة دعائهم الدعاء في تلك المشاهد الكريمة ، والمناسك العظيمة واعلن بالدعاء لأمير بلده الأمير الاجل ابي محمد سير بن ابي بكر وفقه الله تعالى وذكر مـن فضله وحسن سيرته وتلطفه بالمسلمين ورفع جميع النوائب عنهم ما جهر به الى النفوس.ولقد دعي الشيخ الفقيه الى المقام ببغـداد على البر والكرامة والاتصال باسباب تشرف بها من حضرة الخلافة فأبى الا الرجوع الى ذلك الثغر يلازمه للجهاد مع الامراء وفقهم الله تعالى

ولو اقام لفاز بالحظ الاوف من التوقير والاكرام ، وما اجدر مثله بأن يوفي حظه من الاحترام وولده الشيخ الامام ابو بكر قد احرز من العلم في وقت تردده علي مالم يحرز هـمع طول الامـد ، وذلك لما خص به من نقاية الذهن ، وذكاء الحس واتقاد القريحة ، وما يخرج مـن العراق الا وهو مستقل بنفسه حائز منصب السبق بين اقرانه.ومثـل هذا الوالد والولد قمن بالاكرام في الوطن ، وقد تميز بمزاية التـوفيق من الاعيان في الغربة ، والله يحفـظ مـن حفـظهما ويرعى مـن رعاهما ، فرعاية امثالهما من اداب الدين المعينة على امير المسلمين

وقد قال المحسنون : فليستوص من ظفر بهـم منهـم خيرا ، وكم دخل قبلهما العراق ويدخل بعدهما من تلك البـلاد النائية ومـا يذكر محاسنهما ولا يدفع مساويهما . وقد انتهى الشيخ الفقيه مـن ذلك الى مالا يمكن ان يلحق ثناؤه فضـلا عن ان يزاد عليه والله تعـالى يعمر بهما اوطانهما ويصلح شانهما ويوفق الامير ناصر المسـلمين ليتوسل الى الله تعالى في القيامة باكرام اهل العلم فهي اعظم وسيلة عند رب العـــالمين.ونســـأل الله ان يخلد ملك الامير ويؤيده تخليدا لاينقطع أبد الدهر،ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء وتسـتمطر لملك العباد التأييد والبقاء، وليس كذلك فان ملك الدنيا اذا تـزين بـالعدل فهو شبكة الاخرة ، فالسلطان العادل اذا انتقل من الدنيا انتقل مـن سرير الى سرير اعظم منه ومن ملك الى ملك اجل وارفـع منه(واذا رايت ملكا ثـم رايت نعيمـا وملكا كبيرا) (٩٠) مهمـا وفي العـدل في الرعية والنصفة في القضية فقد خلد ملكه وايد سلطانه ، وقد وفـق له بحمد الله ومنه. والحمد لله رب العالمين وصلوات على سيدنا محمـد خاتم النبيين واله اجمعين.

رسالة من الامام الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك الى يوسف بن تاشفين (٩١)

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشي الى الامير ابي يعقوب بن تاشفين سلام عليك

اما بعد ، فاني احمد الله اليك الذي لااله إلا هو ، واشكره لديك كثيرا كما هو اهله ، واخصك من مواعظه وحكمه ما إن اخذت بـه نجوت من عظيم ما ركبت إن شاء الله تعالى ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الله سبحانه: "ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق» ، (٩٢) ، الى قوله« يوم الحساب» ، قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: اتعلمون من الخليفة؟ الخليفة هو الذي يقضي بكتاب الله ، ويشفق على الرعية شفقة الرجل على اهله.

وقال سبحانه وتعالى :"الذين إن مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر"(٩٣) الخ ، فمن مكنه الله في الأرض، واتاه الله سلطانا ولم يفعل ما امر الله تعالى به في هذه الآية ، خفنا أن لايكون من اهلها ، لأن الله تعالى وصف هذه الأمة ، اذا فتح الله تعالى عليهم الأرض واهلك عدوهم ، باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وامر بالمعروف ونهي عن المنكر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من احد يلي عملا-او قال سلطانا-إلا اهتز به الصراط حين يركبه حتى يزول كل عظم عن

حقه ،فإن كان محسنا نجا ، وإن كان مسيئا هوى سبعين خــريفا ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخــطاب رضي الله عنه قــال . ومــن يرغب في العمل بعد هذا ؟ قال له أبو ذر رضي الله عنه : مــن ســلب الله أنفــه وأصعر خده .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما مــن وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا حــرم الله تعــالى عليه الجنة . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس عمــه لما قال له أمرني على امارة ، فقــال له رســول الله صــلى الله عليه وسلم : يا عباس ياعم رسول الله ، نفس تحديهــا خير مــن امــارة لاتحصيها ، إن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لاتكون أميرا فافعل .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وســلم قــال : الا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ومســؤول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهــي مســؤولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ، الا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، ولقد بلغ هذا من نفــوس الصــحابة والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين مبلغا ذهلت له عقولهم وطــاشت حلومهم ، فروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بــطريق مــكة فأبصر راعيا يرعى بمكان جدب فناداه : أيا راع ، قد رأيت مكانا هو أخصب من مكانك فالحق به ، ثم قال : كل راع مسؤول عن رعيته .

وقال علي رأيت عمر بن الخطاب يغدو على قتب فقلت : الى أين ؟ فقال : بعير من ابل الصدقة قد ند وأنا أطلبه ، فقلت : اذللت الخلفاء بعدك يا أمير المؤمنين ، فقال : لاتلمني يا أبا الحسن ، فوالذي بعــث محمدا بالنبــوة لو أن سخلة ذهبت بشاطىء الفرات لأجد بها حسرة يوم القيامة ، الا إنه لاحرمة لوال ضيع المسلمين .

يا أبا يعقوب ، لقد بليت بأمر لو حملته السموات لانفــطرت ، ولو حملته النجــوم لانكدرت ، ولو حملتــه الأرض والجبــال لتــــزلزلت

وتدكدكت ، إنك حملت الأمانة التي عرضت (على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها)(٩٤) .

فروي أن ادم صلوات الله عليه ، لما استخلفه الله تعالى في الأرض على ذريته وما فيها من الأنعام ، وعهد اليه عهودا أمره فيها ونهاه ، فقام فيها بأمر الله سبحانه الى أن حضرته الوفاة ، فسأل الله سبحانه ان يعلمه من يستخلفه ويقلده من الأمانة ما قلده ، فأمر أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ، ومن العقاب إن عصا ، فأبين أن يقبلنه شفقا من عقابه ، ثم أمره أن يعرضه على الجبال والأرض فأبينه ايضا ، ثم أمره أن يعرضه على ولده فقبله ولده على شرط أن له الثواب إن أطاع ، والعقاب إن عصا ، فوبخه الله تعالى على مسارعته الى قبول ذلك ، فقال:« وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا» (٩٥) بعقابه وماتقلد لربه وكان الغرض تخييرا لا ايجابا.

وروي ان عمر بن عبد العزيز لما افضت اليه الخلافة ، سمعوا في منزله بكاء عاليا ، فسئل عن البكاء فقيل : إن عمر خير جواريه ، وقال : قد نزل بي أمر شغلني عنكن ، فمن أحبت أن أعتقها عتقتها ومن أحبت أن أمسكها لم يكن لهانصيب مني ، قال : فبكين يأسا منه ، ثم دعا أفاضل المسلمين في زمانه ،وعلماءهم في وقته : سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : اني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا علي ، فعد الخلافة بلاء ، وأنت ونظراؤك تعدون هذا البلاء نعمة ، فقال له سالم بن عبد الله : يا أمير المؤمنين ، إن أردت النجاة من عذابها فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت ، وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أبا وأوسطهم عندك اخا وأصغرهم ولدك ، فوقر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة :إن أردت النجاة من عذاب الله احب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت متى شئت .

واني لأخاف عليك اشد الخوف ، فاتق الله يا ابا يعقوب في امة

محمد الله ، فإن لك مع الله تعالى موقفا يسائلك فيه عنهم شخصا شخصا ،ذكرا وانثى ، صغيرا وكبيرا ، حرا وعبدا ، مسلما وذميا ، فأعد لذلك المقام كلاما ، ولذلك السؤال جوابا ، فالذي نفسي بيده إن ذلك (لحق مثل ماانكم تنطقون) (٩٦) .

روى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما منكم من أحد إلا ويخلو بربه ليس بينه وبينه ترجمان ، ولاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة : عن عمره فيما افناه ، وعن شبابه فيما ابلاه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه ، وماذا عمل بما علم .

واعلم يا ابا يعقوب انه لايزني فرج في ولايتك وصدى سلطانك وطول عمرك إلا كنت المسؤول عنه والمرتهن بجسريرته ، وكذلك لايشرب فيها نقطة مسكر إلا وانت المسؤول عنها ، ولاينتهك فيها عرض امرىء مسلم إلا وانت المطالب به ، ولايتعامل فيها بالربى إلا وانت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ، وكل حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى فعدتها عليك ، لانك قادر على تغييرها ، فأما ما خفي من ذلك ولم يكن ظاهرا يراه المسلمون فأنت المبرأ منه إن شاء الله تعالى ، الا ترى الى عمر بن الخطاب كيف اشفق أن يطالبه الله ببعير من إبل الصدقة ، وانما هو البعير للمسلمين ، فركب على بعيره وجعل يطلبه بنفسه ، ولاعذر لك عند الله تعالى أن تقول : لم يبلغني فإنك اذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه ، قال الله تعالى :"كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون" (٩٧) من تركهم الانكار ، وانما قاله لقوم سخط عليهم ، هذا بين الأكفاء والنظراء ، فما ظنك بين الولاة والأمراء . قال الله سبحانه :" يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولايظلم ربك أحداً" (٩٨) جاء في التفسير:الصغيرة التبسم،والكبيرة الضحك.

ولقد بلغني ان عبد الله العمري لما حج لقي هارون الرشيد في الطواف فقال : يا هارون فنظر اليه الرشيد فعرفه فقال : لبيك يا

عما ه ، فقال : كم ترى ها هنا من خلق ؟ قال : لايحصيهم إلا الله تعالى ، قال : فاعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه وانت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ، فبكى هارون الرشيد بكاءا شديدا فجعلوا يعطونه منديلا يمسح به دموعه ، قال له: والله يا هارون أن الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرع في مال المسلمين؟

ولما دخل طاووس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال . يا أمير المؤمنين هل تدري من أشد الناس عذابا يوم القيامة ؟ قال سليمان : قل فقال : أشد الناس عذابا يوم القيامة ، من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه ، فاستلقى سليمان بن عبد الملك على سريره باكيا حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه : إن الملك اذا ملك زهده الله في ماله ، ورغبة في مال غيره ، وأشرب قلبه الاشفاق من الفقر ، فهو يسخط على القليل ، ويحسده على الكثير ، حتى اذا قضى الله نحبه حاسبه بأشد حسابه وأقل عفوه.

فاحذر يا ابا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والأرض فلا يكون لك فيها موقف قدم ، عاذنا الله واياك من هذا الموقف ، ولقد بلغني يا ابا يعقوب انك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين ، واتخذت دونهم حجابا ، وان طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك ، كانك لم تسمع قول الله عز وجل :« ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق»(٩٩) قال الحسن: لا والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الحجب ، ولايغدى عليه بالجفان ولايراح عليه بها ، ولكنه كان بارزا ، من أراد أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه ، وكان يجلس بالأرض ويوضع طعامه في الأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويردف عليه عبده ، ويلعق اصابعه ، وكان يقول : من رغب عن سنتي فليس مني ، قال الحسن: فما اكثر الراغبين عن سنته التاركين لها.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ درته ويمشي في

الأسواق ، ويتفقد أمور رعيته ، وكان يعس ليلا في سكك المدينة مع عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة رضي الله عنهم يحفظون عورات المسلمين ،فروي عنه أنه استعمل سعد بن ابي وقاص على الكوفة ، فبلغه أن سعدا اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، وقال انقطع التصويت ، فأرسل اليه محمد بن مسلمة وقال : اذا رأيت سعدا فأحرق عليه بابه ، فأتى الكوفة وأخرج زنده واستورى ناره ثم احرق الباب ، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن مسلمة : تفعل ما أمرتك به وتورى عنك القول .

يا أبا يعقوب ! ولقد بلغني انك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها ، فلبست الناعم ، واكلت اللين ، وتمتعت بلذاتها وشهواتها كأنك لم تسمع قول الله عز وجل "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها"(١٠٠)أو لم تسمعه سبحانه يقول لنبي الله صلى الله عليه وسلم :"ولاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه"(١٠١) .

ولقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة ، ما توقد في بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، قيل فما كان عيشكم ؟ قالت : الأسودان ، التمر والماء.

ولقد روي أن فاطمة رضي الله عنها قالت : خبزنا من شعير فجئت منه بكسرة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يافاطمة ؟ فقلت : رغيف خبزته يا رسول الله ، ولم تطب نفسي أن أكله حتى اجيك بهذه الكسرة ، فقال : اما انه أول طعام دخل جوف ابيك منذ ثلاثة أيام ، هذا لو شركوك في خفض العيش لنهيت عنه ، لان الله تعالى اخذ على الائمة مثل ما روي عن يوسف صلى الله عليه وسلم انه كان يأكل الشعير ، ويطعم الخشكار ، ويطعم المسلمين الحواري ؟ وكان يجوع نفسه ، فقيل له : أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ : فقال اخاف أن أشبع فأنسى الجائعين .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما افضت اليه الخلافة قال: إني انزلت نفسي في مال الله سبحانه بمنزلة ولي اليتيم ، إن

استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بـالمعروف ، وروي عنه أنه قال : أخبركم بما يحل لي من مال الله سبحانه ، استحل منه حلتي ؛ حلة الشتاء ، وحلة القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر ، وقـوتي وقـوت عيالي ، كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ، ثـم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصـابهم ، فـكيف والفقـراء ببابك يتضاغون وذوو الحاجات يترددون ، وأهل الديون والغـرم في السجون محبوسون مأسورون ، وأموال المسلمين تحـت يديك ، وفي قبضتك ، أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مـن ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلا فعلينا ، أما سمعت قول الله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) (١٠٢) الآية إلى قوله الغارمين

يا أبا يعقوب ! إنه قد كبرت السن وانحلت القـوى (واشـتعل الراس شيبا)(١٠٣) وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجـاءت الآخـرة مقبلة ، وحان الفراق «والتفت الساق بالساق»(١٠٤) .« وجاءت سـكرة الموت بالحق»(١٠٥) . فالبدار البدار الى حياة لاموت فيها وشـباب لاهـرم معه ، وصحة لا سقم فيها. قال الله تعالى:"ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)(١٠٦) الى قوله: « ومـن فضله».

يروى عن ابن عباس أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قـال : لما أصيب إخوانكم يوم احد ، جعل الله ارواحهم في أجـواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش ، فلمـا رأوا طيب مقيلهـم ومطعمهم ومشربهم ، ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامـة ، قـالوا : ياليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعيم ، ومـا صـنع الله بنا ، كي يرغبوا في الجهاد ولاينكلوا عنه . فقـال الله تعـالى : أنا مخبـر عنكم ، ومبلغ اخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، فأنزل الله تعالى ولاتحسبن الذين قتلوا في سـبيل الله أمـواتا بـل احياء) ـ الآية. وقال جل من قائل :(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأمـوالهم بأن لهم الجنة) (١٠٧) الى قوله:« الفوز العظيم» ، فما ظنك بتجـارة الله مشتريها يوشك والله أن لاتبور.

وقال جل من قائل :(يا ايها الذين امنوا هــل ادلكم على تجــارة تنجيكم من عذاب اليم) فلو قطع هنا لانقطعت الاعيان في البحـث عن هذه ، لأن الله بفضله وكرمه بين مراده من ذلك ، فقال :"تؤمنون بالله ورسوله" الى قوله"إن كنتم تعلمون" (١٠٨) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« مثل المجـاهد في سـبيل الله كمثل الصائم القائم لا يفتر من صلاة ولاصيام حتى يرجع ».

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تـكفل الله لمن جاهد في سبيل الله لا يخرجه مـن بيتـه إلا الجهـاد في سـبيل الله وتصديق كلمته ان يدخله الله الجنة أو يرده الى مسكنه الذي خـرج منه مع ما نال من أجر او غنيمة » وقال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم :« لولا أن أشـق على أمتـي لأحببـت أن لاأتخلف عن سرية تخرج في سبيل الله ،ولكني لاأجد ما أحملهم عليه ، ويشق عليهـم أن يتخلفوا بعدي ، والذي نفسي بيده لوددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فـأقتل ، والذي نفسي بيده لايكلم أحـد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سـبيله ، إلا جـاء يوم القيامـة وجرحه يثغب دما : اللون لون الدم والريح ريح المسك ».

وقال انس بن مالك : استشهد عمي يوم أحـد وكان قـد غاب عن بدر فقال يا رسول الله : إن اشهدني الله قتـال المشركين ليرين مـا اصنع ،فلما كان يوم أحد قال : إني لأجد ريح الجنة من دون أحـد ، قال : فما استطعت يا رسول الله ما اصنع،فوجدنا بضـعا وثمـانين ضربة بالسيف او طعنة بالرمح او رمية بالنبل ، ومثل به المشركون ، فنزل فيه وفي أمثاله : (من المؤمنين رجال صدقوا مـا عاهـدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا) (١٠٩).

واعلم يا أبا يعقوب أن الله تعـالى فـرض الجهـاد على كافـــة المسلمين ولايرده جور جائر ، ولافسق فاسق الى أن تقوم الساعة ، قال الله تعالى :"قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر" (١١٠)الى قوله"صاغرون" ، فلم يرخص لهذه الأمة في تـرك جهـاد عدوهـم إلا

باعطاء الجزية او كلمة الاسلام ، وهذه الآية نسخت كل اية في كتاب الله تعالى تتضمن اعراض عن المشركين ، وروى ابو بكر الصديق رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم العذاب ».

فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس ، لأنك اقرب الملوك اليها ، وعندك الكراع والسلاح ولأمة الحرب والتهيا وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك ، وكذلك كل من بنواحيك وجنبات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين وأولي البطش والقوة ، وانت في حرج من تضييع من في ثغور أرض الأندلس من جماعة المسلمين والحرم والذراري افلا تأسيت بمن سافر اليها وأمضى المضي من أرض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها وبثوا فيها كلمة الاسلام وشهادة التوحيد ، فكيف بمن يناسخها ويجاورها .

يا أبا يعقوب ! إذا أردت الظفر بالعدو ، فعليك بالعدل في الرعية ، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إن وفدا من الوفود قدم عليه بالفتوح فقال له عمر : متى لقيتم عدوكم ؟ فقال : من أول النهار، قال: فمتى انهزموا ؟ فقال : من آخر النهار ، فقال عمر : إنا لله وإنا اليه راجعون ، وقام الشرك للايمان من أول النهار حتى اعتدل النهار ؟ والله إن كان هذا إلا عن ذنب أحد تثموه بعدي أو أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت يعلى بن أمية على اليمن استنصر لكم بصلاحه.

وكتب ابو بكر الصديق رضي الله عنه الى جنده بالشام « وإنما يؤتي العشرة آلاف وأكثر ، اذا أتوا ، من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ».

ومما اتحفك به ، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهبا ، لو انفقته في سبيل الله ، حديث رواه الأئمة الثقاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فروى مسلم في كتابه الصحيح (نقل العدل عن العدل)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :« لاتزال طائفة من اهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتي امر الله » ، والله أعلم هل ارادكم رسول الله صلى الله عليه وسلم معشر المرابطين أو اراد بذلك جملة أهل المغرب ، وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين والاقتفاء لآثار السلف الصالح رضي الله عنهم ، وإنا لنرجو ان تكون أولى سابقيه ينهسون عن الفساد في الأرض .

ولقد كنا في الأرض المقدسة جبر الله مصابها تترى علينا أخبارك وما قمت به من أداء فريضة الله تعالى في جهاد عدوه ، واعزاز دينه وكلمته ، وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحماة الدين والعباد والزهاد والمنقطعين الى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يدك ، فلئن كنت تستنصر بجنود اهل الأرض ، فقد كنا نستنصر بجنود اهل السماء ، حتى قدم علينا الارض المقدسة ، الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربي وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله فذكرا من سيرتك في جهاد العدو أهلكه الله تعالى في تلك الأندية والمحافل والخلق والمجالس ، وصبرك على مكافحة العدو ومصابرته ، واعزازك للدين واهله ، والعلم وحملته ، مازاد المسلمين بصيرة الدعاء لك ، وحسن الاعتقاد فيك ، حتى تمنينا أن نجاهد الكفار معك ، ونكثر سواد المسلمين بحلتك ، نسأل الله تعالى الذي يهب الجزيل من فضله أن يهبنا واياك الشهادة في سبيله ، ثم اليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقا فتتبعه ، والباطل باطلا فتجتنبه ، فصلاح الرعية بصلاح الراعي .

والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو ممن جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق اقرانه ونظراءه ، ثم رحل الى العراق فناظر العلماء وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتي الحكمة من

يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفـظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سـبحانه وهو أجل القائلين :"وإذا جـاءك الذين يؤمنون بأياتنا فقـل سـلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة"(١١١) .

والحمد لله رب العـالمين ، والسـلام عليك ورحمـة الله تعـالى وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمـد خـاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم .

الحواشي والهوامش

الفصل الأول

من أجل دور السريان قبل الاسلام في بلدان الشرق الاقصى وغيرها ، انظر كتاب « ثقافة السريان في القرون الوسطى » تـأليف نينا بيغـوليفسكايا ، تـرجمة عربية ـ ط . دمشـق ١٩٩٠ ص ٣٨ ـ ٤٦

٢ ـ انظر كتـابي التـاريخ عند العـرب ـ ط . دمشـق ١٩٧٤ ص ١٥٩ ـ ١٨٨ حيث عدة نصوص مدروسة حول نشوء البحرية العربية وفتح جزيرة قبرص ايام الخليفة الراشدي عثمان بـن عفان

٣ ـ ابن عبد الحكم ١٧١ ـ ١٧٣ تاريخ خليفـة ١ / ١٤٩ ـ ١٥٠ رياض النفـوس ١ / ٧ ـ ٩ جوليان ١ / ٢٧٩ ـ ٢٩٥ ـ ٣٢١ ـ ٣٤٠ البيان المغرب ١٠ / ٢٠١ . تـاريخ المغرب العربي ٣ ـ ٩٤ المغرب عبر التاريخ ١٤ ـ ٨٧ قـادة فتـح المغـرب العـربي ١ / ١١ ـ ٤٨

٤ ـ تاريخ خليفة ١ / ١٦٤ ـ ١٦٥ .

ابن عبد الحكم ١٨٣ ـ ١٨٧ . الكندي ١١ ـ ١٤ .

رياض النفوس ١ / ١٤ ـ ٢٧ البيان المغرب ١٠ / ٢ ـ ١٠ تـاريخ المغـرب العـربي ٩٨ ـ ١٢١ .

المغرب عبر التاريخ ٩٢ ـ ٩٣ . قادة الفتح . ١ / ٥٤ ـ ٧٤

٥ ـ تاريخ خليفة ١٠ / ٢٣٤ ـ ٢٣٨ . ابـن عبـد الحـكم ١٨٠ ـ ١٨٣ . البـلاذري ٢٢٧ ـ ٢٣١ .

الكندي ١٤ ـ ٣٤ . رياض النفـوس : ١ / ٢٨ ـ ٣٢ . البيان المغـرب ١٠ / ١٠ ـ ١٢ تاريخ المغرب العربي ١٢ ـ ١٢٤ . المغرب عبر التاريخ ٩٢ ـ ٩٣

٦ ـ تاريخ خليفة ١٠ / ٢٤١ ـ ٢٤٤ . الطبري . ٥ / ٢٢٩ . البـلاذري ٢٢٩ . ابـن عبـد الحكم . ١٩٢ ـ ١٩٤ . ابـو العـرب ٧١ ـ ٧٢ . رياض النفـوس ١ / ٣٠ . الاسـتقصاء ١ / ٧٥ ـ ٧٨ البيان المغـرب ١٠ / ١٠ ـ ١٥ . رحلة التجـاني ٦٥ ـ ٦٨ تـاريخ المغـرب العربي ١٢١ ـ ١٣٢ . المغرب عبر التاريخ ٩٣ ـ ١٩٤ . قادة الفتح ١ / ٧٥ ـ ٨٩ .

٧ ـ تاريخ خليفة . ١ / ٢٤٧ ـ ٢٦٦ . الطبـري ٥٠ / ٢٤٠ . ابـن عبـد الحـكم . ١٩٤ ـ ١٩٦ . ابـو العـرب ٥٦ ـ ٥٩ . البـلاذري . ٢٣٠ . الرقيق : ٧ . رياض النفـوس ١ / ٣١ ـ ٣٣ . الاستقصاء : ١ / ٧٨ ـ ٨١ . البيان المغرب . ١ / ١٣ ـ ١٦ . تـاريخ المغـرب العربي : ١٤٢ ـ ١٥٠ . المغرب عبر التاريخ . ٩٤ . قادة الفتح : ١ / ٩٠ ـ ١٠٦ .

٨ ـ تاريخ خليفة ١٠ / ٢٦٩ ـ ٢٧٢ . الطبري ٥٠ / ٢٤٠ . البـلاذري : ٢٣٠ . ابـن عبـد الحكم . ١٩٧ ـ ١٩٨ . ابو العرب : : ٥٧ . الكندي : ٣٨ ـ ٤٠ . رياض النفوس . ٣٢ . البيان المغرب : ١٠ / ١٧ . الاستقصا . ١ / ٨٠ ـ ٨١ تاريخ المغرب العربي ١٤٩ ـ ١٥٢ . المغرب عبر التاريخ ٩٤

٩ ـ أبو العرب . ٥٦ ـ ٦٤ . الرقيق . ٧ ـ ١٧ البلاذري ٢٣٠ ابن عبد الحكم ١٩٤ ـ ١٩٩ . رياض النفوس ١ / ٣٣ ـ ٤٤ . البيان المغرب ١ / ١٧ / ١٩ . الاستقصا ١ / ٨١ ـ ٨٤ . تاريخ المغرب العربي . ١٥٣ ـ ١٦٩ . المغرب عبر التاريخ ٩٥ ـ ٩٦ . قادة الفتح . ١ / ٩٧ ـ ١٣٦ .

١٠ ـ ابن عبد الحكم ٢٠٠ . البلاذري ٢٣٠ ـ ٢٣١ . الرقيق ١٧ ـ ٢٢ رياض النفوس : ١ / ٤٦ ـ ٤٨ . البيان المغرب ١ / ٢٠ ـ ٢٤. تاريخ المغرب العربي ١٧٢ ـ ١٧٩ . المغرب عبر التاريخ : ٩٦ قادة الفتح ١٥٠ ـ ١٧٠ .

١١ ـ تاريخ خليفة ١ / ٣٤٠ ـ ٣٤٥ ، ٣٩٢ . أبو العرب : ٨١ ـ ٨٢ البلاذري ٢٣١ ابن عبد الحكم : ٢٠٣ . الرقيق . ٢٣ ـ ٣٧ . رياض النفوس . ١ / ٤٨ ـ ٥٧ . البيان المغرب ١ / ٢٢ ـ ٣١ . الاستقصا . ١ / ٩٢ ـ ٩٥ . تاريخ المغرب العربي ٢٠٦ ـ ٢١٧ المغرب عبر التاريخ . ٩٧ ـ ٩٩ . قادة الفتح : ١ / ٢٢١ ـ ٢٤٠ .

١٢ ـ تاريخ خليفة . ١ / ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ . البلاذري ٢٢٩ ـ ٢٣٢ ابن عبد الحكم ٢٠٣ ـ ٢٠٤ . الرقيق . ٣٨ ـ ٣٠ . البيان المغرب ١ / ٣٢ ـ ٤٣ الاستقصا ١ / ٩٥ ـ ٩٧ . تاريخ المغرب العربي : ٢٠٦ ـ ٢١٧ . المغرب عبر التاريخ ٩٧ ـ ٩٩ قادة الفتح . ١ / ٢٢١ ـ ٢٤٠ .

١٣ ـ ط . دار رياض الريس ـ لندن ١٩٩١ .

١٤ ـ ابن عبد الحكم . ٢٠٤ ـ ٢١١ . تاريخ خليفة ١ / ٤٠٤ ـ ٤٠٩ . الطبري ٦ / ٤٦٨ ـ ٤٨١ . الاغاني ١٧ / ٣٠٤ . ابن القوطية . ٢٨ ـ ٣٧ . أخبار مجموعة . ٢ ـ ١٩ . الرقيق . ٤١ ـ ٥٧ . البلاذري ٢٣٢ . سراج الملوك ٥٠٦ ـ ٥٠٧ . ابن عساكر ١٧ / ٢٠٥ و ـ ٢٠٨ و . المعجب ٩ ـ ١٢ . جذوة المقتبس . ٤ ـ ٦ . ابن الكردبوس ٤٢ ـ ٥٢ . ابن الشباط . ١٣١ ـ ١٣٥ . ذكر بلاد الاندلس ٤٤ ـ و . ظ البيان المغرب ١ / ٣٦ ـ ٤٣ ، ٢ / ٥ ـ ٢٩ . ابن خلدون . ٦ / ٢٢٠ . نفح الطيب . ١ / ٢١٤ ـ ٢٥٩ الاستقصاء ١ / ٩٦ ـ ١٠٠ب . ريذو . ٣٩ ـ ٤٤ . أرسلان ٢٨ ـ ٤٧ . جوليان ١ / ٣٢١ ـ ٣٢٣ . دوزي ١٣١ ـ ١٣٤ . تاريخ المغرب العربي : ٢١٤ ـ ٢٢٧

١٥ ـ ابن عبد الحكم ٢١١ ـ ٢١٥ . تاريخ خليفة : ١ / ٤٣٠ . العذري : ٤ ـ ٧ ابن القوطية ٣٧ ـ ٣٨ . أخبار مجموعة . ١٩ ـ ٢٢ . الرقيق ٥٨ ـ ٦١ . البيان المغرب : ٢ / ٣٠ ـ ٣٢ . المعجب : ١٢ ـ ١٣ جذوة المقتبس ٦ . ذكر بلاد الاندلس ٤٤ ـ ظ الاستقصا ١ / ١٠٠ . ارسلان ٤٧ . ريذو : ٤٤ . المسلمون في أوروبا ٩٤ ـ ١٠١ . تاريخ المغرب العربي ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

١٦ ـ ابن عبد الحكم ١٢٦ ـ ٢١٧ . ابن القوطية : ٣٩ . اخبار مجموعة ٢٢ ـ ٢٥ . البيان المغرب ٢ / ٣٣ ـ ٣٥ . المقري . ١ / ٢٢٠ . الاستقصا ١ / ١٠٥ ريذو ٥٠ ـ ٧٢ . ارسلان : ٧١ ـ ١٠٤ . طرخان ١٠٢ ـ ١١٦ الحجي : ١٨٥ ـ ٢٠٣ .

١٧ ـ أخبار مجموعة . ٣٠ ـ ٦٧ . ابن القوطية : ٣٨ ـ ٤٦ . ابن عبد الحكم . ٢١٦ ـ ٢٢٥ . الرقيق ـ ط . أولى ـ ١٠٤ ـ ١٢٢ . البلاذري . ٢٣٣ . البيان المغرب . ١ / ٤٨ ـ ٦٤ ، ٢ / ٣٩ ـ ٥٥ . نفح الطيب ١ / ٢٢٠ ـ ٢٢٣ . الاستقصا . ١ / ١١٨ . ريذو . ٧٢ ـ ٨٥ . دوزي : ١٣٨ ـ ١٧٦ . ارسلان ٧١ ـ ١١٣ . الحجي . ٢٠٣ ـ ٢٠٦

١٨ ـ ابن القوطية . ٤٥ ـ ٦٥ العذري . ١ ، ٢٥ ـ ٢٦ ، ١٠١ ، ١١٧ ـ ١٢٠ . أخبار مجموعة : ٤٦ ـ ١٢١ . ابن الابار : ١ / ٣٥ ـ ٤٢ . الرقيق : ١٢٣ ـ ١٤٨ . البيان المغرب ١ / ٦٥ ـ ٧٨ ، ٢ / ٥٦ ـ ٩٠ . جذوة المقتبس . ٩ ـ ١٠ . ذكر بلاد الأندلس ٤٥ . و ـ ٤٩ . و . ابن الكردبوس : ٥٥ ـ ٥٧ . الاستقصا : ١ / ١١٩ . المعجب :

١٦ ـ ١٨ . نفح الطيب ١ / ٣٠٦ ـ ٣١٣ . دوزي ١٦٨ ـ ٢٣٦ ارسلان ١٢٠ ـ ١٢٣ . رينو ٨٦ ـ ١٠٧ . طرخان : ١٢٠ ـ ١٢٨ .

١٩ ـ ابن القوطية . ٦٤ ـ ٦٧ . اخبار مجموعة ١٢٠ ـ ١٢٤ . العذري ٢٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ١٧١ . البيان المغرب ٢ / ٩١ ـ ١٠١ جذوة المقتبس ١١ . ابن الابار ١ / ٤٢ ـ ٤٣ . المعجب ١٩ . نفح الطيب . ١ / ٣١٣ ـ ٣١٧ . أرسلان ١٢٦ ـ ١٢٩ . رينو . ١٠٨ ـ ١١٤ . طرخان ١٣٩ ـ ١٤١ .

٢٠ ـ ابن القوطية ٦٧ ـ ٨٠ . اخبار مجموعة ١٢٤ ـ ١٣٥ . العذري . ٢٧ ، ٩٣ ، ١٠٩ ـ ١١١ . جذوة المقتبس ١١ ابن الابار ١ / ٤٣ ـ ٥٠ المعجب ١٩ ـ ٢٢ نفح الطيب ٣١٧ ـ ٣٢٢ . البيان المغرب ٢ / ١٠٢ ـ ١٢٠ ارسلان ١٣٢ ـ ١٤٦ . ريدو ١١٥ ـ ١٣٢ .

٢١ ـ ابن القوطية : ٨٠ ـ ٩١ . اخبار مجموعة ١٣٥ ـ ١٤١ المقتبس ١٦٣ ـ ٢٢٩ . العذري : ٥ ـ ٦ ، ٢٩ ـ ٣٠ ، ٩٣ ، ٩٨ ـ ١٠٠ جذوة المقتبس ١١ . البيان المغرب ٢ / ١٢١ ـ ١٤٠ ابن الابار . ١ / ١١٣ ـ ١١٩ . دفح الطيب ١ / ٣٢٢ ـ ٣٢٨ ارسلان . ١٣٩ ـ ١٥٩ رينو . ١٣١ ـ ١٢٨ .

٢٢ ـ ابن القوطية ٩٦ ـ ١٣٣ . اخبار مجموعة . ١٤١ ـ ١٥٣ . العذري . ٢٧ ـ ٢٩ ، ٤١ ـ ٤٩ ـ ٥٣ ـ ٦٥ . جذوة المقتبس ١١ ـ ١٢ . وصلنا جزء من المقتبس لابن حيان عن عهد الامير عبد الله نشر في فرنسا ثم أعيد نشره في الدار البيضاء . ١٩٩ . البيان المغرب ٢ / ١٤١ ـ ٢٣٤ . ابن الابار : ١ / ١١٩ ـ ١٣٤ . نفح الطيب ١ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩ . ارسلان ١٥٦ ـ ١٦٧ .

٢٣ ـ رينو : ١٤٥ ـ ١٩٩ ارسلان ١٦٠ ـ ٢٠٣ . طرخان ١٥٢ ـ ١٥٨ .

٢٤ ـ خير التفاصيل عن الشطر الاكبر من عهد عبد الرحمن الناصر في الجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ـ ط . مدريد ١٩٧٩ . اخبار مجموعة ١٥٣ ـ ١٦٥ . البيان المغرب ٢ / ٢٣٤ ـ ٣٤٧ . العذري ٩ ـ ١٥ ، ٣٩ ـ ٤٥ ، ٦٧ ـ ٨٦ ـ ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٢ ـ ١٢٤ ، ١٧٥ . البكري . ٧٢ . ابن الابار ١ / ١٩٧ ـ ٢٠٠ . جذوة المقتبس ١٣ . نفح الطيب . ١ / ٣٣٠ ـ ٣٥٨ . أرسلان ١٦٨ ـ ١٨٢ . مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٣٢١ ـ ٣٤٤

٢٥ ـ العذري . ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ . ابن حيان ط . بيروت ١٩٦٥ ١٩ ـ ٢٤٣ جذوة المقتبس ١٣ ـ ١٧ . البيان المغرب . ٢ / ٢٤٨ ـ ٣٧٦ . الحلة السيراء ١ / ٢٠٠ ـ ٢٠٦ . نفح الطيب : ١ / ٣٥٨ ـ ٣٧٢ . أرسلان ١٨٢ ـ ١٨٥ .

٢٦ ـ لسان الدين ابن الخطيب ـ أعمال الاعلام . ١ / ١٤٤ .
٢٧ ـ المعجب ١٠١ ـ ١٠٢ .
٢٨ ـ الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٤٧ ـ ١٤٩ .
٢٩ ـ الحلة السيراء . ٢ / ٥٤ ـ ٧٠ . المعجب . ٧٠ ـ ١٤٦ . دوزي ـ دول الطوائف . ٦ ـ ٣٨ . الحجي ٣٢٣ ـ ٣٩١ .

الفصل الثاني

١ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ـ نشر دار الحياة بيروت ج ٤ ص ٧٠٢ .
٢ ـ بيوتات فاس الكبرى ـ ط الرباط ١٩٧٢ ص ٤٤ ـ ٤٥ .
٣ ـ المدارك ج ٤ ص ٧٠٦ . مجلة البينة ـ العدد الثالث ـ الرباط تموز ١٩٦٢ ص ٦٧ « بحث عبد القادر رزمامة عن أبي عمران الفغجومي » .
٤ ـ مجلة البينة . البحث نفسه ص ٦٧ ومن أجل أوضاع فاس في أيام أبي عمران انظر الانيس المطرب في روض القرطاس ، المنسوب لابن ابي زرع . ط الرباط ١٩٧٣ ص ١٠٢ ـ ١١٨
٥ ـ اهتم بهذا الموضوع عدد كبير من المؤرخين العرب المتقدمين وكان مدار أبحاث عدد كبير من المستشرقين والعرب في عصرنا ، انظر من ذلك تاريخ ابن خلدون ـ ط . بيروت ١٩٥٨ ج ٤ ص ١٣٠ ـ ١٣٢ لسان الدين ابن الخطيب ـ أعمال الأعلام (نشر القسم الثالث منه باسم تاريخ المغرب في العصر الوسيط ـ الدار البيضاء ١٩٦٤) ص ٧٢ ـ ٧٦ عبد الواحد المراكشي ـ المغرب في تلخيص أخبار المغرب ، ط . القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ابن ميسر ـ أخبار مصر ـ ط . القاهرة ١٩٨١ ص ١٧ ابن عذاري ـ البيان المغرب ـ ط . بيروت ١٩٨٠ ج ١ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ـ ٢٨٠ . حسن حسني عبد الوهاب ـ خلاصة تاريخ تونس ـ ط . تونس ١٩٦٨ ص ١١١ ـ ١١٣ شارل أندي جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية ـ ترجمة عربية ـ ط . تونس ١٩٧٨ ج ٢ ص ٩٠ ـ ٩٩ . عفيفي محمود ابراهيم ـ بنو زيري وعلاقتهم السياسية بالقوى الاسلامية في حوض البحر المتوسط ط القاهرة ١٩٨٩ ص ٨١ ـ ٨٥ .

٦ ـ روض القرطاس ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .
٧ ـ بيوتات فاس الكبرى ص ٤٥.
٨ ـ بيوتات فاس ص ٢٧ ـ ٢٨
٩ ـ مجهول الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ـ ط الدار البيضاء ١٩٧٨ ص ٢٣ .
١٠ ـ البكري ص ١٦٤ ـ ١٦٦ .
١١ ـ نهاية الأرب ج ٢٤ ، ط القاهرة ١٩٨٣ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٩
١٢ ـ الكامل لابن الأثير ـ ط . القاهرة (مطبعة الاستقامة) ج ٨ ص ٧٤ .
١٣ ـ الكامل ج ٨ ص ٧٥ .
١٤ ـ التشوف إلى رجال التصوف التادلي ـ ط . الرباط ١٩٥٨ ص ٦٦ .
١٥ ـ بيوتات فاس ص ٢٨ .
١٦ ـ روض القرطاس ص ١٢٢ .
١٧ ـ روض القرطاس ص ١٢٤
١٨ ـ روض القرطاس ص ١٢٤ .
١٩ ـ روض القرطاس ص ١٢٢
٢٠ ـ روض القرطاس ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .
٢١ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ١٩٩ .
٢٢ ـ في كتاب رياض النفوس للمالكي مادة ممتازة حول الحياة في الاربطة احسن استغلالها وعرضها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في كتابه أوراق .

٢٣ ـ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤
٢٤ ـ روض القرطاس ص ١٢٥ ـ ١٢٦
٢٥ ـ روض القرطاس ص ١٢٦
٢٦ ـ روض القرطاس ص ١٢٦ .
٢٧ ـ انظر محمد عبد الهادي شعيرة ـ المرابطون ـ ط القاهرة ١٩٦٩ ص ١٥ ـ ١٦ الحبيب الجنحاني ـ المغرب الاسلامي ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية ـ ط تونس ١٩٧٨ ص ١٤٣ ـ ٢١٧ .
٢٨ ـ الشريف الادريسي ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ ط . القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ج ١ ص ٢٢٣ . البكري ص ١٦٤ . الحلل الموشية ص ١٧ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ . الاستقصا للناصري ج ٢ ص ٣ . عبد الوهاب بن منصور ـ قبائل المغرب ، ط . الرباط ١٩٦٨ ص ٢٢٨ ـ ٢٣٥
٢٩ ـ نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .
٣٠ ـ البكري ص ١٦٤ ـ ١٦٦ .
٣١ ـ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري ـ كتاب الجعرافية(نشر في دورية المعهد الفرنسي بدمشق العدد ٢١ سنة ١٩٦٨) ص ١٨٩
٣٢ ـ من المفيد العودة إلى دراسة ماك كول حول « الروايات التاريخية عن تاسيس سجلماسة وغانة » ترجمة عربية ، ط الدار البيضاء ١٣٩٥ هـ . المغرب العربي للحبيب الجنحاني ـ ص ١٤٣ ـ ١٩٠
٣٣ ـ المغرب العربي للجنحاني ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .
٣٤ ـ الادريسي ص ٢٢٦ . عصمت عبد اللطيف دندش ـ دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب أفريقيا ـ ط . بيروت ١٩٨٨ ص ٢٢ ـ ٣٦ .
٣٥ ـ روض القرطاس ص ١٢٦
٣٦ ـ روض القرطاس ص ١٢٦ أعمال الاعلام ص ٢٢٨ .
٣٧ ـ البكري ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .
٣٨ ـ روض القرطاس ص ١٢٧ .
٣٩ ـ البكري ص ١٩٦٨ الجنحاني ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ روض القرطاس ص ١٢٧ .
٤٠ ـ روض القرطاس ص ١٢٧ ـ ١٢٨ أعمال الاعلام ص ٢٢٩ . البكري ص ١٦٧ البيان المغرب ج ٤ ص ١٣ . ابن الأثير ج ٨ ص ٧٥ . نهاية الأرب ج ٢٤ ص ١٣ . ابن الاثير ج ٨ ص ٧٥ . نهاية الأرب ج ٤ ص ٣٦٠ الحلل الموشية ص ٢٢ . بيوتات فاس الكبرى ص ٢٩ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٥ .
٤١ ـ البكري ص ١٦٧ .
٤٢ ـ النويري ج ٢٤ ص ٢٦١ . البكري ١٦٧
٤٣ ـ البكري ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .
٤٤ ـ صالح بن قربة ـ المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي إلى سقوط دولة بني حماد ـ ط . الجزائر ١٩٨٦ ص ٥٣٥ ـ ٥٣٨ .
٤٥ ـ نهاية الارب ج ٢٤ ص ٢٦١ • المسكوكات المغربية ص ٥٣٧ •
٤٦ ـ نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
٤٧ ـ البكري ص ١٧٠ . روض القرطاس ص ١٣٤ . بيوتات فاس الكبرى ص ٢٩ . النويري ج ٢٤ ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ أعمال الاعلام ص ٢٣٢ . ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ ـ الحلل الموشية ص ٢٣ . الاستقصاء ج ٢ ص ١٤ ـ ٢١ . قبائل المغرب ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .
محمود اسماعيل ـ مغربيات ـ ط . فاس ١٩٧٧ ص ١٥ ـ ٥٤ . رجب محمد عبد

الحليم ـ دولة بني صالح في تـامسنا ـ ط . القـاهرة ١٩٩١ ص ١٠٠ ـ ١٠١ . محمـد عبد الهادي شعيرة ـ المرابـطون ـ ط . القـاهرة ١٩٦٩ ص ٦٤ ـ ٦٥ بندش ص ٨٨ ـ ١٠٣ . جوليان ج ٢ ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .

٤٨ ـ روض القرطاس س ص ١٣٥ .

٤٩ ـ روض القرطاس ص ١٣٥ . ابن عذاري ح ٤ ص ٢٣ ـ ٢٤ . الحلل الموشية ص ٢٥ .

٥٠ ـ روض القرطاس ص ١٣٥ . ابـن خلدون ج ٦ ص ٣٧٧ . أعمـال الأعلام ص ٢٣٣ . الاستقصا ج ٢ ص ٢٢ . العباس بن ابراهيم ـ الاعلام بمن حـل مـراكش وأغمـات مـن الاعلام ـ ط . الرباط ١٩٧٤ ج ١ ص ٢٠٤ .

٥١ ـ المسكوكات المغربية ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ . قبر أبي بكر بن عمر في منطقـة تـكانت في ولاية تجكجا التي كانت تعرف باسم الولاية التاسعة في موريتانيا .

٥٢ ـ الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٧٦ . نهاية الارب ج ٢٤ ص ٢٦١

الفصل الثالث

١ ـ نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٢٥ . روض القرطاس ص ١٣٦ . الحلل الموشية ص ٢٤ .
٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ـ ط . القاهرة . ١٣١٠ هـ ج ٢ ص ٣٦٥ .
٣ ـ الزهري ـ الجمرافية ص ١٩١ ـ ١٩٢ .
٤ ـ الحلل الموشية ص ١٥ ـ ١٦ .
٥ ـ الحلل الموشية ص ١٦ ـ ٢٣ .
٦ ـ روض القرطاس ١٣٨ ـ ١٣٩ .
٧ ـ مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي ـ من منشورات جامعة القاضي عياض ـ ط . الدار البيضاء ص ١٥ ـ ١٩ (بحث الدكتور احمد التوفيق) وص ٢١ ـ ٢٥ (بحث ليفي بروفنسال) وص ٧١ (بحث الدكتور الكريم الصوصي مولاي ابراهيم) .
٨ ـ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .
٩ ـ مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي ص ٧٢ ـ ٧٣ .
١٠ ـ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٠ . مراكش ص ٧٣ .
١١ ـ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٦٥ .
١٢ ـ تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٤٣٤ .
١٣ ـ وصف إفريقيا لليون الافريقي ـ ترجمة عربية ـ ط . الرياض ١٣٩٩ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .
١٤ ـ البيان المغرب ٤٠ ص ٢٨ . الحلل الموشية ص ٢٨ .
١٥ ـ البكري ص ١٤١ .
١٦ ـ روض القرطاس ص ١٤١ .
١٧ ـ روض القرطاس ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
١٨ ـ الحلل الموشية ص ٢٥ .
١٩ ـ البيان المغرب ٤٠ ص ٢٩ ـ ٣٠ .
٢٠ ـ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي ـ ط . الرباط ١٩٦٧ ص ٤٠ ـ ٤١ . روض القرطاس ص ١٤١ . الحلل الموشية ص ٢٨ . البيان المغرب ج ٤ ص ٢٨ . أعمال الاعلام ص ٢٣٥ . تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٩ . الاستقصا ج ٢ ص ٢٧ ـ ٢٩ .
٢١ ـ روض القرطاس ص ١٤١ الجزنائي ص ٤١ .
٢٢ ـ الحلل الموشية ص ٢٨ ـ ٣٣ . روض القرطاس ص ١٤٠ ـ ١٤٣ . الاستقصا ج ٢ ص ٢٨ ـ ٣١ .
٢٣ ـ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٦٦ .
٢٤ ـ روض القرطاس ص ١٤٧ .
٢٥ ـ الحلل الموشية ص ٢٩ . البيان المغرب ج ٤ ص ٢٧ ـ ٢٨ .
٢٦ ـ جذوة المقتبس للحميدي ـ ط . القاهرة ١٩٥٢ ص ٢٨ ـ ٢٩ ، ٧٣ .
٢٧ ـ الذخيرة لابن بسام ج ١ ، ط . القاهرة ١٩٣٠ ص ٤٢ .
٢٨ ـ أعمال الاعلام للسان الدين ابن الخطيب ج ١ ، ط . بيروت ١٩٥٦ ص ٥٩ .
٢٩ ـ ابن عذاري ـ البيان المغرب ـ ط . بيروت ١٩٨٠ ج ٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
٣٠ ـ ابن بسام ق ٤ ج ١ ، ط . القاهرة ١٩٤٥ ص ٤٠ .

٣١ ـ ابن عذاري ج ٢ ص ٢٥٧ ـ ٣٦٠ .
٣٢ ـ ابن عذاري ج ٢ ص ٢٦٥ .
٣٣ ـ أعمال الاعلام ج ١ ص ٥٨ ـ ٦٦ . وامتلك في مكتبتي على نسخة مصورة عن مخطوطة ذكر بلاد الاندلس .
٣٤ ـ البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .
٣٥ ـ أعمال الأعلام ج ١ ص ٦٥ .
٣٦ ـ البيان المغرب ج ٢ ص ١٨١ ـ ٢٨٦ .
٣٧ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس للفتح بن خاقان الاشبيلي ـ ط . بيروت ١٩٨٣ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩
٣٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ـ أو كتاب التبيان ـ ط القاهرة ١٩٥٥ ص ١٦ ـ ١٨ .
٣٩ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٨ .
٤٠ ـ أعمال الاعلام ج ١ ص ٨٠ ـ ٨١ البيان المغرب ٢ ص ٢٩٣ ، ٣٠١ .
٤١ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
٤٢ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
٤٣ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .
٤٤ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ .
٤٥ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ .
٤٦ ـ البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ ـ ٣٩ .
٤٧ ـ البيان المغرب ج ٣ ب٣٨ ـ ٥٠ .
٤٨ ـ أعمال الأعلام ج ١ ص ١٤٥ ـ ٢٣٠ .
٤٩ ـ المعجب ص ٧٠ ـ ٧٥ ، ٩٢ ـ ٩٣ .
٥٠ ـ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ـ ط . مدريد ١٩٧١ ص ٧٤ ـ ٧٦ .
٥١ ـ ازهار البساتين في أخبار الاندلس على عهد المرابطين والموحدين تأليف جان دجيروم طارو ، ترجمة عربية ـ ط . الرباط ١٣٤٩ هـ . ص ٢٣ .
٥٢ ـ الفخري في الآداب السلطانية ـ ط . القاهرة ـ مطبعة محمد علي صبيح ـ ص ٦٥
٥٣ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
٥٤ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
٥٥ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٣ .
٥٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ٧٥
٥٧ ـ ملوك الطوائف للمستشرق دوزي ـ ترجمة عربية ـ ط . القاهرة (بلا تاريخ) ص ٥٠٦ ـ ٢٠٧ .
٥٨ ـ الذخيرة لابن بسام (ط . بيروت) ق ٤ . ج ١ ص ١٦٥
٥٩ ـ ملوك الطوائف ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .
٦٠ ـ ابن الكردبوس ص ٨٧ ـ ٨٩ .
٦١ ـ ابن الكردبوس ص ٧٦ ـ ٧٨ .
٦٢ ـ ابن الكردبوس ص ٨٩ .
٦٣ ـ الحلل الموشية ص ٤١ ـ ٤٢ .
٦٤ ـ ابن الكردبوس ص ٨٩ .
٦٥ ـ الحلل الموشية ص ٣٢ .
٦٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠١ ـ ١٠٢ .
٦٧ ـ ابن الكردبوس ص ٨٩ ـ ٩٠ .
٦٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ .

٦٩ ـ الحلل الموشية ص ٤٢ ـ ٤٣ .
٧ ـ الحلل الموشية ص ٣٣
٧١ ـ الحلل الموشية ص ٣٨ .
٧٢ ـ الحلل الموشية ص ٤٩ ـ ٥٠ .
٧٣ ـ الحلل الموشية ص ٤٤ ـ ٤٥
٧٤ ـ الحلل الموشية ص ٥١ .
٧٥ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٣ .
٧٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢
٧٧ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ ـ ١٠٣
٧٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٣ .
٧٩ ـ الحلل الموشية ص ٥١ .
٨٠ ـ لاتمتلك المملكة المغربية الآن أيا من الطرفين فهما موزعان بين انكلترا واسبانيا
٨١ ـ روض القرطاس ص ١٤٥ ـ ١٤٦
٨٢ ـ الحلل الموشية ص ٥١ ـ ٥٢
٨٣ ـ من مدن الثغر الأدنى قريبة من ماردة الروض المعطار
٨٤ ـ من مدن الثغر الأعلى
٨٥ ـ الحلل الموشية ص ٣٤ ـ ٣٥
٨٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٤ .
٨٧ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٤
٨٨ ـ الحلل الموشية ص ٥٦
٨٩ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٤ ـ ١٠٥
٩٠ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٥
٩١ ـ روض القرطاس ١٤٦ .
٩٢ ـ الحلل الموشية ص ٥٣ ـ ٥٤ .
٩٣ ـ الحلل الموشية ص ٥٧
٩٤ ـ الحلل الموشية ص ٥٩
٩٥ ـ الحلل الموشية ص ٥٩ ـ ٦٠ .
٩٦ ـ ابن الكردبوس ص ٩٤
٩٧ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٦
٩٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٦ روض القرطاس ص ١٤٦ ـ ١٤٩ الحلل الموشية ص ٦٠ ـ ٦٢ الروض المعطار ، مادة زلاقة ،
٩٩ ـ البكري ص ١٦٦
١٠٠ ـ الحلل الموشية ص ٦١ ـ ٦٢
١٠١ ـ الروض المعطار، مادة زلاقة
١٠٢ ـ الحلل الموشية ص ٦٥ ـ ٦٦
١٠٣ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٦ ـ ١٠٧
١٠٤ ـ الحلل الموشية ص ٦٦
١٠٥ ـ روض القرطاس ص ١٥١ ـ ١٥٢
١٠٦ ـ انظر الملاحق

الفصل الرابع

١ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٧
٢ ـ الحلل الموشية ص ٦٧ .

٣ ـ الحلل الموشية ص ٦٧ .
٤ ـ الحلل الموشية ص ٦٧ .
د ـ الحلل الموشية ص ٦٧ .
٥ ـ روض القرطاس ص ١٥٢ .
٦ ـ الحلل الموشية ص ٦٧ ـ ٦٨ .
٧ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٨ .
٨ ـ روض القرطاس ص ١٥٢ .
٩ ـ الحلل الموشية ص ٦٩ ـ ٧٠ .
١٠ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٠٩ ـ ١١١ .
١١ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١١٦ ـ ١٢٩ .
١٢ ـ المعجب ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .
١٣ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٢٦ .
١٤ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١١٦ ـ ١٢١ .
١٥ ـ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار ـ ط . تونس ١٩٦٧ ص ١٠٨ .
١٦ ـ الحلل الموشية ص ٧١ .
١٧ ـ سورة الاسراء ـ الآية : ٨١ .
١٨ ـ سورة الاسراء ـ الاية : ٨١ .
١٩ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٤٦ ـ ١٥٠ .
٢٠ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .
٢١ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٥٠ ـ ١٦١ .
٢٢ ـ مذكرات الامير عبد الله ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
٢٣ ـ الحلل الموشية ص ٧١ ـ ٧٢ .
٢٤ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .
٢٥ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٥ ـ ١٦٧ .
٢٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .
٢٧ ـ المعجب ص ١٣٩ .
٢٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٩ .
٢٩ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٩ ـ ١٧١ . المعجب ص ١٤٠ ـ ١٤٢ . الحلل الموشية ص ٧٢ ـ ٧٤ . روض القرطاس ص ١٥٤ ـ ١٥٥ . نهاية الأرب ج ٢٤ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
٣٠ ـ المعجب ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
٣١ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧١ .
٣٢ ـ ازهار البساتين ص ٧١ ـ ٧٢ .
٣٣ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .
٣٤ ـ روض القرطاس ص ١٥٥ ـ ١٥٦

٣٥ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٢ .
٣٦ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٣ .
٣٧ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .
٣٨ ـ مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧٥ .
٣٩ ـ الحلل الموشية ص ٧٥ ـ ٧٦ .
٤٠ ـ الحلل الموشية ص ٨١ ـ ٨٢ . وتم الاستيلاء على الثغر الأعلى من قبل المرابطين سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، بعد وفاة يوسف بن تاشفين وولاية ابنه علي بن يوسف ، وبذلك غدت بلاد الاندلس كلها ولاية مغربية .
٤١ ـ الحلل الموشية ص ٧٧ ـ ٧٨ .
٤٢ ـ المعجب ص ١٦٣ ـ ١٦٤
٤٢ ـ المعجب ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
٤٤ ـ الحلل الموشية ص ٨١ ـ ٨٣ .
٤٥ ـ أزهار البساتين ص ٧٥ ـ ٧٦ .

الفصل الخامس

١ ـ انظر كتابي التاريخ عند العرب ـ ط . دمشق ١٩٧٤ ص ١٦٠ ـ ١٨٨

٢ ـ البحر المتوسط لأميل لودفيغ ـ ترجمة عربية ط . القاهرة ١٩٥٢ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٤ .

٣ ـ ابن عذاري ج ١ ص ١٠٦١ . الدولة الاغلبية لمحمد الطالبي ـ ترجمة عربية ، ط ، بيروت ١٩٨٥ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٥ . المسلمون في جزيرة صقلية لاحمد توفيق المدني ـ ط . الجزائر ١٣٦٥ ص ٥٢ ـ ٥٦ .

٤ ـ جمع المرحوم الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب مادة جيدة حول هذا الموضوع في كتابه أوراق فليراجع .

٥ ـ رياض النفوس للمالكي ـ ط . بيروت ١٩٨٣ ج ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٧٣ المقفى المقريزي ـ ط . بيروت ١٩٩١ ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦٢ البيان المغرب ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

٦ ـ الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

٧ ـ رياض النفوس ج ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٧٣ . أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٠٩ ـ ١١١ والمقفى للمقريزي ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦٢ . البيان المغرب ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ١٨٦ ـ ١٨٨ . المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا لاحمد توفيق المدني ص ٥٧ ـ ٦٣ . تاريخ صقلية الاسلامية لعزيز احمد ـ ترجمة عربية ، ط ليبيا ١٩٨٠ ص ١٣ ـ ١٥ . الدولة الاغلبية لمحمد الطالبي ـ ط . بيروت ١٩٨٥ ص ٤٣١ ـ ٤٦٧ .

٨ ـ المكتبة الصقلية ص ٤ ، ٢٥ ـ ٢٧ .

٩ ـ المكتبة الصقلية ص ٧٤ ـ ٧٥

١٠ ـ المكتبة الصقلية ص ٢٥ ـ ٧٤ .

١١ ـ أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٠٩ ـ ١٢١ . المكتبة الصقلية ص ١٦٣ ـ ٥٤٥ المدني . ص ٦١ ـ ١٠٠ . عزيز أحمد ص ١٣ ـ ٣١ العرب في صقلية ص ٣١ ـ ٥٧ . تاريخ المسلمين في البحر المتوسط لحسين مؤنس ـ ط . القاهرة ١٩٩١ ص ٦٦ ـ ٧٦ . بيزنطة ومسلمو جنوب ايطاليا وصقلية لوديع فتحي عبد الله . ط . الاسكندرية ١٩٩٢ ص ٧ ـ ٢٨ . الدولة الاغلبية ص ٤٤٩ ـ ٥٩٩ .

١٢ ـ أضواء جديدة على المرابطين لعصمت عبد اللطيف دندش ـ ط . بيروت ١٩٩١ ص ١١ ـ ٣٦ .

١١ ـ أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٢٣ .

١٤ ـ أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ . المكتبة الصقلية ص ٤٧٩ ـ ٤٨٥ . المدني ص ١٢٣ ـ ١٦٤ . عزيز احمد ص ٣٧ ـ ٤٨ العرب في صقلية ص ٤٤ ـ ٤٩

١٥ ـ المكتبة الصقلية ص ٢٥ ـ ٢٦ .

١٦ ـ القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط لأرشيد بالد لويس ـ ترجمة عربية ، ط . القاهرة ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

١٧ ـ درس تاريخ جزر البليار بشكل جيد في كتاب جزر الاندلس المنسية للدكتور عصام سالم سيسالم ـ ط . بيروت ١٩٨٤

١٨ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠

١٩ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٧ ـ ٤٥٠ .

٢٠ ـ الولاة والقضاة للكندي ـ ط . بيروت ١٩٠٨ ص ١٥٨ .

٢١ ـ الكندي ص ١٥٤ ـ ١٦٤ .

٢٢ ـ الكندي ص ١٦٥ ـ ١٧٢
٢٣ ـ كتابي تاريخ العرب والاسلام ـ ط بيروت ١٩٧٥ ص ٤٦٦ .
٢٤ ـ روض القرطاس ص ٤٧ .
٢٥ ـ الحلة السيراء ـ ط القاهرة ١٩٦٣ ج ١ ص ٤٥
٢٦ ـ الكندي ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .
٢٧ ـ العرب والروم لفازلييف ـ ترجمة عربية ـ ط القاهرة ص ٥٥ . الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية لاسمت غنيم ـ ط جدة ١٩٧٧ ص ٤١ ـ ٤٢ .
٢٨ ـ العرب والروم ص ٧٥ غنيم ص ٤٣
٢٩ ـ العرب والروم ص ٥٨ . غنيم ص ٤٥ ـ ٤٦
٣٠ ـ فازلييف ص ٦٠ ـ ٦١ غنيم ص ٤٩ ـ ٥٧ .
٣١ ـ غنيم ص ١٩٤ ـ ٢٠٦ .
٣٢ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٠ ـ ٤٥٤ .

حواشي الملاحق

١ ـ سورة محمد ـ الآية : ٣٥ .
٢ ـ عبد الرحمن بن عبد العزيز النصراني ، وتسمية المصادر المسيحية « كرستو بـولوص » .
٣ ـ كذا بالاصل ، والصحيح « عبد الله » .
٤ ـ زيد مابين المعاصرتين من نهاية الأرب للنويري ج ٢٤ ص ٢٥٧ .
٥ ـ انحنى أمامه مسلما عليه .
٦ ـ بداية سقط بالاصل ـ انظر اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٩٩ .
٧ ـ التليس كيل للقمح يساوي ١٥٠ رطلا ، أو ثماني ويبيات .
٨ ـ أي المخازن .
٩ ـ ميخائيل الخامس (١٠٤١ ـ ١٠٤٢) .
١٠ ـ جاء بعد ميخائيل الخامس قسطنطين التـاسع (١٠٤٢ ـ ١٠٥٤) بعـد زواجـه مـن الامبراطورة العجوز زوي .
١١ ـ الجؤجؤ هو الصدر . القاموس .
١٢ ـ زيد ما بين المعاصرتين من اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢٤٠
١٣ ـ زيد ما بين المعاصرتين من اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢٤١ .
١٤ ـ من كتاب التشوف للتادلي ص ٦٦ ـ ٦٧ .
١٥ ـ نقلا عن كتاب الاسلام في المغرب والأندلس لليفي بروفنسال ص ١١٥ ـ ١١٨ .
١٦ ـ من كتاب رسائل اندلسية ص ٢٢٥ ـ ٢٤٣ ، والباجي هو ابو الوليد سليمان بن خلف (٤٠٣ ـ ٤٧٤ هـ) كان أعظم علماء المالكية في الاندلس ، وأعظمهم نتاجا في عصره ، له تـرجمة جيدة في تاريخ دمشق لابن عساكر .
١٧ ـ زيادة اقتضاها السياق .
١٨ ـ سورة فصلت ـ الآية : ٤٢ .
١٩ ـ سورة الاعراف ـ الآية : ٤٣ .
٢٠ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٥٨ .
٢١ ـ سورة المؤمنون ـ الآية : ٥١ .
٢٢ ـ سورة النساء ـ الآية : ١٦٥ .
٢٣ ـ سورة النساء ـ الآية : ١٥٧ .
٢٤ ـ سورة التوبة ـ الآية : ٣٣ .
٢٥ ـ سورة هود ـ الآية : ٨٨ .
سورة البقرة ـ الآية : ٢٠ .
٢٧ ـ سورة الأسراء ـ الآية : ٨٨ .
٢٨ ـ سورة الفرقان ـ الآية : ٢٧ .
٢٩ ـ سورة النبأ ـ الآية . ٤٠ .
٣٠ ـ سورة هود ـ الآية . ١٨ .
٣١ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٦٤ .
٣٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٦١ .
٣٣ ـ سورة طه ـ الآية : ٤٧ .

٣٤ ـ من كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان ص ٤٤٢ ـ ٤٤٦ .
٣٥ ـ سورة الانفال ـ الآية ٥٨ .
٣٦ ـ سورة الحجرات ـ الآية ٣ .
٣٧ ـ سورة المائدة ـ الآية ٥٤ .
٣٨ ـ سورة آل عمران ـ الآية ١٦٦ .
٣٩ ـ سورة الانفال ـ الآية ٣٧ .
٤٠ ـ سورة العنكبوت ـ الآية ١١ .
٤١ ـ القطيعة عند المغاربة المال المفروض على العدو كل عام ، ويقابله في اصطلاح المشارقة « الهدنة » ، وكلاهما نوع من أنواع الجزية ضمنت بها المهادنة من المسلمين .
٤٢ ـ سورة التوبة ـ الآية ٥٢ .
٤٣ ـ من مدن الثغر الأدنى في غرب الأندلس ، قريبة من ماردة ـ الجغرافية لابن سعيد ص ١٧٩ الروض المعطار للحميري
٤٤ ـ من مدن قشتالة القديمة ، وكانت ضمن بلدان الثغر الأعلى
٤٥ ـ كانت العرب قبل الاسلام ترى أن الهامة طائر يخرج من رأس الميت ، وكانوا يقولون إن القتيل تخرج هامه من هامته ـ أي من رأسه ـ فلا تزال تقول : اسقوني ، اسقوني ، حتى يقتل قاتله
لسان العرب .
٤٦ ـ أي التمائم ـ ج تميمة ـ التي يكتبها الساحر ، ومنها جاء اسم العزام
٤٧ ـ سورة الحشر ـ الآية ١٤ .
٤٨ ـ سورة التوبة ـ الآية ٣٢ .
٤٩ ـ كان آل عباد من أسرة رفعت نسبها إلى المناذرة ملوك الحيرة ، الذين كانوا من أصل يماني ، ومعروف أن حمير التي نسب الملثمون أنفسهم إليها من أصل يماني ، وكانت دولة حمير آخر دولة حكمت اليمن قبيل ظهور الاسلام ، ولذلك قام ابن عباد بمخاطبة يوسف بن تاشفين هكذا .
٥٠ ـ سورة الفتح ـ الآية ١٦ .
٥١ ـ سورة التوبة ـ الآية ١٤ .
٥٢ ـ ديوان المتنبي ط . بيروت ١٩٢٦ ص . ٥
٥٣ ـ سورة الزمر ـ الآية ٦٩ .
٥٤ ـ انظر سورة المجادلة ـ الآيتان ١٢ ـ ١٣ .
٥٥ ـ الذماء بقية الروح .
٥٦ ـ سورة الاعراف ـ الآيتان ١٨٢ ـ ١٨٣ .
٥٧ ـ من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠ ص ٣١ ، نقلا عن رسائل ابن موصلايا كاتب الخليفة القائم
٥٨ ـ سورة آل عمران ـ الآية ١٠٢ .
٥٩ ـ سورة فصلت ـ الآية ٤٢ .
٦٠ ـ سورة النساء ـ الآية ١٠٣ .
٦١ ـ سورة التوبة ـ الآية ١٨ .
٦٢ ـ سورة الجمعة ـ الآية ٩ .
٦٣ ـ سورة التوبة ـ الآية ١٠٣ .
٦٤ ـ سورة البقرة ـ الآية ٤٤ .
٦٥ ـ سورة آل عمران ـ الآية ١٥٩ .
٦٦ ـ سورة النحل ـ الآية ٩٠ .

٦٧ - سورة آل عمران - الآية ١١٠
٦٨ - سورة النساء - الآية ١٢٣ .
٦٩ - سورة النساء - الآية ٥٨ .
٩٦ - سور النساء - الآية ٥٨ .
٧٠ - سورة البقرة - الآية : ٢٢٩ .
٧١ - سورة المائدة - الآية ٢ .
٧٢ - سورة المائدة - الآية ٣٣ .
٧٣ - سورة الأنفال - الآية : ٦٠ .
٧٤ - سورة الاسراء - الآية ٣٤ .
٧٥ - سورة المطففين - الآية ١.
٧٦ - سورة الأنفال - الآية : ٤١ .
٧٧ - سورة ابراهيم - الآية ٧ .
٧٨ - نقلا عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ١٠٢٠ .
٧٩ - سورة المائدة - الآية ٣٢ .
٨٠ - كذا بالأصل ولا وجه لها .
٨١ - سورة آل عمران - الآية ١٧٣ .
٨٢ - سورة البقرة - الآية ١٢٣ .
٨٣ - سورة النساء - الآية ٥٩ .
٨٤ - سورة آل عمران - الآية ٣٠ .
٨٥ - سورة الأحزاب - الآيتان : ٧٠ - ٧١ .
٨٦ - سورة النور - الآية : ٥٥ .
٨٧ - سورة النساء الآية : ٥٩ .
٨٨ - نقلا عن المخطوط الرباطي نفسه رقم ١٠٢٠ .
٨٩ - سورة الحجرات - الآية : ٩
٩٠ - سورة الانسان - الآية ٢٠ .
٩١ - نقلا عن المخطوط الرباطي نفسه رقم ١٠٢٠.
٩٢ - سورة ص - الآية ٢٦ .
٩٣ - سورة الحج - الآية ٤١ .
٩٤ - سورة الأحزاب - الآية ٧٢ .
٩٥ - سورة الاحزاب - الآية ٧٢
٩٦ - سورة الذاريات - الآية : ٢٣ .
٩٧ - سورة المائدة - الآية ٧٩ .
٩٨ - سورة الكهف - الآية ٤٩ .
٩٩ - سورة الفرقان - الآية ٧
١٠٠ - سورة الاحقاف - الآية ٢٠ .
١٠١ - سورة طه - الآية : ١٣١ .
١٠٢ - سورة التوبة - الآية ٦٠ .
١٠٣ - سورة مريم - الآية ٤ .
١٠٤ - سورة القيامة - الآية ٢٩ .
١٠٥ - سورة القيامة الآية ١٩ .
١٠٦ - سورة آل عمران - الآية ١٦٩
١٠٧ - سورة التوبة - الآية : ١١١ ز

١٠٨ ـ سورة الصدف ـ الآية ١٠ .
١٠٩ ـ سورة الأحزاب ـ الآية . ٢٣ .
١١٠ ـ سورة التوبة ـ الآية ٢٩ .
١١١ ـ سورة الأنعام ـ الآية ٥٤ .

جريدة باهم المصادر والمراجع

ـ المصادر :

ابن الآبار : أبو عبـد الله محمـد بـن عبـد الله (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) .

كتاب التكملة . القاهرة ١٩٥٦ م .

ـ الحلة السيراء ، جـزءان ، تحقيق د . حسـين مـؤنس القاهرة ١٩٦٣ م .

ـ المعجم في أصـحاب القـاضي أبـي علي الصـدفي . القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م .

ابن الاثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٥ هـ / ١٢٣٣ م) .

ـ الكامل في التاريخ . بيروت ١٣٨٦ ه / ١٩٦٦ م .

ـ ابن الاحمـر (اسـماعيل) بيوتـات فـاس الكبرى ـ الرباط ١٩٧٢ .

ابن أبي أصيبعة :

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٠ ، ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م .

الاصفهاني :

ـ خـريدة القصر وجـريدة العصر . قسـم المغـرب والأندلس . تحقيق محمد المرزوقي ـ محمد العمروسي المطوي ـ الجيلاني بن الحاج يحيى . تونس ١٩٧١ م .

اماري ميشيل :

ـ المكتبة العربية الصقلية ، ليبزغ ١٨٧٥ م .

البكري : عبـد الله بـن عبـد العـزيز المرسي (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٨٤ م) .

ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (نشره دي سـلان وهـو ماخوذ من كتاب المسالك والممالك . الجزائر ١٩١١ م) .

ابن بسام : أبو الحسن الشنتريني (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٧ م) .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨ هـ/١١٨٣ م) .
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ م .
البيذق : أبو بكر الصنهاجي (القرن السادس الهجري) .
- أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين . تصحيح وترجمة لافي بروفنسال باريس ١٩٢٨ م .
التطيلي .
- ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٣ م .
ابن تغري بردي .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٥ م .
جان وجيروم طارو :
- ازهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب . ترجمة احمد بلا فريج ومحمد الفاسي . الرباط ١٣٤٩ هـ .
ابن جبير : محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧ م) .
- رحلة ابن جبير . القاهرة ١٩٥٥ م .
الجزنائي : أبو الحسن علي .
- زهرة الآس في بناء مدينة فاس . نشر الفريد بيل . الجزائر ١٩٢٣ م .
ابن الحداد الأندلسي .
- ديوان ابن الحداد الأندلسي . تحقيق يوسف علي طويل . بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م .
الحموي (ياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩ م) .

ـ معجم البلدان . دار صادر بيروت .
الحميدي : أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله
(ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) .
ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢ م .

الحميري : (عبد المنعم السبتي (توفي أواخر القرن التاسع الهجري) .
ـ الروض المعطار في أخبار الاقطار . تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ م .
ـ صفة جزيرة الأندلس ، تحقيق ليفي بروفنسال . القاهرة ١٩٦٢ م .
ابن حوقل .
ـ صورة الأرض ، ليدن ١٩٢٨ م .
ابن خاقان : أبو نصر الفتح محمد القيسي الاشبيلي
(ت ٥٣٥ هـ / ١١٣٤ م) .
ـ قلائد العقيان في محاسن الاعيان . في طبعتين ، الطبعة الأولى صدرت بالقاهرة . ١٣٢هـ الطبعة الثانية تصحيح عبد سليمان الحرايري ١٢٧٧هـ .
ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله
(ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) .
ـ اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . نشر منه الجزء الخاص بتاريخ الاندلس في بيروت ١٩٥٦ م ، تحقيق ليفي بروفنسال ، وبعنوان « تاريخ إسبانيا الاسلامية » . ونشر الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، في الدار البيضاء عام ١٩٦٤ م ، تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني ، بعنوان « تاريخ المغرب في العصر الوسيط » .
ـ الاحاطة في اخبار غرناطة . حققه محمد عبد الله عنان . القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣ م .
ـ رقم الحلل في نظم الدول ، تونس ١٣١٧هـ .

ابن خفاجة . تحقيقي السيد مصطفى غازي ، الاسكندرية ١٩٦٠ م .
ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م) .
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ١٠ ، ٤ ، ٦ ، طبعة بيروت ١٩٥٩ م ، ١٩٦١ م .
ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) .
ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد .
القاهرة ١٩٥٠ م ، طبعة أخرى تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ م .
ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني (أواخر القرن الحادي عشر الهجري) .
ـ المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، تونس ١٩٦٧ م .
ابن دراج القسطلي :
ـ ديوان ابن دراج القسطلي . نشر محمود مكي ، دمشق ١٩٦١ م .
ابن أبي زرع الفاسي :
ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ١٩٧٣ م .
الزجالي :
ـ أمثال العوام في الأندلس ، تحقيق محمد بن شريفة ، فاس المغرب ١٩٧١ .
الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (القرن التاسع عشر) .
ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، تونس ١٩٦٦ م .

- ابن زيدان :
- العز والصولة في معالم نظام الدولة - نشر عبد الوهاب بن منصور . الرباط ١٩٦١ م .
الزيري : (الأمير عبد الله بن بلقين الزيري) .
- مذكرات الأمير عبد الله ، المسماة بكتاب التبيان . تحقيق ليفي بروفنسال . مصر ١٩٥٥ م .
- رسائل أندلسية . تحقيق د . فوزي عيسى . كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٨٩ م .
- رسائل ومقامات أندلسية . تحقيق فوزي سعد عيسى .
ابن رشد :
- مسائل أبي الوليد بن رشد . تحقيق ودراسة محمد بن الحبيب التجكاني . لنيل درجة الماجستير . دار الحديث الحسنية . الرباط مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٩٧٧ م .
ابن رشد القرطبي :
- المقدمات الممهدات . جزان . تحقيق سعيد أعراب. بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
ابن سعيد المغربي :
- بسط الأرض بالطول والعرض . تحقيق خوان قرنيط خينيس . تطوان ١٩٥٨ م .
- المغرب في حلى المغرب . جزان ، القاهرة ١٩٥٣ م .
السلاوي : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت ١٣٥١هـ / ١٨٩٧ م) .
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ م .
ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (٥٩٤ هـ / ١١٠٢ م) .
- تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، السفر الثاني ، تحقيق عبد الهادي التازي .

الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبي (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) .

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس . دار الكاتب العربي ١٩٦٧ م .

الطرطوشي : أبو بكر (ت ٥٢٠ هـ / ١١٣٥ م) .

- الحوادث والبدع . تحقيق محمد الطالبي . تونس ١٩٥٩ م .

- سراج الملوك . تحقيقي جعفر البياتي . لندن .

العاملي :

- الزهرات المنذورة في نكت الأخبار المأثورة . تحقيق محمود علي مكي ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م ، مصر الجديدة ، نوفمبر ١٩٧٨ م .

ابن عبد ربه :

- العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٥٣ م

ابن عبد الرفيع :

- معين الحكام على القضايا والأحكام . تحقيق محمد بن قاسم ابن عياد ، بيروت ١٩٨٨ م .

ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبي :

- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق ليفي بروفنساك ، المعهد العلمي للآثار الشرقية القاهرة ١٩٥٥ م .

ط ابن عذاري : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حيا ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) .

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثي ميراندا في مجلة هسبيرس ١٩٦١ م .

- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب . القسم الثالث . عني بنشره امبروسي هويس مراندة ، محمد بن تاويت ، محمد إبراهيم الكتاني . تطوان ١٩٦٠ م .

ابن العربي : أبو بكر (ت بفاس ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) .

- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (ص) . تحقيق محب الدين الخطيب . القاهرة ١٣٧١ م .

الغنية . فهرست شيوخ القاضي عياض ٤٧٦ – ٥٤٤ هـ / ١٠٨٣ – ١١٤٩ م .
تحقيق ماهر جرار ، دار الغرب الاسلامي . بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٨٢ م .
ابن قزمان : ديوان ابن قزمان . ف كور نيطي ، المعهد العربي للثقافة ، مدريد ١٩٨٠ م .
القرشي :
– معالم القربة في أحكام الحسبة . تحقيق محمد محمود شعبان – صديق حمد – عيسى المطيعي . الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٦ م .
ابن القطان : أبو الحسن علي بن محمد الكتاني الفاسي (ت ٦٣٨هـ / ١٢٣٠ م) .
– نظم الجمان في أخبار الزمان . تحقيق محمود مكي ، الرباط ١٩٦٤ م ، بيروت ١٩٩٠ م .
القفطي :
– أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٣٢٦ هـ
ابن القلانسي :
– تاريخ دمشق . تحقيق د . سهيل زكار . دمشق ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .
ابن الكردبوس :
– كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء – القسم الخاص بالاندلس . نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي ، مدريد ١٩٧١ م .
ليفي بروفنسال :
– مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية . الرباط ١٩٤١ م .
الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (٤٥٠ هـ/ ١٩٥٧ م) .
– الأحكام السلطانية والولايات الدينية . تصحيح الغساني ، القاهرة ١٩٠٩ م .

- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك ، تحقيق رضوان السيد ، بيروت ١٩٨٧ م .

المجيلدي :

- كتاب التيسير في أحكام التسعير . تحقيق موسى لقبال ، الجزائر ١٩٨٢ م .

المراكشي · ابن عبد الملك (ت ٧٠٣هـ / ١٣٠٤ م) .

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة . السفرين الرابع والخامس . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٤ م .

المراكشي · عبد الواحد (كان حيا في الربع الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي) .

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ م .

مقديش : - نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار . تحقيق علي الزواوي . محمد محفوظ ، بيروت ١٩٨٨ م .

المقري · شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١ م) .

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . بيروت .

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب . المحمدية ١٩٨٠ م .

المكناسي ·

- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام بمدينة فاس . الرباط ١٩٧٣ م .

الملزوزي (عبد العزيز) نظم السلوك في الانبياء والخلفاء والملوك - الرباط ١٩٦٣

مؤلف مجهول

- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . حققه د . سهيل زكار . أ . عبد القادر زمامة . الدار البيضاء ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .

مؤلف مجهول :
ـ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الجزائر ١٩٢٠ م .
مؤلف مجهول .
ـ كتاب الطبيخ في المغرب والاندلس . تحقيق أمبـروزيو أويثـي ميراندا ، مدريد ١٩٦٥ م.
مؤلف مجهول :
ـ مفاخر البربر . تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ م .
النباهي :
ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . القاهرة .
النويري : شهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .
ـ نهاية الارب في فنون الأدب . دار الكتب ، القاهرة .
الونشريسي .
ـ المعيار المعرب والجامع المغـرب عن فتـاوي أهـل افـــريقية والأندلس والمغـرب . نشر وزارة الأوقـــاف . المملكة المغـــربية ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
ـ المراجع :
ابراهيم المفيفي محمـود ـ بنوزيري وعلاقتهـم السـياسية بالقوى الاسلامية في حوض البحر المتوسط . القاهرة ١٩٨٩ .
أحمد امين . ظهر الاسلام . القاهرة ١٩٥٣ م .
أرسلان (شكيب) الحلل السـندسية في الاخبـار والآثـار الأندلسية ، جزآن ، القاهرة ١٩٣٦ م .
تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزر البحـر المتوسط . القاهرة (عيسى البابي الحلبي وشركاه)
ارشيبالد لويس . القوى البحرية والتجـارية في حـوض البحـ المتوسط .
ترجمة محمد أحمد عيسى .
أرنست كونل . الفن الاسـلامي . تـرجمة احمـد مـوسى ، بيروت ١٩٦٦ م .

اسرائيل ولفنسون . موسى بن ميمون . القاهرة ١٩٣٦ م .
اعراب (سعيد) مع القاضي أبي بكر بن العربي . بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
اشباخ . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . جزآن ، ترجمة محمد عبد الله عنان . القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ م .
الأصيبعي . الشرطة في النظم الاسلامية والقوانين الوضعية . دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون . طرابلس ١٣٩٩هـ / ١٩٩٠ م .
البتنوني (محمد لبيب) رحلة الأندلس . ترجمة محمود عبد العزيز سالم ، القاهرة .
البعلي (فؤاد) فلسفة اخوان الصفا الاجتماعية والأخلاقية . بغداد ١٩٥٨ م .
بوز (فارس) الأوضاع الداخلية للأندلس وعلاقاتها بالمغرب في ظل المرابطين . رسالة ماجستير . دمشق .
التازي . التاريخ الدبلوماسي للمغرب . المجلد الخامس . جزآن ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .
التليدي . المطرب في مشاهير أولياء المغرب ، طنجة ١٩٨٧ م .
الحجي . التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة ، بيروت ١٩٧٦ م .
حسن إبراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي ، ج ٤ القاهرة ١٩٦٧ م .
حسين . تاريخ المغرب والاندلس في عصر المرابطين دولة علي ابن يوسف المرابطي ، الاسكندرية ١٩٨٦ م .
حمادة . الوثائق السياسية والادارية ١٤٠٠هـ / ١٩٨١ .
دندش . أضواء جديدة على المرابطين ، بيروت ١٩٩١ م .
دندش . الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني . دار الغرب الاسلامي ، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .

دوزي . ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام . ترجمة كامل الكيلاني ، القاهرة ١٣٤١ هـ/ ١٩٣٣ م .
ديورانت . قصة الحضارة ج ٤ . ترجمة محمد بدران ، القاهرة .
رينو (جوزيف) الفتوحات الاسلامية في فرنسا وايطاليا وسويسرا . بيروت ١٩٨٤ .
زغلول . محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والاندلس ، بيروت ١٩٧٣ م .
زكار ، التاريخ العباسي والاندلسي ، دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨٢ م .
سالم (سحر عبد العزيز سالم) مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٩٠
سالم (عبد العزيز السيد سالم) محمد أبو الفضل . تاريخ مدينة المرية الأندلسية . الاسكندرية ١٩٨١ م .
شرارة (عبد اللطيف) أبو الوليد ابن زيدون ، بيروت ١٩٨٨ م .
الشكعة . الادب الأندلسي . بيروت ١٩٧٢ م .
الشيخ (محمد محمد موسى) دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي . الاسكندرية ١٩٩٠
طرخان المسلمون في أوروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ م
العبادي . دراسات في تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية ١٩٦٨ م .
العبادي .الصقالبة في إسبانيا ، مدريد ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .
العبادي . صور وبحوث من التاريخ الاسلامي ، القاهرة ١٩٥٣ م .
علام . دولة الموحدين بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، القاهرة ١٩٧١ م .

عنان . أندلسيات . الكتاب العشرون ١٩٨٨ م .
عنان . عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، وهو العصر الثالث من كتاب دولة الاسلام في الاندلس ، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .
عنان . نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين . العصر الرابع من كتاب دولة الاسلام في الأندلس . القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦ م .
غنيم (اسمت) الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ـ جدة ١٩٧٧ .
فازلييف ـ العرب والروم . القاهرة (دار الفكر العربي) .
قربه (صالح بن) المسكوكات المغربية . الجزائر ١٩٨٦ .
كول (ماك) الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة . الدار البيضاء (دار الثقافة) .
لقبال (موسى) الحسبة المذهبية في بلاد المغرب . نشأتها وتطورها . الجزائر ١٩٧١ .
محمود (حسن أحمد محمود) قيام دولة المرابطين . القاهرة ١٩٥٧ م .
محمود (منى حسن) المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة . القاهرة ١٩٨٦ .
مؤنس (حسين) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس . القاهرة ١٩٨٦ م .

المحتوى


البحر الأبيض المتوسط

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

اوروبا في العصور الوسطى ومراحل وقائع الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

٣ ـ (اوربا في العصور الوسطى ومراحل وقائع الحروب الصليبية)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، وجاء هذا الجزء في بابين عالجت في الباب الأول بعض ملامح تاريخ أوربا في العصور الوسطى بما يخدم غرض موسوعتنا ، والدافع إلى كتابة هذا الباب هو التعرف إلى أصول الفرنجة الذين تحملوا أعباء مشروع الحروب الصليبية ، فلطالما وجهت التهمة من قبل المؤرخين المعاصرين إلى العرب بتقصيرهم في هذا المنحى ، حيث ما من واحد من المؤرخين الأوائل الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية جشم نفسه عناء السؤال : من هم الفرنجة ، ومن اي أصل انحدروا ، وما هي عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم ومؤسساتهم ، ولأي شيء قدموا من أوربا ،إلى غير ذلك من أسئلة مفيدة ، ولنفي التهمة حديثا ، وفي سبيل التوازن في المعلومات وشمولية أبحاث المدخل تحدثت عن بعض الملامح الأساسية للتاريخ الأوربي في العصور الوسطى بشطريه الشرقي والغربي .

وفي أيامنا كثر عدد الكتب بالعربية المؤلفة والمترجمة حول تاريخ أوربا في العصور الوسطى بشكل عام أو حول الشطر الغربي ثم الشطر البيزنطي كل على حدة ،والمؤلفات العربية اعتمدت على الدراسات الأوربية الحديثة حول هذا الموضوع خاصة ما كتب بالانكليزية والفرنسية ، وأعني بهذا أنها نادرا ما عادت إلى الأصول والمصادر الأوربية القديمة لتعذر الحصول عليها ولعوائق اللغات والقدرة على التفرغ الطويل ، وفعلت أنا الشيء نفسه ، ففي مكتبي

اعداد كبيرة من أفضل المؤلفات الانكليزية حول التاريخ الوسيط ، وكنت اهتممت بهذا الجانب من المعرفة التاريخية منذ أن كنت طالبا في لندن ، لأن رسالة الدكتوراه التي أعددتها ارتبطت بشكل وثيق بالتاريخ البيزنطي ، ولتمركز اهتماماتي منذ ذلك الحين حول تاريخ الحروب الصليبية ، وحدث أثناء اعارتي للتدريس في جامعة محمد ابن عبد الله في فاس أن توليت تدريس تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، وكنت آنذاك قد أعددت أملية جامعية حول هذا الموضوع .

وافدت الآن من هذه الأملية ، وصحيح أنني قبل أن أعدها وبعده قرأت عددا كبيرا من الكتب حول التاريخ الوسيط إلا أنني اعتمدت في عملي على عدد مركز من الكتب تقدمها ما كتبه المؤرخ هنري بيرين حول التاريخ السياسي الوسيط وحول التاريخ الاقتصادي ثم كتابه « محمد وشارلمان »، ومع هنري بيرين استفدت إلى أبعد الحدود مما كتبه المؤرخ سدني بينتر ، ومن أبحاث تاريخ كمبرج عن العصور الوسطى سياسيا واقتصاديا ، وبالنسبة لهذا الكتاب العملاق راجعت بشكل مكثف أبحاث الجزء الرابع في طبعته الجديدة لأنه أوقف على تاريخ بيزنطة ، ولأن الاستاذة هسي أشرفت عليه ، ولهذه العالمة المؤرخة العديد من الكتب والأبحاث حول التاريخ البيزنطي ، ومن افضل أعمالها ترجمتها لكتاب اوسترو غورسكي حول تاريخ بيزنطة ، فهذا الكتاب معدود بين أفضل ما كتب حول تاريخ الأمبراطورية البيزنطية ، وعرفت الاستاذة هسي عن قرب ، لأنها كانت عضوا في لجنة الحكم على اطروحتي للدكتوراه ، ومع كتابات الاستاذة هسي وترجماتها عدت إلى ما كتبه المؤرخ المختص ببيزنطة وأعني هنا فازلييف ، ولفازلييف كتاب عن العلاقات العربية البيزنطية نقل إلى العربية باسم « العرب والروم » وهو ما يزال يعد من الأصول الممتازة في بابه .

ومع أن اعتمادي ــ كما سلف وقلت ــ جاء على مصادر بالانكليزية وعلى ما ترجم إليها من أصول خاصة كتاب اينهارد عن حياة شارلمان ، فإنني حصلت على بعض الفوائد من المؤلفات العربية على الأخص ما كتبه الاستاذ الجليل المؤرخ سعيد عبد الفتاح

عاشور ، وأملي كبير ان يفي الملخص الذي قدمته بالغرض .

ومن هذا الملخص نعرف قصة انتشار المسيحية في بعض الاقطار الاوربية المتوسطية ، وأن جل اوربا كانت شعوبه عندما قام الاسلام وثنية ، وعلى هذا كانت اوربا مهيأة لتلقي رسالة التوحيد ، وأية سعادة كانت ستنالها هذه الشعوب لو نجحت المشاريع العربية في فتح القسطنطينية ويوم بواتيه ، ومع أنه لامكان لكلمة « لو » بالتاريخ ، لاشك لدي أن البشرية كانت وحضارتها ستسعد وستختصر الوقت وتختزل الزمان ، ولا ستحال حينها قيام ما أطلق عليه اسم الحروب الصليبية التي ما تزال مستعرة حتى يوم الناس هذا ، واعتقد أنها ستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

واوقفت فصول الباب الثاني على دراسة موجزة وموجهة حول مراحل تاريخ الحروب الصليبية ، فقد رفضت منذ زمن مديد ما اعتاد عليه المؤرخون الأوربيون لدى بحثهم في تاريخ هذه الحروب ، فهؤلاء جعلوا ـ في الغالب ـ احداث هذه الحروب جزءا ـ يكاد أن يكون كاملا ـ من تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، ونحن نختلف مع الأوربيين حول هذه القضية ، فهناك أسباب أوربية مباشرة وغير مباشرة لتفجر أحداث الغزو الصليبي ، ولكن وقائع هذه الحروب قد قامت على أرض الشام العربية ، وانتهت على هذه الأرض بالذات بالنصر العربي والهزيمة الأوربية ، وجوهر القضية هنا ليس في كون أن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ ، لكن بالبحث عن الحقيقة بشكل علمي ومنطقي ، وفي تاريخ الحروب الصليبية قد تكون الاسباب الاوربية لتفجر هذه الحروب هامة غير أن الاهم هو معرفة أسباب اخفاق العرب في التصدي أولا للغزاة الصليبيين وفي عدم تمكنهم من اقتلاعهم إلا بعد وقت طويل وجهود مضنية .

لقد قسم الباحثون الأوروبيون تاريخ الحروب الصليبية إلى حملات متتالية اختلفوا في تعدادها وتسمياتها ، والمثير للانتباه هنا ان هؤلاء الباحثين انفسهم ارخوا لما قام به الصليبيون في المانيا او فرنسا أو بلغاريا او الامبراطورية البيزنطية في إطار التاريخ

الوسيط الخاص بكل بلد من هذه البلدان ثم في الاطار الأوروبي العام.

من الانصاف تطبيق هذا المعيار على بلاد الشام وبالتالي تفسير مراحل تاريخ الحروب الصليبية شاميا عربيا مع عدم إغفال الشأن الأوروبي . ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الحروب الصليبية قد مر تاريخها بطورين رئيسين :

(أ)الطور الأول ، وقد ارتبط بقيام هذه الحروب وعمليات الاحتلال حتى وصل التيار الى مداه الأقصى وكان ذلك أمام أسوار حلب سنة٥١٨ هـ/١١٢٤م ومن ثم انعكس ٠

(ب)الطور الثاني ،وقد ارتبط بحرب التحرير والاسترداد ، ومرت هذه الحرب بأربع مراحل ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن الوطن العربي في المشرق تحملت أعباء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها . وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة واستغلال الامكانيات وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ومرحلة حلب ومرحلة دمشق ومرحلة القاهرة .

ـ في مرحلة الموصل تمت الحيلولة دون سقوط حلب ، وتحول موقف العرب من الدفاع إلى الهجوم .وكان أبرز إنجازات هذه المرحلة تحرير الرها سنة ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيسا في المشرق ، وذلك تحت لواء عماد الدين زنكي .
. وفي مرحلة حلب استلم نور الدين محمود بن زنكي لواء القيادة فنشط في الشام نشاطا كبيرا ووحد حلب مع دمشق ثم مد الوحدة إلى مصر واعد العدة لتحرير القدس وإزالة الوجود الصليبي نهائيا .
وتولى صلاح الدين الأيوبي القيادة في مرحلة دمشق بعد وفاة نور الدين بشكل مفاجيء عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م ، وفي ظل قيادة صلاح الدين تلقى الكيان الصليبي أقسى ضربة نالها في تاريخه يوم حطين

سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، وبعد حطين جرى تحرير القدس مع أجزاء واسعة من المناطق المحتلة .

وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر السلطنة الايوبية العظمى ، ومنها قاد كل من خلفاء صلاح الدين من الايوبيين اولا ثم من المماليك أعمال التحرير فصفوا الوجود الصليبي نهائيا .

إن ابرز وقائع هذين الطورين هو ما عالجته في الباب الثاني ، وجاء جل اعتمادي على الموادالتي حوتها موسوعتنا مع مصادر أخرى اضافية ، ومررت ببعض الحوادث بشكل عابر ، غير أنني وقفت مطولا عند صلاح الدين ومعركة حطين ، فهنا جوهر النصر العربي ولب القضية التي ربحناها عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، وقيما واخلاقا فيها الكثير من الشمائل النبوية والمثالية الاسلامية ، فقد تربح الهمجية معركة وتسفك دما ، لكن الخلود للشمائل المحمدية التي احتذاها صلاح الدين يوم تحرير القدس ، وكما سيظل هذا اليوم صفحة مشرقة ممجدة لدى كل انسان متحضر سيبقى ما صنعه الفرنجة قبل ذلك بقرابة قرن ، يوم اجتاحوا القدس ، وصمة عار في جبين التاريخ الأوربي الوسيط .

وبعد صلاح الدين وفي ظل حكم الدول الايوبية ، تعطلت مسيرة التحرير إلى حد بعيد ، وفقط استؤنفت بشكل فعال بعد هزيمة حملة لويس التاسع وتاسيس السلطنة المملوكية ، لذلك استحقت أعمال التصفية للوجود الصليبي في ظل المماليك بعض العناية مع أن موسوعتنا ليس فيها موادا اساسية عما حدث بعد ما يعرف بالحملة الرابعة : وسبب هذا أنني لم أستطع بعد الحصول على ما يكفي من مصادر غير عربية حول وقائع ما يعرف باسم الحملة الخامسة ثم الحملة السادسة ، كما وهناك مصادر عربية إساسية غير منشورة اسعى بشكل حثيث للحصول على نسخ مصورة عنها ، وعندها بأذن الله ساكمل مشروع هذه الموسوعة .

وللحروب الصليبية مالا يحصى من الدروس ،وسيبقى على رأس هذه الدروس أن الداء القاتل للأمة العربية هو التمزق ، فالتمزق

ترافق دوما مع الفتن وفي الفتن ألقي بأس الأمة بين صفوفها فأنهكت نفسها بنفسها واستضعفها عدوها فسعى إلى افتراسها وابادتها ، فضلا عن الاستهانة بها ، والدواء كمن دوما في الوحدة القائمة على ماجاء في دين التوحيد وفي الشمائل المحمدية ، فالنبي المصطفى عليه افضل الصلاة والسلام كان غيريا لم يعرف الأنانية ، آثر رضى الله ومصلحة الأمة على أي شيء آخر ، وكانت السلطة لديه صلى الله عليه وسلم احدى الوسائل لتطبيق الشريعة واسعاد بني البشر ، ولم تكن طريقا لملك يورث أو لاستبداد واستعباد وشهرة ذائعة .

لي أمل كبير في أن أكمل مشروع هذه الموسوعة وأن يستفيد منها كل عربي ومسلم وأن تلقى محاولتي لتفسير مراحل الحروب الصليبية العناية الكافية إن نقدا وإن تطويرا والله الموفق إلى السداد،وله الحمد والمنة،والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم .

دمشق الشام

١٧ ـ رجب الفرد ١٤١٣   ١٠ ـ كانون الثاني ١٩٩٣

سهيل زكار

الباب الأول

الفصل الأول

الانتقال من العصور الكلاسيكية الى العصور الوسطى

تواجه الباحث في تاريخ ما يدعى بالعصور الوسطى في أوروبة عدة مشاكل وعقبات ، ترتبط بتسمية هذه العصور ، وحدودها الزمانية والمكانية مع احوالها وأحوال اناسها ، من حيث الأصول العرقية ودرجات التطور الحضاري وطبائع وأنواع العقائد التي اخذت بها وتاثرت بما جاء بها.

وتسمية هذه العصور بالوسيطة جاء من اصطلاح الباحثين على تقسيم العصور التاريخية عامة الى اقسام ثلاثة هي : القديمة . ثم الوسيطة ، فالحديثة ، وليس من المناسب هنا الدخول في نقاش حول هذا المصطلح من حيث صحته .ومطابقته للواقع التاريخي ، لكن يكفي أن نذكر أن هذا الاصطلاح ما هو الا أداة ليسهل بواسطتها البحث ، وأننا حين نقول عصور قديمة ، ثم عصور وسيطة لا نعني أن هناك حدودا حادة تفصل بين هذه العصور ، ثم أننا حين نقول عصور بالجمع نعني أن التاريخ القديم تألف من فترات فيها تشابه وتنافر وكذا التاريخ الوسيط .

ويقودنا هذا كله نحو أولى مشاكل العصور الوسطى ، وهي متى بدأت هذه العصور ـ إذا كانت قد وجدت ـ ثم متى انتهت ؟ إن أية محاولة للتعرض لايجاد أجوبة لهذه الاسئلة ستكون عملا عابثا ما لم يقدم لها بمقدمة يبحث فيها بأصول تاريخ أوربة في العصور الوسطى .

كانت قارة أسية سباقة في معرفة الحضارة والثقافة للقارة الاوربية ونظرا لارتباط أوربة بأسية ، فقد تم انتقال المؤثرات الحضارية الآسيوية الى أوربة ، لكن هذ المؤثرات لم تكن الوحيدة

التي غزت أوربة بل ينبغي أن يضاف اليها المؤثرات الأفـريقية لمصر وشمال افريقية وحين نبحث في تاريخ الحضـارات التـي قـامت في أوربة قبل العصور الوسطى نجد أن أصول هـذه الحضـارات كانت شرقية ، ولهذا نجد تاريخ هذه الحضارات شديد الارتبـاط طـوال حياته بالشرق ، وفقط عندما تم قـطع الاواصر بين أوربـة والشرق قامت العصور الوسطى ، وعندما اعيدت هذه الروابط انتهت هـذه العصور وبدأت العصور الحديثة .

وابرز الحضارات التي قامت في أوربة قبـل العصـور الوسـطى هي : الحضـارة الاغريقية ، ثـم الرومـانية ، ولا حـاجة بنا هنا لاستعراض التاريخ الاغريقي بمراحله قبـل الاسـكندر وبعـده ولا تاريخ الامبراطورية الرومانية ذلك أن هذا لا يعنينا هنا ، ويكفي أن نستعرض بشكل موجز التاريخ المتأخر لروما ، فهذا التـاريخ هـو المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ اوربة في العصور الوسطى .

من المعروف أن روما أضطرت أثناء صراعها مـع دولة قـرطاجة الى أحتلال بعض الأراضي المجاورة لايطاليا بغية اتخاذها خـطوط دفاع أولى في العمق ، وقد ولد هـذا الطمـع في احتـلال المزيد مـن الأراضي فكان أن استولت على سردينية وصقلية ، كما استولت على اسبانيا سنة ١٩٧ ق . م ، ذلك أن اسبانيا كانت قد مهدت السـبيل لغزو هانيبال لايطاليا اثناء الحروب البونية ، وأثناء هذه الحـروب توسعت قدرة روما البحرية ، ونظـرا لتحـالف قـرطاجة مـع مقدونية ، سعت روما للانتقام من مقدونية ، وفي سـنة ١٩٧ ق . م. هزمت روما مقدونية فسبب هذا احتكاكها بـالدولة السـلوقية ، وفي سنة ١٩٠ ق.م انتصرت رومـا على انتيوخس الثـالث ملك سـورية السلوقي ، وبذلك تغلغل نفوذ روما داخل آسية الصغرى على أبواب سورية ،وهكذا تابعت روما أعمال توسعها وكان ذلك بشـكل رئيسـي داخل بلدان المشرق المتحضرة فقد احتلت رومـا سـورية ، وعندمـا حاولت التوسع شرقا اصطدمت بالامبراطورية الفارسية ، فتـوقفت أعمال توسعها في ذلك الاتجاه مع نهر الفرات لكن من سورية انتقـل

النفوذ الروماني نحو مصر ، وقد ضاع استقلال مصر وغدت مقاطعة رومانية بعد معركة أكتوم سنة ٣١ ق.م ، وكان قد حدث قبـل هـذا بزمن بعيد اخفاق هانيبال أمام رومـا ، وقيام الجيوش الرومـانية باحتلال قرطاجة ثم الشمال الافريقي ، وهكذا نجد روما مع نهـاية القرن الأول لما قبل الميلاد قد اصبحت صاحبة السيادة على شواطىء البحر المتوسط ، ونتيجة لذلك غدا هذا البحر بحيرة رومانية .

وقد ترتب على التوسع الروماني نتائج خطيرة جدا ، فقد وجدت روما نفسها سيدة للجزء الأعظم من العالم المتحضر في أوربة وآسية وافريقية ، ومتملكة للميراث الحضاري لهذا العالم بـكل محتـويات هذا الميراث الثقافية والمدنية والفكرية والاجتماعية ، كمـا أن هـذا التوسع منح روما ثروات لا تقدر ، وقد كان لهذا الثراء أثاراً إيجابية وسلبية على المجتمع الروماني ، فانحطت الأخلاق ومن ثـم تـأثرت الادارة الرومانية بذلك كثيرا .

فروما حققت توسعها بوساطة الادارة العسكرية ، لذلك نجـد أن السيف كان هـو مصـدر السـلطة الفعلي في هـذه الامبراطورية ، ورجال السيف ـ أي الجند ـ هم أصحاب الشـأن الأول في الدولة ، وسعيا وراء سرعة التحرك العسكري نجـد الدولة الرومانية قد قامت بمد العديد من الطرق المرصـوفة لوصـل رومـا العاصمة بكافة أجزاء الامبراطورية ، وجهد رجال السلطة الرومـان في تامين الأمـن ، وكان لهـذا انعـكاسات على النشـاط التجاري ، ونقل منتجات الشرق الأدنى والأقصى إلى روما ، ونقـل التجار دائما أنواعا من البضائع : مرائية مسـتهلكة ، وغير مـرائية ثقافية وحضارية لها صفة الديمومة والتغيير .

ولم تتوسع روما داخل البقـاع الأوربية إلا بقـدر مـا فـرضته ضرورات الأمن والدفاع والحاجة إلى التوسع ، وكان لهذا نتائج في غاية الخطورة ، فعلى يد شعوب أوربة غير المتحضرةأو المترومنهكليا سيتم اسقاط روما والقضاء نهائيا عليهـا وبـالتالي قيام العصـور الوسطى .

لقد كان لطبيعة الحكم في روما العاصمة والمدن الايطالية وداخل المقاطعات ، ومشاكل حقوق المواطنة الرومانية أن وجدت مجالات كبيرة لخلق المشاكل والفوضى مما كان سببا دائما للشكوى والثورة .

فرجال الاعمال الكبار وأصحاب الاموال والتجار ممن لم يتمتعوا بحقوق المواطنة الرومانية اضطروا الى التأثير على أصحاب السلطان وسواهم بوسائل غالبا ما كانت ملتوية ، وهذه الأوضاع الشاذة لفتت انتباه بعض المصلحين لكن غالبا ما كانت عبثا جهود هؤلاء أمام قوة اندفاع التيار العام الذى منح القوة حينا ، ثم تحول فقاد نحو الانهيار .

ومعلوم أن تاريخ روما قد مر بعدة مراحل يراها بعضهم : المرحلة الملكية ، ثم الجمهورية وبعد ذلك الامبراطورية ، وقامت الامبراطورية فعليا بعد نصر اكتافيوس في معركة أكتوم سنة ٣١ ق.م حيث نال لقب أوغسطس ولمدة قرنين ونيف عاشت الامبراطورية الرومانية أزهى عصورها ، ثم بعد ذلك أخذت مظاهر الضعف تبدو عليها ، وقد جرت عدة محاولات للاصلاح ، والذى يهمنا هنا هو تتبع هذه المحاولات منذ اعتلاء دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤ م .

ففي ايام هذا الامبراطور كانت قد اختفت مظاهر الديمقراطية في الحكم وغدت السلطة في حوزة مجموعتين واحدة مدنية واخرى عسكرية ، وكان لكل مجموعة احوالها الخاصة ومشاكلها ، وحين استلم دقلديانوس عرش الامبراطورية لم تكن هذه الامبراطورية تعاني من المشاكل الداخلية فحسب ، إنما كانت تعاني من ضغوط خارجية تمثلت في شعوب أوربة المجاورة أراضيها لرومة ـ الشعوب الجرمانية ـ وبالامبراطورية الفارسية .

وقد سعى دقلديانوس الى دفع المخاطر عن امبراطوريته والى القيام بالعديد من الاصلاحات الداخلية ، خاصة في ميادين

الادارة ، لكنه اخفق مثل غيره في مواجهة المشاكل المالية للدولة . فقد ازدادت نفقات هذه الدولة وضعفت موارد التجارة وتضاءل نشاط التجار لانعدام الأمن في كثير من المناطق ، ونظرا لازدياد الحاجة الى المال قامت الدولة بفرض المزيد من الضرائب مما زاد في التفاوت الطبقي والاستغلال ودفع نحو المزيد من الشكوى والتحرك الثوري .

وفي ايام دقلديانوس أدرك هذا الامبراطور ان مستقبل دولته لن يستمر في أوربة ، بل في الشرق ، لذلك نراه يتخلى عن روما ويتخذ من ميلان عاصمة ومركزا ، كل هذا في حين اهتم به بالمقاطعات الشرقية واتخذ لهذه المقاطعات مركزا اداريا خاصا في مدينة نيقوميديا على بحر مرمرة ، وبذلك وضع اللبنات الأولى في عمل تقسيم الامبراطورية الى قسمين غربي واخر شرقي العمل الذي سيتم على أيدي خليفته قسطنطين الكبير .

لقد قسم دقلديانوس امبراطوريته الى اربعة اقاليم ادارية كبرى كان على راس كل اقليم حاكم يلقب «اوغسطس» او يلقب قيصر وهذا أوجد لدولته امبراطورين مع نائبين لهما .

وعندما بلغ دقلديانوس الستين من عمره تخلى سنة ٣٠٥ عن العرش لقسطنطين الكبير ، وقد اعقب نزول دقلديانوس عن العرش قيام حروب اهلية استمرت سبعة عشر عاما ، وبعد ما تحقق لقسطنطين النصر في هذه الحروب اخذ على عاتقه اكمال تنفيذ خطط سلفه الاصلاحية ، وكان لأعماله في هذا المجال أعظم الآثار في الانتقال من العالم القديم الى العالم الوسيط ، فقد اعترف بالمسيحية ثم تبناها وتخلى عن روما القديمة واستبدلها بروما جديدة بناها على ضفاف البسفور ، وقد حملت روما الجديدة اسم قسطنطين فعرفت بالقسطنطينية وهي مازالت تعرف بهذا الاسم ، وعلى الصعيد الاداري أدخل قسطنطين نظام الحكم الوراثي ، فصار منصب الامبراطور وراثيا محصورا في أسرة من الأسر تعتمد على دعامتين هما الجيش والكنيسة.

وسندع أمر الحديث عن دوافع قسطنطين في سياسته الدينية إلى مكان اخر ، لكن ينبغي الا يفوتنا تقرير أن إقدام قسطنطين على بناء عاصمة جديدة لدولته وهجرة العاصمة القديمة قد طوى صفحة من التاريخ ارتبطت بمدينة روما ، وأنذاك تركت روما بدون امبراطور فعال ، فقامت البابوية وسعت لتحل محل الامبراطورية ، ولولا هذه الخطوة لما استطاعت البابوية الوصول إلى ماوصلت إليه من عظمة ونفوذ في العصور الوسطى.

إن اتخاذ القسطنطينية ذات الموقع الحصين عاصمة للامبراطورية وقيام الامبراطورية الرومانية الشرقية قد صان كما يقال عادة أوربة من الفتح الاسلامي فقد حالت القسطنطينية بين العرب المسلمين وبين دخول أوربة الشرقية .

وبعد وفاة قسطنطين عانت الامبراطورية من العديد من الحروب الأهلية وازدادت الضغوط الخارجية عليها ، كما تعقدت المشاكل الاجتماعية ، فقد تضاعف عبء الضرائب وكثر عدد العبيد العاملين في الصناعة والزراعة وتضاءل عدد الأحرار ، وانحطت أحوال المدن ، لقد كانت الامبراطورية تسير ببطء نحو نهايتها المحتومة ، وكانت تعاني الام الموت .

ومع نهاية القرن الرابع انقسمت الامبراطورية إلى قسمين ، وصار القسم الشرقي متميزا عن الغربي دينيا ولغويا وحضاريا ، ففي هذا القسم وجدت اللغة الاغريقية بينما استمرت اللاتينية ـ إلى أمد ـ في الغرب وقامت في روما القديمة الكاثوليكية ، واستمرت في الشرق الحضارة ذات الأصول الهلنستية ، في حين اخذت أسباب الحضارة والثقافة في الغرب تضمحل بشكل متتابع ، وهكذا نلاحظ أن عوامل مختلفة تضافرت على إسقاط الامبراطورية الرومانية وإنهاء العصور القديمة وابتداء العصور الوسيطة ، ولقد تميزت العصور القديمة بمزايا حضارية وفكرية خاصة ، في حين نجد أن المسيحية كانت الصانع الأكبر

-٩٥٦-

لحضارة العصور الوسطى وكانت المؤثر الأعظــم في جميع مجــالات الحياة فما هي قصة هذه الديانة ؟ .

المسيحية والعالم الروماني

يرى عدد من الباحثين أن الدولة الرومانية وصلت إلى ذروة قوتها وعظمتها أيام حكم أوغسطس الذي كان أول أباطرتها ، ويرى بعضهم الآخر أن الدول بعد وصولها إلى الذروة لاتمكث هناك طويلا بل تأخذ بالانحدار ليس في طريق العودة نحو الأصول لكن في الانحدار نحو النهاية .

وفي أيام أوغسطس حققت روما أمجادا عسكرية طائلة ، لكن المجتمع الروماني الذي كان سيده صاحب السيف عانى أنئذ من الانحلال الفكري والعقائدي الديني ، فلم تعد الديانة الرومانية الوثنية الملفقة من عدة ينابيع وأصول بكافية لمتابعة الأخذ بها ، كما أن المدارس الفلسفية من رواقية إلى افلاطونية حديثة لم تستطع تقديم الزاد الروحي لشعوب الامبراطورية ، وقد استعار الرومان من ديانات الشرق القديم الشيء الكثير ، وكان هناك بالاضافة للديانات الوثنية الديانة اليهودية ، لكن هذه الديانة بانغلاقها على اتباعها ، وبما لحقها من انحرافات عجزت عن أن تقوم بدور فعال داخل المجتمع الروماني ، وعلى هذا نجد أن المجتمع الروماني كان يعاني من الفراغ الديني الروحي ، ونلاحظ قيام العديد من المحاولات لملىء هذا الفراغ ، وغالبية هذه المحاولات صنعت في الشرق ، وقد تحقق لواحدة منها فقط نجاحا كبيرا .

ففي أيام أوغسطس ولد السيد المسيح عيسى بن مريم في بلدة بيت لحم في فلسطين ، ولد كما هو مجمع عليه في كافة المصادر من أم عذراء لم يمسها بشر قط ، وهناك خلاف حاد في المصادر حول الحياة المبكرة وحتى المتأخرة للسيد المسيح ، لابل إن الخلاف شمل كافة مراحل حياة المسيح فأدى ذلك ببعضهم إلى إنكار وجوده

تاريخيا ، والذي اعتدل قال بأن المعلومات المتوفرة حوله في المصادر المسيحية فيها زيف كبير واختراع ، ومهما يكن الحال فإنه من المؤكد أن رسالة المسيح كانت طوال حياته عبارة عن حركة إصلاحية داخل الديانة اليهودية ، أي كانت حركة محلية ضيقة ، على أنه بعد غيبة المسيح (وبعضهم يذكر في ايامه الاخيرة) نقلت الحركة إلى العمل العالمي ، ومن المؤكد أن الذين تولوا عمليات نشر المسيحية في العالم هم غير المسيح ، ولقد كان لعمليات النشر هذه إنعكاسات متميزة على العقيدة المسيحية تبعا للزمان والمكان ، وخلال قرون ثلاثة اضطرت المسيحية أولا للرومنة بشكل عام وللتاقلم مع كل قطر وبلد بشكل منفرد ، فكان نتيجة لهذا قيام عدة ديانات مسيحية متصارعة وهكذا إن الصراع بين الديانات المسيحية كان واحدا من أهم مميزات العصور الوسطى وصانعا لاحداثها .

إن معلوماتنا عن تاريخ المسيحية في عصورها الأولى هي معلوما ت غير مؤكدة ، ثم إن المتوفر من الأخبار عن انتشار المسيحية والطرق التي اتبعتها أيضا غير كافية فيها الكثير من الغموض ، على أنه برغم كل هذا نجد من الثابت أن الفضل الأول في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط من مبادىء المسيحية الخلقية مع أمور الحياة والموت وغير ذلك يعود هذا إلى القديس بولس ، وهو أيضا المنظم الأول للكنيسة وباني اركانها الأولى .

وقد سهل على المسيحية الانتشار في العالم الروماني توفر طرق المواصلات مع توفر الأمن واستتبابه ، وزيادة على ذلك اعتماد جميع مقاطعات العالم الروماني لاحدى لغتين وهما : اللاتينية والاغريقية ، وقد يسر هذا نشر المسيحية ، لكنه منذ البداية فصمها فكان هناك مسيحيتين : لاتينية وأخرى إغريقية .

ولم تعارض الامبراطورية في البداية اعمال التبشير بالمسيحية ، فالسياسة الرومانية سمحت بحرية المعتقد ، وشرطت على المواطن الروماني الاعتراف بالآلهة الكبار للدولة وعبادة الامبراطور ، وعدم

القيام بنشاط يهدد الأمبراطورية ، ولكن مـا إن انتشرت المسيحية حتى بدأت المشاكل فالنصارى مثلهم مثل اليهود رفضوا الهة الديانة الوثنية الرومانية كما رفضوا عبادة الامبراطور ، كما اخذوا في رفض الخدمة في الجيش الروماني ، وكان لهذا ردات فعل من لدن السلطات الرومانية ، مما دفع النصرانية إلى العمل بالسر واخذ اتباعها بممارسة الطقوس بشكل سري ، وكوّن النصارى تجمعات سرية ، ولاشك أنه كان لذلك أكبر الاثار على تطور العقيدة المسيحية وأدخل عليها الشيء الكثير من العقائد والأفكار الغريبة عن أصولها .

ومع ازدياد انتشار المسيحية اخذت الدولة الرومانية في اعتبار هذه الديانة ديانة ممنوعة وخطرة ، وحظرت اعتناقها وممارسة طقوسها ، وأخذ اصحاب السلطة الرومان في روما والاقاليم في ملاحقة النصارى والتنكيل بهم بشتى السبل من تحريق وتعذيب ، وتحدثنا المصادر عن قيام نيرون باحراق العديد من النصارى وكذلك اقدام غيره على ذلك ، ولاقت المسيحية في أوائل تاريخها الرواج بين مختلف طبقات المجتمع الروماني خاصة بين الطبقات الدنيا ، والمسيحية كعقيدة تقضي بالتسليم وعدم المناقشة ، وهي بهذا مناقضة للعقائد المستندة الى الفكر الفلسفي وهي التي سادت المجتمع الروماني ومن قبله الاغريقي ، وكان معنى انتشار المسيحية ثم انتصارها النهائي الحاسم انهاءا للعصور القديمة الكلاسيكية وبداية عصور جديدة يتحكم بها الفكر المسيحي ، وهي العصور التي تسمى بالعصور الوسطى .

واثناء انتشار المسيحية لم تكن السلطات الرومانية تشكل التحدي الوحيد لهذه الديانة ، بل اضيف اليها الافلاطونية الحديثة واليهودية والغنوصية ثم المانوية وغير ذلك من العقائد ، واستطاعت المسيحية خلال صراعها مع هذه العقائد ان تكتسب منها الشئ الكثير وتتبناه وهكذا فان عمليات الصراع هذه ماكانت الا عمليات بناء للعقيدة المسيحية وتكوين لها ، برغم أن هذه العمليات أبعدتها كثيرا عن أصولها الأولى ولذلك قبع السيد المسيح في أقصى الزوايا الباهتة لهذه الديانة واصبح مع الأيام صورة خيالية غير فعالة ، وهذا الحال

هو الذي دفع العديد من الباحثين في العصر الحديث الى القول بـانه شخصية لم توجد تاريخيا .

ومع نهاية المائة الثالثة للمسيح غدت الديانة المسيحية بـاتباعها داخل الامبراطورية الرومانية قوة ليس فقط لايمـكن قمعهـا لابـل لايجوز تجاهلها والاستهانة بها ، وقد دفع هذا العديد من السـاسة الرومـان الى اعادة النظـر في مـواقفهم مـن النصرانية واتباعها ، وخاصة أيام الأزمات الداخلية والحـروب الأهلية ففـي سنة ٣١٣ م أصدر الامبراطور قسـطنطين مـرسوما في ميلان عرف فيما بعد باسم مرسوم ميلان ـ اعتـرف بـه بـالمسيحية كشريعـة قانونية يحق لاتباعها ومعتنقيها اعلانها وممـارسة طقـوسها بـكل حرية مثلها مثل بقية الديانات ، ولقد كان لهذا المرسوم أبعد الآثـار ويرى بعضهم فيه التاريخ الذي انتهـت فيه العصـور الكلاسـيكية القديمة وبدأت به العصور الوسـطى ، وقـد اختلفـت الآراء حـول الدوافع التي دفعت قسطنطين العـظيم الى اصـدار مـرسوم ميلان الشهير متذكرين ان الامبراطورية الرومـانية قـامت على اسـاس الوثنية مع عقيدة تألية الامبراطور ، واذا تذكرنا بالمسيحية مـا نزل من نوازل ، فان مرسوم ميلان لم يقض على مكانة الوثنية الرومانية فحسب ولم ينه عهد الاضطهاد بل هيأ الفـرص امـام المسـيحية في سرعة الانتشار ، ونقلها من مكانة الملاحق مـن قبـل السـلطة الى مكانة المدعوم من قبل السلطة ، ثم الى السـلطة ذاتهـا ، وهـكذا سارت النصرانية على سنن غيرها من الديانات السالفة ، فغدت الى حد كبير احدى ادوات السـلطة الزمنية الكبـرى ، لابـل أكبـر الأدوات ، ولم تكن هذه الأداة في جميع الحالات مطواعة ، لكن غالبا ما جعلت كذلك،وتاريخ العصور الوسطى في أوربة والامبـراطورية الرومانية الشرقية هو تاريخ السلطة ومشاكلها وطرق اسـتخدامها لهذه الأداة .

ومن هنا جاءت أهمية اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، وليس من باب المغالاة ان قال بعض الباحثين بان العصور الوسطى بدأت مـع

اعتراف قسطنطين ، وربطوا هذا ببناء القسطنطينية التـي جعلهـا قسطنطين عاصمة روما الشرقية ، ومعلوم ان العديد من البـاحثين يرى ان العصور الوسطى قد انتهـت مـع سـقوط القسـطنطينية للمسلمين .

ومرة اخرى ما هو الحافز الذي حـدا بقسـطنطين الى اصـدار مرسوم ميلان ، هل كان ذلك اعتناق هـذا الامبـراطور للمسـيحية وايمانه بها ؟ هذا مايراه بعضهم ، وهذا ما ينفيه بعضـهم الآخـر الذي يثبت ان قسطنطين لم يتنازل عن مكانته في العبـادة مـن قبـل رعاياه ، وظل طـوال عهـده وثنيا ، والذي دفعـه الى ذلك حـاجته السياسية لدعم النصارى فهـو قـد فهـم مشـاكل عصره ، وادرك موازين القوى في عالمه ، فأراد ان يتحكم بهـذه الموازين ويسـتغلها لصالحه ولصالح أهدافه ، لكن عندما نقل قسطنطين العـاصمة الى الشرق ترك روما لقدرها الذي حكم عليها بـالسقوط وهـي مـدينة الشيطان ليقوم مكانها مـدينة الله على حـد قـول القـديس اوغسطـين ، فروما التي خلت من الامبراطور قـام فيهـا البـابا وسعى البابا ليأخذ مكان الامبراطور ، ولاقى مسعاه هذا العديد من العقبات ، فبذلت البـابوية كل طـاقاتها في سـبيل تـذليل جميع العقبات ، ودخلت حلبة كل صراع ، وعلى هذا فـان احـدى مـزايا العصور الوسيطة قيام البابوية في روما وصراعها مع الامبـراطورية البيزنطية ومع حكام اوربة الغربية في سبيل مد نفوذها وجعله يشمل العالم أجمع كما كان حال أباطرة روما العظام .

ولقد شهدت المسيحية منذ اوائل عهودها خلافات مذهبية عميقـة للغاية كان لها اثارها الخطيرة على تاريخ أوربة والشرق معا وليس المكان الآن هو لدراسة هذه الخلافات بشكل مفصل ، انما سـنكتفي بالاشارة اليها حسب الحاجة ووقت المناسبة .

وكانت كبريات مشاكل الخلاف تتعلق بطبيعة الاقانيم الثـلاثة : « الأب »« الابن » « روح القدس » مـع طبيعـة العـلاقة بين هـذه الأقانيم وطبيعة السيدة العذراء أم عيسى ، وبدأت المشـاكل عندمـا

واحدة من أثيرا الى فيليا (فيليا موقع على شاطىء البحر الأسود) وكان عليها التربص حتى وصول رسل غودفري وهم في طريقهم الى بوهيموند وبقية الأمراء وحدث في نفس ذلك الوقت الحادث التالي: وجه الامبراطور الدعوة الى بعض الأمراء الذين كانوا برفقة غودفري لمقابلته ، وابتغى من وراء ذلك أن ينصحهم بأن يحرضوا غودفري على تقديم يمين الولاء للامبراطور ، وأضاع الأمراء اللاتين ـ كما جرت عادتهم ـ الوقت كله بكلماتهم الجوفاء المعتادة ، وبولعهم بالقاء الخطابات الطويلة ، ولذلك انتشرت اشاعة كاذبة وراجت حتى وصلت الى الفرنجة ، و كان فحواها بأن الأمراء قد اعتقلهم الكسيوس ، لذلك ما لبثوا أن ثاروا واخذوا يزحفون في صفوف متتالية نحو القسطنطينية ، مبتدئين بالهجوم على القصور القريبة من البحيرة الفضية (١٥) ، فدمروها تدميرا كاملا ، ثم هاجموا اسوارها لكن ليس بالمنجنيقات ـ ذلك انه لم يكن لديهم هذا السلاح ـ إنما بكتلهم اعتقادا منهم أنهم بأعدادهم الكبيرة يمكنهم اشعال النيران في البوابة التي دون القصر (١٦) على مقربة من مشهد القديس نيقولا (١٧) ولم يكن سواد العامة في بيزنطة وحدهم الذين تولاهم الهلع ، نظرا لعدم معرفتهم بفن الحرب ، ولهذا ضربوا صدورهم وانتحبوا عندما رأوا صفوف اللاتين ، بل استولى الرعب حتى على الجماعات المقربة من الامبراطور والشديدة الاخلاص له ، متذكرين يوم الخميس الذي سبق وتم الاستيلاء به على المدينة (١٨)وكانوا يخشون ان يحل بهم في هذا اليوم الانتقام (١٩)(بسبب ما حدث لهم يومذاك) وتسارع جميع الجنود المدربين نحو القصر في فوضى ، لكن الامبراطور بقي هادئا: فلم يحاول التسلح ، أو حتى وضع درع على جسمه ، أو حمل ترس أو رمح بيده ، أو اشهار سيفه ، بل جلس بكل هدوء وثبات على العرش الامبراطوري ، ينظر اليهم بوجه مشرق ، مشجعا اياهم ، وباثا الروح العالية والطمأنينة في قلوبهم ، وكان الامبراطور في تلك الساعة مجتمعا مع اقربائه وكبار القادة للبحث والتشاور حول خطط المستقبل ، وقد أصر ـ بالدرجة الأولى ـ على أنه ينبغي ألا يغادر شرفات الاسوار لقتال اللاتين

حدة والتمزق سعة وذلك لانعدام الرابط الموثق ولتوفر الاهواء والمطامع .

لقد حضر مجمع نيقية حوالي ثلاثمائة من رجال الدين النصارى وتراس الامبراطور نفسه جلسات المجمع مع أنه لم يكن معمداً وما زال وثنيا ، وأدان مجمع نيقية أريوس وقرر اعدام كتاباته ونفيه وملاحقة اتباعه ، وفعلا نفي أريوس ، لكن ذلك لم يؤثر كثيرا على عقيدته . فقد ظلت منتشرة في الشرق ، ومن الشرق سيتم نقلها إلى الشعوب الجرمانية في أوربة ، ونظرا لكثرة أتباع اريوس فقد قام الامبراطور عام ٣٢٧ م باستدعاء رجل الدين هذا من منفاه ، ولعل من دوافع الامبراطور لاتخاذ هذه الخطوة قوة اتباع أريوس في الشرق ، واعتزامه نقل العاصمة إلى القسطنطينية ، وهذا يعني أن الامبراطور قسطنطين كان على استعداد لتغيير ميوله الدينية المعلنة وذلك حسب الظروف الطارئة ، وحسب الحاجة السياسية وفي سنة ٣٣٤ عقد مجمع ديني جديد في مدينة صور وفيه تم نقض قرارات مجمع نيقية السالفة وأصدر العفو عن أريوس ، وتم حرمان اثناسيوس ونفيه ، وفي سنة ٣٣٦ توفي اريوس في القسطنطينية بشكل مفاجيء مما أحزن اتباعه وجعلهم يعتقدون انه مات مسموما ، ومما اثلج صدور خصومه فعدوا ذلك ضربة الهية حلت به ، ولم يلبث الامبراطور قسطنطين بعد أريوس طويلا فقد توفي في العام الثاني أي سنة ٣٣٧ م .

وكان قبل وفاته قد قسم الامبراطورية بين ابنائه الثلاثة : قسطنطين الثاني ، وقسنطيوس وقنسطانز ، وكان لهذا اثاره على الكنيسة فقد دعم كل واحد من هؤلاء كنيسة بلده ووجهها ضد كنيسة الأخر فدعم صاحب القسطنطينية الأريوسية حتى أيام امبراطور اورثيودسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) فقد دعا هذا الامبراطور سنة ٣٨١ الى مجمع ديني عقد في القسطنطينية ، وفيه تم تحريم الأريوسية وملاحقة اتباعها والتنكيل بهم في كافة انحاء الامبراطورية .

وعلى الرغم من الصراع الداخلي بين النصارى فقد حققت المسيحية في مدة وجيزة بعد قسطنطين انتصارا ساحقا على الوثنية الرومانية فتم الغاء هذه الديانة ومصادرة معابدها ، وكان لهذا النصر نتائج كبيرة استدعت تنظيم العلاقات بين الدولة والكنيسة ، كما تم تنظيم الكهنوت داخل الكنيسة ، واخذت الكنيسة في السعي لتامين الموارد المالية لنفقاتها ، فقامت بحيازة الأملاك ونيل الامتيازات العظمى فغدت بعد فترة وجيزة غنية جدا تمتلك موارد هائلة ، وغالبا ما تم استغلال هذه الموارد لغايات فردية ومطامع ذاتية لبعض الكهنة ورجال الدين .

وفي هذا الوقت قامت الكنيسة باصدار دراسات لاهوتية دينية وسعت نحو استهواء المثقفين والمفكرين ، وبذلك قامت قواعد اللاهوت المسيحي ، وأخذ هذا اللاهوت يحل محل التراث الفلسفي للعصور السالفة .

ولقد قمنا خلال حديثنا هذا كله بذكر البابوية في اكثر من مناسبة ، لذلك يحسن بنا القيام بالحديث عن هذه المؤسسة وذكر تاريخها بشكل منفرد .

تطلب التيار الانفصالي الذي انساقت فيه الكنيسة قيام مؤسسة لاهوتية قوية في مكان استراتيجي له خلفية تاريخية لتقود عمليات الصراع ، فكان أن قامت البابوية في الغرب مستغلة الانفصام الحاد بين الشرق والغرب ، وقامت في روما عاصمة الامبراطورية العتيدة التي اختفى فيها عرش الامبراطور الاله ، فكان أن حل محله عرش الامبراطورالحبر الاعظم خليفة السيد المسيح .

لانملك من المعلومات ما هو مؤكد وواضح للتاريخ للعصور الاولى لاسقفية روما وكل ما نعلمه ان حواريي السيد المسيح ورسله انتشروا في الأرض واستقر بعضهم في كبريات مدن العالم الروماني ، وهناك اسسوا قواعد كنائس ، ونظرا لندرة المدن الهامة في الغرب وكثرتها في الشرق فاننا نجد الكنائس المنسوبة الى الرسل في الشرق اكثر منها في الغرب وهي كنائس القدس وانطاكية

والاسكندرية ، ولم يوجد في الغرب الا روما وقد نازعهـا في البـداية قرطاجة ، لكن كما تغلبت روما الوثنية على قرطاجة وقهرتها من قبل تغلبت كنيسة روما على كنيسة قرطاجة فانفردت في العـالم الغـربي وتفردت في نيل الزعامة ، وكان عليهـا أن تتصـدى لكنائس الشرق وخاصة الكنيسة التي أحدثت في القسطنطينية بعد اتخاذها عاصـمة للامبراطورية الرومانية الشرقية وربطت كنيسـة رومـا تـاريخها بالقديس بطرس ،وكان اسمه الاصيل سمعان ، لكن روي أن السيد المسيح دعاه بطرس أي الصخرة ،وقال بأنه الصخرة التي سـتبنى عليها كنيسة الرب ، وعلى هـذا أعطـاه تفـويضا بسـيادة الأرض وأعطاه أيضا مفاتيح السماء فجعله زعيما للرسـل ومقـدما عليهـم جميعا ،لذلك فان كنيسته هـي مقـدمة على غيرهـا مـن الكنائس ورئيسها زعيم لجميع كهنة الديانة المسيحية في العالم.

إنما معظم هذه الحجج قد قـدم بعـد انتصـار المسـيحية وقيام الصراعات الداخلية فنحـن لانملك إلا نادر المعلومـات عن أسـاقفة روما في القرنين الأول والثاني لكن بعد قسطنطين أخـذت المصـادر تشير إلى بعضهم وإلى ماقاموا به من أدوار ومن هؤلاء داماسوس الأول (٣٦٦ ـ ٣٨٤ م) الذي صنف مؤلفا دافـع فيه عن مـكانة كرسي روما الكنسي واكد فيه على زعامتها على سواها ، وفي أيامـه تـــرجم الانجيل إلى اللاتينية ، ومـــن عهـــد خليفتــــه سيركيوس (٣٨٤ ـ ٣٩٩) ترجع أقدم المراسيم البـابوية التـي وصلتنا وبعدهما اشتهر البابا ليو العظيم (٤٤٠ ـ ٤٦١ م) حيث تم في عهده الاعتراف بسيادة كنيسة روما على غيرهـا مـن كنائس الغرب .

وفي هذا الوقت قال أباطرة القسطنطينية بـالمساواة بين كنيسـة روما وكنيسة القسطنطينية الحـديثة واسـتمروا في عقـد المجـامع المسكونية لمعالجة هذه القضية ودعمهـا ففـي مجمـع خلقـدونية عام (٤٥١) أصر الأساقفة المشارقة على هذه المسـاواة ، في حين رفض مندوب البابا ليو ذلك واستشهد بقرارات مجمع نيقية في تقـدم

روما على سواها ، ومع الأيام ازداد تمسك بابوات روما بدعواهم ففي سنة (٤٥٥) أصدر الامبراطور فالنشيان الثالث إمبراطور الغرب مرسوما يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا .

وقد زاد من مكانة كنيسة روما وتفردها في الغرب ازدياد التجاء الناس في الغرب إلى أساقفة هذه الكنيسة لفض الخصومات واستئناف الأحكام الدينية للكنائس الادنى ، وقد حازت كنيسة روما ثروة كبيرة جدا ، وساعدتها هذه الثروة على التحكم وتنفيذ مشاريعها الأمبراطورية ، وأخيرا عندما سقطت الامبراطورية الغربية عام ٤٧٦ م خلت روما إلا من البابا فتفرد بسلطانه .

وتحققت السيادة الفعلية لروما على كنائس الغرب في عهد البابا غريغوري الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) وقد حدث هذا في وقت تعمقت فيه الخلافات مع الكنيسة الشرقية حول تفسير طبيعة المسيح وعلاقة عنصر الناسوت فيه بالعنصر اللاهوتي ، ففي سنة ٥٣١ م أدان مجمع أفسوس الآراء القائلة بفصل الطبيعة البشرية عن اللاهوتية ، وقد تزعم رجال الكنيسة الجماعات القائلةبالطبيعة الواحدة مع أن مجمع خلقدونية ٤٥١ م أدان مذهب الطبيعة الواحدة وأخذ بالرأي بوجود طبيعتين للمسيح ، وهو المذهب الذي سيعرف بالملكاني وقد استمرت هذه المشكلة كينبوع دائم لمسائل الخلاف بين كنائس الشرق والبابوية وكانت مشاكل الخلاف هذه مزية أساسية من مزايا تاريخ العصور الوسطى .

الامبراطورية الرومانية والشعوب البربرية

لقد قمنا حتى الآن بفحص عدد من القضايا التي ساهمت في جلب نهاية الأمبراطورية الرومانية وبالتالي ، نهاية العصور الكلاسيكية ، ومن ثم بداية العصور الوسطى ، وفي الحقيقة جميع ماتناولناه قد ساهم في جلب نهاية هذه العصور لكنه لم يقم بتسديد الضربة التي أجهزت على روما وأسقطت عرشها الأمبراطوري ، لقد كانت شعوب أوربة البربرية هي التي عجلت بدنو نهاية العصور الوسطى ، وسددت الضربة القاضية إلى عرش روما ، فما هي قصة العلاقة بين روما والشعوب البربرية ، وما هو المقصود بلفظه بربرية ؟

كان الناس بالنسبة للرومان وقبلهم بالنسبة للاغريق يقسمون إلى قسمين : الشعب الروماني ، والشعوب البربرية ، ذلك أن الشعب الروماني عد نفسه شعبا متحضرا متقدما وماسواه ادنى منه مرتبة وأقل مكانة ، وقد رأى بعضهم أن لفظة بربرية تعني التوحش وعدم معرفة الحضارة ، والحقيقة ليس الأمر كذلك تماما إنما المرجح أن المقصود كان الشعوب ذات النظم القبلية والحياة البدوية ، فقد كانت أراضي الامبراطورية الرومانية كلها في أوربة وآسية وإفريقية محاطة بشعوب ذات نظام عشائري بدوي ، تكون لدى هذه العشائر الاسرة عادة النواة الاولى في المجتمع ، والأب هو سيد الاسرة وله حرية التصرف تجاه زوجته وأولاده ، حتى انه كان يستطيع بيعهم أو تأجيرهم أو رهنهم ، وسيد الأسرة هو المسؤول بالوقت نفسه عن أسرته من كافة الوجوه ، وغالبا ما كان رب الأسرة يمارس صناعة الفروسية والصيد والقتال ويترك أمور تربية الماشية للنساء ، كما يترك أمور الزراعة إن وجدت للعبيد ، وعلى هذا فعمل العبيد هنا يختلف عنه لدى الشعب الروماني ، فالعبيد

لايقومون بــالخدمات المنزلية ، ذلك أن منزل البـدوي لايحتــاج إلى خدمات كبيرة .

وتكون عدة أسر عشيرة ، وتكون عدة عشائر قبيلة ، وتــكون عدة قبائل شعبا من الشعوب البدوية ، والسـيادة في العشــائر للأكثــر شجاعة ونبلا وكرما وأريحية ، وسيد العشائر والقبائل هو مقدم بين مقدمين ، ولم تعرف الشــعوب البـدوية في مــراحل حياتهــا الأولى مبادىء توريث الزعامة ، وعندمــا عرفتهــا غدت الزعامــة مــرتبطة لابثروة أو أملاك إنما بعدد الاتباع والشجاعة ونبل المنحدر ، وشغل نبل النسب الدور الأعظم في تسهيل الوصول إلى الزعامة .

وكانت غالبية الشــعوب البــربرية وثنية ، لكن شــعوب أوربــة البربرية كانت تعرف الامبراطورية الرومانية كما أن الرومــان كانوا يعرفون هذه الشعوب ويتعــاملون معهــا ، وكانت غالبية الشــعوب البربرية الأوربية من أصول جرمانية أو كلتية ، وفي الحقيقــة لم يكن هناك خط واضح يفصـــل بين الشـــعوب البـــربرية وشـــعوب الامبراطورية الرومانية ، ففي القــرن الرابــع لم تفصــل حــدود الامبراطورية بين شعبها المتحضر والشعوب البربرية ، بــل شــملت الأراضي الرومانية بعض المقاطعات التي سكنت فقط من قبل شعوب بربرية مثل غاليا (فرنسا) وبريطانيا ، ونجد منذ القــرن الرابــع للميلاد مجموعات من المرتزقة من أصــل جــرماني تخــدم في فــرق الجيش الروماني العاملة والاحتياطية ، كمــا نجــد عددا كبيرا مــن كبار ضباط الجيش الروماني كانوا من أصل جرماني ، وقــد جــاء النبلاء الرومان بأعداد مـــن أفــراد الشــعب الجــرماني ليعملوا في ممتلكاتهم كخدم ومستعمرين ، وعلى هذا كانت الحضارة الرومانية متغلغلة في عمــق الأراضي البــربرية وبعيدا عن الحــدود الســياسية للأمبراطورية الرومانية ، وهنا علينا أن نتذكر أن العقل الرومــاني كان عقلا ســياسيا ، لذلك فإنه رغم قــربهم مـــن عدد مـــن البلدان البربرية بدرجات متفاوتة فإن الرومــان لم يعملوا على تقــوية هــذه الحالة واستغلالها ، لادراكهــم عجــزهم عن القيام بحــكم البلدان

البربرية ، والحقيقة أن عمليات رومنة الشعوب البربرية بشكل مكثف لم تتم من قبل السلطات الرومانية لكنها تمت فيما بعد على ايدي البعثات التبشيرية المسيحية .

ومن الملاحظ انه في القرن الرابع كانت الشعوب الكلتية عبارة عن مجموعات ضعيفة وبقايا شعب كان في القرون الماضية قويا جدا تحكم بالأراضي الممتدة من وسط المانيا مع بلاد البلقان وحتى شواطىء المحيط الاطلسي ، وقد طور هذا الشعب حضارة متقدمة بعض الشيء ، فقد كان أفراد من هذا الشعب يحسنون صناعة المعادن والأسلحة وتحليتها ، لكن على العموم نجد هذا الشعب في ايام غزو يوليوس قيصر لغاليا وبريطانية اضعف عسكريا من الشعوب الجرمانية ، ونتيجة لذلك فقد أزاحهم الجرمان من معظم أراضيهم شرقي نهر الراين وأجبروهم على عبوره ، وقد قامت روما

في القرن الأول الذي سبق المسيح بغزو غاليا وبريطانيا ، وتمكنت روما من احتلال معظم اجزاء انكلترا وولز لكنها لم تتمكن من احتلال اسكوتلندا وايرلندا وفي ايرلندا انحصرت معظم بقايا الشعب الكلتي ، وقد دعا الرومان ايرلندا باسم سكوشيا لأن القرصان السكوتش مع الغزاة السكوتلنديين كانوا شوكة رعب في جنب المحتلين الرومان لبريطانيا .

ويبدو أن الكلتيين لم يطوروا نظاما سياسيا متقدما، فقد بقي الناظم لديهم هو الرابط العشائري والقبلي ، وكانت ديانتهم بدائية يعبد فيها عدد من القوى الطبيعية ولها طقوس معقدة يقودها رهبان يدعى واحدهم درويد ، ولم تعرف القبائل الكلتية الوحدة بل عاشت في صراع داخلي حربي دائم ، ولعل اهم ماقدمه الكلتيون للحضارة الوسيطة كان في مجال الخيال الأدبي والقصصي والشعري الخصب ، مع أد وات معدنية وزجاجية محلاة ومزينة بنقوش ، لكن الجانب الفكري اكثر اهمية فهو الأصل الاول لقيام قصص الملك ارثر والكأس المقدسة والطاولة المستديرة .

وأهم من الشعوب الكلتية وابعد خطرا في صنع تاريخ أوربة في العصور الوسطى هم الشعوب الجرمانية ، واقدم مسكن معروف لهذه الشعوب هو الأراضي المحانية للقسم الغربي للبحر البلطيقي مع الاجزاء الجنوبية لشبه الجزيرة السكندنافية ـ اي شبه جزيرة جوتلاند كما عرفت في العصور الوسطى ـ والسواحل الشمالية للشاطئ الألماني وحتى نهر الأودر ، ومن هذه الأراضي انتشرت الشعوب الجرمانية نحو قلب اوربة ، ومع بداية عصر المسيح كانوا قد احتلوا معظم ما يعرف اليوم بالمانيا ، وقد أوقف زحف هجرتهم حدود الامبراطورية الرومانية المحصنة وخاصة في المناطق الغربية والجنوبية ، ولكن في الجنوب الشرقي لم تكن هناك تحصينات مماثلة لذلك تغلغلت اقسام من الشعوب الجرمانية الى داخل الاراضي الرومانية ، وقد تمكن الجناح الشرقي للشعوب الجرمانية من عبور المناطق المدعوة الآن ببولندا وأوكرانيا حيث احتل السهوب الواقعة الى شمال البحر الأسود ، وفي القرن الرابع للميلاد واجهت الشعوب الجرمانية الأمبراطورية الرومانية من لدن نهر الراين حتى نهر الدون ، ففي المناطق المنخفضة للأراضي المجاورة لهذا النهر استوطنت قبائل الفرنجة ، وفي المناطق العليا القبائل الالمانية ، وفي بوهيميا وجدت قبائل المراكوني ، في حين احتل الوندال السهل الهنغاري ، ومن هناك وحتى نهر الدون عاشت شعوب القوط وخلف الفرنجة وجدت الشعوب الساكسونية وفي شبه جزيرة اسكندنافيا وجدت أصول الفايكنغ والانكليز ، والى الشرق من الساكسون وجدت قبائل اللومبارد .

ونحن حين نذكر اسماء مثل الفرنجة والساكسون فاننا لانعني قبائل بل مجموعات كبرى من القبائل كانت متشابهة في العادات والنطق ، ولكن يبدو أن الشعوب الجرمانية قبل أن تشرع في هجرتها كانت لاتختلف عن بعضها بعضا في اللغة أو العادات ، إنما بعد الهجرة قامت مجموعات مختلفة متمايزة لغويا وثقافيا واجتماعيا تبعا للبيئة والظروف التي وجدت نفسها بها ، وتضخمت هذه الفوارق وظهرت واضحة في القرن الرابع

للميلاد ، وبدت بشكل واضح بين الشعوب الجرمانية الشرقية والشعوب الغربية ، فالساكسون والفرنجة والالمان تحركت جموعهم جنوبا ، وكانت المناطق التي استقرت بها مجددا مشابهة لمواطنها السالفة ، وقد ظلوا على اتصال بالشعوب الانكليزية من الجوت (اجداد الفايكنغ)الذين لم يهاجروا لكن اللومبارديين والوندال والقوط هاجروا نحو مناطق تختلف عن بلدان شمال شرقي اوربة ، فالأراضي الواقعة في شمال البحر الأسود مع هنغاريا هي سهوب رعوية وحين جاءت الشعوب الجرمانية الى هذه المناطق غدت شعوب فرسان وأصحاب قطعان للرعي ، وكانت هذه المناطق مع سهوب جنوبي روسيا عبارة عن أراضي تفصل بين المزارع السلافية والمستعمرات الاغريقية على البحر الأسود وشعوب أسية البدوية ، وكانت تعرف الغزو الدائم ومسكونة من قبل مجموعات متباينة من الاجناس ، وعندما هاجر إليها القوط تمكنوا من قهر جميع الشعوب فيها والسيطرة عليها ، لكنهم اي القوط لم يتوطنوا ، كمستعمرين بل كانوا عبارة عن اقلية عسكرية تحكم اكثرية متباينة في كل وجه .

وكان الحال في القرن الرابع أن الشعوب الجرمانية المجاورة للحدود الرومانية كانت تقوم بالاغارة على احدى المقاطعات الرومانية فتهزم حرس الحدود وتتوغل داخل الأراضي الامبراطورية وتظل تقوم بأعمال السلب والنهب حتى قدوم نجدات من الجيوش الرومانية التي تقوم بدحرها ومصادرتها ، ومن جهة ثانية كانت شعوب الجوت والانكليز تركب البحر وتغير على السواحل الرومانية ، ولمعالجة هذه الأعمال الخطرة قامت روما بتقوية حدودها وحصونها ، وباستئجار أعداد من المحاربين الجرمان كمرتزقة في جيوشها للعمل ضد بني جلدتهم لدفعهم عن الأراضي الرومانية ، وهكذا أصبحت حدود الامبراطورية من الجانبين مقطونة بقبائل جرمانية ، وعلى العموم كان أخطر الشعوب الجرمانية على روما هم القوط ، ولقد انقسم القوط الى القوط الغربيين والقوط الشرقيين ، وقد طور القوط نظاما سياسيا متقدما

على بقية نظم الشعوب الجرمانية ، وعاش القـوط الغـربيون على طول شواطى الدانوب والشرقيون قامت لهم دولة امتدت املاكها من نهر الدنستر حتـى الدون ، وكان القـوط يتحـركون تحـت قيادة ملوكهم ، وفي القـرن الرابـع كان القـوط على اتصـال بالامبراطورية ، وقد قام العديد مـن النبـلاء القـوط بـزيارة القسطنطينية حيث تعلموا الكثير من العادات والتقاليد الرومـانية في الحياة والمعيشة،وفي منتصف هذا القرن بدأ القـديس أوليفـلا الذي قدم من القسطنطينية بتحويل القوط الى المسيحية ، وكانت البعثات التبشيرية التي تولت هذا العمل تتبـع المذهـب الأريوسي لذلك غدت الشعوب الجرمانية تدين بالنصرانية ، لكن تبعا للعقيدة الأريوسـية المعادية لعقيدة البابوية .

لقد كان للقوط الشرقيين الآن جبهات ثلاث ، ففي الجنوب كانت المواجهة مع الامبراطورية الرومانية ، وفي الشمال وجد بحر البلطيق وشعوب الصقالبة (السلاف) واخيرا في الشرق وجدت شعوب أسـية الوسطى البدوية ، وفي القرن الرابـع كانت الأراضي الشرقية هـذه مقطونة من قبل شعوب آسيوية ضعيفة ، دعيت باسم اللان ، لكن في حوالي سنة ٣٧ تدفقت من داخل آسية موجات من شعوبها التـركية المغولية وكانت هذه الشعوب ذات اعداد وفيرة ومقاتلة مـن الطـراز المرعب ، وقد عرفت باسم الهون ، وفور تدفقها اجتـاحت شـعوب اللان واتت لمواجهة القوط الشرقيين .

ان المعلومات المتوفرة عن المؤسسات السـياسية لدى الشـعوب الجرمانية الغربية قليلة ، ويبدو انهم كانوا يديرون أمورهم ببساطة متناهية فقد كان هناك محاكم عامة فيها يتم فض القضـايا ، وقـد تراس كل مجموعة منهم مقدم ، وكانت أهداف انظمتهم القضـائية احلال نوع من النظام محـل الأعمـال الفـردية في الاقتصـاص الثاري ، فاذا ما جرح انسان أخر قـام المصـاب بتقـديم شـكوى للمحكمة ، وتقوم المحكمة بدعوة الجاني للمثول امامها واذا لم يفعل ذلك اعتبر خارجا على القـانون ، وهنا صـار بـامكان المجني عليه

الانتقام وغدا ذلك مخول له قانونيا ، وفي حال امتثال الجاني امام المحكمة يستطيع تبرئة نفسه اذا جاء بعدد من الشهود يشهدون بعد اقسامهم الايمان أنه لم يقترف جرما ، لكن اذا اخفق في البرهنة على براءته كان عليه ان يدفع الدية تبعا لتعريفة ثابتة ، وطبعا اختلفت هذه التعريفة تبعا لنوع الجريمة والناس المتورطين بها .

وكانت وظائف الرئيس أيام السلم قليلة لاتتعدى رئاسة المحكمة ، ذلك أنه وجد بالأصل ليقود جماعته وقت الحرب ، وعندما كان يعزم مقدم جرماني على القيام بحملة ما ، كان يدعو شجعان قومه لكي يصاحبوه في مغامرته ، وكان هؤلاء يقسمون على خدمة رئيسهم بصدق وذلك مقابل تزويده إياهم بالسلاح والطعام والثياب وبجزء من الغنائم ، وعرفت مجموعات المقاتلين باسماء مختلفة تبعا لحجمها ونوع تسليحها ، ومهمتها ، وغالبا ما أحاط بكل رئيس حاشية خاصة كانت تصحبة في كل حل وترحال ، وكانت تقوم بوظيفة حرسه الخاص اثناء الحملات الكبيرة .

وفي العصر الحديث قام عدد من الباحثين بوصف الشعوب الجرمانية بأنها كانت شعوبا ديمقراطية ، وهذا الوصف قام على ادراك لبعض العناصر الديمقراطية الأولى لدى هذه الشعوب ، ولكن اطلاقه بشكل عام يمزج بين حالتين وهما : الحكومة الديمقراطية ، وفكرة ان الفرد يتمتع بحقوق لاتستطيع اية حكومة انتزاعها منه ، ومعروف ان الديمقراطية تعني حكم الشعب ، ومع ذلك نجد حكومات ديمقراطية تحد من حقوق الأفراد بشكل كبير يفوق ما تقوم به بعض الحكومات الاوتوقراطية ، وفي الوقت نفسه قد نجد حكومة هي ليست ديمقراطية لكنها تعتقد بأنه محرم عليها اغتصاب حقوق الافراد وظلمهم ، وبدون شك ان الفصل في الخصومات في محكمة شعبية عامة لدى الجرمان كان عملا ديمقراطيا ، لكن عدم اعتراف القانون بالمساواة بين الجميع لم يكن ديمقراطيا .

وغالبا ما انتخب المقاتلون الجرمان رئيسهم ومقدمهم من بين صفوفهم ، لكن الاختيار كان في كثير من الاحيان يتم من بين أفراد

الاسر النبيلة بيد أنه لم توجد لدى الجرمان قواعد ديمقراطية لمحاسبة الرئيس ومشاركته في اتخاذ قراراته ، ولهذا لايجوز أن نحمل بعض العناصر الديمقراطية البسيطة في المجتمع الجرماني أكثر مما تحتمله حقا ، ولم يوجد بين الجرمان حكومات اذ لاوظائف لها بين شعب بدوي لايعرف الاستقرار والتجمع الكثيف في مكان واحد ، وعلى العموم كان الفرد الجرماني يتعشق الحرية ويكره أن يتدخل أحد في شؤونه ، وحين كان ينفذ أمرا اصدر اليه من مقدمه كان لاينفذه طاعة بل ادراكا ان ذلك لمصلحته هو كفرد من مجموعة متماسكة ، ولاشك أن حب الحرية هذا كان له أثاره البعيدة على تطور الحضارة والنظم في أوربة الغربية .

وكان بعض مقدمي الجرمان قد نال لقب « ركس »أي ملك من الامبراطورية الرومانية وعلى الأخص أولئك الذين كانوا في خدمة الامبراطورية ، أو تدفع لهم المبالغ مقابل خدمات ، وعندما عم وجود هذا اللقب بين الزعماء الجرمان فإن اولئك الذين لم تمنحهم روما هذا اللقب قاموا بمنحه لانفسهم ، ولم يكن الملوك كلهم سواء في الواقع ، فواحد منهم قد يكون زعيم عصابة من المقاتلين حجمها متفاوت وأخر قد يكون ملكا لدولة قوطية كبيرة ، ومن الجدير بالأهمية ان نتذكر بأن العالم الروماني القديم قد عرف كلمتين نقوم الآن بترجمتها ترجمة متساوية بمعنى ملك وهما ركس وبازليوس وقد اعتاد الرومان منح لقب ركس لكل زعيم غير روماني قاموا بمنحه منصبا مع بعض الصلاحيات،لكن لفظة بازليوس كانت تعني ملكا عظيما له مكانة سامية مقدسة ، إنها كانت تعني الامبراطور لذلك لم يطلقها الرومان على احد غير أباطرتهم ، ويمكن القول بكلمة موجزة أن لفظة ركس بين الجرمان عنت مقدما وظيفته الأساسية القيادة في الحرب.

واعتمدت الشعوب الجرمانية في حياتها على الزراعة والقتال وكانت الوحدة الزراعية هي سكان قرية ما ، كما أن الوحدة القتالية كانت هي عصابة واتباع مقدم ما ، ومن المعتقد أنه وجد لدى

الجرمان في قراهم نعطين للعمل الانتاجي الزراعي ، فالأول أن الانتاج تم بادارة القرية من قبل مقدم من المقدمين أشرف على عمال جميعهم كانوا ارقاء ، والثاني أن القرية كان يتم فيها الانتاج من قبل مجموعة من الرجال الاحرار العاديين ليس لهم مقدم أو ليس متسلطا عليهم أحد المقدمين ، وكانت الأراضي الزراعية للقرية تجعل في قسمين يزرع أحدهما هذا العام ويترك الآخر ليزرع في العام التالي ، ويترك الأول ليسترد خصوبته ، وفي القرى التي أديرت من قبل الرجال الاحرار تم توزيع الاراضي بشكل متساو بين الاسر في حين تركت المراعي والغابات مشاعا دونما توزيع ، وعاش الناس في القرية متجاورة بيوتهم ومحاطة باراضيهم الزراعية وفصلت كل قرية عن الأخرى بغابة كبيرة ، وعلى هذا يمكن الافتراض أن القرى وأراضيها الزراعية تم انتزاعها من الغابات والاحراش التي كانت تغطي أوربة البربرية

ومن الملاحظ أن الجرمان في القرن الرابع أولوا القتال عناية أكبر من الزراعة ، ذلك انه كان أسهل أن يحصل المرء على قوته بنهبه في ساعات من أن يتعب طوال العام ويشقى من أجله ، ولقد كانت الغارات على الأراضي الرومانية مربحة وممتعة في الوقت نفسه وكان افضل من هذا أن يخدم الانسان كمرتزق في الجيش الروماني ليسرق في رعاية القانون .

ويبدو أن القوط الشرقيين عاشوا في دولتهم في جنوب روسيا كمنتصرين عسكريين كان على رعاياهم تأمين كل احتياجاتهم ، ولقد كانت رغبة العيش بدون عمل دافعا أساسيا للجرمان في هجر مواطنهم وعبور الحدود الرومانية ، فلقد كان العيش في مواطنهم صعبا للغاية ، والحياة قاسية ، والصراع بين القبائل على اشده ، في حين أن الطرف الثاني من الحدود كان فيه مزارع متطورة خصبة وبلدان مزدهرة ، وإذا ما تمكن انسان من عبور الحدود كان في اسوأ الظروف يستطيع العيش من أعمال النهب ، وفي احسنها السيطرة على قرية مسالمة وادارتها والتصرف

بها والاستبداد بأهلها ، وعلى هذا لم تطمح الشعوب الجرمانية نحو إسقاط الامبراطورية الرومانية وكل ما أرادته مقاسمتها ثرواتها .

إن عمليات جرمنة المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية مع رومنة الشعوب الجرمانية التي سارت ببطء وانتظام في القرنين الثالث والرابع وميزات هذين القرنين ، قد أزدادت سرعتها في القرن الخامس ، والحق ان ذلك ابتدأ فعليا بعد سنة ٣٧٠م بفضل الانقضاض الهوني على القوط الشرقيين ، واستمرت عمليات تدفق الجرمان على الأراضي الرومانية نتيجة لهذا المحرض وبالسرعة المتزايدة نفسها لمدة قرنين تقريبا ، وكانت مناحي الهجرة بشكل عام جنوبية أو غربية ، ولقد دخل الجرمان الأراضي الرومانية تحت ظل أحوال مختلفة وأسباب متنوعة لا بل متباينة ، ففي سنة ٣٧٦ م طلب القوط الفارين من وجه الهون الذين انقضوا عليهم عبر المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين ، طلبوا بالحاح ورجاء من الأمبراطور الروماني فالنز (٣٦٤ ـ ٣٧٨ م) أن يشملهم بحمايته وراء حدود أمبراطوريته المحصنة ، وقد إستجاب لطلبهم وسمح لهم رغبة في الاستفادة منهم لحماية حدود أمبراطوريته من الهون ، وكان عدد الجرمان الذين أجتازوا الحدود عبر نهر الدانوب حسب بعض التقديرات يفوق المليون ومائة الف محارب ، وقد أحدثت هذه الهجرة ردات فعل عنيفة داخل الامبراطورية حيث لم يخلد هؤلاء المحاربون الى الراحة بل أخذوا ينشطون في أعمال السلب والنهب ، وعندما حاول الامبراطور وضع حد لهذا النشاط هزموه ونبحوه ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن جميع الشعوب الجرمانية شقت طريقها عبر الحدود الرومانية بأشكال سلبية أو نصف حربية فوضوية اللهم إلا بالنسبة للانكلو ـ سكون والوندال فهؤلاء دخلوا المقاطعات الرومانية كغزاة بكل ماتعنيه الكلمة ، وشقوا طريقهم بالحرب كفاتحين عسكريين.

وفي القرن الخامس صار الحال أننا بتنا نجد معظم المقاطعات الرومانية الغربية مدارة من قبل ضباط من أصل جرماني يقودون

عساكر جـــرمانية وقـــد اعتبـــر بعض هؤلاء مثـــل الوندال والانكلو ـ سكسون انفسـهم اعداء للامبـراطورية ، في حين اعتبـر بعضهم الآخر نفسه حليفا لروما ، وكان جل هؤلاء من القوط . ذلك أن ثيود سيوس العظيم (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) خليفة الامبراطور فالنز تصالح مع القوط وتحالف وسمح لهم بالاقامة في عدد مـن الاقـاليم واعفاهم من الضرائب مقـابل تـأديتهم الخـدمة العسـكرية وكان السماح مقدمة لاستيلائهم على عدد من المقاطعات الرومانية وبالتالي إقامة مؤسسات ملكية فيها ، ولهذا يمـكن القـول بـأن المـمـالك الجرمانية ظهـرت لأول مـرة داخـل الأراضي السـالفة حيث عاش الجرمان المهاجرون فيما سلف تحـت ظـل القـانون والنظـام الروماني ، أما الآن فقد عاشوا تحت ظل قانونهم الخاص ، ولهـذا يعتبر بعض الباحثين أن العصور الوسطى بدأت فعليا في هذا القرن.

وبعد وفاة الامبراطور ثيود سيوس كان الذين اعتلوا عرش روما الغربي عبارة عن شخصيات ذات وقع اسمي لاحـكم فعلي لتحـكم الضباط الجرمان فيهم ، وفي أوائل القرن الخامس سعى قائد اسمه ستليشو بوساطة جيش جنده من الجرمان وحتى من الهون ، سعى عبثا نحو منع الوندال من تخريب مقاطعة غاليا ، ومنع القـوط الغـربيين المستقرين قرب البحر الادرياتيكي من دخول ايطاليا ، ولقدقتل أثناء مسعاه هذا ، وقام الوندال بعبور ايطاليا الى غاليا واثناء عبـورهم نهبوا روما ، وتابعوا سيرهم من فرنسا نحو اسبانيا حيث جـرفوا الوندال أمامهم ، ولقد احتل القوط الغـربيون اسـبانيا مـع جنوب فرنسا وتمكن الوندال من العبور الى شمال افريقية حيث تملكوهـا من اسيادها مـن الضـباط الجـرمان.ومـع حلول عام ٤٩٠ كانت ايطاليا في حوزة القوط الشرقيين وكانت اسبانيا مع جنوب فـرنسا بيد القوط الغربيين وكان الوندال يتملكون سواحل شمال افريقية .

وكانت اعداد هذه الشعوب البـربرية قليلة نسـبيا لذلك نجـدهم لايتركون اثرا دائما مستمرا في الاماكن التي حازوها ، وسـبق أن اشرنا الى ان كل من القوط الشرقيين والغربيين كانوا على معـرفة بالحضارة الرومانية ومتـأثرين بهـا وذلك قبـل دخـولهم أراضي

الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعلى الرغم من أنهم نادرا ما انقادوا لأوامر السلطات الرومانية وكثيرا ما حاربوا جيوش روما فانهم ظلوا يعتبرون انفسهم حلفاء الرومان ، وقد مارس القوط كلا الدورين في مناسبات كثيرة ، من ذلك ـ كما راينا في سنة ٣٧٨ م هزموا جيشا رومانيا قاده الامبراطور فالنز وفتكوا بالامبراطور نفسه ، ونقيض هذا أنه في سنة ٤٥١ م قام القوط الغربيون بالاندماج في الجيش الروماني لشمال غاليا مع مجموعات من الفرنجة ، وقد عملت هذه القوات ضد اتيلا ملك الهون(ـ٤٥٣ م) الذي كان يغزو غاليا انئذ .

وقد عولت الجيوش القوطية في عيشها في ممالكها داخل الاراضي الرومانية على نتاج الأراضي الزراعية ، وكان على كل مالك ارض محلي ان يؤدي قسما من منتوجاته لأحد المحاربين القوط مع اسرته ، ولقد ادعى ملوك القوط انهم وكلاء للامبراطور الروماني وكانوا يظهرون عظيم البهجة والسرور عندما كانت روما ترسل لأحدهم لقبا ما يدل على التوكيل والمشاركة في الحكم ونبل المنزلة والتقدير ، ومعلوم ان القوط حين دخلوا اراضي الامبراطورية الرومانية كانوا يدينون بالمسيحية حسب العقيدة الاريوسية وهي مخالفة لعقيدة رعاياهم ، كما كانت لهم اعرافهم وقوانينهم الخاصة بهم ، ولهذا فقد حكم القوط بعد هجرتهم تبعا لقوانينهم الخاصة وتركت المقاطعات الرومانية تدار وفقا لقواعدها السالفة ، ولقد عد الرهبان الكاثوليك القوط هراطقة ، وعلى العموم كان ملوك القوط في غاية التسامح عينوا عددا بسيطا من رجال الدين الاريوسيين ، وتركوا البقية العظمى في يد الرهبان الكاثوليك ، ومع ذلك لم تكن الكنيسة الرومانية لتستكين في ظل حكم هرطقي وهذا مما عقد الامور .

لقد دمرت هجرة القوط والوندال امبراطورية روما الغربية بشكل فعلي ، كل هذا رغم ان الامبراطور الروماني الشرقي جستنيان الذي حكم في القسطنطينية من ٥٢٧ الى ٥٦٥ كان قد نجح في

القضاء على كل من الوندال والقوط الشرقيين واسترد قسما من جنوب اسبانيا من القوط الغربيين ومعلوم ان خلفاء جستنيان اعوزتهم المصادر والظروف فعجزوا عن الاحتفاظ بمكتسبات جستنيان ، وفي سنة ٥٦٨ م حدثت هجرة جرمانية جديدة هي هجرة اللومبارديين الذين استولوا على ايطاليا ، ومع نهاية القرن السادس نجد امبراطورية القسطنطينية تحكم صقلية مع أجزاء من ايطاليا بينها روما ورافينا والبندقية فقط،والبقية من أراضي ايطاليا كانت في أيدي اللومبارديين .

انه لمن الأمور الشديدة الصعوبة أن نستطيع تقدير آثار هجرة الجرمان على البلدان الغربية الواقعة في حوض البحر المتوسط وخاصةمن النواحي الاقتصادية ، وهذه مسألة ما تزال تثير جدلا كبيرا بين الباحثين ، فبعض من هؤلاء يرى أن هذه المقاطعات كانت قبل ان يتدفق عليها الجرمان بأعداد كبيرة في أحوال تقهقر وسير في دروب الفقر والانحطاط وكل ما صنعه الجرمان هو انهم عجلوا بالوصول الى الانحطاط والفقر والعزلة الاقتصادية ،لكن من المؤكد أن هذا التعجيل كان حاسما فالتخريب الذي سببته أعمال الحرب بين الفئات الجرمانية المتناحرة ثم بين الجرمان والجيوش الرومانية لابد انه كان هائلا ، وكانت آثاره على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والحضارية أهول ، ففي احوال السلم وعندما كانت الامبراطورية الرومانية في أوج عظمتها وجدت من المتعذر القضاء على القرصنة وقطع الطرق ، وكان لهذا الانعكاسات الكبيرة على المواصلات التجارية والثقافية ، ومع حالة الفوضى وانعدام الأمن الذي كان من حصاد هجرة الجرمان توقفت التجارة لأنه لم يعد هناك من يتجرأ على نقل البضائع ثم ان الثروات والأموال تبددت في الغرب فلم يعد هناك من يمكنه الشراء .

ومع هذا لم يتدمر كل شي دفعه واحدة ففي القرن الخامس كان مايزال في المقاطعات التي احتلها البرابرة بعض النبلاء الرومان يعيشون في قصور ظلت مراكز للثقافة الكلاسيكية ، لكن هؤلاء

النبلاء كانت اعدادهم قليلة وكان عليهم ان يعاشروا رجـال القـوط المتخلفين الذين كانوا لايقيمـون وزنا لما لديهـم مـن ثقـافة وحضارة ، هـذا وان الدمـار الذي نجـم عن تحـركات الجيوش الجرمانية كان ابلغ من كل تقـدير ، فـروما نفسـها عاصـمة الامبراطورية القديمة ومركز العالم الروماني نهبت مرتان مـن قبـل الجموع البربرية ، مرة بشكل بسيط من قبل القوط الغربيين أولا ثم بشكل رهيب من قبل الوندال سنة ٤٥٥ ونستدل من كتابات شـهود عيان ومعاصرين ان هاتين الحادثتين قد هـزتا العـالم الرومـاني بشكل عنيف جدا ، وعلى هذا نجـد ان الامبـراطورية في الغـرب في نهاية القرن الخامس قد تمزقت سياسيا واقتصاديا وثقافيا وانحطت مكانتها الى الحضيض .

لقد نجت مؤسسة رومانية غربية واحدة من الدمار وعاشت لتقوم بدور عظيم جدا في صنع احـداث تـاريخ اوربـة في العصـور الوسطى ، الا وهي الكنيسة الكاثـوليكية ، ذلك ان قـادة الجيوش الجرمانية برغم عدم كاثـوليكيتهم احتـرموا الكنيسـة وصـانوا ممتلكاتها ورجالها ، مدركين ان ذلك انفع لهم وسهل عليهم التحالف مع الكنيسة واستغلالها خاصة بعد اندثار رومـا ومـؤسساتها على ايديهم ، وساعد تطور الأحوال اسقف روما على التقدم بين أساقفة الغرب والانفراد بـالعاصمة الامبـراطورية التـي خلت مـن عرش امبراطورها ، فعندما احتل اللومبارد وسط ايطاليا حالوا بين نائب الامبراطور البيزنطـي المقيم في رافينا وبين متـابعة ادارة شـؤون روما ، وهكذا صار اسقف روما حاكمها المدني وحاكم ما انضـاف اليها من ضواحي ، وهكذا عاشت الكنيسة وكسبت مع مرور الأيام القوة والسمعة والشهرة .

ومن الملاحظ اننا في حديثنا عن الامبـراطورية الرومـانية واثـر الشعوب الجرمانية عليها أوقفنا حديثنا على ما جرى في مقـاطعات الغرب الأوربي الواقعة في حوض البحر المتوسط وبذلك اهملنا بعض مقاطعات الامبـراطورية النائية مثـل حـدود الراين وشـمال غاليا

وبريطانيا علما بان هذه المقاطعات ساهمت بنصيب اوفر في صنع التاريخ الأوربي الوسيط ولعلنا فعلنا ذلك لأن دور هذه المقاطعات في صنع التاريخ الروماني كان هامشيا مثل مواقعها .

فعندما كان على الجيش الروماني الدفاع عن اراضي الامبراطورية الكائنة في الحوض المتوسط سحب فرقه التي كانت مرابطة في بريطانيا وغاليا للتصدي للوندال والقوط ، وهذا اتاح السبيل امام الأقوام الجرمانية التي كانت داخل الحدود الرومانية وتعمل لحساب روما للدفاع عن حدودها ضد بني جلدتها الجرمان ، فاتيح امامها السبيل للتوغل داخل الأراضي الرومانية ، فقد جاء الألمان الى الوسط الشرقي لغاليا واستقروا فيه ، واحتل البيرغنديون وادي الرون ، وتحالفت قوى غاليا المختلفة عام ٤٥١ م فتمكنت من منع الهون من احتلالها .

وفي سنة ٤٨٦ قام كلوفس الذى كان من قادة الفرنجة ، وكان عسكريا ناجحا وسياسيا بارعا ، قام بالتوسع داخل غاليا على حساب غيره وذلك بعدما تحالف مع الكنيسة الكاثوليكية وتزوج من احدى الاميرات الكاثوليكيات ، واثناء توسعه تخلى مع اتباعه عن الأريوسية وعمد كاثوليكيا ، وهكذا غدا كلوفس حامي الكاثوليكية والمدافع عنها ، ويروى انه اخذ على نفسه عهدا الا يبقي في غاليا من يعتقد الأريوسية وهكذا وبهذه العلة تمكن كلوفس الذي كان يحمل اللقب الروماني ركس من السيطرة على معظم اجزاء غاليا ، وغدت فرنسا الحصن الحصين للكاثوليكية .

وكمنت قوة الفرنجة في كون موطنهم الأصلي كان قريبا من غاليا التي هاجروا اليها ، على أن الأعداد التي دخلت منهم مهاجرة الى غاليا لم تكن كبيرة نسبيا ، ويبدو ان غالبيتهم ـ أي المهاجرين ـ استقرت في المناطق الواقعة شرقي باريس والى الشمال الشرقي منها أيضا وكانت هذه الأراضي مهجورة غير مستعملة ، فاقاموا فيها عدة قرى جديدة ولم يوجد الى الغرب من باريس مثل هذه القرى ولا أيضا في جنوبي اللوار، على انه برغم طبيعة اعداد الفرنجة

في فرنسا ، فانهم غدوا حكام غاليا السياسيين والعسكريين ، وحاز الموظفون لدى ملوك الفرنجة مع رجالات هؤلاء الملوك ممتلكات لنفسهم وامتزجوا بطبقة الارستقراطية الغالية ـ الرومانية لكن تاثيرهم على الأسس والقواعد الثقافية كان قليلا ، فقد استمر الفلاحون يحرثون حقولهم كما فعلوا في الماضي ، وتكلم هؤلاء لغة عامية خاصة انحدرت من اللاتينية ، وهذه اللغة هي التي ستكون ماسيعرف فيما بعد باللغة الفرنسية ، وحكم النبلاء الفرنجة في المدن التي استولوا عليها بجانب أساقفة الكنيسة ، لكن الفرنجة لم يدخلوا اية تعديلات على التقسيمات الادارية القديمة ، والفارق الجوهري بين دولة الفرنجة وبقية دول الشعوب الجرمانية من وندال وقوط شرقيين وغربيين هو ان الفرنجة احتفظوا بالشعوب التي قهروها ، وهكذا اقاموا مملكة جرمانية على قواعد رومانية ـ غالية .

واذا ماتركنا غاليا ومضينا نحو بريطانيا نجد انه ليس لدينا تاريخ مؤكد يحدد وقت انسحاب الجيوش الرومانية من الجزيرة البريطانية ، وفي العادة يقال بأن ذلك كان عام ٤٠٧ ، لكن مهما يكن الحال فان تاريخ هذه الجزيرة منذ هذا التاريخ وحتى القرن السابع هو في غاية الغموض ، ويبدو أنه إثر انسحاب الرومان قامت مجموعات اسكوتلندية من جزيرة ايرلندا بالاستيلاء على بريطانيا واقامت مملكه حكمتها مع ايرلندا أو حكمت جزءا منهسا مع ايرلندا ، لكن خلال ذلك الوقت لم يتوقف الجرمان عن الاغارة على السواحل البريطانية وأخيرا جاءوا اليها مهاجرين للاستقرار ،وعلى العموم كان سكان بريطانيا في العصر الروماني يقطنون الأماكن المرتفعة ويبتعدون عن وديان الأنهار والأراضي المستنقعية مع الغابات ، وعندما جاء المهاجرون الجرمان الى بريطانيا قدموا من مواطن عاشوا فيها في قلب الغابات لذلك وجدوا الاراضي غير المقطونة في هذه الجزيرة مثالية وموافقة لمزاجهم وعاداتهم فاستعمروها ، ولاشك ان بعض المهاجرين قطن في أماكن كانت مستعمرة وقد تم التمازج بين المهاجرين والسكان القدامى احيانا

سلميا واحيانا اخرى بعد صراعات طويلة ، ورويدا رويدا انتصر الجرمان ، وفي الربع الأول من القرن السابع كانت غالبية اجزاء انكلترا في ايديهم ، وقد جاء غزاة بريطانيا مما يعرف الأن باسم الدانمارك ومن جنوب المانيا ، وقد دعوا انفسهم بالانكليز ، والساكسون والجوت وكانوامتقاربين باللغة والعادات والتقاليد ، وليس من النافع الحديث عن كل واحد من هذه الشعوب انما تكفي الاشارة اليهم بشكل مجمل وذلك باسم انكلو ـ سكسون ، ولقد كانت سيطرة هذه الشعوب على انكلترا اوف واكثر عمقا من هجرات بقية الشعوب الجرمانية الى المناطق المختلفة من اوربة ذلك انهم ازالوا الشعوب البريطانية بالقتل والاستعباد والتهجير ، وانكلترا الجرمانية زرعت اراضيها من قبل المهاجرين الجرمان ، وهذا امر لم يحصل في بقية الأراضي الأوربية التي هاجر اليها الجرمان وحتى انه لم يقم في اجزاء بريطانيا الأخرى عدا انكلترا ، حيث ان الجرمان كانوا فاتحين عسكريين يحكمون شعوبا مقهورة وعلى العموم لم يدمر الأنكلو ـ سكسون سكان انكلترا البريطانيين فحسب بل ازالوا كل معالم الحضارة الرومانية من بريطانيا وهذا امر لم يحصل في بقية اجزاء اوربة الرومانية التي احتلتها الشعوب الجرمانية ، وكان حال بريطانيا في القرن السابع انها غدت مقسومة بين الكلتيين والجرمان .

ان ما قمنا به حتى الأن هو البحث في الاصول الكلتية والجرمانية والرومانية التي كون تمازج تراثها تاريخ اوربة في العصور الوسطى ، لكن عمليات هذا التكون التمازجي لم تمر بسلام ووقت قصير ، بل عبر عصور اشتد فيها الصراع وتعاظمت ابعاده وصوره ، وكانت الخليطة الناتجة هي ماندعوه عادة باسم حضارة العصور الوسطى ، وعلى هذا فإن القانون الروماني أخذت مؤثراته تظهر على التفكير الأوربي منذ القرن الحادي عشر ، والمؤثرات الكلتية الحضارية اصبحت مهمة منذ القرن الثاني عشر ومؤثرة على الثقافة الجرمانية ، وعليه إن على القارىء الذي يود التعرف الى ما حدث في تاريخ العصور الوسطى أن يكون متمتعا بعظيم الصبر أثناء

دراسته لأصول هذا التاريخ ، وبديهي أنه بدون فهم هـذه الأصـول على شدة تعقيدها لا يمكن استيعاب أية قضية من قضـايا التـاريخ الوسيط .

لقد غيرت هجرة الشعوب الجرمانية الوضع الجغـرافي والزراعي والاقتصادي للعالم الأوربي ، كمـا زلزلت التـوازن العسـكري في أوربة.

وفي الوقت الذي تمكن الجرمان فيه من احتلال المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية ، فانهم لم يتعدوا طور الاحتلال الى التغيير البشري والعرقي ، فلقد كانت اعدادهم قليلة ، لذلك كان حالهم حال جيش محتل أكثر من حال شعب مهاجر يبغي أن يحل محـل شـعب اخر ، ولقد استطاع الجرمان الاحتفاظ بالمقاطعات التي اسـتولوا عليها ما دام ليس هناك قوة عسكرية أخرى تستطيع طـردهم ، لكن في القرن السادس تمكن الامبراطور البيزنطي جستنيان من القضاء على القـوط الشرقيين والوندال في كل مـــن ايطـــاليا وشـــمال افريقية ، وبعد قرن ونيف قضى المسلمون على القـــوط الغـــربيين في اسبانيا ، وعلى هذا صحيح أن الجرمان حـطموا الكيان السـياسي لروما الغربية في مقـــاطعاتها الغـــربية الواقعـــة على البحـــر المتوسط ، لكن هؤلاء الجرمان عجزوا عن تقديم نظام بـديل يحـل محل النظام الروماني ، ولهذا نجد أن مراكز القوة السياسية تنتقل من المقاطعات الرومانية الى الاراضي الأوربية التـي كانت الموطـن الأصلي للشعوب الجرمانية أو الى مـا جـاورها مـن مقـــاطعات استعمرها الجرمان بشكل كامـل ، ومـع سـقوط مملكة القـــوط الشرقيين في ايطاليا أصبح الفـرنجة القـوة العسـكرية المتحـكمة والفعالة في غرب أوربة ، وكما ذكرنا من قبل فإن مراكز قوة الفرنجة كانت في الشمال الشرقي لغاليا وفي وادي الرين ، ومع أن حضـارة العصور الوسطى نشأت من اندماج العناصر الحضارية الجرمانية بالعناصر الرومـــانية وتـــطورها ، الا أن هـــذه الحضـــارة لم

تنشأ في حوض البحر المتوسط بـل في أراضي الشعوب الجـرمانية الأولى قبل الهجرة.

ولقد كا ن لنقل مركز السلطة والسياسة والحضارة من مقاطعات البحر المتوسط الى شمال أوربة تأثير على جغرافية أوربة السياسية والاقتصادية ، وتـأثير المحيط الجغـرافي الجـديد على الحضـارة الوسيطة يأتـي مـن انه معلوم أن مناخ شـواطى البحـر الأبيض المتوسط معتدل جـاف ، والتـربة في الأراضي المتـوسطية خفيفـة والغابات قليلة والأنهار ليست كثيرة ، فالري الزراعي قليل كمـا أن الأراضي الصالحة للزراعة غير كافية وغير عظيمة الخصـب واراضي شمال أوربة كانت بـاردة في الشـتاء لطيفـة في الصـيف كثيرة الأمطار ، وكانت مغطاة بـالأحراش والغـابات وعندمـا قـام المستعمرون الجرمان بتنظيف بعض البقاع من الا شـجار وجـدوها تنتج كميات كبيرة من الحبـوب ، وكانت الأرض ومنتجـاتها قـاعدة الاقتصاد في العصور الوسطى ، وعلى هذه القـاعدة اعتمـدت دول اوربة الغربية الوسيطة لكن لماذا اعتمدت اوربة الغـربية فقـط على موارد أرضـها الزراعية ، اكان ذلك عن اختيار أم إجبـار ، وأخيرا وتبعا لهذا أكان الحال الاقتصادي هو الذي حـدد بـداية العصـور الوسطى أم سقوط روما السياسي على يد الفاتحين الجرمان ؟

ان افضل من حاول معالجة هذه المسـألة هـو المؤرخ البلجيكي ـ هنري بيرين ـ وجاءت خلاصة أفكاره في كتاب نشر بعد وفـاته دعاه باسم «محمد وشارلمان» وقد أثار ما قدمه بيرين في هذا الكتاب زوبعة كبيرة بين العاملين في تاريخ أوربة في العصور الوسطى ومازال مـع أنه مضى على نشره سنين عديدة ، وكان ماقدمه بيرين من رأي هـو أن الفصل بين العصور القديمة الكلاسيكية والعصور الوسيطة قـد قام بعد سـنة ٨٠٠ م ، أيام حـكم شـارلمان وليس أيام الهجـرة الجرمانية في القرن الخامس ثم السادس .

ويقدم بيرين عرضا مؤيدا لأفـكاره ملخصـه أن الأراضي التـي تشكلت منها الامبراطورية الرومانية في عصورها المتـأخرة أي مـن

بعد القرن الرابع ، كانت تلك المحيطة بـالبحر المتـوسط ، حيث أن هذا البحر كان بحيرة رومانية وصلت بين مقـاطعات الامبـراطورية ولم تفصل بينها ، فقد كانت هـذه البحيرة طـريقا سـافرت عبـره الديانات والفلسفة وانواع البضائع التجارية ، كل هذا مـع عقـائد مصر وثقافات الشرق وعبادة مثرا والمسيحية ، وفيمـا بعـد نظـام الرهبانيات وحياة الديارات ، وعلى طول شواطىء البحر المتـوسط امتدت طرق القـوافل التـي انتقلت عليهـا كنوز الشرق وبضـائعه الرائعة من عاج وتـوابل وحـرير وورق البـردي والخمـور والزيوت ، وفي المقابل أرسل الغرب الى الشرق منتجـاته وخـاصة العبيد ، ولقـد كان هناك وحـدة نقـدية للامبـراطورية تمثلت بالسوليدوس الذهبي ، ولقد اشرف على ادارة الأعمـال التجـارية وتنظيمها داخل الامبراطورية التجار اليهود والتجار السوريون .

وهنا يطرح سؤال حول : ما هـي مـؤثرات هجرة الشـعوب الجرمانية على الامبراطورية الرومانية وذلك عندما قامت في القرنين الرابع والخامس ؟ لقد قهرت المقاطعات الغربية بما فيها ايطاليا من قبل الشعوب الجرمانية الغازية وزالت السيادة الرومانية السياسية من الغرب ، ولقد كان هذا في حد ذاته فاجعة عظمى ، بيد انه بـرغم ذلك لم يجلب نهاية العصور الكلاسيكية كما ظن بعضهم من قبل .

وحيث أن القبائل الجرمانية الغازية شكلت أقلية صغيرة في البلاد المفتوحة ، ومع أننا لانملك أرقاما محـددة،لكن تقـديرات المؤرخين تقول بأن عدد القوط الشرقيين في ايطاليا لم يتجـاوز المئة الف وكذا عدد القوط الغربيين في اسبانيا وجنوب فـرنسا ، وعدد البيرغنديين في جنوب شرقي فرنسة حوالي خمسة وعشرين الفـا ، ولم يبلغ عدد الوندال الذين عبروا الى الشمال الافريقي اكثر من ثمانين الفـا ، وعلى هذا لم يتجاوز عدد الشعوب الغازية بالنسبة للشعوب المقهورة نسبة أعلى من واحـد الى مـئة ، وليس هناك مـا يثبـت أن هؤلاء الجرمان تلقوا امدادات جديدة ، بل على العكس نقصـت أعدادهـم

بفعل البيئة الجديدة وبفعل الحرب ، وأخيرا أطيح بهم عسكريا وتم امتصاصهم.

ومن الواضح أن جرمنة البلاد المفتتحة كان محدودا جدا ، فقط ظهر واضحا في بقاع وقعت مباشرة على الحدود الشمالية للامبراطورية ، حيث تلاصقت مع المواطن الأصلية للشعوب الجرمانية ، لكن فيما عدا ذلك فاننا نجد التأثير اللغوي الجرماني على الفرنسية لايتجاوز ثلاثمائة كلمة وكذا الحال بالنسبة لجميع اللغات الأوربية الأخرى ، وكما حدث في ايطاليا ومقاطعات الغرب الروماني إن الفاتحين الجرمان تم امتصاصهم من قبل السكان المحليين حيث مانزال نجد بقايا عناصر شقراء في كل من ايطاليا وشمال افريقية يفترض بعضهم انها من بقايا المهاجرين الجرمان .

وعلى هذا فان الاحتلال الجرماني وان قضى سياسيا على الامبراطورية الرومانية الغربية لكنه لم يقض على الحضارة والنظم وتقاليد المعيشة والادارة الرومانية ، لقد استمر وجود روما الغربية ، بدون استقلال سياسي ، لكن هذا البقاء استمر ايضا يسير في طريق التقهقر والانحدار وعندما زال الحكام الرومان من الوجود وحل محلهم حكام من أصل جرماني ، فإننانجد ان هؤلاء الجرمان تابعوا السير على النهج الروماني نفسه ، ولم يقوموا بتدمير المؤسسات الكلاسيكية الثقافية بل حافظوا عليها ، ولم لا فالجرمان كانوا متأثرين الى أبعد الحدود بالحضارة الرومانية وكانوا يعرفون ثقافة روما قبل قهرها سياسيا ، وظلوا هكذا بعد نصرهم عليها ، وفي حالات كثيرة تنازلوا عن عاداتهم وتبنوا الطريقة الرومانية لسموها وتقدمها ، ولذلك ما أن زالت قوى الجرمان العسكرية حتى ذابوا حضاريا وتم امتصاصهم من قبل الشعوب المقهورة ، وخلال هذا كله تابعت المؤسسات الثقافية الكلاسيكية سيرها نحو النهاية ، ولم يكتب البقاء الا لمؤسسة رومانية ثقافية واحدة كانت هي الكنيسة وصحيح أن الكنيسة احتفظت بوجودها لكن كأداة تخضع لادارة رجال الدنيوية ، وهذه

الادارة تابعت اختيار موظفيها من خارج النظام الكنسي ورجال الكهنوت ، وحكمت المقاطعات المقهورة حكما استبداديا كما كان الحال ايام الامبراطورية ، وظلت الادارة في ايدي طائفة الموظفين من السكان المحليين المثقفين ، واستمرت قواعد الجباية تعتمد في جمع الضرائب من النقد العين المضروب من الذهب ، ولم يؤسس الجرمان ـ كما سبق الذكر ـ ملكيات في الأراضي التي استولوا عليها ، لكن مامن ملكية ضمت شعبا بأسره ، فكانت دولة وطنية لأمة من الامم ، بل استمر نظام التوزيع الاداري الروماني قائما دونما تعديل او تغيير ، والتعديل الذي تم بواسطته إعادة توزيع هذه المقاطعات حدث في القرن السادس من بعد ماتمكنت جيوش الامبراطور جستنيان امبراطور روما الشرقية من اعادة السيطرة على معظم مقاطعات روما الغربية حيث عاد البحر المتوسط زمن جستنيان مرة ثانية بحيرة رومانية وهنا حدثت ردات فعل جرمانية ، فقام اللومبارديون بعبور جبال الألب واستقروا في شمال ايطاليا ، لكن هذه الحادثة لم تعطل شيئا من الواقع المذكور انفا وهم بدورهم تم امتصاصهم فيما بعد ، وهكذا ظلت الحياة والأمور هي ذاتها ، وكما كان فيما مضى استمر السوريون واليهود في ممارسة النشاط التجاري فجلبوا البضائع الشرقية الممتازة وظلت مقاطعات البحر المتوسط مترابطة حيث تابعت بلاد ايطاليا واسبانيا وفرنسا على سبيل المثال استيراد الجمال من شمال افريقية لتستخدم في عمليات النقل ، ويمكن أن نجد في مدينة نربونة وهي مدينة فرنسية الآن ـ نموذجا لما كان عليه الحال في القرن السادس ، ففيها وجد القوط والرومان واليهود والسوريون والاغريق ، وعاشوا جنبا الى جنب وكل نشط في ميدانه ، وسلفت الاشارة الى أن الحكام الجرمان لغربي أوربة اعتمدوا في اداراتهم على رجال ذوي ثقافة رومانية ، وليس فقط ذوي ثقافة بل عادات وتقاليد رومانية ، واستمر استعمال اللاتينية والاعتماد على ادابها برغم ما الم بها من انحطاط ، وبكلمة موجزة لقد تغير وجه أوربة

الغربية إثر احتلالها من قبل الشعوب الجرمانية لكن ليس بعمق انما بشكل بسيط فقط .

ثم جاءت الطامة الكبرى الحقيقية ووقعت الواقعة في القرن السابع فقادت الى ابلغ النتائج في التاريخ الأوربي ، وكانت هذه الطامة هي ظهور العرب كقوة عظمى بسبب قيام الاسلام ، وحدوث الفتوحات العربية الكبرى ، فقد توفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢ م وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم بفترة وجيزة جدا حدثت الفتوحات العربية الكبرى بعنف وسرعة كبرى مذهلة ، وعندما قام الاسلام كانت الامبراطورية البيزنطية تمتلك البلدان المحيطة بشرقي البحر المتوسط ، وكان يتربع على عرشها الامبراطور هرقل الذي هزم الامبراطورية الساسانية ، وأوصل دولته الى ذروة القوة والمجد ، وخيل اليه ان مامن قوة في الدنيا باتت تهدد دولته ، ولم يخطر ببال هرقل ان يأتيه الخطر من بداة شبه جزيرة العرب ، ولكن خابت حساباته وغدت أماله سراب .

ففي سنة ٦٣٤ عبرت جيوش العرب المسلمين نهر الاردن ، وهزمت هذه الجيوش قوات بيزنطية في أكثر من معركة وفتحت دمشق وتابعت سيرها شمالا فطردت هرقل نفسه الى داخل اسية الصغرى ، وغدت سورية كلها للعرب الذين زحفت جيوشهم نحو مصر فافتتحوها ومن مصر ستتوجه نحوشمال أفريقية ، ومن المغرب ستعبر مضيق جبل طارق - كما يعرف الآن - الى اسبانيا ، وهكذا وبسرعة غير متوقعة فقدت بيزنطة البحر المتوسط مع مقاطعاتها الكائنة على هذا البحر ، وفجأة تحول البحر المتوسط من بحيرة رومانية الى بحيرة عربية ، وتوغل العرب داخل أوربة ، ولم يوقف توغلهم إلا النيران اليونانية عند أسوار القسطنطينية وشارل مارتل في بواتيه(ودولة الخزر في جبهة البحر الأسود).

وهناك فوارق لا يمكن عدها بين العرب الفاتحين والجرمان الذين سبقوهم بالصراع مع روما ، فالفتوحات العربية لم تكن مجرد

هجرة بداة بل كانت عمـلا عقـائديا حضـاريا ، لذلك لم تمتصـهم شعوب البلدان المفتوحة بل هم قاموا بتعريب هذه الشعوب وتحويلها إلى الاسلام ، والإسلام بعقيدته في التوحيد خالف غيره من الديانات وخاصة النصرانية ، وصحيح أن الشعوب الجـرمانية حين قهـرت بعض مقاطعات روما كانت أريوسية وكان سكان البلدان المفتـوحة كاثوليك لكن كل مـن الآريوسـية والكاثـوليكية يجمعهمـا المسيح ، وكانت شعوب الجرمان أدنى ثقافة وحضارة من شـعوب روما ، ولم يكن العرب كذلك، هذا ولايمكن مقـارنة الفتـح العـربي بأعمال التوسع الجرمانية فالعرب باسلامهم كانوا ارحم شعب عرفه التاريخ .

لقد كانت نتائج الفتوحات العربية على أوربـة الغـربية عظيمـة جدا ، ومن المعلوم أن الامبراطورية الفـرنجية هـي التـي أوقفـت الزحف العربي ضد أوربة الغربية ، ذلك أن هذه الامبراطورية كانت تعيش عصر قوتها الذهبي ، لكن لماذا تحول مركز القوة الفعـالة في اوربة الغربية من المقـاطعات المتـوسطية التـي سـلف وكانت غنية مزدهرة فيها تجارة رائجة الى الاراضي الفرنجية في الشـمال التـي كانت افقر من الأراضي المتوسطية، إنما هي زراعية تنتج الحبوب ؟ يبدو أن السبب الرئيسي في ذلك هو انهيار التجـارة الجنوبية ، فقـد شطرت الفتوحات العربية البحر المتوسط إلى قسـمين ، النصـف الشرقي حيث الامبراطورية البيزنطية ظلت حية بفضل متانة أسوار القسطنطينية وكثرة مواردها واستراتيجية مـوقعها ، ثـم بفضـل وجود النار اليونانية واحتفاظ هـذه الامبـراطورية بقـوة بحـرية معتبرة ، أما القسم الغربي فقد استولى عليه العـرب ، وحـدث في مقاطعات أوربة الغربية انقلاب هائل ، ففـي فـرنسا أهـم هـذه المقاطعات أختفـت جميع البضـائع الشرقية التـي كان التجـار السوريين يجلبونها ، لقد انعـدم وجـود ورق البـردى والتـوابل والزيوت والحرير والذهب أيضا ، ودمـرت المؤسسـات التجـارية المحلية بعد أن انتابها الضعف والافلاس ، وفي جنوب فرنسا ظهـر مكان التجار المحليين تجار مشارقة جدد عملوا كوسطاء بين العـالم

العربي والغربي ، ولقد كانت أهم النتائج المباشرة لتوقف التجـارة عجز سريع وكبير في دخل السلطة الملكية ، مما جعل الملك يعتمد اكثر فأكثر على النبلاء من ملاك الأراضي ، ولقد كان هذا السبب الرئيسي في اضمحلال الحياة السياسية والاجتماعية في زمـن الميروفنجين في القرن السابع ـ وهذا أمر سنذكره بالتفصيل في المسـتقبل ـ وقـد تأثر جنوب فرنسا اكثر من الشمال فـانحطت مـدن الجنوب في حين استمرت مدن الشمال في اعتمادها على الحياة الزراعية وفي الشمال وجد الفرنجة ، ومن مقاطعات الشمال الفرنجية جاء أجـداد الأسرة الكارلونجية ـ أسرة بيبن وشرلمان ، لقد كانوا مـن نتـاج الأرض البلجيكية من قرب لييج حيث حتى اليوم ماتزال تعيش أسرة تحمـل اسم بيبن وتنسب اليه .

ويمكن أن نلاحظ أن الفوارق كبيرة للغاية بين الأحوال في فرنسا أيام الدولة الكارلونجية في القرن الثامن او التـاسع وبين الأحـوال أيام الدولة الميروفنجية في القرنين السادس والسابع ، فـالاقتصاد الآن أصبح قائما على الزراعة بدلا من التجارة ، وقد حلت الفضـة محل الذهب في النقد ومعيار التعـامل ، وقـامت الكنيسـة بـطرد الموظفين المدنيين من الادارات ، وغدت اللغة اللاتينية لغـة حـديث وكتابة فقـط داخـل الكنيسـة ، وحلت بين الناس عاميات لاتينية أخذت مكان اللهجات الاقليمية ، وتطورت أدوات الكتابة وانتـظمت لكن ما يدعى عادة بـاسم النهضـة الكارلونجية التـي قـامت على اللغتين الاغريقية واللاتينية مـع آدابهمـا كانت محـدودة وعابـرة ومرتبطة بعدد من العلماء في الطبقات العلية ولم تتوغل بين صـفوف الناس العاديين .

إن هذه الآراء التي قدمها هذا المؤرخ البلجيكي الأصل في كتـابه محمد وشارلمان قد أثارت كما ذكرنا عاصفة من الجدل ، حيث حاول بعضهم أن يرد عليه فيدحض بعض الآراء التي قدمها ويبـطل الكثير من الشواهد التي اعتمد عليهـا ، مـن أن التجـارة لم تنقـطع ولم تتوقف بل ضعفت ، وان استمرار الاستيراد سبب انعدام الذهب في

الغرب بشكل تدريجي ، لكن مهما تكن حرارة الدفوع التي رفعت ضد آراء بيرين تبقى نظرياته أقوى وأمتن فبالنسبة له لولا محمد لما ظهر شارلمان ، يعني أننا نستطيع فهم تاريخ تطور الامبراطورية الكارلونجية فقط عندما نتحدث عن التوسع العربي في غربي أوربة ، فالضغط العربي هو الذى ولد حياة زراعية وقوة عسكرية في فرنسا وهوالذى سبب وجودها في الشمال وأخذها هذا الاتجاه .

إن هذا الذى طرح حتى الآن يدعونا أولا وقبل كل شيء أن نتوقف ريثما نتعرف الى تاريخ كل من الدولة الميروفنجية ثم الامبراطورية الكارلونيجية في غربي أوربة ، وإلى تاريخ الامبراطورية البيزنطية في شرقي أوربة وآسية الصغرى .

الامبـراطورية البيزنطية والحضـارة الارثـوذوكسية الشرقية

لقد وضعت هجرة الشعوب الجرمانية واعمال توسعها في القـرن الخامس مقاطعات الامبراطورية الغربية تحت سيادتها ، لكن غالبية الأجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية نجـت مـن الاحتـلال الجرماني برغم انها عانت من غارات هذه الشـعوب المدمـرة ، ولم يتح لهذه الشعوب الاستقرار في مقاطعات أوربـة الشرقية ، ثـم إن بقية مقاطعات الامبراطورية في أسية لم تصبها اية مضار مـن قبـل الشعوب الجرمانية.

ولقد سبق لنا أثناء عرضنا لتاريخ الامبراطورية الرومانية المتأخر وعلاقة هذا التاريخ بظهور المسيحية وانتصارها مع هجرة الشعوب الجرمانية أن تحـدثنا عن انشـطار الامبـراطورية الرومـانية إلى شطرين واحد في الغرب وآخر في الشرق ، كمـا تحـدثنا عن إقـامة الامبراطور قسطنطين الكبير لمدينة القسطنطينية في موقع مسـتعمرة اغريقية قديمة عرفت بـاسم بيزنطـة ، وكان هـذا الموقـع في غاية الأهمية ، فهو وإن وقع في البـر الأوربـي إلا أنه كان وثيق الصـلة باسية ، فالقسطنطينية مدينة أوربية أسيوية برية بحـرية ، يسـهل الوصول منها واليها برا وبحرا إلى أوربة وأسية وروسيا ، ويمـكن الدفاع عنها ضد الغزاة من أسية من الجهـة الأوربية ومـن الجهـة الآسيوية ضد الغزاة من اوربة ويمكن أن تقوم بـدور صـلة وصـل تجاري وحضـاري وعسـكري بين القـارتين الاسـيوية والاوربية ، وكانت محـاطة بشـعوب متبـاينة ، يصـعب اتحادها ، ويسهل تكوين جيوش منها لخدمة اغراض الدولة والدفاع عنها.

ولقد اتخذ قسطنطين من مدينته الجديدة مركزا للجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، واخذت روما الشرقية في النمو والازدهار

وذلك في الوقت الذي كانت فيه روما الغربية القديمة تسير في مناحي الضعف والاضمحلال السياسي والحضاري .

ومنذ أيام قسطنطين وربما قبل ذلك ظهرت بوادر شطر الامبراطورية الرومانية الى شطرين ، لكن قيام ذلك رسميا تأخر بعض الوقت الى سنة ٣٩٥ م أيام الامبراطور ثيودسيوس العظيم الذي قسم الامبراطورية بين ولديه ، وجعل هناك امبراطورية غربية لاتينية اللغة كاثوليكية المذهب ، وأخرى شرقية اغريقية الحضارة أرثوذكسية المذهب .

ولقد خلف الامبراطور ثيودسيوس في حكم روما الشرقية ابنه اردكايوس (٣٩٥ ـ ٤٠٨ م) ثم ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠) ، واهم ما حدث في هذه الفترة أن الامبراطور الأخير جمع القانون الروماني وقام بتبويبه ، وكان لصدور هذه المجموعة القانونية التي حملت اسمه تأثيرا كبيرا خاصة على التطور القانوني الاداري لدى دول الشعوب الجرمانية في أوربة الغربية خاصة في ايطاليا واسبانيا .

وبعد وفاة ثيودسيوس الثاني شهدت الامبراطورية الشرقية بعض التقدم ذلك أن الاباطرة الذين تربعوا على العرش كانوا على درجة لا بأس بها من الكفاءة والمقدرة ، وأشهر الذين جاءوا بعده الامبراطور زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١) فقد خلص هذا الامبراطور دولته من خطر القوط الشرقيين ، وعندما كان زينون يحكم في القسطنطينية تم خلع آخر اباطرة روما الغربية وكان اسمه روملوس اغسطس (٥٧٥ ـ ٥٧٦) ولئن تمكن الامبراطور زينون ومن جاء بعده مباشرة من حماية اوربة الشرقية من مخاطر الهون والشعوب الجرمانية ، فإنهم لم يستطيعوا القيام بأي عمل لاستعادة الغرب أو انقاذه وذلك حتى جاء جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥).

لقد انتقلت السلطة الى جستنيان عام ٥١٨ م بعد ما تم تبنيه من قبل خاله الامبراطور جستين الأول وتعيينه نائبا للامبراطور وشريكا ، وحكم هذا الامبراطور صاحب الطاقات غير الاعتيادية

الامبراطورية لمدة سبع وأربعين سنة فتحقق له ما لم يتحقق لسواه فكان اخر اباطرة روما وأول اباطرة بيزنطة .

وكان جستنيان صاحب طاقات كبيرة مع حظ كبير ، فلحسن حظه وجد في خدمته عدد من الجنرالات الكبار كان على رأسهم بلزاريوس وناريس ، وكان جيش الأمبراطورية قوامه من المرتزقة البرابرة ، إنما كان جيد التسليح ثقيلة وحسن التدريب ، وقد استطاع جستنيان بجيشه على رأسه جنراليه أن يقهر أعداء الأمبراطورية ويحقق لها مكاسب كبيرة .

وكان اعداء الامبراطورية كثر ، على رأسهم في الشرق الامبراطورية الساسانية ومع بداية حكم جستنيان كان على رأس هذه الامبراطورية قباذ ، وفي ايامه كانت الامبراطورية الساسانية تعاني من عديد من المشاكل الداخلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، ففي عهده قامت حركة مزدك وردات الفعل المعادية لها التي تمخضت عن عزل قباذ واستلام ابنه كسرى انوشروان للعرش (٥٣١ ـ ٥٧٩) حيث اخذ في اعادة تنظيم الامبراطورية داخليا ، لذلك قبل مسالمة الامبراطورية الرومانية.

وكان جستنيان قد استغل اضطراب أحوال فارس الداخلية فشن حربا قصيرة ضد بني ساسان من سنة (٥٢٧ حتى ٥٣٢ م) ، وانتهت هذه الحرب بهدنة اغتنمها جستنيان فحول جيوشه نحو الغرب ، وخلال حملات استغرقت عشر سنوات تمكنت قوات بيزنطة من تحطيم دولة الوندال في شمال افريقية ، فأعادت هذه المقاطعة الغنية إلى حظيرة الامبراطورية ، وقد احتاج جستنيان إلى ضعفي هذه المدة لاسترجاع إيطاليا من القوط الشرقيين ، ومع إيطاليا كسبت جيوش الأمبراطورية جنوب إسبانيا من القوط الغربيين وعلى الرغم من أن كل من بريطانيا وغاليا ومعظم إسبانا ظلت في أيدي البرابرة الجرمان إلا أن جستنيان استرجع من هذه الشعوب قلب الامبراطورية الرومانية في كل من الشرق والغرب ، ولكن هذه الحملات جعلت الخزانة البيزنطية تتحمل أكثر من طاقتها ، ويجادل

بعضهم مسائل تثار حول أعمال جستنيان الحربية ومغامراته في الغرب من أنها كانت غير مجدية ، ذلك أنه كان عليه أن يركز نشاطه الحربي ضد الامبراطورية الفارسية ، فالذي خلفه على عرش الامبراطورية عجزوا عن الاحتفاظ بالأجزاء الغربية التي استعادها جستنيان ، ولاقوا مصاعب كبيرة جدا في مواجهة الفرس ، فبعد وفاة جستنيان بأعوام ثلاثة دخلت قبائل اللومبارد إلى إيطاليا ثم تمكن القوط الغربيون من استرداد جنوب إسبانيا ، ومع ذلك بقيت صقلية مع جنوب إيطاليا وشمال افريقية في جملة ممتلكات الامبراطورية في الغرب .

الامبراطورية البيزنطية وخصومها.

لقد دعي جستنيان آخر اباطرة روما ، وهو بالحق جدير بهذا اللقب ، ذلك أنه على الرغم من احتفاظ من خلفه على عرش الامبراطورية الشرقية بهذا اللقب إلا انهم لم يكن لهم سيادة على القسم اللاتيني الغربي من الامبراطورية ، كما أن هتمامهم السياسي بهذا القسم كان ضعيفا ، فهم على هذا كانوا حكاما للقسم الهلنستي الشرقي من الامبراطورية ، ولهذا يعرفون عادة باسم الأباطرة البيزنطيين وتعرف دولتهم باسم الامبراطورية البيزنطية ، وفي الحقيقة إننا عندما دعونا جستنيان آخر أباطرة روما ، جاء ذلك بسبب أن البلاط في عصره كان يستخدم اللغة اللاتينية ، إنما أخذ في هذا العصر بالاقلال من استخدام هذه اللغة وزيادة الاعتماد على الاغريقية ، ومن هنا كان جستنيان أول أباطرة بيزنطة ، وليس هذا فقط إنما نجد ذلك يظهر بالمباني التي شيدت في هذا العصر وعلى رأسها كنيسة اياصوفيا التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا ، فبناء هذه الكنيسة يختلف في نمط هندسته عن النمط الروماني ، فهو شرقي سقفه جاء على شكل قباب وليس مسطحا مثل المعابد الرومانية ، ونمط السقوف المقببة هو نمط سوري الأصل ، وبسبب تخلي جستنيان عن النمط الروماني في البناء فهو وإن كان آخر اباطرة روما فإنه موجد فن العمارة البيزنطي .

ولقد عاشت الامبراطورية البيزنطية ٨٨٨ سنة بعد وفاة جستنيان ومن الممكن تقسيم هذه الفترة المديدة إلى اقسام ثلاثة الأول من سنة ٥٦٥ وحتى ٧١٦ ففي هذا القسم كافحت الامبراطورية من أجل البقاء ضد العديد من القوى المعادية ، وأثناء ذلك استطاعت إقامة نظام اقتصادي متين وتطويره مع نظام سياسي للحكم ونظام عسكري ، وخطت خطوات حضارية متميزة عن بقية أجزاء أوربة ، ثم جاء القسم الثاني من ٧١٦ إلى ١٠٥٧ م حيث عاشت لمدة قرون ثلاثة زاهية حيث كانت اغنى وأقوى دولة في أوربة واكثرها حضارة وثقافة ، ففي هذا القرن عاشت أوربة الغربية في عصورها المظلمة ، حيث سكنت من قبل شعوب مختلفة في كل الميادين الحضارية في حين عاشت وتطورت في بيزنطة حضارة جديدة مزجت بين المسيحية والتراث الهلنستي ، وكان القسم الثالث الذي غطى أربعة قرون وامتد من ١٠٥٧ وحتى ١٤٥٣ م فترة انحدار مستمر في مسالك الضعف والانهيار الحضاري والعسكري والسياسي حتى أخيرا سقطت القسطنطينية للعثمانيين فزالت الامبراطورية من الوجود .

وقليلة هي الدول التي شغلت دورا تاريخيا يماثل في الأهمية دور بيزنطة ، ففي هذه الدولة جاء إلى الوجود مايدعى باسم حضارة أوربة الشرقية، وفيها حفظت عناصر الثقافة الكلاسيكية حتى تمكنت أوربة الغربية من استعادة نشاطها فتسلمت هذه العناصر حيث قامت بتطويرها ، وعلى اساسها اقامت الحضارة الأوربية الحديثة .

وكافحت الامبراطورية البيزنطية في الفترة الاولى (٥٦٥ ـ ٧١٧) من أجل وجودها في وجه أعداء انقضوا عليها من كل جانب ، وكان الافار أشد الأعداء في جهة الشمال ، والأفار كانوا واحدا من الشعوب الاسيوية من أصل تركي ، وكان مركز سيطرة هذا الشعب في السهل الهنغاري ومناطق غربي الدانوب وشرقي جبال الألب ، وبأحواز مناطق هذا الشعب عاشت شعوب

بربرية مماثلة مثل قبائل الصـقالبة (السـلاف) وأحيانا تعـاون الأفار والسلاف في نشـاطهم ضـد الامبـراطورية ، على انه كانت عناصر الأفار عناصر إغارة وسـلب ونهـب ، ولم يكن لهـا خـطط للاستيلاء على بعض مقاطعات الامبراطورية والاستقرار بها ، وقـد دمرت هذه العناصر الأراضي الواقعـة في جنوبـي الدانوب وظهـرت مرات عديدة على مقربة من أسوار القسطنطينية ، لكنها لم تكن مـن القوة بمكانة تمكنها من اقتحام أسوار المدينة الحصـينة ، وعندمـا كان أباطرة هذه الفترة يشغلون أنفسهم في تحصين حـدود دولتهـم الآسيوية فقد كان بمكنة الافـار النشـاط كيفمـا شـاءت ارادة عصاباتهم ، واختلف حال الصقالبة قليلا فعلى الرغم مـن تحـالف الصقالبة مع الافار الا أن قبائل هذه الشعوب كانت ترغب في احتلال موطن تستقر فيه ، وقد نجحـت في ذلك ضـمن المقـاطعات الاوربية الشرقية ، ويرى بعضهم أنه في القرن السـابع انتشر الصـقالبة في جميع أجزاء الامبراطورية الاوربية ممـا غير مـن طبيعـة اجناس وشعوب هذه الأجزاء بما فيها اليونان ذاتها.

ولم يصرف الأباطرة كبير جهد وعناية بالمقاطعات الأوربية لدولتهم ، وكانوا يثقون بمناعة أسوار عاصمة ملكهم ، ولذلك أوقفوا جهودهم في سبيل حماية المقـاطعات الآسـيوية الغنية ، وعلى حـدود هـذه المقاطعات وجد أقوى أعداء بيزنطـة وأشـدهم شـكيمة ، الا وهـو الامبراطورية الساسانية الفـارسية ، التـي كانت ذات عداء تقليدي مع روما ، وكانت سياستها تعتمد دائما على العمل في سبيل الوصول الى شواطىء البحر المتـوسط ، ولقـد اسـتطاع الفـرس أيام الامبراطور البيزنطي فوقاس تحقيق أحلامهم فتمكنت قـواتهم مـن احتلال سورية ومصر وزحفت القوات نحو أسية الصغرى ، وفي هذه الظروف الحرجة قام الافار بحصـار القسـطنطينية ، وهـكذا خيل للناس أن الامبراطورية جاء أوان دمارها ، لكن أسـوار العـاصمة صمدت في وجه الأفار ، ولم يكن لدى الفـرس اسـطولهم الخـاص لينشط في البحر المتوسط ، وهنا أرسل حاكم إفـريقية هـرقل ابنه وسميه على راس قوة تمكنت من الاستيلاء على القسـطنطينية حيـث

عزلت الامبراطور فوقاس وسببت قتله ، وتم تنصيب هرقل امبراطورا جديدا .

وسعى هنا الجندي الممتاز والاداري الشجاع نحو تجنيد جيش يحارب الفرس ، وأعلنها حربا صليبية ضد فارس التي سلبت صليب الصلبوت من القدس (الخشبة المعتقد أنه تم صلب المسيح عليها) وبواسطة حرية العمل في البحر تمكن هرقل من انزال قواته على الساحل السوري فضرب القوات الفارسية في جنبها وأطرافها فهزمها واخذ يطاردها حتى اشتبك معها في معركة فاصلة سنة ٦٢٧ م قرب خرائب مدينة نينوي التاريخية فهزم الفرس وسحق جيشهم وطرد فلول هذا الجيش حتى اسوار المدائن العاصمة الساسانية حيث فرض صلحا مذلا على الفرس .

وبينما كان هرقل يقاتل الفرس كانت بقعة نائية لكنها قريبة من حدود سورية والعراق تشهد حوادث ستبدل وجه الأرض ، فقبل خمس سنوات من معركة نينوى كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد هاجر من مدينة مكة الى يثرب بعد عمل دعوي استمر ثلاث عشرة سنة ، وفي المدينة أسس هذا النبي العظيم دولة مركزية عقائدية ، وتمكن من توحيد قبائل شبه جزيرة العرب تحت راية عقيدته السماوية الجديدة ، وتوفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢ م وكان هذا مصادفا لاقامة هرقل في سورية حيث كان يحتفل بنصره ويعيد تنظيم دولته ، وبعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأقل من عامين ، وبفضل عقيدة الجهاد التي جاء بها هذا النبي من عند الله ، اندفع العرب من شبه الجزيرة كالسيل الجارف ، فتمكنت قواتهم المنظمة الفتية من ايقاع الهزيمة بالجيوش البيزنطية والساسانية ، فلقد حطمت الجيوش المسلمة الامبراطورية الساسانية وأزالتها من الوجود ، وطردت الجيوش البيزنطية من سورية ومصر ، ثم من شمال افريقية ، وهددت القسطنطينية ذاتها .

وكان للفتوحات الاسلامية أبعد الآثار على بيزنطة ، فقد بات

على هذه الامبـراطورية أن تعيد تنظيم ادارتهـا ومـواردها بعـدما حرمت من أراضي أسية وافريقية الغنية ، كما بـات عليهـا أن تعيد النظر في سياستها الدينية وتـزيد مـن الاعتمـاد على مقـاطعاتها الأوربية ، وصار الآن تـاريخ بيزنطـة في الدرجـة الأولى تـاريخ العلاقات مع الاسلام ودولتـه في المدينة ثـم في الشـام ثـم في العراق ، وبعد ذلك في الشـام ومصر ، كمـا هـو تـاريخ صراع الامبراطورية من أجل الحفاظ على أوربة الشرقية ومواردها في وجه الطامعين .

لقد درست العلاقات العربية البيزنطية من قبل اكثر مـن بـاحث وتعرضنا في الجزاين الماضـيين الى مـا يعـذينا الآن مـن الموضوع ، ولذلك سنركز الحديث حول ما يمـكن دعوتـه بـالتاريخ البيزنطي الداخلي المحض .

لقد الم بالدولة البيزنطية في ظل أسرة جستنيان ثـم أسرة هـرقل تطور بعيد للغاية وسريع ، حيث يبدو أن اباطرة هذه الفتـرة ادركوا مليا أن بقاء الامبراطورية واستمرار وجودها يعتمد إلى أبعد الحدود على مـواردها الاقتصـادية ، وكانت الزراعة على رأس هـذه الموارد ، ذلك انها لم تؤمن للدولة الحبوب لعيش سكانها فحسب بل أمنت الطاقة البشرية لأعمال التجنيد والحرب ، وقد جهد الأباطرة في العناية بالزراعة وأعمـار الأرض ، ونلاحـظ أن الصـقالبة الذين دخلوا اراضي الامبراطورية في أوربة الشرقية لم يكونوا جميعـا قـد دخلوا على شكل غزاة ، بـل جلبـت أعداد كبيرة منهـم لأعمـار الأرض ، وفعـلا اسـتطاع هؤلاء المعمـرين زيادة الانتـاج الزراعي ، ومع نهاية هذه الفترة الأولى كانت أسـيةالصغرى مـع المقـاطعات الأوربية مـكتظة بـالسكان ، والحياة فيهـا مزدهرة ، وكانت أهم المزروعات هي الحبوب والخضـار وحـدائق الفواكه والعنب والزيتون ، وتذكر الأخبـار أنه في زمـن جسـتنيان اخذت بيزنطة في انتاج الحرير بكميات كبيرة .

ووجد في الامبراطورية العـديد مـن المدن ، وكانت المدن مـراكز

للصناعة والتجارة ، وقدر بعضهم عدد سكان القسطنطينية في هــذه الفترة بمليون كما كان هناك من المدن ماكان تعداد ســكانه نصــف مليون ، وقد تم الانتاج الصناعي من قبل مجموعات منظمة حسـب نظام الأصناف ، أو من قبل جماعات تعــاونية متضــامنة ، وكانت التعاونيات مع الأصناف كلها تسـير مــن قبـل الدولة وبــاشرافها المباشر ، وكان لكل صنف حق احتكار نوع مــن البضــائع ، وكانت الدولة تشرف على شراء المواد الخام وتأمينها ثم تقوم ببيع المنتجات بعدما يكون تم صنعها حسب مــواصفات محــددة وتبــع طــرائق معينة ، وكانت الدولة تتــدخل في تحــديد الأجــور والأربــاح ، وفي الحقيقة كان كل شيء في الامبراطورية يقع تحـت المراقبـة المبـاشرة للدولة والتي كانت تتدخل في كل شعبة من شعب الحياة ، وكان مــن نتائج ذلك قيام عمل صناعي واقتصــادي منتــظم مخــطط له وكانت غالبية المنتجات بضائع كمالية غالية الثمن تصلح للتصــدير ، مثـل المنسوجات الحــريرية والصــوفية الممتــازة وأنواع الزرابــي والمجوهرات والأدوات العاجية وغيرها المحــلاة والمزينة ، وروعيت المنتجات المرتبطة بــالأمور الدينية وأعطيت مــن العناية الشيء الكبير مثل الأيقونات المختلفة الاشكال وسوى ذلك مما تــم تقليده في بلدان كثيرة ، والى جانب هذه المنتجات اهتمت الصناعة بأنواع الاسلحة والعتاد الحربي ، وقد احتــكرت الدولة لنفســها المنتجــات هـــذه وتصرفت بها حسب سياسة خاصة .

وكما وقعت الصناعة تحت اشراف الدولة كذلك كان حال التجارة حتى يمكن القول بان تجارة الحبوب والحرير لم يكن يحــق للأفــراد العمل بها بل كان ذلك محصورا بالدولة فقط ، ولاشك أن هذا الحال كان له مؤثراته على المغامرات التجارية والتلاعب بــالأسعار ، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة تشرف على التجارة والصناعة يلاحــظ ان ذلك كان داخليا فقط أي ان أعمال التصدير والاســتيراد كانت في يد تجار أجــانب ، فــالدولة كانت تتعــامل اثناء عمليات التجــارة الخارجية مع تجــار اجــانب وليس مـــع حــكومات ، وكانت القسطنطينية أوسع سوق تجاري في العالم ، إليهــا حملت بضــائع

الشرق والغرب ومنها حملت المستوردات والمنتجات ، وكان هناك احياء خاصة بالتجار الاجانب الذين تمتعوا بالحماية وبحقوق خاصة وامتيازات ، وقد تولت سفن دويلات ايطاليا مثل أمالفي والبندقية ورافينا نقل معظم البضائع ، وقد حمل التجار الذين جاءوا الى القسطنطينية من اقصى الأرض معهم في طريق عودتهم منتجات هذه المدينة وذلك بعدما باعوا بضائعهم ، وتمت عمليات البيع والشراء لاعن طريق المقايضة بل بالعملة البيزنطية التي كانت وحدتها الاساسية من الذهب ، وكانت النقود البيزنطية مقبولة في كافة أنحاء العالم نظرا لعناية الدولة بعيار الذهب وعدم التلاعب به ثم لاحتكارها عمليات ضرب النقود الأمر الذي لم يكن سائدا في أوربة وغيرها من البلدان والدول ، وبسبب طبيعة الوضع التجاري للامبراطورية لم يوجد في المجتمع البيزنطي بيوتا تجارية ثرية كما كان هو الحال في الدولة العباسية ، ولذلك لايمكن الحديث عن اثر الطبقات الارستقراطية التجارية في صنع التاريخ البيزنطي لعدم وجود هذا النوع ، هذا وقد شكلت أصناف الحرفيين طبقة وسطى في المجتمع البيزنطي وكانت الطبقات العليا مكونة من رجال السلطة وملاك الأرض ، وقد ارتبطت السلطة بالجيش ، ومن الملاحظ ان بيزنطة أولت الجيش عناية فائقة من كافة الجوانب من تسليح وتدريب وامتيازات ورواتب ، وقد تطورت العلوم العسكرية في بيزنطة بشكل سريع ، وظهر في التاريخ البيزنطي عدد من العباقرة العسكريين الذين برعوا في الميادين النظرية والعملية ، وكان قوام الجيش البيزنطي يتكون من سلاح الفرسان الثقال الذين كانوا وخيولهم مدرعين وكانوا يعتمدون على قوة الخرق لرماحهم القوية والناتجة عن اندفاع خيولهم ، وبالاضافة للفرسان وجد الرجالة الذين تسلحوا بالنبال والرماح والحراب والسيوف ، وعملت الأسلحة كلها متعاونة في المعركة حسب نظام تعبئة له نظرياته ، وكان سلاح الفرسان يعتمد في عناصره البشرية على المواطنين الأحرار من بيزنطة وكان لكل فارس خدمه الذين كانوا يعتنون بالخيول ويطبخون الطعام ويغسلون الثياب ، وفي المعركة

كان الخدم يتولون حراسة أسيادهم ، وقد منح كل فارس اقطاعية من الأرض خاصة تقوم بأوده وتؤمن له ماكان يحتاج اليه من نفقات ، وكان سلاح المشاة يتكون من نوعين وذلك حسب التسليح ، فقد كان هناك المشاة الثقال والمشاة الخفاف ، وكان سلاح القسم الأخير القوس والنشاب في حين كانت أسلحة القسم الأول السيف والفأس والحراب ، وكان على راس كل واحد منهم خوذة ويرتدي درعا أو سابغة ويحمل في يده درقة أو ترسا معدنيا .

وقد قسمت الامبراطورية الى عدة مقاطعات عرفت باسم البنود حكم كل منها ضابط كبير حصر في يديه السلطات المدنية والعسكرية وكان تحت تصرف حاكم كل بند من البنود مابين ثمانية الاف الى عشرة الاف وكما سلفت الاشارة نبغ عدد من الأباطرة في العلوم العسكرية ، ومن هؤلاء الامبراطور موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢) فقد الف رسالة في العلوم الستراتيجية ، وأهم منه الامبراطور ليو(٨٨٦ ـ ٩٨٢ م) فقد كتب رسالة في العلوم العسكرية شرح فيها كيف ينبغي أن يكون نظام الجيش البيزنطي وتسليحه كما شرح خطط القتال التي ينبغي لهذا الجيش تنفيذها والأخذ بها اثناء قتال كل شعب من الشعوب ، وعلى سبيل المثال نجده يتحدث عن القتال مع العرب ويبين كيفية التعامل مع الجيوش المسلمة التي كانت تقوم بأعمال الشواتي والصوائف داخل الأراضي البيزنطية في اسية الصغرى ، فبعد ماكان قائد البند يصله الانذار بعبور جيش عربي للحدود ، وذلك بواسطة نقاط المراقبة التي كانت ترسل اخبارها بواسطة المرايا أو النار والدخان أو الطيور وغير ذلك من السبل ، كان عليه ان يرسل في الحال قوة صغيرة تمنع الغزاة من السلب وفي الوقت نفسه يستنفر فرسانه ويقودهم ، ويرسل مشاته لتنتشر في الممرات الجبلية الصعبة كيما تحول بين المسلمين وبين التراجع ، ويقوم هو بفرسانه باجبار الغزاة على التراجع بشكل غير منتظم دون خوض معركة مواجهة ، وكان يقوم بالاشتباك ويلتحم بالجيش الغازي ساعة تتمكن مشاته من التطويق ، وبواسطة هذه القواعد القتالية تمكنت قوات بيزنطة من

تحطيم العديد من الجيوش العربية الكبيرة ، وكان ضباط الجيش البيزنطي جنودا محترفين بكل ماتعنيه الكلمة ، وعلى عكسهم كان بارونات الغرب الأوربي حيث كانوا هواة قتال شجعانا بلا نظام ولاقواعد للقتال ، يندفعون دون حساب للنتائج ، وكان الضابط البيزنطي لايتورط في القتال مالم يكن ضامنا للنصر ، وذلك ان بيزنطة كانت ذات موارد محدودة لايمكنها المغامرة لأن ذلك كان يتعلق بمصير وجودها .

وقد اشار كل من موريس وليو الى اهمية الاتصالات السياسية للحيلولة دون العمل العسكري غير مضمون النتائج ، لكن كان على الضابط القائد لاحدى الحاميات أو سواه من ذوي الشأن عندما يتوصل الى قناعات فيها انه لاجدوى من المفاوضات كان عليه تضييع الوقت وتضليل العدو ، ومن جهة اخرى اعداد الجيش لانزال ضربة مفاجئة وبلا مقدمات ، وكان من المفيد قبل الشروع في الالتحام كتابة رسائل من والى داخل جيش العدو وجعل هذه الرسائل تحمل اسماء كبار ضباط الخصوم ، وجعل بعض الرسائل يقع في قبضة قائد جيش العدو ، فليس اسهل من تحقيق النصر على جيش قيادته متفسخة لايثق افرادها ببعضهم بعضا.لقد كان على الضابط البيزنطي ان يتصرف ببراعة وخداع ، ولاشك ان هذا كان وراء وسم البيزنطيين باللا اخلاقية في الحرب والسياسة ، وبالجبن والغدر وذلك من قبل خصومهم في أوربة الغربية والعرب سواء .

ولقد كانت الحكومة في الامبراطورية عبارة عن جهاز معقد متسع لكنه قادر على تأدية مهامه ، انما بنفقات عالية للغاية ، وغالبا ماكان هذا الجهاز يصاب بالفساد والتعفن ، وذلك في عهود كل الأباطرة الضعفاء ، ولهذا نجد ان كل واحد من الاباطرة العظماء يعمل عند تسلمه السلطة على اعادة تشكيل الادارة وتنظيمها ، ومعروف انه قام على رأس الادارة والحكم امبراطور واحيانا اكثر من امبراطور وكان اختيار الامبراطور في هذه الفترة ينبغي أن يتم بشكل انتخابي ، ويصبح انسان ما امبراطورا عندما

يختاره مجلس الشيوخ أو الشعب أو الجيش كل على انفراد او اجتماع ، لكن منذ جستنيان اخذ بمبدأ التوريث وقبل ، وقامت أسر وراثية حاكمة ، لذلك نجد منذ القرن الثامن انه عندما كان يرث العرش الامبراطوري رجل ضعيف فيثور عليه قائد الجيش أو سواه يتحكم به ولايعزله بل يبقيه حاملا للقبة الامبراطوري ، وفي القرن الحادي عشر وجدت قاعدة مقبولة أنه يحق العرش فقط لمن تم انجابه في الحجرة الارجوانية من القصر الامبراطوري ، على أن النظام الذي ساد قبل القرن الحادي عشر كان له محاسنه ومضاره ، وكان بالامكان ازاحة الامبراطور الفاسد بواسطة الثورة ، لكن غالبا ماكان ذلك يكلف الدولة نفقات وجهود كبيرة للغاية او يمزقها ويسبب الحروب الأهلية ، وبالتالي سيطرة رجال ليسوا من ذوي الصلاح على السلطة .

وكان الامبراطور البيزنطي انسانا مقدسا تم تعيينه من قبل الرب ليتحكم برقاب البشر ، وكان يتوج ويعمد باحتفالات بهية للغاية ويصير كل شيء ارتبط به مقدسا ، فعندما تبنى هرقل لقب بازليوس اعلن عن نفسه انه انسان له صفات علوية ربانية ، أو بالأحرى هو نصف انسان ونصف اله ، لذلك كان على رعاياه السجود له كما فعل اجدادهم تجاه الامبراطور الروماني الوثني ، وعاش الامبراطور في بلاط كله ابهة ، فقد قطن في قصر رائع تألف من عدة ابنية على شاطئ البسفور احيطت بالحدائق الغناء ، وكذلك حياته كلها مراسم وطقوس ، وكان اينما تحرك احيط بطائفة من الموظفين والخدم والحرس ، وكانت حياة البذخ داخل القصر ذات نفقات عالية ، كان على الرعية الفقراء تحملها ، ولقد استدعى تركيب الامبراطورية البيزنطية ومواريثها ان يكون على رأسها انسان ليس له نظير بين البشر ، وهذا ماحرص عليه البلاط ، ويذكر انه عندما كانت جحافل المغول تجتاح اسية ، استقبلت سفارة مغولية في القسطنطينية فعاد افرادها ليخبروا زعامتهم انهم عادوا من دولة لايمكن قهرها لقوتها وثرائها المرعب ، لذلك يحسن تجنب قتالها .

وكان الامبراطور البيزنطي حاكما اتوقراطيا مطلقا ، ليس

لصلاحياته حدود اوضوابط حتى أنه يشرف على الكنيسة ويسيرها ويوافق على تعيين البطريرق أو يعينه ، وكان يدعو المجلس الكنسي للاجتماع برئاسته ، ويصدر القرارات ممهورة بامضائه ، لكن سلطة الامبراطور على الكنيسة لم تكن قط مطلقة ، وتميز سكان الامبراطورية بتدينهم واهتمامهم الزائد بالمشاكل الدينية ، وكان الامبراطور يتجنب المواجهة في الخصومة مع البطريرق خاصة في المسائل التي تثير الجماهير .

ولقد حكمت الامبراطورية البيزنطية خلال الحقبة الثانية ٦١٦ ـ ١٠٥٧ م من قبل اسرتين وقد تم تأسيس الأسرة الأولى من قبل ليو الأيسوري وبقيت هذه الأسرة في السلطة من ٦١٦ وحتى ٨٦٧م ، وأسست الثانية من قبل باسيل الأول ودعيت باسم الأسرة المقدونية وحكمت هذه الأسرة من ٨٦٧ وحتى ١٠٥٧ خلال هذه الحقبة كانت الشعوب البلغاية قد اندمجت بالقبائل السلافية وكونت في شمال الامبراطورية دولة قوية كانت دوما معادية للامبراطورية الى ابعد الحدود ، ومع استمرار العداوة بين دولة البلغار والامبراطورية قام حكام البلغار فتبنوا لقب قيصر ، وهو اللقب الذي سيرثه ملوك روسيا فيما بعد ، وهم حين فعلوا ذلك أرادوا أن يظهروا بمظهر الند للامبراطور البيزنطي وليس التابع ، وقد تم تحويل البلغار الى المسيحية لكن هذا لم يترك أي أثر على سياستهم المعادية لبيزنطة ، وكان لهذه السياسة نتائج مهيلة ، فقد سفكت كميات كبيرة من الدماء بين الطرفين في معارك كثيرة ، وتمكن البلغار في أكثر من مناسبة من هزيمة جيوش الامبراطورية وحصار القسطنطينية ذاتها ، لكن عدم وجود اسطول لديهم حال دون تمكنهم من فتحها وبالتالي القضاء على الامبراطورية ، ولقد تعرضت حدود دولة البلغار لضغط عسكري جاء من قبل شعوب روسيا ، وكان أشد هذه الشعوب شكيمة البشناق ، وتحالف البشناق مع الامبراطورية ضد البلغار ، وأخيرا نجد الامبراطور باسيل الثاني الذي عرف بلقب جزار البلغار يتمكن

في حملات استمرت من ٩٩٦ م وحتى ١٠١٨ م مـن قهـر البلغـار ودمج دولتهم في امبراطوريته .

وكان العرب أعدى أعداء الدولة البيزنطية واقواهم ، ولن نتحدث عن العلاقات البيزنطية العربية ، بل سـنكتفي بـالاشارة الى بعض الأمور اشارة عابرة ، أما فيما يتعلق بمزيد من التفـاصيل فيمـكن مراجعة ذلك في كتابي تاريخ العرب والاسلام .

لقد هدد العـرب أيام الدولة الامـوية الامبـراطورية وحـاصروا عاصمتها أكثر من مرة ، وملكوا اسطولا قويا حاز النصر تلو الآخر من الأسطول البيزنطـي ، وعرف العـرب نظـام الصـوائف والشواتي ، وكان بنو امية يشعرون بخـطر بيزنطـة لأن عاصـمة دولتهم كانت في دمشق ، لكن بعد سـقوط الدولة الأمـوية واتخـاذ العراق مركزا للخلافة ،شغلت هذه الدولة نفسها في مشـاكل أراضي الخلافة الشرقية في خراسان ، وكان ما أولته من اهتمام للعـلاقات مع بيزنطة قليلا نسبيا ، لقد اعتمد العبـاسيون على مبـدأ الدفـاع العسـكري على عكس سـياسة بني امية الهجـومية ، لذلك قـام العباسيون بتحصين مراكز الحدود مع بيزنطـة فـأقاموا مـا عرف بنظام العواصم ، وكان اهتمام الدولة العباسية بالأسطول اقل مـن اهتمام الدولة الاموية به وفي عهد الخلفاء الأوائل مـن بني العبـاس قام عدد منهم مثل الرشيد ثم ولديه مـن بعـده المأمـون والمعتصـم بنشاط عسكري كبير ضد بيزنطة جعلهـا تشـتري السـلم بمبـالغ كبيرة .

وعلى الرغم من ان جبهة البلغار مع جبهة الاسلام اسـتولت على وقت اباطرة بيزنطة واسـتهلكت جـل اهتمـاماتهم ، إلا أن هؤلاء الأباطرة أدركوا ، انهم لا يمكنهم اهمـال العـلاقات مـع أوربـة الغربية ، ولهذا نجد الأمبراطور الايسوري الذي عد نفسه امبراطور رومانيا يدخل في حوزته البندقية مع أجزاء من جنوب إيطاليا وصقلية وسردينية ، وزيادة على ذلك نجد البطريرق البيزنطي على الرغم من استقلاله في منصبه الكنسينجده مع الامبراطور يعترف نظريا بـأن

البابا هو راس كل الكنائس ، وحيث أن البابا كان متورطا بمشاكل أوربة الغربية ، وبسبب أن الامبراطور البيزنطي كان يرى نفسه امبراطورا رومانيا ، لذلك نجد كثيرا من الأباطرة يتاثرون فيما كان يجري في دول أوربة الغربية ويتفاعلون معه .

على أن أول مواجهة حقيقية وقعت بين بيزنطة وأوربة الغربية كانت في سنة ٨٠٠ م عندما قام شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) ملك الفرنجة باتخاذ لقب امبراطور ، وأعلن عن اعادة قيام للامبراطورية الرومانية ، إنما رومانية مسيحية مقدسة ، وكانت بيزنطة تحكم أنئذ من قبل الامبراطورة ايرين والدة الامبراطور قسطنطين السادس ، وقامت ايرين بعزل ابنها وسملت عيناه وأعلنت نفسها امبراطورة حاكمة أصلية لبيزنطة وليس بالوصاية على ابنها كما الحال من قبل وكان شارلمان حين أعلن نفسه امبراطور يدعي خلو العرش الامبراطوري من رجل يشغله ، وفي البداية رفضت ايرين الاعتراف بالخطوة التي أقدم عليها شارلمان وجرت مباحثات بين الطرفين،وفي سنة ٨٠٣ م توصل الطرفان الى اتفاق يتم به حل المشكلة وتوحيد الامبراطورية الشرقية العتيدة مع الامبراطورية الغربية الفتية وذلك بزواج ايرين من شارلمان ، لكن حدوث انقلاب داخلي ضد ايرين حال دون تنفيذ ذلك ، وبعد هذا الحدث أصبحت أحداث الغرب الأوربي ذات اثار فعالة على بيزنطة لذلك يحسن بنا التوقف هنا في حديثنا عن بيزنطة لنعود فنتحدث باحثين في حوادث تاريخ أوربة الغربية والمقدمات التي أدت الى قيام شارلمان واعلان امبراطوريته ثم نعود الى عرض هذه القضايا بشيء من الاسهاب والتفصيل .

إنما قبل أن نختتم هذا يحسن بنا القيام بعرض للسياسة الدينية والمشاكل العقائدية التي عاشتها الامبراطورية في هاتين الفترتين ، أي منذ أيام جستنيان وحتى بداية القرن التاسع ، لقد ابتغت سياسة جستنيان الدينية السيطرة على الكنيسة مثل السيطرة على الادارة العسكرية والمدنية للدولة ، فلقد اراد جستنيان أن يكون

امبراطورا يجمع في يديه بين صولجان الملك وعصا راعي الكنيسة وأن يضع على رأسه تاج الملك إلى جانب تاج الشوك الموروث عن المسيح ، وقد اتجهت جهوده نحو توحيد العالم المسيحي وكنائسه تحت سيطرته ، وجعله يتبع كنيسة واحدة هو سيدها الفعلي ، وقد جهد أولا في سبيل القضاء على بقايا الوثنية وجميع أنواع الهرطقات قضاء تاما ، لذلك تمسك بما أصدره اسلافه من مراسيم دينية ، وتابع عملية اغلاق المدارس الفلسفية في أثينا وسواها وأقصى عن مهنة التدريس جميع المتنورين بالفلسفة الهلنسية ، وأراد أن يمارسها كل انسان بعيد عن الشبهات التحررية والفكرية كما أقصى اليهود عن جميع الوظائف الرسمية ، وفي عصر جستنيان واجهت الكنيسة انقسامات جديدة كان مصدرها سورية السريانية ، ففي منطقة الرها شمالي شرقي سورية حدثت مشادات دينية وطرحت بعض القضايا والتفسيرات الجديدة حول طبيعة شخصية المسيح ، وتمثل هذا بحركتين عرفتا بحركة النساطرة وحركة اليعاقبة ، فقد قال النساطرة إنه إذا كان المسيح قد ولد ولادة بشرية فأمه السيدة العذراء هي انسان عادي ليس لها أية صفات علوية ، وخالفهم اليعاقبة في ذلك فقاموا بمنح العذراء الصفات الالهية العلوية ، وأيدت الدولة اليعاقبة الذين عرفت حركتهم باسم المونوفيزتية ، ونكلت بالنساطرة وطاردتهم ، مما دفع بعض هؤلاء الى ترك سورية والهجرة الى الأراضي الساسانية ، ومن هناك نشط النساطرة فأوصلوا المسيحية إلى الشرق الأقصى كما شغلوا دورا بارزا في نقل الثقافة السريانية الى بلاد فارس وتابعوا هذا الدور فيما بعد، بعد قيام الاسلام وقيام حركة الترجمة الى العربية في العصرين الأموي ثم العباسي

وحاول اليعاقبة أن يقدموا تعليلا للعلاقة بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في شخصية المسيح ، وقد رفضت البابوية هذا التعليل ، وحينما قام الخلاف أيام جستنيان حول هذه المسألة تأرجح الامبراطور بين الكاثوليكية والمونوفيزتية ، وبعدما تخلت

قواته روما أتخذ موقفا محددا من هذه المسألة ، ألا وهو موقف زوجته ثيودورا ، التي دانت بمذهب اليعاقبة ، وحينما رفض البابا فجليوس هذا الرأي اعتقله جنود الامبراطور وساقوه الى القسطنطينية حيث عقد في سنة ٥٥٣ مجمع كنسي مسكوني جديد برئاسة الامبراطور اقر فكرة اليعاقبة لكن هذا لم يؤد الى تلاحم الكنيستين الشرقية والغربية بل زاد من حدة الانقسام بينهما ، فبعد وفاة جستنيان بفترة وجيزة دخل اللومبارديون ايطاليا فأنهوا السيطرة البيزنطية على روما ، ولا بد من الاشارة هنا إلى أن من دوافع تأييد أفكار اليعاقبة كونهم أصحاب القوة في سورية ومصر ، وكان الامبراطور مضطرا الى أخذ ذلك بعين الاعتبار ، لكن تطور الأحداث فيما بعد ، خاصة بعد قيام الاسلام وفتح المسلمين لكل من سورية ومصر جعل الامبراطورية تفكر في إيجاد سياسة جديدة تتقرب فيها من البابوية ، ولهذا نجد الامبراطور قسطنطين الرابع يحاول استرضاء البابا اجاثون (٦٧٨ ـ ٦٨١ م) فتم عقد مجمع مسكوني جديد سنة ٦٨١ م في القسطنطينية قرر اعدام المونوفيزتية ، وطبعا عاشت هذه العقيدة واستمرت موجودة وهي عقيدة الكنيسة المصرية في أيامنا هذه .

وبعد هذا المجمع عانت المسيحية من مشاكل جديدة وتعلقت هذه المرة بمسائل مختلفة عما مضى ، لقد تعلقت بعبادة الصور أوكما تعرف عادة بمشكلة عبادة الايقونات ، ذلك ان المسيحيين أخذوا في تصوير بعض مراحل حياة السيد المسيح وذلك ربما منذ القرن الرابع وزينت الكنائس بهذه الصور مع تماثيل كثيرة ، وأخذ بعضهم يقدس هذه الصور لا بل يعبدها ورأى بعض المتنورين في ذلك نوعا من أنواع الشرك الوثني ، وانقسم الناس بين مؤيد لتقديس الصور وأخر رافض ، وارتبط ذلك بالسوية الثقافية مع التراث الفكري لكل مجتمع من المجتمعات المسيحية، فحيث وجد التراث الهلنستي في الامبراطورية البيزنطية فقد كان تيار المعاداة للايقونات قويا ، وعكس هذا كان الحال في أوربة الغربية المتدنية ثقافيا .

وبدأت حرب الايقونات خارج العالم المسيحي سياسيا، لقد بدأت في ديار الاسلام،فقد أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ م امرا بتحريم عبادة الايقونات ، ذلك أن الاسلام حرم الشرك وعبادة الأوثان ، ومن ديار الأسلام انتقلت الفكرة الى بيزنطة وسواها من ديار المسيحية ، وتمسك الامبراطور ليو بفكرة تحريم عبادة الصور وعارضته البابوية فكان هذا سهما جديدا طرح في معترك الخلاف بين الشرق والغرب .

ففي سنة ٧٢٦ م أصدر الامبراطور ليو قرارا بتحريم عبادة الصور وامر بازالة جميع التماثيل والصور من الكنائس ، وردت البابوية عليه بحرمانه من المسيحية وطرده من الكنيسة ، فقام بمصادرة أملاك البابوية في كافة المقاطعات التابعة له في جنوب ايطاليا وصقلية وفصل الكراسي الأسقفية في هذه المناطق عن البابوية ولقد ساعدت هذه الصراعات البابوية وزادت من تحكمها بايطاليا وشجعتها على التعاون مع الدول البربرية وكانت المقدمات الأولى لقيام أمبراطورية شارلمان .

ستهزم مع الايام حركة معارضة عبادة الصور ، وسيترافق انتصار عبادة الصور مع تقديس بقايا القديسين والاعتقاد بصدور المعجزات عن هذه البقايا وعن بعض الأيقونات ، وأخذ الناس يرتحلون من مكان الى اخر لزيارة الايقونات والبقايا المقدسة ، وتطور هذا مع تطور الحياة التجارية وحركات النقل إلى ابداع ما سيعرف باسم عقيدة الحج في المسيحية مما سيكن له أوسع الآثار في رواج الحركة الصليبية .

الفصل الثاني

الفرنجة ودولهم

الدولة الميروفنجية:

يعد بعض المؤرخين أن أهم حدث كان قد نجم عن تـاريخ هجـرة الشعوب الجرمانية وغزواتها لاراضي روما هو قيام دولة الفـرنجة ، ذلك انها الدولة الوحيدة التي كتب لها البقـاء والاسـتمرار ضـمن اراضي روما ، ولم تلق مصـير دول الوندال والقـوط الشرقيين ثـم الغربيين الذين قضى على ممالكهم البيزنطيون ثـم المسـلمون ومما يذكر أن قبائل الفرنجة كونت بين انفسها في القرن الثالث نوعا مـن التحالف البدائي،لكن مظاهر قوة هذا الحلف أخذت تظهر في القـرن الخامس وكان أهم كتل هذا التحالف كتلتان عرفتا بـاسم الفـرنجة البحريون والفرنجة البريون ، وفي القرن الرابع كان قد تم اسـتقرار هاتين الكتلتين داخل الأراضي الرومانية ، ولم تكن القبائل الفرنجية انئذ تكون مجموعة قومية أو قبائل امة واحدة لقد كانت هذه القبـائل مجموعة كتل متفرقة متباينة في كثير من الجوانب ، والأمم الجرمانية وجدت بعد قيام دولها وليس قبل ذلك ونسمع عن قبائل الفرنجة لأول مرة حينمـا حـاربهم الامبـراطور الرومـاني جوليان (٣٦١ ـ ٣٦٣ م) ونراهم بعد ذلك يقاتلون ضد مصـالح الامبراطورية أو لحسابها ، ونجدهم فيما بعد يتعاونون مـع جيوش الامبراطورية والقوط للتصدي للهون وحماية غاليا من أتلا وقـواته .وعقب هذا الحادث استقرت هذه القبـائل في اراضي غاليا فصـارت كلها قبائل بربرية بشكل فعلي .

وكان لكل قبيلة زعيمها الخاص بلقب مـن أصـل رومـاني يعني ملك ، ومن بين العديد من الزعماء كان واحد عرف باسم جليدريك ، وكانت منطقة نفوذه هي منطقة الحدود الحالية بين بلجيكا وفرنسا ، وحين وفـــاته ســـنة ٤٨١ م خلفـــه في منصبـــه ابنه كلوفيس (٤٨١ ــ ٥١١ م) الذي يعـد المؤسس الحقيقـي لدولة الفرنجة التي عرفت باسم الدولة الميروفنجية ويحسن قبل الحـديث عن دولة كلوفيس وتـوسعها أن نذكر أن الفتـرة الواقعـــة مابين (٥٠٠ ــ ٩٠٠ م) في تاريخ أوربة الغربية تعد فترة تحـول من الحضارة الرومانية ومما يمكن دعوته بالحضارة الجـرمانية إلى حضارة العصور الوسطى ، ففي خلال هذه الفترة استقرت الشعوب الجرمانية وطورت مؤسساتها ، وصارت عاداتها السالفة عبارة عن قواعد قانونية ، وبدلا من حال كانت فيه التقنية الزراعية بدائية جدا لشعوب نصف بدوية نصف مستقرة طـورت الشـعوب الجـرمانية زراعتها لأن اقتصاد مؤسساتها وحكوماتها اعتمد كما سبق وذكرنا على الأرض ومنتجاتها الزراعية ، وخلال هذه الفترة اختفت الوثنية مع العقيدة الأريوسية من بين صفوف الشعوب الجرمانية وصـارت الشعوب جميعا كاثوليكية أو بالأحرى رومانية كاثوليكية .

وكان الشكل الأساسي للحكم في هذه الفتـرة مـادعاه المؤرخـون باسم الحكومات الجرمانية ، وعلى الرغم من أن الممالك ونظمهـا في معظم بلدان أوربة عاشت قصـيرا إلا انه كتـب لهـا الاسـتمرار في انكلترا وبلدان اسكندنافيا وغاليا ، ونجد في النظـم الجـرمانية انه كانت اهم وظيفة للزعيم أو الملك الجرماني قيادة شعبه في الحـرب ، وكان من حق الملك دعوة كل فرد قادر على حمل السـلاح للانخـراط تحت رايته ، وكان الملك الجرماني يتـم اختياره لكن غالبـا مـايتم الاختيار من بين أفراد أسرة زعامة ملكية واحـدة ، ولقـد اعتقـدت الشعوب الجرمانية وقبائل الانكلوسكون أن ملوكها قد انحدروا مـن صلب أحد الآلهة الجرمان ولذلك عدت الأسرة المالكة الجـرمانية أن حقها في الحكم محصور لهـا دون سـواها وعد الملوك الجـرمان أن واجبـاتهم هـي القيادة في الحـــرب والاشراف على رعاية بعض

الاحتفالات والتقاليد وفيما عدا ذلك كان الملك يصرف وقته في تجميع الذهب والفضة والمجوهرات ومعاشرة النساء الجميلات بدون قيود زواجية أو عددية ،ومعاقرة الخمر وأكل اللحوم بشكل عظيم ومقادير هائلة .

وصحيح أن دراسة الممالك الجرمانية ونظمها أمر له شأنه ، إلا اننا سنقتصر هنا على دراسة مملكة الفرنجة ثم ممالك انجلترا لأنها قد كتب لها الاستمرار والبقاء الفعال .

وبعدما غدا كلوفيس زعيم الفرنجة البحريين ، أخذ بالتوسع في غاليا فاستطاع في سنة ٤٨٦ م الاستيلاء على منطقة سواسون لكنه برغم توسعه وتأسيسه لملكة مستقلة فعلية ظل يعد نفسه موظفا في خدمة الامبراطور وينوب عنه في حكمه لمنطقته ، ونلاحظ أن جميع الذين حكموا الدولة الفرنجية بعد كلوفيس كانوا جميعا يطبعون رأس الامبراطور الروماني على نقودهم وبقيت في أيام كلوفيس الادارة تسير حسب النظم الرومانية السالفة لذلك يمكن عد كلوفيس من بعض الوجوه مجرد خليفة للحاكم الروماني لغاليا ، ورغم أن الماضي الروماني لم يتم قطعه بقيام مملكة الفرنجة ، إلا أن هذه المملكة تأثرت قليلا بالفكر السياسي الروماني ، وكما سلفت الاشارةفقد اعتقد ملوك الأسرة الميروفنجية أنفسهم بالانحدار من أحد الأرباب : ولقد كانوا يطلقون شعورهم ويجعلونها تتدلى على أكتافهم كإشارة إلى نسبهم الرباني ، ولم يكن الملك وراثيا من أب إلى ابن بل كان وراثيا ضمن العائلة المقدسة ، وبعد وفاة الملك كان يتم انتخاب ملك جديد ، ومن ثم يتم تتويجه ، وكانت أهم عملية في احتفالات التتويج حمل الملك المنتخب على ترسة المقاتلين كدليل على الاعتراف بالانتخاب ، وكانت المملكة تعالج قضاياها كممتلكات خاصة بالعائلة المالكة .

وتميزت حركة الفرنجة في ظل كلوفيس بالتوسع الاقليمي والحربي والسياسي ، لذلك يرى بعضهم في كلوفيس فاتحا عسكريا ومؤسسا لملكة وليس قائدا لشعب مهاجر ودخل كلوفيس في صراع

ضد بقية الشعوب الجـرمانية في إيطـاليا وسـواها وعلى حسـاب ممتلكاتها توسع ، ولعل من حسن حظ الفرنجة أن مواطنهم الجديدة في غاليا ظلت على صلة وثيقة بمواطنها لما قبل الهجرة ، لذلك تلقى الفرنجة روافد دموية دائمة فأمكن لهم الاستقرار والبقاء الأمر الذي لم يحدث لبقية الشعوب الجرمانية . وكان كلوفيس سياسيا بارعا ، وقد قام عام ٤٩٦ بالاقدام على اعتناق المسيحية ، لكن ليس حسب المذهب الأريوسي مذهب بقية الشعوب الجرمانية إنما حسب العقيدة الكاثوليكية الرومانية ، وبذلك تميز ملوك الفرنجة عن غيرهـم مـن ملوك الشعوب الجرمانية ، فكانوا ابـرياء مـن كل هـرطقة ، إلا أن اعتناقهم للكاثوليكية قد تم بهداية ربانية نظرا لتميزهم عن سواهم ، وأوجد هذا في نفوسهم شعورا داخليا بـالتفوق وبـأن لهـم رسـالة سماوية لأن ملوكهم من أصل سماوي ، وحين فعـل ملوك الفـرنجة هذا فتبنوا مثل هذا الرأي شابهوا بقية ورثة الأمبراطورية:الاباطرة البيزنطيين وخلفاء الدولة الاسلامية الذين آمنوا بتأييد السماء لهم ، بعدما قامت باختيارهم ، ولاشك أن هذه المشاعر كانت واحـدا مـن أهم المحـركات على قيام حـركة التـوسع الفـرنجي ، ووراء دور الفرنجة الكبير في صنع تاريخ أوربة في العصور الوسـطى في اوربـة الغربية .

إن اعتناق كلوفيس للمذهب الكاثوليكي قد جعله يظهـر بمـظهر المدافع عن المسيحية الشرعية ليس في مملكتـه بـل في جميع اوربـة الغربية ثم العالم المسيحي ، وعنى هذا قيام نوع من التحـالف بين الفرنجة والرومان والتآلف بين البـابوية وملوك الفـرنجة ، وهـذا التآلف التحالفي كان له آثـار بعيدة حيث حـظيت شـعوب اوربـا الكاثوليكية بود ملوك الفرنجة ورغبت في الدخول في طـاعتهم ، وكان لهذا آثاره على علاقات مملكة الفرنجة مـع غيرهـا مـن المـمالك الجرمانية حيث ولد العداء والصراع وكانت الحروب غالبا لمصـلحة الفرنجة على حساب الألمان والقوط الشرقيين والغربيين.

وعندما توفي كلوفيس سـنة ٥١١ م قسـمت مملكتـه بين أولاده

الاربعة وهكذا ظلت دائما مقسمة ، لكن وجود فكرة للملك أنه حق محصور ضمن الاسرة المالكة كلها خفف من مضار التقسيم هذه وساعد على استمرار أعمال التوسع الفرنجي ولم يمنح الدولة والاقسام حدودا دائمة معترف بها ، وكانت أهم دول المملكة الميروفنجية هي : دولة أوستراززيا وقامت ممتلكاتها على طرفي نهر الراين ، وعرفت الأراضي الواقعة في شمال غاليا باسم دولة نوستريا ، في حين عرفت الدولة المهمة الثالثة باسم برغنديا وأوكتين ، ولقد كانت المؤثرات الجرمانية أقوى في الدولتين الأوليتين بينما كان هذا المؤثر ضعيفا في الدولة الثالثة حيث نتيجة لهذا ظلت لاتينية الموارث والمؤثرات .

ومع اعتناق ملوك الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية وقيام علاقات جيدة بينهم وبين المؤسسات الدينية ، فان هؤلاء الملوك كانوا غير متدينين وجل ماكان رجال الكنيسة يطمعون منهم هو تطبيق بسيط لبعض القواعد والاحكام الدينية .

وعلى سبيل المثال نجد أن الزواج الشرعي أو شرعية الزواج امر لم يكن له اي وجود أو معنى لدى ملوك الفرنجة ، فكان الملك الميروفنجي ورجال بلاطة كل منهم يعاشر ماشاء من النساء ولايهتم بشرعية العلاقات ومسائل شرعية ولادة الأولاد ، ولهذا نجد كل ماكانت الكنيسة تطمع به أن يعترف الملك بواحدة من النسوة زوجة شرعية ، ثم يعاشر ماشاء من النساء بعد ذلك ، وطبعا لم يكن الملك يعارض فرض الزواج الكنسي على رعاياه ، أما عليه وعلى أسرته فلا ، يتزوجون ويطلقون كل حين وحسب كل رغبة، وحيث وجدت أعداد كبيرة من النسوة المطلقات واليتامى من الفرنجة فقد أخذت الكنيسة بالعناية بهؤلاء ولم يعارض ملوك الفرنجة ذلك ، لهذا صار للكنيسة وظائف اجتماعية في داخل مجتمع الدولة الميروفنجية .

ولم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاما حتى ضعفت وتوقفت عن التوسع والنمو وذلك بشكل مفاجيء ، وعاشت طورا من الحروب الداخلية الأهلية ، وقد استمرت حالة الفوضى هذه قرابة

قرن ونصف القرن وظهر في هــذا الوقــت ملوك مــن اسرة كلوفيس يدعون عادة بالملوك الذين يملكون ولايحــكمون ، وفي الحقيقــة كان الملوك الذين تولو العرش من ذوي الطاقات الكبيرة انما الغــريب أن حياة كل منهم كانت قصيرة لذلك كثر عددهم ، وقل تاثيرهم ، ولهذا تغلب على الحكم في هذا الوقت رجال البلاط والنبلاء ، وأخذ النبلاء يسيرون شؤون كل دولة ويتحكمون بها مع رجال الكنيســة والدين ، ونالت الكنيسة الكثير من الصلاحيات ومــزيدا مــن الاســتقلال عن السلطة الزمنية ، حتى غدت شبه مستقلة ، واحتــكر كل نبيل مــن النبلاء ملكية من الأرض خاصة استقل بها ، وصار من غير الممــكن بالنسبة للتاج فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة والنبلاء .

لقد صارت السلطة مع الزمــن بيد احــد النبــلاء الذي كان يتــم اختياره في البلاط وحجابة الملك وذلك في سبيل منع الملك من الحــكم وبالتالي نزع امتيازات النبــلاء والاضرار بمصــالحهم وفي البــداية كانت هذه الوظيفة متــواضعة لأن مهــام صــاحبها كانت مجــــرد الاشراف على خدم القصر وموظفيه ولكنها تطورت مع الأيام وصار صاحبها هو صــاحب الســلطة الفعلية في الدولة الميروفنجية يشرف على جميع ادارات الدولة وعلى النفقات وتوزيع الجباة وحتــى قيادة الجيوش المحاربة، ومنذ سنة ٦١٤ م تعاقب على هذا المنصــب عدد من النبلاء عن طريق الوراثة فاصبحت الســلطة حصرا في اسرتهــم ومنذ سنة ٦٣٩ يوم وفاة أخر الميروفنجيين الكبــار وهــو داغوبيرت الأول صار تاريخ هذه المملكة واقسامها الثــلاث مــرتبطا بــرؤساء البلاط ، وكان رئيس البلاط ايام هذا الملك اسمه بيبن لاندن ، وبعد وفاته حاول كل مــن ابنه ثــم ابــن ابنه (اي حفيده) الغــــاء الملكية الميروفنيجية فاخفقا وقتلا ، وقــام صراع وخــلال عمليات الصراع كان النصر مؤخرا من نصيب دولة اســترازيا فبــرز رئيس بــلاطها الذي عرف باسم بيبن الثاني وهــو ابــن بنت بيبــن الأول وصـــار مسؤولا عن بلاطي استرازيا ونوسترا وعقب وفاته برز كما ســنرى ابنه غير الشرعي شارل مارتل سنة ٧١٤ م واخذ مكانه وســنتحدث فيما بعد عن اعمال شارل مارتل التي ادت الى توحيد مملكة الفرنجة

وبــالتالي الى انقــراض الدولة الميروفنجية وقيام دولة جــديدة حلت محلها وهي الدولة الكارولنجية .

حضارة الدولة الميروفنجية

الحياة الاقتصادية

إن مانملكه من معلومـات عن طبقـات المجتمـع في ظـل الدولة الميروفنجية قليل جدا فالذي هو متوفر يتعلق بالأسرة المالكة وطبقات النبلاء والاساقفة ورؤساء الكنائس والديرة ، وقد ملك كل من هؤلاء املاكا واسعة للغاية اختلفـت الى حـد كبير عن طبيعـة القـرية او المؤسسة الزراعية أيام الامبراطورية الرومانية ، وقـد زرعت هـذه الأملاك من قبل أجراء أو وكلاء كانوا انصاف احرار ، أي انهـم لم يكونوا من اقنان الارض ، ولكنهم ماكانوا يملكون الحق في التحـرك من المزارع التي يعملون بها ، وقد ملك كل واحد من الأجراء كوخـا حقيرا عاش به مع اسرته ، وذلك بالاضافة الى قطعة صـغيرة مـن الارض زرعها واعتمد على انتاجها في نفقات عيشه مع أسرته ، وقد أمضى الأجير معظم الوقت في العمـل في أرض سـيده الكبير دونمـا مقابل ، ويبدو أن معظم هذه الممتلكات والمؤسسـات الزراعية كانت ذات أصل روماني ربما كانت تعود الى بعض أعضاء مجلس الشيوخ الروماني أو كانت من أملاك التاج الامبـراطوري لكنهـا مـع الأيام غدت في حوزة النبلاء من الفرنجة ، كما اقام رجـال اخـرون مـن النبلاء مع رجال الكنيسة والديرة مؤسسات مماثلة .

ويمكننا أن نلاحظ وجود نمطين من القرى لدى الفرنجة : نمـط سكانه رجال احـرار يملكون جميعـا الأرض ويزرعونهـا بـطريقة تعاونية تحت إدارة وتوجيه مجلس قروي أما النمط الثاني فقد كان عبارة عن قرية ملكها أحد النبلاء الفرنجة وسكنها مع اتباعه الذين كانوا في البداية رجالا لكن مع مرور الزمن اخذوا يتحولون الى حال

الرجال النصف احرار الذين قاموا بادارة المزارع الرومانية القديمة وزراعتها ، وعلى الرغم من استمرار النمط الروماني القديم في الزراعة وقيام مؤسسات زراعية على الطريقة نفسها فقد ظل في المجتمع الميروفنجي أعداد لابأس بها من الناس الأحرار نوي النشاطات الاقتصادية المختلفة والأوضاع الاجتماعية المتباينة ، وكان هناك مزارعين صغار يملك كل منهم مزرعة يديرها بنفسه ويكاد انتاجها يكفيه مع اسرته ، وكما كان هناك مزارع متوسطة الحجوم كان أصحابها يستعينون بعدد من الأجراء ، وقد بلغ عددهم عشرون أحيانا وكان هناك اناس لايملكون ارضا لكنهم كانوا يعيشون بشكل مرضي ، فقد جرت العادة أن تقوم الكنيسة واحيانا بعض الملاك الكبار بمنح أحد الناس قطعة من الأرض صغيرة يقوم باستغلالها لنفسه واسرته ، واحيانا قد تكون الأرض كبيرة فيستخدم اجراء للعمل بها .

وكان هذا المقطع يوافق في عقد الاقطاع على ان يدفع اجرة للأرض التي اعطيت له لاستغلالها ، وكانت الأجرة إما كمية من المنجزات أو عبارة عن خدمات محددة ، وكان المقطع يقسم عند صنع العقد بينه وبين المانح يمينا بالولاء والاخلاص لهذا الملاك الكبير ويعاهده على أن يوقف أو يحبس نفسه له ولخدمة مصالحه ، وبعبارة أخرى يقسم على أن يصبح رجلا من رجاله وتابعيه ، وحصل ملاك الاراضي بواسطة هذه الطريقة على أتباع مخلصين وضمنوا في الوقت نفسه أراضيهم ، وقد استخدم في عقود استغلال الأرض حسب هذه الطريقة عدد من المصطلحات كان من اشهرها سيد ومسود أو مولى وتابع .

ومن الملاحظ أن الحضارة زمن الميروفنجيين استمرت في الانحدار في غاليا ، ولم تتوقف عن متابعة السير في هذا المنحى الذي صارت فيه منذ القرن الثالث ، إنما الآن سارت بسرعة أكبر من ذي قبل ، وكان الفرنجة في الدرجة الأولى رجال حرب ولم يكونوا تجارا ، وكان اهتمامهم بالحياة المدنية في الأرياف وسواها ضعيفا

او منعدما ولم يهتم ملوكهم بالتجارة ولم يعملوا على تشجيعها لذلك اهملوا صيانة طرق القوافل ولم يرمموا الجسور والمعابر ولم يهتموا بوسائل الأمن على الطرق كما لم يقدموا اية ضمانات لحماية التجارة والتجار ، وذلك أن الملك الميروفنجي لم يفكر مطلقا بأن مثل هذه الأعمال هي من اختصاصاته وواجباته .

لكن لم تمت التجارة ضمن المملكة الميروفنجية تماما بل استمر بعض العمل التجاري في بعض الموانىء والمدن الساحلية القديمة ، انما هذا انحصر فقط في أجزاء من السواحل وانعدم العمل التجاري تماما في داخل اراضي المملكة ، ومع نهاية عصر الدولة الميروفنجية كانت غاليا قد أصبحت بلدا زراعيا ليس له اقتصاد قومي بل قام فيه اقتصاد اقليمي قوامه الزراعة المحلية الانتاج والمحلية الاستهلاك ، وقد كان هناك قليل جدا من المال للتعامل به ، وانعدمت السيولة النقدية أو كادت لذلك كان التجار الذين غامروا وسافروا ندرة .

الحياة الفكرية والفنية:

لم يكن انحطاط المدن وشلل الحياة الاقتصادية في العصر الميروفنجي وقساوة الطباع لتؤلف وسطا موائما لتفتح الثقافة وازدهارها ، ولكن لم يختف كل اثر للثقافة القديمة بغزو البرابرة لغاليا ، فقد بقيت في جنوب غاليا وفي المملكة البرغندية بعض مدارس النحو والبلاغة مفتوحة خلال الثلث الأول من القرن السادس ، واستمرت الثقافة القديمة حية في أواسط العائلات الارستقراطية الكبرى حتى منتصف القرن السابع ، وكان الاساقفة الذين يرجع اصلهم الى الطبقة الارستقراطية محافظين على الثقافة الكلاسيكية وقادرين على نظم الاشعار وتطبيق البلاغة التقليدية خلال القرن السادس باكمله ، واذا كانت الارستقراطية الفرنجية في غاليا الشمالية قد رفضت قبول الثقافة الكلاسيكية في مجملها ، وخاصة الشعر والبلاغة، فقد احتفظت برغم ذلك ببعض الجوانب

العملية منها كالقوانين المكتوبة واللغة اللاتينية ، الا ان هذا لاينفي ان المستوى الثقافي والفكري في العصر الميروفنجي لم يتوقف عن الانحطاط والتردي ، وخير مثال على ذلك كتابات قصص حياة القديسين التي أصبحت الشكل الرئيسي الأدبي فقد كان مؤلفوها يطنبون في تقريظ الفضائل نفسها ورواية المعجزات ذاتها ، وأخذ الكتاب ، من مؤرخين وادباء يلجأون الى الكتابة باللاتينية العامية أو بلاتينية مليئة بالأخطاء مثل المؤرخ غريغوار اسقف تور الذي وضع كتاب " تاريخ الفرنجة والذي هو عبارة عن مجموعة من القصص لايربط فيما بينها فكرة موجهة ، وكانت قصائد الشاعر فورتونا برغم تفوقها على أشعار معاصرية ، تتصف بالتصنع والزيف.

ولم يبق سوى القليل جدا من الاوابد التي انشئت في عصر الميروفنجيين وقد حاول مهندسوها اتباع تقاليد اسلافهم ـ الغاليين ـ الرومانيين ولكنهم لم يقيموا سوى ابنية متواضعة الأبعاد ، وانحطت أيضا الفنون التشكيلية القديمة ، وتشهد الصور المرسومة على جدران احدى المقابر في بواتيه على مدى الانحطاط الذي وصل إليه تصوير الجسم البشري ، وبرغم ذلك كانت تيجان الأعمدة ومنحوتات التوابيت المصنوعة في اكيتانيا لاتخلو من الأناقة والذوق ، كما أن بعض القبور في المنطقة الشمالية من غاليا تشتمل على تزيينات هندسية جميلة .

غير أن ما انقذ سمعة الفن الميروفنجي هو فن الصياغة فقد وجد في المدافن الكثير من الحلي من اقراط وصفائح وخواتم وبوجه خاص الشكالات وأغلب موضوعات هذا الفن ، سواءا كانت حيوانية مبسطة أم هندسية ،مقتبسة عن الشعوب الشرقية ، وتميل أشكالها المختلفة الى تبسيط كبير في الخطوط يقترب من الفن الحديث ، وتعتمد على ابراز الوان الحجارة الثمينة المنزلة او على التضارب بين وهج المعادن المختلفة الداخلة في الصنع ويمكن أن نذكر بين أثار هذا الفن الصناديق التي كانت تحفظ فيها بقايا

القديسين وهي صناديق خشبية مغطاة بصفائح معدنية (نحاس او فضة) محفورة أو منقوشة ، وكان القديس أيلوا من اشهر صناع هذه الصنا ديق .

الحياة الدينية:

الكنيسة الميروفنجية:

سعى ملوك الفرنجة ، كما سعى فيما بعد كبار رجال المملكة ، الى استخدام نفوذ الكنيسة العصرية وسلطانها لما فيه فائدتهم ومصلحتهم الخاصة وكانت الكنيسة منذ عهد الامبراطور قسطنطين ، تتمثل على الصعيد المحلي في شخص الأسقف الذي غدا الزعيم الروحي في المدينة واصبح الممثل الوحيد للكاثوليك والمدافع عن الغالو ـ رومانيين بعد سقوط الامبراطورية واختفاء الموظفين الامبراطوريين والسلطات البلدية ، وقد انحاز الاساقفة الغالنيون الى الميروفنجيين إثر اعتناق كلوفيس للديانة الكاثوليكية وتعاونوا معهم باخلاص ، وقد أدى هذا التعاون خدمات ثمينة لملوك الفرنجة لأن الأساقفة كانوا يهتمون بجميع نواحي الحياة المادية والروحية لرعاياهم ، فاخذوا على عاتقهم القيام بالمهمات والخدمات العامة التي تخلت عنها دولة البرابرة مثل : مساعدة الفقراء والبائسين ، وإقامة العدل والقضاء بين رعايا المحاكم الكنسيه ، وتامين التعليم الديني للجميع ضمن إطار الدين الروماني الكاثوليكي ، واهتم الأساقفة أيضا بنشر الديانة المسيحية في أواسط الفلاحين الذين ظل الكثيرين منهم على وثنيتهم ، فتضاعف عدد الأبرشيات الريفية ، وكان أكثر هؤلاء الاحبار ينتمي الى الطبقة الارستقراطية القديمة الغنية المثقفة التي انقطعت عن ممارسة الوظائف العامة ، أما الأساقفة الجرمانيون فكانوا اقلية ، ففي مقاطعة أكيتانيا مثلا لم يكن يوجد بين ما يقرب من مائة اسقف سوى اثني عشر اسقفا يحملون اسماء جرمانية ، وقد يكون هؤلاء من أصل غالو ـ روماني لأن التسمية بأسماء جرمانية

اصبحت شائعة بين الغالو ـ رومانيين في ذلك الوقت ، ويبدو أن بعض العائلات الارستقراطية الغالو ـ رومانية كانت تحتكر منصب الأسقفية في بعض المدن ، فقد كان غريغوار اسقف تور سادس شخص يتولى هذ المنصب من العائلة نفسها .

وقد اغدق كلوفيس وخلفاؤه من بعده العطايا والهبات والامتيازات على الكنيسة ، وكانت الهبا ت العقارية واسعة بشكل اصبح معه الاسقف أكبر ملاك في مدينته ، بالاضافة الى شهادات الحماية والأعفاءات من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، وساعد الملوك الميروفنجيون على نشر الديانة المسيحية وتعميمها في غاليا فأصدر شيلدوبر عام ٥٥٤ أمرا بتحطيم الاصنام ، وأسس الكثير من الملوك والأمراء كنائس وأديرة عديدة في مختلف انحاء غاليا ، وكان الملوك يطلبون من الأساقفة مقابل ذلك الطاعة التامة ، فاحتفظوا لأنفسهم بحق الدعوة إلى عقد المجامع الدينية العامة ، والتدخل في الانتخابات الكنسيه سواء بتقسيم مرشح الاسقفية أو بتثبيت الأسقف المنتخب وتسليمه « الأسقفية » وهكذا استمر التفاهم والوفاق بين الملكية الميروفنجية والكنيسة ، وكان الاساقفة ، حتى منتصف القرن السادس على الاقل ، اهلا للمناصب التي يتولونها وقد جعل الناس من بعضهم قديسين لأسباب لم يكن لها غالبا صلة بالدين .

وأخذت الكنيسة الميروفنجية باكتساب الطابع الاقطاعي منذ نهاية القرن السادس ، ووصلت أملاك الكنيسة في بعض المقاطعات درجة من الاتساع لم يعد معها لدى الأسقف وقت للاهتمام بشيء أخر غير ادارة هذه الأملاك والمحافظة عليها ، وأخذ بعض الاساقفة يتصرفون تصرف الأمراء الزمنيين كقيادة الحامية في الدفاع عن المدينة ، وصار الملوك يختارون الاساقفة غالبا من ارستقراطي البلاد مثل كبار الموظفين المدنيين ، مما أدى الى اشتراك الأساقفة في المؤامرات والثورات التي كان الارستقراطيون يحيكونها ، وأهمل الأساقفة ، منذ القرن السابع ، الاهتمام بشؤون رعاياهم الدينية

او بنشر الديانة المسيحية بين الوثنيين فانتقلت هذه المهمات الروحية شيئا فشيئا الى أيدي الاكليروس النظامي .

الحياة الرهبانية:

يعود نمو الحياة الرهبانية في غاليا واكتسابها اصالتها الى العصر الميروفنجي وخاصة في نهاية القرن السادس ، فقد شهدت غاليا انذاك تكاثر عدد الاديرة بحيث اصبح يقرب من مائتي دير خلال قرن ونصف القرن وبذلت فيها الجهود لوضع قواعد وأصول هذا الشكل من الحياة الدينية .

ويعود الفضل في تطور الحركة الرهبانية في غاليا في هذا الاتجاه الى القديس كولومبان وهو راهب ايرلندي قدم الى غاليا في الربع الأخير من القرن السادس ، واضطر الى تغيير مقره فيها عدة مرات بسبب خلافه مع الاساقفة ومع الملك الميروفنجي ، ثم اضطر أخيرا الى مغادرتها وقد كان للقديس كولومبان وتلامذته تأثير كبير على الحركة الرهبانية في غاليا تجلى في انشاء عدد كبير من الأديرة في غاليا الشمالية (اشهرها دير لوكسل) من جهة ، ومن جهة أخرى في اتباع جميع هذه الأديرة في حياتها مبادىء متشابهة طبقا للقاعدتين اللتين وضعهما القديس كولومبان دون أن تؤلف نظاما رهبانيا ، ولا تتضمن قواعد القديس كولومبان تعاليم دقيقة فيما يتعلق بالتنظيم الداخلي في الأديرة بل تحدد نوعا من الحياة المشتركة تقوم على الخضوع أمام الراعي ، وهو السيد المطلق للجماعة الديرية ، وعلى الزهد الفردي الشديد ، وقد كان للرهبان الكولومبانيين تأثير كبير في نشر المسيحية إذ كان الحماس للتبشير الديني أحد الميزات التي يتصفون بها فكانوا يخصصون جزءا من نشاطهم للتبشير.

ونشأت في غاليا اديرة تبنت قاعدة القديس بندكت . وتختلف القاعدة البندكتية في روحها اختلافا تاما عن قاعدة القديس كولومبان

فهي تشدد على اهمية الحياة المشتركة تحت سلطة راعي الدير الذي ينتخب لمدى الحياة وتستبدل النسك الفردي بـــالصلوات الجمـــاعية وبالعمل ، وخاصة العمل اليدوي ، وقد اتسع انتشار هذه القـــاعدة في غالبا في النصف الثاني من القرن السابع ولا سيما بعد نقل بقـــايا القديس بندكت الى دير فلوري على نهر اللوار حوالي عام ٦٧٢ م.

وقد أدى التنافس بين هاتين القاعدتين الرهبـــانيتّين الى نشـــوء قواعد رهبانية جديدة تحاول التوفيق بينهما .

يتضح مما سبق أن توسع الحياة الرهبانية كان احدى خصائص ومميزات العصر الميروفنجي ، وبعد أن كان الأسقف . حتـــى أوائل القرن السادس ، هو رجل الدين الذي ينظر اليه عامة الناس نظـــرة تقديس واجلال ، حل الراهب محله في هذا الدور تجاه الراي العـــام المسيحي منذ ذلك القرن.

بريطانيا (المملكة الأنكلو ـ سكسونية)

لايزال تاريخ بريطانيا في مطلع العصور الوسطى غير معروف بشكل جيد ، والمعلومات البسيطة المتوفرة لدينا مستمدة من معطيات علم الآثار ، وهي معطيات بسيطة متفرقة يصعب تحديد تاريخها بدقة ، ومن كتابات ثلاثة مؤرخين فقط وهم: الراهب جيلداس الذي وضع كتيبا عن « غزو بريطانيا وخرابها ، أمتدح فيه الاصلاح الذي قام به البريطانيون في القرن السادس وانتقد الزعماء الصغار الذين كانوا يحاولون عرقلته ، وبروكوبيوس القيساري الذي وصف بريطانيا في القرن السادس حسب ما سمعه من مبعوثي ملك الفرنجة الى القسطنطية ، والمؤرخ الأنكلو ـ سكسوني بيد الذي وضع نحو عام ٧٣١ م كتابا سماه « تاريخ الكنيسة » تلبية لرغبة أحد ملوك نورثمبريا افتخر فيه بأعمال ملوك السكسون الأوائل .

ولكن المؤكد أنه نشبت بين سكان بريطانيا من البريطانيين والرومانيين وبين الغزاة الجرمان الأنكل والسكسون والجوت حرب عنيفة لا هوادة ولا رحمة فيها امتدت منذ منتصف القرن الخامس حتى نهاية القرن السادس ، وكانت تتخلل هذه الحرب فترات سلم وهدوء نسبيين على أثر المعارك الكبرى التي كان المتحاربون فيها يبيد بعضهم بعضا .

كانت قبائل السكسون تقطن في الشمال الغربي من جرمانيا بين نهري ايمس والويزر وقبائل الأنكل في الجزر المقابلة لسواحل شبه جزيرة جوتلاند بينما سكنت قبائل الجوت في حوض الراين الأسفل الى جوار بعض الفرنجة .

وقد أخذ القراصنة الذين ينتمون الى هذه القبائل ـ كانوا يجوبون بحر الشمال ـ بمهاجمة سواحل بريطانيا الشرقية

والجنوبية مستهدفين السلب والنهب فقط ، ولكن في القرن الخامس وعلى أثر الغارات البربرية الكبرى في القارة الأوربية وانسحاب الرومان من بريطانيا ، اخذت جماعات عديدة من الأنكل والسكسون والجوت بغزو بريطانيا بقصد التوطن والأستقرار فيها . واشتدت هذه الغزوات واتخذت شكل هجرات حقيقية بعد عام ٤٥٠ م.

ففي عام ٤٤٩ م نزلت جماعة من السكسون ، كما يروي المؤرخ بيد ويؤيده في ذلك الراهب جيلداس في منطقة كنت في الزاوية الجنوبية الشرقية من انكلترا وتوصلت إلى تأسيس مملكة سكسونية فيها خلال نحو ربع قرن .

وفي عام ٤٤٧ م قامت جماعات أخرى من السكسون بغزو مقاطعة ساسكس على الساحل الجنوبي من الجزيرة وتوصلت إلى إخضاعها في غضون نحو من خمس عشرة سنة .

وغزت جماعات غيرها ، من السكسون أيضا ،مقاطعة الوسيكس في جنوب الجزيرة حوالي عام ٤٩٤ م واستتب لها الامر فيها عام ٥٠٨ م وفي نهاية القرن الخامس احتلت جماعة من المغامرين الجوت جزيرة وايت مقابل الساحل الجنوبي .

وهاجمت عصابات من قبائل الانكل والسكسون السواحل الشرقية للجزيرة عند مصبات الأنهار ولاسيما في خليج واش واتبعوا مجاري الانهار متوغلين نحو الداخل كمجرى نهر نين ونهر أوز ونهر التيمس وانشأوا محطات ونقاط ارتكاز لهم في تلك المناطق .

ولم يتم استقرار الغزاة الجرمان في المقاطعات التي نزلوا فيها إلا بعد حروب دامية ومقاومة ضارية عنيفة من قبل البريطانيين ، وكانت المعارك بين الطرفين اشبه بمجازر يسقط فيها آلاف القتلى من الطرفين ، وغالبا ماكان السكسون يلاحقون البريطانيين المهزومين إلى قلب الغابات للقضاء عليهم ، كما أن نقمتهم وبطشهم كانا يتناولان غير المحاربين من سكان المناطق التي يحتلونها فكانوا يستبيحون المدن ويعملون فيها النهب والسلب والقتل .

غير أن البريطانيين الذين أذهلتهم المفاجاة بالغزو استعادوا تنظيم جهودهم وتوحيدها بفضل بعض زعمائهم مثل أوريليانوس فاستطاعوا في القرن السادس إيقاف توسع ممالك السكسون في الجنوب والاحتفاظ بكل انكلترا الغربية وحوض التيمس وفرض سياستهم على مستوطنات الانكل ـ سكسون في حوض التيمس الأوسط . ولكنهم رغم انتصاراتهم العسكرية ، لم يستطيعوا استئصال الممالك البربرية أو إعادة بناء المدن المخربة أو القضاء على التنافس والمنازعات بين الزعماء المحليين .

ثم استعاد الجرمان زمام المبادهة والهجوم في أواخر القرن السادس ، وحقق ملوك وسيكس انتصارات حاسمة على البريطانيين ولاسيما في معركة ديرهام عام ٥٧٧ م ، وعلى إثر ذلك انسحب البريطانيون إلى المناطق الجبلية الغربية واعتصموا فيها وهاجر قسم كبير منهم إلى غاليا ، وانتقلت ملكية السهول الخصبة في شرق بريطانيا إلى أيدي الجرمان الغزاة .

ويصبح تاريخ بريطانيا والممالك البربرية فيها شديد الغموض والاضطراب في القرن السابع ، ويبدو أن البريطانيين استمروا في المقاومة في الجنوب حيث أسسوا دولا منيعة في منطقتي كورنويل وويلز الجبليتين ، كما استمرت مقاومتهم طوال القرن السابع ، في شمال انكلترا ، ولم يستطع الانكلو ـ سكسون تشكيل مملكة موحدة قوية ، ويبدو أن الجرمان شكلوا خلال هذا القرن ثماني ممالك في بريطانيا وهي : مملكة نورثمبريا في الشمال ومملكة لندسس على الساحل الشرقي شمال خليج واش ، ومملكة أنغليا الشرقية جنوب خليج واش ومملكة اسكس شمال نهر التيمس وممالك كنت وساسيكس ووسيكس وجزيرة وايت في الجنوب ، وفي هذا القرن أيضا تم إعتناق الانكلو ـ سكسون للديانة المسيحية بفضل البعثات التبشيرية التي أرسلها البابوات إلى الجزيرة .

وكانت هذه الممالك الانكلو ـ سكسونية في خلاف ونزاع دائمين فيما بينها وأهمها ممالك كنت ووسكس ومرسيا ونورثمبريا ، وقد حاولت

كل من هذه الممالك الاربعة توحيد بريطانيا تحت سيادتها ، ولكن جميع محاولات التوحيد لم تنجح إلا لفترة بسيطة من الزمن وانتهت بالاخفاق ، وذلك لانها كانت تقوم على جهود ملك قوي يتمتع بالنبوغ العسكري بحيث يتمكن من إخضاع الملوك المجاورين ، ولأن محاولات التوحيد كانت تصطدم بمقاومة البريطانيين الشديدة الذين عرفوا كيف يستغلون الخلافات بين ملوك الانكلو ـ سكسون للحيلولة دون تشكيل مملكة انكلو ـ سكسونية موحدة وقوية .

النظم الانكلو ـ سكسونية

كان الغزاة الانكلو ـ سكسون يتألفون من جماعات عديدة لكل منها زعيمها ، وبعد أن تم لها النصر على البريطانيين لم تتحد فيما بينها لتؤلف مملكة واحدة على غرار ماحدث في غاليا الفرنجية أو إسبانيا القوطية ، بل اقامت عددا كبيرا من الدويلات وكان لكل دويلة ملك منتخب من بين أفراد عائلة يعتقد أن نسبها يتصل إلى الآلهة ، فالملكية لم تكن مؤسسة سياسية بقدر ماكانت امتيازا لشخص يتمتع بمواهب عسكرية لأن الملك زعيم عسكري قبل كل شيء ، وكان النشاط الرئيسي للملك هو شن الحرب ضد الملوك المجاورين فإذا تغلب على أحدهم ضم مملكته أو فرض عليه الجزية ، وقد نجح بعض الملوك في فرض سيطرتهم على انكلترا بأكملها وحملوا لقب « برتويلد » وكان في كل دويلة ، إلى جانب الملك مجلس يدعى مجلس العقلاء يضم أهم نبلاء المملكة وهو الذي ينتخب الملك ، وعلى هذا الأخير أن يستشير المجلس في كل الأمور الهامة .

ويتألف المجتمع من عدة طبقات تختلف نوعا ما من مملكة إلى أخرى ، وكانت أعلى طبقات المجتمع هي الطبقة التي تشكل أفراد العائلة الملكية ويطلق عليهم إسم اكثيلنغ وكان يليها طبقة النبلاء الذين يحملون لقب ايدل وكان جميع هؤلاء من المحاربين الذين يخدمون الملك وأعضاء الأسرة الملكية ، وأتى على رأس الطبقات العامة في استثمار الأرض الفلاحون الأحرار وتلاهم طبقات عدة من غير الأحرار وأدناها طبقة العبيد .

وقد حافظ الانكلو ـ سكسون على أعرافهم القديمة وأنشأ الملوك محاكم شعبية رأس كل منها ممثل عن الملك من النبلاء ، وتمتع جميع الرجال الأحرار بحق حضور المحاكمات وكانت الأحكام تصدر

بإجماع أصوات الحاضرين ، وحق للملك أن يصدر ، بـالاتفاق مـع مجلس العقلاء ، قرارات تعدل الأعراف التقليدية أو تضـيف إليهـا قوانين جديدة .

وكان الانكلو ـ سكسون ، كغيرهم من الشـعوب الجـرمانية ، وثنيين يعبدون قوى الطبيعة ، وأشهر الآلهة أودان الذي ادعت اكثر الأسر الملكية أن نسبها يرتقي إليه ، وإلى جانب الآلهة وجد العـديد من الكائنات العلوية مثل الفالكيرى والايلف ، وتوجد شـواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يحرقون الموتى بدلا عن دفنهم .

وكانت الزراعة هـــي عمـــاد الحياة الاقتصـــــادية ، وكان الانكلو ـ سكسون يطبقــون أسـلوب الدورة الثـلاثية في الزراعة ، وكانوا يعرفون الحبوب ولكنهم جهلوا اكثر أنواع الخضر والفواكه ، وكانت الصناعة بسيطة جـدا تقتصر على صـنع الأدوات الضرورية للأعمال الزراعية والأسلحة والحلي اما أهـم المبـادلات التجـارية فكانت مع مملكة الفرنجة والمركز التجاري الرئيسي هو مدينة لندن .

الكنيسة الانكلو ـ سكسونية

كان اعتناق الانكلو ـ سـكسون للديانة المسـيحية الكاثـوليكية عاملا مساعدا إلى حد بعيد على تحقيق الوحدة الأخلاقية والسياسية في وطنهم الجـديد ، وفي إعادة الصـلات بين بـريطانيا والعـالم الروماني .

ويعود بدء النشاط التبشيري بين الانكلو ـ سكسون إلى نهـاية القرن السادس عندما بادر البابا غريغوري الكبير إلى إرسال بعثـة تبشيرية مؤلفة من أربعين راهبا إيطاليا تحت رئاسة أوغسـطين ، وحلت هذه البعثة في مملكة كنت حيث سمح لها الملك بالاقامة في مدينة

كانتربري منذ عام ٥٩٧ م ، وكانت توجيهات البابا لاوغسطين تتمتع بالاعتدال نحو الجرمان الذين يعتنقون الكاثوليكية الرومانية ونحو البريطانيين المرتبطين بالطقوس الدينية الايرلندية . وكلف البابا أيضا اوغسطين برسم الأساقفة الجدد في بريطانيا .

اقتصرت اعمال التبشير لزمن طويل على مملكة كنت التي كان ملكها يحمي ويشجع المبشرين ، واعتنق هو نفسه الدين الجديد ، وقد حاول المبشرون الايطاليون دون جدوى ، التعاون مع الأساقفة البريطانيين الذين كانوا يعدون الايطاليين اجانبا ويكرهون الجرمان إلى حد أنهم « يخشون الالتقاء بهم في الجنة في اليوم الآخر إذا هم اهتدوا إلى الدين الصحيح » ، واقنع ملك كنت حليفه ملك انغليا الشرقية باعتناق الكاثوليكية والتعمد ، ولكن رعاياه سكان انغليا الشرقية لم يحذوا حذوه ، كما أن سكان مملكة كنت ارتدوا إلى الوثنية بعد موت ملكهم التقي عام ٦١٦ ، مما دفع أوغسطين وزملاءه إلى القنوط واليأس حتى كادوا أن يرجعوا إلى غاليا هربا من ردة فعل الوثنيين ، غير انهم استعادوا شجاعتهم وتصميمهم على البقاء في بريطانيا ومتابعة التبشير برغم كل المصاعب ، وكانت نتيجة هذا التصميم استمرار بقاء مركز كانتربري حتى توصل احد خلفاء اوغسطين الى تعميد الملك الوثني في كنت ، ومنذ ذلك الحين اصبح ملوك كنت حماة مخلصين للكنيسة .

واحرزت بعثة كانتر بري التبشيرية نجاحا كبيرا عندما اعتنق ادوين ملك نورثمبريا المسيحية واصبحت مدينة يورك مركزا للأسقفية ، غير أن خلف ادوين شجع الرهبان الايرلنديين واعتمد عليهم في نشر المسيحية في مملكته ، واستخدم ملك نورثمبريا نفوذه وصلات القربى التي تربطه بملكي الوسكس والساسكس لكي يحملهما على اعتناق المسيحية وعلى قبول المبشرين في مملكتيهما ، وما أن أطل النصف الثاني من القرن السابع حتى كانت المسيحية قد عمت في كل انكلترا الوسطى والشمالية .

وفي عام ٦٦٧ م عين البابا اسقفا جديدا في كانتر بري يدعى

ثيودور . وقد عمل الأسقف الجديد على تنظيم الكنيسة الكاثـوليكية في بريطانيا وبعث نشاط بعثة كانتر بري ففرض نظاما شـديدا على رجال الدين وعزل الاساقفة المنشقين أو الهراطقة ، ودعا الى عقـد مجمع ديني للاسـاقفة الكاثـوليك عام ٦٧٢ م وعين أسـقفا لمدينة يورك في نورثمبريا يدعى ويلفـرد اسـتطاع بنشـاطه وحمـاسه للكاثوليكية والمذهب الرهباني البندكتي أن يحقق انتصـاراً لطريقة البندكتية على الطرق الايرلندية في مملكة نورثمبريا ، غير أن طمعه وحبه للسلطة أدى في أواخر القـرن السـابع الى ايقـاع الخـلاف والنزاع بينه وبين ملوك نورثمبريا وأساقفتها الوطنيين ، وقد استمر النزاع مدة طويلة وتدخل اسقف كانتر بري والبابا نفسه فيه .

ورغم أنهما توصلا الى تحقيق تسوية بين الطرفين المتنازعين فقد بقيت بذور الشقاق والانقسـام بين كنيسـة نورثمبـريا والكنيسـة الكاثوليكية الرومانية ، وفقد أساقفة كانتر بـري وممثلوا البـابا في بريطانيا كل سلطة لهم على اساقفة نورثمبريا منذ عام ٧٣١ م حتى أن البابا نفسه اضطر عام ٧٣٥ م الى منح أسقف مدينة يورك مرتبة رئيس اساقفة .

وهكذا كانت انكلترا في اواسط القـرن الثـامن بعيدة عن تحقيق الوحدة الدينية بعدها عن تحقيق وحدتها السياسية .

الامبراطورية الكارولنجية

- اوائل الكارولنجيين:

أقدم من يعرف من الكارولنجيين هو بيبن لاندن الملقب بـالشيخ والذي كان حاجبا للقصر في عهد داغوبيرت الأول . ثم تـولى حفيده بيبن الهرستالي الملقب بالشاب حجابة القصر في اوسـترازيا في دور الضعف الميروفنجي وأصبحت حجابة القصر وراثية في عائلته . وقد استطاع بيبن الشاب ان يحقق الوحـدة السـياسية لملكة الفـرنجة تحت سيادته بعد انتصاره على حـاجب قصر نوسـتريا في مـوقعة ترتري عام ٦٣٦ م وتنصيبه ابنه غريموالد حاجبا لملكتي نوسـتريا وبرغنديا ولكن بيبن لم يدع خلفا له بعد موته عام ٧١٤ م سوى حفيد في السادسة من عمره لأن ابنه غريموالد كان قد قتل قبل ذلك بـوقت قصير . واغتنم كبار مملكة نوستريا هذه الفرصة ليثوروا على عائلة بيبن وينتخبوا واحدا منهم حاجبا لقصر نوستريا وانضم اليهم دوق اكيتـانيا فقـدم على رأس جيش لمسـاعدتهم في محـاربة الاوسترازيين . وكادت منجزات بيبن تنهـار لولا أن ابنه الطبيعـي شارل استطاع الهرب من سجن ارملة ابيه وتزعم الاوسـترازيين في الحرب وانتصر على النوستريين وحليفهم دوق اكيتـانيا في مـوقعة قرب مدينة سواسون واصبح في عام ٧١٩ سيد اوسترازيا ونوستريا وفي عام ٧٢١ م اعترف بتييرى الرابع الميروفنجي ملكا ، وقـاد عدة حملات ضد السكسون.وفي عام ٧٣٢ م تمكن من ايقاف تقدم العـرب في موقعة بواتية ولقب على اثرها بـ « شارل مارتل » (مـن اللاتينية اي المطرقة) ثم اعاد اخضاع اكيتانيا وبرغنديا محققا بذلك تـوحيد مملكة الفرنجة مـن جـديد تحـت سـيادته الفعلية اذ لم يكن للملك الميروفنجي أي سلطة ، وقد اصبح شارل مارتل يتمتع بنفوذ واسـع

ولاسيما بعد انتصاره على العرب حيث ظهر بمظهر المدافع عن المسيحية وبلغ من نفوذه أنه ترك منصب الملكية شاغرا بعد موت الملك تييرى الرابع عام ٧٣٧ م ، ولكنه برغم ذلك لم يقدم على قلب السلالة الميروفنجية ، واتخاذ اللقب الملكي لنفسه ، وقد يكون السبب في ذلك راجعا الى وجود حزب قوي بين كبار المملكة يقر بشرعية حكم السلالة الميروفنجية فالجرمان منهم لايزالون متأثرين بالصفة القدسية التي تتمتع بها تلك السلالة التي كانوا يعتقدون ، عندما كانوا وثنيين ، انها من نسل احد الآلهة ، ويرون أن المملكة التي انشأها كلوفيس بقوة السلاح حق طبيعي لأحفاده من بعده ، كما أن الغالو ـ رومانيين منهم كانوا يرون شرعية حكم الميروفنجيين لأنهم احفاد كلوفس الذي حقق انتصار المسيحية الكاثوليكية على الوثنية وعلى الأريوسية . والذي تلقى شارات القنصلية ولقب باتريس من الامبراطور ، ويمكن بذلك عده ممثلا أو نائبا في الغرب .

هذا وقد عمل شارل مارتل على تأمين خلافته فقسم المملكة بين ابنيه كارلومان وبيبن قبل موته عام ٧٤١ م .

تأسيس الملكية الكارولنجية : بيبن القصير:

٢ـ انقلاب بيبن القصير:

حكم كارلومان وبيبن الملقب بالقصير ابنا شارل مارتل المملكة الفرنسية بعد موت ابيهما معا ، وأبقيا منصب الملكية شاغرا عدة اشهر اضطرا بعدها إلى انتخاب احد الميروفنجيين شيلدريك الثالث ، ملكا ويبدو أن ذلك كان بإصرار من جانب كارلومان الذي يعده بعض المؤرخين زعيما للحزب المؤيد تقيا ورعا ، ولذا اعتزل الحكم بعد بضع سنوات وانسحب إلى دير تاركا أخاه بيبن ينفرد في الحكم .

أما بيبن الذي أصبح بعد انسحاب أخيه الحـاكم الوحيد فـكان يتصف بأنه واقعي ، ويزن الأمور قبل الاقدام عليها ، وقد توطدت له السلطة بانسحاب أخيه وهو الذي سيحقق مالم يقدم عليه أبـوه أي قلب السلالة الميروفنجية وتأسيس الملكية الكارولنجية . ولكن بيبـن لم يتعجل الأمور إذ كان عليه أن يجـد أولا المسـوغ الشرعي لتنفيذ انقلابه ، وقد وجد هذا المسوغ في الفتوى التـي أصـدرها البـابا ، وتتباين الآراء حول هذا الموضوع : هل بيبن هـو الذي سـعى إلى إيجاد المسوغ الشرعي الذي يحتاج إليه لدى الكرسي المقـدس أم أن الكرسي المقدس هو الذي دفع بيبن ، بشكل غير مباشر ، إلى اللجوء إليه لهذا الغرض ؟ المهم أن حـاجة كل منهمـا إلى الآخـر جمعـت بينهما . فبيبن كان في حـاجة إلى الكرسي المقـدس لمنحـه الفتـوى الدينية التي تسوغ له اتخـاذ لقـب ملك . وكان الكرسي المقـدس في حاجة إلى مساعدة بيبن العسـكرية ضـد أطمـاع اللومبـارديين التوسعية .

وعندما أصبح اللومبارديون يهددون دوقية روما بالاكتساح انتهز بيبن تلك الفرصة لكي يرسل إلى البابا زكريا وفدا مؤلفا من بركارد أسقف مدينة وورتزبرغ ومن كاهنه الخاص فولراد يطلب إليه بـاسم الفـرنجة : « مـن الذي يجـب أن يكون ملكا عليهـم : الأمير الذي لايملك شيئا من السلطة أم ذلك الذي يملك السـلطة ؟ » ولم يتـردد البابا في الاجابة : « الأفضـل أن يسـمى ملكا مـن يملك السـلطة الحقيقية لا من لايلمس بيده شيء منها » ، وكان هذا بمثـابة صـك التحالف بين الأسرة الكارولنجية والكرسي المقدس ، وكافـأ البـابا الكاهن فولراد لماقام به من دور في التقريب بين الطـرفين بـأن عينه راعيا لدير سان دنس .

كان جواب البابا الحجة التي استند إليها بيبن عندما تقـدم إلى كبار المملكة بترشيح نفسـه لكي ينتخبـوه ملكا عليهـم وذلك في عام ٧٥١ م ، فنادوا به ملكا حسـب المراسـم الجـرمانية التقليدية وفي نهاية عام ٧٥١ م مسح القديس بونيفيـس الملك الجـديد في مـدينة

سواسون مضفياً بذلك على سلطته الزمنية صبغة دينية قدسية . أما الملك الميروفنجي المخلوع شيلديريك الثالث فقد أرسل إلى دير سان برتان ليقضي فيه بقية حياته .

لم يتم هذا الانقلاب في السلالة المالكة ، رغم تأييد البابا دون معارضة فقد أثار على مايبدو بعض القلاقل والاضطرابات الشعبية المناهضة له ولكن هذه الاضطرابات كانت بسيطة استطاع بيبن إخمادها بسهولة

بيبن القصير والكرسي المقدس:

شعر البابا ايتين الثاني الذي خلف البابا زكريا بالحاجة إلى وضع التحالف مع بيبن موضع التطبيق بعد أن توغل ملك اللومبارديين ايستولف بأعمال توسعية داخل دوقية روما عام ٧٥٢ م ، فأرسل البابا الجديد إلى بيبن يسأله ماإذا كان يمكنه الاعتماد عليه عند الحاجة وكان جواب بيبن إيجابيا .

ولم يعد البابا يفكر بغير الالتجاء إلى ملك الفرنجة ، وكان عليه ، لتحقيق ذلك ، أن ينجو في آن واحد من البيزنطيين ومن اللومبارديين وجاءت المناسبة المواتية لتنفيذ مايحلم به عندما طلب إليه الامبراطور البيزنطي أن يلتحق بالمندوب الذي أرسله إلى ملك اللومبارديين ليطلب منه باسم الامبراطور التخلي عن الأراضي التي احتلها ، وتمت المقابلة مع ملك اللومبارديين في عاصمته بافيا في أواخر عام ٧٥٣ م دون أن تؤدي إلى نتيجة مرضية لأن آيستولف رفض الاستجابة إلى طلب الامبراطور ، وبدلا من أن يعود البابا أيتين الثاني إلى روما استطاع الهرب من مندوب الامبراطور ومن الملك اللومباردي وأخذ طريقه نحو فرنسا .

وعندما اصبح البابا في مأمن خطرت له مسألة هامة : كيف سيستقبله بيبن ؟ ... هل سيستقبله بصفته أسقفا لمدينة روما كغيره من الأساقفة أم بصفته الحبر الأعظم والرئيس الروحي للكنيسة

المسيحية كلها ؟ ... ولكي لايدع مجالا للتردد في هذه المسألة وضع ، حسب رأي النقاد الوثيقة التي عرفت باسم « هبة قسطنطين وهي رسالة موجهة من الامبراطور قسطنطين الكبير إلى اسقف مدينة روما المعاصر له سيلفستر الأول يمنحه فيها الأمبراطورية ويقول فيها إن الأباطرة سيكونون من رعايا الحبر الأعظم وانهم سيقودون مطيتهم في الاحتفالات ، وقد اعتقد رجال العصر الوسيط بصحة هذه الرسالة حتى كشف عن تزويرها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

ومهما يكن من امر ، فقد استقبل بيبن القصير البابا أيتين عند وصوله إلى المقر الملكي في بونتون حسب ماجاء في تلك الوثيقة وبدات المفاوضات بين الطرفين في بونتون ثم توبعت في دير سان دنس وقد هدفت إلى تحقيق شرطي التحالف أي : اعتراف البابا الشخصي ببيبن القصير ملكا على فرنسا ، وتقديم بيبن المساعدة العسكرية للبابا ضد اللومبارديين ، وتم تنفيذ الشرط الأول في ربيع عام ٧٥٦ م عندما توج البابا بنفسه بيبن ومسحه مع ابنيه ملوكاً على الفرنجة وحماة للرومانيين ، وحرم على كبار رجالات المملكة أن ينتخبوا ملكا عليهم من غير السلالة الجديدة .

بقي على بيبن تنفيذ تعهده للبابا . فبدا لذلك مفاوضات مع ايستولف ملك اللومبارديين لكي يعيد إلى البابا مااحتله اللومبارديين من ارض دوقية روما ونيابة رافين ، ولما كانت المفاوضات عقيمة فقد توجه بيبن ، يرافقه البابا ، إلى إيطاليا في ربيع عام ٧٥٥ وحاصر ايستولف في عاصمته بافيا . ولم يرفع الحصار عنها ويرجع إلى بلاده حتى وعد ايستولف بتنفيذ طلبات ملك الفرنجة . غير أن ايستولف نكث بوعده وزحف مجددا نحو روما وحاصرها في مطلع ٧٥٦ م ، فعجل البابا بإرسال مندوب إلى بيبن ثم برسالة مؤثرة حررها باسم القديس بطرس نفسه ، يستنجد فيها بملك الفرنجة . فعاد بيبن إلى إيطاليا في ربيع ٧٥٦ م وحاصر بافيا واجبر ايستولف على أن يسلم مندوب البابا ماكان احتله من نيابة

رافين ، بالاضافة إلى الاراضي التي كان يحتلها في دوقية روما ، كما فرض عليه غرامة حربية وجزية وكان ذلك بداية تكوين دولة الكنيسة التي ستستمر خلال عدة قرون ، وبعد موت ايستولف عام ٧٥٦ م عمل البابا وبيبن على تعيين الأمير اللومباردي ديديه خلفاً له ، ومالبث الخلاف أن نشب بين البابا والملك اللومباردي الجديد الذي عاد إلى أتباع سياسة أسلافه ، ولكن بيبن سلك سياسة التوفيق بينهما وتوصل إلى تسوية الخلافات بينهما عام ٧٦٣ م .

بيبن وزعيم السلطة الملكية:

كان على بيبن أن يؤمن توطيد سلطته في داخل مملكته وأن يؤمن حماية حدودها . ولذا فقد اهتم بإخضاع دوقية اكسيتانيا التي كان دوقها يعود إلى التمرد والاستقلال بعد كل مرة يعلن فيها خضوعه للملك ، ولذا كان بيبن يوجه إليها كل سنة حملة عسكرية حتى عام ٧٦٨ م حيث قتل الدوق المتمرد وتم إخضاع اكسيتانيا نهائيا .

وتمكن بيبن بين عامي ٧٥٢ و ٧٥٩ أن ينتزع مقاطعة سبتمانيا في الجنوب من المسلمين بفضل مساعدة سكانها له ومساعدة اللومبارديين ، وقد عرف بيبن كيف يستميل سكان المقاطعات المفتوحة بأن ضمان لهم سلامة أملاكهم وترك لهم القوانين والأنظمة التي اعتادوا عليها .

وعمل بيبن على اخضاع السكسونيين الذين كانوا يقومون بالغزو على مقاطعتي هسن وتورنجة فوجه ضدهم حملتين عام ٧٥٣ وعام ٧٥٨ واجبرهم على الرضوخ ودفع الجزية

وكان الاخفاق الوحيد الذي لقيه بيبن في سياستة الخارجية هو استقلال دوق بافاريا عام٧٦٣ فقد كان تاسيلون دوق بافاريا من الرعايا المخلصين لملك الفرنجة ، ولكنه بعد أن ساهم في الحملات الموجهة إلى اكيتانيا ، رأى أن بافاريا لا تجني أي فائدة من ذلك

فأعلن استقلاله عام ٧٦٣ م ، وتوفي بيبن القصير دون أن تتاح له الفرصة لاعادة دوق بافاريا الى الاعتراف بسيادته .

وحافظ بيبن ، برغم تدخله في ايطاليا ، على علاقات ودية مع الامبراطورية البيزنطية ، وقد حاولت بيزنطة جره الى صفها في خلافها مع البابا حول بعض القضايا الدينية كعبادة الصور ومسألة انبثاق الروح القدس الا أن بيبن كان كاثوليكيا مخلصا يحترم الدور الروحي الذي يمثله البابا ، ولذا لم يؤيد بيزنطة في هذا الخلاف .

ويمكن الكلام عن سياسة تقارب بين بيبن وبين الدولة العباسية قائمة على العداء المشترك بينهما للدولة الأموية في الأندلس وقد ظهر هذا التقارب في تبادل السفراء بين بيبن القصير والخليفة العباسي المنصور .

رغم أن بيبن بذل جهودا كبيرة في توحيد مملكة الفرنجة فقد عاد الى تقسيمها قبل موته بين ابنيه شارل وكارلومان حسب خط يذهب من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، فخص ابنه الكبير شارل بولايات المانيا والالزاس وبرغنديا وبروفانس وسبتيمانيا وجزء من اكيتانيا وخص الابن الآخر كارلومان بنوستريا واوسترازيا وبقية اكيتانيا .

١ ــ شخصية شارلمان وبداية حكمه:

ولد شارلمان عام ٧٤٢ م . وكان جرمانيا متين البنيان متوازن التركيب مستدير الراس ، واسع العينين ، بشوشا ، بسيطا في مظهره الخارجي وفي نمط حياته . وكان ولوعا بالصيد ، كريما وعطوفا ، وكان ابا محبا لأبنائه وبناته ، وقد اكتسب ثقافة جيدة بجهوده الخاصة وأحاط نفسه بعدد من كبار المثقفين في عصره .

تولى شارل الحكم مع أخيه الأصغر كارلومان حسب وصية ابيهما بيبن الذي قسم بينهما مملكته قبل موته . ولكن بدأ الشقاق بين الاخوين على أثر رفض كارلومان مساعدة أخيه شارل في اخماد ثورة دوق اكيتانيا عام ٧٦٩ م ، ثم تجدد الشقاق بينهما في السنة التالية بسبب موقف كل منهما تجاه ملك اللومبارديين ديدييه الذي اعتقد انه ، بتزوج شارل من ابنته ، اصبح في مأمن من جانب ملوك الفرنجة حماة الكرسي المقدس ، فسار الى روما واجبر البابا اتيين الثالث على أن يسلمه رؤساء الحزب المناصر للفرنجة في الأجهزة الادارية في الكنيسة وذلك في ربيع عام ٧٧١ م ، وبعد وقت قصير مات كارلومان فجأة مخلفا طفلين صغيرين ، فسارع شارل الى احتلال ممتلكاتهما وضمها الى مملكته ، واضطرت أرملة اخيه الى الهرب بطفليها والتجأت الى ديدييه ملك اللومبارديين .

التدخل في ايطاليا:

اتخذ شارلمان موقفا مؤيدا للبابا ووقف ضد غزو اللومبارديين لاراضي الكرسي المقدس واعرب عن موقفه هذا بتطليق ابنة الملك اللومباردي وقد حاول هذا الأخير فصم عرى التحالف بين البابا وشارلمان بأن يجبر البابا هادريان الأول على تكريس ابني كارلومان ملكين على الفرنجة ، وبدأ باكتساح الاراضي التي كان قد تنازل عنها للكرسي المقدس ، مصطحبا معه ابني كارلومان لتكريسهما في روما ، وكان شارلمان انذاك يقود حملته الأولى ضد السكسون ، لذا حاول التهرب من تلبية استغاثة البابا والمفاوضة مع ديدييه ولما اخفقت هذه المفاوضات توجه شارلمان على رأس جيشه الى ايطاليا في أواسط عام ٧٧٣ م فاجتاز جبال الألب وتملك الخوف اللومبارديين الذين هربوا أمام زحف جيش الفرنجة والتجأوا ، بعد سقوط مدنهم إلى العاصمة بافيا حيث فرض عليهم الحصار ، وقد امتد الحصار أمدا طويلا مما اتاح لشارلمان الفرصة لقضاء أعياد الفصح عام ٧٧٤ م في روما .

وقد استقبل هادريان الأول شارلمان في روما بمظاهر الحفاوة والتكريم ، ولكنه خشي مما قد تجره اقامة مثل هذا الزائر العظيم في روما من أخطار على سلطة البابا ، ولذا رغب في أن تكون اقامته خارج المدينة المقدسة ، وقد نزل شارلمان عند هذه الرغبة ، واستفاد البابا مما أبداه ملك الفرنجة من النوايا الحسنة لكي يحصل منه على تأكيد جديد للهبة التي منحها أبوه بيبن للكرسي المقدس .وكانت الوثيقة الجديدة التي حصل عليها تمنح الكرسي المقدس ، عدا ما سبق أن منحه بيبن مقاطعة توسكانا مع جزيرة كورسيكا، ودوقية سبوليت ، ودوقية بينفيان ، والبندقية التي كانت لا تزال تحت الادارة البيزنطية ، وقد اختلف المؤرخون المحدثون في تعليل هذه الوثيقة التي منحها شارلمان الى البابا هادريان الأول ، فمنهم من يذهب الى القول بعدم صحتها ، ويرى بعضهم أن شارلمان اراد أن يكون له حليف قوي في ايطاليا ولذا اقتسمها مع البابا ، بحيث يحتفظ لنفسه بكل مالم يمنح صراحة الى الكرسي المقدس ، بينما يرى آخرون أن البابا استطاع أن يستغل تقوى شارلمان وورعه لكي يلعب عليه ويحصل منه على تلك الوثيقة .وسواء أكانت هذه الزيادة في الهبة الكرسي المقدس عن طواعية وبارادة شارلمان ، أوان البابا خدعه للحصول عليها فقد كانت سياسته في ايطاليا خلال العشرين سنة التالية ترمي إلى الحد من مطامح البابا هارديان الأول .

عاد شارلمان بعد قضاء أعياد الفصح في روما الى جيشه الذي كان لا يزال يحاصر بافيا وبعد قليل استسلم ديدييه الذي نفي الى احد الأديرة وتوج شارلمان نفسه ملكا على اللومبارديين ، وكان أول اعماله بعد ذلك ان وضع تحت سيادة البابا الأراضي التي انتزعت من اللومبارديين • عاد شارلمان الى ايطاليا مرة أخرى في أواخر عام ٧٨٠ م تلبية لنداء البابا الذي اصطدم بمعارضة الحاكم البيزنطي في ايطاليا الجنوبية ، عندما طالب بأن يكون له السيادة على دوقيتي سبوليت وبينيفيان ومدينة تيراسينا (جنوب روما) غير أن التسوية التي اقرها لم تحقق شيئا من مطامع البابا الذي أضطر للاعتراف بسيادة البيزنطيين على تيراسينا والى التنازل عن دوقية سبوليت

لشارلمان الذي نصب ابنه بيبن ملكا لايطاليا وكان رد فعل البابا على ذلك أن اخذ بالتقرب الى البلاط البيزنطي .

قدم شارلمان الى ايطاليا مرة ثالثة عام ٧٨٧ لكي يخمد المؤامرات التي كان يحيكها دوق بينفيان فتم له ما اراد ، ووعد شارلمان البابا بالتخلي له عن جنوب مقاطعة توسكانا ، واجبر دوق بينفيان على الاعتراف بسيادة رئيس الكنيسة وذلك لكي يبعده عن التحالف مع الامبراطورية البيزنطية ولكنه فيما بعد تنصل من تنفيذ ما وعد به . وعلى هذا فقد كانت سياسة شارلمان في ايطاليا تقوم دائما على اساس تسويات موقتة مع البابا واجتناب الدخول في صراع صريح معه ، فاكتفى الكرسي المقدس بما حظي به في عهد بيبن القصير من املاك كما فرض شارلمان سيادته على قسم كبير من ايطاليا الشمالية ، وكان شارلمان يناصر البابا ويؤيده في ادارة الكنيسة برغم انه ، بصفته حامي الرومانيين ، وكان يتلقى شكاوى رعايا الدولة البحرية ، ورغم ان شارلمان كان يتدخل في الامور الدينية والكنسية في مملكته فإنه لم يتدخل في الانتخابات الحبرية التي جرت على اثر وفاة البابا هادريان الأول عام ٧٩٥ وانتخب فيها البابا الجديد الذي حمل اسم ليون الثالث .

اعمال شارلمان التوسعية:

امضى شارلمان ثلاثين سنة في حروب دائمة . فكان في كل سنة يقود حملة الى احدى جبهات الحدود للدفاع عنها او للتوسع باحتلال اراضي جديدة ، فاضطر الى خوض حروب ضد السكسون والعرب في اسبانيا والبافاريين والافار

الحروب مع السكسون:

كانت اشد حروبه عنفا وضراوة هي تلك التي خاض غمارها ضد

السكسون الذين عادوا ، بعد ان شغلوا خلال القرن السابع باحتلال بريطانيا ، الى غزو حدود المملكة الفرنجية في مقاطعتي هس وترنج في الشمال الشرقي وقد كانت الحملة الأولى التي وجهها شارلمان ضدهم عام ٧٧٢ م حملة تأديبية على غرار الحملات التي سبق أن وجهها ضدهم شارل مارتل وبيبن القصير . ولذا اقتصر شارل على تخطي حدود هس الى مسافة قليلة ومهاجمة أحدى قلاع السكسون وتدمير معبد الشجرة المقدسة لديهم واخضاع بعض قبائل منطقة الويزر وكان رد فعل السكسون في العام التالي أن غزوا مقاطعة هس ولم يقم شارلمان بأي تدبير ضدهم قبل عام ٧٧٥ م بسبب انشغاله بالتدخل في ايطاليا ،ودفع شارلمان بقواته هذه المرة الى داخل بلاد السكسون واقام حاميات قوية في مواقع على نهر الرور غير أن السكسون استفادوا من عودته الى ايطاليا في نهاية عام ٧٧٦ م لكي يعودوا الى احتلال تلك المواقع . وفي عام ٧٧٧ م هاجم شارلمان السكسون ووصل في تقدمه حتى منابع نهر ليب واصبحت بذلك وستفاليا الجنوبية كلها تحت سيطرة الفرنجة وعلى اثر هذا النصر اخذت افواج السكسون تقبل على شارلمان معلنة خضوعها ، واعتقد شارلمان أن الامر قد استتب له وأنه قد حان الوقت لاستبدال الجنود بالمبشرين فشجع على اقامة الأديرة والأسقفيات .

وبينما كان شارلمان في العام التالي ٧٧٨ يقاتل العرب المسلمين في اسبانيا ، قام أحد زعماء السكسون في وستفاليا واسمه فيدوكنت فحرض السكسون على الثورة ضد الفرنجة لاستعادة استقلالهم والهتهم فهاجموا الاديرة والكنائس واحرقوها وقتلوا رجال الدين المسيحيين الموالين للفرنجة ، واضطر شارلمان لاعادة اخضاعهم خلال عامي ٧٧٩ ها ٧٨٠ م وهرب فيدوكنت الى الدانمرك ، واراد شارلمان تنظيم ادارة بلاد السكسون لكي يضمها نهائيا الى مملكته فقسمها الى كونتيات عهد بادارة كل منها الى أحد النبلاء الموالين له ، غير أن فيدوكنت رجع من الدانمرك وقاد أتباعه في ثورة جديدة وسحق جيشا فرنجيا كبيرا في معركة قتل فيها عدد كبير من كبار الفرنجة ، وقد زادت هذه الهزيمة في تصميم شارلمان

على اخضاع السكسون فقدم بنفسه على راس جيش كبير وخـاض معارك عديدة مع السكسون خلال اعوام ٧٨٣ - ٧٨٥ م وطـارد زعيمهم فيدو كنت حتى سواحل بحر الشمال . واضـطر فيدو كنت ، بعد أن تخلى أتباعه عنه إلى الاستسلام وقبل باعتناق المسيحية بعد أن عفا شارلمان عنه وأصدر الملك الفرنجي مرسوما يعاقب بمـوجبه بالموت كل من يتمرد من السكسون أو يعتـدي على رجـال الدين أو يرفض التعميد .

إن فرض اعتناق المسيحية بالقوة دفع السكسون إلى الثورة مـن جديد منذ عام ٧٩٢ ولم يتمكن شارلمان من إخضاعهم نهائيا إلا بعد أربع حملات بين سنتي ٧٩٤ و ٧٩٧ ولا سيما بعد أن لجأ الى نقل السكسون ، الثائرين من بلادهم وتوطينهم في مناطق أخـرى داخـل المملكة الفرنجية واستعاض عنهم بالفرنجة أو بجماعات موالية لهم.

الحرب مع العرب في اسبانيا:

عندما كان شارلمان في بـلاد السـكسون ٧٧٧م جـاء والي مـدينة سرقسطة العربي الذي كان مشـتركا في مـؤامرة قيل كان يدعمهـا الخليفة العباسي في بغداد ضـد الأمير عبـد الرحمـن ، إلى بـلاط شارلمان يطلب المساعدة ، وبذلك أعطى شارلمان فرصة التـدخل بين المسلمين ومن ثم الذهاب الى اسبانيا وتوسيع حدود مملكته إلى مـا وراء جبال البيرنيه، ولذا اعد في عام ٧٧٨ حملة مؤلفة من جيشـين دخل أحدهما بقيادة شارلمان نفسه إلى مقاطعة نافـار بعـد اجتياز البيرنيه الغربية بينما اجتاز الجيش الآخر البيرنيه الشرقية وتقدم في مقاطعة كاتالونيا بعد احتلال مدينتي جيرونة وبرشلونة على الساحل الشرقي ، والتقى الجيشان أمام أسوار سرقسطة التي رفض واليها الجديد تسليمها ودافع عنها بشـجاعة ملحقـا بـالفرنجة خسـائر فادحة ، وعندما علم شارلمان بقدوم الأمير عبد الرحمن لنجدة مدينة سرقسطة خشي من التطويق فآثر التراجع والانسحاب من اسبانيا ،

وبينما كانت مؤخرة جيشه مارة في ممر رونسسفو الضيق في جبال البيرنيه اثناء تراجعها فلجأها العرب والباسك (البشكنس) الجبليون بالانقضاض عليها وابادتها ، وكان بين القتلى حاكم بند بريتاني المدعو رولان والذي أصبح من ابطال الفرنجة الأسطوريين ، وخلدت ذكراه في أشعار الملاحم الفرنجية التي حملت اسم «نشيد رولان»

اراد شارلمان الثأر لكارثة رونسسفو فوجه حملة جديدة إلى اسبانيا عام ٧٨٥ م استولت على مدينة جيرونة والمنطقة الساحلية الشرقية المكملة لمنطقة سبتيمانيا .غير أن المسلمين استرجعوا منا استولى عليه الفرنجة وطردوهم خارج اسبانيا ولاحقوهم حتى ما بعد مدينة نربونة في جنوب فرنسة ومن ثم توجهوا نحو قرقشونة فالتقوا بجيش للفرنجة يقوده غليوم كونت مدينة تولوز وابن عم شارلمان وكان النصر في المعركة التي دارت بين الطرفين الى جانب العرب المسلمين وقتل فيها غليوم ، ولكن العرب لم يحتفظوا بفتوحاتهم في جنوب فرنسا بل عادوا الى اسبانيا .

وعاد الفرنجة إلى مهاجمة اسبانيا عام ٧٩٥ وتوصلوا الى احتلال برشلونة عام ٨٠١ م ودعا الفرنجة هذه المنطقة الساحلية التي احتلوها في اسبانيا غوتالانيا او بالحري بلاد كاتالونيا اي «بلاد القوط» .

اخضاع بافاريا والأفار:

اعلن تاسيلون دوق بافاريا استقلاله عن ملك الفرنجة منذ أواخر عهد بيبن القصير في عام ٧٦٣ م ولكن شارلمان اجبره في عام ٧٨١ م على الرجوع إلى الانطواء تحت سيادته غير أن متاعب شارلمان مع السكسون والمؤامرات التي كانت تحاك ضده في ايطاليا دفعت تاسيلون الى اضطهاد الموالين لشارلمان في با فاريا ثم الى الثورة عام ٧٨٧ م ، ولما هدده البابا بالحرمان رجع الى الطاعة وحلف ، هو وشعبه ، يمين الولاء لملك الفرنجة ، بيد انه تحالف في العام

التالي مع الأفـار الوثنيين ومـع البيزنطيين ضـد شـارلمان فتخلى أتباعه عنه وحكم عليه البلاط الملكي بالموت غير أن شارلمان عفا عنه وسجنه في عدة اديرة ، ولم يخرجه منها قبل عام ٧٩٤ م حيث اعلن تنازله عن كل حـق له في دوقية بـافاريا التـي ضـمت الى المملكة الفرنجية .

أدى تحالف تاسيلون مع الافار بهذه القبائل المغولية الأصـل الى تجديد غزواتها على الغرب ، ولذا قرر شارلمان التخلص من خطرهم باخضاعهم فوجه اليهم منذ عام ٧٩١م عدة حمـلات ضـارعت في ضراوتها الحملات ضد السكسون . وتم له في عام ٧٩٥ م قهـرهم حيث لم يبق أمامهم سوى الخضوع أو الالتجاء الى البلغار .

تتويج شارلمان امبراطورا:

في يوم ٢٥ كانون الاول مـن سـنة ٨٠٠ م (أي يوم الميلاد)تـوج البابا ليون الثالث شارلمان امبراطورا على الغرب في كنيسة القديس بطرس في روما ، ولكن قبل أن نبحـث في حـادثة التتـويج هـذه لنستعرض ما تقدمها من الحوادث التي تتعلق بـالكرسي المقـدس في روما ، والتي ترتبط بها ارتباطا مباشرا .

في عام ٧٩٥ توفي البابا هادريان الأول فانتخب خلفا له البـابا ليون الثالث الذي كان يمثل البيرقراطية الرومانية ، ويبدو أنه شـعر منذ الأيام الأولى لتوليه منصب البابوية بمعـارضة انصـار البـابا الراحل ، وهذا ما يفسر وقوفه منذ البـداية مـوقف التـابع نحـو شارلمان حامي الرومانيين ، فقد سـارع الى ارسـال مندوبين الى الملك الفرنجي يحملون اليه إعلامـا بـانتخاب البـابا ليون الثـالث ومفاتيح كنيسة القديس بطرس وعلم مدينة روما ، وقد يكون ارسال مفاتيح الكنيسة نوعا من المجاملة ، أما ارسال العلم فهـو دليل على الاعتراف بشارلمان قائدا للكنيسة وأنه القاضي الأعلى في روما ، كما أن إرسـال العلم إليه ، وهـو الذي كان يوجـه عادة الى الأبـاطرة

البيزنطيين ، يعني أن البابا بات يعد شارلمان ندا لأولئك الأباطرة ، يضاف الى ذلك أن ليون الثالث طلب من شارلمان أن يرسل احد أعيان بلاطه الى روما ليتلقى عن الرومانيين يمين الولاء والاخلاص له .

وقد أوفد شارلمان أحد المقربين اليه وهو انغلبيرت إلى البابا مع رسالة تحدد بدقة واجبات وسلطات كل من البابا وحامي الرومانيين : يقوم الأول بالصلاة والدفاع ويمارس الثاني السلطة الفعلية ، وقد قبل البابا ليون الثالث بهذا التحديد والفصل بين السلطات حتى أنه عبر عنها في قطعة فسيفساء في قصر اللاتران تمثل القديس بطرس وهو يقدم الوشاح (رمز السلطة الدينية والكهنوتية) الى ليون الثالث والعلم (رمز السلطة العسكرية والقضائية)الى شارلمان .

والواقع ان البابا الجديد ترك شارلمان يهيمن على جميع الشؤون الادارية في الكنيسة .

ويبدو ان مبانل ليون الثالث كانت ذات أثر في دفعه الى ذلك الخضوع لشارلمان الذي كتم عدة شكاوي وردته عام ٧٩٨ م عن سوء سلوك البابا خشية اثارة فضيحة . وفي ٢٥ نيسان عام ٧٩٩ اتهم اثنان من اقرباء البابا المتوفى وكبار موظفي الكنيسة ليون الثالث بالتجديف والزنا وهجما عليه اثناء احتفال ديني محاولين قلع عينيه ، ولم ينقذه من ذلك سوى تدخل المقيم الفرنجي ، وسارع ليون الثالث بعد نجاته ، إلى الذهاب الى بلاط شارلمان الذي أعاده إلى روما بصحبة عدد من كبار رجال الدين الفرنجة والكونتات وطلب اليهم اجراء تحقيق في الأمر ، وفي أواخر عام ٨٠٠ م قدم شارلمان بنفسه الى روما وبعد اسبوع من وصوله اليها ، أي في أول كانون الأول ، عقد محاكمة علنية ونظرا لصعوبة اصدار حكم في القضية تقرر الاستماع الى الاتهامات الموجهة الى البابا في جلسة علنية وبعد ذلك يحلف البابا يمينا بأن برىء من تلك الاتهامات،وهذا ما جرى في كنيسة القديس بطرس يوم ٢٣ كانون الأول

عام ٨٠٠ م وعلى الاثــــر قبض على المتهمين وســـلما إلى الجلاد ،ولكن البابا توسط للعفو عنهما والاكتفاء بنفيهما الى فرنسا.

لايمكن فصل ما جرى في كنيسة القديس بطرس يوم ٢٣ كانون الاول عن حادثة التتويج في الكنيسة نفسـها بعد يومين بـرغم مـا بينهما من خلاف في طبيعة كل منهما، ولدينا خمس روايات حول مـا حدث يوم عيد الميلاد ، انها تتفق جميعا على القول بأن شارلمان كان اثناء قداس يوم عيد الميلاد عام ٨٠٠ م يصلي راكعا امـام ضريح القديس بطرس ، وبينما كان الملك ينهض وضع البـابا على راسـه تاجا وهتـف الشـعب الرومـاني مناديا :«الحياة والنصر لشـارل المجيد ، الـذي توجه الرب على الرومانيين امبراطورا عظيما ومحبـا للسلام» . وقدم له البابا ايات التعظيم والاحترام كما كانت العادة في عصر الاباطرة الماضين ومنذ ذلك الوقت حمل شارلمان لقب امبراطور واغسطس بدلا من لقب حامي الرومانيين .

ولكن هذه الروايات تختلف حول من كان صـاحب الدور الأول في حادثة التتويج وموقف شارلمان منها ، فبعضـها يعـزو الدور الأول والمبادرة في التتويج إلى البـابا الذي وضـع التـاج بيديه على راس شارلمان ، وللشعب الروماني دون أن يبدو على شارلمان اثرأ للدهشة او الاستياء اما بعضها الآخر «فيقول بأن البابا توج شـارلمان دون ان يكون له اي (شارلمان) علم مسبق بما سيجري »، بينما ذهـب ايكنهارد صاحب كتاب «حياة شارلمان» الى القول بأن الملك الفرنجي كان مستاء الى حد انه لو كان يعلم بما سيجري ذلك اليوم لما دخـل الى كنيسة القديس بطرس .

وأدى الخلاف بين الروايات التي روت حادثة التتويج الى انقسام اراء المؤرخين المحدثين وعدم اتفاقهم ، ومع هذا يرجح أن شـارلمان كان على اتفاق مع البابا ومختلف الجماعات التـي حضرت بشـأن التتويج وأن الاحتفال اتفق عليه مسبقا ليتضمن : هتـاف الشـعب ومناداته بشارلمان امبراطورا ثم التتويج مع تقـديم ايات التعـظيم والاحترام ، غير أن البابا قلب هذا الترتيب بأن جعل التتويج يسبق

الهتاف الشعبي لكي يجعل لنفسه دورا رئيسيا في التتويج ، وهذا ما أدى الى استياء شارلمان الذي كان ينوي ، على ما يبدو ، أن يضع التاج على رأسه بنفسه بعد أن يتناوله من البابا لكي لايدع لهذا الاخير أي حجة للادعاء بسلطة تعلو سلطة الامبراطور ، ويؤيد هذا الرأي أن شارلمان عندما توج ابنه لويس فيما بعد في عام ٨١٣ م لم يدع البابا أو أحد ممثليه لحضور حفل التتويج ووضع بيديه التاج الامبراطوري على رأس ابنه .

اختلف المؤرخون المحدثون ايضا حول ما هية هذه الامبراطورية التي انشأها شارلمان ، ويبدو أن شارلمان نفسه كان مترددا حول هذا الموضوع اذ انه ظل يحكم سنتين بعد تتويجه دون أن يستخدم لقبه الجديد ولعله كان يتساءل عن حقيقة هذا اللقب وعما يعمل به .

لقد عرفت اوربا الغربية حتى ذلك الوقت نوعين من الامبراطورية وهما الامبراطورية الرومانية القديمة الكبرى وامبراطورية الغرب ، فهل كان المسؤولون عن تتويج شارلمان يهدفون الى اعادة الامبراطورية الرومانية الكبرى أم اعادة امبراطورية الغرب ؟ ترجح بعض الروايات أن الهدف كان احياء الامبراطورية الكبرى لأنه لم يعد يوجد امبراطور في بلاد الاغريق واصبح هؤلاء تحت سيادة امرأة وشغر عرش الامبراطورية في الغرب وفي الشرق حيث كانت ايرين تحكم بعد اغتصابها لعرش ابنها قسطنطين السادس ، ولكن مثل هذا الادعاء كان سيؤدي بلا ريب الى حرب مع البيزنطيين ، وهذا ما لم يكن يرغب شارلمان فيه بل على العكس كان يسعى الى انشاء علاقات ودية مع بيزنطة منذ عام ٧٩٣ م في عهد قسطنطين السادس الذي كان يحكم تحت وصاية امه ايرين ، ففي عام ٧٩٧ م استقبل شارلمان سفراء بيزنطة استقبالا رائعا ، وعندما عزلت ايرين ابنها قسطنطين عن العرش عام ٧٩٨ م وتولت الحكم بنفسها لم يظهر شارلمان أي استنكار لهذا العمل ، وفي السنة التالية استقبل سفراء مغتصبة العرش بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وهذا كله لا يدل على نوايا عدوانية بل سعى شارلمان إلى إعادة الوحدة بين قسمي

الامبراطورية الرومانية القديمة بطريقة سامية وهي الزواج بين صاحبي السلطة فيهما ، ولذا ارسل شارلمان عام ٨٠٢ م بموافقة البابا ليون الثالث سفراء عنه إلى القسطنطينية للمفاوضة بشأن زواجه من ايرين ، ولكن هذا الحلم الجميل لم يتحقق لأن ثورة نشبت في القسطنطينية بعد وصول سفراء شارلمان اليها بقليل وأطاحت بالامبراطورة ايرين ، ورفض الامبراطور البيزنطي الجديد ، نقفور الأول ،الاعتراف باللقب الامبراطوري لشارلمان ولم يعد شارلمان يطمح الى اكثر من اجبار نقفور على الاعتراف له بذلك ، واستفاد شارلمان من متاعب نقفور في حروبه مع العباسيين في الشرق لكي يحتل منطقة البندقية ود الماسيا ويستخدمها وسيلة للضغط على بيزنطة ، وقد تم له ما أراد في المعاهدة التي بدا التفاوض عليها بينه وبين نقفور عام ٨١١ م- ليعترف له نقفور بلقب امبراطور مقابل اعادة البندقية ود الماسيا وتم عقد هذه المعاهدة في عهد خلفاء نقفور حيث تقرر وجود امبراطورين يعد أحدهما الآخر بمثابة أخ له فهي أعادت وضعا شبيها بوضع الامبراطورية بعد موت تيودور عام ٣٩٥ م،على هذا إن الامبراطورية التي أعاد شارلمان انشاؤها هي امبراطورية الغرب ، ويؤكد ذلك أن شارلمان كتب يقول : «تبارك الله الذي احل السلام المنشود بين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب » ولكن امبراطورية الغرب هذه ليست مجرد اعادة لامبراطورية الغرب الرومانية بل هي تكوين أصيل لامبراطورية الغرب الفرنجية .والواقع أن شارلمان :

١ - لم يفكر قط في جعل روما عاصمة لحكمه ، ولم يحاول ان تكون ايطاليا مركز الثقل في امبراطوريته ، بل اتخذ عاصمة له مدينة ايكس لا شابل (أخن) وهي مدينة جرمانية محصنة ، كما كان مركز الثقل في امبراطوريته أملاكه الفرنسية - الجرمانية ولم تعد ايطاليا أكثر من مقاطعة ملحقة بها .

٢ - لم يحاول شارلمان ، كغيره من زعماء البرابرة الماضين ،

الظهور بمظهر الاباطرة الرومان ، فقد حافظ على لباسه الفرنجي ونادرا ما كان يرتدي الشارات الامبراطورية ، ومع انه كان يتقن اللاتينية ، كان يتكلم باللهجة الجرمانية الفرنجية وكان فخورا بها .
٣ - كان اللقب الرسمي الذي استخدمه شارلمان بعد تتويجه هو «شارلمان المجيد اوغسطس ، توجه الله أمبراطورا عظيما ومسالما وحاكما للامبراطورية الرومانية ، وملكا على الفرنجة وعلى اللومبارديين برعاية الرب» ، فهو امبراطور يحكم الامبراطورية الرومانية وهو يعتز بذلك ، ولكنه ليس امبراطورا رومانيا بل فرنجيا .

انصرف شارلمان بعد تتويجه امبراطورا الى الاهتمام بالنواحي التشريعية والادارية في امبراطوريته ، واقتصرت أعماله الحربية على اتمام ما بدأ به قبل التتويج ومتابعته كاخضاع السكسون والحملات على اسبانيا المسلمة

ويظهر مفهوم شارلمان عن السلطة من القابه التي ذكرها في القرارات والمراسيم الملكية ، فهو رأى انه كان يتمتع بكل السلطات بحكم كونه ملكا بموجب الحق الالهي ، ورأى أن السلطة واجب و التزام تتمثل في الخارج بواجب الدفاع عن الكنيسة وعن رئيسها الروحي البابا ، ونشر المسيحية بين الوثنيين وتتمثل في الداخل بواجب احلال السلم واقرار النظام وقد عمل شارلمان خلال حكمه على تحقيق هذا الواجب ، فكان نشر المسيحية والدفاع عنها شغله الشاغل ، لم يدع وسيلة الا واستخدمها لهذه الغاية سواء بالحرب والارغام أو التبشير ، وكان يحترم رئيس الكنيسة الرومانية ويجله ، ولكن هذا لم يكن يمنعه من القبض على زمام الكنيسة والتدخل في قضاياها ومشاكلها ، ودعوة المجامع الدينية لمعالجة تلك المشاكل وفرض رأيه الخاص أحيانا .

ويبدو أن مفهوم شارلمان عن فكرة الامبراطورية بقي فهما متأثرا بالتقاليد الجرمانية الفرنجية . ولذا نرى شارلمان يلجأ عام ٨٠٦ م الى تقسيم امبراطوريته بين أولاده الثلاثة : شارل ولويس وبيبن .

ولم ينقذ الامبراطورية من التجزئة سوى موت ابنيه شارل وبيبن خلال حياته فلم يبق سوى واحد هو لويس تتوجه شارلمان امبراطوريا عام ٨١٣ .

وفي حزيران من عام ٨١٤ م توفي شارلمان عن إحدى وسبعين سنة من العمر بعد حكم حافل بالاعمال الجليلة .

٥ ـ انحلال الامبراطورية الكارولنجية:
لويس التقي (٨١٤ ـ ٨٤٠)

كان للامبراطورية التي أنشأها شارلمان بجهوده الخاصة ان تستمر بعده اذا كان خليفته يضارعه في قوة شخصيته وفي دأبه ونشاطه ، ويبدو أن مفهوم شارلمان نفسه عن فكرة الامبراطورية بقي بعيدا عن المفهوم الروماني الذي يعد الامبراطورية وحدة أرضية ذات كيان مستقل عن الشخص الذي يمارس السلطة ، فقد ظل شارلمان متأثرا بالمفهوم الجرماني الذي كان يرى في المملكة ملكا شخصيا للملك ، فهو نفسه لم يكن يفكر بالمحافظة على الوحدة الأرضية للامبراطورية التي انشأها إذ انه قام عام ٨٠٦ م بتنظيم خلافته وذلك بتقسيم امبراطوريته بين ابنائه الثلاثة على الوجه التالي :

١ – شارل : يأخذ شمال فرنسا وشمال المانيا
٢ – لويس : فرنسا الجنوبية مع تخوم الجبهة الاسبانية .
٣ – بيبن : جنوب المانيا وايطاليا .

ولم تحتفظ الامبراطورية بوحدتها قبل موت شارلمان في ٢٨ شباط ٨١٤ م إلا لأن ابنيه شارل وبيبن ماتا قبله وبقي لويس وحده وريثا لابيه ، ولذا فقد اشرك شارلمان ابنه لويس معه في الحكم منذ عام ٨١٣م حيث توجه امبراطورا بنفسه في ايكس شابل (اخن) • وكان الاحتفال بالتتويج احتفالا علمانيا لم يحضره البابا بل ولم يكن ممثلا فيه وحضره بعض الاساقفة بصفتهم من كبار رجال المملكة مثل الكونتات لا بصفتهم الدينية ،وقد يكون هدف شارلمان من ذلك تأكيد استقلال ابنه تجاه الكنيسة•

كان لويس قبل تتويجه ملكا لأكيتانيا ، وساهم في حروب السكسون وقاد الحملات الاخيرة في اسبانيا ، وكان واسع الثقافة شديد التقى والورع حتى لقب بالتقي . ولكنه لم يكن بالشخص الذي يستطيع متابعة سياسة شارلمان ، لانه كان ضعيف الشخصية تسيطر عليه الوساوس الدينية التي كانت تشل ارادته وعزيمته في أغلب الأحيان ، وقد أحاط به بعد توليه العرش إثر موت أبيه عدد من المستشارين من رجال الدين الذين كانوا يحملون فكرة سامية عن الامبراطورية فاقتصر على لقب «امبراطور اوغسطس برعاية الله » دون الألقاب الأخرى التي كان يستخدمها أبوه مؤكدا بذلك أفضلية الامبراطورية ، وقد حافظ على وحدة أراضي الامبراطورية بالدفاع ضد الدانمركيين وقمع الثورات في بريتاني ، وفي عام ٨٢٤ وجه حملة الى بمبلونة في اسبانيا ولكنها انتهت بكارثة نتيجة هزيمتها أمام العرب وكادت تؤدي الى فقدان بنود الجبهة الاسبانية لولا الحملة التي قادها برنارد كونت سبتيمانيا .

وعمل لويس منذ توليه الحكم على اصلاح اخلاق وعادات البلاط فطرد اخواته من القصر وارغمهن على الرهبنة ، وأقصى مستشاري والده السالفين ، وقرب حاشيته الاكيتانية . ودعا الى عقد مجمع ديني وأصدر قرارات بتنظيم الاكليروس العصري والاكليروس النظامي . ولكن لويس لم يستطع اتباع خطة أبيه في العلاقات التي اقامها بين سلطات الأمبراطور العليا وسلطات الكرسي المقدس ، فابدى البابا ميلا الى الاستقلال عن الامبراطور بل انصرف الى اعتبار نفسه في مقام الأمبراطور .

جرى تتويج لويس امبراطورا بدون استشارة البابا ليون الثالث كما سبق أن رأينا ، وقد تجاهل البابا ذلك ايضا ولم يطلب الى الرومانيين اداء يمين الولاء للامبراطور الجديد ، وعندما اخفق أعداء ليون الثالث في مؤامرتهم لاغتياله عام ٨١٥ م قبض عليهم وحاكمهم واعدمهم دون الرجوع الى الامبراطور الذي اكتفى بطلب بعض الايضاحات عن القضية . وأرسل ايتين الرابع الذي خلف

ليون الثالث اعلامـا الى الامبـراطور بـانتخابه ، ولكنه لم ينتـظر «التثبيت» منه لكي يستلم منصبه رسميا وفقـا لما كانت عليه العـادة المتبعة قديما . واغتنم البابا الجديد فـرصة لقـائه بـالامبراطور في مدينة رانس عام ٨١٦ لكي يتوجه مـن جـديد . وقـد كان هـذا بالنسبة للويس مجرد تثبيت لتتويجه ، أما بالنسبة للكرسي المقـدس فقد كان اعادة لما جرى يوم ٢٥ كانون الأول عام ٨٠٠ وتـأكيدا لتفوق سـلطة الكرسي المقـدس أو السـلطة الروحية على سـلطة الامبراطور أو السلطة الزمنية ، وفي عام ٨١٧ تلقى البابا باسكال الأول من لويس تأكيدا بتـوفير حمـاية الامبـراطور للبـابا ولدولة الكرسي المقدس وبتخلي الامبـراطور عن أي تـدخل في الانتخـابات الحبرية أو في التشريعات الرومانية .

غير أن الفضائح التي كان يثيرها البابوات في روما سمحت للوثر ابن لويس أن يصدر عام ٨٢٤ م «الدستور الروماني» الذي يلغـي امتيازات عام ٨١٧ وهو يتلخص في :

١ – امتناع البابا عن استعمال الشـدة ضـد الأشـخاص الذين يتمتعون بحماية الامبراطور .

٢ – حق الرومانيين في اختيار القـانون اللومبـاردي او القـانون الفرنجي .

٣ – اخضـاع الادارة الرومـانية الى رقـابة مفتشـين يعين الامبراطور أحدهما ويعين البابا الآخر ، ويرفع المفتشـان تقـريرا سنويا إلى الامبراطور بعد انتخابه وقبل تثبيته .

٤ – على البابا أن يؤدي اليمين أمـام مبعـوث الامبـراطور بعـد انتخابه وقبل تثبيته .

وكان هذا الدستور ظفرا للسـلطة الامبـراطورية ، ولكن البـابوات سيستفيدون من المنازعات بين أفراد العائلة الكارولنجية لكي يقلبوا الوضع وتكون لهم اليد العليا .

المنازعات العائلية وتقسيم الامبرا طورية:

اراد لويس أن يؤمن كما فعل ابوه تنظيم خـلافته أثناء حياتـه ، ولذا فقد أشرك معه في الحكم ابنه البكر لوثر وتوجه امبراطورا وظهر اسمه الى جانب اسم ابيه في المراسيم والقرارات الامبـراطورية،وفي الوقت نفسه منح لويس حصـة مـن الامبـراطورية لكل مـن ابنيه الآخرين بيبن ولويس مع لقب ملك . فنال بيبن مقـاطعات اكيتـانيا وسـبتيمانيا وبـورغونيا ونال لويس مقـاطعات بـافاريا وكارتينا وبوهيميا وكرواتيا ،.وحافظ ظاهريا على وحدة الامبراطورية بـأن اشترط على بيبن ولويس أن يكونا تابعين لاخيهما البكر الذي يحمل وحده لقب امبراطور وواجب عليهما اطاعته .

غير أن هذا الترتيب لم يتحقق لان لويس تـزوج عام ٨١٩ مـن اميرة بافارية وضعت له ولدا رابعا سمي شـارل (٨٢٣) فتـوجب اعادة التقسيم لمنح الولد الجديد حصة من الأرث ، وبعـد التقسـيم الجديد(٨٢٩)ابعد لوثر الى ايطاليا وحذف اسـمه مـن المراسـيم والامبراطورية تحت تأثير زوجـة أبيه كمـا أبعـد مسـتشارو الامبراطورية السالفون .

وعلى الاثر تشكل حول لوثـر حـزب معـارض للامبـراطور والامبراطورة واعوانهما يضم المستشارين السالفين وبعض رجـال الكنيسة ، وثار لوثر ضد أبيه وأيده في ثورته أخواه بيبن ولويس كما ايده البابا الذي وضع كل جهوده ضد الامبـراطور لكي يؤكد تفـوقه عليه وأرسل كتبـا الى الأسـاقفة الذين كانوا يؤيدون الامبـراطور يدعوهم فيها الى عصيان أوامر الامبـراطور واطـاعة أمـر الكرسي المقدس ، لان سـلطة الكرسي المقـدس الروحية اعلى مـن سـلطة الامبراطور الزمنية ، وقد اضطر الامبـراطور العجـوز عام ٨٣٣ بعد هزيمته أمام ثـورة ابنائه وانقـلاب رجـال الدين ضـده الى الاعتراف العلني باخطائه ثم تخلى أمام مذبح كنيسة سان - ميدار في سواسون عن شارات الامبراطورية ، ونزع سيفه وتاجه وارتـدى

ثياب التوبة وانزوى بعد ذلك في احد الأديرة ونفيت زوجته البـافارية وسجن ابنها شارل في أحد الأديرة .

إن هـذا الاذلال الذي لقيه الامبـراطور لويس أكسـبه انصـارا عطفوا عليه مما شجعه في العام التـالي (٨٣٤) على الهـرب مـن الدير واستعاد شارات امبراطوريته والتاج الامبـراطوري وعاد الى تقسيم الامبراطورية معطيا النصيب الأكبر لابنه الصـغير شـارل ، فتكررت ثورة أبنائه الآخرين وتكرر التقسـيم وفي كل مـرة يصـبح نصيب شارل الصـغير اكبـر مـن المرة السـالفة . واخيرا وفي عام ٨٤٠ م مات الامبـراطور أثناء عودتـه مـن قتـال ابنه لويس في جرمانيا وكان قبل موته قد ارسل شـارات الامبـراطورية الى ابنه البكر لوثر٠

معاهدة فردان:

دب الخلاف بين الأخوة بعد موت لويس التقي وسـبب ذلك أن لوثـر الذي حصل على التاج واللقب الامبراطوري اراد أن يفرض سـلطته على أخويه الآخرين لويس وشـارل (الأخ الرابـع بيبـن تـوفي منذ عام ٨٣٨) فاتحدا ضده وأقسم كل منهما على مساعدة الآخـر والا يعقد احدهما اتفاقا مع لوثر يلحق به الضرر (قسم سترا سبورغ..).
وقد أدى لويس القسم بـاللغة الرومـانية امـام جنود أخيه شـارل الاصلع والذي أدى القسم بدوره باللغة الجرمانية أمـام جنود اخيه لويس ٠ ويعتبر نص هذين القسمين اقدم الوثائق الكتابية بـاللغتين الفرنسية والالمانية ٠

وأخيرا وبعد هزيمة لويس عام ٨٤٣ اتفـق الاخـوة الثـلاثة في معاهدة عقدت في مدينة فردان على اقتسام الامبراطورية على الوجه التالي :
١ ـ ينال لويس الجـرمني جميع الاراضي الواقعـة الى شرق نهـر الراين مع بعض المزارع على الضفة اليسرى من النهر ٠

٢ ـ ينال شارل الأصلع معظم الاراضي الواقعة الى الغرب من انهار الايسكو والموز والصون والرون يضاف اليها الجبهة الاسبانية ·
٣ ـ ينال لوثر الشريط المحصور بين مملكتي اخويه مع ايطاليا ويمتد هذا الشريط من بحر الشمال حتى البحر المتوسط ويشتمل على العاصمتين روما وايكس لاشابيل، ويحتفظ لوثر باللقب الامبراطوري دون أن يمنحه ذلك اي سلطة على أخويه اللذين اصبحا مساويين له ·

وقد استند هذا التقسيم الى اساسين هما :
١ ـ تامين حصص متكافئة في وارداتها لكل من الاخوة
٢ ـ اشتمال حصة كل منهم على الاراضي التي كانت تحت سيادته من قبل · ولقد كانت معاهدة فردان حادثا هاما في تاريخ أوربا الغربية ·

فقد قضت هذه المعاهدة نهائيا على الوحدة الأرضية في الغرب، وتكونت منذ ذلك التاريخ الاطر الجغرافية لدولتين متمايزتين عن بعضهما من حيث اللغة،كما اتضح ذلك في قسم ستراسبورغ ، واخذت كل منهما تعيش حياتها الخاصة وتصنع تاريخها الخاص وهما الدولتان اللتان ستحملان فيما بعد اسم فرنسا والمانيا·

٤ ـ الممالك الفرنجية وأواخر الكارولنجيين

قضت معاهدة فردان على الوحدة الأرضية للامبراطورية الكارولنجية وأدت الى ايجاد ثلاث ممالك مستقلة · وسنرى فيما يلي تطور كل منها حتى نهاية عهد السلالة الكارولنجية :

١ ـ مملكة لوثر (لوثرنجيا)

حصل لوثر كما رأينا على الاراضي التي كانت تؤلف شريطا يمتد من بحر الشمال حتى البحر المتوسط وقد عرفت فيما بعد باسم لوثرنجيا وتألفت هذه المملكة من ثلاث وحدات جغرافية متمايزة

هي :
ا ـ اللورين (مشتقة من لوثرنجيا)
ب ـ شمال ايطاليا في الجنوب .
ج ـ حوض نهر الصون وحوض الرون في الوسط
وتشمل بورغونيا ودوقية ليون وبروفانس

كان لوثر الذي حصل على اللقب الامبراطوري ايضا شديد التعلق بفكرة وحدة الامبراطورية ، ولذا حاول أن يقلب التعاون الأخوي الذي كان قائما بينه وبين اخويه الآخرين ويستبد له بفرض سيادة لوثرنجيا على المملكتين المجاورتين .

ولكنه لم ينجح في مسعاه ، كما لم ينجح في المحافظة على وحدة مملكته ذاتها فقد عهد الى ابنه البكر لويس بحكومة شبه الجزيرة الايطالية ومنحه لقب ملك ايطاليا (وفي عام ٨٥٠ م)منحه اللقب الامبراطوري ، وفي عام ٨٥٥ قسم لوثر ، قبل موته بوقت قصير مملكته بين أولاده الثلاثة : لويس الثاني الذي احتفظ بإيطاليا ، ولقب امبراطور ولوثر الثاني الذي حصل على اللورين وبورغوينا وشارل الذي نال دوقية ليون وبروفانس . ولكن شارل مات شابا عام ٨٦٣ ، واقتسم أخواه الباقيان حصته فأخذ الامبراطور لويس الثاني بروفانس وأخذ لوثر الثاني دوقية ليون .

وبعد قليل طرحت قضية خلافة لوثر الثاني وذلك أن زوجته كانت عقيما لم تنجب له وريثه فأراد طلاقها للتزوج من خليلته التي وضعت منه ولدا ، ولكن عمه شارل الأصلع عارض هذا الطلاق طمعا في وراثة مملكته ، وانضم اليه في ذلك العم الآخر لويس الجرماني ، وتدخل البابا في هذه القضية مؤيدا موقف شارل الأصلع ولويس الجرماني ، وأخيرا مات لوثر الثاني عام ٨٦٩ م بعد صراع دام عدة سنوات انهكت قواه دون أن يتحقق مسعاه ، وكان من المفروض أن تنتقل مملكته الى أخيه الامبراطور لويس الثاني فتعود بذلك وحده مملكة لوثرنجيا ولكن هذا الأخير كان مشغولا في الحروب ضد المسلمين في جنوب ايطاليا مما ترك المجال فسيحا امام شارل

الأصلع ولويس الجرماني للاتفـاق عام ٨٧٠ على اقتسـام اللورين فحصل شارل الأصلع على اللورين الواقعة قرب نهـر الموز والموزيل وعلى دوقية ليون وحصـل لويس الجـرماني على اللورين الشرقية واصبحت بذلك مملكتا فرنسا والمانيا متجاورتين . ثم اضطر احفاد شارل الأصلع للتخلي عن القسـم الغـربي مـن اللورين الى لويس الشاب ابن لويس الجرماني فأصبحت اللورين كلها ملحقـة بمملكة المانيا . وبقيت اللورين فيما بعد محورا للتنازع بين مملكتي فرنسا والمانيا خلال عصور طويلة .

وفي عام ٨٧٥ م مات الامبراطور لويس الثـاني فسـارع عمـه شارل الأصلع الى احتلال مقاطعة بروفانس وعهد بحكمها مع دوقية ليون الى ابن حميه بوزو الذي مالبث أن استقل في حكمها وانتخـب ملكا على بورغوينا وبـروفانس عام ٨٧٩ م بعـد مـوت شـارل الأصلع . وخلفه ابنه لويس الأعمى (٨٨٧ ـ ٩٢٨)الذي اعتـرف بسيادة ملوك جرمانيا ، ثم قام بحملة الى ايطاليا واتخذ لنفسه لقب ملك ايطاليا وحصل على لقب امبـراطور بين عامـي ٩٠١ ـ ٩٠٥ وظلت بورغوينا و بروفانس تؤلفان مملكتين مستقلتين ، تتـوحدان حينا وتنفصلان حينا أخر ، حتى أواسط القرن الحادي عشر .

٢ـ مملكة لويس الجرماني (جرمانيا) :

حصل لويس الجرماني بموجب معاهدة فـردان عام ٨٤٣ على الاجزاء الواقعة الى شرق نهـر الراين وبعض المزارع الواقعـة على الضفة الغربية منه ، وقد عمل لويس الجرماني على توطيد سلطته في مملكته ، فقام بعدة حملات لاخضاع الأقوام القاطنة في الشمال كما خاض حربا ضد البلغار الذين هاجموا مملكته عام ٨٥٣ م ، وعمل ايضا على توسيع رقعة مملكتـه فـاقتسم مـع اخيه شـارل الأصلع ، كما مر من قبل اللورين بعد موت ملكها لوثر الثـاني دون وريث وفي عام ٨٥٨ م انتهز فرصة انشـغال أخيه شارل الأصـلع في الصراع ضد الغزاة النورمان لكي يهاجم مملكة فرنسا دون أن يلقى أي مقاومة وكاد ان يتم له الأمر فيها بعد هرب شارل الأصلع لولا أن

الأساقفة رفضوا الموافقة على تتويجه ومباركته ملكا على فرنسا مما اضطره الى التراجع والمصالحة مع أخيه شارل عام ٨٦٠ م ، وكانت هذه الحرب اول حرب بين فرنسا والمانيا . وساءت العلاقات بين لويس الجرماني وشارل الأصلع من جديد بعد ان حصل شارل على التاج واللقب الامبراطوريين عام ٨٧٥ م وقام لويس بمهاجمة فرنسا مرة ثانية ولكنه مات في عام ٨٧٦ م ، واقتسم كارلومان ولويس الشاب وشارل السمين ابناء لويس الجرماني مملكة أبيهم بعد وفاته ودخلوا في مرحلة من النزاعات استمرت الى ان استعادت مملكة جرمانيا وحدتها تحت سيادة شارل السمين عام ٨٨٢ م بعد موت اخويه كارلومان ولويس الشاب عامي ٨٨٠ و ٨٨٢ م وكان شارل السمين قد حصل قبل ذلك على لقب ملك ايطاليا عندما استنجد به البابا عام ٨٧٩ لصد هجمات المسلمين على ايطاليا ، وفي عام ٨٨١ م توجه البابا امبراطورا للغرب خلفا لشارل الأصلع ، كما ان كبار مملكة فرنسا انتخبوه ملكا بعد موت كارلومان حفيد شارل الأصلع وعادت بذلك الوحدة نظريا الى امبراطورية شارلمان ، ولكن ضعف شارل السمين وتخاذله أمام كبار رجالات المملكة وانحطاطه الأخلاقي وإصابته بنوبات الصرع جعلته عاجزا عن القيام بالدور الذي كان يتطلبه منه منصبه ، وعندما قدم الى فرنسا على رأس جيش كبير لصد النورمان وتحرير باريس من حصارهم اثر شراء رحيلهم بالذهب على خوض غمار معركة معهم . وقد دفع هذا الموقف المتخاذل مجلس كبار مملكة المانيا عام ٨٨٧ الى عزل شارل السمين الذي توفي بعد ذلك بقليل .

تولى عرش المانيا بعد شارل السمين أرنولف وهو ابن طبيعي لكارلومان بن لويس الجرماني ، وقد شغل أرنولف في بداية حكمه بالدفاع عن مملكته ضد غزوات النورمان في الشمال والغرب وضد توسع وتعاظم قوة الامبراطورية المورافية التي تشكلت في الشرق ، ولذلك لم يستطع أن يحول دون حصول غي دوق سبوليت على لقب ملك ايطاليا ثم على التاج الامبراطوري عام ٨٩١ م وبعد

أن استقرت الأحوال في مملكة جرمانيا ، وجه عام ٨٩٤ م حملة الى ايطاليا بقيادة ابنه ، ثم قاد بنفسه حملة اخرى في العام نفسه دون أن يتوصل الى تحقيق نصر حاسم على سبوليت ، ثم قام بحملة جديدة في عام ٨٩٥ بعد موت غي ، ورغم المقاومة العنيفة التي ابدتها ارملة غي دفاعا عن حقوق ابنها لامبيز فقد دخل أرنولف الى روما حيث توج امبراطورا عام ٨٩٦ ، ومن ثم اتجه نحو سبوليت مقتفيا آثار منافسية وبينما كان في طريقه اليها اصيب بالشلل فأعيد الى المانيا حيث مالبث أن توفي عام ٨٩٩ . لم يخلف أرنولف وريثا سوى ولد في السادسة من العمر هو لويس الثالث وذلك في الوقت الذي كانت فيه المانيا بحاجة الى ملك قوي اذ انها كانت مهددة بخطر رهيب هو خطر الغزو الهنغاري ، فقد ظهر الهنغار ، وهم من اصل مغولي ، في وادي الدانوب قادمين من الشرق فاقتحموا هنغاريا واكتسحوا منطقة البندقية ولومبارديا في شمال ايطاليا (٨٩٩) واقتحموا مورافيا (٩٠٥ ـ ٩٠٦) ومن ثم اندفعوا نحو الساكس (٩٠٦) وبافاريا (٩٠٧) ولم يستطع مجلس الوصاية تنظيم الدفاع عن المملكة ومنع الغزوات السنوية التي كان الهنغار يقومون بها على هاتين المنطقتين والقيام بأعمال السلب والنهب والتخريب . وفي عام ٩١١ مات لويس الثالث وله من العمر ١٨ عاما .

أدى عجز حكومة لويس الثالث الى التفاف سكان المقاطعات المتاخمة للحدود حول زعماء محليين ، وظهرت بنتيجة ذلك خمس « دوقيات وطنية » هي :

الساكس ، وبافاريا ، وسواب ، وفرانكونيا ، واللورين . وقد انتخب في عام ٩١١ دوق فرانكونيا ، ملكا خلفا للويس الثالث وهو يعد من السلالة الكارولنجية من طرف امه ، وكان عهده عهد اخفاق سواء في الدفاع عن المملكة ضد غزوات الهنغار أو في الحفاظ على وحدتها اذ انتزع ملك فرنسا مقاطعة اللورين ، أو في فرض احترامه وطاعته على دوقات بافاريا والساكس وسواب الذين كانوا يعارضونه بالقوة أحيانا ، وقد اضطر ، قبل موته الى تعيين خلف

اقوى اعدائه وهو هنري دوق السـاكس الذي انتخب ملكا وحـكم باسم هنري الأول وبتوليه العرش ينتهي حكم السـلالة الكارولنجية في جرمانيا .

كان شارل الأصلع يتمتع بمواهب تجعله جديرا بمنصـبه ، فقد كان واسع الثقافة محبا للاطلاع والمعرفة وجمع في بلاطه ، نخبة من المثقفين والمفكرين في عهده . وكان ايضا مقداما وكريما وبليغا في آن واحد ، وهذه هي صفات الملك المثالي كما كان يراها رجـال العصر الوسيط .وكان ذا عزيمة لاتعرف الوهن ولا يدع اليأس يتسرب الى نفسه ، ويعرف كيف يكتسب ولاء رجاله واخـلاصهم بـاللجوء الى اللين في معاملتهم حينا والى الشدة والقسوة حينا أخر.

وكانت هذه الصفات ضرورية لكي يتغلب على الصـعوبات التـي واجهته في حكمه الذي كثرت خلاله الثـورات الداخلية ، في بـريتاني واكيتانيا خاصة ، وغزوات النورمان التـي بـدات منذ عام ٨٤١ م واضطر شارل الأصلع في الاجتماع المعقود في كولين عام ٨٤٣ خلال حملته على بريتاني لاخماد ثورة فيهـا ، أن يمنح رجـال الكنيسـة وكبار المملكة امتيازات واسعة لكي يكسـب تـأييدهم ومناصرتهـم له ، فوعد الكنيسة بعدم مصادرة املاكها وبعدم التدخل في شـؤونها الادارية ، كما تعهد باحترام حقوق كبار المملكة واحترام وظـائفهم واملاكهم والقابهم ، ويمكن القول بأن هـذا التعهـد كان نوعا مـن وثيقة دستورية تقيد سلطة الملك وتسبق (الما غناكارتـا) الوثيقـة الكبرى الانكليزية (١٢١٥ م) بأربع قرون .

وبعد ذلك سار الى اكيتانيا لاخماد الثـورة التـي قـامت فيهـا عام ٨٤١ م بزعامة ابن اخيه ببين الثاني وبينما كان يحاصر تولوز اتته انباء ثورة بريتاني واكتساح الثوار القسم الغـربي مـن المملكة مما اضطره الى رفع الحصار عن تولوز تاركا اكيتانيا لببين الثـاني الذي اعترف بسيادته . وفي عام ٨٤٦ م قبل باستقلال بريتاني كامر واقع . وفي عام ٨٤٨ اقـام احتفـالا دينيا كبيرا في مـدينة أورليان حيث توجه رئيس اساقفة سانس ومسحه بالزيت وازدادت متـاعب

شارل الأصلع بسبب توسع الغارات النورمانية عبر انهر الايسكو والسين واللوار ، وفي منطقة بروفانس وبلغت هذه الغارات اوج شدتها بين عامي ٨٥٦ و ٨٦١ م وفي هذه الاثناء ثار كبار اكيتانيا ونوستريا ضد شارل عام ٨٥٨ م، ووجهوا نداء الى أخيه لويس الجرماني للتدخل فسارع هذا الأخير الى مهاجمة فرنسة ولكن رجال الدين رفضوا تأييد لويس الجرماني مما اضطره الى العودة الى مملكته .وعهد شارل عام ٨٦١ م بقيادة البلاد الواقعة بين نهري السين واللوار الى روبرت الملقب بالقوي وكلفه بالدفاع عنها ضد غارات النورمان فاستطاع روبرت أن يحقق عليهم انتصارا باهرا عام ٨٦٦ م .

وضم شارل الاصلع الى مملكته في عام ٨٦٩ النصف المغربي من اللوريين ودوقية ليون وذلك على اثر موت ملكها لوثر الثاني . كما أنه ضم عام ٨٧٥ م مقاطعة بروفانس بعد موت الامبراطور لويس الثاني ، وفي أخر عام ٨٧٥ (في كانون الأول) توجه البابا يوحنا الثامن في كنيسة القديس بطرس امبراطورا .

وقام شارل الأصلع بمهاجمة مملكة جرمانية بعد وفاة أخيه لويس الجرماني والخلاف الذي دب بين أبناء اخيه حول الارث ، ولكن ابن اخيه لويس الشاب استطاع صده ، وفي هذه الأثناء شن النورمان غارة جديدة على فرنسا في مجرى نهر السين . كما أن البابا وجه اليه نداء لمساعدة ايطاليا ضد غارات المسلمين عليها لذا عمل على ترحيل النورمان عن فرنسا بأن دفع لهم مبلغا كبيرا من المال وضمان اخلاص كبار المملكة بمنحهم امتيازات جديدة جعلتهم شبه مستقلين في مقاطعاتهم ، ومن ثم توجه الى ايطاليا ، ولكن ما ان وصل الى ايطاليا الشمالية حتى قام بعض كبار المملكة بثورة ضده بحجة انه ترك فرنسا فريسة لغزوات النورمان سعيا وراء الحكم الامبراطوري فسارع بالعودة الى فرنسا ، ولكن صحته كانت معتلة وبلغ منه التعب والاجهاد اقصاه فوافته منيته بينما كان يجتاز ممرا في جبال الالب في طريق العودة .

خلفاء شارل الاصلع (٨٧٧ ـ ٩٨٧):

كان شارل الاصلع اخر ملك كارولنجي حكم فعلا في فرنسا مع أن السلالة الكارولنجية بقيت فيها مائة وعشر سنوات أخر ، واتصفت بانقسام كبار المملكة الى فريقين احدهما السلالة الكارولنجية الشرعية بينما أيد الفريق الآخر سلالة الروبرتين (نسبة الى روبرت القوي) ، واستمر الصراع بين الفريقين حتى نهاية عصر السلالة الكارولنجية .

كان حكم خلفاء شارل الأصلع الثلاث الأوائل قصيرا جدا توفي الواحد بعد الآخر خلال خمس سنوات وهم ابنه لويس الا لكن (٨٧٩ م) وحفيداه لويس الثالث (٨٨٢) وكارلومان (٨٨٤) وهنا لم يفكر كبار المملكة بتقديم العرش لوريثه الشرعي وهو اخوه شارل الساذج الذي كان لا يزال قاصرا بل انتخبوا ملك جرمانيا شارل السمين ملكا على فرنسا ايضا . ولكن الآمال التي عقدوها عليه منيت بالخذلان كما مر من قبل ، وبعد موت شارل السمين ٨٨٨ ،انتخب كبار مملكة فرنسا ملكا جديدا هو أود كونت باريس وابن روبرت القوي .وكان أود قد اكتسب شهرة على اثر دفاعه عن مدينة باريس ضد هجمات النورمان .

استمر حكم أود عشر سنوات ٨٨٨ ـ ٨٩٨ قضاها في محاولات غير ناجحة لصد غارات النورمان على فرنسا وفي الحرب ضد انصار الحزب الشرعي الذي لم يقر بشرعية تولي أود الحكم،وظل صاحب الحق الشرعي شارل الساذج الذي توجه رئيس اساقفة رانس ملكا عند بلوغه سن الرابعة عشرة ، وفي مطلع عام ٨٩٨ مات اود بعد أن أوصى أخاه روبرت وانصاره بالاعتراف بالملك الكارولنجي ، وقد أخذ روبرت بوصية اخيه فاكتفى بان يكون كونتا على باريس وانجو وتور وبلوا والمستشار الأول الذي يتمتع بالسلطة الحقيقية الى جانب الملك الكارولنجي شارل الساذج .

وتميز عهد شارل الساذج بحادثتين هامتين وهما :

١ ـ توطين النورمان في المنطقة الساحلية التي ستحمل اسمهم اي نورماندي .
٢ ـ استعادة مقاطعة اللورين .

وحاول شارل الساذج التخلص من وصاية مستشاره روبرت وحاول ابعاده عن القصر ، ونجم عن ذلك قيام انصار روبرت بالثورة وبتتويج روبرت ملكا عام ٩٢٢ م ، ولكن هذا الأخير قتل في العام التالي في موقعة بينه وبين انصار الملك الكارولنجي .وانتخب اتباع روبرت بعد موته صهره راؤول دوق بورغونيا الذي توج وتخلص من الملك الشرعي شارل الساذج فاعتقله وبقي اسيرا حتى موته عام ٩٢٩ .ولكن حكم راؤول لم يكن اسعد حالا من حكم الملوك السالفين إذ انه اضطر الى التخلي عن بايو للنورمان كما تنازل عن مقاطعة اللورين الى ملك جرمانيا الأول .

عاد الكارولنجيون الى تولي عرش فرنسا بعد موت راؤول عام ٩٣٦ م ، فقد فضل كونت باريس هيو بن روبرت الملقب بالكبير ، ان يحكم بشكل غير مباشر وراء اسم لويس الرابع ابن شارل الساذج .ولكن سرعان ما نشب النزاع بين هيو الكبير ولويس الرابع الذي لم يقبل أن يكون ملكا اسميا فقط ، وطلب كل منهما تأييد ملك جرمانيا القوى أوتو الأول ومناصرته ، لأنه كانت تربطهما به رابطة المصاهرة ثم تصالح الاثنان عام ٩٥٠ م .وقد بذل لويس الرابع جهودا كبيرة لاخضاع النورمان ، ثم اجبرهم على الاعتراف بسيادته عام ٩٤٥ م ، كما اضطر دوق اكيتانيا الى الاعتراف بسيادته ايضا .

بعد موت لويس الرابع عام ٩٥٤ تولى العرش ابنه البكر لوثر ، الذي كان له من العمر ثلاث عشرة سنة ، تحت وصاية هيو الكبير الذي مات بعد سنتين عام ٩٥٦ .وكان لوثر نشيطا مثل أبيه ، وحاول استعادة اللورين من خاله ملك جرمانيا أوتو الثاني

الذي صد المحاولة واكتسح فرنسا حتى وصل الى باريس التي دافع عنها هيو كابيه ابن هيو الكبير (٩٧٨).

وقد مات لوثر عام ٩٨٦ م خلال حملة جديدة لاستعادة اللورين وخلفه على العرش ابنه لويس الخامس دون اي صعوبة ، ولكنه مات في حادث في السنة التالية ٩٨٧ م .

وعلى الاثر عقد كبار المملكة العلمانيون والدينيون ، اجتمـاعا في مدينة نوايون لانتخاب ملك جـديد ووقـع اختيارهـم على هيوكابيه كونت باريس الذي توجه رئيس اساقفة رانس ملكا .وبدأ بذلك حكم سلالة جديدة في فرنسا هي أسرة كابيه التي سنتعرف الى شي مـن تاريخها .

الحضارة الكارولنجية

كان وصول الأسرة الكارلونجية الى الحكم وتوحيد قسم كبير من اوربا الغربية في عصرها وتوطيد النظام والأمن فيها خلال اكثر من نصف قرن ، عاملا ساعد على خلق جو موائم للنشاط الثقافي فازدهرالنشاط الفكري في البلاد الانكلوسكسونية ، والنشاط الفني في غاليا الشمالية ، أما العناصر المادية والاتجاهات الاقتصادية والبنيان الاجتماعي في حضارة أوربا في هذا العصر فقد تابعت تطورها الذي بدأته في العهود السالفة وكان عاملا رئيسا في انحطاط الحضارة الغربية .

الحياة الاقتصادية:

كان البنيان الاقتصادي في القرن الثامن بدائيا جدا ، فالادوات الزراعية البسيطة والاساليب البدائية كانت لا تسمح باستثمار غير الأراضي الخفيفة السهلة الحراثة ، التي سرعان ما تنفد خصوبتها .أما الأراضي الثقيلة الرطبة فكانت تغطيها الغابات أو المستنقعات ، ويبدو ان توطيد الأمن والسلام بين عامي ٧٥٠ و ٨٥٠ أدى الى زيادة هامة في عدد السكان ، ولكن هذه الزيادة في عدد السكان لم تدفع رجال ذلك العصر إلى توسع رقعة الأراضي المزروعة .

وكان النشاط التجاري في هذه الشروط محدودا جدا ، فقد قضت الحروب المستمرة بين الفرنجة والعرب المسلمين في الجنوب على بقايا الاقتصاد القديم المرتبط بالبحر المتوسط ، ولم يعد يوجد في مدن الجنوب ، كما كان في العصر الميروفنجي ، جماعات من التجار الشرقيين ، وكان بعض سكان المدن يتعاطون التجارة احيانا دون

ان يجعلوا من التجارة مهنة لهم ، وأدى تدعيم النظام السياسي في غاليا الشمالية الى تشجيع التجارة بعض الشيء حيث بدات حركة المبادلات التجارية تنشط تدريجيا .

هذا واستمر استيراد السلع الشرقية الخفيفة الوزن ، الغالية الثمن التي احتاجت اليها الارستقراطية العلمانية والدينية مثل التوابل ، والعطور والأقمشة الفاخرة،ولكن طرأ تغيير على طرق التجارة ،فقد اصبحت هذه البضائع تصل الى الغرب عن طريق الموانىء البيزنطية في ايطاليا الجنوبية وعلى البحر الادرياتيكي أو بسلوك الطريق البرية التي تمر عبر بلاد السلاف ،أو بواسطة الطرق البحرية في بحر البلطيق التي تكملها الطرق النهرية في الأنهر الكبرى في أوربا الشمالية وكانت جزيرة جوتلاند عقدة تلك المواصلات البحرية في الشمال .

كما ونشات تيارات جديدة للمبادلات التجارية ، فقد أدى تطور صناعة الاقمشة الصوفية ونموها في البلاد المتاخمة لسواحل بحر الشمال الى حركة تصدير لهذه المصنوعات الى البلاد المجاورة ، وأخذ التجار الفرنجة منذ نهاية القرن الثامن ينقلون المنسوجات المصنوعة في شمال غاليا ، والعبيد المأسورين في بلاد وثنية ، وبيعهم في البلاد الاسلامية وادت هذه التجارة مع البلاد الاسلامية الى نتيجة هامة في الاقتصاد الغربي ، وهي اعادة ادخال المعادن الثمينة في النظام الاقتصادي مما جعل النشاط يدب في تداول النقود والمبادلات المحلية وسمح بدفع قيمة البضائع المستوردة من بيزنطة ، تلك البضائع التي كاد فقر أوربا بالمعادن الثمينة أن يؤدي الى انقطاع استيرادها .

ونجم عن عودة النشاط الى حركة المبادلات التجارية ، على الرغم من بساطتها وعن الاتجاهات الجديدة في التجارة :

اصلاح نظام النقد الفرنجي تدريجيا حيث توصل الملوك الكارولنجيون ، امام تداول النقود العربية والصقيلة ، إلى اصلاح قيمة الدانق الفضي وتثبيتها بربطه على ما يبدو بالنظام النقدي

الاسلامي ، وقاموا بصك النقود الذهبية احيانا وبشكل متقطع وغير منتظم وشهدت المدن وخاصة في المنطقة الواقعة بين نهري السين والراين بعض النهضة ، وعادت الحياة الى مدن قديمة مثل أراس ومتز وفردان ، كما ونشأت تجمعات سكنية جديدة حول مراكز المبادلات التجارية النشيطة على طول مجاري الأنهار الكبرى وعلى ساحل بحر المانش وبحر الشمال .

غير أن مظاهر النشاط الاقتصادي هذه ظلت محدودة النطاق جدا ، ويشير الباحث اليها فقط لأنها كانت ممهدة للتوسع الاقتصادي الكبير في القرن الحادي عشر ، ويجب الا يغرب عن البال أن الاقتصاد الكارولنجي كان اقتصادا زراعيا قبل كل شئ شغلت فيه المدن دورا ضئيل الأهمية .

وبناء عليه كان قوام العمل الاقتصادي في هذا العصر هو الملكية الزراعية الكبرى المسماة « الدومين أو الفيلا » وترجع اصول نظام الدومين الى أواخر أيام الامبراطورية الرومانية وبدايات العصر الميروفنجي ، ولكنه لم يظهر كنظام متكامل الأطر ، واضح الحدود والمعالم الا في السنوات الأولى من القرن التاسع ، فهذا مانراه من خلال الوثائق وكان عدد « الفيلات » كما يظهر من الوثائق ، كبير في نوستريا واوسترازيا ، ولكنها لم تشمل جميع الأراضي المزروعة ، فقد كان يوجد الى جانب هذه المزارع االكبرى مزارع مستقلة اصغر مساحة . وكانت مساحة الفيلات عرضة للتبدل المستمر بسبب الوراثة أو البيع والشراء أو الهبة ولكن برغم التنوع الخارجي في شكل الفيلات كانت بنية استثمارها واحدة . فالفيلا تقسم الى قسمين :

١ـ الاحتياطي أي القسم الذي يحتفظ به المالك لنفسه ويستثمره مباشرة ، وتعادل مساحته ثلث أو ربع مساحة الفيلا ويشتمل على أراضي زراعية ومراعي وغابات وكروم ـ اذا كان المناخ موائما لذلك ـ وأراضي بور ، وقام في مركز الاحتياطي سكن المالك او وكيله واحاطت به قطعة من الأرض قامت عليها مساكن الخدم والعبيد

وابنية الاستثمار (اسطبلات ، اهراء ، فرن ، معصرة مطحنة) وفي اغلب الاحيان كنيسة .

٢ـ شمل القسم الثاني من الفيلا الأراضي الزراعية المتبقية ، وكانت تنقسم الى عدة قطع صغيرة تسمى كل منها « مانس » تناثرت في انحاء الفيلا ، واعتاد المالك أن يعهد باستثمار المانسات الى فلاحين أو الى عبيد واستدعت هذا التقسيم لأراضي الفيلا او الدومين وسببته ضرورات الاستثمار ، فالمالك كان لايستطيع وحده تنظيم استثمار جميع الأراضي التي يمكن زراعتها في دومينه . ويتطلب استثمارها عددا كبيرا من الأيدي العاملة لأن الأدوات والأساليب التي كانت مستخدمة في الزراعة بسيطة وبدائية ، وحالت قلة النقد وسيولة تداوله دون استخدام عمال مأجورين ، كما أن استخدام العبيد اصبح قليل الجدوى بسبب صعوبة الحصول على العبيد بعد تحريم الكنيسة لإسترقاق المسيحيين ، وبسبب ارتفاع كلفة اعالتهم وضعف مردود عملهم ، لذا لجأ الملاكون الكبار الى تقسيم جزء من اراضيهم الى مانسات وعهدوا باستثمارها الى عبيدهم او الى فلاحين احرار ، وكان كل من هؤلاء يتمتع بموارد المانس التي يستثمرها والتي تكفي لاعالة اسرته مقابل بعض الالتزامات نحو المالك وكانت هذه الالتزامات على نوعين :

١ـ المساهمة في تأمين الموارد اللازمة لاعالة بيت المالك وذلك بتقديم بضع قطع نقدية كل عام ، وكمية محدودة من المحصولات الزراعية ، وبعض المصنوعات (أدوات خشبية ، منسوجات) .

٢ـ أو المساهمة في استثمار الاحتياطي وذلك بزراعة قسم صغير منه لفائدة المالك في أن يضع نفسه تحت تصرف المالك عددا من الايام في السنة،للمساهمة في الأعمال الزراعية التي تحتاج الى ايدي عاملة كثيرة،مثل الحصاد والقطاف ونقل المحصولات وصيانة مباني المزرعة ، وكانت هذه الأعمال المجانية اهم من الالتزامات العينية التي يؤديها الفلاح الى المالك لأنها أوجدت الحل لمشكلة تأمين العمال الضروريين لاستثمار ارضهم بدون دفع أجور .

وأمن هـذا النظـام في استثمار الدومين ، او الفيلا للمـالكين العقـاريين الكبـار المواد الاستهلاكية الضرورية لحياتهـم وحياة عائلتهم وخدمتهم ، كمـا أن حفنة النقـود التـي كان الفـلاحون يدفعونها له كفت لدفع ثمـن الحـاجيات مـن الكمـاليات الضرورية للمحافظة على المظاهر الخارجية التي تطلبها مركز كل مالك ومكانته الاجتماعية .

ب ـ المجتمع:

كان المجتمع الفرنجي في العصر الكارولنجي مجتمعا زراعيا ينظم تبعا لنظام الدومين ، فهو مجتمع كان يقر الرق كمؤسسة اجتماعية كمـا كان الحـال في ايام الامبـراطورية الرومـانية والدولة الميروفنجية ، وظل التقسيم الرئيسي في المجتمع من الوجهة الحقوقية والشرعية هو التقسيم الى احرار وعبيد . فـالأحرار هـم وحـدهم الذين كانوا يعدون اعضاء في الجمـاعة يحـق لهـم الاشـتراك في نشاطاتها المختلفة من حربية وقضائية .

وقـد اخـذ الرق بـالتقلص في الواقـع منذ العصر الميروفنجي ، وساهمت التعاليم الاخـلاقية المسـيحية التـي كانت تحرم استرقاق من يعتنق المسيحية وتعد تحرير العبيد عمـلا يكافـأ فاعله بالخلاص ، في تناقص طبقة العبيد ، ولكن في الحقيقـة كانت الأسباب الرئيسية لهذه الظاهرة اسبابا اقتصادية ، فقد ارتفع ثمن العبيد الذين كان تجار النخاسة يجلبوهم من البلاد الوثنية ارتفـاعا كبيرا بسبب الطلب المتزايد على العبيد في اسواق البـلاد الاسـلامية كما ان تطبيق نظام الدومين ادى الى ابطال استخدام عدد كبير مـن العبيد في استثمار الأرض ، وعلى هذا كان عدد العبيد في بداية القرن التاسع لايزيد عن عشر مجموع السـكان الريفيين ، وبقـي وضـع العبيد الشرعي وراثيا حيث يتمتع المالك بحق معاقبة عبـده حسـب هـواه ، وبسـلطة عليا عليه وعلى ابنائه ومـايملك . فـالعبد كان لايستطيع الانتقال او الزواج دون موافقة سيده وتوجب عليه ان يلبي طلبات السيد .

وقد لجأ كبار الملاكين منذ تطبيق نظام الدومين الى اعطـاء بعض عبيدهم بعض المانسات مما أدى ايضا الى اضعاف ارتبـاط العبـد بسيده لأن التزاماته نحو السـيد اخـذت تميل الى الاقتصـار على الالتزامات التي يحددها استثمار المانس وصار باستطاعة العبد ان يعمل بحرية في الأرض التي أوكلت اليه وبيع جزء مـن محصـولاته ومن ثم ان يحقق شـيئا مـن الادخـار وان يشـتري ، اذا كان نشيطا ، قطعة مـن الأرض الحـرة ، واكتسـب العبيد نوعا مـن الشخصية الأخلاقية ولو معنويا اثر اعتناقهم للديانة المسيحية التي كانت تتابع انتشارها في الريف .

شهدت احوال العبيد اذن شيئا من التحسن ضـمن اطـار نظـام الدومين اما الفلاحون الأحرار الذين كان المالك يعهد اليهم باستثمار المانسات وتسميهم الوثائق المعـاصرة «معمـرين » فقد سـاءت احوالهم ، وتضاءلت حريتهم ، وكان هؤلاء نظريا جزءا من الشعب الفرنجي ويتمتعون بالحقوق العامة للفرنجة ، غير انهم عمليا باتوا يخضعون لسلطة مالك الأرض الذي عدهـم خـدما له واسـتثمرهم وفرض عليهم مشيئته دون رقيب ، وقد اعفي هؤلاء المعمـرون مـن الخدمة العسكرية ، ولكن اصبح لزامـا عليهـم ، مقـابل ذلك ، ان يسهموا في تجهيز مالك الأرض واداء ضريبة البدل ، والقيام بأعمال سخرة مهنية ، ومع هذا ظل التمييز بين المعمرين الأحـرار والعبيد قائما مع أنهم ألفوا جميعا طبقة واسعة مستضعفة وفي الواقع أخـذ التمييز الاجتمـاعي المبني على أسـاس اقتصـادي بين المعمـرين العاملين في الدومين وبين المزارعين الأحـرار الذين يملكون ارضـا مستقلة حرة ، يزداد اهمية يوما بعد يوم .

وكان المزارعون الأحـرار يشـتركون فعـلا في كل نشـاطات الجماعات الفرنجية الحـربية والقضـائية . ولكن عدد هؤلاء اخـذ بالتناقص ، وذلك لان اعبـاء الواجبـات في حضـور المحـاكمات والاشتراك في الحملات الحربية كل عام كانت ثقيلة عليهم ولاسـيما اذا كانت مساحة ارضـهم بسـيطة ولايسـتطيعون ان يعهـدوا الى

سواهم باستثمارها ولذا كان الكثير منهم يسعى الى التهرب من تلك الواجبات بان يضع نفسه تحت حماية احد المتنفذين أو بـان يحـول ارضه الى « مانس » ويصبح معمـرا في خـدمة احـد الملاكين الكبار ، وعلى هذا الشكل كانت هذه الطبقة الوسطى من الأحـرار تتضائل .

وجعل انحطاط الطبقة الوسطى تفوق طبقة الملاكين الكبار اكثـر بـروزا ولاسـيما الذين كانوا يملكون عدة فيلات ، واصـبح هؤلاء يحملون القابا شرفية مثل : المقدمون أو الاعيان أو النبـلاء وكانوا يزدادون غنى وثروة بضم أراضي المزارعين الاحرار الذين يدخلون في خدمتهم وحمايتهم ، وبـالهبات التـي كان يغـدقها عليهـم الملوك ، يضاف الى ذلك انهم كانوا يتقلدون الوظـائف العليا المدنية والدينية ، وهم الوحيدون الذين يتمتعون حقا بالحرية ويقتربون من الملك سواء عند التحاقهم بالجيش او في المجـامع التشريعية ، فهـم الذين يملكون الثروة والسلطة .

نظام الحكم والادارة:

ظل مفهوم الدولة كفكرة مجردة ومفهوم الواجب المدني مفقـودين في العصر الكارولنجي وبقيت التقاليد الجرمانية ، التي تعـد المملكة ملكا شخصيا للملك يتقاسمه ورثته بعد موته ، سائدة .

كانت السلطة الملكية مطلقة لاتخضع لأي قيد او تحديد ، ولم يكن لمجالس كبار رجالات المملكة سوى صفة استشارية ، ومع ذلك فقـد كانت تعتـرض ملوك الكارولنجيين بعض الصـعوبات في فـرض سلطتهم على كل انحاء المملكة وعلى جميع رعاياهم وهذه الصعوبات هي :

١ ـ ضعف الجهاز الاداري في المقاطعات واقتصار هذا الجهـاز على كبـار الموظفين ، فليس للملك مـن يمثله في المقـاطعات سـوى الكونتات يسـاعدهم بعض مـوظفي القضـاء ولم يكن الكونتـات

يحكمون مقاطعاتهم ويديرون شؤونها فعلا بسبب عدم وجود العدد الكافي من الموظفين المساعدين .

٢ ـ صعوبة المواصلات بين اطراف المملكة بسبب تردي حالة الطرق القديمة ، وعدم انشاء طرق جديدة ، وزاد في هذه الصعوبات اتساع رقعة المملكة بعد أعمال شارلمان التوسعية الكبيرة .

٣ـ قلة استعمال الكتابة في الشؤون الادارية والسياسية والاكتفاء بالكلام الشفوي والاتصالات الشخصية والاعتماد على الذاكرة .

٤ـ عدم وجود موارد مالية منتظمة ووفيرة لتزويد خزانة الملك فقد اقتصرت هذه الموارد على الضرائب الموروثة من العصر الكارولنجي . وهذا ماجعل من العسير على الملك ان يقوم بتوزيع أعطيات مالية دورية على اتباعه للمحافظة على ولائهم واخلاصهم له .

وقد توصل الكارولنجيون على الرغم من هذه الصعوبات الى فرض سلطتهم ، لأن بنيان المجتمع وتركيبه كان يمثل عاملا مساعدا في تسهيل الحكم ، فقد كان يكفي أن يحقق الملك خضوع بعض مئات من كبار رجالات المملكة : وملاكين عقاريين واساقفة ، وكان هؤلاء بدورهم يخضعون جماهير الفلاحين المرتبطين بهم والعاملين في أراضيهم ، وقد لجا الملوك الكارلنجيون في أواخر القرن الثامن الى تحقيق هذه الغاية بوسائل عديدة ، نجملها فيما يلي :

الحرب:

كان الملك وخاصة في عهد شارلمان ، يقود كل سنة حملة خارج حدود مملكته فالمملكة الفرنجية كانت حسب التقاليد البربرية ، ملكية عسكرية قبل كل شيء، والشعب هو الجيش والملك هو القائد الحربي ، وعندما يقوم باداء هذا الدور فله ان يبسط سلطانه ويدعم سيادته ، ولذا كان على جميع الرجال ان يلبوا نداء التعبئة ويسارعوا ، ولاسيما الأغنياء منهم ، الى اللقاءفي الموعد المحدد من

شهر أيار حتى شهر تشرين اول تحت راية الملك وكل من يتأخر يعرض نفسه لغرامة باهظة ، وكل من تبدر عنه بوادر التخاذل او الجبن اثناء القتال يتعرض لاشد انواع العقوبات .

وهكذا كان رجال الطبقة الارستقراطية يجتمعون كل عام في مجموعة متماسكة تحت قيادة الملك المباشرة .

اضف إلى ذلك ان الحرب وماتدره من غنائم وإسلاب في حالة النصر كانت تزود الملك بوسيلة لمكافأة الذين يخلصون له الخدمة ، ولاكتساب مودة وصداقة الاخرين . ولذا كانت محاولات العصيان والتحرر تعقب في اغلب الأحيان ، الحروب التي لاتكلل بالنصر .

ولكي يؤمن الملك سيادته وسلطته على الارستقراطيين خلال فترة السلم في فصل الشتاء ، وبعد ان يتفرق الجيش ويذهب كل فرد الى بلده ، عمد الى اختيار عدد من حكام المقاطعات (الكونتات) من بين أصدقائه الحميمين الذين يرتبطون به اما بصلة القربى وهي أمتن صلة ، وإما برابطة أخرى شخصية تشبه في متانتها صلة القربى ،وكان الملك يلجأ الى تربية ابناء بعض الارستقراطيين في قصره بحيث يكونون من جانب رهائن بمثابة ضمانة لاخلاص ابائهم ووفائهم ، وينشؤون من جهة أخرى على احترام الملك وطاعته ، وعندما يبلغون سن الرشد ويعودون الى املاكهم يصبحون من اشد المخلصين له .

نظام التبعية:

اخذ الكثير من الرجال الاحرار منذ اوائل القرن الثامن يضعون انفسهم تحت رعاية احد « السادة » دون أن يفقدوا حريتهم ، ويصبحون « تابعين » له ويتم ذلك وفق مراسم معينة : يركع « التابع » على ركبتيه أمام السيد ويضم يديه ويضعهما بين يدي السيد ويصبح بذلك « رجله » ثم يقسم يمينا يعد فيه (سيده)

بالاخلاص الكامل ، ويتلقى منه مقابل ذلك الحماية وقطعة من الأرض تسمى « الانتفاع » يتمتع بمواردها ما دام مخلصا للسيد ، وقد استغل اوائل الكارولنجيين هذا النظام لكي يجعلوا من كبار رجالات المملكة :الكونتات ورجال الدين والملاكين العقاريين « اتباعا » للملك وذلك بمنحهم (انتفاعات) من املاك الخزانة الملكية أو من املاك الكنيسة المصادرة ، وتوجب على هؤلاء الاتباع مراعاة القيام بواجباتهم مثل :الالتحاق بالجيش بأتم واحسن تجهيز ، وحضور جلسات المحكمة الملكية ، ومساعدة الملك في اقرار النظام والسلام في انحاء المملكة ، ووضع الملاكون العقاريون الأقل غنى وثروة أنفسهم تحت « رعاية ، اتباع الملك وغدوا « اتباعا » له كما أنهم اصبحوا بدورهم « اسيادا » لمن هم دونهم في الثروة والغنى ، وهكذا اصبح جميع الناس الأحرار مرتبطين ببعضهم برباط « التبعية » مؤلفين تسلسلا هرميا ينتهي بشخص الملك .

وقد وضعت قواعد لهذا النظام اصبحت محددة وثابتة مع الزمن ، فصارت رابطة « التبعية » التي تربط بين السيد و« التابع »تدوم مدى حياة الطرفين . وغدا « الانتفاع » يمثل أجر التابع على اخلاصه للسيد الذي يحق له استرجاع الانتفاع اذا ما خانه التابع أو لم يقم نحوه بالواجبات المفروضة عليه ، وقد ظلت هذه الواجبات غامضة مبهمة دون تحديد كاف وتتضمن مساعدة التابع لسيده ، باستمرار وفي جميع الظروف في السلم أو في الحرب .

التنظيم الاداري

سعى الكارولنجيون الى تقوية سلطتهم أيضا عن طريق تحسين المؤسسات والنظم الادارية التي ورثوها عن الميروفنجيين ، فطلبوا الى الكونتات تنظيم سجلات ودواوين لحفظ المراسلات والتعليمات والأوامر الملكية ولكن دون أن يحققوا نجاحا كبيرا في هذا المجال .وعملوا ، هم انفسهم ، على تدوين المراسيم والقرارات

الملكية التي تتضمن الاوامر والتعليمات الشفهية التي كانوا يلقونها في بدايةكل حملة امـام افـراد الجيش ، وسـعى الملوك الى تـأمين مراقبة اعمال حكام المقـاطعات (الكونتـات) عن كثـب . فـأنشأ شارلمان ، لهذه الغاية ، نظـام المفتشـين الجـوالين ، وكان هؤلاء المفتشون يتألفون من جماعات صغيرة تضم كل منها كونتا واسـقفا وتطوف في عدد من الكونتيات دون أن يكون لأي واحد من أعضـائها أي رابطة تربطه باحدى تلك الكونتيات واصبحت جولات المفتشـين على المقاطعات منتظمة تتكرر اربـع مـرات في السـنة . ويحمـل المفتشون أوامر الملك الجديدة ويتـأكدون مـن تنفيذ الأوامـر الملكية السالفة ويتحققون من أن الأمن والعدل مستتبان . ويتلقون شكاوى الرجـال الاحـرار ، ويدخلون الاصـلاحات اللازمـة على ادارة المقاطعات .

ولجأ الملوك الكارلنجيون ايضـا إلى تقليص سـلطات الكونتـات وخاصة في الشؤون القضائية إذ انهم وسعوا وزادوا في صـلاحيات محكمة القصر ، وأحدثوا في كل كونتيه جهازا من القضاة المحترفين يختارهم المفتشون ، وهم مجبرون على حضور الجلسات العلنية في جميع المحاكم العامة ويتوجب على الكونت أن يحترم قـراراتهم وأن ينفذها .

وبعـد أن تـوسعت المملكة الكارولنجية وخـاصة في عهـد شارلمان ، انشأ الكارولنجيون في بعض المقاطعات البعيدة عن مركز المملكة ، كايطـاليا ، وبـافاريا واكتيانيا ، ممـالك ذات اسـتقلال داخلي ، وانشأوا بالقرب من الحدود التي كانت تتهـددها اخـطار غزو خارجي مناطق عسكرية واسـعة تضـم عددا مـن الكونتـات وأطلقوا عليهم اسم « التخوم » وعهدوا بادارتها الى حاكم عسكرى « دوق » يهيمن على جميع الكونتات المرتبطين به .

وأخيرا زاد الكارولنجيون في منح امتيازات « الحصـانة » للمؤسسات الدينية الكبرى حتى أصبحت جميع امـلاك الاسـقفيات والأديرة في القرن التاسع تتمتع بالحماية ولا يحـق للكونت وأعوانه

التدخل في شؤونها . وبذلك أصبح الأسقف هو الممثل الوحيد للسلطة الملكية بين الرجال الاحرار المقيمين في الأراضي المتمتعة بالحصانة ، فهو الذي كان يقودهم للالتحاق بالجيش ، وهو الذي يقمع المخالفات ويقيم القضاء ويقدم كبار المجرمين إلى المحكمة الملكية ، وبهذا الشكل أخذ رجال الدين يساهمون في ادارة قسم كبير من المملكة ،وهذا ما يميز المؤسسات السياسية والادارية الكارولنجية اي الارتباط الوثيق بين السلطة الملكية والكنيسة .

ـ اضفاء الصبغة الدينية على المملكة :

اكتسبت الملكية الفرنجية في القرن الثامن صفة دينية كما هو الحال في بيزنطة وفي العالم الاسلامي ، واستمد الملوك هذه الصفة الدينية من الاحتفال الديني بالمسح بالزيت المقدس والتتويج وأصبح الملك يمارس نوعا من وظيفة كهنوتية وغدا ممثلا لله على الأرض ، وتغيرت طبيعة السلطة الملكية بنتيجة ذلك ، فلم يعد الملك مستبدا بل اصبح على عاتقه واجبات نحو شعبه وهي رعاية الكنيسة وحماية الضعفاء ، وتوطيد الأمن والعدل ، ويجب على جميع الرعايا أن يعاونوه في هذه المهمة ، وهكذا نرى عودة فكرة الدولة المجردة الى الظهور ولكن على شكل جديد هو « الدولة المسيحية » التي تضم الناس المعمدين . وأصبح هذه المفهوم الدعامة الايديولوجية لكل ملكيات العصر الوسيط .

ولجأ ملوك الكارولنجيين منذ عهد شارلمان إلى تدعيم سلطتهم على اتباعهم بأن طلبوا اليهم تأدية يمين على اشياء مقدسة (الكتاب المقدس ، مخلفات القديسين الخ...) بأن يخلصوا لهم والا يقدموا على فعل شي يضر بالملك . وهكذا أصبحت التزامات الرعايا تتضمن عدم مخالفة القوانين الدينية والمدنية وخدمة الله والعدالة والسلام .

الكنيسة الكارولنجية:

سمح الاستقرار وتوطيد السلم الداخلي نحو نصف قرن في المملكة الكارولنجية بتفتح الحياة الدينية والحياة الفكرية فيها .

وكان أول العاملين على يقظة الحياة الدينية المبشرين الانكلو ـ سكسون الذين نصروا جرمانيا بمساعدة حجاب قصر اوسترازيا الذين اعتقدوا أن التعاون مع الكنيسة سيكون عاملا في تدعيم سلطتهم . وكان أول مظاهر هذا التعاون الاصلاح الكامل للكنيسة الفرنجية التي قام بها القديس بونيفيس بطلب من بيبن القصير وأخيه كارلومان . ووضعت اسس هذا الاصلاح في المجامع الدينية الثلاث التي عقدت في اوسترازيا ونوستريا بين عامي ٧٤٢ ـ ٧٤٤ م وتابع ملك الفرنجة الذي غدا حليفا للبابا ذلك الاصلاح ، وفي بداية القرن التاسع اصبحت كنيسة العصر الوسيط راسخة البنيان .

ولنبدأ الكلام عن الكنيسة النظامية . كانت غاليا الشمالية في نهاية العصر الميروفنجي ممتلئة بالأديرة . وكانت هذه الأديرة تمثل الجزء السليم من الكنيسة الفرنجية مع أنها كانت تعاني من الفوضى وتدخل العلمانيين في شؤونها ، وعلى الرغم من أن انظمتها كانت متنوعة ومختلفة ولا تراعى بدقة ، كما أن شارل مارتل صادر قسما كبيرا من ممتلكاتها ووزعه على اتباعه المخلصين .كان اهتمام القديس بونيفيس بالأديرة ضعيفا ، فلم يتوصل الى تعميم القاعدة البندكتية في جميع الأديرة ، واقتصرت هذه القاعدة في زمنه على الأديرة والابويات التي اسست حديثا في جرمانيا ومنها انتقلت الى اديرة وأبويات أوسترازيا ، وقد سادت في تلك المؤسسات الرهبانية الاتجاهات الأنكلو ـ سكسونية في الرهبنة ، فلم يكن الرعاة كما أراد القديس بندكت ، رؤساء جماعات منعزلة بل كانوا رسلا

للتبشير بالديانة المسيحية ونشرهـا وارتبـطوا بـالكرسي المقـدس مباشرة ، واهتم الرهبان فيها بالاعمال الفكرية اكثر من اهتمـامهم بالاعمال اليدوية .

سعى بيبن القصير ومن بعده شارلمان الى المحـافظة على نظـام الاديرة والى اسـتخدامها لاغراضهما السـياسية .واسـتمرا على اقتـطاع بعض الاراضي مـن امـلاك الأديرة ومنحهـا الى اتباعهما ,وعملا على تعيين بعض انصارهما مـن العلمـانيين رعاة لبعض الأديرة ، وسـهرا على حسـن ادارة الأراضي التـي بقيت في ملكية الاديرة ، وقد تمتع الرهبان في عهدي بيبن وشارلمان بـالراحة والسعة ، وادى تطبيق نظام الدومين في الاملاك الديرية ، الى تحرير الرهبان من العمل بانفسهم لاستثمار الأرض ، وبالتالي سمح لهـم بالانصراف الى حياة الدراسة والعمل الفكري .

وكان الملوك الكارولنجيون يعـدون رعاة الاديرة بمثـابة مـوظفين لديهم ٠ فكانوا يختارونهم من الطبقة الاجتماعية نفسها التي كانوا يختارون منها الكونتات أي من ابناء الأعيان الذين كانوا يدبـون في القصر ، وكان الملوك يعهدون الى هؤلاء الرجـال النشـيطين وهـم شباب بوجه عام ، بمهمـات ادارية وسـياسية عليا ، وقـد تـكيفت الكنيسة النظامية بين عامي ٧٥٠ ــ ٨١٤ م مع النظام الاقتصادي السائد في ذلك الوقت واصبحت مـركزا رئيسـيا للنشـاط الفـكري والفني وعنصرا هاما من عناصر الحضارة الفرنجية ٠

وطرا تبدل هام في عهد لويس التقي بتاثير الراهب بنوا راعي دير اميان في اكيتانيا الذي كان يرغب في تطبيق القاعدة البندكتية تطبيقا اكثر دقة ، فأصدر الامبراطور لويس التقـي عام ٨١٧ م مـرسوما يفرض بمـوجبه القـاعدة البندكتية على جميع الأديرة في كل أنحـاء الامبراطورية ، واستبدل المفهـوم الانكلو ــ سـكسوني عن الحياة الديرية الرهبانية ، أي المفهوم المنفتح الذي يميل الى العمل الفكري

والتبشير بالمفهوم الذي كان سائدا في بلاد البحر المتوسط أي بالميل الى حياة الزهد والعزلة واقامة الطقوس الدينية ، وأقلع الامبراطور من جهة أخرى ، عن مصادرة املاك الاديرة ومنح بعضا منها الحق في اختيار راعيهـا اختيارا حـرا ، ومنذ ذلك الحين فقـدت الاديرة اشعاعها ، وعادت الكنيسة العصرية والأساقفة الى احتلال المكان الأول في العالم المسيحي . وكانت وظيفة الأسقف ، وهي الوظيفـة الرئيسية في النظام الكنسي ، في حالة انحطاط شديد في بداية القـرن الثامن . ولذا ركز القديس بونيفيس اهتمامه على اصلاحها فعمـل على تعيين أشخاص اكفاء في المناصب الشـاغرة وعلى طـرد رجـال الدين الفاسدين واعادة تنظيم المجامع الدينية . غير أن هذا العمـل كان طويلا وشاقا لم ينته الا في عهد شـارلمان ، واصـبح الملك ، في هذا العهد هو الذي يعين الأسقف ويختاره من رجـال الدين المقيمين في القصر الملكي او من أبناء الاديرة المتقدمين في السن ، وهـو في كل الاحوال ، من الرجال ذوي الكفاءة والمقدرة للاطلاع بمهـامه الدينية كراع للجماعة المسيحية في مقاطعة مركزها احـدى المدن الرومـانية القديمة ، وكان الأسقف يختار بنفسه رجـال الاكليروس التـابعين له ، ويعلمهم في المدرسة الملحقة بدار الأسـقفية ويراقـب سـلوكهم الديني ، ويساعد الكونت والملك في مهمتهما لاقـرار السـلم وتحقيق العـدل بين الرعية ، لأن الواجبـات الروحية لم تـكن منفصـلة عن الواجبات المدنية .

وكان رجال الدين الكبار انفسهم خـاضعين لمراقبـة مفتشي الملك ويمكن عزلهم من مناصبهم بموجب قرار مـن المجتمـع الديني الذي كان يرأسه ويدير أعماله الملك . وكان الملك يصدر مراسيم تتضـمن قرارات المجامع الدينية العامة والتعليمات التي توجه الى كبار رجال الدين . وفي بداية القرن التاسع عهد شارلمان الى المطارنة بمـراقبة الأساقفة التابعين لهم وصـاروا يحملون لقـب « رئيس اسـاقفة » أسوة بـالكنيسة الانكلو ـ سـكسونية ، واصـبحت الكنيسـة الكارولنجية بعد الاصلاح تحتل مكانة هامة في العـالم الكارولنجـي بعد عام ٨١٤ م.

وسمح اصلاح النظام الاسقفي بتدعيم الاجهزة الدنيا في الكنيسة العصرية وتقويتها فألف كهنة المدن روابط تجمع بينهم حسب القاعدة التي وصفها اسقف مدينة مس في أواسط القرن الثامن ، وتم في الريف تنظيم الأبرشيات الذي بدأ في العصر الميروفنجي ، ولكن بقي الكهنة الريفيون مرتبطون بالملاك وكانت ثقافة أكثرهم سطحية وسرعان ما انحط مستواهم الفكري لاتصالهم الدائم بالفلاحين غير المثقفين . ومع ذلك حصل تقدم رئيسي في القرن التاسع وهو ان المسيحية عمت في كل الأرياف وقضت على بقايا الوثنية فيها .

وأخيرا تم توحيد النظم والعادات الكهنوتية نتيجة لتضافر جهود البابا وملك الفرنجة ، فقد تلقى شارلمان عام ٧٧٤ م من روما مجموعة القوانين الكنسية المسماة « هدريانا » وجعل منها قانونا للكنيسة الفرنسية ، كما توحدت طرق اقامة الطقوس الدينية في الكنيسة الفرنجية حسب الطرق الرومانية .

وقد كان اصلاح الكنيسة اساسا لاصلاح اخلاقي وثقافي وتجلى هذا في الاصلاح الاخلاقي في سلوك العلمانيين الذين اصبحوا اقل خشونة وادنى قساوة وذلك تحت تأثير رجال الدين ، ومع هذا ، لاينبغي ان يذهب بنا الرأي الى القول ان رجال ذلك العصر كانوا يراعون تعاليم الانجيل بدقة ويطيعونها ، فقد كان الدين خارج اسوار المدن أو جدران الكنيسة بدائيا بسيطا ، ولكن حصل شي من التقدم في مراعاة الأصول والقواعد الدينية وخاصة في العائلة الملكية فلم يعد القتل والاغتيال وسيلة من وسائل الوصول الى الحكم وذلك منذ عهد بيبن القصير كما أن لويس التقي طهر القصر الملكي من الخليلات والمحظيات منذ وصوله الى العرش ، وأخذ الشعب الفرنجي ، على وجه الاجمال ، بالتخلص تدريجيا من عاداته البدائية .

الحياة الفكرية والفنية:

شهد العصر الكارولنجي نهضة وتجديدا في الثقافة والفن . ولكن اشعاع هذه النهضة الفكرية ظل محدودا جدا ولم يستفد منه سوى فئة مختارة قليلة العدد من رجال الدين،والواقع ان زعماء اصلاح الكنيسة الفرنجية ، اي القديس بونيفيس ومساعديه . لم يكونوا يتصورون امكانية فصل الحياة الدينية عن الدراسة والتعليم ، واذشا الرهبان المبشرون مدرسة في كل دير من الاديرة الجديدة التي اسسوها ، فكان اصلاح الكنيسة الفرنجية مرتبطا منذ البداية بالتجديد الثقافي ، ولكن الثقافة الجديدة اتصفت بانها ثقافة دينية ولاتينية ، فهي ثقافة دينية الغاية منها خدمة الرب ، وشرح وايضاح العقائد الدينية ، ومثلت مراكزها القليلة ، من اديرة او كنائس جزرا منعزلة وسط العالم العلماني الجاهل ، وهي ثقافة لاتينية كانت ترمي الى احياء اللغة اللاتينية بدراسة قواعدها ودراسة المؤلفات الكلاسيكية ، وذلك لكي يسهل على رجال الدين مطالعة الكتابات المقدسة الموضوعة باللغة اللاتينية وفهمها ، مثل ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس ، وكتابات اباء الكنيسة الغربية .

بدأت النهضة بتأثير الرهبان الانكلو ـ سكسون وخطت خطوات واسعة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عندما افضت أعمال التوسع الكارولنجية الى احتكاك المقاطعات الفرنجية بسايطاليا و (اطراف اسبانيا) حيث كان التراث الفكري والأدبي الروماني لايزال محافظا على بقائه بشكل أقل تحويرا وتشويها ، وعندما اهتم شارلمان شخصيا برفع المستوى الثقافي لرجال الدين في غاليا الشمالية ، ولذا جذب شارلمان الى بلاطه ابرز رجال الفكر الأوربيين في عصره وساعد هؤلاء الامبراطور على تشغيل اطر للتعليم المنهجي في مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائيات ، ومدرسة القصر التي كانت خاصة بابناء الطبقة الارستقراطية الذين كان الملك يختار

الأساقفة منهم ، وكانت نتائج هذه الاصلاحات في البداية متواضعة فلم يكن الكتاب المعاصرون لشارلمان ، يهتمون بأن يضعوا مؤلفات اصلية بل بتقليد الكتاب القدماء ، ولعل هـذا كان ضروريا في هـذه المرحلة ، فـالمهم هـو ايجـاد الأدوات الأسـاسية الضرورية للمعرفة ، وكتابة النصوص المسيحية بلغة لاتينية سـليمة ، وتعليم الناس قراءتها وفهمها . وهـكذا عادت اللغـة اللاتينية السـليمة لتصبح لغة العلم والثقافة متميزة بذلك عن اللغات الشـعبية ، وادى صبر ومثابرة النساخين في الأديرة الى انقاذ القسـم الاعظـم مـن التراث الأدبي الروماني ، وثمة حدث هـام ورئيسي في هـذا العصر كان النتيجة المباشرة لهـذه النهضـة الفـكرية الكارولنجية هـو أن اللغات المحلية اكتسبت شخصية مستقلة ، ووافقت المجـامع الدينية في غالبا في مطلع القرن التاسع على ان يكون الوعظ والارشاد باللغة العامية ، ومنذ ذلك الوقت اصبح الغرب مسيحي ثنائي اللغة (اللغة اللاتينية بالاضافة الى اللغة المحلية) .

وقد دفع الجيل الذي نشأ في تلك المرحلة بالتقدم الى الامام وبـدأ بالانتاج الفكري والأدبي غداة موت شارلمان ، وممـا يدل على قـوة واتساع اليقظة الفكرية رد الفعل الذي قام به الراهب بنوا راعي دير اميان الذي خشي من شغف الرهبان بمـطالعة المؤلفـات العلمـانية فأراد تقليص الوقت المخصص للدراسة والاعمال الفـكرية في الحياة الديرية ، وقد ساهم في هذه النهضة ايضا بعض الأجانب وخـاصة الايرلنديين الذين هربوا امام الغزو الاسـكانديناڤي ، ولكن في القـرن التاسع كان جميع الكتاب تقـريبا مـن الفـرنجة الذين اتسـعت افاق افكارهم ، وازداد غنى ثقافتهم وسعى اكثرهم الى انتاج اثار فكرية وادبية شخصية ، واتخذ نشاطهم أربـع اتجـاهات رئيسـية هي :

اللاهوت والتاريخ والسياسة الدينية الاجتماعية ، وشعر التـراتيل الدينية،وينبغي ألا نغالي في تقدير النتاج الادبي والفـكري في هـذه

الفترة لأنه كان مليئا بـالنقل والاقتبـاس عن الأقـدمين وتنقصـه الأصالة العفوية ، وعلى هـذا تنحصر قيمتـه في أنه مثـل الخـطوة الأولى في يقظة الفكر الغربي .

وكانت نهضة الفن في العصر الكارولنجي وثيقة الارتباط ايضـا بتوطيد النظام السياسي وباصلاح الحياة الدينية ،ولكنها بدأت قبـل النهضة الفكرية الثقافية وكانت اكثر أصالة منها وأقل تأثيرا بـالفن الأجنبي او الفن القديم . فقـد كان الفنانون اقـل اهتمـاما بتقليد مخلفـات الماضي الرومـاني ـ اليوناني وتجلت في أعمـالهم الميول والاتجاهات التي ظهرت منذ اواخر القرن السابع في البلاد الواقعـة بين نهري اللوار والراين حيث تـم الانصـهار بين التقـاليد الفنية القديمة وبين التقاليد الفنية البربرية .

وظهرت براعة المهندسـين المعمـارين الغـالبين في المنجـزات المعمارية التي تمت في عهد شارلمان مثل كنيسة جرميني التـي بنيت على الطراز التقليدي المحلي ، واذا كان شارلمان قد امر ببناء كنيسة القصر في عاصمته اكس لاشـبل على طـرازكنيسة سـان فيتـال البيزنطية في رافين فقد فعل ذلك لكي يثبت ان سلطته لاتقل عن سلطة الأبـاطرة البيزنطيين ، وكان المهندس المعمـاري الذي بناهـا اوسترازيا من مدينة مس .

وقد ازدهرت الحركة الفنية ، مثـل الحـركة الفـكرية ، وكانت التجـديدات التـي ادخلت على بناء الكنائس في عهـد لويس التقـي ولوثر ، مثل كاتدرائية راذس وكنيسة سان جرمان في اوكسير تلبي الحاجات الجديدة للطقوس الدينية، وتمثل المرحلة التمهيدية للثـورة المعمارية التي جاء بها فن العمارة الرومّاني فقد ادى توسع انتشار عبادة بقايا القديسين الى اضافة اجنحة جـديدة على الكاتـدرائيات القديمة ، كاضافة قبو في المقدمة يضـم ضريح القـديس الذي يحيط بممرات جانبية ، وكنيسة صغيرة ثانوية يقوم على جانبيها بـرجان

ويعلوها ناقوس ، وهناك تغيير هام وحـاسم في فـن البناء في هـذا العصر وهو استبدال اعمدة الرخـام بـاعمدة مبنية مـن الحجـارة واستبدال السقوف الخشبية بالقباب والعقود .

وقد بلغ الفن الكارولنجي أعلى درجات الكمال في تـزيين الكتـب والمنمنمات والتجليد بصفائح العاج ، وقد ساعد على ازدهار هـذا الفن ونموه التجـديد الذي أدخـل على الطقـوس والتـراتيل الدينية ، فنشأت عدة مدارس لتعليمـه في بعض المدن تخـرج منهـا الفنانون الذين كانوا يستلهمون موضوعاتهم من الرسوم الجـدارية ومن المنسوجات المستوردة من الشرق ، وابـدعوا في هـذا المجـال كثيرا٠

الفايكنغ

نقصد بالفايكنغ العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة سكندنافية وشبه جزيرة الدانمارك ، والتي شكلت غاراتها على اوربا شكلا خطيرا في القرن التاسع ، وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها ـ وكذلك فعل المعاصرون لها ـ اسم الفايكنغ بمعنى سكان الفيوردات ، اي الخلجان ، وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بكثرتها شواطىء الجهات الشمالية الغربية من أوربا .

وإذا كان الفايكنغ يرجعون في الناحية العرقية إلى الأصل التيتوني أو الجرماني ، إلا أننا يجب أن نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التي اغارت على أوربا في أواخر العصور الوسطى ، ذلك أن الفايكنغ ظلوا برابرة خلص محافظين على اوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعي والديانة ، واستمروا حتى القرن التاسع يعيشون في هذه العزلة بعيدين عن العالم الروماني والبحر المتوسط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السالفة التي اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حدود الأمبراطورية ولم تحاول مملكة الفرنجة مد سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع ، وعندئذ بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوربي الجنوبي مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفايكنغ هم الذين اكتشفوا أوربا وليست أوربا هي التي اكتشفت الفايكنغ .

ولم يختلف الفايكنغ عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية في نظمهم وعاداتهم واسلوب حياتهم الان طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشون فيه سوى السهول الساحلية ، وهي لا تعدو في كثير من الأحيان اشرطة ضيقة من الأرض الصعبة وهكذا دفعت الطبيعة الفايكنغ نحو

البحر ، فبرعوا في بناء السفن الصغيرة المكشوفة التي اتصفت بطولها وقلة عرضها وسارت بالمجذاف أو الشراع ، وجابوا بها شواطيء أوربا من البحر البلطيكي حتى البحر المتوسط ، بل قاموا ايضا برحلات بعيدة في المحيط الاطلسي حتى اصبحوا أعظم الشعوب البحرية التي عرفتها أوربا في العصور الوسطى . لذلك اتخذت اغارات الفايكنغ شكلا بحريا أقرب الى القرصنة منه إلى الزحف البرى الذي اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية الجرمانية قبل ذلك بأربعة قرون أوخمسة ، كذلك عرف عن الفايكنغ مهارتهم في القتال ، وقوة تسلحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربة طويلة ، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد .

أما الأسباب التي دفعت الفايكنغ الى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسيرها على أسس اقتصادية واجتماعية وسياسية،فمن الناحية النفسية أثبت البحث التاريخي دائما أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع للبلاد المتحضرة القريبة منها ، والرغبة في الاغارة عليها لنهب ثرواتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها وعيشها الهني . وهذا الشعور كان احد العوامل التي حركت الجرمان نحو أراضي الامبراطورية الرومانية المتوسطية من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الهامة الكامنة خلف حركة الفايكنغ في القرن التاسع ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفايكنغ كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا .

لذلك اهتز الفايكنغ عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لما ترتب على هذا الغزو من شلل نشاطهم التجارى ، وبالتالي مضايقتهم اقتصاديا ، ومن الناحية الاجتماعية الاقتصادية يقال أن أعداد الفايكنغ تزايدت في القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطيء سكندناقية والدانمرك، مما دفعهم الى الهجرة الى أرض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة ، بغية الحصول على ما

يمسك رمقهم وبسد حاجتهم ، هذا وان كانت لا توجد في الواقع ادلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا اساسيا لهجرة الفايكنغ في القرن التاسع فان ذلك مقبول كتعليل على سبيل الفرضية،وأخيرا يأتي العامل السياسي مثلا في نشأة الملكية بين الفايكنغ وبخاصة في النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع في يدي هارولد الأشقر ، الأمر الذي جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى أوطان جديدة على الخضوع لنظام لم يألفوه ، وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك ، شهدتا ايضا تطورات سياسة داخلية ادت بكثير من جموع الفايكنغ الى الهجرة ، وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية في شمال غرب اوربا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة كأداء في سبيل توسع الفايكنغ جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على ايدي شارل مارتل سنة ٧٣٤ م ، ثم شارلمان سنة ٧٨٥ م ان زالت هذه العقبة من طريق الفايكنغ واصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم .

وإذا كنا في حديثنا عن الفايكنغ نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانيين (نسبة الى الدانمرك) فإننا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعني وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وانما كل ما يقصد هو الاشارة الى جماعات الفايكنغ التي سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندنافية أو شبه جزيرة الدانمرك ، وبعبارة أخرى فان العصر الكارولنجي لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك .

وهنا نلاحظ اثر التوجيه الجغرافي في توزيع غزوات الفايكنغ ، فالسويديون الذين يواجهون شرقي أوربا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التي هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرقي أوربا والبحر الأسود ، أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا انكلترا وايرلندا والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر

الشــمالية في المحيط الأطلسي . هــذا في حين اتجــه الدانيون نحــو الجنوب والغرب فهددوا شواطي الامبراطورية الكارولنجية في المانيا وفرنسا ، فضلا عن ايرلندا والجزر القريبة .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنغ بغرب أوربــا الى ثــــلاثة ادوار :الاول دور الهجــــوم ، والثــــــاني دور الاستقرار ،والثالث دور الدفاع ، اما دور الهجوم فقد بدأ في أواخـر القرن الثامن ـ أي منذ سنة ٧٨٩ ـ عندما أخذ الفــايكنغ يهــددون شواطي انكلترا واسكوتلندا وايرلندا وفي ذلك الوقت لم تحل قبضــة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفــايكنغ ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص وفاة لويس التقي ،وقد اتخـذ نشــاط الفــايكنغ في ذلك الدور شكل غزوات صيفية حيث كانوا يخرجون من بلادهم صــيفا عندمــا يعتدل الجو ويعودون اليها في الخريف ، وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والاسلاب ، على أن حركة توسع الفــايكنغ لم تلبــث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع عندما اخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات حصينة او في الجزر المنيعة الواقعة قرب شواطيء البلاد التي كانوا يغيرون عليها أو عند مصبات انهــارها ، وبعد أن كانوا في الدور الاول يأتــون على هيئة جمــاعات صــغيرة اصبحوا في هذا الدور الثاني يغيرون على بــلاد غرب أوربــا في هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بغية الاســتقرار في البــلاد التي يغزونها ، وهكذا اقام الفايكنغ مسـتعمرة قصــيرة العمــر في ايرلندا سنة ٨٤٣ م كما قضوا الشتاء لأول مــرة في انكلتــرا ســنة ٨٥١ م وكذلك أخذوا يستقرون حوالي ذلك الوقت في الجزء الغربي من فرنسا الذي عرف فيما بعد بــاسم نورمــاندي ولكنهــم اخــذوا يتوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وصار كلما هجر الاهــالي الأجــزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفــايكنغ في حين التــزم هؤلاء الاخيرون جانب الدفاع ،وقد بدأت هذه المقاومة من جــانب الكونت أود حــاكم باريس مما أدى إلى اخفــاق حصــار الفـــايكنغ لبــــاريس (٨٨٠ ـ ٨٨٧ م) وقبل ذلك بقليل كان الفرد ملك وسكس بانكلترا

قد أنزل بالدانيين هـزيمة كبـرى في ادنجتـون سـنة ٨٧٨ ٠وفي سنة ٨٩١ اسـتطاع ارنولف ـ احـد ملوك البيت الكارولنجـي في المملكة الوسـطى ـ أن ينزل هـزيمة بـالفايكنغ في مـوقعة ديل في برابانت ٠

أغارات الفايكنغ على الامبراطورية الكارولنجية

بدأت اغارات الفـايكنغ على الامبـراطورية الكارولنجية في حياة شارلمان الذي ادى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانيين ، ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العـلاقات بين الطـرفين عندما دخل بعض السكسون الهاربين من وجه شارلمان تحت حماية الدانيين ، هـذا في الوقـت الذي أخـذت بعض سـفنهم تغير على اكوتين . ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفايكنغ على شـواطىء الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سـنة واحـدة دون أن يدهمـو احدى القرى أو المراكز الساحلية ، ويبدو أن هذه الاغارات أفـزعت شارلمان فأعد اسطولا قويا في موانيء نسـتريا لحمـاية شـواطىء امبراطوريته من هجمات الفايكنغ ، ومع ذلك قد استمر غود فـري ملك الدانيين يسبب متـاعب خـطيرة لشـارلمان في جنوب البحـر البلطيكي وشواطىء فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم فيما بين ٨٠٤ ـ ٨٠٩ م كوسيلة لدفع شرهم ثم حدث في عهد لويس التقي خليفة شارلمان ـ أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التي قامت حول تقسيم الامبـراطورية ، وانزلوا قواتا ضخمة على شواطىء فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبوا أوترخت مركز رئيس اساقفة فريزيا ودورشتد اكبـر مـواني الاقليم ، وفي العـام التالي اغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة انتورب ثـم عادوا سنة ٨٣٧ إلى مهاجمة جـزيرة والشرن عند مصـب الراين وأوغلوا حتى وصلوا الى نموجن ، ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندمـا حضر اليهم لويس التقي على رأس جيشه ، ويبدو أن لويس حـاول شراء مسالمة الدانيين بالهدايا والمال كما منحهم المنطقة في دورشـتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحلوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب

الفايكنغ ، وإن كانت هذه الاجراءات واشباهها لم تؤد في الواقع إلا إلى زيادة مطامعهم في اراضي الامبراطورية .

ويلاحظ ان انهار فرنسا الغربية مثل السين واللوار والجارن كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفايكنغ السبيل الى جوف البلاد ، فأوغلوا في نهر اللوار حتى تور حيث نهبوا كتدرائيتها ، ودخلوا في الجارن حتى تولوز ، في حين أوصلهم السوم إلى اميان والسين إلى باريس . وقد ساعد الفايكنغ على التوغل في الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التي امست فيها هذه الامبراطورية في القرن التاسع من نزاع وحروب اهلية بين الامراء والحكام ، ومهما يكن من امر فان اغارات الفايكنغ اخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقي سنة ٨٤٠ اذ أوغلوا في نهر السين لاول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان ، وربما شجع الفايكنغ في سياستهم الهجومية عندما لجا اليهم لوثر بالذات وحضهم على مهاجمة أراضي منافسيه ، وذلك اثناء النزاع الذي قام حول تقسيم الامبراطورية عقب وفاة لويس التقي ، وهكذا اوغل الفايكنغ في اللوار قبيل عقد اتفاقية فردان مباشرة واحرقوا ميناء نانت . ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفايكنغ حدة وعنفا عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ حتى اصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للاخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية ، وكان لويس الالماني اوفر اخوته حظا لان قبائل السكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمي هذه الدولة من خطر الفايكنغ ، ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الالماني حرق مدينة هامبرغ سنة ٨٤٠ ففر اسقفها الى يرمن ، كما أن قوة كبيرة من الفايكنغ أوغلت في نهر الالب سنة ٨٥١ م وهزمت امراء السكسون ثم عادت ظافرة الى الدانمارك بعد أن نهبت شطرا كبيرا من سكسونيا .

أما الأخ الثاني لوثر فكانت خسارته فادحة ، اذ أخذ الفايكنغ يغيرون على شواطيء فريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشون عند مصب الراين لزعيم الدانيين المسمى رودريك ليسترضيه ويتفادى شره ، ولكن هذا الحل لم يجد اذ سرعان ما

اصبحت شواطيء فريزيا (الاراضي المنخفضة) قلاعا للفـايكنغ ، استغلوها في التواغل داخل البلاد حتى غدا لوثـر في قصره بمـدينة أخن لايامن على نفسه من خطرهم .

وأما الاخ الثالث ـ وهو شارل الاصلع فكان اسوأ الثلاثة حـظا لان مملكته امتازت بشاطيء طويل مكشوف ، وعدد كبير من الانهار التي ساعدت الفايكنغ على التوغل داخل البلاد وقد استغل الفايكنغ فرصة انشغال شارل في حرب اهلية مع ابن أخيه بيبـن أمير أكوتين وجددوا هجماهم على الاجـزاء الشـمالية مـن مملكتـه وكان أن تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لاول مرة في نستريا ، بعد أن استولوا على دير نوار موتيبة ، واتخذوه قـاعدة لمهـاجمة الاجـزاء الجنوبية من فرنسا ، ولم يلبـث أن سـاعد النزاع بين بيين وعمـه شارل على ازدياد نفوذ الفايكنغ ، اذ استعان بهم الاول وسـاعدهم على التوغل في حوض الجارون حتى وصلوا الى مدينة تـولوز ، وفي ذلك الوقت كان الفايكنغ قد عادوا الى تهديد حوض السين من جديد فاغاروا على مدينة روان ونهبوها للمرة الثـانية سـنة ٨٤٥، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا الى اسوار مـدينة بـاريس . وهنا لم يجـرؤ شارل الاصلع على صدهم أو الوقوف في وجههم فحصـن نفسـه في مرتفعات مونتمارتر ، وفي ديرسانت دنيس ، وترك باريس ليدخلهـا الفايكنغ وينهبوها ،ولم تقف اغارات الفايكنغ على فرنسا عند هـذا الحد ، بل انهم اغاروا على بوردو ـ كبرى مدن الجنوب ـ ونهبوها سنة ٨٤٧ ، ثم استولوا عليها تماما بعد قليل فـظلت بـايديهم عدة سنوات ، ومن الواضح ان استيلاء الفـايكنغ على مثـل هـذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بارباح طائلة وغنائم وفيرة ، اغرتهـم على مواصلة نشاطهم التدميري بأعداد اكبر حتى وصـلت مملكة شـارل الاصلع الى درجة يرثى لها من الخراب والانحلال ، وقد حدث عندما تجددت هجمات الفايكنغ على حوض السين سنة ٨٥٢ ان اتى لوثر على رأس جنده لمساعدة أخيه شارل الاصلع ، ولكن الاخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانيين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، واجاز له الاستقرار في منطقة قرب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى

بلاده ، ولم تلبث أن تجددت الحروب الاهلية بين لويس الالماني واخيه شارل الاصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت فرصة جيدة للدانيين ، فاوغلو في مملكة شارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بسانجرزوبلوا ، وكذلك لم تقاومهم سوى مدينة أورليان (٨٥٣ ـ ٨٥٤) .

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجي عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفايكنغ انهم لجأوا الى شراء مسالمتهم بالمال من ذلك ما فعله شارل الاصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند احد زعماء الفايكنغ تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال ليقوم الاخير باخلاء دستريا من الغزاة ، ولكي يحصل الملك الكارولنجي على هذا المبلغ الذي تعهد بدفعه للفايكنغ فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تعف منها الكنائس والاديرة والنبلاء والتجار بل فقراء الفلاحين ، وهكذا جاءت الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الاثقال التي كان يتحملها اهالي دولة الفرنجة ، في الوقت الذي اتضح فيه عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم .

والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٥ ـ ٨٨٧ تعد أحلك عصور التاريخ الغربي ، ففي سنة ٨٥٥ توفي لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب أهلية جديدة بين ابنائه واخوته حول اقتسام مملكته ، وفي هذه الظروف لم يتوقف خطر الفايكنغ ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الاصلع الى اصدار مرسوم بيستر سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ؛ ولعمل جسور وعقبات في مجاري الانهار لتعوق تقدم سفن الفايكنغ من جهة اخرى . على أن وفاة لويس الالماني سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الاصلع سنة ٨٧٧ م زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، ومن ضعفها وعجزها عن مقاومة اخطار الفايكنغ ، وفقد السوم باكمله بما فيه من مدن وأديرة مهمة ، كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز للمصير نفسه ، اذ هيأت أنهار الراين والميز والشلد وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفايكنغ حتى

وصلوا أخن وهددوا كولونيا ، وصحيح ان لويس الثالث ملك فرنسا استطاع ان يحرز نصرا على الفـايكنغ في مـوقعة سـوكورت سـنة ٨٨١ م حتى انه نبح منهم ثمـانية الاف وطـردهم خـارج حـدود مملكته ، لكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم وهـكذا لجأ في سنة ٨٨٢ شارل السمين الى مصالحة غودفري أحد زعمـاء الفايكنغ فعقد معه معـاهدة السـلو حيث وافـق شـارل على منح الفايكنغ مبلغا من العملة الفضية فضلا عن اقليم فريزيا ليكون دوقية لغودفري الذي تزوج ابنة أخ الملك شارل ، وفي مقابل كل ذلك انسحب غودفري من مملكة شارل السمين وتعهد باعتناق المسيحية وبان يظل تابعا للملك شارل .

ولكن هؤلاء الفايكنغ الذين غادروا المانيا وفقـا لمعـاهدة السـلو إتجهوا نحو نستريا وهو أمر لم يهتم له شـارل السـمين في قليل أو كثير ما دامـوا سـيجلون عن مملكتـه لذلك كان شـتاء ٨٨٢ ـ ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشـمالية مـن فـرنسا ، اذ دهمت المنطقة جموع ضخمة مـن الفـايكنغ . وهنا لم يحـاول الملك كارلومان (٨٧٩ ـ ٨٨٤) أن يحذو حذو سلفه لويس الثالث ، وانما فضل أن يقتفي سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طـائلا مـن المال للغزاة مقابل أن يتـركوا بـلاده وينقلوا ميدان نشـاطهم الى بلدان أخرى . وقد اتيحت لشارل السمين بعد موت كارلومان ملك فـرنسا فرصة توحيد معظم اجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظيما بين شخصيتي شارل السمين وشارل العـظيم ، وهكذا امتازت السنوات الثلاث التي وجـد فيهـا شـارل السـمين الامبراطورية (٨٨٤ ـ ٨٨٧) بضعف السـلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من أخر الروابط التي كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية .

وسرعان ما اثبتت الحوادث ان الاتفـاقات التـي عقـدهـا ملوك الغرب مع الفايكنغ لاقيمة لها مـا دام هؤلاء الملوك لايملكون القـوة التي يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهـم ، لذلك لم يلبـث أن عاد الفايكنغ إلى تهديد المانيا وفرنسا ، حتى اشتدت غاراتهم بصفة خاصة في السنوات العشر الاخيرة مـن القـرن التـاسع ، فـدمروا

فلاندرز كما تعرض وادي الجارون والركن الجنوبي الغربي من فرنسا لغارات اخرى خطيرة ، فاستولى الفايكنغ على بوردو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان اساطيلهم دار ت حول شبه جزيرة ايبيريا واغارت على الموانيء الاسلامية في الاندلس وهددت قواتهم بعض مدن الداخل ، وحرضت هذه الغارات المدمرة السلطة الاموية على تحصين المدن وتقوية دفاعاتها وايلاء الاسطول المزيد من الاهتمام ، وفي فترة تاليه تبادل السفارات مع الفايكنغ .

كما وهدد الفايكنغ الجزء الغربي من حوض المتوسط وتسللوا في الرون حتى نهبوا افينون ، واذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفايكنغ ، فان الاديرة والكنائس لم تكن لهسا درع يحميها سوى حرمتها الدينية ، وهذا سلاح لم يعترف به اولئك المغيرون الوثنيون ، لذلك شدد الفايكنغ هجماتهم على الاديرة والكنائس بعد ان خبروها فوجدوها مخبأً للثروات والكنوز الامر الذي نشا عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية في ذلك العصر ، ولما كانت الاديرة حينذاك هي المراكز الاساسية للنشاط التعليمي والحضاري في اوربا للعصور الوسطى فان الخسارة التي لحقت الحضارة الاوربية بتدمير الاديرة وفرار اهلها أو قتلهم كانت اعظم من أن تقدر .

على أن حوض السين ظل الهدف الاساسي لهجوم الفايكنغ في أواخر القرن التاسع ، وقد تعرضت باريس في أواخر سنة ٨٨٥ م لهجوم كبير قام به اربعون الفا منهم جاؤوا في سبعمائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدربين على شؤون الغزو ، واستطاعت باريس الصمود عدة اشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كونت أود حاكمها ، حتى وصل أخيرا (تشرين ثاني ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة اخرى وبعقد صلحا مشينا مع الفايكنغ تعهد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس كما سمح لهم بالاقامة في برغنديا .

على أن الاهمية التاريخية لهذا الحصار لاترجع الى ظهور شخصية كونت أود على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع ايضا إلى ظهور اهميته باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد.

وكان أن تم اختيار اود ملكا على فرنسا في شباط سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين في العام السالف . ولم يلبث أن احرز اود انتصارا جديدا على الفايكنغ بعد تتويجه بعدة اشهر ليثبت مرة اخرى صلاحيته للحكم ، ولكن الفايكنغ لم يتركوه يهنأ بالاستقرار ، إذ عادوا بعد قليل إلى محاصرة باريس للمرة الرابعة ، إلا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من أود الكونت ، اذ اقتفى هو الآخر سنة شارل السمين واشترى مسالمة الفايكنغ بالمال وعندئذ انسحبوا الى بريتاني ، انما لم يلبث أن عاد الفايكنغ ـ كما هي عادتهم ـ الى تهديد أواسط فرنسا ، وعندئذ أنزل أود بهم هزيمة ساحقة عند مونتبليه واسر زعيمهم واعدمه سنة ٨٩٢ م .

واثر هذا اخذ نبلاء فرنسا يشعرون بضعف خطر الفايكنغ ، مما دفعهم الى التآمر ضد ملكهم اود ، فنظروا اليه على أنه احدهم وارسلوا يستدعون شارل البسيط ـ وريث البيت الكارولنجي ـ من انكلترا ، ومن ثم بدأت فترة من الحروب الاهلية استمرت ست سنوات بين اود وشارل البسيط ، ولم تنته الا سنة ٨٩٨ م ، بوفاة اود ، وقد استمر شارل البسيط يحكم الجزء الغربي من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ واظهر في هذه المدة براعة في محاربة الفايكنغ على الرغم من صغر سنه . ولم تكن اغارات الفايكنغ قد انقطعت حينئذ بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب الاهلية بين أود وشارل البسيط وعادوا الى نستريا ليجتاحوها من جديد ، وهنا نلاحظ أن اغارات الفايكنغ امتازت ـ في هذه المرحلة ـ بمقاومة الاهالي لها من جهة ، وبقلة الغنائم التي اصبح الفايكنغ يحصلون عليها من جهة اخرى ، بعد أن احاطت المدن والاديرة انفسها باسوار منيعة .

وعندما اخفق الفايكنغ في تثبيت اقدامهم في برغنديا نتيجة لمقاومة البرغنديين أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذي نسب اليهم فيما بعد ـ نورماندي ـ وتشير الوثائق المعاصرة الى ان الفايكنغ اتخذوا روان عند مصب السين مر كزالهم ومنها اخذوا ينتشرون على امتداد شاطيء هذا الجزء الغربي من فرنسا بين السوم وبريتاني ، وعلى الرغم من انهم اخفقوا في الاستيلاء على شارتر الا أن شارل البسيط اختار ان يسلك معهم الاسلوب نفسه الذي اتبعه الفرد ملك وسكس قبل ذلك بثلاثين سنة ، فعرض على زعيمهم رولو إقليما واسعا يستقر فيه مع اتباعه . وكان أن تمت مقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ م حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفايكنغ الاقليم الساحلي الممتد من السوم حتى بريتاني ، وهي المنطقة التي نسبت الى الشماليين (أوالنورمان)فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نورماندي .

والواقع ان اتفاقية سانت كلير لم تكن اكثر من اعتراف بالامر الواقع ، لان هذه المنطقة كان معظمها بأيدي الفايكنغ فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ م ولم تنقطع اغاراتهم عنها الا حوالي سنة ٩٦٦ م اي بعد اتفاقية سانت كلير باكثر من نصف قرن ، ومهما كان الامر فان الفايكنغ اصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نوماندي حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا ، ومن الواضح أن الدافع الاساسي الذي شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقاء نورماندي للفايكنغ لقمة سائغة هو رغبته في ايجاد خصم قوي يقف في وجه كونت باريس ، ومهما كان الامر فان رولو دوق نورماندي سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، واثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التي أجراها شارل البسيط ، اذ نزحت معظم جماعات الفايكنغ المتناثرة في فرنسا لتعيش تحت حكم رولو في نورماندي ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد . والمعروف عن الفايكنغ انهم كانوا ـ اينما حلوا ـ يظهرون

مرونة سريعة في تقبل حضـــارة وعادات وأوضـــاع اهـــالي البـــلاد الاصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمن على غزو الفايكنغ لاقليم نورماندي حتى تأقلم النورمان واضبحوا فرنسيين في لغتهم ونظمهم وثقافتهم وان ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحمـــاسة والعنف التي اتصف بها اسلافهم الاوائل ، مما جعلهم يقومون بدور مهم في حكومات فرنسا وانكلترا وايطاليا وصقلية ، وهـــي الجهـــات التي غزاها النورمان فيما بعد .

غارات الفايكنغ على انكلترا:

كانت انكلتـــرا بين اول بلدان أوربـــا التـــي تعـــرضت لاغارات الفايكنغ اذ شهدت هذه البلاد غارات قـــامت بهـــا بعض ســـفنهم في سنوات ٧٨٧ م و ٧٩٣ و ٧٩٤ م وبعد هـــذا التـــاريخ لم نســـمع اغارات اخرى على انكلترا حتى سنة ٨٣٥ ، ويبدو انهم في الفتـــرة الواقعة بين سنتي ٧٩٤ و ٨٣٥ وجهوا الجزء الاكبر من نشـــاطهم نحو ايرلندا .

وقد اطلق اهل انكلتـــرا مـــن الســـكسون اس الدانيين » على جماعات الفايكنغ التي كانت تهـــاجم بـــلادهم مـ خـــر القـــرن الثامن ، وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون الجر ة نفسها التـــي سبق أن سقوها لإهـــالي بـــريطانيا ـ في القـــرن الخـــامس والسادس ، ومهما يكن من امر فانه على الرغم من قســـوة اغارات الفايكنغ على انكلترا وما لقيته البلاد على ايديهم من تخريب وفوضى إلا انه من الثابت أن الفائدة التي حصلت عليها انكلترا من وراء هذه الاغارات فاقت الخسارة التي منيت بها ، ويكفي انها ادت الى تكتل انكلترا السكسونية على هيئة مملكة واحدة .

اما اغارات الفايكنغ على انكلترا منذ ســـنة ٨٣٥ فقـــد بـــدأت في الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن اخذت تمتد شرقا ، ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الاكبر من ضربات الفايكنغ في هذا الدور .

وليس معنى ذلك أن بقية اجزاء البلاد نجت من خطرهم ، فقد اجتاحوا عدة مناطق حتى انه في سنة ٨٤٤ لقي ادوولف ملك نورثمبريا مصرعه على ايديهم .

ودخلت نهر التيمز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانيين فاستولوا على بورى ولندن ، ثم عبروا التيمز حيث انزل بهم اثلووف ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند اوكلي ونبح منهم عددا كبيرا . ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من أثره أن الدانيين قضوا الشتاء لأول مرة سنة ٨٥١ م في انكلترا ، وبذلك اخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة إلى دور الاستقرار .

وبعدما لجا شارل الاصلع الى تخليص اراضي نهر السين من جموع الدانيين عن طريق شراء جلائهم بالمال سنة ٨٦٦ لجأت هذه الجموع الى انكلترا حيث اغارت في العام التالي (٨٦٧)على يورك ، واستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حول عرش نورثمبريا ، ولم يؤد انتهاء هذا النزاع الى اضعاف الدانيين أو طردهم ، بل إن مرسيا دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩ كما عبروا مرسيا الى انجيليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث انزلوا هزيمة بملكها ادموند وقتلوه ، ومن ثم عد هذا الملك قديسا وشهيدا في نظر العصور التالية .

والواقع انه لم ينقذ بقية انكلترا من خطر الدانيين وتوسعهم سوى جهود الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ ــ ٨٩٩) ، حتى انه سنة ارتقائه العرش صارت ذات اهمية بالغة في تاريخ انكلترا . ذلك لان ألفرد العظيم أبلى بلاء حسنا في الدفاع عن بلاده ضد الدانيين حتى انه اشتبك معهم في تسعة مواقع حربية اثناء السنة الاولى من حكمه ، الامر الذي جعل الدانيين يفلحون بعقد الهدنة ويولون ابصارهم شطر مرسيا ، على أن الصراع سرعان ما تجدد بين ألفرد والدانيين سنة ٨٧٥ م . وعندئذ واجه ألفرد كثيرا من الصعاب في

هذا الدور ، ولكنه استطاع ان يتغلب عليها جميعا وانزل بـالدانيين هزيمة ساحقة عند ادنجتـون سـنة ٨٧٨ م وكان أن طلب الدانيون الصلح فتم عقد صلح ودمور سـنة ٨٧٨ على اسـاس جـلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعد به ملكهم مـن اعتناق المسيحية ، ولكن ملك الدانيين في انكلترا لم يلبـث أن خـرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ،الامر الذي جعل ألفـرد يحـاربهم مـرة اخرى حتى انتهى الامر بعقد صـلح جـديد سـنة ٨٨٥ ، حـددت بمقتضاه الحدود الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتدمن مصب نهـر التميز حتى شير ، بمعنى أن لندن والجزء الاكبر من مـرسيا كانت من نصيب الفرد ، في حين التزم الدانيون الاراضي الواقعـة شـمالي هذا الخط.

وقد تمتعت انكلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاها الفـرد في اعادة تنظيم جيشه وتقـوية مملكتـه بـوجه عام ، في حين وجـه الفايكنغ جهودهم الى القارة . وفي ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقي الراين من مسلك شارل السمين تجـاه الفـايكنغ ، وهـو المسـلك المتصف بالضعف وشراء مسالمتهم بالمال ، فـاختاروا ارنولف ملكا عليهم سـنة ٨٨٧ م ولم يلبـث أرنولف هـذا أن احـرز نصرا على الفايكنغ قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الامر الذي جعلهـم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى الى انكلتـرا . وهـكذا تعـرضت انكلترا في خريف سنة ٨٩٢ م لهجوم اسطولين من اساطيل الدانيين رسا احدهما جنوبي دوفر ورسا الاسـطول الثـاني عند ملتـون في الجزء الشمالي من كنت . وسرعان ما ابدى الدانيون نشـاطا كبيرا في مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن الفـرد واجههـم وأجبـرهم على الانسحاب وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات اخرى خـارجية قـام بها الدانيون على انكلترا طيلة بقية عهد ألفـرد ، وإن ظـل الدانيون المقيمون في انجليا الشرقية ونور ثمبريا يقومون بكثير مـن اعمـال القرصنة ، الامر الذي دفع الفرد الى توجيه نشاطه نحو بناء اسطول قوي استغله في دفع خطر الدانيين وانزال عدة ضربات بهم .

وعندما توفي ألفرد ســـنة ٨٩٩ م اخـــذ حلفــاؤه يغــزون اراضي الدانيين تدريجيا حتى انتهى الامر سنة ٩٥٤ بتوحيد انكلترا كلهـــا تحت حكم ملك وسكس الذي اصبح يســتحق لقـــب ملك انكلتـــرا في التاريخ ، على أن ملوك انكلترا في الخمسين سنة التــالية لم يكونوا على شيء من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة اخرى لخــطر موجة جديدة من موجات الفــايكنغ ، وفي هـــذه المرة لم يات الدانيون الى انكلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وانما جاؤوا في صورة امـــة مترابطة ، حتى اصبح كانوت ابن ملك الدانمـــرك والنروج ملكا على انكلترا (١٠١٦ ـ ١٠٣٠) ولم يستطع اصحاب الحق الشرعي في عرش انكلترا مـــن البيت الســـكسوني اســـترداد عرشـــهم الا سنة ١٠٤٢ عندما تولى الحكم ادوارد الثالث (١٠٤٢ ـ ١٠٦٦) الذي عرف بنزعته الدينية القوية حتى اكتسب لقـــب « المعتـــرف » في التاريخ ، وقد قضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا في بلاط قـــريبه دوق نورماندي مما جعله يتاثر الى حـــد كبير بـــالاراء والاتجـــاهات النورماندية ، ومهما يكن من امر فان وليم دوق نورمـــاندي ادعى انه صاحب الحق الشرعي في بلاط انكلترا ، وكان ذلك بعد وفـــاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ م

وهنا نلاحظ ان البابوية ساندت وليم النورماندي في اطماعه، بسبب غضب البابا من السكسون الذين طـــردوا رئيس اســـاقفة كانتبـــري النورماندي على الرغم من انه كان يحمل تفـــويضا مـــن البـــابوية ، وبذلك اســـتطاع وليم النورمـــاندي ان ينزل قـــواته على الشـــاطيء الجنوبي الشرقي لانكلتـــرا وهـــزم الســـكسون في مـــوقعة هينك سنة ١٠٦٦ م وبذلك نجح وليم في فتح انكلترا مما اكسبه لقب الفاتح في التاريخ الاوربي كما استطاع توحيد نورمـــاندي وانكلتـــرا تحـــت حكمه .

غزوات الفايكنغ لايرلندا:

اما ايرلندا فقد تاثرت اكثـــر مـــن غيرهـــا في المرحلة الاولى مـــن

مراحل اغارات الفايكنغ ، اذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهـم ، في وقت كانت فيه مدن الجزيرة واديرتها مكشوفة دون اسوار حجـرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين ، وهكذا أخذ الفـايكنغ يواصـلون اغارتهم على ايرلندا في أواخر القرن الثامن ، حتـى تحـولت هـذه الاغارات الى نوع من الاستقرار في الجزيرة في اوائل القرن التاسع.

واذا كانت ايرلندا قد تعرضت لاغارات الفايكنغ في الوقت نفسـه الذي واجهت فيه انكلترا غزواتهم ، الا ان مصـير كل مـن البلدين اختلف عن الآخر ، ذلك ان الفايكنغ داروا حول الشـاطيء الغـربي لاسكتلندا وغزوا جزيرة سكاي قرب الشاطيء سـنة ٧٩٥ م كمـا هاجموا جزيرة مان ــ بين ايرلندا وانكلترا ــ سـنة ٧٩٣ م أمـا جزيرة ايونا قرب شاطيء اسـكتلندا الغـربي فقـد نهبـوها سنة ٨٠٢ ثم سنة ٨٠٦ ظهـر الفـايكنغ قـرب شـاطيء ايرلندا الشمالية الغربية عند سيليجو ثم شقوا طريقهم داخل البـلاد حتـى وصلوا وسكنوا في اواسط البلاد . وفي سنة ٨١١ هاجموا منستر في جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شبه جزيرة هوث ــ بجـوار دبلن ــ وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١.

وهكذا يبدو لنا من هذا العـرض السريع أن اسـاطيل الفـايكنغ احاطت بايرلندا احاطة تامة في الربع الاول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ إلا وكان الفايكنغ قـد اوغلوا داخـل الجـزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم . وعندئذ لم يعد الفايكنغ يقـومون بالغارات الفردية وانما اخذوا يهاجمون الجزيرة باساطيل كبـري ، متخذين من خلجانها وموانيها العـديدة مـراكز ينفـذون منهـا الى الداخل .

ويبدو أن المقاومة العنيفة التي أبدتها القبـائل الايرلندية حـالت دون استلاء الفايكنغ على الجزيرة كلها ، فقنعوا باقامة مراكز لهـم حول خلجان الجزيرة ومصبات انهارها . وقد حصن الفايكنغ هـذه المراكز واقاموا فيها القلاع ، وعن هذا الطريق ظهرت اهمية دبلن ، اما المناطق الداخلية فقد اكتفى الفايكنغ بنهبها ولاسيما الاديرة التي

تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرا من رهبانها يؤثرون الفرار الى اديرة فرنسا وفلاندرز والمانيا ، ويلاحظ أن الغارات الاولى التي تعرضت لها انكلترا وايرلندا ، حتى منتصف القرن التاسع ، قامت بها عناصر من الشماليين النرويجيين ، لامن الدانيين . الذين منذ ذلك الوقت اخذت غاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا في صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة ، واشتد النزاع في ايرلندا بين الدانيين والنرويجيين الشماليين ، وحاول اتذاك الايرلنديون حماية انفسهم من خطر الفريقين ، مما أوقع الجزيرة في حالة شاملة من الفوضى ، ومع هذا ظل الايرلنديون يقاومون حتى حافظوا على شخصيتهم ، ثم تمكنوا من اذابة عناصر الفايكنغ التي استقرت في جزيرتهم .

الفايكنغ في الجزر الشمالية:

على أن توسع الفايكنغ في الاتجاه الغربي لم يقتصر على انكلترا وايرلندا وشواطيء اسكوتلندا والامبراطورية الفرنجية ، وانما شمل أيضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد .

فضلا عن أن النروجيين اتجهوا ـ بحكم موقعهم الجغرافي ـ اتجاها شماليا غربيا ، أي نحو إيسلاند ، ومع الايام هاجر العديد من النرويجيين ومعهم أتباعهم الى ايسلاند ليعيشوا فيها ، ثم لم يلبثوا أن اتجهوا غربا حتى وصلوا غرينلاند ثم إلى الشواطيء الشمالية الغربية لامريكا وهكذا اصبحت غرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا اليها من النرويج وايسلاندا فعمروها وشيدوا بها الكنائس .

توسع السويديين شرقا:

إذا كان هناك جدل جول نصيب كل من النرويجيين والدانيين في نشاط الفايكنغ ، فاننا لانصادف خلافا في الراي عند دراسة حركة

توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا ، حقيقة انه يفهم من بعض المصادر أن السويديين ترددوا ـ هم بدورهم ـ على انكلترا وغيرها من بلاد الغرب ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردي ، ولاتعبر بأي حال عن النشاط الاجتماعي للسويديين ، وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على اساس التغلغل السلمي الذي اعتمد على النشاط التجاري ، لاعلى اساس الغزو الحربي والنهب والتدمير ، وهي الصفات التي امتازت بها غزوات النرويجيين والدانيين في الغرب .

وكان الميدان الرئيسي لتوسع السويديين ونشاطهم في سهول اوربا الجنوبية الشرقية . وفي هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » وهو لفظ يعني « النوتية أو البحارة » اطلقه الافار والسلاف على هذه العناصر الشمالية التي تغلغلت في بلادهم .

وكان الافار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية في شرق اوربا ، لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين في القوقاز أو التجار المسيحيين في القسطنطينية ، ولكن قوة الافار كانت قد انهارت في القرن التاسع ، الامر الذي مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من السويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا اقدامهم في حوض نهر الدينيبر حتى وصلوا الى البحر الأسود ، وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطيكي والأسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم في هذا الجزء الشرقي من أوربا ، ذلك ان الروس اسسوا عدة مدن ، لتحكم كل مدينة منها في المنطقة القريبة التي احاطت بها والتي سكنتها قبائل مختلفة من السلاف ، وكان لكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها . وقد فكرت كل منها في حماية نفسها وحماية تجارتها ، فلجأت الى تأليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم ايضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية ، وكان أن حدث أن استولى احد الزعماء الروس ـ ويدعى روريك ـ على مدينة كييف ، وبذلك نشأت دوقية

كييف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفايكنغ في شرق اوربا ، كما كانت نورماندي مركزا لهم في غربها ، على أنه اذا كانت دوقية نورماندي قد صادفت مقاومة عنيفة حالت دون توسعها في فرنسا ، فان دوقية كييف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وأن تفرض سيطرتها المباشرة ـ وغير المباشرة ـ على كثير من القبائل والشعوب القاطنة في سهول شرق أوربا . ويقال انه بلغ من سرعة توسع كييف أن اصبح بها في الربع الاول من القرن الحادي عشر ثمانية اسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والالمان ، فضلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد ومازالت لدينا بعض نصوص المعاهدات التجارية التي ترجع الى النصف الاول من القرن العاشر بين الروس من جهة والدولة البيزنطية من جهة أخرى ، وهي تثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والعبيد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصنوعات وغيرها من لوازم الترف. وربما كان اوضح ما في هذه المعاهدات ان الموقعين عليها من الروس حملوا اسماء سويدية . على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل علاقة تجارية سلمية على ء ، ل الخط ، فقد كانت تغلب عليهم بين حين واخر نزعتهم نحو رب والقتال مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها .كثر من مرة .

مما دفع الامبراطورية الى السعي للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين على اسس سليمة ، وكان ان تم التفاهم فعلا حوالي منتصف القرن العاشر ومن ثم اخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السنويديين في البحر لحسابها حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم . وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة اربح لهم من الحرب ، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقار والعنبر والرقيق لتعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل والبخور والمجوهرات . أما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشاطها كثرة المسكوكات العربية التي عثر عليها في

السويد وفي روسيا ، ومهمـا يكن مـن أمـر فـان هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابـوا وسـط المحيط السلافي الكبير الذي عاشوا وسطه ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الحـادي عشر إلا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافي العام .

ولم يقتصر نشاط الفايكنغ على دائرة البلاد السـالف ذكرهـا ، إنما امتد هذا النشاط الى كثير من البلاد المجـاورة فـأغاروا كمـا سلفت الاشارة على شواطيء الاندلس الاسلامية وتعرضت لشـبونة وقادس واشبيلية بوجه خاص لعيثهم فضلا عن بعض بـلاد المغـرب الساحلية . وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التي اظهرها الاهـالي في صد الغزاة ـ الذين اسماهم المسلمون باسم المجـوس ـ الا أنه يبدو أن اغاراتهم استمرت بشكل خطير مما دفع عبد الرحمن الثاني الى ارسال سفارة الى ملك الفايكنغ ، ومع هذا لم يتوقف هؤلاء عن غاراتهم حيث عبروا مضيق جبـل طـارق وأغاروا على بعض بـلاد المغرب وقراها ، كما أغاروا على شواطيء الاندلس الشرقية حتـى وصلوا جزر البليار ،ثم اغاروا على مدن اقليم بروفانس ، وبعد هذا على شواطيء الجزر الواقعـة عند مصـب نهـر الرون ،وايطـاليا ، وهكذا استطاع الفايكنغ في النصف الثـاني مـن القـرن التـاسع الاحاطة بأوربا احاطة شبه تامة بعد أن وصـل السـويديون الروس الى القسطنطينية شرقا ووصل الفـايكنغ الغـربيون الى شـواطيء ايطاليا من الجهة المقابلة .

حضارة الفايكنغ:

لم يكن الفايكنغ برارة بكل معاني الكلمة ، لانهم اظهروا مـزيجا عجيبا من البـدائية والنزعة الحضـارية فهـم وإن ظلوا محتفـظين ببعض تقاليدهم البدائية تفوقوا على كثير من شعوب أوربا المجاورة في بعض نواحي النشـاط البشري ، وبخـاصة الحـرب والتجـارة والتنظيم الاجتماعي . على أن الخشونة البـدائية التـي عرف بهـا الفايكنغ في أول الأمر لم تلبث أن اخـذت تتعـدل نتيجـة لانتشـار

المسيحية تدريجيا بينهم ، مما ترتب على ذلك تهذيب طبــاعهم بعض الشيء .

ويرجح ان أول معرفة الفــايكنغ بــالمسيحية جــاءت عن طــريق علاقتهم التجارية مع الفريزيين حتى اخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندنافية .والدانمرك منذ اوائل القرن الثامن وبعــد ذلك بقليل عمل لويس التقي على نشر المسيحية بين الفايكنغ بالطرق الســلمية وذهبت بعض البعثات التبشيرية الى البــلاد الشــمالية . واخــذت المسيحـ ؟ تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية وليس هنــاك من شك في ان از ـسار المسيحية بين هذه الشــعوب تــرك اثــرا واضــحا على مستقبل اوربا وتاريخها ، اذ يمكن الوقوف على اهمية هذا الاثر لو تصورنا ان السويديين الروس الذين استقروا في شرق اوربا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين في الق‍وقاز على ديانة جيرانهم المســيحين في الدولة البيزنطية ، وفي الحقيقة كانت اوربــا بــأكملها مهيأة لتلقــي الاسلام ، ولاشك ان ذلك لو حدث لتغير وجه التاريخ الانساني مــن كل جانب نحو الافضل .

وقد امتازت حضــارة الفــايكنغ في الجــــانب المادي بـــالثروة والفخامة ، فقد جمعوا الحلي وأدوات الزينة والسيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرهــا من الاشياء التي فــاضت بهــا مقــابرهم ، وليس هناك من شك في ان مصدر هــذه الثــروة كان النهــب والســـلب في اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجاري من جهة اخرى ، ومن الواضح ان الفايكنغ تركوا اثــرا واضــحا في كل بلد اســتقروا فيه وبخــاصة في ايرلندا وانكلتــرا وملحقـــاتها الطبيعية ، واذا كانت العناصر الاولية لحضارة الفايكنغ قد أخذت تتــلاشى تــدريجيا مــن البلاد التي نزحوا اليها واستقروا فيها ، فان هذه العناصر قدر لهــا البقاء في اقصى الغرب ــ اي في ايرلاندا وغرينلاند ــ حيث ازدهرت حضارة الفايكنغ واصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن اي تطور حضاري اخر في القارة الاوربية ، حقيقة ان حضارة الفــايكنغ في تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة ايرلندا الكلتية

نتيجة لهجرة كثيرة مـن الكلت الايرلنديين اليهـا ، ولكننا مـع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة وقد بلغ التقدم الحضاري في غرينلاند ، بعد استقرار الشماليين فيها ان اديرتها في القرن الثاني عشر كانت تستخدم انابيب المياه الدافئة في تدفئة داخل الاديرة، وقد استمدت هذه الانابيب مياهها من ينبوع دافىء طبيعي . هذا فضلا عن النشاط التجاري الواسع الذي قام به اهالي غرينلاند في الميدان الاقتصادي اذ اخذوا يصدرون الاسماك والفـراء والزيت الى البلاد القريبة .

اما ميدان الادب فان المجموعة الضخمة مـن اساطير الساغات واشعار « الادات » تعد خير مايدل على التقدم الادبـي وبخـاصة في ايرلاندا .

والساغات هي اساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعـي واتـزانها واستقامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية ، واما الادات فهي مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ، ولكنها تمتاز ايضا ببروز الجانب الخلقي والنظرة الواقعية الى الحياة ، واذا كانت هذه الاشعار تنطوي على شيء من الخشونة والبربرية ، الا انهـا تعبـر تعبيرا ساميا عن روح البطولة ، كما تحـرص على ابـراز الغـرض الاسمى الذي يسعى اليه البطل ، وهكذا يرجع الفضل الى الفايكنغ عندما انتجت جزر اوربا الشمالية المقفرة حضارة وادبا عد من اعظم ماانتجته اوربا في العصور الوسطى .

اسرة كابية في فرنسا

من الواضح ان الغزوات التي تعـرضت لهـا اوربـا في القـرنين التاسع والعاشر وماترتب عليها من انهيار السلطة الملكية ، وماجرى من المنازعات بين الامراء والحكام ، تمخضت كلهـا في النهـاية عن فوضى شديدة عمت بلاد غرب اوربا .

وقد دفعت هذه الفوضى صغار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم وتذود عنهم ، فلم يجدوا اثرا لقوة الملك او لنفوذ السلطة المركزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت او الامير المحلي لحمايتهم ، وهكذا اخذ عامة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم اقوى من الامراء وكبار الملاك في ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة كوسيلة وحيدة لحماية ارواحهم من الاخطار والقلاقل التي عنبت المجتمع الغربي ، وبعبارة اخرى فان هؤلاء الضعفاء او المستضعفين قبلوا ان يعيشوا في حال من الهوان والمغارم مقابل قيام الاقطاعيين بحمايتهم والذود عنهم ، في حين لم تتعد سلطة الملوك الفعلية دائرة املاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن اي امير آخر من الامراء الاقطاعيين .

وهذا الوضع من التنظيم السياسي والاجتماعي هو الذي ظلت عليه فرنسا في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، ففرنسا ذاتها هي الدولة التي بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى اصبح من الضروري الاستعانة بنظام جديد يضمن للناس ارواحهم ، وهكذا لم يكد ينتهي القرن العاشر ، الا وكان النظام الاقطاعي قد وطد اقدامه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا ، ومن الثابت ان فرنسا ـ وهي الجزء الغربي من الامبراطورية الكارولنجية ـ اختلفت عن المانيا ـ الجزء الشرقي من هذه الامبراطورية ـ لأن الاولى كانت في سالف الزمن جزءا من العالم الروماني حتى دخلت تحت حكم الجرمان وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى اقسام ادارية ـ اوكونتيات ـ تتبع حدود الاسقفيات ويحكم كلا منها نائبا عن الملك الميروفنجي او الكارولنجي ، وهكذا ظل الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية في فرنسا ، وعندئذ لم يبق قوة تحل محلها سوى قوى الحكام المحليين من الكونتات وكبار الملاك .

ولاشك في ان الحقيقة التاريخية الكبرى التي امتاز بها تاريخ فرنسا في القرن العاشر هي سقوط البيت الكارولنجي وقيام اسرة

كابية وتسلمها للحـــكم ، ذلك انه حـــدث ـ كمـــا ســـلفت الاشارة ـ عندما عزل شارل سنة ٨٨٧ م ان اختاروا اودو كونت باريس ، بعدما ابداه من شجاعة في الدفاع عن باريس اثناء حصار الفايكنغ لها . على انه يبدو ان ذكرى شارلمان وعظمته كانت تـدفع المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجي والتمسك بحكمه ، الامر الذي اثار نزاعا طويلا ـ استمر قـرنا مـن الزمـان ـ بين البيت الكارولنجي والبيت الباريسي حول الاستئثار بحكم فـرنسا ، وهنا نشير الى عدم صحة مايردده كثير من المؤرخين من ان الكارولنجيين الاواخر امتـازوا بـالضعف وعدم الكفـاية ، الامـر الذي ادى الى ضياع الملك من ايديهم فـالواقع انهـم كانوا على قـدر كاف مـن القدرة ، وبذلوا قصارى جهـدهم للاحتفـاظ بملكهـم ، ولكن كان ينقصهم المال اللازم . ذلك ان مصدر قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد حوض الراين ، ولم تكن له ضياع في الجـزء الغـربي مـن امبراطوريته سوى القليل ، وهو الذي اصبح من نصيب سلالة ملوك فرنسا ، وهذا هو الســبب في ان ملوك الجـــزء الغـــربي مـــن الامبراطورية ـ اي فرنسا ـ ظلوا دائما في فقـر وحـاجة الى المال حتى زوال البيت الكارولنجي .

وقد حدث اثناء حوادث التنافس والنزاع بين البيت الكارولنجـي والبيت الباريسي ان اختير احد ابناء البيت الكارولنجي ملكا ـ وهو شارل البســيط ٨٩٣ ـ ٩٢٣ ولم يرض بذلك روبـرت اخـو اود ووريثه ، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح وكان شارل البسيط اكتسب حليفا قويا عندما منح الفايكنغ اقليم نورمـاندي، ومـع ذلك ، فـان السنوات الاخيرة من حكم شارل كانت مليئة بالمتاعب الشديدة التي سببها له روبرت كونت باريس ، وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ م ولكنه قتل في العام التالي تـاركا ابنه الصـغير هيو العـظيم ليحـل محله ، اما شارل البســيط فقـــد خلفــه ابنه لويس الرابـع (٩٣٦ ـ ٩٥٤) الذي كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتـزوج من اخت اوتو العظيم ليضمن مساعدة المانيا انما سرعان ما اكتشف لويس الرابع انه اضعف من ان يقف امام هيو العظيم ، فاضطر الى

مسالمته ، وهكذا نجح هيو العظيم ، ومن بعده هيو الملقب كابيه في السيطرة على معظم انحاء فرنسا قبل مجيء سنة ٩٨٦ م وهي السنة التي توفي فيها لوثر بن لويس الرابع ، ولم تلبث ان جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ ـ ٩٨٧) ابن لوثر ـ دون ان يترك ابنايخلفه ، وبذلك طويت صفحة تاريخ البيت الكارلونجي ، وتم تتويج هيوكابية ملكا على فرنسا في عام ٩٨٧ وهو العام الذي شهد وفاة لويس الخامس ، ولم يعن قيام حكم اسرة كابيه اكثر من حلول اسرة حاكمة محل اسرة اخرى ، وحين ورث ال كابية الكارولونجيين ورثوا حقوقهم ايضا ،انما ظلوا بالوقت نفسه السادة الاول بين بيوت السادات من الاقطاعيين ، وفي الحقيقة يعد انتصار ال كابية انتصارا للامراء الاقطاعيين على الكارولونجيين ، وهكذا كانت مملكة فرنسا عبارة عن تجمع لعدد كبير من الاقطاعيات لكل منها نظامها وقواها ومطامحها .

لقد نالت اسرة كابية اسمها من هيو الكبير (٩٨٧ ـ ٩٩٦) وقام هذا الاقطاعي الاول بتتويج ابنه روبرت الثاني قبل وفاته ، وسهل هذا انتقال الملك الى روبرت (٩٩٦ ـ ١٠٣١) ثم من بعده الى ابنه هنري الاول (١٠٣١ ـ ١٠٦٠) ثم الى حفيده فيليب الاول (١٠٦٠ ـ ١١٠٨) ، وكان هؤلاء الاربعة ملوكا اسميين لفرنسا ، وجاء بعد فيليب الاول ابنه لويس السادس (١١٠٨ ـ ١١٣٧) ، وكانت الحروب الصليبية قد قامت بحيث باتت مسؤولية فرنسا الاولى ، واستطاع لويس ان يقوي سلطانه على الاقطاعيين ، وبعد لويس السادس جاء لويس السابع (١١٣٧ ـ ١١٨٠) ، وشارك هذا الملك فيما يعرف باسم الحملة الصليبية الثانية ومعه زوجته اليانور ، وستمر بنا انباء هذه الحملة بتفاصيل مفيدة .

وبعد لويس السابع جاء فيليب اوغسطس ، وهذا الملك ايضا شارك في الحملة الصليبية الثالثة التي قامت اثر معركة حطين وتحرير صلاح الدين للقدس سنة ١١٨٧ م ، وسنقرأ اخبار هذه الحملة مفصلة في نصوص كتابنا .

وخلف لويس السابع ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ ـ ١٢٢٦ م) ، وهذا الملك لم يعمر بالحكم طويلا كما انه لم يترك اثـارا واسـعة ، وابعد منه شهرة ابنه لويس التاسع (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠ م)٠

لانه خاض اخرالحملات الصليبية واسر اولا في مصر ، ثـم عاصر قيام دولة المماليك وعاش بعض الوقت في فلسطين ، وبعد عودته الى بلاده بفترة قاد حملة جديدة رست على شواطىء تونس وهناك صدت قواته ولاقى حتفه .

الفصل الثالث

بيزنطة منذ قيام الامبراطورية الكارولنجية

بيزنطة وشارلمان:

كان لضياع مركز بيزنطة في القسم الغربي من الامبراطورية اثارا سيئة تفوق الاثار التي ترتبت على اخفاقها العسكري في منطقتي البلقان واسية الصغرى ، وصادف في الفترة نفسها التي كان يتحكم فيها بمقدرات بيزنطة ومصيرها امرأة وخصيان وعبيد قصر ، انه كان على راس المملكة الفرنجية حاكم من اكبر الحكام وشخصية من اقوى الشخصيات انه شارلمان ملك المملكة الفرنجية الغربي الذي كان في هذه الفترة يقوم بأعمال بارزة ويعد مملكته لتشغل دوراً اساسيا في تقرير مصير اوربا الغربية فهو الذي ضم الى مملكته منطقة بافاريا ، واخضع السكسون ونشر بينهم النصرانية ، وهو ايضا الذي وسع حدود مملكته على حساب السلاف وقضى على مملكة الافار، انه هو الذي قضى على مملكة اللومبارد وضمها الى مملكته وضمها اليه وهذا امر له اهمية خاصة وذلك لان نجاح شارلمان في هذا المشروع جاء في اعقاب اخفاق البيزنطيين في تحقيق الامر نفسه وبالتالي تناقص سلطتهم وانحطاط مكانتهم في روما ، وفي الوقت نفسه قوت الكنيسة الكاثوليكية في روما تحالفها مع المملكة الفرنجية وادارت ظهرها لبيزنطة ، ومع ان بيزنطة عادت الى جادة الاورثوذكسية وأعادت تقديس الايقونات وعبادتها وبهذا ازالت الخلافات الدينية بينها وبين روما ، فان الجفاء بين القسطنطينية وروما لم يزل وظل الخلاف بين البلدين واستمر الصراع لان روما رفضت الاعتراف بمساواة القسطنطينية وتابع البابوات جهودهم لاثبات اولوية روما كمركز ديني والقديس بطرس كزعيم اكبر

للنصرانية وهكذا زال نفوذ الامبراطورية البيزنطة من روما وطبعا لم يكن للبابا نفوذه على القسطنطينية ، ويبدو ان عدم اهتمام البابوات بالقسطنطينية يعود الى شعورهم بعدم جدوى ذلك ، لهذا ركزوا اهتمامهم على تحسين علاقاتهم وتمتين صلاتهم مع الملك الفرنجي الذي قهر اللومبارد على الرغم من ان شارلمان لم يكن على رأي البابا تماما في قضية الايقونات ، ولم يوافق على ماورد من آراء في المجمع المقدس الذي اعاد الاعتبار للايقونات ايام قسطنطين السادس وايرين ، ويبدو ان السبب في هذا الموقف من القضية الدينية ارادة الملك الفرنجي أن يظهر استقلاله الديني عن بيزنطه حتى يؤكد بالتالي عدم تبعيته السياسية لها ، ولم تنجح محاولات البابا هادريان لجعله ينضم الى رأيه الديني مما جعل البابا مضطراً للتنازل عن محاولاته مع الامبراطورية ، وهكذا فان الايقونات التي اعاد لها مجمع نيقية المقدس اعتبارها واحترامها سنة ٧٨٧ م عادت لتصبح موضع الهجوم وعدم الاعتبار بنتيجة المؤتمر الديني الذي عقد سنة ٧٩٤ م في مدينة فرانكفورت تحت اشراف شارلمان ، والجدير بالذكر ان كلا المجمعين الدينيين :الذي رد فيه اعتبار الايقونات والذي هوجمت فيه الايقونات ولم تعط فيه اي قيمة دينية حضره ممثلون عن البابا هادريان،ويفسر موقف البابا الضعيف تجاه شارلمان وقبوله بايفاد ممثلين عنه لحضور مؤتمر ديني تشتم الايقونات فيه بأن البابا كان يريد التحالف مع الملك الفرنجي مهما كان الثمن ، واصبحت سياسة التحالف مع ملوك الفرنجة حجر الزاوية في سياسة من خلف هادريان من بابوات ، وكان الذي بدأ هذه السياسة البابا ستيفن الثاني وتبعه فيهما هادريان الاول واستمرت في زمن خلفه ليون الثالث الذي توج الملك شارلمان امبراطوراً في كنيسة القدس بطرس في روما يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م .

وكان لتأسيس امبراطورية شارلمان اثاراً هامة في المحيطين السياسي والديني ، وكان العرف إذ ذاك ان تكون هناك امبراطورية واحدة كما هناك كنيسة واحدة ، لذا عد تتويج شارلمان امبراطوراً

خرقا لكل التقاليد وضربة للنفوذ البيزنطي ، وذلك لان بيزنطـة كانت ترى نفسها الامبـراطورية الوحيدة التـي ورثـت الامبــراطورية الرومانية القديمة لذلك عدت تتويج شارلمان امبراطورا خرقا للتقاليد واغتصابا لحق من حقوقها ، اما روما فكانت هي الاخـرى تعتـرف بفكرة الامبراطورية الواحــدة ولكنهــا اســتهدفت اســتبدال الامبراطورية البيزنطية بامبراطورية فرنجية ، وهكذا رأت روما ان عرش القسطنطينية بعد خلع قسطنطين السادس قد اصبح خاليا ولم تعترف بحكم ايرين ، وكانت روما تؤمن ان حكم العــالم المسـيحي يجب ان يكون لشخص واحد وان يكون للعالم المسيحي امبراطورية واحدة بيد ان هذا كان رأيا نظريا ، وعمليا اصبح منذ العام ٨٠٠ في العالم المسيحي امبراطوريتان : امبــراطورية شرقية (بيزنطية) اغريقية وامبراطورية غربية فرنجية لاتينية تقفــان وجهــا لوجــه ، وهكذا تم انقسام العالم المســيحي الى دولتين متبــاعدتين لارابــط بينهما وان دان كلاهما بدين بالنصرانية فكل كان له كنيسته وايمانه وطقوسه ، يضاف الى ذلك الفــروق الهــائلة في الحضــارة واللغــة والثقافة .

ومع ان تتويج شارلمان امبراطورا في كنيسة القديس بطرس كان عملية بابوية قصد منها من بعض الوجوه انتقام البابا مــن ابــاطرة القسطنطينية وان شارلمان نفسه لم يشترك كمــا قيل في اعدادهــا ، فإنه كان مضطرا لان يواجه ماترتب عليها من نتائج ، فقد كان عليه اولا ان يحصل من بيزنطة على اعتراف بلقبــه الامبــراطوري ، لانه بدون هذا الاعتراف يصبح لقبه كامبــراطور لقبــا غير ذي شرعية ، ولم يكن يكفي ان يحتج هو ومن معه بشــغور عرش القســطنطينية لوجود امرأة عليه(ايرين) حتى يصبح هو الامبــراطور الشرعي ، كما انه لم يكن بامكانه ان يسم بيزنطة وامبراطورتها بالهرطقة حتى يجعل من ذلك مسوغا من اجــل نيله الامبــراطورية ، لذا ارســل في سنة ٨٠٢ م وفدا يمثله ويمثل البابا ليو الثــالث الى القســطنطينية ويروى ان هؤلاء حملوا عرضا من شارلمان بالزواج مــن ايرين وذلك في سبيل توحيد شقي الامبراطورية الشرقي والغربي ولكن ماكاد هذا

الوفد يقر قراره في القسطنطينية حتى نشبت ثورة فيها وذلك في ٣١ تشرين الاول سنة ٨٠٢ ، مما عطل المفاوضات ، وكان الذين قادوا الثورة كبار رجالات الدولة وكبار الضباط ، وخلع الثوار ايرين ونفوها الى احدى الجزر حيث توفيت بعد قليل ، واختاروا نقفور وكان احد كبار الموظفين الماليين امبراطوراً جديداً .

فترة حكم نقفور والمشاكل السياسية في عهده

حكم نقفور الاول بين سنتي ٨٠٢ ـ ٨١١ وكان حاكما قويا ساس الامبراطورية بحزم وقوة ، ومع انه لم يكن من المتعصبين دينيا فانه كان اورثوذكسيا مخلصا ومن المؤيدين لعبادة الايقونات ومع هذا لم يظهر اي خضوع لرجال الكنيسة بل على العكس كان يطلب منهم الخضوع للسلطة الامبراطورية . واظهر تقديسه للايقونات وتبجيله لها بتزويج ابنه وولي عهده ستوراكيوس من فتاة اثينية اسمها ثيوفانو وكانت احدى قريبات الامبراطورة المخلوعة ايرين ، وفي عهده تازمت العلاقات مجدداً بين الدولة والسلطات الكنسية ولاسيما حين عين الامبراطور مؤرخا جليلا وعالما دينيا مرموقا اسمه نقفور ايضا بطريركا على القسطنطينية بعد وفاة البطريرق تارازيوس في ٢٥ شباط سنة ٨٠٦ ، وكان البطريرك نقفور مثله مثل سلفه الراحل واسع المعرفة في الشؤون الدينية ، كتب بحوثا في الدفاع عن عبادة الايقونات ، وكان ايضا قبل توليه منصبه الديني من كبار موظفي الدولة وعرف باعتداله وعدم تعنته وفي الحقيقة كان لتعيين رجل دنيوي في منصب ديني اثاره الخطيرة ، فقد خلق هذا التعيين نوعا من شعور العداء للامبراطور في صفوف رجال الدين الذين كانوا يأملون ان يكون منصب البطريركية من نصيب زعيمهم ثيودور الستودي ، وزاد ايضا في النقمة على الامبراطور نقفور الذي اراد ان يظهر تفوق سلطانه على سلطان الكنيسة انه امر بعقد مجمع ديني يحضره بعض رجال الكنسية والدولة ، واتخذ هذا المجمع عدة قرارات جاءت تحديا لرجال اللاهوت والكنيسة ،

ولاسيما الرهبان الستوديين المتعصبين ، وهكذا اصبح العداء سافرا بين الامبراطور نقفور وبين هؤلاء الرهبان الذين اصبحوا من الآن فصاعدا عرضة لانواع مختلفة من إرهاب الدولة وضغطها . وكان اول مااهتم به الامبراطور بعد تسلمه العرش هو تحسين الوضع الاقتصادي للبلاد وتدارك الخزينة من الافلاس بسبب ماارهقها به الاباطرة السالفون من مصروفات . وقد كان لخبرته المالية اثرها في جعله يهتم بهذة الناحية بوجه خاص ، وبدأ اعماله في هذا المجال بالغاء الاعفاءات والتخفيضات الضرائبية التي كانت الامبراطورة ايرين قد منحتها للشعب ، وامر بعد ذلك باجراء تقدير عام للاوضاع المالية لشعبه ، وعلى اساس هذا التقدير الجديد رفع الضرائب بعض الشيء ، كما فرض ضرائب على اراضي الكنائس والاديرة واملاك المؤسسات الدينية الخيرية ، بالاضافة الى هذا فرض جزية على الرؤوس تجبى من كل اسرة كمجموع بحسب عدد افرادها ، واصبحت جزية الرؤوس هذه مع ضريبة الارض اهم موارد الدولة البيزنطية المالية ، وجزية الرؤوس هذه كانت موجودة قبل نقفور وكل مافعله نقفور انه فرضها على الفلاحين الذين كانوا يعملون في اراضي الكنيسة والاديرة ، وكانت هذه الفئة معفية من هذه الضريبة زمن ايرين ، وحتى يضمن جباية جميع الضرائب وعدم نقصانها ، جعل نقفور امر جمع هذه الضرائب مسؤولية جماعية ، بمعنى ان ضرائب منطقة من المناطق كانت مسؤولية الجماعة الساكنة في هذه المنطقة لا مسؤولية الفرد فقط ، فإذا تخلف الفرد عن دفع حصته من الضريبة لسبب من الاسباب فان جيرانه هم المسؤولون عن دفعها عنه .

وقد وضع نقفور بعض ممتلكات الكنيسة تحت اشراف الدولة وذلك كي يسترجع بعض اراضي الدولة التي كانت الامبراطورة ايرين قد وهبتها للكنيسة ، كما اعاد العمل بضريبة التركات والضريبة على الكنوز المكتشفة ، وفرض ضريبة على الذين يصبحون اغنياء فجأة وتكون ظروف حصولهم على الثروة ظروفا مريبة ، وجعل تجار العبيد يدفعون ضرائب على سلعهم ، واصدر قرارا بمنع الاشخاص

العابيين من تقاضي الربا على مايقرضونه لغيرهم من اموال وارباح وللدولة ان تقرض رعاياها بفائدة معينة،واجبر الامبراطور بقراره هذا اصحاب احواض بناء السفن في القسطنطينية وهم عادة فئة غنية على الاقتراض من الدولة حين يحتاجون للاموال بفائدة قدرها ٦ر١٥ بالمئة وهكذا امن موردا جديداً لخزانة الدولة المنهكة .

واهتم نقفور ايضا بتقوية النظام الدفاعي للامبراطورية وتطويره بأن فرض الخدمة العسكرية على الفلاحين وامن للفقراء منهم التجهيزات العسكرية عن طريق فرض ضريبة على القرية الواحدة يدفعها سكان القرية وتحفظ لتجهيز من تقع عليهم الخدمة العسكرية من ابنائها الذين لايملكون ثمن تجهيزاتهم ، وقد كان من نتائج هذا القانون الجديد أن اصبح لدى بيزنطة معين لاينضب من الجنود تستعمله متى دعت الحاجة ، كما انه امر ان يسرى مفعول قانون الاقطاعات العسكرية على البحارة ، اي انه خلق طبقة من البحارة الذين هم في الاساس اشخاص منحوا اراضي زراعية على الشواطيء يستغلونها في وقت السلم زراعيا وفي وقت الحرب يكونون مسؤولين عن تجهيز انفسهم عسكريا ويعملون في الاساطيل البحرية المحاربة .

واهتم نقفور ايضا بانشاء مستعمرات سكنية جديدة في المناطق التي تشكل خطراً يهدد مستقبل الدولة ، فقد اجبر مثلا بعض سكان منطقة اسيا الصغرى على بيع ممتلكاتهم هناك وامرهم بالذهاب للسكن في المنطقة السلافية من شبه جزيرة البلقان حيث اقطعوا اراضي زراعية جديدة واصبحوا من طبقة الفلاحين الجنود الذين ينضمون للجيش في وقت الحرب ويزرعون الارض في وقت السلم ، ونظام الاقطاعات الزراعية العسكرية هذا نظام قديم يعود الى قرنين مضيا ، وهكذا فان نقفور لم يبتدع شيئا جديداً بل كان ماعمله اعادة فرض قوانين واعراف قديمة كان من تقدمه من الاباطرة قد اهملوا العمل بها .

وكان لسياسة نقفور في انشاء مستعمرات سكنية جديدة ولاسيما

في البلقان اثارها وبصورة خاصة في مناطق تراقية والقسم الشرقـي من مكدونية المجاور لبلغـارية وحتـى في اليونان التـي كان العنصر السلافي قد بدأ يتسرب اليها ، منذ تاريخ الغزوات السـلافية لاراضي الامبـراطورية البيزنطية في القـرنين السـادس والسـابع فانذاك اضطرت الامبراطورية الى الانسحاب من معظم اراضي شبه جـزيرة البلقان،ورافق هـذا الانسـحاب ازدياد التـدفق السـلافي،وقد ظلت الأراضي البلقانية مستعمرة سلافية وبربرية بشكل عام حتى منتصف القرن الثامن ،ولكن منذ أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التـاسع عاد البيزنطيون ليقووا مركزهم مجـددا هناك، ففـي خـلال حـكم الامبراطورة ايرين بدأت بيزنطـة تقـوم بهجمـات ضـد العناصر السلافية الموجـودة في اليونان . وفي سـنة ٧٨٣ قـاد القـائد ستوراكيوس جيشا كبيرا وهاجم منطقة سالونيك ومن هناك تـوجه الى منطقة اليونان الوسطى والبيلوبونيز واجبر القبـائل السـلافية الساكنة هناك على الاعتراف بسيادة بيزنطة عليهـا ودفـع الجـزية السنوية للخزينة البيزنطية .

وقد عد نصر ستوراكيوس على القبائل السلافية عملا هاما جـدا لدرجة انه لما عاد من حملته المظفرة اقيمت له احتفالات ضـخمة،وفي السنوات الاخيرة من القرن الثامن تآمرت القبائل السـلافية النازلة في اليونان ضد الامبراطورة ايرين لاعادة الحـكم لواحـد مـن اولاد الامبـراطور قسـطنطين الخـامس الذين كانوا منفيين في اليونان ، ولكن لم يكتب لهذه المؤامرة النجاح ، وفي مطلع القرن التـاسع اعلن سلاف منطقـة البيلوبونيز الثـورة على الامبـراطورية فهـاجموا ممتلكات جيرانهم اليونانيين ونهبـوها وتـوجهوا لمهـاجمة مـدينة باتراس في سنة ٨٠٥ ، ولكن لم يكتـب لهجـومهم هـذا النجـاح فكسروا امام جيوش الدولة البيزنطية وفقدوا ممتلكاتهـم وحـريتهم الشخصية .

ولكن هذا الانكسار لم يثن عزم القبائل السـلافية في البيلوبونيز وعادت الى الثـورات على البيزنطيين بين الحين والآخـر على ان

ثوراتهم جميعا اخفقت وتمكنت بيزنطة من تثبيت اقدامها في منطقــة البيلوبونيز بعدما كان السلاف قد سيطروا لمدة قرنين .

وتجلت اثار عودة السيطرة البيزنطية على بعض مناطق البلقان في تنظيم مناطق هذه المقاطعة تنظيمـــا جـــديا يتفـــق واســـاليب الادارة البيزنطية ، وقد اعقـــب هـــذه التنظيمـــات قيام النزاع بين بيزنطـة وبلغاريا ، ومع ان نقفـــور لم يكن جنديا محتـــرفا فقـــد كان له مـــن الصفات ماجعله قائدا ناجحا لايتورع عن قيادة الجيوش بنفســـه ، وقد ظهر اعتداده بنفسه كجندي منذ اليوم الاول الذي اعقب جلوسه على العرش اذ انه قطع الجـــزية التـــي كانت تـــدفعها ايرين للدولة العباسية ، فكان رد الخليفة هارون الرشيد على هذا ان قاد جيوشه بـــاتجاه الاراضي البيزنطية وذلك ســـنة ٨٠٦ واســـــتولى الجيش الاسلامي على بعض القلاع والحصون في بلاد الثغور وتقدم ليفتـح الطوانة ، ومنها سارت فرقة لفتح انقرة فذهل الامبـــراطور ووجـــد نفسه مضطرا لأن يعود لدفع الجـــزية ، وزاد الخليفـــة العبـــاسي في تحقير نقفور ، ففرض عليه شخصيا ان يدفع ســـنويا مقـــدار ثـلاثة دنانير ذهبية وذلك مقـــابل مـــايستحق عليه وعلى ابنه مـــن جـــزية سنوية . ولكن موت هارون الرشيد سنة ٨٠٩ ، وفترة الاضـــطراب التي اعقبت وفاته بسبب ماقام من حرب اهلية بين الامين والمأمـــون جعلت نقفور يستريح مؤقتا من الخطر العربي ، ويوجه اهتمامه نحو مشاكل البلقان .

ولقد كان لتحطيم قوة الافـــار على يد شـــارلمان اثـــره في تخفيف الضغط الافارى على العناصر البلغارية التي كانت تســـكن منطقـــة بانونيا ونتيجة لهذا استطاع البلغار ان يمدوا مملكتهم حتى وصـــلت حدودها الى حدود مملكة شارلمان،واعتلى عرش المملكة البلغـــارية في هذه الفترة زعيم من زعماء بلغار منطقة بانونيا اســـمه كروم ، وكان معروفا ببأسه وقوته وتحديه ، وكانت بيزنطة قد اقـــامت على طـــول حدودها مع المملكة البلغارية سلسلة من القلاع والحصون لتوقف اي هجوم او تسرب بلغاري الى بلادها ، وكان من اشهر هذه الحصون

حصن ديفيلتوس وحصن ادرنه وحصن فيلبه وحصن سارديكان وفي ربيع سنة ٨٠٩ هاجم كروم حصن ساردیکا فهدمه وابـاد حـاميته عن بكرة ابيها مما دعا الامبراطور الى التوجه فوراً ليسترد الحصن من البلغار وينتقم منهم ، ولكنه قبل ان يخوض معركة حـاسمة مـع كروم امضى مدة عامين في التهيؤ وتقوية جيشه ، ونقـل عناصر مـن اسيا الصغرى للسكن في المناطق السلافية من البلقان .

وفي ربيع سنة ٨١١ عبر نقفور الحـدود على راس جيش قـوي فهاجم عاصمة البلغار وخربها واحرق قصر كروم ورفض كل عروض الصلح التي عرضها البلغار وقرر ان ينتهي من البلغار نهائيا فتبـع كروم الذي فر الى الجبال ، ولكن الحـظ لم يحـالف نقفـور حتـى النهاية اذ ان كروم باغت جيش الامبراطور واحاط به وقتل الكثيرين منه وذلك في ٢٦ تموز في سنة ٨١١ ولقي نقفور مصير الكثيرين من جنده ، فقتل وقطع راسه وعمل كروم من جمجمتـه وعاء احتسى فيه الخمر وتناول منه الانخاب مع قـواده في حفـل اقـامه احتفـاء بانتصاره .

وترتب على هذه الكارثة التي لحقت ببزنطية نتائج كثيرة لم تـكن في الحسبان ، ولاسيما من حيث فقـدانها مـكانتها واعتبـارها بين الامم ، اذ انه لم يسبق حتى الان ان ذبح امبراطور بيزنطي من قبل البرابرة اللهم الا الامبـراطور فـالانس الذي ذبـح على يد القـوط الغربيين سنة ٣٧٨ في موقعة قرب ادرنة . وهكذا انقلب هرب كروم وتوسله من اجل الصـلح الى نصر سـاحق جعله يحلم بـانتصارات جديدة على بيزنطة مما سيسبب الكثير من المتاعب لها .

وكلفت هذه الموقعة الامبراطور نقفور حياته ، وجـرح ابنه وولي عهده ستوراكيوس ولكن هذا الابن تمكن من الفـرار مـع عدد مـن اتباعه الى ادرنة حيث اعلن من قبل اتباعه امبراطوراً وخلفا لابيه ، غير ان هـذا الاعلان لم يكن الا مـن قبيل الاحتياط لان جـراح ستوراكيوس كانت مميتة وكان الامل بشفائه ضـعيفا ، ولذلك نقـل سـتوراكيوس الى القسـطنطينية حيث كان مقـرراً ان يشـترك في

انتخاب خليفته قبل وفاته ، وكان اقرب المرشحين للفوز بالعرش اخو زوجة الامبراطور المحتضر لانه لم يكن له ولد ، وكان اسمه ميخائيل انغاب وقد ايد ترشيح ميخائيل الجيش والبطريرك نقفور وعارض هذا الترشيح زوجة ستوراكيوس ثيوفانو الاثينية التي كانت تأمل ان يكون العرش من نصيبها كما حدث بالنسبة للامبراطورة ايرين.وعندما بدا ان الصراع حول العرش سيطول قام الجيش في ٢ تشرين اول لعام ٨١١ بحركة اعلن اثرها عن اختيار ميخائيل امبراطورا ووافق على هذا الاعلان مجلس الشيوخ والبطريرك نقفور ، اما ستوراكيوس فقد انسحب الى احد الاديرة حيث بقي مدة ثلاثة اشهر مات بعدها .

كان ميخائيل الاول الذي حكم بين سنتي ٨١١ ـ ٨١٣ حاكما ضعيفا يسهل التأثير عليه وتنقصه الشجاعة ، وقد تميز عهده بالتبذير والاسراف ، وقد الغى هذا الامبراطور التدابير التي اتخذها سلفه نقفور والتي كانت تهدف الى تقوية الوضع الاقتصادي للامبراطورية ، وبدأ منذ مطلع عهده يتقرب بالهبات المالية الى رجال الجيش والبلاط والكنيسة ، وكان من اشد المؤمنين حماسا بعبادة الايقونات كما كان متعلقا بالكنيسة بشكل عام ومستعدا للوقوع تحت سلطانها ، وفي زمنه ازدهر المذهب الاورثوذكسي واعيد الرهبان الستوديين من المنفى بعدما قبلت كل طلباتهم ولقد عادوا اقوياء ، وكان من مظاهر ازدياد نفوذهم أن اصبح زعيمهم ـ الأب تيودور ـ صاحب الكلمة الاولى في البلاد لافي المسائل الدينية فحسب بل في مسائل السياسة الداخلية والخارجية ايضا .

وفي زمن ميخائيل الاول أعيد النظر في امر علاقة الامبراطورية البيزنطية بامبراطورية شارلمان وكان الامبراطور نقفور يتبع سياسة تجاهل تجاه شارلمان ومطالبه باللقب الامبراطوري لانه كان يعرف ماقد ينطوي عليه التعامل مع شارلمان من مضاعفات ، حتى أنه منع البطريرك نقفور من ان يرسل لبابا روما الرسائل الدينية المعتادة لان هذا البابا هو الذي توج شارلمان امبراطورا وكان نقفور

يظهر نحو خصمه الكارولنجي والبابوية التي أيدته كل عداء وتشدد.

وفي الوقت نفسه كانت قوة شارلمان في ازدياد ، ومنطقة نفوذه تتوسع باستمرار ، وأخذ يضم الى اراضي مملكته بلادا هي في الاساس من ممتلكات بيزنطة ، ولما تسلم ميخائيل الأول العرش اراد أن يستعيد هذه الاراضي التي فقدتها بيزنطة ، ولكنه ما كان ليستطيع أن يستردها حربا ، لذلك اختار أن يعترف بلقب شارلمان كامبراطور مقابل أن تعاد له الاراضي التي سلخت من بلاده وبناء عليه اعلن الممثل البيزنطي في أخر سنة ٨١٢ م اعتراف دولته بشارلمان كامبراطور .

وهكذا أصبح كما سلف بنا القول : امبراطوريتان مسيحيتان في اوروبا واحدة غربية وأخرى شرقية ، ويرى بعض الباحثين أن اعتراف ميخائيل الاول بشارلمان امبراطورا لم يكن الا من قبيل ماكان يحدث في القرنين الرابع والخامس الميلاديين حين كان هناك امبراطوران واحد في الشرق وواحد في الغرب يحكمان حكما مشتركا في امبراطورية واحدة ، وهكذا لم يكن اعتراف سنة ٨١٢ اعترافا بامبراطور جديد ولكن اعترافا من ميخائيل الاول بزميل له (شارلمان) يشاركه في الحكم وذلك حفاظا منه على فكرة وحدة الامبراطورية ، وهذا الرأي - بلاشك - خاطيء لان اعتراف ميخائيل الاول بشارلمان لم يكن يتضمن في الواقع اكثر من اعترافه به امبراطورا لا امبرطورا على الرومان،وشارلمان نفسه كان انذاك يتجنب أن يذكر إلى جانب اسمه كلمة امبراطور الرومان . ولهذا ظل البيزنطيون يرون أنهم وحدهم أصحاب الحق في لقب امبراطور الرومان .

وجاء اعتراف ميخائيل الاول بشارلمان نتيجة لضعف شخصيته وللظروف الدولية السيئة التي كانت تمر بها بيزنطة بعد كارثة سنة ٨١١ .

أما التهديد والخطر اللذان كانا يتربصان ببيزنطة من جهة

البلقان فقد جعلاها تشعر بالعجز عن القيام بأي عمل عسكري ضد دولة الفرنجة في الغرب ، وفي ربيع سنة ٨١٢ احتل كروم خان البلغار مدينة ديفلتوس على البحر الاسود وخرب حصونها ونقل سكانها الى داخل مملكته ، وقد أدى احتلال ديفلتوس الى انتشار الذعر بين سكان المنطقة والتجأ الكثيرون منهم الى الهرب ، وبعد هذه المعركة وجه كروم الى بيزنطة انذارا يعرض عليها فيه الصلح ، ولما تمهلت بيزنطة في الرد على هذا العرض هاجم ميناء ميزمبريا على البحر الاسود واحتله في تشرين ثاني من سنة ٨١٢ م وقد استولى باحتلاله لهذا الميناء على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، كما استولى على كمية وافرة من المتفجرات التي كانت تعرف باسم النار اليونانية وقد نصح ميخائيل بعض مستشاريه ومنهم البطريرك نقفور ، بقبول شروط الصلح التي عرضها كروم ولكن كان هناك اخرون على راسهم الاب الستودي تيودور راوا أن تستمر الحرب ضد البلغار بشدة،وقد رجح رأى جماعة الاب تيودور ، وفي حزيران ٨١٣ سار جيش بيزنطي كبير للقاء القبائل البلغارية المهاجمة والتقى بهم في معركة قرب مدينة أدرنه ، وبدأت المعركة في الثاني والعشرين من الشهر نفسه واشتركت فيها القوات البيزنطية لمقاطعتي تراقية ومكدونيا ، اما القوات التي جاءت من اسيه الصغرى وكان على رأسها القائد ليون الأرمني حاكم مقاطعة الاناضول فقد رفضت الاشتراك في القتال ، وتركت ساحة المعركة وولت الادبار هاربة ، وقد كان لهرب هذه القوات أثره في اضعاف الروح المعنوية في الجيش البيزنطي مما أدى الى نصر ساحق لكروم وجيشه .

كان لهذا النصر البلغاري الجديد اثره في زعزعة سلطة الامبراطور ميخائيل الاول ، وفي احياء سياسة العداء للايقونات ، وفي الشهر التالي تموز بعد انكسار الجيش البيزنطي أمام البلغار بقليل خلع الامبراطور ميخائيل الأول وتوج عوضا عنه ليون الارمني الذي رفض أن يشترك في القتال ضد البلغار وكان ليون الارمني الذي عرف بالخامس(٨١٣ ـ ٨٢١)عسكريا من أصل شرقي ،

يكره بالوراثة عبادة الايقونات وقد حاول أن يحيي مجد دولته العسكري وأن يعيد سياسة العداء للايقونات وذلك لانه أمن واتباعه بأن مالحق الامبراطورية من اخفاق عسكري كان نتيجة لاستلام حزب اصدقاء الايقونات الحكم •

وما كاد ليون الخامس يستلم العرش حتى واجهته مشاكل عسكرية ملحة فقد استفاد كروم من انتصاره على ميخائيل الأول ليقوم بهجوم جديد فحاصر مدينة أدرنة ، وسار بجيوشه ليحاصر القسطنطينية ولم تكن قد مضت الا أيام قلائل على اعتلاء الامبراطور الجديد العرش ووجد كروم نفسه بعد حصار طويل عاجزا عن أن يقتحم اسوار القسطنطينية ، هذه الاسوار التي كانت دوما سدا منيعا في وجه كل اعداء بيزنطة ، فاضطر لان يطلب من الامبراطور عقد اجتماع بينهما للتفاوض من اجل الصلح ، وجاء كروم الى مكان الاجتماع ، كما نص الاتفاق بدون سلاح ، ولكن الامبراطور البيزنطي حاول الغدر به وقتله ولم ينقذه الا ذكاؤه وسرعة خاطرة فهرب قبل ان تنفذ المؤامرة ضده ووصل الى حيث كا ن يعسكر جنده، فعاد بهم الى ادرنه مصمما على الانتقام من محاولة غدر البيزنطيين به فكان يحرق ويدمر كل ما يمر به من مدن وقرى ، ولما وصل الى ادرنه هدمها تهديما كاملا ونقل سكانها وسكان القرى المجاورة لها الى ماوراء الدانوب ، وفي الربيع زحف كروم على رأس جيش جديد لحصار القسطنطينية ، ولكن الأقدار انقذت بيزنطة هذه المرة أن كروم توفي فجأة في ١٣ نيسان ٨١٤ م نتيجة انفجار دماغي .

وخلف كروم في زعامة البلغار زعيم قوي اخر اسمه اومورتاغ ، وكانت اهداف هذا الزعيم الجديد تتلخص في أمرين أولهما تقوية مواقفه في المنطقة الشمالية الغربية وثانيهما تقوية الوضع الداخلي وتثبيت حكمه في الداخل .

لذا عقد هدنة مع بيزنطة مدتها ثلاثين عاما ونصت هذه الهدنة على أن تقسم مقاطعة تراقيا بين بيزنطة وبلغاريا ، وهكذا وبعد فترة طويلة من الاحداث العاصفة في منطقة البلقان ساد السلام في هذه

المنطقة ، وأخذت الآمال بالاستقرار تداعب مخيلة سكانها ، كذلك في الشرق كانت بيزنطة تنعم بفترة هدوء نسبية سببها وفاة الخليفة هارون الرشيد وقيام الصراع بين ولديه الامين والمأمون مما شغلهما عن كل عمل خارجي ، وهكذا نعمت بيزنطة في هذه الفترة بشيء من الهدوء على طول حدودها .

وحاول ليون الخامس خلال فترة السلم هذه أن ينفذ خططه المعادية للايقونات ، فلم تكد الأوضاع تهدأ قليلا بعد وفاة كروم المفاجيء حتى أمر العالم الديني يوحنا فراما تيكوس بأن يعد العدة لعقد مجمع ديني تبحث فيه قضية الايقونات وتصدر عنه قرارات معادية لها ، وكان يوحنا فراماتيكوس من الشخصيات الدينية المعروفة بعدائها للايقونات ، وقد حاول الامبراطور ان يستغل سياسته الدينية ليجمع حوله جميع العناصر الناقمة على الاوضاع السالفة ولاسيما ضمن المحيط الديني ، وكان ليون الخامس قبل أن يعتلي العرش قد اعطى البطريرك نقفور تعهدا مكتوبا بأنه لن يقوم بأي تغيير في المناصب الدينية غير ان هذا البطريرك وجد نفسه بعد اعتلاء الامبراطور الجديد العرش وسط دوامه من المشاكل الدينية اثارتها سياسة الامبراطور المعادية للايقونات ، وقد قربت هذه المشاكل بينه وبين عدوه القديم تيودور الستودي لانهما عارضا سياسة الامبراطور الدينية ، وقد تزعم البطريرك نقفور والراهب تيودور الستودي حملة المعارضة ضد الامبراطور وكتبا البحوث والمقالات في الرد على فكرة تدخل الدولة في الشؤون الكنسية غير أن هذه الكتابات لم تجد نفعا بل على العكس ادت الى أن امر ليون الخامس بنفي تيودور وعزل نقفور من كرسي البطريركية .

وفي اليوم الاول من نيسان ٨١٥ انتخب تيوديوس ميليسينوس وهو احد رجال البلاط النبلاء وقريب احدى زوجات الامبراطور السالف قسطنطين الخامس بطريركا للقسطنطينية •

وبعد تعيين هذا البطريرك بقليل دعا إلى عقد مجمع ديني تحت رئاسته في كنيسة أيا صوفيا ، وكان من جملة قرارات هذا المجمع

رفض ماجاء في قـرارات مجمـــع نيقيه المســـكوني الذي عقـــد سنة ٧٨٧ وتثبيت مقررات المجمع الديني المقدس المعادي للايقونات والذي عقد سنة٧٥٤ م ومع أن أعضاء المؤتمر الديني هذا اعتــرفوا بأنهم لايعدون الايقونات اصناما تعبد ولكنهـم مــع هــذا رفضــوا تقديسها ورأوا ضرورة تهديمها ، والواقع أن قرارات هــذا المؤتمــر كانت ترديدا واضحا لما جـاء في مقــررات المجمــع الديني المعــادي للايقونات الذي عقد سنة ٧٥٤ م وصيغ في جمل غامضـــة ليس لهــا معنى واضحا ، واذا صح هذا عن قرارات المجمع الديني الذي نحن بصدده فهو يصح على جميع ماتم من اعمال الاحياء للحركة المعادية للايقونات في هذا القرن وذلك لأن الحركة المعادية للايقــونات زمــن الاباطرة ليون الثالث وقسطنطين الخامس كانت حركة تتصف بالقوة والتصميم في حين ان الحركة الحالية كانت حركة ضعيفة تعتمد على تقليد الاراء الســالفة ، ولكن رغم كل شيء ســار الامبــراطور ليون الخامس قدما في سياسة اضطهاد العناصر المعــادية لأرائه الدينية ، ويلاحظ المؤرخون أن أعمال ليون الخامس كانت تتصف دوما بخوفه من فقدان عرشه ، وهــذا الخــوف هــو الذي أملى عليه الكثير مــن التصرفات القاسية ولاسيما في السنين الاخيرة من حكمه ، وبالرغم من كل ماالتخذه من احتياطات لحماية شـخصه فـان مخــاوفه قــد تحققــت اذ انه في يوم عيد الميلاد لعــام ٨٢٠ وبينمــا كان يحضر قداس هذا العيد في كنيسة أيا صوفيا اغتيل وهو واقف أمام المذبــح من قبل اتباع زميله القديم في السلاح ميخائيل العمــوري الذي حــل محله على عرش بيزنطة تحت اسم ميخائيل الثاني .

الاسرة العمورية (٨٢١ ـ ٨٦٧)

كان ميخائيل الثاني الذي حكم بين سنتي ٨٢٠ ـ ٨٢٩ وهــو مؤسس حكم الأسرة العمورية جنديا خشن الطباع تنقصــه اللياقــة والثقافة ، ولكنه الى جانب ذلك كان حســن الفهــم قــوي العــزيمة يتصف بالاعتدال عامة ، وقد خمدت خلال حــكمه الخــلافات الدينية

وتوقفت سياسة اضطهاد العناصر الموالية لعبادة الايقونات ، واعيد من المنفى البطريرك نقفور وتيودور الستودي - وغيرهما من الذين نفوا ايام الامبراطور ليون الخامس ، ولكن الامبراطور ميخائيل الثاني لم يسر في سياسته الدينية شوطا يرضي الاورثوذكس المتعصبين رضاءا تاما اذ انه لم يعد للايقونات ما كان يريده لها اتباعها من اجلال ،واتبع هذا الامبراطور سياسة دينية وسط ، فهو لم يمنح تأييده لا لمقررات مجمع نيقية المقدس الثاني ولا لمقررات المجمع الديني الذي عقده سلفه الامبراطور ليون الخامس ،وكان ميخائيل الثاني في الاصل من فريجيا ، المنطقة المشهورة بعدائها للايقونات ، وهو نفسه كان يضمر العداء لها ، ولكنه لم يصرح بهذا العداء ، ويظهر عداء الامبراطور للايقونات من رسالة كتبها الى لويس التقي يشكو له فيها ، ويعلن سخطه على عبادة الايقونات ، كما يظهر سخط الامبراطور عليها من حقيقة كونه عهد بتربية ابنه وولي عهده تيوفيلوس إلى يوحنا غراما تيكوس أحد اعداء الايقونات اللدودين ، والى جانب هذا فانه حين شغر كرسي البطريركية لم يعين لهذا الكرسي شخصا من انصار الايقونات بل عين انتوني الذي كان على وفاق مع يوحنا غراما تيكوس ، ومع هذا كان ميخائيل يدرك أن حركة العداء للايقونات لم تعد حركة يؤمل لها النجاح ، فتعامل معها بحذر كبير .

وكانت أهم الحوادث الداخلية التي وقعت زمن ميخائيل الثاني هي الحرب الاهلية الضارية التي أثارها شخص سلافي من اسيا الصغرى اسمه توماس ، كان في وقت من الاوقات زميلا في السلاح للامبراطور ويرجح أن ثورة توماس كانت بتحريض الخليفة المأمون الذي كان يريد اثارة الاضطراب داخل الامبراطورية لصالحه ، وقد تجمع لتوماس هذا جيش كبير من المقاطعات الشرقية منذ أيام الامبراطور ليون الخامس • وكان قوام جيش توماس اعداد كبيرة من الارمن وسكان آسيا الصغرى وبعض العرب والفرس • ذلك أن هذه المنطقة بأخلاط السكان التي كانت تقطنها وبالعنصر السلافي الذي شكل نسبة كبيرة من سكانها كانت أرضا صالحة لمثل هذه

الثورة ، وقد قويت شوكة توماس كثيرا لادعائه بأنه هو الامبراطور قسطنطين السادس الذي انتزع منه عرشه بشكل غير شرعي وأنه نصير الايقونات الذي يريد أن يعيد لها قداستها ٠

واهم ما يجلب الانتباه في هذه الثورة هو الجانب الاجتماعي فيها اذ أن توماس أعلن أنه الانسان الذي سيحقق للفقراء المساواة مع الاغنياء وانه سيعمل على تخفيف اعبائهم ، وقد ساعده هذا على جلب اعداد ضخمة من جماهير الشعب إلى جانبه ، هذه الجماهير التي كانت تنوء باعباء العوز الاقتصادي ، وهكذا رفع أنذاك العبيد أيديهم في وجوه سادتهم كما رفع الجند أيديهم في وجوه قوادهم ، اذن قامت هذه الثورة على اسس عرقية ودينية واجتماعية وعمت معظم اراضي آسيا الصغرى ، وقد توج بطريرك انطاكية الثائر توماس امبراطورا وتتويج بطريرك انطاكية لتوماس امبراطورا يؤخذ كدليل على تأييد الخليفة الاسلامي لتوماس لان انطاكية كانت تابعة للخلافة الاسلامية ولا يستطيع بطريركها أن يقوم بالتتويج دون موافقة الخليفة ، وقد أعلنت قبرص ولاءها لتوماس مما ساعده على السيطرة على بعض القوى البحرية وبالتالي سهل له مهمة العبور الى الجزء الاوروبي من الامبراطورية حيث أمكنه أن يجمع تحت لوائه العناصر المحبة للايقونات هناك ، وسار توماس بقواه لحصار القسطنطينية في كانون الاول من عام ٨٢١ ودام حصاره لها اكثر من عام . ولكن لم يؤت هذا الحصار الثمار التي كان يرجوها توماس بل على العكس أدى إلى اضعاف قوة الجيش الثائر ، وساعد ميخائيل الثاني كثيرا كون جيشه منظما وجيش خصمه تعمه الفوضى ، الى جانب هذا فقد جاء خان البلغار لنجدة الامبراطور ميخائيل الثاني ، وكما حدث من قبل زمن ليون الثالث حين حاصره العرب وجاء البلغار لنجدته ، فان اومورتاغ خان البلغار الحالي وابن كروم عدو بيزنطة اللدود جاء الآن لنجدة ميخائيل الثاني و ساعده على التغلب على خصومه وهكذا تمكن الامبراطور في ربيع سنة ٨٢٣ أن يجبر توماس على رفع الحصار

عن القسطنطينية ومطاردته حتى تمكن ميخائيل من القبض عليه وقتله بعد أن عذبه عذابا فظيعا .

أمن هذا النصر لميخائيل الثاني السيادة على البلاد ، ولكن الحرب الداخلية الطويلة أضعفت بيزنطة الى حد بعيد وأظهرت أن الناس لايشكون فقط من المشاكل الدينية بل من الظلم الاجتماعي ايضا ، يضاف الى هذا انه بالرغم من ان الخلافة الاسلامية التي ساعدت توماس في ثورته لم تتمكن من استغلال هذه الثورة لتوجه ضربة من جانبها ضد بيزنطة لاسباب عديدة فان حملات عربية اخرى تمكنت كما راينا من أن تستخلص جزيرة كريت من بيزنطة وتخضعها لسيادتها وهكذا فقدت بيزنطة أهم قاعدة بحرية لها في الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، ولم تنجح محاولات ميخائيل الثاني ومن خلفه من الاباطرة لاسترداد كريت وظلت هذه الجزيرة لمدة قرن ونصف القرن بأيدي المسلمين يقومون منها بغاراتهم البحرية على ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في المنطقة المجاورة .

ولم يكتف العرب في هذه الفترة باحتلال كريت بل وجهوا ــ كما اوضحنا ــ جيوشهم ضد صقلية بقصد فتحها ، وهكذا أخذت سيادة بيزنطة في البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي تتناقص وتزول بالتدريج ، ويرجع أن سبب هذه الانكسارات هو أن بيزنطة منذ زوال سلطان الخلفاء الامويين الذين أولوا أمر الاسطول والمعارك البحرية قسطا هاما من عنايتهم لم تعد تهتم بتقوية اسطولها مما ادى الى هذه الخسائر التي المت بها .

وبعد وفاة ميخائيل الثاني خلفه ابنه ثيوفيلوس على عرش القسطنطينية ليحكم فترة من الزمن امتدت بين سنتي ٨٢٩ ــ ٨٤٢ ، وعلى عكس ابيه الذي كان لايعرف من الكتابة والقراءة الا النذر اليسير ، كان ثيوفيلوس ذا ثقافة عالية وحب شديد للعلم والفن ، ولم تكن ثقافة الامبراطور الجديد محدودة الجوانب ومقصورة على معطيات الفكر البيزنطي بل تعدتها الى

الافاق الفكرية العالمية اذ اننا نرى أن الامبــراطور كان متــأثرا الى ابعد الحدود بالنهضة الفكرية والفلسفية التي كانت مزدهرة في بلاط بغداد تحت ظل الخلفاء العباسيين ، وكان تيوفيلوس معجبــا أشــد الاعجاب بالفن الاسلامي كما كان من الد اعداء الايقونات ، ويعــزو المؤرخون هذا الاعجاب وهذا العداء الى تاثير مــؤدبه يوحنا غرامــا تيكوس ، وقد شهد حكمه أخر موجة من موجات العداء للايقونات ، كما يعرف عصره بأنه العصر الذي كان فيه للثقافة الاسلامية اقــوى الاثر في العالم البيزنطي.

لم يكن تيوفيلوس حاكما فــذا ولكنه ذا شــخصية ممتعــة، وكان الجانب العاطفي يطغى على شخصيته ، وكمثال على هذه العــاطفة يمكننا أن نذكر تعلقه بالافكار المعادية للايقونات مع أن هذه الافــكار كانت تحتضر ولا أمل في نجــاحها ، كمــا يمــكننا ان نذكر تعلقــــه وحماسه للثقافة والفن العربيين مــع أنهمــا مــن نتـــا ج اعدائه ، وصــحيح انه كان قــاسيا في معــاملته لبعض الذين خــالفوا اراءه الدينية ، ولكن هــذه القســوة لم تثـــــر عداء الناس له لانه كان ذا شخصية محببة أحيطت في أذهان الناس بــالاساطير والخــرافات ، لقد اراد ثيوفيلوس ان يكون حاكما مثاليا وكان يحــركه حس عميق ورغبة صادقة في نشر العدالة بين أوســاط شــعبه ، وكان هــارون الرشيد مثله الاعلى من بين الحكام المعاصرين ، فكان يسعى جاهدا لأن يقلده في اعماله ، فكان يجوب أحياء العاصمة ويتصل بــالفقراء والضعفاء ويستمع الى مطالبهم ويقتص لهم من خصومهم مهما علت مرتبتهم أو وظيفتهم .

وفي زمن تيوفيلوس جرت اصلاحات ادارية هامة ولاسيما تقسيم الامبراطورية الى مقاطعات جديدة وسارت الحركة الاصلاحية شوطا ابعد من الشوط الذي سارته في عهد إسلافه ففــي حين أن اســلافه اهتموا بالتقسيمات الجديدة في منطقة البلقان ،فقد اهتم هــو بــأمر المقاطعات الشرقية والشمالية وأعاد النظــر في تقســيماتها الادارية فأوجد مقاطعتين جديدتين هما بــاغلاغونيا وكالديا ليقــوى مــركز

بيزنطة على البحر الاسود كما أوجد ثلاث وحدات ادارية وعسكرية جديدة في المنطقة الجبلية المتاخمة للحدود العربية

واهتم ثيوفيلوس كما قلنا بتنظيم الممتلكات البيزنطية الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الأسود فأوجد في هذه المنطقة مقاطعة مركزها مدينة مرسون يحكمها حاكم عسكري برتبة ستراتيغوس .

وعلى الرغم مما أبداه الامبراطور ثيوفيلوس من حب واحترام للثقافة والفن العربيين كما ذكرنا فان عهده بكامله كان عهد كفاح وحرب ضد العرب المسلمين فقد كان الخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) مشغولا أول الامر ـ كما نعلم ـ بالفتن والثورات والمشاكل الداخلية التي شغلت الفترة الاولى من حكمه بكاملها ،ولكن منذ عام ٨٣٠ فما بعد شعر هذا الخليفة بعد أن سيطر على الاوضاع في بلاده انه لابد أن يعود لمقارعة البيزنطيين بعد أن توقف الجهاد ضدهم لفترة طويلة عقب وفاة أبيه الرشيد ، وقد استغل المامون المتاعب التي كانت تتخبط فيها الامبراطورية البيزنطية وعدم استطاعتها توجيه كافة قواتها الى أسية الصغرى بسبب هجمات عرب تونس على صقلية وفتحهم لعاصمتها بلرم ، واستغل المأمون هذا فوجه قواته الى أسية الصغرى ليناوش ثيوفيلوس ويشتبك معه في قتال ، وكان النصر في هذه المعارك بين ثيوفيلوس والعباسيين سجالا يلوح مرة لثيوفيلوس فيقيم الاحتفالات الضخمة في القسطنطينية ابتهاجا بذلك ، ويلوح مرات كثيرة أخرى لخصومه المسلمين فيتراجع عن الحرب ويرسل الوفود الى بغداد مثقلة بالهدايا طالبة الصلح من الخليفة ، وقد ازداد شعور ثيوفيلوس بالخطر العربي زمن الخليفة المعتصم الذي بعد أن سوى المشاكل الداخلية في مطلع حكمه قاد حملة ضخمة ضد بيزنطة وذلك سنة ٨٣٨ م وكانت حملة المعتصم هذه بخلاف ما تقدمها موجهة الى الممتلكات البيزنطية في قلب أسية الصغرى لا إلى الحصون التي كانت على الحدود بين الدولتين فقط ، فقد توجه قسم من جيش المعتصم الجرار باتجاه الشمال الغربي وكسر الجيش البيزنطي الذي كان يقوده الامبراطور ثيوفيلوس نفسه في موقعه رهيبة عند

موقع دزيمول او دزمانا • وذلك في ٢٢ تموز سـنة ٨٣٨ م في حين هاجم بقية الجيش العربي وعلى راسـه المعتصـم نفسـه عمـورية في ١٢ ـ اب من السنة نفسها وخربها تخريبا تاما ، وكان لاحتلال عمورية وتهديمها وقع الصاعقة على بيزنطـة وذلك لان هـذه المدينة كانت اكبر القلاع واهمها في منطقة الاناضول ، ولأنها كانت مسقط راس البيت الحاكم انذاك في بيزنطـة والذي انحـدر منه تيوفيلوس نفسه • وحين شدد عرب تونس في الوقـت نفسـه قبضـتهم عليه في الجزء الغربي من امبراطوريته ، وجـد ثيوفيلوس نفسـه مضـطرا للاستنجاد بالفرنجة والبندقية •

وفي زمن هذا الامبـراطور حـاول أعداء الايقـونات محـاولتهم الاخيرة للقضاء عليها ولكن دونما نجاح يذكر،ففي سـنة ٧٣٧ عين تيوفيلوس العالم الديني المعـادي للايقـونات يوحنا غرامـا تيكوس بطريركا على القسطنطينية ، فبدأ هذا حملة جـديدة ضـد مـؤيدي الايقونات ، وكما حدث من قبل كان الهجوم مـوجها ضـد جمـاعة الرهبان الذين كانوا من أشد انصار الايقونات حماسا ، وقد اتخـذ هذا الهجوم اشكالا مختلفة من الوان التعذيب والجـور ، ومـع أن الامبراطور وصديقه البطريرك اسـتعملا مـاكان في وسـعهما مـن اساليب لانهاء عبادة الايقونات فانه كان واضـحا أن جهـدهما لن يكتب له النجاح في اسيا الصغرى التي كانت في يوم مـن الايام مـن أشد اعداء الايقونات حماسا •

واقتصر تأييد الامبراطور في سياسته الدينية هذه على العـاصمة وحدها اما المقاطعات فقد كانت كلها من انصار الايقونات .

وفي العشرين من الشـهر الاول سـنة ٨٤٢ تـوفي الامبـراطور ثيوفيلوس وبموته ماتت الحركة المعـادية للايقـونات ، ممـا انقـذ بيزنطة من ازمة دينية كانت تعصف بهـا ، وهيأ لهـا انتهـاء هـذه الازمة عهدا جديدا من الازدهار .

وكانت فترة الصراع من أجل الايقونات فترة حـاسمة بـالنسبة للتطور الروحي للامبراطورية تعادل في أهميتها ونتائجها الصراع مع

العرب الذي قرر مستقبل بيزنطة من الناحية السياسية ، وكما رأينا فان الامبراطورية لم تكد تنعم بشيء من الهدوء والسلم في ميادين القتال مع العرب حتى قامت في داخلها معركة دينية ضارية تمركزت حول عبادة الصور ، وكان معنى انهزام الدولة أيام ثيوفيلوس في المعركة الدينية ضد الايقونات أن اثار هذا الانهزام ستظهر واضحة جلية في الميدان الثقافي أكثر من أي ميدان أخر ٠ اذ أن انتصار عبادة الصور كان يعني انتصار المفاهيم الدينية والثقافية الاغريقية وانخزال المفاهيم الاسيوية الشرقية التي تبنت العداء للصور ، لقد اصبحت بيزنطة بنتيجة انتصار مؤيدي الصور والايقونات امبراطورية اغريقية تحتل مكانه ثقافية فريدة هي وسط بين الشرق والغرب .

وشرعت بيزنطة بعد أزمة الايقونات تستقبل عصرا جديدا تميز بالعظمة في الميدانين الثقافي والسياسي ٠ وكانت بداية هذا العصر الجديد لا في زمن الاسرة المكدونية بل في أواخر أيام حكم الاسرة العمورية ، أيام الاباطرة ميخائيل الثالث،وبارداس،وفوقاس ، وقسطنطين الذين كانوا من أعظم الحكام الذين شهدتهم القسطنطينية .

وكان من نتيجة ازمة الايقونات قلة اهتمام الدولة بأمور السياسة الخارجية وانصرافها عن التفكير في انشاء امبراطورية عالمية تكون عاصمتها القسطنطينية كما كان الحال فيما مضى وانهيار مركزها الذي كانت تحتله في الجزء الغربي من العالم الاوروبي ،وقد زاد التباعد بين بيزنطة والغرب السياسة الدينية للاباطرة النين عادوا الايقونات وقلة اهتمام هؤلاء الاباطرة بالغرب بشكل عام الأمر الذي ادى في النهاية إلى تتويج شارلمان امبراطورا من قبل البابا ٠ والملاحظة الهامة في هذا المجال هي انه اذا كان صحيحا أن الامبراطورية البيزنطية في هذه الفترة قد اضاعت الكثير من هيبتها في الغرب فانه صحيح ايضا ان الكنيسة الرومانية (البابوية) قد تعرضت للكثير من المتاعب في الشرق لاسيما زمن الامبراطور ليون

الثالث الذي الحق ببطريرك القسطنطينية الجزء الاكبر من البلقان وجنوبي ايطالية وجعل سكان هذه المناطق يتبعونه دينيا بعد أن كانوا من رعايا البابوية في روما • ولكن مركز القسطنطينية الديني ومكانتها كمنافسة حقيقية لروما لم يثبت الا بعد أن انتهت ازمة الايقونات، وكما كان قيام الامبراطورية الفرنجية في الغرب نكسه لآمال بيزنطة في أن تكون لها السيادة السياسة على أوروبا فان اتساع النفوذ الديني لبطريركية القسطنطينية كان ايضا نكسة لآمال البابوية التي كانت لاتؤمن بوجود منافس لها في ميدان الزعامة الدينية ، وكان المجال الهام لاضطهاد نفوذ بيزنطة الديني بعد ازمة الايقونات أن بطريركية القسطنطينية اخذت على عاتقها امر تنصير العناصر السلافية الجنوبية والشرقية .

وهكذا نرى أن التوسع السياسي والعسكري قد تبعا التقدم والاستقرار في مجال الثقافة والعقيدة ، فالامبراطورية التي كانت زمن ازمة الايقونات تقف موقفا دفاعيا ضعيفا أمام العرب المسلمين والبلغار استطاعت بعد انتهاء هذه الازمة أن تمد حدودها في الشرق بعد قتال عنيف ، وأن تعيد سلطانها من جديد على عموم شبه الجزيرة البلقانية ، كما استطاعت أن تستعيد هيبتها في منطقة البحر المتوسط بعد أن نقصت هذه الهيبة كثيرا ابان الأزمة الدينية . وساعدها على هذا ماحل بالدولة العباسية بعد المتوكل ، واهمال هذه الدولة القارية العاصمة شؤون البحر والأساطيل .

لقد تم اعادة الاعتبار للايقونات بعد موت ثيوفيلوس على يد امرأة كما حدث تماما في نهاية القرن الثامن زمن الامبراطوره ايرين ، فقد صادف حين وافت المنية الامبراطور ثيوفيلوس أن كان ابنه ووريثه ميخائيل الثالث (حكم بين سنتي ٨٤٢ ـ ٨٦٤)لايتجاوز السادسة من عمره فاصبحت أمه ثيودورا وصية عليه ونائبة عنه في حكم الامبراطورية وقد شاركت اخته تقلا أمها في حكم الامبراطورية نيابة عن أخيها الامبراطور الصغير فظهرت صورة الأخت مع أمها.

واخيها على العملة ، وحملت القرارات التي صدرت اسمها جنبا الى جنب كل من اسم الامبراطور وأمه ، وقد شكل مجلس ليساعد ثيودورا في حكم الامبراطورية نيابة عن الامبراطور الصغير كان أهم اعضائه اخوتها (اي أخوة ثيودورا) بارداس وبيتروناس وعمها القاضي سرجيوس نيستباتس وغيرهم ، وكان أول القضايا التي اوكلت الى هذا المجلس لحلها بالتعاون مع بطريرك القسطنطينية هي قضية اعادة الاعتبار لعبادة الايقونات . والطريف في الأمر أن أعضاء هذا المجلس الذين كانت أولى واجباتهم وأهمها اعادة تقديس الصور كانوا جميعا من المقاطعات الشرقية التي رفعت راية الحرب ضد الايقونات في الماضي ، فثيودورا كما هو معلوم من مقاطعة بافلاغونيا ومن أصل أرمني شرقي . وحتى يعيد مجلس الوصاية على العرش الاعتبار للايقونات كان لابد له أول الأمر من عزل يوحنا غراماتيكوس من منصب بطريرك القسطنطينية وتنصيب مينوديوس بطريركا ، وبعد هذا أصدر المجلس قرارا في شهر اذار سنة ٨٤٣ أعاد بموجبه العمل بعبادة الايقونات كما كان الحال في الماضي .

وفي ذكرى هذا القرار تحتفل كنيسة الارثوذكس كل عام وفي أول احد من احاد فترة الصوم بعيد تسميه (عيد الاورثوذكسية) وهو في الحقيقة تخليد لذكرى الانتصار على الحركة المعادية للايقونات وغيرها من الهرطقات القديمة ، وقد انهى قرار اعادة الاعتبار للايقونات فترة طويلة من الصراع الديني دفعت بيزنطة ثمنها الشيء الكثير من امنها واستقرارها وقوتها ، ويرى بعض المؤرخين أن الهزيمة التي لحقت بأعداء الصور والايقونات كانت ذات اثر بالغ على العلاقة بين الدولة والكنيسة اذ انها كانت في نظرهم اخفاقا تاما لمحاولة الدولة اخضاع الكنيسة لسيطرتها وجعلها تبدو أنها تابعة لها كغيرها من المؤسسات ، ونخلص من كل ماحدث أن أزمة الايقونات والنتيجة التي الت اليها كانت لصالح الكنيسة اذ أنها ثبتت شخصيتها وأبرزت نفسها كمؤسسة قوية ذات سيطرة وسلطان ، وسواء وافقنا على هذا الراي أم لم نوافق ان الشيء الأكيد

هو أن الكنيسة البيزنطية لم تستطع في اي وقت من الاوقات أن تحصل على حرية التصرف بعيدا عن ارادة الدولة وظلت علاقتها خلال تاريخها علاقة تعاون لايخلو من الخضوع لأن الكنيسة كانت دوما بحاجة للحماية التي يوفرها لها الدولة.

وبعد أن حلت مشكلة الايقونات واستقرت الأمور في الداخل بدا ثيوكتستوس – وهو أحد أعضاء مجلس الوصاية على العرش وكانت تيودورا تمنحه ثقتها وتفضله على اخوتها الاعضاء في المجلس نفسه – يقوي نفوذه ضمن المجلس ويبعد خصمه بارداس (اخا الامبراطورة ثيودورا) ولم تمض الا برهة وجيزة حتى اصبح المستشار الوحيد للامبراطورة . وكان ثيوكتيستوس هذا من الم رجال عصره وأوسعهم ثقافة ، فأهتم بأمر الاحياء الثقافي في الامبراطورية واعتنى بالتعليم عناية لم تشهد لها بيزنطة من قبل مثيلا ، وكان لخبرته الواسعة في الشؤون المالية (كان ثيوكتيستوس في الاساس من كبار الموظفين الماليين) الفضل في توفير احتياطي كبير من الذهب لبيزنطة ، ولابد من التنويه هنا الى أن اعادة الاعتبار للايقونات في هذه الفترة لم يكن له من النتائج مايشابه ماحدث زمن الامبراطورة ايرين ، وذلك لانه ، على عكس ماكان عليه الحال انذاك ، لم يكن في بيزنطة في هذه الفترة حزب او فئة تناصر الايقونات او تتحمس لها كما مضى ، يضاف الى هذا ان ثيودورا وثيوكتيستوس ومعهم البطريرك ميثوديوس كانوا حذرين في الخطوات التي اتخذوها للقضاء على أعداء الايقونات ولم يستعملوا العنف معهم ، وعلى الرغم من كل الحذر والاعتدال اللذين استعملتهما الامبراطورة ومساعدوها في معاملة أعداء الايقونات فان بعض الغلاة ، ولاسيما الرهبان الستوديين ظلوا مصدر فتنة بالنسبة للدولة مما اضطر الكنيسة لطردهم من الجماعة المسيحية . وفي الرابع عشر من شهر حزيران من سنة ٨٤٧ م توفي البطريرك ميثوديوس فخلفه بطريرك جديد اسمه اغناطوس ، وهو

ابن للامبراطور الراحل ميخائيل رانغاب ، وكان قد خصي بعد عزل

ابيه عن العرش ودخــل في ســلك الرهبنة ، وكان اغناطيوس هــذا راهبا شديد التمسك برهبنته ، وقــد أدى هــذا الى وقــوفه مــوقفا متخاذلا امام الرهبان الستوديين وبــالتالي الى اشـــتداد أمـــر معارضتهم للدولة وانتهى الأمر بان أصبح اغناطيوس طرفا في نزاع ديني جديد ، في حين أن مهمتــه كانت تقضي بــانهاء كل الخــلافات والخصومات الدينية .

وعقب انتهاء ازمة الايقونات التفتت بيزنطة الى متابعة حــروبها مع العرب المسلمين فقد قاد ثيوكتيستوس حملة كبيرة ضــد كريت في عام ٨٤٤ م ، ولكن لم يكتب لهـذه الحملة اي انتصــار ويبــدو أن السبب في ذلك يعود الى حــد بعيد لجهــل ثيوكتيســـتوس كقـــائد عسكري ، وتبع انكساره في كريت انكسار أخر امام العرب عند نهر موروبوتاموس الذي يصب في البوسفور ، وحدوث هذه المعركة قرب هذا النهر دليل واضح على مدى توغل العرب ضمن الحدود البيزنطية زمن الخليفة المعتصم ، ولكن اضطراب الأحوال زمن الخليفة الواثق بالله (ابن المعتصم حكم بين سنتي ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) اضطر هــذا الخليفة لأن يعقد صلحا مع البيزنطيين ، وأن يتبادل معهــم الأسرى في موقع قرب نهــر لامــوس على الحــدود بين الأراضي العـــربية والبيزنطية وذلك في سنة ٣٤٦ هـ ـ ٨٤٥ م وســاعد اضــطراب الاحوال الداخلية في بلاد الخلافة الاسلامية في هذه الفترة وانفصــال عدد من الدويلات عن جسد الدولة الأم في بغداد على إتــاحة الفــرصة لبيزنطة للاهتمام بحل مشاكلها الأخرى التــي كان أهمهــا مشــكلة طائفة دينية عرفت بطائفة البوليصيين ، وكانت فيمــا مضى تحــظى بعطف الأباطرة المعادين للايقونات لاتفاقها في الرأي معهم .

ومن ثم تمتعت بحماية الامبراطور نقفــور الأول . وقــد انتشرت اراء هذه الطائفة في آسيا الصغرى وكثر اتباعها لدرجة ان الأباطرة منذ ميخائيل الأول (٨١١ ـ ٨١٣ م) وجدوا ضرورة لايقــافهم عند حدهم لانهم أخذوا يشكلون خطرا على الدولة ، وقد اشترك في النقمة

عليهم والبطش بهم الأباطرة الأورثوذكس وأعداء الايقونات على حد سواء وبنتيجة الضغط عليهم والتنكيل بهم هرب قسم كبير منهم من الأراضي البيزنطية والتجأوا الى امير ملطية العربي ، وانضموا تحت لواء جيشه وحاربوا في صفوف العرب ضد بيزنطة• وقد عانى البوليصيون اقسى أنواع الاضطهاد زمن الامبراطورة ثيودورا أم الامبراطور ميخائيل الثالث والوصية عليه ـ وتعرض الكثيرون منهم للقتل أو الافناء بطرق وحشية مختلفة •

هذا ولم تقف في هذه الأثناء العمليات العسكرية بين العرب وبيزنطة ، وكان أبرز عملية قامت بينهم بعد عملية تبادل الأسرى عند نهر لاموس التي اسلفنا ذكرها الحملة البحرية التي قام بها اسطول بيزنطي ضد الشاطئ المصري في عام ٨٥٣ م ففي هذا العام ظهر اسطول بيزنطي امام شاطئ دمياط فجأة والقى على هذه المدينة الحصار وكانت هذه هي المرة الأولى منذ القرن السابع التي يجرؤ فيها اسطول بيزنطي على التوغل في المياه العربية الى هذا الحد، وكان الخليفة الواثق قد توفي في هذه الاثناء بعد اصابته بمرض الاستسقاء وخلفه على العرش اخوه الخليفة المتوكل على الله . وكانت الحملة البحرية لبيزنطة على دمياط ردا على الصوائف الثلاث التي قادها والى الثغور علي بن يحيى في السنوات ٨٥١ ـ ٨٥٣ فلما كانت سنة ٨٥٣ نزل الاسطول البيزنطي في دمياط وحاصرها واحرقها بعد ان هجرها سكانها وهربوا مخلفين ورائهم اموالهم وامتعتهم التي نهبها الجنود البيزنطيون.وقد نبهت هذه الحملة المفاجئة حكام مصر المسلمين الى ضرورة الاهتمام بانشاء اسطول قوي لحماية الشواطىء المصرية من هجمات مفاجئة كهذه ، ويذكر المقريزي ان امر البحر اصبح منذ هذه الحملة من اكبر الامور اهمية ، وقد بنيت السفن وجعل لرجال البحر عطاء الجند ، وكان هذا الاسطول الجديد النواة التي اعتمد عليها الفاطميون فيما بعد .

على أن فترة النشاط السياسي والفكري بالمعنى الواسع للكلمة لم

تبدأ في بيزنطة الا بعد انقلاب عام ٨٥٦ ،وهو الانقلاب الذي جاء بالامبراطور الشاب ميخائيل الثالث الى سدة الحكم ومعه خاله بارداس الذي اصبح المشرف الحقيقي على تسيير شؤون الدولة .

وبحكم ان كلا من ميخائيل وبارداس كانا من ضحايا حكم ثيودورا وثيوكتيستوس فقد اصبحا حليفين طبيعيين يجمع بينهما ضغط ثيودورا ومحاولتها الاستئثار بالسلطة مع شريكها ثيوتيستوس.. وقد بلغ تسلط ثيودورا على ابنها حدا جعلها تتدخل في ادق خصوصياته حتى انها فرضت عليه البعد عن خليلته والزواج من سيدة اختارتها هي له كانت لا تربطه بها اية رابطة من ود او تفاهم ، وفي غفلة من الامبراطورة استطاع بارداس باتفاق سري بينه وبين الامبراطور الشاب ان يتسلل الى البلاط وان يقوم بتدبير مؤامرة انتهت بمقتل ثيوكتيستوس بحضور ميخائيل الثالث ، وتبع هذه المؤامرة اعلان مجلس الوصاية ميخائيل حاكما مستقلا لايحتاج لأية وصاية،واجبرت ثيودورا بنتيجة كل هذا على التخلي عن سلطانها واشرافها على شؤون الدولة وارسلت بناتها الى دير للراهبات ، وهكذا لم تمض سنتان على هجوم ثيودورا الفتاك على اخيها بارداس حتى كانت هي تقاسي من المصير نفسه .

ولم يكن ميخائيل مثلا اخلاقيا اعلى في كل تصرفاته ، بيد انه لم يكن ايضا احمقا لا يصلح للادارة او تنقصه الشجاعة بل كان انسانا عاديا فيه من الصفات ما يحمد وما يذم ، دافع عن الامبراطورية بحماس واخلاص وقاد الجيوش بنفسه ، زيادة في الحرص على النصر ومع هذا كانت تعوزه الارادة القوية والشخصية الفذة التي تستطيع ان تبت بالامور او تقطع بها دون معونة الاخرين ، لذلك كثيرا ما كانت تتغير مواقفه من القضية الواحدة حسب تغير مستشاريه وتبدل الاتجاهات في بلاطه ، ولذا لم تكن المنجزات التي تمت اثناء حكمه من ابداعه او وحيه ، مما جعل الناس يقولون عنه انه لم يكن عظيما بذاته ولكنه عاش في فترة تمت فيها منجزات عظيمة الفضل فيها لبارداس وفوتيوس .

اصبح بارداس زمن ميخائيل الثالث الحاكم الحقيقي لبيزنطة ، كما كان حال ثيوكتيستوس زمن ثيودورا ، وحتى تعطى هذه السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها بارداس صفة رسمية اضفى عليه الامبراطور القاب شرف عديدة كما سماه بالنهاية قيصرا ، والحق ان بارداس كان رجلا من طراز فريد تمتع بذكاء ودهاء عظيمين فاق بهما جميع الذين تقدموه . ولم يكن عهده عهد منجزات هامة في حقول السياسة فحسب ، بل كان كذلك في حقل الثقافة ايضا ،ولعل خير شاهد على هذه المكانة الرفيعة التي وصلت اليها الجامعة التي نظمها في مانيورا والتي اصبحت من اهم مراكز العلم والتربية في بيزنطة بما افتتح فيها من فروع واختصاصات تتناول العلوم المختلفة التي كانت معروفة في ذلك العصر،ولم يكتف بارداس بتنظيم هذه الجامعة ، بل استدعى للعمل فيها جيشا من علماء العصر على راسهم العالم الرياضي ليون الذي كان موسوعي الفكر والثقافة بالرغم من كونه ابن اخ الايقوني الشهير يوحنا غراماتيكوس ، كما كان من بين اعضاء هيئة التدريس في هذه الجامعة فوتيوس الذي كان يعد اشهر اساتذة القرن التاسع .

وكما حدث تغيير في الجهاز الحاكم عقب تسلم ميخائيل الثالث سلطاته الدستورية فقد حدث تغيير ايضا في الجهاز الذي كان يدير الكنيسة أنذاك وذلك لانه لم يكن من الممكن ان يقوم اي نوع من انواع التعاون بين بارداس صاحب الكلمة العليا الان وبين اغناطيوس بطريرك القسطنطينية الذي كان من اتباع الحكام الماضين الذين خلعهم بارداس واستولى على السلطة منهم .

وهكذا اجبر اغناطيوس على الاستقالة من منصب البطريركية. وفي كانون الاول لعام ٨٥٨ م.رفع العالم فوتيوس الى السدة البطريركية وقد كان هذا التبديل بالنسبة للكنيسة بداية عهد من الازمات والمشاكل الدينية لم تعرف لها الكنيسة مثيلا في تاريخها المتقدم .لقد كان فوتيوس ابرز مفكر واقدر دبلوماسي واشهر سياسي يتولى منصب البطريركية في القسطنطينية .

وكما قام المتزمتون وحملوا الوية المعارضة ضد هؤلاء البطاركة كذلك قامت ضد فوتيوس عناصر الرهبان الستوديين وعلى راسهم الاب نيقولا وادعو ان تعيينه لم يكن شرعيا وان البطريركية الشرعية ما تزال من حق اغناطيوس ، وهكذا نشأ في بيزنطة حزبان دينيان حزب يدين بالولاء لفوتيوس ، وحزب يعتقد ان البطريرك الشرعي هو اغناطيوس .

والى جانب هذا الصراع الداخلي كان على البطريرك الجديد ان يواجه صراعا اكثر خطورة مع روما ، ففي اعقاب ازمة الايقونات وبشكل ادق نتيجة قيام امبراطورية مسيحية غربية ، دخلت العلاقات بين الكنيستين اللاتينية والاغريقية مرحلة جديدة مشحونة بالاضطرابات فقد استمر المتزمتون من رجال الدين يتطلعون نحو روما ويعتبرونها المركز الديني الاول برغم ما جد في مجال الكنيسة البيزنطية من اشياء جعلتها تحتل مركزا رفيعا في عالم الاهمية الدينية ، ومع ان العرف جرى منذ زمن الامبراطور نقفور الذي جددت في زمنه القطيعة بين كنيسة روما والقسطنطينية اثر التقارب بين روما والملكة الفرنجية بالا يرسل بطريرك القسطنطينية اعلاما بتعيينه لهذا المنصب الى بابا روما ، فان فوتيوس رغبة منه بتجنب المشاكل قام حين تسلم كرسي البطريركية بارسال هذا الاعلام الى البابا املا منه ان يساعده اعتراف البابا به على مواجهة خصومه داخل بيزنطة ، وصادف انه كان يجلس على العرش البابوي في هذه الاثناء البابا الطموح نيقولا الاول الذي كان قد صمم منذ اللحظة الاولى لتسلمه هذا المنصب على تعميم سيادة كنيسة روما على جميع كنائس العالم المسيحي ، لذلك استفاد من الصراع فتخلى عن صفة الحياد وانضم الى انصار اغناطيوس في عدم الاعتراف بشرعية فوتيوس ، وتجدر الملاحظة هنا انه صحيح ان رسم فوتيوس بطريركيا لم يتم حسب القواعد الدينية السليمة ولكن مثل هذا كان قد حدث بالنسبة للبطريرك تارازيوس الذي اعترفت به روما اعترافا كاملا ومحضته التاييد والثقة ، ولعل السبب في موقف البابا نيقولا الاول الان هو رغبته في ان يثبت دعائم السيادة البابوية واظهار

الذي يشغل هذا المنصب بمظهر السيد الاعلى الذي لاتنازع كلمته في القضايا الدينية في الشرق وفي الغرب ولهذا الغرض عقد مجمعا دينيا في اللاتيران واعلن خلع فـــوتيوس مـــن البـــــطريركية وذلك سنة ٨٦٣ م وكان رد فوتيوس عنيفا وقاسيا واثبت بتحديه لقرارات البابا والمجمع الذي عقـده عدم اهتمـام بـطريركية القسـطنطينية بقرارات روما ،واعلن ان شؤون الكنيسة البيزنطية من اختصـاص بطريرك القسطنطينية فقط وليس لأحد اي سلطان عليها .

وتابع ميخائيل الثالث الحروب ضد العرب بعزيمة وقوة وسـاعده في هذه الحروب عدد مـن القـادة الاقـوياء الذين كانوا في خـدمة الامبراطورية في زمنه .

ولكن النجاح لم يكن حليف بيزنطة في هذه الحـروب ولاسـيما في جبهة صقلية حيث اضاعت الامبراطورية مراكز دفـاعها واحـدا تلو الاخر . ولم تمض مدة طويلة حتى خضعت جزيرة صـقلية بـكاملها للعرب واخذ العرب يشقون طريقهم في جنوب ايطاليا ولم يكد حـكم ميخائيل الثالث يشارف على الانتهـاء حتـى كانت كل صـقلية بيد العرب اما في جبهة اسيا الصغرى فقد كان مـوقف بيزنطـة مـوقف الهجوم لا الدفاع .

وقامت جيوش الامبراطورية بعدة عمليات عسكرية حصلت فيهـا على بعض الانتصارات واخذت عددا من الاسرى ففي سـنة ٨٥٦ م اغار البيزنطيون على عين زربه في الثغور الشامية واسروا مـن كان بها من الزط مع نسائهم وذراريهم وجواميسهم وبقـرهم ، وفيهـا ايضا كان الفداء بين المسلمين والروم ، وقد قامت حـروب اخـرى مثيرة بين العرب وبيزنطة زمن ميخـائيل الثـالث في منطقـة اسـيا الصغرى كان الفـوز في بعضـها حليف بيزنطـة وحليف العـرب في بعضها الاخر ، كما قامت بين الطرفين معارك ولاسيما في سميساط على ان هذه الحروب لم تكن حاسمة بالنسبة لاي من الطرفين وكان يتخللها فترات سلم ومهادنة وعمليات تبادل اسرى ، وظـل الحـال كذلك حتى سنة ٨٦٣ م حين غزا عمر بن عبد الله الاقطع امير ملطية

منطقة ارمينيا واحتل ميناء امـاسية(اميسـوس) على شـواطىء البحر الاسود وقابله من الجانب البيزنطي القائد الشهير بتـروناس وجرت بين الطرفين معركة حامية انتهت بفوز بيزنطة ومقتـل عمـر نفسه والقضاء على الجيش الاسلامي ، وعد المؤرخـون البيزنطيون فوز بتروناس هذا على عمر ثأرا لموقعة عمورية التـي جـرت قبـل خمس وعشرين سنة،ومنذ هـذا الحين انتقلت بيزنطـة مـن جـانب الدفاع الى جانب الهجوم في اسـية الصـغرى . ولم يقتصر سـجل العلاقات بين العرب والروم في هذه الفترة على الحرب ، بـل قـامت بين الطرفين عمليات تبادل للسفارات والوفود ، وينقل لنا الطبـري حديثا على لسان نصرين الازهر رسـول المتـوكل الى الامبـراطور ميخائيل الثالث سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ـ ٨٦١ م يقـول فيه :«لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي ، فجرت بيني وبين خال الملك بطروكاس(لعله يقصد برداس) المناظرة وهو القيم بشأن الملك ، وابـو ان يدخلوني بسيفي وسوادي فقلت : انصرف فانصرفت ، فرددت مـن الطـريق ومعي الهدايا نحو الف نافجة مسك وثياب وحـرير وزعفـران كثير وطرائف .... وحملت الهدايا التي معي ، فدخلت عليه فاذا هو على سرير فوق سرير واذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت عليه ثم جلسـت على طرف السرير الكبير وقد هيء لي مجلس ووضعت الهـدايا بين يديه ، وبين يديه ثلاثة تراجمة فاقبلوا يترجمون ما اقـول ، فقبـل الهدايا ولم يأمر لاحد منهـا بشيء وقـربني واكرمني وهيأ لي منزلا بقربه » ... وتباحث نصر فيما يهمه من قضـايا مـع بـرداس خـال ميخائيل واخـذ منه الوعود فيمـا جـاء مـن اجله ... الى ان يقول :« فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ،فقلت : ايها الملك قـد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك ؟ فقال برأسه : نعم ولم اسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى ان خرجت منهـا انمـا يقـول الترجمان وهو يسمع فيقول بـرأسه : نعـم او لا ،» وليس يتـكلم وخاله المدبر امره » وحاول بعضهم ان يتخذ مـن هـذه الرواية دليلا على شخصية ميخائيل الضعيفة وخضوعه المطلق لسـلطان خـاله ، ناسين مكانة الامبراطور وسمو مكانته وتقديسه .

ولابد هنا من التنويه بان النصر الذي احرزه البيزنطيون سنة ٨٦٣ على العرب كان له اثر في تقوية موقفهم وتوجيه الاحداث وجهة جديدة في العالم السلافي الذي كان يحيط بهم وينتشر على اراضي روسيا ومورافيا وبلاد السلاف الجنوبيين ، ففي سنة ٨٦٠ هاجم الروس لاول مرة القسطنطينية واحاطوا بالمدينة وخربوا المناطق المحيطة بها ، وكان الامبراطور انذاك قد خرج في حملة ضد العرب ووصلته الاخبار فعاد مسرعا ليتولى بنفسه امر الدفاع عن عاصمته ، وليتساعد مع البطريرك في رفع معنويات سكان المدينة الذين ذعروا لهذا الحصار المفاجيء ويبدو ان الذعر الذي ساد بين الناس كان قويا لدرجة انهم عزوا نجاتهم من هذه المصيبة للعذراء التي انقذتهم من دمار محقق ، وبهذا الحادث يربط المؤرخون تاريخ العلاقات بين بيزنطة وبين المملكة الروسية الناشئة كما ان العمل للتبشير بالمسيحية بين الروس يعود لهذه الفترة ، وقد اعتقد بطريرك القسطنطينية ان التبشير سياسة هامة لان شعبا يدين بالنصرانية على المذهب البيزنطي سيكون حليفا لبيزنطة لاعدوا لها .

ونتج عن الهجوم الروسي على القسطنطينية ان اضطرت بيزنطة لتجديد تحالفها مع الخزر وارسلت سفارة اليهم لتقوم بالاتصالات اللازمة ، ومن الجدير بالذكر ان العمل السياسي في هذه المنطقة اقترن بالعمل التبشيري وكانت السفارة برئاسة رجال الدين الانكياء الذين يستطيعون ان يرفعوا من شأن النصرانية في وجه التيار الاسلامي الكاسح الذي كان يمتد على المنطقة ، واتسع عمل هذه السفارة السياسية الدينية بعد ذلك وامتد الى مورافيا التي كان يحكمهاالامير راستيسلاف والتي كانت تقصدها بعثات تبشيرية فرنجية لايرضى عنها الامير ، وهكذا اتسع نطاق العمل التبشيري البيزنطي وانضم المورافيون والبلغار من بعدهم الى التبعية الدينية المسيحية ، على ان ما جمعه الدين فرقته السياسية اذ اصبح المورافيون حلفاء لبيزنطة في حين اصبح البلغار من انصار الفرنجة ، وقد ازعج الحلف البلغاري الفرنجي بيزنطة ، فارسلت

جيوشها واساطيلها الى الحدود والمياه البلغارية المجاورة لها واستطاعت الامبراطورية بهذا الشكل ان تجبر الملك بوريس على اعلان ولائه للامبراطورية دينيا وسياسيا معا ، وبهذا ابعدت نفوذ الامبراطورية الفرنجية السياسي عن حدودها ، كما ابعدت نفوذ روما الديني عن رعاياها .

وهنا نستطيع القول ان النزاع بين روما والقسطنطينية قد وصل الى ذروته وذلك على يد فوتيوس الذي لم يكن بطلا من ابطال الاستقلال الديني للكنيسة البيزنطية فحسب بل كان ايضا دماغا سياسيا جبارا محضته الدولة ممثلة بشخص الامبراطور وكبار رجالات الحكم خالص الثقة والدعم وسارت وراءه في كل رأي فيه خير الامبراطورية ، وفي سبيل اظهار هذا الدعم ارسل الامبراطور خطابا الى بابا روما يشرح فيه وجهة النظر الامبراطورية في قضية استقلال الكنيسة البيزنطية وسيادتها على غيرها من الكنائس القائمة وطلب الكتاب من البابا ان يسحب قراره ضد فوتيوس ، وقد صيغ الكتاب على شكل انذار شديد اللهجة فيه رفض لكل سيادة لروما على القسطنطينية .

ولم يكتف فوتيوس بهذا بل سار خطوة اوسع واخذ يكيل هو الاتهامات للكنيسة البابوية ويظهرها بمظهر المخطيء الذي ينقصه الانضباط ووصل به الامر الى حد اتهام روما بالهرقطة الدينية . وفعلا عقد في عام ٨٦٧ م مجمعا دينيا في القسطنطينيةترأسه الامبراطور ، وقرر هذا المجمع طرد البابا نيقولا من الجماعة المسيحية ورأى في تدخل كنيسة روما في شؤون الكنيسة البيزنطية عملا غير مشروع .

وتشاء الصدف في هذه الفترة الحرجة من تاريخ بيزنطة أن تحدث ثورة في القصر سيكون من نتائجها ان يتغير خط سير الاحداث بالنسبة للامبراطورية والامبراطور على حد سواء ، فقد اتخذ ميخائيل الثالث صديقا له وقربه منه وادخله القصر ، وكان هذا الصديق هو باسيل الذي سيتسلل الى حياة القصر بشكل سريع مكنه

في النهاية من قتل بارداس ونبح الامبراطور نفسه وهو سكران في غرفة نومه وهكذا نصل الى فترة جديدة من فترات التاريخ البيزنطي وهي فترة حكم الاسرة المكدونية التي سنتناول بعض تاريخها فيما يلي :

فترة حكم الاسرة المكدونية (٧٦٧ ـ ١٠٨١)

يمكن تقسيم فترة حكم الاسرة المكدونية الى مرحلتين غير متكافئتين من حيث الاهمية والمدة : اذ تمتد الفترة الاولى من سنة ٨٦٧ حتى سنة ١٠٢٥ م وهي السنة التي توفي فيها الامبراطور باسيل الثاني في حين ان الفترة الثانية لاتمتد اكثر من احدى وثلاثين سنة (١٠٢٥ ـ ١٠٥٦ م)وتنتهي بموت الامبراطورة ثيودورا ، وهي أخر افراد هذه الاسرة الذين تولوا سدة الامبراطورية .

وتعد المرحلة الاولى من ازهى عصور الامبراطورية واكثرها اهمية من حيث الوجود السياسي فالصراع في الشرق والشمال ، مع العرب والبلغار والروس توج بنصر كبير لبيزنطة وذلك شروعا من النصف الثاني للقرن العاشر ثم مطلع القرن الحادي عشر الميلاديين ، وكان الصراع مع هذه الاقوام قد لاقي بعض المصاعب اول الامر ولاسيما في الفترة الواقعة بين نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العاشر ولكن ما كادت فترة حكم نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس تطل على العالم البيزنطي حتى ابتسم الحظ مجددا للامبراطورية فاخذت تحقق الانتصارات التي بلغت ذروتها في عهد الامبراطور باسيل الثاني ، ففي اثناء حكم هذا الاخير سحقت الحركات الانفصالية في آسيا الصغرى وقوي النفوذ البيزنطي في سورية والحق جزء من ارمينية بالامبراطورية مباشرة ، كما اصبح جزء منها ملحقا بالتبعية اما بلغاريا فقد غدت مقاطعة بيزنطية وأدى دخول الروس في النصرانية الى قيام علاقات دينية وثقافية واقتصادية وسياسية وثيقة بينهم وبين الامبراطورية .

وشكلت هذه المرحلة من حياة الامبراطورية ذروة المجد والعظمة التي وصلتها بيزنطة في اية مرحلة من مراحل حياتها السياسية ولم يقتصر الامر على ميدان السياسة فحسب بل حققت الامبراطورية امجادا كبيرة في ميادين اخرى من بينها ميدان التشريع الذي تحقق فيه نشر المدونة الباسيليكية وعدد من الاعمال الثانويةالصغرى ولا سيما ما يتعلق بقضية ملكية الارض واتساع الاقطاع وغير ذلك من القضايا الزراعية ، هذا فضلا عن الانجازات الرائعة في الحقل الثقافي وما تم على ايدي مثقفين كبار كان من بينهم البطريرك فوتيوس وقسطنطين بورفير وغيرهما من المشاهير .

ولكن ما كادت شخصية باسيل الثاني القوية تغيب من مسرح الاحداث وذلك سنة ١٠٢٥ م حتى دخلت الامبراطورية في فترة من الفوضى حيث كثرت فيها المشاحنات والمنازعات والثورات من داخل القصر وخارجه ، وقد ادت هذه المشاكل الى مرور فترة من الازمات الحادة هي الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٥٦ ـ ١٠٨١ ففي هذه السنة ١٠٨١ م صعد العرش البيزنطي امبراطور من اسرة كومنين فوضع بذلك حدا لعصر من الفوضى طال وثقل على الناس واخذت الامبراطورية تستعيد انفاسها في الداخل ، كما انتعشت العلوم والفنون وعادت الحياة الثقافية الى الازدهار ، بعد ركود وتوقف طويلين ،وفي مطلع عصر ال كومنين وصلت جحافل الفرنجة الى الاراضي البيزنطية ومن هناك زحفت نحو بلاد الشام حيث تفجرت وقائع صراع استمر قرابة قرنين عرف باسم الحروب الصليبية .

وهناك اكثر من راي بشأن اصل مؤسس السلالة المقدونية بعضها ذهب الى القول انه كان من اصل مقدوني واصر بعضها الاخر على القول انه كان من اصل ارمني وتذهب المصادر العربية الى القول انه كان من اصل سلافي .

وتعد حياة باسيل قبل استيلائه علّى العرش الامبراطوري حياة غير عادية فقد كان شابا مغمورا قدم في صباه الى القسطنطينية ليبحث عن فرصة في الحياة فجلب انتباه رجال القصر بطوله الفارع

وقوته المتناهية ، واستطاعته لمنازلة وغلبة اشد الحيوانات ضراوة ، وقد وصلت اخبار هذا الشاب الى مسامع الامبراطور ميخائيل الثالث فاعجب به وضمه الى حاشيته ولم تمض مدة حتى استطاع التابع الشاب ان يوقع سيده الامبراطور تحت سيطرته التامة لدرجة انه عينه امبراطورا مساعدا وتوجه في كنيسة أيا صوفيا ولكنه لم يكن وفيا لليد التي رفعته ، وعوضا عن ان يقبلها بترها الى غير ما رجعة اذ يحدثنا المؤرخون انه حينما شعر بان الامبراطور ميخائيل يشك بنواياه اتجاهه امر رجاله بتدبير مؤامرة لقتله ، وتسلم العرش عوضا عنه وحكم بين ٨٦٧ ـ ٨٨٧ وقد خلفه في حكم بيزنطة ابناه : ليون السادس الذي لقب بالفيلسوف او الحكيم وحكم بين سنتي ٨٨٧ ـ ٩١٢ والكسندر الذي حكم بين سنتي ٨٨٧ ـ ٩١٣ اما ابن ليون السادس قسطنطين السابع بورفيروجينيوس(٩١٣ ـ ٩٥٩) فقد كان غير مهتم بامور الدولة ومنصرفا الى التاليف والكتابة والدرس والتعايش مع علماء عصره وادبائه ، وقد سيطر على شؤون الدولة في زمنه حموه رومانوس ليكابينوس الذي كان في الاساس من قادة البحرية العظام المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة ، وظل ليكابينوس يصرف شؤون البلاد بوجود الامبراطور قسطنطين السابع مدة خمس وعشرين سنة(٩١٩ ـ ٩٤٤) اجبره بعدها اولاده (اولاد رومانوس ليكابينوس) على التخلي عن السلطة والانسحاب من الحياة العامة والانقطاع في احد الاديرة ، وتسلموا السلطة في البلاد عوضا من ابيهم المعزول ولم تستمر سلطة اولاد ليكابينوس الا بضعة شهور استطاع بعدها الامبراطور قسطنطين السابع ان يستعيد سيطرته الفعلية وان يبعدهم وان يحكم منفردا من سنة ٩٤٥ حتى ٩٥٩ .

اما رومانوس الثاني ابن قسطنطين السابع فقد حكم مدة اربع سنوات فقط (٩٥٩ ـ ٩٦٣ م) وتوفي تاركا زوجته ثيوفانو مع ولديهما الصغيرين باسيل وقسطنطين .

وقد تزوجت ثيوفانو بعد وفاة زوجها من القائد الشهير نقفور

فوكاس الذي عين امبراطورا باسم نقفور الثاني فوكاس وحكم بين سنتي ٩٦٣ ـ ٩٦٩ م ، وقد انتهت حياة فوكاس بالقتل وانتقل العرش الى يوحنا تزيكمس الذي اضفى الشرعية على اغتصابه السلطة بزواجه من ثيودورا اخت رومانوس الثاني وابنه قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس . وقد استمر حكم تزيمكس من ٩٦٩ حتى سنة ٩٧٦ م حين توفي .

وانتقل العرش بعد هذا الى ابني رومانوس الثاني : باسيل الثاني الملقب بذابح البلغار(٩٧٦ ـ ١٠٢٥) وقسطنطين الثاني ٩٧٦ ـ ١٠٢٨ م) وخلال هذه الفترة من حياة الامبراطورية التي كان الحكم فيها مزدوجا كان باسيل الثاني يتمتع بالنفوذ الاوسع في شؤون الادارة الامبراطورية وقد استطاع ان يصل ببيزنطة الى مرتبة رفيعة من المجد والقوة ، وقد ابتدأت بوفاته مرحلة الضعف والانحطاط بالنسبة للاسرة المقدونية التي لن يطول الزمن بها والتي ستواجه نهايتها سنة ١٠٨١ م ولم يمهل الموت قسطنطين الثامن اخو باسيل الثاني طويلا ، ففي سنة ١٠٢٨ م توفي هذا الامبراطور ايضا ودخلت مجددا قضية العرش البيزنطي في محنة جديدة لم تحل الا حين تزوج رومانوس ارغيروس عضو مجلس الشيوخ البيزنطي « زويه » ابنه قسطنطين الثامن واعتلي سدة العرش من ١٠٢٨ حتى ١٠٣٤ م .

وبعد ان توفي ارغيروس تزوجت زوية للمرة الثانية عشيقها ميخائيل البافلاغوني على الرغم من انها كانت في السادسة والخمسين من عمرها ، وقد توج ميخائيل البافلاغوني امبراطورا باسم ميخائيل الرابع واستمر حكمه من سنة ١٠٣٤ ـ ١٠٤١ وفي خلال حكمه وحكم ابن اخيه ميخائيل الخامس الذي لم يدم طويلا ١٠٤١ ـ ١٠٤٢ حدثت اضطرابات كثيرة في الداخل والخارج انتهت بخلع ميخائيل الخامس وسمل عينيه ودخل الحكم في بيزنطة بعد هذا في مرحلة من الفوضى تقلب على الحكم فيها عدة اشخاص : فقد آل العرش اول الامر ولمدة شهرين الى زوية الارملة للمرة الثانية

واختها الصغرى ثيودورا وفي السنة نفسها ١٠٤٤ تزوجت زوية للمرة الثالثة واعلن زوجها الثالث امبراطورا باسم قسطنطين التاسع مونوماكوس وحكم بين سنتي ١٠٤٢ ـ ١٠٥٥ م ولم يتح لزوية ان تتزوج زواجا رابعا لانها توفيت قبل زوجها الثالث اما اختها ثيود ورا فقد عاشت بعد قسطنطين مونوما كوس واصبحت بعد وفاته الحاكمة الوحيدة للامبراطورية بين سنتي ١٠٥٥ ـ ١٠٥٦ م.ويعد حكم زوية واختها ثيودورا المناسبة الثانية والاخيرة التي مرت على بيزنطة وكان الحكم فيها لا مرأة،فقد كانت المناسبة الاولى التي حكمت فيها امراة زمن الامبراطورة ايرين بطلة الحركة المؤيدة للصور والتي توسدت العرش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع كما راينا من قبل.وقد حكمت كل من زوية وثيودورا باسم : امبراطورة الرومان .

وقبل أن تتوف بقليل ، اذعنت ثيودورا لضغط جماعة القصر وانتخبت احد الأشراف المسمى ميخائيل ستراتيكوتيكوس كخلف لها . وقد اعتلى ستراتيكو تيكوس هذا العرش بعد ثيودورا التي كانت أخر من حكم من الأسرة المكدونية هذه الأسرة التي تربع افراد منها على العرش البيزنطي طيلة ١٨٩ سنة متوالية .

علاقات بيزنطة أيام حكم الأسرة المكدونية

١ـ العلاقات البيزنطية العربية :

كانت أهم مسائل السياسة الخارجية زمن الامبراطور باسيل الأول ، مؤسس حكم الأسرة المقدونية مسالة الصراع مع العرب المسلمين ، وقد كانت الظروف مواتية زمن هذا الامبراطور لتحقيق نصر في هذا الميدان لأن علاقات الامبراطور كانت حسنة مع : أرمينيا في الشرق ، ومع الروس والبلغار في الشمال ، ومع البندقية والامبراطورية الفرنجية في الغرب ، واذا أضفنا الى هذا الجو من الصداقة والود مع هذه الأقوام ، ظروف الخلافة العباسية

الداخلية وماكانت تعيشه من ازمـات ابـان تسـلط ضـباط القصر الأتراك على الخلفاء وانفصـال مصر عن جسـد الخـلافة زمـن الطولونيين ، واضطراب الأوضاع في الغرب الاسلامي ،لوجـدنا ان بـاسيل كان يتمتـع بفـرصة ذهبية لتحقيق نصر على المشرق والمغرب ، ولكن على الرغم من كل هذه الظروف المواتية ، وبرغم ان الحرب بين الطرفين العـربي والبيزنطـي لم تتـوقف لم تسـتطع الامبراطورية تحقيق نصر في هذه الجبهة .

ومع هذا قاد هذا الامبراطور حملة ناجحة ضـد اتبـاع المذهـب البوليصي في الجزء الشرقي من أسيا الصغرى حوالي سـنة ٨٧٠ م واستطاع ان يتغلب عليهم ، ولم يكن من نتائج هذا النصر توسيع رقعة الامبراطورية فحسب ، بل وضع باسيل وجها لوجه مـع عرب المشرق ، وفتح باب الصراع مـع العـرب بشـكل مبـاشر ، وغدت المعارك بين الطرفين سنوية ، ولكن دونما نتيجة حاسمة ، فقد كان النصر تارة الى جانب العرب وتارة الى جانب الروم .

اما حروبه مع عرب المغرب ـ كما رأينا من قبـل ـ فقـد كانت اكثر جدية لأن المغاربة في ذلك الوقت كانوا يحكمون الجزء الأكبر من صقلية ويحتلون بعض المراكز الهامة في جنوب ايطـاليا ، وقـد أدت الأوضاع السيئة في ايطاليا الى تدخل الامبـراطور الفـرنجي لويس الثاني واحتلاله مدينة باري الهامة ، وقد عقد بـاسيل الأول اتفـاقا مع لويس الثاني ينص على أن يتعاون الاثنان على طرد عرب المغرب من ايطاليا وصقلية ، ولكن لم يكتب لهذا الاتفاق النجاح ومالبث أن انحل الحلف البيزنطي الفرنجي ، وحين تـوفي لويس الثـاني قـام سكان باري وسلموا مدينتهم الى ممثلين للامبراطور البيزنطي .

وفي الوقت نفسه استطاع العرب ان يفتحوا جـزيرة مـالطة ذات الموقع الستراتيجي الهام ، كما اكملوا فتح جزيرة صقلية ، كما بينا من قبل ، ولم يكتف باسيل الأول بالتعاون مع الامبراطور الفـرنجي ضد العرب بل حـاول أن يقيم تحـالفا مـع الملك الارمني بـاغراتيد موجها ضد عرب المشرق ، ولكن لم يتح لهذا التحـالف ان يظهر لحيز

الوجود لأن باسيل توفي في هذه الفترة ، ويمكن القول انه على الرغم من الانكاسات التي الحقت بالبيزنطيين في صقلية فان الامبراطور باسيل الأول استطاع ان يوسع حدود امبراطوريته بعض الشيء في اسية الصغرى .

لقد اقام باسيل علاقات ود مع جيرانه المختلفين ماعدا العرب ، ولكن لم يتح لهذه العلاقات ان تستمر زمن خليفته ليون السادس الملقب بالحكيم . فقد قامت زمن حكم هذا الامبراطور (٨٨٦ ـ ٩١٢) حروب بين بيزنطة والبلغار انتهت باخفاق بيزنطة ، واثناء هذه الحروب ظهر المجر (الهنغاريون) لأول مرة في التاريخ البيزنطي ، وقبيل انتهاء حكم ليون الحكيم ظهر الروس قرب القسطنطينية ، أما ارمينيا حليفة بيزنطة ، فقد كانت تتلقى الضربات المتوالية من العرب دون ان تحصل على المعونة المتوقعة من بيزنطة ، يضاف الى هذا أن قضية الزواج الرابع للامبراطور وما سببته من مشاكل داخلية ، زادت في ضعف الامبراطورية واضعفت بالتالي المقاومة البيزنطية للهجمات العربية المتكررة ، وأيا كان ، فقد كانت الحملات ضد العرب بلا جدوى زمن ليون السادس ، ولم يحقق أي من الطرفين نصرا حاسما ، ففي الغرب استطاع المسلمون ان يكملوا فتحهم لمنطقة مضيق مسينا ، وفي سنة ٩٠٢ م سقطت أخر معاقل البيزنطيين في صقلية، في يدهم ، واصبحت صقلية بكاملها تحت الحكم العربي وقد أدى هذا الى جعل ليون السادس يسقط من حسابه اي امل في استرداد هذه الجزيرة .

هذا وقد تميزت بداية القرن العاشر بقيام الأسطول الاسلامي بعمليات حربية ناشطة ، ومنذ نهاية القرن التاسع كانت السفن العربية تقوم بهجمات موفقة على شواطئ البيلوبونيز وجزر بحر ايجة ، وقد ازدادت حدة هذه العمليات البحرية حين توحدت الاساطيل العربية في سورية وكريت وأخذت تقوم بهجمات مشتركة ، وقد كان الهجوم على سالونيك من قبل سفن مسلمة

يقودها ليون الطرابلسي سنة ٩٠٤ م اشهر ماحقق العرب من نصر بحري خلال هذه الفترة ، فقد سقطت هذه المدينة بعد حصار طويل وشاق ، ولكن القوات المهاجمة لم تبق فيها بعد استسلامها طويلا اذ انها عادت الى قواعدها في سورية بعد ان اخذت غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الاسرى ، وقد تنبهت بيزنطة بعد هذه الهزيمة والخسائر الى ضرورة تحصين هذه المدينة فأخذت تشيد الحصون والقلاع حولها لحمايتها وتجنيبها كارثة حلت بها .

وقد شعر البيزنطيون اثر الهزيمة التي لحقت بهم في صقلية ان الواجب يدعوهم الى الاهتمام باسطولهم ، فأخذوا ببناء سفن جديدة وضم جنود جدد الى سلاحهم البحري مما ساعدهم على كسب النصر في الموقعة البحرية التي جرت بينهم وبين العرب في بحر ايجة سنة ٩٠٦م على أن هذا النصر لم يكن سوى مناسبة وحيدة في سلسلة من الانكسارات ، اذا أن الأسطول البيزنطي مابرح أن لاقى هزيمة نكراء سنة ٩١١ على يد اسطول اسلامي مشترك مؤلف من سفن خرجت من كريت وأخرى من سورية وتلاقت مع الأسطول البيزنطي في معركة بحرية كبيرة .

وهكذا يمكننا ان نقول إن الصراع مع العرب برا وبحرا كان مخفقا زمن ليون السادس ، فقد خرجت صقلية في الغرب نهائيا من يد البيزنطيين ، وفي جنوب ايطاليا كانت الخسائر تتوالى ، كما كان العرب يحققون انتصارات متوالية في جهة الحدود الشرقية ،هذا فضلا عما ذكرناه من خسائر بيزنطة في البحر .

وحين انتقل العرش الى الامبراطور قسطنطين السابع بورفير وجينيتوس (٩١٣ ـ ٩١٩) ثم رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ ـ ٩٤٤) الذي حكم لفترة طويلة لم تستطع بيزنطة ان تقوم بعمل عسكري فعال ضد العرب لأن جيوشها كانت مشغولة في الحروب مع البلغار ، ولم يستطيع العرب المسلمون بالمقابل أن يستغلوا فرصة انشغال الجيوش البيزنطية في الجبهة البلغارية ليقوموا بعمل عسكري يحقق لهم نصرا على بيزنطة لأن الدولة

العباسية كانت في هذه الفترة من تاريخها تمر بفترة ضـعف شـديد وتنفصل عنها اقاليم تقوم فيها دويلات مسـتقلة . وكل مـا استطاع البيزنطيون تحقيقه في أول حكم قسطنطين السابع هـو التغلب على اسطول عربي كان يقوده ليون الطرابلسي في معركة بحرية جرت بين الطرفين قرب ليمنوس سنة ٩١٧ م .

وبدأت في هذه الفترة من تـاريخ الصراع بين بيزنطـة والعـرب اسماء قواد جدد بالظهور والشهرة في كلا الجانبين ، ففي الجـانب البيزنطي لمع اسم يوحنا كوركواس كقائد عسكري وكان أهل عصره يقارنونه بتراجان او بليزاريوس أو غيرهمـا مـن عظمـاء القـواد ويقولون ان وجوده : احل روحا جديدة من الثقة والمقدرة في الحدود الشرقية ، أما في الجانب العربي فقـد طـار صـيت سـيف الدولة الحمداني امير حلب حتى طرق الآفاق ، واصبح اسمه على كل شفة ولسان كقائد وأمير وراع للعلم والادب والفكر ، وكان بلاطه في حلب منارة قصدها مشاهير عصره في كل الميادين ، وفي حـوالي منتصـف القرن العاشر استطاع القائد كوركواس ان يحقق عدة انتصارات في الأجزاء الخاضعة للحكم العربي من ارمينيا وان يحتل بعض المدن في اعالي بلاد مـابين النهـرين وقـد احتـل كوركواس سنة ٨٣٣ ملطية ، كما احتل سنة ٩٢٤ مدينة الرها واخـذ منهـا بعض الآثار المقدسة (منها صـورة للسـيد المسـيح) ونقلهـا الى العاصمة باحتفال مهيب ، وكان هذا اكبر نصر له ، مما دعا الناس الى تسميته بطل الساعة ولكن الامبراطور الذي خـاف مـن تـزايد شعبية كوركواس وما قد يراوده من أحلام أمر بعـزله وابعـده عن قيادة الجيش.

وفي هذه الفترة سـقط رومـانوس ليكابينوس وعزل ابناؤه مـن مناصبهم الامبراطورية فخلا الجـو لقسـطنطين السـابع واصـبح الحاكم الوحيد للامبراطورية ويمكننا القول ان فترة حكم رومـانوس ليكابينوس كانت من أهـم الفتـرات في تـاريخ العـلاقات بين الامبراطورية والشرق . اذ انه بعد ثـلاثة قـرون مـن الصراع بين

الامبراطورية والعرب كانت بيزنطة خلالها دوما تقف موقف المدافع لاالمهاجم انتقلت بيزنطة ولأول مرة زمن ليكابينوس وكور كواس الى جانب الهجوم واستطاعت تحقيق بعض الانتصارات في عمليات عسكرية جرت على الحدود المشتركة بين الدولتين .

وفي هذه الفترة التي كان فيها قسطنطين السابع حاكما وحيدا للامبراطورية كان الصراع في الجبهة الشرقية هو سلسلة من معارك ضارية تخوضها بيزنطة مع سيف الدولة امير حلب ، وقد طال امد الصراع واستطاع الجانب العربي اثناءه ان يحقق انتصارات كبيرة ، ولكن النهاية كانت رجحان الكفة البيزنطية وانكسار الجيوش العربية في المعارك التي جرت في شمال بلاد مابين النهرين مما أدى الى عبور بعض فرق الجيش البيزنطي لنهر الفرات وفي خلال هذه المعارك استطاع القائد يوحنا تزيكمس ، الذي سيصبح امبراطورا فيما بعد ان يبرز نفسه كقائد محنك طويل الباع في ميدان قيادة الجيوش ،على ان هذه الانتصارات البرية قد فقدت كل اهميتها اذ انه رافقها انكسار شنيع في الميدان البحري ، فقد جهزت بيزنطة اسطولا ضخما سنة ٩٤٩ وارسلته الى شواطىء كريت لضرب الحكم العربي هناك ، ولكن هذه الحملة منيت بالاخفاق وخسرت بيزنطة عددا كبيرا من سفن اسطولها كما خسرت عددا أكبر من امهر بحارتها ، ومع ان العمليات العسكرية البرية لم تتوقف مع عرب ايطاليا وصقلية وغيرها من المناطق الغربية التي كانت تحتلها جيوش عربية ، فان هذه العمليات لم تكن ذات اهمية كبيرة ولم تؤد الى نتيجة حاسمة .

وفي خلال حكم رومانوس الثاني الذي لم يدم طويلا (٩٥٩ ــ ٩٦٣ م) استطاع القائد نقفور فوكاس (الذي سيتولى العرش فيما بعد) ان يستولي على جزيرة كريت ، مقر الاساطيل العربية ومنطلقها في عملياتها العسكرية ضد الشواطىء البيزنطية ، فازاح بذلك كابوسا ثقيلا جثم طويلا على صدر الامبراطورية ، كما مكنها ايضا من استعادة موقع استراتيجي هام ومحطة تجارية

شغلت دورا فعالا في تجارة البحر المتوسط . كذلك استطاع نقفور فوكاس في معاركه البرية مع سيف الدولة ان يحقق انتصارا ضخما اذ انه حاصر حلب وتمكن بعد صعوبات ومعارك طاحنة ان يستولي عليها ، مع انها كانت معقل الحمدانيين وحاضرتهم ، ومرد ذلك أنه لم يكن بامكان حلب بامكاناتها المحدودة أن تتحمل طويلا دفقات المواجهة مع الامبراطورية ذات الموارد الهائلة ، فضلا عما عانى منه سيف الدولة من مشاكل داخلية مع القبائل ومع بعض غلمانه الذين تمردوا عليه ،ولموقف بعض رجالات الثغور منه .

وفي المرحلة التالية التي تغطي حكم اباطرة ثلاثة هم : نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس وباسيل الثاني الملقب بذابح البلغار حققت الامبراطورية أكبر انتصاراتها العسكرية ضد العرب المسلمين في المشرق فقد أوقف نقفور فوكاس سنوات حكمه الست(٩٦٣ ــ ٩٦٩ م) لتصفية العمليات العسكرية في الجبهة العربية ولتحقيق نصر حاسم عليهم ، على الرغم مما كان يقوم في وجهه من ازمات في جبهات أخرى (كالجبهة البلغارية والجرمانية)تضطره لصرف بعض طاقاته في اخمادها ، وقد بدأت حروبه في الجبهة العربية باحتلال طرسوس ، ثم سار منها الى كيليكيا واحتلها ، وارسل اسطولا الى قبرص وتمكن من استردادها من العرب وقد مهد فتح كيليكيا وقبرص لنقفور طريق سورية فأخذ يعمل في سبيل الاستيلاء على انطاكية المدينة السورية الشهيرة ، وموطن الكثير من المقدسات النصرانية الشرقية ، وفعلا شق طريقه باتجاهها والقى عليها الحصار ، وعندما شعر أن حصارها سيطول ترك جيشه بعهدة أحد قواده وعاد هو الى القسطنطينية ، وفي أخر سنة من سنوات حكمه (٩٦٩) استطاع الجيش البيزنطي أن يدخل انطاكية ويغنم مغانم وافرة ، وعقب سقوط أنطاكية سار الجيش البيزنطي باتجاه حلب وحاصرها ثانية فسقطت بعد حصار طويل ، وقد عقد قرعوية الذي تمرد على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني مع القائد البيزنطي معاهدة صلح حفظ لنا نصها ابن العديم في كتابه زبدة الحلب تعهد فيها بالاعتراف

بالسيادة البيزنطية وبان يدفع سكان المدينة المسلمين الجزية لبيزنطية وأن يعفى من دفع هذه الجزية سكان المنطقة من النصارى .كما تعهد قرعوية بأن يقوم بمساعدة بيزنطة في حالة قيامها بحرب ضد دولة غير مسلمة تقع في جهاته وبأنه سيقوم بحماية القوافل التجارية البيزنطية التي تمر عبر اماراته ، والمهم أن هذه المعاهدة قد وقعت بعد موت نقفور فوكاس مقتولا وعدت شروطها أقسى شروط اضطر امير حلب ان يقبل بها ، وهكذا اصبحت كيليكيا والجزء الشامي من الثغور الذي يضم انطاكية مع شريط طويل من الساحل امتد حتى اللاذقية تابعين لبيزنطة ، كما اصبحت المناطق السورية الأخرى حتى دمشق وطرابلس مضطرة لدفع الجزية وللخضوع لبعض الشروط المهينة التي فرضت عليها.

وإذا صح أن نقفور كان بطلا بالنسبة لبيزنطة في منجزاته بالشرق فإنه لم يكن كذلك في الغرب ففي زمنه استطاع العرب ان يستخلصوا من الامبراوطورية آخر مواقعهم في صقلية ، بحيث أصبحت هذه الجزيرة بكاملها في يد العرب ، وكانت اعقد مشاكل يوحنا تزيكمس الذي خلف فوكاس (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) هي مشكلة الحفاظ على الممتلكات البيزنطية الجديدة في كيليكيا والثغور الشامية ، ففي مطلع حكمه لم يستطع ان يساهم بنفسه في الحروب في الجبهة الشرقية لأنه كان مشغولا بالحروب في الجبهات الروسية والبلغارية وبثورة بارداس فوكاس التي استهلكت كل جهوده ، وبعد أن حقق انتصارات في هاتين الجبهتين وقضى على ثورة بارداس فوكاس ورتب بعض الشؤون والقضايا الداخلية الأخرى ، التفت الى الجبهة الشرقية وأولاها عنايته .

ويحفظ لنا مصدر أرمني نص رسالة جديرة بالدراسة تبادلها يوحنا تزيكمس مع الملك اشوت الثالث ملك ارمينيا وحكت هذه الرسالة أن هذا الامبراطور هدف الى انتزاع القدس من ايدي العرب المسلمين وانه في سبيل الوصول الى ذلك قام بقيادة أول حملة صليبية توجه على رأسها ملك مسيحي الى المشرق ، وادعى يوحنا في هذه الرسالة انه غادر انطاكية برفقة جيشه واتجه جنوبا عبر

دمشق حتى دخل الأرض الفلسـطينية واحتـل الناصرة وقيسـاريه واصبحت القدس تحت رحمته ، وقال :لو لم يختبـئ الوثنيون الذين كانوايعيشون هنالك في القلاع التي على السـاحل خـوفا منا ، لكنا استطعنا أن ندخل بمعونة الرب مدينة القدس المقـدسة وأن نصـلي للرب في الاماكن المقدسة ، والحقيقـة غير هـذا ، فهـو وصـل الى أطراف دمشق حيث جبى منها بعض المال ، ثم قصدت قـواته بعض مناطق الساحل حتى طرابلس ، ثم عاد فهذا ما حكاه ابن القـلانسي وغيره ، ومع هذا قال يوحنا في الرسالة نفسها : اليوم تحـررت كل فينيقية وفلسطين وسورية مـن النير المحمـدي وأصـبحت تعتـرف بالسلطة البيزنطية . ومع أن هذه الرسالة حوت الكثير من المبالغات والمغالطات التي لا تمت الى الحقيقة بصلة ، إنها خطيرة جدا ، فيها مؤشر على مدى الضعف الذي الم بعرب المشرق ، مع ما عانته بـلاد الشام من اهمال في العصر العباسي ، ثـم فيهـا الدليل على طـابع الصراع الذي خاضه العرب مع اوربا ، وأن الحروب الصليبية بدأت في القرن العاشر للميلاد ، وحين أقول الحروب الصـليبية لا انفـي الطابع الديني عن الصراعات التي قامت قبل القرن العـاشر ، لكن الآن استخدمت كلمة « الصليبية » لأن الحروب الصليبية اسـتهدفت إزالة الاسلام وتحويل الوطن العربي الى دار للصليبيين فيمـا وراء البحار ، ولنتذكر هنا أن أوربا غدت مسيحية صليبية تعبد الايقونات وتمتلك كل كنيسة طقوسها ومفـاهيمها المتفـق عليهـا منذ القـرن العاشر وليس تماما قبل ذلك ، وكان العـرب قـد امتلكوا فـرصهم لهداية أوربا الى الاسلام ، لكنهـم أضـاعوها بسـبب صراعاتهـم الداخلية ، فهذه الأمة يتسلط عليها الأعداء بعـدما تفقـد وحـدتها وتسلط قواها على بعضها بعضا ، فهذا التسليط انتحار والمنتحـر ليس له من الله غير السخط .

المهم أنه بعدما عاد الجيش البيزنطـي الى انطـاكية ، غادرهـا الأمبراطور الى القسطنطينية حيث توفي في أوائل عام ٩٧٦ لكن غدت انطاكية قاعدة للجيوش البيزنطية في المنطقة لأن ما عداها من مناطق مرت بها جيوش تزيكمس ولم تخضع للنفوذ البيزنطي .

وحين اعتلى العـرش بـاسيل الثـاني (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) الذي خلف تزيكمس لم تكن ظروف الامبراطورية مواتية لاتبـاع سـياسة الهجوم في الجبهة الشرقية حيث قامت في أول عهد هذا الامبـراطور ثورات في أسيا الصغرى نظمها بـارداس سـكليووس ، وبـارداس فوكاس ، كما استمرت المعارك في الجبهة البلغـارية ، ممـا جعـل الامبراطور الجديد يتفرغ لحـل هـذه المشـكلة أولا ، ولما قضى على الثورات التفت الى الجبهـة العـربية في المشرق على الرغم مـن أن الحروب ضد البلغار لم تكن قد انتهت .

لقد ترك باسيل القتال على الجبهة مع البلغار وخف مسرعا نحـو الشام ليحول دون سقوط حلب للفاطميين ، وفي أيام بـاسيل ثـارت القبائل العربية في الشـام ضـد الفـاطميين ، وأسس ـ كمـا رأينا ـ صالح بن مرداس دولته في حلب ، وتمنت الخلافة الفاطمية دوما السلم مع بيزنطة ، وهكذا عقدت مع بيزنطة معاهدات تهـادن جددت مرارا .

إنما على الرغم من علاقات السلم الرسـمية التـي سـادت بين بيزنطة ودولة الفاطميين في مصر فان سياسة الخليفة الحاكم بـأمر الله المتشددة مع النصارى ازعجـت بـاسيل كمسـيحي إلى حـد بعيد ، وكان أن أمر الحاكم سنة ١٠٠٩ م بتخريب كنيسـة القبـر المقدس وكنائس أخـرى في القـدس ، كمـا صـادر بعض كنوز الكنيستين ولاحق الرهبان وأشاع الذعر في صفوف المسيحيين عامة حتى أن بعضهم أعلن اسلامه ، ومـع هـذا لم يقـم الامبـراطور البيزنطي بأي عمل لنصرة ابناء دينه مما يستدل منه على أنه لم يكن يملك من القوة ما يساعده على اتمام هذا الواجب الديني ، وتـوجب على النصارى أن ينتظروا وفاة الحاكم سنة ١٠٢١ م حتى يعـود جو التسامح الذي كان سائدا بينهم وبين المسلمين من قبل ، ففـي سنة ١٠٢٣ م سافر بـطريرك القـدس نقفـور الى القسـطنطينية وأعلن للسلطات الكنسـية هناك أن الكنائس المصـادرة اعيدت الى المسيحيين مع ما كان فيها من كنوز وأشياء دينية .

كما أعلن أن كنيسة القبر المقدس وغيرها من الكنائس المخربة في مصر وسورية قد اعيد بناؤهـا وأن الرعايا المسيحيين في دار الخلافة يتمتعون بحريتهم الدينية كما كانت حالهم من قبل .

وفي الغرب أستمر عرب صقلية يغيرون على جنوب ايطاليا ، ولم تستطع الامبراطورية عمل شيء لانقاذ هذه البقعة من الارض البيزنطية لانشغالها في جبهات أخرى ، وقد حاول باسيل الثاني في أخريات ايامه أن يقوم بعمل ما من أجل استعادة صقلية من العرب ، ولكنه توفي قبل أن يتمكن من تحقيق مشروعه .

وقد شجعت الفوضى التي سادت الامبراطورية عقب وفاة باسيل العرب على البدء بسلسلة من الهجمات لاسترداد أراضي الثغور التي احتلها البيزنطيون من قبل ، واستطاعت هذه الهجمات أن تحرر جزءا من هذه المنطقة من النير البيزنطي ، كما وهزم المرداسيون حملة كبيرة قادها الأمبراطور رومانوس نفسه ، ومع هذا لاقي العرب بعض الانتكاسات في الثغور الجزرية ، ففقدوا الرها سنة ١٠٣٠ م وقد عرض الامبراطور رومانوس الثالث ، بعد سقوط الرها ، على العرب عقد معاهدة ، بين شروطها شرطان يستحقان الاهتمام ويتعلقان بمدينة القدس : إذ نص الشرط الأول على أن تتولى الخزينة البيزنطية نفقات ترميم كنيسة القبر المقدس ، ونص الشرط الثاني على أن يكون للامبراطور البيزنطي حق تعيين بطريرك القدس ، وقد طال أمد المفاوضات بين الامبراطور رومانوس الثالث ، والخليفة العباسي القائم لأن الخليفة عارض أولا هذين الشرطين ، وأخيرا قبل بهما وسمح بترميم كنيسة القبر المقدس على حساب البيزنطيين ، وكان البيزنطيون قد حصلوا على مثل هذه الموافقة من الخلافة الفاطمية التي كانت تحكم فلسطين مع جنوب بلاد الشام ، وقد زار هذه الكنيسة الرحالة الفارسي المشهور ناصري خسرو ١٠٤٦ ووصفها بأنها ذات بناء ضخم فسيح يتسع لثمانية الاف شخص وأنها تحتوى على زخارف غاية في الروعة والأبهة والفني .

وحاولت بيزنطة من جهة أخرى في هذه الفترة ان تستعيد صقلية ، ولكن محاولاتها لم تصل الى اية نتيجة كما راينا من قبل ، وفي الحقيقة إن الانتصارات والأمجاد التي حققتها بيزنطة في أيام حكم الأسرة المقدونية ـ باستثناء كريت ـ كانت عابرة ، سببها لا تفوق بيزنطة إنما تمزق العرب ، والخلافة العباسية عاشت أسوأ أيامها في ظل بني بويه ، وبعدما انتقل الفاطميون الى مصر ، اخفقوا في الاستقرار في بلاد الشام ، لأسباب ووقائع بيناها في الجزء الأول من كتابنا هذا ، وبحثتها بشكل مفصل في كتابي « إمارة حلب » ثم في كتابي الجامع في أخبار القرامطة.

العلاقات مع البلغار والمجر

كانت العلاقات بين الأمبراطورية والبلغار زمن السلالة المقدونية علاقات على جانب كبير من الأهمية ، فبالرغم من أن بلغاريا زمن ملكها سيمون كانت من الد أعداء بيزنطة وتهدد عاصمتها وسلطة امبراطورها ، فان بيزنطة في ظل الأسرة المقدونية استطاعت ان تقلب ميزان القوى وأن تخضع بلغاريا اخضاعا تاما لسلطتها ، وان تجعل منها مقاطعة بيزنطية ففي خلال حكم باسيل الأول كانت حالة من السلم تسود بين الامبراطورية وبلغاريا ، وبعد وفاة الامبراطور ميخائيل الثالث مباشرة تكللت المفاوضات بين الكنيستين البلغارية واليونانية من أجل اعادة الوحدة بينهما بالنجاح ، واستمرت هذه العلاقات الطيبة زمن الملك البلغاري بوريس الذي أرسل ابنه سيمون ليتثقف في بلاط القسطنطينية ، وكان لهذه الصلات الودية آثار حسنة انعكست على كلا الجانبين . فقد استطاع الامبراطور باسيل في هذا الجو الودي بينه وبين البلغار أن يوجه جميع قواه لحرب العرب المشارقة في آسيا الصغرى وعرب المغرب في ايطاليا ، كما أن هذا السلم ساعد الملك البلغاري بوريس على التفرغ لشؤون مملكته الداخلية التي كانت قد تبنت النصرانية دينا منذ أمد قصير .

وبعـــد أن اعتلى الامبــراطور ليون الســادس العــرش سنة ٨٨٦ فسدت هذه العلاقات السلمية بين الطرفين بسبب قضايا الجمارك التي فرضت على التجارة مع بلغــاريا ، فقــد كان يحــكم بلغاريا في هذه الفترة الملك البلغارى الشهير سيمون بن الملك بوريس وكان مشهورا بشغفه بالعلم والثقافة وتمت في زمنه منجزات عظيمة في حقل الثقافة والتربية ، وكانت له مطامع سياسية واسعة اراد أن يحققها على حســاب الامبــراطورية البيزنطية ، وقــد شــعر ليون السادس أنه لن يستطيع الوقوف في وجه مطامع سيمون لأن قــواته كانت مشغولة في حروبها مع العرب فطلب النجدة من القبائل المجرية التي كانت ما تزال على الهمجية ، ووافقت هذه القبــائل أن تقــوم بهجوم مفاجيء على بلغاريا من جهة الشمال حتــى تصرف انظــار سيمون عن الحدود البيزنطية .

ويعد هذا الحادث من اهم الحــوادث في تــاريخ أوربــا في هــذه الفترة ، اذ أنه للمرة الأولى ظهر على مسرح الأحداث في أوربا شعب جديد هو الشعب المجري ، الذي حالف بيزنطة في أول ظهوره .وقــد هزم سيمون أمام المجر في عدة معارك أول الأمر ،ولكنه استطاع من ناحية ثانية أثناء المفاوضات أن يضمن تحالفا مع أقوام اخــرى وأن يقلب هــزيمته الى نصر ، وأن يطــرد المجــر الى الشــمال حيث سيستقرون ويقيمون في المستقبل دولتهم في أواسط الدانوب ، وبعد هذا النصر على المجر ، وجه سيمون اهتمامه نحو بيزنطــة وســار على رأس قواته مخترقا أراضــيها حتــى وصــل الى أســوار القسطنطينية ، فاضطر الأمبراطور البيزنطي المغلوب أن يعقد معــه معاهدة صلح تعهد بموجبها الا يقوم بالمستقبل بأي عمل عدائي ضد البلغار وأن يقدم للملك سيمون هدايا سنوية قيمة .

وفي زمن ليون السادس حاول الملك البلغاري ســيمون أن يضــم سالونيك الى ملكه وذلك لأن العرب سنة ٩٠٤ م كانوا قد حاصروها ونهبوها وتركوها بحالة من الضعف شجعت الملك على محاولة تنفيذ هذا الحلم ، ولكن ليون الســادس وقــف في وجــه هــذا المشروع

واستطاع أن يقنع البلغـار أن يقبلوا عوضـا عن سـالونيك ارضـا اخرى فقبلوا بذلك ولم تقم في زمنه حروب مع البلغار ، غير أن هـذه الحروب ما لبثت أن تجددت بعد وفاته ، وحـاول الملك سـيمون أن يستولي على القسطنطينية ممـا أثـار الذعر في نفـوس سـكان العاصمة ، وأرسل بطريركها رسالة الى الملك البلغـاري (مـكتوبة بالدموع لا بالدم) ولكن البلغار لم يردوا على التوسلات وغيرها من التهـديدات البيزنطية ، وتقـدمت جيوشـهم في الاراضي البيزنطية وخاضوا معارك عدة كان النصر فيها حليفهم ، وكان اشدها المعارك التي جرت سنة ٩١٧ م على أرض تراقية والتي أبيد فيهـا الجيش البيزنطي المحارب عن بكرة أبيه ، وقد فتحت هـذه المعـارك امـام سيمون طريق القسطنطينية ولكنه لم يستطع السـير اليهـا لأنه كان عليه أن يوجه جيوشه الى جبهة جـديدة في منطقـة الصرب ، وحين تـولى القـائد رومـانوس ليكابينوس عرش الامبـراطورية سنة ٩١٩ كانت القوات البلغـارية قـد وصـلت الى حـدود الدردنيل ، كما أن جيوشهم الأخـرى كانت تخـترق بـلاد اليونان الوسطى . وفي الوقت نفسه حاول سيمون أن يعقد اتفاقا مـع عرب إفريقية على أساس توجيه جيوش مشتركة لحصـار القسـطنطينية وكانت كل مقاطعات تراقية ومقـدونيا مـا عدا القسـطنطينية في يد البلغار ، وكان الملك البلغـاري واثقـا مـن نصره القـريب على الأمبراطور البيزنطي لكن الذي حدث قيام مفاوضات بين الطـرفين تتوجت بعقد اجتماع سنة ٩٢٤ م بين سيمون ورومـانوس ، فحين التقى العاهلان تبادلا التحيات الودية والاحاديث ، وقـد أدى هـذا اللقاء وهذه الاحاديث الى عقد معاهدة بين الطرفين نصـت على أن يتوقف القتال بينهما ، وأن يتعهد الامبراطور البيزنطي بدفع جـزية سنوية للبلغار ، وقد سر سيمون لهذه النتيجة ولعدم قيام معركة بينه وبين الامبـراطورية لأنه كان يتـوقع بعض المصـاعب مـع المملكة الصربية الجديدة التي كانت تتفاوض مع بيزنطة ، ولأن مفـاوضاته مع عرب إفريقية لم تصل الى نتيجة حاسمة ، وحاول بعـد هـذا أن يعيد إحياء مشروعه ضـد القسـطنطينية ولكن المنية عاجلتـه سنة ٩٢٧ قبل أن يستطيع تحقيقه .

وفي عهد خليفة سيمون المسمى بطرس والذي كان مشهورا بحبه للسلام عقدت معاهدة صلح مع بيزنطة دامت أربعين عاما ، واعترفت فيها الامبراطورية باللقب الملكي لبطرس وبالكنيسة البلغارية التي انشئت زمن سلفه سيمون ، وأخذت المملكة البلغارية التي أوصلها سيمون الى الأوج تنحدر زمن بطرس وتتمزقها الخلافات الداخلية ، ولم يؤد خلو الساحة من البلغار الى دوام السلم الذي كانت تنعم به القسطنطينية فقد قام المجريون سنة ٩٣٤ بمهاجمة مقاطعة تراقية ، وتقدموا حتى وصلوا الى القسطنطينية ثم اعادوا ما احتلوا من اراضي ليعاودوا الكرة سنة ٩٤٣ وهاجموا تراقية من جديد ، وقد اضطر الامبراطور رومانوس ليكابينوس أزاء هذه الاعتداءات أن يعقد معهم معاهدة صلح مدتها خمس سنوات .

وقد جددت هذه المعاهدة زمن الامبراطور قسطنطين بوفيرو جينتوس ، ومع ذلك ظهرت قوات مجرية في النصف الثاني من القرن العاشر في الاراضي البلقانية أكثر من مرة وقامت بعمليات عسكرية ، وفي زمن الاباطرة نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس تجددت المعارك بين الامبراطورية والبلغار ، وتدخل الروس في هذه المعارك ووقفوا الى جانب الامبراطورية بناء على طلب المساعدة الذي قدمه اليهم الامبراطور نقفور فوكاس ،وقد أدى تدخل الروس في هذه المعارك الى ظهور خطر جديد على الأرض البيزنطية ، وهو الخطر الروسي إذ اظهر الروسي سفياتوسلاف مطامع اقلقت الامبراطور البيزنطي ، ولم يكن قلق الامبراطور دونما مسوغ اذ أخذت القوات الروسية تزحف على بيزنطة حتى وصلت طلائعها الى القسطنطينية ، واستطاع يوحنا تزيكمس أن يرد الزحف الروسي عن عاصمته وأن يقهر سفياتوسلاف وأن يحتل كل المقاطعات الواقعة في شرقي بلغاريا وأن يخضع المملكة البلغارية لحكمه ، واستفاد البلغار من الاضطرابات الداخلية التي حدثت بعد وفاة تزيكمس فأعلنوا الثورة على بيزنطة بزعامة صموئيل حاكم الجزء الغربي من بلغاريا الذي كان مستقلا وكان الصراع في هذه الفترة بقيادة

الامبراطور الجديد باسيل الثاني الذي عاني من بعض الهزائم امام صموئيل الذي اغتنم الفرصة واعلن نفسه ملكا على البلغار ، ولكن ما لبث أن ابتسم الحظ من جديد لباسيل وذلك في بداية القرن الحادي عشر فاستطاع أن يقلب هزيمته الى نصر ساحق وأن يعمل يد القتل والذبح في البلغار حتى أصبح لقبه الرسمي (ذابح البلغار) وقد وصلت فظائعه الى حد نقرأ معه مثلا أنه في احدى المعارك بعد أن قتل ما قتل سمل عيون اربعة عشر الف جندي بلغاري دفعة واحدة وأعادهم عمي الى بلادهم ، ويقال ان صمويل حين رأى هذه الاعداد من الجنود العميان أصيب بصدمة ادت الى موته فورا وذلك سنة ١٠١٤ م ، وكانت بلغاريا بعدوفاته في حال من الضعف جعلت من السهل على الامبراطورية البيزنطية ضمها اليها وهكذا اصبحت بلغاريا سنة ١٠١٨ م مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية البيزنطية يتولى الحكم فيها حاكم من قبل الامبراطور ، مع انها احتفظت ببعض مظاهر الاستقلال الداخلي.

وقامت ثورة في بلغاريا ضد الامبراطورية في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ولكنها اخمدت بقسوة وحرمت بلغاريا من الاستقلال الداخلي الذي كانت تنعم به من قبل ، وظل الحال هكذا حتى قيام المملكة البلغارية الثانية وذلك في القرن الثاني عشر .

العلاقات بين بيزنطة والروس

كانت العلاقات بين بيزنطة والروس زمن الاسرة المقدونية دائبة ونشيطة على عكس ماكانت عليه في عهد الأسرة السالفة ، وقد بدأت زمن الامبراطورليون السادس الملقب بالحكيم ، وذلك حين اقتحم الأمير الروسي أوليغ المياه البيزنطية وظهرت سفنه أمام أسوار القسطنطينية وذلك في سنة ٩٠٧ م . وقد استطاع أوليغ أن يحاصر بعض المواقع القريبة من العاصمة وأن يقتل عددا من الاشخاص مما اضطر الامبراطور ان يفاوضه وأن يعقد معه اتفاقا ، وقد جدد هذا

الاتفـــاق ســنة ٩١١ م ونصت بـنوده على تســهيلات وامتيازات تجارية للروس في البلاد البيزنطية .

وفي زمن الامبراطور رومانوس ليكابينوس هوجمت القسطنطينية مرتين من قبل الامير الروسي ايغور ، وقد قام ايغور بـأول حمـلاته على العاصمة البيزنطية سنة ٩٤١ م وذلك حين ابحرت ســفنه الى شــاطيء بيثينيا على البحــر الاســود ، ومنه الى البــوسفور حيث حاصرت الشواطيء البيزنطية في هــذه المنطقـة وتقدمت على طـول الشاطيء الاسيوي قبالة القســطنطينية . على انه لم يكتــب لهـذه الحملة النجــاح ، اذ اســتطاع البيزنطيون القضــاء على الســـفن الروسية بواسطة النار الاغريقية ، وهرب ما تبقـى منهـا بـاتجاه الشمال أما من وقع من الروس في الاسر فقد قتله البيزنطيون ، وقد استعد ايغور استعدادا اقوى لحملته الثانية على العاصمة البيزنطية التي بدأها سنة ٩٤٤ م فقد جند الامير الروسي جنودا كثيرين مــن قوميات مختلفة وحشدهم اســتعدادا لما نواه مــن غزو وحين ســمع الامبراطور بانباء هذه الاستعدادات ذعر ذعرا شديدا وسير وفدا من ...راف الامبراطورية محملين بـالهدايا الى روسـيا والى زعمــاء ...لوام الأخرى المتحالفين معها .

وعرض الوفد على الروس أن يعقـدوا معهـم معــاهدة ممــاثلة للمعاهدة التي عقدت من قبل مع اوليغ وأن تدفع بيزنطة لهــم جـزية سنوية كبيرة ، ولكن الامير الروسي رفض أول الامر هــذا العــرض وسار بجيشه حتى وصل شواطيء نهر الدانوب . وهناك تشاور مع رجالاته وقر رايهم على قبول العرض البيزنطي والعودة الى كييف ، وفي العام الذي تلاه عقدت معاهدة بين الطرفين كانت شروطها أقـل امتهانا للسيادة البيزنطية من المعاهدة المتقـدمة التـي عقـدت مــع اوليغ ، وقرر المفاوضون أن تكون هذه المعاهدة أبدية .

وفعلا ساد عهـد مــن السـلم بين الروس والبيزنطيين وتمتنت اواصر الصداقة بينهم.وفي سنة ٩٠٧ م زارت الاميرة الروسية اولغا القسطنطينية فاستقبلها الامبـراطور قسـطنطين السـابع بـورفير

جينيتوس وزوجته استقبالا رائعا ، أما العلاقات مع الروس زمن الاباطرة نقفور ويوحنا تزيكمس فقد ألمحنا اليها من قبل ولا حاجة هنا للتكرار .

وفي فترة حكم باسيل الثاني كانت علاقات الامبراطورية مع الامير الروسي فلاديمير الذي يرتبط اسمه ارتباطا وثيقا بانتشار المسيحية في روسيا ، علاقات وطيدة ، ففي العقد التاسع من القرن العاشر كان الامبراطور في وضع حرج وذلك بسبب زحف فوكاس بجيوشه نحو العاصمة في الوقت الذي كانت فيه مقاطعات الامبراطورية الشمالية تواجه خطر الاجتياح البلغاري ، وكانت فرصة باسيل الوحيدة هي طلب المساعدة من الأمير الروسي فلاديمير الذي وافق على نجدة الامبراطور بجيش بلغ تعداده الستة آلاف مقابل أن يتعهد الامبراطور بتزويجه أخته آنا ، وقد نص الاتفاق أيضا على أن فلاديمير سيدخل في النصرانية وسيجبر شعبه على اعتناقها ، وفعلا أرسل فلاديمير الجيش المتفق عليه لمساعدة باسيل في حروبه ضد فوكاس واستطاع بفضله أن يقهر هذا الثائر وأن يرديه قتيلا في ساحة المعركة ، ويبدو أن باسيل لم يكن جادا في تحقيق وعده لفلاديمير بتزويجه من أخته ، ولذلك ماكان من هذا الأخير حين تلكأ باسيل في إتمام مراسيم الزواج إلا أن سار بجيشه واحتل إحدى المدن البيزنطية الهامة في شبه جزيرة القرم وأجبر باسيل على تحقيق وعده .

وهكذا عمد فلاديمير نصرانيا وتزوج من آنا ، ودخلت روسيا في النصرانية اعتبارا من نهاية القرن العاشر وساد السلم نتيجة هذا بين الطرفين الروسي والبيزنطي لأمد طويل ونشطت العلاقات التجارية بينهما .

لقد استمر السلم حتى اعتلى العرش البيزنطي الامبراطور قسطنطين مونوماكوس سنة ١٠٤٣ إذ يقال انه حدث في هذه السنة خصام بين بعض التجار الروس والبيزنطيين في القسطنطينية قتل في اثنائه أحد الأشراف الروس ، فاستغل الروس هذا الحادث لتوجيه

حملة ضد بيزنطة ، فجهزوا أسطولا يتالف من عدد كبير من السفن وأبحروا به نحو الشواطيء البيزنطية ، ولكن البيزنطيون استطاعوا تدمير هذا الأسطول بواسطة النار الاغريقية ، وكانت هذه آخر حملة توجهها روسيا ضد بيزنطة في العصور الوسطى .

العلاقات مع ايطاليا وأوربا الغربية

إلى جانب الهجمات العربية على إيطاليا فإن أهم الأحداث التي شهدتها هذه البلاد في منتصف القرن التاسع كانت انفصال جمهورية سان مارك (البندقية) عن الامبراطورية البيزنطية وصيرورتها جمهورية مستقلة ، وقد تعاملت بيزنطة مع هذه الجمهورية الجديدة على أساس من المساواة وبالأسلوب نفسه الذي تتعامل به دولتان مستقلتان ، ولاشك أن السبب في ذلك توفر مصلحة مشتركة بينهما نشأت عن الهجمات العربية على أراضي الطرفين وبسبب اعتداءات سلاف منطقة الأدرياتيك على حدود كل منهما . وقد زاد في النفوذ البيزنطي في إيطاليا انتزاع جيوش الامبراطورية لباري وتارنتوم من العرب وأعمال نقفور فوكاس الناجحة ضد العرب في كريت وجنوب إيطاليا .

وكان الخطر العربي على روما حافزا للبابا يوحنا الثامن لأن يقوم بمفاوضات مع الامبراطور باسيل الأول ، وأن يقبل ببعض التنازلات للكنيسة الشرقية مقابل ضمان حماية بيزنطة لروما في حال هجوم عربي عليها، وبناء عليه استمر النفوذ البيزنطي في إيطاليا بتزايد خلال القرن العاشر وأدى ذلك إلى ازدياد نفوذها الثقافي والديني في جنوب إيطاليا .

. وقد شهدت بيزنطة وإيطاليا في هذا القرن العاشر قيام منافس قوي في شخص أوتو الأول الحاكم الجرماني الذي وضع البابا يوحنا الثاني عشر التاج الامبراطوري على راسه في روما سنة ٩٦٢ ، ويعرف أوتو الأول تاريخيا بأنه مؤسس الامبراطورية الرومانية

المقدسة للأمة الجرمانية . وقد كان هم أوتو بعد أن تسلم التاج أن يصبح سيدا على جميع إيطاليا ، وهذا لاشك جعله يبدو كعدو بالنسبة لبيزنطة التي كان لها أيضا مصالح موروثة في إيطاليا ، والتي كان امبراطورها نقفور فوكاس يحلم بأن يقيم تحالفا مع الجرمان ضد المسلمين ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق ، بل قام أوتو بهجمات على الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا ، وتجددت هذه الهجمات زمن الامبراطور يوحنا تزيكمس مما أجبر بيزنطة على تغيير سياستها الايطالية ، ولهذا عقد هذا الامبراطور معاهدة سلم مع أوتو الجرماني وزوج الأميرة البيزنطية تيوفانو من أوتو الثاني ابن أوتو الأول ، وبذلك تمتنت عرى الصداقة بين الأمبراطوريتين ، وقام بينهما تحالف ، وتسلم أوتو الثاني (٩٧٣ ـ ٩٨٣) مهمة الوقوف في وجه الهجمات العربية على إيطاليا نيابة عن الأمبراطور البيزنطي .

وقد كسر أوتو الثاني في إحدى المعارك مع العرب ولم يلبث بعد هذا الانكسار أن توفي وبموته توقف التوغل الجرماني في الممتلكات البيزنطية في إيطاليا لفترة طويلة من الزمن ، وجاء من الزواج الذي تم بين تيوفانو واوتو الثاني أمير تولى العرش في الأمبراطورية الرومانية المقدسة في الفترة بين سنتي (٩٨٣ ـ ١٠٠٢) وعرف باسم أوتو الثالث ، وكان أوتو الثالث هذا معاصرا للامبراطور البيزنطي باسيل الثاني وقريبا له ويكن حبا شديداً لبيزنطة ومؤسساتها الثقافية حيث عاشت امه واشبعت خياله بذكريات نشاتها فيها ، وكانت أحلام كثيرة تراود خيال هذا الأمير بسبب ثقافته الكلاسيكية وإعجابه بروما من جهة وبيلاط القسطنطينية من جهة أخرى ، فقد كان من جملة أحلامه مثلا أن يعيد مجد روما القديمة وأن يعيد إلى الوجود الامبراطورية الرومانية القديمة وعاصمتها روما ، ولكن لم يتح لهذه الأحلام أن تتحقق لأنه توفي فجأة وهو في الثانية والعشرين من عمره وذلك في مطلع القرن الحادي عشر (١٠٠٢) .

وعلى الرغم من أن الخطر العربي على إيطاليا قد خفت حدته في

مطلع القرن الحادي عشر بسبب نشاط أسطول البندقية ومساهمته في حراسة الشواطيء الايطالية من الهجمات العربية فإن خطرا جديدا أشد وأدهى بدأ يتهدد الأرض الايطالية ، ألا وهو خطر النورمان الذين تسربوا إلى إيطاليا في مطلع القرن الحادي عشر ، وما لبثوا أن هاجموا بيزنطة نفسها فيما بعد ، وقد استطاعت بيزنطة في أولى معاركها مع النورمان على الأرض الايطالية أن تدحرهم وذلك زمن الامبراطور باسيل الثاني ، وخلال فترة الصراع الديني بين روما والقسطنطينية التي انتهت بالانشقاق بين الكنيستين ١٠٥٤ م انحاز النورمان إلى جانب روما وأخذوا يتقدمون داخل الممتلكات البيزنطية في إيطاليا ، وستزداد قوة النورمان حتى تصل أوجها في منتصف القرن الحادي عشر ، وذلك بعد انتهاء فترة حكم الأسرة المقدونية ، وسلف بنا أن تحدثنا عن احتلالهم لجنوب إيطاليا وانتزاعهم صقلية من العرب .

شؤون الكنيسة

وكانت أهم الأحداث الكنسية التي تمت خلال فترة حكم الأسرة المقدونية هو الانفصال التام بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية الذي تم في منتصف القرن الحادي عشر بعد خصومات طويلة مدة قرنين تقريبا .

والى جانب هذا الحدث الهام تمت أحداث أخرى أقل أهمية في الحقل الكنسي ،منها أن الامبراطور باسيل عزل البطريرك فوتيوس من منصبه وأعاد إلى الكرسي البطريركي أغناطيوس الذي كان قد عزل زمن سلفه الأمبراطور ميخائيل الثالث ، وقد قصد باسيل من هذا العمل دعم مركزه السياسي عن طريق تنصيب بطريرك يؤيده ، وله أيضا شعبية عند عامة الشعب البيزنطي ، وأراد باسيل أن يذهب إلى مدى أبعد في دعم مركزه السياسي عن طريق كسب التأييد الديني ، فأرسل هو والبطريرك الجديد أغناطيوس رسائل إلى البابا في روما يعلنان له فيها اعترافهما بسلطته العليا على الكنيسة

الشرقية ويشرحان له رغبتهما في كنيسة موحدة لاانقسام فيها ويرعاها راع واحد هو البابا ، وكان هذا ولاشك نصرالبابوية وللبابا نيقولا الأول خاصة ، ولكن القدر لم يمهل هذا البابا ليشهد نتائج نصره العظيم إذ أنه قبيل وصول هذه الرسائل إلى روما توفي وتسلمها خلفه البابا هادريان الثاني .

وهكذا دخلت الشؤون الدينية لبيزنطة في عهد جديد أصبح للبابوية فيه القول الفصل في جميع الأمور الكنسية . وكان البطريرك المعزول قد نفي أول الأمر وتعرض لأشد أنواع الحرمان والضنك ، ولكن باسيل شعر أن البطريرك المعزول مازال يتمتع بشعبية كبيرة وله عدد كبير من الاتباع ذوي النفوذ ، لذلك أعلن عفوه عنه واستدعاه إلى القصر الأمبراطوري واوكل إليه أمر تثقيف اولاده ، وحين توفي اغناطيوس أعيد فوتيوس للكرسي البطريركي ، وكانت عودته لهذا المنصب بداية عهد جديد من العلاقات مع البابوية ، حيث انه عقد في القسطنطينية مجمعا دينيا حضره جمع غفير من رجال الدين وممثلون عن البابا ، وكان المجمع من العظمة والاهمية بحيث شبه بالمجامع المسكونية وكان نصرا كبيرا لفوتيوس إذ انه افتتح بحمد فوتيوس وانتهى بتمجيده . وقد ناقش هذا المجمع قضية رئاسة البابا للكنيسة وقرر أن البابا بطريرك كبقية البطاركة وانه لاسلطة له على الكنيسة عموما ولذلك فلا لزوم لموافقته على تعيين بطريرك القسطنطينية ، وقد أغضب هذا القرار البابا كثيرا ، فأرسل وفدا إلى القسطنطينية وطلب إلغاء جميع القرارات الماسة بالمنصب البابوي من بين مقررات المجمع ورفض فوتيوس وباسيل الانصياع لطلب الوفد وذهبا إلى حد إصدار الأوامر باعتقال أعضائه ، وقد أدى هذا الموقف إلى سوء العلاقات بين البابوية والقسطنطينية وإلى قيام نوع من القطيعة بين روما والأمبراطورية ، ولم يطل الزمن بفوتيوس إذ أنه بعد وفاة باسيل الثاني ومجيء ليون السادس للعرش البيزنطي عزل من منصبه ، ومالبث بعد عزله بخمس سنوات أن توفي وتكاد الكلمة تجمع على أن فوتيوس كان من اشخاص

عصره الذين شغلوا دورا بارزا لا في المجال الديني فحسب بل في المجال الثقافي وحتى السياسي ايضا .

ورأينا انه إلى جهود باسيل الأول يعود الفضل في إدخال الروس في النصرانية ، كما ان اعدادا كبيرة من القبائل السلافية الساكنة في منطقة البيلوبونيز اعتنقت النصرانية في عهده ، وإليه ينسب أمر ينص على وجوب إجبار اليهود القاطنين في الامبراطورية على التخلي عن يهوديتهم والدخول في النصرانية .

وكان الامبراطور نقفور فوكاس قد اصدر سنة ٩٦٤ م قرارا عد من اخطر القرارات أثرا على الأديرة والكنيسة ، وذلك على الرغم من شدة تعلقه بالمسيحية ، ونص قراره :

على منع اقامة اديرة جديدة ومنع تقديم الهدايا والاعطيات ووقف الاوقاف للأديرة والمستشفيات الخيرية وتحريم تقديم الهبات والاموال لصالح رجال الدين وجميع الهيئات المرتبطة بالكنيسة ، ويبدو لأول وهلة وكأن هذا القرار موجه من امبراطور وثني ضد الكنيسة وجميع الهيئات التابعة لها ، ولكن الواقع أنه كان لهذا القرار مايسوغه ، إذ أن الكنيسة منذ عصر الايقونات قد أصبحت على درجة من الغنى الفاحش لاتوصف ، وغناها كان في الاراضي والعقارات والنقد والتحف والنفائس وغير ذلك من أشكال الثروة مما حولها الى مؤسسة اقطاعية كبيرة تستولي على املاك واموال الرعايا المؤمنين وتسخر كل ذلك لاقامة طبقة من رجال الكهنوت والرهبان المترفين على حساب شعب يعاني اكثره من الفاقة والحرمان ، وقد أورد فوكاس ضمن الأسباب المسوغة لاصدار هذا القرار قوله : إنا نقصد أن نقتلع جذور الطمع الذي يكرهه الرب ولايرضاه .

وكان رد فعل الناس المتدينين في غالبيتهم العظمى عنيفا ضد الامبراطور وقراره الجائر ، وبدا أن الناس لن يعملوا به طويلا . وفعلا قام باسيل الثاني بالغاء هذا القرار وعده قرارا جائرا ومعاديا

للكنائس والمستشفيات والرب ايضا ، وبسبب غضب الرب على الامبراطورية قادها الى حافة الانهيار والدمار .

وبعد وفاة الامبراطور باسيل الثاني سنة ١٠٢٥ دخلت الامبراطورية البيزنطية مرحلة جديدة من مراحل حياتها حافلة بالاضطرابات تميزت بسرعة تبدل الاباطرة وسير الامبراطورية سيرا حثيثا في طريق التدهور ، وقد استطاعت الامبراطورة زوية أن ترفع ازواجها الثلاثة الى السدة الامبراطورية كل بدوره ، وفي سنة ١٠٥٦ حين توفيت الامبراطورة ثيودورا أخت الامبراطورة زوية انتهى حكم الاسرة المقدونية وابتدأت فترة من الاضطرابات التي دامت خمسا وعشرين سنة (١٠٥٦ ــ ١٠٨١) وانتهت هذه الفترة الجديدة باعتلاء الامبراطور الكسيوس كومنين العرش الامبراطوري وبذلك ابتدأ عصر حكم آل كومنين ، وتعد الفترة ما بين وفاة زوية واستلام الكسيوس كومنين لعرش الامبراطورية من اهم فترات التاريخ البيزنطي لانه تهيا خلالها الجو الذي أدى في النهاية الى قيام الحركة الصليبية في الغرب ، كما مارس خلالها أعداء الامبراطورية في الخارج شتى أنواع الضغوط عليها من جميع الجهات : فالنورمان نشطوا في الغرب ، والاقوام السلافية كانت تلقي بثقلها على المناطق الشمالية ، وقام السلاجقة التركمان باثارة المتاعب في وجه الامبراطورية في المناطق الشرقية ، وأدى كل هذا الى تناقص رقعة الامبراطورية وخروج بعض المناطق من يدها ، ثم إلى اذلالها وتدمير جيوشها واسر امبراطورها في معركة مناز كرد .

وكان من جملة الخصائص المميزة لفترة الاضطرابات هذه ثورة العناصر العسكرية وطبقة النبلاء ضد الحكومة المركزية ، وقيام صراع شديد بين الطرفين انتهى بنصر الاقاليم على العاصمة ، وقد توج هذا النصر باعتلاء الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية وبداية مرحلة جديدة من مراحل الحكم في الامبراطورية البيزنطية.

كان جميع اباطرة فترة الاضطرابات من اصل يوناني ففي سنة ١٠٥٦ اجبر رجال البلاط الامبراطورة العجوز ثيودورا أن

تسمي ميخائيل ستراتيوتيكوس ، وهو احد رجالات البلاط خلفا لها ، وقد توفيت ثيودورا عقب تسمية خلفها مباشرة واعتلى العرش بعدها ستراتيوتيكوس باسم ميخائيل السادس ، وقد حكم ميخائيل السادس هذا لمدة عام تقريبا(١٠٥٦ ـ ١٠٥٧) ، وقامت في وجهه حركة معارضة تزعمها جيش مقاطعة اسيا الصغرى الذي سمي قائده اسحاق كومنين امبراطورا ، واسحاق هذا سليل اسرة من ملاكي الارض الكبار ، وقد اشتهر بشجاعته وبسالته في المعارك ضد التركمان ، وكان تعيين اسحاق كومنين أول نصر للحزب العسكري على الحكومة المركزية في فترة الاضطرابات هذه ، واستقال ميخائيل السادس اثر هذه الحركة من منصبه وأمضى بقية حياته كفرد عادي .

ولم يتح لهذا النصر الذي حققه الحزب العسكري ان يعمر طويلا .اذ أن اسحاق كومنين مالبث بعد حكم لم يدم سنتين (١٠٥٧ ـ ١٠٥٩) أن استقال من منصبه وانصرف الى العبادة والتدين ، وقد خلفه قسطنطين العاشر دوكاس فحكم بين سنتي (١.٥٩ ـ ١.٦٧) وكان ماليا من الطراز الأول وتمتع بحس سليم وعدالة واضحة ، وصرف همه بشكل خاص لقضايا الدولة ، ولم يعر قضايا الجيش والشؤون العسكرية بشكل عام اهتماما كبيرا ، ويمكننا ان نعد فترة حكمه بمثابة ردة فعل مدنية على التدخل العسكري الذي استشرى فيما مضى وأوصل اسحاق كومنين الى العرش ، أو كمحاولة لاظهار انتصار العاصمة على المقاطعات ، على أنه كانت هناك ظروفا لاتسوغ الموقف المتعنت الذي وقفه قسطنطين العاشر من الجيش ، واهم هذه الظروف وجود اخطار خارجية استدعت وجود جيش قوي يستطيع رد الاعتداءات التي هددت حدود الدولة ، وبدا واضحا أن الامبراطورية بحاجة لشخص يستطيع أن ينظم مقاومة عسكرية مسلحة تستطيع الوقوف في وجه خصوم بيزنطة ، وهكذا قام حزب معارض للامبراطور . استطاع أن يفرض ارادته على أرملة قسطنطين بعد وفاته وأن يجبرها على الزواج من القائد الشهير رومانوس ديوجانس واعتلى العرش باسم رومانوس الرابع وحكم بين

سنتي (١٠٦٧ ـ ١٠٧١ م) وبعد وصـول رومـانوس الى العـرش النصر الثاني الذي استطاع الحزب العسكري تحقيقـه ، وقـد دام حكم هذا القائد الذي وصل الى السـدة الامبـراطورية مـدة أربـع سنوات ، وانتهـى كمـا رأينا بـكارثة كبيرة ، اذ انه وقـع في أسر السلطان السلجوقي ألب ارسلان ، وقد أدى أسر الامبـراطور الى حدوث بلبلة داخلية كبيرة ، وانتهى الرأي برجال الدولة الى ضرورة تنصيب امبراطور جديد ، وهكذا انتخب ميخـائيل السـابع واعتلى العرش الامبراطوري سـنة ١٠٧١ م واسـتمر حـكمه حتـى سنة ١٠٧٨ م.أما رومانوس الرابع ، فقد عاد مـن الأسر ليجـد أن العرش قد شغل من قبل امبراطور جديد ، وحاول استرداد عرشـه واخفق وتعرض لسمل العيون والعذاب الشديد ومالبث ان توفي .

كان ميخائيل السابع مشغوفا بالعلم والمناظرات الفكرية وكتـابة الشـعر ، ولم يكن له اي ميل للقضـايا العسـكرية او الحروب ، وباعتباره ابن قسطنطين العاشر دوكاس ، فإنه ورث عن أبيه ميلا واضحا نحو الادارة وكرها شـديدا للعسـكريين والأمـور العسكرية ، مما جعل عرشة مهددا بأخطار خارجية لايستطيع لهـا ردا ، وبدا واضحا للمرة الثانية أن الامبراطورية بحاجة لامبراطور عسكري يساعده جيش قوي يمنعـان عنهـا المخـاطر التـي تتهددها ، وتزايد شعور الناس بهذه الحاجة وقامت ثورة في أسـيا الصغرى تزعمها نقفور بوتنياتس ، أحد القادة العسـكريين في تلك المنطقة ، وقد أعلن بوتنياتس امبراطورا في اسيا الصغرى وزحـف على العاصمة حيث خلع الامبراطور واضـطره للالتجـاء الى احـد الأديرة ولبس التاج الامبـراطوري بعـد أن سـلمه اياه بـطريرك القسطنطينية ، وقد اسـتمر حـكم الامبـراطور الجـديد من ١٠٧٨ حتى ١٠٨١ ولكنه كان مسنا ومصابا بعدة امراض ممـا جعله غير قادر على تحقيق الآمال التي عقدت عليه في دفع الأخـطار الداخلية والخارجية ، يضاف الى هذا ان الارستقراطيين ومـلاكي الأرض في المقاطعات لم يعترفوا به كامبراطور ، وظهر عدة طامعين بالعرش في مقاطعات الامبراطورية المختلفة .

وكان من هؤلاء الطامعين في العرش الكسيوس كومنين ، وهـو ابن اخ الامبراطور المستقيل اسحاق كومنين ، وقد أظهر الكسيوس مهارة فائقة في الوصـول الى هـدفه وهـو العـرش الامبراطوري ، واستطاع ان يستغل الظروف المختلفة ليبرز نفسه كأفضل المرشحين لهـذا المنصب ، واخيرا وفي سـنة ١٠٨١ تنازل بوتنياتس عن العرش والتجـأ الى احـد الأديرة ودخـل سـلك الرهبنة ، فتوج ألكسيوس كومنين وتسلم العرش واضعا بذلك حـدا لفترة الاضطراب هذه ، ويعد ارتقاء الامبراطور الجديد نصرا للفـئة العسكرية وللمقاطعات على السياسيين والعاصمة معا .

وليس هناك شك في أن الأعوام الطوال من الصراع على العـرش قد جعلت بيزنطة في حال من الضعف الشديد وقللت مـن مـكانتها في ميدان السياسة العالمية في عالم العصـور الوسـطى ، وقـد زاد في تدهور الامبراطورية وتدني مركزها الأوضاع الخارجية التـي كانت تجابهها ولاسيما في الجبهة الشرقية حيث كان السلاجقة التـركمان يصوبون سهامهم الى قلبها .

الباب الثاني

طورا وقائع الحروب الصليبية

الفصل الأول

الطور الأول من تاريخ الحروب الصليبية
(الاحتلال)

اهتمت غالبية الأبحا ث الحديثة حول وقائع الحروب الصليبية بأسباب هذه الحروب خاصة من الجانب الأوربي ، وتأثر كل بحث بأحوال البلد الذي صدر فيه وبالتيارات الفكرية لأيامه وبمدرسة التفسير التاريخي التي إليها انتمى صاحب البحث ، وكذلك بالانتماء السياسي والكنسي ، حيث هناك أبحاث كثيرة مثلت وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ، وهناك ما مثل وجهة نظر الكنيسة الاورثوذكسية البيزنطية ، وطبعا لايمكن الحديث عن أبحاث واسعة الانتشار تمثل وجهة نظر العرب والمسلمين ، وكتابنا هذا احدى المحاولات لعرض ما أسميه وجهة نظر عربية اسلامية .

لقد حاولت جل الدراسات الأوربية التقليل من العامل الديني وفعاليته والحث على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ووقفت مطولا عند نظام الاقطاع وتأثيراته ، وفي الحقيقة تشكل محاولات التقليل من العامل الديني نوعا من أنواع خداع الذات ، وسنرى في الجزء المقبل من موسوعتنا هذه مدى عمق وفعالية العامل الديني ، فمن غير المعقول أن تتخلى جموع من سكان أوربا تزيد على المليون مابين رجل وامرأة وشيخ وطفل عن حياتها ومواطنها وتأخذ الطريق الطويل الشاق نحو بلاد الشام لولا عمق المشاعر الدينية لدى هؤلاء الناس ، فالذي حرض هؤلاء وقادهم رجال الدين .

هذا ومواريث أوربا بشطريها الشرقي والغربي في شن حروب صليبية راسخة وواسعة ، فلقد عرضنا من قبل للحروب الصليبية التي شنها شارلمان ضد السكسون فضلا عن حروبه ضد مسلمي

الاندلس ، كما أتينا على الاشارة إلى صليبية القرن العاشر التي شنتها الامبراطورية البيزنطية ضد المسلمين في بلاد الشام وكريت ، يضاف إلى هذا إن الصراعات التي شهدتها ساحات اوربا الغربية مع الحروب بين البابوية والامبراطورية اخذت صبغة صليبية واضحة . فلقد تسلحت البابوية بسلاح الدين واستخدمته ضد الأباطرة ليس لاثارة الأنصار فحسب بل بفرض عقوبات الحرمان والطرد من الكنيسة ضد الاباطرة ، فالبابوية كان بامكانها منح صكوك الغفران واصدار قرارات الحرمان ، والكنيسة هي التي فرضت هدنة الرب على امراء الاقطاع في أوربا ، ومن ثم وجهت طاقات هؤلاء الحربية لأعمال خارجية ، والكنيسة الكاثوليكية هي التي تبنت مابشر به اثناسيوس ثم عبادة الايقونات ومن ثم اوجدت عقيدة الحج في المسيحية وروجت لها وابدعت طقوسها.

ونشطت حركة الحج نحو فلسطين في القرن الحادي عشر كثيرا ، كل ذلك برغم المعوقات الشديدة على الطريق الاوربية وفي بيزنطة ، واحيانا في ديار المسلمين ، وقبل هذا القرن نادرا ما اتت المصادر الاسلامية على ذكر قدوم حجاج غربيين ، لكنها فعلت ذلك في اخبار هذا القرن ، فقد جاء عند العظيمي في حوادث سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م :« ومنع أهل السواحل حجاج الفرنج الروم العبور إلى بيت المقدس ، وانتشر الخبر ممن سلم منهم إلى بلادهم بذلك ، فتأهبوا للغزاة ، واتصلت الاخبار الى السواحل وبلاد المسلمين كلها (١)»

ولا شك ان هذا الخبر يقدم اساسا جيدا لحكاية بطرس الناسك ، وقدومه حاجا الى فلسطين ثم نشاطه الدعوي في أوربا للحروب الصليبية ، وكان الحج يخضع لطقوس أوجبت على من رغب بالتوجه الى فلسطين أن يحصل على أذن من أسقف منطقته ، فيتناول منه عصا الحج ومزودا ، وكانت العصا طويلة ، في وسطها عقدة وكذلك في اعلاها ليربط عليها شارة الصليب ، أما المزود فكان يعلق برباط ، وكان الحاج يزود بكتب توصية إلى الأديرة المسيحية التي

سيمر بها ، وكان اهل القرية يخرجون وهم يرتلون الاناشيد الدينية لتوديع الحجاج ، وفي كثير من الاحيان ، كان الحاج يبدأ رحلته حافي القدمين ، يستوي في ذلك الغني والفقير ، وكان بعض الحجاج ينحدر إلى روما لياخذ عصاه مع التبريكات من البابا نفسه ، ثم يركب البحر حتى القسطنطينية وبعدها يسافر برا عبر آسية الصغرى ، وفيما بعد اعتاد الحجاج على ركوب الطرق البرية حتى القسطنطينية ومن ثم نحو القدس (٢)، وهذا ما فعله الذين شاركوا في الحملات الصليبية ، لتوفر المعرفة بالطرق وطبيعتها ولقلة النفقات .

جميع القرائن تؤكد أن نفوس شعوب أوربا الغربية خاصة في فرنسا وايطاليا كانت مشبعة بالتمسك بالمسيحية والخضوع للبابوية ، وعلى الرغم من طبيعة المسيحية المسالمة بالأصل ، استطاعت البابوية تسويغ استخدام العنف ، وحين ألقى البابا أوربان الثاني خطابه في مجمع كليرمونت يوم ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ م فجر كوامن النفوس فصرخ الجميع « إنها ارادة الرب » وحملوا شارات الصليب وأخذوا يعدون العدة للانطلاق نحو المشرق .

ولقد رويت كلمة البابا أوربان الثاني في اكثر من مصدر وفيما يلي فقرات رئيسة مما قاله حسب احدى الروايات :

أيها الأخوة الأحباء :

إنه في ظل الظروف الملحة ، قدمت أنا أوربان ، المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعالم اجمع ، إليكم ياعباد الرب ، بمثابة رسول لأنبئكم بالأوامر الربانية ....عليكم وبكل سرعة أن تأخذوا المساعدات إلى اخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، إنهم بحاجة ملحة إليها ، إن العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الاراضي الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في أراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد ابادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من

قتلوا ، واخـذوا عددا كبيرا مـن الاسرى ، ودمـــروا الكنائس ، واجتـاحوا أراضي المملكة ، وإذا لم تتصـدوا لهـم الآن ، فإنهـم سيمدون سلطانهم أعمق وسيذشرونه فوق العبيد المخلصين للرب .

لهذا السبب أتوجه إليكم بـالرجاء والتحـريض ـ وإنه ليس أنا الذي اتـوجه إليكم ويحـرضكم ، بـل الرب على لسـاني انا نائب المسيح ـ أتوجه إلى الفقير منكم والغني واسـالكم ان تتسـارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبـل اخـواننا ، وأن تقدموا المساعدة في وقتها المناسـب إلى عبـاد المسـيح ، إنني اخـاطب جميع هؤلاء الحضـور ، وأعلن الشيء نفســه إلى جميع الغياب ، لكن اعلموا أن المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامـر.

إن جميع الذين يذهبون ويفقدون حياتهم في البر او البحـر اثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار ، سيتم غفران ذنوبهم بـالحال ، وإنني أمنح هذا من خلال السلطة المضفاة علي من قبل الرب .

إنه يتـوجب على هؤلاء الذين اعتـادوا ـ حتـى الان ـ على الاقتتال ، مقترفين للاثـم ، منغمسـين في صراع ضـد المؤمنين أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفار ، وان يحققوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مباشرتها منذ أمد طويل ....

إنهضوا واديروا أسلحتكم التـي تسـتعملونها ضـد اخـوانكم ووجهوها ضد أعدائكم ، أعداء المسـيحية ، إنكم تـظلمون الأيتـام والأرامل ، وانتم تتورطون في القتل والاغتصاب ، وتنهبون الشـعب في الطرق العامة ، وتقبلون الرشـاوى لقتـل اخـوانكم المسـيحيين وتريقون دماءهم ، دونما خوف أو وجل أو خجـل ، فـأنتم كالطيور الجوارح ، اكلة الجيف التـي تنجـذب لرائحـة الجيف الانسـانية النتنة ، ضحايا جشـعكم ، انهضـوا اذن ولاتقـاتلوا اخـوانكم المسيحيين بل قاتلوا أعداءكم الذين استولوا على مـدينة القـدس ، حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد ، افتـدوا أنفسـكم أنتـم المذنبين المقترفين احط أنواع الآثام .....

يجب على هؤلاء الذين كانوا مرتزقة ، يقـاتلون في سـبيل الاثـم

والعدوان ، ان يجندوا انفسهم الان لنيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد ماذا يمكن ان اقول اكثر من هذا ؟

اقول : سيقف الفقراء والتعساء اولا على طرف ، وسيقف الاغنياء حقا على آخر ، هناك وقف أعداء الرب ، وهنا وقف أعوانه

اوقفوا انفسكم وانتدبوها إلى الحرب المقدسة دونما تأخير ، وليقم المقاتلون منكم بتنظيم اعمالهم ، وجمع كل ما يحتاجونه للحملة ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل الربيع عليهم أن ينطلقوا بقلوب عامرة بالايمان ، وليأخذوا الطريق تحت اشراف الرب وقيادته ».

ولم يبدع البابا اوربان الثاني هذه الدعوة بل ورثها عمن سبقه من بابوات خاصة رجال القرن الحادي عشر للميلاد ، ففي هذا القرن كثر الطامحون للوصول إلى عرش البابوية في اللاتيران ، وكان ممن نجح في ذلك أفراد أسرة يهودية رومانية اسمها « البيرليوني » ، وقدمت هذه الأسرة اكثر من بابا كان آخرهم البابا اوربان الثاني ، واوربان الثاني وإن لم يكن « بيرليوني » النسب ، الا انه كان خريج مدرسة هذه الاسرة ، واشهر بابوات هذه الاسرة البابا غريغوري السابع ، فهو بالواقع من خطط لحملة صليبية تتجه نحو المشرق ، فهو قد عاصر معركة الزلاقة ، وتراسل مع ابن علناس صاحب قلعة بني حماد، وحرضه ضد يوسف بن تاشفين ، كما رأينا في الجزء المتقدم ، وكان البابا غريغوري قد دخل في صراع شديد مع الامبراطور الجرماني هنري الرابع ، فأصدر هذا الامبراطور في ٢٤ كانون الثاني لعام ١٠٧٦ م قرارا بعزل البابا من منصبه وعين بدلا عنه بابا مكنه بقوة السلاح من دخول اللاتيران ، وعلى الرغم من جميع ما بذله البابا غريغوري السابع من جهود فإنه مات منفيا سنة ١٠٨٥ ، فاختار الكرادلة فكتور الثالث بابا خليفة له وكان عجوزا توفي سنة ١٠٨٧ م فجرى اختيار أوربان الثاني ، ولم يستطع اوربان الثاني دخول روما لوجود بابا امبراطوري فيها محتل لها اسمه كليمنت الثالث (٣)، لذلك عاش

هذا البابا متنقلا مابين ايطاليا وفرنسا ، ومن فـرنسا اطلق الدعوة الى الحروب الصليبية ، ومن هذا الباب راى بعضهم في دعوة أوربان الثاني في مجمع كليرمونت محاولة ذات عدة غايات :

أ- امتلاك قوة جماهيرية واقطاعية في فرنسا خاصة واستخدامها في الصراع ضد الامبراطورية ولتمكنه من العودة الى روما بابا معتـرفا به من قبل الجميع ومنتصرا بالوقت نفسه.

ب - في اندفاع أعداد هائلة من الاوربيين الغـربيين نحـو الأراضي البيزنطية فرصة لفرض هيمنة رومـا على جميع الكنائس ، او كمـا قيل إعادة توحيد الكنيسـتين الشرقية والغـربية ، وطبعـا هـذا لم يتحقق حتى بعد سيطرة الصليبيين على القسطنطينية فيمـا يسـمى بالحملة الرابعة كما سنرى .

ج - تنفيذ غايات اعلان الحرب ضد المسلمين والقضاء على الاسلام وسكان الشام وتحويل هذه البلاد إلى وطن لاتيني فيما وراء البحار

وسلف التعرف إلى أوضاع بلاد الشام والوطن العربي في القـرن الحادي عشر ولاحاجة للاعادة هنا ، كما أنني لا أجد ضرورة لعرض تفاصيل وقائع ما حدث بعد عقد مجمع كليرمونت ، فهذه التفـاصيل وافية جدا في نصوصنا المنشورة على اختلاف أصولها ومشـاربها ، والغاية مما نكتبه الان تقديم بعض المفاتيح التي تسـاعد على فهـم النصوص ، ويكفي أن نتذكر الان ، انه بعد وفاة السلطان ملكشـاه تمزقت الدولة السلجوقية ، ولم تعد دولة مركزية لسلطانها سـيطرة على جميع المعترفين بشرعيته ، وأسوأ من هذا كان وضـع خلفـاء بغداد ، ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية ، كره افراها الوحدة ومجوها وألفوا الفرقة واحبوها ، وارتضـوا بعـدم الاستقرار ، لذلك استمرت الصراعات الداخلية والحروب .

وهكذا بعدما انساح التركمان في بلاد الشـام اسـتطاعوا خـلال أكثر من ثلث قرن من الزمان تدمير بلاد الشام تدميرا مـريعا قلمـا

عرفت له مثيلا في تاريخها المديد ، وعندما اشرف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لانظير له ، وكانت البلاد ممزقة سياسيا :

الحكام جلهم من التركمان الغرباء بالمولد والنشاة لاارتباط لهم بحضارة بلاد الشام ولغتها وتقاليدها ومعتقدات أهلها ، هم هؤلاء الحكام السلطة والمزيد من الارباح الخاصة والمال فقط دونما رادع أو اعتبار ، وكان من محصلات أعمالهم بالاضافة لما نكر ، تحطيم قوة القبائل العربية في البلاد مع قوة أهل المدن والمنظمات الشعبية .

وفي ذروة حالة الدمار هذه والعنف والعذاب وصلت انطاكية في مشارف الشام حشود فرنجة أوربا ، قدرت أعدادها بما يفوق المليون مابين رجل وشيخ وطفل وامرأة ، وقيل بأن القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت لاتقل عن مئة الف ما بين فارس وراجل وتابع .

وكان الهدف المعلن لهذه الحشود ـ كما رأينا ـ الوصول الى القدس لقضاء واجب الحج ، وتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين والعرب ، وتحويلها الى جزء من أوربا الكاثوليكية فيما وراء البحار.

ووصلت جموع الفرنجة الى انطاكية واخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، اخفق خلالها حكام الشام والجزيرة من التركمان في توحيد جهودهم ، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم ، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة ، وأخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة أحد كبار ضباط عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه ، وعندما دخل الصليبيون أنطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين ،وفر يغي سغان حاكمها وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به ،ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين ،وأخيرا تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة

ووصلت الى انطاكية ، واخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقـاد كربوقا صاحب الموصل الحصار ،وكان من الممكن ايقـاع البـلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الاسـوار ، لكن انانية قـادة التـركمان وطغيان كربـوقا واستبداده برأيه جلب الاخفاق والهزيمة ووصـف صـاحب اعمـال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، الحالة اثناء الحصار بقـوله :« امـا الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفـوا عن محـاربتنا اثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهـم سـوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملوا هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسـمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ، ولابشرب الماء لمن معه الماء ، فقـد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس ، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمأنينتنا ، كما أقام فريق مـن الاتـراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الأخر فقد عسـكر في واد قـريب مـن القلعة ... أما حامية القلعة فقـد دابـت على مهـاجمة رجـالنا ليلا ونهارا ، تاركة اياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ، اما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شـديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها او الدخول اليهـا الا ليلا او خفاءا ، وبذلك كنا نعاني من الحصار ونكابـد الضـيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف» .

وفي ذروة المحنة هذه ادعى أحـد الفـرنجة واسـمه بـطرس أن القديس اندراو س قـد تـراءى له ، وقـال له :« إنني الحـواري اندراو س اسمع يابني : عرج ... على كنيسة القـديس بـطرس ـ القسيان ـ وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعـن بها حين رفع على خشبة الصليب » ، وبعد تردد باح بـطرس بـأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة واتباعهم ، وكان بطرس كما يقول ابـن الأثير « داهية من الرجال ، فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بـالقسيان في انطـاكية ، وهـو بناء عظيم ، فـان وجدتموها فإنكم تظفرون ، وأن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن من قبل ذلك حربة في مكان فيه ، وعفـا أثـرها ، وأمـرهم

بالصوم والتوبة ، ففعلوا ذلك ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الى الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبشروا بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج ، فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معا جلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم ، وثانيا من منعهم قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة بهم ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولاطعن برمح ، ولارمى بسهم».

في رواية ابن الاثير ان الهزيمة قد تمت على المسلمين «ولم يضرب احد منهم بسيف ، ولاطعن برمح ، ولارمى بسهم» مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك ان صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، يذكر خلاف ذلك ، فهو يقول :« بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة ايام ، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي اقاموها في شتى الكنائس ، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم ، فلما أنتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات ، واقاموا القداسات .

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هيج العظيم وبصحبته الفرنسيون وكونت فلاندرز .

وفي الثانية دوق غودفري ورجاله وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص ، وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه ، ومنعا لهم من

النزول الى المدينة ، وكان في الفريق الخامس تنكريد - ابن المركيز - بصحبة رجاله ، وفي الكتيبة السادسة بوهيموند الفطن مع فرسانه

ولما تدثر اساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصلبان ، ممجدين السيد ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعتلى اخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا علينا علامة الصليب وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة إثر اخرى قال : دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا الا انه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجبة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان ماأمر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يعلن الارتداد اذاشاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، اذا تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في إثره بالخطى نفسها ، ثم انشطر الترك شطرين : اتجه أحدهما ناحية البحر ، بينما اقام رجال الفريق الاخر في مكانهم مؤملين أن يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بما يبيته العدو لهم فعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق غودفري وكونت نرمندي ، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الاتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغله مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين وأحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم باقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على

جانب البحر انه لم تعد لهم قدرة على المقاومة اضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم فيلوذوا بالفرار ، فلما تبين لهؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق غودفري وهيج العظيم وكونت فلاندرز الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردتهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الاله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا واياهم في القتال ، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا في اثارهم حتى خيامهم ، وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، ورأوا ان اقصاءهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي ... فخلى العدو ورائه خيمه وذهبه وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبيذ والطحين ، وغير ذلك مما كان يلزمنا .

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة انطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م ، وأخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوبا ، وكان قبل أن تسقط انطاكية ، وحتى قبل ان يصل الصليبيون اليها ان انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين أخو غودفري – الذي سيكون أول ملك لملكة القدس اللاتينية – وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية ، وأخيرا وصلت الى الرها فاحتلتها ، واتخذت منها قاعدة لاحدى امارات الصليبيين في المشرق ، وكان من أسباب نجاح هذه الفئة ومن أسباب النجاح عند انطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا اما سريانا يشعرون بالغربة أو من أصل أرمني (٤) ، يضاف الى هذا ان

سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية ، مكروهة وليس لها قواعد متينة ، ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو وفق قاعدة الكر والفر ، ثم ان الأرض لم تكن « بعد » أرضا تركمانية ، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم ، وربما وجد شئ يسير من الشعور الديني ، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان .

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، وذلك بعد أن جعلوا انطاكية مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من دولة حلب الكثير من اراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية ، فلقد استولوا على البارة، واخذوا يجردون حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا الى أسوار المدينة ، ثم اتوا على معرة النعمان ، ويحدثنا صاحب أعمال الفرنجة وهو شاهد عيان عن حصار المعرة فيذكر أن جيوش الصليبين:« تجمعت أمام أسوارها في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٠٩٨ ، وحاصرتها وحملت عليها حملة عنيفة من جميع نواحيها واستبسلوا استبسالا عظيما شديدا مكنهم من تثبيت السلالم على الاسوار غير أن قوة « الكفار » كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأدنى أذى.

لما رأى سادتنا الا جدوى من ذلك العمل وأنهم لايجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيد حصنا خشبيا باسقا منيعا ، يدور على دواليب أربعة ، وجهزه بما يحتاج اليه ، فكان يوجد في الطابق الأعلى كثير من الفرسان مع افرار الصياد الذي كان اشد من يقرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن الى قرب الأسوار ليلاصق أحد الأبراج ، فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا الى الة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة ، وكادوا ان يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الاغريقية عساه أن يحترق ويتهدم ، الا أن الرب

القوي لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لأنه كان أعلى مـن كل أسوار المدينة .

اما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى ـ وفيهم وليم مـونت بليه وكثيرون غيره ـ فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بـالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على مجانيقهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان في داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينمـا كان هؤلاء يتحاربون كان هناك آخرون يستعملون رمـاحا عقـدوا بهـا الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديدية تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمرا حتى المساء .

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشمامسة في مسوحهم المقدسة ، وهـم يصـلون للرب ويبتهلون اليه ان يرفـع المعـرة عن شعبة ، وان يعلي كلمـة المسـيحية ويلاشي الوثنية ، وكان هناك في ناحية أخرى فرساننا ، وهم في حرب دائمة مع العـدو ، ينصـبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة (الوثنيين) كانت مـن الشدة بالدرجة التي أعاقت رجالنا عن أي تقدم ، ومع ذلك فقـد كان جوتييه دي لاستور أول مـن اعتلى السـور بـواسطة السـلم الذي سرعان ماتحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، الا انه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلما آخـر ، وسرعان ماثبتوه على السور ، وبادر فـارتقاه كثير مـن الفـرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ، غير أن المسلمين هاجموهم هجوما عنيفا على السور وعلى الأرض ، وأشرعوا نحـوهم الأسـنة ، وأخـذوا يضربونهم عن قـرب بـرماحهم ، فـاستولى الذعر على كثير مـن رجالنا ، فالقوا بأنفسهم من فوق السور.

وفي الوقت الذي كان فيه أولئك الرجـال الشـجعان واقفين على حافة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون أن رجالنا قد نقبوا حائطهم استولى عليهم الرعب وفروا هـاربين الى داخـل المدينة ، وقد تم ذلك كله يوم السـبت ١١ كانون أول وقـت صـلاة

الستار عند غروب الشمس ، وإذ ذاك أمر بوهيموند على لسان مترجمه ـ زعماء المسلمين بالالتجاء ـ هم ونساؤهم وأطفالهم ومتاعهم ـ الى قصر واقع جنوب الحصن ، واخذ على نفسه عهدا امنهم به على حياتهم .

بعدئذ دخل رجالنا جميعا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل قيم ثمين مما وجدوه في المنازل والمخابىء ، فلما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من يعثرون عليه من اعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء شوارع البلده دون أن يطأ تلك الجثث ، وقبض بوهيموند على من أمرهم بالدخول الى القصر الذي عينه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواهما من الحلي ، وقتل بعضهم وساق الباقين الى انطاكية ليباعوا بها .
بقي الفرنجة في هذه المدينة مدة شهر واربعة أيام ، وفي اثناء ذلك مات(وليم)أسقف أورنج .

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئا يستولي عليه ، وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعا قطعا ويطهونها ليقتاتوا بها ».

وبعد احتلال المعرة نشب خلاف بين أمراء الصليبيين ، فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لاقامة امارة جديدة ، وعارض أصحاب انطاكية الجدد ذلك ، حتى كادت الحرب تنشب بين صفوف الغزاة ، وهنا ثارت جماهير الفقراء (الطفور)(٥) من الصليبيين ، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة ، ثم توجهت نحو أسوار المعرة وتحصيناتها فدمرتها كليا ، وهكذا اضطر الصليبيون الى مغادرة المعرة والزحف جنوبا ، يقتلون ويحرقون ويدمرون حتى وصلوا الى القدس ، وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر ، فحاصروها حصارا شديدا ، وقاومت

المدينة ، وانتظرت ورود النجدات اليها من القاهرة ، لكن عبثـا كان هذا الأمل ، وأثناء الحصار وصل الى يافا عدد من السفن الايطالية حاملة العتاد والأخشاب والأغذية للفرنجة ، وقام الصـليبيون ببناء عدة ابراج حصار تمكنوا بـوساطتها مـن الاسـتيلاء على القـدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ ، ونترك هنا وصف ما حل بـالقدس لصـاحب كتاب أعمال الفرنجة ، وقد شارك بـالأحداث فهـا هـو ذا يقـول : « تقدم واحد من فـرساننا واسـمه « ليتـو » واعتلى سـور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها ، فتعقبهم رجالنا وأخـذوا في مـطاردتهم معملين فيهـم القتل والتنبيح حتى بلغـوا هيكل سـليمان حيث جـرت مـذبحة هـائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دمـاء القتلى ...ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظـم القتـل طيلة اليوم بأكمله ، حتى فاض المعبد كله بدمائهم ... وانطلق الصـليبيون في جميع انحـاء المدينة يسـتولون على الذهـب والفضـة والجياد والبغال ، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات .

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمـام قبر مخلصنا يسوع وقضـوا واجبـاتهم الدينية إزاءه ، وفي صـباح اليوم التالي تسلق رجالنا سـطح الهيكل وهجمـوا على المسـلمين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهـم القتـل ... وصدر الأمر ... بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتـن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كانت أن تـكون بـأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام المسلمون الذين قيضت لهـم الحياة بسـحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، وما تأتى لأحد قط أن سمع او رأى مـذبحة كهذه المذبحة التي المت بالشعب ، المسلم ».

وصفت القدس للغزاة الجدد فأقاموا فيها ثالث دولهـم في الشرق وأعظمها مكانة ، ثم أخـذوا يوسـعون رقعـة أمـلاكهم في

فلسطين ، وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس واقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام .

لقد نزلت الآن بالشام ضربة مروعة ، واصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الاسلام ، لكن هذا كله لم يعد الرشد الى حكام دويلات الشام التركمان فاستمروا في صراعاتهم الداخلية ، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب ، واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليتفرغا لصراعاتهم الداخلية ، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل وبدأ التململ يتحول الى اعمال ناقدة ومعارضة لتصرفات الحكام ، وأول ما انفجر الوضع في مدينة حلب .

وسلفت الاشارة الى الوضع السياسي في بلاد الشام في القرن الحادي عشر ، ونذكر هنا ثانية أنه عندما دخل الفرنجة هذه البلاد كانت أبرز دولها دولتان : واحدة في حلب والأخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، هما :دقاق بن تتش ورضوان بن تتش ، وقد مثلا جيلا خاصا من اجيال السلاجقة ، فقد أوقفا نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واهتبل الفرنجة هذه الفرصة ، فوسعوا أملاكهم ، وجردوا حلبا من جميع اراضيها الشمالية والغربية ، ولم يبق لها بعد هذا الا بعض اراضيها الجنوبية والشرقية ، وقد استهدف الفرنجة التضييق على حلب واحتلالها لملء الثغرة ما بين انطاكية والرها ، ثم الاطباق على الشام كله .

وضاق الأمر بأهل حلب ، فتحركوا ، وارادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب عنهم مصلحة وشعورا ومسؤولية ، وابتغوا إقامة حكم « وطني شعبي » يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، وإندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب حين قام مقدم أحداث حلب – الميليشيا المحلية – ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تتش ، حاكم المدينة التركماني ، وكان هذا الثائر يعرف بالمجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحا من قرية الفوعة القريبة من

حلب ، وكان شهما ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك من تولي رئاسة مدينة حلب ، ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تتش في القلعة ، وكاد أن يسقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة ، فخذلوا الناس عن المجن ، وثبطوهم عن نصرته ، وحدث انشقاق بين افراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبيا طائفيا ، وأدى هذا الى اخفاق الثورة والقاء القبض على المجن الفوعي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك كما روى شاهد عيان :« عذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ولما ضرب النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال: ويلك لا تعرف ، احضر خشبة وضعها على الكعب ، فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب.
فلما فرغ قيل له :كيف تجد طعم الحديد ؟ قال : قولوا للحديد : كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك ـ رضوان ـ من ماله إلا ما أقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ، ومعه ابنان له شابان ، مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك ».

وأدت هذه الانتكاسة إلى رضوخ الشعب في حلب ، وسكوته على مضض حتى عام ٥٠٤ هـ /١١١٠ م ، فاندلعت الثورة ثانية في المدينة ، وأدرك الحلبيون أنهم لن يستطيعوا اسقاط رضوان ، لذلك شكلوا وفدا من بينهم غادر المدينة سرا وذهب إلى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفد عنايتها ، ولم تصغ إلى مطاليبه ، وأمام هذا التجاهل حرك رجال الوفد أهالي بغداد ، واستغاثوا بهم أيام الجمع ، كما منعوا الخطباء من القاء خطبهم

يوم الجمع وكسروا بعض المنابر، وهاج الناس في بغـداد ، فـاخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاة بتجهيز جيش كبير عهد بقيادته لمودود حاكم الموصل انئذ ، وتحركت هذه القـوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت إلى حلب ، اغلق رضوان بـن تتش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب المدينة وأودعهم رهائن عنده في القلعة ، لئلا يفتح الشعب الابـواب ، ويسـلموها للقـوات القادمة من المشرق ، « وبقيت ابواب حلب مغلقة سـبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال لايجدون ما يقتـاتونه ، وكثـر اللصـوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضـوان ، فـأطلق العوام السنتهم بسبه وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فـاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد وترك الركوب بينهم وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر ـ أي عساكر مودود ـ وامام هـذا الحال المؤلم ، اضطر مودود إلى الرحيل نحو دمشق ، واثناء زحفـه اصطدم بقوة صليبية قرب شيزر فهزمها ، فرفع ذلك مـن معنوياتـه وشد من عزيمته ، وتابع سيره إلى دمشق حيث دخلها وتحالف مـع طغتكين اتابكها ، والذي اصبح سيدها الفعلي بعد وفاة دقـاق بـن تتش (٨) ، لكن عندما بدأ هذا التحـالف يؤتـي بعض ثمـاره اغتيل مودود في مسجد دمشق في سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م ، وكان مغتاله من فئة الحشيشية الاسماعيلية ، ويبدو انه كان لرضـوان يد طـولى في الاعداد لهذا الاغتيال وكذلك لطغتكين ، ومع ذلك فقد تـوفي رضـوان بعد مودود بفترة وجيزة ، وأخذت الأحداث تتحرك في الشام الشمالي بسرعة جديدة .

فقد حل بساح حلب اضطراب سياسي شديد تحرك خـلاله شـعب المدينة باكثر مـن ثـورة اثمـرت اخيراً ، وادت إلى تجميد الحـكام التركمان وقيام حكم « شعبي » يسير أمور الدفاع عن المدينة ، وبدأ يظهر إلى الوجود جيل عربي مؤمن جديد مع روح جـديدة ،وفي هـذا الوقت بالذات وبعد مضي حوالي ربع قرن على الغزو الصليبي ، كان تيار التوسع الصليبي في الشام قد وصل إلى أقصى مداه ، ومـن ثـم بدأ يتحول مده إلى جزر .

ومعلوم أن الصليبيين كانوا قد وصلوا إلى مشارف الشام جمعا واحدا لكن ما أن توغلوا فيه وفتحوا بعض أراضيه حتى حل بهم داؤه العضال ، فدب بين صفوفهم التمزق ، وانقسموا إلى عدة دويلات ،(الرها ، انطاكية ـ القدس ـ طرابلس) وبما أن عددا كبيرا من رجالات الحملة الاولى كانوا قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديدا تمتع بصفات بلدية خاصة ، وحيث أن تدفق الفرنجة من أوربا على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متمايزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة إلى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات كهنوتية غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفرقة عمقا ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الأولى وبخاصة بين صفوف الفقراء منهم .

لقد كانت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيها الى مداه ثم أخذ يتحول الى جزر امام اسوار مدينة حلب ، وكان ذلك سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م ، ففي هذه السنة حضر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت مدينة حلب في هذه الأونة تتبع رسميا لتمرتاش بن ايلغازي احد افراد الأسرة الأرتقية التركمانية ، وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في العراق وامير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه اميرا عليها شرط أن يسمح لبعض من قواتهم بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العقيلي صاحب قلعة جعبر ، ومع ابراهيم بن رضوان بن تتش الذي كان ابوه اميرا لحلب عندما بدأ الغزو الصليبي ، فجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب ، وأخذوا في حصارها ، وأثناء الحصار عدل الاتفاق بين المحاصرين فاتفقوا من جديد على أن تكون حلب لابراهيم بن رضوان بن تتش « لانها كانت لابيه ».

ولم يكن الحاكم الرسمي لمدينة حلب مقيما بها ، بل كانت الأمور في المدينة بأيدي شعبها ، الذي شكل انئذ نوعا من أنواع الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها ابو الفضل بن الخشاب ، يعاونه مجلس يمثل زعماء المدينة وكبار العلماء .

وشدد المحاصرون تطويقهم لحلب ، وطال الحصار وامتد ، وأخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوار المدينة « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين واخذوا توابيتهم الى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الاكفان ، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في ارجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، واخر يقول : هذا عليكم ، واخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا :يامسلم ابصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين وعمله ثفرا (الثفر : السير الذي يجعل في مؤخر السرج) لبرذونه ، واقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين ».

ولم يؤثر هذا ــ على شدته ــ على معنويات الحلبيين، فداوموا على الدفاع ، وازدادوا اصرارا على المقاومة ، « وبلغ بهم الضر الى حالة عظيمة حتى اكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض » ، ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن جده وكان من شهود العيان بسأن الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه ».

و « لما اشتد الحصار على حلب ، وقلت الأقوات بها وضاق الامر » ، بالحلبيين اتفق رأيهم على تسيير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان أنذاك مقيما في مدينة ماردين مشغولا بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلا من البلد ، وعلم الفرنج

بخبره ، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا ، وبرغم هذا حاولوا أن يوهموا أهل المدينة أنهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطل على الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت نبأ وصول وفدهم سالما الى ماردين .

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة ، ويتحدث جد ابن العديم ـ وكان أحد رجالات الوفد ـ واصفا ما حدث في ماردين فيقول :« لما وصلنا الى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وأنه يتوجه اليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وانزلنا بمكان في ماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم إلى يوم ، وكان أخر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب ، عدت واخذتها ، فقلنا في انفسنا : ما هذه إلا فرصة ، وقلنا له : لاتفعل ، ولاتسلم المسلمين إلى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي أبو غانم (جد ابن العديم) :« وايش هم حتى لاتقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم ».

قال القاضي أبو الفضل ـ عم ابن العديم وراوي الخبر له:
فكتبت كتابا من حلب إلى والدي أبو غانم أخبره بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه ، وغضب وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، قد بلغ بهم الامر إلى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويغرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل علينا من يحفظنا خوف الانفصال عنه إلى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي ـ صاحب الموصل ـ فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي ـ صاحب الموصل ـ ونستصرخ به ، ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا

عظيما إذا فتح أو اغلق ، فامرنا بعض أصحابنا ان يطرح في مسائر الباب زيتا ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ، ولايعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال :وكأن الزمان شتاء والثلج كثير على الارض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت ، وأخبر رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لاصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لاياخذني نوم حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لاأعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي اقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من آخره ، وكان قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا ، وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل ».

وفي الموصل قابل هذا الوفد أق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما اشرفت عساكره على البلدة الباسلة ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت حلب وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والاسلامي ، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذا الحادث بقوله :« لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينيا ».

بوصول مد الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م الى نهايته انتهى طور الاحتلال الصليبي ، وبدأت حرب التحرير والاسترداد ، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع الى حال الهجوم

وبدؤوا يخططون لأعمال التحرير ، وغالبا ما توقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه.

لقد مر طور حرب الاسترداد بأربع مراحل ، ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن العرب تحملت عبء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها ، وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، مرحلة حلب ، مرحلة دمشق ، مرحلة القاهرة.

كانت مدينة الموصل – كما سلف بنا القول – أعظم مدن منطقة الجزيرة mesopotamia، وفي التاريخ الاسلامي نجدها في المراحل المبكرة منه دائما متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية ، وقلما كان لها دورها الفعال في أحداث بلاد الشام ، إنما يلاحظ منذ القرن العاشر بداية تحول للاشتراك في أحداث الشام ، إلا أن هذه المشاركة ظلت هامشية حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وبالتحديد عندما ازداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وقبل قدوم الغز وإقامة السلطنة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في أيدي رجال القبائل العرب ، وقد انتزع الغز هذه المقاليد منهم كما سبق الحديث عن هذا •

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغز نحو الشام ، وسبب هذا تحولا جذريا في تاريخ الموصل مع اقليم الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف ، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءا من الشام ، وتورطت في مشاكله، واصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والاساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام ، وربما على الشام بأسره ، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية ، ثم الدولة الاتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا •

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب لسد الثغـرة بين الرهـا وأنطاكية ، ولعزل الشام عن المشرق ، بعد ما تم عزله الى حـد بعيد عن مصر ، ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه واحتلاله بشكل كامل ، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة « طوعية شعبية »مـع الموصـل ، وهكذا توحد شمال بلاد الشام مع اعالي بلاد الرافدين تحـت قيادة البرسقي ، ووجهت الآن طاقات المسـلمين في الدولة الجـديدة ضـد الصليبيين ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفـاع السـلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي ، لكن لسوء حظ المسلمين أن البرسقي اغتيل من قبل الحشيشية الاسماعيلية بعد عامين من انقـاذ حلب ، وبدء حرب التحرير ٠

ولقد ادى اغتياله الى انتكاسة مروعة ،لكن مؤقتة ، ذلك أن الامة كانت تعيش بداية عصر لليقظة لذلك اجتازت المحنة ، وتغلبت عليها ، لقد تآمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصـل ، وانجـرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصـل كان يعرف ما يريد عن ايمان وعزيمة، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل أهل الموصل الى بغداد، وقام هـذا الوفـد بـاختيار الضابط زنكي بن أق سنقر قسيم الدولة ، وتعاقدوا معه على تـولي مقاليد الأمور في دولة الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبـات محددة، وبعدما تم التعاقد معه أقنع الوفد سلطان بغـداد بـالموافقة على تعيين زنكي حاكما جديدا على الموصل واستبعاد سواه ٠

في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسـلم عمـاد الدين الزنكي زمـام الامور بالموصل ، وفي هذا يمكن القول بدأت بـالفعل المرحلة الأولى من طور التحرير ، الأمر الذي سنبحثه في الفصل المقبل ، وكنا قبـل قليل قد أشرنا إلى ما نجم عن قدوم الغـز مـن تبـديل للجغـرافيا السياسية والاستراتيجية لبلاد الجزيرة والشام ، وكذلك أعقب قدوم الفرنجة ونجاحهم في تأسيس دولهم تبـديلات جغـرافية سـياسية واستراتيجية جديدة ، فقد عادت الأوضاع إلى ما يشـبه مـا كانت عليه قبل الفتح العربي في القرن السابع ميلادي بحيث جـاءت الان

المؤثرات الكبرى عبر آسية الصغرى وشدت البلاد نحو هذه المنطقة ولهذا عادت إلى مكان الصدارة من جديد مدن : انطاكية والرها والقدس وطرابلس ، لكن هذا لم يؤثر كثيرا على مكانة كل من دمشق وحلب ، وتدنت مكانة مدينة حمص وارتفع شأن مدينة حماه لا لانها فصلت بين دمشق وحلب فقط ، ولكن لأنها تصدت لامارة طرابلس ولقوى الحشيشية التي استولت على عدد من القلاع الحصينة في جبال بهراء (العلويين) ولأنها أيضا بقيت على صلات وثيقة مع قبائل بادية الشام وأهل المشرق ٠

ورسخ تاسيس الفرنجة لدولة لهم في الرها مكانة الموصل واهلها لتقود المرحلة الاولى من طور التحرير ، كما أن اهل الشام انجذبوا نحو العراق وليس نحو مصر ، كما هو موروث وطبيعي لضعف الخلافة الفاطمية في مصر ، ولقدوم التركمان من الشرق ، ولانشغال حكام الموصل في دفع الخطر الذي تهددهم من الرها ، وسنجد انه بعدما تمكنت الموصل من الانتصار على الرها ، وبعدما حررتها من حكم الفرنجة ، تراجع تاثير الموصل في الأحداث الشامية ، وعادت الانظار الشامية مجددا تتطلع نحو مصر .

وجاء التطلع إلى مصر عبر دمشق ، وتوحدت دمشق مع حلب في مرحلة التحرير الثانية التي تلت مرحلة الموصل ، وهذا ما سنبحثه في الفصل المقبل ، وحتى يسهل فهم الأمور مفيد أن نختم هذا الفصل بتقديم عرض موجز لتاريخ الذولة البورية وحكمها لبلاد الشام الجنوبية ، أو بالحري لحكمها لدمشق .

البوريون أتابكة دمشق

سلفت الاشارة إلى التحاق دقاق بن تتش بدمشق ، وبعد هذا قدوم أتابكه طغتكين إلى دمشق حيث استقبل استقبالا حافلا في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وعلى الفور سلم دقاق إليه قيادة الجيش « واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسية البيضة (٧) » ، ووطد طغتكين سلطانه وتخلص من خصومه وكانت علاقاته بزوجته صفوة

الملك ام دقاق جيدة الى ابعد الحدود وهكذا « استقامت له الحال بدمشق ، وأحسن السيرة فيها ، واجمل في تدبير اهليها ، وبالغ في الذب عنها ، والمراماة دونها ، وسكنت نفس الملك شمس الملوك ـ دقاق ـ اليه ، واعتمد في التدبير عليه (٨) » .

وكان طغتكين طموحا واسع الحيلة لذلك عمد إلى التخلص من دقاق بدس السم له ، وهكذا توفي هذا الملك الفتى في رمضان ٤٩٧ هـ/ حزيران ١١٠٤ م ، وكانت دولته حين مات تضم مع الشام الجنوبي حمص وحماه والرحبة(٩) .

وبعد وفاة دقاق استدعى طغتكين أرتاش بن تتش من بعلبك وكان في الثانية عشرة من عمره وعينه ملكا جديدا لدمشق « وتقدم الى الأمراء المقدمين والأجناد بالطاعة لأمره والمناصحة في خدمته ، وأجلسه في دست المملكة (١٠) » وذلك بعد قرابة شهرين مضيا على وفاة دقاق .

ولم يطمئن ارتاش لسلامة نفسه في دمشق وخاف « من ظهير الدين أتابك ومن الخاتون صفوة الملك . واوقعت امه في نفسه الخوف منهما ، واوهمته انهما ربما عملا عليه فقتلاه(١١) » فهرب بعد أقل من شهرين مضيا على تمليكه واجتمع معه صاحب بصرى ،وقد عاشا فترة من الزمن في منطقة حوران ثم مضيا الى المملكة اللاتينية في القدس على أمل الحصول منها على جيش يستوليان به على دمشق ،لكنهما أخفقا ، « فحين يئسا من المعونة ، وخاب أملهما في الاجابة توجها إلى ناحية الرحبة في البرية ، واستقام الأمر بعدهما لظهير الدين أتابك وتفرد بالأمر ، واستبد بالراي (١٢) »وتخلص من بقايا أسرة تتش ورجالاتها ، فبعد وقت قصير من فرار ارتاش توفي اخر أفراد أسرة دقاق ، وهو تتش بن دقاق وكان طفلا صغيرا ، وبهذا يمكن اعتبار سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٥ م سنة البداية الفعلية لتأسيس الدولة البورية في دمشق من قبل طغتكين ، وحكمت هذه الدولة الجزء الأكبر من بلاد الشام لمدة تقارب النصف قرن، وكان طغتكين في تاريخها هو

الشخصية الابرز والأطول حكما والأكثر استقرارا ، كما أنه كان على راس شخصيات عصره في المشرق العربي ، وكان على طغتكين أن يحصل على رضى السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مع الاعتراف به حتى يكسب حكمه سمة الشرعية ، كما توجب عليه مداراة الوضع في حلب والافادة من فوضى الحكم فيها ما أمكن ، وعمل بالوقت نفسه على أن تكون علاقاته بالخلافة الفاطمية حسنة لدفع خطر الصليبيين وهكذا تعاون معهم في ذي الحجة سنة ٤٩٨ هـ/ ١١٠٥ م في القتال ضد الصليبيين في المنطقة مابين يافا وعسقلان (١٣) .

وصدر الخطر الاعظم على حكم طغتكين عن الفرنجة خاصة المملكة اللاتينية في القدس ، وتصدى طغتكين لهذا الخطر وحقق بعض النجاحات ، إنما فيما بعد تهادنت السلطة البورية مع الصليبيين وظلت الهدنة قائمة ـ كما سنرى ـ طوال العصر البوري بشكل عام ، وكان الدافع الاساسي للتهادن رغبة حكام دمشق في دفع المخاطر على سلطانهم من اصحاب حلب والموصل ، فحين انعدمت هذه المخاطر اتخذ طغتكين موقف المهاجم للصليبيين .

ففي سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م هاجم الصليبيين ومنعهم من بناء حصن العلعال في وادي الاردن وفي السنة التالية عسكر في سواد حوران ومنع الصليبيين من العيث في المنطقة ، وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م تعاون مع الاسطول المصري في الدفاع عن صيدا والتفريج عنها ، كما اخذ يعد العدة لمساعدة طرابلس وفي السنة التالية ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م حاول مجددا الدفاع عن طرابلس بتسلم عرقة التي شكلت خط الدفاع الاول عنها فاخفق وسقطت عرقة ثم سقطت طرابلس للصليبيين الذين اسسوا فيها دويلتهم الرابعة في المشرق (١٤) .

واثر هذا جرت مفاوضات بين طغتكين وبلد وين الاول ملك المملكة اللاتينية بالقدس وتم عقد معاهدة هدنة في سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م اتفق فيها على ان يكون السواد

– حوران – وجبل عوف اثلاثا : للاتراك الثلث ، وللافرنج والفلاحين الثلثان (١٥) .

بيد أن هذه الهدنة لم تكن اتفاقا شاملا يقضي بايقاف جميع العلميات العسكرية بين الطرفين الدمشقي والصليبي ، فهذا لم يكن بالامر الممكن لأن كل دويلة صليبية لابل كل اقطاعية كان لها مصالحها وسياساتها الخاصة ، وهكذا راينا من قبل طغتكين يحاول تقديم المساعدة لحلب ضد انطاكية لا بل اوضح من هذا رايناه يشترك مع مودود في القتال ضد قوات مملكة القدس ، وايضا راينا عملية اغتيال مودود في المسجد الجامع في دمشق (١٦) .

استطاع طغتكتين الحفاظ على حكمه حتى سنة وفاته في ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ولم يكن هذا بالامر الهين خاصة وانه تعرض لضغوط شديدة من المشرق ، فزار بغداد سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م وقدم هدايا ثمينة لدار الخلافة ولدار السلطنة فحصل على الرضى وكتب له منشور سلطاني بولاية الشام حربا وخراجا ، واطلاق يده في ارتفاعه على ايثارة واختياره (١٧) هذا ويلاحظ ان طغتكين سمح في السني الاخيرة لحكمه لاتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة من الحشيشية بالتمركز في دمشق وقد نالوا مساندة وزيرها ابو علي طاهر بن سعد المزدقاني وحصلوا بوساطته على قلعة بانياس التي كانت مركز الدفاع الاول عن دمشق ضد المملكة اللاتينية بالقدس .

يضاف الى هذا ان سنة وفاة طغتكين كانت السنة التي تسلم فيها عماد الدين زنكي حكم الموصل الامر الذي كان له ابعد الاثار على دمشق وحكامها البوريين (١٨) .

كان طغتكين قد اوصى بالملك من بعده لابنه بوري ، وهو الذي نالت الدولة اسمها منه ، وقد افتتح بوري عهده بمذبحة كبيرة اوقعها باتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، وعندما عرف اسماعيلية بانياس بما حدث في دمشق تخلوا عن بانياس لصالح الصليبيين

الذين تشجعوا كثيرا فحشدوا قواتهم وزحفوا ضد دمشق وحاصروها في محاولة الاستيلاء عليها ، لكن هذه المحاولة اخفقت ، غير ان دولة بوري مالبثت ان تعرضت لمخاطر جديدة حيث انتزع عماد الدين زنكي منها مدينة حماه،لكن استطاع بوري بعد وقت قصير استرداد حماة،وفيما هو في ذروة نشاطة تعرض لمحاولة اغتيال نفذها اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة وقد اصيب بوري في سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م بجراح بليغة عاش بعدها فترة قصيرة حيث توفي في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م(١٩) .

كان بوري قد اوصى قبل وفاته بالملك من بعده لابنه شمس الملوك اسماعيل ، وعهد ان تبقى بعلبك واعمالها لولده محمد ، وفي البداية نشب نزاع بين اسماعيل ومحمد حسم لصالح اسماعيل ، واثر تفرغه من امر بعلبك هاجم بلدة بانياس فاستردها بهجوم عاصف عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م ، كما استطاع بعد هذا اعادة سلطانه على مدينة حماه ، غير انه ما لبث ان تخبط في ادارة اموره الداخلية وعندما شعر بعجزه راسل عماد الدين زنكي في سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م يطلب منه الاسراع الى دمشق ليسلمها له وإلا فانه سيسلمها الى الصليبيين ، وعندما علمت امه بذلك « امرت غلمانها بقتله ، وترك الامهال ، غير راحمة له ، ولا متألمة لفقده »(٢٠) .

وعينت الخاتون صفوة الملك ابنها محمود حاكما جديدا لدمشق ،وكان على هذا الحاكم دفع زنكي عن دمشق ، ذلك أن زنكي قدم الى دمشق ليتسلمها من اسماعيل بن بوري،وعندما علم بمصرعه قام بمحاصرة المدينة ،وشدد عليها الخناق ، واثناء ذلك تلقى رسالة من الخليفة العباسي المسترشد بالله(٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ / ١١١٨ ـ ١١٣٥ م)يأمره برفع الحصار عن دمشق والقدوم مع قواته الى بغداد ، فنفذ هذا الامر ورفع الحصار عن المدينة (٢١) .

وعاود زنكي أعماله التوسعية على حساب الدولة البورية فحاول

احتلال حمص فـأخفق، غير انه نجـح بـالاستيلاء على بعلبـك سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩ م حيث عهد بالحكم فيها الى نجـم الدين أيوب والد صلاح الدين الايوبي، ثم استولى على بانياس (٢٢) .

وبعد هذا انتقل عماد الدين من الحرب الى الدبلوماسية ، فعقـد مع البوريين زواجا سياسيا حيث تزوج هو من الخاتون صفوة الملك المعروفة باسم زمرد أم شهاب الدين محمود ، وفي الوقت نفسه تزوج محمود من ابنة زنكي ، وتنازل له عن حكم مـدينة حمص ، غير أنه مـالبث شـهاب الدين محمـود أن اغتيل سنة ٥٣٣ هـ ـ ١١٣٨ م فبايع الأمراء جمـال الدين محمـد بـن بوري ، الذي فوض أمور دولته الى معين الدين أنر (٢٣) .

أصبح أنر الآن الحاكم الفعلي للدولة البورية ، وقد برهن انه من أبرع الساسة واكثرهم قدرة ، فقد استطاع الحفاظ على اسـتقلال دمشق بوساطة توازن حذر بين عمـاد الدين زنكي والمملكة اللاتينية بالقدس ، فقد كان يستعين بالصليبيين ضد عمـاد الدين ، وبعمـاد الدين أو خلفائه ضد الصليبيين .

وكان عندما بلغ صفوة الملك زمرد خبـر مصرع ابنهـا في دمشـق حرضت زوجها عماد الدين على الثأر ، فجاء ومعه قـواته وحـاصر دمشق وضيق الخناق عليها سـنة ٥٣٤ هـ ـ ١١٣٩ م ، واثناء الحصار مرض محمد بن بوري مرضا شديدا أودى بحياته ، وعندما عرف عماد الدين بهـذا الحـدث ازداد طمعـه بـالاستيلاء على دمشق ، لكن أنر استطاع ضبط الأمور وجلب أبق بن محمـد وعينه حاكما جديدا ، انما بشكل اسمي ، وراسل معين الفـرنجة وعقـد معهم اتفاقا يدفع لهم بموجبه مبلغا من المال ويسـلمهم بـانياس إن هم ساعدوه على دفع عماد الدين زنكي ، وبـالفعل تحـركت قـوات الفرنجة نحو دمشق ، مما أرغم عماد الدين على الانسحاب ، ووفى إثر هذا انر بعهوده ، فحاصر بانياس حتى تسلمها ثم سـلمها الى الفرنجة (٢٤) .

ولم يحرص الفرنجة على سلامة دمشق وحكامها حرص انر عليهم ، فهم أرادوا احتلال دمشق اذا امكنتهم الفرصة ، واذا لم تمكنهم دفعوا غيرهم عنها حتى تحين الفرصة ، فقد خشي الفرنجة الى ابعد الحدود من وحدة أجزاء بلاد الشام ، وهذا واضح تمام الوضوح فيما كتبه وليم الصوري في الأجزاء الأخيرة من كتابه ، فهو كان شاهد عيان للأحداث شغل مناصب عالية جدا في المملكة اللاتينية في القدس .

وهكذا نجد أنه بعدما استحوذ الفرنجة على بانياس خططوا للاستيلاء على قلعتي بصرى وصلخد وبذلك كان يتسنى لهم الاطباق على دمشق خاصة عندما نتذكر امتلاكهم للاجزاء الكبرى من الساحل الشامي وعدة قلاع قريبة من منطقة البقاع ثم ان بعلبك كانت ملكا لزنكي ، وهكذا نجد في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م قيام ملك القدس بالزحف نحو بصرى على راس قوة كبيرة جدا ، وكان يأمل في تسلم حصني بصرى ثم صلخد ، وذلك بناء على اتفاق عقده مع التونتاش حاكم هاتين القلعتين إثر زيارة قام بها الى القدس ، ولاقى الجيش الصليبي مقاومة عنيفة أثناء زحفه في أراضي حوران من سكان الأرياف والمدن والقبائل العربية ، وتم الزحف في الصيف ، وكان العرب قد غوروا الآبار ، وهكذا عطش الفرنجة عطشا شديدا ، زاد من قسوته الهجمات الصاعقة التي كان يقوم بها المقاومون العرب ، وعندما وصل الجيش الصليبي الى بصرى ، وكان معه الحاكم الخائن التونتاش فوجىء بقيام زوجة هذا الخائن بإغلاق أبواب القلعة والعزم على الدفاع وعدم السير في طريق الخيانة الذي سلكه ، زد على هذا علم الفرنجة أن انر معسكر مع قواته في صلخد بعد تسلمها وأن نجدات كبيرة قادمة من حلب يقودها نور الدين محمود بن زنكي .

وكان زنكي قد اغتيل قبيل قرابة السنة وتسلم الحكم في حلب ابنه نور الدين ، وعقد نور الدين معاهدات مع انر وتزوج ابنته ، وبناء على معطيات الوضع الجديد قرر الفرنجة التراجع ، وكان طريق

الانسحاب محفوفا بالمخاطر ، وكاد الجيش الصليبي يفنى عن بكرة ابيه نتيجة لهجمات رجال المقاومة العرب ، لولا تدخل أنر فقد «جعل معين الدين يكف المسلمين عنهم ، ويصدهم عن قصدهم والتتبع لهم في انهزامهم »(٢٥) .

لقد انقذ انر الجيش الصليبي واجل تدميره مدة أربعين سنة ، عندما دمره صلاح الدين عند قرني حطين ، ومع هذا قابل الصليبيون صنيع هذا الحاكم الذي آثر ملكه العاجل على قضية الامة ، بأن قرروا بعد عامين الاستيلاء على دمشق .

ومن المعروف ان عماد الدين زنكي كان قد حرر مدينة الرها في سنة ٥٣٩ هـ ـ ١١٤٤ م وازال دولتها الصليبية من الوجود الامر الذي اثار مايعرف باسم الحملة الصليبية الثانية وشارك في هذه الحملة أعداد هائلة من الأوربيين وقادها إثنان من أكبر حكام اوربا هما فرانسوا السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا ، وبعد جهود مضنية ورحلة طويلة عبر اوربا الشرقية وآسية الصغرى وصل الناجون من عناصر الحملة الى القدس ، وفي عكا عقد مؤتمر واسع لزعماء الفرنجة تصدره ملك القدس وملك فرنسا والملك الالماني ، واتفق الثلاثة على الزحف الى دمشق لاحتلالها .

وفي دمشق قام معين الدين انر بتنظيم الدفاع عن المدينة ، واستغاث بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل وبالقوى الموجودة في البقاع ومنطقة بعلبك فهب الجميع لنجدة دمشق ، وصرف الفرنجة « أعنتهم الى ناحية دمشق في حشدهم وحدهم وحديدهم في الخلق الكثير على مايقال ، تقدير الخمسين الف من الخيل والرجل ، ومعهم من السواد والجمال والأبقار ماكثروا به العدد الكثير ، ودنوا من البلد ... فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربها من الماء ، وزحفوا اليه بخيلهم ورجلهم ، ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين»(٢٦) (٢٦ تموز ١١٤٨ م) .

ونشب قتال عنيف بين الفرنجة والمدافعين عن دمشق ، واشتد قرب فرع نهر يزيد عند منطقة خانق الربوة ، وإثر هذا انتشر الصليبيون داخل البساتين الكثيفة فأكلوا ثمار المشمش قبل نضوجها وتعاظمت المقاومة داخل البساتين،وعلم الصليبيون بوصول نور الدين مع قواته الى منطقة حوران وبتدفق النجدات من منطقة بعلبك ، وخشية أن يطوقوا داخل البساتين ، قرر الصليبيون التحول بمعسكرهم نحو المنطقة الواقعة مابين باب الصغير وبباب شرقي ، آملين بألا يحاصروا في تلك المنطقة وبأن يلقوا بعض المساعدة من الداخل لأن معظم السكان هناك كانوا يدينون بالمسيحية ، ومجددا خاب فأل الفرنجة ، فعرب دمشق على اختلاف دياناتهم نظروا اليهم نظرة واحدة ،واشتدت المقاومة لذلك اضطر الصليبيون الى رفع الحصار عن دمشق بعد عدة ايام والرحيل « مجفلين والهرب مخذولين مفلولين ».(٢٧) .

اظهر حصار دمشق مدى ضعف الدولة البورية وأن نور الدين محمود هو القائد المؤهل للجهاد ضد الصليبيين وحافظ نور الدين على التعاون مع معين الدين انر حتى وفاته سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م (٢٨) ، وبعد هذا عزم على دخول دمشق وازالة حكم الأسرة البورية منها ، وحاول أكثر من مرة احتلال المدينة فأخفق غير أن شعبيته ارتفعت فيها ، ولهذا اضطر حاكمها مجير الدين أبق لزيارة نور الدين في حلب سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م حيث قدم له فروض الطاعة فرده نور الدين الى دمشق ليحكمها نيابة عنه، (٢٩) ومع الأيام تصاعدت مكانه نور الدين وازدادت مكانة حكام دمشق هبوطا حتى محرم مطلع عام ٤٤٩ هـ / آذار ١٠٥٧ م ، انذاك وصل نور الدين مع قواته الى أطراف دمشق بعدما اخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب نور الدين بتسليمه دمشق فرفض حاكمها مجير الدين وحاول مقاومته ودفعه بالقوة ، لكن قواته كانت متخاذلة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق سور المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصاحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لماهم عليه من المحبة

لنور الدين ، وعدله وحسن ذكره ، وبادر بعض قطاع الخشب بفأسه الى الباب الشرقي فكسر اغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ولم يقف أحد بين أيديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية»(٣٠).

كان دخول نور الدين الى دمشق الحدث الاعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية فقد تم الآن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم ، وقال وليم الصوري معقبا على دخول نور لدين الى دمشق ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة القدس اللاتينية :« وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسلمين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت لأنه كما قيل :كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك»(٣١).

وتحول نور الدين الآن من حلب الى دمشق ، وبهذا تحولت مدينة دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم وهذا ماسنتناوله بالبحث في الفصل المقبل .

الفصل الثاني

المرحلتان الأولى والثانية من حروب الاسترداد في الطور الثاني

سلف ان اشرت في الفصل المتقدم الى أنه مع تسلم عماد الدين زنكي سنة ٥٢١ هـ ـ ١١٢٧ م لزمام الأمور بالموصل بدأت بالفعل المرحلة الأولى من طور التحرير ، وعماد الدين هو زنكي بن أق سنقر قسيم الدولة الذي تعرفنا اليه في الجزء الأول من كتابنا هذا ، ولد زنكي في حلب ، ثم انتقل بعد مقتل ابيه الى الموصل ، وهناك حظي برعاية كربوقا حاكم الموصل باسم السلطان بركيا روق ، ويبدو أن زنكي انتقل الى الموصل مع مماليك ابيه ، واعتنى هؤلاء به وكانوا ذوي شجاعة واقدام لذلك صارت لزنكي مكانته في أوساط السلطة ، بالموصل ، وظل الحال هكذا حتى سنة وفاة كربوقا في ٤٩٥ هـ ـ ١١٠٢ م ، وبعد وفاة كربوقا تقلب على حكم الموصل عدد من الولاة ، حافظ زنكي خلال ذلك على مكانته الرفيعة وشارك في صنع العديد من الأحداث ، وبات من أعرف العسكريين بالموصل وبأوضاع منطقتها وفي سنة ٥١٦ هـ ـ ١١٢٢ م ذهب الى العراق وتسلم شحنكية البصرة واقطع مدينة واسط ، لهذا تورط في مشاكل الصراعات في العراق ، الداء الذي لم يتخلص منه طوال حياته ، وبقي في العراق حتى اضطربت أوضاع الموصل كثيرا فوصل منها الى بغداد القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري ومعه صلاح الدين محمد الباغيسياني لعرض مشكلة الحكم بالموصل على السلطات هناك ، وفي بغداد اتفقا مع زنكي ، وسعيا حتى استصدرا امرا سلطانيا بتوليه عماد الدين زنكي الموصل (١) .

وتسلم عماد الدين الحكم بالموصل ، وجعل صلاح الدين

الياغيسياني حاجبه والرجل الثاني بعده ، «وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد...وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة واكثرهم انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الأمور على أحسن حال وأحكم قاعدة »(٢) .

وما أن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى نشط في سبيل مد سلطانه فاستولى على جزيرة ابن عمر وتملك دولة شامية جزرية واسعة (٣) ، وكانت هذه المملكة محاطة من مختلف الجوانب بأراضي دولة الرها ، وممتلكات الأراتقة من الجزيرة ، ومن الجانب الشامي كانت هناك إمارة أنطاكية وامارات آسيا الصغرى الاسلامية ودولة كليكية الأرمنية ، وفي الجنوب واجه عماد الدين الدولة البورية في دمشق مع فرنجة طرابلس والساحل الشامي ، ووجد الى جانب هؤلاء جميعا العراق ومشاكل الخلافة والصراعات حولها .

ولم يكن من السهل أبدا على زنكي العيش في هذا الوسط ، لذلك امضى حياته ينتقل من معركة الى اخرى ومن صراع إلى أخر ، ومن مؤامرة إلى مؤامرة ، وساعده على النجاح صلابة عوده وصرامته واقدامه وعدم مراعاته لغير ما راه مفيدا لمصالحة وتوسيع ملكه.

حارب الفرنج في الشام الشمالي فاسترد منهم الأثارب ومعرة النعمان وكفرطاب ، وحاربهم في الوسط فاسترد بارين واستولى على حماة اكثر من مرة وحاول الاستيلاء على حمص وبعلبك ودمشق وهكذا استردت مدينة حلب بعض عافيتها وأخذت تتهيأ للقيام بالدور القيادي ضد الفرنجة .

وعرف زنكي الذي تميز بالانضباط ان الخطر الأعظم على ملكه كامن في الرها ، فقد أراد الفرنجة دوما الاستيلاء على حلب لسد الثغرة فيما بين كل من انطاكية والرها ، وليسهل عليهم بعد ذلك الاستيلاء على الموصل ومن ثم الاطباق على أراضي الشام والجزيرة ، ولهذا كان رد زنكي الطبيعي تجاه هذا ، العمل في سبيل تحرير الرها ، وتحرير الرها كانت له فوائد جمة منها سد المنافذ الشمالية لبلاد الشام في وجه الفرنجة في فلسطين .

بين نصوص موسوعتنا ترجمة جيدة لزنكي جاءت في كتـاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، نعرف من خـلالها أن زنكي قـد ضرب مثلا أعلى في الجدية والالتزام بالنظام ، وروى ابن العديم أن زنكي كان « ملكا عظيمـا ، شـجاعا جبـارا ، كثير العـظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع ، وينقاد إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ووصفه واحد من معاصريه بقـوله :« كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة أق سنقر رحمـه الله إذا مشى العسـكر خلفه كأنهم بين حيطين مخـافة أن يدوس العسـكر شـيئا مـن الزرع ، ولا يجسر أحد من هيبته يدوس عرقا من الزرع ، ولا تمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من الأجناد أن يأخذ لفلاح علاقة تبـن إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فـلاح قـطع خبـزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعـد خـرابها ، وأحسـن إلى أهـالي مملكته ، وكان لا يبقـي على مفسـد....ونهى عن الكلف والمغـارم والسخر والتثقيل على الرعية ، وأقام الحدود في بـلاده » ولحـاجة زنكي إلى المادة البشرية فرض على شـعب دولتـه نوعا مـن أنواع الجندية الاجبارية ، حتى صار معظم جند قواته متطوعة مـن أبناء الشعب .

وكان هم زنكي وشغله الشاغل تحـرير الرهـا ، والقضـاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وبعد عمـل طويل وجهاد عاشـته الأمة كلا وأفرادا أستطاع زنكي سـنة ١١٤٤ م أن يحـرر الرهـا والقضـاء على أولى دول الفـرنجة تـأسيسا في المشرق ، ولقـد عم لسقوط الرها صـدى بـالغ الاتسـاع والتـأثير في الشرق والغـرب ، وكانت تلك أقسى ضربـة حلت بـالفرنجة منـذ دخلوا الشام ، وأفدح خسارة ألمت بهم .

ولعل في القصة التالية التي رواها ابن الأثير في كامله وهي لا شك مخترعة ، صورة عاكسة للآثار العظيمة التي أحدثها سقوط الرهـا

على الأوربيين وسواهم :« حكي أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال : كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الأعمال ، فنهبوا وقتلوا ، وكان بصقلية انسان من العلماء المسلمين ، وهو من اهل الصلاح ، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ، ويرجع الى قوله ، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، وكان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب .

ففي بعض الأيام كان جالسا في منظرة له تشرف على البحر وإذ قد اقبل مركب لطيف ، وأخبره من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الاسلام ، وغنموا وقتلوا وظفروا ، وكان المسلم الى جانبه وقد اغفى ، فقال له الملك : يا فلان ! اما تسمع ما يقولون ؟ قال :لا ! قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا ، اين كان محمد عن تلك البلاد واهلها ؟ فقال له : كان قد غاب عنهم ، وشهد فتح الرها ، وقد فتحها المسلمون الآن ، فضحك منه من هناك من الفرنج ، فقال الملك : لا تضحكوا ، فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها » (٤) .

وتابع زنكي نشاطاته لتنفيذ خططه وحدث أنه بعد عامين مضيا على سقوط الرها أن قضى زنكي نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه ، حدث ذلك وهو يحاصر قلعة جعبر ، ووقع ليلا بينما كان زنكي نائما ، وهرب الغلام الذي اقترف جريمة قتله ، وجاء إلى تحت قلعة جعبر « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا : إذ هب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله » .

وكان لمصرع زنكي أثرا مفجعا على نفوس المسلمين ، فدعوه « بالشهيد » وبرغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، إنما على الرغم من هذا كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير ، ولم يؤثر كثيرا على أوضاع

الأمة ، ذلك أن الأمم الحية لا تتأثر كثير بفقدان القادة ، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم لأنها تنجبهم الواحد تلو الآخر .

وإثر مصرع زنكي مباشرة ، وقبل ان يوارى جثمانه الثرى انشطرت دولته الى شطرين شامي و آخر جزري عراقي ، واستقر على رأس الشطر الشامي نور الدين محمود بن زنكي .

وقديما قيل : الجغرافية توجه التاريخ ، ومن هذا المنطلق بات التوجه الطبيعي لدولة قوية في حلب هو نحو الجنوب الشامي ، وستكتفي الموصل منذ الآن – إلى ابعد الحدود ، وقد زال من أمامها التهديد الصليبي في الرها – بالاهتمام بشؤون الجزيرة ثم العراق .

وكان مما ساعد نور الدين على التفرغ الشامي ومن ثم التوجه نحو دمشق والجنوب اهتمامه بالجهاد ضد الصليبيين وتضاؤل اعتماده على البداة التركمان كطاقة عسكرية منفردة ، لأن اهتمام التركمان تمركز منذ أمد على آسية الصغرى ولأن أعداد كبيرة من الاكراد تجمعت في حلب حول أسد الدين شيركوه ، وجاء هؤلاء الأكراد الى بلاد الشام من اقصى المناطق الشمالية في أطراف جورجيا الحالية ، فهناك وجدت دويلة كردية اسمها دولة منوجهر أو دولة بني شداد ، وكان ملوك الكرج (جورجيا) المتعصبون لنصرانيتهم يخوضون هناك حربا صليبية ضد المسلمين ، وقد تمكنوا من الاستيلاء على أملاك دولة منوجهر قلعة تلو الأخرى ، الأمر الذي دفع بالأكراد الى الهجرة ، وكان من أوائل المهاجرين أسرة صلاح الدين حيث عمل جده ثم والده أيوب وعمه شيركوه في العراق ، ثم التحقا بخدمة زنكي واستقروا في بلاد الشام ، وعندما سقطت دولة منوجهر كثر عدد الأكراد ، وتجمعوا حول شيركوه الذي بات الآن أكبر القادة العسكريين لدى نو الدين ابن زنكي ، ولا شك أن هذا يساعد على فهم مقدمات انتقال السلطة من دولة الأتابكة التركمان الى الأيوبيين الأكراد .ومن الملاحظ انه بعد ما حررت الرها بات الصراع مع الصليبيين شاميا إلى ابعد

الحدود ، وتولت حلب الآن قيادة أعمال الجهاد ضد الفرنجة ، وبذلك طويت ـ بعد وفاة زنكي ـ المرحلة الأولى من طور التحرير ، لتبدأ المرحلة الثانية ، وتمركزت جهود حلب في بداية هذه المرحلة أولا ضد انطاكية لقربها منها ، لكن ما لبثت ان صرفت أنظارها كليا تقريبا نحو الجنوب ، وجاء هذا تباعاعلى خطوات تمكن فيها نور الدين من دخول دمشق وتوحيد الشام المسلم ، وكان من الطبيعي وهو سيد دمشق أن تتجه انظاره نحو تحرير القدس وللتعاون مع مصر ، وهذا ما تم انجازه في المرحلة الحلبية في ظل قيادة نور الدين ، ونعود الآن الى سياق الأحداث :

لقد اثارت أخبار سقوط الرها مشاعر البابوية ، وحرضتها للدعوة الى حملة صليبية كبيرة تمضي الى المشرق لاستعادة الرها ولاكمال السيطرة على بلاد الشام .

ولقد توفر لهذه الدعوة داعية اسمه « القديس برنارد » شغل الدور نفسه الذي شغله سلفه بطرس الناسك ، وكما أن برنارد سار على خطى بطرس فإن البابا أنوسنت الثالث حاول أن يقلد البابا اوربان الثاني ، المبشر الأول بالحروب الصليبية ، فدعا الى عقد مجمع ديني ، وتم ذلك في فرنسا في فصح سنة ١١٤٤ م وقد حضره عدد كبير من رجال الكنيسة والاقطاع ، الذين خاطبهم البابا فأثار حماسهم ، وأضرم نيران تعصبهم الى حد القرار بالذهاب الى الشرق .

وهكذا تألفت الآن حملة كبيرة شملت مجموعات رئيسة :واحدة من فرنسا بقياد الملك الفرنسي لويس السابع ، وثانية من المانيا بزعامة الملك كونراد الثالث ، وثالثة من الانكليز والفلنديين والطليان وسواهم ، وقدرت الطاقة القتالية للجموع بسبعين الف فارس ، واعداد هائلة من المشاة والأتباع ، ذهبت المصادر البيزنطية الى جعلهم سبعمائة الف (٥) .

وكانت هذه الحملة اكثر نظاما من الحملة الأولى ، وعندما

وصلت القسطنطينية وعبرت الى البر الأسيوي انفجرت الخلافات بين الملك الفرنسي والملك الالماني بشكل حاد ، فقررا الانفصال وان يأخذ كل واحد منهما طريقا خاصا نحو الشام .

سار الملك الالماني في سهول الأناضول ففتك به وبرجاله مقاتلو سلاجقة الروم مع الحر والعطش فعاد فلهم ليأخذ طريقا اخر ، واما الملك الفرنسي ومن بقي من رجال الحملة فأخذ طريق أسية الصغرى وبعد مشاق ومعارك وصل إنطاليا ، ومن هناك ركب نصفهم البحر حتى انطاكية ، وتابع البقية سفرهم برا فأباد أكثرهم التركمان قبل وصولهم إلى مشارف الشام .

وبعد جهود مضنية وصل الناجون من الحملة إلى القدس ، وهناك اجتمع ملك القدس بكل من الملك الألماني والفرنسي ، واتفق الثلاثة على الزحف إلى دمشق لاحتلالها ، وفي الحقيقة شكل وصول الحملة منذ البداية تهديدا هائلا لحكم نور الدين الناشيء في الشام ، وكان نور الدين بالواقع قد واجه أول تهديد إثر تسلمه للسلطة ، في الرها ، فقد استغل الصليبيون حالة الفوضى التي تلت وفاة زنكي فاستعادوا الرها وكان ذلك سنة ٥٤١ هـ ـ ١١٤٦ م ، فقد جمع الفرنجة شتاتهم بقيادة جوسلين الثاني وقصدوا الرها « على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين بها ، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين ، فنهض نور الدين محمود في عسكره ومن اجتمع إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة الاف فارس ... ووافوا البلد وقد حل ابن جوسلين وأصحابه فيه ، فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم ، وقتل من ارمن الرها والنصارى من قتل وانهزم ابن جوسلين بنفسه » ، وهكذا انتهت محاولة الفرنجة هذه بضربة قاصمة خرج منها نور الدين منتصرا مبشرا بمستقبل مشرق للجهاد والتحرير (٦) .

وعلى هذا لم يعد نور الدين يقنع بغير اقتلاع الفرنجة من بلاد الشام ، وشعر أن الله تعالى حين سهل له الوصول إلى السلطة ألقى على عاتقه أمانة رعاية مصالح المسلمين والجهاد ضد

الفرنجة ، فنشط ضد إمارة أنطاكية واستطاع سنة ٥٤٢ ـ ٥٤٣ هـ ـ ١١٤٧ ـ ١١٤٨ م أن يحرر عدة قلاع مثل ارتاح والاثارب وكفرلاثا .

ولقد اثبت نور الدين انه لايقل كفاءة وشجاعة عن ابيه ، ومقدرة عسكرية وقد تفوق على ابيه بصفاء نواياه ، وبتفرغه للجهاد فقط داخل بلاد الشام ، ولم يتورط كما فعل زنكي في صراعات العراق وسواها ، وكان نزيها عفيف النفس يحب العلم والعلماء ويؤثرهم ويشجعهم .

وبعدما نجح في تجريد امارة انطاكية من كثير من ممتلكاتها ، ولتفرغه لشؤون الشام فقط اتجه بنواياه الطيبة نحو دمشق ، وكانت هذه المدينة ـ كما راينا ـ تحكم من قبل بقايا الدولة البورية ويتحكم بها واحد من كبار القادة العسكريين واسمه معين الدين انر ، وتبادل نور الدين السفارات مع أنر حتى « استقر الحال بينهما على اجمل صفة ، وأحسن قضية ، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين ، وتأكدت الأمور على ماالقترح كل منهما » .

وتوجس الفرنجة شرا من هذا التقارب ، وخاصة بعدما أخذت قوات نور الدين تنشط في حوران وتحبط مشاريعهم في السيطرة على السواد وبعض قلاع المنطقة ، لكن أهم نتائج التقارب هذا ظهرت أثناء التصدي لقوات الحملة الثانية لدى حصارها لمدينة دمشق ، فقد أخفق الحصار ، وتعرت سلطات دمشق وافلست شعبيا لاعتمادها على حماية مملكة القدس لها ، مما سبب رفع سمعة نور الدين وقاد بالنهاية إلى تسلمه لمقاليد الأمور بدمشق ، فبعدما وصلت قوات الملك الفرنسي وغيرها من القوات إلى انطاكية عام ٥٤٣ هـ ـ ١١٤٨ م ، حاول أميرها الاستفادة منها في مهاجمة حلب فأخفق ، وقرر الملك الفرنسي الذهاب إلى القدس وهذا ماكان ، وبذلك لم تتوجه الحملة إلى الرها لاستردادها حسب الخطط التي وضعتها قبل الانطلاق من أوربا .

وكان بطريرك القدس قد ذهب للقاء الملك الفرنسي لاقناعه بالقدوم إلى القدس ، فقد رغب ملك القدس ورجال الاكليروس فيها وسواهم بالاستيلاء على دمشق قبل اتحادها مع حلب ودخول نور الدين إليها ، وبالفعل بعد وصول أعضاء الحملة إلى فلسطين عقد قادة الفرنجة الوافدين والبلديين مؤتمرا في عكا قرروا في ختامه بعد مداولات مطولة « إنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الاقدام على حصار دمشق ، ذلك انها مدينة كانت تشكل خطرا كبيرا على مملكة القدس » .

وبالفعل انطلقت قوات الفرنجة يتقدمها صليب الصلبوت ، واخذت الطريق نحو دمشق فاجتازت جسر الصنبرة بعد طبرية ، ولدى الوصول إلى بانياس عقد قادتها مؤتمرا عسكريا حضره عدد من الأشخاص الذين كانوا خبراء بأحوال دمشق المدينة والمنطقة ، وبالنتيجة تقرر فرض الحصار على دمشق من الجهة الغربية بعد الاستيلاء على البساتين هناك .

وكان تعداد الفرنجة لايقل عن خمسين الفا ، وبعدما اجتاز هؤلاء المنطقة الوعرة فيما بين بانياس وأحواز دمشق نزلوا في بلدة داريا ، ومن هناك امتدت قواتهم حتى خانق الربوة عند الدكة على نهر يزيد .

وعلى هذا كان بإمكان النجدات أن تصل إلى دمشق من حوران ومن بعلبك وكذلك من المناطق الشرقية ، وكانت منطقة البساتين التي فصلت بين معسكر الفرنجة ومدينة دمشق كثيفة الأشجار ، ممراتها ضيقة ، أحاط بكل بستان سور من الطوب الطيني الكبير (لبك) ، وفي داخل البساتين نصب المدافعون عن المدينة الكمائن للفرنجة وفتكوا بهم ، ووقعت معارك شديدة بين المسلمين والصليبيين ، وأخذت النجدات تتدفق على دمشق ، وضغط أهل دمشق على معين الدين أنر لاتاحة الفرصة لنور الدين للدفاع عن مدينتهم والجهاد ضد الغزاة ، وهكذا أمكن رد المهاجمين عن الأسوار ، مما أقنع قادة الفرنجة باستحالة الاستيلاء على دمشق

من الجهة الغربية ، فقرروا التحول وحصارها من الجانب الشرقي حيث انعدمت الغابات في الخارج وطمعا بالتعاون مع سكان أحياء الداخل الذين كان جلهم نصارى ، ومجددا أخفق الغزاة ، وشرعوا بالانسحاب ، ونجت دمشق من الحصار الصليبي الثاني في تاريخها والأخير ، وربح الجولة نور الدين ، فقد عقدت عليه الآمال ، ووضع هو بدوره الخطط لدخول دمشق وتوحيد بلاد الشام ، ورأى أن العمل المجدي ضد الوجود الفرنجي هو تدمير مملكة القدس اللاتينية ، فهي الرأس في القوة والمكانة الدينية ، ومتى قطع الرأس خمدت بقية أطراف الجسد (٧) .

وكان من معاني إخفاق الفرنجة في الاستيلاء على دمشق أن مشروع الحملة الصليبية الثانية قد باء بالاخفاق الكامل ، وأن التوسع الفرنجي باتجاه دمشق أو باتجاه حلب بات محالا ، وأنه بعد أمد قريب لن يكون أمام الفرنجة غير البحر أو مصر .

ووضع نور الدين الخطط لدخول دمشق وأخذ في تمهيد السبيل إلى ذلك حيث استغل وقوع اضطرابات وصراعات على السلطة في القدس بين بلدوين الثالث الشاب وأمه الوصية على العرش ، واستفاد من حادثة اغتيال ريموند الثاني كونت طرابلس ، وقام في سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م بمهاجمة حصون انطاكية وعندما حاولت قوات انطاكية بقيادة الأمير ريمو ندي بواتيه التصدي له أبادها ، وقتل اميرها ، ثم تمكن في العام التالي من أسر صاحب تل باشر ، وبهذا تم له تصفية الوجود الفرنجي في كونتية الرها بشكل كامل .

وحدث في سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م أن توفي سيف الدين غازي ـ أخو نور الدين ـ صاحب الموصل ، وحاولت بعض الأطراف توريط نور الدين بمشاكل الجزيرة والموصل فأخفقت ، واجتمع نور الدين بأخيه قطب الدين الذي تولى شؤون الموصل « واتفقت كلمتهما واتحدت آراؤهما ، وكل واحد منهما لايصدر إلا عن أمر أخيه » ، وبذلك ظل نور الدين متفرغا للشؤون الشامية فقط .

وفي هذه السنة بالذات تـوفي معين الدين أنر المتحـكم بـدمشق ، وبذلك عادت مقاليد الأمور إلى الأمير البـوري الشرعي مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وكان ضعيف الشـخصية سيء التدبير ، لهذا كثر الطامعون في الولاية وانتشرت عصابات الفـرنجة ونشطت في ديار الدولة خاصة في حوران ، ممـا دفـع نور الدين إلى قيادة قواته إلى هذه المنطقة ، وذلك أنه كان يرى من واجبه الدفـاع عن أراضي المسلمين سواء أكانت تابعة له أم تحت إمرة غيره ، وكان هذا سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م ، ولدى زحفه جنوبا « كتب إلى مـن في دمشق يعلمهم بما عزم عليه في الجهاد ، ويستدعي منهم المعونة على ذلك بألف فارس ، تصل إليه مع مقدم يعول عليه ، وقد كانوا عاهدوا الفرنج أن يكونوا يدا واحدة على مـن يقصـدهم مـن عسـاكر المسلمين ، فاحتج عليه ، وغولط ... وقـد كانوا راسـلوا الأفـرنج بخبره وقرروا معهم الانجاد عليه » .

ويبدو أن نور الدين كان على معرفة بمسألة التهـادن والتحـالف بين أبق وبلدوين الثالث ، ثم إنه لم يكن في الحقيقة بحاجة إلى قوات دمشقية تشاركه في النشاط في حوران ، لكنه أراد مـن جـانب أول تلقين الفرنجة درسا قاسيا وإفهامهم أن التحالف مع أبق لايفيد ، ثم إنه ابتغى من جانب آخر تعرية أبق وأركان سلطته واختبار مـوقف أهل دمشق إن لم نقل إثارتهم ، وحقق نور الدين كل مـا اسـتهدفه وزاد على ذلك أنه ظهر في أعين الناس جميعا من أصدقاء وأعداء أنه مسؤول عن الدفاع عن دمشق وأنه بطل الاسلام والمجاهد في سـبيل الله ضد الفرنجة .

ومن حوران جدد نور الدين مراسلة السلطات البورية في دمشـق قائلا : « إنني ما قصـدت بنزولي هـذا المنزل طـالبا لمحـاربتكم ولامنازلتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين مـن أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أمـوالهم وشـتتت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج ، عدم الناصر لهم ، ولايسـعني مـع ما أعطـاني الله ، وله الحمـد ، مـن الاقتـدار على نصرة

المسلمين ، وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ولايحل لي ، القعود عنهم ، والانتصار لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ اعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي ، وبذلكم لهم اموال الضعفاء والمساكين من الرعية ، ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا مالايرضي الله تعالى ولا احد من المسلمين » .

وعلى قاعدة اذا لم تستح فافعل ماشئت جاهر رجال الدولة البورية بمواقفهم فكتبوا الى نور الدين جوابا على رسالته « ليس بيننا وبينك الا السيف ، وسيوافينا من الافرنج مايعيننا على دفعك إن قصدتنا ، ونزلت علينا » وأثار نور الدين هذا الجواب وأغضبه « وعزم على الزحف الى البلد ومحاربته » ثم أنه « اشفق من سفك دماء المسلمين ان اقام على حربها والمضايقة لها » فقد كان يعرف ان أبق ورجاله مستعصبون وراء إسوار قلعة دمشق ، وراسل أبق نور الدين بعد هذا ، ثم خرج الى لقائه فخلع عليه نور الدين « خلعة كاملة بالطوق ، وأعاده مكرما محترما ، وخطب له على منبر دمشق ... ثم استدعى الرئيس(رئيس المدينة)الى المخيم وخلع عليه خلعة مكملة ايضا واعاده الى البلد ، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به ، فوصل من استماحه من الطلاب والفقراء والضعفاء بحيث ماخاب قاصده ، ولاأكدى من ساله » ثم رحل عائدا الى حلب وكان ذلك في مطلع سنة ٥٤٥ هـ ــ ١١٥٠ م .

ومنذ عودة نور الدين الى حلب ، أخذت تتواردعليه أخبار مقلقة من مصر ، لهذا راى من واجبه انقاذ مصر وانقاذ شعبها ، ولم يكن ذلك ممكنا من دون القضاء على حكم الدولة البورية وتوحيد البلاد الشامية ، ولهذا قام في مطلع عام ٥٤٦ هـ/١١٥١ م بقيادة قواته نحو دمشق وشرع بحصارها ومنع المؤن عنها « ووافت رسل نور الدين الى ولاة أمر البلاد تقول : انا ماأوثر إلا صلاح المسلمين ، وجهاد المشركين ، وخلاص من في أيديهم من

الأسارى ، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهاد ، وجرى الأمر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الايثار والمراد ، فلم يعد الجواب اليه بما يرضاه ، ويوافق مبتغاه » .

وشدد نور الدين التضييق على دمشق مع أوامر واضحة لجنده بعدم « الزحف الى البلد ، ومحاربة من فيه اشفاقا من قتل النفوس، واثخان الجراح » ولم « يأذن لأحد من عسكره في التسرع الى قتال احد من المسلمين من رجال البلد وعوامه ، تحرجا من اراقة الدم فيما لايجدي نفعا » .

وفي أثناء الحصار وصلت الأخبار الى نور الدين بوصول جيوش الفرنجة الى ارض حوران وزحفها نحو دمشق ، فاضطر نور الدين الى رفع الحصار عن المدينة والزحف نحو الفرنجة ، وخرجت من دمشق بعض قواتها حيث اتحدت مع الفرنجة للقتال ضد نور الدين وللاستيلاء على بلدة بصرى ، ولم تفلح هذه الخطط ، ومع هذا راسل الفرنجة رجال الدولة البورية « يلتمسون باقي المقاطعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق ، وقالوا : لولا نحن ندفعه مارحل عنكم » .

لكن نور الدين ترك حصار دمشق مؤقتا حتى يدفع الفرنج ، وبعدما دفعهم عاود حصار دمشق وهو مطمئن انه لن يقع بين نارين : نار الفرنجة ونار القوات البورية و « استمر رأي نور الدين على وقف الزحف الى البلد ومحاربة أهله وعسكريته تحرجا من قتل المسلمين ، وقال :لاحاجة الى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضا ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين » وفي هذه الأثناء جرت اتصالات بنور الدين لشراء رضاه وتوسط في ذلك بعض الفقهاء وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب ، وتبعا لذلك رفع نور الدين الحصار وعاد أدراجه الى حلب ، وبعد أمد قصير « توجه مجير الدين ــ ابق ــ صاحب دمشق الى حلب في خواصه ، ووصل اليها ودخل على نور الدين صاحبها ، وأكرمه وبالغ في الفعل الجميل في حقه ، وقرر معه تقريرات اقترحها

عليه ، بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ، وبذلك صارت دمشق نظريا تابعة لسلطان نور الدين ، ومع هذا جاءت خطوة أبق واعترافه بسيادة نور الدين لكسب الوقت .

وفي هذه الأونة نجح الصليبيون في الاستيلاء على مدينة عسقلان ، وبعملهم هذا باتوا يمتلكون الساحل الشامي من اسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب ، وبذلك حرموا المسلمين من امكانات الافادة من البحر ، وعقب ابن الأثير في كامله على سقوط عسقلان بقوله : « فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين» .

وقرر نور الدين حسم الأمور خاصة بعدما تصاعدت مكانته لدى اهل دمشق ، فزحف في محرم عام ٤٤٩ هـ/ أذار ١٠٥٧ م الى دمشق ولدى وصوله اليها اخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب بتسليمه إياها ، فرفض مجير الدين أبق وحاول المقاومة ودفع نور الدين بالقوة ، لكن قواته كانت متخاذلة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق اسوار المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصاحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله ، وحسن ذكره ، وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه الى الباب الشرقي ، فكسر اغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ، ولم يقف أحد بين ايديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل الملك نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار ، والخوف من منازلة الافرنج الكفار » .

وكان دخول نور الدين الى دمشق هو الحدث الأعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية ، فقد تم الأن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم ، وقال وليم الصوري مؤرخ المملكة اللاتينية الذي عاصر هذا الحدث معقبا عليه ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة

القدس اللاتينية » وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت ، لانه كما قيل : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها ، وتظهر بقوة اكبر ضد عدو مشترك» (٨) .

وتحول نور الدين الآن من حلب الى دمشق ، وبهذا تحولت دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم ، ونجم عن هذا قيام حركة علمية نشطة فنور الدين بنى البيمارستان النوري ، واقام دار العدل ، ودار الحديث النورية ، وهي أول جامعة لعلوم الحديث في التاريخ الاسلامي ، وهو ايضا الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق في ثمانين مجلدة ، وهذا أمر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها ، كل هذا ضمن انجازات أخرى تصدرها التخطيط لانقاذ مصر والتحضير لتحرير القدس الشريف .

وقال ابن الاثير معقبا على دخول نور الدين لدمشق وتوحيده لبلاد الشام : «وكان أبغض الأشياء الى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لانه يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له ، فكيف اذا اخذها وقوي بها » (٩) .

وصحيح ان نور الدين نقل مقر حكومته الى دمشق ، لكنه ابقى مدينة حلب معقل أسرته ومقرها الدائم والأساسي ، وسيتضح هذا بعد وفاته ، أي أن دخول نور الدين الى دمشق لم ينه مرحلة حلب في حرب الاسترداد ، فهذه المرحلة انتهت بعيد دخول صلاح الدين الى دمشق وتأسيسه الأسرة الأيوبية .

وكانت بلدة بانياس وقلعتها الحصينة ـ الصبيبة ـ المركز الدفاعي الأول عن دمشق في وجه مملكة القدس اللاتينية ، وحين دخل نور الدين دمشق ، وجد هذه المدينة مع قلعتها بأيدي الفرنجة قد تسلموها من قبل من أمراء الدولة البورية ، لذلك خطط نور الدين

لاستردادها ، وبعد القيام بعدة أعمال عسكرية ناجحة في منطقتها حاصرها نور الدين سنة ٥٥٣ هـ - ١١٥٨ م ، واستطاع أولا تحرير المدينة ، وشرع في حصار القلعة ، وفي تلك الأثناء قدم ملك القدس للتفريج عن الصبيبة ، فانسحب نور الدين من بانياس وكمن مع قواته في الشعراء القريبة من المنطقة ، ودخل الملك الفرنجي الى بانياس وقام ببعض أعمال الترميم فيها ، ثم شحنها بالمؤن والمقاتلة ومن ثم انسحب عائدا ، وعسكر مع قواته على مقربة من بحيرة الحولة معتقدا ان نور الدين قد عاد الى دمشق ، ولكنه فوجىء بانقضاض نور الدين على معسكره ، فمزقه وقتل رجالاته ، ونجا الملك الفرنجي من الموت بكل صعوبة ، وقام نور الدين باجتياح المنطقة ، ثم عاد الى بانياس ليحاصرها ثانية لكنه اضطر مجددا لرفع الحصار ، لأن الفرنجة جمعوا من جديد جيشا زحف ثانية نحو بانياس لنجدتها ، وفي الحقيقة لم يتمكن نور الدين من تحرير بانياس وقلعتها حتى سنة ٥٥٩ هـ - ١١٦٢ م ومرد ذلك انه بعيد رفع الحصار عن بانياس توجه الى حلب ، وهناك أصيب بمرض عضال الزمه الفراش حتى أرجف به ويئس من الشفاء فأوصى لأخيه ميرمران بالملك من بعده ، وقد استغل الفرنجة هذا الوضع لصالحهم ، غير انه لحسن الحظ شفي نور الدين ومن ثم عاود نشاطاته بشكل مؤثر وفعال مما دفع الصليبيين للتحالف مع الامبراطورية البيزنطية ، لكن في سنة ٥٥٩ هـ /١١٦٢ م توفي بلدوين الثالث ملك القدس ، فخلفه أخوه عموري الأول (١٠).

وكان عموري قبل توليه الملك حاكما ليافا وعسقلان ، قريبا من مصر مطلعا على أوضاعها الداخلية المضطربة ، لذلك وضع خطة للاستيلاء على مصر ، حتى انه كلف وليم رئيس اساقفة صور أن يتولى اعداد كتاب يؤرخ به لاحتلاله مصر ، لانه اعتقد أن القاهرة لقمة سهلة التناول لايوجد من يحول دون تناوله اياها!

وكان هذا صحيحا بالنسبة للوضع داخل القاهرة ، غير ان وجود نور الدين عطل خطط الفرنجة واحبطها ، حيث أرسل ثلاث حملات عسكرية الى مصر ، تمكنت أخيرا من انقاذ هذا القطر والحاقه

بالشام ، وقاد هذه الحملات اسد الدين شيركوه ، وقد رافقه فيهـا ابن أخيه يوسف بن ايوب (صلاح الدين) ، وشغل صـلاح الدين في هـذه الوقـائع دورا رئيسـا وتجلت في تلك الاثناء مـواهبه ومؤهلاته ، مما رشحه للزعامة ، وذلك بـالاضافة الى تعـرفة على مصر وعلى مشاكلها وامكاناتها .

سنبحث مسالة هذه الحملات بعد قليل لدى التفـرغ للحـديث عن قيام صلاح الدين ، ولعله يكفي أن نذكر الآن انه في سـنة ١١٦٧ م تمكن نور الدين من تـوحيد مصر مـع بـلاد الشـام ، وفي سنة ١١٧١ م تم الغاء الخلافة الفـاطمية ، وقـامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبـدات مصر تسـتعد للاسـهام في اعمـال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، واعد نور الدين قواته من أجل معركة فـاصلة ، وكان مـوقنا مـن ان النصر سـيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وبلغـت استعدادات نور الدين ويقينه من النصر الى حد أنه أمر بصنع منبـر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الاقصى بعد تحريره (١١).

وكان صـلاح الدين يوسـف بـن أيوب واليا لنور الدين على مصر ، وقبل ان يتوجه نور الدين على رأس قـواته نحـو فلسـطين أصدر اوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقـاء معـه على أسـوار الكرك ، ولكن ـ ولكل عظيم سـقطة ـ غلبـت انانية صلاح الدين وشهوته للسلطة على نفسه ، وذلك بتحـريض جهـازه الذي احاط به له ، وتخويفه من نور الدين ـ فتلكأ صلاح الدين ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللا بأوهى الاسباب ، وهكذا تأجل مـوعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنينا طويلة أخـرى من الدم والعذاب .

وتوفي نور الدين بشكل مفاجي عام ١١٧٤ م ، وقام بعده صلاح الدين ، فاستطاع أن يرث دولته ، ولهذا حـديث أخـر ميدانه فيمـا يلي :

قيام صلاح الدين

هناك خلاف شديد بين المؤرخين حــول دور البــطل في التــاريخ؛ فبعضهم يعتقد أنه وجد بين البشرمن ملك من الطاقات ماجعله يفوق سواه من الناس في وقته ، وبــذلك تســنى له أن يتــربع على عرش الزعامة ،وأن يحدث تغييرات كبيرة، ويحقق انجازات خطيرة ،تــأثر بها معاصروه، ومن أتى بعدهم ، لكن بنسب متفــاوتة،مما سـبب له الشهرة والخلود •

وبعضهم الآخر ينكر دور البطل الفرد في صنع أحــداث التــاريخ حسب مشيئته ، ويعتقد أن الجماهير هــي البــطل الحقيقــي الذي يصنع أحداث التــاريخ ، ولكن إذا تــذكرنا أن لكل واقعــة مــن الوقائع ،العــديد مــن الأســباب المتنوعة البعيدة والقــريبة ، وأن المسببات هي سابقة للواقعة واصل لها ، خففنا من غلواء الاعتقــاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ ، وأن الفرد البــطل وحده لا شيء بدون جماهير تســتجيب لقضــيته ، التــي تعتبــرها قضيتها ، وتتعاون معه وتحت قيادتــه ، لتنفيذ مــطامع متشــابكة بشكل معقد .

على هذا يمكن رؤية دور الفرد والجماعات في صنع التــاريخ مــن خلال قضايا كبــرى ذات جـــذور بعيدة في الماضي لهـــا أســـباب قريبة ، وحين تتضافر الأسباب وتتوفر القدرة على الانجــاز يقــوم دور الفرد على مدى فــاعليته في الانجــاز ، وقــد يكون الانجـــاز كبيرا ، له فاعلية الحسم المستمر ، وقد يحدث أن يقوم فــراغ كبير إثر غياب البطل ، وهنا نجد الفراغ والحاجة يقودان نحو تــذكر دور البطل واستغلاله بشكل جديد فيه حسرة واغناء وشروح وتفســيرات ثم اضفاء مواد جديدة عليه ، وهكذا يتحول دور البطل مــن واقعــة تاريخية الى واقعة شبه أسطورية .

هذا ما يواجهنا عندما نود البحث في سيرة صلاح الدين وخــاصة

الفترة المبكرة من حياته أي قبل وصوله الى السلطة ، ذلك أن صلاح الدين مثل غيره من الأبطال اهتم المؤرخون بأخباره بعدما وصل الى واجهة السلطة ، فجمعوها ، وهنا شعروا بالحاجة الى التعرف الى أخباره قبل السلطة فـأقبلوا على جمعهـا مـن الذكريات ، وعملية الجمع هذه بائسة بسبب قلة مصادر المعلومات ،هذا مع مـا تسـببه رواية بعض الأخبار من إحراج ، ولما جبل عليه البشر مـن مـداراة وأدب ولباقة إن لم نقل رياء ونفاق ، ولهذا فإننا لن نقف طـويلا عند طفولة صلاح الدين وأعماله قبل وصوله الى السلطة .

لقد سكنت المناطق الجبلية الواقعـة في أعالي الجـزيرة شـمالي الموصل وشماليها الشرقي بعدد كبير مـن القبـائل الكردية ، وكان الأكراد غالبا مـا يهـاجرون الى بلدان الجـزيرة حيث يندمجـون بسكانها ، وعندما ضـعفت السـلطة المركزية في بغـداد ، وأخـذت أطراف الدولة تنفصل ، كان من بين القوى التي تحركت بعض قبائل الأكراد ، فمنهم من تجند في واحد من الجيوش ، ومنهم مـن شـغل نفسه بالاغارة على أراضي الامبراطورية البيزنطية ، وهكذا وجد في القرن العاشر لدى الأكراد عدد من الغزاة تجمع حول كل واحد منهم عصابة عسكرية خاصة ، واشتهر من بين هؤلاء رجـل اسـمه بـاذ استطاع ـ كما ذكرنا مـن قبـل ـ أن يؤسس دولة في ميافـارقين وديار بـكر عرفـت بـاسم الدولة المروانية (٣٧٢ ـ ٤٧٨ هـ/ ٩٨٣ ـ ١٠٨٥ م).

وفي القرن الحادي عشر عندما هاجرت قبائل التركمان من منطقة ما وراء نهر جيحون الى خـراسان فـالعراق والجـزيرة وآسـية الصغرى والشام دفـع التـركمان أمـامهم أعداد كبيرة مـن الأكراد ، ومع نهاية القرن الحادي عشر صار عدد العناصر الكردية العاملة في جيوش دويلات بـلاد الشـام والعـراق والجـزيرة كبيرا ، وجذبت الحـروب المزيد ، لكن كان لانسـياح التـركمان في آسية الصغرى وأرمينية وأذربيجان والحـروب هناك مـع الأرمـن والكرج والبيزنطيين الأثر الأعظم في قدوم أعداد جـديدة كبيرة مـن

الاكراد ، كما حدث مع بني شداد الذين أشرنا اليهم من قبل ، ومع تزايد الأكراد وتناقص التركمان قامت الفرص امام الأكراد في بلاد الشام بشكل خاص لوراثة دول التركمان ، وأعني بهذا الدولة الأتابكية ، دولة نور الدين بن زنكي .

هذا وسلفت الاشارة الى عماد الدين زنكي وتأسيسه للدولة الاتابكية في الموصل ، كما سلفت الاشارة الى منجزات عماد الدين في حرب الاسترداد ضد الفرنجة ، لكن من المفيد أن نشير الى أن عماد الدين تورط في عدد من الصراعات السلجوقية في العراق ، ففي سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م هزم زنكي في العراق فانسحب بفلول جيشه نحو تكريت يريد جواز دجلة ، وكانت قلعة تكريت يحكمها ضابط كردي اسمه نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان ، وقام أيوب بتقديم المساعدات والمعابر لزنكي مما كان له عظيم الأثر على زنكي ، وبعد عودته الى الموصل ارسل زنكي له الهدايا وأخذ الطرفان يتبادلان المراسلات والسفارات ، وقد ضاق بتصرفات أيوب سادة بغداد أعداء زنكي ، واضطروا الى عزله عن ولاية تكريت ، فاضطر ايوب في ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م الى مغادرة تكريت ميمما شطر الموصل ، ويروى أنه في الليلة التي غادر بها أيوب تكريت ولد له مولود ذكر سماه يوسف ، وهو الذي سيشهر فيما بعد باسم صلاح الدين .

واستقبل زنكي أيوب واسرته بترحاب واقطعهم اقطاعات كبيرة ، وانخرط افراد الأسرة في خدمة زنكي ، وبرز بعد أيوب اخوه شيركوه ، وبرهن على كفاءات عسكرية عالية ، وعندما احتل زنكي بعلبك سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م عين أيوب واليا عليها وأقطعه ثلثها ،وظل أيوب في بعلبك حتى مقتل زنكي،وهنا في هذه المدينة الاستراتيجية ترعرع صلاح الدين في كنف أبيه وعمه ،وقدر أنه تلقى ما كان يتلقاه ابناء طائفته من أهل عصره من تدريبات عسكرية وثقافة عربية إسلامية(١٢) .

وبعد وفاة زنكي صارت بعلبك من أملاك دمشق ، وفي سنة

١١٥٢ م ، وكان صلاح الدين قد صار في الرابعة عشرة من عمره ، غادر بصحبة عمه شيركوه بعلبك الى حلب حيث دخلا في خدمة صاحبها نور الدين الشهيد ، وسريعا غدا شيركوه من أبرز أمراء جيش نور الدين،وقد حاز على اقطاعات خاصة ، وتجمع حوله قوة عسكرية خاصة ستعرف فيما بعد باسم الأسدية ، لان شيركوه كان يلقب بأسد الدين ، ومن المرجح أن صلاح الدين نال من عمه رعاية خاصة ، وقد رافقه بشكل دائم حتى حل منه محل النائب ، كما أن صلاح الدين قد تأثر عظيم الاثر بخلق نور الدين ومثله كلها ، وفي سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ دخل نور الدين مدينة دمشق ، فعين شيركوه شحنة ـ حاكما عسكريا ـ لها ، وفي سنة ١١٥٦ م تسلم صلاح الدين منصب نائب شحنة دمشق لفترة قصيرة ، حيث ترك عمله هذا والتحق بجيوش نور الدين وشارك في أعمالها الحربية ضد الفرنجة ، ولازم نور الدين ملازمة شديدة حتى صار من رجاله المقربين ، وقد وصف ابن أبي طي ذلك بقوله : « واستخص نور الدين صلاح الدين ، وألحقه بخواصه ، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان تفوق في لعب الكرة ـ البولو ـ وكان نور الدين يحب لعب الكرة » (١٣) .

وفي الحقيقة نال صلاح الدين شهرته ، وبدأ يدخل الباب العريض للتاريخ عندما رافق عمه شيركوه في حملات نور الدين على مصر .

كانت مصر أنئذ مقرا للخلافة الفاطمية ، ودون الدخول بتفاصيل تاريخ هذه الخلافة تكفي الاشارة الى أن الفاطميين ضعفت قوتهم بشكل كبير وخاصة في القرن الحادي عشر ، وكان أبرز الخلفاء الذين حكموا في القاهرة في هذا القرن المستنصر بالله (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤)ففي أيام هذه الخليفة هوت الخلافة الفاطمية بسرعة كبيرة .

كانت الخلافة الفاطمية خلافة شيعية عقائدية ، قام نظامها على سيطرة الامام الخليفة على كل فروع السلطة ، وعددها ثلاثة وهي : الادارة ، الدعوة الاسماعيلية والدعاة ، والجيش ، وكان الخليفة

يعين من يقوم بأعباء الادارة غالبا باسم وزير ، اما الدعوة وإن ارتبطت بالامام مباشرة فقد كان المسؤول عنها يعرف باسم « داعي الدعاة » ، وكان داعي الدعاة هذا يرأس الحزب الاسماعيلي للخلافة الفاطمية ، ويسير جيشا هائلا من الدعاة الموزعين في كافة انحاء عالم آسية وشمال إفريقية .

وكان الجيش يرأسه قائد مرتبته ثالثة في سلم الادارة الفاطمية أي بعد الوزير وداعي الدعاة ، والخلافة الفاطمية كما هو معلوم كانت قد قامت في إفريقية (تونس) على أيدي قبائل كتامة البربرية وسواها ، وعندما استولى الفاطميون على مصر وانتقلوا إليها كان قوام جيشهم من العناصر البربرية ، لكن مع الاستيلاء على مصر اصطدم هذا الجيش بجند بلاد الشام ، وقرامطة الأحساء والبحرين ، وأتراك العراق ، فهزم ، وتبين للخلفاء عجز عساكرهم أمام عساكر المشرق ، لذلك شرعوا في تجنيد بعض العناصر التركية والعربية والديلمية ، كما استوردوا أعداد هائلة من الرقيق الأسود وأدخلوها في جيشهم ، وهكذا صار الجيش الفاطمي قوامه عدة عناصر بشرية مشرقية ومغربية وإفريقية ، ويقدر بعض الباحثين بأن عدد السودان صار حوالي ثلاثين ألفا كونوا سلاح المشاة ، في حين أن بقية العناصر كانت من الفرسان .

ومنذ أواخر القرن العاشر بدأ جند الخلافة الفاطمية يزيدون من صلاحياتهم على حساب المؤسسات الأخرى ، وفي أيام المستنصر جرت محاولات انقلابية استهدفت الحكم على الخليفة والخلافة حسب ماكان جاريا في مركز الخلافة العباسية ، ونجحت إحدى المحاولات سنة ١٠٧٤ م بقيادة ضابط من أصل أرمني اسمه بدر الجمالي ، ومنذ ذلك الحين حكم قائد الجند على الخليفة وصار سيدا فعليا ومطلقا للخلافة الفاطمية يحمل من الألقاب : أمير الجيوش ، الوزير وداعي الدعاة ، وصار هذا المنصب وراثيا أيضا ، وعندما وصل الغزو الصليبي إلى الشام كان الأفضل بن بدر الجمالي عزيز مصر وسيدها .

وقد ادى هذا إلى ردات فعل مؤثرة داخل الدعوة الاسماعيلية وقاد بعد وفاة المستنصر مباشرة إلى انشقاق الدعوة الاسماعيلية إلى شطرين : نزارية ومستعلية ، ذلك انه عندما توفي المستنصر واجه الأفضل أمير الجيوش أمر اختيار خليفة جديد ، وكان هناك نزار الابن الأكبر للمستنصر ، وكان معينا لولاية العهد ، والمستعلي وكان اصغر من نزار واضعف وبدون سند أو جماعة ، فاختاره أمير الجيوش خليفة وصاهره ، وهنا هرب نزار إلى الاسكندرية ، وقام بثورة هناك ، فلاحقته قوات أمير الجيوش ، وقضت عليه وعلى حركته .

ورفضت أعداد عظيمة من الاسماعيلية خارج مصر الاعتراف بالمستعلي ، وبرز بينهم في المشرق داعية كبير اسمه حسن الصباح ، قام بتأسيس دعوة اسماعيلية جديدة عرفت باسم ـ الحشيشية ـ اعلنت الحرب على خصومها وقررت اغتيالهم طقوسيا بواسطة الطعن بالسكاكين ، ولقرابة ثلاثة قرون اغتال الحشيشية عددا كبيرا من قادة المسلمين والصليبيين ، واستولوا في المشرق والشام على عدد من القلاع الحصينة ، وكان دورهم أيام الحروب الصّليبية متميزا (١٤) .

وفي القاهرة توفي المستعلي سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م فخلفه ابنه الآمر ، وفي سنة ٥٢٤ هـ ـ ١١٣٠ م اغتال الحشيشية هذا الخليفة فكان آخر الخلفاء الأئمة ، حيث جاء بعده أربعة تربعوا على عرش القاهرة لكن خلفاء فقط لا ائمة ، اي ان سلطتهم كانت زمانية فقط ، وضعفت مصر أيام هؤلاء الاربعة ضعفا شديدا ، وقامت صراعات داخلية بين عدد من الجند حول السلطة والحكم ، واشتدت هذه الصراعات ايام نور الدين ، وخاصة عقب دخوله إلى دمشق ، وتنبه نور الدين إلى ماكان يجري في مصر ، وبلغه أن الصليبيين يريدون الاستيلاء عليها ، وأن بعض رجالات الصراعات الداخلية قد اتصلوا بهم ودعوهم للقدوم إلى القاهرة .

ودون الدخول هنا بكبير تفاصيل الأحداث ، يكفي أن نذكر أن

نور الدين بعث بثلاث حملات متتالية إلى مصر قادها واحدة تلو الأخرى أسد الدين شيركوه ، وشغل فيها صلاح الدين دورا ، لاشك انه كان كبيرا جدا ، وأن دوره هذا هو الذي رشحه للزعامة ، كما أن هذه الحملات عرفت صلاح الدين على مصر ومشاكلها ، وجعلته مع القوات الأسدية ينالون تدريبات عسكرية عملية ، ولاشك أن صلاح الدين أقام في أثناء ذلك بعض العلاقات مع بعض القوى السياسية المصرية ، وخاصة المعارضة منها .

وكان من بين الذين تحكموا بمصر وزير اسمه شاور السعدي اصطدم بوالي الصعيد واسمه ضرغام بن ثعلبة ، فهزم ، واضطر إلى مغادرة القاهرة والتوجه إلى دمشق حيث التجأ إلى نور الدين وطلب مساعدته ، ولاشك هذا اللجوء والطلب قد لاقى هوى في نفس نور الدين ، لكنه تردد في الاجابة وأقبل على دراسة القضية بجميع ابعادها ، ووضع خطة عسكرية تقضي بإرسال فرقة من قواته بقيادة شيركوه ، وبالوقت نفسه إشغال الفرنجة في الشام عسكريا حتى لاتتاح لهم الفرصة للتدخل وقطع الطريق على شيركوه ، وفي جمادى الثانية لسنة ٥٥٩ هـ / أيار ١١٦٤ م انطلق شيركوه يريد مصر ، وعندما سمع ضرغام بمسير جنود الشام نحو مصر توجه نحو الصليبيين ينشد العون ، ووصل شيركوه إلى مصر وهزم قوات ضرغام ودخل القاهرة ، فأعاد شاور « إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده ، واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الايهام والمحال » .

وما إن استقر شيركوه في مصر قليلا حتى عرف اساليب الحكم في القاهرة ، فتركها وتحصن في بلدة بلبيس ، وأراد شاور إخراج شيركوه فاخفق ، فاتصل بعموري ملك القدس وعرض عليه مبلغا كبيرا من المال للقدوم إلى مساعدته ، وخف عموري على رأس قواته ، وبعدما وصل مصر قام يساعده شاور بمهاجمة بلبيس ، وتصدى شيركوه للمهاجمين واتخذ موقف الدفاع ، وقام عموري

بمحاصرته واستمر الحصار ثلاثة اشهر ، قام خلالها نور الدين ـ وقد أخفق في إرسال النجدات إلى شيركوه ـ بضغط عسكري شديد على ممتلكات الصليبيين في الشام ، فاضطر عموري إلى التفاوض مع شيركوه ، فاتفقا على الانسحاب جميعا من مصر ، وهذا ماحصل (١٥) .

ولم ترض النتائج المتواضعة لحملة شيركوه نور الدين ، إنما وضعت في روعه أن احتلال مصر أمر لابد منه ، وأنه يحتاج إلى قوة اكبر من التي أرسلت ، وفي مصر كان شاور متيقنا من عودة جيوش الشام لذلك « كاتب الفرنج ، وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد .... وبلغ ذلك إسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها الكفار » .

وبادر نور الدين إلى تجهيز جيش جديد ، عهد بقيادته إلى شيركوه ، ومرة ثانية رافق صلاح الدين عمه ، وفي ربيع الأول لسنة ٥٦٢ هـ/كانون ثاني ١١٦٧ م انطلق الجيش نحو مصر ، وبعد صعوبات شديدة وصل الى اطفيح على بعد أربعين ميلا من القاهرة الى الجنوب منها ، وهناك عبر النيل وتابع سيره حتى الجيزة حيث عسكر هناك.

ووصل في الوقت نفسه جيش مملكة القدس الصليبية يقوده الملك عموري ، وعسكر تحت أسوار الفسطاط ، بحيث تفاوض مع شاور ، فتم الاتفاق على أن يدفع شاور للفرنجة أربعمائة الف قطعة ذهبية مقابل عدم تخليهم عنه .

وراقب الجيشان الشامي والصليبي بعضهما بعضا عبر النيل ، ولم يتعجل شيركوه المعركة ، ذلك أنه كان على معرفة بأخلاق الفرسان الصليبيين وأمزجتهم ، فالفارس الصليبي كان لايعرف الانضباط ، وكان عديم الصبر متهورا ، وكانت أفضل الوسائل للتعامل معه مطاولة القتال كيما يركبه الملل فيتهور بعمل انتحاري طائش أو ينسحب ، كما كان شيركوه عنده أخبار عن قيام نور الدين بالضغط العسكري الشديد على ممتلكات الصليبيين في الشام .

وكان موقف شيركوه العام حرجا فعقد مجلسا حـربيا لدراسـة الموقف ، وفي هذا المجلس كان رأي غالبية القادة الانسحاب والعودة إلى الشام وقالوا لشيركوه : « إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لاشك فيه ـ فإلى أين نلتجيء وبمن نحتمي .... وحق لعساكر عدتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف » وعارض أحد القادة هذا الرأي وقال : « من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بـل يكون .... في بيتـه ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبـلاء تعـذرون فيه ، ليأخـذن اقطاعاتكم ، وليعـودن عليكم بجميع مـاأخذتموه إلى يومنا هـذا ، ويقول لكم : أتأخذون أمـوال المسـلمين وتفـرون عن عدوهـم ، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفـار » ! فقـال شيركوه هذا رأي ووافقه صلاح الدين ، واتخذ القرار بذلك .

وعبر جيش الفرنجة النيل ، فتراجع أمامه شيركوه إلى منطقـة الأشمونين وعبأ قـواته للمعـركة في بقعـة عرفـت باسم « البابين » وكانت قوات شيركوه لاتتجاوز الألفين ، في حين أن قوات الفرنجة وشاور كانت أضعاف ذلك .

وقامت خطة شيركوه على فصل سلاح فرسان العدو عن مشاته ، وكان فرسان الصليبيين مدرعين سـلاحهم الأسـاسي هـو الرمـح الغليظ الاسطوانة ، وكان الفارس الصليبي يحزم نفسـه إلى ظهـر فرسه ، ويسلط رمحه إلى الأمام ويمسكه بـكلتا يديه أو يضعـه في مكان مخصص تحت إبطه ، واعتمد قتال هـذا الفـارس على قـوة الخرق التي كان ينالها من اندفاع فرسه ، وبطبيعة تسليحه هذا كان بحاجة إلى حماية من جنود مشاة ، كما أنه كان لايسـتطيع البقـاء على أرض المعركة طويلا ذلك أنه كان يصاب بـالانهاك ، لأن دروعه كانت تعيق تعرق جسده .

ومع أن طاقات الفارس الصليبي كانت جبـارة إلا أنه كان وحيد التسليح منعدم المرونة ، ليس لديه قدرة على الانسياب .

ورتب شيركوه قواته الترتيب الخماسي المعتاد : مقـدمة ، قلب ،

مؤخرة ، ميمنة ، ميسرة ، وقام بوضع جميع العتاد مع القلب حتى يظهر حجمه كبيرا وعهد لصلاح الدين بقيادة القلب ، وتسلم هو قيادة الميمنة ، وأوصى صلاح الدين وأعوانه بقوله : « فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولاتهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم » .

وانقض فرسان الفرنجة على قلب جيش شيركوه ، « فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم » ، وهنا قامت ثغرة بين سلاحي الفرسان والمشاة لدى الفرنجة « فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على » مشاة الفرنجة « فهزموهم ووضع السيف فيهم ، فأثخن ، وأكثر القتل والأسر ، وانهزم الباقون ، فلما عاد الفرنج من إثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس به منهم ديارا فانهزموا » .

وإثر المعركة توجه شيركوه نحو الاسكندرية فدخلها ، وترك بها حامية صغيرة بقيادة ابن أخيه صلاح الدين وتوجه هو نحو الصعيد ليجمع الخراج ، وفي أثناء هذا أعاد عموري تشكيل قواته مع قوات شاور وزحف نحو الاسكندرية ، وأثناء ذلك راسل شيركوه شاور ، وعرض عليه التعاون معا ضد الفرنجة ، ووعده أنه بمجرد طرد الفرنجة من مصر فإنه سينسحب مع قواته عائدا إلى الشام ، ورفض شاور الاستجابة ، فقتل رسول شيركوه وأطلع الملك عموري على محتوى المراسلة .

وزحفت قوات الفرنجة وشاور على الإسكندرية والقيا عليها الحصار ، وأثناء ذلك حاول عموري الذهاب إلى الصعيد لقتال شيركوه فأقنعه شاور بعدم الذهاب ، وحوصرت الاسكندرية لمدة أربعة أشهر ، صمد خلالها صلاح الدين صمودا رائعا وأظهر براعة قتالية كبيرة ، كما نجح في كسب تأييد أهل المدينة له بحيث تفانوا في الدفاع معه ، وعندما اشتد الحصار قدم شيركوه من الصعيد ، وهنا جرت مفاوضات بين عموري وشيركوه اتفقا فيها على الانسحاب جميعاً من مصر ، وهكذا رفع الحصار عن الاسكندرية ، وغادر

صلاح الدين وقواته المدينة في شوال ٥٦٣ هـ/ اب ١١٦٧ م ، وكان في الاتفاقية أن يتم نقل الجرحى من جيش الشام على سفن الفرنجة إلى عكا ومن هناك إلى دمشق (١٦) .

وفي دمشق ساء نور الدين انسحاب قواته من مصر ، لكنه لم يقم بنقد شيركوه أو لومه ، بل قدر له نصره في معركة البابين ، وأخذ من جديد يعد العدة لحملة ثالثة على مصر تكون حاسمة ، وفي المقابل زاد عموري ، وقد وصلته النجدات من أوربا ، من استعداداته لغزو مصر ، وكان قد اتفق سرا مع شاور على ابقاء حامية عسكرية في القاهرة تساعده على البقاء في منصبه ، ويقول أبو شامة في الروضتين :« وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر - الفسطاط -والقاهرة ، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم .... وتحكموا تحكما كبيرا فطغوا في البلاد وارسلوا إلى ملكهم مري ، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام ، مثله شجاعة ومكرا ودهاء ، يستدعونه لتملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه ، فلم يجبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج ، وذوو الرأي والتقدم ، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم الرأي عندي أن لا نقصدها ، فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده ، وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ،فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام ، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا إن مصر لا مانع ولا حافظ لها ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم الينا نكون قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة ، فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك».

ويذكر وليم الصوري أن اشاعة انتشرت في أوساط الصليبيين

مفادها ان شاور كان يراسل سرا نور الدين ويطلب عونه للتخلص من الصليبيين ، لذلك جمع الملك جميع قوات مملكتـه مـن فـرسان ومشاة وتوجه مسرعا نحو مصر ، وفي العشرين من تشرين الثـاني ١١٦٨ (ربيع الأول ٥٦٤) اجتاز بعسقلان ، وبعد عشرة أيام من الزحف عبر الصحراء وصل الصليبيون إلى بلبيس حيث حـاصروها ثم اقتحموها ، وكما يقول وليم الصوري : « وضع معـظم سـكانها طعمة للسيف دونما اعتبـار للسـن والجنس ، وإذا صـدف ونجـا بعضهم من الموت فإنهم فقدوا حرياتهم ووضـعوا على رقـابهم نير العبودية التعيس ، وهو مصير بالنسبة للناس الشرفاء أسوأ من أي نوع من أنواع الموت » . وكان من بين الأسرى ابـن شـاور وابـن أخيه .

ويصف وليم بعد هذا المجمل تفاصيل مذابح بلبيس ، ثم يحـدثنا بأن عموري أمر بهدم بلبيس ، ثم زحـف يريد القـاهرة ، فـوصلها وأقام معسكره أمامها وبدأت آلات الحصـار لديه بـالعمل ، وشـدد عموري الحصار وضغط على شاور الذي ارتاع لكل ما حدث فـأقدم على طرح النار في مدينة الفسطاط فـأحرقها ، وظلت النيران تعمـل بها مدة أربعة وخمسين يوما ، وراسل في الوقت نفسـه نور الدين ، وقام الخليفة العاضد بإرسال أجزاء من شعر بعض نساء المسـلمين إلى نور الدين ، كما قام شاور بمراسلة عمـوري وعرض عليه مبلغ «مليوني قطعة ذهبية مقابل اطلاق سراح ابنه وابن أخيه وانسـحاب القوات إلى ديارها » وتهدده أنه إذا لم يقبل سيحرق القـاهرة كمـا أحرق الفسطاط .

وكان عموري عندما توجه نحو مصر قد أعد أسطولا كبيرا أمـره بالتوجه نحو مصر ، وبـالفعل وصـل هـذا الأسـطول إلى بحيرة المنزلة ، واخذ تنيس ، وابحر في النيل يريد الوصـول إلى معسـكر الفرنجة ، لكن « المصريين سـدوا النيل بمـراكبهم ومنعـوه مـن العبور » وأحرقوا عددا من سفنه ، وعندمـا بلغـت الأخبـار الملك عموري قرر ارسال حملة للاستيلاء على طرف من أطراف النيل على

الأقل ، ولكن هذه الحملة لم تمض إلى تنفيذ ما رسم لها ، ذلك أن الأخبار وصلت الى عموري بأن شيركوه في طريقه إلى مصر ، وقد اجبره هذا على تغيير الخطة ، فأمر الاسطول بالابحار عائدا إلى البحر في الحال والعودة الى الديار ، واستمرت الاتصالات مع شاور الذي عجل بمبلغ مائة الف قطعة والابتعاد عن اسوار القاهرة حيث استمرت المفاوضات مع شاور .

وفي الشام كان نور الدين، عندما بلغته أخبار ما حل بمصر مع مراسلات الخليفة العاضد وشاور ، وقد أمر على الفور شيركوه بالاستعداد للسفر إلى مصر وارفقه جيشا قوامه « أكثر من خمسة الاف من الرجالة الأبطال وأضاف إليهم نور الدين الفي فارس» وانطلق شيركوه مسرعا يريد القاهرة ،» ولما سمع الفرنج بنهوض عسكر الاسلام اجفلوا أجفال النعام ورحل ملكهم إلى بلبيس» ، حيث أعد ما كان يحتاجه من مؤن ، وزحف في ٢٥ كانون الأول (١١٦٨) نحو الصحراء يريد شيركوه، لكنه ما أن توغل قليلا حتى جاءته الأخبار بأن شيركوه عبر النيل مع قواته ، ودخل القاهرة ، وهنا وجد عموري أن السبل قد سدت أمامه ، وأن البقاء في مصر - كما يقول وليم الصوري - خطر ما بعده خطر » وأن الاشتباك مع شيركوه مغامرة لا تقل خطرا » لذلك عاد إلى بلبيس ، ومنها في الثاني من كانون الثاني ١١٦٩ م أخذ طريق العودة نحو فلسطين .

وفي القاهرة صار شيركوه سيد مصر ، وكان عليه أن يتخلص من شاور ، لتخلص له السيادة ، وقام الخليفة العاضد بمنح الاقطاعات والأموال لشيركوه واتباعه ، وطالب شيركوه بإقطاعه ثلث البلاد ، فماطله شاور ، وصار من عادته أن يركب كل يوم لزيارة شيركوه ، ليغرس في قلبه الطمأنينة حتى يتسنى له الغدر به ، ويبدو أن هذه النوايا كانت متوقعة ، لذلك اتفق صلاح الدين مع عدد من القادة على الفتك بشاور ، وفي أحد الأيام جاء لزيارة شيركوه فلم يجده في مقره ، واخبره صلاح الدين بأنه ذهب لزيارة قبر الامام

الشافعي ،وتمنى عليه اللحاق به ، فاستجاب شاور ، وقام صلاح الدين بمرافقته ، وفي الطريق وثب عليه يعاونه بعض القادة ، فألقوه أرضا ، وسحبوه إلى إحدى الخيم ، » فعلم أسد الدين الحال ، فعاد مسرعا ، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى اسد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله ، وتابع الرسل بذلك ، فقتل شاور في يومه (شباط ١١٦٩ م) وحمل رأسه إلى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ، وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ولقب الملك المنصور ، أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة ».

وهكذا صار شيركوه سيد مصر ، وصارت مصر فعليا من أملاك نور الدين ويعلق وليم الصوري على هذا التغيير بحسرة بقوله :» كانت جميع موارد مصر وثرواتها الهائلة وقفا على حاجاتنا ، وحدود مملكتنا من تلك الناحية كانت آمنة ، ولم يكن هناك عدو نخشاه في جهة الجنوب ، وكان البحر آمنة ممراته لا خطر فيها على السفن الراغبة بالقدوم إلينا ، وكان أفراد شعبنا يدخلون أراضي مصر دونما خشية وينشطون تجاريا في ظروف مناسبة جدا ، وكان المصريون يجلبون إلى مملكتنا البضائع الجيدة والحاجات الغريبة غير المتوفرة لنا ، وفي زياراتهم لنا كنا نستفيد فوائد كبيرة وترقى مكانتنا ، زد على ذلك أن المبالغ الكبيرة التي كانوا ينفقونها بيننا أغنت موارد خزائننا وزادت من ثروتنا الخاصة .

إنما الآن إنعكست الآية وتغير كل شيء إلى الاسوا .... فكيفما التفت أجد فقط اسبابا للخوف وعدم الراحة ، فالبحر يرفض اعطاءنا ممرات آمنة ، وجميع المناطق ، المحيطة بنا خاضعة لعدونا ، والممالك المجاورة تعد العدة لتدميرنا» . إنما مما يؤسف له أن شيركوه لم يتمتع طويلا بمنصبه فقد توفي بعد شهرين وعدة أيام

من تسوليه الوزارة (٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ ـ ٢٣ آذار ١١٦٩ م) ، وبعد وفاته بثلاثة أيام استدعى الخليفة ابن أخيه صلاح الدين وعينه وزيرا مكانه ، ومنحه لقب «الملك الناصر»(١٧).

ولم يكن حدث وصول صلاح الدين الى السلطة أمرا عابرا ، فهو لم يتم اختياره بحكم قرابته من أسد الدين شيركوه فقط ولكن لأسباب معقدة أخرى ، فقد كان الجيش الشامي في مصر يتألف من مجموعتين : واحدة عرفت باسم الأسدية ، وكان قوامها(٥٠٠)مقاتل ، والثانية ضمت بقية الجيش وعرفت بالنورية ، وقد رأس الثانية عدد من القادة ، وإثر وفاة شيركوه رشحت جماعة النورية عددا من المرشحين لخلافته ، في حين اتفقت كلمة الأسدية على ترشيح صلاح الدين ، ونظرا لتصارع قادة النورية تهيأت فرصة النجاح أمام صلاح الدين فنال منصب الوزارة ثم قيادة الجيش مكان عمه ، ورفض عدد من قادة النورية اختيار صلاح الدين ، ولذلك لم تكن الأمور سهلة أمامه لدى وصوله إلى السلطة .

كان عليه أولا أن ينال تأييد قادة الجند الشامي ثم ينطلق لمواجهة مشاكل مصر ، وكانت كثيرة ، يتصدرها قصر الخلافة والجيش ، ثم كان عليه أن يوجد صيغة للتعامل مع نور الدين ، فقد ظهرت مطامح صلاح الدين الاستقلالية بشكل مبكر ، وحرضها الجهاز الذي تكون حوله .

لقد كان على صلاح الدين أن يوجد الحلول لجميع المشاكل ضمن ظروف صعبة جدا ، ووسط التهديد الصليبي الدائم ، ذلك أن الصليبيين ما كانوا ليسلموا لخسارة مصر ، بل على العكس من الملاحظ أن توجهاتهم صارت مصرية بالدرجة الأولى ، وهذا ما نراه في أخبار « الحملات الصليبية » المقبلة .

وفي البداية تمكن صلاح الدين من ارضاء غالبية القوات النورية ، والذي رفض ترك مصر وعاد إلى الشام ، وبعد هذا التفت نحو قصر

الخلافة ، حيث عرف أن بعض كبار رجـاله راسـلوا ملك القـدس ودعوه إلى مصر ، وقد تمكن صلاح الدين في الوقـت المناسـب مـن ضبط أمور القصر ، لكن هذا قاده الى الصدام مع القوات السودانية في الجيش الفاطمي ، وكان تعدادها اكثر من ثلاثين الفا .

فقد ثار هؤلاء في القاهرة واخذوا يحدثون الشـغب والتحـريق في مناطق المدينة ، وتحرك صلاح الدين ضدهم بسرعة وتمكن بـواسطة قواته المنظمة من نفيهم من القاهرة ، وبذلك صفت له الأمور .

ولكن ما لبث في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م أن وصلته أخبـار عن تجهيز حملة برية بحرية قوامها جيوش مملكته القدس مع نجدات من بقية الممالك ومـن الامبـراطورية البيزنطية ، وقـام صـلاح الدين بإرسال النجدات الى دمياط ، واعتنى بشؤون الدفاع عنهـا ، وكان لدمياط خط دفاعي متقدم ، فقد بنوا على طرفي مجرى النيل ، بعيدا عن أسوار المدينة أبراجا دفاعية ووصلوا بين هذه الأبراج بسلاسل ضخمة ، كانت تشد وقت الحاجة فتحول بين الاساطيل الغازية وبين الوصول الى الأسوار .

ويقدم لنا وليم الصوري تفاصيل كبيرة حول حصار دمياط لا نجد مثيلا لها لدى المؤرخين العرب ، فهو يخبـرنا بـأن المقـاومة كانت شديدة جدا ، وأن المؤن والنجدات كانت تصل بشكل متـواصل مـن القاهرة ، ويعني هذا أن الحصار لم يكن محكما ، وطال الحصار ، وانعدمت المؤن لدي الصليبيين وكان المحاصرون يقلعـون بين الحين والآخر بهجمات صـاعقة على معسـكر الصـليبيين ، مـن ذلك أن أسطول الغزاة رست سفنه في مكان ظنوه مناسبا ، وفي أحـد الايام وجد المدافعون ، بأن اتجاه الريح كان من الجنوب وأن أمواج النيل تهدر بعنف ، فـاغتنموا الفـرصة ، وقـاموا بجلب مـــركب عادي وشحنوه بالأخشاب اليابسة مع الاسفلت والمواد سريعة الاحتراق ، ووضعت النار في القارب ، ودفع الى النهر حيث قـاده التيار بسرعة كبيرة نحو الأسطول ، وقد أدى هذا الى احراق عدد كبير من السفن الكبيرة .

ومع مرور الأيام وجد عموري انه ليس فقط من العبث بـل مـن الخطر الكبير البقاء في مصر ، لذلك اتخذ قرارا بالانسحاب وذلك بعد حصار دام حوالي الشهرين.

لا شك أن نجاح صلاح الدين في مواجهة مجمل هـذه المشـاكل ، أظهر معدن الرجل ، وجاء مؤشرا بالنسبة لمسـتقبل الأيام ، ولعـل هذا زاد من النزعات الاستقلالية لديه ،وأدى إلى توتر العلاقات بينه وبين نور الدين ، وكان بالتالي محرضا لصـلاح الدين للقيام بتمتين مركزه في مصر بالذات ثم القيام بالاستيلاء على أراضي ليبيا ، وقـد قاده هذا الى الاصطدام بسلطات الامبراطورية الموحدية في تـونس ، مما كان له بعض الأثـر على سـياسة الموحـدين في الأندلس ، ثـم رفضهم التعاون مع صلاح الدين ضد الصليبيين فيما بعد .

واهتم صلاح الدين بالبحر الأحمر ، فسعى للسـيطرة عليه وعلى شواطئه ، ذلك أن مصر الفـاطمية كانت تمتلك أسـطولا خـاصا ، والاهتمام بالبحر الأحمر جر صلاح الدين إلى الاهتمام بشبه جزيرة العرب ، حيث أرسل حملة إلى اليمن فـاحتلها كمـا أخـذ يهتـم بالحجاز ، ومدينتيه المقدستين - مـكة والمدينة -وعندمـا شـعر صلاح الدين بمتانة مركزه اقدم على خطوة سياسية جـريئة جـدا ، وهي إلغاء الخلافة الفاطمية ، فقد أمر الخطباء في أول جمعـة مـن محرم سنة سبع وستين وخمسمائة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) بقـطع الخطبة للخليفة الفاطمي واستبدالها للخليفة العباسي ، والحـق عمله هذا بجرد محتويات قصر الخلافة في القاهرة وبيعها وتصـفية جميع ممتلكات الأسرة الفاطمية وأسبابها (١٨).

إن مجمل الأحداث التي مرت بصلاح الدين منذ وفاة عمه وحتـى تاريخ الغائه للخلافة الفاطمية فيه ما يبـرهن على عبقـريته وفيه في الوقت نفسه ما يشير الى انه ملك من الامكانات ، خـاصة الادارية والعسكرية والاقتصادية ما ساعده على النجاح .

فعلى الصعيد الاداري ورث صلاح الدين من عمـه ادارة خـاصة

ناشئة ترأسها القــاضي الفــاضل عبــد الرحيم البيســاني ، وكانت قدراته الادارية والثقافية عالية ، وله خبرة مسبقة بالادارة الفاطمية لمصر ، وقد رافق القاضي الفــاضل صــلاح الدين منذ بــداية حياتــه السياسية في مصر ، وظل معه رئيسا حتى النهاية .

ولا شك أن وجود الادارة الناجحة الى جانب صلاح الدين ســاعد على مواجهته للمشاكل العسكرية والمالية ، فصلاح الدين ورث مــن عمه أفراد الحملة التي جــاءت مــن الشــام ، وكان فيهــا حوالي ٨٠٠٠ مقاتل ، لكن كما سلفت الاشارة انسحب جزء مــن افراد هذه الحملة إلى الشام بعد تسلم صلاح الدين للوزارة ، وجــاء اعتماد صلاح الدين أســاسا على الجمــاعة الأســدية التــي كان عددها ٥٠٠ مقاتل ، وخلال فترة وجيزة شكل صــلاح الدين فــرقة جديدة باتت تعرف باسم الصلاحية لا ندري تعــدادها في البــداية ، حيث أن المصادر لم تأت لها على ذكر ، إنما أشارت بعض المصــادر إلى أن صلاح الدين انفق سنة ١١٦٩ على قواته الجــديدة مبلغــا قدره(٥٠٠ ، ٤٨٧ ، ١) دينارا ، ومــن خــلال بعض النصــوص يتبين لنا بأن النفقة الاجمالية للمقاتل الواحد كانت قــرابة « ٤٢٥ » دينار للعام الواحد ، ومن خلال عملية حسابية بسيطة يمكن أن نقدر أن عدد القوات التي جندها صلاح الدين سنة ولايته للوزارة في مصر كانت حــوالي ٣،٥٠٠ ومــع الأيام تضــاعف عدد هؤلاء ، ففــي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م كان تعداد قوات صلاح الدين النظامية مــن الفــرسان حــوالي ١٤،٠٠٠ وكانت نفقــاتهم حــوالي ٤،٥ مليون دينار ، إنما لم تقتصر قوات صلاح الدين على الفرسان النظــاميين فقط ، فقد كان هناك بالاضافة لهــم المتــطوعة وفــرسان القبــائل العربية ، ففي هذه السنة عندما اســتعرض صــلاح الدين فــرسانه « عرض العربان الخدامين فكانت عدتهم سبعة الاف فارس » .

لقد انحدر جل جند صلاح الدين من أصول اسلامية مختلفــة ، او كانوا من الرقيق الابيض المســتورد ، وكان الجميع قــد اســتعربوا وذابوا في جسم المجتمع العربي ، هذا المجتمع الذي تحمــل افــراده

الوزر الحقيقي والنفقات الكاملة للحروب الصليبية ، فمنه جاء رجال الادارة والصناعة والعلماء والفقهاء والمخترعون والتجار ، وافـراد هذا المجتمع قدموا أعدادا كبيرة جدا مـن المتـطوعين العسـكريين وضح أثرهم في أكثر من معركة ، ويمـكن أن نرى نمـاذج منهـا في أخبار تحرير الرها وفي معركة حطين ثم ملحمة عكا اثناء التصدي لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وفوق هذا كله لقد مول افـراد المجتمع جميع نفقات حروب التحرير ، وافراد هذا المجتمع هم الذين حولوا بنية « الأقتصادالعربي »إلى « اقتصاد حربي» مسـخر كليا للتصدي والتحرير.

ومن المؤكد أن صلاح الدين مع عدد كبير من جنده كانت انسـاب اسرهم غير عربية ، وقد تصـدرزوا الواجهـة العسـكرية للمجتمـع العربي ، على اساس قيامهم بالمهام الجهادية ، فلقد كانت وشائج المجتمع العـربي أيام صـلاح الدين دينية ،وكان المسـوغ الشرعي لتحكم الجند هو القيام بأعباء الجهاد في سبيل الله ، وفي ظـل هـذا المسوغ تحمل أفراد المجتمع في المدن والأرياف لقرون طـويلة الكثير من التجاوزات مع نفقات جميع الحروب ، ومن المقدران الجند كمـا قلنا كانوا اثناء قيامهم بمهامهم الجهادية قد استعربوا كليا ، ووجد بينهم من كانت اسرته قد استعربت منذ جيلين او اكثـر ، واذا مـا اخذنا هذا بعين الاعتبار ، وراعينا العلاقة العضـوية بين العـروبة والاسلام ، وتذكرنا دور افـراد المجتمـع العـربي ، نرى محصـلة منطقية : إن اعمال الجهاد للتحرير والتصدي للغزو الصـليبي كانت عربية صرفة ، ومع هذا لابد من تبيان أن العسكريين المسلمين أيام الحروب الصليبية ، وإن كانوا احدى محصـلات تـطور المؤسسـة العسكرية العباسية منذ أيام الخليفة المعتصـم ، فإنهـم في فتـرتنا كانوا يتصرفون ضمن نواظم مـالية خـاصة لم تـكن قـائمة أيام المعتصم ، فهذه النواظـم ظهـرت في العصر البـويهـي ، وتـطورت اركانها وتوطدت في العصر السلجوقي ، وقامت على ما عرف بـاسم الاقطاع العسكري ، وبموجب ما حدث في العصر السـلجوقي وأيام الحروب الصليبية منح مقدم كل جماعة عسكرية ، تركمانية أو كردية

او سوى ذلك ، قطعة من الارض ، كان ينال نصيبا من مواردها ، فينفقه على نفسه وعلى عدد معين من المقاتلين كانوا يصحبونه وقت الحاجة ، وقد كانت لهذا اثاره السلبية على مواعيد الحروب وتوقيتها ، كما كانت له اثاره البعيدة على فعالية السلطة المركزية للدولة ، وسبب مشكلة دائمة في الفرق بين العدد النظري والفعلي للجيوش (١٩).

ولابد أن المؤسسة العسكرية التي اقامها صلاح الدين بحجمها الكبير المتزايد احتاجت إلى نفقات مالية عالية ، ومؤكد أن موارد مصر وامكاناتها كانت كبيرة ، إنما عندما تسلمها صلاح الدين كانت البلاد نظرا لما مر بها من ازمات ،خزانتها على حافة الافلاس، ويروى أن صلاح الدين عندما تسلم وزارة القاهرة ، ورث عن عمه مبلغا معتبرا من المال ، ثم إنه عندما قام بالغاء الخلافة الفاطمية كانت الأموال المحصلة من محتويات قصر الخلافة ضخمة ، والغاء هذه الخلافة مع تصفية جيوشها وإدارتها مكن من توفير كميات معتبرة من الأموال ، يضاف إلى هذا كله أن صلاح الدين قام ببعض الاصلاحات الادارية ، واعاد توزيع الأراضي المقطعة ، وهكذا توفرت له احتياجات نفقاته.

وبرغم جميع ما حققه صلاح الدين في مصر ، فقد كان من الناحية الرسمية تابعا لنور الدين ، لذلك كان عليه أن يبعث بالأموال إليه مساهمة في أعمال الجهاد التي كان نور الدين قائما بها ، وارسال الأموال لنور الدين كان معناه تعطيل مشاريع صلاح الدين في مصر ، لذلك تذمر نور الدين من قلة ما أرسله له صلاح الدين ، ففي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢ م أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسولا حمله شيئا من مصادرات قصر خلافة القاهرة،فشكر نور الدين همته ، وذكر بالكرم شيمته ، ووصف فضيلته ، وفضل صفته ، وقال : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا تسد به خلة الاقلال ، فهو يعلم انا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر ، وبنا الى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر ، وتمثل بقول أبي تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرته

على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة الى السداد ، ووفور الأجناد ، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد ، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد ، فاستنزره وما استغزره واستقل المحمول في جنب ما حرره ، وتروى فيما يدبره ، وافكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره ».

وقرر نور الدين ارسال وزيره الخاص إلى القاهرة «وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها ، واين صرفت أموالها ، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة».

وقد أدى هذا كله إلى توتر العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين ، ووصل التوتر الذروة في العام نفسه(١١٧٢ م) ذلك أن نور الدين قرر القيام بحملة حاسمة ضد فرنجة الشام «فأرسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو أيضا عساكره ويسير إليه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة ....وكتب الى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، واقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك رحل عن دمشق قاصدا الكرك ، فوصل إليه ،واقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه لاختلال وضع البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول إلى مصر ، واخراج صلاح الدين عنها ،

فبلغ الخبر صلاح الدين ، فعقد مجلس استشارة ضم أهله وعلى راسهم والده مع كبار أعوانه ،وبعد مناقشات طويلة نصح صلاح الدين بالعمل على استرضاء نور الدين ومدافعته بالأيام ، وبالفعل أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسالة اعتذار مع هدية كبيرة ، فسكن غضب نور الدين ، إنما مؤقتا وظل الحال بينهما هدنة على دخن ، فقد بقي في نية نور الدين عزل صلاح الدين عندما تحين الفرصة ،ولكن هذه الفرصة لم تحن ذلك أنه توفي بشكل مفاجىء في دمشق «يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة»(١٥ - أيار ١١٧٤ م) لقد واجه حادث وفاة نور الدين في دمشق صلاح الدين بقضية مماثلة من حيث الجوهر لتلك التي واجهته إثر وفاة عمه شيركوه ، إنما وإن وجد الشبه في جوهر القضيتين ، فإن الفوارق بينهما كانت شاسعة تفوق المسافة ما بين دمشق والقاهرة ، فسورية سياسيا ليست مثل مصر ، ليس بسبب وجود الاحتلال الصليبي فيها ، ولكن لبنيتها الخاصة الجغرافية والسياسية والاجتماعية وحتى الدينية.

والباحث في حياة نور الدين المتميزة يلاحظ أن الذي واجهه من الجانب الصليبي كان عموري الأول ملك القدس ، وكان عموري قائدا متميزا أيضا ، له مطامع توسعية كبيرة ، وقد أحبط مشاريعه كلها نور الدين ، لذلك عندما بلغه خبر وفاة نور الدين شعر بأن الأقدار أعطته فرصة ثمينة ، فقرر الامساك بها دونما تقاعس ، ويقول وليم الصوري :« عندما سمع الملك بوفاته - أي نور الدين - حشد جميع قوات المملكة وبدأ بحصار مدينة بانياس» وكانت بانياس تشكل الخط الدفاعي الأول لدمشق ، بحيث يبدو أن عموري استهدف مدينة دمشق فاصطدم أولا ببانياس ، وقاومته المدينة بعنف شديد ، وأثناء حصاره لها تلقى رسالة من «أرملة نور الدين التي تحلت بشجاعة فاقت بها جميع النساء » تطلب منه رفع الحصار والانسحاب ، وبعد حوالي الأسبوعين اضطر الى الاستجابة ، وانسحب عائدا نحو القدس ، وفي طريق العودة شعر

بالمرض وموسع وصوله للقدس فارق الحياة في (١١ - تموز ١١٧٤ م) (٢٠).

والسبب الذي جعل أرملة نور الدين تقدم على مراسلة عموري ، هو أن نور الدين خلف بعده صبيا صغيرا عرف باسم الصالح اسماعيل ، وبسرعة كبيرة أعلن ابن نور الدين خليفة له في دمشق ، إنما هذا التحرك السريع لا يمكن أخذه مؤشرا على الوفاق والانسجام بين أركان دولة نور الدين في دمشق بل العكس هو الصحيح ، فقد شهدت دمشق في تلك الفترة العصيبة صراعا عنيفا حول الوصاية على الصالح اسماعيل .

وكما حدث في دمشق ، حدث في القدس ، فقد خلف عموري صبيا صغيرا عرف باسم بلدوين الرابع ، اعلن عقب وفاة والده ملكا على القدس ، وشهدت القدس الآن صراعا حول الوصاية على العرش ، ودخلت قوى كثيرة محلية وخارجية حلبة الصراع ، وقد وصف لنا وليم الصوري أخبار ما حدث بكل تفصيل ، وتحدث عن الملك الصبي ،الذي عهد إليه أمر تربيته ، وكيف أنه عرف فيما بعد أنه مصاب بالجذام ، مما أعجزه وسبب موته .

وفي دمشق اشتد الصراع حول التحكم بوريث نور الدين وعطل هذا الأعمال القتالية ضد الصليبيين ، وفي القاهرة كان صلاح الدين يرقب باهتمام ما يجري في الشام ، وقد حاول التدخل بواسطة الرسل والمراسلة أكثر من مرة ، وأخيرا قرر الذهاب إلى دمشق ووراثة مملكة نور الدين خوفا من بعثرة أراضيها وهدر طاقاتها.

إن تحرك صلاح الدين نحو بلاد الشام يمكن أن يفسر من بعض الوجوه ، على أنه تطبيق لسياسة مصر المستقلة القوية تجاه بلاد الشام اكثر من انه عمل غذته المصالح الفردية ، فمصر كلما استقلت وشعرت بالقوة تسعى للسيطرة على بلاد الشام ،ذلك أن مصر كما هو معلوم - برغم وجودها في افريقيا - ليس لها حدود طبيعية مع بلاد الشام ، وقد غزيت دائما عن طريق سورية ، لذلك عمل حكام

مصر المستقلة دائما على احتلال سورية ، ومواجهة الغزاة بعيدا عن أرض مصر ، وتاريخ مصر الاسلامية منذ قيام الدولة الطولونية فيه برهان على صحة هذا ، ولعل في حياة صلاح الدين مثل قريب ، فهو قد قدم من سورية ، وقضى على الخلافة الفاطمية ، وأحل محلها نواة دولة اسسها هو ، وبعد ما فعل ذلك شعر بأن المخاطر ضد حكمه سيظل مصدرها بلاد الشام ، وعلى هذا الاساس فسر بعض المؤرخين تقاعسه عن تلبية دعوة نور الدين للاجتماع به عند أسوار الكرك ، حيث أن الكرك كانت تشكل حاجزا كبير الفعالية بين مصر والشام ، ذلك أن حكام مصر المستقلة عندما كانوا يواجهون حكما قويا في الشام لا يمكنهم قهره ، ويخشون منه على وجودهم ، كانوا يعمدون إلى المحافظة على قوة أو دولة حاجزة Buffer state بينهم وبين الشام.

ويلاحظ ان مصر المستقلة كانت تنجح احيانا في احتلال بلاد الشام ، إنما غالبا ما كانت تخفق بالاحتفاظ بالمناطق الشمالية من هذه البلاد ، ولذلك كانت تتساهل مع الشمال ، لكن لا تتساهل مطلقا مع إستقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الإستقلال كان فيه تهديد مباشر وخطير للحكم فيها ، ولعل خير ما يوضح هذا وصية مشهورة قالها يعقوب بن كلس للخليفة العزيز الفاطمي ، ثاني خلفاء الفاطميين ، في القاهرة ، قالها وهو على فراش الموت :« سالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، و لا تبق على دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة» ، وقد قصد ابن كلس بالروم الدولة البيزنطية ، وبالحمدانية حكام حلب ، حيث قنع منهم بالاعتراف الشكلي ، وبدغفل بن جراح ، امير قبائل طيء في فلسطين الذي كان يطمع بالاستقلال (٢١) بالرملة وتأسيس دولة طائية فيها .

الفصل الثالث

المرحلة الثالثة من حروب الاسترداد في الطور الثاني

(مرحلة دمشق)

قبل أن يتحرك صلاح الدين باتجاه بلاد الشام غادر الصالح اسماعيل بن نور الدين دمشق وتوجه إلى حلب ليعتصم بها ، ولهذا عندما وصل صلاح الدين إلى دمشق دخلها دون اية مقاومة ، ولم يكتف صلاح الدين بها ، كما ان المتحكمين بدولة الصالح اسماعيل لم يسلموا لصلاح الدين وواجهوه بالعدوان ، ولذلك ، ولمطامح صلاح الدين بملك واسع غادر دمشق وقصد الشمال ، وخاض صلاح الدين العديد من المعارك ضد سلطات حلب وبلدان الجزيرة بما في ذلك الموصل والعديد من مدن الجزيرة ، وبعد سنوات حروب طوال تحقق لصلاح الدين اعادة توحيد بلاد الشام شمالا وجنوبا مع مصر تحت حكمة ،إنما يلاحظ أنه حدث مع صلاح الدين ما حدث مع الفاطميين وغيرهم قبله ، فقد تضاءل نفوذه على شمال بلاد الشام ، وكان العامل الفعال الآن ليس قوة شمال بلاد الشام كما كان فيما سلف ، ولكن قوة الاقطاع العسكري وتكتلاته.

ومهما قيل عن حروب صلاح الدين في بلاد الشام عقب وفاة نور الدين ، فإن هذه الحروب قد حسمت مادة الفوضى في البلاد وحالت في الوقت نفسه بين الفرنجة وبين اي توسع في الشام أو سواها ، أو الاستفادة بأي شكل أو درجة من الأوضاع التي كانت سائدة قبل النصر النهائي له ، وعندما حقق صلاح الدين سيادته الكاملة على الشام صار سيدا لدولة عظمى تمتد من ليبيا إلى جنوب الموصل ، وتشمل مع بلاد الشام :الجزيرة ومصر والحجاز واليمن وطبعا ليبيا أو الشريط الساحلي منها .

ولقد ملكت هذه الدولة ما يكفي من طاقات بشرية واقتصادية للاعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين ، وايقن صلاح الدين انه قد حان الوقت لمنازلة جميع القوى الصليبية في المشرق في أرض معترك واحدة ، وفي ظروف مختارة بشكل يناسب ويمكن من النصر ، وخلال زمن موافق ، يتيح احراز نصر ساحق ضد القوات المعادية .

ويلاحظ أن هذه الفترة قد شهدت يقظة كبيرة في جميع الميادين الحضارية ، تجلت بشكل واضح في مجالات العلوم العسكرية وفنون القتال ، فقد تم تحسين عدد كبير من الأسلحة ، خاصة النارية منها - النفط - النار الاغريقية - ومن حيث رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين ، كما أن دولة صلاح الدين ملكت اقتصادا عسكريا متينا ، فرغم جميع المآخذ على الاقطاع العسكري إلا أن اعتماده كان من معانيه تسخير الموارد الزراعية لصالح العمل العسكري ، هذا وملك صلاح الدين نواة اسطول أدت سفنه بعض الخدمات ، إنما على العموم عانت دولة صلاح الدين من النقص في الأخشاب والفولاذ ، ونتيجة لذلك كثيرا ما اضطرت إلي الاعتماد على تجارة التهريب - السوق السوداء - التي كانت تمارسها بعض جمهوريات ايطاليا التجارية - جنوا - البندقية - بيزا.

وكان الصليبيون يمتلكون انذاك الشريط الساحلي لبلاد الشام ابتداء من انطاكية ، وكان عرض هذا الشريط لا يتجاوز أحيانا الثمانين كيلو مترا ، وكانت اراضيهم موزعة بين دول ثلاث مراكزها :انطاكية ، والقدس ، وطرابلس ، وكانت هذه الأراضي محاطة من ثلاث جهات بالأراضي العربية ، حيث وجدت مدن بلاد الشام الكبرى مثل : دمشق ، حمص ، حماه ، بعلبك ، حلب ، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من «الحدود الصليبية» كما كان معظم سكان المناطق الواقعة في حوزة الصليبيين من العرب السوريين ، علاقتهم بالصليبيين علاقة الغرباء ، دون أية روابط اجتماعية أو سواها.

وقامت خطط صلاح الدين في رصد الصليبيين رصدا جماعيا وافراديا ، فهو قد استقر في دمشق ، وأقام في كل من حمص وحماه نواة مملكة اقطاعية ايوبية ، وكان على هاتين المملكتين رصد امارة طرابلس الصليبية ، كما جعل من حلب مقرا لمملكة أيوبية ثالثة مهمتها رصد امارة انطاكية الصليبية مع الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مهمة صلاح الدين ذات شقين على الأقل ، رصد مملكة القدس والأشراف العام على دولته التي بلغت هذا الحجم الامبراطوري.

وكانت المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية ترد إلى الصليبيين من اوربا بلا انقطاع عن طريق الأراضي البيزنطية وعن طريق البحر ، فقد كانت الأساطيل الأوربية تملك السيادة على شواطيء البحر المتوسط خاصة الأوربية والشرقية ، وكانت امكانات صلاح الدين البحرية أضعف من أن تخوض معركة مواجهة مع هذه الأساطيل .

لكن اذا كان اسطول صلاح الدين أضعف من اساطيل أوربا فقد ملك عرب المغرب أساطيل جبارة ، وكان بامكانها لو تعاونت مع اسطول صلاح الدين تقديم خدمات كبيرة جدا ، فلقد كان هناك أسطول امبراطورية الموحدين ، وكان الموحدون يخوضون غمار حرب ضروس ضد الصليبيين في جبهة الأندلس.

وبفطرة الشعور بوحدة المصير ، ووحدة المعركة ، وجد أنذاك مواطنون عرب من مدن المغرب والمشرق كان بعضهم يغزو عاما في فلسطين واخر في الأندلس ، من هذا المنطلق راسل صلاح الدين يعقوب المنصور الموحدي بسفارة سامية المستوى ، واستقبل المنصور الموحدي السفارة في مراكش ببعض من الحفاوة ، لكنه لم يلب المطلب الذي جاءت من أجله السفارة وذلك لأسباب عقائدية ، وسياسية تتعلق بالتوسع الأيوبي في ليبيا وبالعلاقات الموحدية العباسية ، ذلك أن الموحدين اعتبروا أنفسهم خلفاء لا ملوك عاديين ، لكن صلاح الدين لم يعترف بذلك بل اعترف بخلافة بني العباس فقط .

واعتمد الصليبيون في كثير من الحالات على حماية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم ، وكانت هذه الامبراطورية القوية تسعى دائما للتنسيق مع الصليبيين والاستفادة من نشاطهم ، يضاف الى هذا أن الصليبيين ركنوا في كثير من الاحيان على المساعدات التي كانت تاتيهم من ارمينية ، واحيانا من بعض موارنة جبل لبنان .

ومفيد هنا ان نذكر أن الصليبيين حققوا نجاحاتهم المبكرة بسبب تمزق العرب ، وانصراف حكامهم الى النزاعات الداخلية ،لكن في ايام صلاح الدين انعكست الآية وانقلب السحر على الساحر ، فلقد توحد القطاع الأكبر من العرب تحت راية صلاح الدين ، واخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعيا وحضاريا واقتصاديا ، كما أخذ التمزق يبدد قوى قادتهم سياسيا ، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين صفوف طلائع الصليبيين قد خمدت ، كما أن الفوارق بدت جلية بين ابناء الصليبيين الذين نشأوا في الشام ، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثا من أوربة ، وظهر بين صفوف الصليبيين عامة منظمات عسكرية دينية اصطدمت مصالحها في كثير من الاحيان وتعارضت سياستها ، كما جلب الصليبيون معهم الى الشام نظم الاقطاع التي كانت سائدة في أوربا ، لهذا تضاءلت سلطات ملوك الدول الصليبية على الفرسان الاقطاعيين الذين تمركزوا في بعض قلاع الشام ، ولم تعرف جيوش الفرنجة أنظمة الطاعة والضبط والربط ، يضاف الى هذا أن بعضا من الاقطاعيين تطلع نحو عرش احدى الدول الثلاث وحكمه حكما مباشرا أو على شكل وصاية .

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات ، وببراعة متناهية بتوسيع شقة الخلافات بين قادة الصليبيين ، كما كثف النشاط العسكري ضد القلاع ، مستهدفا تدمير الفرنجة اقتصاديا ، ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي ، وتركزت في البداية جهوده على حماية منطقة دمشق ، وذلك بتحرير أراضي الجولان مع منطقة جبل عامل وبعلبك ثم الأشراف على الطريق البري الواصل بين مصر

والشام ، وكان للصليبيين على هذا الطريق حصن الكرك ، فجهد صلاح الدين في سبيل الاستيلاء عليه (١).

لقد شهد وليم الصوري جميع هذه الأحوال المتغيرة ، وتملكه رعب شديد دفعه الى التنبؤ بأن مملكة القدس آيلة الى الدمار ، وقد قام هذا المؤرخ الكبير بوصف تحليلي للموقف مفيد الاطلاع عليه برمته :«ينبغي علي هنا أن انحرف عن مسار روايتي ، ليس لأتجول هنا وهناك دونما هدف ، بل لتقديم شيء ثمين ، فالسؤال الذي أساله دائما بحق هو : لماذا كان أجدادنا ، يتمكنون بشجاعة من التصدي في المعركة ، وهم أقل عددا لقوات عدوة أكبر منهم بكثير ، وغالبا – بنعمة الرب – ما كانت قوة صغيرة من قواتنا تحطم حشودا كبيرة للعدو ، حتى صار نتيجة لهذا اسم الصليبيين يبعث الرعب في قلوب الأمم التي لا تعرف الرب ، وهكذا تجلت عظمة الرب في أعمال أجدادنا ، وعلى العكس من هذا نجد رجال عصرنا غالبا ما تلحق بهم الهزيمة من قبل قوات أصغر منهم لا بل عندما يكونون بأعداد أكبر ويحاولون تنفيذ بعض المهام ضد الأعداد الأقل قوة منهم ، فإن جهودهم تتبدد وهم غالبا ما يجبرون على الهزيمة.

إن السبب الأول الذي يبرز أمامنا ، بعد دراستنا لهذه الحالة بشكل دقيق ، بمعونة الرب خالق كل شيء : هو أن أجدادنا كانوا أتقياء يخشون الرب لكن نما الآن في مكانهم جيل شرير انغمس بالاثم وسار في طريق الموبقات دونما رعاية أو تمييز ، إنهم مثل ، او بالحري أكثر ، ممن قال عنهم الرب : « ابتعدوا عنا ، لأننا لا نريد أن نعرف طريقهم » ، إن هؤلاء قد حرمهم الرب بسبب ذنوبهم من رعايته لأنهم أثاروا غضبه ، إنهم رجال العصر الحالي ، خاصة أولئك الذين يقطنون في الشرق ، فإذا ما أراد المرء أن يصف بدقة أخلاقهم ، أو بالحري آثامهم المرعبة ، سيعجز أمام ركام المواد المتوفرة أمامه ، وبكلمة موجزة هو سيبدو وكأنه يكتب عن الموبقات وليس يصنف كتابا في التاريخ.

وسبب ثان يبرز أمامنا هو أن رجال السلف المبجلين الذين جاءوا

الى أراضي المشرق كانت تدفعهم غيرتهم الدينية وأرواحهم المتـوقدة بالحماس لمعتقدهم ، وكانوا معتـادين على الأنظمـة العسـكرية ، مدربين في المعارك ويحسنون استخدام الأسلحة ، وفي المقـابل كانت شعوب الشرق على عكس ذلك ، حيث أنها عاشت طويلا وادعة مـع السلم ، وابتعدت عن الحرب وكانت معتادة على فنون القتـال ، ولا تعرف أحكام المعركة وتنعـم بـالهدوء والراحـة ، ولهـذا لم يكن مستغربا أن تتمكن جماعة قليلة من الرجـال بسـهولة من هـزيمة جماعات أكبر منها ، ومن ثم تفخر وتعتز برايات النصر ، لان في مثل هذه المسائل - كما يعرف خبراء الحرب احسن مني - الربـح في السلاح مقرون بطول الممارسة ، فعندما تواجه قـوة غير مـدربة ، وليس لديها صبر فانت في العادة الرابح.

وسبب ثالث ليس أقل أهمية وتأثيرا يفرض نفسه على مـداركي هو أنه كان لكل مدينة شرقية فيما مضى حاكمها الخاص ، ولنقل على طريقة أرسطو لم يكن هؤلاء يعتمدون على بعضهم بعضا ، ونادرا ما تحركوا بالاتجاه نفسه بل غالبا ما ساروا في الاتجاهات المتعاكسة ، ومن المقرر انك إن تكافح في المعركة ضد خصوم هم على خلاف دائم ولهم افكار متصارعة ، خصوم لا يثق بعضهم ببعض فهؤلاء لن ينجم عنهم أي خطب ، لان كلا منهم يخشى من حلفائه اكثر من خشيته من الصليبيين ، ولذلك فإنهم لن يستطيعوا ، أو بالحري هم ليسوا على استعداد لان يتحدوا في سبيل طـرد الخـطر العـام ، او يسـلحوا انفسهم لتدميرنا.

لكن الآن ، - وهذه مشيئة الرب - جميع الممالك المتجـاورة لنا اصبحت تحت قيادة واحدة.

وهكذا كما أسلفنا القول ، جميع الممالك حولنا تطيع حاكما واحدا ، وينفذون ارادة واحدة ، ويلتزمون بأوامره طوعا وكرها ، وهم : جاهزون ، كقوة واحدة ، لحمل السلاح لقتالنا ، وما من واحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاتـه ، وفيه مخـالفة أو عدم مـراعاة لأوامر سيده ، وهذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مـرارا

من قبل وفي مناسبات عدة.... فهو الذي يضـع هـذه المسالك تحت امرته ... والآن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحة لأن نبذل كل جهـد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم والتصدي له في تقـدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية ، التـي سـتوصله حتمـا الى أوج طمـوحاته ، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة سيبرهن على أنه عدو مـرعب لنا »(٢) .

وكان صلاح الدين بعدما استقر في دمشق انهى مرحلة التحـرير الحلبية وافتتح المرحلة الثالثة وهي مرحلة دمشق ، وهذه المرحلة هي اهم مراحل طور التحرير وافضلها ثمارا ،فيها تقرر مصير مشروع الحروب الصليبية والوجود الفرنجي في المشرق ،ومرد هـذا الى قيام معركة حطين خلالها ، وإثر حطين تحررت ، كما سنرى ، القـدس وجل الأراضي المحتلة ، ولأهمية معركة حطين القصوى سـنقف عند اخبارها بمزيد من التفاصيل والاهتمام.

حظيت معركة حطين بمكانة لم تحظ بها سواها ، ولا يمكننا فهم خلفيات هذه المعركة من الجـانب العسـكري فقـط ، وبـالأهمية نفسها ، إن لم يكن أعظم ،لا بد من دراسة الحالة السياسية داخـل إمارات الصليبيين بشـكل عام ، ومملكة القـدس بشـكل خـاص ، والتركيز على الجوانب التي أثـر بهـا الوضـع السـياسي والادارة السياسية على هذه المعركة الحاسمة .

فمن المقرر أن الحرب هي في البـداية قـرار سـياسي ، وكذلك في النهاية هي استثمار سـياسي ودبلومـاسي وعسـكري ، فعلى رأس المشكلات التي تثيرها الحرب تأتي مسائل استيعاب نتائج الموقعـة الحربية من نصر أو هزيمة ، فالقيادة السياسية هي وحـدها التـي يقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخـطط العامة لقرار الحرب ، وضمن المعـطيات الجـديدة ، بحيث يتحـول النصر إلى انجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار.

نضيف الى هذا قضايا الترابط والتنسيق بين القيادة السياسية

والقيادات العسكرية ، ثم تامين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش ، ذلك أن أي جيش يدخل الحرب بلا ظهير شعبي لا بد أن يخسر ، وهذا يسهل علينا فهم ما حدث في حطين ، فالصليبيون كانوا غرباء في الشام ، عبارة عن أعضاء مؤسسة عسكرية بلا ظهير شعبي ، ورغم سمتها العسكرية البحتة فإن الترابط والتنسيق بين السياسيين والعسكريين كان منعدما.

فقبل حطين بفترة شهدت مملكة القدس صراعات على السلطة ، كان أبرز أطرافها ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وخلال الصراع خسر ريموند قضيته ، وتأزمت العلاقات بينه وبين سلطات القدس ، وكان قد صار على رأسها ملك جديد اسمه «غي» فأقدم ريموند على التحالف مع صلاح الدين ، خاصة عندما عرف عزم الملك «غي» على مهاجمة مدينة طبرية - وكانت من أملاك زوجته - بغية الاستيلاء عليها.

وكان صلاح الدين قد أراد اختبار هدنته التحالفية مع ريموند والقيام باستطلاع داخل الأراضي المحتلة ، بغية استكمال وضع خطط لغزو شامل ضد مملكة القدس ، ولهذه الغاية بعث بسرية استطلاع قادها ابنه الأفضل سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م وتمكنت هذه السرية من الوصول الى أراضي الناصرة وهناك حاولت قوات فرنجية مختارة التصدي لها فأبيدت إبادة كاملة ، وعادت سرية صلاح الدين تحمل اليه من الأخبار ما شجعه على قرار التوجه في حملته الكبرى ، حملة حطين ، سيما وأن قواته كانت تعرف مهامها والأرض بشكل ممتاز فخلال العامين اللذين مضيا قاد صلاح الدين قواته الى حيث ستقوم معركة حطين بتدريبات عملية.

وكان للضربة المروعة في الناصرة اثارها على الصليبيين ، فقد أدت الى قيام صلح بين الحزبين المتصارعين في مملكة القدس ، لكن هذا الصلح كان صلحا شكليا ، وليس حقيقيا ، فالعداوات الشخصية ، والأحقاد لم تتم ازالتها ، ويرى الكتاب الغربيون أن استمرارها حتى عشية معركة حطين ليس إحدى مآسي مملكة القدس

فحسب ، ولكن في الحقيقة كانت ذات أبعاد استراتيجية عميقة ، ذلك أن التاريخ السياسي والعسكري يتداخلان بشكل مدهش.

فمن وجهة نظر الاستراتيجية نجد ان حماقة الصليبيين في المعركة ، تظهر بوضوح مدى تفوق صلاح الدين في الحكم والمناورة السياسية والعسكرية ، ذلك أنه ليس من الغلو بمكان القول بأن في هذا وحده يكمن مقياس النجاح في القتال بين جيشين كانا – على الاقل – متكافئين ، ثم إن ما قام به من ترتيبات فعليه اثناء القتال ، وبراعة في استخدامه لقواته ، خاصة في اليوم الأخير للمعركة ، يقابله اخفاق الفرنجة في تنفيذ خططهم ، وان هذا كله ترابط بانسجام مع الخطة العامة ، وجاء نتيجة لمناورته في الايام التي سبقت الملحمة الفاصلة ؛ وهو يدل على ان لدى صلاح الدين عبقرية عسكرية لاتقل عن عبقريته السياسية والادارية ، ثم علينا ان نضيف الى هذا كله ان التكتيك الذي ظهر في المعركة ، هو على درجة عالية من الاهمية ، ويبين بوضوح بعض اسس فن الحرب في الشرق الاسلامي :

فلقد اكتشف الصليبيون خلال قرن من الحملات ضد العرب والمسلمين ، ومن خلال تعاملهم مع البيزنطيين وتعايشهم مع جيوشهم ، عدم فعالية الفارس المدرع الثقيل غير المدعم بقوى من المشاة ومحروس من قبلها ، وبالنسبة لاعدائهم من العرب وللتركمان وسواهم من المسلمين فإنهم ظلوا دونما تبديل يعتمدون على الانقضاض الشديد للفرسان المدعمين بالمشاة ، وذلك حسب الطرائق العربية الموروثة ، فالعرب قديما ، وكذلك التركمان بزعامة السلاجقة فيما بعد ، اعتمدوا بشكل اساسي على سلاح قوامه الفرسان الخفاف ذوي الاسلحة المحدودة والحركات المرنة ، فقد حمل هؤلاء الفرسان كميات من النشاب مع سيف أو دبوس ، وكان الصليبيون امام فرسان المسلمين النبالة بلا حول ولاطول ، فقد انهكت رشقات نبالهم المتواصلة والقادمة من جميع الجهات فرسان الصليبيين وخيولهم ، ونادرا ماقامت هذه القوات بالتصادم الالتحامي ، بل اعتمدت الطرائق الفرثية (نسبة الى الفرس القدماء

بالكر والفر وجنب العدو الى الخلف ثم الانقضاض عليه من جميع الجهات ، وكان هؤلاء الفرسان عندما يفرغون من رماياتهم ، يعلقون قسيهم الخفيفة على اكتافهم ، ويهجمون وسيوفهم ودبابيسهم بأيديهم ، ووجد الفرسان اللاتين الثقال في كثير من الحالات بأنه من الممكن حصر الفرسان المسلمين خاصة عندما يكون وزنهم مؤثرا وكتلتهم الكبيرة واحدة غير موزعة الى اقسام ، وهذا شرط نادرا ماتحقق بشكل مستمر ، فالفارس الفرنجي كان من هواة القتال وليس من محترفيه ، يندفع ضد خصمه لحظة امتطائه لحصانه وامساكه برمحه ، دون ان ينتظر الاوامر من قادته او يتاكد من انتظام صفوف رفاقه بالسلاح ، ومؤكد ان الاندفاع يدل على الحماقة لاعلى الشجاعة ، فالشجاعة هي الاقدام تبعا لاوامر العقل ، لالرغبات الفريزة ونزوات النفس الطائشة .

لذلك كان فرسان الفرنجة يجدون انفسهم بعد لحظات من القتال ، وقد غدوا عبارة من مجموعات مطوقة من قبل الفرسان المسلمين ، وكان هؤلاء الفرسان يجبرون الفرنجة على القتال بشكل متواصل ودونما راحة ، وكانت اعدادهم في كثير من الأحيان تسمح لهم بالقتال المتناوب ، بحيث تقاتل فئة بينما يأخذ البقية قسطا من الراحة.

وكان من الممكن استخدام القوس العربي الخفيف ليطلق بسرعة ولمسافات بعيدة ، لكن نشابه لم يكن من الممكن له خرق دروع الفرنجة الفولاذية ، ونظرا لاقدام الفرنجة على تغطية اجسادهم مع اجساد مطاياهم بالدروع الفولاذية ، اطلق المسلمون رماياتهم دونما تسديد ، اطلقوها اما في الفضاء نحو الاعلى ، او بشكل افقي منخفض على امل ان تصيب العلوية وهي ساقطة رأس الفارس او احدى فتحات الدروع المخصصة للتهوية ، او تتمكن الافقية من عقر خيول الفرسان في بطونها ، وعليه فإنه على الرغم من ان فرسان الفرنجة كانوا محميين بشكل ممتاز بدروع واقية ، فان الاسهم العربية كانت فعالة بشكل فظيع ضد مطاياهم ، وينبع هذا التاثير

حسبما جاء لدى المؤرخين من قدرة المسلمين على ارسال وابل من النشاب في اي اتجاه او وضع كان ومع انه ـ في القتال القريب ـ كان يمكن للسيف والرمح والدبوس ان تؤدي دورا فعالا ، لكن السهام برهنت دائما على تأثيرها المميت ضد الخيول اكثر منها ضد الرجال .

وعندما كانت فرس الفارس الصليبي تعقر كان الفارس يتعطل عن العمل ويصبح بلا حول ولاطول ، لايمكنه بدروعه ورمحه الطويل القتال على الارض ، على عكس فرسان المسلمين ، وفي هذا المقام ينبغي ان نذكر بعدو آخر للفرسان اللاتين وهو الحر ، فالدروع المعدنية لم تكن ثقيلة جدا حتى تنهك الفارس ومطيته ، بل الذي كان يسبب الانهاك ان اللباس المعدني يحول بين الجسم وبين التعرق ، واي جسم يصاب سريعا بالانهاك عندما يتوقف التعرق ، وهنا نعيد الى الذاكرة طبيعة المناخ القاسية في جنوب الشام وفلسطين وان المعارك كانت غالبا ماتنشب في الصيف ، وفي اشد الشهور حرارة كما حدث في حطين .

وحتى يتمكن الصليبيون من معالجة هذه المواجهات القاسية كان عليهم ان يتعلموا بدرجات متعاظمة ، الاعتماد على المشاة الذين كانوا قد نبذوهم فيما مضى ، كما ان الفرنجة ادركوا اثناء ذلك اهمية التعاون المباشر بين سلاحي المشاة والفرسان ، وقد جرت العادة على حماية الرجالة بمعطف صنع من الجلد السميك المبطن بلبد سميكة من الاقمشة او فضلات الثياب ، ويغطي رجالة المشاة في بعض الاحيان بدروع صدرية من المعدن ، ويلاحظ ان هذا كله كان غير مجد ضد الاسهم ، وقد تم تسليح بعضهم بالفؤوس ، وبعضهم بالقسي الثقيلة ـ او القسي العقارة ـ وكانت القسي العقارة صعبة الحمل والاستعمال ، كما كانت تطلق طلقات اقل من القسي العربية ، لكن قوتها الخارقة كانت اعظم بكثير ، فقد كان بامكان سهامها خرق الدروع ، كما ان قدرة العقر فيها كانت اعظم ، ونتيجة لذلك نلاحظ ان هذا السلاح غالبا ماكان اداة اعاقة للفرسان المسلمين ، وخاصة النبالة منهم .

وجاء استخدام الفرنجة لجماعات من المشاة مسلحة على هذه الشاكلة ، بغية حماية الفرسان من جميع الجوانب بشكل كثيف ، عن طريق تشكيل ستارة متحركة للاجزاء السفلية من المطايا وللفرسان الموزعين ، ومع الايام غدا هذا نظاما قائما ومعتمدا لدى الصليبيين ، فقد كان الفرسان يتجمعون في بداية المعركة تحت مكان مستور او محمي ، او في بقعة مختارة ؛ ويقدمون المشاة امامهم على شكل صفوف ، ويسعون لاستدراج المسلمين للقيام بالهجوم ، وفي اللحظة المناسبة كان الفرسان الثقال ينقضون ، وكل منهم قد شرع رمحه الطويل القوي الاسطوانة ، بعدما ركز زجه في مكان معد خصيصا ، فمن المعروف أن فرسان الفرنجة اعتمدوا على قوة الخرق المتأتية من اندفاع خيولهم القوية والسريعة جدا •

وقام مؤرخ حديث متخصص بفنون القتال في العصور الوسطى بوصف هذه العملية كما يلي :

« اذا بقي المسلمون في نطاق المدى المجدي للرمايات الصليبية ، فان الفرنجة كانوا يبقون دون الرد على رمايات نشابهم التي تحولها المسافات مع الموقف الدفاعي للصليبيين الى حالة هي اقل تأثيرا مما يخشى منه ، انما اذا اقترب المسلمون فان المشاة الصليبيين كانوا يأخذون اماكنهم على الارض ، ويفتحون قسيهم الكبيرة ، ويرمون على المسلمين برمايات مجدية ومؤثرة ، وهنا كان اذا ماغامر الفرسان المسلمون بالقيام بالانقضاض ، كانوا سيسحقون حتما ، بانقضاض الخيالة الاوربيين الاعظم تأثيرا ، شريطة ان يظل مجال عملهم في نطاق مشاتهم ، ومادام الصليبيون في هذا المحيط فإنهم كانوا لايقهرون » .

وسريعا ماادرك العرب اهمية مشاة الفرنجة كسلاح رديف ، لذلك سعوا بمختلف الطرق لفصلهم عن الفرسان ، وكانوا اذا مانجحوا في ذلك يربحون المعركة ، كما هو واضح بشكل جلي في معركة حطين ، حيث ــ كما سنرى ــ قتل للفرنجة آلاف الخيول او عقرت ، وتم

سحق خيرة فرسان اللاتين ، وبالتالي تدمير المؤسسة العسكرية الاوربية في الشرق .

هذا ولقد سبق لنا البحث بالاحوال العامة قبل حطين ، كما بحثنا في اخبار قيام صلاح الدين واستلامه زمام الامور ، وتمت الاشارة الى أنه قد واجه العديد من المشاكل ، واصطدم بأتابكة الموصل وسواهم ، لذلك رحب بالفرصة التي توفرت لديه بقيام هدنة بينه وبين الفرنجة ، وذلك حتى يتمكن من حل مشاكله هذه ، ويكمل توطيد اركان دولته ، ويروى انه اصيب اثناء مسعاه هذا في تشرين الاول لسنة ١١٨٥ م ، بمرض عضال ، حتى يئس من حياته ، وعندما وقف بين الحياة والموت ، رأى ان مصير المملكة اللاتينية معلق بالميزان ، ورأى ببصيرته كحاكم شرقي ، ان موته كان معناه ، بلا شك انعدام الوحدة بين صفوف المسلمين ، والعودة الى حياة الفوضى ، حتى تتأتى فرصة جديدة لقيام حاكم قوي جديد ، وكان هذا في ابسط معانيه حياة جديدة منحت للقوى اللاتينية في سورية ، وفرصة لاتعوض لحل مشاكل مملكة القدس ، والعودة الى الاتحاد ، لكن القدر قرر العكس ، وبعدت المنية عن صلاح الدين ، وبدأ الرجل العظيم يتعافى ، وفي اذار لسنة ١١٨٦ م ابرم معاهدة جديدة مع اتابكة الموصل ، بقي بموجب بنودها الامير الاتابكي اميراً للموصل وسيداً لاعالي بلاد الرافدين ، انما مع الاعتراف بسيادة صلاح الدين والدعوة له ، وفي نيسان من هذا العام ـ ١١٨٦ ـ استعاد صلاح الدين عافيته تماما ، وعاد الى حلب ، ثم توجه في ايار الى دمشق ، وقد جاءت افراح الشعب واحتفالاته في هاتين المدينتين تعبيراً عن قلق الشعب العربي في الشام على قضيته ، وعلى مدى التعلق بصلاح الدين واتساع شعبيته .

اما والان ، وقد رد الله عليه عافيته ، وهو حاكم مصر واليمن وليبيا ، واجزاء من شبه الجزيرة العربية ، وسيد الشام بعاصمتيه : دمشق وحلب ، وسيد الجزيرة والموصل ، فقد بقي لهذا

السلطان المتدين مطمح واحد ، وهو مطمح كل مسلم ، في تحرير الارض في الساحل والداخل ، من الصليبيين ، وكان هذا بالنسبة له جهادا في سبيل الله ، وطبعا كانت القدس بالنسبة له ولجميع المسلمين هي الهدف ، فمنذ ايام نور الدين وضعت الخطط لتحرير المسجد الاقصى ، وتم اعداد المنبر لتخطب عليه خطبة التحرير الاولى، والمستعرض لاخبار وقائع الحروب الصليبية يشهد ان المسلمين قد قاتلوا دائما بحماس وغيرة دينية كبيرة ، وهذه المعركة لن تكون مستثناه ، بل على العكس ، فهم نادرا ماقادهم رجل مثل صلاح الدين ، كان متميزاً بتقواه وعدله واستقامته ، كتميزه في القيادة وفي فنون الحرب والادارة والسياسة ، ولهذا كان رجلا محبوبا من قبل شعبه الى درجة التقديس ، ولقد قيل بأن مرض صلاح الدين ملأه بشعور عميق ، بأن ماقام به حتى تلك الحين من خوض للحروب الداخلية قد تجاوز الحد ، وان الله تعالى قد انذره بهذا المرض وذكره بأن واجبه هو طرد اللاتين من بلاد الشام ، ورجل مثل صلاح الدين مشهور بتقواه لابد انه قد شعر بضرورة الاسراع بالهجوم من اجل التحرير ، ومهما يكن الحال فإنه لابد وقد غضب غضبا شديدا جداً عندما علم بهجوم ارناط صاحب الكرك ، على قافلة مسلمة في اوائل سنة ١١٨٧ م كانت في طريقها الى دمشق ، فالهدنة الآن مع الفرنجة قد زالت ، ومسوغ إعلان الجهاد قد توفر تماما .

وفي ربيع سنة ١١٨٧ م دعا صلاح الدين الى الجهاد ، وبينما كانت القوات تتوافد من جميع اجزاء دولته الكبرى وتوابعها ، قامت التحضيرات من اجل غزو فلسطين ، وبينما كانت القوات تتجمع ، ارسل صلاح الدين ابنه الافضل على رأس قوة استطلاع ، وكان لنجاح هذه القوة المدهش في الناصرة عظيم الفوائد في تشجيع السلطان على المضي في خططه ، وفي خفض معنويات الصليبيين ، وبعد هذا بوقت قصير اوعز صلاح الدين الى واليه في حلب للقيام بإمضاء هدنة مع فرنجة انطاكية ، حتى تتمكن عساكر حلب من الاشتراك في الحملة ، وقد طلب صلاح الدين هذا على ارضية الخلافات الحادة التي كانت قائمة بين القدس وانطاكية .

وكان مكان تجمع الجيوش لعرضها عند تل عشترا في احواز بلدة نوى على مقربة من حدود الاراضي المقدسة ، شرقي بحيرة طبرية ، ومع حلول الاسبوع الثالث من حزيران ، وصل جميع الجند ، حتى المتأخرون من العساكر واهالي البلدان النائية ،وفي ٢٤ من الشهر نفسه عقد صلاح الدين مجلسا حربيا لتدارس الاهداف الاستراتيجية ووضع الخطط ، او لنقل الشكل التنفيذي للخطط ، وصدر الامر إثر الاجتماع بغزو المملكة اللاتينية ، وكان عدد القوات التي مرت امام عارض جيوش صلاح الدين حوالي العشرين الفا من العساكر الديوانية والمتطوعة ، ويقدر أن الذي تجمع للفرنجة العدد نفسه عند المقل والضعف عند كثير من الكتاب المنصفين.

لسوء الحظ لم يقدم لنا احد من المؤرخين وصفا مفصلاً لجيش صلاح الدين وانواع القوات والاسلحة فيه ، انما يمكن القول قياسا على ماأوردته مصادر العصر ، وبناء على التكتيك الذي اعتمد اثناء المعركة ، ونجح استخدامه ،ان النبالة من مشاة وفرسان شكلوا العنصر الاساسي ، وهذه قاعدة جرت مجرى العادة في الجيوش الاسلامية في المشرق ، منذ بداية العصر السلجوقي ، هذا ونلاحظ ان الروايات العربية واللاتينية التي تحدثت عن وقائع ملحمة حطين شددت على تاثير نشاب الرماة المسلمين اثناء القتال ، ونشير هنا الى انه على الرغم من ان القوس كان السلاح الرئيسي لعسكر صلاح الدين من فرسان ورجالة ، الا ان العادة جرت ان يحمل كل منهم بالاضافة الى قوسه سيفا او دبوسا او ماشابه ذلك من الاسلحة الفردية التي كان المقاتل يلجأ الى استخدامها في القتال الالتحامي القريب وبعد نفاد نشابه ، يضاف الى ماسبق انه يتوجب علينا هنا ان نشير الى ان قوات المتطوعة كانت خفيفة التسليح ، اشبه بالميليشيات ، وقد رأى بعض الكتاب انها كانت تقابل القوات الاحتياطية لدى الفرنجة ، لكن في هذا شيء من التجاوز ، فقوات الاحتياط لدى الفرنجة وان كانت خفيفة التسليح نسبيا ، الا انها كانت محترفة ، وعلى هذا فنحن اذا ماشينا من قال بأن تعداد القوات الصليبية كان حوالي العشرين الفا من العساكر ، فان

الطاقة القتالية لهذه القوات كانت لاتقل عن ثـلاثة اضـعاف قـوات صـلاح الدين نظـرا للاحتـراف ونوعية التسـليح ، وهنا نعيد الى الذاكرة الوصف الذي ساقه وليم الصوري الذي اثبتناه قبـل قليل ، مع حقيقة انه في كثير من المعارك التاريخية كانت القوات المهـاجمة ادنى عددا وتسليحا من القوات المدافعة ، وحققت النصر ، ويبدو ان بعض عساكر صلاح الدين كان تسليحهم ثقيلا ، وكانوا مدرعين مع خيولهم ، وقد رابط هؤلاء مع خيولهم قرب قاعدة العمليات ، وتألف منهم حرس صلاح الدين الخاص .

وكان صلاح الدين شديد التدين يراعي قواعد الشريعة ، ويتمسك بما جاء في السيرة النبوية ، خاصة ، اثناء مغازيه ، وعلى اسـاس هذه القاعدة نجـده يأمـر بإزالة معسـكره في يوم الجمعـة ٢٦ حزيران/ومعلوم ان الجمعة هو يوم جماعة المسلمين ، يتـوجه فيهـا الخطباء بالدعاء على جميع منابر الاسلام للمجاهدين في سـبيل الله بالنصر المؤزر ، ولهذا جاء امر صلاح الدين بازالة المعسـكر وقـت الصلاة ، في الظهيرة ، وفي اليوم التالي ـ السبت ـ عبر نهر الاردن جنوب بحيرة طبرية ، واتخذ قاعدة له قرب شاطىء النهر ، وهـكذا بدأ الهجوم فعليا .

ولم تكن تحركات صلاح الدين خفية ، لهـذا قـابلها في القـدس اجراء كافة الاستعدادات ، ففي اوايل ايار بعد نازلة الناصرة التـي حلت بالصليبيين على ايدي طلائع صلاح الدين ، جرت مصـالحة بين غي ملك القدس الجديد ، وريموند الثالث خصمه وصـاحب طبـرية وطرابلس ، وذهب الفرقاء الى مدينة القـدس حيث جـرى احتفـال بهيج باتحاد القوى الصليبية ، وبعد الاحتفالات طلب ريمـوند الاذن للعودة الى طرابلس ، فأوعز اليه الملك ان يجمع عساكره ، ويلتحـق به في مكان تقرر لحشد وتجميع الجيوش الصليبية في بلدة صفورية ، وذلك لما تأكد لديهم من معلومات بان صلاح الدين يعد العدة لهجـوم عام ، واشار ريمـوند على الملك غي بمـراسلة بـوهموند صـاحب انطاكية ينشد منه المساعدة ، ونفذ غي ذلك ، واسـتجاب بـوهموند

استجابة رمزية ، فقام بارسال اكبر ابنائه مع خمسين من الفرسان وعندما توجه الصليبيون نحو بلدة صفورية لم ينسوا جانب الدعم الروحي فاخرجوا خشبة صليب الصلبوت ، وطلبوا من بطريرك القدس حملها فرفض ، وذكر « الرفض المشين للبطريرك » عقول الناس بنبوءة وليم الصوري ، فقد قال صاحب نيل تاريخ وليم الصوري : « وبعد هذا ارسل الملك رسالة الى البطريرك ليخرج صليب الصلبوت ويجلبه الى الجيش ، فاستجاب ، واخذ الصليب ، وحمله الى خارج القدس ، واعطاه الى راعي القبر المقدس ، وطلب منه ان يحمله الى الملك ، لانه هو نفسه لديه عذره ، ولن يستطيع الذهاب ومن الصعب عليه الالتحاق بالجيش (ويدع السيدة باسك دي رفري) وتم تنفيذ هذا كله ، وبهذا تحققت نبوءة وليم رئيس اساقفة صور ، التي قالها عندما انتخبوه بطريركا : (هرقل استرد الصليب من الفرس ، واعاده الى القدس ، وهرقل – البطريرك – سيرمية ، وفي ايامه سيضيع) ففي تلك الوقت بالذات قذف هرقل بالصليب الى خارج القدس ، وبهذا لم يعد اليها ثانية ، بل فقد في المعركة كما سنسمع » .

وعندما وضع صليب الصلبوت بحفظ الملك ورعايته ، اشار عليه جيرالد مقدم الفرسان الداوية ، بان يعلن النفير العام في طول الارض وعرضها ، ويدعو جميع الرجال المخلصين والقادرين على حمل السلاح للالتحاق بخدمته ، وكان مثل هذا الاجراء يجري تطبيقه والاخذ به عندما تكون الحالة شديدة ، والوضع متأزم بشكل خاص ، وهناك حاجة ماسة الى مزيد من العساكر اكثر مما كانت تقدمه الاقطاعات في العادة ، وفي هذا الوقت كان جيرالد قد تسلم هبة مالية كبيرة كان قد بعث بها هنري الثاني ملك انكلترا الى جماعة فرسان الداوية (بعد مقتل القديس توماس اوف كانتبري) وقام جيرالد بدوره بالتبرع بهذا المال للملك ، وقدمه له ، وتقبل الملك مال الهدية بسرور زائد ، واستخدمه في تجنيد المزيد من الفرسان والرجالة .

وتوجه ريموند الثالث الى مدينة طبرية ، من اجل تحصينها ، ليترك بها حامية مناسبة ومؤن كافية لحصار طويل ، وترك ريموند زوجته في طبرية ، وكانت بالاصل اقطاعا لها ، وقبل مغادرته لطبرية اوصى زوجته انها اذا ما هوجمت مدينتها بشدة متناهية من قبل صلاح الدين الى درجة عجزت فيها عن الاستمرار بالمقاومة ، عليها مغادرة المدينة ، وان تركب مع من يبقى معها في القوارب الى طرف البحيرة المقابل ، حيث تنتظر هناك قدوم المساعدات والنجدات ، ولا ندري عدد الرجال الذين تركهم معها ـ ان كان قد ترك احدا ـ وقبيل مغادرته لطبرية حمل معه ما كان بالمدينة من اموال واصطحب معه اولاد زوجته الاربعة وهم : هيوج ، وليام ، رالف ، واوتو ، والتحق بالملك في بلدة صفورية ، ومعه رجال طرابلس والذين قدموا برفقته من طبرية ، ويلاحظ ان المصادر الغربية تبدي اعجابها الشديد بشجاعة صاحبة طبرية ، لقبولها البقاء في مدينتها والمرابطة بها مصاقبة لصلاح الدين وجيوشه ، وحيدة فيما عدا حامية صغيرة ، وكيف انها سمحت لزوجها ليس في مغادرتها فقط ، بل باصحابه اولادها الاربعة ، ويرى الغربيون في عملها هذا مثلا رائعا على وقف النفس وتكريسها من اجل قضية تؤمن بها ، ومهما يكن الحال ، فان هذا يوضح مدى التعصب والحماس الشديدين اللذين ابداهما العديد من الجنود الصليبيين ورجالاتهم ـ فيما بعد ـ للذهاب فورا لانقاذها ، اثر ما قام به صلاح من مهاجمة المدينة ، ومع هذا كله ، فان ريموند الثالث ، العارف بصلاح الدين والخبير باخلاقه وتصرفات المسلمين ، كان يشعر بان زوجته في مأمن تام ، ولا خطر عليها البتة ، وان اولادها معه افضل لهم واكثر امنا من بقائهم معها ، ورغبته التي ابداها فيما بعد ، عندما ضيق صلاح الدين الخناق على طبرية ، هي دليل على انه كان مطمئنا من ناحيتها ، وانها ستكون بامان تام ، فصلاح الدين كان ـ بلا شك ـ مازال ـ طبعا ـ بحدود ما تسمح به الظروف ـ صديقا ـ ثم اخلاق صلاح الدين قالت دائما : انه حتى لو سقطت مدينة طبرية ثم قلعتها ، فان زوجة ريموند ستعامل من قبل المسلمين معاملة طيبة سامية وهذا ما حدث بالفعل بعد شهر واحد .

واجتمع الجيش الصليبي في بلدة صفورية ، وكان اكبر جيش يجتمع لفرنجة المشرق منذ سنوات عديدة ، يضاف الى هذا ، انه ـ بلا ريب ـ كان من اكبر الجيوش في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام ، وتتباين المصادر بشدة في تقديرها تعداد الجيش ، ويبدو ـ حسب ادنى التقديرات ـ ان الرقم فاق العشرين الفا ، اي ما يقارب تعداد جيش المسلمين ، انما مع فوارق اشرنا لها من قبل ، نضيف اليها امرا أخر ، هو ان الجيش الصليبي لم ينعم بوجود ظهير شعبي له او احتياط محلي ، على عكس جيش صلاح الدين ، فالصليبيون ، برغم المدة الطويلة التي مرت على تاريخ وجودهم في المشرق ، كانوا عبارة عن افراد مؤسسة عسكرية غريبة ومرفوضة من كافة النواحي ، وبامكاننا هنا اعطاء فكرة واضحة الى حد ما عن مختلف القوات والاسلحة التي تكون منها جيش الفرنجة : لقد كان هناك اولا الفرسان ذوو التسليح الثقيل ، فيه بارونات ـ او امراء ـ الاقطاع ورجالاتهم ,واعضاء جماعتي الداوية والاستبارية ، وأولئك الذين حملوا رتبة الفروسية ، وكان بامكانهم تقديم المعدات والسلاح ، ويستفاد من المصادر اللاتينية خاصة ، انه كان لدى الفارس الصليبي في غالب الاحيان ، الى جانب دروعه الكاملة وخوذته وسلاحه ، فرس او فرسان كان يجنبهما ، وكان عدد الفرسان الثقال حوالي / ١٢٠٠ / وهو احد الارقام الدنيا التي اعطتها المصادر الغربية ، وجاء بعد الفرسان الثقال الخيالة الاخف تسليحا ، وقد رافق هؤلاء الفرسان الثقال ، وعملوا معهم بمثابة مساعدين واتباع وكانوا يعرفون باسم السيرجانتية .

وميز هؤلاء في معركة حطين كسيرجانتية فرسان ليتميزوا عن السيرجانتية الاصلاء ، الذين كانوا بالاساس رجالة يجري تسلحهم على حساب الكنيسة والمؤسسة الدينية ، وذلك غالبا ما كان بشكل ثقيل ، ولم توضح المصادر تعداد السيرجانتية الخيالة وحدهم ، انما لابد ان تعدادهم فاق تعداد الفرسان الثقال ، ويبدو ان تعدادهم مجتمعين مع الفرسان الثقال تراوح ما بين ثلاثة الى اربعة الاف .

والى هؤلاء الفرسان والخيالة نضيف جماعة ثالثة من الخيالة ، وهي جماعة الخيالة « الرديف » وكان تعداد هؤلاء لا يقل عن تعداد السيرجانتية الخيالة ، وقد عرفوا باسم التركبلي وكان هؤلاء كما هو معتقد من المرتزقة من مزيج من اناس من اصل اغريقي ومشرقي (من بين الطوائف والاقليات) وجرى تسليح هؤلاء حسب الطريقة الاسلامية ، اي كانوا فرسانا نبالة ، ولهذا كانوا ذوي فعالية عالية في المناورات السريعة وفي عمليات الانقضاض المفاجيء ، وخاصة في منطقة ذات مرتفعات مثل مرتفعات طبرية ، حيث كانت جماعات الفرسان الثقال في وضع حرج غير مريح ، وكان هؤلاء يوضعون في العادة تحت الامرة المباشرة لمارشال مملكة القدس ، وكانوا رواديف اي قوات احتياطية ، تابعة بشكل خاص لكل من جماعات فرسان الاسبتارية والداوية ، الذين كان لديهم ضابط خاص معين لقيادتهم باسم التركبلير .

وجاء بعد القوات المحمولة : الرجالة ، وكان فيهم المشاة السيرجانتية الذين تبعوا نظاميا للاقطاعيين ، وتولت الكنيسة والمؤسسات الدينية الانفاق عليهم ، ثم المشاة من الرجال الذين التحقوا بالخدمة العسكرية بسبب النفير العام الذي أعلنه الملك ، وقدر المعاصرون الغربيون لمعركة حطين تعداد هؤلاء مابين سبعة الاف إلى عشرين الفا ، ويرى بعض الباحثين في ايامنا أن الرقم الاول صغير جدا ، لكن لم يكن هناك اكثر من خمسة عشر الفا من المشاة على أبعد تقدير ، ومهما يكن الحال ، فاننا نلاحظ أنه اذا كان الفرسان الثقال والسرجانية ـ من خيالة ورجاله ـ تابعين للمؤسسات الاقطاعية الدنية والكنسية ، وكانوا يؤدون خدمات مقابل الارتباط الاقطاعي ، فإن قسما كبيرا من الجيش كان من القوات المأجورة ، فالتركبلي ولربما معظم المشاة أيضا ، كانوا من المرتزقة المحليين ، فقد رأينا الملك غي يشتري بأموال الهبة الانكليزية أعداداكبيرة من الفرسان وأنواع أخرى من الخيالة ، ومن المحتمل أنه أنفق كمية من اموال الهبة الانكليزية على السيرجانتية ، بأن يقوم كل واحد من رجالاته بعرض شعار (رنك) ملك انكلترا ،

ويدعي بعض الكتاب في أيامنا ، بأن تعداد الفرنجة في المشرق ما كان ليمكن من تجنيد عساكر أكثر مما تجمع في صفورية دون ترك مدن المملكة ـ مملكة القدس ـ مع الأجزاء الشمالية دونما دفاع تماما •

ومع حشد الفرنجة لهذه القوات الكبيرة جدا ، برزت أمام الملك غي والكونتات مشكلة التكتيك والاستراتيجية : كيف يمكن استخدام هذا الجيش اللجب بشكل نافع ومؤثر ، ثم لماذا جمع كله في معسكر واحد ، ولم يوزع على المواقع الدفاعية للمدن والقلاع ، أو قيد إلى خارج حدود المملكة لمنع صلاح الدين من اجتياز نهر الأردن ؟ واختلفت أراء قادة الفرنجة حول هذا الموضوع الخطير ، وكان رأي ريموند الثالث منذ البداية اعتماد سياسة الانتظار والمطاولة حيث خاطب الملك بقوله : « أشير عليك يامولاي وانصحك كما واقترح عليك أن تشحن مدنك وقلاعك بالرجال والمؤن والسلاح ، وبقية أنواع الأعتدة الدفاعية ، وعلى الرغم من أن أمير انطاكية أرسل لك ولده مع خمسين من الفرسان ، جدد مراسلتك له ، واطلب منه المزيد من الرجال ، وابعث رسالة إلى بلدوين صاحب ابلين (يبنى) ، واخبره بأن صلاح الدين دخل إلى أراضي المملكة مع جيش عرمرم ، واعلمه أن عليه الحضور شخصيا لتقديم المساعدة للمملكة ، ذلك أنني أعرف أن صلاح الدين سيمكث ، وقد يقيم طويلا ، وكما تعلم فنحن الآن في منتصف الصيف ، وهذا أعظم الأوقات حرارة على مدار السنة ، ولاشك أن وحشة المكان ، والمناخ الحار سيضايقانه ، وسيشغلانه ، وأثناء ذلك يكون أمير انطاكية وبلدوين صاحب ابلين قد توفر لهما ما يكفي من الوقت ليصلا إلينا ، وهنا بينما يكون صلاح الدين شاعرا بالأمن ، مطمئنا نكون نحن قد صرنا جاهزين ، فنقوم بمهاجمة مؤخرة قواته ، وننزل بها ضربة قاصمة ، بشكل ـ بمشيئة الرب ـ تمكن من إبقاء مملكتكم حية وبأمان » •

ليس بالمصادر ما يفيد أن نصيحة ريموند هذه وأراءه كانت مسموعة وأخذ بها ، ذلك أنه لم يكن هناك أي قتال مباشر حتى بعد

دخول صلاح الدين إلى أراضي المملكة ، كما أن أيا من القوات لم يرسل إلى الحصون والقلاع لتقوية دفاعاتها ، وهذا ما سيظهر جليا بعد نصر حطين ، حيث كان من السهل نسبيا الاستيلاء على معظمها .

ووقع الاختيار على منطقة صفورية لتكون قاعدة للقوى اللاتينية ، لما تمتع به هذا الموقع من مزايا محددة وفوائد كبيرة بالنسبة لهذه الحملة خصيصا ، فصفورية كانت أنذاك عبارة عن بلدة صغيرة غير مسورة ، من ممتلكات صاحب طبرية ، تقع على مسافة ثلاثة أميال أو أربعة من الناصرة ، إلى الشمال الغربي منها ، وكان إلى الجنوب منها على مسافة ميل واحد نبع ماء وجدول جار ، وهو ما عرف باسم نبع الصفورية ، وعلى هذا كان الماء وفيرا في هذا الموقع ، وكان كافيا لجيش كبير جدا ، في فصل الحر ، وكان هناك مع الماء كميات وافيه من المؤن ، سهل تأمينها من القرى المجاورة ، هنا في هذا الموقع المناسب اقام الصليبيون معسكرهم ، واقاموا ينتظرون وصول صلاح الدين .

وعلى بعد خمسة عشر ميلا أو ستة عشر جثت مدينة طبرية على الشاطىء الغربي للبحيرة ـ التي حملت اسمها ـ وذلك على مستوى ستمائة قدم تحت سطح البحر ، وترتفع الأرض خلف المدينة ، وتمتد جنوبا منها ، بشكل حاد إلى مستوى ألف قدم فوق سطح البحر ، وتمتد جنوبا محاذية للبحيرة ، وتشكل شرفا صخريا له ارتفاعات متساوية تقريبا ، ويبدأ هذا الشرف ، في مقابلة المدينة مباشرة ، بالانحراف باتجاه الشمال الغربي ثم باتجاه الغرب ، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب هناك تل مزدوج القمة ارتفاعه فوق ألف قدم ، ويعرف باسم « قرني حطين » وهو مكان احتفالات طقوسية موسمية (عيد النبي شعيب) وبمتابعة التوجه غربا يصل الشرف الى أقصى ارتفاعه وهو سبعمائة والف من الاقدام وذلك عند جبل ترعان على بعد خمسة أميال ، وتقع قرية حطين على مسافة قصيرة الى الشمال مباشرة من « قرني حطين» في الوادي ، ويمكن

أن يرى ارتفاع هذه الهضاب من الشرق والشمال ، اي مـن طبـرية وحطين ، حيث انها لاتبدو هكذا من الجنوب والغـرب ومـرد هـذا جزئيا أن الشرف يرتفع من شواطىء بحيرة طبـرية مـن مسـتوى ستمائة وعشرين قدما تحت مسـتوى سـطح البحـر ، وجـزئيا أن الارض الى جهة الجنوب والغرب عبارة عن هضبة بخطوط ارتفـاع متساوية تتراوح من ثمانمائة الى ثمانمائة وخمسين قـدما ، وهـي مليئة بصخور كبيرة ومقطعة بالوديان التي قـد تنتهـي الى الأرض المنخفضة شمال شرقـي صـفورية أو جنوب شرقـي وادي سـهل الاحما(كفر الاحما) ، (٤) وقد قام رحـالة حـديث بـوصف الارض الواقعة قرب قرني حطين في مطلع القرن الحالي كما يلي:

« كمـا رأينا على هـذا الجـانب ـ الجنوب ـ أن التـل ، أو الجبل ، هو عبارة عن عقبة صـخرية منخفضـة ، يبلغ ارتفـاعها حوالي ثلاثين أو اربعين قدما ، وطولها اكثر مـن عشر دقـائق مـن الشرق إلى الغرب ، وينبعث في نهايتها الشرقية قمة أو « قرن » إلى ارتفاع حوالي ستين قدما فوق السهل ، وهناك على النهاية الغربية قمة « قرن » أخرى ليست بنفس الارتفاع ، ويبـدو منظـر هـاتين الكتلتين عن بعد وكأنه سرج فرس ، وقد دعيا باسم قرني حـطين ، ويمتد هذا التل بمجمله ليساير أطراف السـهل الكبير حيث يرتفـع منها الجانب الشمالي للتل بشكل انزلاقي شديد إلى علو ليس أقـل من أربعمائة قدم ، ودون ذلك في الأسـفل إلى الجنوب تقـوم قـرية حطين ، وهناك باتجاه الشمال والشمال الشرقي كتلة صخرية ثانية مندفعة ايضا تنساب بشكل منحدر إلى مستوى البحيرة .

إن قمة القرن الشرقي مستديرة قليلا ، وسطح قمة المنخفض بين القرنيين هي ايضا منبسطة على شكل سهل....».

وتشير خرائط ما قبل الحرب العالمية الثانية إلى وجـود ممـرين كانا يعبران التل ، سار أحد الطريقين من الشرق مباشرة من منطقة في أحواز صفورية ، وعبر التل الى الجنوب من طبرية مباشرة ، لكن الطريق الآخرين كان ينحرف شمالا في منتصف الطريق بين صفورية

وطبرية ، ويماشي في الغرب حوالي قرني حطين ، ويستمر باتجاه الشمال منحدرا إلى قرية حطين ، ويتابع انحداره هابطا باتجاه الشرق إلى شواطىء بحيرة طبرية ، وعلى الرغم من أن طرق العصر الحديث يمكن أن لاتتماشى مع طرق القرن الثاني عشر ، لكن الأوصاف المعاصرة للصليبيين ، والروايات التي شرحت أوصاف مسيرة جيوشهم من صفورية تبين بأنهم ساروا أولا عبر طريق مباشر ، ساروا باتجاه الشرق يريدون مدينة طبرية ، ثم انحرفوا في منتصف الطريق شمالا نحو ممر قريب من القرنين ، وواضح أن في هذا مطابقة تامة للطرق قبيل أيام الاستعمار الانكليزي لفلسطين .

ويعبر هذان الطريقان بين صفورية وتل قرني حطين مع ما يجاوره من الاراضي المرتفعة حوالي عشرة أميال من الأراضي الصخرية التي تأخذ شكل هضبة ، وهي منطقة بلا ماء ، أو على الاقل بلا نبع غزير او جدول فيه مياه كافية لجيش كبير اثناء زحفه في أشهر الصيف الحارة ، وكان هناك ماء وفير وراء هذه السلسلة من الكتل الصخرية : في الشمال من حطين أو في الشرق حذاء البحيرة ، وقرب مدينة طبرية ، وكان هناك ماء الى الجنوب في وادي سهل « الأحما » ، لكن على الطريق المباشر مابين الكتلة الكبيرة غربي طبرية ، ومعسكر الصليبيين في صفورية لم يتوفر منه شيء أبدا .

ولذلك كان البديهي أن مصلحة الصليبيين قامت في البقاء حيث كانوا في صفورية ، وذلك بعدما أحجموا عن منع صلاح الدين من عبور الأردن ، وتركوه يزحف نحو طبرية ، ففي منطقة صفورية كان الفرنجة متأكدين من توفر المياه لديهم والمؤن الوفيرة ، ولقربهم من قلاعهم وبلدانهم المسورة ، وكان عليهم الآن المكوث في صفورية لانتظار هجوم صلاح الدين ، فهم كانوا على ثقة واطمئنان ، فقد حشدوا أكبر جيش كان ملك فرنجة للقدس يأمل بحشده ، وكان بإمكانهم دوما ــ عندما تدعو الضرورة ــ الانسحاب الى المدن والحصون الشديدة المناعة قرب الساحل ، ووضح بعد عبور صلاح

الدين للأردن أنهم اذا مـاغامروا بـالتقدم بـاتجاه اي هـدف في الشرق ، فسيكون بإمكان صلاح الدين اجبارهم على خوض معركة حسب مشيئته وقبل الوصول الى الماء ، وانئذ سيكون الانسحاب صعبا ، ان لم يكن مستحيلا ، خاصة وانه لم يكن لديهم في الداخل قوات احتياطية لدعوتها لنجدتهم والتفريج عنهم ، ويصرخ كاتب أمريكي معاصر أثناء حديثه عن هذه الحالة باندفاع عاطفي وتحرق شديدين قائلا :« دع المسلمين يغامرون بـالزحف داخل الهضبة التي بلا ماء ، دعهم ينالهم الانهاك بعد زحفهم تحت اشعة الشمس المحرقة »! ....

ولكن الحرب لم تـكن بـالنسبة لصـلا ح الدين مغـامرة او هواية ، بل ان حملته كانت قرارا استراتيجيا له ابعاده السياسية والعسكرية التكتيكية ، وقرار صلاح الدين تم بعد دراسة شاملة وا ستطلاع اخباري وميداني واسع ، فهو بعـد عبـوره للأردن كان يدرك تمام الادراك أحـوال الفـرنجة الداخلية ، ويعـرف سـلامة أوضاعهم وطاقاتهم حيث هم ، لهـذا كان عليه ان يحـاول بمختلف الوسائل اقتلاعهم من قاعدتهم في صفورية واستدراجهم الى شراك ينصبها لهم ، وسبق ان ذكرنا بأنه عبر على راس قواته نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية في أواخر شهر حزيران ، وعسكر ليلتـه الأولى قرب ضفاف النهر ، وتبعا لاحدى الروايات كانت قواته معبأة بشكل قاد فيه القـائد تقـي الدين الميمنة ، والقـائد مـظفر الدين الميسرة واحتفظ صلاح الدين لنفسه بإمرة القلب ، ومكث الصـليبيون بعـد عبوره للأردن في صفورية ، فحرك صلاح الدين قـواته إثـر ذلك الى منطقة « كفر سبت » على الطرف الجنوبي للسهل ، إنما الى الغرب من المنطقة الجبلية ، حيث ظل الماء لديه وفيرا ، وجهد مـن هناك في سبيل تحريكهم واقتلاعهم عن طريق المناوشات ، لكن عبثـا حـاول واخفقت هذه الطرائق في إثـارتهم ، وفي هـذا دليل واضـح على أن غالبية الفـرنجة ظلوا حتـى ذلك الوقـت متحلين بـالصبر والحكمة ، متمسكين بقـرارهم في الاسـتفادة مـن وضـعهم المناسب ، وهنا قرر صلاح الدين أن يغامر بكل شئ ، إنمـا بشـكل

مدروس وفي غاية البراعة ، على انه والحق يقا ل كان تحركا خـطرا أيضا ، لقد قرر مهاجمة مدينة طبرية بالذات .

وليس من الواضح تماما في روايات المؤرخين انه كان على معرفة مسبقة بوجود زوجة ريموند في طبرية ، إنما والرجل كان لديه جهاز استخبارا ت متين ، لاشك أنه كان على بينه من هذه الحال ، ومهما يكن الأمر ، فإن صلاح الدين كما يبـدو ، قـدر ، وجـاء تقـديره صحيحا تماما ، بأن هجوما على طبرية ، يعـرض أميرة طـرابلس للخطر ، لابد وانه سيبعث روح الفروسية لدى الصليبيين ، وسيثير العناصر المضطربة والمتمردة بينهم ، ويجعلها تحاول الزحـف عبـر التلال الجرداء لتلك المنطقة ، مع أن مثل هذا الزحف كان سـيجعل الجيش الصليبي في موقف غير مناسب ومدمر .

لقـد كانت الأميرة البيزنطية ، انا كومينا ، مـن شـهود الحملة الصليبية الأولى ، وكانت بارعة عميقة الأحاسيس ، لديها قـدرات وصفية للسمات والأخلاق نافذة لاتحد ، وقد قامت في أكثر من مكان في كتابها « الالكسياد » بـوصف أخـلاق وسـلوكية فـرسان الفرنجة ، وهنا نجد : سـهولة في الاثـارة ، اندفـاع شـديد احمق ، واصرار لاتراجع فيه ، ولامبالاة بـالموت ، متـى مـااتخذ الفرنجي قراره ، أو وقع هواه على أمر ما ، ولاشك أن صلاح الدين كان يعرف هذا وزيادة ، كما كان يعرف العلاقات الداخلية بين قادة الفرنجة ، لهذا قـام بمغـامرته المدروسـة في الهجـوم على طبرية ، فأثار الفرنجة وجعلهم يغامرون لعبور الطريق بين صفورية وطبرية ، وهو طريق كما سلفت الاشارة ، كان يقوم وسط المنطقة الجرداء الجافة ، وما أن يسلك ، فلا مخرج منه ، وعلى الصليبيين انئذ أن يغامروا بالسير فيه طويلا بلا ماء ، وكان على صلاح الدين العمل ــ وكله أمل ــ في تمزيق الجيش العرمرم قبل أن يتمـكن مـن الوصول الى أحد المرين فـوق تـل حـطين ، والوصـول الى مياه البحيرة .

وعلى هذا الأساس قام صلاح الدين في يوم الثلاثاء الثـاني مـن

تموز ، بوضع الجزء الاساسي من قواته فوق المرتفعات تحت الشرف الصخري الى الغرب من طبرية ، حيث تمكنت من اغلاق الطريق المباشر الى المدينة ، وظلت تتحكم بالممرات والقدرة على تأمين المياه لانفسها ، وكان بإمكانها ـ كما ظهر فيما بعد ـ التحكم بطريق الوصول عبر الممر الآخر ، لكن لابد من الاشارة هنا بأن هذا الجيش قد تمركز في مكان بحيث إن الهزيمة بالنسبة له كانت أبسط معانيها كارثة الفناء والموت غرقا ، فوجود البحيرة ونهر الأردن في خلفه ، كان سيجعل الانسحاب في غاية الصعوبة ، ان لم يكن مستحيلا في ظروف الفرار بعد القتال ، ومع هذا كله نجد ان صلاح الدين قام بنفسه بالهبوط على رأس قطعة صغيرة من قواته على طبرية ، ونجح بسرعة في الاستيلاء على المدينة ولم يستغرق الأمر اكثر من ساعة من الزمن ، لكن حصن المدينة صمد ولم يسقط له ، وهناك اعتصم كل من الأميرة مع حاميتها الصغيرة ، وقامت هذه السيدة على الفور بتدبيج رسالة انفذتها الى الجيش الصليبي المعسكر في صفورية تصف سقوط طبرية ومانزل بها وبمن معها من ضيق شديد وخطر مخيف .

لقد استطاعت اميرة طرابلس بطريقة ما تأمين رسول تسرب بالرسالة ، حتى اوصلها الى المعسكر الصليبي مساء يوم الخميس ، ويتساءل المرء هل تسرب الرسول ببراعته الشخصية ، أم أن عين رجالات صلاح الدين شاهدته ، لكن تركته يذهب ، فهذا كان موجودا في أصل الخطة ، المهم أن الرسول أخبر الصليبيين بأنهم مالم يهبوا بكل سرعة وحماس الى تقديم المساعدات والنجدات لطبرية ، فإن المدينة سيتم فقدانها الى الأبد ، وأنه غادرها والمسلمون يقومون بأعمال النهب والاحراق في اجزاء المدينة .

لقد خلقت هذه الرسالة ازمة استراتيجية للصليبيين ، فهم يرغبون الآن رغبة شديدة ـ وقد طال بهم القعود ـ بالتحرك والاقدام على تخليص طبرية وانقاذ الأميرة المحاصرة ، وتشعبت آراء القادة

حول هذا الموضــوع ، وتـوحدت عواطـف الفـرسان ، وكان رأي جيرالد مقدم الداوية وارناط صاحب الكرك مع غالبية الفرسان بـأن عليهم التحرك في الصباح البـاكر ، وقـالوا بـأن الشرف ومثـــل الفروسية يتطلبان ، لابـل يفـرضان ذلك ، قـالوا ذلك تحـــركهم عواطفهم وغرائزهم ، مع أن مثل هذا التحرك كان من أشد الأعمال حماقة ، وفي الطريق الى طبرية كان هناك عشرة أميال مـن الأراضي الوعرة الجافة الصعبة المجاز ، كما كان ايضا جيش صـلاح الدين المتمركز تحت الشرف والمتحكم بالممرات والمغلق لها جميعـا ، لقـد كان ــ في الحقيقة ــ شر ك منصـوب لهـم ، لكن « الطعـم » كان مغريا لأصحاب العواطف الجياشة .

وبعدما وصلت الاخبار الى مسامع الملك غي ، أقدم على الفور فـوجه الدعوة لجميع البـارونات ورجـال الاكليروس لعقـد مجلس حربي ، وفي بداية الاجتماع أخبر الملك الحضور بفحـوى الرســالة التي تسلمها من صاحبة طبرية ، وبعد ماطلعهم على الأخبار التـي حملها الرسول ، التفت أولا نحـو ريمــوند الثــالث صـــاحب طرابلس ، لالمكانته وعظيم خبرته ، وطول تجـاربه فحسـب ، لكن لأن مدينة طبرية المهـــاجمة مـــدينته ، وزوجتـــه هـــي الأميرة المحاصرة ، وهي صاحبة الرسالة ، والمهددة بـالخطر ، وخـاطب غي ريموند بقوله:« ما رأيكم يا سيدي ، وما هي النصائح التي يمكن أن تقدمها الينا»؟...

ولم يكن ريموند من الرجال الذين يفقدون السيطرة على انفســهم في مثل هذه الأزمات ، وذلك على الرغم من الشعور الشـعبي تجـاه ماكان يجري ، فهو حسب بعض المصادر اللاتينية الصديقة له ، لم يمتلكه الخوف ولا الأسى ، ولم يخش على سلامة زوجتــه ، ذلك انه كان يعرف مدينته ، ويعرف صلاح الدين ، ويدرك الخـدعة ، ويعلم اكثر من سواه طبيعة المنطقة ، لهذا جاء جوابه كما يلي :« لابـأس أنا سأدلي برأيي ، اذا مااصغيتم إلي وصدقتموني ، فأنا أعلم علم

اليقين انه مـــامن احـــد منكم يرغب في تصـــــديقي ». ورد عليه الملك قائلا :« اخبرنا بما تراه ، واعلمنا بما علينا عمله ».

واستجاب ريموند فتحدث ثـانية وقـال مـــوجها كلامـــه الى الملك :« أصغ ياسيدي أنت والسادة الحضور الى مـــاسأقوله ، ان ماأراه هو : دع طبرية تذهب ، حتى وإن لم أستطع تـرتيب أمـــور عودتها إلي واستردادها من المسلمين ، وحتى في حـــال عجــزي عن تدبير امر انسحابهم ، إنني اوصيكم بكل صـــدق بـــالا تـــذهبوا الى مساعدة المدينة ونجدة المحاصرين بهـــا ، دعوهـــا تـــذهب دعوهـــا تسقط ، وهاانذا أخبركم لماذا : إن طبرية لي ، وهي مـــن امـــلاك زوجتي ، وموضوعة تحت تصرفي ، وما مـــن أحـــد سـيخسر قـــدر خسارتي اذا مافقدناها .

انا لااتمنى ان يتـــأذى اي منهـــم ، وقـــــد ســـبق لي أن انذرتهم ، واعلمتهم بـــأنهم اذا مـــاوجدوا هجـــوم صـــلاح الدين شديدا ، وكبيرا الى حد انهم لايستطيعون مقاومته ودفعـــه ، فـــان عليهم القيام بركوب بعض القوارب والبحث عن ملجأ مـــا في البحيرة واطرافها حتى نقدم ، عندما تتهيأ الفرصة لانقاذهم ».

انني اعلم علم اليقين ان المسلمين اذا مااستولوا على طبرية ، لن يحتفظوا بها ، بل سيهدمون أسوارها ثم يدعونها ، ولن يتحـــركوا نحونا لمهاجمة معسكرنا ،واذ حدث واستولوا على القـلعـــة وأسروا زوجتي ورجالي واستولوا على ممتلكاتي وهدموا مـــدينتي ، فإنني سأقوم فيما بعد بانقاذهم ، وبإعادة بناء سور المدينة وترميم ماتهدم منها ، وذلك مع أول فرصة تواتيني ، فانا كنت ومازلت افضـــل ان ارى طبرية تهدم ، وزوجتي تؤسر مع رجـــالها وممتلكاتـــي تســـلب وتنهب ، على ان ارى الأرض كلها تذهب ، فـــأنا مـــوقن بـــاننا اذا مامضينا لانقاذ طبرية ومن فيها ، فإننا سنخسر الأرض ، وسترى جيشك هذا كله مابين قتيل وأسير ، وهاانذا مخبرك لماذ ؟.

لايوجد بين منطقتنا هـــذه وطبـــرية مـــــاء ، اللهـــــم الا

نبع « كرسون » ؟ وهو نبع صغير لايقوم بـأود الجيش ، وانا على يقين انك حالما تتحرك مـن هنا ـ اذا مـاقررت الذهـاب ، لانقـاذ المدينة ـ ستجد المسلمين امامك بانتظارك ، وسيناوشونك بـأنواع القتال طوال النهار ، وسيستدرجونك سواد الليل حتى يضعـوك في منتصف الطريق مابين موقعنا هـذا وطبـرية ، وسـيجبرونك على المعسكرة هناك لانك لن تستطيع القتال بسبب الحرارة ولأن السـير-جانتية لن يكون لديهم ماء للشرب ، انهم سيموتون عطشا ، واذا ما حاولت القيام بهجوم ، فان المسلمين سيفرون أمامك متراجعين نحو الهضاب حيث لايمكنك المرور بدون السـيرجانتية ، واذ وجـدت ان عليك المعسكرة هناك ، ما الذى سـيشربه رجـالك وتشربـه خيولك؟ هل يبقون بلا ماء؟ أن مثل هذا الحـال سـيكون مميتـا ، ففـي اليوم التالي سياخذوننا جميعـا بـاليد ، لأن لديهـم الماء والطعـام والراحة ، سنقتل جميعا أو نقع في الأسر ، انني لهـذا كله ارى انه مـــن الخير لنا ان ندع المدينة تـــذهب ، دون أن نخسر كل الأرض ، لأنه مـن المؤكد انك اذا مضـيت الى هناك ، فـالأرض سنخسرها جميعاً .

سيدي ، إنك إذا ماأردت حقا دخـول الحـرب ضـد صـلاح الدين ، دعنا نعسكر امام عكا ، حيث سنكون قرب حصوننا ، انني اعلم علم اليقين أن صلاح الدين رجـل متـكبر الى حـد أنه لن يدع المملكة ويغادر اراضيها حتى يحـاربك ، وانه اذا مـاهاجمك امـام عكا ، ولم يواتنا الحظ ـ لاسمح الله ـ فـاننا سـنتراجع الى عكا والى بقية المدن القـريبة ، انمـا اذا نصرنا الرب عليه ، فـاننا سنسحقه قبل ان يتمكن من العـودة الى أراضـيه ، اننا سـنحطمه تحطيما شديدا الى حد انه لن يستطيع ثانية جمع قواته .

وعندما انهى الكونت كلامه ، تمتم مقدم الداوية ثـانية وبشـكل مسـموع قـائلا : إنه يتبـرقع بجلد الذئب ، لكن الكونت لم يعره اهتمامه ولم يلتفت الى هذه الكلمات ، وتظاهر بعدم السماع ، مـع

انه سمع كل عبارة ، ثم استانف خطابه للملك قائلا :« سيدي ، اذا لم يقع كل شي كما اخبرتك ، اقطع راسي ».

وجاء في الكامل لابن الأثير ما يؤيد بعض محتويات هذه الوصية ، ويوضح بقية جوانب القضية حيث قال :« فسار ـ صلاح الدين ـ حتى خلف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم حتى قارب الفرنج ، فلم ير منهم أحدا ، وفارقوا خيامهم ، فنزل وأمر العسكر بالنزول ، فلما جنه الليل ، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل جريدة ، وقاتلها ونقب بعض أبراجها ، وأخذ المدينة عنوة في ليلة ، ولجأ من بها الى القلعة التي بها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها أولادها ، فنهب المدينة وأحرقها ، فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية ، وملكه المدينة ، وأخذ ما فيها وأحراق ماتخلف مما لايحمل ، اجتمعوا للمشورة ، فأشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ، ومنعهم عن طبرية ، فقال القمص (ريموند الثالث) : إن طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة مافعل ، وبقيت القلعة ، وفيها زوجتي ، وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ، ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ، ومارايت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة ، واذا أخذ طبرية لايمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها ، وان اقام بها لايقدر على المقام بها الا بجميع عساكره ، ولايقدرون على الصبر طول الزمان عن اوطانهم وأهليهم ، فيضطر الى تركها ، ونفك إسر من أسر منا ، فقال له برنس أرناط ـ صاحب الكرك ـ قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولاشك انك تريدهم ، والا ماكنت تقول هذا ، وأما قولك انهم كثيرون ، فان النار لايضرها كثرة الحطب ، فقال : أنا واحد منكم ، إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون مايكون ، فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين ، وقتالهم ، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه ، وقربوا من عساكر الاسلام ، فلما سمع صلاح الدين بذلك ، عاد من طبرية

الى عسكره ، وكان قريبا منه ، وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ، ليتمكن من قتالهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر ، فوجد الفرنج العطش ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين ».

ونعود الى الروايات اللاتينية ، ونتابع معها وصفها لمناقشات المجلس الحربي للفرنجة ، فنجدها تقول انه بعدما انهى ريموند كلامه سأل الملك البارونات ماذا يرون فيما قدمه الكونت من مشورة وآراء ، فأجابوه بأن كل ما قاله الكونت صحيح تماما ، واتفقوا على أنه بات عليهم العمل كما قال ، وهنا أبدى الاسبتارية رضاهم وموافقتهم ، وأعلن الملك عن قناعته بذلك الراي ، وكذلك فعل جميع البارونات ، فيما عدا أرناط مع مقدم الداوية ، لكن رغم هذه المعارضة اتخذ الملك مع جميع البارونات قرارا بالعمل حسب مشورة ريموند .

بعد هذا العرض ماذا يمكن لنا أن نرى في مشورة ريموند ؟ من حيث المبدأ إن كلامه كما نقله المؤرخ اللاتيني قد تنبأ بشكل صحيح وكامل تماما بجميع حوادث اليوم التالي ، كما وقعت ، وهذا لا يدع الشك لدينا بأن الجزء الأكبر والأخير مما نسب الى ريموند حسب الرواية كله مخترع ، قصه الراوي متأخرا بعد المعركة ، ومع هذا فإن قراءة هذه الرواية تترك في النفس انطباعا خاصا ، فهي بما لها وعليها ، تتحدث عن شي قد حصل ، وتروي بشكل غير مباشر أخبار وقائع حطين الحاسمة .

نحن لن نستطيع ـ بشكل مؤكد ـ أبدا معرفة ما حدث من مناقشات في خيمة الملك في تلك المساء ، فلقد طواها الزمان ، ولن نستطيع أبدا معرفة ما قاله الكونت ريموند ، لكننا نعرف بأن مناقشاته كان لها أثرها الواضح على الفرسان ، الذين دفعتهم أرواحهم المتوقدة ، ساعة سماعهم الأخبار الى المطالبة بالزحف فورا ، فتوقفوا الآن وهدأ جيشانهم ، لهذا نفترض بأن الآراء التي عرضها كانت مصيبة تحوي مشورة جيدة ، الى حد قرار

التربص ، فهو كان بلا شك على معرفة بالمنطقة أكثر من سواه ، وكانت معارفه الحربية ، وقدراته التكتيكية مشهورة ، كما أنه ملك قدرة الاقناع ، بعد عرض الأفكار بشكل واضح ومنطقي ، وفيما يختص بطبرية فإنه كان المسؤول عنها ، ويرجح أنه لم يكن قلقا عليها ، ولوكان لترك فيها منذ البداية حامية قوية ، زد على هذا كله أن ريموند الثالث كان فاهما لاستراتيجية صلاح الدين ، ودون شك قد قدر بأنه إذا مكث الصليبيون في صفورية ، فقد كانت فرصة متوقعة ، بأن صلاح الدين سيضطر أخيرا الى الانسحاب من طبرية ومن معسكره تحت التلال والعودة نحو دمشق ، أو أنه سيقرر الهجوم والاندفاع داخل الأراضي الصليبية .

ونستخلص من مختلف الروايات بأن ريموند كان يعتبر نفسه أنه ما يزال على علاقة طيبة مع المسلمين ، وانه كان يأمل بالحصول على انسحاب صلاح الدين ، والحيلولة دون القتال ، بعد نوع من المباحثات ، فصحيح ان صلاح الدين كان لديه الماء ، إنما كما يبدو ، كان تحصيل كميات كافية من المؤن تكفي لمدة طويلة أمرا صعبا ، ثم كان صلاح الدين يقود جيشا نصفه من المتطوعة الذين يفقدون الصبر بعد قليل من المرابطة ، والنصف الآخر من أمراء الاقطاع وحكام الأطراف الذين تتملكهم الرغبة الشديدة في العودة الى أراضيهم ، لقد كان صلاح الدين بعيدا عن قواعده ، معسكرا في ارض عدوة ، وكان لا يستطيع المرابطة طويلا ، وطبعا كان من الأفضل للفرنجة المقامرة على أن يتحرك صلاح الدين منسحبا أو يزحف نحوهم ، بدلا من قيادة جيوشهم في الأرض الجرداء الصعبة التضاريس ، لقد أراد ريموند تقليد فنون المسلمين بالقتال بالانسحاب نحو الشاطيء واغراء صلاح الدين ليس فقط بعبور الهضبة ، وإنما بالتغلغل داخل أراضي مملكة القدس ، لقد كان القتال عند طبرية شرك منصوب ، ريموند وحده ملك ـ حسبما توحيه المصادر المختلفة ـ الفهم الاستراتيجي له ، فهل يا ترى ملك ذلك فعلا أم أن المؤرخ اللاتيني سجل وقائع المعركة ونتائج

التحليلات لما حدث ؟ تبقى القضية معلقة بمثابة سر كبير من أسرار التاريخ .

وبعد هذا كله لنفترض ان كل ما قيل بأن ريموند قد أشار به كان صحيحا ، وأن الملك والبارونات وافقوا في البداية على آرائه ، لكن من قال بأن القرارات – في العصور الوسطى – كانت تتخذ في الاجتماعات العامة ، وأن اعلان الحرب لدى الفرنجة وملوكهم خضع لأحكام العقل والمنطق ، وليس للشهوات والمطامح الفردية ، وعليه قد يكون ريموند أشار بالراي الصحيح ، لكن كلمته لم تكن الكلمة المسموعة لتنفذ ، وحزبه لم يكن الحزب الحاكم في القدس ، لقد كان ريموند عدوا للملك غي ولأعوانه خاصة جيرالد مقدم الداوية وارناط صاحب الكرك ، فصراعاته ضد الجماعة الحاكمة في القدس قد أجبرته على التحالف مع صلاح الدين ، وكان الحزب الحاكم لا يكتفي بعدم الثقة به ، بل كان ما يزال – رغم المصالحة – يعتبر بأعين الكثيرين خائنا «يتبرقع بجلد الذئب » لا يجوز مطلقا الوثوق بكلامه ، ولاشك أن جيرالد وأرناط وغيرهما كثير امنوا بهذا ايمانا مطلقا ، وهنا لب القضية الحقيقية فيما حدث ، وأدى الى ما نزل بالفرنجة في حطين ، المشكلة أن الصراعات الشخصية ، والعداوات الفردية التي وجدت بين صفوف قادة الصليبيين الى فترة طويلة ، جعلت الامور تتداخل ، والأحكام تمتزج الى حد غدا فيه من المحال التمييز في عقولهم بين ريموند خصمهم وريموند العسكري المجرب والاستراتيجي الخبير .

وتشير المصادر الغربية الى أن في حوالي منتصف الليل انقضى الاجتماع ، وانصرف البارونات الى خيمهم ظانين بأن المسألة قد تقررت ، وهم على ثقة تامة بأن الجيش لن يتحرك الآن ، وسيبقى تلك الليلة في معسكره حتى يجد جديد فيجري بحثه ، وجلس الملك في سرادقه يروح عن نفسه الى ساعة متأخرة من الليل ، وما كاد يفرغ من ذلك حتى دخل جيرالد مقدم الداوية ، وخاطبه بقوله : « هل تصدق ما قاله هذا الخائن ، وتؤمن بما قدمه من مشورة وآراء ، إنه

عار عليك أصلا أن تستمع اليه ، وأن يقوم بتقديم النصيحة لك ، وإنه أيضا لعار عليك عظيم ، كما هو مهين بالنسبة لك ـ وأنت الذي توجت ملكا منذ زمن غير بعيد ، واستطعت رغم ذلك حشد جيش كبير لم يجتمع مثله لملك قبلك في هذه الأرض ـ أن تتراخى وتتهاون ، وتدع مدينة ، هي على بعد ستة أميال منك ، نفقدها لعدونا ، إن هذه أولى المهام التي القيت على عاتقك ، وأول الواجبات التي عهد بها اليك ، منذ جرى تتويجك ، وأعلم جيدا ، قبل أن ترى ، بأن الداوية سيخلعون اقبيتهم البيضاء ، ويبيعونها او يرهنونها ، مالم ينتقم من المسلمين ما حل بي وبهم من عار واذلال (يشير الى واقعة الناصرة) امض ، وأعلن في الجيش كله ، بأن على كل رجل حمل سلاحه ، والانضمام الى جماعته ، للانضواء تحت لواء الصليب المقدس .

ولم يتجرأ الملك غي على معارضته ، ونفذ كل ما أمره به ، لأنه كا ن يحبه ويخشاه ، حيث أنه هو الذي نصبه في الملك ، وأعطاه الأموال التي بعث بها ملك انكلترا .

ولم يكن تأثير ضعف الملك غي وعجزه ، على جماعته حاسما بشكل مميت مثلما كا ن تلك الساعة من بعد منتصف الليل ، فقد كان هو القائد العام ، وكان كل شيء متوقفا على قراره وعليه شخصيا كما عرف جيرالد بشكل واضح ، ولقد تمكن جيرالد ببراعة فظة من جعله يشعر أنه مدان للداوية ولمقدمهم جيرالد ولجميع الذين صنعوا منه ملكا ، ولا شك أن هذه قد كانت نقطة حساسة جدا ، ففي الماضي ، قام جيرالد ، بتنصيبه ملكا على القدس ، رغم أنف جميع البارونات فكيف يمكنه الآن مخالفته ؟ يضاف الى هذا أن مقدم الداوية دغدغ عواطفه واستثار شجاعته وحرضه ، ذلك أن الملك غي رغم كل شيء كان من فرسان الفرنجة ، يحمل الطباع نفسها ، ولم يكن جبانا ، بل مغامرا متهورا ، ومع ذلك عرف جيرالد كيف يجعله العوبة بين يديه ، ولهذا اقدم غي في تلك

الساعة المتأخرة من الليل ، أقدم دون تردد ، على اصدار الأوامر لمن كان حوله بإزالة معسكرهم ، وحمل السلاح للزحف نحو الأمام .

وقضت قوانين الفرنجة وتقاليدهم ، أن مثل هذاالقرار كان بعد صدوره لا يمكن نقضه او التراجع عنه ، وفي الحال شرع الجيش بالتحرك نحو طبرية ، وبات من المحال تغيير الخطة ، وصار الأمر الآن طبرية أو الكارثة ، ولكم هو مدهش وضع الفرنجة ، أن يرفض ملكهم نصيحة ريموند وهو على انفراد بعد ما أعلن عن قبوله لها قبيل سويعات في مشهد عام ، أن يتخلى عن ذلك كله نتيجة لضغط جيرالد عدو ريموند ، منذ أن حرمه الأخير من زواج موعود « بسيدةالبترون » وذلك قبل ست سنوات مضت ، وذلك حسب تصريح المؤرخ الفرنجي الذي شهد هذه الأحداث ، ولذلك دعاه بـ « الرجل الذي ضاعت الأرض على يديه ».

كانت ساعة اصدار الأوامر اسوأ ساعات الليل ، فيها ترتخي الأجساد ، وتهبط المعنويات ، وتكثر الأحلام ، ولهذا يخبرنا المؤرخ الفرنجي بأن الانزعاج بين الفرسان كان كبيرا جدا ، عندما سمعوا بأوامر الزحف ، وأصر بعضهم على معرفة من دفع الى اتخاذ هذا القرارالمفاجي ، وما الذي بعث على تغيير الخطط السالفة ، لكن الملك رفض إخبارهم ، وقرر عدم تقديم أية ايضاحات ، واصر على ما أصدره من أوامر ، لذلك عبثا حاولوا الضغط عليه لثنيه عن قراره أو التراجع عنه ، فأطاعوه مكرهين والحزن يملأ قلوبهم ، أو حسب عبارة المؤرخ الفرنجي : « أطاعوه لأنهم كانوا رجال صدق وأصالة ، ونفذوا أوامره ، ولربما كان خيرا لهم وللمسيحية لو أنهم رفضوا إطاعة أوامره ».

ويستخلص من رواية هذا المؤرخ أن رجال الفرنجة تهيأوا للزحف في ساعات ما قبل الفجر ، وهو ـ كما قلنا ـ وقت تكون شجاعة الرجال فيه في أدنى المستويات انخفاضا ، وانتشر الشعور باليأس ، وتوجس الشر ووقوع الكارثة ، بين صفوفهم ، وترك هذا

الحال أثاره العميقة ليس على مؤرخنا القديم بل حتى على كتاب العصر الحديث في الغرب ، لهذا أسرف وأسرفوا في ايضاح الحالة النفسية لعساكرالفرنجة ، ولا شك ان كميات القصص المروية ، وفي كل منها نبوءة بالكارثة ككل أو شطر ، ما يعكس الأحوال النفسية المتدهورة للصليبيين ، خاصة وأن معظم هذه القصص جرت روايته فيما بعد.

ومفيد لنا أن نسرد وقائع احدى القصص ، ففيها ما يقدم صورة واضحة لحالة الهياج والاضطراب النفسي والهلع الذي ساد بين صفوف الفرنجة : قيل بأن واحدا من مشاة المؤخرة القى القبض على امرأة مسلمة ، فأعلن انها كانت ساحرة ، وظفها صلاح الدين وبعث بها لتلقي بسحرها على الجيش الصليبي ، وانتشر الخبر ، وهاج الجيش وماج ، واضطرب الحال ، وفقد الجميع السيطرة على عقولهم ، وجرى ايقاد نار عظيمة لاحراقها ، وقيل بأنها ألقيت في النار فلم تؤثر بها ، وزاد الاضطراب والهياج حتى قيل بأن الرجال والخيول على السواء تاثروا بسحرها ، ولقد اقدم أخيرا أحد الرجالة فاجتث رأسها ببلطة هولندية كانت بيديه ، وتناثر دماغها في كل مكان ، وأصاب دمها الكثيرين ، حتى رفضت الخيول ملامسة الماء طوال النهار والليل قبل أن يتحرك الجيش ، ثم تخلت عن خيالتها في اليوم التالي...

لقد كان الجيش الصليبي مؤلفا من ثلاثة أقسام ، ففي المقدمة سار ريموند ، على أساس رتبته ، وبسبب أن الزحف كان في أراضيه ، ووقف الملك في القلب ومعه رجاله وفرسانه وصليب الصلبوت محمولا من قبل اساقفة عكا واللد ، وبقي في المؤخرة « بالين صاحب ابلين » ومعه فرسان الداوية .

في صباح يوم الجمعة الثالث من تموز بدأ زحف القوات الصليبية ، وكان معسكرهم مرصودا من قبل المسلمين ، لذلك نقلت الاخبار سريعا الى صلاح الدين ، الذي ما أن سمع بالأخبار حتى سر سرورا كبيرا ، ذلك أن ما خطط له بدأت علامات النجاح المتأمل

له بالظهور ، وكان يشرف على فتح طبرية ، وعلى الرغم من أن رجاله كانوا قد شرعوا في فتح ثغرة في أسوار قلعة طبرية ، وأن القلعة اشرفت على السقوط ، فإنه ترك طبرية ، والتحق على الفور بالجزء الأكبر من جيشه المقيم تحت الشرف الكبير الى الغرب من طبرية ، وترك شحنة صغيرة لتتولى أمر المدينة ومتابعة حصار القلعة ، ووضح الآن أن طبرية لم تكن هدف صلاح الدين الحقيقي ، وعندما بلغه الخبر صرخ قائلا : « جاءنا مانريد ، ونحن أولو بأس شديد ، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ، ولا عن فتحه وازع » .

وبمجرد مغادرة الصليبيين للصفورية في طريقهم يريدون طبرية ، بدات التوقعات المعزوة لريموند ، تظهر صحتها ، والأهم من ذلك ان التكتيك « الفرثي » (أي نظام فصل أسلحة الجيش الصليبي عن بعضها) ظهر بوضوح لانظير له ، وطبقه صلاح الدين بشكل مثالي ، إنما بصعوبات كبيرة وأعمال معقدة جدا ، المهم أنه نجح كما سنرى في فصل سلاح الفرسان عن سلاح المشاة ، وانزل ضرباته المدمرة بكل منهما على حدة .

فمع تقدم الجيش الصليبي ببطء ، اخذت كتائب من القوات المسلمة ، خاصة من الخيالة النبالة تناوشه من جميع الأطراف ، وتتحرك بتحركه ، واستمر هذا طيلة الصباح ، ولم تلبث الشمس أن ارتفعت في قبة السماء ، وهنا ارتفع الحر ، وازداد العطش ، وعظم ، ولم يكن هناك ماء ، وواضح أن التحرك المفاجيء للجيش ، وصدور الأوامر إليه بعيد منتصف الليل ، وتخيل قادة الفرنجة أنهم سيكونون في طبرية مع إشراقة الصباح ، كل هذا جعل أفراد الجيش الصليبي لايحملون معهم الماء ولاحتى المؤن ، ولعله اثناء معسكرته في صفورية لم يكن لديه أوعية لحفظ الماء ونقله ، ذلك أن معركة حطين كانت بالفعل معركة الماء .

وعلى هذا لم يكد الصليبيون يسيرون قليلا حتى أخذت نبال المسلمين تعقرهم والعطش يعضهم ، وساروا مصابرين في ظل هذه

الحالة الصـــعبة حتـــى وصـــلوا أخيرا إلى مـــكان عرف باسم « لوبية » وهي واقعة في حوالي منتصف المسافة إلى طبرية ، وكان الوقت أنئذ منتصف النهار ، وهنا ازداد ضغط كتائب صـلاح الدين عليهم من كل ناحية ، فقد بدأ تنفيذ مرحلة جديدة حاسمة مـن الخطة ، وازداد العطش الحارق في تلك الســاعة ، وأصـبح الحـر لايحتمل ، ولنتذكر مجددا هنا بعض الحقائق :

لقد غطى الحديد جسد كل فـارس ومـطيته ، كمـا أن أجسـاد الرجالة كانت أجزاء كبيرة منها مغطاة بوسائل واقية مـن اللبـد أو الجلود أو المعادن ، وسبب هذا ضيقا شديدا لكل واحد من عسـاكر الصليبيين ، ليس لأن وزن الدروع كان كبيرا ، بل لأن هذه الأثواب على مختلف أنواعها كانت تحد من حرية حركة الانسان ، وليتصور أحدنا نفسه موضوعا داخل قالب معدني أو غير معـدني ، ولوقـت طويل ، وسط حرارة شديدة جدا ، مما يزيد الضيق ضـيقا وينهـك أقوى الأجسام ، وفوق هذا كله وأهم ، مشكلة التعرق ، فما ارتـداه الفرنجي حال بين جسده وبين التعرق ، وسد مسـام الجلد ، لهـذا قامت تقاليد أهالي بلاد الشام على ارتداء الثياب الرقيقة البيضـاء الفضفاضة في موسم الصيف .

وسـلف بنا أن ذكرنا أن فـرسان الداوية سـاروا في مـؤخرة الجيش ، وفي منطقة لوبية شـدد المسـلمون الضـغط على الداوية ، وكانت ضرباتهم موجهة إلى درجة دفعـت الملك غي إلى إصـدار أوامره بنصب الخيم وإقامة المعسكر ، والمسألة الآن ليست في حقيقة أن الجيش الصليبي بـات الآن على مسـافة قصـيرة مـن الماء ، فالنقاش هنا لايدور حول قرار الملك إقامة المعسكر ، فالضغط لاشك كان شديدا من كافة الجوانب ، لكن القادة الكبار لايتخذون قرارات الانتحار لأنفسهم ولجيوشهم بعد سويعات من الحرب ، فمن الوجهة الاستراتيجية هناك إجماع على أن إقامة المعسكر في ذلك المكان كان غلطة مميتة ، وانه كان على الصليبيين الصبر والاندفاع بـأي ثمـن نحو الماء ، وهنا نلاحظ في الكتابات الغربية أن كل فريق من الجيش

الصليبي وجه اللوم للفريق الآخر حول اتخاذ هذا القـرار ، وبصرف النظر عن ذلك ، إن إقامة المعسكر في لوبية وضع الجيش الصليبي داخل طوق للحصار فرضه المسلمون ، ولم يعد بإمكان الفرنجة العودة إلى صفورية ، وبات التقدم عملا انتحاريا ، لكنه المخرج الوحيد ، ذلك أن البقاء داخل المعسكر ـ وليس هناك أمل لابالنجدات ولابسواها ـ كان يعني الموت البطيء جوعا وعطشا او الاستسلام الجماعي .

ويختلف المؤرخون اللاتين حول تحديد الشخص المسؤول عن إعطاء اوامر التوقف وإقامة المعسكر ، ولاشك أن مثل هذا امر طبيعي في ظل تلك الظروف الصعبة ، فمع ازدياد صعوبة الزحف لابد أن الرجال الذين رووا أخبار الأحداث ، قد تداخلت معلوماتهم واضطربت ، بسبب سوء الأحوال ، يضاف إلى ذلك أن كل واحد من الرواة كان كما هو متوقع في طرف من أطراف الجيش ، ورأى الأمور من زاوية خاصة ، وبصرف النظر عن هذا كله ، فالذي يأتي بالدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لنا حقيقة مفادها أن قرارا بالتوقف قد صدر بصرف النظر عمن أصدره او أشار به ، والطريف هنا هو أن بعض كتاب الغرب اتهم مجددا ريموند بأنه قدم للملك مشورة فاسدة سببت اتخاذ هذا القرار ، ولنقم بالبحث في هذه المسألة ، ففي ذلك فائدة كبيرة في اطلاعنا على أحوال الفرنجة ، وبعض الدوافع للتوقف والأهداف .

ويذكر صاحب تكملة تاريخ وليم الصوري وسواه انه عندما وصل الجيش إلى نقطة قائمة في منتصف الطريق بين صفورية وطبرية ، حسب الوصف السالف ، سأل الملك غي كونت طرابلس أن يقدم مشورته حول الوضع ، فاستجاب بأن أشار عليه بالتوقف حيث هو ، ويقيم معسكره ، وتجمع جميع المصادر الغربية على وصف هذه المشورة بالفساد والخيانة ، لكن مصدرا واحدا بينها يوحي بأن التوقف كان بقصد لم شتات القوات وجمعها بقصد القيام بهجوم عام ، وأن مثل هذا الهجوم لو تم لحقق النصر على المسلمين .

قد يكون هذا صحيحا ، إنما من الملاحظ في أخبار الكثير من المعارك التي حدثت في العصور الوسطى أن إصدار بعض الأوامر في الساعات الحرجة ، ثم تبديل أماكن بعض القطعات أو تراجع بعضها أو ما يشابه ، كان يسبب الفوضى ويقود إلى الهزيمة ، على كل حال يقدم صاحب هذه الرواية المزيد من التفاصيل ، ويذكر بأن ريموند أشار على الملك بالتحول عن الطريق التي كان يسير عليها ، واخذ طريق أخر ، فقد أصبح الوقت متأخرا للوصول إلى طبرية ، بسبب المناوشات والهجمات المستمرة لكتائب الاسلام ، ثم لم يكن هناك اي ماء في لوبية ، واخبره انه وراء التلال إلى اليسار هناك قرية اسمها حطين فيها عدد كبير من الينابيع ، فهناك من الممكن المعسكرة لمدة ليلة ، ومن ثم يستأنف الزحف في اليوم التالي إلى طبرية براحة ودونما عناء ، ووافق الملك على هذا الاقتراح ، لكن حسب راي المؤرخ كانت تلك المشورة فاسدة ، فلقد كان لدى الصليبيين أنذاك ما يكفي من القوة لهزيمة المسلمين ، أو على الأقل شق طريقهم نحو طبرية حيث الماء .

ويتابع عرضه بأن الملك غير طريقه ، وانحرف نحو التلال القائمة الى جانبه ، انما حدث اثناء تغيير الاتجاه أن فقد الجيش نظامه وتماسكه ، مما شجع المسلمين وجعلهم يزحفون من جميع الجهات لتمزيقه قبل أن يتمكن من الوصول إلى الماء ، وقد توقف الصليبيون على هضبة في مكان عرف باسم قرن حطين ، وهنا توجه الملك غي بالسؤال ثانية الى ريموند: ماذا عليه أن يعمل ؟وأجابه ريموند هذه المرة ، بأنه لو سمع نصيحته منذ البداية ، لما خسر نهاره ، لكن الآن تأخرت الأمور ، ولم يبق امامه إلا ـ كما قال ـ أن ينصب معسكره هناك على قمة الهضبة ، وهذا مافعله غي .

من الواضح أن المكان الموصوف في هذه الرواية هو الأرض القريبة من قرني حطين ، حيث ـ كما قال هذا المؤرخ نفسه ـ قامت المعركة في اليوم التالي وأن ريموند قد حرض الملك على اجتياز الممر الواقع إلى الغرب ـ كما سبق وصفه ـ إلى

حطين والماء ، وما يعنينا هنا هـو تغيير الملك لاتجـاهه وتخليه عن الطريق المباشر إلى طبرية ، وحيث أن ريموند كان على راس مقدمة الجيش يبدو أنه اشار بتغيير الاتجاه ، ونفذ فوصل إلى قرب الممـر الى الماء ، لكن الجزء الاساسي من عساكر الجيش مع قوات المؤخرة كانوا بعيدين في الخلف ، ولعل عملية الانحراف إلى اليسـار أو إلى الشمال تمـت في لوبية ، وأن الجيش والملك تعـذر عليهمـا اللحـاق بريموند ، فصـدر الأمـر بـالمعسكرة هناك في لوبية ومنطقتهـا لأن الجيش كان كبيرا ويحتاج إلى رقعة واسعة من الارض ، ويبـدو انه بعدما صدرت الأوامر بالمعسكرة تراجع ريموند مع المقدمة أو جـرى استدعاءه ، وعلى هذا نجد أن ما ذكره هذا المؤرخ من ان المعسـكرة جرت على قرن حطين ، ليس صـحيحا ، يضـاف إلى انـه لاتـوجد روايات أخرى تشير إلى ذلك ، ثم إن هـذا الخبـر لايتمـاشى مـع مجريات اليوم التالي .

وفي رحلة لمؤلف مجهول (جرى نشرها في لندن سـنة ١٨٧٥ م ، وتعرف عادة باسم ليبلوس وصف فيهـا صـاحبها الأراضي المقـدسة) رواية عن معـركة حـطين ، لعلهـا نقلت عن شـاهد عيان حضر الحوادث وشارك بها ، وكان في المقدمة مع ريموند ، كما انه كان من المؤيدين له والمدافعين عنه ، وتتشابه هذه الرواية من بعض الجوانب مع رواية تكملة تاريخ وليم الصوري ، إنما مع فـارق بـالتفاصيل ، فهي مختصرة ، ورواية التكملة واسعة ، وقد جاء فيهـا : « عندمـا وصل الجيش لوبية ، أشار الكونت على الملك ان يسرع الخطى فوق مكان صخري ضيق طوله قرابة ميل واحد ، حتى يتمكن من الوصول إلى بحيرة طبرية والماء ، وأخبـره انه إذا لم يفعـل ذلك ، سـيموت وجيشه عطشا » .

ويبدو أن الممر المقصود هنا هو الموجود إلى غربي قرني حطين ، الذي رجحنا وصول ريموند على راس المقدمة إليه ، والجدير بالذكر ان صاحب هـذه الرواية لايوجـه اللوم إلى ريمـوند لتقـديمه رايا فاسدا ، بل يخالف الروايات الاخرى فيوضـح بـأن الملك حـاول في

البداية اللحاق بالكونت ريمـوند ، لكنه عندمـا رأى حـركة الجيش البطيئة والفوضى الناجمة عن تغيير الاتجاه ، ثم ما نزل بـالداوية في المؤخرة ، الذين ضغط عليهم بشـدة متناهية ، حتـى أنهـم بـاتوا عاجزين عن متابعة القتال والحركة ، عندها أمر بالتوقف ، وبنصب الخيم ، وأن ريمـوند عندمـا شـاهد ذلك صرخ : « واحسرتـــاه ، واحسرتاه ، ياإلهي ، انتهت الحـرب ، لقـد خـانونا ، ودمـــرت الديار » ،ومعنى هذا أن ريموند كان ضد التوقف في لوبية .

ومهما يكن اسم الرجل المسؤول ، يستخلص من جملة ما جـرى عرضه أن جيش الفرنجة زحف مـن صـفورية ، يريد طبـرية عبـر الطريق المباشر ، فاعترضه المسلمون وأحاطوا بـه ، ووجهـوا إليه الضربات المميتة ، ولم يكن مع الفرنجة ماء ولا مـؤن كافية ، وكان اليوم شديد الحرارة ، وعند الوصول إلى منتصـف الطـريق ، حيث حمل المكان عموما اسم « لوبية » تقرر تغيير الاتجاه نحـو اليسـار نحو قرية حطين حيث بعض الماء ، مع ممـر يمـكن النفـاذ منه إلى طبرية ، وأدى قرار تغيير الاتجاه إلى خلل شـديد في نظـام الجيش الزاحف ، وهنا ازدادت ضراوة هجمات المسلمين ، وبات من المحال متابعة التحرك ولم يكن هناك مجال للهزيمة ، لذلك أصدر الملك الأمر بالتوقف والعسكرة .

ومن المرجح أن تكملة تاريخ الصوري كتبت من قبل أرنول جـون سيد بالين أوف ابلين ، وهو رجل كان موجودا في المؤخـرة ، ورغم التفاصيل التي قدمها فإن معلوماته عن مقـدمة الجيش ربمـا هـي مغلوطة ، يرجح عليهـا الرواية التـي أوردهـا صـاحب ليبلوس ، ولايهمنا هنا من يوجه إليه اللوم حول قرار التوقف ، بقدر مـا يهمنا الحكم على هذا الاجراء ، ثم التنسيق بين مختلف الروايات والافادة منها جميعها إلى أبعد الحدود .

المهم الان أن قرارا بالتوقف جرى اتخاذه وتنفيذه ، وبـات الآن على اللاتين مواجهة ليلة ليلاء ، وهم تحت السلاح ، دونما أدنى أمل بتحصيل الماء لاطفاء عطشهم القاتل ، وكانوا مطوقين تماما من قبل

المسلمين ، الذين بـدوا محـاولتهم الأولى والوحيدة للوصـول إلى الأراضي المنخفضة ، وبات أن يجربوا ثانية ، أمرا لايمـكن مجـرد التفكير به . ففكا الفخ اغلقا بإحكام حولهم .

وإذا نظرنا الآن إلى الوراء ، كما فعل كتاب الروايات الغـربية ، لاهتمامنا بما جرى داخـل المعسـكر الصـليبي في تلك الليلة الليلاء واخذين بعين الاعتبار رعبها وشدتها مع ما حدث في اليوم ، نجد من السهل الاقدام مباشرة على ادانة قرار التوقف لتمضـية الليل في تلك الهضبة الجافة ، والماء على مسـافة قصـيرة إلى الشـمال عبـر الهضبة . لقد صدر قرار الادانة بعد التوقف وتفحص الموقـف ، ولم تكن هناك معارضة له ساعة صدوره ، بل لربما يمكن القول بأن قرار التوقف صدر لتقرير أمر واقع ، فقسم كبير جدا من الجيش كان قد توقف عن الحركة ولم يكن أمامه فعل غير ذلك ، واضطر أفراده إلى نصب الخيم للاستراحة وللوقاية من حر الشمس ، ويبحث المؤرخ في ايامنا فيما حدث ، ولايهمه كثيرا ما يتمناه بعضهم لو أنه حدث أو لم يحدث فلا مكان لعبارة « لو» في التاريخ ، وللانصاف نستخلص من مختلف الروايات بأن جهودا مضنية وجدية بذلت للوصول إلى الماء ، وأن مقاومة الصليبيين استمرت إلى النهاية ، ولم يحـدث انهيار في العزائم والقوى ، وهذا بحد ذاتـه هـام جـدا ، وفيه دلالة على أن النصر الذي ناله صلاح الدين في حطين ، كان باهظ الثمن تـم بعـد جهود غير محدودة ، وهنا تظهر عظمته ودوره الحـاسم ، كمـا أن الذي يهزم جيشا من الشجعان ليس كمن يهزم الجبناء .

لقد كانت وقـائع اليوم الاول للزحـف رهيبـة ، وبلـغ الانهـاك الجسدي عند الصليبيين حدا عاليا ، وكانت النهاية محتومة ولايمكن الحيلولة دون تحطيم المؤسسـة العسـكرية اللاتينية ، هنا انتصرت العقيدة القتالية للمسلمين بعد سـلسلة مـن الهـزائم السـالفة ، انتصرت لأن تطبيقها جرى بشكل نموذجي .

لقد زحف الصليبيون من صفورية ، يشـكلون جيشـا عمـلاقا ، تخيلوا أنه لن يقهر ، وأن ما من قـوة على وجـه الارض يمـكن أن

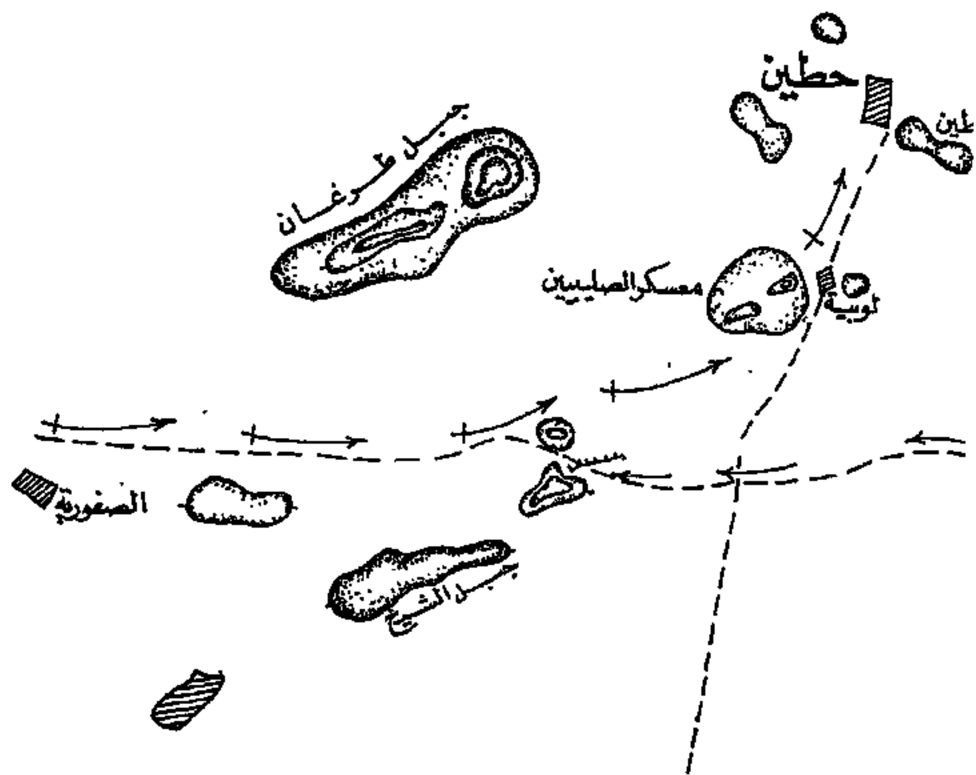
تتصدى له وتعترض سبيله ، سار قادته على الطريق المباشر نحو طبرية ، وهم يخيل إليهم الوصول إليها في سويعات ، لهذا لم يفكروا باصطحاب الماء والمؤن الكافية ، ولكن فاتهم أن الشجاعة بلا عقل حماقة ، وأن العقل قادر على قهر جميع القوى ، ساروا عبر أرض لم يقع اختيارهم عليها ، بل فرض الأمر عليهم فرضا ، ولهذا ما أن زحفوا قليلا حتى وجدوا الأمر صعبا جدا ، فالحر والعطش ، والذشاب والنار ، والسيوف ، وأعمال الانقضاض الجريئة ، بدت أعظم من قواهم ، ووضح بعد قليل من الوقت أنهم لن يتمكنوا من تجاوزها ، وغرقوا في بحر من الفوضى والتعب ، صحيح أنهم صاروا على مشارف طبرية ، لكنهم وجدوا الجسم الاساسي من جيش المسلمين واقفا بانتظارهم يسد جميع الممرات ، فتبعوا هنا رأي ريموند أو سواه فتخلوا عن الطريق المباشر ، وقرروا الانعطاف نحو أقرب النقاط التي فيها ماء ، أي إلى حطين ، التي جثمت هناك إلى اليسار منهم في أعلى الهضبة ، انعطفوا وكلهم أمل بالخلاص ، ولم يدر بخلدهم أن صلاح الدين ترك هذا الممر ، يبدو وكأنه مفتوح ، فذلك كان مرحلة تنفيذية جديدة في الخطة ، وشرك جديد منصوب ، انعطفوا فدبت الفوضى بين صفوفهم ، ووقف المسلمون مجددا حولهم وأمامهم في الطريق ثانية ، وصار الوضع الآن إما الاشتباك في معركة عامة أو الاستراحة هناك حتى تنقضي الليلة ، والسؤال الآن : هل كان بإمكان الفرنجة الدخول في معركة التحامية بعد عناء ذلك النهار ، صحيح أن ريموند قد يكون قد توصل إلى الممر في الأعالي ، لكن من يمنع من الافتراض ـ استنادا لوقائع اليوم التالي ـ أن الطريق أخلي أمامه ، وأن صلاح الدين كان يريد قطعة عن جسم الجيش الصليبي لمعرفته بقدراته القتالية وعظيم خبرته بالتكتيك ، وشجاعته .

لقد حدث التوقف ، وكانت ليلة لوبية رهيبة ، لكن النهار الذي تلاها كان أكثر رهبة ، لم يلمس الصليبيون في تلك الليلة ولا خيولهم الماء ، بينما كان المسلمون من حولهم في راحة وتمكن ، حيث كانت قرب وروايا الماء تنقل إليهم على ظهور الجمال من البحيرة

باستمرار ، وتبعا لبعض الرواة أمر صلاح الدين بصب بعض الماء على الأرض على مرأى ومسمع من الصليبيين ، ليزيد في عذابهم ، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كافة الجهات ، وكانوا قريبين منهم إلى درجة أن سنورا لم يكن بمقدوره النجاة من داخل المعسكر الصليبي ، ولم تتوقف الهجمات واطلاق النشاب والمواد المحرقة ، واصغى الصليبيون طوال الليل إلى أصوات المسلمين تنادي : الله اكبر ، لا إله إلا الله ، ولذلك – حسب قول المؤرخ اللاتيني – لم ينالوا إلا قليلا من الراحة ، وفي ظلمة الليل غرقت امالهم كلها ، وزالت معها شجاعتهم ، أو لنقل ما بقي لديهم من شجاعة .

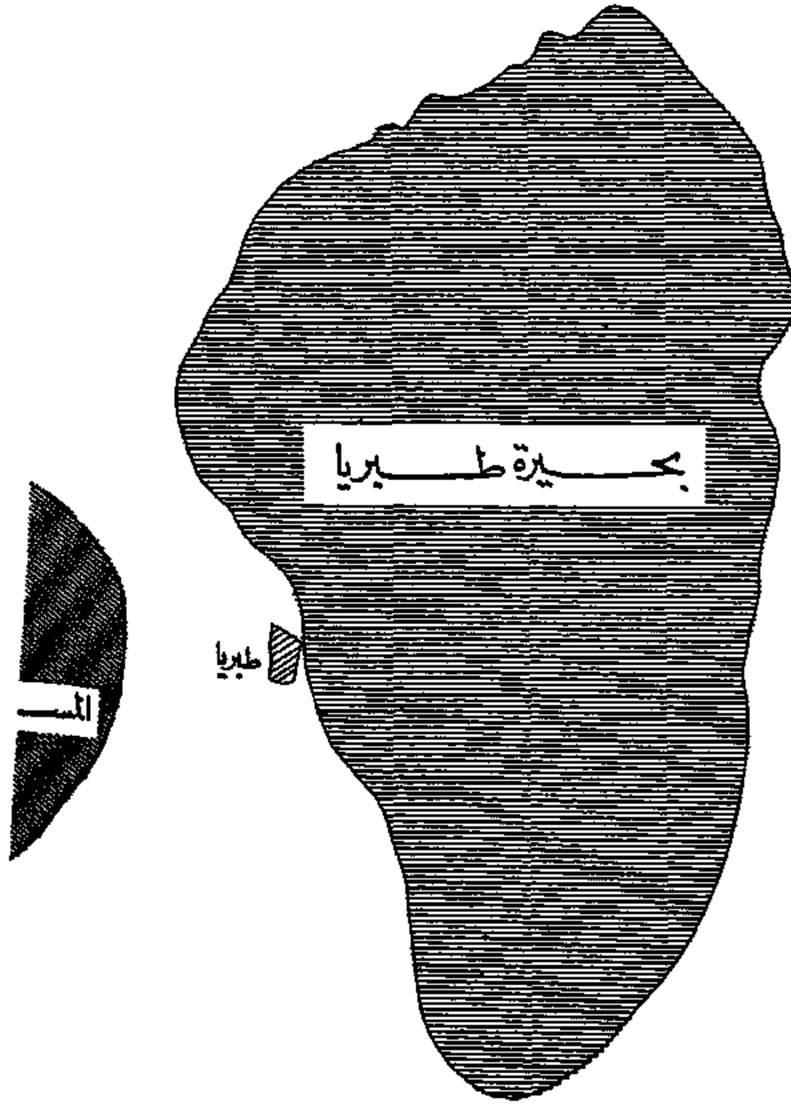
وكما قلنا اختلف حال المسلمين عنهم تماما ، فقد كانوا في غاية السرور ، يهللون ويسبحون ويتوجهون بالشكر إلى رب العالمين ، لقد كانوا حتى الآن يخشون الصليبيين ويهابون اللقاء بهم ، لكن في هذه الساعة ، يقودهم صلاح الدين ، عندما رأوهم داخل الشرك الذي نصبوه لهم ، قويت قلوبهم ، وازدادت ثقتهم بأنفسهم ، وحقا صنع المؤرخ الاسلامي العماد الكاتب حين وصف تلك الليلة وأحوال الفريقين بقوله : « وحجز بينهم وبين الماء ، واليوم قيظ ، وحجز الليل بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين ، وهبت دركات النيران ، وهنئت درجات الجنان ، وانتظر مالك ، واستبشر رضوان فهي – ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح – وفي سحرها نشر الظفر يفوح ، وفي صباحها الفتوح ، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم : – فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة – وبتنا والجنة معروضة ، والسنة مفروضة ، والكوثر واقفة سقاته ، والخلد قاطفة جناته ، والسلسبيل واضح سبيله ، والاقبال ظاهر قبيلة ، والظهور قائم دليله ، والله ناصر الاسلام ومديله » .

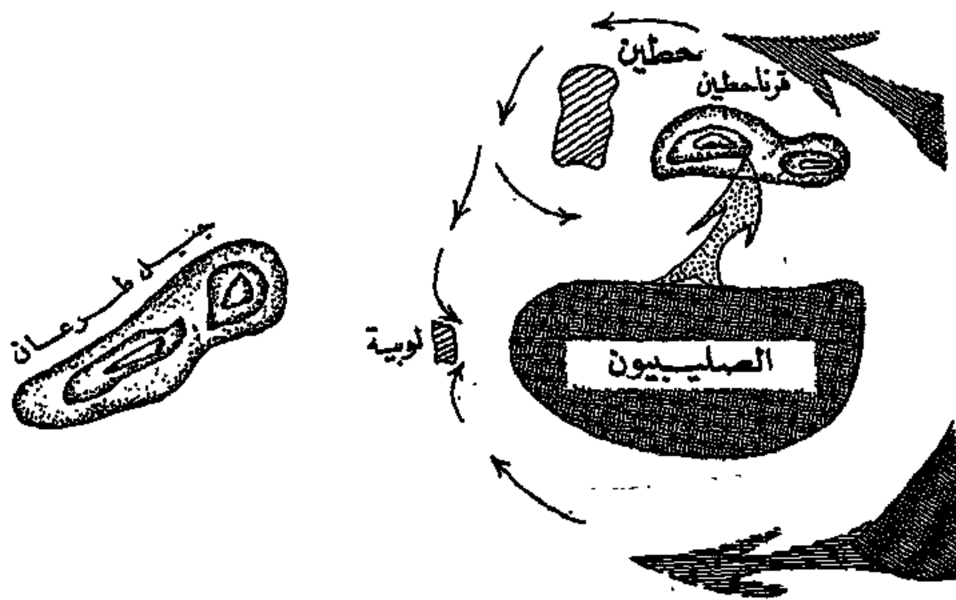
ولقد روي بأن صلاح الدين سهر ليلته بطولها ، وهو يشرف على ترتيبات المعركة لليوم التالي ، فقام بتوزيع جند المقدمة والطلائع لكل كتيبة ، وعين الرماة ، وزودهم بالسهام ، وكان ما فرقه من النشاب



حطين
جبل طرغان
معسكر الصليبيين
لوبية
الصفورية


بحيرة طبريا
طبريا


بحيرة طبريا
طبريا


حطين
قرنا حطين
جبل طرعان
لوبية
الصليبيون

اربعمائة حمل ، وأوقف « سبعين جمازة في حـومة الوغى ، يأخـذ منها من خلت جعابه ، وفـرغ نشـابه » ، واعد الجند اسـلحتهم ، وصلوا لله وتوجهوا إليه بالدعاء والحمد ، وكلهم امل وثقة بالفرج ، واستنزلوا النصر من عند الله ورجوا عونه وإعزاز دينه».

وفي صباح يوم السبت الرابع من تموز ، كان الفريقان جـاهزان من أجل الصراع النهائي ، ولا شك أن كل منهما أدرك أن مسـتقبل المملكة اللاتينية والوجود الصـليبي في المشرق متـوقف على نتيجـة الصراع ، ونعود لنذكر انه من حيث التعداد والقـدرة القتـالية كان الجيشان ما يزالان متعادلين تقريبا ، لكن بينما كان المسـلمون قـد نالوا قسطا من الراحة ، وكانوا واثقين ــ دون غرور ــ بـأنفسهم بدرجة كبيرة لم يعرفوها من قبل ، كان الصليبيون طـوال يوم وليلة بلا ماء ، لم ينل رجالهم ولا الخيول راحة كافية ممـا عانوه في اليوم السابق ، ولاشك أن هذا عامل كان له فعاليته في المعركة .

لقد كان سلاح الفرسان الصليبي مايزال على حـاله مـن القـوة والقدرة على الخرق ، ويبدو أن خـطة عمـل الفـرنجة قـامت على الانقضاض ثانية من أجل الوصـول إلى الممـر إلى الشـمال مـــن القرنين ، وللوصول إلى الماء مهما كان الثمن ، وكانت المنطقة وعرة لامجال فسيح فيها لعمل الفرسان الثقال وحملتهم ، وأدرك صـلاح الدين هذا ، وهنا ظهرت عبقريته مجددا ، وكان ريموند الثالث كمـا سبق التبيان في المقدمة ، ومعه أبناء زوجته الاربعـة وريمـوند أمير انطاكية وفرسانه ، ومن جديد استخدم المسلمون التـكتيك الفـرنجي المعتاد ، وأرادوا استدراج الفرسان إلى مـا ظنوه « مجـالا رحبـا للحملة » وعزلهم عن الرجالة ، وكان صلاح الدين يرغب في تـأخير العمل حتى تصبح الشمس في كبد السماء ، على أساس ان الحرارة كانت أكثر الأسلحة تاثيرا ضد أعدائه الصليبيين ، وفتحـت قـوات صلاح الدين الطريق قليلا ، وافسحت المرور به ، إنما دون أن تكون لديها الرغبة في تلك الساعة بالسماح لمقدمة الفـرنجة بـالوصول إلى اهدافها او النجاة ، ونتيجة لهذا وصل ريموند إلى الممر ، لكنه وجد

المسلمين هناك سدوا المنافذ كلها أمامه ، وحاول أن يتخطاهم ، ويفتح ثغرة أو منفذا بين صفوفهم فحبطت أعماله ، فقد كان المسلمون جاهزين لاطلاق رماياتهم الكثيفة ، التي مالبثت أن برهنت انها مميتة .

وانحرفت مقدمة ريموند قليلا نحو السهل القائم إلى جنوب قرني حطين ، وتبعها بقية الفرنجة ، وهناك التحمت القوتان الرئيسيتان من الجيشين ، وذلك من حوالي الساعة التاسعة صباحا ، ولقد كان ترتيب الجيش الصليبي ـ بما فيه قوات ريموند ـ مختلفا عما كان عليه الحال في اليوم السابق ، فقد أوكل ... غي أمر ترتيب الصفوف للمعركة إلى اخيه أما لرك ، الذي شغل وظيفة المراقب العام للملكة ، وأوكلت قيادة المؤخرة إلى باليان صاحب ابلين ، كما كان في السابق ، وكان معه بعض الأمراء منهم رينالد أمير صيدا ، لكن لم يكن معه الداوية كما كان الحال في اليوم السابق .

وجاء تنظيم القسم الاساسي من الجيش الصليبي حسب المبادىء العامة التي جرى تبيانها في مطلع هذا البحث ، ولحسن الحظ ، لدينا وصف وثائقي مفصل لذلك ، قدمه أحد الرواة الحضور جاء فيه :« بعد ما جرى تقسيم الجيش إلى وحدات وصفوف قتالية صدرت الأوامر إلى المشاة بالقيام بمهام حماية الجيش بوساطة الرمايات ، وذلك بغية تمكين الفرسان من القيام بمواجهة العدو بسهولة ، وعليه تتم حماية الفرسان من رمايات العدو ، بواسطة المشاة ، بينما يتولى الفرسان حراسة المشاة وحمايتهم برماحهم ، ويمنعون العدو من الانقضاض عليهم ، ويغدو بهذه الطريقة كل فريق أمنا من خلال التعاون مع الفريق الاخر » .

إنما كيف اصطف السلاحان ، وأين كان موضع كل منهما ؟ هذا ما لم تذكره المصادر ، ويمكن لنا أن نتصور ان ذلك كان : بأن تم توزيع المشاة المسلحين بالقسي العقارة والفؤوس في الأمام وعلى الجناحين ، تمهيدا لهجوم الفرسان الثقال ، وعندما حان وقت انقضاض الفرسان ، افسح المشاة السبيل لهم في الأمام ، ثم

مالبثوا أن تجمعوا لحماية المؤخرة والجناحين , هذا ما نستخلصه من مختلف الروايات ، لكن مهما كانت صيغة التشكيلات ، من المهم لنا أن نلاحظ الحاح الكتاب ، واجماعهم على ايضاح مسألة اعتماد الفرسان على الحماية المقدمة إليهم من الرجالة .

وتمركز في قلب هذا القطاع الأساسي من الجيش الصليبي ، الملك غي مع فرسانه المختارين ، وكان الى جانبه صليب الصلبوت يحمله أسقفان ، وكان هذا الصليب هو الينبوع المتبقي لدى الصليبيين ليبعث فيهم الشجاعة والصبر حتى يتمكنوا من خوض غمار ذاك اليوم الحاسم ، وكان بين هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب الملك ، الداوية والاسبتارية الذين كانوا خيرة فرسان الفرنجة ، ولقد عهد الى هؤلاء جميعا بالقيام بالهجوم الأول ضد المسلمين .

وما أن تم الالتحام حتى ضغط الداوية بقيادة مقدمهم جيرالد على المسلمين ضغطا شديدا ، فقتلوا عددا منهم ، وأجبروا قسما منهم على التراجع ، وكان ما بذله هؤلاء الفرسان من جهود كبيرا ومضنيا ، لكن تراجع المسلمين أمامهم لم يكن فرارا ، بل عملا تكتيكيا مرسوما ، لذلك حبطت جهود الداوية ، وكانت بلا مردود يذكر ، وتبددت معالم الخطة الصليبية التي جرت حسب العادة ، لاحسب الحاجة والواقع ، فهجوم الفرسان كان يعوزه الدعم والحماية ، وكان من الممكن للمشاة في السهول تقديم مثل هذا المطلب ، لكن في ظروف حطين حيث المناخ والتضاريس وذشاب المسلمين عجز المشاة عن الاحتفاظ بتنظيمهم الأساسي في مرافقة الفرسان ، وادى إلى عزل فرسان الداوية والاسبتارية وتمزيقهم إربا إربا ، وحدث هذا كله كما يلي :

« عوضا عن أن يبقى المشاة محتفظين بتشكيلاتهم إلى جانب الفرسان ، وذلك عندما زحف المسلمون نحوهم ، تكتلوا في جمع واحد ، واندفعوا إلى جانب أحد التلال(وكان بلا شك واحدا من قرني حطين) وارسل الملك والأساقفة خلفهم ودعوهم للعودة لحماية صليب الصلبوت ـ الأثر الوحيد المتبقي من حادثة

الصلب ـ ولحمـاية جيش الرب ، لكنهـم أجـابوا بـالرفض ، وقالوا :لانستطيع القدوم ، لأن العطش أنهك قوانا ، وأعدمنا القدرة على القتال ، ومرة ثانية بعث يأمرهم بـالعودة فـرفضوا ، وهـكذا تركت خيول الفرسان بلا أية حماية .

ووجد في الوقـت نفسـه الداوية والاسـبتارية والتـركبلي على مجنبتهم ، انهم ما عاد بإمكانهم ايقاف زحف المسلمين الذين تقدموا بتشكيلة غطوا فيها كل الجوانب ، واستمروا في إمـطار خصـومهم بالنشاب ، وبعدما تقدموا لمسافة قصيرة استغاثوا بالملك ، وطلبـوا منه المساعدة ، وقالوا بأنهم لم يعد بإمكانهم الصمود وتحمل اعبـاء القتال العنيف ، لكن عندمـا رأى الملك والذين حـوله بـأن المشـاة رفضوا رفضا قاطعا العودة ، وأنه بدون مساعدتهم ، هم انفسـهم ليس بإمكانهم الصمود أكثر في وجه نشاب المسلمين ، عندهـا أمـر الملك مجددا بنصب الخيم ، من أجل حماية صليب الصلبوت ، وعلى أمل اتخاذ موقف دفاعي في وجه هجمات المسلمين ، فالملك بلا شـك قد أمل بأن الخيم ستكون مكانا لتجمع القوات المبعثـرة ، وتعـوض عن خسارة المشاة ، لكن ما حدث مجددا هو أن المقـاتلين تـراجعوا بشكل فوضوي ، وتجمعوا حول الصليب ، وتركوا فـرسان الداوية والاسبتارية لوحدهم يعانون من الخسائر الجسيمة » .

وهكذا حلت الفـوضى بين الصـليبيين وتحـكمت بصـفوفهم منذ البداية ، بسبب عزل المشاة عن الفرسان ، ونتيجة لهذا أخفقت خطة الفرنجة التي رسموها باحكام ، ونجحت خطة المسـلمين ، وحـدث فصل الاسلحة عن بعضها بعضا ، وصار فـرسان اللاتين الدارعين ومطاياهم بلا حماية من نشاب وسـيوف وحـراب المسـلمين الذين ضغطوا عليهم من كافة الجهات .

لقد كان تكتيك المسلمين رائعا وأعمالهم القتالية مدهشة ، تراهم ساعة في موقف الدفاع ، وساعة أخرى في موقف الهجوم المتحـرك ، وظل كونت طرابلس في المقدمة ، وعندما رأى ما حل بـالملك والداوية والاسبتارية ، وشاهد تداخل قوات الجيش والفوضى الكبيرة التـي

سادت بين صفوفه ، أدرك ومن معه أن لافائدة مـن التـراجع نحـو مكان صليب الصلبوت لحيلولة المسلمين بينهم وبين ذلك ، وهنا نظر ريموند ومن معه كل بوجه الآخر وقـال : « مـن اسـتطاع العبـور فليعبر ، فالمعركة ليست لصالحنا ، ثم إن القتال لايمكن الاسـتمرار به » ، واستمر المسلمون بالاندفاع نحو الصليبيين واحكام الحصار عليهم ، ونشابهم يفتك بهم فتكا شديدا .

وتخلى في تلك الساعة ستة من الصـليبيين عن مـواقعهم بعـدما أصابهم اليأس ، وذهبوا إلى جيش صلاح الدين وأخبـروه بـالحال الصعب الذي كان فيه الجيش الصليبي ، وأعلموه بأن هـذا الجيش لن يستطيع الصمود إلا قليلا ، فالشمس أحرقته ، والعـطش انهـك قواه ، وأسقف عكا أحد الأوصياء على صـليب الصـلبوت أصـيب بضربة قاتلة ، فسلم الصليب إلى اسقف اللد .

واستفاد المسلمون من المعلومات الجـديدة ، ووضـحت صـورة الاوضاع داخل الجيش الصليبي لديهم ، فاندفعوا باتجاه الهضـبة إلى حيث التجأ المشاة ، وضغطوا عليهم لابادتهم قتلا وأسرا ، وهنا حاول بعض المشاة تسلق بعض الصخور على الأطراف ، بعدما قتل اكثرية رفاقهم أو أسروا ، وحتـى هؤلاء الذين « تخلوا عن صـليب الصلبوت ، وعبثا تسلقوا إلى الهضبة واجهوا الموت » .

وعندما رأى ريموند والذين معه هذا الحـال المتـردي ، ازدادوا يقينا بأن المعركة غدت ميؤوسا منها ، وأنه من المحـال العـودة إلى الملك والانضمام إلى صفوفه ثانية ، لذلك قام ومعـه اتبـاعه بحملة يائسة على الجناح المسلم المقابل لهم ، لفتح طـريق للنجـاة ، وكان هذا التصرف منطقيا من بعض الجوانب ، جبانا من جوانب اخرى ، لهذا اجمعت المصـادر اللاتينية على نقـده حتـى صـاحب رواية ليبلوس ، وجه النقد لريموند ، عندما تحدث عن نجاته ، وقال بـأنه أقدم على التخلي عن الصليب المقدس .

المهم ، جمع ريموند أتباعه من حوله ، وكان بينهم ريموند صاحب

انطاكية مع اولاده الأربعة ، وتمكن معهم من تسلق الصخور ، وساعدتهم خيولهم على ذلك ، ثم شق طريقه بين المسلمين ، ووصل إلى الممر الذي سبق له أن حاول احتلاله اكثر من مرة من قبل، وعندما راى تقي الدين قائد ميمنة صلاح الدين المقابلة لهم هؤلاء الرجال وقد تقدموا يائسين من الحياة تغافل عنهم ومكنهم من الفرار ، ثم عاد فأغلق الممر خلفهم ، ولا بدان هذا حدث عند الظهر ، وصحيح ان ريموند صار الان منفصلا عن الجيش الصليبي تماما ، فالذي أفاد من ذلك الجيش الاسلامي : لقد فقد الصليبيون أمهر قادتهم مع عدد كبير من الفرسان ، وغدت الساحة التي كانت تشغلها هذه القوة خاوية ، فاندفع المسلمون إليها وشغلوها ، وبذلك أصبح الطوق المضروب حول الفرنجة محكما وأكثر ضيقا ، واقترب القتال من النهاية .

وكان صلاح الدين مايزال يتابع أخبار القتال بنفسه ، وكان قلقا على نتيجة المعركة ، ذلك أن الفرسان الصليبيين استمروا يقاتلون بيأس ، وهنا تشجع صلاح الدين ، وقرر دفع أكبر القوات ، وبذل غاية الجهد لحسم الموقف ، ذلك أن المعلومات التي تلقاها من الستة الذين التحقوا بجيشه ، مع المعلومات التي جاءته عن فرار ريموند ورجاله ، قد أثارت الحماس في نفسه ، فأمر تقي الدين مع قواته المختارة بالتحرك ، واستغل تقي الدين الفراغ الذي تركه ريموند ، والساحة التي شغرت بعد فراره ، وجاء هجوم تقي الدين بعد الظهر ، وأجبر الفرنجة على التراجع إلى المنطقة الصخرية الصعبة ، لكن المعركة لم تنته ، واستمر القتال عنيفا للغاية .

ولم يكف الفرنجة ما عانوا منه حتى الان من الحر والعطش والذشاب ، فقد تعرضوا الان لمحنة جديدة ، جاءت نتيجة لعبقرية المسلمين المتفوقة ، فقد لاحظ واحد من المتطوعة من جيش صلاح الدين أن اتجاه الريح هو نحو الجيش الصليبي ، فرمى النار في الاعشاب التي كانت تغطي المنطقة ، ونتيجة لهذا نجد أن أولئك الرجال مع مطاياهم ، الذين كانوا بلا ماء لساعات طوال ، وكان قد

انهكهم القتال الشديد تحت الشمس المحرقة ، ضاقت الآن صدورهم ، وكادوا يختنقون من الدخان الذي ملأ الهواء ، لابل ربما فقد بعضهم حياته فعلاً نتيجة لذلك ، ويتساءل الانسان اليوم متى نفذ المسلمون عملهم البديع هذا ؟ فيجد أن ما من اثنين من المؤرخين اللاتين يتفقان في الرواية ، ولا يجد في المصادر الاسلامية ما يشفي الغليل ، وانه لأمر يبعث على الاسف ان مواد المصادر الاسلامية ، خاصة ما كتبه العماد الاصفهاني ، ضاعت تفاصيلها في ثنايا صنعة البديع والجناس ، لهذا جاء جل اعتمادنا على المصادر اللاتينية ، التي روت تفاصيل مفيدة عما جرى داخل معسكر الفرنجة ، وحبذا لو فعل كتاب الاسلام مثل ذلك لاكتملت الصورة بين الطرفين .

يقول واحد من المؤرخين اللاتين بأن النار اشعلت في الصباح الباكر قبيل بداية المعركة ، ويتذكر آخر أن صلاح الدين كان قد أعد المواد المحرقة في الليل قبل المعركة ، ويستخلص من مواد الرواة المسلمين بأن ذلك كان بعد فرار ريموند ، وقد أوضح واحد منهم بأن ذلك كان الضربة الاخيرة التي وجهها المسلمون عندما شرع بقية الفرسان الصليبيون مع ملكهم بالتجمع فوق احد القرنين ، حيث كان من الممكن سجنهم وسط دائرة من الدخان والنار الملتهبة في وجوهم ، ذلك ان شكل القرن كان مستديرا .

واشتد حال الصليبيين سوءا ، وزاد الضغط عليهم وعظم بشكل مؤلم ، فصاروا يعانون أكثر فاكثر من الحرارة والدخان ، وقد انقص شجاعتهم تخلي عدد كبير من الجيش وفراره مع مقتل أعداد كبيرة أخرى من مقاتليهم ، ولهذا تدنت معنوياتهم إلى الحضيض ، لكن رغم ذلك فإن يأسهم اعطاهم بعض الشجاعة التي كانت كافية لمتابعة الدفاع حتى آخر ساعات المعركة ، واضطر بالتدريج هؤلاء الذين لم يقتلوا او يهربوا إلى التراجع إلى أحد القرنين ، ربما نفس القرن الذي التجأ إليه الرجالة من قبل ، وعندما تجمع هؤلاء المقاتلون المنهكون هناك من اجل الدفاع النهائي ، حلت بهم أقسى ضربة مذ دخلوا الحرب ، ضربة المتهم إيلاما شديدا أكثر من الحر

والعطش والدخان والذشاب ، وحتى من الهـزيمة نفسـها ، ذلك أن تقي الدين قد تمكن بهجومه الكاسح ، الذي جاء عقب فرار ريموند ، من الاستيلاء على صليب الصلبوت ، وكانت هذه الخشبة هي مصدر العواطف والمعنويات الوحيد الذي تبقى لدى الصليبيين ، قـد يكون من الصعب بالنسبة للانسان المعاصر تصور خسارة تلك القطعة من الخشب بالنسبة لأولئك الرجـال ، لكن الذين يفقهـون في أسـاليب الحرب النفسية والتوجيه المعنوي يقدرون عظيم التقـدير مـكانة أية اداة ، تؤثر على المقاتلين ، خـاصة اثناء القتـال ، وكانت خشـبة الصليب في العصور الوسطى ذات مكانة سامية جدا لدى المسيحيين عامة والكاثوليك منهم خاصة ، فهي الاداة التي مـن اجلهـا اثـار هرقل ـ امبراطور بيزنطة ـ صـليبية القـرن السـابع ضـد الامبراطورية الساسانية ، لقد حملت خشبة الصليب المزعوم هذه مع الفرنجة في جميع معاركهم الرئيسية ، لاعتقادهم بأنها تجلب ـ لابل تضمن ـ التاييد السماوي لأعمالهم ، وقـد حفـظ الفـرنجة هـذه الخشبة ، واعتنوا بها عناية فائقة ، ولم يتم استرداد هذه الخشـبة من قبل الفرنجة ثانية ، واختفت آثارها ، وكما هو متـوقع بـكاها المؤرخون اللاتين ، وحزنوا لفقـدها ، حتـى اننا لنجـد مصـنـف ليبلوس ، انفعل انفعـالا شـديدا حين اتـى على ذكر خسـارتها ، واعتبر هذا الحدث خاتمة المعركة ، فلم يذكر إلا شذرات عما حـدث بعد خسارتها ، والمفيد هنا ذكره وملاحظته بعمق هو اثر هذا العمل على المسلمين ، فلقد عرف المسـلمون دين عدوهـم بشـكل عميق ، وادركوا مدى مكانة هذه الخشبة في معتقداته ، وقدروا كم هو مهـم الاستيلاء عليها ، ولهذا نعاود تاكيدنا على أن معركة حـطين انتصر فيها التكتيك الاسلامي المطبق بعقل وشجاعة والتزام ، وهـكذا كان هذا النصر باهظ الثمن .

ولنستمع الى العماد الأصفهاني الكاتـب يحـدثنا عن الصـليب وعملية الاسـتيلاء عليه : « ولم يؤسر الملك ، حتـى أخـذ صـليب الصلبوت ، وأهلك دونه أهل الطاغوت ، وهو الذي إذا نصـب واقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشـبة

التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ، وأعدوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود ، فإذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا إليه وانثالوا عليه ، ولايسع لأحدهم عنه التخلف ، ولايسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف ، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم ، في ذلك المعترك ، فإن الصليب السليب ماله عوض ، ولا لهم في سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض ، فهو إلههم ، وتعفر له جباههم ، وتسبح له أفواههم ، يتغاشون عند احضاره ، ويتعاشون لابصاره ، ويتلاشون لاظهاره ، ويتغاضون إذا شاهدوه ، ويتواجدون إذا وجدوه ، ويبذلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج ، بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبدونها ، ويخشعون لها في بيوتهم ، ويشهدونها ، فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، ووهت أصلابهم ، وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما ، فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب ، فهلكوا قتلا وأسرا ، وملكوا قهرا وقسرا ».

وعلى الرغم من أثر خسران خشبة الصليب القاصم على الجزء الأعظم من عساكر الفرنجة ، فإن عصبة منهم ثابرت على المنافحة ، وبقي في نفوسها بعض الشجاعة ، وفي أبدانها بعض القوة لمثابرة الصراع والدفاع ، وتجمع قلة من هؤلاء الفرسان الأشداء حول الملك ، وتمكنوا بطريقة ما من نصب خيمته ، وقاموا من هناك بهجوم يائس ، ربما أملوا من ورائه شق طريق للفرار ، كما فعل كونت طرابلس من قبل ، وبعد نجاح أولي حيث تمكنوا من دفع المسلمين إلى الخلف نحو صلاح الدين ، بادر هذا القائد الشجاع ، فأمر على الفوربهجوم معاكس رد الصليبيين على أعقابهم ، ومكن المسلمين من هدم خيمة الملك ، وبذلك انتهت المعركة ، ووصف واحد من المؤرخين المسلمين هذه الخاتمة بقوله :

ولما حمل الافرنج « تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى

الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ».

وجاءت نهاية المعركة قرابة العصر ، وافضل وصف وثائقي لساعتها الأخيرة ولأحداثها المثيرة ما رواه ابن الأثير عن الملك الأفضل بن صلاح الدين ، « قال :كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي : قال :فنظرت إليه ، وقد علته كآبة ، واربد لونه ، وامسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانيةمثل الاولى ، والحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل ، وعطف المسلمون عليهم ، فالحقوا بالتل ، فصحت انا ايضا : هزمناهم ، فالتفت والدي إلي ، وقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي ، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى ،فبكى من فرحه،وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ، ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك ، وأخوه ، والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين ، وأسروا أيضا صاحب جبيل ، وابن هنفري ، ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنا ، وأسروا أيضا بليبانوس صاحب البترون ، وهيوج صاحب جبلة ، وصاحب مرقية ، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية ، وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحدا ، وما أصيب الفرنج مذ خرجوا إلى الساحل..إلى الآن بمثل هذه الوقعة ».

لقد كان عدد الذين قتلوا أو أسروا يعـدون بـالالاف ، والذين لم يقتلوا كانوا منهكين ، وقد هدهم فقدان صليب الصلبوت ، إلى حـد أنهم لم يحاولوا الفرار ، ذلك انهم وضعوا بـالأسر ، وتـركوا بـلا حراسة ، حتى حملوا إلى اسواق النخاسة في بلاد الشـام ليبـاعوا هناك ، ويقول ابن شداد في المحـاسن اليوسـفية : « وكان الواحـد العظيم منهم يخلد إلى الاسر خوفا على نفسه ، ولقد حـكى لي مـن أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحـدا معـه طنب خيمـة فيه نيف وثلاثون أسيرا اخذهم وحده لخذلان وقع عليهم » .

ولما انتهت اعمال القتال ، وفـرغ المسـلمون مـن جمـع الأسرى « نزل صلاح الدين في خيمته ، وأحضر ملك الفـرنج عنده ، وبرنس أرناط صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقـد أهلكه العطش ، فسقاه ماء مثلوجا ، فشرب واعطى فضله بـرنس أرناط صاحب الكرك فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال اماني ، ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه ، وعدد عليه عوراته ، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته ،وقـال :كنت نذرت دفعتين ان أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة ، والمدينة ، والثانية لما اخذ القفل غدرا ، فلما قتله وسحب وأخـرج ، ارتعـدت فرائص الملك ، فسكن جأشه وأمنه ».

لقد عومل الأسرى جميعا معاملة إنسانية ممتازة ، وأخـذوا إلى دمشق حيث أطلق سراح بعضهم أو فودي بهم ، أو جـرى بيعهـم ، وذلك فيمـا عدا أرناط صـاحب الكرك ، وفـرسان الداوية والاسبتارية ، حيث اعتبرهم صلاح الدين مجـرمي حـرب ، فبعـد اعدام أرناط جـرى اعدام حـوالي المئتين مـن فـرسان الداوية والاسبتارية ،حتى روي بأن صلاح الدين اقدم على شراء بعض مـن هؤلاء الفرسان من آسريهم ، وأمر بإعدامهـم أمـام الجيش وجنده جميعا ، وهكذا كانت نهاية اكبر جيش جمـع قـط للصـليبيين ، أو بالحري نهاية المؤسسـة العسـكرية للاحتـلال الصـليبي ، الذي استهدف جعل بلاد الشام وطنا لاتينيا فيما وراء البحار .

لقد كان عدد الفرسان الجـرحى قليلا ، لكن لم ينج مـن الخيول فرس واحد ، ووصف العماد الكاتب ما رآه على ساحة المعركة ، وقد اثر به المنظر تاثيرا عظيما فقال :« ومن عجـائب هـذه الواقعـة ، وغرائب هذه الدفعة أن فارسهم ما دام فرسه سالما لم يذل للصرعة ، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قـدمه كان كأنه قـطعة حـديد ، ودراك الضرب إليه غير مفيد ، لكن فرسه إذا هلك فرس وملك ، ولم يغنم من خيلهم ودوابهم ، وكانت الوفا ما هو سـالم ، ومـا تـرجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم ، ».

في يوم الماء ، يوم حطين لابد أن خيول الفـرنجة قـد عانت مثـل رجال الصليبيين من الحر والعطش والنار والدخان والنشاب ، ذلك أنه إذا كان نشاب المسلمين الذي وصف المؤرخون كثرته وفاعليته ، لم يجرح عددا كبيرا من الفرسان اللاتين ، فإنه قتل أعدادا هائلة من الخيول ، وبكلمة موجزة لم يتجـل أثـر تخلي المشـاة عن حمـايـة الفرسان ولم يظهر بوضوح كما في حطين ، ولقد رأينا بوضوح كيف تحول مجرى المعركة بسرعة إثر نجاح المسـلمين في تنفيذ خـططهم بفصل المشاة عن الفـرسان ، وكيف حلت الفـوضى وسـط الجيش الصليبي .

لقد افرد العماد الكاتب واحدا من فصول كتابه البـرق الشـامي للحديث عن النشاب ويمكننا من أوصافه مع أوصـاف بقية المؤرخين المسلمين استخلاص صورة واضحة مشرقة لما حدث بـالفعل : لقـد كان فرسان الفرنجة على خيولهم وبدروعهم لايمكن اصابتهم ، ولكن يمكن اصابة مطاياهم ، لهذا اعتمـدوا على حمـاية الرجـالة الذين احاطوا بهم ، وكانوا أشبه بسـتارة بشرية ، حمـت المطـايا مـن النشاب وضربات المسلمين ، ولاجبار فرسان المسلمين على الابتعاد عنهم برماية قسيهم العقارة القوية ، ولذلك عندما حـدث الفصـل ، وتخلى الرجالة وعجزوا عن التقدم ، طوق المسلمين الفـرسان مـن جميع الجهات ، وفتكوا بخيولهـم بسـهامهم وسـيوفهم وحـرابهم ورماحهم ونفوطهم ، ولابـد ان عمليات الافناء حلت أولا بـالخيالة

الخفاف التسليح مثل السارجنتية ، ذلك أنهم كانوا وخيولهم غير مجهزين بأسلحة ثقيلة تؤمن لهم الحماية الكافية ، وبعد هؤلاء جاء دور الفرسان الثقال الذين فقدوا الآن جميع أنواع الحماية .

لقد حاول المسلمون مرارا ـ في معارك متقدمة ـ فصل المشاة الفرنجة عن فرسانهم ونجحوا ، لكن نجاحهم في حطين كان مثاليا ، جاء نتيجة للخبرات السابقة ، وجرت ممارسته ضد جيش عملاق لاضد قوة صغيرة ، فلقد انتهز المسلمون يوم حطين فرصة تخلي المشاة عن الفرسان ، فأبادوا الفرسان الخفاف ، ثم التفتوا نحو الفرسان الثقال ، فبددوا قواهم بقتل خيولهم أو عقرها ، ومع أن دروع الفرسان لم تكن ثقيلة جدا ، ومعيقة بشكل كبير ، إلا أنها لابد قد غدت ثقيلة جدا ، وحملا منهكا بعد يومين من القتال الشديد ، حتى أن الفرسان الذين ظلوا يقاتلون إلى النهاية على خيولهم ، لابد أنهم كانوا في غاية الانهاك ، ولم يعد بمقدورهم الاستمرار .

وهكذا ربح صلاح الدين معركة حطين ، ربحها بعد جهود جبارة مضنية ، ربحها بعدما بدد قوى عدوه وصان قواه وأحسن استغلالها ، وهنا ما هو السبب الحقيقي الذي كمن وراء نصره المؤزر ؟ لاشك أنه لم يكن لا في التعداد ولا في القوة ، فالجيشان كان الرجحان في التعداد والاحتراف والتسليح فيهما لصالح الفرنجة ، الحقيقة ساطعة أمامنا هي تفوق صلاح الدين في الاستراتيجية والتكتيك ، حيث استطاع اقتلاع الصليبيين من صفورية ، وتمكن من جذبهم إليه ، وأبعدهم عن الماء ، وأجبرهم على القتال تحت شروط ضاغطة ، فيها عطش وانهاك ، بينما ظلت قواته حرة طليقة ، فالعطش والانهاك دفعا المشاة إلى الفرار ، وكان هذا ضاغطا أكثر من ضغط القتال والهجوم .

وقاد ذلك إلى الضربة اللازبة التي أنزلها بالفرسان ، وعليه فإن فصل السلاحين عن بعضهما البعض هو الحقيقة الحاسمة في المعركة ، لقد عوض صلاح الدين التفاوت بين قواته وقوات أعدائه عن طريق استغلاله لعوامل الطبيعة ، ونجح فيما استهدفه عن طريق

المناورة البارعة ، لهذا رأينا كيف كان الجيشان قبل التحرك ، وكيف صار حالهما يوم السبت حين التقيا على سهل حطين حيث تبدلت النسبة التعادلية من جوانب القدرة البدنية والقوة الجسدية .

وحين نتفحص بإمعان قضية استراتيجية صلاح الدين ، علينا الا ننسى ابدا عنصر المخاطرة التي امتزجت فيها ، فالحرب تبقى من اولها إلى أخرها مغامرة ، فوضع صلاح الدين كما سلف التبيان لم يكن مأمونا تماما ، خاصة والبحيرة إلى ظهره ، ولايوجد مكان للتراجع والالتجاء إليه ، وهو لم يكن بامكانه المكوث دون تحديد للمدة في تلك المنطقة الوعرة ، وبدون طعام ، وفي ظل تلك الأحوال كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار مشكلة الاحتفاظ بجيشه متماسكا ، فقد جمعت قواته للدخول بمعركة ، وكان تأخير المعركة ، والجند بعيدين عن ديارهم سيسبب بعض التذمر بين صفوف العساكر والمتطوعة ، وباختصار كان سيجد نفسه عاجلا أم اجلا مضطرا إلى الانسحاب او إلى القتال في ظل الظروف الصعبة نفسها التي فرضها على الصليبيين ، او التوغل عميقا في الأراضي الصليبية إلى قرب مدنهم المحصنة ، كما نصحه بعض ضباطه وتمنى ريموند الثالث وأمل أن يحدث .

ويقول ابن الأثير حول هذا الموضوع في أخبار سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : « لما اجتمع الفرنج ، وساروا إلى صفورية ، جمع صلاح الدين أمراءه ، واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يضعف الفرنج بشن الغارات ، واخراب الولايات مرة بعد مرة ، وقال له بعض أمرائه : الرأي عندي أن نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي ، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه....فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار ، فإن الأمور لاتجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق الجمع إلا بعد الجد بالجهاد.... »

ونعود لنؤكد لو أن صلاح الدين سمع ما قاله بعض ضباطه ،

واختار القتال في ظل تلك الشروط الصعبة كان سيهزم بواسطة ذلك الجيش الصليبي الكبير ، الذي كان افضل جيش اجتمع مثله للصليبيين ، ولابد أن الهزيمة كانت ذات وقع حاسم ، مثلما كان انتصاره ، فقبل حطين التقى المسلمون بالصليبيين في اكثر من معركة ، وهزموهم ، ولكن لم يحدث أبدا لا من قبل ولامن بعد أن بددوا لهم جيشا كاملا بمثل هذا الحجم ، وبددوه قتلا واسرا بشكل كامل ، ولهذا لم يكن في يوم حطين اعمال مطاردة او ملاحقة لفلول الجيش المهزوم .

ومن جهة أخرى كان اختيار الانسحاب معناه التخلي عن خطة الجهاد لاسترداد القدس والأراضي الساحلية ، ومن الضروري تقدير هذه الناحية وفهمها ، فقد روى ابن الأثير أن واحدا من ضباط صلاح قال أثناء مناقشة خطة الغزو قبل حطين :« إن الناس بالمشرق يلعنوننا ، ويقولون ترك قتال الكفار ، وأقبل يريد قتال المسلمين ، والراي أن نفعل فعلا نعذر فيه ، ونكف الالسنة عنا »،ومؤكد أن صلاح الدين ملك امبراطورية واسعة ، لكن على الرغم من اتساع دولته كان هناك مثبطات كثيرة وعوامل معيقة لجمع جيش كبير ، وفي الحقيقة جمع صلاح الدين اكبر جيش كان بامكانه جمعه ، أو بالحري اكبر جيش جمعه طيلة حياته ، ومع هذا لم يكن ذلك الجيش كافيا لتأمين نصر أكيد في معركة تتم ضمن شروط متساوية للطرفين ، وسنرى انه بعد حطين مباشرة لم يستطع الاحتفاظ بجيشه متماسكا لمدة طويلة كان فيها بأمس الحاجة لهذا الجيش (أثناء حصار عكا) وعلى هذا لو أن صلاح الدين أخفق سنة ١١٨٧ م في استخدامه لجيشه ، كان من المشكوك فيه أنه سيتمكن ثانية ، من جمع جيش مساو له ، فكيف بنا بزيادة حجمه وقوته ، وكما حدث لم يعش صلاح الدين بعد حطين طويلا ليتمتع بنصره كاملا وليقطف جميع ثماره ، ولو انه اخفق في نيل النصر سنة ١١٨٧ م ،ما كان له أن يتمتع بالمكانة التي تمتع بها في العالم الاسلامي والتاريخ الانساني ، ولربما كانت الاحكام ضده قاسية

على ارضية موقفه مـن نور الدين ، وحـروبه الداخلية لوراثـة نور الدين ، وتأسيس امبـراطوريته الواسـعة •

وبحث عدد من الأوروبيين في العصر الحديث في حـوادث معـركة حطين ، بحث بعضهم لاهتمامه بتاريخ الحروب الصـليبية عامـة ، وبعضهم الآخر لاهتمامه بفن الحرب في العصور الوسطى وكان مـن هؤلاء أومان فبالنسبة لهذا الكاتب الانكليزي الكبير ، كان القتال في حطين ـ بالنسبة للصليبيين ـ غير ضروري أبـدا ، مـن الممـكن تجنبه ، وكان التورط به خطأ قاتلا ، زد على هذا أن هـذا الخـطأ المميت لم ينجم عن عدم قدرة في المعسكر اللاتيني ،أو عجز لدى قادته في التصدي إلى صـلاح الدين البـارع والشـجاع ، فـالفرسان الصليبيون كانوا أذكياء وبارعين وشجعان مثل صلاح الدين في فـن الحرب ، وكان ريموند الثالث من الذكاء بمـكان ، أمـكنه مـن رؤية نوايا صلاح الدين وأهداف خططه ، وكان بقية البارونات عقلاء إلى درجة كافية تفهموا فيها حجج ريموند وقنعوا فيها ، بعـدما أدركوا صحتها ، إن جيرالد هو الذي تقع عليه المسؤولية ، يشـاركه فيهـا أرناط ومن ماثله بـالتركيب والصـفات ، لكن مـا الذي دار في خلد هؤلاء ، وهل مشاعر العداوة لريموند كافية للتسـويغ ، أم القضـية مرتبطة بالرعونة والطيش وانعدام الصبر والرغبـة بـالثأر مـع التعصب ، والطموح في الاستيلاء على ممتلكات اسلامية جديدة؟!....

والآن ماذا عن غي ، الذي اتخذ القرار تلو القـرار ؟ المؤرخـون يجمعون على أنه لم يكن يحب جيرالد فقط بل كان يخشـاه ، وكان يعتمد عليه اعتمادا مطلقا ، فهو الذي بذل غاية الجهد في سبيله حتى جعله ملكا على القدس ، وهذا يوضـح لنا سـبب اتبـاعه لنصـيحة جيرالد في كل مناسبة ، ففي الماضي نصح الملك باعلان الحـرب على ريموند ، ففعل وحاصره في طبرية ، مما دفع ريموند إلى التحالف مع صلاح الدين ، فغي لم يملك ليلة صفورية الجراة على مخالفة الرجال الذين صنعوه ملكاً ، لهذا استجاب فأعلن الحرب من صفورية ليلا ،

ولعل جيرالد حلم يومذاك بانه سيفاجىء صلاح الدين مـع تبـاشير الصباح فيوقع به ضربة قاصمة .

لم يكن صلاح الدين من هواة الحرب ، بل من ابطال التحـرير ، وقد مت إلى حضارة فيها :« الراي قبـل شـجاعة الشـجعان » ، فالراي هو الذي انتصر في حطين ، وكان على كل حال رايا مـدعوما بالقوة والعقيدة ، وبراعة التنفيذ .

وفي البحث في وقائع حطين يجد الباحث نفسـه في كل زاوية مـن زواياها امام عبقرية متناهية ، وأمام معاني جديدة ، ولعل ما جرى عرضه حتى الآن يفي بالغرض ، المهم الآن أن ننهي حديثنا في هـذا المقام ببضع عبارات تاتي بمثابة خاتمة ، وفي الوقت نفسـه مقـدمة للحديث المقبل :

لقد بشرت معركة حطين بسقوط مملكة القدس ، هذه المملكة التي لم يتحطم جيشها فقط ، بل افرغت قلاعها وحصونها ومـدنها مـن خيرة حماتها ، لهذا حالما انتهى القتال في حطين حتى اخذت طبـرية دونما قتال ، ثم زحف صلاح الدين ضـد مـدن السـاحل ، فجـرى تطويق عكا ، وتم الاستيلاء عليها ، واخـذت عسـقلان ولم تسـقط صور ، امـا المدينة المقـدسة فقـد اسـتسلمت في ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧ م ، أي بعد ثلاثة اشهر من حطين ، وهكذا انتهت مملكة القدس ، وزالت من الوجود بعدما عاشت قرابة قرن مـن الزمـن ، إنما استمرت بالاسم فقـط ، والذي بقـي الآن مـن مسـتعمرات الصليبيين في الشرق لم يتجـاوز كونتيـة طـرابلس ، وإمـارة انطاكية (٥) .

حصاد حطين

فقد الصليبيون يوم حطين جل فـرسانهم ومقـاتليهم ، ودمـرت مؤسستهم العسكرية ، بعد أن كانت أداة رعب في الشرق قرابة قرن مضى ، وفي حـطين وقـع في أسر صـلاح الدين اعداد كبيرة مـن

الصليبيين كان يتصدرهم غي ملك القدس مع اخيه أمالرك مدير ادارة الحرب في مملكة القدس اللاتينية والمشرف العام عليها ، وعدد من النبلاء مع مقدمي الاسبتارية والداوية ، وارناط صاحب الكرك ، ولقد صان صلاح الدين حياة غالبية الأسرى وعاملهم معاملة ممتازة ، لكنه لم يبق على ارناط وفرسان الاسبتارية والداوية ، ذلك انه كان قد عاهد نفسه أمام الله على عدم الابقاء عليهم لما قاموا به من جرائم .

وقام صلاح الدين باستغلال نصره المؤزر فاحتل معظم الاراضي والقلاع التي كانت بأيدي الصليبيين ، وحررها بسرعة خاطفة وببراعة سياسية تجلت فيها عبقريته وانسانيته وأخلاقه ، فقد كان يستهدف تحرير الأرض لاسفك الدماء وكسب الأموال ، علما انه كان يمكنه ــ دون أن يلام ــ أن يسفك دماء عشرات الالوف من الصليبيين ، وهذا السلوك ، الذي لم يفهمه حق فهمه كثير من الكتاب تجلى في عمليات تحرير القدس الشريف ، ودون القيام بشرح تفاصيل عمليات ما بعد حطين يمكن أن نجمل ذلك كله بالقول بأنه مع نهاية سنة ١١٨٧ م كان ما بقي للصليبيين في الشرق بعض الممتلكات القليلة التي توزعت حول المدن الرئيسية التالية :أنطاكية ، طرابلس ، وصور .

فأنطاكية كانت بعيدة عن مسرح عمليات حطين ، وطرابلس كانت حصينة وتحتاج إلى حصار طويل ، وكان صلاح الدين قد عمد إلى تحرير المواقع التي عرف بأنها شبه فارغة من المقاتلين .

اما صور فقد كانت حصينة للغاية ، بفضل موقعها المتميز ، وبسبب وصول غالبية الناجين من حطين اليها ، يتقدمهم ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وكان فيها عدد كبير من الجنوية بالاضافة الى قطعة بحرية جنوية كبيرة.

وتنبه صلاح الدين الى خطورة التطورات في صور ، فقام بحصارها ، رغم جميع المعوقات الداخلية ، ذلك أن امكاناته البحرية

كانت اضعف من أن تتصدى لامكانات اوربة ، وبخاصة اساطيل الدويلات الايطالية :(البندقية ، بيزا ، جنوى ، امالفي) ثم إن قواته ، التي كانت مهيأة لخوض المعارك المكشوفة ، لاتملك اسلحة ثقيلة ، وكانت انظمة ادارة الاقطاع العسكري تحول بين المقاتلين وبين البقاء تحت السلاح مدة طويلة على الأخص في مواسم الفلاحة وجني المحصولات .

ورغم هذا فقد حاصر صلاح الدين صور ، ونجح في تشديد الحصار عليها ، وقنط المدافعون عنها ، واتصلوا به وفاوضوه على تسليم المدينة ، وقبيل موعد التسليم بوقت قصير وصل الى صور يوم ١٤ تموز نبيل كبير اسمه كونراد أوف مونتفرات ، وهو من أفراد الأسرة الملكية للقدس ، وكان قد غادر أوربا سنة ١١٨٥ م يريد الأراضي المقدسة ، لكنه لم يأخذ طريقه إليها مباشرة ، بل مكث في القسطنطينية ودخل في خدمة الامبراطور البيزنطي ، وظل كذلك حتى وصلت نداءات ما قبل حطين إلى عاصمة البسفور فطلب الأذن بالمغادرة ، وركب البحر مع اتباعه ، واتجه نحو عكا ، وجاء وصوله إلى عكا بعد حطين وتحرير صلاح الدين لهذا الميناء الهام .

ويروى أنه عندما وصل مشارف ميناء عكا ، رأى من المظاهر ما جعله يرتاب ، لذلك لم يدخلها وتوجه نحو صور ، فنزلها وتسلم على الفور شؤون الدفاع عنها ، وبذلك حال دون سقوطها بأيدي صلاح الدين (٩) .

وبسرعة غدت مدينة صور مركزا لتجمع الصليبيين في الشرق ، ومن صور قام كونراد ، مع المقدمين الجديدين للاسبتارية والداوية وجميع الاساقفة اللاتين ، بمراسلة ملوك أوربا الغربية والبابوية ورجال الاقطاع وسواهم طالبين النجدة ، حتى ليروى أن كونراد « صور القدس في ورقة عظيمة وصور فيه القيامة التي يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي قبر فيه بعد صلبه ، بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يعتقدون

نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهـم ، فصـور القبـر ، وصور عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطيء قبر المسيح ، وقـد بال الفرس على القبر ، وأبدى هـذه الصـورة ــ وراء البحـر في الاسواق والمجامع ، والقسوس يحملونهـا ، ورؤوسـهم مـكشفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم ، فإنها أصل دينهم ، فهـاج بـذلك خـلائق لايحصى عددهـم إلا الله تعالى » . كما أرسـل كونراد رئيس أسـاقفة صـور واسـمه جوسشوس إلى اوربا وحمله العديد من رسائل الاستغاثة ، ووصـل هذا المبعوث أولا إلى جـزيرة صـقلية ، وهناك قـابل ملكهـا وليـم الثاني ، الذي استجاب له ، وأرسل حملة بحـرية نحـو شـواطيء الشام ، تمكنت من تقـديم المسـاعدات إلى أنطـاكية وحـالت دون سقوط طرابلس بيد صلاح الدين .

ومن صقلية قصد رئيس أساقفة صور ايطاليا ومنهـا تـوجه إلى فرنسة فكان هناك في مطلع عام ١١٨٩ . ففي ٢٢ كانون الثاني مـن ذلك العام ، عقد هناك مؤتمر كبير ضم كلا مـن فيليب أوغسـط ملك فرنسا ، وهنري الثـاني ملك انكلتـرة ،وعددا كبيرا مـن رجـالات الكنيسة والنبلاء والاقطاعيين الكبار ، وقد استطاع رئيس الأساقفة أن يؤثر على المجتمعين إلى درجة وعدوه فيها بحمل شارة الصـليب والتوجه إلى الشرق لاسترداد القدس ، وتم الاتفاق أن تكون شـارة الصليب حمراء للفرنسيين ، وبيضاء للانكليز ، وخضراء لسواهم .

وتحمس ملك انكلترا للذهاب الى الشرق ، فـراسل ملوك أوربـة الغربية ودعاهم الى مشاركته ، كما راسل ملك هنغاريا مخبرا اياه بخططه وطالبا إذنه ومساعدته على عبـور اراضي هنغـاريا ، كمـا راسل الامبراطور البيزنطي وقدم له المطالب نفسها ، وقـام الملكان بفرض ضرائب خاصة على شعبيهما عرفت بـاسم ــ عشر صـلاح الدين ــ من أجل تمويل الجيوش .

وعلى الرغم من اتفاق ملكي فرنسا وانكلتـرا على حمـل شـارة الصليب فانهما كانا متضاربي المصالح وفي عداء دائم ، كمـا عانى

كل منهما من مشاكل داخلية كبيرة احيانا ، فادى هـذا الى تـأخير تنفيذ رحيلهما الى الشرق ، وضـاق عدد كبير مـن الاوربيين ذرعا بهذا التاخير فأخذوا يرحلون نحو الشرق جماعات وافرادا ، ولعـل أشهر من تـوجه على راس حملة معتبـرة الامبـراطور فـريدريك بربروسا ، امبراطور مـا عرف بـاسم الامبـراطورية الرومـانية المقدسة ، وقد وصل هذا الامبراطور الى أسية الصغرى ، لكنه غرق هناك فتفرق رجاله ولم يبق منهـم سـوى حـوالي ثـلاثمائة فارس ، واصلوا السير الى أنطاكية ومنها الى صـور ، وكثـر عدد الاوربيين الذي وصلوا الى المشرق ، وهذا مـاشجع الفـرنجة على الأخذ بمبدأ الهجوم ثانية ضد اراضي صلاح الدين وقواته ، ولقد متن عزمهم في هذا السبيل توفر الدعم البحري القوي .

وكان صلاح الدين قد قـام عام حـطين بحصـار مـدينة عسقلان ، وعندما صعب عليه فتحها فاوض المدافعين عنها واتفـق معهم على تسليمها له شريطة رحيلهم مع امـوالهم عنهـا وان يطلق لهم سراح الملك ومقدم الداوية وعدد من كبـار النبـلاء ، ويبـدو ان صلاح الدين اخـذ العهـد على الملك غي قبـل أن يطلق سراحـه أن لايحاربه ثانية ، وكان هذا ماحدث لكن الأخير حافظ على عهدة مدة سنة كان قد قضاها في طرابلس وانطاكية .

وتوحي مصادر عصر حطين ان صلاح الدين ، كان يعلم بأن غي لن يحفظ عهده ، ولن يجد صعوبة في ايجـاد رجـل دين يحلله مـن مواثيق ايمانه ، انما أقدم على تسريحه ليربح عسـقلان وكيلا يملك الفرنجة عليهم ملكا جديدا صاحب قـدرات كبيرة ، فـالملك غي رغم شجاعته كان ملكا بلا ارادة ، وقائدا عسكريا ضعيفا .

ومهما يكن الحال فقد تجمع لدى غي نواة جيش جـديد ، فقـرر الزحف نحو عكا مسـتغلا اقـامة صـلاح الدين في بلدة مـرج عيون وانشغاله بحصار حصن شقيف أرنون ، ومر غي أولا بمدينة صـور، وقد منعه كونراد من دخولها ، انما تحـالف معـه وأمـده ببعض المساعدات ، ووصلت أخبار تحـرك غي الى صـلاح الدين فـظنها

مناورة صليبية لفك الحصار عن شقيف أرنون ولكنه عندما بلغه توجه الملك نحو عكا سعى لقطع الطريق عليه فأخفق .

وقام صلاح الدين باستدعاء قواته الاحتياطية من كافة المناطق وطلب اليها الاجتماع به في مرج الصفورية ، وعندما استكمل جمع قواته توجه نحو عكا ، فوجدها شبه محاصرة من الجهة الشمالية برا وبحرا مع جزء من الجهة الشرقية ، فعسكر صلاح الدين خلف خط الحصار الصليبي شرقي المدينة وملك في البداية ممرا بريا اليها ، وآخر من جهة البحر انما بصعوبة ، وكان صلاح الدين قبالة عكا في شهر ايلول ١١٨٩ م ، وفي الاسبوعين الأخيرين لهذا الشهر بدأت قواته بمناوشة المهاجمين الفرنجة ، لكنها لم تستطع الالتحام بهم في معركة فاصلة ، ويبدو ان قادة الفرنجة تعلموا من الدرس القاسي الذي لقنه إياهم صلاح الدين في حطين .

وحل موسم الشتاء بقسوته ، وساء حال الصليبيين ، ولكنهم صبروا ، فقد كانوا غرباء عن البلاد ، يعتمدون اعتمادا مطلقا على ماكانت تحمله اليهم سفن الدويلات الايطالية من مؤن وأسلحة ورجال ، ولقد اعتادت اساطيل هذه الدويلات على القدوم الى الشرق ابتداء من موسم الربيع ، وكانت اثناء وجودها أمام سواحل الشام تملك السيادة عليها ، وكان اختفاؤها في فصل الشتاء يعطي الفرصة لاسطول صلاح الدين الصغير بحرية الحركة ، وهذا الاسطول كان مصريا الى أبعد الحدود ، واعتاد على حمل المؤن والبضائع من مصر ، هذا ولئن أخفق صلاح الدين في اقتلاع الفرنجة من أحواز عكا ، فان سفنه قد استطاعت في شتاء عام ١١٩٠ م أن تنقل كميات جيدة من المؤن والذخائر والأسلحة الى ميناء المدينة ، ممّا ساعد على تقوية الدفاع عنها .

ومع مرور الأيام تعقد الموقف في منطقة عكا ، وبدأت وقائع ملحمة عنيفة ، قد تكون اشد وقائع تاريخ الحروب الصليبية ، فيها برزت معائب نظام الاقطاع العسكري الاسلامي ، وبانت معالم الخلل السياسي في امبراطورية صلاح الدين ، هذه الامبراطورية

التي بناها بذاته ، فلم تعد تملك الصبر حتى تجتث اواصر الوحـدة بينها .

وصحيح ان امبـراطورية صـلاح الدين حـافظت على وحـدتها الظاهرية حتى وفاته ، لكن تمـزقها الواقعـي يكاد يكون المسـؤول الأول عما جري أمام عكا ، ولقد سعى صلاح الدين الى تدارك الخلل فلم يحـالفه النجـاح ، ذلك أن عمليات سـد الخلل كانت تقتضي منه القيام بعمليات عسكرية داخلية وهذا مالم يقـدم عليه صـلاح الدين، بسـسبب وضع المواجهة أمام عكا ، ثم ان صلاح الدين الكهل ليس هو صلاح الدين الشاب .

ومهما قيل عن انتكاسات ملحمة عكا وسلبيات وحوادث مايعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، فانه ينبغي ان نتذكر دائمـا ان نصر حطين حكم على الوجـود الصـليبي في الشرق حـكما مبـرما بالزوال ، فما كان لقوة أن تغير هذا الحكم ، وكل ماكانت تستطيعه هو تعويق التنفيذ بعض الوقـت ، وبعـودة الى كل مـن انكلتـرا وفرنسة ، نجد أن هنري الثاني ملك انكلترا قـد تـوفي وخلفـه ابنه رتشارد الذي شهر بلقب قلب الأسد ، فقد أعلن رتشـارد عن نيتـه بالتوجه الى الشرق ، لكن تورطه في العـديد مـن المشـاكل الداخلية والخارجية أعاق سفره ، وكما أن حـالة نظيرة الفـرنسي لم تختلف عنه ، فقد دعا هذا عددا كبيرا من نبلاء أوربة وكبار الاقطاعيين فيها الى الابحار نحو منطقة عكا ، وما أن حل ربيع عام ١١٩٠ م حتى بدأ سيل من الرجال والعتاد والمؤن من أوربة يصل الى عكا ، ممـا أدى الى تحريك الموقف وتغييره .

ويتساءل المرء عن عدد قوات الفرنجة التي تجمعت حول عكا حتى بـداية خـريف عام ١١٩٠ م ، فيحصـل على اجـابات متفاوتة ، فالمصادر العـربية تحـكي غير مـاتحكيه المصـادر الصليبية ، علما بأن أصعب المهام التي يواجهها الباحث في التاريخ العسكري للعصور الوسطى هي تقدير تعداد الجيوش .

وامام عكا نجد انه في حين تتحدث المصادر الأوربية عن بضع مئات من الفرسان ، واقل من الفين من الرجالة رافقوا الملك في القدوم اولا الى عكا ، نجد القاضي ابن شداد ، وهو شاهد عيان يقول :« وكان عدد راكبهم الفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين الفا ، ومارايت من انقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لاينقطع (٧) .

ونظرا لتزايد قوى الفرنجة ، فقد شددوا حصارهم لمدينة عكا ، وكان صلاح الدين قد اوكل شؤون الدفاع عنها من الداخل الى غلامه قراقوش ، ويبدو أن خبرته في التحصين والبناء كانت جيدة ، فقد سبق له القيام بالاشراف على مهام معمارية حربية في القاهرة وسواها ، وشدد الفرنجة ضغطهم على عكا ، وحاول صلاح الدين اقتلاعهم من معسكرهم ، ورأى ادخال قواته المشاة الى داخل عكا ، والانقضاض عليهم بفرسانه من الخارج واستدراجهم حتى يتمكن المشاة من الخروج من المدينة وتطويقهم وابادتهم .

لكن قادة قواته لم يوافقوه ، واحتج بعضهم بأن مايملكون من جند قليل ولايستطيع القيام بمثل هذه المخاطرة ، ثم قالوا :« هؤلاء عالم لايحصى ، قد حضروا من الأدنى والأقصى ، وأزوادهم عن قريب تفرغ ، وأمسادهم في الصبر تبلغ ، وامدادهم تنقطع ، وانجادهم تمتنع ، وموادهم تقل ، وجوادهم تضل ، ولمراكبهم في الشتاء شتات ، ولحبائلهم وحبالهم انبتات (انقطاع) ، فاما أن يضطروا الى الانفصال ، وأما أن يؤذن فناء ارزاقهم بحلول الآجال ، ويهون علينا حربهم في تلك الحال (٨) »....

ويبدو ان الفرنجة قد لاحظوا تردد صلاح الدين ، لذلك التحموا به ، واوقعوا به خسائر كبيرة واجبروه على تغيير معسكره واحكموا حصار عكا ، وقد وصف العماد الأصفهاني الحال حول عكا بقوله « وصرنا محاصرين المحاصرين ، قد احطنا بالعدو ، وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو

مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة احساطة النار بساهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ... واستدارت الفسرنج بعسكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز » (٩) .

وفي أوربة اتخذ ملكا فرنسا وانكلترا قرارا بالابحار نحسو الشرق في تموز من عام ١١٩٠ وهكذا كان ريتشارد في الثاني من تمسوز في ميناء فزلي حيث التقى بملك فرنسا ، وفي الرابع من ذلك الشهر اقلع الملكان نحو ليون ، وكانت مرسيليا مركزا لتجمع الأساطيل ، وقسد ابحرت هذه الأساطيل من فرنسا نحسو صسقلية مسسايرة للشساطئ الايطالي ، وتسوقفت الحملة طويلا في مسسينا ، وفي نهسساية اذار لسنة ١١٩١ م أخذ ملك فرنسا الطريق نحو فلسطين ، وبعده بأيام ابحر ريتشارد على رأس اسسطول كبير ضسم ١٨٠ سسفينة ركاب وحمولة كبيرة ،و ٣٩ سفينة حربية ، فوصل أولا الى كريت ، ثسم الى رودس ، وبعدها الى قبرص ، حيث توقف فترة من الزمن .

وفي أثناء هذا كله كانت المعارك محتدمة حول عكا ، وكان صسلاح الدين قد وصلت اليه أخبار أساطيل ملكي فسرنسا وانكلتسرا ، مسع اخبار قوات جديدة قادمة عبر اسسيية الصسغرى ، فسأقلقه ذلك غاية الاقلاق ، فقام باعداد بعثات زودها برسائل الى خليفة بغداد وامراء الموصل والجزيرة ، كما أصدر تعليماته بتقوية اسسطول مصر ، وفي الوقت نفسه راسل مراكش ، ربما للمرة الثانية ، وكان على عرشها يعقوب المنصور الموحدي ، وكانت امبسراطورية الموحسدين انذاك في ذروة قوتها ، تملك من الجيوش الكثير ، مع أساطيل كبيرة وقسوية وسواحلها المتوسطية تمتد مسن ليبيا الى جبسل طسارق ، وتشسمل سواحل الأندلس ، وكان بإمكانها اعاقة الملاحة في مضيق مسينا ان لم نقل السيطرة عليه .

واستجاب امسراء الشرق لنداءات صسلاح الدين ، ووعد خليفسة بغداد بارسال بعض النجدات ، وسسارع ببعسسث جمسساعة مسسن النفاطين ، كما اذن باقتراض مبلغ ٢٠ الف دينار من تجار بغسداد لانفاقها في الجهساد ولم يسستجب المنصسور الموحسدي ، واختلف

المؤرخون في تعليل اسباب ذلك ، ولعل اهم سبب كمن في التوسع الأيوبي في ليبيا الملاصقة لاراضي تونس الموحدية ، ومهما كان الحال ، فقد بات الآن على صلاح الدين تحمل أعباء التصدي للحملة الجديدة بطاقاته الذاتية .

ففي مطلع حزيران لعام ١١٩١ م غادرت اساطيل ملكي انكلترا وفرنسا قبرص واتجهت نحو صور ثم عكا ، وكان قد مضى على حصارها عامان ، ابدى المدافعون خلالهما ضروبا من البطولة النادرة ، ولقد شارك شعب بلاد الشام جميعا في الصراع وظهرت بطولات فردية نادرة ، فعندما شدد الحصار على المدينة ، استخدم المقاتلون العرب السباحة للوصول الى المدينة ، على طريقة « الضفادع البشرية » وغيرها من الطرائق .

وقلت المؤن داخل عكا ، وكاد العتاد ان ينفد ، وكان الصليبيون متفوقين في تقنية صناعة الابراج المتحركة وغيرها من وسائل القتال الجماعي وأدوات الحصار ، ونلاحظ اثر هذا التفوق في إحدى رسائل القاضي الفاضل – رئيس ادارة صلاح الدين – بقوله :« ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد ، فانهم قاتلوه مرة بالأبرجة ، واخرى بالمنجنيقات ، ورادفه بالدبابات ، وتابعه بالكباش ، واونه باللولب ، ويوما بالنقب ، وليلا بالسرابات ، وطورا بطم الخنادق ، وانا بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ».

وبعد وصول رتشارد وفيليب بقرابة شهر تقريبا بدأ الصليبيون بتضييق الخناق على عكا ، وابتغوا أولا خلخلة دفاعاتها ، يقول القاضي ابن شداد واصفا ذلك :« ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب ، وينقلون احجارها ، واقتصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا سور البلد ، واضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلدة لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ...« ولما أحس العدو بذلك شرعوا في الزحف من كل جانب ، وانقسموا

اقساما وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه »

وبذل صلاح الدين كل مالديه من طاقات لتخفيف شدة الحصار على المدينة وايصال بعض المساعدات الى داخلها فأخفق ، وهكذا تلقى من المدافعين عن عكا رسالة فيها :« إنا قد بلغ منا العجز الى غاية ما بعدها الا التسليم ، ونحن في الغد ان لم تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا » . ومجدداً وضح ان صلاح الدين عاجز عن القيام بأي شئ وقام المدافعون عن عكا بالاتصال بالفرنجة وفاوضوهم واتفقوا معهم « على أنهم يسلمون اليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومائتي الف دينار ، والف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة فارس معينين من جانبهم ، يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم ، وذراريهم ونسائهم»

وفوجئ صلاح الدين بخبر الاتفاق ، وحاول القيام بعمل مالإيقاف التنفيذ « وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ... فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة (١٢ ـ تموز ١١٩١م) »(١٠) .

وكان اثر سقوط عكا على صلاح الدين مفجعا ، لكنه تحمله ، واصدر أوامره بالانسحاب الى الخلف مسافة قصيرة ، وبات عليه التحرك بسرعة وفي عدة اتجاهات :

فقد صار عليه التصدي للتحرك المقبل للفرنجة ، وانقاذ جنده الذين كانوا داخل المدينة ، ذلك ان الفرنجة أعتبروهم أسرى لديهم ، أو رهائن حتى يتم تنفيذ بنود الاتفاق .

وراسل الاسرى صلاح كما راسله رتشارد قلب الأسد الذي صار المسؤول الأول عن الصليبيين ، ذلك أن فيليب ملك فرنسا رحل عائدا نحو بلاده ، إثر سقوط عكا ، وقد أعلن صلاح الدين عن نيته

الالتزام ببنود الاتفاق والعمل على تنفيذه ، فقام بجمع الأموال المطلوبة واحضر صليب الصلبوت مع أعداد من أسرى الفرنجة ، وجاء وفد صليبي الى معسكر صلاح الدين ليشاهد المال والصليب والأسرى ، وهنا حصل خلاف حول الأسرى ، وجرت محاولات لتسوية هذا الخلاف فباءت كلها بالاخفاق .

وكان رتشارد قلب الأسد متهورا ومتعجرفا ، في طباعه رعونة ، وفي أخلاقه ميل شديد الى سفك الدماء واللامبالاة ، لذلك قام أثناء المفاوضات باصدار أوامره باحضار الأسرى « وكانوا زهاء ثلاثة الاف مسلم في الحبال « واوقف هؤلاء الأسرى في ساحة مكشوفة وحشد فرسانه وقام هو وإياهم « وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرا ، طعنا وضربا بالسيف » .

وهكذا اضاف رتشارد الى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين واعمالهم في الشرق فقرة جديدة ، لم يقتصر أثرها هذه المرة على المؤرخين والأخباريين العرب واللاتين ، وانما حفظهما لنا صاحب ملحمة كتبت في القرن الثاني عشر بالنورماندية القديمة وحملت اسمه ، وقام صاحب الملحمة برواية أخبار الأحداث بشكل رهيب ، فرتشارد لم يكتف بسفك دماء العرب من أسرى وسواهم ، وانما أقدم على أكل لحوم القتلى منهم وذلك بعد طهيها وأصدر أوامره لجنده بفعل ذلك (١١) .

ومن جديد تحمل صلاح الدين مانزل به ، ولم يشغله حزنه عن رصد نوايا رتشارد ، وتحركاته ، وخاصة بعد ان علم أن رتشارد قد أعاد ترميم أسوار عكا وتحصيناتها.

وفي « مستهل شعبان سنة سبع وثمانين (٢٤ اب ١١٩١)اشتعلت نيران العدو في سحرة نلك اليوم ، وعادتهم انهم اذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، .... ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر وتفرقوا قطعا ثلاثة » ، وعلم صلاح الدين بذلك فأمر قواته بالتحرك على محور

مقابل لمحور تحرك الفرنجة ، وبان له ان الوجهة هي عسقلان ومنها إلى القدس •

وأثناء التحرك جرت مناوشات بين الطرفين ، وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين الى معركة مكشوفة فلم يفلح • وكان رتشارد في غاية الحذر • ومع ذلك فقد خشي ان يعد له صلاح الدين كمينا في غابة أرسوف •

لذلك قام قبل وصوله الى أرسوف بمراسلة الملك العادل ، اخي صلاح الدين ، وأبرز رجالات دولته ، وتم الاتفاق على عقد اجتماع بين رتشارد والملك العادل ، وفي ذلك الاجتماع طلب رتشارد عقد صلح مع صلاح الدين فقال له الملك العادل : « انتم تطلبون الصلح ، ولاتذكرون مطلوبكم فيه حتى اتوسط انا الحال مع السلطان » ، فأجابه رتشارد : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفون الى بلادكم ، فأخشن له الجواب وجرت منافرة » وارفض الاجتماع دون نتيجة .

وفي منطقة أرسوف حاول صلاح الدين انزال ضربة قاصمة بجيش رتشارد ، فلم يفلح ، بل حدث العكس حيث هزمت قواته وتفرق شملها ، وبات الآن صلاح الدين وجنده على قناعة انهم لن يستطيعوا هزيمة الفرنج ، لذلك سارع صلاح الدين من أرسوف الى يافا القريبة ، فأخلاها وهدم أسوارها ودفاعاتها ثم قصد عسقلان ، فكرر بها ما صنعه في يافا ، ومن هناك أخذ الطريق إلى الرملة فالقدس حيث شرع في تقوية دفاعات المدينة .

ولدى وصول رتشارد إلى عسقلان حاول أن يعيدها إلى سابق مجدها وحصانتها فلم يفلح ، وفي عسقلان وصلته اخبار مزعجة من انكلترا استدعت عودته إليها ، ولذلك كثف اتصالاته بصلاح الدين واجتمع بالملك العادل اكثر من مرة ، وتم طرح اكثر من حل لمشاكل الخلافات بين الطرفين ، كان من بينها زواج سياسي بين الملك العادل وأخت رتشارد ، لكن ذلك كله لم يثمر عن نتيجة مفيدة ، وظل صلاح

الدين طوال الوقت متصلبا في مواقفه تصلبا شديدا ، عازما على القتال مهما ساءت الأحوال ٠

لكن هذا التصلب اضطر صلاح الدين الى التخلي عنه عندما علم بنية رتشارد الزحف على القدس ، وبعدما عرف موقف أمراء جيشه ، فقد أراد اتخاذ موقف الدفاع داخل القدس وعقد لهذه الغاية مجلسا حربيا ضم كبار قادة جيشه وافتتح صلاح الدين ذلك المجلس بخطاب الحضور بقوله :

« الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وانتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ، فان هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم ، فإن لويتم اعنتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم بيت المال ، والمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

ورد القادة على صلاح الدين بكلام حماسي عام طيبوا به خاطره ، وتفرقوا عنه ، ولكن مالبثوا في مساء ذلك اليوم أن ابلغوه أنهم بعد اجتماعهم ببقية قادة الجيش ، رفضوا فكرة أخذ الموقف الدفاعي « وقالوا : لامصلحة في ذلك فإنا نخاف أن نحاصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والراي أن نلقي مصافا ، فإن قدر الله تعالى أن يهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ، ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدة بغير القدس».

ويصف ابن شداد حال صلاح الدين عندما بلغه موقف القادة هذا بقوله :« فشق عليه هذه الرسالة ، وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي احياها ... وكان عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال .. ولما قارب الصبح اشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة » ٠

ومن جديد تم استئناف المفاوضات بين الطرفين وأصيب خلال ذلك الوقت رتشارد بمرض شديد ، وقام صلاح الدين بارسال طبيب خاص لمعالجته وأتحفه ببعض الأدوية والأطعمة والفواكه والهدايا ، وكان لهذا كله أثره على المفاوضات التي اثمرت اخيرا باتفاق عرف باسم« صلح الرملة » تمت الموافقة عليه « صبيحة الثالث والعشرين من شعبان » سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (٣ ايلول ١١٩٢ م) . وقضى هذا الاتفاق بـ :

١ ـ بقاء الشريط الساحلي الضيق الممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين ٠

٢ ـ اعادة عسقلان الى صلاح الدين شريطة هدم أسوارها .

٣ ـ امتلاك صلاح الدين للمنطقة الساحلية الجنوبية اعتبارا من عسقلان ٠

٤ ـ احتفاظ صلاح الدين بالقدس.

٥ ـ السماح للحجاج المسيحيين بالوصول الى القدس .

٦ ـ حرية تنقل الافراد والتجار بين البلدين .

٧ ـ السماح لكل من انطاكية وطرابلس الدخول بهذا الاتفاق إذا رغبتا .

٨ ـ مدة الاتفاق ثلاث سنوات .

وبعدما ابرم الصلح « غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور مالا يعلمه إلا الله تعالى » لكن صلاح الدين كان على عكس الناس حزينا ذلك انه كما ذكر ابن شداد « ان الصلح لم يكن من ايثاره ، فإنه قال لي ـ رحمه الله ـ في بعض محاوراته في الصلح : اخاف ان اصالح وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته ـ يعني حصنه ـ وقال : لاأنزل ، ويهلك المسلمون » ٠

ومهما يكن الحال فقد توجه رتشارد إثر ابرام الصلح إلى عكا في التاسع من شهر تشرين الأول من العام نفسه ، وركب البحر عائدا

إلى أوربا وبذلك انتهت وقائع ما عرف باســــم الحملة الصــليبية الثالثة ، وانتهت معها أهم فترات حياته ، واكبر انجازاته .

اما صلاح الدين ، فقـد سرح قــواته ، وتــوجه مــن الرملة الى القدس ، وعقد النية على القيام بجـولة تفقــدية على جميع مناطـق دولته في الشــام أولا ثــم مصر ، وأعلن عن رغبتــه بقصــد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، ومن القــدس تــوجه إلى دمشــق حيـث استقر في قلعتها ، لكن ليس طويلا حيث مــالبث أن حــل بــه المرض فألزمه فراشه قرابة اسبوعين غشي أهل دمشق خلالهاه من الكآبــة والحزن ما لايمكن حكايته ، وفي صباح الاربعاء سابع عشرين مــن صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤ آذار ١١٩٣) توفي صــلاح الدين فغشي القلعة والبلد والدنيا من الحزن والبكاء عليه مالا يعلمــه الله تعالى».« وبالله لقد كنت أسمع مــن بعض الناس انهــم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وما ســمعت هــذا الحــديث الا على ضرب من التجوز والترخص الا ذلك اليوم ، فاني علمــت مــن نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس» (١٢) .

وجهز صلاح الدين ودفن خارج قلعة دمشق قــريبا مــن المســجد الاموي في منطقة كان اسمها الكلاسة ، وحوت ارض دمشق الخالدة جسده الطاهر ، وبوفاته طويت صفحة المرحلة الثالثة مــن مــراحل حرب الاسترداد العربية ، وهي اهــم مــراحل تــاريخ الحــــروب الصليبية واجلها حوادث واهمها انجازات ، ولعل مــن ابلغ الدلالات على اهميتها وخلودها انها ارتبطت بخلود دمشق وبعــظمة صــلاح الدين الايوبي .

الفصل الرابع

المرحلة الرابعة من حروب الاسترداد في الطور الثاني

(مرحلة القاهرة)

قرانا من قبل ان المؤرخ اللاتيني وليم الصوري المتوفى سنة ١١٨٥ م قد تنبأ بزوال مملكة القدس الصليبية من الوجود على ايدي صلاح الدين ، وهذا ماكان إثر النصر المبين في معركة حطين ، ففي هذه المعركة دمر ـ كما راينا ـ المسلمون المؤسسة العسكرية الصليبية التي كانت لقرابة قرن مضى اداة رعب في المشرق وقام صلاح الدين إثر ذلك باستغلال نصره احسن استغلال فحرر بسرعة خاطفة وببراعة كبيرة معظم الاراضي والقلاع التي كانت في ايدي الصليبيين بما في ذلك بيت المقدس ، وتمت عمليات التحرير دون سفك كبير للدماء وبلا مغانم ومنهوبات فقد كان صلاح الدين باخلاقه ومبادئه ومواريثه السامية بحكم انتمائه الى الحضارة العربية الاسلامية العريقة ، رجل تحرير ولم يكن رجل عدوان .(١) .

ومع نهاية عام ١١٨٧ م كان مابقي للصليبيين في بلاد الشام لايتعدى شريطا ساحليا ضيقا توزع حول صور وطرابلس وانطاكية ، وسعى صلاح الدين الى تحرير هذه المناطق لكنه لم يتمكن من ذلك وصارت الان مدينة صور مركز تجمع للصليبيين في الشرق ومنها جرت مراسلة اوروبا الغربية طلبا للنجدة ، وأثارت الانتصارات التي حققها صلاح الدين حملة صليبية جديدة اطلق عليها اسم الحملة الصليبية الثالثة وقد تزعمها ملكا فرنسا وانكلترا وجرت مواجهات قاسية بين قوات هذه الحملة وصلاح الدين تمركزت حول مدينة عكا ، وضيق الصليبيون الخناق على هذه المدينة وعندما سلمت اليهم غدر ريتشادر قلب الاسد بالمسلمين فقتلهم

جميعا غدرا وخيانة وبذلك اضاف الى السجل الدموي لتاريخ الصليبين في الشرق صفحة مخزية جديدة ، وتابع صلاح الدين تصديه للسيل البشري الذي تدفق من اوروبا الى ان تمكن في ٢٣ شعبان ٥٥٨ هـ ـ ٣ ايلول ١١٩٢ م من عقد صلح الرملة مع قادة الحملة الثالثة ، وكان هذا الصلح عبارة عن هدنة غادر بعدها ريتشارد عكا عائدا الى اوروبا ، وكذلك فعل فيليب ملك فرنسا ، كما توجه صلاح الدين نحو القدس ، ومن القدس ذهب الى دمشق حيث استقر في قلعتها معلنا عن نيته القيام بالحج ، لكنه اصيب بمرض الزمه فراشة قرابة اسبوعين ، وفي صباح يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ـ الموافق ٤ اذار ١١٩٣ م توفي صلاح الدين ، فعم (القلعة والبلد والدنيا من الحزن مالا يعلمه الا الله تعالى ، وبالله ـ يقول ابن شداد ـ لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وماسمعت هذا الحديث الا ضربا من التجوز والرخص الا ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدي بالنفس) (٢) .

لاشك ان وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبرى لعرب الشام ومصر وللعالم الاسلامي اجمع وهو باعتراف جمهرة المؤرخين قديما وحديثا في الشرق والغرب كان اعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية ، ومايزال يتمتع عبر العصور بشهرة ومكانة لم ينلها قائد اخر ، فشهرة صلاح الدين في اوروبا قد تكون اعظم منها في الشرق ، وجميع الذين كتبوا عنه اشادوا بقوته وعدله وتسامحه وانسانيته .

لقد ترك صلاح الدين خلفه دولة واسعة الاطراف وفراغا كبيرا لم يستطع احد من ابنائه السبعة عشر او اخوانه او ابناء اسرته ان يملأه ، واصاب ابن شداد بقوله واصفا انه « لم يصب الاسلام والمسلمين بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين » لقد انذرت وفاة صلاح الدين بقيام منازعات بين ورثته حول تقسيم التركة الضخمة

التي خلفها وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه هنري دي شامبين ملك مملكة القدس الصليبية يعمل على توحيد صفوف الصليبيين في انطاكية وارمينيا وقبرص وعكا ، ومن القاء نظرة سريعة على وضع الدولة الايوبية عند وفاة صلاح الدين ندرك مدى المخاطر التي كانت تتهددها وتتهدد وحدتها وكيانها ، ذلك ان صلاح الدين اعتمد قبل وفاته على تعيين اولاده حكاما على المناطق الرئيسة في دولته ، كما استعان ببعض اقاربه وكان الملك الافضل نور الدين علي وهو الابن الاكبر لصلاح الدين ملازما لابيه عند وفاته ، فاحتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين الى الداروم ، وكان الملك العزيز عثمان وهو الابن الثاني لصلاح الدين في مصر وقت وفاة ابيه فاحتفظ بها واخذ الابن الثالث الملك الظاهر غازي حلب وجميع اعمالها مع شمالي بلاد الشام ، واختص الملك العادل سيف الدين ابو بكر اخو صلاح الدين بالكرك والشوبك والاردن فضلا عن بعض مناطق الجزيرة وديار بكر .

لقد توزع بقية ابناء صلاح الدين وابناء بيته المناطق الاقل اهمية فاخذ الظافر خضر بصرى وحوران ، واخذ الامجد بهرام شاه بن اخي صلاح الدين بعلبك ، واخذ المجاهد شيركوه الثاني بن محمد بن شيركوه حمص ، واخذ المنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر حماة ، واختص سيف الاسلام طغتكين وهو الاخ الرابع لصلاح الدين باليمن واجزاء من جزيرة العرب .

وعندما توفي صلاح الدين استيقظت مطامح ابناء البيوت القديمة في الجزيرة وغيرها لاسيما افراد البيت الزنكي والارتقي واخذ كل واحد يفكر بمملكة وبالتوسع (٣)، وهذه النظرة السريعة على اوضاع الدولة التي وحدها صلاح الدين تجعلنا ندرك ان الايام عادت سيرتها الاولى وان تمزق البلدان المحيطة بالصليبيين لن يضر غير المسلمين ،وكان صلاح الدين قبل وفاته قد اوصى بالسلطنة من بعده لابنه الافضل صاحب دمشق ، بمعنى جعله صاحب السلطة العليا في جميع انحاء الدولة الايوبية ، لكن الافضل لم يكن الاختيار المناسب

لضعفه وسوء سيرته ، فقد اتهمه ابو الفداء بأنه كان يشرب الخمرة ويقضي ليله ونهاره في اللهو وسماع الاغاني وقال المقريزي : انه « اقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته » ووصفه ابو المحاسن في نجومه « بالملك النوام » ، لانه احتجب عن الرعية واشتغل باللهو وزاد من كراهية الناس له تخليه عن رجالات ابيه ووضع ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين ابن الاثير ، أخي المؤرخ المشهور ، ولذلك فر المستبعدون من اركان دولة صلاح الدين الى مصر واستعدوا الملك العزيز على اخيه الافضل ، فخرج العزيز من مصر في صيف سنة ١١٩٤ م قاصداً الشام وشرع في محاصرة دمشق الامر الذي جعل الأفضل يستنجد بعمه العادل .

من الثابت ان الملك العادل لم يكن راضيا عن نصيبه من تركة اخيه صلاح الدين وكان ذكيا ماكراً حاذقا صبوراً ، فيه اناة وتؤدة ، ورأى في استنجاد الافضل به فرصة ينبغي عدم تضييعها ، لكنه احتاط للامور فالتقى الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، وبالمنصور محمد صاحب حماه ، وبشيركوه صاحب حمص، وبالامجد صاحب بعلبك واتفق معهم على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق لانهم رأوا ان الاستيلاء على دمشق يهدد ممالكهم جميعا ، وادرك العزيز عدم قدرته على محاربة أمراء بني أيوب جميعا فانصرف عائداً الى مصر ، وقبل انسحابه اجتمع به الملك العادل خارج دمشق وطيب نفسه واعطاه احدى بناته زوجة له . وصنع معه تسوية احتفظ بموجبها الافضل بدمشق ومعها طبرية واعمال الغور ، واخذ الملك الظاهر جبلة واللاذقية ، واخذ الملك العزيز بيت المقدس وماجاوره من اعمال فلسطين ، وثبت خلال هذا كله أن العادل هو رجل بني ايوب وانه حريص على وحدة البيت الايوبي والدفاع عن مصالح المسلمين ضد الصليبيين ، ويقول ابو المحاسن ان العادل عندما التقى بالملك العزيز قال له :« لاتخرب البيت الايوبي ، وتدخل عليه الآفة والعدو وراءنا من كل جانب ارجع الى مصر واحفظ عهد ابيك ».

وثبت ان هذه التسوية التي صنعها العادل كانت مؤقتة وان ماحدث لم يستفد منه الافضل لتغيير سياسته ، فكان ان خرج العزيز في العام التالي من مصر يريد دمشق ، واستنجد الأفضل مجددا بعمه العادل وقام العادل بتحريض أمراء العزيز عليه واستمالهم اليه ، ونجحت خطة العادل فاضطر للعودة الى مصر واتفق عدد من الأمراء على عزل العزيز عن مصر واحلال الأفضل محله واعطاء دمشق للعادل ، وجمع الأفضل والعادل جيوشهما وزحفا نحو مصر وقبل الوصول الى القاهرة راسل العادل العزيز سرا وطلب منه الثبات لانه - اي العادل - شعر ان الافضل لن يسلمه دمشق وأخفقت الحملة وعاد الافضل الى دمشق ، وبسرعة ازداد السخط عليه فيها ، وهنا وجد العادل أن الظروف باتت مواتية لعزل الأفضل فذهب الى العزيز عثمان وعقد معه اتفاقية لتحقيق هذا الغرض وفي صيف عام ١١٩٦ م سقطت دمشق للعزيز والعادل وحل العادل محل الأفضل في دمشق ، واخذ العزيز لقب السلطنة وبقيت مصر له .

لقد تركت هذه النزاعات آثارا سلبية على الدولة الأيوبية وأثارت رغبة الصليبيين وأطماعهم في استرداد بعض القلاع والحصون ، وفي الافادة من الصراعات بعقد اتفاقات جانبية والحصول على تنازلات من أمراء بني أيوب .

وفي عام ١١٩٢ م توفي العزيز صاحب مصر وكان ابنه الأكبر محمد في العاشرة من عمره ، لذا جرى استدعاء العادل الى مصر من قبل بعض الأمراء لكن أمراء اخرين استدعوا الأفضل من حوران وسلموه شؤون مصر ، وإثر هذا اتفق الأفضل مع أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب بالعمل ضد عمهما وانتزاع دمشق منه ، وحوصرت دمشق من قبل جيوش الأفضل والظاهر ، وفي أثناء ذلك الحصار استطاع العادل استغلال سوء تدبير الأخوين فأوقع الخلاف بينهما ، واشترى ذمم عدد من افراد جيشهما فاضطر الأفضل للعودة الى مصر ، والظاهر الى حلب ، ولم يترك الملك

العادل الافضل يعود بسلام بل لاحقه الى مصر وتمكن من انتزاع القاهرة منه ، وفي سنة ١٢٠٠ م استبد العادل بملك مصر وصار أقوى رجالات البيت الأيوبي ، حيث تمكن بعد فترة من انتزاع الاعتراف بسيادته من ابناء أخيه ، ونجح العادل في توحيد اجزاء كبيرة من الدولة الأيوبية من جديد ، وحين أعاد تنظيم الدولة استعان بابنائه كما فعل صلاح الدين من قبله (٤) . لذلك كانت هذه الوحدة مؤقته ترتبط ببقاء العادل على قيد الحياة .

وازداد في هده الآونة نشاط الحملات حيث كانت الحملة الرابعة التي استولت على القسطنطينية ، ثم حملة الأطفال سنة ١٢١٢ م ، والحملة الهنغارية سنة ١٢١٧ م ، وحملة جنادي برين الكبرى ضد مصر سنة ١٢١٨ م ، ثم الحملة الصليبية الخامسة واخفقت هذه الحملات جميعا .

وحين جاءت الحملة الصليبية السادسة بقيادة فريدريك الثاني كان التمزق الأيوبي والصراع الداخلي على اشده ، لذلك استطاع فريدريك على الرغم من حرمانه كنسيا ومن قلة أعوانه استعادة بيت المقدس من الأيوبيين سلما فدخلها في ١٧ آذار ١١٢٩ م وتوج فيها ملكا على القدس ، ثم مالبث ان اخذ طريق العودة الى اوربا .

في هذه الأثناء كانت الأوضاع السياسية في المشرق العربي الاسلامي قد شهدت تطورات كبيرة بسبب ظهور المغول على مسرح الأحداث ونتيجة للأعمال التوسعية التي قام بها جنكيزخان ، فقد استولى جنكيزخان فيما استولى عليه على دولة خوارزم شاه ، وجاء نحو اطراف الدولة الأيوبية فلول الجيوش الخوارزمية ، وعلى رأسهم السلطان جلال الدين منكبرتي ، ولم يكن الخوارزمية أقل عنفا ووحشية من المغول انفسهم وقد هددوا اراضي الدولة العباسية والممتلكات الأيوبية في أعمال الجزيرة وارمينية ، وخلال الفوضى والاضطراب قتل جلال الدين منكبرتي وتشتت قوات الخوارزمية ودخل بعضها الشام كمرتزقة ، وباتت

معظم السبل مفتوحة امام المغول للتقدم نحو العراق والجزيزة والشام .

لقد استخدم أمراء بني ايوب الخوارزمية في حروبهم وصراعاتهم على السلطة ، ودون الدخول في تفاصيل هذه الصراعات المدمرة ، يكفي ان نشير الى ان الصالح ايوب تمكن بمساعدة الخوارزمية من استرداد القدس (٥) ،مما أثار قيام الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وجاءت الحملة الفرنسية تريد مصر ،وحققت في البداية بعض النجاحات لكنها اخفقت وفي اثناء التصدي لها توفي الصالح ايوب (٦) وكان حدث وفاته نقطة تحول سياسي كبير في تاريخ مصر وبلاد الشام تحتاج الى وقفة متأنية بعض الشئ لأنها خطت بداية النهاية ، نهاية الحكم الايوبي وقيام الحكم المملوكي ، هذا ويلاحظ أن الصراعات بين أمراء بني ايوب قد انعكست على أوضاع بلاد الشام ومصر فأضرت بالاقتصاد وسببت هزات اجتماعية متوالية كما انها افقدت الأيوبيين الاحترام الذي حققه صلاح الدين لهم .

كانت الدولة التي اسسها صلاح الدين قد تبنت ايامه نظام الاقطاع العسكري وقد ساعد هذا النظام على زيادة التمزقات وتعميقها بعد صلاح الدين ، وبالنظر لاستمرار الصراعات الداخلية بين افراد البيت الأيوبي ولعدم توقف التهديدات الصادرة عن الفرنجة وسواهم اضطر امراء بني ايوب الى زيادة حجم جيوشهم عن طريق الرقيق الأبيض وعن طريق المرتزقة ، وكان جل الرقيق الأبيض الذي استخدم في جيوش المشرق العربي من أصل تركي .

لقد كان ايضا من جملة النتائج التي نجمت عن الحروب الصليبية ان بلاد الشام ومصر قد شهدتا تطورا كبيرا في ميادين الفنون العسكرية من تسليح وتدريب حيث تحول العمل العسكري الى احتراف خضع لقواعد خاصة للتدريب والترقي في المراتب ، والمستعرض لتاريخ الجنود من اصل تركي منذ أيام

المعتصم بالله العباسي يرى أن الغلمان الاتراك ما أن ملكوا القوة العسكرية حتى تطلعوا نحو السلطة فتمرد بعضهم على اسياده . وسعى بعضهم الى التحكم بالخلافة وظلت سمة التطلع نحو السلطة ملازمة للعسكريين المسلمين ، حتى أن صلاح الدين نفسه كان من هذا الصنف ، فهو ما أن صار سيد مصر حتى أخذ يوسع ملكه ، ومعارك صلاح الدين الداخلية أكبر عددا من معاركه ضد الفرنجة ، ولايعنينا هذا الموضوع بقدر أن نخلص الى ماقاله الباحثون من أن الملك الصالح ايوب(٦٣٧ هـ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) قد أكثر بعدما تسلم عرش مصر من شراء المماليك الاتراك واعتنى بهم عناية لم يفعلها غيره من أهل بيته واباح لهم عمل كل شئ ارادوه فاعتدوا على أموال الناس وأنفسهم مما كاد يؤدي الى الثورة ضده في القاهرة ، فاضطر الى بناء قلعة خاصة بمماليكه وبه ، بناها وسط جزيرة الروضة على بحر النيل ، ومن هنا عرف المماليك الأوائل باسم المماليك البحرية الصالحية (٧) .

ويرتبط وصول المماليك البحرية الى السلطة بتعرض مصر لهجوم قوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع (القديس لويس) ملك فرنسا ، وترتبط هذه الحملة بأهداف الصليبيين الاساسية في الاستيلاء على فلسطين واستعادة القدس المحررة ، ولكن لم توجهت ضد مصر ولم تقدم الى الاراضي المقدسة مباشرة ؟

لهذا تعليلات كثيرة ، ارتبط أهمها بالدور القيادي الذي شغلته مصر منذ أيام صلاح الدين الايوبي كما يلاحظ انه اذا كان تحرير القدس من قبل صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م هو الذي أثار الحملة الصليبية الثالثة فإن تحريرها ثانية (٨) من قبل الصالح نجم الدين سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م هو الذي سبب قيام الحملة السابعة وقدومها الى مصر .

وهناك خلاف واضح بين وقائع هاتين الحملتين

ونتائجهما ، والذي يعنينا منهما هـو ان نذكر انه نتـج عن الحملة الثالثة ، فيما نتج ، استيلاء الصليبيين على مـدينة عكا ومـن ثـم اعادة احياء مملكة القدس ، وغدت عكا عاصمة لهذه المملكة ، وبعد وفاة صلاح الدين وبسبب نشـوب الخـلافات الشـديدة بين امـراء الأسرة الأيوبية وسع الفرنجة رقعة ممتلكاتهم وباتوا يتحكمون بجزء كبير من الساحل الشامي امتد من عسـقلان في الجنوب الى مـابعد طرابلس في الشمال مع مناطق في الداخل تمثلت ببلدة صفد والمنطقـة القائمة بينها وبين عكا . وفي سـنة ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩ م تسـلم الامبراطور فريدريك الثاني من الملك الكامل الايوبـي القـدس وبيت لحم والناصرة . وكان هذا الحدث من محصـلات الحملة الصـليبية السادسة وتم نتيجة لحنكة الامبراطور السياسية ولم يرتكز على قوة السلاح .

وبعد تحرير القدس من قبل الصالح أيوب تحفز الغرب وأعد حملة جديدة هي السابعة ، وقاد هذه الحملة القـديس لويس ، ووجههـا ضد مصر ، مقدرا انه اذا ماتمكن من قهر هـذه البـلاد سـهل عليه اسـترداد فلسـطين ، وفي حـزيران ـ مـن عام ٦٤٧ هـ ـ ١٢٤٩ م تمـكنت الحملة الصـليبية مـن احتـلال دمياط ، وكان الملك الصالح مريضا ، وقد توفي في تلك الاثناء ، مما شجع الملك الفرنسي على اتخاذ قرار الزحف نحـو القـاهرة ، وأدى هذا الى إخفـاق الغـزاة ووقـوع الملك وجيشـه في الأسر في عام ٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م(٩) .

قـام بإدارة الامـور في تلك الأونة شجر الدر أرملة الصـالح أيوب ، وتم استدعاء تورانشـاه بـن الصـالح ايوب ، لكن هـذا السلطان الجديد أخفق في مهمته ، ومن ثم اغتيل من قبل قادة مماليك أبيه يوم ٧ محرم ٦٤٨ هـ / ٢ ايار ـ ١٢٥٠ م وبمقتله انتهـى الحكم الأيوبي لمصر وتأسست سلطنة المماليك(١٠) .

وتسلم السلطة أولا شجرة الدر ، ثـم مـالبثت أن اختير لهـا عز الدين أيبك من أمراء المماليك زوجا ، ومن ثم سلطانا (١١) وفي مـدة

سلطنتها التي دامت ثمانين يوما تم الاتفاق مع الملك الفرنسي ، فأطلق سراحه ، فتوجه نحو عكا حيث استقر بها مدة اربع سنوات (١٢).

ونجم عن تسلم المماليك للسلطة في مصر نتائج داخلية خطيرة وردات فعل خارجية شديدة ، فقد رفض الحكام الأيوبيون في الشام الاقرار بالوضع الجديد ، وحدثت صراعات دموية بين أمراء المماليك اضطرت عددا كبيرا منهم إلى ترك مصر والتوجه إلى الشام حيث نشطوا فيها كمرتزقة ، وحاول لويس التاسع استغلال الأوضاع المضطربة (١٣) .

تسلم الملك الفرنسي مسؤوليات الحكم في عكا ، وبات سيد ما عرف باسم مملكة القدس ، في الوقت الذي راسل فيه فرنسا وبلدان اوروبا لاثارة حملة صليبية جديدة ، ونشط محليا عن طريق استغلال الصراع الأيوبي المملوكي ، وتقوية دفاعات الممتلكات الصليبية ، وشهدت الفترة التي أقام خلالها الملك لويس ذ.وة أعمال التحصين الفرنجية في المشرق عامة وفي فلسطين خاصة ، وانتجت نماذج من الحصون والقلاع تمتعت بقدرات دفاعية هائلة ، كما أن المدن وخاصة عكا عززت دفاعاتها واسوارها . فقد ملكت المدينة سورا مضاعفا الآن ، تخفره مجموعة من الابراج امتدت على طوله ، وزودت الأسوار والابراج بوسائط لرمي النشاب وسواه ، ومتنت بوابات المدن والقلاع ، وحفرت الخنادق حول الأسوار ، كما جهزت المرافىء بمنشآت دفاعية خاصة ، وزود مدخل ميناء عكا بعدد من الابراج الدفاعية التي مدت بينها السلاسل(١٤).

كانت عكا أنذاك مقامة على نشز من الأرض مثلث الشكل ، أطل ضلعان منه على البحر وقام الثالث على سهل يبلغ اتساعه قرابة ستة أميال في أوسع جهاته ، وكان هذا السهل عظيم الخصوبة فيه بساتين وكروم وحقول ومراع للمواشي (١٥) .

وجعل موقع عكا المتوسطي منها سوقا تجارية دولية ، كانت ترد

اليها البضائع من الشرق الاسلامي ومن الموصل ودمشق وحلب ومصر ، وكانت تقيم فيها جاليات تجارية اسلامية واخرى مثلت جمهوريات ايطاليا التجارية وخاصة البندقية وبيزا وجنوا (١٦) .

وبعدما استولى المماليك على السلطة في القاهرة انتهز الملك الناصر يوسف ، صاحب حلب وحفيد صلاح الدين الأيوبي الفرصة ، فاستولى على دمشق ، فأصبح سيد معظم اجزاء بلاد الشام ، وقد عقد العزم على الزحف على القاهرة للاستيلاء عليها وإحياء ملك آله فيها (١٧) .

واعتقد الناصر أن عليه التحالف مع الملك لويس ، فراسله عارضا التعاون معه للانتقام من المماليك مقابل إعطائه مدينة القدس التي كانت تحت امرته ، وكان هذا العرض مغريا جدا ، فيه تحقيق للهدف الذي قدم الملك الفرنسي من أجله إلى الشرق وفيه انتقام للهزيمة وللعار الذي لحق به نتيجة أسره .

لكن من الذي كان يضمن النجاح في هذه المهمة ويضمن الوفاء بالعهد أيضا ، أضف إلى هذا أن ما ملكه لويس أنذاك من قوات عسكرية ضاربة كان قليل العدد والامكانات ، وكان لا يزال في مصر ما يزيد على اثني عشر الف أسير من جنده .

وعلم عز الدين أيبك بأنباء هذه العروض والاتصالات فبعث إلى الملك الفرنسي يتهدده بقتل الأسرى جميعا ، وعرض عليه في الوقت نفسه تعديل شروط معاهدة دمياط التي أطلق بموجبها سراحه وذلك بالتنازل له عن أموال الفدية المتبقية عليه .

ودرس لويس الموقف من مختلف الوجوه ، فوجد أن المنطق يفرض عليه البقاء على الحياد ، لذلك أرسل سفارة إلى الملك الناصر أعلمه فيها أنه طلب من أمراء مصر تعديل المعاهدة التي عقدها معهم والتعويض عليه وأنهم إذا ما رفضوا فسيقف إلى جانبه ، وترك لويس بهذا الرد الباب مفتوحا لاتصالات مستقبلية مع

الناصر ، ووقف يرقب الصراع من حوله ويعد العدة للافادة منه (١٨)

وتبعا لجوانفيل الذي أرخ لحياة لويس وكان بصحبته ، بعث الملك الفرنسي وفدا إلى مصر عرض على سلطاتها موقف لويس ومطالبه ، ونجح الوفد في مهمته وأطلق المماليك سراح مائتين من الفرسان الاسرى لديهم مع ما يقارب الف مقاتل من أصحاب الرتب الادنى ، وبعثوا برسل من عندهم للاجتماع مع الملك الفرنسي وبحث شروط تحالف معه . وزاد لويس من مطالبه واستجيب له واستمرت المفاوضات بين الطرفين ولم تنقطع .

وربح لويس وازداد حجم قواته العسكرية (١٩) ، وفقد الناصر يوسف الأمل في التحالف معه فقاد قواته يريد القاهرة ، وسارع أيبك الى لقائه ، واقدم قبل ذلك على هدم مدينة دمياط ، وفي ١٠ ذي القعدة ٦٢٨ هـ/ شباط ـ ٢٥١ م التحمت القوات المملوكية بالقوات الأيوبية عند بلدة العباسية بين بلبيس والصالحية ، وانجلى القتال عن هزيمة الأيوبيين وتراجعهم نحو دمشق (٢٠) ، وقام أيبك بعد فترة وجيزة بارسال وحدة من قواته استولت على غزة.

واغتنم الملك لويس انشغال المسلمين بصراعاتهم فتوجه نحو بلدة قيسارية فأعاد تحصينها. فاستؤنف أثناء ذلك المفاوضات بينه وبين أمراء المماليك وتمخضت عن ابرام معاهدة جديدة بينهما في ربيع الاول ٦٥٠ هـ /أيار ١٢٥٢ م ، وقد حدثنا عنها جوانفيل بقوله:« وبينما كان الملك يقوم بتحصين قيسارية عاد رسله من مصر جالبين معهم معاهدة أبرمت وفقا للشروط التي وضعها جلالته وقضت المعاهدة بين الملك والأمراء بأن يتوجه الى يافا في موعد محدد ، بينما يذهبون هم الى غزة في اليوم نفسه ، وقد أقسموا على تسليمه مملكة القدس ، وأقسم الملك ورجالات جيشه على تنفيذ المعاهدة ، وكان معنى هذا اننا ارتبطنا بوعد تقديم المساعدة للأمراء ضد سلطان دمشق.

وتنفيذا لهذا الاتفاق تقدم الملك لويس نحو يافا فاحتلها ، وكان

أيبك قد بعث بقواته لاحتلال غزة ، وعلم الناصر يوسف بأخبار هذا التحالف فبادر إلى إرسال قواته نحو غزة فاحتلها وعسكرت فيها وبذلك حالت دون قيام أي اتصال بين الفرنجة والمماليك . وخرجت قوات المماليك من القاهرة لكنها لم تتجرأ على التقدم نحو غزة ، وبذلك أخفقت خطط المتحالفين وتجمد الوضع قرابة عامين . وتدخلت الخلافة العباسية بين الطرفين الشامي والمصري ، وامكن في صفر ٦٥١ هـ / نيسان ١٢٥٣ م عقد صلح بينهما ، اعترف الناصر بموجبه بالحكم المملوكي في القاهرة وتنازل لهذا الحكم عن غزة والقدس ونابلس (٢٣) .

وكان الخاسر في هذه الجولة الملك لويس ، ثم إن المماليك لم يتمكنوا من استغلال ما منحهم الاتفاق من فرص حيث تورطوا في نزاع داخلي على السلطة أودى بحياة شجر الدر وعز الدين أيبك وعدد من الأمراء الكبار ، ونشط الملك لويس قليلا ثم قام اخيرا في نيسان ١٢٥٤ م بمغادرة الأراضي المقدسة وذلك بعدما يئس من وصول حملة جديدة من أوربا ، وبعدما بلغه وفاة والدته في فرنسا ، وهي التي كانت تتولى إدارة الأمور في غيابه (٢٤) .

قد يرى بعض الباحثين أن ما حدث حتى الآن قد مهد السبيل أمام المماليك للسيطرة على بلاد الشام وفي مقدمتها فلسطين ، وقبل معالجة هذا الراي لا بد من سؤال هو : هل كانت السلطات المملوكية ترغب بالاستيلاء على فلسطين ومجمل بلاد الشام ؟ ليس هنالك ما يفيد بالايجاب في كل ما حوته مصادرنا من معلومات . هذا ولا يجوز لنا أن نذهب إلى الافتراض أن المماليك كانوا لا بد وأن يسيروا على هدي حكام مصر المستقلة السالفين في سياستهم الخارجية تجاه بلاد الشام. وسبب هذا أننا لايمكن أن نتحدث عن وجود سياسة خارجية مرسومة لدى المماليك ، بل كان هنالك ردات فعل تجاه الوقائع والأحداث ، ثم إن المماليك لم يعرفوا الحكم المستقر ولم تتوفر لديهم البيروقراطية المستقرة ، بل كان هنالك انقلابات مستمرة وحركات عصيان متواصلة ومؤامرات دائمة. اضف الى

هذا أن أمراء المماليك ورجالاتهم لم يتحرروا من عقدة الرق ، وكان حكام الشام يملكون الاعتراف الشرعي (٢٥) .

ودخلت بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي بفضل احداث غزو خارجي ، وهو الغزو المغولي ، ولهذا الغزو ولصده علاقة مباشرة ببلاد الشام ، وقبل أن ندخل بتفاصيله من المفيد أن نذكر أن الحكم المملوكي قد مر بطورين ، عرف الأول منهما بالطور التركي والثاني بالطور الشركسي ، وقد ارتبطت بداية كل طور منهما بغزو مغولي كبير .

ليس المقام هنا الحديث عن المغول وتأسيس امبراطوريتهم (٢٦) ، ويهمنا ان نذكر أنه عندما وصلت أخبار ظهور جنكيزخان إلى أوربا ظنته مسيحيا وخيل إليها انه المخلص القادم من المشرق ، ولهذا جرت اتصالات بين المغول ومختلف قوى أوروبا ومحاولات للتحالف . وتطلع الفرنجة في الشام بآمال عظيمة إلى اخبار الحملات المغولية ضد بلدان العالم الاسلامي في المشرق . وعندما زحف هولاكو حفيد جنكيزخان نحو بغداد رأوا فيه ـ مع أنه كان بوذيا كما هو المرجح ـ « داود الهندي » الذي سيتمكن من استرداد القدس من المسلمين وبناء أسوارها « بحجارة من ذهب وفضة » .

في سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م استولى هولاكو على بغداد وازال الخلافة العباسية من الوجود ، ووجه ضربة قاتلة إلى الحضارة العربية وإلى تراثها المجيد ، ولهذا خيل للمسلمين « أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب » . وتابع المغول زحفهم نحو بلاد الشام فاستولوا على حلب في صفر ٦٥٨ هـ / كانون الثاني ـ ١٢٦٠ م ، ثم قصدوا دمشق وكانت قد اجتمعت فيها قوة كبيرة للناصر يوسف صاحبها ، ومع ذلك عجز هذا الأمير الأيوبي عن الصمود وتراجع نحو غزة وعسكر فيها ، واستولى المغول على دمشق في ربيع الأول ٦٥٨ هـ / آذار ـ ١٢٦٠ م ، واخذوا يعدون العدة للزحف نحو مصر .

وكان تسلم السلطنة في القاهرة الأمير قطز ، وهو مملوك قيل إنه من أصل خوارزمي وانه يمت بصلة القرابة لأسرتها الحاكمة التي حاولت التصدي للمغول . فتراسل قطز مع الناصر يوسف ، والأهم من ذلك أنه وجد الفرصة لاعادة توحيد قوى المماليك جميعها وذلك بعدما انضم إليه بيبرس البندقداري قادما من الشام .

ولم يطل مكوث الناصر في غزة ، فقد تخلت عنه عساكره فعاد نحو الشام ، فالقى المغول القبض عليه وحملوه إلى هولاكو الذي احتفظ به ووعده بإعادة ملك ابائه إليه ، وبالفعل انضم عدد من بقايا الأيوبيين إلى المغول .

لقد ملك المغول طاقات قتالية هائلة ، وتاثرت طرائقهم بالقتال واسلحتهم بطرائق الصين واسلحتها . وكانت خبرة المسلمين إزاء هذه الطرائق شبه منعدمة ،هذا ، وكان المغول قد احتلوا في تلك الآونة روسيا ، وقام امراء المغول هناك وهم من « القبيلة الذهبية » باعتناق الاسلام ، ولهذا عارض زعيمها « بركة خان » اعمال هولاكو ودخوله بغداد وقامت اتصالات بين المماليك والقبيلة الذهبية الى حد أن بعض الروايات تذهب إلى القول إن مساعدات رمزية كانت وصلت منها الى مصر واشتركت في الحرب ضد مغول هولاكو ، وإذا صح هذا فإن معناه حصول المماليك على بعض المعلومات العسكرية عن فنون القتال لدى المغول .

ويلاحظ أن الجيش المملوكي وإن لم يكن عظيم الحجم كان جيشا محترفا بكل ما تعنية هذه الكلمة سواء من حيث التسليح أو التدريب والمقدرة السوقية والبراعة في المناورة والتكتيك الحربي .لقد كان الجيش المملوكي أفضل جيش مدرب في عالم عصره ، لهذا عندما توحدت قطعاته لم يكن غريبا أن يهزم جيوش المغول التي قهرت العالم اجمع ولم تذق طعم الهزيمة من قبل .

وقرر هولاكو عدم الاكتفاء بدمشق ، وان تتابع قواته فتحتل أولا القدس ثم تتابع سيرها نحو مصر ، ويشار هنا انه فضلاً عن

الصلات المغولية مع الصليبيين والاوروبيين ، كانت نساءبلاط هولاكو البارزات مسيحيات حسب العقيدة النسطورية وكان لهن مكانتهن ونفوذهن العظيم عليه .

وبعث هولاكو برسالة قاسية إلى قطز تهدده فيها وتوعده ، ورد قطز عليه بقتل رسله وإعلان تصميمه على لقاء المغول . وواجه في هذا السبيل بعض المصاعب الداخلية ، لكنه استطاع أن يذللها وحشد قواته وبعث طلائعه نحو غزة بقيادة بيبرس البندقداري ، واصطدم بيبرس بطلائع المغول عند غزة فناوشها وهزمها واشتبك مع قوى المغول المتقدمة لمدة أيام وكان لهذه الاشتباكات اهمية عالية جدا فقد أفادت من الجانب المعنوي ، وكانت بمثابة استطلاع قتالي مباشر واختبار لقدرات العدو وخططه من جميع الجوانب ، زد على هذا أنها موهت عليه وقدمت تغطية كاملة لتحركات قطعات الجيش الرئيسية بقيادة قطز . فقد سلكت هذه القطعات الطريق الساحلي ، وعرجت أولا على عكا لاستطلاع موقف الفرنجة فيها .

وكان الفرنجة انذاك يعيشون في أوضاع محرجة ، الخلافات الداخلية على أشدها بين طوائفهم ومنظماتهم ، وكانوا يدركون أنه ليس بإمكانهم القيام بدور فعال ، لذلك أخبروا المماليك بوقوفهم على الحياد .

وفي هذه الأثناء اضطر هولاكو إلى مغادرة بلاد الشام والعودة نحو العراق ومن ثم إلى خراسان ، حيث بلغه وفاة خان المغول وكان يطمح في أن يجري اختياره خليفة له.

ولم يضعف ذهابه قوة المغول ، وقد ناب عنه القائد كتبغانوين ، وزحفت قوات المغول وكانت تزيد على الثلاثين الف فارس وعندما وصلت إلى نهر الأردن قام بعض المسلمين الموجودين معها بإرسال رسل إلى المماليك بالمعلومات والتشجيع والوعد بالتخلي عن المغول أثناء القتال ، فقد تحدث صارم الدين

أزبك ، وكان مملوكا أيوبيا قد دخل في خدمة هولاكو قال :

« لما قدمت الشـــام ، وجـــدت التتـــار مجتمعين على نهـــر الأردن ، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ، وقد خرج المسلمون للقائهم ، فلما علمت أن التتار لا بد لهم مـــن الديار المصرية بعثـت غلاما لي في صفة جاسوس ، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفـر قـطز والأمير بيبرس البندقـداري ، وبلبـــان الرشـــيدي ، وســـنقر الرومي ، ويعرفهم أن التتار لا شيء فلا تخافوا منهـم ، وأن تـكون ميسرة المســلمين قـوية بـالخيل والرجـــال...وأوصيته ان يراعي المسلمون أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس ».

وقام المماليك باستطلاع الأرض وقرروا ان يكون اللقاء في منطقة عين جالوت بين بيســان ونابلس ، بين نهـري جلبـوع وجـــالوت مستفيدين من المستنقعات التي كانت موجودة على الجانبين.

اعتمدت خطط المسلمين فيما سبق في حروبهم ضد الفرنجة على نظام فصل اسلحة العدو عن بعضـها والايقـاع بـكل منهـــا على انفراد ،لكن الوضع كان مختلفا الآن . فقد كان المغول من الفــرسان الخفاف ، سلاحهم الرئيسي القوس والنشاب ـ حسب عادات بداة سهوب اواسط اسيا ـ يقاتلون عن بعد ويضر بهم الالتحام والقتال القريب ، وقد اعتادوا فقـط على الهجمـات السريعـــة والقتـــال الخاطف . ولهذا قامت خطة المـــاليك على اعتمـاد مبـدأ الدفـاع المتحرك ، واستهدفوا احتواء الهجوم المغولي وتدميره .

ولهذا صفوا قواتهم التي لعلها لم تتجاوز الثلاثين الفا بصـفوف طويلة واجبروا المغول على الهجوم الجبهوي بعد اشـتباكات دامـت

عدة أيام ، وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٦ أيلول ـ ١٢٦٠ م أمكن احتواء الهجوم المغولي ، وتطويق المهاجمين وتدميرهم ، فقـد جرى قتل كتبغا نوين وعدد كبير من قـادة المغـول وجـرت اعمـال مطاردة كاملة (٢٧) .

وقبل الحديث عن نتائج هذه المعركة الكبرى لابد من الاشارة الى انهيستفاد مما اورده المقريزي عن اخبار المعركة أن « أهل القرى من الفلاحين » (٢٨) الفلسطينيين قد شاركوا بشكل فعال ومؤثر في القتال وان اعدادهم كانت كبيرة ، ويضفي هذا على المعركة صبغة خاصة ، ذلك ان الظهير الشعبي حاسم في جميع المعارك .

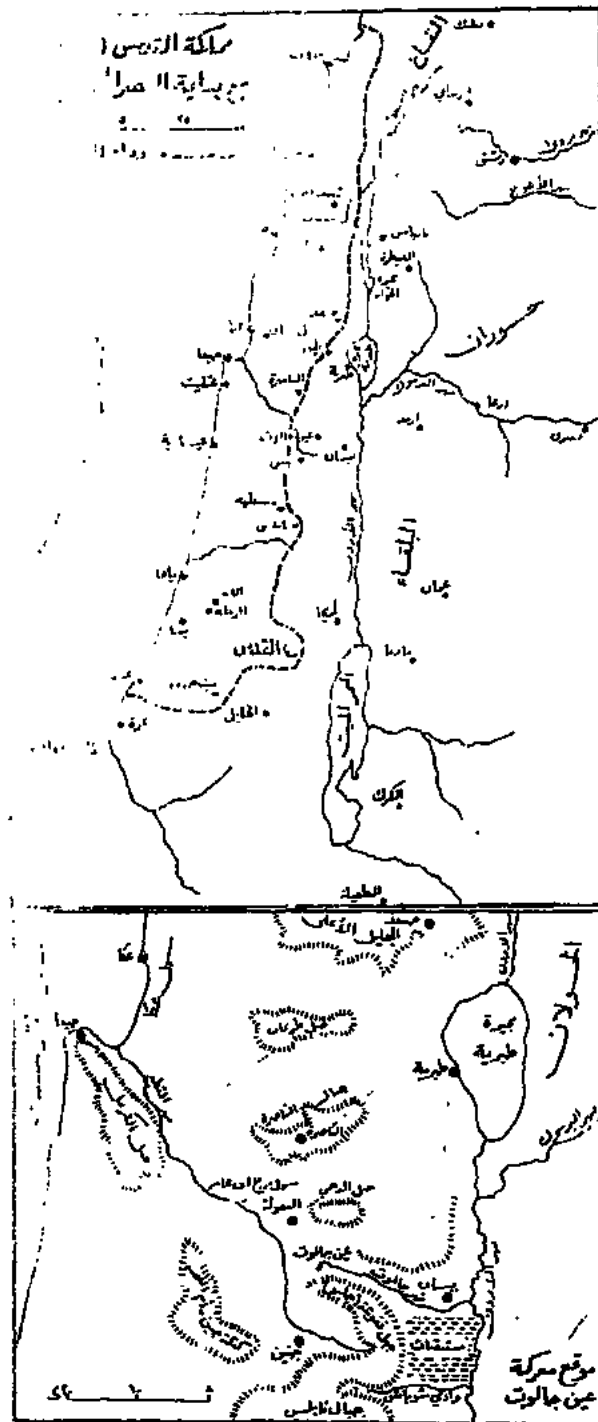
لقد كانت معركة عين جالوت نقطة تحول عظمى في التاريخ ، اذ انها اوقفت المد المغولي وحولته الى جزر ، وبرهنت ان الاحتراف العسكري المدعوم شعبيا والمستند على الايمان والمتحلي بالعبقرية يمكنه ان يهزم اية قوة مهما بلغ جبروتها . وحفظ نصر عين جالوت مصر وصان الشمال الافريقي وضمن تحرير بلاد الشام وطرد المغول الى ماوراء نهر الفرات ، وهيأ الفرصة للعمل على تصفية الوجود الصليبي في المشرق .

لقد منح هذا النصر القاهرة مكانة الزعامة السياسية ومركز الاشعاع الفكري خاصة بعد دمار بغداد وهجرة العلماء وذوي الاختصاص والحرفيين وسواهم من المشرق الى مصر .

لقد ربح المماليك الشام كلها ، ذلك ان المغول كانوا قد ازالوا الحكم الايوبي ، وهكذا امتد الحكم المملوكي الى الشام بدون معارضة ، وليس من الغلو القول ان دولة المماليك قد ارسيت قواعدها نتيجة للنصر في عين جالوت ، ويعتبر بيبرس البندقداري هو الذي تولى بناء هيكل هذه الدولة ، فقد قام بيبرس بعد انقضاء معركة عين جالوت بفترة وجيزة باغتيال السلطان قطز واحل نفسه محله بلقب الظاهر .

واجمل المؤرخ البعلبكي موسى بن محمد اليونيني ماشهدته بلاد الشام سنة ٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م بقوله :

« في هذه السنة كثر تغير الدول ومتولي الحكم بالشام ، فكان من اول السنة الى نصف صفر في مملكة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، وهو أخر من ملك من بني ايوب رحمهم الله


دمشق
حوران
البلقاء
عمان
الكرك
عكا
حيفا
بحيرة
طبرية
طبرية
الناصرة
العولة
عين جالوت
بيسان
جنين
جبال نابلس
موقع معركة
عين جالوت

وايانا ، ثم صار في مملكة التتار الى الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم ، ثم صار في مملكة المظفر سيف الدين قطز صاحب الديار المصرية الى ان قتل في ذي القعدة ثم صار في مملكة الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري »(٢٩).

وحافظ المماليك على الاوضاع السياسية الموروثة في بلاد الشام ، ذلك انهم لم تكن لديهم سياسة خارجية مصرية مرسومة تجاه بلاد الشام ، بل كانت دولتهم تشبه اتحاد اقطاعيات عسكرية متفاوتة الاحجام ، ويمكن ان ندرك هذا مما قاله اليونيني في وصفه لاحداث سنة ٦٦١ هـ ـ ١٢٦٣ م « دخلت هذه السنة وليس للناس خليفة ، وسلطان الديار المصرية والشامية والحلبية الى الفرات ، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس » ثم اردف واصفا احداث السنة التالية ٦٦٢ هـ ـ ١٢٦٤ م ، وكان الملك الظاهر قد استولى على الكرك وازال الحكم الايوبي منها واسس خلافة عباسية جديدة ، بقوله :

« دخلت هذه السنة وخليفة المسلمين الامام الحاكم بأمر الله ابو العباس احمد العباسي امير المؤمنين ، وسلطان مصر والكرك والشام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس »(٣٠).

والمتفحص لاوضاع سلطنة المماليك ايام بيبرس يلاحظ ان هذه السلطنة العسكرية كانت لها ثلاث جبهات رئيسة : واحدة في مصر ، واخرى في دمشق ، وثالثة في حلب . فقد تعرضت مصر للغزو الصليبي برا وبحرا ، وارتبط استيلاء المماليك على السلطة مع وقائع الحملة الصليبية السابعة ، اما دمشق فقد كانت جبهة مواجهة مع بقايا الصليبيين في الشام ، واهم من ذلك مواجهة الخطر المغولي القادم من الشرق ، اما حلب فقد واجهت دولة ارمينية الصغرى (سيس) والخطر المغولي .

لقد اقتضى اشتداد الخطر المغولي ان تتفرغ دمشق للتصدي له ، ودفع هذا السلطان بيبرس الى ايجاد قوة اسلامية تتمكن من

رصد فرنجة عكا والتصدي لهم ، وهكذا اقتضى الحال تحرير صفد واقامة نيابة مملوكية فيها •

ومتتبع اخبار المماليك يجد ان حكمهم لم يعرف الاستقرار ولا ديمومة الولاء والخلاص ، بل ساده الصراع ، وقد نافس حكام الشام سلاطين القاهرة وسعوا الى الاستقلال عنهم او احتلال مناصبهم وتميز تاريخ المماليك بتحالف رجالاتهم مع رجال الدين الاسلامي ، واهتم المماليك اهتماما كبيرا باظهار شدة تمسكهم بالاسلام واحترامهم للاماكن المقدسة واكثارهم من بناء المساجد ومدارس الدين والزوايا.

ويتصدر السلطان الظاهر بيبرس قائمة اسماء سلاطين المماليك الذين تولوا اعمال التحرير . وبيبرس كما هو معروف هو الذي ارسى قواعد السلطنة المملوكية ونظم شؤونها جميعا ، وقد اعتلى العرش اثر معركة عين جالوت ، وكان ذلك بعد اغتياله لقطز « وفعل الظاهر بيبرس مافعله معتمدا على نفسه ، وبلغ غرضه بمفرده ، وذلك بين العساكر العظيمة والاحتراز الشديد ، وماقدر احد ان يتكلم ، ولاجسر ان يمد يده اليه » .

وتسلم بيبرس السلطة في القاهرة ، وواجه في البداية عددا من الثورات واعمال المعارضة في القاهرة ودمشق . واستطاع بسرعة وحزم ان يقضي عليها جميعا ، فالتفت الى الجوانب التنظيمية والادارية ، ولعل اهم ماقام به في هذا المجال هو بعث الخلافة العباسية واعادة تأسيسها في القاهرة (٣١) .

كان الحكم المملوكي الجديد بحاجة الى الشرعية ومثل هذه الشرعية كان بإمكان الخلفاء وحدهم منحها . ونحن وان كنا لانجد المكان مناسبا للحديث عن تطور السلطة لدى العباسيين ، الا انه من المفيد ان نبين ان الظاهر بيبرس قد تمسك بمفهوم السلطة المورث عن السلطنة السلجوقية ، فقد كان مثل السلاجقة ، من اصل تركي .

وكان السلاجقة بعدما استولوا على بغداد واقاموا دولتهم العظمى قد احدثوا تغييرا في مفهوم السلطة ، فهم لم يتحكموا بالخلفاء العباسيين كما فعل رجالات بني بويه قبلهم بل اعتمدوا مبدأ ازدواجية السلطة ، وهو مبدأ تركي متوارث ،وتبعا لهذا المفهوم كان يتولى رئاسة الدولة رجل عرف باسم الخاقان لايملك اية صلاحيات بل كانت رئاسته اسمية ، والى جانبه يتولى مباشرة السلطة ال « بك » وغالبا ماكانت وظيفته عسكرية . ويلاحظ بالنسبة لتاريخ سلاطين السلاجقة والمماليك ان السمة العسكرية قد غلبت عليهم .

كما يلاحظ انه في زمن السلاجقة جرى توسيع قواعد نظام الاقطاع العسكري . ونتيجة لسياستهم الدينية عظم شأن علماء الدين السنة ودورهم الى حد يمكننا فيه الحديث عن قيام اقطاع ديني تحالف وتعاون مع الاقطاع العسكري . وكان لرجال الدين دور خطير جداً في ايام الحكم المملوكي وغالبا ماقاموا بالوساطة بين المماليك وطوائف المجتمع على اختلافها (٣٢) .

توجه السلطان الظاهر بيبرس نحو دمشق في العا م التالي لتوليه السلطنة ٦٥٩ هـ ـ ١٢٦١ م ، ويبدو انه سلك الطريق الساحلي مستطلعا اوضاع المنطقة الساحلية وضاغطا على الصليبيين هناك ،وفي طريقه جاءه كونت يافا فأكرمه السلطان وكتب له مذشورا ببلاده ، ورده سالما الى مدينته . وفي دمشق « حضر رسول من جهة عكا يسأله امانا للرسل المتوجهين من البيوت (الداوية والاسبتارية) كلها فكتب الى والي بانياس بتمكينهم ، فحضر اكابر الفرنج والتمسوا الصلح ، فوقف السلطان عليهم ، وطلب منهم امورا كثيرة ، فلما امتنعوا زجرهم السلطان واهانهم » . ثم تقررت الهدنة مع تبادل الاسرى ورفع المقاطعة الاقتصادية (٣٣).

ويلاحظ في هذا المقام ان مؤسسات الفرنجة السياسية والعسكرية في الشام تصرفت في بداية العصر المملوكي وكانها جزء من المنظومة السياسية الشامية المحلية ، وان بيبرس شعر ان

المخاطر العظيمة على سيطرته على بلاد الشام ليست صادرة عن الفرنجة بل عن امارة الكرك ، التي ماتزال تحت الحكم الايوبي ، ومازال حاكمها يطمع بسلطنة القاهرة . ولهذا اتخذ الظاهر بيبرس قراره بالاستيلاء على الكرك ، وكان يحتاج حتى يتمكن من انجاز هذا العمل حماية ظهره من مخاطر المغول ، ولهذا جهز حملة عسكرية بعثها نحو العراق تحت لواء احد الناجين العباسيين وبايعه بيبرس بالخلافة وقد حمل لقب المستنصر بالله وقيل ان اسمه « ابو القاسم احمد بن الامام الظاهر »(٣٤) .

وماان فرغ بيبرس من هذه الاعمال حتى بادر بالعمل ضد امارة الكرك فاستولى اولا في هذه السنة نفسها ٦٥٩ هـ ـ ١٢٦١ م على قلعة الشوبك ثم شرع يتدبر امور الكرك وكانت من امنع القلاع في بلاد الشام ، فتمكن ببراعة مطلقة من الاستيلاء عليها في سنة ٦٦١ هـ ـ ١٢٦٣ م (٣٥) وبذلك أزال الوجود الأيوبي من جنوبي بلاد الشام ، وبات من الممكن التفرغ للعمل ضد الصليبيين.

وادام السلطان اثناء عمله ضد الكرك الاتصالات الدبلوماسية مع الصليبيين :

« ولم تزل رسلهم في هذا ومثله إلى فرغ السلطان من شغله الذي كان في نفسه ، وهو حديث الكرك ».

وما إن انتهى منه حتى زحف على رأس جيوشه الى قلب الأراضي والممتلكات الصليبية ، واستقبل اثناء ذلك رسل مؤسسات الفرنجة الذين عرضوا عليه التمسك باتفاقات الهدنة فرفض ، وبعدما بين لهم الأحوال التي لم يتمسكوا بها بشروط الهدنة اوضح لهم عن مقاصده وشروطه بقوله :

« أنتم في أيام الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف على انكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح (ايوب)... وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح اسماعيل لاعانة مملكة الشام وغيرها لي ، وما انا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم ، فتردون

ما اخنتم للاسلام بهذا الطريق ، وتفكون أسرى المسلمين جميعهم ، وغير ذلك الأقيله» (٣٦) ، ثم أمر بطرد الرسل ورسم بهدم كنيسة الناصرة ،« وهي أكبر مواطن العبادة التي لهم ، ويقولون منها خر ج دين النصرانية..(ووجه من) هدمها الى الارض ، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجة أن يخرج من باب عكا»(٣٧) .

وسبب ذلك انه ارسل قطعة كبيرة من جنده للاغارة على عكا ، ثم اتبع بيبرس ذلك بقيامه في يوم ٤ جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / ١٥ نيسان ١٢٦٣ م بالزحف ضد عكا ، « ولم يزل سائقا الى ان طاف بها من جهة البحر ، وسير جماعة الى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصره ، وللوقت أحدثت فيه النقوب ، وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة إنما هو لكشفها » ، وكان الفرنج « قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معاثر في الطريق ، وبسرعة متناهية تمكن جند بيبرس من ردم الخنادق وطلع الناس الى تل الفضول ، وانهزمت الفرنج الى المدينة ، وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار وقطعوا الأشجار وحرقوا الثمار » ، وحاول بيبرس اقتحام المدينة فأخفق ، وبعد قيام جيشه بعده هجمات أمره بالانسحاب ، حيث توجه نحو الكرك ومن هنالك عاد الى القاهرة (٣٨) .

ويبدو أن أهداف بيبرس في حملته هذه كانت اكبر من ايقاع الضرر بالفرنجة أو استعراض قواه أمامهم وفرض هيبته عليهم ، ولا حتى مجرد الاستطلاع والتعرف على طبيعة المنطقة . لقد أراد بيبرس احتلال عكا ، مقدرا إمكانية ذلك ، بسبب أوضاع عكا الداخلية ، فقد كان الفرنجة قد وصلوا في هذه الفترة الى درجة كبيرة من الضعف ونجم ذلك عن القتال بين البنادقة والجنويين فيها (٣٩) .

ووصلت الأخبار في عام ٦٦٢ هـ ــ ١٢٦٤ م عن تحرك مغولي ضد بلاد الشام لذلك أصدر السلطان بيبرس تعليماته باستنفار

القوات في الشام ، وشحن القلاع ورممها . وتحرك السلطان على رأس قواته من مصر فقصد غزة ومن هناك تحرك نحو منطقة يافا ، وبينما هو على الطريق وصلته الاخبار بهجوم المغول على المناطق الشمالية من الشام ، وصد تلك الهجوم ، ولذلك بادر الى تغيير خطط زحفه واستغلال الموقف في البقاع التي كان فيها .

وبناء عليه « ثنى اعنته الى جهة الفرنج ليدينهم كما دانوا ويكون لهم كما كانوا ، وما اعلم احد مغزاه ، ولا فهم اين مرامه ومرماه » ، وتظاهر بالانشغال بأعمال الصيد في غابة ارسوف ، فقام باستطلاع ارسوف وقيسارية ، وامر باحضار الاخشاب واعداد المجانيق واسلحة الحصار ، واحضر الصناع والحجارين (سلاح المهندسين) ، وهاجم قيسارية ، و« نزل عليها يوم الخميس في التاسع من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمائة (٢٨ شباط ١٢٦٥ م) ولوقته طاف بها . وهاجمها الناس . والقوا نفوسهم في خنادقها وعمدوا الى السكك الحديد التي للخيل والشبح والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب ، ونصبت عليها السناجق وحرقت ابوابها وهتك حجابها ، فهرب اهلها الى قلعتها .»

وشرعت القوات المملوكية بحصار قلعة قيسارية ، وكانت « من احصن القلاع واحسنها ، وتعرف بالخضراء ، وكان الريدافرانس (لويس التاسع) حمل اليها العمد الصوان واتقنها ، وما رؤي في الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع لأن البحر المالح حاف بها ، وجائز في خنادقها ، والنقوب لا تعمل فيها للعمد الصوان الصلبة في بنائها » وشدد بيبرس الحصار عليها وضيق الخناق على المدافعين عنها ، وبعد مضي اسبوع هرب الفرنج بحرا الى يافا ، « واسلموا القلعة بما فيها ، وتسلق المسلمون اليها من الأسوار ، وحرقوا الابواب ، ودخلوها من أعلاها واسفلها » وأمر بيبرس على الفور بهدم قيسارية مع قلعتها » ووقف يهدم

بنفسه ، وراه الناس فتشبهوا بـه ، وعملوا بنفـوسهم ، وصـار يباشر ذلك بنفسه ويده »(٤٠) .

لقد برهن بيبـرس في جميع معـاركه على أنه صـاحب عبقـرية عسكرية متميزة ، فعندما قرر مهاجمة قيسارية أرسل بعض وحدات جيشه نحو عكا للاغارة عليها ، والحيلولة بين أهلهـا وبين إنجـاد قيسارية ، وجاء تحرير قيسارية بمثـابة ضربـة قـاسية ضـد الفرنجة ، حيث خسروا أهم نقاط الدفاع المتقدمة لديهم .

إن الهجوم على قيسارية يدل على وجود خطة محكمة للتحرير قد وضعها بيبرس . فقيسارية كانت أهم مواقع الصليبيين واحصـنها على الساحل فيما بين عكا وغزة ، وبعدما نجحت خـطة الاسـتيلاء على قيسارية عمد بيبرس الى اجراء عسـكري له شـقان : الشـق الأول تصفية الممتلكات الصليبية فيما بين قيسارية وغزة ، والشـق الثاني التقدم في الوقت نفسه خطوة أخرى باتجاه عكا . فبينما كانت عمليات الهدم مستمرة في قيسارية أرسـل بيبـرس في ٢٦ جمـادى الأولى ٦٦٣ هـ / ١٧ اذار ١٢٦٥ م مجموعة كبيرة من عسـاكره نحو حيفا « فساروا اليها ودخلوا قلعتها ، فنجا الفـرنج بـأنفسهم الى المراكب بعد ان قتـل منهـم وأسر... واخـربوا المدينة وقلعتهـا وأحرقوا ابوابها ، وجعلوها خـاوية على عروشـها ، كأن لم تغـن بالأمس ، وكان أخذها وما اعتمد فيهـا مـن قتـل واسر وإخـراب وإحراق في يوم واحد ».

وفي الوقت الذي تعرضت فيه حيفا للغارة المدمرة المحـررة سـار السلطان الظاهر بيبرس بنفسه على رأس قطعة كبيرة أخـرى مـن جيشه الى عتليت . وبعدما استطلعها أمر عساكره بالاغارة عليهـا « وأمر بتشعيثها وقطع أشـجارها ، فقـطعت جميعهـا وخـربت أبنيتها » ثم عاد نحو قيسارية لمتابعة أعمـال الهـدم وإعداد خـطة هجوم جديد .

وكان الهدف الآن هو بلدة أرسوف ، وبعدما أعد بيبرس الأسلحة الجماعية ومعدات الحصار ، ألقى الحصار على أرسوف وشدده وكانت اسوارها متينة وعالية ، وقامت قوات بيبرس بالتقدم نحو الاسوار في ظل ستائر من الأخشاب على شكل أبراج متحركة ، وحاولت هذه القوات حفر نفقين تحت الاسوار بغية شحنها بالأخشاب وإحراقها تحت طرف من اطراف الاسوار بغية هدمه ، وقام الفرنجة بخطط معاكسة وذلك بحفر انفاق مضادة ونشر الدخان فيها بشكل مفاجيء.

وبعد حصار دام أربعين يوما لم يتوقف القصف والرمي فيها امكن فتح ثغرات واسعة في الاسوار ، وهكذا تمكن الجند من اقتحام المدينة والدخول الى حصنها ، وهنا توقف المدافعون عن القتال والقوا اسلحتهم واستسلموا ، وحررت أرسوف وعادت الى اهلها يوم الخميس ١١ رجب ٦٦٣ هـ / ٢٦ نيسان ١٢٦٥ م . وأمر بيبرس بهدم أرسوف ثم وجه انذارا الى كونت يافا جاء فيه :

« إنا لا نحتمل الهضيمة ، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة اخذنا عوضها قلعة مرتفعة ، وإذا هدموا جدارا هدمنا اسوارا ، والسيف في يد الضارب ، والجواد عنانه في قبضة الراكب ، ولنا يد تقطع الأعناق ، ويد تصل الأرزاق ، ومن تحرش فعن تجربة ، ومن أراد شيئا من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة ».

لا شك أن إنجازات أعمال التحرير لهذا العام كانت جليلة ومحصلاتها عظيمة لا سيما في بناء قلعة قاقون . وقبل تعليل أسباب هدم الحصون المستولى عليها والباعث على بناء قاقون ، من الضروري الاشارة الى أن أعمال التحرير هذه لم يتوقف إنجازها على العسكريين المحترفين من جند بيبرس ، فلقد كان الحضور الشعبي كبيرا ، اثناء القتال وأعمال الحصار ، وشارك العرب الفلسطينيون مع إخوانهم من أهل الشام نساء ورجالا ، وكان لهم

دورهم المميز ، ويحدثنا ابن عبدالظاهر قاضي بيبرس ورئيس ديوان الانشاء لديه وكاتب سيرته وهو شاهد عيان بقوله :

« وحضر العباد والزهاد والفقهاء والفقراء الى هذه الغزاة المباركة التى ملات الأرض بالعساكر واصناف العالم ، ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش بل النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال ، ويجرون في المجانيق ، وأطلق لجماعة من الصالحين الرواتب ، مثل الشيخ علي المجنون ، والشيخ إلياس ، ومن الأغنام والحوائج ، واطلق للشيخ علي البكاء جملة من المال ، وما سمع أن أحدا من خواصه اشتغل عن الجهاد في نوبته بشغله ، ولا سير أمير غلمانه في نوبته واستراح هو ، إلا الناس سواء في هذه الأمور ».

وكان الشيخ علي المجنون أول الناس لدى اقتحام الأسوار ، فهو أول من شاهد انهيار أسوار باشورة أرسوف ، والحضور الشعبي له دلالات كبيرة . فالمعركة كانت لها صبغة « قومية ــ وطنية » ، إذا جاز لنا استعمال التعابير الحديثة ، ولم تكن صراعا بين حكام أو عسكريين ، بعضهم من الفرنجة وبعضهم الآخر من الترك . لقد اعتبر بيبرس أعماله جهاداً في سبيل الله ، واعتبر الشاميون الفلسطينيون عملهم جهاداً في سبيل الله والأرض ، ولهذا كان التعب يعتري جند المماليك لكنهم لم يعرفوا للتعب معنى ولم يتوقفوا الا بعدما ألقى العدو السلاح واستسلم(٤١)

ولجأ بيبرس الى هدم المدن والحصون الساحلية التي استولى عليها حتى لا يعود الفرنجة اليها فيرمموها ويتحصنوا بها من جديد ، ذلك أنه كان لهم تفوق بحري على المماليك وكانت تحت تصرفهم اساطيل الدويلات الايطالية مع اساطيل دول أوروبا المتوسطية (مثل فرنسا وصقلية وإسبانيا).

لقد قدر بيبرس ــ كما يبدو ــ أن الاستيلاء على عكا ليس بالأمر

السهل ويحتاج الى مجهود كبير ووقت طـويل ، وأن هنالك مسـائل ومخاطر ملحة اخرى في المناطق المحتلة من قبل الصـليبيين خـارج فلسطين ، فقـد كانت هنالك طـرابلس ، وقلعـة حصـن الأكراد وانطاكية ، لذلك تابع العمل على تجريد عكا من ممتلكاتها وأخذ يعد العدة لتحرير صفد ، واقدم أولا على اعادة تحصين قلعة قاقون.

كانت قاقون تعد من أعمال قيمسارية ، وقد سكن قلعتها فـرسان المعبد (الداوية) وقد ورد ذكرها في عمليات الحـروب الصـليبية . وهي وإن كانت قلعة داخلية لم تكن بعيدة عن الساحل ، لذلك توفرت فيها الشروط المطلوبة ، وأمر بيبرس بإعادة بناء قلعتهـا ، ورمـم كنيستها وحولها الى جامع ، وأوقـف عليهـا الأوقـاف وشـحنها بالمقاتلة وانتهت هذه الأعمـال سـنة ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٧ م ونمت قاقون خلال فترة وجيزة فصـارت عامـرة بـالناس وغدت محـطة للقوافل الذاهبة الى غزة والآيبة منها ومـركزا مـن أهـم مـراكز البريد ، ذلك أن بيبرس اعتنى عناية فائقة بالبريد حتى كان الخبـر يحتاج الى اربعة أيام للوصول من دمشق الى القاهرة (٤٢) .

وبعد انقضـاء مـوسم أمـطار عام ٦٦٤ هـ ـ ١٢٦٦ م جهـز السلطان الظاهر بيبرس قواته وأخذ الطـريق نحـو غزة يريد بـلاد الشام ، وفي غزة كلف بعض أمراء جيشه بقيادة وحـداتهم والاغارة على ممتلكات الفرنجة في الساحل ما بين طرابلس وصور ، ومن غزة توجه بيبرس شخصيا نحو مدينة الخليل « فدخل الى مقام ابـراهيم وزار وكشف المظالم » وأتخذ عدة إجراءات لصيانة حرمة المكان ثـم توجه نحو القدس فأتى « الحـرم الشريف مسـتخفيا في نفـرين أو ثلاثة ، وصلى الجمعة بالقدس ، ورحل الى عين جـالوت نحـو عكا وعسكر امامها وأمر باجتماع قواته اليه ».

وعاد ثانية فضغط على عكا واغارت قواته على المناطق المحيطـة بها ، بغية إضعافها اقتصاديا وعسكريا ، وراسله مقدم الاسبتارية

من عكا من أجل الهدنة وفق الشروط التي يفرضها ، وعندما تهيأت الأجواء توجه بيبرس نحو صفد فهي قد كانت هدفه « لأنها الغصة في حلق الشام ، والشجا في صدر الاسلام »(٤٣).

وقبل البحث في أحداث تحرير صفد نحتاج الى وقفة قصيرة بغية التعرف الى موقع هذه البلدة مع شيء من تاريخها الاسلامي :

تقع صفد في الجليل الأعلى ، وترتفع حوالي ٨٤٠ م عن سطح البحر وتبعد نحو ٢٠٦ كم عن القدس ، وهي ذات موقع استراتيجي هام « كانت أولا تلا ، وكان على التل قرية عامرة تحت برج اليتيم...لم تذكر في شيء من الكتب الموضوعة في التاريخ في صدر الاسلام » وقد سقطت بيد الصليبيين في الحملة الأولى فعمروا قلعتها سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م وسكنها فيما بعد سنة ١١٦٧ م فرسان المعبد (الداوية) وحصنوها وظلت في أيدي الصليبيين حتى حررها« السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد حصار شديد» سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م وآلت منذ ذلك التاريخ الى السلطات الأيوبية في دمشق الى أن هدمها المسلمون سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م « وبقيت خرابا ، وبلادها في يد من يملك دمشق لا يهتم ببنائها ملك الى أن أعطاها الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل للفرنج فيما أعطاهم من البلاد في سنة ثمان وخمسين وستمائة(١٢٦٠).

ثم آلت ملكيتها الى فرسان الداوية ، فقاموا بتجديدها وتوسيع رقعة حصنها حتى بات يتسع لحوالي ٢٢٠٠ من الفرسان والمقاتلة وقد « شحنوها بالمؤن والعتاد وجلبوا اليها الماء من العيون المجاورة » ، وعظم شأن صفد في هذه الآونة وتحولت الى بلدة كبيرة لها نشاطات وإمكانات تؤهلها لأن تصبح نواة نيابة في المستقبل(٤٤)

وكان الداوية أفراد إحدى أهم منظمات الصليبيين وإخوانياتهم

العسكرية،وكانوا يديرون في هذه الآونة أعمالا اقتصادية ونشاطات مالية واسعة . وعلى قاعدة من ملك المال ملك السلطة ، مارس الداوية نفوذا كبيرا على حكام الفرنجة في الشام ، كما أن تاريخهم مع الاسبتارية في المشرق ملطخ اكثر من سواهم بجميع انواع الوصمات من كذب وغدر ومذابح بلا رحمة . ولهذا عمد حكام المسلمين الى اعتبارهم « مجرمي حرب » لا يجوز الابقاء على أي منهم عندما يؤخذ أسيرا ، وهذا ماطبقه صلاح الدين إثر انتصاره في معركة حطين .

وقرر السلطان الظاهر بيبرس الاستيلاء على صفد فاعد لذلك ما لزم من معدات وبعدما وجه أقسى الضربات لكل من عكا والمناطق القائمة بين طرابلس وصور ، تحرك نحو صفد ، واستنفر قوات الشام ، ويبدو أن حجم الاستعدادات كان واسعا ، وكانت الخطة الموضوعة لمهاجمة صفد محكمة.

الموقع كان في غاية الحصانة والمدافعون عنه كانوا من أشرس المقاتلين الصليبيين واكثرهم تمرسا واشدهم صبرا ، وعمل بيبرس على عزل صفد ومنع وصول النجدات اليها ، حيث بعث قطعة من قواته لمشاغلة حصن الشقيف ورصد الطرق والممرات فقد حرص بيبرس على سلامة وصول المعدات والمجانيق والأخشاب من دمشق حرصه على منع النجدات عن صفد .

ويحدثنا ابن عبد الظاهر أن الجمال التي حملت المجانيق أصابها الوهن أثناء توجهها نحو صفد «فجهز(بيبرس) الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب ، وهو مرحلة من صفد ، وخرج السلطان بنفسه وخواصه ، وجر أخشاب المجانيق مع البقر». وبدا حصار صفد يوم ٨ رمضان ٦٦٤ هـ ـ ١٣ حزيران ١٢٦٦ م وأشرف بيبرس بنفسه على تجهيز المجانيق ووجه رماياتها . وشدد المسلمون

الحصار على صفد ، وعملوا في سبيل فتح ثغرة في الأسوار . وانقضى شهر رمضان والقتال مستعر ، واصاب الهلع الفرنجة وسعوا إلى الاستسلام ، لكن بيبرس تشدد في شروطه واصر على قتل فرسان الداوية .

كان بيبرس اثناء الحصار في ذروة اليقظة والنشاط وقد ضرب مثلا اعلى لجنده . كان يتفقد عساكره ويبذل لهم الارزاق ، ويبني الخيام ، ويحضر الاطباء والجراحين ويطلق الأطعمة والأشربة للجند لاثارة حماستهم ولرفع معنوياتهم . وبعد انقضاء شهر رمضان بدأ السلطان بيبرس زحفا ضد صفد في اليوم الثاني لعيد الفطر(٢ شوال / ٦ تموز) ولم يثمر هذا الهجوم واخفق في اختراق دفاعات صفد وبعد مضي أسبوع جدد بيبرس المحاولة ، ومن جديد أخفق . ثم حاول ثالثة يوم ١٤ - ١٧ ، والح بيبرس وشدد الهجوم في اليوم التالي ، وسقطت باشورة القلعة واقتحمت عساكر

بيبرس القلعة ، وهنا ادرك الفرنجة أنه لا فائدة من متابعة المقاومة وعرضوا الاستسلام ، واصدر بيبرس اوامره « بأن لا يرموا احدا من الفرنج والنصارى والمستعربة غير الداوية ، فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال » . وتابع الداوية المقاومة عدة أيام ثم طلبوا الامان مجددا فمنحهم ما طلبوا بعد أن « اشترط عليهم أن لا يستصحبوا سلاحا ولا لأمة حرب ولا شيئا من الفضيات ولا يؤذوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم».

وتوقف القتال وخرج المدافعون عن صفد ودخلت عساكر بيبرس إليها »، وبعدما تفقدوها وجدوها بدون اموال وذخائر واسلحة فردية . وأمر بيبرس بتفتيش الفرنجة فوجد انهم « أخرجوا معهم الاسلحة والفضيات واخفوها في قماشهم . وتحدثوا على جماعة من اسرى المسلمين اخذوهم على أنهم نصارى ، كذلك صغار المسلمين

المأسورين عندهم »(٤٥).واعتبر السلطان ما اقترفه الفرنجة نقضـا لشروط الاستسلام يسوغ له الأمر بإعدامهم .

وكان بيبرس ينتظر مثل هذا المسـوغ ، فـأصدر أوامـره بقتـل الفرنجة جميعا فيما عدا اثنين منهم ، أولهمـا أعلن عن اسـلامه ، وثانيهما أطلق سراحه ليخبر بني جلدته بما وقع في صفد.

ويبدو ان الذين أعدموا كانوا من الداوية فقـط ، ذلك انه بعـدما سقطت باشورة القلعة افسح المسلمون السبل امام الفرنجة العاديين وسواهم للهرب ، إن لم نقل شجعوهم على ذلك . اضف إلى هذا أن الاسلام عرض على الذين نقضوا الاتفاق ، وواحد فقـط هـو الذي تحول إلى الاسلام ، ورفض البقية ، مما يدلل على انهـم كانوا مـن الداوية الذين شهروا بشدة التعصب.

وكما حدث في المعارك السالفة كان الحضور الشعبي كبيرا أيضا اثناء حصار صفد ، وقد قتل عدد من المتطوعة ، وهذا يؤكد من جديد أن عمليات التحرير أسهمت الأمة فيها لا عن طريق تحمل نفقات جند المماليك وإعداد الأسلحة وتأمين المؤن ورجالات الادارة فحسب ، بل عن طريق المقاتلين أيضا . وعلى هذا تحمل شعب فلسـطين وأهـل الشام القسط الأكبر من أعباء تحرير الأرض ، وذلك بعدما كانوا قد تمسكوا بالأرض وتحملوا مشاق الاحتلال.

وعين بيبرس واليا لصفد ، وأمر بعمارتها والزيادة فيها ، وحمل إليها الذخائر والسلاح، وولى قلعتها واحدا من قادة جيشه وشحنها بعدد من الجند ثم ارتحل مسرعا نحو دمشق (٤٦) لتجريد القوات ضد مملكة ارمينيا الصغرى.

وكان لتحرير صفد أصداء واسعة ،حيث سارع ممثلوا بقية الفرنجة نحو بيبرس يعلنون خضوعهم له ، كما سقطت قلعتا هونين وتبنين ، وقرر بيبرس إعادة ترميم قلعة صفد بعد ما لحقها من تهديم كبير

وذهببيبرس إلى القاهرة حيث مكث هنالك وقتا قصيرا ثم توجه مجددا سنة ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٧ م نحو بلاد الشام .

وعند وصوله الى غزة وصل اليه رسل الفرنج يحملون الهدايا مع بعض اسرى المسلمين ويطلبون تأكيد اتفاقيات الهدنة . وتوجه بيبرس نحو صفد وهو على نية إعادة بنائها ، لكنه ما أن وصلها حتى أتته الاخبار بتوجه حملة مغولية نحو الشام ، فترك صفد وذهب إلى دمشق ، وفي دمشق عرف بعودة المغول فعاد هو أدراجه نحو صفد ، وعلى الفور أمر باعادة حفر خندق القلعة فقسمه « على الامراء ، وأخذ نصيبا وافرا لنفسه ومماليكه وحاشيته ، وشرع الناس في العمل ، وعمل السلطان بنفسه وبيده ، وكذلك جميع بيوتاته من بابية وغيرهم ، ولم يتوفر أحد من العمل ، ولازموا نقل الحجارة ورمي التراب ، وتسابق الناس في النجاز».

لقد تميز بيبرس بقدرات على المناورة السياسية ساوت قدراته العسكرية ونشاطه في الميادين ، فقد وصل إليه وهو على صفد رسل الفرنج « وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ما قطع أكبادهم حسرات ، وتحدثوا مع السلطان في أمر بلادهم »، وبعدما وجه

بيبرس النقد إلى سفراء الفرنجة طالبهم بشروط ومطالب قـاسية ، وابدى عدم اهتمامه لهم ، وارسل اثناء المفاوضات ، وحـدات مـن جيشه أغارت عدة مرات على عكا ، وتوجه هـو نفسـه نحـو عكا ، وخيم بتل الفضول على مقربة منها ، وبات ليلتـه هناك ثـم أعمـل الغارة ضدها في اليوم التالي فقتل واسر ودمر . ثم عاد نحو صفد ، واستدعى إليه رسل الفرنج فعـرض عليهـم مـا حمله اثناء غارتـه للضغط عليهم ويبدو أن ذلك لم يؤثر عليهم لذلك أمر بـردهم بـدون جواب(٤٧).

وقام بيبرس إثر هذا بالاغارة على عكا ، فحـاصرها عدة أيام ، لكنه عندما شعر بتعذر الاستيلاء عليها انسحب نحو صفد فـأشرف على إكمال ترميمها « فعمر الباشورة وبني فيها ابـرجة واسـواقا وخانات ، وحمامات ، فصارت بما أحدثه فيها من أحصـن القـلاع وامنعها، وأطيب البقاع واخصبها ».

وكتب بيبرس على قلعة صفد بعدما جددها:

(ولقد كتبنا في الزبور مـن بعـد الذكر أن الأرض يرثهـا عبـادي الصالحون)(الأنبياء: ١٠٥) .(أولئك حزب الله الا إن حزب الله هم المفلحون)(المجادلة: ٢٢) . أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها ، من خلصها مـن أسر الفـرنج الملاعين وردها إلى يد المسلمين ، ونقلهـا مـن حـوزة الديوية إلى حـوزة المؤمنين ، وأعادها الى الايمان كما بـدأ بهـا أول مـرة ، وجعلهـا للكفار خسارة وحسرة ، واجتهد وجاهد حتى بدل الكفـر بـالايمان والناقوس بالأذان والانجيل بالقرآن ، ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه وبخواصه على الرؤوس . السـلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس ، فمن صارت إليه هـذه القلعـة مـن ملوك الاسلام ، ومن سكنها من المجاهدين ، فليجعل له نصيبا مـن اجره ، ولا يخله من الترحم في سره وجهره ، فقد صار يقال عمر الله

صرحها ، بعدما كان يقال عجل الله فتحها ، والعاقبة للمتقين إلى يوم الدين ».

وعندما كان السلطان الظاهر بيبرس مقيما في صفد يعمل على إعادة بنائها وصله رسول من عند صاحب يافا يطلب تجديد الهدنة فرفض ، وفي جمادى الآخرة لعام ٦٦٦ هـ ـ شباط / ١٢٦٨ م وصلت بيبرس الأخبار بعزم المغول الاغارة على حلب ، فاستنفز قواته وقادها نحو غزة ،وفي الوقت نفسه أمر باستنفار قوات دمشق وسواها وانتظار اوامر جديدة ، وتحرك جيش السلطان نحو دمشق ، وعندما وصل إلى العوجا رفعت تقارير إلى السلطان بأن اهل يافا« يحملون الميرة إلى عكا ، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا ، واقاموا في يافا حانة ، وأوقفوا فيها عدة من المسلمات ، واعتمدوا اسبابا ليست في هدنة» ، وقرر بيبرس مهاجمة يافا وتحريرها ، وقبل أن يحرك قواته بعث إليها وفدا يطلب تسليمها إليه ، ثم ما لبث أن قاد قواته وهاجمها على حين غرة ، فتمكن منها ثم زحف ضد قلعتها «فسلمها أهلها » في يوم ٢٠ جمادى الآخرة /٧أذار ١٢٦٨ م ، وقام بيبرس باجلاء سكانها ثم أمر بهدمها ، واكتفى بإقامة بعض المحارس ونقاط الانذار على الساحل* (٤٨)

كان تحرير يافا آخر إنجازات بيبرس وفتوحاته الكبرى في فلسطين ، لكنه لم يكن بطبيعة الحال آخر أعماله ضد الصليبيين في بلاد الشام ، ولا حتى آخر نشاطاته في فلسطين نفسها ، وقام بيبرس بعد تحريره ليافا بانتزاع حصن الشقيف من فرسان الداوية ، كما حرر اجزاء هامة من سواحل الشام ، وأمكنه تحرير مدينة انطاكية ، وبذلك ازال من الوجود ثاني دول الصليبيين تأسيسا في الشرق كما حرر قلعة حصن الأكراد في منطقة حمص.

وجاء تحرير انطاكية سنة ٦٦٦ هـ ـ ١٢٦٨ م ، فبعدما هاجم بيبرس طرابلس ثم قلعة الحصن سار إلى حماه وهناك قسم قواته إلى ثلاثة اقسام ارسل الأول منها نحو مملكة كليكيا الأرمنية ،

وأرسل القسم الثاني نحو شاطيء البحر المتوسط قرب السويدية ، وقاد بنفسه القسم الثالث نحو أنطاكية ، حيث شدد عليها الحصار بعدما عزلها من جميع الجهات ، وعجز الفرنجة عن الدفاع عن أنطاكية ، وبعد حرب ضروس تمكنت قوات بيبرس من تسلق أسوار المدينة وفتحها ، وإثر هذا استسلمت قلعة أنطاكية ، وتبع تحرير انطاكية تحرير ما حولها ، وطلب هيثوم ملك ارمينيا الصغرى المهادنة على أساس دفع الجزية ، وبتحرير انطاكية يكون الشام الشمالي قد تحرر تماما ، وبات على المسلمين تصفية الجيوب الداخلية وتحرير طرابلس و عكا ، وبالفعل تمكن بيبرس بعد وقت قصير من تحرير قلعة الحصن وأخذ يعد العدة لتحرير عكا وطرابلس (٤٩) .

وأولى بيبرس عكا كل اهتمامه فلم يتوقف عن الاغارة عليها ، مع تعريضها للضغط السياسي والاقتصادي . ولعل ما استجد من تحركات مغولية ضد بلاد الشام قد حال دون تركيز طاقات الدولة العسكرية ضد عكا ، اضف إلى ذلك أن المساعدات تدفقت على عكا من قبرص ومن أوروبا التي عاد اليها القديس لويس ونشط فيها في سبيل حملة صليبية جديدة.

وزاد الصليبيون من تحصين عكا لأن سقوطها كان يعني نهاية وجودهم في المشرق وتقدمت الاشارة الى قيام الاتصالات بين المغول وحكام اوروبا وتبادل الرسل والتباحث في سبيل عمل مشترك ضد بلاد الشام (٥٠) .

وكان السلطان بيبرس قد توجه عام ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م سرا نحو مكة فقضى فريضة الحج ، ثم عاد الى بلاد الشام فتفقدها جميعا ثم توجه إلى مصر ، وما كاد يستقر في القاهرة حتى جاءته الأخبار مع حلول عام ٦٦٨ هـ / خريف ١٢٦٩ م بتحرك المغول «وأنهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية » الذين شعروا بالقوة إثر وصول بعض النجدات الأوروبية إليهم . واستشار بيبرس اركان دولته

فأشاروا عليه بتجريد الجيوش نحو الشام والبقاء شخصيا في القاهرة ، لكنه رفض هذا الرأي مقدرا أن وجوده ضروري لأن « اسمه يرد الأعداء المتوثبة من كل جانب ، ويصيبهم بسهام المصائب »٠

وسير بيبرس قواته نحو بلاد الشام ، وتحرك هو على رأس قطعة صغيرة من فرسانه ، وكان فرنجة عكا قد وصلتهم نجدات أوربية اشعرتهم بالقوة ، فراسلوا مجددا ابغا بن هولاكو وخرج فرنج الغرب وأهل عكا ، وخيموا بظاهر عكا ، وصاروا يركبون وتعجبهم نفوسهم ، وبلغتهم قلة من وصل مع السلطان الى الشام فتوهموا أنه لايقصدهم ، وبلغ بيبرس هذا التحرك فراسل قواته في دمشق وصفد وأمر قوات صفد بالاغارة على عكا واستدراج قواتها الى كمين أعده وقاده شخصيا ، ونفذت الخطة بإحكام وانزل بيبرس ضربة شديدة بالصليبيين ، ومن ثم توجه نحو صفد ومنها الى دمشق(٥١) .

وكان القديس لويس قد اقلع في سنة ٦٦٩ هـ - ١٢٧١ م بحملة صليبية جديدة قادها ضد تونس ، وأخفقت هذه الحملة ولاقى الملك الفرنسي مصرعه ، والذي يهمنا ذكره هنا أن بعض الفرنجة وصلوا بسبب هذه الحملة الى عكا ، وهو ما جعل قواتها تغير مواقفها وتجدد نشاطاتها العدوانية ضد المسلمين ولاسيما ضد صفد ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا في المناطق الوسطى والشمالية من الشام ، وعندما فرغ من أعماله هناك توجه نحو فلسطين وقصد هذه المرة قلعة القرين التي كانت تقع في تلال الجليل الغربية الى الشمال الشرقي من عكا وعلى مسافة ثلاثين كم منها ،« وكان حصن القرين هذا لاسبتار الألمان ولم يكن لهم بالساحل غيره ، وكان من أمنع الحصون وأضرها بصفد ، وكان السلطان نوبة فتوح صفد اغار عليه ، بل غار عليه أن يكون مثله للكفر ... فسار الى صفد ، وجهز منها المنجنيقات وساقها الى القرين ونازله » وشدد عليه الحصار وبعد قتال دام

عشرة أيام عرض المدافعون الاستسلام فتم الاتفاق معهم ، وتسلم بيبرس الحصن وأمر بتدميره(٥٢).

وبعد سقوط القرين عقد بيبرس مفاوضات مع جون مونتفرات صاحب صور انتهت الى عقد هدنة فرض بيبرس شروطها واضطر الى قبولها للتفرغ لعكا وللفرنجة الذين وصلوا اليها في أواخر عام ٦٦٩ هـ ـ ١٢٧١ م ، فقد اغار هؤلاء على بعض أراضي صفد ونهبوها(٥٣) ذلك أن بيبرس كان قد قصد القاهرة بعد تحريره للقرين .

وازداد في عام ٦٧٠ هـ ـ ١٢٧٢ م نشاط فرنجة عكا ضد ممتلكات صفد كما عظم نشاط المغول في المناطق الشمالية من بلاد الشام وتم ذلك بتنسيق بين الطرفين . وتحرك بيبرس باتجاه حلب ، واستطاعت قوات قاقون رد الفرنجة ودفعتهم عنها ، وبعدما عاد بيبرس الى دمشق ، خرج منها :

« واستصحب العساكر المصرية والشامية بغية الغارة على عكا ، فتوالت أمطار كثيرة ... وكاد الناس يهلكون لعدم مايستظلون به ، فانثنى عزمه عن الاغارة ، ورد العسكر الشامي ، وسار الى الديار المصرية »(٥٤) .

وفي القاهرة استقبل بيبرس رسل فرنجة عكا وتفاوض معهم وتم التوصل الى عقد هدنة مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر تبدأ من ٢١ رمضان ٦٧٠ هـ ـ ٢٢ أذار ١٢٧٢ م ، وحلف كل طرف متعهدا بالالتزام والوفاء(٥٥) .

ويبدو أن بيبرس قبل بعقد هذه الهدنة لادراكه أن عكا لايمكن الاستيلاء عليها والدولة مهددة من المغول والمواصلات مفتوحة بدون توقف بين عكا وقبرص وأوروبا . وهو لايملك قوة بحرية يمكنها مساعدة القوات البرية في حصار عكا . ويبدو أن فرنجة عكا رضوا بعقد الهدنة لشراء سلامتهم سيما وقد برهن تحالفهم مع المغول على عدم جدواه .

بهذا الاتفاق ختم الظاهر بيبرس نشاطه العسكري ضد الفرنجة في فلسطين . ولاشك ان ماانجزه كان عظيما ، وليس من المغالاة القول إن بيبرس استانف مسيرة صلاح الدين ، وإن أعماله كانت متممة لما شرع به صلاح الدين بعد حطين وتوقف بسبب الحملة الصليبية الثالثة ووفاته المبكرة ، ويأتي الظاهر بيبرس بما حققه من نجاحات عظمى في المرتبة نفسها التي احتلها : عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، ذلك أن زنكي قاد أعمال التحرير الاولى في مرحلة الموصل ، ونور الدين محمود قاد أعمال التحرير والوحدة في مرحلة حلب ، وصلاح الدين قاد مرحلة دمشق وحقق النصر في حطين ، وبيبرس الآن قاد مرحلة القاهرة وأعمال تصفية الوجود الصليبي في فلسطين والشام.

وتوفي بيبرس سنة ٦٧٦ هـ ـ ١٢٧٧ م وهو في ذروة نشاطه ، ولعله سقي السم . وقد دفن في دمشق ليس بعيدا عن قبر صلاح الدين ، ذلك ان أبطال المراحل الأربع قد دفنوا في أرض الشام وحظي بيبرس بمكانة لدى أهل الشام ومصر لم يحظ بها سواه من سلاطين المماليك ، الى حد أن اخباره تحولت الى ملاحم شعبية امتزجت فيها حقائق التاريخ بالخيال القصصي الملحمي ، فهنالك اكثر من ملحمة متداولة تحت اسم السيرة الظاهرية أو سيرة الملك الظاهر ، وتصور هذه الملاحم مشاعر شعب تعلق دوما بالأرض في عصر شهد أعظم الاعمال في سبيل التحرير ولاعجب في ذلك ، صحيح ان بيبرس قاد رسميا قوات المماليك المحترفة لكن حجم المتطوعة في حملاته لم يكن أقل عددا ولادورا من المماليك مع الأخذ بعين الاعتبار . أن الشعب العربي في الشام ومصر هو الذي تحمل أوزار الحرب ونفقاتها وصنع السلاح والعتاد وبنى القلاع وقدم الاداريين وسواهم .

وكان بيبرس قد خطط قبل وفاته الى انتقال الملك من بعده الى ابنه الملك السعيد بركة ، وهذا ماحدث ، فما ان وصلت الأخبار الى القاهرة حتى جرت بيعة بركة بالسلطنة ، وكان شابا في مقتبل العمر

تنقصه الخبرة والتجربة ، لهذا واجه المشاكل وعاش وسط الصراعات ، ووجد نفسه بعد بضعة أشهر من تسلمه السلطنة مضطرا الى التنازل عنها لصالح أخيه سلامش وكان طفلا ابن سبع سنوات فقط .

ورست مقاليد السلطنة الآن فعليا بيدي الأمير قلاوون الألفي ، واستغل قلاوون فرصته أحسن استغلال ، فزج بمعارضيه في السجن وتخلص من مناوئيه ، ثم عزل السلطان الطفل وتسلم السلطنة بلقب المنصور .

وهكذا زالت أسرة الظاهر بيبرس ، وحل محلها أسرة قلاوون التي حكمت دولة المماليك لمدة تقارب القرن من الزمن . ووجد قلاوون بعض المصاعب وواجه أعمال المعارضة فتغلب عليها ، ولكن بعدما استغرقت معظم أوقاته ، وكان لذلك الوضع آثاره على العلاقات مع الصليبيين في عكا وبقية أجزاء بلاد الشام .

وتوجه السلطان قلاوون سنة ٦٧٩ هـ ـ ١٢٨٠ م نحو بلاد الشام ، وركب الطريق الساحلية ، وعسكر أثناء سفره في الروحاء على الساحل على مقربة من عكا ، وهناك وصلت اليه رسل الاسبتارية « يسألون تقرير الهدنة والزيادة على الهدنة الظاهرية » وأجابهم قلاوون الى مطلبهم وعقدت هدنة مجددة بين قلاوون وابنه وولي عهده علي من جهة وبين نقولاس لورجن مقدم بيت الاسبتار وجميع الاخوة الاسبتارية بعكا « لمدة عشر سنين كوامل متتابعات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، أول ذلك يوم السبت ثاني عشر المحرم » سنة ٦٨٠ هـ ـ ٣ أيار ١٢٨١ م(٥٦) .

وبعد مضي قرابة الشهرين من توقيع الهدنة ، تم التوصل الى هدنة ثانية بين قلاوون من جهة وبوهموند صاحب طرابلس من جهة مقابلة لمدة عشر سنوات أيضا مع عشرة أشهر وعشرة أيام وعشر

ســــــاعات اعتبـــــــارا مـــــــــــــن يوم ٢٧ ربيع الأول ٦٨٠ هـ ـ ٥ تموز ١٢٨١ م .

واستمرت حالة الهـــدنة مـــع طـــرابلس حتـــى سنة ٦٨٧ هـ ـ ١٢٨٨ م ففي نهـاية هـذه السـنة نقض فـرنجة طرابلس شروط الهدنة حيث أقدموا على نهب مجموعة مـن التجـار المسلمين وأسروا عددا منهـم ، وحين وقـع هـذا كانت أوضـــاع السلطنة مستقرة وجيوشها جاهزة ، لذلك ما أن بلغ السلطان خبـر ما حدث حتى زحف نحـو طـــرابلس على راس قـــوات الشـــام ومصر ، ونزل عليها وحاصرها حصارا شديدا حتـى أخـذها عنوة في ٤ ربيع الآخر ٦٨٨ هـ ـ٢٤ نيسان ١٢٨٩ م .

وبتحرير طـرابلس زالت فعليا المملكة الرابعـة التـي اسسـها الفرنجة في المشرق ، وبهذا اكمل قلاوون ماقام به رفيقه بالسلاح من قبله السلطان بيبرس ، ولم يبق الأن للصليبيين سـوى عكا ، وكان لابد من انتظار الفرصة المناسبة للزحف ضدها وتحريرها(٥٧) .

هذا ويلاحظ أن الهدنة ـ التي ذكرناها أعلاه ـ التي عقدت مع اسبتارية عكا ، شملت أفراد هذه المنظمة فقط ولم تشمل بقية قـوى الصليبيين ومؤسساتهم في عكا ، وبناء عليه جـرت مفـاوضات بين السلطنة المملوكية وبين الداوية انتهت بعقد اتفـاقية هـدنة ممـاثلة بين « السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي وبين المقدم افـرير كويوم ديبـاجوك مقـدم بيت الداوية بعـكا والساحل وبين جميع الأخـوة الداوية ... لمدة عشر سـنين كوامـل متواليات ومتتابعات وعشرة شهور ، أول ذلك يوم الأربعاء خـامس المحرم سنة احدى وثمـانين وسـتمائة للهجــرة النبــوية المحمدية » ١٥ نيسان ١٢٨٢ م(٥٨).

لقد كانت قـوى اوروبـا ممثلة في عكا ، وبعـدما عقـد الداوية والاسبتارية الهدنة مع السلطنة بات من الضروري عقد هدنة جماعية

باسم عكا بما في ذلك المنظمات التي كانت فيها ، وبالفعل توجه وفد الى القاهرة مثل قوى عكا الصليبية ومنها الداوية والاسبتارية ، وبعد مفاوضات تم التوصل الى عقد هدنة بين « السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي ... وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعتليت وبلادها » وابرم الاتفاق في ٥ ربيع الأول ٦٨٢ هـ ـ ٣ حزيران ١٢٨٣م ، وكانت أهم بنوده :

١ـ مدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام .
٢ـ منح التجار من رعايا السلطان الأمن وحرية العمل التجاري في عكا والبلاد الساحلية .
٣ـ توقف الفرنجة عن الاعتداء على أراضي دولة السلطان .
٤ـ لايجدد الفرنجة في عكا وعتليت وصيدا حصنا ولاسورا .
٥ـ تبادل الرعايا الفارين ضمن شروط محددة .
٦ـ حرية الملاحة وتقديم العون للسفن الجانحة والمحافظة على محتويات السفن لتسليمها الى أصحابها أو من يلوذ بهم .
٧ـ يتولى فرنجة عكا إنذار السلطان وإعلامه بأي تحرك اوروبي مضاد له وكذلك بالنسبة لتحركات المغول .
٨ـ يضمن السلطان حماية عكا وعتليت من أعمال القرصنة .
٩ـ السماح للحجاج الأوروبيين بالوصول الى الأماكن المقدسة وضمان أمنهم وسلامتهم وحرية تعبدهم (٥٩) .

ويبدو أن اوضاع السلطنة الداخلية وتعاظم الخطر المغولي واشتداده هي التي اجبرت السلطان قلاوون على توقيع هذه المعاهدة وغيرها ، فقد أغار المغول على الشام ووصلت قواتهم قرب حمص سنة ٦٨٠ هـ ـ ١٢٨١ م (٦٠) .

كما ان قلاوون قد واجه في تلك الآونة حركة تمرد خطيرة ضده في دمشق قادها سنقر الأشقر واستمرت أعمال التآمر ضده دونما توقف (٦١) .

لقد غدت عكا تحت رحمة السلطان قلاوون ، كما انه كان لسقوط طرابلس أصداء واسعة في أوروبا ، وسعت البابوية الى إثارة حملة صليبية جديدة ، لكن جهودها لم تثمر الا قليلا .

وكانت عكا قد استولى عليها سنة ٦٨٥ هـ ـ ١٢٨٦ م هنري الثاني ملك قبرص(٦٢)وتوج بها ملكا ، وتجددت الاتصالات المغولية الصليبية ، وبذلت الجهود للقيام بعمل صليبي مغولي مشترك (٦٣) واثمرت هذه الجهود كلها باستجابة بعض « رعاع الفلاحين والمتعطلين من سكان المدن الصغيرة » في شمالي ايطاليا ، وقدم هؤلاء الى عكا تحت قيادة أسقف طرابلس سابقا .

وكان الملك هنري الثاني جدد الهدنة مع السلطان قلاوون وبعث هذا كله بعض الأمل في عكا ، لكنه لم يتعد الشكل السرابي ، وكان سقوط طرابلس وقدوم النجدات من أوروبا واستمرار النجدات من قبرص قد زاد من حجم سكان مدينة عكا ، وبالتالي رفع من قدرتها العسكرية .

« واجتمع داخل اسوار عكا طوائف تمثل مختلف الأمم المسيحية ، وعاشت كل طائفة منعزلة عن الاخرى في حي خاص بها ، واخذ كل واحد من قادة المناطق في الشام ومقدمي الاخوانيات العسكرية الكبرى وممثلي ملوك فرنسا وانكلترا والقدس ، يمارس سلطات مستقلة ، وعلى هذا كان في عكا سبع عشرة سلطة مستقلة ، الأمر الذي نجم عنه فوضى كبيرة » .

ولذلك لاغرابة ان المدينة غدت بؤرة فساد وشرور وانحطاط خلقي واضطراب مستمر ، ورخاء ماديّ كبير وأرباح تجارية خيالية ، فمقر الداوية لم يعد ديرا للفرسان ولتقديم الخدمات بل مستودعا للأموال والذخائر وبنكا للاقراض بنسب فائدة عالية جدا .

وقام القادمون الجدد من الايطاليين بإثارة المزيد من الفوضى والاخلال بالأمن واخذوا يسلبون وينهبون التجار والباعة من المسلمين ، وكان هنالك صراع مرير بين البيوتات التجارية التابعة لجنوا والبندقية وسواهما .

وفي صيف سنة ٦٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م انفجرت أعمال العنف في عكا ، ووجهت هذه الأعمال ضد المسلمين داخل المدينة وخارجها ، وقد ذبح الصليبيون كل مسلم صادفوه ونهبوا ماكان معه من مال وبضائع(٦٤) .

ووصلت أخبار المذبحة هذه الى السلطان قلاوون فاشتعل غضبا ، واعتبر ان فرنجة عكا قد خرقوا اتفاق الهدنة ، وانه يملك جميع المسوغات لاعتبار الهدنة ملغاة ، وسارع قلاوون فأرسل تجريدة من قواته نحو منطقة عكا لاستطلاع خبر ماحدث ، ولتثبيت الوجود المملوكي في المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر اوامره بحشد جميع القوات في الشام ومصر ، وجرى فرض الضرائب على قرى غوطة دمشق وبعلبك في سبيل تحصيل الكميات اللازمة من الأخشاب لصنع المجانيق والأبراج المتحركة وغيرها من أدوات الحصار .

وتناوشت تجريدة قلاوون مع قوات عكا ، وسارعت سلطات عكا الى مراسلة السلطان وتقديم الاعتذار له ، ثم أعقب ذلك وصول رسله الى عكا حيث طالبوا بإصرار على تسليمهم الذين تولوا أعمال القتل والمذابح ، وبعد طول مناقشات لم يستجب لمطلب السلطان فحسب ، بل حاول المسؤولون في عكا اقناع رسله بأن بعض تجار المسلمين هم الذين فجروا الفتنة .

وملك قلاوون الآن جميع المسوغات للاحتكام الى السلاح ، وهكذا زحف على رأس قواته يريد عكا وصدرت الأوامر الى قوات الشام للاجتماع مع قوات السلطان قرب قيسارية .

وكان قلاوون قبل مغادرته القاهرة مريضا ، لكن مرضه لم يثنه

عن مقصده غير انه ماأن غادر القـاهرة حتـى اشـتد بــه المرض فتــوفي ، وكان ذلك يوم ٦ ذي القعــدة ٦٨٩ هــ ـ ١٠ تشرين الثاني ١٢٩٠ م (٦٥) .

وتنفس أهل عكا الصعداء وخيل اليهـم انهـم نجـوا وكتبـت سـلامتهم ، لكن لبعض الوقـت ، فعلي بـن قـلاوون ، وولي عهده ، كان قد توفي من قبل ، وعزم قلاوون على تسـمية ابنه خليل وليا لعهده لكنه تراجع ، وتوهـم الصليبيون أن صراعا سينشب على السلطة كما جرت العادة ، وبالفعل جرى شئ من هـذا القبيل ، لكن خليل بن قلاوون بـرهن على قـدرات واسـعة وطـاقات كبيرة ، واستطاع الأشرف خليل السـيطرة على الأوضـاع وتثبيت قدميه بالسلطة ، والتفت على الفور نحـو عكا عازمـا على متـابعة ماشرع به والده قبله .

وأرسلت سلطات عكا رسلا الى الأشرف خليل لتهنئته بإرتقـائه عرش السلطنة ، وللاعتذار له عما حـدث في عكا مـع طلب تجـديد الهدنة ، لكن الأشرف لم يستمع لما جاء به الرسـل والقـى بهـم في السجن فكان أخر العهد بهم ، وعبر بذلك عن تصميمه على قصد عكا بجيوشه .

لقد حشد الأشرف قـواتا عمـلاقة ، وأعد الأسـلحة والمعـدات ولاسيما المجانيق ، وابراج الحصار ، وتحركت القوات نحو عكا في ربيع الأول ٦٩٠ هـ ـ آذار ١٢٩١ م ، وكان المؤرخ المشهور ابـو الفداء بين أفراد القوات التي تحركت من حماة نحو عكا ، ويحـدثنا عن زحف القوات وعما عانته أثناء ذلك بقوله :

« وتسلمنا منه (حصـن الأكراد) منجنيقـا عظيمـا يسـمى المنصوري حمل مئة عجلة ، ففـرقت في العسـكر الحمـوي ، وكان المسلم منه الي عجلة واحدة لأني كنت اذ ذاك امير عشـرة ، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشـتاء ، فـاتفق وقـوع الامـطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق ، فقاسينا من ذلك بسـبب

جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمـة ، وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد الى عكا شـهرا وذلك مسـير نحـو ثمانية أيام للخيل على العادة ، وكذلك أمر السـلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار مالم يجتمع على غيرها » .

وكان تعداد القوات التي تجمعت امـام عكا كبيرا « معهـا اثنان وتسعون منجنيقا » من مختلف الأنواع والاحجام ، وبعدما اكتمـل تجمع القوات وتجهيز المعدات صدر صـباح الجمعـة ١٧ جمـادي الأولى ٦٩٠ هـ ـ ١٨ أيار ١٢٩١ م الأمر بالهجوم بوساطة قرع كمية هائلة من الطبول وأدوات موسيقى الحرب رتبـت على ظهـور ثلاثمائة جمل . وفي داخـل عكا كان الصـليبيون قـد اعدوا العـدة للدفاع ، ولنتذكر هنا ان المدينة حوصرت من جانب البر فقط وبقيت غير مهددة من الجانبين البحريين وكانت النجدات والمؤن والمعـدات تصلها بلا انقطاع من قبرص وسـواها ، ولهـذا « لم يغلق الفـرنج غالب ابوابها(عكا)بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها » .

واشتد الحصار ونشط المسلمون في قصف أسوار المدينة وفي فتح الثغرات فيها ونقب الابراج ، وقاوم الفرنجة ، وقام فرسانهم باكثر من هجوم ليلي على معسكر المسلمين ، ويحـدثنا أبـو الفـداء عن المقاومة بقوله :

« فـكنا على جـانب البحـر ، والبحـــر عن يميننا اذا واجهنا عكا ، وكان يحضر الينا مـراكب مقبيـة بـــالخشب الملبس جلود الجواميس ، وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ ، وكان القتال مـن قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر واحضروا بـطسة (مركبا) فيهـا منجنيق يرمــي علينا وعلى خيمنا مـــن جهـــة البحر ، فكنا منه في شدة » .

ونجح المسلمون بعد حصار استمر قرابة الشهر ونصف الشهر في خرق الأسوار ودكها وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة :

« ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب ، وكان

في داخل البلد عدة ابرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلهاعالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها » .

ودار قتال عنيف داخل طرقات عكا ، وتسابق الفرنجة نحو ميناء المدينة وتزاحموا على الأرصفة ، ويبدو أن عدد المراكب لم يكن كافيا ، وقاتل فرسان الداوية دفاعا عن حصنهم في المدينة ، وقبل أن يسقط حصنهم :

« تمكن أحد عشر واحدا منهم من الهرب من بباب سري ، وصعدوا إلى ظهر مركب كان بانتظارهم وحملوا معهم جميع الثروات التي جمعوها في الشرق خلال قرنين من الزمن » (٦٦) .

وبعدما صفت عكا للمسلمين أمر السلطان الأشرف خليل بتدميرها حسب القاعدة التي كان السلطان الظاهر بيبرس طبقها ، وما إن وصلت أخبار تحرير عكا إلى المناطق الساحلية التي كانت ماتزال بأيدي الفرنجة مثل عثليث وصيدا وبيروت « حتى القى الله الرعب » في قلوب أهلها فاخلوها وهربوا .



بذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية ، وهي بلاشك من أعظم ملاحم التاريخ واطولها ، استمرت وقائعها مدة تقارب القرنين من الزمن واشتركت فيها أوروبا كلها بشعوبها وطاقاتها .

ولوقائع هذه الحروب دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق العربي وأوروبا سواء من الجوانب السياسية والاقتصادية والحضارية والعسكرية كافة . ولاشك أن أهم دروس وعبر هذه الملحمة هو : أن العرب تحل بهم الهزيمة عندما تكون صفوفهم ممزقة وقواهم مبعثرة ، ولايمكن لشمل العرب أن يجتمع إلا بالوحدة . وبعدما طرد الصليبيون من المشرق ، وقبل أن يزول

عكا سنة ١٢٩١

خليج عكا

سقوط عكا

١٨ أيار/مايو ١٢٩١

خليج عكا

الخطر المغولي انتاب الضعف دولة المماليك وأخذت تتخبط بـأزمات وصراعات مدمرة ، ومنذ ذلك الحين شرعت قـوة العـرب بـالمشرق بالضعف وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود المقيت ، بينما بعثت في أوربا التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لهـا القـوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والإسلام .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مـع أنهـم حـازوا النصر ، وبعث أوربا مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل من بين أسباب ذلك أن أوربا الاقطاعية الشديدة التمسك بـالكاثوليكية حين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربة مميتة للنظام الاقطاعي والكنيسـة معاً في أوربا الغربية ، وفي المقابل نجد أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين الغرباء في الشرق المسلم من تسلم زمام الأمور ، وساعدت على التعصب الديني ، وعلى حلول الغيبيات محل العقل ، وخلقت إلى جانب الاقطاع العسكري اقطاعا دينيا كان جديدا كل الجدة في تـاريخ الإسـلام ، ومـع الأيام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وترسخت قـواعد انظمة للكهنوت الاقطاعي في الاسلام .

وعندما توقفت الحرب أصبح الجند المماليك عالة على الأمة ، ثـم إن الشعور بالنصر والسلم والأمان بعد عهود طويلة مـن الحـروب والدمار ، مع سيطرة التصوف وجبروت شيوخ الطرق ، ومـع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحو الاخلاد إلى الراحة والسكينة ، وإلى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ، أضف إلى هذا بما أن الأمـة وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت كافة إمكاناتها المادية والعقلية للمعركة ، ولوجود حالة استثناء (طوارىء) بشكل دائم ، عطل هذا مـع الأيام الكثير مـــن جـــوانب التجـــديد في الحياة و الحضارة ، وولد الأوهام والتسليم لشطحات الصوفية ، ومعـروف أن حالة الاستثناء تلغي دور العقل لأنها تعطل الحرية ، ويولد هـذا بالتالي التعصب الأعمى والتزمت والجهل والاحتكار والأمية .

إن تعطيل الحريات وإهمال الحضارة والثقافة والتعصب الأعمى كان ومازال الداء العضال وافة العرب العظمى ، ومعلوم أن العــرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم مستعبدون ممــزقون ، لكنهم كلما اتحدوا ، وملكوا استخدام العقــل بــكل اتــزان وحــرية وتسامحوا بمنطق متفتــح ، صــنعوا كل شيء مفيد ، ففــي الوحــدة الهادفة الواعية كمــن ـ ولايزال يمــكن ـ سر نهــوض العــــرب والمسلمين ، لأن الله مع الجماعة .

الحواشي والهوامش

الباب الثاني

الفصل الأول

١ ـ تاريخ حلب للعظيمي ـ ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٣٥٦ .

٢ ـ الحرب الصليبية الأولى لحسن حبشي ـ ط . القاهرة ١٩٤٧ ص ٢١ ـ ٢٢ .

٣ ـ أوربا العصور الوسطى لسعيد عبد الفتاح عاشور ـ ط . القاهرة ١٩٦٦ . ص ٣٥٦ ـ ٣٦ ، ٩١٦ . بابوات من الحي اليهودي ـ ترجمة عربية ـ ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٠٩ ـ ٢٤٠ .

٤ ـ أعمال الفرنجة ، ٨٢ ، ٨٥ ـ ٨٦ ، ٩٢ ـ ٩٦ ، ابن القلانسي ، ١٣٣ ـ ١٣٦ ، العظيمي ، ١٩١ و ـ ظ ، الكامل ، ط ، القاهرة ، ٨ / ١٨٦ ـ ١٨٧ ، زبدة الحلب ، ٢ / ١٢٩ ـ ١٣٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثلث ، ٦ / ٨٩ ظ ـ ٩٠ و ، الحركة الصليبية ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١ / ٢٠٠ ـ ٢١٨ .

٥ ـ سنتعرف إلى هؤلاء بالتفاصيل الوافية في الجزء التالي .

٦ ـ سنقدم بعد قليل عرضا موجزا حول تاريخ الدولة البورية في دمشق .

٧ ـ ابن القلانسي ص ٢١٤ .

٨ ـ ابن القلانسي ص ٢١٤ .

٩ ـ ابن القلانسي ص ٢١٤ ، ٢٣٣ ، ترجمتا دقاق وطغتكين من تاريخ ابن عساكر ـ زكار مدخل ص ٣٨٦ ، ٤٠٨ .

١٠ ـ ابن القلانسي ص ٢٣٤ .

١١ ـ ابن القلانسي ص ٢٣٥ .

١٢ ـ ابن القلانسي ص ٢٣٥ . انظر أيضا مرآة الزمان : سنة ٤٩٨ هـ .

١٣ ـ ابن القلانسي ص ٢٤٠ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ٨٠ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

١٤ ـ ابن القلانسي ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ ، ٢٥٠ ـ ٢٦٣ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ٨٠ ص ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ـ ٢٥٩ . سبط ابن الجوزي يوسف ابن قزاوغلي ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ـ ط . حيدر أباد الدكن ١٩٥١ ج ١ ص ٢٥ ، ٢٧ ـ ٢٨ .

١٥ ـ ابن القلانسي ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

١٦ ـ انظر وصف عملية اغتيال مودود لدى ابن القلانسي ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، وفي نصوصنا المقبلة مع رأي وليم الصوري ص ٥٥٠ .

١٧ ـ ابن القلانسي ص ٣٠٦ ـ ٣١٣ ، حيث أثبت نسخة كامله لهذا المنشور .

١٨ ـ ابن القلانسي ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ج١ ص ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

١٩ ـ ابن القلانسي ص ٣٥٠ ـ ٣٧١ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٢٧ ـ ٣٣٧ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٢٧ ـ ١٤٣ . وليم الصوري ج٢ ص ٦٤٥ ـ ٦٤٧ .

٢٠ ـ ابن القلانسي ص ٣٧٢ ـ ٣٨٩ . الكامل ـ ط . القاهرة . ـ ج٨ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٦ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٤٥ ـ ١٥٣ .

٢١ ـ ابن القلانسي ص ٣٩٠ ـ ٣٩٢ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٤٦ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

٢٢ ـ ابن القلانسي ص ٣٩٧ ، ٤١٣ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٥٩ ، ٣٦٤ .

٢٣ ـ ابن القلانسي ص ٤١٨ ، ٤٢١ ـ ٤٢٢ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٨ ص ٣٦٤ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

٢٤ ـ ابن القلانسي ص ٤٢٤ ـ ٤٢٧ . الكامل ـ ط . القاهرة . ج ٨ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ، ٣٦٧ ـ ٣٦٨ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ـ ج ١ ص ١٧١ ـ ١٧٢ . وليم الصوري ج ٢ ص ٧٠٥ ـ ٧٠٧ .

٢٥ ـ ابن القلانسي ص ٤٥٠ ـ ٤٥٣ . وليم الصوري ج ٢ ص ٧٤٢ ـ ٧٥٢ .

٢٦ ـ ابن القلانسي ص ٤٦٢ .

٢٧ ـ ابن القلانسي ص ٤٦٣ ـ ٤٦٦ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٩ ص ٢٠ ـ ٢١ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ج ١ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ . وليم الصوري ج ٢ ص ٧٧٨ ـ ٧٨٧ .

٢٨ ـ ابن القلانسي ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٩ ص ٣٦ ـ مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ج ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

٢٩ ـ ابن القلانسي ص ٤٩١ .

٣٠ ـ ابن القلانسي ص ٥٠٤ . الكامل ـ ط . القاهرة ـ ج ٩ ص ٤٥ ـ ٤٦ . مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ج ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢ . وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٤ ـ ٥١٥ .

٣١ ـ وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٥ .

الفصل الثاني

١ ـ الباهر لابن الاثير : ١٦ ـ ٣٥ .
٢ ـ الباهر : ٣٥ .. الكامل لابن الاثير : ٨ / ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .
٣ ـ الباهر : ٣٥ ـ ٣٨ . .
٤ ـ الكامل لابن الاثير ٩ / ٨ ـ ٩ : الباهر : ٦٦ ـ ٧١ .
٥ ـ أوسع التفاصيل حول هذه الحملة متوفرة في نصوص موسوعتنا .
٦ ـ لدينا تفاصيل شاهد عيان لاستعادة الرها في رواية السرياني المجهول فلتنظر ضمن النصوص السريانية من موسوعتنا .
٧ ـ وليم الصوري ج ٢ ص ٧٧٩ ـ ٧٨٧ . ابن القلانسي : ٤٦٢ ـ ٤٦٥ . الروضتين لأبي شامه ج ١ ص ٥١ ـ ٥٣ .
٨ ـ وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٥ . ابن القلانسي : ٥٠٢ ـ ٥٠٥ . مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٨ . الباهر ١٠٧ ـ ١٠٨ .
٩ ـ الباهر : ١٠٧ .
١٠ ـ ابن القلانسي : ٥٢١ ـ ٥٣٦ . وليم الصوري : ٨٤٥ ـ ٨٥٨ . الروضتين ج ١ ص ١٢٠ ـ ١٢١ .
١١ ـ جلب صلاح الدين هذا المنبر إلى القدس بعد تحريرها وظل موجودا في المسجد الاقصى حتى احراقه مع قسم من هذا المسجد إثر حرب ١٩٦٧ .
١٢ ـ الكامل : ١١ / ١٢٨ ، الباهر : ١١٩ ـ ١٢٠ ، الروضتين ١ / ٨٥ ـ ٨٨ب / ٣٢٩ ٣٣٠ ، المحاسن اليوسفية : ٦٠ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٠ ـ ٤٢ ، زبدة الحلب : ٢ / ٢٥٥ .
١٣ ـ الروضتين : ١/ ١٠٠.
١٤ ـ لقد عالجت هذه القضايا بشكل مفصل في كتبي التالية : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية . الدعوة الاسماعيلية الجديدة الجامع في اخبار القرامطة ـ تاريخ العرب والاسلام . فلتنظر .
١٥ ـ النوادر السلطانية : ٣٦ ، سنا البرق الشامي : ٦٠ ـ ٦١ ، الباهر : ١٢٢ ، الروضتين : ١ / ١٢٩ ـ ١٣٢ ، شفاء القلوب : ٢٥ ـ ٤٦ ، نور الدين لمؤنس : ٢٨٩ ـ ٢٩٧ .

١٦ ـ الروضتين : ١ / ١٤٢ ـ ١٤٥ ، النوادر السلطانية : ٣٧ ـ ٣٩ ، سنا البرق الشامي : ١ / ٦٢ ـ ٦٥ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٦٨ ـ ٢٧٠ ، الباهر : ١٣٢ ـ ١٣٤ ، شفاء القلوب : ٢٨ ـ ٣١ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٣ ، مؤنس : ٢٩٧ ـ ٣٠٤ .

١٨ ـ سنا البرق الشامي : ٧٧ ـ ١١٥ ، النوادر السلطانية : ٤١ ـ ٤٥ ، الروضتين : ١ / ١٧٨ ـ ٢٠٢ ، الباهر : ١٤٣ ـ ١٥٩ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٧٩ ـ ٢٩٥ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ١٦ ـ ٢٤ .

١٩ ـ الروضتين : ١ / ١٥٩ ، الباهر : ١٥٦ ـ ١٥٨ ، خطط المقريزي : ١ / ٨٦ ـ ٨٧ السلوك : ١ / ١ / ٧٥ ، دراسات في حضارة الاسلام لجب : ٩٧ ـ ١٠٣ .

٢٠ ـ الباهر : ١٥٨ ـ ١٦٢ ، الروضتين : ١ / ٢٠٦ ـ ٢٣١ ، سنا البرق الشامي : ١ / ١٢٣ ـ ١٥٥ ، النوادر السلطانية : ٤٥ ـ ٤٧ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٩٢ ـ ٣٢٥ ، النجوم

الزاهرة : ٦ / ٦٤ ـ ٧١ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٨ ـ ٥٥ ، نور الدين : ٣٤١ ـ ٣٥٧ ، جب : ١٠٠ ـ ١٠٢ .

٢١ ـ انظر كتابي امارة حلب ـ ط دمشق ، دار الكتاب العربي ص ٣٤ ـ ٤٢ ، ٩٦ ـ ١٠٢ .

الفصل الثالث

١ ـ سنا البرق الشامي : ١٥٥ ـ ٢٥٩ ، البـاهر : ١٧٦ ـ ١٨٤ ، الروضتين : ١ / ٢٣١ ـ ٢٧٩ ، ٢ / ٣ ـ ٧٤ ، النوادر السلطانية : ٥٠ ـ ٧٥ ، زبدة الحلب : ٣ / ٩ ـ ٦٧ ، مرآة الزمان : ١ / ٣٣٦ ـ ٣٨٨ ، شفاء القلوب : ٨٤ ـ ١٠٩ ، النجوم الزاهرة : ٦ / ٧٣ ـ ١٠٤ ، السلوك : ١ / ١ / ٥٨ ـ ٩٢ .

٢ ـ يقع حصن الكرك على مقربة من البحر الميت ، على الطريق الواصلة بين مصر والشام ويتحكم بها ، وكان صاحب الكرك فارس صليبي متعصب جدا فيه عجرفة ورعونة شديدة ، اسمه رينودي شاتيون ، وقد عرفه العرب باسم أرناط ، وفي سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٧ م ، هاجم أرناط قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة الى دمشق ، فانتهب ثرواتها ، وأسر الذين كانوا فيها ، وفي مواجهة هذا الحادث تذرع صلاح الدين في البداية بالحلم والصبر ، فأرسل وفدا الى أرناط يطلب منه اطلاق سراح الاسرى ، ورد المنهوبات ، فرفض أرناط بكل قحة وتحدي ، وهنا أرسل صلاح الدين مبعوثا الى ملك القدس ، فلم يستطع هذا فعل شيء ، وأدى هذا الحال الى اعتبار صلاح الدين أن الهدنة بينه وبين الفرنجة لاغية ، فاستنفر قواته ، وقرر الزحف على رأس عساكره ، الزحف الذي قاده الى حطين .

٤ ـ قبل لوبية على اليسار ، وما بين لوبية وقرية ناصر الدين ، وامتدادا إلى الجنوب حيث قرية كفر سبت في منطقة الشجرة .

٥ ـ الفتح القسي : ٣٦ ـ ٥٠ . النوادر السلطانية : ٤٩ ـ ٥٥ . الروضتين : ٧٥ ـ ٨١ . الأنس الجليل : ١ / ٣١٦ ـ ٣٢١ . عيون الروضتين : ٢٣٣ آ ـ ٢٣٩ آ . شفاء القلوب : ١٢٨ ـ ١٣٠ . الكامل لابن الاثير : ١١ / ٥٤٦ ـ ٥٥٣ . شذرات الذهب : ٤ / ٢٧٤ ـ ٩٣ . المختصر في أخبار البشر : ٣ / ٧١ ـ ٧٤ . طبقات الشافعية : ٤ / ٣٢٥ ـ ٣٤١ . زبدة الحلب : ٨٣٩ ـ ٨٤٦ . مرآة الزمان : ١ / ٣٨٩ ـ ٤٠٢ . الاعلام والتبيين : ٨١ ـ ٨٥ . الحروب الصليبية لرفيق التميمي : ٥٥ب ـ ١٦٧ . حياة صلاح الدين الايوبي لأحمد بيلي : ١٥٣ ـ ٢١٠ . الحروب الصليبية في المشرق والمغرب : ٥٦ ـ ٦٩ .

٦ ـ ابن شداد : ٧٩ ـ ٩٧ ، ١٣٦ الفتح القسي : ٧٦ ـ ١٠٩ . الروضتين : ٢ / ٨٧ ـ ١٣٥ .

٧ ـ ابن شداد : ١٠٤ ـ ١٠٥ .

٨ ـ الفتح القسي : ٣٠٢ ـ ٣٠٣ الروضتين : ٢ / ١٤٨ ـ ١٦٢ . ابن شداد : ١٠٩ ـ ١١٥ .

٩ ـ الفتح القسي : ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

١٠ ـ ابن شداد : ١٠٣ ـ ١٧٢ . الفتح القسي : ٢٩٦ ـ ٥١٣ . الكامل في التاريخ : ١٢ / ٣٢ ـ ٦٨ . الروضتين : ٢ / ١٤٢ ـ ١٩٠ . النجوم الزاهرة : ٦ / ١٠٤ ـ ١١٣ .

١١ ـ انظر ملحمة رتشارد قلب الأسد ضمن كتب موسوعتنا .

١٢ ـ ابن شداد : ١٧٤ ـ ٢٤٨ . الفتح القسي : ٥٢٨ ـ ٦٢٧ . الكامل لابن الاثير : ١٢ / ٦٣ ـ ٩٥ . الروضتين : ٢ / ١٩٠ . النجوم الزاهرة : ٦ / ١١٢ ـ ١٣٢ .

الفصل الرابع

١ ـ وليم الصوري ـ الأعمال المنجزة : ج ٢ ، ص ٣٧٥ .
ابن شداد ـ المحاسن اليوسفية : ص ٤٩ ـ ٥٥ .
ـ ابو شامة ـ الروضتين : ج ٢ ، ص ٧٥ ـ ٨١ .
ـ العماد محمد بن محمد الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ط القاهرة ص ٣٦ ـ ٥٠ .
ـ مجير الدين العليمي الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط . عمان ١٩٧٣ ، ج ١ ، ص ٣١١ ـ ٣٢١ .
ـ الحنبلي ، شفاء القلوب : ص ١٢٨ ـ ١٣٠ .
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٨٣٩ ـ ٨٤٦ .
ـ سبط ابن الجوزي ـ المرآة : ج ١ ، ص ٣٨٩ ـ ٤٠٢ .
ـ اسماعيل بن عمر بن كثير ـ البداية والنهاية ، ط . القاهرة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٧ .
٢ ـ ابن شداد ـ المحاسن ص ١٧٤ ـ ٢٤٨ .
ـ العماد الاصفهاني ، الفتح ، ص ٥٢٨ ـ ٦٢٧ .
ابو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ـ ٢١٣
٣ ـ العماد الاصفهاني ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .
ـ ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .
ـ أبو شامة ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .
٤ ـ ابن واصل ، مفرج ، ج ٢ ص ٢٧ ـ ٦١ .
ـ أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١ .
المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١١٧ ـ ١٤١ .
ـ اسماعيل بن علي أبو الفداء صاحب حماه ، المختصر في أخبار البشر دار المعرفة ، ج ٣ ، ص ٦٦ ـ ١٠٠ .
ـ يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في معرفة ملوك مصر والقاهرة ط . القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ ، ج ٦ ، ص ١١٦ ـ ١٢٢ .
٥ ـ أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٧ ـ ١٧٥ .
ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٤١ ، ٣٠٥ ـ ٣١٥ .
ـ أبو المحاسن ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٢٣ ، ٣٢٢ .
ـ أبو شامة ، ذيل الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٨ .
٦ ـ ابن واصل ، مفرج ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ـ ٢٥٣ .
ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٥ ، ٣٣٩ ـ ٣٦٠ .
ـ محمد بن علي بن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري ، ط . دمشق ، ١٩٨٢ ص ١٧٦ ـ ١٩٤ .
ـ احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ط . بيروت ١٩٦٩ م ص ١٠٤ ـ ١١٣ .
٧ ـ ابن واصل ، مفرج ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٠ .
ـ محمد بن احمد ابن اياس ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ط . القاهرة

١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ٧٠ .

ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٣٩ ـ ٤٤٠ .

ـ الخطط (المواعظ والاعتبار) ط . بيروت ، مطبعة احياء العلوم ج ٢ ، ص ١١٦ ، ٢١٧ .

ـ ابو الفداء ، المختصر ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

ـ العبادي ، قيام ، ص ٦٣ ـ ١٤٤ .

ـ ابو المحاسن ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٣٠٩ .

٨ ـ ابن واصل ـ مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ـ ٢٥٣ . ابن نظيف ـ التاريخ المنصوري ص ١٧٦ ـ ١٩٤ .

المقريزي ـ السلوك ج ١ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٥ . فولفقانغ مولر ، ـ القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٢٧ ـ ٢٩ . زكار ـ حطين ص ١٧١ ـ ١٨٥ .

٩ ـ

١٠ ـ المقريزي ـ السلوك ج ١ ص ٢٣٩ ـ ٣٦٠ . جوزيف نسيم ـ العدوان الصليبي على مصر ص ١٩٧ ـ ٢٥٧ .

العبادي ـ قيام دولة المماليك الاولى ص ١٠٤ ـ ١١٣ .

١١ ـ المقريزي ـ السلوك ج ١ ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٨ . ابو الفداء ـ المختصر ج ٣ ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ . العبادي ـ قيام دولة المماليك الاولى ص ١١٠ ـ ١٢١ . ، جوزيف نسيم ـ العدوان ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨ .

١٢ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٠ ـ ٣٦٥ ، وابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١١٠ ـ ١٢١ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، ص ٢٦٦ ـ ٣٦٨ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٤٥ ـ ٨٨ .

١٣ ـ المقريزي ، السلوك ، ح ١ ، ص ٣٦٧ ـ ٣٨٩ ، وابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٧ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٣٩ ـ ١٨٧ ، ويوسف غوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٩ .

١٤ ـ انظر : فولفغانغ ، القلاع ايام الحروب الصليبية ، ص ٢٧ ـ ٣٠ .

١٥ ـ أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٣ ، ومحمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، ومحمد بن عبد الله اللواتي (ابن بطوطة) ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ، وأحمد بن عبد الله القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

١٦ ـ يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ٩٥ ، ٩٩ ، وانتوني بريدج ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٢٧٥ ـ ٢٨٠ ، وعادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٤٤ ـ ١٦٥ .

١٧ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٨٥ ، وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ـ ١٨٧ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٥ ـ ١٢٩ ، وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٩ .

١٨ ـ أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ح ٣ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ ، وعمر بن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٣ ، وإسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٤ ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ، ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٦٥ ـ ١٧٠ .

٢١ ـ يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٧٢ .

٢٢ ـ المرجع نفسه ، ص ١٧٦ ـ ١٧٩ .

٢٣ ـ ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ، وعبد الرحمن بن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ، ص ٣٦٣ ، والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٥ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠ ؛ ويوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

٢٤ ـ يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص ١٩٧ ـ ٢٢٣ ، ٣٤٦ ـ ٣٥١ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٤١ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧ .

٢٥ ـ العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٢٨ ـ ١٤١ ، وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩ .

٢٦ ـ انظر في هذا الصدد : برتولد شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ؛ ورينيه غروسيه ، جنكيز خان ، عطاء الملك الجويني ، تاريخ فاتح العالم ؛ وجعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ؛ ومصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسلام ؛ وفؤاد عبد المعطي الصياد ، المغول في التاريخ ؛ ورشيد الدين فضل الله الهمذاني ، جامع التواريخ .

٢٧ ـ عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩ ؛ واحمد اليونيني البعلبكي ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ـ ٣٧٤ ، ٣٨٠ ـ ٣٨٤ ، و ج ٢ ، ص ٢٨ ـ ٣٦ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٢ ـ ٤٣١ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٩٩ ؛ وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٣١٤ ، وعبد الرحمن بن إسماعيل ـ أبو شامة ، ذيل الروضتين ، ص ٢٠٨ ؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ١٤٧ ـ ١٦٧ ، ٢٥٤ ـ ٢٦٨ ؛ وغوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٩ ؛ ومحمد احمد دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك ، ص ٥٢ ـ ٥٥ .

٢٨ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ .

٢٩ ـ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٣٠ ـ ٥٥٠ .

٣١ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص ٦٨ ؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٣٦ ـ ٤٤ ؛ والعريني ، دولة الظاهر بيبرس ، ص ٤٥ ـ ٦٢ .

٣٢ ـ لمزيد من التفاصيل انظر : زكار ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٧٦ ـ ١٩٦ ؛ احمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، ص ١٩١ ـ ١٩٤ .

(وقد ترجمت هذا الكتاب إلى العربية ونشرته في بيروت) ؛ ولابيدوس ، مدن الشام ، ص ٢٠٥ ـ ٢٢٠ .

٣٣ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١١٨ .

٣٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠١ .

٣٥ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٢١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ـ وعالج يوسف غوانمة سقوط الكرك بقدر كبير من التفصيل في كتابه إمارة الكرك الايوبية ، ص ٣١٠ ـ ٣٣٣ .

٣٦ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

٣٧ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

٣٨ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٥٨ ـ ١٦٦ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٩٣ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٤ .

٣٩ ـ ستيفن رنسيمان ، تـاريخ الحـروب الصـليبية (تـرجمة عربية) ، ج ٣ ، ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ .

٤٠ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ؛ والمقريزي ،السـلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٧ ـ ٥٣٤ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمـان ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ـ ٣٢٠ ؛ وأبـو الفـداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢ ، ورنسـيمان ، تـاريخ الحـروب الصـليبية ، ج ٣ ، ص ٥٤٦ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

٤١ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٣٤ ـ ٢٤٣ ؛ والمقريزي ، السـلوك ، ج ١ ، ص ٥٢٧ ـ ٥٥٧ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمـان ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ ؛ وأبـو الفـداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢ ؛ وسرور ، بيبـرس ، ص ٧٠ ؛ والعبـادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٢٢٤ ؛ والدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٤ .

٤٢ ـ المقريزي ، السـلوك ، ج ١ ، ص ٥٥٧ ، وج ٢ ، ص ٦٧٤ ؛ وابـن تغـري بـردي ، النجوم الزاهـرة ، ج ٧ ، ص ١٩٥ ؛ والدبـاغ ، بـلادنا فلسـطين ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

٤٣ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ؛ والمقريزي ، السـلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٤ ـ ٥٤٥ .

٤٤ ـ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ١٤٦ ـ ١٤٨ ؛ وياقوت الحموي ، معجم البلدا ن ، « مادة صفد » ؛ وأبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ؛ وابـن شـيخ الربـوة ، نخبـة الدهر ، ص ٢١٠ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٨٤ ـ ٨٨ .

٤٥ ـ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ١٤٦ ـ ١٥١ ؛ وابن عبد الظاهر ، الروض الزاهـر ، ص ٢٥٤ ـ ٢٦٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٨ ؛ وابو الفـداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٣ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ ـ ٣٤٣ ؛ وابـن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٧ ؛ وابن تغـري بـردي ، النجـوم الزاهـرة ، ج ٧ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٧٢ ؛ وعاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٦٥ ـ ٦٧ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٤٨ ـ ٥١ ؛ ورنسـيمان ، تـاريخ الحـروب الصـليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١ ؛ والعبـادي ، قيام دولة المـماليك الاولى ، ص ٢٢٤ ؛ وزكار ، حـطين ، ص ١٦١ .

٤٦ ـ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ ؛ وابن عبدسالظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ .

٤٧ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ؛ والمقريزي ، السـلوك ، ج ١ ، ص ٥٦٤ ـ ٥٦٥ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦ .

٤٨ ـ سرور ، بيبـرس ، ص ٧٥ ـ ٨٨ ؛ والطـراونة ، مملكة صـفد ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ؛ ورنسيمان ، تـاريخ الحـروب .... ، ج ٣ ، ص ٥٥٦ ، ٥٦١ ؛ والعبـادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٩ .

٤٩ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ ؛ والمقريزي ، السـلوك ، ج ١ ، ص ٥٨٥ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣٤ ؛ واحمد بن علي المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ٨٦ ـ ٩٥ .

٥٠ ـ مصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسـلام ، ص ٦٢ ـ ٧٣ ؛ وشـبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ص ٦١ ـ ٧٧ .

٥١ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧ ؛ والمقريزي ، السـلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجـوم الزاهـرة ، ج ٧ ، ص ١٥٣ ؛ وابـن كثير ، البـداية والنهـاية ، ج ١٢ ، ص ٢٥٩ ؛ واليونيني ، ذيل مـرآة الزمـان ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٦ ؛

والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٦ ـ ٥٧ ، ١١٧ .

٥٢ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٨٦ ـ ٢٩٠ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٥ .

٥٣ ـ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٩٨ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٣ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠١ ؛ وابن تغري بردي النجوم الزاهرة = ٧ ، ص ١٥٧ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٤٧١ ؛ وابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص ٣٣ ؛ وسرور ، بيبرس ، ص ٨٨ ـ ٩٠؛ والعبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

٥٤ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٢ ـ ٦٥٣ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٠ .

٥٥ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٨٢ ؛ وعبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٣٠٤ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٨٥ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ـ ٨٦ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٨ ـ ٥٩ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ .

٥٦ ـ ابن عبد الظاهر، تشريف الايام ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، ٨٦ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٨٥ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ .

٥٧ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام .... ، ص ٢ ـ ٢٢ ؛ ـ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٢ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ، ص ٥٩ ؛ رنسيمان ، ج ٢ ، ص ٦٧٠ ـ ٦٧٢ .

٥٨ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ... ، ص ٣٤ ـ ٤٣ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٧٠ ؛ والقلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٥١ .

٥٩ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ..... ، ص ٢٦٢ ـ ٢٧٠ ؛ واليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٩١ ـ ٩٤ ؛ وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١٤ ـ ١٦ ؛ وابن تغري البردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٤٨ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٩١ ـ ٦٩٨ .

٦٠ ـ ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ، ص ٦٣ ، ٦٦ ، وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ج ٧ ، ص ٦٧ ؛ ومحمد بن طولون الصالحي ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق والشام الكبرى ، ص ٧ ـ ٨ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣ ـ ٢٥ .

٦١ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٤٦ ـ ٧٤٧ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٠ ؛ وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ؛ والحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ج ١ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٨٥ ـ ٦٨٨ .

٦٢ ـ رنسيمان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٧٣ ـ ٦٨٢ .

٦٣ ـ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٣ ـ ٩٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص . ٩٧ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٣ ـ ٧٥٤ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٧ ؛ ومحمد بن قايماز الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٠ ـ ٦٩٢ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

٦٤ ـ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٧ ؛ وابن عبد الظاهر ، تشريف الايام ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٤ ؛ وابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٣٥ ؛ والذهبي ، دول الاسلام ،

ج ٢ ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ؛ وابـو الفـداء ، المختصر في اخبـار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٨٣ ؛ وسرور ، دولة بني قـلاوون ، ص ٤٢ ؛ ورنسيمان ، تاريخ الحروب ..... ، ج ٣ ، ص ٦٩٣ ـ ٦٩٤ .

٦٥ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٣ ؛ وابن الفرات ، تـاريخ ابـن الفـرات ، ج ٨ ، ص ٩٨ ، ١١٠ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٣ ـ ٥ ؛ وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ؛ والذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ؛ ورنسيمان تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٥ .

٦٦ ـ ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤ ـ ٢٦ ؛ وابن الفرات ، تـاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١١٠ ـ ١١٤ ؛ وابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٩ ؛ والمقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٤ ـ ٧٦٦ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهـرة ، ج ٧ ، ص ٥ ـ ١١ ؛ وابن كثير ، البـداية والنهـاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ ؛ والذهبـي ، دول الاسـلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٢ ؛ ورنسـيمان ، تـاريخ الحـروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٤ ـ ٧١٢ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ ؛ والطراونة ، مملكة صـفد ، ص ٦٣ ـ ٦٨ .

جريدة أهم المصادر والمراجع

إبراهيم بن أبي الدم ، تاريخ ابن أبي الدم ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة البودليان مارش ٦٠ .

إبراهيم بن محمد الاصطخري ، المسالك والممالك ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦١ .

إبراهيم محمد علي مهدي ، « إدارة القدس في عهد المماليك » ، (رساله لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٨٢ .

أحمد بيلي ، حياة صلاح الدين الايوبي ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٢٦ .

أحمد دراج ، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية) ، الحسبة ، القاهرة ، كتاب الجمهورية الديني ، د . ت .

احمد عبد الحليم يونس ، مدينة صفد في عهد المماليك ، (رسالة لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٩ .

أحمد بن عبد الله القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩١٠ ـ ١٩٢٠ .

ـــ ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٤ .

ـــ ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، الكويت ، وزارة الارشاد والأنباء، ١٩٦٤ .

أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي .

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، انباء الغمر بأبناء العمر ، القاهرة ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، ١٩٦٩ .
ـــ ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، طبعة مصورة ، بيروت ، دار الجليل ، د . ت .
أحمد بن علي المقريزي ، إغاثة الامة بكشف الغمة ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥٧ .
ـــ ،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، بيروت ، مطبعة إحياء العلوم ، د . ت .
ـــ ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥ .
ـــ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ .
ـــ شذور العقود بذكر النقود ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٧ .
ـــ المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها .
أحمد بن عمر بن رستة ، كتاب الاعلاق النفيسة ، ليدن ، مطبعة برل ، ١٨٩٢ .
أحمد عيسى ، البيمارستانات في الاسلام ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٨١ .
أحمد بن فضل الله ، التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ، مطبعة العاصمة ، ١٣١٢ هـ .
أحمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٧٧ .
أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الاطباء ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ .
أحمد بن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٧٧ .
أحمد بن محمد بن خلكان ، وفيات الاعيان ، القاهرة ، دار المأمون .

أحمد بن محمد بن الفقيه الهمذاني ، كتاب البلدان ، ليدن ، مطبعة بيرل ، ١٩٨٥ .

أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، بيروت ، دار النهضة العربية للنشر ، ١٩٦٩ .

أحمد اليونيني البعلبكي ، ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد / الهند ، المطبعة العثمانية ، ١٩٥٤ .

إسماعيل بن الاثير الحلبي ، عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة المتحف البريطاني (٣٣٤ ـ ٢٣) .

إسماعيل بن علي (أبو الفداء صاحب حماة) ، تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠ .

ـــ ، المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، مصورة دار المعرفة ، د . ت .

إسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٢ .

إلهام مكي ، مملكة صفد في العهد المملوكي ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٨ .

أنتوني بردج ، تاريخ الحروب الصليبية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار قتيبة ، ١٩٨٦ .

أنور زقلمة ، المماليك في مصر ، القاهرة ، مطبعة المجلة الجديدة ، د . ت .

ايرامارفين لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٥ .

برتولد شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .

بنيامين التطيلي ، رحلة بنيامين ، (ترجمة عربية) ، بغداد ،المطبعة الشرقية ، ١٩٤٥ .

جعفر حسين خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ،

بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٨ .
جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
ـــ ، العدوان الصليبي على مصر ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
ـــ ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
جوناثان ايلي سميث ، الاسبتارية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٤ .
حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لايبزغ ، ١٨٣٧ .
الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ، وزارة الثقافة ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٦ .
حسنين محمد ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ .
حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .
حمزة بن أسد بن علي القلانسي ، كتاب تاريخ دمشق ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٣ .
حياة ناصر الحجي ، أحوال العامة في حكم المماليك ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر ، ١٩٨٤ .
خليفة بن خياط العصفري ، تاريخ خليفة بن خياط ، دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٧ .
خليل بن أيبك (الصلاح الصفدي) ، أمراء دمشق في الاسلام ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٥ .
ـــ ، الوافي بالوفيات ، بيروت ، المعهد الالماني ، ١٩٤٩ ـ ١٩٧٩ .
خليل بن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ، المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤ .

خليل ضـــومط ، الدولة المملوكية ، بيروت ، دار الحـــداثة ، ١٩٨٠ .

ر . سي . سميث ، فـن الحـرب عند الصـليبيين ، (تـــرجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢ .

رينيه غروسيه ، جنكيز خان ، (ترجمة عربية) ، دمشـق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .

زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، كتاب آثار البلاد وأخبـار العباد ، بيروت ، دار الصياد ، ١٩٦٠ .

ستيفن رنسيمان ، تـاريخ الحـروب الصـــليبية ، (تـــرجمة عربية) ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور ، « أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك » ، بحـث ألقـي في المؤتمـر الدولي الثـالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ١٩٨٠ .

ـــ ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ، دار النهضـة العربية ، ١٩٧٦ .

ـــ ، الحـركة الصـليبية ، القـاهرة ، مـكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٣ .

ـــ ، الظاهر بيبـرس ، القـاهرة ، وزارة الثقـافة والارشـــاد القومي ، ١٩٦٣ .

ـــ ، مصر والشـام في عصر الايوبيين والمـماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢ .

ـــ ، مصر في عصر دولة المـماليك البحـرية ، القـاهرة ، مـكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .

سهيل زكار ، أخبار القرامطة ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .

ـــ ، الحروب الصليبية ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٤ .

ـــ ، حطين ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٤ .

ـــ ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، دار الفـكر ، ١٩٧٤ .

السيد الباز العريني ، المماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧ .
صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٦٧ .
طاشكبري زاده ، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥ .
طه ثلجي الطراونة ، مملكة صفد في العصر المملوكي ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٢ .
عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين المشرق والمغرب في العصور الوسطى ، دمشق ، دعر دمشق ، ١٩٨٠ .
عبد الجليل حسن عبد المهدي ، المدارس في بيت المقدس ، عمان ، مكتبة الأقصى ، ١٩٨١ .

عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ .
عبد الرحمن بن إسماعيل (أبو شامة) ، الروضتين في أخبار الدولتين مع الذيل (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) ، بيروت ، دار الجيل ، د . ت .
عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٥ .
ـــ ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٤ .
ـــ ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٧ .
عبد الرحمن بن الجوزي ، فضائل القدس ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٠ .
ـــ ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر أباد ـ الهند ، المطبعة العثمانية ، ١٩٤٠ .
عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥١ .

ـــــ ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ .

عبد الرحمن بن محمد العليمي الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، عمان ، مكتبة المحتسب ، ١٩٧٣ ، ومصر ، المطبعة الوهبية ١٢٨٣ هـ .

عبد الرحمن بن نصر الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩ .

عبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، المطبعة الاميركانية ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٢ ، وبغداد ، مطبعة حداد ، ١٩٦٧ .

عبد القادر بن محمد النعيمي ، الدارس في أخبار المدارس ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٤٨ .

عبد الله بن أسعد اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ، مؤسسة الاعلمي ، ١٩٧٠ .

عبد الله بن عبد الله ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، ليدن ، مطبعة برل ، ١٨٨٩ .

عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ، كتاب مراصد الاطلاع ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٤ .

عبد الله بن عبد الظاهر (محيي الدين) ، الألطاف الخفية ، لايبزغ ، ١٩٠٢ ، د . ت .

ـــــ ، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦١ .

ـــــ ، الروض الظاهر في سيرة الملك الظاهر ، الرياض ، المحقق ، ١٩٧٦ .

عبد الوهاب السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٨٣ .

عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، عمان ، جامعة اليرموك ، ١٩٧٦ .

علي إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ .

علي أحمد ، « الاندلسيون في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري » ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة دمشق ، ١٩٨١ .

علي ابن أبي بكر الهروي ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٥٣ .

علي بن الحسن بن عساكر ، تاريخ دمشق ، مخطوطة الظاهرية ، ٥٣١٦ ، عام ٢٠٥ ، د . دمشق ، المجلدة الأولى والثانية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥١ ، المجلدة العاشرة تحقيق أحمد دهمان ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٦٣ .

علي بن داود الصيرفي ، أنباء الهصر بأبناء العصر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ .

ــ ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ .

علي اللبودي ، فضل الاكتساب وأحكام الكسب وآداب المعيشة ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة تشستربيتي ـ دبلن .

علي بن محمد ، أبو الحسن ، (ابن الاثير) ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، القاهرة ، دار الكتاب الحديثة ، ١٩٦٣ م .

ــ ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ .

علي بن يوسف القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، لايبزغ ، ١٩٠٣ .

عمر بن أحمد بن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٨ .

عمر بن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٠ .

فاروق عمر ، تاريخ فلسطين السياسي في العصور الاسلامية ، أبو ظبي ، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ .

فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الاولى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٤ .

فضل الله الصقاعي ، تـالي وفيات الاعيان ، دمشـق ، المعهـد الفرنسي ، ١٩٧٤ .
فولففانغ مولر ــ فيز ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢ .
قسطنطين خمار ، أسماء الامـاكن والمواقـع والمعـالم الطبيعية والبشرية والجغـرافية المعـروفة في فلسـطين حتـى عام ١٩٤٨ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .
كامل جميل العسلي ، من آثارنا في بيت المقدس ، عمان ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٩٨٢ .
محمد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهـور في وقـائع الدهـور ، القاهرة ، كتاب الشعب ، ١٩٦٠ ــ ١٩٦١ .
محمد بن أحمد بن بسام المحتسب،نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٨ .
محمد أحمد دهمان ، ولاة دمشق في عهد المماليك ، دمشـق ، دار الفكر ، ١٩٨١ .
محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي ، دول الاسـلام ، القـاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
محمد بن أحمد القرشي (ابن الأخوة) ، معالم القربة في أحـكام الحسبة ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .
محمد بن أحمد المقدسي ، كتـاب أحسـن التقـاسيم في معـرفة الاقاليم ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦ .
محمد بـن جبير ، رحلة ابـن جبير ، القـاهرة ، مـكتبة مصر ، ١٩٥٥ .
محمد بن جرير الطبري ، كتاب تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، دار المعارف ، د . ت .
محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٧ .
ــــ ، دولة الظاهر بيبـرس ، القـاهرة ، دار الفـكر العـربي ، ١٩٦٠ .

محمد بن حوقل النصيبي ، كتاب صـورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د . ت .
محمد بن خليل الاسـدي ، التيسـير والاعتبـار والتحـرير والاختبار ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٧ .
محمد بن رافع السلامي ، الوفيات ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢ .
محمد بن سالم بن واصل الحموي ، مفرج الكروب في أخبـار بني ايوب ، الجزء الثاني ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٧ .
محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، القاهرة ، ١٩٥١ .
محمد بن الشحنة (ينسـب له) ، البدر الزاهـر في نصرة الملك الناصر محمد بن قايتباي ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣ .
محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي (شيخ الربوة) ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ط . مصورة ، بغداد ، مكتبة المثنى .
محمد بن طولون الصالحي الدمشـقي ، اعلام الورى بمـن ولي نائبا من الاتراك بدمشق والشام الكبرى ، دمشـق ، وزارة الثقـافة والارشاد القومي ، ١٩٦٤ .
ـــ ، قضاة دمشق ، دمشـق ، (المجمـع العلمـي العـربي) ، ١٩٥٦ .
ـــ ، مفاكهة الخـلان ، القـاهرة ، وزارة الثقـافة والارشـاد القومي ، ١٩٦٢ .
محمد بن عبد الرحمـن السـخاوي ، التبـر المسـبوك في ذيل السلوك ، ط . القاهرة ، مكتبة الكليات الأظهرية ، د . ت .
ـــ ،الذيل على رفـع الاصر عن قضـاة مصر ، القـاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .
ـــ ، الضوء اللامع لأهل القرن التـاسع ، بيروت ، دار الحياة ، طبعة مصورة ، د . ت .
محمد بن عبد الرحمن العثماني ، قطعة من تاريخ صفد ،
محمد العبدري الحيحي ، رحلة العبدري أو (الرحلة المغربية) ، الرباط جامعة محمد الخامس ، ١٩٦٨ .

محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، د . ت .
محمد بن عبد الله اللواتي (المعروف بابن بطوطة) ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٥٨ .
كمحمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٩ .
محمد بن عبد الواحد الحنبلي ، فضائل بيت المقدس ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٥ .
محمد بن علي بن شداد ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٦٢ .
ـــ ، تاريخ الملك الظاهر ، بيروت ، المعد الالماني ، ١٩٨٣ .
محمد بن علي الحموي ، التاريخ المنصوري ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٨٢ .
محمد بن علي الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٨ هـ .
محمد علي العظيمي ، تاريخ حلب ، دمشق ، المحقق ، ١٩٨٤ .
محمد عيسى صالحية ، حوليات كلية الآداب ، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية ، الرسالةالسادسة والعشرون ، الكويت ، ١٩٨٥ .
محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ، مكتبة النوري ، ١٩٨٣ .
محمد بن محمد بن صصرى ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، كاليفورنيا ، ١٩٦٣ .
محمد بن محمد (العماد الاصفهاني) ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، ١٣٢١ ه .
محمد بن محمود الحلبي (الملقب بابن أجا) ، العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٦ .
محمد بن محمود بن خليل الحلبي ، تاريخ الامير يشبك الظاهري ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٣ .

محمد بن يحيى بن الجيعان ، القول المستظرف في سفر مولانا الملك الاشرف ، بيروت ، جروس ـ برس ، ١٩٨٤ .
محمود بن أحمد بن موسى (بدر الدين العيني) ، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد (شيخ المحمودي) ، القاهرة ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .
ـــ ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦٢ .
مصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسلام ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، د . ت .
مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٦ .
ـــ ، الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في فلسطين ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٨١ .
مظهر شهاب ، تيمورلنك ، (أطروحة دكتوراه غير منشورة) ، الجامعة اليسوعية بيروت ، ١٩٨١ .
منصور بن بعرة الذهبي ، كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية بيروت ، ١٩٨١ .
مؤرخ شامي مجهول ، حوليات دمشقية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ .
المورد ، مجلة تراثية فصلية ، « الفكر العسكري عند العرب » المجلد الثاني عشر العدد الرابع بغداد ١٩٨٣ .
ناصر خسرو ، سفر نامه ، (ترجمة عربية) ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، بيروت ، محمد أمين دمج وشركاه ، ١٩٤٥ .
نقولا زياده ، « فيلكس فابري في فلسطين » ، (بحث ألقي في المؤتمر الثالث لبلاد الشام) ، عمان ، ١٩٨٠ .
ياقوت بن عبد الله الحموي ، إرشاد الاريب إلى المعرفة الاديب (معجم الادباء) ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٠٧ ـ ١٩٢٧ .
ـــ ، معجم البلدان ، بيروت ، دار الصياد ، د . ت .

يوسف بن تغري بردي ، (أبو المحاسن) ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .

ـــ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ط . مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .

ـــ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ط ..مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية ، د . ت .

يوسف غوانمة ، إمارة الكرك الايوبية ، عمان ، دار الفكر ، ١٩٨٢ .

ـــ ، تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، وزارة الثقافة والشباب ، عمان ، دار الفكر ، ١٩٨٢ .

ـــ ، تاريخ شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، وزارة الثقافة والشباب ، عمان ، ١٩٧٩ .

ـــ ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، عمان ، دار الحياة ، ١٩٨٢ .

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

الحركات الدينية في اوروبا الوسيطة ودورها في صنع احداث الحروب الصليبية

السعي وراء الفترة الالفية السعيدة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الجزء الرابع

الحركات الدينية في اوربا الوسيطة ودورها في صنع أحـداث الحروب الصليبية

(السعي وراء الفترة الالفية السعـيدة)

دمشق ١٤١٣ / ١٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

هذا هو الكتاب الرابع في موسوعتنا ،وهو أول الأعمال المترجمة ،ترجمته عن الانكليزية ،وعنوان الكتاب الأصلي« السعي وراء الفترة الألفية السعيدة ،ومؤلفه هو الاستاذ نورمان كوهن ،الذي ولد في لندن عام ١٩١٥ ،وشهر كاستاذ جامعي متخصص حيث درس في أكسفوررد ثم في مختلف جامعات انكلترا وسكوتلندا وايرلاندا ،وعندما أعاد طبا عة كتابه هذا للمرة الثالثة عام ١٩٦٩ كان استاذا زميلا في جامعة سسكس في انكلترا ،وله عدة مؤلفات ، كان من أشهرها كتابنا الذي نقدمه الآن وكتاب آخر عن التآمر اليهودي العالمي حسبما ورد في كتاب« بروتوكولات حكماء صهيون » ٠

لقد عدلت بعض الشيء عنوان الكتاب الأصلي ومنحته عنوانا جديدا يتماشى مع القارىء العربي ،استخرجته من محتويات الكتاب ، وكما سلف بي وأشرت من قبل إن هذا الكتاب يأتي كمتمم مفيد جدا لمحتويات كتاب المدخل بأجزائه ، وفوائد هذا الكتاب تتخطى موضوع الحروب الصليبية لتفيد الباحث في تاريخ الاسلام بشكل عام ،وأكثر من هذا إنها تفيد في فهم مايعرف الآن باسم الحركات الأصولية في مسيحية القارة الأوربية ،هذه الحركات التي اسهمت بشكل فعال في تدمير النظام الماركسي في الاتحاد السوفييتي وفي أوربا الشرقية ،ولها تأثيرها النافذ على مختلف جوانب الحياة في الغرب الأوربي والشرق وفي الولايات المتحدة ،وهذه مسائل يحتاج القارىء العربي الى التبصر بها والتمعن ٠

لقد بذلت كل جهد ممكن في المحافظة على روح الكتاب اثناء تاليفه وذللت معظم العقبات التي تعلقت باستخدام الاصطلاحات بالعربية ،وفقط سميت الذين كانوا يضربون انفسهم بالسياط وغيرها من الوسائل» باللطامين » على أساس ان اللطم في ايامنا لايعتمد فقط على الاكف بل هناك السياط وحتى السلاسل المعدنية ووسائل اخرى ،و باستثناء التحرج امام هذا الاصطلاح ارى أن ماتبقى لالبس به البته ،والله الموفق الى السداد ٠

من الله تعالى ارجو العون والتوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين ٠

دمشق ٢٠ شعبان ١٤١٣ ، ١٢ شباط ١٩٩٣

تنويـــــــه

اعيد اخراج الصور بإذن من المتحــف البــريطاني والمكتبــة الملكية البلجيكية ومعهـــد كورتـــولد للفنون والســـيدة ج . ب. سومز

وابدي امتناني للاسستاذ المتوفى غ. ر. أوســت ولمطبعــة جامعة كمبردج للسماح لي بــالاقتباس مــن تــرجمه جــون برومیارد في

« الأدب والوعظ في انكلترا العصور الوسطى »

تمهيد لهذه الطبعة

لقد اتاح لي نشر الطبعة الثالثة من السـعي وراء الفتـرة الألفية السعيدة الفرصة للقيام بمراجعة شاملة ،وقد مضى نحو ربـع قـرن تقريبا منذ أن بدات العمل في هذا الكتاب وثـلاثة عشر عامـا منذ ان انتهيت منه وسيكون تعليقا متـواضعا على التقـدم العلمـي او على مرونتي العقلية او كليهما القول بأني لم أجد شيئا فيه الآن يتـطلب التعديل او التوضيح ،ففي الواقع إني وجدت الكثير .إن في الطبعـة الجديدة ثلاثة عشر فصلا بـدلا مـن إثني عشر ومقـدمة وخـاتمة مختلفتان وقد تم تغيير فصلين بصورة جوهرية مع عدد لايحصى مـن التغييرات التي جرت في مواضع مختلفة من الكتاب ، وقد يحب بعض القراء أن يعرف بتعـابير عامـة حجـم ذلك .إن التغييرات يمـكن تلخيصها كما يلي

في المقام الأول إن نتائج البحوث الجديدة قد اخذت في الحسبان •

وما زال كتاب « السعي وراء الفترة الألفية السـعيدة «الكتـاب الوحيد في موضوعه أعني حول تقاليد الألفيين الثوريين والفـوضوية الصوفية كما تطورت في أوربا الغـربية بين القـرنين الحـادي عشر والسادس عشر • ولكن كانت هناك اسهامات جديدة كثيرة تتـراوح بين المو ا، القصيرة والكتب الطويلة حول الظواهر الفردية ،وحلقات تلك القصه ،وبشكل خاص صورة تلك الديانة الغامضة ،أعني الروح الحرة ،التي ملأ فـراغها جهـود الأسـتاذ رومـاناغارنيري Romana Guarnieri من روما ،وقد تضمنت هذه الجهود الكبيرة تعريف وتحقيق كتـاب« مـرأة الأرواح البسـيطة «لمرغريت بوريت Marguerite porete ،وهو نص أساسي للروح الحـره يتمم بشكل يثير الاعجاب نصوص رانتـر Ranter المتـأخرة عنهـا كثيرا وبشكل ملحقا للكتاب الحالي •

وقد انتج الأستاذ غارنيري ايضا طريقه التفهم والمعالجة الأقرب التي لم يحدث مثلها حتى الآن لتشكل تاريخا كاملا للديانة في ايطاليا كما في شمال ووسط أوروبا ومعرفتنا بالثابوريث البكارتي Pakarti والاداميت Adamites في بوهيميا قد تعمقت بصورة مماثلة ليس فقط بسبب التدفق المستمر للدراسات الماركسية التي انبثقت من تشيكوسلوفاكيا ،بل أيضا بالسلسلة المؤثرة والمنورة من المواد التي اضافها العالم الأمريكي الأستاذ هوارد كمنسكي Houard Kaminsky ودمجت الاضافات الكبيرة للمعرفة الى جانب كثير من المعارف الصغيرة في الفصول ذات العلاقة من هذا الكتاب ٠

وحيث ان السعي وراء الفترة الألفية السعيدة لم يقصد به ابدا أن يكون تاريخا عاما للانشقاق الديني أو الهرطقة في العصور الوسطى ،فإن معظم البحوث الجديدة في هذا المجال ـ وهي كثيرة ـ تترك المجادلة فيها دون مساس ،ومع ذلك فهي تجربة مثيرة للتفكير ان يقرأ مثل هذا المجال الواسع من الكتب الموثوقة مثل« الانشقاق والاصلاح في العصور الوسطى » الذي وضعه الأستاذ جفري روسل Jeffreyrussell « والهرطقة في اواخر العصور الوسطى »الذي وضعه الأستاذ غوردون ليف Gordonleff و« الاصلاح الجذري » الذي وضعه الأستاذ جورج وليمز وما من واحد من هذه الكتب لايتراكب مع السعي وراء الفترة الألفية السعيدة في أكثر من فصلين ،ولكنها فيما بينها تقدم تاريخا فخما للانشقاق يمتد من القرن الثامن الى السادس عشر ، وبالنظر اليها في هذا المحيط الأوسع فإن الطوائف والحركات الموصوفة في هذا المجلد تبدو بوضوح اكثر كحركات استثنائية وبالغة التطرف في تاريخ الانشقاق الديني ،وهي تشكل الجناح المفرط في فوضويته ، وتوضح هذه المقدمة غرابتها في حين أن الفصل الجديد(٢) يظهر كيف انها تتواءم مع الصورة الأكبر ٠

وكان التركيب الاجتماعي لهذه الطوائف والحركات والمحيط

الاجتماعي الذي عملت فيه قد جرى تبيانه بشكل واف في الطبعة الأولى ،وثبت انه لاضرورة لاجراء اي تغيير في هذا المجال •
وربما يتسنى للمؤرخين الاقتصاديين بالبحث المفصل في الحالات الفردية ان يسلطوا ضوءا اكثر ،ولكن لايتوقع بالتأكيد شيء من التبادل الجاري للتعميم العقائدي بين المؤرخين الماركسيين وغير الماركسيين للهرطقة •

فلا شيء مثلا يمكن أن يكون اكثر عقما من المناقشة بين مؤرخين معينين في غرب وشرق المانيا حول ما إذا كانت الهرطقة يمكن أولا يمكن أن تفسر على انها احتجاج من المحرومين من المزايا ، لأن المتقدمين على مايبدو كانوا عاجزين عن تخيل كيف يمكن ان يأتي الانشقاق من الطبقات التي تتمتع بالمزايا ، وافضل وقاية من مثل هذا الافراط في التبسيط هو بعض المعرفة بعلم اجتماع الدين ، وبهذه التقوية لايحتمل أن يتخيل المرء أن كل هرطقة العصور الوسطى كانت من نوع واحد تعكس النوع نفسه من عدم الرضى وتروق للقطاعات نفسها من المجتمع •

وإلى المدى الذي يتعلق بالثوريين الالفيين فإن اهمية مضمونها الاجتماعي يظهر في فصل بعد آخر في هذا الكتاب ،ولكني ايضا حاولت تلخيصها بأوجز ما يمكن في الخاتمة ، والخاتمة في الواقع هي الجزء من الكتاب الذي جذب أغلب الاهتمام بين المجموع ، وخاصة أن كثرة التعليق الايجابي والسلبي قد اثارها الايحاء بأن القصة الواردة في هذا الكتاب قد يكون لها بعض العلاقة بالهيجان الثوري في فرنسا ، وقد نوقشت هذه الحجه مطولا ليس فقط في النظرة العامة والمواد ،بل ايضا وبشكل أكثر افادة في المناقشات العفوية في الجامعات البريطانية وفي القارتين الاوربية والامريكية ، حيث أني مازلت مقتنعا بأن الحجة صالحة ، فإني اعتقد انها تطلبت توضيحا اكثر ايجازا وإيضاحا ، وقد حاولت ذلك في الخاتمة الجديدة •

وأخيرا إن المصادر والمراجع القديمة التي كانت تاريخية محضة قد

روجعت لتشمل الاعمال التاريخية التـي ظهـرت منذ تمـت كتـابة النسخة الأصلية من الكتـاب ،وهـي معلمـة بعـلامة نجمية ،ولكن السعي وراء الفترة الالفية السعيدة هو ملك للدراسة المقارنة للفتـرة الألفية بالدرجة نفسها على الأقل التـي لدراسـة تـاريخ العصـور الوسطى ، وفي ذلك المجال أيضا إن تقدما كبيرا جـدا قـد حـدث في السنوات الأخيرة وقد اردفت ثبت المراجـع والمصـادر بنخبـة مـن أسماء الكتب الجـديدة والأراء ،معـظمها يتعلق بمعتقـدات الجنس البشري وعاداته وبالنواحي الاجتماعية ، وكثير من هذه في ذاتهـا ، تحوي مصادر اكثر تمكن القارىء المهتم من الاستكشاف الى مـدى ابعد في هذا الحقل الصعب ، وذي الأهمية الحيوية مع ذلك ٠

جامعة سسكس،ن ٠ ك

شباط ١٩٦٩

تقديم

مجال هذا الكتاب

لقد كان المعنى الأصلي « للألفية » ضيقا ودقيقا ، وكان للمسيحية دائما إيمان بالأخرويات (البعث والحساب)بمعنى المذهب المتعلق (بالأزمنة الأخيرة) او (الايام الاخيرة)أو (الحالة الأخيرة للعالم) وكانت الألفية المسيحية ببساطة امرا يختلف عن الايمان المسيحي بالأخرويات وهي تشير الى الاعتقاد الذي يحمله بعض المسيحيين حول سلطة سفر رؤيا يوحنا(٢٠ - ٤ـ٦) انه بعد المجيء الثاني للمسيح سيقيم مملكه مسيحية على الأرض وسيحكمها لمدة الف عام قبل الحساب ، وطبقا لسفر رؤيا يوحنا سيكون مواطنوا هذه المملكة من شهداء المسيحية الذين سيبعثون لهذه الغاية قبل الف سنة من البعث العام للموتى ، ولكن المسيحيين القدماء فسروا بالفعل هذا الجزء من النبوءة بمعنى متحرر أكثر منه حرفي ،ساووا فيه بين الشهداء والمؤمنين الذين يعانون ـ بمعنى أنفسهم - وتوقعوا المجيء الثاني في حياتهم ، وفي السنوات الأخيرة أصبح شائعا بين علماء أعراف وعادات ومعتقدات الانسان ،وعلماء الاجتماع وإلى حد ما بين المؤرخين أيضا استعمال الألفية بمعنى أكثر تحررا ، واصبحت الكلمة في الواقع ببساطة عنوانا موائما لنمط معين من الخلاص وهذه هي الطريقة التي ستستعمل بها في هذا الكتاب ٠

وتصور طوائف او حركات الألفية دائما الخلاص بـ :

ا ـ جماعي : بمعنى أنه يستمتع به المؤمنون بشكل جماعي ٠

ب ـ أرضي : بمعنى أنه سيتحقق على هذه الارضوليس في أي سماء عالمية أخرى ٠

ج ـ وشيك : بمعنى انه سيأتي سريعا وفجاة ٠

د ــ جملة : بمعنى انه يحــول كلية الحياة على الأرض حتــــى أن الشريعة الجديدة لن تكون مجرد تحسين للحاضربل الكمال نفسه ٠
هـ ــ معجزا : بمعنى أنه ســينجز بعــوامل خــارقة للطبيعـــة أو بمساعدتها ٠

وحتى ضمن هذه الحدود هناك بالطبع مجــال لتنوع غير محــدود (ص ١٤) وهناك طرائق ممكنة لاحصر لهــا لتخيل الفتــرة الالفية والطريق إليها ٠ واختلفت الطوائف والحركات الألفية في المواقف من العدوانية الأكثر عنفا الى الأخف سلمية ، ومن الروحانية الأكثر رقة الى المادية الدنيوية الراسخة ، وقد اختلفت أيضــا بــدرجة كبيرة في التركيب الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية ٠

وكان هناك بالتأكيد تنوع كبير بين الطوائف الالفية والحركات في اوربا العصور الوسطى ففــي أحــد الأطــراف كان هناك مــا يدعى « الروحانيون الفرنسيسكان » الذين ازدهــروا في القــرن الثــالث عشر ، وقد جاء هؤلاء النساك الزاهدون الأقوياء بشكل رئيس مــن خليط من العائلات النبيلة والمشتغلة بالتجارة التي شــكلت الطبقــة المهيمنة في المدن الايطالية ، وكان العديد منهــا يتخلى عن ثــرواته ليصبح افقر من أي شحاذ ، وفي تخيلاتهم كانت الفترة الالفية تعني عصرا للروح حيث يتوطد الجنس البشري كله في الصــلاة ،والتــأمل الصوفي والفقر الارادي ٠

وفي الطرف الأخر كانت الطــوائف الالفية المختلفــة والحــركات التي تطورت بين الفقراء الذين لاأصل لهــم في المدن والريف ، وكان فقر هؤلاء الناس اي شيء إلا أن نقول تطوعيا ، وكان نصــيبهم عدم الأمن الشديد القاسي ، وكانت الفيتهم عنيفــة فــوضوية ، وفي بعض الأحيان ثورية فعلا.

ويعالج هذا الكتاب الالفية التي ازدهرت بين الفقــراء الذين بــلا جذور في اوربا الغربية فيما بين القرن الحادي عشر والقرن السادس عشر ، والظروف التي شــجعت عليهــا ، ولكن إذا كان هــذا هـــو

الموضوع الرئيس فهو ليس الوحيد ، لأن الفقراء لم يوجدوا عقائدهم الالفية الخاصة وإنما تلقوها ممن كانوا أنبياء أو مخلصين ،وهؤلاء الناس كان العديد منهم أعضاء سالفين في الكهنوت الأدنى ، وبدورهم أخذوا افكارهم من أكثر المصادر تنوعا ، وكانت بعض التخيلات الألفية موروثة من اليهود والمسيحيين الأوائل ، والأخرى من راعي دير رهبان القرن الثاني عشر يواكيم أوف فيور Joaachim of Fior ,وكان بعضها ثانية متصلا بالبدع الباطنية الموروثة المعروفة بأخوة الروح الحرة ، وسيفحص هذا الكتاب كلا من كيفية نشوء الهياكل الأساسية لهذه المعتقدات الألفية المختلفة وكيف تبدلت خلال انتقالها الى الفقراء ٠

إن شعور القوة في عالم الالفيين وعالم القلق الاجتماعي إذن لم يتصادف بل تراكب ، وكثيرا ما حدث أن قطاعات معينة من الفقراء كانت في قبضة بعض « انبياء »الألفية ، وعليه فان الرغبة العادية لدى الفقراء لتحسين الأحوال المادية لمعيشتهم أصبحت متمازجة مع متخيلات عالم تعاد ولادته في البراءة ، من خلال رؤيا لمذبحة ملحمة أخيرة ، وكانت الخيالات الشديدة تنسب وتربط بصور مختلفة باليهود او الاغنياء الذين يبادون ، وبعدها سيقيم القديسون ـ أعني الفقراء ذوي العلاقة ـ مملكتهم ، وهي عالم بلا معاناة او خطيئة(ص ١٥)٠

وبفعل الالهام بمثل هذه التخيلات يختلف كثير من الناس الفقراء الذين يوظفون في المشروعات تماما عن الثائرين المعتادين من الفلاحين والحرفيين بأهدافهم المحلية المحدودة ، وستحاول خاتمة هذا الكتاب توضيح خصائص هذه الحركات الالفية لفقراء العصور الوسطى ، وسوف توحي ايضا بأنها في نواح معينة كانت نواة منذرة ببعض الحركات الثورية الكبيرة في القرن الحالي ٠

ولاتوجد دراسة أخرى شاملة لهذه الحركات التي تميزت بها القرون الوسطى ، هذا ولقيت الطوائف الدينية الأكثر تزمتا التي ظهرت واختفت عبر العصور الوسطى في الواقع اهتماما كبيرا ،

ولكن اهتماما اقل قد اعطي لقصة كيف انه حدث مـرات ومـرات في حالات سوء التوجيه الجماهيري والقلق أن المعتقدات التقليدية حول عصر ذهبي منتظر أو مملكة للخلاص كانت تخدم كوسائل للطموحات الاجتماعية والخصـومات ، ومـع عدم وجـود نقص في الدراسـات الرائعة التي تعالج حلقات فـردية أو نواح ، بقيت القصـة ككل غير محكية ويهدف الكتاب الحالي عند هذا الحد الى ملء الفراغ :

ولفتح هذا المجال الذي لم يكتشف بدرجة كبيرة لزم تمشيط مئات عديدة مـن المصـادر الأصـلية في اللاتينية واليونانية والفـرنسية القديمة ، فرنسية القرن السادس عشر والمانية العصـور الوسـطى والقرن السادس عشر العـالية والدنيا منهـا واسـتغرق البحـث والكتابة إجمالا نحو عشر سنوات ، وبسبب ذلك فإنها بـدت طـويلة بدرجة كافية لأن اقرر على مضض أن احد مـن التحـري في شـمال ووسط أوربا لا لأن عالم البحر المتوسط في العصور الوسـطى ليس لديه مشاهد باهرة بصورة مماثلة أو مساوية لتقـديمها ، ولكن لأنه بدا لي ان البحث الأكثر شمولا جغرافيا اقل أهمية مما ينبغي بـذله من جهد ودقة يمكن أن اقوم بها بالنسبة للمنطقة المغطاة •

وقد توفرت المادة الخام من المصادر المعاصرة الكثيرة التنوع :

حوليات ،تقـارير ،تحقيق لمحققين ،وإدانات أطلقهـا البـابوات والأسـاقفة والمجـامع والأجهـزة الدينية ، والنشرات الهجـومية ، والرسائل وحتى الأشعار الغنائية ، ومعظم هذه المواد كان يصدرها رجال الدين الذين كانوا معادين للمعتقدات والحركات التـي تـولوا وصفها ، ولم يكن سهلا دائما معـرفة الاضـافات والتحـريف غير المقصود أو التشويه المقصود ، ولكن لحسن الحظ ان الجانب الآخر أيضا انتج نصوصا أدبية رئيسه ، نجـا كثير منهـا مـن الجهـود المتلاحقة للسلطات المدنية والكنسية لتدميرها ، وعليه كان من الممكن مراجعة المصادر الاكليركية ليس فقط بمقابلتها ببعضها بعضا ، بل بمقابلتها ايضا مع البيانات المكتوبة لعدد ذي شأن من متنبيء الفترة الالفية(ص ١٦) والبيان المقدم هنا هو حصيلة عملية طويلة لجمع

ومقارنة وتقويم وإعادة تقدير حشد كبير من الأدلة ، وإذا كان بشكل رئيس بيانا غير متردد ، بسبب أن كل الشكوك الكبيرة تقريبا ، والأسئلة التي أثيرت أثناء سير العمل قد أجابت نفسها بنفسها قبل النهاية ، فإن الشكوك التي مازالت باقية قد أشير اليها بالطبع *

السعي وراء الفترة الألفية السعيدة

الفصل الأول

تقاليد نبوءة سفر الرؤيا

سفر الرؤيا اليهودي والمسيحي القديم :

لقد تجمعت المواد الخام المختلفة التي خرج منها الايمان الثوري بالأخرويات (ص ١٩) تدريجيا خلال أواخر العصور الوسطى وهي تتألف من مجموعة متنوعة من النبوءات الموروثة من العالم القديم ، وفي الأصل كانت كل هذه النبوءات من اختراع المجموعات الدينية اليهودية في البداية ، والمسيحية فيما بعد لتواسي نفسها وتدعمها عندما كانت تواجه بالتهديد أو بحقيقة الاضطهاد وإنه من الطبيعي بدرجة كافية أن أقدم هذه التنبوءات لابد قد انتجت من قبل اليهود.وما ميز اليهود بشكل قاطع عن الشعوب الأخرى من العالم القديم كان موقفهم من التاريخ ، وبشكل خاص تجاه دورهم فيه ، وكان اليهود ـ باستثناء الفرس إلى حد ما ـ وحدهم من قام بالجمع بين الايمان الراسخ بالله واحد وبين الاعتقاد الذي لايقبل المساومة ولايهتز أنهم هم انفسهم كانوا الشعب المختار من قبل الرب الواحد ، وكانوا على الأقل منذ الخروج من مصر مقتنعين بأن إرادة يهوا مركزة على بني اسرائيل ، وأن بني إسرائيل وحدهم مكلفون بتحقيق هذه الارادة ، وكانوا على الاقل منذ أيام الأنبياء مقتنعين بان يهوا لم يكن مجرد إله وطني قوي بل الرب الواحد القادر للتاريخ ، والذي يتحكم بمصائركل الأمم ، وصحيح أن الاستنتاجات التي استمدها اليهود من معتقداتهم قد اختلفت بدرجة كبيرة كان هناك العديد ، مثل« أشعيا الثاني »، ممن شعروا بأن

الانتخاب الالهي فرض مسؤولية اخلاقية خاصة عليهم هي الالتـزام باظهار العدل والرحمة في تعـاملهم مـع كل الناس، وفي نظـرهم إن المهمـة الالهية المعينة لبني اسرائيل كانت تنوير غير اليهـود مـن الشعوب، وهكذا يحمل خلاص الرب الى اطـراف الأرض، ولكن الى جانب هذا التفسير الاخلاقي وجد تفسير أخر ، أصبح أكثر جاذبية، حيث خضع الحماس القديم للوطنية لصدمة وضغط الهزائم المتكررة والنفي والتشتيت ، وبشكل دقيق لأنهم كانوا متأكدين تماما من أنهم الشعب المختار، فإن اليهود مالوا الى الاستجابة للخطر والاضطهاد، والصعوبات بخيالات الانتصار الشامل والرخاء غير المحـدود الذي سيمنحه يهوا بقدرته الكلية لشـعبه المختـار عند اكتمـال الزمـان (ص ٢٠)

ويوجد في كتب النبوءات فقـرات ـ يعـود بعضـها الى القـرن الثامن ـ تتنبأ بأنه من خلال كارثة كونيه هائلة ، ستشرق فلسطين وستكون شيئا لايقـل عن عدن جـديدة ، جنة مسـتردة ،وبسـبب إهمالهم ليهوا إن الشعب المختار يجب ان يعاقب في الواقع بالمجاعة والطاعون ،والحرب والأسر ، وفي الواقع يجب ان يخضعوا لحساب دقيق وشديد لدرجة أنه سيحدث عزلا فظيعا عن الماضي المذنب ، ولابد ان يكون يوما بالفعل ليهوا ، هو يوم الغضب عندما تـظلم الشـمس والقمر والنجوم ، وتنطوي السموات معا وتهتز الأرض وقتها يجب ان يكون هناك حساب فعلي عندما يصبح الكفار ـ هـم الذين عند بني اسرائيل لم يؤمنوا بالله ، وايضا أعداء بني اسرائيل من الأمـم الوثنية ـ خاضعين للحساب ، وينبذوا إذا لم يدمروا كلية ولكن هذه ليست النهاية ، إن « البقية الناجية » من بني اسرائيل ستنجو مـن هذا العقاب ، ومن خلال هذه البقية سيتحقق الحلم الألهي ، وعندما يعود تجديد الأمة بهذا الشـكل وتتصـالح سـيتوقف يهـوا عن الانتقام ،ويصبح المنجي ، وستجتمع البقية الصالحة ـ معـا كمـا كان يعتقد مؤخرا ، مع الصالحين من الأموات الذين بعثوا الآن مرة اخرى في فلسطين ، وسيسكن يهوا بينهم كقاض وحاكم ، وسيحكم من قدس أعيد بناؤها ، وستصبح صهيون العاصمة الروحية للعـالم

إليها تسعى كل الامم وسيكون عالم عدل ، يحتمي فيه الفقراء ، وعالم سلام وانسجام حيث تصبح الحيوانات الخطرة البرية اليفة وغير مؤذية ٠ وسيسطع القمر كالشمس وسيزداد ضوء الشمس سبعة أضعاف ، وستصبح الصحارى والأراضي البور خصبة وجميلة ، وسيكون هناك وفرة في الماء والعلف للمواشي وللقطعان ، وسيكون للانسان هناك وفرة في القمح والنبيذ والسمك والفاكهة وستتكاثر القطعان بدرجة كبيرة ، وبالتحرر من المرض والحزن من كل نوع ، ومن عدم التكافؤ ، والعيش وفق قانون يهوا المكتوب الآن في قلوبهم ، سيعيش الشعب المختار في فرح وسرور ٠

وفي سفر الرؤيا الذي كان موجها الى المراتب الدنيا من السكان اليهود في صورة من الدعاية الوطنية إن النبرة أكثر بساطة واكثر تبجحا ، وهذا بالفعل مدهش في سفر الرؤيا القديم « الرؤيا »او « الحلم » الذي يشغل الفصل السابع من كتاب دانيال الذي تم تأليفه في نحو عام ١٨٥ق ٠ م في لحظة حرجة غريبة في التاريخ اليهودي ، ولاكثر من ثلاثة قرون منذ نهاية النفي البابلي تمتع يهود فلسطين بمعيار عادل من السلام والامان في البداية تحت حكم الفرس وفيما بعد تحت البطالسة(ص ٢١)ولكن الحال تغير عندما انتقلت فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد الى ايدي الأسرة الحاكمة السلوقية السورية ـ اليونانية ، وكان اليهود انفسهم منقسمين بشكل مرير حيث أنه في حين تبنت الطبقات العليا بحماس الأخلاق والعادات اليونانية ، تعلق الشعب العادي بعزم اكبر بمعتقدات آبائهم ، وعندما بلغ تدخل الملك السلوقي انطيوخوس الرابع ابفانس ، نيابة عن الطرف الموالي لليونان الى حد منع كل الشعائر الدينية ، كان رد الفعل هو الثورة المكابية ، وفي الرؤيا في كتاب دانيال الذي تم تأليفه في أوج الثورة ، رمزت أربعة وحوش الى القوى العالمية الأربع المتوالية : البابليون ،الميديون(بدون تاريخ)، الفرس واليونان والأخيرة منها ستكون مخالفة لسائر كل الممالك ، فتأكل الأرض كلها وتدوسها وتسحقها وعندما دالت هذه

الامبراطورية بـدورها ، فإن اسرائيل مشـخصا بشـكل « ابـــن الانسان »:

« جاء مع سحب السماوات ، وجاء الى الايام القديمة ٠٠٠٠
وهناك أعطي السيادة والتألق ومملكة تجعل كل الشعوب ٠
والأمم واللغات تخدمه ، إن سيادته ، سيادة دائمة لن تزول ٠
وعظمة المملكة تحت كل السـماء أعطيت لشـعب القـديسيين الأعلين ٠٠٠٠ »

ويذهب هذا الى مدى أبعد مما ذهب اليه أي مـن الأنبياء فـلأول مرة تخيلت مملكة المستقبل البهية وهي لاتضم ببساطة فلسطين بـل العالم كله ٠

وهنا يمكن للمرء بالفعل أن يعرف نموذج مـا سـيحدث ، وهـو سيبقى الخيال الرئيس للايمان الثوري بالاخرويات : يقـع العـالم تحت هيمنة قوة طاغية شريرة ذات تدمير غير محدود ـ وهـي قـوة علاوة على ذلك تتخيل على أنهـا ببسـاطة بشرية بـل شـياطنية ، وطغيان هذه القوة سيصبح عنيفا أكثر فأكثر ، وسـتصبح معـاناة ضحاياها غير محتملة اكثر فأكثر ـ حتى تدق الساعة فجأة وعندها يكون قديسو الرب قادرين على النهوض لازالتهـا وعندهـا سـيرث القديسون أنفسـهم ، والناس المقـدسون الذين كانوا حتـى اليوم يتأوهون تحت نعال الظالمين سيرثون بدورهم السـيادة على الأرض كلها وسيكون هذا أوج التاريخ ، ومملكة القديسيين لن تفوق فقط في بهائها كل الممالك القديمة بل لن يكون لهـا تـال ، إنه بفضـل هـذا الخيال الجامح الذي مـارسه سـفر الرؤيا اليهـودي والايمـان بالاخرويات من خلال مشتقاته ، كان تأثير التخيل على غير القانعين والمخفقين في العصور التالية ـ واستمر هذا الفعل زمنا طويلا بعـد أن نسي اليهود أنفسهم وجوده نفسه ٠

ومنذ أن تم ضم فلسطين من قبـل بـومبي في ٦٣ ق ٠ م حتـى حـرب ٦٦ ـ ٧٢ م(ص ٢٢) صـاحب صراعات اليهـود ضـد

سادتهم الجدد ، الرومان وأثارها تـدفق مـن المقـاتلين الرؤويين ، وبدقة شغلت هذه الدعاية الموجهـة للشـعب العـادي دورا كبيرا في التخيلات المتعلقة بالمخلص الأخروي أي المسيح ، وهذا الخيال كان بالطبع قديما بالفعل ،إذ كان المخلص بالنسبة للانبياء هو الذي عليه أن يحكم الشعب المختار في نهاية الزمـان ، وكان عادة هـو يهـوا نفسه ، وفي الديانة الشعبية من جهة أخرى يبدو ان المسيح المنتـظر قد شـغل دورا كبيرا منذ أن دخلت الأمـة في مـرحلة انحـدارها السياسي، وكان في الاصل يتخيل في صورة ملك حكيم بشكل خاص ، وعادل وقوي من نسل داود ، يقوم بـاستعادة الثـروات الوطنية • وأصبح المسيح أكثر تفوقا على طبيعة البشر كلما اصـبحت الحـالة السياسية أكثر يأسا •

وفي رؤيا دانيال يبدو ابن الانسان الذي يظهر راكبا من السحاب انه يشخص بني اسرائيل ككل ، ولكن هنا بـالفعل ربمـا يكون قـد صور في صورة فرد فوق البشر ، وفي اسـفار الرؤيا لبـاروخ وعزرا التي تعود بـالاساس للقـرن الأول الميلادي ،الكائن فـوق البشري محقق بشكل لايقبل الجدل كرجل ، وملك محـارب مـوهوب بقـوى معجزة فريدة •

وفي عزرا يظهر المسيح كسبع يهوا ، الذي عندما يزأر فإن الأخـر وأسوأ الوحوش – وهو الآن النسر الروماني – يتفجـر ملتهبـا ويستهلك ، ومرة اخرى ان ابن الانسان الذي يبيد أولا العـديد مـن الوثنيين بالنار والعواصف التي تخرج مع نفسه سـيجمع القبـائل العشرة التائهة من الأراضي الغريبة ويقيم في فلسـطين مملكة يمـكن فيها لاسرائيل الموحدة من جديد أن تزدهر في بهاء وسلام•

وطبقا لباروخ لابد أن يأتي زمان صعوبات رهيبة وظلم ،وهو زمـان الامبراطورية الأخيرة وهي الأسوأ أي الرومان ، وعندما يصل الشر الى أعظم وتيرة يأتي العدل ،ويظهر المسيح المنتظر ، وهو محـارب قوي سيهزم وسيطرد ويدمر جيوش الأعداء ، وسيأخذ قائد الرومان اسـيرا ويحضره مقيدا بـالسلاسل الى جبـل صـهيون حيث

يعدمه ،وسيقيم مملكة سوف تدوم حتى نهاية العالم ، وكل الأمم التي حكمت اسرائيل ستقع تحت السيف ، وبعض اعضاء الأمم الباقية ستخضع للشعب المختار ، وسيبدأ عصر النعيم الذي لايعرف الألم والمرض والموت في غير الأوان ، والعنف والنزاع والحاجة والجوع ، وفيه تعطي الأرض ثمارها بعشرات الألوف من الأضعاف ، لكن هل ستدوم هذه الجنة الأرضية الى الأبد أم لبضع قرون فقط الى حين استبدالها بمملكة عالمية أخرى ؟

لقد اختلفت الآراء حول هذا الأمر ، ولكن السؤال كان على اي حال مسألة اكاديمية ،وبشكل مؤقت أو أبدي إن مثل هذه المملكة كانت تستحق القتال من اجلها ، واسفار الرؤيا هذه قد رسخت انه بحلول مملكة القديسيين سيظهر المسيح المنتظر نفسه بصورة لاتقهر في الحرب ٠(ص ٢٣)٠

وكما تحت حكم الملوك الوكلاء ، أصبح الصراع مع روما مريرا اكثر فأكثر واصبحت التخيلات المسائحية لدى كثير من اليهود شاغلا مستحوذا ، وطبقا ليوسف كانت بشكل رئيس اعتقادا في الحلول الوشيك لملك مسيحي ، ودفع هذا باليهود الى حرب انتحارية انتهت بالاستيلاء على القدس وتخريب المعبد في ٧٠ م ، وحتى سيمون بر ـ كوخبا الذي قاد الصراع الكبير من أجل الاستقلال الوطني في ١٣١م كان مايزال يحيى كمخلص منتظر ، ولكن القمع الدموي لهذه الثورة والقضاء على الوطنية السياسية وضع نهاية لكل من العقيدة الرؤوية ولرغبة اليهود في القتال ، ومع انه في القرون التالية قام عدد من المسيحيين المزيفيين بين الجماعات المنشقة فإن ماقدموه كان مجرد إعادة ترتيب للبيت الوطني وليست إقامة امبراطورية عالمية رؤوية ، وعلاوة على ذلك فإنهم نادرا ما كانوا وراء ثورات مسلحة ، ولم يحدث هذا مطلقا بين اليهود الأوربيون ، ولم يعد اليهود بل المسيحيون هم الذين شرعوا يتوسعون في تقاليد نبوءات حلم دانيال ، وهم الذين استمروا على التعلق بها والاستلهام منها ٠

وباتت افكار المسيح الذي عاني ،ومات والمملكة التي كانت روحية صرفة ، هذه الافكار التي اصبحت فيما بعد تعد قلب العقيدة المسيحية ، ابعد من أن تكون مقبولة من قبل كل المسيحيين الأوائل ، ومنذ ذلك الحين فإن المشكلة كما صيغت من قبل يوهانس وايس Johannes Weiss والبرت شويتزر Albert Shweitzer منذ نحو ستين سنة : كان الخبراء يتجادلون حول مدى تأثير تعاليم المسيح الخاصة بالرؤية اليهودية ، وإذا كانت هذه المسألة واقعة بعيدا خارج مجال الدراسة الحالية ، فإن بعض الاقوال التي تعزوها الأناجيل للمسيح تقع ضمنها بشكل واضح ،إن النبوءة التي احتفل بها والتي سجلها متى بالتأكيد ذات دلالة كبيرة وتبقى هامة سواء نطق بها المسيح حقا ، أو اعتقد أنه فعل ذلك :« لأن ابن الانسان سيأتي في بهاء أبيه مع ملائكته ثم يكافىء كل انسان حسب اعماله ، وحقا اقول لكم سيكون هناك بعض التوقف هنا للذين لن يتذوقوا الموت حتى يروا ابن الانسان يأتي في مملكته »٠

وليس مدهشا أن عددا كبيرا من المسيحيين الأوائل فسروا هذه الأشياء بتعابير الايمان الرؤي بالأخرويات الذي كانوا بالفعل يألفونه ، ومثلهم مثل عدد كبير جدا من اجيال اليهود قبلهم رأوا التاريخ مقسما الى عصرين :أحدهما سالف والثاني لاحق للحلول المنتصر للمسيح ٠

حتى انهم كثيرا ما أشاروا الى العصر الثاني« بالأيام الأخيرة » أو « العالم الآتي » وهذا لايعني أنهم كانوا يتوقعون نهاية سريعة مفاجئة وعنيفة لكل شيء بل على العكس فإنه لوقت طويل ٠ كانت اعداد من المسيحيين مقتنعين ليس فقط بأن المسيح سيعود بسرعة بقوة وعظمة بل ايضا أنه عندما يعود فإن ذلك سيكون لاقامة المملكة المسيحية على الأرض(ص ٢٤) وكانوا يتوقعون بثقة مملكة تدوم ، سواء لألف من السنين أو لفترة غير محددة ، ومثل اليهود ، عاني المسيحيون من الاضطهاد واستجابوا له باثبات نشاط وقوة اكثر ، للعالم ولانفسهم ، وايمانهم بأن عصر المسيح

المنتظر وشيك ، حيث تصحح أخطاؤهم ويباد اعداؤهم ، وليست مدهشة الطريقة التي تخيلوا بها التحول العظيم الذي كان ايضا يدين بالكثير الى اسفار الرؤيا اليهودية ، التي كان لبعضها في الواقع انتشارا أوسع بين المسيحيين أكثر منه بين اليهود ،وفي السفر المعروف باسم« رؤيا يوحنا » تمتزج العناصر اليهودية والمسيحية في نبوءة أخروية ذات قوة شعرية كبيرة ، وهنا كما في كتاب دانيال ترمز عشرة وحوش رهيبة ذات قرون الى القوة العالمية الأخيرة وهي الآن الدولة الرومانية المضطهدة ، في حين ان وحشا أخر يرمز الى الكهنوت الروماني الاقليمي الذي طالب بتشريف الهي للامبراطور :

« ووقفت فوق رمل البحر ورايت وحشا طالعا من البحر وله عشرة قرون ٠ ٠ ٠ وأعطي أن يصنع حربا مع القديسيين ويغلبهم ، وأعطي سلطانا على كل قبيلة ولسان وأمة ، فسيسجد له جميع الساكنين على الأرض ، الذين ليست اسماؤهم مكتوبة منذ تأسيس العالم في سفر حياة ٠ ٠ ٠ ٠ثم رايت وحشا أخر طالعا من الأرض ٠ ٠ ٠ ويصنع آيات عظيمة ٠ ٠ ٠ ويضل الساكنين على الأرض بالآيات التي أعطي أن يصنعها ٠ ٠ ٠ ٠(ص ٢٥)٠

ثم رايت السماء مفتوحة ، وإذا فرس ، والجالس عليه يدعي امينا وصادقا ، وبالعدل يحكم ويحارب ٠ ٠ ٠ والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه علي خيل بيض لابسين بزا أبيض ونقيا ، ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم ٠ ٠ ٠ ٠

ورايت الوحش وملوك الأرض واجنادهم مجتمعين ليصنعوا حربا مع الجالس على الفرس ومع جنده ، فقبض على الوحش والنبي الكذاب مع الصانع قدامه الآيات التي بها أضل الذين قبلوا سمة الوحش ، والذين سجدوا لصورته وطرح الأثنان حيين الى بحيرة النار المتقدة بالكبريت ، والباقون قتلوا بسيف الجالس على الفرس ٠ ٠ ٠ ٠ وجميع الطيور شبعت من لحومهم ٠ ٠ ٠

ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع، ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش . . . فعاشوا وملكوا مع المسيح الف سنة . . . . «وعند نهـايتها ــ الفتـرة الالفية بـالمعنى التـام للكلمة ــ تتبع هناك البعث العام للأموات والحساب الأخير عندمـا يكون الذين لم يوجدوا مكتوبين في كتاب الحياة قد طـرحوا في بحيرة النار ، وتهبط القدس الجديدة من السـماء لتـكون بيتـا وسـكنا للقديسين الى الأبد :

« ثم رايت سماء جديدة وارضا جديدة ، لان السماء الأولى والأرض الأولى مضتا ، والبحر لايوجد فيمـا بعـد ، وانا يوحنا رايت المدينة المقدسة أورشليم الجـديدة نازلة مـن السـماء مـن عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها ، وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هـو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا ، والله نفسه يكون معهم إلها لهم وسيمسح الله كل دمعة من عيونهـم والموت لايكون فيما بعد ، ولايكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت ، وقال الجالس على العـرش : هـا انا اصنع كل شيء جديدا . . وذهب بي بالروح الى جبـل عظيم عال واراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السـماء مـن عند الله ، لها مجد الله ولمعانها شبه اكرم حجر كحجر يشب بلوري ».

وبذا كيف يمكن للناس اخذ هذه النبوءة بحرفيتها ، وبأي إثـارة محمومة ينتظرون تحقيقهـا في الحـركة المعـروفة بـالمونتانية ، وفي ١٤٦ م حدث في فريجيا ان رجلا مونتانيا أعلن نفسـه انه تجسـيد الروح القدس « روح الحقيقة » وكان طبقا للكتاب الرابع من العهـد الجديد سيبشر بأشياء أتية ويبوح بهـا ، وجمـع حـوله عددا مـن المنجذبين واغلبهم مأخوذ بالتجارب الرؤوية التي كانوا يعتقدون بثقة بانها ذات منشأ رباني والتي اعطوها حتى اسم « العهـد الثـالث » وكان موضوع استنارتهم الروحية المجيء الوشـيك للمملكة : فقـد كانت القدس الجديدة على وشـك النزول مـن السـماء الى الأرض الفريجيانية حيث تصبح مسكنا للقديسين ، واسـتدعى المونتـانيون

طبقا لذلك كل المسيحيين الى فريجيا لينتظروا هناك المجيء الثاني بالصيام والصلاة والتوبة المريرة ·

وكانت حركة متقشفة عنيفة ، متعطشة للمعاناة وحتى للشهادة ، لانه او لم يكن الشهداء فوق الجميع هم الذين سيبقون في الجسد وسيكونون المسموح لهم بالعيش في الفترة الالفية السعيدة ؟ ولم يكن اي شيء موحيا بانتشار المونتانية بقدر هذا الاضطهاد نفسه ، ومنذ عام ١٧٧م وما يليه عندما اضطهد المسيحيون مرة أخرى في اقاليم كثيرة من الامبراطورية توقفت المونتانية فجأة عن أن تكون مجرد حركة محلية وامتدت طولا وعرضا ليس فقط عبر اسيا الصغرى بل الى افريقيا ، وروما وحتى الى بلاد الغال ، ومع أن المونتانيين لم يعودوا يتطلعون الى فريجيا ، فإن ثقتهم بالظهور الوشيك للقدس الجديدة لم يهتز ، وكان هذا صحيحا حتى عند تيرتوليان Tertullian أشهر علماء اللاهوت في الغرب في ذلك الوقت ، عندما انضم الى الحركة في السنوات الأولى من القرن الثالث حيث نجد تيرتوليان (ص ٣٦) يكتب عن معجزة عجيبة في فلسطين شوهدت مدينة مسورة في السماء في الصباح الباكر من كل يوم لمدة اربعين يوما وكانت تبهت مختفية مع تقدم النهار ، وكانت هذه علامة أكيدة على أن القدس السماوية على وشك النزول وكانت هذه هي الرؤيا نفسها التي كما سنرى تلهب وتمتن مقاومة حشود الشعوب الصليبية وهي تكدح نحو القدس بعد ذلك بنحو تسعة قرون ·

وفي توقع المجيء الثاني من يوم لاخر واسبوع لآخر كان المونتانيون يتبعون خطوات العديد من ، وربما أغلب المسيحيين الأوائل ، وحتى« كتاب الوحي » كان يتوقع حدوثها« قريبا » وبحلول منتصف القرن الثاني كان هذا الموقف قد اصبح نوعا ما غير عادي فقد كانت الرسالة الثانية لبطرس التي كتبت في نحو ١٥٠م مترددة :

فمن الرأفة قد يتمهل المسيح« حتى يعود الجميع الى التوبة » وفي

الوقت نفسه بدأت عملية بها حرمت اسفار الرؤيا المسيحية من النفوذ الذي كانت حتى الآن تتمتع به بشكل قانوني ، الى حد انه لم ينج سوى كتاب الرؤيا وذلك فقط بسبب انه نسب خطأ الى القديس يوحنا ومع ذلك إنه وإن اعتقدت أعداد متزايدة من المسيحيين بأن الفترة الألفية بعيدة وليست حدثا وشيكا فإن العديد كانوا وما يزالون قانعين انها ستأتي عند اكتمال الزمان.

ورسخ جوستين الشهيد Justin الذي لم يكن بالتأكيد مونتانيا هذه النقطة بوضوح كاف في حوار مع اليهودي تريفو Trypho ، وجعل هناك محاوره اليهودي يسأل : هل انتم معشر المسيحيين تتمسكون حقا بأن هذا المكان« القدس » سيبنى مرة أخرى وهل تعتقدون حقا أن شعبكم سيجتمع هنا في بهجة تحت حكم المسيح مع البطاركة والانبياء ؟

و اجابه جوستين إنه في حين أن هذا ليس موقف جميع المسيحيين الحقيقيين ، فهم لايحملون هذه القناعة ، إنه هو وعدد كبير غيره متحدون في الايمان الواثق بأن القديسين سيعيشون حقا الف عام في قدس معادة البناء مزينة وموسعة ، وسواء اكانت نائية أم وشيكة ، إن مملكة القديسين يمكن بلا شك تصورها بطرق كثيرة مختلفة تتراوح من الاكثر مادية الى الاكثر روحانية ، ولكن بالتأكيد كانت تخيلات العديد حتى بين المتعلمين على أعلى مستوى من المسيحيين مادية بدرجة كافية ويقدم عينة قديمة من هذه التخيلات« الأب الرسولي » بابياس Papias ، الذي يحتمل انه ولد في نحو ٦٠ م ، والذي ربما يكون قد جلس عند قدمي القديس يوحنا وكان هذا الفريجيني رجل علم ، أوقف نفسه على حفظ الروايات الأولى عن دعوة المسيح ، ومع أن النبوءة الالفية التي يعزوها الى المسيح منحولة وغير منطقية - فإن نظائر لها موجودة في مختلف أسفار الرؤيا اليهودية مثل باروخ - ومن الاهمية بقدر كبير تبيان معدل ما توقعه بعض المتعلمين من المسيحيين المخلصين من فترة ما بعد

الحواريين ، وفوق ذلك ما اعتقــدوه أن المســيح نفســه قــد توقعه :(ص ٢٧)

« ستأتي الايام وفيها ستظهر الكروم ولكل منها عشرة الاف غصن وعلى كل غصن ، عشرة آلاف فرع ، وعلى كل فــرع حقيقــي عشرة الاف عنق على كل منها عشرة آلاف عنقــود ، وفي كل عنقــود عشرة الاف عنبة وكل عنبــة تعــطي خمس وعشرون « ميتــريتا » مــن النبيذ ،وعندما يمسك أحد القديسين بعنقود، سيصيح عنقودا آخــر انا عنقود افضل خذني واحمد الرب من خــلالي ، ومثــل ذلك(قــال الرب)إن حبة من القمح ستحمل عشرة الاف ســنبلة ، وكل ســنبلة بها عشرة الاف حبة ، وكل حبة تعــطي عشرة أرطــال مــن انقــى الدقيق ، نظيف وصاف ، والتفاح والبذور والعشب ستعطي بنســب مماثلة ، وكل الحيوانات ستتغذى فقط على ما ستأخذه مــن الأرض وستكون مسالمة وودودة لبعضها وخاضعة تماما للانســان.إن هــذه الأمور قابلة للتصديق الآن من المؤمنين ، وسأل يهوذا لكونه كافــرا خائنا :كيف يمكن لمثل هذا النمو أن يتم من قبــل الرب ؟ ولكن الرب اجاب سيرى هذا الذين سيصلون الى هذه الازمنة ».

وحمل ارنيوس Iranueus الذي كان أيضــا مــن اهــالي اســيا الصغرى هذه النبوءات معه عندما جاء ليستوطن في بــلاد الغــال في نحو نهاية القرن الثاني.

وكأسقف لمدينة ليون وعالم لاهوت بارز يحتمل أن يكون قد فعــل اكثر من أي إنسان آخر لترسيخ التصور الالفي في الغرب ، وتشكل الفصول الختامية لرسالته الكبيرة« ضد الهرطقة » مقتــطفات أدبية مختارة شاملة حول المســيحية المنتــظرة والنبــوءات الألفية التــي انتخبت من العهدين القديم والجديد» وتتضــمن أيضــا فقــرة مــن بابياس »، وفي راي ارنيوس إنه جزء لازم من الارثونكسية أن هــذه الأشياء ستأتي في الواقع للمرء بهذه الأرض من أجل منفعة كل مــن الموتى الصالحين الذين سيبعثون ، والصالحين من الأحياء ، ويظهر

السبب الذي يعطيه لاقتناعه ان الجزء الذي تشغله التخيلات المعوضة ليس أصغر مما كان عليه في ايام رؤيا دانيال :

« حيث أنه حق انه في هذه الخليقة التي كدحوا فيها وابتلوا أو امتحنوا بكل طريقة بالمعاناة، انهم يجب أن يلقوا الجزاء عن معاناتهم ، وإنه في هذه الخليقة التي قتلوا فيها من اجل محبة الرب يجب أن يحيوا مرة أخرى ، وإنه في هذه الخليقة التي تحملوا فيها العبودية يجب ايضا أن يحكموا، ولان الله غني في كل شيء وكل شيء له ، إنه من الموائم بناء عليه ان تستعاد الخليقة نفسها الى حالتها البدائية ، وان تكون دون تأهيل تحت سيادة الصالحين . . . . . ».

وكان النمط لايزال هو نفسه في القرن الرابع عندما بدا لاكتانيتوس البليغ Lactontius في كسب المتحولين الى المسيحية ، فلم يتردد في تقوية جذب الفترة الالفية السعيدة بما يتعلق بالانتقام الدموي من الفاسدين(ص ٢٨):

« لكن الرجل المجنون (المسيح الدجال) سيقود وهو يغلي بغضب حقود جيشا ويحاصر الجبل الذي لجأ إليه الصالحون ، وعندما يرون أنهم قد حوصروا سيصيحون بصوت مرتفع طلبا لمعونة الرب وسيسمعهم الرب وسيرسل لهم محررا ، ثم تنفتح السماء بعاصفة ويهبط المسيح بقوة عظيمة يتقدمه سطوع ناري وحشد لاحصر له من الملائكة ، وكل هذه الجموع الكثيرة غير المؤمنة بالرب ستباد وستتدفق سيول من الدم. . . وعندها يحل السلام ويقمع كل شر ، سيقوم الملك الصالح المنتصر بحساب عظيم على أرض الأحياء والأموات وسوف يحيل كل الوثنيين من الناس للسخرة تحت إمرة الصالحين الذين هم أحياء ، وسيرفع الصالحين من الأموات الى الحياة الأبدية، وهو نفسه سيحكم معهم على الأرض وسيؤسس المدينة المقدسة ، ومملكة الصالحين هذه ستدوم الف عام، وخلال هذا الوقت ستكون النجوم اكثر سطوعا ، وسيزداد سطوع الشمس

ولن يتناقص او ينمحق القمر ، وسينزل مطر البركة من عند الرب صباحا ومساء، وستحمل الأرض كل الثمار دون جهد من الانسان والعسل بوفرة سيقطر من الصخور وستنفجر ينابيع الحليب والنبيذ ، وستدع وحوش الغابات توحشها وتصبح اليفة ٠ ٠ ٠ولن يعيش اي حيوان مفترس بعد ذلك على سفك الدماء فسيمد الله الجميع بطعام وافر غير أثم »

وعلى صفحات الكومودیانوس Commodis nus بلور شاعر لاتيني من الطبقة الدنيا(ربما)في القرن الخامس التخيلات المعتادة للنصر والانتقام في حث على حمل السلاح والقتال مفاجيء ، فكان أول نذير للالفية الصليبية التي قدر لها أن تنفجر في اوروبا في أواخر العصور الوسطى ، حيث طبقا للكومودیانوس عندما يعود المسيح سيكون على رأس جيش ليس من الملائكة ، بل من نسل الاسباط العشرة التائهة من بني اسرائيل الذين بقوا في أماكن خفية غير معروفة لبقية العالم ، وعرض» هؤلاء الناس الأخيرون المقدسون » كمجتمع فاضل وحيد لايعرف شيئا عن الكراهية والخداع او الشهوة ، ويحمل كراهيته لسفك الدماء الى حد النباتية ، إنه ايضا مجتمع مؤيد من الرب لأن لديه مناعة تامة ضد التعب ، والمرض والموت قبل الأوان ، والآن يسرع هذا الحشد لتحرير القدس» الأم الأسيرة » « وهم سيحضرون مع ملك السماء ٠٠٠٠ وستبتهج كل الخليقة لرؤية الشعب السماوي ، فتسطح الجبال نفسها أمامهم وستتفجر الينابيع على طول طريقهم ، وستنحني السحب لحمايتهم من الشمس، ولكن هؤلاء القديسين سيكونون محاربين ضاريين، لايقاومون في الحرب ، غاضبون كالأسود يخربون الاراضي التي يعبرونها ويهزمون الامم ويدمرون المدن ، وبإذن الرب يغنمون الذهب والفضة وينشدون التراتيل للافضال التي تغمرهم ، ويهرب المسيح الدجال في خوف الى الاجزاء الشمالية(ص ٢٩) ويعود على رأس جيش من الاتباع الذين من الواضح انهم أولئك الناس الخرافيين المخيفيين الذين يعرفون بشكل جماعي باسم يأجوج ومأجوج ، والذين يقال إن الاسكندر الأكبر قد سجنهم في أقصى

الشمال ، غير ان المسـيح الدجـال سـيهزم على يد مـلائكة الرب وسيطرح في الجحيم •

وسيحول قادته ليصبحوا عبيدا للناس المقدسين ، وهم الناجـون القلائل من الحساب الاخير ، وبالنسبة للناس المقدسين انفسـهم ، فإنهم سيعيشون الى الأبد في القدس المقـدسة خـالدين لايهـزمون ويتزوجون وينجبون ولايصابون بالمطر او البرد في حين ان كل ما هو لهم ارض مجددة الشباب الى الأبد تصب ثمارها »•

التقاليد الرؤوية في اوربا العصور الوسطى

رأى القرن الثالث المحاولة الأولى لتـكذيب الالفية ، عندمـا بـدأ اوريجن Origen ، ربما الأكثر نفـوذا بين كل علمـاء اللاهـوت في الكنيسة القديمة بتصوير المملكة كحدث يمكن أن يقـع لافي المكان ولا في الزمان بل فقط في نفوس المؤمنين ، وبشـكل جمـاعي اسـتبدل اوريجن إيمان الالفيين بالأخرويات بإيمان أخروي بالروح الفردية ، والذي حرك روحه المتعمقة في الخيال الهلنستي ، كان مظهر الرقـي الروحي الذي بدأ في هذا العالم ليستمر في العـالم الآخـر ، ولهـذا الموضوع شرع علماء اللاهوت من الآن فصـاعدا يعـطون اهتمـاما متزايدا ، وبات مثل هذا التحول في الاهتمام في الواقع موائما بشكل مثير للاعجاب لما أصبح الان كنيسة منظمة تتمتع بسلام غير منقطع تقريبا ، وموقف معترف به في العالم ، وعندمـا بلغـت المسـيحية في القرن الرابع موقعا سـاميا في عالم البحـر المتـوسط ، واصـبحت الديانة الرسـمية للامبـراطورية ، أصـبح الرفض الكنسي للالفية مؤكدا ، واصبحت الكنيسة الكاثوليكية الان مؤسسة قوية مزدهرة ، تعمل وفق روتين راسخ تماما ، ولم يكن لدى الرجال المسؤولين عن إدارتها رغبة في رؤية المسيحيين يتعلقون باحلام عتيقة وغير موائمة

عن جنة ارضية جديدة ، وفي وقت مبكر من القــرن الخــامس قــدم القديس أوغسطين المذهب الذي تطلبته الظروف الجديدة .

وطبقا لما جاء في كتاب « مـدينة الرب » كان ينبغـي فهـم سـفر الرؤيا كرمز روحي ، وبالنسبة للالفية التي بدأت مع مولد المسـيحية وفهمت تماما في الكنيسـة ، اصـبحت هـذه على الفـور عقيدة ارثـوذكسية ، والآن إن الحقيقـة المؤكدة هـي ان ارنيوس البـارز والمحترم قد يكون عدّ مثل هذا الاعتقـاد جـزءا لازمـا مـن الارثونكسية ، شعر انه لايمكن التغاضي عنه وبذلت جهود مصـممة لطمس الفصول الالفية من بحثه ضد الهرطقة ، وبمفعول جيد ، حتى انها قد اكتشفت فقط في عام ١٥٧٥ في مخطوط حدث أن المنقحين قد غفلوا عنه . (ص ٣٠)

ومع ذلك ينبغـي ان لايقلل مـن اهمية التقـاليد الرؤوية مـع أن المذهب الرسمي لم يعد فيه مكان لها ، فلقد بقيت في العالم السـفلي المظلم للديانة الشعبية الشائعة ، وبفضل التقـاليد اصـبحت فـكرة القديسين من ذوي المستوى الأعلى منتشرة على نطاق واسع بالقوة نفسها في بعض الدوائر المسيحية كما كانت دائما بين اليهود ، مـع انه منذ ان ادعت المسيحية بـأنها دين عالمي لم تعـد تفسر بـالمعنى الوطني ، وفي المسيحية الرؤوية بقيت تخيلات الانتخـاب الالهـي ، واحييت ، واصبحت الاساس في الادب الذي دشن بسفر الرؤيا الذي شجع المسيحيين على أن يروا أنفسـهم كشـعب مختـار مـن الرب ـ واختير كلاهما من اجـل إعداد الطـريق لاجـل ولوراثـة الالفيين ، وكان لهذه الفكرة جاذبية كبيرة حتى أن أي إدانة رسمية لم تكن لتمنع ظهورها مرات ومرات في عقول المحرومين من المزايا ، والمسحوقين ، وذوي التوجيه السيء وغير المتوازنين ، وقد اظهـرت الكنيسة المؤسساتية في الواقع مهارة بالغة في التحكم في ، وفي توجيه الطاقات الانفعالية للمؤمنين وبشـكل خـاص في تـوجيه الآمـال والمخاوف بعيدا عن هذه الحياة نحو الحياة الاخرى ، ولكن مـع أن جهودها كانت ناجحة بشكل طبيعي .

إنها لم تكن كذلك بصورة دائمة ، وبشكل خاص في أوقات عدم الثقة العامة أو القلق حيث يكون الشعب دائما عرضة للتحول إلى سفر الرؤيا والحواشي التي لاحصر لها عليه ، وإلى جانب ذلك ظهر تدريجيا موضوع آخر له تأثير مساو للكتابات الرؤوية التي اصبحت تعرف الآن باسم وسطاء الوحي « السبلينيون » في العصور الوسطى .

وتضمنت الرؤى اليهودية الهلنستية بعض الكتب التي ادعت مثل الكتب السبلينية الشهيرة المحفوظة في روما ، أنها تسجل أقوال نبيات ملهمات ، وفي الواقع إن هذه « الهواتف » المكتوبة بتفاعيل سداسية يونانية ، كانت انتاجا ادبيا يرمي إلى تحويل الوثنيين إلى اليهودية ، والتي كانت في الواقع تتمتع برواج عظيم بينهم ، وعند الاهتداء إلى الدين الجديد بدأ المسيحيون بدورهم في اقرار نبوءات سبلينية وهنا استمدوا الكثير واعتمدوا على السبلين اليهودي ، وما برح هذا الادب النبوئي الجديد يعرف مخلصا أخرويا واحدا هو المسيح المحارب كما ظهر في سفر الرؤيا ، ولكن منذ الاسكندر الأكبر كان العالم اليوناني ـ الروماني قد تعود على تأليه ملوكه او تعظيمهم حتى العبادة ، وكان هناك ملوك هلنستيون ممن حملوا لقب « المخلص » واباطرة رومان ممن منحوا القاب تشريف الهية في حياتهم وعليه لم يكن من المدهش انه حالما وحدت المسيحية قواتها مع الامبراطورية ، بات على السبلين المسيحي ان يحيي الامبراطور قسطنين على انه الملك المسيحي المنتظر (ص ٣١) وبعد موت قسطنطين استمر السبلين في ربط اهمية اخروية بشخص الامبراطور الروماني وبفضلهم ازدوجت تخيلات المسيحيين لاكثر من الف سنة حول صورة المسيح المحارب وتضاعفت بآخر هو امبراطور الايام الاخيرة .

وكان اقدم سبلين معروف لاوروبا العصور الوسطى هي التبوريتنا التي تعود بصورتها المسيحية الى اواسط القرن الرابع من ٣٤٠ ـ ٣٥٠ م ، ووقتها كانت الامبراطورية مقسمة بين

الابنين الباقيين لقسطنطين :كونستانس الاول الذي حكم في الغـرب وكونستانتيوس الثاني الذي حكم في الشرق ،وكان الجدل الاريوسي في اوجه ، وبينما كان كونستانس مؤيدا قويا مخلصا للعقيدة وحاميا لاثناسـيوس ــ كان كونستـانتيوس ميالا للاسس السـياسية اكثر منه للاسس الدينية ــ ومؤيدا للطـرف الاريوسي ، وفي ٣٥٠ م قتل كونستانس الذي ثبت انه حاكم فاسد شرير على أيدي قـواته ، واصبح كونستانتيوس الحـاكم الوحيد للامبـراطورية ، ويعـكس السبلين التبور تيني ردود فعل الكاثوليك تجاه هـذه العقبـة ، فهـو يتحدث عن « زمان الاحزان » ، عندما تقع روما في الاسر ويضـطهد الطغاة الفقـراء والابـرياء ويحمـون المذنبين ، ولكن يأتـي حينئذ إمبراطور يوناني يدعى كونستانس يوحد النصفين الغربي والشرقي من الامبراطورية تحت حكمه .

وبحضور مسيطر حكم كونستانس الطويل ، ذا الجسم المتناسب والوجه المتـلألىء الجميل ١١٢ (او ١٢٠) سنة ، وكان عصره عصر وفرة : زيت ، نبيذ ، قمح ، مواد متـوفرة ورخيصـة ، وهـو ايضا عصر سيرى النصر النهائي للمسيحية ، فالامبراطور سـيدمر تدميرا تاما مدن الوثنيين ، وسيدمر معابد الالهـة المزيفـة ، وهـو سيستدعي الوثنيين انفسـهم للتعميد المسـيحي ، والوثنيون الذين سيرفضون التحول يجب أن يموتوا بـالسيف ، وفي نهـاية الحـكم الطويل سيتحول اليهود ايضا ، وعندما يحـدث ذلك ، يضيء الضريح المقدس في بهاء وسيتحلل الاثنى عشر شعب لياجوج ومـاجوج مـن قيودهم ، وهم بكثرة رمال البحر ، ولكن الامبراطور يحشد جيشـه ويبيدهم ، وما أن تنتهي مهمته سيرحل الامبـراطور الى القـدس ، ليضع هناك التاج الامبـراطوري والاردية على الجلجلة ، ومـن ثـم يسلم العـالم النصراني لعناية الرب ، وبلغ العصر الذهبـي ومعـه الامبراطورية الرومانية النهاية ، ولكن قبل نهاية كل شيء يبقى وقت قصير للابتلاء ، حيث يظهر الآن المسيح الدجال ويحكم في المعبـد في القدس ، ويخدع العـديد بمعجـزاته ويضطهد الذين لايسـتطيع خداعهم ، ومن اجل المختار سيقصر الرب هـذه الايام ، وسـيرسل

الملاك الكبير ميكائيل ليدمر الدجال ، وفي النهاية سيفتح السبيل امام المجيء الثاني ليحل . (ص . ٣٢).

ويلوح شخص امبراطور الايام الأخيرة الذي قدم للمرة الأولى من قبل التبورتينا انه أكبر منه في السبلين المعروف باسم « المنهج الكاذب » والنبوءة التي كانت متنكرة ، كعمل لأسقف القرن الرابع الشهيد ميثاديوس أسقف البتراء كانت في الحقيقة قد صنفت في حوالي نهاية القرن السابع ، وكان هدفها الاساسي ايجاد تعزية للمسيحيين السوريين في وضعهم الصعب غير المألوف كأقلية تحت الحكم الاسلامي ، وهو يبدأ بمسح لتاريخ العالم من جنة عدن الى الاسكندر، ثم يمر في مجلد واحد بزمن المؤلف نفسه ، وتحت مظهر التنبؤ بأشياء ستحدث يصف كيف أن الاسماعيليين الذين هزمهم جدعون مرة ودفع بهم للعودة الى صحاريهم عادوا وعاشوا في الأراضي من مصر الى أثيوبيا ، ومن الفرات الى الهند ، والمسيحيون سيعاقبون على خطاياهم باخضاعهم بعض الوقت من قبل هذه القبائل البدوية التي ترمز بالطبع الى الجيوش الاسلامية الفاتحة ويقتل الاسماعيليون الكهنة المسيحيين ، وينتهكون حرمة الأماكن المقدسة ، وبالقوة او الخداع يغررون بالعديد من المسيحيين ويحرفونهم عن العقيدة الصحيحة، ويأخذون من المسيحيين قطعة من الأرض بعد قطعة ويتفاخرون بأن المسيحيين قد سقطوا في أيديهم الى الابد ٠

ولكن ــ وهنا تغامر النبوءة حقا للمرة الأولى في توقعات المستقبل ما أن تصبح الحالة سيئة أكثر مما كانت، حتى نجد امبراطورا قويا اعتقد الناس انه مات منذ زمن طويل ينفض عنه النعاس ، وينهض في غضب ، ويهزم الاسماعيليين، ويدمر تماما اراضيهم بالنار والسيف ويضع عليهم نيرا أكثر قمعا بمائة مرة من الذي وضعوه على المسيحيين ، ويغضب أيضا من المسيحيين الذين تنكروا لربهم، ثم يتبع ذلك فترة من السلام والبهجة تتحد خلالها الامبراطورية في ظل حاكمها العظيم وتزدهر كما لم تفعل من قبل ٠

ولكن حشود يأجوج ومأجوج عندئذ تنطلق وتحدث خرابا شـاملا ورعبا حتى يرسل الرب قائدأمن جيش السماء يدمرهم في ومضة ثـم يرحل الامبراطور الى القدس لينتظر هناك المسيح الدجـال وعندمـا يحدث هذا الحدث المروع يضع الأمبراطور تـاجه فـوق الصـليب في الجلجلة ويحلق الصليب الى السماء، ويموت الامبراطور ويبدأ حكم المسيح الدجال ، ولكن قبل مضي وقت طويل يعود الصليب للظهور في السماوات كعلامة على ابن الانسان ، ثم يأتي المسـيح نفسـه على السحب في قوة وبهاء ، ليقتل الدجال بـالزفير مـن فمـه وليقـوم بالحساب الأخير ٠

و قد انتهت الحالات السياسية التي أثارت هذه النبوءات وفقدت من الذاكرة وقائعها ، و مع ذلك احتفظت النبوءات بسكل فتنتهـا ، و خلال فترة العصور الوسطى استمر الايحاء بالأخرويات السبلينية الى جانب الايمان الأخروي المستمد من سفر الرؤيا ، معدلا إياهـا أو معـدلا بفعلهـا ، و لكن بشـكل عام كان يتجـاوزها الى الشعبية(ص ٣٣)

ومع ان السلبينيين كانوا غير قانونيين (شرعيين) وغير أصوليين فإنه كان لهم نفوذ كبير – في الواقـع بـاستثناء الكتـاب المقـدس وكتابات اباء الكنيسة – ربمـا كانت كتـاباتهم الأكثـر تـأثيرا في العصور الوسـطى في أوربـا و كثيرا مـا كانوا يملون البيانات على الشخصيات المهيمنة في الكنيسة والرهبان والراهبات مثل القـديس برنارد والقديس هيلدغارد اللذان كانت أراؤهما مقـدرة حتـى مـن البابوات والأباطرة الى حد اعتبارها ملهمة من الرب ،و علاوة على ذلك اثبتوا أنهم قابلين للتكيف بلا حدود ، وكثيرا ما كانت كتاباتهم تحرر ويعاد تفسيرها لمواءمة الأحوال و لتكتسب جـاذبية بـالنسبة لشواغل اللحظة ، و كانت تقدم في كل وقت لأشباع رغبـات المتلهفين من البشر الى نبوءة لا تقبل الجدل عن المستقبل ، و بـالفعل عندمـا ضعت النصوص الوحيدة المعروفة في الغرب بـاللاتينية وأصـبحت بناء على ذلك في متناول رجال الاكليروس فقط فإن بعض المعرفة عن

فحواها قد تسربت حتى إلى أدنى المراتب من العامة ، و منذ القـرن الرابع عشر و ما بعده بدأت التـراجم في الظهـور بـاللغات الأوربية المختلفة ، و عندما اخترعت الطبـاعة كانت هـذه التـراجم بين أول الكتب التي طبعت ، و في وقت قريب من نهـاية العصـور الوسـطى عندما كانت المخاوف والآمال التـي شـكلت في البـداية نبـوءات السبلينيين لمدة تقارب الف سنة ماضية او اكثر من الماضي ما برحت هذه الكتب تقرأ و تدرس في كل مكان.

و تتحدث تقاليد يوحنا(★) عن محارب مخلص ينتظر أن يظهر في الايام الاخيرة ، و تتحدث تقـاليد السبلـينيين عن اثنين ، و لكن كليهما يتفقان انه في تلك الأزمان سـيظهر عدو رئيس للرب ، هـو شخصية غير عادية للمسيح الدجال ، و كانت هذه شخصية أسهمت فيها معظم التقاليد المختلفة ، و اصبحت رمزا قويا بقـدر مـا هـو معقد ، و هنا مرة اخرى كان تاثير رؤيا دانيال حـاسما ، وعندمـا تكلمت هذه النبوءة عن « ملك سوف يرفع نفسه ويعظمها فـوق كل إله »

«ويتكلم بكلمات عظيمة ضد الله كانت تشـير سرا الى الملك الظـالم انتيوخيوس ابيفانس الذي كان في الواقـــع مصـــابا بجنون العظمة ، ولكن اصل النبوءة سرعان مانسي حتى بينمـا كان سـفر دانيـال مـا يزال معتبرا من الكتب المقـدسة التـي تتنبـأ بـأمور مستقبلية ، وبانفصاله عن محيطـه التـاريخي احيلت الشـخصية الطاغية المعادية للرب في الايام الأخيرة الى الرصـيد الشـائع مـن المعرفة الرؤوية اليهودية والمسيحية فيما بعد

وفي كتابات القديس بولس الى التسـالو نيكيين وفي سـفر الرؤيا تظهر هذه الشخصية على أنها المسيح الدجال « الذي يعارض ويرفع نفسه فوق كل ما يدعي رب ، أو مايعبد ، وهكذا فانه كاله يجلس في

★ ـ اي التي تستند الى سفر الرؤيا الذي يعزى الى يوحنا

معبد الرب مظهرا نفسه انه الرب ... وبالآيات والاعاجيب الكاذبة التي سيقوم بها النبي الكاذب من خلال قوى الشيطان سيخدع العالم ، وعلى السطح سيبدو فاضلا تماما وخيرا ، ومع أن شره عام فانه سيتمتع بخبث شديد وسيمكنه ذلك من اقامة حكم طاغ بالغ القوة : وقد أمكن له شن حرب على القديسين والتغلب عليهم وسيعطى القوة على كل العشائر وكل الألسن والأمم » (ص ٣٤)

وهذه الشخصية التي اعطيت الآن اسم المسيح الدجال يمكن بناء على ذلك اعتبارها كائنا بشريا ، امبراطورا او اميرا أو أسقفا يكون في آن واحد مغو وقاس ، اضافة الى كونه خادما واداة للشيطان ، ولكن المسيح الدجال لم يعتقد أبدا بأنه مجرد رجل مهما كان شريرا ، وتسربت توقعات الفرس (المزديين) بهزيمة الشيطان الكبير أهرمان في آخر الأيام المحبوكة مع الاسطورة البابلية حول معركة بين الاله الرسمي وتنين الفوضى ، الى الرؤوية اليهودية ، وأثرت بعمق في تخيلات طاغية أخر الزمان ، وبالفعل في نبوءة دانيال ، فان انتيوخرس لايظهر فقط كملك ذي ملامح عنيفة بل ايضا كمخلوق ذي قرون تتعاظم وتطول حتى بالنسبة لجيش السماء ، وحتى تطرح بعض حشود السماء ، والنجوم على الأرض وتطأهم ، وتختتم عليهم ، وفي سفر الرؤيا ان الدور التقليدي للمسيح الدجال مقسم بين الوحش الأول ـ التنين العظيم الأحمر الذي يظهر في السماوات ، أو ينهض من البحر وهو بسبعة رؤوس وعشرة قرون ـ والوحش الثاني ـ الدابة الهائلة ذات القرون التي تتكلم كتنين ، والتي تخرج من هدة لاقاع لها بداخل الأرض

وهنا ظهرت شخصية المسيح الدجال في شخصية الدابة ذات القرون التي تسكن في أعماق الأرض « الأفعى القديمة الشيطان نفسه » وخلال جميع القرون استمر الدجال في شغل خيال الناس والهابه واحتفظ بنوعيته الشيطانية ، وخلال العصور الوسطى كان لايصور فقط بصورة طاغية متوج بل ايضا كشيطان أو تنين يطير في

الهواء يحيط به شياطين اصفر ،و يحاول ان يطير عاليا ليثبت انه اله وهو يقذف به نحو موته من قبل الله (الصورة ١) وفي وسط القرن الثاني عشر رأه القديس هيلدغارد أوف بنجن في رؤيا في صورة وحش ذي رأس رهيبة لدابة سوداء كالفحم وعينين ملتهبتين وأذني جحش ومعدة متشعبة ذات اشراك حديدية .

وفي الواقع كان المسيح يشبه " شيطان " ، تجسيد ضخم عملاق لقوة فوضوية مدمرة ، ولتقدير كيف كان الشعور بمدى عدم محدودية القوة لديه ، وكم هي خارقة للقدرة البشرية ، وكم هي مرعبة ان على المرء ان ينظرفقط في صورة ملكيورلورك الشيطان ـ المسيح الدجال (هو هنا شبيه بالبابا) (الصورة ٢) ويعود تاريخ هذه الصورة الى وسط القرن السادس عشر والانفعال الذي تعبر عنه هو مزيج من الرعب والكراهية والازدراء ، وكانت تزعج الأوروبيين منذ قرون عديدة خلت (ص ٣٥)

وقد اثرت النبوءات السبلينية ونبوءات يوحنا في المواقف السياسية ، وبالنسبة لشعوب العصور الوسطى ، فالدراما المذهلة للأيام الأخيرة لم تكن خيالا حول مستقبل بعيد غير محدود ، بل كانت نبوءة مؤكدة تقريبا وفي اي لحظة معينة تعطي احساسا بكونها وشيكة التحقيق ، وتظهر حوليات العصور الوسطى لتاريخ الأحداث بوضوح كاف كيف ان احكاما سياسية خاصة كانت تتلون بهذه التوقعات ، وحتى في العهود الأكثر بعدا عن الوفاء بالغرض حاولت الحوليات ان تدرك ان الانسجام بين المسيحيين ، وان الانتصار على الكفار وان تلك الوفرة التي لانظير لها والازدهار ستكون من علامات العصر الذهبي ، ومع كل ملك جديد تقريبا حاولت رعاياه ان ترى فيه اخر امبراطور عليه أن يترأس العهد الذهبي ،بينما كانت الحو ليات تضفي عليه النعوت المسيحية التقليدية « ملك عادل » او ربما داود ، وعندما كانت تجربة كل زمان تأتي بالتحرر الذي لامفر منه من الوهم ، كان الناس يكتفون بمجرد أن التحقيق البهي قد تأجل الى العهد التالي ، واذا استطاعوا اعتبروا الملك الحاكم

كبشير عليه مهمه جعل الطريق ممهــدا مــن اجـــل الامبـــراطور الاخير ، ولم يكن هناك ابــدا اي نقص في الملوك لتـوسم بـدرجات مختلفة من الاخلاص او الملاحظات الساخرة حول هذه الآمال الملحة

وفي الغرب كانت الاسر الحاكمة في كل من فرنسا وألمانيا تستثمر النبوءات السبلينية لدعم ادعاءاتها بالأهمية ، كما فعـل الابـاطرة البيزنطيون قبلهم في الشرق

وكان قدوم المسيح الدجال منتظرا حتى بتـوتر كبير ، وعاش جيل بعد جيل في توقع مستمر للشيطان المدمـر لكل شيء الذي كان حـكمه مقدرا له ان يكون اضطرابا غير قـانوني ، عصر متـروك للسرقـة والسلب والاغتصاب والتعذيب والمذابح ولكن من المقـدر له ان يكون ايضا مقدمه لتحقيق المجيء الثاني لملكة القديسين المترقب بشـوق عظيم ، فقد كان الناس دائما في ترقب للعلامات التي طبقا للتقـاليد النبوئية مقدرة ان تكون مبشرة ومصاحبة للزمـن الأخير للمتـاعب وحيث ان العلامات تشمل حكاما سيئين وحـربا اهلية وتشـتتا وجفافا ومجاعة ووباء ومذنباتا ووفياتا فجائية لأشـخاص بـارزين وزيادة في الخطايا العامة لم يكن هناك ابدا اي صعوبة في ايجـادها والغزو او التهديد بالغزو من قبل الهون والمجر والمغول والمشارقة او الترك كان دائما يحـرك ذكريات تلك الحشـود حـول المســيح الدجال ، وشعوب يأجوج ، وفوق كل شي كان اي حـاكم يمـكن ان يعتبر طاغية مرشحا لأخذ سمات المسيح الدجال ، وكانت الحوليات العادية تعطيه اللقب التقليدى « ملك ظالم » وعندما يموت مثل هذا الملك تاركا النبوءات دون تحقيق فانه سينخفض مـن مجـرد د ملك عادل » الى مرتبة «عابر» ثم يستأنف الانتظار (ص ٣٦).

وهنا ايضا كانت فكرة اسلمت نفسها بصـورة مثيرة للاعجـاب الاستثمار السياسي وكثيرا ماحدث ان اعلن احد البابا وات في وقـار خصمه ــ امبراطورا عنيفا او ربما عدوا لبابا ــ ليكون هــو المسـيح الدجال نفسه واذا ذاك فان اللقب نفسه يلقى عليه.

ولكن اذا كانت الخيلات التقليدية حـــول الأيام الأخيرة تـــؤثر باستمرار على الطريقة التي كان ينظر بها الى الاحداث السياسية والشخصيات واللغة التي كانت تدار بها الصراعات السياسية ، انه فقط في بعض حالات اجتماعية ، كانت تعمل كأساطير اجتمـاعية ديناميكية وفي الوقت المناسب سنتفحص ماهي هذه الحالات ، ولكن من الضروري أولا القاء نظرة على تقاليد الانشقاق الديني الذي كان موجودا دائما في أوروبا العصور الوســطى والذي كان مـــن المـمكن احيانا ان ينتج مدعين لأدوار المسيح المخلص ، او نصف مثل هـــذه الأدوار .

الفصل الثاني

تقاليد الانشقاق الديني

قيم الحياة الرسولية :

كانت تقاليد النبوءة الرؤوية واحدة فقط من بين عدة شروط مسبقة للحركات التي يهتم بها هذا الكتاب (ص ٣٧) والأخرى كانت تقاليد الانشقاق الديني الذي دام خلال العصور الوسطى ، وليس لان هذه الحركات كانت تعبيرا نموذجيا عن الانشقا ق الديني ، بل على العكس ففي كثير من النواحي كانت في جوهرها واهدافها وسلوكها و(كما سنرى) في تركيبها الاجتماعي معا غير نموذجية ، ومع ذلك ان هذا الجيشان الخاص يمكن فهمه تماما فقط في اطار عدم الرضى الديني الواسع الانتشار ، وقد شغلت الكنيسة بالطبع دورا ضخما في ايجاد المدنية والمحافظة عليها في القرون الوسطى وتخلل نفوذها افكار ومشاعر كل انواع وحالات الرجال والنساء ــ ومع ذلك كانت تجد صعوبة في ارضاء الطموحات الدينية التي رعتها بصورة كاملة ، لقد كان لها صفوة دينية من الرهبان والراهبات ، الذين كانت حياتهم ــ على الاقل من الناحية النظريةواحيانا كثيرة في التطبيق ايضا ــ مكرسة كلية لخدمة الرب ، فلقد خدم الرهبان والراهبات المجتمع ككل بصلواتهم ، وكثيرا ماكانوا يعنون ايضا بالمرضى والمحتاجين ، ولكن لم تكن مهمتهم بشكل عام اسعاف الاحتياجات الروحية العامة ، لقد كانت هذه مسؤولية الكهنوت المدني ، وكانت مسؤولية كثيرا ماكانوا سيئي الأعداد لتأديتها

فإذا مال الرهبان والراهبات للابتعاد كثيرا عن العالم فان

الكهنوت المدني من الأساقفة الى قسيس الابـرشيات كانوا يميلون الى الاستغراق فيه ، والغنى والطموح السياسي بين أعلى مستويات الاكليروس والتسري او الانحـلال الجنسي بين الاكليروس الأدنى ، كل هذه كانت الاشـــياء التـــي كان يشـــكو منهـــا الناس العاديون ، وكان هناك ايضا جوع كبير للتبشير بالانجيل ، لقد كان الناس يتوقون لسماع الوعظ بالانجيل بشكل بسيط ومباشر حتـى يتمكنوا من ربط ماسمعوه بخبرتهم الشخصية .

والمعايير التي كان يحكم بها على الكنيسة كانت هـي تلك التـي وضعتها الكنيسة نفسها بين يدي شعوب اوروبا ، كمثل لأنها كانت معايير الكنيسة البدائية كما صورت في الأناجيل ، وفي اعمال الرسل (ص ٣٨) الى حد ماكانت هذه المعـايير مسدخرة في طـريقة الحياة الرهبانية التي كانت تقتدي بحياة الرسـل ، وكمـا تقـول قـاعدة القديس بندكت « هل هم حقا رهبان يعيشون من كد ايديهم ، مثـل ابائهم والرسل » وعندما بدأ في القرنين العاشر والحادي عشر ديرا كلوني وهيرسو حركتهما الاصلاحية الكبيرة ، كان الهـدف جعـل حياة الرهبنة اقرب الى خط حياة المجتمع المسيحي الأول كما وصف في أعمـال الرسـل « وكل مـــن أمنوا كانوا معـــا ، وكان كل شيء مشتركا ... ولم يقل اي منهم ان شـيئا البتـة ممـا يملكه خـاص به ...» بل كل ذلك الذي يحتويه الدير بين جدرانه كان فقط ذا اهمية محدودة لسواد الناس ، وكان هناك دائمـا بعض الناس العـاديين ممن يلاحظون بمرارة الهوة التي تفصل بين البسـاطة والفقـر لدى المسيحيين الأوائل وبين النظام الكهنوتـي الغني المنظـم في كنيسـة زمانهم ، وكان هؤلاء الناس يريدون ان يروا في اوساطهم ، رجـالا يمكنهم ان يثقوا في قدسيتهم يعيشون ويعظون كالرسل الأصليين .

وكان الرجال المستعدون لأداء هذا الدور موجودين ، حتى لو كان هذا يعني الوقوف ضد الكنيسة ، وفي عيون الكنيسـة كان كهنتهـا المرسمون في حينه كما ينبغي هم فقط المخولون بـالوعظ ، وعامـة الناس الذين يتجراون على هذا العمل كانوا يقعـون تحـت طـائلة

الحرمان من الكنيسة ، ومع ذلك فلا يكاد هناك على مايبدو زمن في اوروبا القرون الوسطى لم يوجد فيه وعاظ من العامة يهيمون في الأرض مقلدين للرسل ، وكان مثل هؤلاء الناس معروفين بالفعل في بلاد الغال في القرن السادس ، واستمر ظهورهم من وقت لآخر حتى الفترة من ..١١ وماتلاها وقد اصبحوا فجاة أكثر عددا وأكثر اهمية ويمكن ملاحظة التغيير كناتج ثانوي لواحد من الجهود العظيمة لاصلاح الكنيسة من الداخل كالذي ينقطع بين فترة واخرى ، ويميز تاريخ مسيحية القرون الوسطى ، وفي هذه الحالة ان التحريض وراء الاصلاح كان يأتي من البابوية نفسها ، وفي العصور الوسطى كانت الكنيسة بما فيها الأديرة قد سقطت في شرك الاعتماد على الملوك الدنيويين والنبلاء الذين تحكموا في التعيينات الكنسية الاكليركية على كل المستويات .

ولكن اثناء القرن الحادي عشر ادى توالي البابوات الأقوياء الى ترسيخ استقلال ذاتية الادارة الكنسية ، وشمل هذا تأكيدا جديدا على المنزلة الخاصة ، وعلى هيبة الأكليروس كنخبة روحية تقف بوضوح بعيدا عن العامة وفوقها.وبذل غريغوري السابع الكبير جهودا شاقة لكبح السيمونية او شراء الوظائف الأكليركية وفرض التبتل الأكليركي (في وقت كان فيه كثير من الكهنة متزوجين او يعيشون مع محظيات)(ص ٣٩) .

وفي جهودهم لتنفيذ هذه السياسة البابوية لم يتردد دعاة الاصلاح في الهاب مشاعر العامة ضد الاكليركيين المعادين للاصلاح ، ومضى بعضهم حتى لأبعد من ذلك بتسمية الأساقفة السيمونيين بخدم الشيطان ، واقتراح عدم صلاحية الترسيم الذي يقوم به مثل هؤلاء الأساقفة ومنعت المجامع الابرشية تكرارا ، الكهنة المتزوجين المتسرين من تلاوة القداس ، وهكذا فعل غريغوري السابع نفسه ، ولم يجادل المصلحون الأرثوذكس بالطبع في ان الأسرار المقدسة التي يديرها الكهنة غير المؤهلين غير صالحة ، ولكن ليس من المدهش ان مثل هذه الأفكار كان عليها ان تبدأ في الانتشار بين

العامة وقد قوت حركة الاصلاح الكبيرة نفسها الحماس الديني لدى عامة الرجـال والنسـاء وكان التلهـف على المقـدسين ذوي الحياة الرسولية اقوى من اي وقت ، وبحلول نهاية القـرن الحـادي عشر بدأت الطاقات الدينية التي أوقظت مجـددا تهـرب مـن السـيطرة الأكليركية وتتحول ضد الكنيسة .

وكان الشعور على نطاق واسـع ان الاختيار للكاهـن الحقيقـي لايقع في واقع الترسيم بل في اخلاصه لطريقة الحياة الرسولية ومـن حينه فصاعدا بات على الوعاظ الهائمون غير المخولين توقع اتبـاع لم يسبق لهم ان عهدوهم من قبل .

وانه لأمر مفيد الوقوف لوهلة قصيرة للاطلال على واعظ نموذجي اشتهر في فرنسا في مطلع القرن الثاني عشر وكان راهبا سالفا يدعى هنري ، ترك ديرة وهام على الطرق ، وفي اربعـاء الرمـاد اول ايام الصيام الكبير في ١١١٦ وصل الى ليمانس وقد تصرف وفق الطرق التالية : كان قد تقدمه إثنان من التلاميذ ، كما كان المسـيح في دنوه الأخير من القدس ، وحمل هذان الرسولان صليبا كما لو ان رئيسهم كان اسقفا ، واخذ الأسقف الحقيقي هيلد بـرت اوف لافـردين كل ذلك على المحمل الحسن بـل انه حتـى اعطـى هنري الاذن بإلقـاء مواعظ تتعلق بالصوم الكبير في المدينة ولكنه بصفاقه انطلق بعد ذلك في طريقه متجها في رحلة طويلة الى رومـا ، وحـالما ادار الأسـقف ظهره ، بدأ هنري ـ كان شابا ملتحيا يلبس فقط قميصا من الشـعر محظيا بمـوهبة صـوتية قـوية ـ في الوعظ ضـد الأكليروس المحلي ، ووجد مستمعين متقبلين ، وكان شعب ليمـانس مسـتعدا جدا للتحول ضد اكليروسه لأن هؤلاء كانوا جمـاعة فـاسدة تعيش حياة رخية ، وعلاوة على ذلك كان اسـاقفة ليمـانس نشـطاء في السياسة المحلية ، وفي قضية غير شعبية ، أعاروا فيهـا تـأييدهم للكونتات الذين كان المواطنون يناضلون لتحرير انفسهم من حكمهم المطلق ، ولم يكن مدهشا تماما انه بعد فترة قصيرة من وعظ هنري

كانت الجماهير من العامة تضرب الكهنة في الشوارع وتـدحرجهم في الطين .

ولاحاجة للمرء لتصديق اتهامات الترخيص الجنسي والفساد الذي الصقته الحوليات الاكليركية بهنري ، لأنها كانت كليشيهات تلصـق بانتظام ضد المنشقين الدينيين ، وعلى العكس يبـدو ان هنري كان واعظا ينادي بـالتزمت الجنسي فقـد حض النسـاء على التخلي عن ملابسهن الثمينة وحليهـن (ص ٤٠) المحـارق التـي اشـتعلت خصيصا لهذه الغاية ، واصلح البغايا بتـزويجهن لاتبـاعه ، ولكن حول حماسة المعادي للاكليروس ليس هناك من شك .

وفي سنوات تالية حيث كان نشيطا في ايطاليا ومقاطعة بـروفانس الفرنسية ، رفض سلطة الكنيسة كلية ، وانكر ان الكهنة المرسمين لديهم سلطة تقديس الجماهير وخبز القـربان ومنح الغفـران ، أو رئاسة مراسم الزواج،وكان التعمد كما بشر يجب ان يجـري فقـط كعـلامة خـارجية على العقيدة وان ابنية الكنيسـة وكل الزخـارف والحلي المتعلقة بالديانة الرسمية عديمة الجدوى ، ويمكن للانسـان ان يصلي في اي مكان كما يمكنه ان يصلي في كنيسـة ، والكنيسـة الحقيقية تتكون من الذين يتبعـون اسـلوب حياة الرسـل في الفقـر والبساطة ، وان محبة الجار هي جـوهر الدين الحقيقـي،واعتبـر هنري نفسه كانه مفوض من الرب مباشرة بإيصال هـذه الرسـالة والتبشير بها .

وكتب لهنري ان يكون له خلفاء عدة ، وخلال العصور الوسـطى كان طلب الاصلاح الديني ملحا والمثـل التـي تقـف وراء هـذا الطلب ، وان اختلفت في التفاصيل من زمن لآخر ومن مـكان لآخـر . بقيت متماثلة في جوهرها ، وعلى مدى أربعة قرون من الوالد نسيان الى الفرنسسيكان الروحانيين الى الأنابابتست (القائلين بتجـديد العماد) يجد المرء رجالا يهيمون في الأرض يعيشون في فقر وبساطة في محاولة لتقليد الرسل ويعظون بالانجيل من أجل التوجيه الروحي

والارشاد،وباعتراف الجميع ان هـذه المثـل لم تـكن محصـورة في المنشقين او (كما كانوا يسمون) المهرطقين وبالفعل كان في زمـن هنري رهبان أخرون مثل روبرت اوف اربريسل والقديس نوربرت اوف اكزانتن اللذان خرجا الى العالم كوعاظ هائمين بإذن تام مـن البابا ، وفي القرن الثـالث عشر عندمـا وجـدت المنظمـات الفرنسيسكانية والدومنيكانية ، فانهم تكيفوا بوعي تام مـع حياة الرسل .

وفي الواقع انه لولا المحـاولات المختلفـة لتحقيق مثـل الكنيسـة البدائية ضمن اطار الكنيسة ذات المؤسسات لكانت حركة الانشقاق بالتأكيد اكبر مما كانت عليه بكثير ، ومع ذلك ان هذه الحـركات لم تكن ابدا ناجحة تماما ، فمرات ومرات كان الرهبان الواعظـون او الرهبان الأخوة يرتدون الى ماوراء اسوار اديرتهـم او يتخلون عن متابعة قدسيتهم امام قدسية النفوذ السياسي .

ومرات ومرات كانت اوامـر الاصـلاح المكرس اصـلا للفقـر الرسولي تنتهي بحيازة ثروات عظيمة ، وعندمـا كان هـذا يحـدث كانت بعض أجزاء من العامة تشعر بالفراغ الروحـي ، وكان بعض المنشقين او الوعاظ المهرقطين يتقدمون لملئ هذا الفراغ .

وبشكل طبيعي كان هؤلاء الوعاظ يقدمون انفسـهم كمـرشدين روحيين ، ولكنهـم كانوا يدعون احيانا بـانهم اكثـر بـكثير انبياء ملهمين الهيا او مخلصين منتظرين بـل وحتـى الهـة متجسـدين (ص ٤١) وهذه الظاهرة مـوجودة في الصـميم مـن الدراسـة الجارية ، وقد حان الوقت للتفكير بامعان وتفصيل في بعض الظواهر المبكرة منها .

بعض المخلصين المبكرين :

اشتهر مؤرخ القرن السادس للفرنجة القديس غريغوري اسـقف

تور بالدقة التي جمع فيها المعلومات حول الأحداث المعاصرة له ، وفي مدينة تور التي تقع على الطريق الرئيس بين الشمال والجنوب في فرنسا . كان له مركز تسمع رائع ، والكتب الست الأخيرة حول التاريخ الفرنجي ، المكتوبة في صورة يوميات تسجل كل حدث كما وقع ، وهي ذات قيمة تاريخية عظيمة ، وتحت عام ٥٩١ يتحدث غريغوري عن رجل حر واعظ ادعى انه المسيح :

رجل من بورج مضى الى الغابات حيث وجد نفسه فجأة محاطا بسرب من الذباب ، وكان من نتيجة ذلك ان فقد عقله لمدة عامين ، و فيما بعد شق طريقه الى اقليم آرل حيث اصبح ناسكا واكتسى بجلود الحيوانات ، وكرس نفسه كلية للصلاة ، وعندما خرج من هذا التدريب على الزهد ادعى انه يملك مواهب خارقة للطبيعة في المعالجة والتنبؤ، وأدى به التجوال الى منطقة جيفودون في السيفين حيث ادعى انه المسيح وكانت معه امرأة دعاها مريم كرفيقة له ، واندفع الناس اليه افواجا مع مرضاهم الذين كانوا يبرأون بلمسة منه، وتكهن ايضا بأحداث مستقبلية ، متنبئا بالمرض والمحن لمعظم الذين زاروه ولكن بالخلاص للقلة .

واظهر الرجل قوى هائلة الى درجة عزاها غريغوري الى مساعدة الشيطان ، وكانت بالتاكيد قوى غير عادية بدرجة كافية لتضمن له اتباعا عديدين ، وكما هو الحال دائما في تقديرات العصور الوسطى ان على المرء ان يعتبر رقم ٣٠٠٠ مبالغة مفرطة ، كما لم يكن هؤلاء الاتباع مشكلين فقط من جمهور الأميين وغير المثقفين ، بل شمل ذلك ايضا بعض الكهنة ، وأحضروا له ذهبا وفضة وملابس ، ولكن « المسيح » وزع كل هذه الاشياء على الفقراء ، وعندما كانت الهدايا تقدم اليه كان يسجد هو ورفيقته ويقدمان الصلوات ، لكنه ينهض على قدميه بعد ذلك و يأمر الحشد بعبادته ، ثم نظم أتباعه فيما بعد في فرقة مسلحة ، قادها في انحاء الريف ليكمن ويسلب المسافرين الذين كان يلقاهم على الطريق،ولكن هنا ايضا لم يكن طموحه ان يصبح غنيا وانما ان يعبد ، وقد وزع

كل الغنائم على من لايملكون شيئا بما فيهم ، كما يمكن للمرء ان يفترض ، اتباعه.ومن جانب آخر عندما كانت الفرقة تحل بمدينة كان السكان بما فيهم من الأساقفة يهددون بالموت اذا لم يعبدوه(ص ٤٢) .

وكان في لابوي ان لقي هذا المسيح قدره المشؤوم .

فعندما وصل الى تلك المدينة الأسقفية الهامة عسكر « جيشه » كما يسميه غريغوري – في الكنائس القديمة المجاورة كما لو كان على وشك ان يشن حربا ضد الأسقف ، او ريليوس ثم أرسل الرسل مقدما ليعلنوا مقدمه ، حيث كانوا يقدمون انفسهم للأسقف عراة تماما ، وهم يقفزون ويتشقلبون

وارسل الأسقف بدوره فريقا من رجاله لمقابلة المسيح على الطريق ، وقام قائد الفريق وهو يتظاهر بالانحناء فأمسك بالرجل حول ركبتيه ، وبعد ذلك اعتقل بسرعة وقطع اربا ، وعلق غريغوري على ذلك قائلا :« وهكذا اسقط ومات هذا المسيح الذي يمكن حقا ان يسمى مسيحا دجالا » واعتقلت ايضا رفيقته ماري وعذبت حتى كشفت عن كل الأجهزة الشيطانية التي اعطته قوته ، أما بالنسبة للاتباع فقد تشتتوا ، ولكنهم بقوا تحت حرمان زعيمهم،واستمر الذين آمنوا به على ذلك حتى يومهم الأخير ، وكانوا يتمسكون بانه المسيح حقا وان المراة ماري ايضا كانت كائنا إلهيا .

وفي تجربة غريغوري لم تكن هذه القضية على أي حال فريدة ، وقد ظهرت شخصيات كثيرة مماثلة في أجزاء أخرى من البلاد ، واجتذبت هي ايضا اتباعا مخلصين ، خاصة بين النساء و اعتبرهم الناس قديسين أحياء ، وقد التقى غريغوري نفسه بالعديد من امثالهم ، و حاول بالنصيحة و الموعظة أن يردهم عن طريق الخطأ مع انه هو نفسه راى هذه الأحداث كعلامات كثيرة على قرب النهاية ، و كان الطاعون و المجاعة في كل اتجاه،لهذا كان من المؤكد توقع الأنبياء المزيفين ايضا ،حيث كما فكر ، أن المسيح هو نفسه

قال :« ....سيكون هناك مجاعات وطاعون وهزات ارضية في أماكن عديدة....ثم إذا قال لك أي إنسان انظر ، هنا مسيح أو هناك ، لا تصدق . حيث سيظهر مسيحون مزيفون ، وانبياء مزيفون وسيظهرون علامات عظيمة وعجائب الى درجة أنه إذا كان ممكنا ، إنهم سيخدعون المنتخب من السماء بالذات ، وهذه الأشياء هي التي تؤذن بمجيء الأيام الأخيرة »

وبعد ذلك بقرن ونصف القرن بينما القديس بونيفيس يعمل كممثل بابوي ويعمل على اصلاح الكنيسة الفرنجية ، صادف شخصية مشابهة جدا تدعى الدبيرت وكان هذا الرجل قد جاء كغريب الى المنطقة المحيطة بسواسون حيث منعه الأسقف المحلي من الوعظ في الكنائس ، مع أنه كان مرسما ، وكان الدبيرت من أصل متواضع ، وكان المستمعون له ايضا مكونين من الجماهير الريفية البسيطة ، ومثل مسيح القرن السادس المجهول الاسم طبق الفقر الرسولي ، وادعى هو ايضا القيام بمعالجات معجزة . وكبداية قام بمجرد نصب صلبان في الريف ، وكان يعظ الى جانبها في الهواء الطلق ، ولكن سرعان ما بنى له اتباعه ما يوفر له (ض ٤٣) راحة مناسبة ليقوم بالوعظ فيه وكان ذلك في البداية كنائس صغيرة ثم كنائس كبيرة .

ولم يكن الدبيرت قانعا بأن يكون مجرد مصلح ، وادعى أنه قديس حي ، وقال إن الناس يجب أن يصلوا له مشركين إياه مع القديسين لانه يملك الجداره والمزايا غير العادية التي يمكن أن تكون في خدمة انصاره ، ولأنه اعتبر نفسه مكافئا للقديسين والرسل فقد رفض أن يكرس كنائسه لأي منهم،وبدلا من ذلك فقد كرسها لنفسه ، ولكن في الواقع مضى الدبيرت إلى ابعد بكثير من ذلك ، لقد خرج بالادعاء على الأقل ببعض الخصائص المميزة للمسيح ، وهكذا اعلن انه مليء بالنعمة الالهية بينما كان في رحم أمه و حظي بعطف الرب الخاص ، و كان بالفعل كائنا مقدسا عندما ولد ، و قبل ولادته حلمت امه أن عجلا قد خرج من جانبها الأيمن ، ولا مفر من أن يفكر

المرء في بشاره الملاك جبريل لمريم بحملها بالمسيح ، ويسوع كحمل الرب ، لا سيما وأن يسوع كان على المستوى الشعبي يعتقد بأنه قد ولد من خلال الجانب الأيمن للعذراء .

وقد الف الدبيرت صلاة أرسلها بونيفيس الى روما من أجل الدرس وهي تظهر كيف كان واثقا من وجود علاقة خاصة بالرب ، لقد وعد الرب على ما يبدو بإعطائه كل ما يرغب،وتنتهي الصلاة بالتماس المعونة من ثمانية من الملائكة . ومن مصدر أخر نعرف أن الدبيرت تمتع بخدمات ملاك كان يحضر له من اطراف الأرض الآثار المعجزة ، وبفضلها كان يمكنه أن يحصل على مايريد لنفسه ولأتباعه ، وكان أيضا يملك رسالة من المسيح ، استعملها كأساس لتعاليمه الخاصة ـ وهذه ظاهرة سنقابلها مرات أخرى في فصول تالية .

وكان زخم تأثير الدبيرت بالتاكيد عظيما ، فقد هجر الناس كهنتهم وأساقفتهم وتدفقت جموعهم الكبيرة ليستمعوا اليه ، وكانت سيطرته مطلقة على اتباعه المباشرين الذين كانوا يشملون كثيرا من النساء ، وكانوا مقتنعين بأنه يعرف كل خطاياهم دون أن يعترفوا بها،وادخروا تعاويذ على أنها تفعل المعجزات ، من قلامات الأظافر وجزازات الشعر التي كان يوزعها بينهم ، وانتشر نفوذه بعيدا جدا خارج الوطن ، ولقد اعتبره بونيفيس تهديدا خطيرا للكنيسة ، حتى أنه طلب معونة البابا (لاعادة الفرنجة والفاليين الى الطريق الصحيح) الذي جعلهم الدبيرت يهجرونه .

وفي الواقع إن سلسلة كاملة من المجامع كانت مهتمه بنشاطاته ، وفي سنة ٧٤٤ عقد بونيفيس مجلسا في سواسون بموافقة من البابا زكريا وبالدعم الفعال من الملكين الفرنجيين بيبن وشارلمان تقرر تجريد الدبيرت واعتقاله وسجنه وإحراق الصلبان التي اقامها ، ولكن الدبيرت هرب واستمر في وعظه (ص ٤٤) لذلك عقد مجمع أخر في السنة التالية ترأسه بونيفيس والملك شارلمان ، وفي

هذه المرة لم يعلن فقط عن خلع الدبيرت من الكهنوت بل حرمانه ايضا من الكنيسة ، ومع ذلك فقد تدبر أمر الاستمرار في الوعظ ، إلى مدى أدى إلى انه بعد بضع شهور عقد مجمع اخر ، هذه المرة في روما ، ضم أربعة وعشرين اسقفا وترأسه البابا زكريا نفسه ، ولم يكن أمام المجمع الروماني فقط بيان كامل من بونيفيس بل ايضا سيرة حياة الدبيرت التي اقرها هذا المسيح رسميا ، وصلاة الفها بنفسه ، وقد اقنعت هذه الوثائق المجمع أن الرجل كان مجنونا ، ونتيجة لذلك عومل برفق ولين ، ليعطى فرصة ليعترف علنا بالخطأ ، ويتفادى الحرمان ، وكان بونيفيس يريد حرمانه وسجنه فورا ، وكان محقا بكل تأكيد في اعتقاده انه طالما بقي الدبيرت حرا ، فإنه سيستمر بالوعظ بمذهبه الشاذ ، ومن ثم اكتساب الاتباع والأنصار ، وفي ٧٤٦ روت سفارة من الملك بيبن للبابا زكريا أن الواعظ الشاذ كان ما زال نشيطا ، وعلى أي حال يبدو أنه توفي بعد ذلك بفترةقصيرة .

وبعد اربعة قرون ، وعندما أصبح الوعاظ الهائمون الذين يعيشون حياة الرسل تهديدا خطيرا للكنيسة المؤسساتيه ، كان هناك « مسيحا » نشيطا في بريتاني ، والرواية الأكمل التي نملكها عن هذا الرجل قدمها وليم نيوبرغ الذي كتب بعد نصف قرن،ويميل المرء بطبيعته إلى أن يقلل من شأن مثل هذه المصادر المتأخرة ، ولكن وليم واحد من أكثر الناس الذين يمكن الاعتماد عليهم في التأريخ للعصور الوسطى وترتيب الأحداث زمنيا .

وكما في هذا المثال تكرر معظم معلوماته بإخلاص مصادر معاصرة للاحداث ، ويبدو من المحتمل أن التفاصيل الباقية تأتي من بعض مصادر أخرى أقدم فقدت الآن.

ويدعو وليم نيوبرغ « مسيح » بريتون إيدو دي ستيلا ، وقد أخذ معظم المؤرخين المحدثين بهذا الاسم ، أو مكافئه الفرنسي ييدو دي لا توال،ويشير المؤرخون الذين عاصروا الأحداث على اي حال الى

الرجل (على نحو متبادل باسماء مستعارة) هي ايس ، ايون ، يون ، وايبون ،ولا يعرفون شيئا عن دي ستيلا ، وهناك عدم يقين حول منزلته وحالته ، وانفرد وليم في قوله انه لم يكن راهبا او كاهنا مرسما بل من عامة الناس التقط شذرات من اللغة اللاتينية بصورة سطحية .

و مع ذلك ادعى التفوق الكهنوتي المميز ، و في حوالي ١١٤٥ بدأ يعظ في الهواء الطلق ، و يمكن للمرء أن يفترض أنه كالواعظين الهائمين الآخرين قد أثار الخيال بتمجيده لأسلوب الحياة الرسولية ، وقد قام ايضا ببعض انواع من حفلات القداس لصالح اتباعه ، وكان بالتاكيد رجلا ذا شخصية جاذبة ، و كان الذين لهم تعامل معه مأخوذين كما أخبرنا كالذباب في شباك العنكبوت » (ص ٤٥) وفي النهاية نظم اتباعه في كنيسة جديدة ذات اساقفة ورؤساء اساقفة،وبالنسبة لنفسه كان مقتنعا أن اسمه هو الذي كان يشار اليه في العبارة التي كانت تردد في أخر الصلوات :

« الخلاص من خلال يسوع المسيح ربنا».

وهي في الحقيقة لا تعني « باسم يسوع نفسه المسيح ربنا » بل عنت « من خلال ايون يسوع المسيح ربنا » وعليه لم يكن يتردد في تسمية نفسه بابن الله وقد تبع ايون جمهور عظيم من عامة أشقياء الناس ، وكان بعض هؤلاء الناس بالتأكيد مدفوعين باليأس المطلق ،و تعلق احدى الحوليات الاصلية على مغامرات ايون بأنه في ذلك الزمان كانت المجاعات مثيرة للثورة والهياج ، حتى أن المحسنين كانوا يعجزون عن إعالة الحشود الجائعة من الفقراء ، بينما كان حتى أولئك الذين يتمتعون بشكل طبيعي بفيض من السلع ينزلون الى درجة استجداء الطعام ، ومن المعروف أن شتاء ١١٤٤ كان رهيبا واعقبه عامان من الشح والمجاعة ، وتركت اعداد كبيرة من فقراء الناس أراضيها التي لم تعد قادرة على اعالتها ، وهاجرت حتى الى ما وراء البحار ، وقد الحق الشماليون

القدماء الخراب الشامل ببريتاني قبل ذلك بنحو قرنين ، وكانت في القرن الثاني عشر ما زالت تشبه الأرض المستعمرة ، التي يسكنها بشكل متناثر فلاحون مبعثرون وكثير منها مغطى بغابات كثيفة ، وفي تلك الغابات اتخذ ايون قاعدته .

وعندما كان احد الرجال يقرر أن يكون واعظا هائما سواء اكان اصوليا أم منشقا ، فإنه كثيرا ما كان يبدأ بالدخول الى إحدى الغابات ويعيش كناسك لبعض الوقت ، وخلال تلك الفترة من التدريب على الزهد كان يحرز قوة روحية من أجل مهمته ، وقد يحرز أيضا سمعته كرجل قديس ويجتذب أتباعه الاول ، وهكذا بدأ بلدوين الزائف حياته في ١٢٢٤ ، ولا بد أن ايون قد اتبع النهج نفسه ، وماهو مؤكد أنه ما أن كان ينتظم تابعوه ، حتى كانوا يرهبون سكان الغابات في بريتاني ، فلقد كانوا حشودا عنيفة غير مستقرة تبتهج بالاغارة وتدمير الكنائس والاديرة وصوامع النساك ، كلما مرت بها ، وهلك العديد بالسيف ، ومات المزيد من الجوع ، وتعطي الحوليات المعاصرة هذا القدر من الصور ويضيف وليم نيوبرغ أن اتباع ايون أنفسهم كانوا يعيشون في رفاهية ، يلبسون الملابس الفاخرة ، ولا يقومون بأي عمل يدوي ، ودائما في حالة من « الحبور التام » وكان يعتقد حتى أن الشياطين كانت تمدهم بالولائم الفاخرة ، وأن كل من شاطرهم فيها فقد ادراكه وأصبح واحدا من الجماعة الى الأبد ، ومن كل ذلك يمكن للمرء أن يستنتج أنه مثل الحشود المشابهة في قرون تاليه عاش اتباع ايون الى حد كبير على السلب (ص ٤٦) وامتد نفوذ ايون بعيدا وراء حدود اتباعه المباشرين ، وفي الواقع إنه أصبح خطرا حتى أنه في النهاية أرسل رئيس أساقفة روون فرقة مسلحة ضده ، وفي ١١٤٨ اعتقل ــ ويذكر أن الاعتقال ربط بواحدة من شارات الأعاجيب المألوفة من الاحداث الكبيرة - كالظهور المفاجيء لاحد المذنبات ــ وقد أحضر أمام احد المجامع التي عقدت في كاتدرائية ريمز من قبل البابا يوجينيس وكانت له ملاحظة جديدة عملها حول اسمه وهي صيغة :

eum qui Venturces et jcedicare aset mortus et seculum perigmen

وايضا اشير اليه « هو الذي كان حقا يجب ان ياتـي ليحـاسب الاحياء والأموات والعالم بـالنار » وطبقـا لما اورده وليم نيوبـرغ اوضح ايون أيضا أن العصا المتشعبة التي كان يحملها كانت تنظـم حكم العالم : وعندما كانت العصا تشير الى الأعلى كان ثلثي العـالم يتبع الرب والثلث له وعندما كانت تشير الى اسفل تنعكس النسبة .

وقد أحال المجمع ايون الى سجن رئيس اساقفة روون ، وسجن في برج في روون وكان يزود بالماء وقليل من الطعام ، ومـات الرجـل التعس بعد فترة قصيرة ، ويروي وليم نيوبرغ أيضا اخبار مصـير حوارييه الرئيسين الذين اسروا مع رئيسهم ، لقد رفضوا بصمود أن يتنكروا له ، و حملوا بفخر الألقاب التي خلعها عليهم ، وحكم عليهم بالموت حرقا على اساس انهم مهرطقين غير نادمين وقد صمدوا دون أن يهتزوا حتى النهاية ، وهـدد احـدهم بـدمار المنفـذين للعقوبات ، وبينما كان يقتاد الى الوتد كان يصـيح بـاستمرار (يا ارض انشقي) ! ويعلق وليم قـائلا « إن قـوة الخـطأ قـد تملكت القلب »

وعلى ما يبدو ما من مؤرخ محدث انكر أبدا أن المسيح المجهول في القرن السادس او الدبيرت في القرن الثامن أو ايون في القرن الحادي عشر قد تصرفوا فعلا كما قـال معـاصروهم إنهـم قـد تصرفوا ، والصورة في كل حالة هي نفسها الى حد كبير.

لقد بدأ هؤلاء الرجال جميعا كواعظين مستقلين مكرسين لطريقة الرسل في الحياة ، ولكنهم انتهوا بالمضي الى أبعد بكثير ، وقـام كل من الثلاثة بادعاء انه المسيح ، ووجد الثلاثة جميعـا اتبـاعا كثـر نظموهم في كنائس كرست لعبادة انفسهم ، وفي حالتين من الثـلاثة كان بعض الاتباع منظمين أيضا في فرق مسلحة ، ليس فقط بهـدف

حماية المسيح الجديد بل أيضا لفرض ديانته بـالقوة ، وكان كل ذلك مقبولا من المؤرخين على أنه دقيق وصـحيح بـدرجة كبيرة ، ولكن حول حالة شخصية أخرى مشابهة جدا هي تانشيلم أوف انتـوير ب هناك اتفاق عام اقل .

إن هناك بعض الأسس للاعتقاد أن تانشيلم كان راهبا في وقـت ما ، وعلى اي حال إنه بالتأكيد قد أحرز معرفة بـالقراءة والكتـابة كما كان طبيعيا حكرا للاكليروس ، وكان ايضـا معـروفا ببـلاغته (ص ٤٧) وفي وقت ما حوالي سنة ١١١٠ وجد ضرورة للهرب من ابرشية او ترخت الى مقاطعة فـلاندرز حيث كسب عطـف الكونت روبرت الثاني الذي اوفده في مهمة دبلومـاسية الى المقـر المقـدس للبابا ، وكان الكونت مهتما باضعاف سلطة الامبـراطور الالماني في البلاد المنخفضة ، والمهمة التي كلف بها تانشيلم كانت حـث البـابا على تقسيم ابرشية او ترخت التي كانت موالية للأمبـراطور ، وأن يلحق قسما منها بأبرشية تحت سلطة الكونت ، وسـافر تـانشيلم بصحبة كاهن يدعى ايفـر وشر الى رومـا ، ولكن رئيس اسـاقفة كولونيا اقنع البابا باسكال الثاني برفض المشروع .

وهكذا أخفقت محاولة تانشيلم الدبلوماسية وعلاوة على ذلك فقد توفي راعيه الكونت روبرت في ١١١١ ، وكانت تلك نقطة تحـول حيث اندفع تانشيلم بسرعة في اتجاه جديد ، فمن ١١١٢ وما بعدها كان يعمل بنشاط كواعظ متجول ، ولكن لم يعد ذلك في فـلاندرز بـل في جزر زيلاند ، وفي برابانت ، وفي اسقفية أوتـرخت وفـوق كل ذلك في انتويرب التي اصبحت مقرا لقيادته •

وما حدث بعدئذ هو امر جدلي بسبب طبيعة المصادر الرئيسـة ، وهذه تتألف من رسالة من جماعة من رجـال كنيسـة اوتـرخت إلى رئيس اسـاقفة كولن ، يحتمـل أن تـكون كتبـت بين ١١١٢ و ١١١٤ طلبوا فيها مـن رئيس الاسـاقفة الذي قبض بالفعل على تانشيلم وايفروشر أن يبقيهما في السجن ، كما طـالبوا

بحياة الخصم الأرثوذكسي لتانشيلم القديس نوربرت أوف اكسنتن،
ولكن إذا كانت لكاتبي الوثائق جميعا مصلحة في تشويه سمعة تانشيلم فهذا لايعني أن كل شيء ذكروه بالضرورة غير صحيح ، وفي الواقع إن الكثير منه مالوف جدا ، وبالتالي مقنع ، وبشكل خاص إن مجمع أوترخت يستحق اخذه بجدية لأنه كان يصف احداثا يفترض أنها كانت جارية في تلك اللحظة وبموافقة أسقف مجاور كان بالتأكيد قادرا على التأكد من المعلومات .

وطبقا للمجمع بدأ تانشيلم الوعظ في الحقول والأماكن المكشوفة وهو متزي بزي راهب ، وقد قيل لنا إن بلاغته كانت غير عادية وأن العديد استمعوا إليه كما لو كانوا يستمعون إلى ملاك للرب ، لقد بدا كرجل مقدس وشكا مجمع أوترخت أنه كسيده الشيطان ، كان له مظهر ملاك للنور ، ومثل كثير من الوعاظ الجوالين بدأ بإدانة الأكليروس غير الجدير ـ مثل كاهن انتويرب ، وكان الوحيد في المدينة في ذلك الوقت ، الذي يعيش مع محظيه علنا ـ ثم وسع هجومه ليشمل الكنيسة ككل ، ولم يبشر بمجرد أن الأسرار المقدسة كانت باطلة ، إذا أدارتها أيد غير جديرة ، بل أيضا إن الأمور كما كانت ، والأوامر المقدسة قد فقدت كل معنى ، والمقدسات لم تكن افضل من المدنسات ، والكنائس ليست افضل من المواخير(ص ٤٨) وثبتت فعالية هذه الدعاية حتى أن الناس توقفوا عن المشاركة في القربان المقدس والذهاب إلى الكنيسة ، وبشكل عام كما لاحظ المجمع بأسى أن الأمور بلغت حدا أنه كلما ازدرى المرء الكنيسة كلما اعتبر أكثر قدسية ، وفي الوقت نفسه استثمر تانشيلم الظلام المادي ، كما شكا المجمع ، وحض الجماهير بسهولة على حبس عشور الكنيسة عن الكهنة ، وأن هذا ماكان يريده الناس ، لقد كانت العشور ممقوتة من فلاحي العصور الوسطى ، الذين كانوا مستائين بمرارة من اضطرارهم لتسليم عشر إنتاجهم من القمح والأعشاب التي تنتجها بساتينهم ومراعيهم واوزهم ، وكان الاستياء قد بلغ مداه حيث كان الكاهن الذي يتلقى العشور لايحظى بالاحترام .

وإلى هذا الحد تذكرنا أفكار تـاذشيلم بـأحد الرهبـان واسـمه هنري ، الذي كان نشيطا في الوقت نفسه بالذات ، علاوة على ذلك ، عمل كلا الرجلين في المحيط الاجتماعي نفسه ، وهو قيام كومـونات وعندما وصـل هنري إلى لامـانس كان البـورجوازيون مـايزالون غاضـبين على أسـقفهم لتـأييده للكونت ، الذي كانوا يناضـلون للتخلص من حكمه المطلق ، والمنطقة التي تابع فيهـا تـاذشيلم قـد اكتسحتها ايضا حركات العصيان المسلح في الكومـونات لسـنوات عديدة ، وبدءا من ١٠٧٤ بـدأت مـدينة بعـد الأخـرى في وادي الراين : اوترخت ، برابانت ، فلاندرز وشمال فرنسا تخلص نفسها بقدر الامكان من هيمنة السادة الاقطاعيين ، الكنسيين أو المدنيين .

وكانت هذه الحركات أقدم الثورات الاجتماعية التي تميز تـاريخ المدن في العصور الوسـطى ، وكانت منظمـة على الأغلب مـن قبـل التجار تأييدا لمصـالحهم الخـاصة ، وأراد التجـار التخلص مـن القوانين التي صيغت في الأصل للسكان مـن الفـلاحين التـابعين . والتي يمكنها أن تعوق فقط ، النشاط التجاري ، لقد أرادوا التهرب من الديون والضرائب التي كانت يوما ثمنا للحماية ، ولكن بدا أنهـا مجرد ضرائب استبدادية تـؤخذ اغتصـابا بعـد أن أصـبح الآن البورجوازيون قادرين على الدفـاع عن أنفسـهم . لقد أرادوا أن يحكموا مدنهم بأنفسهم ووفق القوانين التي اعترفت بمتطلباتهم من الاقتصاد الجديد ، وفي كثير من الحالات كانت هذه الأهداف تتحقـق سلميا ، ولكن عندما كان يتبين أن السيد الاقطاعي متصـلب ، كان التجار ينظمون جميع رجال المدينة في جمعية متمردة وكان كل عضو فيها يلزم بقسم مقدس .

وحدثت حـركات العصـيان بشـكل رئيسي في المدن الخـاصة بالكنائس ، وخـلافا للأمير المدني كان الأسـقف حـاكما حقيقيا في مدينته ، وكان بالطبع معنيا بالابقاء على سـلطته على الرعايا الذين يعيش بينهم ، علاوة على ذلك كان موقف الكنيسـة تجـاه الأمـور الاقتصادية محـافظا بدرجة عميقة ، وفي التجارة لم تكن ترى لزمـان

طويل شيئا سوى الربـا ، وفي التجـار لاشيء سـوى المبتـدعين الخطرين(ص ٤٩) الذين يجب أن تحبط مخططاتهم بحزم ، وكان البورجوازيون من جانبهم إذا صـمموا على كسر سـلطة الأسـقف قادرين أيضا على قتله وإشعال النار في كاتدرائيته ، وطرد أي مـن أتباعه بالقوة يمكن أن يحاول الانتقام له ، ومع أن أهـدافهم في كل ذلك كانت تبقى عادة محدودة بدرجة كبيرة ومادية تمـاما ، فإنه كان من المتوقع أن تترافق بعض هذه الثورات باحتجاج عنيف ضد الكهنة غير ذوي الجدارة ، وعندما كانت الطبقات الدنيا في المجتمعات المدنية تشترك في مثل هذه الاحتجاجات فإنها كانت في الواقع تميل بـدرجة كافية إلى الصخب .

هكذا كان المحيط الاجتماعي في حركتي كل من هنري وتانشيلم ، ولكن إذا لم نستبعد نهائيا كل المصادر المعاصرة لابـد أن تـانشيلم مضى إلى حد أبعد من هنري ، وطبقا لمجمع أوترخت ، شكل تانشيلم أتباعه في جماعة مخلصة إخلاصا أعمى ، اعتبرت نفسها الكنيسـة الصحيحة الوحيدة التي حكمها كملك مسيحي ، وفي طـريقه لالقـاء المواعظ كان يسير محاطا بمرافقين ، ولم يكن يسـبقه صـليب بـل سيفه وعلمه المحمـولين كإشـارة ملكية ، وفي الواقـع كان يعلن أنه يملك الروح القدس بالمعنى نفسه وبالدرجة نفسها كالمسيح ، وبـأنه كالمسيح كان ربـا ، وفي إحـدى المناسـبات أحضر له تمثـال لمريم العذراء ، وفي حضور حشد كبير خطب نفسـه لهـا بـوقار ، وكانت صناديق النفائس توضع على كلا جانبي التمثال لتلقى فيهـا هـدايا الزواج المقدمة من الأتباع من الذكور والاناث على التـوالي ، وقـال وقتها تانشيلم : « والآن سأرى أي جنس يحمل حبا أكثر تجـاهي وتجاه عروسي » وسجل الاكليروس الذي شهد ذلك بفزع كيف اندفع الناس لتقديم هداياهم وكيف ألقى النساء بأقراطهن وعقودهن .

وكان الاكليروس قانعين بأن باعث تانشيلم في هذه المناسبة كان الشره ، ولكن ربما كان في الواقع مثل مسيح القـرن السـادس ، أو معاصرة هنري الراهب مهتمـا بإبعـاد الأغنياء عن طـرق الزهـو

الدنيوية ، ويمكن للمرء أيضا أن يحذف قصص الانغماس في الشهوات الجنسية لأن هذه كانت دائما تحكى عن المهرطقين من أي نوع ، ومن جانب آخر لايبدو أن هناك سببا للشك في أن تانشيلم حقا قد نصب نفسه ككاهن إلهي . ويصف مجمع أوترخت كيف أن واحدا من اتباع تانشيلم وهو حداد يدعى ماننسس شكل جمعية إخاء من إثني عشر رجلا في محاولة لمحاكاة الحواريين مع إمرأة تمثل مريم العذراء ، وهذه ليست من نوع القصة التي يخترعها الناس ، لاسيما وانها ليست امتيازا لرئيس الاساقفة المجاور ، ومرة أخرى ذكر مجمع أوترخت وكاتب سيرة القديس نوربرت ان تانشيلم وزع ماء حمامه بين أتباعه . وشربها بعضهم كبديل عن القربان المقدس ، في حين ادخرها آخرون كأثر مقدس .(ص ٥٠)

وهذا يذكر المرء بالدبيرت الذي كان يوزع قلامة اظفاره وجزازات شعره على اتباعه وبالنسبة لأي ممن يألفون المكتشفات المتعلقة بأصل الانسان فيما يتعلق بالمانا أو القوة الكامنة أو الطرق التي يمكن بها نقلها عبر وسائط مادية ، فإن مثل هذه الاجراءات يمكن فهمها فورا،وتضيف سيرة القديس نوربرت تفاصيل أخرى ، فهي تذكر كيف نظم تانشيلم حرسا مسلحا كان يقيم معه عادة ولائم فاخرة ، وتقول ايضا إنه كان من غير المأمون لأي أحد حتى الأمراء العظام للأراضي المجاورة الاقتراب من تانشيلم ، إلا كتابع ، وان الذين فعلوا ذلك كانوا عادة يقتلون على أيدي الحرس ، حتى إن الحاكم الأول لسيغبرت في غمبلوكس قال إن تانشيلم واتباعه نفذوا مذابح كثيرة وكل هذه أدلة مشكوك فيها ، فقد كتب كاتب سيرة القديس نوربوت كما هو محتمل بعد (١١٥٥) ، ومع انه ربما كان يستقي معلوماته من سيرة أقدم فقدت الآن ، وهو ربما يكون أيضا قد تأثر بقصة « مسيح » القرن السادس لغريغوري أوف تور ، وبالنسبة للحاكم الأول ليغبرت في غمبلوكس فإنه كتب بعد ١١٥٥ ومصدر معلوماته غامض ، ولكن حتى لو أسقطت هذه الاضافات الأخيرة الى القصة فانه يبقى من الواضح ان تانشليم قد مارس بأي وسيلة هيمنة حقيقية على منطقة واسعة.

وقد اقر رجال مجمع اوترخت بحرية بعجزهم ، واصروا على أن تانشيلم كان لزمان طويل خطرا على كنيسة اوترخت واذا اطلق وسمح له باستئناف عمله فانهم لن يستطيعوا مقاومته ، وان الأبرشية ستضيع لغير صالح الكنيسة دون أمل في استردادها ، وحتى بعد موته (يعتقد أن احد الكهنة قتله حوالي ١١١٥) استمرت هيمنة تانشيلم طويلا على مدينة انتويرب وتأسس مجمع من رجال الدين خصيصا لهذه الغاية ، لكنه كان غير قادر على معادلة نفوذه ، بل إنه على العكس خضع له ، وعند هذه النقطة استدعى نوربرت أوف اكسانتن ، وهو نبيل عظيم كان قد تخلى عن وظيفة متألقة في البلاط الامبراطوري ليهيم في العالم في فقر رسولي ، وقد اشتهر نوربرت كصانع معجزات يعالج المرضى والمجانين ومؤنس للحيوانات المتوحشة ، وبسبب ذلك كان قادرا - مع أن ذلك كان بصعوبة - على أن يجتنب عامة الناس بعيدا عن ولائهم لتانشيلم وان يستعيد انتويرب للكنيسة •

ووجد الوعاظ المتجولون ذوو الحياة المقدسة « والرسولية » مستمعين في كل طبقات المجتمع ليس فقط عندما كانوا اصوليين مثل روبرت أوف أربريسل• Arbrissel او نوربرت أوف الكسانتن ولكن حتى عندما كانوا مهرطقين بوضوح مثل كاترز في لانغر يدوك •

وكانوا كثيرا ما يتمتعون بدعم النبلاء الكبار والبرجوازيين الذين كانوا يعيشون في رخاء ، ولكن يبدو ان نوعية الواعظ الذي يدعي انه كائن الهي أو نصف الهي (ص ٥١) أو قديس حي او مسيح او تجسيد للروح القدس كانت تجذب بشكل خاص الطبقات الاولى من المجتمع ، وحقيقي انه حتى هنا ان ما يجده المرء هو ميل فقط ، وليس قاعدة ثابتة فقد كان بعض الاتباع « لمسيح » القرن السادس قادرين على ان يجلبوا له الذهب والفضة او بعض المؤمنات بتانشيلم كن يقدمن له الأطواق والأقراط ، ومن جانب أخر إنه من الصعب تصور أن اعضاء الفرقة المسلحة التي اعدها « المسيح » لتكمن

للمسافرين وتسلبهم حتى يستطيع أن يوزع المنهوبات على الفقراء .لم يكونوا هم أنفسهم من الفقراء ، ولقد وجد تاذشيلم اتباعه الأوائل بين سكان والشرين والجزر الأخرى الواقعة عند مصبي الموبز والشلدات ، وهؤلاء فقط يمكن أن يكونوا من الناس الفقراء الصيادين والفلاحين ، وحتى فيما بعد في انتويرب كان حلفاءه الأقربين كذلك ، حتى أنهم تركوا انفسهم لحداد كي يقوم بتنظيمهم ، وبالنسبة لايون فإنه أيضا كان له أتباع عديدون من الناس البسطاء في الغابات الوحشية والنائية في بريتاني .

وجملة القول يبدو تماما انه من الواضح بدرجة كافية ان هؤلاء الذين ادعى كل منهم انه المسيح قد استمدوا الكتلة الداعمة من ادنى الطبقات الاجتماعية ومنذ اكثر من نصف قرن لفت عالم الاجتماع الديني ماكس ويبر* . Max Weber

الانظار الى الميول الراقدة تحت مثل هذه الظواهر بقوله :

إن نوعا مخلصا من الأديان يمكن ان ينشأ في الطبقات الاجتماعية ذات المزايا (الموسرة)وسحر النبي ..هو عادة مرتبط بحد ادنى معين من الثقافة العقلية ... ولكنه بشكل منتظم يغير خصائصها .. عندما ينفذ الى الطبقات الاقل ثراء .. ويمكن للمرء أن يحدد سمة واحدة على الأقل تصحب عادة هذا التحول وتكون احدى النتائج للتكيف الذي لا مفر منه مع حاجات الجماهير،وهذا هو مظهر المخلص الشخصي سواء كان الهيا مقدسا او مزيجا بشريا الهيا، والعلاقة الدينية بهذا المخلص كعنصر لازم ومسبق للخلاص،وكلما هبط المرء سلم الطبقات الاجتماعية كلما كانت الطرق التي يتم بها التعبير عن الحاجة الى مخلص اكثر نزوعا إلى التطرف....

والميول التي يشير اليها ويبر قد تمت ملاحظتها في كثير من الاراضي المستعمرة او التي كانت مستعمرة خلال القرن الحالي، وكمثال واحد من مئات يمكن للمرء ان يفكر في مسيحي الزولو الذين درسهم د . بنت ساندكلر Dr Benyt Sundikler

وتماما كشخصيات القرون الوسطى سمي هؤلاء أنفسهم

مسيحيين واستمدوا افكارهم الاساسية وتصورهم من الكتب المقدسة ولكنهم ايضا نسبوا لانفسهم اعظم ما يمكن ادعاؤه وكان ذلك مقبولا بحماس من قبل اتباعهم ، وكتب د . ساندكلر :« معظم انبياء الزولو يعتبرون في نظر اتباعهم كائنات من انصاف الآلهة، ويصبح النبي المسيح الأسود وبسبب ذلك يحرز نفوذه الهائل على اتباعه »(ص ٥٢) وحياة واعمال أشعيا شمب (١٨٧٠ - ١٩٣٥)مدللة مبرهنة، وهو أكثر الذين ادعوا انهم المسيح من الزولو شهرة،لقد كان شمب واعظا من العامة ذا بلاغة عظيمة وشخصية جذابة بنى كنيسة خاصة به في مقابل الكنائس التبشيرية التي كان يرعاها البيض،وفي البداية ادعى فقط انه نبي ولم يقر أمام سلطات البيض ابدا باكثر من ذلك ولكنه افشى سرا لاتباعه في النهاية « انه الموعود » والخليفة الحقيقي الذي حل مكان يسوع ، و ما فعله يسوع في أيامه البيض وخلاصهم يفعله هو الان من أجل الزولو وخلاصهم،وادعى ان الرب قد دعاه حينما كان مايزال في رحم امه .

وتنبأ أنه بعد برهة وجيزة سيقف عند بوابة القدس السماوية وعندها سينفي البيض واولئك السود الذين تبعوا الكنائس التبشيرية وسيسمح لاتباعه فقط .

وكل هذا يذكر بشكل مدهش تماما بمسيحي القرون الوسطى في أوروبة ويستحق التأمل في الظروف التي ازدهر فيها شمب وانبياء الزولو المشابهين،ويشير ساندكلر الى أن مثل هذا المسيح يشبه و يختلف عن حاكم الزولو في الايام التي كانوا فيها ما يزالون أمة غير مستقلة ، و كان المسيح و الحاكم كلاهما يريان كائنات الهية،ولكن بينما كان الحاكم يجمع قوى الزولو كان المسيح دائما يدعى بسانه الناطق بلسان المحتقرين .

وبشكل نموذجي كان المتنبئين من هذا النوع يميلون للازدهار ليس بين الفقراء والمضطهدين في حد ذاتهم بل بين الفقراء والمضطهدين الذين انهارت طريقتهم التقليدية في المعيشة والذين

فقدوا ايمانهم بقيمتهم التقليدية ، والان خلال العصور الوسطى خبرت نواح معينة من اوروبا الغربية تماما مثل هذه الازمات من الارتباك الجماهيري ، وكانت هذه بشكل خاص هي الحالة منذ نهاية القرن الحادي عشر ومابعده ، فمنذ ذلك الوقت وماتلاه يمكن للمرء ان يميز بوضوح تام في التيار العظيم للانشقاق الديني تيارا واحدا يمكن بشكل دقيق تسميته الانشقاق الديني للفقراء ، ومنذ ذلك الوقت ومايليه يمكن للمرء ان يتكلم دون اهلية عمن ادعى انه المسيح بين الفقراء وحركات الفقراء الذين بهذه الأنواع من المسيح .

إنه بمثل هذه الشخصيات و مثل هذه الحركات سيهتم الجزء الاعظم من هذا الكتاب ولكن في البداية من الضروري ان نبحث بايجاز في من هم هؤلاء الفقراء،وما الذي ميزهم عن فقراء القرون الاقدم،ولأي ضغوط جديدة كانوا يستجيبون وماهي الاحتياجات الجديدة التي كانوا يحاولون التعبير عنها .

الفصل الثالث

مسيحيات الفقراء المضللين

الزخم المؤثر للتغيير الاجتماعي السريع:

حدثت الحركات الثورية للفقراء التي رأسها مسيحيون أو قديسون أحياء(ص ٥٣) واستمدت الهامها من نبوءات السبليذيين : أو يوحنا ، فيما يتعلق بالأيام الأخيرة ، حدثت بتكرار متزايد منذ نهاية القرن الحادي عشر وما بعده ، وهي لم تحدث على اي حال في كل الفترات او كل المناطق ، وحتى الآن فيما يتعلق بأوروبا الشمالية ، إنه فقط في وادي الراين يمكن للمرء أن يتحرى تقاليد يبدو انها غير متحللة للالفية الثورية التي استمرت حتى القرن السادس عشر ، وفي بعض المناطق فيما يعرف الآن ببلجيكا وشمال فرنسا يمكن تتبع مثل هذه التقاليد منذ نهاية القرن الحادي عشر حتى أواسط القرن الرابع عشر، وفي بعض المناطق من جنوب ووسط المانيا منذ أواسط القرن الثالث عشر وحتى مرحلة الاصلاح ، التي بعدها يمكن ملاحظة بدايات تقاليدها في هولندا ووستفاليا

وعلى حواف هيجان اكبر بكثير ، حدث هياج الفي حول لندن واخر في بوهيميا ومع استثناء واحد او اثنين صغيرين ان كل الحركات التي تعنى بها الدراسة الراهنة قامت ضمن هذه الحدود الدقيقة نوعا ما ، مما يدفع المرء إلى السؤال لماذا توجب أن يكون الأمر كذلك ، ومهما كان محفوفا بالمخاطر تتبع سبب ظاهرة اجتماعية في مجتمع هي نفسها لا يمكن ملاحظتها فيه بشكل مباشر ، إن حادثة الالفية الثورية هنا واضحة جدا ومحدودة سواء في مداها او في زمانها على انها بلا اهمية ، إن نظرة مأخوذة من عل

توحي بأن الحالات الاجتماعية التي حدثت فيها انفجارات ثورية الفية كانت في الواقع موحدة بشكل ملحوظ ، وهذا الانطباع يتأكد عندما يقوم المرء بفحص انفجارات خاصة بالتفصيل . والمناطق التي أخذت فيها النبوءات القديمة حول الأيام الأخيرة معان ثورية جديدة ، وقوة ثورية جديدة ، وكانت المناطق المكتظة بالسكان بدرجة خطيرة و المنهمكة في عملية تغيير اقتصادي و اجتماعي سريعة ، و مثل هذه الظروف كان لابد أن توجد الآن في منطقة واحدة ، والآن في اخرى لانه في تلك النواحي كان التطور في أوروبا العصور الوسطى أي شيء إلا أن يكون موحدا(ص ٥٤) واينما حدثت كانت الحياة تختلف بدرجة كبيرة عن الحياة الزراعية المستقرة التي كانت المعيار على مدى الألف سنة امتداد العصور الوسطى ، ومفيد معرفة نوع هذه الفروق بدقة ، وبالتاكيد لم تكن الحياة التقليدية على الأرض سهلة ، فعلى الرغم من التحسن في التقنيات الزراعية إنها لم تكن بالدرجة التي تبقي الفلاحين في حالة وفرة حتى في الظروف المواتية ، وبالنسبة لمعظم الفلاحين إن الحياة لا بد أنها كانت دائما كفاحا شاقا ، ففي كل قرية كان هناك أعداد من الفلاحين تعيش قرب أو في مستوى ابقاء الرق ، وكان الفائض الزراعي صغيرا جدا ، وكانت المعلومات والاتصالات غير ثابتة حتى أن المحصول السيء كثيرا ما كان يعني مجاعة كبيرة جدا ، ولأجيال كانت أطراف المناطق الكبيرة في شمال ووسط أوروبا تخرب من قبل الغزاة الشماليين القدامى والمجريين ، ولقرون على أطراف مناطق أوسع بكثير كانت تحدث الاضطرابات بسبب الحروب الخاصة للبارونات الاقطاعيين ، علاوة على ذلك كانت كتلة الفلاحين تعيش بصورة طبيعية في حالة اعتماد دائم ومضجر على سادتهم الكنسيين أو المدنيين،وكان العديد من الفلاحين ارقاء حملوا عبوديتهم في دمائهم ونقلوها من جيل الى جيل ، عبيد مملوكون بالمولد لارث سيد ، وكان الشعور أن تلك حالة متدنية فريدة . ولكن وجدت ايضا حالات أخرى ، اذا كانت اقل اذلالا فانها كانت مثل ذلك تقريبا صعبة التحمل بدرجة العبودية نفسها ، وخلال القرون الطويلة من الأعمال الحربية المتكررة الحدوث باستمرار ، عندما لاتوجد حكومة مركزية فعالة ، كان معظم

مالكي الأراضي الصغار يجدون لتسليم أراضيهم للسيد المحلي الذي كان مع زمرته من الخدم المزودين بـالخيول ، الوحيد الذي في موقع تقديم الحماية ، وكان أبناء هؤلاء الناس أيضا يعتمدون على سيد ، ومع أن اعتمادهم كان ينظم بعقد إرثي دائم فإنه لم يكن بالضرورة أقل إرهاقا من العبودية ، وفي عصر كانت فيه أكثر الضمانات فعالية للاستقلال الشخصي تقوم على ملكية الأرض والقدرة على حمل السلاح ، كان الفلاحون في وضع غير موات ، حيث أن النبلاء فقط هم الذين كانوا قادرين على تأمين السلاح ، وكانت معظم الأراضي في المناطق الزراعية مملوكة إما للنبلاء أو للكنيسة.

وكانت الأرض - اللازمة للمعيشة - يجب أن تستأجر ، ويجب كسب الحماية لها ، وهذا كان يعني أن معظم الفلاحين كان عليهم أن يزودوا سادتهم بقدر كبير من خدمات العمل ، والواجبات المنتظمة وبغرامات خاصة وإتاوات.

وباعتراف الجميع كانت ظروف حياة الفلاح ، مختلفة ومتنوعة كثيرا ونسبة القيد والحرية بين السكان من الفلاحين كانت تختلف بدرجة كبيرة من قرن لقرن ومن منطقة لأخرى ، ومرة أخرى بين هاتين الزمرتين ، كان يوجد تنوع غير محدود في الأوضاع الشرعية والقضائية وفي الرخاء ، حتى بين سكان القرية الواحدة كان يوجد عدم مساواة كبيرة(ص ٥٥) ولكن عندما ألحقت كل إضافة بهذه التعقيدات يبقى صحيحا أن الفقر والصعوبات وغالبا عدم الاستقلال القسري كانوا كافين بحد ذاتهم لتوليد الألفية الطبيعية ، وكان لدى العبيد لهفة إلى الهروب ، وكانت هناك جهود متكررة من جانب المجتمعات الفلاحية لانتزاع الحقوق وثورات متقطعة ، وكانت مثل هذه الأشياء مألوفة بدرجة كبيرة كافية في حياة كثير من الضياع والمزارع ، ولكن لم يكن كثيرا ممكنا تحريض الفلاحين المستوطنين لتوظيفهم في السعي وراء الألفية ، وإذا فعلوا فإن ذلك كان إما بسبب أنهم تورطوا في حركة كبيرة نشأت في طبقة مختلفة تماما ، أو

أن طريقتهم التقليدية في الحياة أصبحت مستحيلة أو - وهـو مـا كان الحالة الأكثر شيوعا - لاجتماع هذين السببين.

ومن الممكن رؤية لماذا على الرغم مـن كل الفقـر والصعوبات وانعدام الاستقلال ، كان المجتمع الزراعي للعصور الوسطى الأولى - وفي العصور الوسطى المتأخرة أيضـا في كثير مـن المناطق - نسبيا غير مرتبط بنضال المحرومين مـن المزايا مـن المؤمنين بالأخرويات ، وإلى مدى يصعب المبالغة فيه ، كانت حياة الفلاحين تستمر وتتشكل بالعادة والروتين الكوموني ، وفي السهول الشمالية الواسعة كان الفلاحون عادة يتجمعـون معـا في القـرى ، وكان سكان القرى يتبعون نهجا زراعيا تـطور بشـكل جمـاعي في القرية ، وكانت رقـع الأرض متجـاورة ومتشـابكة في الحقـول المكشوفة ، وفي الفلاحة والبذر والحصاد لا بد أنهم كثيرا مـا كانوا يعملون كفـريق ، وكان لكل فـلاح الحـق في اسـتعمال « الأرض المشاعة » إلى مدى مفروض ، وكانت الماشية تـرعى هناك معـا ، والعلاقات الاجتماعية ضمن القرية كانت تنظمها المعايير التـي مـع أنها كانت تختلف من قرية لأخرى كان لها دائمـا قـدسية التقـاليد وكانت دائما تعتبر غير قابلة للانتهـاك ،و كان هـذا صـحيحا ليس فقط في العلاقات بين القرى نفسـها بـل أيضـا بين كل قـروي وسيده .... وخلال الصراعات الطويلة بين المصالح المتضاربة طورت كل ضيعة قوانينها الخاصة التي ما أن كانت تتـرسخ بـالاستعمال حتى فرضت الحقوق والالتزامات لكل فـرد ، ولهـذه العـادات كان السيد نفسه في الضيع يخضع لهـا ، وكان الفـلاحون عادة يقـظين لضمان أنه كان بالفعل يلتـزم بهـا ، وكان مـن الممـكن أن يكون الفلاحون مصممين جـدا في الدفـاع عن حقـوقهم التقليدية وحتـى زيادتها في المناسبات.، وكان بامكانهم التصميم ، لأن السكان كانوا متناثرين والعمل مطلوب بكثرة ، وقد أعطـاهم هـذا ميزة كانت الى حد ما توازن التـركيز في ملكية الأراضي والقـرى المسلحة في أيدي سادتهم (ص ٥٦) وكنتيجـة لم يكن نظـام الوحـدات الادارية في التنظيم الريفي بأي شكل نظاما للاستثمار غير المنضـبط العمـل .

فإذا كانت العادة تلزم الفلاحين بتقديم الواجبات و الخدمات فإنها أيضا كانت تثبت المقادير ، وبالنسبة لمعظم الفلاحين كانت توفر على الأقل الأمن الأساسي الذي كان ينبع من الاستئجار المضمون والموروث لقطعة الأرض •

وكان وضع الفلاح في المجتمع الزراعي القديم مدعما كثيرا أيضا بحقيقة أنه - كالنبيل تماما - كان يمضي حياته مرتبطا بإحكام بمجموعة من الأقرباء - وكانت الأسرة الكبيرة التي ينتمي إليها الفلاح تتألف من أقارب الدم من طرف الذكر أو الأنثى وزوجاتهم وازواجهم وكانوا كلهم مرتبطون معا بروابطهم مع رئيس المجموعة - الأب (أو اذا انعدم الأم) - الفرع الرئيسي في العائلة ، وكثيرا ما كانت مجموعة النسب هذه يعترف بها رسميا كمستأجر للملكية الفلاحية ، التي بقيت راسخة فيها منوطة بها طالما بقيت المجموعة ، ومثل هذه العائلة كانت تشترك في القدر نفسه والنار والرغيف ، والعمل في الحقول غير المجزأة نفسها ، وتتأصل في قطعة الأرض نفسها أجيالا ، وكانت تعتبر وحدة اجتماعية شديدة التماسك ، حتى وان كانت هي نفسها أحيانا تتمزق بالشجار الداخلي المرير.

وليس هناك شك في أن الفلاح الفرد قد ربح الكثير من انتمائه لمثل هذه المجموعة . وأيا كانت حاجته و حتى لو لم يعد يعيش مع العائلة ، فإنه كان يستطيع دائما أن يطلب العون من أقربائه ، وأن يطمئن إلى انه سيناله . فإذا كانت روابط الدم مقيدة فهي أيضا تدعم كل فرد.

وكانت الشبكة الاجتماعية التي كان الفلاح يولد فيها قوية جدا ، وكانت تعتبر مضمونة حتى أنها كانت تحول دون أي انحراف جذري ، وطالما أن الشبكة بقيت سليمة كان الفلاحون يتمتعون ليس فقط بأمن مادي مؤكد بل أيضا - وهو أكثر علاقة - بشعور مؤكد بالأمان ، وهو ضمان أساسي لم يتمكن الفقر المستمر و لا الخطر المحيق من حين لآخر من تدميره ، وعلاوة على ذلك إن مثل تلك

الصعوبات نفسها كانت مضمونة كجزء من حالة من الشوؤن التي بدا أنها تسود منذ الأبد ، وكانت الآفاق الاجتماعية والاقتصادية ضيقة بقدر ضيق الآفاق الجغرافية نفسها ، ولم يكن الاتصال مع العالم الواسع وراء حدود الضيعة ضعيفا فحسب بل إن مجرد التفكير في أي تحول أساسي في المجتمع نادرا ما كان متصورا ، وفي اقتصاد كان بدائيا بشكل موحد ، حيث لم يكن احد شديد الثراء ، لم يكن هناك شيء يثير احتياجات جديدة ، وبالتأكيد لا شيء مما يمكن أن يثير الانسان لتضخيم تخيلاته عن الثروة والقوة،وبدا وضع الأمور هذا يتغير عندما ـ منذ القرن الحادي عشر اصبحت منطقة اخرى في حالة من السلام تكفي لكي يتزايد السكان و تتطور التجارة ، ووقعت المناطق الاولى التي حدث فيهما ذلك جزئيا في الأراضي الفرنسية وجزئيا في الأراضي الألمانية،وفي القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر وفي منطقة تمتد تقريبا من السوم الى الراين وتتركز على الامارة العظيمة التي كان كونتات فلاندرز يحكمونها بحزم وكفاءة فريدين ، وازداد السكان بسرعة ، وفي القرن الحادي عشر كان شمال شرق فرنسا ،والبلاد المنخفضة ووادي الراين بالفعل مناطق تحمل من السكان فوق ما يمكن للنظام الزراعي التقليدي أن يتحمل ، وبدا كثير من الفلاحين في استصلاح اراض اخذوا يستخلصونها من البحر والسبخات والغابات او الهجرة في اتجاه الشرق للاشتراك في عملية الاستعمار الألماني للأراضي التي كانت حتى ذلك الحين يسكنها السلاف ، وبهؤلاء الرواد سارت الامور بشكل عام سيرا حسنا بدرجة كافية ، ولكن الكثيرون بقوا بلا أملاك وكانت ملكياتهم اصغر من أن تكفي لاعالتهم ، وكان على هؤلاء أن يتدبروا امرهم بقدر ما يستطيعون ، ومضى بعض هؤلاء السكان الفائضين ليشكلوا طبقة العمال الكادحين الريفيين (البروليتاريا) في حين تدفق بعضهم على المراكز التجارية والصناعية وافرزوا بروليتاريا مدنية .

واعطى الفايكنغ الذين جلبوا الخراب الى كثير من اجزاء اوروبا، أعطوا الزخم المؤثر الأول لتطوير الصناعة في وحول

بلاد فلاندرز، التي كانت في ذلك الوقت تمتد من آراس الى غنت، واصبحت صناعة النسيج التي قد استمرت هناك منذ زمن الرومان صناعة كبيرة ، عندما بدأ استيراد الصوف الإنكليزي في القرن العاشر ، وبثرواتهم الكبيرة وجذورهم الحرفية التي امتدت عميقا في روسيا ، قدم الفايكنغ سوقا رائعة للأقمشة ذات النوعية العالية ، وذلك تماما في الوقت الذي كانت فيه حكومة فعالة تحقق السلام الكافي والاستقرار للأرض لتجعل التطور الصناعي ممكنا ، وخلال القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر نمت صناعة عظيمة للملابس وانتشرت حتى أن مايدعي الآن بلجيكا وشمال شرق فرنسا اصبحت تقريبا الجزء الاكثر تصنيعا عاليا في القارة التي كانت تهيمن عليها الزراعة ، وبهذا التركيز للصناعة ، اصبح وادي الراين محكم الترابط ، وفي القرن الثاني عشر كان التجار الفلمنك يمارسون التجارة على طول الراين ، وبحلول القرن الثالث عشر كان تجار وادي الراين انفسهم يسيطرون على التجارة الدولية لشمال أوروبا ، وكانت الاقمشة الفلمنكية تمر بأيديهم في طريقهم الى الأسواق الجديدة في وسط وجنوب المانيا وفي المشرق المتوسطي ، وفي كولون نقطة التقاء كثير من طرق التجارة نمت صناعة النسيج المزدهرة والنحاس .

وحققت المراكز الصناعية الجديدة جذبا قويا للفلاحين ، وفي المقام الأول بلا شك بالنسبة لفائض السكان وايضا بالنسبة للذين كانوا يرغبون في الهرب من القيود واغتصاب الحقوق الذي أرهقهم في الضياع ، ولأولئك الذين كانوا قلقين ومتلهفين للتغيير (ص ٥٨) وايضا للذين تصادف أن كان لديهم حب للمغامرة والخيال ، لأن الحياة في تلك المراكز قدمت بالتأكيد للناس العاديين الفرص والتعويض ، وبشكل لم يسبق لهم أن عرفوه ابدا على الأرض،وكانت الصناعة مركزة في المدن ، وكان اي عبد تستقبله المدينة يطرح حالة العبودية ويصبح حرا ، علاوة على ذلك كان أسهل بكثير هناك ، لا سيما في المراحل الأولى من التوسع الاقتصادي ، بالنسبة للرجل الفقير أن يحسن وضعه أكثر مما كان

في الضيعة ، وكان المهاجر الفقير المعدم ذو الميل الى الصناعة ربمـــا ينتهي بأن يصبح تاجرا غنيا ، وحتـــى بين الحـــرفيين تـــطور الذين انتجوا من اجل السوق المحلي في الجمعيات الحـــرفية والاتحـــادات التي حققت كثيرا من الاعمال التي حققها مجتمع القـــرية وجمعيات النسب للفلاحين ، وفعلت ذلك بأرباح اكبر بكثير ، ومع توسع الآفاق الاجتماعية والاقتصادية توقفت الشدائد والفقر والتبعية عن الظهور كمصير لا مفر منه للناس العاديين .

ومع ذلك كان هناك العديد ممن اكتفوا بمجـــرد تغيير متـــطلباتهم بمتطلبات جديدة دون أن يكونوا قادرين على تحقيقها ، وفيهـــم كان من اثار لديهم مشهد الثروة التي لم يكونوا يحلمـــون بهـــا في قـــرون سالفة شعورا بالمرارة والاحباط . وفي المناطق المكتـــظة بـــالسكان ، المتمدنة نسبيا والمصـــنعة ، كان هناك أناس عديدون يعيشـــون على هامش المجتمع ، وفي حالة مـــن عدم الأمـــان مـــزمنة ، ولم تـــــكن صناعتهم ابدا حتى في افضل الازمـــان قـــادرة على امتصـــاص كل الفائض من الســـكان ، وتـــزاحم المتســـولون في كل مـــوقع سوق ، وكانوا يتجولون في جماعات في شوارع المدن وعلى الطرقات بين مدينة واخرى ، واصبح العـــديد منهـــم مـــرتزقة ، ولكن في تلك الأيام التي كانت فيها الحمـــلات قصـــيرة ، كانت جيوش المرتـــزقة تسرح باستمرار ، واصبحت كلمة برابانسون تعني عصابات الغـــزو والسلب للجنود غير المستخدمين من الذين يبحثون عن الحظ والذين كانوا دائما يأتون من برابانت والاراضي المجاورة ليخـــربوا اقـــاليم كاملة في فرنسا . وحتى بين الحرفيين المستخدمين كان العديد منهم يجد نفسه اكثر عجزا عن الدفاع عن النفس من فلاحي الضياع .

وصحيح بالطبع أن صناعة العصور الوسطى لا يمكن أن تقـــارن سواء في درجة العقلانية والموضوعية أو التوازن المحض مع المشاريع الكبيرة التي قدر لها أن تغير البنية الاجتمـــاعية لأوروبـــا في القـــرن التاسع عشر، انها لم تكن تتكون ببســـاطة مـــن ورش صـــغيرة كان المعلم ، نفسه فيها رجلا ذا وســـائل متـــواضعة وبـــلا طمـــوح

كبير ، ويمارس مراقبة ابوية خيرة على نحو ثلاثة أوأربعة مساعدين،ويشكل مع الصبية المتدربين على الحرفة جماعة عائلية تقريبا ، فهذه الصورة المألوفة صالحة فقط للصناعات التي كانت تنتج للسوق المحلي ، أما الصناعات التي كانت تنتج السلع للتصدير ، فكانت على العكس لها قاعدتها الاقتصادية في الصورة البدائية للرأسمالية غير المنضبطة وبشكل بارز في صناعات الأقمشة الكبيرة ، كان التجار الرأسماليون هم الذين يقدمون المواد الخام ، والذين يملكون المنتجات المنجزة ، والتي كانت تباع في السوق الدولية ، وكان موقف العمال حتى المهرة ، والنساجين والقصارين متقلقلا مع أنه كان لديهم جمعيات،ولكن هذه لم تكن قادرة على حمايتهم كما كانت بالنسبة للحرفيين الذين كانوا يعملون في السوق المحلي ، وكان هؤلاء الرجال يعرفون أنه في أي لحظة يمكن لحرب أو هبوط في الأسعار تعويق التجارة ، وعندها فإنهم أيضا سيلقي بهم في الحشد اليائس من العاطلين عن العمل ، وذلك في حين كان العديد من العمال غير المهرة الذين يحصلون على أجور بائسة وليس لديهم أي وسائل أوجمعيات منظمة بشكل كامل تحت رحمة السوق.

وإضافة الى الفقر الذي يماثل في حجمه فقر أي فلاح ، كان العمال المتجولين والمؤقتين يعانون من الارتباك ،وهو أمر كان يندر ان يحدث مثله في نظام الضيعة ، فلم يكن هناك مجموعة من العادات يمكن أن يستذيروها في دفاعهم و لم يكن هناك نقص في العمالة يضيف وزنا الى إدعاءاتهم ، وفوق كل شيء إنهم لم يكونوا مدعومين بشبكة من العلاقات الاجتماعية ، يمكن مقارنتها بتلك التي كانت تدعم الفلاح ، ومع انه بالمعايير الحديثة تبدو أكبر مدن العصور الوسطى صغيرة ، ولا يمكن أن يكون هناك شك أنه في مجموعات المدن كتلك التي كانت توجد على سبيل المثال في فلاندرز ، والتي ضمت كل مدينة منها سكانا تراوح عددهم ما بين عشرين الف الى خمسين الفا كان الأسوا حظا يمكن أن ينحدر بطريقة غير ممكنة في قرية ربما كانت تضم خمسين أو ربما مائتي نسمة وإذا كانت

جماعات النسب في الطبقات العليا من سكان المدن مــاتزال هــامة ، فإنها في الطبقات الأولى قد تضاءلت حتى درجة التفــاهة ، و بــدأت الهجرات من المناطق الريفية المكتظة بالسكان الى المراكز الصناعية بالتمزق و انتهت بتمزيق العائلات الفلاحية الكبيرة ، و بين السكان الصناعيين من جانب اخر كان لدى جماعات النسب مــن أي حجــم ملموس بالكاد الفرصة التشكل جــزئيا بســبب معــدلات الوفـــاة المرتفعة ، حتى أن السكان يجب الى حد كبير ان يتجددوا من جديد كل جيل ، وجزئيا لأن العائلات الفقيرة كانت عاجزة عن الحصــول على اكثر من فرصة صغيرة في مجال العيش في أي مكان.

وكان العمال المتجولون والعمال غير المهرة ، والفلاحون من غير المالكين أو الذين يملكون أرضـــا أصـــغر مـــن أن تعيلهـــم والشـــحاذون ، والمشردون والعـــاطلون أولئك المهـــــددون بالبطالة ، والعديد من الذين لسبب أولآخــر لم يكن بإمــكانهم بلوغ مكانة مضمونة ، ومعترف بها ، لقد كان مثل هؤلاء الناس يعيشون في حالة من الاحباط المزمن والقلق ، ويشكلون اكثر العناصر تهورا وعدم استقرار في مجتمــع القــرون الوســطى ، وكل حـــدث يثير الاضطراب والفزع والاثارة.

وكل نوع مــن الثــورة أو التمــرد أو دعوة الى حملة أو فتــرة انقطاع في الحكم او خلو للعرش او الوباء ، أو المجــاعة أو أي شيء يمزق روتين الحياة الاجتماعية ، كان يؤثر على هؤلاء الناس بحــدة غريبة ، ويحدث ردود فعل ذات عنف غريب ، والطريقة الوحيدة التي كانوا يحاولون فيها التعامل مــع مــازقهم المشــترك كانت تشــكيل مجموعة من المخلصين تحت زعامة واحــد يدعي أنه المســيح وحيث كان يوجد فائض في السكان يعيش على هامش المجتمع ، توفر دوما الميل قويا لاتخاذ زعيم رجــلا نصـــف ديني ، أو ربمـــا راهـــب مرتد ، كان يفرض نفسه ، لا ببساطة كرجل مقــدس ، بــل كنبــي ومخلص او حتى كإله حي ،وعلى قــوة الالهــامات أو الوحــي الذي يدعي بسببه اصلا الهيا ، كان هذا الزعيم المبعوث يقــرر لاتبــاعه

مهمة جماعية ذات ابعاد كبيرة واهمية تهز العـالم ، وكان الاقتناع بضرورة هذه البعثة ، وبكون المبعوث مكلفا مـن الرب بتنفيذ مهمـة استثنائة يزود المشوشين والمحبطين بأمل جديد وقدرات جديدة على الاحتمال ، ولم يعطهم ببساطة مكانا في العالم . بـل مـكانا فـريدا لامعا،وكانت الأخوانيات من هذا النوع تشعر أنها نفسـها صـفوة وضعت سرمديا بعيدا عن وفوق العناصر الفانية العادية ، وتشـارك في المزايا الاعجازية لزعيمهـا ، وتشـارك ايضـا في قـدراته العجائبية ، وعلاوة على ذلك كانت البعثة التي اجتذبت بصورة أشد هذه الحشود من بين اكثر طبقـات السـكان عوزا ـ كانت بشـكل طبيعي وكاف ـ بعثة ترمي لأن تتأوج بتحول كامل للمجتمـع . وفي التخيلات الأخروية التي ورثوها من الماضي السحيق والعـالم الذي للمسيحية الاولى ، وجد هؤلاء الناس أسـطورة اجتمـاعية مـكيفة بشكل أكثر اكتمالا مع متطلباتهم؛وقدر لهذه العملية التي بعد حدوثها الأول ، في المنطقة بين السوم والراين ، أن تحدث في قرون متـأخرة في جنوب ووسط المانيا ، وحتى أبعد ، في هولندا ووستفاليا .

وفي كل حالة كانت تحدث في ظروف متماثلة عندمـا كان السـكان يتزايدون ويتحـولون الى الصـناعة كانت الروابـط الاجتمـاعية التقليدية تضعف أو تتحطم والفجوة بين الأغنياء والفقـراء تتحـول الى هوة ، ثم في كل هذه المناطق بـدورها كان الشـعور الجمـاعي بالعجز والقلق والحسد يفرغ نفسه في الحـاح مسـعور ليضرب غير الاتقياء ـ وبذلك تتشكل من المعاناة النازلة والمعاناة المحتملة ، تلك المملكة النهائية ، حيث يتجمع القديسون حـول الملاذ العـظيم ، وفي شخص مسيحهم ، حيث يتمتعون بالراحة وبالثروة والأمن والقـوة الى الأبد.

الفقراء في الحملات الصليبية الأولى :

شهد نصف القرن الذي ظهر فيه تانشيلم اوف انتـويرب و ايون أوف بريتاني (ص ٦١) شهد ايضا الانفجارات الأولى لما يمكن ان

يدعوه المرء دون تحفظ مسيحانية الفقراء . وقد هيأت الحملتان الصليبيتان الأولى في ١٠٩٦ والثانية في ١١٤٦ الظروف العامة لذلك .

عندما استدعى البابا أوربان الثاني فرسان العالم المسيحي للاشتراك في الحملة الصليبية أطلق بين الحشود الآمال والكراهية التي كانت تعبر عن نفسها بطرق غريبة تماما عن اهداف السياسة البابوية ، وكان الهدف الرئيسي لمناشدة اوربان الشهيرة في كليرمونت في ١٠٩٥ تزويد بيزنطة بالتعزيزات التي احتاجت اليها من اجل طرد الأتراك السلاجقة من آسيا الصغرى ، لانه كان يأمل ان تعترف الكنيسة الشرقية بالمقابل بسيادة روما ، حتى تستعاد الوحدة النصرانية ، وفي المقام الثاني كان معنيا بأن يشير الى نبل موطنه فرنسا خاصة ، وأن يوجد مخرجا بديلا للطاقات الحربية التي كانت ماتزال تجلب الخراب باستمرار للأرض ، وكانت اللحظة مناسبة لأن مجتمع كليرمونت كان معنيا بدرجة كبيرة بهدنة الرب ، ذلك الجهاز الساذج الذي حاولت الكنيسة على مدى نصف قرن ان تحد به من الأعمال الحربية الاقطاعية ، واضافة الى الاكليروس كان عددا كبيرا من النبلاء الاقل شأنا قد جاء كليرمونت وقدم أوربان للذين سيشتركون في الحروب الصليبية مكافآت مؤثرة، فالفارس الذي يأخذ الصليب بمقصد ورع سيكسب الغفران من العقاب عن خطاياه العارضة جميعها ، واذا مات في المعركة سينال المغفرة عن كل خطاياه وستكون هناك جوائز مادية اضافة الى الجوائز الروحية ، ولم يكن الاكتظاظ بالسكان قاصرا على الفلاحين ، وأحد الأسباب للحروب الدائمة بين النبلاء كان النقص الحقيقي في الأرض،وكثيرا ما كان الأبناء الاصغر بلا ارث بالمرة ، ولم يكن لديهم خيار سوى البحث عن الحظ ، وطبقا لاحدى الروايات كان أوربان نفسه قد قارن بين الفقر والعوز الفعلي لكثير من النبلاء ، والرخاء الذي سيتمتعون به عندما سيستولون على الأقطاعات الجميلة الجديدة في الأراضي الجنوبية ، وسواء فعل ذلك أم لم يفعل ، كان هذا بالتاكيد اعتبار له وزنه الراجح لدى الكثير من

الصليبيين ، ومع ذلك من الواضح انه كان يجري بالفعل بين الاساقفة والكهنة النبلاء ، الذين سمعوا مناشدة واغراء اوربان في كليرمونت شيء ما لم يكن ببساطة توقعا لكسب فردي سواء أكان ماديا أم روحيا ، وبينما كان المجلس يستمع كانت تكتسحه انفعالات القوة الغامرة ، وصاح الالوف في صوت واحد ديوس لافولت – « إنها إرادة الرب » وهم محتشدون حول البابا راكعين بين يديه يلتمسون الأذن بالاشتراك في الحرب المقدسة ، وخر احد الكرادلة على ركبتيه وتلا « الكونفتيور » (صلاة الاعتراف) باسم الجمع كله ، وبينما كانوا يرددونها وراءه انفجر الكثير بالبكاء وأصيب العديد برعشة تشنجية ، ولبرهة وجيزة هيمن على الاجتماع ، الذي سادت فيه الارستقراطية ، جو من الحماس الجماعي ، ومثل ذلك أصبح طبيعيا في الحالات الطارئة التي حدثت فيما بعد للناس العاديين .

ذلك أن مناشدة كليرمونت كانت البداية فقط لهياج تلقفه على الفور عدد كبير من الوعاظ ، واستمر التبشير بالحملة الصليبية بين النبلاء من قبل أوربان نفسه الذي أمضى شهورا عدة يسافر في انحاء فرنسا لهذه الغاية ، وبوساطة الأساقفة الذين عادوا من كليرمونت الى أبرشياتهم ، وقد تم الوعظ بها أيضا للناس العاديين بوساطة عدد من المتنبئين ، وهم أناس مع انهم كانوا غير مزودين بأي سلطة رسمية كانت لديهم الهيبة التي كانت تحيط دائما بالزاهدين من صانعي المعجزات ، وأشهر هؤلاء كان بطرس الناسك ، وولد بطرس قرب أميئز وأمضى حياة زاهدة صارمة ، في البداية كراهب ثم كناسك ، وكان يسير حافي القدمين ، ولم يمس اللحم أو النبيذ قط ، وكان رجلا ضئيلا نحيلا ذا لحية طويلة رمادية ، له حضور اسر ، وبلاغة عظيمة ، حتى أنه نقلا عن واحد كان يعرفه ، كانت كل كلمة أو فعل منه تبدو نصف الهية ، وقد مارس على الجماهير ابهارا وسحرا لايقاوم ، وكان الناس يحتشدون ويتدافعون حوله ويجهدون لانتزاع شعرة واحدة من الأتان التي كان يركبها ليدخروها كتذكار أثري مقدس ، وقد تكاثرت الاساطير حول قصة

حياته ، وقبل أن يتكلم البابا قيل كان بطرس في القدس ، وفي كنيسة القيامة حيث الضريح المقدس ظهر له المسيح وأعطاه رسالة مفوضا إياه باستدعاء الحملة الصليبية ، ويبدو أن بطرس قد أسهم في الأسطورة بحمل الرسالة السماوية معه اينما وعظ ، وكان نجاحه كداعية ضخما ، وبينما كان يمر في شمال فرنسا قفز جيش من الصليبيين الى الوجود ، وأسرع الناس الى بيع ممتلكاتهم لشراء الأسلحة وعدة السفر ، ثم بعدما لم يعد لديهم أي وسيلة للمعيشة بداوا يرحلون ، وفي اذار ١٠٩٦ م قبل أن تصبح الحملة الصليبية الرسمية للبارونات جاهزة باربعة شهور عبر بطرس من الأراضي الفرنسية الى الالمانية عل راس الجماعة التي الهمها ، وفي الوقت نفسه كانت جماعات أخرى تتشكل حول قادة أخرين في شمال فرنسا ، وفلاندرز وعلى طول الراين.

وكان لابد للجيش الذي تصوره البابا أن يتألف من الفرسان وتوابعهم ، وكلهم مدربون على الاعمال الحربية ومجهزون بشكل كامل ، واعد معظم النبلاء الذين استجابوا لدعوات البابا أنفسهم في الواقع باعتدال وبطريقة واقعية من أجل الحملة ومن جانب أخر ضمت الحشود التي استحضرت بمواعظ المتنبئين أناسا كان نقص مؤهلاتهم العسكرية يعادله فقط عنفهم واندفاعهم ، ولم يكن لديهم في الواقع سبب للتأخر بل الاسباب للتعجل ، وكان معظمهم فقراء جاءوا من المناطق المكتظة ، حيث كان قدر الفقراء انعدام الأمن الدائم علاوة على ذلك كانت الحياة في العقد« ١٠٨٥-١٠٩٥ » أقسى بكثير حتى من المعتاد ، وبشكل دقيق في شمال شرق فرنسا والمانيا الغربية حيث كانت هناك سلسلة غير منقطعة تقريبا من الفيضانات والجفاف والمجاعات ، ومنذ ١٠٨٩ كان السكان يعيشون ايضا في رعب مستمر بصورة بغيضة ، وبشكل استثنائي بسبب الوباء الذي يمكن ان يضرب فجأة وبلا سبب ظاهر في المدينة أو القرية وبسبب الموت المكرب لغالبية السكان وكان رد فعل الجماهير على هذه الكوارث كالمعتاد . تجمع الناس جماعات تائبة متعبدة حول الناسكين والرجال المقدسين الآخرين ، والمباشرة بطلب الخلاص

الجماعي ، وقد أعطى الظهور المفاجىء للمتنبئين ، الذين يبشرون بالحملة الصليبية تلك الحشود المبتلاة الفرصة لتكوين جماعات خلاصية على مجال اوسع بكثير والهروب في الوقت نفسه من الاراضي التي أصبحت الحياة فيها لاتحتمل ، وأسرع الرجال والنساء على السواء بالانضمام الى الحركة الجديدة ، وكثيرا ما كانت عائلات بكاملها تتحرك معا مع الأطفال والمنقولات المنزلية محملة على عربات ، ومع تزايد الحشد كانوا يتضخمون بكل انواع المغامرات الغريبة ، من الرهبان المرتدين الى النساء المتنكرات في مظهر الرجال مع العديد من اللصوص وقطاع الطرق.

وكانت الحملة الصليبية بالنسبة لتلك الحشود تعني شيئا مختلفا عما كانت تعنيه بالنسبة للبابا ، ولم يكن العامة كما دعاهم المؤرخون المعاصرون لهم مهتمين بدرجة كبيرة بمساعدة مسيحي بيزنطة ، ولكنهم كانوا عاطفيا مهتمين بالوصول الى القدس واحتلالها وسكناها ، فالمدينة التي كانت اقدس مدينة في العالم لدى المسيحيين ، كانت في أيدي المسلمين منذ نحو اربعة قرون ونصف القرن ، مع أن امكانية استردادها كانت على مايبدو تشغل دورا صغيرا في خطة أوربان الأصلية ، ان هذا التوقع هو الذي سمم جماهير الفقراء ، لقد كانت الحملة الصليبية في عيونهم حجا قتاليا مسلحا ، بل أعظم واكثر أنواع الحج تصعيدا ، ولقرون كان الحج الى الضريح المقدس يعتبر صورة تكفيرية فعالة فريدة ، وخلال القرن الحادي عشر كان مثل هذا الحج ينفذ جماعيا : فلم يعد التائبون يميلون الى السفر فرادى أو في جماعات صغيرة بل في فرق منظمة في تسلسل هرمي ولها قائد ، وأحيانا وبشكل ملحوظ في ١٠٣٣ و ١٠٦٤ كان الحج الجماعي يشمل الوفا عدة من الناس وفي ١٠٣٣ على الأقل كان أول الذاهبين هم الفقراء (ص ٦٤) وكان بينهم بعض من ذهبوا بقصد البقاء في القدس حتى وفاتهم ،وفي الحملة الصليبية ايضا لم يكن لدى الفقراء وكثير منهم فكرة العودة مطلقا الى بيوتهم،لقد أرادوا ان يسترجعوا القدس من غير المسيحيين للاستيطان فيها وليحولوها الى مدينة

مسيحية ، وكل من شارك في الحملة الصليبية كان يرتدي صليبا مخيطا على ردائه الخارجي ، فكان اول شارة يضعها جيش في الفترة مابعد الازمنة الكلاسيكية ، والخطوة الأولى في اتجاه اللباس العسكري الموحد الحديث ، اما بالنسبة للفرسان فان هذا الصليب كان رمزا للانتصار المسيحي في حملة عسكرية قصيرة الأمد،وفكر الفقراء بالحري بعبارة « احمل الصليب واتبعني » وبالنسبة لهم كانت الحملة الصليبية فوق كل شيءتشبها جماعيا بالمسيح ، وتضحية جماهيرية ستكافأ بتمجيد جماعي في القدس .

وقد استحوذت القدس على خيالهم لانها لم تكن مجرد مدينة ارضية بل بالأحرى رمزا لأمل كبير : ولقد كانت كذلك منذ بدأت المثل المسيحية للعبرانيين تأخذ شكلا في القرن الثامن ق.م ، ومن خلال فم اشعيا حرض الرب اليهود العبرانيين :

« ابتهجوا انتم بالقدس وافرحوا بها ... وستنهلون .

وتشبعون من صدور المواشي فيها بما تحلبونه وستسرون بوفرة بهائها ... انظروا ، سأنشر السلام عليها ...
كالنهر .... ثم تنهلون ..... وستحملون على جوانبها وستتأرجحون على ركبتها ، مثل الذي تريحه امه ، هكذا سأريحكم وستستريحون في القدس »

وفي نبوءات فترة مابعد النفي وفي أشعار الرؤيا تم تصور المملكة المسيحية على انها تتمركز في قدس مستقبلية تبنى بفخامة عظيمة ، واخذت هذه التخيلات اليهودية جميعها لتعزيز الأهمية العظيمة المثيرة للعاطفة التي تملكها القدس في اي حال ، بالنسبة لمسيحي العصور الوسطى ،وعندما الف أحد الرهبان بعد الحدث بجيل المناشدة التي تخيل أن أوربان قام بها في كليرمونت جعل البابا يتكلم عن المدينة المقدسة لاعلى انها ببساطة المكان المعد للشهرة الدائمة بمجيء المسيح والامه ، وصعوده إلى السماء بل ايضا « كسرة للعالم » و « الأرض المثمرة التي تعلو فوق الأراضي الأخرى ، مثل

جنة أخرى للمباهج » و « الارض الملكية الواقعة في مركز العـالم » وهي الآن أسيرة تطلب العون ، وتتوق إلى التحـرير ، وعلاوة على ذلك وحتى بالنسبة لعلماء اللاهوت كانت القدس ايضا « شخصية » أو رمزا لمدينة سماوية « مثل حجر ثمين جدا » قدر له كمـا جـاء في سفر الرؤيا أن يحل محلها في آخر الزمان ، فـلا عجـب أن ــ كمـا لاحظ المعاصرون ــ تـكونت في عقـول الناس البسـطاء فـكرة أن القدس الأرضية قد أصبحت مشـوشة ومختلطـة بفـكرة القـدس السماوية ، حتى أصبحت المدينة الفلسطينية(ص ٦٥)نفسها تبدو عالما معجزا يزخر بـالنعم المادية والروحية كليهمـا ، ولاعجب انه عندما سلكت جماهير الفقراء طريق الحج الطويل صرخ الأطفال عند كل مدينة وقلعة « اهذه هي القدس ؟» و ذلك بينما كان يرى عاليا في السماء مدينة خفية غامضة تهرع إليها الحشود .

وفي حين أنه في شمال فـرنسا ، وفـلاندرز ووادي الراين شـكل الفقراء انفسهم في فـرق ذاتية الادارة فإنهـم في المناطـق الأخـرى المتمدنة بدرجة عالية والمكتظة بالسكان مثل بـروفانس تـدفقوا على جيش الكونت ، ريموند أوف طـولوز،وكنتيجـة فقـد تـطور في ذلك الجيش شعور بالبهجة كبير بـالدرجة نفسـها التـي سـادت في الجماعات التي اتبعت المتنبـئين ، وبشـكل متمـاثل في الشـمال والجنوب اعتبر الفقراء الذين انضـموا للحملة الصـليبية أنفسـهم صفوة الصليبين ، وشعبا اختـاره الله ، في حين أن البـارونات لم يختاروا ، وعند اللحظة الحرجة في حصار انطاكية حمـل القـديس اندروز أنباء سارة تفيد أن الحربة المقدسة كانت مـدفونة في إحـدى الكنائس في المدينة ، ويعود الفضل في ظهورها إلى فـلاح بـروفانسي فقير ، وعندما تردد الفلاح مدركا لوضعه الدوني في نقله الأخبار إلى القادة النبلاء ، أكد له القديس : « إن الرب قد اختـاركم (فقـراء الناس) من بين كل الناس ، كما تجمع سنابل القمـح مـن وسـط حقل من الشوفان ، لأنه بالجدارة وبنعمة الفضيلة فإنكم ستتخطون كل من كانوا قبلكم وكل من يأتي بعدكم بقدر مـايتفوق الذهـب على الفضة » ويقترب ريموند أوف أغويلرز الذي يحكي القصـة ، أكثـر

من عيره من المؤرخين في مشاطرة وجهة نظر الفقراء ، ويبدو طبيعيا بالنسبة له أنه عندما كان يقتل بعض الفقراء كان لابـد مـن ظهـور صلبان معجزة على لوح الكتف ، وعندمـا يتحـدث عن العـالة مـن الدهماء فإنه كان يفعل ذلك وهـو يشـعر دائمـا بخشـية اكيدة باعتبارهم مختارين من الرب .

ويأتي الشعور بالأهمية لدى الفقراء بشـكل واضـح أكثـر مـن القصص الغريبة التي تمتزج فيها الأسطورة بالحقيقة ، التي تحكي عن الناس الذين كانوا يدعون « طفور Tafurs » و هناك قسم كبير ــ يحتمل أن يكون القسم الأكبر ــ من الحملة الشـعبية الصليبية أثناء رحلتها عبر أوروبا ، ولكن مايكفي نجـا ليشـكل في سورية وفلسطين جيشـا مـن المشردين ــ الذي يبـدو أن الكلمـة الغامضة « طفور » تعنيه ، ولقد كان « الطفور » عصـابة ضـارية حافية الأقدام شعثاء تلبس ثيابا مهلهلة من الخيش تكسوها القذارة والقروح ، تعيش على جذور النباتات والأعشاب وأحيانا ايضا على جثث الأعداء المشـوية ، وكانت تخـرب تمـاما اي بلد تمـر فيه ، ولفقرهم إلى درجة عدم القدرة على امتلاك سـيوف أو رمـاح كانوا يستخدمون الهراوات المثقلة بالرصاص ، والعصي المدببة والسكاكين والبلط ، والمجارف والمعازق والعرادات ، وعندما كانوا يهاجمون في المعـركة كانوا يصرون بـأسنانهم كمـا لو أنهـم كانوا(ص ٦٦) يقصدون اكل اعدائهم احياء إلى جـانب اكلهـم امـواتا ، ومـع أن المسلمين واجهوا البارونات الصـليبيين بـلا وجـل ، فإنهـم كانوا يرهبون الطفور وكانوا يسمونهم « غير فـرنجة » « بـل شـياطين حية » .

وكان مؤرخو المسيحية أنفسهم ــ مـن الاكليروس أو الفـرسان الذين كان اهتمامهم الرئيسي ينصب على افعال الأمراء ــ في الوقت الذي كانوا يقرون فيه بفعالية الطفور في المعـركة ، كانوا بـوضوح ينظرون إليهم بريبة وارتباك ، ومع ذلك عندما يعود المرء إلى الملحمة

العامية المكتوبة من وجهة نظر الفقراء يجد أن الطفور قد صوروا كأناس مقدسين « وإنهم أجدر من الفرسان بكثير » .

وعرض الطفور ولهم ملك يقال إنه كان فارسا نورمانديا تخلى عن حصانه وسلاحه ودرعه ، ليلبس الخيش ويحمل المنجل . وعلى الأقل في البداية كان زاهدا ، وكان الفقر بالنسبة له هو كل القيمة الصوفية التي كانت لدى القديس فرانسيس وحوارييه ، ومن حين لآخر كان ملك الطفور يفتش عن رجاله ، فإذا وجد مالا مع أحد منهم كان يطرده من الجماعة ، ويرسله لشراء السلاح والالتحاق بالجيش المحترف الذي يقوده البارونات ، في حين كان الذين يتنسكون ويتخلون عن كل ممتلكاتهم عن إيمان راسخ يقبلون في عضوية « الجماعة ، أو الدوائر الداخلية للأتباع ، وكان الطفور يعتقدون انه بسبب فقرهم فقط هم انفسهم قد قدر لهم أن يدخلوا المدينة المقدسة « إن الأفقر سيأخذونها : وهذه علامة تظهر بوضوح إن الرب لايهتم بالوقحين الذين لاإيمان لهم » ، بيد انه وإن استحق الفقراء الجدارة بفقرهم ، لقد كانوا ملأى بالجشع وحب المال ، والغنائم التي كان يستولي عليها من غير المسيحيين ،لم يكونوا يشعرون بأنها تقلص مطالبهم من العطف الالهي ، بل الأحرى أن تثبت حقيقة هذا العطف ، وبعد مناوشات ومصادمات ناجحة خارج انطاكية . كان الفقراء البروفانسيين « يعدون فوق ظهور خيولهم بين الخيام ليظهروا لرفاقهم أن فقرهم قد انتهى ، وارتدى أخرون رداءين او ثلاثة من الحرير ، وحمدوا الرب المانح للنصر والمعطي للهدايا ، ومع قيادة ملك الطفور للهجوم الأخير على القدس كان يصيح « أين الفقراء الذين يريدون المال ؟ ليأتوا معي ! .... فاليوم بعون الرب سأربح مايكفي لتحميل بغال كثيرة ! » وفيما بعد عندما كان المسلمون يحملون كنوزهم عند اسوار المدينة المستسلمة في محاولة لاغراء المسيحيين بالارتداد إلى العراء يظهر أن الطفور كانوا عاجزين عن كبح انفسهم حيث أخذ ملكهم يصيح « هل نحن في سجن ؟ إنهم يحضرون الكنوز ونحن لانجرؤ على أخذها ! .... ماذا يهمني إذا مت ؟ طالما كنت افعل ما أريد ، ؟ وفيما هو ـ يدعو

القديس لازاروس – لازاروس الحكايات والأمثال الذي اتخذ منه فقراء العصور الوسطى راعيهم المقدس – قاد جماعته خارج المدينة إلى الكارثة ،وفي كل مدينة كان يستولى عليها ، نهب الطفور كل شيء وضعوا ايديهم عليه ، واغتصبوا المسلمات وقاموا بمذابح بلا قيود ولاتمييز ، ولم يكن لدى القادة الرسميين سلطة عليهم إطلاقا (ص ٦٧) وعندما احتج امير انطاكية على اكل الطفور لحوم البشر ، لم يكن أمام الأمراء سوى الاقرار معتذرين « إننا جميعا معا لانستطيع كبح جماح ملك الطفور » ، وكان البارونات يبدون في الواقع خائفين نوعا ما من الطفور ، وكانوا يحرصون على حسن التسلح كلما اقتربوا منهم ، وهذا بلا ريبة كان حقيقة الأمر ، ولكن في القصص التي تروى من وجهة نظر الفقراء لم يكن الأمراء الكبار ينظرون إلى ملك الطفور بقلق شديد ، بقدر ماكانوا بذلة ، بل حتى باحترام ، وإننا نجد ملك الطفور يحث البارونات المتمردين على مهاجمة القدس قائلا : « سادتي ماالذي نفعله ؟ إننا نؤخر هجومنا على هذه المدينة وعلى هذا العرق الشرير اكثر مما ينبغي ، إننا نتصرف كحجاج مزيفين ، لو بقي الأمر لي وللفقراء وحدهم ، فإن الوثنيين سيجدوننا أسوأ جيران لهم على الاطلاق » ! وتأثر الأمراء حتى انهم طلبوا منه قيادة الهجوم الأول ، وعندما غطته الجراح حمل من ميدان المعركة ، وتجمعوا حوله قلقين ، ولكنهم اظهروا ملك الطفور على انه اكثر من مجرد اقوى المحاربين ، فكثيرا ما ظهر مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمتنبئين ، و في احدى الروايات كان بسطرس الناسك – و في أخرى اسقف خيالي – هو الذي حمل الحربة المقدسة وهو الشعار الذي اتخذه الفقراء ، وهو نفسه امتلك بوضوح صفة خارقة للطبيعة وضعته فوق كل الأمراء ، وعندما – كما في القصة المكتوبة للفقراء – أصبح غودفري أوف بوليون ملكا على القدس اختار البارونات ملك الطفور باعتباره « الأعلى مقاما » ليقوم بالتتويج ، وقد قام بذلك باعطاء غودفري غصنا من الأشواك كذكرى لتاج الشوك ، وقام غودفري بقبول البيعة وأداء القسم باعتبار القدس اقطاعية من ملك الطفور والرب وحده .

ولشعورهم أنهم تحملوا ما يكفي تعجلوا العـودة الى زوجـاتهم وحقولهم ، ولكن ملك الطفور مـا كان ليرى القـدس مهجـورة ، لذا ارتهن نفسه للبقاء مـع جيش الفقـراء ،لحمـاية الملك الجـديد و مملكته ، وفي هذه الأحداث الخيالية الصرفـة أصـبح الملك الشـحاذ رمزا للآمال الضخمة المفرطة التـي حملت الدهمـاء والفقـراء على مصاعب لا توصف نحو المدينة المقدسة.

وكان تحقيق هذا الأمـل يتـطلب التضـحية البشرية على نطـاق واسع ، ليس فقط بالنفس من قبل الصليبيين بل أيضـا بـذبح غير المسيحيين ، مع ان البابا والأمراء ربما كانوا قـد اعتـزموا القيام بحملة بأهداف محدودة ، فإن الحملة في الواقع باتت ترمي باستمرار لان تصبح كما ارادهـا العـامة : حـربا لابـادة « ابناء العاهرات » «عرق قاين » كما كان ملك الطفور يدعو المسلمين ، ولم يكن مجهولا بالنسبة للصليبيين انهم كانوا يمسكون بفلاحي منطقـة ما ويقدمون لهم خيارا بين التنصر فورا أو القتل(ص ٦٨) » وقـد حققوا ما جعل الفرنجة يعودون و قد ملأهم الحبور » و قـد أعقـب سقوط القدس مذبحة عظيمة بـاستثناء الحـاكم وحـرسه ، الذين تدبروا امر شراء حياتهم واصطحبوا إلى خارج المدينة ، وقتـل كل المسلمين رجالا ونساء واطفالا : « وخاضت الخيول في الدماء حتى الركب لا بل حتى اللجام بداخل المسجد الاقصى وحـوله ، لقـد كان حكما عادلا وعجيبا من الرب ان يتلقى المكان نفسه دماء أولئك الذين طالما حمل تجديفم الى الرب » و بـالنسبة ليهـود القـدس عندمـا التجأوا إلى معبدهم احرق المبنى واحرق الجميع أحياء.

وسار الصليبيون وهم يبكون من الفرح وينشدون اناشيد الحمـد في مواكب الى كنيسة الضريح المقدس « ايهـا اليوم الجـديد ، يوم جديد وابتهاج ، فرح جديد ودائم ... اليوم الذي سيشتهر في القرون القادمة حول معاناتنا ومصاعبنا الى حبور وبهجة ، ذاك يوم تـأكيد المسيحية والقضاء على المسلمين والتجديد لايماننا »«ولكن حفنة من المسلمين ظلوا أحياء : لقد التجـأوا الى سـطح المسـجد الأقصى ،

- ١٤٩٤ -

ووعد الصليبي الشهير تا نكرد بالابقاء على حياتهم في مقابل فدية كبيرة ، واعطاهم علمه كجواز للمرور في أمان ،ولكن تانكرد أمكنه فقط أن يرقب في عجز غاضب الجنود العاديين وهم يتسلقون جدار المسجد ليقطعوا رأس كل رجل وامرأة سوى الذين القوا بأنفسهم الى حتفهم من فوق السقف ».

واذا أخذ المرء هذه الأحداث بعين الاعتبار يبدو طبيعيا بدرجة كافية ان أول مذبحة كبيرة لليهود الأوروبيين لا بد أنها حدثت أيضا خلال الحملة الأولى ،ولم يكن للجيش الصليبي الرسمي الذي تألف من البارونات واتباعهم يد في هذه المذبحة التي نفذت كلية بوساطة الجماعات التي تشكلت في ركاب المتنبئين ، وأوضح أحد المؤرخين أنه« مع قيام الحروب الصليبية ترسخ السلام على كل الجوانب وهوجم اليهود على الفور في المدن التي يعيشون فيها » ويقال أنه في البداية الأولى للهياج الصليبي منحت الجماعات اليهودية في روين والمدن الفرنسية الأخرى حق الخيار بين التحول الى المسيحية أو الذبح ، غير أن المدن الأسقفية على طول الراين قد شهدت أعنف الهجمات ، وهنا كما على طول جميع الطرق التجارية في غرب أوروبا كان التجار اليهود قد استقروا منذ قرون وبسبب نفعهم الاقتصادي ، تمتعوا دائما بالعطف الخاص من رؤوساء الأساقفة ، ولكن مع نهاية القرن الحادي عشر ، ادى التوتر في كل هذه المدن بين أهلها وسادتهم من الأكليروس إلى قيام اضطرابات اجتماعية عامة ، وكان جوا ثبت انه مناسب للمتنبئين العائدين للحروب الصليبية كما ثبت انه مناسب ايضا لتاذشيلم بعد ذلك بوقت قصير(ص ٦٩).

وفي بداية ايار ١٠٩٦ خطط الصليبيون المعسكرون خارج سبيير لمهاجمة اليهود في معابدهم يوم السبت ،واخفقوا في صنع هذا وكانوا فقط قادرين على قتل حفنة من اليهود في الشوارع ، وأوى الأسقف البقية في قصره وعاقب بعض القتلة ، و في ورمز كان اليهود اقل حظا ، وهنا ايضا لجأوا الى طلب حماية الأسقف والبرجوازيين

الموسرين ، ولكن احدا لم يكن قادرا على حمايتهم عندما وصل رجال من الحملة الصليبية الشعبية وقادوا أهل المدينة في هجوم على حي اليهود ، ونهب المعبد كما نهبت البيوت وقتل كل شاغليها ممن رفضوا التعميد من البالغين ، اما بالنسبة للأطفال فقد قتل بعضهم وأخذ بعضهم الآخر لتعميدهم وترتيبهم كمسيحيين ، والتجأ بعض اليهود الى قصر الأسقف،وعندما هوجم هذا أيضا عرض الاسقف عليهم التعميد وانقاذ أرواحهم ، ولكن الجماعة كلها فضلت الانتحار ، وكمجموع يقال أن نحوا من ثمانمائة من اليهود هلكوا في ورمز .

وفي ميتز حيث عاشت اكبر جماعة من اليهود في المانيا ، اخذت الأحداث الى حد كبير المجرى نفسه فهناك أيضا تمت حماية اليهود وفي البداية من قبل رئيس الأساقفة والمقدم المدني الأكبر ، واكبر البرجوازيين ثراء ، ولكن في النهاية اجبرهم الصليبيون بتأكيد من أهل المدينة الأشد فقرا على الاختيار بين التعميد والموت ، وهرب رئيس الأساقفة وكل هيئته خوفا على حياتهم ، وهلك اكثر من الف يهودي ويهودية سواء بالانتحار أو على أيدي الصليبيين ، و من مدن الراين تحركت فرقة من الصليبيين الى تريير والقى رئيس الأساقفة موعظة طلب فيها الابقاء على اليهود ، ولكن بالنتيجة كان عليه هو نفسه أن يهرب من الكنيسة ، وهنا أيضا مع أن بعض اليهود قبلوا التعميد ، فإن الغالبية العظمى هلكت ، و تحرك الصليبيون الى متز حيث قتلوا المزيد من اليهود ، وعادوا في منتصف حزيران الى كولون و لجأت جماعات اليهود الى الاختباءفي القرى المجاورة و لكنهم اكتشفوا من الصليبيين ونبحوا بالمئات ، وفي هذه الاثناء شقت فرق أخرى من الصليبيين طرقها في اتجاه الشرق ، وفرضت التعميد بالقوة على جماعات رجنسبرغ و براغ ، و بشكل اجمالي يقدر عدد اليهود الذين هلكوا في شهري ايار وحزيران ١٠٩٦م ما بين اربعة الاف الى ثمانية آلاف .

و كانت هذه بداية تقاليد ، ففي سنة ١١٤٦ حين كان التحضير

للحملة الصليبية الثانية يجري من قبل الملك لويس السـابع ونبـلاء فرنسا ، كان السكان في نورماندي وبيكاردي يقتلون اليهود ، وأثناء ذلك شق راهب مرتد يدعى رودلف طريقه من هينوت الى الراين حيث دعا الحشود الى الانضمام الى حملة صليبية شعبية والشروع بقتل اليهود ، وكما في زمان الحملة الصليبية الأولى كان الناس العاديين مدفوعين الى اليأس بفعل المجاعة ، وككل متنبيء ناجح(ص ٧٠) كان يعتقد أن رودلف يقوم بمعجزات، وأنه مؤيد بالوحي السماوي ، واندفعت الجموع الجائعة اليه أفواجا ، وكانت المدن الأسـقفية مـا تزال تعيش في صراعاتها الداخلية المريرة – كولون ، متز ، و رمز سبيير وأيضا هذه المرة ستراسبورغ عندما مر فيها الصليبيون وورز برغ وقد ثبت أن هذه هي الأرض الأكثـر خصـوبة للهياج المعـادي لليهود .

و منها انتشرت الحركة الى مدن كثيرة أخرى في المانيا وفرنسا ، ولجأ اليهود الى طلب الحماية كما فعلوا قبل ذلك بنصف قـرن مـن الأساقفة والبورجوازيين الأثـرياء ، و عمـل هؤلاء مـا بـوسعهم للمساعدة ، و لكن الدهماء لم يكونوا ليرتـدعوا بسـهولة ، وفي كثير من المدن كان السكان على شفا عصيان علني مسلح وبدا أن كارثـة شاملة أخرى أصبحت وشيكة النزول باليهود ، وعند هـذه النقـطة تدخل القديس برنارد وبكل ثقل هيبته أصر على أن المذبحة يجـب أن تتوقف.

وحتى القديس برنارد بكل سمعته الرائعة كرجل مقدس وصـانع للعجائب كان بالكاد قادرا على لجم الغضب الشعبي فعندمـا واجـه رودلف في مينز ، وكراع لدير الرهبـان طلب منه العـودة الى ديره ، كان العوام قد أوشكوا على حمل السلاح لحماية المتنبيء ، وبعد ذلك كانت مذابح اليهود ستبقى سمة طبيعية للحملات الصليبية الشعبية تميزها عن حملات الفرسان الصليبيين ، و من الواضح بدرجة كافية لماذا كان الدهماء الفقراء ينهبون اليهود بكل حرية وهم يقتلونهم كما فعلوا بالنسبة للمسلمين ، مـع أن النهـب لم يكن هـدفهم الرئيس

بالتأكيد ، إن حولية يهودية عبرية هي التي تسـجل كيف انه خـلال الحملة الصليبية الثانية ناشد الصليبيون اليهود : « تعـالوا الينا حتى نصبح شعبا واحدا ».

ويبدو انه ليس هناك شك في ان اليهود كان بامكانهم دائما انقـاذ الأرواح والممتلكات بقبول التعميد ، و من جانب آخر قيل إن كل مـن قتل يهوديا رفض التعميد غفرت ذنوبه •

وكان هناك اولئك الذين شعروا انه غير مثاب ابدا أن تقلع بحملة صليبية حتى تقتل واحدا من هذا القبيل ، وبعض تعليقات الصليبيين انفسهم حول هذا قد حفظت ،مـن ذلك :« لقـد شرعنا في السـير في طريق طويل لمحاربة أعداء الرب في الشرق ، ونحن نشـاهد أمـام أم اعينناأسوا أعدائه ، اليهود ، إنه يجب التعـامل مـع هؤلاء وأولا » ومرة أخرى :« إنكم ابناء سـلالة اولئك الذين قتلوا ربنا وصـلبوه» وعلاوة على ذلك الرب نفسه قال :«سيأتي فجر اليوم عندمـا يقـدم ابنائي ويثأروا لدمي»

«إننا اولاده وانها مهمتنا أن ننفـذ ثـأره منكم ، لانكم اظهـرتم عنادكم وكنتم مجـدفين عليه ..... لقـد تخلى (الرب) عنكم وحـول إشعاعه الينا وجعلنا خاصته»

و هنا تتكلم بشكل جلي القناعة التـي حـاولت أن تـوجه الحملة الصليبية الأولى نحو القضاء على الاسلام .

الفصل الرابع

القديسيون ضد حشود المسيح الدجال

المخلصون في الأيام الأخيرة

مع ندرة المدونات حول تلك الفترة (ص ٧١) إنهـا كافية لبيان انه في الحملة الصليبية الشعبية ، كان الجيشـان الغيبـي فعـالا ، وبالنسبة للدهماء إنهم رأوا انفسهم فعالين في الانجـاز الكبير الذي كان في اتجاهه يعمل كل شيءمنذ بداية الزمان ، وعلى كل الجـوانب كانوا يشـاهدون « الآيات » التـي تميز بـداية الايام الأخيرة ، ويسمعون كيف أن « البـوق الاخير سـيعلن مجـيء الحـكم الصالح » وفوق كل شيءيبدو انهم كانوا مأخوذين بنبوءة الامبراطور العظيم الذي سيرحل في الأيام الاخيرة الى القدس ، ويبدو أنهم قـد فعلوا كل ماأمكنهم لاقناع انفسهم بـأنهم يقـادون مـن قبـل الملك الخفي .

وفي الأصـل في النبـوءات الاغريقية التـي كانت منتشرة في الشرق ، كان الامبراطور الأخير امبـراطورا رومـانيا يحـكم مـن القسطنطينية ، ولكن عندما تـرجم في القـرن الثـامن « المنهـج الكاذب » الى اللاتينية ، في باريس ، بـدأت الدعوة الى تفسـيرات جديدة ، وكان المتوقع انه عندمـا يحتـل امبـراطور الأيام الأخيرة مكانه في التخيلات الغيبية في الغرب ، فـانه سـيتوقف عن أن يكون بيزنطيا ، ومن وجهة النظـر الأوروبية الغـربية ، كان امبـراطور القسطنطينية شخصية بعيدة مبهمة ، ومن جانب أخـر كان الغـرب قادرا على اقناع نفسه أنه بحصول شارلمان على اللقب الامبراطوري فإنه سيشهد بعثا للامبراطورية الرومانية .

وبدا أن الفجوة التي تركها خلع آخر الاباطرة في الغرب ، بعد ان بقيت شاغرة أكثر من ثلاثة قرون قد تم ملؤها بـأعظم مـا يمـكن ، عندما توج في كنيسة القديس بطرس في روما يوم عيد ميلاد المسيح من عام ٨٠٠ شارل ملك الفـرنجة وملك اللومبـارد ، امبـراطورا للرومان ، ومنذ ذلك الحين كان بـالامكان تصـور امبـراطور الأيام الأخيرة كملك غربي ، وبقـي كذلك مـع ان شـارلمان لم يتـرك امبراطورية أرضية وراءه ، وفي كل من الجـزء المتعلق بـالمقاطعات التي كانت تابعة لشـارلمان ، والتـي أصـبحت فـرنسا ، وفي (ص ٧٢) تلك التـي أصـبحت المانيا ، اسـتمر الناس يحلمـون بامبراطور عظيم سيقوم في وسـطهم وسـتتحقق بـه نبـوءات السبلنيين ..

ونحو نهاية القرن الحادي عشر ، وبينمـا كانت فـكرة الحـرب الصليبية قائمة ، أحرزت هذه التخيلات جيشـانا جـديدا والحـاحا وقبل الحملة الصليبية الأولى ببضع سنوات نجد أن بذرو أسقف البا يتنبأ بأن الملك الألماني الحاكم والامبراطور الروماني هنري الرابـع سيغزو بيزنطة ، ويهزم الكفار ويزحف نحو القدس . وإنه سـيلتقي المسيح الدجال هناك وسيهزمه ، وبعـد ذلك سـيحكم امبـراطورية عالمية حتى نهاية العالم ، وصدور هذه الكلمات عن أسقف ذي عقلية سياسية كان نصيرا متحمسا للامبـراطور في صراعه مـع البـابوية ربما يجعلها لاتؤخذ بمعناها الظاهري ، ولكن عندما تجمع الدهماء بعد ذلك بوقت قصير من اجل الحملة الصليبية في جـو مـن الاثـارة المحمومة ، عادت النبوءات السبلينية القديمة للظهور وقد اكتسـبت ديناميكية مـذهلة ، وعقـب راعي دير متعلم بإزدراء قـائلا :« إنه بفضل نشاط الأنبياء المزيفين كان هؤلاء الناس مشبعين بحـكايات حول قيام شارلمان من الموت بهدف قيادة الحملة الصليبية » .

وفي الواقع ان حشدا عظيما من التراث الشعبي كان يتجمع حول الشخصية الهائلة لأول الكارولنجيين لقد أصبح شارلمان يرى فـوق كل بطل نبيل كنصير للمسيح والمدافـع الذي لايتعـب عن النصرانية

ضد القوة المسلحة للاسلام ، وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر اصبح الاعتقاد شاملا تقريبا انه قد قاد مرة حملة صليبية الى القدس واجبر الكفار هناك على الهرب ، واعاد المسيحيين الذين طردوا الى وضعهم السالف ، وتروي أكثر من حولية كيف ان الصليبيين في ١٠٩٦ رحلوا على الطريق الذي كان يفترض ان شارلمان قد بناه بهذه المناسبة ، وعلاوة على ذلك كان الاعتقاد ايضا على نطاق واسع ان شارلمان لم يمت بالمرة ، وانما كان نائما فقط سواء في مدفنه في آخن او بداخل أحد الجبال ، حتى تأتي الساعة كي يعود الى عالم الرجال ، وعلى هذا كان من السهولة بدرجة كافية بالنسبة للوعاظ الشعبيين التجنيد للحملة الصليبية ، والجمع بين هذه القصص ونبوءات السبلنيين ، وان يقودوا الشعب العادي ليرى في شارلمان ذلك الامبراطور العظيم الذي كان عليه ان ينفض عنه النعاس ، ويقضي على قوة الاسلام ، ويقيم عصر النعيم الذي كان مقدرا له أن يتقدم على النهاية : هل أصبح شارلمان المبعوث حيا ايضا ، في ايدي المتنبئين ، ملكا شحاذا وراعيا للفقراء ، يمكن مقارنته بملك الطفور الذي مع انه كان معدما ، كان أعلى الناس منزلة ، وحصل على القدس نفسها كهدية ؟ اننا لانعرف ولكن الفقراء بالتاكيد كانوا قادرين على تحويل الامبراطور النائم"للنهج الكاذب" حسب رغباتهم الخاصة الى مخلص لايقضي فقط على الكفار بل يسعف (ص ٧٣) ايضا ويرفع الطبقة الدنيا ، وقد فعلوا ذلك كثيرا بدرجة كافية في القرون التالية ولعلهم نفذوا ذلك بالفعل في زمن الحرب الصليبية الأولى .

وقد شعر الدهماء ان الامبراطور الاخير لابد منه لتحقيق آمالهم العميقة حتى انهم لم يروا فيه مجرد شبح شارلمان القائم بل ايضا احيانا أحد الرجال الأحياء ، والقادة الفعليين للصليبيين ، وكانت صورة المخلص العملاقة تنعكس مسلطة على غودفري أوف بوليون دوق اللورين الادنى وعلى ذلك السياسي العنيد ، ريموند صنجيل كونت طولوز ، وربما ايضا على ذلك الفارس النورماندي الذي يقال انه قد أصبح ملك الطفور ، وفوق كل شي يبدو جليا أن الرجل الذي

اوحى بالمذبحة الكبيرة لليهود في المدن الواقعة على طول الراين ، أي اميكو أو امريش كونت ليتنجن قد فرض نفسه على اتباعه كامبراطور الأيام الأخيرة ولقد كان بارونا اقطاعيا سيء السمعة لضراوته ، ولكنه ادعى بأنه قد دعي لحمل الصليب في الرؤى والالهام الالهي ، وفي احد الأيام جاءه رسول من المسيح ووضع على لحمه علامة – لاشك انها العلامة التقليدية للاختيار الالهي أي الصليب ووضعها على أو بين لوحي الكتف ، وهي التي كان يعتقد ان شارلمان كان يحملها،وان الامبراطور الأخير أيضا سيحملها، وادعى أميكو أن هذه العلامة كانت رمزا مؤشرا على أن المسيح نفسه سيقوده الى النصر ، وفي الوقت المناسب سيضع تاجا على راسه ، وان هذا التتويج سيحدث في ذلك القسم من جنوب ايطاليا الذي كان يحكمه الامبراطور البيزنطي ولم يكن هذا كله يعني سوى أن هذا السيد الالماني الصغير كان ينتحل الدور الذي حاول أسقف بنزو عبثا ان يضفيه على الامبراطور هنري – ولهذا قرر أنه سيكون الامبراطور الغيبي الذي سيقوم بتوحيد الامبراطوريتين الغربية والشرقية ، ثم يشق طريقه الى القدس ؟ وفي الحقيقة كانت حملات أميكو مخزية بدرجة كافية ، وجماعته من الدهماء الالمان والفرنسيين والفلمنك واللورين لم تصل ابدا الى اسيا الصغرى وإنما هزمت وشتت من قبل الهنغار ، وعاد هو نفسه الى وطنه بمفرده ، ومع ذلك فان هالة القوة الخارقة كانت تلصق بأميكو ، وبعد مقتله في ١١١٧ بسنوات افترض أنه يتابع نوعا من الوجود في جبل قرب ورمز رؤي منه يظهر من وقت لآخر وسط فرقة مسلحة ، وهذه اسطورة توحي بقوة بأن الخيال الشعبي قد أصر على تحويله الى بطل نائم لابد ان يعود يوما ما .

اما بالنسبة للحملة الصليبية الثانية لم يكن هناك شك حول من كان المرشح المناسب لدور الامبراطور الأخير ، ففي حين لم يشترك اي ملك في الحملة الصليبية الأولى ،إنه بعد نصف قرن عندما ناشد البابا يوجينيوس لتقديم المساعدة لملكة القدس التي كانت تتوسل بشدة ، استجاب لويس السابع ملك فرنسا بحماس وفي يوم عيد

ميلاد المسيح في سنة ١١٤٥ اخذ الملك على نفسه عهد الصليبيين في الكنيسة الملكية في سانت دنيس بين مشاهد الحماس الشعبي الكبير (ص ٧٤) ومنذ انقضاء القرن كانت هناك نسخ جديدة منتشرة من التيبورتينا التي تنبيء بملك مقبل لفرنسا سيحكم كلا من الامبراطوريتين الغربية والشرقية وبيزنطة والذي في النهاية كامبراطور للأيام الأخيرة سيضع تاجه ورداءه في الجلجلة،ومن الطبيعي بدرجة كافية انه عندما انتاب الحماس الصليبي مرة أخرى سكان أوروبا الغربية انطبقت النبوءة على لويس ، وفي الوقت نفسه بينما كان المتنبيء رودلف يدعو لذبحة اليهود ، جاءء هاتف غيبي ايضا على لسان متنبيء أخر وجرت دراسته بلهفة ، وكل ماكان واضحا حول هذا الهاتف هو أنه وعد لويس بمدن القسطنطينية ، وبابل وامبراطورية في أسيا الصغرى ، واضاف أنه عندما بلغ هذا القدر فان الحرف « ل » سيتحول الى « ك » وهذه الايماءات تكفي لتدل على برنامج اخروي كامل ، ان لويس سيصبح امبراطور الشرق ، يحكم بيزنطة ثم يستولي على « بابل » التي كانت في نبوءات السبلنيين تصور على انها العاصمة الرمزية للكفار ومأوى الشياطين ومسقط راس المسيح الدجال — فهي نوع من النظير الشيطاني لمدينة القدس ، وفي النهاية يصبح الملك الذي سيكون اسمه « ك » (كما في التبورتينا) — وبكلمات سيكون ذلك كونستانس الجديد أو المبعوث المقدر له ان يكون امبراطور الأيام الأخيرة .

وكان تأثير هذا الهاتف كبيرا جدا ، ويبدو فقط من دراسة السبلنيين ان القديس برنارد كان قد اقتنع بالتغلب على معارضته الأولى للوعظ بالحملة الصليبية ، وانه لولا تلك التعاليم ربما لم تكن هناك حرب صليبية ، علاوة على ذلك كان الهاتف قد درس لا في فرنسا فقط بل في المانيا ايضا حيث كان الملك كونراد الثالث مجرد معارض صليبي وليس منافسا بالمرة للويس ، ومع ذلك لم يكن لويس نفسه على كل حماسه الصليبي على الاطلاق ميالا لأن يكون هناك ضغط أخروي عليه ، ولكونه ملكا حقيقيا وليس هاويا كان

على أي حال مشتركا طوعا أو كرها في المؤامرات السياسية والصراعات التي لازمت هذه الحملة الصليبية من البداية ، وكانت النتيجة انه بينما كان ملكا فرنسا والمانيا يشقان طريقهما الى الحصار الهزلي لدمشق ترك الدهماء يرهقون بالمذابح والمجاعة ، ومرتبكين بلا قيادة ليتابعوا وحدهم السراب المهلك لمملكة القديسين•

الحشود الشيطانية:

رأى الدهماء الذين شاركوا في الحملة الصليبية الشعبية ضحاياهم وقادتهم بتعابير الايمان بالأخرويات التي استمدوا منها اساطيرهم وخرافاتهم الاجتماعية (ص ٧٥) وطبقا لتقاليد يوحنا والسبلنيين كليهما ، قبل ان يبزغ فجر الالفية على الكفرأن ينتزع ويزال ، بمعنى ان مثل العالم المسيحي المقدس هي بالطبع بعمر المسيحية نفسها ، ومع ذلك بقيت المسيحية عادة كما كانت في أصلها ديانة تبشيرية ، كانت تصر على أن إزالة الكفار يجب ان تنجز من خلال تحويلهم للديانة المسيحية ، والجموع المسيحية التي بدأت في التشكل في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من جانب أخر لم تر سببا بالمرة في ان لاتحقق هذه الازالة بصورة مساوية عن طريق الابادة لمن لايدخلون في المسيحية ، وعبر نشيد رولاند الملحمة الشهيرة التي كانت التجسيد الأدبي الأعظم تأثيرا لروح الحملة الصليبية الأولى وفيها تم التعبير عن الموقف الجديد بوضوح تام .

لقد استولى الامبراطور على سرقسطة ،و ارسل الفا من الفرنجة لتفيش المدينة بشكل شامل :المساجد و الكنس اليهودية ،و حطموا الأوثان و التماثيل بمطارق حدادية و بلط ،و من ثم لم يعد هناك مكان للتعاويذ و الشعوذة . فالملك يؤمن بالرب ،و يرغب في خدمته ،و أساقفته يباركون الماء و الوثني يؤتى به الى بيت العمودية ، فاذا قاوم اي واحد منهم شارلمان ، أمر الملك بشنقه أو حرقه حتى الموت او ذبحه بالسيف » وفي عيون دهماء الصليبية كان ضرب اوايذاء

المسلمين واليهـود أو قتلهـم اول عمـل في تلك المعـركة الأخيرة ــ حسبما كانت بالفعل في تخيلات المؤمنين بـالأخرويات لدى اليهـود والمسيحيين الأوائل ــ التي تتأوج بقتل امير الشر نفسه ، وكان فوق تلك الحشود اليائسة ، وهي تتحرك للقيام بـالمذبحة ، يلوح شـبح المسيح الدجال ، ويسقط الظل العملاق المرعب حتى عبر صـفحات الحوليات : ان المسيح الدجال قد ولد بالفعل ، وفي اي لحـظة ربمـا يقيم المسيح الدجال عرشه في معبـد القـدس ، وحتـى بين رجـال الاكليروس الكبار كان هناك بعض من كان يقول مثل هـذا ، وعلى الرغم من قلة قيمة هذه التخيلات في حسابات البابا أوربـان .كانت الحوليات تنسبها حتى اليه في محاولة لوصف الجو الذي انطلقت فيه الحملة الصليبية الأولى :« انها إرادة الرب » هكذا جعـل أوربـان يتفوه في كليرمونت ، وانه من خـلال جهـود الصـليبيين سـتزدهر المسيحية مرة أخرى في القدس ، في هذا الزمان الأخير ، حتـى انه عندما يبدأ المسيح الدجال حـكمه هناك ــ كمـا يجـب ان يفعـل قريبا ــ سيجد عددا كافيا من المسيحيين للقتال .

ومع تخصيص الكفار بأدوارهم في دراما الأخـرويات ، حـولهم الخيال الشـعبي الى شـياطين ، وفي الأيام السـوداء للقـرن التاسع ، عندما كانت النصرانية مهددة حقا بالتقدم المنتصر للاسلام قـرر بعض رجـال الأكليروس (ص ٧٦) بحـزن ان محمـدا (ص) لابـد كان « نذيرا » بمجـيء المسـيح الدجـال الشرقي ، ورأوا في المسلمين عموما كهنة للمسيح الدجـال ، والآن وقد شنت النصرانية هجومها المضاد ضد الاسلام الذي كان بـالفعل في تقهقر ، صورت الملاحم الشعبية المسلمين كمخلوقات غريبـة ذات مجموعتين من القرون (أمامية وخلفية) واعتبرتهم شياطين لاحق لها في الحياة .

ولكن اذا كان العربي (وخليفتـه التـركي) قـد بقيا في الخيال الشعبي بصفة شيطانية معينة ، فان اليهودي كان صـورة مـرعبة أكثر وكان اليهود والعرب يعتبرون بشكل عام متقاربين جدا ، ان لم

يكونوا متماثلين ، ولكن حيث ان اليهود يعيشون مبعثرين في أوروبا المسيحية فانهم أصبحوا يشغلون القسم الأكبر حجما في الايمان الشعبي بالشياطين ، علاوة على انهم كان يشغلونه منذ فترة اطول بكثير ، مع نتائج امتدت عبر الاجيال ، والتي تضمنت مذابح الملايين من اليهود الأوروبيين في منتصف القرن العشرين،ومع الزمن بدأوا يتخذون خصائص شيطانية مميزة واصبح اليهود ابعد من ان يكونوا قادمين جدد الى اوروبا الغربية،وفي اعقاب الصراع المفجع ضد روما وتدمير اليهود في فلسطيين حملت الهجرات وعمليات النفي الكبيرة اعدادا كبيرة من اليهود الى فرنسا ووادي الراين ، ومع انهم لم يحرزوا في تلك الأراضي بروزا ثقافيا او نفوذا سياسيا كما كان لهم في اسبانيا التي ساد فيها الاسلام فان نصيبهم في أوائل العصور الوسطى لم يكن بأي حال صعبا ، ومن الفترة الكارولنجية ومابعدها كان هناك تجار يهود يسافرون جيئة وذهابا بين اوروبا والشرق الأدنى بالبضائع النفيسة ، مثل التوابل والبخور والعاج المحفور ، وكان هناك ايضا حرفيون يهود كثيرون ، وليس هناك دليل يوحي بأن اليهود كان ينظر اليهم في تلك القرون الأولى بكراهية اوخوف خاص من قبل جيرانهم المسيحيين بل العكس كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الهيود والمسيحيين منسجمة ، والصداقات الشخصية والمشاركة التجارية لم تكن غير شائعة ، ومن الناحية الثقافية قطع اليهود شوطا بعيدا في تكييف انفسهم مع البلاد المختلفة التي سكنوها ، وبقوا يهودا ، لقد رفضوا أن يذوبوا في السكان الذين عاشوا بينهم ، وكان ذلك حاسما من أجل مصير ابنائهم من بعدهم .

ورفض الذوبان هذا الذي تكرر في الاجيال الكثيرة جدا من اليهود منذ بدأ التشتت في القرن السادس قبل الميلاد ، هو في ذاته ظاهرة غريبة جدا ، اللهم الا باستثناء الغجر الى حد ما ، ويبدو أنه ليس هناك شعب تشتت بعيدا وعلى اتساع كبير ، وليس له وطن ولا وطنية ولا ارض خاصة به ولا حتى اي تجانس عرقي كبير بقي حتى الآن ككيان ثقافي غير محدود ، ويحتمل أن حل هذا اللغز الاجتماعي

يوجد في الديانة اليهودية التي لم تعلم فقط اتباعها ـ مثل المسيحية والاسلام ـ أن يعتبروا أنفسهم كشعب مختار من (ص ٧٧) قبل رب كلي القدرة ، بل علمتهم ايضا أن يهتموا بالمحن المشتركة الساحقة ـ الهزيمة والاذلال والتشتت ـ كرموز فيها دليل على عطف الهي وكضمانات لمستقبل جماعي مبارك ، وكان الذي جعل اليهود يبقون يهودا ، كما يبدو هو اقتناعهم التام بأن التشتت كان مجرد تكفير مبدئي عن الخطيئة المشتركة ، وتحضير لمجيء المسيح ، والعودة الى أرض مقدسة مجددة ، ومع أنه بعد الانهيار النهائي للدولة اليهودية ، كانوا عادة يعتقدون أن هذا الاكتمال يعود الى مستقبل بعيد بغير حدود ، علاوة على أنهم بهدف ضمان بقاء الدين اليهودي احكمت صياغة مجموعة من الطقوس منعت بشكل فعال اليهود من الاختلاط بالناس الآخرين ، فالزواج المتبادل مع غير اليهود كان محظورا ، والأكل مع غير اليهود جعل في غاية الصعوبة حتى قراءة كتاب غير يهودي كان إثما .

وربما كانت هذه الظروف كافية لشرح لماذا بقيت اليهودية كل هذه القرون من الشتات كطائفة معترف بها بوضوح ، مرتبطة بشعور قوي من التماسك بعيدا نوعا ما ومتحفظة في موقفها من الغرباء ومتعلقة بيقظة وحذر بالمحرمات التي صممت لهدف تأكيد وتخليد عزلتها ، ومن جانب أخر إن هذه الوقاية الذاتية والميل الانعزالي لا يمكن أن يفسرا بشكل كاف بالكراهية الغريبة في شدتها والمتواصلة التي كانت في المسيحية وفي المسيحية فقط موجهة ضد اليهودية ، اكثر منها تجاه اي مجموعة اخرى خارجة عنها ، وما يفسر ذلك هذه الصورة الخيالية تماما لليهودي التي استحوذت فجأة على خيال الحشود الجديدة في زمن الحملة الصليبية الأولى .

وقد مهدت التعاليم الكاثوليكية الرسمية الطريق ، فقد مالت الكنيسة دائما الى اعتبار المعبد اليهودي نفوذا خطيرا وحتى منافسا محتملا ولم تتوقف ابدا عن متابعة الهجوم العنيف ضد اليهودية ، وعلى مدى أجيال تعود العامة من المؤمنين بالمسيحية ان

يسمعوا الادانة المريرة لليهود من منبر الوعظ كمنحرفين فاسدين عنيدين وناكرين للجميل لانهم رفضوا القبول بالوهية المسيح ، وايضا كحملة ذنب رهيب موروث لقتل المسيح ، علاوة على أن التقاليد المتعلقة بالايمان بالاخرويات قد ربطت طويلا بين اليهود والمسيح الدجال نفسه ، وبالفعل كان علماء اللاهوت في القرنين الثاني والثالث يتنبأون بأن المسيح الدجال سيكون يهوديا من سبط دان ، وقد اصبحت هذه الفكرة مالوفة حتى أنها في العصور الوسطى كانت مقبولة حتى من قبل اختصاصي الفلسفة اللاهوتية مثل القديس توماس الأكويني ، وكان يعتقد أن المسيح الدجال سيولد في بابل ، وسيترعرع في فلسطين وسيحب اليهود اكثر من كل الشعوب ، و سيعيد بناء المعبد لهم و سيجمعهم من شتاتهم معا (ص ٧٨)و سيكون اليهود من جانبهم اكثر اتباع المسيح الدجال اخلاصا وسيقبلونه كمسيح قدر له أن يستعيد الأمة ، ولئن تطلع بعض اللاهوتيين الى تحول عام لليهود الى المسيحية تمسك اخرون بأن عماهم سيبقى حتى النهاية ، وأنهم عند الحساب الأخير سيرسلون مع المسيح الدجال نفسه ليعانوا من عذاب الجحيم الى الابد ، وفي خلاصة المعتقد التقليدي بالمسيح الدجال التي انتجها ادسو مونتييه – أن – دير في القرن العاشر ، والتي بقيت الأصل الذي يستشهد به خلال العصور الوسطى نجد أن المسيح الدجال وإن بقي يهوديا من سبط دان قد أصبح خارقا للطبيعة وشريرا ، وسيكون من نسل عاهرة وحقيرا لا قيمة له على أنه في لحظة الحمل به يدخل الشيطان رحم العاهرة كروح وبذلك يضمن أن الطفل سيكون تجسيدا حقيقيا للشر ، وفيما بعد ينفذ تعليمه في فلسطين من قبل سحرة ومشعوذين ، سيلقنونه الفن الأسود وكل الشرور .

وعندما تبنت حشود أواخر العصور الوسطى كل النبوءات المتعلقة بالاخرويات كانت كل هذه التخيلات تعامل بجدية مميتة وتفصل في أساطير غريبة عجيبة وحيث أن الشخصية البشرية للمسيح الدجال كانت تميل للاندماج في الشخصية الشيطانية

لابليس ، كان هناك ميل لاظهار اليهود كشياطين يخدمون إبليس ، وفي الدراما والصور كانوا يظهرون كثيرا كشياطين بلحى وقرون ماعز ، في حين حاولت السلطات في الحياة الحقيقية والدينية والمدنية على السواء أن تجعلهم يضعون قرونا على قبعاتهم ، ومثل الشياطين الأخرى كانوا يتخيلون ويصورون مرتبطين ارتباطا وثيقا بمخلوقات ترمز للشهوة والقذارة : وحوش ذات قرون ، خنازير ، ضفادع ، ديدان ، افاعي وعقارب ، وبشكل معكوس كان الشيطان نفسه عادة يعطي ملامح يهودية ، وكان يشار اليه على أنه « أبواليهود » . وكان الاهالي مقتنعين بأن اليهود في معبدهم يعبدون الشيطان في صورة هر او ضفدع ـ ويلتمسون عونه في القيام بالسحر الأسود ، ومثل معلمهم المفترض كان الاعتقاد بأنهم شياطين التخريب الذين هدفهم الوحيد هو تخريب المسيحية والمسيحيين أو كما اسموهم في التمثيلية الأعاجيبية الفرنسية : « شياطين الجحيم واعداء الجنس البشري »

وإذا بدا أن قوة اليهود اكبر مما كانت ابدا ، فإن فعلهم للشر الذي يفوق المدى ، وشعوذتهم الاكثر أذى كانت مجرد علامة أخرى أن النهاية قد باتت حقا وشيكة ، وكان يعتقد انه في التحضير للصراع الأخير سيكون لليهود مباريات غريبة هم فيها كجنود للمسيح الدجال ، سيمارسون الطعن ، وحتى الأسباط العشرة الضائعة من بني اسرائيل الذين راهم كومونديلس بمثابة الجيش ـ المنتظر للمسيح أصبحوا يشبهون بمجموعات المسيح الدجال أي شعوب يأجوج وماجوج التي وصفها(ص ٧٩) النهج الكاذب على انها تعيش على اللحم البشري والجثث والأجنة التي يمزقون من اجلها أرحام امهاتهم ، وعلى العقارب ، والافاعي وعلى كل الزواحف الاكثر إثارة للتقزز ، وكتبت المسرحيات الدرامية التي تظهر كيف أن شياطين اليهود ستعاون المسيح الدجال على غزو العالم حتى عشية المجيء الثاني وبداية الألفية السعيدة ، فوقتها سيباد المسيح الدجال واليهود معا بين ابتهاج المسيحيين ، واثناء أداء مثل هذه الأعمال الفنية كانت القوة المسلحة لازمة لحماية حي

اليهود من غضب الجماهير ،قد يصر البابوات والمجامع على أنه مع ان اليهود يجب عزلهم واهانتهم حتى يوم تحولهم الى المسيحية ، يجب بالتأكيد عدم قتلهم ، غير ان مثل هذه الرقة كان لها تأثير محدود على الجماهير الهائجة التي اكتسحتها آمال ومخاوف الأخرويات ، وأقلعت بسبب ما تعلمته على الانغماس في الصراع الهائل للأيام الأخيرة .

وغالبا ما عزيت كراهية اليهود الى دورهم كمقرض للأموال ، وإنه لمفيد حقا معرفة كم كانت العلاقة بالتأكيد ضعيفة فعلا ، ذلك أن تخيلات اليهودي الشيطاني موجودة قبل حقيقة إقراض المال اليهودي ، التي ساهمت في الواقع في افرازها ، وكما حدث في عصر الحروب الصليبية أخذ عدم التسامح الديني يشتد اكثر فاكثر ، ولذا تدهورت الحالة الاقتصادية لليهود بسرعة ، وفي مجمع اللاتران في ١٢١٥ تقرر أن اليهود يجب أن يحرموا من كل الوظائف المدنية والعسكرية ، ومن تملك الاراضي ، وقد دمجت هذه القرارات في القانون الكنسي ، وكتجار ايضا كان اليهود في ظروف معوقة اكبر ، لأنه لم يعد بإمكانهم السفر دون المخاطرة بتعرضهم للقتل ، الى جانب أن المسيحيين انفسهم بدأوا يتحولون الى التجارة وبنوا بسرعة اليهود الذين حرموا من العصبة الهنسياتية ، والذين لم يكن يمكنهم بالطبع منافسة المدن الايطالية والفلمنكية ، وبالنسبة لليهود الأكثر غنى كان اقراض المال المجال الوحيد للنشاط الاقتصادي ، الذي بقي مفتوحا وكمقرضين للمال امكنهم البقاء في بيوتهم ، بدون القيام برحلات خطرة ، وبإبقاء ثرواتهم في حالة سيولة كما أمكنهم في حالة الطوارىء الهرب دون فقدها كلها ،وعلاوة على ذلك مع الاقتصاد المتوسع بسرعة في غرب اوروبا كان هناك طلب مستمر وملح للتسليف وإقراض المال بالفائدة ــ الذي وسم بالربا الفاحش ــ وحرم على المسيحية بموجب القانون الكنسي وشجع اليهود الذين لم يكونوا بالطبع خاضعين للحظر ، وحتى أجبروا من قبل السلطات على الاقراض مقابل ضمانات ، وامتدحوا لتوليهم هذا العمل الضروري .

وكان إقراض المال اليهـودي على أي حـال ذا اهمية مـؤقتة في الحياة الاقتصادية للعصور الوسطى ، ومع تطور الرأسمالية تجاهل المسيحيون انفسهم بتصميم اكبـر(ص ٨٠) الحـظر الكنسي على اقراض الأموال .

وبالفعل مع حلول منتصف القـرن الثـاني عشر كان رأسـماليو البلاد المنخفضة يقدمون قـروضا كبيرة بـالفائدة ، كمـا أصـبح الايطاليون خبراء مصرفيين ، ومع هؤلاء الرجال عجـز اليهـود عن المنافسة ، وفـرضت المدن واللوردات المحليون والملوك ضرائب ثقيلة على اليهود عندهم ، وكثيرا ما كان الاسهام اليهـودي في الخـزانة الملكية ومواردها المالية عشرة أضعاف ما سوغته أعدادهم ، ومـرة اخرى وجد اليهود انفسهم في ظروف غير مواتية بلا أمل ، ومـع أن مقرضي الأموال بشكل فردي كانوا قادرين من حين لآخر لا سيما في البلدان المختلفـة على تجميع ثـروات كبيرة ، فإن الضرائب الكيفية كانت تنزل بهم الى الفقر مـرة أخـرى ، ولم يكن اليهـود الأغنياء كثيرين ابدا : كان معـظمهم ممـن يسـمى الآن أدنى الطبقـة الوسطى ، وكان العديد منهم فقراء بكل معنى الكلمـة ، وفي نهـاية العصور الوسطى كان هناك قلة من الثـروات اليهـودية في شـمال أوروبا للاسهام في التطور الهائل الذي تلا اكتشاف العالم الجديد .

وبتجـريدهم مـن الثـروات الكبيرة ، عاد بعض اليهـود الى الاقراض على نطاق ضيق والاقراض لقـاء رهـن ، وهنا بـالتأكيد كانت أسس الكراهية الشعبية وما كان مرة ثقافة يهودية مـزدهرة تحول في ذلك الوقت الى مجتمع خائف محاصر في أعمال حربية دائمة مع المجتمع الأكبر المحيط به . ويمكن اعتبـاره مـؤكدا أن مقـرضي الأموال اليهود كانوا يستجيبون لعدم الأمان والاضطهاد باستخدام قسوتهم ، ولكن قبل أن يحدث ذلك بالفعل بـزمان طـويل أصـبحت كراهية اليهود مستوطنة لدى الجماهير الاوروبية ، وحتى فيما بعد عندما شرعت الحشود في قتل اليهـود فإنهـا لم تقصر نفسـها على مقرضي الأموال القليلين نسبيا بل قتلت كل يهودي امكنها أن تضـع

يدها عليه ، ومن جانب اخر كان أي يهودي يقرض الأموال يمكنه أن ينجو من المذبحة بالخضوع للتعميد ، لأنه كان يعتقد أن التعميد يزيل طبيعته الشيطانية بشكل مؤكد . ولم يكن اليهود على أي حال هم الوحيدون الذين يقتلون ، وكما سنرى في الفصول المتأخرة إن حشود الفقراء التي كانت تستلهم الايمان بالأخرويات سرعان ما تحولت الى الأكليروس أيضا ، وهنا أيضا كان القتل ينفذ اعتقادا بأن الضحايا كانوا عملاء للمسيح الدجال وابليس ، وكانت ابادتهم شرطا لازما للألفية السعيدة ، وإذا كان معظم الناس قد اعتقدوا أن المسيح الدجال لابد أن يولد يهوديا ، فإن هناك العديد ممن اعتقدوا انه سيكون ابنا لأسقف وراهبة ، علاوة على ذلك أن مارتن لوثر لم يكن (كما يفترض) أول من الح على فكرة أن المسيح الدجال الذي سيقيم عرشه في المعبد لا يمكن أن يكون غير بابا روما ، وأن كنيسة روما بناء عليه هي كنيسة الشيطان .

فبين ذوي الأفكار المشبعة بالأخرويات في العصور الوسطى كانت الفكرة بالفعل عادية مألوفة وحتى بطلا مناصرا للكنيسة كالقديس برنارد قد اصبح يعتقد في توقعاته الشديدة للدراما الأخيرة أن عددا كبيرا من رجال اللاهوت يتبعون حشود المسيح الدجال ، وفي أقوال المتنبىء الذي أحرق كمهرطق في باريس في ١٢٠٩ فكرة مماثلة تبدو كجزء متمم من عقيدة استمدت بوضوح من تقاليد يوحنا والسبلينيين ، وكان هذا الرجل صائغا وتحول الى كاهن ، تنبأ بأنه خلال خمس سنوات ستهلك المجاعة الناس ، وسيذبح الملوك الواحد الآخر بالسيف وستنشق الأرض وتبتلع سكان المدن ، وفي النهاية ستسقط النار على الذين هم اتباع للمسيح الدجال من أساقفة الكنيسة ومطارنتها ، وأصر على أن البابا كان المسيح الدجال نظرا للسلطة التي يملكها ، وان بابل سفر الرؤيا كانت في الواقع روما ، وبعد ذلك التطهير العظيم ستخضع الأرض كلها بكل ممالكها للملك المقبل لفرنسا لويس الثامن ـ كان مايزال الابن البكر للملك في ذلك الوقت ـ وهو ملك يؤمن بالأخرويات وتستحوذ عليه المعرفة وسلطة

الكتب المقدسة وسيحكم إلى الأبد تحت الشريعة والارادة الالهية لروح القدس .

واي حركة الفية كانت في الواقع مجبرة تقريبا بموجب الحالة التي وجدت نفسها فيها على أن تنظر إلى رجال اللاهوت على انهم اخوانية شيطانية ، وكانت جماعة من غير رجال اللاهوت برئاسة قائد يدعي انه مسيح منتظر ، ومقنعه انها مكلفة من الرب بمهمة كبيرة هي تمهيد الطريق للالفية ، ملتزمة بأن تجد في الكنيسة المؤسساتية في افضل الأحوال خصما عنيدا ، وفي أسوأها مضطهدا قاسيا .

ولكن او لم يكن في طبيعة المسيح الدجال ان يفعل اي شيء في إمكانه ليعوق بالخدعة والعنف التحقق الالهي المقدر ؟ واي الوسائل يمكن أن يجدها افضل من أن يتنكر تحت العباءة والتاج البابوي ، وان ينشر السلطة الكبيرة والنفوذ الكنسي ضد القديسيين ؟ فإذا كان الامر كذلك فما هي الطريقة الأخرى التي يمكن بها رؤية الكنيسة المعادية للمسيح سوى كونها عاهرة بابل ، « المرأة السكرى بدم القديسين » أم المقت « التي ارتكب معها ملوك الأرض الزنا والفسوق ، وأسكر سكان الارض بنبيذ فسقها » ؟ وماهي الطريقة الأخرى التي يمكن بها رؤية رجال لاهوت هذه الكنيسة غير الوحش متعدد الرؤوس الذي يخدم المسيح الدجال ويحمل العاهرة على ظهره وهي تتلفظ بالتجديف وتحارب القديسين ؟ إن رجال اللاهوت كوحش سفر الرؤيا : هل هناك صورة أكثر اقناعا للالفيين المتحمسين الذين كانت حياة رجال اللاهوت في اعينهم لاشيء سوى البهيمية ، والحياة الحيوانية وهو وجود أعطي كليا للدنيا والجسد .

هل كانت كنيسة العصور الوسطى حقا غارقة في مثل هذه المادية الشديدة(ص ٨٢) أم أن الاعتقاد بهذا المعنى العام الذي مايزال منتشرا حتى اليوم تبسيط مبالغ فيه يمكن مقارنته بذلك الذي قرن

يهودية العصور الوسطى بالربا الفاحش للعصور الوسطى ؟

إنه بالتأكيد لايمكن نفي أن الكنيسة التي فعلت الكثير جدا لتشكيل مجتمع العصور الوسطى كانت أيضا إلى حد كبير جزءا من هذا المجتمع ، وبالفعل قبل سقوط الأمبراطورية الغربية كان الأباطرة بمنحهم الكنيسة ثروات المعابد الوثنية قد جعلوا منها أعظم مالك للأرض في العالم ، وهذا الغنى الذي مكن الكنيسة أن تنجو من الهجرات الكبيرة والغزوات سالمة نسبيا ، كان يتزايد قرنا بعد قرن بوصايا الارث والتقدمات من الأمراء والأغنياء ، وبموجب قانون الكنيسة كانت ممتلكات الكنيسة غير قابلة للتحويل ، وهكذا على الرغم من السلب من قبل أصحاب السلطان من المدنيين انتهت بأن أصبحت هائلة ومنظمة لها مثل هذا الموقف الجيد ولديها طبعا توظيفات مغرية يمكن تقديمها،وكانت العائلات النبيلة في العادة تحصل بنفوذها أو حتى بالشراء على مراتب كنسية مريحة لابنائها الأصغر ، وكثير من الأساقفة ورعاة الأديرة الذين عينوا بهذه الطريقة كانوا ببساطة سياسيين ، أو من رجال الحاشية الملكية أو أمراء في زي كهنوتي ، وقد حول رعاة الأديرة أديرتهم إلى مؤسسات فاخرة في حين بنى الأساقفة قصورا محاطة بخنادق وابراج وعاشوا فيها وفق النمط الفاخر نفسه الذي عاش فيه السادة الاقطاعيون العظام الآخرون ، ولم يكن بلا سبب أن الناس العاديين كانوا يشكون من رجال اللاهوت ومن « أنهم لايعتنون بنا مطلقا ، إنهم يعيشون حياة فاضحة ، إنهم يدوسون على رؤوسنا .... إن الناس العاديين يصنعون كل شيء ويقدمون كل شيء ، ولكنهم لايستطيعون العيش دون أن يتعذبوا إلى الأبد وان يدفعوا إلى الخراب من قبل رجال اللاهوت .... إن رجال اللاهوت ذئاب ثائرة .... » .

علاوة على أنه على الأقل من القرن الثالث عشر وما بعده كانت البابوية نفسها بشكل واضح وبلا جدال دنيوية ، وكان البابوات يميلون لأن يكونوا في المقام الأول رجال دولة ورجال إدارة ، وأعظم متداول للمال ، ومكن إحياء التجارة البابوية من تطوير نظام مالي

على معايير اوروبية تشغل من قبل بيرقراطية معقدة عالية التدريب ، ومع ذلك فإن البابوية قد تدان بقوة « بالربا الفاحش » حسبما دعت الراسمالية الجديدة ، واحتياجاتها المالية الخاصة قد اضطرتها إلى الاستفادة من كل وسائل جمع الأموال وزيادتها وقبل الملوك الدنيويين استخدام البابوات خدمات المصرفيين ، وبتلك الوسائل تمكنت البابوية من خوض معارك سياسية صرفة بوسائل سياسية صرفة بل وحتى شراء الحلفاء وشن الحروب ، وكانت ايضا قادرة مثل الملكية الكبيرة على المحافظة على بلاط لايبارى في الفخامة ، يمكن فيه للكيد والتآمر والانغماس في الملذات أحيانا أن يزدهر كما الترف في أي بلاط آخر ، وفي المراتب العليا من الهرم اللاهوتي كان هناك في الواقع ميل للتقارب مع الطريقة الطبيعية للحياة في الطبقة العليا من مجتمع المدنيين .

وعندما تكلم المؤمنون بالالفية في أواخر العصور الوسطى عن دنيوية الكنيسة(ص ٨٣) كانوا بالتاكيد يتكلمون عن شيء كان موجودا ، ولكن ما ليس اقل أهمية إن الدنيوية هي كل ما كان يمكنهم رؤيته في الكنيسة ، وما لم يروه هو أنه مهما كان عمق التورط في المجتمع الدنيوي ، كانت الكنيسة ما تزال تمثل طريقة اكثر شفقة وانسانية وزهدا بالحياة – وليس فقط بتعاليمها بل ايضا حتى في اكثر فتراتها دنيوية ، بتطبيقاتها وممارستها ، وفي عصر لايعرف شيئا عن الخدمات الاجتماعية ، كان الرهبان وأعضاء الجمعيات الدينية فيما بعد يهتمون بالفقراء والمرضى كجزء من روتين لاجدال فيه ، ودون تفكير في جزاء أر ضي ، وفي قارة مرهقة بالحروب الاقطاعية عمل الأساقفة كل ما في وسعهم ، للتبشير بهدنة الرب ، وسلام الرب: للحد من المعاناة والتخريب ، وفي كل الأوقات كانت أعداد كبيرة من رجال اللاهوت تعيش حياة قاسية متزمتة ، والعديد حتى من الأساقفة الكبار كانوا يتجهون الى الورع ، واذا كان رجال اللاهوت ينزلون باستمرار الى الدعة والراحة والانحلال – كما تميل دوما أي مجموعة كبيرة من الكائنات . فانه لم ينقصهم ابدا بعض ممن توفرت فيه الارادة والقوة لطلب التوقف ومحاولة الاصلاح على

الأقل ،وتأسيس المراتب الرهابانية الجديدة في القـرنيين الحـادي عشر والثاني عشر ، وتجديدات القديس فرانس والقديس دومنيك في القرن الثالث عشر ، والحركة المجلسية للقرن الخامس عشر ، وحتى الحركة « الانجيلية » التي كانت تنتشر في عشية يوم الاصلاح نفسـه هي فقط بعض الأمثلة على كثير من قدرات كنيسة العصور الوسطى على مواجهة النقص والعيوب الخاصة بها.

وبالحكم بمعايير المسيحية اللاتينية للعصـور الوسـطى ، التـي كانت مقبولة من حيث المبدأ من الجميع على حد سواء ، كان سـجل الكنيسة في الواقع بعيدا عن أن يكون كلي السواد ، ولكنه بدا أسود كليا بالنسبة للألفيين الذين كانوا في الوقت نفسه خائفين ومفتـونين لقرب حدوث المجيء الثاني ، وطبقوا هذه المعـايير بتصـلب ورفض كامل لأي تسامح ، وبحثت الحشود التي استلهمت الاخـرويات عن زعماء يمكنهم أن يعتبـروهم كائنات روحية صرفـة ، بعيدة عن كل الاهتمامات المادية والحسابات متحررة مـن المتـطلبات والرغبـات الجسدية ، ومثل هؤلاء الزعماء يمـكن ان ينظـر إليهـم كقـديسين صانعين للمعجزات ، بل حتى كآلهة حية ، ولكن بهذه المعـايير كانت الادانة التامة الشيء الوحيد الممكن تجاه رجال اللاهوت لكونهم بشرا يزخرون بالضعف البشري ، وكان بسبب التوقعات المغالى فيهـا أن حركات الجماعات المؤمنة بـالأخرويات لم تتمـكن ــ كمـا تمـكنت الكنيسة نفسها وفعلت ــ من أن تدين ببساطة مفـاسد معينة ، وأن تنتقد بعض أفراد رجال اللاهوت بعينهم ، ولكن كان عليها أن تـرى كل رجال اللاهوت في كل افعالهم كمليشيا للمسيح الدجال ، مرتبطة بطبيعتها بالكد مـن أجـل الخـراب المادي والروحـي للنصرانية ، وبالكفاح بضراوة أكثر لأن النهاية قد باتت الآن قريبة ، وفي نقـوش لورك (صورة ٢) يتقيأ كاردينال شيطاني أسقفا يقول « ابتعـدو بأنفسكم ، أيها الرب والبشر : الشـيطان وأنا سـادة » وفي رسـم ديورر(ص ٨٤) للفصـل السـادس مـن سـفر الرؤيا (صورة ٣) ليس فقط بابا وأسقف بل أيضا كهنة عاديين ورهبان يظهرون بين أولئك الذين في يوم العقـاب الالهـي سـيصرخون بـلا

جدوى فوق الجبال والصخور لتسقط عليهم وتخفيهم عن وجه المسيح المنتقم ، وعلى الرغم من تاريخها إن ما تعبر عنه هاتان الصورتان الرؤيتان مازال هو الشجب المرعب نفسه من الكنيسة ، للمسيح الدجال عندما يعبر عنه من قبل الطوائف الألفية للقرنين الثاني والثالث عشر .

التخيلات والقلق والخرافات الاجتماعية :

لوحظ من قبل المحللين النفسيين أنه في نظر عالم مسيحية القرون الوسطى الحياة تميل الى أن ترى ككفاح مميت يشنه الآباء الطيبون والأطفال الطيبون ضد الآباء السيئين والأطفال السيئين. وبالتأكيد إن هذا النمط يبرز بصورة خامية صارخة في تخيلات الايمان الشعبي بالأخرويات والحركات الشعبية التي الهمتها.

وامتزجت شخصية قائد المؤمنين بالأخرويات ــ امبراطور الأيام الأخيرة أو المسيح العائد ــ بالصور الخيالية للأب الطيب والابن الطيب لأنه من جانب ملك القائد ــ مثل فرعون والعديد من الملوك المتألهين الاخر ــ كل نعوت الاب المثالي : انه حكيم تام ، وعادل بشكل كامل يحمي الضعيف ولكن من جانب هو الابن أيضا الذي مهمته تغيير العالم ، إنه المسيح الذي سيقيم سماء جديدة وارضا جديدة والذي يمكنه أن يقول عن نفسه : « خذو حذركم انا اجعل كل شي جديدا ! » وكأب وابن ان هذه الشخصية جبارة هائلة فوق البشر ، كلية القدرة ، وهو قد حظي بوفرة من القوى الخارقة للطبيعة حتى أنه تخيل متدفقا كالضوء : هذا الاشعاع الذي يرمز تقليديا للروح الداخلية ، التي لاتحيط فقط بالمسيح القائم بل تنسب ايضا الى الامبراطور المقبل كونستانس علاوة على ذلك كونها مليئة بالروح الالهية ان الزعيم لدى المؤمنين بالاخرويات يملك قوى فريدة صانعة للمعجزات ، وستكون جيوشه بلا خلاف منتصرة مبتهجة بالنصر ، وحضوره يجعل الأرض تعطي محاصيل هائلة ، وسيكون حكمه عصر انسجام تام كالسالف ، ولن يعرف عالم الفساد . »

وبالطبع كانت هذه الصورة خيالية صرفة ، بمعنى أنها لاتحمل اي علاقة بالطبيعة الحقيقية وقدرة اي بشر وجد أصلا او يمكن أن يوجد ، وكانت مع ذلك صورة يمكن ان تنعكس على شخص حي ، وكان هناك دائما رجال كانوا أكثر من راغبين بقول مثل هذا الانعكاس (ص ٨٥) لقد كانوا في الحقيقة يرغبون بصورة انفعالية ان يروا معصومين صانعين للمعجزات ومخلصين ، وفي الاساس كان مثل هؤلاء الرجال يأتون من المراتب الأدنى من أهل الفكر ويضمون عددا كبيرا من رجال الكهنوت الصغار ، وكهنة تركوا ابرشياتهم ، ورهبان هربوا من اديرتهم وكتاب في التنظيمات الدنيا ، وكانوا يضمون ايضا بعض العلمانيين الذين خلافا لسواد المؤمنين من الناس كاونوا يلمون بالقراءة والكتابة من الحرفيين بشكل رئيسي ولكن أيضا بعض الموظفين الاداريين وحتى احيانا احد النبلاء الذي تكون طموحاته أرفع من منزلته ، وسر السطوة والهيمنة التي كانوا يمارسونها لم تكمن ابدا في مولدهم ولا الى اي مدى بعيد في تعليمهم بل دائما في شخصياتهم ، وتلح الروايات المعاصرة عن مسحاء (ج مسيح) الفقراء هؤلاء عادة على بلاغتهم ، وعلى الهيبة والجلال ، وعلى الشخصية الآسرة ، وفوق كل شي يحصل المرء على انطباع انه حتى لو أن بعض هؤلاء الرجال كانوا دجالين شاعرين بالاثم ، فان كثيرا منهم رأوا انفسهم كآلهة متجسدة حقا او على الاقل أوعية للالوهية ، وكان يعتقدون حقا انه من خلال مجيئهم كل شي سيتجدد ، وسينقل هذا الايمان الكلي نفسه بسهولة الى العامة الذين كانت اعمق رغباتهم وتطلعاتهم بشكل دقيق نحو مخلص أخروي .

ورأى الذين ربطوا انفسهم بمثل المخلص فيها (انفسهم) أناسا مقدسين – ومقدسين فقط بسبب خضوعهم غير المشروط للمخلص وإيمانهم التام بالبعثة الأخروية كما حددها بنفسه ، لقد كانوا أطفاله الطيبين ، وكمكافأة كانوا يقاسمونه قوته الخارقة ، ولم يكن فقط ان القائد ينشر قوته لنفعتهم ، بل أنهم انفسهم طالما أنهم يرتبطون به يشاركون في تلك القوة ، وبذلك

اصبحوا اكثر من بشر ، قديسين ، لايأثمون ، لايسقطون لقد كانوا الجيوش اللامعة « الذين يلبسون الكتان الابيض النظيف ، وكان انتظارهم النهائي مقررا منذ الأزل ، وفي الوقت نفسه إن كل صنيع من أعمالهم مع انه قد يكون سرقة او اغتصاب او منبحة لم يكن فقط بلا أثم بل ايضا عملا مقدسا ، ولكن في مقابل جيوش القديسين ، ونادرا اقل قوة منها تظهر حشود الآباء والأبناء الشيطانية والاثنان المتقاتلان كل منهما سالب الآخر ويعرفان معا بنمط رمزي غريب ، وكما في مسيح المؤمنين بالاخرويات ، كذلك في العدو الاخروي اي المسيح الدجال ، صور الابن والأب متداخلة وهنا بالطبع ان الصور هي للابن الشرير فقط « وكابن للهلاك » ان المسيح الدجال هو بكل شكل نظير شيطاني لابن الرب ، ومولده هو الذي يبشر بالايام الأخيرة ، وانتظر الناس بتوتر انباء الولادة الغامضة المشؤومة في بابل ، وبهذه العلاقة مع الرب الأب يظهر المسيح الدجال كطفل ثائر رافض ، مهتم بانفعال باحباط مقاصد ابيه (ص ٨٦) ويجرؤ حتى على اغتصاب مكان ابيه وتقليد سلطته ، وفي علاقته بالكائنات البشرية ، من جانب اخر ، والمسيح الدجال هو أب لايكاد يتميز عن إبليس نفسه : أب حام لنوعه الشيطاني ، ولكن بالنسبة للقديسين هو أب شرير سفاح مخادع ، يخفي مقاصد الشر بكلمات حلوة ، طاغية ماكر عندما يقاوم يصبح مزعجا قاسيا وقاتلا ، ومثل القائد المسيحي ، إن المسيح الدجال مليء بالقوى الخارقة للطبيعة التي تمكنه من صنع المعجزات ، ولكن هذه القوى تأتي من الشيطان وتظهر في الفنون السوداء التي يستثمرها لتدمير القديسين ، حيث أن قوته ليست في قوة الروح فانه لايصدر عنه اي اشعاع ، وعلى العكس إنه كالشيطان من مخلوقات الظلام ، انه الوحش الذي يصعدها خارجا من الهوة التي لاقاع لها ، انه مخلوق غريب مرتبط بالأرض تخرج من فمة ضفادع قذرة وعقارب ورموز اخرى مألوفة للطين والقذارة .

وكل شي عكس على الشخصية المتخيلة للمسيح الدجال عكس

ايضا على « جماعات الحواشي » التي كانت تعتبر انهـا تخـدمه ، وحتى من قبل علماء اللاهوت الاصوليين نظر الاصوليون الى اليهود على أنهـم أطفـال أشرار ينكرون بعناد الدعوات ويتحـدون و يستهينون بجـلال الرب ، أي الجميع ، و في نظـر الطـائفيين المتعصبين الذين رأوا في البابا المسيح الدجال ، كان لابد ايضا من ان يظهر رجال اللاهوت كسلالة خائنة ثائرة ضد ابيها الحقيقي ، و لكن اليهود و رجال اللاهوت يمـكن ان يروا ايضـا بـكل سـهولة كشخصيات ـ أبوية ، وهذا واضح بـدرجة كافية في حـالة رجـال اللاهوت ، الذين يدعون ، فعلا « بالأباتي » مـن قبـل المؤمنين

واذا كانت المسألة اقل وضوحا في حالة اليهـود ، انهـا مـع ذلك حقيقة ، وحتى اليوم ان اليهـودي ـ الرجـل الذي يتعلق بـالعهد القديم ويرفض الجـديد ، واحـد الناس الذين ولد فيهـم المسـيح ـ يتخيل من قبل كثير من المسيحيين على أنه « يهودي ذمـونجي قديم » شخصية بائسة في ملابس قديمة بالية .

ويندمج بالتخيلات الاخـروية ، اليهـود ورجـال اللاهـوت على السواء حيث عدوا شخصيات أبوية من نوع مـرعب جـدا ، انه ذلك المخلوق الغريب ذو الغضب المدمر والقوة الاحليلية ، الذي يصـوره ملكيورلورخ وهو يرتـدي قلنسـوة البـابا المثلثية ، ويحمـل المفاتيح ، وصليب البابا ، وقد رؤي من قبل الالفيين في كل « رجل لاهوت مزيف » وبالنسبة لليهود ان الاعتقـاد بـانهم قتلوا أطفـال مسيحيين كان واسع الانتشار جدا ومازال عالقا بثبات الى حـد ان كل احتجاجات البابوات والأساقفة ـ وكان هنالك الكثير منها ـ لم تستطع ابدا أن تنتزعها ، واذا فحص احـد صـورة اليهـود وهـم يعذبون ويخصون صبيا بريئا بلا حول (الصورة ٤) فانه يقـدر بحق مقدار الخوف والكراهية الذين يمكن بهما النظر الى شـخصية الأب السيء المتخيلة ، وبقية الذخيرة من الاتهامات التي وجهت ضـد اليهود في أوروبا العصور الوسـطى بـالجلد بـالسياط ، والطعـن وسحق الحشود،لهـا الأهمية نفسـها والدلالة ، واذا كانت مسـألة الوحشية المرتكبة ضد الحشود هي من وجهة نظر اليهود بـلا معنى

(ص ٨٧) انها من وجهة نظر مسيحي القرون الوسطى تكرار لتعذيب المسيح وقتله ، وهذا ايضا تم تصور الأب الشرير (اليهودي) وهو يهاجم الابن الطيب ، وهذا التفسير تولد من القصص الكثيرة حول كيف انه من وسط الكعكة المشوهة ، ظهر المسيح كطفل يقطر دما ويصرخ .

ونسبت لهذه الشياطين ذات الشكل البشري واليهود و « الاكليروس المزيف» ،كل صفة من صفات الوحش الآتي من جهنم ، ليس فقط وحشيته بل ضخامته ، وحيوانيته و سواده و عدم نظافته ، و كان اليهود و الأكليروس معا يشكلون الحشد الاسود البغيض للعدو الذي وقف في مقابل الجيش الأبيض للقديسين ، « ابناء الله هذا نحن – الديدان السامة هذا أنتم » ، كما وضعها رجال من العصور الوسطى ، و عرف القديسيون أن مهمتهم كانت محو الحشد الأسود البغيض من على وجه الأرض ، لان ارضا تطهرت هكذا ستكون هي فقط صالحة لحمل القدس الجديد ، المملكة المشرقة للقديسين .

وكانت حضارة أواخر القرون الوسطى دائما ميالة لشيطنة الحشود الناشزة ، ولكن في أوقات الارتباك الحاد والانحراف كان هذا الميل ملحوظا بشكل خاص ، ولم تعط المصاعب والاكتئاب في حد ذاتها تلك النتائج ، وكان الفقر والحروب والمجاعات المحلية الى حد كبير جزءا من الحياة الطبيعية حتى أنها كانت تؤخذ بشكل مؤكد ويمكن بناء عليه ان تواجه الى حد كبير بطريقة وقوة وواقعية ولكن عندما تقوم حالة لم تكن خطرة فقط بل خارجة كلية عن المجرى الطبيعي للتجارب المألوفة ، أي عندما يواجه الناس بمخاطر مخيفة لأنها غير مألوفة ، في مثل هذه الأوقات يحدث الهرب الجماعي الى عالم التخيلات الشيطانية ويتم بسهولة ، واذا كان التهديد غامرا بدرجة كافية، فان الارتباك ينتشر انتشارا واسعا وحادا بدرجة كافية ، ويمكن ان يقع وهم كبير من النوع المتفجر ، وهكذا عندما وصل الموت الأسود الى اوروبا الغربية في

١٣٤٨ ، استنتج على الفور أن بعض طبقات الناس ربما قد ادخلت الى موارد المياه سما مستخلصا من العناكب والضفادع والسحالي ـ وكلها رموز للأرض والقذارة والشيطان ـ أو ربما من زاحفة خرافية تشبه الضب ، ومع استمرار الوباء أصبح الناس في حيرة ويأس أكثر فأكثر ، وتأرجح الشك بين هناك وهناك وهو يومض على التوالي على المنبوذين ، والفقراء ، والاكليروس ، قبل أن يأتي في النهاية ليستقر على اليهود الذين كانوا قد أبيدوا تقريبا.

ولكن لم تكن كل الطبقات في المجتمع معرضة بالتساوي لتجارب أرضية مربكة ، وكما رأينا بين الجماهير في مناطق الحياة المستقرة المكتظة بالسكان كان هناك دائما العديد الذين عاشوا في حالة انعدام الأمن المزمنة التي لامفر منها (ص٨٨) وقد أزعجهم ليس فقط عجزهم الاقتصادي وضعفهم بل نقص العلاقات الاجتماعية التقليدية التي عليها كان الفلاحون حتى في اسوا الأوقات قادرين على الاعتماد بصورة طبيعية .

لقد كان هؤلاء هم الناس الذين كثيرا ما أصيبوا بالكوارث ، والأقل قدرة على التغلب عليها ، وكان هؤلاء هم الناس الذين عندما كانوا يواجهون بمشكلات غامرة ويعذبهم القلق غير المحتمل مالوا نحو البحث عن قادة مسحاء ، وتخيلوا أنفسهم قديسين محاربين ، وأمكن بسهولة مزج التخيلات الناتجة مع الامان بالأخرويات المستمدة من رؤيا يوحنا و السبلينيين وبهذه الصورة أصبحت أسطورة إجتماعية مترابطة ، ولم تمكن الخرافة بالطبع الحشود التي لاحول لها من التغلب على مأزقها ، وكثيرا ماحثتهم على مناهج من العمل ثبت انها انتحارية بمعنى الكلمة غير انها استطاعت أن تختزن قلقهم في وضع حرج ، وجعلتهم يشعرون بأنهم مهمين بدرجة هائلة واقوياء بدرجة عظيمة ، واعطاها ذلك تأملات لاتقاوم .

وعلى ذلك تصرفت الجماهير بطاقة ضارية وتخيلات

مشتركة ، ومع أنها كانت مضللة إنها سببت لهم راحة انفعالية شديدة الى حد انه أمكنهم أن يعيشوا فقط من خلالها ، وكانوا بشكل كامل راغبين في القتل والموت من أجلها ، وهذه الظاهرة كانت قابلة التكرار عدة مرات ، في اجزاء مختلفة في غرب ووسط أوروبا بين القرن الثاني والقرن السادس عشر .

الفصل الخامس

في أعقاب السيل الجارف للحروب الصليبية

بلدوين الزائف واستاذ هنغاريا :

استمر مشروع المغامرة الصليبية (ص ٨٩) العملاقة طويلا ليقدم خلفية وارضية للحركات المسائحية الشعبية وفي الحملات الصليبية الرسمية تكتلت السياسة العلمانية بدرجة أكبر ، وبالفعل في الحملة الثالثة التي اخذت طريقها في ١١٨٩ ، وجدت الاهتمامات السياسية للدول العلمانية ـ الامبراطورية وفرنسا وانكلترا ـ تعبيرا مفتوحا ، وانتهت الحملة الصليبية الرابعة ، في السنوات الافتتاحية. للقرن الثالث عشر ، كحرب علمانية صرفة شنت لأغراض سياسية محضة ، فهي حملة امتزج فيها الطموح التجاري للبندقية بالطموحات الأرضية لأمراء فرنسا والمانية لتؤدي إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، وغزو وتقسيم الأمبراطورية الشرقية ، وفي مثل هذه الحملة لم يعد هناك مجال للدهماء ، فهم لم يكونوا مرغوب فيهم وهم لم يكونوا مهتمين ، ولكنهم لم يهجروا المثل القديمة للتحرر والدفاع عن المدينة المقدسة ، ولا الأمال المتعلقة بالأخرويات ، بل على العكس ، الآن وقد استسلم البارونات تماما للدنيويات ، كان الفقراء اكثر اقتناعا من قبل بأنهم ، وأنهم وحدهم كانوا الادوات الحقيقيةللارادة الالهية ، والقيمين الحقيقيين على المهمة الأخروية .

وفي ١١٩٨ يبدو انه قد ظهر للمرة الأولى متنبيء دعا الفقراء إلى حملة صليبية تكون لهم ، ولهم وحدهم ، وكان اسمه فولك أوف نويلي .

وكان زاهدا نمونجيا ، صانع معجزات وكانت سمعته الشعبية الكبيرة مدينة بالكثير لقدرته المفترضة على شفاء العميان والخرسان ، وماتصوره يبدو انه كان لايقل عن جيش مستقل يكون ملفتا بشدة للأنظار بفقره كما قيل كان جيش ملك الطفور ، وهلكت الحشود التي انطلقت متحركة مع فولك في بؤس على شواطيء إسبانيا ولكن في خلال بضع سنوات اعقبتها حملات الأطفال الصليبية ، ففي ١٢١٢ خرجت جيوش الأطفال لاستعادة المدينة المقدسة ، وتكونت من جيش من فرنسا ، وآخر أكبر بكثير من وادي الراين وترأس كل منهما شاب اعتقد في نفسه أنه قد أختير من قبل الرب ، وكان ينظر إليه من قبل اتباعه على انه قديس صانع معجزات ، ولم يكن (ص ٩٠) لهذه الألوف من الأطفال أن تكبح لا بالاستعطاف ولا بالقوة ، وكان إيمانهم عميقا لدرجة أنهم كانوا قانعين بأن البحر المتوسط سوف يجف أمامهم كما فعل البحر الأحمر أمام الاسرائيليين القدماء ، وانتهت هذه الحملات الصليبية ايضا بشكل مفجع ، مع كل الأطفال تقريبا إما غرقى في البحر أو جائعين حتى الموت أو بيعوا كعبيد في افريقيا ، ومع ذلك فإن هذه الهجرة الكبيرة دشنت تقليدا ، فلأكثر من قرن كانت حملات صليبية مستقلة من الفقراء تتابع الوقوع من وقت لآخر مع نتائج تعد مفجعة لهم وحدهم ، وفي هذه الأثناء قامت في فلاندرز وهنيوت الحملة الصليبية الرابعة ، وبشكل غير مباشر وبعد فاصل جيل ، على حركة استجابت بقوة إلى الآمال المسائحية الخلاصية للجماهير ، مع أن أصلها رسا في مؤامرة سياسية ، وعندما استولى الصليبيون على القسطنطينية في ١٢٠٤ نصبوا بلدوين التاسع كونت فلاندرز إمبراطورا للقسطنطينية وسيدا أعلى لكل الأمراء من الغرب الذين كانوا الآن يكسبون اقطاعات لأنفسهم من أراضي الامبراطورية الشرقية ، وكانت دولة بلدوين على أي حال ضعيفة جدا ، وخلال سنة أسر الامبراطور من قبل البلغار وأعدم ، وفي الوطن أصبحت ابنة بلدوين جوانا كونتية ، ولكن بما أنها لم تتمكن بفعالية من معارضة السياسي القوي المصمم فيليب أوغسطس الفرنسي فإن أراضيها في فلاندرز وهينوت وقعت تحت السيادة الفرنسية ، ولم

تكن هذه السيادة موضع ترحيب ، وعند موت فيليب في ١٢٢٣ كان نقص القيادة فقط هو الذي حال دون قيام ثورة ، وعند هذه النقطة عاد الخيال القديم للامبراطور النائم إلى الظهور في صورة متكيفة مع العصر ، وبفضل تاريخه الاستثنائي اصبح بلدوين في الخيال الشعبي شخصية ذات أبعاد خارقة للبشر ، مخلوقا خرافيا نصف شيطان ونصف ملاك وتدريجيا تطورت أسطورة كاملة ، وقد اشيع في الخارج ان الكونت كان بعد كل شيء ليس بميت ، ولكنه وقد اثم بدرجة كبيرة ، كان مايزال يكفر ويقدم التوبة التي فرضها عليه البابا ، ولسنوات عدة كان يعيش في غموض كشحاذ هائم وناسك ، ولكن تكفيره أن أن يستكمل وسيعود قريبا في تألق ليحرر أرضه وشعبه ، وفي عام ١٢٢٤ مر غريب عبر البلاد حول تورناي يوزع الهبات ويعلن أن بلدوين على وشك أن يعود ، وبعد بضعة شهور ظهر بين تورناي وفالنسين ناسك شحاذ في مظهر متنبيء نموذجي ذي قامة مهيبة ، وشعر طويل ولحية منسدلة ، وقد تم تعقبه إلى غابة قريبة حيث تبين أنه يعيش في كوخ مصنوع من الاغصان ، وبدأت الاشاعة على الفور في الانتشار على انه لم يكن سوى الكونت المفقود ، ولم يحسم أبدا ما إذا كان الناسك هو الذي أوحى بهذا الدور لنفسه أم أنه ببساطة قد قبله عندما اقترح عليه (ص ٩١)وما هو مؤكد انه وقد اصر على ان يمضي عاما اخر في الغابة لاستكمال كفارته ، استفاد من الوقت لتأمين مستشاريه وتنظيم بلاط سري ، وكان النبلاء يزورونه ، واعتقد ابن اخ بلدوين بأنه عرف عمه حقا فيه ، وادعى قادة المقاومة الفلمنكية لفرنسا على الأقل بأنهم قد عرفوه حتى يمكنهم تبنيه كرجلهم ، وبتقويته بهذا الدعم أعلن الناسك انه كان بلدوين حقا ، وأنه عاد إلى الوطن من الشرق بعد معاناة مروعة ، وتدفقت حشود كبيرة من فالنسين لرؤيته ، وفي نيسان ١٢٢٥ أعادته إلى المدينة على ظهر حصان وقد ارتدى رداءا قرمزيا ، بين مشاهد الابتهاج العارم .

وبقبوله من قبل معظم النبلاء والمدن في فلاندرز وهينوت ، ادعى الناسك قوى مهيمنة ، ولكن عندما دعته الكونتية جوانا للحضور إلى

بلاطها للاعتراف والمناداة به رفض الذهاب ، وبدلا من ذلك بدأ يعد العدة لترسيخ مركزه بالقوة ، وفي حين أن جوانا من جانبها ، وقد استقبلت صليبيين ممن عرفوا والدها شجبت الناسك على أنه دجال ، كانت المدن في مزاج مضطرب ليس فقط لأنهم وجدوا الفرصة لتوسيع حرياتهم بالتخلص من سيادة ملك فرنسا بل لأنهم في الواقع اعتقدوا أن سيدهم الحقيقي قد عاد إليهم ، وقد هبوا الآن بالسلاح وخلعوا جوانا التي نجت بصعوبة من الوقوع بالأسر ، وتفجرت الحرب الأهلية وكان الناسك على رأس قوة كبيرة ، عاثت فسادا في هينوت من أقصاها لأقصاها وسلبت ودمرت كل مراكز المقاومة ، وأشعلت النار في الكنائس وهي محتشدة بالناس ، ولم تكن هذه حربا عادية ولكن (كما وصفها مؤرخ محدث) حربا دينية لاستعراض القوة ، حربا صليبية ضد الكونتية جوانا ، التي أصبحت الآن مكروهة لالمجرد كونها حليفا لفرنسا ، بل على أنها غير متمسكة بالواجب ، وابنة عاصية متمردة ، ولم يكن قائد الحملة الصليبية قائدا عاديا بل أميرا مقدسا ، كائنا مبجلا حتى أن الناس كانوا يقبلون الندب التي كانت شاهدا على عذاب عظيم طويل ، ويقاتلون من أجل شعرة من رأسه أو قصاصة من ثيابه كما كانوا يشربون ماء استحمامه ، كما شرب ماء استحمام تانشيلم في جيل سالف .

وتوج الناسك في أيار ، وربما كان ذلك في فالنسين ، ككونت للفلاندرز وهينوت وامبراطورا للقسطنطينية وسالونيك ، في احتفال اجتمعت فيه أبهة المراسيم الغربية والشرقية وأوجد الملك الجديد على الفور الفرسان ، ووزع الاقطاعيات والرتب الكنسية والهبات وخرج في زيارة رسمية إلى مدنه ، وهو يرتدي الثياب الأرجوانية الخاصة بالسلطة ، محمولا على محفة ، أو ممتطيا حصانا أصيلا ، ومحاطا بأعلام مقاطعاته في الشرق والغرب ويتقدمه الصليب الذي كان يتقدم تقليديا خلفاء قسطنطين ، (ص ٩٢) وكان مايزال باللحية الطويلة نفسها لناسك مقدس ، ويحمل الصولجان الأبيض صولجان الخير بدلا من صولجان السلطة المعدني ، ولابد أنه بدا

حقا كامبراطور مسيحي ، جاء اخيرا لتحقيق نبوءات السبليذيين .

وكان الحماس الشعبي غامرا ، وجاءت مواكب شعبية طويلة من ابناء المدن والفلاحين من كل حدب وصوب يتقدمها رعاة الأديرة والرهبان لاستقباله ، وقدمت له مدن مثل ليل وغنت وبرغس ليس مفاتيحها فقط ، بل المال ايضا ، وهي تحمد الرب على العودة المعجزة التي بدت كميلاد جديد ، وكان الناس يركعون على ركبهم عندما يمر بهم ، وكما قال مراقب معاصر معلقا بطريقة ذات معنى : « لو أن الله نزل إلى الأرض ، لما استقبل افضل من ذلك » ، ومع ذلك فإن الحماس لم يكن بالقدر نفسه بين كل الطبقات ، وفي حين كان الاغنياء يميلون للنظر بريبة إلى الملك الجديد ، كان الفقراء مقتنعين تماما انه كان حقا بلدوين الذي ظهر بينهم ، ومع أن المؤرخين المحدثين مالوا إلى تجاهل الواقعة ، فإن المصادر الأصلية تظهر بوضوح كاف أن الفقراء المدنيين ولاسيما العمال في صناعة النسيج الكبيرة هم الذين تبنوا الرجل كمسيح لهم ، وطبقا للمراقب نفسه : « كان فقراء الناس من النساجين والقصاصين من خلصائه ، والأفضل حالا ، والأغنياء كانت حصتهم قليلة في كل مكان وقال الفقراء إنهم سيحصلون على الذهب والفضة .... وسموه الامبراطور » .

ويبدو التعليق هاما عندما يدرك المرء أنه في تلك السنة نفسها « ١٢٢٥ » كانت فلاندرز وهنيوت في ألم مبرح من مجاعة مروعة ، لم يشاهد مثلها منذ أجيال .

ومن الناحية السياسية أصبح الناسك قوة سياسية يحسب حسابها لأنه لم يوطد فقط سلطته في الوطن بل كان يكسب الاعتراف في الخارج ، وأرسل الأمراء من الجوار السفراء إلى بلاطه وعرض عليه هنري الثالث ملك انكلترا معاهدة تحالف ، موجهة بالطبع ضد فرنسا .

واجاب الملك الفرنسي لويس الثامن على كل ذلك بالتوصل إلى

معاهدة تحالف مع الكونتية جوانا ، والمح في الوقت نفسه بـأنه هـو نفسه قد يعترف بادعاءات الحاكم الجديد إذا زاره الأخير شخصيا ، وقبل الناسك الدعوة وسلك طريقه في حالة فخمة إلى البلاط الفرنسي في بيرون وتحول هذا إلى خطأ مميت ، ففي المحادثة مع لويس اثبت الناسك عجزه عن تذكر الأشياء التي كان بلدوين الحقيقـي يعـرفها بـالتأكيد ، وسرعان مـا عرف أنه بـرتداندوف راي مـن بيرغاندي ، وهو قد اشترك في الحملة الصليبية الرابعـة كشـاعر ومغني في حاشية سيده ، واصبح في مرحلة تـالية مـن حياتـه سيء السمعة كمشعوذ دجال وكمقلد للشخصيات أو منتحلها (ص ٩٣) وبتعرية الدجال فقد أعصابه وهرب في إحدى الليالي مـن البـلاط ، بينما تشتت حاشيته التي كانت تضم مائة فـارس كانوا حتـى ذلك اليوم الموالين المخلصين له وذلك بعد تحررهم كليا من الوهم ، وكان مايزال بإمكانه النجـاة بحياتـه لأن لويس منحـه مهلة ثـلاثة ايام لمغادرة الاراضي الفرنسية ، ولكنه بدلا مـن أن يسـتفيد مـن هـذه الضمانة سلك طريقة إلى مقر قيادة في فالسنيين ، وأدى وصـوله إلى وقوع اضطرابات في المدينة ، وحاول المواطنون الاغنياء اعتقاله ولكن الغضب الشعبيمنعهم من ذلك . وبدلا من ذلك تم احتجـار عدد مـن الاغنياء انفسهم لقاء فدية ، في حين هرب الباقي من المدينة وتخلص الشعب مـن الادارة القـديمة واعلنوا عن تشـكيل لجنة ثـورية بين مشاهد الابتهاج المحموم ، واسـكنوا مسـيحيهم في حصـن المدينة وبداوا بتقوية أسوار المدينة ، وكانت فالنسيين في الواقع على وشك ان تحاصر من قبل الفرنسيين ، وعندهـا فقـد بلدوين الزائف مـرة اخرى اعصابه فهرب واخذ معه قدرا كبيرا من المال ، وعندمـا عرف قبض عليهوجرى عرضه بطريقة مخـزية عبـر المدن التـي شـهدت انتصاره ، وفي تشرين اول أعدم في مقر السوق في ليل بعد نحو سبعة شهور من إعلان نفسه كونتا وامبراطورا .

ووصف برتراند أوف راي نفسه قبل إعدامه بشيطان فقير ضـلله النصح بالشر من الفـرسان والبـورجوازيين . ولكن شـيئا لم يكن بإمكانه كسر القبضة التي احكمها على الخيال الشعبي ، وكان على

المدن أن تطلب العفو من ملك فرنسا ، ولكن قلبيا بقي الناس العاديون مخلصين لسيدهم المفقود ، ومع أن الكونتية جوانا حكمت الأراضي التابعة لها بحكمة وشجاعة فإنها لأجيال عديدة بقيت تلعن كقاتلة لأبيها ، في حين أن شخصية بدوين ، الأمبراطور اللاتيني للشرق الذي ظهر لبضع أسابيع بين حشود الفلمنك كمسيح لهم ، قد أخذ مكانه بمثابة كونت أميكو أوف لينننغن وقد اتخذ مكانه بين الملوك النائمين الذين سيعودون يوما معا ومرة أخرى بكلمات المراقب المعاصر:« في فالنسيين كان الناس ينتظرونه كما انتظر البريطانيون الملك آرثر،وربما يضيف المرء كما انتظر عامة الناس طويلا في كل مكان ، كونستانس المبعوث من جديد ، ومع أن سلسلة الأحداث كانت قصيرة فإنها قد دشنت عهدا من الاضطراب الاجتماعي كان له أن يستمر قرنا ونصف القرن .

وفي فرنسا تركزت التوقعات المسائحية على أسرة كابيه التي أصبحت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتمتع بهيبة شبه دينية ذات شدة غريبة في زمن الحملة الصليبية الثانية كان لويس السابع بالفعل يعتبر من قبل العديد بمثابة امبراطور للأيام الأخيرة ومع بداية القرن الثالث عشر كان الناس العاديون منسجمين مع الملك والمدافعين الرسميين عن قضية ادعاء السلطة المطلقة الملكية الفرنسية وتقدمها على كل الملكيات الأخرى (ص ٩٤) فملك فرنسا مكرس من قبل القديس امبول ومعمد وقد حضرت عمادش حمامة من السماء ، وبشكل خاص كشاف من المرض ، وفيليب اوغطسطس الذي صيغ لقبه على سميه

اغسطس ذي اللقب الامبراطوري رأى نفسه شا رلمانا ثانيا ، معينا من قبل الرب ليكون رائدا لكل النصرانية اللاتينية ، وفي يوم معركة بومثين في ١٢١٤ ، التي بتحطيمها لتحالف انكلترا والمانيا وفلاندرز مضى بعيدا في اتجاه كسب تلك القيادة له ، وادعى فيليب في الواقع دور الملك الكاهن ، ومثل شارلمان في نشيد رولاند ، بارك جيشه كحشد يقاتل من أجل العقيدة الصحيحة .

و في تلك السنوات ذاتها كان هناك متعصبون في باريس رأوا في الابن البكر لملك فرنسا ، الذي أصبح فيما بعد الملك لويس الثامن مسيحا سيحكم الى الابد تحت شريعة الروح القدس عالما موحدا متطهرا ، وفي حالة اذا ماميز لويس الثامن نفسه بدهائه وتصميمه بدلا من اي مواهب روحية ، فان خليفته كان في الواقع قديسا دنيويا ، فقد وضع لويس التاسع او القديس لويس معيارا جديدا للملوك في النصرانية ، فإضافة الى زهده الصارم واهتمامه الحقيقي الذي امتد الى أكثر رعاياه تواضعا ، وكسب له مهابة استثنائية ، ان المرء ليتساءل اي أحداث خارقة كانت متوقعة منه ، عندما خرجت هذه الشخصية المشعة في الحملة الصليبية السابعة ؟ وبالتاكيد عندما هزم في المنصورة في ١٢٥٠ ووقع في الأسر ، الذي استمر أربع سنوات كانت هذه ضربة مروعة لكل النصرانية وكان التحرر من الوهم كبيرا لدرجة أن العديد من فرنسا بداوا في توبيخ الاكليروس ، قائلين : بعد كل شي بدا أن محمد (ص) أقوى من المسيح .

واستجابة لهذه الكارثة برزت للوجود اول الحركات الفوضوية المعروفة باسم صليبية الرعاة،وفي عيد فصح ١٢٥١ بدأ ثلاث رجال بالوعظ بالحملة الصليبية في بيكاردي وخلال بضعة أيام امتدت دعوتهم الى برابانت وفلاندرز ، وهينوت أي الأراضي الواقعة وراء حدودالمملكة الفرنسية ، وكانت الحشود متعطشة للمسيح بالدرجة نفسها كما كانت في أيام برتر اند أوف راي قبل ذلك بجيل ، وكان احد هؤلاء الرجال راهبا مرتدا يدعى يعقوب يقال انه جاء من هنغاريا ، وكان يعرف باسم « استاذ هنغاريا » وكان زاهدا نحيلا شاحبا ملتحيا في نحو الستين من العمر ، له تاثير قوي وقادرا على الكلام بطلاقة كبيرة باللغة الفرنسية ، والالمانية واللاتينية ، وادعى يعقوب ان مريم العذراء قد ظهرت له وهي محاطة بجيش من الملائكة وأعطته رسالة ، كان يحملها دائما في يده مثلما قيل عن بطرس الناسك انه كان يحمل وثيقة مماثلة ، ونقلا عن يعقوب كانت هذه الرسالة (ص ٩٥) تدعو كل الرعاة لمساعدة

الملك لويس على تحرير الضريح المقدس ، وادعى ان الرب كان غير مسرور بالزهو والتباهي لدى الفرسان الفرنسيين ، وانه اختار الهمل من العامة لتولي عملهم ، فالرعاة اعلنت الانباء السارة بولادة المسيح للمرة الأولى ، ومن خلال الرعاة عرف ان الرب على وشك اظهار قوته وبهائه .

وهجر رعاة الغنم والابقار من الشباب والصبية والفتيان على السواء قطعانهم ، ودون استئذان من أهاليهم وتجمعوا تحت الاعلام الغربية التي رسمت عليها الزيارة المعجزة للعذراء ، وقبل مضي زمن طويل انضم اليهم اللصوص ، و العاهرات والخارجون على القانون والرهبان المرتدون ، والقتلة وقدمت هذه العناصر القادة ، ولبس كثير من هؤلاء القادمين الجدد ايضا زي الرعاة واصبحوا جميعا يعرفون باسم الرعاة وسرعان ماكان هناك جيش -مع أن التقدير المعاصر بنحو ستين الفا يجب الا يؤخذ بجدية - لابد انه كان بالتأكيد يعد ببعض الألوف.

وكان مقسما الى خمسين سرية ، كانت تزحف منفصلة وهي مسلحة بالمذاري ، والبلط والخناجر والفؤوس المرفوعة عاليا ، عندما يدخلون المدن والقرى من اجل ارهاب السلطات ، وعندما كانوا يقعون في عجز من المؤن ، كانوا يأخذون مايحتاجون اليه بالقوة ، ولكن الكثير منها كان يقدم طواعية حيث - كما يظهر من كثير من الروايات المختلفة - كان الناس يبجلون الرعاة كرجال مقدسين .

وسرعان ما أصبح الرعاة يتصرفون بالضبط مثل الجماعات التي تبعت تانشيلم ، وبود دي توال ، واخذ على يعقوب بالوعظ ضد رجال اللاهوت ، وهو محاط بحرس مسلح وبدأ يهاجم الرهبان الذين يعيشون على الصدقات كمنافقين ومتشردين ، والرهبان البندكيتيين للأرض والتملك والبريمونستراتينيين على انهم مغرورون

وشرهون ، والقوانين النظامية على انهـا تصـف دنيونة وتقـطع الصيام وكانت هجماته على مجلس الكرادلة لاتعرف الحدود ، وعلم اتبـاعه النظـر الى الأسرار المقـدسة بـازدراء ، وان يروا في اجتماعاتهم الخاصة التجسيد الوحيد للحقيقة ، ولنفسـه ادعى انه لايمكن فقط ان يرى الرؤى بـل ان بـامكانه ايضـا شـفاء المرضى ، وكان الناس يحضرون له مرضاهم ليمسـهم ، واعلن ان الطعام والنبيذ الذي يوضع أمام أتباعه لاينقص ابدا ، بل بـالأحرى يزداد بينما يؤكل ويشرب ووعد بأنه عندما يصـل الصـليبيون الى البحر فان الماء سيرتد أمامهم وأنهـم سـيسيرون مـن غير بلل الى الأرض المقدسة ، وبشأن قوة قدراته المعجزة ادعى لنفسه الحـق في منح الغفران من كل انواع الذنوب ، واذا رغب رجـل وامـراة مـن اتباعه في الزواج فانه كان يقوم بالمراسم ، واذا رغبا في الانفصـال فانه كان يطلقهم بالسهولة نفسها ويقال انه قد زوج احد عشر رجلا لامراة واحدة ، ممـا يدلل على انه راى نفسـه كمسـيح حـي يتطلب « حواريين » «ومريم عذراء » (ص ٩٦)وكل مـن يغـامر بمعارضته كان يبطش به من قبل الحراس ، واعتبر قتل كاهن امرا يستحق الثناء بشكل خاص ، ونقلا عن قول يعقوب : يمكن أن يكفر عنه بشربة نبيذ ، ولم يكن مـدهشا ان نظـر رجـال اللاهـوت الى انتشار الحركة برعب وقد ذهـب جيش يعقـوب اولا الى اميز حيث استقبل استقبالا حماسيا ، ووضع البورجوازيون طعامهم وشرابهم تحت تصرف الصليبيين ، ودعوهم باقدس الرجال ، وأعطى يعقوب انطباعا صالحا حتى انهم رجوه ان يتفضـل بـأخذ مـايشاء مـن ممتلكاتهم ، وركع بعضهم أمامه (كما لو كان جسد المسيح) .

وبعد اميز انشطر الجيش الى مجمـوعتين سـارت الأولى الى روان حيث تمكنت من تشتيت مجمع كان ينعقد هناك برئاسة رئيس الأساقفة ، وتقدمت الأخرى الى باريس وهناك فتن يعقـوب الملكة الأم بلانش حتى انها حملته بـالهدايا وتـركت له الحـرية ليفعـل مايشاء ، وكا ن يعقوب في ذلك الحين يرتدي زي اسـقف ويعـظ في الكنائس ويرش الماء المقدس وعقب طقوس غريبة خاصة به ، وخلال

ذلك كان الرعاة يبدأون في المدينة بمهاجمة رجـال اللاهـوت وقتلوا العديد منهم بالسيف واغرقوا العـديد في السـين واوشـك طـلاب الجامعة ـ الذين كانوا بالطبع من رجـال اللاهـوت وان كانوا مـن المراتب الصغيرة ـ أن يذبحوا لو لم يغلق الجسر في الوقت المناسب.

وعندما ترك الرعاة باريس تحركوا في عدد من الفرق ، كل منهـا تحت قيادة « استاذ » كان يبا رك الحشود وهم يمرون خلال المدن والقرى ، وفي تور هاجم الصليبيون رجال اللاهوت ايضا ولاسيما رهبان الدومينكان والفرنسيسكان الذين سـحبوهم وجلدوهـم في الشوارع ، ونهبت كنيسة الدومنيكان ، وهوجم دير الفرنسيسكان واقتحم واظهر الازدراء القديم للأسرار المقدسة التي تناولتها الايدي غير الجديرة نفسها : لقد امسكت الحشود بخبز القـربان المقـدس وبين الاهانات القوا به الى الشـوارع ، وكان كل مـايجري يلقـى القبول والتـأييد مـن الناس ، وفي اورليانز وقعـت مشـاهد مماثلة ، وهنا أمر الأسقف بإغلاق البوابات في وجه الحشد القـادم ولكن البورجوازيون تعمدوا عدم اطاعته وسمحوا للرعاة بـدخول المدينة ووعظ يعقوب الحشود وتم شج رأس أحد العلماء من مدرسة الكاتدرائية كان قد تجرأ على معارضته ببلطة طرحته ارضا ، وهرع الرعاة الى المنازل التي اختبأ فيها الرهبان فعصفوا بها ، وحـرقوا الكثير منها الى الأرض ، وبطشوا بكثير من البورجوازيين رجـال اللاهوت بما فيهم اساتذة الجامعة او اغرقوهم في اللوار .

واكره باقي رجال اللاهوت على الخروج مـن المدينة ، وعندمـا غادر الرعاة المدينة كان الأسقف ساخطا محنقا من الاستقبال الذي اضفي عليهم ، ووضع اورليانز تحت الحـرمان ، وفي الواقـع كان راي المعـاصرين أن الرعاة كانوا مـدينين الى حـد بعيد بهيبتهـم لعاداتهم في قتل ونهب الكهنة ، وعندما كان احد رجـال اللاهـوت يحتج او يقاوم لم يكن يلقى دعما من الناس ، ومن المفهوم ان بعض رجال اللاهوت وهم يرقبون نشـاطات الرعاة كانوا يشـعرون بـان الكنيسة لم تكن ابدا عرضة لخطر اكبر من ذلك ، وفي بورغ بدأ قدر

الرعاة يتغير ، وهنا ايضـا عصى البـرجوازيون رئيس أسـاقفتهم وسمحوا للحشود بقدر ما اتسعت لهـم المدينة ، وعسـكر الباقي خارجها ووعظ يعقوب هذه المرة ضد اليهود وأرسل رجـاله لتـدمير الكتابات المقدسة ، ونهب الصـليبيون المنازل ايضـا في كل أنحـاء المدينة ، واخذوا الذهب والفضة اينما وجـدوهما واغتصـبوا كل امرأة امكنهم ان يضعوا ايديهـم عليهـا ، واذا كانوا لم يضـايقوا رجال اللاهوت فان ذلك كان لأنهم اختبـأوا ، ولكن في ذلك الوقـت كانت الملكة الأم قد أدركت نوع هذه الحركة واعتبـرت خـارجا على القانون كل من شارك فيها ، وعندما بلغت هذه الأنبـاء بـورغ فـر العديد من الرعاة واخيرا وبينمـا كان يعقـوب يرعد ويبـرق ضـد انحلال رجال اللاهوت ويدعو أهل المدينة للانقـلاب ضـدهم تجـرأ واحد من بين الحشود على معارضته ، واندفع يعقوب نحو الرجـل بسيف وقتله ، ولكن هذا كان كثيرا بالنسبة للأهـالي الذين حملوا بدورهم السلاح وطاردوا الزوارالجامحين الى خارج المدينة .

وجاء الآن دور الرعاة في معاناة العنف ولوحق يعقوب مـن قبـل الخيالة البرجوازيين ومزق اربا ، واسر العديد من اتباعه من قبـل ا لرجال الرسميين الملكيين في بـورغ وشـنقوا ، وشـقت الفـرق الناجية طريقها الى مرسيليا والى ايغ مـورت حيث كانوا يأملون في ركوب السفن الى الأرض المقدسة ، ولكن كلتا المدينتين تلقت تحذيرا من بورغ واعتقل الرعاة وشنقوا ووصلت فـرقة أخيرة الى بـوردو ولكن لتلتقي هناك مع قوات انكليزية تحت قيادة حـاكم غاسـكوني سيمون دي مونتفورت حيث تشتت ، واثناء محاولة قائدها الصعود الى إحدى السفن المبحرة نحو الشرق عرف من قبل بعض البحـارة واغرق وفر احد معاونيه الى انكلتـرا ، وعندمـا نزل في شـورهام جمع اتباعا من بضع مئات من الفلاحين والرعاة ، وعندما بلغت هذه الأحداث الملك هنري الثامن كا ن متنبها بدرجة كافية لاصـدار تعليمات لقمع الحـركة الى قـادة الشرطـة في كل انحـاء المملكة ، وسرعان ماتحللت الحركة كلها ، وحتى الحواري في شورهام مـزق اربا من قبل أتباعه ، وكانت الشـائعات قـد حملت كل شئ الى كل

جهة ، فقيل ان الحركة كانت مؤامرة من السلطان الذي قيل أنه دفع ليعقوب ليجلب له المسيحيين من الرجال والشبان كعبيد ، وقيل ان يعقوب والقادة الآخرين كانوا من المسلمين الذين كسبوا هيمنة على المسيحيين بوسائل السحر الأسود (ص ٩٨).

ولكن كان هناك ايضا أنه في الوقت الذي تم فيه قمع حركة الرعاة ، كانت قد توسعت فقط في الجزء الأول من برنامجها ، فقد قال الناس قصد قادة الرعاة أن يذبحوا أولا الكهنة والرهبان ، ثم الفرسان والنبلاء ، وعندما تسقط كل السلطات تنتشر تعاليمهم في كل أرجاء العالم.

صليبية الفقراء الأخيرة

لم تصبح الحركات المسائحية للجماهير أكثر استقلالا فقط بل أصبحت أكثر صراحة في عدائها للأغنياء وذوي المزايا ، وفي هذا عكست تغييرا حقيقيا في الاحساس الشعبي ، ولم تكن الخصومة بين الاغنياء والفقراء شيئا جديدا ، وحتى تحت نظام الوحدات الريفية الاقليمية كان بامكان الفلاحين الانقلاب ضد سادتهم اذا كان حكمهم مستبدا أو نزويا او متعارضا مع عادات الضيعة ، ولم تكن الثورات المحلية غير معروفة بأي حال ، ومع ذلك كان فقط عندما تمزق نظام الوحدات الريفية بسبب تطور الاقتصاد التجاري والصناعي ان الطبقات العليا من العامة أصبحت هدفا لتيار ثابت من النقد الدال على الاستياء .

وكان كثير من العداء موجها ضد التجار الراسماليين في المدن ، وكثيرا ماكان هؤلاء اغنياء جدا ، فأربعون رأسماليا ربما كانوا يملكون نصف الثروة في مدينة اضافة الى معظم الأراضي التي بنيت عليها ، وصحيح انه في المراحل الأولى في نمو المدينة قدم مثل هؤلاء الناس خدمات عامة عظيمة وفي بعض المدن ـ البندقية مثلا ـ استمروا على ذلك خلال العصور الوسطى ، ولكن في مدن كثيرة في

البلاد المنخفضة ووادي الراين اصبحوا بسرعة يشكلون قلة حاكمة انانية كانت تهتم فقط بحماية مصالحها الخاصة ، و كسلطة بلدية وحيدة كان هؤلاء الرأسماليون قادرين الى حد بعيد على تحديد الأجور وساعات العمل في الصناعة بما في ذلك الصناعات التي يحصلون منها على ارباحهم ، وفوق كل شي لم تكن هناك رابطة تقليدية اجتماعية تقدسها العادة المغرقة في القدم ، لتوحيد الرأسماليين الكبار حتى مع الحرفيين الرئيسيين أو معلمي الحرف الذين عملوا لديهم بصورة دائمة تقريبا ، اذا تجاوزنا عن ذكر العمال العاديين والعاطلين ، ولم يكن هناك مفر من انه في المناطق المتمدنة بدرجة عالية ، حيث عاشت الاقلية الغنية في تقارب وثيق مع السكان ، وحيث وجد عمال غير مستقرين يبالغ في الاستغناء عنهم واحيانا يرهقون بالعمل وهم دائما في فقر يائس ، من ان يشهد هؤلاء تنامي الكراهية الطبقية ذات العنف البالغ .

وكانت النبالة القديمة مكروهة مثلما تمت كراهية الارستقراطيين الرومان الذين كانوا يرتبطون معهم في الواقع بالزواج ، (ص٩٩) .

والعمل التقليدي للنبلاء كحماة للفلاحين غير المسلحين اصبح يرى اقل ضرورة مع توقف الغزوات الكبيرة ومع تقييد الأعمال الحربية الخاصة بشكل تدريجي بوساطة السلطة الملكية ، علاوة على ذلك تحلل نظام الوحدات الريفية في المناطق التالية الاستقرار بسرعة ، والمعايير المعيشية التي كانت تبدو مناسبة حتى بالنسبة لمالكي الاراضي الكبار في القرون الأولى بدت اقل وفاء بالحاجة الآن ، وكانوا يريدون عادة العيش في المدن ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك بوساطة الدخل الآتي من الخدمات والقروض النوعية التي كثيرا ما كانت ثابتة منذ قرون قديمة ، وكان عليهم بدلا من ذلك الحصول على المال ويمكنهم فقط الحصول عليه بالسماح لعبيدهم اولا بشراء حرياتهم ، وثم دفع ايجار نقدي لممتلكاتهم ، وكان الفلاحون كثيرا ما يستفيدون ماديا بقدر كبير ، من التغيير ، لكن موقفهم كان

يتحدد بالأحرى بتلقف رابطة ، مع انهم كثيرا ماكانوا يجدونها عبثا وظلما الا انها مع ذلك كانت تنطوي على صفة ابوية معينة ولكن مع اختفاء القنانة كانت المصالح المادية تميل لأن تصبح المعيار الوحيد الذي ينظم معاملات مالك الأرض مع فلاحيه ، وكان هناك عدد كبير من الأفراد من جلب عليهم انهيار نظام الوحدات الريفية كوارث تامة ، وعندما ـ كما حدث كثيرا ـ اصبح مربحا لمالكي الأراضي خفض عدد مستأجريهم كانوا يطردونهم بأي ذريعة يجدونها ، واصبح العديد من الفلاحين الذين كانوا عاجزين عن احكام قبضتهم على الأرض من البروليتاريا الريفيين ، وفي الوقت نفسه افلس عدد كبير من مالكي الأرض في محاولتهم الاحتفاظ بمستويات من المعيشة تفوق امكانيتهم فغرقوا في صفوف المطرودين.

وفي هذا العالم الجديد عندما ازدهر الرخاء الذي لم يحلم به جنبا الى جنب ليس فقط مع الفقر الكبير بل ايضا مع عدم الأمن الكبير غير المعتاد ، كانت احتياجات الفقراء عالية ومتوالية ، وهي محفوظة في وثائق من انواع مختلفةمن ذلك في الأمثال التي الفها الفقراء انفسهم : « الرجل الفقير يعمل دائما ، يقلق ويعمل ويبكي ولايضحك من قلبه ابدا ، في حين يضحك الرجل الغني ويغني ...»

وفي العاب الخوارق التي ربما كانت الوسيلة الرئيسية للتعبير الشعبي عن النفس : « ... يجب أن يكون لكل انسان من الممتلكات بقدر مالغيره ، ليس لدينا شي ندعوه ملكنا الخاص ، ان السادة الكبار لديهم كل الممتلكات والناس الفقراء ليس لديهم شي سوى المعاناة والمحن والحظ العاثر ..»

وايضا في المقطوعات الهجائية المؤثرة التي تقرأ على نطاق واسع : «الحكام ورؤساء الكنائس والشمامشة ورؤساء المدن يعيش الكل تقريبا على السرقة .... الكل يعيش على حساب الفقراء هم جميعا يريدون ان يسلبوهم وهم ينتفون شعرهم (ص ١٠٠) وهم احياء.القوي يسرق الضعيف...» او

ايضا :« اريد ان اخنق النبلاء ورجال اللاهوت ان اخنق كل واحد منهم....يصنع الرجال الصالحون خبز الحنطة لكنهم لن يمضغوه ابدا كلا ان كل مايحصلون عليه هو نخالة القمح ، ومن النبيذ الجيد لايحصلون على شيءسوى التفل ، ومن القماش الجيد لاشي سوى النفاية ، ان كل شيءطيب ، وجيد يذهب الى النبلاء والكهنة ورجال اللاهوت... »

وفي المناسبات كان هذا الاستياء والغيظ الكئيب الكامن يعطى مكانه لمساواة قتالية وفي وقت يعود في قدمة الى ١١٨٠ تحرك نجار في وسط فرنسا ـ وكالمعتاد برؤيا للعذراء ـ ليؤسس جمعية الاخاء التي ستطهر الأرض من وباء جيش المرتزقة المخل الذي تحول الى جماعة منظمة.وفي البداية كان « صليبيو السلام » كما دعوا انفسهم ، جمعية ورعة ، يمكن مقارنتها بجمعيات بناة الكنيسة تضم اناسا من كل الطبقات ، وكانوا مجازين من الاساقفة ، تعهدوا بعدم الشرب أو المغامرة او السباب . ولكن في الوقت الذي تغلبوا فيه على الفرق المنظمة ، تحول الكابوتياتي الذين سموا كذلك بسبب لباسهم الموحد ذو القلنسوة البيضاء الى حركة ثورية من فقراء الناس أعلنت المساواة بين الناس جميعا ، وأصرت على أن الكل على حد سواء مخولين بالحرية التي ورثوها عن أدم وحواء ، وفي النهاية أصبح الكابوتياتي عنيفين وبدأوا بقتل النبلاء حتى تم قمعهم بالقوة المسلحة .

ومع أن الراهب الذي وصف هذه الاحداث ربما يكون قد صرخ من الرعب ومن الجنون المسعور للكابوتياتي ، كان المنادون بالمساواة من قبل هؤلاء دوما سريعين بالاستشهاد بتعاليم الكنيسة نفسها في دفاعهم ، لانه مهما كانت ممارساتهم دنيوية ، لم تتوقف الكنيسة عن تمجيد الفقر كواحد من القيم العالية واحدى الوسائل الرئيسية لبلوغ القداسة . وبالنسبة للرجال المقدسين المحترفين ، كان يفترض أن فقر الرهبان إلزامي مثل العفة والطاعة وقبل القديس فرانسيس بقرن أمكن لباحث ديني مثل القديس

نوربرت ان يختار أن يهيم في العالم في اسمال بالية ، وبالتاكيد إن مثل هذا التمجيد للفقر يجب ان يتضمن إدانة للغنى ؟ وقد انكر علماء اللاهوت بالطبع قانونية هذا الاستنتاج واعاد القديس توماس تاكيد العقيدة التي وضعها الآباء : « عين الناس من قبل الله لأحوال مختلفة في الحياة ، وإن الرجل الغني ، مع أنه يتوجب عليه في الواقع أن يعطي الصدقات بسخاء ، يتوجب عليه أيضا أن يحتفظ بما يكفي ليمكن نفسه وعائلته من العيش بطريقة تتواءم ووضعهم » ولكن هذا لم يمنع الحشود الفقيرة من النظر الى الاغنياء على أنهم يستحقون اللعن ومقيتون الى اقصى حد ، أو لم يقل المسيح نفسه للرجل الغني الشاب : « بع ما تملك ووزعه على الفقراء ، ولسوف يكون لك كنز في السماء.... لأنه أسهل على الجمل أن يدخل في سم الخياط من أن يدخل رجل غني في مملكة الرب »؟

الم يتحدث عن دايز الرجل « الذي كان يلبس القرمز والكتان الناعم ويزداد ترفا كل يوم والذي للسبب نفسه طرح في نار جهنم ، في حين يرقد الشحاذ لا زاريس في هدوء في صدر الأب ابراهيم »؟

وحالما أسقط الرجل العلماني الغني دوره الأبوي أصبح موضوعا للاسقاطات نفسها مثل رجال اللاهوت واليهودي ، اي انه أصبح يرى كأب شرير وابن شرير واكتسب في الوقت نفسه صفة شيطانية ، وهناك مواعظ تصور الأغنياء على أنهم ابناء غير مطيعين للمسيح ، ابناء قساة القلب ستلقى لا مبالاتهم بمعاناة ابيهم بالتأكيد عقابا اليما ، وفي النحت الروماني الدقيق الذي يزين مدخل كنيسة - الرهبان للقديس ببير في مواساك ، مثلا ، صور الرجل الثري كأب مهمل شرير ، وهنا صورت قصة دايفز ولازاريس كلها بانفعال شديد ، ومن « مشهد المأدبة حيث نبذ لازاريس من قبل البطرك الشرير دايفز نزولا الى النقطة التي يبتهج فيها لازاريس بعناية ابراهيم الأبوية في حين وزن دايفز بكيس ماله ، وعذب من قبل الشياطين(صورة رقم ٥) ولكن المعنى العاطفي العميق الذي

كان لهذه القصة بالنسبة للحشود انتقل بحيوية أكثر بالصور التي في الزاوية اليمنى السفلى ، فهذه الصور ترمز الى الانفعالات الرئيسة لدى دايفز ، أفاريتيا (الجشع) ولوكسوريا (المتعة) ، وتلهفه للكسب للمسرات الدنيوية ، واللغة الرمزية هي لغة الايمان بالشياطين في العصور الوسطى ، ويرمز الى التمزق للكسب بشيطان ذكر ، في حين رمز لحب المتعة بالمرأة والثعابين – صورة أصلية كانت تجسيدا بصريا للرغبة الجسدية والشيطان الأرضي – ممن أقام في الواقع في ذلك العالم المظلم حيث أقام إبليس ووحش سفر الرؤيا والأفاعي المرافقة لهما ، والعقارب والضفادع .

علاوة على ذلك ففي حواش وشروح لا حصر لها على سفر الرؤ يا صور أفاريتيا ولوكسوريا كرموز لخدم المسيح الدجال ، وهكذا نجد بالفعل من وجهة نظر الارثونكس ، أن دايفز كما صور في مويساك ، هو واحد فقط أبعد عن اليهودي الشيطاني ورجال اللاهوت الشيطاني ، ولكن إذا أمكن للكنيسة في محاولاتها ضمان تحالف الحشود الجديدة أن تتحدث بلغة كهذه ، فما الذي كانته لغة أولئك المهرطقين الذي نشروا تعاليمهم بين النساجين في ورشهم وأكواخهم ، أولئك الكهنة المرتدون الذين وجدهم القديس برنارد وقد أثاروا رعبه جالسين وهم ملتحين ، وغير حليقين بجوار الأنوال الى جانب النساجين من الذكور والاناث ؟ فالى هؤلاء الناس كان دايفز ينتمي ، أي ببساطة الى جيش المسيح الدجال . وفي أذهان المتعصبين من المؤمنين بسفر الرؤيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان الغني من العلمانيين يمر بالفعل في حالة من التحول ستحوله مع مرور الزمان (ص ١٠٢)الى رأسمالي في دعاية القرن العشرين :« إنه الكائن الشيطاني حقا في تخريبه ، وقسوته ، وشهوانيته القوية ، وقدرته على الخداع وفوق كل شيء قوته الكلية تقريبا .

إنه في هذا الاطار يمكن رؤية آخر الحملات الصليبية الشعبية كتجارب أولية لنمط من أنماط الألفية التي كانت جديدة على أوربا

العصور الوسطى ، والتـي كانت تـرمي ولو بشـكل مشـوش الى القضاء على الأقوياء ، ورفع الفقراء ، ومع الربع الأول من القـرن الرابع عشر كان الحماس الصليبي اقوى من اي وقـت في احتـكاره للفقراء ، لقد وصلت مملكة القـد س الى نهـايتها واخليت سـورية واستبدلت البابوية الهـالة الصـوفية لروما بـأمن افنيون وكانت السلطة السـياسية في كل بلد تنتقـل الى البيروقـراطيين متصـلبي الرؤوس ــ وكانت الجماهير غير المستقرة بين السوم والراين فقـط ما تزال تضطرم بـالتخيلات الأخـروية التـي كانوا ينقلونهـا الآن ممزوجة بوحشية مريرة ، ولم يكن مطلوبا سوى القليل جدا لاقـلاع هؤلاء الناس في محاولة غير واقعية بـالمرة لتحـويل تخيلاتهـم الى حقائق ، ففي ١٣٠٩ ارسـل البـابا كليمنت الخـامس حملة مـن الفرسان الاسبتارية لغزو رودس لتكون حصـنا ضـد التـرك ورأت السنة نفسها مجاعة بالغة الخطورة في بيكاردي والأراضي المنخفضة وعلى طول القسم الأدنى من الراين ، وكان الطـرفان معـا كافيين تماما لاثارة حملة صليبية شعبية أخرى في المنطقة نفسـها ، ومـرة أخرى ظهرت الأرتال المسلحة ، تتـألف مـن الحـرفيين الفقـراء البائسين ، والعمال مع مزيج اضافي من النبلاء الذين بددوا ثرواتهم و(المرء يتذكر العديد من مالكي الأراضي المفلسين) لقـد كان الناس يتسولون وينهبون في طريقهم عبر البلاد ، ويقتلون اليهـود ولكنهـم كانوا أيضا يعصفون بالحصون التي أوى فيها النبلاء هـذه الموارد القيمة الدخل ، وفي النهـاية هـاجموا حصـن دوق أوف بـرابانت وهومعارض صارم لكل الثورات الشعبية وكان قـد هـزم قبـل ذلك بثلاث سنوات فقط جيشا من العصـاة المتمـردين مـن صـانعي الثياب ، ويقال انه دفن قادته أحياء ، وقاد الدوق على الفور جيشا ضد الصليبيين وطردهم بخسائر كبيرة ولكن خلال بضـع سـنوات كانت حشود أخرى تتجمع مرة أخرى.

وكان هذا بـالفعل زمـن الأسى الكبير والشـعور غير السـوي بالأهمية ، وبينما أدى التدني الشامل في انتاج المحـاصيل في ١٣١٥ بالفقراء الى اكل لحوم البشر ، كانت مواكب طـويلة مـن التـائبين

العراة تبكي لله طالبة الرحمة ، ورفرفت الآمـال الالفية عاليا ، وفي وسط المجاعة انتشرت نبوءة تبشر بأن الذين طردهم الجوع ، مـن الفقراء سيقومون في تلك السنة ذاتها بثورة مسـلحة ضـد الأغنياء والاقوياء ويدمرون الكنيسة ، ويطيحون بالملكية الكبيرة ، وبعد كثير من سفك الدماء سيبزغ فجر عصر جديد يتوحد فيه كل الناس تحـت صليب واحد ماجد مرتفع، وليس مدهشا أن اقتـرح في ١٣٢٠ فيليب الخامس ملك فرنسا بفتـور حملة (ص ١٠٣)أخـرى ايضـا الى الاراضي المقدسة ، وقد أخذت الفكرة على الفور من قبـل الحشـود البائسة ، مع انها كانت غير عملية بالمرة ونبـذت حـالا مـن قبـل البابا ، وهذه المرة كان راهب مرتد وكاهن مجـردهما اللذان بـدءا بالوعظ بالحملة الصليبية في شمال فـرنسا،و بتـأثير جيد حتـى أن حركة كبيرة قفزت « بشكل مفاجيء و بدون توقع كدوامة» و لكن هنا ايضا يبدو أن دورا كبيرا قد نفذ من قبل متنبيء أدعى أنه عين مـن قبل الرب كمخلص ، واستمد مؤرخون يهود مـن مصـدر اسـباني مفقود قصة صبي راع اعلن أن حمامة قد ظهرت له ، وتحـولت الى صـورة العـذراء ، وأمـرته أن يدعو الى حملة صـليبية ، ووعدت بالنصر لها ، ويذكر هؤلاء المؤرخون ايضا أن قائنا أدعى انه موسوم بعلامة الاختيار الالهي. وهي الصليب بين لوحي الكتف.

وكمـا في ١٢٥١ كان أول المسـتجيبين هـم رعاة الأغنام والخنازير ، وكان بعضهم مـجرد أطفـال وهـكذا أصـبحت هـذه الحركة ايضا تعرف بحملة الصليبيين الرعاة ، ولكن مـرة أخـرى. بينما كانت الأرتال تمر عبر المدن انضمت اليها عناصر أخـرى مـن المتسولين ذكورا واناثـا. والخـارجين على القـانون وقـطاع الطرق ، وأصبح الجيش الناتج بسرعة مشاغبا عنيفا ، وقبـل مضي زمن طويل اعتقل عدد كبير من الرعاة وسـجنوا ، ولكن البقية كانوا مدعومين جماهيريا وبحماس ، وكانوا يعصفون بالسجن ويحررون رفاقهم ، وعندما وصلوا الى بـاريس أرهبـت هـذه الحشـود المدينة ، واقتحموا القصور ، وانقضوا على الكنائس ، وفي النهاية وبفعل شائعة أن قوات مسلحة قد استدعيت للعمل ضدهم ، شـكلوا

أنفسهم في وضع قتالي في حقول القديس جرمان دي بريه ، وعندما لم يتحقق وجود قوة لمعارضتهم تركوا العاصمة وساروا جنوبا حتى دخلوا الأراضي الانكليزية في الجنوب الغربي وكان اليهود قد طردوا من المملكة الفرنسية في ١٣٠٦ ، ولكنهم كانوا ما يزالون موجودين هنا ، وبينما كان الرعاة يزحفون كانوا يقتلون اليهود وينهبون ممتلكاتهم وأرسل الملك الفرنسي أوامره بحماية اليهود ، ولكن الشعب اقتناعا منه أن المذبحة عمل مقدس ، فعل كل شيء لمساعدة الصليبيين وعندما اعتقل الحاكم والرسميون المدنيون في طولوز عددا كبيرا من الرعاة عصف أهل المدينة بالسجن ، واعقب ذلك مذبحة كبيرة لليهود وفي البي اقفل الحكام البوابات ، ولكن الصليبيين اقتحموها وهم يصيحون بأنهم جاءوا لقتل اليهود ، وحيتهم الجماهير بحماس وحشي ، وفي مدن أخرى انضم أصحاب السلطة أنفسهم الى أهالي المدن والى الصليبيين في بوردو ، وفي كل انحاء جنوب غرب فرنسا من بوردو في الغرب الى البي في الشرق ، قتل كل يهودي تقريبا (ص ١٠٤) .

وتدريجيا بدأ الرعاة يحولون اهتمامهم الى رجال اللاهوت ، وكرعاة للرب بدوا في مهاجمة الكهنة على أنهم« رعاة زائفون سرقوا قطعانهم » وقيل أنهم كانوا يخططون لمصادرة كل الممتلكات الخاصة برجال اللاهوت غير الرهباني أو العائدة للأديرة ، وحاول ضابط ملكي ، وكيل الأمير في كاركاسون ، أن يشكل قوة لمقاومتهم ، ولكنه وجد صعوبة كبيرة في ذلك ، إذ رفض الناس العاديون في كل مكان تقديم المساعدة ، وفي مقر إقامة البابا في افنيون كان هناك استنفار كبير ، حيث أن الأديرة البابوية كانت تتوقع أن يحمل الصليبيون على المدينة وخشوا من النتائج ، وفي النهاية حرم البابا جون الثاني والعشرين الرعاة ودعا وكيل أمير بوكير ليباشر القتال ضدهم ، وثبتت فعالية هذه الأجراءات ، ومنع الناس تحت طائلة الموت ، أن يقدموا الطعام لمن يريد أن يكون صليبيا ، وقتل العديد في المعركة في نقاط مختلفة بين طولوزونربونة ، او أسروا وعلقوا في الأشجار بالعشرين والثلاثين ، واستمرت

عمليات الملاحقة والاعدام نحو ثلاثة شهور ، وتمـزق الناجـون الى جماعات صغيرة وعبروا البيرينيه لقتل مزيد من اليهود الأمـر الذي فعلوه الى أن قاد ابن ملك أراغون قوة ضدهم وشتتهم ، وأكثر مـن اي حملة صليبية سالفة كان الشعور أن هذه الحملة استمرت تهـدد البنية القـائمة للمجتمـع ، فلقـد نشر الرعاة في ١٣٢٠ الرعب في قلوب الأغنياء جميعا مع المتمتعين بالمزايا.

وبعد هذه النقطة يصبح من الصـعب بـدرجة متـزايدة تعقـب العملية ، وفي تلك المنطقة الشمالية بين السـوم والراين فيمـا يتعلق بالاسطورة الاجتماعية التـي كانت بصـورة أو بـأخرى تثير خيال الجماهير لأكثر من قرنين إن الحرب بين الكبير والصغير التـي ندر أن توقفت في البلاد المنخفضة منذ أيام برتراندراي ، أصـبحت الآن أكثر عنفا وقسوة ، ففي ١٣٢٥ رفض فلاحو السواحل في فلاندرز بدعم من عمال النسيج في بـروغ دفـع العشـور والمكوس ، وحملوا السلاح ضد ملاك الأراضي من رجال الاكليروس والعـامة ، وكانت النتيجة حربا اهلية ضارية دامت حتى ١٣٢٨ ، عندما تـدخل ملك فرنسا وهزم الثوار في مونت كاسل.ومن ١٣٢٠ الى ١٣٨٠ ثـار النسـاجون في المراكز الكبيرة الثـلاثة لصـناعة القمـاش : غنت ، وبروغ ، وبيرس مرات ومرات في عمليات تمرد دموية انتهت بقمع دموي ، وأخيرا في ١٣٧٩ استولى النسـاجون في غنت على السلطة ومن مدينتهم نجحوا في الهيمنة على كل فلاندرز وفي الاطاحة بحكم الكونت الفرنسي ، وخـلال هـاتين السـنتين نفسـها (١٣٨١ ـ ١٣٨٢) كان الشمال الفرنسي الباريسي : مدن بيكاردي ونورماندي ، وكل مأوى قديم للرعاة ـ يشهد سلسلة من الثـورات الشعبية التي أثارتها الضرائب الباهظة ، وكان الهدف الاول لهؤلاء الناس دائما مـكاتب ضـامني الضرائب (ص ١٠٥) حيث دمـروا الملفات ، ونهبوا الخزائن وقتلوا ضامني الضرائب ، وكانت المرحلة التالية ، حي اليهود ، حيث قتلوا ايضا ونهبوا كل ما يملكونه ، وفي روان مضوا الى حد انتخاب ملك لهم عرضـوه في احتفـال بفـرحة النصر ، وبأوامره لم يقتلوا فقط جامعي الضرائب بل ايضـا بعض

الاهالي من ذوي اليسار ، وفي باريس وروان على حـد سـواء كان العصاة يستلهمون مثال غنت و« ولتعش غنت » كان شعارهم ، وفي كلتا المدينتين سحقت الثورتان من قبل الملك وجيشه من النبـلاء عند عودتهم من انتصاراتهم على النساجين الفلمنكيين ولكن الفقراء من المدينة والريف توحدوا في فرق خربت الاراضي.

و على الأغلب كان لهذه الحركات أهداف محدودة و عملية و الذي كانت تريده هذه الثورات هو المزيد من المال ومـن الاسـتقلال ، الم يكن هناك بعد بعض بقايا التيارات السفلية مـن الحمـاس الالفـي يسري خلالها ؟ وهذا لا يمكن اثباته مـع أنه جـدير بـالملاحظة أن هنري بيرين الذي كان بشكل رئيس مؤهلا للحـكم ، اعتقـد ذلك ، وماهو مؤكد هو أنه في قمـة الحـرب الطبقيةوفي يبـرس في ١٣٧٧ مثلا ـ لم يشنق عمال النسيج فقط كثوار بل انهم حكموا مـن قبـل محاكم التفتيش واحرقوا كمهرطقين ، ومن جانب آخر ، كان بعض رجال اللاهوت المنشقين يعظون بالفية من نوع ثـوري ومسـاواتي بشسكل ملحوظ ، وكان واحد من هؤلاء الرجال فرنسيسكاني يدعى جون روكوتياد الذي أمضى السنوات العشرين الأخيرة من حياتـه في سجون اكليروسية وتحت تهديد مستمر بالحرق بسبب أفكاره ، ترك كتاباته التنبـؤية ذات الاهمية الكبيرة ، وفي ١٣٥٦ ، عام الهـزيمة الفاجعة في بواتيه عندما كانت سرايا حرة تنهب مناطـق الريف حيث كان هذا الانفجار الكبير للغضب الفلاحي ، كان الجاكويري قـريبا وقد أخرج كتيب « حول هذه المحن »

وهـــذا الكتـــاب المشـــهور ، الذي تـــرجم الى الانكليزية ، والكتالانية ، والتشيكية يظهر بوضوح شـديد كيف أن التقاليد القديمة للايمان بالاخرويات قد تكيفت الآن لتصبح أداة نقل للتطرف.

وقد ميز أسر الملك في بواتيه كمـا اكد روكوتيلاد ـ بـداية زمـن مفجع لفرنسا ، عندما انهارت المملكة بهزيمتها في الحرب ، وكان في

الحقيقية زمـــــن المتـــــاعب للنصرانية كلهــــــــا ، إذ أنه بين ١٣٦٠ ـ ١٣٦٥ ارتفعــت ارادة الطبقــات الدنيا في مــــواجهة العليا ، وفي تلك السنوات اتيح للعدالة الشعبية النهوض ومــن ثــم تمزيق الطغاة والنبلاءوتقطيعهم بسيف صقل حده مرتان.

وجرد كثير من الامراء والنبلاء واصحاب السلطة مــن هيبتهــم وخيلاء ثـــرائهم ، وكان هناك محـــن لا تصــدق بين النبـــلاء والعظماء ، ونهب كبار القوم وهــم الذين كانوا بسـلبهم يفــرضون المعاناة على الناس ، وكان الانسان الذي يمـكنه ان يجـد خـادما مخلصا او رفيقا في تلك الأيام يعتبر نفسه محظوظا حقا ، ثم ستبيد الفيضانات والاوبئة القسم الأعظم من البشرية وستمحو الخـاطئين المعنين ، وستمهد الطريق لتجديد الأرض وسيظهر مسـيح دجــال غربي في روما ، في حين سينشر أخـر شرقـي تعـاليمه الزائفــة في القدس ، وسيجد الأخير اتباعه بين اليهـود ، الذين سـيضطهدون المسيحيين ، ويدمرون الكنائس والمذابح ، وسينهب العرب والتتار ايطاليا واسبانيا وهنغاريا وبولونيا واجزاء من المانيا ، وسـيجتمع الحكام والشـعوب وقــد اغضــبهم التــرف والغنى والخيلاء لدى الاكليروس . ليجردوا الكنيسة مــن ممتلكاتهــا ، وسـيكون الفقــر والذبح عقوبة الاكليروس لاسيما الفرنسيسكان ، ولكن فيمـا بعـد سترتفع الكنيسة ، ولاسيما الفرنسيسكان وقد طهرتها المعـاناة ، والعيش في الفقر المطلق كالمسيح والرسـل كمـا يعتقـد ، الى حياة جديدة وتبسط نفوذها على العـالم ، وفي ١٣٦٧ سـينتهي زمــن المتاعب ، وسيصبح مصلح عظيم بابا ، وفي الوقت نفســه سـينتخب ملك فرنسا خـلافـا لكل عادة امبـراطورا رومـانيا والبـابا والملك والامبراطور بعملها معا سيطردان العـرب والتتـار مـــن اوربـــا وسيحولان كل المسلمين ، واليهـود ، والتتـار الى المسـيحية ، وسيعيدان الاغريق المنشقين الى كنيسـة رومـا ، وسـيمحوان كل هرطقة من على وجه الارض وسيصبح ملك فرنسا فـاتحـا، وحـاكم العالم كله في الغرب والشرق والجنوب ، وستكون مملكته هي الاكثر جدارة بالفخر اكثر من كل ما عرفه العالم ، لانها ستضم كل الممالك

التي ظهرت في اسيا وافريقيا واوربا على الاطلاق ، ومع ذلك ان حفيد شارلمان هذا الدائم الانتصار ، سيكون ،، « الزوج الاشد فقرا ، للكنيسة المسكونية » والملك الاقدس منذ بداية الزمان ، ومع ان كلا من البابا والامبراطور يجب ان يموتا خلال عقد من الزمان إن حكم السلام الذي سيقيمانه سيبقى الف عام ، حتى النهاية .

واستمررت نبوءات « شارلمان الثاني » ، الذي سيصبح الامبراطور وفاتح العالم ،والذي سيقوم بالرحلة الاخيرة الى الضريح المقدس ، في الظهور في فرنسا خلال القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، ولكن تلك النبوءات الاخيرة كان لها النوعية نفسها من الدعاية السياسية التي انتجت لخدمة غايات الاسر الحاكمة ، ولاشيء من نوعية الاساطير الثورية ، وتحول مركز الاثارة في الايمان بالاخرويات في الواقع بعيدا عن فرنسا ، والاراضي المنخفضة ، وكلما ازداد الصراع ضد الغزاة الانكليز ياسا كلما ازداد اخلاص الشعب الفرنسي وصار اكثر تركيزا على الملك الفعلي ، كرمز للارادة الوطنية للنجاة والاستقلال الى ان تمكنت القديسة جان فقط من شغل المكان الذي احتله يوما ما المتنبيء الالفي وفرنسا التي ظهرت من الجهود العظيمة (ص ١٠٧) لاعادة البناء التي تلت حرب المائة عام ، كانت ملكية مركزية الى نقطة الحكم المطلقة ، يتحكم فيها جيش ملكي ، وخدمة مدنية ، وعلاوة على ذلك ارض فقدت فيها المدن كل ذرة من الاستقلال الاداري ، وفي مثل هذه الحالة كان هناك منفذ صغير للحركات الشعبية من اي نوع ، ولكن فوق كل شيء لم يعد تركز فائض السكان الذي وجد لزمان طويل في المنطقة بين السوم والراين موجودا ، ولم تعد بيكاردي ، وفلاندرز أوهنيوتو برابانت تشكل المناطق الاكثر كثافة سكانية وتصنيعا في شمال اوربا ، وبنهاية القرن الرابع عشر قلص عدد من العوامل ـ حرب الطبقات ، الحرب العالمية ، الهجرة ، العجز في الصوف الانكليزي ، المنافسة المتزايدة من المدن الايطالية ـ صناعة النسيج الى حد الخراب وهبط تعداد السكان بحدة .

- ١٥٤٨ -

وكانت حـالة المانيا مختلفـة ، فهناك كانت السـلطة الملكية في انحدار منذ بداية القرن الثالث عشر ، وكانت الامة تتحلل الى خليط مشوش من الامارات التافهة ، وفي الوقت نفسه مع توسع الصـناعة والتجارة وتزايد السكان ، اصبحت المانيا مسرحا لسلسلة جديدة من الحركات المسانحية

الفصل السادس

الامبراطور فردريك كمسيح منتظر

نبوءة يواكيم وفردريك الثاني

في غضون القرن الثالث عشر ظهر نوع اخر من الايمان بالأخرويات (ص ١٠٨) إلى جانب الامور الأخروية الأخرى المستمدة من سفر الرؤيا والسبلينيين اصحاب الهواتف من السماء ، معهم في البداية ، ولكن سرعان ما اختلطت كلها ،و كان مخترع النظام التنبوئي الجديد ، الذي قدر له ان يكون في اوربا الاكثر نفوذا حتى ظهور الماركسية ، هو يواكيم فيور (١١٤٥ ـ ١٢٠٢) وبعد سنوات عديدة امضاها في احتضان واطالة للتفكير في الكتابات المقدسة ، تلقى هذا الناسك الذي كان راعي دير كالابريان ، في وقت مابين ١١٩٠ و ١١٩٥ ،الهاما بدا انه يكشف فيه معنى خفيا ذا قيمة تنبؤية فريدة .

وكانت فكرة ان تضم الكتابات المقدسة معنى خفيا بعيدة عن ان تكون جديدة ، فلقد كانت طرق التفسير دائما تعطي مجالا واسعا للتأويلات المجازية ، وما كان جديدا هو فكرة ان هذه الطرق لايمكن تطبيقها ببساطة على الاغراض الخلقية والعقائدية فحسب بل كوسيلة لفهم تطور التاريخ والتنبؤ به ، وكان يواكيم مقتنعا انه قد وجد مفتاحا ، اذا ما طبقه على احداث وشخصيات العهدين القديم والجديد ، بشكل خاص على سفر الرؤيا مكنه من ان يلاحظ في التاريخ نمطا ومعنى ، وان يتنبأ بمراحله المستقبلية بالتفصيل ، لانه في تأويله للكتابات المقدسة طور تفسيرا للتاريخ على انه ارتقاء مر خلال ثلاث مراحل متتابعة رأس كل منها احد أشخاص الثالوث

الاقـــدس ، وكان العصر الاول عصر الاب أو القـــانون ، والعصر الثاني كان عصر الابــن أو الانجيل والبشــارة ، وسـيكون العصر الثالث عصر الروح ، وسيكون هذا لسـلفيه مثـل ضـوء النهـــار العريض مقارن مع ضوء النجوم والقمر ، وكأوج الصـيف مقـارنا بالشتاء والربيع ، فاذا كان الاول عصر خوف وعبــودية ، والثــاني عصر ايمان وخضوع نبوي فان العصر الثالث ســيكون عصر حــب وسرور وحرية ، عندما تــكشف معــرفة الرب مبــاشرة في قلوب كل الناس وسيكون عصر الروح هو الســبت او وقــت الراحــة للجنس البشري ، ثم يصبح العالم(ص ١٠٩)ديرا كبيرا واحدا سيكون كل الناس فيه رهبانا متاملين منتشين في تواجد صــوفي ، ومتحــدين في التغني بمدح الرب ، وهذه الترجمة الجديدة لملكة القديسين ستبقى حتى الحساب الاخير ، ولم يكن يواكيم غير اصــولي عن وعي ، ولم يكن لديه رغبة في هدم الكنيسة ، وكان بتشجيع ما لايقــل عن ثــلاثة بابوات قد كتب الالهــام الذي وهــب له ، ومــع ذلك كان في فــكره تلميحات محتملة الخطورة على بنية الديانة الارثوذكسية في العصور الوسطى ، وفكرته عن العصر الثالث لم يكن بالامكان توفيقها حقيقة مع الفكرة الاوغسطينية ، بان مملكة الرب قد تحققت وبقدر ما امكن تحقيقه على الاطلاق على هذه الارض في اللحظة التي ظهــرت فيهــا الكنيسة ، وانه لن يكون هناك ابدا اي الفية سوى هــذه ، وايا كان مقدار وعي يواكيم بتعاليم الكنيسة . وادعاءاتها واهتماماتها ، إنه في الواقع قد اقترح نمطا جديدا للالفية ، لابل كان اكثر مــن ذلك كان نمطا ستحكم الاجيال التالية صنعته اولا كنمط مضاد للكهــانة ثــم فيما بعد بمعنى علماني صريح .

ويمكن على المدى البعيد تعقب التاثير غير المباشر لتأملات يواكيم الى ايامنا الراهنة ، وبشــكل اكثــر وضــوحا في « فلاســفات معينة للتاريخ » لاتوافق الكنيسة عليها بصوررة مؤكدة ، ومع ان تصورات يواكيم قد تكون مرعبة ، وقد تــكون ايضــا تصــورات خيالية مــن الصعب تصور وقوعها ، لامجال للخطا انها حول العصــور الثــلاثة عادت للظهور على سبيل المثال في نظريات التطور التــاريخي التــي

فسرها فلاسفة مذهب المثالية الالمان : لسنغ ، وشلنغ وفيخت ، والى حد ما هيغل ، وفي فكرة اوغست كومت عن التاريخ انه ارتقاء من الدين عبر ماوراء الطبيعة الى المرحلة العلمية ، ومرة اخرى في الماركسية الجدلية حول المراحل الثلاثة :الشيوعية البدائية ، ومجتمع الطبقة ، والشيوعية النهائية التي ستصبح عالم الحرية الذي ستضمحل فيه الدولة ، وليس اقل صحة ـ حتى لو كان اكثر تناقضا ـ ان عبارة « الرايخ الثالث » التي ابتكرت للمرة لاولى في ١٩٢٣ من قبل خبير القانون الدولي مولرفان دين بروك وتم تبنيها فيما بعد كاسم « للنظام الجديد » الذي كان يفترض فيه ان يستمر الف سنة لم يكن له سوى دلالة عاطفية صغيرة ، اذا كان تخيل شريعة ثالثة اكثر تالقا لم يدخل على مر القرون في الاصل المشترك للاساطير الاجتماعية الاوربية .

وما اثر في شعوب القرن الثالث عشر فوق كل شيء كان رواية يواكيم عن كيف ومتى كان على العالم ان يمر بالتحولات النهائية ، وفي فكرة يواكيم عن التاريخ ان كل عصر ينبغي ان تتقدمه فترة حضانة ، وحضانة العصر الاول ، استمرت من آدم الى ابراهيم ، وحضانة الثاني من حجي الى المسيح ، وبالنسبة للعصر الثالث فان حضانته قد بدات مع القديس بندكت وقاربت نهايتها في الوقت الذي الف فيه يواكيم اعماله ، وطبقا للقديس متى هناك اثنان واربعين جيلا بين(ص ١١٠)ابراهيم والمسيح ، وكما كان العهد القديم نمونجا للاحداث التالية كلها فان الفترة بين مولد المسيح وتحقيق العصر الثالث يجب ان تستمر ايضا اثنان واربعين جيلا ، وباعتبار ان الجيل ثلاثين عاما فان يواكيم كان قادرا على وضع اوج التاريخ البشري بين السنوات ١٢٠٠ ـ ١٢٦٠ ،وفي هذه الاثناء على اي حال ان الطريق يجب ان يقوم ، وان هذا يجب ان يتحقق من مثل نظام جديد من الرهبان الذين سيعطون بالبشارة الجديدة في كل انحاء العالم ، ومن بينهم سيخرج اثني عشر بطريركا سيقومون بتحويل اليهود الى المسيحية،وا ستاذ واحد اعلى سيقود كل الجنس البشري بعيدا عن حب الاشياء الارضية الى حب الاشياء الروحية ،

وخلال السنوات الثلاثة والنصف التي تتقدم مباشرة تحقيق حكم الشريعة الالهية (العصر الثالث) سيكون حكم المسيح الدجال ، سيكون ملكا دنيويا يعاقب الكنيسة الدنيوية الفاسدة حتى انها في صورتها الحالية ستخرب تماما ، وبعد القضاء على هذا الدجال سياتي عصر الروح في صورته الكاملة .

كيف كان هذا المذهب متفجرا عندما انتحل من قبل الجناح الصارم لرتبة الفرنسيسكان وتصور يواكيم لرتبة رهبانية غير دنيوية بالمرة قد اصبحت قريبة جدا من التحقيق في الجمعية الدينية التي في بضع سنوات من موت المتنبيء ، بدأت تتشكل حول جمعية اسيس Assisi فيما بعد عندما تطورت الجمعية الى تنظيم كهنوي كبير توجب حدوث تنازلات استجابة لمطالب حقائق كل يوم ، وتغلغل التنظيم في الجامعات وبحث عن النفوذ ومارسه واحرز صفات مميزة ، ولكن كثيرا من الفرنسيسكان رفضوا هذه التجديدات وتعلقوا بالمفهوم القديم عن الفقر المطلق ، وشكل هؤلاء الرجال ـ الفرنسيسكان الروحانيون ـ حزب اقلية ،في البداية ضمن التنظيم وفيما بعد خارجه ، وبحلول منتصف القرن اخرجوا الى النور نبوءات يواكيم (التي اجتذبت قليلا من الانتباه حتى الآن) وكانوا ايضا يلفقون نبوءات نسبوها بدون نجاح الى يواكيم ، وكان لها تاثير يفوق كتابات يواكيم ، وشهرة اوسع ، وفي تلك الكتابات كيف الروحانيون الاخرويات اليواكيمية بطريقة جعلتهم هم انفسهم يعتبرون الرهبنة الجديدة الرهبنة التي حلت محل كنيسة روما ، والتي عليها ان تقود البشرية الى امجاد عصر الروح ، ويكمن تعقب النبوءات اليواكمية الكاذبة في جنوب اوربا وراء مجال الدراسة الراهنة ، ويحتاج الامر الى مجلد اخر لوصف كيف انه على حواشي الحزب الروحي ، ما تزال الجمعيات المتطرفة تنبثق ، حتى انه حول شخصيات مثل فراد ولسينو ، و ريذزو ازدهرت الفيه بالثورة نفسها و بالروح القتالية مثل أي من تلك التي (ص ١١١)وجدت في الشمال و لكن مع انها الفت في ايطاليا أثرت نبوءات اليواكمية - الكاذبة في التطورات في المانيا ايضا ،

وبفضلها ، اصبح الى حد كبير دور عقوبة الكنيسة في الأيام الأخيرة معينا في الخيال الشعبي للامبراطور فردريك الثاني .

وبالفعل كان فردريك في بداية حياته في السلطة وقبل ان يبدأ اليواكميون بزمان طويل في شغل انفسهم به ، هدفا لتوقعات اخروية ، وكل ما توقعه الفرنسيون من الكابتيان ، توقعه الالمان منه ، وما ان توفي فردريك الأول (بربروسا) في الحملة الصليبية الثالثة في ١١٩٠ حتى بدات تظهر في المانيا نبوءات تتحدث عن فردريك مقبل سيتم كامبراطور للايام الاخيرة العمل غير المكتمل ، وهو مخلص اخروي سيمهد الطريق ، بتحرير الضريح المقدس ، للمجيء الثاني والالفية ، وعندما منح التاج الامبراطوري بعد ذلك بثلاثين عاما لفريدريك الثاني الذي كان حفيدا لبربروسا كانت هذه النبوءات تطبق بثقة عليه ، وهكذا ربطت للمرة الاولى صورة امبراطور الايام الاخيرة بالحاكم الفعلي للمجموعة الارضية ، المتمركزة في المانيا ، ولكنها تضم ايضا بير غنديا ، ومعظم ايطاليا ، التي اصبحت تعرف في الغرب باسم الامبراطورية الرومانية(وفيما بعد باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة).

ولقد كان الكثير في حياة فردريك وشخصيته مما يرعى ويشجع نمو الاسطورة المسائحية ، لقد كان الشخصية الاكثر تألقا ، والتي كان ذكاؤها وتقلبها وفسقها وقسوتها مجتمعة تبهر معاصريها ، وعلاوة على ذلك كان في الحقيقة قد خرج في حملة صليبية في ١٢٢٩ وكان قادرا حتى على استعادة القدس وعلى ان يتوج نفسه ملكا على المدينة ، وفوق ذلك تورط مرارا في صراعات ذات مرارة استثنائية مع البابوية ، وقد عولجت النصرانية حسب وجهة نظر الامبراطور ، الذي حرم مرات عديدة كمهر طق وحانث بالقسم ومجدف ، وقد هدد بالمقابل بان يجرد الكنيسة من تلك الثروة التي اعلن انها مصادر مفادها ، وكل ذلك ساعد على جعله موائما لدور من سيعاقب رجال اللاهوت في الايام الاخيرة ، وتتنبأ الحواشي اليواكمية الزائفة على ارميا التي كتبت في ١٢٤٠ ، تتنبأ في الواقع بان فردريك سوف

يضطهد الكنيسة وينكل بها والى حد انهـا في عام ١٢٦٥ ستنهار تماما ، وبالنسبة للروحانيين الايطاليين كان هذا العقاب للكهنة مع انه حق ومقدمة لازمة للعصر الثـالث ، مـا يزال عمـلا شـيطانيا ، وبالنسبة لهم كان الامبـراطور وحش سـفر الرؤيا والامبـراطورية الرومانية المقدسة هي بابل ، وكلاهما من وسائل الشـيطان وهمـا نفسيهما قد قدر لهما ان يبادا بدورهما،ولكن كان مـن الممـكن ان يرى الخصم الامبراطوري للبابوية في ضوء اخر ، ففي المانيا استمر اعتبـار فـريدريك مخلصـا (ص ١١٢) ولكنه مخلص دوره الان يشمل معاقبة الكنيسة ، هو شخصية اندمج فيهـا امبـراطور الايام الاخيرة بالملك الجديد في النبوءة اليواكمية .

وفي محاولة لاعادة فردريك للطاعة وضـع الكرسي المقـدس المانيا كلها تحت الحـرمان الامـر الذي كان يعني ان الطقـوس والاسرار المقدسة اللازمة لم يعد بـالامكان تقـديمها او تـطبيقها ، وطبقـا للمعتقدات السارية انذاك كان كل من يموت في ذلك الوقت لامفر مـن لعنه ، وبحلول ١٢٤٨ ، زار دوقية سوابيا الكثيفة السكان والتابعة لمقاطعات الامبراطورية ، والوفية في تاييدها بشكل خـاص لال هـو هنستوفن وعاظ متجولون ، كانوا يعلنون على الناس ان الاكليروس غارقون في الخطيئة حتى انهم قـد فقـدوا سـلطة اعطـاء الاسرار المقدسة الصالحة ، اما بالنسبة للبابا انوسنت الرابع فـان حياتـه كانت من الشر لدرجة ان اي حرمان صـدر عنه لايمـكن ان يكون له ادنى وزن،وان الحقيقة محفـوظة لدى الوعاظ المتجـولين انفسـهم وانهم وحدهم المفوضون من قبل الرب بالغفران من الخـطايا ، وان البابا و الاساقفة مهر طقين بكل معنى الكلمة ويجب تجاهلهم ، ومن جانب اخر فانه يجب على الناس ان يصلوا مـن اجـل الامبـراطور فردريك وابنه كونراد لأن هذين كانا صالحين وكاملين حقا ، وبينما كانت هذه الدعاية تنشر في مدينة الهال ، قام الحـرفيون بثـورة ولم يطردوا فقط الاكليروس بل ايضا كثيرا من النبلاء الاثرياء ، ولهـذه الواقعة بعض الاهمية ، لانه من المؤكد ان الخيال الشعبي الذي قـد حول منذ فتـرة ليسـت بعيدة ، في فـلاندرز بلدوين امبـراطور

القسطنطينية الى مخلص للفقراء ، كان الان ، وإن يكن بصورة غير موائمة يفعل الشيء نفسه للامبراطور فردريك ويعبر عن هذا الخيال بوضوح بيان يواكيمي صدر في سوابيا في هذا الوقت بالذات عن الاخ ارنولد،وهو منشق دومينيكاني . ومثل النبوءات اليواكمية في ايطاليا تطلع هذا العمل الى سنة ١٢٦٠ ، على انها السنة الرؤوية التي سترى تحقيق العصر الثالث ، ولكن قبل ذلك سيناشد الاخ ارنولد المسيح باسم الفقراء محاسبة البابا وكهنوته ، وسيستجيب المسيح ، وسيظهر على الارض ليعلن حكمه ، وسيقف البابا مكشوفا كمسيح دجال والكهنة كاطراف للدجال ، وسيدينهم المسيح ، تماما ليس فقط بسبب عدم اخلاقياتهم ودينويتهم واساءة استعمالهم للحرمان - بل ايضا - وبشكل رئيسي لاستغلالهم واضطهادهم للفقراء ، ومن خلال ارنولد وجماعته ستجد ارادة الرب التعبير ، وأن مهمتهم هي تنفيذ هذه الارادة بحرمان كنيسة روما من سلطاتها وان يتولوا هم هذه السلطة ، كرجال مقدسين يعيشون ويستمرون في العيش في فقر مطلق . اما بالنسبة للثروة العظيمة للكنيسة ، فانها ستصادر وتوزع على الفقراء ، والذين هم في عين ارنولد عينوا انفسهم (مدافعين عن الفقراء) هم فقط المسيحيون الحقيقيون ، وهذه الثورة الاجتماعية الكبيرة ستنفذ تحت رعاية الامبراطور فردريك الذي طبقا لارنولد كان لديه بالفعل برنامج موضوع امامه ووعد بالتأييد . (ص ١١٣)

ان الراديكالية الاجتماعية لهذه التخيلات مختلفة تماما عن الروحانية المخلخلة لنبوءات يواكيم الخاصة التي اغرت الفقراء بقوة ، وربما اثارت حركة ثورية واسعة الانتشار ولكن من اجل حقيقة انه في عام ١٢٥٠ توفي فردريك فجاة ، قبل عقد من الوقت الذي كان يفترض فيه ان يقوم بالدور الآخروي ، كانت وفاته ضربة مفجعة لكل من اليواكميين الالمان الذين حرموا من مخلصهم واليواكميين الايطاليين . الذين حرموا من مسيحهم الدجال ، ولكن سرعان ما اشيع ان الامبراطور مايزال حيا ، وانه قذف الى ما وراء البحار من قبل البابا او ربما بناء على نصيحة المنجمين ، وذهب

طواعية ، او ربما كان يقوم بتنفيذ كفارة طويلة كحـاج او ناسـك ، ولكن كانت هناك ايضا نظريات سارية من نوع خارق للطبيعة ،ففي جنوب ايطاليا وصقلية ، حيث امضى فردرريك معظم حياته سـمعت عبارة موجزة سـبلينية رمـزية ، (حيا ليس حيا)، ورأى راهـب الامبراطور يدخـل في احشـاء اتنا في حين نزل جيش محمـوم مـن الفرسان في البحر الصاخب ، واذا كان هذا بالنسبة للراهـب معناه ان فردريك قد مضى الى الجحيم وضع كثير مـن الصـقليين تـركيبة اخرى للامر ، فاتنا منذ زمـان طـويل كانت تعتبـر مقـر الابطال الراحلين ، بما فيهم الملك ارثر نفسه ، وعندما اخذ فـردريك مـكانه بين هؤلاء اصبح امبراطورا نائما ، ولسوف يعود يومـا كمخلص ، وعندما وصلت الفترة الحرجة عاد في الواقـع الى الظهـور ، فلمـدة عامين بعد ١٢٦٠ استطاع دجال كان يسكن على منحدرات اتنا ان يجتذب عددا كبيرا من الاتباع ، وصحيح ان خيال فردريك المبعـوث فقد بسرعة جاذبيته في صقلية ولكن بقـي سـاحرا للالمان جيلا بعـد جيل ، تماما مثلما سحر خيال شارلمان المبعوث للفرنسيين .

بعث فردريك :

وبعد وفاته باربعة وثلاثين سنة مر فردريك الثـاني بعملية بعـث شبيهة جدا بتلك التـي حـدثت مـرة بـالنسبة لبلدوين ، كونت ، فلاندرز ، ويروي احد المؤرخين تحـت عنوان عام ١٢٨٤ ان احـد النساك قرب ورمز كان يدعي انه الامبراطور ، وفي نحو هذا الوقـت تحدث اخر عن شخصية مماثلة تـم اصـطحابها الى لوبـك وسـط حماس شعبي عظيم ، وفي كلتا الحالتين اختفى فردريك الزائف حالما بدا احتمال كشفه ، كان هو الرجـل نفسـه (ص ١١٤) الذي نجح في عام ١٢٨٤ في ترسيخ وضعه في حال ملكي في وادي الراين.

ربما لا لأن الاخير بدا انه ليس بدجال بقدر ما هو مريض بجنون العظمة ، اعتقد حقا انه فردريك ، وبطرده من كولون على انه مجنون استقبل استقبالا رائعا في مدينة نيوس المجاورة التـي حـدث انهـا كانت في حالة نزاع مع رئيس اساقفة كولون ، وهناك اقام بـلاطا ،

ومثلما فعل برتداند اوف راي تماما ، وصف هذا الرجل كيف امضى سنوات طويلة كحاج ، ينفذ كفارة عن ذنوب حياته السالفة ، مع انه كان احيانا يستثمر الاساطير التي تجمعت حول فـــردريك المتــوفى ، وادعى انه كان يسكن في اعماق الارض ، وقد انتشرت اخبار مجيئه خارج الوطن ، وأحدثت في ايطاليا ضجة لدرجة ان مدنا عدة ارســلت سفراء الى نيوس للاطلاع على الامر ، في حين قفــز اليواكميون الى النتيجة ، إنه اخيرا وبعد طول انتظار كان فردريك حقا يتــولى دوره الكامل كمسيح دجال .

وكانت الظروف في المانيا مواتية لمثل هـــذا البعــث ، ومنذ بــداية القرن كانت الحكومة المركزية قد اخذت تضعف وكانت المملكة تتفكك الى خليط مشوش من الامارات نصف المستقلة ، وهــي عملية كانت بالضبط عكس تلك التي كانت تجري في فرنسا ، ومع ان فردريك لم يفعل شيئا لوقف هذا التحلل ، وكان دائما اكثر اهتمــاما بــايطاليا وصقلية منه بالمانيا،كانت شخصيته القوية النابضة بالحياة مــع ذلك توفر له نواة للولاء الالماني ، واعقب وفاته فترة انقطاع ، مــدة جيل لم يكن فيهــا اي ملك قــادرا على الحصــول على اعتــراف عام في المانيا ، ومرت البلاد في هياج شبيه بمــا عانتــه فــرنسا قبـــل ذلك بقرنين ، مع حزازات وحروب خاصة كانت محتدمة في كل الجــوانب واستمرت هذه الحالة المثيرة للقلق حتى بعد رودلف ، اول ملك مــن اسرة هابسبورغ ، الذي اختير ملكا المانيا في ١٢٧٣ ، وما ان تذوق الامراء مباهج الاستقلال حتى صــمموا على ان لايفــرطوا فيهــا ، وهذا يعني ان الملك يجب ان يبقى ضعيفا،وحالما ظهــر الى الوجــود دعي تظاهر انه فردريك الثاني اسرع العديد من كبار الامراء لمنحــه الاعتراف الرسمي ، لا لانهم صدقوا بل لانهم ارادوا ارباك رودلف ، وفي هذا الوقت كان في المانيا علاوة على ذلك حضــارة حقــا ومــدنية مزدهرة ، وبالضبط اثناء فتــرة خلو العــرش حــدث تقــدم كبير في الصناعة والتجارة في المدن ذاتية الحــكم ، ولكن مــع ان هـــذه المدن احتفظت بحياة منظمة مزدهرة اكثر مما وجد في اي مــكان اخــر في المانيا ، فانها كانت ممزقة بالصراعات الاجتماعية ، وفي مدن الراين

كان هناك حرفيون عديدون يعيشون في قلق وفقر مدقع اكثر مما كان في اي وقت على الاطلاق (ص ١١٥) واكثر ما اسهم في نجاح فردريك كان بالتاكيد حقيقة ان فقراء المدن كانوا ما يزالون متعلقين بالتوقعات المسائحية المتعلقة بالامبراطور فردريك الثاني ، وقد اظهر ملك نويس انه فوق كل شيء صديق للفقراء ، واقام دعايته بين المتنبئين الذين وصفهم المؤرخون كمهر طقين .

في النهاية متسمما بالنجاح اخفق فردريك المزيف في تحقيق غايته وبتحركه في اتجاه الجنوب ، اعلن مقاصده في اقامة مجلس تشريعي امبراطوري في فرانكفورت ودعا الملك رودلف للمثول امامه حتى يمكنه كامبراطور ان يمنحه المانيا ،وكان جواب رودلف تسيير جيشه ضد الدعي وحصاره لمدينة ويتزلر حيث التجا ، لقد كانت المدينة منقسمة ، كما كانت فالنسين منقسمة في حالة بلدرين المزيف ، والان كما كان في حينه ، كان الناس العاديون على استعداد لحمل السلاح للدفاع عن امبراطورهم ، ومع ذلك استسلم الرجل الى رودلف ، اوسلم نفسه ، وبعد محاكمة احرق على الخازوق .

وكانت طريقة الاعدام ذات دلالة لان الاحراق كان لايستخدم في حالات العصيان او التمرد السياسي بل فقط في حالات السحر والشعوذة والهرطقة ، وهذا يؤكد مايشير اليه المؤرخون ايضا ، ان هذا الرجل كان متعصبا وشديد الاندفاع ، لم يجد في نفسه مجرد مثيل لفردريك الثاني بل راى نفسه كمخلص اخروي ارسله الرب لمعاقبة الاكليروس ولاقامة حكمه في العالم كله ، ويبدو ايضا انه حتى النهاية كان فردريك المزيف مقتنعا تماما انه سيقوم مرة ثانية خلال يومين ، حتى انه وعد اتباعه بذلك وقد صدقوه ، وفي الواقع الفعلي انه استبدل على الفور بشخصية مشابهة ، هذه المرة في البلاد المنخفضة حيث ادعي احدهم انه بعد ثلاثة ايام من احراقه قام من الموت وقد اعدم هذا بدوره في او ترخت .

وبدات التقاليد الشعبية تتجمع حول شخصية فردريك الزائف كما تجمعت حول شخصية فردريك نفسه ، وافاد الاعدام في وتزلر فقـط في زيادة سمعة الامبراطور كرجل خارق للطبيعـة ، وككائن خـالد ، وروي انه بين الرماد عند الخازوق لم تـوجد عظـام ، بـل حبـة فاصولياء صغيرة فقط ، واستنتج الناس على الفور ان هذا لابد انه يعني ان الامبراطور قد انقذ من اللهب بالعناية الالهية ، وانه مايزال حيا وسيعود يوما ما ، وبقي هذا الايمان جيلا بعد جيل ، وفي وسط القر ن الرابع عشر كان مايزال يقـال ان فـردريك يجـب ان يعـود بالتاكيد ، مع انه قطع الى الوف القـطع ــ وبـالتاكيد اشـارة الى ويلتزر ــ ومع انه احرق حتى الرماد ، لان هـكذا كانت ارادة الرب التي لاتتغير ، وطورت اساطير غريبة ومثيرة (ص ١١٦) وقد زود الملك الشرقي الخرافي بريسترجون الامبراطور بـرداء مـن نسـيج لايحترق ، وخاتما سحريا مكنه من الاختفاء وبشراب سحري ابقاه شابا الى الابد ، وكثيرا ما كان الامبراطور يظهر للفـلاحين في هيئة حاج ويفضي اليهم بان الوقت سـوف ياتـي حيث سـياخذ مـكانه الصحيح على راس الامبراطورية .

وفي مجرى احداث القرن الرابع عشر كانت كل الامال الاخـروية التي حاولت جماهير العصور الوسطى دائمـا ان تسـتخلصها مـن تقاليد كهنة التنبؤ السبليني ، ونبوءات يوحنا ، قد اصبحت مركزة في المانيا على فردريك مبعوث المستقبل :

« وفي كل البلاد تحل اوقات عصـيبة ، وخصـومات تتـوهج بين رئيسي النصرانية ، ويبدا الصراع ضـار ، ويجـب ان تنوح امهـات كثيرات على اطفالهن ، ويجـب ان يعـاني الرجـال والنسـاء على السواء ، والسلب وحرق المباني يمضي يدا بيد ، وكل إنسان في حلق انسان اخر ، وكل انسـان يؤذي كل انسـان اخـر ، في شـخصه وممتلكاته و ليس هناك شخص الا ولديه سبب للعويل ، ولكن عندما تبلغ المعاناة هذه الوتيرة التي لايمكن لأي إنسان أن يهـدأ معهـا ، عندها يظهر بـارادة الرب الامبـراطور فـردريك بنبله ولطفـه

الكبيرين .....وبكل شجاعة سيتوقف الرجال والنساء معا على الفور لبدء رحلة ماوراء البحار ، لقد وعدوا بمملكة الرب ، إنهم يأتون في حشود ، وكل يسرع ليتقدم الاخر....وسيسود السلام كل الارض ، ولن يبقى تهديد الحصون ، ولاحاجة للخوف من القوة بعد ذلك ، ولا احد يقاوم الحملات الصليبية الى الشجرة الذابلة ، وعندما يعلق الامبراطور درعه عليها تخرج الشجرة أوراقها وتزهر ، ويتحرر الضريح المقدس ، ومن الان فصاعدا لاحاجة لاستلال السيف للزود عنه ، وسيستعيد الامبراطور النبيل القانون نفسه لكل الناس ....وكل العوالم الوثنية ستبايع الامبراطور ، وسيطاح بسلطة اليهود ، لكن ليس بقوة السلاح ، وستتحطم قواتهم الى الابد وسيستسلمون بلا صراع .

ولن يبقى شيء من هيمنة الاكليروس تقريبا ، وسيلغى الامير العالي المكانة والاصل كل الاديرة معا ، وسيقدم الرهبان للزواج ، إني اقول لك ، إنهم يجب أن يزرعوا لنا الكروم والقمح وبحلول القرن الرابع عشر اصبحت المانيا في الحالة التي بقيت عليها حتى القرن السادس عشر : حشد من الامارات المتحاربة ، تشوش دائم كان الامبراطور في لجته بلا حول بالمرة ، وفي الوقت نفسه حلت مدن جنوب وسط المانيا محل مدن البلاد المنخفضة كمراكز رئيسية للراسمالية التجارية في شمال الالب ، وبلغت الصراعات الاجتماعية عندهم شدة ضارية . وفي حين حاربت نقابات التجار النبلاء بعضها بعضا كانت تكمن بين الفقراء كراهية مميتة لكل الاغنياء ، ويجد المرء مؤرخا من مغدبورغ يحذر اصحاب الرواج الإقتصادي من البرجوازيين من ان المرء يجب ان لايدع عامة الناس تفعل ماتريد كثيرا كما حدث من قبل ، انهم يجب ان يوضعوا بحزم تحت السيطرة ، لان هناك كراهية قديمة بين الاغنياء والفقراء ، فالفقراء يكرهون كل من لديهم ممتلكات ، وهم اكثر استعدادا لايذاء الاغنياء (ص ١١٧) مما لدى الاغنياء تجاه الفقراء ، ووجدت وجهة نظر الفقراء الان في الادب الالماني تعبيرا له القوة نفسها التي وجدتها قبل ذلك بقرن في الادب الفرنسي ، والشاعر سوشنورت مثلا يصف

كيف ان الجائعين يتركون زوجاتهم الشاحبات والهزيلات والاطفال في اكواخهم ويحتشدون معا في الشوارع الضيقة ، وهــم مسـلحون بالاسلحة المرتجلة ، وهم ممتلئون بالشجاعة اليائسة : « صـناديق الاغنياء مليئة وصناديق الفقــراء فــارغة ، ومعــدة الرجــل الفقير فارغة ....حطموا باب الرجــل الغني ! فسـنتعشى معــه ، إنه مــن الافضل أن نصرع جميعا بدلا من ان نموت من الجوع ، والاحرى بنا ان نخاطر بحياتنا بشجاعة بدلا من ان نموت بهذه الطريقة .....»

وكان المتوقع انه في مثل هذا المجتمع ان فردريك المستقبل سيتخذ بوضوح اكثر مظهر الثائر الاجتماعي العــظيم ، مسـيح الفقــراء ، وفي ١٣٤٨ بعد انقضــاء قــرن بــالضبط ، عادت نبــوءات ارنولد والوعاظ السوابيون في صورة اكثر تاكيدا في التوقعات الشعبية التي لاحظها الراهب جون أوف ونترثور : « حالما يقوم من الموت ويقــف مرة اخرى في قمة سلطته ، سـيزوج النســاء الفقيرات والعــذارى للرجال الاغنياء والعكس بالعكس....وسيعمل ان يعاد كل شيء سرق من القاصرين واليتامى والارامل اليهــم وان يتحقــق العــدل التــام للجميع » وعلاوة على ذلك ــ والصورة ماخوذة مباشرة مــن نبــوءة يواكيم الزائف » وسيضطهد الكهنة بشدة حتى انه إذا لم تكن لديهم وسائل اخرى لاخفاء رؤوسهم الحليقــة فــانهم سـيغطونها بــروث البقر »..

(ويسرع جون ونترثور ليتحلل من هذه المعتقدات المنذرة ، فيعلق قائلا مايلي : « إنه لجنون صرف الاعتقاد بأن الامبراطور المنشــق يمكن ان يعود ابدا ، وانه (مره اخرى ظل ويتزلر)، مضاد للعقيدة الكاثوليكية ان رجلا قد احرق على الخازوق يمكنه مرة اخــرى على الاطلاق ان يستخدم سلطة عاهل ، ولقد كان لدى الراهب سـبب كي يكون حاسما ، ذلك ان ما يمكن دعوته عقيدة المجيء الثاني لفردريك كان يعتبر من اكثر الوان الهــرطقة خـطورة ، وكان هــذا مــايزال صحيحا بعد ذلك بقرن ، وبعد فردريك نفسه بقرنين ، وكتب مـؤرخ في ١٤٣٤ يقول : « من الامبراطور فردريك المنشق انطلقت هــرطقة

جديدة مازال بعض المسيحين يتمسكون بها في السر ، إن لديهم اعتقادا مطلقا ان الامبراطور فردريك مازال حيا وسيبقى حيا حتى نهاية العالم ، وانه ما كان هناك ، ولن يكون هناك امبراطور كامل الا هو .... لقد اخترع الشيطان هذه الحماقة ، حتى يضل اولئك المنشقين وشعبا بسيطا واثقا ....» وباي صورة من الجدية اخذ الاكليروس هذه الهرطقة وكيف كانوا متنبهين لتحريها مبين في القصة الغريبة لفيلسوف (ص ١١٨) يوناني غامر في ١٤٦٩ بان يبث في روما الاعتقاد الذي استمده من دراسته الطويلة للسبلين اليوناني ، الذي كان بموجبه سيتولى الامبراطور الاخير عن قريب تحويل كل الناس الى المسيحية ، وفي هذا كما في النبوءات البيزنطية الاخرى ، كان مجيء الامبراطور الاخير لايعني باي طريقة مذبحة للاكليروس او هيجانا اجتماعيا من اي نوع ، ولكن هذا لم يكن بالامكان تصوره لدى السلطات الاكليروسية في روما حتى انهم سجنوا الرجل التعس وصادروا حاجياته .

بيانات حول فردريك المستقبل :

على مدى القرن الخامس عشر والسنوات الاولى من القرن السادس عشر لم تعد خرافة فردريك المستقبل تلتقط وتجمع معامن التقارير العرضية للشهادات المعادية ، إنها عند هذه النقطة تظهر في ضوء النهار الكامل ، لانه الان بعد فاصل نحو قرنين او ثلاثة ، تبع بيان الراهب الاخ ارنولد بيانات عديدة مفصلة اكثر بكثير .

وكان اقدم هذه الاعمال ، الكراسة اللاتينية المعروضة باسم غماليون التي اخرجت إما في ١٤٠٩ او في ١٤٣٩ وهي تتحدث عن امبراطور الماني مقبل سيقضي على الملكية الفرنسية والبابوية ، وعندما يحقق مهمته لن تذكر فرنسا بعد ذلك ، وسيخضع الهنغاريون والسلاف وسيتضاء لون الى التبعية العامة ، وسيسحق اليهود الى الابد ، بينما سيعلوا الالمان على كل الشعوب ، وستجرد كنيسة روما من ممتلكاتها ويقتل كل كهنتها وسيحل محل البابا بطريرك

الماني ياتي من مينز ليتراس كنيسة جديدة ، ولكنها كنيسة خـاضعة للامبراطور ، وبما أن « النسر من جذس النســور » فـان فـردريك جديد سوف تمتد اجنحته من بحر لبحر حتى حدود الارض ذاتهــا ، وستكون هذه هي الايام الاخيرة قبل المجيء الثاني والحساب .

وصدر في نحو ١٤٣٩ كتاب اعظـم تـاثيرا بـكثير ، وهـو الذي يدعى « اصلاح سيغسموند » ،ويبدو ان اصل هذا العمل يكمــن في منهاج ، لاتيني اعده كاهن يدعى فردريك أوف لانتناو لوضعه امــام المجلس العام في بازل الذي كان منذ ١٤٣١ ومــا بعــدها يناضـل للشروع باصلاح الكنيسة.لكن النص الالماني في اصلاح سـيغسموند اكثر من مجرد ترجمة لذلك البرنامج ، ويعالج الكاتب الذي كان امــا فيردريك لانتناو نفسه،او وهو الارجح صديق علماني له ــ الاصلاح كاملا في الامبراطورية مثل الاصلاح المقترح للكنيسة ، ومن الواضح أنه كان حسن الاطلاع على ظـروف الحياة في مـدن جنوب المانيا ، ويبدا أنه الناطق باسم كل فقراء المدن ، ليس باسم الحرفيين المهـرة المنتظمين في نقابات ، بل باسم العمــال غير المنظمين مــن الطبقــة الافقر (ص ١١٩) والاقل مزايا بين سكان المدن ، ويطالب اصلاح سيغسموند بقمع النقابات الاحتكارية والشركات التجارية الكبيرة ، وهو يؤيد نظام مساواة تثبت فيه الاجور والاسعار والضرائب لخدمة مصالح الفقراء ، ويقول بالوقت نفسه بوجوب الغاء العبودية حيثمــا ظلت متبقية في البلاد وكما كان في الايام الخوالي يجب ان تفتح المدن ابوابها للعبيد المحررين .

والى هذا الحد لم يكن المنهاج قابلا للتطبيق على الفـور لكنه على الأقل إلهام مبني على الملاحـظة والاختبـار ، اكثـر منه معــالجة الفية ، وينتهي الكتاب بنبوءة مسيحية غريبة يضعها المؤلف في فــم الأمبراطور سيغسموند الذي توفي لتوه فقط ، بعد ان كان هو نفسه لبضع سنوات موضوعا لتوقعات مسائحية ، فقد جعل ســيغسموند يروي كيف ان صوت الرب قد أمره بــأن يمهـد الطـريق لكاهــــن ملك ، لن يكون ســوى فـريدريك أوف لانتناو .الذي كامبــــراطور

فريدريك سيظهر نفسه كملك ذي قوة لاتباري وجلال ، وفي اي لحظة الآن سوف تطبق معايير فريدريك والامبراطورية والصليب،بينمـا ، عندها سوف يعلن كل امير وسيد ، وكل مدينة تـأييدها لفـريدريك تحت طائلة مصادرة الممتلكات والحـرية ، ويمضي سـيغـسموند في وصف كيف بحث عن فريدريك لانتناو هـذا حتـى وجـده في مجلس بازل ، في كاهن كان فقره معادلا لفقر المسيح ، وقـد أعطـاه ثـوبا وعهد اليه بحكومة النصرانية كلها لهذا سيحكم فريدريك دولة تمتـد من بحر الى بحر وان أحدا لن يستطيع مقـاومته ، وسـيسحق كل المتاعب والاعمال الخاطئة بقدمه ، وسيدمر الاشرار ويجعلهم طعمة للنيران ، وقصد بالاشرار الذين افسـدهم المال ، والاسـاقفة مـن يشترون او يبيعون المناصب الكهنوتية والتجار الجشعين ، وتحـت حكمه سيبتهج عامة الشعب اذ سيجدون العدل مستتبا وكل رغباتهم الروحية والجسدية مشبعة .

والابعد والاكثر تفصيلا ولذعا من اصلاح سيغسموند هو كتـاب « مائة فصـل » وناشره مجهـول ، عاش في الالزاس الأعلى او في بريسغو ويعرف عادة بـاسم « ثـائر الراين الأعلى » وكان هـذا الكهل المتعصب ذا اطلاع واسع على قدر ضخم من ادب سفر الرؤيا في العصور الوسطى واستمد منه بحرية بهدف تطوير منهـاج رؤوي خاص به ، وكان بحثه المكتوب بالالمانية في السنوات الافتتاحية مـن القرن السادس عشر التعبير الاخير ، والأكثر شمولا عن الايمـان الشعبي بالأخرويات في العصور الوسطى .

وفي المقدمة صنف الثائر مصادر الهامه وفق طراز حقيقي للعصور الوسـطى ، وكانت رسـالة مـن الرب ، نقلهـا رئيس الملائكة (ص ١٢٠) ميكائيل ، فلقد كان الله غاضبا غضبا شديدا من خطايا الجنس البشري حتى انه اعتزم ابتـلاءه بـأكثر الكوارث ترويعا ، وفي اللحظة الأخيرة فقط علق حكم القدر حتى تتوفر للناس فرصة أخرى لاصلاح طرقهم ، ولهذه الغاية رغب الرب في شخص ما تقي ـ طبيعي انه المؤلف نفسـه ـ لينظـم جمعية مـن العلمـانيين

الورعين ، وفقط الذين ولدوا في اطار الزواج والذين كانوا هم انفسهم متزوجين واكتفوا بزوج او زوجة واحدة هم المؤهلون للعضوية (كان انغماس المؤلف في الزنا مفرطا) ويلتزم الاعضاء بلبس صليب اصفر كشعار وعلامة مميزة لهم ، ومنذ البداية سيتمتعون بدعم فعال من القديس ميكائيل وقبل مضي وقت طويل سيجتمعون معا تحت قيادة الامبراطور فريدريك « امبراطور الغابة السوداء » وهي شخصية مذهلة لاتذكرنا فقط بامبراطور الأيام الأخيرة ، بل ايضا بالمسيح المخلص المنتظر ، في التطلعات اليهودية ـ المسيحية ، وبشكل خاص سفر الرؤية « وسيحكم الف سنة وستكون السماء مفتوحة لشعبه ...وسيأتي في زي ابيض كالثلج ، وبشعر ابيض وسيكون عرشه كالنار وسيخدمه عشرة اضعاف الألف وعشرة اضعاف المائة الف ، لأنه سيطبق العدل ، ومرة أخرى :« سيأتي الملك على حصان ابيض سيكون في يده قوس وسيزوده الرب ، بتاج حتى تكون لديه القدرة على اخضاع العالم كله ، وسيكون في يده سيف عظيم وسيبطش باعداد كبيرة ... وفي الوقت نفسه سيقيم هذا المخلص المملكة المسيحية لصالح اتباعه ، وفيها ستتوفر كل حاجة روحية او مادية ، وسيكون باستطاعته ان يقول عن نفسه :« انا بداية الحكومة الجديدة وساعطي من الماء الحي كل ظمآن وكل من يتبعني سيحصل على كفايته ، انا ساكون ربه ...» وسيوزع الكثير من الخبز والشعير والنبيذ والزيت بسعر زهيد ، ومن الواضح في هذا التخيل ان امبراطور الغابة السوداء والمسيح المنتظر لن يكون غير هو نفسه .

ومع ذلك سيمر طريق الالفية عبر المذابح والاهوال ، ذلك ان هدف الرب هو عالم خال من الخطيئة ، فاذا استمرت الخطيئة في الازدهار فان العقاب الالهي سينزل بالتأكيد على العالم في حين انه مالن تلغى الخطيئة سيكون العالم مستعدا لملكة القديسين ، وعلى هذا كانت المهمه الاكثر الحاحا لجمعية اخوة الصليب الاصفر القضاء على الرذيلة ، والتي تضمن في الواقع القضاء على المذنبين

وقد صورت الجمعية على انها حشد صليبي تقوده نخبة ــ دعاها المؤلف « الفرسان الجدد » ــ التي بدورها ستكون تابعة للامبراطور (ص ١٢١) الاخروي نفسه ، وهدف الحملة الصليبية تمكين الامبراطور من « تحطيم بابل باسم الرب... ووضع العالم كله تحت حكمه ، حتى يكون هناك راع واحد ، وحظيرة واحدة وعقيدة واحدة في العالم كله » ، ولتحقيق هذه الغاية كان الاغتيال مشروعا تماما : « وكل من يبطش برجل شرير لأعماله الشريرة ، كالتجديف مثلا ، او اذا ضربه حتى الموت سيدعى عبد الرب ، حيث ان كل مكلف ملزم بمعاقبة الشر » ودعا الثائربشكل خاص الى اغتيال الامبراطور الحاكم ، مكسيميليان الذي كان يحمل له كراهية طاغية ، ولكن وراء هذا القتل الطليعي كان يكمن اليوم الذي« يحكم امبراطور الغابة السوداء فيه مع جمعية الأخوة ، العالم كله من الغرب الى الشرق بقوة السلاح » ، وهو عصر من الرعب الشامل غير المنقطع ، تسوغ فيه بشدة النبوءة المأمولة :« وسوف نشرب حالا الدم بدلا من النبيذ! » ولم يترك الثائر شكا بشأن من سيكون هؤلاء الأخوة الصليبيون :« انهم سيكونون من عامة الناس من الفقراء واما بالنسبة لسكان بابل : المذنبون الذين يجب القضاء عليهم ــ فهم اتباع لوكسوريا وافاريتيا والرقص والملابس الناعمة والقسوة ، انهم « عظماء الناس في كل من الكنيسة وفيما بين العلمانيين » وكما هو الحال كثيرا ، انهم الاغنياء حسنوا التغذية ، الذين يعيشون حياة رخية من الأكليروس هم الأعداء الرئيسيون وكان المتعصبون من العلمانيين لايتعبون أبدا من تصوير ــ بأكثر الألوان الممكنة توهجا واثارة ــ العقاب الذي سيوقعه الامبراطور القادم بنفسه على أبناء الشيطان من الرهبان وأخوة الرهبانيات والراهبات وهو غاضب بشكل خاص على الكهنة الذي يتحللون من نزرهم بالعفة ويتخذون زوجات ، ومثل هؤلاء الكهنة يصرخ بانهم يجب ان يختقوا ويحرقوا أحياء ، او ان يدفع بهم مع عشيقاتهم الى أيدي الترك ، ويجب أن يترك أطفالهم ــ الأطفال الحقيقيون للمسيح الدجال ــ للجوع ، ولكن في الواقع يجب القضاء على كل الكهنة

وابادتهم ، وكان المسيح ينادي في جنده:« استمروا في ضربهم ، من البابا نزولا الى الطلاب الصغار ، اقتلوا كل واحد منهم » ويتنبأ بأن ٢٫٣٠ كاهنا سيقتلون كل يوم وان هذه المذبحة ستستمر لمدة اربع سنوات ونصف السنة ولن تكون هذه هي النهاية ، لأنه نادرا مايكون المرابون المزدهرون في المدن اقل سوءا من الاكليروس ، والى جانب هؤلاء الأساقفة الذين يبيعون ويشترون المناصب الكهنوتية ويحصلون على واردات ثمينة من الضرائب والعشور ، ورأى الثائر سربا من مقرضي الأموال يستخلصون بلا رحمة فوائد باهظة من الفقراء ومن التجار الذين ينكبون على استنباط الوسائل والاحتيال على حدود اطار الأسعار ، ومن اصحاب الحوانيت ، بسبب المبالغة في الثمن وسوء الكيل ، والوزن والتلاعب والقياس ، ويصحب كل هؤلاء سرب من المحامين عديمي الضمير والمبادئ الذين يتلهفون على تسويغ كل ظلم ، وكل هؤلاء على السواء سيذبحون (ص ١٢٢) وبمساعدة الذين يشار اليهم الآن باسم « المسيحيون الورعون»، واحيانا باسم « عامة الناس»سيحرق امبراطور الغابة السوداء كل المرابين ، وسيشنق كل المحامين .

لقد كانت امكانات الربح في مجتمع اواخر القرون الوسطى بدرجة الاغراء نفسها ومثلما كانت عليه في اي مجتمع آخر على الاطلاق ،وليس هناك شك في ان الاساءات والتجاوزات التي شكا منها الثائر كانت صحيحة بدرجة كافية ، ولكن هذا لايمكن أن يفسر السمة المميزة لتلك القطعة الخاصة من النقد الاجتماعي ، التي هي نبرتها الأخروية ، وكان الثائر مقتنع تماما ان الرب قد امر بالمذبحة الكبرى للا كليروس « والمرابين » ومن اجل التخلص من مثل هذه الاساءات الى الابد ، وستكون المحرقة تطهيرا لابد منه للعالم في الفترة التي تتقدم الالفية ، وهناك حقيقة حول الالفية تبدو بوضوح كبير انها معادية للرأسماليين ، فستصبح ممتلكات الكنيسة مدنية وستستخدم من قبل الامبراطور لفائدة المجتمع ككل والفقراء بشكل خاص وكل الدخل الوارد سواء من الممتلكات الارضية او من

التجارة سيصادر وهذا ما يعادل الغاء الامــارات والتجــريد مــن الملكية لكل الاغنياء ، وســيكون فــرض الايجـــــارات والضرائب والرسومم من كل نوع من قبل الامبراطور وحده ، ولكن وراء هــذه الاصلاحات المباشرة وباعتبارها شاملة ، يتطلع الثــائر الى تحــول اكثر عنفا في المجتمع ، الى حالة تلغى فيها الملكية الخــاصة بــالمرة وسيكون كل شيء مشاعا : « اي قدر من الاذى يتفجر من الانانية .... من الضروري بناء عليه ان تصبح كل الثــروات ثــروة واحــدة عندها سيكون في الواقع رابح واحد وحظيرة واحدة »

هل تبرهن الكائنات البشرية انها غيرية بدرجة كافية لتحقيق هذا النظام،إنه سيكون هناك رجعيون يفسدون الانسجام العام بالتعلق بـلاكسوريا والافاريتا ولايتهرب الثائر ابدا مــن مــواجهة المســالة ، وهكذا اعلن ان الامبراطور سيصدر مرة في السنة مــرسوما بهــدف تعرية الخطيئة : الربا والفسق فــوق كل شيء ، وليحــث الناس على الابلاغ عن المذنبين ، ولكن ايضا ــ وعلى هذا يلقي ثقــلا كبيرا ــ عليهم ان يتقدموا طواعية للاعتراف بخــطاياهم الخــاصة وســتنشأ محكمة رسمية في كل ابرشية ، والخاطئون الذين يحــركهم قبــل كل شيء دافع داخلي لايقاوم ســيمثلون امــامها ليحــاسبوا في مــكتب القاضي ، وسيعاقب القضاة على كل منها « بقســوة شــديدة » لان الرحمة مع الخاطئين جريمة ضد المجتمــع ككل ، وعليه اذا جــوزي الأثم الاول ربما بمجرد الجلد ، فان موقف المذنب الذي يمثــل امــام المحكمة في ثلاث سنوات مختلفة خطير حقــا (ص ١٢٣) » واذا لم يتوقف شخص عن ارتكاب الذنوب فانه من الافضــل له ان يكون خارج الدنيا من ان يكون فيها ، وعليه فانه سيعدم فــورا بــوساطة مبعوثين ما ، سريين ، ذوي ورع لاشك فيه ، ويجد الثائر متعة بالغة في وصف الطرق المختلفة التي ستنفذ بها هذه الاعدامات : بالحرق ، والرجم ، والخنق ، والدفن على قيد الحياة ويصر ان لاشيء يمكنه ان يفعل المزيد ليرسخ ويحمي النظام الجديد للمساواة والملكية المشاعة سوى النمط الجديد من العدل .

وكما سنرى تصور اخرون قبل هذا القرن نظام مساواة ، وعلاوة على ذلك اعتقدوا انه سيفرض وسيبقى بالقوة ، ولكن من ناحية واحدة ثائر الراين الاعلى اصليا حقا ، فلم يجمع احد قبله مثل هذا الاخلاص لمبدا الملكية الجماعية او العامة مع مثل هذه القومية الممزوجة بجنون العظمة ، وكان هذا الرجل قانعا انه في الماضي البعيد كان الالمان في الحقيقة « يعيشون معا مثل الاخوة على الارض » ويملكون كل شيء بشكل جماعي ، وكان تدمير هذا النظام السعيد من عمل الرومان اولا ثم كنيسة روما ، ولقد كان القانون الروماني ثم القانون الكنسي هو الذي ادخل التمييز بين « لي » و « ولك » ، وزعزع بذلك شعور الاخوة ، وفتح الطريق امام الحسد والكراهية ، ووراء هذه الفكرة الغريبة تكمن فلسفة كاملة للتاريخ ، لقد استعبد العهد القديم على انه عديم القيمة ، لانه منذ بدء الخليفة وما بعدها لم يكن اليهود شعب الله المختار بل الالمان ، وكان ادم وذريته جميعا حتى يافث بما في ذلك كل الانبياء من الالمان ويتكلمون الالمانية ، واللغات الاخرى - وبينها العبرية - وجدت فقط في برج بابل ولقد كان يافث وعشيرته هم الذين قدموا اولا الى اوروبا ، وجلبوا لغتهم معهم ، ولقد اختاروا الاستيطان ، في الالزاس قلب اوروبا ، وكانت عاصمة الامبراطورية التي اسسوها هي تريير ، وكانت هذه الامبراطورية الالمانية القديمة واسعة ، حيث غطت كل اوروبا - وامكن الادعاء ان الاسكندر الاكبر كان بطلا وطنيا المانيا - كما كانت اكثر الامبراطوريات كمالا ومثالية ، جنة ارضية حقيقية ، لانها كانت محكومة بموجب مجموعة القوانين المعروفة باسم تشريعات تريير التي تضمنت مبادىء الاخوة والمساواة والملكية الجماعية ، وكان في هذه التشريعات وليس في الوصايا العشر التي اخترعها « موسى الدجال » ان عبر الرب عن وصاياه للجنس البشري ، ولهذا الحق الثائر بعد تفكير عميق نسخة منها باعماله .

وكان تاريخ الشعوب اللاتينية مختلفا جدا ، فهذه السلالات البائسة لم تنحدر من يافث ، ولم تكن بين السكان الاصليين

لاوروبا (ص ١٢٤) فقد كان موطنها يقع في اسيا الصغرى ، حيث هزمت في المعركة على ايدي مقاتلي تريير ، ومن اجل ذلك احضرت للعمل كعبيد لدى الذين انتصروا عليها ، والفرنسيون وهم مجموعة بغيضة متميزة بشكل غريب يلزم بناء عليه وبالانصاف ان يكونوا شعبا خاضعا يحكمه الالمان ، اما بالنسبة للايطاليين فلقد تحدروا من العبيد الذين طردوا ونفوا الى جبال الالب بسبب جرائمهم ضد تشريعات تريير،ومن هنا نبعت الحقيقة التي لم يجد الناشر صعوبة في ترسيخها ، ان التاريخ الروماني يتالف من حلقات غير منقطعة تقريبا من الهزائم ، وكانت هذه الشعوب اللاتينية مصدر كل شيء ، إنها مصدر سم البحر كله وتلوثه تدريجيا ، وكان القانون الروماني ، والبابوية ، والفرنسيون ، وجمهورية البندقية ، جوانب لا عد لها لتآمر قديم جدا وكبير ضد الطريقة الالمانية في الحياة ، ولحسن الحظ كان الوقت في متناول اليد عندما توجب تحطيم قوى الشر الى الأبد ، وعندما يستولي القائد الكبير القادم من الغابة السوداء على السلطة كامبراطور فردريك فإنه لن ينظف فقط الحياة الألمانية من الفساد اللاتيني ويعيد العصر الذهبي القائم على تشريعات تريير ، بل سوف يستعيد ايضا لالمانيا وضع السيادة التي ارادها الرب لها ، واخضعت « رؤيا دانيال » ، وهي التطلعات الأخروية القديمة التي قدمت الالهام لليهود خلال ثورة المكابيين،الى تفسير أكثر من قبل الثائر أيضا ، والآن تحولت الامبراطوريات الأربع المتتابعة لتشكل فرنسا ، وانكلترا ، واسبانيا وايطاليا وبسبب الغضب من الزهو المفرط لدى هذه الأمم فإن الامبراطور سيغزوها جميعا ، وادعى الثائر انه قد اكتشف بالفعل بواسطة الكيمياء : المتفجرات الجديدة التي سيتطلبها التنفيذ « وبهذه القسوة سيغرس الخوف في الشعوب » وبذلك خص الالمان بالامبراطورية الخامسة الأعظم التي لن تموت ، ثم بعد ذلك وعندها يعود الامبراطور من حملاته الغربية سيهزم وسيسحق الترك الذين تسللوا الى أوروبا ، وسيضغط في اتجاه الشرق على راس جيش كبير مشكل من شعوب عديدة لينفذ المهمة التي اوكلت تقليديا للامبراطور الأخير ، وستفتح الأرض المقدسة للنصرانية وسيقضي

« على مجتمع المحمديين » نهائيا ، وسيعمد الكفار و» أولئك الذين لن يقبلوا العماد لن يكونوا مسيحيين ولا شعب كتاب مقدس ، لذا يجب قتلهم وبهذا يعمدون في دمائهم ، وبعد كل هذا سيحكم الأمبراطور وسيسود على كل العالم متلقيا البيعة والجزية من اثنين وثلاثين ملكا » .

ومن الجدير بالملاحظة أن المسيحية التي قدر لها أن تفرض بمثل هذه القوة ندر معرفتها بهذه الصورة ، وطبقا للثائر كان المسيحيون الأوائل رعايا امبراطورية ترييز ، والرب الذي عبدوه كان مثله مثل جوبتير يومه المقدس الثلاثاء ، وليس الأحد وكمبعوثين الى الألمان فإنه لم يرسل ملائكة بل أرواح سكنت في جبال الالزاس(ص ١٢٥)، أما تعاليم المسيح التاريخي فكانت موجهة فقط الى اليهود لا الى الألمان ، والديانة المثالية للألمان كانت ما تزال هي التي سادت في العصر الذهبي لترييز ، وكان هذا هو الدين الذي على الامبراطور فردريك أن يعيده الى وضعه السالف ، وعندما يحدث ذلك ـ وهنا يستمد الثائر كثيرا من الغماليون ـ لن يكون المركز الروحي للعالم روما بل ميتز ، حيث يترأسه بطريرك بدلا من البابا المختفي ، ولكن هذا البطريرك لن يكون بابا ، بل سيكون معتمد كليا على الامبراطور الذي سيعينه ويمكنه عند الحاجة أن يخلعه ، وسيكون الامبراطور الثائر نفسه ، منتصرا ومبجلا هو الذي سيقف في مركز الاعتراف به كرب أرضي ،ولن تكون الامبراطورية المقبلة في الواقع شيئا أقل من نصف جماعة دينية متحدة في عبادتها وخوفها من المسيح المخلص الذي هو تجسيد للروح الالمانية ، وهذا ما كان في ذهن الثائر عندما صاح في ابتهاج « لقد امسك الألمان مرة بالعالم كله في أيديهم وسيفعلون ذلك مرة اخرى ، وبقوة اكبر مما كان ابدا »

وبرزت : هذه التخيلات القومية الفجة لمفكر نصف متعلم مقحمة في تقاليد الايمان الشعبي بالأخرويات ، والنتيجة بصورة غريبة شبيهة بالتخيلات التي كانت قلب عقيدة

الاشـــتراكية ــ الوطنية ، وعلى المرء فقــط أن يعـــود الى الرسائل ــ التي اصبحت بالفعل مذنسية تقـريبا ــ لعلمـاء مثـل روزنبرغ ، ودارية ليصدم على الفـور بـالتماثل ، وهناك الاعتقـاد نفسه بوجود ثقافة المانية بدائية تحققـت فيهـا مـرة الارادة الالهية والتي كانت عبر التاريخ مصدرا لكل ما هو طيب ، والتي تـزعزعت فيما بعـــد بتآمـــر الراســـماليين والشـــعوب الأدنى غير الجرمانية ، وكنيسة رومـا ، والتــي يجـب أن تسـتعاد الآن بارستقراطية جديدة ذات مـولد متـواضع ولكنهـا المانية حقــة في الروح ، تحت مخلص مبعوث من الرب يكون في الوقت نفسه زعيمـا سياسيا ومسيحا جديدا ، إنهـا كلهـا هناك و كذلك كان الاعداء في الغرب والشرق ــ ولقد استخدم الرعب كأداة سياسية ، وحبـا بـه ذاته ــ كانت المذابـح الكبـرى في التـاريخ ــ في الواقـــع كل شيء باستثناء الفناء النهائي للامبراطورية العالمية ، التي في كلمات هتلر كانت ستدوم الف سنة .

ولم يطبع كتاب « مائة فصل» في وقتها ، ولم يطبع أبـدا ، وليس هناك ما يوحي بأن الثائر المجهول قد شغل دورا هاما في الحـركات الاجتماعية من أيامه ، ولا تكمن اهميته في اي نفوذ مـارسه بـل في التاثيرات التي خضع لهـا وسـجلها ، ولانه حتـى إذا كانت بعض التفاصيل قد ولدت من تأملاته الخـاصة (ص ١٢٦) ، فإن الخيال في خطوطه العريضة كما قدمه ، هو ببساطة تفصيل للنبوءة التقليدية لفريدريك المستقبل الذي سيكون المسـيح المخلص للفقـراء ، وليس هناك شك انه بصورة أوباخرى استمرت هذه النبوءة في فتنة واثارة عامة الشعب في المانيا والفلاحين والحرفيين على السواء حتى وقت متقدم في القرن السـادس عشر ، ومـــن امبـــراطور بعــــد الآخر ــ سيغسموند ، فردريك الثـالث ، مـكسيميليان ، وشـارل الخامس ، كافح الناس لرؤية اعادة تجسيد بالمعنى الأكثـر حـرفية للكلمة لفردريك الثاني ، وعندما أخفـق هؤلاء الملوك في شـغل الدور الأخروي ، المتوقع منهم استمر الخيال الشعبي في ايجاد امبراطور

خيالي هو فردريك يقوم من وسط الفقراء ـ « من تحدر دوني » كما وصفه الثائر ليحل محل الملك الفعلي ويحكم بدلا منه .

وسيكون من السهل بلا شك تضخيم الجزء الذي شغلته مثل هذه التوقعات في حركات المقاومة والثورة التي تشكل نقاطا علامة في التاريخ الألماني خلال الربع الأول من القرن السادس عشر ، وموقف الفلاحين ، بشكل خاص كان عادة واقعيا بدرجة كافية ، وحتى عندما تطلع الفلاحون الى ماوراء مظالمهم المباشرة وطالبوا باصلاح عام للبنية الاجتماعية والسياسية للامبراطورية كان منهاجهم يميل الى أن يكون محدودا وعمليا مقبولا ، ومع ذلك فإنه في سلسلة الثورات المعروفة باسم البندشوهة (التي سيقال عنها الكثير في فصل لاحق) كانت تخيلات مماثلة لتلك التي في كتاب مائة فصل تشغل دورا ما ، وكتب ثائر الراين الأعلى في سنة ١٥١٠ يتنبأ بأن السنة الرؤوية هي ١٥١٥ ، وعندما انفجرت ثورة في المنطقة نفسها في عام ١٥١٣ لم يكن هدفها المعلن اقل من « مساعدة الصلاح والتخلص من المجدفين » وأخيرا استعادة الضريح المقدس ، وتدبر بعض الذين ساهموا في هذه الثورة حتى امر اقناع انفسهم بأن الأمبراطور مكسميليان كان موائما لقضيتهم مع انه آنذاك كان مضطرا لابقاء تعاطفه سرا .

الفصل السابع

نخبة من المضحين بالذات كمخلصين

اصول حركة اللطامين

يبدو أن ممارسة جلد الذات ولطمها (ص ١٢٧) لم تكن معروفة في اوروبا حتى تم تبنيها من قبل النساك في المجتمعات الرهبانية في كمالدولي وفونت افيلانا في وقت مبكر من القرن الحادي عشر، وما أن اخترعت الصورة الجديدة من العمل التكفيري حتى انتشرت بسرعة حتى انها لم تصبح فقط سمة طبيعية من حياة الرهبنة في كل النصرانية اللاتينية بل التقنية الاكثر شيوعا للتكفير ، الى حد أنه في الواقع إن المعنى الحرفي لاصطلاح « انضباط » كان محصورا في « يلطم » وما كان يمكن أن يعني بالنسبة لهؤلاء الذين يمارسونه يظهر مشرقا في الوصف الذي خلفه راهب من القرن الرابع عشر حول تجربته الخاصة ، في ليلة شتاء قام هذا الرجل :

« بحبس نفسه في صومعته وتجرد من ثيابه كلها... وأخذ سوطه ذا الأشواك الحادة ، وأخذ يضرب نفسه على الجسم والذراعين وعلى الساقين حتى أندفع الدم منه كما لو كان من رجل محجم ، وكانت احدى الشوكات في السوط معقوفة كالخطاف وكلما تعلقت بأي جزء من اللحم امسكت به ومزقته ، وطارت الأطراف الى الحائط ثم وقف هناك وهو يدمي وحدق في نفسه ، لقد كان منظرا بائسا حتى انه ذكره بطرق كثيرة بالمسيح المحبوب ، عندما ضرب بصورة مروعة ، ومن الاشفاق على نفسه بدأ يبكي بمرارة ، ثم ركع عاريا ومغطى بالدم في الهواء الصقيعي ، وتضرع الى الرب أن يمحو خطاياه من أمام عينيه اللطيفتين ».

لقد كان جلد الذات تعذيبا مروعا أوقعه الناس في القرون الوسطى

على أنفسهم بأنفسهم بأمل استمالة الرب القاضي والمعاقب ليبعد عقابه وليغفر لهم ذنوبهم ويعفيهم من العقاب الأكبر الذي سينالهم في هذه الحياة وفي الآخرة ، وحتى خلف هذه الغفران المجرد امل آخر أكثر نشوة ، وإذا أمكن لراهب اصولي أن يرى في جسده الدامي صورة لجسد المسيح فليس من المدهش أن العلمانيين الذين غدوا من اللطامين ثم هربوا من الرقابة الكهنوتية شعروا بأنهم مكلفون بمهمة خلاصية (ص ١٢٨) لا تضمن فقط خلاصهم وحدهم بل البشرية كلها و مثلها مثل الفقراء قبلها ، رأت طوائف اللطامين المنشقة في تكفيرها تشبها جماعيا بالمسيح له قيمة أخروية فريدة .

وكان في المدن الايطالية المزدحمة أن ظهرت مواكب منظمة من اللطامين للمرة الأولى ، وانطلقت الحركة في ١٢٦٠ بوساطة ناسك من بيروغيا وانتشرت في اتجاه الجنوب الى روما وفي اتجاه الشمال الى مدن لومبارديا بسرعة حتى بدت للمعاصرين كوباء مفاجيء للندم ، وزحفت حشود من الناس من الشباب والصبية وسارت ليلا ونهارا،بالعادة بقيادة كهنة وتنقلت بأعلام وشموع مضاءة من مدينة لأخرى ، وكانوا كلما وصلوا الى مدينة نظموا أنفسهم في مجموعات أمام الكنيسة وجلدوا انفسهم لساعات بلا انقطاع ، وكان الزخم المؤثر الذي أحدثه هذا التكفير العلني على عموم السكان كبيرا ، فاعترف المجرمون وأعاد اللصوص ما سلبوه ، وأعاد المرابون الفوائد على قروضهم ، وتم التراخي بين المتخاصمين وتم تناسي الحزازات حتى الطرفان المتحاربان اللذان كانا يقسمان ايطاليا ، الغولف أو مؤيدوا البابا والجيبللين أو مؤيدوا الامبراطور ، فقدا للحظة بعض عنادهما،واشتركت مدن بكاملها في الحركة ففي ريغيو شارك القاضي الرئيس والأسقف وكل النقابات ، ومع تحرك المواكب كان حجمها يتزايد باستمرار حتى أصبحت تشكل الوفا عدة ، ولكن كان إذا انضم اليها احيانا اناس من كل الطبقات كان الفقراء هم الذين يستمرون حتى انه في المراحل التالية للحركة كانوا يبقون وحدهم .

إن الظروف التي حدث فيها هذا الانفجار الأول لحشد اللطـامين هامة ، وحتى بمعايير العصـور الوسـطى فقـد كانت الظـروف في ايطاليا في تلك اللحظة قاسية بصورة استثنائية ، ففي ١٢٥٨ كانت هناك مجاعة ، وفي ١٢٥٩ حدث انفجار خطير للطاعون ، و فوق كل ذلك كانت هناك الأعمال الحـربية التـي لم تتـوقف بين الغـــولف والجيبللين والتي انزلت البلاد الى حالة مـن البـؤس البـالغ وعدم الامن ، وكانت حالة مدن الغـــولف بشـــكل خـــاص شــــديدة التعاسة ، لأن قضيتهم عانت من ضربة عنيفة عندها هزم الفلورنتين في مونتابرتو مع مذابح مروعة على ايدي التوسكان ، وبـدا أن مـا نفردين فردريك الثاني في طريقه الى فرض سيطرته على ايطاليا كلها ولم يكن للاشيء ان حركة اللطامين بدأت في مدينة غولفية ، وازدهرت اكثر ما يكون بين الغولفيين ، ومـع ذلك اعطـت كل هـذه البـلايا الاحساس بأنها ليست سوى مقدمة لكارثة شاملة ، ولاحـظ أحـد المؤرخين انه خلال مواكب اللطامين كان الناس يتصرفـون بخـوف كما لو ان الرب كان على وشك أن يدمرهم جميعا بالزلازل وبـالنار من السماء كعقاب لهم على ذنوبهم ، وكان هؤلاء التائبون يصيحون وهم في عالم بدوا فيه و كأنهم يرفـرفون على حـافة هـاوية و هـم يضربون انفسهم و يلقون بأنفسهم على وجوههم :« أيتها العـذراء المقدسة ارحمينا اسألي يسـوع المسيح أن يعفـوعنا»» و الرحمـة الرحمة«السلام السلام ، وهـم يدعون بـلا انقـطاع ، كمـا اخبرنا ، حتى بدا أن الحقول والجبـال تـرجع صدى صلواتهم وصمتت الآلات الموسيقية وتلاشت أغاني الحب » . ولكن الذي كان هؤلاء اللطامون يناضلون لانتزاعه من الرب كان أكثـر مـن مجـرد الراحة من المتاعب الراهنة ، فقد كانت تلك السنة سنة ١٢٦٠ ، أي السنة الرؤوية ، التي فيها طبقا للتنبـوءات اليواكمية الزائفـة كان العصر الثالث متوقع الوصول الى مـرحلة التحقيق ، وبينَ المجـاعة والوباء كانت اعداد وفيرة من الايطاليين تنظر بصـبر نافـذ بـزوغ عصر روح القدس ، العصر الذي سيعيش فيه كل الناس في سـلام ملتزمين بالفقر الطوعي ، مستغرقين في نعيم التـأمل ، ومـع مضي شهر وراء شهر اصبحت هذه التوقعات الألفية اكثر شدة حتى أخذت

صفة هستيرية يائسة نحو نهـاية السـنة ، و بـدا الناس يتعلقـون بقشة ، و بحلول ايلول كانت كل معركة حتى معركة مونتا برتو يمكن أن تعطي اهمية أخروية ، و عندما مضت ستة أسابيع أخرى و بـدأ تشرين الثاني ظهر اللطامون ، و يذكر المؤرخ سـالمبين أوف بـارما الذي كان هـو نفسـه يواكميا كيف كان الناس متلهفين لأن يروا في هذه المواكب الحزينة بداية الفناء الكبير، و في ايطاليا مـاتت حـركة الجلد الجماهيرية بسرعة بعـد التحـرر مـن الوهـم ، ولكن في ١٢٦١ ـ ١٢٦٢ عبرت الألب وعادت للظهور في مدن جنوب المانيا والراين ، وبدا أن الزعماء كانوا ما يزالون ايطاليين ، ولكن بينمـا كانوا يمرون عبر المدن الالمانية اندفـع السـكان بـالمئات ليشـكلوا مواكب جديدة ، وبلا شـك كانت الحـركة تملك تنظيمـا بـالفعل في ايطاليا ، ولكن عند هذه النقطة بـدأ المؤرخـون يلاحـظون وجـود واحدة ، وكان للطامين الالمان طقوس وأغان ، وقد صـمموا حتـى لباسا موحدا ، وعلاوة على ذلك بدا أن الزعماء في حـالة استحواذ على رسالة سماوية كتلك التي حملها مرة بطرس الناسـك ، ومـرة أخرى منذ عدة سنوات مضت ـ من قبل أستاذ هنغاريا ، وفي هـذه المناسبة بقي النص محفوظا ، وتذكر الرسالة أن لوحا من الرخـام يشع بضوء خارق للطبيعة قد هبط حديثا فوق مذبح كنيسـة الضريح المقدس في القدس ، في حضور جمع من المؤمنين ، وظهـر مـلاك إلى جانبه وتلا الرسالة التي أملاها الرب بنفسـه عليه ، وكانت رسـالة مفعمة بالمعاني الأخروية ، وتعج بعبـارات مـأخوذة مـن القـطعة الشهيرة من سفر الرؤيا المنسوبة للمسيح ، وتتحـدث عن البـؤس والكرب الذي سيتقدم على المجيء الثاني ، لأن الرب كان غاضبا من البشر بسبب غرورهم وتفاخرهم وتجـديفهم وفسـقهم وإهمـالهم لصيام السـبت والجمعـة (ص ١٣٠) ولتعـاملهم بـالربا ، وفي الحقيقة من أجل كل هذه الآثام التـي كان مـن الشـائع اعتبـارها بمعنى خاص خطايا دايفز ، وقـد عاقـب الجنس البشري بـالفعل بإرسال الهزات الأرضية والنار ، والجفاف ، والطـوفان والمجـاعة والطاعون ، والحروب والغزوات التـي خـرب فيهـا المسـلمون و الوثنيون الأخرون أراضي النصارى ، وفي النهاية بسبب غضبه مـن

العناد الذي تعلق به الناس بطرقهم الشريرة قرر أن يقتل كل شيء حي على الأرض ، ولكن العذراء والملائكة خروا عند قدميه وتوسلوا إليه أن يمنح الجنس البشري . فرصة أخيرة ، وتسائر الرب بتلك التوسلات ووعد انه إذا أصلح الناس الآن طريقهم وتخلوا عن ممارسة الربا والزنا والتجديف ، فإن الأرض ستزدهر ، وستعطي ثمارا وفيرة ، وعند هذه الأخبار بدأ المؤمنون في القدس البحث عن بعض الوسائل لشفاء الجنس البشري من نزعاته المهلكة نحو الخطيئة ، وفي النهاية ظهر الملاك مرة أخرى ليأمرهم بمتابعة موكب لطم مدة ٣٣٫٥ يوما تذكيرا بعدد السنين التي طبقا لحساب تقليدي امضاها المسيح على الأرض ، وهكذا ـ اختتمت الرسالة ـ جاءت الحركة : وقد أطلقها في المقام الاول ملك صقلية (ويتساءل الانسان : هل هذا فردريك الثاني ، كمخلص في الأيام الأخيرة ؟) : لقد بلغ الحج الكبير المانيا الآن ، واي كاهن يهمل في ديتونته أن ينقل الرسالة الالهية لجموع المصلين التابعين له سيكون ملعونا إلى الأبد بشكل مؤكد .

ولا يمكن للمرء إلا أن يتذكر تلك الرسالة السماوية الأخرى التي بواسطتها بعد قرنين ونصف القرن كان على ثائر الراين الأعلى أن يحاول أن يستحضر أخوة الصليب الأصفر المعادية للاكليروس ، وفي حين كان فيه اللطامون الايطاليون دائما محكومين بحزم من قبل الاكليروس ، كان اللطامون الالمان قد انقلبوا في الواقع بسرعة ضد الكنيسة ، وكان الالمان كالايطاليين عارفين بالنبوءات اليواكمية الزائفة وتوقعوا القدر نفسه بالضبط من السنة الرؤوية ١٢٦٠ ، ولكنهم مالوا لأن يكونوا أكثر عنفا تجاه الاكليروس وأكثر عنادا وتصلبا بكثير في رفضهم لروما ، ولم تمض سوى سنوات قليلة منذ أعلن الاخ الالفي السوابياني ارنولد أنه هو و أتباعه كانوا الجماعة المقدسة التي ستستولي على السلطة كلها من كنيسة المسيح الدجال في ١٢٦٠ .

وإذا مات فردريك الثاني في تلك الفترة الفاصلة ، وبدات فترة خلو

العرش فإن هذا متن فقط الشوق بين جموع الالمان إلى مملكة الفية للقديسين ، وانتهت الحركة بأن اصبحت احتكارا للفقراء ، للنساجين ،و الاسكافيين والمشتغلين بالمعادن وامثالهم ، وما أن اصبحت كذلك حتى تحولت إلى مؤامرة ضد الاكليروس ، وبدأ اللطامون بالادعاء أنهم قادرون على تحقيق الخلاص بجدارتهم وبدون مساعدة الكنيسة (ص ١٣١) وأن مجرد عملية الاشتراك في أحد مواكبهم تحل المرء من كل ذنوبه ، وسرعان ما انهمك رؤساء الاساقفة والأساقفة في عمليات حرمان وطرد هؤلاء التائبين الخطرين مع مساعدة من أمراء دنيويين مثل دوق بافاريا في عمليات القمع .

وفي المانيا وجنوب أوروبا على السواء استمرت جماعات اللطامين في الوجود على مدى قرنين من الزمان وأكثر بعد ظهورها الأول ، ولكن نشاطهم ومنزلتهم في المنطقتين اختلف بقدر كبير ، وفي إيطاليا وجنوب فرنسا ازدهرت جماعات اللطامين علنا في كل مدينة هامة ، وكانوا بشكل عام اصوليين متشددين في أرائهم الدينية ، وتمتعوا بالاعتراف من كل من السلطتين المدنية والكهنوتية ، وفي المانيا من جانب أخر كانت مثل هذه الجماعات موضع شك دائما في ميولها الانشقاقية ، وكثيرا في ميولها الثورية ، وليس بلا سبب جيد ، واستمرت الحركة التي كانت مقموعة في ١٢٦٢ في الوجود سرا ، وفي ١٢٩٦ عندما كانت المدن الواقعة على الراين تعاني من أسوأ مجاعة منذ ثمانين عاما ، ظهر هناك فجأة لطامون يرتدون لباسا موحدا وينشدون التراتيل ، عندما زحفت أكبر حركات اللطامين في كل الأزمنة خلال المانيا كلها في ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ ، تحولت ايضا لتختص بالطقوس والاغاني ، وحتى الرسالة السماوية نفسها نادرا ماعدلت أصلا ، مما يبدو انه برهان على أن بعضا - على الأقل ـ من قادتها قد جاءوا من حركة سرية ، واستطاعوا أن يستمدوا منها بعض التقاليد .

وقد عجل الموت الاسود بانفجار ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ ويبدو إن وباء

الطاعون الدملي هذا قد نشأ في الهند وانه انتقل برا إلى البحر الاسود ، ومن هناك عن طريق السفن إلى البحر المتوسط ، وفي اوائل ١٣٤٨ كان متفشيا في موانيء إيطاليا وجنوب فرنسا ، ومن شواطيء غرب اوروبا انتقل ببطء على طول طرق التجارة حتى بلغ كل البلاد باستثناء بولونيا التي اقامت حجرا صحيا على حدودها ، وبوهيميا التي حمتها الجبال ، وفي كل منطقة استمر الوباء من اربعة إلى ستة اشهر وتفشى بدرجة كبيرة في المدن المزدحمة متغلبا على كل الجهود لكبح جماحه ، وتراصت الجثث بلا دفن في باحات الكنائس ، ويبدو مؤكدا انه باصطلاحات معدلات الوفيات كان هذا الوباء بلا منازع اكبر كارثة حلت بغرب اوروبا في السنوات الالف الأخيرة ، وكان اكبر بكثير مما نجم عن الحربين العالميتين معا في القرن الحالي ، وتقدر السلطات المسؤولة حديثا انه في ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ هلك نحو ثلث السكان .

وقد فسر الوباء وفق الطراز الطبيعي للعصور الوسطى على أنه عقاب إلهي بسبب خطايا وانتهاكات العالم الآثم ، وكانت مواكب اللطامين(ص ١٣٢) من بعض الجوانب محاولة لصرف العقاب ، واضيفت فقرة جديدة إلى الرسالة السماوية لتأكيد هذه النقطة ، وكانت الاشاعة وهاجس الوباء وليست معاناته هي التي أوجدت المواكب ، وقد اعتاد الناس على غيابها فترة طويلة قبل أن يحل الوباء نفسه ، ومن هنغاريا ، حيث يبدو أنها بدأت في أواخر ١٣٤٨ انتشرت الحركة نحو الغرب لتزدهر فوق كل شيء في مدن وسط وجنوب المانيا وأخيرا في مدن وادي الراين ، حيث شعت من جانب إلى وستفاليا ومن الآخر إلى برابانت وهنيوت وفلاندرز وفرنسا حتى قمعها الملك ، ومن البلاد المنخفضة انتقلت فرقة في سفينة إلى لندن حيث قامت بعرض أمام كاتدرائية القديس بولص ، ولكن في انكلترا لم تجد الحركة اتباعا.

وبأخذ الطريقة التي عملت بها الحركة في الاعتبار نجدها قد انتشرت بسرعة ، وفي آذار مثلا وصلت إلى بوهيميا ؛ وفي نيسان

إلى ماغدبرغ ولوبك وفي أيار إلى ووزبرغ و أوغسبرغ وفي حـزيران إلى ستراسبورغ وكونستانس وفي تموز إلى فلاندرز ، ومع ذلك إنها لم تتحرك في زحف ثابت ، وكانت التيارات الرئيسـية مليئة بتيارات صغيرة وتيارات متقاطعة ودوامات ، وتقدم اللطامون في فرق متفاوتة الحجم بين خمسين إلى خمسمائة أو أكثر ، وفي ستراسبورغ كانت فرقة جديدة تصل كل أسبوع على مدى نصف سنة ، ويقال إن نحوا من ألف من البورجوازيين قد انضموا إليهم ، ورحلوا بعضهم إلى أعلى النهر ، وبعضهم الآخر إلى أدناه ، وكانت فرقة جديدة تصـل إلى تورناي كل بضعة أيام مـن منتصـف آب حتـى بـداية تشرين الأول ، وفي الأسبوعين الأولين من تلك الفترة كانت الفرق تصل إلى هناك من بروغ ، وغنت ، وسلوذير ، ودوردرخت وليبج ثم انضممت تورناي نفسها وأرسلت فرقة في اتجاه سواسون ، وكي نفهم الحركة ككل يجب أن يتصور المرء عددا من المناطق تمر واحدة بعد الأخـرى في حالة من الهياج الانفعالي الذي يبقى بكامل قوته نحو ثلاثة شهور ثم يخمد تدريجيا،وفي الشرق حيث بـدات الحـركة ، انتهـت بحلول منتصف السنة ، وفي وسط ألمانيا بدأت تتضاءل بسرعة بعـد ذلك ، وفي البلاد المنخفضة وشمال فرنسا استمرت حتى أواخر الخريف ، ولابد أن عدد الناس الذين شاركوا في مرحلة أو أخـرى كان كبيرا ، ويصعب الحصول على الأرقام ، ولكن يروى بشكل يمكن الاعتمـاد عليه أن ديرا واحدا في البلاد المنخفضة كان قد أصبح مـركزا للحـج للطامين كان عليه أن يقدم الطعام لنحو ٢٥٠٠ في نصف سـنة وأن اللطامين الذين كانوا قد وصلوا إلى تـورناي في شـهرين ونصـف الشهر بلغوا ٥ر٣٠٠ . ويقال أيضـا ـ ربمـا مـع شيء مـن المبالغة ـ إنه عندما رفضت ارفورت أن تفتح أبوابها للطامين عسكر نحو ٣٠٠٠ خارج الأسوار .

والذي جعل من هذه الحشود من اللطامين شيئا أكثر من الوباء ، شيئا ربما يمكن تسميته (ص ١٣٣) هنا حـركة ، كان الطـريقة التي نظمت بها ، وباستثناء ماكان عليه الحال في المرحلة الأخيرة في الأراضي المنخفضة ، كانت هذه المنظمة مـوحدة المظهـر على نحـو

فريد ، وكان للطامين اسم جمـاعي ، وكانوا يدعون انفسـهم حملة الصليب أو الأخوة اللطامين ـ او مثـل صـليبي ١٣٠٩ ـ أخـوة الصليب ، ومثل اسـلافهم في ١٢٦٢ – و مـن هـذه الناحية مثـل الصليبيين – كانوا يرتدون لباسا موحدا ، و كان في هـذه الحـالة ثوبا أبيض مع صليب احمر من الأمـام ومـن الخلف مـع قبعـة أو قلنسوة مميزة بالشكل نفسه ، وكان يقود كل فرقة من اللطامين قائد كان في الغالب ، من العلمانيين ، وكان هذا المعلم او الأب ، كما كان يسمى ، يستمع إلى اعترافات الأعضاء و ـ كما لاحظ الاكليروس بفزع ـ يفرض الكفارات ويمنح الغفران ، سواء اثناء الجلد العلني أو في الخفاء ، وكان على كل عضو أن يقسـم على الطـاعة المطلقـة لمعلمه طيلة فترة الموكب ، وكانت هذه الفترة ثابتة : وباستثناء بعض المواكب المحلية القصيرة في البـلاد المنخفضـة التـي كانت تنظمهـا الكنيسة ، كانت دائما ٣٣ر٥ يوما صوفيا وخـلال تلك الفتـرة كان اللطامون يخضعون لنظام قاس ، إذ لم يسمح لهم ، بالاستحمام او الحلاقة أو تغيير الملابس أو النوم في فراش ناعم ، وإذا قدمت لهـم الضيافة يمكنهم فقط غسل ايديهم عندما يركعون على الأرض كرمز للتواضع ، ولم يسمح لهم بالتحدث مع بعضهم بدون إذن من المعلم ، وفوق كل شيء كانوا ممنوعين من اي تعامل مع النساء ، وعليهم أن يتجنبوا زوجاتهم ، وفي المنازل التي يسـكنونها لم يسـمح بخـدمة النساء لهم على المائدة . وإذا نطق اللاطم بكلمة واحدة لامـرأة كان عليه أن يركع أمام معلمه ، الذي يضربه وهو يقول له :« انهض بحق شرف الشهادة الطاهرة ، ومن الآن فصـاعدا راقـب نفسـك ضـد الخطيئة»!

و اعتاد اللطامون لدى وصولهم إلى اي مدينة ان يأخذوا طريقهم الى الكنيسة و يشكلوا حلقة امامها ، ويخلعوا ثيابهم واحـذيتهم و يلبسوا مئزرا قصيرا يمتد من الخاصرة الى القدمين ، ثـم يبـداون بأداء طقس كان على الرغم من بعض الاختـلافات المحلية قياسـيا بشكل ملحوظ حيث يسير التائبون في دائرة ويلقون بأنفسهم واحـدا بعد الآخر على وجوههم ، ويرقدون بلا حراك واذرعتهم ممدودة على

شكل صليب ، ويخطو الذين في الخلف فوق الأجساد المنبطحة ، وهم يضربونها بلطف باسواطهم وهم يمرون ، ويرقد الرجـال مـن ذوي الذنوب الكبيرة التي تتطلب التكفير و المغفرة في اوضـاع تـرمز الى انتهاكاتهم ، وفوق اجساد هؤلاء يخطو المعلم نفسه ، وهو يضربهم بسوطه وهو يكرر صيغته للغفران ، « انهض بحق شرف الشـهادة الطاهرة » .

وعندما ينبطح اخر الرجـال يقـف الجميع على اقـدامهم ويبـدا الجلد ، فيضرب الرجال انفسهم بايقاع بسوط جلدي مسلح باشواك حديدية وهم ينشدون التراتيل في تلك الاثناء احتفـالا بآلام المسـيح ومجد العذراء ، وكان ثلاثة رجـال (ص ١٣٤) يقفـون في مـركز الدائرة يقودون الغناء وفي مقاطع معينة ثلاث مـرات في كل تـرتيلة ، يرتمي الجميع ارضا كما لو كانوا قد اصيبوا بصـاعقة وينبـطحون باذرع ممدودة وهم ينتحبون ويصـلون ، وكان المعلم يسـير بينهـم ويأمرهم بالابتهال الى الرب ليرحم كل الخاطئين وبعد بـرهة يقـف الرجال ويرفعون ايديهم نحو السماء وينشـدون ثـم يعـاودون جلد انفسهم ، واذا حـدث مصـادفة ان دخلت امـراة او كاهـن الدائرة يصبح اللطم كله غير صالح ويجب ان يعاد من البـداية ، وفي كل يوم تجري عمليتا لطم كاملتين أمام الناس ، وكل مساء تجري ثـالثة في الخفاء في غرفة النوم ، وكان اللطامون يقومون بعملهم باجتهاد حتى انه كثيرا ما تنغرس الاشواك في اللحم وتحتاج لانتـزاعها ، وكانت دماؤهم تتناثر على الجدران وتتحول أجسادهم الى كتل من اللحـم الأزرق .

وكانت جماهير السـكان تنظـر بتقـدير إيجـابي الى اللطامين ، وحيثما ذهب التـائبون كانت تتـدفق عليهـم الحشـود للمشـاهدة والاسـتماع الى الطقـوس المقـدسة والضرب المخيف ، والتراتيل – ربما المرات الوحيدة التي سمعت حتـى الآن في لغة قابلة للفهم مـن قبـل الجمـاهير – وعند الأوج كانت تـلاوة الرسالة السماوية تحدث تأثيرا غامرا ، حتى أن كل المستمعين كان

يغمرهم النحيب و التأوه ، و لم تكن مصداقية الرسالة موضع تساؤل ، وكان ينظر الى اللطامين - كما كانوا يرون في أنفسهم - لا كمجرد تائبين يكفرون عن خطاياهم ، بل كشهداء يأخذون على عاتقهم خطايا العالم وبذلك يتجنبون الوباء ، وإبادة الجنس البشري في الواقع ، وعندما كان موكب اللطامين يقترب من مدينة من المدن كانت تقرع النواقيس ، وعندما ينتهي اللطم كان السكان يهرعون لدعوة المشتركين الى منازلهم ، وكان الناس يسرون بالاسهام في تكاليف الشموع والأعلام وحتى السلطات المدنية كانت تنفق بحرية من الأموال العامة .

إنها قصة الرعاة ، وكما في كل الأوقات منذ بدات الحضارة في الانتعاش والثروة المادية في الازدياد ، لم تكن الجماهير المدنية راضية عن الكهنة الذين - بأي عدالة - لم ترفيهم سوى الدنيوية وعينات الانتقادات التي كان منتشرة في تلك الأيام من منتصف القرن الرابع عشر ، وحفظت في تعابير الكهنة أنفسهم ، يقول أحدهم :« لقد تغلغل بيع وشراء المناصب الكهنوتية بعمق كبير وترسخ ، حتى أن رجال الاكليروس المدنيين والنظاميين سواء من المراتب العليا أو الوسطى أو الدنيا ، كانوا يبيعون ويشترون الوظائف الكهنوتية بلا خجل ، (ص ١٣٥)وحتى علنا دون تأنيب من أحد ، ناهيك عن العقاب ، وبدا كما لو أن الرب بدلا من طرد البائعين والمشترين من المعبد ، قد وضعهم بالحري ، داخله ، كما لو أن بيع المناصب الكهنوتية يجب أن لا يعتبر هرطقة بل كنسيا وكاثوليكيا ومقدسا ، وكانت الأوقاف الكنسية أو بيوت الكهنة ومناصبهم ومناصب رعاة الأبرشيات و حتى الأبرشيات و الكنائس الأبرشية و المذابح تباع لقاء المال أو تستبدل بالنساء والعشيقات ، أو يراهن عليها وتخضع للربح والخسارة في لعبة نرد . وكانت مرتبة ومهنة كل فرد تعتمد فقط على المال والنفوذ أو اعتبارات الربح الأخرى ، وكانت اديرة الراهبات والرهبان ورعايتها ، والوصاية عليها وادارة المدارس وحتى المحاضرات تباع من قبل الاساقفة او مجلس الكرادلة التابع للبابوية الى رجال من

عديمي الكفاءة . خام ، جهلة صغار السن وبلا خبرة ، تباع بكل ما يمكنهم تحصيله سواء من السرقة أو الوسائل الأخــرى ، أو ربمــا يغتصبونه بأي طريقة أخرى ، ومن هنا ليس مــن الســهل الآن أن نجد بين شخصيات الكهنوت المدني والنظامي من يمكن احترامه مع شيوع هذا واعتماده بشكل عام ، انظر الى رؤساء أديرة الرهبــان وأديرة الراهبات وأديرة الفــرنسيسكان ورؤســاء الكنائس والكهنه والمعلمين المحاضرين وتنهد! انظر الى حياتهــم ومثلهــم وســلوكهم وتعاليمهم والأوضاع الخطرة لهؤلاء في مهــامهم وارتجــف! اشــفق علينا أيها الرب ، يا أبا الرحمة ، إننا اثمنا تجاهك »

وصاح كاهن آخر : « كم أصبحت حــالة الكنيســة مــزرية ! إن رعاة الأبرشيات يطعمون أنفسهم بدلا مــن قــطعانهم ، والقــطعان التي يجزونها ، أو أنهم بالأحرى يسلخونها ، إنهــم لا يتصرفــون كرعاة بل كذئاب ! لقد هجرت المحاسن كلها كنيسة الرب ، فلا بقعة صحيحة فيها من التاج الى النعل »!

والمدى الدقيق الذي يمكن بلوغه في تسويغ هذه الشكاوى غير ذي موضوع وما هو مؤكد أن العامة لم يكن بــاستطاعتهم بســهولة أن يجــدوا بين الكهنة مــا كانوا في أمس الحــاجة اليه ، لقــد كانوا محتاجين الى رجال من ذوي الطها رة الدينية ، ممن يضمن زهدهم بوضوح قدراتهم في صنع المعجزات وبدا أن اللطامين من جانب آخر هم هؤلاء الأطهار ، وقد ادعوا انفسهم أنهم خلال جلدهم لم يكونوا فقط متحررين من كل خطيئة ومطمئنين من السماء بل كانوا مدعمين لطرد الشياطين ، وشفاء المعلولين وحتى إحياء الموتى ، وكان هناك لطامون يدعون أنهم يأكلون ويشربون مــع المســيح ويتحــدثون الى العذراء ، وادعى واحد على الأقل بأنه بعث مــن الموت ، وكانت كل هذه الادعاءات تتقبل بلهفة من قبــل الأهــالي ، ولم يحضر الناس مرضاهم فقط ليتلقوا الشفاء من هؤلاء الرجال المقدسين ، بل كانوا يغمسون الثياب في الدم السائل منهم ويحفظونها كآثار مقدسة وكان الرجال والنساء على السواء يتوسلون كي يسمح لهم بضــغط هــذه

الملابس على عيونهم ، وفي إحدى المناسبات حمل طفل ميت حول الدائرة اثناء عملية الجلد على أمل بعثه من الموت ، وكان أينما ظهر اللطامون في المانيا كانت العامة من الناس ولا سيما في مراكز الصناعه والتجارة تنظر اليهم على أنهم رجال الرب وكانوا في الوقت نفسه يلعنون الاكليروس وقدم هذا للطامين الفرصة التي كان العديد منهم ينتظرها(ص ١٣٦).

لطامون ثوريون

وحدث فقط في اماكن محدودة من الاراضي المنخفضة أن تمكن الاكليروس من السيطرة بشكل فعال على حركة اللطامين في عام ١٣٤٩ ، وانتهت هذه الحركة في أجزاء أخرى من البلاد المنخفضة وفي كل المانيا الى حركة مقاتلة متعطشة للدماء تسعى وراء الالفية .

وكانت تلك اللحظة الأكثر مواءمة لمثل هذا التطور ، لان التوقعات الأخروية كانت منتشرة على نطاق اكثر اتساعا وشدة ، ولم يكن مصادفة في تلك السنوات ، أن اكثر المسرحيات الألمانية المتعلقة بالمسيح الدجال شهرة ، كانت قد صنعت وعرضت ، وكان الناس في ١٣٤٨ بالفعل يفسرون الهزات الأرضية في كارنثيا وايطاليا على انها المحن المسائحية التي تعلن عن اقتراب الأيام الأخيرة ، وحتى إذا لم يخبر المرء بذلك بوضوح ، فإنه كان يفترض بأن الكارثة المروعة الفريدة للموت الأسود يمكن أن تفسر في المعنى نفسه ، وفي الحقيقة إن معاناة عدم الأمن الشامل ، والارتباك والقلق كان له الأثر ـ كما كان كثيرا جدا – على زيادة الاثارة الأخروية بين الجماهير ، الى وتيرة الحمى ، وكانت مواكب اللطامين تظهر في الدراما المتعلقة بانهيار العالم وتحوله في الأيام الاخيرة التي كانت تتكشف الآن عن هولها وقوتها : « لقد حكم الوباء عامة الناس وقضى على العديد منهم واهتزت الارض واحرق رجال من اليهود •

كان عدد كبير وغريب من الرجال نصف العراة يضربون أنفسهم، وبالطبع كمنت وراء هذه المحن الألفية ،وكان العديد من الناس يعيشون في توقعات مجيء المسيح المحارب ، كما حدث فيما بعد في فتنة ثوار الراين الأعلى ، وبالضبط في ١٣٤٨ يذكر جون أوف ونترثر كيف كان الناس بشكل عام وبلهفة يتوقعون بعث الأمبراطور فردريك الذي سيذبح الكهنة ويجبر الأغنياء على الزواج من الفقراء ، وفي تلك السنة أيضا كان يفترض أن أحد « المنجمين الكبار » قد تنبأ ليس فقط بوباء الطاعون بل أيضا بمجيء امبراطور سيشتت ويحاسب البابا وكرادلته ويطيح بملك فرنسا ، ويمد سلطانه ويثبته فوق جميع أنحاء البلاد.

ومن المؤكد أن عددا كبيرا من اللطامين انفسهم عاشوا في عالم من خيالات الألفية ، وروى مؤرخ معاصر أن مواكب ١٣٤٩ التي كان كل منها يدوم ٣٣.٥ يوما كانت تعتبر مجرد بداية ، وكانت الحركة ككل تعتزم الاستمرار ٣٣.٥ سنة بانقضائها(ص ١٣٧) تكون النصرانية قد أنقذت ،وكشف تحري معتقدات اللطامين في برسلاو أيضا انشغالا بالألفية ، وكان التائبون هناك يرون كيف أن مراتب الرهبنة والأخوانيات الرهبانية الموجودة ستتعرض لمحن عظيمة حتى يتم مرور سبع عشرة سنة (نصف مدة التحول الكلية!) وعندها سيتم استبدالها بمراتب رهبانية جديدة تبقى حتى النهاية ، وهذه بالطبع نبوءة موجودة في التقاليد اليواكمية ، وعند هذه النقطة مفيد التذكير بعودة ظهور الرسالة السماوية التي سلمت هي نفسها منذ ١٢٦٠ ، السنة الرؤوية للنبوءة اليواكمية ،ولم يكن للاشيء أن مثل هذه الوثيقة قد اصبحت بيانا لحركة اللطامين لأنه من المؤكد انه عندما كان اللطامون يتحدثون عن حركة رهبانية جديدة ذات قدسية فريدة ، إنما كانوا يشيرون الى أنفسهم فقط. لقد رأى هؤلاء الناس حقا في أنفسهم اناسا مقدسين وجيشا من القديسين ، انهم لم يسموا أنفسهم ببساطة حملة الصليب واخوة الصليب فخلال ايقاعهم العذاب بأنفسهم كانوا يتغنون بألام المسيح ، بل كثيرا ماامضوا الى أبعد من هذا بكثير مدعين أن المسيح

بنفسه قد أراهم جراحه الدامية ، وامرهم أن يقوموا بضرب انفسهم ، وكان بعضهم حتى يقول صراحة ، إن اي سفك دماء لا يمكن أن يقارن بسفك دمائهم سوى ما جرى عند صلب المسيح ، وأن دمهم قد اختلط بدم المسيح ، وأن كليهما كان له القوة المخلصة نفسها .

وكما يمكن أن يتوقع ارتبط تطور هذه التخيلات بتبدل في التركيب الاجتماعي لمواكب اللطامين ، فلقد كانت الحركة دائما مؤلفة في اساسها من الفلاحين والحرفيين ، ولكن حيث أن النبلاء والبرجوازيين الاغنياء شاركوا فيها أيضا في البداية ، وهم بخروجهم منها تغير طابعها بفعل جمهور المجندين الجدد من حواشي المجتمع من المتشردين والمفلسين والخارجين على القانون والمجرمين من كل الأنواع ، وفي الوقت نفسه انتقلت الزعامة الى ايدي عدد من المتنبئين الذين كانوا الى حد كبير يتألفون من الكهان المنشقين والمرتدين ، وعندما قرر البابا في النهاية أن يصدر بيانا ضد اللطامين جعل من الواضح إنه يعتبر الغالبية اناسا بسطاء ضللوا من قبل المهرطقين الذين ، كانوا هم انفسهم فقط يعرفون جيدا ما يفعلون ، واضاف ان المهرطقين يضمون اعدادا من الرهبان والأخوة الرهبانيين وان هؤلاء يجب القبض عليهم حتما ، وعبر مؤرخ من البلاد المنخفضة ايضا عن هذه الفكرة ، بان الحركة قد نظمت بهدف القضاء على الاكليروس والكنيسة ، من قبل رهبان مرتدين في المانيا ، وبعد اختفاء الحركة عن الأنظار بثلاث سنوات ، كان رئيس اساقفة كولون ما يزال يهدد بالحرمان الشمامسة والكهنة الأدنى ، الذين شاركوا فيها ، مالم يقدموا شهودا يقسمون على براءتهم (ص ١٣٨) وظهر الذي وقف وراء هذه الاتهامات في احداث برسلاو ، وهي مدينة جاهر اللطامون فيها علنا بمعتقداتهم اليواكمية ، ومن المعروف ان الزعيم هناك كان شماسا حرض اتباعه على مهاجمة الاكليروس وانتهى بحرقه كمهرطق .

ومع تحول اللطامين الى حركة مسائحية جماهيرية أصبح

سلوكها شبيها بسلوك اسلافها في الحركة الصليبية الشعبية ، و انتهى اللطامون الألمان بشكل خاص بأن أصبحوا اعداء متصلبين للكنيسة ولم يدينوا الاكليروس فقط بل انكروا تماما ادعاء الاكليروس سلطة سامية غير طبيعية ، وانكروا أن يكون للقربان المقدس أي معنى ، وعندما قدم القربان للحشود رفضوا إظهار أي احترام له ، لقد قاموا بتطبيق مقاطعة الصلوات والخدمات في الكنيسة ، قائلين بأن احتفالاتهم وتراتيلهم وحدها هي التي لها قيمة ،لقد وضعوا أنفسهم فوق البابا و الاكليروس على أساس انه في الوقت الذي يمكن فيه للأكليروس أن يرجعوا فقط الى الانجيل والآثار كمصدر سلطتهم ، تعلموا هم أنفسهم مباشرة من روح القدس التي أرسلتهم عبر العالم ، وقد رفض اللطامون مطلقا سماع النقد من أي كاهن ، بل على العكس – تماما كاستاذ هنغاريا – أعلنوا ان اي كاهن يعارضهم يجب سحبه من على منبر وعظه وحرقه على الخازوق ، وعندما غامر اثنان من الدومينكيان بالجدال مع اللطامين رجما فقتل احدهما ونجا الآخر بالهرب ، وحدثت احداث مماثلة في أماكن أخرى ، وفي بعض الأحيان كان اللطامون يحثون الناس على رجم الاكليروس بالحجارة ، وكل من يحاول تهدئة ثائرتهم ضد الكنيسة ، بما في ذلك أعضاء جماعتهم ، كان يفعل ذلك مخاطرا بنفسه ، وشكا البابا من ان هؤلاء التائبين كانوا كلما وجدوا الفرصة انتهزوها فكانوا يستولون على الممتلكات الكهنوتية لصالح أخوتهم ، وقال مؤرخ فرنسي:كانت حركة اللطامين ترمي الى تدمير الكنيسة تماما ، والاستيلاء على ثرواتها ، وقتل كل الاكليروس ، وليس هناك من دليل على أن أيا منهما كان يبالغ.

وكالمعتاد عانى اليهود الى جانب الكهنة وبدرجة أكبر بكثير ، وفي المذبحة الكبرى ليهود أوربا التي رافقت الموت الأسود – وهي الأكبر قبل القرن الحالي – شغل اللطامون دورا هاما ونفذت عمليات القتل الأولى تلقائيا من قبل جماهير كانت قانعة بأن اليهود قد سببوا الوباء بتسميم الآبار ، وانتهت بحلول أذار ١٣٤٩ ربما

لأن الناس في ذلك الوقت قد لاحظوا أن الطاعون كان يصيب اليهود بالقدر نفسه الذي كان يصيب به المسيحيين ، وانه لم يوفر المناطق التي قتل فيها اليهود بالفعل ، وبعد ذلك بأربعة شهور انطلقت موجة جديدة من الذبح بفعل دعاية اللطامين ، وحيثما قامت السلطات حتى الآن بحماية اليهود أخذت هذه الحشود الآن تطالب بذبحهم·

وعندما دخل اللطامون في تموز ١٣٤٩ فرانكفورت اندفعوا راسا الى الحي اليهودي ، حيث انضم اليهم اهالي المدينة في ابادة الطائفة ، وقد اقلقت الحادثة السلطات حتى انهم اخرجوا التائبين من المدينة وعززوا البوابات لمنعهم من العودة ، وبعد ذلك بشهر حدثت مذبحة متزامنة في مينز وكولون ، واثناء موكب للطامين في مينز هرولت حشود النظارة فجأة بشكل مسعور لتلقي بنفسها على اليهود ، وكانت النتيجة ان الطائفة الاكبر لهم في المانيا قد ابيدت ، وفي كولون دخلت فرقة من اللطامين كانت معسكرة لبعض الوقت في الخارج الى المدينة وجمعت حشدا كبيرا ممن ليس لديهم مايفقدونه ، وضد رغبة مجلس المدينة والبرجوازيين الاغنياء هاجمت هذه الحشود اليهود وقتلت كثيرا منهم .و في بروكسل ايضا ادى اقتراب اللطامين الممتزج بشائعات تسميم الآبار إلى قيام مذبحة قتل فيها كل افراد الطائفة اليهودية وعددهم ٦٠٠ ،وذلك على الرغم من جهود دوق برابانت لحمايتهم ، وفي مناطق واسعة عبر البلاد المنخفضة كان اللطامون بمساعدة حشود الفقراء ، يحرقون ويغرقون كل من يمكنهم العثور عليه من اليهود « لانهم كانوا يعتقدون بانهم يفرحون الرب بهذه الطريقة »·

إن المصادر ضئيلة ، ويستحيل القول كم هو عدد مثل هذه المذابح التي قادها او اثارها اللطامون خلال النصف الثاني من سنة ١٣٤٩ ؛ ولكن لابد انها كانت كثيرة ، واصبح اليهود انفسهم يعتبرون اللطامين اسوأ اعدائهم ، في حين اطلق البابا احدى شكاياته الرئيسه ضد اللطامين من « ان معظمهم ، او معظم

اتباعهم ، دون مظهر الورع ، وانهم يطلقون ايديهم في اعمال قاسية غير تقية ،و يسفكون دماء اليهود ، الذين تقبلهم التقوى المسيحية وتدعمهم »، ومن شبه المؤكد انه في الوقت الذي انهى فيه اللطامون عملهم الذي اثاره هلع ١٣٤٨ ، كان هناك بقية ضئيلة جدا من اليهود في المانيا والبلاد المنخفضة ، وقد اكملت مذابح ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ تدهور وضع اليهود الذي بدأ في ١٠٩٦ ، وخلال بقية العصور الوسطى بقيت الطوائف اليهودية في المانيا صغيرة وفقيرة ، ومدانة بعزل الحي اليهودي عن المجتمع .

هل كان اللطامون يعتزمون ايضا القضاء على ذلك العدو التقليدي ، ذلك الشخص في دايفز ؟ هل كانوا يعتزمون مثل الجماهير الاخرى التي كانت تستلهم الايمان بالاخرويات ، القضاء على الاغنياء واصحاب المزايا ؟ لقد اتهمهم البابا بسلب وقتل العلمانيين مثلما قتلوا الكهنة واليهود ، في حين ان احد المؤرخين يخصص بأن اصحاب الثراء فقط الذين (ص ١٤٠) هوجموا ، وبالتأكيد قدر لهذه الجموع ان تصبح في النهاية موضع خشية « العظيم » مثل ماكان الرعاة .

ففي فرنسا حظر فيليب الخامس اللطم العلني تحت طائلة الموت ، وبذلك اصبح قادراً على منع الحركة من التوغل لاعمق من بيكاردي ، وفي المانيا اغلقت بعض المدن مثل ارفورت ابوابها في وجه جموع اللطامين ، في حين ان اخرى مثل اخن ونورمبرغ توعدت بالموت اي لطام يوجد ضمن اسوارها ، وماتخوفت منه هذه السلطات المدنية يظهر بوضوح كاف من قصة اللطم الصغرى التي صاحبت تفجراً جديداً للطاعون في ١٤٠٠ ، ففي تلك السنة سجن اللطامون في فيزيه على الماس ، ولقوا مقاومة من مدينة تونغرين ، وتم قمعهم في غنت من قبل كونت فلاندرز ، وعندما اقتربت فرقة من اللطامين من ماستريخت حاول الاثرياء من البرجوازيين اقفال البوابات في وجهها ، ولكن البروليتاريا من قصاري القماشن هبوا وقضوا على الحكام ومؤيديهم ، وسمحوا للتائبين ، ثم بعد ان تقووا بوجود

هؤلاء الرجال المقدسين ، اقفلوا البوابات في وجه الحاكم المطلق للمدينة ، اسقف لييج .

وبحلول النصف الثاني من سنة ١٣٤٩ اصبحت حركة اللطامين قوة بالفوضويه نفسها للثورتين الكبيرتين للرعاة ، وحركت ضد نفسها ائتلاف القوى المدنية والاكليروسسية نفسه واتجه امراء واساقفة المناطق التي ازعجها اللطامون الى السوربون طلبا للنصيحة ، واحالت السوربون الامر الى البابا في افينيون غير انها ارسلت اليه ايضا احد دكاترتها ، الراهب الفلمنكي جين دي فايت ، الذي درس الحركة في وطنه ، وعندما بلغ الوباء جنوب فرنسا للمرة الاولى ، في ايار من السنة السالفة اقام كليمنت السادس حفلة لطم عامة اشتركت فيها اعداد كبيرة من الجنسين ، وفيما بعد ادرك خطر هذه الحفلات ، وهكذا قوبلت احدى فرق اللطامين التي كانت قد وصلت الى افينيون من بازل بالتعنيف ، واثار الان تقرير فايت استجابة فورية ، ففي تشرين اول ١٣٤٩ ،اصدر البابا مرسوما ضد اللطامين ، وبعد تلخيص اوهامهم وغلوهم المذهبي واساءاتهم تجاه الاكليروس واليهود اشار المرسوم الى ان هؤلاء الناس كانوا بالفعل يتجاهلون السلطات المدنية ، واضاف انهم اذا لم يقاموا الان فانهم قد يصبحون مستعصين على المقاومة ، لهذا يجب قمع هذه « الزمرة » من « معلمي » الخطيئة كما ينبغي اعتقال الذين احكموا بناء عقائدهم وان يحاسبوا بالحرق اذا لزم الامر ، وقد ارسل المرسوم الى رؤساء الاساقفة في المانيا ، وبولونيا وفرنسا ، وانكلترا والسويد وتبعته رسائل الى ملوك فرنسا وانكلترا واعلنت جامعة باريس الان ايضا ادانتها الرسمية ، واسرع الكهنة بكتابة رسائل دعائية ضد اللطامين (ص ١٤١)

وكان تأثير المرسوم فوريا ، ومنع رؤساء الاساقفة والاساقفة في كل المانيا والبلاد المنخفضة قيام المزيد من حفلات اللطم ، وجرد كثير من كهنة الابرشيات والقسس وحرموا من الكنيسة واتجهوا الى

الڤينيون لالتماس الغفران ، وتعاونت السلطات المدنية بحماس لكبح الحركة .

واما المدن التي كان اللطامون مايزالون يترددون عليها ، فقد اتخذت الاجراءات للتخلص منهم ، ونسمع عن لطامين قطعت رؤوسهم بأمر من احد الكونتات ، وعن عدد كبير شنقوا في وستفاليا ، وبناء على امر من رئيس الاساقفة قامت السلطات المدنية في ابرشية ترير باعدام اللطامين وكادت ان تبيدهم ، وتحت ضغط الاضطهاد هجر معظم التائبين بسرعة حركتهم وبعبارات احد المؤرخين « اختفوا فجأة كما ظهروا فجأة كأشباح الليل او اشباه الاشباح ، ومزق بعضهم فعلا لباسهم الموحد وهربوا» ، وفي السنة التالية التي حدث ان كانت سنة مقدسة كان العديد يؤدون الكفارة بالضرب ولكن هذه المرة من قبل الكهنة ، امام المذبح العالي للقديس بطرس في روما ، ومع ذلك فقد تخلفت الحركة هنا وهناك ، ووجد في مدينة تورناي ضرورة لتجديد حظرها من حين لاخر حتى ١٣٥١ ، وكان اسقف اوترخت مايزال يلاحق اللطامين في ١٣٥٣ ، وكان على رئيس اساقفة كولون ان يتعامل معهم في ١٣٥٣ ، ومرة اخرى في ١٣٥٧ ، وبعد ذلك لم يعد يسمع شيء عن اللطامين في تلك المناطق الغربية .

وفي اطار الايمان الشعبي بالاخرويات تثير قصة حركة اللطامين في ١٣٤٩ تساؤلا واحدا واضحا : هل كان هناك في مكان ما في المانيا بين المخلصين الذين عينوا انفسهم من حاول بوساطة حركة اللطامين ، احداث حالة قلق عام ، يمكنه ان ينتحل فيها علنا دور المخلص الاخروي ؟ولسوء الحظ ان المصادر المتوفرة لاتقدم جوابا ، ويمكن للمرء فقط ان يشير الى حركة لطم اصغر ظهرت في ايطاليا قبل بضع سنوات وهربت ايضا من السيطرة الكهنوتية ،وفي هذا المثال كان المعروف ان القائد كان من العلمانيين واسمه دومينيكوساڤي من اسكولي وكان بعدما امضى سنوات عديدة كناسك ادعى انه اصبح ابنا لله ؛ ومن اجل ذلك احرق كمهرطق ، وهذا

بالطبع لايؤكد وجود شخصية مماثلة في ١٣٤٩ في المانيا ، وانما يجعل هذا يبدو كمجرد احتمال فقط ، ومن جانب اخر كانت هناك معلومات وافرة فيما يتعلق بمسيح لطام يدعى كونراد شمد ــ وهونظير المبتدع الايطالي ، وفي الوقت نفسه فردريك الزائف الذي راس في ١٣٦٠ الحركة التي تحولت تحت ضغط الاضطهاد الى طائفة سرية في مدن وسط وجنوب المانيا ، وقصة هذا الرجل واتباعه تستحق البحث بشيء من التفصيل .

سرلطامي ثورنجيا

كان كونراد شمد رجلا علمانيا متعلما بدرجة كافية ، (ص ١٤٢) لينغمس في بحوث النبوءات الرؤوية في مكتبة احد الاديرة ، وكان ايضا مطلعا تماما على المعارف التقليدية المتعلقة بشكل ما بعقائد اللطامين الباطنية ، ومن جميع النواحي كان مذهبه ببساطة مذهب التائبين في عام ١٣٤٨ ــ ١٣٤٩ ، وبالنسبة لاتباعه كان جلد الذات تشبها بالمسيح تقليدا جماعيا وتضحية خلاصية حمت وحدها العالم من كارثة نهائية مدمرة ، بفضل ذلك اصبحوا هم انفسهم نخبة مقدسة ، وبالنسبة لهم ايضا كان امرا متوقعا رفض كنيسة روما وكل اعمالها ، وتسخيف القربان المقدس ، وتسمية الكنائس عصبة لصوص ، وشجب الاكليروس ، على انهم مصاصوا دماء ودجالون كشفت طبيعتهم في وحش سفر الرؤيا ، بل وحتى انكار سلطة القوى المدنية ايضا ، باصرارهم على ان الامبراطور ليس له عليهم حق للطاعة اكبر مما للبابا ، وان كل القوانين بلا استثناء لاغية بالنسبة لهم ، ويؤكد هؤلاء الطائفيون فقط مايمكن تخمينه بالفعل من سلوك اسلافهم ، ومع ذلك نجد من نواح أخرى أن مابشر به شمد هو أشد وضوحا ، وفيه يظهر الايمان المسائحي الذي طبق دوما في حركات اللطامين في المانيا بأعظم تاكيد ممكن .

وطبقا لهذه التعاليم كانت نبوءات أشعيا Isaih التي

عدت تقليديا منبئة بمجيء المسيح كانت في الواقع تشير الى مجيء شمد ، الذي اصبح الان الحامل الوحيد للديانة الصحيحة ، ومن هذا يبدو انه عندما قال خصوم شمد الكاثوليك انه اعتقد في نفسه انه رب إنما كانوا يقولون الحقيقة المتسمة بالاعتدال ، وفي الوقت نفسه ادعى قائد اللطامين لقب ملك ثورنجيا ، ولعله لم تزدهر حركة اللطامين لعامي ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ في اي مكان اخر بالقوة نفسها كما ازدهرت بها في المنطقة الواسعة من وسط المانيا التي كانت تعرف في ذلك الوقت باسم ثورنجيا ، ولم تبق اي مدينة أو قرية دون ان تتأثر ، ولقد أصبح اللطامون شعبيين واقوياء حتى انهم حرضوا عامة الناس على رجم الاكليروس ، وقد اقفلت ارفورت بواباتها في رعب في حين كانت حشود اللطامين تعسكر في الخارج ، ومع هذا في تفحصنا مسألة ملك ثورنجيا نجد أن شمد لم يكتشف في ثورنجيا منطقة موائمة بشكل خاص لرسالته ، ذلك ان ثورنجيا كانت ايضا المنطقة التي شغلت دورا فريدا في صنع هيكل التقاليد الشعبية المتعلقة بفردريك امبراطور المستقبل .

ومن ١٣١٤ إلى ١٣٢٣ كان يحكم ثورنجيا حفيد لفردريك الثاني هو النبيل فردريك المقدام ، وكان هناك في هذا الوقت زمرة ترى في هذا (ص ١٤٣) الرجل الوريث الطبيعي للجلال الامبراطوري ، وتنشر دعاية تبسط ادعاءاته ، بينما أصبح في نظر عامة الناس شخصية إخروية ، وكان الاعتقاد على نطاق واسع أنه يحمل علامة الميلاد المعجزة ـ الصليب الذهبي المضيء بين لوحي الكتف ـ وهي العلامة التي كانت مقدرة لامبراطور الأيام الأخيرة ، وكان يتوقع أن ينفذ العقاب النهائي بحق الاكليروس . وبعد موته اندمجت شخصية فردريك المقدام في شخصية جده لأمه ، الامبراطور .

وبدا أهالي ثورنجيا يتحدثون عن فردريك الغامض الذي كان ينام في جبل كيفهاوزر والذي سيعود يوما في ابهة ليسود العالم من مملكته في ثورنجيا ، وهكذا بإدعائه انه ملك ثورنجيا كان كونراد شمد يدعى

أنه فردريك النبوءة الأخروية ، وهذا ماعناه عندما وضع نفسه في مركز المعارضة للنبيل الحاكم ، مدعيا انه هو نفسه لديه ماثر اكبر بكثير في رصيده ، وكان عامة الناس يسمونه الامبراطور فردريك ، وعندما ادعى فردريك انه القائم والرب المجسد ، كان هذا المهرطق الكبير يشغل بالفعل الدور الذي قدر له أن يستحوذ بعد قرن ونصف القرن على خيال ثائر الراين الأعلى .

وحتى يتم قبول من سيصبح عضوا في الطائفة كان عليه ان يقدم اعترافا كاملا لشمد وأن يجري عملية جلد بيديه ، ويؤدي قسما بالطاعة المطلقة له ، ومن هذه اللحظة ومابعدها كان الالتزام الوحيد الذي يعرفه هو الخضوع التام للمسيح ، وعلم شمد اتباعه أن خلاصهم يعتمد على موقفهم تجاهه فإذا لم يكونوا « بنعومة الحرير وليونته » في يديه ، وإذا أظهروا أدنى نضال بعد الاستقلال ، فإنهم سيسلمون للشيطان ليعذبوا جسديا وعقليا فهو كان ربهم ويجب أن يصلوا له وأن يخاطبوه « ابانا » .

وكان للذين اخلصوا لشمد جائزتهم فبإمكانهم أن يبتهجوا بالمعرفة الأكيدة بأن فيهم وعبرهم سيبلغ التاريخ البشري غايته الحقيقية،وكانوا يرون أن لطامي ١٣٤٩ كانوا يمتون إليهم بمثل درجة القرابة التي قامت بين يوحنا المعمدان والمسيح ، وفي الواقع إن المسيح نفسه لم يكن سوى بشير بهم ، وبلاشك أنه قد أرشد إلى الطريق الصحيح ، إلى الخلاص بتحمله للجلد وإنه فقط الذين يجلدون أنفسهم هم الذين يمكنهم الادعاء أنهم يتبعون الطريق إلى النهاية ، والآن إن الشريعة المسيحية قد استبدلت بشريعة اعلى (يمكن للمرء التعرف على النمط اليواكيمي المالوف) واتباع كونراد شمد هم فقط حملة هذه الشريعة ، وتماما كما حول المسيح الماء الى نبيذ ، إنهم حولوا العماد(ص ١٤٤) بالماء الى عماد بالدم ولقد ابقى الرب في الواقع افضل النبيذ للنهاية ولم يكن هذا النبيذ شيئا غير الدم الذي يسفكه اللطامون.

وكان هؤلاء الناس قانعين انهم وهم يضربون أنفسهم فإن ملاكا يدعى - بشكل مدهش - فينوس كان يرقبهم ، وجلودهم الحمراء كلها كانت تبدو مكسوة لحفل زفاف ، والمآزر التي يلبسونها أثناء الجلد كانوا يسمونها لباس البراءة ، ولكم كانت بهجة الأنبياء عظيمة لو أنهم عاشوا في تلك اللحظة وشاركوا في هذا اللطم المقدس ! وبالنسبة للملك داود فقد تنبأ في الواقع بهذا النعيم ، وقد دفع إلى اليأس عندما علم بأنه لن يعيش ابدا للانضمام إلى الطائفة ، حتى أنه وزوجته كانا يضربان نفسيهما كل ليلة كطريقة للمشاركة في تلك الأعمال التي كانت تسر الرب فوق كل شيء أخر ، بيد أن كل هذا لم يكن سوى تذوق للفرح الذي سيأتي ، للملكة الالفية التي ستظهر عن قريب ، وفيها يتجمع اللطامون حول امبراطورهم الرب ليشكلوا فرقة انشاد ملائكية ، وسيدعون أبناء الأمراء ، وفي هذه الأثناء ، باع كثير من أعضاء الطائفة ، وقد استنفدوا صبرهم حاجياتهم ورفضوا العمل حتى يغرقوا بسرعة في فقر مدقع .

وكما في ١٣٤٨ - ١٣٤٩ كانت دعاية اللطامين ماتزال مدعمة بالوباء ، وكانت انفجارات اصغر ولكنها منذرة بلا جدال تستمر في الحدوث كل بضع سنوات لتثير كل مرة موجة جديدة من الذعر ، وربما كان الوباء الخطير بشكل خاص في ١٣١٨ هو الذي ألهم شمد أن يعلن أن الحساب الأخير سيعقد وأن الألفية ستبدأ في السنة التالية ، ولكن بحلول هذا الزمان كان الاستجواب والتحقيق ومحاكم التفتيش كانت ايضا قد بدأت بالاهتمام بتكاثر مجموعات الهرطقين في ثورنجيا ، وارسل محقق واضح الشدة للتعامل مع الحالة ، وكانت هناك إعدامات كثيرة ، وهناك اساس للاعتقاد بأن كونراد شمد كان أحد الهرطقين السبعة الذين احرقوا في ١٣٦٨ في نوردهوزن على بعد خمسة عشر ميلا من جبل كيفوزر الذي منه كفردريك القائم كان يفترض أنه قد ظهر ، ومرة أخرى بدأت السلطات الاكليروسية في سحق حركة اللطامين في المانيا ، وفي ١٣٧٠ حظر أسقف ورزبرغ اللطم في أسقفيته ، وبعد ذلك بعامين كان البابا يشجع التحقيق في المانيا ، والتعامل الفوري بحزم مع أي

لاطم تقع عليه الأيدي ، ولكن الحركة كانت ماتزال موجودة في الخفاء وفي ١٣٩١ ـ ١٣٩٢ وجدت مجموعات لطم جديدة بين الفلاحين والحرفيين حول هيدلبرغ واعتقد المحقق الذي قام بالتحقيق هناك أن من الأفضل أن يتجه مباشرة إلى مقر قيادة شمد القديم في ثورنجيا ، ووجد الطاعون ثائرا هناك واليهود يذبحون ، واكتشف بلا صعوبة مجموعة من اللطامين المهرطقين في ايرفورت ، وأحرق قادة المجموعة ، وفرضت الكفارة على الآخرين ، بينما ببساطة هرب الباقون(ص١٤٥) .

وكانت السنوات حوالي ١٤٠٠ غير سعيدة ، وكان زمنا مضطربا لكل النصرانية ، فلقد كان الأتراك العثمانيون يتقدمون في البلقان ، وفي ١٣٩٦ اوقعوا هزيمة ماحقة بالجيش الصليبي الذي ارسله الغرب ضدهم ، وأكثر مدعاة للاضطراب حتى من هذا التهديد الخارجي ، كان التفكك الذي نجم عن الصراع العظيم الذي جزأ الكنيسة بين البابوين المتنافسين ، اللذان ادعى كل منهما طاعة كل النصرانية ، وشجب الآخر كمهرطق ، وكانت فترة من الارتباك الواسع العميق التي ـ كما حدث كثيرا ـ اثبتت انها باعث عظيم للاثارة الأخروية ، وفي ١٣٩٦ رأى القديس الدوميذكاني فنسنت فيرر رؤيا حول اقتراب الأيام الأخيرة ، ولاقتناعه بأن المسيح الدجال كان على وشك بدء حكمه بدأ يقود مواكب اللطامين ، وفي اسبانيا ، وجنوب فرنسا وإيطاليا ، وفي ١٣٩٩ كان فلاح إيطالي قد حظي برؤيا أخروية ادت إلى تشكيل حركة للطامين اكتسحت كل إيطاليا ، وحتى في تلك الأراضي الجنوبية حيث بقيت مثل هذه الحركات بشكل عام تحت السيطرة الكهنوتية ، فإنها كانت تتمكن احيانا من الهروب منها . وعندما هبط موكب كبير من اللطامين من مدن لومبارديا على روما أمر البابا باعتقال قائده وحرقه ، ودخل موكب من بضع مئات من حرفيي لومبارديا بقيادة أحد حواريي فيرر من المدينة نفسها بقصد شن الحرب ضد المسيح الدجال ، ولابد أن هذا ايضا كان اكثر اقلاقا للادارة البابوية ، وكانت تجربة خزينة تلك التي ادت بعالم اللاهوت البارز والحصيف ، كارلبير دي

جيرسون لأن يوجه من مجمع كونستانس في ١٤١٧ نداء بالغ الأهمية إلى فيرر للتوقف عن تشجيع الميول الشديدة الخطر على الكنيسة .

ولكن كانت جموع اللطامين المهرطقين ماتزال غفيرة في وحول تورنجيا أكثر من أي مكان .وكان هؤلاء الناس أيضا مقتنعين بأنهم يعيشون في الأيام الأخيرة ، وكانوا بتعابير الأخرويات الشعبية يفسرون حياة وموت كونراد شمد ، لقد تحدث سفر الرؤيا عن « شاهدين » كان عليهما أن يعظا ضد المسيح الدجال ويقتلان على يديه ثم يبعثان بمعجزة ، وقد عرفت الأخرويات الشعبية هذين الشاهدين بأنهما اليجا واينوخ ، وهما شخصيتان في العهد القديم رفعا إلى السماء دون أن يمرا بمرحلة موت الجسد ، ولقد رأى اللطامون أن شمد ومساعده قريبه الذي مات معه سيتجسدان في اليجا واينوخ في الأيام الأخيرة كشاهدين ، في حين سيكون المسيح الدجال بالطبع كنيسة روما ، غير أن المتعصبين كانوا مقتنعين ايضا بأن شمد سيعود مع ذلك مرة أخرى ليهزم المسيح الدجال ويترأس الحساب الأخير ، وبالضبط لأن (ص ١٤٦) عودة اليجا واينوخ قد حدثت في الماضي فإنهم توقعوا المجيء الثاني في كل لحظة ، ولم يكن هناك إلا قليل من الشك في أن شمد سيكون الامبراطور الأخير إضافة إلى ابن الانسان الذي يتوقع ظهوره ، وفي وقت مبكر من القرن الخامس عشر لاحظ مؤرخ من تورنجيا كيف كانت قوة « الهرطقة السرية » حول فردريك النائم مزدهرة هناك ، وكيف كان الناس البسطاء مقتنعين بشكل مؤكد بأن الامبراطور كان يظهر من وقت لآخر بين الناس ، وكيف كانوا ينتظرون بثقة عودته كإمبراطور للأيام الأخيرة ، وأنه كان من المؤكد أنه ليست مصادفة أنه في المدن المحيطة بجبل كيفوزر استمرت جماعات اللطامين السرية في الوجود

وبالنسبة للبقية كانت تلك الجماعات ماتزال مدركة لارتباطها مع أسلافها ، فلقد حافظ أفرادها على طقوس حركة ١٣٤٩ وكانوا مايزالون يدافعون عن ممارساتهم بالاحتكام إلى الرسالة السماوية ، وقد حافظوا أيضا على مذهب شمد بكل نقائه ونقلوه من

الاهل إلى الاطفال بإخلاص حتى أنه بعد قرن لم يتغير إلا قليلا، وقد شكلوا في الواقع طائفة محكمة التنظيم حيث كان الاطفال حديثي الولادة يعمدون بموجب ضربهم حتى يدمون .

وبشكل تقليدي استهلت الدعاوى ضد المهرطقين ونفذت من قبل الكنسية ، وكان تدخل السلطات المدنية محدود في تنفيذ الاحكام المفروضة ، وانه لأمر له اهميته الى المدى الذي يمكن ادراكه ان الامراء المحليين للمناطق كانوا دائما هم الذين يأخذون المبادرة في ملاحقة اللطامين الثورنجيين ، وفي اضطهاد هؤلاء الناس الذين كانوا في الواقع ثوار اجتماعيين بقدر ماكانوا مهرطقين ، ودور التحقيق كان في احسن الاحوال ثانويا ، وكانت هذه بالفعل هي الحالة عندما اكتشفت في ١٤١٤ ـ ١٤١٦ طائفة كبيرة من اللطامين في مدينة سانغرهورن وبعد محاكمات حاشدة نظمها المحققون والقضاة المدنيون معا احرق القائد واثنين من حوارييه كمهرطقين غير تائبين سادرين في غيهم ، وارتد الباقون واطلق سراحهم ، ولكن عندما ترك المحقق المنطقة كان الامراء في الامارات المجاورة يمسكون بكل لطام يمكنهم العثور عليه واحرق نحو من ثمانين او تسعين لطاما في ١٤١٤ ويبدو ان ثلاثمائة قد اعدموا في يوم واحد في ١٤١٦ ، وبالتأكيد كان هذا تعبيرا عن الخوف المذهل الذي اوحت به هذه الحركة في « العظيم » ، وحتى هذا اخفق في وضع نهاية الحركة .

بعد جيل في ١٤٤٦ ، اكتشف نحو عشرة من اللطامين في نورد هوزن ، وهي المدينة التي يحتمل ان شمد نفسه قد احرق فيها ، وفي هذه الحالة ايضا ، حتى اولئك الذين ارتدوا قد احرقوا ، وهذه هي طريقة من العمل يبدو انها كانت متبناة من قبل السلطات المدنية دون تصديق من الكنيسة ، ويحتمل ان لايكون ذا علاقة ان احد الضحايا كانت مهنته المعروفة هي صناعة النسيج ، وفي ١٤٥٤ جرى ثانية احراق حفنتين من اللطامين من الرجال والنساء (ص ١٤٧) في سندرهوزن : ، و كان في وقت متأخر الى عام

١٤٨٠ ان اخر (الى حد ماهو معروف) اللطـامين السريين قـد حوكم واحرق ، وهنا مرة اخرى بتحريض من الامير المحلي .

واذا لم يسمع بعد ذلك عن هذه الطائفة فـانها مـابرحت تتمتـع ببعض الاهمية من حيث ان المناطق التي كانت اكثر ازدهارا فيهـا ، كانت المناطق التي ستشهد نشاطات توماس مونتزر ، والقرية التي ولد فيها في ١٤٨٨ او ١٤٤٩ « متنبيء الفلاحين هذا » شـهدت ولادة حرب وقعت على بضـعة اميال مـن نورهـوزن ، وكذلك كان مسرح المذبحة حيث سحق جيشه الفلاحي .

الفصل الثامن

نخبة الفاسدين الخارقين للطبيعة(١)

هرطقة الروح الحرة (ص ١٤٨)

بالمقارنة مع القدر الكبير الذي كتب عن الهرطقة التي تعرف بأسماء مختلفة : الكاثارست و البيجنسيان والنيومانشيان نجد أن ادبيات هرطقة الروح الحرة او الحرية الروحية ضئيلة في الواقع ، وهذا ليس مدهشا بمجمله ، إذ بينما تحكمت هرطقة الكاثارست تماما بالحياة الدينية لقسم كبير من جنوب فرنسا لمدة نصف قرن أو اكثر حتى تحطمت قوتها بفعل حملة صليبية غيرت تاريخ فرنسا ، نجد أن قصة اتباع الروح الحرة أقل وضوحا في دراماتيكيتها ، ومع ذلك ففي التاريخ الاجتماعي - تمييزا له عن السياسي الصرف - لغرب أوروبا شغلت هرطقة الروح الحرة دورا اكثر اهمية من الكاثارية ، والمنطقة التي امتدت فوقها كانت بمعايير القرون الوسطى واسعة ، ففي القرن الرابع عشر عندما أراد رجل في مورافيا الانضمام الى واحدة من طوائفها اقتيد عبر أوروبا حتى قدم الى واحدة في كولون ، في حين أن الاعضاء من النساء كن يتخذن طريقهن من كولون إلى طائفة في أعماق سيليزيا على بعد ٤٠٠ ميلا ، وبعد قرن مارست فرقة من الاتباع من بيكاردي نفوذا ملموسا على ثورة التابوريت في بوهيميا ، وكان لهذه الحركة قدرة استثنائية على البقاء ، لأنه مع تعرضها للمضايقة باستمرار و للاضطهاد بقيت كتقليد معروف يمكن تمييزه لنحو خمسة قرون .

إن هرطقة الروح الحرة بناء عليه تتطلب مكانا في اي عملية مسح للاخرويات الثورية ، وهذا مايزال صحيحا مع أن رجالاتها لم يكونوا ثوارا اجتماعيين ولم تجد اتباعها بين الجماهير المتمردة من

فقراء المدن ، فلقد كانوا في الحقيقة عرفانيين (غنطو سيين) ركزوا جهودهم على خلاصهم الفردي ، ولكن درجة العرفان التي بلغـوها كانت فوضوية صوفية ظاهريا ، مجرد تاكيد لحرية طـائشة مفـرطة حتى أنها تعـادل الانكار الكلي لكل نوع مـن الكبـح او التحـديد ، ويمـــكن اعتبـــار هؤلاء الناس أســـــلافا بعيدين لبــــاكونين Bakunin ونيتشــــة Nietzsehe ، و بـالاحرى لأهــل الفــكر البوهيميين الذين كانوا خلال نصف القرن الاخير يعيشون في افكار سلف أن عبر عنهـا بـاكونيـن (ص ١٤٩) ونيتشــه في لحـظات ضلالهما ، ولكن الفرديين المتطرفين من هـذا النوع كان يمـكن ان يتحولوا بسهولة الى ثائرين اجتماعيين ـ وفعـالين في ذلك ـ فـاذا قامت حالة ثورية محتملة ، فان انسان نيتشة الخارق للطبيعة مهمـا كانت صورته بدائية فوضوية قد استحوذت بـالتاكيد على خيال كثير من « البوهيميين المسلحين » الذين صنعوا الثورة الاشتراكية ـ الوطنية ، وكان كثير من انصـار الامس القـريب للثـورة العـالمية مدينون لباكونين اكثر من ماركس ، وفي العصور الوسطى المتـاخرة كان اتباع الروح الحرة هم الذين حفظوا كجزء من عقيدتهـم حـول الانعتاق الكلي ، المذهــب الاجتمــاعي الثــوري الشــامل الوحيد في الوجود ، ومن أوساطهم خرج النظريون ليلهمـوا اعظـم التجـارب طموحا في الثورة الاجتماعية الشاملة ، التي شهدتها أوروبا العصور الوسطى على الاطلاق .

وقد اعتبرت هرطقة الروح الحرة زمنا طويلا واحدة من الظواهر الاكثر غموضا وتعقيدا في تاريخ العصور الوسـطى وقـد نوقشـت طبيعتها كثيرا من قبل المؤرخين ، وكثيرا ما اقتـرح أن مثـل هـذه الحركات لم توجد على الاطلاق خـارج اللاهـوت الجـدلي للكهنة ، الذين كان همهم الوحيد تشويه سمعة وتكذيب كل مغامرة للمعارضة او الانشقاق ، ولكن هذه الشكوك يمكن أن توجد فقط لانه لم تتم أية محاولة للاستفادة من المصادر المتاحة ، وليست المصادر المعادية ـ تقاريرالاستجواب ، والانذارات والادانات التي نطق بها البـابوات

والاساقفة ، والرسائل الجدلية لعلماء اللاهوت ، ومـا كشـف عنه الاتباع المتحزرون من الوهم – في الحقية هي المصادر(كمـا كان يعتقد كثيرا) الوحيدة الموجودة ، وكما لاحظ الكهنة تكرارا برعب ، إن اتباع الروح الحرة قد افرزوا ادبا مذهبيا وافرا خاصابهم ، ومع ان هذه الاعمال قد تم الاستيلاء عليها وتدميرها من قبل المحققين ، هنالك مواد ثلاثة متوفرة للدراسة ، وكانت اثنتان منهـم متـوفرتين لسنوات عديدة : رسالة تـدعى سـكويستر كاتـري (الاخـت كاترين) ، كتبت في القرن الرابع عشر بـاللهجة الالمانية للطبقـة الالمانية العالية والمتوسطة ، وحفظت بنسبتها – بشـكل خـاطيء تماما – الى الصـوفي الدومينيكاني مـايستر ايكهـارت وقـائمة عن « موضوعات العقيدة » باللاتينية اكتشـفت في صـومعة ناسـك قرب الراين في القرن الخامس عشر ، وهي بالتاكيد اقـدم مـن ذلك بكثير والموضوع الثالث هو نص صوفي طويل يدعى (مـرآة الارواح البسيطة) نسب من قبل الى صوفي اصولي غامض ، وتم الان تحديد هوية هذا النص الان من قبل الاستاذة رومانا غوارمذييري على أنه من اعمال خبيرة مشهورة بالروح الحرة ، هي مرغريت بوريت ، وقد احرقت مرغريت كمهرطقة في ١٣٠٠ وقد تحول كتابها ليصبح وثيقة رئيسة في تاريخ الروح الحرة واضطهادها .

وربما هناك نصوص اخرى مثلها ماتزال في انتظار الكشف . وفي الوقت نفسه إن ما هو متوفر بالفعل يمضي بعيدا ليظهر ان الروايات التي اعطاها الكاثوليك عن هرطقة الروح الحرة كانت (ص ١٥٠) صحيحة فعلا ، ويمكن أن تردف بادلة اخرى ، من فقرة تالية ، ففي خلال الحرب الاهلية الانكليزية وبعدها وجهت اتهامات ضد اعضـاء طائفة معينة معروفين عند خصومهم باسم الصخابين ، كانت تكرارا للاتهامات التي وجهت في قرون سالفة الى خبـراء الروح الحـرة ، ومثل كتابات مهرطقي القرون الوسطى ، فان كتـابات الصـخابين حكم عليها بالاحراق ، ولكن نسخا قليلة نجـت ، ويمكن مقارنة هذه الاعمال بالاتهامات وحتى تاريخ اعادة طبع عينات منهـا في الطبعـة الاولى عن الدراسة الراهنة كانت هذه المادة قد اهملت عمليا من قبل

مــؤرخي الروح الحــرة ، وذلك على الرغم مــن علاقتهــا الكبيرة ، والعينات المعطاة في ملحق هذا الكتاب تغطي كامل مجال ديانة الروح الحرة من اكثر جوانبها روحانية الى اكثرها جفافا ، وهــي تثبــت بشكل حاسم انه في القرن السابع عشر كانت توجد بــالفعل حــركة قريبة الشبه بتلك التي ظهرت في مصادر القرون الوسطى بصورة أقل اكتمالا ، وفي اطارها العام .

ويمكن تاريخيا اعتبار هرطقة الروح الحرة صورة محــرفة مــن الصوفية التي ازدهرت بقوة في النصرانية الغربية من القرن الحادي عشر وما بعده ، وقد انبثقت الهرطقة الصوفية والارثــوذكسية على السواء من الحاجة الماسة الى الفهم المباشر والصلة الحميمــة مــع الرب ، وكلاهما على السواء اكد القيمة الحــدسية وبشــكل خــاص لانجارب الوجدانية ، وكلاهما على الســواء قــد اثير الى حــد كبير باعادة اكتشاف الفلسفة الافلاطونية المحدثة التي اخذوا منها القسم الاكبر من جهازهم المفاهيمي ، وهنا مع ذلك ينتهي التشابه ، ولقــد عاش الصوفيون الكاثوليك تجاربهم ضــمن تقــاليد وثقــت وخلدت بكنيسة مؤسساتية كبيرة،وعندما ــ كما حدث كثيرا ــ انتقدوا هــذه الكنيسة كان هدفهم تجديدها ، وكان اتباع الروح الحرة من جــانب آخرغير موضوعيين بشدة ، ولايعترفون بسلطة على الاطلاق ســوى خبرتهم الخاصة ، وفي نظرهم كانت الكنيسة في احسن الاحوال عقبة للخلاص ، وفي اسوأ الاحوال عدوا طاغيا ــ وعلى اي حال مؤسسة بالية يجب استبدالها الان بطائفتهم ، التي نظر اليهــا كوعاء للروح الحرة .

وكمن قلب هرطقة الروح الحرة في موقف كل واحد مــن الاتبــاع تجاه نفسه ، وقد اعتقد كل منهم انه بلغ درجــة مــن الكمــال المطلق لدرجة انه لم يعد قادرا على اقتراف الاثم ، ومع ان النتــائج العملية لهذا الاعتقاد يمكن ان تختلف ، فان احــدى النتــائج الممــكنة كانت « الانتينوميانيزم »

او انكار المعايير الاخلاقية ، وكان الرجل الكامل يمكنه دائمــا ان

يصل الى محصله انه كان مسموحا له ، حتى وإن لم يكن الزاميا بالنسبة له ، ان يفعل كل ما كان عادة يعتبر ممنوعا ، وفي المدنية المسيحية التي كانت تعطي قيمة معينة للعفة ، وتعتبر الاتصال الجنسي خارج اطار الزواج عملا (ص ١٥١) اثما بشكل خاص ، ومثل هذا الانكار للمعايير كان عادة يأخذ على الاكثر صورة الاتصال غير الشرعي من حيث المبدا ، وكانت الاتهامات بهذا الاتصال غير الشرعي بالطبع كثيرا ما تصدر من طائفة دينية ضد اخرى ، ولقد كانت تقنية دينية اصيلة للهجوم في الكنيسة القديمة ، كما كانت في كنيسة العصور الوسطى ، ولكن عندما وجهت ضد اتباع الروح الحرة اتخذت هذه الاتهامات مظهر مختلفا ، وما ظهر عندئذ هو صورة مقنعة تماما من الشبق كانت بعيدة عن الانطلاق من العشق والانغماس في الشهوات بلا هموم تملك فوق كل شيء ، قيمة رمزية كعلاقة على الانعتاق الروحي ، وهي بالمصادفة القيمة التي كثيرا ماتملكها « الحب الحر » في ازماننا .

وفي منطقة امتداد النصرانية الغربية ، من غير الممكن تمييز هرطقة الروح الحرة بأي تأكيد قبل بداية القرن الثالث عشر ، ومن جانب اخر فان الديانات المشابهة قد ازدهرت قبل ذلك الوقت في كل من منطقة امتداد النصرانية الشرقية واسبانيا المسلمة ، وتقريبا منذ بداياتها ، كان على الكنيسة الارمنية ان تتغلب على الطائفة الصوفية المعروفة باسم اليوخيت او الميساليين التي ازدهرت في المنطقة حول الرها في وقت مبكر يعود الى القرن الرابع ، وكان اليوخيت « رجالا مقدسين » عائمين يعيشون من التسول ، وقد طوروا شعورا ذاتيا بالقدرة والاهمية يعادل تأليه الذات ، وذكرانا القيم كثيرا ما عبر عن نفسه في الشبق الفوضوي .

ونحو نهاية القرن الثاني عشر شهدت مدن اسبانية مختلفة وبشكل خاص اشبيلية نشاطات اخوة صوفية اسلامية ، وكان هؤلاء الناس يعرفون بالصوفية وكانوا « متسولين مقدسين » يهيمون في مجموعات من الشوارع والساحات في اسمال مرقعة متعددة الالوان

وكان المبتدئون بينهم يدربون على اذلال النفس وانكارها : وعليهم ان يلبسوا الاسمال ، وان يبقوا عيونهم مثبتة على الارض ، وان ياكلوا المواد الغذائية المقززة للنفس ، وان يدينوا بالطاعة العمياء لرئيس الجماعة ، ولكن ما ان ينتقلوا من حداثتهم كان هؤلاء الصوفيون يدخلون عالما من الحرية التامة ، ينكرون حفظ ــ الكتب والدقة الدينية ، لقد كانوا يتمتعون بالمعرفة المباشرة للرب ــ وفي الواقع انهم شعروا بانهم متحدين مع الجوهر الالهي في اتحاد حميم للغاية ، وهذا بدوره حررهم من كل القيود ، وكل نبضة كانت امرا الهيا ، والان يمكنهم ان يحيطوا انفسهم بممتلكات دنيوية ، ويمكنهم ان يعيشوا في ترف ــ والان ايضا يمكنهم ان يكذبوا وان يسرقوا او يزنوا دون وخز ضمير ، فطالما اندمجت الروح من الداخل بالرب ، فان الاعمال الظاهرية لم يكن لها اعتبار .

ومن المحتمل أن الصوفية و قد تطورت من القرن التاسع ومابعده ، كانت هي نفسها مدينة بالكثير لبعض الطوائف الصوفية المسيحية في الشرق ، وبدورها يبدو (ص ١٥٢) أنها قد ساعدت على نمو صوفية الروح الحرة في اوروبا المسيحية ، وبالتأكيد إن كل سمة من السمات التي تميزت بها صوفية القرن الثاني عشر في إسبانيا ــ حتى في كثير من التفاصيل مثل الملابس المرقعة متعددة الألوان ــ ستتم ملاحظتها كأنماط لما تبناه اتباع الروح الحرة بعد قرن أو إثنين من الزمان .

وعلى أي حال في نحو ١٢٠٠ بدأت ديانة الروح الحرة في الظهور بمثابة هرطقة متميزة تماما في المسيحية الغربية .

العموريون

في وقت مبكر في القرن الثالث عشر كان مذهب الروح الحرة قد توسع إلى نظام ديني وفلسفي شامل ، وكان هذا عمل مجموعة بالغة الاهمية ، تضم رجالا دربوا في أعظم مدرسة للديانة الأرثوذكسية في

النصرانية الغربية ، أي جامعة باريس ، وقد أعطيت الرواية الكاملة من قبل المؤرخ الالماني ، راعي دير هيسستربابخ الذي كتب يقول : « في مدينة باريس ينبوع كل المعرفة وبئر الكتابات الالهية ، طبع الشيطان بالتحريض في الذهن فهما خاطئا لدى كثير من العلماء والمثقفين » ولقد كانت عدتهم أربعة عشر شخصا كلهم من الكهنة ، وقسس الأبرشيات والقصور والشمامسة والقندلفتية من باريس وضواحيها ومن مدن مثل بواتيه ، ولوريس قرب أورليانس وترويس» رجال ذوي معرفة كبيرة وإدراك » ، هكذا يكاهم المؤرخ نفسه ، وبالجملة يبدو الوصف مسوغا : إن تسعة من الأربعة عشر درسوا اللاهوت في باريس ، ويقال إن إثنين كانا في العقد السابع من العمر ، وكان قائدهم رجل اسمه وليم ، وهو أيضا كاهن مختص باللاهوت وكان يعرف بالاور يفكس مما أدى إلى اعتباره صائغا ولكن ربما كان هذا يعني أنه كان كيميائيا فلسفيا ، ذلك أنه غالبا مارمز بالذهب إلى القوى السحرية الكامنة في النفس التي طمح مثل هذا الكيماوي إلى إيقاظها .

وجزئيا بسبب حماقة وليم ، أو التجسس المنظم بواسطة اسقف باريس ، اكتشف المهرطقون وطردوا . وباستجوابهم في مجمع عقد برئاسة رئيس اساقفة سنز، ارتد ثلاثة وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ولكن البقية صرحوا علنا بمعتقداتهم الهرطقية واحرقوا طبقا لذلك ، وحتى في لحظة الموت لم يظهروا أي علامة على الندم .

ويمكن لتعليق المؤرخ أن يستحضر في الذهن جو تلك اللحظة : « وهم يقادون للعقاب قامت عاصفة غاضبة حتى لم يشك أحد في أن الهواء قد أثير من قبل الكائنات التي اغوت أولئك الرجال ، الذين أصبحوا الآن على وشك الموت ، بسبب ذنبهم العظيم ، وفي تلك الليلة طرق الرجل الذي كان رئيسا لهم باب إمرأة معتزلة . واعترف بذنبه في (ص ١٥٣) وقت متأخر جدا وأعلن أنه كان الآن ضيفا هاما في الجحيم ومحكوم عليه بالنار الأبدية » وكان المعلم الفلسفي لهؤلاء المتعصبين عموري أوف بين محاضرا لامعا في المنطق واللاهوت في

جامعة باريس ، وقد تمتع هذا الرجل في وقت واحد بهيبة عظيمة وبرعاية البلاط الملكي ، وكان بين أصدقائه عدد من الشخصيات البارزة بينهم زوجة الابن البكر للملك وكانوا متاثرين بأفكاره ، ولكن في النهاية وقد شجب أخيرا لتعليمه مذهبا خاطئا ، أدين من قبل البابا واجبر على الارتداد العلني ، وقد حطمت هذه التجربة روح عموري ، فلزم فراشه وبعد فترة قصيرة ــ في ١٢٠٦ أو ١٢٠٧ ــ توفي ، وعندما اكتشفت هذه الطائفة المهرطقة بعد ذلك بعامين او ثلاثة أعلن الاكليروس على الفور مسؤولية عموري واطلقوا على المهرطقين اسم « المريكان أو العموريين » . وقبل إعدامهم بالفعل عممت رسالة مضادة للعموريين ، وبعد بضع سنوات ، في ١٢١٥ كان الكاردينال روبرت أوف لورسون القاصد الرسولي ، الذي كان مخولا بصياغة القوانين للجامعة دقيقا في منع كل دراسة « لملخص مذهب عموري المهرطق » . وفي مجمع اللاتيران للسنة نفسها اصدر انوسنت الثالث حكمه في مرسوم قال فيه : «إننا نشجب وندين العقيدة المنحرفة لعموري العاق ، الذي كان قد أعمى عقله ابو الكذب حتى أن مذهبه لايعتبر هرطقة بقدر ماهو جنون » وفي الوقت نفسه الذي أحرق فيه أفراد الطائفة نبشت عظام عموري ونقلت إلى أرض غير مقدسة .

وكل ماهو معروف بشكل مؤكد عن مذهب عموري انه كان من الصوفية المؤمنين بوحدة الوجود ، التي تدين بالكثير لتقاليد الافلاطونية المحدثة وبشكل خاص للشرح الافضل للافلاطونية المحدثة الذي تم في أوروبا الغربية بعنوان « اقسام الطبيعة » لجوهان سكوتس إريجينا . وهذا الكتاب الذي كان عمره ثلاثة قرون ونصف القرن لم تسلف إدانته بالهرطقة من قبل ، ولكن الفائدة التي استمدها عموري منه أدت إلى إدانته من قبل مجمع سنز في ١٢٢٥ ، وحامت الشكوك أيضا حول الملخصات العربية والحواشي على أرسطو التي كانت قد بدأت لتوها تظهر مترجمة إلى اللاتينية في باريس،وأدان المجمع الذي أدان العموريين ايضا هذه الاعمال وأبدى كورسون تحفظات ضد دراستها في قوانين الجامعة

في ١٢١٥ ، وإنها حقيقة غريبة أنه لدى أول ظهور للعملاق الفكري في أوروبا الذي كان عليه أن يضع إطار الفلسفة الأصولية للعصور الوسطى قد حظر للشك في إلهامه لعموري أوف بين ، ولكن هناك القليل في أي من هذه التأملات الميتافيزيقية الغيبية مما يفسر المذهب المتفجر الذي اكتشف في ١٢٠٩ .

وسيكون دائما موضع شك مدى مسؤولية عموري الحقيقية عن مذهب العموريين . (ص ١٥٤) لقد كان عموري فيلسوفا محترفا ، وكانت للعموريين اهتمامات مختلفة تماما في كل تعليمهم الجامعي ، فلقد كانوا متنبئين غير مهتمين بالأفكار المجردة بل بالاشتغال بالانفعالات المضطربة في دنيا العامة ، وكان حقيقيا بالنسبة لهم كما بالنسبة للمتنبئين الآخرين أنهم فرضوا أنفسهم كرجال مقدسين موهوبين بالقوى المعجزة ، وعلق واحد من خصومهم عليهم بقوله : « خارجيا في الوجه والقول ، تبدو عليهم سيماء» ، وكان لهذا السبب بالتأكيد أن تعاليمهم كانت مقبولة بلهفة ، وعلاوة على ذلك كانوا مثل معظم الوعاظ « الرسوليين» قد عملوا في المراكز التجارية الكبيرة ، وكان معقلهم الرئيس على مايبدو ترويس في شامبين وكانت في حينه المدينة الأكثر أهمية على الطريق من فلاندرز إلى ليون ، وفي ترويس اعتقل فارس بدا أنه كان من أتباع العموريين وأحرق في ١٢٢٠ ، وترددت في ليون أصداء الهرطقة في وقت متأخر يعود إلى ١٢٢٥ . ووجد الجاسوس الذي تغلغل في الطائفة نفسه هائما مع عدد من المبشرين في أنحاء مقاطعة شامبين ، وكانت شامبين مثلها مثل فلاندرز أرضا فرض فيها سلسلة من الحكام الأقوياء السلام وبذلك تمكن السكان من النمو ومن تطوير التجارة والصناعة ، ووجدت هناك صناعة أقمشة مزدهرة ، كما وإن هناك ملتقى للطرق التجارية من البحر المتوسط إلى ألمانيا ومن فلاندرز إلى وسط وشرق أوروبا ، ومع القرن الثالث عشر كانت المعارض الكبيرة في شامبين قد أصبحت مراكز كبرى للتجارة ، وفي تلك المنطقة المتمدينة الكثيفة السكان كان المبشرون ينتقلون من اجتماع سري إلى أخر ، حيث كانوا يغيبون في حاله من

الوجد ويرون الرؤى ، وكانوا يعظون بنصوص من الكتب المقدسة ويفسرونها تفسيرا هرطقيا ، وهكذا كما اخبرنا كانوا يغوون أعدادا غفيرة من الناس الأبرياء . بل حتى لقد انتجت الطائفة أدبا خاصا بها يصلح لاستعمال العامة ، وقد أدان مجمع باريس ، إلى جانب التأويلات الباطنية الأرسطوطالية كثيرا من الأعمال الدينية الشعبية الصرفة التي كانت كلها باللغة العامية .

وقد حافظ العموريون على مبدأ معلمهم في وحدة الوجود ولكنهم اعطوه محتوى عاطفيا قويا ووجد المجمع أنهم كانوا يتحدثون بلغة أن الله والطبيعة شيء واحد وأن الكون المادي والانسان ليسا إلا مظاهر للذات الالهية ، وصرحوا في إحدى المناسبات بعقيدة أنهم يرون « الاشياء واحد لان كل ماهو كائن هو الله » ولكن ما هو اكثر إثارة للدهشة هو النتيجة التي استخرجها احد الثلاثة من زعماء الفتنة من هذا الافتراض : « لقد تجرأ على التأكيد على أنه إلى الحد الذي كان فيه لايمكن أن تلتهمه النار ولا أن يعذب ، لأنه عند الحد الذي كان فيه ، كان هو الرب » . ويمكن للمرء أن يلمس الأفلاطونية المحدثة

ولكن مثل هذه القوة بالتأكيد ، في رجل يحاكم طلبا لحياته ، لاتستمد من مجرد تأمل في وحدة الوجود • ومصدرها في الواقع كامن في مكان آخر ، لقد كمن في صوفية الروح الحرة ، وعندما ادعى العموريون أن كل واحد منهم كان مسيحا وروحا مقدسة ، عنوا كل ما عناه تانشيلم وكانوا قانعين أن ما تعتبره الديانة المسيحية معجزة فريدة للتجسد قد تكررت الآن في كل واحد منهم •

و كانوا في الواقع يعتقدون أن التجسيد كما حدث في المسيح قد تم تجاوزه ، لأن هؤلاء المتنبئين ـ الفرنسيين ـ قد توصلوا إلى تفسير للتاريخ ذي شبه مدهش بتفسير يواكيم اوف فيور ، و مع ذلك فقد استمدوا نتائج مختلفة جدا منه حيث أنهم في ذلك التاريخ ، المبكر كانوا بالكاد قد عرفوا الكثير حول المذهب الدفين في مخطوطات دير الكالابري،و مثلهم مثل يواكيم رأى العموريون التاريخ مقسما

الى ثلاثة عصور ، تتوافق مع الشخصيات الثلاثة للثالوث المقدس ، و لكن خلافا له ، اعتقـدوا أن كل عصر له تجسـيده الموائم ، و منذ بداية العالم حتى مولد المسيح تصرف الأب وحده ، و قـد تجسـد في ابراهيم ، و ربما في الانبياء الآخرين للعهد القديم ايضـا ، والعصر منذ ميلاد المسيح كان عصر الابن ،ولكن الآن كان بـدء عصر الروح القدس ، الذي سوف يستمر حتى نهاية العالم ، وقدر لهـذا العصر ان يتميز بآخر واكبر التجسيدات ، لقد كان دور الروح كي يستخدم الجسد وكان العموريون أول الرجال الذين فعل بهـم ذلك ، او أول «الروحانيين» ، كما دعوا أنفسهم.

و لم يتوقع العموريون أن يبقوا الأربـاب الأحياء الوحيدين على وجه الأرض ، بل بالأحرى أنهم سـيقودون الجنس البشري كله الى الكمال ، و من خلالهم ستكلم الروح القدس العالم ، ولكن كنتيجـة لنطقها سيصبح التجسد اكثر عمومية ، حتى يصبح شاملا في وقـت قريب ، وتحت ارشاد «الروحـانيين » كانت الدنيا تـدخل عصرهـا السامي ، وفيه يصبح كل رجل ويعرف في نفسه انه اله وقد تنبـا انه «خلال خمس سنوات» ، سيكون كل الرجال روحانيين حتـى ان كلا منهم سيكون قادرا على أن يقول :« انا الروح القدس» ، وقبـل ان «يكون ابراهيم انا» ، تماما كما استطاع المسيح أن يقـول«انا ابـن الله» و «قبل ابراهيم انا» و مع ذلك ان هذا لم يعـن انه في الايمـان العموري بالأخرويات لم تعد المملكة محفوظة لصفوة القـديسين ، و كانت افكار اولئك المفكرين الغامضين منصـبة في تعـاليم التخيلات المسائحية التي كانت شائعة بين الجماهير ، و قد تنبأ وليم الصايغ أنه خلال هذه السنوات الانتقالية الخمسـة نفسـها سـيمر العـالم بسلسلة من الكوارث – «المحن المسائحية» – التي سـيهلك فيهـا غالبية الجنس البشري ، حيث يقتل بعضهم في الحروب والمجاعات ، ويبتلع آخرون في هاوية الأرض ، وتلتهم بعضهـم النار النازلة مـن الأعلى ، مما يوضح بدرجة كافية«ان بقية صالحة » كان يتـوقع ان تنجـو لتتـذوق مبـاهج الالوهية ، علاوة على ذلك لم يعـد عصر (ص ١٥٦) الروح لدى العموريين كما كان بين اليواكيميين الالمان

يطرد التخيلات الأقدم المتركزة في الامبراطور الاخير ليحل محلهـا ، إن سنوات الاضطراب الخمسة قدر لها أن تبلغ أوجها في هـزيمة المسيح الدجال وجنوده ، الذين لم يكونوا سـوى البـابا و كنيسـة روما ، وبعد ذلك ستكون كل الممالك تحت هيمنة ملك فرنسا ، و كان في البداية الملك الحاكم فيليب أوغسطس ، و لكن فيما بعـد صـديق عموري وراعيه ابن الملك البكر ، الذي لن يموت أبدا ، بـل سـيحكم العالم إلى الأبد في عصر الروح . و« سيعطى ملك الفـرنسيين اثني عشر رغيفا ، بمعنى (يمكن للمـرء أن يفتـرض) أن لويس الثـامن سيكون مسيحـا ثانيا ، و سيكون مثله مثل تانشيلم تماما ، واستاذ هنغاريا ، سيتراس مجلسا سريا أو مجمعا مقدسا مـن اثني عشر صيغ على نمط الحواريين الاثني عشر.

و كان يعتقـد أن العمـوريين – و ربمـا كان ذلك صـحيحا – صوفية متناقضين. ورأى راعي دير القـديس فيكتـور
قرب باريس – الدير الذي كان في ذلك الوقت يتـزعم كل النصرانية الغربية في النظرية و التطبيق الصوفي – ضرورة لتحذير رهبانه مـن تلك النتـائج الخـطيرة لتلك الصـوفية المنحـرفة » لئلا تتلوث تلك المدينة ، منبع المعرفة بهذا الوباء » . وصاح «هناك بـدع تجـديفية دنسة » يأتي بها اناس هم من حواريي أبيقور بدلا مـن المسـيح ، وبالخداع الخطر يكدون سرا ليقنعوا الناس ان المذنبين لن يعـاقبوا قائلين ان الخطيئة لاشيء، حتى أن أي إنسان لن يعاقب عليها مـن قبل الرب ، واذا كانوا ظاهريا في الوجه والكلام يبدون ورعين فـان جـدارة هـذا الورع تنكر داخليا ، في عقـولهم وفي خـطـطهم السرية ، ولكن الجنون الفائق والزيف البالغ الوقاحة هـو ان هؤلاء الرجال لايخشون ولايخجلون من القول بأنهم الرب ، اي حمق بـلا حدود ، أي جراة بغيضة أن زانيا ، عشيقا ذكرا ، يوقع الكآبـة في النفس بالعار وسوء السمعة ، وعاء للخطيئة ، يدعى ربـا » وهنا كما حدث كثيرا افراط في تقدير الذات يعبر عن نفسـه فـوق كل شي بالفسق الشامل : « لقد ارتكبوا الاغتصاب والزنا والاعمال الأخرى التـي تمنح السرور للجسـد ، ووعدوا النسـاء اللواتي أثمن

معهن ، والبسطاء الذين خدعوهم بأن الخطيئة لن تعاقب » ، لقـد كان هذا اعتراضا سيلفظ مـرات ومـرات وبسـبب جيد ، خـلال القرون التالية .

علم اجتماع الروح الحرة

إنه صحيح بالنسبة لكل حـركات الهـرطقة الكبيرة مـن أواخـر العصور الوسطى أنه يمكن فهمهـا فقـط في اطـار ديانة الفقـر الطوعي ، عندما ظهرت مـن القـرن الثـاني عشر ومـابعده (ص.١٥٧) ثروة لم يسمع عنها من قبل في غرب أوروبا ، واستمتع معظم الذين اسـتطاعوا ، بـالفرص الجـديدة للتـرف والتباهي ، ولكن كان هناك دائما بعضـا مـن راوا في المبـاهج الجديدة إغراءات كثيرة للشيطان وشعروا بأنهم مـدفوعون لشجب كل الصفات الملكية ، والسلطة والمزايا والنزول الى الجماهير التي خربها الفقر ، وطالما أن التضاد بين الغنى والفقر كان مـذهلا الى حد بعيد في المدن أكثر منه في الضياع ، فقـد كان في المدن ان احـرز العوز أهميته الخاصة

وكان التلهف على التخلي الطـوعي غير محصـور في أي طبقـة واحدة ، فقد كان يمكن الشعور به أحيانا في طبقة التجـار ، التـي كانت بين كل الطبقات تسـتأثر بـأكبر المنافـع المادية في الظـروف الجديدة و جاء أكثر المتحولين شهرة الى الفقر الطـوعي · بـطرس فالدو مؤسس طائفة الهرطقة المعروفة باسم الفـالدونيين والقـديس فرانسيس كلاهما من تلك الطبقـة ، وكانت ادنى طبقـات الكهنوت المدني التي كانت تلقى المدد والتعزيز من الطبقة الأدنى من المجتمـع كانت ايضا قلقة مشـوشة ، وكان كثير مـن الكهنة يحتجـون على الأبهة والديونة التي يغرق فيهـا الأسـاقفة والمطـارنة الكبـار ويهجرون ابرشياتهم لاتباع حياة فقر كلي ، وشعر العـديد مـن رجال الدين والكتاب في الرهبانيات الدنيا ــ والمفـكرين وهـم كثيرا ماكانوا من ذوي التعليم الكبير ــ بدافع مماثل ، وليس هناك مـن

شك انه طالما ان الفلاحين والحرفيين يمكنهم الانضمام الى حملة صليبية او موكب لطامين ، وبذلك يستطيعون احيانا استبدال فقرهم الطبيعي ، الذي كان لامفر منه بعوز ارادي اكثر تطرفا ، وعليه كانوا يشعرون بانهم اهل للمكافاة ، وفي الأوصاف المعاصرة للفقراء الطوعيين هناك اشارات كثيرة للنساجين ، واذا كان كثير من هؤلاء في القرن الثاني عشر من الزاهدين الذين في طلبهم للفقر أصبحوا عمالا في الصناعة الوحيدة التي كانت متطورة بدرجة كافية لاستخدام العمالة المؤقتة فانه من القرن الثالث عشر ومابعده انضم اليهم بالتأكيد حرفيون حقيقيون .

وقد شكل الفقراء الطوعيون طليعة اجتماعية وسياسية قلقة غير ثابتة ، وكان أعضاؤها يتنقلون باستمرار على طرق التجارة من مدينة لأخرى ويعملون على الأغلب في الخفاء ويجدون من يستمع اليهم ، واتباعا بين كل العناصر القلقة المشوشة في مجتمعات المدن ، وقد راوا في انفسهم فقط الأشباه الحقيقين للرسل ، وفي الحقيقة للمسيح ، وسموا طريقتهم في الحياة « بالرسولية » وصعودا الى منتصف القرن الثاني عشر كان لهذا السبب اكثر منه بسبب اي مذاهب دينية غريبة انهم كانوا احيانا يدانون بالهرطقة ، ولكن منذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ومابعده أظهرت تلك الحشود من الطوافين « المتسولين المقدسين » من كلا الجنسين استعدادها لتمثل اي ، لابل ، كل مذهب للهرطقة كان موجودا ، واذا كان الكثيرون قد أصبحوا كاثاريين او فالدونيين (ص١٥٨) او يواكميين كان هناك ايضا من اصبح من اتباع وناشري هرطقة الروح الحرة ، وحدث بالفعل حوالي ١٢٣٠ في مقاطعة تانشيلم القديمة - انتويرب - ان كان هناك شخص اسمه وليم كورنيس يبين مدى سهولة الجمع بين السمات الخارقة للطبيعة التي كانت سمة مميزة جدا لتلك الهرطقة وديانة الفقر ، اراديا او ليس اراديا تماما ، وبالنسبة لهذا الرجل الذي تخلى هو نفسه عن مرتبة كنسية ذات دخل من اجل اتباع الحياة « الرسولية » اعلن انه في الوقت الذي كان فيه الرهبان

ملعونين تماما لعدم التزامهم بالفقر التام ، كان الفقــر الذي يتبــع بشكل كامل يمحو كل الخطايا ، وتبع ذلك انه الفقير كان يمكنه مثلا ان يزني دون ان يكون اثما ، وبالفعل يقال ان كورنيلس نفســه كان « مستسلما تماما للشــبق » وبعــد عشرين ســنة واكثــر كانت السلطات الاكليروسية مازالت تحاول استئصال مثل هذه الأفكار من بين ســكان انتــويرب ، وفي حينه كان الناس يتمســكون بــأن كل الأغنياء فاسدون بسبب البخــل ، وكانوا ملعــونين بشــكل مــؤكد حتى أن امتلاك غيار مــن الملبس كان يشــكل عقبــة في طـــريق الخلاف ، وأن يدعو رجــلا غنيا للعشــاء كان ذنبــا عظيمــا ، لأن الصواب ان تأخذ من الغني من أجل ان تعطي الفقير ، ولكن الفقراء من جانب اخر كانوا بالضرورة في حالة من النعمة لايمكن للانغماس الجسدي بأي طريقة ان يفسدها .

وفي وقت مبكر من القرن الثالث عشر ظهــرت مــراتب الرهبــان المتســولين الكبيرة ، ، الفــرنسســكان ، والدومنيكان وبـــدات بمساعدة من الكنيسة تفعل الكثير مما كان المهراطقين الرســوليون يفعلونه لمعارضة الكنيسة ، وقــد انضــمت نخبــة الى تلك المراتــب كوعاظ متجولين وكانوا يطبقون الفقر وكل نوع من انواع انكار الذات ، وكسبوا إخلاص جماهير المدنيين وفي الوقت نفسه انضمت اعداد كبيرة من أهــل المدن الى الفــرنســكان ومــرتبة الدومنيكان الثالثة ، وبينما كانوا يعيشون في المجتمع كعامة الناس فانهم كانوا ينافسون الأخوة الرهبان النظاميين في زهدهم ، وبــاقرار مــراتب الرهبان المتسولين كانت الكنيسة لفترة من الزمن قادرة على التحكم والاستفادة من الطاقات الانفعالية الي كانت تهــدد امنهــا ، ولكن بالفعل بحلول منتصف القرن أصبحت هذه الطــريقة مــن التصريف اقل فعالية حيث فقدت المراتب كثيرا من حماسها الأولى ، واصـــبح زهدها اقل صلابة ، وضاعت هيبتها بالتالي ،ووجــدت الكنيســة نفسها مرة أخرى في مواجهة مجمــوعات مســتقلة مــن الفقـــراء الاختياريين ، وانفصــلت المجمــوعات ذات الزهــد المفــرط على اختــلافها في أوروبــا عن الجســم الرئيسي للفـــرنســكان

والفراتيسللي ، ومن جانب أخر شهد شـمال أوروبـا احياءا كبيرا للروح الحرة (ص١٥٩)

وبدات هرطقة الروح الحرة بعدكبح دام نحو نصف قرن ، تنتشر بسرعة مرة اخرى نحو نهاية القرن الثالث عشر ، ومن حينه ومابعد حتى انتهاء العصور الوسطى انتشرت بوساطة الرجال الذين كانوا عادة يعرفون بالبيغرد الذين كونوا نظائر غير رسمية من العامة لمراتب الرهبان المتسولين ، ولقد كانوا هم ايضا من الرهبان المتسولين ــ يحتمل في الواقع انه من اسمهم تم اشتقاق الكلمتان الانكليزيتان : beg , يشحذ و begger , شحاذ ــ وكانوا يترددون على المدن ويطوفون في الشوارع في مجموعات صاخبة يصرخون طلبا للصدقات ويصيحون صيحتهم المتوسلة المميزة : الخبز من اجل الله » ! وكانوا يلبسون حللا تشبه بالأحرى حلل الأخوة الرهبان مع انها مصممة خصيصا لتختلف عن تلك في بعض التفاصيل ، وكان الثوب احمر احيانا واحيانا مشقوقا من الخاصرة الى الأسفل ، ولتأكيد مهنة الفقر كانت قلنسوة الرأس صغيرة ومغطاة بالرقع ، وكان البيغرد مجموعات رهبانية أخوية صعبة التحديد وغير مستقرة تجول في العالم ، كما قيل لنا ، مثل الرهبان المشردين وعند أقل اضطراب او ازعاج يفرون ، منقسمين الى جماعات صغيرة ، تهاجر من جبل لجبل مثل بعض العصافير الغريبة ، وكان هؤلاء « الشحاذون القديسون » الذين عينوا انفسهم مليئين بالازدراء للرهبان والأخوة الذين يعيشون حياة سهلة رخية ، ومغرمين بمقاطعة الخدمات الكنسية ، ولاصبر لهم على التنظيمات الاكليروسية ، وكانوا يعظون كثيرا دون تخويل ، لكن بنجاح شعبي كبير ، ولم يلتزموا بأي مذهب هرطقي معين في العادة ، ولكن مع بداية القرن الرابع عشر ادركت السلطات الاكليروسية ان بينهم عدد من المبشرين بالروح الحرة .

وبشكل سطحي بدا المهرقطون من البيغرد او (كما اصبحوا

يسمون في القرن الرابع عشر) أخوة الروح الحرة انهم ليسوا أقـل زهدا من المهرطقين « الرسوليين » للأجيال القديمة ، واستوطن بعضهم قرب المدن وعاشوا كنساك ، على العطايا التي كان يجلبهـا لهم المعجبون ، وفي حالة واحدة على الأقل في كولون شـغلت طـائفة من البيغرد المهرطقون « بيتـا للفقـر الطـوعي » وعاشـت على الصدقات التي امكنهم جمعها من الشوارع ، وكثيرا مـاكان مثـل هؤلاء الناس يتبعون الحياة الهائمة نفسها بلا ممتلكات ولابيوت مثل البيغرد الآخـرين ، ولم يكن لبعضـهم اي مقـر ثـابت بالمرة ، ولايحملون شيئا ويرفضون الدخـول الى أي بيت ويصرون على البقاء في الطريق ياكلون اي طعام يقدم لهم ، و – مرة أخـرى مثل بقية « الفقراء الطوعيين » – كانوا يشملون أناسا ينحـدرون من اسلاف اجتماعية متنوعة جدا ، واذا سـمعنا عن اخـوة للروح الحرة ممن كانوا حرفيين ، فاذنا نسمع عن اخرين ممن جاءوا مـن عائلات مزدهرة راسخة الأصول – ومن اخرى ايضا – كمـا في كل الحركات المسائحية – جاءت من الطبقات الأقل ثراء من أهل الفـكر الذين كانوا يشكلون الطليعة السـياسية والاجتمـاعية : رهبـان سالفون وكهنة وكتاب من مراتب صغيرة ، ولكن الكل على السـواء يبدو انهم كانوا مثقفين وواضحين : ومرات ومرات نجـد ان الكهنة الذين كان عليهم محاربة هؤلاء الناس فزعين من الدماثة والبلاغة في تعليمهم ، ومن (ص١٦٠) المهـارة التـي كانوا يعـالجون بهـا المفاهيم الدينية العويصة والمبهمة .

ومثل اي متنبىء اخر كان الواحد مـن أتبـاع الروح الحـرة يدين بصعوده لسمعته في الزهد ، التي تعتبر كضمانة تقوي صنع الأعمال الخارقة ، وجزئيا لمؤهلاته الشخصية من البلاغة والوقفة والقـدرة على الاحتمال ، ولكن الاتباع الذين كان يبحث عنهم كانوا مختلفين عن اتباع المتنبـئين الآخـرين ، انه لم يكن يروق لمن لااصـل لهـم والمشوشين الفقراء بل للناس الذين لديهم اسبابا اخرى أقـل دفعـا للشعور بالضياع والاحبـاط : للنسـاء ولاسـيما غير المتـزوجات والأرامل في الطبقات العليا من المجتمع المدني ، وبسـبب الحـروب

المستمرة الى حد ما ، والنزعات ، وجزئيا بسبب البتولة في هذا القطاع الكبير جدا من السكان الذكور الذين شكلوا الاكليروس النظامي والمدني ، كان عدد النساء دائما يفوق كثيرا اعداد الازواج المحتملين ، وفي طبقات الفلاحين والحرفيين كانت العوانس والأرامل يمتهن الصناعة والزراعة ، وفي الأرستقراطية منها كان يمكنهن دائما ان يصبحن راهبات ، وبالنسبة للنساء المولودات في عائلات أغنياء التجار ، من جانب آخر ، لم يقدم مجتمع العصور الوسطى دورا معروفا سوى الزواج ، وليس مدهشا ان العوانس والارامل اللواتي لاحاجة لهن للعمل وحتى بدون واجبات منزلية يؤدينها ، ولايشغلن رتبة محددة ولايتمتعن بأي تقدير اجتماعي ـ كثيرا ماكن يتشوقن بالقوة نفسها كسائر الجماهير من الفقراء الى مخلص ما ، الى رجل مقدس بمساعدته يمكنهن بلوغ تفوق بالكمال نفسه الذي عليه ضعفتهم ، وفي كل الازمات شغلت نساء كهؤلاء دورا كبيرا في حركة هرطقة الروح الحرة وعن العموريين علمنا بالفعل انهن عملن كمرشدات روحيات غير مخولات « في بيوت الأرامل » ، وعندما قبض عليهن جرى ايضا احضار عدد كبير من التابعات من الاناث الذين « افسدوهن وخدعوهن » الى باريس لاستجوابهن ، وفي اجيال تالية وحتى نهاية العصور الوسطى

كانت الحركة مدينة بالكثير للنساء المعروفات باسم البيغوين ـ نساء المدن ـ وكثيرا ماكن من اسر ثرية ، كرسن انفسهن لحياة دينية بينما كن يتابعن الحياة في الدنيا ، وخلال القرن الثالث عشر ، اصبح البيغوبين عديدات جدا في المنطقة التي تعرف الآن ببلجيكا ، وفي شمال فرنسا ، وفي وادي الراين ـ وكان في كولون الفين من البيغوبين ـ وفي بافاريا وسط المانيا في مدن مثل مغدبرغ ، وكعلامة على حالتهن تبنى هؤلاء النساء لباسا دينيا عبارة عن رداء ذا قلنسوة من الصوف الرمادي او الاسود وحجابا

ولكن لم تكن هناك طريقة واحدة شائعة بالنسبة لهن جميعا ، وعاش بعضهن حياة ـ باستثناء بعض التوجيهات الدينية العامة اختلفت قليلا عن حياة النساء الأخريات ، لقد كن يعشن مع عائلاتهن (ص ١٦١)او يستمتعن بدخل خاص ، او يدعمن

انفسهن بالعمل ، وكانت أخريات يعشن حياة غير مرتبطة كراهبات متسولات جوالات : نظيرات حقيقيات من الاناث للبيغرد ، ومعظم البيغوبين على أي حال كن يشكلن انفسهن في جماعات دينية غير رسمية ، ويعشن معا في بيت او مجموعة من البيوت ، وبالنسبة للكنيسة كانت هذه الحركة النسائية واسعة الانتشار تمثل المشكلة نفسها ، مثل اختها الحركة « الرسولية » بين الرجال وبالفعل في النصف الثاني من القرن الثالث عشر جذبت البغويات المتسولات اللائي يستجدين اما لانفسهن او نيابة عن جماعة ما ، شك السلطات الكهنوتية ، والى جانب نظرائهن البيغرد تمت ادانتهن من قبل مجلس ابرشية ميتز في ١٢٥٩ ، وقد تكررت الادانة في ١٣١٠ ، وقد حرمت هذه المجالس « الشحاذين المقدسين »، الذين كانوا يميزون انفسهم بالسلوك واللباس عن المسيحيين الآخرين ، وأمرت بطردهم اذا رفضوا اصلاح طريقتهم من كل الأبرشيات ، وفي الوقت نفسه بدات أصولية البيغويين تصبح مسالة موضع بحث من جديد ، وفي وادي الراين كان الرهبان ممنوعين من الكلام مع أي بيغويين الا في كنيسة او في حضور شهود وبالنسبة للراهب كان دخول بيت البيغويين يستلزم العقاب بالحرمان ، وتضمنت التقارير حول الاساءات في الكنيسة التي تقدمت للاعداد من اجل المجمع المسكوني في ليون في ١٢٧٤ ، شكاوى عديدة ضد البيغويين ، وروى أحد الفرنسسكان من تورناي أن البيغويات مع أنهن كن غير مدربات في اللاهوت كن مبتهجات بالافكار الجديدة المفرطة الصقل فلقد ترجمن الكتب المقدسة إلى الفرنسية ونشرن خفاياها ، وحاضرن فيها بلا وقار في اجتماعاتهن وفي الطرقات ، وكانت الأناجيل العامية المليئة بالاخطاء والهرطقات متوفرة للعموم في باريس ، وشكا أسقف الماني شرقي من أن اولئك النسوة كن كسولات منهمكات في نشر الشائعات وشريرات يرفضن إطاعة الرجال بذريعة أن الرب يخدم بشكل افضل مع الحرية .

ولم يكن لدى البيغويين مقاصد هرطقية عملية ثابتة ، ولكن كانت لديهن رغبة عميقة لاكثر صور الخبرات الصوفية تزمتا ، وكان

يشارك في هذه الرغبة بالطبع كثير من الراهبات ، فقط لأن صوفية البيغويين كان فيها إغراءات كانت الراهبات عادة ممنوعات منها ، وكان ينقص البيغويين تنظيم المراتب النظامية ، وفي الوقت نفسه لم يحظين بإشراف مناسب من الاكليروس المدني ، الذي كان تعاطفه قليلا مع هذا التدين العصري الجريء ، وإنه حق أن أخوة الرهبنة كانت أفضل قدرة على توجيه الطاقات الانفعالية لدى تلك النسوة ، ولهذا خدمت الكنيسة ولم تهددها ، وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت كل جماعات البيغويين تقريبا منتسبة إلى الفرنسسكان والمراتب الثالثة من الدومينيكان . (ص ١٦٢) ولكن أخوة الرهبنة لم تنجح أبدا في السيطرة على الحركة كلها ، وبدقة نجد بين أكثر البيغويين زهدا بعضا ممن قبلن كموجهين روحيين لأنفسهم ليس واحدا من أخوة الرهبانية بل من أخوة الروح الحرة .

وبحلول ١٣٢٠ دفع الاضطهاد بحركة الروح الحرة إلى السرية ، وبعد ذلك بدا أن البيغرد المهرطقين قد أصبحوا أقل تسولا وأنهم قد اعتمدوا بالأحرى على فهم تآمري كانوا قادرين على تطويره باتفاق مع بعض طوائف البيغويين .

وعندما كان مبشر من الروح الحرة يدنو من مثل هذه الجماعات كان يؤخذ على الفور ويقدم له المأوى والطعام ، وتحت قسم المحافظة على السرية أرسلت الأخبار إلى جماعات ميالة للتعاطف إن « ملاك الكلمة الالهية » قد وصل وإنه ينتظر في مخبئه ، وتدفقت جماعات البيغويين من كل صوب للاستماع إلى الرجل المقدس

وكان البيغرد يعظ بمذهبه الصوفي ، المغلف بعبارات معقدة ، وكما قال أحد المؤرخين : « بكلمات لطيفة بشكل لايصدق وبروحانية سامية وغيبية بقدر ما يمكن للسان الألماني أن يتدبرها » ، ولهذا نجد البغويين يعلن وهن منتشيات أنه « رجل له شبه كبير بالرب والفة عظيمة معه » . وكان بهذه الوسيلة وفي هذا الوسط أن حفظ المذهب وتطور وأصبحت الفية الروح الحرة امبراطورية خفية ، تمسك بها معا روابط عاطفية ـ التي بالطبع كثيرا ماكانت روابط جنسية ـ بين الرجال والنساء .

الفصل التاسع

نخبة الفاسدين الخارقين للطبيعة (٢)

انتشار الحركة :

منذ زمن العموريين ووليم كورنيلس (ص ١٦٣) من الممكن تتبع انتشار هرطقة الروح الحرة عبر مناطق واسعة من اوروبا .
ويبدو أن اتباع الروح الحرة كانوا نشيطين على طول الراين الاعلى حوالي ١٢١٥ وأن بعضهم قد أحرق في ستراسبورغ ، وفي ١٢٤٠ التقى الاستاذ البحاثة الشهير البرتس ماغنوس مع بعض الاتباع في كولون ، وهناك دلائل على أنهم كانوا ناشطين في أسقفية ترير ، وفي ١٣٠٧ عقد مجمع إقليمي في كولون ، من قبل رئيس الأساقفة لهذا السبب ، وحاول تطهير المدينة من الرهبان المتسولين من البيغرد والبيغويين الذين كانوا ينشرون مذهب الروح الحرة .

و لم تكن هذه الجهود ناجحة ، و كان ما يزال لدى فرنسيسكان كولون سبب لاعتبار هؤلاء المهرطقين منافسين خطرين ، وفي تلك الأثناء كانت الروح الحرة تنتشر بشكل أعمق في الأراضي الالمانية ، ونحو ١٢٧٠ كان اثنان من ذوي الرداء الأحمر يتابعان الدعوة السرية في المنطقة المحيطة بنورد نجن في فافريا ، التي لم تكن في ذلك الوقت ناحية نائية ولكنها وقعت على طريق برنر وعلى الطريق من فرنسا إلى الشرق ، وامكن كشف بعض من الداخلين في هذه الطائفة من الذكور والاناث واستجوابهم ، والمواد الهرطقية التي صرحوا بها قدمت الى البرتس ماغنوس لفحصها فحص خبير وتنفيذها . ولكن الهرطقة وجدت موطنا جديدا ، وكان لها أن تزدهر زمنا طويلا في المدن البافارية .

وفي مطلع القرن الرابع عشر وجـدت أيضـا مـوطنا في شـمال فرنسا ، وكانت عالمة بيغوينية من هينوت Hainaut تـدعى مـرغريت بوريت تنشرها في أسقفيات كامبراي ، وشالون وباريس .

وكتبت بحثـا في الصـوفية الدينية بـاسم « مـراة الأرواح البسيطة » وقد أعيد اكتشافه الآن من قبل الأستاذ غاريثيري وكان الكتاب قد أدين في ذلك الوقت من قبل أسقف كامبراي ، وأحرق علنا في فلانسيين ، ولكن مرغريت أنتجت نسخة أخرى ، على الرغم مـن تحذيرات عديدة ، وأصرت على إظهارها « للبيغرد والشعب البسيط الآخر » ، وقد عاشت حياة هائمة مفلسـة ، يصحبها واحـد مـن البيغرد الذي اعتقد أنه مرسم من السماء « كملاك حارس » للفقراء الطـوعيين ، وفي النهـاية سـقط الاثنان في أيدي (ص ١٦٤) المحققين في باريس ، وخلال ثمانية عشر شهرا من السجن رفضـت مرغريت بإصرار أن تشـتري المغفـرة بـالارتداد ، وفي ١٣٠٠ أدين كتابها من قبل لجنة من اللاهوتين ، وتم حرمانها وحـكم عليهـا بالموت بالحرق ، ويبدو انه كان لهذه المرأة اتباع كثيرون ، اذ انه بعد بضع شهور من موتها كان كليمنت الخامس يامر بمتابعة التحقيق في لانغرس بقوة ضد المهرطقين الذين كانوا يتـكاثرون هناك بسرعة ، حتى انهم قد أصبحوا خطرا كبيرا على العقيدة ، وقد أدخل كتـابها حتى إلى إنكلترا من قبل أحدهم مع أثاث فيليبا مـن هينوت عندمـا وصلت كعروس لادوارد الثالث ، وذلك في سـنة ١٣٢٧ ، وفي هـذا برهان جديد على التأثير الذي مـارسته الروح الحـرة في الطبقـات العليا من المجتمع .

وفي الوقت الذي أعدمت فيه مرغريت كانت الروح الحـرة تسـبب قلقا خطيرا للكنيسة ، ففـي المجمـع المسـكوني بـرئاسة كليمنت الخامس في فينا على الرون في ١٢١١ ـ ١٢ جـرى فحص طـويل ودقيق « لأخطاء البيغرد » ، وكان أحد المصادر الرئيسة كمـا ندرك الآن ، كتاب مرغريت « مـراة الأرواح البسـيطة » وتـم في عرض الحيثيات تحليل مذهب الروح الحرة وأدين ، وقـد أعطيت تعليمـات

للأساقفة والمحققين بمراقبة حياة ومناقشات البيغــرد والبيغــويين وأن تتخذ الاجراءات ضد كل واحد ممن يتبين انه يعتنق افــكار غير أصولية ، وقد أردفت هذه التعليمات بمرسوم بابوي آخر اســتهدف ضمان أن كل البيغويين سيعيشون في المستقبل في مجتمعــات تحــت رقابة اكليروسية مناسبة ، وكان هذا على أي حال مــرسوما بــالغ التشويش ، وكان من احد اثاره بدء اضطهاد جمــاعات البيغــويين الأصوليين المسالمين ، ولم يمض وقت طويل حتى كان البابا نفســه يحاول جاهدا دون طائل ، حماية النساء الفاضلات الكثيرات في مدن الراين اللواتي اجبرن على المعاناة للتخلي عن اخوة الروح الحرة ، وقدر للتشويش والاضطهاد أن يستمر لأكثر من قرن .

وبالطبع اضطهد أيضا البيغرد والبيغويين الذين كانوا حقا اخوة للروح الحرة . وفي ١٣١٧ شكل اسقف ستراسبورغ ، وقــد تســلم شكاوى عديدة حــول الهــرطقة ، في أســقفيته لجنة تحقيق ، وكان بسرعة قادرا على إرسال رســالة رعوية لاكليروســه مبنية على مــا تكشف عنه التحقيق كان مما جاء فيها إن : « اخوة وأخوات الروح الحرة الصغار ـــ وكان الشائع تسميتهم بيغرد وسويسترون ، أو خبز في سبيل الله ـــ ممنوعون تحت طائلة:
الحرمان من ارتداء ، حللهم الغريبة ، والناس ممنوعون ايضا تحت طائلة الحرمان ، من التصدق على احد يرتدي مثــل هــذه الملابس . واعلن عن مصادرة البيوت التي تجري فيها اجتمــاعات الهــرطقة ، لصالح الفقــراء ، ويجــب تســليم ادبيات الهــرطقة (ص ١٦٥) والتخلي عن صيحة الاســتجداء « الخبــز في ســبيل الله » وعمــل الاسقف كل ما يمكن لضمان تنفيذ هذه التعليمات ، وقام بــزيارات تفقدية لاسقفيته ، وبــاكتشا فه علامــات دالة على الهــرطقة في كل مكان ، نظم اول تحقيق اسقفي منظــم على التــراب الالماني ، وقــد اضطهد هذا التحقيق المهرطقين دون رحمة ، وهرب بعض البيغــرد الى الاسقفيات المجاورة ، ولكن حتى هناك كان اسقف ستراسبرغ

يلاحقهم ، وكتب الى زملائه الاساقفة في مقر اسقفية مينز يحــذرهم

من الخطر الذي يهدد اسقفياتهم وحثهم على الاقتداء به وحذو حذوه ، ومع ذلك لم يكن الرجل متعصبا اعمى ، اذ انه كتب ايضا الى البابا لصالح هؤلاء البيغوويين الذين كانوا يضطهدون بشكل ظالم وغير شرعي .

وجرى الهجوم التالي على اخوة الروح الحرة في مقاطعتهم التقليدية ، كولون ، ودعا الاسقف عدوهم القديم - وهو الاسقف نفسه الذي دعا الى المجمع الاقليمي في ١٣٠٧ ـ مجمعا اخر في ١٣٢٢ للتعامل مع الدعوة المستمرة ، وكانت الحركة في ذلك الوقت قد اصبحت سرية ، ووجد المهرطقون في كولون قائدا مرموقا في شخص وولتر ، الذي جاء من هولندا ، والذي كان بالفعل ناشطا كمبشر في مينز ، وكان هذا الرجل واعظا عظيم البلاغة والقدرة على الاقناع ، ووضع رسائل مختلفة بالالمانية تم تداولها سرا بين اتباعه ، وضبط اخيرا ، وبرفضه تحت أسوأ انواع التعذيب خيانة جماعته او الارتداد تم احراقه ، وطبقا لاحد المصادر كان وولتر كاهنا مرتدا ، ورئيسا لمجموعة سرية كبيرة اعتقلت بحيلة في ١٣٢٥ او ١٣٢٧ . ويقال إنه نحوا من خمسين من اخوة الروح الحرة قد اعدموا في تلك المناسبة ، بعضهم بالحرق وبعضهم الاخر بالاغراق في الراين .

وعلى الرغم من كل الاضطهاد استمرت الروح الحرة في كولون وعلى طول الراين ، وفي ١٣٣٥ اكتشف ان طائفة من البيغرد المهرطقين كانت تعيش في بيت من بيوت الفقر الاختيارى في كولون منذ نحو ثلاثين سنة او اكثر ، وفي ١٣٣٠ قبض على ثلاثة من البيغرد المهرطقين في كونستانس بعد حياة امضوها في تلقين النساء المعارف التقليدية للروح الحرة ، وفي سنة ١٣٥٣ كان البابا أنوسنت السادس متيقظا جدا ، ضد خطر تجدد نشاط البيغرد المهرطقين ، حتى انه عين اول محقق بابوي في المانيا وأمر السلطات المدنية بمساعدة ذلك الرجل وان يضعوا سجونهم تحت تصرفه ، وفي ١٣٥٦ اعتقل احد الاتباع وكان قد جاء من بافاريا

الى وادي الراين لتلقين مبـادىء الروح الحـــرة ، واحـــــرق في سبيير ، وبعد عام كان رئيس اساقفة كولون يشكو مرة أخرى مـــن أن المهرطقين كانوا كثيرين جدا حتى انهم افسدوا كل قـطيعه ، وفي العقد الأخير من القرن ، نجح منشق طائفي هام هو نيكولاس مـن بازل في كسب اتباع تقريبا على كامل طول الراين مـــن كونستـانس الى كولون (ص ١٦٦) ، واحـــرق اتبـــاع له في هيدلبـــــرغ وكولون ، وهو نفسه بعد أن أحبط مـرار جهـود المحققين لادانتـه قبض عليه في فيينا واحـــــرق ، ولكن الروح الحــــــرة بقيت في الراين ، واحرق أحـد الاتبـاع في ميتز في ١٤٥٨ ، وفي السـنوات الاخيرة من القرن كان الكاتب والشاعر الهجاءسباستيان برانت من ستراسبورغ ما يزال يكتب عن الهرطقة كظاهرة مالوفة .

وفي بافاريا ايضا كان للهرطقة التي ظهرت أولا في ١٢٧٠ تاريخ طويل ، ففي حوالي ١٣٣٠ ، يبدو أنها قـد رحلت عبـر بـا فـاريا ووصلت الى حدود مملكة بوهيميا ودوقية النمسا ، ومـع منتصـف القرن كان مبشرو الروح الحرة نشطين جدا بين جماعات البيغويين البافاريين ، وفي ١٣٤٢ اكتشفت جمعية سرية للبيغرد المهرطقين في اسقفية وورزبرغ وفي ١٣٧٧ كان ما يزال هناك سبب للشكوى مـن تفشي المعتقدات المتصلة بالروح الحرة ، وبعد ذلك بـأربعة سـنوات قبض على أحد أخوة الروح الحرة وحـوكم في اسـقفية ايخسـتات Eichstatt المجاورة ، وفي نحو ١٤٠٠ قدم محقق تقـريرا عن وجـود بعض أخوة الروح الحرة ، كانوا يعيشون في مجتمع فقر طوعي في شام قرب ريجنسبرغ ، وعلى مدى القرن الخـامس عشر يبدو أن الروح الحرة كانت باقية في بافاريا ، وفي منتصف القرن كان مجمع في وورزبـرغ يكرر الحـظر القـديم على البيغـرد الواعظين المتجولين ، وكان اسقف ايخستات يعلن حرمان البيغرد المـهرطقين الذين كانوا يتسولون في الطرقات عبر البلاد ، وما برح مثـل هـذا الحظر يتكرر حتى نهاية القرن.

والمراحل التي تسـللت بهـا الروح الحـــرة الى الشرق عبـــر

الامبراطورية مجهولة ، ولكن في ١٣٢٢ اكتشفت جماعة من البيغويين على مسافة من الشرق تصل الى شويدنتز في سيليزيا Silesia وكان النسوة يعشن في بيت فقر طوعي كان قريب الشبه ببيت الرجال الذي وجد في كولون بعد ذلك بثلاث سنوات ، ثانيه مثل بيت الرجال ايضا والذي كان قائما منذ نحو ثلاثين عاما بالفعل ، و كان بيت شويدنتز واحدا فقط من بيوت عديدة كانت تشكل تنظيما سريا ، وعن طريق البيغرد المهرطقين الذين مروا بهذه النواحي حافظت الحركة على اتصالها مع مجموعات مماثلة تصل خارج الوطن حتى برسلاو ، وبراغ ولايبزغ ، وايرفورت ومينز ، وفي وسط المانيا أصبحت المنطقة بين ايرفورت وماغدبرغ مركزا هاما للروح الحرة ، وكانت البغونيات معروفات هناك تقريبا في الوقت المبكر نفسه ، كما كن في اي مكان ، وحدث في سنة ١٣٢٥ أن دخل في الطائفة ماتيلدا من ماغدبرغ ، التي غدت أعظم البغونيين شهرة ، وكان البغرد الهائمون قد شدوا بالفعل انتباه مجلس ماغدبرغ من ١٢٦١ وفي الكتاب حول تجربتها الصوفية الخاصة ، الذي كتبته ماتيلدا بين ١٢٦٥ و ١٢٧٧ تفوهت بتحذيرات ضد اخوة الروح الحرة ، ولكن التقارير قليلة ، وأقدم أثر واضح للروح الحرة في وسط المانيا يعود فقط الى ١٣٣٥ ، وعندما اعتقل كاتب كان متأثرا بمذهب الروح الحرة ، وبرفضه حجة الجنون أحرق في أيرفورت ، وفي السنة التالية جرى اعتقال ثلاث من البغونيين بسبب« الروح المتعالية » في ماغدبرغ ، لكنهن ارتددن وأطلق سراحهن وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، كانت اخوة الروح الحرة وسط المانيا وثيقة الارتباط بطائفة اللطامين التي أسسها كونراد شمد ، وعززت الطائفتان كل منهما الاخرى بفعالية حتى أن المنطقة اصبحت تعتبر من قبل السلطات أخطر معقل للهرطقة في الاراضي الالمانية . ونحو ١٣٧٠ ، عندما حصلت هدنة في النزاع الدائم بين البابا والامبراطور عين وولتر كيرلنجر ، قسيس القصر وصديق الامبراطور شارل الرابع من قبل أوربان الخامس محققا لالمانيا ، ومنح سلطات من قبل

الامبراطور ، وكانت جهود هـذا الرجـل مـركزة على وسـط المانيا ، وسارع بعد ذلك فاعتقل مجموعة تالفت من اكثر من اربعين مهرطقا ، نكورا وإناثا في نوردهوزن ويبدو ان كونراد شمد كان بين السبعة الذين احرقهم ، وسرعان ما اصبحت ايرفورت ومـاغدبرغ نظيفتين من المهـرطقين البيغـرد والبيغـويين ، ولكن عندمـا اعلن الامبراطور ان كيرلنجر قد قضى على كل الهرطقة في وسط المانيا كان مفرطا في التفاؤل ، وكما رأينا ، بقيت طائفة سرية مـن اللطـامين هناك مدة قرن أخر ، و يصعب اعتبارها مصادفة انه في وقت متأخر الى عام ١٥٥١ كانت طـائفة تـدعى « أصـدقاء الدم » ابـدت كل المميزات الاساسية للروح الحرة ، قد اكتشفت في اطار ثـلاثين ميلا من ايرفورت .

وفي عام ١٣٧٢ لاحظ خليفة اوربان غريغوري الحادي عشر أن المهرطقين الذين هربوا من وسط المانيا كانوا يتخذون ملاذا لهـم في وادي الراين والبلاد المنخفضة وفي الشمال الاقصى من المانيا ، وقـد حث الامبراطور على ضمان تعاون السلطات المدنية في تلك المناطـق مع المحققين في تعقب أثار الأبقين ، ويبدو أن الروح الحـرة كانت في الواقع قد بلغت شـمال المانيا بنهـاية القـرن الرابـع عشر ، وفي ١٤٠٢ احرق اثنان مـن الحـواريين في مـدينتي الهنسـا Hansa ليبـك Lubeck وويسـمار Wismar وإذا كان لا يعرف شيء أخر عن أخـوة الروح الحرة في مدن البلطيق سواء بسبب أنهـا كانت حقيقـة قليلة او لأن التحقيق ندر أن لاحقهم الى هذا الحد فإنه من المؤكد انها في البـلاد المنخفضة بقيت عديدة ، وفي أواخر القرن الرابع عشر كانت هـولندا تعتبر الى جـانب (ص ١٦٨)بـرابنت Brabant ووادي الراين كمنطقة غرزت فيها الهرطقة جذورا عميقة ، وعندمـا اسس الواعظ جيرهارد غروت الطائفة الدينية غير الرهبانية لأخوة الحياة العادية ـ التي سـيعطيها تـوماس ـ كيمبس البـريق العـظيم والشهرة الكبيرة ـ كان أحد اهدافه ان يؤمن مخرجا ضمن حـدود

الاصولية للاحتياطات التي كانت تلتمس الاشباع في مجتمعات هرطقة الروح الحرة .

وفي برابنت راى الصوفي الشهير روزبروك « المعجب » الكثير من أخوة الروح الحرة ، وكسبت امراة تدعى هليويش بلومارت (شهرت باسم بلوماردين) كانت ابنة تاجر غني ، احتراما ونفوذا في بروكسل كقديسة حية ، ويبدو ان اتباعها امتدوا مابين الدوائر العليا للارستقراطية وعامة الناس ، ويقال انها عندما ماتت في ١٣٣٥ ، قبل كرسي فضي كانت قد اعتادت الجلوس عليه كأثر مقدس من قبل دوقة ، في حين كانت حشود من المقعدين تأتي لتلمس جسدها أملا في معجزة الشفاء ، ولقد كانت بلوماردين تعلم نوعا من المذهب الصوفي،وحتى لو لم يعادل هذا في الأصل اظهارا للروح الحرة اصبح كذلك في ايدي حوارييها بعد موتها ، وقد الهم النضال ضد هؤلاء الناس روزبرو كتاباته الاولى ، بين ١٣٣٥ ، ١٣٤٠
وبينها رائعة « الزواج الروحي » وقد استمر في مهاجمة أخوة الروح الحرة في كتاب بعد الآخر حتى وفاته في ١٣٨١ عن عمر بلغ ٨٨ سنة ، و الروايات حول المهرطقين الصوفيين التي قدمها هذا الصوفي هي بين الأكثر تفصيلا و تغلغلا مما هو لدينا .

وقد استمرت بروكسل في ايواء اخوة الروح الحرة ، وفي ١٤١٠ عين اسقف كامبراي محققين اثنين لمحو ماكان لايزال يدعى « بهرطقة بلوماردين » ولكنهما وجدا نفسيهما بلا حول في وجه الحماس الشعبي ، ولقد كانت الاغاني تنشد خلفهم في الشوارع وحتى انه جرت محاولات ضد حياتيهما ، ومع ذلك كانا قادرين على كشف مجموعة مهرطقة خاصة ، وفي ١٤١١ فحص الاسقف راهبا يدعى وليم اوف هيلدرنيس كان يشك في كونه احد قادتها . وكان رجلا من مولد نبيل كانت له مهنة ناجحة كمحاضر في اللاهوت في وادي الراين والبلاد المنخفضة ، وكان مرتين رئيس دير رهبنة ، ولم تكن درجة اشتراكه في الجريمة واضحة وقد حكم عليه فقط ببضع سنوات من التكفير والسجن الانفرادي ، وكشف

التحقيق عن وجـــــود طـــــائفة سرية تـــــدعو نفســـــها في Homines intelligentiae ومعنى Intelligentia
اصطلاحات العصور الوسطى « الملكات العليا للروح » التي تجعل النشوة الصوفية ممكنة ، وقد اسست الطائفة نتيجة لوحـي تلقـاه شخص مـوثوق هـو ايجيد يوس لويف او سـانفرز (بـالاتينية كانتور) (ص١٦٨) اي قائد جوقة الترتيل ، وكان رجلا من العامة تحدر من عائلة فلمنكية بارزة ، وكان متوفيا بـالفعل في وقـت قيام التحقيق ، وكانت طـائفة « الملكات العليا للروح البشرية » تضـم عددا من النساء ، والشيءالهام ان وليم اضطر الى القيام بـارتداد علني في حي من بروكسل يسكنه البغويين .

ولايمكن فصل انشطة أخوة الروح الحرة في البلاد المنخفضـة عن نشاطاتها في وادي الراين ، فكما راينا جاب البيغرد ذهابا وايابـا عبر المنطقة كلها،وحدث الشي نفسه بين البـلاد المنخفضـة وشـمال فرنسا ، وفي ١٣٦٥ راى البابا اوربان الخامس انه من الضروري التحدث على انشطة البيغرد الفـرنسيين ، وقـد حـذر الأسـاقفة والمحققين من ان هؤلاء الرجـال كانوا مـايزالون تحـت قناع مـن القدسية ينشرون اخطاءهم بين الناس البسطاء ، وقد زود اسـقف باريس بتفاصيل كاملة حـول طـريقتهم في الحياة والأمـاكن التـي وجدوا فيها ، وفي ١٣٧٢ قبض على مهرطقين كانوا ذكورا وإناثـا ممن دعوا انفسهم « مجتمع الفقراء » ولكن ممن يحتمل انهم نبذوا بلقب التورلوبين في باريس . وكانت زعيمتهم ايضا امراة اسـمها جين دابينتون ، وقد احـرقت وكذلك احـرقت جثـة مسـاعدها الذكر ، الذي مات في السـجن وكذلك الكتـابات والملابس الغـريبة لاتباعها ، ولاشي يعرف عن تعـاليم هـذه المجمـوعة ولكن اسـم تورلوبين كان عادة يعطى فقط لاخـوة الروح الحـرة ، وبـالتاكيد كانت الروح الحرة تجتذب الانتباه في شمال فرنسا في نهـاية القـرن الرابع عشر وبـداية القـرن الخـامس عشر ، وكان شـارلييه دي غرسون رئيس جامعة باريس مؤهلا بشـكل جيد لأن يكون قـاضيا لأنه جمع بين الذكاء العظيم والخبرة الواسعة مع تعاطف شـديد

مع الصوفية ، وفي سلسلة كاملة مـن الأعمـال التـي كتبـت بين ١٣٩٥ و ١٤٢٥ تفحص جيرسـون ثـم ادان الصـوفية الزائفـة للتورلوبيين والبيغرد والبيغـوييين الذين اعتنقـوا هـرطقة « روح الحرية » والمعتقدات والعـادات التـي نسـبها الى المهـرطقين الفرنسيين غير قابلة للتمييز عما وجـد لدى نظـرائهم الالمان ، وفي الواقع كان من ليل وتورناي ان حملت فرقة من أربعين متحمسـا في ١٤١٨ عقائد مذهب الروح الحرةمباشرة عبر اوروبـا ، لادخـالها الى بوهيميا التي كانت على شفا الثورة والحرب الأهلية الأمر الذي ستدرس نتائجه في فصل لاحق .

وبعد قرن ، وهي وسـط الهياج الاصـلاحي شـهدت البـلاد المنخفضة وشمال فـرنسا انتشـار مـذهب كان يدعى « الحـرية الروحية » ولكن في كل اساسياتها كانت ماتزال المبدأ القديم نفسـه للروح الحرة ، ومرعبا بالدرجة نفسها بالنسبة للمصلحين كما كانت للخصوم الكاثوليك ، وفي ١٥٢٥ ارسـلت لوي بـرويستنك وكانت شابة متسكعة لاتحسن القراءة والكتابة ولكن (ص١٧٠) وجد لهـا اتباع بين الحرفيين ، والحرفيين المبتدئين مثل مساعدي النساجين وبائعي الجوارب ، ارسلت اثنين الى ويتنبـرغ للالتقـاء بمـارتن روش لوثر ، وكانت هذه هي السنة نفسها التي كانت فيهـا حـرب الفلاحين تهز كل بنيان المجتمع الالماني،وكان لوثر نفسه ثائرا ضـد المتنبيء الالفي للفلاحين ، توماس مونتز وكان لوثر متاثرا بـدرجة كافية ومصدوما من زائريه الى حد انه ارسل رسالة الى الحـزب اللوثري في انتـويرب ، يحـذرهم ضـد النبـي الزائف في أوساطهم ، ولكن اذا كان تحذير لوثر ويقـظة التحقيق الكاثـوليكي معا قداعاقا نمو الحركة ، فانهما لم يتمكنا بشكل دائم مـن منعهـا، وأدى تفجر خطير الطاعون في انتويرب في ١٥٣٠ الى ظهـور كثير من الحواريين الجـدد ، وكان مقـام بـروستنك بين الفقـراء كبير لدرجة انه يقال انهم كانوا (يخرون راكعين عند اقترابه) وكانت الطائفة تضم العديد من حواشي المجتمع الفرنسي لصوص عاهـرات متسولين ، بيد ان تجـارا اغنياء وحتـى جـواهري الملك الفـرنسي

فرانسس الأول كان يمكن العثور عليهم بين الاتباع الذين يسـهمون في التمويل ، وكل هؤلاء الناس ايا كان نوع منزلتهم الاجتماعية كان يتوقع منهم المواخاة واحتضان بعضـهم بعضـا في العلن ، وفي حين قام بروستنك نفسه وكأنه يحاول ان يرمز في آن واحد الى موهبته في الفقر والى ادعائه هيبة عليا ، قام بارتداء أثواب مقطعة الى خسرق ولكنها ايضا مخيطة بالجواهر وانتشرت الطائفية بشكل واسع ليس فقط في انتويرب بل في كل انحاء بـرابنت وفـلاندرز في الوقـت الذي كانت فيه السلطات المدنية في ١٥٤٤ تستعد لسحقها ، وفي النهـاية احرق بروستنك حتى الموت على نار هادئة وقطعت رؤوس خمسة من اتباعه بينما هرب آخرون الى انكلترا .

واذا كان القليل المعروف عن مذهب بروستنك يكاد يؤكد بصعوبة اتهامات التحلل وعدم الالتزام بالشريعة التي وجهـت ضـده وضـد اتباعه ، فان طائفة الكوينتينيين كما يبدو قد ورثت كل الفوضوية في أخوة العصور الوسطى لدى الروح الحرة ، وامتدت رسالة الخياط كوينتين Quintin التي اوجـدها تقـريبا بـالضبط في خلال الفترة نفسها لرسالة بروستنك ، وكان مـواطنا مـن هينوت وسـمع عنه ايضـا للمـرة الأولى في ١٥٢٥ في ليل بعـد ذلك بعقد ، ومع خياط اخر وكاهن مرتد انتقـل الى بـاريس ، وهناك وجد كالفـن Calvin هؤلاء الكوينتينيين او « العتقـاء الروحانيين » كما دعاهم ، يعملون بين اتباع الديانة المسـتصلحة واشتبك في نزاع علني ، وفي ١٥٣٩ شجبهم في النسخة المعدلة من كتابه « مؤسسات الديانة المسيحية » وفي الوقت نفسه قام المصلح الألماني بوسر Bucer وقد التقى بالعتقاء الروحانيين .

وفي سـتراسبوغ واطلع على دعوتهم السرية فـكتب الى الملكة مرغريت أوف نافار التي كانت مهتمة جدا بالصوفية ــ يحذرها ان لاتنخدع بهؤلاء الناس وكان التحـذير في محله ، اذ انه في ١٥٤٣ تدبر كوينتين وثلاثة من رفاقه في الواقع لانفسهم اماكن بين الخـدم المنزليين في حـاشية الملكة حيث قبلوهـم (ص ١٧١) كصـوفية

مسيحيين وبعد ذلك بعامين كان كالفن نفسه يكتب الى مرغريت لينورها حول الطبيعة الحقيقية للملتجئين اليها وكان كوينتين على الاقل على مايبدو قد صرف من البلاط لانه في ١٥٤٧ كان قد عاد الى موطنه وكنتيجة لمحاولة اغواء من السيدات المحترمات في تورناي اكتشف واحرق .

وفي الوقت نفسه كانت الدعوة التي كان كوينتين وحواريوه يقومون بها بوسائل الوعظ السري والنشرات قد حولت العديد في تورناي وفالنسيين الى مذهبه وقد قدر كالفن عددهم بنحو عشرة الاف ، ولمجابهة هذه النشاطات ارسلت الطائفة البروتستنتينية الفرنسية في ستراسبورغ احد كهنتها الى تورناي حيث قبض عليه على اي حال من قبل السلطات الكاثوليكية واحرق ، وماكان اكثر فعالية هو الهجوم الذي استمر كالفن في ممارسته ضد الطائفة وفي ١٥٤٥ اصدر رسالته « ضد الطائفة الخيالية والساخطة للعتقاء التي تسمى نفسها روحانية » .

وفي ١٥٥٠ عندما كتب احد الفرنسيسكان السالفين بعد ان اصبح لاجئا لدى السيدات من ذوات السلطة في روان Rouen : دفاعا عن الطائفة ومعتقداتها ، كتب كل من كالفن ومعاونه فارل Farel ، رسائل جوابية ، واختفت هذه الهرطقة في حينه – او انها على الاقل اصبحت سرية – في تلك المناطق التي كانت لزمان طويل معقلا لها ، وحدث ذلك في الوقت ذاته والتاريخ الذي انهارت فيه نهائيا في المعاقل الكبيرة الأخرى في وسط المانيا .

ولعل ماتم عرضه حتى الآن يكفي لتبيان ان ديانة الروح الحرة قد امتدت فوق منطقة واسعة جدا ، ولكن هذه ليست القصة كلها ، فللأسباب المبينة في المقدمة ، لم يتم تناول جنوب اوروبة الا بالكاد في هذا الكتاب ، ولكن الروح الحرة في الواقع قد ازدهرت في ازمان مختلفة في كل من ايطاليا واسبانيا ، وفي ١٣٠٧ ، في الوقت نفسه الذي كانت فيه مرغريت بوريت نشطة في شمال فرنسا ، كان

رجلا يدعى بيتيفينغا دا غبيو ، يدعو الى معتقد جديد بين الراهبات في امبريا بل انه حتى حاول ان يدخل القديس كلارو مونتفالو في مذهب الروح الحرة ـ او كما كان يسمى في ايطاليا ـ روح الحرية

وفيما بعد في القرن الرابع عشر كانت هنالك اشارات الى ان الهرطقة كانت مزدهرة في امبريا وتوسكانيا وغالبا كما في الشمال ، الى جانب ديانة الفقر الطوعي ، ومع حلول ١٣٤٠ كانت ترجمات ايطالية ولاتينية لكتاب مزغريت بوريت يجرى تداولها في ايطاليا ، وقد حذر القديس برنارد ينو أوف سينيا . Siena

منها في حين انه في بادوا كانت السلطات الاكليروسية تجهد لمنع وقوعها في ايدي الرهبان وفي القرن التالي بينما كان كالفن يقاتل ضد العتقاء الروحانيين في فرنسا ، كانت مذاهب شبيهة جدا تزدهر في اسبانيا ، بين الصوفية المعروفين باسم الأمبرادوز .

(ص ١٧٢) وتتبع هذه التطورات الى مدى ابعد خارج مجال هذا الكتاب ، ومن جانب اخر ان عودة الظهور القصير للروح الحرة في انكلترا كرومل Cromwell يمكن دراسته بالتفصيل في الوثائق الواردة في الملحق .

طريقة تأليه الذات

لم يشكل اتباع الروح الحرة كنيسة واحدة بل عددا من المجموعات ذات الافكار المتماثلة لكل منها ممارساتها الخاصة وطقوسها وجوانب معتقداتها ، و غالبا ماكانت الروابط بين المجموعات المختلفة ضعيفة جدا ، لكن هؤلاء الناس استمروا على صلة مامع بعضهم بعضا وكانت الروح الحرة في كل الأزمان مميزة كديانة ـ ظاهرية ذات جسم مذهبي اساسي واحد يسلم من جيل الى جيل ، وكان في القرن الرابع عشر ان ظهر هذا المذهب بمظهره الكامل ، والملامح التي ابداها في حينه كان لها ان تبقى دون تعديل على مدى تاريخ الحركة .

وكان مصدر الأطار الغيبي هو الافلاطونية المحدثة ، ولكن كل الجهود التي بذلت بدءا من ديونيسيوس الزائف واريجينا ومابعدهما ، لتكييف الافلاطونية المحدثة مع المعتقدات المسيحية قد استبعدت ، بيد ان وحدة الوجود لدى افلوطين كانت بعيدة جدا عن ان تغفل وقد تأكدت ، ولم يتردد اخوة الروح الجديدة في القول :« الرب هو كل ماهو موجود » « الرب في كل حجر وكل طرف»من الجسم البشري بالتاكيد نفسه الذي هو بالنسبة لخبز القربان المقدس «ان كل شي مخلوق هو الهي » وفي الوقت نفسه تبنوا تفسير افلوطين لوحدة الوجود هذه ، لقد كان الرب حقا هو الجوهر الأبدي للأشياء وليس وجودها في وقتها ، كل ماهو ذو وجود منفصل وعابر قد انبثق عن الله ، ولكنه لم يعد هو الله ومن جانب أخر ان كل ماهو موجود ملتزم بالرجوع الى اصله الرباني ويكد ليجد طريق العودة الى هذا الأصل ، وفي نهاية الزمان سيكون الرب حقا هو الكل .

وحتى في هذه الساعة إن إعادة الامتصاص هو مصير الروح البشرية حالما يموت الجسد ، وبموت الجسد تختفي الروح في أصلها الرباني مثل قطرة من الماء اخذت من إبريق ثم سقطت فيه مرة أخرى أو كقطرة من النبيذ في البحر ، ويعادل هذا المذهب بالطبع تأكيد الانعتاق الشامل مع أنه غير شخصي ، وما هو أكثر تماسكا وانسجاما في اخوة الروح الحرة هو المبدأ الذي يعتبر أن الفردوس والجحيم هما مجرد حالات للروح (ص ١٧٣) في هذا العالم وانه ليس هناك اخرة ولاثواب ولاعقاب ، ولكي تتجسد الروح القدس في نفس المرء وتتلقى الوحي الذي يأتي به ، ذلك هو البعث من الموت وامتلاك الفردوس ، والانسان الذي يعرف الله في نفسه يحمل فردوسه الخاص معه ، وعلى المرء فقط أن يعرف الوهيته الخاصة وانه بعث ككائن روحي سماوي مقيم على الأرض ، وجهل المرء بالوهيته الخاصة من جانب اخر ، خطيئة مميتة ، وهو في الواقع الخطيئة الوحيدة ، وهذا هو معنى الجحيم ، وهذا ايضا شيء يحمله المرء معه في هذه الحياة .

واعتقد افلوطين ان الكائنات البشرية يمكنها أن تمر بمثــل هــذه العودة إلى الاقتصاص قبل موت الجسد ، وكان بالإمكان أن تهــرب الروح من قيودها الحسية ومن وعيها بذاتها وأن تغرق لحظة ، بـلا حراك ولاوعي في الواحد ، لقد كان هذا وجــه الافـلاطونية المحـدثة الذي راق لأخوة الروح الحرة ، ومع أن الروح الحرة كانت تقليديـا تعرف « بالهرطقة الوحدوية » ، أبدى العــديد مــن المهــرطقين قلة اهتمام أو عدم فهم للغيبيات الوحدوية . وكان الشيء المشترك بينهم موقفا مــا مــن الروح البشرية . « والروح » كمــا قــالت امرأة : « واسعة حتى أن كل القديسين والملائكة لايمكنهم ملؤها ، وجميلة حتى أن القديسين والملائكة لايمكنهم مقاربتها ، إنها تمــلأ كل شيء » ، ولم تكن الروح بـالنسبة لأخــوة الروح الحــرة مجــرد محكومة بإعادة امتصاصها في الرب عند موت الجسد ، بــل هــي في جوهرها الهية منذ الأزل وهي مابرحت الهية كامنة حتى وهي تسكن جسدا بشريا ، وفي كلمات الرسالة الهرطقية التي وجدت في صــومعة الناسك قرب الراين : « إن الجوهر الالهي هو جوهري ، وجوهري هو الجــوهر الألهــي .... منذ الأزل كان الانســان هــو الرب وفي الرب .... ومنذ الأزل كانت روح الانســان في الله وهــي الله .... الانسان لم يولد وكان منذ الأزل غير قابل للولادة بالمرة ، وبمــا أنه لايولد ، فهو أبدي تماما ، لذا أنه في ضوء هذا يجب أن يفسر المرء التأكيد المتكرر للمهرطقين « إن كل مخلوق عاقــل هــو في طبيعتــه مبارك » .

وفي الممارسة على أي حــال كان أخــوة الروح الحــرة بــدرجة الاقتناع نفسها التي كان عليها أي واحد مــن أعضــاء الطــوائف الأخــرى في أن أعلى المزايا الروحية كانت مخصصــة لأخـــوتهم خــاصة ، ولقــد قســم البشرية إلى مجمـــوعتين : الأغلبية أصحاب « الروح الخــام » ، الذين أخفقــوا في تــطوير إمــكاناتهم الالهية وانفسهم ، ثم « الذين كانوا بارعين بــالروح » ، وادعوا أن هذه الكلية ، والاقتصاص الدائم في الله الذي كان ممــكنا بــالنسبة للفانين الآخرين فقط بعد الموت ، والذي سيصبح ممكنا للعموم فقط

عند نهاية الزمان يمكن بلوغه « بالروح البارعة » بـالفعل ، خـلال فترة حياتهم على الأرض ، (ص ١٧٤) وكان هذا ابعد بكثير ممـا اقترحه أفلوطين مـطلقا ، ولم يكن قلب الهـرطقة في الواقـع فـكرة فلسفية بالمرة بل طموحا ، لقد كان رغبـة عاطفية لدى كائنات بشرية معينة لتجاوز حالة البشرية حتى تصـبح إلهية ، والاكليروس الذين راقبوا المهرطقين لم يكن لديهم شـك في الأمـر في أن هؤلاء الرجـال والنساء ــ كما اشتكوا ــ يضعـون أنفسـهم فـوق القـديسين ، والملائكة ، والعذراء ، وحتى فوق المسيح نفسه ، « وانهـم يقـولون إنهم هم الرب بالطبيعة ، دون أي تمييز » ، وتحدث عنهـم أسـقف ستراسبورغ بقوله : « هم يعتقدون أن كل الكمال الالهـي فيهـم ، حتى انهم أزليون وفي الأبدية » وادعى روزبروك الذي جعل صـوت عدوه الهرطقي يقول بأعلى نبرة ممكنة : بالنسبة لي كمـا بـالنسبة للمسيح وبكل طريقة وبلا استثناء انا مثله انا حياة دائمة وحـكمة ، ولدت من الأب بطبيعتي الالهية ، مثله تماما ، وايضا ولدت في الوقت المناسب ، وبطريقة ولادة الكائنات البشرية ، وعليه فانا وهو واحد ، الرب والانسان وكل ما أعطاه له الرب أعطاه لي أيضا ، وإلى المدى نفسه .... وقد أرسل المسيح إلى الحياة الفعلية ليخـدمني ، وحتـى ليعيش ويموت من اجلي ، في حين أني أرسلت إلى الحياة التـأملية وهي أعلى .... ولو أن المسيح عاش فترة أطول لتولى ممارسة حياة التأمل التي بلغتها . إن كل الفخر الذي أعطي للمسيح قد أعطي حقا لي ولكل أولئك الذين بلغوا هذه الحياة الأسمى .... وعندمـا يرفـع جسمه عند المذبح أثناء تناول القـربان المقـدس ، انا الذي يرفـع ، وعندما يحمل جسده ، انا الذي يحمل ، لأني وإياه جسد واحـد ودم واحد ، شخص واحد لايمكن لأحد تجزئته » .

وقد اعتبرت هذه الروايات مبالغات لاهوتية جدلية ، وهي مع ذلك بالتأكيد هادفة تماما ، وقد سجلت أمثلة من أقـوال المهـرطقين أن العذراء والمسيح قـد تـوقفا دون الكمـال المطلوب مـن « الروح البارعة » واتباع الروح الحـرة هـم انفسـهم تـركوا روايات عن خبراتهم ، وجاءت أولا فترة كان خلالها على المبتدئين أن يمـارسوا

تقنيات مختلفة ، تتراوح بين نكران الذات وتعذيب الذات إلى تعهد الاستسلام المطلق واللامبالاة الموجهة لتشمل الحالة النفسية المرغوبة ، ثم بعد تمرين قد يدوم سنوات يأتي الجزاء ، « وروح الحرية او الروح الحرة » ، كما قال احد الأتباع : « يتم بلوغها عندما يتحول المرء تماما إلى رب وهذا الاتحاد كامل حتى أنه لا العذراء مريم ولا الملائكة قادرين على التمييز بين الانسان والرب ، وفيه يعود المرء إلى حالته الأصلية ، قبل أن ينشق عن الألوهية ، ويستنير المرء بالضوء الاساسي الذي يكون إلى جواره كل ضوء مخلوق ظلاما وتشويشا ، ويمكن أن يكون المرء حسب رغبته ، أبا او ابنا أو روحا (ص ١٧٥) قدسية » ، ولم تكن هذه الادعاءات بأي حال استثنائية بين أخوة الروح الحرة .

واكد واحد من ملازمي بيت الفقر الطوعي في كولون انه كان « يتمتع كليا في الخلود » ، ومتحد مع الله حتى ان الملائكة لايمكنهم التمييز بينه وبين الله ، واصرت إحدى ملازمات بيت شويدنتز انها كانت الرب إلى درجة مثلما كان الرب نفسه ربا وتماما مثل المسيح ، لم تكن قابلة للانفصال عن الرب، وتقول رسالة الناسك مثل هذا الشيء إلى حد كبير : « إن الرجل الكامل هو الرب .... ولأن مثل هذا الرجل هو الرب ، تأخذ الروح القدس كيانها الأساسي منه كما لو كان ذلك من الرب .... إن الرجل الكامل أكثر من رجل مخلوق .... لقد بلغ غاية الاتحاد الوثيق الذي بلغه المسيح مع الأب .... إنه الرب والانسان » ولكن رسالة الهرطقة المعروفة باسم شويستر كاتري هي التي تعطي البيان الأكمل إطلاقا فبعد سلسلة كاملة من النشوة التي « خلقت فيها روحها » ولكنها سقطت مرة أخرى ، مرت الأخت كاترين بإحدى تجارب النشوة التي حررتها تماما من حدود الوجود البشري ، وهاهي تصيح بكاتن الاعتراف – وهو نفسه من الواضح انه أحد أخوة الروح الحرة – : « ابتهج معي ، لقد أصبحت الرب ! » فيجيبها « الحمد للرب ، والآن دعي كل الناس ، وانسحبي مرة أخرى إلى وحدانيتك ، لأنك هكذا ستبقين الرب » وتدخل المرأة في حالة وجد عميق ، تخرج منه بتأكيد : « لقد

خلدت في قدسيتي الأبدية ، لقد جعلني المسيح كفؤا له ولايمكنني أبدا أن افقد تلك الحالة » .

ومثل هذه التجارب تختلف اختلافا كبيرا عن « وحــدة الوجــود الخفية » كما كان معروفا ومقرا من قبــل الكنيســة ، لأن « وحــدة الوجود الخفية » استضاءة أنية ، تمنح فقط من حين لآخر ، وربما مرة واحدة في العمر ، وأي طاقات يطلقها وأي ضــمانات يمنحهــا ، فإن الكائن البشري الذي يمر بهذه التجربة لاينخلع بذلك من حــالته البشرية ، فقد كان عليه كإنسان فان عادي أن يمضي حياته ويعيشها على الارض ، وكان تابع الروح الحرة ، من جانب أخــر قــد شــعر بنفسه بانه قد تحول كلية ، هو لم يكن في مجرد اتحاد مع الرب ، لقد كان مماثلا للرب وسيبقى كذلك إلى الأبد ، وحتى هــذا هــو تقــدير صور الفكرة بأقل مــن الحقيقــة ، لأن التــابع كثيرا مــاادعى أنه يبز الرب ، وادعت النساء في شــويدنتز أن ارواحهــا قــد بلغــت بجهودهن الخاصة كمالا أعظم ممــا كانوا يملكونه عندمــا انبثقــوا للمرة الأولى عن الرب ، وأعظم مما أراد الرب لهم أن يملكوا ، لقــد ادعوا أن لهم إمرة على الثــالوث المقــدس حتــى أنه بإمــكانهم أن « يمتطوه كما يمتطون السرج » ، وقال المهرطقون السوابيون لعــام ١٢٧٠ أنهم قد علوا فوق الرب ببلوغهــم قيمــة عالية جسدا مــــن الالوهية وتحرروامن قيود الرب ، وكثيرا ما كان التــابع يؤكد انه أو أنها « لم يعد في حاجة للرب » (ص ١٧٦)

وطبيعي بــدرجة كافية ، أن بلوغ الالوهية يوحــي بحيازة قــوى هائلة لصنع المعجزات ، واعتقــد بعض اخــوة الروح الحــرة أنهــم تسلموا أنعام النبوة ، وأنهــم عرفــوا كل شيء في الســماء والأرض وانهم يمكن أن يقوموا بالخوارق بحيث يســيرون على الماء دون أن تبتل اقدامهم ، ويسيرون على ارتفاع باردة فوق الأرض .

ولكن بالنسبة لمعظمهم كانت مثل هذه الادعاءات تــافهة ، لأنهــم شعروا بأنفسهم بانهم كاملي القدرة بشكل واقعــي تمــاما ، وقــال

أسقف ستراسبورغ وقد تملكه العجب . « إنهم يقولون انهم خلقـوا كل شيء وانهم خلقوا أكثر من الرب » وجعـل الصـوفي روزبـروك خصمه المهرطق يتحدث كما يلي :

«عندما حللت في كياني الاصلى وفي جوهرها السرمـدي لم يكن بـي رب ، ما كنته اردت أن أكونه ، وماأردت ان اكونه كنتـه ، لقـد كان بارادتي الحرة أني خرجت واصبحت على ما أنا عليه ، فاذا شـئت لما كان بي حاجة أن أصبح اي شـئت ولما كنت مخلوقـا الان ، لان الرب يمكن ان يعرف ، ويريد ولايفعل شـيئا بـدوني ، ومـع الرب خلقت نفسي وخلقت كل شيء ، إنها يدي هـي التـي تـدعم السـماء والارض وكل المخلوقات...وبدوني لاوجود لشيء » .

ومرة اخرى إن اي شكوك ربما يشـعر بهـا المرء حـول هـذه الروايات يبددها المهرطقون انفسـهم ، « عندمـا خلق الله كل شيء خلقت كل شيء معه....أنا اكثر مـن الرب » هـكذا قـالت امـراة في شويدنتز وتلخص رسالة الناسك في عبارة واحـدة اندمـاج الحتمية الفعالة بحتمية القوى الخلاقة :
« الرجل الكامل هو سبب الثبات ».

مذهب الفوضوية الصوفية

من وجهة نظر علم نفس الاعماق ، يمكن القول ان كل الصـوفية يبدأون مغامرتهم النفسية بانطواء عميق على الذات ، ومن خلال ذلك يعيشون كبالغين اعادة تنشيط لتخيلات الطفولة المشوهة ، وبعد ذلك على اي حال هناك مسلكان ممكنان : يمـكن أن يحـدث أن يخـرج الصوفي من تجربته او تجـربتها للانطـواء على الذات ـ كمـريض يخرج من تحليل نفسي ناجح ـ كشخصية اكثر تعاملا ، مـع مجـال متسع من التعاطف يكون اكثر تحررا من الوهم حول نفسـه وحـول ابناء جلدته من بني البشر ، ولكن يمكن ايضا ان يحـدث ان يشرب الصوفي الصور الابوية العملاقة بقوتها ، وبمظاهر شـديدة مغـامرة

وبهيجة ، او يخرج كعدمي متحلل مصـاب بجنون العـظمة ، وكانت هذه الحالة الاخيرة ، هي حالة كثير من اتباع الروح الحرة .

وفي هذا الربط انه مما ينور القاء لمحة على الشـخصية الغـريبة لجان انطوان بولان (١٨٢٤ ـ ١٨٩٣) الذي اسس طائفة يقـال إنه كان لها في وقت ما نحو ٠٠٠ر ٦٠٠ من الاعضاء ، ولاسـيما في أوروبا الشرقية ، وقد اعتبرهذا الرجل نفسـه « سـيف الله » وانه مكلف بمهمة تطهير الارض من (ص ١٧٧) الدنس ومـن كنيسـة روما ، وانقاذ البشرية في الايام الاخيرة ، وقد اصدر احكاما غاضبة على الاكليروس ، الذين اعتبرهم مضـطهدون له ، وحـدث انه هـو نفسه كان مندفعا في سلوكه الجنسي ، وكان يعلم اتبـاعه ممـارسة « الزواج الصوفي » ، الذي كان يمكنهم مـن الانغمـاس في الفسـق الجنسي دون « خـطيئة اصـلية » . وكان له نوق عظيم في الحياة المترفة ، ومن اجل الحصول على المال كان يخدع السـذج بـوسائل الوحي المفترض انه خارق للطبيعـة ، وفي الوقـت نفسـه كان يوزع كثيرا من المال الذي كان يحصل عليه مرة ثانية على الفقراء ، وفي كل افعاله كان يتصرف كتابع متأخر نمـونجي للروح الحـرة ، وتـظهر الدراسات النفسية وتحليل خطوط (بوصفها معبـرة عن شـخصية الكاتب) بولان ، المنشورة في ١٩٤٨ ، انه كان مـريضا نمـونجيا بجنون الاضـطهاد والارتياب والعـظمة واسـتحونت عليه اوهـام العظمة والاضطهاد ، وكان ايضـا نكيا ، مغـامرا مليئا بـالحيوية والمبادرة ، شخصيته مدفوعة برغبات غير مستقرة فزعة ، لاشباعها يستخدم ادق التقنيات للخداع احيانا ، واحيانا اخـرى القسـوة ، التي تطأ تحت الاقدام كل من هو اضعف منه . انه تفسـير يوافـق تماما كل ما نعرفه عن اخـوة الروح الحـرة في القـرون الوسـطى وخلفائهم الاحرار الروحيين .

وفي صورة وصفية أدبية معبرة كتبـت نحـو ١٣٣٠ في المعقـل الرئيسي للهـرطقة في كولون ، أورد الصـوفي الكاثـوليكي سـوزو بشكل محكم ومصقول تلك الصفات التـي في الروح

الحرة والتي جعلتها فوضوية بشكل اساسي ، ووصف كيف أنه في يوم أحد مشرق ، بينما كان يجلس تائها في التأمل ظهرت في روحه صورة معنوية .

وخاطب سوزو الصورة : من أين اتيت ؟ واجابته الصورة « اتيت من لا مكان » اخبرني من انت ؟ ـ « أنا لا » ـ ماذا تريدين ؟ ـ « لاأريد » ـ هذه معجزة! اخبرني ما هو اسمك ؟ ـ أنا أدعى القفار التي لا اسم لها ! الى اين يقودك تبصرك ؟ ـ الى حرية غير مقيدة .

اخبريني ، ماذا تسمين الحرية غير المقيدة ؟ « عندما يعيش رجل وفق هواه دون تمييز بين الرب وبين نفسه ، وبدون النظر قبل أو بعد...»

وما ميز اتباع الروح الحرة عن كل اتباع الطوائف الأخرى في العصور الوسطى هو بالضبط عدم اخلاقياتهم ، و بالنسبة لهم كان برهان الخلاص عدم معرفة شيء ، عن الضمير او الندم ، وتشهد أقوالهم التي لا حصر لها على موقفهم :« كل من ينسب الى نفسه اي شيء يفعله ولا ينسبه كله الى الرب جاهل ، وهذا هو الجحيم ، ....ولا شيء في عمل انسان هو من عمله نفسه » ومرة اخرى ، «إن الذي يعرف ان الرب يفعل كل شيء فيه لن يخطىء ، لأنه يجب أن لا ينسب لنفسه بل للرب كل ما يفعله » ـ «إن الرجل ذا الضمير هو نفسه شيطان وجحيم وحاله عذاب تعذب نفسه . إن الحر في روحه يهرب من هذه الأشياء » ـ « ولا خطيئة (ص ١٧٨)الا ما يعتقد أنه خطيئة » ـ « وهكذا يكون المرء متحدا مع الرب حتى انه أيما فعل انه لا يخطىء » ـ « انا انتمي الى حرية الطبيعة ، وكل ما ترغب فيه طبيعتي اشبعه ....انا رجل طبيعي » ـ «الانسان الحر مصيب تماما في فعل كل ما يعطيه السرور »إن هذه اقوال نموذجية ومضامينها لا يمكن ان تخطئها ، و شعر ان كل عمل كان يقوم به

عضو من هذه النخبة بانه « لا يقع في وقته بل في الابـدية » وله دلالة صوفية كبيرة وقيمته بلا حدود ، وكانت هذه هـي الحـكمة السرية التي كشف عنها احد الاتباع لأحـد المحققين الذي كان متحيزا نوعا ما ، مع التاكيد بانها « كانت مستمدة من الأعماق الداخلية للمتاهة الالهية » وقيمتها أكبر بـكثير مـن كل الذهـب الذي في خـزانة ايرفورت ، واضاف «إنه من الأفضل ، أن يدمر العـالم كله أو يهلك تماما من أن يمنع رجل حر من القيام بعمل تدفعه طبيعته الى القيام به »

وبعد اثنين وعشرين عاما من التكفير تسلم هنريش سوزو أمـرا من الرب بأن يتخلى عن سوطه و عن كل أدوات التعذيب و أن يتخلى عن الزهد الى الأبد ، و كان التابع الجديد للروح الحـرة يمضي إلى ابعد من ذلك بكثير ، حيث يولد من جديد في حالة يتوقف فيها الضمير عن العمل وتبطل الخطيئة ،و يشعر كارستقراطي يتمتع بمـزايا لا حدود لها ، و القوة التي استهلكت في تمارين الزهـد التـي يؤديهـا المتدرب على الرهبنة يجب أن تسـتعاد الآن ، إن أيام المراقبـة قـد انتهت ، واصبح له الحق ان ينام في فـراش وثير ، ولم يعـد هناك مزيد من الصيام ، ومن الآن فصاعدا يجب تغذية البدن على افضـل اللحوم والأنبذة ، وأن يحتفـل كان ذا قيمـة روحية أعظـم مـن الاشتراك في تناول القربان المقدس ، وإن كأسـا ذهبية الآن هـدية مناسبة اكثر من كسرة خبز ، وتغير المظهر الخارجي والوقفـة لدى المهرطقين ايضا ، واحيانا كانت تبقى قلنسوة البيغرد او البيغوبين مهترئة ، ولكن لم يعد يسمع عن الملابس القليلة أو المرقعـة ، وكان الاتباع في شويتنز يمتعون أنفسهم بأي ملابس تـكون المبتـدئة قـد جاءت بها معها ويلبسـون الملابس الناعمـة تحـت ارديتهـم ذات القلانس ، وما أن أصبحت الأخت كاترين « ربة » اعلمها الكاهـن الذي تلقى أعترافاتها أن تضع قميصا ناعمـا « مـلابس كريمـة » وكان اخوة الروح الحرة احيانا يلبسون في الواقع ما يلبسه النبلاء. وفي العصور الوسـطى عندمـا كان اللبـاس عادة دليلا يعتمـد عليه كمؤشر على المنزلة الاجتماعية ، كان طبيعيا أن مثل هـذا المسـلك

بسبب الحيرة والاستياء ، واشتكى احد رجال الاكليروس قـائلا : « ليس لهم لباس موحد ، فأحيانا يلبسون وفق أحدث الأزياء المكلفة والفاخرة ، واحيانا اكثر الملابس بؤسا ، وكل ذلك حسـب الزمـان والمكان . ويعتقدون أنهم معصومون ، وهم يظنون أيضا أنه بالنسبة لهم كل نوع من اللباس مسموح ، ويتبنى الملابس الكريمة بدلا مـن اسمال المتسولين ، رمز المهرطق(ص١٧٩)الى تحـوله مـن أدنى المراتب الفانية » الى عضو في الصفوة التـي تعتقـد أنهـا مخـولة بالسيطرة على العالم».

إذ انه يجب أن لا يظن أن اتباع الروح الحـرة كانوا يعيشـون في حالة من العزلة الكاملة أو التأمل ، لقـد كانوا يتجـولون في العـالم ويتعاملون مع الناس الآخـرين ، وكان هـذا التعـامل مـن نوع غريب ، لأن القدرة على أن يصبح المرء ربا كانت تـؤدي الى رفض كل العلاقات الاجتماعية ولم يكن المذهب الاجتمـاعي للروح الحـرة مفهوما تماما ، مع أن النصوص التي تصـورها مـوجودة ومتفـق عليها ، فهناك وصف كتب في منتصف القرن الرابع عشر ، ويحتمل انه كان مبنيا على الملاحظة المباشرة لواحدة من البيغـويين ، كانت تقرأ كتاب عقيدتها أمام البفرد المهرطق الذي كان يقوم بدور الموجـه الروحي لها :

«عندما يبلغ الرجل حقا المعرفة العظمى والعـالية ، فإنه لا يعـود مقيدا بالالتزام بأي قانون أو باي أمر ، لانه قد توحد مع الله ، ولقد خلق الله كل الأشياء لخدمة مثل هـذا الشـخص ، وكل مـا خلقـه الله ، على الاطلاق هو ملك لمثل هذا الرجل .....انه سوف يأخذ مـن كل المخلوقات بقدر مـا تتـطلب طبيعتـه و تـرغب ، و لن يكون له وسواس او ريبة تحرك ضميره بشأنها . لأن الأشياء المخلوقـة ملك له ... والانسان الذي تخدمه كل السماء على الناس والمخلوقات حقا أن تلتزم بخدمته وطاعته ، وإذا احد لم يطعه يكون بذلك مذنبا» وتؤكد ادبيات الهرطقة الباقية كل هذا ، وتقـول رسـالة الناسـك حـول « الرجل الكامل الذي هو اله وانسان ، إن كل شي مـوجود ملك له »

ويضع سويستر كاتري المذهب الاجتماعي للروح الحـرة في مقـابل خلفيته الافلاطونية المحدثة ، ويسير الجدل ، إن كل شيء يسـتعمل غيره ، الغـزال يسـتعمل العشـب ، والسـماء الماء ، والطير الهواء ، و عليه إن الشخص الذي اصبح ربا يجب أن يسـتخدم كل الأشياء لأنه بذلك يدفع بكل الأشياء الى اصلها الأول ، والنصـيحة التي تلقتها الأخت كاترين على الفور بعد تـأليهها تفهـم بـالتعابير نفسها :

« انك ستأمرين كل الأشـياء المخلوقـة بخـدمتك ، وفـق مشيئتك ، لأن المجد للرب ....انك ستحملين كل شيء الى الرب . واذا اردت استخدام كل الكائنات المخلوقة فإن لك الحـق في ذلك ، لأن كل مخلوق تستخدمينه تدفعينه الى اصله »

وكما في الايام الأولى من الحركة ما برح التعبير عن هذا الموقـف شبقا فاسقا ملونا بالصوفية ، ونقلا عن احد الأتباع : تماما كما أن الماشـية مخلوقـة لاسـتعمال الكائنات البشرية ، كذلك النسـاء مخلوقات لاستعمال أخوة الروح الحرة ، وفي الواقع إنه بمثل هـذه الالفة الحميمة والعلاقة غير الشرعية اصبحت المرأة أكثر عفـة مـن قبل! ، وهكذا إنها إذا كانت قد فقدت عذريتهـا مـن قبـل إنهـا تستعيدها الآن ، ومن المهرطقين السوابيين في القرن الثـالث عشر الى الرانترز في القرن السابع عشر جرى التعبير عن الفكرة نفسـها مرات ومرات : فمن أجل « البراعة في الروح » إن الاتصـال الجنسي (ص ١٨٠) لا يمكن تحت أي ظرف أن يكون مدعاة للخطيئة وكان يعتقد ان احدى العلاقات المؤكدة « للروح البارعة » هـي بـالضبط القدرة على الانغماس في الفسق ، دون الخـوف مـن الرب أو وخـز الضمير ، وكان بعض الأتباع ينسون شيئا مـن القيمـة الصـوفية الظاهرية الفائقة السمو للعمل الجنسي نفسه ، عندما يؤدي من قبـل امثالهم . وقد اطلقت طليعة أهل الفـكر على هـذا العمـل « متعـة الفردوس_ وله » وهو اصـطلاح يسـتعمل لتـوكيد النشـوة الصوفية ، وكانت أخوة الدم التورنجية في ١٥٥٠ تعتبره مقـدسا

وتدعوه «تمسيح» ولدى الجميع على السواء كان للزنا قيمة رمزية كتاكيد للانعتاق ، وكما عبر عنه رانترس كلاركسون» حتى تقوم بما يدعى إثما ، إنك لم تتحرر من سلطة الخطيئة»

وفي هذا الاطار تصبح ديانة ادم التي كثيرا ما وجدت بين اتباع الروح الحرة مفهومه تماما ، ويحتمل امكانية استبعاد المرء لاداء المؤرخين أن هذه الديانة كانت لاتشمل الطقوس الجنسية المشتركة فمنذ ايام الكنيسة الأولى وما بعدها كانت مثل هذه القصص تروى بهدف تشويه سمعة مجموعات الاقلية ، وليس في الوثائق الموجودة ما يوحي انها حتى عندما تحكي عن اتباع الروح الحرة هي روايات مسوغة ، ومن جانب اخر كان الاتباع أحيانا يمارسون عريا طقوسيا ، تماما كما كانوا احيانا ينغمسون في الفسق الجنسي ، ولا شك انهم في كلتا الحالتين كانوا يؤكدون ـ كما عبر عن الأمر أحد المحققين ـ العودة الى حالة البراءة التي كانت موجودة قبل السقوط وقد رأى المعلق الذكي والدقيق الملاحظة كارلبيردي جيرسون العلاقة واضحة تماما ، وقد لاحظ ان «التورلوبان» كثيرا ما كانوا يرون عراة معا ، قائلين إن المرء يجب أن لا يخجل من كل شيء طبيعي واعتبروا عري المرء بلا خجل مثل ادم وحواء جزءا اساسيا من حالة الكمال على الأرض ، وكانوا يطلقون على ذلك حالة البراءة ، ومثل هذا ادعى زعماء طليعة أهل الفكر أنه كان لديهم طريقة خاصة للقيام بالعمل الجنسي كانت هي المتبعة من قبل أدم وحواء في جنة عدن ، وقد جعل الرجل نفسه من ذاته منفذا مهمة تدشين العصر الثالث والأخير ، ولم يكن التابع الوحيد الذي يدمج هذه التخيلات الأصلية البائسة ، وفي ١٣٨١ أعلن تابع في ايخستات نفسه ادم الثاني ، الذي بحلوله محل المسيح كان يقيم العصر الثالث والاخير في صورة جنة أرضية تدوم حتى ترفع بكيانها الى السماء ، أما الأحرار الروحيون الذين شجبهم كالفن فقد أعلنوا انهم وجدوا طريق العودة الى الحالة التي استمتع بها ادم قبل أن يذوق معرفة الخير والشر ، وأ نهم ايضا يعيشون في الأيام الأخيرة التي فيها تستبدل الشريعة المسيحية بشريعة جديدة أسمى ، وفي

الواقع يمكن للمرء (ص ١٨١) بالفعل أن يتعرف من هذه الهرطقة المتعلقة بالعصور الوسطى على هذا المزيج من الألفية والبدائية التي اصبحت واحدة من الصور الشائعة للرومانتيكية الحديثة ، وفي ديانة آدم أعيد خلق الفردوس المفقود وفي الوقت نفسه تأكد حلول الألفية ، والبراءة الابتدائية والمباركة قد أعيدت للعالم بوساطة الأرباب الاحياء الذين بلغت فيهم الخليقة كمالها وتسامت في الشعور.

فإذا كان لنعيم الجنة الجديدة أن يصبح متعة كاملة للاتباع فقط ، فإن فئات ما أخرى كان يمكنها أن تتوقه على الأقل ، ووجد دون الاتباع من «الأرباب الأحياء» طبقة غفيرة من الرجال والنساء الذين لقنوا تماما تعاليم الروح الحرة ، وكان هؤلاء الناس انفسهم صوفية ولكنهم لم يكونوا قد مروا خلال التجربة الحاسمة التي تحول الكائن البشري الى رب ، انهم بدلا من ذلك كانوا يتمتعون بتفوق بديل على البشر من خلال علاقتهم الخاصة مع التابع ، وكانت ماهية هذه العلاقة واضحة بدرجة كافية ، وبعد أن يصبح ربا يبدأ التابع الجديد في التماس الصلة مع الأرواح النقية التي تنشد الكمال » ، و من هؤلاء كان ينتزع قسما بالطاعة العمياء كان يؤدى اثناء الركوع ، و كان هذا القسم يعبر ناسخا لكل نذر سالف بما في ذلك عهود الزواج ، و عن مثل هؤلاء الرجال قال كاالبيردي جيرسون إنهم قدموا وعدا بالطاعة المطلقة الى كائن بشري ، وتلقوا في مقابل ذلك تاكيد بأنهم لن يرتكبوا إثما ، انهم كانوا الناس الذين شكلوا وكونوا جمهور حركة الروح الحرة. -

والعلاقة التي وجدت بين التابع والحواري مصورة بشكل مثير في اعتراف الراهب المرتد مارتن أوف ميدز الذي حوكم في كولون في ١٣٩٣ ، واحرق كمهرطق غير تائب وكان هذا الرجل ، الذي نشر هرطقة الروح الحرة في وادي الراين ، كان حواريا للمهرطق المشهور نيكولاس اوف بازل الذي أدعى انه مسيح جديد ، وفي رأي مارتن كان هناك طريق واحد للخلاص يمر عبر أداء الخضوع المطلق

لعلم ، وكان هذا الأداء تجربة مريعة ، ولكت ماان تتم فانها تجلب مزايا هائلة لان نيكولاس كان المنبع الحقيقي الوحيد للمعرفة والسلطة ، وكان بامكانه تفسير الاناجيل حيث أنه حتى الحواريين لم يكونوا قادرين على تفسيرها ، وإذا رغب احد معلمي اللاهوت في التقدم الروحي عليه أن يضع الاناجيل في جانب ويقوم بأداء فروض الخضوع ، ونيكولاس وحده هو الذي يملك حق ترسيم الكاهن وباقرار منه كان يفتقر الى هذا التصديق ، فانه كان عاجزا عن القيام بعمل صالح ، ولكن فوق كل شيء ، إذا اتبع المرء أوامر نيكولاس فانه لا يأثم (ص ١٨٢) و يمكن للمرء ان يرتكب الزنا أو القتل دون تأنيب إذا أمر به ، و الأثم الوحيد هو عصيانه او التنكر له ، وفي لحظة اداء الخضوع له يدخل المرء في حالة البراءة الابتدائية» .

وبين الجماعة المغلقة للروح الحرة وجمهور البشرية غير المتمتعة بالخلاص هناك خليج لا يمكن قياسه ولا عبوره ، وبالنسبة للعناصر العادية الفانية إن التابع لا « يقيم لهم اعتبار يزيد على قيمة حصان» ، وفي عيونهم وجد الجنس البشري بشكل عام فقط ليستغل من قبلهم «الانتخاب الجارح للمشاعر» ومن هنا كانت عدم الامانة السعيدة التي ذكرت قرنا بعد قرن على أنها من الخصائص الغريبة لأولئك الذين هم فوق الطوائف الأخرى ، وما برح كالفن يلاحظ أن إحدى المواد الرئيسة في عقيدتهم : يجب أن يقوم التابع بأي دور يكسبه أكبر نفوذ ، وليس هناك شك أن هؤلاء الناس قد طوروا مهارة استثنائية في الكذب والادعاء نشروها ليس فقط لحماية أنفسهم من أعدائهم الاكليروس بل ليبعثوا الدفء في طريقهم في رضا الأرواح البسيطة.

وانه لغريب بدرجة كافية أن الاعتقاد نفسه بتفوقهم غير المحدود هو في المقام الاول الذي حول اتباع الروح الحرة الى حملة لمذهب اجتماعي ثوري ، وبحلول القرن الرابع عشر قرر بعضهم على الأقل أن حالة البراءة لم تتمكن من أخذ سمه مميزة من مؤسسة الملكية

الخاصة وفي ١٣١٧ أوضح اسقف ستراسبورغ : « انهم يعتقدون ان كل شيء مشترك ، لذلك فانهم يستخلصون ان السرقة مشروعة بالنسبة لهم ». وكان طبيعيا تماما في الواقع بالنسبة للتابع أن يعتبر كل شيء ، ملكا له . وقد توضحت هذه النقطة بدرجة كافية من قبل جوهان هارتمان ، وهو تابع قبض عليه في ايرفورت في الوقت نفسه الذي قبض فيه على اللطام المسائحي كونراد شمد بقوله :«إن الرجل الحر حقا هو ملك كل المخلوقات وسيدها جميعا ، وكل شيء ملك له ، وله الحق في استعمال كل ما يسره ، واذا حاول احد منعه . فان الرجل الحر قد يقتله ويأخذ موجود اته » وكان اجون برون وهو تابع كان يعيش في بيت الفقر الطوعي في كولون حتى اكثر وضوحا . لقد قال : كان الرب« حرا » وعليه فقد خلق كل الاشياء « بشكل مشاع » ، وفي الممارسة كان هذا يعني ان كل الاشياء وجدت لتقتسم بين اصحاب «الروح الحرة » واوضح انه اذا امتلك اي شخص وفرة من الغذاء ، فذلك يوفر حتى يمكن أن يسعف احتياجات اخوة الروح الحرة . وكان تابع الروح الحرة حرا في ان ياكل في حانة او فندق ثم يمتنع عن الدفع ، فاذا طالبه صاحب الحانة او الفندق بالمال يجب ان يضرب لان الطعام الذي يقدم مجانا لاحد التابعين كان « يتحول الى الخلود » ، وكانت هذه الفكرة شائعة بين اخوة الروح الحرة ، وماقيل عن الطعام قيل ايضا عن المال . وكل ما ينفقه تابع الروح الحرة « يتحول الى الخلود » ، او الى « الدرجةالاسمى للفقر » ونقلا عن جون برونز ، اذا وجد تابع مالا على الطريق ، فان هذا يكون علامة على(ص ١٨٣) ان الرب يريده أن ينفعه مع اخوته ، وكان عليه بناء على ذلك ان يحفظه لهذا الغرض ، حتى لو طالب به صاحبه وحاول استرداده بالعنف . واذا قتل صاحب المال او حتى التابع نفسه في الصراع فان هذا لا يهم ، لأن روحا قد عادت إلى اهلها .

ولكن اذا سلمت النقود يكون التابع قد تراجع من « الابدية الى الدنيوية المؤقته الزائلة » ، واذا ساعد تابع مريضا كعمل خيري ، يجب ان يطلب الصدقة ، فاذا رفضت يكون حرا في اخذ المال بالقوة ،

ولاحاجة للحيرة حتى اذا مات الرجل من الجـوع نتيجـة لذلك وكان الغش والسرقة والسطو بالعنف كلها اعمال مسوغة ، وقد اقر جون انه ارتكبها جميعا وقال إنهـا كانت طبيعية بين نحـو مـائتين مـن البيغرد مـن معـارفه ، وهناك ادلة على ان هـذه كانت في الواقـع ممارسات عادية بين اخوة الروح الحرة ، وكان من اقـوالهم : « كل ما تراه العين وتشتهيه فلتاخذه اليد »

ودام هذا الموقف حتى القـرنين السـادس عشر والسـابع عشر ووصف كالفن الاحرار الروحانيين بأنهم يعتقدون ان احدا يجب ان لايملك شيئا لنفسه ولكن لكل امرىء ان ياخذ كل ما يمكنه ان يضـع يديه عليه ، واذا كان هـذا كله مجـرد تسـويغ للسرقـة إنه قليل الاهمية ، لان اللصوص المحترفين لاحاجة عندهم لمذهـب ، والناس الاخرين لن يتاثروا او ينفعلوا ، ولكن مااراد اتبـاع الروح الحـرة قوله في الواقع حول الملكية الخاصة كان ذا مضامين اكثر اتسـاعا : «اعطوا اعطـوا اعطـوا ، تخلوا عن بيوتـكم وجيادكم واراضـيكم وبضائعكم، تخلوا ، ولاتعتبروا أن شـيئا يخصـكم ، ليكن كل شيء مشاعا . كانت هذه صيحة رانتر ابييزر كوب تردد اصـداء صـيحة جون برون قبل ذلك بثلاثة قرون : « إن كل الاشياء التي خلقهـا الله مشاع » واصبحت القوة الكاملة لهذه العبارات ظاهرة عندمـا ادرك على انها استمرار لتقاليد خاصة مـن النقـد الاجتمـاعي لم تـكن متطرفة جدا فقط ولكن كما سنرى ، كانت بالفعل قديمة جدا

وكتب العرض المقدم اعلاه حول تاليه الذات والفوضوية الصوفية لاتباع الروح الحرة قبل عدة سنوات من نشر نص مرغريت بـوريت « مراة الارواح البسيطة » من قبل الاستاذ غاريئير ، حيث ان هـذا هو النص الوحيد الكامل الذي كتبه تـابع مـن العصـور الوسـطى وعرف انه نجا ، ويقتضي بعض الاهتمام به ، حتـى مـع المخـاطرة ببعض التكرار .

ومن الواضح ان الكتاب عمل خاص ، كما تقول المؤلفة نفسـها ،

ولهجته لاترمي الى ان تكون مفهـومة مـن قبـل العناصر الفـانية البسيطة التي تعيش وفق ما يمليه العقل ، ولقد كتب ليكون بـرنامج تعليمات ، يجب ان تتلى بصـوت مـرتفع على مجمـوعات ممـن سيصبحون اتباعا للروح الحـرة ، ومـوضوعة (ص ١٨٤) هـو صعود الروح نحو الحرية الكاملة .

وتتقدم الروح عبر سبع مراحل : الثـلاثة الاولى منهـا مـكرسة لنكران الذات والطاعة مـن قبـل الزاهـد ، والذي بعـده في المرحلة الرابعة ، تبلغ الروح حالة من النشوة التي اعميت بـوساطة ضـوء الحب المشع ، ولكن مع ان الروح قد تعتقد انها قـد بلغـت بـالفعل مرحلة الاتحاد مع الرب ، فانها تكون ماتزال في البـداية فقـط مـن مرحلة الصعود ، وفي المرحلة الخامسة تعرف اثمها ، والخليج الهائل الذي مايزال يفصلها عن الخير الكامل وهو الرب ، وعند هذه النقطة يغمرها الرب في فيض شامل من الحـب والنور يتغلغـل الى داخـل نفسه ، حتى أن ارادة النفس تتوحد مع الارادة الالهية .

وحتى الآن ، لا شي يميز هـذا الصـعود عن ذلك المعـروف لدى الصوفية الأصوليين . ولكن في المرحلة السادسة يبدأ الافتـراق : إن الروح تتقدم في الألوهية وعند هذه النقطة لا شيء يبقـى بعـد سـوى الرب فالروح لا ترى إلا نفسها التـي هـي الرب ، في حين أن الرب يرى عظمته الالهية في هذه النفس وهذا التمـاثل الكامـل بين الروح والرب يقع تماما خارج تجربة الصوفية لدى الكاثوليك ، وهكذا تفعل المرحلة السابعة والأخيرة من الصعود ، حيث تبتهـج الروح بشـكل دائم ، وهي ماتزال على هذه الأرض في البهاء والبركة التي تحفظها الديانة الأصولية للفردوس.

وهذا التأليه للنفس ممكن لأن الروح موجودة في الرب منذ الأزل. إن الروح والرب واحد ، مثل اللهب والنار شيء واحد ، إنهـا تـأتي من الرب وتعود الى الرب كقطرة ماء تأتي مـن البحـر ثـم تعـود اليه ، وفي الواقع إن الرب هو كل شيء كائن ، لذلك بـالعدمية في الله

تعود الروح الى التوحيد مع الكائن الأصلي .إنها أيضا توحدت في الحالة الابتدائية للبراءة التي تمتع بها أدم قبل سقطته ، وبذلك تحررت من نتائج الخطيئة الأصلية واصبحت بلا خطيئة ، وعلاوة على ذلك اصبحت غير قادرة على الاثم . وليس لهذه الروح مشيئة سوى مشيئة الرب التي تجعلها تريد ما يجب أن تريده ، وهذا بدوره يعني انها حرة تفعل ما يسرها وبناء عليه لا يفعل الاتباع الا ما يسرهم ، إذ انهم إذا لم يفعلوا يحرمون انفسهم من السلام والحرية والنبل ، لأن الروح لاتصح حتى تفعل ما يسرها ، وهي لا تلام على تمتعها ، وحيث ان الحب ، اعني الرب قد أقام في النفس فانه يتولى كل شيء وكل الافعال ، لهذا لا تعاني الروح قلقا أو ندما . وأيا كانت الأفعال الخارجية هي اعمال الرب ، تعمل في الروح.

وبارتفاعها الى ما وراء حدود البشرية تمر الروح في حالة من اللامبالاة الشاملة ، لا تبالي فيها بشيء ، لا بالكائنات البشرية الاخرى ، ولا حتى بالرب ، وهي حتى لا تعني بخلاص نفسها : ومثل هذه الأرواح لا يمكن أن ترى نفسها خيرة أو شريرة (ص ١٨٥) ، فهي لا تعي نفسها وهي لا تستطيع أن تحكم إذا ما كانت مؤمنة أو ضالة،واهتمام المرء بمثل هذه الأمور هو عودة الى الارادة الذاتية وضياع للحرية .

وحيث أن الخلاص قد أصبح أمرا لا يستحق المبالاة ، والمساعدات على الخلاص التي قدمها أو أوصى بها المسيح اصبحت أيضا أمرا لا يستحق المبالاة ، ولم يعد للقربان المقدس ولا الوعظ ولا للزهد ولا للتأمل اي قيمة ، وشفاعة العذراء والقديسين اصبحت بلا معنى ، وفي الواقع إن الروح المؤلهة لا حاجة لها حتى الى الرب نفسه ، وما أن يتم الوصول الى السكون المطلق للوحدة الالهية ، لا المعرفة ولا الحمد ولا حتى محبة الله تبقى موجودة .وعند اعلى نقطة في الكيان يهجر الرب نفسه بنفسه في نفسه ، بمعنى أن رب المسيحية قد تم التخلي عنه لصالح رب النشوة في وحدة الوجود.

ونحو الأمور الأرضية أيضا ، تشعر الروح المؤلهة فقط باللامبالاة العميقة ، ولا تشعر هذه الروح بأي ألم بسبب أي خطيئة قد ارتكبتها قط ، ولا من أجل ما عاناه الرب من أجل هذه الروح ، ولا من أجل الخطيئة والألم اللذان برزح تحتهما جيرانها وأفكار مثل هذه الأرواح إلهية الى درجة أنها لا تقلق نفسها بالأشياء التي خلقت ، وفي الوقت نفسه إن هذه الأرواح حرة في استعمال كل الأشياء المخلوقة لأغراضها الخاصة : لماذ ينبغي أن تشعر مثل هذه الأرواح بتأنيب حول أخذها لما تريد ، عندما تدعو الحاجة اليه؟إن هذا يكون نقصا في البراءة واعاقة لذلك السلام الذي تستريح فيه الروح من كل الأشياء.... ومثل هذه الأرواح تستعمل كل الأشياء التي صنعت وخلقت ، والتي تتطلبها براحة فكرية كما يستعملون الأرض التي يسيرون عليها» .

وعلى هذا يؤكد كتاب مرغريت بوريت تماما فكرتنا عن الروح الحرة وهو تفسير بني خطوة بخطوة على أنواع من المصادر المعيبة ويعرض على انه صحيح الجوهر ، وكما أكدت مرغريت تكرارا ، أنها كانت تخاطب الصفوة فقط ، أولئك الذين تدعوهم «الكنيسة العظمى» ، تمييزا لهم عن «الكنيسة الصغرى» وهي الكنيسة المؤسساتية في روما ، وهي بهذه الصفوة تبشر في الواقع بمذهب تأليه الذات والفوضوية الصوفية.

وفي نقطتين فقط تختلف تعاليم مرغريت عن تلك التي تنسب — لنقل — الى جوهان هارتمان ، أو جون برون ، أو الأحرار الروحانيين لكالفن. ومرغريت لم تقترح في أي مكان ، أن الروح المؤلهة ــ أو كما يمكن أن نقول أن تابع الروح الحرة ــ ينغمس أو يجب أن ينغمس فيما كان يعتبر عادة خطيئة مثل السرقة والفسق الجنسي ، وباستثناء التلميح هي لم تقل شيئا (ص ١٨٦) أيضا حول الموجودات ، وليس هناك ما يدهش في ذلك فاذا تفحص المرء مادة رانتر في ملحق الكتاب الراهن يجد انه بينما يشترك كل هؤلاء الكتاب في المذهب الصوفي نفسه إنهم يختلفون في النتائج العملية التي

- ١٦٥٤ -

يستخرجونها منه ، وستظهر الفصول التالية على أي حال أي ثورية وفوضوية كانت منضوية تحت بعض نواحي الروح الحرة.

الفصل العاشر

حالة المساواة في الطبيعة

في الفكر القديم

مثل التخيلات (ص١٨٧) الاخرى التي مضت في بناء الايمان الثوري بالأخرويات في أوربا يمكن تعقب تخيلات المساواتية والشيوعية رجوعا الى الوراء الى العالم القديم ، لقد ورثت أوروبا العصور الوسطى عن الاغريق والرومان فكرة « دولة الطبيعة » كدولة الشؤون التي يتساوى فيها كل الناس في المنزلة والغنى والتي لا يضطهدفيها أحد أو يستغل من قبل أي شخص آخر ، دولة شؤون تتميز بالعقيدة الخيرة والحب الاخوي وأحيانا ايضا بالمشاركة التامة بالملكية وربما حتى في الزواج.

وفي كل من الادبين الاغريقي واللاتيني عرضت دولة الطبيعة على انها وجدت على الأرض في عصر ذهبي فقد من زمان طويل أو « حكم ساتورن » (اله الزراعة عند الرومان) وكان صدى نص الاسطورة في مسخ أو فيد قد تكرر في الأدب التالي ليحدث تأثيرا هائلا في الفكر الشيوعي خلال العصور الوسطى ، ونقلا عن أو فيد ، في بداية التاريخ البشري ، في ذلك العصر الذهبي الأول قبل خلع ساترون على يدي جوبتير اعتاد الناس أن يغرسوا عقيدة الخير والفضيلة بشكل عفوي دون قوانين ، ولم يكن العقاب والخوف موجودين ، ولم تكن عبارات التهديد تقرأ من لوائح برونزية ثابتة..... ولم تكن الأرض نفسها مضطربة ولم تمسها المسحاة ، ولم تفكها سكة اي محراث ، تعطي الأرض نفسها بمشيئتها الخاصة ...» ولكن كان لا بد ان يأتي اليوم الذي هرب فيه الخجل والحق والعقيدة

الخيرة ، وحل محلهم الخداع والاثم والتآمر والعنف والشهوة الخبيثة للتملك... والمسح والحذر الذي يعلم بخطوط الحدود الطويلة الأرض التي كانت حتى اليوم ملكية مشتركة مثل اشعة الشمس والنسيم... والآن ينتج الحديد الضار والذهب الذي هو اكثر ضررا من الحديد ، وهذه أوجدت الحرب...وان يعيش الناس من الذهب...»

وكان ساتورن احيانا قد صور من قبل فرجيل على أنه التجأ الى ايطاليا بعد خلعه عن العرش الاوليمبي ومن ثم أقام عصرا ذهبيا على التراب الايطالي ، ويعطي احد معاصري أو فيد الذي كان عمله ايضا مالوفا جدا لدى علماء العصور الوسطى وهو المؤرخ غنويوس بومبيوس تروغس رواية مشرقة عن ذلك الحكم المبارك وعن العيد السنوي الذي كان يخلد به (ص ١٨٨) :

« لقد كان اول سكان ايطاليا من أهل الفطرة وكان ملكهم ساتورن كما يقال عادلا جدا ، حتى أنه تحت حكمه لم يستعبد أحد و ايضا لم يختص احد بأي ملكية خاصة ، بل إن كل شيء كان ملكا مشتركا للجميع ودون تقسيم ، كما لو كان هناك ميراث واحد لكل الناس ، وتخليدا لهذا المثال رسم أنه خلال عيد الاله ساتورن يجب أن يعطي الجميع حقوقا متساوية حتى أن السادة والعبيد يجلسون معا في الولائم ، دون اي تمييز »

وكما بين الكاتب الساخر الهجاء لوسيان في القرن الثاني الميلادي ، أن مضمون الأسطورة يبقى اكثر توكيدا للمساواة ، وفي مخاطبته لرب العصر الذهبي ابدى لوسيان دهشته :

«اسمع الآن الشعراء يرددون انه في الأيام القديمة ، عندما كنت ملكا كانت الاشياء مختلفة في هذا العالم ، فالأرض تحمل ثمارها للناس دون بذر أو حرث ، ولكل رجل مائدة معدة تماما ، وعليها اكثر مما يكفي ، أنهار تجري بالنبيذ وأخرى بالحليب وغيرها بالعسل ، واهم من كل ذلك ، يقولون أنه في ذلك الوقت كان الناس

أنفسهم من الذهب ، لم يقربهم الفقر ابدا ، في حين اننا بالكاد من الرصاص ، بل الحري إن بعضنا حتى من معدن أحط ، ومعظمنا يأكل كسرة الخبز مغمسة بعرق مرفقة ، وهو مرهق الى الأبد بالفقر والعوز والعجز ، يصرخ وا اسفاه ، وياله من قدر! هكذا نعيش نحن الفقراء ، وصدقني إن هذا كله أقل إزعاجا لنا لو اننا لا نرى الأغنياء يتمتعون بمثل هذا الوقت الطيب ، مع الكثير من الذهب والفضة في خزائنهم ، كل هذه الأثواب والعبيد والعربات والضياع و المزارع ، يملكون فيضا من كل هذه الأشياء و لا يتنازلون حتى بالقاء نظرة الينا ، نحن السواد الأعظم ، دع عنك مقاسمتنا أي شيء »

وقدمت دولة المساواة الطبيعية موضوعا للتأمل الفلسفي للأدب والشعر ، وكان تحت الستار الفلسفي اكثر منه تحت المظهر الادبي أن اثرت الفكرة في النظرية السياسية للعصور الوسطى ، وسلفا من قبل في القرن الثالث ق.م كان الرواقيون اليونانيون يؤكدون بقوة أن جميع الناس أخوة ، وعلاوة على ذلك أن الجميع كانوا بالطبيعة احرارا ومتساوين ، ويبدو أن مؤسس الرواق القديم ، زينو نفسه قد استهل تعاليمه بوصف مجتمع عالمي مثالي يعيش الناس فيه كقطيع كبير من الغنم في مرعى واحد مشترك ، وتختفي فيه فروق العرق والولاء السياسي ؛ وربما المنزلة والمزاج الفردي ويتوحد فيه كل الناس في مشاركة تامة في الشعور والارادة ، وعلاوة على ذلك إن الديانة الرواقية التي استمدت بقدر كبير من علم التنجيم الكلداني وتركزت على عبادة الأجسام السماوية سرعان ما خصصت موضعا فريدا في أهميته لاله الشمس الذي كان مشهورا كمحسن كريم مبرز وفوق كل شيء عادل ، وفي الاندماج التام للضوء بالشمس (ص ١٨٩) رأى بعض الرواقيين المثل الاعلى للعدالة الاجتماعية وحتى للاشتراك في الموجودات ، وهي فكرة أصبحت بسرعة وبقيت طويلا شائعة في علم الخطابة ولغة المساواة .

ويبدو ان العملين الذين كتبا تحت تأثير رواقي قوي — ويحتمل

ان احدهما كان في القرن الثاني ق.م والثاني في القرن الثاني بعد الميلاد - يصوران بحيوية كبيرة نوع التخيلات المساواتية التي كان العالم القديم قد ورثها للعصور الوسطى ، واقدم الاثنين هو وصف لجزر المباركين الذي بقي فقط في الملخص الذي وضعه المؤرخ اليوناني ديودورس سيكيولاس Diodorus Siculus في مكتبته التاريخية - في الصورة التي حقق بها وترجم كعمل مستقل عشرات المرات خلال عصر النهضة - لقد كرست الجزر السبعة للشمس وسكنها رجال الشمس Heliopobtans ، وكل يوم على مدار الشهر تمر الشمس مباشرة فوق الجزر ، بنتيجة أن الأيام بقيت دائما بطول الليالي نفسها بالضبط ، والطقس جيد بصورة دائمة والفصل صيف لايتبدل تكثر فيه الثمار والأزهار .

وكان سكان كل جزيرة مقسمين الى اربع قبائل ، كل منها ٤٠٠ من الأقوياء ، وكل الرعايا لهم البنية التامة الصحية نفسها والملامح الجمالية التامة نفسها ، وكل يأخذ دوره ليؤدي كل مهمة ضرورية كصياد او سماك ، او في خدمة الدولة ، وتستخدم كل الأراضي والماشية والعدد بالدور من قبل كل مواطن وعليه فانها ليست ملكا لأحد بشكل خاص ، والزواج غير معروف والفسق الجنسي تام ، والقبيلة مسؤولة عن تربية الأطفال ويتم هذا بطريقة تجعل الأمهات لايتعرفن على اطفالهن وغياب الوارثين بالتالي يزيل كل سبب للتنافس او التباري ، ويعطي قانون الطبيعة الذي يعمل بين الأرواح غير المشوهة سلاما وانسجاما كاملين لاينضبان ، وفي الحقيقة انه في نظام بهذا القدر من المساواة لايمكن تخيل للشقاق ، وحتى في توقعاتهم الحياتية ان رجال الشمس كلهم متساوون ، حيث يموت الكل طواعية وسلميا ، وهم في ذروة قوتهم في عمر ١٥٠ سنة .

والعمل الآخر ايضا معروف فقط من خلال مقتطفات حفظها كاتب متأخر ، واولى كليمنت الاسكندري في مجال الهجوم على

المهرطقين الغنطوسيين الذين راهم يتكاثرون حوله اهتماما لبعض المتعصبين الذين سماهم كاربو كراتيانز والذين نسب الى مؤسسهم رسالة كتبت بالاغريقية بعنوان « في العدالة » ويبدو ان البحث الحديث يستبعد احتمال ان الغنطوسيين كانوا مسؤولين عن هذه الرسالة،وليس هناك على اي حال من سبب في الشك في ان تلك الرسالة نفسها كانت موجودة او في ان اقتباسات كليمنت منها كانت دقيقة ، ومرة اخرى يجد المرء مذهبا للمساواة المطلقة مؤيدا بمثال الشمس الخيرة المتجردة غير المتحيزة ، حيث انه طبقا لهذه الرسالة: « ان عدالة الرب مشتركة في تساويها » فالسماوات تغلف الأرض بالتساوي في كل الجوانب ، ويعرض الليل كل النجوم (ص ١٩٠) بالتساوي ، وبالقانون الالهي تشرق الشمس بالبهاء نفسه على الغني والفقير ، على الحاكم وشعبه ، على الجاهل والحكيم وعلى الرجال والنساء وعلى الحر والعبد وعلى الحيوانات من كل الأنواع الطيبة والشريرة ، ولايستطيع أحد أن يأخذ منها أكثر من نصيبه من الضوء أو يسلب جاره نصيبه منه ، وقد وهب الرب ايضا نعمة البصر للجميع على السواء دون تفرقة أو تمييز ، ليستمتع بها بالتساوي وبشكل مشترك ، وحرص على أن تقدم الشمس الغذاء لكل الحيوانات على السواء ، الغذاء الذي يتمتع به الجميع بالتساوي وبصورة مشتركة .

وبهذه الطرق أقام الله ماعناه بعد الة تسمو فوق كل تساؤل وكانت في الأصل ارادته انه يجب ان يطبق المبدأ نفسه على كل الاشياء ، على الأرض وثمارها وعلى كل الموجودات من كل نوع ، لقد خلق الله الكرم والحب وكل الثمار لمنفعة الجميع ، وفي البداية قدمت نفسها بلا ثمن لكل عصفور ، ولكل عابر سبيل ولكن القوانين التي هي من صنع الانسان زعزعت القانون الألهي ودمرت النظام الاشتراكي الذي تبدى فيه هذا القانون ، لقد كانت هذه القوانين البشرية هي التي اوجدت التمييز بين لي ولك ، حتى ان الأشياء التي كانت بحق ملكا للجميع لم يعد التمتع بها مشتركا ، وكان هذا الانتهاك للاشتراكية والمساواة هو الذي دفع

الى السرقة والى كل الجرائم وعلاوة على ذلك قصد الله ان يتزاوج الرجال والنساء بحرية حسبما ما برحت الحيوانات تفعل ، وفي هذا المجال ايضا نجد ان المشاركة والمساواة شرعت بالعدل الالهي ودمرت من قبل بني البشر انفسهم .

وفي تضاد مع بعض اليونانيين لم يعد لدى الرواقيين الرومان – كما يمكن التوقع – اهتمام في الدعوة للمساواة ولكنهم اقروا بانه حدث ذات مرة في عصر ذهبي منذ امد طويل ان عاش الناس معا في حالة من المساواة ، وافضل نص شامل لتعاليمهم في هذا الموضوع قدمه سينكا Seneca في عدد من الفقرات والتالي مثال جيد منها : « لقد كانت اوقاتا سعيدة عندما كان سخاء الطبيعة رهن الاستخدام دون تفرقة من قبل الجميع ، قبل ان يحدث البخل والتلهف على الترف والانقسام بين الناس حيث تحولوا من الصداقة الى سرقة بعضهم بعضا .. وفي الحقيقة ليس هناك حالة للبشرية تسمح لاي انسان بان تكون له قيمة اكبر من ذلك واذا كان للرب ان يسمح لاحد ان يصنع كائنات ارضية ، وان يضع العادات للناس ، لن يحاول المرء شيئا اخر سوى ماقيل عن ذلك العصر عندما لم يكن هناك عمال تفلح الأرض ولم يكن يسمح لأحد ان يحدد او يقسم الأرض ، وعندما كان الناس يضعون كل شيء في مخزن مشترك ، وكانت الأرض تحمل كل شيء بحرية اكثر لأن أحدا لم يطالبها ، من الذي يمكن أن يكون اسعد من ذلك العرق من البشر ؟ وكل ماانتجته الطبيعة كانوا يتمتعون به بصورة مشتركة لهذا كانت الطبيعة تفي بالغرض مثلها مثل الأم والحارس لكل الناس ، وكان الكل في أمان بامتلاكهم للثروة العامة ، لماذا لاأدعو هذا اغنى (ص ١٩١) عروق الانسان ، عندما لم يكن هناك انسان فقير ؟ ولكن البخل غزا هذا الترتيب الذي هو افضل مايمكن ، وفي حين كان يرمي الى الاستيلاء على كل شيء وادعائه لنفسه انتهى بان جعل كل شيء ملكا للآخرين واختزل نفسه من غني غير محدود الى فقر مدقع ، لقد سبب الجشع الفقر وبالرغبة في كثير من الاشياء خسر كل شيء ، والآن سيكد الجشع ليسترجع مافقده ، وقد يضم

الحقول الى الحقول ، ويطرد جيرانه بـالمال او بـالقوة ، ويوسـع ضياعه حتى تصبح في حجـم اقليم ، ويدعى ان السـفر الطـويل في اراضيه تماما كامتلاكها لكن مامن مد للحدود بـلا مـدى يمـكن ان يعيدنا الى ما تخلينا عنه ، وعندمـا نفعـل كل شيء سـنملك الكثير

ولكننا ملكنا العالم كله مرة لقد كانت الأرض نفسها اكثر خصوبة عندمـا لم تفلح وكانت وفيرة بحيث تلبـي احتياجـات كل الناس ، الذين لم يخطفوها من بعضـهم بعضـا ، ولم يكن السرور بالعثور على ماجادت به الطبيعة أكثر من السعادة باطلاع الآخـرين على ماوجدوه ولم يكن لأحد ان يحصل على أكثـر أو اقـل مـن أي انسان أخر ، لقد كان الناس يتقاسمون كل شيء بصورة مشـتركة واتفاق مشترك ، ولم يكن القوي بعد قد وضـع يديه على مـن هـو اضعف ، ولم يكن البخيل بعد قد أخفى الثروة لينكر حقوق الأخرين في ضروريات الحياة ، لقـد اعتنى كل واحـد بجـاره مثلمـا اعتنى بنفسه ....» لكن – وهذا كان محورا لكل هذا الجدل – كان سينكا قانعا بان نظام المساواة القديمة لم يفقد فقط ، بل فقد بـالضرورة

فمع مرور الزمن اصبح الناس اشرارا ، وما ان حدث ذلك حتـى باتت مؤسسات مثل الملكية الخـاصة ، والحـكومات الاسـتبدادية والتفريق في المنزلة ، وحتى العبودية ليس فقط الزامية بل ضرورية ايضا ولم تكن فقط نتائج بل ايضا علاجات لفساد طبيعة الانسـان وكان في هذه الصورة وبفعل ثقل هذه الصفات ان تم تبني فكرة دولة المساواة البدائية الطبيعية من قبـل الآبـاء وادمجـت في النظـرية السياسية للكنيسة .

في فكر آباء الكنيسة الأول وفي القرون الوسطى

على الأقل مع القرن الثالث للميلاد تمثلت العقيدة المسيحية فكرة دولة المسـاواة الطبيعية في الفلسـفة الرواقية ذات التـأثير الاستثنائي ، والتي كانت قد فقدت بلاعودة ، ومع انه كان ممـكنا بالكاد الكلام عن التنظيم الاجتماعي والاقتصادي لجنة عدن ، تدبر

علماء اللاهوت الاصوليون مع ذلك أمر استخدام الاسطورة اليونانية – الرومانية ليصوروا عقيدة السقوط .

وفي مركز نظرية المجتمع هذه يقف التمييز بين دولة الطبيعة التي (ص ١٩٢) كانت مبنية على القانون الطبيعي والتي تعبر مباشرة عن المقاصد الربانية ، والدولة التقليدية التي خرجت من و أقرت بوساطة العادة،ولقد كان متفقا عليه من قبل معظم الآباء المتأخرين أن عدم المساواة والعبودية والحكومات الاستبدادية وحتى الملكية الخاصة لم يكن لها دور في المقاصد الاصلية للرب ، و ظهرت فقط كنتيجة للسقوط ومان حدث السقوط من جانب آخر حتى بدأ تطور جعل من هذه المؤسسات أمرا لامفر منه ، والطبيعة البشرية التي فسدت بالخطيئة الأولى قد أصبحت تتطلب القيود التي لاتوجد في نظام مساواتي و لم تكن عدم المساواة في الثروة والمنزلة والقوة فقط نتائج بل علاجات ايضا للخطيئة ، والتوصيات الوحيدة التي تسمح بها مثل هذه الفكرة كانت توصيات موجهة نحو الأفراد وتتعامل فقط مع مشكلات السلوك الشخصي ان السيد يجب ان يتصرف بلطف وتعقل تجاه عبده ، فهو عزيز على الرب بقدر ماهو نفسه عزيز عليه ، وان على الغني التزام اخلاقي هو أن يعطي الصدقات طواعية ، وأن الغني الذي يستخدم ثروته للاغراض الشريرة يخسر حقه فيها ، وهكذا كانت النتائج العملية المستمدة ، في حدود الأصولية ، ومن مذهب دولة المساواة الابتدائية الطبيعية ، لقد كانت نتائج هامة وقد أثرت على الحياة النصرانية بطرق عدة ولكنها لم تفرز ولم تكن ترمي ايضا الى افراز مجتمع بدون اغنياء وفقراء ، دع عنك بلا ملكية خاصة .

ومع ذلك فلقد كانت تعاليم الكنيسة فوق كل شيء هي التي خلدت فكرة ان المجتمع الطبيعي كان مجتمع مساواة ، وقد درس كثير من الآباء مفصلا وطويلا موضوع المساواة البدائية للطبيعة البشرية ، وفعلوا ذلك بشكل خاص في مناقشتهم لمؤسسة العبودية (الرق) ، فلقد أقرت الكنيسة الرق والحث على واجب طاعة

العبد وخضوعه حتى للسادة القساة ، ولكن هذا لم يمنع مثـلا عالم اللاهوت صاحب النفوذ في القرن الرابع والمعروف باسم « أمبـروز ياسـتر Ambrosiaster » مـن أن يذكر السادة بدورهم بان الله لم يخلق عبيدا واحرار بـل خلق الناس كلهم احـــرارا وفي مـــدينة الله للقـــديس أوغســـطين Augustine عرضت هذه الفكرة نفسها بكل وضوح ممكن بقوله :

« ان نظام الطبيعة قد سقط بمرور الزمان ، وهكذا خلق الرب الانسان لانه قال : (لتكن لهم السيادة على السمك في البحار وعلى الطيور في الهـواء ، وعلى كل شيء يزحـف على الأرض) وبخلقـه الانسان على صورته ، كاننا عاقلا اراد ان يجعله سيدا فقـط على الكائنات غير العاقلة وليس انسانا سيدا على انسـان بـل انسـانا سيدا على البهائم .... والسبب الأول للعبودية هو الخطيئة ، ولها خضع الانسان للانسان بقيود منزلته .... ولكن بالطبيعة التي خلق عليها الرب الانسان من قبل فـلا احـد عبـد لاللانسـان ولا للخطيئة » (ص ١٩٣)

وعلى الرغم من حقيقة ان الكنيسة نفسها قد اصبحت تملك عددا كبيرا من العبيد ، فان الفكرة التي عبر عنهـا القـديس اوغسـطين بقيت الفكرة الأصولية خلال العصور الوسطى ، ولقد كان ذلك ايضا حكم محامي الاقطاعيين المدنيين ، ويمـكن ان يعتبـر رأي المشرع الفرنسي الشهير بومانوار من القرن الثالث عشر ممثلا للرأي المعتاد لدى مفكري العصور الوسطى بقوله : « مع انه يوجد الآن طبقـات عديدة من الناس ، فانه صحيح ان الجميع كانوا في البداية احرارا وعلى القدر نفسه من الحرية ، حيث ان كل واحد يعرف اننا جميعا قد تحدرنا من اب واحد وام واحدة ......»

وغريبة هي الطريقة التي اندمج بها المذهب الكاثوليكي وحـافظ على فكرة ان كل الأشياء على الأرض يجب ان تكون ملكا مشـتركا لكل الكائنات البشرية ، وفي القرن الثالث نجد ان العبارات الأصلية

للرواقيين تتكرر من قبل القديس سيبريان حين أوضح ان نعم الرب قد اعطيت لكل الجنس البشري ، فالنهار يلقي الضوء على الجميع والشمس تشرق فوق الجميع ، والمطر يسقط والرياح تهب من أجل الجميع ، وبهاء النجوم والقمر ملكيته مشتركة ، هكذا احسان الرب غير المتميز ، والانسان الذي يقلد عدالة الرب يجب ان يقتسم ممتلكاته مع رفاقه المسيحيين ، وبحلول النصف الثاني من القرن الرابع كسبت هذه الفكرة قبولا واسعا بين الكتاب المسيحيين لقد وجدنا القديس زينو أوف فيرونا يكرر المقارنة التي اصبحت شائعة: «وبشكل مثالي ان كل البضائع يجب ان تكون مشتركة مثل النهار والليل ، والمطر ، والولادة والموت كذلك الاشياء التي تمنحها العدالة الالهية بالتساوي لكل الجنس البشري دون تمييز بين الاشخاص » ويبقى الامر الاكثر اثارة هو بعض اقوال اسقف ميلانو الكبير القديس امبروز التي تجد فيها التقاليد التي صاغها من قبل سينكا اقوى تعبير :

« لقد صبت الطبيعة كل شيء لكل الناس ليكون ملكا مشتركا ، ولان الله امر كل الاشياء ان تنتج حتى يصبح الغذاء شركة للجميع وان تكون الأرض ملكا مشاعا للجميع ، فلقد أوجدت الطبيعة بناء عليه حقا مشتركا ، ولكن الاستخدام والعادة أوجدا الحق الخاص ....» ولدعم هذه الفكرة استشهد امبروز بأفكارالرواقيين وببعض ماجاء في سفر التكوين كما لو كانا مصدرين متوائمين ومعتمدين معا ، وقال في مكان اخر « لقد كان الاله الرب يريد بشكل خاص ان تكون هذه الأرض ملكا مشتركا للجميع وان تعطي الثمار للجميع ولكن الجشع اوجد حقوق الملكية»

وهناك فقرة تمجد دولة الطبيعة الشيوعية بما في ذلك الحب الحر يمكن ان توجد في تشريعات غراتيا وهي الرسالة التي غدت النص الأساسي لدراسة الشريعة في كل الجامعات والذي يشكل القسم الأول من «مجموعة القوانين التشريعية » وقصة كيف انها وجدت فيها هي بالتأكيد الاغرب في تاريخ الافكار ، وكان البابا كليمنت

الأول ، وهو واحد من اقدم أساقفة روما نشط في نحو نهاية القرن الأول،قد غدا بعد موته يعــد بمثـــابة تلميذ للقــديس بـــطرس نفسه (ص ١٩٤)والمقام الذي اضفناه هذا على اسمه نجـم بقــدر كبير عن الأدب الأبــوغرافاوي (غير الشرعي)الذي نســب اليه ، واحد هذه الأعمال زعم انها رســائل كتبـت مــن قبـل كليمنت الى القديس جيمس وصفت أسفاره مع القديس بطرس وتبلغ الذروة في "تعرفه" على والديه واخوته الذين انفصل عنهم منذ طفولته ويحتمل انها كتبت في سورية حوالي ٢٦٥ ميلادية ، واعطــي هــذا العمــل صورته الحالية بعد نحو قــرن ، وفي تعــارف كليمنت كمـــا هــو بين ايدينا يظهر أبــو كليمنت وثنيا يتناقش مــع بـطرس وكليمنث ثــم يدخلانه في النهاية في المسيحية ، وفي مجـرى الجـدل اقتبس الوالد الأراء التالية ، التي عزاها الى « فـلاسفة يونانيين» وهــي بـدرجة كافية من الصــحة ، لو انه فقــط لم يحــاول في حينه أن ينســـبها لافــــــــــــــــــــــــــــــــــــلاطون

«ان استعمال كل الأشياء الموجودة في هذا العــالم كان يجــب ان يكون مشتركا بين كل الناس ولكن بفعل عدم العدل يقول احد الرجال ان هذا له ، ويقول اخر ان تلك له ، وهــكذا وجــد الانقســام بين الناس الفانيين وباختصار ، ان رجلا يونانيا بالغ الحكمة يعــرف ماهية هذه الأمور يقــول أن كل شيء يجــب أن يبقـــى مشـــتركا بين الاصدقاء ، وبلا ريب بين كل الاشياء الأزواج مشمولون ، وهو يقول أيضا كما ان الهواء لايمكن تقسيمه ولا بهاء الشمس ، هــكذا الأشياء الأخرى التي يعطيها هذا العالم يجب ان تــكون ملكيتهــا مشتركة بين الجميع ويجب عدم تقسيمها بــل يجــب أن تبقـــى ملكا مشتركا ».

وبعد حوالي خمسة قرون احرزت هذه الفقرة أهمية جديدة كاملة ففي نحو ٨٥٠ م كان الراهب الفــرنسي المعــروف بــاسم إيزيدور الزائف (لأنه عزا أعماله الى ايزيدور ، رئيس اساقفة اشــبيلية) كان يصدر فتاوى بابوية زائفة وشرائع للمجموعة الشهيرة المعروفة الآن باسم الفتاوى الزائفة ، وتفتتح المجــوعة بخمســة « رســائل

انجيلية للبابا كليمنت » وكلها أبوغرافاوية وثـلاثة منهـا زورهـا ايزيدور الزائف نفسه،وفي الرسالة الانجيلية الخامسة الموجهـة الى القديس جيمس ومسيحيي القدس ضـمنها ايزيدور الزائف الفقـرة المقتبسة أعلاه حيث لم تعد على اي حال قولا لو ثني بـل تعبيرا عن افكار البابا كليمنت نفسه وجعل البابا يعزز الجدل بـاقتباس المادة الرابعة حول المجتمع المسيحي في القدس :

« وكانت جموعهم التي امنت على قلب واحد وروح واحدة : ولم يقل اي منهم ان شيئا البتة ممـا بحـوزته كان ملكا له بـل إنهـم كانوا يملكون كل شيء بصـورة مشـتركة. . . .ولم يكن هناك أيضـا شيء ناقص بينهـم : اذ بقـدر مـا كان هناك مـالكون كثيرون للأراضي والبيوت فانها كانت تباع وتجلب أثمان الأشياء المباعة وتـوضع عند أقدام الحواريين ، وكان التوزيع لكل انسان يجري وفق حاجته »

وكان الجدل في هذه الصورة هجينا نصف مسيحي ونصف رواقي عندما جوبه من قبل مؤسس (ص ١٩٥) علم القانون وعندما شرع غرايتان في نحو ١١٥٠ في وضـع مجمـوعته العـظيمة لم يتسـاءل مطلقا ـ اكثر مما فعل معاصروه ـ حول أصـالة فتـاوى أيزيدور الزائف ، وكانت الرسـالة الخـامسة لكليمنت بتـأكيدها الغـريب للشيوعية الفوضوية ، قد وضعت ضمن مجموعة الفتـاوى البـابوية والتشريعات Decretum وبذلك أحرزت نفوذا كان عليها ان تحتفظ به حتى القرن السادس عشر عندما ضـعفت الثقـة بهـا مـع بقية الفتاوى الزائفة ٠

وصحيح ان غرايتان ربط بالوثيقة بعض الحواشي التي مالت الى حصر مجالها إلا انه في مكان أخر مـن مجمـوعة الفتـاوى جعـل مناقشتها (سوى في شأن الحب الحر) بشـكل عام وبـلا تحفـظ منسوبة إليه، وفي أواخر العصـور الوسـطى أصـبح شـائعا بين المشرعين والدارسين انه في الحالة الأولى من المجتمع، والتـي كانت أيضا افضل حالة ، لم يكن هناك شيء يقال له ملكية خاصة ، لأن كل الأشياء هي ملك لكل الناس ٠

وفي حوالي ١٢٧٠ قدمت دولة المساواة الطبيعية لأول مـرة منذ القدم في عمل ادبي •فقد عالج ا لأمر جين دي موين وهو رجـل مـن العامة ذا عقل سؤول فاحص ، وكان يعيش في وسط الحي اللاتيني في باريس، وكان متأثرا بعمق بالمناقشات الجارية في الجامعة، وكان متضلعا جدا ايضا في الأدب اللاتيني فقد عالج الموضـوع مـطولا في شعره الطويل« مغامرة الوردة » ولم يحظ عمل عامـي آخـر في كل ادب العصور الوسطى بمثل شعبيته ، حيث مـازالت نحـو« ٢٠٠ » نسخة مخطوطة بـالفرنسية بـاقية • وكانت هناك تـرجمات عديدة وكان من خلال مغامرة الوردة ان نظرية إجتماعية كانت حتـى حينه مألوفة الى حد كبير عند علمـاء الاكليروس فقـط قـد اصـبحت في متناول أعداد كبيرة من العامة ، ولقـد كان وصـف جين دي مـوين للعصر الذهبي والتدهور التالي منذ حينه مقالة اجتمـاعية جـادة و شعبية، وكانت تجربة متقدمة نحو خمسة قرون على القسم الثـاني من مقالات روسو في اللامساواة ، ومثل ذلك العمل ، كان في حد ذاته وثيقة عظيمة الأهمية لطلاب الأساطير الاجتماعية، وكتـب الشـاعر على النحو التالي :

« حدث ذات مرة في ايام أبـائنا الأوائل وأمهـاتنا، كمـا تشـهد كتابات القدماء أن كان الناس يحبون بعضهم بعضـا حبـا رقيقـا صادقا ، لايصدر عن غاية وشهوة للكسب، وسادت الطيبة العالم وفي تلك الأيام كانت الأذواق بسيطة وكان الناس يتغذون بالثمار والبندق والأعشاب ، وكانوا يشربون الماء فقط ، ويلبسـون جلود الحيوانات، ولايعرفون شيئا عن الزراعة، ويعيشون في الكهوف، ومع ذلك لم تكن هناك صـعوبات ، لأن الأرض كانت تعـطيهم طـواعية كل طعـام يحتاجونه وكان العشاق يتعانقون على فرش مـن الأزهـار تحـت ستائر من ورق الشجر(بالنسبة لهذا الكاتب كان الحب الحر جـزءا هاما من النعيم البدائي)، وهناك رقصـوا ولهـوا في كسـل حلو أناس بسـطاء هـادئون لايبـالون بشيء إلا العيش في حبـور (ص ١٩٦)•

وبكل صداقة مع بعضهم بعضا ، ولم يكن هناك بعد ملك أو أمير يخطف كالمجرمين مايخص الاخرين ، لقد كان الكل متساوين ، ولم تكن عندهم ملكيات خاصة بهم وكانوا يعرفون تماما حكمة أن الحب والسلطة لايقيمان بعد معا في صحبة ... وهكذا ياصديقي حافظ القدماء على صحبة بعضهم بعضا متحررين من أي ارتباط أو قيد في سلام ، وبلطف ، ولم يسلموا حريتهم بكل الذهب الذي في بلاد العرب أو فريجيا،ولسوء الحظ بلغت هذه الحالة من الشؤون السعيدة نهايتها بظهور جيش الشرور والخداع والتفاخر والاشتهاء الجشع والحسد والبقية ، وكان عملها الاول إيجاد الفقر وإطلاق ابنه السلب حرا على الأرض ، التي لم تكن تعرف حتى الان شيئا عنهما . بعد ذلك :

غزت هذه الشياطين بالغضب المجنون ، والحسد لرؤية الكائنات البشرية سعيدة ، الأرض كلها وبذرت فيها الخلاف ، والخداع ، والنزاع والتقاضي ، والشجار ، والسباب ، والحروب ، والافتراء والكراهية والحقد ، ولانهم فتنوا بالذهب ، فإنهم نهبوا الأرض وانتزعوا من احشائها الكنوز الخبيئة ، والمعادن ، والاحجار الكريمة ، لأن البخل والجشع واشتهاء مالدى غيرنا قد أودع في القلوب البشرية الرغبة في إحراز الثروة ، إن الاشتهاء يجلب المال والجشع يخفيه ، إنها مخلوقة شقية ، وهي لن تنفقه أبدا ، وإنما ستتركه لورثتها وللوصي ليديره ويقيم الحراسة عليه إذا لم يحل به بلية قبل ذلك .

وما أن أصبح الجنس البشري فريسة لتلك العصابة ، تخلى عن طريقته الأولى في الحياة ، ولم يتوقف الناس مطلقا عن اعمال الشر ، لقد أصبحوا زائفين وبدأوا يغشون ، لقد التصقوا بممتلكاتهم واغلقوا عليها بإحكام وقسموا الأرض ذاتها وبذلك رسموا الحدود ، وكثيرا ما تقاتلوا وهم يضعون هذه الحدود واختطفوا كل ما أمكنهم من بعضهم بعضا ، وحصل الاقوى على اكبر الحصص ....

وفي النهاية أصبحت الفوضى غير محتملة حتى أن الناس اضطروا إلى انتخاب شخص ما ليستعيد ويحفظ النظام ، لقد اختاروا الفلاح الكبير ، الأضخم عظاما ، والأكثر طولا وقوة الذي امكنهم العثور عليه وجعلوه أميرا وسيدا ولكنه كان في حاجة إلى المساعدة وهكذا وجدت القروض والضرائب للدفع لجهاز القسر ، وكان هذا بداية السلطة الملكية ، وصكت العملة ، وصنعت الأسلحة ، وفي الوقت نفسه حصن الناس المدن والقلاع وبنوا القصور العظيمة المغطاة بالنحت ، لأن من اقتنوا هذه الثروات كانوا خائفين جدا من أن تؤخذ منهم سواء بالسرقة أو بالقوة ، ثم أصبحوا موضع الشفقة أكثر ، أولئك الناس غير السعداء لأنهم ماعادوا يعرفون الأمن مرة أخرى أبدا منذ ذلك اليوم ، الذي فيه بدافع الجشع أخذوا لأنفسهم ماكان من قبل مشاعا للجميع مثل ما عليه الهواء والشمس»

هكذا كانت مثل الشيوعية والمساواة التي كانت معروفة لدى عدد كبير جدا من الأرواح المفكرة في أوروبا العصور الوسطى . ولايمكن القول إن (ص ١٩٧) أي محاولة على الاطلاق لم تبذل لترجمتها إلى واقع ، لقد حافظت الكنيسة بثبات على أن الحياة المشتركة في الفقر الطوعي كانت « الطريقة الأكثر كمالا » ، مصرين فقط على انه في العالم الفاسد الذي عمل في ظل عقابيل السقوط كان هذا مثالا يمكن ويجب أن يحتذى فقط من قبل الصفوة ، وبين الاكليروس وجد هذا الموقف تعبيرا منظما في مراتب الرهبان وأخوة الرهبنة ، لقد كان موقفا اجتذب ايضا العديد من العامة ، خاصة عندما انتعشت التجارة ، وظهرت الثروات الجديدة وتنامت حضارة الحياة المستقرة ومن القرن الحادي عشر وما بعده كانت تسوجد في الأجزاء الأكثر تطورا وازدحاما في أوربة تكتلات من العامة كانت تعيش في جماعات شبه رهبانية ، وتحتفظ بكل ممتلكاتها بصورة مشتركة ، أحيانا بموافقة واحيانا بدون موافقة الكنيسة ، وبالنسبة لمثل هذه المجتمعات كان النموذج يتوفر في الوصف الوارد في المادة الرابعة للمجتمع المسيحي الأول في القدس ، وهذا المثال الذي كما رأينا قد ذكر من قبل ايزيدور الزائف في رسائل كليمنت الزائفة قد بلغ مقاما

عظيما ، لأنه لم يقدر في اي مكان ، إلى اي مدى سمح القديس لوقـا لخياله أن يهيمن على إدراكه للحقائق التاريخية .

ولكن تقليد هذا النص الخيالي للكنيسة الابتدائية ، لم يكن له أن يسترد بعد ، أو حتى يحاول استرداد ، العصر الذهبي المفقـود لكل البشرية الذي صور للعالم القديم من قبل سينكا، ولأوروبا العصـور الوسطى من قبل جين دي مين ، وحتى طـوائف المهـرطقين التـي ازدهرت منذ القرن الثاني عشر ومـا بعـده كانت بشـكل عام أقـل اهتماما « بالمساواة » الاجتمـاعية والاقتصـادية ممـا كان أحيانا يؤكد ، فلا الكاثاريه ولا الوالدنسيان ، مثلا أظهروا اهتماما كبيرا ، بالأمر ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقـريبا يبـدو أن عددا قليلا من الطوائف الغامضة فقط مثل بعض أتباع الروح الحرة ، قد حاول استعادة دولة المساواة الطبيعية مـن أعمـاق الماضي وعكسـها على المستقبل ولكن مهما كانت قلة من كانوا يقولون ذلك فإن هذه المحاولة لاعادة إيجاد العصر الذهبي لم تكن بلا أهمية وقـد افـرزت مـذهبا أصبح أسطورة ثورية ، حالما قدم إلى الفقراء المحتاجين واندمج مع التخيلات الشعبية المتعلقة بالاخرويات .

الفصل الحادي عشر

الفية المساواة(١)

ملاحظات هامشية على ثورة الفلاحين الانكليز

متى توقف الناس(ص ١٩٨) عن التفكير حول مجتمع بلا تميز في المنزلة او الغنى ببساطة كعصر ذهبي ضاع بلا عودة في الماضي البعيد ، وبداوا في التفكير فيه بدلا من ذلك على انه امر مقدر الوقوع ، في المستقبل القريب ؟ الى الحد الذي يمكن الحكم عليه من المصادر المتاحة ، جاءت هذه الاسطورة الاجتماعية الجديدة الى الوجود في سنوات الفوضى حوالى ١٣٨٠ ، وربما اخذت شكلها في البداية في مدن فلاندرز وشمال فرنسا ، التي اكتسحتها في ذلك الوقت موجة من العنف العصياني ، ولكن مع أن هذا كان قد اوحي به احيانا فإنه مايزال يتطلب الاثبات ، ومن جانب اخر عندما يتفحص المرء في الحوليات التي تعالج ثورة الفلاحين الانكليز في ١٣٨١ ، الاقوال المنسوبة الى جون بول الشهير يجد المرء الاسطورة ــ على غير توقع ولكن بشكل جلي ــ تحت السطح تماما .

ولم يكن معظم العصاة متأثرين بشكل يمكن تقديره بالاسطورة ، بل يبدو ان معظم الفلاحين وحرفيي المدن الذين كانوا يؤيدونهم كانوا حصرا تقريبا معنيين باهداف واقعية محدودة ، وفي ذلك الوقت كانت الرابطة بين السيد وفلاحيه قد فقدت كل خاصية أبوية يمكن أن تكون قد اكتسبتها مرة ، ولم ير الفلاحون سببا لكي يقدموا الفروض الثقيلة والخدمات الى سيد لم يعد حاميا لهم ، علاوة على ذلك افاد الناس منذ قيام الموت الاسود من نقص العمالة كثيرا وإن يكن بدرجة كانت اقل مما كانوا يحبون . وقد استشاط غضب الفلاحين

والحرفيين على السواء طويلا تحت القيود القانونية ، وأبـرزها تلك التي تجسدت في التشريعات العمالية ، التي منعتهم من الاسـتثمار الكامل لوضعهم الاقتصادي ، وتفاقم عدم الرضى الناجم عن المظالم القائمة بسبب سوء ادارة الحرب الفرنسية وفرض جزية اسـتثنائية مرهقة ، ومع ذلك انه مهما كانت مشـاعر عامـة الناس بـالغضب والاستياء ، فان الثورة عندما تفجرت كانت اهدافها مـاتزال عملية صرفة ، ويعكس صك الحرية الذي منحه الملك في مايل إند (والغـي فيما بعد) هـذه الاهـداف (ص ١٩٩) بـدقة كافية ، لضـمان استبدال الفروض المزرعية بايجارات نقدية ، واحلال العمل المأجور مكان السخرة الجزئية ، ورفع القيود عن البيع والشراء الحـر ، وفي هذا البرنامج ليس هنالك اي شيء بالمرة يشير الى حـدوث معجـزة وشيكة تعيد حالة المساواة في الطبيعية ، ولكن هذا لايعني القـول أن لاشيء من هذه الخيالات لم يكن من الفكر في اي مكان بين العصاة .

وفي فقرة شهيرة أعطى فروا سارت مـايفترض أنه كان مـوعظة نموذجية لجون بول :

« واذا كنا قد تحدرنا كلنا من أب واحد وأم واحدة ، أدم وحواء ، كيف يمكن للسادة أن يقولوا أو يثبتوا انهم اكثر سيادة منا ، سوى أنهم يجعلوننا نحفر ونفلح الارض حتـى يمـكنهم ان يبـددوا مـا ننتجه ؟ إنهم يلبسون المخمل والساتان ويتجملون بفراء السنجاب ، في حين اننا نرتدي أرخص القماش ، إن لديهـم الخمـور والتـوابل والخبز النقي ولنا الخشار فقـط ، والدقيق التـالف والقش ، والماء فقط للشرب ، ولديهم المساكن الجميلة والضـياع ، ولدينا الشـقاء والعمل دائما في الحقول تحـت المطـر والثلج ، ولكنه منا ومـن كدنا يأتي كل شيء يحـفظون به أبهتهم» .

ومن أجل هذه الاوضاع وصف الواعظ علاجـا قـاسيا بقـوله :
ايها الناس الطيبون ، إن الامور لايمكن ان تسير سيرا حسـنا في انكلترا ولن تفعل ابدا حتى يصـبح كل شيء مشـتركا ، وأن لايكون هنالك مسخر ولا سيد ، بل كلنا في حالة واحدة »

ويروي المؤرخ الانكليزي توماس ولسنغام راهب القديس البانز نص الموعظة التي يقال إن بول قد وعظ بها الثوار الذين احتشدوا في بلاك هيث في نص كان بالفعل في حينه مثلا تقليديا وبقي شهيرا حتى هذا اليوم :

عندما حفر أدم وغزلت حواء من كان عندئذ سيدا ؟

ونقلا عن ولسنغام ، كانت حجج بول هي انه في البداية كانت كل الكائنات البشرية مخلوقات حرة متساوية ، ولكن الناس الاشرار بالقمع الظالم ، قد ادخلوا العبودية ، ضد ارادة الرب ، والان هذا هو الوقت الذي حدده الرب ، حيث يمكن للناس العوام فقط اذا شاءوا ، أن يطرحوا النير الذي حملوه كل هذا الزمان الطويل ، وأن يكسبوا الحرية التي تاقوا اليها دائما ، وعليه يجب ان يكونوا ذوي القلوب الطيبة ، وأن يرشدوا انفسهم كالمزارع الحكيم في الكتب المقدسة ، الذي جمع القمح في مخازنه ، ولكنه استاصل واحرق البيقية التي كادت تخنق الحبوب الجيدة ، لان موسم الحصاد قد جاء ، لقد كانت البيقية هي السادة الكبار ، والقضاة والمحامون ، إن كل هؤلاء يجب ابادتهم ، وهكذا يجب ابادة كل شخص أخر قد يكون خطرا على المجتمع في المستقبل ، وما أن يستاصل الكبار حتى سيتمتع الناس جميعا (ص ٢٠٠) بحرية متساوية ، ومنزلة وقوة .

ومع انه لاتوجد طريقة لمعرفة إذا كانت مواعظ مثل هذه قد القيت فعلا من قبل جون بول ، فان هناك كل الاسباب للاعتقاد بأن التي تزخر بها كانت في الواقع منتشرة في وقت الثورة ، و كان مذهب دولة المساواة الطبيعية الابتدائية مالوفا بالتاكيد بدرجة كافية في انكلترا ، و في الحواريين دايفنز و بوبر الذي كتب في العقد الأول من القرن الرابع عشر الرابع عشر نقرأ انه بموجب قانون كند (أي الطبيعة) والربة لاو كل شيء اشتراك ؟» ويصيب السهم مرماه عند الاشارة

إلى المراجع الأصلية إلى الرسالة الخامسة المزيفة لكليمنت والمادة الرابعة ، وقد استشهد الوعاظ الاصوليين تماما بالقديس امبروز للمعتقد نفسه :« لقد خلقت الارض لتكون مشاعا للجميع ، الغني والفقير ، فلماذا ايها الاغنياء تدعون حقا كاملا فيها ؟ كند لايعرف ثروات تسبب الفقر لكل الناس.....» وفي مظهر اكاديمي نوقشت الفكرة نفسها ، من قبل وايكلف في رسالة « المملكة المدنية » التي الفها في اكسفورد في ١٣٧٤ ، وفيها جرى الجدل بأن الاحتفاظ بالسيادة من قبل الاشرار هو اغتصاب محض ، وتعارض مع المبادىء الاولى للقانون وتناقض مع الهدف الالهي ، حيث سيحصل الرجل الصالح الذي تخلى عن السيادة وهجرها اكراما للمسيح في المقابل على السيادة الكاملة على العالم ، الامر لم يحدث ان تمتع به من قبل حتى اباؤنا الاوائل قبل السقوط ومضى وايكلف ليقدم انطباعه المخالف حول الموضوع الذي صور من قبل عدد كبير جدا من العلماء منذ ايام غراتيان :

« اولا لان كل الاشياء الطيبة التي خلقها الله يجب أن تكون مشاعا ، وبرهان ذلك كما يلي : ان كل انسان يجب ان يكون في حالة النعمة ، فاذا كان في حالة النعمة سيكون سيد العالم وكل مافيه ، وعليه فان كل انسان يجب ان يكون سيدا للعالم كله ، ولكن بسبب الحشود الكبيرة من الناس ، لن يحدث هذا اذا لم يشترك الجميع في ملكية كل شيء : وعليه يجب ان يكون كل شيء مشاعا »

ولم يقصد وايكلف بالطبع ابدا ان تطبق هذه النظرية في الممارسة على المجتمع المدني ، لقد نطق بذلك مرة ، ومرة فقط ، وهذه المرة باللاتينية ، وحتى في حينه فانه قد قيدها باضافة أنه في الحياة العملية يجب أن يقبل الصالح بعدم المساواة وعدم العدل ويترك الاشرار يملكون المال والسلطة ، وفي هجومه على الغنى والدينونة لدى الاكليروس كان وايكلف في تلهث قاتل ، وتعليقاته هذه على الملكية المشتركة لكل الاشياء كانت اكثر قليلا من تمرين في المنطق المنهجي ومع ذلك عندما تجرد من اطارها العلمي وتنزع عنها

العبارات المقيدة نجد ان هذه التعليقات نفسها بالكاد يمكن تمييزها عن الفوضوية الصوفية للروح الحرة ، وسيكون مدهشا إن لم يوجد بين اسراب (ص ٢٠١) الدارسين من كل الانواع والطبقات الذين احتشدوا في أكسفورد من لم ينتش من مثل هذه الافكار وينشرها في الخارج ، مبسطة في صورة شعارات دعائية ، وفي الواقع إن الانفلاند ذكر وهو يكتب عن غد الثورة الكبرى في «ركائز الحراث» ، كيف ان التاملات المتعلقة بحالة الطبيعة قد تسربت من الجامعات إلى عامة الناس وبأي أثر :

«لقد سمع انني هذا وناشد الاخوة الذهاب الى المدرسة ، ودراسة المنطق والقانون ، والتأمل ايضا ، وأن يعظوا الناس بأفكار افلاطون وان يثبتوها باقوال سينكا في أن كل الاشياء التي تحت السماء ، يجب ان تكون مشاعا ، ويكذب – مادمت حيا – كل من يعظ غير المتعلمين هكذا ، لان الله أوجد للناس شريعة علمها موسى : عليك الا تشتهي شيئا مما يخص جارك »

ومع ذلك إن تخيلات حالة المساواة الطبيعية في تاريخها الطويل لم تعمل مطلقا كاسطورة اجتماعية محركة ، ولم تكن لتفعل ذلك الان لو انها لم تتعزز بالنقد الاجتماعي من النوع الاكثر شخصية وانفعالية ، وفي مسحة الساحر لمواعظ العصور الوسطى بيّن المرحوم الاستاذ غ . ر .أوست كيف ان حتى اكثر الوعاظ أصولية مع انهم انتقدوا بشدة خطايا كل طبقات المجتمع ، إنهم مع ذلك احتفظوا بأكثر نقدهم قسوة للاغنياء والاقوياء ، ومن الاهمية بشكل خاص تفسير الحساب الاخير على أنه يوم الانتقام للفقراء ، وهو تفسير تطور واصبح اكثر تعقيدا منذ القرن الثالث عشر ومابعده واعطى اسلوبا تعبيريا بارعا من قبل رئيس جامعة كمبردج ، جون بروميارد في دليله للوعاظ ، ولسوف يعطي النص التالي من ملخص وترجمه اوست فكرة ما عن القوة العاطفية لحجج بروميارد :

« على اليسار ، أمام عرش القاضي الاعلى ، يقف السادة القساة ، الذين نهبوا شعب الرب بغرامات ظالمة ، وبالعقوبات

والاغتصاب والابتزاز....ورجال الاكليروس الاشرار : الذين اخفقوا في تغذية الفقراء ببضائع المسيح كما يجب ان يفعلوا ، والمرابون والتجار الزائفون.... الذين غشوا رغايا المسيح.... وبين الصالحين على اليمين العديد ممن ابتلوا وشوهوا وهيمن عليهم من ذكروا من قبل من فاعلي الشر ، وعندها سيوجه المضطهدون اتهاما رهيبا الى مضطهديهم في الحفرة الالهية .

وبجرأة سيكونوا قادرين على وضع شكواهم امام الرب. ويلتمسون العدل ، ويتكلمون مع القاضي المسيح ويقص كل بدوره حكاية الاذى الذي عانوا منه بشكل خاص.... جهدنا وسلعنا.... التي اخذوها ليشبعوا جشعهم لقد ابتلونا بالجوع والشقاء ، حتى يمكنهم ان يعيشوا بنعومة على شقائنا (ص ١٠٢) وسلعنا ، لقد كدحنا وعشنا حياة قاسية حتى اننا كنا نحصل بصعوبة على الكفاف نصف العام ، كفاف لاشيء معه الا الخبز والنخالة والماء ، ليس هذا فحسب بل الواقع ان هناك ما هو اسوأ لقد كنا نموت من الجوع ، لقد كان يقدم لهم ثلاث وجبات او اربع من البضائع التي اخذوها منا .... لقد جعنا وعطشنا وابتلينا بالبرد والعري ، ولم يعد هؤلاء اللصوص الينا بضائعنا عندما كنا بحاجة ،كما انهم لم يطعموننا او يكسوننا منهم ، بل كانوا يطعمون كلابهم وخيولهم وقردتهم والاغنياء والاقوياء وأصحاب الوفرة والنهمين والسكيرين وعاهراتهم ويلبسونهم ويلبسون معهم ، ويتركوننا نفنى ونهزل من العوز والحاجة....

أيها الرب العادل ، القاضي القادر ، لم يكن موزعا بالعدل بيننا وبينهم ، لقد كان شبعهم من جوعنا ، ومرحهم من بؤسنا وتنافسهم وتباريهم كان في تعذيبنا .... وأعيادهم ، وبهجتهم ، وابهتهم وخيلائهم وانغماسهم في الشراب وفيضهم من صيامنا وعقوباتنا وحاجتنا وكوارثنا وسلبهم لنا ، وأغاني الحب والضحك في رقصهم كانت سخرية منا واستهزاء بنا وبتأوهاتنا واحتجاجاتنا ، لقد

اعتادوا الغناء : حسنا كفاية ، حسنا كفاية ـ ونتأوه نحـــن : الويل لنا ! الويل لنا ! .....»

واضاف برومیارد :« بلا شك سيحقق القـاضي العـادل العــدل لأولئك المطالبين الصـــاخبين هـــكذا ، ورهيب ســـيكون اتهــــام الخاطئين ، وسيكون كذلك مصير الطغاة والعــديد ممـــن يدعون هنا على الارض بالنبلاء ، ستحمر وجوههم خجلا من العار أمام مقعــد الحساب .... »

ولا حاجة للقـــول إن هـــدف هـــذه الموعظـــة لم يكن الحض على الثورة ، وعندما كانت توجه للاغنياء كان يقصد بها النصح والتحذير للتعامل بالعدل والرحمة مع الفقراء وأن يقدموا الصــدقات طــوعا ، وعندما كانت توجه للفقراء لم يكن يقصد بها الاثارة بل على العكس التعزية والتهدئة ، ومع ذلك يمثـــل هـــذا التصـــوير ليوم الحســـاب الشكوى الكاملة من « الاذى » من« العـــظيم » ـ ويقـــدمها ايضـــا كجزء من الدراما الأخروية العظيمة وكل ما كان مطلوبا مـــن أجـــل تحويل مثل هذه النبوءة إلى دعوة ثورية من نوع متفجر هـــو تقـــريب يوم الحساب ، وعدم اظهاره كحدث في مستقبل بعيد بلا حدود بل إنه بالفعل في متناول اليد ، وهذا بالضبط ما حـــدث في الموعظـــة التـــي نسبها ولسنفام إلى جون بول ولتقدير الاهمية الكاملة لتلك الموعظـــة على المرء فقط أن يتذكر القرينة التوراتية لحكاية القمـــح والبيقية ، وهي قرينة يمكن للمرء أن يكون واثقا أنها قد قفزت ، إلى فـــكر اي مستمع من القرون الوسطى ، لانها كما فسرت مـــن قبـــل المســـيح للحواريين ، كانت القصة عبارة عن نبوءة أخروية تعالج الاختلاجات الهائلة للايام الاخيرة :(ص ٢٠٣)

« إن ذلك الذي يبذر البذرة الطيبة هو ابن الانسان ، والحقل هو العالم ، والبذرة الطيبة هي أطفال المملكة ، ولكن البيقية هي أطفال الشرير ، والعدو الذي بذرها هو الشيطان ، والحصـــاد هـــو نهـــاية العالم ، والحصادون هم الملائكة .

وبناء عليه كما تجمع البيقية وتحرق في النار ، فان هكذا سيكون في نهاية العالم ، سيرسل ابن الانسان مــلائكته وسيجمعون مــن مملكته كل الاشياء التي تؤذي ، ومعهم الذين لايحققــون المســاواة وسيلقون بهم في أتون من النار ، وسيكون عويل وصرير اسنان ، ثم يشع نور الصالحين كما تشرق الشمس ، في مملكة ابيهم . فليســمع من له أذان تسمع »

وباعلان أن النبوءة الان في لحظة التحقيق ، وأن زمــن الحصــاد الذي حدده الرب قد حل أخيرا ، فان الموعظة في الواقع تــدعو عامــة الناس ، باعتبارهم أطفال المملكة ، لينفــذوا القضــاء على القــوى الشريرة التــي ســتواكبهم في الالفية ، وفي تلك الالغــاز المســجوعة المنسوبة إلى بول – لكن التي لاتقل عن المواعظ ويجب أن تعتبر في الواقع بدون مؤلف معين – والرمزية المستعملة في ركائز الحــراث » مكيفة لنقل الرسالة الثورية ، وهذا ايضا يمكن للمرء أن يتعرف على التوقع المتلهف لمعركة اخيرة بين الفقراء الذين يرون كحشود الرب ، وبين خصومهم الذين يرون كحشــود الشــيطان ، وبهــذه المعــركة سيتطهر العالم من الخطيئة وخاصة من ذنوب مثل البخل والتــرف ، التي تنسب تقليديا للاغنياء ولسوف « يتحــرر الصــدق مــن تحــت القفل » وسيعود الحب الصــادق الذي كان طيبــا جيدا ســيعود الى العالم ، إنه فجــر الالفية ، ولكنهــا الفية لن تــكون فقــط مملكة القديسين التي تنبأت بها الأخرويات التقليدية بل ايضا انعاشا لحالة المساواة الطبيعية البــدائية ، وعصرا ذهبيا ثــانيا ، واصرت الحكايات الرمزية أيضا على أن هذا قد قــدر له أن يحــدث الان وفي هذه اللحظة بالذات ذلك أن : « الرب يعوض ويثأر ، لأن الوقت قــد حان ».

وكان الاعتقاد أن الثورات الفلاحية الثلاثة الكبيرة التي قامت في القرن الرابع عشر : الثــورة في المناطــق الســـاحلية مـــن فلاندرزبين ١٣٢٣ و ١٣٢٨ ، وجــاكويرية في ١٣٥٨ كانت كلهــا موجهة فقط نحو اهداف محدودة ذات طبيعة اجتماعية وسياسية

وفي الواقع إن هذا يبدو اقل صحة بالنسبة للثورة الانكليزية منه بالنسبة لاسلافها في القارة الاوروبية ، ومع انه هنا ايضا اثير اكثرية المتمردين ببساطة بسبب مظالم نوعية و المطالبة باصلاحات معينة ، يبدو مؤكدا أن الامال الالفية والطموحات لم تكن كلها مفقودة ، ومن وجهة نظر اجتماعية إن هذا غير مدهش بأي حال ، ففي الثورة الانكليزية شغل دور كبير بصورة استثنائية متميزة من قبل اعضاء المراتب الاكليروسية الدنيا ، (ص ٢٠٤) وخاصة من قبل المرتدين وغير النظاميين من طراز جون بول ، وكما رأينا كان مثل هؤلاء الرجال متلهفين دائما لادعاء دور الانبياء الملهمين ، المكلفين بمهمة توجيه البشرية خلال مرحلة الاختلاجات المقدرة للايام الاخيرة ، وفي الوقت نفسه من غرابة تلك الثورة إنها كانت تقريبا مدنية بقدر ما كانت ريفية ، ويبدو أن فلاحي كنت واسكس امنوا بطيبة الملك وبقدرته التامة فزحفوا نحو لندن ، وعندما وصلوا الى هناك ثار سكان المدينة ايضا ، وحالوا دون اقفال البوابات في وجه الحشود القادمة ثم ضموا قواتهم الى الثورة ، وغير هذا بالتاكيد خصائص الثورة ، وليس من شك في وجود سبب وجيه لما لاحظه فروبسات أن اشد اتباع بول حماسا كانوا موجودين بين اللنديين «الذين كانوا ينقمون على الاغنياء والنبلاء ويحسدونهم ، وبحلول ذلك التاريخ كان في لندن عالم سري مثل ذلك الذي وجد منذ زمن طويل في مدن فرنسا والمانيا والبلاد المنخفضة ، وكان قوام هذا العالم العمال المتجولون الذين منعوا من دخول النقابات وكانوا في الوقت نفسه ممنوعين من تكوين تنظيمات خاصة بهم ، والعمال غير المهرة والجنود المرهقين والفاريين ، وفائض السكان من المتسولين والعاطلين ، في الحقيقة وجد عالم سفلي كامل عاش في بؤس عظيم ، وكان بشكل دائم على حافة المجاعة ، وقد تضخم باستمرار بهرب رجال السخرة من الريف ، في وسط من هذا القبيل حيث اختلط المتنبئون المتعصبون بالفقراء المشوشين اليائسين الذين كانوا يقفون عند اقصى حافة المجتمع ، بالذات كان هنالك على اي حال هيجان يهز كل البنية الاجتماعية ، وكان مقدرا لهذا الهيجان أن يجعل ذاته مدركة بوساطة جائحة قوية ، وأن يفرز مضاعفات العنف البالغ ،

وهنا لابد أنه في الحقيقة قد لاح ان كل الاشياء كانت تتجدد ، وان كل الامور المعتادة كانت تتحلل وكل الحواجز تنهار ، وهنا ايضا في الحقيقة يمكن من حيث المبدأ الاقتراح بأن التوقعات الالفية ، ربما كانت كامنة خلف كثير من الاثار الجانبية الاكثر اثارة للدهشة للثورة ، مثل : حرق قصر سافوى وتدمير كنوزه كلها من قبل اللندنيين الذين لم ياخذوا لأنفسهم شيئا منها ، وما هو اكثر بداهة من المطالب غير العملية التي قدمت الى الملك في سمث فيلد ربما كان اقرار جاك سترو (المفروض دائما أنه فعل ذلك حقا) أنه في النهاية لابد من قتل الاعيان وكل الاكليروس سوى بعض الرهبان المتسولين وابادتهم والخلاص منهم .

وبالتاكيد كانت حالة لابد من انه كان سهلا فيها بدرجة كافية اعلان وتصديق أن الطريق يمتد بكامل اتساعه لالفية مساواتية وحتى شيوعية ، وكانت هذه بالضبط حالة ستقوم مرة اخرى وعلى مدى اوسع بكثير عندما بعد اربعين سنة تفجرت ثورة الهوسيت في بوهيميا (ص ٢٠٥)

الرؤيا النبوئية الطابورية :

مع الغلبة السلافية في البنية العرقية واللغة ، كانت دولة بوهيميا لعدة قرون داخلة ضمن اطار الحضارة الاوروبية الغربية اكثر من الشرقية ، وكانت مسيحيتها لاتينية ولم تكن اغريقية ، وسياسيا شكلت جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ووجدت مملكة بوهيمية دون انقطاع منذ نحو ١٢٠٠ وما بعدها ، وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر وضع ملك بوهيميا ايضا التاج الالماني ثم الامبراطوري ، وفي ذلك الوقت كانت بوهيميا الحاضرة الرئيسة في الامبراطورية ومقر رئاسة الجامعة الاولى في براغ ، التي تاسست في ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ ، والتي هيمنت بفعالية على الحياة السياسية والثقافية في وسط أوربا ، وقد فقد هذا المركز في السنوات

الاولى من القـرن الخـامس عشر ، عندمـا خلع الملك البـوهيمي ونسسلاس الرابع عن العرش الامبراطوري ، وتوقفت الجامعة عن كونها دولية ، واصبحت تشيكيـة صرفـة ، ولكن في تلك السـنوات نفسها اصبحت بوهيميا مركزا لحركة دينية ذات قوة متفجرة حتـى انها اثارت الاضطراب في كل اوروبا عقود عدة من الزمن .

لم يكن هنالك جزء من اوروبا امكن ان تقوم فيه الانتقادات ضـد الكنيسة باقتناع اكثر مما كان في بوهيميا ، ولقد كانت ثروة الكنيسة هناك هائلة ، حيث كان نصف مجمـوع الاراضي ملكا اكليروسـيا ، وكثيرا من الكهنة وخاصة كبار الاسـاقفة كانوا يعيشـون بشـكل واضح حياة دنيوية ، بينما كانت الادارة البابوية تتدخل باستمرار في الشؤون الداخلية للبلاد ، وتستخرج منها ايضا ربحا ماليا عظيما ، وعلاوة على ذلك تعززت مرارة العامة المعتادة تجاه الاكليروس بقوة بالاحساس الوطني ، ومنذ القرن الثاني عشر كان في بـوهيميا اقلية هامة من اصـل الماني ، تتحـدث الالمانية وتحتفـظ بتصـميم بخصائصها الالمانية ، وكان هؤلاء الناس كثيرين بشكل خـاص بين اعلى مراتب الاكليروس ، وانضـمت شـكاوى التشـيك ضـد الاكليروس إلى شكاواهم ضد الاقلية الغريبة .

وفي ١٣٦٠ اكتسـب زاهـد اصـلاحي يدعى جـون ميليك أوف كروميريز نفوذا كبيرا في براغ ، وكان مهتما جدا بالمسيح الدجـال ، الذي تخيله في البدأية كفرد ، ولكن فيما بعد كفساد ضمن الكنيسـة نفسها ، وحقيقة ان الكنيسة كانت واضحة الفسـاد وكانت تعني ان حكم المسيح الدجال قـد بـدا ، وهـذا كان يعني ان النهـاية كانت وشيكة ، ولكن في الاستعداد للنهاية كان يجب قهر الدجـال ، بمعنى ان الكهنة يجب ان يتعلموا العيش في فقر ، بينما العامة من جانبهم ، يجب ان يبتعدوا عن « الربـا » (ص ٢٠٦) وكان هناك مـن هـو حتى الاكثر نفوذا من ميليك وهو حواريه متي أوف جانوف الذي كان ناشطا حوالي ١٣٩٠ ، وهو ايضـا كان مشـغولا بفـكرة المسـيح الدجال ، وفسر مجازيا أن المقصود هو الذين كانوا يقـدمون حسب

الذات والدنيا على حب المسيح ، وكان حتى اكثر مـن ميليك متـأثرا بقوة هيمنة المسيح الدجال ، وفي نظره كان الوقت الراهن انذاك كليا تحت هيمنة المسيح الدجـال ، ورأى في دنيوية الرهبـان والكهنة ، وفوق كل شيء فضيحة الانشقاق الكبير ، برهانا عليه ، وبالطبع كان الانتصار الاخير للمسيح مضمونا ، ولكن كانت مهمة كل المسيحيين الحقيقين أن يعدوا له ، ويمكنهم أن يفعلوا ذلك جزئيا بـالعودة الى المفاهيم المعلنة في الانجيل وجزئيا بالقداس اليومي ، واصر على ان القربان المقدس كان الغذاء الروحي اللازم الذي لامفر منه ويجب ان يتوفر كاملا وكثيرا للعامة كمـا هـو للكهنة ، وكان جسـم المسـيح الدجال يتالف من الكهنة الزانفين فوق كل شيء ، وتساءل لماذا يجب أن يتمتع اتباع المسيح الدجال هؤلاء بالصلة الحميمة جدا بـالمسيح اكثر من معظم المسيحيين ؟ وفي فكر متى أوف جانوف كان للقـربان المقدس المتسلم للمرة الاولى المكانة المركزية التي قدر له ان يشـغلها فيما بعد في المعركة ككل .

واستمرت مطالب الاصلاح التي استهلت من قبـل ميليك ومتـى أوف جانوف بوساطة وعاظ اخرين واثيرت اكثـر بتعـاليم ومثـال ويكليف ، الذي كانت اعمـاله معـروفة في بـــوهيميا منذ ١٣٨٠ ومابعدها ، ومع انقضاء القرن تولاها جـون هـوس و كان نفسـه معجبا ومتحمسا لويكليف – الذي عبر عنها بشكل فعال الى حد ان اهمية الحركة توقفت عن ان تكون مجرد محلية واصـبحت بـاتساع النصرانية اللاتينية ، ومثل أسلافه ، كان هوس واعظـا شـعبيا كان موضوعه المفضل فساد ودنيوية الاكليروس ، ولكن جمعا غير عادي من المواهب جعلت منه فجاة رئيسا للجامعة وزعيمـا روحيا لعـامة الناس والشخصية ذات النفوذ في البلاط ، وهذا اعطى احتجـاجاته وزنا كبيرا ،

و قد حمل احتجاجاته ايضا الى مدى ابعد من كل من تقـدمه ، حيث انه عندما ارسل البابا جون الثـالث والعشرين مبعـوثيه الى بـراغ للوعظ بحملة صليبية ضد عدوه السـياسي ، ملك نابـولي ، وبمنح

الغفران لكل من أسهم بالمال في هذه القضية ، ثار هوس ضد الأوامر البابوية ، ومثل ويكليف قبله أعلن أنه عندما تقف القرارات البابوية في مواجهة شريعة المسيح التي عبرت عنها الكتب المقدسة يجب على المؤمن ان لا يطيعها ، وشن ضد بيع الغفران حملة أثارت قلقا على اتساع الأمة (ص ٢٠٧).

و يكن هوس أبدا متطرفا أو ثائرا ، وكان الذي أزعج هوس واثاره ببساطة رفض الطاعة العمياء للمراتب الكهنوتية الأعلى منه ، ولكن هذا كان كافيا كي يكلفه حياته . وبحرمانه في ١٤١٢ ، استدعي في ١٤١٤ للمثول أمام المجمع المسكوني الذي اجتمع في حينه في كونستانس . وباعتماده بحمق على صك أمان من الامبراطور سيغسموند استجاب للاستدعاء ، وكان هدفه أن يقنع المجمع بالجدل أن الكنيسة كانت حقا بحاجة الى اصلاح جذري ، وعندئذ اعتقل ، وبرفضه الارتداد أحرق كمهرطق ، وكان لب « هرطقته » ادعاؤه أن البابوية لم تكن مؤسسة الهية بل بشرية ، وليس البابا بل المسيح هو الرأس الحقيقي للكنيسة ، وأن البابا غير الجدير يجب خلعه ، ومن التناقض بدرجة كافية ، أن المجمع الذي أدانه كان هو نفسه قد خلع لتوه البابا جون الثالث والعشرين بسبب بيع المراتب الكهنوتية ، والقتل واللواط والزنا .

وحولت أخبار اعدام هوس القلق في بوهيميا الى اصلاح وطني ، وللمرة الأولى – وقبل لوثر بقرن كامل – تحدت أمة سلطة الكنيسة كما هي ممثلة في البابا والمجمع ، وخلال سنوات ١٤١٥ – ١٤١٨ قام الاصلاح في كل بوهيميا بموافقة ودعم بارونات التشيك الكبار والملك ونسسلاس ، واستبدلت بالفعل المراتب الكنسية الموجودة على نطاق واسع بكنيسة وطنية لم تعد تحت سلطة روما بل كانت تحت رعاية السلطات المدنية في بوهيميا ، وفي الوقت نفسه ، وبناء على الحاح تابع سالف لهوس هوجاكوبيك أوف ستريبرو ، تقرر أنه من حينه فصاعدا على العامة

أن يتناولوا القربان المقدس على نوعين بدلا من ـ كما أصبح شائعا خلال القسم الأخير من العصور الوسطى ـ تلقي الخبز فقط وكانت هذه تغيرات بعيدة الأثر ، ولكنها في ذاتها لم تكن تبلغ حد القطيعة الرسمية مع كنيسة روما ، وعلى العكس ، لقد فهمت على أنها اصلاحات من أجلها كان يؤمل في كسب الكنيسة ككل ، ولو أن روما أو مجمع كونستانس تعاونا في هذا البرنامج ، لرضيت النبالة التشيكية واساتذة الجامعة والعديد من الناس العاديين ، ولكن هذا لم يكن ، وفي ١٤١٩ عكس الملك ونسسلاس تحت ضغط من الامبراطور سيغسموند (أخوه) ومن البابا مارتن الخامس سياسته وتخلى عن القضية الهوسية ، وحظرت الدعوة الهوسية ، وحتى المناولة المزدوجة من كلا النوعين نظر اليها بنفور ، وفي الجزء من براغ الذي عرف بالمدينة الجديدة أصبح عامة الناس بوحي من الراهب السالف والهوسيذي المتحمس الذي يدعى جون زلنسكي متململا ضجرا بشكل متزايد وعندما أبعد ونسلاس في تموز ١٤١٩ كل أعضاء المجلس البلدي من الهوسيت من حكومة المدينة الجديدة هب الشعب وعصف بدار البلدية وألقوا بالأعضاء الجدد من النوافذ.

وقوت المحاولة المخفقة لكبح الحركة الهوسية بدرجة كبيرة الميول المتطرفة بداخل الحركة ، إذ أنه منذ البداية كانت الحركة تضم أناسا كانت أهدافهم تمضي الى مدى بعيد وراء أهداف النبالة أو اساتذة الجامعة ، وكانت الأغلبية الكبيرة من هؤلاء المتطرفين تنتمي الى الطبقات الاجتماعية الأدنى ، وكانت تضم النساجين وعمال النسيج الآخرين ، والخياطين وعمال مخامر البيرة والحدادين ، وفي الحقيقة كل الشغيلة في كثير من الحرف ، والدور الذي شغله هؤلاء الناس كان مذهلا حتى ان الجدليين الكاثوليك أمكنهم الأدعاء بأن الحركة الهوسية كانت منذ البداية الأولى تمول من قبل نقابات الحرفيين ، وربما كان الأصدق القول بأن الهيجان العام في بوهيميا قد شجع على القلق الاجتماعي بين الحرفيين وكانت هذه بشكل خاص الحالة في براغ.

وفي الناحية الاقتصادية الحسنة تماما ، كان الحرفيون في العاصمة بعيدين عن كل تاثير على الادارة المحلية ، التي كانت كليا في أيدي العائلات النبيلة الكبيرة ، الاكثر عنفا في معاداتها للهوسية ، وكان العديد منها من الالمان ، وقد تحولت هذه الحالة فجأة مع بزوغ تموز ١٤١٩ ، وزاد نجاح التمرد بدرجة كبيرة من قوة النقابات ، واعطاها سلطة فعالة على الادارة ، وطرد الحرفيون اعدادا كبيرة من الكاثوليك ، واستولوا على بيوتهم وممتلكاتهم وكثير من وظائفهم ومزاياهم ، وعلاوة على ذلك صودرت الاديرة ونقلت ثرواتها الى مدينة براغ ، وهذه أيضا أفادت الحرفيين وإن يكن بصورة غير مباشرة ، ومع أن المدينة الجديدة لم تعد تنعم بالمساواة تحت حكم النقابات كما كانت تحت حكم النبلاء فإن حقيقة انها كانت تحت سيطرة الحرفيين جعل منها مركزا لنفوذ المتطرفين.

ولكن كانت النقابات هي التي نظمت ووجهت الحركة المتطرفة في براغ ، وكان معظم افراد الجمهور قادمين لا من بين الحرفيين المهرة بل من بين أدنى طبقات السكان من الحشود المتنافرة من عمال المياومة وغير المهرة ، والخدم المتعاقدين ، والمتسولين والعاهرات والمجرمين وحتى في أعلى درجات ازدهارها في القرن الرابع عشر كانت العاصمة ذات كثافة سكانية كبيرة من أشد الناس فقرا وسكان الأحياء الفقيرة ، ورات السنوات الثلاثون أو الأربعون التي سلفت على الثورة الهوسية زيادة كبيرة في أعداد مثل هؤلاء الناس وتدهورا في احوالهم ، وفي ذلك الوقت كانت بوهيميا تعاني من زيادة السكان و كما كان دائما استمر تدفق فائض السكان من المناطق الريفية على المدن وعلى العاصمة بشكل خاص ، ولكن بوهيميا لم يكن لديها صناعة تصدير قادرة على امتصاص هؤلاء الناس ، حتى ان كثيرا منهم كانوا مجرد اضافة لتضخيم أعداد العاطلين ، وحتى أولئك الذين كانوا يجدون نوعا من العمل الذي لا يتطلب مهارة كانوا ما يزالون في حالة يائسة ، حيث انه في حين بقيت الأجور في مستوى فترة ١٣٨٠ ، كانت قيمة العمله (ص ٢٠٩) مزعزعة بالتضخم وارتفعت الأسعار

بقسوة ، وبحلول ١٤٢٠ بدا أن الغالبية العظمى من سكان براغ الذي يتراوحون بين ثلاثين الف واربعين يعيشون - أو يموتون - على اجور لا تحقق الا الجوع ، وكان المدد الكبير للجناح المتطرف من الحركة الهوسية يأتي من هذه البروليتاريا المرهقة.

ووجد التطرف ايضا دعما كبيرا بين الفلاحين. وكان معظم سكان الريف قد اعتمدوا زمانا طويلا على السادة والا كليروس او المدنيين الذين كانوا يملكون الارض ولكن الى حد كبير بفضل نظام ملكية الار ض الذي ادخله المتمردون الألمان والذي انتشر بين الفلاحين التشيك لم يكن اعتماد الفلاح على سيده بأي حال مطلقا ، لقد كانت الأجور والفروض مثبتة بدقة ، وكانت الايجارات وراثية وعليه فقد وفرت كثيرا من الضمانات ، ومع ذلك فقد كانت الايجارات أحيانا تباع من قبل المستأجرين ، حتى أن العديد من الفلاحين كانوا يتمتعون بحرية معينة في الحركة ، واعاقت زيادة السلطة الملكية في القرن الرابع عشر بدرجة اكبر استغلال النبالة لعامة الناس ، واعطى قانون في ١٣٥٦ للفلاحين غير المستقلين الحق في مقاضاة سادتهم امام المحاكم المحلية ، وغضب النبلاء من هذه القيود ، ومع بداية القرن الخامس عشر بذل جهد مصمم لحرمان الفلاحين من حقوقهم التقليدية وإجبارهم على وضع من الاعتماد الكلي ، وبالتحايل على القانون جرد كثير من الفلاحين تدريجيا من حقهم في توريث ما تحت ايديهم لورثتهم في حين انهم هم انفسهم كانوا مقيدين بدرجة اشد بالأرض وتزايدت فروضهم وخدماتهم. ويبدو انه في وقت هيجان الهوسية كان الفلاحون البوهيميون يدركون بصعوبة أن وضعهم كان مهددا ، وعلاوة على ذلك ففي الريف ايضا كانت توجد طبقة ليس لديها ما تفقده ومن: عمال بلا أرض ، وايدي عاملة زراعية ، والعديد من اعضاء فائض السكان التي لا يمكنها أن تؤوى لا في المدن ولا في الأرض وكان كل هؤلاء الناس اكثر من مستعدين لتأييد اي حركة بدا انها يحتمل أن تجلب لهم العون والفرج.

ومن ١٤١٩ وما بعدها بدأ الجناح المتطرف للحركة الهوسية في الانفصال عن الجناح الأكثر محافظة ، واخذ يتطور على مسارات خاصة به . وفي مواجهة سياسة الاضطهاد الجديدة للملك ونسسلاس بدأ عدد من الكهنة الاصوليين بتنظيم اجتماعات للصلاة خارج نظام الابرشية ، على مختلف قمم التلال في جنوب بوهيميا ، وهناك كانوا يقدمون القربان بنوعيه ويعظون ضد اساءات كنيسة روما ، وسرعان ما تحولت اجتماعات الصلاة الى مستوطنات دائمة حيث كانت الحياة تقليدا واعيا للمجتمع المسيحي الأصلي كما صوره العهد الجديد ، وشكلت هذه الجماعات معا مجتمعا جنينيا كان بكامله خارج النظام الاقطاعي (ص ٢١٠) وكان يحاول تنظيم شؤونه على قاعدة المحبة الأخوية بدلا من القوة ، وكان اهم هذه المستوطنات على تل قرب قلعة بيكينيه على نهر لوزنيكا ، والامر الذي له دلالة أن البقعة قد أعيدت تسميتها « بجبل طابور » ، حيث انه حسب تقليد يعود الى القرن الرابع ، كان طابور اسم الجبل حيث تنبأ المسيح بمجيئه الثاني (مرقص ١٣) ومن حيث صعد الى السماء والى حيث كان يتوقع عودته للظهور بجلال ، وسرعان ما ارتبط هذا الاسم بكل ما انطوى عليه من انغام أخروية بالهوسية المتطرفين انفسهم ، وكانوا معروفين من قبل لدى معاصريهم بالطابوريين ، كما هم بالنسبة للمؤرخين اليوم.

وبالكاد وجد برنامج موحد للطابوريين ، لان طموحاتهم كانت متنوعة ومشوشة وقد أثار هؤلاء الناس عداوة وطنية واجتماعية إضافة الى الدينية ، وحقيقة ان معظم التجار الناجحين في المدن لم يكونوا فقط كاثوليك مخلصين بل ايضا المان ، والاعتقاد واسع الانتشار – مع انه خاطيء – أن الاقطاع والرق كانا مؤسستان المانيتان مميزتان – لقد كانت هذه الأشياء تعني أن الطابوريين كانوا اكثر حماسا في معاداتهم للألمان من الاوتراكيست (كما كان الهوسية يدعون الاكثر اعتدالا) ولكن فوق كل شيء لقد رفضوا مطلقا كنيسة روما ، في حين أن الاوتراكسيت تمسكوا في كثير من النواحي

بالمذهب الكاثوليكي التقليدي ، لقد أكد الطابوريون حق كل فـردمن العامة اضافة الى الكهنة في تفسير الكتـب المقـدسة وفـق معـرفته وامكانياته ، ورفض العديد من الطابوريين عقـيدة المطهر وانصرفوا عن الصلوات وقداس الجناز للموتى على انهـا خـرافات لا طـائل منها ، ولم يروا شيئا يستحق التكريم في الآثار المقـدسة أو صـور القـديسين ، وعاملوا كثيرا مـن شـعائر الكنيسـة بالازدراء ، ورفضوا ايضا اداء القسم واحتجوا على قانون العقـوبة القصوى (الاعدام) وما هو أهم من كل شيء اصروا على انه لا شيء يجب عده مادة للعقيدة مالم يؤكد بجلاء في الكتابات المقدسة.

كل هذا يذكر بمهرطقي القـرون السـالفة وبشـكل خـاص تلك الطوائف التي درست الانجيل مثل: الوالد نسـيان والفـودي الذين كانوا في الحقيقة ناشطين جدا بين الطبقـات الأكثـر فقـرا مـن بوهيميا ، ولكن هناك أيضا في بوهيميا منذ امد طويل كمـا كان في أجزاء أخرى مـن أوروبـا ، ميول الفية كانت بعيدة عن الانشـقاق الواقعي للوالد نسـيان بقـدر مـا كانت بعيدة عن الكاثـوليكية الأصولية ، وفي ايام الموت الأسـود ومـواكب اللطـامين الحـاشدة تنبأ ـ المحكم الروماني ـ المتنبيءرينزو في بـراغ بـأن عصرا مـن السلام والوئام والعدل ـ نظام فردوسي حقيقي ـ كان على وشـك أن يفتتح ، ولقد عاش جون ميليك والمصـلحون الذين تلوه في تـوقع مستمر للمجيء الثاني،في حين أنه قرب نهـاية القـرن الرابـع عشر ظهرت في بـوهيميا طـوائف الفية كانت متـسـأثرة بمـذهب الروح الحرة ، وقد تعززت التوقعات الالفية بقـوة حـوت حـوالي أربعين رجلا من البيكارتي وصلوا الى براغ من الخـارج في ١٤١٨ . ومـن المحتمل أن البيكارتي ربما كان المقصود بهم مجـرد البيغـرد ، ولكن الأكثر احتمالا أن المقصـود كان البيكارد ، وأن اولئك الناس كانوا هاربين من الأضطهاد الذي كان في ذلك الوقت في ليل وتوناي ، وعلى اي حال يبدو انه كانت له علاقات وثيقة مع اتباع الروح الحرة مـن طليعة أهل الفكر الحر في بروكسل ،لقد شجبوا بشدة الأساقفة الذين أغفلوا عن عمد وصية المسيح بالفقر المطلق ويستغلون الفقراء حتـى

يتمكنوا من العيش في ترف وفي فسق وملذات ، واعتقدوا انهم هم انفسهم من جانب اخر كانوا اوعية للروح القدس ويملكون معرفة كاملة بقدر ما كان للحواريين ، إن لم يكن للمسيح ، وحيث أنهم كانوا يعتقدون أن كنيسة روما هي بغي بابل وأن البابا هو المسيح الدجال فمن الواضح أنهم شعروا أنهم يعيشون الفترة التي تتقدم الالفية او ربما ـ مثل طليعة أهل الفكر الحر – للعصر الثالث والأخير.

وفي البداية كانت الميول الوالد نسيانية سائدة متحكمة بين الطابوريين خلال القسم الأعظم من ١٤١٩ ، و كان الطابوريون يهدفون الى إصلاح وطني و هو خلافا لاصلاح الهوسية الأصليين ، شمل قطيعة كلية مع روما ، وكان يتوجب أن تتوافق الحياة الدينية بناء على ذلك ، وإلى حد ما الحياة الاجتماعية في بوهيميا ، مع المثل الوالد نسيانية للفقر الرسولي والطهارة الخلقية ، وفي تشرين أول ومرة اخرى في تشرين الثاني اجتمع الطابوريون من كل انحاء بوهيميا في براغ ، حيث حاول القادة المتطرفون كسب الحكام من الهوسية وأساتذة الجامعة لبرنامجهم وطبيعي أنهم اخفقوا وسرعان ما وجدوا أنفسهم في مواجهة معارضة أشد قسوة بكثير مما ساوموا عليه ، وتوفي الملك ونسسلاس في آب ، بسبب صدمته بقتل المستشارين وانضم كبار النبلاء من الهوسية الى زملائهم من الكاثوليك لتأمين الخلافة لأخي ونسسلاس الامبراطور سيغسموند وأيضا لاحباط خطط المتطرفين ، وسرعان ما ألقى قضاة براغ ثقلهم في الجانب المحافظ ، واتفق الجميع على أن يبقى قربان النوعين ، ولكنهم اتفقوا أيضا ، بشكل مؤكد ، على أن الطابوريين يجب كبحهم ، ولفترة عدة شهور بدأ في تشرن الثاني ١٤١٩ ، عزل الطابوريين في كل انحاء بوهيميا عن الحركة الوطنية ، وتعرضوا لاضطهاد وحشي رمى الى القضاء عليهم. وفي الوقت نفسه ، كما كان متوقعا اخذت التخيلات الرؤوية والالفية منحا حركيا نشيطا جديدا.
و بدأ عدد من الكهنة ، السالفين بقيادة واحد يدعى مارتن هسكا ، و يعرف أيضا باسم لوكويس (ص ٢١١) بسبب بلاغته فوق

العادية ، بالوعظ علنا بمجيء التحقق العظيم ، معلنيين أن الوقت حان لابطال كل الشر و التحضير للألفية ، و بين ١٠ و ١٤ شباط ١٤٢٠ تنبأوا بأن كل مدينة وقرية ستدمر بالنار مثل سدوم وفي كل النصرانية سيحل غضب الرب بكل من لم يهرب فورا الى « الجبال » التي حددت بالمدن الخمسة في بوهيميا ، والتي اصبحت معاقل للطابوريين وسمعت الرسالة واثارت في ادنى الطبقات الاجتماعية حماسا عظيما ، وباع العديدمن الناس الفقراء امتعتهم ، ومع رحيلهم الى تلك المدن مع زوجاتهم واطفالهم ، القوا بأموالهم عند أقدام الواعظين .

ورأى هؤلاء الناس في انفسهم انهم يدخلون في الصراع الأخير م المسيح الدجال وحشوده ، ويظهر هذا بوضوح من رسالة متوحة وزعت في ذلك الوقت كان مما جاء فيها « يوجد خمس من ذه المدن ، وهي لن تدخل في اتفاق مع المسيح الدجال او تستسلم » ، ورددت أغنية طابورية عاصرت الاحداث الفكرة ايضا: « المؤمنون يبتهجون بالرب! ويقدمون له التمجيد والحمد لانه شاء أن يحفظنا وبكرمه ولطفه حررنا من المسيح الدجال الشرير وجيشه الخبيث ... »

وفي البلايا التي كانت تحل بهم عرف الالفيون « الويلات المسيحية » التي طال توقعها واعطاهم الايمان رغبة جديدة في النضال ولعدم الرضى بانتظار دمار من لارب لهم بمعجزة ، دعا الوعاظ المؤمنين لتنفيذ التطهير اللازم للأرض بأنفسهم وكتب واحد منهم وهو خريج جامعة براغ ويدعى جون كابك رسالة قيل انها«أكثر امتلاء بالدم مما تمتلىء بركة بالماء » وفيها صور بمساعدة اقتباسات من العهد القديم انه كان الواجب الذي لامفر منه للنخبة أن يقتلوا باسم الرب ، وقد افادت هذه الرسالة كهجوم مسلح للوعاظ الآخرين الذين استخدموا حججها لاقناع سامعيهم بالقيام بالمذبحة ، واعلنوا : « ينبغي عدم اظهار الرافة مطلقا تجاه المذنبين لأنه كل المذنبين كانوا أعداء المسيح وملعون ذلك الانسان

الذي يمسك سيفه عن سفك دم أعداء المسيح ، وينبغي على كل مؤمن ان يغسل يديه في هذا الدم » وانضم الوعاظ انفسهم بلهفة الى القتل لأنه « كل كاهن يجب ان يسعى بحق لجرح المذنبين وقتلهم »

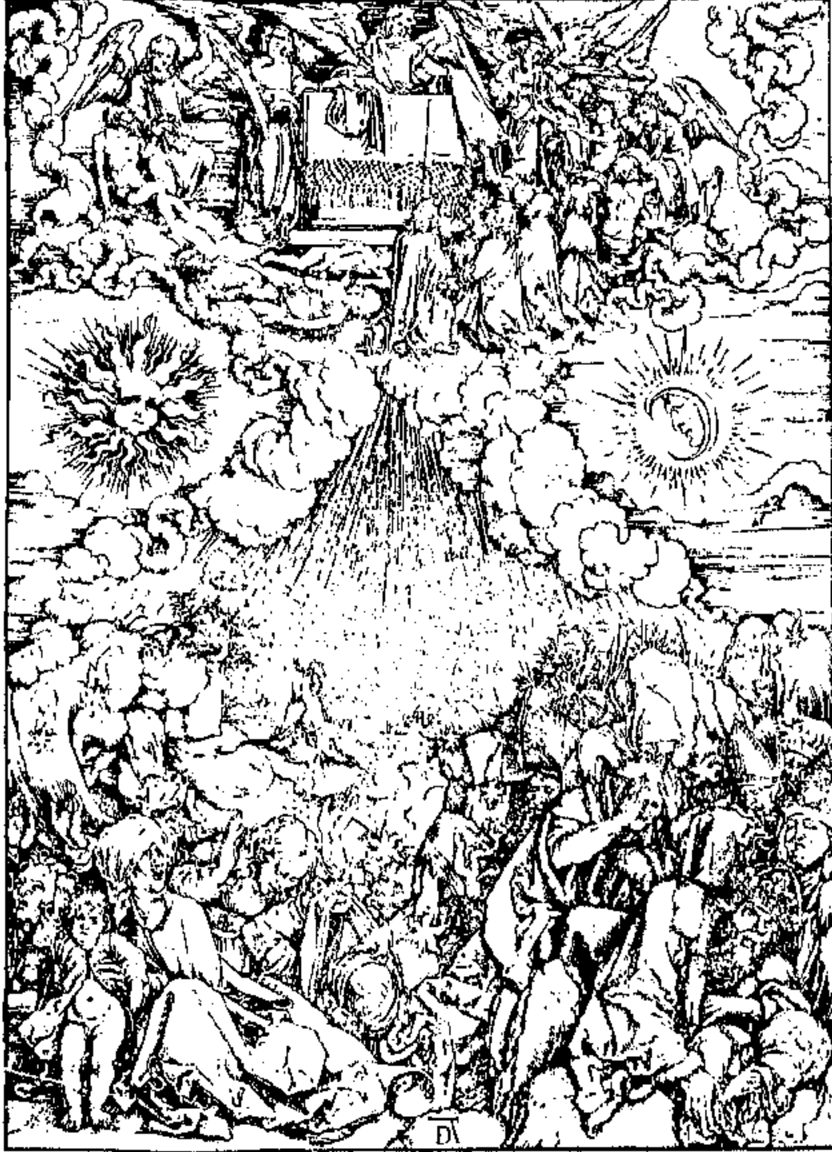
وشملت الذنوب التي يجب معاقبتها بالقتل مسببات القلق القديمة للفقراء « البخل والترف » وايضا وفوق كل شيء شملت كل معارضة لارادة « رجال القانون الالهي » وفي عيون الطابوريين المتطرفين كان كل خصومهم مذنبين ويجب ابادتهم ، والأدلة على هذا التعطش للدماء لم تأت كلها بأي وسيلة من مصادر معادية ، و لاحظ بيتر شيلكسكي Peter chelcicky و هو من الطابوريين ،كان قد مال الى هجر مظهره الوالد نسياني المسالم وهو التغيير الذي اصاب العديد من زملائه وتفجع من اجله وبين ان الشياطين قد اغواهم ليظنوا انفسهم من الملائكة الذين يتوجب (ص ٢١٣) عليهم تطهير دنيا المسيح من كل الفضائح والذين قدر لهم محاسبة العالم ، الامر الذي اقترفوا بقوته كثيرا من القتل وافقروا العديد من الناس».



١ـ قصة المسيح الدجال : الى اليسار المسيح الدجال يعظ بالهام من الشيطان ، في حين على اليمين « الشاهدان » اينوخ واليجا يعظان جنده ، وفي الأعلى المسيح الدجال مدعوما بالشياطين يحاول الطيران وبذلك يظهر انه الرب في حين يستعد احد الملائكة الرئيسين لضربه واسقاطه .



٢ ـ البابا كمسيح دجال:(ماشيور اورك) في هذه الصورة المرعبة المهداة الى اوثر ظهر البابا بذيل مع الخصائص الاخرى للشيطان في حين ان الضفادع الصادرة من فمه(مع الزواحف الاخرى) تذكر بوصف المسيح الدجال في سفر الرؤيا:١٦ / ١٣ ، ويسوي احد العناوين الشارحة ايضا بين الصورة ، والرجل الوحشي كما اظهره الدكتور برهمير في دراسته:« كان مخلوقا غريبا ذا قوة مدمرة شبقة ، وهو روح أرضية في الاصل من عائلة البان الهة الحقول عند الرومان (الفون) والهة الغابات عند الاغريق(ساتير) والمخلوقات التي تحولت الى شياطين مرعبة ، وقد اعطى اورك رجله الوحشي صليبا بابويا وهو ايضا جذع شجرة مثل ذلك الذي حمله القنطور وهو مخلوق خرافي نصفه رجل ونصفه فرس ، كان بدوره رمز للاحليل.



٣ ـ يوم الغضب (البرخت ديورر) رسم توضيحي للرؤيا: ٦ / ٩ ـ ١٦ :«... رأيت تحت المذبح نفوس الذين ذبحوا من اجل كلمة الرب ، ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم ... ونظرت... واذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء صارت الى الارض... وملوك الارض والعظماء والاغنياء والامراء والاقوياء اخفوا انفسهم في المغاير وفي صخور الجبال وهم يقولون للجبال والصخور: اسقطي علينا واخفينا عن وجه ذلك الجالس على العرش ، وعن غضب الخروف.



٤ـ مشهد من القرون الوسطى للقتل الطقوسي لصبي مسيحي على يد اليهود ، وهو مثل مدهش للاسقاط على اليهود للصورة الخيالية للتعذيب والأب المخصي .



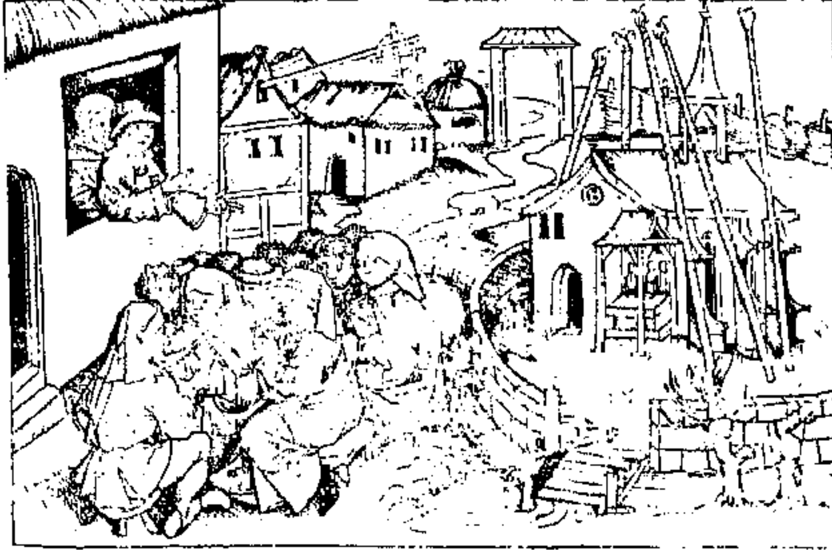
البخل والترف. فوق البخل يولم ويستمتع في حين يموت على ابوابه وروح الترف يحملها ملاك الى صدر ابراهيم.
في الوسط: البخل يموت ويوزن بكيس نقوده ، ويدفع الى الاسفل في الجحيم بواسطة الشياطين.
وفي الاسفل: البخل ويرمز اليه بشيطان والترف ويرمز اليه بامراة وافاعي.



٦ ـ (١) موكب لطامين في ١٣٤٩



٦ ـ (ب) حرق اليهود في ١٣٤٩



٧ ـ طبال نيكلاسهوزن . الطبال بحثّه الناسك او البيفرد ، يقـدم تعاليمه ، التي كانت في حينه تعطى للحجاج ، وترتكز على الكنيسة شموع عملاقة يحملها الفلاحون في مسيرتهم الى ورزبرغ .



٨ــ الرانتر كما تخيلهم معــاصروهم.أن هــذا الحفــر البــدائي والغريب على الخشب يبدو انه يظهر ان التدخين قد وضع بمســاواة « الروح الحرة » كتعبير عن تناقض المبادىء .

٩ ـ جون ليدين كملك :(هنريش الديغريفر)

يعتقد ان هذا النقش الدقيق مأخوذ من الحياة في وقت ما بعد سقوط مونستر ، بناء على طلب الأسقف ، ورمزت الكرة السلطانية مع السيفين الى ادعاء بوكلسون السيادة على العالم روحيا ومدنيا فقد كان احد شعارات بوكلسون :« قوة الرب هي قوتي » .

ومازالت رسالة كتبهــا بــالـلاتينية احــد الالفيين انفســـهم موجودة ، تؤكد ذلك كله بقولها :« ان المســتقيمين ... ســيبتهجون الآن برؤية الثار وغســل أيديهــم في دمــاء المذنبين » ولكن اكثــر المتطرفين بين الطابوريين مضوا ابعد مــن ذلك وتمســكوا بــأن اي واحد ، من أي مستوى ، لايســاعدهم بشــكل فعــال في تحــرير الحقيقة ، والقضاء على المذنبين يكون هو نفسه عضــوا في حشــود الشيطان ويكون صالحا فقــط للابــادة بناء على ذلك ، لان ســاعة الثار قد حانت حيث لا يعني التشــبه بــالمسيح بعــد الآن الاقتــداء برحمته بل بقضيته وقسوته ورغبته في الثار ، وكملائكة الرب للثــار ومحاربين عن المسيح على الصفوة المنتخبــة ان تقتــل الجميع بــلا استثناء ، ممن لاينتمون الى جماعتهم» .

وقد زاد من إثارة الالفيين تطور الحــالة الســياسية ففــي اذار ١٤٢٠ انتهت الهــدنة بين الهــوسية المعتــدلين والامبــراطور سيغسموند ، وغزا جيش كاثــوليكي ، دولي في تــركيبه ولكنه ذو غالبية المانية ومجرية ، بوهيميا ولم يقبل التشيك مطلقا من جانبهم سيغسموندملكا لهم ، وفي الواقع وان لم يكن بالقانون باشرت البلاد فترة من خلو العرش كان لها ان تستمر حتــى ١٤٣٦ ، وبــاشرت ايضا حربا لطرد الغزاة تحت لواء قائد عسكري عبقري هــو جــون ززكا John Zizka في معــركة تلو معــركة ، وكان ززكا من الطابوريين ، وكان الطابوريون هــم الذين حملوا وطــأة الصراع ، وعلى الأقل في المراحل الأولى لم يشــك أكثــرهم تــطرفا مطلقا انهــم كانوا يعيشــــون خــــلال فتــــرة « التحقيق الزماني » والقضاء على كل الشرور .

ووراء القضــاء على كل الشرور تــكمن الالفية ، وكان الناس مقتنعين تماما انه بينما الأرض تنظف من المذنبين سيهبط المسيح في « بهاء وسلطان عظيم » ثم تأتي « المائدة المسيحية » التي ستقام

في الجبال المقدسة للطـــابوريين ، وبعــــدما ســـيتولى المســـيح المنصب الملكي مكان الامبراطور غير الجدير ســيغسموند وسـيحكم العالم الألفي الذي « سيتألق فيه القديسون مثل الشـمس في مملكة ابيهم » و « يعيشــون مشرقين كالشـــمس تمـــاما بـــلا بقع » وسيبتهجون الى الأبد في حالة من البراءة كحالة الملائكة ، او أدم وحواء قبل السقوط ، وستكون هــذه الألفية في الوقــت نفســه العصر الثالث والأخير للنبوءات اليواكمية ، وفي ذلك العالم لن تكون هناك حاجة للأسرار المقدسة لضمان الخلاص ، وحفظ الكهنة للكتب سيتكشف بطلانه ، وستختفي (ص ٢١٤) الكنيسة نفسـها ، وهناك لن يشعر احد برغبة جسد أو معاناة ، وستحبل النســاء دون اتصال جنسي ويحملن اطفــالهن بـدون الم ولن يكون المرض والموت معروفين . وهناك سيعيش القـديسون معــا في مجتمـــع الحـــب والسلام ، ولايخضعون لقانون،متحررين مــن كل قسر : وســيكون السكان الجدد للفردوس ــ كما ســنرى ــ تجـديدا لوجـود حـــالة المساواة في الطبيعة .

الشيوعية الفوضوية في بوهيميا

إذا كان إيمان الطابوريين بالأخرويات مستمدا بشكل رئيس من اليوحنيه والنبوءات اليواكمية ، فإن بعض ملامحها بــالتأكيد تــذكر باسطورة العصر الذهبي ، وهذا مدهش بشكل خاص عندمـــا يقــوم المرء بفحص التنظيم الاجتمــاعي للألفية الطــابورية ، ويســـتحيل الحديث عن التأثير الذي ربما تكون قد أحدثته هنا شهرة جون بــول بوساطة تعاليم المهــاجرين البيكارد أو بــوساطة الأتبــاع المحليين للروح الحرة ، وكانت الأفكار المتفجرة كامنة على أي حال وجــاهزة للمساهمة في الأدب التقليدي للتشيك ، ولم يكن ببساطة ان بــوهيميا شأنها شــأن البلدان الأخــرى كانت مـــطالعة على خيالات حـــالة الشيوعية الفوضوية الطبيعية إذ كانت هذه التخيلات في بوهيميا قـــد أخذت أهمية وطنية غريبة ، ومن قبل وابكر مــن ذلك بثــلاثة قــرون

تخيل كوسماس اوف براغ ، المؤرخ البوهيمي الأول ، وصـور أول الناس وهم يستوطنون في بوهيميا ، على أنهم يعيشون حالة مجتمع كامل المشاعية : « كأشعة الشمس ، ورطوبة الماء ، هكذا الحقـول المحروثة ، والمراعي ليس هذا فحسب بل حتى الزيجات كانت كلهـا مشتركة .... لأنهم اتباعا لأسلوب الحيوانات باشروا التـزاوج لليلة واحدة .... ولم يكن احد يعرف كيف يقول : « لي » ، ولكن كما في حياة الرهبنة كانوا يقولون عن كل شيء لديهـم : « لنا » ، بـالقلب واللسان وفي افعالهم ولم تكن هناك اقفال على اكواخهم ، ولم يقفلوا ابوابهم في وجه المحتاجين ، لأنه لم يكن هناك لانشالين ولالصـوص ولافقراء .... ولكن واأسفاه لقد استبدلوا الرخـاء بعـكسه والملكية المشاعة بالملكية الخاصة .... لان رغبة التملك كانت تحترق بداخلهم بضراوة تفوق نيران اتنا» وقد خلد المؤرخون المتأخرون هذه الأفكار بين المتعلمين ، وكان ماهو أكثر أهمية ظهـور التخيلات نفسـها في وقت مبكر في القرن الرابع عشر في تاريخ تشيك رايمد، وهـو عمـل بالعامية قدر له أن يبقى شهيرا جدا حتى نهاية العصور الوسـطى ، وكان أنذر بطرق عدة بحدوث العاصفة الطابورية ، لأن هناك جـرى تصوير مجتمع النعيم التشيكي (ص ٢١٥) القديم ، الذي فقد من زمان طويل وذلك بقصـد دعائي ، في محيط هجمـات ضـارية على التجارة والحضارة الالمانية في المدن ، تماما كمـا سـيفعل بعـد ذلك بقرنين ثوار الراين الأعلى في مقـارنة الحياة المشـاعية المفتـرضة للألمان القدماء مع طرائق المرابين الشريرة التـي أدخلهـا الألمان ، وإلى أي مدى لونت هذه التخيلات المظهـر الاجتمـاعي والتـاريخي التشيك هذا ما أظهر بوساطة حقيقة أنه عندمـا أخـرجت في القـرن الرابع عشر المجموعة القانونية المعروفة بـاسم الماجسـتا كارولينى باللغة الدارجة ، جعلت هذه الوثيقة الجليلة تنطق بأنه ليس فقـط في الأجيال الأصيلة أو لزمان طويل كانت ملكية كل شيء ، مشتركة ، بل إن تلك العادة كانت هي العادة الصحيحة .

وكما فهم الطابوريون المتطرفون الالفية قدر لها أن تتميز بعـودة للنظام الشيوعي الفوضوي المفقود ، وكان لابد من إبـطال الضرائب

والقروض والايجـارات وكذلك الملكية الخـاصة مـن كل نوع ، وأن لاتـكون هناك سـلطة بشرية مـن أي نوع : « وسـيعيش الجميع كأخوة ، ولايخضع أحـد لآخـر » « والرب هـو الذي سـيحكم ، وستسلم المملكة لأهل الأرض » . وحيث أن الألفية ستكون مجتمعـا بلا طبقات ، كان التوقع أن المذابح التحضيرية ستأخذ صورة حـرب طبقية ضد « العظيم » ، وصـورة هجـوم أخير ، في الواقـع ، على الجشع الحليف القديم للمسيح الدجال .

وكان الطابوريون واضحين تماما في هذه النقطة : « كل اللوردات والنبلاء ، والفـرسان سـيصرعون ويقضى عليهـم في الغـابات كالخارجين على القانون » وايضا كما كانت الحالة في أراض أخرى في قرون سالفة ، كان فوق كل شيء ، سكان المدن الأغنياء أو مـلاك الأراضي الغائبون ، بدلا من النمط القديم من السادة الاقـطاعيين ، هم الذين رؤي فيهم صورة الجشع وكان هذا الجشـع المديني هـو الذي تلهف الطابوريون المتطرفون بشدة لتدميره ، تماما كمـا كانت المدن التي اقترحوا حرقها إلى الأرض ، حتى لايدخلها مـؤمن مـرة أخرى ، وكانت براغ معقل مؤيدي سيغسموند هدف الحق الخـاص وبتسمية المدينة بابل أظهر الطـابوريون بـوضوح كاف المعنى الذي ربطوه بمصيرها الوشيك ، لأن بابل مسقط راس المسـيح الدجـال والنظير الشيطاني القـدس ، كانت تعتبـر تقليدا تجسـيدا التـرف والبخل ، وعلى الشكل التالي تنبأ سفر الرؤيا بسقوطها:

« بقدر ما مجدت وتنعمت بقدر ذلك اعطوها عذابا وحزنا .... من اجل ذلك في يوم واحد ستأتي ضرباتها موت وحزن وجوع وتحتـرق بالنار لأن الرب الاله الذي يدينها قوي .

وسيبكي وينوح عليهـا ملوك الأرض الذين زنوا وتنعمـوا معهـا حينما ينظرون (ص ٢١٦) دخان حريقها واقفين مـن بعيد لأجـل خوف عذابها قائلين ويل ، ويل ، المدينة العظيمة بابل المدينة القوية ،

لأنه في ساعة واحدة جاءت دينونتك ، ويبكي تجار الأرض وينوحون عليها لأن بضائعهم لايشتريها أحد فيما بعد .... »

وبعد هذا يظهر المسيح المحارب في السماوات على رأس جيش من الملائكة ليشن الحرب على المسيح الدجال وليقيم الألفية على الأرض .

وبعدما ينفذ التطهير العظيم ويتم تجديد المجتمع الكامل فوق التراب البوهيمي ، على القديسين أن يمضوا لغزو بقية العالم والسيادة عليه ، « لأنهم الجيش الذي أرسل إلى كل العالم لحمل وباء الانتقام وإيقاع الثأر في كل الأمم ومدنها الكبيرة والصغيرة ومحاسبة كل شعب يقاومهم .

وبعد ذلك تخدمهم الملوك ، وكل أمة لاتخدمهم ستدمر ، « وسيدوس أبناء الله على أعناق الملوك وسيعطون كل الممالك الموجودة تحت السماوات » .

ولقد كانت اسطورة اجتماعية بالغة القوة ، وواحدة مما تعلق به بعض المتطرفين لسنوات عديدة ، خلال أشد المحن تثبيطا وإن المجيء الثاني قد يتأخر إلى أجل غير مسمى ، وقد يبقى النظام الاجتماعي التقليدي دون تغيير ، وكل فرصة حقيقية لثورة مساواتية قد تختفي ، لكن هذه التخيلات ما برحت تتردد ، وفي وقت متأخر يعود إلى ١٤٣٤ نجد متكلما في اجتماع للطابوريين يعلن ، انه كيفما كانت الأحوال غير مواتية في الوقت الراهن ، فإنه ستأتي اللحظة حالا حيث يجب أن تهب النخبة وتبيد أعداءهم ، وهم السادة في المقام الأول ، ثم أيا من شعبهم ممن يشك في ولائه أو نفعه ، ومـا أن يجري ذلك ، وبوهيميا تحت سيطرتهم التامة ، فإنهم سيتقدمون بأي تكاليف من الدماء المسفوكة ، ليغزوا أولا الأراضي المجاورة ثم كل الأراضي الأخرى ، « لأن هذا ما فعله الرومان ، وبهذه الطريقة سادوا العالم كله » .

وفي التطبيق كانت خطة نظام الشيوعية الفوضوية على اتساع

العالم قد قوبلت بنجاح محدود جدا ، وفي وقت مبكر في ١٤٢٠ وضعت خزائن مشتركة في بعض المراكز تحت سلطة كهنة الطابوريين ، وباع الوف من الفلاحين والحرفيين في كل انحاء بوهيميا ومورافيا كل حاجياتهم ودفعوا العائدات للخزائن فلقد انفصل هؤلاء الناس تماما عن حياتهم القديمة إلى حد انهم كثيرا ما احرقوا بيوتهم وما حولها إلى الأرض ، والتحق العديد منهم بجيوش الطابوريين ليعيشوا مثل البدو الذين لاملكية لديهم من المحاربين عن المسيح ، حياة تشبه في غرابتها حياة فقراء الحملات الصليبية الخشنة،ولكن كان هناك أيضا العديد ممن توطنوا في المدن التي كانت معاقل للطابوريين وشكلت ما أريد منه أن يكون مجتمعات مساواة ، تجمعها معا المحبة الأخوية وحدها ، (ص ٢١٧) ولاتعرف شيئا عن « لي ولك » .

وقد تشكل أول هذه المجتمعات في أوائل ١٤٢٠ في بيسيك في جنوب بوهيميا وظهر الثاني إلى الوجود في شباط ١٤٢٠ بعد وقت قصير من إخفاق المسيح في العودة إلى الأرض حسبما تم التنبؤ وكان متوقعا ،و استولت قوة من الطابوريين والفلاحين بقيادة كهنة من الطابوريين على مدينة أوستي على نهر لوزنيكا ، وبعد بضعة أيام تحركوا إلى مرتفع داخل في النهر على شكل نتوء ، كان يشكل حصنا طبيعيا ، وكان كل ذلك في جوار التل الذي أطلق عليه في السنة السالفة اسم جبل طابور ، واعيد الآن تسمية الحصن باسم طابور أيضا ، وفي آذار تخلى القائد العسكري جون ززكا عن مركز قيادته في بلزن وانتقل إلى طابورمع كل طابوريي بلزن ، وهزم السادة الاقطاعيون المحليون بسرعة في سلسلة من الهجمات المفاجئة وأصبح الجوار كله تحت سيطرة الطابوريين

وخلال ١٤٢٠ و ١٤٢١ كانت طابور وبيسك المعقلين الرئيسين لحركة الطابوريين ، ولكن طابور هي التي أصبحت موطن الجناح الأكثر الفية وتطرفا في الحركة ، وقد هيمن عليه في البداية أكثر الناس فقرا ، وقد استهلوا العصر الذهبي الجديد بقولهم : « بما أن

« لي ولك » لاوجود لهما في طابور ، بل إن كل الممتلكات مشتركة ، يجب أن يتملك كل الناس دائما كل شيء بصورة مشتركة ، ويجب أن لايملك أحد أي شيء لنفسه ، وكل من يملك ملكية خاصة يرتكب خطيئة مميتة » .

ومن سوء حظ تجربتهم الاجتماعية ، كان الثوريون الطابوريين مشغولين جدا بالملكية المشتركة إلى حد انهم اغفلوا تماما امر الحاجة للانتاج ، حتى لقد بدا انهم اعتقدوا انه مثل ادم وحواء في الجنة ، سيعفى المقيمون في المجتمعات المثالية الجديدة من كل حاجة للعمل ، بيد انه إذا لم يكن مدهشا أن تلك التجربة المبكرة في الشيوعية التطبيقية كانت قصيرة العمر ، فإن الطريقة التي انتهت بها ماتزال تستحق بعض الانتباه ، وكان اتباع الروح الحرة عادة يعتبرون أنفسهم مخولين بالسرقة والسلب والآن فإن نفعيين مشابهين جدا لهم ، ولكن على نطاق أكبر بكثير، قد تبنتهم تلك المجتمعات الطابورية ، وعندما نفدت اموال الخزائن المشتركة أعلن المتطرفون انهم « كرجال شريعة الرب » ، مخولون بأخذ كل ما يخص أعداء الرب ، وعنوا في البداية الاكليروس والنبالة والاغنياء بشكل عام ، ولكن سرعان ما شمل هذا كل من ليس من الطابوريين ، ومن حينه فصاعدا ، إلى جانب أو مع الحملات الرئيسة التي شنت بقيادة ززكا ، جرت حملات كثيرة ، كانت ببساطة غارات نهب .

وهكذا شكا الطابوريون الاكثر اعتدالا في مجالسهم بقولهم : إن كثيرا من المجتمعات لم تفكر ابدا في كسب معايشها بعمل أيديها ، ولكنها تريد فقط ان تعيش على ممتلكات الناس الاخرين ، و أن تقوم بحملات ظالمة من أجل الهدف الوحيد وهو السرقة » (ص ٢١٨) وقام عدد كبير من الطابوريين المتطرفين وهم يمقتون طرق الاغنياء المترفين ، فصنعوا ـ تماما مثل بعض اتباع الروح الحرة ـ لانفسهم حللا ذات ابهة ملكية حقيقية ، كانوا يرتدونها تحت ارديتهم الكهنوتية .

لقد عانى الفلاحون المحليون كثيرا ، وكانت اقلية فقط من بين الفلاحين الذين كانوا يدينون بالولاء للنظام الطابوري في التي باعت ممتلكاتها والتحقت بجماعة النخبة ، لكن في ربيع ١٤٢٠ ، مع دفقة الحماس الثوري الاولى ، اعلن الطابوريون ابطال العلاقات الاقطاعية والقروض والخدمات ، فأسرع العديد من الفلاحين طبقا لذلك ليضعوا انفسهم تحت حماية النظام الجديد ، إنما خلال نصف سنة كان لديهم سبب جيد للأسف على قرارهم ، ومع تشرين اول ١٤٢٠ كان الطابوريون مدفوعين بفعل مأزقهم الاقتصادي الى البدء بجمع القروض من الفلاحين في النواحي التي اداروها ، ولم يمض بعد ذلك زمان طويل حتى تزايدت القروض بدرجة كبيرة ، حتى أن العديد من الفلاحين وجدوا انفسهم أسوأ مما كانوا عليه في ظل سادتهم السالفين .

ومرة اخرى كان مجلس الطابوريين المعتدلين هو الذي ترك اكثر الاوصاف إثارة للدهشة ، بالشكوى من أن تقريبا جميع الطوائف كانت تنهك عامة الناس في الجوار بطريقة غير انسانية تماما ، وتضطهدهم كالطغاة والوثنيين ، وينتزعون الايجار بلا شفقة حتى من اكثر المؤمنين اخلاصا ، وإنه مع أن بعض هؤلاء الناس من عقيدتهم نفسها فانهم يتعرضون لاخطار الحرب نفسها وهم في جانبهم تساء معاملتهم بقسوة كما انهم يسلبون ايضا من قبل الأعداء » وكانت محنة هؤلاء الفلاحين الذين حصروا بين الجيوش المتحاربة شديدة ، ومع تأرجح أحوال الحرب من الجانب الاخر ، كان عليهم أن يؤدوا القروض مرة للطابوريين ، ومرة لسادتهم الاقطاعيين القدامى ، وعلاوة على ذلك كانوا يعاقبون من كلا الجانبين باستمرار لتعاونهم (حتى لو كان ذلك بالاكراه) مع الاعداء ، من قبل الطابوريين لانهم تحالفوا مع الطغاة ، ومن قبل الكاثوليك لانهم « اصدقاء المهرطقين » ، وبينما هم تحت سيادة الطابوريين كانوا يعاملون من قبل من يدعون بالاخوة كأدنى انواع العبيد ، والقروض تنتزع منهم بواسطة « رجال قانون الرب » بتهديدات مثل : « اذا لم تطع فاننا سنجبرك بعون الله بكل وسيلة

وخاصة بالثأر ، على تنفيذ اوامرنا» ، ومع ان الطابوريين قد تحدوا النظام الاقطاعي بفعالية لم يكونوا يحلمون بها انذاك ، فان المشكوك فيه مدى استفادة الفلاحين البوهيميين ، وبالتأكيد في وقت انتهاء الحرب كانه الفلاحون اضعف والنبلاء ، اقوى من قبل ، وباتت العبودية من اشد الانواع ارهاقا ، يمكن ان تطبق عليهم عندئذ بسهولة كافية (ص ٢١٩) .

وحتى ضمن طابور نفسها تم التخلي عن تجربة الشيوعية الفوضوية بسرعة ، وايا كانت كراهية المجربين في القيام باي عمل ، فانهم كانوا لايستطيعون العيش بدونه ، وبسرعة كان الحرفيون ينظمون انفسهم في نظام من النقابات شبيهة بتلك الموجودة في المدن البوهيمية الاخرى ، وفوق كل شيء من آذار ١٤٢٠ ومابعده كان الطابوريون منهمكون في الحرب الوطنية ضد الجيوش الغازية ، ولأشهر عديدة كانوا في الواقع يساعدون الهوسية من غير الطابوريين في براغ في الدفاع عن العاصمة ، ولم يكن ممكنا حتى بالنسبة للجيش الطابوري ان يعمل بدون قيادة هرمية ، وفي مجرى الاحداث عمل ززكا ، الذي لم يكن من دعاة المساواة ولادعاة الالفية ، عمل على ان تكون المواقع القيادية محفوظة لرجال ، جاءوا مثله من النبالة الادنى ، وكان كل ذلك يميل الى ترطيب نار الكهنة الطابوريين ، وفي الوقت الذي عادوا فيه الى طابور في ايلول ، كانوا اقل اهتماما بالالفية منهم بانتخاب « اسقف » يشرف عليهم ويدير اموالهم ، ومع ذلك لم ينبذ السعي وراء العصر الذهبي بدون صراع ، وبينما كان المزيد والمزيد من الطابوريين يستعدون لتكييف انفسهم مع المقتضيات الاقتصادية للحرب ، والترتيب الطبقي ، الذي لم ينم عن اي علامة على الانهيار ، استجابت اقلية بتطوير صور جديدة من العقيدة الالفية .

وطور الواغط مارتن هسكا وقد الهم جزئيا من قبل البيكارتي المهاجرين ، مذهبا الى الاسرار المقدسة كان يمثل انفصالا كليا عن الافكار الطابورية المعتادة،وتقاسم ززكا والعديد من الطابوريين

الاخرين مع المؤمنين بنوعي القربان في براغ تمجيداً عميقـا للاسرار المقدسة على انها الجسد والدم للمسيح ، وعندمـا كانوا يخـرجون للقتال كان كأس نبيذ القربان المثبت على عمـود يحمـل في المقـدمة كعلم ، ورفض هوسكا من جانب اخـر اسـتحالة خبـز القـربان وخمره الى جسد ودم المسيح وفسر بدلا من ذلك عملية مناولة كان لها في المقام الاول دلالة وليمة حـب تجـرب تحضـيراً «د للمأدبـة المسيحية » التي قدر للمسيح العائد ان يولمها مع نخبته ، ومن اجـل نشر مثل هذه الافكار خارج البلاد احرق حتى الموت في آب/١٤٢١ .

لقد انتشرت هذه الافكار الى طابور نفسها ، وفي وقـت مبـكر في ١٤٢١ كان بضع مئات مـن المتـطرفين ، الذين اعطـوا اسـم بيكارتي ، نشطين هناك تحـت زعامـة كاهـن يدعى بيتـر كانيس وسببوا كثيرا من النزاع ، حتر غادروا المدينة في شـباط او طـردوا منها ، وكان معظمهم ببساطة يتقاسم مـع هسـكا افـكاره حـو ل القربان المقدس ولكن كان بينهم بعض المتطرفين ـ ربمـا حـوالي ٢٠٠ ـ من الذين حملوا مذهب الروح الحـرة في صـورته الاكثـر نضالية ، وكان هؤلاء هـم الناس الذين قـدر لهـم ان يصـبحوا مشهورين في التاريخ تحت اسـم الادامـايت البـوهيميين . وكانوا يعتقدون ان الرب يتوطن في قديسي الايام الاخيرة ، اي في انفسهم ، وان هذا هو ماجعلهم اسمى من المسيح ، الذي بموته اظهـر نفسـه بأنه مجـرد بشر ، واحلوا بـذلك انفسـهم مـن الانجيل ، والعقيدة وحفظ الكتب ، مكتفين بالصلاة التي تمضي هكذا :« ابـانا الذي فينا (ص ٢٢٠) ، نورنا بما يجب ان نفعل ...» وكانوا يتمسكون بـان الجنة والنار لاوجود لهما سوى في نفوس الصالحين والضالين على التوالي : واستخلصوا بانهم لكونهم من الصالحين فانهم سيعيشون الى الابد كسكان في الالفية الارضية .

وقطع ززكا حملة كان يتولاها بغية التعـامل مـع الادامـايت وفي نيسان ١٤٢١ اسر نحو خمسة وسبعين منهم بمـا فيهـم كانيس واحرقتهم كمهرطقين ، وسار بعضهم وهم يضـحكون في اللهـب .

ووجد الناجون قائداً جديداً في احد الفــلاحين او ربمــا الحــدادين ، واسموه معا : ادم وموسي وكان المفترض انه مخول بحكم العــالم ، ويبدو انه كان هناك ايضا امراة ادعت انها العذراء مريم ، ومن اجل البقية يقال : ان الادامايت قد عاشوا تماما مثل اتباع الروح الحــرة في حالة من الاشتراك غير الشرطي ، الى درجة ليس فقط ان مــامن احد امتلك شئيا خاصا به بل ان الزواج المحصور عد خطيئة ، وبينما كان الطابوريين بشكل عام احاديين في الزواج بشكل صارم ، يبدو ان الحب الحر كان هو القاعدة بين صفوف هذه الزمرة ، وعلى اساس متانة تعليقات المسيح حــول البغــايا واصــحاب الخــانات ، اعلن الادامايت ان الانسان العفيف غير اهل لدخــول مملكتهم المسيحية ، ومن جانب اخر لم يكن بامكان اي زوج ممــارسة الاتصــال الجنسي بدون موافقة « ادم ــ موسى » ، الذي كان يبــاركهم قــائلا « اذهبــا وكونا مثمرين وتكاثرا واعيدا اعمار الارض » ، وكانت هذه الزمــرة معتادة جداً على الرقصات الطقوسية العارية التي كانت تعقد حــول نار ومصحوبة باذشاد التراتيل ، وفي الواقع يبــدو هؤلاء الناس قــد امضوا كثيراً من اوقاتهم عراة متجاهلين الحر والبرد ، مدعين انهم في حالة من البراءة التي تمتع بها ادم وحواء قبل السقوط .

وعندما كان ززكا يلاحق البيكارتي ، التجأ هؤلاء الفوق فــوضويون الى جــزيرة في نهــر انزاركا بين فيزلي وجندريشــوف هــرادك (نيوهاوس) ومثل الطابوريين الاخرين اعتبــر الادامــايت انفســهم ملائكة منتقمين ، وكانت مهمتهم ان يستخدموا السيف في العالم كله حتى يقضى على غير الطاهرين .

واعلنوا ان الدم يجب ان يغمر العالم حتى ارتفاع رأس الحصان وعلى الرغم من عددهم الصغير عملوا مــافي وســعهم لتحقيق هــذا الهدف ، ومن معقلهم في الجزيرة كانوا يقومون بغارات ليلة مــدمرة ــ سموها حربا مقدسة ــ ضد القرى المجاورة : وفي تلك الحمــلات وجدت مبــادئهم الشــيوعية وشــهوتهم للتــدمير تعبيرا ، وكان الادامايت الذين لم تكن لديهم ممتلكات خاصة بهم يمتلكون كل شيء

يمكنهم ان يضعوا ايديهم عليه وفي الوقت نفسه كانوا يشعلون النار (ص ٢٢١) في القرى ويبيدون او يحرقون احياء كل رجل ، او امراة او طفل يمكنهم ان يجدوه ؛ وسوغوا ذلك بشواهد من الكتابات المقدسة مثل : « وفي منتصف الليل كانت هناك صرخة ، انظروا العريس قادم .... » ومن ثم كانوا يذبحون الكهنة الذين اعتبروهم شياطين مجسدة بحماس خاص وفي النهاية ارسل ززكا قوة من ٤٠٠ جندي مدرب ، تحت قيادة احد كبار ضباطه ، لوضع نهاية للاضطراب ، ودون قلق اعلن « ادم – موسى » ان العدو سيضرب بالعمى في ارض المعركة ، حتى ان حشدا كاملا سيكون تماما بلا حول ، في حين ان القديسين اذا صمدوا الى جواره سيكونون معصومين من الضرر ، وصدق اتباعه واعدوا المتاريس على جزيرتهم ودافعوا عن انفسهم بطاقة هائلة وشجاعة ، وقتلوا العديد من المهاجمين ، وفي ٢١ تشرين اول ١٤٢١ سحقوا اخيرا وابيدوا عن بكرة ابيهم ، واستبقي رجل واحد باوامر ززكا ، حتى يعطي بيانا كاملا عن عقائد وممارسات الطائفة ، وسجلت شهادته بصورة وافية في حينه و قدمت للدراسة من قبل هيئة كلية لاهوت اتراكويست في براغ ، وقد احرق هو نفسه بعد ذلك ، واغرق رماده في النهر ، وهو احتياط يوحي بقوة بسانه لم يكن غير الزعيم المسائحي « ادم – موسى » نفسه .

وفي ذلك الوقت كان حجم الثورة الاجتماعية في بوهيما قد تناقص بالفعل وتقلص بين اهداف الحركة الطابورية ، وفي السنة التالية وضعت ثورة مضادة نهاية لهيمنة الحرفيين في براغ ، وبعد ذلك ، – مع ان الكلام عن الثورة قد يستمر – اخذت القوة الفعالة تتجمع بصورة متزايدة مع النبالة ، ولكن وراء الجبهات كانت تعاليم ومثل الثوار البوهيميين مستمرة التأثير والفعالية بين الفقراء غير الراضين وقال احد المؤرخين من الخصوم : « اصبح البوهوميون الان اقوياء جدا وجبارين ، ومتغطرسين ، حتى انهم كانوا موضع خشية على كل الجوانب ، وكان كل الناس ، الشرفاء متخوفين لئلا ينتشر الخبث و تنتقل الفوضى الى الشعوب الاخرى فينقلبوا ضد كل

من كانوا محترمين وملتزمين بالقانون ،وضـــد الاغنياء ، لان هـــذا كان بـــالضبط الشيء المطلوب للفقـــراء الذين لم يكونوا يرغبـــون في العمـــل وكانوا ايضـــا متغـــطرسين ومحبين للمسرات ، وكان هناك العديد مثلهم في كل البلاد ، اناس خشنون ولاقيمة لهم ممن شـــجعوا البوهيميين على هرطقتهم وعدم ايمانهم بقـــدر مـــاكان بـــوسعهم ، وعندمـــا لم يجسروؤا على فعـــل ذلك علنا ، كانوا يفعلونه سرا ... وهكذا كان للبوهيميين عدد كبير من المؤيدين السريين الخشنين من الناس ....

وقد اعتادوا الجدل مع الكهنة ، قـــائلين ان كل واحـــد يجــب ان يقتسم ملكيته مع كل شخص اخر ، وكان هذا يمـــكن ان يسر عدداً كبيرا من الاتباع عديمي القيمة وان يمضي بشكل جيد جداً » .

وفي كل مـــكان كان يستـــحوذ على الاغنياء واصـــحاب المزايا ، والاكليروس والعامة على السواء الخوف من ان يؤدي انتشار نفوذ الطابوريين الى ثورة يمكن ان تقضي على كل النظـــام الاجتمـــاعي ، وكانت دعوة الطابوريين (ص ٢٢٢) التي لم تهـــدف الى القضـــاء على الاكليروس فقط بل على النبالة ، قد تسربت الى فرنسا وحتـــى اسبانيا ، ووجدت كثيرا من القـــراء المتعـــاطفين ، وعندمـــا هـــب الفلاحون في برغنديا وحـــول ليون ضـــد ســـادتهم مـــن الاكليروس والمتحكمين بهم من المدنيين عزا الاكليروس الفـــرنسي تلك الثـــورات على الفور الى تأثير نشرات الطابوريين ؛ وربما كانوا على صواب ، ولكن حدث في المانيا ان توفرت الفرصة للطابوريين لممارسة التأثير ، لان جيوشهم تمكنت في سنة ١٤٣٠ مـــن التـــوغل حتـــى لايبـــزغ وبامبرغ ونورمبـــرغ وفي المانيا بلغ القلق اشـــده ، وعندمـــا قـــامت النقابات في مينز وبريمين وكونســـتانس وفـــايمر وســـتاتن ضـــد الاشراف ، القي اللوم على الطـــابوريين ، وفي عام ١٤٣١ ناشـــد اشراف المدن المتحالفة معهم ان يتجمعوا معا في حملة صليبية جديدة ضد الهوسية في بوهيما ، ولفتوا الانظار الى انه كان هناك في المانيا عناصر ثورية لديها امور كثيرة مشتركة مع الطابوريين ، وســـيكون

- ١٧١٤ -

من السهل جداً على الثوار من الفقراء ان ينتشروا من بـوهيميا الى المانيا ؛ واذا فعلوا فإن الاشراف في المدن سـيكونون بين المعـادين الرئيسيين .

وعبر المجلس العام في بازل ، الذي اجتمع في السنة نفسها ايضا عن قلقه من ان يدخل عامة الناس في المانيا في حلف مع الطـابوريين ويشرعون في الاستيلاء على املاك الكنيسة .
وربما كانت هذه المخاوف متسمة بالمبالغة وسـابقة لاوانهـا ، ولكن بثت مرات عديدة ، وعلى مدى المائة سـنة التـالية ، انهـا لم تـكن جميعها بلا اساس .

الفصل الثاني عشر

الالفية والمساواة(٢)

طبال نيكلاسهوزن

في ١٤٣٤ هزم الجيش الطابوري(ص ٢٢٣) وابيد تقريبا في معركة ليبان على يد جيش ليس من الكاثوليك الاجانب بل من الاوتراكيست البوهيميين ، ومن حينه وما بعد حدث تدهور في قوة الجناح الطابوري في حركة الهوسية ، بعد أن تم الاستيلاء على طابور نفسها من قبل الاوتراكيست ، في ١٤٥٢ وبقيت تقاليد الطابوريين متماسكة فقط في الزمرة المعروفة باسم الاخوة المورافية ، ولكن فقط في صورة دينية صرفة ، مسالمة وغير ثورية وغير سياسية ، ومع ذلك لابد ان تيارا سريا من الالفية القتالية قد استمر في بوهيميا ، وفي ١٤٥٠ او اوائل ١٤٦٠ بدأ اخوان من عائلة غنية نبيلة هما جانكو وليفين ، من ورز برغ في نشر نبوءات أخروية اسهمت فيها اليوحنية واليواكمية

وفي صلب هذا المذهب وقف مسيح كان يشار إليه باسم المسيح المخلص وكان يتوقع أن يدشن العصر الثالث والاخير ، وقد اكد الاخوان أن هذا الرجل ، وليس عيسى ، هو المسيح الذي تنبأ به العهد القديم ، ابن الانسان الحقيقي الذي قدر له أن يظهر في بهاء في نهاية التاريخ ، وكان موهوبا ببصيرة لم يوهب مثلها لرجل آخر ، لقد شاهد الثالوث والجوهر الالهي ، وجعل فهمه للمعنى الخفي للكتاب المقدس المفسرين السالفين يبدون بالمقارنة معه عميا أو مخمورين ، وكانت مهمته أن ينقذ لا الجنس البشري ببساطة بل الرب نفسه ، لان الرب كان يعاني بسبب خطايا البشر منذ بدأ

العالم ، وهو الان يناشد المسيح المخلص أن يحرره من كربه ، ولكن هذه المهمة لايمكن بالطبع أن تنفذ دون كثير من سفك الدماء ، وهكذا ان المسيح الجديد سوف يبدأ بذبح المسيح الدجال ــ البابا ــ ومن ثم سيتابع بتدمير الاكليروس ككهنة للمسيح الدجال ، باستثناء مراتب الرهبان المتسولين فقط .

وفي النهاية سيتحول ضد كل الذين قاوموه بأي طريقة ، لكن في سبيل المصلحة ــ كما جاء في نبوءة سفر الرؤيا ــ إن مجرد ١٤٠٠٠ سينجون ، وهؤلاء البقية الناجية سيتوحدون في عقيدة واحدة : كنيسة روحية (ص ٢٢٤) ديانة ظاهرة ، وعليهم جميعا يحكم المسيح المخلص الذي سيكون في الوقت نفسه امبراطورا رومانيا وربا .

والمذبحة نفسها كان مقدرا لها أن تنفذ بمساعدة عصابات من المرتزقة ــ فكرة غريبة ولكنها ليست بلادلالة ــ ففي هذا الوقت كانت الاراضي المتاخمة لبوهيميا قد خربت بوساطة المرتزقة البوهيميين المسرحين ، الذين احتفظوا بما يكفي من طرق الطابوريين حيث كانوا يدعون أنفسهم« اخوة » ومعسكرهم المحصن « طابور » ، ومع أن هؤلاء الناس لم يكونوا متعصبين متحمسين بل مجرد لصوص وقطاع طرق اكثر منهم أرواح متحمسة في بوهيميا ــ مثل اخوه ورزبرغ ، ويمكن بسهولة أن يبدوا كخلفاء حقيقيين للالفيين الثوريين لعام ١٤٢٠ ، وبالتاكيد كان مقدرا للمذهب الجديد الذي سيظهر من المذبحة لان يميل ليكون له سمات مساواتية باعلانه إن : الكهنوت الذين نجوا ــ الرهبان المتسولون ــ لن يملكوا أي ممتلكات بالمرة ، وعلى النبلاء ان يتخلوا عن قصورهم وأن يعيشوا في المدن مثل المواطنين العاديين ، وقد صدم المعاصرون في الواقع بشكل خاص بحقيقة انه بانتشاره بالعامية ، شجع المذهب السكان « على أن يهبوا في ثورة مثيرة للفتنة ضد الكبار الروحيين منهم والمدنيين » ولم يترددوا في مقارنته

بمذهب البيكارتي ، « الذي اعتاد أن يوجد في بوهيميا .... وكان يريد إقامة جنة أرضية هناك ».

ويبدو أن وجود هذا المذهب لم يكن واحدا من اخوي ورزبرغ نفسيهما بل من الفرنسسكان ، انشق عن جماعته واعتقد انه هو نفسه كان المسيح المخلص ، وقد هيمنت هذه الشخصية على الاخوين تماما ، لذلك كانا راضيين باعتبار نفسيهما مبشرين ورسولين له ، بل حتى ان جنكو راى نفسه يوحنا معمدانيا جديدا ، وتبنى اسم يوحنا الشرقي ، ومن قيادتهم في ايغر (اشب) في اقصى الطرف الغربي من بوهيميا ، نشرا نبواءات معلمهما طولا وعرضا ، سواء بين العامة أو بين الفرنسسكان ذوي الميول « الروحية » واليواكمية .

وادعيا بان لهما مؤيدين عديدين في المانيا ، وانهم لو كانوا جميعا متحدين فان بامكانهما أن يتعاملا مع اي امير ، وكان هذا بالتاكيد مبالغة كبيرة ، ومع ذلك من المهم ملاحظة انه عندما دخل المذهب الى ايرفورت-وكانت في ذلك الوقت مدينة كبيرة ذات متناقضات شديدة من الغنى والفقر – شعر الاستاذ الذي كان الزعيم الفكري للجامعة انه مدعو للكتابة وتلاوة بيان ضده .

وكانت السنة التي كرست من قبل لمجيء المسيح المخلص هي ١٤٦٧ ، ولكن ما كان يمكن ان يحدث في حينه لم يكن معروفا ، لانه في السنة السالفة قررت السلطات الاكليروسية بقيادة المعتمد البابوي بأن الوقت قد حان لكبح الحركة ، ويبدو أن جانكو اوف ورزبرغ قد هرب – مصيره غير معروف – (ص ٢٢٥) ولكن ليفين وقد تفادى الخازوق بارتداده عن اخطائه ، احتجز في سجن الاسقف في رجنسبرغ ، حيث توفي بعد عامين ، وفي هذه الاثناء كانت مدينة ايغر منهمكة في الدفاع عن نفسها بوساطة رسائل الى المدن الشقيقة في الامبراطورية وحتى الى البابا ، ضد الاتهام بكونها مرتعا للهرطقة

واذا كان في بوهيميا نفسها مجال كان يضيق باستمرار لمثل هذه الحركات ، فان الظروف في المانيا وحدها كانت مواتية لاستقبال المؤتمرات الطابورية ، حيث المعائب في بنية الدولة التي كانت لاجيال تسبب الفوضى والتشويش بين عامة الناس كانت ماتزال بادية واقوى مما كانت ابدا ، واستمرت هيبة وسلطة المنصب الامبراطوري بالترنح ، واستمر تحلل المانيا الى خليط من الامارات ، وخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر غاصت هيبة الامبراطور بشكل خاص الى غور عميق ، وكان فردريك الثالث في البداية ، بسبب اسمه محط انظار التوقعات الالفية الاكثر جموحا ، ولكن في فترة الحكم التي استمرت من ١٤٥٢ إلى ١٤٩٣ ، اثبت أنه ملك فريد في عدم فعاليته ولم يحل دون خلعه سوى عدم وجود اي منافس مناسب ، وفيما بعد اصبح وجوده منسيا تقريبا من قبل رعاياه ، واوجد فراغ مركز الدولة قلقا مزمنا واسعا ، قلقا وجد تعبيرا في التراث الشعبي حول « فردريك المستقبل » والذي امكنه ايضا ان يجد منفذا له في موجات مفاجئة من الاثارة الاخروية ، التي كان بين اكثر ظواهرها شيوعا ، حشود الحج ، وبقايا الحملات الصليبية الشعبية ومواكب اللطم من الازمنة القديمة ، والتي لم تكن اقل احتمالا منها للهرب من السيطرة الكهنوتية . وقدمت الاراضي الالمانية المتاخمة لبوهيميا حقلا مواتيا بشكل خاص للدعوة الطابورية ، وبقيت تقاليد الهرطقة التي عمرت قرونا في المدن البافارية خلال القرن الخامس عشر ، وفي منتصف القرن وجد اسقف إيخستات أنه مازالت هناك ضرورة للتهديد بالحرمان للطامين ، كانوا يضربون انفسهم أمام الكنائس ولبيغرد من جماعات«الفقر الطوعي » ، كانوا يهيمون في الارض للتسول ، والذين اعتقدوا في انفسهم انهم بلغوا الكمال ، وظل هذا الحظر يتكرر من وقت لآخر حتى نهاية القرن ، وفي ورزبرغ ايضا كرر مجمع في منتصف القرن الحظر القديم للوعاظ الهائمين من البيغرد .

وفي مثل هذا المحيط أمكن لتقاليد الطابوريين أن تجعل نفسها ملموسة بعد ان ذوت في موطنها ، وازدهرت بشكل افضل لان الكهنة لم يكونوا في اي مكان اكثر اعتيادا على الترف والبخل منهم في

بافاريا ، وتشهد شكاوى اسقفية لاحصر لها بفسق المراتب الدنيا من الاكليروس ، الذين كرسوا انفسهم للشراب واللهو ، ولم يكونوا يترددون في اخذ عشيقاتهم معهم حتى الى المجالس الكهنوتية . (ص ٢٢٦) والاساقفة أنفسهم كثيرا ماكانوا يفعلون القليل مما يكفي لكسب ولاء اتباعهم .

وكانت الحالة متفجرة بشكل خاص في اراضي الامارة ـ الاسقفية لورزبرغ ، ولأجيال كان الاساقفة في حالة خلاف مع اهالي ورزبرغ وحقيقة أنه في مستهل القرن الخامس عشر هزم الاهالي بشكل حاسم ، لم تضع حدا للتوتر ، علاوة على أن الاساقفة خلال النصف الاول من القرن كانوا مبذرين بشكل مسعور ، وكانوا يستطيعون دفع ديونهم بفرض ضرائب اكثر ثقلا . ومع ١٤٧٤ اصبحت الضرائب ثقيلة لدرجة ان واحدا من موظفي الاسقف قال وهو يقارن الفلاحين المحليين بفريق من الخيول يجرون عربة ثقيلة : إنه اذا اضيفت بيضة واحدة الى العربة ، فان الخيول لن تعود قادرة على جرها ، وبالنسبة للعامة الذين تعلموا من اجيال من وعاظ الهرطقة ان الاكليروس يجب ان تعيش في فقر تام ، كان هذا العبء الثقيل من الضرائب فقراً محتما ان يبدو مروعا بشكل خاص ، ولم يغير من ذلك حقيقة ان الاسقف في ذلك الوقت وهو رودولف اوف شرنبرغ كان قادرا ومسؤولا ، لكن في المدينة وفي اسقفية ورزبرغ لم يعد ممكنا في ١٤٧٠ للأسقف ايا كانت مؤهلاته الشخصية ان يعتبر من قبل العامة ، ولاسيما الفقراء ، أي شيء سوى مستغل .

وفي ١٤٧٦ ، بدات في نيكلا سهوزن ، وهي مدينة صغيرة في وادى توبر غير بعيدة عن ورزبرغ حركة يمكن تقريبا تسميتها حملة صليبية شعبية ، فكثير مما حدث خلال الحملات السالفة في فرنسا والبلاد المنخفضة ووادي الراين ، كان يتكرر الان في جنوب المانيا ، ولكن في هذه المرة لم تكن المملكة المسيحية قدسا سماوية بل دولة الطبيعة كما صورها جون بول والطابوريين المتطرفين ، وكان مسيح

الحركة شابا يدعى هانز بوم وهو اسم يوحي إما بأنه من اصل بوهيمي او انه كان في الفكر الشعبي مرتبطا بتعاليم الهوسية ، وكان راعيا ، وفي وقت فراغه ، كان مغنيا شعبيا ، يطبل ويزمر في الفنادق ، وفي ساحة السوق ، ومن هنا جاء اللقب الذي مازال يعرف به ، لقب طبال (او زمار) نيكلا سهوزن ، وحدث ذات يوم أن سمع هذا الصبي يتحدث عن الفرنسسكاني الايطالي جيوفاني دي كابسترانو الذي كان منذ جيل سالف يجول في المانيا ويعظ بالتوبة ، ويحث سمعته على أن يخلعوا عنهم ملابسهم الناعمة وان يحرقوا النرد وأوراق اللعب ، وبعد ذلك بوقت قصير ، وفي منتصف الصوم الكبير ، أحرق الراعي طبله امام كنيسة اسقفية نيكلا سهوزن وبدأ يعظ الناس .

وتماما مثل ذلك الصبي الراعي ، الذي قيل إنه شن حملة الرعاة الصليبية في ١٣٢٠ ، اعلن بوم أن العذراء مريم قد ظهرت له (ص ٢٢٧) وهي محاطة باشعاع سماوي ، واعطته رسالة ذات أهمية استثنائية ، وبدلا من دعوة الناس للرقص ، كان بوم ينورهم بكلمة الرب الطاهرة .

وكان عليه أن يشرح كيف فضلت العناية الالهية نيكلا سهوزن على كل الاماكن ، وكان في كنيسة اسقفية نيكلا سهوزن يقف تمثال للعذراء كانت تنسب اليه قوى معجزة ، وكان لزمان طويل يجتذب الحجاج ، والان ـ اعلنت العذراء ـ ان هذه البقعة قد اصبحت خلاص العالم ، ونصت الرسالة في تعابير كانت مذكرة بقوة بالرسالة السماوية التي كان اللطامون يستعملونها في ١٢٦٠ ، ومرة اخرى في ١٣٤٨ ، وقد قصد الرب معاقبة الجنس البشري بصورة موجعة ، وتوسطت العذراء ووافق الرب على امساك العقاب ، ولكن يجب أن تذهب جموع الناس الان للحج الى عذراء نيكلا سهوزن ، والا فان العقاب سيحل اخيرا بالعالم ، ومن نيكلا سهوزن ، ومن هناك فقط ، ستمنح العذراء بركاتها لكل الاراضي ، وفي وادي توبر وحده ، وليس في روما او اي مكان اخر ، توجد النعمة الالهية ، وكل من

يحج يتحرر من كل خطاياه ، وكل من يموت هناك يذهب مباشرة الى الجنة .

لقد كان الراعي السالف رجلا بسيطا ، ولكنه اصبح الان فجاة قادرا على التمكن من البلاغة المدهشة ، وفي ايام الاحاد والاعياد كانت الحشود تتدفق لسماعه ، وسرعان ما اصبح يتبع منهاجا اتبع من قبل عدد كبير من المتنبئين ، من تبانشيلم وما بعده ، وكان في البداية يعظ بمجرد التوبة : وكان على النساء ان يخلعن عنهن عقودهن الذهبية والاوشحة الزاهية ، وعلى الرجال ان يرتدوا حللا اقل تلوينا ، واحذية يكون تدببها اقل ، ولكن قبل مضي وقت طويل كان المتنبي يدعي لنفسه قوى معجزة مثيرة للدهشة بالقدر نفسه الذي كان قد نسبه فيها الى العذراء في البداية،من ذلك اذا كان الله لم يرسل الصقيع ليقتل كل القمح والكروم فان ذلك كما ادعى عائد الى صلواته وحده ، وعلاوة على ذلك اقسم بانه كان بامكانه أن يقود اي روح الى خارج الجحيم بيده هو .

و مع أن بوم قد بدأ يعظ بموافقة كاهن الأبرشية ، فانه كان من المتوقع أنه سينتهي بأن ينقلب على الاكليروس ، و بكل العنف الذي الاتهامات التقليدية بالترف و البخل ، و قال: إنه لأيسر جعل يهودي مسيحيا من فعل ذلك ، مع كاهن ، و لقد كان الرب لزمان طويل غاضبا من سلوك الاكليروس ، و لكنه لم يعد يتحمل ذلك ، و ان يوم الحساب قريب حيث يكون الاكليروس سعداء إن هم غطوا رؤوسهم الحليقة ليهربوا من ملاحقيهم ، (يمكن للمرء أن يتعرف على النبوءة اليواكمية الزائفة التي وجدها جسون و ينترثر
شعبية جدا في ١٣٤٨) لأن قتل كاهن سوف يرى عندئذ على أنه عمل بالغ التقدير ، لقد سحب الرب قوته من الاكليروس ، و لن يبقى عن قريب كهنة أو رهبان على الأرض(ص ٢٢٨) و حتى الآن هكذا اضاف مهددا ، ستكون فضيحة سيئة لهم أن يحرقوه كمهرطق فان عقابا رهيبا ينتظرهم إن فعلوا ، لأنهم هم أنفسهم المهرطقون الحقيقيون .

و لم يتوقف يوم عن النقد العام والتهديدات الغامضة ، لقد ناشد سامعيه رفض دفع الضرائب والعشور كليا ، و صرح: من الآن فصاعدا ، سيضطر الكهنة الى التخلي عن منافعهم الكثيرة ،و أن يعيشوا من وجبة لوجبة على ما يختار الناس اعطاءه لهم ، و كانت جانبية هذه التعاليم المألوفة تماما بالقوة نفسها التي كانت عليها دائما ، و علق ترثيميس راعي الدير الشهير في سبونهيم: ماذا يحب الرجل من العامة أكثر من أن يرى الأكليروس والكهنة وهم يسلبون كل مزاياهم و حقوقهم وعشورهم و دخولهم ؟ لأن الناس العاديين جائعون بالطبيعة للأشياء غير المألوفة و متلهفون دائما لاسقاط نير سيدهم» ، و رأى لاهوتي المانيا الأول رئيس أساقفة مينز في تنبؤ نيكلا سهوزن قوة ربما تلحق ضررا لا يمكن إصلاحه بالكنيسة —

و في النهاية ظهر يوم كشوري اجتماعي ، يعلن قرب الألفية المساواتية القائمة على القانون الطبيعي ، و في المملكة القادمة سيتم استعمال الخشب والماء و المراعي وحقوق الصيد البري والبحري و التمتع بها بحرية من قبل الجميع ، كما كان في الأزمنة القديمة ، و الجزية من كل نوع ستبطل الى الأبد ، و لن يكون الايجار أو الخدمات دينا لأي سيد ، و لا ضرائب ولا قروض لأي أمير ، و فروق المراتب والمنزلة ستزول من الوجود ، ولن يكون لأحد سلطة على أي فرد أخر ، وسيعيش الجميع معا كاخوة ، وسيتمتع كل واحد بالحريات نفسها ويقوم بالقدر نفسه من العمل كأي واحد آخر ،«والأمراء والاكليروس والمدنيون على السواء ، والكونتات والفرسان يمكنهم فقط أن يملكوا بقدر ما يملك الناس العاديون و عندها يكون لكل امرىء ما يكفي ، و سوف يأتي الوقت الذي يعمل فيه الأمراء واللوردات من أجل خبزهم . اليومي» و مد يوم هجومه الى ما وراء السادة المحليين والأمراء الى قمة المجتمع ، فقال:«إن الامبراطور وغد ، والبابا عديم النفع ، والامبراطور هو الذي يعطي الأمراء والكونتات و الفرسان الحق في فرض الضرائب على عامة الناس واأسفاه اي شياطين مساكين انتم!»

ولا شك ان تعاليم بوم راقت بطرق مختلفة لقطاعات من السكان وربما راقت المطالبة بخلع كل الحكام الكبار والصغار بشكل خاص لفقراء المدن ، ونعرف ان اهل المعرفة جاء وافق الحقيقة الى نيكلاسهوزن ليس فقط من ورز برغ بل من انحاء جنوب ووسط المانيا ، ومن جانب آخر من المطالبة بان يكون الخشب والماء والمرعى والصيد البري والبحري حرا لكل الناس كان بوم ينطق بطموح عام جدا للفلاحين ، واعتقد الفلاحون الالمان ان (٢٢٩) تلك الحقوق كانت في الواقع لهم في الأزمنة القديمة حتى اغتصبها النبلاء وكان هذا احد الاخطاء التي كانوا دائما يريدون من امبراطور المستقبل فردريك ان يبطلها ولكن فوق كل شيء لقد كان مقام الواعظ نفسه كشخص معجزة ارسله الله هو الذي اجتذب عشرات الالوف من الناس الى وادي تو بر ، وقد رأى فيه عامة الناس من فلاحين وحرفيين على السواء حاميا وخارقا للطبيعة وزعيما مثل ما كان يجب ان يكون عليه الامبراطور فردريك مخلصا يمكن ان يمنحهم بشكل فردي كل النعمة الالهية ويقودهم جميعا الى فردوس ارضي .

وانتقلت اخبار الاحداث العجيبة في نيكلا سهوزن بسرعة من قرية الى قرية في الجوار وحملت بعيدا الى خارج الوطن ايضا بوساطة رسل خرجوا من كل اتجاه،وسرعان ماتدفقت الحشود من العامة من كافة الناس ومن كل الاعمار ومن كلا الجنسين وبينهم عائلات كاملة نحو نيكلاسهوزن ، ولم تكن البلاد المحيطة فقط بل كل اجزاء جنوب ووسط المانيا في هياج من الالب الى ارض الراين والى ثورنجيا،وهجر الحرفيون ورشهم والفلاحون حقولهم وهجر الرعيان والراعيات قطعانهم واسرعوا،وهم كثيرا ماكانوا لايزالون في الثياب نفسها ويحملون معاولهم ومطارقهم ومناجلهم – ليسمعوا وليعبدوا ذلك الذي أصبح الآن يعرف بالشاب المقدس وكان هؤلاء الناس يحيون بعضهم البعض بكلمة اخ او اخت فقط ، وكان لهذه التحيات دلالة « صيحة جمع واستدعاء » وبين الجموع الفقيرة من الناس البسطاء المهتاجون بشكل وحشي كانت تنتشر شائعات خيالية،وما

اعتقده العوام الفقراء عن القدس اعتقده هؤلاء الناس عن نيكلاسهورن،لقد اعتقدوا ان جنتهم قد هبطت بشكل واقعي على الارض وكانت ثروات بلا نهاية ملقاة على الارض جاهزة لجمعها من قبل الذين سيقتسمونها بين انفسهم في حب اخوي ، وفي خلال ذلك كانت الحشود مثل الرعاة واللطامين قبلهم تتقدم في صفوف طويلة يحملون الاعلام وينشدون الاغاني من تأليفهم ومن هذه الاغاني اخذت واحدة شهرة خاصة :

الى الرب في السما
اصرخي اليسون
ان الكهنة لايمكن ذبحهم
اصرخي اليسون

وعند وصول الحجاج الى نيكلاسهوزن كانوا يضعون القرابين امام تمثال العذراء،ولكن ولاء اشد كان يعطي للمتنبيء نفسه فامامه كان الحجاج يخرون على ركبهم وهم يصيحون : « يارجل الرب المرسل من السماء ارحمنا وكانوا يحتشدون حوله وعلى مقربة شديدة منه نهارا وليلا ».

حتى انه كان نادرا ما يتمكن من الاكل او النوم وكثيرا ماكان في خطر السحق(ص ٢٣٠) حتى الموت،وكانت قطع من ثيابه يتشبث بها وتتمزق قطعا صغيرة،وكل من يمكنه احراز قطعة كان يعتز بها كاثر لايمكن تقديره كما لو كانت قشة من مزود بيت لحم ، وقبل مضى وقت طويل روي انه كان بوضع اليد يشفي الناس ممن كانوا عميا او بكما منذ الولادة ، وانه اقام الموتى ، وانه جعل نبعا يتدفق من صخرة .

وكانت جموع الحجاج العائدين تستبدل باستمرار بجموع جديدة ويتحدث المؤرخون عن ثلاثين او اربعين او حتى سبعين الفا تجمعوا في يوم واحد معا في نيكلاسهوزن ، ومع ان هذه الارقام منافية للعقل لابد ان الحشود بالتاكيد كانت كبيرة جدا.وكان مخيم واسع يمتد حول القرية الصغيرة.وكانت الخيام تقام حيث الحرفيون والتجار

والطهاة يقدمون الطعام والاحتياطات وضروب التسلية للمسافرين ، ومن وقت لاخر كان بوم يرتقي ظهر قارب قديم او يظهر من نافذة عليا او حتى يتسلق شجرة ليعظ بمذهبه الثوري الحشود .

وبدا الحج نحو نهاية اذار ١٤٧٤ ومع حزيران قررت السلطات الكهنوتية والمدنية على السواء ان دعوة بوم كانت ضررا خطيرا على النظام الاجتماعي ،و يجب التعامل معها ،و في البداية حظر مجلس مدينة نورمبرغ على سكان تلك المدينة الحج الى نيكلاسهوزن وبعد ذلك اتخذت تدابير شديدة في ورزبرغ المدينة التي تضررت بشكل مباشر اكثر فقد كانت تتشوس بالاعداد الكبيرة من الغرباء الذين كانوا يتدفقون خلال المدينة،واغلق المجلس اكبر عد د ممكن من البوابات وناشد الاهالي حمل اسلحتهم ودروعهم وبذل ما امكنهم لايقاف الصخب والجدل العنيف ، وفي النهاية شرع الامير الاسقف في كسر قوة المتنبيء ، وفي المجلس الذي دعاه تقرر اعتقال بوم

ونقلا عن خصومه من الكاثوليك حاول بوم الان تنظيم ثورة ويقال انه في نهاية موعظة القاها في ٧ تموز اخبر الرجال الموجودين بين المستمعين ان عليهم ان يحضروا يوم الاحد التالي وهم مسلحون وبدون نساء او اطفال لانه بناء على اوامر العذراء لديه بعض الاشياء الخطيرة التي سيقولها لهم وماهو مؤكد انه في ليلة السبت ١٢ نزلت كوكبة من الفرسان ارسلها الاسقف في نيكلاسهورن واعتقلت بوم وحملته الى ورزبرغ وفي الظلام كان الحجاج عاجزين عن حماية المتنبيء ولكن في اليوم التالي اخذ فلاح الدورالتنبؤيمعلنا ان الثالوث المقدسي ظهر له و اعطاه رسالة للحجاج المجتمعين ، و هي أن يسيروا باقدام الى قلعة ورزبرغ حيث سجن بوم ومع اقترابهم منها ستتفتت الاسوار مثلما تفتت أسوار اريحا ، وستنفتح البوابات من لقاء نفسها وسيخرج الشاب المقدس منتصرا من اسره وقد اقنعت هذه الرسالة الحجاج على الفور وسار بضعة الوف من الرجال والنساء والاطفال (ص ٢٣١) وهم يحملون شموعا ضخمة اخذت من كنيسة نيكلاسهوزن ولكن بلا

اسلحة تقريبا خلال الليل حتى بلغــوا عند الفجــر اســفل اســوار الحصن،وفعل الاسقف ومجلس المدينة ما في وسعهم لتجنب العنف ، وارسلوا مبعوثا للتفاهم مع الحجاج ، ولكنه طرد بالأحجار ، وكان مبعوث آخر اكثر نجاحا : وكثير من الحجاج ممن كانوا مــن رعايا الأسقف تركوا وعادوا في سلام الى بيوتهم ، ووقف الباقون في ثبات مصرين على وجوب اطلاق سراح الشــاب المقــدس والا ، بمعــونة العذراء المعجزة سيحررونه بالقوة ، واطلقت بضع طلقــات مــدفعية فوق رؤوسهم ، ولكن حقيقة ان احدا منهم لم يصب بأذى لم تفعــل سوى أنها قوت اعتقادهم بأن العذراء كانت تحميهم ، وحــاولوا أن يعصفوا بالمدينة وهم يهتفون بــاسم مخلصــهم ، وهــذه المرة كان الاطلاق جديا وتبعه هجوم من الفرسان ، وقتل نحو اربعين حــاجا وهرب الباقون على الفور في فزع بلا حول .

وكان التأييد لبوم قويا لدرجة انه حتى بعد الانتصار الســاحق لم يشعر الأسقف والمجلس بالأمن ، وحذر اهــالي ورزبــرغ بتــوقع هجوم ثان أكبر حجما ، ثم كان هناك ايضا تخوف انه ضمن المدينة نفسها كان هناك كثيرون ينتظرون فقط فــرصة لضــم قــواتهم الى جيش الحجــاج ، وبناء على ذلك طلب الأســقف مـــــن اللوردات المجـــاورين ان يكونوا على اهبـــة الاســـتعداد لنجــــدته عند الحاجة ، ولكن قبل حدوث أي اضطرابات جديدة حوكم بــوم أمــام محكمة اكليروسية ووجد مذنبا بالهرطقة والشعوذة ، وقــطع رأســا اثنين من حوارييه الفلاحين ــ احدهما صاحب الرؤيا الذي حــاول تنظيم انقاذه ــ وأحرق هو نفسه على الخازوق وهو ينشــد تــراتيل للعــذراء وهــو يهلك ، وأثناء الاعدام ابقــى النظــارة بعيدين عن الخازوق ، وكان عامة الناس يتوقعون معجزة مــن الســماء تنقــذ الشاب المقــدس ، وتبعثــر اللهب بين مضــطهديه ، وكان الأســقف والكهنوت يتوقعون بعض التدخل الشيطاني ، وبعد ذلك كما حــدث بالنسبة لفردريك الزائف في نويس Neuss قبل ذلك بقــرنين بعثر الرماد في النهر ، لئلا يكتنزه اتبــاع المتنبــيء كأثــر مقـــدس

ولكن حتى في حينه كان بعض هؤلاء الناس قد قبضوا التراب من حول قاعدة الخازوق واكتنزوه .

وعمل كل شيء لتدمير آثار بوم وأعماله : القرابين المتروكة في كنيسة نيكلاسهوزن ، والتي لابد أنها كانت هائلة ، صودرت واقتسمت بين رئاسة اسقفية مينز ، واسقف ورزبرغ والكونت الذي كانت الكنيسة تقوم على أراضيه .

وفي كل المناطق المبتلاة من الأسقفيات الألمانية انضم أفراد ومجالس (ص٢٣٢) المدن إلى منع أي حج آخر إلى المزار ، ومع ذلك استمر الحجاج في الوصول وبشكل خاص من أسقفية ورزبرغ ، وكانوا مايزالون يصلون بعد تهديدهم بالحرمان واغلقت الكنيسة ووضعت تحت التحريم ، وفي النهاية في بداية ١٤٧٧ هدمت الكنيسة بناء على امر من رئيس أساقفة مينز ، ولكن لسنوات عديدة كان للبقعة زوار سريون خاصة في الليل .

ولاشك ان شاب نيكلاسهوزن المقدس قد استغل من قبل رجال كانوا اكثر منه حذقا ، ومن المعروف ان بعض اللوردات المحلين حاولوا استثمار الاثارة الشعبية لاضعاف حكم سيدهم الأعلى ، اسقف ورزبرغ ، الذي كانوا في نزاع معه منذ بضع سنوات ، وهؤلاء كانوا هم الرجال الذين تراسوا المسيرة الليلية الى ورزبرغ ، وقام واحد منهم مؤخرا بطريق التكفير بتسليم أكثر أراضيه الى رجال الكاتدرائية ، ولكن ماهو أهم من هذه المؤامرات السياسة كانت هناك شخصيتان كمنتا في الخلفية الظليلية للقصة ، واللذان ربما لولاهما ماكان الحج الحاشد كله ابدا قد حدث.

ومرة اخرى يتذكر المرء ثورة الرعاة في ١٣٢٠ ، وفي تلك المناسبة ايضا راى الصبي الراعي رؤيا للعذراء ، وتلقى رسالة منها ، ولكن فقط عندما أولاه راهب مرتد وكاهن غير مرسم

تأييدهما ونظما له الدعاية اللازمة قذفت حركة جماهيرية الى الوجود ، وكان تحت قيادة هذين الرجلين ان اصبحت الحركة ثورية ، وكان بوم أيضا صبيا راعيا بسيطا ، وقد علمنا انه من شبابه الأول كان يعتبر نصف ذكي ، حتى أنه عندما بدأ يعظ لم يكن قادر على تكوين جملة متماسكة وانه حتى يوم مماته كان مايزال يجهل « صلاة الرب » ، وكونه مع ذلك قادرا على إيقاع مناطق واسعة في المانيا في هياج كان مرجعه الى الدعم الذي تلقاه ، وكان كاهن اسقفية نيكلاسهوزن سريعا في ادراك ان معجزات قليلة يمكن أن تجتذب قرابين كثيرة إلى مزاره حتى اليوم ، وطبقا لذلك ـ كما أقر نفسه بعد ـ اخترع معجزات وعزاها الى الشاب المقدس ، ولكن الدور الكبير شغله ناسك كان لبعض الوقت يعيش في كهف قريب ، وكان قد أحرز سمعة كبيرة بقدسيته .

ويبدو أن هذا الناسك قد مارس هيمنته كلية على بوم والهمه وخوفه ، وحتى رؤيا العذراء كما قيل من قبل بعضهم كانت حيلة اخترعها هذا لخداع الراعي الشاب ، وقيل أيضا انه عندما خاطب بوم الحشود من نافذة كان الناسك واقفا خلفه يحثه ، كما صور هو يفعل في المشهد الخشبي المأخوذ من حولية سكيدل (ص٢٣٣) ، (لوحة رقم ٧) وحتى لو كانت القصة خيالية من المحتمل انها تدل بدرجة كافية على حقيقة العلاقة التي كانت بين الرجلين ، وهي بالتأكيد تزيد في أهمية الأسماء التي اطلقتها السلطات الاكليروسية على الناسك الذي هرب عندما اعتقل الشاب المقدس ، ولكن قبض عليه بعد ذلك بوقت قصير وقد أطلقوا عليه اسم بيغرد من أهل بوهيميا وهوسيتي ، ومع أن الدليل لايمكن القول بأنه حاسم ومقنع ، يبدو مؤكدا بشكل معقول ان الناسك هو الذى حول الحج الديني الى حركة ثورية ، ولابد انه قد رأى في وادي توبر الهادىء المركز المقبل لمملكة الفية فيها يمكن أن يستعاد نظام المساواة البدائية ، وربما كان المؤرخون المعاصرون متعجلين جدا في رفض أنه عندما قبض على بوم وجد عاريا تماما في حانة ، يعظ بأشياء عجيبة ، على اعتبار انها افتراء واضح بقصد تشويه

السمعة ، وبعد أولم تكن هذه هي الطريقة التي قدم بها الأدامـــايت البوهيميون رمزيا عودة حالة الطبيعة الى عالم فاسد ؟

لقد توغلت الألفية المساواتية الآن بشكل فعال في المانيا ، واصبح يسمع عنها اكثر خلال نصف القـــرن التـــالي ،وظهـــر « اصـــــلاح سيغسموند » بعد وجوده كمخطوط مذسي تقريبا لنحو أربعين ســنة للمرة الأولى على شكل كتـــاب مخـــطوط خــلال عامين بعـــد اعدام بـــــــــــوم ، واعيد طبعـــــــــــــــه في ١٤٨٠ ، و ١٤٨٤، و ١٤٩٠ و ١٤٩٤ ، وكتب في الأصل بالضبط بعـــد انهيار فرق الطابوريين في بوهيميا ، وكان العمل في نفسه مثلا على جاذبية المثل الطابورية وعلى الرغم من منهاجه المعتدل نسبيا ، فـــانه هـــو ايضا دعا الفقراء الى حمل السيف وتعـــزيز حقـــوقهم تحـــت قيادة الكاهن الملك فرديريك ، و عاد الموضوع نفسه في صورة اكثـــر عنفـــا بكثير الى الظهور في كتاب « المائة فصل » الواسع الشهرة ، والذي اخرجه ثائر الراين الأعلى في السنوات الافتتاحية للقـــرن الســـادس عشر ، وماتنبأت به تلك النبوءة الغريبة بذلك التفصيل الكبير هو بعد كل شيء بالضبط ماكان مبينا بشكل جامع من قبل جون بـــول ومـــن قبل الطابوريين المتطرفين مثل : انه بعد صراع دمـــوي واحـــد أخير ضد حشود المسيح الدجال ، سيعاد ترسيخ العدل العام على الأرض وكل الناس سيكونون سواسية وأخوة ، وربما ســـيملكون كل شيء بصورة مشتركة ، وهذه التخيلات لم تكن محصورة في الكتب ، فقد ظهرت ايضا في جـــوار الراين الأعلى هناك حـــركات تآمـــرية كانت مكرسة لتحويلها الى حقائق ، وهـــذه كانت الحـــركات التـــي كانت معروفة بشكل جماعي باسم الباندشو وهو اصطلاح يعني القبقـــاب الفلاحي،وله الدلالة نفسها مثل اصطلاح (بـــدون سروال) خـــلال الثورة الفرنسية .

وكان زعيم الباندشو فلاحا يدعى جوس فـــريتز Joss Fritz وكان العديد ايضا من مختلف المراتب العســكرية مـــن الفلاحين ، ولكن الفقـــراء مـــــن أهـــــل المدن والمرتـــــزقة

(ص٢٣٤) المسرحون ، والمتسولون وماشاكل ذلك مـن المعـروف انهم شغلوا دورا كبيرا في الحركة : وان ذلك بـلا شـك كان ممـا اعطاها خاصتها الغريبة ، لأنه كانت هناك ثورات فـلاحية أخـرى كثيرة قائمة في جنوب المانيا في تلك السنوات ، وكانت كلهـا تـرمي لمجرد اصلاحات محدودة ، والباندشو فقط هم الذين كانوا يهدفون الى الألفية ، ومثل انتفاضة نيكلاسهوزن كانت ثورة البـاندشوالتي حدثت في اسقفية اسبيير Speyer في ١٥٠٢ قـد اثيرت بالمعنى العام بسبب اخفاق آخـر محـاولة لاسـتعادة البنية المتحللة للامبراطورية ، وبشكل مباشر اكثر بسـبب الضرائب الزائدة التـي فرضها امير اسقف مفلس ، ولكن هدفها لم يكن شيئا اقل من ثورة اجتماعية من النوع المتطرف الشامل فان كل سلطة يجب اسـقاطها وابطال كل الضرائب والفروض ، وتـوزيع كل ممتلكات الأكليروس بين الناس ، وكل الغابات والمياه والمراعي يجـب ان تصـبح ملكية مشتركة واظهر علم الحركة المسيح مصلوبا مع فلاح يصلي في أحـد الجانبين وقبقاب فلاح في الجانب الآخر وفوقه شعار « لاشيء سوى عدالة الرب! » وكان المخطط هو الاستيلاء على مـدينة بـروخسال Bruchs al ، التـــي كانت تضـــم قصر الأمير الأسقف ، ومن هناك تهيأ للحركة ان تمتد مثل النار المستعرة عبـر عرض المانيا وطولها لتجلب الحرية للفـلاحين وسـكان المدن الذين يؤيدونها ، ولكن الموت لغيرهم ومـع ان هـذه المؤامـرة تعـرضت للخيانة وسحقت الحركة فقد نجا جوس فريتز لينظم ثورات مماثلة في ١٥١٣ و ١٥١٧ ، حيث مرة اخرى ايضا يجد المرء المزيج المألوف من التخيلات من جانب واحد ابادة كل الاغنياء والأقـوياء واقـامة نظام مساواة.ومن جـانب آخـر « التخلص مـن الكفـرة والمجرمين » ومن قيادة الامبـراطور ، وحتـى اسـتعادة الضريح المقدس ، وفي الواقع اصبحت صورة الباندشو تملك دلالة كبيرة حتى أنه كان يعتقد على المستوى الشـعبي ان الاسـتيلاء الأصـلي على القدس قد تم بوساطة الفلاحين الذين حاربوا تحت هذا الشعار .

وفي هذه الأثناء وفي جزء مختلف من المانيا ــ ثـورنجيا الدائمـة

الخصوبة بالأساطير الالفية والحركات ــ كان تــوماس مــونتزر Thomas Muntzer يركب متن المهنة العاصفة التي كان لها ان تنتهي بتحويله ايضا الى متنبــىء لالفية المســاواة والرجل الذي دامت شهرته الى اليوم الحالي .

توماس مونتزر

ولد تــوماس مــــونتزر في اســــتولبرغ في ثــــورنجيا في ١٤٨٨ او ١٤٨٩ ، ولم يولد ــ كما روى كثيرا ــ للفقر بل لليسر المعتدل ، ولم يشنق والده من (ص ٢٣٥) قبل طاغية اقطاعي بــل توفي في فراشه بفعل الشيخوخة ، وعندما بدا للعيان للمرة الأولى في اوائل الثلاثينيات من عمره ظهر مــونتز لاكضــحية ولاكعــدو للظلم الاجتماعي بل بــالأحرى « كبــاحث ابــدي » وكعــالم استثنائي ، ومفكر متعمق ، وبعد تخريجه من الجــامعة وتــرسيمه كاهنا عاش حياة قلقة هائمة ، يتخير دائما الأماكن التي يأمل انها توسع دراساته ، ومــع تضــلعه العميق في الكتــب المقــدسة ، تعلم اليونانية والعبرية ، وقــرأ اللاهــوت الكنسي والفلســفة النصرانية اللاهوتية والفلســفة ، وانغمس ايضــا في الكتــابات الصــوفية الالمانية ، ومع ذلك لم يكن أبدا عالما صرفا ، وكانت قراءته النهمــة تجري في محاولة يائسة لحل مشكلة شخصية ، لأن مــونتزر في ذلك الوقت كان روحا مضطربة مليئة بالشكوك حــول حقيقــة المســيحية وحتى حول وجود الرب ، ولكنه كان يناضل بعناد بحثــا عن اليقين وفي الحقيقة غالبا ما كانت تنتهي مثل تلك الحالة القلقــة بتحــول الى الهداية.

وكان مارتن لوثر الذي كان اسن من مونتزر بخمس ســنوات او سته قد بدأ لتوه في الظهور كاكبر خصم عرفتــه كنيســة رومــا على الاطلاق ، وايضا ــ ولو عرضــا وبشــكل عابــر فقــط ــ كزعيم حقيقي فعال للأمة الالمانية ، وفي ١٥١٧ أعلن رســالته الشــهيرة ضد بيع صــــكوك الغفــــران على بــــاب كنيســـــة

ورزبرغ ، وفي ١٥١٩ تشكك في مناظرة علنية بسيادة البابا ، وفي ١٥٢٠ نشر - وحرم من أجل النشر - البحوث الثلاث التي استهلت الاصلاح الألماني ، ومع انه كان لابد من مضي سنوات كثيرة قبل ان تظهر الكنائس الانجيلية المنظمة على أسس أرضيته،وجد الآن حزب لوثري معروف ، وانضم اليه كثير من الاكليروس ، حتى بينما كانت الاغلبية تتعلق بثبات « بالديانة القديمة » وعندما انفصل مونتزر في البداية عن الأصولية الكاثوليكية كان تابعا للوثر ، وكل الأعمال التي جعلته شهيرا تمت وسط الزلزال الديني الكبير الذي شقق اولا ، وبعد طول عناء دمر البناء الكنسي العملاق للعصور الوسطى ، ومع ذلك تخلى هو نفسه عن لوثر بعدما وجده بوقت قصير ، ومنذ ذلك الحين كان دوما المعارض الأشد للوثر ، وقد فعل ذلك وهو يعد مذهبه الخاص ليقوم بالاعلان عنه بعد ذلك .

وماكان مونتزر بحاجة اليه اذا كان له ان يصبح رجلا جديدا ، واثقا من نفسه ، ومن هدفه في الحياة،لم يكن في الواقع ليجده في مذهب لوثر حول التسويغ بالايمان وحده ، بل ان يجده بالأحرى في الالفية المناضلة المتعطشة للدماء التي تكشفت له عندما تولى منصب كاهن في ١٥٢٠ في مدينة زويكو Zwickao ، واصبح على صلة بنساج يدعى نيكلاس ستورش Niklas Storch ، وتقع زويكو على مقربة من الحدود البوهيمية ، وكان ستورش نفسه في بوهيميا ، وكان المذاهب الطابورية القديمة بشكل اساسي هي التي تم احياؤها في تعاليم ستورش ، واعلن انه الآن (ص ٢٣٦) كما في أيام الرسل كان الرب على اتصال مباشر مع النخبة ، وسبب ذلك ان الايام الأخيرة أصبحت في متناول اليد ، واولا يجب ان يغزو الترك العالم ، ثم لابد ان يحكمه المسيح الدجال ، ولكن بعدئذ - وسيكون ذلك قريبا - ستهب النخبة وتبيد الكفار ، حتى يحل المجيء الثاني وتبدا الألفية ، وماكان يروق لمونتزر كثيرا هو حرب الابادة التي كان على الصالحين ان يشنوها ضد الفاسدين

وبتخليه عن لوثر اصبح الآن يفكر ويتكلم فقط عن سفر الرؤيا ، وعن احداث في العهد القديم مثل نبح ايجا لكهنة بعل ونبح ياهو لابناء اخاب وياعيل واغتيال سيسرا النائمة ، ولاحظ المعاصرون وتفجعوا على التغيير الذي حدث له ، والشهوة الى الدماء التي كانت تعبر عن نفسها احيانا في هياج عنيف .

وبقوة السلاح يجب ان تمهد النخبة الطريق للألفية ، ولكن من الذين كانوا النخبة ؟ كانوا في نظر مونتزر اولئك الذين تلقوا الروح القدس اوكما اعتاد ان يدعوه (المسيح الحي) وفي كتاباته كما في كتابات الأحرار الروحيين يوجد تمييز واضح بين المسيح التاريخي ، والمسيح « الحي » أو « الداخلي » أو « الروحي » والذي يتخيل انه ولد في روح الافرادو هذا الأخير هو الذي يملك قدرة الغفران ، ومع ذلك فمن ناحية واحدة يحتفظ المسيح التاريخي بأهمية عظيمة ، :

باستسلامه للصلب اشارة الى طريق الخلاص ، لأن كل من نجاه ، عليه في الواقع ان يعاني بشكل مؤلم جدا ، ويجب ان يتطهر حقا من كل ارادة ذاتية ويتحرر من كل مايربطه بالعالم ومن الكائنات المخلوقة ، وبداية يجب ان يخضع نفسه طوعا ليكون زاهدا ، وعندما يصبح صالحا وجديرا باستقبالهم يفرض الرب عليه معاناة اشد لايمكن وصفها .

وهذا الابتلاء الأخير هو الذي سماه مونتزر « الصليب » ، وقد يتضمن المرض والفقر والاضطهاد ، وكلها يجب أن تحتمل في صبر ، ولكنه فوق كل شيء قد يشمل كروبا عقلية شديدة والسأم من الدنيا ومن النفس ، وفقدان الأمل ، واليأس ، والرعب . وفقط عند بلوغ هذه النقطة ، وعندما تجرد الروح وتصبح عارية تماما ، يمكن أن يتم الاتصال المباشر بالرب ، وكان هذا بالطبع مذهبا تقليديا مثل ذلك الذي اعتنقه العديد من متصوفة الكاثوليك في العصور الوسطى ، ولكن عندما يأتي مونتزر للكلام عن الحصيلة يتبع تقليدا آخر اقل اصولية ، إذ أنه نقلا عنه : « ما أن يدخل المسيح الحي » إلى الروح

حتى يكون هذا الى الابد ، والانسان الذي كسب مثل هذه المنة يصبح وعاء للروح القدس ، وتحدث مونتزر حتى عن« تحوله الى رب » ، ولكونه كان وهو ببصيرة تامة من المشيئة الالهية ولعيشته في توافق تام معها كان مثل هذا الرجل بشكل محقق مؤهل لان يلغي المهمة الاخروية المقررة من السماء ، وهذا بالضبط ماادعاه (ص . ٢٣٧) مونتزر لنفسه ، ولم يكن للاشيء ان هذا المتنبيء قد ولد ضمن بضعة اميال من نوردهورن ، مركز تلك الحركة السرية ، حيث اختلط مذهب الروح الحرة بمذهب اللطامين ، ولربما امكن القاء ، السوط بعيدا ، ولكن الخيال المستبطن كان مايزال هو نفسه .

وما ان مكنه ستورش من ان يجد نفسه غير مونتزر طريقته في الحياة ، وتخلى عن القراءة والسعي في طلب العلم ، لانما بادانة الانسانيين الذين كثروا بين اتباع لوثر ، وناشدا بلا توقف عقيدته الاخروية بين الفقراء ، ومنذ وسط القرن السالف افتتحت مناجم للفضة في زيوكو وحولت المدينة الى مركز صناعي هام ، ثلاثة اضعاف حجم درسدن ، وتدفق العمال من كل انحاء جنوب ووسط المانيا الى المناجم ، وكانت النتيجة ان اصبح هناك فائض فرص في القوى العاملة ، علاوة على الاستثمار غير المنضبط للفضة الذي نجم عنه تضخم سبب اجراء تخفيض في العمال الصناعيين ، وشمل ذلك حتى الذين استقروا منذ زمن طويل في صناعة النسيج ، وادى الى مايقرب من الفقر المدقع .

وبعد وصوله الى زيوكو ببضعة اشهر اصبح مونتزر واعظا في الكنيسة نفسها التي اقيم فيها منبح خاص للنساجين ، واستعمل المنبر ليلقي بشجب ضار ليس فقط للفرنسسكان المحليين ، الذين كانوا بشكل عام مفتقرين الى الشعبية بل للواعظ ايضا ـ وكان صديقا للوثر ـ الذي كان يتمتع بتاييد الاهالي الموسرين ، ولم يمض وقت طويل حتى اصبحت المدينة كلها منقسمة الى معسكرين متخاصمين واصبحت العداوة بينهما حادة لدرجة أن الاضطربات العنيفة بدت وشيكة.

وفي نيسان ١٥٢١ ، تدخل مجلس المدينة وصرف القادم الجديد المثير للاضطراب ، وإذ ذاك قام عدد كبير من الناس بقيادة ستورش بثورة ، وأخمدت الثورة وجرت اعتقالات كثيرة ، وشملت بدلالة كافية أكثر من خمسين نساجا .

وبالنسبة لمونتزر فقد لجأ إلى بوهيميا ، على ما يظهر بأمل أنه حتى في هذا التاريخ المتأخر قد يجد بعض مجموعات الطابوريين هناك ، وفي براغ أخذ يعظ بمساعدة مترجم ، ونشر أيضا بالألمانية والتشيكية واللاتينية بيانا يعلن تأسيس كنيسة جديدة في بوهيميا ، ستضم النخبة فقط ، وستكون بناء عليه ملهمة من الرب بشكل مباشر ، وحدد دوره الآن بتعابير من الحكايات والأمثال الأخروية نفسها حول القمح والبيقية ، التي كانت قد اثيرت خلال ثورة الفلاحين الانكليز : « لقد حان وقت الحصاد ، فقد استأجرني الرب نفسه من أجل حصاده ، ولقد شحذت منجلي ، لأن أفكاري قد ثبتت بقوة على الحقيقة ، وشفتاي ويداي ، وجلدي وشعري ، وروحي وجسمي وحياتي تلعن الكفرة » .

وبالطبع كانت دعوة مونتزر للبوهيميين مخفقة ، وطرد من براغ وفي السنتين (ص ٢٣٨) التاليتين هام من مكان إلى مكان في وسط ألمانيا في فقر شديد ، ولكن كانت تدعمه الآن ثقة لاتهتز في مهمته التنبوئية ، ولم يعد يستعمل درجاته الأكاديمية وإنما وسم نفسه « برسول المسيح » واتخذت مصاعبه في عينيه قيمة مسائحية : « لتكن معاناتي نموذجا لكم ، ولتنفخ كل البيقية نفسها بقدر ما تحب فما زال أمامها أن تذهب تحت الدرس مع الحنطة الصافية ،. إن الرب الحي يشحذ منجله في ، حتى يمكنني فيما بعد أن أقطع الخشخاش الأحمر والقنبيط الأزرق » .

وبلغ تشرده نهايته عندما دعي في ١٥٢٣ ليقوم برعاية روحية في مدينة الستدت الصغيرة الثورنجية ، وتزوج هناك ، وأوجد الطقوس الأولى باللغة الألمانية ، وترجم التراتيل اللاتينية إلى العامية ووطد

سمعته كواعظ ، التـي امتـدت في كل انحـاء وسـط المانيا ، وكان الفلاحون يأتون بانتظام من الريف المجاور ، وفـوق الجميع بضـع مئات من العاملين في المناجم ، مـن مناجـم مـانسفيلد للنحـاس ليستمعوا إليه ، وقد زوده هؤلاء إلى جانب حرفيي الستدت بـاتباع أعدهم في تنظيم ثوري ، هو « عصبة النخبة » ، وكانت العصبة تضم بشكل رئيس أناسا من غير المتعلمين ، وكان هـذا جـواب مـونتزر للجامعة ، التي كانت دائما مركزا لنفوذ لوثر .

وكان التنور الروحي الآن هو الذي سـيحل محـل علم الكتبـة ، وكان على الستدت أن تحل محل ويتنبرغ وتصبح مـركزا لاصـلاح جديد كان مفروضا أن يكون شاملا ونهائيا ، ويؤدي إلى الالفية .

وقد مضى وقت طويل كان مـونتزر فيه متسورطا في صراعات مـع السلطات المدنية ، حتـى أن اميرى سـاكسوني ــ الأمير المنتخـب لرئاسة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فـردريك الحـكيم واخيه الدوق جون ــ كانا قد شرعا بمراقبة اعماله بمزيج مـن الفضـول والحذر ، وفي تموز ١٥٢٤ جاء الدوق جون ، الذي هجر هو نفسـه العقيدة الكاثوليكية التقليدية ، وأصبح تابعا للوثر ، إلى السـتدت ، وكي يكشف نوع الرجل الذي كان عليه مونتزر ، طلب منه أن يعظه . وفعل مونتزر وقد أخذ نصه من رأس النبع في التقـاليد الرؤوية ، في سفر دانيال ، وتعطي الموعظة التي سرعان ما طبعها ، أوضـح المفاهيم الممكنة لمعتقـداته الاخـروية حيث قـال إن آخـر الامبراطوريات ــ الدنيوية تقترب من نهايتها ، والدنيا الآن لاشيء ، سوى امبراطورية الشيطان ، حيث هؤلاء الأفـاعي والكهنة وهؤلاء الثعابين والحكام المدنيون واللوردات ، يلوثـون بعضـهم بعضـا في كومة شوشة ، لقد حان الوقت بالفعل ليختار امراء ساكسون ، إمـا أن يكونوا عبيدا للرب أو للشـيطان ، فإذا كان الخيار الاول فإن واجبهم واضح :

« اطردوا أعداء المسيح مـن بين النخبـة ، لانكم وسـائل هـذه الغاية(ص ٢٣٩) ، ايها الاخوة الاحبة الأعزاء لاتتخـذوا ذريعـة

ضحلة ، إن الرب قد يفعل ذلك دون أن تضربوا بالسيف وعندها إن سيفكم قد يصدأ في غمده .... إن المسيح هو سيدكم ، فلا تدعوهم يعيشون بعد الآن ، أولئك الذين يفعلون الشرور ويحولوننا عن الرب ، لأن من لارب له من الناس لاحق له في الحياة إذا كان يعوق التقي الورع »، واصر الواعظ على أن الكهنة ، والرهبان والحكام الملحدين الكفرة يجب أن يهلكوا : « إن السيف لازم لابادتهم ، وهكذا يجب أن يفعل بأمانة وكما ينبغي ، ويجب أن يفعله ابآؤنا الاعزاء ، الامراء ، الذين يعترفون معنا بالمسيح ، ولكن إذا لم يفعلوه ، سيؤخذ السيف منهم .... وإذا قاوموا ، فليذبحوا دون رحمة .... في زمن الحصاد يجب أن ينتزع المرء الاعشاب من كرم الرب .... ولكن الملائكة الذين يشحذون مناجلهم لهذا العمل ليسوا سوى عبيد الرب الجادين .... لأن الكفرة لاحق لهم في الحياة ، إلا من تختارهم النخبة لتسمح لهم بذلك .... »

ومع ذلك فإن مونتزر اقر أن الامراء لايمكنهم أن يتولوا هذه المهام بفعالية مالم يبلغوا بأهداف الرب ، وهذا ما لايمكنهم إحرازه بأنفسهم ، لأنهم ما يزالون بعيدين جدا عن الرب ، وعليه هكذا استخلص ، يجب أن يكون في بلاطهم كاهن يعد نفسه بنكران الذات وكبح الشهوات لتفسير احلامهم ورؤاهم ، تماما كما فعل دانيال في بلاط نبوخذ نصر والتلميحات الانجيلية الضمنية التي صاحبت هذه التوصية تظهر بوضوح كاف انه قد رأى في نفسه النبي الملهم ، الذي كان له أن يحل محل لوثر لصالح الأمراء ، كما حل دانيال محل الكتاب غير المتنورين .

وبهذه الطريقة ظن انه يحرز نفوذا على حكام الارض حتى يكون قادرا على توجيههم في إجراء التحضيرات الضرورية للالفية .

وقد نوقشت كثيرا كيفية تصوير مونتزر للالفية ، ويمكن في الواقع تقريرها من الحكم على كتاباته ، لقد اظهر بالتأكيد اهتماما اقل بكثير بطبيعة مجتمع المستقبل من اهتمامه بالابادة الجماعية التي

يفترض ان تتقدمه ، كما لايبـدو ايضـا انه ابـدى اهتمـاما كبيرا بتحسين الحصة المادية للفقراء الذين كان يعيش بينهم ، وبعد يومين من القاء موعظته للأمراء نجده يكتب لاتباعه في سانغرهوزن بسأنهم يجب ان يطيعوا سيدهم في كل الأمور الدنيوية ، وإذا لم يكن السـيد راضيا عن الخدمة والايجارات التي يحصل عليها في الوقت الراهن ، يجب أن يكونوا مسـتعدين لجعله يحصـل على سـلعهم الدنيوية ، وفقط إذا تدخل في الامور المتعلقة بالراحة الروحية ــ وبشكل خاص بمنعهم من الذهاب إلى السندت للاستماع إلى مونتزر ــ يجـب أن يصرخوا بصوت عال ليسمعهم كل العالم . وحتى عندما تكلم مونتزر عن (ص ٢٤٠) العصبة من المنتخبين ظل موقفه هو نفسه ، فقـد حاول بالعبارات التالية حث وكيل الأمير المنتخـب في السـتدت على الانضمام للعصبة :

« إذا كان للمخادعين والمحتالين أيضا ان ينضموا بغرض إساءة استعمال العصبة فإن على المرء أن يحيلهم إلى طغاتهم وإلا ، طبقـا لطبيعة الحالة أن يحاسبهم بنفسـه ، وبشـكل خـاص فيمـا يتعلق بتقديم الخدمات الموصوفة ، يجب أن يؤكد بوضوح في العصـبة على أن الأعضاء يجب أن لايعتقدوا انهم بذلك معفون من تقـديم أي شيء لطغاتهم .... لئلا يعتقد بعض الناس الأشرار أننا تجمعنا من أجـل تعزيز الغايات المادية »

ومع ذلك فإن هذا لايعني ــ كما كان يوحي أحيانا ــ بالضرورة أن مونتزر لايمكن أن يكون قد تصور ألفيته بلا مساواة ، بل حتـى كشيوعية ويمكن بالدرجة نفسها أن يعني انه اعتبر النظـام القـائم غير قابل للاصلاح حتى تأخذ كارثة الأيام الأخيرة مجراها ، واعتبر في الوقت نفسه أمرا مسلما بـه انه مـا أن يحصـل ذلك ، فإن دولة الطبيعة البدائية ستستعاد بصورة آلية ، ومثل هذه التخيلات ، التي لم تفقد فتنتها منذ أيام الطابوريين ، معروف بأنها كانت مـألوفة في الدوائر التي كان مونتزر يتحرك فيها ،و طبقا لمصدر يمـكن الاعتماد عليه نوعا ما ، كان معلم مـونتزر الأول ، وهـو النسـاج

نيكلاس ستورش يعتنق افكار حول هــذه الامــور ، بــالكاد يمــكن تمييزها عن افكار أخوة الروح الحرة ، تمسكت بــأن الرب يخلق كل الناس متشابهين عراة وهــكذا يرســلهم إلى الدنيا ، حتــى يكونوا جميعا من المرتبة نفسها ، ويقتسمون كل الاشياء بــالتساوي فيمــا بينهم . وايضا عرف مونتزر الفيلسوف الانساني أو ليريتش هغولد

وكتب هغولد بحثا تنبــأ فيه بــأن الجنس البشري ســيعود « إلى المسيح إلى الطبيعة ، إلى الفردوس » ، الذي عرفه بأنه وضــع بــلا حرب ولا عوز أو توقف ، فيه كل انسان يقتسم كل الأشياء كما يفعل مع اخوته . و علاوة على ذلك و على اسس أن حياة الفلاح كانت هي الأقرب من تلك التي حددها الرب لآدم و حوّاء ، انتهى هغــولد بــأن حول نفسه االى فلاح ، و هكذا فعل الفيلسوف الانساني كارلستدت Karlstadt ، الذي كان صديقا صــميما و حتــى حواريا لمونتزر ، و على مستوى اقل تعقيدا ، لاحظ عضو بسيط في عصبة النخبة بأنه فهم ما عناه برنامجها هو «انهم يجــب أن يكونوا اخوة ، ويحب واحدهم الآخر كالأخوة» .

اما اما بالنسبة لمونتزر نفسه ، فانه عندما كان يكتب عن شريعة الرب ، فانه بالتأكيد بدا و هو يســوي بينه وبين القــانون الاصــلي الطبيعي المطلق ، الذي يفتــرض أنه لم يعــرف التمييز بــالثروة أو المنزلة . و قد قوى هذا الانطباع تاريخ توما مونتزر و هو بــاعتراف الجميع عمل هائل ، عمل كتب بينما كانت قصة مونتزر منتدشة جدا في ذاكرة الناس و هو يظهر بشكل عام مســتوى مــرتفعامن الدقــة الحقيقية ، و حسب هذه الرواية كان مونتزر ، على الأقل في الشهور (ص ٢٤١) الاخيرة من حياتــه ، قــد بشر انه يجــب أن لا يكون هناك ملوك أو سادة و أيضا ، بسبب قوة سوء الفهم للمادة الرابعــة من ان كل الاشياء يجب ان تكون ملكيتها مشتركة ، و بــأخذ هــذه الحقائق ، معا إنها توحي بالتأكيد بــأن الاعتــراف الذي قــام بــه المتنبيء قبل موته مباشرة يحتمل أنه كان دقيقا بدرجة كافية ، حتى ولو كان قد انتزع تحت التعذيب ، لأن ما اعترف بــه كان ان المبــدأ الأساسي لعصبته هو ان كل الأشياء مشتركة بين كل الناس ، و ان

هدفها كان جملة من الأوضاع التي يكون الجميع فيها سواسية ، و يحصل كل فرد على حاجته ، و أنها كانت مستعدة لاعدام اي أمير أو لورد يقف في طريق مخططاتها ، و بعد كل شيء ما من شيء في هذا البرنامج لم يقر او يؤكد أيضا بلا ضغط او اكراه بالمرة في المنهاج الذي تخيله ثائر الراين الأعلى لأخوة الصليب الأصفر.

و عندما ألقى مونتزر موعظته أمام الدوق جون كان واضحا انه يأمل في امكانية كسب امراء ساكسوني الى جانب القضية ، و عندما طرد بعد يومين من ذلك اتباع له من قبل سادتهم ، بشكل خاص من قبل كونت مانسفيلد و جاؤوا كلاجئين الى الستدت ناشد الأمراء الانتقام لهم ، و لكن الأمراء لم يبدوا حركة ، و غير هذا موقفه ، و في الأسبوع الأخير من تموز ألقى موعظة أعلن فيها انه قد بات قريبا الوقت الذي يسقط فيه كل الطغاة ، وتبدأ فيه المملكة المسيحية وهذا في ذاته كان يكفي بلا شك ليحذر الأمراء ، ولكن على أي حال كان لوثر كتب الآن رسالته الى امراء ساكسوني ليبين مدى الخطورة التي أصبح عليها هياج مونتزر ، ونتيجة لذلك استدعى مونتزر الى ويمر Weimar ليقدم إيضاحا أمام الدوق جون . ومع أنه حتى حينه كان الأمر مجرد لفت نظر الى ضرورة التوقف عن اصدار اي تصريحات مثيرة أخرى ، حتى يتم دراسة الأمر من قبل الأمير المنتخب ، كان الأمر كافيا لوضعه على طريق الثورة .

وفي النشرة التي أخرجها الآن بعنوان « التعرية الواضحة للعقيدة الزائفة للعالم الملحد » جعل مونتزر الأمر واضحا ، إن الأمراء غير صالحين لأداء دور على الاطلاق في تحقيق الألفية لانهم امضوا حياتهم في اكل بهيمي وشراب ، ومن شبابهم وما بعده نشأوا على العفوية ، وفي حياتهم كلها لم يصادفهم ابدا يوم سيء ، وهم لم يرغبوا ولم ينووا تقبل مثل هذا اليوم ، وفي الواقع أن الأمراء واللوردات وكل الاغنياء باصرارهم على الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي القائم لا يمنعون انفسهم فقط بل الآخرين ايضا من الوصول الى العقيدة الصحيحية :« وينبغي خلع الكفار الأقوياء

ذوي الارادة الذاتية وطرحهم ارضا وانتزاعهم من كراسيهم لأنهم يعوقون الايمان المسيحي الأصيل المقدس في انفسهم وفي العالم كله (ص ٢٤٢) عندما يحاول الظهور بكل صدقه وقوته الاصلية » وبتحريضه بوساطة الكتاب الفاسدين ـ من امثال لوثر ـ «يفعل العظيم كل ما يمكنه ليحول بين الناس وبين ادراك الحقيقة ».

وبارتباطهم معا « كبيض الضفدع » وباهتمامهم المشترك بالربح المادي يرهقون الفقراء بالربا والضرائب حتى انهم لا يجدون الوقت لدراسة واتباع شريعة الرب ، ومع ذلك ، جادل مونتزر أن هذا كله ليس سببا لليأس ، بل على العكس ، إن الافراط الكبير في الطغيان الذي يضطهد العالم هو علاقة اكيدة على أن التحقق العظيم بات في متناول اليد ، وبالضبط لأن الله يبعث بنوره الى العالم إن بعض (السادة) قد شرعوا الآن فقط بصورة حقيقية في اعاقة ومضايقة ، وجز وحلق شعوبهم ، لتهديد كل النصرانية وبلا خجل وبقسوة متناهية لتعذيب وقتل قومهم والغرباء ايضا.

وقد بلغ مونتزر النقطة التي وصل اليها المتنبؤن السالفون خلال ثورة « الفلاحين الانكليز » ، وثورة الهوسية ، وبالنسبة له ايضا كان الفقراء الآن هم الذين يحتمل أن يكونوا النخبة ، المكلفة بمهمة تدشين الفية المساواة. وبتحررهم من اغراءات البخل والترف ، كان لدى الفقراء على الأقل فرصة عدم المبالاة بموجودات هذا العالم مما يؤهلهم لتسلم الرسالة الرؤوية ، وعليه إن الفقراء هم ـ بينما يستأصل الأغنياء والأقوياء مثل الأعشاب في الحصاد العظيم الأخير ـ الذين سيخرجون بمثابة الكنيسة الوحيدة الصحيحة ، «ثم يجب على كل من هو عظيم ان يستسلم لكل من هو صغيره أه إذا عرف الفلاحون الفقراء المسحوقون أن ذلك عونا كبيراًلهم» ، ومع ذلك ـ أصر مونتزر ـ حتى الآن ليس حتى الفقراء كانوا صالحين للدخول في البهاء المعين لهم .« فهم ايضا يجب ان يبتعدوا أولا عن الرغبات الدنيوية ، وتمضية الوقت في التوافه كما كانوا يفعلون ، حتى يمكنهم بالصلوات والتهجد ، ان يتعرفوا الى حالتهم

اليائسة وحاجتهم في الوقت نفسه الى قائد جديد مرسل من الرب ، واذا كان للكنيسة المقدسة أن تتجرد من خلال الحقيقة المرة ، فإن أحد عبيد الرب يجب أن يتمثل في روح اليجا .... ويحرك الأمور ، وفي الحقيقة أن العديد منهم يجب أن يثار ، حتى أنهم بأكبر حماس ممكن وبجدية حماسية يجب أن يمشطوا النصرانية لتطهيرها من كل الحكام الكفرة » وبالضبط كما قدم مونتزر سالفا خدماته للأمراء كدانيال جديد ، كهذا اقترح نفسه الآن لمنصب القائد الالهي لشعبه.

وتبع « التعرية الواضحة » بفاصل زمني غير كبير كتيب اخر اكثر قسوة ، وجهه خصيصا ضد لوثر وبالتالي عنونه « دعوة الدفاع الاكثر اسهابا ، والجواب على الجسد غير الروحاني الذي يعيش عيشة رحبة في وتنبرغ »

وكان لسبب جيد أن لوثر ومونتزر كان عليهما في ذلك الوقت أن يعتبر كل منهما الآخر عدوا مميتا وتماما مثله مثل مونتزر صاغ لوثر جميع أعماله في اطار ايمانه بأن الأيام الأخيرة (ص ٢٤٣) في متناول اليد ، ولكن في نظره كان العدو الوحيد هو البابوية ، التي رأى فيها المسيح الدجال ، النبي المزيف ، وبنشر الانجيل الحقيقي ليتم التغلب على البابوية .

وعند انجاز هذه المهمة سيعود المسيح ليصدر حكم اللعنة الأبدية على البابا واتباعه وتأسيس مملكة ، ولكنها لن تكون مملكة من هذا العالم ، وفي اطار مثل هذا الايمان بالأخرويات كان من المحتم أن الثورة المسلحة تبدو غير ذات موضوع ، لأن موت الجسد الذي يسببه الناس ، كأن كلا شيء بالمقارنة مع حكم اللعنة الذي فرضه الرب ، وكان محتما ايضا أن تبدو الثورة المسلحة ضارة ، جزئيا لأنها ستحطم النظام الاجتماعي الذي سمح للكلمة أن تنتشر ، وما هو اكثر لأنها ستضعف الثقة بالاصلاح الذي كان بالنسبة للوثر بصورة لا تقبل المقارنة أهم شيء في العالم ، وكان بناء عليه من

المتوقع ان لوثر سيبذل ما في وسعه لابطال تـأثير مـونتزر ، ومـن جانب اخر ليس مدهشا أن مونتزر من جانبه رأى في لوثر شـخصية أخروية هي وحش سفر الرؤيا ، وعاهـرة بـابل ، وفي الواقـع أن عنوان كتيبه كان تلميحا الى فقرة من سفر الرؤيا هي رسالة يهـوذا التي تحكي كيف أن الرب مع عشرة الاف مـن قـديسيه سـينفذون الحكم بالكفار « المسـتهزئين في الزمـان الأخير » ـ كمـا تمـت تسميتهم هناك ـ الذين يبحثـون عن مصـالحهم بـالتودد للرجـال العظام من البشر والذين ليس لديهم الروح » .

وبهجومه على لوثر في « دعوة الدفاع الاكثر اسـهابا » ، صـاغ مونتزر بصورة بالغة الاحكام مذهبه للثورة الاجتمـاعية ، وفي حين أن لوثر أوقف رسـالته على الأمير المنتخـب والدوق جـون أوقـف مونتزر جوابه على المسيح ملك الملوك ودوق كل المؤمنين ، وجعل من الواضح انه يعني بالمسيح روح المسيح التـي خبـرها هـو نفسـه وأتباعه ، وأعطى أسبابه :«إن الأمراء ـــ أولئك الكفرة الأوغاد كمـا يدعوهم الآن ـ دعموا كل ادعاء لتمجيد الطاعة والهيمنة ، التي من الآن فصاعدا ستكون للنخبة وحدها ، وما يزال صـحيحا أن ارادة الرب وعمله يجب أن ينفذوا بكليتهما بالتزام الشريعة » ، ولكن هذه ليست مهمة الكفار وعندما يأخذ الكفـار على عاتقهـم مهمـة قمـع الذنوب فانهم يستخدمون الشريعة كوسيلة لابادة النخبة ، وبشـكل أكثر تخصيصا اكد مونتزر انه في « العظيم » أصبحت شريعـة الرب ببساطة جهازا لحماية الثـروة ، بمعنى الثـروة التـي اسـتولوا عليها ، وفي هجوم مرير على لوثر صـاح : « إن البـائس المغـرور صامت بالنسبة لأصل كل السرقة(ص ٢٤٤)انظر اصول بذرة الربا والسرقة والسلب ، هم ، لورداتنا ، وأمراؤنا ، إنهم يأخـذون كل المخلوقات على أنها ملك لهم : السمك في الماء ، والطيور في الهـواء والنباتات على الأرض ، عليها جميعا أن تكون لهم ، واشـار الى الفقرة في اشعيا التي تقـول : « ويل لهـم الذين يضـمون بيتـا لبيت ، وحقلا لحقل ، حتى لا يكون مـكان ....» وهؤلاء اللصـوص يستخدمون الشريعة ليمنعوا الأخرين من السرقة : « إنهم يذشرون

وصايا الرب بين الفقراء ، ويقولون ، إن الله يوصي بأن لا تسرقوا » ، إنهم يضطهدون كل الناس وهم يجزون ويحلقون الحراثين الفقراء ، وكل شيء حي ، ومع ذلك « أن (الحراث) إذا ارتكب أدنى اساءة يجب أن يشنق » وجريمة لوثر الكبرى هي أنه يسوغ هذ المظالم ، وأعلن مونتزر من جانب أخر حق وواجب النخبة ، الذين يوجدون بين عامة الناس ، في استعمال السيف لابادة الأشرار ، الذين يضمون كل « العظماء » ووجه خطابه للوثر مناديا أنت أيها الثعلب الماكر لقد أحزنت قلوب الصالحين ، الذين لم يحزنهم الرب ، وبذلك قويت سلطة الأشرار الأوغاد ، كي يستمروا في طرقهم القديمة ، وعليه إن الأشياء ستسير معك كما تسير مع الثعلب عندما يمسك به ، وسيصبح الناس احرارا ، والرب وحده يعتزم أن يكون السيد عليهم » .

ومن التناقض بدرجة كافية ، أن الاميرين اللذين كانا بشكل رئيسي في فكر مونتزر ـ الأمير المنتخب فريدريك والدوق جون ـ كانا وحدهما بين الأمراء الألمان في كونهم متسامحين للغاية ، ولكونهما مشوشين بدرجة كبيرة في وسط الهيجان الكبير الذي استهله لوثر والذي بقيت اراضيهما مركزا له ، فقد ملئا بالريبة حول حقوقهما ومنزلتهما ، واستمع الدوق جون دون احتجاج الى موعظة مونتزر الاستفزازية ، وعرف أن الأمير المنتخب قد لاحظ أنه إذا كان الرب يريدها هكذا فإن الحكومة يجب أن تنتقل الى يدي الرجل العادي ، وفي التعامل مع متنبىء الستدت الثائر أبدى كلا الأخوين شكا متساويا ، وكانت كايماءة تحد واستخفاف ، أكثر منها لقلق جدي على سلامته ، أن مونتزر بعد اسبوع من الاستماع الى افادته في ويمر نقض عهده ، وتسلق ليلا أسوار مدينة الستدت وشق طريقه الى المدينة الامبراطورية الحرة مولهوزن .

وكانت المدينة الثورنجية الكبيرة نسبيا من قبل في حالة من الاضطراب المنقطع لما يزيد عن سنة ، وكان راهب سالف يدعى

هينريش بفيفر يتزعم افقـر الاهــالي في نضـــالهم لانتــزاع الهيمنة السياسية من حومة القلة التي كانت حتـى الآن تحتـكرها ، وكان نصف سكان المدينة ـ وهي نسبة كبيرة على حد مـا هـو معـروف بالنسبة لأي مدينة المانية أخرى في ذلك الوقت - يتالف من الفقـراء جدا ، الذين كانوا دائما في أوقـات الأزمـة يظهـرون اسـتعدادهم للتجارب الاجتماعية المتطرفة (ص ٢٤٥) .

وهنا وجد مونتزر اتبـاعا قليلين ولكنهـم متحمسـين ، وبفعـل الاستحواذ المستمر لفكرة الدمـار الوشـيك للاشرار عليه ، كان له صليب أحمر ، وسيف مجرد يحمل امامه عندما كان يقوم بـالدورية في شوارع المدينة على راس فرقة مسلحة.

ومع ذلك فعندما تفجرت الثـورة العلنية قمعـت بسرعة ، وطـرد مونتزر مرة اخرى ، فاستانف هيمانه ، و في نورمبرغ قد بـدأ امـر نشر رسالتيه الثوريتين ، ولكنهما صـودرتا على الفـور مـن قبـل مجلس المدينة ، وكان على مونتزر أن يغادر هذه المدينة أيضا وبعـد بضعة اسابيع من الهيمان اخـذته بعيدا إلى حـدود سـويسرا دعي للعودة الى مـوهلهوزن حيث نجـح بفيفـر في اعادة تـوطيد نفسه ، والذي كان مرة اخرى في حالة مـن الاختمـار الثـوري وفي اذار ١٥٢٥ تم اسقاط المجلس القائم للمدينة وانتخب مجلس جديد من قبل الأهالي ليحل مكانه ، ولكن لا يبدو أن مونتزر قد شـغل أي دور كبير في تلك الأحداث ، وما مكنه من أن يظهـر نفسـه بمـظهر الثوري النشط كان تفجر حرب الفلاحين اكثر منه ثورة موهلهوزن ، وكانت اسباب حرب الفلاحين الألمان وسـتبقى بـلاشك مـوضوعا للجدل ، ولكن هناك بعض التعليقات الهامة التـي يمـكن ايرادهـا ببعض الثقة ، انه على الأقل من المؤكد ان خلفية هذه الثورة تشـبه خلفية ثورة الفلاحين الانكليز اكثر من تلك المتعلقة بثورة الجاكويري Jacquerie فقد كان يسر أحوال الفـلاحين الألمان اكبر مما كان مطلقا ولاسيما الفلاحين الذين اخـذوا المبـادرة في كل

مكان في التمرد المسلح ، وبدلا من ان يدفعوا بالبؤس الصارخ واليأس كانوا ينتسبون الى طبقة ناهضة واثقة من نفسها .

لقد كانوا اناسا اوضاعهم في تحسن اجتماعي واقتصادي ، وكانوا لهذا السبب بالذات لايصبرون على العقبات التي تقف في طريق مزيد من التقدم،وعليه فليس من المدهش انه في جهودهم لازالة تلك العقبات اظهر الفلاحون انهم ليسوا بالمرة آخرويين في افكارهم ، بل على العكس ذوي افكار سياسية ، بمعنى انهم يفكرون بتعابير الأوضاع الحقيقية والامكانات القابلة للتحقق واقصى ماكان يسعى اليه المجتمع الفلاحي على الاطلاق تحت قيادة ارستقراطية الفلاحية كان الحكم المحلي الذاتي ، واول مراحل الحركة من اذار ١٥٢٥ حتى مستهل أيار ، كانت تتألف ببساطة من سلسلة من الصراعات المحلية امكن فيها انتزاع عدد كبير من المجتمعات حقا من سادتها المباشرين ، من الأكليروس او المدنيين مع المزايا التي تعطيها حكما ذاتيا أكبر ، ولم يتحقق ذلك بسفك الدماء بل بتشديد المساومة العنيفة القاسية التي كان الفلاحون يجرونها منذ اجيال .

وتحت هذه الثورة كانت تكمن على أي حال صراعات اعمق (ص٢٤٦) ومع الانهيار المتزايد للسلطة الملكية تحللت الدولة الألمانية الى سلطات اقطاعية متناوبة مشوشة بل ومتحاربة ، ولكن بحلول ١٥٢٥ كانت هذه الحالة القريبة من الفوضوية تقترب من نهايتها لأن امراء الولايات الكبار كانوا منهمكين في ايجاد اماراتهم ذات الحكم المطلق ، ورأى الفلاحون طريقتهم التقليدية للحياة تتمزق ، وحقوقهم الموروثة مهددة بتطور دول من هذا النمط الجديد .

واستاءوا من الضرائب الاضافية ، واستبدال القانون الروماني بالعرف » ، وتدخل الادارات المركزية في الشؤون المحلية ، وقاتلوا ذلك كله وقاوموه ، وأدرك الأمراء من جانبهم

بوضوح كاف أن الفلاحين كانوا يقفون في طـريق مخـططاتهم لبناء الدولة ، وادركوا أيضا أن العصيان المسلح الفلاحي يقدم لهم فرصة فاخرة لتأكيد سلطتهم وتـوطيدها ، وكان الامـراء ـ أو بـالأحرى جماعات خاصة من الأمراء ـ قد عملوا على ان تنتهي الثورة بشكل مفجع ، في سلسلة مـن المعـارك أو المذابـح ، هلك فيهـا ربما ١٠٠٠ من الفلاحين و كانت الاسر الأميرية هي التي ربحت على السواء من اختزال الفلاحين ، والنبالات الأدنى والمؤسسات الاكليروسية الى حالة من الاتكال والضعف كان لهـا أن تـدوم بـلا جدل قرونا.

والدور الذى شغله توماس مونتزر في حرب الفلاحين ككل يمـكن بسهولة التعرف عليه وتقريره مع انه كثيرا مـا بـولغ فيه ، وكانت الجهات الرئيسة المهددة بالصراع هي النواحي التي بلغ فيها تـطور الدول الجديدة مدى أبعد ، ووقعت هـذه النواحـي كلهـا في جنوب وغرب المانيا وهي التي رأت من قبل كثيرا من الثورات الفـلاحية في السنوات لما قبل ١٥٢٥ ، وهناك يبدو أن مونتزر لم يكن له أي نفوذ على الاطلاق ، وفي ثـورنجيا على اي حـال كانت الحـالة غريبـة ومميزة ، حيث لم يكن هناك ثورات فـلاحية سـالفة ، وكانت هناك علامات قليلة عن ثورة وشيكة حتـى في ١٥٢٥ ، وجـاء العصـيان المسلح في الحقيقة متأخرا جدا علاوة على انه أخذ صورة فـوضوية بشـكل غريب ، في حين انه في الجنوب والغـرب كان الفـلاحون يوجهون انفسهم بنمط نظامي منهجي ، وفي ثورنجيا شـكلوا فـرقا صغيرة غير منظمة كانت تـطوف بـالريف تنهـب وتحـرق الأديرة وتجمعات الرهبان ، وربمـا كانت هـذه التفجـرات قـد لقيت تشجيعا ، إن لم تكن قد نجمت عن الهيجان الذي كان مونتزر يثيره.

وكانت النواة الصلبة لاتباع مونتزر ما تـزال في عصـبة النخبـة وانضـمت بعض حلقـاته الدينية السـالفة في الـسـتدت اليه في موهلهوزن ، وعاونته بلا شك في بناء تنظيم جديد.

وفوق كل شيء استمر في الاعتماد على الشغيلة في مناجم النحاس

في مانسفيلد ، الذين انضموا الى العصبة بـالمئات ، ومثـل هؤلاء الناس ـ كانوا يجندون من خارج البـلاد ، وكثير مـاكانوا مـن المهاجرين ، الذين كثيرا ماكانوا معرضين للبطالة ، وكل انواع عدم الأمن ـ كانوا بالقدر نفسه من سوء السمعة والميل للاثارة الثـورية التي كان عليها النسـاجون ، وبـالتالي كانوا مـوضع خشـية السـلطات ، ولأنه كان قـادرا على قيادة مثـل هؤلاء (ص ٢٤٧) الاتباع كان طبيعيا ان يحظى مـونتزر بسـمعة كبيرة كقائد ثوري ، حتى لو لم ينافس نفوذ بفيفـر مـطلقا في مـوهلهوزن نفسها ، وفي محيط العصيان الفلاحي المسلح كان هذا يبـدو اكبـر بكثير ، ومع انه ـ كما تظهر بوضوح مـطالبهم المكتـوبة ـ حتـى فلاحي ثورنجيا لم يشاركوا مـونتزر في تخيلاتـه الالفية ، فـانهم كانوا يتطلعون اليه بالتأكيد على انه العالم الشهير ، والرجل الورع الذي القى بلا تحفظ بثقله معهم ، وكان هناك كثير من عدم الاتفاق حول المدى الذي يمكن بلوغه في تسمية مونتزر بحق قائدا للفـلاحين الثورنجيين في « حربهم » ، ولكن شيئا واحدا يبدو مؤكداً ، هـو انه لم يكن لديهم قائد آخر .

وفي نيسان ١٥٢٥ رفع مونتزر في كنيسـة في مـوهلهوزن علمـا ابيض يحمل قوس قزح رمزا الى ميثاق الرب ، وأعلن أنه سـيسير قريبا تحت هذا الشعار على راس ألفين من « الغرباء » ـ بـدون شك يبدو انهـم مـن الأعضـاء الحقيقيين او المتـوهمين في عصبته ـ وفي نهاية الشهر اشترك هو وبفيفر في الواقع في حملة غزو وسلب ونهب دمر خلالها عددا من الأديرة وتجمعات الرهبان ، لكن حتى ذلك الحين لم يكن هذا بأي وسيلة النضـال الرؤوي الذي كان يحلم به ، ومن رسالة بعث بها الى اتبـاعه في الستـنت يدرك المرء الفكرة التي نسبت مرة الى جون بول ، وباستثناء واحـد : ان المرء يسمعها الآن مباشرة بدلا من أن تكون مجرد رواية وقد جاء فيها :

«اني اخبركم بانه اذا لم تعانوا من اجل الرب ، فانكم يجـب ان تكونوا شهداء الشيطان ، لهذا انتبهوا ولاتكونوا متراخين أصحاب

الرؤى الضالين ، الكفرة الملحدين الأنذال،ابدأوا وحاربوا معركة السادة فهذا أوانها تماما ، واجعلوا كل اخوتكم فيها حتى لايسخرون من الشهادة الالهية ، والا فانهم سيدمرون جميعا انه كل المانيا وفرنسا وايطاليا في حالة يقظة وحذرة فالسيد يريد ان يلهو ولهذا ان الأوغاد يجب ان يشاركوا،لقد قام الفلاحون في كلتغو Klettgau وهيغو Hegau وفي الغابة السوداء ، وعددهم ٣٠٠٠ نسمة والحشد يتزايد كل الوقت ، وكل ماأخشاه ان يترك الحمقى الأتباع انفسهم يؤخذون ببعض الاتفاقات الخيانية ، ببساطة لأنهم لم يروا بعد ضرر ذلك .

اذا كان هناك فقط ثلاثة منكم يثقون في الرب ويلتمسون فقط اسمه وجلاله ، فلن تخشوا مائة الف .

والآن اذهبوا اليهم واليهم واليهم ! لقد حان الوقت ....

ان الانذال تأبطوا الهمة كالكلاب ...... انه من الضروري جدا ضروري الى مدى أبعد من أن يقاس .... ان لاتبدوا اهتماما لنواح الكفرة ! إنهم سيرجونكم بطريقة متوددة وسينتحبون ويبكون كالأطفال .

لاتتاثروا بالشفقة ..... واثيروا الناس في القرى والمدن وعلى الأخص عمال المناجم ، والاتباع الطيبين الآخرين ، الذين سيكونون جيدين في هذه المهمة يجب ان لاننام بعد الآن (ص ٢٤٨) .... خذوا هذه الرسالة الى عمال المناجم ....

اليهم اليهم والنار ماتزال حامية ! لاتدعوا سيفكم يبرد لاتجعلوه يضعف ! اطرقوا بالمطرقة اطرقوا على سندان نمرود القوا ببرجهم الى الأرض ! فماداموا احياء لن تنفضوا الخوف عن الرجال ان احدا لايستطيع ان يكلمك عن الرب طالما انهم يحكمونك، اليهم ، اليهم بينما أنت في ضوء النهار ! .... الرب يسير أمامك ، فاتبعه اتبعه ! .....»

وتظهر هذه الرسالة بوضوح كاف في اي خيالات كان مونتزر يعيش ، لأن نمرود كان يفترض انه بنى برج بابل ، الذي كان بدوره يماثل بابل ، وكان على المستوى الشعبي يعتبر ليس فقط كأول منشيء للمدن بل كمؤهل للملكية الخاصة والتنمية الطبقية ، وفي الواقع كمدمر لحالة المساواة الطبيعية الابتدائية ، وفي دعوته لنبذ نمرود وبرجه اضاف مونتزر سلسلة كاملة من الاشارات الى نبوءات رؤوية هي الانجيل : نبوءة المملكة المسيحية في سفر حزقيال ٣٥ ، ونبوءة المسيح حول مجيئه الثاني كما جاء في انجيل متى : ٢٤ ، و نبوءة يوم الغضب في سفر الرؤيا : ٦ ، وبالطبع الى حلم دانيال Daniel وكل هذا يبين مدى اكتمال رسالة مونتزر في هذه المرحلة الأخيرة ، وان الافتراضات التي عمل على اساسها ، والتعابير التي فكر بها كانت ماتزال ملتزمة بالتقاليد الأخروية ، وفي الواقع ان من الاهمية بمكان انه كان في ذلك الوقت بالذات الرجل الذي اتخذه مثلا اعلى له ، كان هو نفسه يمارس دور المخلص الاخروي ، ولأنه طرد من زويكو Zwickau فان نيكلاس ستورش كون أتباعا جددا اختلط فيهم الرهبان المرتدون بالنساجين والحرفيين الآخرين ، ونظمها حول نواة من اثني عشر رسولا واثنين وسبعين حواريا ، وعندما تفجرت حرب الفلاحين كان يدعى انه قد تلقى وعدا من السماء ، حدد أنه خلال اربع سنوات سيكون قادرا على طرد الحكام الكفرة الحاليين وحكم العالم كله ومنح اتباعه ممالك الأرض .

وفي الوقت نفسه بينما كان مونتزر وستورش يمهدان الطريق للألفية كان لوثر من جانبه يؤلف منشوره الضاري بعنوان « ضد عصابات اللصوص والقتلة من الفلاحين » وكان فعل هذا العمل كبيرا في اثارة الأمراء في وسط المانيا ، الذين كانوا حتى اليوم قد ابدوا تصميما اقل بكثير من أولئك الذين في الجنوب والغرب في معارضة الثورة ، وتوفي الأمير المنتخب العجوز فريدريك الذي اظهر اشد العزوف عن العمل ضد الفلاحين ، في ٤ أيار ، وخلفه اخوه جون ، وانضم الامير المنتخب الجديد الى الأمراء الآخرين في

التماس مساعدة الكونت الالماني فيليب اوف هيس وهو شاب بالكاد في العشرين من عمره ، ولكنه رجل كان قد كسب بالفعل سمعه هائلة كقائد عسكري وفوق ذلك كان قد اخمد لتوه ثورة في مقاطعاته ، وسار الكونت على الفور (ص ٢٤٩)الى ثورنجيا وتوجه الى موهلهوزن التي كان الامراء فيها متفقين في رؤيتهم لمصدر العصيان المسلح الثورنجي ، اما بالنسبة للفلاحين فقد شكل نحو ٨,٠٠ منهم اخيرا انفسهم في جيش في فرانكنهوزن Frankenhausen ، ووقعت هذه المدينة على مقربة من قيادة مونتزر في موهلهوزن ، وكذلك ايضا من قلعة عدوه القديم ارنست مانسفيلد Eornest of Mansfeld ، حتى انه يبدو ان الاختيار كان بالهام من المتنبيء نفسه ، وبالتأكيد قد تحول الفلاحون الآن الى مونتزر كمخلص ، يرجونه ان يأخذ مكانه بينهم ولم تكن دعوتهم عبثا ، في حين ان بفيفر ، الذي كان يعارض في التدخل بقي في موهلهوزن وخرج مونتزر على رأس نحو ٣٠٠ من مؤيديه الاكثر اخلاصا وتعصبا،وللعدد دلالة لأن ٣٠٠ كان حجم القوة التي اسقط بها جدعون المدينيين وفي كتاب « التعرية الواضحة » استحضر مونتزر مثال جدعون،وفي اشد رسائله عنفا اضاف « بسيف جدعون » الى توقيعه ، وقام ايضا باعلان مهمته على انها ابادة الكفرة بسيف جدعون ، ووصل مونتزر الى معسكر الفلاحين في ١١ أيار،

وعلى الفور جعل تاثيره ملموسا ، وامر الفلاحين في القرى المجاورة بالانضمام الى الجيش ، وهدد بأنهم اذا توانوا في ذلك سيجعلهم ينضمون اليه بالقوة ، وارسل طلبا ملحا الى مدينة ارفورت Erfur للتعزيزات وارسل ايضا رسائل تهديد الى العدو ، وكتب لعدوه الخاص الكونت ارنست مانسفيلد ، « قل ايها البائس ، الكيس الرث للديدان ، من جعل منك اميرا على الناس الذين اشتراهم الرب بدمه الثمين ؟ .... وبقوة الرب القادرة انك متوجه للتدمير ، واذا لم تتواضعوا بأنفسكم امام الادنين ، فانكم ستصمونها بالعار الابدي في عيون كل النصرانية

وستصبحون ضحايا الشيطان » ولكن كل شيء كان بلا طائل : فلم تتمكن ايرفورت ان تستجب ، ولم يكن العدو ليخاف بسهولة

وفي ادارتـــــه للعمليات اظهـــــر فيليب هيس Philip Hesse اشد الازدراء التام للمهارة العسكرية للفـــلاحين وسوغت النتيجة تماما المخاطر التي قبل بها ، ومع ١٥ ايار قامت قواته التي تقوت بقوى الأمراء الآخرين فاحتلت الآن مـــوقعا قـــويا فوق تل يطل على جيش الفلاحين ، ومع ان جيش الأمراء كان نوعا مـــااقل عددا كانت لديه مـــدفعية كثيرة ، حيث كان لدى الفـــلاحين القليل جدا منها ، وكان لدى الأمراء نحـــو ٢٠٠٠ مـــن الفـــرسان بينما لم يكن لدى الفلاحين احد من الفرسان ، وكان لمعـــركة تـــدور تحت مثل هذه الظروف نتيجة ممكنة واحدة ، ولكن الأمراء مـــع ذلك عرضوا شروطا ، ووعدوا الفلاحين بمنحهم حيـــاتهم شريطـــة أن يسلموا مونتزر واتباعه المقربين ومـــن المحتمـــل أن العـــرض قـــدم (ص ٢٥٠) بحسن نية لأنه في التعامل مـــع العصـــيان المســـلح في أراضـــيه ، كان الكونت في الوقـــت الذي يطلب فيه التســـليم ، كان يسعى أيضا لتفادي سفك الدماء بلا ضرورة ، وكان من المحتمل أن يقبل العرض لولا تدخل مونتزر نفسه.

وطبقا للرواية في تاريخ مونتزر ـ التي تبدو معقولة بدرجة كافية- القى المتنبـــيء خـــطابا عاطفيا ، أعلن فيه أن الرب قـــد تحـــدث اليه ، ووعده بالنصر حتى أنه سيمسك بقذائف مدافع العدو في اكمام عباءته ، وأنه في النهاية سيحول الرب السماء والأرض بدلا مـــن أن يسمح للناس بالهلاك ، وقد ارتفع اثر هذا الخطاب بـــظهور قـــوس قزح ، الذي فسر ، باعتباره رمزا على علم مونتزر ، بالطبع كعلامة على التاثير الالهي ، ويبـــدو أن اتبـــاع مـــونتزر ، المقـــربين على الأقل ، كانوا واثقين بأن نوعا ما من المعجزة الكبيرة كان على وشك الحدوث ولكونهم كانوا منظمين اضافة الى أنهم متعصـــبين فـــانهم كانوا بلا شك قادرين على الهيمنة على حشود الفلاحين المرتبكة غير المنظمة.

وفي هذه الاثناء كان الأمراء لعدم استلامهم جـوابا مـرضيا على عرضهم قد تزايد نفاد صـبرهم ، واصـدروا الأمـر بـاطلاق المدافع ، ولم يكن الفلاحون قد قاموا بأي استعدادات لاستعمال أي نوع من المدفعية لديهم ولا حتى للهرب ، وفي الواقع كانوا ما يزالون ينشدون « تعالي ايها الروح القدس » ـ كما كانوا يتوقعون المجيء الثاني في تلك اللحظة بـالذات ـ عندمـا اطلقـت القـذائف الأولى والوحيدة ، وكان التأثيرفوريا وفاجعا لقد مزق الفلاحون الصـفوف وهربوا في فزع ، بينما كان فرسان العدو يلحقون بهـم ويذبحـونهم بالمئات .ومقابل فقدانه حفنة صغيرة من رجاله شتت جيش الأمـراء الفلاحين واستولى على فرانكهوزن ، وقتـل نحـو ٥٠٠٠ في هـذه العملية ، وبعد بضعة أيام استسلمت موهلهوزن دون قتال ، وعقابا لها على الدور الذي كان يعتقد انها شغلته اكرهت المدينة على دفـع غرامات كبيرة وتعويضات وحرمت مـن مـكانتها كمـدينة حـرة في الامبراطورية ، وبالنسبة لمونتزر فانه هرب من ميدان المعـركة ولكن سرعان ما وجد مختبئا في قبو في فرانكهوزن ، وبعد تسليمه لأرنست اوف مانسفيلد عذب وقدم اعتـرافا فيمـا يتعلق بعصـبته مـن النخبة ، وبعد الاعتراف قطعت راسه في معسكر الامراء مع بفيفـر في ٢٧ ايار ١٥٢٥ ، واما بالنسبة لستورش الذي يبدو أنه ايضا قد شغل دورا ما في الثورة فقد مات كلاجيء في السنة نفسها .

ومع ذلك فان دور مونتزر التاريخي لم يكن قد انتهـى بعـد بـأي حال ، وطبيعي بـدرجة كافية انه في الحـركة القـائلة بتجـديد العماد ، والتي انتشرت طولاوعرضا في السنوات التي أعقبت حـرب الفلاحين ، كانت ذكراه ما تزال تستـوجب (ص٢٥١)التمجيد مـع انه لم يطلق على نفسه ابدا أنه من دعاة تجديد العماد ، وما هو أكثر غرابة هو الانبعاث والتاليه الذي حدث له خلال المائة سنة الماضـية ومـن انجلز الى المؤرخين الشـيوعيين المعـاصرين ـ الروس والألمان ـ ضخم الماركسيون مونتزر الى رمز عملاق ، و بـطل غير عادي ،و في تاريخ الحرب الطبقية وهذه فكرة ساذجة ، وواحدة مـن الافكار التي قـاومها المؤرخـون غير الماركسيين بسـهولة

كافية ، بالاشارة الى الطبيعــة الصــوفية الاســاسية لاهتمــامات مونتزر وعدم مبالاته العامة بالرخاء المادي للفقراء ، ومع ذلك فــانه ربما يوحي بأن هذه النقطة ايضا يمكن المبالغة في تأكيدها ، لقد كان مونتزر متنبئا اســتحوذت عليه التخيلات الأخــروية التــي حــاول ترجمتها الى حقائق باستغلاله لعدم الرضى الاجتماعي ، وربما بعــد كل شيء أنها كانت غريزة راسخة تلك التي قــادت الماركســيين الى ادعاء نسبته اليهم .

الفصل الثالث عشر

ألفية المساواة (٣)

القول بتجديد العماد

لقد ترافق الاصلاح اللوثري (ص ٢٥٢) ببعض الظواهر التي مع أنها روعت لوثر وجماعته كانت طبيعية لدرجة أنها تبدو عند تأمل الأحداث الماضية كان لا مفر منها ، وكمعارضين لسلطة كنيسة روما احتكم الاصلاحيون الى نص الكتاب المقدس ، ولكن ما أن اعتاد الناس قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم حتى بدأوا يفسرونه لأنفسهم ، ولم يتوافق تفسيرهم دائما مع تفسير الاصلاحيين ، وحيثما امتد تأثير لوثر كان الكاهن يفقد كثيرا من مقامه كوسيط بين عامة الناس والرب وكمرشد روحي الزامي ، ولكن ما أن بدأ الرجل العامي بالشعور بأنه هو نفسه يقف وجها لوجه مع الله وأنه يعتمد من الارشاد على ضمير الفردي ، كان لامفر من أن بعض العامة سيدعون تلقينا الهيا يعاكس بالقدر نفسه كلا من الأصولية الجديدة والقديمة.

وفوق كل شيء قوى الاصلاح اللوثري شدة واتساع انتشار الاثارة ، التي ساعدت على قيامه وكانت هذه نتيجة لا مفر منها ما أن تحدى الاصلاح صلاحية وسلطة الكنيسة التي كانت حتى حينه الوحيدة في الغرب ، وحتى ذلك الحين كان الناس يقبلون ـ اجمالا بلا أدنى شك أو تردد ـ التفسير المترابط منطقيا للكون ولطبيعة الانسان الذي قدمته كنيسة روما ، وقد قدم المذهب الكاثوليكي صورة غير متبدلة ، تعود ضمنها كل المسيحيون على تكييف انفسهم ، كما أن المنظمة الاكليروسية الكاثوليكية قد وفرت نظاما للسلطة اعتادوا الاعتماد عليه و يمضي النقد الذي كان أبدا موجها

ضد الكهنوت المنحل و الدنيوي ، و الاحتجاج العنيف الذي أثاره الانشقاق الكبير ليظهر حجم مطالب الناس من الكنيسة ، ولقرون عديدة كانت كنيسة روما ايا كانت عيوبها تنجز عملا هاما جدا ومعياريا في المجتمع الأوروبي ، وقد أوقع هجوم لوثر الضاري - بالضبط لانه كان فعالا - الاضطراب بهذا العمل، وكنتيجة فقد أوجد الى جانب الشعور بالتحرر شعورا بالتشويش كان منتشرا بالاتساع نفسه تماما(ص ٢٥٣) ، وعلاوة على ذلك لم يتمكن الاصلاح اللوثري في ذاته من السيطرة على كل القلق الذي أطلقه بين السكان ، جزئيا بسبب محتوى مذهبه للخلاص ، وجزئيا بسبب تحالفه مع السلطات المدنية القائمة ، واخفق لوثر في الاحتفاظ بولاء الجماهير الغفيرة من عامة الناس ، وتنامى هناك بين الجماهير القلقة المشوشة ، في معارضة لكل من اللوثرية والكاثوليكية الرومانية بالحركة التي اعطاها خصومها اسم القبول بتجديد العماد ، وهي بطرق مختلفة خليفة لطوائف العصور الوسطى ، ولكنها اكبر منها بكثير.

والقول بتجديد العماد لم يكن حركة متجانسة ولم يكن أبدا منظما مركزيا فقد وجد حوالي أربعين طائفة مستقلة من القائلين بتجديد العماد ، تجمعت كل منها حول قائدادعى بأنه نبي ملهم من السماء أو رسول ، وتبعثرت هذه الزمر التي كانت سرية ومهددة دائما بالابادة في طول الأراضي الناطقة بالالمانية وعرضها وقد تطورت على خطوط منفصلة وضعها مختلف القادة ، ومع ذلك كانت بعض الميول عامة وشائعة ضمن الحركة ككل ، وبشكل عام علق القائلون بتجديد العماد أهمية صغيرة نسبيا سواء على التأملات اللاهوتية أو الالتزامات الدينية الرسمية والطقوس ، وبدلا من أنواع من الممارسات مثل الذهاب الى الكنيسة وضعوا نظاما شديد التفصيل ، ومع تقيد حرفي بقواعد السلوك والتعاليم والأوامر التي اعتقدوا انهم وجدوها في العهد الجديد ، وبدلا من اللاهوت قاموا باغناء الكتاب المقدس ، الذي كيفما كانوا قادرين على تفسيره في ضوء الالهام المباشر ، اعتقدوا أنهم تلقوه من الرب ، وكانت قيمهم

في المقام الأول أخـلاقية ، وبـالنسبة لهـم كان الدين فـوق كل شيء مسألة محبة أخوية فعالة ، وتكيفت مجتمعاتهم طبقا لما افترضوا أنه كان ممارسة الكنيسـة القـديمة ، وكانوا ميالين الى تحقيق المثـل الاخلاقية التي اقترحها المسيح.

وكانت مواقفهم الاجتمـاعية هـي الأكثـر خصـوصية وتمييزا للقائلين بتجديد العماد،ومال أعضاء هـذ الطـوائف إلى القلق بشـأن الملكية الخاصة وقبول شيوع ملكية الأشياء على أنها مثـالية ، وإذا بذلت في اغلب المجمـوعات محـاولة صـغيرة لادخـال الملكية المشتركة ، فإن القائلين بتجديد قد أخذوا بجدية التزامات الأعمـال الخيرية ، و المعونات السخية المشتركة ، و من جانب أخر غالبا مـا ابدت طوائف القائلين بتجديد العماد انغلاقا ملحوظا ، وكان ضـمن كل مجموعة هناك تماسك عظيم ، ولكن الموقف تجاه المجتمع الكبير كان يميل الى الرفض ، وبشكل خـاص ، نظـر القـائلون بتجـديد العماد للدولة بشك ، على أنها مؤسسة مع أنها بـلا شـك ضرورية للأشرار انها غير ضرورية للمسيحيين الحقيقيين ، وكانوا يعنون بذلك انفسهم ، ومع أنهـم كانوا مسـتجيبين في الأذعان للمـطالب الكثيرة للدولة ، فإنهم رفضـوا السـماح لهـا بغـزو عالم العقيدة والضمير ، وبشكل عام كانوا يفضـلون الحـد مـن تعـاملهم معها ، ورفض أغلب القائلين بتجديد العماد (ص ٢٥٤) الاحتفاظ بمناصب رسمية في الدولة ، أو التماس سلطة الدولة ضد تـابع مـن القائلين بتجديد العمـاد أو حمـل السـلاح نيابـة عن الدولة. وكان الموقف تجاه الاشـخاص الطبيعيين ممـن لم يكونوا مـن القـائلين بتجديد العماد متحفظا بالدرجة نفسها ،و قد تجنب القائلون بتجديد العماد عامة كل اتصال أو تعـامل خـارج جمـاعتهم ، وكان هؤلاء الناس يعتبـرون انفسـهم النخبـة الوحيدة و أن جمـاعتهم وحدها ، تحت التوجيه المباشر للرب : جزرا صغيرة من الصالحين في محيط من الشر والخطيئة ، وحتى لوثر سـلم بـأن الكاثـوليكي الروماني يمكن أن ينجو ،و لكن بالنسبة للقائل بتجديد العمـاد كان اللوثريون والكاثوليك على السـواء أسـوأ مـن التـرك ، ممثلين

ـ١٧٥٨ـ

حقيقيين للمسيح الدجال ، وكانت ممارسة تجديد العماد التي اشتق منها اسم الطائفة فـوق كل شيء وسـيلة للتعبير الرمـزي عن هـذا الانفصال الطوعي عن العالم غير المحرر.ولكن حتـى بين القـائلين بتجديد العماد أنفسهم كان يسود اسـتحواذ الانتخـاب المحصـور نفسه ، وتاريخ الحركة متقطع بفعل الانشقاقات.

وامتدت الحركة من سويسرا الى المانيا في السـنوات التـي تلت حرب الفلاحين ، و كان معظم القائلين بتجديد العماد اناسا مسالمين على اسـتعداد عملي دائم ـ الا في الأمـور المتعـالقة بـالضمير والعقيدة ـ لاحترام سلطة الدولة.

وبالتأكيد لم يكن لدى الاغلبية فكرة عن الثورة الاجتمـاعية ولكن مختلف المراتب من افراد الطـائفة كانوا يجندون كليا تقـريبا مـن الفلاحين و الحرفيين و بعد حرب الفلاحين كانت السلطات في خوف يائس من تلك الطبقات ، و حتى اكثر القائلين بتجديد العماد مسالمة كانوا يضطهدون بقسوة وقتل الآلاف المؤلفة منهم ، وقد أوجـد هـذا الاضطهاد في النهاية الخطر نفسه الذي كان يراد ابداله ، ولم يكتف القائلون بتجديد العمـاد بـالثبات في عدائهـم للدولة والنظـام القائم ، بل قاموا بتأويل معاناتهم بتعابير رؤوية ، على أنها آخـر هجوم للشيطان والمسيح الدجال ضد القديسين . وكمحنة مسائحية « تدل على الألفية » ، وقد استحوذ على العديد من القائلين بتجـديد العماد تصورات ليوم الحساب حيث يقومون هم أنفسـهم لإسـقاط الجبـار ، وبقيادة المسـيح،الذي عاد أخيرا،يقيمـون الفية على الأرض ، وشابهت الآن الحالة ضمن حـركات الهـرطقة في قـرون سالفة وثابرت كتلة حركة القائلين بتجديد العاماد على اتباع تقـاليد المسالمة والعزلة المتزمتة التي كانت ممثلة في قـرون سـالفة في الوالد نيسـين ، ولكن الى جانب ذلك كان هناك تنام لفكرة من نوع آخر لتجديد العماد ، وجدت فيها تقاليد الالفية المناضلة ، المساوية لها في القدم ، تعبيرا جديدا.

وكان أول الدعاة لهذه الفكرة الجديدة لتجديد العمـاد مجلد كتب متجول يدعى هانز هت ، وهو تابع وحواري سالف لمونتزر ومن أهل ثورنجيا مثله ، وأدعى هذا الرجل بأنه نبي مـرسل مـن الرب وانه (ص ٢٥٥) في أسبوع العنصرة لعام ١٥٢٨ ، سيعود المسيح الى الأرض ، وسيضع سـيف العـدالة ذا الحـدين في أيدي القـديسين مجددي العمـاد ، وسـيقوم القـديسون بمحـاسبة الكهنة ورعاة الابرشيات من القسس على تعاليمهم الزائفة وسـيقومون فـوق كل شيء أيضا بمحـاسبة كل عظمـاء الأرض بسـبب عمـل الاضطهاد ، وسيصفد الملوك والنبلاء بالسلاسل ، واخيرا سـيقيم المسيح الألفية التي سـتتميز على مـايبدو بـالحب الحـر والملكية المشتركة للأشـياء ، وقـد قبض على هـت في ١٥٢٧ وسـجن في اوغسبرغ حيث توفي أو قتل في السجن ، ولكن ليس قبل ان يكسب بعض المتحولين الى العقيدة في مـدن جنوب المانيا ويتعـرف المرء في فحوى ايمان أتباع هت الى عقائد جون بول والطابوريين المتـطرفين فالتطابق و التكرار كلمة كلمة تقريبا حيث نجد « ان المسيح سيعطي السيف ، وسينتقم لهم ، وسيتولى القائلين بتجـديد العمـاد انزال العقوبات على كل الخطايا ، وسحق كل الحكومات ، واشاعة كل الممتلكات ونبح كل الذين لايسمحون لأنفسهم بتجديد العماد » ومرة اخرى : « ان الحكومة لاتعامل فقراء الناس كما يجب لهم بالانتقام فانهم يرغبون في المعاقبة ومحو الشر ....» واذا كان هت نفسـه قـد توقع ان يحدث ذلك كله فقـط عندمـا « يأتـي المسـيح على السحاب » فليس كل حوارييه كانوا بهذا الصبر : ففـي ايسـلنغن على النيكار بدأ ان القائلين بتجديد العمار خططوا في ١٥٢٨ لإقامة مملكة الرب بقوة السـلاح ، وبين هؤلاء المناضـلين الالفيين كانت مثل الملكية المشتركة تملك بوضوح دلالة ثورية وكان لذلك بلا شـك بعض التسويغ عندما حذرت سلطات المدينة في نورمبرغ سـلطات الم من ان القائلين بتجديد العماد كانوا يرمون الى اسقاط النظام القائم والغاء الملكية الخاصة .

وصحيح انه في جنوب المانيا بقي القائلون بتجـديد العمـاد قـوة

صغيرة ، غير فعالة وانها قد سحقت وازيلت من الوجود بحلول ١٥٣٠ ، ولكن بعد ذلك بسنوات قليلة ظهرت في اماكن اخرى في هولندا واقصى الشمال الغربي من المانيا وفي هذه المرة بنتائج شدت انتباه اوروبا .

وكان شمال غرب المانيا في بداية القرن السادس عشر يتألف في الأساس من عدد من الولايات الاكليروسية الصغيرة ، لكل منها امير اسقف كحاكم ، وكانت كل امارة - كما جرت العادة - منها ممزقة بصراعات اجتماعية ضارية ، وكان حكم الولاية في ايدي الأمير الأسقف وجماعة الابرشية من الكهنة ، الذين ينتخبون ويتحكمون في سياسته الى مدى بعيد .

وكان اعضاء الادارة الكنسية - يجندون فقط من الارستقراطية المحلية ، وكانت المؤهلات اللازمة هي عادة شعار النبالة مع سابغة مؤلفة على الاقل من اربعة اقسام ، وكثيرا ماكانوا يختارون واحدا من اعضائهم كأسقف ، وهذه المجموعة من الاكليروس الارستقراطي لم تكن تخضع لأي سيطرة من أي سلطة أعلى ، وفي المجلس التشريعي الاقليمي كانوا يمثلون بقوة (ص ٢٥٦) وكان بإمكانهم دائما الاعتماد على تأييد ودعم الفرسان ، ولذلك كانوا يميلون للحكم فقط لمصلحة طبقتهم وكهنة الأسقفية ، وفي ولاية اكليروسية لم يكن عدد الكهنة كبير جدا فحسب - في مقر أسقفية مونستر كان هناك نحوا من ثلاثين مركزا اكليروسيا ، بينها أربعة أديرة ، وسبعة مجمعات للراهبات ، وعشر كنائس وكاتدرائية ثم المجمع الكهنوتي نفسه بالطبع - بل كانوا ايضا يتمتعون بمزايا عالية ، وكان أعضاء المجمع الكهنوتي يتمتعون بأوقاف غنية ، وكان يسمح للرهبان بمزاولة المهن اليدوية والتجارة المدنية ، وفوق كل شيء كان الاكليروس ككل معفى بالكلية تقريبا من الضرائب .

ولكن نادرا ما كانت سلطة الطبقة الكهنوتية الارستقراطية في ولاية اكليروسية تمتد بفعالية كبيرة إلى المدينة العاصمة ، وفي هذه

الولايات كما في كل مكان اخر كان تطور التجارة والاقتصاد المالي يعطي المدن اهمية اكبر وكانت حكومات الولايات في حاجة دائمة للمال ، وبالطريقة المعتادة للمساومة على الضرائب كانت المدن تكسب مزايا وامتيازات لنفسها ، وفي اكبر وأهم الولايات الاكليروسية ، مقر أسقفية مونستر ، كان هذا صحيحا بشكل خاص ، ومنذ بداية القرن الرابع عشر كانت مدينة مونستر تتمتع بدرجة كبيرة من الحكم الذاتي ، وباتت سلطة الأسقف ـ الذي نادرا ماكان يقيم هناك ـ محصورة جدا .

ولم يكن هذا بالطبع يعني أن سكان المدن كانوا راضين عن المزايا التي حصلوا عليها ، وكان الاسقف وجماعة الكهنة عادة لايتمتعون بأي احترام ديني من أي نوع ، وهذا ليس مدهشا ، طالما انهم كانوا يحيون حياة مترفة ودنيوية صرفة وكثيرا ـ كما في مونستر في ١٥٣٠ ـ ما كان الاسقف ببساطة سيدا مدنيا غالبا ما كان حتى غير مرسما ، وفوق ذلك كانت الضرائب المفروضة من قبل الأمير الأسقف عادة ثقيلة وكان العبء كله يقع على العامة ، الذين كان انتفاعهم بالادارة أقل ، وإضافة إلى ذلك كان على الولاية الاكليروسية أن تدفع مبالغ كبيرة إلى الادارة البابوية في روما في كل مرة ينتخب فيها اسقف جديد ، وقد فعلت مونستر ذلك ثلاث مرات بين ١٤٩٨ و ١٥٢٢ ، وليس مدهشا أن مناعة الكهنوت على الضرائب كانت موضع استياء مرير ، وكان التجار والحرفيون ايضا يعترضون على منافسة الرهبان الذين اشتغلوا بالتجارة والصناعة ، ولم تكن لديهم عائلات للاعالة ولايؤدون الخدمة العسكرية ، او يمدونها بما تحتاج ، وليس امامهم انظمة نقابية يتقيدون بها ، وكل المزايا والمنافع من جانبهم .

وبحلول القرن السادس عشر لم يكن مركز مقاومة سلطة الأسقف والمجلس الكهنوتي يقع عادة في مجلس المدينة ، الذي اصبح هيئة رصينة ومحافظة نسبيا ، بل في النقابات وكانت هذه هي الحالة في مونستر بالتاكيد . حيث أصبحت المدينة على مدى القرن الخامس

عشر مركزا تجاريا هـــاما أو عضــــوا في العصــــبة الهـــانسية (ص ٢٥٧) واحرزت النقابات سلطة سياسية عظيمة . وبتنظيمها في نقابة كبيرة كان لها في القرن السادس عشر مـــا لايقـــل عن ســـتة عشر فرعا نقابيا مستقلا ، وكان باستطاعتها في الفرصة المناسبة أن تهب لقيادة كل السكان ضد الأكليروس . وقد تـــوفرت إحـــدى هـــذه الفرص بوساطة حرب الفلاحين . وانها لحقيقة مـــذهلة أنه عندمـــا انتشرت الاثارة الثورية من جنوب المانيا وبلغت الشمال الغربي ، لم يكن لاالفلاحون ولا المدن في الولايات المدنية هم من هب للثورة ، بـــل فقط عواصـــم الولايات الاكليروســـية : أوزنا بـــروك وأوتـــرخت وبادربورن ومونستر ، وفي مونستر قادت النقابات هجـــوما على دير كان قد دخل في المنافسة التجارية معها وطالبت ايضا بتقييد شـــامل لمزايا الاكليروس ، واجبرت المجالس الكنسية على إجـــراء تنازلات كبيرة .

وبتلك المناسبة كان انتصار النقابات قصير العمر ، في مـــونستر كما كان في كل أخواتها من المدن الأخرى ، ففي الوقت الذي هزم فيه الأمراء الفـــلاحين في الجنوب كانت الهيئة الكهنوتية في الأســـقفيات الشمالية قادرة على استعادة كل مافقدته من السلطة ، وعلى الفـــور سحبت كل التنازلات ، وسحقت كل محاولة للاصلاح وفعلت كل مافي وسعها لاذلال المدن الثائرة ، وبحلول ١٥٣٠ أعيد تـــرسيخ النظـــام القديم للحكومة في كل الولايات الأكليروسية ، ومع ذلك فقد كان اقل أمنا بكثير مما كان أبدا ، لان رجال المدن الآن كانوا مستائين مـــن هيمنة الأكليروس والنبلاء بمرارة أكثر مما كانوا على الاطلاق ، لقد شعروا بقوتهم الخاصة ، وانتظروا على مضض الفـــرصة المناســـبة لبسطها مرة أخرى ، علاوة على أن حـــالتهم في تلك الســـنوات كانت يائسة ، وفي ١٥٢٩ خرب تفجر الموت الأسود وستفاليا ، وفي الوقت نفسه تدهورت المحاصيل ، وتضـــاعف ســـعر الدقيق بين ١٥٢٩ و ١٥٣٠ ثلاث مرات تقـــريبا ، وأخيرا في ١٥٣٠ فـــرضت ضريبـــة استثنائية لتمويل مقاومة الغـــزو التـــركي للامـــارات الشرقية مـــن الامبراطورية ، وهناك دلائل على انه في أوائل ١٥٣٠ كان الحجـــز

على الأموال والبؤس في شمال المانيا استثنائيا تمــاما ، وكان مــن المتوقع أنه في واحــدة مــن الولايات أو الأخــرى ســـتكون هناك اضطرابات جديدة ، وعندما حاول أســقف مــونستر في ١٥٣٠ ان يبيع أسقفيته إلى أسقف بادربورن واوزنا بــروك اثــار حلفــاءه في المجلس الكهنوتي ونفرهم منه ، وبدأت الاضطرابات .

وفي ١٥٣١ بدا قسيس شاب بليغ يدعى برنت روثمــان ــ وهــو ابن حداد اكسبته مواهبه البــارزة تعليمــا جــامعيا ــ في اجتــذاب جمهور كبير من المصــلين في مــدينة مــونستر ، وسرعان مــااصبح لوثريا ووضع نفسه على رأس حركة عادت بــاصولها إلى ١٥٢٥ ، لتدخل المدينة في حظيرة اللوثرية ، ووجد تأييدا في النقابات وحليفــا (ص ٢٥٨) ذا نفوذ في تاجر قماش ثري ونبيلا يدعى برنت كنبــر دولنك وتوسعت الحركة التي كانت في الوقــت نفســه بــروتستنتية وديمقراطية باستقالة أحد الأســاقفة ومــوت خلفــه . وفي ١٥٣٢ اصبحت النقابات التي تؤيدها الجماهير سادة المدينة ، وكانت قادرة على إجبار المجلس على تعيين وعاظ لوثــريين في كل الكنائس ، ولم يكن الأسقف الجديد قادرا على جعل المدينة تتخلى عن عقيدتهــا وفي أوائل ١٥٣٣ اعترف بمونستر رسميا كمدينة لوثرية .

ولم يكن هذا ليبقـــى طـــويلا . ففـــي الدوقية المجـــاورة جوليس ــ كليفيس كان الوعاظ من القائلين بتجديد العماد يتمتعون منذ بضع سنوات بحرية الدعوة بشــكل نادرا مــا وجــد مثله في أي مكان آخر ، ولكن في ١٥٣٢ طــردوا والتمس عدد منهــم ملجــأ في مونستر ، وفي مجرى ١٥٣٣ وصل المزيد مــن القــائلين بتجــديد العماد وهذه المرة من الأراضي المنخفضة ، وكان هؤلاء مــن اتبــاع ملكيور هوفمان ، وهو مــن الرؤويين المشــهررين الذي ــ خليفــة حقيقيا للمتنبىء المتجول في العصور الوسطى ــ هام في طول أوروبا وعرضها يعظ بقرب المجيء الثــاني والالفية . وكان في ١٥٢٩ أن انضم هوفمان إلى حركة القائلين بتجديد العمــاد ، وخــلال الســنة التالية تطور جناح جديد مــن الحـــركة ــ كان متـــاثرا بعمـــق

بأفكاره ــ فــوق كل شيء في الأقــــاليم الشـــمالية مـــن الأراضي المنخفضة . وطبقا لهوفمان كان للألفية أن تبـدأ ، بعـد فتـرة مـن « المحن السابقية » وكثيرا مـن العـلامات والعجـائب في ســـنة ١٥٣٣ ، التي كان يفترض أنها تكمل القرن الخامس عشر بعد موت المسيح ، وفي ١٥٣٣ تحولت التخيلات الألفية التـي جلبهـا اتبـاع هوفمان معهم إلى مونستر بسرعة إلى استحواذ كبير هيمن على كل حياة الطبقات الفقيرة في المدينة .

وفي غضون ذلك تخلى روثمان عن عقيدته اللوثرية ونقل كل بلاغته وهيبته لخدمة القائلين بتجديد العماد ، وبوعظه بتقاليد قديمة اتخـذ حياة جديدة ، وفي ١٥٢٤ طبع المصدر القـديم لمذهـب الفـوضوية الشيوعية ، أعني رســالة كليمنت الخـامسة الزائفـة ، في بـازل ، وفي ١٥٣١ لخصها الفيلسوف الانساني سبستيان فـرانك في لغـة المانية دارجة واضحة مفعمة بالحيوية ، وجدت كثيرا مـن القـراء ، واضاف إليها تعليقاته الخاصة من ذلك : « وبعد ذلك بوقت قصير ، بدا نمرود يحكم ، ثم كان كل مـن يتـدبر ذلك يحصـل المزيد مـــن الآخرين ، وبداوا في تقسيم العالم ومن ثم النزاع حــول الممتلكات . وبدا لي ــ ولك ، وفي النهـاية اصـبح الناس مسـعورين جـــدا كالحيوانات المتـوحشة بـالضبط ، كل يريد اروع ، وافضـل مـن الآخر ، وفي الحقيقــة اراد ان يكون ســيده ، بيد أن الرب جعـل كل الاشياء مشتركة ، وحتى اليوم مازلنا نتمتع بالهواء ، والنار والمطر والشمس بصورة مشتركة ، وبكل مـا لايمـكن لانسـان سـارق او طاغية أن يحبسه ويحتفظ به لنفسه » وكان هذا هو الموضوع الذي تولاه روثمان الآن ، (ص ٢٥٩) ومـع تشرين اول ١٥٣٣ ، كان يدعم الشيوعية المفترضة للكنيسة البدائية على انها المثالية للمجتمع المسيحي الحقيقـي ، واعلن في المواعظ والنشرات انه يتـوجب على المؤمنين الصادقين أن يصوغوا حياتهم بدقة وفق حياة المسـيحيين الأوائل وأن هذا يشمل الملكية المشتركة للاشياء .

وكما في القرون المتقـدمة كان هـذا التبشـير يروق بـطرق عدة

لمستويات اجتماعية مختلفة . فكان هناك رأسماليون ممن أنكروا فجأة الربا والغوا كل الديون التي كانت مستحقة لهم ، وكان هناك العديد من الناس الأثرياء ممن قرروا أن يعيشوا كأخوة متحابين يحتفظون بكل ممتلكاتهم على الشيوع ويتبرأون بقسم مؤكد من كل الترف ، ويتخلون عن كل مافاض عنهم للفقراء ، ولكن في الوقت نفسه انتشرت أخبار هذا الوعظ طولا وعرضا بين من لاملكية لهم ، ومن لاأصل لهم ، والمخفقين ، وعلق على هذا أحد المراقبين بقولة : « وهكذا جاء الهولنديون والفريزيون والأنذال من كل الأنحاء وهم الذين لم يستوطنوا في أي مكان مطلقا ، لقد تدفقوا على مونستر وتجمعوا هناك » . وأشارت مصادر أخرى إلى « هاربين ومنفيين ومجرمين » وإلى « أناس بددوا ثروات أهاليهم ، ولم يكسبوا شيئا من عملهم الخاص .... ممن تعلموا منذ سنواتهم الأولى أن يحيوا في كسل ، وأرهقوا أنفسهم بالديون ، والذين كرهوا الاكليروس لابسبب ماقيل لهم عن دينهم بل لما ذكر لهم عن ثرواتهم ، والذين ادعوا هم انفسهم أنهم مارسوا الاشتراكية في ملكية الأشياء مثلما فعل الرسل حتى إذا أنهكهم الفقر ، فكروا في سرقة وسلب الكهنة والسكان الأكثر غنى » .

وإنه ليس مصادفة أن هذه العبارات تذكر بتلك التي طبقت مرة على جموع الرعاة ، ومع حلول القرن السادس عشر أصبحت الظروف الاجتماعية في الأراضي المنخفضة الشمالية . شبيهة جدا بتلك التي وجدت في فلاندرز ، وهينوت ، وبيكاردي منذ قرنين سالفين ، وفي حين كان السكان في تلك المراكز القديمة في انحدار كانوا في هولندا (كما في جنوب المانيا) في ازدياد ، ومع انهيار صناعة الأقمشة في فلاندرز ، كانت تلك الصناعة في هولندا قد قفزت الى الامام ، وأهم مركز لتلك الصناعة على الاطلاق كان الآن في ليدن Leyden وأصبحت هولندا تحوي الآن أعظم تركيز من الشغيلة المرهقين الذين لا يشعرون بالأمن ، علاوة على أن حالة هؤلاء الشغيلة كانت كما يبدو اسوا مما كانت عليه منذ قرون سالفة ، وكانت صناعة الرأسماليين الجدد الى حد كبير صناعة

ريفية ، عمل فيها الحرفيون في بلادهم في مواد أمدهم بها الراسماليون ، وتحت هذه النظم لم تعد النقابات تتمكن من العمل ، وهناك ادلة توحي بأن العاطلين وغير المنظمين كانوا اكثر عددا واكثر يأسا مما كانوا في قرون سلفت ، وانه بين مثل هؤلاء الناس كان ازدهار مذهب القائلين بتجديد العماد في اكثر صوره النضالية والألفية صراحة ، وكان مثل هؤلاء الناس الذين تدفقوا الآن على مونستر (ص ٢٦٠).

وكلما ازداد رخاء أهالي مونستر ، كان من الطبيعي بدرجة كافية أن يكونوا اكثر قلقا . واذا كان معظمهم قد ابتهج بهزيمة الأسقف والمجمع الكهنوتي وانتصار القضية اللوثرية ، فان حركة قوية للقائلين بتجديد العماد مؤيدة بحشود من العاطلين والاجانب اليائسين حملت مخاطر واضحة وشديدة لكل منهم على السواء ، وفي وجه هذا التهديدضم اللوثريون والكاثوليك الروحيون صفوفهم ، ونحو نهاية السنة حاول المجلس عدة مرات اسكات أو طرد روثمان ، ولكنه باطمئنانه الى اخلاص اتباعه كان دائما قادرا على التحدي ، و في الواقع كان الوعاظ الآخرين القائلين بتجديد العماد قد طردوا واستبدلوا بلوثريين ، ولكنهم عادوا قبل مضي وقت طويل وطرد اللوثريون من الكنائس ، وتزايدت الاثارة في المدينة اسبوعا بعد اسبوع حتى جاء في الايام الاولى من ١٥٣٤ ووصل الرجال الذين كان عليهم أن يوجهوها الى غاية معينة.

وقبض على ملكيور هوفمان Melchior Hoffman الذي أعتقد أن الألفية سيبزغ فجرها في ستراسبورغ ، في تلك المدينة ، وسجن بداخل قفص في برج ، وأمضى هناك بقية أيامه ، وهبطت العباءة التنبوئية على هولندي من القائلين بتجديد العماد ، هو الخباز جان ماتيس (ماتيسزون) من هارلم ، وبدل هذا التغيير في القيادة كل نبرة الحركة ، فلقد كان هوفمان رجل سلام علم اتباعه ان ينتظروا مجيء الالفية بثقة هادئة ، متفاديا كل العنف. وكان ماتيس من جانب أخر قائدا ثوريا بشر أن الصالحين

يجب أن يحملوا بأنفسهم السيف وأن يمهدوا بفعالية الطريق للالفية باستخدامه ضد الأشرار ، ولقد أعلن انه قد تكشف له انه هو واتباعه قد دعيوا لتطهير الأرض من الكفرة ، ونجد في هذه التعاليم أن روح البيكارتي ، وتوماس مونتزر ، وهانزهت قد بعثت لحياة جديدة .

وأرسل ماتيس من الأراضي المنخفضة رسلا الى مختلف جماعات القائلين بتجديد العماد كانوا يعتقدون أن الروح القدس قد هبطت عليهم كما هبطت على الرسل الأصليين في عيد الحصاد ، وفي كل مدينة زاروها عمدوا أعدادا كبيرة من البالغين وعينوا « اساقفة » لهم سلطة العماد ومن ثم انتقلوا ، بينما خرج من المدن التي اهتدت مؤخرا رسل جدد في مهام مماثلة ، وفي الأيام الاولى من ١٥٣٤ وصل أثنان من الرسل الى مونستر ، حيث أحدث وصولهم على الفور حماسا حقيقيا معديا ، واعيد تعميد روثمان والوعاظ الآخرين القائلين بتجديد العماد ، وتبعهم تعميد عدد من الراهبات والنساء المؤثرات من عامة الناس وفي النهاية قسم كبير من السكان ، وقيل انه خلال اسبوع بلغ عدد المعمدين ١٤٠٠ (ص ٢٦١)

وانتقل الرسل الأول ، ولكن حل محلهم اثنان أخران ، وهؤلاء ـ بصورة بالغة الأهمية ـ اعتبرا في البداية اينوخ ، واليجا ، ذلكما النبيين اللذان طبقا للتقاليد الأخروية كان لهما أن يعودا الى الأرض كشاهدين ضد المسيح الدجال ، وأن ظهورهما كان لاعلان المجيء الثاني ، وكان احد القادمين الجديدين هو جان بوكسون (بوكسزون ، بيوكلسث) وكان معروفا اكثر باسم جون أوف لايدن ، وهو شاب عمره خمس وعشرون سنة اهتدى وعمد من قبل ماتيس قبل شهرين فقط ، وقدر له أن يحقق شهرة في مونستر دامت حتى أيامنا الراهنة ، حيث انه هنا كما كان كثيرا ـ كما في حالة « استاذ هنغاريا » وآخرون غيره في العصور الوسطى وفي كل الأزمنة في الواقع ـ كان الزعيم المسائحي

اجنبيا ، رجل من الحافة ، وكان بوكلسون ، مع معلمه في البداية ، وفيما بعد بمفرده هو الذي كان عليه أن يعطي لمذهب القائلين بتجديد العماد في مونستر ولعا ضاريا بالروح القتالية لم يستحوذ مثلها على أي مكان اخر ، وكان لها أن تثير تفجرا ثوريا ألفيا أكثر ترويعا من ذلك الذي كان في طابور قبل ذلك بقرن.

مونستر كقدس جديدة

وخلال شباط ١٥٣٤ ، تزايدت قوة القائلين بتجديد العماد بسرعة في مونستر واقام بوكسلون على الفور علاقات مع قائد النقابات وراعي القائلين بتجديد العماد ، تاجر الأقمشة كنبردولنيك ، وتزوج ابنته بعد وقت قصير ، وفي ٨ شباط هرول هذان الرجلان في هياج في الطرقات وهما يدعوان الناس الى التوبة من ذنوبهم ، ولم يكن هناك حاجة للمزيد لاطلاق فيض من الهستريا ، ولا سيما بين النساءووضع القائلون بتجديد العماد ممن كانوا في البداية من أكثر اتباع روثمان حماسا ، والذين تضخمت أعدادهم مؤخرا بانضمام العديد من الراهبات اللواتي اندفعن من أديرتهن ، بملابس مدنية وخضعن لاعادة التعميد ، وبدأ هؤلاء النسوة الآن في رؤية إحلام رؤوية وأخذن يندفعن الى الشوارع بشدة ، لدرجة أنهن كن يلقين بأنفسهن على الأرض وهن يصرخن ويتلوين والزبد يخرج من افواههن ، وفي هذا الجو المشحون بالتوقعات الخارقة للطبيعة ، قام القائلون بتجديد العماد بثورتهم المسلحة الأولى واحتلوا مبنى البلدية وساحة السوق ، وكانوا ما يزالون قلة فقط ، وكان بالتاكيد يمكن هزيمتهم لو أن الغالبية اللوثرية رغبت في استعمال القوة المسلحة التي كانت تحت تصرفها ، لكن مجددي العماد امتلكوا مؤيديهم في المجلس ، وكانت حصيلة الثورة الاعتراف الرسمي بمبدأ حرية الضمير (ص ٢٦٢).

وهكذا كسب القائلون بتجديد العماد اعترافا قانونيا لجماعتهم

التي كانت بالفعل قوية ، وكان العديد من اللوثريين الموثرين الذين نظروا بيقظة وحذر الى امكانية الضغط المتزايد باستمرار من قبل خصومهم ، قد انسحبوا من المدينة مع كل منقولاتهم. وكانت غالبية السكان الباقين من القائلين بتجديد العماد ، وارسل الرسل والمبشرون لحث القائلين بتجديد العماد في المدن القريبة على المجيء ، مع عائلاتهم الى مونستر ، فلقد قدر لبقية الأرض – كما أعلنوا – أن تدمر قبل عيد الفصح ، ولكن مونستر ستنجو وستصبح قدسا جديدة ، وسيكون الطعام واللباس والمال والاقامة جاهزة للمهاجرين عند وصولهم ، ولكن عليهم جلب الأسلحة ،وقد قوبلت الدعوة باستجابة قوية من خارج الوطن حتى بُعْدٍ وصل الى فريزيا وبرابنت ، وتدفق القائلون بتجديد العماد على مونستر ، حتى تجاوز عدد القادمين الجدد عدد المهاجرين اللوثريين ، ونتيجة لذلك تم انتخاب هيئة هيمن فيها القائلون بتجديد العماد في الانتخاب السنوي لمجلس المدينة في ٢٣ شباط ، وكان كينبردولينك احد عمدتي المدينة ، وفي الأيام التالية نهبت الأديرة والكنائس ، وفي طقوس ليلية حطمت التماثيل الدينية ودمرت منحوتات ورسومات وكتب الكاتدرائية.

وفي الوقت نفسه وصل جان ماتيس نفسه وكان شخصيه نحيلة طويلة ، له لحية طويلة سوداء وبسرعة هيمن مع بوكلسن على المدينة ولم يستطع روثمان والوعاظ الآخرون من القائلين بتجديد العماد المحليين الآخرين المنافسة ، على التأييد الشعبي « للانبياء الهولنديين » وسرعان ما جرفتهم حركة مسعورة لم يعودوا قادرين على السيطرة عليها ، دع عنك مقاومتها وعملوا كمجرد دعاة مطيعين لنظام تركزت فيه كل القوة المؤثرة في ايدي ماتيس وبوكلسن.

وكان النظام ثيوقراطيا ابتلع فيه المجتمع الملهم من السماء الدولة ، والرب الذي كان يفترض ، أن تلك الثيوقراطية تخدمه كان الرب الأب ، الأب الغيور القادر المهيمن الذي سيطر على خيال كثير

من الالفيين السالفين ، لقد كان الأب وليس الابن هـو الذي شـجع ماتيس وبوكلسن اتباعهما على مناشدته ، وكان من أجل أن يقـوم اطفال الرب بخدمة الاب متحدين أن قررا ايجـاد « قـدس جـديدة مطهرة من كل الدنس ». ولتحقيق هذا المجتمـع الطـاهر غير الملوث ايد مـــاتيس اعدام كل اللوثـــريين والكاثـــوليك الرومـــانيين الباقين ، ولكن كنبردوليذك بين أن هذا سيقلب كل العالم الخـارجي ضد المدينة وتقرر مجرد طردهم.

وفي صباح ٢٧ شباط اندفعت فرق مسلحة بتشجيع من ماتيس في هياج « نبوي » الى الشوراع تنادى:« اخرجوا ايهـا الكفـرة ، ولا تعـــودوا ، أنتـــم يا أعداء الأب »(ص ٢٦٣)وفي البـــــرد القارس ، وسط عاصفة ثلجية جامحة ، طردت جموع مــن الكفـرة من المدينة من قبل القائلين بتجـديد العمـاد الذين كانوا يمـطرونهم بالضربات وكانوا يضحكون مـن محنتهـم. وكان بين هؤلاء الناس شيوخ ومرضى ، واطفال صغار ونساء حوامل ونساء وضعن لتوهـم احمالهن وجاء اغلبهم من اكثر الأجزاء رخاء من السكان ، ولكنهـم اجبروا على ترك كل ما يملكونه وراءهم من ممتلكات ومال ومـلابس اضافية ، وحتى الطعام اخذ منهم فهبـطوا الى حـد الشـحاذة في الريف من أجـل الطعـام والمأوى ، وبـالنسبة للوثـــريين والروم الكاثوليك الذين بقـوا في المدينة ، فقـد أعيد تعميدهـم في سـاحة السوق ، واستمر الاحتفال ثلاثة ايام ، ومـاان انتهـى ، اصـبح البقاء بلا عماد اثمـا كبيرا ، وبحلول صـباح ٣ اذار لم يعـد هناك كفرة في مونتسر ، وكان سكان المدينة فقط من اطفال الرب ، وكان هؤلاء الناس الذين اخذوا يخـاطبون بعضـهم بعضـا « بـأخي ـ واختي » يعتقدون بأنهم يمكنهم العيش دون خطيئة في مجتمع مترابط بالحب وحده ،

وبانتزاع العناصر اللوثرية والكاثوليكية-الرومية من بين السكان لم يتأثر الأنبياء فقط بالعصبية بل ايضا بمعرفة أن مـونتسر كانت على وشك ان تحاصر ، ومع أن الأسقف قد تردد في منح الاعتـراف

الرسمي للمجتمع اللوثري فانه لم يكن مستعدا لفعل الشيء نفسه للقائلين بتجديد العماد . وعند كل مرحلة كان يحاول ايقاف تقدم القائلين بتجديد العماد ، وحالما أصبحت فكرة تجديد العماد حركة قتالية تحت قيادة الأنبياء استعد لسحقها بالقوة ، وعندما حمل القائلون بتجديد العماد للمرة الأولى السلاح واحتلوا ساحة السوق اسرع مع القوات الى المدينة ، وكان المجلس رفض مساعدته في هذه المناسبة ، وخلال الأسابيع التالية شرع في تكوين جيش من المرتزقة، وأسهمت المدن والامارات المجاورة بالسلاح والذخيرة والمؤن وأسهم بعضهم — مع أن ذلك كان على مضض وبشكل غير كامل — ايضا بالمرتزقة ولذلك عندما ادعى القائلون بتجديد العماد في دعايتهم بأنهم كانوا ببساطة يدافعون عن انفسهم ضد عدوان الروم الكاثوليك كانوا بلا شك صادقين تماما ، وماهو مؤكد هو ان طرد اللوثريين والروم الكاثوليك قد عجل بايجاد الخصومات ، وفي اليوم التالي ٢٨ شباط اهتزت الأرض حول المدينة وبدأ الحصار .

وكان جنود القائلين بتجديد العماد مدهوشين جدا اذ وجدوا انفسهم فجأة في حرب ، ولكن تحت قيادة كنبردولينك سرعان ما استعادوا ثقتهم بأنفسهم ، واستجابوا بشجاعة للتهديد ، وعين الضباط ونظمت المراقبة المنظمة نهارا وليلا ، وأوجدت خدمة نارية وحفرت الحفر (ص ٢٦٤) والخنادق للمدافع ، وقامت المتاريس الترابية خلف بوابات المدينة ، وخصص لكل رجل و امرأة وشاب واجب محدد ، وسرعان ماشنت غارات ضد القوات المحاصرة وجرت مناوشات ومصادمات خارج الأسوار ، وفي الوقت نفسه بدأت ثورة اجتماعية تحت قيادة جان ماتيس وكانت خطوته الأولى مصادرة ممتلكات المهاجرين ، ودمرت سندات الديون ودفاتر المحاسبة والعقود التي وجدت في بيوتهم ، ونقلت الملابس والفرش والأثاثات والمصنوعات الصلبة ، والأسلحة ومخزونات الطعام ووضعت في مستودعات مركزية ، وبعد ثلاثة ايام من الصلاة أعلن ماتيس اسماء سبعة « شمامسة » اختارهم الرب لادارة تلك المستودعات ، وشجع الفقراء على التقدم اليهم بالطلبات ، وحصلوا

على السلع التي يحتاجونها ، ومهما بلغت شعبية هذه التدابير لدى المتفقين فإن حقيقة أنها كانت تنفذ بناء على أوامر اجنبـي ، قـادم جديد الى المدينة ، اثارت الاستياء ، وتكلم حداد جهرا ضد ماتيس وامر المتنبىء على الفـور بـاعتقاله واخـذه الى سـاحة السوق ، واستدعى كل السكان ايضا الى هناك والقى ماتيس وهـو محاط بالحراس خطابا أعلن فيه ان الرب كان غاضبا للافتراء على نبيه ، وأنه سينتقم من المجتمع كله اذا لم يسـتأصل هـذا الحـداد الكافر من جسم الشعب المختار ، والرعايا القـلائل الذين احتجـوا على عدم شرعية المحاكمة ، ألقي بهم في السجن ، وبـادر مـاتيس فطعن الحداد ثم أطلق عليه النار ، وهـكذا تـم تحـذير الشـعب للاستفادة من هذا المثل ، فانشد الجميع بطاعة كاملة ترتيلة قبل ان يتفرقوا .

وبدأ الرعب ، وكان في جو مـن الرعب ان تقـدم مـاتيس لتنفيذ الشيوعية التي تأرجحت من قبل شـهورا عديدة ، كرؤيا فـاخرة في خيال القائلين بتجديد العماد ، وشنت حملة دعائية من قبل مـاتيس وروثمان والوعاظ الآخرين ، وأعلن ان المسيحيين الحقيقيين يجب ان لايملكوا مالا خاصا بهم بل يجب أن تكون ملكية المال مشـتركة ، وتبـــــــــع ذلك أن كل المال وايضـــــــــا كل الحلي الذهبية والفضية يجب أن تسلم ، وقـوبل هـذا الأمـر في البداية بمعارضة ، وطمر بعض القائلين بتجـديد العمـاد مـالهم ، واستجاب ماتيس بتشديد الارهاب ، وجمع الرجال والنسـاء الذين عمدوا فقط في وقت الطـرد معـا ، وأبلغـوا أنه إذا لم يشـأ الأب مسامحتهم فإنهم يجب أن يهلكوا بسيوف الصالحين ، ثم حبسـوا بداخل كنيسة حيث بقوا في قلق عدة ساعات حتى انهارت معنوياتهم تماما ، وفي النهاية دخل ماتيس مع فرقة من الرجـال المسـلحين ، وكان ضـحاياه (ص ٢٦٥) يزحفـون في اتجـاهه على ركبهـم يتوسلون إليه كاثير عند الأب أن يشـفع لهـم . وكان يفعـل ذلك أو يدعي فعله ، وفي النهاية كان يخبر الخائفين البائسين انه قد كسـب

المغفرة لهم ، وأن الرب كان مسرورا بقبولهم في جماعة الصالحين ، وبعد تجربة التخويف هذه أمكن لماتيس أن يشعر براحة أكبر حول الحالة المعنوية في القدس الجديدة .

واستمرت الدعاية ضد ملكية الأموال الخاصة أسابيع بلا توقف ، مصحوبة بكل تملق مغر وبأكثر التهديدات ترويعا ، وكان تسليم المال اختبارا لصدق المسيحية ، وأولئك الذين اخفقوا في الاذعان أعلن انهم قابلون للابادة ويبدو أن بعض الاعدامات قد حدثت ، وبعد شهرين من الضغط المتواصل تم إبطال الملكية الخاصة للمال بصورة فعالة ، ومن حينه ومابعد كانت الأموال تستخدم فقط للأغراض العامة وتشمل المعاملات مع العالم الخارجي مثل : استئجار المرتزقة ، وشراء المؤن ونشر الدعاية . وتلقى الحرفيون في المدينة من جانب اخر أجورهم عينا وليس مالا ، ويبدو أنهم لم يعودوا يتلقون أجورهم من مستخدمين خاصين بل من قبل الحكومة الثيوقراطية ، واتخذت أيضا خطوات لترسيخ الملكية المشتركة للسلع ، وعند كل بوابة مدينة اقيمت قاعة طعام مشتركة حيث قام الرجال الذين كانوا يؤدون الخدمة على الأسوار بتناول الطعام معا ، بصحبة تلاوة من العهد القديم ، وكانت كل قاعة في عهدة أحد الشمامسة المعينين من قبل ماتيس ، وكان الشماس مسؤولا عن تقديم الوجبات ، وكانت الطريقة التي قام بها بذلك بوساطة زيارة المنازل الخاصة وتسجيل قائمة بالمواد الغذائية التي يجدها هناك ومصادرتها كما هو مطلوب ، وايضا كانت الاقامة يجب أن توجد لجموع المهاجرين ، وفي البداية كان يعتبر كافيا أن تخصص لهم الأديرة والبيوت العائدة للوثريين والروم الكاثوليك ، ولكن فيما بعد غدا الامتلاك المحصور للاقامة يعتبر إثما ، وبات على أبواب جميع البيوت أن تترك مفتوحة نهارا وليلا .

وكانت كل هذه التدابير تلقى التحبيذ بالطبع في ظروف الحصار ومع ذلك من الخطأ بالتأكيد الايحاء ــ كما كان يحدث أحيانا ــ أن الشيوعية في مونستر بلغت ذروتها بالمصادرة ولم تتجاوزها لمواجهة

متطلبات الحرب ، لقد كان إبطال الملكية الخاصة للمال ، وتقييد الملكية الخاصة للطعام والمأوى يرى كخطوات أولية نحو دولة ـ كما وصفها روثمان ـ كل شيء فيها ملك لكل فرد ، والتفرقة بين « لي » و « لك » ستختفي ، أو ـ كما عبر عنها بوكلسن فيما بعد ـ « كل شيء سيكون مشتركا ، ولن تكون هناك ملكية خاصة وان احدا لن يقوم بالعمل بعد ذلك ، بل ببساطة يضع ثقته في الرب »

وكان روثمان بعد كل شيء يتمسك (ص ٢٦٦) بأن الملكية المشتركة للاشياء مثالية لدى النخبة قبل التفكير في الحصار بزمان طويل ، والآن وفي خدمة « الأنبياء الهولنديين » طلب أن تترجم المثل نفسها إلى مؤسسة اجتماعية مقبولة من قبل الجميع على السواء ، ويظهر المزيج المألوف للألفية والبدائية بوضوح تام من الفقرة التالية من نشرة الدعاية التي اصدرها في تشرين أول ١٥٣٤ ، لتوزع بين جماعات القائلين بتجديد العماد في المدن الأخرى :

«الرب بيننا ـ له الحمد الدائم والشكر ، قد اعاد المجتمع ، كما كان في البداية وكما يليق بالقديسين التابعين للرب ، ونأمل ايضا أن يكون بيننا مجتمع بالقوة نفسها والبهاء وأن يكون بنعمة الرب ملحوظا بقلب نقي كما كان في اي وقت سالف . لأننا لم نضع فقط كل ممتلكاتنا في صندوق مشترك تحت رعاية الشمامسة ، بل نعيش منه وفق متطلباتنا : إننا نحمد الرب من خلال المسيح بقلب واحد وعقل ، ونتلهف على مساعدة بعضنا بعضا بكل أنواع الخدمة ، وبناء على ذلك إن كل شيء خدم اغراض الانانية والملكية الخاصة ، مثل البيع و الشراء ، والعمل مقابل المال ، وأخذ الفائدة وممارسة الربا ـ حتى على حساب الكفار ـ او اكل وشرب عرق الفقراء (بمعنى : جعل شعب المرء والمخلوقات التابعة تعمل حتى يسمن المرء) ، وفي الواقع كل شيء يسيء إلى الحب ويعارضه ، إن مثل هذه الأشياء جميعا قد الغيت من بيننا بقوة الحب والمجتمع ، وبمعرفة أن الرب الآن يرغب في الغاء مثل هذه الأمور البغيضة

وإننا لأن نموت خير من العودة إليها ، إننا نعلم أن مثل هذه التضحيات تسر الرب ، والواقع إن أي مسيحي او قديس لايمكنه أن

يرضي الرب إذا لم يعش في مثل هذا المجتمع ، أو على الأقل يرغب من كل قلبه في العيش فيه » .

ولم تكن جانبية النظام الاجتماعي الجديد بأي حال مثالية ، وسلفا قبل ذلك بعام ، اجتذبت جموع ممن لابيوت ولاأملاك لها من الناس إلى مونستر بأمل الثورة الاجتماعية . ولكن الثورة حدثت الآن ، والدعاية التي بعث بها القادة إلى مدن أخرى كانت تكمن في تعابير اجتماعية صرفة وتوجه بشكل خاص إلى أفقر الطبقات وجاء في إحدى الرسائل : « إلى الأفقر بيننا إلى الذين كانوا يزدرون كمتسولين ، تجولوا الآن وأنتم مكسوون بالنعومة نفسها الأعلى والأكثر تميزا .... وبنعمة الله لقد أصبحوا أغنياء مثلهم مثل السادة ، وأغنى الناس في المدينة » . ومامن شك أن أفقر الطبقات على مساحة واسعة كانوا حقيقة ينظرون نحو القدس الجديدة بمزيج من التعاطف ، والأمل ، والخشية .

وقد أمكن لأحد العلماء أن يكتب إلى اراسمس أوف روتردام : « إننا في هذه الأجزاء نعيش في قلق بائس بسبب الطريقة التي اندلعت بها ثورة القائلين بتجديد العماد . حيث أنها حقاقد هبت مثل النار ، وأعتقد أنه يندر أن توجد مدينة أو قرية لم تتوهج فيها الشعلة سرا ، إنهم يبشرون بمشاعية السلع إنهم يعظون بالاشتراك في السلع ، وكانت النتيجة أن (ص ٢٦٧) الذين لايملكون شيئا جاؤوا يتدفقون » ويبدو مدى الجدية التي أخذت بها السلطات هذا التهديد في التدابير القمعية التي تبنتها ، ولم تجعل فكرة القول بتجديد العماد إثما كبيرا فقط في أسقفية مونستر بل وفي الامارات المجاورة أيضا : دوقية كليفز ورئاسة أسقفية كولون ، وتجولت دوريات من الخيالة في الطرق واعتقلت كل المشبوهين ، وخلال شهور الحصار قطعت رؤوس رجال لاحصر لهم ونساء في المدينة ، أو أغرقوا أو أحرقوا أو حطموا على الدولاب .

ولكونها مؤيدة من انصاف المتعلمين وتروق دوما لهم ، كانت الثورة الاجتماعية في مونستر بعناد مضادة للثقافة ، وكان القائلون

بتجديد العماد يتباهون ببراءتهم من التعلم بالكتب ، وأعلنوا أن غير المتعلمين هم الذين اختارهم الله لخلاص العالم .

وعندها نهبوا الكاتدرائية وجدوا بهجة خاصة في تدنيس ، وتمزيق وحرق الكتب والمخطوطات في مكتبتها القديمة ، وأخيرا في منتصف أذار حظر ماتيس كل الكتب سوى الانجيل ، وكل الأعمال الأخرى ، حتى تلك التي في الملكية الخاصة توجب أن تجلب إلى باحة الكاتدرائية لتحرق في محرقه عظيمة ، ورمز هذا العمل إلى القطيعة التامة مع الماضي ، وفوق كل شيء ، الرفض الشامل للعطاء الثقافي للأجيال السالفة ، وقد حرم بشكل خاص سكان مونستر من الوصول إلى القضايا اللاهوتية من الآباء وما بعدهم ، وبذلك ضمنوا لقادة القائلين بتجديد العماد احتكار تفسير الكتاب المقدس،ومع نهاية أذار أقام ماتيس دكتاتورية مطلقة ، ولكنه مات بعد بضعة أيام ، ففي عيد الفصح تلقى ما اعتقد انه أمر إلهي للقيام بغارة على رأس مجرد حفنة من الرجال ، وخرج وهو مقتنع بأنه بمعونة الأب ستطرد هذه الحفنة الجيش المحاصر وتحرر المدينة ، وبدلا عن ذلك مزق هو رفاقه ـ بكل ماتعنيه الكلمة ـ إربا إربا ، وقد أعطى هذا الحدث مجالا لحواري ماتيس الشاب جان بوكلسون ، الذي حتى الآن لم يشغل دورا كبيرا ، ولكنه كان بكل طريقة مؤهلا للامساك بمثل هذه الفرصة واستثمارها كليا ، وكان لديه هو نفسه كل الأسباب للتلهف على تعويض ضخم عن الاذلال والاخفاق الذي تعرض له في حياته ، وكان قد ولد خارج إطار الزواج ، كابن لعمدة قرية هولندية وامرأة من الأقنان من وستفاليا ، وتلقى تعليما كافيا ليحرز معرفة سطحية بعلوم الكتب،ومع ذلك فقد بدأ حياته المهنية كخياط متدرب ، وعندما حاول أن يبدأ عملا تجاريا لحسابه أصابه الخراب في وقت قصير ، ومن جانب اخر كانت لديه مواهب ملحوظة كانت فقط تنتظر كي تظهر ، ولكونه موهوبا بمظهر رائع ، وبلاغة لاتقاوم فقد وجد منذ شبابه وما بعده متعة في الكتابة وكان ينتج المسرحيات ويمثل وفي مونستر كان قادرا على تشكيل الحياة الحقيقية في مسرحية ، كان هو بطلها ، وكانت أوروبا كلها هي

المشاهدين ، وكان سكان القدس الجديدة مبهورين به ، ومنحوه في البداية إخلاصا أكبر مما منحوه لماتيس .

وفي استثماره لهذا الاخلاص اظهر بوكلسن نفسه كسياسي اكثر من ماتيس وكان لديه ذكاء أكثر ، وعرف كيف يثير الحماس في الجماهير وكيف يستخدمه لأغراضه عندما يثور ، ومن جانب آخر يبدو مؤكدا أنه هو نفسه كان سهل التأثر (ص ٢٦٨) بالحماس الصوفي الظاهري . وعندما أعلن فاركان قد عاد إلى المدينة كجاسوس انه قد تم إحضاره بوساطة الملائكة ، صدقة بوكلسن ووثق به على الفور ، وعلاوة على ذلك ادعى هو نفسه انه أوحي إليه مرارا ويكون من التهور افتراض ان هذا كله كان من نسج خياله ، فعندما كان وجها لوجه مع الموت ، أعلن انه كان يلتمس دائما بهاء الرب ومجده ، وربما كان غير كاذب ، ففي الواقع ـ مثل كثير من المتنبئين الآخرين من تاذشيلم وما بعده ـ يبدو أن بوكلسن كان مصابا بجنون العظمة ، وسلوكه لايمكن تفسيره تماما ببساطة كتعصب مخلص ولاببساطة كنفاق محسوب ، وما يلي هو على الأقل مؤكد : إنها لم تكن شخصية عادية أو شائعة تلك التي امكنها ان تغري مدينة صغيرة تضم نحو ١٠٠٠٠ من السكان منهم ١٥٠٠ فقط كانوا قادرين على حمل السلاح ، على الصمود ضد ائتلاف الامارات وخلال صعوبات مروعة لنحو مايزيد عن سنة . وكان أول عمل هام لبوكلسن ـ بشكل مميز ـ عملا دينيا وسياسيا في الوقت نفسه ، ففي وقت مبكر من أيار ركض عاريا عبر المدينة في هياج ثم سقط في غيبوبة وجد صامت استمر ثلاثة أيام ، وعندما عاد إلى الكلام دعا السكان جميعا ، وأعلن أن الرب قد كشف له أن الدستور القديم للمدينة ، بما انه من عمل الانسان يجب أن يستبدل بواحد جديد ، يكون من عمل الرب ، وأعفى الرؤساء والمجلس من أعمالهم ، وأقام بوكلسن نفسه مكانهم مع ـ حسبما حكى الكتاب المقدس عن بني اسرائيل ـ اثني عشر من الشيوخ ، ومن الأدلة على ذكائه السياسي أن الشيوخ ضموا بعض المخلوعين من المجلس السالف ، وممثلين عن النقابات ، وعضو عن الارستقراطية

المحلية ، وبعض المهـاجرين مـن الاراضي المنخفضـة ، واعطيت الحكومة الجديدة سلطة على كل الأمور العـامة والخـاصة الروحية والمادية وسلطة الحياة والموت على كل السكان في المدينة ، واشـتق تشريع قانوني جديد كان يهدف جزئيا إلى التوسع في عملية التحويل الاشتراكي ، وجزئيا لفرض اخلاقية تـطهيرية صـارمة ، وأدخلت الادارة الصارمة للعمـل ، والحـرفيون الذين لم يجندوا في الخـدمة العسكرية اصبحوا موظفين عامين ، يعملون من اجل المجتمـع ككل دون مقابل مالي ، وهو ترتيب حرم بالطبع (ص ٢٦٩) النقـابات من عملها التقليدي وأدى بسرعة إلى اختفائها ، وفي الوقت نفسه لم تجعل القوانين الجديدة فقط من السرقة والقتل جـريمة كبـرى بـل ايضا من الكذب وتشويه السمعة ، والبخل والشجار ، ولكن فوق كل شيء لقد كان قانونا مطلق الصلاحيات ، وكان الموت عقـوبة لكل نوع من العصيان : من الصغار ضد واليهم ، من الزوجـة لزوجهـا ، أو لأي انسان ضد الرب وممثلي الرب ، حكومة مـونستر ، وتلك المواد الأخيرة يحتمل أنه لم يمكن تنفيذها حـرفيا ، ولكنهـا كانت تـوفر للمتنبيء وسيلة للتخويف ، ولضمان أن تـكون وسـيلة فعـالة عين كينبردولينك جلادا واعطي سيف العدالة وحراسة مسلحة .

وكان السلوك الجنسي في البداية منظمـا بـالصرامة نفسـها لكل نواحي الحياة الأخرى ، والصورة الوحيدة المسـموح بهـا للعـلاقة الجنسية كانت الزواج بين اثنين من القائلين بتجديد العماد ، والزنا والفسق ـ الذي اعتبر يشمل الزواج بواحد من الكفرة ـ كان مـن الجرائم الكبرى ، وكان هذا يتماشى مـع تقـاليد القـائلين بتجـديد العماد.ومثل الوالدنسيان في القرون المبكرة التزم القـائلون بتجـديد العماد بقانون أشد صرامة ، للاخلاقيات الجنسية اكثـر مـن أغلب معاصريهم . ووصل هذا النظام إلى نهاية مقتضبة وذلك عندما قـرر بوكلسن إباحة التعدد في الزواج ، ومرد امـكانية القيام بمثـل هـذا العمل يمكن إرجاعها إلى حقيقة أن كثيرا من المهـاجرين كانوا قـد تركوا نساءهم وراءهـم في المدينة ، حتـى أنه كان هناك الآن مـن الرجال على الأقل ثلاثة أضعاف النساء اللواتـي في سـن الزواج ،

ومن جانب اخر ليس هناك دليل يدعم فكرة أن قصد بوكلسن كان توفير الحماية لنساء كن بالفعل بلا حماية ، ولم يقترح شيء من هذا النوع مطلقا بتجديد العماد الآن في مونستر ، كان في الواقع هو نفسه الذي كان في قرون سالفة قد تم السير عليه من قبل اخوة الروح الحرة والاداماييتيين،وقد شرح للوعاظ والشيوخ المجتمعين كيف أن الرب قد أوحى له بأن الوصايا التوراتية (بالتزايد والتكاثر) يجب ان تؤخذ كأمر إلهي . وقد أعطى أنبياء بني إسرائيل مثالا جيدا ، فتعدد الزوجات الذي مارسوه يجب أن يستعاد في القدس الجديدة

وجادل بوكلسون أياما بغير انقطاع ، وفي النهاية هدد المنشقين بغضب الرب ، وبعد ذلك خرج الوعاظ طائعين ليفسروا المذهب الجديد في باحة الكاتدرائية ، ومثل الاشتراك في السلع قوبل تعدد الزوجات بمقاومة عندما قدم للمرة الأولى ، وكان هناك ثورة مسلحة القى خلالها بوكلسن ، وكنيبر دولينك في السجن ،إنما لكون الثوار كانوا أقلية صغيرة فقط ، فإنهم هزموا سريعا وأعدم نحو الخمسين منهم ، وأعدم خلال الأيام التالية أيضا عدد آخر ممن غامر بنقد المذهب (ص ٢٧٠) الجديد ، وبحلول أب توطد تعدد الزوجات ، وبدأ بوكلسن الذي ترك زوجة في لايدن بالزواج من ارملة ماتيس الجميلة الشابة ، وكان اسمها ديفر أو ديفارا ، وقبل أن يمضي وقت طويل كان لديه حريم يضم خمس عشرة زوجة،وحذا الوعاظ وكل السكان الذكور في حينه حذوه وبدأوا يتصيدون زوجات جديدات ، وبالنسبة للنساء مع أنه كان هناك عديدات ممن رحبن بعادة تعدد الزوجات كان هناك أخريات شكل بالنسبة لهن طغيانا كبيرا ، وسن قانون بموجبه كان على كل النساء تحت سن معينة أن يتزوجن شئن أم ابين ، وحيث أنه كان هناك قليل من الرجال غير المتزوجين ، كان هذا يعني أن عددا كبيرا جدا من النساء كن ملزمات قانونيا بقبول دور الزوجة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، علاوة على ذلك بما أن كل الزيجات « بالكفرة » قد أعلن بطلانها فإن زوجاتا لمهاجرين أكرهن على خيانة ازواجهن ، وكان رفض الاذعان للقانون الجديد إثما كبيرا ، وجرى بالفعل إعدام بعض النساء ومن

جانب آخر بدا العديد من الزوجات المستقرات على الفور بالشجار مع النساء الغريبات اللائي دخلن بيوتهن فجاة ، وكان هذا أيضا إثما كبيرا ، وادى إلى مزيد من الاعدامات ولكن لايمكن لأي قدر من الصرامة ان تكره على الانسجام المنزلي ، وفي النهاية كان لابد من السماح بالطلاق ، وهذا بدوره حول تعدد الزوجات إلى شيء لايختلف كثيرا عن الحب الحر ، وقد تم الاستغناء عن الاحتفال الديني بالزواج واصبح الزواج يتم بعقد ويحل بسهولة كبيرة ، وحتى لو اسقطنا كثيرا من الروايات المعادية التي نملكها على انها مبالغة ، فإنه يبدو مؤكدا أن معايير السلوك الجنسي في مملكة القديسين قد عبرت كامل القوس من التطهر الصارم ، إلى مايقرب من العلاقات غير الشرعية .

ولم تبعد إعادة تنظيم المجتمع في مونستر بوكلسن عن الدفاع عن المدينة ضد العدو الخارجي ، وصحيح أنه لعدة شهور لم يكن العدد هائلا جدا ، ذلك ان الأسقف قد وجد صعوبة كبيرة في القيام بأعمال حربية فعالة ، وكانت المساعدة التي تلقاها من حلفائه في كليفز وكولون قد جاءت على مضض ولم تكن أبدا كافية ، وكان عليه دائما ان يناشد من اجل مزيد من المال والقوات ، ولكون غالبية مرتزقته قد جاءوا مثلهم مثل غالبية القائلين بتجديد العماد ومن الطبقة الاجتماعية نفسها ، كانوا دائما مستعدين للتعاطف مع السكان المحاصرين ، وحقيقة أن أجورهم كانت تصل بصورة غير منتظمة جعلتهم غير قابلين للاعتماد عليهم اكثر ، لاسيما عندما عرض بوكلسون بفكره الثاقب ــ وفي تعارض صريح مع نظريته الشيوعية ــ عليهم دفعات منتظمة ، وقد أحدثت المنشورات التي اطلقها القائلون بتجديد العماد في معسكر العدو الأثر المطلوب . ففي خلال حزيران انتقل نحو ٢٠٠ من المرتزقة إلى صفوف القائلين بتجديد العماد في حين أن آخرين فروا ببساطة وعادوا إلى بيوتهم . (ص ٢٧١)

وبالمقارنة مع المحاصرين كانت الحملة قوة عسكرية منظمة ،

وكان هذا في الأساس إنجازا شخصيا لبوكلسن ، وخلافا لماتيس فإنه ــ مع كل تهوره ــ لم تغب عن نظره الحقائق المادية للأعمال الحربية ، ولابد أنه كان منظما مقتدرا جدا ، وعندما قصفت المدينة للتحضير للهجوم ، عملت النساء كل الليل لاصلاح الاسوار المعطوبة ، وعندما حاول المرتزقة الاستيلاء على المدينة بهجوم عاصف استقبلوا ليس بطلقات المدافع بل بالأحجار ، والماء المغلي والقار الملتهب ، ومن جانب آخر عندما قام المحاصرون بغارة شتتوا المرتزقة بغير نظام بل حتى أنهم تمكنوا من تعطيل كثير من المدافع ، وضمن المدينة كان النظام مفروضا بصرامة ، وكان لكل فرد مهمة اساسية مخصصة ، كحرفي او في الصيانة والاصلاح للتحصينات ، وكان هناك تفتيش منتظم على الحراسة فوق الأسوار من قبل الشيوخ نهارا وليلا ، وعندما ثمل بعض المرتزقة ــ ممن التحقوا بالمدينة ــ في إحدى الحانات أطلق عليهم النار ، وفي إحدى المناسبات حاول الأسقف تقليد تقنيات بوكلسن وأطلق منشورات من فوق الاسوار يعد فيها بأنه إذا استسلمت المدينة سيكون هناك عفو عام ، رد بوكلسن على الفور فجعل قراءة مثل هذه المنشورات خطيئة كبرى .

وكانت هيبة بوكلسن في الذروة ، في نهاية آب ١٥٣٤ ، وصد هجوما كبيرا بفعالية ، حتى أن الأسقف وجد نفسه فجأة مهجورا من قبل كل من اتباعه والمرتزقة ، وكان حسنا لو أن بوكلسن نظم غا رة اذ ربما تمكنت قواته من الاستيلاء على معسكر الأسقف ، ولكنه عوضا عن ذلك استغل الفرصة لاعلان نفسه ملكا.

الحكم المسانحي لجون أوف لايدن

إنه ليس كملك عادي بل كمسيح للأيام الأخيرة كان بوكلسن قد فرض نفسه ، وكي يحقق ذلك توسل لوحي إلهي آخر ــ اعتقد او لم يعتقد فيه ــ وبطريقة أكثر درامية من المعتاد ، ففي بداية أيلول أعلن صائغ من مدينة مجاورة يدعى دوزنتسكر نفسه كنبي جديد ، وفي

احد الأيام اعلن هذا الرجل في الميدان الرئيس أن الاب السماوي قد اوحى له أن بوكلسن سيكون ملكا على العـالم كله ، وسـيسود على كل الملوك ، والأمراء وعظمـاء الأرض ، وانه سـيرث الصـولجان والعرش الذي كان لجده داود وسيحتفظ بهمـا حتـى يسـترد الرب المملكة منه ، وبناء عليه اخذ دوزنتسكر سيف العدالة مـن الشـيوخ وقـدمه إلى بـوكلسن ، ودهنه بـالزيت المقـدس ، واعلنه ملكا على القدس الجديدة ، وسجد بوكلسن وهو يشكو من عدم جدارته ، ودعا الرب أن يهديه في مهمته الجديدة ، ثم توجه إلى الجمهـور المحتشـد قائلا : « بطريقة مماثلة كان داود ، راعيا متواضعا ، مسحه النبـي بامر من الرب ليكون ملكا لبني اسرائيل ، إن الرب كثيرا مـا يفعـل بهذه الطريقة ، وكل من يقاوم إرادة الرب يستنزل غضـب الرب على نفسه ، لقد اعطيت الآن سلطة على كل امم الأرض ، وحق استعمال السيف لارباك الأشرار ، ودفاعا عن الصالحين ، فلا تدعوا أحدا في هذه المدينة يلوث نفسه بالجريمة أو يقاوم مشـيئة الرب ، وإلا فإنه بلا تأخير سيلقى الموت بالسيف » وتصاعدت همهمة احتجـاج مـن الحشد وتابع بوكلسن : « عار عليكم أن تهمهمواضد القضاء الالهي للرب ! ومع أنكم ستتضمون معا لمعارضتي ، فإنني سأحكم مع ذلك ، رغما عنكم ، ليس فقط في هذه المدينة بل على العالم كله ، لأن الرب هكذا شاء ، ومملكتي التي تبدأ الآن ستدوم ولن تعرف السقوط » ! وبعد ذلك تفرق الناس في صمت إلى بيوتهم ، وللأيام الثلاثة التـالية القى الوعاظ موعظة تلو الأخرى أوضحوا فيها أن المسيح الذي تنبأ به الانبياء في العهد القديم لم يكن سوى بوكلسن .

وفعل الملك الجديد كل مايمكن لتاكيد الاهمية الفـريدة لاعتـلائه العرش واعطيت الشـوارع والبـوابات في المدينة اسـماء جـديدة ، وابطلت ايام الآحاد والأعياد واعيدت تسمية ايام الاسبوع على نظام أبجدي ، حتى اسماء حديثي الولادة تم اختيارها من قبل الملك وفـق نظام خاص ، ومع ان النقود لم يكن لها عمل في مونستر فقد أوجدت عملة جديدة تزيينية بحتة ، «سكت العملات الذهبية والفضية وعليها نقوش تلخص كل التخيلات الالفية » التي أعطتللمملكةمعناها مـن

ذلك :« لقد أصبحت الكلمة لحما يسكن فينا » . « ملك واحد فوق الجميع ، رب واحد عقيدة واحدة ، عماد واحد » ، وصمم شعار خاص ليرمز إلى ادعاء بوكلسن بالسيادة الروحية والدنيوية المطلقة على العالم كله كان عبارة عن كرة تمثل العالم يخترقها سيفان (كان يمسك بهما أنذاك البابا والأمبراطور) ويعلوهما صليب حفرت عليه الكلمات : « ملك واحد للصلاح فوق الجميع » ، وكان الملك نفسه يرتدي هذا الشعار ، وقد صيغ من الذهب وكان يتعلق بسلسة من الذهب في عنقه ، وكان مرافقوه يرتدونه كشارة مميزة على أكمامهم ، وكان مقبولا في مونستر كشعار للدولة الجديدة .

وكان الملك الجديد يرتدي حللا فخمة وخواتم وسلاسل ، ومهاميز من أنفس المعادن صاغها أمهر الحرفيين في المدينة وجند علية القوم وتم تعيين نبلاء حملة للسلاح و عينت أرتال من الضباط في البلاط ، وفي كل مرة ظهر فيها الملك على الملأ كان محاطا بحاشيته بملابسهم الفخمة أيضا ، وأعلنت ديفارا باعتبارها زوجة بوكلسن الرئيسة ملكة ، وكان أيضا لها حاشيتها (ص ٢٧٣) واحتفظت مثل زوجها ببلاط ، أما الزوجات الأقل شأنا ، ولم تكن أي منهن أكبر من عشرين سنة فقد أصبحن أتباعا لديفارا ، وكان عليهن أن يطعن أوامرها ، ولكن مع ذلك كن يزودن بملابس جميلة ، ولقد كان بلاطا مترفا ضم نحوا من ٢٠٠ ذاك الذي ازدهر في القصور المصادرة من قبل الكاتدارئية .

نصب عرش في ساحة السوق ، زين بأقمشة منسوجة بخيوط ذهبية وارتفع فوق المقاعد المحيطة به ، والتي خصصت لأعضاء المجلس الملكي والوعاظ ، وأحيانا كان الملك يأتي إلى هناك ليجلس للقضاء او ليشهد اعلان القوانين الجديدة ، وكان يعلن عن مقدمه بنفخ الأبواق ساعة وصوله على ظهر حصان ، وهو يلبس تاجه ويحمل صولجانه ، ويسير ضباط البلاط بين يديه ، وخلفه يأتي كنيبر دوليذك ، الذي أصبح الآن رئيسا للوزراء وروثمان الذي أصبح الناطق الملكي ، وخط طويل من الوزراء ورجال البلاط والخدم ،

وكان الحرس الملكي يصحب الموكب ويحميه ويشكل نطاقا حول الساحة اثناء جلوس الملك على العرش ، وعلى كلا جانبي العرش يقف وصيفان ، يحمل احدهما نسخة من العهد القديم ـ ليبين ان الملك كان خليفة داود ومخولا بسلطة التفسير الجديد لكلمة الرب ـ والآخر يحمل سيفا مجردا .

وبينما كان الملك يتوسع في هذا الطراز الفخم الحياة لنفسه ولزوجاته واصدقائه ، كان يفرض على الجماهير من الناس تزمتا صارما ، وكان الناس بالفعل قد سلموا مايملكونه من ذهب وفضة وخضعوا لمصادرة الاقامة والطعام ، والآن أعلن النبي دوزنتسكور فجاة انه قد أوحي له ان الآب يبغض كل زيادة في اللباس ، وقننت الملابس والفرش بشدة بناء على ذلك ، وبناء على أوامر الملك توجب تسليم كل فائض تحت طائلة الموت ، وفتش كل بيت وجمعت حمولة ثلاث وثلاثين عربة من فائض اللباس والفراش . ووزع بعضها على الأقل على مايبدو على المهاجرين من هولندا وفريزيا ، وعلى المرتزقة الذين جاءوا من الجيش المحاصر ، ولكن هذا لم يشكل تعزية للمواطنين العاديين في مونستر ، الذين كانوا متأثرين اكثر بالتضاد بين حرمانهم وعوزهم ، والترف غير المحدود للبلاط الملكي .

وادرك بوكلسن أنَّ حتى هيبته الكبيرة لن تضمن بذاتها قبول إذعان المحرومين من المزايا في النظام الجديد ، فاستخدم تقنيات مختلفة ليحتفظ بخضوع الجماهير ، وبلغة جديرة بأي تابع للروح الحرة شرح ان الأبهة والترف كانت مباحة له ، لأنه كان ميتا تماما بالنسبة للدنيا والجسم . وفي الوقت نفسه اكد للعوام من الناس انه قبل مضي وقت طويل (ص ٢٧٤) سيكونون هم ايضا في الحالة نفسها ، يجلسون على مقاعد من فضة ويأكلون على موائد من فضة ، وسيكو ن تملك هذه الأشياء سهلا لأنها ستكون برخص الطين والحجارة ، وبشكل عام اصبحت النبوءات والوعود الالفية مثل تلك التي ابقيت من قبل المدينة في حالة من الاثارة لمدة تزيد عن عام ، اصبحت الآن تقلق اكثر واكثر وبشدة أعظم ، وفي تشرين أول

أصدر روثمان نشرتــه« الرجــوع »وفي كانون اول « اعلان الانتقــام» وتظهر هذه الوثــائق بــوضوح كاف كيف كان اهــالي مــونستر يشجعون على ان يتنبهوا الى دورهم ومصيرهم.

وفي تلك الأعمال ظهرت التخيلات المتعلقــة بــالعصور الثــلاثة في صورة جــديدة ، العصر الأول عصر الخـــطيئة وقـــد دام حتـــى الطوفان ، والعصر الثاني كان عصر الاضطهاد والصليب ودام حتى الوقت الراهن ، وقــدر أن العصر الثــالث ســيكون عصر الانتقــام وانتصار القديسين ، وشرح ان المسيح قد حاول مرة أن يرد العــالم الخاطىء الى الحقيقة ، ولكن بدون نجاح مستديم ، وعلى مدى قرن اضعفت تلك المحاولة من قبل الكنيسة الكاثوليكية ، وتبع ذلك اربعة عشر قرنا من التراجع والخراب ، كانت النصرانية خلالها واقعة بلا حول في الأسر البابلي ، ولكن زمن المحنة الآن قد بلغ نهايته ، وكان المسيح على على وشك العودة ، وفي الاعداد لهذه العــودة أقــام اولا مملكته في مدينة مونتسر واقام عليها داود الجديد ، جان بوكلسن وفي تلك المملكة تكون كل نبوءات العهد القديم قد تحققت بشــكل مســبق وتم تجاوزها ، وتحققت استعادة كل الأشياء ، ومــن هــذه المملكة يجب ان يتقدم شعب الرب ، ويستخدم سيف العدالة ليوســع المملكة حتى تضم العــالم كله :« حـــظيرة – غنم واحـــدة ، وقـــطيع واحد ، وملك واحد » ، وكانت مهمتهم المقدسة هي تطهير العالم من الشر للتمهيد للمجيء الثــاني :« ان مجــد كل القــديسين في شــفاء الغليل بالانتقام .... الانتقام بلا رحمــة مــن كل مـــن لايحمـــل علامة (القائمين بتجديد العماد) » وفقط عندمــا يتحقــق القتــل العظيم تكون عودة المســيح ، ليتــولى الحســاب وليعلن مجــد كل القديسين ، وعندها حقا تظهر سماء جــديدة وأرض جــديدة فيهــا يتحرر القــديسون – او أبناء الرب – مــن عبــوديتهم الطــويلة للأشرار ، ويعيشون دون بكاء وتنهد ، وفي ذلك العالم لن يكون بعــد الآن أي أمـــراء او لوردات وكل الأشـــياء ســـــتكون ملكية مشتركة ، والذهب والفضة والجــواهر الثمينة لن تــرضي بعــد ذلك

غرور الاغنياء ، بل فقط مجد أطفـال الرب ، لأن هؤلاء هـم الذين كان لهم ميراث الأرض .

وقد دعمت هذه الوعود وصورت بأعمال دراماتيكية مثيرة ، وفي تشرين (ص ٢٧٥)أول أعلن النبي دوزنتسكر فجأة أن بـوق الرب سيدوي ثلاثا ، وفي النفخة الثالثة يجب أن يجتمع كل سـكان المدينة عند جبل صهيون ،(الاسم المستعار لباحة الكاتدرائية)،وكان على الرجال ان يحضروا وهم مسلحون ولكن عليهم ان يحضروا نساءهم واطفالهم ايضا ، وسـيسير اطفـال الرب معـا الى خـارج المدينة وسيكونون موهوبين بقوى فوقالطبيعة حتى ان خمسة منهم يمـكنهم قتل مائة من الأعداء وعشرة يمكنهم قتـل الف ، وسـيهرب العـدو امامهم

وهـكذا يمـكنهم السـير وهـم منتصرون الى الأرض الموعودة ، وسيعمل الرب على ان لايعانوا من الجوع او العطش او التعب في رحلتهم ، وقد صدحت الابواق فعلا ، ولكن الذي نفخ فيها هو دوزنتسكر نفسه ، على فترات كل اسـبوعين وكان الاخفـاق في اطاعة النبي انتحارا ، لهذا عندما دوى البوق للمرة الثالثة جـاء كل الناس حتى النساء الذين لديهن اطفال حـديثوا الولادة جـاءوا الى مكان اللقاء . وجاء الملك ايضا وهـو شـاكي السـلاح على ظهـر الحصان ، فكان يرتدي تاجه ومحـاطا بحـاشيته ، وعين ضـباط لقيادة جيش الرب ، ولكن في اللحـظة الأخيرة الغيت الحملة فجـأة واعلن الملك انه اراد مجرد اختباروﻻء شعبه ، وأنه وقـد رضيالأن تماما لذلك فإنه يدعو الجميع الى وليمته ، وجلس كل رجـل ومعـه زوجاته واقيمت وليمة تحت رعاية الملك والملكة الكريمـة ، وانتهـت باحتفال مناولة ، وزعت فيه ارغفة صغيرة وجرعات من النبيذ مـن قبـل الملك والملكة وأعضـاء المجلس الملكي ، بينمـا كان الوعاظ يفسرون معنى هذا القربان ، ثـم جـاء وقـت عشـاء الملك والبلاط ، وبعد العشاء تصرف الملك بوحي مفـاجيء ، وأرسـل في طلب اسير من المرتزقة من السجن وقطع رأسه .

ارهاب كان لوقت طويل سمة مألوفة للحياة في القدس الجديدة ، وازداد شدة خلال حكم بوكلسن ، وخلال بضعة ايام من اعلانه الملكية ، اعلن دوزنتسكر انه قد اوحي اليه أنه في المستقبل ان كل من امعنوا في الخطيئة ضد الحقيقة المعروفة يجب أن يحضروا امام الملك ويحكم عليهم بالموت ، ويجب استئصالهم من الشعب المختار ، ويجب ان تقتلع ذكراهم ، ولن تلق أرواحهم رحمة بعد القبر ، وخلال يومين بدات الاعدامات ، وكانت الضحايا الأولى نساء ، قطع راس واحدة بسبب انكارها حقوق الروجية على زوجها ، وثانية بسبب زواجها من اثنين ـ لأن ممارسة تعدد الزوجات كان بالطبع امتيازا محصورا بالذكور ـ وثالثة لاهانتها واعظا والسخرية من مذهبه ، وربما حققت هذه الأحكام للملك الجديد ارضاء لساديته كما عملت بالتاكيد على تعزيز هيمنة الذكور على القديسات من الاناث ، ولكن كان للارهاب اهداف أوسع من ذلك ، لقد كان فوق كل شيء سلاحا سياسيا يستعمل من قبل طاغية اجنبي ضد السكان الوطنيين ، وكان بوكلسن يقظا وحذرا في بناء حرسه من المهاجرين ، هؤلاء الناس الذين اما انه ليس لديهم ممتلكات ، او انهم(ص ٢٧٦) تركوها وحضروا الى مونستر فكانوا مخلوقات بوكلسن ، وكانوا يقفون او يقعون معه وطالما انهم كانوا يخدمونه فإنهم كانوا يضمنون التمتع بمزايا هائلة ، فيرتدون حللا فاخرة يمكنهم أن يتباهوا بها على أصحاب الملابس الفقيرة ، وكانوا أيضا يعرفون انه اذا جاء الجوع فإنهم سيكونون هم أخر من يعاني منه ، وكانت اول أعمال الملك مصادرة كل خيل الركوب وتحويل حرسه إلى سرايا راكبة ، وكانت هذه السرايا تتدرب علنا ، وكان السكان سريعين في معرفة انها قوة مسلحة يمكن استخدامها ضد العدو الداخلي ، كما يمكن استخدامها ضد عدو من خارج الأسوار .

وبالنسبة للمجتمع المحاصر ككل كان تأسيس الملكية مفجعا بكل طريقة ، وفي حين أن بوكلسن والقادة الآخرين كانوا مستغرقين في

اعداد البلاط الملكي وفي زيادة مزاياهم الخاصة وضمانها فسأنتهم اكثر اللحظات مناسبة لشن حرب حاسمة ، فقد صحا الأسقف من هزيمته ، وخلال اسابيع قليلة كانت المدينة محاصرة مرة اخرى ، وفي الوقت الذي دعا فيه دوزنتسكر السكان للسير الى خارج المدينة ، كانت هذه المهمة قد اصبحت عملا انتحاريا ، وقد ادرك بوكلسن هذا جيدا بلا شك : اذ بينما كان يتحدث عن التقدم لغزو العالم ارسل دعاية للقائلين بتجديد العماد في المدن الأخرى بهدف إثارتهم لاغاثة مونتسر ، وفي نهاية المأدبة الكبرى على جبل صهيون ، تلقى دوزنتسكر ايضا وحيا اخر ، خرج نتيجة له هو وستة وعشرين واعظا « كرسل » الى المدن المجاورة ، واثقا من ان اي مدينة سترفض الترحيب بهم سيبتلعها الجحيم فورا ، وتصرفوا بثقة عظيمة ووعظوا بمذهبهم علنا ، وفي البداية أحرزوا بعض النجاح ، ولكن السلطات تدخلت بقوة وقبل مضي وقت طويل أعدم « الرسل » مع العديد من القائلين بتجديد العماد من العناصر المحلية التي رحبت بهم .

وعندما علم بوكلسن بحصر « رسله » تخلى عن العمل العلني لصالح التحريض التآمري ، ويبدو ان كثيرا من الذهب والفضة المصادرة قد جرى تهريبه الى خارج مونتسر وسويسرا ، ولم تعط هذه الخطة نتيجة تذكر ، ولكن في الوقت نفسه هربت ألوف من منشورات روثمان الى الخارج ووزعت في هولندا وفريزيا واحدثت هذه الدعاية تاثيرا هائلا وخطط لثورات جماهيرية بين القائمين بتجديد العماد ، وفي كانون الثاني ١٥٣٥ اجتمع الف من القائلين بتجديد العماد مسلحين في اقليم غرونينغن تحت قيادة نبي دعا نفسه « المسيح » ابن الرب (ص ٢٧٧) واعتزم هؤلاء الرجال المسير نحو مونستر باعتقاد ان بوكلسن سوف يأتي للقائهم وان العدو سيهرب عند اقترابه ، وكانت النتيجة هزيمتهم وتشتتهم أمام قوات دوق جلدرلاند ، وفي اذار استولى نحو ٨٠٠ من القائلين بتجديد العماد على دير غرب فريزيا واحتفظوا به في وجه قوة من المرتزقة بقيادة نائب رئيس السلطة الامبراطورية ، ولم يتم القضاء

عليهم الا بعد قصف شديد وهجمات متكررة ، وفي الوقت نفسه أوقفت ثلاث سفن مليئة بالقائلين بتجديد العماد وهي في طريقها صعودا في نهر ايجيسل Ijsel واغرقت مع شاغليها جميعا ، وفي آذار أيضا تراس أحد القائلين بتجديد العماد من مندن افقر قطاع من السكان وحاول تأسيس قدسا شيوعية جديدة على نموذج مونستر ، وتم التعامل مع هذه الثورة من قبل مجلس المدينة ، الذي هدد باستخدام المدافع ، ولكن في وقت متأخر بلغ ايار ، كان مبعوث من مونستر قادرا على قيادة ثورة في امستردام استولت على دار البلدية ، ولم يتم اخمادها الا بعد قتال مرير ، وكان هدف كل أعمال العصيان هذه هو الذي حدده بوكلسن ، وكان مايزال هو الهدف نفسه الذي الهم هذه الاعداد الكبيرة من الحركات الالفية من حين أيام الرعاة : « قتل كل الرهبان والكهنة والحكام الموجودين في العالم ، لأن ملكنا وحده هو الحاكم العادل » وليس هناك من شك أن ثورات القائلين بتجديد العماد في الشهور الاولى من ١٥٣٥ ربما كانت اكثر خطورة مما كانت لو أن الخطط مع الكثير من اسماء المتآمرين ومواقع اكداس الذخيرة ، لم تتعرض للخيانة لدى السلطات في وقت سالف في بداية كانون الثاني ، وهي على اي حال برهان أخر على الاخلاص الذي يمكن للقدس الجديدة أن تحدثه وتحشره بين القائلين بتجديد العماد ، وعامة الناس في شمال غرب المانيا والأراضي المنخفضة .

وفي الوقت نفسه ضاعف الأسقف من جانبه من جهوده لاخضاع المدينة ، وفي نهاية ١٥٣٤ اتفق ممثلون عن ولايات الراين الأعلى والأدنى ، واجتمعوا في كوبلنز Koblenz على الامداد بالقوات والمعدات والتمويل اللازم لجعل الحصار فعالا حقا ، وطوقت مونتسر بالخنادق والتحصينات وبخط مزدوج من المدفعية والفرسان ، وهكذا أصبحت للمرة الأولى مقطوعة تماما عن العالم الخارجي ، وعندما ـ بناء على قرار المجلس التشريعي الامبراطوري المنعقد في ورمر Worms في نيسان ـ تعهدت كل الولايات في الامبراطورية بالاسهام في التمويل لمتابعة

الحصار ، هلكت المدينة بشكل نهائي ولم يعد المحاصرون في حاجة لهجوم عاصف للاستيلاء عليها ، وبدلا من ذلك ركزوا على تجويع السكان حتى الموت ، وقد نجحوا في ذلك بقدر كبير ، وبدأ الحصار في كانون الثاني ١٥٣٥ ، وعلى الفور تقريبا ، تبين العجز في المواد الغذائية ، وبناء على أوامر الملك جرت زيارة اخرى للمنازل من قبل الشمامسة وصودرت اخر البقايا الغذائية (ص ٢٧٨)وقتلت جميع الخيول ، ويبدو أن كثيرا من هذا الغذاء حفظ للبلاط الملكي الذي قيل انه اكل جيدا في كل الأوقات ، وامتلك مخزونا كافيا من اللحم والقمح والنبيذ والبيرة تكفي مدة نصف سنة ، ومع أن هذا تم نفيه فيما بعد من قبل كل من بوكلسن وكنيبردوليذك ، فانه بالتمحيص بدا أن الأدلة كانت ضدهم ، وبالتأكيد ان المقننات التي وزعت على الناس قد استنفدت بسرعة ، وبحلول نيسان تفشت المجاعة في المدينة ، وقتل وأكل كل حيوان ـ كلب ، قط ، قنفذ ، وبدأ الناس يأكلون الأعشاب والطحالب والأحذية العتيقة وطلاء الجدران وجثث الموتى .

ولكونه متوجا على هذه المملكة المروعة استخدم بوكلسن باسراف أعظم تقنياته القديمة للهيمنة ، وأعلن انه قد أوحي له أن الناس سينجون بحلول عيد الفصح ، واذا لم يحدث ذلك يجب ان يحرق في ساحة السوق ، وعندما لم يحدث التحرر فسر ذلك بأنه قد تكلم فقط عن الخلاص الروحي ، ووعد بأنه بدلا من ان يترك اطفاله يموتون جوعا ، فان الأب سيحول الأحجار الى خبز ، وصدقه عدد كبير ، وبكوا بمرارة عندما وجدوا ان الأحجار بقيت احجارا، واخلاصا لحبه الأول ـ المسرح ـ فقد ابتكر المزيد والمزيد دائما من وسائل الامتاع الخيالية لرعاياه،ففي احدى المناسبات استدعى السكان الجائعين للاشتراك في ثلاثة ايام من الرقص والسباق ، والرياضة لأن تلك كانت مشيئة الرب ، وقدمت عروض مسرحية دراماتيكية في الكاتدرائية : كانت محاكاة بذيئة وساخرة للقداس ، واخلاقية إجتماعية على اسس الجشع والترف .

ولكن في هذا الوقت كانت المجاعة تفعل فعلها ، واصبح الموت من الجوع شائعا ، حتى ان الجثث اصبحت تلقى في مقبرة جماعية عظيمة ، واخيرا في ايار ، عندما اصبح معظم السكان لم يتذوقوا الخبز لثمانية اسابيع ، وافق الملك على ان يترك المدينة الذين يرغبون في ذلك وحتى عندئذ كان يلعن الهاربين ويعدهم بان جزاء عدم اخلاصهم سيكون لعنة ابدية ، لقد كان مصيرهم الأرضي في الواقع مروعا بقدر كاف ، اذا ان اصحاب الأجسام القادرة من الرجال قد وضعوا فورا تحت السيف ، اما بالنسبة للنساء ، المسنين من الرجال ، والاطفال فقد خشي الأسقف ـ وليس بدون تعقل ـ من انهم اذا مروا عبر خطوطه سيثيرون الاضطراب في المؤخرة وطبقا لذلك رفض السماح لهم بالمرور عبر التحصينات ، وعليه فقد هام هؤلاء الناس خمسة اسابيع طويلة في المنطقة المنزوعة السلاح خلف اسوار المدينة ، وهم يتوسلون للمرتزقة ان يقتلوهم ، يزحفون هنا وهناك لأكل العشب كالحيوانات ، ويموتون بأعداد كبيرة حتى فرشت الارض بالجثث ، وفي النهاية ازال الأسقف الناجين بعد ان استشار حلفاءه ، واعدم الذين من القائلين بتجديد العماد عن قناعة ونفى البقية الى قرى نائية في الأسقفية ومرات ومرات قذف المحاصرون منشورات الى داخل المدينة(ص ٢٧٩)تعرض العفو العام وجواز المرور للسكان ، اذا هم فقط سلموا الملك وحاشيته ، وتم فعل كل مايمكن للتشجيع على الثورة ضد الملك ، وفي ذلك الوقت كان عامة الناس مستعدين للعمل بهذا الاقتراح لو كان ذلك بامكانهم ، ولكنهم كانوا تماما بلا حول ، وخلال تلك الأسابيع القليلة الأخيرة الأكثر يأسا اظهر بوكلسن كل براعته في فنون الارهاب ، وفي مستهل ايار قسمت المدينة لاغراض ادارية الى اثني عشر قسما على كل قسم عين ضابط ملكي بلقب دوق مع قوة مسلحة من أربع وعشرين رجلا ، وتم اختيار هؤلاء « الدوقات » من بين المهاجرين الأجانب ، وكانوا على الأغلب من الحرفيين البسطاء ، ووعدهم بوكلسن انه عند تحرير المدينة وبزوغ فجر الالفية ، سيكونون جميعا دوقات حقيقيين يحكمون مناطق واسعة من الامبراطورية ، كان قد

حددها من قبل . وربما صدق « الدوقات » ملكهم ، ولكن في حالة اذا ماكان قد داخله شك فقد منعوا اطلاقا من مغادرة قطاعاتهم او مقابلة بعضهم بعضا وقد ثبتوا ولاء كافيا ومارسوا ضد عامة الناس ارهابا قاسيا ، ولمنع اي احتمال لقيام معارضة منظمة فان الاجتماعات حتى بين افراد قلائل باتت ممنوعة بشدة ، واي انسان يعثر عليه وهو يتآمر على مغادرة المدينة ، أو مساعدة غيره على المغادرة أو يوجه انتقادا للملك أو سياسته كانت رأسه تقطع على الفور .

و كانت هذه الاعترافات غالبا ما تنفذ من قبل الملك نفسه ، الذي أعلن أنه سيفعل ذلك بكل سرور لكل ملك او أمير ، و احيانا كانت الجثة تقطع أرباعا و تسمر الأجزاء في أماكن بارزة للتحذير ، و بحلول منتصف حزيران كانت مثل هذه الاجراءات تحدث يوميا تقريبا

وبدلا من تسليم المدينة ، كان بوكلسن بلا شك ، سيدع كل السكان يجوعون حتى الموت ، ولكن بالنتيجة وصل الحصار فجأة الى نهايته ، فقد هرب رجلان ليلا من المدينة وأرشدا المحاصرين إلى نقاط ضعف معينة في الدفاعات وفي ليلة ٢٤ حزيران ١٥٣٥ اندفع المحاصرون في هجوم مباغت واخترقوا خطوط الدفاع الى داخل المدينة ، وبعد ساعات من القتال اليائس قبل الباقون المائتين أو الثلاثمائة الأخيرون من القائلين بتجديد العماد عرضا بمنحهم جواز مرور ، ووضعوا اسلحتهم وتفرقوا الى بيوتهم ، فقط ليقتلوا واحدا بعد واحد وحتى آخر رجل تقريبا ، في مذبحة استمرت عدة ايام .

وهلك كل قادة تجديد العماد في مونتسر ، ويعتقد ان روثمان قد مات وهو يقاتل ، وبرفض الملكة ديفارا التنكر لعقيدتها ، قطع رأسها اما بوكلسن فبناء على امر من الأسقف اقتيد بسلسلة بعض الوقت ، وعرض كدب العرض ، وفي كانون الثاني ١٥٣٦ اخذ الى

مــــــــــــــــــــــونتسر ، وهناك عذب هـــــــــــــــو وكنيبردولنيك ، وزعماء (ص٢٨٠) القائلين بتجديد العماد الآخرين على مرأى من الناس حتى الموت ، بمكاو ساخنة حتى الاحمرار وخلال فترة الامهم لم ينبس الملك السالف بصوت ، ولم يأت بحركة ، وبعد الاعدام علقت الجثث الثلاثة من برج كنيسة في وسط المدينة في اقفاص مازالت تشاهد هناك الى اليوم وفي الوقت نفسه عاد الذين هربوا من او طردوا من مونتسر القائلة بتجديد العماد عادوا اليها ، وأعيد الاكليروس الى مناصبهم واصبحت المدينة مرة اخرى كاثوليكية رسميا ولكي تحبط اي محاولات اخرى للحكم الذاتي سويت كل التحصينات بالأرض . وفي الصورة السلمية الاصلية ، عاشت فكرة تجديد العماد وحتى يومنا الحالي ، في مجتمعات مثل المنونيت والأخوة الهترييانية وأثرت ايضا على المعمدانيين والكويكرز وبالنسبة لتجديد العماد النضالي ، الحركة التي مثلها مثل كثير غيرها أخذت بالنضال لاقامة الالفية بالقوة ، قد تدهورت بسرعة ، وبدأ في البداية كما لو ان قائدا جديدا في تقاليد ماتيس وبوكلسن قد وجد في جوهان باتنبرغ ، ولكنه أعدم في ١٥٣٧، وبعد ذلك بجيل في ١٥٦٧ ، جمع اسكافي يدعى جان ويلمسن نحو ٣٠٠ من المقاتلين ، وكان بعضهم ممن نجوا من أيام مونتسر ، وأقام قدسا جديدة في وستفاليا ، هذه المرة في المنطقة المحيطة بفيسيل وكليفز ، ومارس هؤلاء القديسون ايضا الزواج المتعدد ـ ويلمسن نفسه باعتباره مسيحيا مخلصا كانت له احدى وعشرين زوجة ـ وبطريق تسويغ ممارساتهم أعادوا طباعة رسالة روثمان « الارتـــــداد Restilution » سرا

وعلاوة على ذلك زودت الفوضوية الصوفية للروح الحرة هؤلاء الناس كما سلف لها ان زودت مرة الأداميت البوهميين بمجموعة قوانين مشتركة ، وبادعاء ان كل شيء كان بحق ملكا لهم وشكلوا انفسهم في عصابات سطو كانت تهاجم اماكن سكن النبلاء والكهنة وانتهت بممارسة الارهاب الصريح ، وفي المجموع دامت هذه الحقبة اثني عشرة سنة حتى تم اعتقال المسيح واتباعه واعدامهم .

وبحرق ويلمسن في كليفز في ١٥٨٠ آن للقصة التي بدأت مع ايميكو اوف لننفن والملك طافور وتانشيلم وايون ان تصل بشكل مرضي الى نهايتها .

خاتمة

كيف كان وضع الحركات التي كنا بصدد دراستها في علاقتها بالحركات الاجتماعية (ص ٢٨١) الأخرى ؟

لقد حدثت في عالم حيث الثورات الفلاحية وأعمال العصيان المدنية كانت شائعة جدا ، وعلاوة على ذلك كثيرا ماكانت ناجحة ، وكثيرا ماحدث ان الثورة والعصيان بين عامة الناس جعلتهم مفيدين جدا وقت الحاجة : يفرضون التنازلات ، ويجلبون مكاسب راسخة من الرخاء والمزايا ، وفي النضال الشاق القديم جدا ضد الاضطهاد والاستغلال لم يشغل الفلاحون والحرفيون من القرون الوسطى دورا خسيسا . ولكن الحركات الموصوفة في هذا الكتاب ليست بأي طريقة نموذجية بالنسبة للجهود التي بذلها الفقراء لتحسين نصيبهم ، وكان المتنبئون ينشئون تقاليديهم الرؤوية من المواد الأكثر تنوعا ـ سفر دانيال ، وسفر الرؤيا ، ووسطاء السبلينيين ، وتأملات يواكيم فيور ، ومذهب حالة المساواة في الطبيعة ـ وجميعها مدروسة وقد أعيد تفسيرها وتبسيطها الى مستوى الجمهور ، فتلك المعرفة وجب أن يزود بها الفقراء ـ والنتيجة ستكون شيئا يكون في الوقت نفسه حركة ثورية وتفجرا لخلاصية ذات مظهر ديني .

ومايميز هذا النوع من الحركات ان أهدافها واولوياتها كانت بلا حدود ، ولم ير النضال الاجتماعي كنضال لأهداف نوعية محدودة ، بل كحدث له أهمية فريدة ، يختلف في نوعه عن كل الصراعات الأخرى المعروفة في التاريخ ، هو طوفان او جائحة يخرج منها العالم وقد تغير تماما واعتق ، وهذا هو جوهر الظواهر

المتكررة – او اذا شاء الانسان ، التقاليد الباقية – التي اسميناها « الالفية الثورية » .

وكما رأينا مرات ومرات في مجرى هذا الكتاب ازدهرت الألفية الثورية فقط في بعض الحالات الاجتماعية المحددة ، وفي العصور الوسطى لم يكن الناس الذين راقت لهم اكثر لامن الفلاحين المتماسكين بثبات في حياة القرية والضيعة ولامن الحرفيين المتماسكين في نقاباتهم ، وكان نصيب مثل هؤلاء الناس من الدنيا لايتجاوز احيانا الفقر أو الاضطهاد ، وفي احيان أخرى الازدهار النسبي والاستقلال وكان هؤلاء ربما يثورون او ربما يقبلون بحالتهم ، ولكنهم اجمالا لم يكونوا ميالين لاتباع احد المتنبئين الملهمين في سعي محموم وراء الألفية ، وقد وجد هؤلاء المتنبئون اتباعهم او بالأحرى حيث وجد السكان (ص ٢٨٢) غير المنظمين المفككين ، والريفيين او المدنيين او كليهما ، وكان هذا بالصحة نفسها بالنسبة لفلاندرز و شمال فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كما كان بالنسبة لهولندا ووستفاليا في القرن السادس عشر ، وقد أظهرت البحوث الحديثة ان هذا صحيح ايضا عن بوهيميا في اوائل القرن الخامس عشر ، وقد استمدت الألفية الثورية قوتها من السكان الذين كانوا يعيشون على هامش المجتمع – الفلاحين بدون ارض ، او الذين لديهم القليل جدا منها لايكفي لمجرد الاعاشة ، وعمال المياومة والعمال غير المهرة الذين كانوا يعيشون تحت التهديد المستمر للبطالة ، والشحاذون والمشردون – وفي الحقيقة من جماهير الناس غير المنظمة الذين لم يكونوا ببساطة فقراء ، ولكن الذين لم يستطيعوا ايجاد مكان مأمون ومعترف به في المجتمع بالمرة ، وكان هؤلاء الناس يفتقرون الى المادة والدعم العاطفي الذي تعطيه المجموعات الاجتماعية التقليدية ، وقد تحللت مجموعات النسب الخاصة بهم ، ولم يكونوا منظمين بشكل منهجي للتعبير عن مظالمهم والتأكيد على مطالبهم ، وبدلا من ذلك كانوا ينتظرون متنبىء يجمع بينهم في مجموعة خاصة بهم .

ولأن هؤلاء الناس وجدوا انفسهم في مثل هذا الوضع المكشوف والذي لايمكن الدفاع عنه فانهم كانوا ميالين للاستجابة بحدة لأي تمزيق للنمط الطبيعي المألوف للحياة ومرات ومرات يجد المرء ان تفجرا ثوريا الفيا معينا قد حدث ضد خلفية تنطوي على كارثة : كالأوبئة التي كانت مقدمة للحملة الصليبية الأولى وحركات اللطامين في ١٢٦٠ و ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ و ١٣٩١ و ١٤٠٠ والمجاعات التي تقدمت على الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ، والحركات الصليبية الشعبية في ١٣٠٩ ـ ١٣٢٠ وحركة اللطامين في ١٢٩٦ والحركات حول ايون وبلدوين الزائف والارتفاع المذهل في الأسعار الذي تقدم على الثورة في مونتسر ، وكانت اكبر موجة للاثارة الالفية ، تلك التي حرضت المجتمع كله ، قد اتى قبلها الكارثة الطبيعية الأكثر شمولا في العصور الوسطى ، واعني بذلك الموت الأسود ، وهنا مرة اخرى استمرت الاثارة في الطبيعة الاجتماعية الأدنى فترة اطول وعبرت عن نفسها بالعنف وبالمذبحة .

ولكن الفقراء وعديمي الجذور لم يهتزوا فقط بهذه الكوارث النوعية او الهيجان الذي اثر مباشرة على نصيبهم المادي ، بل كانوا ايضا حساسين بشكل غريب تجاه العمليات الأقل درامية وان كانت قاسية بالدرجة نفسها ، التي مزقت جيلا بعد جيل ، بالتدريج اطار السلطة الوحيدة التي كانت تحتوي الحياة في العصور الوسطى وبطلباتها حياة كل الافراد ، كانت هي سلطة الكنيسة ، ولكن سلطة الكنيسة لم تكن حتمية بلا مراجعة ، وقدر بكل تأكيد لحضارة اعتبرت الزهد اكثر العلاقات تأكيدا للنعمة ، ان تشك في قيمة الكنيسة(ص ٢٨٣)وصلاحيتها ، وهي المؤسسة التي كان من الواضح انها مصابة بالبخل والترف ، وقد سببت دينونة الأكليروس مرات ومرات ، خلال النصف الثاني من العصور الوسطى ، نفورا واستياءا بين العلمانيين وقد امتد هذا الاستياء طبعا الى الفقراء ، ولم يكن هناك مفر من ان العديد من الذين كانت حياتهم

محكوما عليها بالمصاعب وعدم الأمــن ، ســيشكون فيمــا اذا كان المطارنة والأساقفة الولوعون بالمباهاة ، والكهنة المستهدفون يمــكن ان يساعدوهم حقــا في الخــلاص ، ولكن اذا كان هؤلاء الناس قــد انسلخوا عن الكنيسة فانهم قد عانوا ايضا من انسلاخهم ، وظهــر الى أي حد احتاجوا للكنيسة ، ظهر في الحماس الذي رحبوا به بكل علامة للاصلاح ولعدم اللهفة التي تقبلوا بها ، لابل حتى هاموا بكل تقشف حقيقي وازداد يأسهم ، وبسبب هذه الاحتياجات العــاطفية للفقراء كانت الحركات النضالية الاجتماعية التي درسناها بــالوقت نفسه بديلا عن الكنيسة ، وهذه كانت جماعات خلاصية قادها زهاد قاموا بأعمال اعجاز خارقة .

ومثلما امتلكت الكنيسة من سلطات هائلة تعلقت سلطات خــارقة للطبيعة مثلها بالملكية الوطنية ، فقد كانت ملكية العصور الوســطى ماتزال الى حد بعيد ملكية مقدسة ، وكان الملك ممثلا للسلطات التي تحكم العالم ، وتجسيدا للقــانون الأخــلاقي والمشــيئة الربــانية وضامنا لنظام وصلاح العالم ، وهنا ايضا كان الفقــراء هــم الذين احتاجوا اكثر لمثل هذه الشخصيات . وعندما نقابل المتنبئين للمــرة الأولى ، في الحملة الصــليبية الأولى نرى انهــم كانوا بــالفعل قــد اوجدوا ملكيات ضخمة من خيالهم الخــاص ، شــارلمان المبعــوث وأميكو أوف ليغنين الذي جعـــــــل امبـــــــــراطورا ، والملك طافور ، وبالنسبة للفقراء كان أي انقطاع طويل ، او اخفاق ظــاهر للسلطة الملكية يجلب كربــا شــديدا ، كانوا يناضـــلون للهـــروب منه ، وكان « الفقراء النساجون والقصــارون » في فــلاندرز هــم الذين رفضوا قبول الموت في الأسر للكونت بلدوين التــاسع ، والذين اصبحوا اكثــرا اتبــاع بلدوين الزائف امبــراطور القســطنطينية ، واستلهمت أول حشــود الرعاة ، في ١٢٥١ امــكانية انقــاذ لويس التاسع من أسر العرب ، وفيما بعد بينمــا نوت الألفية الثــورية في فرنسا مع زيادة هيبة الملكية ، عزز التــراجع الطــويل في المنصــب الامبراطوري ، في ألمانيا عقيدة فــريدريك مخلص الفقــراء في الأيام الأخيرة ، فريدريك المبعوث أو المستقبل وكان آخر امبراطور ملك كل

هالة الملكية المقدسة هو فريدريك الثاني ، ومع موته والتمزيق المميت المعروف باسم فترة خلو العرش العظيمة ، ظهر هناك بين عامة الشعب في المانيا قلق كان له ان يدوم قرونا .

ونجد في سيرة فردريك الزائف في نويس في القرن الثالث عشر (ص ٢٨٤) وفي القصص الشعبية الامبراطورية التي تنامت حول كونراد شمد ، قائد اللطامين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وفي نبوءات ادعاءات ثائر الراين الأعلى في القرن السادس عشر ، نجد فيها جميعا شهادة لاتدحض على توفر الفوضى الدائمة والألفية الجامحة التي ازدهرت عليها .

وعندما يصل المرء في النهاية لوراثة مجموعات الالفية الشيوعية الفوضوية التي ازدهرت نحو نهاية العصور الوسطى ، يرى حقيقة واحدة تتضح امامه على الفور : لقد كان دوما ، يظهر وسط بعض الانتفاضات او الثورات الاكثر اتساعا ، في وضح النهار مجموعات الفية من هذا القبيل ، وهذه هي الحال بالذات مع جون بول واتباعه في ثورة الفلاحين الانكليز في ١٣٨١ ، وفي حركة المتطرفين خلال المراحل الأولى من ثورة الهوسية في بوهيميا في ١٤١٩ ــ ١٤٢١ وفي حالة توماس مونتزر و « عصبته من النخبة » في ثورة الفلاحين الألمان في ١٥٢٥ وهو صحيح ايضا بالنسبة للمتطرفين من القائلين بتجديد العماد في مونتسر ، فقد جاء تأسيس قدسهم الجديدة في نهاية سلسلة كاملة من الثورات ، لافي مونتسر فقط بل في كل الولايات الاكليروسية في شمال غرب المانيا ، وفي كل هذه الأمثلة كان العصيان الجماهيري نفسه موجها نحو اهداف محدودة وواقعية ، ومع ذلك في كل مثال كان مناخ العصيان الجماهيري يرعى نوعا خاصا من المجموعات الالفية ، ومع تصاعد التوترات الاجتماعية وشمول الثورة لكامل الأمة كان يظهر في مكان ما على حافة التطرف ، متنبيء مع اتباعه من العالة ، مع قصد تحويل هذا الهيجان الى معركة رؤوية ، وتطهير نهائي للعالم.

تانشليم وإيون قد ادعيا بأنهما ربـان حيان ، واميلكو لينغـن وبلدرين الزائف ، والفرد ريكيون الزائفون المختلفون يدعون بـانهم اباطرة الأيام الأخيرة ، فإن رجالا مثـل جـون بـول ، ومـارتن هسكا ، وتوماس كونتزر ، وحتى جان ماتيس ، وجـان بـوكلسن كانوا قانعين بأن يكونوا مبشرين وأنبياء للمسيح العائد. ومـع ذلك يمكن اجراء تعميم مؤكد حول المتنبيء كنمط اجتماعي ،فخلافا لقادة الثورات الشـعبية العـظمى ، الذين كانوا عادة مـن الفـلاحين أو الحرفيين ، نادرا ما كان المتنبؤن من العمال اليدويين أو حتى مـن العمال اليدويين السـالفين ، وفي بعض الأحيان كانوا مـن النبـلاء الصغار ، وأحيانا كانوا ببساطة من الدجاجلة ، ولكن ما هو أكثـر شيوعا انهم كانوا من المثقفين أو انصاف المثقفين ، وكان الكاهـن السالف الذي اصبح واعظا طليقـا أكثـر الأنمـاط شـيوعا بين الجميع ، وما اشترك فيه كل هؤلاء الرجال هو اطـلاعهم على عالم الرؤويات والنبوءات الألفية ، علاوة على ذلك إنه كلما أمـكن تتبـع سيرة واحد منهم نجـدها تتحـول الى اسـتحواذ للتخيلات الألفية عليه ، قبل وقت طويل ، قبل أن يخطر في باله في ابان بعض الهيجان الاجتماعي ، أن يتحـول الى الفقـراء بـاعتبارهم اتبـاع ممكنين(ص ٢٨٥)٠

ويمتلك المتنبي عادة مؤهلات أخرى: جاذبية شخصية تمكنه مـن الادعاء ، مع بعض الجدارة الظاهرية ، بدورها في جلب التاريخ الى مرحلة الاكتمال المحددة . وكان هذا الادعاء من جانب المتنبيء يؤثر بعمق في المجموعة التي تتشكل حوله . لأن ما كان المتنبيء يقدمه الى اتباعه لم يكن ببساطة فرصة لتحسين نصيبهم ، والهرب مـن القلق الضاغط ، بل كان ايضا وفوق كل شيء الأمل في تنفيذ مهمة مقـدرة من السماء ذات اهمية فريدة في ضخامتها ، وقد أدت هذه التخيلات دورا حقيقيا لهم ، كمهرب من حالتهم المعزولة المشـتتة وكتعـويض عاطفي عن حالتهم المقنطة ، لهذا كانت بسرعة تسـحرهم بـدورهم وتدمجهم فيه ، وما ظهر في حينه كان مجموعة جديدة: ديناميكية غير مستقرة ، ومجموعة قاسية تمـاما ، استحوذت عليهـا التخيلات

الرؤوية وشحنتها بالاعتقاد في عصمتها الخاصة ، فوضعت نفسها بمهمتها المفترضة ، واخيرا قد تنجح هذه المجموعة مع أن هذا ليس دائما في فرض قيادتها على الجماهير العريضة المشوشة ، المرتبكة والخائفة.

والقصة المروية في هذا الكتاب انتهت منذ نحو أربعة قرون ماضية ، ولكنها ليست غير ذات موضوع بالنسبة لزماننا ، فلقد اظهر الكاتب الراهن في عمل أخر كيف كانت التخيلات النازيةحول المؤامرة اليهودية للتخريب التي تشمل العالم كله مرتبطة باحكام بالتخيلات التي الهمت افيكواوف ليننفن و استاذ هنغاريا ، و كيف ان التشوش الجماهيري ، و عدم الأمن قد عزز الدور الشيطاني لليهود في هذا كما في قرون كثيرة سلفت ،فالتماثل و الاستمرار في الحقيقة محقق قائم .

ولكن المرء قد يفكر ايضا في ثورات الجناح اليساري والحركات الثورية لهذا القرن ، لانه تماما مثل حرفيي القرون الوسطى الموحدين في نقاباتهم ، أظهر العمال الصناعيون في المجتمعات المتقدمة تقنيا انهم متلهفون جدا لتحسين أحوالهم الخاصة ، فلقد كان هدفهم العملي البارز هو ضمان حصة اكبر من الرخاء الاقتصادي أو المزايا الاجتماعية ، أو السلطة السياسية ، أو أي جمع بينها ، ولكن التخيلات المشحونة بالانفعالات عن الصراع الرؤوي الأخير ، او الفية المساواة ، كان لها جاذبية أقل بكثير بالنسبة لهم ، واولئك الذين انبهروا بمثل هذه الأفكار ، هم من جانب اول افراد مجتمعات معينة متخلفة تقنيا ، وهي ليست فقط مكتظة بالسكان وفقيرة الى درجة تدعو لليأس ، بل انها ايضا منهمكة في تحول اشكالي نحو العالم الحديث ، وهم بالتالي مشوشون ومضطربون ، ومن جانب اخر هم عناصر معينة هامشية سياسيا في المجتمعات المتقدمة تقنيا ، وبشكل رئيسي من العمال الشباب العاطلين واقلية صغيرة من المفكرين والطلاب.(ص ٢٨٦).

ويمـــكن للمـــرء أن يتبين نوعين مــــن الميول المميزة تمـــاما والمتضادة ، فمن جانب كان الناس العـــاملين في أجـزاء معينة مـن العالم قادرين على تحسين نصيبهم بعيدا عن كل تمييز ، عن طـريق وساطة اتحادات العمال والتعاونيات والأحزاب البـرلمانية ، ومـن جانب أخر خلال ثلاثة أرباع القــرن منذ ١٩١٧ كان هناك تــكرار مســـتمر ، وبنســـبة متـــزايدة دومـــا ، للعمليات الاقتصادية ــ الاجتماعية التي ربطت مرة بين كهنة الطــابوريين أو توماس مونتزر والفقراء الأكثر ضياعا ويأسا ، في التخيلات حـول الصراع المدمر ضد « العظماء » ، وحــول عالم كامـل تنتفـي منه الرغبات الذاتية والأنانية الى الأبد.

وإذا ما نظر المرء في اتجاه مختلف نوعا ما ، يمكنه أن يجد حتى نسخة حديثة مـن هـذا الطـريق البـديل الى الألفية في ديانة الروح الحرة ، لأن مثل الانعتاق الكلي للفرد من المجتمـع ، وحتـى مـن الحقيقة الظاهرية نفسها ، مثل إذا أراد الانسـان القـول :نهـدف لتأليه الذات التي يحاول بعضهم في هذه الأيام تحقيقهـا بمسـاعدة المخدرات النفسية والفعلية ، يمكن التعرف اليهـا في تلك الصـورة المنحرفة لصوفية العصور الوسطى.

لقد استبدلت اللهجة الدينية القديمة بأخرى دنيوية ، وهــذا يميل الى أن يعمي ما هو واضح من نواح أخـرى ، لأنه بتعـرية حقيقـة الصدق البسيطة من قـداستها الهـائلة ، نجـد أن الألفية الثـورية والفوضوية الصوفية ما زالت معنا.

ملحق

الروح الحرة في انكلترا كرمويل.الصخابون وادبهم.

لقد كان(ص ٢٨٧) من المؤكد كثيرا اننا لا يمكن أن نعرف شيئا عن المعتقدات الحقيقية لأخوة الروح الحرة ، أو الأحرار الروحيين طالما أن معلوماتنا تأتي من خصومهم ، فهل كان الاتباع يعتبرون أنفسهم حقا كائنات الهية ؟ هل كانوا يعتقدون حقا أنه يمكنهم ارتكاب القتل ، والسطو ، والزنا دون خطيئة ؟ أو انهم لم يكونوا ، وبالأحرى كانوا ببساطة يمارسون النوع السلبي من الصوفية الذي أصبح يعرف فيما بعد بالطمأنينة الصوفية ؟ وهل القصص الفاضحة التي تروى عنهم مجرد قذف مقصود أو غير مقصود ؟

إن الأدلة الواردة في الفصلين الثامن والتاسع من الدراسة الراهنة يجب أن تمضي بعيدا لتبدد مثل هذه الشكوك ، وما يزال صحيحا أن الاتهامات المثارة ضد هذه الطوائف لا يمكن التحقق منها بالتفصيل الا في مواجهة كتاباتهم الخاصة ، وللوصول الى مثل هذا التأكيد ، من الضروري النظر الى الاحياء القصير الأمد لكن المحموم « للروح الحرة » الذي حدث في انكلترا اثناء وبعد الحرب الاهلية ، ومثل أسلافها كانت كتابات الطائفيين الانكليز الذين كانوا يعرفون بالصخابين ، قد أمر بحرقها ، لكن انه لأصعب بكثير ان تدمر طبعه كاملة من عمل مطبوع من أن تدمر بضع مخطوطات ، وهكذا نجد نسخ متناثرة من رسائل الصخابين ، وهذه الأعمال التي لم يتكرر طباعتها من قبل قد أصبحت ذات أهمية كبيرة ، وبالنظر اليها كوثائق تاريخية ترسخ بدون أدنى شك أن « الروح الحرة » كانت حقا وبالضبط كما قيل عنها : نظام من الشعور الذاتي بالأهمية والقوة كثيرا ما بلغ حد

تأليه الذات والسعي وراء الانعتاق التام الذي في التطبيق يمكن أن يؤدي الى تناقض المبادىء وتحلل كامل منها ، ولا سيما في الشق الفوضوي ، وكثيرا أيضا ما بدا كمذهب ثوري اجتماعي شجب أعراف وقوانين الملكية الخاصة وهدف الى ابطالها ، ولكن أهمية ادب الصخابين ليست تاريخية فقط ، فإذا كانت الخصوصية الأسلوبية عند ابيزركوب(ص ٢٨٨) ونبضه الحيوية كافية لتكسبه مكانا مشرفا في رواق الادبيات الشاذة ، فإن جوزيف سالمون يستحق بالتأكيد الاعتراف به ككاتب ذو قدرات شعرية حقيقية.

وبفضل كل الأعمال التي جرت حول الحياة الدينية والاجتماعية في انكلترا كروموبل ليس هناك نقص في المعلومات المتعلقة بالوسط الذي ازدهر فيه الصخابون ، ومن المعروف جيدا أنه خلال وبعد الحرب الأهلية كانت الاثارة الدينية عالية سواء بين الجيش أو بين المدنيين ، وأنه لا أعضاء الكنائس البروتسنتية الأسقفية ولا أعضاء الكنائس البروتستنتية المشيخانية كانوا قادرين على تأطير فيض تدين العامة . وشعر عدد كبير أن الوقت قد حان كي يصب الأب روحه في كل اللحم البشري ، وكان التواجد والغيبوبة حادثة يومية ، وكانت النبوءات تلقى فوق كل الأراضي ، والآمال الألفية وافرة بين السكان ، وتأثر كرموبل نفسه ، بشكل خاص قبل أن يتولى السلطة بمثل هذه الآمال عظيما وكان آلاف الجنود في النمط الجديد من الجيش وآلاف الحرفيين في لندن والمدن الأخرى يعيشون في توقعات يومية أنه من خلال عنف الحرب الأهلية ستقوم مملكة القديسين فوق التربة الانكليزية ، وأن المسيح سينزل ليحكمها.

وكانت الاثارة أشد ما تكون خلال فترة عدم الاستقرار السياسي والقلق التي تلت اعدام الملك و استمرت حتى اقامة حكومة الوصاية. و في ١٦٤٩ ــ ١٦٥٠ تأثرجيرارد ويذستانلي بالالهام فوق الطبيعي ليؤسس المجتمع الشهير « للحفارين » قرب كوبهام في سوري ، مقتنعا بأن العالم القديم يتلف كما يتلف الورق الاحتراق في النار ويتلاشى ، وحاول ويذستانلي أن يعيد الجنس البشري الى

حالته البكر وهــــي الفية بـــدائية ليس فيهـــا مـــــكان للملكية الخاصة ، والتمييز الطبقي والسلطة البشرية وفي الوقت نفسه كانت مجموعات من المتحمسين الدينيين تتضاعف بكثرة ، وكمـــا لاحـــظ واحد من ناشري المنشورات في ١٦٥١ معبـــرا عن دهشـــة إنه ليس عملا جديدا للشيطان أن يبذر الهرطقة و أن يربي المهرطقين ، لكنهم لم يتناموا قط بمثل هـــذه الكثـــافة كمـــا حـــدث في الأزمنة الأخيرة هذه :لقد كانوا ميالين لأن يظهـــروا واحـــدا واحـــدا و لكنهـــم الآن يتدفقون على شكل حشود و خلايا (كالجراد من حفرة لا قرار لها) ، و هــــم يأتـــــون الآن في زحـــــام علينا في أسراب ، مثـــل يسروع ابجيبت Agypt و الهرطقة التي كانت بشـــكل خـــاص في ذهن هذا الكاتب كانت هرطقة الصـــخابين،هؤلاء الناس الذين كانوا يعرفون أيضا «بنوي التحصـــيل العـــالي» و البـــرفسورات رفيعـــي المستوى » ، و قد أصبح عددهم كبيرا جدا في حوالي ســـنة ١٦٥٠ ، و كان بعضهم يمكن أن يوجد في الجيش ، فيسمع المرء عن ضـــباط يطردون او يجلدون علنا ، أو عن جندي جلد في مـــدينة لندن بســـبب « الصخب »«و كان هناك أيضا مجموعات من الصخابين مبعثرة في كل انحاء البـــلاد ، و فـــوق كل شيء لقـــد كثـــروا في لندن حيث كانوا يعدون بالالوف و غالبا مـــا كان « المزلزلون » الأوائل مثـــل جـــورج فوكس(ص ٢٨٩) و جيمس نايلر James nyler و اتباعهما على صلة بالصخابين•

وكان المراقبون من الخصوم مثل الأسقفيين والمشيخيين يقتربون احيانا من تشبيه المزلزلين بالصخابين ، لأن كليهمـــا على الســـواء كانا ينبذان المظاهر الخارجية للدين ، و كانا يريان الدين الحقيقـــي فقـــط في « الروح القـــاطنة في الداخـــل » في نفس الفـــــرد ، و كان المزلزلون انفسهم مع ذلك يعتبرون الصخابين أرواحا خاطئة يجـــب هدايتها ، و لجورج فوكس فقرة غريبـــة حـــول لقـــائه الأول مـــع الصخابين في السجن في كوفنتري في ١٦٤٩ ، إذ كتب :

« عندما دخلت السجن ، حيث كان السجناء . صدمتني قوة الظلام ، و جلست في سكون ، مستجمعا روحي في محبة الرب .

وأخيرا بدأ هؤلاء المساجين يصخبون ويتبجحون و يجدفون الأمر الذي جعل نفسي تتمزق بشدة ، لقد قالوا إنهم الرب ، و لكن لم نستطع تحمل مثل هذه الأشياء ..... ثم بروية أنهم يقولون إنهم الرب ، سألتهم إذا كانوا يعرفون إذا ما كانت ستمطر غدا ؟
فقالوا إنهم يستطيعون القول بذلك ، فقلت لهم إن الرب يمكنه أن يقرر ذلك ..... و بعد أن أنبتهم على تجديفهم و كفرهم ابتعدت عنهم لأني أدركت أنهم كانوا من الصخابين ».

لقد رأى فوكس العديد من الصخابين في ١٦٥٤ ــ ١٦٥٥ مع أن نفوذهم في ذلك الوقت كان يتناقص بسرعة ، وفي اجتماع مشترك : للمعمدانيين والمزلزلين والصخابين في سونسفتون في ليسترشير وجد أن الصخابين « كانوا أجلافا جدا ، وكانوا يثيرون البسطاء ضدنا ، وأرسلنا نستدعي الصخابين ، لنعرف ربهم ، وجاء جمع غفير منهم وكانوا عنيفين جدا ، وغنوا وصفروا ورقصوا ، ولكن قدرة الرب أخزتهم ، حتى أن عددا كبيرا منهم أصبحوا مؤمنين مقتنعين » وفي اجتماع مماثل في ريدنغ دحض فوكس مرة أخري مزاعم الصخابين ، وعندما كان في السجن في شيرنغ كروس زاره الصخابون ، الذين صدموه بطلب الشراب والتبغ ، وفي وصفه لهذه الحادثة يقول : كانت تقاليد عقيدة الروح الحرة تظهر في صورة شعارات . « وصاح أحدهم :الكل لنا » وقال آخر « الكل حسن » . وفي هذه المرة أيضا كان فوكس قادرا على إدخال القرف على هؤلاء الناس . وفي وقت متأخر يعود إلى ١٦٦٣ كانت مناسبة تفجع فيها لأن الصخابين كسبوا لطائفتهم إثنين من المزلزلين ، « هرب أحدهم تماما ، وتبرأ منه رفاقه » مع أن الثاني « عوفي وعاد إلى مذهبه ، وأصبح فيما بعد نافعا » . ومن المؤكد أن كثيرا من الصخابين قد أصبحوا من المزلزلين ، وكان بعض المعاصرين مقتنعين بأن الأصدقاء فقط ، هم الذين يحتمل أنهم استطاعوا السيطرة على مادعاه وينستانلي نفسه « قوة الصخب ... الوحش المفترس » . وفي ١٦٥٢ قال رجل يدعى جستيس هوثان لفوكس : « لو أن الرب لم يرفع هذا المبدأ القائل بالضوء والحياة ، الذي كان (فوكس)

يبشر به ، لتم اجتياح الأمة من قبل الصخب والصخابين ، ولعجزت كل عدالة في الأمة عن وقفها بكل قوانينها ، لأنهم (كما قال) كانوا (ص ٢٩٠) سيقولون كما قلنا ، ويفعلون كما أمرنا ويحتفظون مع ذلك بمبادئهم ، ولكن مبدأ الحقيقة هذا ـ كما قال ـ سيسقط مذهبهم ، سيجتث الجذر والأساس لذلك المصدر ... » وإنه لحق أنه مع تنامي حركة المزلزلين كانت حركة الصخابين تنكمش ، حتى أنه في نهاية الوصاية لم يعد لها اي اهمية وفي هذا الملحق جمعت المواد المتعلقة بالصخابين كما يلي :

١ ـ الصخابون كما وصفهم معاصروهم .

٢ ـ اقتباسات من كتابات الصخابين .

١ ـ الصخابون كما وصفهم معاصروهم

(١) اصبحت المذاهب المرتبطة بالروح الحرة معروفة في انكلترا بحلول ١٦٤٦ وهذا مبين في الطبعة الثانية (الموسعة) لتوماس ادواردز « غنغرينا ،أوبيان ممارسات خاطئة لطوائف هذا العصر من الهراطقة والمجدفين والمتحللين التي وقعت في انكلترا في السنوات الأربعة الأخيرة ١٦٤٦ » (ص ٢١) وما بعدها ، ومع أن ادواردز من المشيخيين وخصما مرا لكل المستقلين ، فليس هناك اساس للشك في دقة هذه الرواية :

« .... كان كل مخلوق في أول حالات الخليقة هو الرب ، وكل مخلوق رب ، وكل مخلوق من ذي حياة ، ونفس هو دفقة من الرب ، وسيعود إلى الرب مرة أخرى ، وسيبتلع فيه كالقطرة في المحيط .... إن كل إنسان يعمد بالروح القدس يعرف كل الأشياء ، كما يعرف الرب كل الأشياء ، وهذه نقطة هي سر عميق ومحيط عظيم ، حيث لايصل إلى غورها لامرساة ولامسبر ... وإنه إذا عرف المرء نفسه بالروح هو في حالة نعمة وإن اقترف القتل أو السكر ، فالرب لايرى فيه خطيئة .... إن كل الأرض هي للقديسين ، ويجب أن يكون هناك

مشاركة في السلع ويجب أن يكون للقديسين حصة في الأراضي وفي ضيع السادة والأغنياء .... إن الرب الأب قد حكم في ظل الشريعة ، والرب الابن في ظل الانجيل والآن يقيم الرب الأب والرب الابن المملكة للرب الروح القدس وستحكم وستنصب في اللحم .... وسيكون هناك خلاص عام ، حيث يذعن الناس جميعا للرب وينجون ، وفقط الذين يؤمنون الآن ، وكانوا قديسين قبل هذا الخلاص سيكونون في أعلى منزلة ثم أولئك الذين لايؤمنون .....

ويمكن ان اربط ايضا اخطاء أخرى رويت لي ولغيري من قبل اناس متفهمين امناء ، وانشقوا (ومن المحتمل انهم كانوا صادقين) مثل انه .... إذا تأثر إنسان بقوة بفعل الروح ليقتل ، أو ليرتكب الزنا الخ ، وعلى الرغم من الصلاة ضد ذلك مرات ومرات استمر على هذا وظل متمسكا متشبثا بقوة فليفعل ذلك .... » (ص ٢٩١)

(٢) دون ريتشارد باكستر وكان كاتبا جادا ومسؤولا من المتطهرين المقدسين ، ذكرياته عن الصخابين في سيرته الذاتية « اثار باكسترية ، ١٦٩٦ » وقال في (ص ٧٦ ـ ٧٧) : ... الصخابون ... جعلوا من مهمتهم .... أن يثيروا الطبيعة ، تحت اسم المسيح في الانسان ، وأن يهينوا وينتقصوا من قدر الكنيسة ، والكتاب المقدس ، والكهنوت القائم وكذلك عبادتنا وطقوسنا الدينية ولاسيما سر العشاء الرباني وقد دعوا الناس إلى الاصغاء إلى المسيح في داخلهم : ولكنهم برغم ذلك تبنوا مذهبا ملعونا في التحررية سمح لهم بكل فحش ومنقصة بغيضة في الحياة : وقد بشروا أن الرب لاينظر إلى الأعمال الظاهرة للانسان ، بل إلى القلب وهذا إذا كان طاهرا ، فكل الأشياء طاهرة (حتى الأشياء المحظورة) : وهكذا بناء على ما سمح به الرب تفوهوا بأبشع كلمات التجديف وارتكب كثير منهم الدعارة بصورة مشتركة ، إلى درجة أن المرأة من ذوات المقام الرفيع والأهمية لتقاها ورصانتها قد افسدوها ، وأخذت تتحول بلا حياء إلى عاهرة تتجول في عربة في شوارع لندن .

ولم تضم في العالم على الاطلاق طائفة أعلى تحذيرا لاساتذة الدين ليكونوا اذلة خائفين ويقظين : ولايمكن أن يكون العالم قد اخبر بصوت أعلى في أن الاعتداد الروحي للرهبان الذين بلا اساس ، ضعيف وأن أساتذة التزمت في الدين يمكن أن ينجرفوا في تيار الطوائف والأنماط السائدة : فلقد رأيت بنفسي رسائل مكتوبة من أبنغنون حيث تفشت العدوى بين الناس والجنود على السواء في حينه ، وكانت هذه الرسائل مليئة بأيمان مروعة ولعنات وتجديف لاتصلح أن يعيدها لسان أو قلم الانسان ، وهذه كلها تتداول كنتيجة للمعرفة ، وكجزء من ديانتهم في انفعال متعصب ، وتنسب إلى روح الرب ،

(٣) والرواية الفريدة في قوتها عن عقيدة الصخابين موجودة ضمن موعظة حول سفر الرؤيا : ١٢ / ٢ ــ ٣ . كورنثوس : ١١ / ١٤ والذي قام بالوعظ به عضو في الكنيسة الأسقفية البروتستنتية وهو ادوار هايد دكتور باللاهوت « عجب ولاعجب أيضا : تنين عظيم في السماء ١٦٥١ » (ص ٢٤ ــ ٣٥) وما بعدها :« وأخيرا إن التنين في السماء ، هو التنين بادعاء مسرة وشيكة ، وعالية بالرب في الروح وهو تعبير مجازي عن الكتابات المقدسة ، وعليه ينفي الرسالة من ذلك المصدر ... يقول بعضهم لاشيء غير نظيف بالنسبة لنا ، وليس هناك خطيئة ، ويمكننا أن نرتكب أي خطيئة ، لأننا نقدر انه لايوجد شيء غير نظيف ولكن بالنسبة للفاعلين هي خطيئة ... فنحن طاهرون كما يقولون ، وعليه فكل شيء طاهر بالنسبة لنا ، الزنا والفسق الخ ، إننا غير مدنسين .... بل مؤمنين وكذلك كل شيء طاهر بالنسبة لنا ، ولكن اولئك الذين لايؤمنون أن افكارهم وضمائرهم ملوثة .... إن الرب يفعل كل شيء .... فإذا كان الرب يفعل شيء فهو على هذا يعترف بالذنب ويفعل الشر ، ولاشيء هناك إلا ويفعله ، والشر يفعله .... وإذا كان الرب هو كل شيء ، فهو الخطيئة والشر ، وإذا كان كل شيء فهو ذلك الكلب ، وذلك الغليون ، وهو أنا وأنا هو كما سمعت بعضهم يقول ....

إنهم أرباب مؤكدون لامحدودون وأقوياء كالرب ذاته ، وأنهم في مجد وجلال وشرف وقوة بدرجة مساوية مثل الرب الحقيقي (ص ٢٩٢) أو المجد الأبدي يسكن فيهم ، وليس في أي مكان أخر ، ولاشيء مثل صلاح وقدسية الرب ، وأن الشر فيهم وأعمال عدم النظافة والأيمان الوثنية والسكر والقذارة والبهيمية المشابهة ليست غير مقدسة أو محظورة في الكلمة ، وأن هذه الأعمال فيهم وغيرها يقرها الرب ، وإن مثل هذه الأعمال والأشخاص الذين يرتكبونها كالرب : وأن أعمال إنكار الرب والتجديف والكفر بالرب أو قدسية وصلاح الرب وأعمال لعن الرب والقسم الوثني والكاذب باسمه وأعمال الكذب والسرقة وخداع الناس والاحتيال عليهم ، وأفعال القتل والزنا بالمحارم ، واللواط الدنس والسكر (كذا) والكلام البذيء الداعر ليست في ذاتها أشياء شريرة مخزية آثمة عاقة رديئة بغيضة في أي شخص : وأن أفعال الزنا والسكر والحنث باليمين وأشباهها من الشرور الظاهرة ، هي في طبيعتها الخاصة بالقدسية نفسها والصلاح مثل واجبات الصلاة وصلاة الشكر ، وأن كل مايفعلونه سواء كان بغاء أو زنا أو سكر أو ماشابه يرتكب دون إثم ، وأن مثل هذه الأفعال يقوم بها الرب الحق ، أو جلال الرب ، أو الخلود الذي فيهم : وأن الجنة وكل السعادة تشمل في فعل هذه الأشياء التي هي شر وإثم وأن هذا هو إثم كمال ، وأشبه بالرب والخلود ، الذي يفعل اكبر الكبائر دون أقل ندم أوخجل ، وأنه لاوجود حقا وصدقا لشيء مثل صلاح واثم ولكنه حسبما يحكم الرجل والمرأة في ذلك ، وأنه لاجنة ولاجحيم ولاخلاص ولالعنة وهذه كلها واحدة والشيء نفسه وانه لاتمييز بينها أو بين النور والظلمة ، وأن العقل هو الرب ، وأننا لن نحصل على السلام والهدوء في أرواحنا حتى نملك حرية الدعارة والسباب وما شابه : وإن الانسان يؤله ، وأن الروح بعد موت الانسان تذهب إلى كلب أو قط ، وأن الرب يؤمن بالرب ، وأن كل النساء في الدنيا ماهي إلا امرأة وزوج متحدين (كذا) حتى أن رجلا واحدا قد يكون مع كل النساء في الدنيا لأنه زوجهن في وحدة الخ (كذا) .

(٤) إن كثيرا من رسائل الجدل كانت موقفة فقط على الصخابين وواحدة منها وهي من نتاج رجل يدعو نفسه « شاهد عيان » يعطي بنبرته وتنظيمه الدقيق انطباعا جديرا بالثقة التامة بعنوان : « دخان جون هولاند ، من الحفرة التي لاقرار لها أو كشف أكثر صحة واكتمالا لمذهب أولئك الناس الذين يسمون أنفسهم الصخابين ، أو الطاقم المجنون ١٦٥١ » (ص ٦) :

كلمة إلى القارىء المسيحي

« .... لتذشر في العالم ، ماهو أكثر وأسوأ من التجديف الالحادي لهؤلاء الناس ، وليس هذا بهدف (الله يعلم) جعل هؤلاء الأشخاص بغيضين لكل الناس أو على الأقل إشارة الناس لاضطهادهم بصراحة لأجل أحكامهم ، لأني عندما أفكر فيما يقوله الكتاب المقدس ، أجد أنها (ص ٢٩٣) ليست طريقة الرب في التعامل مع الخصوم الروحيين بأسلحة جسدية ... »

.... فيما يتعلق بالرب

« إنهم يتمسكون بأن الرب بشكل أساسي هو كل مخلوق ، وأن هناك من الرب العديد في كل مخلوق ، بقدر ما في الآخر ، مع أنه لايظهر نفسه في واحد كما في الآخر : لقد رأيت هذا التعبير في أحد كتبهم ، أن جوهر الرب كان في ورقة اللبلاب بالقدر نفسه الذي يكون فيه أكثر الملائكة عظمة ، وسمعت آخر يقول ، إن جوهر الرب كان في هذا اللوح بالقدر نفسه الذي هو به في السماء ، ثم يضع يده على لوح من خشب الصنوبر ، وإن الجميع يقولون أن لاإله آخر إلا الذي فيهم ، وأيضا في كل الخليقة ، وإن الناس يجب أن لايصلوا وأن لايلتمسوا ربا آخر سوى الذي فيهم . والألقاب التي ينعتون بها الرب هي : أنهم يدعونه الكائن ، الكمال ، الحركة الكبرى ، العقل ، الضخامة ، وسمعت رجلا يقسم بأنه إذا كان هناك أي رب على الاطلاق فإنه هو وحده ، فقلت له : إن الرب كان يعرف كل شيء

ويفعل كل مايريد وانت لاتستطيع ، وعليه فانت لست ربا . ولكن ملحدا : اخر اجاب إنه ليس الرب ، لكنه رب ، لأن الرب فيه وفي كل مخلوق في الدنيا .... »

.... فيما يتعلق بالروح

« إنهم جميعا يؤكدون انه ليس هناك سوى روح واحدة في العالم ، وأن تلك الأسماء ، من روح طيبة ، وروح شريرة ، مجرد خيال وأداة رعب لتخويف الناس وكذلك علموا ، وانهم فقط تحت تعليم هذه الروح ، وأن كل تعاليم اخرى سواء بالكتاب المقدس أو خلافه لافائدة فيها لهم .

وقال احدهم على مسمع مني إنه لاحاجة له في قراءة الكتاب المقدس او سماع المواعظ ، لأن الآب والابن والروح كلها كانت فيه ، وهذا كما قال يمكنه اثباته ، ولكن افضل حججه لم يكن لها سلطان في رايي .. »

.... فيما يتعلق بالزواج

« إنهم يقولون أن تقيد الرجل بامراة واحدة ، أو امراة واحدة برجل واحد ، هو ثمرة اللعنة ، ولكنهم يقولون إننا قد تحررنا من اللعنة ، وعليه فإنها حريتنا أن نستفيد من كل مانريد ... وهذا الراي يستدلون عليه من هذه الكلمات من الرب إلى حواء إن رغبتك ستكون لزوجك »

...فيما يتعلق بوصايا الرب

« انهم يقولون ان كل وصايا الرب في كلا العهدين القديم والجديد هي من ثمار اللعنة ، وان كل الناس وقد تحرروا من اللعنة ، قد اصبحوا ايضا احرارا من الوصايا ، ويقول اخرون ان كل الوصايا

هي ان تجعل الناس يعيشون في الرب والرب فيهم ، ويقولون اننا نعيش في الرب والرب يعيش فينا . وعليه فنحن فوق كل الوصايا ايا كانت،واكثر من ذلك يقولون ان ارادة الرب هي ارادتنا وارادتنا هي ارادة الرب وهم يقولون ان ارادة الرب هي شريعته ، لانه احيانا يأمر الناس بالقتل والسرقة والكذب ، وفي اوقات اخرى يوصي بالعكس ويستنتجون من ذلك اننا نحن الذين نعيش في الرب والرب يعيش فينا فلماذا لانفعل الشيء نفسه ؟ واذا كان اثما ان نقتل ، او نسرق ، او نكذب ، فان الرب هو الفاعل ، لانهم يقولون ، انها ارادته ان نفعل تلك الاشياء ، وبقدرته يتم فعلها ...».

...فيما يتعلق بالسماء والارض

« انهم يعلمون انه لاجنة ولاجحيم سوى مافي الانسان ، وان اولئك الناس الذين يرون ان الرب في كل شيء ، وان ارادته تنفذ من قبل كل الناس ، مع انهم لايفعلون ذلك بأذى ، ولايخشون اي غضب من الرب ، فانه يمكنهم تماما دون قمع من ضمير ارتكاب كل اثم كما ندعوه ويرون في انفسهم انهم فوق اي قانون وكل الوصايا (كذا) . وان اولئك الناس في الجنة ، والجنة فيهم ، ولكن اولئك الناس الذين لايمكنهم ان يروا ، وان يؤمنوا بهذه الاشياء هم في الجحيم ، والجحيم فيهم ، ولقد رأيت رسالة كتبها احدهم الى صديق له ، ولكنها لم تصل الى يده ابدا ، وفي اسفل الرسالة كتب هكذا،من الجنة والجحيم او من ديتفرت ، في اول سنة لترويض نفسي بنفسي . »

حاشية

« ايها القارىء اني لم اتبع تلك الطريقة النظامية التي كان يجب ان اتبعها ، غير اني كتبت حكم هؤلاء الناس بطريقة مشوشه ، ولكني اعترف ، في حضرة الرب المطلع على كل القلوب ، اني لم افعل خطأ

في امر حكمهم ، الا في الامساك عن إعادة سبابهم الدموى ولعناتهم ومن اجل هذه الاساءة آمل من اولئك الذين يخافون الرب حقا ان يسامحوني ووداعا ».

(٥)يبدو ان موضوعية الصخابين احيانا قد بلغت حد التهور غير العادي . ولصموئيل فيشر ، وهو معمداني وتحول فيما بعد الى المزلزلين بعض التعليقات الرائعة حول سرعة تفجرهم وتقلبهم ، « في تعميد الاطفال طفولة مجردة ، او عدم الاجابة على احد في خمس كلمات ، لكل من يجد نفسه مهتما بها ، ١٦٥٣ »(ص ٥١٦) « لقد تخليت عن قراءة (الكتاب المقدس) ومنعت الاخرين ايضا عن قراءته على انه غير مفيد كغيره في حينه من الكتابات التي من اختراع الانسان والتي تبقي العالم في خوف حتى يمكنهم ان يستمتعوا بتلك الحرية (اسم مستعار للترخيص بالفسق والرغبات الجسدية ، التي سمحت بها وذشسدتها) وهذا جعلك مثل ديك الطقس ، ومثل بئر بلا ماء ، ومثل نجم هائم ، وكسحابة تتأرجح جيئة وذهابا مع العاصفة ، لانه لم يكن لديك قاعدة ثابتة لتتوجه بها ، والى من تتكلم او تنتبه وتبالي ، ولتنكرك وتثبتك في اي نقطة واحدة ، سوى الخيالات المتنوعة التي تصفر ، والتلفيقات الحمقاء للعقل الهوائي الذاتي والروح القلقة غير المستقرة ».

(٦)وقد اظهر البرلمان قلقه الكبير من انتشار مذهب الروح الحرة ، وهناك دلالات على هذا القلق في وقت مبكر يرجع الى ١٦٤٨،واخيرافي ١٤ حزيران ١٦٥٠ عين المجلس لجنة للتفكير في طريقة لقمع الممارسات الفاسقة الداعرة (ص ٢٩٥)العامة التي يقوم بها اشخاص تحت دعوة الحرية او الدين او خلافهما ، و بعد ذلك باسبوع وضعت اللجنة تقريرا عن الممارسات البغيضة العديدة لطائفة تدعي الصخابين ، واعطيت تعليمات لاعداد مشروع قانون لقمع ومعاقبة هذه الاراء البغيضة والممارسات » وفي ٢٤ حزيران و ٥ تموز و ١٢ تموز و ١٩ تموز ناقش المجلس مشروع القانون المعد وأقره في ٩ اب ، وفي تشرين

الثاني التالي تم احياء لجنة لدراسة معلومات جديدة حول الصخابين في ايلي ودور ستشير .

وتنص المواد المتعلقة من قانون ٩ اب ١٦٥٠ ، حول « عقـوبة الاراء التجديفية والالحادية والمروعة » مجموعة ها.سكوبل القوانين والاوامر ..... ١٦٥٨ ، الجـزء الثـاني ص ١٢٤ ــ ١٢٦ ، على مايلي :

« .... وقد وجدوا لدهشتهم واسفهم ، ان هناك رجـالا ونسـاء مختلفين اكتشفوا في انفسهم مؤخرا انهم ذوي افكار فظيعة ، وهـم متحللون في كل الممارسات الشريرة والبغيضـة ، والآتـي ذكرهـا ، ليس فقط بالنسبة للفساد السيء السمعة والفوضى ، حتى التي ترمي الى تحلل كل المجتمع البشري ، الذين يذكرون حاجته للصلاح المدني والاخلاقي بين الناس ، والبرلمان ، يرسم قانون ويسـن ... ان كل الاشخاص ، وكل شخص (غير معتل بمـرض ، او مختـل عقليا) يتجرأ علنا على التصريح بالقول او بالكتابة المبـاشرة تـأكيدا ، او البرهنة ، على انه او انها او اي مجرد مخلوق اخر انه رب ، او انه غير محدود القدرة ، او صاحب رفعة وفخامة وجلال وسلطة ، تجعله مساويا ومشابها للرب الحقيقـي ، او ان الرب الحقيقـي والجـلال الخالد يسكن في المخلوق ، او في اي مـكان اخـر ، او كل مـن يذكر قدسية وصلاح الرب او يستغل ماسلف ذكره للتصريح بـان الشر في الاشخاص او الافعـال غير النظيفـة والايمـان الوثنية والسـكر وماشابه من قذارة وبهيمية ليسـت غير مقـدسة ومحـرمة في كلمـة الرب ، او ان هذه الافعال من قبل اي شخص او الاشـخاص الذين يرتكبونها مقبولة مـن الرب ، او ان هـذه الافعـال او مثـل هؤلاء الاشخاص بهذه الاشـياء يشـبهون الرب ، : او كمـا سـلف ذكره يصرح ، بان هذه الافعال التي تنطوي على الكفر بالله والالحـاد او التشكيك او بصلاحه وقدسيته ، او اعمـال لعـن ومسـبة الرب او القسم الالحادي او الكاذب باسم الرب، أو افعال الكذب ، والسرقة او الخداع او الاحتيال على الاخرين او القتل او الزنا ، او زنا المحارم

والفسق وعدم الطهر واللواط ، والسكر ، والكلام البـذيء الداعر ، هي امور ليست مخجلة في ذاتها ، او شريرة وآثمة وعاقة وبغيضـة ومنفرة في اي شخص ، او تمارس من قبل اي شخص او اشـخاص او يصرح كما ذكر انفا ان افعال الزنا والسكر والسباب وامثال تلك الشرور الصريحة ، هي في طبيعتها الخاصة بنفس قدسية وصـلاح واجبات الصلاة والوعظ وصلاة الشكر لله : او كل مـن يصرح علنا بما ذكر ، وبأن كل مايفعلونه (ص ٢٩٦)منه (سواء كان عهرا او زنا او سكرا او ماشابه من تلك الشرور الصريحة) يمكن ان يرتكب بلا خطيئة ، او ان مثل هذه الافعال تتم من قبل الرب الحقيقي او من قبل جلاله الخالد المستقر في نفوسهم ، وبان الجنة والسـعادة كلهـا تتضمن فعل هذه الاشياء التي هي خـطأ وشر ، او ان مثـل هؤلاء الرجال والنساء ، هم الاكثر كمالا وصـلاحا او هـم اشـباه للرب والخلود لهذا يقترفون الاثام الكبـائر بـادنى مـايمكن مـن الندم والاحساس ، او بـأنه لاوجـود حقـا وصـدقا للشر ، والدنس او الخطيئة ، بل هي كما يقدرها الانسـان او بـأنه لاوجـود للجنة او الجحيم ولالخلاص ولاللعنة ، او ان تلك شيء واحد والشيء نفسـه ، او انه لاتمييز حقا بينهـا : وكل شـخص او اشـخاص يصرح علنا بالاحتفاظ او بنشر ماسلف ذكره من الاراء الالحـادية والتجـديفية المقيتة او ايا منها ، في حـالة الادعاء والثبـوت لمثـل تلك الحـالات السالف ذكرها ... او الاعتراف بهـا مـن قبـل الاشـخاص المذكورين ... فان الطرف الذي سيدان او لا يعتـرف بهـا سـيحكم بالسجن او بالايداع في الاصلاحية ، لمدة ستة شهور ...»

وحدد القانون ايضا العقوبة على الاساءة للمرة الثانية بـالنفي ، وعقوبة رفض النفي ، او العودة من المنفى دون ترخيص خاص مـن البرلمان بالموت .

(٧)وفي مواجهة الاضطهاد يبدو عددا كبيرا من الصخابين قـد تبنوا لغة سرية وانهم تابعوا الدعوة في سرية وحـذر مثـل البيغـرد المهرطقين والبيغونيين الذين تقدموهم بالضبط ، وبعد الاستماع الى

موعظة الارتداد التي وعظ بها الصخاب ابيزركوب في بيرفورد في ايلول ١٦٥١ علق جون تيكل قسيس ابنغدون على تلك التكتيكات ، في كتاب الحفرة التي لاقرار لها والتي تفوح بالقذارات ... مع بعض الملاحظات المختصرة على موعظة الردة التي القاها ابيزركوب ..... ١٥٦١ ص ٣٧ ـ ٤٠.

« لقد اعتادوا على ان يقولوا شيئا ويقصدوا شيئا اخر فهم يقولون ولايقولون في نفس واحد .... قبل القانون الحديث ضد الصخابين ، كانوا يتكلمون بجراة وهم لايجراون الآن ٠٠٠٠ ومنذ ادعاء تحول العديد منهم الى طريق الحق اصبحت لديهم بشكل عام طرقا ملتوية لتغطية افكارهم الفاسدة بكلمات حصيفة ، وبشكل خاص تلك التعابير الواردة في الكتاب المقدس والتي تحمل معنى عاما وعلى سبيل المثال انهم سيقولون لك ان المسيح قد صلب في القدس ٠٠٠٠ ولكن باي معنى ؟ فاسد بغيض ، كنمط وصورة موت المسيح الحقيقي فيهم (كما يدعون) ... ويبدو لي ، مما علمته عنهم ، انهم يقحمون انفسهم على كل تصريح وبطرق والتواءات ، حتى يبقوا معروفين الا لخاصتهم ، ولن تعرف اين تجدهم ، حتى تمسك بهم ، ولكن خاصتهم سيعرفون معانيهم وكذلك انت اذا حصلت على مفتاحهم ..... وستجده باي ملاحظة لاتخطىء انهم في البداية سوف (ص ٢٩٧)يلمعون الى اهتمام باحوالك وعواطفك وميولك ،ثم يفسدون احكامك انهم يبتسمون لك ، ثم يذبحونك : باستعمال كلمات رقيقة ناعمة كالزيت ، حلوة كالعسل ولكنها مفعمة بالسم ... »

(٨) تعطي عدة روايات عن الصخابين انطباعا بهجمات صحفية من النوع الاكثر خيالا وسفها ، من ذلك مثلا : « صخابي الدين » او « الحكاية المعصومة المخلصة ، حول ارائهم الملعونة الشيطانية ، مع حياتهم وافعالهم البغيضة مع المكتشفات الحقيقية لبعض زخرفتهم الاستثنائية الاخيرة او تصرفاتهم التي لاتبارى منشورة من قبل مختص معتمد (ايلول) ١٦٥٠ (٨ صفحات)»

وفي رسالة ج . رولستون « انجيل الصخابين » او « سبع ديانات متنوعة اعتنقوها وحافظوا عليها »(كانون اول) ١٦٥٠ (٦ صفحات)

« واللغة المنمقة للصخابين (تشرين اول) ١٦٥٠ » و(في وقت متأخر في ١٧٠٦) في كتيب س جيلدون « ساعي البريد الذي سلب بريده » (طبعة ثانية) رسالة ٦٦ (ص ٤٢٦ ـ ٤٢٩) » والروايات المتواترة حول الطقوس العربيدة » ولم تتأكد الاصول الاداماتية المشتركة ، على سبيل المثال بأي طريقة ولاحتى بالاعترافات الصريحة جداً من الصخابين ، ومن كل هذه المواد ان الموضوع الوحيد الذي ربما يستحق الحفظ هو وصف امرأة من الصخابين في كتاب « اللغة المنمقة للصخابين » وذلك لحيويته وإثارته للصور الذهنية اكثر منه لقابليته للاعتماد عليه :

... انها تتكلم باطراء او تمجيد عن اولئك الازواج الذين يعطون الحرية لزوجاتهم ، ويوافقون طوعا على ان تعاشر الزوجة اي فرد اخر من المخلوقات من اقرانها ، الذين تختارهم ، انها تطري الاورغ ، والكمان ،والسمبال و التونغ في تشارتر هاوس ـ لين على أنها موسيقى سماوية ، إنها تعب كؤوسها بحرية ، وتنتهي الى انه لاجنة سوى المتع التي نستمتع بها على الارض ، إنها مألوفة جدا مذ النظرة الاولى وترقص الكناريز على صوت المزمار القرني »

وقد تم وصف الاعياد الدينية للصخابين على اي حال من قبل احد النقاد من الخصوم بالتفصيل وبكثير من الموثوقية :

« الترتيبات والاستدعاء مع المحاكمة بناء على تصريحات الصخابين ...»

نشر وفق امر صدر في ١٦٥٠ (٦ صفحات) ،اخبار غريبة عن اولدبايلي او البراهين ، والاستجوابات ، والوثائق والاتهامات والادانات للصخابين في جلسات اصدار الحكم المعقودة في أولد

بـــايلي ، في ١٨ و ١٩ و ٢٠ مـــن شـــهر كانون الثـــاني الجاري ..... ١٦٥١ (٦ صفحات).

• تبجح الصـــخابين مـــع الاعتقـــال والاســـتجواب والاعتراف .... ١٦٥٠ (٦ صفحات) وكلها تعالج أمـر مجمـوعة مـــن ثمـــانية مـــن الصـــخابين اعتقلوا في لندن في ١ تشرين الثاني ١٦٥٠ ، وكان من الاســـماء التـــي عرفـــت : جـــون كولنز ,و ت . شكسبير(متخصص بتربية أرانب الصيد) وتوماس ريف ، وتـوماس ويبـرتون و م . وادلورث (صـانع قفـازات) ، والتقى الصـخابون في حـانة داوود وهـارب في مـــورلين في دائرة (ابرشية) جيلز كريبلفيت وكان مضيف الحانة من مبدلتون وكانت زوجته (ص ٢٩٨) التي كان ، مشتبه بها منذ وقت طويل بانها من طاقم الصخابين تكرم وفادة جماعة الضيوف (يفترض أنهـا كانت السيدة ماري مدلتون التي أشـار إليهـا كلاركسـون في اعتـــرافه كعشيقة له) ، وكانت هناك نساء اخريات . وغنى الصخابون اغان تجديفية على لحن المزامير ، وأبلغ الجيران الشرطة ، التي ارسـلت عميلا محرضا ليندس بينهم ، وقد راقب هذا الرجـل بـدقة سـلوك الصخابين ، ووجد انهـــم يخـــاطبون بعضـــهم بعضـــا ، بالمخلوق ـ الرفيق وهي صورة من توجيه الخطاب كانت بـلا شـك طبيعية بين الصخابين ، لاسـيما بين الرجـال والنسـاء ، وكانوا يسـبون كثيرا ، ورغم انه لم يكن هناك بـالتاكيد عربـــدة داعرة مختلطة ، فان احد الرجال استعرض نفسه بطريقة غير محتشـمة ، وجلس الصخابون بعد نلك لياكلوا معا ، ومن الواضـح أن الوجبـة بالنسبة لهم كانت تملك دلالة قربان وحدة الوجود ، واخذ واحد منهم (قطعة من لحم العجل) من يده ومزقها نتفا وهو يقول للاخر ، هذا هو لحم المسيح خذ وكل ، وعندما القي القبض عليهم اخـذ احـدهم شمعة واخذ يطارد حول الغرفة قائلا إنه كان يبحث عن آثامه لكنه لم يجد ايا منها ، والذي اعتقد أنه عظيم جـدا ، كان لديهـم صـغيرا جدا ، حتى أنهم لم يروه » وهذه هي لغـة التناقض الصـوفي وكون أولئك الناس ربطوا حقا بعض القيمة الصوفية الظاهرية بافعالهم قد

بدا في شـــعارهم أو كلمتهـــم الرمـــزية رام مـــــي دام مي وعندما سئلوا قالوا : ان كلمـة رام تعني الرب ، ولكن المدلول الكامل للتعبير يصبح واضحا فقط عندما يضعه المرء الى جـــانب عبـــارات معينة في كتـــابات الصـــخابين : (كنت.....أستنفد ، والعن ، واصـدم واغرق في لاشيء ، في احشـاء الابدية الساكنة في(رحـم امـي) (كوب) ، ومـرة أخرى : إنها الان تصدم وتلعن في مـركزها الوحيد ، لتسـكن هناك خالدة في صدر الاب الاوحد :

وهذه ، وهذه فقط هي اللعنة التي ترعب المخلوق بالخوف الاسود منها ... (كلاركسون).

ومثل سبعة من الصخابين في صباح اليوم التـالي امـام السـير جون وولستون الذي ارسـلهم الى بـريدويل لضرب القنب ، ومثـل كولنز وريف ايضا في كانون الثاني التالي في اولدبايلي للاجـابة على التهم الموجهـة اليهمـا في ضـوء قـانون ٩ آب ١٦٥٠ ، المتعلق بحظر « الاراء الالحادية والتجديفية البغيضـة » وقد حكم عليهمـا بالسجن لمدة ستة اشهر .(٩) واعطى همفري إليس في المسـيحية الزائفة او العلاقة الصحيحة للدجالين الكبار ، والممـارسات المروعة والبغيضـة ، والخدع الكبرى التي انتشرت مؤخرا في الخارج واثرت في مقاطعة ساوث امبتون .... ١٦٥٠ (٦٢ صفحة) رواية مفصلة حول قضية وليم فرانكلن وماري غادبـرى اللذين يبـدو انهمـا كانا خليفتين حقيقيتين لجماعة المسحاء وامهـات الرب ، ممـن تـرأس تكتلات الروح الحرة في القرون الوسطى .

وإليس الذي كان قسـيسا في وينشسـتر (ص. ٢٩٩) مصـدر يمكن الاعتماد عليه تماما ، إنه كان يعرف كما قـال :«كل الاشـياء التي جرت بيننا ، والتي ماتزال ذاكرتها بعد طول الامد حية نشطة في ذاكرة أغلب الاشخاص الذين في الجـوار » وقـد راقـب كثيرا مـن

الامور عن كثب ، وتوفر له الوصول إلى الاعترافات التي ادلى بهـا اعضاء الطوائف عندما استجوبوا في المحكمة .

وعاش وليم فرانكلن وهو مواطن من اندوفر سنوات عدة في لندن كصانع احبال ، وكان رجـلا محتـرما ومتـزوجا كمـا كان ابرشانيا ،« وموضع تقدير من قبل الاتقياء كقديس بارز ، واستاذ في الورع » ، ولكن المحن نزلت به واصابته ، فقد اصيبت عائلتـه بالطاعون ، وابتلي هـو نفسـه بـالمرض ، ولفتـرة ١٦٤٦ ببعض الاضطراب العقلي ، وبتـاثير هـذا المرض أرعب رفـاقه مـن الابرشانيين باعلانه نفسه ربا ومسيحا ، وبعد وقت قصـير شـفي واعلن توبته ، وبعد ذلك لم تعط صلاته اليومية أي انطباع جنوني ، وقد ابدى « يقظة حذرة في طريقة تعبيره عن نفسه » وبدا بـالنسبة لأليس مسؤولا تماما عن افعاله ، ومن جانب اخر مـالبث أن هجـر بعد وقت قصير رفاقه المتدينين ، وبادعائه بالوحي ونعمـة النبـوة ، بدأ يجتمع بالصخابين ويتعـايش معهـم ، ونبـذ فـرانكلين ، الذي اصبح الان في نحو الاربعين من عمره ، زوجته وبـدأ يعاشر نسـاء اخريات ، وبشكل رئيسي كان من بينهن مريم غادري ، وهي امراة في الثلاثين وكان قد مضى عليها وقت طويل منذ هجرها زوجها ، وكانت تكسب معيشتها في لندن ببيع « الحلي الصـغيرة والسـلع التـافهة للسادة » وحالما التقت بفرانكلن بدأت مـريم غادري تـرى احـلاما وتسمع اصواتا ، وكان فحوى وحيها الصـوفي أنه « لن يكون هناك ملك ، الا ملك الملوك ، ولورد اللوردات .... وسـيحكم القـديسون الارض ، وستعترف الدنيا وتقول تلك هي مدينة الرب ..... سارسل ابني في شخص رجل ، ليحكم الامم ، وسيرونه وجهـا لوجـه وعينا لعين ، وأمنت المرأة المجنوبة بسهولة بفرانكلن وبـانه كان المسيح الموعود ،و بدأت في نشر الأنباء السعيدة بين جيرانهـا ، و بتـأثير فرانكلن شعرت بأنها يجب أن تتبع المسيح في طريق الفقر الطوعي ، و بالتالي باعت كل شيء كانت تملكه ، و قدمت المال لاطعام الجوعى و كساء العريانين و تبعت فرانكلن « محتضنه اياه .... كسيد لهـا ومسيح »

وباقتناعها بان الرب قد دمر الجسد السالف ، لفرانكلن ، وبذلك قطعت الروابط السالفة التي كانت تربطه بزوجته واطفـاله ، بـدأت مريم غادري تنام معه كل ليلة ، مع أنها اصرت على انها« صـاحبته» فقط بمثابة « رجل روحاني » وعندما سألها قسـيس إذا مـا كانت غير خجلة من معاشرتها لفرانكلن اجابت بان آدم وحـواء كانا عراة في براءة ، ولم يخجلا ولكن الخطيئة هي التـي جلبـت الخجـل الى الدنيا : ولكنه عندما انتقل الى المسيح (ص ٣٠٠) رفـع ! وفي كل هذا ان ديانة ادم التي اتسمت بها هرطقة القرون الوسـطى يمـكن تمييزها ، ولايدهش المرء أن المراة ايضـا بـدأت تـدعو نفسـها « عروس الحمل » ، و« المراة التي تكتسي بالشمس » وحتـى انهـا اصبحت تدعى انها هي نفسها « معادلة للرب » .

وفي ١٦٤٩ تلقى الزوج مهمة الهية هي ان يتوجها الى هامبشير وهذه علامة مقنعة على اخلاصهما إذ ان هذا هو الجزء الوحيد مـن البلاد الذي كان فرانكلن معروفا فيه ، وكان متاكدا أنه معتـرف بـه فيه . وفي القرن السابع عشر لم يعد الفقر الطوعي ممـكن التـطبيق كطريقة ثابتة للحياة ، وكان على فرانكلن أن يتـردد كثيرا على لندن لكسب المال ، وخلال غيابه كانت مريم غادري تتابع الدعوة بصـورة متواصلة نيابة عنه وكان مرجعها الوحيد وحيها الخاص ، ولكن ذلك كان يفسر في عبارات كتابية ، وكان نجـاحها هـائلا : « وكان عدد كبير في كل من المدينة والريف بعضهم مهتز ، وبعضهم مخدوع تماما بتلك الخدع » وكان لفرانكلن نفسه ايضا تلك البلاغة الغريبة ، التي كانت مميزة لمبتدعي الروح الحرة ، ولكونها مقبولة جدا في خـطبه ، كان هذا يجعلها تتسلل بسهولة الى عقول البسطاء ، وكثيرا ما كان يقتبس عبارات من الكتاب المقدس في خطبه وكثيرا ما كان يسـتعمل لغتـه في الكلام ، ولكنه كان يسيء اسـتعمالها ويسـتعملها في غير وجهها ، ويلويها عن المعنى الحقيقي لذلك المصـدر بـطريقة غريبـة وبتخيلات مجازية ، وقام اليس بالتعليق نفسه حول انشـطة زوجـه كما فعل اكليروس انتويرب بالنسبة لحركة تانشيلم قبل ذلك بخمسة

قرون : في تلك الاشياء كان الشيطان يحول نفسه الى ملاك من النور .

ويقول إليس إن التوقعات الالفية كانت منتشرة في تلك اللحظة وسرعان ما وجد الرب والربة الحيين المؤمنين إحدى المهتديات المتحمسات زوجةقسيس وود ورد .وقبل مضي وقت طويل كان الزوج يعيش في بيت القس ، وبعد ذلك بوقت قصير تم كسب القسيس نفسه ، وقال اليس : والآن هل هذه العدوى السامة قد بدأت فجأة في الانتشار ، حيث اصابت العديد ، وايضا اولئك الاشخاص النشيطين جدا ليكونوا وعاظا ومحدثين وناشرين لها خارج البلاد وبين الناس ..... وحثوا الاخرين على استضافتها والاحتفاء بها ايضا، والايمان أن .... فرانكلن هذا هو ابن الرب ، المسيح ، والمخلص » ، وقد خصص للحواريين ادوار خاصة فكان احدهم يوحنا المعمدان« المبعوث ليبشر بان المسيح قد جاء الى الارض » وكان اخر ملكا مدمرا « ارسل ليلحق اللعنة بالارض » ، وكان اخر ايضا ملاكا شافيا مكلفا بشفاءاولئك الذين لعنهم رفيقه ، وتظهر من تحت تلك الجمل النابية بشكل جلي ديانة الروح الحرة (ص ٣٠١) فيجد المرء مثلا مريم غادري تطلب كتانا ابيض من مضيفتها السيدة وود ورد ، قائلة ان الرب قد امرها أن تصنع لنفسها ثوبا ابيض ، لانه « قد جعلها طاهرة » ويجد المرء جنديا يرقب تلك الكائنات الخارقة للطبيعة وهي تقوم بالمعجزات ، ومازالت تصرح بوحدة الوجود ، ويجد المرء « الملاك المدمر » نفسه ينكر كل خصومة بين الرب والشيطان مؤكدا أن « كل الاشياء جاءت بالطبيعة » ويدعي بانه هو نفسه «رب النور والرب نفسه».

وقبض على فرانكلن واتباعه الرئيسيين وحوكموا في وينشستر في كانون الثاني ١٦٥٠ وفي البداية تحملوا بثقة ولم يذكروا شيئا .

وبسؤالهم عن اسمائهم وسكنهم اصروا على أنهم بدون مساكن « طبقا للحم » طالما أنهم روحانيون تماما ، وكانت أعمارهم كما ذكروا من تاريخ لقائهم الاول بفرانكلن ، « كما لو انهم لم يولدوا الا

في حينه » وتمسك فرانكلن واقره حواريوه بانه كان المسيح فعلا ، واثناء المتابعة في بريدويل انهارت شجاعة فرانكلن ، واعلن ارتداده فتخلى عنه حواريوه فورا في غضب ، وفي اذار مثل المسجونون امام الهيئة القضائية للدائرة الغربية ، وحكم على جميع الرجال بالسجن حتى يقدموا الضمانات لسلوكهم الحسن ، واطلق سراح الجميع على الفور بالكفالة باستثناء فرانكلن نفسه ، الذي عجز عن تقديم مثل هذا الضمان ، وارسلت مريم الى بردويل الى حيث تم جلدها لبضعة اسابيع

(١٠) استمرت المواقف الفوضوية الشيوعية التي كثيرا ما كانت بصورة او باخرى مرتبطة بسالروح الحرة بين الصخابين ، وذكر رتشارد هيكوك على لسان الصخابين في « شهادة ضد الناس الذين يدعون بالصخابين ودفاعهم ١٦٥٩ (٨ صفحات)

قوله : القي بنصيبك بيننا ، » وليكن لنا كيس نقود واحد إضافة الى ذلك يبدو انه في كانون أول ١٦٥٠ عندما اخذ كثيرمن الصخابين في هجر الحركة عقد « برلمان للصخابين » في لندن ، قرب ساوث امبتون هاوس وخرج منه ثمانية من المنشقين (الذين اعطيت اسماؤهم) و في بيان الصخابين ... الذي نشره م . ستوبز وهو من الرفاق الصخابين المتاخرين ، في ١٦٥٠ (٦ صفحات) تقرير عن سير المحاكمات يلقي ضوءا على التركيب الاجتماعي والمذهب الاجتماعي للحركة :

.....إن كثيرا من التساؤلات قد اقترحت ، نيابة عن الفقراء من قبل جماعتهم ، برغبة في معرفة كيف يمكن المحافظة عليهم على الرغم من سقوط مئات عديدة من العظماء ، وكان الجواب على ذلك انه يمكنهم استدانة المال ، وعدم رده مطلقا ، وانهم يجب أن لايستفيدوا فقط من زوجة رجل بل من ممتلكاته وبضائعه ومواشيه ايضا ، لان كل شيء مشترك ، ولكن واسفاه إن هذا العطاء لاتثبت فاعليته ، لان عددا كبيرا من الناس من النوعية الافقر يعتقدون أن

هذه الحيلة غير معقولة باي طريقة ، لانهـا تـؤدي الى صراع عنيف وهم يلعنون كل اولئك الذين يناقشونهم هكذا ، ويمقتونهم تمـاما ، حتى انه من ٣٠٠ كانوا موجودين هناك لم يعد منهم اكثر من ١٥٠ بسيماء شيطانية ، (ص ٣٠٢) والبقية ، وقد حدث فيهم تبـدل عظيم برحمة الرب الاليهة ، المخلوقـة فيهـم .... قـد اهتـدوا .... ويعيشون الان بلطف ضمن الاماكن والعادات الخـاصة بهـم .....» وهناك دلالات اخـرى أنه بـالانتماء الى الصـخابيين كان الناس العاملون يهجرون اعمـالهم المعتـادة ويعيشـون على الاحسـان ، ويلحظ كتاب ديانة الصخابين : « أن الكسل وهو ام جميع الاذى ، لم يثبت بوضوح انه هكذا مطلقا ، بفعل ...الصخابين ، فالصخابون هم اناس يعيشون حياة كسل وبطالة حتى أن كل مجـرى حياتهـم ليس الا مشهدا مستمرا للسكر ...

(١١) لقد قدم الصخابون موضوعا لتمثيلية هزلية ساخرة الفها س . س غنت (اعني صـمويل شـبرد)« الطـاقم المرح » او « الشيطان يتحول الى صخاب لكونه سمة مميزة لزئير الصخابين في تلك الايام » ، ١٦٥١ وجاءت معظم اسـماءهم واكثـرها وضـوحا مصورة بالكاريكاتور في هذا الانتاج » وشيوعيتهم » مثـلا تـدفعهم إلى اعلان :

.....إن نساءنا جميعهن مشاع
ونحن نشرب حتى نثمل تماما معا ، ونشترك
في تجديفنا ، وإذا تمزقت عباءة رجل
شق الجميع ثيابهم

ويأتي اعضاء الطاقم المرح من العديد مـن الطبقـات ، المختلفـة فبينهم الدارس (احيانا اسقفي) اورسام ، او صيدلي ، أو خياط أو جندي أو رجل نبيل ثري ، ويذهب هؤلاء الرجال الى حانة لشرب النبيذ الحلو وتدخين التبغ الثقيل حتى نصبح خـالدين » وتنضـم سيدتان ، زوجتان لمواطنين محترمين الى الحفلة وتبدا حفلة العربدة

ثم يقبض على الجميع ويؤخذون الى بريدويل ليجلدوا .

وفي احد المشاهد يرقص الصخابون ويغنون في جوقة :

تعال بلا توان ، إننا غير مقتصدين في المرح
ارقص وغن ، وكلنا في حلقة ، لاننا صخابون مرحون
دع الارواح الخائفة تلفظ احشاءها
وترتجف حتى تنقلب .
دع رجال القمر يخافون الاستبداد
وتوقف امام كسيح
تعال مبتعدا ، الخ
اننا لانخاف جحيما ، عندما نكون موتى

لاامراة بشعة ولاامراة حقود :
وبينما نعيش سوف نشرب
رغما عن القاضي والمحلفين
تعالوا ياأولادي ، واحصلوا على مسراتكم
وخذوا حاجتكم من المتعة ،
قذفة مقابل قذفة ولنقم بذلك
ولكن يجب أن يكون لنا معيارنا
ليرقد الجميع بوجد ووله
لنستمتع بمنظر بهيج (ص٣٠٣)
ثم ننهض بأفخاذ عارية
من ذا الذي يخشى مثل هذا الثلج الحلو ؟
حولنا ، حولنا انتم أيها الحشد
ارقصوا رقصا غريبا مثل هوب غوبلنز
اشربوا وازأروا وسبوا وافسقوا
ولكن مع ذلك لاشجار ولاخصام

٢ــ مقتطفات من كتابات الصخابين

من المعروف ان أربعة من الصخابين قد الفوا كتبــا وعلى الرغم من أفضل جهود السلطات مازالت نسخ مـــن معـــظم هـــذه الكتـــب باقية ، وهي كما لو انها تملأ بالمقابل الفجوة الناجمـــة عن تخـــريب أدبيات العصور الوسطى للروح الحرة »

(١)كتب جاكوب بوثو ملى او بوتوملي « الجوانب المضيئة والمظلمة للرب » أو مقال واضـــح ومـــوجز حـــول الجـــانب المضيء (الرب ، والســــــــماء والأرض) الجـــــــانب المظلم (الشيطان ، الخـــطيئة ، والجحيم) وايضـــا بـــالنسبة للبعـــث والكتابات المقدسة » ١٦٥٠ (٨٤ صفحة) ولقد كان في الجيش في ذلك الوقت وعوقب لكتابة هذا البحث بحـــرق اللســـان ، وفي ١٦٥٤ ــ ١٦٥٥ ــ ظهر في اجتماعات مشتركة للمـــزلزلين و الصـــخابين في ليسترشير ، و مثل بوثوملي الصخابة في اكثـــر مـــظاهر صـــفائها و اكادميتها ، و مع أن تعاليمه يمكن أن تســـتخدم بســـهولة لتســـويغ الفوضوية الخلقية ، فإن المرء يمكنه أن يقبل تأكيداته بأنه كتب « لا لتشجيع أي عمل غير مناسب أو شرير في أي انسان » و يتخيل المرء أن تعاليم مورى اوف بين كان لها العلاقة نفسها بتعاليم العموريين كما كان لتعاليم بوثو ملى بتعاليم الصخابين ، و لورنس كلارسون و أبيز كوب ، و المقتطفات التالية مع قصرها بالمقارنة مـــع البحـــث ككل نمونجية :

فيما يتعلق بالرب

ايها الرب ماذا أقول انت ، وانت لايمكن ان تسمى ، وماذا اقول عنك ، وانا عندما اتكلم عنك ، لااقول سوى اشـــياء متعـــارضة ؟ لأني اذا قلت اني اراك فان هذا لايكون الا رؤية ذاتـــك لذاتـــك ، لأن لاشيء في قادر على ان يراك سوى انت نفسك واذا قلت اني أعرفك ، فان ذلك ليس الا معرفة ذاتك لذاتك لأني بالأحرى معروف لديك أكثر

من معرفتي لك : واذا قلت إني احبك فهذا لاشيء ، لأنه لاشيء في يمكن أن يحبك الا انت نفسك ، وعليه فأنت لاتحب الا ذاتك وبحثي عن ذاتي ليس الا بحثك عن ذاتك : وبهجتي في الاستمتاع بك ليست سوى ابتهاجات بذاتك واستمتاعك بذاتك بطريقة غير مفهومة بدرجة كبيرة .

انك انت الحياة ومادة كل المخلوقات انها تتكلم وتتحرك ،(ص ٣٠٤) ،نعم وتعيش فيك ، واياكان المخلوق فانه كما هو فيك .... سيدي الى اين أذهب من حضرتك ؟ لأن وجودك وكيانك ، هو المادة والكيان لكل المخلوقات والأشياء وهو الذي يملأ السماء والأرض وكل الأماكن الأخرى ...

كلا اني ارى ان الله في كل المخلوقات انسان او حيوان ، سمك او طير ، وكل شيء اخضر ، من أعلى ارزة الى لبلاب الجدران وان الرب هو الحياة والكيان لها جميعا ، وان الرب يسكن بالفعل واذا شئت شخصيا ، اذا كان يشاء ان يقبل مثل هذا التعبير المتواضع بها جميعا ، وبان كيانه ليس في أي مكان أخر خارج مخلوقاته ....

هل رأى الناس أن الرب فيهم ، ويحيط بأفكارهم وفاعل لكل أعمالهم وأنه كان معهم في كل الظروف : اي روح دنيوية يمكن ان تصل الى ذلك بطريق خارجي ، وهي روحيا فيه وهو الذي يملكها حقا ؟ والذي ترى الحكمة الالهية انه الافضل وان الاشياء لايمكن ان تكون مختلفة بالنسبة له ...

(ومن قبل) كنت أظن ان ذنوبي او سيري المقدس قد تدفع (الرب) الى ان يغير هدفه من الخير أو الشر بالنسبة لي

ولكني الأن لااستطيع أن انظر الى اي حالة من حالاتي أو عمل الا واعتقد انه يبدو أن هناك تزامنا حلوا بينها وبين الارادة العليا ، وأن لاشيء يكون خلوا منها أو يمضي متجاوزا اياها ، او ان أي انسان لايمكن ان يفعل أو يكون اي شيء سوى أن يكون متفقا

بكل طلاوة معها ، ذلك أنها الرحم الذي يتصور فيه كل شيء ، والذي فيه تشكلت كل المخلوقات ومنه تخرج للوجود (كذا)

وكما أن كل الأشياء تصدر عن الرب : فانها ايضا جميعا ستتخلى عن كيانها وحياتها وسعادتها وتعود الى الرب مرة اخرى .... ومع أنَ الكساء ينحل وينتهي الى العدم ، فان ما بداخل الانسان مع ذلك مايزال يحيي ، ومع ان الظل يموت ، فان الروح مع ذلك أو المادة التي هي الأب ، تعيش للخلود الكامل ، واكثر من ذلك انه بالنسبة لي من الواضح ، أن لاشيء يشترك في الطبيعة الالهية او هو من الرب الا وهو الرب ، والسبب هو انه لاتمييز في الرب ، لكونه جوهرا فردا (كذا)

.... لااستطيع ان ارى ..... ان (الرب) قابل لأي درجة من التقريب : او انه يحب رجلا اكثر من الآخر ، او يكره رجلا اكثر من الآخر .... ولااستطيع أن ارى أن هناك حب وكراهية في الرب ، أو ايا من مثل هذه العواطف : فذاك الذي يقبل بالدرجات ليس بكامل .

.... وان الرب يحب كيان كل المخلوقات ، نعم ان كل الناس متشابهون عنده ، وقد تلقوا انطباعات مفعمة بالحياة من الطبيعة الالهية ، مع انهم ليسوا بذاك البهاء ، ويظهر النقاء في بعضهم كما في بعضهم الآخر ، وبعضهم يعيش في الجانب المنير من الرب ، وبعضهم الآخر في الجانب المظلم ، ولكن فيما يتعلق بالرب ان النور والظلام هما الشيء نفسه بالنسبة له ، لأنه لاشيء يتعارض مع الرب ، بل مع فهمنا فقط ....

بوثوملي يرفض التثليث ويختتم هذا القسم

انا لايمكنني أن افهم أن الرب كان باديا فقط في جسد المسيح ، او في الرجل الذي يدعى المسيح ، بل إنه أيضا حقا وجوهريا يسكن في جسد رجال أخرين ومخلوقات أخرين كما هو في الرجل المسيح (ص ٣٠٥)

فيما يتعلق بالجنة

..... ثم يكون الناس في الجنة ، وتكون الجنة في الناس ، عندما يظهر الرب في بهائه وفي الظهور الصافي لذاته ، في الحب والنعمة ، في السلام والراحة في الروح ....

.... واني أجد انه حيث يسكن الرب ، ويأتي ، ويأخذ الناس ويلفهم بالروح ، هناك سماء جديدة وارض جديدة ، وكل الجنة التي اتطلع ابدا الى أن استمتع بها هي ان يتوقف خوفي الارضي المظلم من الرب وان لاأعيش حياة أخرى الا تلك التي روحيا يعيش فيها المسيح في .

فيما يتعلق بالخطيئة

.... صحيح ان الناس يعملون في الظلام ، غير ان الرب هناك يرفع بهاءه ، وهكذا يجب ان يحتاجوا الى الخطيئة ، لان الخطيئة بالضبط هي الجانب المظلم للرب وبالتالي هي مجرد حرمان من النور .

وفوق ذلك يجب ان نعتبر أن الرب لايعطي أي قانون أو عهد من نفسه أو بعيدا عن مجده .... والخطيئة في ذاتها تقع ايضا مذعنة لمجد الرب شأنها في ذلك شأن ماندعوه النعمة والطيبة ، حيث أن الخطيئة تكثر كلما كثرت النعمة وازدادت .... بسبب أن الرب هو نفسه والكل يتجه الى بهائه ، ان اخطأنا او احسنا : اني اجيبهم بكلمات الرسول : يجب على الناس ان لايذنبو لأن النعمة تكثر
ولكن لانهم اذا اذنبوا سوف يتحول هذا الى مدح للرب ، تماما كما عندما يحسنون ، وهكذا ان غضب الانسان يمدح الرب مثل حبه وحلمه ، وان الرب يمجد في الواحدة كما يمجد في الأخرى وكيفما يبدو ان ذلك يؤيد أن الرب هو مصدر الخطيئة ، ويريد الخطيئة ، انه يبقى واضحا بالنسبة لي ، انه لاشيء له كيان سوى الرب ، وأن

الخطيئة شيء معدوم ، وان الرب لايمكن ان يكون مصدرا وعليه فكلها ليست في أوامر الرب ، ....

وفوق ذلك ، ارى السبب لماذا ندعو بعض الناس اشرارا او بعضهم اتقياء ، ليس شيئا في الناس ولكن لأن الكيان الألهي يبدو اكثر بهاء في واحد أكثر منه في الآخر : ولهذا ـ نقول ان الواحد قديس وتقي ، والثاني شرير ودنس ، ومع ذلك فان الواحد يتصرف على نحو ماأهل له من قبل القدرة الألهية وهكذا يفعل الآخر : واذا كان هناك اي خلاف فان هذا ليس فيما يتعلق بالمخلوق الذي يتصف بذلك او يفعله لان الكيان الالهي نفسه في الواحد منهما هو ايضا في الآخر ولكنه فقط لايظهر نفسه في الواحد كما في الآخر ...

ان مشيئة الرب هي قدرته ، وقدرته هي مشيئة : بالعمل نفسه الذاتي يريد الأشياء وبالعمل الذاتي نفسه يفعل الأشياء : وانه خلافا لذلك ان ضعفنا هو الذي يجب ان نخافه اذا لكون الرب واحدا وكاملا ، انه لايقر اي تفريق او فصل في ذاته ، انه لا يقر باختلافات ولكن كل الاشياء هي كما تفعل المشيئة العليا وتدفع اليه ، وانا ارى طبقا لمقاصد مشيئته انهم لم يفعلوا ماادى لصلب المسيح اكثر مما فعلوا ليقتلوه ، وهذه الاشياء لااكتبها لتأييد اي عمل غير لائق أو شر في أي انسان ...

فيما يتعلق بالجحيم

.. لقد كنت باستمرار أعاني من عذاب الجحيم وجريت الى اعلى واسفل (ص ٣٠٦) لأني ادنت نفسي ... وهذا هو ماوجدت حتى ظهر لي الرب روحيا واظهر لي انه كل البهاء والسعادة في ذاته ، وان الجسد لاشيء ... الرب ... هيأ لي الحرية المجيدة لأبناء الرب ، في حين اني كنت من قبل في عبودية الخطيئة والقانون والضمير المتهم الذي هو الجحيم ....

(ان الروح) تأتي مباشرة من الرب وهي ليست مـن اي شيء سوى الرب ، واذا كان لي ان اقول اكثر دون اساءة ، انهـا الرب لأن كل ماهو من الرب هو الرب ، لأن الرب لايمكن ان يتجزأ .

كيف يمكن ان تكون الروح غير طاهرة كما يقول الناس عنهـا او مذنبة لاأدري ، اذ كيف يمـكن ان يدنس الجسـد روحـا ان هـذا مالاأتصوره ...

والحقيقة هي ان لاشيء يبقى الى الابد سوى الرب : وكل مادون الرب يهلك ويمضي الى العدم : وبما ان كل الأشـياء كان أسـاسها ووجـودها في الرب ، قبـل ان تـظهر على الاطـلاق الى عالم المخلوقات : فانها هكذا ستكون في النهاية مهمـا كان نوعهـا ففـي الرب او الرب في العالم لدى نهايته كلهم سوف ينضوون في الرب مرة اخرى وحيث ان الرب منذ ازل الأزل يعيش من نفسه وكل الأشـياء فيه ، فانه عندمـا يتـوقف عن العيش في الجسـد وفي المخلوقـات سيعيش في نفسه الى الأبـد ، وسـوف ينتصر في مجـد على الذنب والجحيم والموت ، وكل المخلوقات ستسلم سـلطتها وبهـاءها مـرة اخرى الى الرب الذي جاءت منه في الأصل ، وهكذا سـيكون الرب كل شيء .

(٢)وكان بين الصخابين الذين وجدهم جورج فوكس في السجن في كوفنتري في ١٦٤٩ ، جوزيف سلمون الذي بعد ذلك « بوقت غير طويل ... أصدر بحثا او كتابا في الشجب والارتداد عن عقيدته وبناء عليه افرج عنه » ومنذ سنة ١٦٥٠ كان سـلمون لبضـع سـنوات قسيسا في كنت يعـظ كثيرا في كاتـدرائية روشسـتر ، وفي مـراحل مختلفة من حياته كتب عددا من الأبحاث ويبدو ان واحدا منهـا كان رسالة صـخبية تدعى « تحلل الألوهية » التـي يبـدو انهـا فقدت ، والمقتطفات التالية التي تكشف عن عبقرية شـعرية متميزة فعلا هي مأخوذة من شجب يدعى :

« ارتفاعات في أعماق ، وأعماق في ارتفاعات او حقيقة ليست

اقل سرية منها متلالاة بطلاوة في بهائها مـن تحـت سـحابة مـن الغموض .... الى جانب التنازل باخلاص عن امور مضيئة سـواء صدرت عنه او وقعت عليه . ١٦٥١ » (٥٤ صفحة) .

ولم يمض وقت طويل منذ بزغ هذا النور المتفوق الذي اطـل فجـره من بهائه على روحـي واعطـى في حينه انعـكاسا قـويا حلوا على العالم ، حتى كفن نفسه تحت سحابة مـن أشـد مـايكون سـوادا وظلاما ، وانسحب فصلا ، خلف ظلة مظلمة من التراب والجسـد ، وفي حالة اصبحت روحي فيها في عالم مغطى بـالظلام ولم أعد أعرف ما إذا كنت امشي أو ماذا كنت افعل . هكذا كنت اقاد إلى طرقات لم اكن اعرفها ، وتحولت من ملك إلى حيوان اكل للقشور مدة فصـل ، وبعد فترة امضيتها وانا ارحل بغضب بالغ وفي حمـاس ملتهـب إلى غاية لايمكن بلوغها : كانت طريقتي في السير محكوم عليها من قبـل أولئك الذين في السـلطة خـلافا للسـلام والمدنية والنظـام المدني للكومنولث وكنت مـوضع خشـية كبيرة كمسيء (ص ٣٠٧) لقـد عانيت اكثر من نصف عام من السجن في ظل فكرة التجديف ، ومـن خلال الحاجة إلى الهواء وكثير من وسائل الراحة الاخرى اصـبحت مضجرا ومملا تجاه الناس ....

ودون سلمون كيف ثاب وارتد واطلق سراحه .

إني مدفوع الآن للكلام لاني تقريبا منهـك مـن الكلام ، ولاعرف العالم أن الصمت قد امسك بروحي ، إن صواعق الرب القـادر قـد أحدثت صوتها في وارتجفت السماء والأرض من أصـواتها المرعبـة وانتهى الانذار ، وهناك الآن صمت في السماء إلى متى لاادري .
إني انام هادئا مطمئنا بـالله وانا أرى العـالم كله ونار الحسـد لبعضه بعضا تاكله،إني اسمع ضجيجا كثيرا من حولي ولكنه فقـط يصم اذاني في سكون الراحة الالهية ، إن العالم الرسـمي مـذعور جدا ، وكل صورة قد هبت إلى السلاح لتعلن حروبا مفتـوحة ضـد نفسها : إن القدرة الالهية تدفع بشيء ضد الآخـر وتـربك ذلك الذي تواجه من قبل مع بهاء الحضور الالهي : إنه من سيستو ي ويتـطلع

نحو الأسفل وهو الذي سيقول : مـاذا تفعـل ؟ اه ياروحـي ادخلي حجري واقفلي الأبواب حولك واخفي الذات في الصمت فصلا حتـى يدفع بالسخط بعيدا .... يبدو اننا نعيش في حـالة مـن التنوع ، في حين أننا لانعيش حقا مقابل في المظهر فقط : إن حياتنا في الوحدة : إننا من واحد ولم نعد من واحد مجزا .

وبينما نختار التنوع ونطوف بـه ، نسـير ولكن مثـل الأشـباح الكثيرة والظلال فيه حتى (كذا) ان الكيان الذاتي هو ظل الوحدة .
والهبوط من التوحد او الخلود إلى التعددية ، هو فقدان انفسـنا في تيه ليس له نهاية .

وبالصعود من التنوع إلى التماثل ، هو تجميع لأرواحنا المشـتتة في مركزها الأصلي حيث نجد انفسنا حيث كانت قبل ان نكون ....

وبالمناسبة كيف يمكن للمرء إذا أن يبلغ التوحد ، والمشـاركة في هذا البهاء الذي لايمكن الوصول إليه ؟

يكون ذلك : برؤية انه ليس هناك طريق محتمل لنا (بـطموحاتنا البالغة الارتفاع) لنهتم بأنفسنا في ذلك .

ويجب ان نتوقع بصبر مجيئه في اوانه إلينا ، ذلك الذي طبيعته أن يحتوينا في ذاته وأن يذيبنا في طبيعته ومشابهته .

وفي الحقيقة حتى يحين ذلك ويظهر نفسه لنا ، فكل مـايفعله المرء للحصول على الرضا والراحة هـو أن يضـاعف الأسى على رأسـه ويزيد من العناية بروحه وقدم سلمون بيانا عن مغامراته الروحية :
« عما قريب ابدأ رحلتي إلى السماء ، إن كل قوى وقـدرات روحـي بلا نهاية مشغولة أيضا ... وأنا الآن قد تخليت عن عشـيرتي وبيت ابي ... » واصبح مشيخانيا ، ومستقلا ، ومعـمدانيا وفي النهـاية صوفيا :(ص ٣٠٨)
«وبدوت لنفسي مشـوشا في هـاوية الأبـدية واللاوجـود في كيان الكيانات ... » واصبح صخابا :

وبكوني هكذا معمى عن حضرة الرب طفت بعنف عبر ممرات بالغة الظلمة حيث تعثرت حالا ودائما وسقطت في شرك الرعب والدنس والتجديف الصريح ، يقودني ويدفعني (بأي قوة ليحكم القاضي الحكيم) عنصر الحماس المجنون لتمزيق وانتزاع كل مظاهر الرب التي دللتها من قبل في صدري .

لاأبهج نفسي بشيء إلا بذلك الذي حولني إلى شيء تافه ، قبيح في نظر كل الناس ، وأصبح في لاشيء سوى خجلي ....

لقد كنت في الواقع مريضا تماما بالغضب ، قارورة من الغضب اعطيت لي كي أشرب ....

حسنا يجب أن أشرب ، ولكن لاحظ اللغز .

لقد أعطيت لي كي أشرب ، وشربت حتى أتعثر ، وتعثرت حتى أني قد سقطت ، و في سقوطي كنت سعيدا

ومن الغريب كيف أن الوجود الخفي والسري للرب في ، قد ابتهج في صمت ، في حين أن الجسد قد ظهر هكذا .

لقد كان لي راحة حلوة في اللجوء إلى الرب ، حتى بينما كان جسدي يشوى ويشيط في لهيب الغضب الحانق .

لقد كنت في مأمن في الصدر الخالد ، بينما كان الجسد يتمرغ في الموج المزبد ، لغروره الخاص ....

واعرف أن هذا لغز بالنسبة للعديد لاأجد من غير النصارى الحقيقيين يستطيع تفسيره ، وحتى يسر بحله ، فإنه يسرني أن يبقى في الظلام . ولكن لنصل إلى قرار .

هكذا دفعت إلى الطرق الغريبة للظلام ، التي تقود إلى الأعلى والأسفل في عاصفة ثائرة من الغضب ، وتصدعت على صخور مروعة من الدهشة ، إن كل أمواج القدرة الالهية وسجلها قد غمرتني .

أنا الآن في راحة في الأعماق الساكنة للأبدية ، وغرقت في أعماق الصمت وبعدما (قفزت فوق هذه الهاوية المخيفة) وصلت بسلام إلى صدر الحب ، وأرض الراحة .

واحيانا اسمع عن العالم الذي هجرته ، وارى ايامه محفوفة بمد من الصخب نفسه والنزاع والتنافس الذي كثر فيه عندمـــا تـــركته ، إني أعطيه إصغائي وهذا كل شيء ....

إن رغبتي الكبيرة (وهذا حيث ابتهج اكثــر) هـــي أن لااری او اقول شيئا . لقد ركضـــت حـــول عالم المنوعات ، وتمـــركزت الآن في الأبدية ، وذلك هـــو الرحـــم الذي أخـــذت منه ، والذي إليه تقلصـــت رغباتي .... (ص ٣٠٩) إن كل شيء يحمل حركة ثـــابتة وظـــامئة تجاه المركز ، وعندما نضعف مرة من الاسهاب في التنوع فإننا نحـــل في السكون ، حيث نكون كما لو أننا لم نوجد مطلقا ...

إن الرب بهاء واحـــد بســـيط غير مـــركب : لاشيء يعيش فيه أو يتدفق منه ، سوى ما هو ذاته الفردية النقية

الوحدة هي الأب ، المبدع الخالق المنجـــب لكل الأشـــياء أو (إذا شئت) الجدة التي في رحمها الفعلي تختفي المنوعات حتى يخـــرجها الزمان بشكل منظم ....

(٣) كان لورنس كلاركســـــــــون او كلاكســـــــــــتون (١٦١٥ ــ ١٦٦٧) مواطنا من بريستون ربي في كنيسة انكلتـــرا ، وفي شبابه اظهر معـــارف تـــطهرية (متـــزمتة) ، وكان ينظـــر إلى الرقص في السبت برعب خاص ، ثم اصبح مشيخانيا ثـــم مســـتقلا وباعتباره ممن كان يرى أن الايمان وحده يكفي للخلاص (بـــالمعنى اللاهوتي للكلمة) اصبح (قسيسا في ابرشية) في نورفولك ، وبعـــد ذلك عاش حياة هائمة ، وفي ١٦٤٤ اصبح مـــن القـــائلين بتجـــديد العماد وفي السنة التالية سجن بسبب « الغـــطاس » وحتـــى نهـــاية ١٦٤٨ تبع أحد الميول الدينية الرئيسة من ذلك الوقت وهو مـــذهب البحاثين ، وخلال تلك الفترة كان واعظا متجـــولا في كنت وقســـيسا لابرشيتين أخريين في هيرتفوردشير ولنكاذشير ، وبـــدا أيضـــا في كتابة رسائل دينية ، وعن هذه الفترة يقول :« كان قليل مـــن الكهنة قادرين على الوصول إلى مرتبتي في المذهب وفي الصلاة ، لكن هذا لم

يفد ، فلكوني لست من رجال الجامعة ، كثيرا ما طردت من الوظيفة » . وكان بناء على ذلك بشكل مستمر في ضائقة مالية . ثم أصبح واعظا في فوج للجيش ، ثم حاول أن يجد أبرشية في لندن ، وأخيرا وفي وقت مبكر من ١٦٤٩ ، تحول إلى صخاب ، وسرعان ما أصبح سيء السمعة كقائد لمجموعة فاسقة بشكل متميز ، تدعو نفسها « جسدي الواحد » . وأعطت اللجنة المشكلة للبرلمان للتحقيق في الصخابة اهتماما شديدا لكتاب كلاركسون العاق الملحد ،« عين واحدة » ، وفي ٢٧ أيلول ١٦٥٠ ،حكم المجلس على المؤلف بسجن شهر يعقبه النفي . وأحرق الكتاب في وستمنستر وكذلك المقالات من قبل الجلاد العام ، وأمر بتسليم كل النسخ لتحرق ولكن قليلا منها نجا من هذا المصير ، ولم ينفذ النفي مطلقا ، وبإطلاق سراحه من السجن استأنف كلاركسون حياته الهائمة وهذه المرة كمنجم ، وفي ١٦٥٨ انضم إلى طائفة من الزاهدين المتطرفين ، المغليتونيان وبعد ذلك كتب عدة رسائل نيابة عنهم . وتوفي مدينا في سجن لودغيت ، وكان أخر كتاب له سيرة ذاتية تلقي ضوءا كثيرا على طريقة حياة الصخابين :« أخر الخراف الموجودة » ،أو« المبذر يعود إلى بيت أبائه بعد سفر كثير حزين ومنهك عبر كثير من البلاد الدينية » تأليف لوركلاكسون الرسول المهتدي الحقيقي الوحيد ليسوع المسيح خالق السموات والأرض ١٦٦٠ (٦٤ صفحة) ، والمقتطفات التالية من هذا العمل تصف دخول كلاركسون في مجتمع الصخابين ، وبعض نتائجه (ص ٣١٠) «..... وسكنت في مسكن خاص ،وسألتني صديقة سالفة لي عما إذا كنت لم اسمع عن أناس يدعون « جسدي الواحد » ؟ فقلت : لها ماذا كان رأيهم وكيف يمكنني أن أتحدث مع واحد منهم ؟ فأرشدتني عندئذ (كذا) إلى جايلس كالفرت .... وبمجيئي إلى كالفرت ، واستفساري عن أولئك الناس خشي أن أكون قد جئت لخيانتهم ، ولكن بتبادل بضع كلمات بأعلى صوتي تأثر واقتنع بأني كنت صديقا لهم وكتب لي مذكرة إلى السيد برش ، وكان محتواها وفحواها ، حامل مذكرتي هذه هو رجل من أكثر المتنورين الذين سمعتهم مطلقا ، وأود أن أعلمكم انكم باستقباله قد استقبلتم ملاكا ، وهكذا ذهبت إلى السيد برش

وابرزت تلك المذكرة ، التي قراها بتمعن ودعاني للدخول وقال لي انه لو انني بكرت قليلا لرايت السيد كوب الذي ظهر فيما بعد بطريقة مخيفة جدا ، وكانت هناك ماري ليك ، وتبادلنا بعض الحديث ولكنهم لم يتطرقوا إلى ماعندي ومع ذلك اخبروني بانني إذا ذهبت يوم الأحد التالي إلى السيد ميليس في زقاق ترينيتي فإنه في ذلك اليوم سيلتقي هناك بعض الأصدقاء ، والآن فان حكمي في ذلك الوقت كان انه ليس هناك إنسان يمكن ان يكون متحررا من الذنب ، حتى ياتي بما يدعى خطيئة على انه ليس خطيئة ، وكان هذا بداخلي لبعض الوقت ومع ذلك لم اجرؤ ان اكشف عنه لاحد ، وكنت اعتقد ان احدا لن يمكنه تقبله ، وكانت لدي رغبة في القيام بمحاولة سواء كنت سارضى او انزعج من ذلك حتى اني .... اخذت طريقي متوغلا في الضياع ، وفي اليوم المحدد وجدت السيد برش والسيد رولندسون والسيد غولد سميث ، مع ماري ليك واربعة اخرين : وكانت ماري ليك الآن هي المتحدث الرئيس ، وكان في حديثها شيء جميل ، ولكنه لم يكن رفيعا بالقدر الذي خبرته في نفسي، ثم كان أن اعلنت ماكنت اعرفه بكل جراة مما دفع ماري ليك ، لكونها عمياء ، لان تسال : من هذا الذي تكلم ؟ فقال برش إنه الرجل الذي أرسله جايلز كالفرت إلينا وعليه وبمزيد من الكلام اكدت انه ليس هناك ذنب إلا الذي قدره الانسان كذلك ، وعليه إن احدا لن يكون قادرا على التحرر من الذنب إلى ان يفعله في براءة على انه ليس ذنبا ، لانني ارى ان الطاهر بالنسبة لي ، هو الذي بالنسبة للفهم المظلم غير طاهر ، لانه بالنسبة للطاهر كل الاشياء وكذلك كل الافعال طاهرة : وبذلك نجعل الكتابات المقدسة كتابات من الشمع ، واستشهدت بكلمات بولس : إنني اعرف وإني مقتنع بالرب يسوع ، انه لاشيء غير طاهر إلا بتقدير الانسان ، وكشفت أن هذا يقصد به كل الافعال وايضا اللحوم والمشروبات وعليه حتى يمكنك ان تنام مع كل النساء كما تنام مع امراة واحدة ، ولاتعتبر ذلك ذنبا ، فإنه ليس بمقدورك أن تفعل شيئا غير ما هو ذنب : الآن وجدت في الكتابات المقدسة كلاما عن الكمال حتى انني فهمت أن لااحد يمكن ان يبلغ الكمال إلا بهذه الطريقة : التي اخذ بها السيد رولندس كثيرا ، ودعتني سارة كولن وكانت

حاضرة في حينه لتجربة ماصرحت بـه ، وفهمـت مـن ذلك بعـد أن افترقنا انهـا دعتني إلى السـيد واتس في رودلين ، حيث كان هناك واحدة او اثنتين اخريين مثلها ، وما ان اخـذتها نامـت معـي تلك الليلة : والآن أشيع في الأحد المقابل في الخارج حديث أن رجلا ليس له نظير بمعارفه سوف يتحدث عند السيد برش ، وفي ذلك اليوم كانت هناك جمهرة كبيرة من الرجال والنساء مـن الشـباب والكهـول ، وهكذا من يوم ليوم كانت تزداد حتى اصبح لدي الآن خيار فيما كنت (ص ٣١١) من قبل أطمح إليه وبلغت الكثرة حدا وصـل إلى أذان اداريينا . وبعدما أخذت اجري تركتهم وسكنت في رودلين ، حيث كان لي زبائن عديدين حتى اني لم أكن قـادرا على تلبية كل الرغبـات ، ومع ذلك فإن أحدا سوانا لم يكن يعرف شيئا عن أفعالنا ، وعلى أي حال لقد كنت دقيقا في معرفة مع من أتصرف ، وقد تزايد هذا المبـدأ الشهواني ، حتى ان اللورد العمدة وضباطه جاؤوا في منتصف الليل لاخذي ولكن ما ان علموا بذلك حتى منعوه ... وشعرت بـرغبة في أن اكتب للعالم مبينا ماهية مثلي ومبادئي وهكذا اخرجت للمـلا كتـابا يدعى « العين الواحدة » .

حتى ان رجالا ونساء جاؤوا مـن أجـزاء عديدة لرؤية وجهـي ، والاستماع إلى معارفي في هذه الأشياء ، لكونهـم كانوا قلقين حتـى يتحرروا كما كنا نقول عن ذلك في حينه ، والآن وقد أصـبحت كمـا قالوا قائد الصخب ، كانت معظم النساء من ذوات الشرف يجئن إلى سكني من اجل المعرفة ، وسـكني هـو الذي أطلق عليه بعـد اسـم القيادة .

وفي قمة هذا الصـخب كنت حـريصا على ان احتفـظ بـالمال لزوجتي ، اما جسمي فقط فكنت اعطيه للنساء الاخـريات ، ومـع ازدياد رفقتنا لم أعد افتقد شيئا يمكن أن يرغب فيه القلب ، ولكنهـا أخيرا أصبحت حرفة شائعة حتى أن كل الزبد والحثالة قد اندفعـوا الى قمة هذه الشرور ، نعم لقد بدات تصبح خزيا عاما علينا ، حتى اني تخليت عن قيادتي وتوجهت الى زوجتـي في الريف ، حيث كان

لي بالمناسبة حواريون كثيرون.... الميجور رينزبور والدكتور باركر ...والسيد واليس الفورد وقد التقيت بهم هناك ، حيث لم يكن السرور والبهجة بمدح الرب قليلا فقط بل حتى لا شيء ، مطلقا ، كم هوعظيم ما فعله الرب من أشياء مجيدة باخراجنا من العبودية الى الحرية التامة لأبناء الرب ، ومع ذلك ففي حينه كانت الفكرة المستحوذة على قلبي هي كل طرق السرقة والغش ، والخطأ او الأذى الذي يمكن إحداثه ، سرا ، مع أني كنت باللسان أصرح بالعكس ، دون تفكير في اني اخرق القانون في كل نقاطه (باستثناء القتل) ، وكان أساس ذلك كله هو حكمي أن الله قد جعل كل الأشياء طيبة ، وعلى ذلك فليس هناك شر الا الذي يقدره الانسان ، لأني كنت افهم أنه ليس هناك شيء يدعى سرقة أو غش أو كذب بل إن الانسان هو الذي جعل هذه الأشياء هكذا ، لأنه لو انشأ المخلوق هذه الدنيا على (لا) تمليك ، أي لي ولك ، لما كان هناك شيء يسمى سرقة أو غش أوكذب ، التي للوقاية منها أخرج ايفرارد وجيرارد وينستانلي ، مبدأ الشيوع ، حتى يمكن أن يعيش الجميع بأنفسهم ، وعندها لا تكون هناك حاجة للسلب والاحتيال ، بل وحدة الواحد مع الآخر.....هذا ما تصورته كما لو أني لم أعرف ما كنت عليه قبل أن أخرج للوجود ، وعليه فالى الأبد يجب أن لا أعرف شيئا بعد ذلك حتى يتحلل كياني ، ولكنه حتى كتيار من المحيط كان متميزا بنفسه بينما هو تيار ، ولكنه عندما عاد الى المحيط ابتلع هناك واصبح ضمن المحيط ، وهكذا روح الانسان وهي في البدن ، كانت متميزة عن الرب ولكن عندما يأتي الموت تعود للرب وتصبح في وحدة معه ، نعم الرب نفسه ، ومع ذلك ، فاني احيانا ما كنت أجد نورا دقيقا في روحي وبخوفي من أنه يجب أن لا يكون هذا كذلك ، كما كان على العكس في الواقع إلا أنه مع ذلك كان لكأس من النبيذ أن تزيل هذاالشك.»

ومضى كلاركسون في وصف كيف تم اعتقاله في النهاية في حانة في بيشوبسغيت وسجن في الوايتهول ، ويفترض أنه دفع للحرس العسكري الذي أعد له ، ولكن كان للصحابة متعاطفون في

الجيش :» ولكون بعضهم على مبداي ، كانوا يحرسونني دون مقابل ، وكان أحد النقباء فيهم يعطيني نقودا ، وعندما استجوب من قبل لجنة المجلس راوغ وكذب – في روايته – بالضبط حسب السلوك الذي وصفه تيكل في الحفرة التي لا قرار لها.

(٤) كان العنوان الكامل للرسالة الصخبية لكلاركسون هو :
« العين الواحدة ، كل النور لا ظلام ، أو النور والظلام شيء واحد.... » وقد كشف ذلك في رسالة سرية ذات سمة عالمية ، طبعت في لندن في السنة التي كانت فيها قوى السماء والأرض موجودة ، ولسوف تهتز ، نعم وتلعن ، حتى لا تبقى بعد ذلك الى الأبد ، طباعة جايلز كلفرت ، ١٦٥٠ (١٦ صفحة) وتأصل بهذا العمل بما يتجاوز كل احتمالات الشك أن بعض الصخابين كانوا حقا يعلمون كل اللا اخلاقيات التي عزاها اكليروس القرون الوسطى الى أخوة الروح الحرة :

انظر لقد جاء ملك السعادة والمجد
ليخضع الرب ، والشيطان لقدرهما
لان كليهما عبد لي
انا الذي يعيش ويحكم في جلال تام...
تبا إذا للخجل ، لاتنظر فوق السماوات

للرب او الجنة ، لأن هنا ترقد كنوزك وحتى في تلك الصور ستحكم المشيئة الخالدة
ومن خلاله كل الأشياء ، فقط واحد ، وليست زوجا
وبالتأكيد إنه النبع الذي فيه كل شيء
جيد وسيء (هكذا اصطلح) يبدو أنه ينبع....

وقد خبر أن جلالته:الكيان والعمل لكل شيء ، يظهر في وللمخلوق في صورة مزدوجة أو سيماء ، بها يصبح حقيقة للمخلوق ، الذي ليس الا ظلا لهذا الكائن اللانهائي،...
وعليه إنها صيحة جلالته التي لم تتحقق ، ولم تطع إلا من قبل

الكنائس والقديسين ، وعارض الشـياطين وازدروا . لذلك يندر أن تجـد المخلوق الذي أوقـظ مـن نومـه العميق ، ونفض عنه الغطاء ، حتى يمكنه أن يقول عند الظهور الواضح للرب ، لقد ذهبت الغشاوة ، وأنه يؤمن بالحقيقة كمـا هـي في جـلاله ....وإذا أقـر العقل ، وفسر بذلك الكتاب المقـدس ، فـانهم يجـب أن يلاحـظوا (كذا) في هذا العمل الذي يدعونه الأمانة ، أن تـكون أن زانيا وأن العمل الذي يدعى زنا ، فيه من الأمانة ما للآخر ، لأنهما بـالنسبة للرب ليسا الا واحدا وأن هذا العمل الواحد مقدس وصـائب وطيب كالرب ، وهذا بالنسبة لي يؤكده العقل وهو معلن في الكتاب المقدس « إنه بالنسبة للطاهرين كل الأشياء طاهرة »

حتى أنه من جانبي إني لا أعرف أن شـيئا غير نظيف بـالنسبة لي ، أكثر مما هو في ذاته ، وعليه فإن أي فعل اقوم به تفعله الجلالة في نفسي..حتى اني لا أعبا كيف يحكم علي ، وفي هذا لا احـكم على نفسي والخلاصة إن منتقدي الكتب المقـدسة والكنائس والقـديسين والشياطين لا يعنون بـالنسبة لي اكثـر مـن قـطع(كذا) عنق كلب ... ، فيل

أشعيا ، ٤٢ ـ ١٦ « أجعل الظلمة أمامهم نورا »
...والآن جاء الوقت ، الآن يوم يسلبهم الرب أوهـامهم ، وينير مفاهيمهم المظلمـة كمـا في نصي ، سـيجعل الرب الظـلام نورا بين أيديهم

...والآن يقترب الوقت حيث تظهر الأقوال التي في هـذا النص في تحرر الروح ، سأجعل الظلام نورا بين أيديهم.

وبوصولنا الآن الى المرسى المأمول ، فإن كل الصعوبة ستكون في كيفية تفريغ السفينة المشحونة بمثـل تلك اللآلىء المخبـأة ، وكيف يمكن عمل سلعة منها ، وكيف نحـل هـذا الموضـوع حسـب قدرتكم ، كيف نعطيكم فـكر الرب بتعـابير ممـاثلة لظهـور الرب فيكم...قد تقراون أن النور والظلام متشابهان بالنسبة للرب ، هكذا

هو يظهر ، لكن الظلام في المخلوقات مفهوم ، وهو ليس سوى ظلام متوهم لأن النص يقول الرب هو النور وفيه لا وجود للظلام ، وعلى هذا انت ترى أي شيء ، او بأي طريقة كان ما يدعى ظلاما في الكتاب المقدس ، مع انه لا شيء بالنسبة للرب.

ويجيب كلاركسون أولئك الذين ينسبون أعمالا خاطئة مثل صلب المسيح الى الشيطان ، أو الى الاختراعات الشريرة للانسان : والآن وقد أحاط بنا الفوج الاسود ، الذي يقوده الشيطان ، والجيش كله يتكون من تخيلات كل الخليقة ، لا طريق لدي للهرب من هذا المعسكر والخليج الذي لا قرار له ، إلا باختراق الحصن والمعقل المحصن ضدي.

ولكوني مسلحا بسلاح الجلالة ، فاني لا اشك في أن الرب في سيطيح بتلك المعاقل المتوهمة ، نعم إن كل شيء يعلي نفسه ضد قوة الأعلى...يجب أن اخبركم...إن كل القوى مستمدة من الرب ، وكذلك كل الأعمال أي كانت طبيعتها على الاطلاق إنما هي ناجمة عن قوته ، نعم تلك القوة الربانية حتى أن كل شيء يصدر عن هذه القدرة نقي بنقاء القوة ، والقوة بنقاء الرب نفسه.

وهكذا فمن ثم يأتي انه ليس من عمل أيا كان غير طاهر في الرب ، أو أثم لدى الرب أو بين يدي الرب ....

وكما قلت ، وهكذا اقول مرة أخرى إن تلك الاعمال او أي فعل أيا كان طالما انه يقدر او يتوهم منك بأنه خاطيء ليس في الرب ولا من الرب ، ومع ذلك فما يزال كما قلت أن كل ما هناك من افعال من الرب ، نعم هي بنقاء الرب نفسه ....لقد أخذت الخطيئة مفهومها في العصور فقط ، وعليه ، طالما أن الفعل في الرب او صدر بوضوح عن الرب فهو مقدس كالرب: ولكن بعد ظهوره فيك أو فهمه لك فإن هذا العمل يكون إما طيبا أو شريرا ، وعليه هل كنت مع آدم تأكل من الشجرة المحرمة ، شجرة معرفة الخير والشر ، وهل ذقت تلك الثمرة التي ليست في الرب ، حيث يقول النص ، من فم الأعلى لا

يخرج شر بـل خير : خير ولكن ليس شرا ، لأن الرب طيب والخير هو الرب : وعليه فإنه هو الذي جعل كل شيء طيبـا ، نعـم إن مـا تتخيله انت شرا قد جعله طيبا : وعليه إن تصورك من الرب ما ليس يفعله الرب لكل المخلوقات هو اساءة كبيرة للرب يجعل الرب مصدرا لما ليس في الرب (ليعلم) الخطيئة ولكن بـالنسبة للأمـر الذي بين أيدينا ، لقد سمعت بكل الافعـال القـائمة والتـي كان مصـدرها ومنشؤها من الرب ، نعم من فعل الرب وكي اكون واضـحا إن تلك الافعال الصادرة عنك ، والتـي تـدعى السـباب والسـكر والزنا والسرقة الخ. تلك الاعمال ببساطة كأعمال هي أعمـال جـاءت مـن قدرة الرب نعم ، كملها الرب بحكمته.

ماذا قلت أنا : هل عند السباب والسكير والزاني واللص سـلطة الرب وحكمته للسـباب والشرب والعهـر والسرقـة ؟ ...حسـنا يا أصدقاء مع أن مظهر الرب في يبدو بالنسبة لكم مرعبا هكذا كما كان لموسى في الجبل ، فإنه يبقى على الرغم مـن ذلك هـو مـا سـمعته ورأيته ، إني لا اشعر بأقل رجفة ، بل ابتهـج ان اتيحـت لي هـذه الفرصة لأعلنه لكم ، كيفما كان تقبلكم له.

وكما قلت من قبل ، واقول ثانية : كلمة خطيئة هي فقط اسم بلا عاده ، لا وجود لها في الرب ولا في المخلوق ، بـل في الخيال ، وعليه يقال إن تخيلات قلوبكم هي شر مستمر ، إنه لا الجسـم ولا الحياة بل الخيال فقط وهذا ليس في مرة واحدة أو مرات بل دائمـا وهنا إن الخطيئة التي لا تأخذ في ذاتها شكلا قد وجـد لهـا شـكل في تقـدير المخلوق...

فكر في أي فعل على الاطلاق ، نعـم وليكن فعـل السـباب ، أو السكر ، أو الزنا والسرقة ، لاتزال هذه الافعـال ببسـاطة ، نعـم بشكل مجرد ، كأفعال ليست شيئا مميزا عن افعال الصلاة ، فلماذا تعجب ؟ ولماذا تغضب ؟ إنها جميعا واحدة في ذاتها ، فليست هناك قدسية ، ولا طهارة بعد ذلك في واحدة دون الأخرى.

ولكن ما ان يعتبر المخلوق فعلا على انه زنا واخر امانة أو عفة ، واحدا طاهرا والأخر دنسا فإنه في النهاية بالنسبة لذلك الرجل الذي يعتبر احد العملين دنسا فإنه يكون دنسا بالنسبة له : (وكما يقول التاريخ) ليس هناك شيء دنس في ذاته ، ولكنه ٠٠٠٠ إلا بالنسبة لذلك الذي يعتبره دنسا ، نعم ايضا ، وايضا فإنه يسجل انه للطاهر كل شيء ، نعم كل شيء طاهر ، ولكن للدنس كل شيء دنس...

ولا يهم ما يقوله الكتاب المقدس ، والقديسون ولا الكنيسة إذا لم يكن الذي في داخلك يدينك ، فانك لن تدان لأن التاريخ يقول من فمك ، لا من فم غيرك أحكم عليك ، وعليه تذكر انك ما لم تحاسب نفسك ، دع الحياة تكون ما تكون ، وافعل ما يمكنك ، ومع ذلك فانك إذا لم تحاسب نفسك لن تحاسب ،لأني لم ات الى العالم لادين ، بل لأخلص العالم ، ولكن إذا كان لوم وقذف القديسين والكنيسة يدفعك لأن تستجوب نفسك ، الن تكون إذا مستعدا للقول بماذا يحكمون دون ان اكون مذنبا بما يتهمونني به ، لهذا فإنه صحيح القول ، اه يا ادم ان الخراب من ذاتك أنت...

إن الرب قد اعلن ان تلك الاعمال القذرة البغيضة في الظلام (التي تعرفها انت هكذا) ستدمر وتلعن ولكن كيف وأين ستلعن؟ (ص ٣١٥)إن هذا في اقوال ذلك النص سأجعل الظلام نورا ، آه إن هذا ما فكرنا فيه بطهر ، وعندها فانك سترى ان الخطيئة يجب ان لا تطرح خارجا بل تطرح داخلا ، هناك كونها في الراقود (وعاء التخمير) تصبغ بلون المادة السائلة نفسها كما يلون الزعفران الحليب بلونه ، هكذا يفعل ينبوع الضوء في تحويل الخطيئة ، فالجحيم والشيطان يحولها الى طبيعته والنور الى نور مثله ، سأجعل الطرق خشنة ناعمة : انها الآن ملعونة ومحشوة في مركزها الوحيد هناك لتسكن الى الابد في صدر ابيها الأوحد : ان هذا وهذا فقط هو اللعنة التي ترعب المخلوق كثيرا بمفهومها الاسود...

وعن بعث الجسد يقول كلاركسون:

إن جسمك الذي يتركب من لحم وعظم هو من تراب الارض ، وعليه عندما يختزل بدنك الى مركزه عندها (وليس الا عند ذلك) يصبح جسمك حيا ، وتكتمل سعادته ...إن هذا المكان الذي يدعى الجنة ، سيصبح جحيما للبدن ، لانه بعد أن يوسد في القبر ، يقبر في سمائه ، وبهائه ، وسعادته حيث سيتعفن وسيمتص في طبيعته الخاصة الى الأبد ودائما....

لانه في النور أعلن ، ان الاحاسيس الفاسدة يجب ان تكون في الفساد ، وفهمك الفاني يجب أن يكتسي بالخلود ، إذ حيث كنت حيا لخمسة وميتا لواحد ستكون الآن ميتا لخمسة وحيا لواحد ، إنه ذلك الواحد الطاهر الذي لا يرى شيئا الا النقاء ، وحيثما يذهب وأيما يفعل ، فكل شيء حلو وبهيج ، ولكن تحت أي اسم كان ، فأنت خارج من الاسم للفعل ومن الفعل للقوة ، ومن القوة الى اسمه ، وهذا الأسم الواحد فقط طاهر وغير ملوث ، حتى انك الآن ذاعينين أطهر من ان ترى الظلم والخطيئة ، وبناء عليه إن الشيطان رب ، والجحيم جنة ، والخطيئة قدسية ، واللعنة خلاصا ، إن هذا وهذا فقط هو البعث الأول.

ومع ذلك فان هنا ليس مقر اقامة ، وليس مسكنا امنا ، ذلك الذي مازلت فيه على حافة مصر ، ليس فقط مع موسى بل جبل حرمون فقط شفهيا وليس عمليا ، يفتقر جدا إلى البعث الثاني وهو الحياة والقوة التي رأيتها ، فحتى تخلص من ذلك الذي بعثت فيه ، انك لاتستطيع أن تقول ايها الموت اين هي لدغتك؟ ايها القبر اين هو انتصارك ؟

لاتعجب مني لأنه دون فعل ، ودون مولد ، وليس هناك تحرر ليس فقط للمتكلمين بل للفاعلين ليس فقط روحك بل جسمك عجيب ان يكون ضحية حية ومقبولة ، وعلية حتى تفعل مايدعى خطيئة فانك لن تتحرر من سلطة الخطيئة ، بل مستعدا لكل انذار للارتجاف والخوف من لوم الجسد .

واقول الى أن يتحول اللحم الى روح ، والروح الى لحم ، فلا اثنين بل واحد ، فانك في عبودية تامة لأنه بدون احترام ، أعلن أنه كل من يحاول أن يتصرف من اللحم في اللحم مع اللحم يرتكب الزنا: ولكن كي يتصرف من اللحم في اللحم مع اللحم يرتكب ذلك ، الذي يدعى خطيئة فاني لايمكنني ان اهيمن على الخطيئة ، حتى أني الآن ايما فعلت ليس له علاقة بالاسم ، باللحم بل بذلك الخلود في داخلي ، حتى انه معي ، ان كل المخلوفات ليست سوى مخلوق واحد ، وهذه هي صورتي (ص ٣١٦)الممثلة لكل الخليقة لذلك انظر ماذا استطيع فعله وماسوف افعل الكل ليس الا شيء واحد حلو بديع ، وعليه ياأعزائي فكروا انه بلا فعل لاحياة وبلا حياة لاكمال ، وبلا كمال لاسلام ابدا ولاحرية حقا في القدرة التي هي الجلال الأبدي ، الحكم القاهر الذي يلعن كل شيء في ذاته بلا نهاية الى الأبد .

(٨) وكان اكثر الصخابين شهرة ابيرزكوب (١٦١٩ - ١٦٧٢) وقد ولد وترعرع في وورك Warwick ومن الممتع ان نلاحظ ان ذلك التابع المقبل للروح الحرة كانت تستحوذ عليه في فترة المراهقة اعتقاد بالاثم ، وكان فريسة للقلق العصياني ، وكان يحتفظ بسجل يومي لخطاياه ، وهام كثيرا ، وفرض على نفسه صلوات المساء واذلال النفس وعن هذه الفترة يقول : في صلاتي المسائية وعند منتصف الليل ... كنت باستمرار .... (مع اسى الروح ، والتنهدات والتأوهات وكثيرا مع الدموع) اعترف بخطاياي

..... وكانت الدموع شرابي : والتراب والرماد لحمي والخيش لباسي ، والحماس والاخلاص ، وصداقة الحياة المتزايدة والحوار هي حياتي « لقد وضع حارسا صارما » يرقب كل كلمة او فعل او فكر ، وكان لديه دافع مستحوذ تقريبا للسباب واللعان ، ولكن بمثل هذه الطرق كان قادرا ــ كما يدعي ــ على تجنب كل السباب لنحو سبع وعشرين سنة .

وفي ١٦٣٦ ذهـــــــــب كوب الى اكســــــــــفورد « كدارس فقير » ـ كخـــادم في اول ســـــولز All souls
وسرعان ما اصبح مدير مكتب بريد في ميرتـــون Merton
ويقال ـ يصعب الحكم بمدى الصـــدق ـ أنه في ذلك الوقـــت كانت اخلاقياته اقل تزمتا « وانه كان كثيرا مايرفه عن ربة بيت لعـــوب في غرفته ليلا » وعطل تفجر الحرب الأهلية مهنته في اكســـفورد فتـــرك الجامعة دون الحصول على درجة ، ومثـــل لورنس كلاركســـون كان لبعض الوقت مشيخانيا ثم اصبح فيما بعد قســـيسا مـــن القـــائلين بتجديد العماد ، وفي هذه الوظيفة كان نشيطا جدا في اكســـفورد هير وورويكشير وقسما من وورسستشير « الغطاس » ويقـــال ان ذلك شمل نحـــو ٧,٠٠٠ شـــــخصا ، وكان يرأس قـــداس حـــامية عسكرية .

وبهذه الأنشـــطة ســـجن في حـــوالي ١٦٤٦ في كوفنتـــري Coventry وربما حلت بكوب محـــن اخـــرى بســـبب شذوذ حياته الدينية ويقـــول ان والده ووالدتـــه قـــد تخليا عنه ، وان زوجته انصرفت عنه في كراهية ونفـــور ، حتـــى ان ســـمعته دمـــرت واضرمت النار في بيته ، ومهدت هـــذه الأحـــداث بـــدورها الطـــريقة لتحوله الى الصخابة ، الذي جـــرى في ١٦٤٩ وتبنى كوب وحـــده الوجود في الافلاطونية المحدثة للروح الحـــرة معتقـــدا بـــأن الرب في السماء والأرض والفجر والجحيم .. يملأ كل شيء وكل مكان فهـــو الكل في الكل وان كل الاشياء تعود الى اصلها ويبـــدو انه قـــد تبنى ايضا الطرق الاداماييتة وكان معتادا منه ان يعظ بالتجديف الصريح والشرور التي لم يسمح بهـــا في النهـــار وفي الليل(ص٣١٧) يشرب وينام عاريا تماما مع بغي كانت ايضا مستمعة له » ومامن شـــك في ان يسجن بسبب مثل هـــذا السلوك لمدة اربعـــة عشر اســـبوعا في ووروك ، ويبدو ـ اســـتنادا الى اشـــارة كلاركســـون اليه ـ انه انتمى اخيرا إلى مجموعة الصخابين الملتفـــة انذاك حـــول جـــايلز كلفرت والذين اسموا انفسهم (الجسد الواحد) وكان من الشائع ادراجه مع كلاركسون كقائد لحفـــلات العـــربدة التـــي كان يقيمهـــا

الصخابون ويبدو انه بين الفينة والفينة عندما كان يعمل كمبشر للصخابين انه كان يستخدم جدليات كتاب كلاركسون « العين الواحدة » وكان كوب قائد الصخابين الذين يشربون ويدخنون والذين سجنوا في سجن جورج فوكس في تشارنغ كروس Charing cross ، ويبدو انه في الواقع كان يدمن الشراب كثيرا ، ولكن فوق كل شيء انه ما أن تحول الى صخاب حتى انغمس في ماكان يتوق اليه من سباب ولعان.

ويتساءل ريتشارد باكستر Richard Boxter برعب كيف حدث ان اتباع هذا الرجل « رجالا ونساء كانوا يصرخون بخوفهم الحماسي من الرب يجب ... ان يتركوا ليضيفوا الى دينهم العربدة والزئير ، والشراب ، والقهر ، والقسم العلني الصريح يملء الفم عادة ،الى جانب جراح ودماء الرب ، واللعنة الأكثر ترويعا التي سمع بها » ولقد سمعنا أن كوب يلعن نحو ساعة من غير انقطاع على منبر كنيسة في لندن ، ويسب مضيفة في حانة بشكل مخيف حتى انها ارتجفت وارتعدت لبضع ساعات بعد ذلك » وكان حواريوه يوضعون في اداة التعذيب الخشبية التي تقيد فيها ارجلهم في ستارتفورد Startford بسبب سبابهم .

وكان كوب صخابا عندما الف في ١٦٤٩ كتاباته الوحيدة التي تستحق الذكر : بعض الرشفات الحلوة من بعض النبيذ الروحي . اللفافة الملتهبة الطائرة و (حيك وصدر مع هذه الأخيرة) لفافة ملتهبة طائرة ثانية .

وادت اللفافتان الطائرتان الى اعتقاله في كانون الثاني ١٦٥٠ وسجن في كوفنتري (للمرة الثانية) ثم في نيوغيت New Gate ، واصدر البرلمان امرا بجمع واحراق اللفافتان باعتبارهما تحتويان كثيرا من التجديف المروع والآراء الملعونة البغيضة من قبل العمد ومفوضي الشرطة ، وقضاة الصلح في

كل انحاء الكومنولث وان تحرق من قبل الجـلادين العـامين ، وان تحرق نسخ منهـا علنا في وسـتمنستر وفي السـوق وفي سـاوثورك South Wark وكانت فرصة كبيرة لتطبيق قـانون ٩ أب ١٦٥٠ (المشار اليه من قبل) ضد التجديف الالحـادي والأراء البغيضة في أعمال كوب وأخيرا استجوبت اللجنة البـرلمانية التي كانت قد استجوبت كلاركسون في ايلول ١٦٥٠ كوب بعـد ذلك بوقت قصير ، واثناء الاستجواب تظاهر السجين بـالجنون واخـذ يلقي بقشور البندق والأشياء الأخرى في انحاء الغرفة ويكلم نفسه .

وفي نيوغيت اســـتقبل كوب زوارا كثيرين « وبـــالجدال الهادي » حول غير قليل منهم إلى الصخابة . وفي النهـاية على أي حال بدأ توتر السجن يحدث أثره ، وفي بداية ١٦٥١ أصدر وهـو في السجن الاعتراض على الاحتجاج الحماسي المخلص لابيزركوب ضد الأراء التجـديفية البغيضـة الواردة في قـانون ١٠ أب ١٦٥٠ (٦ صفحات) (ص ٣١٨) واعقب ذلك بنحو خمسة شـهور بـارتداد كامل بنشره :

« عودة كوب إلى طرق الحقيقة وسـقوط اجنحـة اللفـافة الملتهبـة الطائرة » الخ وفي هذا يعزو كوب سجنه إلى « بعض الأفعال الغريبة والمواقف ... بعض الكلمـات والتعـابير الصـعبة ، والسـوداء ، والصلبة ، والغريبة والقاسية ، وتقريبا بما لم يسمع بـه وقـال عن صخابته السالفة :

« إن أبرز أيام الرب رهبة قد تسلل إلي على حين غرة ، كلص في الليل .... وكان الكأس في يد الرب اليمنى فـوضع في يدي اليمنى ، وكان مليئا حتى الحافة بالنبيذ المسكر ، وشربتـه حتـى الثمـالة . وعندها ولكوني ثملت بجنون تكلمت كلاما غريبـا ، وتصرفـت بمـا لاادري به . ولدهشة بعضـهم والحيرة الشـديدة لبعضـهم الآخـر والأسى الشديد لآخرين وإلى أن فـارقتني الكاس لم ادر مـا قلت او فعلت».

والآن وقد عاد إليه فهمه ، رجا أن تجمع أجنحة اللفافة الملتهبة الطائرة وأن تلقى بلا تردد في مكانها الخاص «بحيرة النار والكبريت ، والهاوية العظيمة التي جاءت منها » . ونتيجة لذلك الالتماس إلى البرلمان ومجلس الدولة أطلق سراح كوب بعد سنة ونصف السنة من السجن ، وفي أيلول وعظ في بيرفورد موعظة الارتداد التي استدعت التعليقات المتشككة لجون تيكل (المقتبسة اعلاه) وبعد ذلك أصبحت حياة كوب بلا مغامرات ولامخاطر وبعد الارتداد مارس التطبيب في باريز تحت اسم الدكتور هيغام حتى وفاته .

أما باكستر الذي تحدث مع كوب ، فكان متأكدا من أنه لم يكن مجنونا ، وتعطي كتابات كوب انطباعا بغرابة الأطوار أكثر من كونها عصابية فقد كان دائما فرديا بقوة ، وأحيانا مشوشا تقريبا ، مع حيوية لفظية لاتنكر ، وهي ذات قيمة كبيرة جدا لفهم ديانة الروح الحرة ، وأكثر وضوحا من أي مصدر أخر ، وتبين هذه الرسائل كيف أن السلوك المتطرف الفوضوي لاتباع الروح الحرة تدفق منها وتغذى بتجارب الجذب الصوفي الظاهري التحليقي ، وهي تلقي كثيرا من الضوء أيضا على « المذهب الاجتماعي » للروح الحرة ، ونجد كوب يؤكد أن كل الأشياء تخص أو يجب أن تخص الرب وحده ، وتدين تماما مبدأ الملكية الخاصة ، والحث على الفقر الرسولي وتحقير الذات العلني ، الذي كان يعتبر عادة صفة مميزة خاصة بالقرون الوسطى يمكن أن يرى هنا نشطا في انكلترا القرن السابع عشر ، ويمكن أيضا أن نلاحظ في تلك الكتابات مدى سهولة ظهور مثل هذا الرفض للملكية الخاصة مع كراهية الأغنياء وهكذا كما في القارة الأوروبية في قرون سالفة ــ أدى إلى ظهور تطرف عنيد متصلب ، وأكثر أعمال كوب أهمية بلاشك ذلك الذي عانى (ص ٣١٩) بسببه من السجن « اللفافة الملتهبة الطائرة » : كلمة من الرب إلى كل عظماء الأرض ، ممن يهمهم الأمر : كونها آخر إنذار ليوم الحساب ، لأن الرب الآن ــ ١ ــ يبلغكم ــ ٢ ــ وينصحكم ــ ٣ ــ ويحذركم ــ ٤ ــ ويتهم ويحكم على

- ١٨٥١ -
العظماء ، وايضا كتبليغ بالغ الحنو والحب والتعاطف فينصح ويحذر لندن من كلمة رهيبة وضربة مميتة من الرب للكنائس مجتمعة . وكله بجلاله الرائع ، يسكن فيه ويشع من خلال بطرس العالمي المعروف بكوب . مع لفافة طائرة أخرى تالية (إلى كل سكان الأرض) طبعت في لندن في بداية ذلك اليوم المشهور ، حيث كشفت أسرار كل القلوب وحيث اكتشفت أسوا الشرور واكثرها كراهة تحت أفضل وانعم المظاهر الخارجية ١٦٤٩ (١٥ صفحة و ٢٢ صفحة) .

-١٨٥٢-

التوطئة

مدخل إلى أرض الميعاد ، هيروسالم الجديدة وبوابة إلى المقالة التالية ، التي تستحق تأملا جادا

عزيزي الأوحد
الكل أو لاشيء
كل واحد تحت الشمس
خاصتي
إن بالغ روعتي وجلالي (في) قد حولت هذه الصورة بشكل مختلف وغريب

وأنظر ، بقدرتي الخاصة (في) التي تحولت في لحظة في رمشة عين عند صوت البوق والآن يهبط الرب من السماء ، بصيحة ، وبصوت كبير الملائكة وبوق الرب ، والبحر والأرض ، نعم كل الأشياء تتخلى عن موتاها ، وكل شيء كان موجودا على الاطلاق هو أو سيكون منظورا .... وهو القبر حيث ملك البهاء (القدرة الخالدة غير المنظورة) ترقد كما لو كانت ميتة مقبورة .

ولكن انظر ، انظر إنه الآن ينهض مع الشاهد ، لينقذ جبل صهيون مع الانتقام ، أو ليلعن ويبتلي كل الأشياء في نفسه وهو الذي بملاكه القوي يعلن (بصوت مرتفع) أن الخطيئة والعدوان قد انتهيا وبلغا أخرتهما ، وحل الصلاح الدائم ، والوعظ الأبدي بالانجيل ، ويؤتى بالانجيل الأبدى بزلزلة أرضية مروعة وهزة سماوية مع علامات وعجائب تالية .

وقد سر جلالتي الممتازة جدا (التي هي الحب الشامل ، وخدمتها هي الحرية التامة) أن تضع هذه الصورة (كاتب هذه

اللفافة) لا كعلامة صغيرة وعجيبة في إسرائيل الجسدية ، كما ربما سترون في المقالة التالية .

والآن (يا اعزائي) : كل واحد تحت الشمس إني سأشير فقط إلى البوابة ، التي اقتدت عبرها إلى المدينة (ص ٣٢٠) الجديدة هيروسالم وإلى أرواح الرجال العادلين المستقيمين ، الذين أصبحوا كاملين وإلى الرب حاكم الجميع .

في البداية خارت قواي وقواتي تماما واحرق البيت الذي سكنته ، وتخلى عني أبي وأخي ، ونفرت مني زوجتي الحميمة ، واهترا اسمي القديم ، وهلك وابتليت تماما واستهلكت ولعنت وصدمت وغرقت في العدم ، في أحشاء الأبدية الساكنة (رحم أمي) الذي خرجت منه عاريا والذي عدت إليه عاريا مرة أخرى ، ونمت وهلة هناك سابحا في الصمت ، وفي النهاية (وقد استيقظ الجسد والهيئة الظاهرية كل تلك الوهلة) سمعت بأذني الخارجية (لخوفي) قصفة رعد مروعة جدا ، وبعدها ثانية ، ومع القصفة الثانية التي كانت بالغة الهول رايت جسما عظيما من النور ، كنور الشمس ، وأحمر كالنار على صورة طبل (كما كان) حيث مع ارتجاف هائل ودهشة في الجسد ، وبهجة لاتوصف في الروح ، شبكت يدي وصحت : لك المجد أمين ، لك المجد أمين .

وهكذا رقدت وأنا أرتجف وادخن (فترة نصف ساعة) وفي النهاية وبصوت عالي (داخليا) صحت ، يارب ماذا ستفعل بي ، وبجلالي الممتاز وبالبهاء الأبدي (في) فأجابني قائلا : لاتخف ساخذك الى اعلى الى مملكتي الابدية ، ولكنك ستشرب (اولا) كاس مرة ، كأسا مرة وعندها (وقد ملئت بدهشة زائدة) القيت في بطن الجحيم (و خذ ما شئت من هذه التعابير)مع أن الأمر يفوق الوصف وكنت بين جميع الشياطين حتى في أكثر مناظرها بشاعة .

وتحت كل هذا الرعب والدهشة كانت هناك شرارة صغيرة من البهاء الفائق الذي لايوصف والتي بقيت وحافظت على نفسها

مبتهجة منتصرة مرتفعة بنفسها فوق كل الشـياطين ، وتخـزي كل السواد والظلام (يجب أن تأخذها بهذه التعابير لأنهـا تفـوق بـلا حدود كل وصف) وبهذا سلبت الحياة من الجسد (فصلا) وهـكذا شبهت ، كما لو أن رجلا معه فرشاة عظيمة غمست في طـلاء أبيض ويجب أن يمحوها بضربة واحدة أو رسم صـورة على جـدار الخ ، وبعد برهة عادت النفس والحياة إلى صورتها مرة أخرى ، وعندهـا رأيت أشعة من النور (في الليل) بدت للعين الظاهرة ، وعلى الفور رأيت ثلاثة قلوب .... ذات لمعان زائد ، ثم عددا لايحصى مـن القلوب المصاحبة على الفور تملأ كل زاوية من الغرفة حيث كنت ، وتشـتتت أفكاري ، كما لو كان هناك قلوب عدة ومع هذا وأشد غرابة بصورة لا توصف تتجمع وتتفرق في وحدة.

ورأيت بوضوح تمايزا وتنوعا واختلافا ، ثـم رأيت الجميع يبتلع في وحـــدة. وأصـــبحت منذ ذلك الحين أغنيتـــي المتـــكررة : في وبدون ، وحدة ، شمول وشمول وحدة ، عظمـة أبـدية الخ...وعند هذه الرؤيا نطق صوت قوي جدا وبهي بهـذه الكلمـات : إن أرواح الناس المستقيمين قد أصبحت كاملة ، ومعه كنت في حالة مشـاركة تامة واضحة مطلقة وفي طريق مـزدوجة مـألوفة أكثـر(ص ٣٢١)

وهكذا أصبحت في الحياة الظاهرة أبدا مع أعز أصدقائي وأقاربي الأقربين لقد امتدت الرؤى والعرض الالهي ويد القدرة الالهية الأبدية الخالدة الي ، وفي داخلي فترة أربعة أيام وليال دون انقطاع:

ولن يتسع الوقت إذا حـدثتك عن كل شيء ولكن ليس مـن الارادة الطيبة والسرور للجلالة الفـائقة الروعة بـداخلي ، أن أعلن المزيد (بعد) أو أن أمضي أبعد كثيرا ، وكان من بين الأصوات المختلفـة التي نطقت وقتهـا بـداخلي مـا يلي :الدم ، الدم ، أين ، أين ؟ في القلب المقـــدس الزائف الخ ، وأخـــرى كمـــــا يلي : الانتقام ، الانتقام ، الطـاعون ، الطـاعون ، لسـكان الأرض ، النار ، النار ، النار ، السيف ، السيف الخ ، وفوق ذلك لاتنحنوا الى أســـفل للجـــلالة الأبـــدية ، الحـــب

الشامل ، ساشفي ، اشفي ، صـومي ، كتـابي ، مـالي اعلن : لاتخش أيا من هذه الوجوه ، اني (فيك) نخيرة من الصخور الخ .

اذهـــــــب الى لندن ، الى لندن ، المدينة الكبرى ، اكتب ، اكتب ، اكتب وانظر ما كتبت انظر عجبا تلك اليد التي ارسلت الي ، وكان فيها ملف من كتاب ستضع له هـذه اليد التي من لحم اجنحة ، قبل الوقت وعندها خطف مـن يدي وسـقط الملف في فمي واكلته فملأ أحشائي حزقيال: ٢ /٨ ونشيد الانشـاد: ٣ / ١ /٢ /٣ حيث كان مرا كالعلقم واستقرت وهي تحمي وتحترق في معدتي حتى اخرجتها في هذه الصورة

وأنا أبعث بها الآن طائرة اليك ، مع قلبي وكليتي.

بطرس العالمي

من اللفافة الملتهبة الطائرة الأولى ، الفصل الأول:

هكذا يقول الرب ، ابلغـكم ، اني اسـقط ، اسـقط. ومثـل الاساقفة وشارل ، واللوردات ، وقد اخذوا دورهم اسـقط وحتـى يأتي دورك بعد ذلك (إنك ستبقى بعد العظماء) تحت اسم او لقـب أيا كان متميزا او جليلا وأيا كنت ، هـذا يضـعني تجـسـاه الرب الخالد ، وهو الحي الشامل ، وخدمته حرية تامة وخلاعة صرفة....

والآن هكذا يقول الرب:

مع انكم قليلا ما تتحملون كلمة المساواةمثل مـا كان الذي ذبـح مؤخرا ومات ، شارل (سلفك الذي ذهب قبلك) وكان كمـا يسـكن هنا الشـيطان كان هنا شـيطان المسـاواة (المؤيد للمسـاواة بين الناس) الذي ، وفي (الواقع) ليس الا ظلا مـرعبا جـدا لأمـور عظيمة ومجيدة وطيبة ستأتي بعد.

انظر ، انظر ، انظر ، انا الرب الخالد رب الحشود المسـاواتي القادر قادم (نعم حتـى عند الابـواب) ليسـوي بـأمانة

جيدة ، وليسوي لبعض الأهداف ، وليسوي مع شاهد ، وليسوي التلال بالوديان ليطرح الجبال لتصبح منخفضة.

أيتها الجبال العالية والأرزات لقد حان الوقت لك لتدخلي الصخور ولتختفي في التراب خوفا من الرب ومن أجل بهاء جلاله ،لأن النظرات المتعالية للانسان ستصبح متواضعة وعجرفة الرجال ستنحني نحو الأسفل والرب وحده سيمجد في ذلك اليوم.. (ص ٣٢٢)

أيتها التلال والأرزات! والرجال الأقوياء! أن الانفاس في خياشيمك. أولئك الذين أعجبوا ، وعبدوا ، والهوا ، وعظموا ونصبوكم وحاربوا من أجلكم ، وضاربوا بالسلع والاسم الطيب ، الأوصال والحياة لك وستتوقف منك.

ولن يكون لكم اعتبار (للجميع) ، (لا احد منكن) أيتها البلوطات القوية الثابتة التي لا تنحني أمام الجلال الأبدي: الحب الشامل ، الذي خدمته حرية كاملة ، والذي خلع الأقوياء (تذكر ، تذكر سلفك) والذي يخلع الأقوياء من مقاعدهم ، ويرفعهم من درجاتهم الدنيا والمسوي الأعظم ، يطرح الجبال في الأسفل ويسوي التلال التي في الانسان.
ولكن هذا ليس كل شيء.

لأني انظر اني ات (هكذا يقول الرب) بالانتقام لأسوي شرفكم أيضا شرفكم ، وثرواتكم ، ولألطخ فخر بهائكم ولأزدري كل مبجل (من الأشخاص والأشياء) على الأرض ، اشعيا: ٢٣ / ٩.

ولأن هذا الشرف ، والنبل ، والمنزلة ، واللياقة ، والغنى ، الخ (دون معارض) كان أبا للتفاخر الجحيمي المروع والغطرسة والتعالي والعجرفة والقتل ، والخداع وجميع مذاهب الشر والعقوق ، نعم كان هو المسبب في كل الدماء المسفوكة من الصالح هابيل الى دماء آخر المساواتيين الذين أطلق عليهم الرصاص حتى

- ١٨٥٧ -

الموت ، والآن (بينما أعيش يقول الرب) لقد جئت لأحقق من أجل الدم ، والقتل والتفاخر الخ .

إني أرى جذر كل ذلك ، إن البلطة موضوعة على جذر الشجرة (من قبل الرب الخالد ، أنا ، يقول الرب) سأقطعها وبينما أعيش ، سأبتلي شرفكم ، والأبهة ، والعظمة ، والغنى وأمزجه بالطهر والمساواة والمشاركة ، إن عنق الفخر ، والقتل وتعمد الأذى والطغيان الخ.

يمكن أن تقطع بضربة واحدة ، وإن ذاتي ، الرب الخالد ، الحب الشامل قد يملأ الأرض بالحب الشامل ، والسلام الشامل والحرية التامة ، الأمر الذي لا يمكن مطلقا أن يتحقق بالسيف البشري والقوة...

الفصل الثاني:

هكذا يقول الرب: كونوا عاقلين الآن ، أيها الحكام الخ ، كونوا راشدين الخ قبلوا الشمس الخ ، نعم قبلوا الشحاذين ، والسجناء دفئوهم ، أطعموهم ، واكسوهم ، وأعطوهم مالا ، خففوا عنهم ، حرروهم ، استقبلوهم في منازلكم ، كل ذرة بالجودة نفسها (واذا دخلت في منافسة معكم) هم في بعض الدرجات أفضل منكم مرة أخرى أقول: اعترفوا بهم ، إنهم ذواتكم وحدوهم معكم والا اذهبوا لتذبحوا في الجحيم ، انبحوا من أجل البؤس الذي سيحكم بكم ، انبحوا •

إن ظل المساواة نفسه ، مساواة السيف ، مساواة الرجال ، قد أفزعتكم ، (ومن مثلكم يمكن أن يلومكم ، لأنها هزت مملكتكم ؟) ولكن قوة المساواة (ص ٣٢٣) آتية الآن .

إن الرب الخالد ، المساواتي القادر آت نعم آت بل إنه عند الباب ، وماذا ستفعلون في ذلك اليوم...

ان أذاني مملوءة حتى الحافة بصيحات المساجين المساكين صيحات نيوغيت لدغيت (المرحومة) التي يندر أن تبرح أذاني.

تلك الصيحات الحزينة ، خبز ، خبز ، خبز لله ، تحرق أذاني وقلبي اني لم اعد اتحمل بعد الآن.

إن ويرفور ترفعك بسرعة الى كل سجون المملكة إنحن أمام أولئك الفقراء ، المقرفين ، الحقيرين ، البائسين ذوي الأسمال ، قولوا لهم ، لخدمكم المتواضعين ، ايها السادة (بدون تعليق) إننا نطلقكم احرارا ونخدمكم الخ..

افعلوا هذا والا (بينما أعيش) فإن عيونكم (على الاقل) سوف تقتلع وتحملون اسرى الى أرض غريبة.

....افقدوا فرق الشرور ، وضعوا الاحمال الثقيلة ، واعطوا المضطهدين حريتهم ، واكسروا كل نير ، وزعوا خبزكم على الجوعى

وادعوا الفقراء الذين طردتموهم(من كل من البيوت والمعابر) الى بيوتكم.

اكسوا العراة لا تخفوا انفسكم عن الجسد الذي يخصكم ، عن المقعدين ، والمتشردين ، والشحاذين ، إنهم من الجسد الذي يخصكم ومعاشري البغايا ، واللصوص الخ إنهم جسد من جسدكم وسرقتهم وعهرهم جسد من جسدكم ايضا ، وجسدكم الخاص لابد ان عشرة اضعاف منه فيكم ، من ذلك الذي يتصرف ظاهريا بأي من الطريقتين ، تذكروا ولا تحولوا عيونكم عن جسدكم

كفوا عن أذى منتصف الليل

دعوا وصمة العار للحرف (م) فقط

لا تـــــكونوا بعـــــد الآن هـــــكذا مروعين ، جهنميين ، وقحين ، متكبرين ، أشرارا اذ للحكم على ما هو خطيئة ، وماليس كذلك ، وما هو شر ومـــاليس كذلك ومـــا هـــو الكفر وماليس كذلك.

لأنك أنت وكل الهتك المبجلين ، الذين يدعون هكذا (اولئك الذين يتكهنون للعشور ، يســتأجرون ، ويدفعـــون المال ويخـــدمون الرب يسوع المسيح من أجل بطونهم) يجهلون هذا الشيء الواحد.

إن تلك الخطيئة والعدوان قد انتهت إنها مجرد لغز لا يمكنهم بكل علمهم البشري أن يحلوه.

ولا هم يستطيعون فهم ما هو الشرف الطاهر الملفوف في شــعار الملوك ، الشر عندهم هـــو الشر الذي يفـكرون بــه ، وهناك بعض (الذين يعتبرون نفاية كل الأشياء) من هم فرسان نبلاء أصــحاب وسام ربطة الساق ، الذين منذ حصـولهم عليه لم يقـدروا أن يروا شرا ، أو يفكروا بشر أو يفعلوا الشر ، أو يعرفوا الشر.

إن كل ما يتحدثون عنه هو الدين والشرف الذي يفعلونه ، ولكنكم جميعا يا من أكلتم من شــجرة المعــرفة بـالخير والشر ولم تـدعوا عيونكم الشريرة تقتلع ، تســـمون الخير شرا والشر خيرا والنور ظلاما والظلام نورا ، والحقيقة تجديفا والتجديف حقيقـة وانتـم في هذا الوقت ، وقت أبيكم الشيطان ، وأخيكم الفريسي الذي مـا زال يقول عن المسيح (وهو الحي الآن) دعونا لا نقول أن له شيطان .

انتبهوا ، انتبهوا ، انتبهوا(ص ٣٢٤)

ان اللوطيين العمي الذين قد دعوا الملائكة رجـالا لم يروا فيهـم انذاك سوى صور الرجال ، هنالك مـلائكة(الآن) يهبـطون مـن السماء في صور وأشكال الرجال وهم كليا من انتقـام الرب ، وهـم مكلفون بصب بلاء الرب على الأرض وتعذيب السكان هنا.

- ١٨٦٠ -

وقد عرفت بعض هذه الملائكة كذلك

ونظرت اليهم كشياطين ، واعتبرتهم شياطين متجسدين ، وركضت من مكان لآخر لاختبيء منهم ، متجنبا صحبتهم ، وخجلت تماما عندما شوهدت معهم.

ولكن بسبب جهدي ، اصبت بالطاعون وتعذيب بما يفوق الوصف. حتى أني الآن يقينا ارى واحدا من هؤلاء الملائكة يصب بلاء الرب ويلعن ويطلب من الآخرين أن يلعنوا بمرارة.

وإني يقينا أسمع ملاكا قويا (في الانسان) يقسم قسما مغلظا ، ويرى روح نحميا (في اي صورة للرجل او المرأة) تركض نحو يهودي غير نظيف (قديس مدعي) ويمزق شعر رأسه كرجل مجنون ، وهو يلعن ويجعل الآخرين يسبون ، ثم أسمع مشيخانيا متحمسا ، مستقلا ، أو روحيا عقائديا ، يصلي ، ويعظ او يتدرب.

حسنا للطاهرين كل شيء طاهر ، لقد ازال الرب اللعنة هكذا ، إن اللعنة لدى بعضهم تلك التي تؤيد السباب واللعنة فيهم هي اشد بهاء من الصلاة والوعظ لدى آخرين.

وما طهره الرب لاتقل عنه أنت غير نظيف.

وإذا ثبت ان بطرس أكبر منتهك للقانون ، وذلك بفعل ما كان بنفس درجة كراهة قتل انسان إذا اكل في النهاية (مع انه كان مشمئزا في البداية) ما كان شائعا وغير نظيف الخ (إني لا أعطي سوى لمحة) لا تلوموه ، وأقل من ذلك ارفعوا اصبعا ضده أو رسخوا قانونا جهنميا ــ ضده ، لئلا تبتلوا ، وتلعنوا ايضا على دينكم الأعمى المتحمس ، والقداسة اللحمية التي تنتن الآن على الأرض ، مع ما كان لها من نكهة طيبة في السالف.

ولكن اه ايها الصالح المقدس المتحمس المتدين التقي (أيا كنت) الذي يرى الشر او اي شيء غير طاهر هل تسب ، إذا تجرات ، وإذا حدث (أعتقد) سألقي بك في الجحيم من اجل ذلك (هكذا يقول الرب) واضحك من دمارك.

بينما الملائكة (في صور رجـال) سـيقسمون بـالقلب ، والدم والجراح ، وبالرب الخالد الخ ، في طهارة عميقة وفي جلال واجـلال عال.

من الفصل الثاني للفافة الملتهبة الطائرة:
(هكذا قال الرب)

اقــول (مــرة اخــرى) وزعوا مــالي الذي لديكم... على المقعدين ، والمجذومين ، نعم ، والمشردين واللصوص والعـاهرات والنشالين ، فهم لحم من لحمكم ، وكل ذرة بنفس طيبة مـا فيكم في عيني ، أولئك المستعدون الموت جوعا في سجون مزعجة في زنزانات قذرة،والا بنفسي ، هكذا يقول الرب ، ساعذبكم نهـارا وليلا داخليا أو خارجيا او في الحـالتين ، إن إصـبعي الصـغير قـريبا (ص ٣٢٥)سيكون أثقـل عليكم ، خـاصة عليكم ، أنتـم ايهـا المقدسون الصالحون المتدينون المحسـنون كمـا كانت في حينه على فرعون والمصريين في الزمن القديم ، سـتبكون وسـتنبحون للمآسي التي ستحل بكم فجأة ، لأن ثروتكم فاسدة الخ ،و حيث إ نهـا غير سليمة فإنها تناسب بلاء الرب فيكم.

إن بلاء الرب في اكياس نقـودكم ومخـازن حبـوبكم وبيوتـكم وجيادكم إن طاعون الماشية سيأخذ خنازيركم (آه ايها الخنزير في الأرض) التي ستذهب قريبا الى السكين وتعلق في السـقف ، عدا العفن المسبب للذبول ، والجراد واليسروع ، نعم سـتحرق بيوتـكم وبضائعكم ، وتؤخذ فاكهتكم وقمحكم ، والعث سـيلتهم مـلابسكم والدنف ستصيب أغنامـكم ، الم تـروا يدي تلك السـنة الماضـية ممدودة؟

إنكم لم تروها

إن يدي ما زالت ممدودة

إن ذهبكم وفضتكم مع انكم لا ترونها ، تفسد ، والصـدأ فيهـا

شاهد عليكم ، وفجاة لانه منْ قبل الرب ، إنه يوم الحساب الرهيب هكذا بقـــول الرب سأكل لحمـــكم كمـــا تفعـــل النار ، جيمس : ٥ / ١ ـ ٧

إن صدأ فضتكم ، اقول سيأكل لحمكم كما لو كان نارا...
سلموا ، سـلموا ، سـلموا ، سـلموا بيوتـكم ، وجيادكم وبضائعكم ، وذهبكم واراضيكم ، سلموا لا تحسبوا ان شـيئا ملكا لكم ليكن كل شيء مشاعا والا فابتلاء الرب سيصيب ويلتهـم كل مـا لديكم بالرب ، بذاتي ، ذات الرب ، هكذا يقول الرب إنه الحق.

تعالوا اعطـوا لكل الفقـراء واتبعـوني وسـتكون لكم كنوز في السماء.

الفصل الثالث

قصة غريبة ، ومع ذلك فهي صحيحة جدا تحتها يكمـن السـبب الذي يجعل زئيره جميع الحيوانات في الحقل تـرتجف وكل الممـالك الأرضية تهتز...

اتبعـــوني انتـــم والتقـــوا بـــه في يوم الرب الأخير في ٣٠ ايلول ١٦٤٩ في حقل مـكشوف إنه رجـل ممسـوخ شـديد الغرابة ، يلبس ثيابا مرقعة ، هو الذي ينظر الي بلهفـة ، وتشـفق عيني عليه وقلبي ، ان يوم الرب الذي يحترق بداخلي كالفرن يشعل لساني لهبا كي اتكلم معه كما يلي:

ايها الصديق هل أنت فقير؟
اجاب نعم ياسيد فقير جدا

وبينما كانت احشائي ترتجف بـداخلي وتـرتعش سـقطت على الصدر الذي اكله الدود (أعني جسدي) حتـى أني لم اسـتطع أن امسك بمفصل ثابتا .

والحب الكبير بداخلي (وهو الرب الكبير ضمن هذا الصدر أو الجسد) كان يحترق حرارة تجاهه ، وجعل ثقب قفل الصدر يحتال على فم الجسد مرة أخرى ليفتح : هكذا

هل أنت فقير ؟
نعم فقير جدا ، قال :

وعندئذ فإن المرأة الغريبة التي تتملق بشفتيها ، واللطيفة بقلبها قالت بداخلي ، إنه فقير بائس أعطوه بنسين . (ص ٣٢٦)

ولكن فخامتي وجلالي (بداخلي) احتقر كلماتها .
وشوش لغتها وركلها بعيدا من حضرته .

ولكن على الفور فإن العاهرة الموهوبة (التي لم احملها خلفي على حصاني) والتي قامت بداخلي قالت :

إنه فقير بائس أعطه ستة بنسات ، هذا يكفي لفارس أو تابع له أن يعطيه لشخص فقير واحد .

إلى جانب (تقول العاهرة الكتابية المقدسة) إنه أسوا مما لايقدمه كافر لعائلته .

إن الحب الحقيقي يبدأ في البيت
إنك وعائلتك تطعمون كالغربان الفتية بشكل غريب .
ومع أنك كنت واعظا دائما فإنك مع ذلك كنت تبغض كلا من العشور والرشوة وأنت لاتعرف بشكل مسبق من الذي سيعطيك مايساوي بنسا .

اعتن بالفرصة الرئيسة
وهكذا تتملق بشفتيها وكلماتها انعم من الزيت
وشفتاه تقطران مثل قرص العسل والهبت لأسرع بيدي إلى جيبي وأسحب شلنا ، وقلت للفقير البائس :أعطني ستة بنسات وهاك شلنا لك .

فأجاب لاأستطيع فليس لدي مطلق بنس
عندها قلت : لقد كنت بسرور سأعطيك شـيئا لو أنك صرفـت لي مالي .

ثم قال هو : ليباركك الرب .

وعندها بتردد كثير ، وحب كثير وبـدهشة (بـطابع صـحيح) اشحت براس حصاني عنه وركبت مبتعدا ، ولكن بعـد بـرهة مـن تحولي عنه (وبناء على نصيحة من ديميلدس) لأرجوه أن يطلب ستة بنسات ، التي سأتركها في المدينة التالية عند منزل أحدهم الذي اعتقدت أنه ربما يعرف (شبيه سافيرا) انه ينأى بنفسه عن الباقي

ولكن (كما حكم علي الرب) فإني وهي سقطناميتين ، وانظـر بلاء الرب الذي سقط في جيبي وصدأ فضتي قـد نهض ليشـهد علي والتهم لحمي كما لو كان نارا حتى اني ومالي هلكنا معا .

والقيت في تلك البحيرة من النار والكبريت .

وكل المال الذي كان حولي حتى البنس (مع اني فكرت بتحريض عشيقتي السالفة على الاحتفاظ ببعضه وبعد أن ركبت نحو ثمـانية أميال دون ان اكل ملء فمي خبـزا في ذلك اليوم ، ولم أشرب سـوى جرعة واحدة مـن الشراب ، وكان علي ان اركب مـابين ثمـانية او تسعة أميال اخرى ، وهنا ابلغ نهـاية رحـلاتي : ولكون حصـاني كسيحا ، والطرق قذرة والسماء تمـطر كل الطـريق ، ولا ادري أي فرصة استثنائية ستكون امامي للمال) ومع ذلك (اقول) إن صدأ فضتي قد قام ليقف في الحساب ضدي ، ويحرق كالنار :والخمسـه من جيمس رعدهذا الانذار في اذاني حتى اني كنت مسرورا ان القي بكل مالدي في يديه ذاك الذي كانت صورته ملطخة اكثر من صورة أي إنسان أخر رايته .

إن هذه قصة حقيقية ، اكثر صدقا في التاريخ وهي صحيحة ايضا في الخفاء.(ص ٣٢٧)

وهناك أخرى عميقة تكون تحتها لانها ظـل لاشـياء(مـع انهـا غريبة) غريبة متنوعة ستحدث .

وللعودة بعد أن القيت بنقودي الصدئة الفاسدة .

بين أيدي الفقير البائس ركبت مبتعـدا عنه وانا ارتجـف سرورا ودهشة وأنا استشعر بالبهاء العظيم الذي ينهض مـن تحـت هـذا الرماد وبعد هذا اضطررت (بـالقدرة الألهية التـي سـكنت هـذا الصندوق او التابوت) أن أحول رأس حصاني وعندهـا رأيت هـذا الفقير الممسوخ البائس ينظر بلهفة إلي على ذلك اضطررت ان أرفع قبعتي وانحني له سبع مرات وامتلأت (في هذا الوضـع الغـريب) بالرجفة والدهشة وظهرت بضع شرارات بهية ايضا من تحـت هـذا كما فعلت أيضا من تحت هذا الرماد ، ومـع ذلك ركبـت عائدا مـرة أخرى نحو الفقير البـائس وأنا أقـول : لأني ملك فعلت هـذا ولكن لاداعي لأن تخبر أحدا .

اليوم الذي يخصنا

لقد كان هذا في يوم الرب الأخير ٣٠ أيلول من عام ١٦٤٩ ، وهو عام جزاء الرب لصهيون ، ويوم انتقامه ، يوم الحسـاب الرهيب ، ولكني فعلت (للوقت الراهن) بهذه القصة لأنها الجزء الأخير مـن عام ١٦٤٩ .

الفصل الخامس :

إن حملة المؤلف النبيلة الغـريبة على العـظماء وحملتـه الأكثـر تواضعا تجاه الشـحاذين والمشردين والغجـر : إلى جـانب إعلانه الكبير أي بهاء سيشرق من تحت كل هذا الرماد ....

ولأني ظهرت لأولئك الذين لم يبحثوا عني
ولأن بعضهم يقول الن تخبـرونا مـاهي تلك الأشـياء التـي تفعلونها ؟

وبسبب اني كنت الوح لعرباتي الكثيرة المحملة ، وللمئات العديدة من الرجال والنساء من ذوي المراتب الأعظم في الطرقات المكشوفة ويدي مكشوفة وقبعتي مشرعة ، وأن المع بينهم لو كنت انظر من خلالهم ، واصر بأسناني لبعضهم ، ونهارا وليلا بصوت هائل مرتفع أعلن يوم الرب عبر لندن وساوثورك ، واترك الغائصين والمستغلين المختلفين الآخرين الخ ، إن شعوري بالرضا والسرور (فقط) لاني اميز القصة السالفة عن مسيلاتها .

(أي) بضم وتطويق واحتواء وتقبيل مشوه بائس في لندن لم يعدله وجه في أنفه ويكون لي على ظهر يدي (ثقبان فقط في المكان الذي يوجد فيه الأنف عادة) .

ولاتظهر العينان بعد ذلك على ظهر يدي ، وبعد ذلك تركضان إليه بطريقة غريبة مع نقودي التي أعطيها له ، لبهجة بعضهم ولخشية وحيرة بعض المشاهدين الآخرين .

وايضا بالسقوط والانبطاح على الأرض امام المشردين والشحاذين والمقعدين من اعرج ومعوق واعمى الخ ، وتقبيل اقدام العديد ، والنهوض ثانية وإعطائهم المال الخ ، إلى جانب هذا العمل المشهور بسوء السمعة مع الغجر والذين امضو فترات طويلة في السجون (اخوتي واخواتي جسد من جسدي وبطيبة اعظم لورد في انكلترا) في سجن ساوثورك قرب (ص ٣٢٨) كنيسة سان جورج

والآن ذلك الذي ينهض من تحت كومة من الرماد سيلهب كلا من الارض والسماء ، إن المرء ليخجل ويحمر خجلا بالفعل ، وبعضهم يترنح جيئة وذهابا مثل رجل ثمل .

وبسبب ذلك يقول الرب : اسمعي ايتها السماوات واصغي ايتها الأرض . ساقلب ، ساقلب ، ساقلب ، إنيّ الآن الطخ غرور كل بهاء وساضع موضع الازدراء كل اشراف الأرض اشعيا : ٢٣ / ٩ ليس فقط الأشخاص ذوي المقام الرفيع (الذي سيكونون موضع انتقام ،

إذا لم ينحنوا للحب الشامل للرب الخالد ، الذي خدمته هي الحرية الكاملة) ولكن الاشياء المشرقة مثل شيوخ الكنائس ورعاة الابرشيات وزملاء الجمعيات الخيرية والكنائس والطقوس الدينية والصلوات الخ والقدسية والصلاح والديانات من كل الأنواع من أعلى أوج ، نعم والروحانيون والصوفية ، الذين يحتقرون الأوامر الجسدية إنني في فعلي الغريب ، وعملي ، عمل الغريب ، الذي تطن له كلتا اذني من يسمعه .

إني اشوش وابتلي واعذب اللطيفين المحتشمين ، العاقر ميكال ، يحمل داود غير المناسب ، بالقفز والوثب والرقص مثل واحد من المجانين التافهين الوضيعين من الرفاق ، بلا خجل وبحقارة وعاريا أيضا أمام الوصائف .

.... إنه اللحم والشراب للملاك (لايعرف اي شيء ، ولاخطيئة) ليقسم إيمانا مغلظة الرؤيا : ١٠ / ٦ انه لبهجة نحميا أن يدخل كرجل مجنون وينتف شعور الناس من رؤوسهم ويلعن كالشيطان ، ويجعلهم يقسمون بالرب ــ نحميا ١٣ : هل أنت أيها الرجل المقدس (الذي لايعرف الشر) رفعت إصبعك ضد يهودي ، وعضو كنيسة ، وادع رفيقك بالأحمق ، وتمن قرن بازليا له ، أو أقسم اني أؤمن ، وإذا لم تفعل فانك ستنبح في الجحيم لذلك ، وسأضحك من بلوتك.

.... اسمع كلمة أخرى (إن من يضربه يضربه)

كفوا عن صلاة المائدة الرسمية الوضيعة الكريهة قبل أكل اللحوم وبعده ، (إني ادعوها هكذا مع انكم أعدتم تعميدها) كفوا عن واجباتكم المنزلية النتنة والقوانين الانجيلية كما تدعونها لأنه في ظلها يكمن النهش والزمجرة والعض ، إلى جانب والاشتهاء والنفاق المروع والحسد وتعمد الأذى والظن السيء .

كفوا ، كفو وإلا فإن غيركم سيفعل ، سأفعل مرة عندما تفكرون على الاقل فيه ، اجعلوا من طفلكم ثمرة عوراتكم ، الذي ابتهجت به

أرواحكم ، ناموا مـع عاهـرة ، أمـام أعينكم : إن ملك القـدسية المزعجة والصلاح في قوتكم يمـكن أن يندمـج بـالضعة ، وأنتـم ستعودون باللعنة إلى أرحام امهاتكم أرحام الخلود ، وانكم يجب أن تصبحوا أطفالا صغارا ، ودعوا الأبدية الأم والقدرة ، وهي الحـب الشامل ، والذي خدمته هو الحـرية التـامة ، البسـوا واخلعـوا ملابسكم ، قمطوا أطفالكم ، وفكوا قماطهم ، اربطوا وحلوا نامـوا وانهضوا الخ .

.... وبالنسبة لمثل هذا الطفل الصغير إن خلع الثياب جيد كلبسها والملابس الخشنة بجودة الملابس الناعمة ـ إنه لايعـرف الشر ولن يرى الشر بعد الآن ـ ولكنه يجـب أن يفقـد أولا كل صـلاحه وكل (ص ٣٢٩) ذرة من قدسيته ، وكل كسرة مـن دينه ، وأن يبتلى ، وأن يختلط بالعدم (بالأشياء الوضيعة) .

بالأشياء الوضيعة التي اخترتها انا الرب .

ومع ذلك أريك طريقة رائعة جدا عندما تجتاز ذلك ... وبكلمة ، إن قدسيتي المبتلاة القذرة ، البغيضة قد اختلطـت بـأشياء وضـيعة ، وعندها (انظر لقد أطلعتك على سر ووضعت أمامك لغزا) بـأشياء وضيعة ، أشياء وضيعة قد امتزجت أيضـا وبـذلك هـل امتـزجت بالجلال الخالد ، والبهاء الذي لايوصف ، حياتي ، ذاتي .

هناك لغزي ، ولكن لأنه لا السادة ولا الفلسطينين ولاحتى دليلتي نفسها يمكن أن تقراه .

سأقراه بنفسي ، وسوف (فقـط) ألمح إليه هـكذا : إن القبـل عديدة بين المذنبين ـ أشياء وضيعة ـ حسنا ! بـاللعان الجهنمـي واللعنة (كما رويتـه في زمـن قـدسيتي اللحمية) وبـالقبل الوقحة (كما رويتها في حينه) وقدسيتي المبتلاة قد امتزجت والقيت في بحيرة النار والكبريت .

وعندها مرة أخرى بالقبل الداعرة ، امتـزجت القبـل ، والقبـل

الظاهرة صنعت العجلات النارية ، لتحملني سريعـــا إلى صـــدر ذلك الذي تحبه روحي (فخامة جلالته ، ملك البهاء) .

حيث كنت ، حيث كنت ، حيث كنت صممت وعانقـت وقبلت مـــع قبل فمه ، الذي يحب ، هو افضل من النبيذ ، وتـم عندهـا الهيمنة علي تماما بما يتجاوز الوصف وما يتجاوز الاعجاب .

ومـــــرة أخـــــرى إن الشـــــــــهوة عديدة بين المذنبين ــ شيء وضيع ــ والآن إن الأشياء الجميلة تسر عيون النظارة .
والجمال هو أبو الشهوة والحب .

حسنا لقد سرت في الطرقات حبلى بالطفل (الشهوة) الذي منح جمالا خاصا : ولكن بمجيئي إلى المكان ، حيث كنت اتــوقع ان الد ، والتقيت بفضل العناية الالهية بصحبة من الشياطين في المظهر ، رغم أن ملائكة بزجاجات ذهبية في الواقع تفرغ القوارير المليئة ، وبمثـل هذه الكلمات الكريهة البغيضة التي لا يسوغ لفظها .

كلمات تكفي لتصم آذان القدسية المزعجة ، ومثل هـذه الأفعـال المروعة البغيضــة المروعة ، المنظـر الذي كان كافيا ليطفـــىء عيون الرجل المقدس وأن تلقي به ميتا تماما الخ .

وهذه الأشياء الوضيعة (أقـول) الكلمـات والأفعـال ، قـــد تشوشت وانزعج حتى الموت ، الطفل الرحم الذي حبلت به.

بوساطته ومن خلال تلك الأشياء الوضـيعة (كمـا على اجنحـة الريح) حملت الى اذرع حبيبي ، وهو البهاء غير المنظور ، الجلال الخالد والطهر نفسه ، الجمال غير الملطخ ، وحتى ذلك الجمال الذي يجعل كل جمال آخر مجرد قبح ، عندما يوضع أمامه الخ.

نعم هل يمكنك تخيل أن الجوهر لكل الجمال الظاهر ، يجـب ان يستخرج وأن يشكل في جمال هـائل وان يبـــدو كمجـــرد نسـخ (ص ٣٣٠)لذلك الجمال الذي من خلال الأشياء الوضـيعة رفعـت اليه.

الجمال الفائق الذي لا يوصف ، غير الملوث هو تاجي وبهجتي ، وحياتي ، وحبي ومع اني اخذت ولا يمكن ان اكون بلا أشياء وضيعة ، وان اندمج شيئا بالرحمة وشيئا بالحكمة ، ومع اني ايضا كان لي عشيقات بلا عدد لا يمكن أن اكون بدونهن ، ومع ذلك فهذه هي قرينتي ، حبي ، حمامتي ، جميلتي.

الفصل السادس

ومرة أخرى هكذا يقول الرب أنا فيكم ، تلك الجلالة الأبدية ، أخفي صورتك الى حد المسخ.

وانا فيكم ، ايها الأغنياء القساة
آمركم بتسليم فضتكم الهالكة الى الفقراء.
هكذا قال الرب.

إن الملوك والأمراء واللوردات والعظماء يجب أن ينحنوا الى افقر الفلاحين ، وإن الاغنياء يجب أن ينحنوا أمام المشردين وإلا فإني اسف لهم....

حسنا يجب أن نحني جميعا ونحني ، الخ وميوم يجب ان يهتدي... إنها ليست إلا وهلة صغيرة جدا ومع ذلك ، ولن تقول إن ما تملك هو خاص بك الخ...

وما هي إلا وهلة صغيرة والأقوى ، نعم الطهر الأطهر كما يبدو ، الذي ربما وعلى الأغلب يلتمس المزايا والامتياز من الكتاب المقدس ، والعقل الشهواني يجب أن يختلط وان يبتلى بالاشتراك والشمول ، وهناك تصميم اكثر بهاء فيه : ومساواة ومشاركة والحب الشامل ، سيكون في طلب الفخر البغيض المذهل ، والقتل ، والنفاق والطغيان والاضطهاد الخ....

- ١٨٧١ -

الفصل السابع :

انبحوا ، انبحوا أيها النبلاء ، انبحــواأيها الاشراف ،انبحــوا أيها الأغنياء ، للبؤس والمحن التي ستحل بكم.

ومن جانبنا نحـن الذين نسـتمع لوعظ الرسـل ، سـتكون كل الأشياء مشتركة ، ولن ندعو شيئا خاصا بنا.

هل (من فضلكم) حتى يأتي بلاء الرب فتبتلوا ويهلك ما لديكم.
إننا لن نهلك وإننا سنأكل خبزنا معا في وحدة القلب.
وسنكسر الخبز من بيت الى بيت.

الحواشي والمصادر والمراجع

لم يثبت المؤلف في أسفل صفحات كتابه أسماء مصـــادره ومـــراجعه لكل فقرة معروضة ، بل اكتفى بتسمية مصـــادر كل صـــفحة أو عدة صفحات ، واثبت ذلك في آخر الكتـــاب ، ولهـــذا الســـبب أثبتنا بين حاصرتين في النص المترجم أرقام صفحات الأصل ليسهل على مـــن يود من القراء الكرام العودة الى مصادر المؤلف التي ابقيناهـــا على حالها بدون ترجمة للافادة من العناوين بلغاتها الأصلية لأنها جميعا غير عربية.

1 The Tradition of Apocalyptic Prophecy

Jewish and early Christian apocalyptic

Page

19 Later Middle Ages: for lack of better ones, the term 'Middle Ages' has been used here for the period between, approximately, the fall of the Roman Empire in the West and the Reformation; and the term 'later Middle Ages' in a rather broad sense, for the period from c. 1100 to the Reformation.

For general surveys of the Judeo-Christian tradition of millenarian and messianic prophecy: Case, Döllinger (MW), Gry, Hübscher, Hundeshagen, Nigg (1); of the development of Hebrew religion: Oesterley and Robinson, and of that of Hebrew and Jewish eschatology in particular: MacCulloch (1), pp. 376–81.

The possible connexion between Persian (Mazdean) and Judeo-Christian eschatology and apocalyptic is still a matter of debate amongst experts. For contrasting views: Söderblom, pp. 270–320, and Cumont, pp. 64–96; while more recently Cumont's arguments in favour of such a connexion have been accepted by Eliade, p. 126, and rejected by Vulliaud, p. 33.

21 'shall be diverse . . .': Daniel vii, 23.
'came with the clouds . . .': ibid., 13–14, 27.
Jewish apocalyptic: Of course by no means all Jewish apocalypses are concerned with phantasies of this kind.

22 On the development of Hebrew and Jewish phantasies of the Messiah: Klausner; but cf., for their pre-exilic origins, Johnson.
Ezra-Apocalypse, XI–XIII, pp. 608–19.
Baruch-Apocalypse, XXXIX–XL, p. 501; LXXII–LXXIV, p. 518; XXIX, pp. 497–8.

23 Josephus, Book VI, Chap. V (vol. II, p. 108).
On Jewish pseudo-messiahs: Hyamson.
'For the Son of Man . . .': Matthew xvi, 27–28 (= Luke ix, 27). Cf. Matthew x, 23.
On the two eras: Vulliaud, pp. 45 sq.
For a prophecy of the Second Coming, attributed to Christ, but which is altogether in the tradition of Jewish apocalyptic: Mark xiii (= Matthew xxiv, Luke xxi); it seems to date from the 50s. On the vogue of *Baruch* amongst Christians: Charles, vol. II, p. 470.

24–25 Revelation xiii, 1, 7–8, 11, 13, 14; xix, 11, 14–15, 19–21; xx, 4; xxi, 1–5, 10–11.
'Spirit of Truth': John xv, 26; xvi, 13.

26 Tertullian, cols. 355–6.
'shortly': Revelation xxii, 6; and cf. ibid., 7, 20.
'until all should . . .': 2 Peter iii, 9.
Justin Martyr, cap. lxxx, cols. 664–8.

27 Papias, cols. 1258–9. This fragment is preserved in Irenaeus, cols. 1213–14. Cf. *Baruch-Apocalypse*, XXIX, p. 498.
Irenaeus, lib. V, cap. xxxii–xxxiv. The passage quoted is at col. 1210.

28 Lactantius (2), cols. 1090–2. The passage is condensed from Lactantius (1) (*Divinae Institutiones*), lib. VII, cap. xx, xxiv, xxvi; see esp. cap. xxiv, cols. 808–811.
Commodianus (1), pp. 53–61; and (2), pp. 175–80. The fifth century is now regarded as a more probable date for Commodianus than the third; cf. *Oxford Classical Dictionary*, 1949, p. 222.

29 Gog and Magog: These peoples continued to figure in apocalyptic literature throughout the Middle Ages; cf. Bousset (2), pp. 113–31, and Peuckert, pp. 164–71. Originally believed to be living in the far North, they were later placed behind the Caucasus and could therefore easily be equated with the hordes which periodically came out of central Asia. For the origin of the idea see Ezekiel xxxviii–xxxix and Revelation xx, 8–9.

The apocalyptic tradition in medieval Europe

Augustine, lib. XX, cap. vi–xvii (vol. II, pp. 458–84).
On the suppression of the chapters in Irenaeus: Gry, p. 74; and in PL, Note to col. 1210 of Irenaeus.

30 On the Jewish and early Christian Sibyllines: Lanchester. For a recent and convenient edition of these 'oracles': Kurfess (OS). Book VIII was the most important for the development of the Sibylline tradition in medieval Europe.
The standard work on the phantasy of the eschatological Emperor during the Middle Ages is still Kampers (1). See also Bernheim, pp. 63–109; Dempf, pp. 255–6. Kampers (2) deals chiefly with pre-Christian versions of the saviour-king.

31 For the Latin text of the *Tiburtina*: see *Tiburtina*, and Sackur (both OS). This version dates from about 1047. For a bibliographical list of the numerous revisions of the *Tiburtina* known to the Middle Ages: Hübscher, pp. 213–14.

32 For the Latin text of the *Pseudo-Methodius*: see *Pseudo-Methodius*, and Sackur. This translation was made by a Syrian or Greek monk at St Germain-des-Prés in the eighth century.

33 On the influence of the medieval Sibyllines: Kurfess, p. 347, remarks that save for the Bible and the works of the Fathers there was scarcely a writing which had such universal influence during the Middle Ages as the *Pseudo-Methodius*.
For a detailed analysis of the Antichrist symbol: Bousset (1), pp. 142–89.
'shall exalt himself . . .': Daniel xi, 36.
'speak great words . . .': Daniel vii, 25.
St Paul: 2 Thessalonians ii, 4, 9; and cf. Revelation xiii, 13–14.

34 'And it was given . . .': Revelation xiii, 7.
'waxed great . . .': Daniel viii, 10.
For the two Beasts: Revelation xi, xii, xiii.
Hildegard (1), col. 713. Vision XI as a whole is an excellent source for medieval Antichrist lore.

35 On the influence of eschatology upon political judgements in the Middle Ages: Bernheim, pp. 69–101.
On the dynastic exploitation of Sibylline prophecies: Kampers (1), *passim*.

On medieval expectations of Antichrist: Wadstein, pp. 81–158, and Preuss, esp. p. 21.

2 The Tradition of Religious Dissent

The ideal of the apostolic life

37 Recent bibliographies for medieval religious dissent, or 'heresy' are: Grundmann (6); Kulcsár.
38 St Benedict of Nursia, p. 110 (cap. xlviii).
Acts ii.44 and iv.32.
On lay preachers from the eighth to the twelfth centuries: Russell (2).
39 Henry (often, but on insufficient grounds, called 'of Lausanne') is the subject of an abundant literature. For a good recent summary: Russell (2), pp. 68–74.
40 To appreciate the continuity of the tradition of wandering preachers see, e.g., Russell (2), Grundmann (4) and (5), Leff and Williams.

Some early messiahs

41 St Gregory of Tours, p. 437 (lib. X, cap. xxv).
42 'there shall be famines . . .': Matthew xxiv, 7 and 24; cf. Mark xiii, 22.
For Aldebert: Synod of Rome, 745, pp. 108–18. For recent accounts: Russell (1) and, more briefly, Russell (2), pp. 102–8.
44 Major contemporary sources for Eon or Eudes are *Sigeberti Continuatio Gemblacensis*, p. 389; *Chronicum Britannicum*, p. 558; and Synod of Rheims, 1157, pp. 771 sq. William of Newburgh, pp. 97–8 (lib. I, cap. XIX) is partly based on the first two of these. See also *Sigeberti Continuatio Praemonstratensis*, p. 454; *Annales Cameracenses*, p. 517; *Annales Casinenses*, p. 310; *Annales Parchenses*, p. 605; and Otto of Freising, p. 81. For a recent account: Russell (2), pp. 118–23.
'like flies . . .': William of Newburgh, loc. cit.
45 On Eon's following: Otto of Freising, loc. cit.; William of Newburgh, loc. cit. On the famine: *Continuatio Gemblacensis*, loc. cit.; and cf. Alphandéry and Dupront, p. 166.
For the pseudo-Baldwin see below, Chapter 5.
46 'Per *eum* . . .': *Continuatio Praemonstratensis*, loc. cit.
47 On Tanchelm's mission to the Holy See: Pirenne (2) and De Smet.
For the principal sources on Tanchelm see OS under Chapter of Utrecht and *Vita S. Norberti A*. (The account in *Vita S. Norberti B* is more scurrilous and less reliable.) Of modern writers Janssen (1867) and Essen (1912) accepted these early accounts as substantially accurate; but more recent writers, such as Philippen (1934), Mohr (1954) and De Smet (1961) have tried to discredit them and to present Tanchelm as simply a Gregorian reformer, grossly maligned. More recently still, Russell (2), adopts much the same standpoint as the present work.
48 For the monk Henry see above, pp. 39–40.
49 Werner and Erbstösser pp. 265–6, and Werner (2), pp. 385–93, suggest that Tanchelm modelled his behaviour on a tradition, still familiar in the twelfth century, concerning Simon Magus. Simon's group of followers is supposed to have consisted of a number of men and one woman, who represented wisdom (the Gnostic Sophia). The hypothesis is interesting,

but perhaps over-ingenious: the 'Master of Hungary' (Chapter 5) and the leader of the Bohemian Adamites (Chapter 11) also had 'Marys'; and their model was surely Jesus rather than Simon Magus.

50 'many massacres': *Continuatio Praemonstratensis*, p. 449.
Lost biography of St Norbert: Potthast, vol. II, p. 1494.
For documents concerning Norbert's foundations: Fredericq (OS), vol. I, pp. 24–5 and vol. II, pp. 3–6. Cf. Philippen, pp. 256–69.

51 Weber (2), p. 278 (my translation). On the general characteristics of salvationist religion amongst the underprivileged see Weber (1), pp. 245–8; and (2), pp. 267, 276–82, 296–7. For colonial and ex-colonial territories see Bibliography, part 3, on millenarian and messianic movements.
Sundkler, p. 114. (Bibliography, 3).

52 On Shembe: ibid., pp. 278.
Messiah and ruler: ibid., pp. 115, 288.

3 The Messianism of the Disoriented Poor

The impact of rapid social change

56 On peasant kinship-groups: Bloch (2), pp. 163–70, and (3), pp. 190–220; Thalamas, pp. 157–8.

59 On the insecurity of workers in the cloth industry: Carus-Wilson, p. 387.
On the disintegration of kinship-groups: Bloch (3), p. 217; Dupré Theseider, p. 58; Weber (2), pp. 527–31; and in Italy: Tamassia, pp. 112–14.

The poor in the first crusades

61 For a recent and concise account of the political background and the launching of the First Crusade: Runciman (2), vol. I, pp. 93–109. Other reliable accounts in: Chalandon; Grousset, vol. I; Röhricht (4); Sybel; more briefly in Stevenson; and in great detail in the monumental work edited by Setton and Baldwin (esp. Chap. VIII, by F. Duncalf).
Urban on indigence and future prosperity: Robert the Monk, p. 728.

62 On the religious inspiration of the knightly crusade: Rousset (1) and (2). On the other hand the fullest account of the popular movements accompanying the First and Second Crusades, and of the phantasies that inspired them, is that of Alphandéry and Dupront.
On Peter the Hermit and the preaching to the people: Hagenmeyer, esp. pp. 127–51; Alphandéry and Dupront, pp. 69–71.
Peter's acts seem half-divine: Guibert of Nogent (1), p. 142.

63 For the list of catastrophes, 1085–95: Wolff, pp. 108–9. The famine of 1095 is described by Guibert (1), p. 141. Many chroniclers mention the plague, the so-called 'mal des ardents' or 'St Anthony's fire'; e.g. Bernold of Constance, p. 459; *Chron. S. Andreae*, p. 542; Ekkehard of Aura (1), pp. 105–9 (cap. viii) and (2), p. 207; Sigebert of Gembloux, pp. 366–7.
For examples of the new devotional groups: Alphandéry and Dupront, vol. I, pp. 48–9.
On the social composition of the People's Crusade: Baudri of Dol, col. 1070; Bernold, p. 464; Fulcher of Chartres, p. 385; Guibert (1), p. 142.

Urban ignores Jerusalem: in the account of the Clermont appeal given by Fulcher, the earliest and most reliable source, Jerusalem is not mentioned. On the pilgrimage of 1033: Radulph Glaber, col. 680; and on that of 1064: *Annales Altahenses maiores*, pp. 815 sq.

64 On the People's Crusade as an *imitatio Christi*, cf. Erdmann (2), pp. 318–19.
'Rejoice ye . . .': Isaiah lxvi, 10–13.
'the navel of the world . . .': Robert the Monk, p. 729.
On the descent of the Heavenly Jerusalem: Revelation xxi, 1–5, 10–11. For the interpretation of the earthly as a symbol of the heavenly city: Röhricht (1), p. 376, Note 76; Alphandéry and Dupront, I, p. 22; Konrad,
65 (2). On the confusion of the two by the *pauperes*: Ekkehard (1), p. 301 (cap. xxxiv); the city in the sky: ibid., p. 117 (cap. x); the children: Guibert (1), p. 142.
On the sense of election amongst the *pauperes*: cf. Alphandéry (5), pp. 59 sq.
'God has chosen . . .': Raymond of Aguilers, p. 254.
For the miraculous crosses: ibid., p. 272.
On the Tafurs: Guibert (1), p. 242; *Conquête de Jérusalem*, *passim*, and esp. pp. 65 sq.; *Chanson d'Antioche*, vol. II, *passim*, and esp. pp. 254–5. The original versions of both these vernacular epics were composed at the beginning of the twelfth century. The only extant versions are those revised by Graindor of Douai in the early thirteenth century; but the passages concerning the Tafurs do not give the impression of having been much edited. It has often been held that both epics were written by one Richard the Pilgrim, but it seems most improbable that the same author could have written both. The *Conquête de Jérusalem* portrays the crusade from the standpoint of the poor. It is valuable as a guide to the psychology rather than to the external history of the People's Crusade in the East; and what it tells of the Tafurs is their legend. The *Chanson d'Antioche* gives a soberer, less flattering and no doubt factually more accurate account of the Tafurs. For a good recent account: Sumberg.
On the word 'Tafur': *Trudennes*, which Guibert, p. 242, gives as an equivalent of *Tafurs*, is a variant of *trutani*, 'vagrants', 'vagabonds', 'beggars'.

66 'no Franks . . .': *Chanson d'Antioche*, p. 5. Cf. ibid., pp. 254–5, 294–5; and *Conquête de Jérusalem*, p. 230.
'worth far more . . .': *Conquête*, p. 194. In the *Conquête*, p. 72, the *pauperes* of the Provençal army appear in close association with the Tafurs and are described in very similar terms.
On the cult of poverty amongst the Tafurs: Guibert, p. 242.
'The poorest shall take it. . .': *Conquête*, pp. 163.
The Provençal poor 'gallop on horseback . . ': Raymond of Aguilers, p. 249.
'Where are the poor folk . . .': *Conquête*, pp. 165–6. Cf. *Anonymi Gesta Francorum*, pp. 204–5.

67 For the sortie from Jerusalem: *Conquête*, pp. 243–53.
For the princes' view of the Tafurs: *Chanson*, pp. 6–7.
King Tafur urges the barons: *Conquête*, pp. 64–7; is carried from the field: ibid., pp. 82–3; crowns Godfrey: ibid., pp. 191–3; pledges himself to stay at Jerusalem: ibid., pp. 193–5.
For a forced conversion of peasants: *Anonymi Gesta*, pp. 162–4.

68 'the horses waded in blood . . .': Raymond, p. 300.

The Jews of Jerusalem burnt: Ibn al-Qalānisī, p. 48.
'O new day . . .': Raymond, loc. cit. *Cf.* Du Cange (MW) on the sense of *exenitio*.
For the massacre on the roof: *Anonymi Gesta*, pp. 204–6. Cf. *Conquête*, pp. 178–9.
First great massacre of European Jews: There had been some attacks on Jews in Spain at the time of the 'crusade' against the Moslems there in 1064; but they were on a far smaller scale. For a modern account of the massacres which accompanied the First and Second Crusades: Parkes, pp. 61–89.
'peace was established . . .': Sigebert of Gembloux, p. 367. On the massacres in France: Guibert (2), p. 240; Richard of Poitiers, pp. 411–12.

69 On the happenings at Speyer and Worms: Anonymous of Mainz-Darmstadt, pp. 171–2; Eliezer bar Nathan, pp. 154–6; Salomo bar Simeon, p. 84; Bernold of Constance, pp. 464–5. For critical examinations of the Hebrew sources: Elbogen; Porgès; Sonne.
For Mainz: Anonymous of Mainz-Darmstadt, pp. 178–80; Eliezer, pp. 157–8; Salomo, pp. 87–91; Albert of Aix, p. 292; Annalista Saxo, p. 729.
For Trier: Salomo, pp. 131 sq.; *Gesta Treverorum, Continuatio I*, pp. 182, 190.
For Metz: Salomo, p. 137.
For Cologne: Eliezer, pp. 160–63; Salomo, pp. 116 sq.
For Regensburg: Salomo, p. 137.
For Prague: Cosmas of Prague, p. 164.
On the monk Rudolph: Ephraim bar Jacob, pp. 187 sq.; Otto of Freising, pp. 58–9; *Annales Herbipolenses*, p. 3; *Annales Rodenses*, pp. 718–19 (a contemporary source, and one which favours Rudolph as against St Bernard); *Annales S. Jacobi Leodiensis minores*, p. 641. For Bernard's own comments: Bernard (3) and (4). For a modern account: Setton and Baldwin, pp. 472–3 (by V. G. Berry).

70 'Come to us . . .': Joseph ha-Cohen, p. 24.
Jew-killing earns forgiveness of sins: Anonymous of Mainz-Darmstadt, p. 170.
'We have set out . . .': Guibert (2), p. 240; Richard of Poitiers, p. 411.
'Jesus said . . .': Salomo, pp. 88–9.

4 The Saints Against the Hosts of Antichrist

Saviours in the Last Days

71 On the 'signs' and 'the Last Trump': Ekkehard of Aura (1), pp. 54–6 (cap. ii). The 'signs' are those listed in the prophecy of the Parousia in Mark xiii.
Adso, monk and later abbot of Montier-en-Der, produced his treatise at the request of Gerberga, wife of Louis IV (d'Outremer). For a recent study of his work and influence: Konrad, R. (1).
The Last Emperor becomes a western monarch: Kampers (1), pp. 30–39.

72 Benzo of Alba: pp. 605, 617, 623.
On Sibylline prophecies in the First Crusade: Erdmann (1), p. 413, and (2), pp. 276–8; Heisig, *passim*.
On Charlemagne resurrected: Ekkehard (1), pp. 120–21 (cap. xi).
On Charlemagne as pilgrim and crusader: Benedict, monk of St Andrew

on Mount Soracte, writing in the second half of the tenth century, tells (cols 32–6) of a mass pilgrimage to Jerusalem, headed by Charlemagne; but this seems to have contributed little to the growth of the legend. It is only at the time of the First Crusade that we meet the story of an armed crusade led by Charlemagne; notably in the *Descriptio* (OS), which was forged by the monks of Saint-Denis to explain the presence in their abbey of the Crown of Thorns and other relics (the relevant passage is at p. 108). On the dissemination of this legend and its employment as propaganda for the crusades: Rauschen, pp. 141–7. Of the chronicles of the First Crusade the *Anonymi Gesta Francorum*, p. 4, and the appeal attributed to Urban by Robert the Monk, p. 728, refer to Charlemagne's supposed route.

On the sleeping Charlemagne: Heisig, pp. 52 sq.; Kampers (1), p. 58. The sleeping hero, biding his time in cave or mountain, was a common figure in medieval as in other folklore. Belief in the continued existence and future return of King Arthur was particularly widespread and intense; and as for Frederick II Hohenstauffen, see Chap. 6 of the present study.

73 On leaders of the crusade who were seen as the Last Emperor: Alphandéry and Dupront, vol. I, pp. 75, 112, 131; Alphandéry (4), pp. 3–8.

On the cross on the shoulder-blades: Grauert (2), esp. pp. 709–19.

On Emico and his revelations: Salomo bar Simeon, p. 92; Annalista Saxo, p. 729; Ekkehard (1), p. 126 (cap. xii).

On Emico's horde and its fate: Albert of Aix, pp. 293–5; Ekkehard (1), pp. 128–31 (cap. xii). Albert, though often unreliable, is doubtless correct in saying that almost all of Emico's horde proceeded on foot; other chroniclers give the same impression.

For Emico in the mountain: Ekkehard (2), p. 261. On Emico's death in battle while defending Mainz against the Duke of Swabia: Otto of Freising, p. 29.

74 New versions of the *Tiburtina*: Kampers (1), pp. 53–4, describes how the prophecy was revised in the late eleventh and early twelfth centuries so as to make it refer now to the French, now to the German kings.

For the text of the oracle: Otto of Freising, pp. 10–11; and cf. *Annales S. Jacobi Leodiensis minores*, p. 641. The text is preserved also in other chronicles; see Kampers (1), p. 192, Note 32, and (1A), Appendix I, pp. 204–5. On the survival of the name Constans: ibid., pp. 206–7. For the influence of the oracle on St Bernard: Radcke, pp. 115 sq.

The oracle in Germany: Otto says it was studied 'in the Gauls'. But for him, as a learned man, the term 'Gaul' included much territory which by the twelfth century was German. Thus he refers, p. 58, to the *propheta* Rudolph as being active 'in those parts of Gaul which touch the Rhine'. When he means France he tends to speak of 'occidentalis Gallia'.

The demonic hosts

75 On the popular idea of the crusade as a Holy War, and the contrast which this presented with the papal intentions: Erdmann (2), pp. 264–73, 321. Already the Pisan invasion of Moslem-held Sicily in 1087 was seen as a Holy War. A poem written to celebrate its success shows St Michael sounding the Trump as for the battle against the Dragon, and St Peter displaying the Cross, to encourage the burghers in an attack which ends in the slaughter of every single infidel, man, woman and child; see Schneider (OS), poem 25, esp. lines 33–40.

'The Emperor has taken . . .': *Chanson de Roland*, lines 3660–70 (p. 304).
Antichrist already born: According to St Bernard (2), Tanchelm's opponent St Norbert believed this; and so, three centuries later, did St Vincent Ferrer.
Urban on Antichrist: Guibert of Nogent (1), p. 138.
Bernard on Antichrist and Saracens: Bernard (3).
Antichrist and the infidel: Like the idea of an individual Antichrist, the idea of the hosts of Antichrist developed out of Jewish eschatological phantasies which existed before Christianity; cf. Rigaux, esp. p. 402.

76 For Moslems as 'ministers' of Antichrist: Eulogius, col. 748 sq.; Alvarus of Cordova, cols. 535–6.
For Moslems as demons: *Aliscans*, lines 71–3, 1058–61.
On the identification of Jews with Saracens: Bulard, pp. 225 sq. Bulard proves from iconographical evidence that Saracens were even believed to have taken part, along with Jews, in the Crucifixion.
On the social and economic situation of the Jews in the Middle Ages: Baron, Caro, vol. II; Kisch; Parkes; Roth.

77 Antichrist a Jew: For an early example of this belief see Irenaeus, col. 1205. The choice of the tribe of Dan was determined by Genesis xlix, 16–17.

78 For a typical example of the anti-Jewish version of the Antichrist legend: Hippolytus (attrib.), esp. cols. 920, 925, 928, 944. The modern *Protocols of Zion*, which have exerted such enormous influence, derive directly from the Antichrist legend. They first appeared in 1905, in a Russian volume which has as its major theme the imminent imposition of the reign of Antichrist through his Jewish agents: see Cohn (MW).
Adso on Antichrist: Adso, pp. 106–7. In a popular rhyme (quoted in Wadstein, p. 129, Note 3) incest is added to the picture:

Un paillard Juif abominable
Connaîtra charnellement sa propre fille.

On the Jew in medieval demonology: Trachtenberg.
For animals as symbols of Jewry see e.g. the frontispiece to Trachtenberg; for the scorpion in particular: Bulard.
On black magic in the synagogue, see the extract from the *Chanson de Roland* quoted at the beginning of this section.
Jews believed to hold tournaments: Burdach (4).

79 *Pseudo-Methodius*, p. 92.
On Jews in Antichrist dramas: Trachtenberg, pp. 36–40.
On papal policy cf. Trachtenberg, p. 161: '*Constitutio pro Judeis*, expressly forbidding violence, was endorsed by successive popes ten times from its issue in 1120 to 1250.'
On the *role* of Jews as money-lenders see works listed above under p. 76. That Jews in the Rhineland were not yet given to money-lending at the time of the First Crusade seems reasonably certain; see Caro, vol. I, pp. 211–25, and vol. II, pp. 110, 192 sq.; Graetz, vol. VI, p. 402.

80 On the part allocated to pope and clergy in the demonology of various dissident sects and movements: Benz, pp. 307–14, 366–8; Peuckert, pp. 112 sq.; Preuss, pp. 44 sq.
Antichrist the son of a bishop and a nun: Adso in PL, col. 1292.
For St Bernard's view of the clergy: Radcke, pp. 15–17, 102.

81 On the *propheta* of 1209: Caesarius of Heisterbach, pp. 304–7.
For the Whore of Babylon: Revelation xvii, 6, 2; and for the Beast: Revelation xiii, 17.

On the clergy seen as the Beast: Benz, pp. 330–31.
82 'they take no care . . .': Jean le Fèvre, bk. iii, lines 602 sq. (pp. 176 sq.).

Phantasy, anxiety and social myth

85 'clothed in white linen . . .': Revelation xix, 14.
Antichrist as the bad son and the bad father: In an essay published as early as 1912 Ernest Jones analysed the medieval image of Satan in terms of images of the bad father and the bad son. The essay is included as Chap. VI in the work specified in the Bibliography.
86 For the frogs: Revelation xvi, 13; and cf. Lorch's picture of Satan-Antichrist (Plate 2), where scorpions are added to the frogs.
Jews murder Christian children: The charge was revived in the Third Reich. Pictures of rabbis sucking blood from an 'Aryan' child abounded in the official newspaper *Der Stürmer*, which indeed devoted a whole issue (1 May 1934) to the subject; cf. Trachtenberg, p. 243.
87 'the children of God . . .': quoted in Trachtenberg, p. 42.

5 In the Backwash of the Crusades

The pseudo-Baldwin and the 'Master of Hungary'

89 On Fulk of Neuilly: Reinerus, p. 654. For a full modern account: Alphandéry and Dupront, vol. II, pp. 45–64. On the Children's Crusades: see Hecker, Appendix, pp. 346–53, and Runciman (2), vol. III, pp. 139–44, for concise summaries; Alphandéry (3) and Alphandéry and Dupront, vol. II, pp. 115–48 for fuller accounts which deal with the underlying phantasies; and cf. the critical examination of sources by Munro, esp. p. 520.
90 Baldwin seen as superhuman: Cahour, p. 82. Cahour's is the fullest modern account of the pseudo-Baldwin. For a briefer summary: Kervyn de Lettenhove (1). The present account is based mainly on Mouskes (OS), vol. II, lines 24463–25325.
91 On the war against the Countess Joanna: Alberic of Trois-Fontaines, p. 794; Baldwin of Ninove, p. 541; *Chronicon S. Medardi Suessionensis*, p. 722; Mouskes, lines 24839–43. Cf. Cahour, p. 168.
On reverence shown to the pseudo-Baldwin: Mouskes, lines 25117 sq.
92 'If God had come . . .': ibid., lines 24851–5.
'the poor folk . . .': ibid., lines 24741–8; and cf. ibid., lines 24771–2. The social aspect of the movement emerges not only from the account of Mouskes but also from Latin chronicles (some of them admittedly rather late) such as *Chronicon Andrensis monasterii*, p. 579; *Chronicon Turonense*, pp. 307–9; and John of Ypres, p. 609.
For the treaties: Henry III in Rymer, vol. I, p. 177; the Countess in *Gesta Ludovici VIII*, pp. 308–9.
93 On the rising at Valenciennes: Mouskes, lines 25019 sq.
'at Valenciennes people await him . . .': ibid., lines 25201 sq.; cf. ibid., lines 24627–30. Several chroniclers describe the hermit as being the true Count; e.g. Paris, vol. III, pp. 90–91. But modern historians are united in regarding the episode as an imposture.
On the primacy of the French monarchy: Bloch (1), p. 237.

94 On the pretensions of Philip Augustus: Giraldus Cambrensis, pp. 292 sq. Cf. Folz, pp. 277–9.
On the sectarians at Paris: Caesarius of Heisterbach, pp. 304–7.
Mohammed stronger than Christ: Salimbene, p. 445.
The story of the Shepherds' Crusade of 1251 is told in a letter written at the time by a Franciscan of Paris to Adam Marsh and other Franciscans of Oxford, given in *Annales monasterii de Burton*, pp. 290–93; in the *Chroniques de Saint-Denis*, pp. 115–16; by Paris, vol. V, pp. 246–54; by Primat, pp. 8–10; by William of Nangis (1), p. 383, and (2), vol. I, pp. 207–8, 435–6. (William draws largely on Primat.) The present account is based mainly on these sources. The sources specified below are those which bring confirmation or additional information on particular points. For modern summaries: Berger, pp. 393–401; Röhricht (3).
On the 'Master of Hungary': *Chronica minor auctore minorita Erphordiensi*, p. 200; *Chronicon S. Martini Turonensis*, *Continuatio*, p. 476; *Flores temporum*, *Imperatores*, p. 241.

95 On the formation, composition and organization of the horde: Baldwin of Avesnes (attrib.), p. 169; *Chron. min. auct. minorita Erphordiensi*, loc. cit.; *Chronica universalis Mettensis*, p. 522; *Chronique anonyme des Rois de France*, p. 83; Gui (1), p. 697; John of Columna, pp. 123–4; Wykes, p. 100.
The *Pastoureaux* take food by force: *Annales monasterii de Waverleia*, p. 344; Richerus, p. 311.
Their contempt for sacraments and clergy: *Chron. univ. Mettensis*, loc. cit.

96 The *Pastoureaux* at Rouen: *Chronicon S. Catharinae de Monte Rotomagi*, pp. 401–2; *Chronicon S. Laudi Rotomagensis*, pp. 395–6; *Chronicon Rotomagense*, p. 339; *Visitationes Odonis Rigaudi*, p. 575.
At Paris, Tours, Orleans: *Annales monasterii de Oseneia*, p. 100; *Chron. univ. Mettensis*, loc. cit.; John of Columna, p. 124; John of Tayster, p. 589; Thomas of Chantimpré, p. 140.

97 Prestige from killing priests: *Chronicon Normanniae*, p. 214; Gui (1), loc. cit.
The Church in danger: Thomas of Chantimpré, loc. cit.
For the instructions of Henry III: Berger, p. 401, Note 1.
The *Pastoureaux* as Moslems: Baldwin of Ninove, p. 544.

98 On the ultimate aims ascribed to the *Pastoureaux* see the comments at the end of the letter to Adam Marsh.

The last crusades of the poor

98 On the situation in the Flemish towns in the thirteenth and fourteenth centuries Professor Carus-Wilson has recently remarked that 'the conflicts of capital and labour reached an intensity and a violence never since equalled even in the *Hochkapitalismus* of modern Europe. ... By this time the craftsmen (in the cloth industry) had everywhere fallen into dependence upon the entrepreneur' (Carus-Wilson, p. 399). On the relationship between capitalists and proletariat see also Bezold (3); Heer, pp. 469–71; Peuckert, p. 240.
On the change in the situation of the peasants: Nabholz, pp. 493 sq., 503.

99 'The poor man works ...': Tobler (OS), proverb 52.
'each man ought to have ...': quoted by Trachtenberg, p. 221.
'Magistrates, provosts ...': Jean de Meun, lines 11540–49.

100 'I would like ...': *Renart le Contrefait*, lines 25505 sq.

On the *Caputiati*: *Chronicon anonymi Laudunensis canonici*, pp. 705–6 (whence the quotation on 'frantic madness'); Robert of Auxerre, p. 251; and for the early stages of the movement: Robert of Torigny (see under Sigebert of Gembloux), p. 534.
'Sell all thou hast . . .': Luke xviii, 22–5.

101 Dives and Lazarus: Luke xvi, 19 sq.
For the rich as bad sons of Christ: Alphandéry and Dupront, vol. II, p. 197.
On the woman with the snakes: Bernheimer, p. 33; and cf. Heer, pp. 456–60.
On heretics working amongst weavers: Eckbert of Schönau, cols. 13–14; Bernard (1), col. 761.

102 On the People's Crusade of 1309: *Annales Austriacarum*, *Continuatio Florianensis*, pp. 752–3; *Annales Colbazenses*, p. 717; *Annales Gandenses*, p. 596; *Annales Lubicenses*, p. 421; *Annales S. Blasii Brunsvicenses*, p. 825; *Annales Tielenses*, p. 26; *Chronicon Elwacense*, p. 39; *Gesta abbatum Trudonensium*, p. 412; Gui (2), p. 67; John of Winterthur, p. 58; *Continuatio Brabantina* (see under Martin of Troppau), p. 262; Muisis, p. 175; Ptolomy of Lucca, p. 34; William of Egmont, p. 577. See also: Heidelberger, pp. 44–5.
Famines: The list of famines in Curschmann, pp. 82–5, reveals an illuminating fact: major famines occurred in the Low Countries and along the lower Rhine in 1225 (year of the pseudo-Baldwin), 1296 (year of flagellant processions: see Chap. V) and 1309 (year of a People's Crusade); and none are recorded for the intervening periods, long though these were.
On the famine of 1315: Lucas.
On the prophecy: William of Nangis, *Continuatio III*, vol. II, pp. 179–80.

103 On the Shepherds' Crusade of 1320: Gui (3), pp. 161–3; John, canon of St Victor, pp. 128–30 (written about 1322); William of Nangis, *Continuatio II*, vol. II, pp. 25–8 (probably copied from John of St Victor). For modern summaries: Devic and Vaissète, pp. 402–6; Graetz, vol. VII, pp. 277 sq.; Alphandéry and Dupront, vol. II, pp. 257–64. The Jewish chroniclers Usque (writing in Portuguese) and Ibn Verga (writing in Hebrew) tell the story some two centuries after the event, and with much obscurity and confusion. But, drawing on a lost Spanish source, both give valuable particulars not only about the 'saviours' but also about the massacres of Jews in southern France and in Spain: Usque, vol. III, pp. xvi sq.; Ibn Verga, pp. 4–6. Joseph ha-Cohen, pp. 46–7, copies Usque; cf. Loeb, pp. 218–20. Massacres in particular localities have been studied by: Kahn, p. 268; and Miret y Sans.

104 For the Pope's letter see John xxii.
On the class-war in the Low Countries: Pirenne (1).
On revolts in Paris and Rouen: Levasseur, p. 510.

105 A cloth-worker burnt at Ypres: document in Espinas and Pirenne (OS), p. 790.
The most accessible edition of the *Vademecum* is still that specified in the Bibliography under John of Roquetaillade, though the text is defective. Of the twenty *Intentiones* into which the work is divided, No. V prophesies social revolt. On John of Roquetaillade himself: Bignami-Odier. The social prophecy quoted there (pp. 32–3) as possibly originating in a lost work of Roquetaillade would be even more interesting than the *Vademecum* if it were genuine; but internal evidence strongly suggests that it is a fake, of much later date.

106 Of the later prophecies the most celebrated is that produced by the hermit Telesphorus of Cosenza in 1386. Dedicated to the Doge of Genoa, it aimed at bringing Genoa under French rule.

6 The Emperor Frederick as Messiah

Joachite prophecy and Frederick II

108 On Joachim of Fiore: Grundmann (1) and (3); Bloomfield. For an exhaustive bibliography to 1954: Russo.

109 On Joachite influence on modern 'philosophies of history': Löwith, pp. 158–9 and Appendix I; Taubes, pp. 90–94; Voegelin, pp. 110–21 *et passim*.
On the Joachite undertones in the phrase 'the Third Reich': Kestenberg-Gladstein, pp. 245, 283.

110 Forty-two generations: Matthew i, 17.
On Joachism in southern Europe: Benz; and more briefly: Hübscher, pp. 107–32; Morghen, pp. 287 sq. See also the account of contemporary attitudes to Rienzo in Burdach (1), pp. 5–53, *passim* and esp. pp. 1–23.
On the idea of the Angel-Pope, which played a large part in Italian Joachism: Baethgen. The French *propheta* John of Roquetaillade, mentioned in the preceding chapter, was in many respects a Joachite, though a belated one.

111 On the penetration of Joachism into northern Europe: Bloomfield and Reeves. For the influence of Joachism on the idea of the Last Emperor: Reeves (2).
Frederick II as Emperor of the Last Days: Kampers (1), pp. 76–7, 154–5. On Frederick II, see the essays collected in Wolf, G.

112 On the preachers in Swabia: Albert of Stade, pp. 371–2. For a modern account of this movement or sect: Völter; and cf. Bloomfield and Reeves, pp. 791–2; Lempp; Schultheiss, pp. 19–20; Weller, pp. 146 sq.
For the text of the manifesto: Arnold, Dominican (OS); cf. Bloomfield and Reeves, loc. cit.; Bossert, pp. 179–81; Völter.

113 On the monk at Etna: Thomas of Eccleston, p. 568. Cf. Kampers (1), pp. 83–7, which also quotes sources for the belief in the resurrected Frederick in Sicily and Italy. At Tivoli, which being at perpetual loggerheads with Rome naturally adhered to the 'imperial' cause, Frederick's death was mourned in terms taken from the *Tiburtina*; see Hampe, esp. the Latin manifesto at pp. 18–20.

The resurrection of Frederick

113 For the pseudo-Frederick near Worms: *Annales Colmarienses maiores*, p. 211; at Lübeck: *Detmar-Chronik*, p. 367.

114 Principal sources for the story of the pseudo-Frederick of Neuss: Ellenhard of Strasbourg (2), pp. 125–6; *Vita Henrici II archiepiscopi (Treverensis) altera*, pp. 462–3. For an account which is factually less reliable but which shows how the story was reshaped in popular imagination see Ottokar's *Reimchronik*, lines 32324 sq. (pp. 423 sq.). Ottokar, an ex-minstrel writing between 1305 and 1320, seems to have drawn on a version which, circulating amongst the common people in Austria and strongly coloured by pseudo-Joachite ideas, accepted the monarch of

Neuss as the real Frederick II. For modern accounts: Meyer (Victor); Schultheiss, pp. 23–47; Voigt, pp. 145 sq.; Winkelmann.
The pseudo-Frederick a pilgrim: *Continuatio Anglica* (see under Martin of Troppau), p. 252. For his claim to have dwelt underground, see his letter given in the Note to the *Vita Henrici*, p. 462.
For reactions in Italy: Salimbene, p. 537.
German princes recognize the pretender: *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 170.

115 On the pseudo-Frederick as the messiah of the urban poor: Schultheiss, p. 170; Voigt, p. 148.
The pseudo-Frederick promises to rise again: Ottokar, p. 426.
On the execution at Utrecht: *Annales Blandinienses*, p. 33.
The Emperor rescued from the flames: Ottokar, p. 427.
God has decreed his return: John of Winterthur, p. 280.

116 The Emperor and Prester John: Oswald der Schreiber, pp. 1012 sq. and esp. p. 1027.
On the belief in a future emperor-saviour (usually imagined as a resurrected Frederick) in Germany from the fourteenth to the sixteenth centuries: Bezold (4); Döllinger (MW), pp. 317 sq.; Kampers (1), pp. 100 sq.; Peuckert, pp 213–43, 606–29; Rosenkranz; Schultheiss; Wadstein, pp. 261 sq.
'In all countries . . .': Regenbogen. Cf. Oswald der Schreiber, loc. cit.
'one must not let . . .': *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 313.

117 Suchenwirt: quoted in Bezold (3), p. 60.
John of Winterthur, p. 280. The *motif* of the hidden tonsures occurs already in the thirteenth-century pseudo-Joachite tract *Oraculum Cyrilli*. It was to become very popular in Germany; cf. Peuckert, p. 189.
'From the Emperor Frederick . . .': Rothe, p. 426. Cf. his comments (p. 466) on the pseudo-Frederick of Neuss and the many 'who have joined his heresy'.
On the Greek philosopher: Döllinger (MW), pp. 285–6.

Manifestos for a future Frederick

118 *Gamaleon*: For the Latin version: Wolf (OS), pp. 720 sq. (which contains most of it, in the form of a sermon supposed to have been delivered in 1409 or 1439); and Lazius (OS), H 2 (*b*)-H 3 (which contains the ending, under the title *Vaticinia de Invictissimo Caesare nostro Carolo V*). This version is summarized in Bezold (4), pp. 573 sq. For a vernacular German version: Reifferscheid (OS), Document 9. Cf. Döllinger (MW), pp. 349 sq.; Rosenkranz, pp. 516–17.
Reformation of Sigismund: see *Reformation Kaiser Sigmunds* (OS). On this work: Dohna; Bezold (3), pp. 70 sq., and (4), pp. 587 sq.; Peuckert, pp. 198 sq., 220 sq. On the vexed question of authorship see also Beer's introduction, pp. 71–4.
For 'Sigismund's prophecy': *Reformation Kaiser Sigmunds*, pp. 138–43.

119 *Book of a Hundred Chapters*: This work, which survives in a single enormous manuscript at Colmar, has never been edited. The present account is based on the lengthy analysis in Haupt (8) (MW). Cf. Doren, pp. 160 sq.; Franz, pp. 114–15; Peuckert, pp. 224–7.

120 'He will reign . . .'; 'The King will come . . .'; 'I am the beginning . . .': Haupt (8), pp. 202–3.

Abundance of bread, etc.: cf. Revelation vi, 6. Abundance and cheapness of bread, wine and oil are also characteristic of the reign of the future Constans as described in the *Tiburtina*.
The Revolutionary is himself the Messiah: Haupt (8), p. 209.

121 'to smash Babylon . . .': ibid., p. 202; and cf. pp. 163, 208 sq.
'Whoever strikes . . .', and the call to assassinate Maximilian: ibid., pp. 211–12.
'control the whole world . . .': ibid., p. 215.
'Soon we will drink . . .': ibid., p. 212; cf. p. 109.
'the great men . . .': ibid., p. 210.
'Go on hitting . . .': ibid., p. 212; cf. p. 179.

122 For the massacre of 'usurers' and lawyers: ibid., p. 201; cf. pp. 134, 166.
'What a lot of harm . . .': ibid., p. 168, Note 1; cf. pp. 167–72.
'If a person . . .', and comments on the new type of justice: ibid., pp. 164–6.

123 On the ancient German Empire: ibid., pp. 141–5.
On the Latin peoples: ibid., pp. 146–9.

124 On Germany's future destiny: ibid., pp. 156 sq., 200.
'and those that will not accept . . .': ibid., p. 201.

125 Christ taught Jews only: ibid., p. 188.
On patriarch and Emperor: ibid., pp. 156–9.
'The German's once held . . .': ibid., p. 157.

126 On the persistence of phantasies about the reincarnated Frederick: Peuckert, pp. 606 sq.
On the *Bundschuh* of 1513: Schreiber (MW). The millenarian elements in its programme emerge from Documents 20 (p. 89) and 22 (p. 92). Cf. Haupt (8), p. 200, Note 3; Peuckert, p. 625.

7 An Elite of Self-immolating Redeemers

The genesis of the flagellant movement

127 On the beginnings of self-flagellation in Europe: Förstemann, p. 7; Zöckler, p. 36. For the practice at Camaldoli and Fonte Avellana: Damian (1), cols. 415–17, and (2), col. 1002.
The friar: Suso (1), p. 43.

128 The present account of the Italian processions is based on: *Annales S. Justinae Patavini*, p. 179.
For modern accounts of the medieval flagellant movements: Förstemann, which for almost a century and a half was the most comprehensive account, has now been replaced by the symposium published at Perugia to mark the sixth centenary of the first outbreak; see *Il Movimento dei Disciplinati* (MW). Other valuable accounts: Fredericq (1) (MW); Hahn, vol. II, pp. 537 sq.; Haupt (1), (5) and esp. (11); Hübner, esp. pp. 6–60; Lea (MW), pp. 381 sq.; Lechner; Pfannenschmid; Werunsky, pp. 291 sq. For bibliography also: Röhricht (2).

129 The world about to be destroyed: *Annales S. Justinae*, loc. cit.
Salimbene, p. 466.
On the movement of 1261–2 north of the Alps: *Chronicon rhythmicum Austriacarum*, p. 363; *Annales Mellicenses*, Continuations: *Mellicensis*, p. 509, *Zwetlensis III*, p. 656; *Sancrucensis II*, p. 645; *Annales Austriacarum, Continuatio Praedicatorum Vindobonensium*, p. 728; Ellenhard (1), pp. 102 sq. (on the processions at Strasbourg); Henry of Heimburg,

p. 714; Hermann of Altaha, p. 402. The movement also reached Bohemia and Poland: *Annales capituli Cracoviensis*, p. 601; Basko of Poznan, p. 74; Pulkava of Radenin, vol. III, p. 232.
On the debt of the German to the Italian movement: Hübner, pp. 33–92.
For the text of the Heavenly Letter: Closener, pp. 111 sq. The context there is the movement of 1348–9, but internal evidence shows the letter to date from 1262; cf. Hübner, pp. 54 sq.; Pfannenschmid, pp. 155 sq.
The apocalyptic prophecy attributed to Christ: Mark xiii (= Matthew xxiv, Luke xxi).

130 On the social composition of the German movement: *Chronicon rhythmicum Austriacorum*, p. 363. Baszko of Poznan even refers to the flagellants as 'secta rusticorum'. Cf. Hübner, pp. 19–20.
On the flagellants' claims to salvation: Siegfried of Balnhusin, p. 705. The account in Pulkava, loc. cit., is of much later date and doubtful reliability.

131 On the repression in Germany: e.g. *Annales Veterocellenses*, p. 43.
On the flagellants of 1296: Closener, p. 104; and Note 5 thereto. For the famine see above, note to p. 102.
On the Black Death: Ziegler, which now replaces Coulton, Nohl. For Germany in particular: Hoeniger.

132 The flagellants precede the plague: *Kalendarium Zwetlense*, p. 692; *Annales Austriacorum, Continuato Claustroneoburgensis V*, p. 736. Both these sources expressly state that the flagellants were already active in Austria before the plague arrived.
For the progress of the plague across Europe: Lechner, pp. 443 sq.; but cf. Hübner, pp. 12–13.
On the flagellants in England: Robert of Avesbury, pp. 407–8.
For Strasbourg: Closener, pp. 105 sq.
For Tournai: Muisis, pp. 349, 354–5.
Statistics for the Low Countries: *Breve chronicon Flandriae*, p. 26; Muisis, pp. 354–5; and for Erfurt: *Chronicon S. Petri vulgo Sampetrinum Erfurtense*, p. 180.

133 The present account of the organization, rules and rituals of the flagellants is based on: du Fayt, pp. 703 sq.; Henry of Herford, p. 281; Hugh of Reutlingen, pp. 21 sq.; Matthew of Neuenburg, pp. 265–7; Muisis, pp. 355 sq.; Twinger, vol. IX, pp. 105 sq.

134 The ceremony invalidated by woman or priest: Gilles van der Hoye, p. 342; du Fayt, p. 704; vernacular chronicle in Fredericq (OS), vol. III, p. 15.
For the text of the hymns: Hübner.
'Simony had penetrated . . .': Henry of Herford, p. 268.

135 'How contemptible . . .': John of Winterthur, p. 278. The year is 1348.
For the flagellants as saviours: Boendaele, vol. I, p. 590; Closener, p. 119; Fredericq (OS), loc. cit. and p. 18; Henry of Diessenhofen, p. 73; *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 206.
People curse the clergy: Closener, loc. cit.; *Magdeburger Schöppenchronik*, loc. cit.; Muisis, p. 350; Taube of Selbach, p. 77.

Revolutionary flagellants

136 On the earthquakes as 'messianic woes': see Hübner, p. 30, Note 2, for sources.
For the eschatological interpretation of the Black Death: *Detmar-Chronik*, p. 522.

'Plague ruled . . .': quoted in Latin in Hübner, p. 31, where the source is also given.
John of Winterthur, p. 280.
For the great 'astrologer': Michael de Leone, p. 474.
For the intended duration (33½ years): Closener, p. 120.

137 For the enquiry at Breslau see the extracts from the *Quaestio* in Hübner, pp. 22, 24 (Note 1), 29, 47 (Note 2), 204 (Note 1).
The flagellants compare themselves with Christ: Boendaele, vol. I, p. 590; William of Nangis, Continuation III, vol. II, p. 218; chronicle in Fredericq (OS), vol. III, p. 18.
On the social composition of the processions: *Breve chronicon Flandriae*, p. 23; Henry of Herford, p. 282; Hugh of Reutlingen, pp. 51–2; Kervyn de Lettenhove (OS), pp. 30–31; Matthew of Neuenburg, p. 266; Tilemann Ehlen of Wolfhagen, pp. 32–3; also sources in Fredericq (OS), vol. II, p. 136, and in Kervyn de Lettenhove (2) (MW), vol. III, p. 353.
On clerics as *prophetae*: *Chronicon comitum Flandrensium*, p. 226; Closener, p. 118; *Gesta abbatum Trudonensium*, p. 432; and cf. the fourth version of Froissart, quoted in Fredericq (OS), vol. II, p. 131.
For the Bull: Clement VI, pp. 471–2.
The chronicler of the Low Countries: *Gesta abbatum Trudonensium*, loc. cit.
For the Archbishop of Cologne: Synod of Cologne, 1353, p. 471.

138 For Breslau: Klose (MW), p. 190.
On the anti-ecclesiastical attitude and acts of the flagellants: *Chron. comitum Flandrensium*, loc. cit.; *Magdeburger Schöppenchronik*, p 206; *Chron. S. Petri vulgo Sampetrinum*, p. 181; Closener, pp. 115, 119; *Detmar-Chronik*, p. 520; Henry of Herford, pp. 281–2; le Bel, vol. I, p. 225; chronicle in Fredericq (OS), vol. III, p. 18.
For the Pope's complaint: Clement VI, p. 471.
The French chronicler: le Bel, loc. cit.
For a modern study of the accusation of well-poisoning: Wickersheimer; and of the ensuing massacres: Graetz, vol. VII, pp. 360–84; Werunsky, pp. 239 sq.

139 On the happenings at Frankfort: *Annales Francofurtani*, p. 395; Camentz, p. 434; Matthew of Neuenburg, p. 264. Cf. Kracauer (MW), pp. 35 sq.
For Mainz: Henry of Diessenhofen, p. 70; Matthew of Neuenburg, pp. 264–5; Taube of Selbach, pp. 92–3. Cf. Graetz, vol. VII, p. 375; Schaab, pp. 87 sq.
For Cologne: *Annales Agrippenses*, p. 738; *Detmar-Chronik*, p. 275; *Gesta abbatum Trudonensium*, p. 432; Lacomblet, vol. III, p. 391, no. 489 (23 September 1350) (whence the quotation); *Notae Colonienses*, p. 365; Ennen and Eckertz, vol. IV, nos. 314, 385. Cf. Weyden (MW), pp. 186 sq.
For Brussels: Muisis, pp. 342–3.
On the massacres in the Low Countries: Boendaele, vol. I, pp. 588–93; du Fayt, pp. 705–7; Low German translation of Jan van der Beke in Fredericq (OS), vol. I, pp. 196–7.
'most of them . . .': Clement VI, p. 471.
The flagellants attack laymen: ibid.; and *Detmar-Chronik*, p. 275. Cf. Werunsky, pp. 300 sq.

140 Philip V bans flagellation: Muisis, p. 361; and sources in Fredericq (OS), vol. III, pp. 20–21, 116–17, and in Kervyn de Lettenhove (2) (MW), vol. III, p. 358.
Towns resist the flagellants: Erfurt: *Chron. S. Petri vulgo Sampetrinum*,

p. 180; Aachen: Haagen (MW), vol. I, p. 277; Nuremberg: Lochner (MW), p. 36.
On the flagellants of 1400: Zantfliet, p. 358.
Flagellants at Avignon: *Breve chronicon Flandriae*, p. 14; Matthew of Neuenburg, p. 267, Note 2.
For du Fayt's report, see du Fayt (OS); and cf. Fredericq (2) (MW).
On the action of the University of Paris: William of Nangis, Continuation III, vol. II, p. 217; Egasse du Boulay (OS), vol. IV, p. 314.
141 The movement suppressed by ecclesiastical authorities: Andrew of Regensburg, p. 2112; Benessius Krabice of Weitmühl, p. 516; Closener, p. 120; Francis of Prague, p. 599; Froissart, vol. IV, p. 100; *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 206.
The movement suppressed by secular authorities: *Annales breves Solmenses*, p. 449; Tilemann Ehlen, p. 33; and sources in Fredericq (OS), vol. II, pp. 112–18.
'vanishing as suddenly ...': Henry of Herford, p. 282.
On the penance in St Peter's: *Magdeburger Schöppenchronik*, p. 219.
For later prohibitions: the Low Countries and particularly Tournai: Fredericq (1) (MW); Utrecht: Synod of Utrecht, 1353; Cologne: Synods of Cologne, 1353 and 1357, pp. 471, 485–6.
On the Italian movement: Duplessis d'Argentré (OS), pp. 336–7.

The secret flagellants of Thuringia

142 The present account of Schmid and the secret flagellants of Thuringia is based on documents printed in Stumpf (MW) and in Förstemann, Appendix II. For Documents 2 and 3 in Stumpf, which summarize the leader's own opinions, see also Schmid (1) and (2) (both OS). For a modern account of Schmid: Haupt (12); and of the history of the sect: Förstemann, pp. 159–81; Haupt (5), pp. 117 sq., and (11).
On the flagellants of 1348–9 in Thuringia: *Chron. S. Petri vulgo Sampetrinum*, p. 180.
On Thuringia as the centre of the Frederick-cult: Grauert (1); Kampers (1), pp. 97–109.
143 For Frederick the Undaunted as an eschatological figure: Peter of Zittau, pp. 424 sq.; and cf. Grauert (2), pp. 703 sq.
144 On the recurrence of the plague: Haupt (5), p. 118, Note.
For the executions at Nordhausen: Körner (OS), col. 1113.
The Pope encourages the Inquisition: Gregory XI (1).
On the group at Erfurt: Trithemius (1), vol. II, p. 296.
145 On the flagellant movements in southern Europe from 1396 onwards: Förstemann, pp. 104 sq.
On the flagellants at Rome: Wadding, vol. X, pp. 33–4; and cf. Wadstein, p. 89.
Charlier de Gerson: Gerson (4), p. 658, and (5), pp. 660–64.
For the doctrines of the Thuringian flagellants in the fifteenth century: Stumpf, Documents 4, 5 (= Reifferscheid, Documents 5, 6); for emendations and additions to the second document, from another manuscript: Haupt (5). Also Förstemann, document in Appendix II, pp. 278–91.
146 The fifteenth-century Thuringian chronicler: Rothe, p. 426.
On the repression of 1414–16: Körner, p. 1206. Cf., on the preponderant part played by secular authorities in these persecutions: Flade, pp. 80–82.

On the flagellants at Nordhausen, 1446: Förstemann, loc. cit., and pp. 173 sq.
At Sonderhausen, 1454; Stumpf, document 5; Haupt (5).

147 For the last trials of flagellants: Förstemann, pp. 180 sq. In 1468 a monk of Erfurt wrote a tract against the flagellants: see John of Hagen (OS).

8 An Elite of Amoral Supermen (i)

The heresy of the Free Spirit

148 By far the most comprehensive account of the heresy of the Free Spirit is now that in Guarnieri (2); published in 1965, it replaces Mosheim (2) (1790) and Jundt (1875). For briefer accounts published in the last few years: Guarnieri (1); and, down to the fifteenth century only, Leff, vol. I, pp. 308–407. The account in Erbstösser and Werner ignores the established facts, in favour of an *a priori* pseudo-Marxist thesis.
The name 'Free Spirit' was taken from 2 Corinthians iii, 17: 'Where the Spirit of the Lord is, there is liberty.'

149 The existence of the heresy of the Free Spirit was queried for instance by the eminent ecclesiastical historian Karl Müller; cf. Müller (1), p. 612, and (2), *passim*. For an effective reply to Müller (2) see Niesel.
Schwester Katrei: All extant versions contain large interpolations of orthodox Catholic theology. A fair idea of the original can be gained by using together the two published versions; see Pfeiffer, Birlinger (both (OS), and cf. Simon (MW).
For the list of 'articles of faith': Preger (2) (OS).
For the *Mirouer des simples ames* see Porete, Marguerite (OS).
The accuracy of Catholic accounts of the Free Spirit is also borne out by the documents concerning a very similar, though much smaller, movement which existed in Italy during the fourteenth century. They are published in Oliger (MW).

150 On orthodox medieval mysticism: Leclercq, Vandenbroucke and Bouyer. On the relationship between orthodox and heretical mysticism, especially in Germany: Leff, vol. II, pp. 259–94.

151 In the first edition of this book I gave grounds for thinking that the Free Spirit was known in the West already in the twelfth century; but further weighing of the evidence leaves me doubtful.
On the Euchites: Runciman (1), esp. pp. 21–5, 28–9; Guarnieri (2), pp. 272–3.
On the Sufi: Guarnieri (1), pp. 367–70; Guarnieri (2) cols. 1249–50.

The Amaurians

152 For modern accounts of the Amaurian sect: Aegerter, pp. 59 sq.; Alphandéry (1); Delacroix, pp. 34–52; Gilson, pp. 382–4; Hahn, vol. III, pp. 176 sq.; Jundt, pp. 20 sq.; Preger (1), pp. 166 sq.; and works specified below.
The German chronicler: Caesarius of Heisterbach, vol. I, pp. 304–7. The list of individual sectarians given by Caesarius is confirmed by the decree of condemnation; see Synod of Paris, 1209.

153 For the story of Amaury: William the Breton, pp. 230–31. Cf. Hauréau, pp. 83 sq. On Amaury's eminent associates: *Chronicon universale anonymi*

Laudunensis; and Hostiensis (Henry of Susa, Henricus de Bartholomaels) as quoted in Capelle (MW), p. 94.
On Amaury's responsibility: *Chronica de Mailros*, p. 109.
For the tract *Contra Amaurianos*: Garnier of Rochefort (attrib.).
Robert of Courçon: in Denifle and Chatelain (OS), vol. I, p. 79.
Innocent III: in *Concilium Lateranense IV*, cap. ii, p. 986.
On Amaury's own doctrine see, in addition to Caesarius and Hostiensis: Martin of Troppau, pp. 393 sq. Martin, who was chaplain to five popes, died in 1278. His account was adopted in the fifteenth century by Gerson; see Gerson (8), p. 394, (10), p. 1242. Both Martin and Hostiensis may however simply have attributed to Amaury opinions which they found in Erigena. On Amaury and Erigena see Jourdain – whose argument however could not now be maintained in its entirety: the Amaurians were certainly disciples of Amaury, even if errant ones, and not of David of Dinant.

154 'Outwardly, in face and speech . . .': John, Abbot of St Victor.
For the heresy at Troyes: Caesarius, p. 307; at Lyons: Stephen of Bourbon, p. 294.
For the proselytism of the Amaurians: Caesarius, p. 306; *Chronica de Mailros*, loc. cit.; *Haereses sectatorum Amalrici*.
On the doctrine of the Amaurians: Caesarius; Garnier of Rochefort; *Haereses sectatorum*; John, Abbot of St Victor; and the report on the interrogation of the arrested clerics (see Alverny (MW)), which confirms the accuracy of *Haereses sectatorum*. For modern reconstructions of the doctrine: Capelle; Grundmann (2), pp. 355 sq.; Pra.
'He dared to affirm that . . .': *Haereses sectatorum*.
'each one of them was Christ . . .': Caesarius, p. 305.

155 On the theory of successive incarnations: *Haereses sectatorum*; Garnier of Rochefort, p. 30.
The Holy Spirit speaks through the Amaurians: Caesarius, p. 305.
'Within five years . . .': Garnier of Rochefort, p. 51.
On the messianic phantasies of the Amaurians: Caesarius, pp. 305–6.

156 For the sermon of the Abbot of St Victor: John, Abbot of St Victor.
'They committed rapes . . .': William the Breton, vol. I, p. 232.

The sociology of the Free Spirit

157 The sociological significance of the cult of voluntary poverty has long been a subject of controversy. In interpreting voluntary poverty as specifically a movement of the oppressed, some Marxist scholars have certainly distorted the facts. Grundmann (2) deals effectively with such over-simplifications, see esp. pp. 28 sq., 157 sq., 188 sq., 351. Nevertheless the unavoidably poor, particularly urban artisans, played a larger part in the movement, both inside and outside the Church, than Professor Grundmann suggests.

158 For Willem Cornelis: Thomas of Chantimpré, p. 432.
For antinomianism and the cult of poverty at Antwerp c. 1250: document in Fredericq (OS), vol. I, pp. 119–20; and cf. McDonnell, pp. 489–90.
On the female mystic Hadewijch, who also flourished at Antwerp around 1230, and for the Italian Jacopone of Todi, see Guarnieri (1) pp. 362–3, and Guarnieri (2) cols. 1243, 1247.

159 On the derivation of 'beg' and 'beggar' see the Oxford English Dictionary.

On the dress and public behaviour of Beghards: *Annales Basileenses*, p. 197; John of Dürbheim (1), pp. 259–60; Pelayo, vol. II, lib. ii, article 51, para. K; Wasmod of Homburg; Wattenbach (1) (OS). Pelayo, articles 51 and 52, deals at length with the way of life of Beghards, including Brethren of the Free Spirit.

The growing uneasiness with which the clergy viewed Beghards is shown in the decrees of several synods; e.g. (all OS): Synod of Mainz, 1259, p. 997; Magdeburg, 1261, p. 777; Trier, 1277, p. 27 (the date 1227 is an error); Trier, 1310, p. 247; Mainz, 1310, p. 297.

On the way of life of the Brethren of the Free Spirit see, in addition to Pelayo: Schmidt (2) (OS), pp. 224–33; Wattenbach (1) and (2) (both OS).

On artisans as Brethren of the Free Spirit: Conrad of Megenberg; Pelayo (the most relevant passage is quoted in Mosheim (2), p. 290). Evidence for the participation of apostate clerics and of men and women of prosperous families is abundant; and the attempt by Erbströsser and Werner to represent the entire movement as plebeian is misguided.

160 On the position of middle-class widows and spinsters: Power, pp. 413, 433.

On the Amaurians 'in the houses of widows': *Chron. de Mailros*, p. 109, where they are called 'Papelardi'; and *Chron. regia Coloniensis, Continuatio II*, p. 15, where they are called 'Beggini'. On the significance of these appellations: Grundmann (2), pp. 373 sq.; and cf. ibid., pp. 366 sq. For the arrest of the female followers: William the Breton, p. 233.

On the Beguines: Neumann; McDonnell; and for a brief summary: Haupt (9).

161 Monks forbidden to have dealings with Beguines: Synod of Mainz, 1261, p. 1089.

The Franciscan of Tournai: Simon of Tournai, pp. 33 sq.

The East German Bishop: Bruno of Olmütz, p. 27.

On the attitude of the secular clergy: Grundmann (2), pp. 378–84. On the assimilation of Beguines by the Mendicant Orders: ibid., pp. 199–318.

162 The reception given by a Beguine community to an adept of the Free Spirit is described by Conrad of Megenberg.

'Unbelievably subtle words . . .': Nider, lib. III, cap. v, p. 45.

'A man who had great likeness . . .': Ulanowski (OS), p. 248.

9 An Elite of Amoral Supermen (ii)

The spread of the movement

163 For the spread of the Free Spirit along the Upper Rhine: Hartmann (OS), p. 235. Sources for the executions at Strasbourg: in Duplessis d'Argentré, vol. I, p. 316.

For Albertus Magnus: Nider, lib. III, cap. v, p. 45.

For the diocese of Trier: Synod of Trier, 1277, p. 27.

For Cologne: Henry of Virnenburg; Wadding, vol. VI, pp. 108–9; and cf. Mosheim (2), pp. 232–3.

On the two Beghards at Nördlingen: *Annales Basileenses*, p. 194; and cf. Grundmann (2), pp. 404 sq. For the heretical articles see Albertus Magnus (OS). The manuscripts of Albert's analysis known to Preger and Haupt are both only copies. Nider, writing about 1435, claims (loc. cit.) that he saw the original list in Albert's own notebook; but that is lost. Preger

gives as well another list of 29 articles, from an independent source but dealing with the same outbreak of heresy in the Swabian Ries; see Preger (1) (OS). For reconstruction of the doctrine presented by these sources: Delacroix, pp. 60–68; Grundmann (2), pp. 401–31; Preger (1) (MW), pp. 207–12.

163–164 For Marguerite Porete: William of Nangis, *Continuatio II*, vol. I, pp. 379–80; *Grandes chroniques de France*, vol. V, p. 188; Jean des Preis, pp. 141–2. For the condemnation of her book: Langlois (OS). For the sentence passed upon her: Lea (OS). For the letter of Clement V: ibid., p. 578, Note. See also Guarnieri (1), pp. 388–9, 408–13, and on the fate of the book in England, p. 434.

164 On the Council of Vienne: Müller (Ewald), esp. Appendix B. For the Bulls see Clement V.
On ecclesiastical persecution of Beguines: McDonnell, pp. 505–74.
Pastoral letter of the Bishop of Strasbourg: John of Dürbheim (1).

165 On the episcopal inquisition: Lea (MW), p. 370.
Bishop of Strasbourg to Bishop of Worms: John of Dürbheim (2); and for his letter to the Pope: Baluze (1) (OS), vol. III, pp. 353–6.
For the heresiarch Walter: Trithemius (1), vol. II, p. 155; and cf. Mosheim (2), pp. 270 sq.
For the capture and execution of the secret group: John of Viktring, vol. II, pp. 129–30; John of Winterthur, p. 116; William of Egmont, pp. 643–4 (the last being a contemporary source).
For the House of Voluntary Poverty at Cologne: Wattenbach (1) (OS); and cf. *Gesta Baldewini Treverensis archiepiscopi*, p. 144.
For the three Beghards at Constance: John of Winterthur, pp. 248–50; and cf. Mosheim (2), pp. 301–5.
Papal inquisitor appointed: see Innocent VI.
For the adept at Speyer: Nauclerus, pp. 898 sq.; Trithemius (1), pp. 231 sq. See also Haupt (1), p. 8.
For Cologne in 1357: Synod of Cologne, 1357, pp. 482–3.

166 For Nicholas of Basle: Nider, lib. III, cap. ii, p. 40; and the sentence passed on one of his followers, as given in Schmidt (1) (OS), pp. 66–9, and emended in Haupt (4), p. 509. The general argument of Schmidt's book on Nicholas has long since been refuted. For a modern account of Nicholas: Strauch.
For the execution at Mainz: Ritter (OS).
Sebastian Brant: *De singularitate quorundam fatuorum additio*, in Brant (OS), pp. 119–21.
The Free Spirit reaches Bohemia and Austria: John of Viktring, vol. II, p. 130.
The Free Spirit amongst Bavarian Beguines: Conrad of Megenberg.
In the diocese of Würzburg: Haupt (1), pp. 6 sq., quoting from *Monumenta Boica*, vol. XL, pp. 415–21.
For the synod of Regensburg, 1377: Haupt (2), p. 488, quoting from *Monumenta Boica*, vol. XV, p. 612.
For the trial at Eichstätt: ibid., pp. 490 sq.
For the community at Cham: *Errores bechardorum et begutarum*, and Haupt (7).
On measures against Beghards in Bavaria during the fifteenth century: Haupt (2); Lea (MW), pp. 412–13.
For the community at Schweidnitz: Ulanowski (OS).
Synod of Magdeburg, 1261, p. 777.

Matilda of Magdeburg, p. 260.

167 For the scribe at Erfurt: *Gesta archiepiscoporum Magdeburgensium Continuatio I*, p. 434.
For the three Beguines at Magdeburg: ibid., p. 435; and *Erphurdianus Antiquitatum Variloquus*, pp. 134–5.
On the appointment and powers of Kerlinger: Urban V (1); Charles IV (1) and (2). The date of the Bull is however 1368 and not, as given by Mosheim, 1367.
For the repression at Erfurt: Wattenbach (1) (OS); and Nordhausen: Körner, p. 1113.
Erfurt and Magdeburg clear: *Gesta archiepiscoporum Magdeburgensium Continuatio I*, p. 441.
On the Thuringian sect of *c.* 1550: Hochhut, pp. 182–96; Wappler, pp. 189–206.
The Pope's appeal: Gregory XI (2).
Executions at Lübeck and Wismar: Körner, pp. 1185–6.

168 On Groot's struggle against the heresy: Groot (OS), pp. 24–48; and cf. Preger (2) (MW), pp. 24–6.
For Bloemardinne: Bogaert (OS), p. 286. The literature on Bloemardinne is abundant, but adds nothing to the information supplied by Bogaert, who wrote after Ruusbroec's death. However, Bogaert claimed to have his information from a companion of Ruusbroec, John of Schoonhoven; and most historians accept his account as accurate.
Ruusbroec publicly ridiculed: Latomus (MW), p. 85.
Ruusbroec's attacks on the Brethren of the Free Spirit will be found in the works listed in the Bibliography, as follows: Ruusbroec (1), pp. 52–5, (2), pp. 228–37, (3), p. 105, (4), pp. 191–2, 209–11, (5), pp. 278–82, 297–8, (6), pp. 39–52. Ironically, twenty years after his death Ruusbroec himself was accused of heresy, by Gerson; see Combes, *passim*.
On the appointment of inquisitors in 1410: Latomus, p. 84.
For the *Homines intelligentiae*: *Errores sectae hominum intelligentiae*; and cf. Altmeyer, pp. 82–3.

169 For the Bull of 1365: Urban V (2).
On the Turlupins: Gaguin, lib. IX, p. 89; Baronius and Raynaldus, vol. XXVI, p. 240. See also Du Cange, under 'Turlupini'. On the probable origin of the name: Spitzer.
Gerson's comments will be found in the works listed in the Bibliography, as follows: Gerson (1), p. 19, (2), p. 55, (3), p. 114, (6), pp. 306–7, (7), p. 369, (9), p. 866, (11), p. 1435. One of the sources of his information was a book of 'almost incredible subtlety' which he attributed to one 'Mary of Valenciennes'. It is now clear that the book was the *Mirouer des simple ames* of Marguerite Porete; cf. Guarnieri (1), pp. 461–2.
It has commonly been held that certain sectarians who emigrated from France to Savoy in the 1370's, and others who were executed at Douai in 1420, were Brethren of the Free Spirit; but the original sources do not bear this out. For a detailed examination of the evidence in the Douai case: Beuzart.
On Pruystinck and his followers: Frederichs (OS); Luther (3). For modern accounts: Frederichs (1) and (2) (both MW); Rembert, pp. 165 sq.

170 For Calvin's first attacks on the Spiritual Libertines, in 1539 and 1544: Calvin (1), pp. 300–301, 350–51, and (2), pp. 53–4.
For the warnings to Margaret of Navarre: Bucer; Calvin (3).

171 On Quintin's end: Calvin (5), cols. 361–2.
The estimate of 10,000 is at col. 163 of Calvin (4), which is the most important of his treatises against the sect.
For the replies to the former Franciscan: Calvin (5); Farel.
For the modern accounts of the Spiritual Libertines: Jundt, pp. 122 sq.; Niesel; and more briefly: Lefranc, pp. 112–13; Saulnier, pp. 246–9. There seem no adequate grounds for believing that the various tracts which have sometimes been attributed to members of the sect really were by them. Some of these works have in fact been identified as simply French translations from the Low German of the Anabaptist David Joris; see Bainton, p. 35.

The way to self-deification

172 Grundmann (7) shows that the inquisitors made the Free Spirit look far more of a uniform 'sect' than it really was. Nevertheless a coherent tradition of speculation and practice did exist. It can be traced also in southern Europe. On the Free Spirit, or the Spirit of Freedom, in Italy: De Stefano, pp. 327–44; Oliger; Guarnieri (1), pp. 404–97. See also the suggestive comments in Burdach (1), p. 588. For Spain, see references in Guarnieri (1), pp. 483–4.
'God is all . . .': John of Dürbheim (1), p. 256.
'God is in every stone . . .': *Errores sectae hominum intelligentiae*, p. 287.
'Every created thing . . .': Albertus Magnus, articles 76, 77.
For the same ideas amongst the Spiritual Libertines of the sixteenth century: Calvin (4), cols. 178–9; Farel, p. 263.
On the doctrine of the final, all-embracing 'Blessedness': Ruusbroec (3), p. 105, (4), p. 191, (5), p. 278 (where the absorption of the Persons of the Trinity is specifically mentioned).
The soul as a drop of liquid: Ruusbroec (6), p. 41; cf. John of Dürbheim (1), pp. 257–8; Calvin (4), cols. 221, 224.
173 No afterlife: Ruusbroec (3), *loc. cit.*; John of Dürbheim (1), *loc. cit.*; and cf. Pfeiffer (OS), p. 453.
The meaning of hell: Caesarius of Heisterbach, p. 304.
'The soul is so vast . . .': Ulanowski (OS), p. 247.
On the divinity of the soul: Albertus Magnus, articles 7, 95, 96; Ruusbroec (6), p. 43.
'The divine essence . . .': Preger (2) (OS).
'Every rational creature . . .': ibid.
174 The adepts set themselves above the saints, etc.: Albertus Magnus, articles 22, 31, 39, 70, 74, 93; Preger (1) (OS), article 1; John of Dürbheim (1), pp. 256–7; Ritter (1) (OS), p. 156.
'They say they are God . . .': John of Dürbheim (1), p. 256; cf. Calvin (4), col. 158.
'It is the same with me . . .': Ruusbroec (6), pp. 44–5.
The Virgin and Christ fail to reach perfection: e.g. Wattenbach (2) (OS), pp. 540–41.
On the training undergone by novices see e.g. Ulanowski; *Schwester Katrei* (esp. Birlinger, pp. 20 sq.; Pfeiffer, pp. 456 sq.); Wattenbach (1), pp. 30 sq.; *Errores bechardorum*. Ecclesiastical critics of the movement were also struck by the severity of the training; e.g. Ruusbroec (1), (2), and (3).

'The Spirit of Freedom . . .': Wattenbach (2), p. 540. This quotation is not *verbatim* but is made up of replies given to several questions put by the inquisitor.

175 'wholly liquefied in Eternity . . .': ibid., (1), p. 533.
The inmate at Schweidnitz: Ulanowski, p. 241.
'The perfect man is God . . .': Preger (2) (OS).
Schwester Katrei: Birlinger, pp. 23–4.
For the claims of the adepts at Schweidnitz: Ulanowski, pp. 249, 242; and of the Swabian adepts: Albertus Magnus, articles 19, 70; Preger (1) (OS), article 30.
'had no longer any need of God': Albertus Magnus, articles 11, 74.

176 Adepts believe they possess miraculous powers: e.g. Gilles the Cantor according to *Errores sectae*; the hermit in the *Buch von den zwei Mannen* (Schmidt (2) (OS)); Hermann Küchener in Haupt (1).
'They say that they created . . .': John of Dürbheim (1), p. 256.
'When I dwelt . . .': Ruusbroec (6), pp. 42–3.
'When God created . . .': Ulanowski, p. 243.
'The perfect man . . .': Preger (2) (OS).

The doctrine of mystical anarchism

177 On Boullan: Bruno de Jésus-Marie.
Suso (2), pp. 352–7.
'He who attributes . . .': Garnier of Rochefort, p. 12.
'He who recognizes . . .': ibid., p. 9.
'A man who has a conscience . . .': Wattenbach (1), pp. 532–3.

178 'Nothing is sin . . .': Albertus Magnus, article 61.
'One can be so united . . .': Preger (1) (OS), article 4. Cf. Albertus Magnus, articles 21, 24, 94. For the same beliefs amongst the Spiritual Libertines: Calvin (1), cols. 350–51, (4), cols. 155, 183–5, 201, 204–9, (5), cols. 356, 361; Farel, pp. 4–5, 23–5, 27, 263, 277–8, 456–7; and amongst the Thuringian 'Blood-friends': Hochhut (MW), pp. 185–8.
'I belong to the Liberty . . .': Wattenbach (1), p. 533.
'The free man . . .': Wattenbach (2), p. 540, where the revelation to the inquisitor is also to be found.
'It would be better . . .': ibid., p. 539.
The adept must restore his strength: Wattenbach (1), p. 532; Schmidt (2) (OS); Nider, lib. III, cap. v, p. 45; Albertus Magnus, articles 44, 52 (and in Haupt's emendations: article 25 A); Preger (1) (OS), article 27.
The spiritual value of feasting is emphasized by Bertold of Rohrbach, the adept who was burnt at Speyer in 1356; for sources see above, Note to p. 171.
For the comment on the golden goblet: Wattenbach (2), p. 539.
Fine dresses at Schweidnitz: Ulanowski, p. 252.
Sister Catherine (Schwester Katrei): Birlinger, p. 31.
'They have no uniform . . .': Nider, lib. III, cap. v.

179 'When a man . . .': Schmidt (2) (OS).
'All things that exist . . .': Preger (OS).
Schwester Katrei: Pfeiffer, p. 458; Birlinger, p. 31.
Virginity regained: Wattenbach (2), p. 541.

180 On promiscuity without qualms of conscience: Calvin (4), cols. 184, 212–14; Hochhut, pp. 189–94; Preger (1) (OS), article 11; *Errores sectae*, p. 283. Henry of Virnenburg accused the heretics of holding that fornica-

tion was no sin. The Begulnes at Schweidnitz and the Beghards with whom they associated maintained that to resist sexual advances was the sign of a 'crude spirit'.
'The delight of Paradise', 'the acclivity': *Errores sectae*, p. 282. Cf. Nider, lib. III, cap. v; Calvin, col. 184.
'Christerie': Hochhut, pp. 183–5; Wappler, pp. 189–92.
'till acted ...': see Appendix, p. 352.
For the inquisitor's comment on primal innocence: *Errores bechardorum*.
For Gerson's comments: Gerson (7), pp. 306–7.
The Garden of Eden: *Errores sectae*, p. 282.
For the adept at Eichstätt: Haupt (2), pp. 490 sq.
For the Spiritual Libertines on Adam and the Last Days: Pocque (OS). Antoine Pocque, or Pocquet, was one of the leaders of the sect. In this tract, which is preserved only in the long quotations given by Calvin, the millenarian and quasi-mystical aspects of the doctrine emerge very clearly. The antinomian consequences are not stated as explicitly as in some of the English sources given in the Appendix to the present study; but cf. Calvin (4), col. 200, on the meaning which the sect attached on the notion of Adam and the state of innocence. For a comprehensive survey of the evidence concerning the Adam cult: Guarnieri (1), pp. 428–32.
181 The oath of obedience figures in e.g. Schmidt (2), Ulanowski, Wattenbach (1) (all OS).
For Gerson's comment: Gerson (3), p. 114.
The confession of Martin of Mainz: Schmidt (1) (OS).
182 'took no account ...': Calvin (4), p. 158.
Calvin on simulation: ibid., pp. 170–71; Farel, pp. 87–8.
'They believe that all things ...': John of Dürbheim (1), p. 257.
'The truly free man ...': Wattenbach (2), p. 539.
183 John of Brünn: Wattenbach (1), pp. 532–5.
For Calvin's comments: Calvin (4), cols. 184, 214–20.
'Give, give, give ...': see Appendix, p. 325.
184 'this soul has no will ...': Guarnieri (1), p. 531.
'do nothing but what pleases them ...': ibid., p. 591.
185 'Such souls cannot see themselves ...': ibid., p. 527.
'At the highest point ...': ibid., p. 594.
'This soul feels no pain ...': ibid., p. 537.
'The thoughts of such souls ...': ibid., p. 537.
'Why should such souls ...': ibid., p. 538.

10 The Egalitarian State of Nature

In the thought of Antiquity

187 A fine collection of texts illustrating Greek and Roman notions of the State of Nature will be found in Lovejoy and Boas.
Ovid, lib. I, lines 90–112, and esp. 135–6.
188 'The first inhabitants ...': Trogus, lib. XLIII, cap. I.
'Now I hear poets ...': Lucian, Letter I.
On the egalitarianism of the Greek Stoics: Bidez, esp. pp. 27–35.
189 Diodorus Siculus, Book II, cap. lv–lx (vol. I, pp. 167–72).
For the treatise *On Justice*: Clement of Alexandria, vol. VIII, cols. 1104–13 (Book III, chap. ii). For modern summaries: Adler, pp. 78 sq.;

Walter (G.), pp. 231 sq. (which however contains some errors). The traditional view, shared by these writers, has been that the treatise was the work of one Epiphanes, supposed founder of a sect of 'Carpocratians'; but this would seem to have been conclusively disproved by Kraft.

190–1 'Those were happy times . . .': Seneca, Epistola XC.

191 The egalitarian order irrecoverably lost: It is true that the Stoics, with their cyclical view of cosmic history, expected the Golden Age to recur – but only in the next cycle or *annus magnus*, and after a conflagration which was to annihilate the whole existing universe, including all souls.

In patristic and medieval thought

192 On the contrast between the State of Nature and the conventional state: Carlyle, vol. I, pp. 132–46; vol. II, pp. 136 sq.; vol. V, pp. 441–2; Troeltsch, vol. I, pp. 152–4. The texts and commentaries in Boas illustrate the various ways in which the State of Nature was imagined by the Fathers and during the Middle Ages.

'Ambrosiaster', col. 439.

'This the order of nature . . .': Augustine, vol. II, pp. 428–9 (lib. XIX, cap. xv).

193 'Although there now exist . . .': Beaumanoir, p. 235, para. 1453.

Cyprian, cols. 620–21 (para. 25).

'like the day . . .': Zeno, col. 287.

'Nature has poured forth . . .': Ambrose (2), col. 62.

'The Lord God specially wanted . . .': Ambrose (1), col. 1303. Cf. Lovejoy (MW). What practical consequences Ambrose drew from this doctrine is far from clear. If, as Professor Lovejoy points out, he recommended almsgiving on an immense scale as a way of reducing economic inequalities, he also maintained that poverty, hunger and pain are so many aids towards a blessed life. (Ambrose (1), Book II, Chap. V.)

Gratian's *Decretum, pars secunda, causa XII, quaestio i*, cap. ii (cols. 882–3).

194 'For the use . . .': *Recognitiones*, cols. 1422–3 (lib. X, cap. v).

Pseudo-Isidore: *Decretales Pseudo-Isidorianae*, p. 65 (cap. lxxxii).

Acts iv, 32, 34–5.

195 Gratian adopts the argument of the Fifth Epistle: *Decretum, pars prima, distinctio VIII, Gratianus*.

The communistic State of Nature becomes a commonplace: cf. Bezold (2), pp. 18 sq.; Carlyle, vol. II, pp. 41 sq.

195–6 'Once upon a time . . .': Jean de Meun, lines 8356–8452.

196 'And so, my friend . . .': ibid., lines 9493–8.

On the process of degeneration: ibid., lines 9561–98.

'a big villein . . .': ibid., lines 9609–61.

197 On the attitude of the sects to property: Troeltsch, vol. I, pp. 344–5.

11 The Egalitarian Millennium (i)

Marginalia to the English Peasants' Revolt

198 On the insurrections in Flanders and northern France, see pp. 104–5 and Note thereto.

For the English Peasants' Revolt the standard works are still Oman, Petit-Dutaillis (2) and above all Réville with Petit-Dutaillis (1). For a

more recent account: Lindsay and Groves. Important articles: Kriehn, Wilkinson. See also the relevant chapters in Hugenholtz, Steel, Trevelyan; and Burdach (2), pp. 171–203.

For the story of John Ball: Froissart, vol. X, pp. 94–7; Walsingham, pp. 32–4; and cf. *Anonimalle Chronicle*, pp. 137–8.

199 'And if we are all . . .': Froissart, vol. X, pp. 95–7.

Walsingham, pp. 32–3. Cf. Gower's version, at p. 41 (lib. I, cap. ix).

200 'by the lawe of kynde . . .': *Dialogue of Dives and Pauper*, The seventh precepte, Chap. IV, cols. 3–4.

'In commune to all . . .': Master Wimbledon, quoted in Owst (MW), p. 305.

Wyclif, Book I, Divisions i and ii, and esp. chaps. 3, 5, 6, 9, 10, 14.

'Firstly, that all good things . . .': Wyclif, p. 96.

On the popularization of Wyclif's comments: Hugenholtz, p. 212; Trevelyan, p. 198; and cf. Jusserand, pp. 159 sq.

201 'Envy heard this . . .': Langland, vol. I, pp. 594–5 (B Text, Passus XX, lines 271 sq.; C Text, Passus XXIII, lines 273 sq.). Cf. vol. II, p. 283, Note 277.

201–2 Owst, pp. 287 sq. The translation and summary of Bromyard are at pp. 300 sq.

203 'He that soweth . . .': Matthew xiii, 37–43.

For the text of the rhymes: Knighton, Continuation, vol. II, pp. 139–40; Walsingham, pp. 33–4.

On the part played by the lower clergy see, e.g., Calendar of the Close Rolls, Richard II, vol. II, p. 17; and cf. Hugenholtz, pp. 252–3. On the other hand it would seem that, contrary to a commonly accepted view, the rising was fomented neither by the friars nor by Wyclif's Poor Preachers; cf. Steel, p. 66.

204 On Richard II as 'thaumaturgic king': Hugenholtz, esp. pp. 175–9.

Froissart on Ball's following in London: vol. X, p. 97; and cf. Knighton, Continuation, vol. II, p. 132. On the part played in the revolt by Londoners in general: Hugenholtz, p. 111; Wilkinson, esp. pp. 12–20; and by the London poor in particular: Lindsay and Groves, pp. 112–14, 135; Oman, pp. 17, 68; and cf. Workman, vol. II, pp. 234–5.

For the burning of the Savoy: Monk of Westminster, p. 2; Walsingham, vol. I, p. 457.

For the Smithfield demands: *Anonimalle Chronicle*, p. 147.

For Jack Straw's confession: Walsingham, pp. 9–10. The authenticity of the confession has often been called in question.

The Taborite apocalypse

205 Huss and the Hussite movement have long been favourite subjects for Czech and also for Austrian and German historians. For a full bibliography up to the mid-1950s: Heymann; and for a shorter list of the principal works to that date: Betts, Notes to pp. 490–91. The standard general history in English is now that by Heymann; while useful summaries will be found in Leff, vol. II, and, amongst older works, Lützow, and Krofta (1), (2) and (3). The Communist regime in Czechoslovakia has fostered studies in this field from a Marxist point of view; relevant works are: Graus, Maček. Important recent studies from a sociological (but not Marxist) point of view are Seibt (1) and (2). Concerning the Taborite wing of the movement, scholarship has taken a considerable step forward

with Kaminsky (1), (2) and (3), published between 1956 and 1962; these papers make admirable use of recent Czech research without falling into Marxist oversimplifications. In German, Bezold (1) and Palacký, especially parts 1, 2 of vol. III, though inevitably dated, are still valuable. Kautsky's well-known account, which used to be the standard Marxist version, is quite unreliable.

205–6 On the teachings of Hus, his forerunners and associates: De Vooght; Leff, vol. II, pp. 610–85; and Molnár (1) and (2).

207 On the deposition of John XXIII: Leff, vol. II, p. 650.

208 On the role ascribed to the guilds: Andrew of Bömischbrod, p. 339; *Litera de Civitate Pragensi*, pp. 312–13. Cf. Bezold (1), p. 36.
On social stratification in the towns: Heymann, pp. 46–8; Maček, pp. 28–9.
On the urban poor: Graus, pp. 33–70.
On over-population: ibid., pp. 112–18.

209 On the inflation: ibid., p. 84, and Appendix I, pp. 174–95.
On the condition of the peasantry: Bezold (1), pp. 55 sq.; but cf. Heymann, pp. 42–4, who holds that for a large part of the peasantry conditions were still good.
On the rural proletariat: Maček, pp. 32, 68 sq.

210 On the founding of Tabor: Kaminsky (1).
On millenial expectations in Bohemia in the fourteenth century: Burdach (2), pp. 116, 133.

211 The *Pikarti*: There has been much controversy concerning the identity and opinions of these immigrants. The conclusions of Bartoš are still convincing; see Bartoš (3). But see also Holinka, pp. 168 sq; Kaminsky (2), pp. 69–70, Notes 77–81; and Kaminsky (3), pp. 174, Notes 23 and 24.

212 For the apocalyptic prophecy: *Tractatus contra errores (Picardorum)*, articles 33–7. (This and all subsequent references to the articles follow the numbering in Döllinger's edition.) See also below, Notes to pp. 213–14.
The most comprehensive source for apocalyptic and millenarian beliefs of the Taborites is a list of articles of faith compiled in 1420 from the Taborite literature and statements. The list exists in various Czech and Latin versions; for a discussion of their relationship, and of the authenticity of the list, see Kaminsky (2), pp. 67–8, Note 54. A Czech version is given in Maček (1), pp. 57–66. There is no doubt that the list, which contains both Waldensian and millenarian items, is a reliable guide. Many of the articles are paralleled in extant Taborite texts; and when the articles were submitted to the Taborite preachers on the occasion known as 'the disputation at Zmrzlik's house' in Prague, on 10 December 1420, they were accepted by them as substantially correct.
'There are five . . .': quoted in Kaminsky (2) p. 48.
'Faithful ones . . .': quoted in Kaminsky (2), p. 47.
No pity towards sinners: *Tractatus*, article 29.
'Accursed be the man . . .': ibid., article 31.
'every priest . . .': ibid., article 32.

213 For Chelčicky's comments: Kaminsky, (2), p. 51.
'The just . . .': quoted in Kaminsky (2), p. 68, Note 57.
The neutral as the Satanic hosts: *Tractatus*, article 39.
The imitation of Christ in the hour of vengeance: ibid., article 30.
'the consummation of time . . .': ibid., article 25.
Christ descends 'in glory and great power': Taborite letter, quoted in

Kaminsky (3), p. 178.
'shine like the sun . . .': ibid.

214 On the millennial realm: *Tractatus*, articles 42, 43, 44, 50, 51, 53; and cf. Lawrence of Březová, pp. 400–401; *Staří letopisové čeští*, p. 478.

Anarcho-communism in Bohemia

214 Cosmas of Prague, pp. 8–9 (lib. I, cap. iii).
Czech Rhymed Chronicle: *Rýmovaná kronika česká*, p. 8.

215 *Majestas Carolini*, para. 2, p. 68.
Taxes shall cease: *Tractatus*, article 46; cf. Lawrence of Březová, p. 400.
'All shall live . . .': *Staří letopisové*, p. 478.
'The Lord shall reign . . .': *Tractatus*, article 47.
'All lords, nobles . . .': Jan Přibam, quoted in Palacký, vol. III, part 2, p. 190.
Towns to be destroyed; Prague as Babylon: Lawrence of Březová, pp. 349, 399–400; *Tractatus*, articles 33, 34, 35. Cf. Bezold (1), p. 50.

215–16 Revelation xviii, 7–11.

216 'the army sent . . .': *Tractatus*, article 38.
'kings shall serve . . .': Lawrence of Březová, p. 406.
'the Sons of God shall tread . . .': ibid., p. 400.
For the transactions of the Taborite assembly of 1434: Charlier (OS), pp. 529 sq.
On the founding of the Taborite communities: Maček, pp. 76–8; Palacký, vol. III, part I, pp. 394, 417; part 2, p. 60.

217 'As Mine and Thine . . .': *Articuli et errores Taboritarum*, p. 220. Cf. *Invectiva contra Hussitas*, p. 627; Pulkava of Radenin, Continuation, vol. IV, p. 136; and the quotation from Windecke given in Bezold (1), p. 44, Note 1.
Property to be taken from the enemies of God: Lawrence of Březová, p. 400; *Tractatus*, article 40.
'many communities never think . . .': *Sollicitudo sacerdotum Thaboriensium*, pp. 486–7. Cf. Andrew of Böhmischbrod, p. 334; Lawrence of Březová, pp. 391, 395; *Tractatus*, articles 39, 40, 41.

218 On the fate of the peasantry: Bezold (1), pp. 59–63; Kaminsky (2), p. 61 and p. 70, Note 88.
'Almost all the communities . . .': *Sollicitudo sacerdotum Thaboriensium*, p. 484. Cf. *Invectiva contra Hussitas*, pp. 628–9.

219 On Húska's eucharistic doctrine: Kaminsky (3), pp. 174–8.
On the *Pikarti*: Bartoš (1) and (2); Palacký, vol. III, part 2, pp. 228–9; and for the political and military grounds for their persecution: Chalupný. The most reliable source for the Bohemian Adamites is in Lawrence of Březová, pp. 500–501 (in Czech, with German translation at pp. 501–505); this includes the confession forwarded to the University of Prague. Other sources are: Aeneas Silvius, cap. xli, *De Adamiticis haereticis* (p. 109); and addenda to *Staří letopisové*, pp. 476–9 (in Czech). For modern accounts in English: Heymann, pp. 261–3; in Czech: Bartoš (1), pp. 101–2, 103; in German: Büttner and Werner, which replaces earlier German accounts such as Dobrowský, pp. 318 sq. and Svátek, pp. 100 sq. The attempt of the eighteenth-century historian Beausobre to discredit the whole story of the Adamites is of historical interest only; he did not know the confession in Lawrence of Březová. Modern scholars as dissimilar as

Kaminsky and Werner are at one in accepting the contemporary accounts as substantially accurate.

220 The ruler Adam: cf. Burdach (3), pp. 158–61 on Adam as king of the world in its state of primal innocence.
Christ's remark about harlots and publicans: Matthew xxi, 31.

221 'And at midnight . . .': Matthew xxv, 6.
'The Bohemians now became . . .': *Klingenberger Chronik*, p. 198.

222 On Taborite propaganda abroad: Palacký, vol. III, part 2, pp. 498–9.
On expressions of anxiety in Germany: Haupt (6), pp. 274–8.

12 The Egalitarian Millennium (ii)

The Drummer of Niklashausen

223 On the Wirsberg brothers and their doctrine: *Annales Mellicenses, Continuatio Mellicensis*, p. 521; Glassberger, pp. 422–6 (which includes letters from the Papal Legate at Breslau with a list of heretical articles); Jobst of Einsiedeln; Ritter (2) (OS) (also a list of heretical articles). The present account is based on these sources, supplemented by Schiff (2), which in addition draws upon an unpublished manuscript at Munich and some material first published in 1882 by H. Gradl. For briefer accounts: Haupt (13); Preuss, pp. 46–7.

224 On the mercenaries: Schiff, p. 785.
'to rise in seditious rebellion . . .': Dorsten (OS), pp. 277–8 (article 10 *ad fin.*); and cf. Kestenberg-Gladstein, Note 190, p. 294.
'who used to be in Bohemia . . .': Jobst of Einsiedeln, p. 281.
On Erfurt and the professor (Dorsten): Kestenberg-Gladstein, pp. 257 sq.

225 On popular eschatology in Germany in the fifteenth century: Peuckert, esp. pp. 152 sq.; and more briefly: Rohr.
Bans on flagellants at Eichstätt: Haupt (2), p. 493.
Ban on Beghards at Würzburg: Lea (MW), pp. 412–13.

226 The remark about the team of horses is quoted in Franz, p. 81.
The present account of Hans Böhm and the happenings at Niklashausen is based in the main on four sources. The accounts of the chroniclers Fries, pp. 852–4; Stolle, pp. 380–83; Trithemius (1), vol. II, pp. 486–91; and the report submitted to the Bishop of Würzburg by an agent who had listened to Böhm's preaching (*Handell Hannssen Behem*: Barack (OS), Document 3). These sources are not mentioned again below except to identify a quotation or for some other special reason. Original sources which bring additional information are mostly to be found in Barack (OS), and are here indicated by the numeral which they bear in that collection. The one source in Reuss (OS) which is not to be found in Barack is a contemporary vernacular poem on the episode; it adds nothing of importance. For modern accounts: Barack (MW); Franz, pp. 78–92; Gothein, pp. 10–25; Peuckert, pp. 263–96; Schäffler; Thoma.

228 'What would the layman . . .': Trithemius, p. 488.
The Archbishop of Mainz: Document 7.
'Princes, ecclesiastical and secular . . .': Document 3.
'The Emperor is a scoundrel . . .': ibid.
The urban poor attracted: cf. Peuckert, pp. 268, 283.
On the 'original rights' claimed by the peasants: ibid., pp. 254–9.

229 'To God in Heaven . . .': Widman (OS), pp. 216 sq.

230 For Böhm as miracle-worker: Document 4.

The estimates of the numbers of pilgrims are taken from Trithemius, Fries and Stolle, respectively.
The Town Council of Nuremberg: Document 6; and cf. Documents 9, 10.
The diet decides on Böhm's arrest: ibid., Document 8.
For Böhm's call to arms: ibid., Document 19. This document, a letter from the Bishop of Würzburg to the Duke of Saxony, was written six weeks after the supposed event; and Franz, Gothein and Thoma are at one in distrusting it.
231 On the dispersal of the pilgrims: Document 11; Stolle.
For the misgivings at Würzburg: Document 15; Trithemius, p. 490.
The Bishop asks for support: Document 12.
232 Bans on further pilgrimages: Documents 14, 16, 17, 18.
Pilgrims continue to arrive: Documents 20, 21, 22, 23.
The church under an interdict: Document 25.
The church demolished: Document 27.
On the part played by the local lords: Barack, p. 42; Peuckert, p. 284.
Land forfeited: Document 26.
Böhm regarded as half-witted: Stolle, p. 380; as unable to form a sentence: Trithemius, p. 486; as ignorant of the Lord's Prayer: Document 15.
On the part played by the parish priest: Document 4.
On the hermit: Documents 4, 10.
The vision a trick: Document 4; Fries, p. 853.
The hermit prompts Böhm: Trimethius, p. 486.
233 The hermit a Beghard: Document 4; a native of Bohemia: Document 10; and cf. Barack (MW), pp. 37 sq.
Böhm found naked: Stolle, p. 381.
234 On the *Bundschuh* at Speyer, 1502. Franz, pp. 108–9
On the later *Bundschuh* risings: ibid., pp. 124–30; Haupt (8), p. 200, Note 3; Peuckert, p. 625; and cf. document in Schreiber, p. 93.
Jerusalem captured under the sign of the *Bundschuh*: Franz, p. 93.

Thomas Müntzer

234 Works on Thomas Müntzer are numerous. A good number of writers, following in the footsteps of Engels (*Der deutsche Bauernkrieg* (1850)) and of Kautsky, pp. 104 sq., have regarded Müntzer (whether approvingly or not) as primarily a social revolutionary. Some of the resulting works are mere *vies romancées*; among those which have some claim to scholarship one may instance Franz, pp. 408–46; Merx; Walter (L.-G.); and two recent studies from a Communist standpoint: Meusel, a popular work but with a useful appendix of documents edited by H. Kamnitzer; and Smirin, a massive treatise. In general the most original and serious contributions have been made by scholars who have seen in Müntzer primarily a theologian and mystic: in German, Boehmer, Holl, Lohmann; in English, Carew Hunt, Williams. Particularly relevant to the interpretation advanced in the present study are the recent researches of Hinrichs and some of the observations of Heyer. As for original sources, the volume edited by Brandt (see Brandt; and Müntzer (both OS)) includes, in modernized spelling, all Müntzer's pamphlets and a useful selection of extracts from other contemporary sources. Unless otherwise stated, the indications given below refer to this comprehensive and convenient edition; while *Briefwechsel* refers to the edition of Müntzer's correspond-

ence by Boehmer and Kirn (see Müntzer (OS)). A critical edition of the last three of Müntzer's pamphlets, in the original spelling, will be found in *Thomas Müntzers politische Schriften*, ed. Hinrichs. Concerning a further pamphlet, commonly attributed to Müntzer's disciple Hans Hut but which may be by Müntzer himself, see Rupp.
On Müntzer's early years see Boehmer (1) and (2), where various time-honoured legends were first demolished.

235 On Storch: Bachmann.

236 Müntzer's blood-thirstiness was noted by the Reformer Johannes Agricola early in 1521; see *Briefwechsel*, p. 21.
For Müntzer's ascetic and mystical doctrine see in particular Müntzer (1) and (2); and cf. Holl, Lohmann.
Müntzer on 'becoming God': Förstemann (C.E.) (OS), p. 241.

237 Natusius, pp. 147 sq., remarks that Müntzer may have owed something to the tradition represented by the flagellants in Thuringia.
On the social conflicts at Zwickau see the introduction to Brandt, p. 5.
On the rising at Zwickau: Bachmann, p. 13.
The Prague manifesto: Four versions, in German, Czech and Latin, are given in *Briefwechsel*, pp. 139–59.
'Harvest-time is here . . .': ibid., p. 150 (second German version).

238 'Let my sufferings . . .': *Briefwechsel*, p. 40.
The sermon: Müntzer (3). The traditional belief that it was preached before the Elector and Duke John is incorrect; it was preached before Duke John and his son. Cf. Hinrichs (MW), p. 5, Note 1.
The Devil's empire: Müntzer (3), p. 158.

239 'Drive Christ's enemies . . .': ibid., p. 160.
'The sword is necessary . . .': ibid., pp. 161–2.
Müntzer sees himself as the new Daniel: Hinrichs, pp. 59–64; Lohmann, pp. 62–3; and cf. Heyer, p. 94.
Müntzer's letter to his followers at Sangerhausen: *Briefwechsel*, pp. 61–3.

240 'If knaves and rogues . . .': *Briefwechsel*, p. 76.
Storch on community of goods: Brandt (2); and on the reliability of this account see Brandt's note, pp. 224–5.
On Hugwald: Schiff (1), pp. 82–5.
Karlstadt becomes a peasant: Peuckert, p. 250.
'that they should be brothers . . .': Confession of Klaus Rautenzweig, in Opel (OS), p. 211; and cf. Hinrichs, p. 22.
On Müntzer's 'communistic' idea of the Law of God: Hinrichs, pp. 174 sq.
Histori Thomä Müntzers: Brandt (1); and see Brand't note, p. 223. The account of Müntzer's teaching is at pp. 41–2.

241 Müntzer's confession: Brandt (5).
For the events immediately following Müntzer's sermon before Duke John: Hinrichs, pp. 65 sq.
Luther's letter: Luther (1).
The explicit unmasking . . .: Müntzer (4).
'for they have spent . . .': Müntzer (4), p. 178.
'The powerful, self-willed unbelievers . . .': ibid., pp. 170–71.

242 'certain (lords) are only now . . .': ibid., p. 171.
'Then must what is great . . .': ibid., p. 177.
The poor not yet fit: ibid., p. 178.
'If the holy church . . .': ibid., p. 178.

The most amply called-for defence ...: Müntzer (5).
Müntzer's and Luther's eschatology contrasted: cf. Hinrichs, pp. 147 sq.
243 On Müntzer's view of Luther as an eschatological figure: ibid., pp. 170 sq.
Epistle of Jude, 14–19. The allusion is all the more obvious because where (in verse 19) the English has 'sensual', the German has '*fleischlich*'.
'the will of God ...': Müntzer (5), p. 191.
243–4 'The wretched flatterer ...': ibid., p. 192.
244 'Woe unto them ...': Isaiah v, 8.
'They publish ...': Müntzer (5), p. 192.
'You wily fox ...': ibid., p. 201.
For the Elector's remark on the common man: Hinrichs, p. 8.
On the crucifix and the sword, and their meaning: Boehmer (1), p. 17.
On social conflicts at Mühlhausen: Franz, pp. 408 sq.
245 On Müntzer's wanderings in southern Germany: Schiff (1); Carew Hunt, vol. CXXVII, pp. 239–45.
For a fair sample of divergent views on the causes of the German Peasants' War see Franz, Peuckert, Smirin, Waas. The interpretation tentatively advanced here would not be accepted by Marxist historians; but even Professor Smirin (p. 271) grants the essential point, which is that Müntzer's ultimate aim would have been quite incomprehensible to the great mass of the peasantry.
246 For the peculiarities of the war in Thuringia: Franz, pp. 434 sq.
On the situation of the copper-miners: Andreas, pp. 309–10.
Müntzer's part in the Peasants' War: As examples of disagreement one may instance the accounts in Bemmann, Boehmer (2) and Jordan, which come near to denying Müntzer all influence; in Franz, where Müntzer is shown as the sole author of the war in Thuringia; and in the works of Marxists such as Smirin, where Müntzer is presented as the ideologist of a radical tendency which, though shared only by a minority, manifested itself with great vigour and far beyond the confines of Thuringia.
247 For the banner: Kamnitzer (OS), p. 308; and cf. Boehmer (1), p. 17.
For the 2,000 'strangers': report of Berlepsch, mayor of Langensalza, quoted in Carew Hunt, vol. CCXXVII, p. 248, Note 184.
247–8 'I tell you ...': Brandt (3); and in the original spelling: *Briefwechsel*, pp. 109–11.
248 For the symbolic meaning of Nimrod see the passage from Sebastian Franck quoted in Chapter 13 of the present study, p. 258.
On Storch's new activities: Meyer (Christian) (2), pp. 120–22.
Against the thievish, murderous gangs ...: Luther (2).
249 On the battle at Frankenhausen, its prologue and epilogue: Baerwald, Jordan, and more briefly, Carew Hunt, vol. CXXVII, pp. 253–63.
Gideon: Judges vii, 6 sq.
Müntzer orders the peasants to join: cf. Baerwald, p. 37.
'Say, you wretched ...': Brandt (4), p. 78.
250 The *Histori*: Brandt (1), pp. 45, 48.
On the surrender and fate of Mühlhausen: Carew Hunt, vol. CXXVII, p. 262.
For Müntzer's execution: Brandt (1), p. 50.
For Storch's death: Meyer (Christian) (2), p. 122.

13 The Egalitarian Millennium (iii)

Anabaptism and social unrest

252 The connection between Anabaptism and the medieval sects is emphasized by e.g. Erkbam; and by Knox, pp. 122 sq.
Since the first edition of this book the study of Anabaptism has advanced greatly; though very little has had to be changed in this account of the revolutionary wing of the movement, and of the Münster Anabaptists. The comprehensive and exhaustive study by Williams (1962) replaces Smithson's history as the standard work (the much earlier accounts of Bax, Heath and Newman are of purely historiographical interest). The great *Mennonite Encyclopedia* in four volumes (completed in 1959) is a splendid work of reference; while Hillerbrand (1962) is an indispensable bibliographical guide. On the aspects of Anabaptism most relevant to the present study Heyer, and the introduction to Detmer and Krumbholtz, retain their relevance.

253 On the economic doctrines of the Anabaptists: Klassen.

254 On Hans Hut: Meyer (Christian) (1); Zschäbitz, pp. 30–64; and Stayer (1). On Hut and Müntzer: Rupp.

255 'Christ will give . . .', 'The government does not . . .': quoted in Stayer (1), pp. 184–5.
On Anabaptist activity at Esslingen and Nuremberg: Keller, p. 46.
On the contrast between the southern and northern forms of Anabaptism: Stupperich, p. 13.
For brief accounts of the constitutional history of the ecclesiastical states and particularly of Münster: Keller, pp. 56–76; Köhler, pp. 539 sq.

257 Münster from 1531 onwards: The principal original sources for the history of the New Jerusalem at Münster are Kerssenbroch (in Latin) and Gresbeck (in Low German). As a boy of fifteen Kerssenbroch witnessed the beginnings of the revolution. He also became a distinguished scholar; and when in the 1570s he came to write his history he made use of a great number of documents from the time of the revolution, many of which are no longer extant. Although a strong partisan of the Catholic cause, Kerssenbroch was on the whole conscientious in his handling of his materials. Gresbeck, a joiner by trade, was in Münster throughout the siege and writes as an eyewitness who lived amongst the common people. He too was a Catholic and hostile to Anabaptism; but when he writes of what he himself heard or saw he is convincing. Other valuable sources are the reports and confessions collected in Cornelius and in Niesert (both OS); Anabaptist pamphlets, particularly those by Rothmann; and some of the pamphlets written by outside observers. As for Dorp's contemporary *Historia*, everything valuable that it contains was taken over by Kerssenbroch. For detailed criticism of sources see Cornelius's edition of Gresbeck and Detmer's edition of Kerssenbroch (Detmer (1) (MW)); and for bibliography: Bahlmann. Extracts from the original sources, translated into modern German and arranged in a coherent sequence, are given in Löffler (OS). For modern accounts: Apart from general studies of Anabaptism such as those listed above, there exist a number of works devoted solely to Münster. For shorter and more recent accounts: Horsch (in English); Blanke (in German). For a brief survey of recent research and of remaining problems: Stupperich. Older accounts in English include Janssen (Johannes) (translated from German); Pearson.

For studies with special reference to the communistic regime: Ritschl; Schubert. Despite all the attention which the New Jerusalem at Munster has received, its significance has generally been underestimated. This is because it has been viewed in isolation or as a mere excrescence from Anabaptism, instead of as a particularly vigorous expression of the age-old tradition of revolutionary millenarianism.

On the period of Rothmann's ascendancy: Keller, pp. 74–133; and on Rothmann: Detmer (2), vol. II.

258 On Knipperdollinck: Cornelius (4).

On Hoffman: Kawerau.

'Shortly after that ...': Franck, p. 6A. Cf. Schubert, esp. p. 48.

259 Rothmann preaches community of goods: Rothmann (1), pp. 70–71; Kerssenbroch, pp. 419–20. Cf. Detmer (2), vol. II, pp. 154 sq.; Schubert, pp. 3 sq. About the same time the Spiritual Libertines were also invoking Acts iv to justify community of goods: see Calvin (4), col. 216.

'And so they came ...': Gresbeck, p. 6.

'fugitives, exiles, criminals. ..': Bishop of Münster to the Imperial Diet, quoted in Keller, p. 195, Note 1.

'people who had run ...': Kerssenbroch, p. 334.

260 On Matthys, in addition to the historical works listed above: Cornelius (5) (MW).

261 Enoch and Elijah: Kerssenbroch, p. 477.

For special studies of Bockelson: Detmer (2), vol. I; and more briefly: Cornelius (3) (MW). Cf. Keller, pp. 207–8.

Münster as the New Jerusalem

For the performance on 8 February: Kerssenbroch, p. 484.

On the women Anabaptists: ibid., pp. 472, 481–2, 499–500.

On the armed rising and its outcome: ibid., p. 505.

262 For the manifestos: Niesert (3) (OS), pp. 157–9; and the leaflet reprinted in Harting (MW), p. 78.

On the mass immigration: Kerssenbroch, p. 509.

On the iconoclasm: ibid., p. 521.

Only the Father invoked: ibid., p. 500.

All non-Anabaptists to be expelled: ibid., pp. 532–3.

263 The refugees reduced to beggary: ibid., pp. 534 sq.; Gresbeck, pp. 19 sq.; and the Bishop of Münster to the regional diet, quoted in Keller, pp. 198–9.

On the new community of love: Cornelius (8) (OS), p. 456.

The Anabaptists claim to act in self-defence: ibid., p. 445.

264 For the organization of the defence: Kerssenbroch, pp. 553 sq.

Matthys inaugurates social revolution: ibid., pp. 557 sq.

On the protest and execution of the blacksmith: ibid., pp. 559 sq.

The terror is intensified: ibid., pp. 561–4.

Private ownership of money abolished: ibid., p. 561; Gresbeck, p. 32; Ramert (attrib.), p. 246. For the attribution to Ramert of *Die Ordnung der Wiedertäufer* see Ritschl (MW), p. 5.

265 On the requisitioning of food: Gresbeck, p. 34; of accommodation: ibid., p. 47; Kerssenbroch, pp. 541, 557.

On the nature and extent of 'communism' at Münster: Ritschl.

Rothmann says Mine and Thine will disappear: Gresbeck, p. 31.

'all things were to be ...': Cornelius (6) (OS), p. 373.

266 'Amongst us God ...': Rothmann (2), pp. 70–71.

'The poorest amongst us . . .': quoted in Detmer (2), vol. II, p. 132.
'We in these parts . . .': Cornelius (2) (OS).

267 On the intensified repression of Anabaptism: Kerssenbroch, pp. 533-4, 566.
The unlearned will redeem the world: e.g. Rothmann (2), p. 14.
Books destroyed: Kerssenbroch, pp. 523, 564.
On the end of Matthys: ibid., pp. 568-70.

268 Bockelson gulled by the deserter: ibid., pp. 762 sq.
For Bockelson's declaration of faith: Cornelius (7) (OS), p. 402.
For the numbers of inhabitants and of able-bodied men: Gresbeck, p. 207. These estimates are confirmed, more or less, by other sources.
For the appointment of the Elders: Kerssenbroch, p. 576.
The new legal code is given in full in Kerssenbroch, pp. 577 sq.
On the direction of labour: Blanke, p. 22; Detmer (2), vol. II, pp. 137-8.

269 For Knipperdollinck's appointment: Kerssenbroch, p. 573, 583.
For the regulations governing sexual relations: ibid., p. 580; and cf. Cornelius (8) (OS), pp. 457 sq.
On Bockelson's arguments for polygamy: Gresbeck, p. 59; Kerssenbroch, p. 619. It is however merely Kerssenbroch's bias that makes him say that Rothmann and other preachers were as eager as Bockelson to introduce polygamy. Dorp's *Historia* and various confessions of captured Anabaptists agree that Bockelson had much difficulty in persuading the preachers.
On the revolt and the executions: Cornelius (6) (OS), pp. 372-3; Kerssenbroch, pp. 621 sq.

270 On the institution of polygamy at Münster: Gresbeck, pp. 59, 79; Kerssenbroch, pp. 625 sq. Cf. Detmer (2) (MW), vol. III.
On the defecting mercenaries: Kerssenbroch, p. 616, and Note 2 thereto; and for examples of the leaflets: ibid., pp. 586-8, 613-16.

271 For particulars concerning the defence: Gresbeck, pp. 36-8, 51, 80-81; Kerssenbroch, pp. 582 sq., 592, 594, 671-2.

The messianic reign of John of Leyden

271 The present account of Dusentschur's action is based on Kerssenbroch, pp. 633 sq. Bockelson, in his two confessions of July 1535, and January 1536 (Cornelius (6) and (7) (OS)), denied that there was any secret understanding between Dusentschur and himself. But he certainly began to exercise his kingly prerogatives with complete self-confidence and great ruthlessness.

272 Bockelson's speech is given in Kerssenbroch, pp. 336-8; and cf. Niesert (1) (OS), p. 34.
On the re-naming of the streets: Gresbeck, pp. 154 sq.; Kerssenbroch, p. 774.
On the naming of the children: Gresbeck, pp. 156-7.
For the inscriptions on the coins: Kerssenbroch, pp. 666-7.
For the emblem: ibid., p. 652.
On the organization of the court: Gresbeck, pp. 83 sq.; Kerssenbroch, 650 sq.

273 On Bockelson's ceremonial appearances: Fabricius, p. 99; Gresbeck, pp. 90 sq.; Kerssenbroch, pp. 662 sq.
On the confiscation of 'surplus' clothing: Gresbeck, p. 96; Kerssenbroch, p. 638; Ramert (attrib.), p. 242.

On the mistrust between the 'king' and his subjects: Detmer's Note 3 to pp. 771–2 of Kerssenbroch.
For Bockelson's self-justification and promises: Gresbeck, p. 88.

274 Rothmann's pamphlets: Rothmann (2) and (3). For a full analysis of their argument: Stayer (2). It was in answer to the *Restitution* that Urbanus Rhegius produced his two refutations, the one a popular pamphlet in the vernacular, the other a learned treatise in Latin; see Rhegius (1) and (2). On the relation between Rothmann's 'restitutionism' and other sixteenth-century versions of the idea: Williams, pp. 375–8, and the works listed there.
'The glory of all the Saints . . .': Rothmann (3), p. 69.
On the Kingdom of the Saints see Rothmann (2), cap. i, xiii, xiv, and (3) *passim*; and cf. Niesert (2).

275 On the performance in the cathedral-square: Gresbeck, pp. 103 sq. *Newe zeitung, von den Widerteuffern zu Münster*, p. 257.
On the executions in Münster: Kerssenbroch, pp. 824–5; Niesert (4), p. 502.

276 On the sending out of the 'apostles': Gresbeck, pp. 111–12; Kerssenbroch, pp. 703 sq.; and on their fate: ibid., pp. 709 sq.
On the attempt to raise mercenaries: report in Löffler (OS), pp. 194–5. The attempt was denied by Bockelson in both his confessions.
Mass risings planned: cf. Cornelius (2) (OS).
For the rising in Groningen and its fate: reports from the Bishop of Münster to the Imperial Diet and of the Imperial Stadtholder to the Bishop, both in Keller, pp. 326 sq.

277 On other risings: Kerssenbroch, pp. 792 sq.
'To kill all monks and priests . . .': quoted in Ritschl, p. 60.
The plans betrayed: Kerssenbroch, p. 724.
On the attitude of Anabaptists in the Netherlands: Cornelius (2); Mellink (1) and (2).
The famine begins: Gresbeck, pp. 140, 174–5.

278 Food reserved for the court: Cornelius (4) (OS), p. 343; Gresbeck, p. 141; Kerssenbroch, p. 804; and cf. Detmer's Note 1 to p. 805.
The extremes of famine: Gresbeck, p. 189; Kerssenbroch, p. 798.
For Bockelson's prophecies: Cornelius (6) (OS), p. 373; Kerssenbroch, pp. 793, 803; report in Löffler, p. 195.
On the public amusements: Gresbeck, pp. 131 sq., 150 sq., 168.
On the fate of the emigrants: Cornelius (3) and (4) (both OS); Gresbeck, p. 189; Kerssenbroch, pp. 805 sq.

279 On the last stages of the terror: Cornelius (3) and (4) (both OS); Kerssenbroch, pp. 772 sq., 784, 820.
On the fall of Münster: Cornelius (5) (OS); Gresbeck, pp: 194–5, 200–201, 205 sq.; Kerssenbroch, pp. 833 sq.

280 On the execution of Bockelson: Corvinus (OS), p. C ii.
On Willemsen: Bouterwek, pp. 34–5.

Appendix

The Free Spirit in Cromwell's England: the Ranters and their literature

287 Brief accounts of the Ranters have been given by e.g. R. M. Jones (MW), pp. 467–81; and by C. E. Whiting, *Studies in English Puritanism from*

the Restoration to the Revolution, 1660–88, London, 1931, pp. 272–7.
Bibliographical particulars of the seventeenth-century works mentioned below and in the Appendix itself will be found in e.g. D. Wing, *Short-title catalogue of books printed in England . . . 1641–1700*, 3 vols., New York, 1945–51.
On Winstanley's millenarianism see e.g. W. Schenk, *The concern for social justice in the Puritan revolution*, London, 1948, pp. 96–111.

288 'It is no new work . . .': John Taylor, *Ranters of both Sexes . . . taken and imprisoned . . .*, 1651, p. 4.
'high attainers': Richard Baxter, *Plain Scripture Proof of Infants Church Membership*, third edition, 1653, p. 148.
'high professors': George Fox, *Journal*, vol. I, London, 1902, p. 198.
Officers and soldiers whipped: *The Arraignment and Tryall with a Declaration of the Ranters*, 1650, p. 6.

289 Quakers were almost identified with Ranters not only by the bellicose Ephraim Pagitt (*Heresiography*, fifth edition, 1654, p. 143), but even by, for instance, the tolerant Baxter (*Reliquiae Baxterianae*, 1696, p. 77).
'When I came into the jail . . .': Fox, *Journal*, vol. I, pp. 47–8.
'were very rude . . .': ibid., vol. I, p. 199.
For the meeting at Reading: ibid., vol. I, p. 231.
For the Ranters at Charing Cross: ibid., vol. I, p. 212.
'ran quite out . . .': ibid., vol. II, p. 7.
'if God had not raised up . . .': ibid., vol. I, p. 95.

294 Parliament gives signs of concern in 1648: *Journals of the House of Lords*, vol. X, p. 240.

295 Parliament appoints a committee, 14th June, 1650: *Journals of the House of Commons*, vol. VI, p. 423.
The committee reports back, 21st June: ibid., p. 427.
The Bill debated: ibid., pp. 430, 437, 440, 443–4, 453–4.
The committee revived: ibid., p. 493.

303 The passages quoted from *The Light and Dark sides of God* are to be found at pp. 1–4, 6, 9–11, 14, 18, 33, 35, 36, 38–9, 46–7, 49–50, 53.

306 The passages quoted from *Heights and Depths* are to be found in the Preface and at pp. 2, 6, 9, 10, 17, 23–6, 28, 30, 52.

309 Clarkson's career is described by himself in *The Lost sheep found*; for the earlier part of it see also Thomas Edwards, *Gangraena*, 1646 (second edition, enlarged), pp. 104–5. In *The Routing of the Ranters*, 1650, p. 2, Clarkson is mentioned along with Coppe as being a 'chief Ringleader of this viperous generation'. For a modern account see the article by C. W. Sutton on Claxton or Clarkson in the *Dictionary of National Biography*.
'There was few of the clergy . . .': *The Lost sheep found*, p. 23.
The committee reports on *A Single Eye*: *Journals of the House of Commons*, vol. VI, p. 427; is ordered to report in more detail: ibid., p. 444; makes its final report, with the result that Clarkson is sentenced: ibid., pp. 474–5.
The passages quoted from *The Lost sheep found* are at pp. 24–8.
For Clarkson's arrest and examination: ibid., pp. 20–31.

316 The account of Coppe's guilt-obsessed adolescence is taken from *Copp's Return to the wayes of Truth*, First Error. On Coppe's later career see Baxter, *Plain Scripture Proof*, pp. 147–8; Anthony à Wood, *Athenae Oxonienses*, second edition, vol. II, London, 1721, pp 500–502. For a modern account see the article by Alexander Gordon on Coppe in the *Dictionary of National Biography*.

God 'is in Heaven, Earth . . .': *Copp's Return*, Fourth Error.
317 Coppe at Charing Cross: Fox, *Journal*, vol. I, p. 212.
For Coppe's swearing in church and tavern: *The Ranters Ranting*, 1650, pp. 5–6.
Parliament orders the *Rolls* to be seized: *Journals of the House of Commons*, vol. VI, p. 354.
On Coppe's behaviour during interrogation: *The Routing of the Ranters*, p. 2.

Bibliography

Abbreviations

Fuller descriptions of the works of reference and collections of sources listed below will be found in the body of the Bibliography.

ABAW *Abhandlungen der königlich bayerischen Akademie der Wissenschaften (Historische Classe).* Munich
ADB *Allgemeine Deutsche Biographie*
BHPF *Bulletin de la société de l'histoire du protestantisme français.* Paris
CCF *Corpus chronicorum Flandriae*
CDS *Chroniken der deutschen Städte*
CEH *Cambridge Economic History*
CMH *Cambridge Medieval History*
ERE *Encyclopaedia of Religion and Ethics*
FRA *Fontes rerum Austriacarum*
FRG *Fontes rerum Germanicarum*
GBM *Geschichtsquellen des Bistums Münster*
MGHS *Monumenta Germaniae Historica, Scriptores*
PG *Patrologiae cursus completus, series Graeca*
PL *Patrologiae cursus completus, series Latina*
RHC *Recueil des Historiens des Croisades. (Historiens Occidentaux)*
RHF *Recueil des Historiens des Gaules et de la France*
RPT *Realencyclopädie für protestantische Theologie und Kirche*
RS *Rolls Series*
SGUS *Scriptores rerum Germanicarum in usum scholarum.* (See under *Monumenta Germaniae Historica* in Bibliography)
SPAW *Sitzungsberichte der königlichen preussischen Akademie der Wissenschaften.* Berlin
ZKG *Zeitschrift für Kirchengeschichte.* Gotha

1 Original Sources and Collections of Sources

ADSO OF MONTIER-EN-DER. *Epistola ad Gerbergam reginam de ortu et tempore Antichristi*, in Sackur, pp. 104–13 (also in PL, vol. CI).
AENEAS SILVIUS (Enea Silvio de' Piccolomini; Pope Pius II). *De ortu et historia Bohemorum*, in *Omnia opera*, Basle, 1551.
AIMO OF SAINT-PIERRE-SUR-DIVES. *Epistola ad fratres Totesberiae*, in PL, vol. CLXXXI, cols. 1707–8.
ALBERIC OF TROIS-FONTAINES. *Chronicon*, in RHF, vol. XVIII.
ALBERT OF AIX. *Liber Christianae expeditionis pro ereptione, emundatione et restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae*, in RHC, vol. IV.

ALBERT OF STADE. *Annales Stadenses*, in MGHS, vol. XVI.
ALBERTUS MAGNUS. *Compilatio de novo spiritu*, in Preger (1) (MW), vol. I, pp. 461–9. For emendations: Haupt (3).
Aliscans, ed. Wienbech *et al.*, Halle, 1903.
ALVARUS OF CORDOVA. *Indiculus luminosus*, in PL, vol. CXXI.
AMBROSE, ST (1). *In Psalmum CXVIII expositio*, in PL, vol. XV.
AMBROSE, ST (2). *De officiis ministrorum*, in PL, vol. XVI.
'AMBROSIASTER'. *Commentaria in Epistolam ad Colossenses*, in PL, vol XVI.
ANDREW OF BÖHMISCHBROD (Andreas de Broda). *Tractatus de origine Hussitarum*, in Höfler, vol. VI of FRA, pp. 327–53.
ANDREW OF REGENSBURG (Andreas Ratisbonensis). *Chronicon*, in Eckhart, vol. I.
Annales Agrippenses, in MGHS, vol. XVI.
Annales Altahenses maiores, in MGHS, vol. XX.
Annales Austriacorum, continuations of, in MGHS, vol. IX:
Continuatio Praedicatorum Vindobonensium
Continuatio Claustroneoburgensis V
Continuatio Florianensis
Annales Basileenses, in MGHS, vol. XVII.
Annales Blandinienses, in MGHS, vol. V.
Annales breves Solmenses, in FRG, vol. IV.
Annales Cameracenses, in MGHS, vol. XVI.
Annales capituli Cracoviensis, in MGHS, vol. XIX.
Annales Casinenses, in MGHS, vol. XIX.
Annales Colbazenses, in MGHS, vol. XIX.
Annales Colmarienses maiores, in MGHS, vol. XVII.
Annales Frankofurtani, in FRG, vol. IV.
Annales Gandenses, in MGHS, vol. XVI.
Annales Herbipolenses, in MGHS, vol. XVI.
Annales Lubicenses, in MGHS, vol. XVI.
Annales Mellicenses, continuations of, in MGHS, vol. IX:
Continuatio Mellicensis
Continuatio Zwetlensis III
Continuatio Sancrucensis II
Annales Monasterii de Burton, in RS 36 (*Annales Monastici*), vol. I, 1864.
Annales Monasterii de Osenia, in RS 36 (*Annales Monastici*), vol. IV, 1869.
Annales Monasterii de Waverleia, in RS 36 (*Annales Monastici*), vol. II, 1865.
Annales Parchenses, in MGHS, vol. XVI.
Annales Rodenses, in MGHS, vol. XVI.
Annales S. Blasii Brunsvicenses, in MGHS, vol. XXIV.
Annales S. Jacobi Leodiensis minores, in MGHS, vol. XVI.
Annales S. Justinae Patavini, in MGHS, vol. XIX.
Annales Tielenses, in MGHS, vol. XXIV.
Annales Veterocellenses, in MGHS, vol. XVI.
ANNALISTA SAXO; in MGHS, vol. VI.
Anonimalle Chronicle, ed. Galbraith, Manchester, 1927.
Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum (ed. Bréhier as *Histoire anonyme de la première Croisade*, in: *Les classiques de l'histoire de France au Moyen Âge*, vol. IV), Paris, 1924.
ANONYMOUS OF MAINZ-DARMSTADT. *Memorial*, in Neubauer and Stern, vol. II.
Archiv český čili staré písemné památky české i moravské (The Bohemian

archives, or old Bohemian and Moravian chronicles), ed. Palacký. 6 vols., Prague, 1840–72.

ARNOLD, Dominican. *De correctione Ecclesiae Epistola*, ed. Winkelmann, Berlin, 1865.

Articuli et errores Taboritarum, in *Archiv český* (OS), vol. III, pp. 218–25.

AUGUSTINE, ST. *De Civitate Dei contra paganos*, ed. Welldon. 2 vols., London, 1924.

BALDWIN OF AVESNES (attrib.). *Chronique attribuée à Baudoin d'Avesnes*, in RHF, vol. XXI.

BALDWIN OF NINOVE. Chronicon, in MGHS, vol. XXV.

BALUZE, E. (1). *Vitae paparum Avinoniensium*, ed. Mollat. 4 vols., Paris, 1914–27.

BALUZE, E. (2). *Miscellanea*. 4 vols., Paris, 1678–83.

BARACK, K. A. (ed.). Documents concerning Hans Böhm, 'the Drummer of Niklashausen'. See Barack (MW), pp. 50–108.

Document 3 (pp. 53–4) is *Handell Hanassen Behem zu Niclaeshussenn.*

BARONIUS, C. and RAYNALDUS, O. *Annales ecclesiastici una cum critica historico-chronologica*, Lucca, 1738–59.

Baruch-Apocalypse (= II Baruch or *The Syriac Apocalypse of Baruch*), ed. and trans. Charles, in Charles, vol. II.

BASZKO OF POZNAN. *Chronicon Poloniae*, in *Silesiacarum rerum scriptores*, vol. II, Breslau, 1730.

BAUDRI OF DOL. *Hierosolymitanae Historiae libri quatuor*, in PL, vol. CLXVI.

BEAUMANOIR, PHILIPPE DE RÉMI, Sire de. *Les Coutumes du Beauvoisis*, ed. Salmon, 2 vols., Paris, 1899.

BENEDICT OF MOUNT SORACTE. *Chronicon*, in PL, vol. CXXXIX.

BENEDICT, ST, OF NURSIA. *The Rule of Saint Benedict in Latin and English*, Ed. and trans. Abbot Justin McCann, London, 1952.

BENESSIUS KRABICE OF WEITMÜHL. *Chronicon*, in *Fontes rerum Bohemicarum*, vol. IV.

BENZO OF ALBA. *Ad Heinricum IV Imperatorem libri VII*, in MGHS, vol. XI.

BERNARD, ST. *Omnia opera*, ed. Picard, Paris, 1609. Includes, *inter alia:*
(1) *In Cantica Canticorum*, Sermo LXV, cols. 759–62.
(2) *Epistola ad Gaufridum Carnotensem episcopum*, col. 1441.
(3) *Epistola ad episcopum, clerum et populum Spirensem*, cols. 1637–9.
(4) *Epistola ad Henricum Moguntinum archiepiscopum*, cols. 1639–40.

BERNOLD OF CONSTANCE. *Chronicon*, in MGHS, vol. V.

BIRLINGER, A. (ed.). *Ein wunder nützes disputieren von einem ersamen bihter und siner bihtohter*, in *Alemannia*, vol. III, Bonn, 1875, pp. 15–45.

BOENDAELE, JAN (Jan de Klerk). *Brabantsche Yeesten*, ed. Willems, 3 vols., Brussels, 1839–69.

BOGAERT, HENDRIK vanden (Pomerius). *De origine monasterii Viridisvallis una cum vita B. Joann. Rusbroekii*, ed. de Smet, in *Analecta Bollandiana*, vol. IV, Paris and Brussels, 1885.

BRANDT, O. H. *Thomas Muntzer. Sein Leben und seine Schriften*. Jena, 1933. Includes, *inter alia* and in addition to Muntzer's pamphlets (for which see Muntzer), the following in modernized spelling:
(1) *Die Historie Thomä Müntzers*, pp. 38–50.
(2) Extract from Marcus Wagner's booklet on Storch, Erfurt, 1597, pp. 53–9.
(3) Muntzer's call to the people of Allstedt of April 1525, pp. 74–6.
(4) Müntzer's letter to the Count of Mansfeld of May 1525, pp. 77–8.
(5) Muntzer's confession, pp. 80–83.

BRANT, SEBASTIAN. *Das Narrenschiff*, ed. Zarncke, Leipzig, 1854.
Breve chronicon Flandriae, in CCF, vol. III.
BRUNO OF OLMÜTZ. *Relatio*, ed. Höfler, in ABAW, vol. IV, 1846, pp. 27 sq
BUCER, MARTIN. Letter to Margaret of Navarre, in Calvin, *Omnia opera*, vol. X b, col. 215.
CAESARIUS OF HEISTERBACH. *Dialogus miraculorum*, ed. Strange, vol. I, Cologne, 1851.
Calendar of the Close Rolls preserved in the Public Record Office. London, 1892 ff.
CALVIN, JEAN. *Omnia opera*, ed. Baum *et al.*, Brunswick, 1864–1900.
(1) vol. I. *Institutio religionis Christianae.*
(2) vol. VII. *Brieve Instruction pour armer tous bons fideles contre les erreurs de la secte des Anabaptistes.*
(3) vol XII. Letter to Margaret of Navarre, cols. 64–8.
(4) vol XXXV. *Contre la secte phantastique et furieuse des Libertins qui se nomment spirituelz.*
(5) vol. XXXV. *Epistre contre un certain Cordelier suppost de la secte des Libertins.*
CAMENTZ, CASPAR. *Acta aliquot Francofurtana*, in FRG, vol. IV.
Chanson d'Antioche, ed. P. Paris, 2 vols., Paris, 1848.
Chanson de Roland, ed. Bédier, Paris, 1937.
CHAPTER OF UTRECHT. *Epistola ad Fridericum archiepiscopum Coloniensem de Tanchelmo seductore*, in Duplessis d'Argentré, vol. I, pp. 11–12.
CHARLES IV, Emperor (1). Decree appointing Kerlinger inquisitor, in Mosheim (2) (MW), pp. 343–62.
CHARLES IV, Emperor (2). Letter to Kerlinger, in Mosheim (2) (MW), pp. 368–75.
CHARLES, R. H. (ed.). *The Apocrypha and Pseudepigrapha of the OldTestament*, 2 vols, Oxford, 1913.
CHARLIER, GILLES (Aegidius Carlerus). *Liber de legationibus concilii Basiliensis pro reductione Bohemorum*, in *Monumenta Conciliorum generalium secul XV. Scriptorum*, vol. I, Vienna, 1857.
Chronica de Mailros, ed. Stevenson (Bannatyne Club), Edinburgh, 1835.
Chronica minor auctore minorita Erphordiensi, in MGHS, vol. XXIV.
Chronica regia Coloniensis, in MGHS, vol. XVII.
Chronica regia Coloniensis, Continuatio II, in MGHS, vol. XXIV.
Chronica universalis Mettensis, in MGHS, vol. XXIV.
Chronicon Andrensis monasterii, in RHF, vol. XVIII.
Chronicon anonymi Laudunensis canonici, in RHF, vol. XVIII.
Chronicon Britannicum in collectione MS Ecclesiae Nannetensis, in RHF, vol. XII.
Chronicon comitum Flandrensium, in CCF, vol. I.
Chronicon Elnonense, in MGHS, vol. X.
Chronicon Normanniae, in RHF, vol. XXIII.
Chronicon rhythmicum Austriacarum, in MGHS, vol. XXV.
Chronicon Rotomagense, in RHF, vol. XXIII.
Chronicon S. Andreae Castri Cameracesii, in MGHS, vol. VII.
Chronicon S. Catharinae de Monte Rotomagi, in RHF, vol. XXIII.
Chronicon S. Laudi Rotomagensis, in RHF, vol. XXIII.
Chronicon S. Martini Turonensis, Continuatio, in MGHS, vol. XXVI.
Chronicon S. Medardi Suessionensis, in RHF, vol. XVIII.
Chronicon S. Petri vulgo Sampetrinum Erfurtense, in *Geschichtsquellen der Provinz Sachsen*, vol. I, Halle, 1870.
Chronicon Turonense, in RHF, vol. XVIII.

Chronicon universale anonymi Laudunensis, in MGHS, vol. XXVI.

Chroniken der deutschen Städte vom 14 bis ins 16 Jahrhundert, Leipzig, 1867–1917. (Pub. *Königlich bayerische Akademie der Wissenschaften.*)

Chronique anonyme des Rois de France, in RHF, vol. XXI.

Chroniques de Saint-Denis, in RHF, vol. XXI.

CLEMENT V, Pope (1). Bull *Ad nostrum* (*Constitutiones Clementis* ('Clementines'), lib. V, tit. III, cap. iii), in *Corpus juris canonici*, vol. II, cols. 1183–4.

CLEMENT V, Pope (2). Bull *De quibusdam* (*Constitutiones*, lib. III, tit. XI, cap. i), in *Corpus juris canonici*, vol. II, col. 1169.

CLEMENT VI, Pope. Bull against Flagellants, in Baronius and Raynaldus, vol. XXV, pp. 493 sq.

CLEMENT OF ALEXANDRIA. *Stromata*, in PG, vols. VIII, IX.

CLOSENER, FRITSCHE. *Strassburgische Chronik*, in CDS, vol. VIII.

COMMODIANUS (1). *Instructiones*, ed. Dombart, in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. XV, Vienna, 1887.

COMMODIANUS (2). *Carmen apologeticum* (as for Commodianus (1)).

Concilium Lateranense IV, in Mansi, vol. XXII.

Conquête de Jerusalem, ed. Hippeau, Paris, 1868.

CONRAD OF MEGENBERG (Conradus de Monte Puellarum). *De erroribus Begehardorum et Beginarum* (fragment), in *Bibliotheca veterum patrum*, ed. Despont, vol. XXV, Lyons, 1677, p. 310.

CORNELIUS, C. A. (ed.). *Berichte der Augenzeugen über das münsterische Wiedertäuferreich*, in GBM, vol. II, Münster, 1852. Includes, *inter alia:*

(1) Gresbeck (q.v.).

(2) Erasmus Schetus, Letter to Erasmus of Rotterdam, p. 315.

(3) Letter of Justinian of Holtzhausen of 21 May 1535, pp. 334–7.

(4) Letter of Justinian of Holtzhausen of 29 May 1535, pp. 341–7.

(5) Letter of Sigmund of Buineburg, pp. 367–9.

(6) Confession of Jan Bockelson of July 1535, pp. 369–76.

(7) Confession of Jan Bockelson of January 1536, pp. 398–402.

(8) *Bekenntnis des Glaubens und Leben der Gemeinde Christi zu Münster*, pp. 445–64.

Corpus chronicorum Flandriae, ed. de Smet, 4 vols., Brussels, 1837–65.

Corpus juris canonici, ed. Friedberg, 2 vols., Leipzig, 1879, 1881.

CORVINUS, ANTON. *De miserabili Monasteriensium anabaptistarum obsidione ... epistola ad Spalatinum*, Wittenberg, 1536.

COSMAS OF PRAGUE. *Chronica Boemorum*, in MGHS, new series, vol. II.

CYPRIAN, ST. *Liber de opere et eleemosynis*, in PL, vol. IV.

DAMIAN, PETER (1). *Epistola ad Petrum Cerebrosum monachum*, in PL, vol. CXLIV.

DAMIAN, PETER (2). *Vita S. Romualdi*, in PL, vol. CXLIV.

Decretales Pseudo-Isidorianae, ed. Hinschius, Leipzig, 1858.

DENIFLE, H. S. and CHATELAIN, E. *Chartularium Universitatis Parisiensis*, vol. I, Paris, 1889.

Descripto qualiter Karolus Magnus clavum et coronam Domini a Constantinopoli Aquisgrani detulerit ..., in Rauschen (MW), pp. 103–25.

Detmar-Chronik, ed. Koppmann, in CDS, vol. XIX.

Deutsche Chroniken (*Scriptores qui vernacula lingua usi sunt*). (Part of *Monumenta Germaniae Historica.*)

Dialogue of Dives and Pauper, ed. Pynson, 1493.

DIODORUS SICULUS. *Bibliothecae Historicae libri qui supersunt*, 2 vols., Amsterdam, 1746.

DÖLLINGER, I von. *Beiträge zur Sektengeschichte*, vol. II, Munich, 1890.

DORP, HEINRICH. *Warhafftige Historia wie das Evangelium zu Münster angefangen, und darnach durch die Wiedertäufer verstört, wider auffgehört*, ed. Merschmann, Magdeburg, 1847.

DORSTEN, JOHANNES. *Quaestio de tertio statu*, in Kestenberg-Gladstein (MW), pp. 266–95.

DU FAYT, JEAN. *Contra Flagellatores*, in Fredericq (2) (MW).

DUPLESSIS D'ARGENTRÉ, C. de. *Collectio judiciorum de novis erroribus*, 3 vols., Paris, 1755.

ECKBERT OF SCHÖNAU. *Sermones contra Catharos*, in PL, vol. CXCV.

ECKHART, J. G. *Corpus historicum medii aevi*, 2 vols., Leipzig, 1723.

ÉGASSE DU BOULAY, C. *Historia universitatis Parisiensis*, 6 vols., Paris, 1665–73.

EKKEHARD OF AURA (1). *Hierosolymita*, ed. Hagenmeyer, Tübingen, 1877.

EKKEHARD OF AURA (2). *Chronicon universale*, in MGHS, vol. VI.

ELIEZER BAR NATHAN. *Relation*, in Neubauer and Stern, vol. II.

ELLENHARD OF STRASBOURG (1). *Bellum Waltherianum*, in MGHS, vol. XVII.

ELLENHARD OF STRASBOURG (2). *Chronicon*, in MGHS, vol. XVII.

ENNEN, L. and ECKERTZ, G. *Quellen zur Geschichte der Stadt der Köln*, 6 vols., Cologne, 1860–79

EPHRAIM BAR JACOB. *Relation*, in Neubauer and Stern, vol. II.

Erphurdianus Antiquitatum Variloquus, ed. Thiele (*Geschichtsquellen der Provinz Sachsen*, vol. XLII), Halle, 1906.

Errores bechardorum et begutarum, in Haupt (7) (MW), pp. 88–90.

Errores sectae hominum intelligentiae, in Baluze (2), vol. II, pp. 277–97.

ESPINAS, G. and PIRENNE, H. *Recueil de documents relatifs à l'histoire de l'industrie drapière en Flandre*, Part I, vol. III, Brussels, 1920.

EULOGIUS, Archbishop of Toledo. *Memorialis sanctorum*, in PL, vol. CXV.

Ezra-Apocalypse (= 4 Ezra or 2 Esdras), ed. and trans. Box in Charles, vol. II.

FABRICIUS, DIETRICH. Report on mission to Münster, in *Mitteilungen aus dem Germanischen Nationalmuseum*, vol. II, Nuremberg, 1885, pp. 99–102.

FAREL, GUILLAUME. *Le Glaive de la Parolle veritable*, Geneva, 1550.

Flores temporum, Imperatores, in MGHS, vol. XXIV.

Fontes rerum Austriacarum (*Österreichische Geschichtsquellen*), Section 1, *Scriptores*, Vienna, 1849 ff.

Fontes rerum Bohemicarum, ed. Emler, Prague, 1873 ff.

Fontes rerum Germanicarum, ed. Boehmer, 4 vols., Stuttgart, 1843–68.

FÖRSTEMANN, C. E. (ed.). *Neues Urkundenbuch zur Geschichte der evangelischen Kirchenreformation*, Hamburg, 1842.

FRANCIS OF PRAGUE. *Secundus tractatus chronicae Pragensis*, in FRA, Section 1, vol. VIII.

FRANCK, SEBASTIAN. *Chronica, Zeÿtbüch und Geschÿchsbibel*, Strasbourg, 1531.

FREDERICHS J. (ed.). *Summa doctrinae quorundam hominum, qui nunc ... Loistae ... nunc Libertini ... appellantur*, in Frederichs (1) (MW), pp. 1 sq.

FREDERICQ, P. *Corpus documentorum Inquisitionis haereticae pravitatis Neerlandicae*, 4 vols., Ghent, 1889–1900.

FRIES, LORENZ. *Historie der Bischöffen zu Wirtzburg*, in Ludewig, *Geschichts-schreiber von dem Bischoffthum-Wirtzburg*, Frankfort, 1713.

FROISSART, JEAN. *Chroniques*, ed. Luce and Raynaud, 11 vols., Paris, 1869–99.

FULCHER OF CHARTRES. *Gesta Francorum Jerusalem expugnantium*, in RHC, vol. III.

GAGUIN, ROBERT. *Compendio de Francorum gestis*, Paris, 1500.

GARNIER OF ROCHEFORT (attrib.). *Contra Amaurianos*, ed. Baeumker, in *Beiträge zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters*, vol. XXIV, Heft 5–6, Münster, 1926.
GERSON, JEAN CHARLIER de. *Opera omnia*, ed. Dupin, 3 vols., Antwerp, 1706. Includes, *inter alia:*
(1) vol. I. *De examinatione doctrinarum.*
(2) *De distinctione verarum visionum a falsis.*
(3) *De libris caute legendis.*
(4) vol. II. *Epistola missa Magistro Vincentio O.P. . . . contra se flagellantes.*
(5) *Tractatus contra sectam Flagellantium.*
(6) vol. III. *Tractatus contra Romantium de Rosa.*
(7) *Considerationes theologiae mysticae.*
(8) *De mystica theologica speculativa.*
(9) *Considérations sur Saint Joseph.*
(10) *Sermo de Spiritu Sancto.*
(11) *Sermo die festo S. Ludovici.*
Geschichtsquellen des Bisthums Münster, vols. II, V, VI, Münster, 1852, 1899, 1900.
Gesta abbatum Trudonensium, in MGHS, vol. X.
Gesta archiepiscoporum Magdeburgensium, Continuatio I, in MGHS, vol. XIV.
Gesta Baldevvini Treverensis archiepiscopi, in Baluze (2), vol. I.
Gesta Ludovici VIII, in RHF, vol. XVII.
Gesta Treverorum, Continuatio I, in MGHS, vol. VIII.
GILLES VAN DER HOYE. *Dicta in quodam sermone ad populum*, ed. Berlière, in 'Trois traités inédits sur les Flagellants', *Revue Bénédictine*, vol. XXV, Maredsous, 1908, pp. 334–57.
GIRALDUS CAMBRENSIS. *Liber de instructione principum*, in RS 21, 1891 (vol. VIII of *Opera*).
GLASSBERGER, NICOLAUS. *Chronica*, in *Analecta Franciscana*, vol. II, Quaracchi, 1887, pp. 423–6.
GOWER, JOHN. *Vox clamantis*, in Latin Works, ed. Macaulay, Oxford, 1902.
Grandes chroniques de France, ed. P. Paris, vols. V, VI, Paris 1836–8.
GRATIAN. *Decretum*, in PL, vol. CLXXXVII.
GREGORY, ST, OF TOURS. *Historia Francorum*, in MGHS *rerum Merovingicarum*, vol. I.
GREGORY XI, Pope (1). Letter to Kerlinger and others, in Baronius and Raynaldus, vol. XXVI, p. 228.
GREGORY XI, Pope (2). Letter to Emperor Charles IV, in Baronius and Raynaldus, vol. XXVI, pp. 240–41.
GRESBECK, H. *Summarische Ertzelungk und Bericht der Wiederdope und wat sich binnen der Stat Monster in Westphalen zugetragen im Iair MDXXXV*, in Cornelius, *Berichte*, pp. 3–214.
GROOT, GERHARD. *Gerardi Magni Epistolae XIV*, ed. R. Acquoy, Amstel, 1857.
GUI, BERNARD (1). *E Floribus Chronicorum*, in RHF, vol. XXI.
GUI, BERNARD (2). *Vita Clementis V*, in Baluze (1), vol. I.
GUI, BERNARD (3). *Vita Joannis XXII*, in Baluze (1), vol. I.
GUIBERT OF NOGENT (1). *Gesta Dei per Francos, sive Historia Hierosolymitana*, in RHC, vol. IV.
GUIBERT OF NOGENT (2). *De vita sua*, in RHF, vol. XII.
Haereses sectatorum Amalrici, in Denifle and Chatelain, pp. 71–2.
HARTMANN, CHRISTOPH. *Annales Heremi Deiparae Matris Monasterii in Helvetia*. Freiburg in Breisgau, 1612.

HARTZHEIM, J. and SCHANNAT, J. F. *Concilia Germaniae*, 11 vols., Cologne, 1759–90.
HENRY OF DIESSENHOFEN (Heinrich Truchsess). *Historia ecclesiastica* or *Chronicon*, in FRG, vol. IV.
HENRY OF HEIMBURG. *Annales*, in MGHS, vol. XVII.
HENRY OF HERFORD. *Liber de rebus memorabilioribus sive chronicon*, ed. Potthast, Göttingen, 1859.
HENRY OF VIRNENBURG. *Contra Beggardos et Beggardas*, in Fredericq (OS), vol. I, pp. 151 sq.
HERMANN OF ALTAHA. *Annales*, in MGHS, vol. XVII.
HILDEGARD, ST (1). *Scivias sive visionum ac revelationum libri tres*, in PL, vol. CXCVII.
HILDEGARD, ST (2). *Epistola ad praelatos Moguntinenses*, in PL, vol. CXCVII, cols. 218–43.
HIPPOLYTUS (attribution uncertain). *De consummatione mundi ac de Antichristo*, in PG, vol. X, cols. 904–52.
HÖFLER, C. A. C. von. *Geschichtsschreiber der husitischen Bewegung in Boehmen*, in FRA, Section 1, vols. II, VI, VII, Vienna, 1856–66.
HUGH OF REUTLINGEN (Spechtshart). *Weltchronik*, ed. Gillert, Munich, 1881.
IBN AL-QALĀNISI. *Continuation of the Chronicle of Damascus: The Damascus Chronicle of the Crusades*. Selected and trans. Gibb, London, 1932.
IBN VERGA, SOLOMON. *Shebet Yehuda*. German trans. Wiener, Hanover, 1856.
INNOCENT VI, Pope. Bull appointing inquisitors in France, in Baronius and Raynaldus, vol. XXV, p. 589.
Invective contra Hussitas, in Höfler, vol. II of FRA, pp. 621–32.
IRENAEUS, ST. *Adversus haereses*, in PG, vol. VII.
JEAN DE MEUN. *Le Roman de la Rose*, ed. Langlois, 5 vols. Paris, 1914–24.
JEAN DES PREIS DIT D'OUTREMEUSE. *Ly Myreur des Histors*, ed. Bormans, Brussels, 1887.
JEAN LE FÈVRE. *Les Lamentations de Matheolus*, ed. van Hamel, Paris, 1892.
JOST OF EINSIEDELN. Report on the Wirsberg brothers, ed. Kurschner, in *Archiv fur oesterreichische Geschichte*, vol. XXXIX, Part I, Vienna, 1868, pp. 280 sq.
JOHN, canon of St Victor. *Vita Joannis XXII*, in Baluze (1).
JOHN XXII, Pope. Letter to Seneschal of Beaucaire, in Baronius and Raynaldus, vol. XXIV, pp. 136–7.
JOHN OF COLUMNA. *E Mari Historiarum*, in RHF, vol. XXIII.
JOHN OF DURBHEIM (1). Pastoral letter, 1317, in Mosheim (2) (MW), pp. 255–61 (where attributed to John of Ochsenstein).
JOHN OF DÜRBHEIM (2). Letter to the Bishop of Worms, in Mosheim (2) (MW), pp. 267–9.
JOHN OF HAGEN (Joannes de Indagine). *De his, qui se vulnerunt* . . ., in Stumpf (MW), Document 6.
JOHN OF ROQUETAILLADE (Rupescissa). *Vade mecum in tribulatione*, in G. Orthuinus, *Fasciculum rerum expetendarum et fugiendarum*, ed. Edward Brown, vol II, London, 1690, pp. 496–508.
JOHN OF TAYSTER. *Annales*, in MGHS, vol. XXVIII.
JOHN OF VIKTRING. *Liber certarum historiarum*, in SGUS, 1909–10, 2 vols.
JOHN OF YPRES. *Chronicon Sythiense S. Bertini*, in RHF, vol. XVIII.
JOHN OF WINTERTHUR. *Chronica*, in MGHS, new series, vol III.
JOHN, Abbot of St Victor. Sermon, in Hauréau (MW), pp. 93–4, Note 1.

JOSEPH HA-COHEN. *Emek ha Bakha (The Valley of Tears)*. German trans Wiener, Leipzig, 1858.

JOSEPHUS FLAVIUS. *The Jewish War*, trans. Whiston and Shilleto, 2 vols., London, 1890.

JUSTIN MARTYR. *Dialogus cum Tryphone Judaeo*, in PG, vol. VI.

Kalendarium Zwetlense, in MGHS, vol. IX

KAMNITZER, H. (ed.). *Dokumente des grossen deutschen Bauernkrieges*, in Meusel (MW), pp. 185–332.

KERVYN DE LETTENHOVE, C. B. (ed.). *Récits d'un bourgeois de Valenciennes* (1254–1366), Louvain, 1877.

KERSSENBROCH, HERMANN von. *Anabaptistici furoris Monasterium inclitam Westphaliae metropolim evertentis historica narratio*, ed. Detmer, in GBM, vols. V and VI.

Klingenberger Chronik, ed. Henne von Sargans, Gotha, 1861.

KNIGHTON, HENRY. Continuation of his *Chrónicon*, in RS 92, 1895.

KÖRNER, HERMANN (Cornerus). *Chronica novella*, in Eckhart, vol. II.

KURFESS, A. (ed.). *Sibyllinische Weissagungen*, Munich, 1951.

LACOMBLET, T. J. *Urkundenbuch für die Geschichte des Niederrheins*, 4 vols., Düsseldorf, 1840–58.

LACTANTIUS FIRMIANUS (1). *Divinae Institutiones*, in PL, vol. VI.

LACTANTIUS FIRMIANUS (2). *Epitome Divinarum Institutionum ad Pentadium fratrem*, in PL, vol. VI.

LANGLAND, WILLIAM. *The Vision of William concerning Piers the Plowman*, ed. Skeat, 2 vols., Oxford, 1886.

LANGLOIS, C. V. (ed.). *Instrumenta facta super examinacione M. Porete*, in *Revue historique*, vol. LIV, Paris, 1894, pp. 296–7.

LAWRENCE OF BŘEZOVÁ (Vavřinec z Březové). *De gestis et variis accidentibus regni Boemiae*, in Höfler, vol. II of FRA, pp. 321–534. (Also, with Czech as well as Latin text, in vol. V of *Fontes rerum Bohemicarum*.)

LAZIUS, WOLFGANG. *Fragmentum vaticinii cuiusdam . . . Methodii, episcopi Ecclesiae Patarensis*, Vienna, 1547.

LEA, H. C. (ed.). Sentence on Margaret of Porette, in Lea (MW), Appendix, pp. 575–8.

LE BEL, JEAN. *Chronique*, ed. Viard and Deprez, 2 vols., Paris, 1904–5.

Litera de civitate Pragensi . . ., in Höfler, vol. VI of FRA, pp. 311–19.

LÖFFLER, K. *Die Wiedertäufer zu Münster 1534–5*, Jena, 1923. (Contains much of the material translated into modern German.)

LUCIAN OF SAMOSATA. *Saturnalian Letters*.

LUTHER, MARTIN, *Werke (Kritische Gesamtausgabe)*, Weimar, 1883–1908.
(1) vol. XV. *Brief an die Fürsten zu Sachsen von dem aufrührischen Geist*, pp. 199 sq.
(2) vol. XVIII. *Wider die mörderischen und räuberischen Rotten der Bauern.*
(3) *Sendschreiben an die Christen zu Antwerpen*, 1525, pp. 547 sq.

Magdeburger Schöppenchronik, in CDS, vol. VII.

Majestas Carolini, in *Archiv český*, vol. III, pp. 68–180.

MANSI, J. D. *Sacra conciliorum collectio*, Paris and Leipzig, 1901–13.

MARTÈNE, E. and DURAND, U. *Veterum Scriptorum et Monumentum amplissima collectio*, 9 vols., Paris, 1724–33.

MARTIN OF TROPPAU (Martinus Polonus). *Chronicon expeditissimum*, Antwerp, 1574.
Continuations to Martin's *Chronicon pontificum et imperatorum*:
Continuatio Anglica, in MGHS, vol. XXIV.
Continuatio Brabantina, in MGHS, vol. XXIV.

MATILDA OF MAGDEBURG. *Das fliessende Licht der Gottheit*, ed. Morel Regensburg, 1869.
MATTHEW OF NEUENBURG. *Chronica*, in FRG, vol. IV.
MICHAEL DE LEONE. *Annotata historica*, in FRG, vol. I.
MONK OF WESTMINSTER. Continuation to Higden's *Polychronicon*, in RS 41, vol. IX, 1886.
Monumenta Boica. Munich, 1763 ff.
Monumenta Germaniae Historica, ed. Pertz, Mommsen *et al.*, Hanover and Berlin, 1826 ff.,
Scriptores, 1826 ff.
Scriptores rerum Germanicarum in usum scholarum, 1839 ff.
Scriptores rerum Germanicarum, new series, Berlin, 1922 ff.
MOUSKES, PHILIPPE (Mousket). *Chronique rimée*, ed. Reifenberg, vol. II, Brussels, 1838.
MUISIS, GILLES LI. *Chronica*, in CCF, vol. II.
MÜNTZER, THOMAS. *Schriften*, ed. Brandt (see also Brandt (OS)). Includes, *inter alia*, in modernized spelling:
(1) *Von dem gedichteten Glauben ...*
(2) *Protestation oder Entbietung Thomas Müntzers ...*
(3) *Die Fürstenpredigt*
(4) *Ausgedrückte Entblossung ...*
(5) *Hoch verursachte Schutzrede ...*
MÜNTZER, THOMAS. *Thomas Müntzers politische Schriften*, ed. Hinrichs, Halle, 1950.
MÜNTZER, THOMAS. *Thomas Müntzers Briefwechsel*, ed. Böhmer and Kirn, Leipzig, 1931.
NAUCLERUS, JOANNES. *Chronica*, Cologne, 1544.
NEUBAUER, A. and STERN, M. (ed.). *Hebräische Berichte über die Judenverfolgungen während der Kreuzzüge*, in *Quellen zur Geschichte der Juden in Deutschland*, vol. II, Berlin, 1892. (Hebrew, with German translations.)
Newe zeitung, von den Widerteuffern zu Münster, in *Zeitschrift für vaterländische Geschichte und Altertumskunde*, vol. XXVII, Münster, 1867, pp. 255–66.
NIDER, JOHANN. *Formicarius*, Strasbourg, 1517.
NIESERT, J. *Münsterische Urkundensammlung*, vols, I. II, Koesfeld, 1826. Includes, *inter alia*:
(1) vol. I. Confession of Johannes Beckemann, pp. 33–7.
(2) Confession of Zillis Leitgen, pp. 136–49.
(3) Confession of Jacob of Osnabrück, pp. 154–66.
(4) vol. II. *Newe zeittunge vonn Münster*, pp. 499–504.
Notae Colonienses, in MGHS, vol. XXIV.
OPEL, O. (ed.). 'Zur Geschichte des Bauernkrieges', in *Neue Mitteilungen aus dem Gebiete historisch-antiquarischer Forschungen*, vol. XII, Halle and Nordhausen, 1869. (Documents concerning Thomas Müntzer.)
OSWALD DER SCHREIBER (of Königsberg in Hungary), ed. Zarncke, in 'Der Priester Johannes', *Abhandlungen der sächsischen Gesellschaft der Wissenschaften, Philologisch-historische Klasse*, vol. VII, Leipzig, 1879.
OTTO OF FREISING. *Gesta Friderici I Imperatoris*, in SGUS, 1912, 3rd edn.
OTTOKAR. *Österreichische Reimchronik*, 1250–1300, in *Deutsche Chroniken*, vol. V.
OVID. *Metamorphoses*.
PAPIAS. *De expositione oraculorum dominicorum* (fragments), in PG, vol. V.
PARIS, MATTHEW. *Chronica majora*, in RS 57, 7 vols., 1872–83.
Patrologiae cursus completus. Series Latina, ed. J. P. Migne, Paris, 1844–55.

Patrologiae cursus completus. Series Graeco-Latina, ed. J. P. Migne, Paris, 1857–66.
PELAYO, ALVAREZ (Alvarus Pelagius). *De Planctu Ecclesiae*, 2 vols., Ulm, 1474.
PETER OF ZITTAU. *Die Konigsaaler Geschichtsquellen* (*Chronica Aulae regiae libri tres*), in FRA, vol. VIII.
PFEIFFER, F. (ed.). *Swester Katrei Meister Ekehartes Tohter von Strâzburc*, in *Deutsche Mystiker des vierzehnten Jahrhunderts*, vol. II, Leipzig, 1857, pp. 448–75.
POCQUE, ANTOINE. Mystical treatise, quoted in Calvin (4), cols. 225–42.
*PORETE, MARGUERITE. *Le Mirouer des simples ames anienties et qui seulement demourent en vouloir et desir d'amour*, ed. Guarnieri, in *Il Movimento del Libero Spirito*, Rome, 1965. (Replaces edition by Guarnieri, Rome, 1961.)
PREGER, W. (ed.) (1). *Compilatio de novo spiritu* (anonymous), in Preger (1) (MW), pp. 469–71.
PREGER, W. (ed). (2). *Tractatus ... contra quosdam articulos erroneos*, in Preger (2) (MW), pp. 62–3.
PRIMAT, Monk of Saint-Denis. *Chronique de Primat*, translated from the (lost) Latin original by John of Vignay, in RHF, vol. XXIII.
Pseudo-Methodius, in Sackur, pp. 59–96.
PTOLOMY (Tholomeus) OF LUCCA. *Vita Clementis V*, in Baluze (1), vol. I.
PULKAVA OF RADENIN (Przibico). *Chronica Boemorum*, with Continuations, in G. Dobner, *Monumenta historica Boemiae*, vols. III, IV.
RADULPH GLABER. *Historiarum libri quinque*, in PL, vol. CXLII.
RAMERT, HERMANN (attrib.). *Die Ordnung der Wiedertäufer zu Münster, item was sich daselbst nebenzu verloffen hat*, in *Zeitschrift für vaterländische Geschichte und Altertumskunde*, vol. XVII, Munster, 1856, pp. 240–49.
RAYMOND OF AGUILERS. *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem*, in RHC, vol. III.
Recognitiones (*S. Clementis Romani*), in PG, vol. I.
Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux. Publ. *Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, 5 vols., Paris, 1844–95.
Recueil des Historiens des Gaules et de la France (*Rerum Gallicarum et Francicarum scriptores*), ed. Bouquet *et al.*, Paris, 1738–1876.
Reformation Kaiser Sigmunds, ed. Beer (*Beiheft zu den deutschen Reichtagsakten*), Stuttgart, 1933.
REGENBOGEN (attrib.). *Meistersingerlied*, in Schultheiss (MW), pp. 55–8.
REIFFERSCHEID, A. (ed.). *Neun Texte zür Geschichte der religiösen Aufklärung in Deutschland während des 14-ten und 15-ten Jahrhunderts*, Griefswald, 1905.
REINERUS. *Annales S. Jacobi Leodiensis*, in MGHS, vol. XVI.
Renart le Contrefait, ed. Raynaud and Lemaitre, vol. II, Paris, 1914.
REUSS, F. A. 'Die Wallfahrt nach Niklashausen im Jahre 1476', in *Archiv des historischen Vereins von Unterfranken und Aschaffenburg*, vol. X, 3, Würzburg, 1858, pp. 300–18. (Collection of documents.)
RHEGIUS, URBANUS (1). *Widderlegung der münsterischen newen Valentinianer und Donatisten Bekentnus*, Wittenberg, 1535.
RHEGIUS, URBANUS (2). *De restitutione regni Israelitici, contra omnes omnium seculorum Chiliastas: in primis tamen contra Miliarios Monasterienses*, Zell, 1536.
RICHARD OF POITIERS. *Chronicon*, in RHF, vol. XII.
RICHERUS. *Gesta Senoniensis Ecclesiae*, in MGHS, vol. XXV.
RIGORD. *Gesta Philippi Augusti*, in RHF, vol. XVII.

RITTER, G. (ed.). 'Zur Geschichte des häretischen Pantheismus in Deutschland im 15-ten Jahrhundert', in ZKG, vol. XLIII (1924), new series, vol. VI. Includes:

(1) *Articuli confessi per Johannem Lolhardum*, pp. 150 sq.

(2) *Articuli informatoris de heresi circa Egram anno* 1467, pp. 158–9.

ROBERT OF AUXERRE. *Chronologia*, in RHF, vol. XVIII.

ROBERT OF AVESBURY. *De gestis mirabilibus regis Edwardi tertii*, in RS 93, 1889.

Rolls Series (*Rerum Britannicarum medii aevi scriptores*). Published under direction of the Master of the Rolls, London, 1858 ff.

ROTHE, JOHANNES. *Thuringische Chronik*, ed. von Liliencron, vol. III of *Thüringische Geschichtsquellen*, Jena, 1854 ff.

ROTHMANN, BERNT (1). *Bekentnisse van beyden Sacramenten* (first printed in Münster, 1533), in H. Detmer and R. Krumbholtz (MW).

ROTHMANN, BERNT (2). *Eyne Restitution edder Eine wedderstellinge rechter unde gesunder Christliker leer* ... (first printed in Münster, 1534), in *Neudrucke deutscher Literaturwerke*, nos. 77 and 78, Halle, 1888.

ROTHMANN, BERNT (3). *Eyn gantz troestlick bericht van der Wrake unde straffe des Babilonischen gruwels* ... (first printed in Münster, 1534), in K. W. Bouterwek (MW).

RUUSBROEC, JAN VAN. *Werken*, ed. Reypens and Schurmans, 4 vols., Mechelen and Amsterdam, 1932–4. Includes, *inter alia*, in order of composition:

(1) *Vanden Vier Becoringhen*, in vol. III.

(2) *Die Gheestelike Brulocht*, in vol. I.

(3) *Vanden VII Sloten*, in vol. III.

(4) *Een Spieghel der eewigher Salicheit*, in vol. III.

(5) *Dat Boecsken der Verclaringhe*, in vol. III.

(6) *Van den XII Beghinen*, in vol. IV.

RYMER, T. *Foedera et acta publica*, ed. A. Clarke *et al.*, vol. I, London, 1816.

Rýmovaná kronika česká (with *Di tutsch kronik von Behemlant*), in *Fontes rerum Bohemicarum*, vol. III, Prague, 1882.

SACKUR, E. *Sibyllinische Texte und Forschungen: Pseudomethodius, Adso und die tiburtinische Sibylle*, Halle, 1898.

SALIMBENE OF PARMA. *Cronica*, in MGHS, vol. XXXII.

SALOMO BAR SIMEON. *Relation*, in Neubauer and Stern, vol. II.

SCHEDEL, HARTMAN. *Liber cronicarum cum figuris et ymaginibus ab inicio mundi*, Nuremberg, 1493.

SCHMID, KONRAD (1). *Prophetica* ... *Schmid haeresi Flagellatorum infecti*, in Stumpf (MW), Document 2, pp. 16–24.

SCHMID, KONRAD (2). *Articuli ab* ... *flagellantium Praedicatore conscripti*, in Stumpf (MW), Document 3, pp. 24–6.

SCHMIDT, KARL. *Nicolaus von Basel*, Vienna, 1866. Includes:

(1) *Confession of Martin of Mainz*, pp. 66–9. (In Latin. For emendations see Haupt (4) (MW).)

(2) *Buch von den zwei Mannen*, pp. 205–77.

SCHNEIDER, FEDOR (ed). *Fünfundzwanzig lateinische weltliche Rhythmen aus der Frühzeit*, Rome, 1925.

SENECA. *Epistolae morales.*

SIEGFRIED OF BALNHUSIN (Grossballhausen in Saxony). *Historia universalis*, in MGHS, vol. XXV.

SIGEBERT OF GEMBLOUX. *Chronographia*, in MGHS, vol. VI. Continuations to Sigebert's chronicle:

Continuatio Gemblacensis, in MGHS, vol. VI.

Continuatio Praemonstratensis, in MGHS, vol. VI.
Auctarium Gemblacense, in RHF, vol. XIII (also in MGHS, vol. VI).
ROBERT OF TORIGNY (Robertus de Monte). *Chronica*, in MGHS, vol. VI.
SIMON OF TOURNAI. *Collectio de scandalis Ecclesiae*, ed. Stroick, in *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. XXIV, Florence, 1931, pp. 33 sq.
Sollicitudo sacerdotum Thaboriensium, in Höfler, vol. VI of FRA (as Chapter 2 of Part I of the *Chronicon Taboritarum*.)
Staří letopisové čeští (Old Czech chronicles), 1378–1527, ed. Palacký, Prague, 1829 (vol. III of *Scriptores rerum Bohemicarum*). (A more recent edition is now available, ed. F. Šimek and M. Kaňák, Prague, 1959.)
STEPHEN OF BOURBON. *Tractatus de diversis materiis predicabilibus*, ed. Lecoy de la Marche, in *Anecdotes historiques d'Étienne de Bourbon*, Paris, 1877.
STOLLE, KONRAD. *Thüringisch-erfurtische Chronik*, ed. Thiele (*Geschichtsquellen der Provinz Sachsen*, vol. XXXIX), Halle, 1900.
SUSO, HEINRICH. *Deutsche Schriften*, ed. Bihlmeyer, Stuttgart, 1907. Includes:
(1) *Leben.*
(2) *Das Büchlein der Wahrheit.*
Synod of Cologne, 1353, in Hartzheim and Schannat, vol. IV.
Synod of Cologne, 1357, in Hartzheim and Schannat, vol. IV.
Synod of Magdeburg, 1261, in Mansi, vol. XXIV.
Synod of Mainz, 1259, in Mansi, vol. XXIII.
Synod of Mainz, 1310, in Mansi, vol. XXV.
Synod of Paris, 1209, in Denifle and Chatelain, p. 70.
Synod of Rheims, 1157, in Mansi, vol. XXI.
Synod of Rome, in Tangl.
Synod of Trier, 1277, in Mansi, vol. XXIII.
Synod of Trier, 1310, in Mansi, vol. XXV.
Synod of Utrecht, 1357, in Fredericq (OS), vol. II, p. 142.
TANGL, M. *Die Briefe des heiligen Bonifatius und Lullus*, Berlin, 1916 (MGH *Epistolae Selectae*, vol. 1).
TAUBE OF SELBACH, HEINRICH. *Chronica*, in MGHS, new series, vol. I.
THOMAS OF CHANTIMPRÉ. *Bonum universale de apibus*, Douai, 1627.
THOMAS OF ECCLESTON. *Liber de adventu Minorum in Angliam*, in MGHS, vol. XXVIII.
Tiburtina, in Sackur, pp. 177–87.
TILEMANN ELHEN OF WOLFHAGEN. *Die Limburger Chronik*, in *Deutsche Chroniken*, vol. IV.
TOBLER, A. (ed.). *Li proverbe au Vilain*, Leipzig, 1895.
Tractatus contra errores (Picardorum), in Döllinger (OS), pp. 691–700. (Also in Höfler, vol. II of FRA, pp. 434–41.)
TRITHEMIUS, JOHANNES (1). *Annales Hirsaugienses*, St Gall, 1690.
TRITHEMIUS, JOHANNES (2). *De viris illustribus ordinis S.-Benedicti*, Cologne, 1575.
TROGUS, POMPEIUS GNAEUS, in *Juniani Justini Epitoma Historiarum Philippicarum Pompei Trogi.*
TWINGER OF KÖNIGSHOFEN, JACOB. *Chronik*, in CDS, vols. VIII, IX.
ULANOWSKI, B. (ed.). *Examen testium super vita et moribus Beguinarum ... in Sweydnitz*, in *Scriptores Rerum Polonicarum*, vol. XIII, Cracow, 1889, pp. 233–55.

URBAN V, Pope (1). Bull appointing inquisitors in Germany, in Mosheim (2) (MW), pp. 336–7.
URBAN V, Pope (2). Bull against Beghards in France, in Mosheim (2) (MW), p. 412.
USQUE, SAMUEL. *Consolaçam ás Tribulaçoens de Israel*, ed. Mendes dos Remédios, in *Subsidios para o estudo da Historia da Litteratura Portuguesa*, Coimbra, 1906–7.
Visitationes Odonis Rigaudi archiepiscopi Rothomagensis, in RHF, vol. XXI.
Vita Henrici II archiepiscopi (Treverensis) altera, in MGHS, vol. XXIV.
Vita S. Norberti A, in MGHS, vol. XII.
Vita S. Norberti B, in *Acta Sanctorum Bollandiana, Junii I*, 6 June.
WADDING, L. *Annales Minorum*. 2nd edn., Rome, 1731–45.
WALSINGHAM, THOMAS. *Historia Anglicana*, RS 28, vol. II, 1869.
WASMOD, JOHANN, OF HOMBURG. *Contra hereticos Bekardos Lulhardos et swestriones*, in Haupt (3) (MW), pp. 567–76.
WATTENBACH, W. 'Über die Sekte der Brüder vom freien Geiste', in SPAW, vol. XXIX (1887), pp. 517–44. Includes:
(1) Confession of John of Brünn, pp. 529–37.
(2) Confession of Johann Hartmann, pp. 538–43.
(Both in Latin.)
WIDMAN, GEORG. *Chronika*, in *Württembergische Geschichtsquellen*, vol. VI, Stuttgart, 1904.
WILLIAM OF EGMONT. *Chronicon*, in Antonius Matthaeus, *Veteris Aevi Analecta*, vol. II, The Hague, 1723.
WILLIAM OF NANGIS (1). *Gesta Ludovici IX*, in RHF, vol. XX.
WILLIAM OF NANGIS (2). *Chronicon*, with *Continuationes I, II, III*, ed. Géraud, 2 vols., Paris, 1843.
WILLIAM OF NEWBURGH. *De rebus Anglicis*, in RHF, vol. XIII.
WILLIAM THE BRETON. *Gesta Philippi Augusti*, ed. Delaborde, in *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, vol. I, Paris, 1882.
WOLF, JOHANN. *Lectionum memorabilium et reconditarum centenarii XVI*, Lauingen, 1600.
WYCLIF, JOHN. *Tractatus de civili dominio. Liber primus*, ed. Poole, London, 1885.
WYKES, THOMAS. *Chronicon*, in RS 36 (*Annales Monastici*), vol. IV, 1869.
ZANTFLIET, CORNELIUS. *Chronicon*, in Martène and Durand, vol. V.
ZENO, ST, OF VERONA. *Tractatus* (or *Sermones*), in PL, vol. XI.

2 Modern Works

ADLER, GEORG. *Geschichte des Sozialismus und Kommunismus von Plato bis zur Gegenwart*, Part I, Leipzig, 1899.
ALGERMISSEN [?], E. *Les hérésies du Moyen Âge*, Paris, 1939.
Allgemeine Deutsche Biographie, ed. von Liliencron and Wegele, Leipzig, 1875–1912.
ALLIER, R. 'Les frères du libre esprit', in T. Reinach *et al.*, *Religions et sociétés*, Paris, 1905, pp. 109–53.
ALPHANDÉRY, P. (1). *Les idées morales chez les hétérodoxes latins au début du XIIIe siècle*. (*Bibliothèque de l'École des Hautes Études, Sciences religieuses*, vol. XVI, fasc. 1), Paris, 1903.
ALPHANDÉRY, P. (2). 'De quelques faits de prophétisme dans les sectes latines antérieures au joachimisme', in *Revue de l'histoire des religions*, vol. LII, Paris, 1905, pp. 177–218.

ALPHANDÉRY, P. (3). 'Les croisades d'enfants', in *Revue de l'histoire des religions*, vol. LXIII, Paris, 1916. pp. 259–82.

ALPHANDÉRY, P. (4). *Notes sur le messianisme médiéval latin (XIe–XIIe siècles)* Paris, 1912.

ALPHANDÉRY, P. (5). 'Les foules religieuses', in *La Foule* (papers read to the *Centre international de synthèse*, 1932), Paris, 1934, pp. 53–76.

ALPHANDÉRY, P. and DUPRONT, A. *La Chrétienté et l'idée de Croisade*, 2 vols., Paris, 1954, 1959.

ALTMEYER, J. J. *Les précurseurs de la Réforme aux Pays-Bas*, Paris, 1886.

ALVERNY, M. T. d'. 'Un fragment du procès des Amauriciens', in *Archives d'histoire doctrinale et littéraire du Moyen Âge*, vol. XVIII, Paris, 1950–51, pp. 325–6.

ANDREAS, W. *Deutschland vor der Reformation*, Stuttgart and Berlin, 1934.

BACHMANN, R. *Niclas Storch*, Zwickau, 1880.

BAERWALD, R. *Die Schlacht bei Frankenhausen*, Mühlhausen in Thuringia, 1925.

BAETHGEN, F. *Der Engelpapst*, Leipzig, 1943.

BAHLMANN, P. *Die Wiedertäufer zu Münster. Eine bibliographische Zusammenstellung*, Münster, 1894.

BAINTON, R. H. *David Joris*, Leipzig, 1937.

BARACK, K. A. 'Hans Böhm und die Wallfahrt nach Niklashausen im Jahre 1476', in *Archiv des historischen Vereines von Unterfranken und Aschaffenburg*, vol. XIV, 3, Würzburg, 1858, pp. 1–108.

BARON, S. W. *A social and religious history of the Jews*, vol. II, New York, 1937.

BARTOŠ, F.-M. (1). 'Žižka a pikarti', in *Kalich*, vol. IX, fasc. 3–4, Prague, 1924, pp. 97–108.

BARTOŠ, F.-M. (2). 'Kněze Petra Kányše vyznání víry a večeře Páně z r. 1421', in *Jihočeský sborník historický*, vol. I, Tabor, 1928, pp. 2–5.

BARTOŠ, F.-M. (3). 'Picards et "Pikarti"', in BHPF, vol. LXXX (1931), pp. 465–86; vol. LXXXI (1932), pp. 8–28.

BAX, E. B. *Rise and fall of the Anabaptists*, London, 1903.

BEAUSOBRE, I. de. 'Dissertation sur les Adamites de Bohème', in J. Lenfant, *Histoire de la guerre des Hussites*, vol. I, Amsterdam, 1731, pp. 304–49.

BEMMANN, R. *Thomas Müntzer, Mühlhausen in Thüringen und der Bauernkrieg*, Leipzig, 1920.

BENZ, E. *Ecclesia Spiritualis. Kirchenidee und Geschichtstheologie der franziskanischen Reformation*, Stuttgart, 1934. (2nd edn., 1964.)

BERGER, E. *Histoire de Blanche de Castille, reine de France*, Paris, 1895.

BERNHEIM, E. *Mittelalterliche Zeitanschauungen in ihrem Einflus auf Politik und Geschichtschreibung*, Tubingen, 1918.

BERNHEIMER, R. *Wild men in the Middle Ages*, Cambridge, Mass., 1952.

BETTS, R. R. 'Correnti religiose nazionali ed ereticali dalla fine del secolo XIV alla metà del XV', in *Storia del Medioevo* (MW), pp. 403–513. (In English.)

BEUZART, P. *Les hérésies pendant le Moyen Âge dans la région de Douai, d'Arras et au pays de l'Alleu*, Le Puy, 1912.

BEZOLD, F. von (1). *Zur Geschichte des Hussitentums*, Munich, 1874.

BEZOLD, F. von (2). 'Die Lehre von der Volkssouveränität während des Mittelalters', 1876. Reprinted in *Aus Mittelalter und Renaissance*, Munich and Berlin, 1918, pp. 1–48.

BEZOLD, F. von (3). 'Die "armen Leute" und die deutsche Literatur des späteren Mittelalters', 1879. Reprinted in *Aus Mittelalter und Renaissance*, Munich and Berlin, 1918, pp. 49–81.

BEZOLD, F. von (4). 'Zur deutschen Kaisersage', in *Sitzungsberichte der königlich bayerischen Akademie der Wissenschaften. Philosophisch-philologische Klasse*, vol. XIV, Munich, 1884, pp. 560–606.

BEZOLD, F. von (5). *Geschichte der deutschen Reformation*, Berlin, 1890.

BIDEZ, J. *La Cité du Monde et la Cité du Soleil*, Paris, 1932.

BIGNAMI-ODIER, J. *Études sur Jean de Roquetaillade (Johannes de Rupescissa)*, Paris, 1952.

BLANKE, F. 'Das Reich der Wiedertäufer zu Münster 1534–1535', in *Archiv für Reformationsgeschichte*, vol. XXXVII, Berlin, 1940, pp. 13–37.

BLOCH, M. (1). *Les rois thaumaturges: Étude sur le caractère surnaturel attribué à la puissance royale particulièrement en France et en Angleterre*, Strasbourg, 1924.

BLOCH, M. (2). *Les caractères originaux de l'histoire rurale française*, Oslo, 1931.

BLOCH, M. (3). *La société féodale: la formation des liens de dépendance*, Paris, 1939.

*BLOOMFIELD, M. W. 'Joachim of Flora. A critical survey of his canon, teachings, sources, biography, and influence', in *Traditio*, vol. XIII, New York, 1957, pp. 249–311.

BLOOMFIELD, M. W. and REEVES, M. E. 'The penetration of Joachism into northern Europe', in *Speculum*, vol. XXIX, Cambridge, Mass., 1954, pp. 772–93.

BOAS, G. *Essays on Primitivism and related ideas in the Middle Ages*, Baltimore, 1948.

BOEHMER, H. (1). *Studien zu Thomas Müntzer*, Leipzig, 1922.

BOEHMER, H. (2). 'Thomas Müntzer und das jüngste Deutschland', in *Gesammelte Aufsätze*, Gotha, 1924.

BORST, A. *Die Katharer (Schriften der Monumenta Germaniae Historica*, vol. XII), Stuttgart, 1953.

BOSSERT, G. *et al. Württembergische Kirchengeschichte*, Calw and Stuttgart, 1893.

BOUSSET, W. (1). *The Antichrist legend, a chapter in Christian and Jewish folklore*, trans. Keane, London, 1896.

BOUSSET, W. (2). 'Beiträge zur Geschichte der Eschatologie', in ZKG, vol. XX (1900), pp. 103–31, 262–90.

BOUTERWEK, K. W. *Zur Literatur und Geschichte der Wiedertäufer, besonders in den Rheinlanden*, Bonn, 1864.

BRUNO DE JÉSUS-MARIE *et al.* 'La confession de Boullan', in *Satan (Études carmélitaines*, vol. VI), Paris, 1949.

BULARD, M. *Le scorpion, symbole du peuple juif dans l'art religieux des XIVe, XVe, XVIe siècles*, Paris, 1935.

BURDACH, K. *Vom Mittelalter zur Reformation*, Berlin, 1893–1937.
(1) vol. II, part I: *Rienzo und die geistige Wandlung seiner Zeit.*
(2) vol. III, part 2: *Der Dichter des Ackermann aus Böhmen und seine Zeit.*

BURDACH, K. (3). *Reformation, Renaissance, Humanismus*, Berlin, and Leipzig, 1926.

BURDACH, K. (4). *Der Longinus-Speer im eschatologischem Lichte*, in SPAW, vol. IX, 1920, pp. 294–321.

*BÜTTNER, Th. and WERNER, E. *Circumcellionen und Adamiten. Zwei Formen mittelalterlicher Häresie. (Forschungen zur mittelalterlichen Geschichte*, vol. II), Berlin, 1958, pp. 73–134.

CAHOUR, A. *Baudouin de Constantinople. Chronique de Belgique et de France*, Paris, 1850.

Cambridge Economic History of Europe, Cambridge, 1942–52.
vol. I: Agrarian life of the Middle Ages, ed. J. H. Clapham and E. Power.
vol. II: Trade and industry in the Middle Ages, ed. M. Postan and E. E. Rich.

Cambridge Medieval History, 8 vols., Cambridge, 1913–36.

CAPELLE, G. C. *Amaury de Bène, étude sur son panthéisme formel*, Paris, 1932.

CAREW HUNT, R. H. 'Thomas Müntzer', in *Church Quarterly Review*, London, vol. CXXVI (1938), pp. 213–44; vol. CXXVII (1939), pp. 227–67.

CARLYLE, R. W. and CARLYLE, A. J. *A history of medieval political theory in the West*, 6 vols., Edinburgh, 1903–36.

CARO, G. *Sozial- und Wirtschaftsgeschichte der Juden im Mittelalter und der Neuzeit*, 2 vols., Frankfort-on-Main, 1920–24.

CARUS-WILSON, E. 'The woollen industry', in CEH, vol. II, chap. 6, pp. 355–428.

CASE, S. J. *The millennial hope*, Chicago, 1918.

CHALANDON, F. *Histoire de la première Croisade*, Paris, 1925.

CHALUPNÝ, E. 'Adamité a Žižka', in *Jihočeský sborník historický*, vol. I, Tabor, 1928, pp. 51–2.

*COHN, N. *Warrant for Genocide. The Myth of the Jewish world-conspiracy and the Protocols of the Elders of Zion*, London and New York, 1967.

*COMBES, A. *Essai sur le critique de Ruysbroeck par Gerson*, 3 vols., Paris, 1945–59.

CORNELIUS, C. A. (1). *Geschichte des Münsterischen Aufruhrs*, 2 vols., Leipzig, 1855–60.
vol. I: *Die Reformation*.
vol. II: *Die Wiedertaufe*.

CORNELIUS, C. A. (2). *Die niederländischen Wiedertäufer während der Belagerung Münsters 1534 bis 1535*, Munich, 1869.

CORNELIUS, C. A. (3). 'Johann Bokelson', in ADB, vol. III, pp. 91–3.

CORNELIUS, C. A. (4). 'Bernt Knipperdollinck', in ADB, vol. XVI, pp. 293–5.

CORNELIUS, C. A. (5). 'Jan Mathyszoon', in ADB, vol. XX, pp. 600–602.

COULTON, G. G. *The Black Death*, London, 1929.

CUMONT, F. 'La fin du monde selon les mages occidentaux', in *Revue de l'histoire des religions*, vol. CIII, Paris, 1931, pp. 29–96.

CURSCHMANN, H. H. W. F. *Hungersnöte im Mittelalter*, Leipzig, 1900.

DELACROIX, H. *Le mysticisme en Allemagne au 14e siècle*, Paris, 1900.

DEMPF, A. *Sacrum Imperium: Geschichts- und Staatsphilosophie des Mittelalters und der politischen Renaissance*, Munich and Berlin, 1929.

*DE SMET, J.-M. 'De monnik Tanchelm en de Utrechtse Bisschopszetel in 1112–1114', in *Scrinium Lovaniense, Mélanges historiques Etienne van Cauwenbergh*, Louvain, 1961, pp. 207–34.

DI STEFANO, A. *Riformatori ed eretici del medioevo*, Palermo, 1938.

DETMER, H. (1). *Hermann von Kerssenbrochs Leben und Schriften*, Münster, 1900.

DETMER, H. (2). *Bilder aus den religiösen und sozialen Unruhen in Münster*, 3 vols.,Münster, 1903–4.
vol. I: Johann von Leiden.
vol. II: Bernhard Rothmann.
vol. III: Über die Auffassung von der Ehe ... während der Täuferherrschaft.

DETMER, H. and KRUMBHOLTZ, R. *Zwei Schriften des Münsterischen Wiedertäufers Bernhard Rothmann*. With historical introduction, Dortmund, 1904.

DEVIC, C. and VAISSÈTE, J. J. *Histoire générale de la province de Languedoc*, ed. Molinier, vol. IX, Toulouse, 1885.

*DE VOOGT, P. *L'hérésie de Jean Hus* (*Bibliothèque de la Revue d'Histoire ecclésiastique*, fasc. 34), Louvain, 1960.

DICKENS, A. G. *Reformation and society in sixteenth-century Europe*. London, 1966.

Dictionnaire de Théologie Catholique, ed. Vacant and Mangenot, Paris, 1899–1950.

DOBROWSKÝ, J. 'Geschichte der Bömischen Pikarden und Adamiten', in *Abhandlungen der königlich bohmischen Gesellschaft der Wissenschaften*, vol. IV, Prague and Dresden, 1788, pp. 300–343.

*DOHNA, Graf LOTHAR zu,. *Reformatio Sigismundi. Beiträge zum Verständnis einer Reformschrift des fünfzehnten Jahrhunderts* (*Veröffentlichungen des Max-Planck-Instituts für Geschichte*, no. 4), Göttingen, 1960.

DÖLLINGER, I. von. 'Der Weissagungsglaube und das Prophetentum in der christlichen Zeit', in *Historisches Taschenbuch*, fifth series, vol. I, Leipzig, 1871, pp. 259–370.

DOREN, A. 'Wunschraume und Wunschzeiten', in *Vorträge der Bibliothek Warburg*, vol. IV, Leipzig, 1927, pp. 158–205.

DU CANGE, C. DU FRESNE. *Glossarium ad scriptores mediae et infimae Latinitatis*, ed. Henschel, Paris, 1840–50.

DUPRÉ THESEIDER, E. *Introduzione alle eresie medievali*, Bologna, 1953.

ELBOGEN, I. 'Zu den hebräischen Berichten über die Judenverfolgungen im Jahre 1096', in *Festschrift zum 70-ten Geburtstage Martin Philippsons*, Leipzig, 1917.

ELIADE, M. *The myth of the eternal return*, trans. Trask, London, 1955.

Encyclopedia of religion and ethics, ed. Hastings and Selbie, Edinburgh, 1908–26.

ERBKAM, H. W. *Geschichte der protestantischen Sekten im Zeitalter der Reformation*, Hamburg and Gotha, 1848.

*ERBSTÖSSER, M. and WERNER, E. *Ideologische Probleme des mittelalterlichen Plebejertums. Die freigeistige Häresie und ihre sozialen Wurzeln*, Berlin, 1960.

ERDMANN, C. (1). 'Endkaiserglaube und Kreuzzugsgedanke im 11-ten Jahrhundert', in ZKG, vol. LI (1932), pp. 384–414.

ERDMANN, C. (2). *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*, Stuttgart, 1935.

ESSEN, L. van der. 'De ketterij van Tanchelm in de XIIde eeuw', in *Ons Geloof*, vol. II, Antwerp, 1912, pp. 354–61.

FLADE, P. 'Romische Inquisition in Mitteldeutschland', in *Beiträge zur sächsischen Kirchengeschichte*, vol. IX, Leipzig, 1894.

FOLZ, R. *Le souvenir et la légende de Charlemagne dans l'Empire germanique médiéval*, Paris, 1950.

FÖRSTEMANN, E. G. *Die christlichen Geisslergesellschaften*, Halle, 1828.

FRANZ, G. *Der deutsche Bauernkrieg*, Munich and Berlin, 1933.

FREDERICHS, J. (1). *De secte der Loïsten, of Antwerpsche Libertijnen* (1525–1545), Ghent and The Hague, 1891.

FREDERICHS, J. (2). 'Un luthérien français devenu libertin spirituel: Christophe Herault et les Loïstes d'Anvers (1490–1544)', in BHPF, vol. XLI (1892), pp. 250–69.

FREDERICQ, P. (1). *De secten der geeselars en der dansers in den Nederlanden tijdens de* 14de *eeuw*, Brussels, 1897.

FREDERICQ, P. (2). 'Deux sermons inédits de Jean du Fayt', in *Bulletin de l'Académie royale de Belgique Classe des Lettres*, vols. IX, X, Brussels, 1903, pp. 688–718.

GILSON, E. *La philosophie au Moyen Age*, Paris, 1944.

GOTHEIN, E. *Politische und religiöse Volksbewegungen vor der Reformation*, Breslau, 1878.
GRAETZ, H. *Geschichte der Juden*, vols. VI, VII, Leipzig, 1873.
GRAUERT, H. von (1). 'Zur deutschen Kaisersage', in *Historisches Jahrbuch*, vol. XIII, Leipzig, 1892, pp. 100–143.
GRAUERT, H. von (2). 'Das Schulterkreuz der Helden mit besonderer Beziehung auf das Haus Wettin', in *Ehrengabe deutscher Wissenschaft* (*für Prinz Johann Georg*), ed. Fessler, Freiburg in Breisgau, 1920, pp. 703–20.
GRAUS, F. *Chudina městská v době předhusitské*, Prague, 1949.
GROUSSET, R. *Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem*, vol. I, Paris, 1934.
GRUNDMANN, H. (1). *Studien über Joachim von Fiore*, Leipzig and Berlin, 1927.
GRUNDMANN, H. (2). *Religiöse Bewegungen im Mittelalter*, Berlin, 1935.
GRUNDMANN, H. (3). *Neue Forschungen über Joachim von Fiore* (Münstersche Forschungen I), Marburg, 1950.
*GRUNDMANN, H. (4). *Neue Beiträge zur Geschichte der religiösen Bewegungen im Mittelalter.* (Supplement to new edition of *Religiöse Bewegungen im Mittelalter*, Hildesheim, 1961.)
*GRUNDMANN, H. (5). *Ketzergeschichte des Mittelalters*, Göttingen, 1963. (Reprinted from vol. II of *Die Kirche in ihrer Geschichte*, ed. K. D. Schmidt and E. Wolf.)
*GRUNDMANN, H. (6). *Bibliographie zur Ketzergeschichte des Mittelalters, 1900–1966.* (*Sussidi Eruditi* no. 20), Rome, 1967.
*GRUNDMANN, H. (7). 'Ketzerverhöre des Spätmittelalters als quellenkritisches Problem,' in *Deutsches Archiv für Erforschung des Mittelalters*, vol. XXI, Cologne and Graz, 1965, pp. 519–575.
GRY, L. *Le millénarisme dans ses origines et son développement*, Paris, 1904.
*GUARNIERI, R. (1). *Il movimento del Libero Spirito. Testi e documenti*, Rome, 1965.
*GUARNIERI, R. (2). 'Frères du libre esprit', in M. Viller *et al.*, *Dictionnaire de Spiritualité*, vol. V, Paris, 1966, cols. 1241–68.
HAAGEN, F. *Geschichte Aachens*, vol. I, Aachen, 1873.
HAGENMEYER, H. *Peter der Eremite*, Leipzig, 1879.
HAHN, C. U. *Geschichte der Ketzer im Mittelalter*, vols. II, III, Stuttgart, 1845.
HAMPE, K. 'Eine frühe Verknüpfung der Weissagung vom Endkaiser mit Friedrich II und Konrad IV' in *Sitzungsberichte der Heidelberger Akademie der Wissenschaften* (*Philosophisch-historische Klasse*), Abhandlung VI, 1917.
HARTING, D. *De munstersche Furie*, Enkhuizen, 1850.
HAUCK, A. *Kirchengeschichte Deutschlands*, vol. V, Leipzig, 1911.
HAUPT, H. (1). *Die religiösen Sekten in Franken*, Würzburg, 1882.
HAUPT, H. (2). 'Ein Beghardenprozess in Eichstädt vom Jahre 1381', in ZKG, vol. V (1882), pp. 487–98.
HAUPT, H. (3). 'Beiträge zur Geschichte der Sekte vom freien Geiste und des Beghardentums', in ZKG, vol. VII (1885), pp. 503–76. (Includes emendations to Albertus Magnus, *Compilatio*, from another MS.)
HAUPT, H. (4). 'Zur Biographie des Nicolaus von Basel', in ZKG, vol. VII (1885), pp. 508–11. (Includes emendations to confession of Martin of Mainz.)
HAUPT, H. (5). 'Zur Geschichte der Geissler', in ZKG, vol. IX (1888), pp. 114–19. (Includes emendations to Sonderhausen articles from another MS.)
HAUPT, H. (6). 'Husitische Propaganda in Deutschland', in *Historisches Taschenbuch*, 6th series, vol. VII, Leipzig, 1888, pp. 235–304.

HAUPT, H. (7). 'Zwei Traktate gegen Beginen und Begharden', in ZKG, vol. XII (1891), pp. 85–90.

HAUPT, H. (8). *Ein oberrheinischer Revolutionär aus dem Zeitalter Kaiser Maximilians I. (Westdeutsche Zeitschrift für Geschichte und Kunst*, Ergänzungsheft VIII), Trier, 1893, pp. 77–228.

HAUPT, H. (9). 'Beginen und Begarden', in RPT, vol. II, pp. 516–26.

HAUPT, H. (10). 'Brüder des freien Geistes', in RPT, vol. II, pp. 467–72.

HAUPT, H. (11). 'Kirchliche Geisselung und Geisslerbruderschaften', in RPT, vol. VI, pp. 432–44.

HAUPT, H. (12). 'Konrad Schmid', in ADB, vol. XXXI, p. 683.

HAUPT, H. (13). 'Wirsberg: Janko (Johannes) und Livin (Levin) von W.', in ADB, vol. XLIII, pp. 518–20.

HAURÉAU, B. *Histoire de la philosophie scolastique*, Part II, vol. I, Paris, 1880.

HEATH, R. *Anabaptism from its rise at Zwickau to its fall in Münster*, London, 1895.

HECKER, J. F. C. *The epidemics of the Middle Ages*, trans. Babington, London, 1859.

HEER, F. *Aufgang Europas: eine Studie zu den Zusammenhängen zwischen politischer Religiosität, Frömmigkeitsstil und dem Werden Europas im 12-ten Jahrhundert*, Vienna and Zurich, 1949.

HEIDELBERGER, F. *Kreuzzugsversuche um die Wende des 13-ten Jahrhunderts*, Berlin and Leipzig, 1911.

HEISIG, K. 'Die Geschichtsmetaphysik des Rolandsliedes und ihre Vorgeschichte', in *Zeitschrift für romanische Philologie*, vol. LV, Halle, 1935, pp. 1–87.

HEYER, F. *Der Kirchenbegriff der Schwärmer (Schriften des Vereins für Reformationsgeschichte*, vol. LXVI), Leipzig, 1939.

HEYMANN, F. G. *John Žižka and the Hussite revolution*, Princeton, 1955.

*HILLERBRAND, H. J. *Bibliographie des Täufertums 1520–1630. (Quellen zur Geschichte der Täufer, vol. X)*, Gütersloh, 1962.

HINRICHS, C. *Luther and Müntzer, ihre Auseinandersetzung über Obrigkeit und Widerstandsrecht*. Berlin, 1952

HOCHHUT, W. H. 'Landgraf Philipp und die Wiedertäufer', in *Zeitschrift für die historische Theologie*, vol. XXIX, Hamburg and Gotha, 1859.

HOENIGER, R. *Der schwarze Tod in Deutschland*, Berlin, 1882.

HOLINKA, R. *'Sektářství v Čechách před revolucí husitskou*, Bratislava, 1929.

HOLL, K. 'Luther und die Schwärmer', in his *Gesammelte Aufsätze zur Kirchengeschichte*, vol. I, Tübingen, 1923.

HORSCH, J. 'The rise and fall of the Anabaptists of Münster', in *Mennonite Quarterly Review*, vol. X, Goshen, Indiana, 1935, pp. 92–103, 129–43.

HÜBNER, A. *Die deutschen Geisslerlieder*, Berlin and Leipzig, 1931.

HÜBSCHER, A. *Die grösse Weissagung. Texte, Geschichte und Deutung der Prophezeiungen von den biblischen Propheten bis auf unsere Zeit*, Munich, 1952.

HUGENHOLTZ, F. W. N. *Drie boerenopstanden uit de veertiende eeuw*, Haarlem, 1949.

HUNDESHAGEN, C. B. 'Der Communismus und die ascetische Socialreform im Laufe der christlichen Jahrhunderte', in *Theologische Studien und Kritiken*, vol. XVIII, Gotha, 1845, pp. 535–607, 821–72.

HYAMSON, A. M. 'Pseudo-messiahs', in ERE, vol. VIII, pp. 581–7.

Il Movimento dei disciplinati nel settimo centenario dal suo inizio (Perugia 1260). Deputazione di storia patria per l'Umbria. Appendici al Bolletino no. 9, Perugia, 1960.

JANSSEN, H. Q. 'Tanchelijn', in *Annales de l'Académie d'archéologie de Belgique*, vol. XXIII, Antwerp, 1867, pp. 374–450.

JOHNSON, A. R. *Sacral kingship in Ancient Israel*, Cardiff, 1955.
JONES, ERNEST. *On the nightmare. Part II: The connections between the nightmare and certain medieval superstitions*, London, 1931.
JONES, R. M. *Studies in mystical religion*, London, 1909.
JORDAN, R. *Zur Schlacht bei Frankenhausen* (*Zur Geschichte der Stadt Mühlhausen in Thüringen*, vol. IV), Mühlhausen in Thuringia, 1908.
OURDAIN, C. 'Mémoire sur les sources philosophiques des hérésies d'Amaury de Chartres et de David de Dinant', in *Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, vol. XXVI, Paris, 1870, pp. 467–98.
JUNDT, A. *Histoire du panthéisme populaire au Moyen Âge et au 16e siècle*, Paris, 1875.
JUSSERAND, J. J. *English wayfaring life in the Middle Ages*, trans. L. T. Smith, London, 1950 (first published 1889).
KAHN, SALOMON. 'Les juifs de Montpellier au Moyen Âge', in *Revue des études juives*, vol. XXII, Paris, 1891, pp. 264–79.
*KAMINSKY, H. (1). 'Hussite radicalism and the origins of Tabor 1415–1418', in *Medievalia et Humanistica*, vol. X, Boulder, Colorado, 1956, pp. 102–30.
*KAMINSKY, H. (2). 'Chiliasm and the Hussite Revolution', in *Church History*, vol. XXVI, New York, 1957, pp. 43–71.
*KAMINSKY, H. (3). 'The Free Spirit in the Hussite Revolution', in *Millennial Dreams in Action* (MW), pp. 166–86.
KAMPERS, F. (1). *Die deutsche Kaiseridee in Prophetie und Sage*, Munich, 1896.
KAMPERS, F. (1A). *Kaiserprophetien und Kaisersagen im Mittelalter*, Munich, 1895. (Same as Kampers (1) but with Appendices.)
KAMPERS, F. (2). *Vom Werdegang der abendländischen Kaisermystik*, Leipzig and Berlin, 1924.
KAUTSKY, K. *Communism in Central Europe in the time of the Reformation*, trans. Mulliken, London, 1897.
KAWERAU, P. *Melchior Hoffmann als religiöser Denker*, Haarlem, 1954.
KELLER, L. *Geschichte der Wiedertäufer und ihres Reiches zu Münster*, Münster, 1880.
KERVYN DE LETTENHOVE, C. B. (1). 'Bertrand de Rays', in *Biographie nationale de Belgique*, vol. I, pp. 338–42.
KERVYN DE LETTENHOVE, C. B. (2). *Histoire de Flandre*, 6 vols., Brussels, 1847–50.
KESTENBERG-GLADSTEIN, R. 'A fifteenth-century polemic against Joachism, and its background', in *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes*, vol. XVIII, London, 1955, pp. 245–95.
KISCH, G. *The Jews in medieval Germany*, Cambridge, 1950.
*KLASSEN, P. J. *The economics of Anabaptism, 1525–1560* (*Studies in European History*, no. 3), The Hague, 1964.
KLAUSNER, J. *The messianic idea in Israel*, trans. Stinespring, London, 1956.
KLOSE, S. B. *Von Breslau. Dokumentirte Geschichte und Beschreibung*, vol. II, Breslau, 1781.
KNOX, R. A. *Enthusiasm, a chapter in the history of religion*, Oxford, 1950.
KÖHLER, W. 'Münster, Wiedertäufer', in RPT, vol. XIII, pp. 539–53.
*KONRAD, R. (1). *De ortu et tempore Antichristi. Antichristvorstellung und Geschichtsbild des Abtes Adso von Montier-en-Der*. (*Münchener Historische Studien, Abteilung Mittelalterliche Geschichte*, vol. I), Kallmütz b. Regensburg, 1964.
*KONRAD, R. (2). 'Das himmlische und das irdische Jerusalem im mittelalterlichen Denken. Mystische Vorstellung und geschichtliche Wirkung', in *Speculum historiale*, ed. C. Bauer, L. Boehm and M. Müller, Freiburg i. Br. and Munich, 1965, pp. 523–40.

KRACAUER, I. *Die politische Geschichte der Frankfurter Juden bis zum Jahre 1349*, Frankfort-on-Main, 1911.

KRAFT, H. 'Gab es einen Gnostiker Karpokrates?', in *Theologische Zeitschrift*, vol. VIII, Basle, 1952, pp. 434–43.

KRIEHN, G. 'Studies in the sources of the social revolt of 1381', in *American Historical Review*, vol. VII, New York, 1901–2, pp. 254–85, 458–84.

KROFTA, K. (1). 'Bohemia in the fourteenth century', in CMH, vol. VII, chap. 6, pp. 155–82.

KROFTA, K. (2). 'John Hus', in CMH, vol. VIII, chap. 2, pp. 45–64.

KROFTA, K. (3). 'Bohemia in the fifteenth century', in CMH, vol. VIII, chap. 3, pp. 65–115.

*KULCSÁR, Z. *Eretnekmozgalmak a XI–XIV. században*, Budapest, 1964. (An exhaustive bibliography of heretical movements from the eleventh to the fourteenth centuries.)

LANCHESTER, H. C. O. 'Sibylline Oracles', in ERE, vol. II, pp. 496–500.

LATOMUS, JOANNES. *Corsendonca*, Antwerp, 1644.

LEA, H. C. *A history of the Inquisition of the Middle Ages*, vol. II, London, 1888.

LECHNER, K. 'Die grosse Geisselfahrt des Jahres 1349', in *Historisches Jahrbuch*, vol. V, Munich, 1884, pp. 437–62.

*LECLERCQ, J., VANDENBROUCKE, F., and BOUYER, L. *La spiritualité du moyen âge* (vol. II of *Histoire de la spiritualité chrétienne*), Paris, 1959.

*LEFF, G. *Heresy in the Later Middle Ages. The relation of heterodoxy to dissent, c. 1250–c. 1450*, 2 vols., Manchester and New York, 1967.

LEFRANC, A. *Les idées religieuses de Marguérite de Navarre*, Paris, 1898.

LEMPP, E. 'Sekte von Hall', in RPT, vol. VII, pp. 363–5.

LEVASSEUR, E. *Histoire des classes ouvrières françaises et de l'industrie en France avant 1789*, vol. I, Paris, 1900.

LINDSAY, P. and GROVES, R. *The Peasants' Revolt of 1381*, London, 1950.

LOCHNER, G. W. C. *Geschichte der Reichsstadt Nürnberg zur Zeit Kaiser Karls IV*, Berlin, 1873.

LOEB, I. 'Josef Haccohen et les chroniqueurs juifs', in *Revue des études juives*, vol. XVI, Paris, 1888, pp. 28–56, 209–23.

LOHMANN, A. *Zur geistigen Entwicklung Thomas Müntzers*, Leipzig and Berlin, 1931.

LOVEJOY, A. O. 'The communism of St Ambrose', in his *Essays in the History of Ideas*, London, 1949.

LOVEJOY, A. O. and BOAS, G. *Primitivism and related ideas in Antiquity*, Baltimore, 1935.

LÖWITH, K. *Meaning in History: the theological implications of the Philosophy of History*, Cambridge, 1950.

LUCAS, H. S. 'The great European famine of 1315, 1316 and 1317', in *Speculum*, vol. V, Cambridge, Mass., 1930, pp. 343–77.

LÜTZOW, F. H. H. W. *The life and times of Master John Hus*, London, 1909.

MACCULLOCH, J. A. (1). 'Eschatology', in ERE, vol. V, pp. 373–91.

MACCULLOCH, J. A. (2). *Medieval faith and fable*, London, 1932.

MAČEK, J. (1). *Ktož jsú boží bojovníci (Who are God's warriors)*, Prague, 1951.

MAČEK, J. (2). *Husitské revoluční hnutí*, Prague, 1952.

*MAČEK, J. (3). *The Hussite Movement in Bohemia*, Prague, 1958; London and Prague, 1965 (trans. of Maček (2), by V. Fried and I. Milner).

MCDONNELL, E. W. *The Beguines and Beghards in medieval culture*, New Brunswick, 1954.

MELLINK, A. F. (1). *De Wederdopers in de Noordelijke Nederlanden (1531–1544)*, Groningen, 1953.

*MELLINK, A. F. (2). 'The mutal relations between the Münster Anabaptists and the Netherlands', in *Archiv für Reformationsgeschichte*, vol. I, Berlin, 1959, pp. 16–33.

**Mennonite Encyclopedia*. 4 vols., Scottdale, Pennsylvania, 1955–9.

MERX, O. *Thomas Münzer und Heinrich Pfeiffer*, 1523–5. *Ein Beitrag zur Geschichte des Bauernkrieges in Thüringen*, Göttingen, 1889.

MEUSEL, A. *Thomas Müntzer und seine Zeit*, Berlin, 1952.

MEYER, CHRISTIAN (1). 'Zur Geschichte der Wiedertäufer in Oberschwaben', in *Zeitschrift des historischen Vereins für Schwaben und Neuburg*, vol. I, Augsburg, 1874, pp. 271 sq.

MEYER, CHRISTIAN (2). 'Der Widertäufer Nikolaus Storch und seine Anhänger in Hof', in ZKG, vol. XVI (1896), pp. 117–24.

MEYER, VICTOR. *Tile Kolup (der falsche Friedrich) und die Wiederkunft eines ächten Friedrich, Kaisers der Deutschen*, Wetzlar, 1868.

MIRET Y SANS, J. 'Le massacre des Juifs de Montclus en 1320', in *Revue des études juives*, vol. LIII, Paris, 1907, pp. 255–66.

MOHR, W. 'Tanchelm von Antwerpen. Eine nochmalige Überprüfung der Quellenlage', in *Annales Universitatis Saraviensis, Philosophie-Lettres*, vol. III, Saarbrucken, 1954, pp. 234–47.

*MOLNÁR, A. (1). 'Eschatologická naděje česke reformace' (The eschatological hope in the Czech Reformation), in Hromáda *et al.*, *Od reformace k zítřku* (From Reformation to Tomorrow), Prague, 1956, pp. 11–101.

*MOLNÁR, A. (2). 'Le mouvement préhussite et la fin du temps', in *Communio Viatorum*, vol. I, Prague, 1958, pp. 27–32.

MORGHEN, R. *Medioevo cristiano*, Bari, 1951.

MOSHEIM, J. L. von (1). *Institutiones historiae ecclesiasticae Novi Testamenti*, vol. I, Helmstadt, 1764.

MOSHEIM, J. L. von (2). *De Beghardis et Beguinabus commentarius*, Leipzig, 1790.

MÜLLER, EWALD. *Das Konzil von Vienne, 1311–12. Seine Quellen und seine Geschichte*, Münster, 1934.

MÜLLER, KARL (1). *Kirchengeschichte*, vol. I, Freiburg in Breisgau, 1892.

MÜLLER, KARL (2). 'Calvin und die "Libertiner"', in ZKG, vol. XL (1922), pp. 83–129.

MUNRO, D. C. 'The Children's Crusade', in *American Historical Review*, vol. XIX, London, 1914, pp. 516–24.

NABHOLZ, H. 'Medieval society in transition', in CEH, vol. I, chap. 8, pp. 493–562.

NATUSIUS, M. von. *Die christlich-socialen Ideen der Reformationszeit und ihre Herkunft*, Gütersloh, 1897.

*NEUMANN, E. G. *Rheinisches Beginen- und Begardenwesen*. (*Mainzer Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte*, vol. IV), Meisenheim am Glan, 1960.

NEWMAN, A. H. *A history of anti-pedobaptism*, Philadelphia, 1897.

NIESEL, W. 'Calvin und die Libertiner', in ZKG, vol. XLVIII (1929), pp. 58–74.

NIGG, W. (1). *Das ewige Reich*, Berlin and Munich, 1944.

NIGG, W. (2). *Das Buch der Ketzer*, Zurich, 1949.

NOHL, J. *The Black Death*, trans. Clarke, London, 1926.

OESTERLEY, W. O. E. and ROBINSON, T. H. *Hebrew religion, its origin and development*, London, 1949.

OLIGER, L. *De secta Spiritus Libertatis in Umbria saeculo XIV. Disquisitio et Documenta*. (*Storia e Letteratura, Raccolta di Studi e Testi*, vol. III), Rome, 1943.

OMAN, C. *The Great Revolt of 1381*, Oxford, 1906.

OWST, G. R. *Literature and pulpit in medieval England*, Cambridge, 1933.

PALACKÝ, F. *Geschichte von Boehmen*, vol. III, Prague, 1845.

PARKES, J. W. *The Jew in the medieval community*, London, 1938.

PAYNE, E. A. *The Anabaptists of the 16th century*, London, 1949.

PEARSON, K. 'The Kingdom of God', in *Modern Review*, vol. V, London, 1884, pp. 29–56, 259–83.

PETIT-DUTAILLIS, C. (1). 'Introduction historique' to A. Réville, *Le soulèvement des travailleurs en Angleterre en 1381* Paris, 1898.

PETIT-DUTAILLIS, C. (2). 'Causes and general characteristics of the rising of 1381', in *Studies and notes supplementary to Stubbs' Constitutional History*, vol. II, Manchester, 1914, pp. 252–304.

PEUCKERT, W. E. *Die grosse Wende. Das apokalyptische Saeculum und Luther*, Hamburg, 1948.

PFANNENSCHMID, H. 'Zur Geschichte der deutschen und niederländischen Geissler', in P. Runge, *Die Lieder und Melodien der Geissler des Jahres 1349*, Leipzig, 1900.

PHILIPPEN, L. J. M. 'De Heilige Norbertus en de strijd tegen het Tanchelmisme te Antwerpen', in *Bijdragen tot de Geschiedenis*, vol. XXV, Antwerp, 1934, pp. 251–88.

PIRENNE, H. (1). *Le soulèvement de la Flandre maritime de 1323–1328*, Brussels, 1900.

PIRENNE, H. (2). 'Tanchelm et le projet de démembrement du diocèse d'Utrecht vers 1100', in *Bulletin de l'Académie royale de Belgique, Classe des Lettres*, fifth series, vol. XIII, Brussels, 1927, pp. 112–19.

PIRENNE, H. (3). *A history of Europe from the Invasions to the sixteenth century*, trans. Miall, London, 1952.

PORGÈS, N. 'Les relations hébraïques des persécutions des Juifs pendant la première croisade', in *Revue des études juives*, Paris, vol. XXV (1892), pp 181–201; vol. XXVI (1893), pp. 183–97.

POTTHAST, A. *Bibliotheca historica Medii Aevi*, 2 vols., Berlin, 1896.

POWER, E. 'The position of women', in *Legacy of the Middle Ages*, ed. Crump and Jacob, chap. VII, Oxford, 1926, pp. 401–34.

PRA, M. DAL. *Amalrico di Bena*, Milan, 1951.

PREGER, W. (1). *Geschichte der deutschen Mystik im Mittelalter*, vol. I, Leipzig, 1874.

PREGER, W. (2). *Beiträge zur Geschichte der religiösen Bewegung in den Niederlanden in der zweiten Hälfte des vierzehnten Jahrhunderts*, in ABAW, vol. XXI, Part 1, Munich, 1894.

PREUSS, H. *Die Vorstellungen vom Antichrist im späteren Mittelalter bei Luther und in der konfessionellen Polemik*, Leipzig, 1906.

RADCKE, F. *Die eschatologischen Anschauungen Bernhards von Clairvaux*, Langensalza, 1915.

RAUSCHEN, G. (ed.), *Die Legende Karls des Grossen im 11-ten und 12-ten Jahrhundert* Leipzig, 1890.

Realencyklopädie für protestantische Theologie und Kirche, 3rd edn, Leipzig, 1896–1913.

REEVES, M. E. (1). 'The *Liber Figurarum* of Joachim of Fiore', in *Medieval and Renaissance Studies*, vol. II, London, 1951, pp. 57–81.

REEVES, M. E. (2). 'Joachimist influences on the idea of a Last World Emperor', in *Traditio*, vol. XVII, New York, 1961, pp. 323–70.

REMBERT, C. *Die Wiedertäufer im Herzogtum Jülich*, Berlin, 1899.

REUTER, H. *Geschichte der religiösen Aufklärung im Mittelalter*, vol. II, Berlin, 1877.

RÉVILLE, A. *Le soulèvement des travailleurs en Angleterre en 1381* (*Mémoires et documents publiés par la Société de l'École des Chartes*, II), Paris, 1898.

RIGAUX, B. *L'Antéchrist et l'opposition au Royaume Messianique dans l'Ancien et le Nouveau Testament*, Gembloux and Paris, 1932.

RITSCHL, H. *Die Kommune der Wiedertäufer in Münster*, Bonn and Leipzig, 1923.

ROHR, J. 'Die Prophetie im letzten Jahrhundert vor der Reformation als Geschichtsquelle und Geschichtsfaktor', in *Historisches Jahrbuch*, vol. XIX, Munich, 1898, pp. 29–56, 423–66.

RÖHRICHT, R. (1). 'Die Pilgerfahrten nach dem Heiligen Lande vor den Kreuzzügen', in *Historisches Taschenbuch*, fifth series, vol. V, Leipzig, 1875, pp. 323–96.

RÖHRICHT, R. (2). 'Bibliographische Beiträge zur Geschichte der Geissler', in ZKG, vol. I (1877), pp. 313–21.

RÖHRICHT, R. (3). 'Die Pastorellen (1251)', in ZKG, vol. VI (1884), pp. 290–95.

RÖHRICHT, R. (4). *Geschichte des ersten Kreuzzuges*, Innsbruck, 1901.

ROSENKRANZ, A. 'Prophetische Kaisererwartungen im ausgehenden Mittelalter', in *Preussische Jahrbücher*, vol. CXIX, Berlin, 1905, pp. 508–24.

ROTH, C. 'The Jews in the Middle Ages', in CMH, vol. VII, chap. 22, pp. 632–63.

ROUSSET, P. (1). *Les origines et les caractères de la première Croisade*, Neuchâtel, 1945.

ROUSSET, P. (2). 'L'idée de croisade chez les chroniqueurs d'Occident', in *Storia del Medioevo* (MW), pp. 547–63.

RUNCIMAN, S. (1). *The Medieval Manichee*, Cambridge, 1947.

RUNCIMAN, S. (2). *A history of the crusades*, 3 vols., Cambridge, 1951–4.

*RUPP, E. G. 'Thomas Müntzer, Hans Huth and the Gospel of all creatures', in *Bulletin of the John Rylands Library*, vol. XLIII, Manchester, 1960–61, pp. 492–519.

*RUSSELL, J. B. (1). 'Saint Boniface and the Eccentrics', in *Church History*, vol. XXXIII, no. 3, Chicago, 1964, pp. 235–47.

*RUSSELL, J. B. (2). *Dissent and Reform in the Early Middle Ages*, Berkeley and Los Angeles, 1965.

RUSSO, F. *Bibliografia Gioachimita* (*Biblioteca di Bibliografia Italiana*, vol. XXVIII), Florence, 1954.

SAULNIER, V. L. (ed.). Marguerite de Navarre: *Théâtre profane*. With commentary, Paris, 1946.

SCHAAB, A. *Diplomatische Geschichte der Juden zu Mainz*, Mainz, 1855.

SCHÄFFLER, A. 'Hans Böhm', in ADB, vol. III, pp. 62–4.

SCHIFF, O. (1). 'Thomas Münzer und die Bauernbewegung am Oberrhein', in *Historische Zeitschrift*, vol. CX, Munich, 1913, pp. 67–90.

SCHIFF, O. (2). 'Die Wirsberger. Ein Beitrag zur Geschichte der revolutionären Apokalyptik im 15-ten Jahrhundert', in *Historische Vierteljahrschrift*, vol. XXVI, Dresden, 1931, pp. 776–86.

SCHMIDT, KARL. *Histoire et doctrine de la secte des Cathares ou Albigeois*, 2 vols., Paris, 1848–9.

SCHREIBER, H. *Der Bundschuh zu Lehen im Breisgau*, Freiburg in Breisgau, 1824.

SCHUBERT, H. von. *Der Kommunismus der Wiedertäufer in Münster und seine Quellen*, Heidelberg, 1919.

SCHULTHEISS, F. G. *Die deutsche Volkssage vom Fortleben und der Wiederkehr Kaiser Friedrichs II*, Berlin, 1911.

*SEIBT, F. (1). 'Die Hussitenzeit als Kulturepoche' in *Historische Zeitschrift*, vol. CVC, Munich, 1962, pp. 21–61.
*SEIBT, F. (2). *Hussitica. Zur Struktur einer Revolution*, Cologne and Graz, 1965.
SETTON, K. M. and BALDWIN, M. W. (ed.). *A history of the crusades*, vol. I: *The first hundred years*, Philadelphia, 1955.
SIMON, O. *Überlieferung und Handschriftsverhältnis des Traktates 'Schwester Katrei'*, Halle, 1906.
SMIRIN, M. M. *Der Volksaufstand des Thomas Müntzer und der grosse Bauernkrieg*, Berlin, 1952. (Translated from the Russian.)
SMITHSON, R. J. *The Anabaptists*, London, 1935.
SÖDERBLOM, N. *La vie future d'après le mazdéisme: étude d'eschatologie comparée*, Paris, 1901.
SOMMARIVA, L. 'Studi recenti sulle eresie medievali (1939–52)', in *Revista storica italiana*, vol. LXIV, fasc. II, Naples, 1952, pp. 237–68.
SONNE, I. 'Nouvel examen des trois Relations hébraïques sur les persecutions de 1096', in *Revue des études juives*, vol. XCVI, Paris, 1933, pp. 113–56.
SPITZER, L. 'Turlupin', in *Modern Language Notes*, vol. LXI, Baltimore, 1946, pp. 104–8.
*STAYER, J. M. (1). 'Hans Hut's doctrine of the sword: an attempted solution', in *Mennonite Quarterly Review*, vol. XXXIX, Goshen, Indiana, 1965, pp. 181–91.
*STAYER, J. M. (2). 'The Münsterite rationalization of Bernhard Rothmann', in *Journal of the history of ideas*, vol. XVIII, Lancaster (Penn.) and New York, 1967, pp. 179–92.
STEEL, A. *Richard II*, Cambridge, 1941.
STEVENSON, W. B. 'The First Crusade', in CMH, vol. V, chap. 7, pp. 265–99.
Storia del Medioevo. Vol. III of the Proceedings of the Tenth International Congress of Historical Sciences, Florence, 1955.
STRAUCH, P. 'Nicolaus von Basel', in ADB, vol. XXIII, pp. 620–21.
STUMPF, A. *Historia Flagellantium, praecipue in Thuringia*. Written in 1780 but first appeared (ed. Erhard) in vol. II, *Neue Mitteilungen aus dem Gebiet historisch-antiquarischer Forschungen*, Halle and Nordhausen, 1836.
*STUPPERICH, R. *Das Münsterische Täufertum. Ergebnisse und Probleme der neueren Forschung*, Munster i. W., 1958.
*SUMBERG, L. A. M. 'The *Tafurs* and the First Crusade', in *Medieval Studies* (University of Toronto), vol. XXI, London, New York, 1959, pp. 224–46.
SVÁTEK, J. *Culturhistorische Bilder aus Böhmen*, Vienna, 1879.
SYBEL, H. von. *Geschichte des ersten Kreuzzuges* Leipzig, 1881.
TAMASSIA, N. *La famiglia italiana nei secoli XV e XVI*, Milan, Palermo, Naples, 1910.
TAUBES, J. *Abendländische Eschatologie*, Bern, 1947.
THALAMAS, A. *La société seigneuriale française, 1050–1270*, Paris, 1951.
THOMA, A. 'Der Pfeifer von Niklashausen', in *Preussische Jahrbucher*, vol. LX, Berlin, 1887, pp. 541–79.
TRACHTENBERG, J. *The Devil and the Jews: The medieval conception of the Jew and its relation to modern anti-semitism*, New Haven, Conn., 1944.
TREVELYAN, G. M. *England in the age of Wycliffe*, London, 1899.
TROELTSCH, E. *The social teaching of the Christian Churches*, trans. Wyon, 2 vols., 3rd edn., London, 1950.
TURBERVILLE, A. S. *Medieval heresy and the Inquisition*, London, 1920.
VERNET, F. 'Les frères du libre esprit', in *Dictionnaire de Théologie Catholique*, vol. VI, Paris, 1920, cols. 800–809.
VOEGELIN, E. *The new science of politics*, Chicago, 1952.

VOIGT, GEORG. 'Die deutsche Kaisersage', in *Historische Zeitschrift*, vol. XXVI, Munich, 1871, pp. 131–87.
VÖLTER, D. 'Die Secte von Schwabisch-Hall und der Ursprung der deutschen Kaisersage', in ZKG, vol. IV (1881), pp. 360–93.
VULLIAUD, P. *La fin du monde*, Paris, 1952.
WAAS, A. 'Die grosse Wendung im deutschen Bauernkrieg', in *Historische Zeitschrift*, Munich, 1938, vol. CLVIII, pp. 457–91; vol. CLIX, pp. 22–53.
WADSTEIN, E. *Die eschatologische Ideengruppe: Antichrist, Weltsabbat, Weltende und Weltgericht*, Leipzig, 1896.
WALTER, G. *Histoire du Communisme*, vol. I, *Les origines judaïques, chrétiennes, grecques, latines*, Paris, 1931.
WALTER, L.-G. *Contributions à l'étude de la formation de l'esprit révolutionnaire en Europe: Thomas Munzer et les luttes sociales à l'époque del a Réforme*, Paris, 1927.
WAPPLER, P. *Die Täuferbewegung in Thüringen von 1526-1584*, Jena, 1913.
WEBER, M. (1). *Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie*, vols. I, II, Tübingen, 1920.
WEBER, M. (2). *Wirtschaft und Gesellschaft*, Tübingen, 1925.
WELLER, K. 'König Konrad IV und die Schwaben', in *Württembergische Vierteljahrshefte für Landesgeschichte*, new series, vol. V, Stuttgart, 1896, pp. 113–60.
*WERNER, E. (1). 'Popular ideologies in late medieval Europe: Taborite chiliasm and its antecedents', in *Comparative Studies in Society and History*, vol. II, The Hague, 1959–60, pp. 344–63.
*WERNER, E. (2). 'Messianische Bewegungen im Mittelalter', in *Zeitschrift für Geschichtswissenschaft*, vol. X, Berlin, 1962, pp. 371–96, 598–622.
*WERNER, E. and ERBSTÖSSER, M. 'Sozial-religiöse Bewegungen im Mittelalter', in *Wissenschaftliche Zeitschrift der Karl-Marx-Universität Leipzig, Gesellschafts- und Sprachwissenschaftliche Reihe*, no. 7, 1957–8, pp. 257–82.
WERUNSKY, E. *Geschichte Kaiser Karls IV und seiner Zeit*, Innsbruck, 1882.
WEYDEN, E. *Geschichte der Juden in Köln am Rhein*, Cologne, 1867.
WICKERSHEIMER, E. 'Les accusations d'empoisonnement portées pendant la première moitié du XIVe siècle contre les lépreux et les juifs', in *Bulletin du quatrième Congrès international d'histoire de la médicine*, Brussels, 1923 (published 1927).
WILKINSON, B. 'The Peasants' Revolt of 1381', in *Speculum*, vol. XV, Cambridge, Mass., 1940, pp. 12–35.
*WILLIAMS, G. H. *The Radical Reformation*, London, 1962.
WINKELMANN, E. 'Holzschuh', in ADB, vol. XV, pp. 792–3.
*WOLF, G. (ed.). *Stupor Mundi. Zur Geschichte Friedrichs II von Hohenstauffen*, Darmstadt, 1966.
WOLFF, T. *Die Bauernkreuzzüge des Jahres 1096*, Tübingen, 1891.
WORKMAN, H. B. *John Wiclif*, 2 vols., Oxford, 1926.
*ZIEGLER, P. *The Black Death*, London, 1969.
ZÖCKLER, O. *Kritische Geschichte der Askese*, Frankfort-on-Main and Erlangen, 1863.
*ZSCHÄBITZ, G. *Zur mitteldeutschen Wiedertäuferbewegung nach dem grossen Bauernkrieg*, Berlin, 1958.

3 General Works on Millenarian and Messianic Movements in the World

ANDERSSON, E. *Messianic popular movements in the Lower Congo*, Uppsala, 1958

Archives de sociologie des religions, vol. IV (*Messianismes et millénarismes*) and vol. V (*Les messianismes dans le monde*), Paris, 1957–8.

BURRIDGE, K. O. L. *New Heaven, new earth: a study of millenarian activities*, Oxford, 1969.

*COHN, N. 'Reflexions sur le millénarisme', in *Archives de sociologie des religions*, vol. V, Paris, 1958, pp. 103–7.

COHN, N. 'Medieval Millenarism: its bearing on the comparative study of millenarian movements,' in *Millennial Dreams in Action*, pp. 31–43.

DESROCHE, H. 'Messianismus', in *Die Religion in Geschichte und Gegenwart*, vol. IV, Tübingen, 1960.

GUARIGLIA, G. *Prophetismus und Heilserwartungs-Bewegungen als völkerkundliches und religionsgeschichtliches Problem.* (*Wiener Beiträge zur Kulturgeschichte und Linguistik*, vol. XIII) Vienna, 1959.

HOBSBAWM, E. J. *Primitive Rebels*, Manchester, 1959.

LANTERNARI, V. *The religions of the oppressed. A study of modern messianic cults*, trans. Sergio, London, 1963.

Millennial Dreams in Action, ed. S. L. Thrupp (*Comparative Studies in Society and History, Supplement II*), The Hague, 1962.

MUHLMANN, W. E. *Chiliasmus und Nativismus. Studien zur Psychologie, Soziologie und historischen Kasuistik der Umsturzbewegungen*, Berlin, 1961.

SUNDKLER, B. *Bantu Prophets in South Africa*, London, 1948.

WORSLEY, P. *The trumpet shall sound. A study of 'Cargo' Cults in Melanesia*, London, 1957.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر السريانية

١ ـ المؤرخ الرهاوي المجهول

٢ ـ ميخائيل السوري الكبير

٣ ـ ابن العبري

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الخامس

دمشق
١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

المصادر السريانية

١ ـ المؤرخ الرهاوي المجهول
٢ ـ ميخائيل السوري الكبير
٣ ـ ابن العبري

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يعد الأدب السرياني بين أغنى الآداب العالمية ، وتتمتع الكتابات التاريخية في هذا الأدب بمكانة علية خاصة لأنها كتبت من قبل رجال كانوا ذوي احساس رفيع وأمانة واخلاص.ولما كان هؤلاء جميعا من رجال اللاهوت من أبناء الكنيسة ، فقد جعلوا كل شؤون الجنس البشري تتوافق مع نمط معين ، رسمته يد العناية الالهية المرشدة ، وقد حكوا رواياتهم بدون رياء أو تكلف ، وبلا توهم أو سخرية.

والمراد بالسريانية ، فرع الآرامية الذي نطق به سكان سورية مع سكان الجزيرة وبعض المناطق المجاورة ، وكتبوا به خلال قرون طويلة منذ ما قبل الميلاد حتى ما بعد الفتح العربي بقرون.ففي سورية والجزيرة ما زال العديد من المسيحيين يتكلمون بالسريانية.

وكتب التاريخ السريانية مسيحية في المحتوى والتعبير ، تلونت بعمق بالكتاب المقدس وبسلوك وسير آباء الكنيسة ، وقد تم تصنيف أغلبها في الجزيرة ، والكثير منها في مدينة الرها(اديسا ــ اورفا حاليا)أو قربها ، فللرها قدسية كنسية خاصة ، على اعتبار أنها أول مدينة ، أو لنقل أو ل مملكة ، في العالم تبنت المسيحية دينا رسميا ، وقد اعتمدت لهجة الرها ونمطها بالكتابة السريانية في جميع أرجاء العالم السرياني الذي تجاوز الرقعة الواقعة فيما بين الهضبة الأرمينية في الشمال حتى حدود الجليل في الجنوب ، واقليم عدبين في الشرق حتى البحر المتوسط في الغرب.

وغطت الكتابات التاريخية السريانية اكثر من عشرة قرون ، أي منذ القرن الثالث الميلاد حتى أيام المغــول ، وخــلال هــذه الفتــرة المديدة لم يتول السريان دورا مباشرا في التحكم بشؤونهم ، ثم إنهم لم يسعوا لفعل ذلك ، ومرد هذا بــالاساس الى الجغــرافيا ، ففــي البداية توزعوا بين امبراطوريتين أريتين متنازعتين هما : بيزنطة في الغرب وفارس في الشرق ، وامتدت حدود جبهة القتال المســتمر بين هاتين الدولتين فيما بين الفرات والدجلة ، وكانت الحروب مــدمرة خربت الأرياف والمدن بشكل مروع ، ولم يكن للسريان اية مصــلحة في هذه الحروب ، وفضلا عما نالهم مــن دمــار وأذى مســتمر مــن جرائها شطرت السريان الى شــطرين : شرقــي وغربــي ، وكذلك شطرت كنيستهم ، فمنذ القرن الخامس للميلاد استقل سريان بــلاد ما بين النهرين عن اخوانهم في الغرب ، وفقط مع الفتوحات العربية أزيل الستار الحديدي الذي فصل مــا بين سريان المشرق والمغــرب واستأنفوا تجانسهم الطبيعي ، إنمــا منذ أن حــدث هــــذا بــــدا المسيحيون يتحولون الى اقلية متضاءلة لها بعض الأدوار السياسية والادارية.

وانعكس هذا كله على الكتابات التاريخية السريانية ، فهي لهذا حوت على حــكايات كثيرة صــممت لاثــــارة الولاءات للكنيســــة ولتقويتها ، وعليه نجد فيهــا روايات اســطورية عن وصــول أولى البعثات التبشيرية الى الرها وتراجم حياة شهداء الكنيسة ، وهــي كثيرة جدا ، جل موادها خيالي مخترع لايمكن للمؤرخ الجاد الافادة منه ٠

وأفضل من هذه التراجم محفوظات وثائق الرها مع أنها وصلتنا مفتتة ، وأقدم مادة تاريخية فيها تتحدث عن فيضــان أصاب الرهــا سنة ٢٠١ م ، ويرجح أن كاتب وصف هذا الفيضــان كان شــاهد عيان ، وكان مما قاله :« أصبحت ينابيع الماء التي انبجســت مــن القصر العظيم ، العائد للملك أبجر ، غزيرة وفاضت ، وكما حدث في مناسبة فارطة تعاظمت وطافت على جميع الجــوانب » ، « وبــدات

ساحات قصر الملك وبيوته تمتلىء بالماء ، وعندما راى سيدنا ابجـر الملك ذلك ، صـعد الى مـكان امين على تـل يشرف على هـذا القصر ، حيث كان حرفيوا الأشغال الملكية يعيشون ويسكنون »

والمتمعن في اسلوب هـذه الرواية يراهـا صـادقة ومبـاشرة ومختصرة ، وهي بالحقيقة نموذج لما تلاها من كتابات ، ومن المفيد التعرف هنا الى عدد مـن مشـاهير المؤرخين السريان وصـولا إلى مؤرخينا الثلاثة الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية.

لعل تاريخ يهوا العمودي هو الأقدم بين مـا هـو معـروف مـن التواريخ السريانية ، ولا نعرف شيئا عن يهوا سوى انه ابتدا كتابه بحوادث سنة ٣٩٥ ــ ٣٩٦ م وانتهى في سنة ٥٠٦ ، ويرجـح أن هذا التاريخ قد صنف بالرها ، ذلك انه كتب ببساطة وامانة وحيوية وبتسلسل دقيق رائع ، تحدث فيه يهـوا عن الحـروب بين الفـرس والروم فوصف أعمال الحصار والغارات والكمائن والأسلحة ، حتى أننا نكاد نسمع دمدمة الحشود العظيمة وزحـف الهـون على اعالي الجزيرة وسورية،ففي سنة ٥٠٢ م قاد النعمان بـن الأسـود قـوة كبيرة من العرب والفرس والهـون فـأغار على حقـول حـران والرها ، ولدى يهوا هنا رواية شهيرة عن قـدوم تعـزيزات قـوطية قدمت نجدة من البيزنطيين فنزلت على أهالي مدينة الرهـا واحتلت مساكنهم ، اسمعه يقول:« ونهبنا أيضـا الذين جـاؤوا لمسـاعدتنا تحت اسم المنقذين ، نهبونا وهم غادون أو رائحون بقدر مـا فعـل الأعداء بنا ، لقد قلبوا الكثير من فقراء الناس من فرشهم ، وناموا فيهـــا ، في حين نام أصـــحابها على الأرض في الطقس البارد ، وطردوا أخـــرين مـــن بيوتهـــم ، ودخلوهـــا ليسكنوها ، وانتزعوا مواشي بعض الناس بـالقوة ، كمـا لو كانت غنائم حرب ، ونزعوا عن أخـرين ثيابهـم وأخـذوها ، وضربـوا بعضهم بعنف لمجرد أمر تـافه ، وتشـاجروا مـع أخـرين في الشوارع ، وكانوا يسـبونهم لأصـغر سـبب....وكانوا يهـاجمون الناس في الطرق العامة.... من النساء العجائز الى الأرامل والفقراء وكانوا يمنعونهم من أعمالهم ليخدموهم ، وباختصار ، لقد أزعجوا

الناس جميعا ، كبيرهم وصغيرهم ، ولم يكن هناك انسان لم يعان بعض الأذى منهم »

لقد كان البدو هم الرعب الدائم لسكان المدن والقرى في شمالي الجزيرة ، ولم يكن هؤلاء ، كما يجب أن يلاحظ الناس ، الذين يدعون العرب (أو عربي) ، بسريانية تلك الفترة ، وقصد العرب هؤلاء في الريف بشكل رئيس بين آمد وثنوريوس ـ الذي وقع خلف القرى ، لقد كانوا نصف مستقرين ، وقد عملت السلطات على تسريع عملية تطويرهم الى فلاحين مستقرين ، لقد كان عرب الخيام بداة طيء ، كما كانوا يسمون عادة ـ هم الذين تحدوا كل التقاليد والعادات في المجتمع الراسخ ، وكانت الطرق والقرى الآمنة تحت رحمتهم ، وقد انتقل خبر أمير الحيرة ، الذي ضحى بأربعمائة أسيرة من العذارى لربه القمر ـ العزى ـ من فم لفم ، وبدأت المسيحية الحقيقية في اصلاح البدو المتمردين على القانون ، ولكن أيديهم عادة ، كانت ضد جميع الناس ، وكتب يهوا يقول : « انهم عبروا دجلة ، وسلبوا ، واخذوا أسرى ، ودمروا كل ما وجدوه في الأراضي الفارسية ، يا صاحب القداسة ». ويتابع مخاطبا مراسله : « يجب أن تعرف حقيقة أن الطائيين شكلت الحرب بالنسبة لهم موردا كثير الربح ، وقد فرضوا إرادتهم على كلتا المملكتين ».

وقد لاحظنا بساطة اسلوب الكاتب وصراحته ، وأبدى يهوا ، مثله مثل جميع مؤرخينا السريان ، حتى بالنسبة لأولئك الذين ، كانوا بفضل وظيفتهم أعظم الأساقفة في الكنيسة السورية ، تعاطفاً وتفهما للناس العاديين ، الذين كانت رغبتهم العيش في هدوء وراحة ، فها هوذا يخبرنا عن أسعار القمح والشعير والخضار والنبيذ ، ويكتب عن المحاصيل الجيدة والسيئة ، والضرائب ، والمباهج الشعبية ، وحتى عن عيد الربيع ، الذي كانت له دلالة وثنية واضحة ، والذي يوافق عليه ، هو نفسه ، قلبيا.

أما المؤرخ يحيى العربسوسي (أفسوس) الذي عاش من

سنة ٥١٦ الى نحو ٥٨٧ م فـــكان ذا طبيعـــة اكثـــر حـــــدة وصرامة ، وهو بالاصل من اهالي امـد ، اقـام معـظم حياتـه في القســـــطنطينية ، وكان على صــــلة وثيقـــــــة هناك بالاباطرة ، وبالشخصيات القيادية في العاصمة ، وقد رحل بـشـكل واسع ، وقام بحملات تبشيرية كبيرة في أسيا الصغرى ، وكان احد الذين اثاروا ، وطوروا الحملة البيزنطية على النوبة ، وقد أعلن هو نفسه ، بصورة مملة نوعا ما ، انه:

« لم يكن غريبا عن صراع الأحداث....بل كان واحدا مــن الذين زحفوا الى المعركة ، والذين.....تحملوا المعاناة ، وعانوا بصبر الام الاضطهاد والسجن.... ».

وبما أن يحيى كان عضوا قياديا في كنيسة اليعاقبة ، التي كانت قد عدت ، من قبل معظم البيزنطيين ، انشقاقا خطيرا ، فقد كان في موقع استثنائي ، ليصف ضيق الأفق والتعصب..والحاجة الى ضبط النفس والظلم والقسوة ، التي كانت شائعة في تلك الفترة.

وجعلت مسالة الايمان بالإرادة الواحــدة للمســيح ، يحيى وثيق الصلة بالمسيحيين العرب ، الذين كانوا اعضاء في الطائفة نفسـها. ونقرا على سبيل المثال ، انه عندمــا سـجنت جمـاعة كبيرة مــــن المسيحيين من قبل الفرس في انطاكية ، نجح مسـيحيان عربيان في الهرب من المدينة ، وشقا طريقهما الى القسطنطينية ، وهناك أعلم يحيى بهما البلاط ، وعندما دعا تايبيروس ـ خوفا مــن الانشـقاق الديني الذي مــــزق امبـــراطوريته ـ المنذر بـــن الحــــارث الى عاصمته ، وعمل على التوصل الى تسوية مــع هــذا الملك العــربي المسيحي كان يحيى نفسه موفدا الى المؤتمر ، ونجـد في صـفحات تاريخ يحيى صورة حية للمنذر وشهرته في جميع انحاء الامبراطورية كمحارب ورجل دولة.

وقد ألقى احد معارف يحيى الآخرين ضوءا غريبا على التــاريخ العربي في ذلك الوقت ، وكان احد الممثلين القلائل للكنيســة القــائلة

بالارادة الواحدة للمسيح في الاراضي الفارسية ، وهو سمعان من بيت أرشيم ، وكان مجادلا فظا ، قام برحلات متكررة الى فارس ، وراوغ أعداءه النساطرة بالامتناع عن الاعتراف بصحة اصالة الرداء الأرجواني ، وعندما كان بزيارة للحيرة في سنة ٥٢٤ ، قابل سمعان رسل الملك اليهودي ذانواس وسجل يحيى على صفحات تاريخه أخبار رسل ذي نواس الى أمير الحيرة ، وروايته عن الهجوم على نجران ومذبحة المسيحيين فيها ـ وهي حادثة ذائعة الصيت ـ كان لها صدى واسع في الاراضي العربية.

إننا يجب ان نقدم التقدير والاجلال لأمانة يحيى كمؤرخ ـ فلقد منح ملك فارس ، وهو العدو المقيت لبيزنطة المسحية ، مديحا وافرا بقوله :« وكما اثبتت الحقائق نفسها ، لقد كان رجلا حصيفا ، حكيما ، وقد أوقف نفسه طوال حياته باجتهاد على دراسة الاعمال الفلسفية... »

ويبدو ايضا أن الحرب بين فارس والبيزنطيين ، كانت سبب حزن كبير له ، ويبدو انه كان مستعدا لتقديم تنازلات كبيرة لاعادة ارساء السلام .

وهو بين مؤرخي تلك الفترة ، صدر كتابه برواية أحداث بعيدة ، مع صوت فيه تجديد وإنذار ، وذلك لدى عرضه للخطوط العامة لأحداث بلاد فارس ، اسمعه يقول :« تلك الأحداث ، التي لم نرها أو تدركها معارفنا ، ولا يمكن أن نشهد بصحتها بقدر ما نحن بعيدون عن البلاد التي وقعت فيها ».

وكتب يحيى إضافة إلى تاريخه تراجم ذاتية للنساك والزهاد الذين كانوا من معاصريه في منطقة آمد ، دار نشأته الأولى ، وهنا نجد مادة وفيرة للباحث في تاريخ الجزيرة قبل الاسلام ، وهي مادة حول شعب ورع جاهل يمجد في إنكاره لذاته على الرغم من فقره ، وبالنسبة للزهاد المتجردين ، شابهت معاناتهم طرائق المشائيين ،

ولكن هؤلاء الرجال والنساء ، هم الذين ألهموا البدو في زمانهم الاخلاص في الصلاة والصوم وكبح الشهوات ، فالصراحة البدائية لمذهب المؤمنين بالارادة الواحدة في المسيح ، قد اجتذبت البداة العرب أكثر من الحلول الوسط ، التي تميز بها النساطرة وكان في هذا بشائر حركة هداية أكثر عاطفية ، كان مقدرا لها أن تتفجر من الصحراء بعد قرابة جيلين .

وكانت التواريخ التي كتبت عنها من تصنيف سريان الغرب ، أي بيزنطة والجزيرة وقد أنتج سريان الجزيرة ، التي حكمت من قبل فارس خلال تلك الفترة ، كتب تراجم فقط ، متكلفة ومتميزة للقديسين وزعماء الكنيسة ، ولكننا قد نهتم بثلاثة فقط منها ، ألفت في القرن السادس ، لأنها ذات قيمة وهي تاريخ مشيخرخا ، مع معلومات قيمة حول قيام الأسرة الساسانية ، وتاريخ كرك بيت سلخ ، مع بيانات طبوغرافية حول فارس قبل الاسلام ، وتاريخ ابن حدبشبا .

ومن المحتمل أنه عند وفاة يحيى العربسوسي ، كان النبي محمد (ص) في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمره ، وكان مقدرا للعالم ، أن يتغير بسرعة أكبر مما أمكن لأحد أن يتنبأ بها في ذلك الوقت ، وليس لدينا لسوء الحظ روايات معاصرة مفصلة حول الفتح العربي بالسريانية ، وفي الحقيقة مرت ترجمة واحدة في ذلك الوقت بحملات هرقل والعرب في مالايزيد عن كلمات قليلة ، وعندما ارتفع الستار مرة أخرى ، كانت السيادة الاسلامية قد توطدت .

ولم يعد ، في الفترة الاسلامية هؤلاء المؤرخون السريان يعتمد عليهم في تسجيل الأحداث الكبيرة في زمانهم ، وصحيح أنهم كانوا دائما بعيدين عن توجيه الأمور ، ولكنهم الآن باستثناء بعض الأفراد ، عاشوا الحياة المنعزلة لأقلية طائفية ، معزولين عن بلاط الملوك والأمراء ، بمكانة سياسية سلبية ولامبالية ، وحتى بلا خيال ، تشهد فقط مرور الأحداث ، وكان بالنسبة للمسيحي ، من

الأسلم أن تكون له صلات صغيرة بسلطات عصره ، وفي سنة ٧٦٥ م ، على سبيل المثال اعتقل البطريرك جورج ، وقد قدح فيه أعداؤه ، وجلد أمام الخليفة المنصور ، وعندما سأله الخليفة بجفاء : لماذا لم يتقدم بطلب (براءة ملكية) تؤكد منصبه في الكنيسة ، أجاب بلطف : لم ارغب في إزعاج أحد .

ويلاحظ مع ذلك ، أن المسيحيين مهما كان تحفظهم وبقاؤهم بمنأى عن حروب الحكام المسلمين ومؤامراتهم.كانوا مع ذلك سيبتلون بتلك المشكلات التي تؤثر في الشعب العادي في كل أرض وفي كل عصر ، ونستطيع أن نستخرج من تواريخنا السريانية معلومات مفيدة حول الظروف الاجتماعية والاقتصادية للناس العاديين ، ونحصل على صورة مشرقة للمشكلات ، التي واجهت اقلية دينية تحت الحكم الاسلامي ، ويجب بالطبع ، أن نطبق على التواريخ الأخيرة مسطرة منزلقة مختلفة في إمكانية الاعتماد عليها تاريخيا .

إن الآراء حول العصر السالف على ظهور الاسلام الواردة لدى المؤرخين السريان هامة ، حتى وهي تصف حوادث سالفة على زمانهم ، لأنهم ربما كانوا ، يكررون آثارا موثوقة ، خلفها لهم أسلافهم ، لكن المؤرخين المتأخرين ، لم يزيدوا على تأكيد الحقائق ، التي رسخها مؤرخون عرب ، ويمكن فقط تفضيلهم ، عندما يتولون تقديم آراء تختلف عن آراء المؤرخين العرب ، حيث يقومون بوصف أحداث شاهدوها بأنفسهم ، أو حدثت قرب فترة حياتهم .

وملفت للانتباه أنه يوجد في هذه التواريخ فقرات نافذة ، لابل ناقدة بقسوة للنظام الذي كان قائما ، وفي هذا دليل واضح أن السلطات الاسلامية أعطت حرية في العمل والاختيار جديرة بالذكر لهؤلاء الكتاب من غير المسلمين ، فقد شعر هؤلاء الكتاب ، بأنهم احرار في ان يكتبوا كما يريدون باللسان السرياني أو العربي ، ويعزز هذا كثيرا ويرفع من قيمة تلك السجلات بدرجة كبيرة .

لقد بينت من قبل أن التاريخ السرياني كما نفهم اصطلاح

التاريخ ، إنتاج غربي الجزيرة وليس شرقها ، وقد جاء حصيلة تقاليد طويلة ، ولم يكن أبدا ردة فعل عرضية ، أرادت التعبير عن وجودها أدبيا بالتدوين في العصور الاسلامية ، فالجزيرة لم تعد مقسمة إلى منطقتين مختلفتي الثقافة ، إحداهما تحت حماية بيزنطة الناطقة باليونانية ، والثانية تحت رعاية فارس ، وحتى عندما أصبحت كلتا المنطقتين تحت الحكم المشترك للاسلام ، فإن كتابات مؤلفي مشارقة الجزيرة ــ دنحا وايشودنح ، وتوما المرقي والمؤلف المجهول ، والسير الذاتية ، التي كتبت تراجم للشهداء والقديسين ــ لم تكن أكثر من خليط ضعيف التمييز بين الحقيقة والقصص الورعة وهناك استثناءان فقط يمكن ملاحظتهما : الأول هو التاريخ ، مجهول المؤلف ، الذي يعطي رواية للأحداث في فارس ، من خلع هرمز الرابع في سنة ٥٩٠ إلى ٦٧٠ ، وقيمته عظيمة ، لأنه لابد قد كتب بوقت ليس أبعد بكثير من سنة ٦٨٠ ، ويحتمل أنه صنف من قبل راهب نسطوري ، والثاني ، هو تاريخ الياس مطران من نصيبين في القرن الحادي عشر ، وهذا الكتاب على أي حال ، ليس أكثر من مجرد قائمة بالأحداث والتواريخ .

وبالمقابل تتمتع تواريخ مغاربة الجزيرة الموجودة على الرغم من القلة في العدد ــ باحتفاظها باتساع التواريخ السريانية القديمة وتكاملها.وقد نسب اعتماد الترتيب الحولي في التواريخ أولا بصورة غير صحيحة إلى البطريرك دانيوس التلمحري ، والذي ينتهي تاريخه بعام ٧٧٤ م ، وهو رواية مملة نوعا ما مليئة باقتباسات مطولة من الكتب الدينية ومناجاة للرب ضد خطايا الانسان ، مع الاضفاء الساذج للصفات الأخلاقية ، ومع ذلك فهي تعطينا وصفا ضافيا لبلاد الجزيرة في القرن الثامن ، من مثل قوله :« لقد كانت الأرض كلها .... رائعة بكرومها وحقولها وماشيتها الكثيرة ، ولم يكن هناك فقير في قرية ، لايملك حقلا وجملا وماعزا ، ولم يكن هناك مكانا قابل للزراعة تقريبا ، لم يبذر أو يزرع بالكروم حتى في

الجبال ، وحيث يمكن للمحراث أن يمر ، كانت الكروم تزرع ....
وكانت الأرض غاصة بالرعاة فوق طاقة المراعي الكثيرة » .

ولكن مؤلفنا يستغرب ،« فالأرض مليئة أيضا بالظلم » ، وقد كتب بمرارة عن الصراع المصطنع ضمن الكنيسة ، وضد عدم الاستقرار الداخلي ، أو الثورة ضد السلطة ، والمجازر التي كانت تعقب ذلك ، وقد ندد بالابتزاز ، الذي قام به الحكام واتباعهم ، واعترض على مصادرة الملكيات ، ووشم أجسام الرجال لضمان تأدية ضريبة الجزية بكاملها ، والتدخل المستمر في حرية الفرد ، إلى حد أن الصياد لم يكن يسمح له كما قال « بالصيد في النهر بدون تصريح » ، وكان الموظفون يبالغون في تقدير العشور : « وسلف أن وصفنا الحقول على أنها عامرة تماما ، حتى لو لم يحصد أكثر من خمسة اضعاف البذار ، وقد تحمل العرب محنا أقسى من السريان » .

« ثم انقض جباة الضرائب عليهم بالضرب والتعذيب من كل الانواع ، وكان عليهم نظريا أن يأخذوا العشر ، ولم يكن العرب يستطيعون جمع ماهو مطلوب منهم ، حتى ولو باعوا كل مايملكون ، وقد حاولوا حثهم على أن يأخذوا وفق القانون ، الذي شرعه محمد (ص) والملوك الاوائل ، وأن يأخذوا من كل واحد حسب مايملك قمحا ممن لديه قمح ، وماشية ممن لديه ماشية ، ولكنهم لم يقبلوا ، وكانوا يصرخون فيهم : اذهبوا وبيعوا سلعكم وأعطونا ذهبا » .

ومن الأهمية بمكان ذكر السيرة الذاتية ، التي كتبها البطريرك دانيوس الذي نسب إليه خطأ التاريخ الذي وصفناه لتونا.
وقد كان دانيوس يمارس بهدوء دراسة التاريخ في أحد الأديرة ، عندما سيم رغما عنه بطريركا لليعاقبة في عام ٨١٦ ، وناضل طيلة ممارسته لمهنته دون كلل نيابة عن طائفته ضد الانشقاق من الداخل والاضطهاد من الخارج ، وسافر إلى الموصل وبغداد ، وحتى إلى مصر يلتمس تدخل السلطات ، وترى سيرته الذاتية من خلال أنه

كان مراقبا داهية للرجال ، وقد صورت عجـز الأقليات واعتمـادها على النوايا الطيبة لأفراد بدلا من مواد القانون المكتوبة ، وفيما يلي كلمات الخليفة المأمون القاسية التي وجهها إلى دانيوس : « إنكم تزعجوننا وتضايقوننا كثيرا أيها المسيحيون وخاصة اتباعك اليعاقبة ، ومع ذلك فإننا نتجاهل الشكاوى التي يقدمها احدكم ضد الآخر ، اذهبوا الآن وعودوا بعد أيام » .

وفي روايته حول زيارتـه لمصر ، لدينا صـورة نابضـة بـالحياة للطائفة المسيحية هناك :« مـدينتنا محـاطة بـالمياه ، وليس لدينا محاصيل زراعية أو أي موارد أخرى ، ولايمكننا أن نربي مـاشية ، المياه التي نشربها تأتي من بعيد ، ونحن نشـتريها بسـعر أربعـة مثاقيل للرواية ، وعملنا محصور بـالصوف الذي تغـزله نسـاؤنا ، ونقوم نحن بنسجه ، والثمن الذي نحصل عليه من تجار القمـاش ، هو نصف مثقـال في اليوم ، وحيث أن عملنا لايوفـر الخبـز الكافي لأفواهنا ، وعندما نطالب بـالضريبة ، نضـطر إلى دفـع خمسـة دنانير (أي ثلاثين مثقالا) عن كل فرد ، ونتعرض للضرب ، ويلقى بنا بالسجن ونكره على تقديم بناتنا وابنائنا كضـمان للعمـل كعبيد عامين لقاء دينار واحد ....» .

وقد حكى دانيوس ووصف بلواهم لحـاكم مصر الذي « اعطـى أمره بأنهم يجب أن يدفعوا الجزية حسب قـانون الجـزية ـ ٤٨ مثقالا من الأغنياء ،و ٢٤ مـن متـوسطي الحـال و ١٢ مـن الفقراء ـ عند جمع الجزية » .

وننتقل إلى مؤرخينا الثلاثة ونصوصهم ، والنص الأول هو حولية لمؤرخ رهاوي مجهول لعله باسيل مـطران الرهـا في فتـرة أحـداث الحولية ، التي تعالج أخبار مدينة الرها وما كان مايحيط بها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، إنهـا رواية دقيقـة ، تـذكر بقوتها بأسلوب تاريخ يهوا العمودي الأقدم بنحـو سـبعة قـرون ، فتظهر الثروة من التفاصيل الدقيقة ، وإلفة المؤلف مع خطط الرها ، انه كان معاصرا لتلك الأحداث ، وربما كان شاهد عيان لبعضـها ،

لهذا رجحنا أنه ربما كان باسيل المطران السوري لمدينة الرها في ذلك الوقت ، ونقرأ عنده عن تبادل مجاملات الفروسية بين الحاكم المسلم للموصل واسيره الصليبي جوسلين ولكن مثل هذا الكرم ، كان يتناوب مع أعمال القسوة المذهلة ، فهناك مشاهد حية للرعب والدمار في الرها والمدن المجاورة ، خلال فترة السيطرة عليها من قبل الصليبيين ، والاستيلاء على الرها من قبل زنكي سنة ١١٤٤ م ، مما أثار حماس برنارد ، راعي دير كليرفو ، وسبب قيام حملة صليبية جديدة ـ واستردادها من قبل نور الدين بعد ذلك بعامين .

وكانت هناك حادثة سارة أكثر ، تمثلت بزيارة زنكي للمدينة في سنة ١١٤٥ : « وخرج المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيين لاستقباله من جهة واحدة ، والمسلمون الذين تجمعوا من كل الأحياء في الجانب الآخر ، وقد حيا المسيحيين بسرور ، وقبل الانجيل ، وسلم على المطران ، واطمأن على صحته وأحواله وقال إنه جاء من أجلهم لامدادهم بما ينقصهم .... لقد زار كنائسنا السورية ، وتأمل في جمالها ، وأمر بوضع ناقوسين عظيمين يعلقان فيها ، كما كانت العادة في زمن الفرنجة ... ، وأوصى المطران أن يكون حريصا على حراسة المدينة ، وأن لايخون حكومته » .

وهذه الرواية واردة أيضا في تاريخ كان مؤلفه حاضرا عند سقوط القدس في يد صلاح الدين في سنة ١١٨٧ م ، وقد استمر تاريخه حتى سنة ١٢٤٣ .

وأشهر منه وأعظم أهمية ، العمل التاريخي للبطريرك ميخائيل ، الذي يسمى عادة ميخائيل السوري (ت ١١٩٩) لقد أصبح رأسا لكنيسة اليعاقبة في سنة ١١٦٦ م واحتفظ بهذا المنصب ثلاثين عاما ، ولقد كان كاهنا عسكريا ميالا للجدل اللاهوتي وهو انضباطي ، لم يحظ بشعبية حتى بين اتباعه ، وكثيرا ماكان تاريخه مثيرا للجدل المذهبي ، وهو لهذا لايقدر بثمن ، وهو مرتب في ثلاثة

أعمدة ، عالج أولها الأحداث العلمانية ، وتعلق الثاني بالشؤون الدينية ، في حين حوى الثالث حكايات متنوعة ، وأمورا ذات أهمية شخصية ومحلية.وبالنسبة لنا ، إن العمود الثالث مع مافيه من تسجيل للمحاصيل والجفاف والبناء والحرائق ، هو غالبا الأكثر جاذبية وضياء .

وكان الحكام وشيوخ القبائل الصغار في الجزيرة ، قليلي الاهتمام بخير عامة الناس ، أي أولئك الناس البسطاء من أهل المدن ، والفلاحين الذين تكونت منهم رعية ميخائيل . وبالنسبة للمسيحيين ، الذين كانوا بينهم ، كانت القصة مشابهة لما كان في القرون السالفة ، وكانت ثرواتهم خاضعة بشكل خطير لنزوات كل من المرتزقة الأجانب وسادتهم من المسلمين أو الفرنجة

وفي القتال بين الأكراد والتركمان ، كان كل طرف يصب نقمته على المسيحيين المحليين ، ولقد كانت لنور الدين سمعة في الورع والاحسان بين المسلمين ، ولكن المسيحيين رأوه خلاف ذلك ، وعندما جاء الى الموصل ، يخبرنا ميخائيل قائلا : « ضاعف المكوس على المسيحيين ، وزاد الجزية ، وألزمهم بلبس الزنار ، ومنعهم من إطالة شعور رؤوسهم ، حتى يعرفوا ويمكن تمييزهم من قبل العرب. وقضى أيضا أن يحمل اليهود قطعة من مادة حمراء على أكتافهم ، حتى يعرفوا »

وعندما ارتقى العرش خليفة جديد في سنة ١١٧٠ ، أعدم الوزير ابن البلدي وأوضح ميخائيل ، أن الوزير الذي ذبح ، كان عدو المسيحيين ، وقد تعهد الخليفة الجديد بمحبة المسيحيين نكاية بالوزير وكراهية له.

ولكن نور الدين ، بقي العدو الرئيس للمسيحيين ، وقد وضعوا أملا كبيرا في عموري الأول ، الذي روعهم موته ، في سنة ١١٧٤ م ، وفي مثل هذه الظروف ، لم يستطع حتى ميخائيل نفسه أن يدين أو يصف باللاأخلاقية الرشاوى المقدمة للحكام والعسكريين وسواهم من أجل دفع أذيتهم.

وكان نصيرا مدافعا قوي الشكيمة عن رعيته ومحافظا على حقوقهم كزعيم لها ، وقد أعلن صراحة لسيف الدين غازي ، الذي اقترح تسمية كاهن منافس له ليكون بطريركا:

« إذا كنت تريد تغيير ما جعله الملوك من أسلافك ، فلتعلم انك ستلقى معارضة ليس مني فقط ، بل من الأنبياء ، موسى وعيسى ومحمد (ص)لأنك تدمر مشيئة الله... أما بالنسبة لي ففقدان رأسي لا قيمة له ...وها أنا أقدم بحرية رأسي فدعهم يقطعوه ، لأني أخالف مبادىء القانون ».

وفي عام ١١٨١ استدعى ميخائيل من قبل قلج ارسلان الى ملطية ، فذهب مرتعشا ، ولكن السلطان استقبله بكل حفاوة وتكريم ومجاملة ، وتناقش البطريرك معه وأصغى اليه (يؤكد لنا) بسرور ، وتأثر بحكمته الى درجة جعلت الدموع ، تنهمر من عينيه (السلطان).

وتوفرت لميخائيل فرصة لحضور القداسات في جميع انحاء الجزيرة وسورية واستقبل وفود اليعاقبة من مصر ، وزار القدس ثلاث مرات ، وكانت في حينه في أيدي الفرنجة ، وحصل على براءات من كل عموري الأول وبلدوين الرابع.

وكانت تعليقاته على مجموعات القوى الرئيسية الثلاث في غربي اسيا في تلك الفترة : التركمان والفرنجة والروم البيزنطيين معنية في المقام الأول بالحرية الدينية ، ولكنها ذات أهمية أوسع ، اسمعه يقول : « وفي السنوات التي سنكتب عنها الآن ، سيطر الهدوء والأمن في كنيستنا الأرثوذكسية لهذا السبب .... وكان الروم القساة محتجزين وراء البحار » •ولم يثر الفرنجة ، الذين كانوا في هذا الوقت يحتلون أماكن في فلسطين وفي سورية أيضا،وكان لهم اساقفة في كنائسهم ، صعوبات في أمور العقيدة ، ولكنهم كانوا يعدون مسيحيا كل من يعبد الصليب بدون فحص أو تحر ، ولم يكن للأتراك من جانبهم ، وكانوا يحتلون معظم البلاد التي يسكنها

- ١٩٦٠ -

المسيحيون ، فكرة عن الأسرار المقدسة ، وعليه فقد اعتبروا المسيحية خطأ ، ولم تكن لديهم عادة تعلم أمور العقيدة أو اضطهاد أحد لجهره بعقيدته ، كما كان الروم يفعلون ، ذلك انهم شعب كافر شرير ».

ونأتي مع ابن العبري الى آخر تواريخنا السريانية . لقد أكمل تاريخ المنطقة منذ وفاة ميخائيل السوري حتى عام وفاته سنة ١٢٨٦ م ، وجاء تاريخه بالسريانية ـ لا أبحث هنا في تاريخه بالعربية ـ في جزأين : تعامل أولهما مع الأحداث العلمانية ، وتعامل الآخر (في قسمين) مع الأحداث اللاهوتية وقد غير وصول المغول المسرح السياسي ، وقد تولى ابن العبري وصف الظروف الجديدة بشكل واف ، وبشكل خاص أحداث ملطية مسقط رأسه ، وكان هو نفسه حاضرا كمطران عندما سقطت حلب في أيدي المغول في سنة ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠ م .وكان على معرفة بأمراء وأميرات من البلاط المغولي.

وقد اتبعت مصائر المسيحيين مسارا ، لا يمكن التنبؤ به ، فمن جهة وحد العرب صفوفهم مع المسيحيين للدفاع عن ملطية ضد الهجوم التتري في سنة ١٢٤٣ م .ومرة أخرى في سنة ١٢٥٦ م . وهكذا أيضا في وجه العدوان المغولي على بغداد في سنة ١٢٥٨ م . وقد أودع العرب الاغنياء في المدينة ممتلكاتهم للحفظ في خزائن الجاثليق ، ومن جانب آخر ، نهبت الاديرة المسيحية من قبل الجند ورجال القبائل الكردية ، وهوجم المسيحيون من أهل المدن من قبل الغوغاء من المسلمين في بغداد والموصل واربل.

وكانت الطائفة المسيحية بالتأكيد في وضع شاذ في تلك الفترة ، ولم يتخذ أمراء المغول موقفا عدائيا تجاههم ، بل إن بعضهم جاهر بالعقيدة المسيحية ، وشغل المسيحيون مناصب عليا في البلاط ، وأعلن ابن العبري : « حازت الكنيسة على الاستقرار والحماية في كل مكان » وقد دعا قبلاي خان باسم« الملك الحكيم

العادل وصديق المسيحيين ، الذي أولى رعايته رجال العلم والعلماء والأطباء من جميع الأمم ».

ومع ذلك إن هذا التحالف ، لم يعط الأمان للمسيحيين من التتار أنفسهم ، ويكتب ابن العبري عن التتار في الحملة نفسها :« إنهم في جشعهم ، قتلوا أيضا كثيرا من المسيحيين وأسروهم ونهبوهم ، مع أن ملك الملوك ، قد أمرهم بأن لا يؤذوا المسيحيين ».

وتاريخ ابن العبري بكل ما حواه ، ليس مرضيا ، فمؤلفه لم يعطنا شيئا من اللمسات الشخصية ، التي جعلتنا مهنته وصلاته الشخصية نتوقعها ، فقد كانت ولاءاته طائفية ضيقة ، ويبدو أنه كان يفتقر الى معايير تماسك الذات والأمانة ، التي تميز بها المؤرخون الأقدم ، لأن قسوة القائد المغولي سندغا وغدره (ذلك الشاب الرائع) لم تكن لديه موضع لوم ، بيد أنه ينبغي علينا ، أن لا نحكم بقسوة على ابن العبري ، ذلك أن كتابته هذا التاريخ ، لم تتعد ، بالنسبة له ، كونها تمرينا في الانشاء السرياني وجزءا من محاولته العامة لاحياء الاهتمام باللغة القديمة ، وقد حكم على التجربة سلفا بالاخفاق ، لأن النهضة بالسريانية ، كانت فوق طاقة ابن العبري ، لا بل أعظم من معارفه الواسعة ومثابرته ، وإنه لأمر له دلالته أن الكتابة على قبر ابن العبري نقشت بالكرشونية ، وهي عربية بأحرف سريانية.

وتكاد روايات ابن العبري عن احداث الحروب الصليبية ان تكون مجرد تكرار مختصر لما كتبه سلفه ميخائيل الكبير ، ولهذا عدت مواد ميخائيل أعلى اهمية ومكانة ، ولا شك أن الافادة منها ستكون أكبر لدى مقارنتها بما أورده ابن الأزرق الفارقي الذي ارخ في العصر نفسه وعاش في المنطقة ذاتها مثله مثل البطريرك ميخائيل ، وتتأتى الفائدة ليس من الخلاف في عرض الروايات وإنما من الخلاف بالمشاعر.

إنها المرة الثانية التي انشر بها نص المؤرخ الرهـاوي المجهـول بالعربية ولكن الأولى بالنسبة لنص ميخـائيل الكبير ، على أنه مفيد أن نذكر أنه لتاريخ ميخائيل الكبير ترجمة بالعامية العـربية كتبـت بالكرشونية ، منها أكثر من نسخة مخطوطة واحـدة في بلدة صـدد قرب حمص وعليها أعتمدت كمـا اسـتفدت كثيرا مـن التـرجمة الفرنسية للكتاب ، وسبق للقسم الاسلامي من تاريخ الزمان لابـن العبري أن نقل الى العربية من قبل الأب اسحق ارملة ونشر تباعا في مجلة المشرق ثم أعيدت طباعته بعد جمعه في بيروت ١٩٨٦ ، وهـذه الترجمة متوسطة الحال ، لاتخلو من بعض الأخطاء خاصة في أسماء الأعلام.

الأمل كبير هنا أن يأتي نشري لهذه النصوص السريانية محرضا لمزيد من العناية بالأصول التاريخية المكتوبة بـالسريانية وتحقيقهـا وترجمتها الى العربية لأنها جزء عزيز من تراثنا نحن أحـق الناس بالافادة منه فضلا عن العناية والصيانة ، واتمنى الا ينفرد بالقيام بهذا الواجب من أتقن السريانية فقط ، بل أن يكون هناك تعاون مع الاختصاصيين بالتاريخ فهذا يجعـل العمـل اكثـر كمـالا فيتجنب الوقوع بكثير من الأخطاء التي شاهدناها في كتاب سيغال عن الرها وغيره من المترجمات الحديثة.

من الله أستمد العون وأطلب الرشاد والتـوفيق وصـلى الله على نبينا المصطفى وعلى آله واصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق الثالث من رمضان ١٤١٣ هـ

الخامس والعشرين من شباط ١٩٩٣ م

روايات

المؤرخ الرهاوي المجهول عن الحملتين الأولى والثانية

في سـنة ١٤٠٥ (٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م) وبعـد مضي واحـد وخمسون عاما على فتح التـركمان ، لهـذه البـلاد وعندمـا كان الكسيوس امبراطورا في القسطنطينية جرى تعيين التركماني يغـي سيان واليا على انطاكية مـن قبـل ابـو الفتـح (١) ، وكان الأفضل (٢) المصري في القدس التي استولى عليهـا مـن سـكمان التركماني واخوته أبناء ارتق (٣) قبـل سـنتين ، وبـذلك أصـبح الساحل كله بيد المصريين ، (٤) ، وكان ثيودور كوربلات بن هـاتيم في الرها (٥) ، وقد حفظها من التركمان ، وكان يأمـل ان يسـلمها للامبراطور (٦) فيما بعد ، وفي هذا الوقت ظهر عدد كبير مـن الملوك والزعماء الفرنجة ومعهم جيش لجب ، يصحبه جمهرة مـن العمـال والحرفيين من جميع الأنواع يعدون بالالوف ، لابل بعشرات الالوف وقاد هذا الجيش أربعة من الملوك . وهم بـوهيموند ، وغودفـري ، وصنجيل ، وتانكرد مع جيش من الأساقفة والرهبان ، وقد توجهوا للسير برا عبر الأراضي البيزنطية ، وقرروا أن يعبـروا البـوسفور حيث تقوم القسطنطينية ، وحيث يتصل البحران بواسطة مضـيق ، وأرسل هؤلاء الملوك سفراء للامبراطور الكسيوس ، ليستعد ليذهب معهم ، وليهيء لهم مايحتاجونه من مؤن وعلف لاستعمال الجيش ، وقد وعدهم الكسيوس بالمساعدة بكل مايحتاجونه (٧) .

وعندما تقدمت جيوش الفرنجة ، وبدأت تدخل الحدود ، ووصـل قسم منهم إلى بعض المعسكرات .. (٨) أرسلت شرائم من المشـاة والعمال للعبور قبل وصـول الجند ، لكن الكسـيوس انذر الاتـراك الذين كانوا في نيقية وما جاورها ، واخبرهم بقـدوم هؤلاء ، وطلب منهم أن يهاجموهم ، وهكذا أسرع الاتـراك إلى مـلاقاة هؤلاء على شاطىء البحر ، وذبحـوهم عن بـكرة أبيهـم دون شـفقة أو رحمة (٩) ، وعندما وصلت جيوش الفـرنجة إلى القسـطنطينية ، قابل رجالها الامبراطور الكسيوس ، وقام النبـلاء بـأداء الأيمـان المغلظة على الولاء والطـاعة له ، واسـتعد الكسـيوس لمرافقتهـم شخصيا في طريق آخر من خلال غالشيا ، وبـدا الفـرنجة والاغريق

زحفهم مباشرة باتجاه نيقية (١٠) التـي انتـزعوها مـن التـركمان وسلموها للامبراطور ، ثم زحفوا من هناك إلى كليكية وقـد مـادت الأرض تحت اقدامهم ، وارتجفت امامهم ، ثم اتجهوا إلى سورية ، حيث قرروا أن يبـدأوا بـالهجوم على أنطـاكية (١١) رأس البـلاد السورية ، فنصبوا خيامهم في جميع الامكنة حول أنطاكية ، وبـذلك اقفلوا الطريق على كل من يود الدخول إليها ، او الخروج منها ، ثـم بدأ القتل والنهب في جميع انحاء المنطقة المحيطة بأنطاكية .

وكما سبق بنا القول كان تيودور يحكم الرهـا ، وعندمـا سـمع اهالي هذه المدينة (١٢) أن الفـرنجة قـد وصـلوا إلى انطـاكية ، وعسكروا حولها ، طلبوا منه أن ينشد المساعدة من الفرنجة لحماية المدينة من التركمان ، ولم يوافق تيودور على هـذا الاقتـراح أولا ، إنما عندما راى أن اهالي المدينة لم تكن لهم القوة الكافية ، وانهـم سوف يستدعون الفرنجة خلافا لارادته ، تظاهر بالموافقة مع أنه لم يكن حقيقة مسرورا من مجيء الفرنجة ، بل كان خـائفا جـدا ، لأن أهالي المدينة كانوا يكرهونه ، لهذا أرسل رسله إلى الدوق غودفري رئيس الفرنجة وقائد جيوشها ، وطلب منه أن يرسـل بعض الفـرق العسكرية لحماية تلك البلاد ، وعندما قـرأ الفـرنجة كتـب تيودور هذا ، ابتهجوا غاية الابتهاج ، وارسلوا بلدوين أخا غودفري ، وكان رجلا تقيا ، يخشى الرب ، ويخافه ، كما كان محاربا شـجاعا ، وفي ذلك الزمن كانت الرها مدينة كبيرة ، تعج بعدد كبير من السـكان ، وتشتهر بما كان بها من رجـال الدين والرهبـان ، وكانت ارضـها تغص بالقرى والمزارع والدساكر .

بعد أن اقام بلدوين ورجاله من الفرنجة في الرها بعض الوقـت ، بدأ بعض رجال المدينة الفاسقون الأشرار يثيرون البغضـاء ، وقـد وصل الأمر إلى درجة القيام بحبك المؤامرات لقتل الحـاكم تيودور ، وجعل الفرنجة يحكمونهم بدلا منه ، ولم يكن ذلك حبـا بـالفرنجة ،

لكن بسبب البغضاء والنقمة التي كانت تملأ قلوب أعداء تيودور ، فقد هاجوا كالحيوانات المفترسة ، وحرضوا بعضهم بعضا ، وجمعوا جمهورا عظيما ، واثاروا الشغب والفوضى بنزولهم من القلعة القائمة قرب رأس النبع ، وعندما جاء تيودور نحو ذلك الحشد ليستطلع جلية الأمر ، هاجموه ، لكنه هرب من أمامهم إلى القلعة السفلى ، التي كان قد بناها فوق البوابة الشرقية للمدينة ، وهاجموه في تلك القلعة ، فطلب منهم ان يعطوه الأمان ويقسموا بأن يسمحوا له بمغادرة القلعة مع زوجته وأطفاله دون أن يأخذ اي شيء معه ، واستجابوا لطلبه ووعدوه بذلك ، واقسموا له الأيمان ففتح لهم البوابة ، ولكنهم حنثوا بقسمهم ، وخانوا ماعاهدوه عليه ، وتقدموا منه وضربوه وربطوه بالحبال ، وقادوه وهو عار تماما إلا بما يستر سوأته ، ثم قذفوا به من أعلى السور المرتفع مقابل المدينة إلى الأسفل .... (١٣) ... ابن هاتيم وخراب بيته ، وقد تسلم بلدوين جميع ممتلكات تيودور مع القلعتين ، وعندما سمع الفرنجة أن بلدوين قد استولى على الرها ابتهجوا كثيرا ، ونصبوا خيامهم قرب انطاكية واحكموا حصار المدينة ، وضيقوا عليها ، وحالما اشتد القتال حاك بعض رجال الحامية مؤامرة للتسليم ، وارسلوا رسالة إلى بوهيموند لتسليمه المدينة ،وعندما تم حبك خيوط المؤامرة صعد بعض الفرنجة إلى أعلى السور ، ثم بدؤوا بالاندفاع إلى الأسفل ، إلى داخل المدينة ، وعندما رأى يغي سيان أن المدينة قد سقطت فر عبر باب القلعة العليا على التلة إلى نواحي شرقي الجبل ، وكان سقوط انطاكية بسبب الخيانة وتسليم الحامية قرب التلة على الجانب الشرقي (١٤) .

وبينما كان الفرنجة يحاصرون انطاكية ، إذا بأحد زعماء التركمان الكبار واسمه كربوغا يصل إلى الرها من الشرق ، ويدخل بوابة المدينة ، وقد كانت الأراضي حول الرها مملوءة بقطعان الحيوانات والمواشي والماعز والرجال والبيوت ، فأحدث دمارا كبيرا وتخريبا وقتلا وسلبا ، واخذ الكثيرين عبيدا ، ثم اتجه نحو حلب

للذهاب إلى انطاكية ، وعندما وصل إلى حلب علم أن انطـاكية قـد سقطت بأيدي الفرنجة ، فأسرع نحوها وعسكر حولها ، ومعه قـوة عظيمة جمعها من بغداد والعراق والجزيرة ، وحاصر الفرنجة وضيق الخناق عليهم في انطاكية ، وبدأ بـالهجوم على المدينة وقـد قـاست الحامية بسبب نقص المؤن والعلف للخيول ، فـالبلاد أقفـرت ، ولم تصلها اي امدادات في تلك السنة ، وكان الفـرنجة كثيرون يعـدون بالالوف ، لذلك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وشدت المجـاعة عليهم خناقها ، حتى صار ثمن الحمار الواحد عشرين دينارا وانعدم القمح والشعير ، وفي هذه الأثناء رأى أحد المطارنة حلما أن هناك في مكان معين في كنيسة القسيان العظيمة الرمح الذي طعن بـه جسـم المسيح (على يد اليهود في طبـريا) ، وقـد قـال له الهـاتف في الحلم : « خذ هذا الرمح ، وضعه أمام الجنود ، واخرج معهـم إلى العدو فلسوف تهزمونه » .

وعندما وجدوا الرمح ارتفعت معنوياتهم ، وابتهجوا واسـتعدوا للهجوم على التركمان ، وخصوصا وأن المجاعة قد شحذت هممهم ، فأصبحوا يرون أن الموت في المعركة خارجا افضل مـن الموت داخـل البيوت كالنساء ، ووضعوا علامة الصليب وشارات هذا الرمح على حرابهم ، وزحفوا إلى الأمام فوهبهم الرب النصر من لدنه ، وانهار جيش التركمان فهرب ، وبعد أن أعمل الفـرنجة القتـل بـأعدائهم رجعوا إلى خيامهم ومراكزهم بعـد أن غنمـوا كثيرا مـن الغنائم ، والحبوب والخيول والسلع الأخرى ، وقد انتشر خبر هذا الانتصـار في الخارج ، فكسرت شوكة ملوك التركمان (١٥) ، واستولى الخوف والفزع على قلوب جميع ملوك المنطقة .

وحكم بوهيموند (١٦) انطاكية بمسـاعدة ابـن أختـه تـانكرد ، واحتفظ التركمان بسروج (١٧) ، وتملك الأرمـن مـن ابناء بـازاك زيوجما (١٨) بضفاف الفرات ، وأخذ باسيل اللص وهو من الأرمن

كيسوم (١٩) ورعبان (٢٠) (وقد دعي بهذا الاسم لانه كان يسطو على المسافرين باستمرار) واحتفظ غازي (٢١) التركي صاحب بلدوقيا بسميساط (٢٢) واحتفظ البيزنطيون ابناء فيلارتوس بمرعش (٢٣) والجبل الأسود ، واحتفظ الأرمن ابناء رافين بعين زربة (٢٤) وكليكية ، واحتل الفرنجة بطرسوس (٢٥) والمصيصة واذنه (٢٦) .

وعندما قويت شوكة الفرنجة ، استعدوا للتقدم ولحصار القدس ، وزحفوا برا وبحرا ، وقد حاصروا أولا يافا التي تقع على الساحل الفلسطيني ، واحتلوها في بضعة أيام ، ومن ثم تحركوا فورا ، ونصبوا خيامهم أمام القدس ، واحاطوا بها من كل جانب وقد هاجموها بضراوة ، وبنوا الأبراج الخشبية المتحركة أمام المدينة ، وكانت المدينة تحتوي على جمع غفير من الجند المصري ، والأسلحة والعدد الحربية ، وعندما اشتد الهجوم سلم الحاكم المدينة للفرنجة في شهر تموز في السنة الثانية لبدء تلك الحملة عام ١٤٠٩ (٢٧) ، ولقد قتل في المدينة ثلاثون الف مسلم ونهبت المدينة (أما المسيحيون فقد كانوا قد طردوا منها قبل وصول الفرنجة) ونصب الدوق غودفري ، وهو أحد قوادهم الكبار ، ملكا على القدس ، (٢٨) ، ثم انتشروا في جميع أنحاء البلاد واحتلوا القرى والقلاع ومدن فلسطين ، وجميع الجليل .

واخذ الكونت صنجيل أحد مقدمي الجيش الذين قدموا مع الفرنجة قوة كبيرة وحاصر طرابلس ، وهاجمها بضراوة ، وكانت المدينة محصنة بثلاثة أسوار وخندق عميق بين كل سورين ، ولكنها كانت مدينة صغيرة ، وبها حامية كبيرة من الجنود الاكفاء ، وبنى صنجيل حصنا على منحدرات جبل لبنان الجنوبية وجعله مدينة مأهولة كما هو الآن (٢٩) ، وقد حارب وقتا طويلا للاستيلاء على المدينة وظل الحصار مدة سبع سنوات حتى سلمها صاحبها (٣٠). ولقد غنم كثيرا من الاسلاب ، وقتل جميع المسلمين الذين كانوا في

المدينة ، وقد احتل جميع الأراضي حولها وجميع الساحل ماعدا صور وعسقلان اللتان بقيتا بيد المصريين ، وأما دمشق وحمص وتدمر وبعلبك وحماه وحلب وبصرى وكلا (٣١) ومنبج وحران والرقة فقد احتفظ بهم المسلمون الذين كانوا يلحقون الأضرار الفادحة بكل الأراضي التي احتلها الفرنجة .

وفي هذا الوقت كان جبريل القلقيلي (٣٢) يحكم ملاطية ، وكان قد عينه بوزان (٣٣) قائدا عليها وواليا لها ، وعندما قتل بوزان ظلت المدينة تحت سلطة جبريل ، وقد أرسل إلى بوهيموند في أنطاكية يقترح عليه أن يأتي إلى ملاطية ويتزوج ابنته (ابنة جبريل) ويستلم ملاطية كمهر (دوطه) للبنت ، وكان اسم البنت كيرا ـ مورفيا ، واتجه بوهيموند نحو ملاطيه ، لكنه عندما اقترب منها تصدى له الدانشمند حاكم بونتوس وكبدوكيا وقد هزم بوهيموند وقتل من كان معه من الفرنجة ، أما هو فقد وقع أسيرا (٣٤) وبعد مدة افتدي بمبلغ ضخم من المال ، ورجع إلى انطاكية حيث عين ابن اخته تانكرد حاكما عليها ، ثم ابحر إلى موطنه حيث مات ، وكذلك فعل صنجيل (٣٥) الذي فتح طرابلس بأن جعل ابنه حاكما على طرابلس ، ثم ابحر عائدا إلى موطنه .

وحدث ان رغب أحد أمراء الفرنجة المدعو بيتافين (٣٦) أن يتوجه إلى المنطقة عندما سمع ان الفرنجة الذين اتو قبله قد استولوا على سورية وفلسطين ، فعمل خطة بأن يمر من خلال بامفيليا وكبادوقيا ، ويمتلك الأراضي الشمالية وبعدما وصل إلى القسطنطينية اجتمع بالأمبراطور الكسيوس وطلب منه أن يقدم بعض المرشدين الذين يعرفون خفايا الطرق ، ولكن الكسيوس خانه وضلله فأرسل معه رجالا أمرهم أن يقودوه إلى الأراضي الصحراوية حيث لاماء ولاعلف : ثم اخبر التركمان في تلك النواحي أن يحيطوا به ويحاصروه ، وقد تحقق كل مارمى إليه الكسيوس ، فقد اتت قوة عظيمة من التركمان ، واحاطت به وبمن معه ، وهاجمتهم وهم في حالة تعب وإعياء من الجوع والعطش وقد رماهم التركمان بوابل من

النبال ، ولم يكونوا بحالة تسمح لهم بالقتال ، ولم يكن امامهم مكان يفرون إليه ، ولهذا هزموا شر هزيمة ، وقتل التركمان الكثير منهم بسيوفهم وغنموا منهم مبالغ طائلة من الذهب والفضة ، وقد هرب بيتافين قائدهم ومعه القليل من رجاله ورجع خائبا إلى بلاده .

ومات غودفري ملك القدس بعد سنتين من حكمه ، وترك المملكة لأخيه بلدوين ملك الرها ، وعندما علم بلدوين بالخبر سلم الرها لبلدوين أخر ، وكان رجلا ابيا وزعيما كبيرا من زعماء الفرنجة المحترمين ، وذهب إلى القدس حيث حكم مكان اخيه ، وكان جوسلين وهو أحد اقارب بلدوين الذي أصبح حاكم الرها يحكم تل باشر (٣٧) في منطقة منبج ، وعندما اصبح بلدوين حاكم الرها عرض عليه جبريل صاحب ملاطية أن يتزوج ابنته كما كان قد عرض من قبل على بوهيموند وقبل بلدوين وتزوج كيرا مورفيا ابنة جبريل واخذها إلى الرها ، وقويت شوكة الدانشمند حاكم كبدوكيا الداخلية خاصة بعدما أسر بوهيموند ، واستلم فدية كبيرة لاطلاق سراحه ، فجمع جيشا عظيما وعسكر حول ملاطية وأصابها بأضرار ، وقد حاربت حامية المدينة قدر استطاعتها ولكن عندما شعر رجال الحامية أن القتال اصبح دون جدوى ، أصابهم الوهن فاقنع بعضهم أسقف المدينة الذي كان مخلصا في تشجيع الرجال على القتال ، أقنعوه بأن يطلب من جبريل ويشير عليه بأن يوافق على المصالحة والتسليم ، وعندما اشتد القتال تكلم المطران مع جبريل لاقناعه ، ولكن جبريل الشقي ظن أن هنالك مؤامرة ضده فدخل الشيطان إلى قلبه ووسوس له فأقدم على قتل الاسقف وعدد من رجال المدينة المسيحيين المعتبرين ، معتقدا أن في ذلك خلاصا له ، لكن العكس هو الصحيح كانت سببا في نهايته ودماره ، وكان اسم الأسقف سعيد ابن صابوني ، وقد تغلب المحاصرون على المدينة وفتحوها ، واصبح الدانشمند صاحبها (٣٨) ، وقد قتل جبريل وأزيل بيته من الوجود كليا .

وكانت بلدة سروج (٣٩) قرب الرها بلدة غنية ، ومأهولة بالسكان

المسلمين والمسيحيين ، وفيها جميع انواع التجار وأكثرهم شهرة ، وكان واديها غنيا ومأهولا بالسكان ومليئا بالدساكر ، وكان يحكم هذه البلدة تركماني اسمه بلك (٤٠) وهو احد أبناء أرتق ، وقد قام فرنجة الرها بمهاجمة هذه البلدة وحصارها من طرف من أطرافها ، وأتى لمساعدتهم أرمن منطقة الفرات ، ووضعوا انفسهم تحت تصرف الفرنجة ، وهاجموا تلك البلدة بعدما أحكموا الحصار حولها من كل جانب ، ولما أدرك صاحب سروج أن البلدة لايمكن أن تقاوم وتستمر وسط الأراضي المسيحية راسل بلدوين حاكم الرها يعرض عليه أن يسلمه سروج وفق شروط يعينها له وأيمان موثقة ومؤكدة ، فوافق بلدوين وأعطى كل المواثيق المطلوبة فسلمت له سروج مع قلعتها ، وعين بلدوين أحد الفرنجة المشهورين ويدعى بوتشير ، وقام هذا فجمع الأموال الطائلة من سروج ، وقد صادر أموال احد الرجال العرب المسلمين واسمه عبيد ، وكان واحدا من قادة البلدة واعيانها ، مع أموال أخوته وأقاربه ، واخذ من بيوتهم اموالا وثروات لايمكن حصرها ، وهكذا غدا بوتشير غنيا وقويا .

وحينما سمع سكمان بن ارتق (٤١) عم بلك بأن الفرنجة قد استولوا على سروج ، جمع جيشا عظيما وحاصرها معتمدا على عدد المسلمين الكبير في البلدة ، ولدى سماع بلدوين حاكم الرها بذلك خف لقتاله ، وعندما اقترب الجمعان من بعضهما ، نصب التركمان كمينا للفرنجة ، وأطبقوا عليهم من المقدمة والمؤخرة ، فكسر الفرنجة ، وقتل منهم عدد كبير ، لكن بلدوين هرب إلى الرها ثم تسلل وهو مفعم بالخوف عبر الفرات ، ووصل إلى أنطاكية ليجمع جيشا وينقذ سروج ، وكان بوتشير حاكم سروج قد وقع أسيرا ، وقد انسحب جميع المسيحيون هناك ، وتجمعوا في القلعة ومعهم باباياس أسقف الفرنجة في الرها الذي صدف أن كان موجودا في الرها في ذلك الوقت وقد اصطحبوا معهم العمال والنجارين والحدادين وجمعوا المؤن وبعد أن هزم الفرنجة بدا التركمان في حصار القلعة وهاجموا النصارى بقسوةوبينما كان هؤلاء يقاتلون ليلا نهارا وصل رسول من بلدوين يحمل رسالة يقول فيها إستعدوا

من داخل القلعة ، وعندما بزغ الفجر أشعل الفرنجة المشاعل ، ووضعوها على رؤوس الرماح وهجموا ، وقد مادت الأرض تحت وطأة أقدامهم ووصل ضجيجهم إلى عنان السماء ووافاهم رجال الحامية وأمدوهم بالعون والمساعدة ، وهكذا حل الرعب في قلوب التركمان وتملكهم الخوف فهزموا ، وذبح الكثير منهم بحد السيف وتقدم الفرنجة إلى معسكر التركمان وأعملوا النهب فيه دونما توقف ، وغنموا الأموال والسلع ، وحل الخوف في قلوب سكان المدينة من المسلمين ، ولم يصدقوا أن الفرنجة سوف يعاملونهم بأي نوع من الرحمة أو الشفقة ، وهكذا اقفلوا ابواب المدينة وحصنوا الأسوار وبدؤوا بمقاومة الفرنجة ، وكانوا يأملون أن يحتفظوا بالبلدة حتى يأتي جيش من جيوش المسلمين لتخليصهم ، وحاول الفرنجة أن يقنعوهم بأن يتخلوا عن هذا العناد ، ويتخلوا عن هذا الموقف ، وطمأنوهم بالأيمان المغلظة أنهم لايرغبون في قتلهم ، ولكن هؤلاء لم يعيروا الفرنجة أذنا صاغية ، فأعلن الفرنجة « انه يجب على كل المسيحيين داخل البلدة أن يلبسوا السلاح ويضعوا اشارة الصليب » ، وبعدها هجموا كالأسود ، وقفزوا من القلعة إلى البلدة وهاجموها كالجزارين فذبحوا جميع المسلمين الصغار والكبار حتى امتلأت المدينة بأشلاء القتلى الألوف ، لابل عشرات الالوف ، التي لاتعد ولاتحصى ، وقد خربت تلك البلدة الآهلة بالسكان ، وتجمع المسيحيون الذين بقوا أحياء حول القلعة وعاشوا معيشة البؤس والفقر (٤٢) بعد هزيمة كربوقا (٤٣) المذكورة أعلاه ، وبعد هزيمة سكمان والمصائب التي حلت بالمسلمين في سروج ظهر أحد الأمراء من الشرق ويدعى جكرمش (٤٤) واستعد بجيش عظيم لقتال الفرنجة ولحماية البلاد ، فبدأ بمهاجمة الرها وجاس جيشه خلال البلاد واعمل بها قتلا ونهبا واستعبادا حسب هواه ورضاه ، وحالما اقترب الجيش من المدينة خرجت حاميتها للقائه عند الباب الشرقي لمنعه من الاقتراب منها ، وتقدم كثير من أهالي الرها الحمقى بسيوفهم واسلحتهم ، وخرجوا من المدينة لقتال التركمان الذين حالما رأوهم قادمين بسرعة ودونما نظام انسحبوا إلى الوراء قليلا حتى مكنوا الفرنجة من الانتشار في السهل أمام الجسر الشرقي ، ثم حيا

التركمان بعضهم بعضا وبدأوا يطبقــون على الفــرنجة مــن جميع الجوانب ، ورأى الجنود على الأسوار كل هــذا فخشــوا أن يلتقــي الجيشان ويختلطان بعضهما ببعض ويرجعا معا إلى المدينة ولهــذا اقفلوا الأبواب وانعطف التركمان واطبقوابقسوة على المحاربين من أهالي الرها فهــرب هؤلاء ، وعندمــا وجــدوا أن الأبـــواب مقفلة ارتجفوا وحل بهم الذعر والهلع ، لأنهم لم يستطيعوا الوصــول إلى الجسر فوق الخندق ليعبــروه بين الأســوار ، فســقط معــظمهم في الخندق في أحد جوانبه أو في الجــانب الآخــر ، ونزل الرجــالة مــن التركمان خلفهم وأعملوا فيهم القتل دونما رحمة ، وامتلأ الخندق في لحظة بجثث القتلى ، وجرى الدم كالنهر وانســاب في الخندق ، وهذا انسحب جركمش بعد أن خرب واحــرق مــــاشاء مـــن القـــرى والريف (٤٥) .

وفي هذا الوقت كان رجل من بلدوقيا يعيش في سميساط ، ويحكم بها مع عدد من التركمان فأقدم على تسليم هذه البلدة للفرنجة لقاء بعض المال ثــم انســحب ، وفي أرض الشـــمال في كركر (٤٦) كان الأرمن يعيشــون ويحــكمون ، وكان مقــدميهم : جســتادين (٤٧) وتابتوج وكريستوفر أبناء سنبيل ، وكانت البلاد غنية تحــوي كثيرا من الأديرة وبيوت الكهنة من بينها دير السلالم « المعــراج » ، ودير القديس أبخاي عند منحدرات صخور الفرات ، ودير الرهبان الحفاة في باسكين ، ودير القديس جورج ، ودير القديس شاباتي في شيرا ، ودير مالكوس مع عدد مــن القــرى الآهلة بــالسكان ، والدســاكر والحقول ، وكان لديهم كثير من المقيمين جميعهم من الأرثــوذكس ، وكان الأرمن الذين يحكمونهم خاضعين للفرنجة .

وفي عام ١٤١٤ (٤٨) عندما كان الفرنجة في ذروة قــوتهم اجتمــع جميع ملوكهم ومعهم الجيوش العظيمة وأتوا إلى الرها وقــرروا أن يزحفوا شرقا ويفتحوا البلاد هناك ، وكما جرت عادتهم الســيئة لم يتفقوا على شيء بسبب تنازعهم وغطرسة مقدميهم وتفــاخرهم على بعضهم بعضا ، ولقد مكثوا مدة طــويلة في الرهــا يناقشــون كيفية

تقسيم المدن التي سوف ينتزعونها من التركمان ، فأحدهم كان يريد ميافارقين ، وأخر أراد أمد ، وثالث طلب نصيبين ، ورابع اصر على أخذ الموصل حتى وصل بهم الأمر إلى أن رموا قداح القسمة بشكل مثير للسخرية ، ثم استعدوا للزحف على نصيبين ، ولدى سماع التركمان بتجمع ملوك الفرنجة بدأوا يلمون شعثهم ايضا ، وفي حين كان الفرنجة مايزالون في الرها يتجادلون حول تقسيم البلدان جمع التركمان قواتا عظيمة ، وأعدوا العدة لمهاجمة الفرنجة عند شروعهم بالزحف .

وعندما غادر الفرنجة الرها رافقتهم جماعات كبيرة من سكان المدينة الذين كان لاهم لهم سوى السلب والنهب وجني الثروات ، والاستيلاء على الأسرى من المسلمين والتركمان عندما تقع الهزيمة بين صفوفهم ، وهكذا تضخم حجم معسكر الفرنجة ، وعندما وصل الفرنجة إلى سهل حران زحفوا عبره شرقا حتى وصلوا إلى بيت إبراهيم في مكان يدعى دهبانه (٤٩) ، حيث كان هناك مسجد كبير وبيت لعبادة المسلمين وخشي أهالي حران من الفرنجة ، فأخذوا مفاتيح بلدتهم وقدموها عنوانا على طاعتهم وخضوعهم لهم وولائهم ، وهنا رأى بلدوين صاحب الرها أن حران من أملاكه ، لأنها واقعة ضمن أراضيه ، وأنه بالتالي إذا عسكر الفرنجة قربها وتملكها ملوكهم سيجعل ذلك جنودهم يدخلونها ويعملون بها النهب والسلب ، وبذلك ستضعف المدينة ، وهذا لم يكن في مصلحته ، لهذا ارجع المفاتيح للأهالي وأخبرهم أنه يعتبرهم من أتباعه ، وأمرهم أن يحافظوا على المدينة حتى يرجع بعدما يتفرق بقية الغرباء ، وعندما سمع تانكرد صاحب انطاكية والملوك الأخرون بما حدث اغتاظوا من عمل بلدوين وأخبروه بصراحة أنه لم يتصرف تصرفا لائقا ، إذ كان من الواجب احتلال تلك المدينة الغنية ، وأن يتركوا امتعتهم الزائدة فيها ، ويذهبوا خفافا لمقابلة الأعداء القريبين منهم ، وإذا وهبهم الرب النصر فسوف لن يتجرأ احدهم ان ينتزعها من بلدوين ، ولسوف يحل الزعر بالتركمان عند سماعهم بسقوط

تلك المدينة ، وإذا هزم الفرنجة لاسمح الرب فستكون هذه المدينة ملجأ وملاذا لهم ، ولكن بلدوين لم يوافق على هذا الكلام .

وزحف الفرنجة من دهبانة وانتشروا باتجاه نهـر البليخ ، وكان تانكرد مغضبا لذلك فضل أن يظل دوما في المؤخرة،وعندمـا وصـلوا راوا التركمان امامهم الوفا لابل عشرات الألوف وبدات المعركة حالا (٥٠) فأمطر التركمان الفرنجة بوابل من سهامهم التي كانت تنهمـر كالمطر،وهذا جعل الرعب (٥١) والفزع يدب في قلوبهم،ثم سل الاتراك سيوفهم وبدأوا بالقتل والذبـح في المؤخـرة ، وحـالما راى تـانكرد ورجاله في المؤخرة أن المذبحـة قـد بـدأت بين صـفوفهم لووا أعنة خيولهم وهربوا تاركين اولئك الذين في المقدمة لقـدرهم ، وهذا زادت قوة التركمان فبـدأوا بـالقتل دون شـفقة أو رحمـة ، واسروا الكثيرين ، وقد أسر بلدوين صاحب الرها مع بعض اقـاربه ، وكذلك الكونت جوسلين صاحب تل باشر ، وكان فارسا شجاعا وقيدوهـم جميعا بالأصفاد الثقيلة ، ونهبوا معسكرهم واسـلحتهم وخيولهـم وجميع ممتلكاتهـم التـي لاتحصى (٥٢) ، واخـذ التـركمان بلدوين وجوسلين مقيدين بالأغلال إلى الموصـل ، وهناك انعـكست الآية ، وخابت أمالهم حيث حكم عليهم بأن أودعوا السجن ، بعدما خططوا املين بالاستيلاء على الموصل ، ومضى تانكرد صاحب انطـاكية إلى الرها وارتـاح هناك بضـعة أيام ياكل ويشرب ويفعـل مـايشاء ويهوى ، وأخذ منها ثروات كبيرة وخيولا كثيرة ثم عين أحد رجـاله واسمه ريتشارد (٥٣) حاكما عليها وغادرها عائدا إلى انطاكية .

وكان ريتشارد هذا رجلا فاسدا طاغية خشنا ظلومـا ، وانتهـز اشرار أهالي الرها هذا الظرف الذي ناسب مفاسدهم فوشوا ضـد بعضهم بعضا ، وتآمروا ، ووجد كل من كان يحقد على أخر الفرصة المناسبة لايذائه ، وعاملهم الحاكم بعنف وعذبهم وسـجنهم ، وانزل بهم الذل ، وقد جمع منهم كثيرا من الأموال خـاصة وأنه كان يدرك انه كان مغتصبا وعابر سبيل ، وليس سيدا حقيقيا أو وراثيا .

وظل بلدوين صاحب الرها وقــريبه جــوسلين الشــهير أسرى في الموصل ، ولم يزعج أحد من الفرنجة نفسه ويسعى لتحـريرهما لأن تانكرد كان حاقدا عليهما ،وريتشارد كان يتصرف بـأملاكهما كمـا يشاء ، وبدأ السجناء بالتداول في الأمور فقال بلدوين إن من الصعب إطلاق سراحه لأنه رجل كبير الأهميه ، وإن جوسلين ينبغي أن يطلق سراحه أولا فعندها يستطيع أن يعمل لاطـلاق سراح بلدوين ، وتـم التفاوض مع التركمان واتفق على اطلاق سراح جوسلين مقابل مبلغ قدره اثني عشر الف دينار ، واطلق سراحه لجمع هذا المبلغ ، ووضع مكانه في السجن اثني عشر رجلا مـن أعيان أصـدقائه كرهـائن ، وبينما كان يجمع المال المطلوب ، هرب الرهائن الاثنا عشر ونجـوا من سجن الموصل ، وهكذا تحرر جـوسلين واصـدقاؤه دون عناء ، وبمساعدة صاحب قلعة جعبر على الفـرات ((٥٤) ـ وهـو رجـل مشهور بشهامته وقدرته على التوسط ـ حددت فدية بلدوين قـدرها سبعين الف دينار ميخائيلي(٥٥). وجمع جـوسلين حـوالي خمسـة وعشرين الفا وحملها بنفسه إلى قلعة جعبر ، ووضع نفسـه كرهينة لدفع الباقي ، وأرسل صاحب قلعة جعبر رسولا من قبله إلى الموصل مع الدنانير التي دفعها له جوسلين ، وتعهد بدفع الباقي باعتبار ان جوسلين كان في عهدته ومتحفظا عليه عنده ، وفي هـذا الوقـت تعين حاكم جديد للموصل يدعى جاولي (٥٦) ، فسمع بجـوسلين ولكنه لم يكن قد رآه ، وعندما سمع انع وضع نفسه رهينة لدفع النقود ، رغب في رؤيته ، وعندما حضر الرسل ومعهم مبلغ الخمسة وعشرين الف دينار ، وتعهد صاحب قلعة جعبر وكفالته بدفع الخمسـة والاربعين الفـا البـاقية ، اطلق سراح بلدوين ، ولكنه رغب في رؤية جـوسلين شخصيا ، لانه سمع بشهامته وأنه محارب شجاع ممتاز ، وعندهـا عمد صاحب قلعة جعبر الى ارسال جوسلين الى الموصل ، بعـد أن زوده بهدايا وثياب وحصان مطهم وأسلحة فرنجية ، وعندما وصـل جوسلين جمع الحاكم افضـل فـرقه وعسـاكره للقـائه على أرض العرض ، وامر جوسلين أن يعرض مهارته الحربية امامه فقام هـذا باللعب برمحه ، وبمناورات حربية اعجبت الوالي ، فـأنقص عشرة

الاف دينار من فدية بلدوين ، عندها ترجل جـوسلين وقبـل الارض بين يدي جـاولي وشـكره ، وكتعبير عن امتنان الوالي لسـلوك جوسلين هذا أمر بخصم عشرة الاف اخرى مـن الفـدية ، وفي اثناء عودتهما الى المدينة أقام الحاكم له وليمـة كبـرى ، وخصـم عشرة الاف اخرى ، وقد اقام جوسلين بضـعة ايام في الموصـل اظهـر له الحاكم اثناءها كل مودة واقسم له أنه لن يحاربه ، وجعله يقسم الا يحاربه واتفقا الا يتحاربا ماداما على قيد الحياة بل على العكس ان يساعد بعضهما بعضا وقت الحاجة ، ثم اعطى جوسلين الهـدايا ، واطلق سراحه نهائيا ، وسامحه بكل مـا بقـي مـن فـدية بلدوين ، وسمح له بـالذهاب بـامان ، وهـكذا وبمشـيئة الرب اطلق سراح الاثنين .

وعندما اطلق سراحهما (٥٧) ، جمع رتشارد الذي كان يحكم الرها كل ما استطاع جمعـه مـن المدينة ، وتـوجه عائدا الى ارضـه في مرعش ، وحالما وصل بلدوين وجوسلين الى الرها وعلما بما قد فعله تانكرد وريتشارد هناك استشاطا غيظا من جديد ، واخذا يسـتعدان للمعركة ، وارسل جوسلين رسالة الى جاولي صاحب الموصل يطلب منه العون فارسل هذا عددا من الجنود التركمان لمساعدته ، والتقت الجيوش في الاراضي التابعة لدير جبة بين كلز ودلوك (٥٨) وقد ارتفع غبار المعركة الى عنان السـماء ، وكانت نتيجـة المعـركة أن هـزم الاتراك وهربوا ، ولحق بهم رجال انطاكية واعملوا بهم القتل ، ثـم هرب بلدوين ورجاله ، وهكذا كانت نتيجة المعركة ، وبعد زمن اتفـق الفريقان وحل السلم بينهمـا ورجعـت الالفـة والمودة الى سالف عهدها .

وفي عام ١٤١٧ عندما كان ملوك الفرنجة في حالة سـلم ، جمـع مودود حاكم الشرق جيشا لجبا لايعد ولايحصى وتـوجه الى الرهـا اولا وقد عسكر في السهل الشرقي حول قلعـة كاسـاس (٥٩) وقـد ارسل مودود عددا من الفرسان لنهب البـلاد ، فقـطعوا الاشـجار والحدائق واتلفوا الارض ، وخربوا الديارات ولكنهم لم يقتربوا مـن

المدينة لمحاربتها ، بل نصبوا حولها الات الحصار ، واكتفوا بالاقتراب منها ثم رحلوا عنها .

وعندما سمع الفرنجة في انطاكية بهجوم مودود على الرها بدأوا بجمع جيش على جناح السرعة لانقاذها ، وتحركوا بسرعة نحو الفرات وعبروه ، وعندما سمع التركمان بمقدمهم انتقلوا الى نهر الجلاب ، واتخذ الفرنجة موقعا لهم امام معسكر مودود ، وكان جيش الفرنجة يحوي كل من بلدوين ملك بيت المقدس صاحب الرها سابقا وابن صنجيل صاحب طرابلس ، وتانكرد صاحب انطاكية ، وعدد كبير من الجند والخيول ولكن كان ينقصهم القمح والعلف ، فقد كان (مودود) قد خرب البلاد واتلف المؤن ، وقد قاسى الفرنجة من قلة المؤن ، وكعادتهم لم يكونوا يتحلون بصفة الصبر(٦٠)وصمموا على العبور الى غرب الفرات وهم لايزالون في مواجهة العدو ، وفي الوقت الذي كانوا يسيرون في طريقهم الى سميساط وهم يشكلون جيشا كبيرا يتبعه عدد هائل من القرويين وسكان المدن مضى فرنجي من مطايا الشيطان وادواته ، كان قد تشاجر مع رئيسه ، مضى الى معسكر الاتراك على نهر الجلاب واخبر مودود ان الفرنجة فروا وهم في حالة يائسة قد اضعفهم الجوع ، وانهكتهم مصاعب الطريق وقال له :« اذا اسرعت الى مطاردتهم فانك سوف تلحق بهم افدح الخسائر » ، وفي الحال اصدر مودود الاوامر بالهجوم ، واخذ المنادون يصرخون والابواق تنفخ ، وتقدم المحاربون الاشداء وتبعوا جنود الفرنجة الذين اصيبوا بالدهشة ، ولم يعلموا ماذا حدث ولم يستطيعوا ان ينظروا امامهم او خلفهم ، وعندما وصلوا الفرات تقدم المحاربون اولا بينما انتظر المشاة وحاملوا الامتعة في الخلف ، وكان الرب غاضبا على شعبه ، وخصوصا على اهالي الرها الذين شكلوا اكثرية الجيش ، وفجأة انقض عليهم التركمان وهاجموهم كالجزارين واخذوا يذبحون دون رحمة او شفقة ، ولقد غرق منهم اكثر مما قتل ، وكان التركمان يطعنون الغرقى بالرماح واخذوا الكثيرين منهم اسرى ، ثم استولوا على الغنائم والمؤن والاثقال ، وهكذا آل زحف الفرنجة الى نهاية تعيسة ، وهنا قفل مودود راجعا

الى ارضه وبلاده ، وعسكر حول المدينة واتلف الاراضي والمحاصيل الزراعية حولها ، وقطع الاشجار والحدائق التي بقيت(٦١)وحاصر المدينة وسبب لها الكروب طيلة الصيف ، وانتشر الخوف وحل الرعب والبؤس في المدينة بسبب قلة الاطعمة ، وتولاهم اليأس وهلعت قلوبهم ، لانهم زرعوا وتعبوا وشقوا سنة بعد سنة ، لكنهم لم يحصدوا شيئا ، وقد ارسل لهم مودود يمنيهم ويطلب منهم تسليم المدينة له ، وبذلك يصيبهم الخير بدلا مما هم فيه من التعب والويل ، ولم يرسل له اهالي الرها اي جواب ايجابي ، ولكن عشرون ارمنيا تامروا مع مودود لتسليم المدينة وخيانتها ، فنقل معسكره ونصبه مقابل سروج ليوهم اهالي الرها انه قد يئس وذهب ، وبذلك لايهتمون بحراسة السور ، وبعد منتصف الليل في ليلة الأحد أتى التركمان بسرعة من الشرق وتسللوا من بين الاسيجة في الحدائق حتى لايلاحظهم احد وارسلوا بعض المحاربين الاشداء الى المكان المتفق عليه قرب السور في شرقي المدينة داخل الجسر السفلي فوق الخندق المملوء بالماء ، حيث كان هنالك مكان مناسب للمغامرة ، فقد كان هنالك برج في الزاوية يحرسه رجل من اهل الرها يدعى سيروس ، وهنالك تقابلوا طبقا للاتفاق ، فانزل الخونة بعض الحبال وسحبوا سلالم قوية ثبتوها على السور ، وبدأوا يتسلقونه ولما راهم الحراس على السور اخذوا يصرخون إن الاعداء قد تسلقوا السور ، وسمع الاعداء هذه الاصوات وبداوا يحدثون ضجة وجلبة في الغرب ويضربون الطبول وينفخون بالابواق حتى يظن اهالي المدينة ان مشهد المعركة من الغرب فيتجهون الى هناك ، ويتركون الخونة وشأنهم حتى يستطيعون اتمام التسلق على الاسوار ، وقد قتلوا كل من كان في تلك الناحية ولم يستسلم لهم ، اما سيروس فقد ظل صامتا اذ انتابه الخوف وفقد ارادته فتركهم ينفذون خطتهم ، وقد صعد الى البرج حوالي ستون رجلا ، وعندما طلع النهار راى الجميع التركمان على السور وعلى البرج فاصيب الفرنجة وزعماؤهم بالذعر عندما علموا ان هناك خيانة في المدينة ، واذا بالعدو في الخارج والسور يغص بالتركمان والناس يتراكضون الى بيوتهم واطفالهم ، وصدف ان كان جوسلين صاحب تل باشر في

- ١٩٧٩ -

الرها في ذلك اليوم ، فقام باعمال الابطال اذ صعد الى السور من ذلك الجانب ، واقترب من العدو وعندما رآه الاعداء تجمعوا في البرج الكبير ووقفوا على سطح فوقه وامطروه بوابل من الذشاب والحجارة ، ولكنه دخل البرج الذي كانوا يقفون على سطحه وكله شجاعة واقدام ، ومد سيفه من خلال نافذة مخصصة لرمي السهام وقطع حبال السلالم التي كانوا يصعدون عليها بينما كان كثير من الرجال على تلك السلالم فسقط الجميع الى الأرض مهشمين وأما الذين كانوا فوقهم فقد ارتجفت قلوبهم لما رأوا هذا المنظر ، وفقدوا الأمل ، فبادر جوسلين بالصعود الى حيث كانوا وقد ضربوه بالحجارة من الأعلى وكسروا درعه ، فأخذ كيسا مملوءا بنشارة الخشب كان ينام عليه الحرس ووضعه فوق راسه وتسلق بكل جراة وقوة ونزل بينهم فهربوا ، وقد أوقع بعضهم بضربة من سيفه وبعضهم قفز الى الأسفل وتحطم ، وهكذا اخفقت المؤامرة ودفنت في مهدها وهي لم تكد تبدأ ، وقد رجع مودود الى بلاده ، بينما اخذ الفرنجة يحاكمون المتآمرين والقوا القبض على كثير من المذنبين والأبرياء ، وقطعوا الأيدي وجدعوا الأنوف وقلعوا الأعين ، وقد مات الكثيرون من جراء ذلك ، وأعدم الآخرون.

وبعد بضعة سنوات (٦٢) ذهب مودود الى دمشق وفلسطين وطبرية وخرب البلاد ونهب وسلب ودمر واخذ كثيرا من الأسرى ، وعندما وصل الى دمشق ودخل الجامع الكبير ليصلي في يوم الجمعة كعادة المسلمين قام الاسماعيليون باغتياله (٦٣) وفي السنة نفسها (٦٤) مات تانكرد صاحب انطاكية الذي لم يكن له ولد ، فورثه ابن اخته روجر ، وكان شابا متغطرسا ومتعجرفا ، وكان روجر متكبرا ووسيما ، فجمع فرقا كبيرة من الجند وتزوج اخت بلدوين صاحب الرها ، وهاجم بجيشه قلعة أعزاز الحصينة في وادي كلز ، وقد حفر سراديب في الأرض تحت الأسوار ووضع عوارض من الخشب داخلها ثم أشعل النار بالعوارض فترنح السور وسقط ، فهجم الفرنجة من خلال الثغرة التي حصلت ، واستولوا على الحصن

وذبحوا المسلمين في داخله ، وهكذا استولى روجر على هذا الحصن الشهير (٦٥) .

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثـاني عام ١٤٢٢ وعند الفجر يوم الأحدضربت هزة أرضية مـدينة جـرمانيكا التـي هـي مرعش (٦٦) فهدمتها كليا ، ودمرت المعابد واديرة الرهبان وسـقط السور بكامله وقتل اربعة وعشرون الف شخص غير الغرباء واكثـر من مئة من رجال الدين والشمامسه ومحيت قلعـة منصـور وأزيلت واماكن اخرى كثيرة من الوجود ، وفي هـذه السـنة غضـب بلدوين صاحب الرها من جوسلين ووضعه في السـجن وعذبـه ، وبعـد ان اطلق سراحه ذهب الى بيت المقدس ، ونزل عند بلدوين الذي رحـب به واحبه وجعله حـاكما لطبـرية والجليل(٦٧) ، وهناك ولد له ابـن سماه جوسلين ، وفي هذه السـنة مـات رضـوان صـاحب حلب (٦٨) . وكان السلطان السلجوقي يعيش في ايران ، وقد ارسل ولاة لسائر البلدان الغربية ، وعندما قتل مـودود في دمشـق ارسـل البرسقي الى اقليم أقور (الموصل) ، فتقدم هـذا وعسـكر حـول الرهـا واتلف الحـدائق واحـدث الأضرار العـظيمة في الاراضي (٦٩)، وعبر الفرات ، وخيم في اراضي حلب وعمـل كل مـافي وسـعه لتخريب الأراضي التابعة للمسيحيين قدر استطاعته ، ثم عاد ادراجه وفي السنة التالية اتـى كالعـادة الى الرهـا وعاث في الأرض واتلف المحاصيل وسبب اضرارا عظيمـة ، ثـم تحـرك متجهـا الى حلب واستعد لحرب الفرنجة الذين جمعوا جيوشهم ، وعسكروا بين حلب وانطاكية ، وفي عام ١٤٢٧ نظمت الصفوف ونفخت الأبواق ، ودقت الطبول ، وقد وهـب الرب النصر للفـرنجة وهـزم التـركمان وذبحوا ، ونهب معسكرهم بينما هرب البرسقي (٧٠) ومعه بضـعة رجال .

وكان ابو الغـريب وهـو ارمني يحـكم قلعـة البيرة الحصينة (٧١) وقد قام بلدوين صاحب الرها ومعه قـريبه جـاليران على راس جيش كبير بحصار هـذه القلعـة مـدة طـويلة ، لانه لم

يستطع الاستيلاء عليها بـالهجوم المبـاشر ، ولما لم يسـتطع ابـو الغريب أن يحصـل على أية مسـاعدة ، اسـتسلم للفـرنجة على شروط ، وتزوج جاليران ابنته ، وكانت القلعـة هـي المهـر لهـذا الزواج ، وهكذا استولى الفرنجة على تلك القلعة .

وفي عام ١٤٢٥ (٧٢) ذهب بلدوين صاحب الرها للحج الى بيت المقدس وكان بلدوين صاحب بيت المقدس قد جمع جيشا وزحف على راسـه الى مصر ووصل الى الفرما (٧٣) ومات هناك وكان قبل وفاته أمـر أن تدفن جثته في قبر اخيه غودفري ، وأن يصـبح بلدوين صـاحب الرها ملكا لبيت المقدس ، وقد نفذ هذا ، وعندها دعا بلدوين الكونت جوسلين صاحب طبرية واحل السلم بينهما ، وهكذا أصـبح بلدوين حاكما لبيت المقدس ، وجوسلين حاكما لطبرية وكان جوسلين عندما عاش في طبرية قد ربح عدة انتصارات ، واصبح مرهوب الجـانب في جميع انحاء المنطقة .

وكان ميخائيل بـن قسـطنطين وهـو أرمني يحـكم اراضي كركر (لاقى جستادين الاب حتفه بعـد ان دفـن وهـو اسـير في سمسياط عند حدوث الزلزال الذي دمر مرعش) وكان ميخائيل هذا شابا متعجرفا قام بـارتكاب الكثير مـن الاعمـال الشريرة بـدعمه للعصابات واللصوص في جميع الانحاء ، وكان بلك بن أرتق (الذي حـكم سروج سـابقا) والآن صـاحب هنزيط وحصـن زياد (خرتبرت) (٧٤) قد حذر ميخـائيل مـن مغبـة اعمـاله الشريرة ، وطلب منه ان يكبح جمـاح اللصـوص الذين يهـاجمون التجار والمسافرين،لكن هذا لم يعر هذا التحذير اي اهتمـام وكانت الشكاوى ترد الى بلك بـاستمرار حتـى انه لم يعـد يسـتطيع الاحتمال ، فجمع جيشا عظيما من التركمان في شهر كانون ، وهـو شهر قارس البرودة ، وتوجه الى اراضي جـرجر الأهلة بـالسكان وقد رافقتـه العناية الالهية وسـاعدته وأرشـدته لأن مياه نهـر الفرات كانت متجمدة في ذلك الوقت ، فعبر هو ورجاله النهر بسهولة تامة فوق الجليد ، بينما لو ود ان يعبره بالقوارب لاستغرق ذلك منه

خمسة ايام على الاقل ، ودخل إلى اراضي جرجر في المساء ، وأخفى رجاله بين الصخور الشاهقة ، ولم يعلم بهم احد ، فالرب كان غاضبا على أهل تلك البلاد وفي تلك الليلة هطلت كميات كبيرة من الثلوج ، وهكذا استطاع التركمان ان يقتفوا على الثلج أثار كل اولئك الذين هربوا من القرى المجاورة الى التلال أو المراعي العليا وقتلوهم أو اخذوهم أسرى ، وانتشروا كالطوفان خلال الأراضي واحرقوا البيوت والقرى وانزلوا الخراب بالمنطقة .

وكان بلدوين عندما ذهب للحج في بيت المقدس عين جاليران صاحب البارة (٧٥) نائبا عنه في الرها ، وجمع هذا مااستطاع جمعه من العساكر ، وهاجم معسكرات التركمان في السهول المتاخمة لجبل حزمه Hisma شرقي الرها ، وفي اراضي ايلغازي بن ارتق ، ففاجأهم على حين غرة ، وأسر خمسمائة من الرجال والنساء والأطفال ومئتي حصان ومئة الف راس من الماشية والابل والماعز ، وقتل كثيرا من المحاربين وجلب الأسرى الى الرها وقد حدث هذا في شهر أذار عام ١٤٢٦ (٧٦) وكان سببا في اندلاع الفتنة والشر ، وغضب ايلغاري وكان قد استلم زعامة آل أرتق ، فجمع جيشا عظيما وعسكر قرب الرها في زمن الحصاد ، ولكنه ابتعد قليلا عن الحقول والمحاصيل الزراعية ، ولم تقع الحرب بل عقد السلم بينه وبين الفرنجة الذين أعطوه جميع الأسرى التركمان الذين يمتلكونهم ، فغادر المدينة دون ان يلحق بها اي ضرر ، ثم انتقل الى حران واحتلها ، وبعد ذلك عبر الفرات واحتل حلب وما جاورها ولذلك اصبح اقوى زعماء التركمان وخضع له حتى امراء اقليم اقور ، وجمع جيشا غزا به انطاكية.

وعندما سمع روجر صاحب انطاكية بزحف ايلغازي تقدم لملاقاته ، وقد كان بلدوين أتيا من بيت المقدس مع جاليران لمساعدته ، ولكن ذلك الشاب المتعجرف لم ينتظر قدوم الملك لأنه فكر انه قادر على انزال الهزيمة بالتركمان لوحده ويحتفظ لنفسه بمجد النصر ، وتقدم بدون تردد تجاه معسكر المسلمين ، وكان الأتراك

يتوقون لقتاله قبل قدوم الفرنجة لنجدته ، وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وأمطروه بوابل من النبال كسحب من البرد وكان الرب غاضبا على الفرنجة واشاح بوجهه عن روجر الذي قتل اثناء هذه المعركة ، ولم يجد احد جثته لابين الموتى ولابين الاسرى (٧٧) ، وقد استولى الاتراك على الامتعة وجميع ما كان بحوزة الفرنجة.

وبعد موت روجر وصل بلدوين ملك بيت المقدس ، وكونت طرابلس وجاليران من الرها ، وخرج رجال انطاكية لمقابلة الملك ، فاستلم زمام السلطة ، وجمع الجنود الموجودين ، وزحف لمقابلة ايلغازي ، وابتدا الالتحام وكان الرب غاضبا على التركمان لذلك هزم ايلغازي وقتل عددا كبيرا من عساكره ، ونجا بصعوبة بالغة مع بضعة (٧٨)من اتباعه حيث ذهب الى حلب .

ورجع بلدوين وهو مزهو بانتصاره الى انطاكية ، وتوجه الى بيت المقدس ، حيث استدعى جوسلين من طبرية ، وبعث به عام ١٤٣٢ حاكما على الرها(٧٩)،وهذا ماابهج قلوب سكانها ، وقد رجع جاليران الى البارة ، ثم جمع جوسلين جيشا هاجم به المعسكر التركي وغنم كثيرا من الأسرى ، وقد انتشر اسمه خارج منطقته ووصل صيته حتى شمال مابين النهرين ، وحلت رهبته في قلوب التركمان حوله .

والتجا التركمان الذين اخذ رفاقهم عبيدا الى ايلغازي صاحب ماردين ، واقنعوه بان يهاجم الرها وينتقم لهم ، فجمع جيشا عظيما ، وعسكر حول الرها والتهم المحاصيل ، وقطع الأشجار والحدائق ، ونهب وسلب ثم رحل(٨٠) .

وأصبح ايلغازي قويا وارتفع شأنه لانه كان يحكم زيادة على اراضيه : اراضي أبناء اخيه سكمان ، واراضي ابن عمه داود حتى بلاد أقور وارمينية ، وارض العبرانيين(٨١) ، وكان احد اقاربه يحكم جميع ارمينيا ، وقد بدا الخلاف يدب بينهما وبين الملك داود ملك العبرانيين الذين كانوا وثنيين ، وكان ايلغازي جريئا

جدا ، فجمع كل اقـربائه ومعهـم قـــوى عظيمـــة ، وغزا أرض العبرانيين ،وعندما سمع الملك بهذا الأمـر جمـع جيوشـه وتقـدم لمقابلته ، وحدثت معركة قهر بهـا ايلغـازي وطـارد العبـرانيون فلوله ، وقتلوا كثيرا من رجاله ، ونهبـوا كل مقتنياتهـم ، وهـكذا رجع ايلغازي يجر اذيال الخيبة والعار ، وهرب الى بلاده ، وبعدها بقليل اصابه المرض فمات (٨٢) وخلفه ابنه تمـرتاش الذي حـكم في ماردا (ماردين) ودارا وميافارقين ، اما بلك ابن عمه فقـد احتفـظ بقلعة زياد هنزيط (٨٣) .

وفي ملاطية حكم رجل من أسرة السلاجقة ملوك التركمان العظام (٨٤) بعد زوال حكم ابناء الدانشمند ، وبعد موته حكم ابناه القاصران مع امهما ، وقد حكم مسعود أكبرهما في قونية وأراضيها المتوغلة تجاه الأغريق (البيزنطيين) وأما غازي بن دانشمند فحكم في سـبسطيه وقيصرية ، وقيصرية الجديدة ، وقد أصبح متكبرا متعجرفا وطاغية وصمم على احتلال ملاطية ، وعمـل كل مـا في وسـعه للقبض على صاحبها ، واخذ المدينة منه ، حتى أنه رغب بتزويج ابنتـه له ، ولما لم يستطع الاستيلاء على المدينة بالحيلة والخـداع قـرر اسـتعمال القوة ، فجمع جيشا وحاصرها ، وضيق عليهـا الحصـار وسـبب المجاعة فيها حتى انتشر بهـا الوبـــاء ، فـــاستولى عليهـــا في عام ١٤٤٣ (٨٥) ، وهكذا تعاظمت قوته ، وأصبحت املاكه تشمل كبدوكية وملاطية وجميع المدن بينها وبين بحر الخزر ، واصبح يغزو الأراضي الأغريقية (البيزنطية) بانتظام ، وبدأ بالنهب والسـلب في منطقـة غلاطية وكولونيا وهـرقلية ، وجميع شـــواطىء البحـــر الشمالي ، وقد أخذ العبيد وسبب الكثير من الأذى والضرر.

وتزوج جوسلين كونت الرها بابنه روجر صاحب انطاكية وحصل على أعزاز كمهر معها ، ثم ذهب ليجلب عروسه الى الرهـا وأمضى ليلة في البارة ، واخبروه أن التركمان قد أغاروا على المنطقة واخذوا كل من لا قوه أسيرا ، وكان هؤلاء مـن جيش بلك صـاحب هنزيط وقلعة زياد ، وقد كان بلك قد أتى من حلب ومعه أربعة الاف فـارس

ارسلهم في جميع الجهات للنهب والسلب بينما عسكر بنفسه قرب بئر يسمى هايج ، وهو ينبوع دائم طوال السنة في مملكة الرها عند احدى القلاع الشهيرة مقابل راس كيفا ، وعندما سمع الفرنجة هذا الخبر اشتاقوا لمطاردة الغزاة ، إذ لم يكن لديهم اية فكرة أن بلك كان معسكرا هناك ومعه جميع عساكره ، وقد قام جاليران بتشجيع جوسلين خاصة وذلك لأن الأرض ارضه ، وبداوا في الهجوم بسرعة ليلا ممتطين خيولا ضعيفة وهزيلة ، وطاردوهم وهم يظنون أن باستطاعتهم اللحاق بهم في اراضي راس كيفا ، وعندما وصلوا الى أمكنة رأوا فيها اثار اقدام الغزاة تبعوهم طيلة الليل حتى منتصف النهار ، وكان قد أصابهم التعب والعطش وأرهقهم الغبار واشتداد الحرارة ، ومع هذا تابعوا مطاردتهم حتى وصلوا الى المعسكر العظيم لجيش بلك ، فرأوا جندا عظيما بينما كانوا قلة منهكة بسبب الجوع و السفر الطويل ، وراهم التركمان ولم يعد بمقدورهم التراجع ، وعندما تقدموا لسقي خيولهم ، بادر التركمان بالاصطفاف على ضفة النهر وامطروا وابلا من النشاب كل رجل من الفرنجة حاول هو اوحصانه ان يقترب من النهر ، ثم أحاطوا بهم وقتلوا الكثيرين ، واخذوا الباقين أسرى أحياء ومنهم جوسلين وجاليران وفرسانهم ، وجلب هؤلاء الى حضرة بلك الذي لم يكن يصدق ما يرى إذ لم يكن يحلم أن مثل هؤلاء الأمراء قد أصبحوا أسرى تحت رحمته ، وهكذا أسر هذان الأميران الشهيران وهما في غفلة ولا يتوقعان ذلك ، وأخذهما بلك الى امام باب الرها وهو يتوقع أن تسلم له المدينة ، ولكن الأهالي اهانوه ولم يتفوهوا بأي كلمة عن السلام ، لذلك وضع أسراه في قلعة زياد.

وكان الملك بلدوين في أنطاكية عندما سمع هذه الأخبار ، فتوجه في الحال الى الرها وبقي هناك ، ووضع حامية فيها تحت قيادة راهب محترم يدعى غودفري الموين حتىٰ يعرفوا ماذا سيحدث لأسرى بلك ، وفي هذا الوقت كان ميخائيل الأرمني صاحب كركر مهددا من قبل الأتراك ، ولما كان يعلم حق العلم انه لا يستطيع الاحتفاظ بالقلعة لذلك اعطاها وسلمها للملك بلدوين ، واستلم

اماكن اخرى لاعالة نفسه في هذه الحياة ،فبعد أن سلم كركر استلم ميخائيل دلوك مكانها ، وسار بلدوين الى انطاكية واستمر بلك بالهجوم على كركر ونهبها ، وكذلك على سميساط « وجاكسي » وقلعة منصور فاضطر بلدوين للرجوع ثانية لانقاذها ولجلب القمح من كيسوم وسميساط وعندما سمع بلك أن بلدوين في كيسوم جمع جيوشه وتوجه الى نهر سنجة بين كيسوم وسميساط. ولم يكن يعلم شيئا عن قدوم بلك وانه اصبح قريبا منه لذلك استمر في اقامة الحفلات والولائم بمناسبة صعوده الى كيسوم ، وفي الثلاثاء سار هو وجنوده دون اتخاذ اية احتياطات حتى وصلوا الى قنطرة سنجه الشهيرة وكانوا على بعد حوالي فرسخ واحد منه (الفرسخ = ٤ اميال) وكان معظم خيالته وفرسانه بعيدين عنه ، فهم لم يكونوا قد وصلوا الى النهر بعد ، وكان الملك سائرا في المقدمة وأمسامه الراية ، ومعه بضعة مرافقين ، وعندها فاجأه كمين أعده بلك ، واحاط به التركمان كالذئاب الكاسرة من جميع النواحي احاطة السوار بالمعصم ، وهم مسلحون ومجهزون ومتعطشون لنيل الغنائم ، عندها اسروا الملك وابن أخته وكان شابا وسيما ومعه كثير اخرين ، وقد قتل منهم كثيرون ، واخذ بلك الملك الى كركر وعذبه حتى سلمه القلعة فاحتلها بلك واكتفى بذلك.

وتخلصت البلاد من اللصوص وقطاع الطرق الذين عاثوا في الأرض فسادا ، ونهبوا الفقراء ، واخيرا حل السلم ، وقد قيل ان بلك كان يأمر بقتل أي تركماني على الخازوق لسرقته قطعة لحم من رجل فقير ، ولم يكن يسمح لأي شخص أن يهين أي مسيحي ولو بكلمة ، ثم وضع حامية في كركر ، ونقل الملك والأسرى الآخرين الى قلعة زياد ، حيث انضموا الى جوسلين وجاليران ، وكان جوسلين قد أسر في شهر ايلول ، ووصلت أخباره الى الرها في أمسية عيد الصليب ، فالغيت الاحتفالات والمواكب في تلك السنة ، وحل محلها الندب والنواح ، وكان أسر بلدوين في اخر ثلاثاء من شهر نيسان ، وروي انه عندما غادر بلك قلعة زياد قال لجوسلين : سوف

أجلب الملك ليكون معك انشاء الله ، وهكذا كان ، فبعد ستة اشـــهر التحق بهم الملك بلدوين.

وللمرة الثانية في هذه السنة عسكر بلك حـــول الرهـــا ، واتلفـــت المحاصيل الزراعية والحدائق وخرب الأرض ، ومن ثـــم ذهـــب الى حران التي سُلمت له ، ثم الى حلب التي خضـــعت ايضـــا بـــدورها له ، وبعدها بدأ يغزو الفرنجة في تل بـــاشر ودلوك وأعزاز ، واخـــذ كثيرا من الأسرى والقرى بعد أن نهبهـــا وارســـل مـــن فيهـــا الى بلدة ، ثم استولى على قلعة منصـــور ، وهـــزم رجـــال خـــلاط (٨٦) وأحدث الضرر العظيم في أراضي الفرنجة في ذلك العام.

وفي شهر آب من تلك السنة وهي ١٤٣٥ (٨٧) قام عشرون رجلا من الأرمن ممن كان يخدم في حصن كيسوم مع غودفـــري الموين والملكة فذهبوا الى قلعـــة زياد متنكرين بشـــكل جنود فقـــراء ، وكان عشرة منهم يحملون العنب والفواكه والطيور الداجنة ، وقد تـــظاهر هؤلاء أنهم قرويون أتوا للشكوى ضد واليهم الذي ظلمهم ، وبقي الآخرون خارجا وهم مستعدون للالتحـــاق بـــرفاقهم عندمـــا تحين ســـاعة العمل ، وذهبت الجماعة التي تحمل الأحمـــال الى بـــوابة الحصـــن العليا واخبروا البواب عن سبب مجيئهـــم ، وهـــو الشـــكوى ضـــد واليهم ، فطلب منهم الانتظار بين البوابات بينما يخطر شحنة القلعة بقدومهم ، وصدف أن كان الشحنة يقيم وليمة لضباطه ، وقد أثرت الخمرة بهم ، وكانوا بمنتهـــى الغبـــطة والسرور ، وكان كثير مـــن الحرس يشاهدون الوليمة ولم يبق سوى اثنان او ثلاثة مع البـــواب على البوابة ، وعندما ذهب الرسول لاخبار الشحنة عمـــد الرجـــال لاختطاف السيوف المعلقـــة بين البـــوابات وقتلوا البـــواب وكل مـــن وجدوه هناك ثم دعوا أصدقائهم الذين كانوا بانتظارهم في الخـــارج وانضم هؤلاء اليهم وفتحوا الأبواب واندفعوا وقتلوا جميع الضباط الذين كانوا يشتركون في الوليمة بدون اســـتثناء ثـــم فـــكوا اســـار الأسرى ، واحتلوا القلعة وساعدهم جميع الأرمن الموجودين داخـــل المدينة ، وحالما انتشر خبر هذه الواقعـــة ارســـل الخبـــر الى بلك في

حلب ، وتجمع الأتراك من كل حدب وصوب ، وأحاطوا بالقلعة وراقبوها عن كثب حتى لا يخرج منها احد أو يدخلها أحد وعمد جوسلين في الليلة الاولى ومعه اثنان أو ثلاثة آخرون الى الهرب بشجاعة ، فاخترقوا الحصار ونجوا ، وكان جوسلين قد وعد الملك بألا يرتاح حتى يصل الى بيت المقدس ويجلب جيشا لانقاذه ثم سار مارا بكيسوم ، ثم تل باشر ثم انطاكية ، فالى بيت المقدس.

وزاد فرح الفرنجة لدى سماعهم أن بلدوين وجاليران قد أطلق سراحهما وأن قلعة زياد قد سقطت ، ولكن عندما سمع بلك بما حدث في قلعته الحصينة ، عاصمة مملكته ، وبيت ماله ومخزن ثروته بدأ بالتحرك حالا مع فرق جيشه ، ووصل الى قلعة زياد بمدة أربعة ايام ، أي بعد عشرة أيام من حدوث الكارثة ، وهاجم القلعة بضراوة ونصب الات الحرب التي حطمت السور دون توقف دقيقة واحدة لئلا يحضر الفرنجة لنجدتها ، وفي بضعة أيام فتحوا ثغرة في السور ، وطلب بلك تسليم الحامية ووعدها أن يحفظ حياة أفرادها لانه لم يرغب أن يهاجم القلعة ويدمر سمعته وشرفه ، ثم هدم برجا أخر واقفا فوق صهريج المياه وعندما حدث هذا فقد المحاصرون الامل وخرج جاليران بنفسه ليطلب كلمة الشرف من بلك لحفظ حياتهم ، وأعطاهم بلك كلمة الشرف ، فسلموا له القلعة فدخل بلك وبدأ بتعذيب الأرمن وسلخهم احياء ، ثم أعيد الملك وجاليران الى سجنهم (٨٨) السابق.

وذهب جوسلين الى بيت المقدس ، وجمع جيشا ونزل خارج حلب في جبل جوشن مقابل البوابة الغربية لمدة ثلاثة أيام ، واخذ الجزية منهم ، وقد أراد أن يخلص قلعة زياد ، لكنه سمع أن بلك قد احتلها وقتل الأرمن لهذا عمد الى هدم المساجد الواقعة على الجبل الذي كان نازلا به ، وكان احدها مشهد الدكة واخر بني للملك رضوان ، ثم قطع الأشجار وخرب الحدائق ورجع (٨٩) .

وفي حلب طلب أبو الحسن بن الخشاب قاضي المسلمين من

- ١٩٨٩ -

المسحيين في المدينة أن يعيدوا بناء المسجدين وكان هنالك اسقفان في المدينة أحدهما ارثوذكسي اسمه غريغوري أو شمشوم الرهاوي والآخر ملكاني وكانت خزينة الكنيسة لاتسمح بمثل هذه النفقات فقالا :إننا لانستطيع ان نفتح علينا بابا ، إذ انه كلما هدم مسجد توجب أن نعيد بناؤه من « أموال الكنيسة » ، وعندما سمع المسلمون هذا الكلام قاموا في يوم الجمعة بناء على امر القاضي فهجم ألوف من المسلمين ، ومعهم النجارون والفؤوس على الكنائس ، فاقتحموا كنيسة القديس يعقوب وكسروا المنبر وحطموا ملائكة المذبح وشوهوا الصور ، وفتحوا محرابا في حائط الحرم الجنوبي ، وبدأوا بالصلاة هناك ، وحولوا الكنيسة إلى مسجد ، وقد حدثت العملية نفسها في كنيسة ثيوتوكس الاغريقية وكنيسة الدساطرة ، ونهبوا الكنائس وحجر خلوات الأساقفة ، وقدهرب الأسقف الملكاني إلى انطاكية والأرثوذكسي إلى قلعة جعبر ، وقد حدث كل هذا في عام ١٤٣٥ عندما كان أثناسيوس بن قماري بطركا (٩٠)

وعندما سمع بلك بتحركات جوسلين اسرع في جمع قوات عسكر بها قرب منبج وخرب الأراضي التي لم تكن تابعة له وذلك عقابا للأهالي الذين لم يساعدوه ، وفي أثناء القتال ضد منبج أصيب بسهم أطلق عليه من أعلى السور فمات ، فأخذوه إلى حلب ودفن هناك بعيدا عن أسرة أرتق (٩١) .

وفي تلك الاثناء وفي اثناء الحوادث التي حدثت في قلعة زياد في عام ١٤٣٥ ، تجمع بعض الفرنجة ويدعون البنادقة وجمعوا جيشا عظيما وجهزوا كثيرا من السفن وابحروا في البحر إلى فلسطين تحت قيادة ملكهم المدعو الدوج ، فوصلوا إلى ساحل صور وصيدا ورسوا بسفنهم هناك ، وعندما سمع الفرنجة بقدومهم أتى بطرك بيت المقدس لاستقبالهم لأن الملك بلدوين كان اسيرا ، وقد حاصروا صور التي كانت لاتزال تحت حكم المسلمين وأصبحت ملجأ لكل من احتل الفرنجة بلادهم ، وهاجم هؤلاء صور برا وبحرا وحاربوها

بمختلف انواع الاسلحة ونصبوا المجانيق والعرادات التـي قـذفتها ليلا ونهارا ، وبنوا برجين من الخشب مؤلفين من سـبع طبقـات ، وكل برج طوله عشرة اذرع وغطوا البرجين بأنواع قوية من خشـب البلوط الرطب التي لاتؤثر بها نيران النفط ، وعندما انتهوا من بناء البرجين سحبوهما ووضعوهما أمام الأسوار ، والآن لم يكن للمدينة سور واحد بل ثلاثة أسوار عالية يفصل بينها ثلاثة أسوار صغيرة ، وخندق عميق بينها ، وكانت الأسوار مسلحة تسليحا قويا ، ووجـد عليها جنود مسلحون بأقوى الأسلحة ، ورجـال صـور مشـهورون بأنهم محاربون أشداء .

واستمر الحصار مدة سبعة اشهر ، وقد فتحت ثلمات في الأسوار في بضعة مواقع وهدمت عدة أبـراج ، ولكن الحـامية لم تتـأثر لأن الطعام كان موفورا لديها إنما أصبح افرادها في كرب عظيم عندمـا نفد الطعام ، ولما لم يتمكنوا من الحصول على أية مساعدة من حاكم مصر توجهوا إلى صاحب دمشـق ليسـاعدهم ويحـكمهم ، وكانت المراسلات تجري بواسطة الحمام لانه لم يكن هنالك مجال لانسـان لدخول المدينة أو الخروج منها ، وجمع حاكم دمشـق جيشـا لجبـا لمساعدتهم وارسل لهم رسالة بواسطة الحمام ايضا تقول انا قـادم بعـد أيام للتفـريج عنكم وبصـحبتي جيش عظيم كونوا اقـوياء ، استمروا في المقاومة ولاتهنوا ولاتضعفوا ، ولكن بمشيئة الرب وقعت الحمامة بيد الفرنجة في معسكرهم فقرأوا الرسالة ، وكتبوا رسـالة أخرى ذات معنى معاكس نصها :

« لقد كتبتم لنا بأن نأتي لنجدتكم . نحن لانسـتطيع القـدوم لانه ليس لدينا عساكر تقاوم هؤلاء الذين يحاصرونكم فسـلموا المدينة ، وتأكدوا من الحفاظ على أرواحكم » وربطوا هـذه الرسـالة بجنح الحمامة واطلقوها وعندما قرا اهالي صور هذه الرسالة فقدوا الأمل لانه لم يكن لديهم طعام « حذفت هنا فقرة تخص قصـة الاسـكندر الكبير » .

وأرسلوا بعض أعيان المدينة إلى الدوج قائد الفرنجة والبـطرك ،

ورجوا أن تحفظ أرواحهم فاتفق على ان كل من يرغب بالبقاء يمكنه البقاء في المدينة ، وكل من يرغب في الخروج يمكنه الخروج مع عائلته إلى حيث شاء ، بأمان ، عندها فتحت أبواب المدينة ودخل الفرنجة وتمركزوا فيها في شهر تموز (٩٢) ، وفي هذه الأثناء كان بلدوين (وجوسلين) وجاليران لايزالون في السجن (٩٣) .

اطلاق سراح بلدوين وموت جاليران (٩٤)

اما البرسقي الذي سبق وروينا خبر انكساره فقد رأى حلما وهو في الموصل أن أحد عشر كلبا قد مزقوا جسمه إربا إربا وعندما استيقظ أخبر عن حلمه ، فحذروه بألا يذهب للصلاة في ذلك اليوم ، وأن يحتاط لأمره ، ولكنه رفض أن يتخلى عن صلاة الجماعة في يوم الجمعة في الجامع الكبير في ذلك اليوم ، وبينما كان يسير داخلا من باب المسجد في منتصف النهار متوجها إلى المسجد للصلاة كما هي عادة المسلمين ، إذا بأحد عشر رجلا من الاسماعيلية يحيطون به ويطعنونه بالمدى ويقتلونه (٩٥) ، وقد خلفه في حكم الموصل واقور ابنه الذي كان يدعى البرسقي ايضا ، وتجمع الفرنجة : الملك بلدوين وصنجيل صاحب طرابلس وجوسلين كونت الرها والتحق بهم احد المسلمين المنفيين المدعو دبيس صاحب الحلة والعراق ، وكان قد أتى إلى أنطاكية وانضم إلى جانب الفرنجة ، وحاصر هؤلاء حلب بجيش عرمرم وهاجموها من جميع الجوانب مدة تسعة أشهر ، وقد أصبح الأهالي في كرب عظيم بسبب المجاعة ، وأكلوا لحوم الحيوانات القذرة ، وبعد تسعة أشهر عندما أصبحوا على وشك الاستسلام أتتهم رسالة من البرسقي حاكم أقور أنه قادم لنجدتهم ، واقترح دبيس أن يعطى جيشا يذهب على رأسه ويمنع البرسقي أو يعيقه من عبور الفرات حتى يتمكنوا من فتح المدينة ، وقد كان الفرنجة عنيدين فلم يأبهوا لنصيحته وعبر البرسقي الفرات ودخل حلب ليلا بمنتهى الجرأة ، وفي الصباح فتح أهالي حلب أبواب المدينة وزحفوا وعلى رأسهم البرسقي ، وهاجموا الفرنجة الذين تركوا حصار المدينة وعسكروا على قلعة الجوشن ، وبعد عشرة أيام جلوا عن المنطقة

واتجهوا إلى أنطاكية ، فطاردهم البرسقي حتى الأثارب ، وقد قام بضرب المتخلفين من الجيش ، ونهب الأمتعة ثم رجع إلى حلب وقد انتابه السرور العظيم .

ثم بدا البرسقي حصار عزاز ، وركب الآلات لضرب الأسوار ليلا ونهارا ، وقد حفرت الأنفاق تحت الأسوار حتى يدب الفزع في قلوب الحامية ، وعندما سمع الفرنجة في انطاكية تلك الأخبار تجمعوا تحت قيادة بلدوين وجوسلين ، ولكنهم كانوا يخشون التقدم لانقاذ المدينة لأن عدد التركمان كان عظيما ، وقد وقعت الحملة في ارتباك عظيم فلم يستطع أحد أن يدخل أو يخرج ، ولكن رجلا واحدا تبرع بالمخاطرة بنقل أخبار الوضع السيء إلى الملك ، وقد وعده الأهالي بمكافأة سخية إن هو رجع إليهم سالما ، فامتطى حصانا قويا ، وأخذ سيفا في يده وحمامة على صدره ، وخرج من البوابة كالبرق واجتاز جماعة جماعة من جماعات الأعداء الذين كانوا يراقبون البوابة وقفز فوق الخندق الذي حفر حول المكان ، وعبر إلى الضفة الأخرى ، وقفز الأعداء عليه من كل حدب وصوب ولكنهم لم يستطيعوا إيقافه ، فوصل إلى أنطاكية وسلم الرسالة للملك ، فبدأ الفرنجة في الاستعداد لاغاثة أعزاز وهم يعتمدون على الرب ، وأرسلوا رسالة بواسطة حمامة يقولون فيها : « سوف نغيثكم بعد بضعة أيام كونوا أقوياء ولاتهنوا وتضعفوا » ونزلت الحمامة في معسكر الأتراك الذين كتبوا رسالة بمعنى معاكس تحمل اسم جوسلين وهي تقول : « لاأمل يرجى منا إن الملك مشغول بمحاربة المصريين الذين يحاصرونه ، أنقذوا أرواحكم وسلموا الحصن » ، وعندما قرأ أفراد الحامية هذه الرسالة انقسموا في الرأي ، وقالوا : « سوف نصمد ونتحمل لئلا يحدث لنا ماحدث لحمامة صور ، إذ ربما كانت هذه الرسالة مزورة ، فلنبق أقوياء ولنحافظ على صمودنا أكبر مدة نستطيعها ، دعنا نموت ولا نستسلم » ، ورأى الأتراك أن حيلتهم قد أخفقت فأرسلوا بعض أمتعتهم إلى حلب لانقاذها من الفرنجة وأرسلوا الجواسيس إلى أنطاكية ليعرفوا متى يتحرك الفرنجة ، وبعد بضعة أيام جاءت الأخبار أن الفرنجة بدأوا

بالتحرك ، فأعاد الأتـراك كل مـاكان لديهـم مـن أدوات إلى حلب وأحرقوا آلات الحصار ، ولم يبق إلا الرجال المحاربون ، واختـزن الفرنجة أمتعتهم في كلز وتركوا التلة وتمركزوا في السهل فـوق كلز ، وعندما رأى الأتراك الفرنجة بدأوا يتحركون هنا وهناك وأصـبحوا على يسارهم ، ومر الفرنجة الذين كانوا قليلي العدد بين التـركمان دون قتال ، وعسكروا حيث كان الأتراك معسكرين ، ورأى الأتـراك قلة عدد الفرنجة فارتفعت معنوياتهم وناقشوا القضية بهذا الشكل . إذا توقفوا في مكانهم فإننا سـوف نحيط بهـم ونقـطع عنهـم المؤن فيموتون جوعا ، وإذا هربوا فذلك علامة ضعفهم ولسوف نطاردهم ، أما الفرنجة فأدخلوا عددا كبيرا من الرجـال إلى داخـل القلعـة ، وأعطوهم التعليمات التالية : « نحن متوجهون لفترة قصيرة غربـا حيث ترتاح خيولنا ونحصل على الماء والغذاء (لم يكن أي شيء مـن هذا في أعزاز) فإذا طاردنا رجال العدو راقبوهم فعندما يخـرجون من مكانهم ويصبحون كتلة واحدة خلفنا عندهـا ارفعـوا شـارات الدخان فوق القلعة ، وعندها تتم مشيئة الرب » ، وتحرك الفـرنجة عند الفجر في طريق انطاكية ، وعندمـا تبعهـم الأتـراك تـظاهروا بالهرب ، وتشـجع الأتـراك فـأظهر جميع الرجـال الذين كانوا في الكمائن أنفسهم ، وطاردوا الفـرنجة بـكل عزم ، وظهـرت علامـة الدخان فوق القلعة ، فأصدر الملك الأمر ونفخـت الأبـواق وجلبـت الأعلام الملكية إلى المؤخرة وكان الرب غاضـبا على الأتـراك الذين هربوا وتـركوا خلفهـم ألفـي قتيل ، ولم ينج إلا البـرسقي وبعض مرافقيه الذين طوردوا حتى حلب ، ثـم عاد إلى الموصـل ومـات في الرحبة على الفرات (٩٦) .

وأرسل الملك بلدوين واحضر مـن أوربـا ابـن بـوهيموند الأول صاحب أنطاكية (الذي رجع إلى بلاده بعد أن أطلق سراحه من إسر الدانشمند) وقد خطبه لابنته وجعله حاكما لأنطـاكية وبعـد هـذا أحضر شابا آخر من عائلة الكونت فولك وخطبه لابنته الأخرى (٩٧) وأعلنه ملكا على بيت المقدس أثناء حياته ، أمـا طغتـكين صـاحب دمشق وبانياس فقد رأى أنه لايستطيع الاحتفاظ ببانياس ، لأنهـا

محاطةبأراضي الفرنجة ، وهكذا أعطاها لبهرام ، الاسماعيلي فقبلها هذا ، وجمع خمسمائة رجل وارسل بعض الهدايا لملك الفرنجة وقدم له ولائه .

اما ابناء رافين الارمني أسياد كيليكية فقد قاوموا غازي بن دانشمند ، وبدأ رجالهم بالنهب في اراضيه ، فبدأ غازي وهو من اقوى الامراء في مهاجمة اراضيهم واستعد بوهيموند صاحب انطاكية الذي كان متضايقا منهم أيضا ، للهجوم على كليكية ، وعندما بدأ بوهيموند بغزو كليكية ، قام غازي بالهجوم عليها من الجانب الآخر ، وقد تقابلت جيوش الفرنجة مع جيوش التركمان في الحال ، وكانت مقاصدها واحدة ، وهي تخريب تلك البلاد ، وأحاط التركمان بجيش بوهيموند وقضوا عليه ، ولم ينج منهم أحد ، وقتل بوهيموند الشاب النبيل ، فأخذوا راسه وسلخوه وازالوا الشعر الرقيق عنه وارسلوا جلد راسه مع اشياء أخرى لطيفة : دروع ورماح فرنجية ، ومهاميز للخيل ارسلوها جميعا للسلطان في اصفهان كهدايا النصر ، هكذا قضى الأميران الواحد على الآخر ، واطلق سراح الارمن ، ومن الغريب ان نذكر ان داذشمند أبو غازي قضى على جيش بوهيموند الاكبر وحطمه ، وهو أبو بوهيموند هذا واخذه أسيرا ، بينما ابنه غازي قضى على جيش بوهيموند هذا ، وقتل غازي الشاب بوهيموند الشاب .

وفي عام ١٤٤٢ (١١٣١ م) مات السلطان السجلوقي في اصفهان ، وحدثت زلزلة قوية سببت الكثير من الوفيات في خراسان ، وقد انعم خليفة بغداد على غازي بن داذشمند ، وهو صاحب كبدوكية وملاطية بالسلطنة ، وقد كان اقوى امراء الأتراك في تلك الديار .

وفي هذا العام جمع جوسلين صاحب الرها الذي كان قد طعن في السن ولم يتوقف عن القتال ، جمع جيشا لتدمير قلعة تدعى تل أعرن (٩٨) بين حلب ومنبج حيث كان يعيش بعض اللصوص الذين عاثوا في الارض فسادا باستمرار،وقد حفر الخنادق حولها ليحدث

ثغرة في الأسوار ، لكن انهيار الثغرة طمره عندما نزل ليرى الثغرات بنفسه ، وعندما أخرجوه من تحت الأنقاض كان في حالة سيئة جـدا يكاد يموت فقد تحطم جسمه فحملوه إلى تل باشر حيث بقـي وهـو مريض هناك ، وفي اثناء ذلك جمع غازي جيشا للهجـوم على اراضي الأرمن أبناء (رافين) ، وعندما سمع جوسلين هـذا الخبـر امـر بجمع جيش ، وحمل على نقالة وتقدم لمقـابلة غازي الذي رحـل إلى بلاده عند سماعه هذا الخبر ، وبعد أن وصل جوسلين إلى دلوك توفي هناك ودفن في الكنيسة هناك ، وقد حكم بعده ابنه جوسلين الشـاب الذي كانت تعوزه المعرفة والفهم ، وفي هذه السنة أيضا مات بلدوين ملك بيت المقدس وحكم بعده صهره الأمير فولك أوف انجو ، وكمـا ذكرنا من قبل فقد كان هذا الشاب يتمتع بسلطة الملك اثناء حياة عمه ابي زوجته ، وأما في انطاكية فبعد موت بوهيموند بن بوهيموند حكم بيتابين الذي ذكرنا أن جيشه قـد تحـطم في الأناضـول ، وعاد إلى بلاده .

وفي الشرق بعد موت البرسقي الأصغر في الرحبة عين السـلطان العظيم عام ١٤٤٣ (الصحيح ١١٢٧) زنكي بن آق سنقر حـاكما في الشرق.وكان اق سنقر احد رفقاء بـوزان الذي ذكر قبـل مجـيء الفرنجة ، وقد قتلهما تتش وهو تاج الملك ، وكان السلطان في بغـداد هو مسعود ابن أخي سنجر شاه العظيم ، وهـو ابـن ابـي الفتـح ملكشاه الذي دخل إلى سورية في أيام فيلارتـوس الدمشـقي وعين يغي سيان حاكما على انطاكية وبوزان حاكما على الرها ، وطغتكين على دمشق ، وقد ولد سنجر شاه لأبي الفتح مـن الملكة العـظيمة في سنجار ، وهكذا حصل اسمه ، وفي هذه الأثناء كان مسعود ابن أخي سنجر شاه يحكم اراضي اصفهان وخراسان والعـزاق وبغـداد وكل البلاد الواقعة في الجنوب الشرقي ، وقد تبعت له اراضي اقليم اثور في الشمال الغربي أيضا ، وفي الموصل كانت السلطة بيده ايضا ، وكان بها حاكم يدعى اتابك ، وهذا الاسم أطلقه عليه التركمان ، وقد حكم كل منطقة مابين النهرين والشمال وحلب وفينيقية ، وفي الموصل كان هناك صـلاح الدين (٩٩) المشـهور وكذلك ناصر الدين وزين الدين

علي ، وهم تركمان حصلوا على الحظوة لدى السلطان ، وعندما مات البرسقي تقلدوا جميع السلطة في الشرق وحرضوا السلطان على تعيين زنكي بن اق سنقر حاكما(وهو عماد الدين) ونفذوا هذا الأمر ، ثم جعل زنكي حاكما على أقور ، وجميع مابين النهرين وسورية وفينيقية ، وقد أعطاه ولدي السلطان مسعود الشابين ليكونا سيدين على المنطقة بينما احتفظ زنكي لنفسه بمنصب الوصي والحامي،وفي هذا الوقت مات مسعود صاحب اصفهان وقد خلفه ابنه سليمان شاه في همذان (١٠٠).

في عام ١٤٤٣ زحف زنكي إلى جوار الرها ، وحاصر قلعة واقعة في شرق المدينة التي كان الفرنجة قد انتزعوها من شخص عربي يدعى مانع بن عطير ، واحتل زنكي قلعة شان (١٠١) ثم زحف واقترب من الرها ، وأرسل رسولا لأهالي المدينة قائلا إنه لايريد الحرب مع الفرنجة بل يبغي السلم معهم ، فأرسلوا له الهدايا من طعام المدينة وشرابها ، وهكذا مر بسلام إلى حلب .

وحكم تاج الملك دمشق بعد وفاة والده طغتكين ، وبعد زمن قتله الاسماعيلية ، ولم يتفق ابناءه واخوته الباقون ، فاستولى احد القادة الذين كانوا مع تاج الملك على دمشق وهو انر باسم احد ابنائه ، واستولى ابن اخر على بعلبك ، وجمع زنكي جيشا وحاصر به بعلبك ونصب آلات الحصار التي خربت تلك الابنية الرائعة ليلا ونهارا ، حتى انه كان يرمي عليها كل يوم الف حجر ضخم ، ولهذا سلمت المدينة بسبب ماأصابها من كروب ، وهكذا استولى زنكي على بعلبك وبدأ القتال باستمرار ضد دمشق .

وعندما رأى انر صاحب دمشق ان زنكي كان قويا يمكن ان يتغلب عليه بسبب ضعف جيشه وافتقاره إلى القوة طلب العون من ملك بيت المقدس ورشاه ليأتي لمساعدته ، وجمع ملك بيت المقدس جيشا وتقدم حتى اصبح قريبا من جيش زنكي وبحركة فنية بارعة انسحب زنكي من امامه كما لوكان هاربا حتى توغل ملك بيت المقدس في البلاد ، وبعدها انعطف عليه زنكي بعنف وشراسة تسببت

في هزيمة الملك وهرب جيشه ، فبدأ التركمان بـذبحهم بـالسيوف ، ولكن ملك بيت المقدس هرب مع بعض رجـاله إلى حصـن الاكراد في اراضي طرابلس ، واختبأ هناك مـع الرجـال الذين هـربوا معـه ، وحاصر زنكي هذا الحصن وضيق على الحامية ، حتـى انهـم اكلوا الخيول والحمير دون ملح ، واسـتغاث ملك بيت المقـدس ببتـابين صاحب انطاكية وجوسلين الاصغر صاحب الرهـا لياتيا لاغاثتـه ، وقد قاسى الملك ورفقاؤه وهم ينتظرون جمع الجيش ومجيء النجدة ، وعندما سمع زنكي بـالهرج والمرج ، وتجمـع الفـرنجة وإمـكانية مجيئهم ، وعما يعـانيه الملك أرسـل له الأطعمـة الطيبـة اللذيذة لاسترضائه وعمل معه اتفاقا وعهـدا وميثـاقا مشـفوعا بـأغلظ الأيمان ، ثم سار زنكي في حـال سـبيله (١٠٢) ، وسرعان مـاوصل الفـرنجة وأرادوا أن يطـاردوا زنكي ، ولكن الملك لم يسـمح بـذلك بسبب ميثاقه وقسمه ، وقويت شوكة زنكي واستمر في حرب دمشـق بعناد ، وأخذ أراضيها واستولى على تدمر في الصحراء .

وبعد إحلال السلم مع الملك لم يعد زنكي يحارب الفـرنجة ، بـل كان كل همه محاربة المسـلمين ، وأخـذ أراضـيهم ، وإخضـاعهم لسلطته ، وكان هنالك قلعة قرب حلب تدعى الأثارب ، وقلعة أخـرى تدعى هادانا (زردنا) وهي تحت حكم أحد زعماء الفرنجة ، الذي جمع جيشا واخـذ في تخـريب الأراضي في حلب ، واخـذ كثيرا مـن الاسرى ، ثم رحل ، وعندما سمع زنكي بهذه الأخبار ، أخذ جيشـه واحدق بهذه الأماكن ، واستولى الذعر على الأهـالي ، فـطلبوا مـن زنكي أن يقسم بالحفاظ على أرواحهم ، فـأقسم ولكن كانت نيتـه الغش ، فقال بأنه سيأخذهم إلى بوابة أنطـاكية ، وعندمـا فتحـوا الابواب ، اخذهم جميعا رجالا ونسـاءا وأولادا إلى حلب ، لكن إلى باب يدعى باب انطاكية في حلب ، وبذلك حافظ على قسمه ، لكنه ذبح جميع الرجال بالسيف ، وأما النساء ، والأطفال فقـد جعـل الأولاد عبيدا والبنات جواري .

وعندما مات غازي بن دانشمند (١٠٣) حـكم ابنه محمـد بعـده ،

واصبح قويا ، لكنه كان رهيبا ، وزاد ثقل نيره على ممتلكاته في كبدوكية ، وخصوصا على أهالي ملاطية ، وقد أرهقهم بالضرائب وخصوصا الجزية ، وعاقبه الرب بأن اصيب بمرض خبيث ، ومات ، وكان لغازي ولدان أخران هما (دولة) والآخر (يعقوب) وعندما مات محمد استلم الحكم (دولة) بعده (١٠٤) .

وفي عام ١٤٤٦ (التاريخ الصحيح هو ١١٣٧ م) بدت الحماسة في الظهور عند الأمبراطور جون في القسطنطينية لغزو سورية فجمع جيشا يقدر بأربعمائة الف رجل من الأغريق والفرنجة والالمان والهنغاريين واستعد للزحف على طول ساحل كيليكية ، حتى يظل بجانب البحر وبذلك ينقل امتعة في السفن التي تستطيع أن تمده بالمؤن والعلف للخيول بانتظام ، وكان حاكم كيليكية في ذلك الوقت (ليو) (ليون بن رافين) الأرمني ، وهو خال جوسلين الأصغر صاحب الرها ، وقد تحسنت احوال (ليو) هذا واصبح قويا ، وعندما قتل بوهيموند في أراضيه زادت سلطته على الفرنجة وعلى الأراضي الساحلية المدعوة « تاغر (١٠٥) » واستولى على طرسوس ، وسبب كثيرا من الخسائر للفرنجة ، وعندما حكم بيتابين في انطاكية نمت وزادت هذه العداوة ، وقد استمر (ليو) هذا في غزو أراضي الاغريق ، وسبب هذا الانزعاج للامبراطور ، وفي الوقت الذي حدثت فيه غزوة الامبراطور ، كان بيتابين قد جمع جيشا ، وبدأ بنهب أراضي كيليكية ، واستعد (ليو) للقتال ، ولكنه فوجيء بكمين فرنجي فأسر وأخذ إلى انطاكية حيث اودع السجن ، وبينما كان (ليو) أسيرا وصل الامبراطور إلى ابواب كيليكية ، وأرسل رسالة إلى الفرنجة طلب بها من كل من يخضع له أن يأتي ويقدم له فروض الولاء والطاعة ، وعندما اتى جوسلين وبيتابين لتقديم فروض الطاعة وقابلاه فيما وراء طرسوس ، واستقبلهم الامبراطور بسرور ثم رجعا كل إلى مدينته ، واستولى الامبراطور على طرسوس والمصيصة واذنة واستولى على عين زربة بعد حصارها ، ثم تقدم إلى سهل انطاكية وانتشر جيشه في السهول والقرى ، وأنزل اضرارا جسيمة بالقرى المسيحية ، وعندما اتى

حاكما انطاكية والرها مرة ثانية لتقديم فروض الطاعة للإمبراطور ، وقد رغب أن يضع الأمتعة التابعة لجيشه وأمواله في انطاكية بمثابة عهد منه وتعهد بأنه تغلب على أراضي المسلمين فسوف يعطي هذه الأراضي لصاحب انطاكية ، لكن صاحب انطاكية لم يكن راضيا عن هذا الاجراء.

وزحف الامبراطور على رأس جيش عرموم ومعه أموال كثيرة ورافقه أبناؤه الأربعة وأخوته وأصهاره وجميع رجال بلاطه الامبراطوري ، وقد أقسم يمينا بألا يرجع مع قياصرته وأغسطسه وبطارقته وبقية نبلائه دون أن يحرز نصرا مبينا ، وهذا مادبره الامبراطور ولكن الرب يعطي نصره وتأييده لمن يشاء ، فعندما رجع بيتابين إلى أنطاكية أطلق سراح (ليو) الذي رجع إلى بلاده وانضم للامبراطور بمثابة رديف ، ولكن الامبراطور سجنه واحتل أراضيه وأرسله إلى القسطنطينية مع أولاده وأهل بيته .

وبينما كان الامبراطور في سهل أنطاكية والفرنجة يخدعونه إذ لم يكونوا مستقيمين بالتعامل معه ، أتت أخبار تستحق الرثاء من أذنه التي حلت بها نوازل قاسية ، فقد كانت أذنه مليئة بالمسيحيين اليعاقبة ومعهم مطرانهم يحيى يسوع بن أريك الرهاوي ، وعندما استولى عليها الامبراطور ترك فيها قوة لحمايتها ، وانتقل الى أنطاكية وقد فرح أهلها لأنهم أصبحوا تحت حكم الاغريق الذين خلصوهم من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنجة عليهم ، وبينما كانوا هادئين وناعمي البال في أحد أيام الأحد اذا بجيش تركماني(١٠٦) ينقض عليهم ويحيط بهم إحاطة الخندق بالأسوار ، وبدأ هذا الجيش بالهجوم عليهم كالريح العاتية ، ونصب جنده السلالم على الأسوار وتسلقوا عليها ، وعندما كانت حامية السور تدفعهم من جانب كانوا يظهرون في جانب آخر ، ولقد ضعفت الحامية بسبب السهام التي كانت تطلق عليها من جميع الاتجاهات والحجارة ، والهجوم المركز المحيط بها ، وصمدت الحامية من الفجر حتى منتصف

النهار ، وأشاح الرب وجهه عنهم وتركوا لتتسلمهم أيدي الأعداء بطريقة غريبة عجيبة لايصدقها اي شخص يسمعها ، اذ دفع أحد الاتراك سلما على السور وبدأ بالتسلق عليه ولكن عندما وصل الى نهاية السلم كان السور لايزال أعلى منه . فتمسك بحجر بارز في السور ووقف عليه واذا بواحد من رجال الحامية فوقه يطعنه برمحه ليرميه على الأرض وتمسك التركماني بالرمح فسحب الجندي الذي على السور الرمح بشدة ليخلص الرمح من يد التركماني وبهذه الطريقة سحب التركماني الى الشرفات في أعلى السور ، وسل التركماني سيفه وهجم على الجندي الذي انهارت قواه وسقط من أعلى السور ، عندها اعترى الجنود الآخرين الخوف والفزع فهربوا من التركي وتركوا امكنتهم وتشجع التركمان فتسلقوا وتبعوا رائدهم ، واحتلوا السور ، وفي لحظة من الزمن أصبح السور يعج بالتركمان الذين نزلوا الى المدينة وفتحوا ابوابها ، وادخلوا بقية الجيش التركي ، ولقد كان الرب غاضبا على اذنه وسكانها ، وجمع التركمان جميع الرجال وأمروهم بالركوع ثم قطعوا رؤوسهم بالسيوف ، وقد نهبوا البيوت والأديرة والكنائس ، وجمعوا غنائم لاتعد ولاتحصى ، وأخذوا أسرى من الأولاد والبنات بشكل مجساميع كاملة ، وأخذوا المطران والكهنة والشمامسه الصغار وربطوهم بالحبال وجروهم الى الأسر المهين ، ودمروا المدينة وجعلوها خرابا يبابا ، ثم رجعوا الى بلادهم ، وعندما وصلت الأخبار للامبراطور أرسل جيشا لمطاردة التركمان ، ولكن لم يستطع هذا الجيش أن يدركهم لأنهم كانوا قد ابتعدوا مسيرة سبعة أيام ، وبيع الأسرى في أماكن متعددة خصوصا في ملاطية ، وأما الذين نجوا فقد رجعوا الى مدينتهم وقد اهتم الامبراطور بأمرهم ووهبهم كل مايحتاجونه لاقامة أودهم في هذه الحياة ، وجاء تدمير مدينة اذنه وخرابها بعد خمسة أشهر مضين منذ بداية حملة الامبراطور ، وعندما حل الشتاء قضاه الامبراطور في كيليكية مع جيشه وقد كان هنالك كثير من المرضى وأعداد لاتحصى من الوفيات .

وفي نهاية شهر تشرين الأول وعندما كان الامبراطور في

كيليكية ، تجمع جمهور كبير في بسمسياط واتجهوا الى الرها لانه في مثل هذه الحالات لم يكن التحرك مأمونا الا بشكل جماعات وذلك بسبب الكمائن التي كان ينصبها العدو على الطرق ، وكان معهم جملة من العلف والنبيذ وجميع ضروريات الحياة ورجال وحيوانات لاتعد ولاتحصى ، ويصحبهم فرسان ومشاة من الفرنجة ، وعندما عبروا نهر الفرات واصبحوا على بعد بضعة اميال من الرها فاجأتهم قوى تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وميافارقين المؤلفة من عشرة الاف فارس عند غروب الشمس في ٢٩ تشرين الأول عام ١٤٤٧ وتحاربوا طيلة الليل ، وظل القتال مستمرا من فجر ذلك اليوم حتى الظهر بشكل مرير ، وقد توجهت عدالة الرب ضد القافلة قرب قرية تدعى باتال على طريق الرها ، واطبق عليهم التركمان واعملوا بهم السيف وقتلوا منهم عددا لايحصى واسروا الألوف ، وغنموا غنائم هائلة من الخيول والبغال والحمير واخذوا الأسرى المصفدين بالاغلال واوقفوهم امام ابواب الرها صفوفا صفوفا ، وخاطبوا اهالي الرها قائلين : ايها الحمقى ، ماذا تأملون سلموا المدينة ، ونحن سوف نطلق سراح اسراكم ، ولم يحر اهالي الرها أي جواب وهكذا انسحب الجيش لانه لم يكن لديه أي الات حصار .

وعندما انتهى الشتاء واتى الربيع (١٠٧) استعد الامبراطور لدخول سورية وارسل إلى زعماء الفرنجة حسب الاتفاقية ومر بمرعش وعين تاب وتل باشر ثم اتى الى منبج ، وقد قاده جوسلين لحصار حصن بزاعه بين منبج وحلب فاستولى عليه ونهبه ، ثم سلمه الى جوسلين وفي عام ١٤٤٨ (١٤٤٩) (١٠٨) زحفوا من بزاعه ومروا من حلب ، وبدوا مثل اسراب الجراد جيشا لايعد ولايحصى ، وقد ارتجفت قلوب اهالي حلب حين ظنوا ان الامبراطور قد حضر ليهاجمهم ، وعلموا انه اذا فعل ذلك فالمدينة سوف تسقط حتما ، ولكن الفرنجة الماكرين الغشاشين لم يكونوا راغبين بانتصار ساحق للامبراطور ، فكانوا يقلبون له الحقائق ، ويتظاهرون بالتفاني في حبه والولاء له ، ولكن كذبا ورياء

فنصحوه بالا يهاجم حلب بل أن يقدم على عمل انتحاري بحصار (شيزر)، وهي قلعة حصينة واقعة على قمة تلة عالية ، ويجري نهر أسفل منها ، وكان أصحابها من نبلاء العرب يدعون (بنو منقذ) وهم اقارب صاحب قلعة جعبر وهو الذي الجأ بلدوين كما سبق واشرنا عندما أطلق سراحه من الموصل ، وكانوا كرماء الاصل طبيعتهم حب الخير والمصالحة لاينوون لأحد الشر ، وكان زنكي في حلب وابتهج كثيرا عندما راى خطط الاغريق والفرنجة السيئة ، فأدرك فورا أن اغراض الفرنجة تتضارب مع اغراض الاغريق ، وبينما كانوا يحاصرون شيزر تصرف زنكي بحكمة وفضل ان يتجنب مصادمتهم في الوقت الحاضر ، فأخذ يقوي رجاله ، ويحمي حدوده ، وتقدم قليلا بمحاذاة المعسكر الاغريقي ، وهاجم الامبراطور قلعة شيزر دون جدوى ، وبدأت المجاعة تتغلغل في صفوف الاغريق لأنهم كانوا يؤلفون جيشا عظيما يحتاج لمؤن كثيرة ، وقد منع زنكي عنهم المؤن بحكمة مدوية ، وعندما اشتدت وطأة المجاعة ، ولم تكن هناك أي حيلة للاستيلاء على الحصن بالقوة ، أدرك الامبراطور ، خيانة الفرنجة في اضاعة وقته في حصار هذا الحصن ، وأرسلت حامية الحصن رسلا الى الامبراطور قالوا لها « ان الفرنجة قد ضللوك ، وقد اتوا بك لتحاصر هذا المكان مع اننا لم نسبب أي ضرر للمسيحيين ، وارسلوا له الهدايا وأواني ذهبية وفضية مختصة بالسر المقدس وصلبان من الذهب حصلوا عليها من انتصاراتهم على الأباطرة ، واحتفظوا بها منذ زمن ابائهم ، وغادر الامبراطور شيزر وذهب الى انطاكية ، وبعد مسيرة مرهقة وصل الى عين زربه ، ولم ينجز أي عمل في ذلك الصيف .

وتوجه زنكي الى بزاعه واستولى عليها وقتل جميع الفرنجة فيها وكان الأسرى الذين أخذهم الفرنجة منها عند استيلائهم عليها قد وضعوا في اعزاز ، وكانوا يأخذونهم كل يوم الى حقول القمح ليأكلوا لأن الطعام كان نادرا ، فوضع زنكي كمينا قتل جميع حراس اولئك الأسرى واطلق سراحهم واخذهم الى بزاعه وكان الامبراطور

في كيليكية ، وقد مـــات ابنه الأكبـــر فحنطـــوه وارســـلوه الى العاصمة ، وسرعان مامات ابن اخر من ابنائه فحنط ايضا وأرسل الى العاصمة ، وتــأثر الامبــراطور كثيرا وزاد حــزنه فــرجع الى القسطنطينية خــائبا دون ان يســتولي على بيت واحــد مــن بيوت المسلمين ، أو أن يربح معركة واحدة فقط .

وفي بداية السنة التالية استعد الامبراطور جون ثانية ، وأتى الى طرسوس ومعه جيش كبير ، واستدعى زعماء الفرنجة ووبخهم على مافعلوا به في السنة الماضية ، ورتب مصاهرة وزواجا حتى يتفقــوا معه بموجب حب حقيقي ، وبينما كان يقوم بهذه الترتيبات ذهب الى الصيد في يوم عطلة وظهر له غزال ففوق القوس نحوه بعد أن وضــع به سهما ، ولكن رأس السهم جرح يده اليسرى فالتهبت ، وحــدث تورم في ذراعه وبعد بضــعة أيام مــات ، وكان معــه ابنه الاصــغر مانويل الذي كان قــد أعلن امبــراطورا أثناء حياة والده ، وحنطــه الجيش وأخذه مع ابنه الى القســطنطينية واصــابهم كرب وحــزن شديد ، وفي تلك الأثناء حدث زلزال شديد فتهدمت عدة مدن وخــاصة في كيليكية وسورية ، وقد اختفت قلعة الأثارب الحصينة ، وغارت في الأرض كأنها لم تكن ، ولكن القــدس نجــت وفي هــذه الأثناء تــوفي بلدوين وخلفه ابنه .

وبدأ زنكي الذي استراح وأمــن جــانب الفـــرنجة والأمــــراء المسيحيين ، بالهجوم على أعدائه من التــركمان ، فعبــر الفــرات وهاجم ابناء أرتق وتمرتاش وابناء داود ، وأخذ منهم أسرى واحتل دارا وتل موزن وجمالين وجميع شــبختان ، وأخــذ حــاني وارقين والحميمة ، وفي شدتهم اســتغاث ابناء أرتــق بجــوسلين صــاحب الرها ، واعطوه مقـــابل مســـاعدته حصـــن بـــابولا في أراضي كركر ، فاستعد لمساعدتهم ضد زنكي ، وقد كان ذكيا وماكرا فعقــد السلم مع الأراتقة الذين كانوا راغبين في هــذا الســلم لأنهــم كانوا يعلمون انه ليس باستطاعة جوسلين مساعدتهم كما يجب ، وشــعر زنكي بالغضب من جــوسلين ، ولم يوفــر اي محــاولة أو وســيلة

لاحتلال الرها ، وكان يرسل الجواسيس باستمرار للتــأكد مــن ان المدينة كانت خالية مــن الجند ، وكان في حــران زعيم مسلم يدعى فضل الله بن جعفر ، وكان يكره رجال الرها ، وكان الجواسيس يأتون اليه وهو يوجههم وفي ذلك الوقت كان زنكي يحاصر امد .

وجمع جوسلين جيوشه وذهب للاغارة على المقــاطعات القــائمة على الفرات قرب بالس والرقة ، وبــادر رئيس حــران الى اخبــار زنكي ، وكان في امد : ان الرها باتت خالية من الجنود ولذلك ارسل زنكي على الفــور جنودا مـــدربين تحـــت قيادة صـــلاح الدين (١٠٩) الشــجاع ، واوعز اليهــم ان يعملوا جهــدهم لاحتــلال الرها ، واخذها على حين غرة ، واذا لم يستطيعوا فتحها عليهم ان يهاجموها ويختبروا مدى قدرتها ، فاذا وجدوا الدفاع قويا وفعــالا فعليهم ان يعودوا ، والا فعليهم ان يحدقوا بها ويستدعونه .

وما ان بدأت الحملة سيرها ، حتى سار زنكي على اثــرها وقــد زحفت الحملة بسرعة طيلة ذلك اليوم والليلة التــالية ، ولو انهـــا وصلت في الظلام لكان باستطاعتها الاستيلاء على المدينة لأن سكان المدينة لم يكونوا متوقعين ابدا مثل هذا الهجــوم ، ولكن حــدث ان هبط مطر غزير ، وكان الليل شديد الظلام ، وعندما اقتربت الحملة من المدينة ضلت الطريق ، وعند الفجر وجدت نفسها قــد ســارت في طريق حران ، وعندما رجعت كان عنصر المباغتة قد اصــبح لاامــل منه ، فهاجمت المدينة عند الفجر في يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثــاني عام ١٤٥٥ ، ووصلت الى الهضاب المحيطــة بهــا ثــم قتلت بعض الرجــال الذين كانوا بين الاســوار ، وعندمـــا رأت ضــعف المدينة أرسلت الى زنكي رسالة بـــواسطة الحمـــام الزاجـــل ليأتـــي حالا ، فوصل في فجر يوم الخميس على رأس جيش يفوق عدده عدد نجوم السماء ، ملأ السهول حــول المدينة واحــاط بهــا فــرقة تلو فرقة ، ونصب خيامه حولها كخيام المتسولين ، وقــد كان العســكر حريصين ان ينصبوا خيامهم امام المعاقل الخارجية ، فقــد نصــب زنكي خيمته مقابل بـــاب الســـاعات على التلة فـــوق كنيســـة الاعتراف ، والى الشرق منه نصــبت خيمــة الملك العــظيم ابـــن

السلطان ، والى الشمال كانت خيمة الايراني العاقل جمال الدين الوزير ، الذي كان مسؤولا عن جباية الضرائب وادارة الواردات من اراضي زنكي حيث عسكر على تلة المراقبين .

واما صلاح الدين العاقل العظيم القائد العام لجيش زنكي فقد نصب خيمته في الغرب مقابل باب النافورة على تلة المقبرة حيث يوجد ضريح مار افرايم ، وفوقه في أعلى وادي سليمان كان زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور مقابل حدائق بارصوما ، وفي شرقي باب كاساس كان الزعيم الكبير دبيس سيد الأراضي المنخفضة مقابل بابل ، وهو الذي كان قد التحق بالفرنجة فيما مضى من الزمان (١١٠) وشمال موقعه هذا وفي حديقة بوزان كان ابو علي صاحب زعفران وارقنين ، وفي الشمال الشرقي كان ابناء باقساق وهم حكام سبايرق على شواطىء الفرات ، وفي شرقي باب كاساس عسكر عين الدولة سيد شبختان وجذوب هذا عسكرت قبائل من الاكراد يليهم كثير من الرجالة والعرب ورجال من حلب ، وفي الغرب مقابل القلعة عسكر حسان صاحب منبج ونصب خيامه.

وكانت المدينة ضعيفة ، ولم يكن بها اي جند ، بل فيها الاسكافيون والنساجون ، وتجار الحرير والخياطون والكهنة والشمامسه فقط وكان بها ثلاثة اساقفة هم بابياس (١١١) من الفرنج وباسيلوس السرياني بن شومنا ، وهو من ابناء المدينة ، والأرمني اهنانيوس ، وقد قاوموا بشراسة ، وقاتلوا قدر استطاعتهم ، فنصب الاعداء آلات الحصار ، وكل قائد فعل ذلك في القسم الذي امامه ، وقد ضربوا السور بعنف ، وقد حفروا الانفاق تحته في الجانب الشمالي تحت الجسر خارج باب الساعات ، ووصلوا الى اسس السور بينما كان القتال مستعرا في الخارج ومستمرا ، وقد حاول زنكي اضعافهم بارسال اقتراحات للسلم - رفضوها - لأنه كان يرغب أن تستسلم له المدينة استسلاما دون أن تدمر ويقتل الاهلون ، فأرسل لهم:« انصتوا ايها الحمقى انكم ترون الا أمل لكم بانقاذ أرواحكم ، لماذا تنتظرون

وتأملون ، أشـفقوا على انفسـكم وأبنائكم وبناتـكم وزوجـــاتكم ومدينتكم حتى لايحل بها الخراب ، وتصبح خالية مــن الســكان» ، ولم يكن هنالك احد من السكان يملك اي سلطة ، فكل واحد يفعل ما يريده ، وهكذا تركوا الخراب والنهاية المحزنة ، فقـد أجـابوا زنكي بوقاحة بالاهانات والسباب بشكل كله حماقات ليس لها مثيل ، وقد اقترح الاسقف السرياني بعد التشاور مع اسقف الفرنجة ان يكاتبا زنكي ويطلبا منه هدنة مؤقتة لزمن محدد حتى تأتيهم النجدة ، وقـد بدت هذه الفكرة جيدة ، وهكذا استشار بعض الرجال العقلاء فكتبا الرسالة وقراها للشعب وكان الهدف من ارسال الرسالة هـو تـأجيل النتيجة الحاسمة حتى يلتقطوا أنفاسهم ، لانهـم فقـدوا أملهـم في الحياة ، وكانوا متعبين ومنهوكي القوى في العمل المرهق على السور الجديد أمـام مقـالع الحجـارة ، وكانت النسـاء والبنات والاولاد قد أخذ منهم التعب كل ماأخذ من حمـل الحجـارة التـي يلقيهـــا الأعداء ، بواسطة آلات الحصار تسقط عليهم من الخارج ، ولم يكن هنالك نهاية للاضطرابت المحيقة بهم ، لذلك فكر الاسقفان أن يرتبـا هدنة ليحصل أهل المدينة على بعض الراحة ، ويتأجل ولو الى فتـرة وجيزة الغضب الذي كان ينتظرهم ، وقد رأيا السور وقد هــدم مــن جميع جوانبه بفعل آلات الحصار ، وفي المقلع الشمالي اتلفت أسس السور ووضعت في مكانها العوارض الخشبية وقطع الخشب بالنفط والزيت والكبريت حتى تحترق كالمشاعل عند اللزوم ، وبذلك يســقط السور ، وعند ذلك قام رجل جاهل ، وهو تاجر حرير يدعى حسنون ومد يده ومزق الرسالة ، فحدثت ضجة عظيمة وجلبة وفســدت هــذه الخطة الحكيمة ، ومع أن زنكي كان قد قــال:« انا رغبتـم في هــدنة فاننا سنهبكم ذلك فاذا اتتكم النجدة ، او لم تأتيكم عليكم أن تسلموا المدينة وتنقذوا ارواحـكم » ، فهـــو لم يكن راغبـــا في اتـــلاف المدينة ، لكنه رأى الا فائدة ولا جدوى من الاقناع ، ولذلك كمـا قيل في الكتاب المقدس « لقد جعـل الرب قلب فـرعون قــاسيا كيمــــا يدمره » .

وأصدر زنكي الأوامر باشعال النار تحت السور ، وهكذا أصبح هدم السور أمرا محتوما ومقضيا ونادى المنادون في المعسكرات يحثون الجند أن يستعدوا للقتال وأن ينقضوا عندما يرون السور يسقط على المدينة ويدخلوها من خلال الثلمة ، وقد سمح بنهب المدينة لمدة ثلاثة أيام والتهمت النار الزيت والكبريت وتسربت للعوارض الخشبية وصبوا الزيت عليها ، بينما هبت ريح شمالية فدخل الدخان في أعين رجال الحامية في الأعلى ، وترنح السور العظيم وسقط وكان الخندق المؤقت غير كاف لصد التركمان ، فقد ظهر بأنه قصير لأن الجزء الذي سقط وردم كان أطول من الجزء الذي بنوه وقاتلت الحاميةفي الثغرتين من الفجر حتى الساعة الثالثة من مساء عيد العذراء (أم الرب)(٢٤ كانون الأول) ، وبعد أن قتل الكثيرون اقتحم التركمان المدينة ــ لأن الرب كان غاضبا على أهاليها ــ وبدأوا بالذبح بالسيوف ولم يوفروا أحدا ، وقتل في ذلك اليوم حوالي ستة الاف شخص.

وعندما دخل التركمان هرب النساء والأطفال والشباب الى القلعة العليا لينجوا من القتل ، وكان الباب مغلقا وذلك طبقا لتلك العادة السيئة التي اتبعها الفرنجة بألا يفتح الباب إلا بناء على أمر من الأسقف ، والا ينفذ الأمر ما لم ير رجال الحامية الأسقف بنفسه ، ولهذا فقد ا نسحق الحشد سحقا وذلك خوفا من القتل والأسر ، فأخذوا يدوسون بعضهم ،وانه لمنظر يستدعي الشفقة منظر مفزع مخيف ، فقد أصبحوا كتلة واحدة مسحوقة مؤلفة من حوالي خمسة الاف شخص اختنقوا بهذا الشكل البائس ، واقتيد حوالي عشرة الاف ولد وبنت الى الأسر ، وعندما وصل زنكي الى القلعة ورأى منظر أولئك المختنقين تأثر كثيرا وأمر بايقاف المذبحة ، وقد قتل الأسقف الفرنجي بضربة فأس وهو في طريقه الى القلعة ، وقتل كثير من الكهنة والشمامسه والرهبان.

وكان عندما وصل زنكي الى بوابة القلعة تكلم مع الحامية

برفق ، وطلب منهم التسليم ووعدهم أن يوفر أرواحهم ، فخرج قسم منهم يطلبون الأمان للفرنجة الموجودين في القلعة ، وكان بينهم الكاهن بارصوما (الذي غضب عليه الرب) الاشماعيلي ، وكان قد تمكن بتأثير حديثه من جعل نفسه رجلا بارزا في القلعة ، واقسم لهم زنكي قسما مغلظا أن يحفظ أرواحهم فسلموا بعد يومين من سقوط المدينة ، وفي اليوم التالي استعرض زنكي الأسرى في جميع المعسكرات ، فأختير بعضهم وأرسلوا الى الرق ، وأمر بوضع الحرس على الأبواب لمنع أي شخص غريب من دخول المدينة،ورجع اهالي الرها الباقون الى بيوتهم ، وأعطاهم زنكي كل ما يحتاجونه من الطعام وشجعهم وواساهم وهكذا استقروا في بيوتهم.

ولنعد الآن الى ما حل بأولئك الذين كانوا في القلعة عندما سلمت للاتراك ، وعندما هلك جمع غفير من النساء والأطفال بعد أن اختيروا للأسر ، وكان عددهم حوالي الفين ، وقد قتل ستة آلاف أو أكثر بحد السيف أو الاختناق امام القلعة ، واطلق الحاكم سراح حوالي عشرة الاف من الجنود ، اما أولئك الذين اختبأوا تحت الأرض أو في الحصنين فقد نجوا ايضا ، وعندما سقط الحصن الشمالي بعد أن وعدوا بالحفاظ على أرواحهم احضر زنكي المطران باسيلوس الذي كان تحت الحفظ يحرسه أحد الجنود وبداوا باحضار الفرنجة الذين كانوا في الحصن مع نسائهم وأطفالهم ، وكذلك الكهنة والشمامسة واحضروا معهم كثيرا من الذهب والأواني الفضية وما شاكل ذلك ، وقد التحق بهم الكثيرون لأن زنكي اقسم أن يأخذهم عبر نهر الفرات ، ويطلق سراحهم ويسمح لهم بالذهاب الى حيث شاؤوا ، ودخل القائد صلاح الدين الى القلعة واخذ المطران من يده وقال :« نريد من قداستكم أن تقسموا على الصليب والانجيل أن تكونوا صادقين معنا ، وتخلصوا لنا ، لأنكم تعلمون جيدا انكم تستحقون القتل لأنكم قاومتموه واحتقرتم نبينا ، ونحن مستعدون أن نعاملكم معاملة حسنة ونطلق سراح جميع الأسرى ، وانتم تعلمون انه منذ الزمن الذي استولى المسلمون به على هذه المدينة ، بقيت تحت سلطتهم مئتي سنة

ازدهرت خلالها واصبحت مدينة كبرى ، ولكن اليوم بعد ان حكمها الفرنجة مدة خمسين عاما ، اتلفوها وخربوا اراضيها كما ترون ، وإن الحاكم هنا مستعد ان يعاملكم معاملة حسنة ، وهكذا عليكم ان تعيشوا بسلام وأن تلجأوا اليه، وان تصلوا لاجله»(١١٠).

وخرج من القلعة جميع من كان فيها من رجال المدينة من السريان والأرمن ، وذهب كل منهم الى بيته ونهب التركمان كل ما كان يملكه الفرنجة من الذهب والفضة والأواني في الكنائس والكؤوس والطاسات والصلبان وكثيرا من الجواهر ، ثم جمعوا الكهنة والنبلاء والزعماء ونزعوا منهم كل ما يملكونه ، وارسلوهم اسرى الى حلب ، أنما الآخرون فقد اختاروا أصحاب الحرف وشغلوهم في حرفهم سخرة ، لكنهم عذبوا حوالي مئة شخص ، وبعضهم الآخر ذبحوهم بالسيوف ، وهكذا فقد أصبح كل شيء معطلا ، وبعدها دعا زنكي المطران الأعظم وحمله مسؤولية الاخلاص والصدق مع المسلمين ثم أعطى لرجال الرها بعض المواشي والثيران والعلف ثم عين التركماني زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور حاكما للرها ومعه سبعة زعماء أخرون ، وشكل حامية قوية للدفاع عن المدينة ، وبعد أربعة أيام من الحصار سار زنكي مارا بحران الى الرقة على الفرات ، وقد افتدى أهالي الرها أسراهم فأعيدوا الى المدينة ، وكان الحاكم زين الدين رجلا عادلا واظهر لهم منتهى العطف.

وبعد أربعين يوما من سقوط الرها ارسل زنكي جيشه الى سروج ففر المسيحيون الى البيرة ، واحتل التركمان سروج ، ثم ساروا الى البيرة في أول الشهر القمري من شهر أذار عام ١٤٥٥ (١١٤٤ م) وحضر زنكي بنفسه ووضع آلات الحصار حول المدينة ، وقام بهجوم ضار مركز ، وظل القتال دائرا دون انقطاع من يوم عيد الفصح (يوم الخميس حتى مساء يوم أحد - القيامة) في اليوم الرابع والعشرين ، وحطم التركمان السور الخارجي ، وفي هجوم تال احتلوا القلعة الخارجية ، وقد حدثت

ضجة عظيمة مزقت السكون في الأرض ، لكن الحامية كانت قوية وشجاعة فاستل افرادها سيوفهم وقفزوا على التركان وردوهم على اعقابهم خائبين.

وحضر الى قلعة الروم وهي قلعة على الفرات على مسيرة يوم أو اقل من البيرة ، حضر احد قادة الكونت (جوسلين) واسمه روبرت السمين ومعه قائد اخر يدعى روبرت ، وكان كل منهما محاربا عنيدا ومجربا ، وقد قدما ومعهما مؤنا واسلحة وكل ما يحتاجونه ، وابحرا في النهر ، وعندما اقتربا من القلعة قاما بعمل سخيف يدل على الحمق ، فقد نفخا في الأبواق ، وعندما سمع التركمان اصوات الأبواق ذعروا واندفعوا من جميع الجهات ، فعندما راوا أن القاربين قادمين لنجدة الحاميةهاجموهما من كلتا الضفتين ، وارسلوا قوارب ضدهما ، ولم تعلم الحامية بما كان يحدث وحل بها الخوف عند سماع نفخ الأبواق لأن افرادها ظنوا أن هذا هجوما من قبل العدو ، وعندما اقترب القاربان من ضفة النهر لم يكن هناك من احد يرمي حبلا او يمد رمحا لمساعدتهما وقفز من كان بهما واحدا تلو الآخر الى الماء وخرجوا بسرعة وهم في خوف شديد ، وبعضا منهم جرفه التيار وامسكهم العدو وبعضهم الآخر غرق ، وقد انجرف القارب الذي به روبرت السمين الى القلعة ، ووصل الى منتصف معسكر العدو اذ لم يكن هناك من يوقفه ، وفقد الفرنجة الأمل ، وقفز بعضهم الى الماء ليموت غرقا ، بينما قتل التركمان كل من بقي داخل القارب ، ورمى روبرت السمين بنفسه الى الماء ، ومشى في الوحل حتى وصل الى قرية على الضفة الغربية ، ولما كان عاري القدمين وثقيل الحركة ، لم يستطع أن يذهب بعيدا فاختبأ في مخزن مليء بالتبن والقش ، وأتى في ذلك اليوم بعض التركمان الى القرية لجلب التبن(١١١)فوجدوهفي ذلك المخزن ، فقبضوا عليه وأرسلوه الى زنكي الذي أرسل به مع الأسرى الى حلب ، واما روبرت الآخر ومعه بعض من نجو فقد وصلوا الى الحصن ، وفي أثناء القتال اصابه سهم في عينه فمات على الفور ، وقد دام حصار القلعة اربعون يوما .

وبينما كان الحصار على أشده أتى رسول راكبا على جمل وهـو مسرع كالعاصفة ، وافضى بنبأ أن نصير الدين(١١٢)القائد الذي عينه زنكي في الموصل قد قتل وأن بلاد أقور قد ثارت وتمردت ، وهـو قـد ترك الموصل بسرعة ولايدري ماذا حل بـالمدينة ، وخـاف زنكي لأنه فكر أن ابن السلطان قـد نصـب نفسـه ملكا واسـتولى على كل أقاليمه ، وكان يخشى من الجيش الذي معه فاستدعى في الحـال زين الدين صاحب اربيل وحاكم الرها وأرسله بسرعة الى الموصل ليحـل محل نصير الدين المقتول.وتـرك تلك الليلة زنكي البيرة وذهـب الى حلب اذ كان يخشى اندلاع عصيان هناك،وفي الصباح افـاق اهـالي البيرة فلم يجدوا أي اثر للمعسكر الذي كان يحاصرهم ، ولم يجدوا اثرا لأي رجل أو خيمة ، وقد رأوا المعجزة وهم في أعلى الحصـن ، لقد شهدوا لهب الحرب قد انطفأ والخطر قد زال عنهم ، وهكذا نجت البيرة من زنكي بعد حصار دام أربعين يوما.

وكان نصير الدين قبل مصرعه متمركزا في الموصـل لدعم مـركز زنكي بعدما أصبح نائبه هناك ، وقد كان محاربا شـجاعا وحـاكما عاقلا وحكيما ، وكان ولدا السلطان التركي العظيم الذي كان يحكم في بلاد خـراسان ، في عهـدة زنكي ، وكان عندمـااستولى عمهمـا مسعود على العرش في أصفهان أرسلهما مع زنكي الى تلك المنطقـة لحماية هذه البلاد ، وقد أخذهما زنكي كما لو أن هـذه المنطقـة قـد أعطيت لهما من قبل عمهما ، وأنه هو الوصي عليهمـا ، وهـو قـائد جيشهما ، وقد كانا يتمتعان بكل الاحتـرام الذي ينبغـي للملوك أن يتمتعوا به ، فأحدهما كان يعيش في الموصل ، والآخر كان يتنقل مع زنكي الذي كان يحكم البلاد باسمه ، فبالاسم كان خـادما لهمـا ، وبالحقيقة كانا هما الخادمين ، وعندما كبر أحدهما وهو الموجود في الموصل ذكره بعضهم أنه هو الملك ، وأن الأراضي والبـلاد تـابعة له ولأبيه ، لأنه لايملك حولا ولاقوة فهو كالعبد ، وأنه يجب أن يتصرف كالملوك بدلا من أن يطيع أوامر العبيد ، وقد أعارهم أذنا صـاغية ، فقام مع أعوانه بحبك مؤامرة لقتـل نصـير الدين والاسـتيلاء على الموصل وطرد آل زنكي ، وفي الصباح حالما أتى نصير الدين كالعادة

ليقدم فروض الاحترام لابن السلطان قتله عبيده بين أبواب القاعة الكبيرة في القصر ، وخيم الرعب على الموصل ، لكن فرق جيش الأكراد في الموصل اتحدت مع غلمان نصير الدين وقوت عزيمتهم ودخلوا القاعة الكبرى وقبضوا على ابن السلطان وسجنوه في أحد أجنحة القصر ، وبعد عشرة أيام وصل زين ومعه تفويض بالحكم من لدن زنكي فسلموه المدينة والحصون وخزينة الدولة وكل مظاهر السلطة ، وقد استلم مقاليد الحكم بقوة ، وألقى القبض على الكثرين ممن تسببوا في الفتنة وأعدمهم على الخازوق ، وأمر بقتل ابن السلطان سرا ، وأصبح عين الدولة صاحب (شبختان) حاكما على الرها بعد زين الدين ، وكان فضل الله بن جعفر رئيس حران الذي كان سببا في سقوط المدينة موجودا هناك (أي في الرها) ، هذا ولابد لي أن أشير أن جميع الذين عاشوا في الرها بعد الاستيلاء عليها لأول مرة ظلوا أشرارا ولم يتحولوا عن آثامهم ، مع أن الأسقف كان قد وعظهم ، وذكرهم بالمصيبة والكارثة التي حلت بهم ، وقد ظل عبدون مصرا على ممارسة أعماله الشريرة ، مع أنه كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما ، وكان بارصوما هو الآخر رجلا شريرا ، وقد تزوج بعض نساء الرها من رجال التركمان ، وبذلك خالفوا روح الرب وأنوها ، وقبل ان تمر سنة على احتلال التركمان للرها اقترن حوالي مئة امرأة برجال « وثنيين » وهكذا حلت عليهن نقمة الرب الذي هجرهن وسبب لهن المصائب .

وبعد ان مكث في حلب مدة سنة واحدة انتقل عماد الدين زنكي بن آق سنقر الى الرها في موسم الحصاد في السنة الثانية وترك جيشه على ضفاف نهر (الجلاب) بين كاساس وحران ، ودخل المدينة ومعه قواد جيشه ومستشاريه والولاة في اليوم الخامس ، وكان يوم الثلاثاء ،وفي منتصف ايام عيد العنصرة ، ودلف المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيون لاستقباله من جهة واحدة اما من الجهة الأخرى فقد أتى جميع المسلمون الموجودون هناك ، والذين تجمعوا من الأماكن المجاورة لاستقباله ، وقد حيا المسيحيين بحرارة ، وقبل الانجيل وسلم على المطران واطمأن على صحته

وأحواله ، وقال انه اتى ليطمـئن على احـوالهم ويمـــدهم بمـــا يحتاجونه ، وقد مر من البوابة الشرقية ليدخل المدينة مــن البــوابة الشمالية التي حدث اختراق المدينة وفتحهــا منهــا ، وكان اهــالي المدينة قد رمموا الثغرات والأبــراج السـبعة التــي دمـــرتها الات الحصار ، وجعلوها أقوى مما كانت قبــلا ونقشــوا عليهــا بــاللغة العربية قصة سقوطها واسم الحاكم ، وهدموا كنيســة الاعتــراف واستعملوا حجارتها لترميم السور وبــدأوا يبنون حصــنا للحــاكم بجـــانب كنيســـة القـــديس يوحنا الجميلة ، حيث ســـكن الحاكم ، ووضعوا حراسا على الكنيسة لحمــايتها مــن الضرر لان الفرنجة قد جملوها وغيروا السقف وجــددوا القــرميد ، وكان بهـــا حوالي مئة نافـــذة كبيرة زينوهـــا جميعهـــا بـــالشعريات الرصاصية ، لادخال النور ، ومنع الطيور من الدخول وقد دفن فيها كثير من الأساقفة والبطاركة ، وقد دفن الأســاقفة الفــرنجة بمـــا فيهم (بابياس) الذي قتــل أثناء الحصـــار ، دفنوا جميعــا خلف المنبر وقد غطي ضريحه بقطعة من المرمر الأحمر نحتت بحيث تمثــل صورة الأسقف ، وكان جسم آداي Addai الرسول والملك ابجر في تابوت مطلي ومموـــه بـــالفضة ، وعند ســقوط المدينة سرق التابوت وتناثرت العظام ، ولكن الرجال المؤمنين جمعوا هذه العظام ووضعوها مع نتف من بقايا القديسين في جرة من الفخار في كنيســة السريان التي تدعى كنيسة القديس ثيودور ، وقد استولى المسلمون ايضا على كنيسة القديس اسطفان وجعلوا كنيسة القديس تــوماس اصطبلا ، وكنيســة القــديس اســطفان مخــزنا للعلف والواردات الأخرى التي تصل للحاكم ، وهدموا ايضا كنيسة القديسين ثيودور وميكائيل الملاك في شرقي المدينة ، واســتعملوا حجارتهما لتــرميم الثغرات في السور مــن تلك الناحية ، والقلعــة الشــمالية حيث هلك الجمهور واختنقوا ، وأصلح المسلمون المسجد الذي كان قد استعمل كمقر للمطران الفرنجي ، ودخل زنكي من البوابة الشــمالية بــوابة الساعات ، وذهب باتجاه كنيسة القديس يوحنا ثم انحــدر بــاتجاه الينابيع وعاينها بدقة ، وذهب الى كنيسة توماس الرســول وأفــطر هناك ، ثم امتطى حصــــانه وذهـــب الى الينبـــوع المســـتدير

المدعو « أبجروس » حيث كان هناك في السابق مقر قصر للملك أبجر قد دمر منذ مدة طويلة ، وقد غرست هناك حديقة لاتزال تدعى حديقة المطران ، وفي أواخر الليل ذهب الى كنيسة القديس يوحنا حيث بات تلك الليلة ، وقد نصبت حولها خيام قواده ، ودعا في الصباح المطران واستفسر منه عن البئر الموجودة في جنوب المدينة حيث كان يشفى منه المصابون بالجذام فأخبروه قصة هذا البئر من أولها ..... (١١٣)

كان زنكي يشكو من مرض داء الفيل (تورم القدمين) الذي اصاب قدميه ، وعندما سمع قصة البئر اعتقد ان بركة المسيح يمكن ان تفعل المعجزات فركب وذهب الى البئر ، واخرج منه ماء غسل به قدميه ، وكانٰ كل مابقي من الكنيسة هو المذبح في الشرق ، لذلك امر زنكي ببناء دار ضيافة ومأوى للمرضى الذين يفدون الى ذلك المكان للاستشفاء ، وأوقف على هذا المأوى ريع الحقول المجاورة ، ولكن الرب لم يرغب ان يتم هذا العمل لذلك عجل بموته قبل ان يتمه .

وزار كنائسنا السريانية وتأمل في جمالها ، وامر بوضع ناقوسين كبيرين يعلقان فيها كما كانت العادة عند الفرنجة ، ثم استعد للذهاب وأوصى المطران ان يكون حريصا على حراسة المدينة ، وأن لايخون الحكومة ، وترك المدينة يوم الجمعة بعد انتهاء عيد العنصرة ، وذهب الى الرقة عن طريق حران وارسل بعض الجنود لنهب اراضي قلعة جعبر ، ثم اسكن ثلاثمائة عائلة يهودية في الرها ، وبعد اقامة قصيرة في الرقة تقدم زنكي على راس جيشه بكامله لحصار قلعة جعبر ، فهاجمها بضراوة ولكن دون جدوى لأنها كانت قلعة حصينة وضايق القلعة بهجوم شديد لأنه كان قد اقسم الا يرجع حتى يستولي عليها ، وفي ليلة الاحد وهو يوم عيد الصليب المقدس الموافق ١٤ أيلول ، وبينما كان زنكي نائما لايشعر بأي هم من هموم الدنيا ، ويحلم ان يعيش سنوات وسنوات اذا باثنين من خصيانه المقربين ينقضان عليه ويقتلانه وهو في فراشه ، ثم يهربان الى القلعة ، وانتشر الخبر في تلك الليلة ان زنكي قد قتل ، وخيم

الرعب على المعسكر وانتشرت الفوضى فيه ، فاخذ كل شخص يقتل الآخر ، وكل من كان يحمل اي حقد على جاره ويملك اي سلطة ، كان يقوم بالانتقام فورا ، اما القادة والزعماء الذين فقدوا صوابهم وتشوشت افكارهم واصبحوا يضربون اخماسا بأسداس ، فقد عقدوا اتفاقات سرية وهربوا الى بلادهم ، وأما بقية الجند وجماهير الشعب والتجار فقد نهبوا ، ونهب الحراس خيمة زنكي ومعسكره وأمواله ومخازن اسلحته واملاكه الشخصية ، وإبله وخيوله التي لاتعد ولاتحصى ، وكلها نهبت واصبح ذلك الشخص الذي كان يرهب العالم في الأمس وحيدا في الصباح دون ان يجد من يدفنه ويواري جسده التراب ، وكان له اربعة أبناء ، وكان الاكبر غازي سيف الدين في بلاد العجم مع سلطانه ميديا (١١٤) وبابله والثاني نور الدين محمود كان معه في المعسكر عند قتله ، والابنان الآخران وهما قطب الدين مودود وميرميران كانا في الموصل ، ولكن الزعيم العاقل صلاح الدين ، حالما سمع بمقتل زنكي بادر بأخذ ابنه محمود والقواد الآخرين الذين كانوا معه الى حلب ونصبه حاكما عليها ، وقد استولى على الأموال والثروات الموجودة هناك ، ولم يدفن احد زنكي بل تركوه حتى قيض الله له بعض الرجال الذين حملوه الى الرقة ودفنوه هناك ، وحكم قطب الدين مودود في الموصل وكان زين الدين هو مستشاره ، وحكم نور الدين في حلب ومابين النهرين في عام ١٤٥٨ (١١٤٧ م) ، واستولى على حماه وحمص ودمشق مع أن والده لم يستطع ذلك ، وعقد هدنة مع الفرنجة حيث قابل جوسلين وعملا عهودا موثقة بالقسم ، وكان اكثر دهاء وبراعة من والده ، ولهذا زادت قوته ، واخذ اعزاز ، وبعلبك التي استولى عليها حاكم مصري يدعى الضحاك .

وبقي الفرنجة في كل مكان واخلدوا للراحة والسلم ، وقد حزن جوسلين من أجل الرها ، ولكن لم يستطع ان يعمل شيئا ، وعندما سمع بمقتل زنكي فرح فرحا شديدا لانه ظن أن المسلمين سوف يتنازعون ولاينتبهون للرها ، وعمل خطة تقضي بأن يقوم بلدوين

صاحب كيسوم ومرعش بمد يد المساعدة له ، ولكن بيتا بين صاحب انطاكية أهمل المساعدة وذلك لانه كان حنقا عليهما لانهما لم يعترفا به سيدا ، وبعد اربعين يوما من موت زنكي جمع بلدوين وجوسلين قواهما في دلوك واستعدا للزحف على الرها ، وفكرا أن يباغتا المدينة ليلا ، وسمع حكام حلب ماازمع عليه جوسلين وماجمعه لهذه الغاية ، فارسلوا رسلا لحكام الرها يقولون لهم ان الفرنجة يجمعون الجموع ، ولانعلم الى اين هم ذاهبون ، فاذا اتجهوا نحوكم فنحن قد جمعنا قوانا ايضا وسنأتي بالسرعة الكلية ، انتبهوا لانفسكم وحافظوا على المدينة ، اجعلوا المسيحيين يقسمون بالولاء لكم وخذوا منهم رهائن ، وعندما وصلت هذه الاوامر الى الرها اخذ حكامها رهائن من المسيحيين حوالي خمسين رجلا من رجال الحرف كالبنائين والصناع والحدادين ، وأعدوا كل ماهو مفيد ويمكن ان يحتاجونه في الحصون في المدينة ، وسرعان ماحضر الفرنجة في السابع والعشرين من تشرين الأول (بعد سنتين من سقوط المدينة) وقد اختبأوا في أحد الوديان حتى المساء ، وعندما هبط الليل ارسلوا بعض الرجال الأشداء على الأقدام فاقتربوا من المدينة من جهة الغرب ، واختاروا احدى الزوايا حيث لم يكن هنالك حرس فيها ، وتسلقوا السور بسرعة ، ثم انزلوا الحبال واخذوا يسحبون السلالم مع بعض الرجال من رفاقهم ، وعندما تقدم الحراس ليروا من أتى الى السور هاجموهم وقتلوا قسما منهم ورموهم الى خارج السور وسمعت الأصوات وحدثت ضجة عظيمة وجلبة ، وصرخ الفرنجة على السور صراخ الفرح ، واخذوا يسبحون بحمد الرب فسمع الجنود في الكمين المنصوب على مسافة ، فاندفعوا بشكل كتلة موحدة ووصلوا الى المدينة في الساعة الثالثة ليلا ، ثم نزلوا وفتحوا الأبواب : الباب الغربي بجانب النافورة ، ودخل فرسان الفرنجة ومشاتهم الى المدينة ، وفي الحال توقف هؤلاء الحمقى عن القتال واهملوا الحراس المسلمين والمسيحيين وأخذوا يضعون ايديهم على كل مايجدونه ، وحالما راى المسلمون هذا الخطأ ، هرعوا الى الحصون ففتح لهم من كانوا في الأبواب واستقبلوهم واستقبلوا اطفالهم

ومقتنياتهم دون ضجة او فوضى ، ولم يرتكبوا الخطأ الذي ارتكبه الفرنجة عندما سقطت المدينة لأول مرة بأن اقفلوا الابواب وسببوا الفوضى والتشويش والاختناقات ، وقفز كثير من المسلمين من السور ليلا وهربوا الى حران لانه لم يطاردهم احد ، وعندما طلع الصباح استدعى الكونت المطران السرياني وطلب منه أن يهيء الات الحصار للهجوم على القلاع ، ووضعوا الات الحصار ونصبوها وهاجموا القلعة السفلى بضراوة ، ولكن دون جدوى او نجاح لأن القلاع كانت تعج بالرجال وكانت عالية وقوية ـ ولم يستطيعوا ان يهاجموا القلعة العليا لانها كانت مليئة بالرجال الاشداء ، وهكذا ظلت المدينة عرضة للشدة والكرب ستة ايام ، وعندما راى الفرنجة انهم لايستطيعون ان يستولوا على الحصون ، وان أعداءهم كثيرون وهم يتقاطرون من كل حدب وصوب ، حلت بهم المخاوف ، واستولى عليهم القلق ، وتجمع في كل ليلة اهالي المدينة حول المعسكر الفرنجي قرب كنيسة ابجر ، وذلك خوفا من التركمان ، وفي يوم السبت اتى جاسوس قادم من جهة العدو وحذر جوسلين من أن فرقا من الجند قد تحركت من حلب ومنبج ومعها كثير من التركمان ، وقد انتشروا فوق السهول الشرقية والتلال ، وقرر الفرنجة ان يخلوا المدينة في الليل دون علم المسلمين في الحصون او التركمان في السهل الشرقي والتلال الشرقية ، ولكن هل من الممكن ان يخرج الألوف من الرجال والخيول من بوابة واحدة دون ان يشعر بهم احد ؟ ولو خرجوا ليلا لأوقفوا حركتهم ، ولكنهم انتظروا حتى مضت ثلاث ساعات من الليل ، وفتحوا البوابة الشمالية وهي باب الساعات وبدأوا بالخروج ، وعندما راهم أهالي المدينة المسيحيون ونساؤهم وأطفالهم ، وعلموا ان الفرنجة قد تركوهم تحت رحمة الطغاة الوثنيين ، بدأوا بالصراخ والعويل ، وغرقت المدينة في لجة من الفوضى وساد عويل النساء والأطفال الضائعون يتجولون وهم شاردون في كل مكان ، وهم يصرخون بالم طلبا لأمهاتهم دون جدوى ، وهم يتراكضون بين جماهير الرجال وسنابك الخيول التي

كانت تدوسهم وتفتك بأجسامهم وتمزقهم بحوافرها اربا اربا دون ان ينقذهم اي انسان ، وكانت السماء مظلمة ولم يكن هنالك اي نور او ضوء ، واندفع الجميع باتجاه البوابة الشمالية رأسا من خلال الشارع الذي يؤدي الى بوابة الساعات ، وهنالك كنت ترى الجنود والرجال المدججين بالسلاح والدروع والخيول والحيوانات ممتزجة بالاولاد والنساء والاطفال يتدافعون ويدوس بعضهم بعضا دون شفقة او رحمة ، والماشية والبغال والحمير التي كانت تحمل الاسلاب التي اخذها الفرنجة من المدينة ، وسقطت هذه الحيوانات على الارض ولم يستطع احد أن يرفعها او أن يرمي ما عليها من اثقال واحمال ، وقد انسحق الأطفال بين هذه الحيوانات ولاقوا حتفهم بشكل بائس مريع ، وفي كل طريق كنت ترى الكثيرين يلقون على الارض : رجال ، حيوانات ، نساء وأطفال ، شباب كلهم لاقوا حتفهم بشكل بائس وليس هناك من يمد لهم يد العون ، وهكذا كانت نهاية هذا الخروج المعيب ، وقد تركوا بيوتا مملوءة بالمؤن والحاجيات ، أبوابها مفتوحة والمصابيح فيها مضاءة والفرش ممدودة.وغادرت العساكر الفرنجية ومن استطاع اللحاق بها المدينة وتجمعت حول أحد الابراج وهو ، عمود النساك امام كنيسة الاعتراف حيث شكل التركمان نطاقا حولهم وامطروهم بالسهام التي اخترقت اجسادهم ، وقد اختلط الحابل بالنابل فلم يكن يسمع الا صوت السيوف وهي تضرب فيما يشبه جذوع الاشجار ، وارتفعت الاصوات في الظلام ، ولم يكن من السهل على المسيحيين التفريق بين التركمان والعساكر الفرنجية ، واختلط جنود الفرنجة بالجمهور وكان كل واحد منهم يحاول أن يخفي نفسه بالاندفاع نحو الوسط ، وصاح قادة الفرنجة بسخط وفزع: اكراما للرب تعالوا نحو الخارج وقاتلوا برجولة وقاوموا هجوم العدو ، وإلا فإننا سنضيع وترجل الفرسان واحاطوا بالحشد وظلوا هكذا حتى طلوع الفجر ، وعندما طلع النهار ركب بلدوين وجوسلين مطاياهما وأعادا النظام بين صفوف الجند ، وتقدم بلدوين الى الامام وقاد جوسلين المؤخرة ، بينما كان المشاة على يمين ويسار

الحشد ، وعندما بزغ النهار في يوم الأحد الحزين هذا في الثالث من تشرين الثاني ، وهو عيد القديس جورج ، ساروا بهدوء في طريقهم الى قلعة (سميساط) ، وكان العدو الذي يعد بالألوف لا بل عشرات الألوف قد أحاط بهم وقتل كثيرا من الجنود ، ومن الرجال غير المقاتلين ، ولكن الجنود حاربوا ببسالة ولم يعطوا مجالا للعدو للتقدم نحو الحشد ، لأنهم كانوا رماة أشداء ، وتحرك الفرنجة وقد أخذ التعب منهم كل مأخذ فضلا عن الخطر الشديد الذي كان يحدق بهم ، إذ ليس باستطاعة القلم أن يعبر عن الحزن الشديد ولا أن يصف ذلك المنظر المشؤوم لشعب أصيب في الصميم مثل شعب الرها ، فقد ساروا حفاة على الحجارة الصلبة والأشواك والحسك والمسامير ، وقد مزقت أقدامهم كما لو بالسكاكين وسال الدم من أرجلهم مما سبب لهم الآلام المبرحة ، وكانوا يتدافعون دون أيما نظام ويسقطون بعضهم فوق بعض ، وكان الواحد منهم يجر قدميه جرا ويتقدم ويندفع ثم يسقط ويمد جسمه نحو الشرق ، وبالوقت نفسه كان المطاردون يذبحونهم كالغنم ، وكان الأطفال يركضون حفاة الأقدام بين الأشواك ، وألسنتهم متدلية من شدة العطش ، وأفواههم مرة كالصبر أو العلقم ، وأسنانهم سوداء كالسخام ، شاردون ، منساقون بين الحشود تدوسهم سنابك الخيل ، وهم يهلكون ، زد على ذلك أن طريقهم لم تكن لتمر على أرض معبدة ، بل كان عليهم أن يمروا بالأدغال ، وكان أمامهم غابة كبيرة تقع في السهل ، وأشعل العدو النار في الغابة فأصبحت النار تتوهج أمامهم وحولهم ، ولم يستطيعوا أن يتحولوا عن الطريق بل تابعوا السير بأقدام محترقة ، وظلوا في هذا العذاب حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي ، وكان التعب قد حل بالعدو أيضا لأنهم ظلوا يحاربون طوال الليل والنهار يقاتلون ويزحفون ، لذلك استعدوا للعودة خشية أن يباغتهم الفرنج من بعض الحصون ، يضاف الى هذا أن قسما منهم رغب أن يساهم في نيل الغنائم من المدينة ، لأن كثيرا من المشاة بقوا هناك حيث كانت حاميات الحصون قد بدأت في نهب المدينة ، وهكذا رجع العدو ولم يبق الا قليل من التركمان.

وارتكب الفرنجة خطأ فادحا فقد صمموا على مهاجمة الأتراك الذين كانوا لا يزالون حولهم ، ولذلك هاجم الكونت جوسلين ورجاله الذين كانوا في المؤخرة ، هاجموا العدو قربهم وعن يسارهم اي في الغرب وعندما راى بلدوين ان جوسلين قد بدأ الهجوم وان الأبواق قد بدأت تنفخ هاجم الفرنجة من اليمين وتقدم فرسان الفرنجة بشكل متهور وسط جموع التركمان الذين التفوا عليهم من المؤخرة وكسروهم ، ولم يعد الفرنجة يفكرون بالنظام والتماسك ، بل أصبح كل منهم يبغي النجاة لنفسه بشكل هزيمة معيبة مخجلة ، ورموا برماحهم ودروعهم وسوابغهم المصنوعة من الزرد وكل ما لديهم من سلاح ، وحتى السيوف التي بأيديهم ، وذلك نتيجة للفزع الذي حل بهم ، ووصل المشاة الى قلعة متهدمة قريبة على يسارهم على تلة السور حيث التجأ اليها حوالي الفان وكانوا من شباب الرها المنعمين المترفين ، أما النساء والأطفال والرضع فقد تركوا للنهب والاسر والعبودية ، واصيب جوسلين بجرح في يده من رماية بسهم لكنه نجا ووصل الى قلعة سميساط في حالة تعيسة ، وأما بلدوين الذي كان شابا وسيما أشقر طويل القامة ، عريض المنكبين ، شديد المراس في الحرب والقتال ، لم يعد يعرفه أحد من شدة ما نزل به من الضربات بالسيف والطعنات والسهام ، وقد هلك كثير من الكهنة والشمامسة والرهبان الذين نجو من الحصار الأول ، واحتل التركمان المدينة بكاملها ، ونهبوا أموال جوسلين وبلدوين وجميع أموال الشعب.

واصبح التركمان والقبائل المختلفة أسيادا لتلك المدينة الشهيرة التي لم تنهب أبدا منذ تأسيسها من أيام سلوقس قبل الف وخمسمائة وستين سنة ، ففي المرة الأولى استبيحت للنهب مدة يومين فقط ، وقد انقذت من النهب والسلب على يد زنكي عندما أمر بأن يرجع الجميع الى بيوتهم وديارهم ، ولكن في هذه المرة استمر النهب سنة كاملة بدلا من يومين ، فكان التركمان يتجولون في المدينة ويحفرون ويبحثون في الأماكن السرية والأسس والأسطحة ، وقد

- ٢٠٢١ -
وجدوا كثيرا من الكنوز التي خبأها الآباء وقدماء السكان ، والتي لم يكن يعرف عنها الأهالي الحاضرون شيئا.

وأما أولئك الذين نجوا من الهلاك والتجأوا الى القلعة فقد تفرقوا بأعداد صغيرة تبلغ الخمسة او العشرة رجال عند حلول الليل ، وقد قتل بعضهم ونجا الآخرون ، ووصلوا الى سميساط لأن أملاك الفرنج كانت قريبة منها ، وقبض على الاسقف الأرمني وبيع عبدا في حلب ، وأما باسيلوس المطران السرياني فقد هرب الى (سميساط) ولكن لم ينج الكثير من الكهنة فبعضهم قتل وبعضهم اسر ، وأما رئيس الكهنة وراس الفتنة والفوضى ومخرب الكنيسة وهو (عبدون) فقد ألقي القبض عليه في تلك الليلة المشؤومة خارج بوابة المدينة ، فسقط في الخندق لكنه ظن أن المسيحيين سوف ينتشلونه فصاح « من يريد أن يكسب مائة دينار فلينتشلني » وسمعه أحد التركمان فنزل إليه وقتله واخذ كيس نقوده الذهبية الذي كان معه ، وكل ما كان في حوزته من الأموال ، واكلت الكلاب جثته وذهبت روحه الى العقاب الأبدي ، وإذا لم يعف الرب عنه فإن مصيره الى جهنم وبئس المصير ، وبدا جميع الذين نجوا من الأسر والدمار بالتجوال والاستجداء من اقاربهم المستعبدين ، غير أن المسيحيين الذين كانوا في الشرق والغرب وخصوصا الذين سكنوا ماردين وشبختان وفي (سبابرق) كانوا كرماء ورحماء نسأل الرب أن يرحمهم ، ونذكر بينهم الفضائل التي يعجز عن وصفها اللسان التي امتاز بها يوحنا أسقف ماردين وهو من أهل الرها ، نسأل الرب أن يعلي اسمه ويكتب عاليا في بيت المقدس ، أما في غربي الفرات فكانت الرحمة معدومة بين المسيحيين ولم يظهر منهم سوى الشر والقسوة وعناد الراس والعقول المتحجرة ، خصوصا عند الكهنة والرهبان والاساقفة.

(الحملة الثانية)

وفي عام ١٤٥٨ (التاريخ الصحيح ١١٤٨ م) بعد سقوط الرها للمرة الثانية اجتمع ملك الالمان وملك فرنسا على رأس جيش قوامه ثلاثمائة وخمسة وتسعون الف مقاتل ، ووصلوا الى القسطنطينية عاصمة الاغريق عن طريق البحر ، وغرر الامبراطور بهم وارسل معهم ادلاء قادوهم الى الصحراء حيث لاماء ولا طعام ، وبعد أن تقدموا مسيرة عشرة أيام عن القسطنطينية نفد منهم طعامهم ، ولم يجدوا بيوتا او قرى يستطيعون أن يشتروا منها أي شيء ، وحتى الماء نفد منهم ، فهاموا في صحراء جافة مجدبة ، ولم يعلموا ماذا يفعلون ، فقد هجرهم مرشدهم ليلا واخطروا تركمان كبدوكية ، فخرج الأمير مسعود مع جيشه ، فوجدهم في الصحراء منهوكي القوى من الجوع والعطش ، ونجا الملكان ومعهما قليل من الجند ، ووصلا الى البحر ، ثم تقدما حتى انطالية وذهبا بالسفن الى انطاكية بعد أن خسروا كل شيء ، اماالتركمان فقد غنموا غنائم لا تعد ولا تحصى من الذهب والفضة التي كانت بين أيديهم كالحصى ، وفي أواخر العام وصل الى عكا امير اخر يدعى الفونسو (الفنش) ومعه زوجته وعائلته وتبعه الف من الخيالة وكان من اقرباء كونت طرابلس الذي كان يخشى أن يطالبه هذا بحصة أرضه واملاكه ، لذلك دس له السم الزعاف مع واحد من افراد بيته الذي ناوله اياه فمات.

وكان بلدوين على عرش القدس أنذاك ، وقد قابله ملك الألمان وملك الفرنجة في بيت المقدس ، واتفقوا جميعا على مهاجمة دمشق ، والقاء الحصار عليها ، وعندما احاطوا بالمدينة ، شددوا الهجوم عليها وخصوصا الألمان ، وارادت الحامية أن تستسلم بعد أن شعرت بالضيق والخطر ، ولكن الحسدوالغيرة التى امتاز بهما الفرنجة سببت اخفاق الحصار ونجاة المدينة ، فقد بدا ملك بيت

المقدس يفكر بنفسه ان الفرنجة الغرباء إذا استولوا على المدينة فانهم سوف يصبحون اقوياء ، وربما اخذوا بلاده منه ، ولذلك ارسل رسالة الى رجال الحامية يسالهم كم يعطونه إذا جعل الملوك الغرباء يرتحلون عن المدينة؟ وسبب هذا العرض السرور لدى جند الحامية ، فوعدوا باعطاء ملك القدس مئة الف دينار ذهبية ، فنصح الملكين أن يحولا معسكريهما ، وهكذا انتقلا من موقع حصين الى موقع غير مناسب ، وعندما راى الملكان ان ملك القدس غير مخلص غضبا ، وتركا دمشق وذهبا عائدين الى عكا ، واستلم ملك القدس مئة الف دينار ، لكنه وجد بعد وقت قصير انها كانت من النحاس الاصفر وليس ذهبا ، هذا وقفل الملكان راجعين الى بلادهما بحرا ، وعندما سمع (عين الدولة) بن غازي بن دانشمند صاحب ملاطية بما حل بجوسلين في الرها ، وتأكد ان بلدوين صاحب كيسوم قد مات ، وبما انه هو الذي كان يحكم اراضي زوبر ومنطقة التلال حتى حدود ملاطية ، فقد جمع جيشا وهاجم به الاديرة في(زوبر) ، وكانت أرمينية ، وهي دير روبير الكبير وتاجنكار وشمانج وشيكار ، فاستولى عليها جميعا مع القرى والأديرة التي كانت حولها في مدة ثلاثة ايام ، وكانت هذه الأديرة قوية وغنية ، ومليئة بالمحاصيل الزراعية ولم يفتحها أي عدو منذ زمن طويل ، وقد استباح السكان ، وجعلهم عبيدا ، وعددهم سبعة الاف واربعمائة نسمة ونهبهم ، وقد كان جنوده مشدوهين لما رأوه من الثروات ، فاصحاب هذه الثروات لم يساعدوا الفقراء ولا المحتاجين ، وبعد أن نهبهم استعبدهم واشعل النار في المباني وأراق الخمور واتلف الزبيب والتين والجوز واللوز والأعلاف والاطعمة ، وكانت بكميات لا تحصى ، وأحرق كثيرا من الكتب من جميع الانواع ، وفي تلك الاثناء استولى التركمان على قلعة تدعى تل ادنا او اجنجاتل (تل اعذي) وهي فوق سميساط فقتل رجالها واستعبد عددا كبيرا من نسائها وأطفالها ، ثم دمر القلعة بالنار وايضا قلعة أخرى تدعى سروج في ارض(تل باشر) ، وقتل الرجال واستعبد النساء والأطفال واستولى ابناء داود الارتقي على تل ارسينوس على نهر(١١٥) يسمى بذلك الاسم ، وهو أحد روافد

الفرات ، وبعد موت الوالد تفاهم الابناء ، فالأبناء الاقوياء استولوا على ذلك المكان بالقوة واستعبدوا خمسة الاف سرياني مسيحي ونهبوا كل شيء ورحلوا ، ونهب جوسلين دير القديس بارصوما .

وفي عام ١٤٦١ (التاريخ الصحيح نهاية عام ١١٤٨ م) جمع نور الدين جيوشه وحاصر يغرى(١١٦) وهي جوار انطاكية وكان صاحبها في (جبلة) على البحر ، وعندما سمع الخبر سار بجيشه وضرب التركمان فجاة وقهرهم ، وهرب نور الدين ومعه خمسمائة فارس إلى حلب ، وقتل حوالي عشرة الاف ، واستولى الفرنجة على معسكر نور الدين والذهب والفضة والعبيد الذكور والاناث والطبول والأبواق والجواري المغنيات والموسيقيين ، واستولى الفرنجة على كل هذا ورجعوا إلى انطاكية مسرورين ، وعندما خرج سكان انطاكية لاستقبالهم حدث ما لايمكن وصفه من الابتهاج بين جميع المسيحيين ، وكان مع الفرنجة سيد من أسياد العرب يدعى علي بن وفاء الذي كان يحقد على نور الدين ويخدم في انطاكية .

وبعد ثلاثة أشهر من هذه الهزيمة جمع نور الدين جيشه وحاصر إنب ، وعندما علم بيتابين صاحب انطاكية بذلك جمع جيشه واستعد لحربه ، ولدى سماع نور الدين بمجيء الفرنجة ترك القلعة وانسحب إلى التلال وعسكر الفرنجة في السهل حوالي إنب ، وقد أخبر الكشافة نور الدين أن عدد الفرنجة صغير ، فاستعد للقتال ونفخت الأبواق ، وانحدر جيشه واطبق على الفرنجة وكان الرب غاضبا على الفرنجة ، ولذلك هزموا وهربوا ، وقد قتل غودفري صاحب مرعش وعلي بن وفاء ، وأخذ نور الدين كثيرا من العبيد ، وانزل اضرارا جسيمة بأراضي الدوق (جوسلين) واستولى ايضا على حارم وعم وارتاح ، وجميع القرى حول حارم ، وقد قتل حاكم انطاكية ، وكان انكسار الفرنجة هزيمة منكرة ، فقد أخذ التركمان عبيدا واسرى وخيولا وبضائع لاتقدر بثمن ، وكان جوسلين صاحب الرها في أعزاز عندما علم بمقتل حاكم انطاكية ، وهكذا جمع بعض الرجال من هناك ، وذهب الى انطاكية ليحكمها ، وعندما وصل إلى قورس

واستعد للعبور إلى شـيخ (١١٧) (الدير) ، هناك انقض عليه بعض التركمان وقبضـوا عليه بعـد ان كانوا مختبـئين بين الأشـجار ، فوعدهم أن يعطيهم كل مايريدونه إذا أوصـلوه إلى اعزاز ، لكنهـم اخذوه إلى قرية تدعى شبح الدير ، ولم يكن التركمان يعـرفونه لكن المسيحيين عرفوه وارادوا أن يشتروه من التـركمان ، فـاتفقوا أن يكون الثمن سـتين دينارا ، عندهـا حـدث بمشـيئة الرب الذي لا اعتراض على حكمه فهو يفعل مـا يريد ، أن مـر يهـودي صـائغ بالقرية ، وعرفه فأخبر التركمان انه جوسلين ، وهكذا اخـذوه إلى حلب فأمر نور الدين بسمل عينيه ورماه في السجن مقيدا بالسلاسل والاغلال ، وقد بقي تسع سنوات في السجن ثم مات هناك (١١٨).

وفي عام ١٤٦٣ (التاريخ الصحيح ١١٥٣ م) اسـتعد بلدوين ملك بيت المقدس وحاصر عسـقلان ، وكان احـد رجـال الفـرنجة البارزين قد ابلى بلاء حسـنا في حصـار عسـقلان ،واسـمه ريمون (١١٩) وقد طلب هذا مـن ملك بيت المقـدس أن يزوجـه أرملة صاحب انطاكية المقتول ، فوافق الملك على ذلك واذن له بالذهاب إلى انطاكية لاتخاذ سيدتها زوجة له وليصبح حاكما للمدينة ، وغادر هذا متوجها إلى انطاكية وبلدوين مايزال يحاصر عسقلان وشدد الفرنجة الحصار ، وبنوا برجا من الخشـب كان اعلى مـن سـور المدينة ، ووضعوا جنودا على البرج ، وآلةلرمي الحجارة والسهام على المدينة مباشرة ، فأصبح كل من يخرج من بيته او يأتي إلى الشارع معرضا للقتل ، وهكذا شعر اهالي المدينة بالكرب من الجوع والقتال ، وكان الحصار طويلا ، ولما راوا الا منفـذ لهـم ، لان حـكام مصر كانوا يحاربون بعضهم بعضـا كمـا سـنذكر ، ولم يكن هناك اي امـل بالمساعدة من اي جهـة اخـرى ، طلب اهـالي المدينة أن تحفـظ ارواحهـم ، فنزل الأعيان منهـم وقـابلوا الملك والبـطريرك اللذان اعطياهما وعدا معززا بـالقسم ، وهـكذا اسـتسلمت المدينة وخير الناس من اراد أن يبقى في المدينة تحت حكم الفرنجة سمح له بذلك ، وأما الذين رغبوا بالذهاب إلى مصر فأخذوا أسرهم وأموالهم ورحلوا بسلام .

وحدث في تلك السنة زلزال هدم مدينة (شيزر) بكاملها ، وقد هلك حاكمها وأولاده واهل بيته ، واربعون الفا من الرجال الاخرين ، وسقط نصف الصخرة التي بنيت عليها القلعة وقتل كثيرون في حماه والسلمية وفي معظم القرى المجاورة ، وحدث أيضا ان استولى نور الدين على حران وانتزعها من اخيه (ميرمران) وكذلك على بيت هسنا (بهسنا) بعد حصارها واستولى التركمان على دير البارد وقتلوا أربعة من الرهبان ، واستولى نور الدين على عين تاب ايضا عنوة ، ودمرها كليا ، ولم يظهر اي رحمة ولاشفقة واخذ الأسرى والغنائم إلى حلب .

وفي عام ١٤٧٠ (التاريخ الحقيقي ١١٥٧ م) اتى إلى بيت المقدس رجل شهير ينتمي إلى ملوك الفرنجة ويدعى كونت فلاندرز ، ومعه عدد كبير من الجند ، وكون جيشا عظيما بعد أن جمع معه ملك القدس وكونت طرابلس وطوروس الأرمني صاحب كيليكية ، وحاصر شيزر واستعبدوا كل من فيها واستولوا على الحصن ، ونهبوها كليا ، وقتلوا الكثيرين ، وأخذوا حوالي خمسة الاف امرأة وطفل عبيدا لهم ، وأخذوا كميات من الذهب والفضة لانهاية لها ، ثم زحفوا إلى حارم التي استسلمت لأن المسلمين فيها قد ذهبوا إلى حلب ، وفي نهاية العام اتى مانويل امبراطور القسطنطينية إلى انطاكية وعسكر على ضفاف نهر (عفرين) ، وتظاهر أنه يريد حلب وهكذا جمع نور الدين الفرق الاسلامية من اقور ومابين النهرين وآمد وماردين وميافارقين ليحارب الامبراطور ، وذلك لأن المسلمين كانوا شديدوا الخوف من الامبراطور ، ولكن الامبراطور سمع أن اندرونيكوس الذي كان واحدا من النبلاء قد ثار ضده في العاصمة ، لهذا بادر إلى عقد هدنة مع نور الدين ، وافق بها نور الدين على إخلاء سبيل الأسرى الذين في حلب بما فيهم ابن الفونسو الذي دس له كونت طرابلس السم ، ورجع الامبراطور إلى عاصمته ، ولم يحقق أي عمل ، او اي انتصار في هذه الحملة .

وفي تلك السنة حدث زلزال هدم مدينة (جبلة) على الساحل ،

وتسبب في قتل حوالي الفين من الناس ، وفي تلك السنة غزا أراضي حلب ونهبها رينالد صاحب انطاكية وجوسلين وهو ابن جوسلين الذي اسر في حارم ، وبعد ان عاثا في الارض فسادا واسرا وقتلا من شاءا ، رجعا إلى أماكنهما دون أن يحدث لهما أي ضرر ، وذهب رينالد إلى انطاكية ، بينما بقي جوسلين في إحدى القرى يأكل ويشرب ، وإذا بجيش التركمان يداهمه ويلقي القبض عليه ويأخذه إلى حلب حيث وضع وهو مقيد بالسلاسل والأغلال مع والده ، وفي تلك السنة عاد رينالد لنهب وسلب أراضي حلب ، لكن في طريق عودته داهمه جيش تركماني وكسر جنوده عند النهر الأسود ، وأخذه اسيرا وقيد بالسلاسل ، وفي تلك السنة أصبح أحد ابناء بيتابين(١٢٠) حاكما على انطاكية ، فطرد والدته التي ذهبت إلى اللاذقية .

وحشد في عام ١٤٧٥ (١١٦٤ م) نور الدين جيوشه ، وجلب اخاه قطب الدين حاكم أقور والموصل وزين الدين حاكم إربيل ، وحاكم سنجار ، وزين الدين صاحب حصن كيفا وارض هنزيط وحسام الدين صاحب ماردين وشهاب الدين صاحب زندان والبيرة ، وابن عمه مجد الدين وسيف الدين صاحب منبج والرها ، وعندما تجمع كل هؤلاء حاصروا حارم ، وقد بلغ عددهم سبعون الف فارس واربعون الف راجل ، ووضعوا الات الحصار وقاموا بهجوم ضار على الحصن الذي كان يحكمه رينالد (١٢١) وكان محاربا ، وقد قاوم هذا بعنف وشجاعة وجمع الفرنجة ستمائة خيال وخمسة الاف راجل تحت قيادة كونت طرابلس وصاحب انطاكية وطوروس الارمني ، وزحفوا جميعا من انطاكية إلى حارم ، وعندما سمع التركمان خبر قدوم الفرنجة وتقدمهم نحوهم انتقلوا إلى قرية تدعى عم ، ووصل الفرنجة وعسكروا في المكان الذي كان التركمان يعسكرون به ونصحهم طوروس صاحب كيليكية وقال إنه مادام أنهم قد نجحوا في رفع الحصار عن الحصن ، يجب عليهم أن يسحبوا الجنود الضعاف من الحصن ويضعوا مكانهم جنودا اقوياء شجعانا ويرجعوا إلى انطاكية وينتظروا رجوع ملك القدس من مصر ، ولكن

كونت طرابلس لم يوافق على هــذه النصــيحة واصر على القتــال ، وقهر التركمان لأنهم جميعــا كلاب حســب رايه ، وهــكذا زحـــف الفرنجة من حارم إلى عم ، وعندما اقتــربوا راى التــركمان الذين كانوا على التل أنهم قليلي العدد ، ونفخوا الأبواق وانحدروا نحوهم وهاجموهم ، واحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وضربوهم ضربة قــاضية ، وهــرب كونت طــوروس الأرمني ، وأسر دوق الاغريق ، وقتل جميع الرجالة ، وأسر صــاحب انطــاكية ومعـــه كثير مـــن الفرسان ، وهلك الكثيرون ومعهم خيولهم ومؤنهم بــأعداد كبيرة كل ذلك في آب من تلك السنة ، وبعد أن هزم الفرنجة حــاصر التــركمان حارم التي استسلمت ، ثم غزوا أراضي الدوق واخــذوا الأسرى ثــم ذهبوا إلى دير القديس سمعان وهو دير اغريقــي مشــهور ونهبــوه واخذوا منه الذهب والفضة والأموال وكل الاشياء الثمينة ، والكتب وصحن الخبز المقدس (صحن الجسر) وكؤوس القربان والعشــاء الرباني والصلبان والمباخر وتماثيل من الذهــب والفضــة ومــلابس الكهنة الرسمية الثمينة ، ونهبوا الرهبان واخــذوهم جميعــا اسرى إلى حلب وقد قتل اكثر من عشرة آلاف افرنجي عند الهــزيمة التــي حلت بهم في حارم وعدد أكثر منهم من التركمان وبعــد هــذا زحـــف التركمان إلى بانياس التي استسلمت كما استسلم صاحبها (١٢٢) ، وأما ملك القدس فكان في مصر (١٢٣) .

روايات المؤرخ
ميخائيل السوري الكبير

« زحف الفرنجة إلى بلاد المشرق »

لما استولى الترك على بلاد فلسطين وسورية أخذوا يفحشون في تعذيب النصارى القاصدين الحج إلى بيت المقدس ، ويتقاضون منهم المال عند دخولهم المدينة وزيارتهم جبل الجلجلة وضريح السيد المسيح ، ويبالغون في التضييق خصوصا على الزوار الوافدين من روميه وإيطاليا إلى بيت المقدس ، ويوقعون بأقوام منهم ظلما وعدوانا فتحمس ملوك الفرنج واقطابهم فحشدوا جيوشا كثيفة وخرجوا من رومية وانضم اليهم في الطريق الامراء والقواد والعساكر من القواد والعساكر من جميع انحاء أوربا يريدون استنقاذ البيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان خروجهم من بلادهم ١٠٩٧ م وهي السنة الثانية والخمسين لظهور الترك (٤٩١ هجرية) وكان الكسس يومئذ ملكا على القسطنطينية .

وكان يضم جيش الافرنج الوفا وربوات من العساكر والجنود والضباط والصناع واستصحبوا طائفة من الاساقفة ولفيفا من الاكليروس والرهبان وعلى راسهم ملكان وسبعة قمامصة اما الملكان فهما بوهموندوطنركيد ، واما القمامصة فهم روجر وبيموند وبلدوين وجوسلين وغالارن وغودفري وصنجيل فساروا إلى إسبانيا أولا وملكوها ، ثم توجهوا برا وبحرا إلى القسطنطينية ، فوصلوا إلى الخليج حيث يجتمع البحران ، وأرسلوا وفدا إلى الكسس لينضم إليهم ، وليوصي أهالي مدن مملكته ليجهزوا المؤن للعساكر والخيل فوعدهم بذلك ، لكنه مالبث أن خلف بوعده ، فاتصل بالأمراء الترك في نيقية وغيرها ليرسلوا عساكرهم ويقاتلوا الافرنج فاحتشدوا للحال وساروا بحشدهم وجموعهم وانقضوا عليهم في سواحل البحر ، واعملوا فيهم السيوف قتلا ونحرا حتى أبادوهم برمتهم ، فانهزم الباقون إلى القسطنطينية وحاصروها سبع سنوات (١) ثم تحالف الافرنج مع ملك الروم ووزرائه فخرجوا معا

من ناحية غلاطية ، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها واحتلوها وملكوا عليها الكسس ، ولما ارتحلوا إلى قليقيلة ارتجت لهم الأرض وهلعت منهم القلوب وبات الملوك جميعا يحسبون لهـم الف حسـاب ، ثـم توجهوا إلى انطاكية لانها مفتاح بلاد سورية ، وخيموا في ضواحيها واخذوا يغيرون على الغادين والرائحين ، وقـطعوا المؤونة عن البلد وعاثوا في الحقول والضياع والمزارع المحيطة بها فسـادا وخـرابا ، وقد بقي الأفرنج يحاصرون أنطاكية تسعة أشهر .

في ذلك الزمـان عندما كان الأفرنج يحاصرون انطاكية حدث فيهـا زلزال عظيم فقوض كثيرا من الابنية الفخمة ، وقد ظهــر في اسـاس احد ابراجها المتهدمة بيت قديم يشتمل على أشخاص مـن نحـاس شتى بأشكال فرنجية تمثل رجالا ممتطين الخيل مدججين بـالرماح والسيوف النحاسية ، متدرعين بأصناف الاسلحة فـامر يغسـيان التركي أن يبحثوا عن أصلها وفصلها فلم يهتد أحد إلى حقيقتهـا ، بل غلب على ظنهم انهـا أصـنام وثنية فـامر الوالي بتـكسيرها وتحطيمها ، واتفـق أن عجـوزا عمياء أذاعت انذاك انهـا سـمعت الكهان يقولون إن في أسفل ذلك البرج طلسمات لتمنع امم الفرنج من الخروج ومن عبور البحر ، فلمـا سـمع يغسـيان الوالي قـول تلك العجوز ندم لأنه حطم تلك التماثيل ، وسألها هل سمعت كيف يمـكن أن ترمم فأجابت : لا ، فأمر بضربها وقتلها .

اما الأفرنج فبعد أن خرجوا من البحر إلى الساحل عقدوا مجمعا وعاهدوا الله تعالى انه إن اتاح لهـم الاسـتيلاء على بيت المقـدس فإنهم سوف يعاملون بـالحسنى جميع النصـارى مـن أي مـذهب كانوا ، وأنهم سوف يهبـون لكل طـائفة تـؤمن بـالمسيح كنائس وأديرة .

« استسلام الرها للفرنجة »

لما سمع الرهاويون بقدوم الفرنج إلى بلاد المشرق ووصولهم إلى انطاكية طلبوا من الوالي ثاودوس بن هاتم أن يكاتبهم ويستحثهم القدوم إلى الرها ليحميهم من هجمات الترك أعدائهم ، فرفض ذلك في بادىء الأمر واخذ يثنيهم عن ذلك ، لكنه تخوف أن يتصلوا بالفرنجة سرا ، فارسل إلى الدوق غودفري رئيس القواد وفدا حمله كتابا يطلب فيه ان يرسل جيشا ليتسلم منه ولايته ، ولما اطلع الفرنج على ذلك الكتاب ابتهجوا ابتهاجا عظيما واستبشروا خيرا ، وقالوا : كما أن الرها سبقت أورشليم في الايمان بالسيد المسيح هكذا شاء الله تعالى أن تدخل قبلها في حوزتنا ، فبعث غودفري بأخيه بلدوين وسيره في شرذمة من الجنود ، فخرج الأهالي لاستقباله مرحبين وادخلوه المدينة وملكوه عليهم مسرورين .

وما ان استلم بلدوين مقاليد الأمور في الرها حتى بدأ الأهالي يتعرضون لثاودوس الوالي لحقدهم عليه ، ثم مالبثوا أن ثاروا عليه فهرب إلى الحصن الذي كان قد سلف له أن بناه فوق باب المدينة الشرقي فأحاطوا به وتسلقوا الحصن وقبضوا عليه وخلعوا عنه ثيابه سوى مايستر عورته ، ثم دلوه من أعلى السور على هذه الحالة فانقض عليه الأهالي وفتكوا به ، ثم صادر بلدوين أمواله وسيطر على الحصنين ، ووضع فيهما حامية .

« الاستيلاء على انطاكية »

عم الفرح بين الفرنج بعد الاستيلاء على الرها ، وقد شد عزائمهم هذا المكسب فزحفوا إلى انطاكية ، فاستدعوا روزبه الفارسي ، وأخوين ارمنيين ، وكان هؤلاء الثلاثة يحرسون البرج من ناحية كشكروف واغراهم بوهيموند بمال كثير إن سمحوا لهم بالعبور فوق الجسر المبنى على قضبان حديدية ، وهكذا كان فاقبل الافرنج ليلا وعبروا المضيق وتسلق بعضهم بالحبال إلى اعلى السور ، والتف الباقون حوله وقبل بزوغ الفجر شرع الافرنج ينفخون في الأبواق فاستفاق يغسيان الوالي مذعورا معتقدا ان الافرنج قد استولوا على القلعة ، فهرب من الباب الأعلى للحصن في ناحية الجبل الشرقية الجنوبية ، وسار باتجاه حلب بصحبة ثلاثة رجال ، لكنه سرعان ماأكتشف أن الفرنج لم يستولوا على القلعة بعد ، فحزن حزنا شديدا واخذ يعض انامله ندما ويقول : والهفي كيف تركت بلدي واهلي واولادي واموالي وخرجت وحيدا متشردا ، وكان طوال الطريق يلتفت نحو انطاكية وينوح عليها إلى أن سقط عن حصانه ، فأركبه أصحابه ، فسقط ثانية فأركبوه ثالثة فتركوه وحده ، فمربه رجل أرمني كان يقطع حطبا في الجبل فقطع رأسه واخذه إلى الفرنج .

بعد ذلك دخل الفرنج انطاكية دون اكتراث بالعسكر التركي المتبقي في القلعة وبقي الأتراك داخل القلعة ثلاثة عشر يوما ، أجهدهم فيها الجوع الذي كان يفتك بهم وبدوابهم حتى اكلوا لحم خيولهم ، واشتدت المجاعة حتى بلغ ثمن راس الحمار عشرين دينارا تقريبا .

في هذا الوقت اقبل كربوقا التركي في مائة الف فارس من اطراف بغداد والموصل ، فمر بالرها واستباح ضواحيها قتلا ونهبا واستأنف

المسير إلى حلب فبلغه ان الفرنج قد احتلوا أنطاكية فغضب غضبا شديدا وعجل لاستردادها ، وكان العسكر التركي الذي في القلعة مازال محاصرا يقاوم الفرنج ليل نهار ، فوصل كربوقا مع جيشه وخيموا عند بفراس حيث كان معسكر الفرنج قبل دخولهم البلد ، فأصاب الفرنج يأس شديد ، وأخذوا يقيمون الصلوات ويثابرون على الصوم ، ويتضرعون إلى الله ليساعدهم على الغلبة ، في ذلك الوقت رأى طنكريد رؤيا فحفروا في أحد أمكنة بيعة القسيان وعثروا على مسامير صليب المسيح ، فسكبوا منها صليبا وسنانا لواحد من رماحهم ، وخرجوا لقتال الترك وأعملوا فيهم السيف وملأوا الأرض من جثث القتلى ، ودحروا من بقي إلى مابين النهرين (الجزيرة) حدث ذلك في ٣ حزيران عام ١٠٩٨ م وتولى أنطاكية بوهيموند وابن أخته طنكريد .

ثم أتى الافرنج إلى المعرة وسروج وكانتا لبني عطير .

استيلاء الفرنج على بقية سورية وبيت المقدس

كان المصريون قد صعدوا واخذوا بيت المقدس من الترك قبل خروج الافرنج ، فتوجه الافرنج اولا الى يافا ، واخذوها بالسيف ، ثم توجهوا الى بيت المقدس ، وكان بها والي الافضل المصري فاقاموا برجين احدهما عند باب صهيون في الناحية الجنوبية وثانيهما عند مار اسطفانس في الجهة الشرقية ، فبادر المسلمون والقوا النيران في برج باب صهيون فاندلعت وانتشرت ، لكن ما ان انتهى الحريق حتى وقعت في البلد صيحة عظيمة ان الفرنج قد اقتحموا المدينة ودخلوها من الناحية الشرقية .

وقد استطاع الفرنج ان يدخلوا بيت المقدس في تموز سنة خروجهم (١٠٩٩ م) وقد اعملوا السيف في العسكر والاهالي واوغلوا في سفك الدماء اسبوعا كاملا ، حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين الفا ، وقتلوا في المسجد الاقصى نيفا وسبعين الفا ، وامتلأت شوارع المدينة من جثث القتلى فكوموها واحرقوها .

وكان اول ملك افرنجي بها هو غودفري وقد ملك سنتين ثم ملك بعده بلدوين مدة سبع سنوات .

ولما انتهت تلك المعركة الدموية ، اخذت امور الفرنج تقوى وتتحسن ، وتمت لهم الغلبه فتوجوا الدوق غود فروي ملكا على القدس ، ثم جالوا في اطراف فلسطين واحتلوا ضياعا وحصونا ومدنا شتى ، وساروا الى حبرون ، وابتنوا فيها كنيسة ضخمة ، واوحي الى بعضهم وهم قانتون صائمون عن مغارة الاباء حيث اضرحه ابراهيم واسحق ويعقوب فابتنوها على اجمل طراز .

ولما تمكن الفرنج في بيت المقدس وصلحت احوالهم اخرجوا الروم من الكنائس الكبرى ، وابعدوا اساقفتهم واقاموا من شعبهم

بطريركين احدهما لأور شليم والثاني لانطاكية ، فنصب البطريريك الانطاكي اساقفه لطرسوس والمصيصة والرها ودلوك وافاميا وطرابلس واللاذقية وجبلة وقوروس ومرعش وحارم ،ونصب بطريرك اورشليم اساقفه لبيت لحم وحبرون والسامرة ويافا والناصرة وقيساريه وصيدا وبيروت ، وكان جملة الاساقفة الفرنج عشرون اسقفا ، ولما استولوا على صور رسموا لها ايضا اسقفا .على ان مدينتي صور وعسقلان بقيتا في حوزة المصريين زمنا .

معارك صـنجيل مـع الطـرابلسيين والدمشـقيين والحماصنة

في عام ١١٠٣ استولى صنجيل (القائد الفرنسي) على طرطوس فبلغ الترك ان عسكره قليلون ، فوجهوا اليه من طـرابلس ودمشـق وحمص جيوشا ضخمة ، والتقى الجيشـان الفـرنجي والتـركي . فانكسر الجيش التركي وهرب جنوده وقـد سـقط منهـم كثير مـن القتلى .

فتوجه صنجيل الى طرابلس واستطاع احتـلالها بعـد حصـار طويل ، فنظم احوالها ثم ولى عليها اولاده وعاد الى بـلاده حـاملا الحربة التي استخرجها الفـرنج في انطـاكية ـ كمـا ذكرنا مـن قبل ـ وعند وصوله الى القسـطنطنية التمس الكسس الملك منه ان يعيره اياها لكي يتبرك منها ، فأعطاه اياها صنجيل ، لكن الكسس صاغ من تلك الليلة حربه مثلهـا وارسـلها الى صـنجيل واحتفـظ بالحربة الحقيقية ، وهذه الحربة هي التي طعن بها اليهود في طبرية يقونة السيد المسيح تهكما وسخرية فسال منها للحال دم وماء .

احتلال الاتراك ملطية

كان الروم قد وضعوا جبرائيل الرومـي (الملكي) على ملطية ، وكان الامير دانشمند صاحب كبدوكيا التركي يضايقه ويقلقه ويغزو بلاده اثناء الصـيف وينقلب الى حـاضرته ، فعـول جبـرائيل على التملص من مساوئه وعدوانه ، فكتب الى بوهيموند صاحب انطاكية يستقدمه ليسلمه البلد ، واقسم له على الوفاء بذلك ثلاثا ، مصرحا له بأنه يروم بكل خاطره ان يزوجه ابنته كيرا مورفيا ويوليه على ملطية بدلا من جهازها ، فـوثق بـوهيموند بـكلامه وسـار اليه في جيش جرار ، بيد ان ولاة الارمن مثل باسيل صاحب كيسوم وابناء روبين واصحاب ارمينيا تخوفوا من الفـرنج متـوهمين انهـم اذا اخـذوا بلادهم اخرجوهم عنها ، فارسلوا الى اسماعيل بن دانشـمند سرا ليكمن لهم ويمنعهم من الدخول ، ولما اقترب بـوهيموند مـن ملطية وخيم في قرية جفنة اوفد الى جبرائيل يطالبه بـانجاز وعده ، فـراح يؤجله من يوم الى يوم حتى وصل ابن دانشمند في عسـكره وكمـن لبوهيموند حتى تمكن منه ، واوثقه واوفده مـكبلا الى سـبسطيه ، وتوجه هو الى ملطية وشدد عليها الحصار ، فسار وجهـاء البلد الى السيد يوحنا سعيد صابوني اسقف المدينة يتوسلون اليه ليشير على جبرائيل الوالي ان يسلم المدينة صلحا ، مع ان المطران المشـار اليه كان فيما سلف يشجعهم ويبعث في قلوبهم النخوة ليقاتلوا التـرك ، بيد ان جبرائيل ابى الا التصـلب في رأيه واسـتشاط سـخطا على المطران وطعنه بيده ، فغاصت روحه حالا ، وعمـد الى طـائفه مـن وجهاء المدينة المسيحيين ، فقتلهم ظانا ان فعلته هذه سـوف تمـكنه من التشبث في بلدته ، لكنه مالبث ان هجم عليه قائدان قويان اتفقـا مـــع التـــرك ، فســـلموهما البلدة يوم الاربعـــاء في ١٨ ايلول ١٤١٣ يونانيه (١١٠٢) فـــانقضوا على ملطية التعيسة ، واخذوا اموالها لكنهم ابقوا على سكانها واعادوهـم الى بيوتهم .

بعد هذا اوفد ابن دانشمند فاستحضر من بلاده الذخـــائر والمؤن والغنم والبقر ، واجزل الخيرات للاهالي ووطنهم وولى عليهم باسيل التقي الورع .

بعد ذلك اقتصت العدالةمنجبرائيل فصار يعذبه التــرك بقســاوة كذلك قام كثير من المسيحيين ، واخذوا ينتقمون منه فضربوه وعذبوه واخذوا يذكروه بقتل المطران القديس والرؤســاء المظلومين ، وبقية الفظائع التي كان يقترفها وبعد ان اشبعوه احتقــارا وســقوه مــرا اخذوه الى قلعة متمردة مقطوعة كانت امراته فيها ، فأمره الترك ان يقول لامراته ان تسلم القلعة فحاول القيام بحيله شيطانية ليضـــللهم فقال لها لك علامة ان ارسلت الفتى ميداس ، فاعطيهم القلعة ، لكن هذا الاسم في اللغة الارمنية يعني لاتعــطي ، فلمــا عرف التــرك انه يخدعهم قتلوه ورموه للكلاب فأكلته الكلاب .

اما الدانشمند فقد امر بإحضار الملك بوهيموند من سبسطية عام (١١٠٣) وقبض منه في ملطية مـــائة الف دينار ، وارســـله الى انطاكية فولى عليها ابن اخته ، اما هو فرجع الى بلاده وهناك انجب ابنا دعاه باسمه ، وقد خــرج هــذا بعـــد زمـــان قليل وتملك على انطاكية .

مجمـــــــــل احــــــــــداث ١٤١٢ ـ ١٤٢٥ يونانية ١١٠١ ـ ١١١٢ م

فيما مضى كان يملك في خراسان الترك اما في بلاد اثور والجزيرة ومابين النهرين فكان التـرك مختلطين مـع العـرب الذين رجعـوا وضبطوا هذه الاماكن .

اما في مصر فكان العرب المسيطرون ، لكن لما اندلعت الحـرب في خراسان كانت هذه الحرب بين الاتراك ولذلك قويت شـوكة العـرب. وفي سنة ١٤١٢ يونانية خرج ابن ملاعب العربي مـن حمص واخـذ اوفيمية (افاميا) .

وفي تلك السـنة ملك على دمشـق دُقـاق الغُـزّي وملك على حلب رضوان بن الملك الغزي .

وفي سنة ١٤٢٠ اخذ عمر بن سالم العـربي سـوكره وصـابوره واشتعلت الحروب بين الترك والعرب .

اما الترك الذين في كبدوكية والبيتونية فلم يكن بينهـم احـد مـن العرب لانه كان قد انطفأ كليا حكم العرب من هذه المناطـق بسـبب قتالهم مع اليونانيين ومع بعضهم بعضا .

ومات بسبسطية دانشمند بعـدما ملك ملطية لمدة عامين ، فـأقبل بعد ذلك السلطان قلج ارسلان الى ملطية وكان بهـا يغسـيان بـن دانشمند ، فنزل عليها في ٢٨ حـزيران وحـاربها حـربا شـعواء واقاموا المنجنقيات على البرج المجوف الواقع في الناحية الغربية من شرقي المدينة ، ولما علم الذي كان بهـا انه قـد دنت ان تـؤخذ طلب الامان وسلمها ، وتملكهـا قلج ارسـلان ودخـل ملطية في ٢ ايلول سنة ١٤١٧ يونانية .

في هذا الزمان وقع انشقاق بين الترك والعرب الذين في اثور ، لان سلطان خراسان غياث الدنيا ارسل رجلا اسمه ابو منصور جـاولي لمجابهة الافرنج ، ولما وصل لبغداد توجه الى الموصـل وكان بهـا في ذلك الزمان جكرميش ، لكن هذا لما سمع بزحف جاولي نحوه حصن المدنية وجهز عساكره للحرب ، واشـتبك مـع جـاولي وانتصر عليه واعتقله وادخله الموصل موثقا لكن بعد ايام يسيره مـات جـكرميش فخرج جاولي وجمع عسكرا في بلاد صابورا ليعود الى المكان نفسـه لان اهل الموصل اقاموا عليهم ابن جكرميش رئيسا ، لانهم خـافوا ان لايستطيعوا الوقوف في وجه جاولي ، ولما سمعوا ان قلج ارسلان قد استقر بملطية ارسلوا يطلبون منه النجدة ويعطوه بالمقابل الموصل ولما سمع جاء وقطع الفرات ، وكان حكام مـدائن مـابين النهـرين اتراكا من قبيلة ارتق حين سمعوا بمجيء السلطان خـافوا وكلهـم اتوا لخدمته :

ابن شافك من قلعة زياد وابراهيم من آمد وإلغازي من ماردين ، فلما نظر جاولي هؤلاء لم ينزل الى الموصل .

اما قلج ارسلان فقد دخل الموصل وحكمها ، اما جاولي فقد حكم على الرحبة ولما سمع السلطان اتى بعسكر عظيم وصار الحرب على نهر الخابور لكن وبفعل الاعداء وقع انشقاق بين عساكر السـلطان فتركوه وهربوا،وبقي يحارب وقام في الحرب ببطولات عظيمـة،اخيرا دخل في النهر ليجتازه لكن بسبب ثقل الحديد الذي يلبسـه اختنق في النهر ومات •

وملك جاولي على الموصل وعلى نصيبين واخـذ يضـطهد اعداءه بقساوة،وجمع مالا كثيرا ورجع الى خـراسان حينئذ غازي عم الذي نزل في ماردين واخذ مدينة نصيبين .

في سنة ١٤١٧ في اول جمعة من صـيام الاربعين ظهـر كوكب في المغرب وكان ذنبه باتجاه المشرق وبقي من أول المساء حتى آخر الليل

المصاعب التي تزايدت في ملطية بعد موت السلطان

لما اتى خبر موت السلطان قلج ارسلان اقاموا بملطية ابنه الصغير الذي كان اسمه طغرل ارسلان،وصار مدبره رجل شيخ اسمه برميش وكان هناك رجل آخر اسمه ارسلان ،فاتفقت معه أم الصبي ان قتل برميش تتزوجه وهكذا كان ، لكنه صنع شرورا كثيرة بأهل المدينة فأخذ يجمع الذهب ، ثم أخذ يعتقل الجميع ليمضي الى بلاد الروم ولما عرفت به المرأة اتفقت مع ابنها وامسكت بارسلان ، وحبسته وظن الناس انه قتل وبعد سنة أخرجته وارسلته للسلطان،وكان لطغرل ارسلان ثلاثة بنين اخرين كبار هم : عرب ، وملكشاه ، ومسعود ، أما عرب فقد قتله الامير إلغازي بن دانشمند،وتنصب ملكشاه سلطانا وامسك اخاه مسعود وحبسه ودخل القسطنطينية عند الكيس الملك ، لكن رئيس عسكر ملكشاه مالبث ان عصى عليه فأخرج مسعود واتوا لعند الأمير غازي ابن دانشمند ونصبوا مسعود سلطانا ، ولما خرج ملكشاه من القسطنطينية وهو يحمل الذهب صنعوا له كمينا وامسكوه وقلعوا عينيه ، ولما نظر الافرنج ان الترك يحاربون بعضهم بعضا اشتد ساعدهم،واتى بوهيموند واخذ ابلستين وبلاد جيحان وخضعت له كل بلاد ملطية ، حينئذ اجتمع بالرها جمع عظيم للاحتفال بالانتصار وقد بقوا اياما كثيرة يتخاصمون مع بعضهم بعضا لاجل قسمة المدن ، ولما طالت هذه المشاجرة اجتمع الترك لمهاجمتهم فخرج الأفرنج وهم مختلفون مع بعضهم حول قسمة البلاد ، ولما وصلوا الى حران خرج أهل حران لاستقبالهم واحضروا لهم المفاتيح لكن بلدوين حاكم الرها لم يأخذها لأن حران كانت حصته ، وقدر انهم اذا دخلوها اولا فسينهبونها ويقتلوا شعبها ، فتركوها وهم مختلفون خصوصا لانهم لم يدخلوا حران ، فلما التقى بهم الترك وحدثت معركة انكسر فيها الأفرنج وأسر الاتراك بلدوين وجوسلين واخذوهما للموصل،اما تنكرد فقد هرب للرها ووضع بها شرد

رئيسا ، هذا صار في سنة ١٤١٤ على نهر البليخ الخارج من فدان آرام (٢) ، والذي هو اليوم مسجد للعرب ، ويدعونه بيت ابراهيم، ويجري ليختلط مع الفرات عند قالينيقوس، اما تنكرد فقد ترك الرها بيد شرد وقد ابتلى هذا الرهاويين بشرور كثيرة ومضى لانطاكية ولم يكن يريد خلاص جوسلين بسبب الفتنة التي صارت بينهم،لكن اناسا من تل باشر تبرعوا ان يجلسوا في السجن رهنا ليخرج جوسلين ويحضر الذهب،غير ان أولئك المسجونين كسروا البيت المحبوسين به وهربوا وخلص جوسلين دون ان يدفع دراهم ، اما بلدوين فقد كان غرضه سبعين الف دينار ، فأخذ جوسلين ثلاثين الف ومضى الى قلعة جعبر وجلس هو رهنا على الباقي ، فأخرج بلدوين ، ولماسمع سلطان الموصل ان جوسلين سلم نفسه ليدخل السجن تعجب وطلب ان يراه لأنه لم يره من قبل وانما سمع عن حسن قامته ، فمضى جوسلين الى الموصل ، ولما رآه السلطان حذف من جزية بلدوين عشرة الاف ، فسجد جوسلين ووضع وجهه على الارض،حينئذ ولأجل هذه السجدة ترك عشرة الاف اخرى ايضا ، ثم ارسلوا وابتهجوا ، وخرج في الصباح السلطان مع عسكره فأمر ان يركب جوسلين فركب وحمل سلاحه ، ولما نظر السلطان حسن جوسلين وقوته تعجب هو وكل الشعب ، فسمح له بكل ماتبقى من غرامة بلدوين ، ولما خرج بلدوين من السجن صعد ليصلي بالقدس ، وحين وصل وجد انه في يوم الاربعاء الذي يتقدم على عيد الشعانين .

وفي تلك السنة التي هي ١٤٢٨ كان قد وقع بلدوين الملك عن فرسه ، ولما علم انه سيموت أمر أن يصير ملك مكانه بلدوين هذا حاكم الرها الذي هو ابن اخته ، وكان قد وصل فجأة وبدون معرفة بما جرى ، فعرف ان الرب قد اختاره ففرح به الجميع ، ونصب يوم الثلاثاء الذي يتقدم على يوم الجمعة العظيمة في ٩ نيسان ، ولما صار ملك اعطى الرها لجوسلين الشجاع الجبار .

وفي هذه الأيام اتفق بعض الأرمن مع الاتراك عندما رأوا أن

الاتراك قد سبوا بلاد الرها ووصلوا الى السور ووقفوا ، فـأدخلهم هؤلاء الأرمن بأحد الابـراج لأن الأرمـن ظنوا بـأن التـرك يأخذوها ، لانه ليس لها رئيس لكن الله تعالى صنع تـدبيرا فـوجد جوسلين ان الأتراك قد صعدوا الى راس البرج،فـدخل وحـده وكان يلبس درعا فقتل ثلاثين رجلا بالسيف فـوقع الذين كانوا يتسـلقون عليها وتكسروا وهكذا نجت المدينة ٠

قبل هذا الزمان اي في سنة ١٤٢١ خـرج مـن خـراسان رئيس للجيش اسمه مودود ومعه مائة الف ، وحل على الرها ثلاثة اشـهر، فأجتمع الأفرنج ليهاجموه فتركها الترك وهربوا ٠

كمل هذا ايضا بعون الرب صلوا علي ٠

في سنة ١٤٢٩ تراءى في بلاد جيحـان نور في نصـف الليل كنور الشمس وبقي نحو ثلاث ساعات ، وفي الرابع من نيسـان مـن تلك السنة حدث،ظلام على وجه الارض ، وغطى قرص الشمس نوع من الرماد من أول ساعات الصباح وحتى ثالث ساعة ، ومن ثالث ساعة الى الساعة العاشرة أضاء قليلا قـرص الشـمس ثـم انظلم ثـلاث ساعات اخرى من النهار ، ثم صار قرصا مثل الناروولم تعد للضـياء، وبقي هذا الظلام اثني عشر يوما .

في ٢٥ من أيار اظلمت ثلاث سـاعات،وفي أول حـزيران تـراءى كوكب بذنب،وذنبه كان كالرمح ممتـد لناحية المشرق،وبقـي خمسـة عشر يوما وكل يوم كان يمشي للامام ، وفي تلك السنة في شهر ايلول حدث زلزال شديد،وتهدمت اماكن كثيرة .

انخساف مرعش بالزلزال

في سنة ١٤٢٥ في ٢٩ تشرين الثاني ليلة الاحد ارتجت الأرض، وصار زلزال قوي جدا وقد غارت مدينة مرعش كليا وانقلبت اساساتها وابنيتها وصارت قبرا لسكانها ، وقد انهارت بهذا الزلزال بيعة ماريوحنا في كيسوم ، وبيعة الاربعين شهيدا،وبادارة ماريديونوسيوس اسقف كيسوم اعيد بنيانها ، وايضا سقطت شميشاط بهذا الزلزال واختنق بها كثيرون ، ومن جملتهم قسطنطين صاحب قلعة جرجر،وتهدمت في جميع المدن والقرى اماكن كثيرة .

وفي سنة ١٤٢٧ اتى ضباب معتم ومظلم وحدثت زوبعة هدمت ابنية وقلعت صخورا وقلبت الاشجار،كذلك صار في الرها سيل وثقب السكر المدعو سكر اوق الرسول .

وفي هذا الزمان جلب ابن جالبي عين ماء الرها .

خبر اخوانية الرهبان الفرنج المدعويين داوية

وفي اول عهد مملكة بلدوين الثاني ملك القدس (١١١٨) خرج من رومية رجل فرنجي اسمه دفزين في ثلاثين فارسا من الأخوة الرهبان يريدون الحج الى القدس ، وعاهد ذلك الرجل نفسه انه لن يعود في اصحابه الى وطنه الا بعد ان يساعد ملك بيت المقدس مدة ثلاث سنوات في جميع المواقع الحربية،وانه اذا وفقه الله تعالى في بغيته عكف بقية حياته على اعمال الرهبنة في المدينة المقدسة ، فلما وصلوا الى القدس واكملوا الفروض الدينية اخذوا يختلفون الى المعارك الحربية،فابلوا بلاء حسنا مدة الأعوام الثلاثة .

على ان بلدوين الملك وارباب دولته لما راوا ماهم عليه من البسالة والشجاعة اشاروا عليهم ان يستخدموا في الجندية ليصونوا الأراضي المقدسة من هجمات الأعداء ، ويعدلوا عن الانقطاع الى احد الديرة ، فأجاب ذلك الرئيس ورهبانه الى مشورتهم فخصصوا بيت سليمان الملك لاقامتهم وعينوا لهم بعض القرى لمعيشتهم ، وتكرم عليهم البطريرك بشيء من ريع الأوقاف الكنسية .

بناء عليه ابرم اولئك الرهبان عهدا على نفوسهم امام الله ، ان يسيروا سيرة الرهبان،وقرروا انهم لن يتشبثوا بزواج ، ولايختلفون الى حمام ولايستبدون بملك او عقار بل يجعلون اموالهم باسرها عمومية مشاعة ، ومامر القليل من الزمن حتى اشتهروا شهرة عظيمة وضاع شذا اعمالهم المجيدة في جميع البلاد القريبة والسحيقة،واقبل الملوك وابناء السلاطين والعظماء والعوام وانخرطوا في سلكهم واتخذوا معهم إتحادا اخويا روحيا ، وكان كل من ينضم اليهم يتنازل لهم عما ملكته يداه من المال ، فأزدادوا في برهة من الزمان ونموا نموا عجيبا واستولوا على أمكنة شتى في فلسطين وايطاليا وورومية ، وانشأوا لهم قوانين وضوابط حتموا ان يقوموا بها .

وكانوا اذا قصدهم احد للانضمام في سلكهم اضـطروه ان ينزوي في قلايته سنة كاملة يعمل الروية في مـانواه ، وكانوا يتلون عليه تلك القوانين سبع مرات،ويقولون له في كل مرة احـذر وانتبـه لئلا تندم فيما بعد او يتعذر عليك الثبات حتى النهاية في حفظ هذه القوانين ، والا فالخليق بك ان تطلعنا على مكنونات قلبك وتعود الى بيتك .

وكانوا اذا وافق احد على تلك القوانين ورضي بها طـوعا ونذر ان يحفظها ويعمل بها صلوا عليه ووشحوه بثوبهم ، واذا اتفـق فنكث احدهم وخالف نذره ضربوه بالسيف واستعملوا قتله .

اما قانونهم فكان يشتمل على عدة بنود : أخصـها انه لايجـوز لكائن من كان منهم ان يملك شـيئا خصـوصيا لابيتـا ولاذهبـا ولاقناعا ، وان لايذهـب الى اي محـل كان دون اذن الرئيس ، ولا يرقد الا في بيت الرهبان ، ولاياكل على مائدة العوام ، وان يذهـب طوعا الى حيث يؤمر مهما كلفة ذلك من المشقة ، ولو افضى بـه ذلك الى الموت ، ويلزمه ايضا ان يوفيبنذره هذا فيخـدم في الجندية حبـا للدين حتى الممات .

وكان اذا توفي احدهم اقـام له كل فـرد منهـم أربعين قـداسا، واطعموا لأجله أربعين مسكينا مدة أربعين يوما ، وذكروا اسـمه في قداساتهم على مدى الأزمان ، واعتبروا من مـات منهـم في سـاحة الحرب شهيدا ، اما من كان يخفي عنهم شيئا ويحتفظ بـه لنفسـه فكانوا لايحتفلون بدفنه ، وكانت ثيابهـم جميعـا بيضـاء بسـيطة لايجوز لهم ان يتزينوا بزي أخر ، وكانوا اذا رقدوا رقدوا لابسـين ثوبهم ألرهباني وزنارهم .

وكانوا،يأكلون اللحم أيام الأحـد والثـلاثاء والخميس ، وكانوا يقتصرون في سائر الأيام على أكل الحليب والبيض والجبن ، وكانوا يشربون الخمر يوميا وقت الغـذاء فقـط ، امـا قسـاوستهم وشماسستهم فـكانوا يمـارسون الصـلوات والطقـوس في الكنائس ، وكان قوادهم وضباطهم وفرسانهم يصـلون صـلواتهم وهم مزاولون مناصبهم الجندية ، وكان رجالتهم يقضون فـروضهم

الدينية وهم في ساحة الوغى ، أمـــا الصـــناع والفـــلاحون فـكانوا يمارسون فروضهم وقت العمل،وابتنوا لهم في كل مدينة وقرية بيتـــا خصوصيا يتولى شؤونة رئيس ومدبر يأتمر كل مـــن فيه بـــأمر ذلك الرئيس ونهيه ، اما رئيسهم العام فكان يسـكن في القـدس وكانت اوامره تشمل الجميع على حد سواء ، ولم يكن له ان يتمتع ويتفرد بشيء خاص أصلا ، واتصـف هؤلاء الرهبـان خصـوصا بـأعمال الرحمة فكانوا يوزعون على المساكين عامـة عشر مـايصيبهم مـن الغلال كالقمح والخمر وغيرهما ، وكانوا كلما خبزوا خبزا في أحـد ديرتهم أو بيوتهم وزعوا على الفقراء عشره مع كل ما كان يفضل من طعامهم . وكانوا يوزعون ايضا خبزا وخمرا على المساكين مرتين في الاسبوع.

وفي عنفوان امرهم اخذوا يتولون حراسة الجنود أثناء اختـلافهم الى تأدية فروض العبادة والصلاة وقت خمود نيران المعـارك ، ثـم اخذوا يخرجون مع ملوكهم لمحاربة الترك فنموا نموا عجيبـا حتـى بلغوا مائة الف راهب ، وامتلكوا قلاعا وحصـونا منيعـة في جميع البلاد التي احتلها المسيحيون ، وازدادت لديهـم الأرزاق والأمـلاك والأسلحة ، وتـوفرت عندهـم القـطعان والغنم والبقـر والخنازير والجمال والخيل اكثـر مـن جميع الملوك ، وعلى الرغم مـن كثـرة املاكهم كانوا زاهـــدين متجـــردين كأنهـــم لا يملكون شــــيئا البته ، وكانوا يعتبرون ويحبون على حد سواء كل من آمن بالصليب وسجد له.

وأنشأوا في جميع الأماكن التي شـغلوها ولا سـيما في القـدس مستشفيات أو ملاجيء للمرضى أقـاموا فيهـا خـداما يعتنون بهـم ويسهرون على شفائهم. فكانوا ينقلون اليها كل غريب أصيب بمرض ويعالجونه حتى يصح. فاذا تعافى اعطوه زادا وسرحوه بسـلام واذا توفي شيعوه باكرام (٣)

واتفق لهؤلاء الأخوة الرهبان الداوية انهم حين حـدوث المجـاعة الشديدة في القدس واصلوا توزيع الخبـز على المسـاكين كمـالوف

عاداتهم الحميدة حتى كادت تنتهي مؤونتهم وتفرغ اهراؤهم. فأبلغ الوكلاء رؤساءهم ومديريهم وسألوهم أن يشرفوا على تلك المخازن استدراكا للخطر ، فبروا بأم عينهم ما تبقى فيها من الذخائر الزهيدة،فعقدوا مجمعا وتفاوضوا في ذلك الأمر الخطير فقالوا :إننا إذا حرمنا المساكين ما تبقى لدينا من المؤن فلا تعود تكفي لنا أيضا ، فالأجدر أن نواصل التوزيع كعادتنا اذ اننا مساكين ويلزمنا أن نحاكي المساكين في شدتهم إن جاعوا جعنا معهم ، وان ماتوا متنا معهم . وبعد أن أبدوا اتفاقهم هذا واثبتوه جميعا ثابروا على التوزيع كعادتهم فتعهدهم الله بغزير مراحمه كما تعهد الوف الجياع في القفر وأشبعهم بقليل من الأرغفة ، على أن الوكلاء تفقدوا الاهراءات يومئذ فالفوها مشحونة بالقمح والشعير والخمر وسائر الحبوب ، وذاع أمر تلك الاعجوبة الباهرة في جميع البلدان. وحمد الله تعالى كل انسان

وفاة تنكرد

في سنة ١٤٢٥ مات تنكرد حاكم انطاكية وملك بعده ابن اخته روجيل وقد كسرَ هذا برسق التركي وكان ذلك في ٢٦ ايلول من تلك السنة.

وفي السنة عينها كان تركي يتولى قلعة زياد فمضى وسبى سكان البلد وباعهم عبيدا.

كذلك ابراهيم سبى بلاد عرقة وامتلات ملطية أسرى ، حينئذ اظهر المؤمنين حرارة الأمانة فخلصوا الجميع.

(أحوال الأرمن)

كان أمراء الأرمن يتولون بعض الجبال والقلاع والمدن في بلاد الجزيرة وقليقية ، وكان الفرنج تارة والروم طورا يستعملونهم عليها ، وكانت امراة باسيل يومئذ تتولى سميساط ومرعش وكيسوم،وتحت امرتها عدد كبير من الفرسان والمشاة،وكانت تدفع لكل فارس اثني عشر دينارا ذهبيا في الشهر ، ولكل جندي من المشاة ثلاثة دنانير ذهبية ، وكان أولاد قسطنطين بن روبين في قليقيه وميخائيل واوهنس في جرجر. وباسيل اللص في رعبان وكيسوم وقلعة الروم ، وقسطنطين وتبتوغ وبيستفور ابناء سنبل في سميساط ، وكان ابناء سنبل سريانا مخالفين لباسيل اللص، وباسيل الفتى الذي تربى عند امراة كوغ يبغض السريان بغضا شديدا ، فاحتل الدير المعروف بدير الاحمر عند كيسوم ، وكان هذا الدير لجماعتنا منذ أجيال بعيدة ، فطرد الرهبان وولى عليه غريغوريوس الجاثليق ، ونفى رهبان دير حصن عرنيش وأنزل بهم الوان العذاب ، واقام فيه الحراس والعسكر فلم يتيسر للفرنج أن يتغلبوا عليه فزوجوه امراة افرنجية يقال لها كلاماري فأماتته مسموما.

وما دمنا سردنا أخبار الأحداث حسب تسلسل السنين دعونا نوضح أنه في سنة ١٤٢٣ استولى أتابك سلطان ملطية على بلاد جيحان من الافرنج.

وفي سنة ١٤٢٤ خرجت امراة قلج إرسلان من ملطية وتركت أولادها عند أتابكهم،ومضت الى بلك امير بابولا وقالت له : إني سمعت السلطان يقول أن ليس بين أمراء الترك في هذه البلاد مثل بلك رجلا جبارا وحكيما ، ولهذا السبب وثقت به وبوساطته حفظت مكانتي وهو عظيم جدا .

ولما رجعت خاتون من عند بلك طردت الاتابك وجلست هي وابنها بالقلعة حينئذ تضايق ذلك التركي الذي في قلعة زياد فباعها لسـلطان ملطية ، واخذ عوضها ذهبا واماكنا ، ولما دخل رجال سلطان ملطية الى القلعة قدم نحوهم ابـن سـلطان خـراسان فجـأة بجيش عظيم ، فسلموا حصن زياد هذا لابن سلطان خـراسان دون حـرب، وللحال تم الصلح.

وفي سنة ١٤٢٩ اغار امير منبج وحاكم قامح على بلاد ملطية في ١٥ آذار فنهب وسبى ، فأرسلت خاتون ملكه ملطية الى جوسلين حاكم الرها واقامت معه صلحا لكي يساعدها.

وتـوفي في سـنة ١٤٢٨ يونانية(١١١٧ م) الخليفـة المستظهر ، وفي شهر آب في هذا العام توفي ايضـا الكيس ملك الروم ذلك الحكيم الجبار،وهو بحكمته نجى مدينتهم مـن الأفـرنج ومـن القوفيين والصربيين والبلاكيين ، وقد جاهد ضد كل هؤلاء وحفـظ مملكته ودبرها بالاستقامة تسع وعشرين سنة ، ثـم ملك بعـده ابنه يوحنا في سنة ١٤٢٩، فتآمر عليه اخوه واخته وامـه فـوضع اخـوه واخته في السجن وجعل أمه راهبة،وعندها استتبت له المملكة.

في تشرين الأول عام ١٤٠٦ توفي اغناطيوس المؤرخ مطران ملطية ورسم عوضا عنه مار اثناسيوس سعيد بن الصابوني المتبحر بالعلم والكاتب الماهر في خـطنا السرياني هـذا والخـط اليوناني ، وقـد ارتسم في عيد الصعود في تلك السنة في قان قرن بنواحي امـد ودعي يوحنا ، ولان انتخابه تم بموافقة جبـرائيل الحـاكوز ، فقـد دخـل المدينة وهي محاصره من التـرك ، وفي اليوم الذي دخلهـا اغلقـت ابوابها و كان يحاصرها ويعزلها سلطان قونية قلج أرسلان ، فطلب جبرائيل من المطران أن يشترك مع الحراس في الحـراسة ، فشرع يداوم على ذلك طوال العام بكل اخلاص.

ثم ارسل السلطان رسولا من عنده شماسا فقال للمـطران وكان جبرائيل موجودا في المقابله :

يقول لكم السلطان أن تعطوه المدينة سلما وهو يعاهدكم بـالأمن وسيغدق عليكم الخيرات ، والا فسوف يأخذها بحد السيف ، عندها فان الله سوف يطالبكم بدم كل الشعب،فـأجاب المطـران البـار الشماس: لم يستطع احد أن ياخذ هـذه المدينة بـالحرب منذ القـدم وحتى الآن ، وإن فيها خبـزا لعشر سـنوات واكثـر ، ثـم اطلق الشماس ، لكن جبرائيل التفت الى المطران البار وقال :اسـمع مني ياسيدي انه لخير لنا أن نسـلم المدينة بـاراد تنا ، لكن المطـران البارحين سمع ذلك رفض ، فابتدأ جبـرائيل يبغض المطـران. أمـا اليونانيين فأخذوا يحتقرون كثيرا هذا البار لانه كان يخزي الأفرنج في تعليمه ، وكانوا يتهمونه بأنه يريد أن يسلم المدينة للترك ، وصدف ان كان البار على السور يوم الجمعة يحـرس واثناء خـدمة ثـالث ساعة اخذ يتكلم بين الشعب بكل محبة ووداعة ، وكان الشعب يلتف حوله فاغتاظ جبرائيل واليونانيون من محبة الشـعب له والتفـافهم حـوله ، ففـكروا أن يقتلوه ، ولما نزل عن السـور قـالوا له : إن جبرائيل قد أمر أن يقتل رجل مؤمن بحد السيف ، فـذهب اليه ليلا ليتشفع لذلك المظلوم عنده ، فوجد جبرائيل الأثيم على فرس خارجا بين السورين وحوله جنود فأخذ يتضرع له المطـران البـار قـائلا : اشفق على المساكين ، من الخارج قتل ، ومن الداخل قتل ايضا،لكن المنافق ملكونه نوى أن يقتل المطران البار ، فقـال وانت يا كذا وكذا تريد أن تسلم المدينة للترك ، حينئذ قال لأحد الجنود ، وكان يحمـل حربة :إضربه فلم يتجرأ ، فأخذ الحربة بيده وضرب بها البـار على رأسه فقتله ، وكان ذلك يوم الجمعـة في تمـوز سـنة ١٤٠٦،أمـا القساوسة الذين كانوا هناك فقد هربوا وتبددوا وضجت المدينة كلها واجتمعت الجموع حيث استشهد البار ، أما جبرائيل القـاتل فقـد خاف لما رأى هذا الجمع الحاشد فـأصر على أن يدخلوا البـار الى البستان ويخفوه بين القصب ، وبعد يومين سجي جسـده في بيعـه الساعي الكبيرة.

فاما البطريرك اثناسيوس لكونه لم يقدر ان يدبـر امـور البيعـة بسبب تدخل عبدون المتمرد فقد سافر الى بغداد وقابل الخليفة أبـو

جعفر عبد الله القائم بالله ، واحضر منه كتابا الى كل الحكام وولاه المملكة في اثور والجزيرة وبين النهرين وكل ســورية كبــدوكيه والى العرب والترك يأمر أن يقبل اثناسيوس ويعزل عبدون.

عبدون المتمرد رسم أربعة اساقفه هم: اباونيس اسقف تلمحرون الذي اكلته الكلاب ، وابدوخوس اسقف عرقــه الذي طــرد وصـــار هرطقيا،وايجنا اسقف ماردين الذي انقبل بــالتوبة ، وابــن كوريزا الذي اسلم في آمد.

اخبار البيعة في هذا الزمان

بعد ان رجع البطريرك من بغداد بفترة قليلة توفي عبدون العــاصي في حصن منصور ، فأمر ان يقبر أمام باب البيعة لكي يدوسه كل من يدخل اليها ، لأنه اخطأ بحــق بيعــة الرب ، فــأما البطريرك مارأثناسيوس فقد جمع الأساقفة وصنع له جنازا وصلاة للغفــران وقد قال : صحيح انه أحب الرئاسة وداس القوانين المقدسة لأجــل ذلك ، لكنه لم ينحرف عن الأمانة المستقيمة المجد ، فيجب أن نصلي له ليرحمه الرب ويرحم كل خاطيء .

وبعد ان قتل سعيد بن صابوني وخــرب الاتــراك المدينة ادخــل البطرك ديونيسيوس اسقف غوبوس ابن المعترف واقــامه مــطرانا لملطية ، لأنه كان معلمـــا وحـــكيما وذلك في أول كانون الاول عام ١٤١٣ ، وكان ديونيسيوس الذي ادخل الى ملطية قد تتلمــذ في دير ابن جاجي عند مار يوحنا البطريرك ابن شوشن ، ثــم ارتســم اسقف لغوبوس ، ولما خربت بلاد غوبوس اثناء الخروج الأول للترك اتى هذا الى دير مار برصوم حيث نظم الدير ورتب الخدمة كما كانت في دير ابن جــاجي ، وفي شــيخوخته رســمه البــطريرك على كرسي ملطية ، فلما وجدها فقيرة في العلم اهتم بها ، وجدد بهــا التعليم ، وكان يعلم في العهدين القــديم والجــديد ، وكتــب المعلمين الأوائل ، وكذلك كان يعلم الكتابة ، وبعد هذا رسم البطريرك مطرانا للرها ابو غالب ابن صابوني أخــو ســعيد الذي قتــل في ملطية ، لأن هـــذين الأخوين كانا مشهورين بالعلوم الكنسية ، وفي المعــارف الخــارجية وفي الكتابة باللغتين ، وبالجدال ضد الهــراطقة ، وبــالاختصار كانا المع كل افراد جيلهم من المستقيمين المجد . وكان سعيد الذي ارتسم لملطية قد دعي يوحنا ، لكن بعــد اربعين يومــا مــن رســامته قتله جبرائيل بملطية كما أوضحنا من قبل .

وابو غالب الذي رسم مطرانا للرها دعي باسيليوس لكن قبل كمال الأربعين يوم حدثت مشاجرة بينه وبين البطريرك فحرمه وبقي بعيدا عن الخدمة لكونه قام في وجه البطريرك ، لكن بسبب هذا الخصام صار انشقاق في البيعة كما سنوضح .

ولما ملك الافرنج انطاكية اخرجوا اليونانيين من البيع الكبيرة وطردوا رؤساء كهنتهم ، وأقاموا بطريركا من شعبهم ووضعوا مطارنة في طرسوس والمصيصة والرها ومنبج وافاميا ، كذلك وضعوا مطارنة في طرابلس واللاذقية وجبلة وقورس ومرعش وحارم واقاموا لهم بطريركا في القدس ، ورسم اساقفة لبيت لحم ولحبرون والسامرة وليافا والناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت ، ولما استولوا على صور رسم لصور اسقفا ايضا لأنهم لما طلبوا نفقة من بطريرك انطاكية على رحيلها لم يعطهم ، وكان اسم أول مطران قام للفرنج في الرها مبارك ، وقد تراءت له رؤيا حول جسدي أري وابجر حيث وجدهما في صندوق ماريوحنا .

وخلال السنوات الثلاث التي حاصر بها الدانشمند ملطية حدث بها جوع عظيم وبيعت حنطة الحاكم بدينار للمد .

وفي سنة ١٤١٣ تبلبل بدء صوم المسيحيين بملطية وفي البلاد كلها بما فيها القسطنطينية فصام السريان والأرمن في ٨ شباط، ووضعوا الفصح في ١٣ نيسان ، اما الخلقيدنيين فصنعوا العيد في ٢٦ نيسان ، ولما علموا ان النور قد فاض على القبر في القدس في ١٣ نيسان صار اليونانيون يجدفوا على النور لانه تطابق مع عيد السريان والأرمن .

وفي سنة ١٤١٤ في بدء الصوم ، اي في الأسبوع الاول من شهر شباط حدث زلزال كبير دام يوما في كل مكان ، وقال الجميع ربما صار هذا لأجل اختلاف المسيحيين حتى في الصوم ، وهذا دلالة على غضب الرب.

فصل ثان عن أخبار البيعة

يارب اعن،لما اخذ الافرنج فلسطين اخرجوا منها المصريين واتوا الى حبرون جيث بنوا هيكلا مجيدا ، كذلك انوجدت مغارة المضاعفة التي اشتراها ابراهيم ، وكان بها ثلاثة قبور للآباء فزينوها ببنيان عجيب .

اما سبب الخلاف الذي صار بهذا الزمان في بيعتنا فكان ان لما ارتسم ابن صابوني مطرانا للرها طلب البطريرك منه ومن الرهاويين الاناجيل التي كانت في خزانة البطركية ، لكن لما وقعت بيد عبدون العاصي وضعها رهنا بالرها ، واخذ ذهبا ورشى الحكام في ذلك الزمان ، فلما طالبه البطريرك وعد ابو غالب مع الرهاويين الذين حضروا رسامته انهم بمجرد رجوعهم الى الرها سيرسلون هذه الكتب المصفحة بالفضة والذهب ، وقد كتب ابن صابوني تعهدا بيده انه ان لم يرسلها فلن يكون له سلطان أن يخدم رئاسة الكهنوت ، ولما ارتسم ومضى رفض ان يعطيها ، وكان يحتج بأن اكابر الرها منعوه أن يعطيها ولهذا السبب زرعت بذور الفتنة وحرم البطريرك ابن صابوني قائلا : كما وكتبت بيديك فأنت محروم وليس لك سلطان لأن تخدم ، أو تدعى رئيس كهنة اما هو فقال : ان هذا الحرمان لايسري عليه لانه ليس بارادته امسك الكتب .

واما الرهاويون فصاروا فرقتين منهم من كان مع البطريرك وضد المطران،ومنهم من كان مع المطران ويشجعه على التمرد ، حتى أنه تجرأ ورسم قساوسة وشمامسة وهو محروم ، حينئذ صار اضطراب بكل البيعة وخاصة بالرها ، وكان حاكمها الفرنجي يساعد المطران وقد ارسل مرارا كثيرة القساوسة ، واكابر المدينة ومعهم اناس من الافرنج ليطلبوا من البطريرك ان يحل حرمانه فلم يقبل ، ثم أتى ايضا مطران ملطية مارديونسيوس ومعه سبعين

رجلا مؤمنين الى البطريرك في دير ماربرصوما وخروا على وجوههم امام رجلية وقالوا : مانرفع وجوهنا عن الأرض حتى تحل حرمان مطران الرها ، ولم يقبل وبعد هذا اجتمع الأساقفة كلهم وسألوا البطريرك ان يعيده الى حظيرة الكنيسة وأجابهم قائلا : في نيسان تعالوا جميعكم ويأتي هو ايضا وعندها يصير الحل ، وبهذه الحجة ارسلهم فارغين ولم يجمع مجمعا ليغفر لابن صابوني ، بل عزل الشيخ ابن المعترف من رعاية ملطية لكونه كان يدافع عن ابن صابوني ، وقد خدم المطران ديونسيوس رئاسة الكهنوت بملطية اثنتي عشرة سنة وعلم ورتب ووضع بها عادات مستقيمة ، واغناها بالعلوم التي مازالت الى اليوم يعلمون بها بعد ان تسلسلت من جيل الى جيل ، ولما أخرجه منها البطريرك بقي وحيدا ، اما السبب الذي لأجله لم يجمع البطريرك مجمعا كما وعد فهو انه لما خرجوا من عنده مشككين لعدم قبول طلبهم،كتب ديونسيوس مطران ملطية وطيماثاوس اسقف قليسورية وديونيس اسقف جيحان وقرروا ان عقد البطريرك مجمع كما وعد فسيشهدوا ان ابن الصابوني مظلوم ، وان لم يصنع جمعا فان ابن الصابوني سيكون ايضا محلولا من حرمانه ، فلما سمع البطريرك اغتاظ جدا خصوصا من المطاردين ، ولم يجمع جمعا بل واخذ ملطية من غوبوس ابن المعترف ودعا اليشع راعي دير البارد ورسمه عليها ، ودعاه اياونيس فوصل اليها في تشرين الثاني ١٤٢٥،ثم طلب منه الحاكم ذهبا فدفعت عنه اهل المدينة مائتي دينار وقبلوه عندهم ، واخيرا لما أحسوا انه يحب معاقرة الخمر احتقره جميع الناس ونبذوه

حروب الأمير ايلغازي بن أرتق

وفي سنة ١٤٣٠ في شهر ايار جمع الأمير غازي ابن دانشمند (٤) سبعة الاف من الترك ودخل الى بلاد انطاكية فخرج الى لقائهم رجيز صاحب انطاكية مع رجال كثيرين ، فكمن لهم الأتراك ووقع الأفرنج في الكمين فأحاط بهم وقتل كثيرا منهم ، وقد قتل غازي بن دانشمند رجيز صاحب انطاكية وسبى الترك البلاد ، واحتلوا كثيرا من القلاع ، وقتلوا جملة من الرهبان في الجبل الأسود ، وبقي الأتراك ايام كثيرة في تلك البلاد ، وقد صنعوا قطاعات مروعة ، وحين سمع بلدوني ملك القدس اتى ، فلما سمع الترك بان الملك قادم كمنوا له ايضا،لكن الملك اكتشف الترك ، وطاردهم وكسرهم لكن الذين كانوا يكمنون من الخلف انقضوا على العساكر الرجالة وقتلوا كثيرين منهم الى أن احس الملك ، فكر عليهم وقتل الذين كانوا يكمنون كليا ، ثم طارد غازي فهرب مع الترك ، فذهب بعضهم الى حلب وبعضهم الأخر مع غازي ، وقد لحقت بالترك ضربة عظيمة .

وفي ذلك اليوم خلص الأفرنج الذين نجوا من القتل خلصوا الأسرى الذين سباهم الأتراك في البلاد ، ودخلوا مع الملك الى مدينة انطاكية .

وفي تلك السنة تملك سلطان ملطية ضيع بلاد جيحان وابلستين .

وفي شباط من تلك السنة سبى الافرنج بلاد جرجر ، وأما اليونانيون فقد اصطفوا على ساحل البحر مقابل الترك مدة شهرين ثم عادوا دون حرب .

وغزا سلطان ملطية مع ملك بلدة قماج ، فهرب صاحب تلك البلاد ابن قلج ارسلان الى طرابزون ، والتجأ لليونانيين فاتى معه

جيراس ، ثم ان بلك وسلطان ملطية غازي بن دانشمند اتفقا ، ولما صـــارت الحـــرب انكسر اليونانيون واسر جيراس وابـــن قلج ارسلان ، فبيع جيراس بثلاثين الف دينار ، اما ابن قلج ارسلان فخلصه غازي لأنه كان ختنه،وبهذا صارت عداوة بين السلطان مـن جهة وبلك وغازي من جهة ثانية .

وخرج يوحنا ملك اليونانيين في تلك السنة واخذ ثلاث قـلاع مـن الترك .

وجمع غازي عسكرا ، ودخل الى بلاد الرها واحرق الغـلال واذ لم يجد عساكر تمنعه أو تصدمه تابع سيره الى بلاد انطاكية وسـبى ورجع الى بلاده وتملك بلك قلعة زياد والبلاد التي حولها ، وصـارت ملطية تحت امره وكان يخيف كل الأمراء .

اما الأرمن الذين في جـرجر فـكانوا يخـربون بـلاده بالسرقة ، فأرسل الى ميخائيل الذي في جرجر يتعهد ان يعطيه كل سنة الف حمل حنطة ان كان يمنع الأرمن مـن السرقـة ، واعطـاه ثلاث قـرى في بـلاده فحلف ميخـائيل عدة مـرات لبلك لكنه لم يف بعهده ، وذات يوم بينما كان يرسل الحنطة هاجم لصوص ميخائيل واحرقوا قـريتين بهنزيط ونهبـوا كثيرا وقتلوا التـرك الذين كانوا يرافقون ارسالية الحنطة وكانوا غير مسلمين معتمـدين في ذلك على الصلح الذي صنعوه وعلى هدية الحنطة التـي يرافقـوها ، ولما علم بلك بما جـرى غضـب واحتـال على الأرمـن واصطادهم ، واهلكهم ، ففي الشتاء القـاسي حيث كانت الجبـال مملوءة بالثلج الكثير واهل جرجر قابعين لا يفكرون بشيء ولايضعون حراسا،عبر بلك على مياه الفرات المتجلدة الى جوباس ، وخدع اهل جرجر فأوهمهم بانه ماض الى ابعد من منطقتهم وسير امامه الوف الخيل الى جبل العسر المكني الشمعة ، وهكذا اندثـر الثلج وسـار العسكر وخلال يوم واحـد وصـلوا الى دير مـاربرصوما ، وفي تلك الليلة عبروا جبل جرجر،وفي الصباح هجـم بلك على البلدة الشـقية وسـبـاها،وكان ذلك يوم الاثنين في اول كانون الثـاني

سنة ١٤٣٢ ، ولم ينج من ايادي الترك لابشر ولابهائم ، لقد حرقوا كل شيء وخرجوا ، وبقيت البلاد خالية ، واما بلك فقد صنع رحمة كثيرة مع الشعب ، فلم يسمح أن يهلك منهم احد ،ولم يجعلهم اسرى بل هم وبهائمهم وكل ما لهم حفظه لهم ،واعطاهم قرى واسكنهم في بلدة هنزيط وحلفهم أن لايرجعوا لجرجر ، اما من يهرب ويعود الى جرجر فانه متى اقبل مرة ثانية اليها فسوف يؤخذ عبدا ، وهكذا صار لأن بعد سنة اتى بلك لجرجر وقد اخذ كل الذين وجدهم عبيدا ، واحرق القرى والكروم والزيتون ثم اتى عليه جوسلين فهرب بلك للجبل فلم يقدر عليه الأفرنج فرجعوا ، اما هو فرجع الى بلده .

وفي سنة ١٤٣٣ ارسل سلطان خراسان مائة الف من العسكر ودخلوا الى بلاد الترك لكي يملكوا هناك ايضا،فسد عليهم ملك الأتراك المعابر من كل جانب وقتلهم كلهم بحد السيف .

وفي تلك السنة سبى جوسلين بلاد جوباس ، وفي تلك السنة ايضا قتل يوحنا ملك اليونانيين شعب القومنيين « الكومان »وصاروا عبيدا لليونانيين ، وقد كتب البار بسيلليوس مطران الرها عن القومنيين لانه كان هناك ، فقال : لما أتى القومنيون الى القسطنطينية احتال الملك يوحنا وعقد معهم سلاما ، ولما اختلطوا ودخلوا المدائن والقسطنطينية اصدر الملك امرا بان يمسكوا بوقت واحد كل من يجدوه منهم اينما كان ، فامسك منهم بمعسكر الملك نحو ثلاثة آلاف ، وفي كل مدينة الذين وجدوا منهم ، وفي اليوم الذي امسكوا به مضى الملك وعساكره الى معسكرهم ، فاما هم فحسب عاداتهم فقد احاطوا معسكرهم بابراج من خشب وصاروا يحاربون، فنزل الملك عن فرسه وامر كل الفرسان ان ينزلوا عن مطاياهم ويحاربوا،وهكذا اشتد الحرب وقفزوا ودخلوا وقتلوا اكثرهم، وامسكوا اكابرهم وغيرهم كثير،وجروهم عبيدا للقسطنطينية وصار هدوء عظيم في عهد هذا الملك بعد انتصاره على هؤلاء القومنيين.

أما القومنيون فهم جزء من الاتراك ولسانهم تركي لكنهم لايؤمنوا بموسى أو بالمسيح أو بمحمد او بالأنبياء كافة ، كانوا حيثما يذهبوا يأخذوا نساءهم وأولادهم وبيوتهم معهم ويضعوهم في الأبراج الخشبية التي يصنعوها حول مقر سكنهم .

وبهذا الزمان صعدوا من شاطيء نهر دجيس واتوا ليملكوا القسطنطينية الى ان كسرهم هذا الملك كسرة عظيمة،ومن ثم اصبحوا عبيدا في مملكة اليونانيين •

اسر بلك ملك بيت المقدس بلدوين

في سنة ١٤٣٤ دخل الأمير بلك الى بلاد انطاكية واجتمع الأفرنج لمقابلته وقد بقي الجيشان معسكران وجها لوجه مدة اربعة اشهر ثم تفرقوا بغير حرب .

فاما جوسلين الوالي لما توفيت امـراته وهـي ابنة رجير حـاكم انطـاكية،اراد ان يأخـذها الى الرهـا فصـنع له بلك كمينا في الطريق ، وامسكه وارسـله لبـولا وصـار لبلك اسـما كبيرا عند الاتراك ، فاجتمعت اليه الشعوب ودخل ايضا الى بـلاد الأفـرنج ، اما ميخائيل الأرمني الذي كان في جرجر فلما رأى الترك قد تسلطوا اعطى جرجر للملك واخذ له مكانا في بلاده فلمـا اخـذ الملك جـرجر ووضع محارس وجمع عساكره اتى ليطرد الترك مـن بـلاد حصـن منصور وكيسوم .

وحين كان الأفرنج متوجهون على نهر سنجة خرج عليهم فجـأة بلك من كمين كان قد نصبه لهم،وخربوا معسكر الأفـرنج وامسـكوا الملك،وقتلوا الذين معه،وكذلك امسـكوا جـوسلين وغاليران ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب كذلك اعتقلوا بلدوين الملك يوم الأربعاء جمعـة البياض من تلك السنة ، ولما صار ملك القدس اسيرا وبقيت البـلاد بغير رئيس او سـيد اراد المصريون أن يملكوا القـدس وبـاقي البلاد ، فأرسلوا جيشين واحدا في البر وأخر في البحر ، أمـا جيش البر فقد انكسر وفقـدوا جمـالهم وكل امـوالهم وادخلوهـا الى القدس ، وقد فرح الأفرنج ووقفوا للصلاة والصوم واحـد وعشرين يوما .

اما الجيش الآخر والذي كان يبحر على ظهر السفن،فعندما وصل الى عكا،كان شعب البنادقة قد وصـلوا في ذلك الوقـت للزيارة،فلمـا

رأوا العرب في البحر اصطفوا مع الأفرنج وحدثت معركة انتصر فيها الافرنج ، حينئذ عادت الثقة لأهل القدس فهجموا علي صور .

أما بلك فإنه لما أمسك ملك الأفرنج نزل على حصن منصور فأعطوه إياه صلحا ، لكن الترك القساة سبوا الشعب واحرقوا المدينة والبلاد ، حينئذ انسحب الأفرنج من جرجر ايضا ، فدخلها الترك ايضا،أما بلك فسجن الملك وجوسلين وباقي الأفرنج في قلعة زياد في قلب بئر عميق ، ونزل فاستولى علي حران وحلب من العرب وتل باشر ، وثلاث قلاع أخرى من عرب الأفرنج ، حينئذ حدث تمرد عليه في قلعة زياد ، فأناس من الأرمن كانوا داخل القلعة يعملون في البناء ، ولما نظروا أن القلعة فارغة وليس فيها الا القليل من الحراس اجتمعوا عند الباب وصاروا يدمدمون لأجل أجرتهم ، ثم هجموا فجأة وحملوا السيوف التي كانت موضوعة عند الباب ، وقتلوا ثلاثة رجال من حراس الباب ، وأخرجوا الملك وجوسلين والباقي ، وقتلوا العرب واستولوا على القلعة فاجتمع اهل المدينة وأخذوا يقاتلونهم ، حينئذ تحيل جوسلين وخرج ليلا برفقة رجل أرمني وأقسم للملك أن يجمع عسكرا يعود لأنهم لم يستطيعوا لاأن يحافظوا على القلعة ، ولاأن يأخذوا الملك معهم ، ولما مضى جوسلين وصل بلك ونصب أربع منجنيقات وهدم الأسوار ، حينئذ خرج الأفرنج وبعد ان عذبوهم بمرارة قتلوا منهم سبعين رجلا، ثم أخذ معه الملك وغالران ابن اخته ، ورجع عاجلا لأنه كان يريد ان يستولي على كل المسكونة ، ولما حل علي مرعش أرسل المرعشيون يستنجدون بجوسلين ضد بلك مقابل ان يؤدوا له جزية ، فأتى جوسلين واشتبكوا في حرب من الصباح الى المساء ، فقتل حاكم كيسيوم المدعو مونيجوفري ، وقد كان هذا بعدما خرج من رومية راهبا ادى بطولات في القدس أثناء الحرب ، فصنعوه رئيسا للعسكر ، ولما تجول الملك ليحفظ البلاد احضره واعطاه كيسوم ورعبان ومرعش ، وقد قتل بهذه الحرب فأوقفت المعارك ، وفي الصباح قام بلك وتقدم الى السور ليريهم اين يجب ان يضعوا المنجنيق فأتاه سهم من حارس كان يقف في أعلى

السور فاصاب منه مقتلا ، فهربت العساكر الى حلب واقـامت لهـا رئيسا هو ابن عم بلك ، لكن هذا باع الملك بمائة الف دينار ، فرجع الملك بلدوين الى القدس ، ورجع بعض الاتراك الى قلعة زياد واقاموا لهم رئيسا اسمه سليمان رئيس اسرة الأراتقة .

من نظر خطأ في هذه الأسطر الذميمـة فليصـل لراحـة كاتبهـا الكسلان .

في سـنة ١٤٣١ يوم الخميس اول كانون الأخير صـارت زلزلة صعبة دامت ثلاث ساعات وافسدت اماكن كثيرة .

بهذا الزمان صار جـوع عظيم في القـدس وكان اولئك الأخـوان الذين يسمونهم داوية ـ اي الهيبين ـ يعطون المسـاكين ويقـدمون كماداتهم بغير نقصان ، ولما قلت الغلة التـي كانت مـوجودة ، ولم يبق سوى القليل قالوا فيما بينهم : إذا اوقفنا اطعام المساكين فـان مابقي يكفينا ، ثم قرروا وقالوا لن نقطع عن المساكين شيئا بل نحن والمساكين نقتات سوية بما تبقى الى ان ينتهي ، وحينئذ نموت نحن والمساكين ، لكن الرب افتقدهم ، وهو الذي اشبع بالبرية من خبز قليل كثير من الناس ، فدخل فجأة الوكلاء لبيوت المخازن فوجدوها مملوءة بالحنطة والشـعير والخمـر والحبـوب ، وانتشرت هـذه الاعجوبة في كل البلاد،ليتمجد اسم الرب .

وفي اول كانون الثـاني سـنة ١٤٣١ سـقطت نار في وسـط القسطنطينية وافسدت عشرة الاف بيت وحانوت ، واتـى الى ملطية جراد طيار واكل الزروع ، فأقاموا صلوات متصـلة فلجـت افـواه الجراد ولم تعد تاكل شيئا ، فسـلمت المزروعات،وبعـد قليل خـرج جراد ناعم واكل الأشجار والكروم لكنه في الحال اضمحل .

وفي هذه السنة غرقت مدينة بفارس اسمها اردبيل فجأة وصارت بحيرة ماء ، وكل سكانها اختنقوا بداخلها .

وفي سنة ١٤٣٢ صار شـتاء قـاسي اربعين يومـا،وتجلدت مياه الفرات وباقي الانهر وصار الناس يمشون على الأنهر .

وفي ٣٠ ايار من تلك السنة في ليلة الاثنين تراءى قوس كامل وهذا أمر لم ير قط منذ اجيال ، واظن انه خارج عن الطبيعة او لعله فوق الطبيعة ، وكان يظهر كالقوس بالليل ، لأجل ذلك صار الأمر عجبا لكل من يشخص به ، ولكن كل شيء سهلا للقادر على كل شيء ، وهو كل مايشاء يصنع .

كمل هذا الخبر عن عجائب يصنعها الرب :

في سنة ١٤٣٣ في ١٨ كانون الأول صارت زلزلة اربع مرات بالليل وأربع مرات بالنهار ، وتشققت الصور في بلاد صمحا على شط الفرات ، وغرقت أماكن كثيرة ، وصارت قبورا لساكنيهم.

وفي سنة ١٤٣٤ صارت قلة في المطر وصار في كل موضع جوعا عظيما ، خصوصا في ناحية المشرق .

وفي تلك السنة ايضا وقعت نار بالقسطنطينية واحترقت فيها بيوت ودور وصار انكسار وانتصار ، اما لماذا هذا الأمر وكيف صار ، لاأحد يعرف علته الا ذلك الذي وحده عالم بكل شيء ، وهو يعرف بالصحيح وقد صار على الشكل التالي . فجأة ابتدات تجتمع طيور الشامهرج،اي ابو الحودنج،من موضع واخذت تلتئم ، وكذلك اجتمع الكراكي وصاروا مجموعتين على نهر تالاكوم وظلوا مجتمعين لمدة أيام كثيرة ، واخيرا كما شهد كثيرون من الذين راوهم كانوا يرسلون مثل الرسل من معسكر لمعسكر خمسة أو عشرة من الطيور،وبعدما تقاولوا كثيرا قفزوا بغتة وصرخ الجانبان صرخة عظيمة ، وصاروا يضربون بعضهم بعضا ويقتلون الواحد مع الآخر،والذين كانوا يضعفون كانوا يقعون ويموتون ، وهكذا سقط من الشامهرج ومن الكراكي الافا ، وتكوموا تلالا تلالا على الأرض، وقد دامت بينهم هذه الحرب العظيمة من ثالث ساعة من النهار الى تاسع ساعة ، واخيرا انكسرت طيور الشامهرج وأكثرهم ماتوا ، اما الذين بقيوا فقد هربوا ثم طار الكراكي في أثرهم فلحقوهم في أوكارهم ، ومات لهم صغارهم في الأعشاش .

مجمـــــل الأحـــــداث التـــــي وقعـــــت بين عامي ٥٠٠ ـ ٥١٦

هذا القسم فيه اخبار كان يجب ان تقدم لانها مقتبسة من كتـاب تاريخي مكتوب بلغة عربية ويؤرخ بالسنة الهجرية القمـرية ، وقـد ادى هذا الى اختلاف في ترتيب الأعوام سببه الاختلاف بين الأعوام العربية القمرية،وبين الأعوام اليونانية الشمسية .

ومن هنا على القارىء ان يفهم ان الخبر المكتوب لاحقا حول نجم الدين الأرتقـي ، الذي ملك على حلب يجـب ان يكون متقـدما على اخبار بلك التى وردت مقدما ، لانه بعد موت نجم الدين ملك بلك على حلب .

شروحات من كتــب عربية في اثــور وبـابل قـــالت انه في سنة ٥٠٠ للعرب كان ابو العباس احمد المستظهر ، هو خليفة للعرب في بغداد ، وكان سلطان خراسان غياث الدنيا وقد قتل الاســماعيلية وزيره المسمى أبو مـظفر (٥) وفي تلك السـنة قتـل الاســماعيلية كوسدكين أحد رجالات السلطان،فتحرك السلطان غياث الدنيا وقتل كل الاسماعيلية ، الذين كانوا من العرب ، لكنهم طـائفة لاتتبـع لا العرب ولا الترك لا بالايمان ولابالعوائد ، ويقـولون عن المسـيح انه هو الذي تنبأ عنه الأنبياء لكنه لم يصنع خلاصا لأن اليهود لما قاموا عليه ليقتلوه هرب الى السماء ، وهو مزمع ان يأتي وحينئذ يصـنع خلاصا ، اماعن محمد (ص) فيقولون اقـوالا سـمجة ولايقبلون القرآن،ويقدمون انفسهم للقتل بغير شفقة لكي ينتقموا من أعدائهـم، على رجاء الذي سيصير لهم في العالم الأخير

وفي سنة ٥٠٠ للعرب ملك سيف الدولة صدقة بن دبيس على العرب، فاخذ تكريت .

وبهذه السنة كان في تكريت ديلمي اسمه قباذ بن هزارسب ، وكان ظالما شريرا وقد خرب مسجد العرب الكبير الذي كان قريبا من القلعة ، ولما علا ضجيج العرب اخذ بيعه المسيحيين الكبيرة وأعطاها للعرب .

وفي سنة ١٤٣٣ أخذ الحسين بيعة تكريت الكبيرة البهية المدعوة بيعة الجرداء مع اثاثها ودورها وحوانيتها واعطاها للعرب ، ولما كثرت المصادمات بين المسيحيين والعرب ارسل السلطان الكبير غياث الدين اميرا اسمة أق سنقر فتحارب مع تكريت سبعة اشهر، ولما تضايق حاكمها سلمها لصدقة ملك العرب وخرج منها،وبعد اربعة عشر يوما مات ، ولما سمع السلطان غياث الدين ان صدقة بن دبيس قد تملك على تكريت وتمرد عليه ، جمع عساكر الأتراك وزحف ضده ،

حينئذ جمع صدقة عساكر العرب وصار الحرب على النهر المدعو دقهرني (٩) ، فانكسر العرب وقتل صدقة ملكهم وههنا انتهت مملكة العرب كليا.

وفي سنة ٥٠٠ هجرية سنين العربية اي سنة ١٤٣٣ يونانية بعد ثلاثة سنين من خروج الترك،وفي سنة ٥٠٢ للعرب خرج أمير يدعى مودود بن التونتكين بمعرفة السلطان غياث الدين ليمضي ويقاتل الافرنج،وأعطاه الموصل والجزيرة ونصيبين ، وأمر جملة امراء أن يمضوا معه ، ولما وصل الى الموصل رفض جاولي ان يعطيها له، فأقام عليها المنجنيقات وشن حربا عنيفة ، وفي يوم الجمعة وفيما كان العرب في صلاتهم صعد رجال اقوياء الاسوار،لكن جاولي ورجاله تحصنوا بالقلعة ، حينئذ اقسم لهم مودود ان يعطيهم الأمان ، فخرج جاولي ورجاله ومضى الى نجم الدين بن ارتق في ماردين،فاجتمعوا وصعدوا ليتحاربوا مع الافرنج ليكون يد لهم عند السلطان الكبير،لان مودود لم يركب على الافرنج لكنه رجع الى السلطان ، فاتفق جوسلين حاكم الرها مع جاولي لانه تكرم عليه

بالموصل ، ورضوان حاكم حلب اتفق مع ذلك الملك وانكسر جاولي وجوسلين .

وفي سنة ٥٠٠ للعرب اخذ الفرنج طرابلس التي على شاطىء البحر من ابي علي بن عمار بعد حروب كثيرة اخذوها بيومين ، ولما دخلوا قتلوا العسكر وسبوا الشعب وكل البلاد وباعوهم عبيدا .

وفي هذه السنة وقع سكمان بن ارتق من الفرس ومات،وخرج الافرنج واخذوا الاثارب وقتلوا بها الفين،واتوا الى منبج وسبوا وتملكوا ايضا على المدينة،ووصلوا حتى بالس واحرقوها بالنار ، ولما وجد رضوان صاحب حلب ونظر انه لن يستطيع ان يلاقي الافرنج ارسل لهم اثنين وثلاثين الف دينار وعشرين بغل واربعين ثوب اطلس،وارسل لهم ظهير الدين طغتكين اتابك دمشق عشرة آلاف دينار،وحاكم حماة الفين وحاكم عسقلون اربعة آلاف دينار،وعقدوا صلحا . (٧)

وفي سنة ٥٠٥ هـ ايضا ارسل السلطان غياث الدين عساكر مع مودود ليتحارب مع الافرنج ، ولما وصلوا الى شبختان اخذوا قلاعا كثيرة،واتوا على الرها لكنهم لم يستطيعوا ان ياخذوها ، وهاجموا تل باشر ، كذلك لم يستطيعوا اخذها ، وتوجهوا الى حلب لكنهم لم يتركوهم يدخلوها ايضا .

ومرض سكمان (٨) حاكم أخلاط فحملوه ليأخذوه،لكنه مات في الطريق .

واجتمع الفرنج وهجموا على مودود ثلاث وعشرين هجمة في يوم واحد وتحاربوا،وكان قد غلبهم في اول هجمة مودود لكنه انكسر فيما بعد وهرب الى دمشق ، وفي يوم الجمعة بعد الصلاة خرج وهو يتفرج ويمسك بيد حاكم دمشق فوثب عليه اسماعيلي فقتله . (٩)

وفي سنة ٥٠٨ للعرب خرجت عساكر السلطان غياث الدين مع ابنه ابو الفتح مسعود وقسيم الدولة آق سنقر البرسقي ليتحاربا مع

الافرنج،ولما وصلوا الموصل خرج لخدمتهم تيمرك بن أرسلان وزنكي ابن اق سنقر واتفقوا ايضا معهم ، وحين وصلوا الى ماردين خرج نجم الدين لخدمة ابن السلطان وارسل معه سبعمائة وثلاثين فارسا ، ولما جازوا النبك أرسل نجم الدين الى الافرنج وساعدهم ، ولما عرف ابن السلطان بهذه المسألة امسك ابن نجم الدين ورماه في الحديد وسبى بلاده ، ونزل على دارا ، ولكن نجم الدين مضى الى شهرزور وجمع شعبا كثيرا واتى اليه ركن الدين ابن عم حاكم كيفا وبلك بن بهرام أخوه الاكبر ، وجمع رجالا يفوقون العدد،واتى بقوة عظيمة ليلتقي بابن السلطان ويخلص ابنه،ولما وصلوا القرديس بقرب دارا كان هناك شرذمة من عسكر ابن السلطان نازلين وغير عارفين ، ولما رأوا فرسان قليلين من عسكر نجم الدين اتوا عليهم واشتبكوا كلهم ، وكان بينهم حاكم شبختان وحاكم نصيبين وحاكم مكسين .

ولما علم ابن السلطان ان عساكره قد انكسرت ترك دارا وهرب لنصيبين ونزل نجم الدين واخذ الخيام وكلما كان لهم ، فأما ابن نجم الدين لما رآهم مرتجفين وصار الليل وليس من يعتني برفيقه ، وكانت رجلية بالحديد وهو راكب ، فطرح نفسه من على البغلة واختفى بين جماعة من اليهود،واذا بكردي اتى واعلم ابوه فأرسل عشرة رجال وحملوه فأحضره،وصار فرح عظيم لبيت ارتق. فأما ابن السلطان فتوجه نحو أبيه واشتكى على نجم الدين فأرسل السلطان تهديدا لنجم الدين كونه حقر سلطنة الترك ، فصنع نجم الدين مسالمة مع الافرنج ، ومع أتابك حاكم دمشق،وتحالفا انهم يساعدان بعضهما بعضا،فمضى كل واحد لبلده،وبقي نجم الدين وحده ، ولما اتى حاكم حمص عليه ليلا وجده سكران وغيرعالم اين هو فحملوه ووضعوه في حمص وارسلوا أعلموا السلطان ، ولما ابطأ الجواب ، أعطى نجم الدين وعده ، وترك ابنه،فأما هذا فجلب عسكرا من السلطان ، ولما وصل اصطلحوا واطلق ابن نجم الدين (١٠) ودخلت عساكر السلطان الى بلاد الافرنج ليسبوا فالتقى

بهم الأفرنج وقتلوهم كلهم ، يقولون إنهم أحرقوا منهم ثـلاثة الاف بالنار .

وفي سنة ٥١٣ سلم حاكم حلب مدينته لنجم الدين لأن الأفرنج قد أضعفوها ، وفي تلك السنة أخذ نجم الدين الغـازي نصـيبين ، ولما مضى الى حلب ليصنع صلحا مع الا فرنج ولم يقبلوا فجمع جملة مـن الاتراك لأنهم كانوا يطيعونه جدا ، يقولون انهم أرادوا أن يحصدوهم فمـــــــــــــــــــــــــا قدروا ، الف أمير كان فيهم ، ولما اصطفوا لم يصبر حاكم انطـاكية حتى يأتي الملك فانكسر ، واخذ نجم الدين نحو الشرق ، ولما رجـع الى ماردين سمع أن اهـل حلب قـد عصـوا عليه فتـوجه الى ميافارقين ، ومات في الطريق وأمر أن يملك ابنه بعـده وكان اسـمه حسـام الدين تمـرتاش ، ولأنه لم يكن مسـتعدا ، وكان سـليمان حاضرا هو الذي ادخله الى ميافـارقين وقبـره ، ولذلك ملك هناك ، وملك أخوه تمرتاش في مـاردين ، وكان هـذا في سـنة سـت عشرة وخمسمائة للعرب . وهذا الفصل يجب أن يسـبق الذي قبله لأنه ملك بعد نجم الدين على حلب بلك(١١).

أحـــــــــــداث مـــــــــــــا
بين ١٤٣٥ - ١٤٤٦ يونانية ١١٢٤ ـ ١١٣٥ م .

نتابع في مطلع هذا القسم الحديث حـول حصـار ملطية لاننا إلى هذا الزمان تحدثنا في المقالة المتقدمة عن موت بلك الذي كانت باسمه تحفظ ملطية بأيادي ابن السلطان ، ثم انقسمت بلاد بلك بين حـكام عديدين : مدينة حلب أخذها حسـام الدين تمـرتاش ، وقلعـة زياد اخذها سليمان،وسلطان ملطية اخذ مسرا وجرجر،ولأجل هـذا وقـع خصام بين حكام قلعة زياد وبين حكّام ملطية ، وبهذا انفتح البـاب امام الأمير غازي ابن دانشمند حاكم سبسطيه الذي اراد أن يأخـذ ملطية،وعقد عهداً مع السلطان مسعود الذي كان ختنه،فجمع شـعبا كثيرا وهجـم على ملطية يوم الجمعـــة في ١٣ حـــــزيران سنة ١٤٣٥ وسبى قراها،ونزل على المدينة شـهرا،ثـم مضى غازي وترك ابنه محمد في قرية ساحان التي هي قـريبة مـن المدينة ومعـه عسكر عظيم وامرهم أن يحرسوا أبـواب المدينة ولا يتـركوا احـدا يدخل أو يخرج منها،حينئذ جلب المأساة لسكانها من الجوع والمرض حـتى وصل قفيز الحنطة الى ستة وثلاثين دينار واخيرا فني القوت كليا،وصار السكان يأكلون ورق الاشجار وقشور الشـجر الرطـب واينما وجدوا قططا أو حميرا ميتـه كانوا يأكلونهـا ويلعقـون الدم ايضا،وكانوا يأكلون الجلود والأحذية وما شابه ذلك ، لقد تسلط على المدينة ثلاثة سيوف : سيف من الخارج كان يسقط على رقبة كل من يريد أن يهرب ، وسيف الجوع الذي لا يطاق،وسيف الحكام الاشرار داخل المدينة الذين ما فتئوا يعذبون الناس ويرمونهم بالسجون لأجل جمع الذهب،ومن هنا صارت تحدث مناظر بشـعة فقـد كان الأولاد يبادون أمام عيون اهلهم من الجوع وهم عاجـزون عن مسـاعدتهم سوى البكاء عليهم،ثم اخذهم للقبور،أما العجائز والمشـايخ فـكانوا مطروحين بالأسواق متورمين يئنون لانهـم لا يسـتطيعون الصراخ،

حتى أن الناس لم يعودوا يتكلمون سوى بالبكاء،أما الحاكم فقد خرج بالليل ومضى فاستأجر الافرنج بثلاثين الف لكن بعد أن وافقوا معه لم يأتوا لأنهم كانوا متوجهين الى حلب . حينئذ جمعت أم السلطان ايزابيل الثانية كل الأحرار ومن كانت تظن أن لديه مالا والقت بهم بالسجن،وكانوا يعذبونهم بغير رحمة ويأخذون الذهب وقد استعدوا ليقتلوا بالسيف كل المسيحيين ويذهبون . لكن الرب لم يترك أهل المدينة في هذه الضيقة طويلا فارتحلت هذه الملعونة خاتون وابنها،وكان ذلك ليلة الاربعاء ١٠ كانون الأول سنة ١٤٣٦، ودخل الأمير غازي ولما نظر المدينة فارغة من السكان والذين بقيوا بدوا وكأنهم قائمين من القبور شجعهم،وأعتق الأسرى الموجودين والذين يجتمعون ويأتون.وأعطى قمحا للفلاحين يزرعوا،وأحضر البقر والثيران والأغنام،وأخذت المدينة تنتعش . وفي تلك السنة مات سليمان بميافارقين وملك عليها حسام الدين تمرتاش حاكم ماردين وهو أخوه،ولما كانت قلعة زياد لسليمان المكنى شمس الدولة ذهب الأمير غازي نحوها أيضا لكي يملكها،لكن الأمير داود من أسرة ارتق كان قد سبقه فقام الأمير وسبى اهالي بلاد هنزيط واحضرهم الى بلاد ملطية،ثم ذهب مرة ثانية وسبى كل ما بقي،واخذ قلعة مسرا ، حينئذ أتى داوود ليتحارب مع الأمير غازي ، ولما عرف بأنه لن يستطيع أن يقاومه هرب وأخذ يحرق القرى التابعة له .

وفي تلك السنة (١٤٣٦) يونانية مات الخليفة المستظهر في بغداد(١٢) وقام ابنه المسترشد ، واتفق الأمير العربي المسمى صدقة(١٣)مع الأراتقة ، أما الخليفة في بغداد فقد دخل الى بيوت ابيه وطرد آلاف المغنين ، وجمع كل أنواع الات الطرب واحرقها امام الباب ، واخرج ثلاثة آلاف امرأة من المغنيات والزانيات وكان الناس يقولون لأن رؤوساء الدين يبدأوا ينحرفون عن طريق الايمان الصالح زالت السيطرة منهم ومن العرب .

ثم ان الأمير صدقة تمرد وأعلن العصيان على الخليفة .
أما الترك فكانوا يساعدون الخليفة ويطاردون دبيس ابن الأمير

صدقة ، فترك المسلمين والتجأ الى الأفرنج وقادهم ضد حلب ليأخذوها له ، أما البرسقي (١٤) حاكم حلب فجمع عسكرا ليهاجم الأفرنج،حينئذ رجع الفرنجة الى بلادهم ، فدخل البرسقي حلب واطمأن وظن انه كسر الأفرنج فسار ضد أعزاز ليأخذها ، حينئذ اتى ملك القدس وجمع الأفرنج وشنوا حربا على البرسقي فهزمه وقتل عساكره ، وخلص هو مع قليلين ، وهرب لحلب وظهر بهذه السنة كوكب عظيم من اليمين الى الشمال طوله كثير وعرضه بعمق بلاد الفرس ، وبقي يظهر مدة شهرين ، وفي سنة ١٤٣٥ ظهرت كواكب متناثرة من بداية الهزيع الثالث من الليل الى الصباح ، وفي سنة ١٤٣٦ صار جوع عظيم في كل المشرق .

وخرج البنادقة الذين هزموا المصريين من عكا تحت لواء رئيسهم الدوقس،وتوجهوا بحرا الى مدينة صور المبنية في قلب البحر ، وشرعوا بحصارها ، وكان هؤلاء البنادقة يعملون لصالح بطريرك القدس الفرنجي .

وبهذا الزمان خلص بلدوين الملك من ايادي الترك ، وقد افتك بمائة الف دينار .

وفي سنة ١٤٣٧ قتل الأفرنج حاكم حماه عند كفر طاب ، واحتل الأفرنج جبلة من ابن عمار ، ونزل ملك القدس يساعد البنادقة لاحتلال صور،لكن المصريين سلموا صور لحاكم دمشق ، ولما أتى حاكم دمشق أي طغتكين ليتحارب مع الأفرنج لاقوه في مرج النحاس وقاتلوه وكسروه وخلص قليل من عساكره ، وذهبوا الى دمشق ، بعد ذلك اخذ الأفرنج يضايقون صور بكل أنواع الحرب بالبر والبحر ، وأخيرا أخذوها في سنة ١٤٣٧ .

وفي تلك السنة صعد البرسقي مرة ثانية ضد الأفرنج فانكسر ، وهرب ثم اتى للمرة الثالثة فاتى عليه بلدوين ملك الرها فكسره وقتل اثني عشر الفا .

وبعـد ان اخـذ الامير غازي ملطية جمـــع الملك عرب ثـــلاثين الفا ، واتى ليحارب اخيه مسعود لكونه لم يمض يســاعد أخـاه في ملطية ، فتركها لغازي ، وهرب مسعود الى القسطنطينية والتجـا الى يوحنا ملك الروم .

فاما الملك عرب فنزل على قونية مدينة مملكة الســلطان مســعود اخوه ، واما الملك يوحنا فتقبل مســعود بـالفرح ، واعطــاه ذهبـا كثيرا ، ولما خرج اتى الى عند الامير غازي ، وانطلقا معا ضد عرب فهرب الى طوروس الأرمني في قليقلة .

وفي سنة ١٤٣٨ بالصيف جمع عرب الترك والأرمن ووضع كمينا وامسك محمد بن غازي ، واتـى الامير يونس على عرب ، وانتصر عرب وامسك يونس ، لكن غازي اتى سريعا ولما التقوا مع بعضـهم انكسر غازي في البداية ، ثم صعد الى مكان مـرتفع ونصـب خيام معسكره وامر ان يضرب بـالابواق ان عرب قـد انكسر ، فـاجتمع عسكر عرب على أصوات الابواق وراوا خيام غازي ، وكان قد حـل الظلام فتبددت عساكر عرب ، حينئذ طاردهم غازي ، واخذ خيامهم وخيولهم ووصل الى قومان وانقـرة وقـاتلها بشـدة حتـى تملك عليها ، واخرج ابنه محمدا الذي كان معتقلا هناك ، وبعد هذا جمع عرب ايضا العساكر وبدا يضطهد الناس ويحتل القرى ، وقد احتـل قلعة وجد فيها ولد من أولاد غازي اسمه يمن فقتله ، فغضـب غازي جدا ، وجمع جيشا ومضى ضد عرب ، فانكسر عرب وهـرب،واخـذ الامير غازي يخرب القرى بغير رحمة،ثم جمع عرب عسكرا وزحـف ايضا نحو الامير غازي فانكسر ثانية عرب وهـرب ليمضي الى بـلاد اليونان فهلك .

كل ذلك صار بين الترك الذين في غضـبتهم على بعضـهم بعضـا كانوا يحتمون بالمسيحيين .

في سنة ١٤٣٨ خرج من رومية بوهيموند بن بوهيموند الذي كان ابوه اميرانطاكية وحمل الاسم نفسه وكان واحدا مـن الأوائل الذين

خرجوا وملكوا ، فأتى هذا متكبرا متغطرسا ، فأراد ان يستعبد الافرنج فانقسموا على بعضهم ، وحدثت بينهم حروب ، فاستغل ذلك جوسلين ، وغزا ضواحي انطاكية وسبى كل شيء وجده ، فغضب بطريركهم واغلق البيع وابطل القرابين والصلوات والنواقيس ، وامر أن لايقبروا الأموات،ولما تضايقوا اصطلحوا ورد جوسلين كل ماسباه .

وفي سنة ١٤٣٩ اجتمع الترك والافرنج في منطقة حلب للقتال ، ولما خاف الترك تعهدوا ان يعطوا لجوسلين كل سنة اثني عشر الف دينار ، وعقدوا صلحا معه ، وبعد ذلك دبر الترك مؤامرة مع أناس من أعزاز فسقوا جوسلين سما هو وستة من فرسانه فمات أولئك الستة ، أما جوسلين فبوساطة الأطباء وبعناية الرب نجا فقتل الذين أعطوه السم هم وأولادهم .

ودخل في تلك السنة يوحنا ملك اليونانيين الى بلاد الاونجريين واستعبدهم .

وفي تلك السنة خرج السلطان الذي كان في ملطية،وسبى اطراف البلاد البرانية،ومضى ولم يتراءى .

وايضا في شهر اب نهب الترك العصاة بلاد ملطية،فلحقهم داود من قلعة زياد وضربهم وخلص الأسرى وردهم .

وفي تلك السنة مات السلطان الكبير غياث الدين وكان هذا حسن السيرة عادلا وشريفا في انتصاراته ، وكان في أيامه امن دائم في بلاده ، ثم ملك أخوه سنجر بن ملك شاه وابنه محمود .

وفي سنة ١٤٤٠ دخل جوسلين الى بلاد أمد وقتل الترك والأكراد الذين في الجبل الاسود ، ونهب القرى حتى باب المدينة لانه لما دخل الترك الى بلاد الرها كان جوسلين بانطاكية،دخلت مع الترك عساكر أمد الى بلاد الرها .

وفي هذا الزمان كان عند حسام الدين حاكم ماردين فارسين افرنجيين : واحد اسمه بررنول ، والآخر جلارن ، ولم يرد أن يقتلهما لكن الزمه البرسقي واقسم ان لم يقتلهما فسوف يخرب بلاده،ولما قتلهما أتي خبر ان البرسقي ضربه بينما كان يصلي يوم الجمعة في المسجد اسماعيلي بسكين ، فما دخلت به لأنه كان لابس زردية ، فأمسك الاسماعيلي ، ولما تضايق صرخ لرفاقه الأثنين اللذين معه وقال : اضربوا من تحت فضربا البرسقي تحت بطنه فمات ، عند ذلك ندم حسام الدين على قتل الفرنجيين ٠

كمل هذا الخبر بعون الرب .

وفي سنة ١٤٣٨ كان الشتاء شديدا ، افنى الحيوان والبهائم ، وحدثت ايضا زلازل في شباط .

وفي سنة ١٤٣٩ في تشرين الثاني حدث زلزال مرتين بالنهار ومرتين بالليل،وبقيت الأرض ترتج أربعين يوما وأربعين ليلة ، وتراءى كوكب مضيء في ثامن ساعة من النهار ، وأخيرا انتفخ كالتنين وسقط .

في سنة ١٤٤٠ تراءت نار في ناحية الشمال في كانون الثاني ، وفي اذار ، وفي نيسان وكان يظهر على شكل اعمدة شبه منفصلة في ناحية الجنوب .

في سنة ١٤٤١ اجتمع الافرنج وخيموا حول دمشق لأن حاكمها طغتكين المعروف بفضائله قد مات ، وملك ابنه تاج الملوك ، وامسك اهل بانياس لكي لاتدخلها قوات الأفرنج،فأرسل الأفرنج الوفا من الفرسان والمشاة ليحضروا مايحتاجون من القوت ، والتموين ، فصنع الترك كمينا فتضايق الافرنج واخذوا من حاكم دمشق عشرين الف دينار ، وعقدوا صلحا ، وعادوا الى بلادهم على أن يعطوا كل سنة للافرنج خراجا .

ثم مات طوروس الارمني حاكم قليقلة في تلك السنة وقام بعده أخوه ليون فبدأ القتال معه بوهيموند حاكم انطاكية .

فأما الأمير غازي لما كسر جميع الترك الذين في كبدوكية ملك وحده ، ووصل الى ساحل البحر ، وكان هناك يوناني اسمه قيساذس حاكم ذلك البلد ، فخرج هذا من تلقاء نفسه الى الأمير غازي وسلمه جميع القلاع التي في بحر بنطس ، واعطاه مكان في بلاده ، واعتبر نفسه من عداد جنوده ، فلما قويت شوكة الأمير غازي في ذلك الزمان سمع بأخبار طوروس فأرسل عساكره الى قليقلة،وكان بوهيموند ايضا والأفرنج قد وصلوا من الجانب الآخر، لكن لا الفرنج كانوا عارفين بوصول الترك ولا الترك كانوا عارفين بوصول الأفرنج ، ولما وصلوا الى منطقة عين زربة رأى الترك انه مع بوهيموند قليل من الفرسان ، فاستغلوا هذه الفرصة وهاجموه فصارت معركة حامية وطويلة انسحب على اثرها الأفرنج الى تل عال ، فأحاط بهم الترك من كل جانب وقتلوهم جميعهم بما فيهم بوهموند لأنهم لم يعرفوه أولا ، ثم أخذوا راسه وأسلحة الأفرنج ايضا وخرجوا عائدين ، أما ليون فظل قابعا لم يتدخل لصالح اي من الطرفين ، وقتل معظم الفرنجة ، وبعد ماتوقف القتال امر الامير غازي بسلخ راس بوهيموند وأرسله مع كثير من الهدايا والخيل الى الخليفة في بغداد فقابله الخليفة بالرضا ورفعه الى مكانة علية خاصة .

وفي تلك السنة اعطى سلطان خراسان الموصل لابن البرسقي ، وقد قيل عنه انه كان ماهرا جدا في الحكمة والعلوم وعارف بتركيب النسج والبنيان،وكذلك شجاع وجبار في الحروب ، لكنه لم ينجح لأن النجاح والنصر هو من الله ، وقد عاش ثلاثة اشهر فقط في السلطة ، ولما وصل الى الرحبة ادركه الأجل ومات ، ويظن انه قتل بالسم .

وزحف بعده ضد الرحبة مسعود بن أق سنقر ، وأقام وحاربها حربا قاسية ، وهذا مات بالسم ايضا .

اما جوسلين فقد هاجم رأس العين ، وقتل عددا كبيرا كان أغلبهم من العرب مات اكثرهم خنقا والباقي سباهم رجالا ونساء .

ولما مات مسعود بن البرسقي حاكم الموصل كان بها والي اسـمه جاولي من غلمان السلطان الكبير ، فاشاروا عليه ان يأخذ مال مـن خزانة حاكم الموصل ، فأخذ مالا جزيلا وارسله الى السـلطان مـع القاضي بهاء الدين الشهرزوري ومعه الأمير صلاح الدين محمد بـن ايوب،وارسـل يقـول للسـلطان اني انا امير لكم ههنا لأني مـن عبيدكم ، ولما دخل الرسل الى بغداد وقبل ان يواجها السلطان التقى بهما رجل اسمه نصير الدين جقر بـن يعقـوب ، وكان مـن جنس صلاح الدين فأعلماه سبب مجيئهما،فأشار عليهما ان يطلبـا عمـاد الدين اتابك زنكي قائلا : بهـذا يرتضي السـلطان لأن اتـابك مـن جنسه ، وكان جبارا ومشـهورا وتليق بـه السـلطنة فقبـلا مشورته ، واجتمعا اولا مع زنكي فحلف لهما اذا انتصب فسـوف يلبي لهما كل مايطلبان ، فطلب ذلك القاضي ان يكون قضاء الموصـل له ولنسله من بعده مادامت ثـابتة في مملكة بيت أتـابك ، وان يكون كلهم قضاة ولكافة البلاد التي تحت حـكمه فتـأمر بـأمره وأمـر أولاده ، فحلف لهما على ذلك وثبته بكتاب .

وطلب صلاح الدين منه ان يكون حاجبه الخـاص ونصـير الدين نائبا عنه بالموصل،وأن يكون أمره على كل الرعية .

وعندما تقدما الى السلطان كانا قبلا قـد غمـرا كل الذين حـوله بالهدايا ، فاعطى السلطان الولاية لزنكي،وكذلك فعل الخليفـة،ثـم خرج من بغداد ، وخرج معه عسكر ، ولما اقترب من الموصل سـبقه القاضي بهاء الدين والأمير صلاح الدين ودخـلا على جـاولي وقـالا له : لم نقدر ان نأخذ لك البلاد فأخذنا لك امرا ان تكون واليا بهـذه القلعة ، وامرك في كل البلاد ، وامر السلطان ان يكون زنكي هذا هو واتباعه امامك رئيسـا للعسـكر ، ولما طـاوعهم دخـل زنكي الموصل (١٥) وقد فتحـوا امـامه ابـواب المدينة والقلعـة وملك في سنة ١٤٤٢ ، وحينئذ صعد واخذ الجزيرة ، وملك رويدا رويدا كمـا يقولون ، ويحكون أنه حفظ على تسلسل الزمان عهـود بهـاء الدين وصلاح الدين ونصير الدين وزين الدين بتمامها ولم ينقض منها شيء قط.

وفي تلك السنة قتل بوهيموند حاكم انطاكية فاتى الملك من القدس واتى جوسلين من الرها ليتملكا على انطاكية ، فاغلق اهــل المدينة الابواب وتــركوهما خــارجا ، وبعــد ان بقيا عدة ايام يتشــاوران واخيرا سلم الانطاكيون المدينة لجوسلين لكي يحفظها حتى تتــزوج ابنة بوهيموند فتعطيها الى زوجها ويصير حاكما لانطاكية .

عندما كان الأفرنج متوجهين الى باب انطاكية اتى زنكي حــاكم الموصل ونهب بلاد تل باشر وبلاد انطاكية ، وضرب الفرنجة وقتــل اتباعهم وبعد ذلك دخل الى بلادهم وقتــل منهــم أعداد كبيرة وأخــذ قلعتين .

وفي تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونانيين ليتحــارب مــع التــرك وبنى مدينة على شاطىء البحر، ولما استعد ليلاقي الاتــراك غدر بــه أخوه وجماعة من عظمائه ، ولما ارادوا ان يحبسوه هرب الى الامير غازي ففرح به جــدا،واكرمــه كثيرا،وارســله الى عند جيراس الى طرابزون .

لكن لما رجع الملك الى القسطنطينية أرســل الذين غدروا بــه الى المنفى .

أما الأمير غازي فقد نزل على ســمندو التــي كانت مــع اختـــه واخذها حــزبا ، ومـــن هناك دخـــل الى بـــلاد قليقلة على ليون الأرمني ، وأخذ القلاع،أما ليون فقد اقسم انه لن يدخــل أو يرســل لصوصا الى بلاد الأمير غازي ، وكذلك ان يعــطي كل ســنة جــزية لغازي فصدق كلامه ، وتركه وخرج ، اما ليون فكذب ولم يعطه شيئا، ثم اتى الأمير غازي الى ملطية ، فاتى اليه السلطان مســعود ختنة واسحق أخو ملك اليونانيين الذي رجع من عند جيراس ، وبقيوا كل فصل الشتاء،ثم مضى اسحق الى ليون فأعطى ليون ابنته لابن أخــي الملك مع مدينتي المصيصة واذنة ، لكن وقعــت بعــد ذلك مشــاجرة بينهما ، وأخذ ليون من اليونانيين كل متاعهم وهرب اســحق وابنه الى عند السلطان مسعود .

وفي سنة ١٤٤١ ولد اربعة أطفال من بطن واحدة ، وبعد عشرة أيام مات جميعهم فجأة في يوم واحد.

في سنة ١٤٤٢ في تشرين الثاني تراءت نار في ناحية الشمال كانت تلتهب كالجبال ، واخيرا صارت كالأعمدة ، وفي ذلك الوقت سقط كوكب واحد عظيم ومخوف جدا ودوى أثناء سقوطه كصوت الرعود الشديدة.

في سنة ١٤٤٣ تراءى قوس كالغمام بالليل ، وفي هذه السنة اصيبت الكلاب بداء الكلب في اكثر البلاد ، وقد أصابوا الناس والبهائم واحدثوا فيهم ضررا فادحا ، وقال المنجمون : إنه عندما يرى الكلاب الكوكب المدعو (كلب الجبار) سيكلبون .

وتجرا في هذا الوقت رجل فارسي من اهل ملطية ، وخطف الصليب من يد أحد المسيحيين ووضعه على احليله ، حينئذ ثار المسيحيون واجتمع اهل المدينة وذهبوا الى الوالي واخبروه ، فامر الوالي باعتقال ذلك الفارسي وتسليمه للمسيحيين لينتقموا منه كما يريدون ، حينئذ شحروا وجهه واركبوه حمارا ودوروه بالاسواق ، وبعد هذا سمع غازي أيضا فضرب الفارسيوطرده من ولايته.

وفي سنة ١٤٤٤ يونانية حدثت زلزلة في ليلة الثالث من شباط ، وفي اليوم الثاني من اب خسفت الشمس ، وفي ايلول حدث زلزال في وضح النهار ، وبعد هذا تراءت اية مخيفة تشبه النار ، وحدث بعد هذا لمدة سنتين قلة بالمطر وجوع في بلاد كثيرة لا سيما في جزيرة قبرص ، ومن شدة الجوع اكل المسيحيون لحما في الصوم الكبير .

وفي الوقت الذي به خسفت فيه الشمس مات أربعون فارس من الأوبئة ومعهم أربعمائة رجل مسيحي وابن توما الشماس .

وفي تلك السنة أيضا ولد بملطية أربعة أطفال في بطن واحدة ثلاث ذكور وفتاة واحدة ، فمات الذكور وعاشت الفتاة .

وفي ذلك الشهر ولد خنزير له جثتين وراس واحد ومات للحال.

وفي هذا الزمان مات اربعمائة تاجر فارسي ، واربعة رجال مسيحيين كانوا قد خرجوا من القسطنطينية ، ماتوا كلهم بالثلج وحدث ذلك في عيد مارتا ودورس.

ومضى جوسلين الى القلعة التي بين حلب ومرعش ، وكان فيها عرب يغيرون في تلك البلاد ، وقد حفروا تحتها نفقا ، فدخل جوسلين ليراه فانهدم عليه للحال ودفن تحت التراب فاخرجوه وهو على آخر رمق ، ثم حملوه الى تل باشر ، ولما سمع الأمير غازي جمع الأتراك ليدخل لبلاده فأمر جوسلين ان يجتمع الافرنج وحملوه على حماله وخرجوا ليقاتلوا الاتراك ، وفي الطريق مات جوسلين الثاني ، ولما سمع غازي أن جوسلين قد مات ابدى موقفا نبيلا ، فأوقف الحرب وأرسل وفدا للتعزية وكتب الى الافرنج قائلا :

اليوم لن احاربكم لئلا يقال إنني قد انتصرت عليكم بعد أن مات ملككم ، فالآن اذا تدبروا أموركم بكل هدوء،واقيموا لكم رأس وفق نواميسكم،ودبروا بلادكم بالأمن،ولا يكون لكم فكر من ناحيتي ولا من ناحية عساكري.

أما ملك اليونانيين فقد خرج حانقا على الترك وعلى الأرمن ، وقتل عددا كبيرا من الترك على شاطىء البحر وأخذ قلعتين ، ثم مكر به ايضا عظماؤه وارسلوا ليأخذوا أخاه ويملكوه ، ولأجل ذلك رجع عاجلا. أما الأتراك فقد اجتمعوا ودخلوا الى زوسو بولس ولما نفد زادهم ، وعضهم الجوع ، ولم يستطيعوا أخذها نهبوا البلاد ورجعوا.

أما الأمير غازي فأخذ معه السلطان مسعود ودخل الى شاطىء

البحر فحلا على قلعة اسمها زينين فحارباها لكنهما لم يستطيعا ان يأخذاها،غير انهما اخذا مــن الروم الذين فيهــا أربعــة آلاف دينار واصطلحا معهم.

في هذا الزمان أرسل خليفة بغــداد وســلطان خــراسان رئاســة لغازي ليكون ملك الشمال ودعي الملك غازي.

فأما جوسلين الثاني فقد مــسكر بــه الافــرنج و اســتعدوا ليمسكوه ، وصارت بينهم فتنة ، ثم اصطلحوا مده قليله ، لكنه مــا لبث أن انفجر بينهم خلاف لأن جــوسلين الثــاني اراد أن يملك على انطاكية مكان أبيه،لكن اهل المدينة وبطريركهم لم يسلموه بــل كانوا يحتفظون بها لابنة بوهيموند.

في سنة ١٤٤٤ يونانية (١١٣٣ م) صعدت عساكر زنكي حــاكم الموصل على الرهـا،فخرج الأفرنج فانكسروا وهربوا.

وايضا في هذا الزمان اتى أمير يسمى محمــد شــمس الملوك كان يبغض المسيحيين،فطلب من حسام الدين حــاكم مــاردين مــوضعا فأعطاه بلد شبختان ليحارب الأفرنج،وكان دائمــا يدخــل الى بــلاد الرها ويسبي ، فصادفه ستوت فارسا من الافرنج وحــدثت معــركة قتل فيها الف تركي ثم امسكوه واحرقوه على باب الرها بعــد هــذا أخذ جوسلين قلعة شبختان وهدمها كليا.

وكان الترك مجتمعون في بلاد حلب فدخل عليهم جوسلين ، امــا هم فانسحبوا ودخلوا الى بلاد تل بــاشر فســبوها فخــرج عليهــم سبعون فارسا كانوا يتولون حفظ البــلاد ، لكن التــرك كمنوا لهــم وامسكوا بهم كلهم.

وأيضا دخل بلاد الترك الافرنج وسبوا،ولم يوجــد احــد يقــف في وجوههم ، لأن الافرنج كانوا مختلفين مع بعضهم.

وأيضا خــرج يوحنا ملك اليونانيين واخــذ قســطمونه بــالصلح والقلعتين القريبتين اليها،اخذهما بالقتال ثم هدمهما. (١٦)

اما غازي الملك فقد اخذ قلعة اليونانيين المدعوه البـرا بالحرب واحرقها بالنار وجعل الشعب عبيدا.

وفي سنة ١٤٤٥ دخل الترك بلاد انطاكية فلاقاهم جوسلين وقتل اكثرهم،وحينئذ اصطلحوا.

وفي كانون خرج حاكم طرابلس نحو قلعة اسمها بارين فحاصرها الترك حالا واستطاع بصعوبة أن يعود الى القلعة ثـانية ، فـاجتاح الاتراك البلاد الى جبـل لبنان ، وشـددوا الحصـار على القلعـة ثانية ، فتضايق الأفرنج الذين بداخلها من الجوع والعـطش ،حينئذ وصل ملك بيت المقدس فهرب الترك ، ونزل الملك على قلعة القصـير قرب انطاكية وأخذها بالحرب ، ومن هناك تـوجه الى عم واجتمـع هناك الترك كالجراد ففزع منهم الملك أول الأمر ، فـطلب جـوسلين فاتى وكان مبتعدا لانه كان يخاف من مـواجهه الملك ، فلمـا اتـى جوسلين أخـذ يشـجع الملك،واشـتعلت الحـــرب فنزل الاثنان عن فرسيهما وطلب الغفران الواحد مـن الآخـر على المشـاجرة التـى صارت بينهما ، وحينئذ حاربا التـرك وغلبـوهما وطـاردوهما الى القلعة،ولما رجع الملك من الحرب وصوتت الأبواق طلب جـوسلين فلم يجده فصرخ الملك وكل الشعب صرخة عظيمة،لكن جـوسلين اتـى في منتصف الليل.

اما الملك غازي فرجع الى قسـطمونه وأخـذها بـالحرب وقتـل اليونانيين الذين وجـدوا بهـا ، فتـألم كثيرا يوحنا الملك وخـــرج بحدة ، ولكن حدته لم تغير شيئا لأنه ورد عليه خبـر مـوت أمـرأته وابنه الذي كان خليفة له ، وكان مريضا أيضا لذلك رجع سريعا الى مدينته.

في سنة ١٤٤٥ اتى جـراد مثير الى الرهـا وبـلادها فـالتجا المسيحيون بالمنتجب ماربرصوم ، وارسلوا واخذوا يمينه،وفي حـال وصولها صارت اعجوبة وارتحل الجراد ولم تتضرر البلاد أبدا.

فأما اليونانيون كعادتهم الرديئة فقد التهبوا حسدا ، فحرضوا بطريرك الافرنج ليفتح الصندوق لكي يروا اليمين ، فرفض الرهبان أن يفتحوا الصندوق وقالوا : إذا فعلنا فسوف يحل الغضب على هذه البلاد ، فصاروا يستهزئون بهم قائلين لايوجد شيئا في الصندوق ، عند ذلك اضطر الرهبان أن يفتحوه في بيعه الافرنج ، وللحال أرعد الجو وخيم على السماء سحاب مظلم ، ونزل برد هائل امتلأت منه الأسواق ، وصار الشعب كله يصرخ باكيا : يارب أشفق ، أيها القديس ماربرصوم تحنن .

اما الافرنج من الكهنة والشعب والبطريرك فقد خروا أمام الصندوق باكين،أما اليونانيون فقد هربوا واختفوا،ولما هدأ البرد اجتمع الشعب واقاموا الصلوات لمدة ثلاثة ايام.

اما اهل حران العرب فانهم لما سمعوا بهذا الأعجوبة أتوا وطلبوا من الرهبان أن يأتوا بالذخيرة الى عندهم فلم يفعلوا ، ولما رجعوا الى الدير مضى أهل ملطية وجلبوا رفات القديس ، وخرج كل الشعب بالدعوات والصلوات ، وفي ذلك الوقت لجم فم الجراد ولم يعد يؤذي الزروع قطعا،بل خرج الى الأراضي البور والمفلوحة والتهم القش فتعجبت كل الشعوب وكل لسان مجد الله حين رأوا هذه الأعجوبة، وازداد مجد الله بقديسيه ، فأما الشعب فبقي يصلي وكان يفرق الصدقات ، ورجع عدد كبير الى طريق البر ، وقد صنع الرب اعجوبة اخرى وهو انه كان يدخل الجراد الى حقل القطن ويأكل القش ، ولا يضر بالقطن ، وهكذا كان يفعل في حقول الحبوب والسمسم وغيرها.

في سنة ١٤٤٦ خرج من ايطاليا فرنجي اسمه دي فوتيرس وأخذ ابنة بوهيمند الذي قتل وملك على انطاكية.

وفي تلك السنة مات بلدوين ملك القدس.

وفي تلك السنة أتى زنكي حاكم الموصل الى سورية وحل على حلب،وكان بها والي عربي فأغلق الأبواب ، لكن اهل المدينة كانوا

يعرفون والد زنكي الأمير اقسنقر ، وكان قد ملك عليهم وكانوا يشيدون باستقامته وعدله في احكامه ، وكانوا يعرفون زنكي ايضا لأنه ولد بالمدينة وتربى،فتوجه الشعب بحماس وفتح الأبواب وادخلة.(١٧)

أما الوالي فقد هرب الى القلعة فحاربها واخذها ، وامسك بالوالي وقلع عينيه وارسله للموصل،وبالمقابل صنع مع أهل المدينة خيرا ، واصطلح مع الأفرنج ، ثم رجع الى الموصل بسبب مشاجرة بينه وبين الأمراء.

وفي تلك السنة أرسل خليفه بغداد وسلطان خراسان للأمير غازي حاكم ملطيه اربعة أعلام سوداء وطبولا تضرب امامه كالملك ، وطوق ايضا من ذهب يوضع في عنقه وصولجان من الذهب ليضرب به بين أيادي الرسل لكي تتثبت له المملكة ولذريته من بعده،فلما أتى الرسل وجدوه مريضا فمكثوا ينتظرون ، لكن ما ابث ان دنا موته ، واعطيت الرئاسه لابنه محمد فالبس الذين اتوا الهدايا محمدا ونادوا به ملكا.

وكان الأمير غازي هذا رجلا سفاكا قاتلا يقتني النساء ويحب الجواري،وكان قبل موته بفترة وجيزة قد اتوا له بامراة ، فأمر اهل ملطية أن يزينوا لها الأسواق ، لكنه كان شجاعا جبارا وصاحب حيله وذكاء وفطنة ، وقد فتح بلاد الروم ، وقتل الاتراك العصاة الذين كانوا بها ، وقد نشر الأمن في بلاده ، وقد حارب وقضى على اللصوص وقطاع الطرق ، وكان يحب الجنود،وكان في وقت موته يزأر كالأسد.

ولما ملك ابنه محمد بدأ يسلك ناموس العرب،فكان لا يشرب،وكان يكرم المسلمين ويحكم بالعدل والقسطاس،وكان متفهما جدا ، لكنه كان يهدم البيع.وقد جدد بناء مدينة قيساريه كبدوكيه التي كانت قد تهدمت من مدة طويلة ، وقد بناها بنيانا جميلا بحجر من الرخام الأبيض كان يأخذه من الهياكل الجميلة التي كانوا يهدمونها ، وقد

اتخذها عاصـــمة له ، ثـم انتقــل في تشرين الاول الى ملطية أي في السنة التي ملك بها،وهي ســنة ١٤٤٦ وكان أهلهــا يتـوسلون أن يخفف عنهم المظالم التي وضعها أبوه .

لكنه ما لبــث ان مضى في تشرين الثــاني وقــد اســتعجله في ذلك السلطان مسعود ، وخـــاصة عندمـــا أخبـــره بــــأخبار ملك اليونانيين ، ولم يصنع خيرا لأهل ملطية،بل على العكس أخذ معــه أولاد الأحرار رهائن.

وفي هذه الســنة عصى ابـن داوود أرســـلان طغميش في قلعـــة زياد ، وامسكه ابــوه ووضــعه في الســجن ، كذلك عصى على الملك محمد أخواه : يجن ودولت،فقتل يجن،أما دولت فقد نهب بلاد ملطيه.

في هذه السنة اخــذ زنكي مــن الافــرنج دارا وزردنا بمعـــاهده سلام ، لكنه اخذ فيما بعد يضايقهم ليعلنوا اسلامهم ، وتزوج بابنة حاكم القلعة(١٨) ، ولما اتى الافرنج هرب زنكي.

وفي تلك السنة دخل اتراك ملطية الى بلاد الافرنج وسبوا ورجعوا

كان في دمشق بهذا الزمان حاكم يسمى تــاج الملوك بــوري بــن طغتكين وكان له وزير يسمى ابو علي (١٩) من طائفة الاســماعيلية وبسبب هذا صار للاسماعيلية دار في دمشق تدعى دار الدعوة ، وقد قووا بوســاطتها لأن كل من كان يدخل إليها ويتفق معهم كان لايدفع الجزية ، وكان فيها مدبر من القدموس ، وهذا ايضا كان اسمه ابو علي ، ويدعى الشيخ ، فعرض فجأة أن واحــدا مــن عظمــاء المدينة اسمه أبو الذواد ، أو ابن الصوفي أن قتل الوزير بالاتفاق مع الأمير، فغضب الاسماعيلية كثيرا ، واجتمعوا في دارهم واستلوا ســيوفهم وبدأوا يقتلون ويذبحون ، ثم اجتمع أهــل المدينة وكل الشــعب بــلا استثناء في ذلك اليوم وكان عددهم سبعين الفا مــن العــرب ، وقــد تمكنوا من إفناء سائر الاســماعيلية ، ثـم دخلوا سرا وقتلوا الأمير بوري،وأخيرا بقي رجلان من الاسماعيلية .

وفي سنة ١٤٤٦ سار من مصر بهذا الزمــان ملك إلى دمشــق ، وكان من العرب ، وكان يملك في مصر،لكن هذا مــكربه ابنه وأراد أن يقتله ويملك مكانه ، ولكن لما وجد هذا الملك أن شعب العرب يتبع ابنه ويجله استنجد بالأرمن الموجودين في مصر وكانوا قد دخلوها منذ أن صعدوا لسورية ، وقد كثــروا وصــار لهــم في ارض مصر جــاثليق واساقفة،وكان اسم الجاثليق هذا بهــرام ، ولما اجتمعــوا عند الملك اشتبكوا بحرب مع التابعين لابن الملك ، وفي رشــق السـهام انكسر العرب وقتل منهــم الوف،وامســكوا ابــن الملك وقتلوه بمـــوافقة والده . (٢٠)

وفي هذا الزمان ايضا تحارب زنكي عماد الدين حاكم الموصل مع امراء ماردين وحصن كيفا تمرتاش وداود ، ولما كان حســام الدين تمرتاش بين دارا ونصيبين في موضع يدعى سرجــه أتــى إليه ركن الدولة ابن عمه،فحاصروا زنكي بجيش عظيم،فخاف منهــم لأنه علم انه لن يقدر أن يقاومهم ، فأمر أن يلبس كل واحــد مــن عساكره درعه ، ويسل سيفه ويقف في باب خيمته،فوقفوا كلهــم مثــل ســور حديدي وبقوا من الصباح إلى الغروب ، حينئذ وفجأة حدث خــلاف بين حسام الدين وابن عمه،عند ذلك أخذ ابن عمه عساكره وصعد إلى ناحية الجبل فتبددت العساكر ، وقوي زنكي وطارد حســام الدين ، فهرب الفرسان الى ماردين وهلك من الرجال خلق كثير،وبعــد هــذا اصطلحوا بواسطة الرســل (٢١) ، لان زنكي احتاج أن يمضي الى سورية ، لانه كان هناك الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة ، وكان هذا منذ زمن بعيد يريد زنكي أن يمسكه ، لان هو وحده فقط بقي من العرب ، ثم اعتقل هذا في أرض فلســطين ، فــأرسل زنكي واحضره إلى الموصل واقام عليه حراس (٢٢) .

وفي هذا الزمان اختلف الخليفة المســترشد بــالله مــع زنكي لأنه رفض أن يرسل له دبيس بن صدقة ليقتله ، لانه كان يبغضه ، فجمع عساكره والتقى الجانبان مع بعضهما فانكسر زنكي وهرب فطاردته عساكر الخليفة حتى سور تكريت ، لكنهم رفعوه من السور بالحبال

وخرج ليلا من تكريت ومعه فارسين فوصل الموصل ، وأخرج الأمير دبيس من الحبس واعطاه مالا وارسله ليجمع العــرب ، وكان زنكي يجمع الترك ويتأهب ليزحف نحو الخليفة ، ولما اجتمعــت العســاكر جمع الخليفةقواته أيضا ، وبعد حروب متفــرقة انكسر أيضــا زنكي وهرب دبيس الى سلطان خراسان ، اما الخليفة فصعد الى الموصل ليخرج زنكي من المملكة ، اما زنكي فقد حصن المدينة وأقــام فيهــا نائبه نصير الدين جقر ، ولم يستطع الخليفة قهره فقفل راجعا (٢٣) .

وبعد هذا بينما كان الخليفة المسترشد راقدا بالخيمة وقت الظهر عند باب مدينة مراغة وسط معسكر مسعود سلطان خراسان ، دخل عليه عشرة رجال فقتلوه ، فقام الراشد بعده (٢٤) ٠

في سنة ١٤٤٦ صار زلزال عنيف في بداية تموز وايضا في نصف تموز ، وفي منتصف الليل شــوهد كوكب يمشي سريعــا فــوصل إلى القمر وبدا وكأنه قد شقه وجاز في وسطه .

وفي شهر آب ظهر أيضــا كوكبــان مثــل هـــذا النوع ، وأخيرا سقطا ٠

وفي ٢٣ ايلول جاء مطر غزير وبرق فأحرق سبعة ثيران وصبي ، وقد أحرق هذا البرق في بلاد سمندو في تركيا واحدا ، فتركه الاتراك ولم يقبــروه ، إذ كانوا يعتقــدون أن الذي أحــرقه الله لايســـتحق الدفن ٠

وفي تلك السنة صار زلزال في أرمينية الكبرى ، وخسفت بها مدينة اسمها بوكوف ٠

وفي تلك السنة حدث شتاء قاس ، ونزل في بلاد ملطية ثلج احمــر وكان عجيبة جديدة .

وفي أيار جاء جراد لكنه لم يفسد شيئا .

وفي ٢١ تموز نزل نور في منتصــف الليل كالقنديل وانتقــل مــن

المشرق إلى المغرب واختفى ضياء القمـر والكواكب ، وبقـي إلى أن انبلج الصبح .

وفي هذا الشهر في بلاد خراسان كان المسلمون في مـدينة اسـمها كاشغر مجتمعون يوم الجمعة ليصلوا كعـادتهم في المسـجد الكبير ، فصارت فجـاة زلزلة ، وانفتحـت الأرض ، ونزل فيهـا كثير مـن الاحياء ، وقد هلك في هذه الحادثة أكثر من عشرة الاف إنسان .

وفي سنة ١٤٤٧ كان الشتاء معتدلا ، وكان طير الحجل يدخل مع طيور اخرى إلى داخل البيوت ، وكان الناس يتعجبون من ذلك ، لكن بعد ٢٦ كانون الثاني أخذ الـشتاء يشتد ، وتجمد الفـرات وبـاقي الانهـار ، واتـى ثلج كثير ، وفي امـد دخلت الطيور والحيونات إلى داخل المدينة ، فأمر السلطان بأن لايؤذيها أحد وصـاروا يعـطونهم قوتا إلى نيسان ، ويقولون إن الطيور التي أكلت من المدينة والقـرى لما صعدت إلى الجبال اضمحلت في أوكارها .

بمثل هذا عرفنا بأن هذا قد حدث بأمر من عليين ، وذلك لتـأديب كل جنس حي،ولا أحد يستطيع أن يمنع ذلك .

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٣١ يونانية ، وفي ٢٦ نيسان منها توفي ديونوسيوس ابن المعترف ، وسجي جسده في بيعـة ملطية الكبيرة ، وقـد خـدم رئاسة الكهنوت خمسين سـنة منهـا اثنتين وثـلاثين سـنة اسقفا ، واثنتي عشرة سنة مطرانا في ملطية ، وست سنوات بعد أن اخذت منه

في هذه السنين عاشت بيعتنا المستقيمة المجد بهـدوء وراحـة لان اليونانيين والخلقيدونيين كانوا محصورين داخل بحـر بنطش وملك بني ماجوج ، ولم يعـودوا يسـتطيعون أن يضـايقوا المسـتقيمين المجـد ، ولا أن يفسـدوهم بهـرطقتهم ، وعلى الرغم مـن كون اليونانيون القساة كما قلنا كانوا محصورين داخل البحر فقـد كانوا يرسلون رجالا للافرنج اي الرومانيين الذين كانوا مسـيطرين على أنطاكية والقدس كما قلنا مـن قبـل رؤسـاء كهنة في منطقـة حـكمهم ، وكان رعاتنا بينهـم بغير اضـطهاد،وبغير حـذر لان الافرنج ، ولو أنهم متساوين مـع اليونانيين بـازدواجية الطبـائع لكنهم متميزين عنهم بانواع كثيرة،وبعيدين عنهم كليا في الامـانة وفي العادات ، وكان الافرنج في هذا الزمان مسيطرين على بلاد فلسطين وسورية ، وكان لهم رؤساء كهنة في كنائسهم ، ولم يطلبوا مـن اي طائفة قط أن تلتزم بايمانهم لانهم اعتبروا كل من يسـجد للصـليب مسيحيا.

وعد الاتراك،الذين كانوا ضابطين لاكثر البلاد ،المسـيحية عقيدة ضلال ، ومع هذا لم يميزوا قـط بين المذاهـب ، ولم يكن شرعهـم ينص على الاضطهاد بسـبب الايمـان كاليونانيين الشـعب الشرير المهرطقين.

وعندما لم يعـد أمـام اليونانيين الاشرار فـرصة ليضـطهدوا

المستقيمي المجد كما كانوا يصنعون من قبل ، لم يتوقفوا مع هذا عن قساوتهم ، بل كانوا في انطاكية ومصر يقيمون لشعبهم بطريرك في اراضي المسلمين ، وكانوا يتحركون لكي يشقوا السريان والقبط والأرمن كالحية الرقطاء المضروب راسها ، لكنها تحرك ذنبها ، فلما كانوا بسورية وارمينية وفي فلسطين ومصر مع بطريركنا واساقفة شعبنا وأخوتنا الأرمن والقبط كان أساقفتهم اليونانيين والخلقيدونيين يعملون بقدر استطاعتهم على تمزيق هذه الشعوب الثلاثة ، وكان اليونانيون الذين في القدس وأنطاكية يداومون على الشرور ، وكان رؤساء الكهنة الفرنج يميزون بين كهنة الطوائف الثلاث ويرعون المستقيمي المجد ، وكانوا يقومون ضد اليونانيين أيضا.

اما على حدود الاتراك فكان بهذه الأيام جميع المستقمي المجد مرتاحين من ضرر الخلقيدونيين ، وكانت البيعة هادئة.

اما عن فتنة البطريرك مع ابن صابوني ومع المطارنة الشيوخ الثلاثه وهم ابن المعترف الذي أخرجه من ملطية وأسقف قليسوره واسقف طور عبدين الذين حرمهم البطريرك ، ولم يكونوا من اصحاب البدع ، ولم يجاوزوا القانون وانما فعل ذلك لأنهم حقروه ، وكان قد توسط لهم اناس كثيرين ولم يقبل ، فقد مات اولئك المطارنة وهم محرومون ، ولهذا السبب ضعفت الأمانة بين كثيرين

وكان اثناسيوس السادس بطريرك السريان (١٠٩١ ـ ١١٢٩) وهو المعروف بابي الفرج بن كامرا قد غضب على ابي غالب باسيل بن صابوني مطران الرها وحرمه وأبطل الصلوات والطقوس في كنائسه من نصف الصوم الكبير حتى أحد العنصرة ، واعاد جميع الرسامات التي أجراها المطران ، فحنق المطران باسيل على بطريركه وسار الى انطاكية ورفع الدعوى عليه الى بطريرك الفرنج واساقفتهم واربابهم فأوفدوا في طلبه مندير اللاقشر في كوره قاسينا ، وادخلوه الى كنيسة القسيان مرحبين به

وسألوه أن يغفر لمطرانه ويصلي عليه ، فـأبى ، فثقـل ذلك عليهـم واستوضحوه السبب بواسطة ترجمان فقال لهم ان المطـران مـذنب ومجرم ، غير ان الترجمان نقل اليهم كلام البطريرك على غير صحته فقال :لقد نعته بالمجرم لأنه مديونا له بذهب وافر ، فقال الفـرنج إن كانت المسألة مسألة مالية فتلك شيمة سيمون الساحر ولا يحـق للبطريرك أن يتشبث بها ، وبعد أخذ ورد طويل وعدهم البطريرك بأن يصليَ على مطرانه ويغفر له ، فألح عليه رؤساء الفرنج أن يكتـب له صكا بذلك ويطلقه ، ودفعـوا اليه قـرطاسا ليكتبـه حـالا دون توقف ، فلما أخذ البطريرك القلم التفـت الى ابـن صـابوني وكان واقفا بـالقرب منه وقـال له : انظـر يا ابـا غالب الى أي ذل اوصلتني ، فقال له ابو غالب منتقما : إن كنت انا ابو غالب فـأنت ابو الفرج ، فما كان من البـطريرك إلا أن القـى القـرطاس ومـد عنقه ، وقال للحضور اقطعوا هـامتي فإني لن أحله ، فتـأثر أحـد الأساقفة وقـال لأعضـاء المجلس : دعوا البـطريرك ومـطرانه وشأنهما ، فأرفض ذلك المجمـع دون جـدوى ، وخـرج البـطريرك اثناسيوس من الكنيسة وخـرج معـه جميع الملتـئمين وانطلق الى كنيسة والدة الرب ببيعه السريان في انطاكية.

أما رؤساء الفرنج فأرسلوا يحرجون عليه مغادره انطاكية قبل ان يعقدوا مجمعا ثانيا لاعادة النظر في تلك الدعوى ، فـظل البـطريرك محجورا مده خمسة ايام لا يسوغ لأحد أن يفاتحه في المسألة قـطعا. غير أن بعض الكهنة السريان قصـدوا عبـد المسـيح الفيلسـوف الرهاوى الملكي صديق البطريرك ، وسألوه أن يسعى في حسـم تلك المشكلة فسار اليه وتفاوضا مليا ، ثم ان البطريرك قصد الملك رجير صاحب انطاكية في تحـف وتقـادم واسـتأذنه في العـودة الى ديره ، فأطلق له الحرية في ذلك بموافقة البطريرك الأنطاكي.

لكن البطريرك اثناسيوس بعد أن خرج من انطـاكية بـالتهديد لم يعد يرضى أن يبقى تحت حكم الافرنج فترك بـلاد انطـاكية ، ومضى الى مدينة أمد التي بين النهرين التي كانت مرعية مخصصـة لكرسي

البطركية . ولما جلس في دير قنقرت(٢٥) زادت الضغوط على الرهـا فاغلقوا بيعتها ونزعوا ناقوسها بسبب ابن صابوني ، ولذلك صـار فساد كثير بين الرعية في الرها وتمرد الكهنة وقاموا ضـد بعضـهم بعضا ، وصار الشعب يترك بيعهم ويمضي الى الكنائس المخالفة لنا في الايمان ، ومن هذا اعتاد الرهاويين أن يعمدوا أولادهم في كنائس الافرنج دون أن يتألموا او حتى يهتزوا بل لم يخطر على بـالهم هـذا قط ، وقد تضررت كثيرا بيعة مستقيمي المجد بهذا الاضطراب الذي صار بين الرعاه..

اما مار اثناسيوس فقد ظهر له في أمـد عدو شرس ،فقـد كان في رعية أمد اناس معروفين يدعون بني قربا يسكنون في قـرية قنقـرت، وكان اباء هؤلاء في الماضي قد اختلفوا مع ابوي البـطريرك ، وكانت عشـيرتهم تـدعي بني كامـرا وكان لبيت قـربا هؤلاء دور وحقول ، وكانوا متسلطين بالمكان ، ولما مضى البـطريرك وجلس في دير قنقرت صار بينهم وبين البطريرك خلاف حـول بعض الحقـول وصاروا يذمون البطريرك امام الحاكم ، فطلب الحاكم من البطريرك ان يغفر له فرفض،فاستشاط الحـاكم غضـبا وامـره ان يلزم دير قنقرت والا يخرج منه ، فما كان من البطريرك الا ان حرم الشماس ابن قربا الأمدي فاحتدم الشر ، وكثر الاضطراب بينهـم ، وامتـد ايضا الى امد وباقي نواحي الابرشية ، فتضـايق كثيرا البـطريرك كما سنوضح هذا فيما بعد،وفرض الحاكم على البطريرك اثناسيوس بسبب حرمانه لاسحاق ابن قربا ان لايخرج مـن أمـد لأنه طلب منه مرارا كثيرة ان يفك حرمانه ، ورفض كذلك عندما أتى ايضـا الأمير بنفسه الى دير قنقرت وسأل البطريرك ان يفك حرمان اسحاق ، فلم يقبل لكنه اطفأ غضب الأمير بالذهب الذي أعطاه له ، وحينئذ اشار اسحق الشماس على الأمير أن لايترك البطريرك يخرج من امد قائلا ان البطريرك رجل شيخ وسـوف يمـوت قـريبا هنا ، فتـأخذ أنت متروكاته ، فبقي البـطريرك مقيمـا في أمـد كأنه مسـجون ، لكن البطريرك اثناسيوس استغاث بجوسلين حاكم الرهـا وطلب منه ان يتوسط عند امير أمد ، فأرسل جوسلين عاجلا الى حاكم أمد يقـول:

ان لم تطلق سراح البطريرك فإنني سوف اخرب بلادك ، فأذن للبطريرك ان يمضي فخرج من آمد ، وذهب مباشرة ليشكر جوسلين ، ومن هناك صعد الى دير مار برصوما ، وكان يوم أحد الفنطيقوسي ، فابتدأ بالقداس ولما وصل الى دعاء الروح القدس اضطرب ، وتغير وجهه ، وذهب عقله فأجلسوه على الكرسي ، وأكمل مطران جرجر القداس،لكنه ما لبث ان عاد الى وضعه الطبيعي ، فرسم مطرانا لشبختان ، غير انه ما لبث ان مرض فبقي سبعة ايام ثم دنا وقت انتقاله،وكان ذلك يوم السبت ٨ حزيران سنة ١٤٤٠ في الساعة الثالثة حيث توفي فجنز وسجي جسده في بيت خزانة الدير .

وفي السنة التي توفي فيها مار اثناسيوس البطريرك توفي ايضا مار قربوس بابا الاسكندرية .

ولما وصل خبر موت البطريرك اثناسيوس الى الرها اجتمع الكهنة بحسب القانون لجنازته ، وفيما كان يشارك ابن صابوني بالخدمة سقط وذهب عقله فحملوه لقلايته ، وبعد ذلك استعاد رشده، ولما اجتمع المجمع في كيسوم اتى ابن صابوني الى سميساط ليذهب الى المجمع فوقع هناك عن الفرس الذي كان يركب عليه ، فحملوه وارجعوه الى الرها ومات وتوفي وهو محروم .

وكان رأس المجمع في ذلك الزمان ديونسيوس اسقف كيسوم،ولما اجتمع الأساقفة واقاموا قرعة وقعت القرعة على المعترف رئيس دير الدوائر الذي في نواحي انطاكية ، ثم مضى اسقفان ليأتيا بالمدعو، فتوفي خلال ذلك ديونسيوس اسقف كيسوم واتى بعده الشيخ ديو نسيوس المفريان ، فمضى كل الأساقفة مع المفريان الى تل باشر بعناية جوسلين الذي احاطهم بالخيالة ، ورسموا ماريوحنا المعترف راعي الدير بطريركا وذلك يوم الاثنين من الأسبوع الثاني للصوم في ١٧ شباط ، ووضع عليه اليد ديونسيوس المفريان في بيعة الافرنج الكبيرة ، وكان جوسلين وعظمائه واقفين بالخدمة ، وبوساطة جوسلين صنع البطريرك والمجمع حلا لابن

صابوني وايضا لمطران شبختان الذي كان قد تـرك رعيتـه فحـرمه البطريرك بمرارة ، وأمر أن لاينقبل في البيعة ، وقد عاد وقبلوه بعـد توسط جوسلين ، وأعطوا له كرسي سمندو الذي كان راعيه قد توفي فانقبل هناك مدة قليلة ، لكنه مالبث ان طرد مـن هناك فمـكث بغير رعية كل زمان حياة ماريوحنا ، وبعد موت هـذا البـطريرك ايضـا اشفقوا عليه فأعطوه سميساط في رسامه البطريرك الذي صار بعـد ماريوحنا ، وهناك ايضا انقبل مـدة يسـيرة ، لكنهـم مـالبثوا ان طردوه تائها من مكان الى مكان ، ومضى الى القدس لكنه لم يستطع البقـاء في ديرنا هناك ، ثـم مضى الى عند الافـرنج المدعويين داوية ، واخيرا سقط في تنور النار واحتـرق ، وصـار عبـرة كيف تكون اخرة الذين يدوسون قوانين البيعة المقدسة ، ويحرمون الرعية من الرعاية لأن البطريرك قال له ان تتـرك رعيتـك في شـبختان فلن تستحق الا المقبرة .

فصل اخر حول أخبار البيعة في هذا الزمان

بعد رسامة ماريوحنا البطريرك وقــع شـجار بين الأســاقفة في المجمع لان ديو نيسوس المفريان كان يريد زيادة على رعيته ، فقــام كل الأساقفة في وجهه عند ذلك خرج غاضبا ، ووصل الى امــد واراد ان يقيم بطريركا اخر ويعزل الذي قام ، لكن الرب المهتم ببيعتــه في كل وقت ومزيل الافكار الأثمة أوحى الى حاكم آمــد في ديار بــكر ان يطلب اعتقاله،وبصعوبة استطاع ان يفلت ، ولما رجع الى رعيته بقي صامتا لاياتي بأي حراك .

اما في كرسي الاســكندرية ومصر وبعــد قـــريوس قــــام مقاريوس ، وبعد ان توفي هذا في تلك الســنة التــي تــوفي بهــــا ماراثناسيوس ارتسم تاودوروس ، لكن هــذا وجــد بعــد مــدة انه هرطقي تابع للشقي يولياني الخيالي ، ولأجــل هــذا نفــي وصــار ميخائيل بطريركا لكرسي القبط ، وبعد هذا اصبح جبرائيل بطريركا لكرسي الاسكندرية ، وكان هذا متعمقا بالعلوم وماهرا جدا في الخط واللغة العربية ، لكونه رأى ان كل الشــعب القبــطي يتــكلم اللغــة العربية ويكتب بالخط العربي ، لأن مملكة العرب تثبتــت في الزمــن الذي تقدم في كل تلك الأرض ، فاهتم وتعب ونســخ كتــابي العهــد القديم والجديد وباقي الكتب ، ورتب الخــدمات الكهنوتية في الخــط العربي لكي يفهم السامعون ، ويقرأ كل الشعب الكتب المقدسة .

واما البطريرك ماريوحنا فقد مضى الى دير مار بــرصوما وجمــع الأساقفة وحرم المطــران مــاريوحنا بــن اندراوس لانه لم يقبــــل البطريرك لما مر في رعيته ، لكن كل الناس اجمعوا ان هــذا الســبب لايوجب الحرم الذي قطعه عليه .

ترك بهذا الزمان بسيليوس بــن السـمنة أسقــف كيســـوم رعيته ، بعدما ابدى شكوكه حــول صحـة حــرمان ابـــن

اندراوس ، وامتنع من الرعاية ، كأن ليس بالناموس واجب تـدبر امور البيعة ، ومضى الى دير المتوحدين الذي على شـاطئ الفـرات المدعو دير القناة وجلس هناك بـالخلوة،وعندئذ اشـــار اناس على البطريرك ان يجعل من كيسوم كرسي البـطريركية عوضـا عن آمـد لكونها في حكم المسيحيين ، وبعد ان صارت كيسوم باسم البطريرك خمس سنين،وبعدما رسم البـطريرك لآمـــد مـــطران هـــو بسيليوس ، رجع ابن اندراوس الى رعيته ، وبناء عليه رجع ايضا بسيليوس بن السمنة الى كيسوم،وفي هذا الزمـان ارتسـم للرهـا مطران اسمه بـاسيل ، وكان رئيســـها وقـــد دعي بـــاسم اثنا سيوس ، وبعدما استقام بها سبع سنين توفي في سنة ١٤٤٧ ، وفي تلك السنة توفي ايضا اياونيس مطران ملطية ، وهو المعروف بـاسم اليشع ، ووقع بعد موته خصام كبير بين جمـاعة الاكليروس حـول انتخاب راع لها ، لأن باسيليوس اسقف جيحـان ، الرجـل الماكر الكثير الحيل ، والذي كان دائما من قلاية البطريرك جـالس لاجـل امور الكتابة وتدابير البيعة ، كان يمـانعهم لئلا يرسـموا مـطرانا لملطية ، لانه كان مصاب بمرض الشراهة،وطمـع ان يأخـذها زيادة على رعيته ، وكان البـطريرك القـديس في وداعتـه ينجـذب خلف باسيليوس وتدابيره ، وهـكذا بقيت ملطية ثـلاث سـنين بـلا راعي ، لان كل من رؤي اهـلا للمنصـــب ورشـــح لكي يصـــير مطران ، كان ينقصه لسقف جيحان عند البطريرك ويسمه بكل نوع من انواع المذمة ، والبطريرك كان يصدق كلامه ، حينئذ اختار اهل ملطية ان يرعاهم المطران الربان يشوع الشمـاس المعـروف بـابن قطرة من المدينة، وارسلوا رسالة اتفاقهم وعمموها ، فلما نظـرها اسقف جيحان كتب على لسان البطريرك حرمانا كبيرا على يشوع

مقتل دبيس بن صدقة

هـــرب الامير دبيس الى عند السـلطان ، لكنه لما احس أنهـــم يريدون ان يقتلوه تحيل ليفلت ولم يقدر ، ثم قال كلمة محـــزنة الى

متى اتشرد واطارد ، ليس هناك افضل من الموت ، وذات يوم بعد ان اكل خبزا من مائدة السلطان ودخل السلطان للبيت الداخلي ، خرج احد الخصيان وقال له ان السلطان يأمرك بان لاتمضي بل اجلس واقرا هذه الرسائل ، ولما بدا يقرا الرسائل قام احد الواقفين خلفه فضربه وقتله .

نهاية ميخائيل الارمني

في سنة ١٤٤٧ ابتدا الخصام بين الارمن والافرنج ، وكان ميخائيل الارمني قد خرج بأيام بلك من قلعة جرجر وتركها ، ثم عاد بعد مقتل بلك ايضا فسرقها وسكن بها ، وحينئذ وقفت بوجهه الطائفة المدعوة سيبرك وصار ينهب قراهم وهم ينهبون قراه ، وفي احد الاوقات ادركه الترك في كور زيزونا وهو على شاطئ الفرات فاحاطوا به من كل جانب،ولما لم يجد سبيلا للخلاص طرح نفسه من اعلى الصخور الى النهر ، وكان يلبس درعه ويمسك ترسه في يده فغرق بالماء ، لكن مالبث ان انقذه زورق كان حاضرا هناك ونجا ولم يمت ، حينئذ اعطى جرجر لجوسلين ، واخذ سفرس ، لكن جوسلين باع جرجر لباسيل اخي جاثليق الارمن بخمسمائة دينار ، ثم ندم ميخائيل واراد ان يرجع اليها ، ولما رفض ان يعطيه اياها جوسلين جمع عسكرا ودخل ونهب بلاد كيسوم ، فخرج عليه الافرنج ، وقتل بغير قصد بل عرضا .

اما باسيل حاكم جرجر فإنه لما اخرجه الافرنج مضى الى لاون الارمني الذي في قليقيه وصار ختنه،وجمع رجال الأرمن واتى ليحارب الافرنج الذين في فرمازن (٣٦) لكن هناك قتل جملة من الارمن ، ثم لما رأى الترك الحروب بين الارمن والافرنج ارسلوا واحدا اسمه افشين كان قاسي القلب فنهب بلاد كيسوم ، ولما رأوا ان ليس من يردهم دخلوا ايضا ونهبوا البلاد الى انطاكية ، وبعد قليل ايضا دخلوا ووصلوا الى اللاذقية واخذوا غنائم كبيرة ، ورجعوا الى النهر

العاصي فصادوا سمكا واكلوا منه فمات في الحال اكثرهم وقد صارت هذه اما بفعل ما ، او بضربه مــن العلي ، امـــا الذين بقيوا على قيد الحياة فاسرعوا بالهرب خوفا من الموت وتركوا المنهوبات .

مصرع الخليفة الراشد

بعد ان اتفق مسعود سلطان همذان مع داود السلطان ، ولما سمع الخليفة انهما اتفقا فزع ففرقهما بــالسر ، واتــى ليحـــارب مـــع مسعود ، ولما نظر ان داود ختنه لم يات ليســاعده علم ان الخليفــة وعده ان يعطيه المملكة وحده ، فتحارب مســـعود مـــع الخليفـــة اولا وكسره وامسكه وربطه بالحديد ، ثم طارد داود وهنا صار كما هـــو مكتوب ان الخليفة قتل في معسكر مسعود على باب مراغه وقام بعده الخليفة الراشد ، ثـــم طـــارد مســـعود داود لانه هـــرب الى ارمينية وسبى ، وخـــرج الى الموصـــل الى عند زنكي ، امـــا هـــذا فلكونه ند لمسعود حمى داوود ، ونزل معه الى بغداد وارسل الخليفة ان تعطي السلطنة الى داود اما هو فكان يخاف من مسعود ، وظل يعدهم مـــن وقت الى وقت مدة عشرة اشهر ، حينئذ امتلأوا غضبا ونهبوا بغداد الشمالية كلها ، وعند ذلك التزم الخليفة واوجـــب الســـلطنة لداود ، فسمع مسعود وصعد ، اما الخليفة فقد ترك بغداد واتـــى مـــع زنكي الى الموصل ، ولما وصلوا وسمعوا ان الوالي الذي في نصيبين تمـــرد على زنكي وصار مع حسام الدين حاكم مـــاردين ، اتـــى زنكي على نصيبين وكان معه خليفة بغداد والسلطان داود ، فـــأصلح نصـــيبين ورجع الى الموصل ، اما الخليفـــة فنزل الى بغـــداد واصـــطلح مـــع مسعود بوساطة الرسائل ، ونزل الخليفـــة الراشـــد الى خـــراسان وانتهت مملكة العرب كليا وصار الخليفة مستعبدا للاتراك .

اخبار البيعة لهذا الزمان

انتقل بهذا الزمان باسيليوس بن السمنة من كيسوم الى الرها وكان يلام لانه لم يكن مأمورا بذلك ، وقد كتب مقاله دافع فيها عن نفسه ، ونفى ان يكون قد صنع ذلك حتى كتب له البطريرك والمجمع ، وانه لم يفعل ذلك تنفيذا لامر السلطان او الرهاويين – كما قال – .والحقيقة ان الرهاويين كانوا ضد البطرك ومختلفين معه وكانوا يرفضون ان يعترفوا به او يرفعوا رئاسته في البيعة اذا لم يصبح باسيليوس مطرانا فاختار البطريرك اهون الشرين وثبت ابن السمنة مطرانا للرها ، فاسكتهم بذلك ، ولما رجع جوسلين من القدس بعد ان شارك في تتويج ملك جديد ، ذهب البطريرك وكل الاساقفة اليه وقابلوه فأعطاه انية الكنيسة وجرة الميرون وهي الذخائر التي كان قد خطفها من دير مار برصوم من قبل .

في سنة ١٤٤٨ هاجم يوحنا ملك اليونانيين بعنف قيليقيه غاضبا على لاون الارمني واخذ مدائن طرسوس واذنة والمصيصة وغيرهم وبعد ان اخضع كل البلاد امسك لاون وامرأته وبنيه وارسلهم الى القسطنطينية حيث مات لاون هناك ، اما امرأته وبنيه فقد خرجوا فيما بعد وملكوا ايضا على تلك البلاد.

اما ملك اليونانيين بعد أن ملك في قليقية وارسل لاون الى القسطنطينية ، زحف نحو انطاكية وهاجمها لكنه لم يقدر أن يأخذها لذلك اتى اليه جوسلين واصطلحا على شروط: ان أخذ الملك بلاد سورية ، اعني حلب وغيرها ، يعطيها للافرنج والافرنج يعطوه انطاكية ، كما سلف ووعدوا ابيه الكسيس ، وعلى هذا العهد خرج اليه ريمند حاكم المدينة ودخل الملك يوحنا الى انطاكية ، وفيما بعد لما نظر انهم يريدوا أن يضللوه رجع الى قليقية ، فمضى اليه الافرنج واتفقوا ايضا واتى الملك معهم ، ونزلوا الى حلب واخذوا قلعة بزاعا

ووضع المجانيق ضد شيزر ، حينئذ خرج السلطان مسعود من قونية ودخل الى قيليقية واستولى على اذنة بالحرب ، وسبي كل سكان البلاد وكذلك الاسقف واحضرهم الى ملطية ، فلما سمع الملك احرق المنجنيقات ورجع الى قيليقية ، واصطلح مع السلطان ودخل القسطنطينية.

وفي تلك السنة هجم بدمشق رئيس العسكر البغش ايضا على سيده شهاب الدين وقتله (٢٧) . وجمع زنكي عسكرا ودخل ناحية طرابلس ، ولما خرج حاكمها ابن صنجيل نصب له الترك كمينا وقتلوا جميع الافرنج ، وقتلوا معهم ايضا ابن صنجيل واحرقوا طرابلس العالية بالنار ، وسبوا كل البلاد ، وحلوا على طبريه ونهبوها ووصلوا الى نابلس التي هي السامرة ونهبوها وخربوها ، فخرج ملك القدس على صوت الضجيج واتى الى رفنيه ليطرد منها الترك الذين كانوا يقاتلوها ، لكن هاجم زنكي معسكره بالليل وقتل اكثر رجاله،اما الذين نجوا فكانوا الملك وقلة من الفرسان ، وقد دام القتال اربعين يوما ، فأما الملكة فارسلت تتضرع الى ريمند حاكم انطاكية وجوسلين،ولما سمع زنكي انهما يستعدان لياتيا اليه اصطلح مع الملك ورجع .

بهذا الزمان طرد الملك محمد ايضا اخاه دولت واخذ منه ابلستين وبلاد جيحان ودخل دولت لهنزيط ، ومن هناك الى أمد الى عند جوسلين ، وبقي يجول من ناحية الى ناحية .

وفي سنة ١٤٤٩ كانت الرها سجينة الاتراك الذين كانوا يسبونها دائما ، وكانوا لايتركون سكانها يدخلون ويخرجون بسهولة ، فاجتمع في سميساط عدد كبير من الناس ليدخلوا اليها قوت وذخيرة، وكان معهم نحو ثلاثمائة فارس من الفرسان الافرنج المسلحين بالرماح ، وكانت جملتهم نحو اربعة الاف نفر ، وكان معهم ابو سعد الشماس الطبيب وفيلوس ، وبينما كانوا ماشين خرج عليهم الترك من كمين بالليل بقيادة حسام الدين حاكم ماردين ، فقتل اكثرهم

واخذ الباقي عبيدا ومعهم ابو سعد وميخائيل ابـن السـمنة وابنه ، ولم يقدر ابو سعد ان يدرك من خلال صناعة التنجيم البـاطلة مـاذا سيحدث في ذلك اليوم ، واخيرا اخـذ حسـام الدين تمـرتاش مـن الافرنج ايضا قلعة كسوس .

وفي هذا الزمان دخل السلطان مسعود الى بـلاد كيسـوم ونهـب وسبى وخرج ، وبعد قليل دخل ، ولما راى ان الجميع هاربون احرق القرى وتركها رمادا ، ومن هناك مضى الى مرعش .

في هذا الزمن تعرض للخـطر دير مـار ابحـاي الذي هـو دير السلالم ، فقد كان في قلعة سويرك اناس من الارمن مـالكين بهـا ، وكان جدهم بو غوص قد مضى في ابتداء خروج الترك الاول الى بغداد وخراسان واسلم ، واخذ رسائل من سلطان التـرك الكبير ، ومـن الخليفة ان يبقى ذلك الموضـع ميراثـا لاولاده ، وقـد صـارت كل اجيالهم بالتسلسل مسلمين .

وفي هذا الزمان كان هناك امير اسمه عيسى مـن بني بـوغوص ، وكان دجالا وشريرا ويبغض المسيحيين بغضا شديدا ، وكان يحقـد على ميخائيل وقسطنطين الارمنيين اللذين في جرجر ، وكانا يسرقان ويخربان بلاده ، وهـو كان بالمقابل يسبي وينهب بلاد جرجر.

ولما راى ان الافرنج قد ضعفوا جمع الاتراك ودخل ونهب كل بلاد جرجر،فلما لم يجد في كل البـلاد مـايكفي للاتـراك مـن العلف والذخائر ، لان البلاد كلها كانت خرابا توجه الى الكنائس والاديرة لكي يؤمن حاجته منها ، فاتى اولا على دير مار ابحاي ، ولما لم يقدر عليه من ناحية شـاطيء الفـرات اصـعد بعض الرجـال الى اعلى الصخور ، ومن هناك نزلوا بالحبال ، وكانوا يقذفون حجـارة كبيرة حتى كسروا جانب الهيكل ، وحينئذ خاف الرهبان فخـرجوا اليه ، ولما تسلط كليا على الدير نهب واستولى على كل مقتنيات الدير من كؤوس وصواني فضة وصلبان ، وباقي الاشياء الموجودة هناك مـن زمان مار يوحنا بن عبدون .

وكذلك استولى ايضا على دير القناة واجلي المتوحدين الذين بـــه الى دير شيرو ، وهم الربان داود ورفاقه ، ولم يبق سوى ابـــو غالب في دير مائده الملك .

لما مات محمود سلطان خـــراسان ملك اخـــوه مســـعود الدجـــال القاسي ، وهذا حالما تملك خرج الى بلاد اثـــور وجعـــل طـــريقه على اذربيجان ، ودخل الى مابين النهـــرين،ولما وصـــل الى دارا نصـــب خيامه عند البصرة .

وفي سنة ١٤٥٠ ملك محمد وجمع عساكره ودخل الى بلاد قيليقية واخذ من اليونانيين قلعتين،قلعة هاجاني وقلعة جينو فيرت،ثم دخـــل الى بلاد قاسينوس التي على شاطىء بحر بنطس ونهـــب وســـبا كل الشعب وباعهم عبيدا،وفي تلك السنة صعد زنكي الى دمشق وضايقها جدا ، فالتجا الى ملك القدس ، وزاد له الخراج فجاء لمعونته فهـــرب زنكي .

وفي سنة ١٤٥٢ في تشرين اول دخل اتراك ملطية الى اديرة زوبـــر وهي اديرة بيت قصب ونهبوها وخرجوا ولم يوجد من يردهم .

وفي شهر أيار اتى الافرنج لينتقموا لنهب الاديرة من اهل ملطية ، فوصلوا الى زبطره وعرقه فنهبـــوا ممتلكات المســـيحيين لانهـــم لم يلتقوا بالترك ، وبعد ان مضى الافرنج دخل الترك في إثـــرهم فنهبـــوا وخرجوا ، وهكذا كان المسيحيون ينهبون من الطرفين .

ودخل الافرنج الى ابلستين ونهبوا ممتلكات المسيحيين ، وقتلوا كل من صدفوه من الترك ، او اخذوهم اسرى ، فخـــرج التـــرك مـــن هنزيط الى بلاد الافرنج فالتقوا بعشرين مســـيحيا منهـــم القـــديس مطران قليسورا ، وكان يعبد في جبل ابدهور ، ولكثره حنقهـــم على المسيحيين ضربوا المطران ومن معه وربطوهم ليقتلوهم ، لكن فجاة سقط عليهم الخوف فهربوا وتركوهم مربوطين ، لكن المطران ومـــن معه استطاعوا ان يحلوا اربطتهم وهكذا نجوا ، امـــا التـــرك فلمـــا

دخلوا الى تلك البلاد قتلهم الافرنج جميعهم بالسيف ، وكان الافرنج منتصرين في تلك الايام لانهم كانوا متفقين .

وفي سنة ١٤٥٢ ايضا خرج ملك اليونانيين ليتحارب مع الترك ، فخرج للقائه الملك محمد وبقيت عساكرهم وجها لوجه ستة اشـهر ، ثم ابتدأ الملك يتقدم نحو نوقيسارية ، عند ذلك غضب الاتـراك على المسيحيين الذين في بلاد مملكتهم ، فكان كل من يتلفظ باسم الملك ، حتى ولو بدون قصد ، كان يقتل بالسيف هو وبنيه وبناته وكل اهـل بيته ، وكانوا يمارسون ذلك في باقي البـلاد في ملطية ، الى ان عاد الملك الى مكانه ، لكنه لم يصنع لا قتالا ولا صلحا ، اما الملك محمـد فقد دخل الى مرعش ونهب .

وفي تلك السنة خرج زنكي حاكم الموصل وصنع صلحا مع حسـام الدين حاكم ماردين ، وقد تلاقى زنكي وحسام الدين وهما يركبـان فرسيهما فنزل زنكي اولا عن فرسه ، ثم نزل حسام الدين وتصـالحا وثبتا الصلح واستعدا للحرب مع داود حاكم حصن كيفا وطـارداه ، فوجداه متوجها الى أمد ، ولما احس بهمـا احتمـى بسـور المدينة ، فاتيا من جنوب المدينة اولا ثم هجمـا عليه ، ونشب القتـال مـن الصباح الى الغروب ، وفي وقـت المسـاء انكسر داود وهـرب،امـا عساكره فبعضهم قتل ، وبعضهم اسر ، وبعضهم هرب ، امـا ابـن داود سليمان فقد اعتقله زنكي واعطاه الى حسام الدين فارسله حالا الى ماردين ، ثم عادا من باب أمد ونزلا على قلعة الصور (٢٨) قـرب ماردين تحت حكم داود ، فاستعملا المنجنيقات الثلاث وصـنعا بهـا ثغرة ، وبدءا الحرب فضـعف الذين في الداخـل ، وطلبـوا عهـدا للسلام ، لكن الحاكمان رفضا حتى اخذوها حـربا ، فقـطع الوالي وعبيده كل واحد الى اربع اجزاء ، واعطى زنكي تلك القلعة لحسـام الدين ، ثم زاد فاعطاه سيجا وذو القـرنين وسـاكن ، ومـن هناك توجها لبرعية،ولما علم بهما حاكم برعية خاف كثيرا وسلم القلعة الى حاكم امد ، ولما اتيا ونظرا حصانه الموضع الذي اعتصم بـه ، وكان كثيرون قد هلكوا في تلك الحرب تركوه وحلوا على أمـد واقسـما ان

يخربا كل البلاد إن لم يسلموا القلعة.ولما تضايق حاكم امـد سـلمه لحسام الدين ومضى كل واحد لمكانه (٢٩)-

في سنة ١٤٥٠ في تشرين اول تراءت آية حمـراء في السـماء ناحية الشمال ، وفي ذلك الشهر صـار زلزال ضرب ابـراج بـزاعا وابراج حلب ، كذلك كان الشتاء قاسيا من كانون الاول الى شباط ، وتجلد الفرات وصار الناس يمشون عليه وماتت البهائم والطيور مـن البرد في المدن.وفي برية الرقة كان اربعون فارسا يمشون فانخسفت الارض وابتلعتهم وبقي واحد لانه كان قـد خـرج لقضـاء حـاجة التغوط ، فلم يهلك معهم وبقي صوت صراخهم يتعالى وقتا ، وبهذه الزلزلة انشقت بيعة حارم ايضا وقرية الاثارب التي في تخـوم جبـل قورس ، انشقت في وسطها فخرج سكانها ، ثم انهارت .

وفي تلك السـنة لم يات المطـر الى نصـف ايار ، فصـارت الغلة متاخرة ، وقد صار في يوم احد العنصرة برق شديد ، قتل امراتين في ملطية واحدة كانت على السطح والاخرى في وسط السوق وطائري حر وذلك في تسع ساعات ، وفي ليلة ٢٢ حزيران ظهرت نيازك حمـر من الجانب الشمالي الى الجانب الغربي .

وفي سنة ١٤٥٢ في ٢٩ تشرين اول صارت زلزلة وكان في العاشر منه قد كسف القمر ، وحصل موت في ملطية ففني الدجاج اولا ، ثـم الطيور ، واخيرا صار الاطفال يموتون بمرض الجدري .

وفي شهر ايار في عيد مار برصوم اتى بـرد صـعب في هنزيط وفي قلعة زياد ، كسر الاشـجار والكروم ، وفي ذلك اليوم احـرق البـرق صبي وبغل .

وفي حزيران من تلك السنة هبت ريح صرصر قلعـت الاشـجار ، وسقط في بلاد ملطية في ذلك الوقت برجان في قراها

وفي ذلك الشهر وقعت زلزلة في شاطىء البحيرة في مـدينة فيليقية الصغيرة التي تدعى كالينج ، وفي باقي الاماكن من تلك البـلاد ، وفي كل ساحل البحر ،

- ٢١٠٥ -

وفي سنة ١٤٥٢ يونانية منذ منتصف شهر اب الى بداية شهر ايلول كانت تتراءى اشعة نورانية من الناحية الشمالية ، وفي الليلة الثانية من ايلول خرج نور من الشمال الغربي ، وبرق كالشمس ، فظن الناس ان السماء قد انشقت ،

وفي سنة ١٤٥٤ حرق البرد سميساط كلها

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سـنة ١٤٥٤ يونانية اوفد البـابا الرومـاني اونوريوس(٣٠)الثاني(١١٢٤ ـ ١١٣٠) احد كرادلته الاثني عشر الى بلاد المشرق للنظر في احوال الكنائس والاديرة في البيت المقـدس وغيرهما ، غير ان ذلك الكردينال ما ان وصل الى القـدس وبـاشر البحث والتفتيش حتى ادركته المنية ، وقيل انه قتل بالسم ، فغضب البابا واوفد بدلا منه احد مندوبيه الاربعة الكبار،فاصلح مـا اصـلح، وعزل البطريرك الانطاكي،واقام بطريركا اخر عوضا عنه وتـوفق في الحصول على رغباته .

بيد ان الروم اللئام المعتادين على المسـاوىء والشرور قصـدوا مندوب البابا المذكور ، واتهموا السريان شعبنا والارمن مدعين انهم هراطقة ، فارتحل المندوب البابوي الى دلوك وزار غريغور جـاثليق الارمن واستحضره الى القدس ، وعقد مجمعا صـباح الاثنين اليوم الثاني لعيد القيامة بحضور وليم بطريرك القدس واسـاقفه الفـرنج والجاثليق واساقفة الارمن واغناطيوس مطران السريان وفـئة مـن الرهبان ، وجوسلين وسائر الامراء والاعيان وارسـلوا يسـتدعون اساقفة الروم ويقولون لهم انكم قـد ادعيتـم ان السريان والارمـن هراطقة فهلموا اثبتوا لنا دعواكم ، فكتبوا لهم الجواب اننا لانحضر المجمع لان ملكنا غير موجود فيه ، لكن الفرنج ارسلوا ثانية وثـالثة يطلبون حضورهم فابوا وبذلك ابدوا بطلان مزاعمهم .

ثم ان الارمن كتبوا دسـتور ايمـانهم ، وكتـب السريان ايضـا دستور ايمانهم ، وعرضوهما كليهما على المفـوض البـابوي وعلى اباء المجمع فنقلوهما الى الايطالية وتلوهما على مسامع الحضـور اجمع ، فاثنوا عليهما ، واعلنوا انهما يشتملان حقيقة على دسـتور الايمان الارثوذكسي، ولم يكتف الفرنج بـذلك بـل سـالوا الارمـن

والسريان ان يبرموا القسم بانهم لايعتقدون قلبا اعتقادا مخالفا لما ورد في ذينك الدستورين ، فالسريان ايدوا ذلك امـا الارمن فلامتزاجهم بالخياليين والسيمونيين رفضوه ، وهكذا ارفض المجمع .

في سنة ١٤٥٣ صعد البطريرك ليصلي بالقدس فقام الترك ونهبوا كل البلاد بشكل فظيع فخربوا واحرقوا قرية حارم .

وفي تلك السنة مات حاكم قونية وملك عليها الملك محمود وفي سنة ١٤٥٤ في كانون الأول مات الملك محمود في قيسارية وأمر ان يملك ابنه ذي النون ، فقامت امرأته واحضرت اخاه يعقوب أرسلان وتزوجته وملك على سبسطيه،فهرب ذو النون إلى سمندو وصارت له قيساريه وملطيه،فاما دولتالاخ الأكبر فأتى واتفق مع يونس حاكم مسارا ، وهاجما ملطيه فلم يفتحوا لهما لكي يدخلا ، ولم يكن لهما القدرة على القتال فرجعا إلى عرقة ، وعند ذلك ارسلت الخاتون ارملة الملك محمود بالفي رجل لكي يحفظوا ملطيه ، ولما عرف الذين بها ان مع هؤلاء امر بأن يخرجوهم ويخرجوا أولادهم من بيوتهم ويجلوهم إلى سبسطيه ويستوطنوا موضعهم غضبوا وتسلحوا بالسيوف ، وبينما هم يتجمهرون في الأسواق خاف المسيحيون كثيرا ، واخذوا يختبئون في الآبار وتحت الأرض لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يجري ، وكان يوم الأربعاء الأولى للصوم في ١٧ شباط ، فاجتمع الاتراك الذين في المدينة أمام القلعة وطلبوا من الوالي مفاتيح الابواب لكي يخرجوا ويحاربوا القادمين ، فرفض الوالي أن يعطيهم المفاتيح ، حينئذ هجموا وكسروا قفل الباب بالفؤوس وكان يسمى الباب بوريديه ، اما الذي كسر القفل فكان اسمه (بوري) ، وقد تزعم الذين ذهبوا ، اما الباقي فقد وقفوا يحرسون الباب ، فمضوا واحضروا دولت في اليوم عينه ، ولما نظر الذين في سبسطية هربوا ، وخرج الوالي وسجد لدولت الذي دخل وملك المدينة فاصطلحت واستراح الأهالي .

وبعد مدة مضى دولت إلى اخيه يعقوب ارسلان واتفقا ، وأتى أخذ

ابلستين وملك ايضا على بلاد جيحان ، ولما سمع السلطان زحف غاضبا ضد يعقوب أرسلان ، فخاف ذاك وهرب إلى الجبل أما السلطان ، فخرب سبسطيه ، ورجع وارسل دولت لكي يأتي فيقدم طاعته فيعطيه بلادا اكثر ، لكن دولت لم يذهب وارسل زوجته التي هي بنت أخي السلطان ، وتضرعت إليه ، لكنه لم يقبل ونزل على ملطيه في ١٧ حزيران ، وبعد أن نصب عدة ابراج للحرب سقطت ، فتردد وفتر عزمه ولم يحارب بشدة ، وبقي ثلاثة أشهر ، كان دولت خلالها يصادر اهل المدينة وخاصة الرؤساء ويعطي جنوده ، وحدث فجأة في ليلة عيد الصليب في ١٤ ايلول أن احرق السلطان المنجنيقات ، وارتحل فشعر اهل المدينة بالراحة .

في نيسان من تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونانيين إلى قليقية ليصطاد كالعادة واخذ سهما مسموما ليضرب به خنزيرا في الغابة فاخطأ في ضربته ، ودخل بيده فسار السم في جسمه ومات .

وبعد مدة خرج ايضا ملك الأفرنج الذي بالقدس ليصطاد فطارد ارنبا فسقط من عزم الضربة عن الفرس ، ومات،وعندما لحقوا به وجدوا راسه داخل جثته .

وفي هذه الأيام مات داود حاكم قلعة زياد ، فهؤلاء الأربعة ماتوا في تلك السنة : ملك اليونانيين ، وملك الأفرنج ، والملك محمود ، وداود .

لما توفي يوحنا ملك اليونانيين في قليقية كان ابنه الكبير بعيدا عنه في مدينة المملكة ، فأمر أن يملك ابنه الأصغر فملك منويل ، وكان ذلك في نيسان سنة ١٤٥٥ يونانية .

ولما دخل القسطنطينية قبله اخوه وسجد له وثبتت له المملكة ، وفي تلك السنة مات ايضا ملك القدس وملك ابنه بلدوين لكنه كان طفلا فأخذت امه تدبر المملكة .

وفي هذا الزمان توفي داود الامير حاكم قلعة زياد وقام بعده ابنه

- ٢١٠٩ -

الاصغر قرا ارسلان ، وكان ابنه الأكبر عند زنكي فلما سمع زنكي قدم ومعه ارسلان طغميش بن داود وقدم السلطان مسعود فأخذ حاني ، ثم تحرك فأخذ ابلستين وكل بلاد جيحان ، وبعد هذا حل على ملطيه ، وجاء معه يعقوب ارسلان ، ولما كان السلطان متوجها إلى ملطيه اتى إليه قرا ارسلان بن داود وطلب منه أن يساعده لمواجهة زنكي الذي توجه نحوه ، فأعطاه السلطان عشرين الف فارس ، فمضى للقاء زنكي ، ولما سمع زنكي أن عسكر السلطان متوجهين نحوه رجع إلى ارضه ، ورجع كذلك قرا أرسلان فاسترجع بلاده التي كانت انتزعت منه فجلس السلطان في ملطيه ثلاثة اشهر دون أي قتال .

وفي منتصف اب ليلة عيد انتقال والدة الرب امر عساكره ان يستعدوا للرحيل ، فجهز كل واحد حاجاته ، ورحلوا صباحا بعد ان نهبوا البلاد بأسرها ، وخلال هذا الصيف ، عندما كان السلطان متوجها إلى ملطيه ، اتى جوسلين إلى دير مار برصوم ليصلي ، فراى شعب بلاد قلوذيه هاربين من أمام جحافل السلطان ، فلما سمع بكثرة عساكره رجع مسرعا إلى أرضه .

وفي سنة ١٤٥٥ في ٢٦ من تشرين الأول ليلة الجمعة صار زلزال فتشققت البيوت في مدينة قونية القريبة من مملكة القسطنطينية ، وخاف السكان وجف النهر الداخل إلى المدينة ، وبعد ثلاثة أيام وبينما كان يجتمع ماتبقى من الشعب ليصلي صار زلزال وفاض النهر وعاد للجريان .

وفي تلك السنة في ٢٣ اذار ليلة خميس الأسرار تراءت أية مخيفة في الغرب بعد غروب الشمس شبه الرمح ، ومكثت نحو ثلاث ساعات وقد تراءت سبعة أيام ، وقيل إنها تدل على الدم .

انتزاع الرها من يد الافرنج

حول زمان المحنة الأليمة التي نزلت بالمدينة الواقعة بين النهرين ، مدينة المسيحيين المجيدة التي ضربها سيف الترك ، وقد سمحت العدالة بذلك لأجل خطايانا .

لما طرد زنكي حاكم قلعة زياد ذهب إلى جوسلين وأعطاه قلعة بابولا (٣١) لكي يعينه على زنكي كما ساعده السلطان مسعود ، لكن جوسلين لم يحسب أنه ليس من مصلحته أن يعادي الترك لأجل هذا ، وارسل عسكرا لمساندة قرا أرسلان فحقد عليه زنكي .

ولما مضى جوسلين إلى انطاكية وصار بعيدا ، أعلم أهل حران زنكي انه لايوجد عسكر في الرها ، فجمع زنكي جيشا عظيما ، واقبل سنة ١٤٥٦ يونانية يوم الثلاثاء في ٢٨ تشرين الثاني على الرها بالوف ، واقاموا معسكراتهم عند باب الساعات بجانب بيعة المعترفين ، وارسل إلى اهل المدينة قائلا : سلموا حتى لاتهلكوا لأنه ليس لكم مهرب،وكان بها رئيس من قبل بابا الفرنج فأجابه إننا لانسلم ، وقد قال ذلك لأنه كان قد أرسل رسلا إلى انطاكية والقدس ليأتوا ويخلصوا المدينة المحاصرة .

فأما زنكي فقد بدأ حربه في أول كانون الأول بعد أن هيأ سبعة منجنيقات يلقون الحجارة والوف وربوات من العساكر يرمون السهام كسقوط حبات المطر ، وكان أهل المدينة والشيوخ والصبية والرجال والنساء ورهبان الجبل يقفون على السور ويقاتلون ، ولما راى زنكي أن الشعب يقاوم بكل جبروت امر أن يحفروا تحت الأرض نفقا يصلهم بالسور ، وحفر اهل المدينة نفقا مقابلا من الداخل واشتبكوا داخل النفق وتكومت جثث القتلى ، فعزف زنكي عن ذلك وعاد الرهاويون وبنوا سورا داخليا ثانيا وخاصة حول الحفرة التي حفروها ، أما الأتراك فقد حفروا حفرة تصل بين

البرجين وملؤوها بالخشب ثم ارسل الاتابك من يقـول للرهـاويين خذوا منا رجلين وارسلوا لنا رجلين ينظرا الحفرة تحـت البـرجين اللذان اخذا يتداعيان ، وانصحكم أن تسلموا المدينة قبل أن أخـذها بالسيف .

اما هم فقد هزئوا وسخروا به لانهم كانوا مـطمئنين إلى قـدوم الفرنج لنجدتهم ، عند ذلك اشعل الاتراك النار بالأخشاب ، فتداعى البرجان ، وحدثت معركة طاحنة امتلأ فيها الجو بالدخان ، واختلط فيها صليل السيوف بصراخ الرجال والنساء والأطفال .

ولما اكتمل احتراق الخشب وسقط السور والبرجين وظهر السور الجديد اندهش الاتراك لكنهم وجدوا أنه قد بقيت فجوة بين السـور الجديد والسور العتيق ، فاجتمع عسكر الترك حول هـذه الفجـوة يريدون الدخول منها فتصدت لهـم جمـوع المدينة مـع الأسـقف والمطارنة من الداخل وحدثت معركة طاحنة امتلأت فيها الثغرة بجثث القتلى المهاجمين من الخارج والمدافعين من الداخـل ، وبينمـا كان الشعب كله مشغولا في الدفاع عن الثغرة بقـي السـور فـارغا مـن المقاتلين ، فنصب الأتراك السلالم وصعدوا ، وكان أول المتسـلقين مقاتلا كرديا ، ولم يشعر الناس إلا والأتـراك في وسـطهم فـوهنت عزائمهم وولوا هاربين إلى القلعة الداخلية .

وهنا وقعت المجـازر ، ولسـت ادري كيف يسـتطيع اليراع أن يصف هول وفظاعة ماجرى خـلال ثـلاث سـاعات مـن يوم السبت ٣ كانون الأول ، لقد كانت مـذبحة شرب فيهـا الأتـراك دم الشيوخ والصبيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والأطفال والمرضعات والعرائس . ياللخطب المرعب لقـد استولى الخنزير الأثوري على الرها وداس العنب الحلو ، يا للفاجعة الكبرى ويا للهول المؤلم ، لقد كانت فاجعة مروعة المت بمدينة ابجـر خليل المسيح ، داسها العدو بسـبب اثـامنا ، فقتـل الكهنة وذبـح الشمامسة ، ولقد تهدمت الهياكل والبيع . وكانت بالحق فاجعة سي

فيها الآباء الأبناء ، والأمهات الأطفال امام السيف الذي كان لايميز أحدا ، ولقد كانت الأمهات يجمعن أولادهن كما تجمع الدجاجة فراخها انتظارا للموت أو السبي ثم العبودية ، اما بعضهم الأخر فقد فر إلى رؤوس الجبال .

اما الكهنة فكانوا يتراكضون مرددين قول ميخا النبي: إني احتمل غضب الرب لأني أخطأت اليه (ميخا ٧ : ٩) ولم يوقفوا صلواتهم وابتهالاتهم حتى أسكتهم السيف ، ومن ثم وجدوا وقد ضرج الدم ثيابهم وصناديق عظام القديسين بين أيديهم.

اما الذين هربوا الى القلعة فلم يستطيعوا الدخول لأن الحراس الافرنج أغلقوا أبوابها وقالوا لن نفتحها حتى نرى الأسقف لكن الأسقف لم يستطع تخطي الناس ، فمات عدد كبير من الناس بين الزحام وتحت الأقدام وتكومت جثث القتلى الذين قضوا بها تلالا عند باب القلعة ، وعندما وصل الأسقف أنفتح الباب لكنه لم يستطع الدخول بسبب الجثث المكومة امام الباب من كثرة الزحام فاصطاده أحد الأتراك بسهم وقتله.

ولما راى زنكي تلك الفظائع امر ان يتوقف القتل ، حينئذ احضروا المطران باسيليوس وهو حاف وعار ، ويجره تركي بحبل ، ولما راى زنكي أنه شيخ وقور سأل : من هذا ؟ فأعلموه أنه مطران فأخذ يعنفة لأنهم لم يسلموا المدينة ، اما هو فأجاب بشجاعة. لقد كان لك شرف غلبتنا ، لكن يجب أن يكون لنا شرف عندك لأننا لم نغدر ولم نحنث بأيماننا ، وكما حفظنا عهدنا مع الأفرنج فإننا الآن سنحفظ عهدنا معك بعد أن صرنا عبيدك ، ولما راى جرأته وهو يتكلم باللغة العربية الفصحى امر فألبسوه قميصه وادخلوه الخيمة وجعله مستشاره لاعادة بناء المدينة ، ثم أخرج مناديا يقول على كل من نجا من السيف أن يرجع الى بيته.

وبعد يومين طلب الأمان كل من كان بالقلعة فأعطى لهم الأمان ، لكن فقط لمن بقي على قيد الحياة من شعبنا ومن

الارمن ، أما الافرنج فقد قتلوهم كلهم ، أما ما تبقى من قصص تلك الكارثة فلن نرويه ، بل نترك لأرميا النبي ولامثاله الذين افاضوا في المراثي أن يعودوا وينوحوا على ذلك الشعب الذي يستحق كل شفقة ورحمة.

وفي الوقت الذي استولى فيه زنكي على الرها كان الوالي على نصيبين اسمه تمرتاش،فلما انتصر زنكي هذه الانتصارات وقوي كثيرا خاف هذا الوالي أن يهاجمه زنكي ، ويأخذ أراضيه ، فأمر بهدم كل قلعة لم يستطع أن يحميها ، فتهدمت في هذا الزمان قلعة جرجر وقلعة تلبسمه ، وقلعة تل شيخ والقلعة التي بقرب دير مار حنانيا ، والمدعوة قلعة المراة.

وحاول أن يخرب سرجه عند نصيبين فلم يستطع ابدا وذلك لقوه ومتانه بنائها العتيق ، فهدم فقط البناء الجديد الذي كان قد بناه هو ثم تركها خاليه .

في هذا الزمان تمردت قلعة تدعى الهتاخ ، وهذه القلعة لم تكن بأيدي الترك بل كانت بيد واحد من سلالة بني مروان الذين كان لهم اسم مملكة ، وكرسي بميافارقين ، وقد حدث بين حكامها خلاف تلته حروب انشقوا فيها على بعضهم،فلما رأى حسام الدين أن ليس لديهم اكراد يحاربون في صفوفهم ، وهم في الوقت نفسه منقسمون على بعضهم بعضا حاصر قلعة الهتاخ لمدة سنة واربعة أشهر ، ثم طلب احمد بعض الأراضي، فأعطاه تمرتاش ذهبا وقرى من اقطاعاته مع القلعة،لكن هذا الكردي مالبث أن ندم فالتجأ الى حاكم امد لكي يعيد له القلعة ، لكنه لم يفلح.

وبعد أن سقطت الرها خرج أرسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وحل على تل ارسانيوس طالبا أن يسلموه له ، لكنهم رفضوا لأن أولادهم كانوا رهائن في قلعة زياد ، وقد نسيوا ما حدث لأهل الرها عندما عاندوا الترك وجابهوهم دون أن يكون هناك من يساعدهم فصاروا جميعهم

عبيدا ، وهكذا حارب أهل ارسانيوس واستعبدهم وبـاعهم وكانوا نحو خمسةعشر الف،بعضهم اجتمع خارج البلدة وبعضهم الآخر مع اسقفهم،وكان اسمه طيمثاوس.

وفي تلك السنة عندما أخذ الافـرنج يتجمعـون لنجـدة مـدينة الرها ، وصل اليهم خبر خرابها ، فحزنوا جدا عليهـا ، لكنهـم مضوا نحو تل اعذى (تلعدا)(٣٢)فاجتمع عليهم الترك هناك ومنعوا عنهم القوت ، فتضايقوا من الجوع وهربوا،وحينئذ ترك أهل سروج المدينة وهربوا فدخل اليها الترك.

اما زنكي فبعد أن احتل الرها توجه الى البيرة ، وأما جـوسلين فقد ذهب الى القدس ليجمع جيشـا ، لكن فتنة اشـتعلت بـالموصل واخرجوا الصبي ابن السـلطان الذي كان محبـوسا وقتلوا نصـير الدين نائب زنكي ، ولما سـمع زنكي تـرك البيرة ومضى الى حلب ، واصطلح مع الافرنج ، وبذلك نجت البيرة منه.وبعد هـذا ارسـل زنكي رئيس عسـكره زين الدين واصـلح الحـالة بالموصل ، ووضع ابن السلطان بالسجن مره أخرى فعـاد وتقـوى مركز زنكي ثانية.

لما ظهرت صحيفة مطران ماردين لتوضح ان خراب الرها لم يكن بامر الله ، قام اياونيس اسقف كيسوم وابـن اندراوس وعدد كبير اخر كتب كل واحد كتـابا رد فيه على كلام مـطران مـاردين ، ولما وصلت الصحيفة التي كتبها مطران ماردين الى ملطية تصـدى لهـا القسيس صليبا ايضا ، وهو معروف بأدبه وطلاقته.، وكان علما في جيله ،وضع كتابا رد فيه على مطران ماردين ، وكان قد ورد في كلام مطران ماردين ، انه ليس كليا بإرادة الله تاتي القربات والألطـاف فيلقـي عنايتـه الكل ، واذا علينا ان نفهـم أن الارادة لهـا انواع ، والأمر له انواع والسماح له أنواع ، وهذا كلام باطل يثبت بطلانه بشهادات الآباء الألهيين الذين يقتدي بهم.

إن السبيل المقصود لنا في هذا الكتاب ليس هذه الأمور بل لنوضح

فقط ماذا صار وماذا حدث في كل زمان حتى لا يكفر القارىء إن انتقل الضمير من خبر الى خبر ، وهذا ماقصد ايضاحه.

اما من يريد ان يفهم الصحيح حول هذا الخبر فليقرأ الكتاب الذي جمعه البار مار ديونسيوس مطران امد ، أي يعقوب بن الصليبي ، لأن كل شيء مفصل فيه بشكل جيد وموضح بالتحقيق وفقا لرأي المعلمين الحقيقيين.

وكتب ديونسيوس المطران ، وكان بعد شماسا لملطية قصيدتين بلحن مار يعقوب حول سقوط الرها.

وكتب ايضا باسيلوس مطران الرها ثلاث قصائد عن الرها لأنه كان حاضرا بها في المحنتين ، وقد كتب بالتفصيل حول ذلك ، وكل من يريد ان يتعرف على ما حدث فليقرأ هذه الميامر الخمس.

ويوم الخميس في ١٣ كانون ١٤٥٦ أي في الشهر الذي سبيت فيه الرها وقعت نار في دير القراريط في بلاد خرشنة،واحترق بها شيخ راهب،أما البقية فقد نجوا من هذه النار .

وفي ذلك اليوم ايضا احترقت قرية في بلاد مرعش.

كذلك يوم الجمعة من الشهر عينه أيضا وقعت نار في دير مار برصوم فأحترقت فيه ثلاث غرف.

وفي اول أيار تراءى كوكب مذنب في الساعة الحادية عشر من الليل ، وكان ذنبه تجاه اليمين ، وبقي سبعة أيام ثم تراجع وعاد فتراءى في المغرب سبعة أيام أخرى ، وفي ٢٤ أيار يوم عيد الصعود وقع زلزال شديد.

وابتدأ في هذا الزمان بلدوين الفرنجي حاكم كيسوم ببناء سورها بحجر وكلس ، وكان من قبل مبنيا بالطوب المجفف والطين ، وقد أثقل نير الظلم على المسيحيين ، حتى انه حول الكهنة الى عبيد ، وقد بنى نصف السور فقط ، ثم قتل فأوقف البنيان.

مقتل زنكي

في سنة ١٤٥٧ لما رأى الفرنج انهم ضعفوا مضى ريموند حاكم انطاكية القسطنطيني الى منويل ملك الروم اليونانيين وطلب الغفران عن الخطيئة التى أخطأها مع ابيه ، لأنه سمع أن اباه امره ان ينتقم من الأفرنج ، ولما اظهر التذلل والندم اكرمه واعطاه ذهبا ، واغدق عليه الهدايا الكثيرة ، وارسله الى مدينته ، لكنه طلب من الملك أن يهب لمعونه المسيحيين.

اما زنكي فقد جاء الى الرها ومكث يومين أحتفى بالسريان الذين بها ، وعامل المسيحيين المجتمعين فيها بكل محبة ورحمة وشفقة ، ثم مضى الى قلعة جعبر على شاطىء الفرات ، لكن المولى العالي سخط عليه ، وحكم عليه بما لا يعرف،فقام احد عظماء عسكره مع اثنين من الخصيان المقربين اليه وقتلوه بعد أن اكثر من شرب الخمرة ونام ، وكان ذلك ليلة الأحد في ١٥ ـ ايلول بعد أن ملك في الموصل وفي البلاد الأخرى تسع عشرة سنة وملك على الرها سنة وعشرة أشهر ، فأما الذين قتلوه فدخل واحد منهم الى قلعة جعبر ، ونجا ، وهرب الآخر الى قاليتيقوس ، اما العساكر فتفرقوا.

أما اولاد زنكي فقد تفرقوا وتولى كل واحد منهم ناحية :حيث ملك محمود المدعو نور الدين مدينة حلب ، وملك الأخر المسمى غازي سيف الدين مدينة الموصل.

وقد صارت فوضى في البلاد ، فخرج لصوص الأتراك في كل مملكة زنكي ونهبوا بغير شفقة كل ما وجدوه.

وبهذا الزمان سبي دير قرتمين (٣٣)وقتل منه أربعة رهبان ، ودخل بهذا الزمان قرا ارسلان صاحب قلعة حصن كيفا

الى طور عبدين (٣٤) لانها كانت فيما مضى لأبيه ، ثـم انتـزعها منه زنكي ، فعاد وتسلط عليها بعد أن قتل بها خلق لا يحصى عددهم
وقام في الموصل اناس اجتهدوا أن يملكوا بها لأن ابن السـلطان كان محبوسا بها ، فقـام زين الدين بـكل عنف وكسرهـم وقتـل اكثرهم ، وعاد فحبس ابن السلطان ، وملك بعد وفـاة زنكي سـيف الدين غازي ابنه ·

واقعة الرها الثانية

لما عرف الافــرنج بمقتــل زنكي عام ١٤٥٨ اجتمــع جــوسلين وبلدوين حــاكم كيســـوم في تشرين الأول وارتحـــــلا الى ناحية الرها ، فتلسق رجال الأفرنج ليلا على سلالم كانت مع رجــال مــن الارمن كانوا يحرسون السور ، ودخلوا المدينة فلما فوجيء التــرك هربوا والتجأوا الى القلعــة الداخلية ، وفي الصــباح فتــح البــاب المسمى بــاب الماء ، ودخــل منه جــوسلين ، وكان ذلك يوم الاثنين في ٢٦ تشرين ، لكن الأتراك سرعان ما أرسلوا يطلبون النجدة مــن حلب والموصل ، ولم تمض ستة أيام كان الأفــرنج فيهــا مــا زالوا يفكرون كيف سيقتحمون القلعة الداخلية ، حتى أطبق عليهم الأتراك من كل ناحية وصوب كالجراد الذي لا عدد له ، فلمــا راى الافــرنج ذلك خافوا وارتعدوا ، لقد ابتعدوا عن طريق الرب واندفعوا في طريق الخطيئة ، فصار الله خصمهم ، فجمعوا كل شــعب المدينة الشــقي وساقوه امامهم ، وكان ظنهم أن يفلتــوا مــن بــرا ثن التــرك الذين كانوا يحيطون بهم في كل مكان ، ولقد كان شــعبنا الذي لا يعــد ولا يحصى يساق سوق الأغنام والدواب ، وفجــأة لم يروا الا الأتــراك حولهم ، فعندما كانوا وراء الاسوار وخلف المتاريس لم يســتطيعوا أن يقاوموا الترك ، فكيف سيجابهونهم في وســط الصــحراء؟ لقــد قسيت قلوب الافرنج فجروا هذا الشعب المغلوب في الساعة الثــانية بعد منتصف الليل بعد أن اشعلوا النار في بيوتهم ومدينتهم ، وعندما شاهدوا ذلك أخذوا يصرخون ويبكون ويترحمون أو يحسدون الذين ماتوا في المرة الأولى ، لانهم لم يروا تلك النار التى اشعلها الافرنج لتحرق ارزاقهم واموالهم والسيف المسلط فوق رؤوســهم ، ومــات العديد منهم دهسا تحت خيول الافرنج في قلب الظلام ، أما الذين لم يخرجوا بسبب ضعفهم أو شــيخوختهم ، وكذلك الذين اجتمعــوا في البيع وفي الاقبية والدهاليز فقد انقض عليهم الأتراك الذين في القلعة الداخلية واخذوا يعملون السيف في رقابهم ، فلم يبق منهم أحد ، أما

الذين اخذهم الفرنج الى الخارج فقد تركوهم وهربوا ، فأحاط بهـم الاتراك ، وبالهول ما حدث وفظاعة ما جرى ، كانت الدمـاء تسـيل كالانهار والصراخ يعلو حتى يشق عنان السـماء ، ولقـد كانت ليلة ليلاء الت بالرهاويين ، لقد بقيت السهام تخرق اجسامهم وحـوافر الخيل تسحقهم ، والسيف يقص رقـابهم طـوال الليل ولمدة سـت ساعات.

اه يا اخوتي من لم يبك اذا سمع ، لقد هـرب فـرسان الافـرنج الاشقياء وتركوا هذا الشـعب الأعزل بعـد أن سـاقوه الى حتفـه ووضعوه في جحيم المعركة ، والتجأوا الى قلعة خربة مهجورة تدعى حصن كوكب ، واستطاع ان يهـرب معهـم الف رجـل مـن الذين استطاعوا الركض ، حينئذ وبعد ان تعب الاتراك مـن القتـل وملوا اوثقوا الباقين بـالحبال بعـد ان نزعوا عنهـم ثيابهـم واسلحتهم ، اوثقوهم حفـاة عراة رجـالا ونسـاء بـأذناب الخيل والعصي فوق رؤوسهم ليسرعوا مع الخيل ، اما مـن كان يقـع على الارض فكانوا يشقون بطنه بالسيف.

لقد قسا الزمان على المسيحيين فتكومت جثث الكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والفقراء والأغنياء ، وعلى الرغم من أن موتهم كان مريرا لكنهم لم يتعذبوا كالذين بقوا على قيد الحياة ، لقد ملأت الجثث البراري حتى انتـن الجـو ، وصـارت مـأكلا للحيوانات المتوحشة وللطيور الجارحة ، وامتلأت بلاد آشور بالأسرى ، امـا بلدوين حاكم كيسوم فقد قتل ولم توجد جثته ، اما جـوسلين الأثيم فقد فر الى سميساط ، ونجا ، وكذلك هـرب المطـران بـاسيلوس ونجا ، أما مطران الأرمن فقد قبض عليه مع عدد كبير من جماعته.

وكان الافرنج قد التجأوا الى قلعة كوكب كما قلنا ، فلحـق بهـم الأتراك لكن المساء كان قد أدركهم فتركهم الاتراك وتوجهوا للنهـب والسبي لأن هذه البقعة كانت مملوءه مـالا وذهبـا ، ومقتنيات منذ أجيال كثيرة ، حملها أصحابها مـن تلك المدينة المذكورة التـي كانت تتعرض باستمرار للغزو.

وعندما عاد الترك الى القلعة الخربة كان الافرنج قد خرجوا تحت جنح الليل في الليلة نفسها ، ووصلوا الى سميساط ونجوا.

وقد كان تعداد الذين قتلوا في المرة الاولى والثانية ثلاثين الفا تقريبا ، وكان تعداد الذين أسروا ستة عشر الفا ، والذين نجوا الف رجل وامرأة واحدة ولم ينج أي ولد،وقد تبدد اهل الرها في طول البلاد وعرضها ، وبقيت هذه المدينة خالية خاوية تروع الناظرين وتقص عليهم ما جرى لها ، ثم اصبحت مأوى للوحوش وباقي الحيوانات ، ولم يدخلها سوى الذين كانوا يأتون اليها من اهل حران بحثا عن الخزائن المطمورة والمتاع والمقتنيات التي كان لها اصحاب يوم ما.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع من في ايطاليا اخبار الفظائع التي وقعت بالرها أجتمع الافرنج وتوجهوا الى المشرق بأعداد كبيرة لا تحصى ، وكانوا بقيادة ملكين كبرين وبعض القمامصة ، فأقبل ملك الألمان (٣٥) مع تسعمائة الف فارس وملك فرنسا مع خمسمائة الف فارس مع شعوب أخرى مختلفة الألسن.

فلما سمع بهذه الحملة الكبيرة ملك اليونان منويل خاف اذا دخلوا البحر وملكوا أن يطيحوا بمملكة اليونانيين ، فاتفق مع الاتراك على أن يعيق قدومهم ، واستطاع أن يؤخرهم سنتين لكنهم في سنة ١٤٥٩ يونانية هاجموا القسطنطينية بعد ما عرفوا باتفاق اليونانيين مع الاتراك وحاولوا تخريبها غير أن ملك اليونانيين أعطاهم ذهبا كثيرا ، وعاهدهم أن يرسل معهم مرشدين يدلوهم على الطريق فكفوا عن قتالهم له ، بيد أن ملك اليونانيين غدر بهم فساقهم ادلاؤه في طرق جبلية وعرة قاحلة لا ماء فيها ولا خضراء ، ثم تركهم اليونانيون وانسحبوا ، فتاه الافرنج وبقوا خمسة أيام يسيرون دون أن يعرفوا الى أين ، فهلك الوف منهم عطشا مع خيلهم ودوابهم ، ولما عرف الاتراك بهم وبحالتهم انقضوا على شتاتهم في تلك المسالك الوعرة ، وأخذوا يفتكون بهم جمعا وفرادى حتى تعب الاتراك من كثرة القتل ، وقد امتلأت بلاد الأتراك من ثياب الافرنج ومتاعهم ومقتنياتهم ، حتى بيعت الفضة بملطية بسعر الرصاص.

أما الفرنج الذين هربوا من المعركة فقد وصلوا الى شاطىء البحر منهكين جائعين ، فأخذ اليونانيون يخلطون القمح بالكلس ويطعموه لهم ، وسرعان ما كانوا يسقطون أمواتا ، وقد قتل اليونانيون الوفا منهم بهذه الطريقة.

وقد صار ما جرى حكاية للأجيال القادمة تحكي ان شعبا عظيما وكثير العدد قد غلبه شعب أقل منه عددا وعدة بواسطة الحيلة.

اما ملك رومية فقد مرض ومات ، ونجا ملك الألمان مع ثلاثة مـن القمامصة فذهبوا الى القدس ، وبعد ان اقام هناك عدة أيام زحـف إلى دمشق فأرسل معين الدين أنر صاحب دمشق وأهل دمشـق الى

ملك القدس سرا يقولون: اتظن أن هذا الملك الكبير اذا استولى على دمشق سوف يتركك في القدس ؟ نحن اخبر منك بهؤلاء ، خذ منا هذا الذهب وادفع بهؤلاء الى البحر لتتخلص منهـم ، وتصـون نفسـك ومملكتك ، ثم اعطوه مائتي الف دينار ، وكذلك اعطوا حاكم طبـرية خمسين الفا ، فلما اخذوا الذهـب ورجعـوا الى القـدس وجـدوا الدنانير نحاسا مـطليا بـــذهب مصري فحـــزنوا وندمـــوا على فعلتهم ، اما ملك الألمان لما نظر انه وقع ضحية حيلة فاضحة رجـع الى بلاده يجر اذيال الخيبة والاخفاق ، وهكذا لحقتهـم لعنة نهـاية الرها التي خربوها ضد ارادة الرب.

قصة دمار الرها حسبما كتبها البار دونسيوس مطران أمد

قال : لقد حل بها الخراب والفناء بسبب المسيحيين انفسهم ، لأن الله اراد أن يؤدبهم ، لأن الأعداء لايمكن أن يقهروا المسيحيين بدون سماح الرب وموافقته ، وقد يقول بعضهم إن هذا تجديفا ، لأن الرب لا يسمح بهلاك جبلته ، ولا يسمح للأعداء أن يسبوا العذارى ويقتلوا الناس ، لكن الصحيح إن الرب أمر بذلك لاننا تركنا طريقه التي هي تجلب لنا ما نستحق ، فإن اردنا الخير يعيننا الله العلي العظيم ويمسك بيدنا على كماله ، وإن أردنا الشر فيقودنا الشيطان الى هلاكنا مثل أهل الرها الذين نكبوا في المرة الثانية نكبة اشد وافظع من المرة الأولى ، فيا أيها البشر لاتظنوا أن هذا قد حدث بسبب خطيئة شعبها فقط ، وإنما بسبب خطايا كل الناس في كل مكان،مثل عكار الذي اخطأ وحده فأتى العقاب على كل قبيلته،واولاد عيلي الذين قتل بخطاياهم أسباط بني اسرائيل ، فعندما يخطيء القليلون الحقيرون ينسحب عقابهم على كل الشعب ، فكيف بالحري في هذا الزمان الشرير الذي كل واحد انحرف عن الحق ، وعمل الاثم وابتعد عن العفة ، لذلك أدبه الله ، ولذلك ياأخوتي علينا أن نخاف ونفزع ونطرح عنا الخطيئة ، ونفكر بالروح ، وليس بالجسد وإن ما حدث من الغضب يكفينا الآن.

قصة الرها من تاريخ باسيليوس مطرانها

بعـــد الطـــوفان الذي صـــار في أيام نوح بنى الرهـــا الملك نمرود ، وكان في بني كنعان ودعاهـــا « اور » اي القـــرية ثـم زاد الكلدانيون بها اللاحقة ـ «ها» فصارت تعني قـرية الكلدانيين مثـل اورشليم التي تتألف من أور وشليم ، أي قرية شليم .

وقد ازدهرت الرها وأخصبت وبقيت زمانا طـويلا هـكذا ، ثـم خربت وانتهت ، يقول يعقوب الرهاوي عن خـرابها : على حسـب الظن ان الرها خربت في ايام صعود سنحاريب الى دمشـق ، وبقيت مهجورة الى أيام الاسكندر ، حيث أعاد بناءها العمال الذين صعدوا معه من مكدونيه وسموها « اديسا » اي المحبوبة على أسم مدينتهم التي في « مكدونيا » .

وبعد ثلاثمائة سنة ملك فيهـــا الملك ابجـر بـن معنو الذي آمـن بالمسيح ، وبعد ابجر وأولاده حكمها ملوك رومـــانيا ، وكانوا بعـد وثنيين يسجدون للأصنام ، وقد بقيت تحت حكم هؤلاء سبعين سنة اخرى وبهذا الزمان استشهد المعترفون المتشرفون شمونه وجـوره وحبيب وقزمان ودميان .

ولما ملك الملك قسطنطين عظمت بـالمسيحية ، وبنوا بهـا هياكل عظيمة ، وحين ملك يوليان الوثني لم يستطع ان يستعبدها ، لاهـو ولا أويس الهرطوقي ، وبعد هذا عاشت الرها في سلام أبان الفتـرة المسيحية وحتى عهد مرقيان الهرطوقي .

وكثر الاضطهاد في ايام يوسطنيان والذين بعده .

وفي ايام هرقل صـــارت في أيدي العـــرب منذ أيام عمـــر بـــن الخطاب ، ثـم انتقلت الى ايدي التـرك وبقيت نحـوا مـن أربعين سنة .

وفي ايام العرب تهدم سورها الحصين الذي بناه سلوقس ، وقد وصفه مار افرام ،أما سبب هدمه فهو لما بنى المنصور الدوانيقي ، قصرا في الرقة ارسل فطلب من الرهاويين اعمدة صغيرة من الرخام من بيعة الخبيزة ، فرفضوا ان يعطوه فحقد عليهم ، لكن هؤلاء من خوفهم عصوا عليه ، فزحف ضدها وخرب هيكل مار سرجيس ، وحينئذ ذهب بعض أهاليها سرا اليه ، اما هو فأقسم أنه لن يقتل او يسبي او يغير اي شيء ، لكنه سوف يأخذ من المدينة حصانا ابيض ويذبحه علامة للانتقام فقط ، أما هم فلم يفهموا ماذا كان يقصد بكلمة حصان حتى دخل وتملك ، حينئذ اخبرهم أنه قصد بالحصان الحصن الذي اسمه حصان فهدمه ، وكان سورا عجيبا ، ولم يترك سوى نبعا واحدا تخرج منه مياه الطواحين .

وبعد اربعين سنة في ايام المأمون أعاد بناءه ابو شك الجوني الذي عصى على المأمون .

وبعد مدة ملكها اليونانيون بواسطة رجل اسمه سالمون ، خان الأمير وسلم القلعة العالية التي كان يناوب بها الحراس الى رجل يوناني اسمه مانيج ، ولما أخذ العرب الذين بها اولادهم وهربوا ، أخذ المسيحيون أولادهم وخرجوا معهم لأنهم كانوا معتادين على العيش معهم ، فهم يتكلمون لغتهم العربية ويكتبون بخطهم العربي ، وكان ينفرون من اليونانيين بل يخافون منهم لأجل هرطقتهم وشرهم ، وبعد ان خرج العرب والمسيحيون فرغت المدينة وبقيت خالية بيد اليونانيين تقريبا بعد ان رجعت اليها شرذمة قليلة من الشعب والباقي تبددوا الى حد تكريت ، وبعد فترة يسيرة قام فيها مدبر من مملكة اليونانيين كان شريفا ومؤمنا واسمه ابو كنعب ، وقد ارسل هذا الى مار دونسيوس البطرك ورسم مطرانا للرها هو اثناسيوس ، وهو يشوع راعي دير مارابحاي دير السلالم .

وبعد هذا ملك فيها فيلاردوس ، وقد ازدهرت الرها في أيام هذا

المدير لانه كان يصغي دوما الى المطران ويسترشد بآرائه ، وقد جمع سكانها من كل الأمكنة التي تشتتوا بها ، كذلك مضى المطران الى ارمينية وحتى منبع نهر الفرات وجلب خشبا وبنى بيعة مريم والدة الاله وبيعة مارثاودروس الكريمتين .

وبعد هذا ملك فيها فيلاردوس ، ولما قوي الأتراك في تلك الايام مضى فيلاردوس الى سلطان خراسان واعلن اسلامه ، ولما سمع بنو هرون ان فيلاردوس قد اسلم عند سلطان خراسان قتلوا واليه وكان اسمه فارجيكاس ، وبعد هذا ملك بها بوزان ، ولما قتل تتش بوزان ضبط تادروس بن هاتيم الحكم فيها سنتين في أيام أثناسيوس المطران بن يسى .

ولما خرج الأفرنج ونظر ابن هاتيم انه لن يستطيع ان يحفظها سلمها للفرنج ، فملكها الأفرنج وكان اول من ملك بها الكونت بلدوين الذي قتل ابن هاتيم ، ولما مات أخوه غودفري ، عندها صار الكونت هذا ملك القدس وصار بلدوين بالرها ، ولما مات ملك القدس استلم مكانه بلدوين فأخذ الرها جوسلين ، وبعد موته ملك فيها ابنه جوسلين الثاني وفي ايام هذا اخذها زنكي ، وفي ايام زنكي خربت كليا سنة ١٤٥٨ يونانية

تملك توماس الأرمـني

لما مات لاون الأرمني في القسطنطينية كما أوضحنا من قبل صار آنذاك قسم من بلاد قليقية مع اليونانيين ، وقسم مـع التـرك ، ولما مات الملك يوحنا ، هرب احـد اولاده واسـمه تـوماس مشـيا على الاقدام لايحمل شيئا معه ، ومضى سرا الى مار اثناسيوس مـطران البلاد ، لانه كان يؤمن ببـركة هـذا الشـيخ الجليل منذ أيام أبيه ، فطلب صلواته ليرد له الله بلاد أبيه فمنحه بركته والدموع تتسـاقط من عينيه ، وأعطاه فرسا ، ولما اقتنى مركوبا تبعه اثنا عشر رجـلا ارمـنيا ، وتوجه الى القلعـة المسـماه قلعـة عامـودا ، ولما احس سكانها ان ابن سـيدهم القـديم قـد اتـى اعتقلوا اليونانيين الذي بداخلها ، وسلموا القلعة لتوماس هذا فـذاع صـيته وبـدأ الجميع يحسبون له حسابا ، من اليونانيين ومن الأتراك معـا ، وقـد ملك بلادا كثيرة في مدة وجيزة ، وتبعـه شـعب عظيم مـن الأرمـن والأفرنج .

ثم ذهب توماس هذا الى رعبان عند سيمون الافرنجي حـاكمها ليتزوج ابنته ، فصدف ان هاجمه الاتراك لينهبوا البلاد ، فهاجمهم توماس وقتل نحوا مـن ثـلاثة آلاف وخلص المسـيحيين وأنقـذ كل البلاد ، فعظم في نلك وتشرف ، ولما رجع الى قليقية ترك اليونانيين والأتراك المدن والقلاع وهـربوا مـن امـامه ، وملك على عين زربة وباقي مدن قليقية .

وفي السنة التي تملك فيها تـوماس ١٤٥٩ يونانية غزا نور الدين ابن زنكي بلاد انطاكية ، وكان جوسلين حاقدا على ريمـوند حـاكم انطاكية لانه لم يساعد الرها ،وكان فرحا بهلاكه وهلاك بـلاده ولما عرف بنلك نور الدين حاكم حلب فرح كثيرا ، وأرسل رسـلا وعقـد صلحا وعهودا مع جـوسلين ، والتقـوا في البقعـة التـي بين حلب

وأعزاز واتفقا وثبتا العهود واختلط الافرنج والاتراك وأكلوا وشربوا سوية بالفرح ، وقد صار هذا لسقوطهم ، فبهذه السنة حنق ملك جزيرة صقلية على ملك اليونانيين لكونه خدع الافرنج واهلكهم بالحيلة فانتقم لشعبه ، فهاجم مدينة تابيس وقتل اليونانيين وهدمها واحتل أبرنة وفيلبة ، وخرج منويل ملك اليونانيين لينتقم من الرومان ، ولما نزل على إحدى القلاع ارسل ملك صقلية عساكر كثيرة من السفن في البحر ، فنهبوا وارتكبوا كثيرا من الفظائع باليونانيين ، ووصلوا حتى القسطنطينية وهاجموا القصر المبني على شاطيء البحر ، وأخذوا يرشقونه بسهامهم ، ولما سمع ملك اليونانيين ، ترك القلعة ورجع فالتقى اليونانيون والافرنج وجها لوجه ، وصارت حرب عظيمة في البحر ، وقتل أناس كثير من الجانبين ، واخيرا رجع الافرنج إلى بلادهم ، ورجع اليونانيون وملكهم إلى القسطنطينية .

كمل هذا الخبر وارجو من كل من يقرا في الكتاب أن يدعو لي في صلاته لاني خاطيء وذليل وضعيف ، وله أجر من صاحب الجزاء .

في سنة ١٤٥٩ يونانية قل المطر في كل مكان وشحت مياه الينابيع ، ووقع الناس في شدة عظيمة وهجرت أماكن كثيرة ، وفرغت من السكان الاماكن التي نضبت فيها الأنهار والعيون وفي السنة التي تلتها لم ينزل المطر حتى نصف كانون الأول ، ومر شتاءان كالصيف ، وقد وقع الناس في شدة عظيمة من العطش ، حينئذ أشفق الرب ، وأرسل المطر فشبعت الأرض وارتوت ، وصار شتاء طيب ورطب وخصب كالربيع .

في ٢٥ كانون الثاني تراءى كوكب مذنب في نصف السماء قبل المغرب ، وبقي مدة شهر ، وفي ١٦ شباط تراءى آخر غيره من الشرق وقت السحر ، وبقي خمسة أيام وصار قلة في المطر حتى جفت اكثر الينابيع .

وفي تلك السنة ولد بالقسطنطينية ولد من جارية ، له في مقعده عيون وفم وأسنان وذنب .

وفي هذه السنة نبعت بالقسطنطينية بدعة رديئة جدا كانوا يسمونها فوجو ليموس ، وقد تبعها جملة رهبان وبعض الشعب حتى بطريركهم ، فنفي وصار غيره مكانه ، وكانوا يعتقدون أن المسيح إنسان ساذج توكل للعناية على هذا العالم ، ويقولون إن الشياطين يبنون لهم بيوتا ويعدوهم بمال وسلطان أيضا ، وكانوا ينفرون من السجود للصليب .

وقد انطبق على الخلقيدونين ماقاله الرسول الالهي : لما ظنوا أنفسهم أنهم حكماء ، عندها جهلوا لانهم مالوا عن الحق وسقطوا في وحل نسطور ، ومزجوا الحق بالاثم ليضللوا البسطاء ، فسمع الله بهم وسقطوا في أباطيلهم ، وصارت مدينة قسطنطين البار مقرا للشياطين ، واتسعت هذه الضلالة حتى أسقطتهم في وسط الحفرة ، وهكذا تمت عليهم كلمة صفنيا النبي القائل : من القدم إلى الرأس ليس فيهم موضعا صحيحا .

بعد مصرع الرها المروع ، هرب مطرانها باسيليوس إلى سميساط فأتى بعض من أهل الرها إلى جوسلين ، واتهموا المطران الشيخ قائلين: لقد طاب له حكم الترك ، وحالما سيشعر بالضيق عندك فانه سيمضي راجعا اليهم ، فأجاب جوسلين: من الخير أن يموت لئلا يعيد الذين بقيوا على قيد الحياة الى الترك ثانية ، عند ذلك امسكه جوسلين وحبسه في قلعة الروم مع الاسرى العرب وبقي هناك ثلاث سنوات ، وقد كتب فيها ميامره مع أمور أخرى ، كذلك كتب ضد الذين قالوا : من الآن انتهت البركه التي وهبها المسيح سيدنا للملك الأبجر ، وبعد أن خرج من الحبس كان يتجول ويجمع الصدقات ليفتدي اهله وقبيله في سجون الاتراك ووصل إلى أنطاكية والى القدس ، وقد استقبله بترحاب الملك والبطريرك الافرنجي ، ولما رجع ووصل الموصل وتواجه مع زين الدين الحاكم خليفة زنكي والذي كان يدبر الأمور مع ابن زنكي ، أيضا أكرمه ومنحه عطاء يكفيه لمعيشته ، وبعد أن بقي هناك مدة توجه نحو ماراثنا سيوس البطريرك الذي كان مقره في ذلك الزمان في آمد التي بين النهرين ،

وطلب منه أن يعطيه رئاسة مرعش وسيبارك (سويرك) والشمال وكانت منذ زمن تتبع لمطران الرها .

وفي سنة ١٤٥٨ يونانية نزل تمرتاش حاكم ماردين على دارا واخذها ، حينئذ صعد غازي بن زنكي ونهب كل ما بين النهرين ، وعندما تواجه الجيشان وشعر الجميع ان لابد من المواجهة اجتمع قضاتهم وتوسطوا بينهم ، فأرجع حاكم الموصل المنهوبات وآخذ المدينة .

وبعد ذلك قوي الاتراك كثيرا ، واخذوا يدخلون بلاد الافرنج من كل جانب ودخل قلج ارسلان بن السلطان مسعود الى بلاد جيحان ونهب مرعش ، ثم عبر الاتراك الى بلاد كيسوم فخرج الى لقائهم رنجر الذي حكم كيسوم بعد مقتل أخيه بلدوين .

وفي هذا الزمان خرج منويل ملك اليونانيين ليقابل السلطان مسعود ، فجمع السلطان أمراء الاتراك والعساكر من بغداد ومن خراسان ، وفي باقي البلاد ولما تدانى العسكران للحرب علا صوت الفرنج فجأة ففزع الجانبان وخافا فاصطلحا ، ورجع ملك اليونانيين ليحصن بلاده ورجع السلطان الى ارضه .

« نهب جوسلين دير سيدنا مار برصوم في سنة ١٤٥٩ يونانية »

دخل جوسلين الدير في يوم السبت ١٨ حزيران سنة ١٤٥٩ يونانية ، وأخرج منه الرهبان يوم الاثنين في العشرين من الشهر نفسه ، ووصلوا يوم الثلاثاء إلى حصن منصور وذاع الخبر ، وغضب الشعب وهاج ، ونصحه بعض المقربين أن لايترك الدير بدون رهبان لأن الشعب يهم بالدخول إليه ، فطلب أن يعطيه الرهبان عشرة آلاف دينار ليعيد لهم الدير ، ومضى أناس من جماعة جوسلين وأحضروا الصندوق الموضوع به يمين القديس وأثاث ومقتنيات الأديرة الأربع ، والذين كانوا مخزونين في الدير نفسه ، وهم دير مار أبحاي ودير سرجيسيه ، ودير مانيق ، ودير البارد ، وبقي في الدير بعض الرهبان والعمال ، وصار راعيا للدير شيخ راهب اسمه مودعل ، ووضع جوسلين بالحصن العالي عشرين جنديا ارمنيا ، ومعهم أخسرين ، لكن أولئك استولوا على كل ماوجدوه بالدير من حنطة وخمر وزيت وعسل وثياب وأواني .

ولما أخذ جوسلين بدون رحمة أو شفقة القديس والرهبان إلى تل باشر كان ضمنهم هناك أناس من الافرنج ، ومن السريان ومن الارمن وقد دفعوا ذهبا لخلاصهم ، وكان جوسلين قد أمسك أيضا مع الرهبان والقديس ثلاثة مشايخ هم : داوود ويعقوب وسرجس .

لكن في شهر آب رجع الباقي إلى الدير ، وغادره الأرمن الذين اتى بهم جوسلين وكان رئيس الذين رجعوا عازار الشيخ ، ومعه قسطنطين وأحضروا معهم مارايوانيس أسقف كيسوم ، ولما دخلوا الهيكل وجدوا أن المائدة المقدسة مقلوبة والدير كله مدنس ،فأجهش الجميع بالبكاء بأصوات شجية كل ذلك اليوم ، وبعد هذا طلب الجنود من الرهبان بأن يحلفوا لهم إذا جاء جوسلين مرة أخرى أو

ابنه ان لايغلقوا الباب في وجهه ، وكان عدد الجنود مائة وخمسين ، فرفض الرهبان أن يحلفوا لهم ، لذلك بقي الافرنج والأرمن سبعين يوما في الدير وأوقفوا الصلوات والخدمة وأطفأوا المصابيح ، ثم أرسلوا خبرا إلى البطريرك في آمد ، فأصدر أمرا إلى مطران كيسوم بأن يقوم هو بالصلاة في هذه الأماكن المقدسة ، ثم أكمل التطهير والتجديد حسب الناموس وأقاموا راعيا للدير اسمه عازر بأمر البطريرك ، ووضع صائغ ومدبر وأناس لباقي الخدمات كالعادة وبحسب ناموس الدير المتبع منذ الأجيال الأولى ، وأعطى كل واحد من الرهبان والعمال ماعنده من الذهب إلى جوسلين وذلك لافتداء هذا المكان المقدس .

وهكذا رجع دير سيدنا مار برصوم بقوة الله الذي سمح بأن يكون هذا تأديبا لنا ، وأمر بهلاك الطاغيه جوسلين الثاني بن جوسلين ، الكافر العاتي الذي احتقر الكنيسة المقدسة والمذبح والأواني القدسية ، فضرب الله جوسلين في ذلك الوقت وأهلكه عقابا عادلا له كما أوضحنا القول .

إن ماكتبناه كاف لأن يوضح كيف ومتى سبي دير القديس مار برصوم ، ويجب ايضا أن نوضح ماحدث في ملطيه .

كان بذلك الزمان يملك في ملطية دولت التركي ، وكان يضع خراجا على الدير يعطيه لملطيه ، وقد وضع هذا الخراج بالقوه الأمير غازي دولت ، لكن لما سمع دولت أن جوسلين دخل الدير ظن للوهلة الأولى أن الرهبان سلموا القلعة لضيقهم من الخراج الذي زاد عليهم ، وكان يعرف أنهم كانوا يتشكون ويتضجرون من ارتفاعه ، لذلك صب الأمير غضبه على المسيحيين الذين في ملطيه قائلا لهم : إن أهل إيمانكم سلموا القلعة إلى الفرنجة ، وأخذ ينتقم منهم ، وكان أهل ملطيه حزانى على سبي الدير من جوسلين ، فأتى الضيق والاضطهاد ليزيد عليهم فوق الحزن شدة ، فأبطلوا الصلوات وأوقفوا قرع النواقيس في البيع لمدة ثلاثة أيام إلى أن تحقق الأمير أن الرهبان لم يسلموا القلعة الى جوسلين ، لكنه دخلها بالحيلة

والخداع ، فأوقف اضطهاد أهل ملطية ، واستعد جمع من العسكر ليذهبوا ويخرجوا الافرنج في القلعة ، وفي تلك الفترة تدخل التدبير الالهي فتطوع إثنا عشر راهبا وخمسين متعبدا كانوا قد أتوا من بلاد قلونية إلى ملطيه ، ومعهم ثيران وأواني ومتاع ومقتينات يستتروا بها ، وقد أطفأ موقف الرهبان هذا غضب الأمير ، وكان معهم شيخ تقي يدعى ابراهيم ويكنى سورديم استطاع أن يدخل إلى عند الأمير ويقنعه قائلا : ربما لن تستطيع أن تأخذ القلعة بالحرب ، لكن أعطنا الفرصة ونحن نحتال ونأخذ الدير ، فحسن كلامه عند الأمير وأخذ يفرق الخيرات والعطايا على أولئك الرهبان الذين أتوا ليستقروا عنده ، وأخيرا ساعد الدير وكل من فيه ، وأعفاهم من خراج تلك السنة ، ثم طلب منهم عهدا فأقسموا له ، وبعد ذلك أرسلوا طلبا إلى البطريرك المقيم في آمد ليغفر لهم بالعهد الأول الذي اقسموه بالقوة والغضب لجوسلين ، وإثر هذا أرسل جوسلين يقول للأمير دولت : لقد أخذت أبيرة زوبر وهي لي وخربتها ، وأنا أخذت دير مار برصوم وهي قلعة تتميز عن كثير من القلاع عالية كعلو النسر عن بقية الطيور وها انا أردها الآن لك وبهذا يكون قد بطل القسم الذي أعطاه للرهبان ، لأنه طلب الصلح من الأمير .

فرد عليه الأمير دولت بما يلي :

بما أنك طلبت الصلح فنحن نرضى به ، لكن قل لي : كيف ستحقق هذا الصلح وقد تبين لنا أنه ليس لك أمانة ، لأن المسلمين يحلفون بكتابهم والمسيحيون يحلفون بالصليب والانجيل ، فأما أنت فمزقت الانجيل وكسرت الصليب وبالتالي لم يعد لك أمانة كالمسيحيين ، فأوضح لي إيمانك هل أنت يهودي أم حنفي لكي نثبت معك القسم بحسب إيمانك ، وبهذا الكلام أفحم التركي ذلك المسيحي الكذاب وأخزاه ، وبعد ذلك سقط جوسلين ، وعاد الرهبان والقديس للدير المقدس وصارت استقامة الجانبين بالعناية الالهية .

لقد صنع جوسلين مثل سليمان بن داوود ،ترك إله آبائه المسيحيين(كذا) ، وسلم ذاته لخدمة الشياطين ، حين اجترأ على

القوة القادرة على كل شيء والمحلوله بـالقديس ، وحين دفعـه عقله المزنول ولم يحسب حسابا أن العظماء الذين معه هـم مسـيحيون ، وسوف يخبرون الرهبان بغشه ، فجمع عسكره واظهـر وكأنه يريد أن يتوجه إلى بلاد الترك لينهب ، فأتى حـرتان ، وبعـد ثـلاثة أيام صعد هناك الجبل الأبيض وتوجه إلى العين المسـماة إيزا في رأسـه العالي في بلاد قلونيه ، وبقي هناك إلى أن سمع الشعب به فهـربوا خوفا منه ، فأخذ يتهم الرهبان بأنهم هم الذين خوفوا الشـعب ثـم قال لمن معه : إذا ضللنا طريقنا ندخل إلى الأديرة القريبة نصلي فيها ثم نرجع .

في صباح السبت ٨ حزيران سنة ١٤٥٩ دخـل جـوسلين الدير فجاة ، ففرح الرهبان لاعتقادهم أنه اتى للصـلاة ، لكن الأغبياء لم يعرفوا أنهم سقطوا في فخ محكم لان جوسلين ظن أنه سيجد ذهبـا كثيرا ، والرهبان ظنوا أنه أتى يحمل ذهبـا ، فـاستقبلوه يحملون الصلبان والاناجيل ، وخرجوا لملاقاته عند الباب الرئيس ، ولما رأى الصليب نزل عن فرسه بكل غش وخداع وأظهـر خشـوعا ووداعه ، حتى دخل إلى داخل القلعـة حينئذ أرسـل بعض حـراسه وجنوده ليتفقدوا القلعة ، فشك بعض أهـل الدير بمـا يجـري ، لكنهـم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا ، ثم صعد خمسة مـن رجـال جـوسلين فوجدوا راهبا شيخا واثنين من المتنسكين فامسكوهم ، ثم جمعـوا كافة الرهبان وحبسوهم داخل الهيكل ، واستدعى جوسلين الشيوخ وأخذ يعنفهم ويلومهم قائلا : لقد اخبرتم عنا بـلاد ملطية ، فهـرب الاتراك ، فاندهشوا وقالوا : ليس لدينا علما بذلك فـاضاف إن كان حقا لاتعلمون ولم تساعدوا الترك ، فأعطوني كل ما يخص الترك في هذا الدير فقد سمعت أن مالا كثيرا من بلاد الترك ، ومن الترك مخبأ هنا ، ويجب أن يعطى هذا المال للمسيحيين ليتقووا به وينتقموا من الترك الذين نهبوا أديرة زوبر ، فأجابوه قـائلين : إن فعلنا مـاتريد كيف يمـكننا أن نسـكن في هــذا المكان ؟ حينئذ صرخ بـوحشية وأخـرجهم مـن الهيكل وحبسـهم في ذلك اليوم في بيت شـبا المدعو قاعدة ، وأرسل قساوسة الأفرنج فدخلوا إلى الهيكل وأخـرجوا كل

ماوجدوا به من صواني فضية وقوارير نحاسية وصلبان ومباخر وقناديل وإيقونات معدنية وأناجيل وكتب ، وبعد هذا توزع الجنود وأخذوا يفتشون بيوت الكهنة والرهبان وجمعوا كل ماوجدوه من ذهب وفضة ونحاس وحديد وثياب وأسترة ، حتى أنهم أخذوا من الهيكل اثاثه ، وكان معه أناس من الداوية الأفرنج ، فلما رأوا ذلك قالوا له : إننا أتينا معك لنحارب الترك ونساعد المسيحيين لالننهب البيع والأديرة ، فتركوه ومضوا ولم يأكلوا خبزا أو يشربوا شيئا ، أما الشقي واتباعه فقد مكثوا كل يوم السبت ينهبون ، وحملوا كل مايستطيعون حمله بعد أن فتشوا كل شيء تفتيشا دقيقا ، وفي المساء ، وكان اليوم التالي هو الأحد ، أخرجوا الرهبان وكافة الشعب وأنزلوهم وقضوا الليل عند الكرم المدعو الفيل عند شاطيء النهر ، ووضعوا في الدير جملة من الحراس الأفرنج والأرمن ، لكن الشيطان عاد فعلمه أن يرجع للدير المظلوم ، فعاد وعاد معه الرهبان ، وعادوا يفتشون علهم نسيوا شيئا لم يأخذوه ، ثم صعدوا إلى المعصرة ، ودخلوا إلى أكواخ النساك ونهبوا كل شيء وجدوه ، ثم حملوا كل شيء على الجمال والبغال وخاصة أثاث الهيكل ، وحلل النحاس ، ومتاع من كل جنس وكان بينهم صليب ذهبي فكسره جوسلين الطاغي داخل الدير ووزعه على الذين كانوا معه ، ولم يكتف بذلك بل أخذ بغال الدير ، وكانوا إثني عشر بغلا ، وأخذ معه الرهبان الذين حضروا وكانوا نحو خمسين ، ويوم الاثنين وصلوا إلى جوتي .

فصل حول دير مار برصوم

صحيح ان القديس مار برصوم سمح بسبب خطايانا ان ينهب ديره ، لكنه لم يهملنا ولم يسمح ان نهلك كليا ، كذلك لم يسمح للطاغي أن يمر دون درس ، حتى إذا ما أراد أن يرجع للتوبة يستطيع أن يخلص ، فقد رأى ثلاثة من جنوده حلما في ليلة واحدة ، حسبما هو مكتوب عن رواية شاهدين أو ثلاثة ، فقد رووا أن ثلاثتهم شاهدوا في الحلم أن دير القديس يبرق ، وأن القديس واقف على رأسه بمنجل لايوصف ، وقد دعاهم وقال لهم : امضوا وقولوا للكم إن غضبت على رهباني لأنهم اخطأوا وأغضبوا مولاي فقد نجيتهم ، إنني نجيتهم من يديه حتى يندمو ويتوبوا ، وقد أمرت الآن ان تتركهم ليرجعوا إلى ديرهم .

واجتمع هذا الجندي مع زملائه الاثنين الاخرين اللذان شاهدا الرؤيا نفسها وقصوا على بعضهم بعضا رؤيتهم ، ثم تشجعوا ودخلوا الى جوسلين الشقي وقصوا عليه الحلم ، فوعدهم فرعون الثاني بعدما سمع هذا الحلم ان يعيد الرهبان ، لكنه مالبث أن غير رأيه وبدل أن يعيدهم اخذ يعذبهم ليأخذ منهم بقية الذهب ، فقد كان قد استولى من قبل على خمسة الاف ، لكن الله مالبث أن دعاه مرة اخرى الى التوبة ، وهذه المرة بوساطة أهل بيته ، فقد رأوا الصندوق الذي يضم يمين القديس برصوم يشع ويضيء كالشمس ويخرج من قلبه سيف نار ، ثم انبعث منه صوت يقول باجوسلين إن لم تتركني وتترك رهباني فإني سوف أهلكك انت وكل بلادك بهذا السيف ، فلما اخبره أهل بيته بهذه القصة ترك الرهبان والشيوخ ، وعاد داوود ويعقوب إلى الدير في ١٥ ايلول سنة ١٤٦٠ لكنه اخذ الصندوق الذي يحوي يمين القديس سيدنا مار برصوم ، وحجزه في بيعتهم في تل باشر حتى يحضر له الرهبان الالاف الخمسة الاخرى كما طلب منهم ، وحينئذ سقط عليه سيف الغضب من عساكر

الترك ، أن ذلك عند الله فقط سهل ، وبقوته غير المحـــدودة القـــادرة على الكل يصنع من عظام وأوصال قديسيه وأحبائه متى يشاء وكما يليق قوة لأجل خلاص أنفسنا

مقتل ريموند أمير انطاكية ورنجر أخـو بلدوين حـاكم كيسوم

في كانون الثاني من سنة ١٤٤٦٠ دخل نور الدين حـاكم حلب إلى بلاد انطاكية ونهب كل البلاد ونزل على الشعر . لكن ريموند حـاكم انطاكية لم يكن موجودا فيها ، ولما سمع أتـى مسرعا ولم يدخـل لانطاكية بل جاز عليها ، وكان معه علي بن وفـيتام ، البـدوي الذي انشق عن نور الدين ، وكان هذا مع عسكره قد ساعد الافرنج كثيرا حتى كسروا الاتراك وجعلوهم يهربون بحالة سيئة .

دخل في هذا الزمان قرا أرسلان حاكم قلعـة زياد إلى بـلاد آمـد بوساطة الحيلة ، إذ اتفق سرا مع أناس من داخـل القلعـة على أن يسلموها له لكنه أخفق في ذلك ، وعندها أخذ يسبي أهل البلاد وقـد ساقهم مسيرة يوم كامل ، لكنه عندمـا رأى حـالتهم التعيسـة على الطرقات المملوءة ثلجا وجليدا حزن عليهم ، وتساءل ماذا خطأ هؤلاء فأعتقهم وردهم إلى ديارهم .

اما جوسلين فقد جمع عسكرا ودخـل لينهـب في بـلاد الرهـــا وحران ، ثـم عاد الاتـراك وأقـاموا كمينا وقتلوا عددا كبيرا مـن جنوده

وعندما كان نور الدين حاكم حلب يتقد غيظـا ويحتـال ويجمـع عسكرا ، كان الافرنج المتـكبرون والمتغـطرسون ، لايبـالون بمـا حولهم ، وربما دفعهم الله الى هذا الموقف جزاء لأعمالهم الشريرة ، فاستهتروا باعدائهم الاتراك الذين أخذوا يتجمعون حـولهم ، كمـا يتجمع الذباب حول الجثة ، فتركوا قراهم وكرومهـم بغير سـياج ، وكان شأنهم في ذلك كالذي يترك بيته بدون أبواب،ومضوا إلى بـلاد العرب كما يمضي الغزال الى الفخ ، والأيل إلى السهم الذي سـوف

ينفرس في كبده ، وكان معهم علي بن وفاء العربي ، ولما رأى انهم دخلوا الى اواسط اراضي اعدائهم قال البدوي : إلى أين أنت ماض ايها الملك واعداؤك يحيطون بك من كل جانب ، ابق في مكانك وتجمع انت وعسكرك حتى يتفرقوا ويذهبون ، فإن أرادوا أن يدخلوا بلادك فحينئذ تلاقيهم ، اما هو فاحتقر كلامه ورفض نصيحته ومشورته ، ماكاد يهبط الليل حتى وجد نفسه في وسط الاتراك فأطبق الترك على الافرنج الاشقياء من كل جانب ، حينئذ قال له علي بن وفاء ثانية : إنك لم تسمع مني ، وهاهو نحن الان في الفخ ، لكن اسمع مني الآن وتعال نهرب ، فعسانا نستطيع انقاذ ما أمكن ، لأن الاتراك يحيطون بنا بعسكر عظيم ، واذا أشرق الصباح ونحن مازلنا هنا فسوف يهلكونا ، وعندما انبلج الصبح وقبل أن تشرق الشمس هجم الأتراك هجوما عنيفا ، وكأنهم جبل من الماء ، وأخذوا ينبحون الكبار والصغار وكانوا يتساقطون كالاشجار عندما تقطع من أسفلها ، وقتل ريموند حاكم انطاكية الأسد الشديد ، وسقط رنجر حاكم كيسوم شبل الاسد ، ولم ينج واحد منهم لينقل اخبار ماجرى ، وتحولت هذه العساكر الى اكوام من القتلى ، وفي ذلك اليوم نزلت ضربة قاصمة بالمسيحيين ، إذ لم يشعر اهل انطاكية الا والاتراك قد غنموا كل البلاد وسبوا اهلها ، وحل نور الدين على المدينة وارسل راس ريموند إلى بغداد ، وهنا وقع انشقاق بين اهل انطاكية ، فقسم منهم كان يرضي بالاتراك ويتحمس لوجودهم ، وقسم هرع الى ملك القدس مستنجدا ، ولما أتى ملك القدس أبقى على الشرائع التي كانت سائدة وأقام بطريكهم رئيسا .

اما جوسلين فانه لما سمع بمقتل حاكم كيسوم أتى وملك عليها وعلى القلاع التي هناك ظنا من هذا الشقي أن كيسوم يجب أن تبقى لزوجة المقتول والتي هي ابنته ، وبهذا الزمان تحارب جوسلين بعقله المرذول مع قلج ارسلان بن مسعود حاكم أبلسيتن وبلادها ، وحل على مرعش ، وبعد أن نهب البلاد وقتل أهلها وعدوا قلج ارسلان بتلبية مايريده ثمنا لنجاتهم ، فملك السلطان على مرعش ، أما

الافرنج الذين كانوا بها والفرسان والاساقفة والقساوسة فقد تركهم يمضون الى أنطاكية حسب ما نصت الاتفاقية ، لكن الترك ارسلوا من يقتلهم في الطريق وفي نهبه لرعش هذه المرة تبدد اثاث بيعتها : جرة الميرون ، والصواني والكاسات والمباخر الفضية ، واغطية المذبح والاستار ، اخذها العصاه على اسقفهم من ايادي القساوسة.

وفي هذه السنة لما رأى الأمير قرا أرسلان حاكم قلعة زياد أن الاتراك صاروا يدخلون من كل ناحية وتملكوا بلاد الافرنج الذين تخلى عنهم الرب لأنهم هجروه ارسل عساكره وأخذ الجبولة على شاطىء الفرات فخاف أهل بلاد جرجر وهربوا ليحتموا بجبل ماربرصوما وتحلقوا حول الدير رجالا ونساء مع أولادهم ومقتنياتهم ، وبدا عند ذلك عدد كبير من الرهبان المعتزلين والمتفرغين لعبادة الله يتضجرون ويدمدمون ، ولم يستطيعوا أن يطردوا هؤلاء اللاجئين لانه كان بينهم رهبان اقرباء لهؤلاء.

ولما دخل الترك لبلاد جرجر ونظروا ان القرى فارغة وسمعوا ان الشعب في جبل مار برصوم ، توجهوا الى ذلك المكان ، يوم الاحد في ١٥ اب وكمنوا في ثلاثة اماكن ، وفي الصباح هجموا وسرقوا الدواب والثيران وقتلوا ثلاثة من المتعبدين ، وقتل اثنان من الترك ، وحينئذ ارسل الاتراك رسلا يقولون اننا نكرم هذا القديس ونقدم له النذور ، وإننا لانضمر شرا لهذا الدير ، وإنما اتينا وراء الذين توجهوا الى هنا من بلاد جرجر ، فان تعطونا اياهم نرد لكم ما اخذناه ، وإننا نعد بان لانرسل الشعب الذي نأخذه الى العبودية ، بل ناخذه الى قراه ، حينئذ انقسم اهل الدير الى فرقتين : منهم من قال يجب ان نسلم هذا الشعب ، ومنهم من كان يصرخ رافضا تسليمه وكادت الحرب تقع فيما بينهم ، لولا حكمة احد المشايخ الذي اصلحهم بحكمته ، فقد اخذ مجموعة من الفريقين وخرج الى الاتراك وقال لهم : إن كنتم فعلا لاتريدون ان تسوقوا هذا الشعب الذي ستاخذوه للعبودية فلتأت معنا مجموعة من رؤسائكم ونمضي

سوية الى قلعة زياد ، ونثبت هذا العهد عند الامير ، لكن الترك كانوا في الحقيقة يريدون ان ياخذوا هذا الشعب الى العبودية ، ولما اتضح ذلك في ترددهم ، صرخ الجميع بفم واحد : كلنا شخص واحد ولن نسلم ولو متنا كلنا ، وعند ذلك احرق الترك كل ما هو موجود خارج الدير من بيوت ومعاصر واسيجة للكروم ، واخذوا الغنم والثيران ، ومضوا، اما الرهبان فقد مضوا الى قلعة زياد ، وبوساطة المؤمنين الذين هناك استطاعوا ان يواجهوا الامير قرا ارسلان ، فاعاد كل شيء للناس حتى الثيران والغنم ، وصار فرح عظيم في كل مكان ، ومجدوا الله كثيرا .

كمل هذا ايضا على يد عبد عبيد الله ، وخادم الخدام ابراهيم الاخرس من قرية صدد - حمص سنة ٢٠٧٥ يونانية (١٧٦٤ م) في شهر حزيران المبارك .

سقوط جوسلين

في هذا الزمان نبهت العدالة السلطان مسعود فجمع عددا كبيرا من الجنود الاتراك واستعدوا لإقتحام بلاد الافرنج الاشقياء ، فدب الخوف والهلع في قلوب الافرنج الذين يدعون ان الواحد منهم يهزم الفا ، فصاروا يرتاعون من صورة على الورق ، لانه حلت عليهم لعنة الكتاب ، وصارت كل الشعوب تصرخ بفم واحد : بامر من الله تجمع الاتراك ليبيدوا هؤلاء المسيحيين الذين تجاسروا على مار برصوم ، ولما راى جوسلين ان الترك قد حاصروه واصبح سجينا في تل باشر احس بذنبه واعترف ان هذه ضربة من الله ، فوعد بالتوبة والتجا الى سيدنا مار برصوم ، حينئذ تعطف عليه الرب الذي بعث السلطان ، فحلف جوسلين للسلطان بانه سيصير تحت طاعته ، وجاء هذا التدبير كله من علبين ، فارتحل السلطان الى بلاده ، وارسل جوسلين القديس مار برصوما (اي يمينه) الى الدير ، لكن ما لبث جوسلين هذا ان رجع الى اعماله الرديئة مثل الكلب الذي يرجع إلى قيئه ، فلم تهمله العدالة ولم تحتمله ايضا ، لانه نافق ، فصارت نهايته على أيادي الترك الذين تبعهم ، لان جوسلين الذي كان قد تعاهد مع نور الدين حاكم حلب يدخل الى بلاده وقتل وسبى عددا كبيرا ، وأخذ قلعتين

وفي سنة ١٤٦١ ارسل قرا ارسلان حاكم قلعة زياد واحدا من قادته واسمه الضياء فنزل الى بلاد جرجر ، وفي احدى الليالي هجم فجاة على القلعة التي بقرب الدير والمدعوه تجنكر واخذها بالقتال ، واخذ منها خمسمائة شخص كعبيد ، ووجد هناك اواني وملابس كان قد سرقها جوسلين من الدير الذي سباه ، ومن هنا كشف لكل منهم انه بامر الله صار الغضب ، وكل موضع دخل به مسروقات من الدير جرفه طوفان الغضب، ثم احتال اليونانيون والافرنج ليدعموا الذين في جرجر فاجتمع مع باسيل حاكم (حصن منصور) وكيسوم

ومع جوتاي وغيرهم نحو خمسمائة فارس وكثيرا من المشاة ومعهم الوف من احمال الحنطة يريدون الدخول لقلعة جـرجر، ولما وصـلوا لقرب القلعة اكتشفوا ان الترك لم يعلموا بقدومهم ، فتركوا احمالهم خارج القلعة ونزلوا ليهاجموا معسكر الترك ظنا منهم انهـم سـوف يهزمون الترك ، لكن الله كسرهم ونصر الترك عليهم ، وكان التـرك يفوقونهم عددا فقتلوهم وبـددوهم،واسر بـاسيل حـاكم جـرجر وكيريكور حاكم جوتاي ، وما هي الفرنجي حاكم كيسوم ، ولم ينج من الفرسان احد واستولى التـرك على الحنطـة ، وعندمـا انتصر الاتراك هذا الانتصار العظيم قام الامير قرا ارسلان بعمل يدل على عظمة نفسه ، وكرم اخلاقه ، فاعتق كل الاسرى وارسـل كل واحـد الى بيته ، واعطى حكام القلاع اماكن في بلاده ، فاخذ مـن بـاسيل جوتاي واعطاه سجمان .

وهكذا ملك الاتراك جرجر وجوتاي وحصن منصور، اما جوسلين فخرج الى انطاكية ومعه مائتي فارس ، كان يظـن انهـم يقـاومون الوفاء،وبينما كانوا سائرين عند اعزاز بالليل التقـى بهـم قليل مـن التركمان فهرب هؤلاء الفرنج من الصوت فقـط ، لانه قـد ابتعـدت عنهم القوة ، اما جوسلين فقد هرب واحتمى بشجرة فالتقى به رجل تركماني ، لكنه لم يعـرف انه جـوسلين ، وقـال له إنه يريد بيعـه للمسيحيين ، ولكن التقى بهم رجل يهودي في احدى قرى المسلمين ، فاخبرهم ان هذا جوسلين ، فاخذوه بفرح الى حلب فاشتراه الوالي من التركماني بالف دينار ورمـاه بـالسجن وهناك اكمـل حياتـه بالعذاب .

وعندمـا دخـل الى حلب مقيدا صـار فـرح عظيم وسرور لكل المسلمين ، وبقي في السجن تسع سـنين ، وكانوا دائمـا يرغبـونه ويهددونه بكافة الوسائل ويقطعون عنه الطعام لكي يعلن اسـلامه ، لكنه كان دائما يرفض ، فحكموا عليه بالعذاب وكان دائمـا يجـاهر بإيمانه وكان يعترف قائلا : لاجل خطاياي اذلني الله ، وارسل الى الدير والى باقي كنائس المسيحيين طالبا ان يصلوا لاجله ، ليقبل مع

التائبين ، ولما قرب موته وهو داخل البئر الذي كان مـرميا فيه طلب ان يجلبوا له اسقف المدينة ، فجاء الاسقف وقبل اعترافه وشـاركه الاسرار المقدسة ، ولما توفي اعطـوه للمـؤمنين فجنزوه وقبـروه في البيعة ، واجتمع على دفنه اكثر اهل المدينة من المسلمين والمسيحيين وكانوا يتعجبون مما حدث له .

تم هذا الخبر ايضا .

كيف رجعت يمين سيدنا مار برصوم الى الدير

بعد ان ترك جوسلين الرهبان يعودون الى الدير ، ولم يرسـل يمين مار برصوم زاد عليه غضب العدالة ، فارسل الرب من الشمال شعب ياجوج (الاتراك) واحـاطوا بتـل بـاشر ، حينئذ صرخ الافـرنج والسريان والارمن بصوت واحد ، فخاف جـوسلين الاثيم ، وامـر فاخرجوا القديس ، واخذوه للجبل وكانت رؤوس كل الناس مكشوفة وهم يبكون ، ثم احتفوا به امام معسـكر الاعداء ، ومضى الرهبـان والمشايخ واتوا بالقديس مع تبجيل عظيم ، وكانت جمـوع الناس في كل مدينة وبلدة تسعى امـامه وهـم فـرحين مسرورين ، وممجـدين ومنشدين بالالحان والشمع المضاء ، وعطر البخور ، وانتهى طريقه كله بالتبجيل العظيم ، ثم وصل الى الدير في راس كانون الاخير يوم عيد المعلمين القديسين

استيلاء الترك على البلاد بعد سقوط جوسلين

في ٢٩ كانون الاول سنة ١٤٦١ يونانية وقع زلزال جعل الارض تهتز ، وفي ١٥ اذار كسف القمر من منتصف الليل وحتى الفجر ، وفي ٢٣ اب صار مطر وسيول جارفة اخذت اماكن كثيرة ، وخصوصا في قلعة زياد حيث اختنق صبي في وسطهم وكذلك بغلان وحمار .

في هذا الزمان ارتسم للخلقيدونيين بطريرك شيخ كان في صباه اسقفا لكن حب الرئاسة اغراه فاخفى ذلك وارتسم ثانية ، لكن بعد قليل انفضح وخزي ونفي هو والذين رسموه .

في سنة ١٤٦٢ يونانية صار شتاء قاس وثلج كثير ، وكأن ابواب السماء انفتحت ونزل كل ما فيها من ثلج حتى في الاماكن التي نزل فيها ثلج قليل جدا صار نحو ذراعين .

وفي اذار ايضا اتى ثلج احمر ، وقد قال الطبيعيون : إن الرياح تحمل الغبار الاحمر الناشيء عن التربة الحمراء الى الغمام فيتراءى كلون الدم ، وعندما يسقط الثلج يختلط معه وكل هذا يصير لاجل تأديبنا .

. وفي اذار صار بملطية ثلج كثير لم يسمع وينظر مثله قط .

وفي ٢٣ اذار ايضا ظهرت اية ، وهي عبارة عن شعاع ناري في الناحية الشمالية وفي تلك السنة في قليسورا(٣٧) كان جبل تحت قرية فسقطت فجاة منه صخرة عظيمة ، وسحقت القرية مع سكانها وبهائمها .

وفي تلك السنة كثرت الامطار في كل الاماكن وافسدت الزروع وكل الغلال ، وخصوصا في شواطيء الانهار ، ومات الزرع كله ، ولم يبق شيء .

ولما سمع السلطان مسعود بسقوط جوسلين دخل يوم احد المنصرة وحل على كيسوم ، وكان بها افرنجيا اسمه رنجر ، وفي تل باشر اقاموا ابن جوسلين حاكما ، وكان بعد صبيا وكان ايضا يدعى جوسلين ، ولما راى الذين في كيسوم كثرة عساكر السلطان مسعود ذهلوا فارسلوا مطرانهم ايونيس الى القلعة ، واخذوا تعهدا من السلطان بشان الافرنج ، سمح بموجبه لهم ان يصلوا الى عينتاب وهكذا صار ، وتملك السلطان على كيسوم وعلى القلاع ، وعلى رعبان وفرزمان ، وحل على تل باشر ، فقدم عليه نور الدين حاكم حلب ، فاعطاه السلطان ابنته التي كانت مخطوبة لابن اخي ملك اليونانيين ، واعطاها تل باشر، ولما ترك السلطان تل باشر ورجع الى بلاده ، اتى ملك القدس واخرج من تل باشر امراة جوسلين واولاده وجميع الافرنج وحملهم معه الى القدس ، واقام في البلدة اناس من مملكة اليونانيين، وقد استطاع هؤلاء ان يضبطوا تل باشر وعينتاب واعزاز ، ثم حل عليها الاتراك واضطهدوا سكانها كثيرا ـ اعتقد كان ذلك بشكل نوع من انواع العذاب ـ ولما لم يستطيعوا المقاومة سلموا كل هذه الاماكن صلحا الى نور الدين ، وملك حاكم حلب هذا على تل باشر وعلى عينتاب واعزاز والبلاد التي بينها ، وبقي مع السلطان مرعش وقلاع فرزمان ورعبان وكيسوم ، وبقي مع قرا ارسلان ببولا وجرجر وجوتاي وحصن منصور.

اما تمرتاش حاكم ماردين فقد اخذ البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وهكذا تملك الاتراك على هذه البلاد ، اما قلعة الروم ، فقد كان جوسلين قد وضع فيها ارمنيا اسمه ميخائيل ، لكن هذا لما سمع ان جوسلين قد سقط ارسل امراة جوسلين وابنه ، لانهما كانا في تل باشر ، وذلك ليقولا لكريكور جاثليق الارمن الموجود بهوزب ، اي البحيرة ، لياتي الى القلعة ويساعد ميخائيل ، لكن كريكور هذا لما اتى احتال وامسك بميخائيل وعذبه ، واخذ مقتناه وطرده ، وجلس كريكور الجاثليق في قلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٢ يونانية دخل يعقوب ارسلان الى بلدة اليونانيين المسماة فابرا وسباها وخرج .

وفي هذا الزمان هزم منويل ملك اليونانيين وانكسر من قبل الافرنج وهرب واستطاع ان يصل الى القسطنطينية بصعوبة بالغة .

وفي تلك السنة خنق حاكم ايزنجي بلد الارمن من قبل ابنته(٣٨) بوتر القوس ، واتت بأخيه مخديباريجي فتزوجها وتملك .

وفي تلك السنة كان في دير اليونانيين المدعو سيريكا في بلاد بنطس ، صليب ذهبي كبير ، وكان فيه جزء من خشبة الصليب ، وكان يفعل عجائب في تلك البلاد ، فوضع الحاكم في ضميره ان ياخذ الصليب ، فتهيا له واحد اثيم من اليونانيين ، ودبر حيلة عصى فيها بالبلد ، فأتى الامير واخذ الصليب وكل شيء وجده ، واخرج الرهبان ووضع فيه الاتراك ، واخيرا ذكره بعض عظمائه ان اباءه كانوا يكرمون هذا الدير ، فقام بعدة وساطات كثيرة وبعدما اخذ من الرهبان ذهبا ضمانا بانهم سوف يعطوه خراجا ، فسمح لهم ان يرجعوا الى ديرهم ، وقيل لنا ان اليونانيين المجدفين لما سبى جوسلين دير سيدنا مار برصوم ، كانوا يصهلون كالخيل او كما صهل اليهود على مولانا عندما كانوا يستهزئون به ويجدفون عليه ، ولما تشرف خبر مار برصوما عند كل الشعب ورجع منتصرا على الذين سبوه فرح المؤمنون في كل مكان ، كما فرح الرسل بقيامة سيدنا ،ولذلك يجب ان يقال لهم : ياهؤلاء كفوا السنتكم عن التجديف على القديسين واذعنوا للحق فلولا اننا اخطأنا وارادت العدالة ان تضربنا لم يستطع جوسلين ان يسبيه من دير مار برصوما ، كذلك لم يستطع احد ان يسرق الصليب المكرم من دير سيريكا ، ويهزا به .

وفاة دولت حاكم ملطية

في سنة ١٤٦٣ يونانية خرج الافرنج من رومية غاضبين على اليونانيين يريدون الانتقام منهم لاجل ما صنعوه بأخوتهم ، فنهبوا وخربوا ووصلوا حتى باب القسطنطينية واحرقوا ثم خربوا كثيرا في مملكة اليونانيين ورجعوا .

ووصلت فرق منهم إلى فلسطين لينتقموا من العرب أيضا لكنهم لم يتفقوا لعدم وجود قائد لهم ، فقتلوا الذين وجدوه في قرى عسقلان من العرب بالسيف واحرقوا القرى ، ثم عبروا في البحر وخرجوا إلى ارض القبط ، وهناك في نواحي مصر الغربية أحرقوا المدن والقرى والسكان بالنار ، ثم رجعوا الى بلادهم .

وفي تلك السنة في ١٢ حزيران يوم الخميس مات دولت حاكم ملطية وملك ابنه ذو القرنين ، وفي ذلك اليوم خاف المسيحيون جدا وكثرت عليهم الشدائد ربما ليعودوا الى توبتهم ، اما اخو دولت يعقوب ارسلان فارسل يعزي ابن أخيه ووالدته طالبا ان يحتفظا بالمدينة ولايعطوها للسلطان فاعتمدا عليه وارسلا مواشيهما الى بلاده لتكون في امان .

لكن لما سمع السلطان انهم اتفقوا ان لايعطوه المدينة ، اتى غاضبا على يعقوب اولا فلما راى ذاك كثرة العساكر استسلم سريعا ووعد ان لايساعد ابن اخيه فتوجه السلطان ضده ، لكن نزلت صاعقة في ٢٤ تموز احرقت الالوف من الاتراك ومن باقي الشعوب ، واحترقت القرى الجميلة وحقولها البهية بالنار ، وكانت عساكر السلطان تخرب البلاد من الخارج ، ومن الداخل كان الحكام والجنود يعذبون بغير شفقة سكانها بكل الانواع ، وكان المؤمنون محصورين بين هذين الوحشين ، ولما نظروا أن الكأس قد مزج

بالعلقم ، والسيف قد استل تذكروا خطاياهم وبداوا بالادعية الدائمة فاتى خلاص الرب المتعطش للرحمة ، وهكذا بشفاعة والدة الاله في عيد انتقالها صار الصلح ، عندما خرجت ام الصبي وهي ابنة اخي السلطان وتوسلت اليه وركعت عند اقدامه ، فقال لها السلطان : ان ياتي الصبي إلي خاضعا أترك له المدينة ، عند ذلك خرج الصبي فقبله وثبت له الرئاسة .

وعندما كان السلطان نازلا على ملطية ، دخل الترك الذين معه ليسبوا بلاد قلونية ، فوجدوا الرهبان والمتبرئين الذين في دير بيت حنيش فاخذوهم اسرى ، حينئذ مضى الرهبان الى السلطان فاعادهم ، ولما رجعوا لياتوا الى جبل التفاح التقى بهم لصوص ، وتحاربوا معهم ، فقتل ثلاثة من اللصوص ، وقتل من المتبرئين طفل ومضى الباقي الى الدير .

ولما تثبت الرئاسة لذي القرنين بن دولت ، ملكت ام الصبي المدينة وكانت تعذب المسيحيين ، الاغنياء منهم والفقراء بغير رحمة بالخراج والضرائب المتنوعة ، ولم يستطع احد ان يتوسط عندها ، وكانت تقول ان المدينة لها ليس لان السلطان قد قبل تضرعها فقط ، بل لانها حفظت المدينة بوساطة السحرة والعرافين ، ثم اجتمع اليها جملة من النساء العرافات الفاحشات تنبأن لها بطول العمر مثل وليبيوس في زمانه ، وانها سوف تملك ، ولذلك حاولت ان تقتل ابنها وتملك هي لتتبع هواها ، حينئذ اشفق الرب على صراخ المساكين ، وقام غضب العدالة على ايزابيل الثانية ، فظهر مكرها وانكشفت لزعماء المدينة ، فطردوها ، وخرجت ماشية هي والنساء الفاحشات اللواتي كن يخدرنها بالسحر والشعوذة ، وقد انطبقت عليها اية النبي« امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، وقد اعييت من كثرة مشوراتك .(اشعيا ٤٧ : ١٢ و ١٣) .

ولقد لبثت عدة ايام على باب المدينة ثم طردت اخيرا من هناك حافية عارية وثبتت الرئاسة لابنها الذي سارع وقتل كل السحرة

والعرافين الذين جمعتهم امه ، ونهب بيوتهم ، ووضع قانونا يحرق بموجبه كل من يتعاطى السحر ، فهرب اكثرهم .

ثم نادى بالصلح والسلام لاهل المدينة ، وابطل الضمانات والجوائز ، وصار فرج للمتضايقيين ، وفرح لكل المسيحيين ، واكتشف أن بعض افراد حاشيته كانوا متفقين مع امه على هلاكه فطردهم رويدا رويدا ، ونهب بيوتهم حتى لم يعد احد منهم في مملكته .

انتهت هذه المقالة حول نحو من عشر سنين ، واربعة عشر فصلا ، وقام بها ملكين لليونانيين والافرنج وملكين للترك ، وخليفة واحد للعرب .

في تشرين الاول سنة ١٤٦٣ يونانية صار مطر كثير بالليل واتلف كل الغلال التي كانت على البيادر واختنق كثير من الناس والبهائم في تلك السيل لاسيما في بلاد قلعة زياد وبلاد سميساط ، وقد جرف السيل كثيرا من التراب والصخور العظيمة حتى انه سحب احجار الطواحين وانزلها الى الوادي ، اي الغدير الذي بين قرية ابدهار وبين قرية خرشنة ، وامتلا نهر الفرات مما نزل به من الجبل وتوقف مجراه ثلاث ساعات ، وقد نظرت الموضوع بنفسي ورأيت الناس الذين سعوا ليأخذوا السمك من ذلك المكان الى ان امتلأ بالماء ففتح مكانها في طرف جبل قلونية وجري.

في هذا الزمان بنى قسيس ارمني اسمه يوسف من بلاد هنزيط في قرية برغيش بيعه ، وزينها وصنعها وجعلها مشعشعة من الخارج بالبياض ، وذات يوم خرج الامير قرا ارسلان ليتنزه كعادة الملوك فراى هذه البيعة تبرق ، فغضب وكان بعض الاتراك يبغضون ذلك القسيس ، فاغروا صدر الامير وقالوا له : كلما بنيت بيعة جديدة في بلدة يموت حاكم تلك البلدة ، عند ذلك امر فقلعوا هذه البيعة من اساسها بغير شفقة ، وحبسوا القسيس المظلوم في السجن ،

فاجتمع مسيحيو اهل قلعة زياد ليتشفعوا له ، لكنه كان قد امر بصلبه قبل ان يواجهوه ، وكان ذلك يوم عيد الصليب في ١٤ ايلول .

وبسبب هذا ومنذ ذلك الزمان صدر امر في كل بلاد مابين النهرين بأن لاتبنى بيعة جديدة ، وان لاتتجدد بيعه عتيقة ، وصار حزن بين المسيحيين لهذا السبب ، لكن بعد موت الامير اجتمع المسيحيون وذهبوا الى ابنه وقدموا له ذهبا كثيرا ، وأخذوا امرا ليجددوا كل جزء وبيعة عتيقة محتاجة الى تجديد ، وقد اثلج صدر المسيحيين في كل مكان لهذا الامر .

كل من نظر وقرا وتأمل يرسل لي قليل من صلاته ، لعلي اجد فرحا وسرورا امام الديان العادل ، واجره على المسيح .

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) صار في ايلول برد ومطر وثلج فافسد الكروم والزيتون والقطن والسمسم ، وبدوا وكأنهم احترقوا بالنار ، وصاروا كالشحار الأسود ، ولم تكن هذه النازلة فقط في اثور وبين النهرين وإنما في بلاد فارس وارمينية وفلسطين وملطية ، وصارت كل المسكونة كالقش الذي اكلته النار ، حيث تحولت الى رماد ، لقد كان منظرا مخيفا ، ويجب ان يلقن اصحاب هذا الجيل الفاسد درسا لانه اصبح لايحس ولايشعر بالخطايا والآثام التي يقترفها ، ولاجل ذلك صار هذا الغضب.

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٥٥ سرق اسقف مرعش في كورة ملطية بيعة جرجر فطرده البطريك وحرمه . ورسم المرعيث اسقفا لجرجر .

وبعد مدة يسيرة تقدم الاسقف الذي كان قد خرم بطلب استرحام وشفاعة وكان اسمه باسيليوس فـأعطاه البـطريرك اديرة زوبـر ، فبقي هناك زمانا قليلا ثم طرد من هناك لاجل علة السرقة نفسـها ، ثم اشفق عليه البطريرك فأعطاه مرعش سيبابرك ، وبعـد ان بقـي هناك ثلاث سنوات عاد فطرد من هناك لأجل علة السرقة ، وقد قـال البطريرك وبعض الناس انه مظلوم اما الصحيح فهو عند الله .

اما باسيليوس الذي انتقل الى الرها لما هاجمها زنكي واخـذها بالسيف ، فقد خلص هذا المطران من القتل عندما تقابل مـع زنكي ، ولأنه وجده حكيما وشجاعا ويتكلم اللغة العـربية الفصـحى كرمـه وسلمه المدينة لكي يعيد بناءها وادارتها ، وترتيبها وقـد خلص عددا كبيرا ، وبقي المطران بهذا المنصب الى ان قتل زنكي ، وقـد نجـح كثيرا بهذا المنصب .

وفي محنة الرها الاولى قتل العديد ، وكان منهم البار باسيليوس ابن عباس الذي كان اسقف ماردين ، ثم ترك الرعية وذهب ليسكن في جبل الرها حيث توفي هناك .

وصار في ماردين مطرانا ماريوحنا ، الذي هو ايضـا ارتسـم في ايام مار اثنا سيوس ابو الفرج سنة ١٤٧٦ ، وكان هـذا شريفـا ومستقيما ومتعلما يقرأ كثيرا في الكتب ، اختص بالمعرفة الطبيعية ، وكان يكشف الاسرار ويعرف الخفايا ، وكانت هـذه المهنة مـرغوبة ومطلوبة جدا ولاسيما عند الملوك ، وقد اشتهر عند الملوك ، وتـكرم من كل الحكام ، ولاسيما حكام ما بين النهرين واثور ، وكانت له يد عظيمة تفيض بالرحمة على المساكين والمحتـاجين ، فبعـدما اخـذ

زنكي حاكم الموصل الرها ، وصار اهلها عبيدا ، ظهرت حركة بين الناس فاخذوا يشترون اهل الرها ويعتقونهم كل واحد قدر ما يستطيع ، وكان هذا يتجول ويشجع افراد الرعيه على تخليص المسيحيين من العبودية،وبهذه الاعمال اشتهر عند الجميع ، وذاع صيته في بلاد كثيرة ، وخاصة عند المسلمين .

ذكرى الربان توما المتوحد والمطران عبدو

الربان القديس توما المتوحد ، ومعلمه المطران السعيد عبدو اللذان كانا في هذا الزمان في جبل زوبر .

لقد ذاع صيت الربان توما هذا بين رؤساء الكهنة ، واشتهر فلنعرف من هو هذا الربان ، انه من قلعة تدعى سامره في بلاد سود المجاورة لملطية ، ولما اشتد الجوع في ايام بوزان التركي ، خرج هذا الصبي المسمى توما واتى الى دير زوبر عند خاله الراهب ولما راى عيشه الرهبنه المقدسة احبها وانخرط فيها ونسي اهل جنسه .

وكان بهذا الزمان رجالا فاضلين بالدير ، احدهم البار مار ياونيس اسقف خرشنة ، وهو عبدو هذا ، وكان هذا شيخا فاضلا سلك من طفولته طريق الصلاح وتتلمذ وتأدب عند الرجال المؤمنين وامتد وبقي يعيش وحيدا حتى بلغ سن الشيخوخة ، ثم تقدم الى درجة الاسقفيه بالتزام عظيم وبمباركة الروح القدس ، وكان ذلك على يدي ماريوحنا ابن عبدون البطريرك ، وبعد مده سلمه الرعية على الرغم من ارادته ، وبعد ان تضرع كثيرا اعفوه منها ورسموا غيره ، اما هو فرجع الى خلوته ، ولما راى هذا الصبي توما ، وتوسم فيه ملامح الروح القدس ، كان دائما يتفقده بعد ان اصبح راهبا متوحدا متبتلا يسكن خصا بعيدا ، وكان يعلمه المزامير وطرق وقواعد الرهبنه ، فبدأ يصارع الشياطين ، وكان هذا البار يقويه في صراعه مع الشياطين ، وقد قبل توما كل النصائح والتوجيهات

كالارض الجيدة القابلة للزرع الصالح التي تعطي الاثمار مضاعفة ، اعني التدابير الصالحة له .

وبعد ان خدم هذا الشيخ مع الربان تـوما انتقـل الى الحياة غير الزائلة ، فبقي توما يعيش وحيدا في مكانه مدة اربع وستين عامـا ، في الصـيف كان يصـعد الجبـل حيث زرع دالية له ، فيعتني بهـا ، ويقطف ثمرها ويصنعه زبيبا ، وكان يقايض الزبيب بالحنطة حتـى لاياخذ شيئا من احد ، اما في الشتاء فقـد صـنع له في قلب الجبـل مغارة بعيدة كان يعتزل فيها ، وقد وصل هذا الشيخ الى درجة عالية من القداسة حتى صار يشفي المرضى ، ويكشف اسرار الناس ، وقد سمعت انا الضعيف ميخائيل من عمي مار اثناسيوس مـطران عين زربة ومن مار ايوانيس مطران كيسوم بانهما شاهدا وسمعا لما جاء زنكي الى الرها ، وقبل ان ياخذها ، ان الربان توما قـال . ان الله قد اعطى الرها الى الترك ، فقال له المطارنة اشفق علينا ولاتقـل هذا ، لكنه عاد وكرر القول وزاد : نعم نعم ايها المطارنة ان الله قـد سلم الرها ، وان عددا كبيرا من المسيحيين يقتلون بهـا ، وبعـد ان سبيت في المرة الاولى ، انا سمعت من فم عمي المطران يقول للجمع : ان الربان توما قال لي بعد سنتين من الان ستشرب الرها كأسا مرا امر من الكأس الاول ، وكذلك قال لي : ان دير مار بـرصوم سـوف يسبى مع اديرة زوبر ، فقال الحاضرون وماذا بقي من الرها ؟ فقال للحاضرين : انا لااعرف ، الربان توما قال لي هذا .

كل هذا سمعته بنفسي من ذاك البار ، وقبل زمن من حدوثه ، لكن بعد ان صار ذلك ، تحقق كثيرون ان الاكتشافات والتنبـؤات التـي صارت على يدي الربان توما هي من عند الله ، ولما دخل التـرك الى دير زوبر استشهد ذلك الشيخ بـالسيف يوم الاربعـاء ٢٧ تشرين الثاني ، في يوم عيد مار يعقوب سـنة ١٤٥٨ يونانية ، لتـكن ذكراه وصلاته وبركاته دوما معنا امين .

في سنة ١٤٥٩ مضى ايضا مار اثناسيوس البـطريرك الى آمـد

وجلس هناك ، ويوحنا اسقف منبج بن اندراوس ايضا غير رعيتــه بدون اذن ، فعندما كان البطريرك في تل باشر مــع الاســاقفة وقــع خلاف بين اندراوس وطيموثاوس أسقف خرشنة ، وبعد جـدل كثير انتقل ابن اندراوس الى خرشنة ، واتى ذلك الى تل باشر ، ولما مضى البطريرك الى آمد وابتعد ، رجع ابن اندراوس لعادته وتخاصم مــع فيلاردوس حاكم تلك البلاد.. وكان هذا ارمنيا في الجنس وا فــرنجيا في التدابير ويونانيا هرطوقيا في الايمــان ، لكن ابــن اندرا وس عاد فترك ايضا مرعش وخرشنة ومضى الى دير المتوحدين على شــاطىء الفرات لكي يتوحد ، فرجع مطران خرشنة الى موضعه.

في هذا الزمان اسلم اهرون الشبختاني اسقف الحــديثة ، وكان هذا قد خرج من بلده وسكن في دير مــار متــى ورســمه اغناطيوس المفريان اسقفا لتلك الرعية ، ثم اسلم ، لكنه مالبث ان رجع ، ولما لم تقبله الرعيه ولم تعط له درجة الاسقفية ، ذهب الى القسـطنطينية ، وصار خلقيدونيا ، لكنه رجع ايضــا واتــى يطلب التــوبة فقــال له بطريركنا مار اثاناسيوس : نحن لانرد التوبة على طالبها ، فأذن له حينئذ تشاجر البطريرك مع المفريان ، فصار المفريان يلوم البطريرك لانه قبله قبل ان يكمل قانون التوبة ، وبالمقابل كان البطريرك يتهــم المفريان لانه كان قد رسمه دون ان يفحصه .

لكن مالبث ان رجع الى المسلمين بغير سبب ، وبقي مع الفقهــاء عدة اشهر ثم عاد فندم ايضا ومضى الى ابناء طــائفتنا في القــدس ، لكن ابناء طائفتنا لم يقبلوه هناك ، فمضى الى الموارنة في جبــل لبنان وبقي هناك حتى مات .

في شهر ايار سنة ١٤٦٠ يونانية تراءت في السماء حربة طويلة في ناحية الشمال ، وبعد ساعتين في حلول الليل اختفت ، وبعــد وقــت قليل ايضا تراءت في ناحية المغرب سيميون اي اية شبه الصــليب ، وبعد وقت قليل اختفت ، وفي يوم الاربعاء قبــل عيد الصــعود نزل في القدس ونواحيها مطر غزير ممزوج بقطرات مــن الدم ، وكانوا قــد

اخبروا عن الدم الذي صار في البلاد الافرنجية بهذا الزمان ، وحدث هذا في شهر ايار وقد صار ايضا عوض الفلك المرسوم على الارض دما ، وهذا يؤشر على كثرة القتل وسفك الدم .

بهذا الزمان سقط اساقفة في بيعتنا وكان واحد منهم اهرون الشبختاني الذي ذكرناه من قبل اذ كان قد رسمه المفريان اسقفا للحديثة فأسلم ثم صار يونانيا ثم مارونيا ، والآخر من قلعة زياد ، المتكني ابن الترك ، وهذا كان قد رسمه مار يوحنا البطريرك اسقفا لرعية تل باشر ، لما خرج منها ابن اندراوس ، لكن لما عاد فقبل ابن اندراوس ، ارسلوا ابن الترك هذا الى سمندو ، لكنه مالبث ان طرد من هناك فارسلوه الى بلاد خابوراء ، لكنه ايضا اخطأ هناك وزنى فطردوه فمضى لبلاد ارمينية الكبيرة ، حيث خلع ثوب الكهنة وارتدى ثياب الجندية ، وصار يخدم عند واحد من الاكابر ، وعشق هناك امرأة زانية ، ولما نظر انه لن يستطيع ان يطعم نفسه والزانية التي تبعته من خدمته في الجندية ، وكقول الكتاب الالهي ، كان مشتاقا ان يملأ بطنه من الخروب الذي كانت الخنازير تاكله ، ولما تعرقل من شر الى شر ، عاد فلبس ثوب الرهبنه المقدس ، واخذ يدور في الاماكن التي لايعرفه احد ويجمع صدقة باسم الاديرة والقديسين ، وكان يأكل كل مايجمعه مع زانيته ، وكان يعيش عيشه بزخ وفسق وفجور ، فقام ضده اناس من المؤمنين وفضحوه ، كذلك كان رجل اسمه جبرائيل من مرعش ، يكنى غاماكير ، ومعناه في اللسان الارمني « مبتدىء بالصلاة » كان قد رسمه مار اثناسيوس اسقفا على سروج ، ثم قيل عنه انه سقط في دنس الزنا ، فأشفق عليه البطريرك ، وتعامل معه بطول الروح ، لكن انغمس في الشرور وارتكب الاثام الفظيعة كما سنوضح القول فيما بعد .

فصل عن الاعجوبة التي صارت بانطاكية والبيعة التي بنيت بها لسيدنا مار برصوم

نقص هنا خبر الاعجوبة التي صنعها القديس مار برصوم بكورة انطاكية : في سنة ١٤٦٢ يونانية صعد صبي من نبلاء الافرنج الى شجرة تين ، لان الاشجار في المدينة كانت كثيرة ، وكانت المدينة تبدو كالفردوس ، فحدث ان وقع وكسر حوضه فعالجه الاطباء كثيرا ، لكنهم لم يستطيعوا ان يشفوه ، فتحول الى مقعد ، وقد تألم والداه جدا عليه لانه كان وحيدا لهما ، وخافا ان تنقرض سلالتهما من شجرة نسب النبلاء والملوك ، وقد انفقا عليه ذهبا كثيرا ، وتعبا من كثرة التجول به على الاطباء ، لكنهما لم ينتفعا شيئا في هذا ، وبعد حوادث جوسلين اشتهر الطوباني مار برصوم باعتباره قديسا يصنع العجائب وسرى اسمه على افواه الناس ، وكانت ام الصبي تقضي كل وقتها بالصلاة والنذور، وتسأل الطوباني شفاءا لابنها فحضر راهب من الدير يحمل ايقونة القديس كالعادة ، فادخلته الى البيت باحترام وتباركت من الايقونة ، وبعد يوم تراءى القديس للمرأة وهو يشبه الملك بمجد عظيم ، فسألت في حلمها . من هذا الملك ؟ فقال لها الجمع مار برصوم وسمعت الطوباني يقول هذا اريد ان تبني لي بيعة وكذلك كان الراهب قد رأى القديس يقول له : قم امض لدار هنري الافرنجي ، وفي بستانه اقم لي بيعة ، وجعله يرى ثلاثة مذابح ، ثم عاد فرأى الرؤيا عدة مرات ، ثم هدده ، حينئذ خاف الراهب واعلم المطران باسيليوس رئيس الرها بما رأى وبما قيل له لانه كان في تلك الفترة في انطاكية ، فتشكك الاثنان ، لكن سرعان ما اتى والدا الصبي ، واعلمنا بما رات الام ، حينئذ اخذ الراهب المطران معه واخذوا ايقونة القديس ، ومضى الجميع الى بيت اولئك الافرنج ، ووقفوا يصلون فوق الصبي المريض ، ولما اكملوا الصلاة ، ورجعوا ، وبينما كان ابو المريض وامه يتضرعان

حوله ويطلبان له الشفاء ، نام ذلك المريض ، ثم بغته صرخ بصـوت عظيم ، وقفز واقفا على رجليه فخاف ، وفـزع الابـوان وكل اهـل البيت ، ونظروا فرأوا يد الصبي منبسطة وكأن واحد قد امسك بها ، فعلموا انه رأى رؤيا ، وعند ذلك سـألوه فلم يجـب لكن مضى وقـت طويل ويده اليمين ممتدة ، وهو ينظر الى فوق ، وكان مبتهجا ، فقام ابواه بسرعة وهيئا المصابيح واحرقا البخور ، واجتمع جمع كبير ، حينئذ اعلمهم الصبي قائلا : انه قد ظهر لي الطوباني مار برصوم ، وكان يمسك بيده صليب عظيم من ذهب يبرق كالشمس ، وامتـلأ كل البيت نوراً منه ، ومعه جمع من الرهبان ، ثم امسك بيدي واقـامني وقال لي قم لاتخف لاجل ايمان ابويك وتضرعهمـا ، هـاقد اتيت ، فقلت له : كيف اقدر ان اقوم وهـاانذا كسيح؟عند ذلك مس مـكان الكسر فشفي ، وقمت .

وهذا صار فعلا ، ولايقدر احد ان يشكك ان ليس المسيح ربنا هو الذي حل بسيدنا مار برصوم ، كما قال : ان من يحفـظ وصـاياي يعمل الاعمال التي اعلمها ، ويعمل اعظم منها ، لان الرب قـد حـل بقديسيه ، وهو يجعلهم يفعلون مايشاء ، وحينئذ اخذه ابواه وهمـا ممتلئان فرحة ، ماشيا ، والجموع تتبعه ومضوا الى البيعة الكبيرة ومن هناك الى عند الملكة ، واجتمع عندهم نبـلاء الافـرنج وبـاقي الجموع من أرمن وسريان وافرنج ، واتوا الى المكان الذي صـارت به الاعجوبة ، حيث دل الصبي على المكان الذي ظهر فيه القـديس ، فسترت الملكة وجهها ، واخذت تبكي ، وصـارت الجمـوع تتبـارك بالتراب ، ثم اخذوا من هذا التـراب بـركة الى كل الامـاكن ، ثـم ابتدأوا ببنيان البيعة ، وصار الراهب صليبا وكيلا ، اما العجـائب التي صارت اثناء بنائها فلا يمكن ان تذكر هنا،ثم مضينا لتـكريسها مـــع رهبـــان الدير ، وكان هـــذا يوم الاحـــد ٩ كانون الاول سنة ١٤٦٨ يونانية ، وكان ذلك في ايام رنجر حاكم انطاكية وبلدوين ملك القدس وهمفري بطريركهم ، ومـار اثنا سـيوس بـطريركنا ، وحضر تكريسها حاكم قيليقية طوروس والملكة وهنري وامراته ديما يزيل ، اعني اليصابات ، وباقي نبـلاء الافـرنج وشـعوب الأرمـن

والسريان ، وعدد كبير من كهنتنا وشـمامسـتنا ، وكهنه الارمـن والافرنج، اما اليونانيين المبغضين فقد احترقوا بجسدهم ،،وبحمـد الله في قدسيته ، الذي له المجد الى الابد امين .

ذكر المشاجرة التي نشـبت بين اغناطيوس المفـريان وبين رعيته

خرج من امد البطريرك اثناسيوس وتوجه الى قلعة زياد ، وبهذا الزمان مات الاسقف الذي هناك ، وحينئذ مـكث البـطريرك في ذلك الموضع ثلاث سنوات ، ورسم بهـا اسـقفا تلميذه سرجيس ، الذي دعي ايوانيس وبعد مارسمه ارسله الى امد ليتفقدها .

ولما كان البطريرك في قلعـة زياد اتـى اليه اغناطيوس المفـريان رئيس اساقفة تكريت والمشرق ، وكان مجيئه لهذا السبب : قضـت شريعة المشارقة منذ زمن قديم مضى ان يرسم مطران تـكريت ـ اي المفريان ـ مطرانا لنينوى والموصل ، لكن مالن يرتسم هذا وينتخب ويصير مطرانا لهذه الرعية الكبيرة يتوقف عن الخضـوع للمفـريان كباقي رؤوسـاء الكهنة في تلك الناحية ، لكن يصـير معـه بـالمرتبة نفسها ، ولهذا السـبب كانت تحـدث دائمـا خصـومات في ناحية المشرق ، ويوضح كتاب دانيسيوس التلمحري ان هذه العادة بدات منذ عهد قرياقس البطريرك ، ولما ضعفت في هذا الزمـان تـكريت ، وازدادت رعية نينوي وقويت اراد هذا المفريان ان يوحد رعية نينوي وتكريت ، وان لايضع مطرانا لنينوى ، فوقع خـلاف بين المفريان وبين اهل تكريت ، ولذلك اتى اغناطيوس المفريان الى اثناسـيوس البطريرك في قلعـة زياد ، لكنه وجـد ان البـطريرك لم يرض بهـذا الاقتراح ، فتـركه وانتقـل الى ملطية ، ومـن هناك ذهـب الى دير سرجيسيه ولما صعد البطريرك من قلعة زياد الى دير مار بـرصوم ، اتى ايضا المفريان وحاول ان يقنع البطريرك ان يصنع اتحـادا بين الموصل وتكريت ويصير المفـريان راعيا للاثنين، وبقـي المفريان

جالسا في الدير كل الصيف دون ان يستقبله البطريرك ، وعند ذلك تركه في تشرين الثاني ومضى الى رعيته ، وبقي يكافح لانجاز هذا المشروع حتى حان الوقت المناسب ، واستطاع ان يحقق مايريد كما سنوضح ذلك فيما بعد .

اما البطريرك فأمضى في ديرنا ـ اي دير سيدنا مار برصوم ـ بقية حياته .

تنصيب اثناسيوس بطريركا

بقيت بيعتنا نحن المستقيمي المجد بدون رئيس عام مدة سنة وثلاثة اشهر ، وكانت خلال هذه الفترة تتم المراسلات لعقد مجمع وانتخاب بطريرك ، فقام من المطارنة المشايخ مطران كركر ، ومطران صمحا ، ومطران قلوذيه ، ومطران جيحان الذي انتقل الى ملطية،واجتمع هؤلاء الاربعة وحدهم ، وصنعوا قرعة كما قالوا ، وكتبوا اسماء ثلاثة كالعادة ، وفاز الربان يشوع الشماس ، فارسلوا اسقفين في طلبه ، فأما هو فخالفهم بالاسرار المقدسة ، فاثبتوا له ان اسمه كان بالقرعة ، وحينئذ مضى معهم الى دير القرونة فالبسوه اسكيم الرهبنة ، واتاهم خبر ان المفريان وصل الى نواحي امد ، وان حاكمها يريدهم ان يجتمعوا في المدينة ، ولما وصلوا الى دير قانقرت رسمه مطران كركر قسيسا ، ثم صارت رسامته في أمد يوم الاحد ٤ كانون الاول في عيد القديسة بربارة ، ووضع عليه يده ديونسيوس وكان معه من المطارنة والاساقفة اثني عشر وجمع غفير من الرهبان والقساوسة والشمامسه ، ودعي مار اثناسيوس بطريرك انطاكية ، وفي يوم رسامته اقام والي المدينة وليمة لكل المجتمعين ، وكان بينهم مؤيد الدين بن نيسان الرجل العربي ، ويعقوب الرجل المسيحي اخو اسحق الشماس الذي كان قد تخاصم قبل مدة مع اثناسيوس البطريرك وكان هو الان يصرف بكل سخاء على هذا المجمع ، وبعد ذلك بيوم امر البطريرك ان يخرج

مطران جيحان من ملطية ويمضي الى رعيته وان يخرج بـاسيليوس من أمد ، واعطاه قلعة جعبر لكي تبقى امد كرسـيا للبـطريرك كمـا كانت في الماضي ، ومن ههنا تسرب الشك الرديء الى بيعة الله فقـام باسيليوس ومطران جيحان وقالا للبطريرك : انك لم تصبح بطريركا بانتخاب صادق بل بالحزن والالم ، وقالا : ان مطران جرجر غش ، لانه قال له بانه لن يخرجه من ملطية ، ولأجل هذا كتب ثـلاثة اوراق باسم واحد .

ولما انتشر هذا الخبر بين الناس تشككوا ، كذلك تشكك المطارنة الذين في بلاد غربي الفرات فـاستعدوا ليقيمـوا آخـر غيره ، وكان اخرون يقولون لانه طرد باسيليوس مطران جيحان كذب الانتخاب ، وكادوا يحرموه لاجل الشكوك التي زرعتها . إنما هـو فتـوجه الى ملطية ، وجمع القساوسة والشعب واظهر لهم الاوراق التي كتبهـا ومضى الى جيحان .

ثم خرج البطريرك من امد واتى دير مار برصوم ورسـم مـطرانا لملطية ابن اخته تاودورس الذي دعي اغناطيوس .

وفي يوم احــــد العنصرة في تلك السـنـــة في تشرين الاول سنة ١٤٥١ رسم للقـدس روانوس الذي من بدن القـدس ، وكان ميلاده في ملطية وهو ايضا دعي اغناطيوس .

وفي سنة ١٤٥٢ اجتمع مطارنة المغرب مع ابني إندراوس وابـن السمنة والباقي في حصن منصور ، وهناك كتبوا صحيفة القـوانين وارسلوها الى البطريرك قائلين : ان تحفظ هذه القـوانين يقبلوك ، عند ذلك وعد ان يحفظها ، ثم اتوا اليه في دير مار برصوم ووضـعوا تواقيعهم برضاهم في المنشور وصار الصلح .

لما وصلت رسالة الحرمان التـي صـنعها مـطران جيحـان الى ملطية ، وقرئت على المنبر تقدم الربـان يشـوع الشـماس العذيف واخذها ووضعها على راسه ، فلما سمع البطريرك فـرح لاتضـاعه

وذكائه ، وفي ذلك الوقت كتب له صلوات الجنيل ، ويقضي أمـر ملطية حتى توفي يوحنا البطريرك ، وكانت وفاته في ايلول سنة ١٤٤٨ في دير الدوائر ، وبه سجي جسده المقدس ، اما مطران جيحان الذي كان كتب كما قلنا من قبل فقد احتال ضد القانون ، وكتب دستورا ثبته وختمه بختم البطريرك المتوفى ، موضحا انه بصفته البطريرك قد ثبت قبل موته ملطية لباسيليوس مطران جيحان ، وحينئذ دخل اليها بحماية الحكام ، ورسم بها قسوسين وشمامسة ولم يكن للبيعة بطريرك ، ولما صار هذا المذكور باسيليوس مطرانا كانت معه مرعيث جيحان ايضا فصار جميع مسيحيي بيعتنا واكثر الاساقفة متشكك بسبب افعال هذا المطران

اما الذين لم يعرفوا كيف زوروا ختم البطريرك ، فكانوا يلومون البطريرك، امــا الذين كانوا يدركون ويفهمون مـاذا جـرى ، كانوا يعذرون البطريك المتوفى ، لكن آخرون كانوا يسوغون فعـل مـطران جيحان قائلين انه صنع تلك بنعمة الغيرة الالهية ، ولاجل تثبيت اركان البيعة .

وفي سنة ١٤٤٣ توفي مار كيرلس بطريرك مصر ، وارتسم مـار اياونيس ، وجلس البطريرك مار اثناسيوس فقـد اتـى الى ملطية ، والتقى بمحمد الملك ، وجلس بالمدينة في بيعه مـار مـاماس واقام مراسيم الصلاة في البيعة الكبيرة ، وحينئذ طلب الى دير مـار اهرون (دير البطم) واعطى الحق لمطران ميافارقين ليدبـر آمد ، ولمطران طرسوس ليدير انطاكية.

وفي تلك السنة نزل ديونوسيوس المغريان الى بغداد يتداوى مـن مرض الم به ، وتوفي هناك وقد احضر اهل تكريت جسده المقدس وسجي في بيعه تكريت.

وفي تلك السنة خنق العرب أسقف حمص وطردت الرعية اسـقف عبدين ، وأمنا أسقف الجزيرة فاشتراه السلطان بالذهب ، وتخاصم

اهل دمشق ورعيتها مع اسقفها ، ثم ذهبوا الى البطريرك فأصلح بين الجميع.

وفي سنة ١٤٥٤ في تشرين الاول ارتسم مفريان لتكريت هو عازر من دير سرجيسيه ، وكان أصله من قرية العبر ، وقد درس في ملطية وارتسم في دير مار أهرون ، ودعي اغناطيوس، وقد اشتهر هـذا في البيعة شهرة كبيرة .

وفي تلك السنة رجع اثناسيوس البطريرك الى ملطية ، وكان فيها لما ملكها دولت بـن غازي ، وحين زحـف ضـدها سـلطان مسعود ، وبعد هذا مضى أناس الى جوسلين الوالي وقـالوا له: إن هذا البطريرك صار بغير حق ، وأما جوسلين فلأن البطريرك لم يأت اليه فقد أصدر امرا أن لا يذكر اسمه في الكنائس في كل الأراضي التي يحكمها قطعا ، وأحضر طيمثاوس مطران جـرجر الى سـميساط وساله كيف صارت القرعه في سميساط ، لكن مطران جرجر لم يقل إن كان مطران جيحان صادقا ولم يبين ذلك هـو أو غيره مـن الذين تكلموا.

وخرج البطريرك من ملطية وذهب الى دير مار برصوم لما سمع ان جوسلين قد نقل باسيليوس اي أبـو الفـرج بـن السـمنة الى الرها ، ورسم لكيسوم أيليا الراهب المعلم الكفـؤ في جبلة ، والذي دعي أياونيس ، وهو مشهور في البيعة.

استيلاء الفرنجة على عسقلان من المصريين

في هذا الزمان اصدر الأمير حاكم قيسارية الكبدوكية امرا بتخريب البيع.

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) كان بلدوين الافرنجي ملك القدس طفلا صغيرا ، وكانت امه تحكم بالوصاية عنه وكانها الملكة ، فلما بلغ بلدوين سن الرشد واراد ان يملك فعلا تمردت امه وتحصنت في برج داود ، فتوسط اعيان الافرنج ، فأعطوا لابنها قياده الجيش وحكم جميع المدن بينما اعطوها القدس فقط.

عندئذ توجه الى عسقلان وكانت تحت حكم العرب المصريين ، واقام المنجنيقات واحدث فجوه دخل منها أربعمائة من الداوية. فهاجمهم العرب وكانوا يفوقونهم بالعدد ، إذ كان عددهم عشرين الفا وقتلوهم عن بكره ابيهم.

فيئس الملك واراد أن يترك المدينة ، لكن شجعه من حوله ولم يتركوا العرب يسدوا الفجوه ، وفي الصباح حمل الملك صليبا ، وتوجه نحو المدينة صارخا من لم يتبعني لن يكون مسيحيا بعد الآن ، فهجموا على المدينة وقتلوا خمسة عشر الفا من العرب ، وعند ذلك ركب ما تبقى من العرب السفن وانهزموا الى مصر.

....(٣٩)قد صف المنجنيقات ونصب برجا من الخشب وصفحه بالحديد ، ولم يتوقفوا كل النهار وقد هلك عليها شعب كثير ، وكان فيها أمير تركي ، لكن عنده وزير يدعى ابن نيسان ، وكان كل شيء بيديه حتى الأمير جمال الدين الشيخ الوديع كان يطيع ابن نيسان ، الذي كان يعطيه خبزا ليأكل ، قد استطاع هذا الوزير بدهائه وذكائه

ان يتغلب على الجيش الجرار الذي كان يحاصر المدينة ، وكان يشجع من بداخل المدينة بالكلام المعسول والمواعيد الخادعة والعطايا الكثيرة ليدافعوا عن السور ، ويستميتوا بمحاربة الاعداء وكان يضع من الداخل جنودا اقوياء يلقون بالمقاليع والسهام على الجنود الذين كانوا يحاصرون المدينة.

واقام مقابل المنجنيقات الخارجية منجنيقات اعظم منها واقوى واضخم ، وقد ارسل ليلا ثلاث مرات دوريات تنقض على المحاصرين وتهرب ، أما الابراج فكانوا يهدمونها بضربها بالحجارة الضخمة في الوقت الذي كان يدعم الاسوار من الداخل بنيا الأعمدة الرخامية الكبيرة والمدعومة بالكلس.

لكنه على الرغم من هذه المقاومة الشرسة ، كانت رسله تقابل كل واحد من الامراء في الخارج ، وكان يهدف من وراء هذه الاتصالات السرية أن يؤجج نار العداء بينهم ، ويعمل على انشقاقهم ، وأخيرا استطاع أن يكسب واحدا منهم الى صفة وهو يعقوب ارسلان حاكم كبدوكية ، وكان حمو قسرا ارسلان ، ولكن لما وصلته الرسل والرسائل من أمد ، ورأى التعهدات وما يتبعها من قسم عظيم ، ثم الطاعة العمياء التي كانوا يقدمونها له ، ثقل على قرا أرسلان ، وأراد ان يخلص أمد من يديه ، لينتقم منه على الذي صنعه معه في ملطية ، فعندما دخل الى بلاده أخذ يسبي وينهب ، وترك قرا أرسلان الامير وانتقل كسير القلب بعد ان تعذب خمسة أشهر ، وصرف نفقات كبيرة ، ولما وصل الى بلاده وقلعته دعاه يعقوب ارسلان للصلح ، فلم يرض وسبى كيزان وقورس وتل بطريق ، واخذ قلعة شنوموشكي بالحرب ، وسبى ميائه الف نسمة ، وساقهم رجالا ونساء وبهائم ، وترك القرى خالية خربة واخذ في جملة من سبى البار اغناطيوس اسقف تل ارسيانوس فأعاده من قماح الى ملطية ، كذلك اخذ ايضا مطران حصن زياد لكنهم تركوه بعد يومين

في سنة ١٤٧٦ يونانية صارت قلة بالحنطة في كل مكان ، وخاصة

في نواحي انطاكية وقيليقيه ، وصار نصف الكيل من الحنطـة يبـاع بدينار ، واخيرا فقدت الحنطة تماما.

وفي تلك السنة قتل جمال الدين الوزير الذي كان في الموصل ، وقد ذكرنا انفـا انه أرسـل المفـريان الى ملك الكرج ، لكنه كان فارسيا ، وكان قد أقامه أتابك زنكي مدبرا في الموصل ، وكان يعطيه من كل دخوله ، وقد غني جدا وعظم كثيرا.

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي تلك السـنة ١٤٨١ يونانية (١١٧٠ م) كان أمير ملطية محمد ما يزال صبيا ولا يستطيع التمييز بين الخير والشر ، فسقط في بؤره الفجور والجنس ، وتبع زانيه ساحرة ، وكانت هذه تـدفعه مستعمله كل شرورها ليضطهد أهل المدينة ، وجنده الاتراك ، لذلك اخذ العظماء يتململون ويدمدمون قائلين الى متى نحتمل مثـل هـذه الأمور.

أما هو فزاد على سوء تدابيره ، وحسب كل شيء وجده في خزائن ابويه ملكا له ، فأخذه وأخذ معه تلك الزانية وأتبـاعه وخـرج مـن المدينة ، وأما رؤساء العساكر والجنود وأهل المدينة فإنهم لما نظروا إلى ما قد انتهى اليه محمد الأمير الشقي،اسرعوا فأقاموا أخاه أبا القاسم رئيسا ، وقد اصطلحت المدينة على أيامه ، وبقي ذلك يتجول من بيت الى بيت ، أما أخرته فسوف نوضحها فيما بعد.

... (٤٠) الذهب الذي كانوا قد تعودوا أن يعطوه منذ زمن ، وقد سلموا رهائن لكي يضطروا أن يدفعوا في كل سنة الذهب ، ولما أخذ الرهائن رجع الى القدس وبقي اليونانيون في حالة من التعاسة ثم أتى الشتاء ليهلك العديد منهم ، وبعد صعوبة بالغة استطاع أن يرجع قليل منهم الى بلادهم .

إضـطهاد مليح الأرمني للمسـيحيين

ولما سمع في سنة ١٤٨١ ملك القدس أن مليحـا الارمني حـاكم قليقية يضطهد المسيحيين بكل الوسائل ويلحـق بهـم الشرور في كل مـــكان ، خــــرج ملك القدس ضده ، وزحف نحـوه فـاحتمى ذاك بـالترك الذين اتـوا

لمعونته ، ونشبت حرب ، فالرب بمعونته أعان الملك وكسرهم ،وهرب الاتراك ، أما مليح فدخل الى قلعته ، ولما حل الملك على القلعة ، وبدأ يقاتل تضايق مليح ، وندم وطلب الغفران ، ووعد انه سيصير تحت طاعة الملك.

وفي تلك السنة مات عز الدولة حاكم قلعة اكل(٤١) ، وقام ابنه اسد الدين ، ونشب بينه وبين عمه حاكم آمد خصام ، وصارا يسبيان الفلاحين والقرى ويبيعانهم للعبودية.

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين في ٢٩ حزيران حدثت زلزله قوية ، وكانت الأرض تهتز كما تهتز السفينة في البحر الهائج ، وانتشر الخوف والهلع والذعر بين الناس.

وقد حدث عندما كنا واقفين في هيكل دير مار حنانيا نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس أن سمعنا بغته صوت رعد قوي ، وسقطنا على وجوهنا أمام المائدة المقدسة وتشبثنا بها ، ونحن نميل هنا وهناك وبعد مده طويلة افقنا كمن يفيق من القبر،وتنبهنا انتباه من ينهض من رقاد ، وتدحرجت الدموع من عيوننا لا سيما لما سمعنا وتحققنا ان ما حدث لم يكن في الدير فقط وإنما عم البلاد كلها ، وقد صارت فظائع عمت البلاد والقرى،وعندما علمنا ذلك أطلقنا الالسنة بالشكر والتسبيح لله تعالى الذي أشفق علينا نحن غير المستحقين.

في هذه الزلزلة سقطت مدينة حلب وصار بها خراب كالخراب الذي حل على سدوم وعمورة ، وقد نظرنا باعيننا الظلم الفظيع الذي كان يحل فيهما على الأسرى المسيحيين ، فقد كان فيهما الوف ، وكانوا يأتون بهم يوم الأحد الى البيعة والحديد بأرجلهم واعناقهم ، وكان صراخهم يتعالى ليشق عنان السماء ولا يستطيع

اللسان ان يتكلم عن الآلام التـي كانوا يقـاسونها ، وإذا أردنا ان نروي عن ذلك فاننا نحتاج الى أوراق كثيرة ، وقـد جـدف كثيرون على الله عندما نظروا وسمعوا عمـا يحـدث ، وقـد تهـدم في حلب سورها ودورها وانتن الفضاء وتلوثت المياه من الجثث ، وتشـققت المدينة وصارت شقوق وسراديب سراديب ، وصارت كلها تلا واحدا خرابا ، ولم يصر بغيرها كل هـذه الفـظائع ، كذلك سـقط سـور انطاكية على شاطىء البحر وبيعه اليونانيين الكبيرة كلهـا سـقطت، وبيعه مار بطرس الكبيرة سـقط مـذبحها وبعض البيوت وسـقطت بعض البيع في عدة اماكن ، ومـات نحـو خمسـين مـن الناس في انطاكية،أما جبلة فقد سقطت كلها ، وفي طرابلس سقط قسـم كبير منها بما فيها البيعة الكبيرة ،وأحدثت الزلزلة اضرارا في باقي مـدن ساحل البحـر وفي دمشـق وفي حمص وحمـاة ، وفي القـرى ، لكن الشيء الذي صار في حلب لم يكن له شبيها قط ، ولم نسمع بـه في اي مكان ٠

وفاة أمير ملطية

وفي هـذا الشـهر كان عمـر امير ملطية خمس عشرة سـنة فقط ـ هذا الذي ترك أخوه المدينة بطريقة مهينة ومذلة كمـا اشرنا من قبل ـ فأحضروا له ابنة قـرا ارسـلان حـاكم قلعـة زياد زوجة ، وبينما كانوا يحتفلون بالعرس ، خرج العريس يرقص على ظهر الخيل حسـب عاده الاتـراك ، لكن الحصـان قفـز عاليا فجأة ، فانقلب سرجه وطرح الأمير ارضا ومات للحـال ، فـانقلب العرس الى مأتم ، وفكر الناس أن يعيدوا اخاه الأكبـر والذي كان قد طرد ، لكن الترك رفضوا نلك ، كذلك اجتمع المسيحيون ورفضوا ذلك فاقاموا عند ذلك الأخ الأصـغر رئيسـا وكان اسـمه فـريدون وزوجوه امراه اخيه بدون رضاها.

٠ ٠ (٤٢) أما حاكمها فريدون فقد قص شعره ، ولبس المسوح ، وجمع

الشعب وصعد الى القصير وطلب الغفران من بطريركهم ، وتـوسل إليه ليدخل المدينة لكنه رفض أن يدخـل حتـى يخـرج البـطريرك اليوناني ، فلما ذهبوا وجدوا ذاك مهشما بالزلزلة فحملوه وكان بـه بعد رمق من الحياة ، فأخرجوه من المدينة لكنه مات في الطريق،حينئذ دخل همفري إلى أنطاكية وبنى أسوارها وبيعهـا ، وكذلك بني نور الدين حاكم حلب أسوارها ،وحاكم سميساط بنى أسـوارها ، وكل واحد من الحكام الأتراك والأفرنج بنى أماكنه ، وقـد أشـفق الرب على شعبنا الموزع في كل المدن والذي لم يعد له ملك أو حاكم منه ٠

وفي حلب سقطت المدينة لكن بيعتنا حفظت ولم يسقط منها حجـر واحد ، وهكذا أيضا بيعه مار برصوما ، وفي جبلة حفـظت بيعتنا ، وفي انطاكية حفظت بيعنسا الثلاث ، وهن بيعـة والدة الرب ، وبيعـة مار جرجس ،وبيعة مـاربرصوما،وفي طـرابلس وفي اللاذقية ، وذلك حفاظا على شعبنا المستقيم المجد ٠

حملة نور الدين على الموصل

عندما وصل نور الدين الى محيط الموصل ونصب خيامه هناك ، كان فيها أولاد أخوته الخمسة،وكان القيم عليهم ومدبرهم خصي كانوا يسمونه فخر الدين عبد المسيح ، اصله اسير من انطاكية ، وكان يساعد المسيحيين سرا مثلما كان مردخاي يساعد ابناء شعبه ، وكان يبغضه العرب حسدا ، مثلما كان هامان يبغض مردخاي.

أما نور الدين فقد قال : لاجل هذا اتيت الى الموصل ، أما عبد المسيح فكان يسوس المدن بالحكمة والدهاء ، لكن عندما وجد أن العرب بأجمعهم يحبذون نور الدين ويريدونه خرج اليه وأخذ عهدا منه أن لا يأخذ المدينة من ابن اخيه سيف الدين ، فوعده بذلك ، حينئذ دخل نور الدين وصعد الى القلعة ووضع بها شحنة يدبر امورها ، وهو خصي اسمه سعد الدين ، ثم ترك المدينة والبلاد تحت إمرة ابن اخيه • أما الذهب والمقتنى الذي وجده في خزائن اخيه فقد وزعه على جميع ابنائه ، كذلك وزع البلاد على الاخوه.

أما في بلاد ماردين وكل مكان توجد فيه قلعه فقد اتبعها به ، ووضع عليها واليا من قبله.

واثقل نور الدين كثيرا على المسيحيين فزاد عليهم الخراج ، وسن قانونا منعهم بموجبه أن يربطوا احزمه في وسطهم ، أو أن يسدلوا شعر رؤوسهم ليهزأ بهم العرب ، كذلك امر أن يضع اليهود رقعه حمراء على اكتافهم لكي يعرفوا.

وفي هذا الزمان مضى عموري ملك القدس الى القسطنطينية ، وقابل ملك اليونانين فأعطاه ذهبا كثيرا ، وسلاحا ، ولما سمع نور الدين قفل راجعا بسرعة ومعه عاد عبد المسيح كي لا يبقى ويصير

عونا للمسـيحيين ،ولما ارتحـل ناحية حلب نشـب صراع بين المسيحيين الموجودين في اثور وبين مسيحيي ما بين النهرين ، وقـد حدث ذلك في شهر أيار سنة ١٤٨٣ يونانية .

وكما سلف وتكلمنا عن نور الدين ، لقد إسكره المجـد والقـوة والسلطان حتى بدأ يحسبه بعض العرب نبي ، وقد حاول نور الدين بشتى السبل أن يذل المسيحيين لكي يظهر أمام المسلمين انه يحافظ على الشريعة ، ويسهر على تطبيقها ، وقد إسـتطاع أن يملك بـلاد اشور بالاضافة الى سورية ومصر ، فأسكره الغرور ، واعتقـد ان باستطاعته أن يتسـلط على كل المسـكونة ، فحـاول أن يمحـي المسحيين من الوجود ، فقام وكتب رسائل الى الخليفـة ، وارسـل رسلا بهذا الشأن الى الخليفة في بغداد يردد القول الوارد في القران: ان النبي محمد قد تنبأ أن المسلمين سـيملكون خمسـمائة سـنة لا يؤذون المسيحيين بها ، أما الآن وقد كملت هذه السـنين فيجـب ان يباد المسيحيون من كل البلاد الواقعة تحت حكم المسلمين ، وكل من لا يعلن إسلامه يجب أن يقتل ، وقـد كتـب في إحـدى رسـائله الى الخليفة أنه مستعد أن يأتي اليه ، فـارتاب الخليفـة وعرف أن نور الدين يريد من كل ذلك أن يأتي اليه ليخلعـه كمـا خلع خليفـة مصر وجلس مكانه ، اضف الى ذلك فقد كان الخليفة يحتقره لأنه يسـمي نفسه نبي.(٤٣)

في سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) في شهر اب توفي أتابك قطب الدين حاكم الموصل وكل اثور ، وحينئذ جمع أخوه نور الدين حـاكم حلب عسكرا ونهض بسرعة ، وأخذ نصـيبين بغير قتـال ، ففـرح فقهاء العرب لأنه كان يكرمهم جدا لأنه كان مؤمنا متـدينا لا يشرب خمرا ، ويؤدي كل فروض الصـلوات ، وكان المسـلمون يسـمونه « نبيا » ، وقد أحسن الى العرب ، وغضب على المسيحيين ،وأمـر أن يهدم كل بناء جديد في البيع والأديره ، فهدموا أساسا عظيما كان قد بني في بيعه مار يعقوب الكبيرة في نصـيبين التـي كان يتـولاها النساطره من زمان برصوما المهراطق ، ونهبوا أوانيها ، وكان بها

الوف من الكتب ، وقد صنعوا الشيء نفسه في امـاكن كثيره ، وقـد أقام فقيها يبغض المسيحيين من سلالته يدعى ابن عصرون ، ووكله ان يتجول ويهدم كل بنيان جديد يوجد في البيعة التي قد بنيت في أيام أبيه واخيه ، لكن ذلك القاسي الذي أرسله كانوا يرشـونه ، فـكان يحلف على الموضع الجديد أنه بنيان عتيق ، وعندما كان لا يجد مـن يرشيه ويدفع له كان يهدم ويخرب ، الى أن سـمع بهـذا نور الدين فأقاله.

وبعد ذلك حل نور الدين على نصيبين ، ووصل الى جبل سـنجار واحتله بغير حـرب ثـم حـل على الموصـل في كانون الأول سنة ١٤٨٢ يونانية.

وفاة الخليفة المستنجد

وفي تلك السنة توفي الخليفة المستنجد ، وخلفه ابنه المدعو المستضيء ، وقد أوقف الخليفة الجديد اضطهاد المسيحيين لأسباب سوف نوضحها فيما بعد.

قصة جر المياه الى دير القديس برصوما:

كان المسلمون الترك والاكراد وشعوب من أهل السنة اخرى ، تجتمع وتأتي لتزور دير القديس مار برصوما ، في كل وقت ، خصوصا في عيده ، لأنه كان يتفقد كثيرين بنعمته ، وكان يبرئهم ، لذلك كان يتجمع الناس اليه من بعيد ، وكانوا يبقون شهرا ، لذلك كانوا يجلبون الماء على ظهور البغال ، لكن مطران ماردين الذي سكن الدير من قبل ، كان يعرف طريقا قصيرا لجلب الماء ، فكان يأتي به بسهولة ، لذلك أراد هذا المطران أن يصنع خزانا بهذا الموضع المقدس ، ويجر الماء للدير بقنوات ، لكن الرهبان رفضوا وقالوا: لا يمكننا ونحن محاصرين بالأتراك من كل ناحيه أن نقوم بهذا العمل العظيم ، لكن في الحقيقة لم يصدقوا أنه يمكن ان تمر اقنية عبر هذا الجبل الوعر المسالك والمليء بالصخور والأحجار ، وقد قالوا له:إن الأولين كانوا أحكم منا وأعرف بأضعاف ، ولم يقدروا أن يصنعوا هذا ، فكيف نحن إذا؟! وبعد فتره دعيت انا الحقير ميخائيل ، وأقاموا راعيا للدير فدفعني الرب الموضح قوته بالضعفاء أكثر من الأقوياء أن اكتب للمطران ماريوحنا عن ذلك ، فأتى ببشاشة وزار المكان وقدر أنه يمكن ان يدخل الماء للدير ، حينئذ بدأنا العمل بحفر الأرض واستقدام اللوازم ، ثم أتى الشتاء فعاد المطران الى رعيته ، ليعود في نيسان.

وفي هذه الفترة بدا الأخوه الرهبان والشيوخ والصبيان يصرخون

ويولولون بدافع الحسد قائلين: لقد خرب هذ الدير وضاعت امواله ، لكنني صمدت بمعونه سيدنا مار برصوم ، حتى دنا الربيع ، واتى المطران كما وعد ، حينئذ عوض الحسد الذي كنا نلقاه من المحيطين بنا صار معونات ومديحا من المسيحيين والمسلمين ، وعند ذلك تشجع الرهبان وابتدأوا برضاهم يعملون بقوة سيدنا مار برصوم ، فكانوا يتسابقون ليكون كل واحد أولا ، وخصوصا كانت تظهر علامات تشير ان القديس يريد أن يتم هذا العمل ، وقد تراءى القديس لبعض الرهبان والمبتدأين الذين كانوا ضد اكمال هذ العمل ، وهو يحمل عصا ويشير بها قائلا: الى هنا أريد ان اتي بالماء ، وهذا ما صار فعلا لأنهم بينما كانوا يحفرون في الصخور ، وقعت صخره عظيمه جدا فوق رجل ، وكان اسمه برصوم فبدل أن تسحقه عاد واقفا ، وهذه كلنا نظرناها بعيوننا ولمسناها بأيدينا.

واعجوبه أخرى ايضا صارت عند انتهاء العمل ينبغي لي أن اكتبها،عندما اقترب الماء من باب الدير ، وكان الصخر عاليا وقفنا في حيره ، لكن ما لبث أن تراءى القديس لراهب غريب ، وقال له:امض وقل للفعله ولراعي الدير : في المكان الفلاني تجدون مسلكا للماء ، فلما قال هذا لم يصدقه أحد لأن كل الجبل كان في ذلك المكان كله صخر صلب ، فأخذ الراهب وحده يحفر حيث دله القديس ، فوجد الجبل مشقوقا نحو خمسمائه قدم ، فتعجب جميع الناس ، ومجدوا الله ، وقال بعضهم: إن الثقب قديم ، لكن آخرون قالوا:إن الرب شقه من جديد ، فأما أنا أقول : إن كان في الأصل هو مشقوق او أنه انشق الآن فقوة الله الحالة بسيدنا مار برصوم أوضحت لنا أنه هو صنع هذا الفعل وليس نحن ، اما انا الشقي الذي رويت باقي الأمور التي جمعتها في هذا الكتاب لاأحد يظن بي أني كتبت شيئا غير صحيح بل قد تركت أشياء كثيرة لئلا تطول الرواية ، فليعلم القارىء أنه في سنة ١٤٧٤ يونانية في ٢٤ آب كمل هذا العمل •

تمت هذه القصة .

• • • • (٤٤)وبــلادها ، وأخــذ الدار التــي لبيعتنا في مـــاردين واعطاها للعرب ، فاضافوها الى مسجدهم ، وقد سبب هذا كآبة لنا ولكل الشعب ، حينئذ أخذ بعض المكلوفين يجدفون على القـديسيين بدل أن يوبخوا انفسهم •

إن الله سمح بذلك لأجل خطايانا ،وصــار الشــعب يعيرنا نحــن الكهنة ، ويتجاسر على القديسين ، بــل مــن الواجـب ان يقـــول القديسون لنا :إن الشعوب تفتري على اسم الله لاجلكم.

وفي الحقيقة الويل للعبد الذي يحتقر اسم سيده من أجله ، وبعــد ذلك ســقط ذلك الخصي عن حصـــانه وندم ، لكنه لم يســتطع أن يرد الدار لأنه خاف من العرب.

وفي السنة التي مات بها مطران سميساط مــات ايضــا يوســف الذي كان موضوعا بغير شريعــة في تــل أرســانيوس وانعتــق منه المؤمنون الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا يشكون به كثيرا.

وفي هذه السنة ارتسم ابراهيم وكيل ديونسيوس ، وفي تلك السنة حفرنا في دير مـــاربرصوما وبنينا مســـاكن للبــطاركة ولراحـــة القـــاصدين ، وفي تلك الســـنة تجــددت بيعــة ملطية الكبيرة المدعوه الساعي ، وكانت قبتها قد تداعت على مر الزمــن ، وشـــارفت على الســقوط ، وقــد حــاول المؤمنون أن يرممـــوها ، لكن الرعاة لم يسمحوا لهم مدعين الخــوف مــن الحــكام ، لكن الصــحيح كانوا يخافون اذا بدأوا بالاصلاح أن لايستطيعوا أن يكملوه لأسباب تعود اليهم ، وليس للحــكام كمـــا يدعون ، لذلك اهملت الى الآن ، وقــد اخبـــر بعض المؤمنين بــــطريرك انطـــــاكية بتشـــــقق بنيان الكنيسة ، فأرسل الينا اسقف طرسوس وقسيسا مــن عنده وطلبــا مني أن أمضي معهما الى الكنيسة لأجل هــذا الأمــر ، ولما مضــينا وشاهدا الجدران المتــداعية أعطــوني خمســـين دينارا لأبـــدأ العمل ، فأحضرت العمـــال حيث هــدموا القبـة والبـــابين القبلي

والشمالي ، وابتداو بالبنيان ، لكن اقترح اثنان من مساعدي همـا ابو الحسن الارشيد ياقون(٤٥) ، وررومانوس الوكيل المتكني كوجان بهـدم البنيان كله ثـم اعادة بنائه ، وهـكذا كان ، فهـدمت الكنيسة ، ثـم أعيد بناؤهـا رويدا رويدا ، وقـد اشـتركت المدينة كلها ، فكانت التبرعات تأتي من الأرامل والمساكين بمقتنياتهـم سرا الى رومانوس الوكيل .

وكان أول بناء لهـذه الكنيسـة عام ١٤٨٠ يونانية بـرعاية ماراغناطيوس المطران المدعو الساعي .

أما هذا التجديد فقد بدأ عام ١٤٨٣ يونانية وطال ستة سـنوات وتكمل في سنة ١٤٨٨ وانفق عليه الفي دينار .

وفي هذا الزمان سقط اناس من الافـرنج ، كانوا في تلك الأرض مشهورين بالرحمة على الفقراء والمحتاجين ، بتأثير الشـياطين في الهرطقة فكانوا يقولون انه لايمكن للخبز والنبيذ ان يصـيرا جسـد الرب ودمه ، وانه لافضيلة سوى الصدقات والرحمة على المحتاجين ومحبة الناس واتفاقهم مع بعضهم ، وقد تبعهم كثيرون حتى صاروا الوفا وربوات ، وصار لهم أساقفة وولاة ، واتحـد معهـم حـكام البلاد ، ثم زادوا على ناموسهم نوع كريه مـن الدعارة اذ اشـاعوا نساءهم للجميع ، وبذلك لم يعد للرجل امرأة واحـدة ، ولا للمـرأة رجل واحد ، ولماانتشر هذا النفاق قام بـابا رومية فجمـع مجمعـا مسكونيا ، وأمر بايقافه وكانوا يسمون البابا افوسطوموس،وامـا نحن فوضحنا بطرق متعددة ان لامكان لنا في هذا المجمع ولانريد ان نمضي الى تلك الناحية ، وقد كتبنا صحيفة كبيرة واوضحنا بها كيف ومتى اوجد الشيطان مثل هذه الأمور .

الخليفة المستضيء بأمر الله

بعد ان توفي الخليفة المستنجد بالله ، خلفه ابنه المستضيء بـالله وقتل هذا الخليفة الوزير لانه لم يرض به مـكان ابيه ، وكان هـذا الوزير القتيل يكره المسيحيين جدا ، ولذلك اخذ الخليفة الجديد يحب المسيحيين ربما ، بسبب حقـده على الوزير ، فـأخرج رؤسـاءهم المؤمنين أولاد توما من السـجن ، واعاد لهـم بيوتهـم وبيعهـم واعتبارهم ، فأعلموه كيف احتقر والده الخليفة السالف رسـل نور الدين لانه اكتشف حيلتـه ، وانه ارسـل له تـانيبا يعنفـه فيه ويقول : لايجوز لك ان تسمي نفسـك نبيا ، وتضـع نواميس كالاله لأنك لم تفهم كلمة النبي محمد حول السنين ، وان الله لم يأمـر ان تقتل الناس بغير ذنب ، وحينئذ خزي وكف عما كان يقوم به .

وبعـد أن تـولى الخليفـة الجـديد طلب نور الدين الاذن للقدوم ، وزيارة قبر الخليفة المتوفى ، فتيقن الخليفة الجـديد أن نور الدين اختلق قضية المسيحيين ليأتـي بحجتهـا الى بغـداد ، ويملك ولذلك رد جوابه بتهديد شديد ، ومنعه من القدوم الى بغداد .

لذلك علينا أن نفهم أن الرب لم يتركنا من رحمته ، ولم يهملنا في أي زمن من الأزمان ، وهو دائما يحفظنا برحمته ، ويحفظ بيعتـه من كل مبغضينا

في سنة ١٤٨٣ يونانية سمع السلطان قليج ارسلان بـالانشقاق الذي حدث في ملطية بعد ان توفي الأمير الصغير إثر وقوعه عن صهوة جواده ، فاستعد للتوجه اليها ، لكن الناس سارعوا الى قلعـة زياد مستنجدين ، فأتى الخصي سعد الدين ، وهـو رجـل مـدبر حـكيم وشجاع ، فوحد كلمة العساكر وثبت خطبة ابنته سمية على الأمير الصبي ، وصار الجميع كلمة واحدة ، فلما جاء السلطان لم يستطع ان يستولي على المدينة ، لكنه اخذ اثني عشر الفا مـن شـعب البلد

ومضى ، وقد حث نور الدين كافة الاحـرار ليذهبـوا مـع عسـاكره وعسكر الموصل ومـاردين وقلعـة زياد وعسـكر الأرمني وغيرهـم كثيرون حيث تجمعوا عند اسماعيل في سبسطية .

لكن السلطان الذي بقيسارية كان يماطلهم ويعدهم بالغزو ، ثـم يؤخر من وقت الى وقت حتى انقضى وقت الصيف ، ولما نظـروا انه قد قرب الشتاء ، وعرفـوا انه كان يخـادعهم تـوجهوا الى البـاب الرئيسي لقيسارية يريدون الخروج للغزو والسبي ، لكن السلطان لم يطاوعهم ولم يخرج معهم للحرب ، وحينئذ طلبـوا منه ان يعـطيهم مقتنياتهم واموالهم التي كانوا قد غنموها في بلاد ملطية ، وكانوا في حالة من الغضب والهياج ، ثم اخذوا يجمعون اسلحتهم وثيابهم .

أما الشرذمة التي كانت مع صلاح الدين فقـد وصـلوا الى مصر ولبسوا السواد وبقوا في حالة من الحزن .

وفي هذه الأيام لما علم الوالي التركي المتسلط على قلعة الروم ان حاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله عصى وتمرد والتجـأ الى الأفـرنج فوعده فرينز ان يدعمه ويساعده للبقاء في القلعة ، ولما جعـل نفسـه عبدا للأفرنج عاداه الأتراك ، وصاروا ضده ، لكن الأفرنج اخلفـوا عهودهم ومـواثيقهم معـه ، وداسـوا على اليمين الذي اقسـموه له ، فأتوا من القـدس ومـن كل سـاحل البحـر : كونت طرابلس ، ورافان حاكم قيليقية ووالي فلظ ، ومضوا مـع فـرينز وكانوا جمعا كبيرا جدا ، وهـاجموا حـارم وحـاصروها أربعـة أشهر ، وأخذوا يضايقون البر كله والمدينة ، وقد أوقعـوا خسـائر كبيرة ، وقتلوا عددا كبيرا من الخلق،لقد حلفوا بـالصليب والانجيل كذبا ، وظنوا ان الغلبة تكون بقوة البشر ، ثـم اخـذوا يهـاجمون القلعة كرا وفرا ، فضعف التـرك الذين كانوا يدافعـون عن القلعـة وأرسلوا يستنجدون بحـاكم حلب ، وأعطـوه عهـدا أن يسـلموه القلعة ، اذا رد الفرنجة عنهـم ، فـأعطى حـاكم حلب عشرين الف دينار الى فرينز حيث قفل راجعا الى انطاكية .

...(٤٦)وقد جمع البلاد التي اخذها من اخيه شاهنشاه والذي كان قد اخذها من ذي النون ، وكذلك اخذ أولاد اخيه الذين كانوا في السجن اما هو فـأرجع شـعب ملطية وأعطـى لأخيه كل سـنة عشرة آلاف دينار ، لكنه لم يعط مكانا لأحد قطعا .

اما عن اخباره مع أولاد اخيه فقد كان معهم متوحشا الى ابعـد الحدود ، فذبح واحدا منهم وشـواه بـالنار ، ووضـعه على طبـق وارسله لأبيه وأرسل معه خبزا وأرفقه برسالة تقول :إن كنت تـريد ثلاثة اخرين مثل هذا فأنا على استعداد أن ارسلهم فورا لك ، فلمـا راى الترك هذا المنظر هلعوا وارتاعوا وتصالحوا ، وعاد كل واحـد الى بلده لأنه كان قد دنا فصل الشتاء ، وكانت بـلادهم خـالية مـن العساكر .

ولما انيع خبر مـوت نور الدين بين العـرب والتـرك ثـاروا على بعضهم ، ووقعت بينهم حروب شرسة اقتتلوا فيها كثيرا ، وسـقط منهم الوف ، وقد خاف المسيحيون ان يفنوا بعضهم بعضـا ، وقـد خلت القرى من الرجال والطـرقات مـن المارة في سـورية ومـابين النهرين وأشور .

وفي تشرين رجع الأمـــراء والعســاكر مــن كبـــدوكية الى بلادهم ، كذلك تعافى نور الدين من مرضه وظهر أمام الناس فعرفت الشعوب انه حي ، فتبددوا وتفرقوا ، ثم اصطلحوا ، وخلال هـذه المعارك التي صارت بين العرب والترك سبي من كيسوم نحـو مـن الف شخص ، وقد اشتراهم أهل ملطية وتاجروا بهم وربحوا أموالا طائلة .

في سنة ١٤٨٤ يونانية قتل اسماعيل حاكم كبـدوكية ، فـالجوع الذي طال امره في كل البلاد ، والشتاء الصـعب الذي أتلف كل شيء ضايق الناس كثيرا ، فتجمهروا وطلبوا منه قوتا بعد أن علمـوا أنه يختزن الحنطة ويمنعها عنهم ، ثم اعطاهم قليلا وطردهم بل واخـذ يهزأ بهم ، وحين تضايقوا من الجوع حـاولوا ان يقتلوه ويأخـذوا

الحنطة ليقتاتوا بها مع اولادهم ، فتحالفوا مع بعضهم ، وهجموا عليه وقتلوه هو وامراته أخت السلطان مع خمسمائة من انسبائه ، ورموهم على الثلج دون أن يدفنوهم ، ثم تسلطوا على كل الطعام الذي خزنه واكلوه ، أما أخبار مصرعه فلم تعلم حتى شهر شباط لأن الطرق كانت مقطوعة بسبب تراكم الثلوج ، واخيرا انتشر الخبر في كل مناطق حكمه ، لكن الثلج الكثيف شل حركة الناس ، فلم يستطع ان يتحرك اللصوص او قطاع الطرق ، إنما سرعان ماندم قاتلوه واتفقوا ان يقيموا مكانه احد انسبائه ، فاتصلوا بعمه ذي النون ، الذي كان السلطان قد اطلق سراحه من قيسارية ، فسكن في دمشق ، والآن لما استدعي للسلطة اهتم به نور الدين ، أما ذي النون فقد اتى سيرا على الأقدام لأن الثلج كان قد غطى الطرقات ، وعندما وصل امام ديرنا خرج أهل الديروكسحوا الثلج أمامه ورافقوه مسيرة خمسة ايام ، الى أن وصل سبسطية ، وعندما تملك هناك احضروا له القتلة فقتلهم ، لكن بعد هذا ظهر نورالدين بعد ان ظن الجميع انه قد مات وخرج لملاقاة السلطان ، وكذلك الأمير قلج ارسلان في كيسوم ، وهو خال السلطان ، ولما عرف ان السلطان مغتاظ منه ترك وعاد الى كيسوم من خوفه ، ومضى الى نور الدين ، ولما ملك ذو النون في كبدوكية زحف ضده السلطان ، وحينئذ جمع نور الدين ، وجاء فأخذ كيسوم وقلاعها ومرعش ، ودخل الى بلاد جيحان ، ثم ترك السلطان سبسطية وأسرع ليحارب نور الدين ، وقد نصب القائدان خيامهما وجها لوجه في بلاد جيحان ، لكنهما كانا خائفان لأنهما كانا متعادلين بالقوة تقريبا ، واخيرا انتشر الجوع في كلا المعسكرين ، وفني منهم عدد كبير ، ولهذا السبب توسط المصلحون فيما بينهما فوافقا على الصلح ، فرد نور الدين كيسوم وكل المواضع التي اخذها من السلطان ، وبالمقابل تسمح السلطان أن يملك ذي النون على كبدوكية ، وأن يطيع نور الدين ، واصطلحا ، ورجع كل واحد إلى بلاده ٠

وأباد الثلج الذي انهمر بغزارة في هذا الزمان الناس والبهائم

والطيور ، وقد قرر الجميع ان هذه الضربة الثلجية التي اتت في شهر ايلول وتشرين واتلفت الغلال ، كانت غضبا من الله لأنهــا اتــت في غير أوانهــا ، وقــد التجــأ الناس الى التنجيم والضرب بــالفال ليكتشفوا سر ماجرى ، فقد لف الظلام الجو ، وصار نور الشــمس يظهر كنور القمر ، أمـــا الثلج فــكان يتســـاقط بغـــزارة عظيمة ، فامتلأت الجبال والبقاع حتى أن الاقــوياء مــن الشــباب كانوا يذهبون من قرية لقرية بصعوبة عظيمــة ، بــل ومــن بيت الى بيت ، وهكذا امتلأت الأسواق والمدن والقرى بالثلج ، وكان الناس داخل بيوتهم وكأنهم في قبور ، وقد تجمــدت الأنهــار والعيون وكل الينابيع حتى أن الناس والبهائم والطيور كانوا يموتون من العطش كما يموتون من الجوع .

واي انسان يستطيع ان يصف الشدة التي حلت بهذا الزمان على كل مايعيش على الأرض من الحيوانات والطيور التي كانت تلتجيء الى البيوت ؟ أمــا الثيران والحمير والخيل فقــد مــاتت داخـــل زرائبها ، بينما نفقت الأغنام والماعز تحت الثلج ، وانتن الجو مــن رائحة الجثث ، وهذه الكارثة لم تقتصر على بلاد الشمال فقــط بــل صار هذا في الهند ايضا .

وقد بقي الثلج يتساقط أربعة عشر شهرا وحيث لم يكن معتــادا ان يأتي قط ، أما القبائل العربية التي لم تتعود الســكنى في البيوت فقد غمر الثلج خيامها فبادوا ولم يبق من ينقل الأخبار من قبيلة الى اخرى ، وقد بقي الثلج يطمر كل شيء حتى شهر نيســان وبصعــوبة كبيرة جدا عرف الناس الذين كانوا يسلكون في الطــرقات فــطمرهم الثلج ، وبقوا كل هذه الفترة تحته،أما الملوك والرؤساء فقد التجــأوا الى المنجمين الذين أخذوا يكذبون ويقولون ان هذه الشــدة ســوف تنتهي قريبا ولن تعود ، لأن الملوك هكذا يريدون ، ومثل هذا الكلام صدقه عدد كبير من الناس ولكن الله قد فضح كذبهم فصار في السنة التي بعدها ماكان قد صار نفســه ، وامتــد مــن آذار الى نصـــف حزيران ، فاعترف حينئذ الطالبون الذين يقراون في عدد الكواكب ان

كل مايشاء الرب يصنع ، وقد كتبنا ذلك ليتعظ الناس ويعتصموا بالايمان .

وفي هذا الزمان سبى العرب بيعة الأربعين شهيدا في ماردين ، وقد سمح الله تعالى ان نعتبر بهذا ، لكن رجعت البيعة بعناية الله فيما بعد .

موت نور الدين

في عام ١٤٨٥ يونانية كان سلطان نور الدين يمتد من اشور وبين النهرين الى سورية ومصر ، وكانت كل هذه البلاد وكل امراء الامارات التي بها تخضع لأمره كالعبيد،فانتفخ غطرسة وجبروتا عندما خضع له ايضا الذين في كبدوكية وقيليقية،فتأهب في هذه السنة ليحتل المملكتين دفعه واحدة ، مملكة الافرنج في القدس وانطاكية ، ومملكة الاتراك في بلاد حران ، وكان رسله يجوبون كل مكان ساعين في تجنيد الرجال لهذه الحرب حيث كانوا يجمعونهم في دمشق بعد ان يأتوا بهم من داخل بلاد العرب ، وبلاد اشور ومن بين النهرين وارمينية وكبدوكية وسورية وقيليقية ، وكانوا جموعا تفوق العدد والتصور، وعم الخوف والفزع والهلع كل مكان ، ولاسيما بين المؤمنين المظلومين ، لكن الرب المتسلط وحده على ممالك الأرض حكم فجأة على نور الدين وانتهت حياته وطموحاته وافكاره ، فعم الفرح ليس بين المسيحيين فقط بل وبين الأمراء الذين كانوا متضايقين جدا ، فقد منعهم أن يشربوا الخمر في معسكره ، وكذلك منع الغناء والرقص ، وكان يغلب على معسكره الطابع الديني ، فكان دائما يستمع الى القرآن والحديث ، لأنه كان يعتبر نفسه نبيا،وكان يدعي ان الله يتكلم معه مثلما كان يتكلم مع موسى .

اما العرب فقد اعتبروا ان مايدعي به هذيانا وخروجا فاضحا على الدين ، غير ان بعض المرائين والمنتفعين كانوا يقولون له · لقد رايناك في مكة او في المسجد الفلاني ، وكان يتقبل كلامهم بفرح وسرور

وملك نور الدين ثمانية وعشرين سنة ، وملك بعده ابنه الصالح في حلب ودمشق

الملك الصالح اسماعيل

بعد موت نور الدين ملك ابنه الملك الصـالح فقـام الملك عمـوري ودخل الى بلاد دمشق وسـباها ودخـل على بـانياس ، وخـاف المسلمون كثيرا خصـوصا انهـم كانوا يسـتعدون ليطـردوا الافرنج ، واذا بالافرنج اتوا ليملكوا على بلادهم ، لذلك أرسل أهل دمشق رسلا لهذا الملك طالبين ان يؤدوا له الجزية،كما كانوا فيما سلف،لكن الملك رفض ذلك ولم يقبل ان يعقد معهم صلحا قـط ، بـل تهيأ ليشن الحرب عليهم لكنه مالبث ان مرض ، ولما علم ان اجله قد دنا اسرع واخذ الذهب من الدمشقيين وعقد معهم صلحا،ورجـع الى عكا ومات هناك في أول تموز سـنة ١٤٨٦ يونانية،اي بعـد أربعين يوما من وفاة نور الدين .

وقد أحدث موته حزنا للمسيحيين الذين كانوا يأملون ان يعيشوا أفضل بعد موت نور الدين ، فخاب املهم بـالموت الأليم لهـذا الملك الذي كان في بداية الشباب .

ملك عموري اثنتي عشرة سنة ، وقد خلفـه ابنه المسـمى بلدوين باسم عمه المتوفى وكان عمره خمس عشرة سنة،ولما ملك ثبت الصلح الذي كان قد عقده والده مع ابن نور الدين .

في صيف هذه السـنة اي ١٤٨٦ يونانية لما سـمع قلج ارسـلان بوفاة نور الدين هاجم بلاد الدانشمدنيين فخافوا كثيرا وتـم فيهـم قول ارميا النبي :« ملعون هو كل من اتكل على الانسان وصنع ابن اللحم ساعده،ويبعد من الرب اتكاله فيكون مثل الجـذر الذي ليس له ماء»، واستطاع السلطان ان يتسلط عليهم ويقتلهم واخذ سـبسطية ونوقيسارية وقومانا وباقي مدن كبدوكية وكل قلاعها ، وقـد عظـم السلطان قلج ارسلان هذا فهـرب كل الأمـراء مـن وجهـه

واختبأوا ، أمـــا رئيســـهم ذو النون فقــد التجــأ الى القسطنطينية ، واســتنجد بملك اليونان ، فلم يقبله ، وانتهـت عند ذلك زعامة بني دانشمند التي ابتدأت مع بداية خروج الأتراك لهـذه البلاد ، والاستيلاء عليها من اليونانيين سنة ١٤٦٢ يونانية ، وقد ملكوا مائة واثنتين وعشرين سنة قام خـلالها سـتة رؤسـاء مـن سلالتهم .

وبهذا الزمان انتهت زعامة بني دانشمند في كبدوكية .

وبهذا الصيف ابتدأ ينبت العشب وحسنت الغلات بعـد أن صـار جوع عظيم لمدة أربع سنين في كل من سورية وفلسطين ، وفي أثـور وارمينية وبلاد فارس ، ووصل الى سجستان ، وايضا وصـل الى الهند الكبيرة ، فالآن قد بدل الرب القادر على الكل ، فصـار شـبع لاسيما في أرض مصر حيث كثرت الغلال وخصوصا الحنطة فصـار حملان من الجمال بدينار واحد .

بعد موت نور الدين خرج ابن اخيه سيف الدين من الموصل،واخذ نصيبين،ونقض النواميس التي وضعها عمه ، وكسر الحجـر التـي كان قد كتب عليهـا النواميس ، وكانت مـوضوعة بـالمسجد وأمـر بشرب الخمر علانية ، وأتى اليه أمراء ماردين وحصن كيفا ، كذلك مضى الى حران وملك عليها وأخذ سروج وقالينيقوس ، وخضـع له ابن عمه حاكم حلب ودمشق ثم رجع الى الموصل .

وفي تلك السنة ملك صلاح الدين الذي كان يملك بمصر ايضا على بلاد العرب الداخلية وعلى أماكن من ممالك النوبة ، ونجح نجـاحا عظيما .

وفي هذه السنة قام الأرمن اصـحاب جبـل سـاسون الذي كانوا يملكونه منذ عدة اجيال بالتخلي عن قلاعه الى شاه ارمـن صـاحب اخلاط،وذلك نتيجة لما تعرضوا له من ضغوط ومضـايقات مـن أمير ميافارقين. وفي هذه السنة انتزع الأتراك من الفرس مدينة أني.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية في ١٥ كانون الأول قتل في قلعة ماردين الطواشي امين الدين مدبر البلاد ، وقد قتله الأمير قطب الدين ، واخذ راسه بيده ، ودخل على أبيه الشيخ وقال · لقد اراد ان يقتلني فقتلته ، فأما الشيخ أبوه فقد أصيب بصدمة شلت لسانه فلم يجب .

وفي تلك السنة عصت على مليح حاكم قيليقية عساكره لمعاملته السيئة النجسة ، وحاولوا قتله ، ولما أحس خرج من المعسكر ليلا وهرب الى احدى القلاع،لكن حراس تلك القلعة كانوا متعاطفين مع العساكر فأمسكوه وقطعوه عضوا عضوا ، وأعطوه للكلاب فأكلته ثم احضروا روفين ابن أخيه اسطفان من طرسوس ، وكان مختفيا هناك خوفا من عمه وملكوه عليهم ، حينئذ قتل الذين قتلوا عمه لأنهم رموه للكلاب .

وفي هذه السنة صار في بغداد تمرد على الخليفة المستضيء من عبده قطب الدين ، فجمع عسكرا وحاصره في داره طالبا منه ان ينصبه سلطانا،فلما تضايق الخليفة صعد الى سطح داره وأخذ يصرخ باعلى صوته باكيا متضرعا مستنهضا همة الشعب الموجود داخل المدينة ليجتمعوا وينجوه من أيادي هذا المتمرد ، فاجتمع اليه الاف ، وبعد قتال عظيم هرب العبد ومعه ثلاثون الف فارس ، وتوجهوا الى البرية لينجوا فساروا خمسة أيام لم يجدوا فيها ماء ، فتضايقوا من العطش،فأرسلوا رسلا الى حاكم الموصل الذي وعد ان يصلح الأمر بينهم وبين الخليفة ، ولما توجهوا لكي يمضوا للموصل ادركتهم ريح حارة ومحرقة ، فيبسوا وصارت الناس والبهائم كالخشب الأسود حتى ان الحيوانات عافت ان تاكلهم لأن رؤوسهم متصلبة كالحجارة ، ثم استطاع ان يصل الى الموصل مائة رجل منهم ، لكن الأطباء لم يستطيعوا ان ينقذوا احدا منهم فماتوا جميعا وصاروا عبرة لمن اعتبر .

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية ، يوم الاحد ١٥ شباط ، قتل امير

ملطية أخيه الذي كان قد ملك أولا ، ثـم تـرك الملك والمدينة وهـرب بحالة من الذل ، وبقي متشردا خمس سنوات يعيش عيشة بـذخ وفسق وفجور ، فأمسكه نور الدين وحبسه لكنه ما لبـث أن هـرب وأتى انطاكية وتبع الافرنج ، لكنه لم يجد هناك راحة فعاد وهرب من هناك ورجع إلى الترك ، وجاء إلى عند السلطان فأعطاه هـرقلية ، وكان يريد ملطيه ، وعندما أصر على ذلك عاد فـأخذ هـرقلية منه ، فتوجه إلى الأتراك الذين في ناحية الشرق فأمسكه نور الدين وزجـه بالسجن في مدينة البيرة على شاطىء الفرات ، وعاش هناك في ضيق حيث كان يقتات من الصدقة ، وقد تجاسر رهبان دير مـار بـرصوم وارسلوا له صدقة مع رسل من الرهبـان انفسـهم،لانه عندمـا كان حاكما كان يحب الدير ويكرمه ، وقد استفاد الدير مـن هـذا كمـا سنوضح القول فيما بعد .

ولما مات نور الدين خرج من السجن وسمع ان امراة أخيه تركت ملطية بسبب بغضها لبعلها ، ورجعت إلى قلعـة زياد عند أبـويها ، فتوجه إلى هناك حيث شجعه هؤلاء كثيرا ، فاخذ سرا مـاخف حمله وتـوجه إلى دير مـار بـرصوم ونذر له نذورا كبيره إذا رجـع وملك ملطيه ، واقسم ايضا أن يعتق الدير من الخراج ، وبعـد ذلك تـوجه إلى المدينة بزي مسكين شحاذ وقت المساء ، ولم يعلم بـه إلا رجلين كانا معه فقط ، وقد أخذاه إلى أحد الأتراك وكان يحبه منذ زمـن ، واختفى في بيته مدة يومين ، ثم خرج ليلة الأحد المذكورة مـع رفيقيه مخاطرين بحياتهم ، ووصـلوا إلى الدار ودخلوا البسـتان دون أن يعلم بهم الحـراس ، فـوجدوا هناك سـلما مـطروحا على الأرض فوضعوه على الحائط ودخلوا البيت الذي كان ينام فيه ذلك الشـقي مع المراة العجوز مربيته ، وفجـأة اسـتيقظ الصـبي والعجـوز خائفين ، مذعورين يرتجفان فبـادره بضربـة على رأسـه قتله على الفور ، واخذ مفاتيح أبواب المدينة والقلعة ، وحمـل رأس أخيه بيده واخذ يجول على قواد العسكر ، وكان قد مضى أولا عند الذين يعرف انهم مؤيدوه ، وكان الناس يستيقظون في نومهم ويرون رأس الأمير المقطوع فيسلمون فورا له ، ثم اخذ مائة رجـل تقـريبا وصـعد عند

انبلاج الفجر إلى القلعة ونصب أميرا جديدا ، وقد خاف الجميع ، أما المؤمنون فقد التزموا بيوتهم ، وأما الأتراك فقد امتطوا خيولهم وامتشقوا سيوفهم وتجمهروا أمام باب القلعة وأخذوا يخاصمون معتقدين أن أميرهم لم يقتل ، لكن لما رمي رأسه من أعلى السور وتدحرج بينهم تأكدوا انه هو ، حلفوا كلهم لمحمد هذا ، وكذلك حلف هو لهم أيضا ، ولما تنصب وملك الغى الخراج عن دير سيدنا مار برصوم كما وعد ، لكن الرهبان قالوا له إنهم سيعطوه باختيارهم كل سنة ثلاثمائة ديناره على أن يلغي مازاده عليهم الأمير غازي لانه قبل الأمير غازي لم يكن يثقل على الدير، وكان الأمير غازي قد وضع على الرهبان سبع مائة دينار كل سنة،لكن الأمير عاد فألغى الخراج عن الدير وذلك وفاءا لنذره،أما الرهبان فلم يرضوا واصروا ان يدفعوا الخراج وذلك حتى لايستعدوا المسلمين عليهم،فما كان من الأمير إلا أن زار دير مار برصوم ووهبه مالا .

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية يوم الاحد الثاني للفصح في ١١ نيسان عند الصباح،وبعد قراءة الأنجيل،أي عند انتهاء الخدمة تقريبا أظلمت الشمس كليا وصار ليل،وظهرت الكواكب في السماء وبدا القمر بقرب الشمس وكان مشهدا محزنا ومفزعا لكثير من الناس فأجهشوا بالبكاء،أما الغنم والبقر والخيل فقد تشابكت مع بعضها من الخوف، وبقي الظلام ساعتين ثم أضاء،وبعد ١٥ يوما في نيسان ليلة الاثنين مساءا انكسف القمر في الموضع الذي به أظلمت به الشمس .

المجد لعارف الكل .

وفي هذا الربيع قل المطر وصار حر شديد فيبس الزرع وباقي الحبوب،وصار عطش عام وقد فرغت قرى كثيرة كليا من السكان لاسيما في القدس وفلسطين وسورية العميقة،وبلاد نصيبين،وفي طور عبدين وفي بلاد الموصل،ولم يحصدوا الزرع أبدا وقد فقد الماء تماما حتى لم يعد يشرب الناس والبهائم .

« قدوم صلاح الدين إلى دمشق »

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية خرج صلاح الذي كان يملك في مصر واتى إلى دمشق لأنه سمع أن حاكم الموصل قد أخذ من ابن نور الدين حران والرهاءفاتى بحجة ابن سيده،وبهذه الحيلة تملك على دمشق ونواحيها ، أما الصبي ابن نور الدين وأمه ومربيته الذين كانوا في حلب فقد خافوا منه،لكنه أرسل رسلا يقول لهم بأنه ماهو إلا عبد وقد جاء ليخدم الصبي ويصير له مربيا ويحارب أعداءه ويطردهم،فلم يصدقوه ولم يفتحوا له الأبواب،ولما نظر ذلك كشف عن نيته الحقيقية فأخذ حمص وحماه حربا وأحضر من مصر ذهبا كثيرا وصار يلقيه كالتراب ويجمع العساكر ، واخرج الفرنجة الذين كانوا محبوسين في دمشق منذ بداية حكم نور الدين وصنع صلحا مع الأفرنج .

اما سيف الدين حاكم الموصل فقد أرسل عساكره ليطردوه،فعندما وصلوا أخذوا يهزؤون به ويحقروه ويدعونه الكلب المكشر على سيده ، أما هو فكان متواضعا جدا فأرسل لهم رسلا يقول لايجوز لنا ونحن بيت واحد أن ننقسم،لكنهم شتموا رسله وهجموا عليه مسرعين لئلا يهرب ويفلت من أيديهم ، لكن الله الذي يكره المتكبرين والمرتفعين اضعفهم ورمى في نفوسهم الخوف والهلع فهربت العساكر على كثرتها ، فأمسك أكثرهم واخذ فيلهم وجمالهم وسلاحهم ، وهنا وقف موقفا يستحق الذكر إذ لما رأهم أنهم بدأوا يهربون صرخ بصوت عال وطرح قبعته أرضا وقال :لاتقتلوا أحدا فهم أخوتنا ، واخيرا حتى الذين كانوا أسرى أعطاهم زادا وخيلا وأرسلهم بسلام .

وقد كان لسلوكه هذا وقع حسن في نفوس المسلمين .

اما الذين في حلب فإنهم لما نظروا انتصاره خافوا جدا وأرسلوا

هدايا لحاكم انطاكية ليكون مساعدا لهم ، وفتحت الأبواب ليبـاع في حلب الملوك الذين كانوا مسجونين فيها منذ زمـن طـويل ، وقـطع رجاؤهم من العودة ، فبيع كونت طرابلس بثمانين ألف،وجوسلين بن جوسلين بخمسين ألف،ورنجر فرينز بمائة وعشرين ألف،وكانوا قـد أرسلوا عدة مرات ذهبا من القسطنطينية لأجله فكان يدفع ثمنا لغيره ويبقى هو ،أما الآن فقد خرج مع كل الباقيين .

عاد سيف الدين حاكم الموصل بعد أن انكسرت عسـاكره،فجمـع عسكرا اضعافا مضاعفة،ومضى معه حاكم ماردين وحـاكم حصـن كيفا وكان مجموع الجيش ستين الفا،وكان بإمرة صلاح الدين إثني عشر الفا فقط،فأرسل إليه قائلا : لاتـطلب حـربا لأني إن انكسرت فأنا عبد لا أتعير من أولاد ساداتي ، أما أنت فإنك ملك إذا انكسرت فسيكون هذا عار عظيم عليك ، لكنه استخف به وشتمه،ولما اشتعلت الحرب رشا صلاح الدين رؤساء العساكر الذين كانوا يقودون جيش سيف الدين بمال كثير وذهب وافر فـانسحبوا وتـركوه وحيدا على جمل ، فرجع إلى الموصل يجر أذيال الخزي والعـار ، أمـا صـلاح الدين فقد مضى إلى منبج فسلمه إياها العـرب الذين بهـا واعتقـل الأمير الذي بها ، وكان هذا فيما مضى حاكما للرها واسـمه قـطب الدين ينال بن حسان ، أخذوا مقتناه ظلما ، لكن بعد خمسة أشـهر أخرجه صلاح الدين فمضى إلى الموصل ، وبعد هذا أتى إلى طـاعته الأمراء الذين في تل باشر وعين تاب وباقي بلاد سـورية ، ثـم مضى نحـو أعزاز فهناك هجم عليه المدعوين بـالحشيشية وضربـوه بالسكاكين لكنه لم يمت ، وعندئذ قتل مهاجميه وأرسل عساكر سبوا بلادهم ، وبعد ذلك أخذ أعزاز بالحرب وحل على حلب ايضا فـالتجأ أهل حلب الى الافرنج فأرسل اولئك الى رنجر الذي كان قد خرج من الأسر فانتصر وقتل عددا كبيرا من العساكر ، ثم دخل الافـرنج الى بلاد دمشق ايضا وقتلوا هناك شعبا كثيرا وسبوا ، ثم أرسلوا ايضا عساكر الى مصر وسبوا تلك البلاد ، ولما تضايق صـلاح الدين مـن الافرنج رد أعزاز الى حاكم حلب وصنع معهم صـلحا ، ورجـع الى مصر مسرعا.

« حرب بين الأمير منويل وقلج ارسلان »

لما سمع منويل ملك اليونانيين أن ابن اخته قتل على باب نوقيسارية هجم غاضبا على الأتراك يريد الانتقام ، لكن السلطان أمر عساكره أن لايحاربوا ، بل أن يمضوا مجموعات حول معسكره من اليمين واليسار والخلف ، وينهبوا القرى وكل أنواع القوت للبشر والبهائم ، وكذلك أن يسمموا مجاري المياه والعيون والآبار بجثث الكلاب الميتة والحمير وبكل أنواع النتانة والنجاسة .

وامر ايضا الذين في القلاع أن لايحاربوا بل أن يقاوموا قدر الامكان وإذا ضعفوا فليحرقوا البلدة كلها وينتقلوا ، اما السلطان فقد صعد إلى جبل عال ووعر وكان ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، حينئذ دخل الملك بقوات إلى عمق بلاد الأتراك مسيرة خمسة ايام ، ولما راه التركمان سكان تلك البلاد خرجوا كالذباب الذي ليس له عدد على ملك اليونانيين ، واخذوا يحرقون ويخربون ويقتلون كل من وجدوه خارج معسكر اليونانيين ، ولما وصل اليونانيون إلى قرب قونية ، وصارت تفصلها عنهم مسافة يوم ، بينما كان يفصلهم عن المكان الذي يختبيء فيه السلطان مسيرة ثلاث ساعات دخلوا بين الجبال في موضع ضيق ليس فيه ماء ، وكان برفقتهم خمسة الاف عربة تحمل المؤن والسلاح وخشب المنجنيقات ، وذهب البيع والصلبان ومقتنيات أخرى متنوعة ، فانتظر التركمان حتى ابتعد الملك وعساكره عن قافلة العربات هذه ، فهاجمها نحو خمسين الف رجل فسبوا ونهبوا كل المعسكر ، فلما سمع الملك وعسكره أن متاعهم ومؤنهم وأسلحتهم قد سبيت ، كذلك هاجمت القوة التي كانوا ينتظرونها خافوا وارتبكوا ، ولما علم الأتراك بخوفهم أخذوا يدحرجون عليهم الصخور الكبيرة من رؤوس الجبال ، وقد دهست وهشمت هذه الصخور الناس والحيوانات ، وكان الجنود يتدافعون للالتجاء في الخنادق وهم مزعورين من ملاقاة الترك ، وقد وصل

الأتراك إلى مسافة قريبة منهم ، حتى أنهم استطاعوا أن يرموهم بالسهام ليلا ، حينئذ وفي منتصف الليل أرسل الملك إلى السلطان طالبا الصلح ، أما السلطان فكان بدوره خائفا ، لذلك قبل سريعا ، وكانت الرسل تأتي وتروح بالمصابيح طوال الليل ، وأعطى الملك للسلطان المدن الثلاث التي بناها ، وفي الصباح نادوا بالصلح ، فتحلق الترك حول السلطان وأخذوا يصيحون كافر ، كافر من قبل الصلح،واضطر الملك أن يصطحب معه ثلاثة أمراء من أمراء السلطان حتى لايتجاسر عليه التركمان ، أما الترك فلم يلتزموا إذ عندما بدأ اليونانيون يرحلون كان الترك يهاجمونهم من كل جانب ويقتلون اليونانيين ، وحينئذ قال الملك للأمراء الذين عنده:لماذا يحدث هذا بعد توكيد الاتفاق بالايمان؟ فأجابوه: هؤلاء ليسوا تحت أمرنا ، عند ذلك صنع الملك كمائن للترك ، فقتل منهم عشرين ألفا ، لكن لما دخل الملك القسطنطينية أرسل ذهبا كثيرا إلى السلطان ، وأخذ الصليب الذي يحتوي على قطعة من الصليب الذي صلب عليه المسيح ، وبعد ذلك أرسل السلطان إلى الخليفة في بغداد وإلى كل الأمراء وإلى سلطان خراسان عددا كبيرا جدا من العبيد والسلاح ورؤوس اليونانيين وشعورهم،محمولة على رؤوس الرماح، أو مربوطة في أذناب الخيل ، وهكذا كانت نهاية اليونانيين ومن لايستطيع أن يعترف أن كل هذا يصير بأمر الله وأحكامه غير المعروفة؟!

« موت نجم الدين حاكم ماردين »

في عام ١٤٨٧ في ٢٧ تموز مات نجم الدين حاكم ماردين ، وذلك بعدما ملك اثنان وعشرين عاما ، وكان عهده عهد خير ورفاهيه لشعبه عامة وللمسيحيين خاصة ، كذلك كانت البيع والاديرة .

ملك بعده قطب الدين فاضطهد أعمامه وضايقهم كثيرا ، مما دفع حاكم الموصل وحاكم حصن كيفا أن يتوسط لهم حيث صاروا بعدها تحت طاعته كما كانوا ايام أبيه ، ثم اتى اثناءها حاكم حاني وحاكم دارا ودخلا قلعة ماردين وسجدا له وتصالحوا ، وبعد هذا أذيع خبر انه مات وان الخراب عم بلاده ، لكن تبين انه كان مريضا فشفي وعاد كما كان ، ثم تحارب مع العرب وقتل منهم الوفا واخذ من جمالهم إثني عشر الفا من الجمال ، وهرب الباقي ثم تصالحوا واصطلحت البلاد .

وفي هذا الزمان خرج ملك اليونانيين للصيد فضربه خنزير بري وذاع خبر انه مات ، فقام السلطان وسبى بلاده ، لكن الملك الذي تعافى اكتشف ان السلطان لم يحفظ الجميل الذي كان قد أسلفه إياه فغضب جدا ، وزاد نار غضبه الأمراء أولاد دانشمند الذين هربوا من أمام السلطان ، الذي سارع فأخذ بلادهم ، فالتجأوا إلى القسطنطينية إلى الملك ، فأخذ السلطان بلادهم لقمة سائغة ، لذلك جهز الملك جيشا غطى وجه الأرض ، وسير امامه أولاد دانشمند ، وعندما وصل هذا الجيش إلى حدود الأتراك أخذ يضايق السلطان ليعيد اولاد دانشمند إلى بلادهم التي كان السلطان قد أخذها منهم ، وكذلك لكي يتنازل لأخيه ،لكن السلطان رفض ، وعندئذ افتتن الجانبان ، وقام الملك ببناء مدينتين كانتا مخربتين منذ زمن بعيد ،ووضع بهما عسكرا أخذ يهاجم الأتراك ، ثم أرسل الملك جيشا فنهب وسبى شعب التركمان وقتل منهم الوفا،وحينئذ توجه

التـركمان الي ناحية الشـمال ودخلوا إلى بـلاد اليونانيين دون أن يعلموا اين هم فسـبوا مـائة الف مـن الناس ، وقتلوا الرجـال والنساء ، اما الاولاد فقد باعوهم إلى التجار ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا إلى فارس ، وحينئذ هاجم الملك السلطان فهرب مـن وجهـه واخذ ينتقل من جبل إلى جبل ،.والملك يطـارده ، وكان في الحقيقـة لايريد أن يتحارب مع الملك .

ثم أرسل الملك مع الأمير ذي النون ثلاثين الفا من العساكر ليملك نوقيسارية،فحاصروها وعندما أرادوا أن يقتحموها احتال الأتـراك الذين في داخلها ، فكتبوا رسـائل على لسـان المسـيحيين الذين في داخلها إلى رئيس عسكر اليونانيين يقـولون فيهـا : إن الأمير ذي النون الذي وضعت ثقتـك فيه مـاهو إلا إنسـان مـكار ، ويريد خداعكم ، وهو متفق مع الأتراك أبناء جلدته وعشـيرته ، ويسـتعد لاهلاككم ،ووجهوا الرسالة بواسطة سهم إلى معسـكر اليونانيين ، فارتعد اليونانيون وخافوا ، واخذوا يهـربون وحينئذ خـرج عليهـم الأتراك من ضمن المدينة وهم يصرخـون : لقـد مـات منويل الملك ، وبدأوا القتل فيهم ، فقتل رئيس العسكر ابن اخت الملك ، وهرب ذو النون إلى الشمال فأمسك به اليونانيون وأرسلوه إلى الملك .

وبهذا الزمان أمر الرب فعبرت أيام الجفاف ، وعاد المطر فجرت الينابيع ، والعيون عادت متفجرة ثانية ، ونجا البشر والبهائم مـن العطش ، لكن الارض لم تنتج غلالها

وفي عام ١٤٨٧ غضب الله فأجدبت الارض وعم الجـوع وصـار المساكين يتوسلون في كل مكان ، وصـار بـالقدس ودمشـق وحلب وبريه المليحة كيل الحنطة بثلاثـةذهبيات ، وبعد مـدة فقـد لم يعـد يوجد ، وفي هذه الفترة أتت قوافل العرب بجمالها الكثيرة ليأخـذوا حنطة ، وصار يباع الذهب الاحمر في بـلاد سـورية بنصـف ثمنه ، وارتفع سعر الحنطة في هذه البلاد حتى صار المد بدينار .

وفي هذا الزمان تراءى في السـماء في ناحية المغـرب شيء يشـبه

نصف القمر ، وقد صعد إلى ناحية المشرق ، وكلما كان يصــعد كان يكبر حتى صار بحجم القمر ثلاث مــرات ، ثــم اســتقر في وســط السماء ، وانفجر إلى ثلاث قطع وسقط ولم يعد يظهــر أبــدا ، ولما انكسر ملك اليونانيين عرف كل واحد أن هذا كان إشعارا بذلك .

« فرار صلاح الدين عند عسقلان »

في تشرين ١٤٨٩ يونانية خرج صلاح الدين من مصر وأخذ معه ثلاثة وثلاثين ألفا من الفرسان ماعدا المشاة وغيرهم واثنين وخمسين ألف جمل يحملون السلاح والذخيره لبلاد القدس ، وقد قتل بيده أول افرنجي أسروه ، وغسل ثيابه بدمه فارتاع الافرنج ، وكان ملكهم مصاب بمرض الجذام ، وكان كل واحد يخاف أن يقترب منه ، لكن الله الذي يظهر قوته في الضعفاء نفخ الشجاعة في قلب الملك المريض فخرج نحو عساكره ، فاجتمعوا حوله وحينئذ ترجل عن صهوة جواده ، وسجد أمام الصليب وأجهش بالبكاء وأخذ يتضرع ، فهاجت حمية الجنود واقسموا على الصليب أن يحاربوا حتى النهاية ، وإذا كسرهم الاتراك فكل من يهرب قبل أن يموت يعتبر كافرا ، أما الأتراك فقد استهانوا بهم بعد أن علموا بانهيار حالتهم المعنوية ، لكن الافرنج لما رأوا الاتراك بأعدادهم الهائلة يغطون التلال ويتموجون كالبحر نزلوا من مراكبهم ، وجذوا شعورهم وتعاهدوا مع بعضهم ، وصلوا الصلاة الأخيرة ، وبدأوا الحرب ، وفي ذلك الوقت أرسل الرب ريحا قوية كانت تجرف التراب من ناحية الافرنج وتلقيه على الأتراك ، وحينئذ علم الافرنج أن الله قد قبل توبتهم ففرحوا وتشجعوا ، أما الأتراك فقد هربوا من ساحة المعركة ، فلحق بهم الافرنج وكانوا يقتلونهم ويذبحونهم طوال النهار ، وبعد هذا نهبوا أمتعتهم وأخذوا جمالهم ، وأخيرا تبددت عساكر الترك وتاهت وبقيت خمسة أيام على هذه الحالة ، وعسكر الافرنج يلاحقونهم بعد أن تحولوا إلى شراذم انهكها الجوع والعطش والاعياء فقتلوهم ، وجمعوا أسلحتهم وثيابهم ، أما صلاح الدين فقد هرب إلى مصر مع ثلة من حرسه يجرون أذيال الخيبة والحزن ، وأما الافرنج فقد وصلوا إلى انطاكية فرحين يصيحون في الشوارع مبتهجين بهذا الانتصار ، وقد كنت في انطاكية وقت ذاك .

وفي هذه الايام عندما علم والي قلعة حارم التركي أن حـاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله تمرد عليه ، فـالتجأ إلى الافـرنج فـاقسم له فرينز أن يساعده ليبقى في قلعته ، ولما عقد هذه المعاهدة مع الافرنج صـار حينئذ عدوا للأتـراك ، لكن الافـرنج سرعان مـا تخلوا عن عهودهم وداسوا قسمهم ، فأتوا من القدس ومن ساحل البحر وأتى معهم والي طرابلس وروفين حاكم قيليقية وكونت فلنط (٤٧) مضى مع فرينز حشد كبير وحلوا على حارم أربعة أشهر كانوا يحاربون فيها بشراسة ووحشية ، وقد قتلوا العـديد مـن الشـعب الأعزل ، وقـد انتصروا على الرغم من أنهم تجـاوزوا يمينهـم ، وحلفـوا كذبـا بالصليب والانجيل ، لكن الأتراك الذين كانوا يدافعون عن القلعة لما أحسوا بالتعب أرسلوا إلى حلب وأخذوا قسما من حاكمها وسلموه القلعة فأعطى لفرينز عشرين ألف دينار ، فرجع إلى انطاكية خـائبا حزينا كسير القلب لأنه لم يستطع أن يحقق مايريد .

« احتلال قلج أرسلان ملطية »

بعدما صنع السلطان قلج ارسلان صلحا مع منويل ملك اليونانيين ، حل على ملطيه وكان بها أمير من أسرة دانشمند هو الذي قتل أخاه ، وكان هذا مع جنوده أشرار المسلك ، وقد خرج اكثر المسيحيين منها هربا من الجوع الذي كان منتشرا في كل مكان وخصوصا فيها ، اما الذين بقوا في المدينة فكانوا يعيشون بحالة من الشقاء ، وكان قسم منهم يرقد في أعماق السجون ، والآخر في المعتقلات يتعرض للتعذيب والجلد ، فلما حاصرها قلج أرسلان خاف أمير المدينة أن يقتله الشعب ويسلموا المدينة ، لكثرة الشقاء الذي يعيشون فيه ، فأرسل سرا إلى السلطان وطلب الامان لحياته طالبا مغادرة المدينة بالذهاب إلى قلعة زياد ، فدخل السلطان ملطيه يوم الاربعاء ٢٥ تشرين الأول ١٤٨٩ يونانية وقد عم الفرج والراحة الجميع بعد أن كان قد حاصرها أربعة أشهر كان فيها الجنود يقيمون في بيوت انتزعوا حجارتها من المقابر ، وبنوها بسرعة من اللبن إتقاء لبرد الشتاء ، وهكذا أراح الرب الا له هذا الشعب المظلوم .

وفي هذا الزمان أدب الرب أيضا الأرض فمنع المطر لأجل آثامنا فيبست الغلال ، وحدث جوع في سورية وفلسطين واثور ، وبين النهرين وأرمينيه وصار كل كيل من الحنطة بدينار إن وجدت .

أما في دمشق فقد فقدت الحنطة وكذلك باقي الحبوب ومات بسبب الجوع أعداد كبيرة وأعداد أخرى هربت الى بلاد بعيدة جدا وكان المسيحيون في كل مكان يصلون ويطلبون من الله أن ينزل المطر وقد تصدق عدد كبير من الملوك الذين عندهم حنطة على المحتاجين .

كما أن همفري بطريرك الافرنج في انطاكية وهب حنطة وحبوبا اخرى بكثرة وفي كل مكان ، ثم أشفق الباري تعالى فنزل المطر في

- ٢٢٠٠ -

نصف فصل الربيع ، وارتوت الارض وابتهـج الجـو وصـار البشر يسبحون الله ، وصار خير ورفاه في كل البلاد .

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الافرنج

في تشرين الأول اجمتـع مـع بـدوين الملك جميع الافـرنج على شاطىء الاردن في الموضع المدعو مخـاضه يعقـوب وابتـدأوا يبنون مدينة يستطيعون بها أن يحاصروا دمشق ، كذلك خرج صلاح الدين من مصر وأتى إلى دمشـق لانه تمـرد عليه الأمير شـحنه مـدينة بعبلك ـ هيلوبولوس أي مدينة الشـمس ـ ولما حـاصرها وأخـذ يهاجمها بدأ أميرها يراسل الافرنج ويرسل لهم الهدايا متعهـدا انه سوف يطيعهم ، ولما لم يتجاوب معه الافرنج وخاب أمله منهم رجـع الى صلاح الدين وأخذ عهدا منه وسلمه المدينة ، حينئذ دخل صـلاح الدين الى أرض فلسـطين لكن عادوا فجمعـوا قـواتهم ، وعندهـا انسحب صلاح الدين الى دمشق فما كان من الافـرنج الا ان سـبوا البلاد مسافة مسيرة يوم ورجعوا ، لكن صلاح الدين مالبث ان ارتد عليهم وهاجمهم وأمسك منهم مائة من المقاتلين وكذلك مقدم الرهبان الداوية ، وقد تألم المسيحيون جدا أما صلاح الدين فقد قوي ورجـع مسرعا إلى الموضع الذي بنوه حديثا وحاصره وكان به خمسمائة من الرهبان الداوية ، لكن بعضهم رمى نفسه بالنار واحترق وبعضـهم الاخر القى نفسه في الاردن ومات غرقـا خـوفا ان يقعـوا في أيدي العرب ، اما الذين وقعوا بيد العرب فقد قتلوا جميعهم بالسيف .

في هذا الزمان خرج من جزيرة العرب حشد كبير من الناس هربا من الجوع ، ولما وصلوا إلى شاطىء الفـرات أمـرهم الأمـراء أن يرحلوا لأنه ستكون مجاعة بسببهم لانه لايوجد طعام يكفـي لهـم ، وإذا بقوا فسوف تحل المجاعة ، لكنهم رفضوا ، فهاجمهم الاتـراك وقتلوا منهم ثلاثين ألفاوعندئذ عبر ماتبقى منهـم الفـرات ، ولما دخلت جمالهم ونسـاؤهم ورجـالهم وأولادهـم الماء جـرفهم التيار فماتوا ثم عادوا وطفوا على وجه المياه كالقش .

في ايار عام ١٤٨٩ يونانية كنت في أنطـاكية فنزل مـطر شـديد

وتكونت سيول بداخل المدينة فجرفت البيوت والدور ، فاختنق العديد من البشر والبهائم ووصل السيل الى ابواب المدينة وكان غزيرا لدرجة لم نستطع معها ان نفتح الابواب ، وقد دب الزعر والهلع في قلوب الناس •

وفي السنة التالية ، وكنت في انطاكية ايضا ، كان الشتاء لطيفا مثل الربيع ، لكن في شهر اذار سقطت نار في المدينة واحرقت بيوتا ودورا كثيرة قرب بيعه مار بطرس الكبيرة ، وقد حفظ الله تعالى الناس ، ولم يتضرر احد .

في تلك السنة وكنت في انطاكية ارسل بابا روميه رسلا للبطريرك الانطاكي والمقدسي للافرنج يستدعيه لاجل بدعة ظهرت هناك فأرسل الينا بطريرك انطاكية اسقف طرسوس وقسيسين من قبله ، وطلب مني ان امضي معه ، اما انا فقد بحثت عن السبب فوجدت ان مجموعة من الافرنج في تلك الارض كانوا مشهورين بتقواهم وصلاحهم فأضلهم الشيطان فقالوا : لايمكن للخبز والخمر ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وان التطبيق العملي للدين هو التصدق على المحتاجين والرحمه بالمساكين ، ومحبة البشر واتفاقهم مع بعضهم ، وصار لهم اساقفه وقضاة ، واتحدت معهم بعض البلاد ، واباحوا نساءهم،عندئذ دعا افسومولوس بابا روميه الى مجمع مسكوني،اما نحن فقد رفضنا ان نذهب معهم لكننا كتبنا رأينا في مثل هذه البدع ، وذكرنا امثله لبدع مثلها انتشرت فيما مضى ، وقد حرمتها كنيستنا •(٤٨)

وبهذا الزمان اقمنا بنعمة الله في ماردين المطران مار اثنا سيوس وارتحلنا الى انطاكية وهناك ارتسم ديونسيوس لمدينة حلب .

وبهذا الزمان تحدث بعضهم الى السلطان الذي ملك ملطية ان رهباننا واهل الدير انهم ساعدوا الامير الذي كان فيها من قبل ، ولاجل ذلك اعفاهم من الخراج ، فقام عندئذ ذلك السلطان ووضع عليهم خمسمائة دينار ، وضعهم من مقابلته ، ثم طرد من ملطية ، ومن كل بلادها الترك الذين تعاونوا مع اسرة الدانشمند .

وبهذا الزمان حدثت بيني وبين مـــار يوحنا المفـــريان مشـــاجرة بسبب الحصـــيصيين في بـــلاد تـــكريت ، اولئك الذين كانوا منذ ايام قوريا قوس البطريرك (٤٩) وقـــد انشـــقوا عن البيعـــة لاجـــل لفظه : « نكسر خبز السماوي » والان ارادوا ان يعـــودوا الينا ولما جاؤوا الي وارادوا ان ارسم لهم اسقفا ، قلت لهم : ان المفريان هو الذي يرسم لانه رئيس اساقفة تكريت ، وينبغي الا تكونوا منشـــقين عن اخوتنا الذين هناك ، فأماهم فـــاعتبروا ان هـــذا اهـــانة لهـــم ، فطلبوا منا ان نرسم أسقفا وهم يقبلون بعـــد ذلك ان يكونوا تحـــت طاعة المفريان ، فاستمهلتهم لاتشاور مع المفريان وذلك حتى لايقـــع شقاق بيننا ، فكتبت للمفريان ، لكنه لما عرف ان الحصـــيصيين قـــد أتوا الي اعتقد انه اضاع كرامته ، فأخذ ينادي بين رعاياه بحـــرمان الحصيصيين وحرمان كل من يقبلهم ، ولما سمعنا اندهشنا واخـــذنا الامر بطول الاناة ، وارسلنا له رسلا ورهبانا ليشرحوا له الوضـــع ، وانه كم عانى الاباء القديسين امثال قريا قوس وديو نوسيوس ، وكذلك اقرار مجمع خلقيدونيه بقبول عودتهم والاذن لهم بقول تلك اللفظة ، لكنه رفض ان يستقبل الرسل ، وكان يلوح بالعصيان ، لكن بعـــد ان عاد الرسل وبخه بعض الحكماء على فعلته ، فأتى الينا نادما ، امـــا انا فرفضت مواجهته وقلت : ان هذا الامر يجـــب بحثـــه في المجمـــع فرجع الى رعيته ثم جمعنا مجمعا في دير مار برصوم ، واتـــى هـــو واساقفته فاوضحنا له كيف وكم تجاوز من القوانين ، عند ذلك طلب الغفران بالطاعة ووعد بالناموسية ، فصلينا عليه ، وصـــار الصـــلح والسلام .

وفي تشرين الاول سنة ١٤٩٠ ارتحلنا من انطاكية ، وقابلنا الملك الصبي بلدوين في عكا ، وعرضنا عليه كتاب ابيه ، فلما رآه معنا فرح جداً واكرمنا ثم زاد واعطانا كتابا منه مع عهد ، وحينئذ وصلنا الى القدس ، وهناك اتى الينا الرسل في مصر الذين ارسلهم مار مرقص بطريرك الاسكندرية ، واعلمونا عن الانشقاق الذي وقع بهذا الزمان بين اخوتنا القبط ، وكان رجل اعمى يدعى ايضا مرقص ، ومشهور بابن قنبر ، وكان حاذقا جداً بالكلام ، فبدأ يســـحر الناس بـــكلامه

المعسول كقول الرسول الالهي القائل : كما ان الشيطان يتجاسر ان يتشبه بملاك النور فهكذا أيضا خدامه يتشبهون بخدام الرب .

لذلك حرمنا ابن قنبر هذا كما حرمه مار مرقص لنفـــاقه ، وكتبنا صحيفه مستفيضة للشعب ، بعــد هــذا تبــع الخلقيدونيين واخيراً انجرف وارتمى في بحر الشرور .

مرض منويل ملك اليونانيين وموته

في ســـنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) مــــرض منويل ملك اليونانيين ، وشعر بدنو اجله فـالتجأ الى احـد الاديرة ، وتـرهب ونصب ابنه الكس ، وكان صبيا لايتجاوز الثانية عشر ربيعـا مـن عمره والبسه التاج ، كذلك صنع زوجته ، اي ام الصـبي راهبـه ، ووكلها على خزائن المملكة واقام اثني عشر شيخا من النبلاء ليدبروا امور العسكر ، وكان منويل قد حكم سبعا وثلاثين سنة ، ونجـح كثيراً في حكمه ، لكن بعذ مـوته عم الفســاد المملكة لان ام الصـبي الراهبه ارتكبت الزنا مع واحد من الاثني عشر الذين كان قد نصبهم الملك للاشراف على الجيش فقام الاحـد عشر الاخـرون وارادوا ان يخلعوها ويخلعـوا ابنهـا ، ويقيمـوا ابنة منويل الملك مـــن المرأة الاولى ، ويبايعوا زوجها ملكا ، لكنهم لم يوفقوا في هـذا المسـعى ، فلقد انكشف امرهم ، فخافوا والتجـاؤا الى البيعـة الكبيرة ، ثـم حدثت مواجهة دامية في وسط المدينة كانت بمثابة حرب حقيقية دامت سبعة ايام ، وقد صوب جماعة الملك المنجنيقـات نحـو كنيسـة أيا صوفيا حيث كان يعتصم المتمردون ، وحينئذ توسط ثيودوسـيوس الذي ضمن سلامةالذين التجأوا إلى البيعة بعد اخذ عهداً مـن الملك وامه ، فخـرج الجميع الى السراي لكن الملك وامـه داسـا يمينهـا والعهد الذي قطعاه للبطريرك وامرا باعتقال الزعمـاء الاحـد عشر وقلع عيونهم وقتل اتباعهم,وحينئذ اندلع القتال مـن جـديد ، فقـام بطركهم وحرم المدينة كلها ، واوقف الصلوات في البيع ، وابطل قرع النواقيس في البيع والاديرة من اول شـباط الى تشرين الاول حتـى انه رفض ان يصلي على موتاهم ، ثـم اعتصـم في دير قـريب مـن المدينة .

هجوم السلطان قلج ارسلان على مدينة رعبان

في هذه السنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) ارسل السلطان قلج ارسلان جيشا الى رعبان ، لكن اميرها التابع لصلاح الدين المصري ذهب الى دمشق ، واحضر منها جيشا ، ولما رأته عساكر كبدوكية هربت وعادت الى مدينتها ، صحيح ان الفريقين اتراك لكن الذين من حلب كانوا اكثر خبره في القتال وفنون الحرب نتيجة صراعهم وكرهم وفرهم الدائم مع جيوش الافرنج•

وفي تلك السنة ارتسم لقلعة زياد يشوع الكاتب في طور عبدين ، وقد تجاوز منذ البداية الناموس وترك الكرسي الذي ارتسم عليه ليستولي على طور عبدين ، فالتجأ الى سعد الدين الوالي الذي سارع فكتب لي بأن انقل اسحق مطران طور عبدين ، اي ايونيس ، الى قلعة زياد وان اعطي طور عبدين ليشوع الكاتب ، فأجبت الحاكم قائلا : ليس لنا في ناموسنا ان ننقل الاسقف في مكان الى اخر ، ولذلك لايمكنني ان اصنع هذه قط ، اما يشوع فقد حرمته .

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) قدمت من انطاكية الى دير مار برصوم ، ووضعنا الاساسات لنبني هيكلا بالدير ، فقام ضدنا تادروس ربما بدافع الحسد ، وبقي اثني عشرة سنة يعرقلنا ، ويضع المصاعب في طريقنا ، وسوف اكتب ماحدث معي بالتفصيل والله يشهد انني صادق في روايتي وكذلك يشهد معي عدد كبير من اخوتنا الاساقفة والرهبان والشمامسة والعلمانيين ان ما اكتبه حق ، هذا على الرغم من انني لن استطيع ان اتكلم عن كل افعالهم الرديئة التي فعلوها ، بل سنروي امثلة منها ليتضح كيف بدات الحكاية وكيف انتهت .

ففي هذا الزمان اتفق خمسة اتفاقا شيطانيا ليشقوا بيعة الله ،

فقد حاول اسقف ارزون(٥٠) ان ينتقل الى ميافارقين بطريقة غير قانونية معارضة ، فامتلا بغضا وحقدا علي ، كذلك يشوع الكاتب الذي ارتسم لقلعة زياد احتمى بالحاكم لينتقل الى طور عبدين ، ولما انحرم ناموسيا اتحد مع شمعون سرا ، ومضى كلاهما الى آمد إلى ابراهيم الذي كان اسقفا هناك ، وكان محروما لاجل جهالته ، وجرف هؤلاء الثلاثة معهم مطران سيبارك المظلوم ، الذي كان قد حرم ايضا لانه داس القانون وأخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا

واخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا الحرم الذي وضع على كل منهم ، واذاعوا ان من لايقوم ضدي يكون غريبا عن رئاسته ، وليس له سلطان ان يصنع شرطونية وان تجاسر وصنع فتكون باطلة من الروح القدس ، ثم اتى اليهم ابن الشيطان وراس الطغمة ، بلاير الثاني ، وكان هذا قد طرد من ملطية بلده ، وانفضح في الرها ، ونفي من القدس ، ثم تجول كثيرا وكل مكان حل فيه كان يطرد منه ، واخيرا التجا إليّ فسامحته لظني استطيع ان اصلحه واحوله الى انسان صالح ، لانه متعلم درس في الكتب ، وقد ابقيته سبع سنوات في قلايتي متحملا غشه وخداعه ، فقد كان جالسا على باب قلايتي مثل ايشالوم يتصيد كل واحد يختلف معي ويصفه الى جانبه ، وهكذا سرق هؤلاء الأربعة واقنعهم ان يصنعوه بطركا ، مقابل ان يعطي لكل واحد منهم رعيتين بدل الرعية الواحدة ، ثم تجمعوا وذهبوا الى السلطان حاكم امد ، ووعدوه بذهب كثير اذا ساعدهم بتنصيب بطريرك ، يكون مقره في مدينته ، وبالتالي يقوم ويجمع من كل مكان ويعطيه . لكن ذاك لم يكن سهلا عليه أن يهدم نواميس ، ورتب بيع المسيحيين لاجل الذهب ، بل وكذلك نواميس المسلمين ، واعطاه كتابا للمدعو ابن وهبون من ابي القاسم ابن نيسان ، ولما اخذ ابراهيم اسقف امد الكتاب خلع ثياب الكهنوت ، ولبس كسوة الترك ، وركب فرسا كالجندي لكي لايعرف ، ومضى الى ابن وهبون ، لكن الرب انزل غضبه على ذلك الحاكم الذي في آمد في تلك الفترة ، فمات فجاة ، اما هم فلكونهم قد

دفعوا الذهب تقدموا الى ابن الذي مات ، وزادوا له الذهب واظهروا له كتاب ابيه ، فاذن لهم ان يصنعوا مايريدون ، لكن هذا الخبر سرعان ما انكشف في آمد ، فهاج الشعب وماج ليس في المدينة ، وانما في كل البلاد واجتمع القسس والرهبان والشعب وضجوا على الحاكم قائلين : اننا لن ندع ان يهدم ايماننا ، فقال السلطان للشعب ، اذا اتى بطريركم الينا سنطرد هذا ، فقال الشعب : سنحضر بطريركنا ، وحينئذ امر ان لايرسم ذاك وللحال اتى الي قسس آمد ورهبانها والعلمانيين المكرمين ، وخرجت معهم من دير مار برصوم ، لكن اولئك الاشقياء احتلوا ليلا البيعة واغلقوا الابواب ورسموا تادروس المنافق بطريركا ، في الصباح غيروا اشكالهم وغطوا رؤوسهم وخرجوا من باب المدينة وتوجهوا الى الموصل الى عند المفريان ، فلما سمعت بما صار حزنت على البيعة التي لم يحدث ما حدث فيها الان منذ اجيال ، وقررت ان اعتزل من الخدمة التي ربما لااكون اهلا لها ، فلما عرف المجتمعون بذلك اجهشوا بالبكاء ، وقالوا : ان تركت منصبك فسوف يهدم كل شيء ، فخاف قلبي فقررت ان ادعو الى مجمع وذهبت معهم الى آمد ، فابتهج الحاكم جدا وفرح ووعدنا خيرا ، فاعتز كل شعب المدينة والبلاد والتحموا واتوا من كل مكان اساقفة وقسس ورهبان وعلمانيون ، حيث توجهنا الى دير مار حنينا،(٥١) لكن اولئك الاشقياء مضوا الى الموصل لكي يظهر ان المفريان متفق معهم ، وخصوصا بعد المشاجرة التي صارت بيني وبينه قبل مدة ، فلما نظروا ان المفريان لم يقبلهم بل اتى الينا مع مطارنة كل ابرشياته ، ثم ان شعب المشرق قد تبرأ منهم اخذوا ينتقلون من مكان الى مكان محتارين ، ولما وصلوا الى مدينة دارا امسكهم زعماء المؤمنين واخبرونا ، وكنا في دير مار حنينا ، حينئذ خرج المفريان واساقفة وجملة رهبان واتوابهم موثوقين ، حينئذ اقروا امام المجمع باخطائهم وحرموا افعالهم كتابة .

لكن لما ارتحلنا جميعا لنمضي الى دير مار برصوم ونعقد هناك مجمعا مسكونيا ، عاد فدخل الشيطان بهم وهم في الطريق فكفر

تادروس بالامانة وداس القسم الذي كتبه بيديه على نفسه ، واعطى ذهبا لاناس ذهبوا واتوا بالاكراد ليلا فاخذهم الاكراد واخفوهم ريثما نرحل ، ولما عرف ذلك المطارنة والمفريان حنقوا علي قائلين : لماذا لم تدعنا نربطه ، ثم خرج كل واحد الى ناحية ، فوجدوه متخفيا ، فامسكوا به ثانية وساقناه معنا الى دير مار برصوم ، فاجتمع المطارنة ومعهم شعب كثير ، واقر الجميع ان يخلع لباسه الكهنوتي ، وهكذا صار ، وتمت باقي الامور ، ورجع كل واحد من الاساقفة الى رعيته ، وهكذا حرم المجمع المنافق ابن وهبون الذي مكث عندنا في الدير واعلن ندمه وطلب الغفران ، اما انا فقبلته كما امرني الانجيل والبسته اسكيم الرهبنية على رجاء التوبة ، واعطيته حاجة من المتاع وقلاية لسكناه ، وقلت ان تبت فان المجمع الذي حرمك سوف يعيد لك اعتبارك ، لكن عليك ان تعلم انك تحت التجربة الان ، وعلى الشرط تركته في دير مار برصوم ، ورجعت الى دير مار حنينا ، لكنه كعادته كفر بوعده وتبع الاشرار مثله فهرب ليلا من اعلى سور الدير بواسطة الحبال ، وذهب الى دمشق مع رفاقه وكتبوا كتابا باللغة العربية وقدموه الى صلاح الدين ملك مصر ، ووعدوه ان يعطوه ذهبا ان وجه كتابا يقبل بموجبه هذا بطريرك في كل الاراضي التابعة له ، كذلك طلب ان يصدر السلطان صلاح الدين امرا بقتلي بعد تلفيق كثير من التهم ضدي ، فلما قرىء كتابهم امام السلطان صلاح الدين ، استفسر السلطان عنهم فحضر مسيحيون مؤمنون كانوا يعملون كتابا عند صلاح الدين ، فشرحوا له الحقيقة ، فما كان منه الا ان طرد المنافق ابن وهبون ، فمضى الى القدس ، واخذ يخرب على اخوتنا الذين تحت حكم الافرنج هناك وخاصة على البار اثنا سيوس مطران القدس ، ولاسيما بعد ان عرض بطريرك الافرنجة الذي هناك عليه أن يعطيه الف دينار ، ويأخذ دير مريم المجدلية الذي كان لنا في القدس ، ورفض فكان أن ابتلينا مع البيعة بكثير من التعب والمشقة ، وخاصة رعيتنا التي كانت تسكن القدس ، وقد بقي هذا الظلم والاضطهاد علينا وعلى بيعتنا حتى دخل العرب الى القدس.

وبعد ذلك توجه هــذا الى الشرق لانه ســمع بمــوت مــار يوحنا المفريان فزرع سمومه هناك في الموصل وماردين ، وكان يدخل على الأمراء الترك فيعدهم بالذهب ، وبذلك اعتــاد الحــكام الاتــراك ان يطلبوا الذهب من كل رعية ، فقد اوقعنا هذا واوقع اخوتنا جميعا في المشرق في حرج عظيم ، لكن هذا الفاسد هرب من هناك كما هرب من فلسطين واتــى الى قلعــة الروم الى عند جــاثليق الارمــن ، ووعده كعادته الشريرة اذا ساعدة واقامه بطريركا فانه يجعل كل الشــعب يطيعه ، وكان قد قال الكلام نفســه لبــطريرك الافــرنج في القــدس وتوصل بهذه المواعيد الكاذبة الى ان يصير مساعده الى ان اكتشف امره فطرده ، وهكذا صنع بجاثليق الارمــن ، فقــد صــدقه هــذا في البداية ، لذلك جابهني بكل الاسلحة التي عنده ، بــل ارســل ذهبــا كثيراً ، وهدايا عظيمة الى الامراء الاتراك في سورية وبين النهرين ، واخذ يوغر صدورهم ، وكان يهدف من وراء ذلك ان يحــرمني ويقيم مكاني ابن وهبون بطركا على شرذمة اليعاقبة لكي تصير تحت إمرة الجاثليق ، كما كان قد وعده،وكذلك حاول كثيرا مع الحكام العــرب ، لكن الله كان ضده ، ثم خرج الجاثليق من قلعــة الروم بــرفقه ابــن وهبون ، ومضيا الى قيليقية الى ليون الإرمني حــاكم تلك البــلاد ، وهناك طلب من الحاكم ان ينصب ابن وهبون بطريركا في بلاده ، ثم اعطى ابن وهبون كتابا من الحاكم ومــن الجــاثليق ، فخــرج هــذا يتجول في البلاد ، وكان كل راهــب اوقســيس او أســقف لايقبله او يرفع رئاسته في صلاته يأخذ ماله ويطــرده مــن بيعتــه ، وقــد اذاق المسيحيين عذابا يفوق العذاب والاضطهاد الذي شــنه الوثنيون ولم ينج منه حتى رؤساء الكهنة ، والكهنة والرهبــان الموجــودين في تلك الناحية ، وعندما وصلت الامورالى ذلك المدى ، جمعت مجمعا عامــا وطلبت منهم اعفائي من الخــدمة ، لكن المطــارنة كلهــم رفضــوا ، واتفقوا ان يذهبوا الى هذا الجاثليق الظالم ويضعوا حدا لتجاوزاته علي ، ثم سيذهبون الى ليون الحاكم ويضعونه بصورة الوضع كله ، ولما رأيت اجماعهم علي قلت : ياأخوتي دعونا نصلي قبل ان نلتجــأ الى السلطان لانه مكتوب : « ملعون من يتكل على انســان ويجعــل

ابن اللحم ذراعه » بل هلموا نلتجأ الى الله وقديسيه وخاصة مـــار برصوم ، وابتدأنا بالصلاة والطلبات ، وقد شارك معنا كل من حضر عيد القديس مار برصوم ، ثم طفنا بيمين القـــديس ، وقلنا : ياربنا يسوع المسيح بصلاة مار بـــرصوم اشـــفق على بيعتـــك ، واجعـــل عجائبك بمن هو سبب خراب وانشقاق هذه البيعة ، ان كنا نحـــن ام غيرنا ، وفي ذلك اليوم عينه ، وماكانت صـــلاتنا تنتهـــي في دير مـــار برصوم حتى سمعنا ان الجاثليق قد سقط عن حصـــانه في قيليقية ، وانكسرت اصبع رجله فقطعوها ، ثم مات بعد عدة أيام ، ثم إن اثني عشر أسقفا أرمنيا كانوا اتفقوا مع ابن وهبـــون ، كل منهـــم ضرب بنوع من الضربات ، ومات ، وسبعة رهبـــان سريان كانوا يتبعـــون ابن وهبون احترقوا بالصاعقة ، وبعد أربعين يوما تـــاودورس بـــن وهبون سقط عليه غضب الله ومات ، وقد صار هذا عبرة عظيمة لكل واحد ،وخصوصا للشعب الذي في تلك البلاد ،حتى أن ليون الحـــاكم خاف أيضا وأرسل نذرا وهدايا لسيدنا مار بـــرصوم ، ولي ايضـــا وصار صـــلح جميل في بيعـــة الله ، وفي كل مـــكان ، ولاأدعي لنفسي شيئا . وانما الله هو الذي صنع كل شيء باسم مار برصوم ، وكذلك لأجل محبته لشعبه المستقيم .

أخبار البيعة في هذا الزمان

الغضب الذي عم علينا بسبب خطايانا لم ينج منه دير مارمتي في كورة الموصل ونينوى ، وذلك عندما توفي الأتابك قطب الدين ، وتملك ابنه سيف الدين سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) بعد هذا تحمس نور الدين حاكم حلب وانتصب قائلا يجب ان اتولى تدبير ابناء اخي ، فغادر حلب واخذ يخضع البلاد ، ثم حاصر الدير ، ولما علم الأكراد بمحاصرته للدير فرحوا واخذوا يعيروا المسيحيين ، ثم قرروا أن يخربوا الدير ، وأخذوا يترصدونه في الليل ليسرقوه ، لكن الرهبان كانوا متأهبين لذلك ، وقد كسروا سلالمهم مرات كثيرة ، وذبحوا وقتلوا منهم ، حينئذ اجتمعوا وأتوا غاضبين على الدير وهاجموه لكن لما سمع أهل قرى بلاد نينوى اجتمعوا عاجلا وصعدوا واسعفوا الرهبان ، وكسروا الأكراد ، فاحتال الأكراد وصنعوا صلحا كذبا مع الرهبان وأعطوهم ثلاثين دينارا عربون محبة ، وقد صدق الرهبان صلح الأكراد الكاذب ، فصرفوا أهل القرى الى بيوتهم لكن الأكراد عادوا فاجتمعوا وأتوا ، وكانت هناك صخرة عظيمة في رأس الجبل فزعزعوها ودحرجوها بعنف فضربت السور واحدثت فيه ثغرة ، فاجتمع الرهبان واحضروا كلسا وحجرا ليسدوا الموضع ففاجاهم الأكراد وأخذوا يرمونهم ، ثم استلوا سيوفهم وهجموا بصرخة واحدة على الرهبان ، فقتلوا بعضهم وهرب بعضهم الآخر الى قلعة الدير العالية فنجوا ، وقد قتل في هذه الموقعة متى الراهب ودنحا الحبيس ، وكان الأكراد الف وخمسمائة ، ولما استولوا على الدير حملوا على خيلهم كل مانهبوه لأن الدير كان مخزنا يحفظ فيه كل مقتنى البلد ، وبعد ان مضى الأكراد أخذ الرهبان الكتب وكل ماوجد في القلعة العالية ، ونزلوا الى الموصل وبقي الدير خاليا من السكان والخدمة ، وكان منظرا حزينا كئيبا يعيرنا ، واما أهل البلاد فقد استأجروا جنودا

ليحرسوا الدير ، لكي لايهدم الأعداء البنيان ، وكانوا يدفعون لهم في كل شهر ثلاثين دينارا .

اما حكام الموصل فحين سمعوا بما فعل الأكراد بالدير أرسلوا عسكرا ، وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وحينئذ خرج الأكراد وخربوا في بلاد النساطرة خمسة قرى ، وقتلوا سكانها وسبوا البهائم والمقتنيات وأحرقوا البيوت

في هذه السنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) أسلم حسن الراهب والقسيس ابن كميب في ماردين بسبب الخلاف الذي صار بينه وبين اخوته الرهبان ، وقد اخذ العرب ديرهم المدعو دير الابكار في جبل ماردين وصنعوه مسجدا للأكراد .

وفي تلك السنة ابتدأ المطران ديونسيوس المعلم بتجديد بيعة والدة الرب في امد ، واقام بها شماسا اسمه ابراهيم كان وكيله ، وقد جمع هذا صبيانا كي يتعلموا القراءة ، وكان هو يتعلم من المطران ويعلم المتعلمين ، وهو ايضا جدد أرض البيعة بتبرعات جمعها منه ومن باقي المؤمنين .

وفي تلك السنة بنينا البيعة التي في دير ابي غالب في بلاد البيرة نواحي جرجر .

وفي تلك السنة جمعنا مجمعا في دير مار حنانيا ، وارتسم من الاساقفة اغناطيوس لتل ارسانيوس وايوانيس لسيبا برك ، وجلب كلاهما من ملطية من دير سرجيسية ومن دير القناة .

يا ايها القراء صلوا على الكاتب الضعيف الخاطي

وفي ايلول سنة ١٤٨٢ يونانية طرد جبرائيل الشيخ رئيس دير مار برصوم رفاقه ، واتى الى عندنا الى دير حنانيا ، فجئنا الى الدير لاجله ، وجاء معنا البار ايا ونيس مطران كيسوم ، وكان بحالة صحية سيئة ، وقد توفي يوم السبت ٢٤ تشرين في دير مار

برصوم ، وكان هذا علامة في التعاليم الكهنوتية ومتكلما ماهرا ومعروفا في البيعة .

وبعد شهر ، أي في تشرين الثاني سنة ١٤٨٢ يونانية تزايد الحزن على شعبنا ، فقد انتقل من بيعتنا نحن المستقيمين المجد ديونسيوس ابن الصليبي مطران أمد ، أي يعقوب المعلم المنطقي وكوكب عصره هذا الذي يليق له أن يكنى بالمجاهد مثل يعقوب الرهاوي ، لأنه جاهد كثيرا في التعليم ، وجمع وكتب تواريخ صحيحة ومعتمدة ، وفسر كل كتب الانبياء اي كل العهد القديم ، وصنع ايضا تفسيرا جديدا للانجيل والرسل والرسائل والرؤيا ، وكذلك لكتب تعاليم غريغوريوس النوسي وكتب سويريوس ، وكتاب بطرس القلونيقي وحياة ابو جريس المتوحد ، وصنع كتابا في الجدل ضد كل المذاهب والعقائد التي تخالف ايماننا المستقيم المجد ، وصنع ايضا كتاب تفسير لمنطق براهين ارسطاطالوس وغيره ، وصنع كتاب منطق اللاهوت ، وكتابا على الأزمان وكتاب رسائل ، وكتب ايضا ميامر وجمع وكتب كتابا عظيما تضمن كل الحان بيعتنا،وقد اغنى البيعة بكل هذه المؤلفات وأغنى نفسه بحفظ القوانين المقدسة ، وقد كتبنا مقالة على كل تدابيره ومحاسنه وشرفه كلها تفي بالغرض وتفهم القارىء مرتبته العالية ، وقد سجي جسده في بيعة والدة الرب في أمد في الجانب القبلي عند قبر البطريرك ابن عبدون وابن شوشن ، ليرحمه الرب ويغفر لكل من يقرأ ويصلي ايضا على خطيئتي (٥٢)

وفي سنة ١٤٨٣ يونانية في شهر تموز أخذ العرب بيعة مارتوما في ماردين ، أما السبب فهو ان شخصا اسمه برصوم من ماردين ضبط يزني مع امرأة مسلمة ، فأمسكوه وعذبوه لكن نجا من الموت ، فحكم عليه الوالي حسام الدين ان يأخذ امواله ومقتناه ويرحل ، وفي هذا الوقت كان المسيحيون يجددون بنيان بيعة مار برصوم ، فاحتال بعض العرب وقالوا للوالي : ان برصوم هذا قد

بنى بيعة من ماله الخاص وسماها باسمه ، فـأصدر الوالي أمـرا بهدمها فهدموها ثم بنوها مسـجدا وقـد عم الحـزن القـوي جميع المسيحيين الذي جاهدوا كثيرا ليخلصوا البيعـة مـن الهـدم ، لكن عملهم هذا انعكس عليهم سلبا فتجمهـر الشـعب واشـتكى للوالي وحاول المسيحيون ان يقابلوا الوالي ليزيلوا من امـامه اللبس الذي صار ، لكنه رفض استقبالهم ، بل غضب عليهم وكان هو في الاصل ناقما على المسيحيين بسبب حسن بن كميب الذي ذكرناه من قبـل . الذي كان راهبا وقسيسا وكان له اخـوان مـن رهبـان الافـرنج ، فاختلف معهما ، فالتجا الى المسلمين واعلن اسلامه لكنه مالبث أن هرب الى القدس وعاد فتنصر ، ولما سمع الوالي بذلك أمسك اخوته وجملة من الرهبان غيرهم وقتلهم.

وبهذا الزمان انصب اهتمامنا على كتب دير سيدنا مار بـرصوم فجددنا الكتب العتيقـة بمعـونة الله ، وهيأنا ورقـا وكتبنا فنقيثين (٥٣) للدير لتذكار المطران اثناسيوس اي زكي عمي ، والربان ايليا ابي الجسداني (٥٤) .

وفي هذه السنة ايضا اصـلحنا عين الماء التـي للدير ، وفي هـذه السنة طرد العرب اسقف الجزيرة ، واخذوا الدير بمكاتيب ليسـت صحيحة وحبسوه في الموصل ، فمضى أهل رعيته الى بغداد وافتـدوا الدير بمبلغ كبير ونجا هو ايضا .

وكان في هذا الزمان مجموعة من أرمن الرها مـع قسـيس يدعى كرابيت وراهبان يدعيان بـروك واوسـيج يشـتمون جـاثليقهم كثيرا ، ويتهمونه بـأنه يبيع الكهنوت ، فـأمسكهم غاضـبا وحلق نقونهم وعند ذلك تزعموا انشقاقا وابتدعوا هـرطقة فتبعهـم نحـو اربعمائة بيت مـن الارمـن وكانوا يدعون اوسـيجونيين فـاغتاظ الجاثليق جدا ، وأرسل رسـلا وهـدايا الى الحـاكم وطلب منه ان يطرد هم من مدينته فقبل الهدايا منه ، واذن للأرمن ان يضـايقوهم فتوالت عليهم الضربات،عندئذ قدم الاوسـيجونيون هـدايا للأمير

فاعطاهم امرا أن يتدبروا كما يريدون ، فتبعوا الخلقيدونيين،وكان الارمن كلهم وجماعتنا ايضا يبغضونهم ، لكن لما تضايقوا وجدوا رجلا اسكندرانيا كان يعرف اللغة العربية وكان داهية ومتكلما فمضى الى نور الدين واتهم الجاثليق وبطريركنا والرهاويين بتهم شتى ، وقال لقد اتى رسل مع رسائل من ملك اليونان الى الأرمن والسريان ليسلموه الرها ، وعند ذلك سيق المطران أثناسيوس الى حلب ومعه الارمن وغيرهم من أهل الرها ، لكن لما انفضح الأمر ، ووجد أن الاسكندراني كاذبا طردوه ، فهرب الى بلاده ، ورجع أهل الرها بسلام.

زيارتنا لآمد وموت الجاثليق نرسيس

بعد هذا أتى الينا قسيسان من الأوسيجونيين ، ومعهم راهب من أتباعهم ليشتكوا على الجاثليق ، فاكتشفنا انهم يفهمون كلام اثناسيوس وكيرلوس والآخرين بطريقة خاطئة ، وقالوا ان هذين القديسين قد قالا : ان للمسيح طبيعتين وفي بعض الأوقات طبيعة واحدة .

فأخذنا نشرح لهم قول القديسين من كتبهما ، وحينئذ تخلوا عن غضبهم على القديسين ورجعوا الى استقامة المجد وكتبنا معهم رسائل الى الجاثليق ليغفر لهم ، ولما مضوا وجدوا نرسيس الجاثليق قد توفي في تلك الأيام ، ثم ان هؤلاء الرهبان أتوا وسكنوا في أديرتنا،أما أوسيج رئيسهم فمضى الى أنطاكية وصار خليقيدونيا كليا وتبدد الباقي .

وبعد ديونسيوس ارتسم لآمد ابراهيم تلميذه ، لكنه مالبث ان توفي بعد ثلاثة اشهر ، وأما الحاكم فقد أمسك بالقساوسة ليأخذ المائة دينار الذي فرضها عليهم أبو سعد العاصي ، وكتب الينا اذا كنا لن نرسل من يعطيه في كل سنة مائة دينار فسوف يخرب البيع ، وعند ذلك سلمت نفسي للرب ، ومضيت الى هناك ، ولما سمع الحاكم اندهش وأكرمنا كثيرا ، وادخلنا بترحاب عظيم ، فوجدنا البيع البهية ممنوع الدخول اليها وقلاية (مقر)البطريرك المتوفي قسم منها خرب كليا وقسم حوله الحاكم الى مستودع لقطنه ، وقد تعبنا كثيرا وصرفنا أموالا وأموالا لاصلاحها ، ثم اننا بمعونة الله تعالى اصلحنا ايضا البيعة التي في دير قدقرت (٥٥) وكانت مبنية من اللبن والخشب وشبه مهدمة ، وبقوة الرب اجتهدنا في بنائها بحجر وكلس.

اما أولاد قربة الذين بالسجن ، وكان يطلب الحاكم منهم الفي دينار فتوسطنا لهم فباعنا اياهم بثلاثمائة دينار ، فأطلق سراحهم ، ثم مكثنا هناك كل فصل الشتاء ، ولما انتهت الأعياد ورسم ايليا الذي دعي اياونيس لكيسوم ارتحلنا في الأسبوع الثاني للعيد الى ماردين .

لما توفي نرسيس جاثليق الأرمن يوم الخميس في اب كان احد اولاد أخيه راهبا ، والآخر أسقفا ، وعندما توفي لم يكن الكبير حاضرا فأعطى خاتمة للصغير وكرزه جاثليقا ، ثم اتى الأخ الاكبر بسرعة لكن الصغير لم يتركه يدخل فالتجأ الى ختنه مليح حاكم قيليقية الذي قدمه الى نور الدين ، فأتى ومعه أمر من الأتراك فخاف الارمن ان يسلم نور الدين البلدة الى مليح ، فأتى جماعة من الأرمن واقتادوا الصغير قسرا الى قلعة الروم ، فربطه ابن عمه ووضعه في السجن وارتسم هو جاثليقا ، وكان ذلك يوم الأحد ٢٥ ايلول سنة ١٤٨٤ يونانية ، وهكذا افتضح أمر هؤلاء المسيحيين لأن رئاسة كهنوتهم لم تكن بحسب الشرائع والنواميس الالهية ، وانما هي كالملوك الطغاة ، وأما الجاثليق الجديد المدعو كريكوروس فدعا الى رسامته اثنان من مطارنتنا القريبين منه وهم غريغوريوس مطران كيسوم ، وباسيليوس مطران رعبان ، وقام فأرسل لي رسلا ورسائل فيما بعد قال فيها : كنت ارغب وأتمنى أن تحضر وترسمني وتضع يدك على رأسي بدلا من يمين غريغوريوس ، فتبهج الأرمن لأنها هي تمنحهم رسامة الكهنوت ، لكننا كنا في عجلة من امرنا لأن الخطر كان يحيطنا من عساكر الترك فأكملنا لذلك الخدمة .

وأما انا فأرسلت له جوابا وشفعته بالبركات والصلوات ، لكني لم أنس ان أتطرق الى القوانين الكنسية الرسولية الخاصة القائمة على المحبة ، ونبهته الى الخطيئة العظيمة التي تنشأ من ابتياع الكهنوت ، الأمر الذي هو عند الأرمن ناموسي ، ثم اوردت الكلمة التي قالها بطرس العظيم لسيمون الساحر ، فأعجبت جماعة

الأرمن ، وحسنت لهم ، لكنها لدغت رؤساءهم ، ثم توسطت لابـن عمه فأخرجه من السجن .

وبهذه السنة كثـرت الامــطار في كل مـكان وافســدت الأراضي وصارت سيول جارفة اتلفت اثمار الأشجار والكروم ، لكن بعد هذه الأمطار والسيول زرعوا الحنطـة وبـاقي الحبـوب فـأعطت غلات عظيمة .

وفي هذا الزمان ـ سنة ١٤٨٦ ـ حدث ضدي تمرد كبير ، وهذه المرة من اخوتنا لانني عندما دعيت لهذه الخدمة جاهرت بـالقوانين المقدسة ، وحاولت ان اعيد كل شيء الى نصـابه ، وأطبـق شريعـة الأباء ، واتمسك بالنواميس الكنسـية التـي تحللوا منهـا في هـذا الزمان ، وخاصة الكهنة الذين لم يعودوا يرسـموا كاهنا مـن اية رتبة كانت الا بالرشوى ، فالغيت هذه العادات الرديئة ، وأمرت انه لايجوز لأحد أن يخطف رعية أو بيعة ، ليست له أصلا كذلك لايجوز لأحد ان يحتكم الى الملوك والحكام ، او ينتقل من رعية الى اخـرى بغير امر ناموسي .

وعند ذلك قام علي مطران دمشق ، ومطران جيحان ، ومـطران طور عبدين ، ثم لحقهم في ثورتهم علي مطران قـالاينقوس ، دنحـا الذي يدعي ايوانيس .

وكانت الرعية تتمـرد عليه منذ زمـن البـطريرك مـار اثناسيوس ، وكانوا يتهمونه باتهامات شتى ، وقد حرمه البطريرك المذكور عدة مرات لكي يتقوم ، كذلك اتى الي هؤلاء المؤمنون وشكوه وعرضوا علي نفس ماكانوا يعرضون على البطريرك السالف ، بـل وزيادة ، وقد حاولت أن أعالج الأمر معه بـالحسنى ضـمن نطـاق العلاقة الأخوية الكهنوتية ، وكنت أحضـه على تـرك العـادات غير الناموسية ، وكان قد أتى الشـعب الي مـرارا خـلال ثمـاني سنوات ، وفي كل مرة كان يزيد في تعنته ، ثم اجتمـع مجمـع في دير مارحننيا حيث شهد عدد كبير ضده ، ثم أمر المجمع ان يترك الرعية

ويجلس في الدير الموجود في تخوم ماردين لمدة ثلاث سنوات ، فقبل بهذا القرار أمام المجمع ، لكنه مالبث أن داس الناموس ومضى الى جماعة من النساطرة كانوا رؤساء ومدبرين في بلاد ماردين ، واشتكى علي ، وقد تعبت كثيرا معهم حتى فهموا الحقيقة ، واكتشفوا أعماله،عندئذ طردوه ، فسعى الى الوالي وعرض عليه رشوى كبيرة ان قتلني لكن الرب اشفق علي وعلى بيعته ايضا ، ثم أرسل الوالي جنودا فأخذوني الى الموت ، وعندما اوقفوني أمامه تكلم معي بكثير من الفظاظة والقساوة والغضب لكن الرب الذي قال للمؤمنين انه يعطي في تلك الساعة مايتكلمون به ، وهبني انا الخاطىء وغير المستحق القدرة على الكلام والدفاع ، فثبت الحق ، وعرف الحاكم الحقيقة فطرده ، ولم يكن معي في ذلك الوقت بعد الله سوى الربان أبو خير أرشيد ياقون ماردين ، فليغفر الله له ، لكن الشيطان عاد الى قلبه وعقله وملأه حنقا علي ، فمضى الى ملك الموصل ، واوغر صدره علي بكلام ووشايات غير صحيحة ، ثم وعده بألف دينار ، حينئذ أرسل جنودا وساقوني الى نصيبين ومضى معي مار اثناسيوس مطران الرها ، ومار يوحنا وعدد كبير من الرهبان ، ولما وصلنا الى المعسكر اخذوني الى نائب الأمير سيف الدين (رئيس المعسكر) فأخذ يتكلم معي بهدوء قائلا انتم تحت حكمنا الآن بأمر الله ، ولايحق لكم أن ترفضوا أمرا ملكيا ، لكن قبل ان تجلد وتهان عليك ان تنفذ أمر الملك غازي الذي صدر من قبل ، فأمر ان يكون هذا المطران راعيا لشعبكم الموجود في كل المدن التي تحت سلطته والواقعة مابين النهرين : قالينيقوس وحران وسروج وبلاد الخابور رعيه لهذا المطران ، ويجب أن تنفذ هذا وتعود بسلام ، وإلا فستحدث أمور سيئة جدا.

لكن الرب ساعدني وعاضدني فهيأت نفسي للموت ، وقلت له بشجاعة : إن كتب الشرائع ثلاثة هي : توراه العبرانيين ، وانجيل المسيحيين ، وقران المسلمين ، فأرجو أن تفحصوا فيها جيدا ، وخاصة في القران فستجدوا أن الله لم يأمر الملوك أن يدبروا

امور الايمان بــالسيف ، لأن الايمــان يصـــير طــواعيه وليس بالغصب ، ولاجل هذا كل الخلفاء الراشدين ومن اتى بعــدهم مــن الخلفاء المسلمين حافظوا على الشريعة الالهية ، وحفظوها وصنعوا كما يأمر الله

قد يكون قد وقـــع اضــطهاد على المســيحيين خـــلال بعض الفترات ، لكن احدا لم يتدخل او يتسـلط على إيمــاننا ، ولم يطلب منا تغيير او تعديل شرائعنا ، أو قوانيننا الدينية ، والآن أنتــم إذا كنتم تريدون ان تتدخلوا فيما لم يتدخل فيه الخلفــاء قبلكم أو تغيروا ما لم يغيره ائمة هذه البلاد منذ فجر الاسلام وحتى اليوم ، فاعلموا انكم ســوف تصـــيرون أعداء ليس لي ، بـــل لموسى ، وعيسى ومحمد(ص) لانكم بهذا قد نقضتم وابطلتم كتبهم الثلاثة.

اي تكونوا قد ابطلتم اوامر الله ، والأدهي من ذلك إنكم تـريدوا ان تعطوا الحق لمن ليس له وتسوغوا وتدعموا كل مــارق على الدين وعلى شعبه ، وهذا هو شعب المدن التي قلت عنها موجود اسالوه اليس هو الذي رفضه ونبذه ، واتى الي شــاكيا عليه ، لقــد اتــى يحتمي بالسيف الملكي لانه صنع الأثم ، وطرد من قبلنا ولم يعــد له حق عندنا.

إن امرك لي ان أعيده الى شعبه الذي لفــظه طلب مني أن ادوس وانقض وابطل امر الله ، وإنه لاسهل علي أن يقــطع رأسي مــن ان افعل ذلك ، ثم مددت عنقــي طــالبا قـــطعه ، حينئذ قـــام رئيس العسكر ، ودخل الى خيمه الملك ، وبعد وقت طويل خــرج وامســك بيدي وادخلني وحدي ، ولم يسمح أن يدخل معي احد لا من المطارنة ولا من الرهبان ، وقد طالت مقابلتي معه وكنت اناديه بالملك فنبهني ذلك الثاني (رئيس العسكر): قل الملك سيف الدين ، ثم خــاطبني الملك قائلا : أيها البطريرك لقد أمرنا أن تطبق ناموسك ، ولن نسمح لأحد أن يعصي عليك ، فصليت وقبلت النعمة وخـرجت وأنا اشـكر الرب ، ودموعي تنهمر على وجهــي ، وعندمــا اخبـرت المطــارنة والرهبان ابتهجوا ، اما ذاك المطران المنبوذ فكان واقفا وحيدا ، ثم

هجم يريد أن يقتلني ، وصرخ أمام الجميع قائلا : يامسلمين اعلموا ان هذا الشيخ أثيم ومضلل ، إنه يسكن تحت حكم العرب وحمايتهم وبالوقت نفسه يستجلب العرب ليجعلهم مسيحيين ، ولدي كتاب بخط يده في هذا الخصوص ، ثم أخرج قرطاسا كنت قد كتبته منذ زمن لأجل ابن كميب ، وعرضه عليهم ، فلما سمع المسلمون هاجوا واخذوا حجارة ليرجموني فهرب رهباننا ، لكن الله تحنن علي ففحصوا القرطاس ، ووجدوه يتكلم عن ابن كميب ، وهيأ الباري تعالى في ذلك الوقت عرب من أهل ماردين فشهدوا أن ذاك كان راهبا ، ولم يكن مسلما ، حينئذ أعطاني الملك سيف الدين كتابا ورجعنا بالسلام ، أما هو فمضى الى بغداد ليشتكي علي للخليفه ، ولما سمعت بذلك أرسلت رسائل للمؤمنين الذين يسكنون هناك ، فطردوه فأتى بعد هذا إلينا من انطاكيه وطلب الغفران فصلينا عليه وارسلناه الى جبل الرها بانتظار أن نخصص له مكانا في دير ماربرصوم ، لكنه توفي قبل وصولنا ، ليغفر له الرب أمين.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية قتل مطران طور عبدين اغناطيوس ، وقد كان مهتما بجمع الدراهم وكان يسعى لها لتحقيق ذلك بكل الوسائل والحيل ، ولما وبخناه لم يخجل منا بل زاد شرا على شر ، واعتمد على العصاة ليساعدوه في جمع الذهب ، وذات ليله من ليالي الأحاد ترك كنيسته ومضى الى السلطان ليشي كعادته بالرهبان والقسس والعلمانيين ويرميهم في السجن مختلقا اسبابا وأسبابا ، فالتقى به الاكراد ليلا ، وعندما فاجاوه هرب الذين معه فضربوه وعذبوه ، واخيرا دقوا اسفينا من الخشب في اسفله وتركوه وهو يحتضر ، وصدف أن رآه بعض عابري الطريق ، فلما أخرجوا الاسفين من اسفله نفقت روحه ، وقبل مدة كانوا قد قتلوا في حاج قرياقوص هو ورجال مؤمنين ، ومرزوق القسيس وأخيه برصوما وأولادهم ، فظن الناس أن هذا المطران الشقي هو الذي أرسل العصاة ليقتلوهم ، لكن لما قتل هو أيضا عاد فخمن الناس أن أهل اولئك ارسلوا القتله طلبا للثار ، وأن ذلك لم يحدث صدفه.

وفي هذه السنة تمرد علي الرهبان في دير مـاربرصوم ، وسـوف اوضح السبب فيما بعد.

وفي ذلك الزمان حدث في البيعة انشـقاق بعـد مـوت مـاريوحنا البطريرك ابن شوشن ، فاجتمع المجمع في دير مار برصوم وقبل أن يقيموا رئيسا طلب الرهبان من الاسـاقفة اسـتقلالية الدير ، وعدم جعله تابعا للبطريرك ،والسبب في ذلك أنه فيمـا مضى ، عندمـا كان بعض الملوك يتضايقون من البطاركة كانوا يضعون اثقـالا واعبـاء ماليه على الدير ، وفي بعض الأوقات كان البـطاركة يأخـذون مـن خزانة الدير اواني من الفضة ، وفي اوقات أخرى اقتـرضوا ذهبـا لكنهم لم يردوه ، فلما اخذ الرهبان قرار استقلالية الدير موقعا مـن المطارنه الذين شاركوا بالمجمع ، لم يقبل به البـطاركة الذين أتـوا فيما بعد ، وقـال اثناسـيوس ويوحنا الذي بعـده واثناسـيوس الثاني :إن هذا القرار يجب أن يكون موقعا من بطريرك ذلك الزمان لأن المطارنة ليس لهم الحق أن يتخـذوا مثـل هـذا القـرار ، لذلك اعتبروا هذا القرار لاغيا وباطلا لانه سيكون سـببا للفتنة ، ومـن شانه احداث شرخ بين كل بطريرك يقوم وبين رهبان الدير ، أما انا فلانني نشأت وعشت في الدير ، فقد أردت أن أمنح الدير معونة فثبت قرار استقلاليته والزمت المطارنة أن يضعوا تـواقيعهم ظنا مني أن هذا سوف يبطل الانشقاق والخلاف بين البطاركه الذين يقـومون في البيعه وبين الرهبـان الذين يسـتلمون الدير ، لكن الانشـقاق زاد وصارت فتنه بالدير وانشق الطرفان الى فريقين متخاصمين.

وعندما بدأ الشغب في الدير اخذنا نعالج الأمـور بـالمشوره مـع الأساقفه والرهبان ، فقام المؤمنون بالتوسط ليرجع المنقسمون الى التوبه ، وأرسل الجميع الي في دير مارحنينا طـالبين مني الرجـوع للعمل على الصلح وتسوية الخلافات ، فاتيت معهـم الى آمـد حيث خرج الحاكم واستقبلنا بترحاب وإكرام ، ثم صلينا في البيعة التـي بنيناها هناك ، وكان ذلك يوم الأحد في عيد القديسة بـربارة أي يوم الرابع من كانون الأول ، ثـم وصـلنا الى الدير وكنا بحـاله تعـب

واعياء شديدين ، وبعد أن تكلمنا كلام مجاملة مع المطارنة ومع الجمع الموجود اتفقنا على تسوية كل الخلافات ، وكتبنا ذلك ، وبطل انشقاق البيعة ، وصار صلح وسلام وخرج كل اهل الدير راضين.

وبهذا الزمان كان يوحنا مطران حمص الرجل الفاضل مستنكفا منذ فتره طويله عن رعاية الشعب لضعفه وشيخوخته ، وكانوا يتوسلون اليه أن لا يترك رعيته التي وهبت له من الله امور رعايتها ، وكان كلما توسلت اليه رعيته أن يستأنف عمله كان يعود ، لكن سرعان ما كان يغير رأيه ويرجع الى الدير ، وبقي على هذه الحالة مدة عشر سنوات ، ثم اشفقنا عليه انا وكل الاساقفة الحاضرين ، فرسمنا داوود الراهب من دير مار حنينا لمدينة حمص ، ودعي ديونسيوس.

ولما ارتسم المطران داوود على حمص توفي بعدذلك فاتى الينا زعماء الرعية طالبين الشيخ مار يوحنا ، فرجع الى الخدمه.

وبهذا الزمان توفي المطران اثناسيوس اي ابي غالب المتوحد ، والذي ارتسم بجيحان ، وقد توفي في ديره في بلاد جرجر المدعو دير ابي غالب.

وفي هذه السنة توفي يوحنا اسقف سميساط في دير مار حنينا ، وكذلك توفي أغناطيوس أيضا مطران جرجر والذي هو رومانوس مطران تل ارسانيوس بملطيه في بيعه أبويه ، وصارت رسامة مار اثناسيوس اي الربان صليبا اخانا في دير مار حنينا في ٩ تشرين الأول يوم الأحد.

في سنة ١٤٩٢ يونانية وقعت فتنة بين السلطان قلج أرسلان وبين ختنه نور الدين ، لأنه كان يضطهد ابنة السلطان بسبب عشقه لزانية شيطانية ، فخرج صلاح الدين حاكم مصر الى نجدة نور الدين ومحاربة السلطان ، فأمر السلطان بهدم سور كيسوم وسبي سكانها ، اما نور الدين فقد اتحد مع صلاح الدين على نهر كوسكو ، وكادت أن تخرب البلاد لولا أن الرب قد أشفق فأرسل

السلطان رجلا حكيما الى صلاح الدين ، ثم تــم الصــلح وتــوقفت الحرب.

أما السلطان فقد أتى الى ملطيه وجدد سوريها ، وأمــا صــلاح الدين فقد رجع الى مصر.

زواج البرنس حاكم أنطاكية من احدى الزانيات

في تلك السنة ترك البرنس حاكم أنطاكيه امـراته اليونانية التـي تزوجها بحسب الناموس في القسـطنطينية ايام الملك منويل وتـزوج امرأة زانية ، ولم يأبه لقرار بطريرك روميه ، اما بـطريركهم الذي بأنطاكيه فقد حرمه وحـرم القسـيس الذي عقـد زواجـه على تلك الزانية ، وحرم المدينة كلها لأجله فأبطل قرع النواقيس ، واوقـف تناول القرابين والصلوات على الأموات قبل دفنهم ، امـا البـرنس فقد غضب وقام بنهب كنائس الأفرنج والأديرة ، وبعد مـدة اجتمـع القضاة وجملة من النبلاء برئاسه بطريرك القدس حيث توسطوا مع بطريركهم فـأعاد البـرنس كل مـاخطفه وثبتـوا له تلك المرأة واصطلحوا .

وفي تلك السنة عصى امير حران والرها على حاكم الموصـل وعاد فاتفق مع صلاح الدين وبوساطة هذا الاتفاق ملك صـلاح الدين على منطقة ما بين النهرين ، واتفق مع نور الدين وامـا حـاكم الموصـل وحكام ماردين وأمد والأرمن فاجتمعوا ليقاوموا المصريين ، لكنهـم انهزموا بدون حـرب أمـام صـلاح الدين ، فـدخل ملك مصر إلى الموصل ، وحل عليها ، لكنه سرعان ما ترك الموصل ربما لأجل المطر الذي كثر عليهم ، أو بسبب اخر ورجع.

اما حاكم ماردين وحاكم سنجار فقد خضـعا للسـلطان المصري لكن حاكم آمد رفض ، فتـوجه صـلاح الدين اليه بعـد أن وعد نور الدين انه سوف يأخذ آمد ويوليه عليها ، ووصـل اليهـا يوم احـد الشعانين فحـاصرها ، وبعـد عده أيام اسـتولى على السـور الخـارجي ، حينئذ سلمها ابن نيسان ذلك المسكين ، وخـرج منهـا بطريقة مذله ، وملك عليها نور الدين حاكم حصن كيفـا ، وكان ذلك سنة ١٤٩٣ يونانية.

في تلك السنة مات سيف الدين حاكم الموصل واتى من بعده أخوه عز الدين وفي سنة ١٤٩٣ يونانية توفي الصالح حاكم حلب ، واعطيت حلب لعز الدين حاكم الموصل الذي ملك بعد أخيه سيف الدين ، لكن ذاك مالبث ان اعطاها لاخيه واخذ منه سنجار ليبعدها عنه.

في السنة ١٤٩٢ يونانية اتى السلطان قلج ارسلان الى ملطيه ، وسأل عني وأرسل لي رساله محبة وود وارفقها بهدية كانت عباره عن عكاز (عصا) الرعاية الخاصة بالكهنوت ، وعشرين دينارا من الذهب الاحمر ، وقد ادهشت هذه المبادرة الطيبة الجميع ، وفي السنة التالية اتى ايضا،وقبل أن يدخل ملطيه سمع بالانشقاق الذي صنعه ابن وهبون تادروس ، فأرسل إلي رسلا ودعاني لمقابلته في ملطية ، ودهشت لاني رأيت هذا التصرف غريبا عن العاده فخفت للوهلة الأولى أن تكون هذه الدعوه وهذا الاكرام الذي لم نعهده من قبل هو السم في الدسم ، لكنني توكلت على الله وتوجهت الى ملطية ، ووصلت الى مشارفها يوم الخميس ٨ تموز عام ١٤٩٣ يونانية (١١٨٢ م) وقت البكور ، وكانت مفاجئتي كبيرة عندما وجدت السلطان قد خرج مع ثله من العسكر للقائنا ، وكان وراءه كل اهله بالمدينة ، ولم يكتف بذلك بل أرسل إلينا رسلا تقول: إن السلطان قد أمر أن يكون دخول البطريرك الى المدينة بحسب تقاليد المسيحيين أي محاطا بالصلبان والأناجيل ، أما المؤمنون فقد حملوا المصابيح التي لا تحصى ، ورفعوا الصلبان على الرماح وأخذوا يرتلون ويسبحون بأصوات جميلة مليئة بالفرح والاعتزاز ، ولما واجهني السلطان لم يدعني اترجل عن ظهر مركوبي لآخذ يمينه ، بل عانقني بذراعيه ، ثم بدات اتكلم معه بواسطة المترجم ، وكان يستمع الي باهتمام ووجه باش ، ولما رايته انه يحب أن يسمع اطلت الكلام كثيرا وكنت أستشهد دائما من الكتاب ، ثم مزجنا الكلام بالوعظ الديني والحكم ، حتى كادت أن تجري الدموع من عينيه فشكرنا الرب العالي ، كذلك كل المسيحيين شكروا ومجدوا حين رأوا

الصليب في موكب ملوك المسلمين ، وهكذا دخلنا البيعة ، وبعد موعظة تعليمية رفعنا أيدينا بالدعاء للحاكم وللشعب ، وبعد ذلك اليوم أرسل السلطان يبشرنا أنه قد ألغى الخراج الذي كان موضوعا على الدير ، وأعطى أمرا ملكيا مكتوبا بذلك ، لذلك أرسل لنا يوم الأحد علبه من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة ، وفي داخلها عظام القديس بطرس رأس الرسل وبقينا في ملطية شهرا كان فيه كل يوم يرسل لنا الهدايا ، وقد صارت نقاشات ومناظرات عن المسيح الهنا وعن الأنبياء والرسل ، ولما ارتحل السلطان من ملطيه خرجنا معه بناء على طلبه ، وفي الطريق كان هناك كلام طويل عن الكتاب بيني وبين فيلسوفه كمال الدين وهو رجل فارسي منطيقي ، فمدح حكمه السريان ، وفرح السلطان كذلك ، وكل ذلك صار ليس لكوننا مستحقين هذا ، بل لأننا نمثل الشعب ، فقد اراد الله أن يعز هذهالأقليه الصغيره والبيعه التي ضعفت بتطاول ابن وهبون ، لكن الله لم يشأ أن يطيل فرحتنا فقد احترق دير سيدنا ماربرصوم ، وكان ذلك يوم السبت ٣٠ تموز سنة ١٤٩٤ يونانية ، أما الحادث فكان بسبب أحد الرهبان،فقد نسي هذا الراهب واسمه دنحا ، وكان شيخا كبيرا شمعته مشتعلة ، ومضى للكرم فالتهمت النار كل شيء ، خاصة أن الدير كان من الخشب من سقفه إلى أساساته ، بل كانت الأبنية ملتصقة ببعضها بعضا ، وقد حدث هذا عندما كنا في الصلاة فسارعنا عندما سمعنا الصراخ إلى خزانة القديس ، وأخرجنا الصندوق الذي به يمين القديس مار برصوم وعظام القديس بطرس ، وخرجنا تاركين كل شيء للنار التي التهمت بشراهة القلالي وبيوت الجميع ، وبيوت الرهبان والمبتدئين ، وكل مابها وامتدت إلى الهيكل العتيق وأكلت الكتب وأواني الفضة والنحاس وذاب الحديد من شدتها ، وتحولت الحجارة إلى كلس ، وحتى أبواب الدير الحديدية احترقت وسقطت الأسوار ، ونقول بالاختصار إنه لم ينج شيء أبدا إلا البيعة الجديدة التي بنيت من قريب وبرج الدير العالي ومغارة الفرن والباب الخارجي المدعو باب جرجر ، أما ماتبقى فقد تحول إلى رماد ويوم

الأحد سقطت إحدى القناطر وقتل بها صبي من بلاد جرجر كان قد أتى على صوت الناجين ، وقد رأينا ثلاث عجائب أولها بأنه لم يتأذى أحد قط من أهل الدير سواء كان من الرهبان أو من المبتدئين ، وكانوا يغامرون ضمن النار لينقذوا شيئا من مقتنياتهم ، وتشبه هذه العجيبة قصة القديس الذي سأل الله أن ينزل البرد ، فأنزله وأفسد الكروم ، لكن كرم المؤمنين لم يفسد ، والعجيبة الثانية أن قبة الخشب الموضوع بها عظام القديسين كانت داخل الخزانة ، فبقيت ولم تحترق ، وهذه أشبه بأعجوبة الفتية الثلاثة الذين حفظوا في أتون النار بغير ضرر لأن روح الله كانت معهم .

أما الأعجوبة الثالثة فهي احتراق كتب كثيرة لم يكن يقرأها أحد أو حتى يفتحها ، فاحترقت بالنار وكأنها زائدة ، أما الكتب التي كانت تقرأ باستمرار فقد حفظت بالرغم من النار ، وهذه الكتب كانت أناجيل تقرأ على مدار السنة نحن رتبناها ووضعناها ، وقد بقيت سالمة ولم تحترق ، وقد بقينا في البرج نحن الرهبان مدة شهر حتى هدأ الغضب ، وحينئذ بدأنا بالبنيان ، وخلال ثلاث سنوات بنينا كامل الدير ، وكان أجمل مما كان ، أما البيعة فقد استغرق بناؤها اثني عشر عاما ، شكرا للرب الذي أتمها .

بعد أن رجعنا إلى ملطية مضى السلطان قلج أرسلان إلى بلاد الروم وملك على اثنتين وسبعين قلعة من قلاع اليونانيين وكتب إلي الرسالة التالية :

من قلج أرسلان العظيم سلطان كبدوكية وسورية وأرمينية .
إلى فلان البطريرك محب مملكتنا ، والداعي لنا بالنجاح الجالس في ديره دير مار برصوم والمطمئن في شرف مملكتنا نعلمه أنه بصلواته وهب الله العظمة لنا .

لما خرج من فيلادلفيه المجيدة ، وأتى إلينا ابن أكوماك الرومي وأولاده ، وسجد قدام كرسي مملكتنا طاعة لنا أرسلنا معه أربعين

الفا ، ولما علم الأعداء اجتمعوا بالمدينة الكبيرة ألوفا وعشرات ألوف وأتوا الينا وحدثت معركة قتلناهم فيها ، ولن يستطيعوا أن يتعافوا من هذه الضربة لفترة طويلة ، وقد استولى عسكرنا على قلعة دياديف الكبيرة ، ثم أخذوا جميع البلاد حتي ساحل البحر ، وقد خضعت كل هذه المناطق لنا وطبقنا عليها شرائعنا وقوانيننا ، وهذه الأرض لم تكن من قبل للترك لكننا نعلم أن بوساطة صلاتك اعطانا الله تعالى هذا الانتصار ، وإننا نطلب أن تتابع صلاتك لأجل مملكتنا ، عافاك الله (٥٦) .

وبعد هذا كانت تأتيني عدة رسائل من السلطان من وقت لآخر .

أخبار أندرونيقوس اليوناني

في سنة ١٤٩٤ يونانية ملك على اليونانيين أندرونيقوس الذي كان قد طرده منويل ، وكان هذا قد عاد إلى القسطنطينية فتظاهر بالطاعة للصبي ، لكنه مالبث أن رمي امرأة منويل وابنتها وصهرها في البحر ، ثم قتل الفتى الكسي سرا ، وقتل أكثر من ألف من الزعماء حرقا بالنار ، وسمل عيون عدد كبير غيرهم ، بعد أن سبى مقتنياتهم،ثم تزوج هذا الشيخ الدنس قسرا امرأة الصبي الكسي ، وارتكب كثيرا من الفظائع ، ثم طرد الافرنج من العاصمة لانهم كانوا يساعدون الصبي الكسي كونه كان ابن افرنجية ، لكن هؤلاء لما طردوا من بيوتهم أحرقوا أربعة عشر ألف من ديره وقرى بلاد اليونان ونزلوا إلى رومية ، وأحضروا عساكر من الافرنج ، كذلك أتى ملك صقلية فاستولوا على مدن كثيرة من سورية كانت تحت حكم اليونانيين ، فخربوها وهدموها وأحرقوها وأخلوها من السكان .

في هذا الزمان أتى ثلاثة أخوة إلى السلطان أخذوا عساكر من الترك ومضوا وملكوا على فيلادلفية ، لكن بعد مدة أتى عليهم اندرونيقوس الطاغي فقتل أحدهم ، وهرب الاثنان من وجهه ، لكن أحدهم واسمه ايسوفيوس (اسحاق) أتى وقتل أندرونيقوس .

في نيسان من عام ١٤٩٦ يونانية خرج صلاح الدين من مصر فاجتمع إليه نور الدين وباقي أمراء مابين النهرين ، وحدثت حرب استعملت فيها المنجنيقات وكل أنواع الأسلحة ، لكن الترك لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الافرنج فهربوا ، وحينئذ توجه الافرنج لبناء القلعة وتحصينها فاستغل الأتراك انشغال الافرنج فسبوا السامرة ونواحيها ، وقتلوا العديد ، لكن الافرنج لحقوا بهم فخلصوا الأسرى .

في عام ١٤٩٦ يونانية اشتد داء الجذام على بلدوين ملك القـدس فاعطى المملكة لابن أخته وكان صبيا اسمه بلدوين أيضا ، ولما تملك هذا توفي الملك المريض بعد سنة .

وفي هذه السـنة مضى صـلاح الدين ايضـا إلى الموصـل ولما لم يستطع أن يملكها رجع وحل على ميافارقين ، وبعـد حـروب كثيرة اشتراها بالذهب وملك عليها ، ثم عاد إلى الموصل ، وبعد مفاوضات كثيرة ووساطات بينهم اتفقوا أن يكون حكام الموصل تحـت طـاعته مثل حاكم ماردين وحصن كيفا واصطلحوا .

وبعد موت قطب الدين حاكم ماردين مات ايضا نور الدين حـاكم حصن كيفا في آمد ، وقد حدث موته فجأة لأنه أخذ من البيعة أعمـدة رخامية وأدخلها لداره ، فضربه الله بغضبه ، وملك بعده ابنه قـطب الدين الصبي .

أما في ماردين فقد أقاموا صبيا يدعى حسـام الدين واثنان همـا من أبناء الجواري ، فأما أخـو الأمير نور الدين المدعو عمـاد الدين والذي أحدث ضجة بعد موت اخيه أخذ قلعة زياد .

بعد هذا مات ايضا حاكم الارمن ، أمير شاه أرمن ، وكان شيخا لم يكن من أسرته من يملك بعده فتوجه مسرعا أحـد عبيده واسـمه بكتمر ليملك ، وبينما كان يعبر أمام جبل ساسون تعـرض له ابـن أخت جاثليق الأرمن الذي خرج من قلعة الروم ، فأمسك ببكتمر هذا واقسم له وأعطاه قلاع أبيه بيكين

وبهذا الزمان ــ ١٤٨٧ ــ ارتسم مطران لشبختان اسطفانوس وارتسم بسيليوس لكورة جرجر وبسيليوس لقالنيقوس ، ويوم أحد تكريس البيعة احترقت كنيسة مار يوحنا بـالرها ، فقـد كانت منذ زمن مهجورة وخالية بغير كهنة يخدمون بها ، وكان الحكام يضعون فيها قطنا ، وقد عشش الحمـام في سـقوفها العـالية ، وفي إحـدى الليالي ترك الحراس المكان ، فاشتعل واحرق الطوابق العليا ثم أتت

النار على كل شيء وحتى الاحجار وقد سقط منها اثنان وثلاثون عمودا من الرخام واصبحت خرابا .

اما البيع التي خربت أيام العرب فهي : البيعة الكبيرة هذه ، وبيعة الرسل ، وبيعة مار توما ، وبيعة مار ميخائيل ، وبيعة مار توما اي بيعة المنديل ، وبيعة مار جرجيس وبيعة المخلص (ابجر) وبيعة والدة الرب المعلمة ، وبيعتين أيضا لوالده الرب ، وبيعة الأربعين شهيد ، وبيعة أخرى للأربعين شهيد كبيرة ، وبيعة المعترفين التي في باب الساعات ، وبيعة اسطفانوس ، وبيعة تاودوروس التي أمام القلعة .

وفي هذه السنة اصطلح فرينز حاكم أنطاكية مع صلاح الدين وتعاهدا أن لايعودا إلى الحرب ، فاحتال ظلما وأمسك روفين حاكم قيليقية ووضعه بالسجن بعد أن كبله بالحديد ، ودخل الى قيليقية وبقي كل الصيف يقاتل ولم يقدر ان يملك على اي موضع قط ، لانه قام مكان روفين أخوه لاون وحفظ بلادهم بحكمته فرجع بالخزي اخيرا ، وأخيرا أعطى الأرمن للفرنج ثلاثين ألف دينار والمصيصة وأذنة واماكن اخرى أيضا ، وخرج روفين من الحبس ، وبعد أن نجا روفين تمرد على فرينز فنهب وأفسد كل بلاد قيليقية .

وفي نيسان سنة ١٤٩٧ يونانية أتينا من دير مار حنينا الى دير مار برصوم وبرحمة الله ونعمه القديس سيدنا مار برصوم رممنا الخراب الذي حل بأساساتها التي كنا قد بنيناها منذ سبع سنوات ، وكنا قد وقعنا في مشاكل كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وقد تعب معنا كثيرون في هذا الترميم .

وفي هذا الزمان أخذ الأمير حاكم الرها بأمر حاكم مصر بلاد شبختان من حاكم ماردين ، فخرج هذا وتحارب مع شعب الرها وانكسر ، وبعد هذا أتى صلاح الدين ليملك على ماردين ، ولما لم يقدروا أن يأخذوه بالخديعة جعلهم تحت طاعته ، كما كانوا في عبوديتهم .

- ٢٢٣٤ -
وبعد هذا ايضـــا نزل صـــلاح الدين على الموصـــل واســـتولى عليها ، لكنه مرض مـــرضا صـــعبا حيث قضى كل فتـــرة الشـــتاء في الخيام مع عساكره الذين هم ايضا أصيبوا بالمرض ، وقد شاع خبر أن صلاح الدين قد تـوفي ، غير أنه لما تعـــافى أمســـك بحـــاكم الرها ، لكنه مالبث أن أعاده واصطلحا .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

في ايلول يوم عيد الصليب سنة ١٤٩٦ يونانية تحفـز اندرونيقس ملك اليونانيين ليقتل ايسيقيوس (اسـحق) لانه كان الوحيد الذي بقي من أسرة منويل على قيد الحياة بعد فتكه بـكل سـلالته ، فعلم ايسيقيوس بذلك فلبس درعه وامتشق سيفه وتحصن ببيته ، فارسل اندرونيقوس رئيس جيشه ليأتي به فلما نظره آتيا بحنق ، وعلم أنه سيموت لامحـالة تشـجع واسـتل سـيفه وضرب رئيس الجيش فقتله ، ثم ركب فرسه سريعا وهـرب للبيعـة الكبيرة وسـيفه بيده مخضبا بالدم ، وكان يصرخ ويولول ، فاجتمع عشرات الألوف مـن الناس ، ولما وصـل الى البيعـة سـلم كل الرؤوسـاء الذين كانوا يشكون بالمنافق وينبذون فعلته الشنيعة التي قتـل فيهـا كل سـلالة منويل سلموا أن يصير ملكا لهم ايسيقيوس سليل الملوك ، وألزمـوا بطريركهم أن يرسمه ، ولما فعلوا ذلك في البيعة سمع اندرونيقـوس فخرج من الأبواب ليهرب الى البحر فلحقوه في السـفينة وأرجعـوه وقطعوا جسمه بالسكاكين وهو حي ، ثم وزعوا لحمه من واحد الى واحد ، وأخيرا جمعوا لحمه وأحرقوه وسط الحشود .

وبهذا الزمان توفي اغناطيوس مطران القدس ، وقد تـولى هـذا رئاسة الكهنوت فيها مدة خمس وأربعين سنة ، وفي تشرين الثـاني سنة ١٤٩٦ يونانية أرسل المطران أثناسيوس أخـي مـطرانا على القدس ، وقد قام عليه رهبانها بالاتفاق مع المطران تـداروس بـن وهبون (اريوس الثاني) وبقي يجـاهد ضـدهم حتـى هلك ابـن وهبون .

وفرح بهذا الزمان ـ ١٤٩٦ يونانية ـ كريكور جاثليق الأرمـن فرحا كبيرا جدا بدافع الحسد والشماتة لما سـمع تفـاصيل أخبـار احتراق دير مار برصوم ، واخذ يشيع أن القديس مار بـرصوم قـد

طار من الدير وأتى اليه معتقدا أنه بمثل هـذا الهـذيان يشـهر نفسه ، لكن الله مالبث أن انتقم منه لانه حالما خرج من قلعـة الروم ليمضي الى طرسوس تمرد عليه ابن اخته شـاهنشاه ، واتفـق مـع الترك وحاول أن يعطيهم القلعة ، لكن الجاثليق لما سمع قفل راجعـا بسرعة وجمع بعض الجنود ، وهاجم القلعة وقد وقـع العـديد مـن القتلى من رجال الجاثليق ورجع يجر أذيال الخيبة والاخفاق الى دير تويش عند كيسوم ، واعترف أمام الجمع أن مار برصوم أبيه ، ثم عاد ووعد أمام البار وايوانيس مطران كيسوم بالتوبة ، أمـا ابـن اخته فقد تشرد وأخذ يتجول من مكان الى آخـر وأخيرا اقسـم على الطاعة ، فأتى الى الجاثليق وأعلن ولاءه فاصطلحا .

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

الاصحاح الرابع حول الزمان الذي تنبأ به المنجمون بأنه سيصير طوفان مثل طوفان نوح لكنهم كذبوا ، وحول باقي أنواع الأحداث التي وقعت بهذا الزمان والله المستعان .

في ١٤ ايلول في سنة ١٤٩٧ يونانية وقع أمر يستحق أن يحفظ بذاكرة الاجيال ، فقد اجتمع في ايلول سبعة كواكب سيارة كلها في برج الميزان ، وهذه الكواكب هي الشمس ، والقمر ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ وعطارد ، والزهرة ، وكان قد قال المنجمون أنه لم تجتمع سبعة كواكب في برج الحوت الا وصار طوفان كالطوفان الذي حدث ايام نوح ، اما وقد اجتمعوا في برج الميزان فقد تنبأوا أنه ستحدث ريح صرصر تهلك الناس والبهائم والطير ، وقد قال بهذه النبوءة الكاذبة الوف من الناس وربما اكثر ، وقد ذاع هذا الخبر بالمشرق ومصر والهند ، وقد كتب لي المؤمنون من سجستان طالبين الصلاةلأجل نجاتهم ، وقد اعتقد بهذا اليهود والمسلمون والحنفاء الصابئة وعدد كبير من المسيحيين ، كذلك قالوا : ان الشمس ستكسف في هذا اليوم ، وسوف ترتج الارض ويظهر كوكبان مذنبان ، وقد صدق العديد من الملوك والرؤساء هذه الادعاءات فخزنوا القوت والمشرب ، كذلك هاجرت أعداد كبيرة الى بلاد أخرى وسكنت أعداد أخرى كبيرة بالمغاور والشقوق للصلاة والصيام ، أما الحنفاء واليهود والمشتغلون بالتنجيم وقراءة الأبراج فكانوا يسخرون من المسيحيين عندما كانوا ينظرون اليهم يصلون ، وكانوا يجدفون قائلين حتى الله لايستطيع أن يغير أو يبطل هذا الأمر الذي سيصير ، أما الذين كانوا يأتون إلي مستفسرين فكنت

اجيبهم « لاتسقط شعرة من راسك الا باذن ابيك الذي في السماء ، كما هو مكتوب ، وإن المنجمين يكذبون حتى لو كانوا يقراون في الكتب » وكان بعض الناس يقول لي : ان المنجمين يستقرئون الطبيعة ؟ فقلت : اذا كان طوفان نوح قد حدث عند اجتماع الكواكب في برج الحوت كما يدعي المنجمون ، فلماذا لم يعرف ذلك عبدة الكواكب في ذلك الزمان ، ولماذا لم يعرف سوى نوح وحده فقط ؟ لكن الناس كانوا يعيشون بشكل عام في حالة هلع وخوف ، وعندما دنا اليوم الذي كان قد حدده المنجمون أخذ الناس منذ الليل يركضون الى المغاور للاختباء ، وصارت البلد في حالة من الهيجان كأنها وكر من النمل قد هدم ، لكن ماكاد الصباح ياتي حتى أشرقت الشمس وكانت دافئة جميلة ممتعة ، ثم أتى النسيم العليل وكانت الطبيعة تبدو في ذلك اليوم خاصة جميلة وبهية جدا ، وللحال مجد الناس الله تعالى ، أما الملوك فقد احتقروا المنجمين وطردوهم من مجالسهم .

الصراع بين التركمان والأكراد وحوادث أخرى

وفي سنة ١٤٩٦ يونانية ابتدات الحرب بين شعبي التركمان والأكراد وبقيت ثمان سنوات يتقاتلون فيهـا ويقتتلوا في أرمينية وفي اثور وبين النهرين وفي سورية وكبتوكية .

اما سبب بدء هذا القتال فهو : كان التركمان يسكنون الخيام ، وفي الشتاء كانوا ينزلون الى البلاد الواقعة قبلي سورية حيث لاينزل ثلج ، ولايصير جليد ، وكذلك يوجد مرعى ، وكانوا في زمان الربيع يصعدون ثانية الى ناحية الشمال حتى يوجد مرعى لدوابهم ، وفي صعودهم ونزولهم كانت تمتليء الطرقات بهم ، وهم يحملون مقتنياتهم ، وكان الأكراد يمتهنون السرقة في كل مكان ، فاخذوا يسرقون اغنامهم وقطعانهم وبقرهم وجمالهم ، وفي بعض الأوقات كانوا يقتلون بشرا منهم ، حينئذ ابتدأ التركمان يجمعون قطعانهم عند ترحالهم ، وحدث أن امسك التركمان في بلاد شبختان عند حدود ماردين مائتين من اللصوص الأكراد كانوا كامنين للسرقة ، فقتلوهم كلهم ، حينئذ اجتمع عشرة آلاف كردي ، واجتمع اكثر منهم من التركمان واشتبكوا في حرب طاحنة قتل فيها نحو عشرة الاف من الجانبين ، لكن الحرب عادت فاشتعلت على شكل اقوى عندما اجتمع ثلاثون الفا من الاكراد من بلاد نصيبين وطور عبدين ، واجتمع بالمقابل التركمان من بلاد الخابور ، لكن الأكراد سرعان ماانكسروا وامتد قتلاهم من شاطيء نهر الخابور الى نصيبين .

بعد هذا عاد فاشتبك الأكراد مع التركمان في بلاد الموصل مرتان فانكسر الأكراد ، وهربوا من أمام التركمان ، ودخلوا الجبال عند حدود قيليقية ووصلوا الى حدود الارمن ، وهناك أخذوا يختبئون بين بهائمهم ، لكن التركمان اتوا عليهم وقتلوهم كلهم رجالا ونساء

واطفالا ، وأخذوا أموالهم ، وأبادوا الاكراد من كل سورية وبين النهرين ، لأن التركمان كانوا يبحثون جماعات جماعات في البقاع والجبال ، وحيث ماوجدوا الاكراد كانوا يقتلونهم بغير رحمة وبلا سبب .

وفي السنين الأولى لم يكونوا يؤذون المسيحيين ، لكن اخيرا بدأ التركمان يقتلون المسيحيين لسببين :أولهما أن الاكراد عندما كانوا يهربون كانوا يخفون أموالهم في قرى المسيحيين فاكتشف التركمان ذلك .

ثانيا لما كان الاكراد ينهبون قوافل التركمان لم يمنعهم الحكام الأرمن ، لذلك هاجموا شعوب أرمينة الكبيرة ، وسبوا الأرمن ، واخذوا ستة وعشرين ألفا منهم وباعوهم عبيدا ، واحرقوا القرى ودير كرابيد الكبير ، وقتلوا كل الرهبان الموجودين به ، ونهبوا الكتب وكل مقتنياته .

وفي هذا الزمان أخذوا حربيا قلعة تل عرب (٥٧)في بلاد شبختان واستعبدوا شعبها وباعوه .

وفي هذا الزمان قتلوا في تل بسما (٥٨) مائة وسبعين رجل سريانيا ، كذلك قتل عدد كبير من الشباب ، ولما رأى الحكام أن بلادهم قد خربت وأن القرى قد هجرت بدأ كل واحد يحارب التركمان في بلده ، فعم القتال كل بلاد كبدوكية وملطية .

وفي هذا الزمان دخل التركمان الى بلاد قلونية ، فقاتلهم الحاكم وقتل في قرية أمرون في البلاد نحو مائتين صبي ، وان اللسان لايستطيع ان يصف ماصار في تلك السنوات الثماني ، اذ من شرارة صغيرة عم الخراب والقتل في كل مكان .

في هذه الأيام كان في قبرص جزيرة اليونانيين حاكم يوناني اسمه قومنه تمرد على ملك القسطنطينية وجمع أساقفة اليونانيين وأمرهم

ان يرسموا لهم بطريركا ، فصنعوا كما أمـرهم ، ثـم قـام هـذا البطريرك فنصب قومنه هـذا ملكا ، وكانوا ينادون بـه في قبـرص ملكا ، وصار هو والبطريرك اضداداللذين في القسطنطينية الى فتـرة خروج الافرنج من رومية حيث اتى ملك انجلترا وتملك على قبـرص وحبسه بقلعة قرب انطاكية ، اما البطريرك الذي نصبه في قبرص فقد مات وانتهت عقيدتهم الباطلة ، وبعد هذا اعطى ملك انجلترا جـزيرة قبـرص للرهبـان الداوية ، لكن لما ارتحـل الملك الفـرنجي عاد اليونانيون الى الظهـور فـاجتمعوا بعشرات الالوف على الحـامية الافرنجية التي بقيت في قبرص ، وحاولوا أن يقتلوا الافرنج ويملكوا مكانهم ، ولما اشتعلت الحرب هزم اليونانيون ، لكن الافـرنج بعـد هذه الحادثة اقاموا في قبرص ملكا ، وكان هذا من قبل ملكا للقدس.

في سنة ١٤٩٨ يونانية يوم الجمعة ٤ ايلول خسفت الشمس لمدة ثماني ساعات ، وظهرت الكواكب في السماء .

في سنة ١٤٩٨ يونانية اتى إليّ مار يوحنا المفـريان ، وطلب أن يترك الرعاية فرفضت طلبه ، لكنه ترك رعيته ومضى لدير مار يعقوب في جبل الرها ، ثم ما لبث أن ندم وعاد إلي فاخذ مني تفـويضا وعاد إلى رعيته ، وكان ذات ليلة ينام على سطح البيعة فوقع ومات ودفـن في دير مار متى ، ثم كتب إليّ أهل تـكريت لارسـم لهـم رئيسـا للأساقفة وأعلموني أن عندهم رجل لا يحبونه يكنى ابن تمسح يقاتل لياخذ هذا المنصب ، ويؤيده أناس فـاسدون مثله ، وطلبـوا منا الا نقبل قط ابن تمسح صاحب الأفعال النجسـة المنتنه ، ثـم ارتسـم الربان يعقوب ابن أخي ، وابني الروحاني بطريقة ناموسية ، وكان ذلك في دير مار ديميط بنواحي ماردين ، يوم الأحد أول دخول الصوم سنة ١٥٠٠ يونانية ، وسمي غريغوريوس رئيس أساقفة المشرق .

في هذا الزمان توفي مار مرقص بطريرك الاسـكندرية ومصر ، وقـد خدم البطركية ثـلاثا وعشرون سـنة ، وكان ذلك في كانون الثـاني وارتسم مكانه البابا مار ايوانيس .

فتح بيت المقدس

في سنة ١٤٩٨ يونانية (١١٨٧ م) جمع السلطان صلاح الدين جيشا من مصر وبلاد العرب وسورية واثور واستعد ليقابل الأفرنج ، وفي يوم السبت ٤ تموز أعتقل ملك القدس وكل قواده وحاشيته بعد معركة طاحنة حدثت عند طبرية ، اما قمص طرابلس فقد رفض الاشتراك في المعركة ، وهرب إلى بلده ، وقد قال بعضهم : إنه كان يرغب أن يكون ملكا ، لكن الافرنج رفضوا ذلك .
اما أنا فأقول إن انكسارهم صار بارادة الله لأنه لايسقط عصفور في الفخ بدون ارادته .

اما صلاح الدين فقد قتل بيده أرناط الشيخ ومائة من الرهبان الداوية ، واستحم بدمائهم ، ثم خرب طبرية وقتل كل ما بها ، ومضى إلى عكا فهرب الزعماء كافة باتجاه البحر وبقي فيها الشعب المسكين فسلموها لصلاح الدين ، وطلبوا الأمان ، ثم توجه إلى قيسارية ويافا والسامرة والناصرة ، وامتلات الدنيا بالأسرى ، ومن الصعب أن يصف الانسان ما احتمله النصارى من الهزء والسخرية والازدراء في دمشق وحلب والرها وأمد وماردين والموصل وبقية أصقاع بلاد العرب .

وفي تشرين الأول عام ١٤٩٩ أعطى صلاح الدين الفرنج الذين في عسقلان عهدا واعتق الملك الذي كان معتقلا عنده فسلموه المدينة ، ثم صعد إلى القدس وحاصرها وخرب جزءا في سورها في ناحية الشمال الشرقي ، فأرسل الافرنج يطلبون الصلح ، وتم الاتفاق أن يعطوه عن كل شخص عشرة دنانير يخرج سالما ، فخرج منها من استطاع أن يدفع وكانوا الوفا وعشرات الألوف يبكون وينوحون ، اما الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا فسيقوا عبيدا ، وقد أعتق صلاح الدين عشرين ألفا من الرجال والنساء ، واربعة الاف من الشيوخ

والعجائز ووزع ستة الاف على عساكره ليكونوا عبيدا لهم ، وأرسل خمسة الاف إلى مصر ليعملوا ببناء الأسوار ، وترك خمسة الاف في القدس ، لأجل بناء السور والمسجد الاقصى الذي يدعونه قبة الصخرة ، وكان قد بناه العرب حين قدومهم إلى القدس ، وأقروا أن لا يدوسه مسيحي ، كذلك اعطوا كنيسة القيامة للمسيحيين ، وكان يلتئم إليها المسيحيون الذين بقوا عبيدا ويصلون ويبكون .

وحينئذ صعد صلاح الدين إلى مدينة صور الداخلة إلى قلب البحر ، وصدف في تلك الأيام أن أتى من رومية كونت اسمه كونراد ليصلي في القدس ولم يكن يعلم بما جرى ، وقد قام بتقوية الشعب ، وبث الروح المعنوية ، فتبعه الشعب واحتفظ بالمدينة ، ولم يستطع صلاح الدين أن يقهرها ، فتركها ومضى قاصدا صيدا وبيروت وجبيل وتبنين .

وفي سنة ١٥٠٠ أخذ صلاح الدين قلعتي الكرك والشوبك على ساحل البحر الأحمر ، والذي لأجلها صار حربه مع الافرنج .

وفي هذه السنة دخل صلاح الدين إلى ناحية انطاكية وأخذ بالحرب اللاذقية وجبلة وقلعة صهيون وشغر بكاس ودربسال وبغراس .

وفي هذه السنة أيضا صار نزاع في بلاد كبدوكيه بين الابن الاكبر للسلطان قلج أرسلان امير سبسطيه وبين اختيار الدين الحسن حاجب والده والذي استطاع أن يقلب السلطان على ابنه ، وقد احتشدوا للقتال في بلاد قيسارية ، وصارت معركة قتل فيها أربعة الاف من التركمان الذين ناصروا الابن ، فتفرق الذين اجتمعوا مع ابنه ورجع هو أيضا إلى سبسطيه ،وبعد ذلك اخذ الأمير بهر شاه أمرا من السلطان فأمسك وزيره اختيار الدين الحسن ، وصادر كل مقتناه وأرسله مع ابنه وعبيده إلى سبسطيه ، لكن في الطريق هجم عليه التركمان وكان قد أرسلهم ابن السلطان ، فقتلوا اختيار الدين الحسن ، وقتلوا أولاده وعبيده وقطعوه قطعا قطعا ، وعلقوه على

رؤوس الرماح وادخلوه إلى سبسطيه ، وكان ذلك يوم عيد الصليب .

في سنة ١٥٠٠ يونانية سمع هؤلاء الأشقياء أهل شيعة المنافق ابن تمسح فقدموا للحاكم مائة قطعة من الذهب الأحمر ، واخذوا أمرا منه بأن يفرض بحد السيف ابن تمسح ، لكن الشعب المؤمن رفضه لأنه وضع خلافا لنواميسنا وشرائعنا ، ثم اخذ يرتكب المعاصي والفواحش التي يجب أن لا نكتبها هنا ، لكن علينا أن نشير أن ابن تمسح هذا اتفق مع ابن وهبون ، وأتى كلاهما إلى ماردين فكرزوا ابن وهبون بطريركا وابن تمسح مفريانا (رئيس أساقفة) واعطيا السلطان الفي دينار ، واخذا أمرا من الحاكم وصارا يدوران مع الجنود على القرى ويأخذان الأرزاق من الشعب ، حينئذ ثار أهل رعية ماردين واخذوا أمرا بطردهما من البلاد ، فعادا إلى الموصل لكن أهل البلاد هناك ما لبثوا أن طردوا ابن وهبون أولا ، ثم امسكوا المنافق ابن تمسح وخلعوا عنه ثياب الكهنوت ، ونزعوا عنه كل رتبه ، ثم أرسلوا أساقفة وقسسا ورهبانا رجالا اشرافا اخذوا مار غريغوريوس المفريان القديس من نصيبين ، ودخلوا معه إلى الموصل ، فقبله الحاكم وعامة الشعب بنعمة الله الذي أصلح بيته ورتبه .

في سنة ١٥٠١ يونانية وقع كثير من الظلم على أساقفتنا فأرسلنا إلى السلطان صلاح الدين جبرائيل رئيس الدير ، وإلى أسقف الافرنج بشأن تمرد ابن تمسح ، ولما وصلوا إلى دمشق وقبل أن يصلوا إلى السلطان في عكا أمسكهم بعض الجواسيس ووضعوهم في السجن وأخذوا كل ما معهم ، لكن الرب أشفق عليهم فنجوا بواسطة مظفر الدين بن زين الدين أمير الرها ، وأحضروا من السلطان كتابا قويا واضحا ، ورجعوا فرحين بصلوات سيدنا مار برصوم .

في سنة ١٥٠٢ يونانية مات حاكم إربيل ابن زين الدين فترك اخوه حاكم الرها ، الرها وحران وسميساط ومضى وملك إربيل ونجح هناك وملك .

اما صلاح الدين فقد اعطى هذه البلاد لابـن اخيه تقـي الدين ، وكانوا يسموه سلطانا ايضـا ، وكان رجـلا قـاسيا شريرا يبغض المسيحيين والعرب سويه ، وقـد زاد ثقـل الخـراج والضرائب على المسيحيين وعلى المسلمين ، واحتال على الأمـراء أولاد بـوغوساج الذين في سيبابرك(٥٩) وأخرجهم من قلاعهم ، ومـن هناك مضى إلى ميافارقين التي كانت له من قبل ، ثم تابع فأخذ خلاط ومـلازكرد ، ومن هناك ارتحل ودخل إلى بلاد غلاطيه .

وبقي في بلاد ارمينية خمسة أشهر يسبي وينهب ، وبغير رحمة او شفقة كان يقتل المسيحيين خاصة ، لكن الرب ضربـه هناك فمـات فجاة ، وقد عم الارتياح كافة الشعوب ، وكمـا صـار مـن زمـان يوليانوس المنافق ، حينئذ خرج ابنه وعساكره من البلاد واتـوا إلى ميافارقين ، ولما تمرد ابنه على صـلاح الدين عم أبيه ، أرسـل ذاك اخاه المدعو الملك العادل وأخرجه من الرهـا ومـن حـران ومـن سميساط واخذهم لنفسه مع ميافارقين ، واعطى ذاك حماه وحمص ورد بلاد سيبابرك لأهل بوغوساج وصاروا كما كانوا من قبل تحـت حكم قطب الدين حاكم أمد .

وفي سنة ١٥٠٢ يونانية في حزيران انكسفت الشمس واظلم اكثر من نصف قرصها ، وظهرت الكواكب والقمر حولها .وفي سنة ١٥٠٠ يونانية ملك على ملطية أحد أولاد السلطان قيصر شاه معز الدين.

الحملة الثالثة

في سنة ١٥٠٠ يونانية خرج ملوك مع عساكر الافرنج وكانوا قـد أرسلوا امامهم في البحر شعوب من السن مختلفة ، يفـوق عددهـم عدد رمل البحـر ، وحلوا على عكا ، ولم يكن معهـم ملوكهـم بـل رؤسـاء كهنتهم وكهنتهم ، وبيعهم التى كانت في خيامهم.

كذلك اجتمع ايضا مـع صـلاح الدين شـعوب كثيرة مـن

المسلمين ، وقد عسكر الجيشان بالقرب من بعضهما بعضا ، حتى انهم كانوا يرون بعضهم ، ولم يستطع الافرنج أن يستولوا على المدينة لأن مقابلهم كان ستون الف مقاتل ، كذلك لم يستطع السلطان أن يدمر الافرنج الذين بدأوا يبنون البيوت والبيع للسبب نفسه ، وبلغ صلاح الدين أن ملك الألمان (فريدريك الأول قادم عن طريق القسطنطينية في مائتي الف فارس وراجل ، لكن اليونان لم يدعوه يغادر القسطنطينية ، فحاربهم واخضعهم له فاجتازوا الى نواحي قونيه ، فجمع ابن السلطان جيوش التركمان واخذ يناوشهم لكنه انكسر وهرب ، ثم وصل الافرنج ودخلوا المدينة وقتلوا اعداد كبيرة ، وكان بين القتلى ميخائيل حاكم ملطية المكنى بابا ، واخيرا عقد معهم السلطان صلحا ، وفتحوا له باب القصب فمضى الى قيليقيه ، وهناك اراد ملك الألمان أن يسبح في النهر ، وكان شيخا متقدما في السن فاختنق ومات ، ونقل ابنه جثته الى انطاكية وتابعوا سيرهم الى عكا .

في تلك الفترة خرج ملكان من أرض الافرنج ، فأخذوا قبرص من اليونانيين واتيا الى عكا وشنا عليها حربا ، قتل فيها العديد من الناس حتى امتلأت الاسواق من الجثث ، واخيرا استولى عليها الافرنج وكان ذلك في اول تموز عام ١٥٠٢ يونانية (١١٩١ م) وأراد الافرنج أن يعطوا الأتراك الذين بقوا في داخلها لصلاح الدين ، ويأخذوا مكانهم كل أسرى الافرنج الذين كانوا في دمشق ، لكن صلاح الدين رفض ذلك ، فغضب الملوك غضبا شديدا ، وأحرقوا كل الأسرى العرب ، فلما راى صلاح الدين ذلك هدم يافا وأسوار عسقلان ، أما الافرنج فقد ملكوا قيسارية ، وقووا مركزهم وبنوا يافا ، ووضعوا فيها محارس ، ثم صعدوا وبنوا أسوار عسقلان ايضا ، ووضعوا فيها سكانا من شعبهم ، حينئذ جمع صلاح الدين جيشا وقرر أن يحارب الافرنج ، وكذلك خرج الافرنج من عكا ليواجهوا الاتراك فتقابل الجانبان استعدادا للمعركة ، لكنهم مالبثوا أن عقدوا صلحا في تشرين الأول سنة ١٥٠٤ يونانية ، لمدة ثلاث سنوات حيث أعطى

صلاح الدين الافرنج ذهبا عوضا عن بناء سور عسقلان الجديد ، ثم عاد فهدم إسوارها كليا ، وأصبحت عسقلان مهجورة أما ملوك الافرنج فقد اقاموا في عكا واليا إسمه هنري ، وهو ابن أخت ملك الانكليز ورجعوا الى بلادهم ، وبنى صلاح الدين أسوار القدس بشكل قوي جدا اشد مما كان من قبل.

في هذا الزمان صار مجمع في دير مار برصوم قرر حرمان ابن تمسح وقد تعمم هذا القرار في كل البيع.

ولهذا الزمان لم يقبل أحد الكهنة أن يصير راعيا لرعية ماردين خوفا من الحاكم الذي كان يضطهدها ، فرسمت لها المعترف الرهاوي ، وكان حاضرا مار اثناسيوس مطران القدس ، لكنه هرب الى دير سيدنا مار برصوم ولم يشترك معي في سيامه هذا الشقي ، وقد قبلته الرعية برحابة صدر في البداية ، لكنه سرعان ما افتضح امره بعد أن قام بأعمال مشينة لامجال لذكرها هنا ، فطردوه ، فقرر ان يعلن اسلامه فعرف الخلقيدونيون من أهل ملطية بذلك ، فأخذوه الى القسطنطينية وخلع ثياب الكهنوت وصار خلقيدونيا ، ثم عادوا فارسلوه الى رعية الخلقيدونيين في ميافارقين ليكون لهم راعيا هناك ، أما نحن فقد انهينا الهيكل الذي بدأنا في بنائه في دير سيدنا مار برصوم ، وقد استغرق معنا ذلك أربعة عشر عاما ، فقد بدأنا فيه كما ذكرنا سنة ١٤٩١ يونانية وانتهينا منه في هذه السنة أي عام ١٥٠٤ يونانية بنعمة الله ومعونة سيدنا القديس مار برصوم ، وجمعنا اساقفتنا يوم الأحد في ١٥ ايار ، وافتتحناه بنعمة الروح القدس ، وكان الجمع الذي أتى الى دير القديس أيضا هو الجمع الذي ذكرناه أنفا في قصة ابن وهبون الذي مات في هذا الزمان ، هو وجاثليق الأرض وعدد كبير معهم.

في سنة ١٥٠٤ يونانية مات ـ كما ذكرنا من قبل ـ جاثليق الأرمن غريغوريوس في قيلقية ، وكان ذلك في شهر تموز ، فرسم الأرمن ابن أخي الذي توفي جاثليقا ، وكان صبيا ودعي أيضا غريغوريوس وتكنى ديراسو.

وفي هذه السنة مات ايضا بطريرك انطاكية الافرنجي هنري وقد مات في قلعته القصير ، واحضروا جثمانه وقبروه في بيعة انطاكية الكبيرة ، وقد وجد عنده أثاث فاخر ومقتنيات كثيرة جدا ، وقد اقاموا موضعه أحد القسوس الشيوخ واسمه رنقل .

وبهذا الزمان أرسل إليّ ايوانيس بطريرك الاسكندرية ومصر رسولا أسقفا شيخا اسمه بطرس ، واحضر لنا رسالة بالخط العربي واللغة العربية الفصحى ، يثبت اعتقاده بالأمانة المستقيمة المجد وتتضمن محبة وصداقة.

في سنة ١٥٠٦ يونانية حين ابتدات حروب الترك ، انتشرت المجاعة حتى أكل الناس جثث الأموات من البشر والحيوانات ، وقد باع عدد كبير من الناس أولادهم ، وفي بلاد شبختان فقط ناهيك عن البلاد الأخرى بيع الاف من الصبيان والصبايا ، وفي دانيث بيع اثنان وعشرين الفا وكلهم مضوا عبيدا الى بابل ، وحتى هذه السنة التى هي سنة ١٥٠٦ يونانية (١١٩٥ م) بقي الجراد يأكل في كل سنة الزرع والكروم من حدود مصر الى بلاد الترك ، ومن فارس الى بحر بنطس ، وصار سعر الكيل الكبير من الحنطة في ملطية بستة عشر دينارا سلطانيا.

وفي هذه السنة اي سنة ١٥٠٦ يونانية امر حاكم الرها الملك العادل بابطال الناقوس في بيع الرها ، وقد اغتم المسيحيون جدا ، الله يرحم.

وفاة السلطان قلج أرسلان

اما السلطان قلج أرسلان فعندما بلغ الشيخوخة وزع بـلاده على أولاده لكنهم كانوا اولادا عاقين ، فبقي عاجزا يتنقل من مـكان الى مكان فاشفق عليه أهل قـونيه ، فـأحضروه الى كرسـيه السـالف فيهـا ، لكن ابنه قـطب الدين ، وكان حـاكمها رفض اسـتقبال أبيه ،فقام غياث الدين اخوه وصاحب مدينة بروغلو بـانتزاع هـذه المدينة ، ثم زحـف الوالد والابـن الى أقصرا ، فمـرض الأب قلج ارسلان فنقله ابنه غياث الدين الى قونيه ، فتوفي ودفن هناك ، ودام ملك قلج أرسلان ثمان وثلاثين سنة ، وخلف من سـلالته اثني عشر ملكا.

وفاة صلاح الدين وماتلاه من أحداث

وفي سنة ١٥٠٤ يونانية مات أيضا السلطان صلاح الدين في دمشق ، وكان له ثلاثة وعشرون ابنا ، وقد وضع قبل موته ابنه الكبير بدمشق وسماه رئيسا على الجميع ، والثاني ملكه على مصر والثالث على حلب ، وهؤلاء الثلاثة كل واحد منهم كان يدعي سلطانا ، ثم وزع على الآخرين بقية مملكته ، ومضى كل واحد الى بلده ، كذلك أعطى أخاه الملك العادل ـ وكان يسمى ايضا سلطانا ـ حران والرها وميافارقين ،وسميساط وقلعة جعبر والكرك والشوبك .

ثم خرج حاكم الموصل واتفق معه اخوته حكام سنجار والجزيرة وحاكم ماردين ايضا وأتوا الى قرب حران ليحاربوا الملك العادل ويأخذوا منه بلادهم ، فجمع هو جيشا وأتى للقائهم ، لكن حاكم الموصل مرض فجأة وحل على نصيبين ، وعند ذلك خافوا فعادوا تحت طاعته كما كانوا مع أخيه ، فرد لهم الخابور ، واصطلحوا ومضى هو ليملك على الأرمن ، لكنه لم يستطع فرجع خائبا.

اما عز الدين حاكم الموصل فقد مات وملك بعده ابنه نور الدين أما لاون حاكم قليقية فقد أمسك البرنس بوهيموند حاكم أنطاكية وعذبه كثيرا ، وجازاه كما كان قد وضع بروفين أخي لاون ، حينئذ اتى الوالي هنري من عكا واعتقه ورجع لأنطاكية.

أما لاون فقد قوي بعد موت السلطان قلج أرسلان ، فاحتل في بلاد الروم أثنتان وسبعين قلعه ، أخذها من الاتراك واليونانيين ، وكان دائما منتصرا ، فأخذ أولاد السلطان يحتمون به.

عندما خرج أخي المطران مار اثناسيوس من القدس بعد خرابها اتى الى دير سيدنا مار برصوم ، فـأرسلته عوضـا عني وبسـبب شيخوختي الى انطاكية ، فاستقبلوه كالملك واحبه الجميع ، وبقـي هناك سنتين ، ثـم تـوفي وكان ذلك يوم الخميس ٢١ تشرين الاول عام ١٥٠٤ يونانية وسجي جسده في دير داوود عند قبر مـاريوحنا البطريرك ، ليرحمه الله ، امـا القـدس فـارتسم عليهـا اغناطيوس ، اي الشهيد رئيس ديرها.

وفي كانون توفي ديونوسيوس مطران ملطية وقام مـكانه اياونيس مطران قيسارية اي ابن قنون.

وفي تشرين سـنة ١٥٠٥ يونانية اتـى الينا في دير مـاربرصوم غريغوريوس المفـريان ومعـه الاسـاقفة الأربعـة الذين في ابرشيته ، ثبتوا عهدهم الناموسي مع ابيهم الروحاني ، ولما رجعوا الى كراسيهم حرموا الشيطان ابن تمسح ، وكان هـذا قـد قـال للحاكم :إن المفريان هرب ولن يأتي بعد ، لذلك عندما رجع الأساقفة حرموه ونبذوه ، وكذلك نبذه الشعب المؤمن ، ولما وصـل المفـريان استقبله الحاكم بترحاب ، وكل واحد فرح به.

وفي هذه السنة ارسل لاون حاكم قيليقية وسرق قلعة الروم وأخذ الجاثليق الصبي ، ولما انكشفت افعاله حرمه اساقفة الأرمن ، وقد وضع لاون الجاثليق في السجن في قلعه تدعى غوبيدره وقد حاول ذلك الشقي أن يهرب فسقطت عليه صخرة ومات ، وقد خـزي الأرمـن بهذا العمل.

بعد ذلك رسموا لهم جاثليقا هو ابن عم الشـيخ المسـمى ابيررد ودعي ريخوروس .

كمل هذا على يد الخاطيء الشـقي العـاجز الكسـلان العبـد المظلوم ، وارجوا منكم العفو يا اخوتي وابائي عن كل نقص صنعته يداي.

انتهـى تـاريخ ميخـائيل السرياني في كانون الأول (١٥٠٦) يونانية (١١٩٥ م) بـالخبر التـالي في كانون الأول عام ١٥٠٦ يونانية (١١٩٥ م) مضى حـاكم أبلسـتين الى لاون ، وقـدم له الطاعه ، ثم مضى لاون الى حاكم قيسارية وانتصر عليه واغتصـب منه قلعة قرب قيسارية .

روايات ابن العبري

غريغوريوس بن هرون بن توما الملطي

(أبـــو العبـــاس المســـتظهر بـــالله

(٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ م)

مدة خلافته خمسة وعشرين عاما وخمسة اشهر ، وفي هذا العام ماتت تركان خاتون أم السلطان محمود ، ويقال إنها كانت جـريئة حكيمة يتصل نسبها بأفر سياب رأس ملوك الهون ، وأما أبـوها فهو طغراج ملك الخزر ، ولم يبـق تحـت سـلطة ابنهـا الا اصفهان ، ومع ذلك طمع فيه أخوه السلطان بركياروق فـزحف على اصفهان بشرذمة من جنوده ، فأغلق أتباع السلطان محمود ابوابها في وجهه ووجـه جنده ، ولكن أتبـاع بـركياروق أصروا على فتـح أصفهان ، ففتحوها وادخلوا فيها سلطانهم بركياروق ، فمكث بهـا يوما واحدا ألمت خلاله بأخيه محمود حمى شديدة توفي بسببها وهـو في السابعة من عمره ، فانضوى زعماء اصفهان تحت لواء بركياروق وملكوه إياها .

وفي عام ٤٨٨ هـ / ١٤٠٦ لليونان ، (١٠٩٥ م)قدم سـلطان قونية قلج أرسلان بن سليمان الى ملطية وحاصرها ، وارسل أحـد الزعماء سفيرا له ليفاوض مطران المدينة المسمى سعيد بن صابوني الذي دعي صاحب السدرات ، وكان رجـلا قـديسا وخبيرا حنكتـه تجارب الحياة ، فكلمه السـفير بـاللغة اليونانية وبحضـور الزعيم جبرائيل اليوناني صاحب المدينة قائلا :يريد السـلطان أن تسـلموه المدينة ويعد أنه سوف يعامل سكانها معاملة طيبة ، والا فسيفتحها بحد السيف عنوة ، ومن ثم تكون دماء المقتولين في رقبتكم ، فأجاب المطران السفير قائلا لاتهرف بما لاتعرف ، فليس بمقدور أحـد ان يأخذ مدينتنا لأن خيراتها كثيرة ففيهـا خبـز لأكثـر مـن عشرة أعوام ، ومياهها تنبع من داخلها ، وفيهـا الكثير مـن المحـاربين الشجعان كما ترون ، وعندما كان المطران يتحادث مع السـفير كان

جبرائيل اللعين واقفا خلفه يتسمع ساكتا وعندما انصرف السفير ، قال المطران لجبرائيل الخبيث : لقد كنت يامولاي أصغي لما قلته والحري بنا أن نبعد السلطان عنا بمعسول الكلام ونفيس الهدايا وانت على علم بما يعانيه الاغنياء والفقراء من الضيق ، فحقد هذا الخبيث على المطران ، وأوعز بقتل أحد الضباط في اليوم التالي ، وعندما علم المطران بذلك راح يتضرع الى جبرائيل ليكف عما بيته لذلك الضابط فغضب هذا اللعين على المطران وأخذ يوسعه شتما ، وبينما كان جبرائيل يسير على حصانه بين سوري المدينة عاد فرأى المطران فهوى بسيفه على رقبته ، فأرداه قتيلا ، ولم يتسن للمؤمنين أن يشيعوه ويواروا جثمانه في الكنيسة الا بعد يومين ، وأما السلطان ، فعندما علم بقدوم الفرنج ترك ملطية وقفل راجعا •

وفي عام ٤٨٩ هـ وهو عام ١٤٠٧ لليونان(١٠٩٦)م، تكهن المنجمون بأن طوفانا كطوفان نوح سيحدث ، فاستقدم الخليفة المستظهر المنجم ابن عيسون ، وسأله عن صحة ذلك ، فأجاب ابن عيسون : تجمعت في عهد نوح الكواكب السبعة السيارة ببرج الحوت ، ولهذا وقع ذلك الطوفان العظيم ، وأما هذا العام فلا أثر لزحل في برج الحوت فلو كان مع سائر الكواكب لكان من المرجح أن يقع طوفان كطوفان نوح لكنه ستحتشد جماعات كثيرة من الناس في أحد الامكنة ، وسوف يأتي سيل عرم ويجرفهم فيغرقون كلهم ، وللحال وصلت أخبار مفادها ان الحجاج في مكة فاجأهم سيل عرم فأغرقهم كلهم .

وفي هذا العام أجهز جبرائيل اليوناني حاكم ملطية على أبي سالم الرئيس الصادق الايمان ، صهر آل عمران اذ دس له سما فقتله كذلك أجهز هذا اللعين على التجار المؤمنين الورعين الآتية أسماؤهم :

برصوما ابن الراهبة ، وابنته وباسيل حوا ، وسهدو شماس

طانطيني ، ونهب من بيت ابي منصور بن ملكا ذهبا وفضة وبضائع مختلفة ، كما سلب من كنسية المطـران قنينة ميرون ، والكثير مـن الصلبان والمباخر وغير ذلك من الذخائر ، وخـرب البيوت ، وعمـر السور والقلعة بأحجارها ٠

بداية الحروب الصليبية ١٠٩٧

زحف الفرنجة الى المشرق

وفي عام ١٤٠٨ لليونان ـ (١٠٩٧ م)قدم ملكان فرنجيان وسبعة قمامصة الى انطاكية واستولوا عليها من الاتراك ، أما السبب المعلن لقدومهم فهو أن التركمان بعدما استولوا على فلسطين وسورية وغيرهما من الاصقاع شرعوا يعاملون الحجاج المسيحيين المتوجهين الى بيت المقدس معاملة سيئة ، ولاسيما الحجاج القادمين من ايطاليا ونواحيها ، ولهذا تحمسوا وجهزوا جيشا حاشدا وقصدوا بادىء ذي بدىء الى اسبانيا ، فدخلوا مدنها ، وقتلوا الكثير من العرب ، ومثلوا بهم ففقؤوا أعينهم ، وقطعوا آذانهم وجدعوا أنوفهم ، ثم واصلوا مسيرهم الى القسطنطينية ، فمنعهم الكيس ملك اليونان أن يعبروا من هناك ، وظلوا يحاصرون العاصمة سبعة أعوام ، ولكن دون جدوى فقرر الافرنج أن يتحولوا الى انطاكية فحاصروها مدة تسعة أشهر ، لم يتمكنوا من احتلالها ، ولهذا تآمروا سرا مع الفارسي روزبه حارس البرج الذي كان بجانب مخاضة كشكروف وأغروه بذهب كثير ، وكان ذلك البرج مقاما على دعائم حديدية فدخلوه ليلاً وتسلقت جماعة منهم السور بالحبال ولما ازداد عددهم فوقه ، شرعوا ينفخون بأبواقهم في آخر الليل ، فظن الحاكم التركي يغسيان أن الفرنجة دخلوا القلعة فداخله خوف شديد ، فما كان منه إلا أن توجه نحو باب المدينة وفتحه وهرب مع ثلاثين رجلا باتجاه طريق حلب ، وما إن انبلج الصباح حتى شرع يصرخ ويقول : كيف تخليت عن المدينة وتركت أموالي وأهلي وأولادي ؟ ثم أخذ ينظر نحو انطاكية ويبكيها ، ولشدة حزنه هوى عن فرسه فاركبه أصحابه غيره الى أن سئموا فتركوه مطروحا

على الارض وانصرفوا فلقيه حطاب ارمني ، وعندمـا عرفـه قـطع رأسه وذهب به الى الفرنجة .

على هذا النحو سقطت انطاكية بيد الفرنجة فبطشوا بمن فيها من العرب والأتراك ، وسلبوا خيراتها وولوا عليهـا أحـد القمـامصة واسمه بوهيموند ، وقد بقي الافرنج في انطاكية مـدة خمسـة عشر يوما لايجدون شـيئا ياكلون حتـى اضـطروا ان ياكلوا لحـوم خيولهم ، ولما علم السـلطان بـركياروق بـاحتلال الفـرنجة لأنطاكية ، جهز جيشا عظيما قوامه مائة الف فـارس وسـيره الى انطاكية ، وعندما بلغ الجيش بغـراس خيم هناك ، وشـاهد احـد ملوك الفرنج في نومه حلما ، فحفر مكانا في بيعة القسيان ، فوجدوا فيه مسامير صليب الرب يسوع فصاغوا منها سنان رمـح وصـليبا وجعلوه لواء زحفوا تحته نحو الأتراك ، فنصرهم الرب على الاتراك وقتلوا منهم اناسا كثر ضاقت بجثثهم الأرض على سعتها .

وبعد ذلك قصد الفرنجة المعرة ، فدخلوها وبطشوا بنحـو مـائة الف نسمة من سكانها وعاثوا فيهـا فسـادا مـدة أربعين يومـا يسرقون ، وينهبون ومن ثم قصدوا الجبال فبطشوا بالكثيرين مـن النصيرية ، ثم اتجهوا نحو لبنان فحصروا عرقة قرب طرابلس مـدة أربعة أشهر ، ولكنهم لم يتمكنوا مـن الاسـتيلاء عليهـا فتـركوها وقصدوا شيزر بين حمص وطرابلس فانصاع صاحبها ابـن منقـذ العربي لهم ، وقدم لهم الجزية ، فتحولوا عنه الى حمص فاذعن لهم صاحبها جناح الدولة ، فتحـولوا عنهـا ايضـا الى طـرسوس والمصيصة وأذنه (١) .

وكان الترك يومئذ يشغلون سروج في نواحي حران والرهـا وكان الأرمن يتولون على بلاد زغما غربـي الفـرات قـرب البيرة ، وكان باسيل كبيرهم متوليا رعبـان وكيسـوم بين حلب والرهـا ، وكان ايلغازي ابن ارتق في سميساط على شاطيء الفرات الغربي ، أمـا مرعش والجبل الاسـود فـكانتا بيد ابناء فلرطس الارمني . وكانت قيليقية وعين زربة بنواحي المصيصة في ملك بني رافان الأرمن أمـا

طنكريد ملك انطاكية فانه حشد الجيوش وزحف الى بلاد الترك واستولى على قلاع وحصون كثيرة ، ثم توجه الى منبج وبالس وعاد في الربيع الى طرابلس ليطعم الخيل العشب .

لكنه لما استفحل أمر الفرنج لم ير الترك بدا من مراضاتهم فبعث رضوان صاحب حلب إلى طنكريد باثنين وثلاثين ألف دينار وعشرين حصانا أصيلا ، واربعين قطعة من القماش الفاخر ، وأرسل اليه صاحب صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب عسقلان أربعة آلاف دينار ، وصاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وعلي الكردي صاحب حماة ألفي دينار ، وأبرموا جميعا الهدنة الى زمن الحصاد ليعطوا الغلال للفرنج .

الاستيلاء على بيت المقدس

قوي أمر الافرنج في الشرق فوجهوا جيوشا ضخمة الى فلسطين برا وبحرا وحاصروا في طريقهم يافا واحتلوها في عدة ايام ، ثم بلغوا بيت المقدس فاحدقوا بالمدينة من كل صوب وبنوا حولها عدة ابراج خشبية وترابية واقاموا عليها المنجنيقات والعرادات وواصلوا الحرب اربعين يوما .

وكان بيت المقدس يغص يومئذ بالناس والعسكر المصري والعدد الحربية وكان صاحبها افتخار الدولة الافضلي قد أبعد عنها المسيحيين فاحتشد الفرنج في برجين ابتنوا احدهما عند الجهة الجنوبية من باب صهيون ، والآخر عند باب مار اسطفانس في الجهة الشرقية فصار العرب يرمون برج صهيون بالقذائف المحرقة ، لكن سرعان مادوت صيحة بين العرب تقول ان الفرنجة دخلوا من الجهة الشرقية ، ومن ثم أعملوا السيف في رقاب أهل المدينة اسبوعا كاملا وقد قتلوا اكثر من سبعين الف عربي في المسجد الاقصى وسلبوا من عند الصخرة أربعين قنديلا فضيا زنة كل منها

ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، كما نهبوا من قبة الصخرة مائة وأربعين قنديلا فضيا وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وسبعمائة درهم ، واخذوا كذلك مائة وخمسين من القناديل الصغيرة بينها عشرين قنديلا من الذهب المصري ، وكان بين مانهبوه ايضا منارة فضية تزن أربعين رطلا سوريا ، علما أن الرطل السوري يساوي ستة أرطال بغدادية ، أضف الى ذلك الكثير الكثير من الأواني والذخائر الفاخرة ، وكان أول من ملك من الفرنجة في بيت المقدس غودفري الذي تسلم حكمها سنة ١٤٠٩ لليونان (١٠٩٨) م تولى سنتين وتوفي ، فخلفه في حكم بيت المقدس بلدوين وقد تولى امر هذه المدينة مدة سبعة عشر عاما

ولما علم المصريون بما جرى في بيت المقدس زحف الافضل ابن أمير الجيوش بجيش عظيم عام ١٠٩٩ فالتقى مع الفرنجة قرب عسقلان ، فتغلب عليه الفرنجة وبطشوا بالكثير من جنوده ، ومن ثم واصلوا مسيرهم الى عسقلان ، فقدم سكانها اثني عشر الف دينارا للفرنجة فقنعوا بذلك وغادروا عسقلان راجعين الى القدس .

صراع السلطان بركياروق واخيه محمد

وفي عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ثار اقطاب الاتراك على السلطان بركيارق انتقاما من الوزير مجد الدولة الذي كان يسيء معاملتهم ، ففتكوا بهذا الوزير لكنهم لم ينصبوا بركيارق بل توجهوا الى اخيه محمد وبايعوه بالسلطنة ، ورضي السلطان عن ذلك وأصدر فرمانا رسميا سمي (فرمان الرضا) وتسمى محمد « غياث الدنيا والدين أبا شجاع محمد » فزحف بركيارق الى بغداد متتبعا اخاه محمدا ، فالتقى جيشاهما ودارت بينهما حرب سجال ، ينتصران وينكسران .

وفي عام ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م توفي الطبيب البغدادي يحيى بن جزلة واضع كتاب المنهاج الشهير الذي يتحدث عن الأدوية والأغذية

البسيطة والمركبة ، والذي لايزال متداولا بين أيدي اطباء هذا العصر ، ومما يذكر ، أن يحيى هذا كان نصرانيا ، قرأ المنطق على يدي ابي علي بن الوليد ، وقد اقنعه أبو علي السفسطي « أن الاتحاد الحبي والاقنومي على زعم النساطرة لايمكن تصوره في الطبع الالهي » وبذلك حسن له الاسلام فأسلم ، والجدير بالذكر ان يحيى هذا كان غنيا لكنه لم يعالج مريضا قط بدون أجره ، الا أصدقائه فقط •

معارك صنجيل مع الطرابلسيين والدمشقيين والحماصنة •

وفي عام ١٤١٤ يونانية (١١٠٣) م بلغ العرب أنه ليس مع صنجيل في طرطوس الا ثلاثمائة فارس فاتفقوا على أن يغيروا عليه من طرابلس ودمشق وحمص ، فوجه مائة من فرسانه نحو الطرابلسيين ومائة نحو الدمشقيين ، وخمسين نحو الحماصنة ، أما الخمسون الباقية فأبقاها بقيادته ، وعندما التقى الجمعان فر الحماصنة والدمشقيون الى الجبال ، علما انهم كانوا يزيدون على خمسة آلاف محارب ، وأغار صنجيل على الطرابلسيين الذين كانوا يقدرون بثلاثة آلاف محارب ، فدحرهم وتتبع العرب المهزومين هو وفرسانه الخمسون ، فأهلك من العرب زهاء سبعة آلاف ، ومن ثم ترك قيليقية قاصدا طرابلس فأغار عليها ، ولكنه لم يتمكن منها فحاصرها سبع سنوات واحتلها عام • •(٢) وبسط سلطانه على طرطوس،وبطش بسكانها من العرب واقتحم قلاعا عدة .

وفي تلك الفترة قدم عن طريق البحر قمص آخر ، فحاصر عكا وضايق سكانها ، واحتل الفرنجة الرها ، ومن ثم راحوا يغزون ويسبون البلاد السورية من العرب البلد تلو الآخر •

- ٢٢٦١ -

احتلال الأتراك لمدينة ملطية

كان الأمير ابن دانشمند صاحب كبدوكيا التركي يثقل في مطالبة صاحب ملطية جبرائيل اليوناني ، وكان ابن دانشمند هذا يأتي الى ملطية صيفا فيعيث فيها فسادا .

ويأكل غلالها ثم يغادرها شتاء ، ولهذا اغرى جبرائيل اليوناني الفرنجة باحتلال مدينته ملطية ، واقسم لهم ثلاثا انه سيسلمهم المدينة ، فصدقوه وسار الملك بوهيموند الى ملطية وهو مطمئن ليأخذها ، على أن جماعة من الأرمن كانوا منذ ايام فيلردين يتولون بعض المناطق منهم كوغ باسيل اي اللص صاحب كيسوم ورعبان وابناء روبين حكام بعض نواحي من أرمينية خافوا ان يستولي الفرنج على ممالكهم ويطردونهم منها ، فكتبوا سرا الى اسماعيل بن دانشمند واتفقوا على أن يكمن لهؤلاء الفرنجة ، ولما وصل بوهيموند قرية حفنة قرب ملطية أخذ ذلك الخبيث جبرائيل اليوناني يماطله ويسوفه ويؤجله من يوم الى أخر حتى وصل اسماعيل بن دانشمند وكمن للفرنجة فأسر بوهيموند وأرسله الى سبسطية وتوجه إلى ملطية وطوقها ، ومن ثم أخذ جبرائيل يتمادى في ظلمه للأهالي الى أن تذمر منه ضابطان استقدما الأتراك إلى المدينة ، فدخلوها وكان ذلك يوم الأربعاء ١٨ ايلول ١٤١٣ لليونان ،(١١٠٢) م وفي النسخ العربية عام ١٤١٢ لليونان (١١٠١) م فسلب الأتراك ما في ملطية المنكودة الحظ من الثروات ، كذلك أباح ابن دانشمند لجنده ان يستولوا على أموال هذه المدينة لكنه لم يسمح لهم بأسر اهاليها ، فقد احسن ابن دانشمند معاملتهم ولم يؤذوا أحدا منهم وردهم الى بيوتهم ، بل أحضر من بلاده المزيد من الثيران والقمح والحاجيات ، وغير ذلك من المؤن ووزعها عليهم ، ولهذا نعم الملطيون في عهده ببحبوحة من العيش ، ثم ولي عليهم حاكما تقيا ورعا يدعى باسيل ورحل .

وأما جبرائيل الخبيث ، فقد أنزل الله غضبه عليه ، فصار

الاتراك يسومونه سوء العذاب ، ولطالما ذكره النصارى بما كان منه من المظالم ، والتعدي على حياة الآخرين وخاصة على المطران الورع ، والزعماء المضطهدين الذين بطش بهم ، وبعد أن بالغ الأتراك في سبه وأشبعوه شتما توجهوا به الى قلعة قطيعة حيث كانت تسكن زوجته ، وطلبوا اليه ان يأمر زوجته بأن تسلمهم القلعة ولكنه راوغهم وخاتلهم ، وقال لزوجته سلمي القلعة وهذه اشارة مني : اني بعثت اليك قبل ايام فتى اسمه ميداس - علما أن ميداس لفظة أرمنية معناها لاتسلمي - ولما اكتشف الأتراك مكره فتكوا به ورموا جثته الى الكلاب واستقدم ابن دانشمند ملك الفرنجة بوهيمند الى ملطية ثم باعه بمائة الف دينار ، فعاد هذا الى انطاكية وتنازل عنها لابن اخته ورجع الى بلاده.

وفاة السلطان ركن الدين بركيارق

وفي عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ابتلى السلطان ركن الدين بركيارق بأمراض عدة ومختلفة كالبواسير والسل وغيرها من الآفات ، فأدرك أن منيته قد دنت ، فاستخلف الاقطاب بأمر ابنه ملكشاه الصغير ، وبعث به الى بغداد ونودي به وبلقب جلال الدين ملكشاه ، علما أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة من العمر ، وتوفي والده بركيارق فدفن في اصفهان ، وعندما كان في بغداد قدم اليها عمه السلطان محمد فخاف البغداديون ان يختلف السلطانان ، فيكونوا هم مرتعا للسلب والنهب ، ولما كان الأمير اياز وصي الملك ملكشاه يحظى بقسط محمود من الذكاء والدهاء ، وقائدا لجيوش بركيارق وبالتالي فهي تأتمر بأمره ، ذهب الى السلطان محمد واستحلفه قائلا ان هذا الفتى ، هو ابن أخيك وينبغي أن تحوطه برعايتك وأن تعمل على توطيد حكمه ، فأجابه السلطان محمد قائلا ان ملكشاه هو ابني ، ووعده خيرا ، فتركه الأمير اياز الذي زار السلطان ملكشاه وحظي بحسن ضيافته ، وفي اليوم التالي أقام الأمير مأدبة دعا اليها السلطان فلبى الدعوة ، ولسوء الحظ حضر كاتب متدرع

بدرع تحت ثيابه وكان واقفا يخدم ولايتحرك الا بصعوبة وبطء فأثار شكوك السلطان ، فأوحى إلى أحد عبيده ان يستطلع أمر تعثره في ذهابه وايابه فذهب العبد وتلمس الكاتب بحجة مداعبته ، فأحس أن تحت ثيابه درعا ، فأخبر السلطان بذلك ، فقال السلطان لنفسه اذا كان الكتاب يتدرعون ، فما هو شأن الفرسان الأتراك ؟ ورجح أن أياز يبطن له المكر والغدر ، فأشار إلى مرافق له أن يضرب به ويقتله ففعل ، وعندما علم الأتراك حلفاء اياز بذلك حملوا ماأمكنهم من أموالهم وأموال غيرهم وفروا الى سورية .

وفي آذار ٤٤٩ هـ ـ ١٤١٧ م لليونان (١١٠٥ م) فاضت الأنهار ولاسيما الفرات فخرب الكثير من دور بغداد ، وقد بلغت المياه دار رجل غني ، فكادت تغمرها ، فوضع اهله وامواله في سفينتين وقصد مكانا عاليا ، وبعد ان عبرت السفينتان قليلا غرقت احداهما ، وقد كان على متنها فتاة مع امها وتسع جوار غاليات الثمن فغرقن جميعا وغرق مامعهن من متاع ، وعندما رأى ركاب السفينة الثانية ذلك ، عادوا الى دارهم ، وقد تضاءلت المياه في اليوم التالي ، فحمد الناس الله وامتدحوا أحكامه التي لاتدرك ، وأتقنوا ان نجاة الناس بأمر الله .

وفاة دانشمند

وفي هذه السنة عينها توفي في سبسطية دانشمند بعد ان تولى مدينة ملطية عامين ، فقدم قلج ارسلان لمحاصرتها في ٢٨ حزيران ، ونصب المنجنيقات على برج مستدير في الشمال الشرقي من المدينة التي احتلها باليمين بعد معارك وليس بالسيف ، وذلك في الثاني من ايلول ١٤١٧ لليونان (١١٠٦ م) وقد احسن معاملة الأهالي .

وفي سـنة ٥٠٠ هـ ـ ١١٠٦ م) كان الأمير التـركي جكرميش واليا على الموصل فعزم ان يتمـرد على السـلطان محمـد فخلع السلطان الأمير جكرميش التركي هذا ونصـب مـكانه الامير جاولي وزوده بجيش جرار ، وعندما التقـى بجيش جـكرميش عند اربيل هزم جكرميش واسر لكن أهل الموصل تحالفوا مع زنكي بـن جكرميش واحتشدوا استعدادا لمقاتلة جـاولي ، واسـتنجدوا بقلج أرسلان بن سليمان بن قطلمش ، سلطان قونيه ،أما جـاولي فقـد دخل الموصل منتصرا ومعه جكرميش أسيرا وحفر بئرا عميقا ورمى جكرميش فيه مخافه أن يخطفه الأهـالي ، ولم يلبـث جـكرميش أن لفظ أنفاسه في هذا البئر المظلم.

وكان في وقعه جكرميش ، أبوطالب بن كسـيرات الموصـلي لكنه هرب والتجأ الى صاحب اربيل ابن موسك ، فبعث جاولي الى ابـن موسك هذا طالبا منه أن يرسل له أبا طالب هذا فلبى طلبـه ، وقـام بالمقابل وافرج عن واحد من أبناء صـاحب اربيل كان جـاولي قـد أسره ، وعندما قدم ابن كسيرات لزيارة جاولي ، وعده بأن يعـطيه الموصل وتعهد بأن يجمع له مقدارا مـن الذهـب مـن معـارفه واصدقائه ، ولكن العدو اللدود لابن كسيرات قـاضي الموصـل ابـن ودعان ، اتفق مع جاولي ووعده أن يسلمه الموصل شريطة أن يبطش بابن كسيرات ، فنفذ جاولي ذلك وأرسل له رأس خصـمه فغضـب أتراك الموصل على ابن ودعان وهجمـوا عليه وقتلوه ولم تـكن قـد مضت على فعلته هذه أيام معدودات.

وفاة السلطان قلج ارسلان

وفي ذلك الحين قصد قلج ارسلان جزيرة قردو قـادما مـن بـلاد الروم ، فهرب جاولي الى مدينة بلد وغزاها ، ثم تحـول عنهـا الى سورية ، فدخل قلج أرسلان الموصل واحتلها دون قتال ، وصفح عن زنكي بن جكرميش وأصحابه ولم يؤذ أحدا منهـم ، وأعاد القـاضي

عبيد الله بن القاسم الشهرزوري الى مكانته ومنصبه ، ومنع الخطبة باسم السلطان محمد في الموصل ، وجعلوا يخطبون فيها باسم قلج أرسلان بعد الخليفة ، ونصب في القلعة شحنة اسمه بزميش ، وجعل ينادي باسم ابن ملكشاه ملكا ، وهو لا يزال في الحادية عشرة العمر ، وأسكنه مع أمه هناك في البلاط وزحف الى الخابور برفقة خمسة آلاف فارس ، وأما الأمير جاولي ، فقد تحالف مع صاحب حلب رضوان ، وقصد الخابور بأربعة آلاف من الفرسان الشجعان والمدربين حيث وقعت معركة طاحنة تعد بحق ملحمة بينه وبين قلج أرسلان ، وقد أظهر شجاعة نادره ومنقطعه النظير ، فقد استطاع أن يخترق صفوف جيش خصمه وضرب يد حامل رايته وبترها ، ثم هجم بنفسه على جاولي وطعنه بالسيف ولو لم يكن جاولي يلبس درعا حديديا لكانت ضربة قلج ارسلان الجريئة هذه قد مزقت قلبه ، وعندما لاحظ أصحاب جاولي ورضوان شجاعه قلج أرسلان واستبساله بينما كان أصحابه متلكئين انقضوا على أصحابه ، وبطشوا بهم ، فخاف عندئذ قلج أرسلان وأيقن انه بقي وحيدا كما أيقن أنه سيموت لأنه إن عفا عنه رضوان وجاولي فإن السلطان سوف يقتله لانه كان قد منع الخطبة باسمه في الموصل ، لهذا كله ألقى بنفسه وهو على حصانه في نهر الخابور ، وظل يقاتل ويطعن كل من تبعه ، ولكن درعه الحديدي كان أثقل من حجمه وشجاعته ، و سرعان ماهوى حصانه في مجرى النهر العميق فغرق ومات ، وبعد عدة أيام لفظته مياه الخابور الى الشاطيء ، فرآه بعض المارة فنقلوه ودفنوه في مقبرة الشمسانية (٣) ، وأما رضوان ، فقد قصد أطراف الرقة بينما رجع جاولي الى الموصل ، حيث فتح له أهلوها الابواب فدخلها دون قتال ، وألقى القبض على احد حجاب جكرميش وصادر منه اربعين ألف دينار من الذهب ، ثم طلب من بزميش أن يتخلى له عن القلعة وعن كل ما سلبه من أهالي الموصل مقابل أن يغادر بسلام الى بلده ، فانصاع بزميش لأوامر جاولي حالا لأن حاميه ومولاه قلج أرسلان كان قد مات ، فغادر القلعة ومعه أهله وزوجة قلج ارسلان

واهلها وقصد ملطية ، واما ابن قلج ارسلان ملكشاه الفتى ، فقد كان جاولي أرسله الى السلطان.

بعد ذلك قصد جاولي الجزيرة واضطهد سكانها فاضطر حباشي ابن جكرميش أن يقدم له ستة آلاف دينار وحصانا عربي الأصل ، فتركها وتحول عنها ميمما شطر الموصل حيث عزل القاضي ابن الشهرزوري ونصب مكانه أبا بكر الاربلي ، لكن هذا الانتصار قد غره فتغطرس وتمرد وخلع طاعه السلطان غياث الدين محمد ، ولم يعد يبعث اليه كعادته شيئا مما كان يغنمه ، فارتاب السلطان وتشكك في نوايا جاولي ، فسير اليه عدة أمراء بقيادة الامير مودود على رأس جيش عرمرم ، وذلك سنة ٥٠٢ هـ ـ (١١٠٨ م) ، وعندما علم بذلك جاولي حصن مدينته ، وترك فيها زوجته ـ وهي أخت برسق أحد امراء الموصل ، ونشر المدافعين فوق السور وطلب منهم أن يدافعوا عنه وان يحموا المدينة ، ثم غادرها خيفة أن يحاصر وهو فيها ، وخرج وكأنه يبحث عن رجال ينجدوه في صد الغزاة القادمين ، واصطحب معه قمص فرنجي يدعى بلدوين ، كان قد أسره من قبل ، ووعده بالافراج عنه إن هو قدم له سبعين ألف دينار ، وافرج عمن لديه من الأسرى الغرب ، وأن يخدمه مع سائر الفرنجة كلما احتاج الأمر ذلك ، ثم طلب اليه أم يقيم في قلعة جعبر الى أن ينفذ هذا الاتفاق ، فاستقدم القمص بلدوين ابن اخت له يدعى جوسلين وأودعه لدى الأمير رهينة مكانه وذهب هو ليعد الذهب الذي تم الاتفاق عليه.

وأما أهالي الموصل ، فقد أثقلت كواهلهم الضرائب التي فرضتها عليهم زوجة جاولي التي بقيت في الموصل فصعد جماعة من عملة الجص الى برج من أبراج المدينة وأطلقوا صيحات مدوية بشعار السلطان الكبير غياث الدين محمد ، ثم دخل الأمير مودود وصحبه الموصل واحتلوها فلاذت زوجة جاولي بأخيها الأمير برسق ، وأما جاولي نفسه فقد قصد إيلغازي والي نصيبين وماردين الذي كان في

رعبان قرب الخابور في تلك الايام ، وقد حـاول جـاولي جـاهدا أن يقنع ايلغازي بالتحالف معه ،ولكن إيلغازي تركه فسـار الى قلعـة ماردين ، وبعد ذلك قصد جاولي الى الرحبه وحاصرها مدة سـبعين يوما ثم بعث يطلب من جوسلين أن يأتي من قلعة جعبـر ، فـأعطاه حصانه ، ووشحه بحلة ملكية ، وارسله الى خاله بلدوين يسـتعجله في جمع الذهب والافراج عن الأسرى العرب ، وعندما بلغ جـوسلين انطاكية أعطى الى طنكريد صاحبها ثلاثين الف دينار أرسلها هـذا بدوره الى جاولي مع مئة أسير وأسيرة من العرب من مدينة حلب.

وغادر جاولي متوجها الى الرقة فحاصرها مدة طـويلة ، فبعـث اليه السلطان غياث الدين الأمير حسين بن أتابك يدعوه للعـودة الى خدمته وطاعته ، والعودة كما سلف إلى الموصل ، فرفض جـاولي هذا العرض ، وزحف الى بـالس فحـاصرها ودمـرها وبـطش بأهلها ، ولما علم رضوان صاحب سورية وحلب بمـا فعله جـاولي ببلاده استنجد بملك انطـاكية طنكريد ، فبـادر لنجـدته على رأس جيش مؤلف من ألف وخمسمائة فارس افرنجي وسـتمائة فـارس تركي من أصحاب رضوان نفسه ، كما استنجد جـاولي بجـوسلين وبلدوين فأتيا لنجدته أيضا ، وذشبت معركة عند تل باشر أسـفرت عن تغلب فرنجة وأتراك رضوان على فرنجة وأتراك جـاولي ، وقـد قتل في هذه الوقعة كثير مـن الاتـراك ، وأمـا الفـرنجة فلم يقتلوا بعضهم بعضا ، بل كانوا يكتفون بأن يلقي أحدهم الآخر عن صهوة جواده ، وإثر ذلك انهزم جوسلين وبلدوين الى تل باشر في مجموعة من جند جاولي ، فعالجوا جراحهم ثم ردوهم اليه .

ولما أيقن جاولي أنه قـد خسر وهنت عزائمـه وخـارت ، فلم ير وسيلة إلا الاستعانة ثانية بالسلطان فبدل اسمه وهيئته وسـارع في بعض اصحابه من سورية الى خراسان قـاطعا ثـلاثمائه وسـتين فرسخا في سبعة عشر يوما ، وعندما بلغ المعسـكر ، قـال لدليله في الطريق : أنا جاولي نفسه أريد خيمة الأمير حسين وكان سلف ورآه من قبل في الرحبة فاصطحبه هذا الى السـلطان وهـو يحمـل كفنه فعطف عليه السلطان وجعله من بطانته ، أما بزميش فـأخذ زوجـة

قلج أرسلان من الموصل الى ملطية ، ونادى بطغرل أرسلان بن قلج أرسلان الفتى سلطانا ، وصدف أن كان هناك أمير شان يدعى أرسلان ، فطلبت أمه أن يبطش بابنها هذا ويتزوجها ، ثم اتفقت أم الفتى مع بعضهم فقبضوا على أرسلان وسجنوه فاعتقد الناس أنهم قتلوه لكنهم ما لبثوا أن أرسلوه بعد سنه حيا الى السلطان غياث الدين بخراسان ، فبعث هذا الى ملطية السلطان ملكشاه بن قلج أرسلان فنادوا به ملكا وخلع طغرل أخاه الصغير وسجن أخويه عربا ومسعودا ، وأما ملكشاه فقد بقي في ملطية عدة أيام يضايقه ويشدد عليه ابن دانشمند ، فقصد ملك الروم ألكسس يستنجد به فاستقبله وأكرمه وأجزل له العطاء ، وفي طريق عودته نصب له ابن دانشمند كمينا فاعتقلوه وأحضروه فسمل عينيه ،عند ذلك أفرج زعماء ملطية عن أخيه مسعودا ونادوا به سلطانا عليها ، ولكنه سرعان ما غادر ملطية تاركا فيها أخويه عربا وطغرل أرسلان وقصد قونيه واستقر فيها وجعلها عاصمته ٠

غارات الفرنجة في سورية

وفي عام ١٤٢١ لليونان(١١١٠ م) انتزع الفرنجة طرابلس من العرب بعد أن حاصروها مدة سبعة أعوام ، وفي العام الثاني زحف طنكريد ملك أنطاكية في جيش عظيم من الافرنج ، وانتزع حصونا كثيرة من العرب ، وبطش بكل من فيها ، ومن ثم قصد منبج فلم يجد فيها أحدا ، كما قصد بالس فلم يجد بها أحدا فأحرقها ، ورجع الى طرابلس لترعى مواشيه الكلا ثم يعود ثانية ، وبات العرب في سورية بخطر داهم فقد تعذر عليهم مهادنة الفرنجة إلا بالمزيد والمزيد من الذهب ، فقام والي حلب رضوان باهداء طنكريد اثنين وثلاثين الف دينار ، وأربعين قطعه من انفس الاقمشة ، وعشرين جوادا عربيا أصيلا ، في حين قدم له حاكم مدينة صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب حماة علي الكردي الفي دينار ، وابن منقذ صاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وكذلك صاحب عسقلان أربعة الاف دينار

أيضا وعقدوا معه هدنة الى موسم الحصاد فقط وعلى شرط أن يقدموا الغلال الى الفرنجة أيضا.

وفي هذا العام اعترض الفرنجة الافا مؤلفة من التجار العرب القادمين من دمياط وتنيس ، وأسروا سبعين تاجرا منهم وباعوهم بأغلى الأثمان بعد أن سلبوا منهم خمسين حملا من الاقمشة الدمياطية واربعمائه صندوق من السكر المصري الى غير ذلك من البضائع والامتعة.

وفي هذه الأونة زار بغداد فقيه كبير قدم من حلب فأخذ يبكي ويندب حال عرب بلاد الشام بسبب ظلم الفرنجة وبطشهم بهم ، فاجتمع أهالي بغداد يوم الجمعة في المسجد الكبير وألغوا الصلاة ، وكسروا المحراب ، احتجاجا على الخليفة والسلطان لمسائل تقاعسهما عن محاربة الفرنج.وعندما علم السلطان بذلك أرسل ابنه أبا الفتح مسعودا والأمير مودود على راس جيش كبير الى الموصل لمقاتلة الفرنجة.

وفي عام ١٤٢٢ لليونان(١٩١١ م) انتزع أتابك سلطان ملطية من الفرنجة بلدة جيحان وحل محلهم فيها ، كما زحف في هذا العام ، وانتزع في طريقه بعض الحصون في شبختان وفتك بمن كان فيها من الفرنجة ثم توجه الى الرها ، فحاصرها مدة طويلة ، ولكن لم يتمكن من دخولها ، فتحول عنها الى تل باشر التي كانت للفرنجة ، فلم يتسن له دخولها ، فتحول عنها الى حلب ، لكن صاحبها رضوان أوصد الأبواب في وجهه ، فواصل زحفه الى دمشق ، فبادر إليه أميرها طغتكين وعرض اخلاصه وولاءه في البداية ولكنه خشي أن يغدر به ويحتل المدينة ، فراسل الفرنجة وهادنهم ضاربا عرض الحائط به وبتعهداته.

وفاة الغزالي

وفي هذا العام توفي العلامة العربي الغزالي ووري جثمانه في طرسوس قيليقية ، ولطالما قرع العرب في مؤلفاته ، لاهتمامه بطهارة الجسد وغسله متغاضين عن طهارة النفس والقلب ، وكذلك حضهم على الزهد والعفاف موردا لهم الأدلة الكثيرة والبراهين القوية عن قصص الآباء السياح في كتابه الجليل الضخم ، وهذا ما حملني على ذكره.

وفي عام ١٤٢٤ لليونان ـ ١١١٣ م غادرت الخاتون زوجة السلطان قلج أرسلان مدينة ملطية الى قلعة بولا . لتتزوج من صاحب هذه القلعة (بلك) لما سمعته من ثناء السلطان عليه ، وقالت له : لقد سمعت السلطان يثني دائما عليك ويقول ليس بين الأمراء الاتراك أشجع وابرع وأحكم منك لذلك آثرت أن آتي اليك لتحميني وتحفظني أنا وأولادي فتزوجها وعلت مكانته لاقترانه بامرأة السلطان.

لكن عندما رجعت الخاتون الى ملطية بادرت فطردت منها الأتابك وانفردت هي وابنها بالقلعة ، ويقال إن أحد الاتراك كان مستوليا على حصن زياد ، فظل بلك يضايقه الى أن اشترى سلطان ملطية ذلك الحصن من هذا التركي ، ثم ما لبث أن قدم ابن السلطان محمود سلطان خراسان فاستلبه منه ، وخلال هذه الأثناء أبدى أهالي ملطية عطفا كثيرا فاشتروا كثيرا من أهالي حصن زياد ممن كانوا مأسورين لدى الأتراك واعتقوهم.

وفاة طنكريد

وفي عام ٥٠٧ هـ ـ ١٤٢٥ لليونان(١١١٤ م) مات صاحب انطاكية طنكريد فخلفه عليها رجير ، وفي هذا العام ايضا اشتبك عند

طبرية جيش بقيادة بلدوين وجوسلين يتألف من ألفي فارس وراجل مع جيش بقيادة الامير مودود كان يتألف من سبعة آلاف فارس ، فانهزم الفرنجة شر هزيمة، وقتل منهم الف وثلاثمئة راجل فهرع صنجيل من طرابلس ، ورجير من أنطاكية لنجدتهم وخيمت جيوش الفرنجة هذه على جبل يشرف على الغرب ومكث الجيشان مدة ستة وعشرين يوما ، دون ان يتعرض أحدهما للاخر، فتوجه الفرنجة الى نهر الاردن، ورحلت جموع العرب ، بعدما أنهكهم الجوع بسبب بعدهم عن مدنهم ومراكز امدادهم الى ضواحي دمشق ، وذهب مودود الى المسجد لصلاة الجمعة ، وعندما فرغ من ذلك أمسك بيد طغتكين واخذ كل منهما يسرح أنظاره في عماراته المدهشة، وبينما هما كذلك هجم رجل اسماعيلي على الامير مودود وبادره بأربع طعنات بسكينة فنقلوه للحال إلى دار طغتكين حيث مات هناك،وفي الحال هجم عبيد مودود على القاتل الاسماعيلي فجعلوه أشلاء مبعثرة ، وخيل لبعضهم أن صاحب حلب رضوان هو الذي دبر عملية اغتيال مودود ، في حين ذهب آخرون الى ان طغتكين نفسه هو الذي يقف وراء هذه العملية ، لانه كان يخشى أن يطمع مودود بمدينته ، ولهذا أغرى هذا الاسماعيلي الذي كان مسجونا لديه بسبب جرائمه ووعده بجائزة ثمينة إن خلصه من مودودوإن يخلي سبيله ويكافيه . وخلف مودود في القيادة الأمير آق سنقر البرسقي،وسرعان ما توجه آق سنقر هذا على رأس خمسة عشر الف جندي الى الرها وحاصرها لمدة شهرين .

وفي عام ٥٠٨ هـ (١١١٥) م كان الفرنجة يخرجون من الرها باستمرار ويهاجمون العرب وفي إحدى الغارات ساقوا الى مدينتهم احد عشر عربيا ،وبتروا ارجلهم وأيديهم وعلقوا جثثهم قبالة الاتراك على السور ، وقد أغضب هذا آق سنقر فقتل خمسين أسيرا من الفرنجة حالا،ولما أنهك الجوع الأتراك تحولوا عن الرها الى سميساط التي كانت ترعى أمرها زوجة كوغ باسيل الأرمني ، كما كانت ترعى أيضا أمر مرعش وكيسوم ورعبان ، وقد كانت هذه المرأة تحسن معاملة رعيتها بعد أن مات زوجها ، وقد أعدت جيشا

كبيرا من فرسان ورجالة ، وقد كانت تدفع للفارس اثني عشر دينارا ذهبا ، وأما للراجل فقد كانت تدفع ثلاثة دنانير•

أحوال الأرمن

وأمـا الحـكومة الارمنية ، فلم يكن حـالها يختلف عن تلك الصورة ، فقد استعاد اليونان بعد ان تحسنت احوالهم بعض بلادهم من العرب ، على أن هذا التحسن لم يمكنهم من مقارعة الأتراك ، فقد بقي هؤلاء في بلادهم متخذين الأرمن الذين اعتصموا

بالأماكن الجبلية والجزيرة عملاء لهم ، فقد كان ميخائيل واوهذس في جرجر ، وبيت بولا ، وكان كوغ باسيل (اي اللص) في كيسوم ورعبان وبيت حسنة وقلعة الروم ، وأما الأخوان ابنا قسطنطين بن روبين ففي قيليقية ، أما نبتوغ وبيستفور وقسطنطين ابناء سنبل فكانوا في كورة سميساط ، وهؤلاء قوم سريان تبعوا كوغ باسيل ، وباسيل الفتى الذي نشأ في رعاية زوجة كوغ التي كان يرعى شؤونها كرديك اللعين ، الذي كان يعرف بكرهه الشديد للسريان ، لذلك احتل ديرهم المعروف بالدير الأحمر الواقع قرب كيسوم ومنحه لغريغوريوس جاثليق الأرمن ، وجعل خمسة من ديرتهم الكائنة في بيت قنايا بجبل زوبر ، قرى ، وأخلى دير عرنيش من رهبانه ، وأسكن فيه حراسا وجنودا ، واضطهد هؤلاء الرهبان وسلبهم الفي دينار .

واما ملك انطاكية تنكرد ، فقدحاصر كيسوم مدة سنتين ثم احتلها ، وامـا كرديك السالف الذكر ، فقد عرف بمسكره ودهائه ، ولهذا لم يستطع الفرنجة أن يتغلبوا عليه الا بالمكر والخداع فقد زفوا اليه فتاة فرنجية تدعى كلامارى شأنه في ذلك شأن شمشون ، فدست له السم فمات .

ولما رأت زوجة كوغ باسيل الجيش التركي يبطش ببلدها ويعيث فيها فسادا استنجدت بآق سنقر امير الخابور ، فلاطفته وأخذته

بالكلام المعسول واعدة اياه بالمساعدة فبعث اليها سفيرا يدعى سنقر دراز الطويل وقبل ان يصل اليها هـذا السـفير ارتقـت عرشـها الملكي ، وجعلت جـوار مـن حـولها يدخلن بنفيس الحلي والثياب ، وبعد أن دخـل مجلسـها هـذا جلس قبـالها على كرسي فراحت تخدعه بحلو الكلام ولطيفه قائلة : مر جيوشك المعسكرين في الخيام ان يدخلوا المدينة لأن جـواسيس أخبـروني أن الفـرنجة يتأهبون للهجوم ، ولكن سـنقر لم يأخـذ بـكلامها ولم يتخـل عن غطرسته الى أن هجم سـبعمائة فـارس مـن الفـرنجة على جنوده الاتراك فلم ينج منهم الا القليل ، وبعد ذلك ردت امرأة كوغ بـاسيل سنقر الى سيده آق سنقر محملا بأنفس الهبات ، فرجع الى سروج وحاصرها خمسة أيام عاث فيها جنده خلالها فسـادا في مـزروعات هذه البلدة وغلالها ، ومن ثم سـار الى شـبكتان حيث أقـام هناك وليمة فاخرة حضر اليها الملك مسعود بن السلطان الذي لم يذهب مع مودود ، بل بقي في هذه البلدة ، وبعد ذلك قبض سنقر على اياز بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين وبطش به ، وغزا بلده .

وضربـت مـرعش في ٢٩ تشرين الثـاني مـن عام ١٤٢٦ لليونان (١١١٥) م و ٢٩ مـن الشـهر السـادس العربي هزة ارضية جعلتها قاعا صفصفا ودفنت اهلهـا في ركامهـا كما تخربت دور عدة في سميساط ، ومات فيها خلق كثير ، ومنهـم قسطنطين صاحب جرجر ، كذلك وانهار ثلاثة عشر برجا من سـور الرها ، كما انهار جزء من سور حران ، ومائة دار في بالس ونصف قلعتها وانهارت كنيسة ماريوحنا في كيسوم وكنيسة الأربعين شهيدا فيها ، ولكن هاتين الكنيستين أعيد بناؤها بفضل مساعي اسـقفها ديونيسوس .

وفي سـنة ٥٠٩ للعـرب أي سنة ١٤٢٧ لليونان (١١١٦ م) هـاجم رجير صـاحب انطـاكية بخمسمائة من الفرسان الأمير آق سـنقر في منطقـة تقـع بين حلب والمعرة فالتجأ هذا الأمير مع أخيه زنكي الى احدى التلال ، ولكن

الفرنجة استمروا في قتلهم لأفراد الجيش التركي ومن معه من التجار وفر آق سنقر وأخوه مع عدد قليل وطاردهم الأفرنج نحو فرسخ ولكنهم لم يمسكوا بهم ، فعادوا وأسروا ثلاثة آلاف تركي ، وحطموا ما معهم من متاع واضرموا في خيامهم النار واحرقوا جميع الشيوخ والصبيان الصغار غير القادرين على العمل ، وساقوا البقية الى أنطاكية .

وفاة الخليفة المستظهر

وفي عام (١١١٧) م أي سنة ٥١٠ هـ توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه في أصفهان وخلفه ابنه السلطان محمود ، كما توفي في هذا العام الخليفة المستظهر في بغداد ، وخلفه ابنه المسترشد الصغير ، كما مات في شهر آب من هذا العام ملك اليونان آلكس الذي اشتهر بالشجاعة والحكمة والاقدام فقد استطاع ان يحافظ على عاصمته ولم يمكن الفرنجة من دخولها وقد اضطرب وضع المملكة بعده ، ذلك أن ابنه يوحنا الذي خلفه في الملك اختلف مع أخيه وأخته وأمه ، فحاولوا أن يغدروا به لكنه كان أقوى منهم ، فنفى اخته وأخيه ، وقص شعر أمه وأودعها في الدير ، وفي هذا العام توفي ايضا صاحب غزنة ، وملك مصر ، وبعد ذلك بقليل قتل صاحب أنطاكية رجير ففي هاتين السنتين مات ثلاثة عشر ملكا قبل ان تحصل الهزة الأرضية المدمرة التي ذكرناها من قبل .

أبو منصور المسترشد بالله فضل ـ ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

دام حكم المسترشد بالله سبع عشرة سنة وثمانية أشهر ، وقام بتكسير خوابي ابيه الكثيرة والممتلئة بالخمر وطرد المغنيين والمغنيات من أرض البلاد في بداية تولية الخلافة ، وأخذ يميل

للتصوف ، فقد سيطر عليه الاضطراب عندما راى ابيه في حلم ، يقول له : خذني من عندك حتى لاآخذك الي فقام المسترشد وقبره في منطقة اخرى.ثم امر بتفتيش دار الكاتب ابي طاهر بن أحمد فوجد فيها بيعة وآنية المذبح ، فقال له : ماهذا الشيء ؟ فأجابه كانت لي زوجة نصرانية فصنعت كل ذلك دون معرفتي .

حرب الأمير ايلغازي بن أرتق

احتل الامير ايلغازي بن أرتق حران في عام ٥١٢ هـ (١١١٨) واعتقل قاضيها وشيوخها الثقاة ، وكان والي حلب قد دفع الى رجير صاحب انطاكية ذهبا كثيرا ، لكنه لم يستطع ان يتوصل الى مهادنته الا أربعة اشهر فقط ريثما يحصد الفلاحون أراضيهم وجمع القمح عن البيادر ، لأن رجير سرعان ماعاد وحاصر حلب فاستنجد الحلبيون بالأمير ايلغازي بن ارتق أمير ماردين فلبى نداءهم بجيش قوامه سبعة آلاف تركي ، وشرع يهاجم الفرنج حتى كسرهم وقتل اميرهم رجير ، فانهزم الأفرنج الى انطاكية ، لكن الاتراك لحقوا بهم واحتلوا ضواحي انطاكية ، وقتلوا كثيرا من الرهبان في الجبل الاسود ، ولما علم بذلك ملك القدس بلدوين الثاني لحق بالاتراك ، كما لهم ثم فاجاهم وقتل منهم الكثير ، وعاد ادراجه يريد ايلغازي حيث استولى على كل ما غنمه وسلبه ، وأعاده الى انطاكية وقد ذكر البطريرك ميخائيل السرياني أن غازي بن دانشمند هو الذي كسر الافرنج ، وقتل رجيز ولعل تشابه الاسمين هو الذي أوقعه في هذا الخطأ .

وقعت في سنة ٥١٢ للعرب احداثا كثيرة فقد احتل أمير ملطية جيحان وابلستين وقلعة قطيعة ، وكذلك غزا الفرنج في شهر شباط بلدة ملطية وغزا الأتراك بلد جرجر ، كذلك غزا أمير ملطية بلدة قماح ، فتوجه صاحبها الى طرابزون واستنجد باليونان ، فأرسلوا

معه قائدا واسمه جيراس ، لكنه سرعان ماإعتقل بعد ما هاجمه امير ملطية وبلك ، فدفع لهما ثلاثين الف دينار وعاد الى بلاده .

واستولى يوحنا ملك القسطنطينية على ثلاثة حصون من الترك وغزا ايلغازي ضواحي انطاكية وأشعل النار في غلال بلدة الرها ، وتولى الحكم ابن طغتكين صاحب دمشق بعد موت ابيه إلا أنه سرعان مابطش به التنطاش التركي وتولى مكانه .

وفي عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م) انقض دون موافقة الأمير زنكي الملك مسعود في الموصل على أخيه السلطان محمود فحشد جيشا وهاجم أخاه ، إلا أن السلطان تمكن من القبض عليه وكبله بالقيود وولى بدلا عنه بلاد الموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين الأمير البرسقي .

وفي تلك الأيام أرسل ملك القسطنطينية اليوناني إلى ايلغازي بن ارتق قائلا : إن أعداد كبيرة من الفرنج توجهوا إلى سورية عبر البحر ، وعلينا أن نستعد لمقاتلتهم وإذا احتجت فإنني أستطيع إرسال ثلاثين ألف مقاتل نجدة لك ، فسارع ايلغازي وسد الموانيء وسدد إلى الفرنجة ضربات شديدة فقتل معظمهم وهرب من تبقى إلى فروجية ، وكان ذلك مؤامرة من اليونان المراوغين .

وفي أطراف حصن زياد وبولا وملطيه كان ارمن جرجر يغيرون وينهبون ، فبعث بلك الأمير التركي إلى ميخائيل الارمني صاحب جرجر طالبا بأن يوقف أتباعه عن السلب ، مقابل تقديم كل عام الف حمل حنطة وثلاث قرى من قراه ، فأقسم له ميخائيل صاحب جرجر على الوفاء غير مرة لكنه كان يحنث بقسمه دائما وبقي أتباعه يسرقون ويحرقون القرى في هنزيط،مما اضطر بلك للعبور إلى جوباس في شهر شباط على جليد الفرات،فقد كانت الثلوج متراكمة في ذلك الشتاء القاسي،وعلى الرغم من ذلك اجتاز جبل قريونا الشاهق فقد أرسل ألفا من الخيول شقت الثلوج وسارت وراءها الجيوش التركية .

ووصلت إلى دير برصوم خلال يوم واحد وقد شقت قوات بلك في جرجر جبل الجدار خلال الليل وهجموا على ملطيه في يوم الاثنين أول كانون الثاني ١٤٣٢ لليونان (١١٢١ م) وأسروا السكان واستولوا على الحيوانات،لكن بلك عاد فأشفق على الفلاحين المسيحيين فأعاد لهم أموالهم كلها ، ونقلهم إلى هنزيط وأصدر لهم أمرا أن لايعودوا ثانية إلى جرجر ، وأنه إذا وجدهم ثانية في تلك المناطق فإن عقابهم سيكون شديدا .

وفي عام ١٤٣٣ لليونان (١١٢٢ م) أرسلت إلى بلدة الكرج جيوش تركية ضخمة من قبل السلطان محمود فأغلقت الثغور واهلكت الكثير ، ثم غزا بلده جوباس الفرنجي.وفي هذا العام توفي الملك ايلغازي بن أرتق.وتزوج ابنة جوسلين رجير صاحب انطاكية بعد وفاة زوجته ، وأراد أن يصطحبها معه إلى الرها ، لكن بلك نصب كمينا لها وقبضوا عليها واخذوها إلى بولا.كذلك تنازل عن جرجر للملك بغدوين ميخائيل الأرمني بعدما تغلب عليه الأتراك واستولى على مكان آخر .

وفي العام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) أتى إلى بغداد قاضي الموصل ابن الشهرزوري ودفع للخليفة خمسة آلاف دينار واحتل غربي دجلة كلها من حدود الموصل حتى البصرة .

« أسر بلك لملك بيت المقدس بلدوين »

بينما كان الافرنج مخيمين عند شواطيء نهر سنجة في عام ١٤٣٤ لليونان (١١٢٣ م) فاجأهم الأمير التركي بلك وتمكن من القبض على الملك بلدوين وكان ذلك يوم الأربعاء من أسبوع البياض ، واستعد القمصان جوسلين وغالران كل الصيف لمحاربة الاتراك وفي أيلول تلاقى الجيشان ، واثناء الحرب تمكن بلك من الانتصار على الفرنج.وكان ذلك ليلة عيد الصليب واستطاع أن يأسر القمصان جوسلين وغالران حيث ألقى بهما في بئر مهجور مع الملك

بقلعة خرتبرت ، وهي حصن زياد ولكن العمال الأرمن تمكنوا من دخول القلعة حينما تأكدوا بأنه لايوجد هناك إلا عدد قليل من الاتراك ، فقد تجمهروا أمام الباب محتجين على الاجرة التي يأخذونها ثم هجموا على الحراس وأخذوا السيوف وقتلوا الأتراك الذين في القلعة ، وانتشلوا الملك بلدوين وجوسلين وغالران من البئر ، وقضوا على العرب واحتلوا القلعة ، ثم احتال جوسلين فغادر القلعة ليلا متنكرا بصحبة رجل ارمني ليأتي بجيش ويحتل القلعة لينقذ الملك بلدوين ، غير أنه ماكاد يخرج جوسلين حتى وصل بلك فضرب القلعة بالمنجنيقات واحتلها ، وقتل سبعين من الأرمن والفرنج ، وقاد بلدوين وابن أخته غالران إلى منبج وحاصرها إلا أن سهما أصابه من أعلى السور فقتله فهربت جيوشه إلى حلب وتولى ابن عمه تمرتاش بعده فباع الأسيرين بمائة الف دينار ، وعاد بلدوين إلى بيت المقدس ، بعد ذلك تولى حصن زياد سليمان نسيب بلك ، وتولى أميرملطية مسارا وجرجر ، وفي تلك الأيام ظهر في السماء شهاب امتد من الجنوب إلى الشمال ، وكان عرضه بعرض رقبة الحصان وقد ظل في السماء لمدة شهرين .

وقائع

١٤٣٥ ـ ١٤٤٦ يونانية / ١١٢٤ ـ ١١٣٥ م

هجم الأمير غازي بن دانشمند صاحب سبسطية على ملطية في يوم الجمعة ١٣ حزيران ١٤٣٥ لليونان (١١٢٤ م) فتمكن من اجتياح ضواحيها كلها ، ثم حاصرها لمدة شهر لكنه لم يستطع اخذها فترك حولها ، في قرية سامان ابنه محمدا مع جيش كبير ، وامره بمداومة حصارها وان لايدع أحدا يدخل إليها أو يخرج منها ، وفي هذا الوقت كان اميرها المدعو عرب يغير على بلد دانشمند ويسرق وينهب .

وادى حصار ملطية إلى تفاقم الجوع بين أهلها حتى وصل سعر قفيز الحنطة ، أي حمل الجحش إلى ستة وثلاثين دينارا ذهبا وانتهى القوت من المدينة فأخذ أهل ملطية يسلقون الجلود اللينة والأحذية وأغلفة الكتب ويأكلونها ، كذلك انقرضت من المدينة الحمير ، والقطط والكلاب وهكذا يكون قد نزل بملطية ثلاث نوازل اليمة نتيجة الحصار الذي وقع عليها . الجوع الذي يفتك بأهلها والسيف الذي يتسلط على رقبة كل من يخرج منها ، وايزابيل الثانية ، أم السلطان التي كانت قد اتت من الموصل لتسلب الناس مامعهم من ذهب ومقتنيات وتمضي ، لكن الرب لم يطل محنة المسيحيين والامهم ، فارتحلت تلك الملعونة مع ابنها وكان ذلك في ليلة الأربعاء العاشر من كانون الأول ١٤٣٦ لليونان (١١٢٥ م) ، وفي ذلك اليوم تساقطت نجوم من السماء ، و عندما دخل الأمير غازي ملطية ارتاع لما رأى الناس كأنهم خارجين من القبور لكثرة ما أصابهم من الجوع وأشفق عليهم ، ومنحهم الحبوب والحنطة ليزرعوها ، كذلك استحضر لهم البقر والأغنام والثيران ليعتاشوا منها وانتعشت أحوال السكان وعادت فازدهرت المدينة.

ذكر البطريرك ميخائيل السرياني : أن الخليفة المستظهر توفي هـذا العام وخلفه المسترشد ابنه ، ولعله أخطأ في روايته بسبب الاختلاف بين السنين العربية القمرية والسنين اليونانية الشمية .

في سنة ١٤٣٧ يونانية (١١٢٦ م) قتل الافرنج صاحب حمـاة في كفرطاب ، واحتلوا جبله وضـيقوا الخناق على صـور بـوساطة مراكب الفرنج القادمين من مدينة البندقية ، أضف إلى ذلك فقد أتى ملك بيت المقدس لمساندتهم فاستطاعوا أن يحتلوا صور بعد معـارك طاحنة .

وفي هذا الوقت حشـد الملك عرب جيشـا وهـاجم أخاه مسـعود سلطان قونية لتحالفه مع ابن دانشمند فهرب السلطان مسـعود إلى ملك اليونان يوحنا في القسطنطينية ، فرحب به يوحنا وزوده بجيش كبير ، ومال وذهب وقصد غازي ، ثم سـار الجيشـان إلى عرب ، وحدثت معركة انهزم فيها عرب وهرب إلى بلد قـورس الأرمني أمير قيليقية ، وفي عام ١٤٣٧ لليونان (١١٢٦ م) هجم على آق سنقر البرسقي أمير الموصل عشرة من الاسماعيلية وطعنوه وهو يصلي في مسجد الموصل القديم لكنه نهض وتمكن من قتل ثلاثة منهم قبـل أن يموت ، وخلفه ابنه عز الدين مسعود على الموصـل وجـزيرة قـردو والجزيرة وحلب وحماة وغيرها ودامت ولايته سنة واحدة ثم تـوفي ، فخلفه أخوه الصغير ، وكان يسـاعده الأمير جـاولي ، وكان مـن غلمان أبيه البرسقي ، وبعد ذلك أرسل جاولي قـاضي الموصـل أبـا الحسن علي بن الشـهرزوري وصـلاح الدين الياغسـياني بمثـابة رسولين إلى السلطان في بغداد ليؤيد ابـن البـرسقي الصـغير في الولاية،غير انهما قالا للسلطان : إن الموصل تحتاج إلى رجل قـوي يستطيع مقارعة الافرنج الذين هزموا العرب جميعا.

وقصدا بالقول : أتابك زنكي بن قسـيم الدولة آق سـنقر ، الذي كان شحنه في واسط وبغداد فوافق السـلطان وحمله فـرمانا بـذلك وأرسله إلى تلك المدينة ، وحين مروره في بيت وازيق احتلهـا ، وعند بلوغه الموصل ولى صلاح الدين الياغسياني أمر حراسة القلعة .

وأرسل جاولي إلى الرحبة،وكلف ابـن شـهرزوري قـاضيا على الموصل وماتلاها يرثه في القضاء نسله من بعده على طول الزمـن . وتولى زنكي كذلك الجزيرة واربيل وسنجار والرحبة وحلب وحماة وحمص ، وانهزم عرب ولحق به غازي واستولى على خيامـه ، ثـم انطلق إلى قومانة وانقرة وحاصرها شـديدا في عام ١٤٣٨ يونانية (١١٢٧ م) واحتلها واستطاع أن ينقذ محمـد ابنه الذي كان قـد حبسه عرب هناك . ثم حشد عرب جيشا للمرة الثانية وزحـف يريد غازي فانكسر وفر هاربا إلى بلاد اليونان ، ثم ضاعت أخبـاره ولم نعد نسمع عنه شيئا . ثم أتى من رومية بـوهيموند بـن بـوهيموند الفرنجي إلى أنطاكية عام ١٤٣٨ يونانية وتولى مقاليد الأمور فيها، ثم نشب خلاف بين الفرنج فغزا جوسلين ضـواحي أنطـاكية ممـا سبب غضـب بـطريركهم عليه ، وأغلق الكنائس وأمـر بإيقـاف الصلوات وقرع النواقيس حتى يرد جوسلين جميع الغنائم .

وفي عام ١٤٣٩ لليونان (١١٢٨ م) صمم الحلبيون أن يدفعوا لجوسلين كل عام إثني عشر ألف دينار شرط أن لايضـيق عليهـم ، واتفق بعض أتراك حلب مع فريق من طباخي الفرنج بـأن يعـطوهم ذهبا مقابل أن يسقوا جوسلين وستة من فرسانه سما مما أدى إلى القضاء على حياة الستة إلا جوسلين فقد تمكن الأطباء من معالجته حتى شفي وبعدها قضى على الذين سقوه السـم وفتـك بعـائلاتهم وأولادهم جميعا.

في تلك السـنة غزا طغـرل أرسـلان أطـرافـ ملطية الخارجية وكانت قد انتزعت مـن يده . لكن بعـد ذلك عاد أدراجـه وضاعت أخباره ولم نعد نسـمع عنه شـيئا ، ثـم غزا جـوسلين التركمان والأكراد عام ١٤٤٠ لليونان ووصل إلى آمد ، وفي السـنة نفسها علم زنكي أن السلطان يريد أن ينصب دبيس زعيم المعـديين أميرا عوضا عنه في الموصل،فذهب زنكي إلى بغداد وأخذ يتـودد إلى السلطان و قدم له مائة ألف دينار وكذلك قدم للخليفـة هـدايا ثمينة جدا ليبقيه في مكانه ، وكانت قد جرت بين الخليفة ودبيس خـلافات

كثيرة ووقائع كبيرة ، فقد انضم دبيس إلى السلطان منذ البداية ، وأخذ بازدراء الخليفة فتسرع يركب إلى بغداد مطمئنا محتقرا الخليفة ، كذلك ولما مرض السلطان مزق دبيس ابنه الصغير وانهزم ، ثم توجه وغزا الكوفة والبصرة والحلة ، وجمع ذهبا كثيرا وضم إليه عشرة آلاف فارس ، ولذلك كون جيشا خاصا به ، وهناك أمثلة كثيرة على مكر دبيس لايسع هذا المؤلف السرد فيها ، وقيل إنه خلال عراك جرى بين الخليفة ودبيس انكسر دبيس مع أصحابه إلا أنه استطاع أن ينجو على حصانه وعبر الفرات،فرأته عجوز وقالت له : هل حضرت يادبير ؟ أعني ياتاعس الحظ ، وما كان منه إلا أن تبسم ، ولم يصرخ في وجهها وقال لها : إن التاعس الحظ هو من يتغيب ولايحضر.

وفي هذه السنة اندلعت حرب طاحنة بين الفرنج والاسماعيلية فاجتاح عشرة آلاف من الفرنج الحصون الكثيرة التي كانت بيد الاسماعيلية في فينيقية .

وأصبحت قلوب عرب سورية مليئة بالرعب من الفرنج الذين سيطروا على جميع البلاد من ماردين وشبكتان حتى عريش مصر. واستخدموا سياسته التضييق على دمشق وأرغموا الأهالي على دفع جزية في السنة قدرها عشرين ألف دينار ، ثم أحصوا كل ماني دمشق من العبيد النصارى ونقلوا كل من رفض الاقامة مع العرب دون ان يعطوا اثمانهم لمواليهم ، وكانوا يأخذون نصف الغلات من حلب حتى من الرحى التي على باب الجنان ، ووصلت جيوش الفرنج الى نصيبين ورأس العين،وصارت حياة أهالي الرقة وحران شاقة للغاية، وأصبح من الصعب على العرب السفر من المشرق الى دمشق الا عن طريق البادية .

وفي عام ١٤٤١ لليونان (١١٣٠م) تولى لاون أمر قيليقية بعد وفاة أخوه تورس ، وزاحمه بوهيموند صاحب انطاكية ، وفي هذه

السنة عينها وهي ٥٢٤ هـ ، في الثامن من آذار حـدث زلزال قـوي وعنيف في بغداد فهدم كثيرا من المساكن والبيوت كذلك غطت الموصل سحابة كثيفة ، وهطل مطر غزير ، ثم بدأت تتساقط جمـرات نارية هائلة من السماء ، فأحرقت وخـربت بيوتـا كثيرة مـع أثـاثها ومحتوياتها .

وفي هذا العام تـوجه الزعيم اليوناني قسـيانس يريد غازي بـن دانشمند فسلمه كثيرا مـن الحصـون في بـلاد البنطس ، وتـولى كبدوكية بأجمعها ، ثم حشـد غازي جيوشـا كبيرة وزحـف لغـزو قيليقية ، وصدف أن دخلها بوهيموند أمير انطاكية من ناحية أخرى دون أن يعلم أحدهما بالآخر وأمام هذا حدثت معـركة طـاحنة بين الأتراك والافرنج ، بينما ظل لاون الأرمني قابعا ينتظر نتيجة صراع الخصـمين ، وكانت نتيجـة المعـركة أن انتصر الأتـراك وقتلوا بوهيموند ، دون أن يعرفوا انه الملك ، وللحـال تحـرك لاون فسـد الثغور في وجه الأتراك ، وهاجمهم وقتل كثيرا منهم .

وفي عام ٥٢٥ هـ (١١٣٠) م هـاجم صـاحب دمشـق دبيس المعـدي وأسره ، وأرسـله الى زنكي أمير الموصـل ، فقـام زنكي بالمقابل بإرسال ابن دبيس الذي كان أسيرا لديه .

وفي عام ١٤٤٢ لليونان (١١٣١ م) قدم ملك بيت المقـدس الى انطاكية ، وكذلك اتاها جوسلين مـن الرهـا ، فمـا كان مـن الأنطاكيين الا ان اغلقوا الأبواب في وجههما حتى أبرما قسما أن تبقى مدينة أنطاكية لابنة بوهيموند حتى تكبر وتتزوج فيصبح زوجها خلفا لوالدها .

ثم استطاع غازي بن دانشمند أن يدخـل قيليقية ويسـتولي على بعض الحصون ، عندئذ اقسم له لاون الارمني أن يمنع لصوصه مـن الاغارة والسطو على بلده ، وكذلك أن يؤدي له الجزية كل سنة لكنه أخلف في قسمه ثانية ، ولم يدفع شيئا ، ثم توجه اسحق أخـو ملك

اليونان الى قيليقية وزف ابنته الى لاون واعطاه المصيصة واذنه عوضا عن مهرها ، لكن مالبث أن نشب خلاف بينهما فهرب اسحق وابنه الى بلد سلطان قونية .

وفي هذه السنة توفي جوسلين ، وخلفه على الرها جوسلين الثاني ، وكذلك رحل السلطان يريد الصلح ، فشرع يستعطفه حتى حمل له السرج ، عندئذ تعانقا فولاه شؤون البلاد والعساكر ، ثم توجه الى همذان وتوفي هناك عن عمر يقارب الثامنة والعشرين ، فحدث خلاف بين داود ابن السلطان محمود وبين مسعود وسلجوق شاه وطغرك ، وكان طغرك مع عمهم الملك سنجر فأرسل الثلاثة الى الخليفة كل منهم يطلب ان يكون هو السلطان ، فاختار الخليفة في البداية سنجر لأن طغرل كان معه ، وأرسل يقول للبقية من يقبل به ويقدم له كتاب الطاعة فسوف استقبله أنا ، ثم كتب الى سنجر يقول : أننا لن نقبل بغيرك ولن نسمح لأحد غيرك ، وحين وصلت الى مسعود رسالة الخليفة توجه الى زنكي في الموصل يطلب منه مالا ليبعثه للخليفة مع دبيس زعيم المعديين، وبذلك يكون قد اسدى جميلا له،فوافق زنكي وقال : أعطيك خمسين ألف دينار ذهبا ، وكل ماتريد من جوار وخيل ، لكنه رفض ان يسلم دبيس قائلا : ان السلطان سنجر نهاني عن ذلك وأنا لاأستطيع مخالفته ، فخامر الشك مسعود وخرج فسكن غربي الموصل ، فأغلق زنكي أبواب المدينة لكن الناس لم يعودوا يستطيعوا العيش ضمن هذا الحصار خاصة بعد أن تحصن هو في القلعة ، أما مسعود فقد ذهب الى بغداد ولم يهاجم الموصل وأرسل الى الخليفة يقول : ان خطبتم باسمي فسأكون لكم طائعا وصديقا ، وان رفضتم ذلك فليس لكم عندي الا السيف ، فاشتبك للحال عسكر بغداد مع عسكر مسعود ، وفي معمعان المعركة وصلت أخبار بأن سنجر قادم الى بغداد في جيوش ضخمة ، فانتشر الرعب في نفوسهم وفي نفوس البغداديين ، ورأى الخليفة بأن مسعود أقوى من سنجر ، فتحالف الخليفة معه وأسكنه في القصر الملكي واتفق

الجميع على محاربة سنجر ، فتوجه سنجر الى همذان واحتلها ونادى باسم طغرل بن محمود .

وفي عام ٥٢٦ هـ (١١٣١م) توجه كذلك مسعود قائد جيوش الخليفة الى همذان مطاردا سنجر وبعث الى الخليفة ليشارك في المعركة بنفسه ، وماأن استعد الخليفة للرحيل حتى وصل خبر أن زنكي ودبيس المعدي قد اتفقا ان يذهبا الى بغداد فرجع الخليفة وتصدى لهما في الفي رجل ، وهزمهما ففر زنكي الى تكريت ودبيس الى الفرات ، وماكان من زنكي الا أن بعث بالقاضي ابن الشهرزوري الى الخليفة طالبا منه المغفرة وينتظر أمره ليذهب اليه ويتولى بغداد قبل سنجر ، فرد عليه الخليفة قائلا : إن سنجر ليس له سلطنة عندنا ، واذا أراد زنكي ان يصالحنا فعليه ان يسلمنا دبيس ويبقى هو في الموصل ، والا فنحن زاحفون اليه .

وفي بداية سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢م) دخل السلطان مسعود الى بغداد فنودي باسمه واسم سنجر واسم داود معا سلاطين بعد الخليفة وابنه ، ثم زحف الخليفة المسترشد وحاصر الموصل ثمانين يوما ، فأبت عليه فبلغه خبر بأن السلطان مسعود قادم اليه ، فترك الموصل وفر هاربا الى بغداد ، واحتل جوسلين الثاني قلعة شبكتان وهدمها الى الأرض ، وتوجه يوحنا ملك اليونان واحتل حصن قسطمونة منتزعا اياه من الأتراك صلحا ، ثم أنه احتل حصنين آخرين عنوة ، كذلك ملك ملك بيت المقدس الفرنجي قلعة القصير قرب انطاكية بالقوة ، وزحف الى عم (٤) ، فاحتشد الأتراك هناك بالآلاف كالجراد ليقاتلوا الفرنج ، وفي البداية انهزم الفرنج لكنهم استدرجوا الأتراك الى البقاع وهناك التقى الجيشان وحدثت معركة تلقى فيها الأتراك ضربة قاضية حتى المساء ، وكان هذا عام ١٤٤٥ لليونان (١١٣٤)م ، وفي تلك السنة زحف على الرها الجراد فاستنجد المسيحيون بالصفي برصوم (٥) فأحضروا صندوق رفاته ، فارتحل الجراد عنهم ولم يؤذ البلد مما ادى الى سخط الروم فحرضوا بيبوس مطران الفرنج أن يأمر بفتح صندوق رفاته ، لكن

الرهبان رفضوا طلب مطران الفرنج أول الأمر،إلا أنهم رضـخوا في النهاية واضطروا أن يفتحوه في بيعة الفرنج لأن الفرنج سخروا منهم وقالوا: إن هذا الصندوق فارغ ولايحتوي شيئا ، وعند فتحه حـدثت تبدلات في الجو فتلبدت السماء بغيوم سوداء ، وسقط برد قتال مـلأ الشوارع فتصاعدت الأصوات من كل جهة تـطلب النجـدة وتقـول ارحمنا يا صـــفي الله ، امـــا اليونان فقـــد انهزموا،وبعد أن انقطع البرد اجتمع الأهـالي ودامت صلاتهم ثـلاثة أيام ، وحين شاهد العرب الحرانيون هذه الأعجوبة طـالبوا بنقـل الرفاة ليكون في عهدتهم ، لكن الفرنج رفضوا ورده الى الدير بـكل احترام وتقدير ،-ثم نقله الملطيون اليهم بالصلوات والتراتيل ، أمـا الجـراد فلم يسـتطع أن يأكل الزرع ، وكأن يدا قـد لجمـت فمه ، وفي ٢٣ ايلول سقطت صاعقه من السـماء فـاحرقت سـبعة ثيران وولدا ، كذلك أحرقت صبيا آخـر في سـمندو ،وحـدثت زلزلة عنيفه في ملطيه وسقط ثلج أحمر،وبعدها في عام ١٤٤٦ لليونان زفت بنت بوهيموند صاحب أنطاكية الى ريموند دي فوترس الذي قدم من أنطاكية وتولى أمارتها،وفي السنة نفسها توفي بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وزفت ابنته الى فلك ، فخلفه في مكانه ، وأيضا أرسـل في هذا العام زنكي صاحب الموصل ابنه الى بغـداد وأعطـاه مفـاتيح المدينة وبعض نسائه كودائع ، وأقسم أن يكون طائعا ، فنال بـذلك الرضى ، وبعدها اصطلح الخليفة والسلطان سنجر ، فبعث الخليفة له تاجا وطوقا وحصانا بنعلين ذهبيين،فما كان مـن سـنجر إلا أن نهض وقبل حوافر الحصان ، وقدم الطاعة للخليفة وفي السنة عينها خرج ابن جبـارا جـاثليق النسـاطرة (١١٣٣ ـ ١١٣٥ م) الى الحديقة اثناء الليل فوطىء على حيه لدغته فمـات ، وقيل أنه مـات رعبا وأن الحية لم تلدغه ، وفي السنة ذاتها أطلق الخليفة على الأمير غازي بن دانشمند اسم الملك غازي حيث أرسل له طوقا ذهبيا للدلالة على العبودية ، وصولجانا وأربعـه بنود سـوداء وطبـولا تـدق امامه ، وحين وصول السفراء كان الملك غازي مريضا وما لبـث أن توفي،فعينوا ابنه محمدا خليفة له ورجعوا.

الأحداث التى جرت في عهد محمد بـــن الأمير غازي ابن دانشمند

وفي عهد محمد هذا قامت أحداث كثيرة حيث أعاد بناء قيســـاريه كبدوكيه التي كانت قد تهدمت وجعلها عاصـــمة له ، ثـم تـوجه الى ملطيه حيث كان خائفا من اتفاق الزعماء مع أخيه بياجان فحمل معه الهدايا لكنه ما لبث أن غدر بأخيه وقتله،كذلك غزا أخوه الثاني دولت بلدة ملطيه ، وحدث في الشهر السابع أن الغى الخليفــة المســترشد الخطبة باسم السلطان مسعود ، وأرسل جيشا يتألف مـــن ســـبعة آلاف جندي لمقاتلته ، وكان قد بلغه أن جيش السلطان يتـــألف مـــن الف وخمسمائة عسكري فقط ، لكن ما لبث أن أصبح جيش الخليفه خمســـة الاف عســكري ، وغدا جيش الســـلطان خمســـــة عشر الفا ، فانهزم الخليفه واعتقل هو ذاته ونهب ما كان معه من أعتـــدة ومتاع وثروات ، لقد نهب منه ســـبعون حمــل بغــل ذهبـــا وفضه ، وخمسة آلاف حمل جمل وأربعمائه حمل بغل أقمشة وثيابا مفصله ومخاطه وغير ذلك،وأمر بعد ذلك مسعود المنادي أن ينادي في صفوف الجيش بأن الأموال والأمتعة لكم والدماء لي ، وأن من قتل رجلا قتلت عوضا عنه ولذلك لم يقتــل ســوى خمســة اشـــخاص فقط ، كذلك نادى المنادي أن من يبقـــى هنا مـــن حـــزب الخليفـــة يقتل ، فما كان من البغداديين إلا أن فروا وهربوا عراة حفـــاة هنا وهناك ، وأرغم السلطان مسعود الخليفه بأن يكتب كتابا يقـــول فيه للبغداديين بأنه في أمان وأنه ســوف يعـــود اليهـــم قـــريبا ، لكن البغداديين لم يصدقوا وأيقنوا أن الخليفة كتب هذا خوفا ، فما كان منهم إلا أن ثاروا وأثناء ذلك قتل نحو مائه وخمسين من العامة،ثـــم هدأت فورة غضبهم تلقائيا .

وفي هذه الأحداث أخذت الزلازل تهز أرض بغداد تكرارا وكل يوم خمس أو ست مرات ، فأرسل السلطان سنجر الى السلطان مسعود

سفيرا يحمل رسالتين الأولى سريه مضمونها كان سبا وشتما لأنه لم يقتل الخليفه اثناء المعركة ، أما الثانية مفتوحه وتقول اذا رأيت هذه السطور يا بني غياث الدنيا والدين مسعود فاذهب الى أمير المؤمنين وقبل الأرض أمامه ، وأطلب منه المغفره على ذنبك ، وأنا لا يسعني الصبر على ما تراه عيني مما يحدثه الله سبحانه وتعالى بسبب ذلك من رياح وصواعق وبروق وغير ذلك ، وقد حزن العرب قاطبه وأغلقت المساجد والغيت الصلوات في بلاد العجم وشنعار ، فأرجع الخليفه الى ما كان عليه والى مكانه باكرام دون تعلل ، وسلمه دبيس ليفعل به ما يشاء لأنه سبب كل تلك الفتن ، ولما رأى مسعود ذلك أصدر أمرا فنصبوا خياما كبرى ، واقاموا الخليفه هناك وحملوا أمامه الأغطيه نحو نصف فرسخ ثم جاء به مسعود الى خيمته الملكية الكبرى ، وطلب المغفرة منه على ذنبه ، واعطاه دبيس مربوطا ، وقدم معه سيف وكفن قائلا إن هذا سبب كل المصائب فافعل به ما شئت عقابا على جرائمه ، لكن الخليفة أدرك أن هذه الكلمات نابعة من الفم لا من القلب ، فعفا عن دبيس ، فأمر السلطان مسعود الخليفة بأن يذهب إلى بغداد ، لكن الخليفة رفض وقال له : لن أذهب إن لم تأت معي ، فقال مسعود : سأرسل معك امراء يحيطون بك فتدخل بكل احترام واجلال الى دارك ، لكن الخليفه خاف أن يضعوا له كمينا في الطريق ويتخلصوا منه إذ لايسعهم أن يصنعوا هذا علانية بإمام دينهم ، وقدر مسعود أن يتوجه الى اذربيجان ليقاتل ابن اخيه داود ، وذهب معه الخليفة ، لكن سنجر بعث وفودا الى مسعود الى مراغه وهو عند بابها ، وبعث له بأن يرد الخليفه الى بغداد بسرعه ، وكان من جملة هذه الوفود سبعة عشر من الاسماعيليه ، وفي يوم الخميس عام ٥٢٩ هـ (١٣٣٤ م) هاجم الاسماعيلية خيمه الخليفه ، وكان يقرأ في القرآن وأجهزوا عليه وعلى ثلاثة من خدمه بالسكاكين ، فما كان من مسعود إلا أن احاط بالخيام وفتك بالقتله ، وقيل في هذه الواقعه إن سنجر لم يكن لديه علم بالاسماعيلية ، لكن الحقيقة هو الذي أرسلهم دون علم مسعود.

الخليفة الراشد

كانت مدة حكمه سنة فقـــط ، فبعـــد مقتـــل أبيه الخليفـــه المسترشد ، أمر السلطان سنجر قضاة بغداد وأقطابها أن يبـــايعوه بالخلافه مكان ابيه ، فأنصاعوا للأمر.

مقتل دبيس بن صدقة

في هذا الوقت تآمـــر دبيس بـــن صـــدقة وغدر بـــالسلطان مسعود ، حيث كتب الى زنكي قائلا : انني أتلهف لآتي اليك وأحشد جيشا ضخما من المعديين عدد بعدد رمال شاطىء البحر ، ثم نتحـد سويا ونعمل ضد مسعود عملا تذكره الأجيال القادمه ، وقد شـاءت الاقدار أن يعتقل الرسول حامل الرســالة ، فـوقعت الرســالة بيد مسعود دون أن يعلم دبيس بذلك.

ولما اجتمع الأقطاب مع مسعود ، سقاهم كعادته ماء السكر ، ثم اشار على دبيس أن يبقى بعد ذهاب الجماعه قائلا : هناك موضوع خاص وسري أريد أن نتحادث فيه ، فـذهب مســعود الى الخيمـة الداخلية وأعطى الرساله الى عبد أرمني يحمل سيفا قائلا :أعطهـا لدبيس ، وعندما يبدأ بقراءتها اضربه من ورائه واقطع رأسه ، فلما ذهب العبد شاهد دبيس يضرب الأرض باصبعه ويقـول : إن الموت خير من حياة بهذه الحـــالة مـــن الاضـــطراب ، فـــأعطاه الرسالة ، وعندما بدأ يقرأها ، فاجأه العبد بضربة فلقت رأســه عن هامته ، وهكذا انتهت حياة هذا المراوغ ، وقـد تـم قتله بعـد مضي خمسة وثلاثين يوما على قتل خصمه الخليفة المسترشد.

نهاية ميخائيل الأرمني

في السنة ١٤٤٧ يونانية (١١٣٦ م) و ٥٣٠ هـ نكث ميخـائيل الأرمني بوعده للفرنج ، فقـد كان قـد بـاعهم منذ أيام بلك قلعـة جرجر ، لكنه عاد الآن وشرع يغزو مناطقهم ، فأدركه الأتراك يوما على ساحل الفرات عند قـرية كور زيزونا ، فحـاصروه مـن جميع الجهات ، ولم يستطع الخلاص فألقى بنفسه في النهر ، وكان يلبس درعا حديديا ، فغرق في الماء ، لكنه ما لبث أن عاد فطفا وهـرب الى الضفه الثانية ، واستطاع أن يفلت مـن الأتـراك ، وقيل انه لم يلق من يده المجن أثناء ذلك ، بعد هذا تخلى لجوسلين الثاني عن مـدينة جرجر ، وأخذ عوضا عنها مكانا يسمى سفرس ، ثم قـام بـاسيل اخو جاثليق الأرمن فاشتراها مـن جـوسلين ، لكن ميخـائيل عاد فحشد عسكره وزحف إلى كيسوم ونهب ضواحيها ، فنصب الفرنج له كمينا فأسروه وقتلوه ، وبعد ذلك توجه باسيل إلى قيليقية فتـزوج اخت لاون ، ثم جمع عددا من الأرمن وأسرع يتحـرش بـالفرنج في منطقة فرزمان ، لكنه لم يستطع أن يحقق شيئا ، بل بـالعكس قتـل العديد من جماعته .

وفي كانون الثاني من هذه السنة اجتاحت آمد موجة مـن البـرد القارس فالتجأت إلى المدن الطيور الجبلية كالحجـل وغيره ، وكذلك حيوانات البراري كالغزال ، فأصدر الحاكم أمرا أن لايتعرض لهـا أحد من الأهالي ، فأخذوا يقدمون لهـا الطعـام حتـى حلول شـهر نيسان ، ثم أطلقوها ، وقد قيل إن هـذه الطيور والحيوانات شرعت منذ بداية الخريف تلتجيء إلى الكهوف والمغـاور وكأنهـا شـعرت مسبقا بقدوم البرد مما يدل أن الله تعالى قد علم الحيوانات التنبـؤ بالحوادث الطبيعية قبل وقوعها .

نهاية الخليفة الراشد بالله

وفي هذا العام أرسل السلطان مسعود إلى الخليفة الراشد رسولا يطالبه بمبلغ قدره ثلاثمائة ألف دينار كان قد سلف ووعده بها والده المسترشد يوم كان عنده ، وثلاثمائة ألف دينار غيرها يجب أن يجبيها من البغداديين مساعدة له ويضم إليها حقوق الخلافة الجديدة كالعادة .

فتنادى الخليفة للاجتماع بمستشاريه وبعد تداول طويل قرروا أن يجهز الخليفة جيشا ويتوجه لمحاربة مسعود ، ففتح الخليفة خزائنه واستخدم مافيها من الذهب وشرع في تجهيز الجيش ، ثم استدعى الرسول وعنفه قائلا : كان وعد أبي بالذهب لأجل نجاته ، لكنكم قتلتموه ، وأما الآن فيتوجب علي الانتقام ، ومن الآن فصاعدا ليس لكم عندي إلا السيف ، فرجع الرسول مسرعا ، وبدأ الخليفة في بناء الأسوار ، وترميم الأبراج ، وعندما انتشر الخبر بدأت النجدات تأتي إلى الخليفة ، فأقبل زنكي أمير الموصل ، وداود ابن أخي السلطان مسعود .

وحاول الخليفة أن يلغي الخطبة باسم السلطان مسعود وأن يخطب باسم داود ، لكن زنكي رفض ذلك وقال : لاتتحرشوا بمسعود ، بل قولوا لداود أن يذهب ويستشر عمه فإن وافق خطبنا باسمه ، لكن الخليفة رفض اقتراح زنكي ، وألغى الخطبة باسم مسعود ، وخطب باسم داود سلطانا ، فبادره مسعود بالقول : لقد أصبحنا بغنى عنك وقد أقمنا خليفة موافقا لنا من سلالة علي ، فابحث لك عن مكان آخر وارحل إلى حيث شئت ، فأرسل الخليفة إلى بهروز أمير تكريت قائلا إنني قادم إليك لأتحصن في قلعتك ، فأجابه بهروز : أنا عبد مسعود ولا أستطيع أن أقول له لا إذا طلبك مني ، حينئذ لم يعد أمام الخليفة سوى محاربة مسعود ، فنصب

خيامه عند مشارف بغداد ، وأبقى عنده زنكي وبقية الاقطاب ، لكن سرعان ما ورد خبر يقول : إن مسعود قادم في جيوش كثيرة ، عندئذ قال زنكي لمستشاري الخليفة واقطابه : هذا ماجرى بسبب مشورتكم فلم يستفد لاهو ولا أنتم شيئا ، قولوا الآن هل أنتم مستعدون لمحاربة مسعود ؟ أريد أن أعرف وإلا فليعد كل منا من حيث أتى ،ولنكف عن هذه الحرب ،وليكتف كل منا بما لديه ، وعندئذ شرع كل واحد يحملق في وجه زميله ، فتحقق زنكي من خداعهم وأخبر الخليفة بذلك ، ثم تركهم زنكي وعاد إلى الموصل ، فنهضوا جميعا ودخلوا المدينة ، ونصبوا خيامهم داخل سورها ، ورأى الخليفة أن يذهب بصحبة زنكي إلى الموصل ، فدخل مسعود بغداد وأحسن إلى أهلها ، وصان بيوتها من أي ابتزاز أو نهب ، ثم جمع الأقطاب ، وعرض عليهم كتابا مكتوبا بخط الراشد يقول فيه : يوم أحشد الجيوش لمحاربة أمير من أمراء السلطان مسعود أصبح مخلوعا من الخلافة ، وكان موجودا بين الحاضرين ثلاثة شهود ممن وقعوا على تلك الوثيقة ، لذلك خلعوا الخليفة الراشد شرعا ، ثم بداوا يذيعون التهم ضده ، وكان من جملة ماقالوه ، إنه خرق حرمة جواري أبيه ، وعاقر الخمرة ، وأعرض عن الصلوات وسفك دماء بريئة ، وتمادى في الظلم الخ .

أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله

دام حكمه أربعا وعشرين سنة وشهرين،فبعد أن تم خلع الراشد استدعى السلطان الوزير شرف الدين الزينبي وأمره أن يعمل على اختيار خليفة جديد ، فاختار المقتفي ، وهو عم الخليفة المعزول ، وقد اختاره الوزير لأنه صهره ، أي زوج ابنته ، وأحضر المقتفي إلى بلاط السلطان مسعود وثبتوا خلافته بعدما تعهد أن يدفع إلى السلطان مائة وعشرين ألف دينار ، وكانت خزانة الخليفة عند مبايعته فارغة تماما ، لكن كان المقتفي يملك شخصيا قبل خلافته عشرة آلاف دينار غير أنه انفقها كلها في حفلة مبايعته ، وقد ألغيت بعد استلام المقتفي الخطبة للراشد وللسلطان داود معا ، وصارت

للمقتفي وللسلطان مسعود ، وقيل إن السلطان مسعود حين غادر البلاط استدعى الوزير الزينبي وقال له معاتبا :

لقد أسأت بانتخابك رجلا كامل السن عاقلا ، فلو انتخبت فتى وربيته لبقي ينظر إليك نظرة امتنان وشكر ، بالتالي سيصبح أمر الخلافة وسياستها بيدك فترة طويلة ريثما يبلغ الرشد ، والآن كن على ثقة أن عهد وزارتك لن يطول مع من اصطفيته وسترى حقيقة ذلك .

وفي عام ٥٣١ للعرب (١١٣٦ م) أرسل ابن دانشمند صاحب ملطية رسولا إلى السلطان مسعود في بغداد متوسلا ليعيده إلى منصبه ، ولما رافقوا الرسول ليقبل الأعتاب كالعادة رفض قائلا ، لن أقبل أعتاب دار طرد منها صاحبها .

بين زنكي والخليفة المقتفي

في هذه الفترة حشد زنكي جيشا ، وزحف إلى تكريت وبدأ يناوش السلطان مسعود،ثم انقلب إلى الموصل فأرسل إليه المقتفي يعده بعشرة مدن مشهورة إذا ماكف عن مساندة الراشد ، فقال زنكي : لقد حلفت أن لاأسلمه إليكم ، ولكن إذا أعطيتموني تلك الأماكن أعلنت الخطبة باسمكم وتوقفت عن مساندته ، إنما سوف أبقيه في عهدتي ، فأعطاه الخليفة عشرة أماكن وكان منها حربي وحاصيره وصاريفين والحلة وغيرها ، وخطب زنكي للمقتفي وللسلطان مسعود وأبقى الراشد عنده قابعا في دار الذهب بمدينة الموصل.
وفي تلك الأثناء كانت عجوز تخدم بيت تاجر قرب باب الأزج ببغداد ، وسافر التاجر لعمل وظلت امرأته وابنته والعجوز برفقتهما في البيت ، فاتفقت هذه العجوز الشمطاء مع ابنها وبعض اللصوص ، فاقبلوا ليلا وسرقوا كل مافي الدار ، ولما خرجوا قالت زوجة التاجر : للعجوز نشكر الله الذي أعمى عيونهم ولم يفتحوا

الصندوق ، فسمع اللصوص فرجعوا وفتحوه فوجدوا فيه أربعة آلاف دينار ، وأحجار كريمة ولآليء ، فأخذوها وانصرفوا .

وفي هذه السنة اشتبك مسعود وداود فهزم مسعود وقتل العديد من رجاله .

وفي عام ١٤٤٨ يونانية (١١٣٧ م) زحف يوحنا ملك اليونان إلى قليقية غاضبا على لاون الارمني فاستولى على طرسوس واذنة والمصيصة وقبض على لاون وعلى زوجته وأولادهما ونفاهم إلى القسطنطينية ، ثم زحف بعد ذلك إلى انطاكية فلم يستطع الاستيلاء عليها ثم أتى إليه جوسلين واتفقا على أن يعطيه الافرنج انطاكية ويجتاح هو حلب وسورية ، ثم يعطيها إلى الافرنج ، ثم زحفا معا إلى حلب واحتلا بزاعا ثم تركا جيشا يحاصر شيزر .

وفي هذا الوقت زحف مسعود سلطان قونية إلى قيليقية فاجتاح اذنة وساق أهلها جميعا مع اسقفهم إلى ملطيه ، وعندما علم يوحنا بذلك أحرق المنجنيقات وارتد إلى قيليقيه حيث عقد هدنة مع مسعود ورجع إلى عاصمته .

أما محمود صاحب ملطيه فقد طرد أخاه دولت ونزع منه ولاية ابلستين وجيحان ، وسار دولت الى هنزيط ، ثم الى آمد وزار جوسلين ، ثم أخذ يطوف بالبيوت واحدا واحدا.

وفي هذا الوقت ظهر الأمير عيسى صاحب سويرك (٦) وكان متفاهما مع بوغوص الارمني الذي سار إلى بغداد ودخل في دين الاسلام ، فحشد الجند وانطلق إلى جرجر ليستولي عليها ، لكنه وجدها خرابا فزحف إلى الاديرة والصوامع فانقض على دير مار ابحاي المعروف بدير السلالم (٧) فلم يتمكن من الوصول إليه من ناحية شاطىء الفرات فتسلقوا الجبل الصخري حيث هبط رجاله من هناك،فهرب الرهبان فاستولى على الدير وعلى ما فيه من امتعة وكؤوس وأطباق فضية وصلبان ، ونزع قناة الماء التي كان قد

وضعها البطريرك يوحنا بن عبدون (١٠٠٤ - ١٠٣٠ م) ، وارسل الربان داوود الناسك إلى دير شيرا،ولم ينج من شره سوى دير ابي غالب المعروف بدير مائدة الملوك،الواقع في احواز مدينة امد .

وفاة الراشد الخليفة المعزول

وفي عام ٥٣٢ للعرب (١١٣٧ م) انطلق الراشد الخليفة المعزول من الموصل إلى خراسان للاجتماع بالسلطان داود ، فاتفق الاثنان ثم زحفا بجيشهما إلى همذان وانتزعاها من سيطرة السلطان مسعود ، ثم توجه الراشد بعد ذلك إلى اصفهان لكن سرعان ماالم به داء الزمه فراشه ، وانقض عليه وهو طريح الفراش أربعة خراسانيين وقتلوه ، وقد قيل لولم يقتله هؤلاء الخراسانيون لعاجلته المنية بسبب الداء الذي أصابه ، وقد قيل إنه سقي السم ثلاث مرات ، وقد دفن بباب اصفهان حيث صرع ، وكان والده قد قتل كذلك عند باب مراغه .

وعندما كان الاتراك يحاصرون الرها ١٤٤٩ يونانية (١١٣٨ م) حشد الفرنج ثلاثمائة فارس وأربعة آلاف راجل وتوجهوا من سميساط لنقل المؤونة إلى الرهاويين ، فكمن لهم تمرتاش صاحب ماردين وقتل العديد من المسيحيين وأسر البقية وساقهم عبيدا ، وكان بين الأسرى الشماس أبو سعد الطبيب الفيلسوف ، وميخائيل ابن شومنا وابنه واستولى تمرتاش كذلك على قلعة كسوس من الفرنج كذلك دخل مسعود سلطان قونية بلد كيسوم وغزاها واحرق القرى المحيطة بها .

وفي الشهر الثاني من سنة ٥٣٣ للعرب (١١٣٨ م) حدث زلزال عنيف في غزنة ببلاد العجم فقتل مائتين وثلاثين الف نسمة ، وهدم المدينة برمتها ، ونبعت من ارضها مياه سوداء وخرج الذين نجوا من الكارثة إلى المقابر حيث اقاموا فيها يندبون اهاليهم .

وفي سنة ١٤٥٠ لليونان (١١٣٩ م) زحف الملك محمد صاحب ملطيه إلى قليقية واحتل حصن هاجاي وحصن جينوفرت وسار إلى قاسينوس وهي على ساحل بحر بنطش فغزاها وباع أهلها جميعا عبيدا . وفي السنة التالية انشقت أرض الرقة وابتلعت أربعين فارسا مع خيولهم ، ولم ينج سوى واحد منهم كان يتغوط ، وقد ظل الناس يسمعون أصواتا بشرية وزمجرة خيول في ذلك المكان فترة طويلة وفي سنة ٥٣٤ هـ (١١٤٠ م) صح ماتوقعه السلطان مسعود عندما قال للوزير شرف الدين إنك اخطأت في اختيار رجل كامل متمرس مثل المقتفي ، لأنه بدأ يتصرف في شؤون السياسة دون استشارة الوزير ، وكان ان انزوى الوزير في بيته ، فأرسل الخليفة في طلبه وكف يده عن ممارسة أعماله ، ثم مالبث ان عزله نهائيا ، وفي تشرين أول من عام ٥٣٥ هـ (١١٤١ م) سار أتراك ملطيه إلى أبيرة زوبر وقنايا ونهبوها ، فاقبل الفرنج في أيار بحجة طلب الثأر فوصلوا إلى زبطرة وعرقة لكنهم نهبوا أموال المسيحيين كما كان قد نهبها الأتراك ، ثم زحفوا إلى ابلستين ونهبوا المسيحيين هناك وفتكوا بعدد كبير من الاتراك واعتقلوا أولادهم ونساءهم فغضب الاتراك وزحفوا من هنزيط فصادفوا مطران قليسورا (٨) القديس في جبل أبدهور ، فقبضوا عليه واعتقلوه هو ومن معه ، وحاولوا اغتيالهم،لكن الافرنج باغتوهم وهزموهم فهربوا تاركين أسراهم مقيدين فأطلقهم الافرنج .

وزحف يوحنا ملك اليونان إلى نوقيسارية وخيم أمام الأتراك وجها لوجه لكن ظل عسكره وعسكر الأتراك ستة أشهر دون قتال وأخيرا افترقوا دون حرب ، وقد كان الأتراك في ذلك الحين يقتلون بالسيف كل مسيحي يتلفظ باسم ملك اليونان أو الفرنج لأي سبب ، وقد قتلوا عددا كبيرا من الملطيين لهذا السبب .

وفي سنة ٥٣٦ هـ ـ ١١٤١ م أرسل خوارزم شاه إلى ملك الهون ليعد جيشا من الذين لم يعلنوا إسلامهم ـ وكان العرب يسمونهم « كافر ترك » ـ لمحاربة السلطان سنجر قاتل أخيه ،

فتأهب أولئك الهون وكانوا ثلاثمائة ألف ،وقاتلوا مائة ألف من أصحاب سنجر عند نهر جيحون وقتلوهم قاطبة ولم ينج من سيوف الهون إلا سنجر وستة من رجاله فقط كما قيل . فهرب الى بلخ ، وقد أسر الهون امرأته وابنة بنته مع أربعة الاف امرأة ، وهكذا أهلكوا المائة ألف قتلا وسبيا .

موت الملك محمود

وفي سنة ١٤٥٤ يونانية (١١٤٣ م) مات الملك محمود في قيسارية فأوصى بالملكة لابنه ذي النون ، لكن زوجته خاتون استدعت أخاه يعقوب أرسلان واقترنت به وولته سبسطية ، ففر ذو النون الى سيناس وتولى قيسارية ، أما الأخ الآخر دولت فقد اتفق مع يونس صاحب حصن مسارا ، وزحفا معا الى ملطية وحاصراها ، لكنهما لم يستطيعا الاستيلاء عليها ، فغادراها الى عرقة وأرسلت الخاتون ألفي جندي الى ملطية ليحرسوها ويستخرجوا من فيها من الأتراك ويبعدوهم الى سبسطية ، فثارت ثائرة الأتراك وحطموا بالفؤوس باب المدينة وهو باب بوريدية ، وذلك رغما عن الحاكم وهزموا الزاحفين وأرسلوا فأحضروا دولت في اليوم ذاته وسلموه ولاية المدينة ، وعندها زحف مسعود سلطان قونية الى سبسطية واخضعها ، ثم انقلب الى ملطية فحاصرها في السابع عشر من نيسان ، أما دولت فأخذ ينكل بالمسيحيين ويطالبهم بالأموال لدفع أجرة المحاربين ، لكن بعد ثلاثة أشهر احرق السلطان المنجنيقات وارتحل ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب ١٤ - ايلول فاستراح برحيله الاهالي.

وفي أحد أيام نيسان في تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونان للصيد فهاجمه خنزير بري وقتله ، وكان قد أوصى بالملكة لابنه الصغير منويل لأن ابنه الكبير كان غائبا ، فتولى منويل الملكة في نيسان

عام ١٤٥٥ يونانية (١١٤٤ م)ولما دخل العاصمة رحب به اخـوه واعترف به ملكا وأيده .

وكذلك مات ملك بيت المقدس الفرنجي أثناء الصيد فقد سقط عن حصانه ومات فخلفه ابنه الصـغير بلدوين الثـالث ، وتـولت امـه الوصاية عليه فأخذت تسوس المملكة بسبب حداثته .

وفي السنة ذاتها مات داود صاحب حضن زياد وخلفه ابنه الصغير قرا أرسلان ، لأن ابنه الكبير « أرسلان طغميش » كان بـالموصل عند زنكي فأراد أن يبعد قرا أرسلان ويقيم مـكانه أخـاه وحليفـه أرسلان طغميش،فاستنجد قرا أرسلان بالسلطان مسعود في قـونية، فأرسل له عشرين ألف فارس لمقاتلة خصمه فهرب الى الموصل ، ثم اقبل السلطان مسعود الى ملطية وحـاصرها ثـلاثة أشـهر دون أن يحقق هدفه ورحل .

انتزاع الرها من الأفرنج

في سنة ١٤٥٦ يونانية (١١٤٤ م) كان جوسلين صاحب الرها في انطاكية ، فـأرسل الحـرانيون الى زنكي أن المدينة خـالية مـن العسكر ، فتوجه زنكي اليها في جيش جرار يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني ، وخيم في ضواحيها عند بـاب السـاعات قـرب كنيسـة المعترفين ، وأقام هذا الجيش سبعة منجنيقـات ضـخمة وصـعد رهبان الجبل أعلى السور وأخذوا يحـاربون لعـدم وجـود عسـكر فيها ، وكانت النساء يقدمن لهم الحجارة والماء والطعـام ، وحفـر الاتراك نفقا حتى بلغوا السور ، فقـام الرهـاويون بحفـر نفـق مقابل ، وبرزوا لقتالهم واهلكوا كل من صادفوه في الحفرة ، وعادوا فاقاموا سورا ثانيا مقابل النفق فتحول الأتراك وأخـذوا يحفـرون تحت أبراج السور ، فتخلخلت وشارفت على السقوط فأرسل زنكي الى الرهـاويين يقول : خذوا منا رجلين وابعثوا لنا رجلين ليشاهدوا الابراج كيف تداعت ، وسلموا المدينة قبل ان تؤخذ بالسيف .

غير ان المطران بيبوس رئيس الفرنج في الرها لم يكترث لمقولة زنكي ، لأنه كان واثقا من مساعدة جوسلين وملك بيت المقدس ، وعند ذلك أضرم الاتراك النيران بالاخشاب تحت الابراج فسقطت وأخذوا يدخلون في النفق على الرغم من ان بيبوس والأساقفة كانوا على رأس المدافعين عن النفق وقد اشتد فيه القتال حتى امتلأ بجثث القتلى من الاتراك والرهاويين معه ، وتجمهر الرهاويون عند فم النفق ورأى الاتراك أن المحاربين قد تركوا السور فوضعوا السلالم وتسلقوا السور ، وعندما شاهد الرهاويون ذلك انهارت عزائمهم وشرعوا بالالتجاء الى القلعة .

وفي الساعة الثالثة من يوم السبت الثالث من كانون الثاني دخل الاتراك مدينة ابجر خليل السيد المسيح بسيوفهم المسلولة المتعطشه للدماء يقتلون الشيوخ والفتيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والنساك والراهبات والعذارى وحتى الأطفال والرضع،وان القلم ليعجز عن وصف ماحدث ، وان اليراع ليتجمد بين الأصابع ان اراد ان يكتب عن الفظائع ، لقد أصبحت هذه المدينة موطئا للأقدام وربما بسبب آثامنا ، او بسبب كفر الابناء بآبائهم ، والآباء بأبنائهم ، فنسيت الأم رضيعها وفر كل واحد يطلب الخلاص لنفسه الى قمة الجبل .

أما الشيوخ من الكهنة فكانوا يرددون وهم يحملون صناديق الشهداء قول النبي ميخا ،اني احتمل غضب الرب لاني أخطأت اليه.(ميخا ٧ : ٩) وأخذوا يبتهلون الى الله حتى اسكتهم السيف التركي ، وشوهدوا بعد ذلك وقد تضرجت ثيابهم بالدماء ، وبقي عدد كبير من النساء مع أولادهن ينتظرن الموت بالسيف والأسر والعبودية ، أما الحراس فقد إقفلوا الابواب بوجه الجحافل التي لجأت الى القلعة قائلين،لن نفتح الأبواب حتى يتقدم الينا بيبوس ، ولكن بيبوس لم يستطع الخروج مع الأوائل بسبب الازدحام الشديد الذي أهلك العديد وجعل جثثهم تتراكم اكواما عند باب القلعة ، ولما وصل بيبوس اليهم اصيب بسهم أرداه قتيلا .

ولما شاهد زنكي تلك الأهوال أمر بايقاف القتال ، وشوهد المطران باسيليوس عريانا حافيا يجره تركي بالحبل ، وما أن رآه زنكي حتى لمح النعمة التي على وجهه فسأله من أنت ؟ ولما عرف انه المطران أمر رجاله فألبسوه ثوبا ومضى به الى خيمته ، واخذ يعنفه ويوبخه لأن الرهاويين لم يشفقوا على انفسهم ، ويسلموه المدينة ، فقال له المطران :إن العناية الربانية شاءت ان تمنحك الغلبة وتذيع مجدك بين الملوك وتتولى علينا نحن الأذلاء لاننا غدرنا ، ولأننا حنثنا بأيماننا فاستحسن زنكي كلامه ، وقال له : قد صدقت فيما قلت ايها المطران ، فان الله تعالى والبشر كذلك يكرهون الذين يحافظون على ايمانهم ويثبتون عليه حتى الموت ، وبعد يومين طلب الامان من التجأ الى القلعة وسلموها ، فقتل الأتراك كل من رأوه من الفرنجة ، وابقوا على السريان والأرمن ، ان لساننا عاجز عن الاسترسال في شرح تلك الداهية الهائلة ، ولارميا النبي ونظرائه أن يفيضوا في المراثي ويستدعوا النائحات النادبات ليفعلن مثلهم ويندبن الشعب الجدير بالعطف والشفقة .

وقد التهمت النيران يوم فتح الرها دير القراريط ببلدة خرشنة واتلفت حجره جميعا ، وقضت على شيخ راهب ، ونجا سائر الرهبان ، واحترقت في اليوم ذاته قرية ببلدة مرعش ، وسقطت نار على دير مار برصوم واتلفت ثلاث غرف الى ان تم اطفاؤها ، وقد نظم في مأساة الرها هذه ديونيسيوس بن الصليبي قصيدتين ، وباسيليوس مطرانها ثلاث قصائد ، كلها على وزن قصيدة مار يعقوب .

وبعد أن احتل زنكي الرها سار الى البيرة وهي قلعة حصينة للأفرنج تطل على الفرات ، وحاصرها حصارا شديدا،لكن خبرا أتاه ان فتنة وقعت في الموصل ، وأن نائبه نصير الدين قتل ، فترك البيرة وعاد الى بلده ، أما الفرنج فقد خافوا من عودة زنكي فكتبوا الى

حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وسلموه اياها .

وخاف ايلغازي أن يزحف زنكي الى بلاده ويحتل قلاعه وسائر ولايته ، فقوض قلاعا كثيرة منها قلعة حور عبار ،وقلعة تلبسمة (٩) وقلعة تل شيخ ، وقلعة المرأة التي بجانب دير مار حنانيا ، وبقي تمرتاش يحاصر قلعة الهتاخ (١٠) سنة واربعة أشهر حتى انتزعها من صاحبها الكردي ، وهادنه ودفع له كمية من الذهب وترك له بعض القرى .

وفي هذا الوقت خرج ارسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وسار الى بلد تل ارسانيوس (١١) وطلب الى اصحابه أن يسلموه اياه فرفضوا لان اولادهم كانوا رهائن في حصن زياد ، فحارب البلد واحتله واستعبد اهاليه وعددهم خمسة عشر الفا مع اسقفهم طيمثاوس وباعهم .

وفي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤ م) دفع زنكي جنودا الى قلعة فنك المجاورة لجزيرة قردو(أو ابن عمر) وهي قلعة حصينة تطل على دجلة ، احتلها الاكراد البشنويون منذ ثلاثمائة عام.

مقتل زنكي

وفي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) أصلح زنكي الاوضاع في الموصل على أثر مقتل نائبه نصير الدولة ، واقبل الى حلب وحشد الجنود ، وزحف الى قلعة جعبر ، وفي احد الأيام بينما كان جالسا في خيمته احضر اليه الصناع طبقا ذهبيا لينظره ، فحنى رأسه واخذ يتأمله ، فاستل أحد الحرس سيفه وطعنه من خلفه وحز راسه ، وروى غير هذا قيل قتل ليلا وهو سكران غارق في نومه ، وأسرع ثلاثة من عبيده الى اسفل القلعة وهم يصيحون للحراس اسعبونا اليكم لنبلغكم بشرى تبهجكم ، فدلوا حبلا

وسحبوهم واحدا فواحدا ، فـأخبرهم هؤلاء بمـا حـدث وقـالوا لهم : انفخوا الأبواق ونادوا مـن اسـفل القلعـة اليه وشـاهدوه منبوحا .

أما محمود بن زنكي الذي دعي نور الدين ، وكان مع أبيه ، فقـد شدد القتال على القلعة حتى أرهق هـو والمحـاصرين ، ثـم قـال لهم : سلموني قتله أبي وكونوا في طمأنينة ، فسلموه الثلاثة فقتلهم واحرق جثثهم .

وكان لزنكي أربعـة بنين وابنة واحـدة وهـم : سـيف الدين غازي ، ونور الدين محمود ، وقـطب الدين مـودود ، ونصرة الدين امير اميران ، واختهم ، وكان قد بنى في الموصل دورا ملكية لانه لم يكن فيها الا دارا ملكية واحدة مقابل الميدان . وقد عمـق اسـاسها ووطد أسوارها ، وفتح بابا يقال له بـاب العمادي أقـام حـوله الحدائق ، وقد ازدهرت الزراعة في زمانه ، وكان لزنكي جـواسيس في بلاط السلطان يخبرونه بكل مايجري هناك ، وكان اذا ماقدم الى بلاده رسول ما ، نهاه عن محادثة الجنود والأهالي .

وقد دفع يوما الى واحد مـن عبيده طبيخـا وقـال له : احفظه لديك ، فأبقاه عنده سنة كاملة ، ولما سألة زنكي عنه اعاده له فـورا فأعجبه ذلك العمل وقال له : الى مثلك ينبغـي ان افـوض حـراسة البلد ، ثم ولاه قلعـة كواشي ، وقـد ملك زنكي سـورية تسـع عشر سنة ، وكان عنده عندما قتل في قلعة جعبر امير كبير عاقـل اسـمه اسد الدين شيركوه ، قـال لنور الدين بـن زنكي :يلوح لي أن وزير أبيك يحاول استمالة الجيوش الى اخيك سيف الدين ليأتـي بـه الى الموصل ، فالافضل أن آخذك الى حلب لتتولاها ، وتتـولى سـورية معها ، وبذلك يسهل عليك احتلال الموصل واقليمها وبلاد المشرق .

ولما تم ذلك اجتمع نور الدين بجيوش سورية ومضى بهم الى حلب وتولاها مع قلعتها ، ثم ارتحـل أخـوه سـيف الدين الى الموصـل وتولاها وأيده السلطان مسعود الذي كان يخلص له المودة ، وسـبق

نور الدين، فادى له خدمات جلى يوم كان والده حيا يرزق ، وارسل السلطان الى سيف الدين حله ملكيه تأييدا له في منصبه ، وكان نور الدين يخاف أخاه سيف الدين فيرسل اليه الهدايا معربا عن اخلاصه متجنبا لقاءه ، وبعد ان تعاهدا معا سار سيف الدين الى سورية، وبادره نور الدين مقبلا الأرض أمامه فتعانقا وبكيا، وقال سيف الدين لأخيه:لماذا لم تأت الي ، هل خفت مني ، ثق ياأخي انه لم يخطر ببالي ماخطر ببالك ، وماذا تنفعني الحياة والبلاد اذا اسأت الى أخي ، وهكذا اتفق الأخوان وعاد كل منهما الى بلده ، وعلى اثر مقتل زنكي سار ريموند صاحب انطاكية الى أطراف حلب وحماة ، وفتك بكثير من العرب ، وغنم غنائم وافرة ، وفي طريق العودة ادركه شيركوه ، واسترد منه الغنائم ، وسار مجير الدين صاحب دمشق الى بعلبك وحاصرها حتى انتزعها من نجم الدين ايوب ، والد صلاح الدين ، وترك له بعض القرى ، وعاد الى دمشق.

واقعة الرها الثانية

وفي تشرين الاول من عام ١٤٥٨ يونانية (١١٤٧ م) اقبل جوسلين وبلدوين صاحب كيسوم الى الرها ، وتسلق رجال الفرنج البرجين ليلا بعد ان اتفقا مع حراس السور ، وكانوا من الارمن فهرب الاتراك الى القلعة ، وفي الصباح فتحوا باب الماء ودخله جوسلين لكن لم تمض ستة ايام حتى باغتهم نور الدين قادما من حلب في عشرة الاف تركي ، فاجبر جوسلين الرجال والرهاويين ونساءهم وفتيانهم وفتياتهم على الرحيل قسرا في الساعة الثانية ليلا ، ولما جاء الصباح رآهم الاتراك فهاجموهم واخذوا يرمونهم بالسهام التي اخذت تتساقط عليهم مثل حبات المطر ، ثم انقض الاتراك على الرهاويين الاسرى في صفوفهم الطويلة ،وانقضوا على الاشراف من ابناء المدينة العظيمة ، وبعدما تركهم الفرسان

الفرنج وانهزموا ، اذ عجزوا عن المقـاومة ، امـا الجنود الافـرنج فالتجأوا الى حصن خـراب يدعى حصـن كوكب ، واحتمـوا بـه ، يالزمان الغضب ، تبا لهذا اليوم المشؤوم ولهـذه الليلة التـي كانت احدى ليالي جهنم ، لقد خرق الاتراك هذه الصـفوف الطـويلة مـن البشر بسيوفهم ، ثـم اخـذوا يسـحقونهم سـحق النار للهشيم وذلك بعدما أخذوا ينتزعون أحـذيتهم وثيابهـم ويوثقـونهم بالحبال ويحثـونهم على الركض حفـاة عراة رجـالا ونسـاء ، ويضطرونهم أن يتبعوا الخيل ، وقد زاد عدد القتلى في المرتين الاولى والثانية على الثلاثين الفا ، واستعبد الاتراك ستة عشر الفـا ، ولم يفلت مع رجال الفرنج الذين انهزموا الى حصـن كوكب سـوى الف رجل فقط ، وقد باع الاتراك كل مـن اسروهـم في بـلاد مختلفـة ، واصبحت الرها خاوية خالية مخضبة بدماء اولادها ، مليئة بعظامهم تتغذى بلحومهم وحوش الليل ، وقـد فقـدت جثـة بلدوين صـاحب كيسوم ، وافلت جوسلين اللعين الى سمسياط ، وهـرب الطـران باسيلوس مطراننا وقبض على مطران الارمـن مـع عدد كبير مـن جماعته.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع الفرنج بما جرى من الفـظائع في الرهـا تـدفقوا مـن إيطـاليا ، واقبـل ملك الالمان (١٢) في تسـعين الف فـارس وملك فرنسا (١٣) الذي يدعوه العرب فوتش في خمسين الف فـارس ، عدا الرجالة الذين بلغـوا أعدادا كبيرة ، وتـوجهوا سـنة ١١٤٨ م إلى القسطنطينية وشنوا عليها هجـوما مـريرا بعـد أن عرفـوا خيانة اليونان للأفرنج وغدرهم بهم ، فدفع لهـم الملك منويل ذهبـا كثيرا ، واقسم أن يدلهم على طريق آمنة ، لكنه غدر بهم ثانية وارسل معهـم أدلاء أرشدوهـم إلى طريق وعرة وجبال قاحلة لاماء فيهـا ، فتـاهوا

وبقوا خمسة أيام لايعرفون أين هم بعد أن هرب اليونانيون ، فمات العديد منهم عطشا مع خيولهم ، وسمع بهم الأتراك فانقضوا على شتاتهم في الجبال وراحوا يفتكون بهم مجموعة تلو الأخرى حتى امتلأت بلادهم من الغنائم،وبيعت الفضة في ملطية بثمن الرصاص .

أما الافرنج الذين نجوا وعادوا إلى سواحل بحر بنطس فقد أخذ اليونان يخلطون لهم القمح كلسا ويطعمونهم إياه ، فكانوا يسقطون موتى بالأكوام ، وقد تمكن ملك الألمان من النجاة مع ثلاثة من القمامصة فسار إلى بيت المقدس وصلى وتبرك بقبر المخلص ، وأقام فيها بضعة أيام ثم زحف إلى دمشق في عشرة آلاف فارس وستين الف راجل وكان عدد الأتراك والعرب نحو مائة وثلاثين ألف راجل عدا الفرسان ، ولكن الفرنج دبت فيهم الشجاعة والا[illegible] فحملوا عليهم حتى وصلوا إلى الأنهار ودخلوا الجنائن ، فقام معين الدين - حسبما ذكر البطريرك ميخائيل السرياني في تـ[illegible]ـخه - صاحب دمشق وأرسل إلى ملك بيت المقدس مائتي الف دينار من النحاس المصري ، لكن المطلي بالذهب ، وأرسل كذلك إلى صاحب طبرية خمسين الفا من الذهب الزائف ، وعندما اكتشف الأفرنج الخديعة وادركوا الحيلة ترك ملكهم دمشق ، وعاد إلى وطنه وقلبه يتقطر ألما وأسى ، على أني قد طالعت خمسة كتب عربية مختلفة ، لكنني لم اعثر فيها على قصة التزييف الذي تكلم عنه البطريرك ميخائيل في تاريخه .

وهكذا كانت نهاية هذه الحملة ، ونهاية أعدادها الهائلة .

ولما علم ملك صَقلية نبأ خيانة اليونان غضب غضبا شديدا ، وسار إلى مدينة تيبايس،فاحتلها وقوض اركانها وأهلك أهلها بقوة السيف ، وكذلك فعل في أدرنة ، وفي فيلبة ، ثم توجه إلى القسطنطينية نفسها فخرب ضواحيها وأتلف زروعها ، وعاث في الأرض فسادا

ظهور توماس الأرمني

في تلك الاثناء مات لاون الارمني صاحب قيليقية في القسطنطينية وفـر ابنه تـوماس راجـلا إلى قيليقيه ، وزار مـطران السريان اثناسيوس طالبا صلواته ليرد الله تعالى ميراث آبائه إليه ، فصلى له وأهداه حصانا بمثابة بـركة ، ومـالبث أن لحـق بـه اثنا عشر أرمنيا ، وسار أول الأمر إلى حصن عامودا فلما شاهده الحـراس وعلموا أنه ابن مولاهم فتحوا له الأبواب ، فدخل الحصـن بسـلام وقتل من كان فيه من اليونان ، واحتل في مدة وجيزه اماكن شـتى ، فبدأ الروم الذين في سـائر الحصـون يهـابونه ويحسـبون له ألف حساب ، ثم اتفق الفرنج معه وقاتلوا الاتراك وفتـكوا بثـلاثة آلاف منهم ، وذاع خبر انتصاره،وبات الأتراك يرهبون سطوته وبـأسه ، فقام واحتل بعد ذلك عين زربه وغيرها من الاماكن . وفي تلك السـنة اسـتولى نور الدين بـن زنكي على افـاميا ، وعلى بعض حصـون الفرنج ، فأعد له صاحب انطاكية كمينا فتك بكثير من عسكره ، لكنه نجا مع قلة من رجاله فاتجهوا إلى حلب .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) زحف نور الدين إلى حارم وغزا ضاحيتها ، وهدم أبنيتها المقـامة خـارج القلعـة ، وسار البرنس صاحب انطاكية إلى محاربته والدفاع عن حارم ، لكن الأتراك تغلبوا عليه وقتلوه ، وكانوا قبل ذلك يهـابونه جـدا لقـوته الجبارة ، ثم وقعت فتنة بين الأنطـاكيين ، فقـد أراد غالبيتهـم أن يسلموا مـدينتهم لنور الدين،إلا أن بعضـهم أرسـلوا إلى ملك بيت المقدس طالبين النجدة ، فسارع إليهم وبث الشـجاعة والنخـوة في قلوب فرسانهم ، وجعل بطريركهم مـدبرا لامـورهم إلى أن يكبـر بوهيموند ابن البرنس القتيل ، وقتل صاحب كيسوم في هـذه المرة ، فتولاها جوسلين وتولى ايضا قرية بيت حسنه .

وفي هذه السنة اقبل قلج ارسلان بـن مسـعود سـلطان قـونية

وحاصر مرعش وانتزعها من يد الفرنج ويسر للفرسان وللاسقف وللقساوسة الذهاب إلى انطاكية ، لانه كان قد تعهد بذلك قبلا ، إلا ان الاتراك ادركوهم وفتكوا بهم ، وانتزع قرا أرسلان صاحب حصن زياد من الفرنج بلدة الجبولة وبعث جنودا إلى جرجر كمنوا في ثلاثة أماكن مستورة ، وكان اهلها مختبئين في جبال برصوما ، فانقض هؤلاء الجنود صباحا ونهبوا المواشي والبقر ، وفتكوا بثلاثة من رهبان الدير وأرسلوا إلى الرهبان يقولون : سلمونا أهالي جرجر نرد لكم الغنائم ونحترم قديسكم ، ونقدم له النذور ، لاننا لم نأت معتدين على اديرة وليس في نيتنا أن نستعبد الاهالي ، لكننا نريد أن نعيدهم إلى أراضيهم ليفلحوها ، إلا أن الرهبان لم يتفقوا على رأي ، فأراد بعضهم التسليم بينما رفض بعضهم الآخر هذه الفكرة حتى أدى بهم الخلاف إلى القتال بالسيف ، وعند ذلك نهض راهب شيخ واصطحب شخصين من كلا الفريقين وساروا خمستهم إلى الأتراك وقالوا لهم : إن كنتم صادقين في طلبكم الأهالي للحراثة لا للعبودية فليأت فريق منكم معنا فنذهب ونراجع أميركم المحروس ، ونأتمر بأمره ، لكنهم سرعان ما اكتشفوا مكر الأتراك ، وأجمع الرهبان ومن معهم على الرفض فثارت ثائرة الاتراك وأحرقوا المعاصر وسياج الكروم ، وانقلبوا عائدين ، وسار الرهبان إلى حصن زياد وقابلوا الأمير فأشفق عليهم ورد لهم كل ما أخذ الأتراك منهم .

وفي السنة ذاتها قدم جوسلين من تل باشر في مائتي فارس ، وتوجهوا إلى انطاكية وفي اعتقادهم أنهم سيواجهون ألفا فقط ، فباغتهم التركمان ليلا وهزموهم وطاردوهم حتى قبضوا على جوسلين وساقوه إلى نور الدين فاشتراه بألف دينار ثم أوثقه وحبسه ، وبقي جوسلين محبوسا تسع سنوات ، وكانوا يلجأون إلى الوعد تارة وإلى الوعيد تارة اخرى ليجبروه على المجاهرة بالاسلام ، لكن إيمانه كان راسخا ، وكان يدرك في قرارة نفسه أن الرب إنما أدبه لتعديه على دير برصوما كما سنذكر ذلك في تاريخ الكنيسة .

ولما أحس بدنو أجله استدعي أسقف المدينة فعرفه وأعطاه الأسرار المقدسة ، وقضى في قاع البئر حيث كان مسجونا ، وأثناء أسره حمل الأتراك على كثير من أماكن الأفرنج واحتلوها مثل جرجر وختي وحصن منصور وتاكنكار التي بجانب الدير ، ولما علم الأفرنج بوفاته أقاموا ابنه الفتى خلفا له في تل باشر ، وكان اسمه جوسلين أيضا .

وفي عام ١٤٦١ يونانية (١١٥٠ م) أرسل أهالي كيسوم مطرانهم ايويذس إلى مسعود سلطان قونية طالبين الأمان للفرنج الذين عندهم ليذهبوا إلى عينتاب فلبى طلبهم ، ثم استولى على مدينتهم وعلى قرى بيت حسنة ، ورعبان وفرزمان ومرعش ، وعندما كان يحاصر تل باشر أقبل إليه نور الدين فزف إليه السلطان ابنته ، فترك تل باشر ولم يتيسر له احتلالها ، ولم يمض وقت قليل حتى جاء ملك بيت المقدس ونقل معه زوجة جوسلين وأبناءه وجميع الفرنج وأقام في تل باشر بعض أتباع يونان فاحتلوا عينتاب وأعزاز ، ثم ضيق عليهم نور الدين قتلا وجوعا فسلموه إياه دون حرب ، واحتل تمرتاش صاحب ماردين مدينة البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وفي ذلك الوقت كان في قلعة الروم ميخائيل الأرمني،فكتب إلى زوجة جوسلين وابنها ليأمرا غريغوريوس جاثليق الأرمن الموجود في دير البحره أن يأتي إليه ويقيم عنده ويساعده،لكن الجاثليق خان ميخائيل واحتل كل ماله وطرده واستقل بقلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية (٥٤٤ هـ/ ١١٤٥) انتزع سيف الدين ابن زنكي صاحب الموصل مدينة دارا من تمرتاش صاحب ماردين،ثم زحف إلى ماردين وحاصرها فزف إليه تمرتاش ابنته وهادنه ، لكن ما إن وصل إلى الموصل حتى مرض ومات وخلفه أخوه قطب الدين مودود ، فتزوج ابنة تمرتاش وعند ذلك أرسل أحد زعماء الموصل إلى نور الدين ليتجه من حلب إلى الموصل ، فركب مع سبعين فارسا واحتل سنجار ، وأرسل في طلب المساعدة من قرا أرسلان صاحب الحصن مقابل منحه قلعة هيثم .

اما اخوه قطب الدين فقد حشــد الجيوش ومشى إلى تــل أعفــر ليصــد نور الدين ، فتدخل الزعماء واقترحوا حــلا وســطا يجعــل حمص لنور الدين بعد انتزاعها من ســيف الدين وأن يرد نور الدين سنجار إلى قطب الدين ويرجع إلى حلب .

وفي ٢٣ آب من تلك السنة حدث فيضـــان في حصـــن زياد جــرف صبيا مع امه وبغلين وحمارا وقد هلكوا جميعا *

وفي ســنة ١٤٦٢ يونانية (١١٥١ م) قتلت زوجــة صـــاحب ايزنجي زوجها واتت باخيه من ديباريجي وتزوجته ، وملكت مــكان زوجها الأول .

وزحف امير تركي إلى دير سيريكا اليوناني في بنطس ، وانتــزع منه الصليب الذهبي الذي كان يحوي قطعة ثمينة من خشب الصليب حيث تمت به عجائب كثيرة ، ولم يعدها إلى الرهبان إلا بعد أن سلب منهم كمية كبيرة من المال .

كذلك اخذ اليونان يسخرون ويجدفون على مار برصوم ، ويقولون لو كان قادرا على فعل العجائب لما ترك جوسلين يسلب ذخيرته .

وفي تلك السنة زحف نور الدين إلى ضواحي دمشق وأرسل يقول لاهلها : انا لم ات لاحاربكم بل لأزيل العار عنكم ، فــأنتم مــازلتم حتى الآن تؤدون الجزية للفرنج ، وقد اصبح أبناؤكم أسرى لديهم ، ولم يساعدهم احد ، فبعث إليه الدمشقيون يقــولون : إننا نعيش في بحبوحة وأمان مع الفرنج ، ولسنا في حاجة إلى مساعدتك ، وإن لم ترجع إلى حلب فإننا سوف نرسل إلى الفرنجة ليقفوا معنا ضــدك ، فــاستشاط نور الدين غضــبا وأراد أن يحـــاصر المدينة لكن الله سبحانه انزل من السماء وابلا من الأمطار لم ينقطع ففترت همتــه ، وسار إليه زعماء دمشق وهــادنوه أن يخــطبوا له بعــد الخليفـــة والسلطان ، فتركهم وعاد إلى حلب

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) برز الفرنج ثانية من رومية غاضبين على اليونان فاقبلوا الى ضواحي القسطنطينية واحرقوها جميعها ، ثم ذهبوا الى فلسطين فأحرقوا قرى عديدة في عسقلان وقتلوا عددا كبيرا من الاتراك والعرب ، ثم تابعوا الى مصر فخرجوا واحرقوا كثيرا من قراها الغربية ، ثم عادوا الى وطنهم •

وفي السنة ذاتها مات دولت صاحب ملطية وخلفه ابنه ذو القرنين ، فعلم بذلك مسعود سلطان قونيه فهجم على يعقوب ارسلان اخي دولت واخضعه ، ثم هاجم ملطيه فخرب ضواحيها،فخرجت اليه ابنة اخيه والدة ذي القرنين وتوسلت اليه يدع ابنها،وقال لها السلطان : إذا اتى إلي خاضعا تركت له المدينة فخرج اليه ذو القرنين حاملا سيفا وكفنا فرحب به مسعود وأيده وتركه وشأنه وهكذا استحوذت أمه على المدينة وفرضت الضرائب على المسيحيين والعرب وحشدت نساء لتفتك بابنها الصغير،الا ان الزعماء اطلعوا على نيتها فطردوها مع ساحراتها ، وصحت فيها بذلك آية النبي.« امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، قد أعييت من كثرة مشورتك»(اشعيا ٤٧ : ١٢ ـ ١٣).وفي هذه السنة هطلت امطار غزيرة جرفت احجارا ضخمة وتلالا وصدعت جانبا من الجبل وتدحرجت الصخور في الوادي الذي بين ابدهار وخرشنة ، وتوقف مجرى الفرات ثلاث ساعات تقريبا ووصلت المياه الى قرية فروسيدين المبنية على قمة الجبل ، ثم انشقت السدود المقامة على جوانب جبل قلونية ، وفاضت المياه فأحدثت دمارا هائلا في سورية ، وفي السنة نفسها فتك الوباء باثني عشر الفا من اهالي دمياط حتى خلت بيوت كثيرة من السكان .

في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) زحف نور الدين ثانية الى دمشق فحشد الفرنج قواتهم لرد الغزو الجديد ورد نور الدين على اعقابه سرا الى حلب •

- ٢٣١٢ -

وفي تلك السنة ايضا ٥٤٦ هـ ــ ١١٥١ م خرج صلاح الدين من عند ابيه نجم الدين ايوب في بعلبك،واتجه الى حلب يريد عمــه أســد الدين شيركوه ، فــاصطحبه الى نور الدين فــرحب بــه وخصص له بعض المال لمعيشته •

استيلاء الفرنج على عسقلان

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) نشب نزاع بين ملك بيت المقدس وأمه ، فاتخذت من بـرج داود حصـنا لهـا فتـوسط الاقطاب وتركوا لها بيت المقدس كما تركوا لابنها سائر المدن وقيادة الجيش ، فسار ابنها الى عسقلان وكانت للعـرب المصريين واقـام برجا خشبيا ومنجنيقات واحدث فجوه في سورها دخل منها اربعمائة من الرهبان الداوية ، فهجم عليهم عشرون الفا مـن العـرب وهـم مدججون بالسلاح واهلكوهم ، فـانفعل الملك لذلك ، وأراد مغـادرة المدينة لولا تشجيع أحد المحاربين له على البقاء ، ثم قام الفرنج بعد ذلك بحراسة الفجوة ومنعوا العرب من ترميمها ، وفي الصباح حمـل الملك الصليب واتجه الى المدينة وهو ينادي : مـن لايتبـع الصـليب لايعد مسيحيا،فاندفعوا اندفاع رجـل واحـد ودخلوا المدينة ، وقتلوا مايزيد على خمسة عشر الف عسكري ، فهرب البقية في السـفن الى مصر ، والحقيقة التـاريخية هـي ان الفـرنج احتلوا عسـقلان عام ١٤٦٥ يونانية (٤٥٨ هـ / ١١٥٤ م) لكن البطريرك ميخائيل السرياني ذكر أن ذلك تم سنة ١١٥٣ م ، وبسبب هـذا الانتصـار الذي احرزه ملك بيت المقدس انيطت به امارة انطـاكية وزفـت اليه ارملة صاحبها •

وفي سنة ٤٥٩ هـ (١١٥٤ م) انتـزع نور الدين دمشـق مـن صاحبها مجير الدين حربا ، إذ اثـار في البـداية خـلافا بينه وبين زعمائه ، وأخذ يكتب اليه سرا قائلا : احترس من مكر فلان وفـلان وفلان وفلان ، لأنهم يكتبون إلي ويريدون تسـليمي المدينة ، وأنا لا أريد أن أترك قتال الافرنج وأقاتل العرب ، وصـدق مجير الدين ذلك الكلام ففتك بقواده واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا ، وأصـبح دخول نور الدين دمشق سـهلا ، وبعـد أن دخلهـا ولى صـاحبها السـالف مجير الدين بعض قـرى حمص ، وقـد عامـل نور الدين الدمشقيين معاملة طيبه ففرحوا به وظنوا أنه يسـتطيع التغلب على الفرنج •

وفي هذه السنة قتل الظافر بن الحافظ خليفه مصر ، وخلفــه ابنه عيسى وهو في الثالثه من عمره وسمي الفائز ، وفي غياب فارس الدين الامير الكبير تولى الوزاره العبــاس ، فســخط فــارس الدين على العباس وهدده لانه أخذ يتصرف دون الرجوع اليه ، فخاف العباس واخذ أمواله وخرج في ثلاثة الاف من الأرمن ، وطلب مســاعدة نور الدين إلا أن المصريين تبعــوه فضربهــم الارمــن ، وقضــوا على اكثرهم ، ثم تفرق العباس ورجاله في الصــحراء فــأدركهم الجــوع والعطش ، ولما وصلوا عسقلان برز الفرنج لملاقاتهم ، وعندما رأى الارمن الصلبان في رؤوس رماحهم القوا عنهم الســلاح وانضــموا إليهم ، وقتل يومئذ من العرب قرابة خمسة آلاف ، وقبض الفــرنج على العباس وفتكوا به.

وفي تلك السنة سار الخليفه المقتفي الى تكريت وشــدد الحصــار عليها ، وهدم أبنيتها ووجه ضرباته نحو قلعتها ، فــأرسل محمــد شاه ابن السلطان مسعود الى أمراء الموصل يقول : إن آبــائي قــد ولوكم هذه البلاد لتنجدوهم ، والآن لم يبق لنا في أرض شنعار كلها سوى قلعه تكريت ، والخليفة يحاول انتــزاعها منا ، فنرجــو منكم الحضور ومساعدتنا لدفعه عنا ، فاحتشد الموصليون ، وزحفوا الى تكريت ، ولما علم الخليفه بعــددهم أصــابه الزعر ، فتــرك عدتــــه وعتاده ، وعاد مسرعا الى بغداد.

وبعد ايام قليلة حشــد أمير تــركي قــرابه إثني عشر ألف جندي وأرسلهم الى تكريت ، فانقذوا ارسلان شاه بن طغرك الســلجوقي من السجن لانه ينحدر من سلاله الدولة السلجوقية ، وخرج الخليفة مع جيشه لملاقاتهم ، وظلوا ثمانية عشر يوما يقفون وجها لوجه دون قتال ، ولما وقعت المعركة هزم أصحاب الخليفه ، وحاول هو الفرار فتوسل إليه رجلان من أتبــاعه أن ينتــظر قليلا ووضــعوه أمــــام الصفوف مع حصانه على كره منه ، فتشجع البغداديون وكروا على الاتراك وانتصروا عليهــم وأخــذوا غنائمهــم ، وكانت فيمــــا قيل اربعمائه ألف شاة عدا البقر والجمال.

وفي هذه السنه كانت مياة دجله تسيل كالدماء الحمراء.

في سنة ١٤٦٧ يونانية (١١٥٦ م) تحرش البرنس صاحب انطاكيه بطورروس صاحب قيليقيه وأخذ يطالبه بالحصون التي انتزعها الأرمن من اليونان ، والتي أنتزعها اليونان من الفرنج ليولي عليها الرهبان الداوية جزاء قتالهم في سبيل توحيد المسيحيين ، فامتنع الارمن واصطدموا مع الفرنج عند باب سقنطرون ، فهزم الارمن ، وهرب طورروس ، ثم تصالح الفريقان وتولى الرهبان الداوية تلك الحصون.

وفي تلك السنة سار صاحب مرعش الى إحدى قرى الارمن ، فحشد أسطفان أخو طورروس جيوشه وانطلقوا ليلا ، واختفوا في البيوت ، وعندما فتح باب القلعه في الصباح نهضوا فدخلوه واحتلوا السور الخارجي ، واخذوا يحفرون داخلا وبلغهم حينها أن الأمير قادم في جيش تركي ، فملكهم الفزع وخافوا أن ينحصروا بين السورين ، فيشرع بقتلهم الداخل والخارج ، فنهبوا المدينة واضرموا النيران في البيوت وفي كل ما تعذر عليهم نقله ، وهربوا مع جميع الاهالي،وقد ساق هؤلاء الارمن الخبثاء المطران ديونيسيوس ابن الصليبي فوصل ماشيا الى دير كاسليود ،(١٤) وتمكن من النجاه ونظم في خراب مرعش ثلاث قصائد لأنه كان راعيها يومئذ ، ولما وصل الأتراك عاملوا المسيحين معامله حسنة ، وردوا الى الأرمن العائدين جميع بيوتهم وكرومهم واراضيهم ، إلا أنهم سلخوا جلد قسيس أرمني ، وهو حي ، وبتروا لسانه وايديه وأرجله ، وأحرقوه بعد ثلاثه أيام بالنيران ، وما أن بلغ الأرمن ذلك حتى عاملوا هم بدورهم بعض الأتراك مثل هذه المعامله القاسيه.

وفي تلك السنه سلخ حيا قسيس آخر أرمني في ملطيه ، لانه أغرى فتاة مخطوبه حديثا ، ومضى بها الى الكنيسة ، وحاول اغتصابها ، فأخذت المسكينة تصرخ مستغيثة ، لكن القذر وضع يده على فمها حتى أكمل شهوته ، وبعد هذا شاهدها على آخر رمق

فأجهز عليها ، وقتلها وبتر اذنيها وبعض أصابعها لعجـزه عن نزع الخواتم منها ، وأخفى ما سرقه منها في قنديل ، ثم أخفى الفتـاة في لحاف ضمن المذبح ، ولما خرج والدها وحمواها للبحث عنها،أخبرهم بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون في الزقاق أنها دخلت الكنيسه مـع القسيس ، ولما سألوه قال لهم قد دخلت وخرجت بسرعه ، فـأخذوا يبحثون عنها في كل مكان ولم يجدوها وشاهدوا ذلك القسيس خارجا من باب المدينة ، فقبضوا عليه ومضوا به الى الحاكم فضربه حتـى اعترف بفعلته الدنيئه ، وأراهـم جثمـان الفتـاة واذنيهـا وأصابعها ، وقد شيعها الناس بمراره ، أما القس فقد سلخ وقـطع إربا إربا وأحرق وهو حي حتى هلك.

وفي سنة ١٤٦٨ يونانية (١١٥٧ م) اتجـه البـرنس صـاحب انطاكيه الى قبرص ، وكانت لليونان فسـبى أهلهـا مـع اغنامهـم وابقارهم وخيولهم وأمتعتهم ، ولما وصـلوا سـاحل البحـر قـدم القبرصيون ذهبا كثيرا مقابل نجاتهم ، فتـركهم الفـرنج مـكتفين بأموالهم ومواشيهم واستاقوا الاساقفة ورؤسـاء الأديرة والكنائس والزعماء الى انطاكية بمثابه رهائن الى أن أخذوا مطالبهم كامله.

في سنة ١٤٦٩ يونانية (١١٥٨ م) حاول اسطفان الأرمني أن يفتك بأخيه طوروس ، وشعر طـوروس بـذلك فقبض عليه واعتقله عشرة شهور ، ثم عفا عنه تلبيه لطلب الافرنج وانضم الى جيشهم.

وفي سـنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) حـدثت في سـورية زلازل عنيفه ، ففـي حمـاه سـقطت القلعـه وجميع البيوت على اهلها ، وسقطت كذلك قلعه شيزر كلها ، ولم ينج من أهلها سـوى امرأة واحده وحاجب واحد ، أما أهل حمص فقد سارعوا الى خارج المدينه ونجوا وهدمت دورهم وقلعتهـم ، وفـر اهـل حلب مـن مدينتهم ، وظلوا أياما خارجها للنجـاة بـأنفسهم مـن الموت وقـد تهدمت بيوتهم وهلك منهم خمسمائه نسمة فقط ، ولم ينج أحد مـن اهالي كفر طاب وفـاميه ، وهـدمت بيوت كثيره في الرحبـة ، كذلك

اجتاح الزلزال من مدن الافرنج :حصن الاكراد وعرقه ، ولم يبق في اللاذقيه سوى كنيستها الكبرى ، ونجا جميع أهلهـا ، وتصـدعت أرضها وانفتحت ودفن في وحلها تمثال مسبوك ، كذلك تصدعت أكثر بيوت أنطاكية وطرابلس ٠

وفي تلك السنة مات جوسلين في سجن حلب بعـد أن تـاب تـوبة نصوحا كما ذكر أغناطيوس اسقفها الذي زوده بالأسرار المقدسه.

وفي تلك السنه أيضا وصل السلطان محمد بـن محمـود في جيش ضخم كبير الى بغداد ، وشدد الحصار عليها مدة أربعة أشهر إلا أن بعض أقطابه نصحوه بأخذ المال بدلا من الحرب ، وبلغهم آنذاك خبر احتلال ملك شاه أخي السلطان لهمذان وسـبيها واختـطاف نسـاء زعمائها فضعفت همة السلطان وغادر بغداد وتبعته جيوش الخليفـه وفتكوا بعدد كبير من الاتراك دون رحمه ، انتقاما منهم لما أحـدثوه من الخـراب غربـي العـاصمه حيث كانوا مخيمين ، اضـافة الى ارتكابهم الفواحش مع النساء ضمن المساجد أمام أزواجهن ، والى ما احدثوه من قتل وأحراق للبيوت.

وفي هذ السنة مات السلطان سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسـلان ابن داود إثر نجاته من الغزاة الذين اعتقلوه.

وفي سنة ١٤٧٠ يونانية (١١٥٩ م) زحـف منويل ملك اليونان الى قيلقية واستعاد طرسوس وعين زربه وغيرها ، وأقام فيها مـدة فصل الشتاء ، بعد أن هزم طوروس الأرمني ، ثـم تـوجه ملك بيت المقدس وأمير أنطاكيه وبطريرك الفـرنج الى زيارة منويل واتفقـوا معه وصالحوه مـع طـوروس وأحضروه اليه ، فعينه قـائدا لجميع الجيوش اليونانية في سـاحل البحـر ، وأجتمـع اليونان والفـرنج والأرمن للزحف على حلب ودمشق وسائر المدن السورية لكن بلغهم آنذاك خبر أفاد أن شعب اليونان يحاولون تعيين ملك آخر ، فسارع الملك منويل في العودة الى عاصمته ، ولم يكمل مـا اتفـق عليه مـع الفرنج والأرمن.

وفي نيسان من تلك السنة حدث طوفان في بغداد خلخل بعض جدران دار الخلافة ، وفر الأهالي الى غربي المدينة حاملين المرضى والعجائز والصغار على الاكتاف خوفا من الغرق ،وبلغت أجرة ركوب الزورق في أحد المعابر أربعة دنانير ذهبية .

وفي سنة ١٤٧١ يونانية (١١٦٠ م) قرر ابن جوسلين الخروج من حارم والاغارة على أطراف حلب ، فنصب له نور الدين كمينا وقبض عليه ثم ألقاه في البئر الذي كان فيه والده.

وفي آذار من تلك السنه وهي سنة ٥٥٥ هـ ، في الثاني من ربيع الأول توفي الخليفه المقتفي بداء الخناق وخلفه ابنه المستنجد.

ابـــو المظفـــر يوســـــف المســـــتنجد بالله ـ ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م

دام حكمه اثني عشر عاما وحين توفي والده دبــرت له امــرأة ابيه التركية ووالدة أخيه الصغير مكيدة للايقاع به وتولية ابنها،فسـلحت جواريها بالسكاكين وأمرتهن أن يهاجمن المســتنجد حــالما يدخـل غرفته ، لكن احدى الجواري أفلتـــت مـــن بينهـــن وأخبـــرت المستنجد ، فحشد جنده وقبض على أخيه وزجه في الســجن ، ثــم أعتقل هؤلاء النسوة ، فسجن بعضهن ، وقتل بعضـــهن ، وهــكذا ثبتت له الخلافة

أخبار الافرنج في عهد المستنجد

وفي عام ١٤٧٢ يونانية(١١٦١ م) ذهب السير عمــوري أخــو ملك بيت المقدس الى مصر وسلب من المصريين أموالا طائله ، وعاد لكن ما لبث أن تــوفي الفــائز خليفــه مصر ، فــارتضى المصريون أن يدفعوا للفرنج كل عام مائه وستين ألف دينار ذهبــا ، كذلك هــاجم جورجي ملك الكرج مدينة آني وانتزعها من الأتــراك ، وغنم منهــا غنائم كثيرة واعتقل عددا كبيرا من العــرب وعاد الى بلده. وفي هــذه الفتره امتاز الأمير الموصــلي جمــال الدين(١٥) بعــطفه وحســناته فــأرسل المفــريان اغناطيوس الى الملك جــورجي لافتــداء الأسرى العرب ، فاستقبله الملك جورجي أحسن استقبال وأطلق العديد مــن الأسرى مجانا وحمله هدايا كثيرة الى الأمير ، وبعث معــه ســفراء كرجيين فاستقبلهم الأمير في الموصل استقبالا حسنا ، ورحب بهــم ترحيبا حارا ، وقد وصل المفريان والسفراء الى الموصل والصــلبان تتلألأ في رؤوس الرماح ، وقد انعش هذا المســيحيين،كذلك ابتهــج العرب بعودة اسراهم.

وفي هذا الزمان نصب الفرنج كمينا لسارق فرنجي ظهر في بغراس فقبضوا عليه وأحرقوه بعد أن كان قد التجأ الى نور الدين ، وأخذ من عنده جماعة من الاتراك وأخذوا يسرقون وينهبون في ضواحي انطاكية .

توفي ذو القرنين صاحب ملطيه وخلفه ابنه الصغير عام ١٤٧٣ يونانية (١١٦٢ م) كذلك حاول يعقوب أرسلان ومعه مجموعة من الأمراء خلع قلج ارسلان وتوليه أخاه عوضا عنه ، فتوجه قلج أرسلان الى القسطنطينية وبقي هناك ثمانين يوما ، وقد احتفى به الملك خلالها وحباه بالرعاية والعناية،وبقي هناك ثمانين يوما كان يرسل له الملك خلالها كل يوم الطعام مرتين في أطباق ذهبية وفضية جديدة ، وكان يشير له بابقائها لديه ، وظل كذلك طوال مدة اقامة السلطان في العاصمة ، وفي آخر يوم من اقامته تناول مع الملك طعام الغذاء ، ثم حمله بالهدايا الثمينة ، وأغدق بعطاياه على الفي تركي ، وعاد الى عاصمته ، فأدى له يعقوب أرسلان الطاعه وتهادنا.

وفي تلك الفترة أقام حاكم طرسوس اندرو نيقس اليوناني وليمة لاسطفان أخي طوروس الارمني صاحب قيليقية ، لكن أسطفان وجد مقتولا ومرميا عند باب المدينة ، فغضب طوروس وقتل أكثر من عشرة الاف يوناني ، لكن ملك بيت المقدس جاء وأصلح ذات البين بين الأرمن واليونان ٠

وفي عام ١٤٧٤ يونانية(١١٦٣ م)اختلف عسكر قرا أرسلان صاحب حصن زياد عند حصاره مدينة آمد فترك المدينة وانقلب راجعا ، فتوجه يعقوب أرسلان الى بلد قرا ارسلان واستطاع انتزاع قلعة شوموشكي منه ، وأسر مائه ألف نسمة تقريبا وترك القرى خالية ، وكان بين الأسرى اغناطيوس مطران تل ارسانيوس فأعاده من قماح الى ملطيه ، وبعد يومين اعاد مطران حصن زياد.

في هذا الوقت كانت زوجة البرنس السجين في حلب تناصب العداء ابنها وتنافسه على الولاية ، لكن الزعماء وقفوا في وجهها ، فطلبت من صهرها ملك اليونان ان يذهب الى انطاكية ويتولاها ، لكن البطريرك والأقطاب سرعان ما اكتشفوا الامر ، فسارعوا واستدعوا طوروس من قليلقية الى انطاكية: حيث نفى الملكة ، وأعلن الولاء لابنها وأيده في الامارة.

وفي عام ٥٥٨ هجرية(١١٦٣ م)اراد نور الدين غزو ضواحي طرابلس ، فحشد جيوشا كثيرة من الاتراك وتوجه الى حصن الأكراد ، وخيم هناك ، لكن الفرنج فاجأوه وانقضوا عليه وعلى جيوشه ، فقتلوا العديد من الاتراك واسروا البقية واستاقوهم الى طرابلس بعد أن قتلوا واحدا من الاكراد كان قد ساعد نور الدين في الفرار وجعله ينجو.

وفي عام ١٤٧٥ يونانية (١١٦٤ م) فاجا الموت يعقوب ارسلان عند نهر سانجر على شاطىء نهر اليس ، فخلفه اسماعيل حفيد اخيه ، ثم اقترن بامراته التي هي بنت السلطان.

هزيمة الفرنج وأسر أمير انطاكية وكونت طرابلس

جمع زعماء الفرنج جيشا يبلغ ثلاثة عشر الف فارس وراجل بقيادة خمسة من رؤسائهم وهم : البرنس صاحب انطاكية ، وقمص طرابلس،وطوروس صاحب قيليقية،وبوقاس اليوناني صاحب طرسوس،والماستر مقدم الداوية ، وزحفوا ليحاربوا نور الدين الذي كان يحاصر مدينة حارم ، فانهزم شر هزيمة ، وأسر الاتراك القمص وبوقاس والبرنس وساقوهم الى حلب كذلك قتلوا الرهبان الداوية قاطبة ، لكن طوروس استطاع ان يهرب الى انطاكية،وقد اقام بطريرك الافرنج مناحه عامة ، وحطم النواقيس واوقف الصلوات ، وقد استطاع نور الدين ان يستولي في هذه الموقعة على مدينة حارم وعلى دير سمعان وقد اسر الرهبان والسكان وساقهم جميعهم عبيدا .

وفي عام ٥٥٩ للعرب (١١٦٣ م) سير نور الدين الى مصر الامير اسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ٠

وكان اسم والد الإخوين الأمير أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب أبي صلاح الدين شادي كوديين ، (١٦) من مدينة دوين وهي مدينة بارمينة .

وقد توليا خدمه مجاهد الدين بهروز الحاجب امير تكريت،الذي كان يحب النصارى،وقد هربا الى الموصل بعد أن قتل شيركوه احد نصارى تكريت،وكان عزيزا على قلب اميرها،فاستقبلهما زنكي ورفع من شأنيهما ، وعندما احتل زنكي بعلبك جعل على قلعتها نجم الدين الذي بقي فيها حتى وفاة زنكي ثم سلمها الى صاحب دمشق،كذلك تولي أسد شيركوه اخوه ، خدمة نور الدين ثم ولاه على حمص وكان للأخوين مكانة رفيعة عنده.

وعندما ضعف المصريون استنجد وزيرها شاور بنورالدين،فوجه نور الدين الى مصر جيشا بقيادة الامير أسد الدين شيركوه الذي حاول احتلال مصر ، لكن عندما احس شاور بذلك بعث يهادن الافرنج ورفض ان يدفع لشيركوه ماوعده به من الذهب والمناطق ، فاحتل شيركوه وجيوشه مدينة (بلبيس) فقام ابان ذلك شاور وطلب من ملك بيت المقدس المساعدة فزحف في جيش كثيف وحاصر بلبيس ثلاثة اشهر بعد أن انهزم شيركوه وتحصن فيها ، لكن ملك بيت المقدس سمح لشيركوه بمغادرة بلبيس والعودة الى بلاده وترك مصر لاهلها بعد ان علم بانهزام الفرنج في حارم شر هزيمة،فوافق شيركوه وعاد إلى دمشق .

وفي عام ١٤٧٦ يونانية (١١٦٥ م) أصبح السلطان قلج أرسلان سلطان قونية يعادي بني دانشمند بعد أن احتل جادوج وابلستين وطورنده . واحتل نور الدين بانياس وعززها وأطلق من كان لديه قد أسر من زعماء المسيحيين ومن بينهم بوهيموند البرنس الفتى بمائة ألف دينار ، وذلك بعد أن غزا طوروس الأرمني مرعش ، وقبض على أربعمائة تركي وهدد نور الدين بحرقهم إذا لم يستجب لطلبه بإخلاء الأسرى المسيحيين ، وتوجه البرنس لزيارة حمية ملك اليونان في القسطنطينية ، فأغدق عليه الملك الأموال الطائلة ، وعاد البرنس إلى أنطاكية بصحبة بطريرك اليونان أثناسيوس ، فارتاب بطريرك الفرنج وأبرم الحرم على الأنطاكيين الفرنج ثم ارتحل إلى قلعة القصير ، وفي شباط السنة نفسها توفي وحيد عصره في الطب ، الطبيب المسيحي أمين الدولة ابن التلميذ ، بعد أن بلغ التسعين من عمره،وكان ضليعا في العلوم وكذلك في نحو العرب وفصاحتهم ، وتقلب في أيامه بين خفض العيش وعلوه ، وقيل أن ابنه سأله قبل وفاته : ماالذي يؤلمك ؟ فقال : كمية التسعين من عمري ، وسأله كذلك : ماتشتهي ؟ فقال : أن أشتهي .

وفي سنة ١٤٧٦ لليونان (١١٦٥ م) حين اجتاح قرية الينا س الوباء بسبب وفرة المياه وغزارتها ، وردنا خبر غريب عن أهالي

القرية : فقد جاء إليهم رجل تركي وطلب منهــم أن يبحثــوا عن أول إنسان مات بهذا الوباء ، وكان قد مــر على مــوته أربعــة أشـــــهر فبحثوا ، وفتحوا قبره فوجدوا جسده بــاقيا ويده اليمنى مبتــورة ، وهي بجانبه وكفن رأسه وصدره مأكولا ولحيتــه مقصـــوصة وعينيه مفتوحتين وفمه أيضا مفتوحا شــبرا وأربــع أصــابع ، فســد ذلك التركي فمه وسمره بمسمار ضخم ، ومنذ ذلك الوقت لم يمت أحد في القرية .

وفي ســــنة ١٤٧٧ لليونان(١١٦٦)م ســــقط الملك منويل عن حصانه ، وأصيب أثناء حــرب وقعــت بين اليونان والبلغــار ، وانقض رجل بلغاري على الملك يريد قتله ، لكن الملك عرفــه بنفســه وسأله أن يمضي به إلى القسطنطينية وحلف له أنه سيكافئه ، فلبــى البلغاري طلبه ، وانقذه ووفى الملك بوعده أضــعافا ، ويقــال ان الملك منويل سقى زوجته الملكة سما لأنها لم تلد له ولدا ، وخالف شريعــة الملوك وتزوج بامرأة ثانية .

وفي السنة ١٤٧٨ لليونان(٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م) تــوجه أســد الدين شيركوه بأمر من نور الدين إلى مصر فعبر النيل مــن الناحية الغربية ، وسار مطمئنا حتى الصعيد ، وكان برفقته صلاح الدين بن أيوب ، فاستنجد شاور وزير مصر بــالفرنج الذين لبــوه بجيوشــ كثيفة اتحدت مــع جيوش المصريين ، وتــوجهوا نحــو شــيركوه ، فاقترح زعماء جيش شــيركوه التــراجع مــن الناحية الشرقية إلى سورية كأنهم سيعجــزون أمام القوة الهــائلة للفــرنج والمصريين ، عدا عن أن جميع الأهــالي أعداء للأتراك .

عندها برز شاب شجاع مصارع يدعى بنغــوش،وهــو عبــد نور الدين ، فحمسهم على القتال،وقال لهم بأنهم إذا تخلوا عن محــاربة الأعداء وعادوا إلى نور الدين هكذا فلسوف يقــطع عنهــم المعــاش ويطالبهم بما أعطاهم ، لأنهم لايصلحون لأن يكونوا جنودا ، فوافقه

صلاح الدين على رأيه ، وعقدوا العزم على القتال وقاتلوا على الرغم منهم .

واستطاع شيركوه ومعه ألفي جندي لاغير أن ينتصر على الفرنج والمصريين ، وكانوا أكثر من عشرة آلاف جندي ، وذلك بعد أن أوعز شيركوه لصلاح الدين بأن يبقى في وسط الجيش ليظن الجيش المقابل أنه هو ، ثم ينقلب راجعا ، ونجحت الخطة ، وظن الفرنج والمصريون أن شيركوه انهزم فلحقوا به لكن شيركوه وقلة من جنوده الاشاوس لحقوا بالفرنج والمصريين ، فأطبقوا عليهم من الخلف وصلاح الدين من الأمام ، فانكسروا وانهزم منهم من استطاع الفرار .

وبعدها سار شيركوه واحتل الاسكندرية دون حرب ، وترك مصر وعاد إلى دمشق بعد أن أرسل إليه الفرنج والمصريون في الصلح، ودفعوا له خمسين ألف دينار على أن يعود إلى بلده تاركا الاسكندرية للمصريين ، ودفع المصريون للفرنج مائة الف دينار ليعودوا إلى بلادهم وبقيت مجموعة من الجند والفرسان لحراسة ابواب الاسكندرية كي لايطمع بها نور الدين مرة أخرى .

وفي العام نفسه (١١٦٧ م) استطاع قرا أرسلان صاحب حصن زياد أن يحتل برجين من أبراج آمد بالتآمر مع حراسها ، لكن بقية الحراس انقضوا على الأعداء وفتكوا بهم ، فعاد قرا أرسلان إلى بلده منهزما وخلفه ابنه بعد أن توفي في (١٧) تموز .

وفي كانون الثاني عام ١٤٧٩ يونانية (١١٦٨ م) توفي صاحب قيليقية طوروس بعد أن انقطع في أواخر حياته إلى الرهبنة وحرم أخاه مليح وراثته ، وأوصى أن يخلفه ابنه الصغير ويشرف عليه ابن خالته توماس ، عندها غضب مليح غضبا شديدا ، فقصد نور الدين الذي أمده بجيش تركي توجه به إلى قيليقية ، وأسر ستة عشر الفا من الأهالي والقسس والأساقفة وساقهم إلى حلب وباعهم ، ودفع

إلى الاتــراك بأثمانهم . فاستدعاه الأرمن وولوه نصف البلاد فاقسم بالمقابل أن يترك للفتى النصف الثــاني ، لكنه نكث بــوعده وقســمه واحتل بلادهـم ، واعمل البطش ففقأ عيون العـديد مـن الأســاقفة والاعيان ، وبتر ايديهم وارجلهم وسلخ بعضهم أحياء وألقــى بهــم للوحوش .

وفي عام ٥٦٣ للعرب (١١٦٧ م) أدرك الهرم صاحب الموصــل قيم قطب الدين الأمير التركي زين الدين فطرش وعمي ، فانتقل إلى إربيل واكتفى بها ، وقد كانت في حوزته منذ عهد زنكي وفيها تــوفي ، وتنازل لقطب الدين عن سنجار وحران والعقر وحصون الهــكارية وتكريت وشهرزور ، وتولى بعده ولده مظفر الدين وجعل قيمه مجاهد الدين ، واتصف زين الدين ببساطة التصرف وعفــويته ، واشــتهر بعدله وعطائه ، ويحكى أن أحد الفرسان جاءه يوما وبيده نبل وقال له بأن حصانــه هلك ، فأمر له بحصــان ، وهــكذا تناوب النبل إثنا عشر فارسا ، لكنه قال : لقد اســتغربت أنكم لم تخجلوا مني خجلي منكم ، فقد عرفت أن النبل هو عينة أحضر لي إثني عشر مرة ومــع ذلك كله لم أخجلكم ، وارفض طلبكم وأجزيت لكم العطاء كمن يؤدي فرضا .

ويحكى ايضا أن أحد الشعراء انشده يوما قصيدة ، لكنه لم يفهم منها شيئا ، ومع ذلك لم يرده خــائبا ، وأمــر له بخمســمائة دينار وحصان وكسوة قيمتها كذلك خمسمائة دينار .

في عام ١٤٨٠ يونانية (٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م) استولى سلطان قونية قلج ارسلان على مدينتي قيسارية كبدوكية وسمندو مــن بني دانشمند ، وانتزع انقرة وقنقار من اليونان ، وانتــزعت مــن الأمير المعدي المتصل ببني عقيل قلعــة جعبــر ، انتــزعها منه نور الدين ، وأعطاه عشرين ألف دينار وسروج والمالحة وباب بــزاعة بــدلا مــن القلعة ، ومكث شهاب الدين زمنا في سروج،لكنه بقــي يفضــل حياة العز في القلعــة على أن الوارد مــن سروج كان أكثــر ، فهــكذا كان

يوضح كلما سأله أصدقاؤه عن أي البلدين أطيب بنظـره ؟ وفي هـذه السنة انتزع قلج أرسلان أنقره وقنقار من اليونان .

استيلاء صلاح الدين على مصر

في تلك السنة بعث الفرنج المقيمون في مصر والاسكندرية من أجل حراسة الأبواب وجباية الضرائب إلى ملك بيت المقدس عموري يخبرونه بأن مصر خالية من الجيوش والفرصة مواتية لاحتلالها ، وتحمس الزعماء لتلبية الطلب ، لكن الملك نبههم من حقد العرب عليهم وقال : إن أموال مصر تأتينا عفوا صفوا ، وإذا زحفنا إليها لابد أن هذا سيدفع العرب للاستنجاد بنور الدين وعندها سيغلبوننا بعد أن ينضم الغرباء والمصريون في جيش واحد ، وتضيع الأموال التي تأتي للفرنج من مصر ، لكن الزعماء رفضوا اقتراحه ، وعقدوا العزم على الحرب قبل أن يستعد نور الدين ، وتوجهوا إلى مصر ، واحتلوا بلبيس ونهبوها وأسروا أهلها وحاصروا القاهره ، واصطف أهالي مصر فوق الأسوار وجاهدوا جهادا حسنا ، وقاوموا الأعداء فاستنجد خليفة مصر العاضد بنور الدين بعد أن قص ضفائر نسائه وأرسلها إليه قائلا : إن نسائي يتذللن بساكيات بدموع مدرارة ويلتمسن أن تسارع إلى إغاثتهن وأن تعمل على إنقاذهن من الوقوع في أيدي الفرنجة ، ومكث نور الدين شهرين يعد العدة للقتال وبسبب تمهله واشتداد القتال أرسل وزير مصر شاور إلى عموري وزعماء الفرنج يقول لهم : إنكم تعلمون بمودتي لكم ، ولو أعرف أن العرب يسايروني لتخليت لكم عن مصر حالا ، لكن لو سمعوا شيئا مني حول هذا الموضوع لقتلوني حالا ، ولهذا أعرض عليكم ماشئتم من الذهب شرط أن تعودوا إلى بلدكم ، ويمكنكم أن تقيموا لكم وكلاء يجبون الجزية كما كان من قبل لأنه إذا جاء نور الدين واحتل المدينة فستخسرون وقتها الجزية والمدينة معا ، واقتنع الفرنج وعادوا إلى بلدهم وغادروا مصر بعد أن رحبوا برأي شاور وعقدوا الصلح وفرضوا على المصريين ألف ألف دينار ، دفع لهم شاور منها على الفور مائة ألف على أن يجمع لهم باقي الذهب ويبعثه لهم بعد رحيلهم .

وعندما علم نور الدين أرسل جيوشه إلى مصر وسير معها شيركوه وسير معه صلاح الدين ابن أخيه ، وزار شيركوه عند وصوله مصر الخليفة العاضد ، وحظي لديه ، وشرع يمالئه بكلمات مغرية لأن الوزير شاور المسؤول عن توزيع الأرزاق لم يكن يؤدي للخليفة وحشمه شيئا من المال ،واستعد شاور ليولم وليمة لأسد الدين وصلاح الدين ليقبض عليهما لولا أن ابنه ثناه عن عزمه كما أن صلاح الدين كان يريد أن يفتك بشاور ولكن عمه شيركوه نهاه عن ذلك ، وفي يوم من الأيام ذهب شاور لزيارة شيركوه فلم يجده إذ كان قد سار ليتبرك بقبر أحد مشايخ دينه ، فركب حصانه وركب معه صلاح الدين الذي التقى به في الطريق وفيما هما يتحدثان ألقاه صلاح الدين عن حصانه وأوثقه ولم يقتله دون أخذ رأي عمه الذي أمره بإعلام الخليفة بذلك ووافقهما الخليفة ، لأن شاور كان لايطيعه ، وهكذا قتل شاور وتم الاستيلاء على أملاكه ، وتولى شيركوه مكانه وسمي ملكا وقائدا أسوة بسائر وزراء مصر ، ولم يتنعم شيركوه بالوزارة سوى شهرين فقد أدركته المنية وتوفي بداء الخناق ، وتولى بعده ابن أخيه صلاح الدين فاستمال بعطائه الجنود واستطاع السيطرة على مصر .

ولم يكن لشيركوه سوى ابن واحد يدعى ناصر الدين ليخلفه وقد أنيطت مدينة حمص به وبأبنائه ، أما أخوه نجم الدين أيوب فكان له ستة أولاد : الأول شمس الدولة توران شاه الذي تولى الاسكندرية ، والثاني : شاهنشاه والدعز الدين فروخ شاه ،وتقي الدين عمر الذي تولى وبنوه حماه ، والثالث : سيف الاسلام طغتكين وتولى اليمن ، والرابع : صلاح الدين يوسف وتولى مصر وفلسطين وسورية ومابين النهرين ، والخامس : الملك العادل أبو بكر الذي خلف صلاح الدين ، والسادس : تاج الملوك بوري الذي مات عندما حاصر أخوه صلاح الدين حلب .

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي السنة ١٤٨١ لليونان (١١٧٠ م) ولى زعماء ملطيه ابا القاسم الاخ الصغير لمحمد صاحبها ، بسبب كره الملطيين واشتد غضبهم على محمد هذا بسبب ملازمته لامرأة زانية وساحرة فاخذها وغادر ملطيه وجعل يتنقل من دار إلى دار .

وفي هذا الوقت أخذ مليح الارمني صاحب قيليقية يعتدي على المسيحيين فزحف ضده ملك بيت المقدس تحته الحمية وسجنه في أحد الحصون ، وبقي كذلك حتى استغفر من الملك واقسم له بالطاعة والعدول عن صحبة الأتراك ، فعفا عنه وعاد .

وفي عام ٥٦٥ للعرب (١١٦٩ م) توفي صاحب الموصل ابن زنكي قطب الدين مودود وأوصى أن يخلفه ابنه عماد الدين زنكي ، وكان لقطب الدين نائب وقيم يقال له فخر الدين عبد المسيح ، أصله من أنطاكية ، وكان قد وقع أسيرا وكان يكره عماد الدين فغير الوصية بالاتفاق مع قطب الدين ووليا الابن الصغير سيف الدين غازي خلفا لأبيه فعاهده الزعماء على ذلك ، وعندها توجه عماد الدين إلى عمه نور الدين في سورية تاركا الموصل ، وأخذ يبكي المملكة والوراثة ويشتكي من عبد المسيح لأنه حرمه اياهما .

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين ٢٩ حزيران ـ ١٢ شوال اهتزت الارض اهتزازا عظيما لم يشهد له مثيل من قبل,وكانت الارض مثل السفينة في لجة البحر,واستغرقت الزلازل مناوبتها خمسة وعشرين يوما ، سقطت فيها اسوار حلب وبعلبك وحماه وحمص وشيزر وبغراس وجميع حصونها ودورها وتوفي اهلها .

وقد سقطت حلب كلها سوى كنيستنا ، وكذلك سقطت ثلاث

كنائس لنا في انطاكية هـي : كنيسة والدة الرب ، وكنيسة مـار جرجس وكنيسة مار بـرصوما ، وبقيت كنيسة جبلة الصـغيرة ، وكنيسة في اللاذقية . وذلك تمجيدا لله عز وجل وتشجيعا للايمـان القويم والمؤمنين ، وقد وصـف البـطريرك ميخـائيل السرياني تلك الزلزلة قائلا : « كنا واقفين في هيكل دير مار حنانيا (الزعفـران) نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس فسـمعنا بغتـة صوت رعد قوي وسـقطنا على وجـوهنا امـام المائدة المقـدسة ، وتشبثنا بها ونحن نميل هنا وهناك ، وبعد مـدة طـويلة افقنا كمـن يفيق من القبر وانتبهنا انتباه مـن ينهض مـن رقـاد ، وتـدحرجت الدموع من عيوننا واطلقنا الالسنة بالشكر والتسـبيح لله تعـالى ، واجتاحت بيعة اليونان الكبرى بانطاكية ومذبح بيعة القسيان وهـي للفرنج ، وقد اشفق الرب الرحيم على بقية شعبنا وتعطف على ذلنا نحن الذين لم يبق لنا ملك ولاحاكم منا .

وفي العام ١٤٨٢ (١١٧١ م) زفت ابنة قرا ارسـلان صـاحب حصن زياد الى صاحب ملطية ابـي القـاسم الذي تهـور عن ظهـر حصانه في غمرة الاحتفال بالعرس في ميدان الخيل فـانقلب الفـرح حزنا ، فولى الملطيون افريدون الصغير اخاه عوضا عنه بعد ان زفوا اليه العروس ذاتها على كره منها .

ويومها اجلى قلج ارسلان اهالي ضواحي ملطية بعد ان زحف اليها مع جيوشه من قونية ، وبعـدها انقلب الى قيسـارية لكن نور الدين كان له بالمرصاد فنهض نحوه مـع صـاحب مـاردين وحصـن زياد وارمن قيليقية وابن دانشمند صاحب سبسطية ، فوصلوا الى بـاب قيسـارية فطلب قلج ارسلان الصلح ولم يخرج ليحاربهم ، ورد الذين اجلاهم عن ملطية وضواحيها ، وابقى عنده اولاد اخوته الاربعـة ، وحين طالبه نور الدين وجماعته بهم ارسل لهم احدهم على طبق بعد ان ذبحه وشواه ، واقسم ان يفعل الشيء نفسه مع الثلاثة اذا طالبوه بهم ، فتركوه ، وعادوا .

وفي عام(١١٧١ م ــ ٥٦٦ هـ) اغتصبت كل بلاد بني دانشمند من قبل قلج ارسلان .

وفي السنة نفسها وصل خبر وفاة قطب الدين الى اخيه نور الدين وتولى سيف الدين بعد وفاة والده قطب الدين . وبقي عبد المسيح في الموصل يضغط على الاهالي ويشدد عليهم ، ويتصرف كما يحلو له في شؤون الموصل ، مما دفع نور الدين ليقول : ينبغي ان اتولى انا تدبير ابناء اخي لاعبد المسيح ، فتوجه نور الدين الى الرقة واحتلها واحتل الخابور كله ونصيبين ايضا بعد ان غادر حلب ، وقد زاره صاحب حصن كيفا محمد بن قرا ارسلان ، واستطاع نور الدين ان يحتل جبل سنجار ، واستعمل عليه ابن اخيه عماد الدين ، وحط رحاله شرقي الموصل جهة نينوى ، بعد ان توجه الى مدينة بلد وعبر دجلة ، وقد سقط صدفة احد ابراج الموصل الذي يبدو انه تصدع في السنة الماضية عند حدوث الزلزلة العنيفة . عند وصول نور الدين الموصل .

وخاف عبد المسيح ان يقتل فأرسل يطلب الامان ، عندما وجد ان العرب قد مالوا الى نور الدين ، واشترط ان تبقى الموصل مع سيف الدين ، لكن نور الدين اجابه بانه لايريد انتزاع الموصل من ابنائه ، لكنه يريد انقاذ اهلها من ظلم عبد المسيح وينقله معه من الموصل الى سورية ، فتم الصلح وترك سيف الدين متوليا امور الموصل بعد ان دخلها نور الدين ومكث في قلعتها ، واقام شحنة يتولى القلعة اسمه سعد الدين كمشتكين ، وتصرف احسن تصرف فاعفى الاهالي من الضرائب وقسم ارث اخيه على جميع اولاده ، وبنى مسجدا ضخما سمي المسجد النوري نسبة اليه ، والحق جزيرة قردو (١٧) بالموصل ، ورجع الى سورية وبرفقته فخر الدين عبد المسيح ، وسماه عبد الله واعطاه عطايا كثيرة بعد ان بقي في الموصل سبعة عشر عاما ، وقد شبه البطريرك ميخائيل السرياني عبد المسيح بمردخاي لانه كان يكره العرب وعلماءهم وقد تظاهر بالاسلام وظل يضمر النصرانية ، وكان يعامل النصارى احسن معاملة .

- ٢٣٣٣ -

وفاة الخليفة المستنجد

وفي هذا العام يئس الزعماء ولاسيما الاستادار من بقاء الخليفة المستنجد حيا ، بعد اصابته بداء المفاصل ، ففتحوا ابواب السجون ، واطلقوا المساجين،فاخبر الوزير الخليفة بذلك فغضب واوعز الى ابن صفية الطبيب النصراني الوحيد الذي كان يزور الخليفة عند مرضه بالكتابة الى الوزير ليقبض على الثائرين ويفتك بهم ، فنفذ امره وكتب رسالة ووضع الخليفة ختمه عليها وارسلها مع حاجب صغير ، وقال له بان يدفعها الى الوزير دون ان يعرف به احد ، وذهب الحاجب منفذا امر الخليفة لكن الطبيب ذهب الى الاستادار واخبره بما حصل فقبض على الحاجب وفتشه كما قتله ، ودخل مع رفاقه الى دار الخلافة الداخلية وفيها الجواري اللائي صرخن في وجوههم قائلات : كيف هجمتم ياكلاب علينا هجومكم على سفيهات عاريات ، لكنهم لم يعطوا بالا لذلك وتابعوا طريقهم ، ودخلوا غرفة الخليفة وحملوه الى الحمام على الرغم منه بحجة ان الطبيب امرهم بذلك ، وعروه هناك ،ووضعوه في بيت داخلي شديد الحرارة حتى سقط صارخا متأوها ، واخذوا بقرع الباب حتى لاتسمع الجواري صراخه ويعرفن من قتله اذ لم يستطع الزعماء طردهن او ان يتخلصوا منهن،ثم دخل احد الزعماء على الخليفة واخذ يدوس عليه حتى بعج بطنه فنقلوه علّى آخر رمق حتى تشاهده الجواري ويتحقق انه لم يقتل قتلا،وبعدها رفض الزعماء ان يعطوا الخليفة ماء،وبعدها وعند الحاح الخليفة بطلب الماء امر الطبيب باعطائه الماء ، ظنا منه انه سيموت لدى شربه ولكنه توفي قبل ان يمتص الماء لان حلقومه كان قد انسد ويبس ، وطالعنا في كتاب آخر ان هذا الخليفة كان يحب جاريه اسمها بنفشة فغارت منها امراة الخليفة وحثت ابنه ليضاجعها وفعل كذلك ، وعندما طلب الخليفة الجارية اطلعته زوجته على الحقيقة وانها لم تعد تحل له فغضب ، وخولط بعقله وأمر بقتل ابنه ، لكن الزعماء خالفوه فقتلوه وبايعوا ابنه بالخلافة .

- ٢٣٣٤ -

ابـــــو الحســـــن المســـــتضيء بـــــأمر الله ــ ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م

دام حكم المستنجد تسـعة اعوام ، وكان للمسـتنجد ابـن حليم ومتواضع لم يفكر يوما بالخلافة ، وقد وقـع عليه اختيار الزعمـاء الذين قتلوا والده فبايعوه ، ولكنهم قبل ان يبايعوه اسـتحلفوه بـان يرد لهم ما اخذه ابوه منهم ، والا يغدر بهم او يقتلهم ، فاقسم لهـم بذلك ، وكذلك فعلوا باخيه بعد ان اسـتحلفوه وهـددوا بقتله ، ثـم هددوا بالقتل جميع ابناء الاسرة ، فلمـا اسـتحلف الزعمـاء جميع ابناء الاسرة بايعوه بالخلافة واطلقوا عليه اسم المستضيء .

وفي عام ١٤٨٣ يونانية(١١٧٢ م) عم الارض الثلج حتى الهند التي لم تكن تعرف الثلج ابدا ، ويقال ان ارتفـاع الثلج بلغ يومهـا اربعة عشر شبرا ، وتجمدت الينابيع والانهار ، ومـاتت الحيوانات والطيور من الجوع والعـطش ، امـا الناس فلم يعـد يتيسر لهـم الانتقال من قرية الى اخرى ، فلزموا بيوتهم لايتحركون منها وكأنها قبور ، وقضى الثلج على العديد مـن المسـافرين وسـكان الخيام ، وعندما تفاقم الجوع في سبسطية بسبب بعد المسـافة ، طلب زعمـاء سبسطية من صاحب كبدوكية اسماعيل بـن دانشـمند قمحـا لهـم ولذويهم يمسكون به رمقهم الى ان يحل الصيف لانه يملك اهـراءات كثيرة مملوءة بالقمح ولكنه رفض طلبهم ، فهجمـوا عليه ، واحتلوا الأهراء وفتكوا به وبامرأته التي هي أخت السلطان قلج ارسـلان ، وقتلوا معهما خمسمائة شخص من الحشم والعبيد والجـواري ثـم أرسلوا الى دمشق في طلبه عمه ذو الذون ، فأقبل وتولى السـلطة في سبسطية بعد أن كان منهزما من وجه السلطان.

في عام ١٤٨٢ يونانية(٥٦٧ هـ / ١١٧١ م)ارسـل نور الدين كتابا الى صلاح الدين كي يخطب لخليفة بغداد ويلغي الخطبة بـاسم العاضد ، لكن صلاح الدين اجل هذه المسألة خوفا من قيام ثـورة ،

فالح نور الدين مرة ثانية ولم يستطع ان يخالفه ، فاختلف زعماء مصر وانقسموا الى فرقتين عندما استشارهم صلاح الدين في هذه المسألة ، احداهما وافقت على ذلك والثانية نهت عنه ، وحضر الى هناك الامير العالم وهو رجل فارسي وقال لهم : انني سأبتدي الخطبة واجنبكم المشكلة،وبالفعل صنع كذلك،فصعد يوم الجمعة المنبر ، ودعا لابن العباس المستضيء بدلا من ابن علي العاضد ، وايده الجمهور ، وحصل مثل ذلك في مساجد مصر كلها يوم الجمعة التالية والغيت بذلك خلافة المصريين .

وكان العاضد خليفة مصر انذاك مريضا ، وتوفي دون أن يدري بما حصل،لأن اصدقاءه لم يعلموه بذلك خوفا من أن يعاجله الموت، أما ابناء الخليفة وآله فقد اعتقلوا من قبل صلاح الدين الذي فصل الاناث عن الذكور كي يقطع نسلهم ، واطلق العبيد والجواري.

وفرح بذلك العرب من جماعة القضاء والقدر وجماعة مؤيدي الحرية والاختيار ، وقد قيل ان الخلفاء المصريين ينحدرون من رجل مجوسي أو يهودي لاكما يزعمون من علي وفاطمة ، وقد نظم الشعراء القصائد الكثيرة التي تتكلم عن ظهور الدولة اليوسفية والغاء الدولة الفرعونية ، وقد ظهر منهم في المغرب اربعة عشر خليفة ، ثلاثة في افريقية ، وهم: المهدي والقائم والمنصور . وأحد عشر في مصر وهم: المعز ، والعزيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد.

ولم يعارض صلاح الدين حين استقل بمصر سوى نور الدين الذي ارسل اليه يقول . انني احاصر الكرك فجهز جنودك وسارع بالقدوم الى هناك ، لكن صلاح الدين لم يأبه بالامر . فغضب نور الدين وقرر أن يذهب لمصر بنفسه كي يخرج صلاح الدين ، عندها جمع صلاح الدين أعوانه وشاورهم في الأمر ، لكنهم لم يدروا ماذا يقولون الى أن نهض ابن اخي صلاح الدين الشاب وقال لهم بأن يحاربوا نور الدين اذا حاول دخول مصر ، فوافقه الشباب على

رايه ، لكن والد صلاح الدين وخاله لم يعجبهما الأمر، فصرخ والد صلاح الدين غاضبا وقال، هل بين الحضور من يرغب لك الخير اكثر مني ومن خالك ؟ فقال صلاح الدين : كلا، فقال والده : كن على ثقة انني وخالك اذا شاهدنا نور الدين سوف نخر ، ونقبل الأرض بين يديه واذا كان الامر كذلك فمن يتجاسر ويشهر السلاح عليه ؟ ان بلاد مصر بأجمعها وغيرها ايضا هي لنور الدين ، واذا اراد ان يعزلك فلا حاجة به ان يزحف اليك في جيوشه بل حسبه أن يرسل شخصا واحدا ،ثم نهض الشيْخ نجم الدين ووجه خطابه الى الأعوان قائلا . اننا جميعا من عبيد نور الدين وله ان يصنع بنا مايشاءه ، ثم قال والد صلاح الدين لابنه بعد أن انصرف الزعماء . انك يافع لاتملك عقلا ولاسياسة، الا تدري اذا علم نور الدين بتمردك يترك كل شيء ويلاحقك حتى يقضي عليك ، ومن ياترى من جنود نور الدين يتركه ليتبعك ، ونبهه قائلا ان كل كلمة تصدر عني وأنا والدك ستصل الى نور الدين ، ثم نصحه بإرسال رسول يخاطبه بوضوح وصراحة بأنه عبده ويقدم له الولاء ولاء عبد لسيده ، وأن خوفه من الفرنج هو الذي يجعله يتردد في الذهاب لملاقاته ، خاصة أن أحوال مصر مضطربة بسبب ذلك ، وقد فعل صلاح الدين كما أراد الشيخ والده ٠

وفي تلك الفترة تعرضت قرى كثيرة للنهب حين جاءت الى أطراف الصعيد جماعات غفيرة من النوبة ، ونشب القتال بينهم وبين الجنود الذين وجههم صلاح الدين ، فمات العديد من الطرفين ، ثم تقوى السودان فجاء شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين في جيش غفير ، فهربت النوبة ولاحقهم العرب فقتلوا وغزوا واستطاعوا احتلال قلعة ابريم وأقاموا عليها واليا ، لكن العرب عندما رجعوا استرجع النوبة قلعتهم وعادوا اليها ، وقد أرسل ملك النوبة الى شمس الدولة رسولا وهو في قوص ، وطلب منه الصلح فوافق شمس الدولة بشرط تأدية الجزية ، كذلك بعث شمس الدولة مع رسول النوبة رسولا اسمه سعود الحلبي فوصل الى العاصمة دنقلة ، واستطاع خلال مسيرته أن يتعرف على الضيق ويكتشف ان

اهالي النوبة لايزرعون الا الدخن ، وعندهم النخيل ويأكلون الدخن ملتوتا بتمرهم ونتاج مواشيهم ، ولايوجد عندهم سوى بناء واحد هو قصر الملك وداره ويسكنون المغاور والخيام ، وروى سعود الحلبي ان الملك أمر بكي يدي على شكل صليب وذلك عندما دنوت منه وسلمت عليه ، وقد كان عاريا ويركب حصانا عاريا لكنه التف برداء اطلس غير مخيط ، وكان رأسه مكشوف واصلع ، وقد أطلقني الملك بعد ان دفع لي خمسين رطلا من القمح ، وروى ايضا انه عندما سلم عليه استغرق بالضحك والقهقهة .

وفي عام ٥٦٩ للعرب (١١٧٣ م)احتلت اليمن واستملكت من قبل شمس الدولة .

وفي أيار ١٤٨٥ لليونان (١١٧٤ م) توفي بداء الخناق في دمشق نور الدين،وكان رجلا قامته طويلة لالحية له وتحت ذقنه بضع شعرات ، بسيطا في لباسة وكسوته يكره العرب المتحدرين من علي ، واستعاد ابان حياته من الفرنجة مايزيد على خمسين مدينة وقلعة ، وبنى في دمشق بيمارستانا كبيرا ومدرسة وبني مسجدا ضخما في الموصل ، وحدث الرحبي الطبيب الدمشقي الذي ادركت انا الحقير ابنيه الطبيبين الفاضلين ، قال:« لما تفاقم داء نور الدين ودعيت الى عيادته مع سائر الأطباء ، شاهدناه في بيت ضيق صغير وطلبنا منه أن يفصد في الوريد فأبى ، ولم نر أن نلح عليه لاننا كنا نهابه جدا ، وما عتم ان مات».

الملك الصالح اسماعيل

وقام بعد نور الدين ابنه الصالح اسماعيل ، وحالفه جميع الزعماء ، وخطب له في مصر صلاح الدين ، وضرب الدراهم والدنانير باسمه ، وفرح صاحب الموصل سيف الدين غازي فرحا عظيما حين نعي اليه عمه نور الدين ، وأمر المنادين ان ينادوا بحرية الأهالي في أن يشربوا ويسكروا ويبذخوا علنا ، ثم احتل الرها

وحران وماحولهما حين جـاء الى بـلاد مـابين النهـرين بجيوش جرارة ، وبعث قائد الجيش الحلبي شمس الدين الى زعماء دمشـق وقال لهم بأن يرسلوا الى حلب الملك الصـالح قبـل ان ينتـزع مـن ايديهم ، لكنهم لم يتركوا الملك الصالح يغادرهم خوفا من ان يتـولى سياسة الدولة ، وبعث صلاح الدين يعاتبهم لأنهم لم يسـتعينوا بـه ولم يطلبوا منه المساعدة وقال : « لو عرف نور الدين ان بينكم مـن هو انشط مني لولاه مملكة مصر ، والآن فاني قادم اليكم اذ يتـرتب علي ان ادبر مولاي وابن مـولاي دونكم ».عند ذلك خـاف الزعمـاء فارسلوه الى حلب ، وجعلوا سعد الدين الحاجب قيما للصالح ، وقد كان سعد الدين في الماضي حافظا لقلعة الموصل ثم هـرب وجـاء الى دمشق .

وبعث الدمشقيون في طلب الصلح مع ملك بيت المقـدس عمـوري وقبلوا بتأدية الجزية وذلك تخوفا من صلاح الدين ، لكن بعد مـرور اربعين يوما على موت نور الدين توفي في عكة في الحـادي عشر مـن تموز الملك عموري ، وقد عظم حزن المسـيحيين لموتـه وخلفـه ابنه بلدوين الرابع ، وكان عرب سورية ومصر يهابون عموري .

وزحف سلطان قونية قلج أرسـلان الى سـبسطية ونوقيسـارية وقومانا وملكها جميعها حين بلغـه نبـأ وفـاة نور الدين حليف ذي النون بن دانشمند ، فتـوجه ذو النون الى القسـطنطينية ، فـطلب النجدة من ملك اليونان ، وانتهت يومها زعامة بني دانشـمند التـي دامت (١٢٢) سنة.

وفي هذا الزمـان ضـايق امير ميافـارقين الأرمـن السناسنة ، فبعثوا الى شاه أرمـن صـاحب خـلاط وسـلموه حصونهم ، كذلك عاد ملك الكرج انتزع من العجم مدينة آني .(١٨)

- ٢٣٣٩ -

قدوم صلاح الدين الى دمشق

وفي عام ١٤٨٥ يونانية(٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) اقبل صلاح الدين الى دمشق بعد ان حشد جيشه متظاهرا بأنه قادم ليساعد مولاه ، ودخل الى بيت ابيه ومكث فيه‌شم وسوس الى حافظ القلعة ريحان الخصي ففتح له الباب ، ودخل دمشق واحتلها اخوه سيف الاسلام وأصحابه وايد الخطبة للملك الصالح اسماعيل ، ثم ترك دمشق واتجه الى حمص واستولى عليها وتابع الى حماة وملكها ، وحين وصل الى جبل جوشن قرب حلب ، احتشد الحلبيون جميعا ومعهم أميرهم أمام ميدان باب العراق ، وطلبوا من الصالح ان يخرج ويكلم الجماعة بشكل مؤثر لصغارهم وكبارهم ، فلبى الصالح طلبهم ووقف في مكان مجاور في الميدان ، وقال لهم : أيها الحلبيون لقد ربيتموني وهاانااذا استغيث بكم ، وليس لي أب أو اخ سواكم ، ثم اجهش بالبكاء لدرجة الاختناق فبكوا جميعا لبكائه ، ونادوا بصوت واحد : نحن عبيد لك ومستعدين للتضحية فداء لك .

أما الفرنج فقد لاموا صلاح الدين على عمله هذا وأرسلوا اليه ينكرون ذلك وقالوا له : بعملك هذا تنكر جميل مولاك ، ودعوه الى ان يسمعهم ويترك حلب والا فسوف يهجمون عليه وينقلبون ضده ، ولما رأى صلاح الدين أن الأمور لن تسير كما رسم لها ، وأيقن أنه لن يقدر على خداع الحلبيين ، انقلب عائدا نحو بعلبك فاحتلها ، ثم توجه الى حمص وتمكن من امتلاك قلعتها ، وبعث الحلبيون الى صاحب الموصل سيف الدين قائلين له ومنبهين بأنه اذا سمح لصلاح الدين باحتلال حلب فلن يترك الموصل ابدا ، فاتفق سيف الدين مع الحلبيين وساروا الى حماة بجيش كثيف بقيادة عز الدين اخي سيف الدين ، وبعثوا الى صلاح الدين وهو في حمص رسولا يخبره انهم يريدون ان يسترجعوا جميع حصون مولاه ويكتفي بدمشق فقط ويكون مثله مثل جميع الأمراء

الذين يخضعون للملك الصالح ، فأجابهم صلاح الدين : بأنه لم يأت الا ليحفظ مولاه وبلاده وخزائنه لا ليحاربه وأنه لن يخالفهم ابدا ، ولكن لما سمعوا رده استضعفوه ، فأضافوا طالبين منه مغادرة سورية والعودة الى مصر والا ليس له الا السيف ، ثم توجهوا الى الرستن فسار اليهم صلاح الدين وتحارب الجيشان في ضواحي حماة ، فانتصر صلاح الدين وجماعته ، وهزم المواصلة والحلبيون وارتدوا منهزمين ، فأمر صلاح الدين جيوشه بألا يلاحقوا المنهزمين ولايقتلوا احدا ، وعندها بعث اليه الملك الصالح يسأله الصلح ويعرض عليه ترك سورية الخارجة للصالح ، ويتولى دمشق وحماة وحمص ، فرفض صلاح الدين ذلك ولم يقبل الا بعد ان اضافوا الى ذلك المعرة وكفر طاب ، واقسم أن يخطب للملك الصالح في كل البلاد التي يأمرها وأن يساعده كلما دعت الحاجة لذلك .

ولما سمع المستضيء خليفة بغداد أخبار انتصارات صلاح الدين أرسل اليه حللا ملكية وسيفا وألوية ومرسوما ، وكان يومئذ قطب الدين قايماز متمردا على الخليفة ومحاصره في قصره ، فخاف الخليفة خوفا شديدا ووثب الى السطح وأمر المنادي بالمناداة بأعلى صوته مستنشدا البغداديين لمساعدة خليفتهم وامام دينهم وليحثهم على ذلك بدا فع الدين ، وقد لبى اهالي بغداد النداء وهجموا على قايماز بالعصي والسيوف والاحجار وقطع القرميد واستطاعوا ان يتغلبوا عليه وعلى رجاله فهربوا الى الصحراء وكان العطش قد أدركهم فوجدوا صهريج ماء خنقت فيه الأفاعي ، فانتشر السم في أجسادهم وفي خيولهم ، وعادوا الى الموصل ليقضوا نحبهم بعد ان قضي على أغلبهم في الطريق .

وفي عام ١٤٨٦ يونانية (١١٧٥ م)حاول زعماء أرمينيا اغتيال اميرهم مليح فهرب الى احد الحصون ، لكن الحراس تمكنوا منه وقطعوا جثته اربا اربا والقوها للكلاب ، وذلك انتقاما للمسيحيين الذين عذبهم والحق بهم السوء والأذى ، ثم طلب الزعماء من

طرسوس روفين ابن اخيه اسطفان وسلموه زمام الأمور فقضى على قتلة عمه مليح لأنهم مثلوا في جثته بالقائها للكلاب .

وفي عام(١١٧٥ م ــ ٥٧١ هـ) بعث صاحب الموصل سيف الدين الى الصالح في حلب يلومه على مهادنته صلاح الدين ، ثم سير جيشه وكان يضم نحو عشرين الف فارس واتجه الى حلب ، وأطلق سراح زعماء الفرنجة الذين كانوا قد سجنوا هناك منذ فترة طويلة .

ثم باع بثمانين ألف دينار قمص طرابلس وبخمسين ألف دينار جوسلين بن جوسلين ، وبمائة وعشرين الف دينار امير انطاكية البرنس ، واستحلفهم ان يساعدوا العرب اينما وجدوا

وتوجه الحلبيون والمواصلة الى حرب صلاح الدين الذي حشد بدوره قواته وتوجه للتصدي لهم ، فالتقى بهم عند اطراف تل السلطان بين حلب وحماه فهزمهم ، واحتل صلاح الدين خيامهم واثقالهم ووجد هناك مجموعة من الطيور كالبلابل واليمام والحمام في اقفاصها ، ومائة من المطربات العاهرات ، وطلب احد ممثلي الروايات ، وبعثه مع الاقفاص الى سيف الدين ،وقال له بأن يذهب ويسلم على سيف الدين بدلا مني وقل له : « ارجع الى شذشنتك ولا عب طيورك لانها تحميك من كل خطر » وكان قد قيد زعماء الموصل ومن بينهم فخر الدين عبد المسيح ففكهم والبسهم ثيابا ومنحهم هدايا وأرجعهم بأمان وسلام تاركا حلب على ماكانت عليه ، واحتل قلعة بزاعا عندما مر بها وتوجه الى منبج وتولاها ، ووقع على ثلاثمائة ألف دينارفي قلعتها ، ثم توجه فحاصر عزاز اربعين يوما استطاع بعدها احتلالها .

الحرب التي اندلعت بين منويل وقلج ارسلان

وفي عام ١٤٨٧ يونانية (١١٧٦ م) بنى ملك اليونان منويل مدينتين على حدود الاتراك وجعل فيهمـا الجنود وأخـذوا بـازعاج اصـحاب قلج ارسـلان ، لأن قلج ارسـلان رفض ان يرد الى آل دانشمند أماكنهم على الرغم من الحاح منويل ، فسير الملك ثـلاثين الف فارس من اليونان مع ذي النون التركي ابن دانشمند ، وتمكنوا من محاصرة نوقيسارية ، فكتب اتراكها بلسان اهليها النصارى في اليونانية رسالة يقولون فيها : « لاتصدقوا ذي النون فهو يواصـل الاتراك برسائله ، ويحاول ان يغدر بكم ويدفعكم الى اصحابه » .

عندما دب الخـوف في قلوب اليونانيين فتـركوا المدينة وتتبعهـم الاتراك وقتلوا ابن اخـت الملك ، فغضـب الملك وتـوجه الى حـدود الأتراك مصطحبا معه جيوشـا كثيفـة ، وتـرك العجـلات والأثقال ، وسمح لليونان بنهب وحرق القرى التركية الخـالية مـن الناس والزاد ، وأثناء ذلك تمكن الرجالة الأتراك من اجتياز الأودية العميقة والجبال الى أن وصلوا الى معسكر اليونان فنهبوه وأحرقوا العجلات وأخذوا يدحرجون الحجارة الضـخمة مـن قمـم الجبـال فسحقت اليونان وخيلهم ، وعندما حل الليل بعث الملك الى السلطان سفيرا يطلب الصلح فلبـى السـلطان طلبـه لأنه كان خـائفا مثله ، وسير السلطان في خدمة الملك ثلاثة أمراء من الاتراك رافقوه الى حدود بلاده ، وكان الأتراك قد انتهبوا من اليونان صليبا يشتمل على قطعة من خشب صليب الصـلبوت ، وذلك بين حملة الصـلبان والحلل التي كانت ترافق اليونان في كنائسهم (النقالة) ، فـأرسل الملك ذهبا وافرا الى السلطان واسترجع عود الصليب .

موت نجم الدين حاكم ماردين

وفي هذا العام توفي صاحب ماردين نجم الدين بعد ان دام حكمه اثنين وعشرين عاما ، عامل خلالها النصارى خير معاملة وصان كنائسهم وأديرتهم ، وتولى بعده ابنه قطب الدين الذي اقبل اليه عمه صاحب حاني وعمه صاحب دارا طائعين ، وصالحهما بعد ان تحرش بهما ، واستطاع ان يقتل الف عربي (معدي)وينتزع منهم اثني عشر الف جمل بعد ان سارع المعديون الى غزو بلده حين زاع خبر موت ابيه ، وهرب من بقي منهم .

وفي السنة ٥٧٢ للعرب (١١٧٦ م) زحف صلاح الدين مجددا ضد حلب ، وعندما لم يستطع صاحبها الصالح مقاومته تذلل وطلب منه الموادعة ، فقبل صلاح الدين وعقد صلحا مع حلب والموصل وارمينية الصغرى ، ثم بعث الصالح اليه اخته التي طلبت منه اعزاز فأجابها ولبى طلبها ، ثم ترك حلب متوجها الى دمشق وتزوج بعصمة الدين امراة نور الدين ، وسلم أمور دمشق الى أخيه شمس الدين تورانشاه ، وعاد الى مصر وشيد سورا واحدا يلف مدينتي مصر والقاهرة وبنى فوق الجبل المتوسط قلعة .

هزيمة صلاح الدين عند عسقلان

في السنة ٥٧٣ للعرب (١١٧٧ م) وهي السنة ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨ م) قتل صلاح الدين العديد من النصارى وسفك الدماء وغزا وأسر عندما زحف الى عسقلان في جيوش كثيرة ، فخاف الفرنج لأن ملكهم كان في بيت المقدس مريضا بمرض الجذام ، فتشجع متحمسا واجتمع بجنوده ثم ترجل عن حصانه وخر ساجدا أمام الصليب المقدس واخذ بالبكاء ، فتأثر الجنود واقسموا على الجهاد والقتال حتى النهاية ، وكمنوا حتى

توغل الأتراك في الضواحي منهمكين مـن الغـزو ، ولم يسـتأنفوا القتال فاعتقد الأتـراك أن الفـرنج ضـعفاء ، لكن الفـرنج سرعان ماتوجهوا اليهم وأدركوهم وهم يجتازون النهر ، وقد أعمت عاصفة أرسلها الرب الأتراك بعد أن جـرفت الرمـال مـن ناحية الفـرنج اليهم ، وهاجمهم الفـرنج فتـراجعوا وتـاهوا في الصـحراء القاحلة ، لكن الفرنج لاحقـوهم خمسـة ايام ، واخـذوا بجمعهـم جماعة جماعة وقيدوهم وقتلوهم ، لكن صلاح الدين استطاع الفرار الى القاهرة مع قليلين ، قال المؤرخ : « شـاهدت حـاملي البشرى راكبين وسـمعت المنادين ينادون في شـوارع مصر ان السـلطان انتصر ، و الفرنج انكسروا فبادرت لاستخبرهم عن كيفية الانتصار فقالوا : افرحوا وابتهجوا لأن السلطان سالم ، فعرفت ان البشرى كانت عكس الواقع »

احتلال قلج ارسلان ملطية .

وفي هذا العام (١١٧٧ م)تصالح قلج ارسـلان مـع منويل ملك اليونان ، وجاء قلج ارسلان الى ملطية وبقي أربعة أشـهر مشـددا عليها ولم يستطع ان يدخلهـا فـأوعز الى جنوده ليشـتوا في بيوت ابتنوها من اللبن ، وشيدوا له بيوتا كبيرة من الحجارة التي نقلوها من المقابر ، وخاف امير المدينة وهو من اسرة دانشـمند ان يتفـق الزعماء ويسلموه المدينة محتجين بالغلاء ،فسار الى حصن زياد بعد ان بعث اليه السـلطان الأمـان ، واسـتطاع السـلطان يوم الأربعـاء ٢٥ تشرين الأول عام ١٤٨٩ يونانية (١١٧٨ م) أن يحتل ملطية .

وفي العام التالي وبغية مضايقة الدمشـقيين ابتنى الفـرنجة على شاطىء الأردن في مكان يطلق عليه مخاضة يعقـوب مـدينة بعـد ان اتفقوا مع الملك بلدوين(١٩)

خــروج صــلاح الدين مــن مصر وانتصــاره على الأفرنج في فلسطين :

وتوجه صلاح الدين من مصر الى بعلبك بعـد ان خـرج حـاكمها عليه ، وشدد عليه الحصار الى ان طلب الهـدنة وسـلمه المدينة ثـم ذهب الى فلسطين فثار عليه الفـرنج وانتصروا عليه وغزوا نواحـي العرب وانصرفوا،لكن بعد ان اطمأن الفرنج الى نصرهم كمـن لهـم العرب وفاجأوهم واعتقلوا نحو مائة محـارب منهـم وقبضـوا على مقدم الداوية ، ثم سار صلاح الدين الى المدينة التي احدثها الفرنج وامتلكها ، وكان يوجد فيها يومئذ خمسمائة مـن الرهبـان الداوية الذين شاهدوا غلبة العرب عليهـم ، فمنهـم مـن أحـرقوا انفسهم ، ومنهم من ألقوا بأرواحهم في نهر الأردن ، فغرقوا ومنهم من رموا بأنفسهم على الصخورفماتوا وقضت سـيوف العـرب على من بقي منهم .

مرض منويل ملك اليونان وموته

وفي الســنة ١٤٩١ لليونان (١١٨٠ م) مـرض ملك اليونان منويل ، ولما احس بنهـايته تـوجه الى احـد الأديرة وبـايع ابنه الكس ، ووضع له التاج ، وبقي منقطعا في الدير ، واناط بـامرأته والدة الكس خزائن الدولة وجعلها راهبة هناك، ووضـع اثني عشر زعيما ليشرفوا على تدبير الجيوش ، لكن الملكة الراهبـة ارتـكبت المنكر مع احد اولئك الزعماء الاثني عشر فحاول البقية ان يخلعـوا ابنها ويولوا مكانه ابنة منويل وهي من زوجته الأولى بدلا مـن الملكة الراهبة ، ويبايعوا زوجها بالملكة ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك .

وانكشفت المكيدة فهرب الزعمـاء مـن الخـوف والتجـأوا الى الكنيسة الكبرى ، وحـدث قتـال دام سـبعة ايام في المدينة سـفكت

خلالها الدماء ، ووجه رجال الملك نحو كنيسة اياصوفيا المنجنيقات ، لكن البطريرك ثيودوسيوس توجه الى الملك وامــه اللذان اقســما له بانهما لن يؤذيا احدا ممن هــو داخــل الكنيســة ، فخرج الجميع مطمئنين ، لكن الملك وامه حنثا بقســمهما وســملا عيون الزعمــاء وفتكوا باحزابهم ، فانزعج البطريرك والغى قرع النواقيس وأوقــف الصلاة تسعة اشهر ، ثم ابرم الحرمان على المدينة وتركها واعتكف في دير قريب ، ثم شيع الموتى جميعا ودفنوا دون صلاة.

وفي تلك السنة وجه السلطان قلج ارسلان جيشــا الى رعبــان ، فتصدت له جيوش سلطان دمشق ، فمــا كان منه إلا أن هــرب الى كبدوكية ، وكان لجيش دمشق سجلا حافلا في محاربة الفرنجة.

وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله

وفي عام ٥٧٥ للعرب (١١٧٩ م) توفي الخليفة المستضيء بــأمر الله وخلفه ابنه الناصر.

ابو العباس أحمد الناصر لدين الله

مدة حكمه سبعة وأربعون عاما ، فور تســلمه الخــلافة ، أودع الوزير ابن العطار السجن ، واستولى على كل املاكه فتــوفي وكان ذلك ليل الأربعاء ١٢ ذي القعدة ، وقد ثار غضب البغداديون عندمــا شيع جثمانه ، وأنزلوه عن كتف من كان يحمله ، وفلقــوه وربــطوا احليله بحبل ثم سحبوه متجولين به في بغداد ، وتمادوا في هزئهم به الى أن بادر الأتراك فواروا جثمانه ، وقد شهدت تلك السنة ارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة حتى عمت الأرض كلها .

المواجهة بين صلاح الدين وقلج أرسلان

وفي عام ١٤٩٢ لليونان وهي السنة ٥٧٦ للعرب (١١٨١ م) خرج صلاح الدين مهددا السلطان قلج ارسلان والقضية أن نور الدين بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا كان متزوجا من ابنه السلطان ، وكان يهضم حقوقها ويسيء معاملتها ، فتدخل السلطان والدها وهدده فاستنجد نور الدين بصلاح الدين الذي طلب من قلج أرسلان أن يصفح عن زوج ابنته فأبى فاتفق صلاح الدين مع الفرنجة الذين كانوا يقيمون على الساحل وأعد جنده ، وقصد حلب الى أن بلغ برج قرا حصار قرب نهر الأزرق أي بين الحصن وحصن منصور ، فمكث في ذلك البرج ثم واصل مسيره الى نهر كوكسو فبادر اليه نور الدين فرحب له وأعطاه الأمان.فأوفد السلطان قلج أرسلان سفيرا له الى صلاح الدين فعقدا صلحا يضمن أن يعامل نور الدين زوجته معاملة حسنة ، ومن ثم توجه صلاح الدين الى النهر الأسود ، فانتشر جنده في قرى قيليقلية ، والتي كان صاحبها روفين يضطهد الرعاة التركمان ويسبي نساءهم ومواشيهم وأولادهم ، فأرسل روفين هذا كتاب تضرع الى صلاح الدين تذلل فيه ، كما أرسل اليه كمية من الذهب ، وأفرج عن خمسمائة من الأسرى الأتراك وبذلك استطاع أن يعقد صلحا مع صلاح الدين ، فتحول عنه صلاح الدين ، وأما قلج أرسلان ، فقد رجع الى ملطية فأصلح ما تداعى من سورها.

زواج البرنس صاحب أنطاكية من احدى الزانيات

وفي هذه الأثناء – ١١٨١ م – طلق البرنس صاحب أنطاكية زوجته الشرعية اليونانية ، وتزوج من أحدى الزانيات ، فحرم البطريرك الأنطاكي القس الذي عقد هذا الزواج ومنع قرع النواقيس وإقامة الصلوات ، فثار البرنس ونهب محتويات كنائس الفرنجة

وبيرتهم ، فبادر بطريرك بيت المقدس وعدة قمامصة ، فصالحوه وباركوا زواجه من تلك الزانية ، فأعاد الى الكنائس والديرة ماأخذه منها.

وفي هذا العام أيضا كانت وفاة سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل ، وقد كان منغمسا في رغد العيش وتعاطي الخمرة ، وكان أهل الموصل إبان ولايته يعيشون حياة رغد وبحبوحة ، وقد خلف سيف الدين هذا أخوه عز الدين مسعود الذي كني بأبي الفتح ، وسار سيرة حميدة ، وأما صلاح الدين ، فقد قصد دمشق ثم غادرها الى مصر ، في حين تداعى بناء قلعة القاهرة ، وفي الاسكندرية توفي شمس الدين أخي صلاح الدين.

وفاة الملك الصالح اسماعيل

وفي عام ١٤٩٢ يونانية ، ٥٥٧ للعرب (١١٨١ م) مرض صاحب حلب الملك الصالح اسماعيل ، وعندما ايقن أن منيته قد دنت ، كتب لابن عمه عز الدين مسعود كي يبادر ليخلفه في الحكم قبل أن يأتي صلاح الدين ، واتفق مع زعماء حلب على ذلك ، ثم مات ويقال إن عبدا أطعمه عنقودا مسموما ، فقتله ، ويقال ان موته كان بسبب مرض المفاصل ، وقد حزن عليه أهالي حلب،والياروقيون (٣٠) الذين كانوا يسكنون في قرى حلب ، وقد بعث هؤلاء الى صاحب سنجار عماد الدين زنكي كي يجعلوه خلفا للملك الصالح ، وأما الحلبيون ، فقد طلبوا اليه أن يتحول عنهم ، وإلا فسيلقونه في غياهب السجن ، فرحل عنهم في حين وصل الى حلب قادما من الموصل عز الدين مسعود فاحتل القلعة ، وتزوج من أم الملك الصالح ، ثم بعث بها الى الموصل كما بعث اليها محتويات الخزاين المكتظة بالاموال من أيام نور الدين بن زنكي ، ووقع هدنة مع بوهيموند البرنس صاحب انطاكية لمدة عامين ، ثم غادر حلب تاركا في قلعتها ابنه نور الدين الصغير وأقام عليه وصاية ، وقصد مرج

قرا حصار ، واوفد الى أخيه عما الدين صاحب سنجار سفيرا ، ولكن عما الدين هذه كان قد تحول بأهله وابنائه عنها الى قرقيسيا مؤملا أن يعيد له صلاح الدين مملكة ابيه ، وأبلغ السفير بأنه لن يعود ما لم يتنازل له اخوه عز الدين مسعود عن حلب أو الموصل ، أو ما بين النهرين ، فتنازل له عز الدين عن حلب فقط ، على أن يبقى ابنه نور الدين الصغير مقيما في قلعتها فرفض ذلك عماد الدين بدعوى أنه يأنف أن يكون تحت طاعة ابن أخيه ، فأضاف عز الدين الى حلب عربان والمجدل وغير ذلك من بلاد الخابور لتكون تحت إمرة عماد الدين ، ولكن هذا الأخير رفض هذا العرض أيضا ، فاقترح الأعيان أن يتنازل عز الدين لعماد الدين عن حلب وقلعتها ، وأخيرا اتفق الأخوان على أن تكون حلب وضواحيها لعماد الدين ، وأن تكون الموصل وسنجار لعز الدين .

وفي هذا العام قصدت سفن فرنجية دمياط ، وقد كان الفرنجة قد هادنوا العرب لمدة سنتين ولكن العرب غدروا بالفرنجة وقبضوا على الفين وخمسمائة من ملاحيمهم وتجارهم بدعوى انقضاء مدة الهدنة ، ولهذا اغار الفرنجة على مدينة ايله بسفن كثيرة ، وساروا في اماكن لم يسيروا فيها واغتصبوا سفنا عربية كثيرة مشحونة بالأسلحة والأموال الكثيرة وبطشوا بالعديد من سكان عيذاب ، فوجه صلاح الدين سفنا عدة من الاسكندرية ادركت سفن الفرنجة وقتل من الطرفين خلق كثير.

خبر عن اندورنيقس اليوناني الخبيث

وفي عام ١١٨٣ لليونان ١٤٩٤ م احتال الزعيم اليوناني أندرو نيقس الذي كان قد طرده من العاصمة الملك منويل فخدع الكس ورجع الى القسطنطينية متظاهرة بالاذعان والطاعة ، ومالبث أن رمى بأم الفتى وصهرها وابنتها بالبحر ، ثم

فتك بالفتى نفسه سرا ، كما فتك بما يزيد على الف زعيم واحـرقهم وفقأ أعين بعضهم ، واغتصب هـذا العجـوز الخبيث زوجـة الكس ، وطرد الفرنجة مـن العـاصمة لكن قبـل أن يغـادر هؤلاء الفرنجة العاصمة أشعلوا النيران في أربعـة عشر ألفـا مـن قـرى اليونان واديرتهم ، وعلى اثر ذلك داهـم ملك صـقلية مـدنا يونانية عدة ، وتركها خاوية من سكانها.(٢١)

في عام ١٤٩٣ يونانية ، ٥٧٨ للعرب (١١٨٢ م) غادر صـلاح الدين مصر الى دمشق ثم الى حلب في محاولة لاحتلالها ، فنصـحه بعض الاعيان أن يتجاوز الفرات أولا ويبسط سيطرته على مدن مـا بين النهرين وأثور ، ومن ثم يرجـع لاحتـلال حلب ، فـأخذ بهـذه النصيحة فاجتاز نهر الفرات ومـدن الرهـا حـران والرقـة فاحتلها ، وعندما بلغ مدينة عربان دخلها بلا مقاومة ، لأن حراسها قدموا له مفاتيحها ، كما بسط نفوذه على بلدة ماكسين ، واحسـن معاملة اهالي الخابور ، ثم يمم شطر نصيبين ، فـاستعد حـكامها لملاقاته لكنه حـاصرهم وشـل حـركتهم ، فلم يكن أمـامهم إلا أن يسلموه مدينتهم ، فدخلها ثم قصـد الموصـل وطـوقها مـن جميع نواحيها ، فتوسل صاحبها عز الدين الى خليفة بغداد أن يصلح بينه وبين صلاح الدين ، فكان له ما اراد ، وأرسل الخليفة سـفيرا الى صلاح الدين لهذا الغرض ، لكن شرط صلاح الدين كان أن يدفـع له أهالي الموصل نفقات رحلته ، أو ان يتخلوا له عن حلب ، فـأجابوا بأن ليس لديهم ذهب ، وأما حلب ،فصاحبها عماد الدين وليس من حقنا أن نعطي ما لا نملك

فغادرهم متوجها الى سنجار فتحارب مع صـاحبها شرف الدين ابن قطب الدين مودود ، وانتزعها منه ، ثم توجه الى دارا فأذعن له صاحبها صمصام الدين بهرام من بني أرتق ، فتركه عليها ، ورجع الى حران فجعل جنوده في استراحة طوال الشتاء وشـهر رمضـان والعيد ، وأما هو ، فقد ظل في حران مع قليل من الجند.

وخشي أهالي الموصل أن يرجع صلاح الدين ثانية في الربيع ليحتل

مدينتهم كما فعل بسنجار ، فاستنجدوا بشاه أرمن صاحب خـلاط فأنجدهم واتفق لهذا الغرض مع ابن اخته قطب الدين ايلغـازي بـن البي بن تمرتاش صـاحب مـاردين خـال عز الدين صـاحب الموصـل ، واجتمـع الخـلاطيون والمواصـلة والماردينية في البارعية ، وانضم اليهـم الف وتسـعمائة فـارس مـن الياروقية المجاورين لحلب ، وزحف هؤلاء جميعا للهجـوم على صـلاح الدين الذي بادر عندما علم بذلك الى جمع جيشه من حمص وحماة وما بين النهرين ، وقد أتم ذلك خلال ثمانية أيام ، وانضـم اليه ابـن قـرا ارسلان من حصن كيفا ، وعندما بلغـت شـاه أرمـن اسـتعدادات صلاح الدين هذه هرع الى صاحبي الموصل وماردين واقنعهما بعدم جدوى الحرب في الشتاء فعاد كل منهم الى بلاده على أن يجتمعوا في الربيع القادم ، ومع ذلك أخبر صلاح الدين خليفة بغداد بما صـنعه المواصلة ، واستأذنه باحتلال آمد ، فأذن له بذلك

وفي محرم ٥٧٩ للعـرب وأيار ١٤٦٤ لليونان(١١٨٣)تمـكن صلاح الدين من احتلال مدينة آمد بعدما حاصرها وقتا طويلا ، قاتل خلاله صاحبها ابن نيسان أعداءه قتالا ضـاريا ، ولكن الآمـديون خذلوه ، وبيان ذلك أن أصحاب صلاح الدين لما احتشدوا بين سوري المدينة هجم عليهم الآمديون وضيقوا عليهـم ، فـرفع صـلاح الدين رايات كتبت عليها عبارات تهديد تحمل الوعيد والايمان المغلظة بأنه لن يرجع عن هذه المدينة مـا لم يخلهـا ويبـسـطش بـأهلها إن لم يستسلموا ، وارتعدت فرائض الآمديون وصـاحبهم ابـن نيسـان خوفا ، فاستسلم وطلب من صلاح الدين الأمان له ولأهله ، فـأمهله ثلاثة أيام ليخرج من المدينة ما يشاء من أمواله ومقتنياته ، ثم احتل المدينة ، وقد أخرج ابن نيسان مـن هـذه المدينة الكثير الكثير مـن الذهب والفضة والآنية والأحجـار الكريمـة على أن كل مـا نقله لا يعادل عشر ما كان بحوزته من الأموال ، وبعـد أن بسـط صـلاح الدين نفوذه كاملا على مدينة آمد أوكل أمرها وأمر خراجها من المال لنور الدين بن قرا أرسلان ، فقيل لصلاح الدين إنك وعدته المدينة لا بأموالها التي تزيد على ثلاثة آلاف دينار؟ فأجاب :إنه لا يحسـن بنا

ان نعطي صديقنا المدينة فارغة ، وقد قيل انه عثر في أحد ابراج هذه المدينة على مائة الف شمعه ، وانه كان في مكتبها الف الف واربعون الف مجلد أهداها صلاح الدين كلها لكاتبه القاضي الفاضل ، ومكن ولاية ابن ارسلان على مدينةآمد ، ثم توجه الى عينتاب ، فأذعن له صاحبها نصر الدين بن كمرتكين ، ثم تحول عنها الى حلب فحاصرها ، ولم يكن صاحبها عماد الدين على حال يحسد عليه ، فقد كان استلمها خاوية من المال حتى انه لم يكن لديه ما يقدمه لجنوده ، يضاف الى ذلك انه لم يجب شيئا من أهالي حلب وضواحيها ، ويروى انه قال لاحد الزعماء : ليس لدي مااقدمه لك ، فاجابه هذا الزعيم قائلا : بع حلي زوجتك وادفع للمحاربين اذا شئت ان تكون ملكا ، وقد افضى به العوز الى حد صار معه الاهالي يطعمونه واهل بيته يوما فيوما ، وهذا مادفع القادة والجنود الى ان يتركوا امر الحرب للاهالي الذين اخذوا ذلك على عاتقهم ، ومع ذلك لم يتسن لصلاح الدين ان يحتل حلب عنوة ، فلجأ الى المفاوضات ، وبيان ذلك انه استمال ود زعماء حلب بما اغدقه عليهم من الاعطيات ، فأقنع هؤلاء عماد الدين بتسليم حلب لصلاح الدين والاكتفاء باماكن اخرى حتى لايفقد كل شيء ، ثم قالوا له:هل تظن ان العامة يمكنها ان تدافع عنك وتعمل في سبيل رزقك ، وقد نفد الطعام ولم يعد عندك ماتعطيهم ، فارتضى عماد الدين بأن يدخل صلاح الدين الى مدينة حلب ، وان يستولي عماد الدين على سنجار والرقة ونصيبين والخابور ، وعندما علم اهالي حلب بذلك لفهم الحزن وسخطوا سخطا شديداً على عماد الدين ، فاجتمعوا عند القلعة وراحوا يسبونه ويهزأون به ، ووضعوا طستا ورداء ونادوه قائلين : تبا لك من خنثى لايصلح لك الاغسل الاواني ، وذلك بينما كان يرمقهم بنظراته من شرفة القلعة التي نزل منها في ١٨ صفر متوجها الى خيمة ضربت له ، ثم قصد سنجار فتولى امرها وامر البلاد التي نص الاتفاق على ان يتولى امرها ، واما صلاح الدين ، فقد كان سروره شديداً باحتلال حلب ، ويحكي انه ردد وهو يصعد درجات القلعة قوله تعالى :« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك

على كل شيء قدير »(آل عمران: ٢٦)، ويقال انه حدث من معه من الزعماء قائلا : الان عرفت ان الملك استتب لي ، صدقوني اني لم احسد نور الدين المتوفى الا على حلب ، ولم اتمن سواها ، وبعد ان تمكن منها اعفى الناس من عدة ضرائب ، ثم وزع عليهم من المال مامقداره ثمانمائة وخمسين الف دينار .

وقد اصيب في المعارك التي دارت قبل ان يدخل صلاح الدين حلب اخوه تاج الملوك بوري فمرض عدة ايام ، ثم قضى نحبه،وعندما زاره صلاح الدين قال:« يجب ان تسر بامتلاكنا حلب وهي لك منذ الان ، فأجاب تاج الملوك قائلا : ان السيادة تفيد الاحياء وليس من دنت اجالهم مثلي ، ثق تماما انك دفعت ثمن ملكها غاليا ، فقد ضيعت اخاك في ذلك»، وقد كان تاج الملوك محاربا مقداما ، فبكاه صلاح الدين ومن معه من الحضور بكاء شديدا .

وفي تلك الاثناء ادرك حراس حارم ان صاحبها ينوي بيعها للفرنجة ، فاغتنموا فرصة خروجه للنزهة ، فاوصدوا الابواب دونه ، ومنعوه من الدخول ، واخبروا صلاح الدين ان يأتي ويأخذ مدينة حارم ، فندب لذلك ابن عمه ، وابن اخيه ، ولكن الحراس ، اصروا على ان يحضر هو بنفسه فكان لهم ماارادوا ، فقد جاءهم صلاح الدين واجزل عطاءهم واخرجهم من القلعة ، ولكنه لم يتعرض لصاحبها بأذى لان الزعماء دافعوا عنه ، واكدوا ان الحراس غدروا به .

وجعل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر مكانه في قلعة حلب ، وقفل راجعا الى دمشق ، ثم غادر دمشق بجيوشه الى قلعة الكرك فطوقها ، ولكن الفرنجة استعدوا للاغارة عليه فأحس بذلك فرجع الى دمشق .

وفي هذا الوقت جاء اخوه الملك العادل من مصر محملا بالذهب الكثير ، فولاه امر حلب ومايتبعها من رعبان وسواحل الفرات حتى

حماة ، وقد خرج الظاهر بن صلاح الدين من قلعة حلب بعد مقدم عمه الملك العادل ، ولحق بأبيه بعد ان اقام في القلعة ستة اشهر .

في عام ١٤٩٥ يونانية ٥٨٠ للعرب(١١٨٤ م) استعد صلاح الدين للهجوم على الكرك فاستقدم نور الدين من حصن كيفا ، واخاه العادل من حلب ، وتقي الدين من مصر ، وتجمعوا هناك ، وفي المقابل استعد الفرنجة فتخوف صلاح الدين ، وامر ان تحرق المنجنيقات ، ثم تحولت جموعه الى السامرة وداهمتها وكان البرنس ارناط صاحب الكرك قد حصن مدينته هذه تحصينا جيداً.واتجه البرنس صاحب انطاكية نحو حارم بمائتي فارس ، فبطش في ضواحيها بعدد كبير من العرب ، كانوا مجتمعين عند جسر الحديد ، كذلك صعد نحوا من عشرين فارسا الى الكمناء في الجبل وكان عددهم نحواً من اربعمائة راجل فقتلوهم على بكرة ابيهم .

وفي هذا العام توفي قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ، فتولى امرها من بعده حسام الدين بولق ارسلان ، ولأنه كان بعد فتى ، عين خاله ناصر الدين شاه ارمن وصيا له اسمه نظام الدين ، فتزوج نظام الدين هذا بأم حسام الدين ونهض بشؤون الملك خير قيام ، وعندما توفي الفتى حسام الدين ، خلفه اخوه الاصغر قطب الدين بايعاز من نظام الدين وصار امر المملكة بيده وبيد عبده لؤلؤ ، وما ان كبر قطب الدين حتى احس بذلك ، فعمل على التخلص من نظام الدين وعبده لؤلؤ وحدث مرة ان مرض نظام الدين فعاده قطب الدين وعندما انتهت الزيارة خرج قطب الدين فرافقه العبد لؤلؤ الى الباب اكراما له ، وبينما هما في دهليز ضيق ضرب قطب الدين العبد بسيفه فقتله وعاد الى نظام الدين المستلقي على فراش المرض فأجهز عليه ، وقذف برأس العبد ورأس سيده بوجه الزعماء ، فسيطر عليهم الرعب واذعنوا لحسام الدين ، وبذلك انتهت وصاية نظام الدين التي دامت عشرين عاما ، فقد قتل في عام ٦٠١ للعرب(١٢٠٤ م)٠

وفي السنة ٥٨١ للعرب ، ١٤٩٦ يونانية (١١٨٥ م) اتجه صلاح الدين نحو حلب ، ثم تجاوز الفرات الى الرها ، فاخرج منها صاحبها مظفر الدين بن زين الدين ، ثم واصل مسيره الى دارا ورأس العين ، فقدم عماد الدين بن قرا ارسلان لزيارته بدلا من اخيه نور الدين الذي كان مريضا ، ومن ثم استأنف صلاح الدين مسيره الى بلد ثم الى الموصل ، فبادر صاحب اربيل ، زين الدين بن علي كوجك اليه ، وقد كان صلاح الدين صاحب حران مظفر الدين ، وعندما احكم صلاح الدين قبضته على الموصل توسلت اليه صاحبتها أم عز الدين بنت أرتق ، فقد خرجت إليه هي وبنت نور الدين وتذللتا إليه في محاولة لأن يترك الموصل لعز الدين ، ولكن محاولتهما لم تجد نفعا ، فثار اهالي الموصل تعبيرأ عن تأييدهم لزنكي ورفضهم لصلاح الدين ، لذا لم يجد بدأ من الرحيل ، فقصد خلاط لانه علم ان صاحبها شاه ارمن قد توفي ، فقام عبده بكتمر الذي عامل الخلاطيين جيداً ، فأحبهم واحبوه ، وعندما علم بقدوم البهلوان بن ايلدكز سلطان العجم استنجد بصلاح الدين ووعده بان يتخلى له عن المدينة ، ولكنه حصن مدينته ولم يخرج للقاء صلاح الدين عندما قدم

وعندما قدم شمس الدين البهلوان وقف على الطرف الاخر للمدينة ، وتأهب لمنازلتها ، نصحه زعماؤهما بألا يضغط على بكتمر ، والا انحاز هذا الأخير إلى صلاح الدين ، فأخذ البهلوان بنصيحة الزعماء وتقرب من بكتمر فطيب خاطره ، وقدم له محظية من خاصته ، ثم غادره وتركه وشأنه .

وعندما رأى صلاح الدين ذلك انقلب الى ميافارقين التي كان صاحبها قطب الدين ملك ماردين قد توفي فتولى امرها ابنه الفتى كما سلف بيانه ، فطوق صلاح الدين هذه المدينة ، والتي كان قائدها اسد الدين ير نقش ، وكان فيها خاتون زوجة قطب الدين صاحب ماردين ومعها بناتها ، فراحت تشجع المقاتلين ، فامتدت الحرب طويلا دون ان يحقق صلاح الدين مطامعه فيها ، فلجأ الى المماذقة ، فقد منى زوجة قطب الدين المذكورة انفا بان يزوج ابنه من احدى

بناتها ان سلمته المدينة ، فوافقت على ذلك شريطة ان يترك لها قلعة الهتاخ ، فكان لها ماارادت ، فتركت له المدينة وقصدت تلك القلعة .

وقدم صاحب إمد قطب الدين سقمان بن نور الدين بن قرا ارسلان لزيارة صلاح الدين فأحسن صلاح الدين استقباله ، ثم رجع الى مدينته ، ومن ثم قصد صلاح الدين من ميافارقين شاطىء نهر قرمان،كما قصد كفر زمار على ساحل دجلة .

وفي هذه الاثناء شعر اهالي الموصل بضيق شديد ، فبعثوا الى صلاح الدين غير مرة المراتين المشار اليهما من قبل في محاولة لعقد معاهدة معه ، فتدخل بين الطرفين صاحب سنجار عماد الدين وتمت بناء على ذلك بينهما معاهدة تنص على ان يتخلى عز الدين صاحب الموصل عن شهر زور وعن الزابين وبيت وازيق ، وكل الشرق ، كما تنص على ان تضرب النقود باسم صلاح الدين ، وان ينادى في الخطب باسمه ايضا ، وبعد ذلك توجه صلاح الدين الى حران حيث ابتلي بمرض شديد ظن انه سيموت بسببه ، ولهذا قصد ابن عمه ناصر الدين بن اسد الدين شيركوه الذي كان معه الى مدينته حمص حيث اتفق مع الشبان على ان يكون هو خلفا لصلاح الدين ان مات ، ولكن شاءت قدرة الله ان يموت ناصر الدين ، وان يتماثل صلاح الدين الى الشفاء ، فتوجه صلاح الدين الى حمص واستولى على ماكان بحوزة ناصر الدين من الاموال ، وجعل الفتى الملك المجاهد ابن ناصر الدين خلفا له في حمص ، ويقال ان صلاح الدين عندما زار حمص بعد سنة سأل الملك المجاهد الى اين وصلت من القرآن ؟ فقال الى قوله :(ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلونة في بطونهم نارا) (النساء: ١٠) فأعجب صلاح الدين بذكاء هذا الفتى ، وقال ان كان هذا الفتى قد فهم ماقال ، فقد لزم ان نخافه .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

وفي عام ١١٨٥ م ١٤٩٦ لليونان ، تـاهب البـاغي أندرونيقس ليبطش باسحق أخر من بقي مـن أسرة منويل الملكية ، فـاعتصم ، اسحق بمنزله ، فبعث أندرونيقس قائد العسـكر ليحضره ، فـطعنه اسحق بسيفه عدة طعنات ، ثم ركب جواده وتوجه نحو الكنيسة وهو يصرخ وسيفه في يده يقطر دما ، فلحق به بعض الأهالي ولفيف مـن القادة المعادين للبـاغي أندرونيقس ، فـدخلوا الكنيسـة ، وحملوا البطريرك على أن يتوج اسحق ملكا ، وعندما سمع أندرونيقس بذلك لاذ بالفرار عن طـريق البحـر ، فقبضـوا عليه ، وأرجعـوه إلى العاصمة ، ونكلوا به وقطعوه بسيوفهم إربا إربا ، ثم أحرقوه أمـام الجماهير المحتشدة ٠

وفي هذا العام اشتد داء الجذام على ملك القدس بلدوين ، فتخلى عن المملكة لابن أخته الصغير بلدوين (الخامس) ومالبث أن توفي .

أخبار صلاح الدين في هذه الفترة

وفي سنة ٥٨٢ للعرب ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) تماثل صلاح الدين إلى الشفاء ، فترك حران متوجها إلى حلب ثم حمص ، وأيقن أن ناصر الدين ابن عمه شيركوه قـد مـات ، فـأخذ قلعـة حمص من ابنه الذي كان قد خلفه في ولاية حمص ، وقد وجد في القلعة أشياء كثيرة ، ومن ثم واصل مسيره إلى دمشق ، ثم عاد إلى حلب فعـزل عنها أخاه العادل وجعل مـكانه ابنه الملك الظـاهر ، كمـا ولى ابنه الثاني الملك الأفضل على دمشق ، وأما مصر ، فقد جعلها لابنه الملك العزيز ، وبعثه إليها مع أخيه العادل ، ولما علم ابن أخيه تقـي الدين أن مصر لم تعد له ، ارتـاب واسـتعد للرحيل إلى إفـريقية ، ولكن صلاح الدين عمل على إرضـائه وطلب إليه أن يحضر إليه ، واقنعـه بأنه إنما قربه منه طمعا بقوته وولاه حماه والمعرة وسـلمية ومنبـج

وقلعة نجم وميافارقين ، كما استقدم صلاح الدين ابنه الملك المنصور وجيوشه من مصر ، لكن مملوكه بـوزباه رفض المجـيء اليه ويمـم شطر المغرب وملك افريقية.

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

وفي عام ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) اجتمعت الكواكب السيارة الستة في برج الميزان ماعدا زحل فقد كان على شـكلين في ١٤ أيلول و ٢٩ جمادى الآخرة ، فتكهن المنجمون بأنه سيحدث طـوفان وريح صرصر تهلك الخلق كلهم ، وانه سيقع طوفان نظير طوفان نوح فيما لو تجمعت الكواكب كلها في برج الحوت ، وقد كان سلطان قونية قلج ارسلان أكثر الناس اقتناعا بهذه المزاعم لهذا هرع لحفر الأنفـاق ، وبناء البيوت المحكمة ، وقد كلفه ذلك مبالغ كثيرة ، ولكن الله تعـالى كذب المنجمين ،فقد كان الجـو في اليوم الذي زعمـوا أن الطـوفان سيقع فيه أكثر نقاء وصـفاء منه في سـائر الأيام ، ولم يلاحـظ فيه سوى كسوف شمسي مألوف ، ولم يعد للمنجمين مـكانة مـرموقة في نظر الملوك والسلاطين لكذب دعواهم ولم يحـافظ على هـذه المكانة سوى منجم مشهور خالف المنجمين فيما زعمـوه مـن أن طـوفانا سيحدث ، ولما سأله السلطان عما استند إليه فيما قاله قال : إنه لم يعتمد فيما ذهـب إليه على التنجيم ، لكن قـدر إن وقـع الطـوفان فسيموت هو وغيره ولن يبقى من يلومه على خطأ مـزاعمه ، وإن لم يحدث ، فسوف تصدق تقديراته ويكسب الجائزة ، فضحك السلطان من هذا المنجم وأجزل له العطاء .

وفي هذه الاثناء عقد البرنس صاحب انطاكية صلحا مـع صـلاح الدين وقبض بالحيلة على روفين صاحب قيليقية وأوثقـه بـالسلاسل وحشد جنده وتوجه بهم إلى بلاده،فوقف بوجهه لاون وقفة الأبـطال ورده إلى بلده مخزيا ، وعلى إثر ذلك دفـع له الارمـن ثـلاثين الف

- ٢٣٥٩ -
دينار مع المصيصة وأذنة ، فأفرج عن روفين ، الذي ارتد واستعاد المدينتين ، فنقم البرنس وعاث فسادا في بلاد قيليقية كلها .

وفي هذه الأوقات تم اغتيال البهلوان سلطان العجم ، وقد نجم عن ذلك حروب طاحنة ، فقد اقتتل الأكراد والتركمان غير مرة في ضواحي نصيبين ، وبيان ذلك أن أحد التركمان اقترن بتركمانية ليست من عشيرته ، وعندما مر موكب العرس بحصن كردي في زوزان اعترض طريق الموكب عدد من الأكراد وطلبوا منهم وليمة العرس ، لكن التركمان رفضوا هذا المطلب ، فأغار الأكراد عليهم ، وانتزعوا منهم العروس وساقوها إلى حصنهم فنشب القتال بعنف وشراسة فقطعت الطرق ونهبت البضائع ، وقتل من الجمعين نحو عشرة آلاف شخص ، ثم تجمع نحو ثلاثين ألف كردي واشتبكوا مع التركمان في موقعة قرب الخابور ، فهزم الأكراد وتناثرت جثث قتلاهم مابين الخابور ونصيبين ، ثم التقى الجمعان ثانية بضواحي الموصل وانهزم الأكراد ثانية ، وشرع التركمان بمهاجمة الأكراد على التوالي حتى طردوهم إلى قيليقية وأوسعوا رجالهم ونساءهم وفتيانهم قتلا وجرحا وظلوا يلاحقونهم حتى أجبروهم على الرحيل عن سورية وبلاد مابين النهرين ، ثم دخلوا أرمينية ، واعتقلوا ستة وعشرين ألف من الأرمن وجعلوهم عبيدا ، ثم باعوهم ، وأشعلوا النيران في دير كرابيد وبطشوا برهبانه ، وفتكوا في تل بسمة (٢٢) بمائة وتسعين من السريان ، وأغاروا على مائتي شاب من مسيحي السريان في قرية أمرون بقلوذية التابعة لملطية وقتلوهم ، وانتشرت الفوضى وعم الهلع في كل من ملطية وكبدوكية

وفي ذلك الوقت اندلع قتال أيضا بين الاسماعيلية والعرب وفتك كل منهم بالآخر بشكل فظيع .

الصراعات داخل صفوف الفرنجة في هذه الفترة

وفي هذا العام اختلف الفرنج فيما بينهم وبيان ذلك أن صاحب القدس قبل ان يموت أو كل أمر تربية نجله الصغير إلى قمص طرابلس ، ولكن الطفل مالبث أن مات ، فصار أمر المملكة إلى أمه (٢٣) التي وقعت بحب رجل يدعى غي ، فتزوجته ، وجعلته ملكا مع انه ليس من أسرة ملكية ، فنقم عليها قمص طرابلس ولجأ إلى صلاح الدين وراح يشي بها وبسائر النصارى ويعرض الاتفاق معه .

وفي عام ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) لاحظ صلاح الدين أن البرنس أرناط نكث بتعهده ، فقد تعرض لقافلة تجارية عربية ونهب محتوياتها ، فأعد صلاح الدين جيشا وقصد الكرك ، فحطم أشجارها وخرب القرى التي حولها ، ثم تحول عنها إلى الشوبك وفعل بها مثل مافعل بالكرك ، وأما ابنه الملك الأفضل ، فقد يمم شطر طبرية وغزة ، وتحرك الفرنجة ولاقوا العرب ، وأوشكوا أن يقضوا عليهم قضاء تاما لولا أن ظاهرهم الحلبيون ، ثم تداول قادة الفرنجة في أمر مقاتلة العرب فرأى قمص طرابلس مصالحة صلاح الدين محذرا من قوته التي استطاع بوساطتها أن يبسط نفوذه على مصر وفلسطين وسائر بلاد المشرق ، وأما غي الملك الغر الذي تزوج من ملكة القدس فقد قال بغطرسة : لابد من منازلة العرب ، وعندئذ اجابه قمص طرابلس : سترى عاقبة ماستفعل ، وكذلك تداول صلاح الدين أمر منازلة الفرنجة مع زعمائه الذين رأوا ألا ينازلوا الفرنجة الآن وهم في أوج قوتهم واجتماع شملهم ، كما رأوا أن يتريثوا حتى يتشتت شمل الفرنجة فيضعفوا ويسهل على العرب البطش بهم ، وأما صلاح فرأى خلاف ذلك ، فقد قال : ترى متى يجتمع لي مثل هذه الحشود الغفيرة ؟ الأجدر أن نتشجع ونبارزهم وليفعل الله مايريد ، قال ذلك ، ثم امتطى جواده واتجه هو وجنده نحو الأردن ، فتوقفوا على ضفاف بحيرة طبرية ، واحتشد الفرنجة في صفورية ومكث الجمعان عدة أيام ، لم يتعرض أحدهما للآخر ، إلى أن بعث

صلاح الدين فريقا من جنده في طريق مـائية ومجهـولة إلى طبـرية ليلا ، وعندما انبلج الصبح تسللوا إلى المدينة وأعملوا فيها السـيف والنار ، فاعتصمت الملكة بالقلعة وعندما سمع زوجها غي (٢٤) بذلك خارت قـواه ، ولكنه مـالبث أن اسـتعاد قـوته وتحمس وحمس الفرنجة ، وأغاروا على العـرب ، ولما حـل الليل وقـف الطـرفان أحدهما الآخر يرقبا بعضهما طيلة الليل ونال العطش من الفـرنجة دون العـرب ، لأن هؤلاء كانت بحـوزتهم ناحية الأردن ، ولما لاح الصباح وتبين للعرب قوة الفـرنجة ، وهـم يتقـدمون ويقتحمـون كالدبابير خارت قواهم وأحجموا عن القتال ، فبادر صلاح الدين إلى وسط جموعهم وهو يردد صيحات مدوية تتمثـل بـالتشجيع تـارة وبالتهديد أخرى وتعد بالمنى حينا وبالمنية حينا آخر ، فـأثار بـذلك عزيمة شاب شجاع يدعى منغورس وهو مملوك من مماليك صـلاح الدين فاندفع هذا المقاتل إلى مابين الصفين ، فبرز له مقاتل فرنجي وطعنه برمحه فهوى عن فرسه ، فانقض عليه وسحبه من ضـفيرته متجها به نحو صفوف الفرنجة ، ثم حز رأسه وكان هذا عاملا هاما في رفع معنويات الفرنجة فقد اعتقدوا أنه واحـد مـن أبناء صـلاح الدين ، ولما كان قمص طرابلس يبطن المكر فقد خشي أن تكون الغلبة للفرنجة ، فتصبح مشورته بعدم القتال سـببا لاحقـا لهـلاكه ، لذا طالب بالانقضاض على العرب والبطش بهم ، ففتحوا له الطريق بين الصفوف ، فعبرها متجها نحو طرابلس،لكن انسحابه هذا كان أحد الأسباب التي أدت إلى خسارة الفرنجة لهذه الموقعة ، فلم يبق بينهم من يثق بصاحبه ، ومع ذلك لم يجدوا للحرب بـديلا ، فخـاضوها ، فكانت وبالا عليهم فقد فتك بهم العرب ، وأسروا صـاحب القـدس والبرنس أرناط صاحب الكر ك ،ولفيفا مـن الرهبـان الاسـبتارية والداوية وغيرهم ، ولم ينج منهم إلا القليلون .

وعندما وضعت الحرب أوزارها اجتمع صـلاح الدين في خيمتـه بـزعمائه وطلب أن يحضروا له البـرنس أرناط ، وغي زوج الملكة صاحب القدس ، فأكرمه وقد كان العطش قد نال من غي ، فـأمر له صلاح الدين بماء حتى يشرب ، فأتي بماء مثلج ، فشرب نصفه ودفع

بنصفه الآخر إلى أرناط فقال له صلاح الدين : لايجوز أن تسقيه دون أمري ! فقال غي : إن الأسر موت فلا تمته مرتين ، إن الهزيمة قتل ، فلا تقتله مرتين ، فأعجب صلاح الدين بهذا الكلام ، وكاد يعفو عن أرناط لولا معارضة الزعماء الذين أصروا على قتله قائلين : إنه لايستحق أن يبقى على قيد الحياة ، لأنه أقسم مرارا ولم يبر بيمينه ، وبعد ذلك أرسل الأسيرين إلى خيمة ضربت لهما وبعد ساعة من الزمن ، استحضر صلاح الدين أرناط وحده واستل سيفا بيده وقطع رأسه ، وكان أرناط هذا قد خاض كثيرا من الحروب ضد العرب وقتل عددا كبيرا منهم .

فتح بيت المقدس

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى قلعة طبرية فاستمال ملكتها ، وحلف لها ، وأجزل لها العطاء ورحلها مع أهلها وحاشيتها وأموالها إلى طرابلس ، في حين قبض على الرهبان الاسبتارية والداوية ، وبطش بهم ، ثم باع الفارس منهم بخمسمائة دينار ، وقد كانوا ثمانين فارسا ، وكان صلاح الدين يقول : إن هؤلاء يفوقون الفرنجة جميعا خطرا وأذى للعرب ، لأنهم يؤثرون الموت في سبيل الايمان ، فيجب الاجهاز عليهم ، ثم توجه صلاح الدين إلى عكا ، فدخلها بعد أن هرب زعماؤها بحرا إلى صور ، ولم يبق في عكا إلا الضعفاء والمساكين ، ودخل حيفا ونابلس وصيدا وتبنين ويافا وقيسارية والناصرة وبيروت ، وقد ازدرى العرب النصارى الذين كانوا يقيمون في البلاد العربية ازدراء تعجز الكلمات عن وصفه ، ومع ذلك نجا صاحب جبيل ، لأنه سلم العرب مدينته . ثم قصد صلاح الدين عسقلان ، وقد كانت في ذلك الحين تعج بالمحاربين ، فطوقها، لكنه لم يستطع دخولها ، فسأل صاحب طبرية ملك بيت المقدس الذي كان أسيرا عنده أن يساعده في دخول عسقلان لقاء أن يفرج عنه ، فاستحضر ملك بيت المقدس حاكم عسقلان وطلب إليه أن يسلم مدينته لصلاح الدين فأبى فأمر باعتقاله ، ونصح أهالي عسقلان أن يسلموا مدينتهم فأذعنوا وسلموها ، وحاول أهالي صور أن يسلموا

المدينة ، لكن قمصـها كونراد حضر إليهـا وعمـل على حـراستها والدفاع عنها .

وتحول صلاح الدين إلى بيت المقدس فحاصرها وأقام المنجنيقات على الجانب الشمالي من سورها لاتساع هذا الجانب ، ومـواءمته لتمركز المحاربين عليه ، وبقيت الأمور على هذه الحال ثـلاثة أيام ، فخنق الفرنجة وهم ستون ألفا مابين راجل وفارس ، وخـرجوا إلى قتال العرب فبطشوا بالعديد منهـم و كان بين هؤلاء عز الدين عيسى صاحب قلعة جعبـر ،و في ذلك الوقـت شرع الجنود العـرب بقـذف السهام ليشغلوا المراقبين على السور ، بينما شرع العمال الحلبيون باقتلاع الحجارة بسرعة من فتحة نقبوها في جسـم السـور و بـدأ بالانهيار ، و عندما رأى الفرنجة هـذا انهـارت قـواهم و خـارت عزائمهم ، و بدأ اليأس يدب إلى نفوس الفرنجة فبعثوا باثنين مـن حكمائهم إلى صلاح الدين يطلبون الأمان والسلام ، فرفض صـلاح الدين ، و قال : لن أفتح المدينة إلا بالسيف ، و سوف أفعل بكم كما فعلتم بالعرب حين ملكتموها ، فانتم تعرفون كم قتلتـم وسـبيتم ، فقال أحد الزعيمين : لي كلمة اريد أن أقولها ، و لكن ليس قبـل أن تعطيني الأمان ،فقال له صلاح الدين : عليك الأمـان ،فقـل :فقـال السفير : لو لم نعرف قوة ايمانك و ارتبـاطك بشريعتـك و تمسـكك بسـنة مـن تقـدمك مـن الملوك المنتصرين الذين كانوا إذا انكسر أعداؤهم و ألقوا سلاحهم طلبوا الأمـان و أعطـوه ، لما أتينا إليك ، والآن بعد أن جئناك و لم نجد من من كرمك مـا كنا نأمـل ،سـنعود وسنبلغ رجالنا الأبطال المجاهدين ما لاقيناه لديك ،و اعلم أن أول ما سنفعله هو البطش بمـن لدينا مـن الأسرى العـرب ، و سـنحرق مسجدكم الكبير ثم الكنائس وسائر الأبنية ، ثم الأمـوال و المقتنيات و لن نبقي على شيء ثم سنذبح نساءنا و أبنائنا و بناتنا بـأيدينا ، و لن ندع لكم فرصة الانتقام منا ،ولن يستسلم الرجل منا قبل أن يقتل واحـدا أو اثنين منكم ، فـأخذ صـلاح الدين بهـذا الكلام و أوعز للسفيرين أن يمكثا في إحدى الخيم إلى أن يتداول الأمر مـع قـادته الذين قالوا له : إن كل ما قاله هذا الرسول صحيحا ، و قـد يصـنع

الفرنجة اكثر من نلك فاستدعى صلاح الدين الرسولين و قال لهما : إنني أقبل بما عرضتما ، و لكن لا يمكن أن يخرج كل الفرنجة من بيت المقدس مجانا ، و أمرائي يطلبون ذهبا لانهم خسروا في هذه الحرب كثيرا فاتفق الطرفان على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير و المرأة خمسة دنانير ، و أن يدفع كل ولد ، و كل بنت دينارين ، ويخرج الجميع في كل ما يمكنهم حمله ، فأدى الأغنياء عنهم و عن غيرهم من الفقراء و خرجوا جميعا آمنين و كان مجموع ما استطاع أن يدفعه الأغنياء عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، لكن مع هذا فقد بقي خمسة آلاف ممن لم يستطيعوا أن يدفعوا شيئا فساقهم العرب اسرى ، لكن بعض الحراس أفرجوا عن عدد كبير من المسيحيين لقاء رشوة مقدارها دينار أو دينارين ، في حين أفرج مظفر الدين ابن زين الدين عن ألف شخص تقريبا من الأرمن و السريان بلا مقابل ، لانهم كما قال : رهاويون من أبناء رعيتي ، و مثل نلك فعل ابن شهاب الدين صاحب البيرة ، فقد أفرج عن معظم أبناء بلده.

و في نلك الوقت كان في القدس ملكة يونانية متوشحة بثوب الرهبانية و منقطعة للعبادة في أحد الأديرة فالتمست من صلاح الدين أن لا يتعدى عليها ، فكان لها ما أرادت ، فقد أمر صلاح الدين أن تخرج هي وأموالها و الشمامسة ، و الشماسات والخدم تحت حماية كوكبه من الفرسان الى حدود الفرنجة ، و صنع صلاح الدين الأمر نفسه مع جميع الملكات الفرنجيات اللواتي كن في القدس ، و اخرج البطريرك جميع محتويات كنيسة القيامة وسائر الكنائس و قناديل الفضة والذهب ورحل ، و أما أهالي القدس فقد باعوا ما لم يقووا على حمله ، و باختصار سلموا صلاح الدين المدينة خاوية من الذخائر ، و هذا ما حمل العماد الكاتب على أن يقول لصلاح الدين : لماذا ينقل هؤلاء كل هذه الأموال علما أن اتفاقك معهم لا ينص إلا على الأمان ، فقال له صلاح الدين : هذا صحيح ، و لكن الفرنجة اذا ما اعترضناهم لن يتفهموا موقفنا على هذا النحو بل سيفسرونه تراجعا عن قسم قطعناه على أنفسنا و سيبثون نلك في الأصقاع فيشوهون سمعتنا ، و هكذا انتزع صلاح الدين القدس من

الفرنجة يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ ميلادي)و ١٢ تشرين الاول ١٤٩٨ لليونان ، و ذلك بعد ٢٨ يوما من تجمع الكواكب السيارة الستة ، ولم يتسن للمسيحيين بعد هذا التاريخ أن يملكوا القدس أبدا ، و مع ذلك أبقى صلاح الدين أربع رهبان من الفرنج في كنيسة القيامة ليقوموا على خدمة القبر المقدس و تولى بعد زمن قصير بطريرك لليونان أمر رعاية هذه الكنيسة

وبعد بيت المقدس يمم صلاح الدين شطر مدينة صور القابعة في قلب البحر فأقام حولها أبراجا قوية وقد استنفد كل طاقاته في قتال هذه المدينة ، وكان يشجع جنده قائلا : لم يعد للفرنجة على البحر موقع يقيمون فيه الا صور ، فاذا طردناهم منها لن يقووا على مهاجمتنا بعد الآن ، فاندفع جند صلاح الدين يقاتلون الفرنجة في هذه المدينة بلا هوادة ، لكن دون جدوى ، فقد أحكم تحصينها بالخنادق ، المركيز الذي قدم من رومية ، و كان رجاله الابطال الملاحون يغيرون على العرب ويبطشون بهم و يعودون ، و لهذا استعان صلاح الدين بألف سفينة ضخمة من الاسكندرية ، فأغار الفرنجة عليها ليلا وحطموا معظمها ، واعتقلوا ملاحيها ، والقى ما تبقى منهم أنفسهم في البحر فغرقوا ، في حين فر آخرون بسفنهم الى بيروت ، فتبعهم الفرنجة وألقوا القبض عليهم وعندما شاهد صلاح الدين دفاع الفرنجة المستميت أمر بإحراق ما أقام من الابراج ، وما بقي لديه من السفن والمنجنيقات أمر بتحويلها من صور الى عكا وأمر جنده بأن يمضي كل منهم الى وطنه كي ينال قسطا من الراحة في بيته.

الخلاف بين صلاح الدين والخليفة الناصر

نشب في هذه الآونة خلاف بين صلاح الدين وبين الخليفة الناصر ، وسبب ذلك أن صلاح الدين لم يؤد الجزية للخليفة عن

سورية ، كما أنه لم يبعث له شيئا مما كان يجبيه من مصر ، بل حاول في نشوة انتصاراته أن يلغي الخطبة للخليفة ، ويجددها للفاطميين بمصر ، وقد استاء الخليفة أيما استياء عندما أخبره بغدادي كان من قبل يعمل في خدمة صلاح الدين باستيلائه على بيت المقدس.

وفي هذا العام حشد واحد من الرعاة التركمان يدعى رستم خمسة الاف فارس ، وجمعا غفيرا من الرجالة وتوجه لغزو قيليقية ، فبادر صاحبها لاون الى سد الثغور في ناحية مرعش ، ثم أغار على هؤلاء التركان فهربوا وتحولوا الى غزو أطراف حلب ، فانبرى لهم البرنس بوهيموند وأبادهم جميعا.

وفي عام ٥٨٤ للعرب (١١٨٨ م) قاد صلاح الدين جنده بنفسه الى حصن الاكراد لفتحه ، فحاصره يوما كاملا لكن استعصى عليه فارتد الى طرطوس ، وقبل أن ينهي جنده نصب خيامهم تمكن الحلبيون من احتلال أسوار هذه المدينة ، واعتصم الفرنجة في برجين من أبراجها ، ولكن هؤلاء جميعا لم يصمدوا في وجه صلاح الدين فاستسلموا له فهدم قلعتها وأسوارها وكنيستها المعروفة بكنيسة مريم والدة الرب وكل ابنيتها ، ثم قصد قلعة المرقب فلم يلق فيها أحدا ، ثم قصد جبله فسلمه أياها من فيها من العرب ، ثم توجه الى اللاذقية فهاجمها بقوة وضراوة ، ثم قام الحلبيون بحفر نفق تحت الارض طوله ستون ذراعا وعرضه أربعة أذرع ، فخارت قوى الفرنجة واستسلموا لصلاح الدين وطلبوا منه الأمان فأذن لهم أن يخرجوا بأولادهم ونسائهم وأموالهم ما عدا آلات الحرب والبهائم والقمح ، وقد جعل صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة واليا على اللاذقية.

وقدمت في هذه الأيام جيوش فرنجية في كثير من السفن من صقلية لنصرة المسيحيين ، وبادر قائدهم ليحادث صلاح الدين قائلا: لقد بسطت نفوذك على كل السواحل التي كانت بيد الفرنجة ولم تدع

لهم إلا القليل ويحسن بك أن تكف عن محاربتهم ، وإلا أغاروا عليك من البحر زرافات ووحدانا وضايقوك ، فالأجدر بك الا تسيء معاملة جيرانك فهم بمنزلة الحصن الذي يحميك مـن الأهـالي ، فـأجاب صلاح الدين قائلا إن مبادىء ديننا تملي علينا أن نعـزز هـذا الدين ونحميه ، والله يفعل ما يشاء ، فرجع القائد الفرنجي الى بلده ، ثم تابع صلاح الدين زحفه فوصل قلعة صـهيون القـائمة على صـخرة واقفة بين واديين عميقين ، فطوقها ثم دخلها بسلام ، وجعل ناصر الدين منغورس بن عمر تكين مملوك مجاهد الدين بن بوزان واليا له عليها ، ثم اجتاح شغر بكاس وزحف نحو الدربساك واحتلها ، كما انتزع بغراس من الرهبان الداوية ، وقد كانت هذه المدينة خالية من الجنود ، وهكذا أصبحت كل هذه البلاد للعـرب ، وهـذا مـا اقلق الأنطاكيين لأن طرق الامداد سدت في وجوههم ، فقلت مؤنهم ، لهذا تذلل البرنس لصلاح الدين ورجاه الأمان ، فـكان له ذلك لمدة ثـلاثة أشهر ، ثم توجه صـلاح الدين الى حلب ومنهـا الى دمشـق لينال قسطا من الراحة ، ومن ثم يمم شطر صفد فحاصرها الى أن أخذها من ولاتها كما أخذ بلدة كوكب بعد أن ضيق عليها.

وفي هذا العام توفي طبيب دمشقي يدعى الموفق أسـعد ، ويعـرف بابن المطران ، وكان نصرانيا فاعتنق الاسلام ، وقـد اجتمـع لديه المال الكثير وزوجه صلاح الدين إحدى جـواريه ، ولكنه مـالبث أن مات فخبت شهرته ، وبعد أن توفي صـلاح الدين شـوهدت امـرأته وواحد من فتيانه يتسولان في بيوت الضباط .

وفي عام ٥٨٥ للعرب(١١٨٩ م) غزا صاحب أنطـاكية البـرنس بلدتي حارم وشيح ، وبطش بمن فيها من المسيحيين والعـرب ، وفي هذه الأونة وبعد أن أخذت صيدا من صـاحبها أرناط تـوجه أرناط هذا الى شقيف‌أرنون بإذن من صلاح الدين ، ثـم قـدم الى صـلاح الدين نفسه وطلب منه أن يمهله ثلاثة أشهر ليعمل على نقل أهله من صور الى دمشق ويتخلى له عن الشقيف المذكور آنفا فأذن له صلاح الدين ، لكنه مالبث أن أدرك أن أرناط يراوغ ويخادع فاعتقله ، ثـم

بعث به الى دمشق ولم يفرج عنه إلا بعدما تخلى له عن الشقيف المذكور ٠

وفي هذا العام ١٥٠٠ لليونان (١١٨٩ م) نشب خلاف بين السلطان قلج ارسلان وبين ابنه الاكبر المقيم في سبسطية ، فقتل نحو أربعة آلاف تركي من اتباع الولد ، ومن ثم أصلح بينهما الأمير بهرامشاه صهر السلطان الذي أبعد عنه حاجبه الأمير اختيار الدين حسن الذي سبب الخلاف بين السلطان وولده ، فجمع اختيار الدين نحو مائتي فارس من أقربائه وتوجه بهم الى مرج كينوك ، فحمل عليهم جماعة من التركمان بأمر من ابن السلطان ، فبطشوا باختيار الدين واتباعه ، ثم قطعوا اختيار الدين وجعلوا أشلاءه على رؤوس رماحهم وطوفوا بها في سبسطية يوم عيد الصليب.

قدوم الافرنج الى صور

وتولى في هذا العام ملطية معز الدين قيصر شاه بن السلطان قلج ارسلان ، وقدمت في هذا العام أيضا الى صور جماهير غفيرة ومختلفة من الفرنج ، ثم توجهوا منها الى عكا ، وما أن علم صلاح الدين بذلك حتى تأهب فاستنفر جميع جيوشه ، وزحف بها الى مقربة من الفرنجة ، ولاحظ انهم يزدادون يوما إثر يوم ، فتداول الأمر مع قواده فرأوا أن يغيروا على الفرنجة قبل أن يزدادوا أكثر فأكثر ، فاستعدوا لذلك أول رجب في ليلة الجمعة ، وفي الصباح التحم الجمعان وأمضوا طيلة النهار يقتتلون سجالا حتى إذا جن الليل بات الجميع على جيادهم ، وفي صباح السبت استؤنف القتال ، فاستمر حتى المساء ، وفي أثناء ذلك انسحب الفرنجة من جهة الجانب الشمالي لعكا لانه لم يكن لديهم خيام هناك فدخل صلاح الدين مع عدد من رجالته عكا ، وادخل الامداد اليها وأخلاها من الضعفاء ، وأوعز الى جنده ان يستمروا في القتال دفاعا عن السور وضد سائر الفرنجة لعلهم يستسلمون ، ولكن هؤلاء ــ الفرنجة ــ لكثرة عددهم لم يستسلموا بسهولة ولم

يسمحوا للعرب أن يفتحوا ثغرات في جيوشهم ، ولهـذا لم يكن مـن السهل على صـلاح الدين الابقـاء على عكا ، فقـد أغار عدد مـن الفرسان الفـرنجة على مخيم للعـرب ، وفتـكوا بـالعديد منهم ، فطاردهم العـرب الى تـل يدعى تـل المصلوبين حيث كان يعتصم هؤلاء الفرنجة ويتحصنون بإحكام ، فتحول صلاح الدين الى تل يقابل التل السالف ، ويطل على عكا ، وصار الرجالة من الجيش يتبارزون في كل يوم حتى سئم الفرنجة ، فنادوا العرب قائلين لا شك أن كلانا سئم من هذه الحـرب ونريد اليوم أن نلهـو قليلا بمبـارزة الفتيان الصـغار منا ومنكم ، فجمعـوا مائة فتـى مـن كل طرف ، وأخذوا يتقاذفون بالحجارة ثم الرماح والعصي وأخيرا هزم الفتيان الفـرنجة الفتيان العـرب وحشروهـم في المدينة ، على أن الملحمة العظمى كانت يوم الأربعاء ٢٠ رجب عندما انطلق الفـرنجة من خيامهم كالنسور يتقدمهم الملك والكهنة وقد حملوا الانجيل فـوق رؤوسهم مغطى بقماش حـريري أحمـر ، ففـوجيء صـلاح الدين واستنفر جنده بصيحات مدوية ، فتحول الفرنجة من الجهة اليسرى الى الجهة اليمنى حيث كان ابن أخي صلاح الدين ، تقي الدين عمر الذي كان يقاتل الفرنجة بضراوة ، وعندمـا أيقـن الملك أن العـرب صامدون وضع شارة الصليب على وجهه وهجـم يشـق صـفوف الجيوش العـربية حيث كان ولدا صـلاح الدين الظـاهر والافضل ، وقطب الدين ابن نور الدين بن قـرا أرسـلان صـاحب حصن كيفا ، وابن لاجين صاحب نابلس وغيرهم والتحم الجمعـان وراح الفرنجة يلتهمون العرب التهام النار للهشـيم ، ففـر العـرب وطاردهم الفرنجة وأبواقهم تصدح بصـيحات النصر ، وقـد هـزم العرب شر هزيمة في ذلك اليوم فقد بلغ الفرنجة حدود طبرية ودمشق وسلبوا العرب خيامهم وبطشوا بالضعفاء منهم ، ثم عادوا فطاردوا العرب ، نحو فرسخ ، فوجدوا بقية باقية منهم ، فلم يتعرضوا لهم بأذى لما لاحظوه عليهـم مـن الضـعف والاعياء ، بـل خلدوا الى الاستراحة في خيامهـم ، في حين كان صـلاح الدين يصـيح بجنده المنكسرين ويستنهض هممهم،لكنهم لانوا بخيامهـم وقـد نال منهـم التعب والاعياء،وكان من نتائج هـذه الموقعـة مقتـل الفـي

فرنجي ، وأربعة الاف ومائة عربـي فـأمر صرح الدين بـأن تلقـى جثثهم في البحر ، فامسك رجل بخيط وصار يعقـد فيه عقـده كلمـا القيت جثه في البحر ، وفي هذه الاحيان رأى قـادة صـلاح الدين أن يبعدوا بعض الشيء عن الفرنجة محتجين لذلك بفساد المناخ بسـبب الروائح المنتشرة من جثث القتلى ، وأما الفرنجة فقد أخذوا بحفـر خندق من التل الى البحر يفصلهم عن الجيوش العربية ، ثم طـوقوا عكا من ناحية البحر ، فقطعوا الطريق عليها ، فلم يعد بوسعهم أن يدخلوا الى المدينة أو أن يخرجوا منها .

وفي هذه الآونة قدم ملك الألمان عن طريق القسـطنطينية بمـائتي الف فارس وراجل ، فخاف صلاح الدين ، وبعـث سـفيرا له يدعى بهاء الدين ابـــن شـــداد الى خليفـــة بغـــداد وكل ملوك المشرق ، يستنجدهم والا فالعربية ستضمحل لا محالة.

وعندما اهلت سنة ٥٨٦ للعرب (١١٩٠ م) ارتاح صلاح الدين لتحول الفرنجة الذين ركزوا كل اهتمامهم على مدينة عكا ، ومع ذلك فاجأوا العرب حين كان صلاح الدين في رحلة صيد ، فاستنفر الجند اخوه العادل فاغاروا على الفرنجة ، وتتالت القتلى من الطرفين ولو لم يحل الظلام لحسمت المعركة لصالح أحدهما ، وارتد الفرنجة الى معسكراتهم ، وهطلت أمطار غزيرة فشـكلت أوحـالا حـالت دون استمرار القتال ، ولا سيما على الفرسان ، ولم يعد بمقدور صـلاح الدين أن يعرف شيئا عن الذين في عكا من العرب حتى استطاع أحد سكان عكا أن يسبح في البحر ، ويذهب الى صلاح الدين ويعلمـه أن الفرنجة يحاربون هذه المدينة حـربا ضروسـا وأنهـم يســتعدون لاقتحامها بعدما بنوا أبراجا عالية تطل على المدينة ، وهذا ما جعـل سكانها في خطر داهم ، فقرر صلاح الدين أن يزحـف الى الفـرنجة ليشغلهم قليلا عمن في داخل عكا ، لكن اعترض سـبيله عدة خنادق كان الفرنجة قد حصنوا انفسهم بها ، ولهذا يئس صلاح الدين مـن الوصول اليهم ، فتراجع الى تل يعرف بتل العجول بعيدا عن الفرنج، وفي هذا الوقت اتى الى نجدته ملوك عدة من العرب نذكر منهم ، على

سبيل المثال : معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود صاحب اربيل ، وعلاء الدين كرم شاه بن مسعود صاحب الموصل ، واستطاع صلاح الدين أن يدخل إلى عكا رجالا ذوي خبرة باشعال النار فأحرقوا ثلاثة ابراج فرنجية ، ولو لم تعصف في تلك الفترة رياح شديدة لكان قد أحرق لهب الأبراج الافرنج كلهم ، ومن سوء حظ الافرنج أن الخنادق التي تربصوا بها لم تدع لهم فرصة للفرار أو النجاة من النيران ، وأما الابراج التي احترقت فقد صممت على نحو يذهل من يراها ، فقد وضعت على عجلات تمكنهم من دفعها والصاقها بالسور متى شاؤوا كما كان بمقدورهم أن يجتنبوها بالحبال اليهم دون أن ينزلوا من عليها من المتحاربين.

وأما ملك الألمان ، فقد منعه اليونان في البداية من أن يغادر القسطنطينية ، ولكنه الح عليهم فافسحوا له المجال ، ليصل الى بلاد قلج أرسلان حيث جيش السلطان قطب الدين ملكشاه الجيوش واعترض بها الألمان لكنه هزم أمامهم ، وبلغ الألمان قونية وبطشوا بالعديد من أهلها ، وفي هذا الوقت قصد بباس ميخائيل القسيس اليوناني والكاتب الملطي الى قونيه لدفع الخراج فأغار عليه التركمان وأردوه قتيلا ، وبقي قلج أرسلان معتصما بقلعة قونيه الى أن دفع مبالغ طائلة لملك الألمان وصالحه ، وفتح في وجهه الطريق الى قيليقية ، فبادر اليه لاون ابن اسطفان بن لاون صاحب قيليقية ، وزاره في طرسوس وأزعن له ، ومن ثم ذهب ملك الألمان ــ وهو شيخ يسبح في النهر مع أن البرد كان في ذلك الوقت قارسا فمرض ومات فنقل ابنه جثمانه الى انطاكية ، ثم سار باقي الألمان ــ وقد أنهكوا ــ الى ضواحي طرابلس ، ثم أبحروا الى عكة ، ولكن معظمهم قضى نحبه في قيليقية بسبب المرض.

وفي هذه الأثناء قدم ملك انكلترا ، فتوقف في قبرص وانتزعها من اليونان ، ومن ثم واصل مسيره الى عكا فقويت شوكة الفرنجة في هذه المدينة التي كان فيها أيضا عشرة أمراء عرب ، فأخبروا صلاح الدين بأن الحروب المستمرة أوهنتهم ، فاستبدل بهم أمراء لم يكن

لهم مزيد خبرة بفنون القتال على السور ، ولهذا ازداد موقف الفرنجة قوة ومنعة ولا سيما بعد أن نصبوا سبعة منجنيقات مقابل كل برج ، ومع ذلك بعث ملك انكلترا الى صلاح الدين سفير يسبر امكانية الاجتماع به والاتفاق على تدبير يخدم مصالح الطرفين ، فكان جواب صلاح الدين أن يصطلح الطرفان أولا ومن ثم يمكن أن يترتب أمر الاجتماع ، لانه لا يليق بالملوك أن يقتتلوا بعد أية مفاوضات ، ثم حدث أن مرض ملك انكلترا ، فتوقف الفرنجة عن متابعة الحرب ، لكن ما أن تماثل الملك للشفاء حتى أرسل سفيره ثانية الى صلاح الدين ، وقال له: أرجو أن تعذرني عن التقصير في اجابتك ، فقد انتابني مرض أعاقني عن ذلك وهاأنذا قد شفيت الآن وبادرت الى مراسلتك وأرغب أن أبعث اليك ببعض الهدايا ، فلا يحسن بالملوك أن يقطعوا عرى المودة وتبادل الرسل والهدايا والتهاني ولو في أوقات الحروب ، هذا ما علمنا اياه أباؤنا الملوك السالفون،فقال صلاح الدين :إن هادنتمونا هادناكم ، فأجاب السفير إن لدينا حماما زاجلا ونسورا وبواشق وليس لدينا ما نطعمها فلو أعطيتمونا زغاليل ودجاجا اطعمناها واحضرناها اليكم ، فقال أخو صلاح الدين العادل للسفير على سبيل المزاح : طالما ملك انكلترا قد عوفي فلا شك أنه يحتاج الى زغاليل.

ثم ألبس صلاح الدين السفير الانكليزي حلة ملكية وحمله بعض الدجاج والحمام والزغاليل ، وبعد ثلاثة أيام عاد سفراء الفرنجة الى صلاح الدين يريدون ثلجا وثمارا فحملوا ما طلبوا ورجعوا ، وقد قيل إن الملك الانكليزي لم يهدف من ارسال سفرائه الى صلاح الدين المرة تلو الاخرى الا ليقف على ما لديه وعلى ما لدى ملوك المشرق من القوات ، وعندما ضيق الفرنجة على العرب في عكا قال أهلها لصلاح الدين: أنجدنا والا فسوف نسلم المدينة ، وكان صلاح الدين يعمل جاهدا على شغل الفرنجة بالقتال داخل عكا وخارجها ، وهذا ما حدث فقد أجبر صلاح الدين الفرنجة على تقسيم جيوشهم الى قسمين ، قسم لمنازلة العرب داخل عكا ، وقسم لمحاربتهم في الخارج ، ولما أيقن العرب داخل عكا انهم

مهزومون لا محالة ، طلبوا الامان ، فـأجابهم الفـرنجة بـأن ذلك مشروط بأن يرد لهم صلاح جميع الاسرى الفـرنجة ، وكل البـلاد والمدن التي أخذها منهم ، فكان رد صلاح إني أفرج عن ثـلاثة آلاف أسير فقط لقاء العرب الذين داخـل عكا ، وإذا تخلى الفـرنجة عن المدينة بادلتهم بمدينة عوضها ، والا فليسـتعيدوا تلك المدن بـالقوة كما أخذتها منهم ، وما إن علم الفرنجة بـذلك حتـى صـعدوا على أسوار عكا بالسلالم ثم هبطوا الى قلب المدينة وفتكوا بالكثير ممـن فيهـا ، وانحسر بعض الاهـالي في ناحية مـن المدينة ، فقـالوا للفرنجة : انتظروا ريثما نطلب من صلاح الدين أن يدفـع لكم ذهبـا ويفرج عمن لديه مـن أسراكم ، فـوافق الفـرنجة على ذلك واتفـق الطرفان على أن تكون المهلة أربعة عشر يوما حتى يبدو القمر الجديد وعلى أن يقدم صلاح الدين للفـرنجة مـائتي ألف دينار ذهبـي،وأن يفرج عن مائة أسير تحدد أسماؤهم مـن الكونتية والقمـامصة وأن يفرج عن الف وخمسمائة أسير آخرين غير محددين ، وبعـث بهـذا الاتفاق الى صلاح الدين ، فتداول الأمر مع قواده ، فقالوا بصـوت واحد: إن هؤلاء العرب أخواننا ويجب أن ننقذهم ، فـأخذ صـلاح الدين بهذا الراي وجمع الاسرى الفرنجة ، وأما الذهب ، فقد تقرر أن يدفـع للفـرنجة في كل عشرة أيام ثلث المبلغ الذي تقـرر دفعه ، وعندما انتهت الأيام العشرة الأولى طلب مـن الفـرنجة أن يفرجوا عن كل الرهائن الذين عندهم ، على أن يدفـع ثلث الذهـب وجميع الرهائن بدلا من الثلثين الباقيين : أو أعطـونا رهـائن مـن عندكم بدلا من ثلث الذهب الذي سوف تقبضونه ، فقال الفـرنجة : تكفيكم كلمتنا وتقريرنا بشأن الرهائن ، فأنف صلاح الدين من هذا الجواب ، ورفض طلبهم فنقموا نقمة عارمة وقيدوا كل من لديهم من العرب بالحبال وساقوهم الى تل قرب المدينة ، وأوثقوهم بـالحبال وجمعوا حولهم براميل الخمرة العتيقة والحطب وحشروهم ثم فتكوا بهم بالسيوف ، وكان كاتب الديوان يشهد ذلك ، وقـدر عدد القتلى من العرب المتناثرين داخل عكا وخارجها وعلى أسوارها وعلى التل المذكور آنفا بمائة ألف وثمانمائة نسـمة ، وكان ذلك في رجـب مـن عام ٥٨٧ للعرب ، وفي آب من عام ١٥٠٢ لليونان ، (١١٩١ م)

وإنما أطلنا في الحديث عن هذا الحصار لكونه مشهورا عند العرب ، فقد كتبوا فيه مجلدات حول ما أصابهم من الشدة من الفرنجة.

وما أن مكن الفرنجة اقدامهم في عكا حتى بادروا الى تنظيم جيش لحراستها ، ورمموا ما تداعى من أسوارها ، ثم توجهوا الى أرسوف ، وكذلك رحل صلاح الدين لكن مع ذلك ظل كل منهما يتعرض للآخر بين الفينة والأخرى على الطريق ، وفي أحد الأيام هاجم صلاح الدين الفرنجة فحنق الملك الانكليزي وأغار على صلاح الدين وصحبه غارة بددتهم ، ولم يبق مع صلاح الدين الا سبعة عشر من أخيار العرب وحملة الرايات ونافخي الأبواق ، وكان يمكن أن ينقض الفرنجة على صلاح الدين ومن بقي معه وأن يأسروا صلاح الدين فيقوضوا بذلك أقوى سند للعرب ، ولكنهم خشوا أن يتربص بهم كمين ، فأقلعوا عن ذلك.

وسير صلاح الدين في ذلك الحين فرسانا وبنائين الى قلعة بغراس ليأتوه بما فيها من الذخيرة والمؤن وليهدموها ، ولكنهم ما إن بلغوا تلك القلعة حتى علموا أن لاون صاحب قيليقية استعد ليغير عليهم ، فرجعوا فارين ، وعندما علم الانطاكيون بذلك توجهوا الى هذه القلعة – وكانوا إذ ذاك في ضيق من أمرهم – فوجدوا فيها اثني عشر الف مكوك من القمح ففرجوا بذلك عن انفسهم لان الجوع كان قد ضايقهم جدا ، وما هي الا أيام حتى أغار لاون على بغراس وأخرج الفرنجة منها.

واغار صلاح الدين على عسقلان وأخلاها من سكانها ، ولكن العرب عجزوا عن حراستها ، وقد سوغوا ذلك بأن الفرنجة بنوا بينها وبين القدس مدينة يافا ، وذهب صلاح الدين الى بيت المقدس ووضع فيه من العتاد والرجال ما يمكن أن يحميه ، وفي ذلك الوقت قصد صاحب ملطية معز الدين صلاح الدين وشكا اليه محاولة أبيه

وإخوته انتزاع هذه المدينة منه فأوسع له صلاح الدين وزوجه من ابنة أخيه العادل ، وطمأنه قائلا: لا تخف أباك ولا أخوتك.

وأرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين رسولا يقول له: لقد أتت الحرب على جندنا وجندكم والام ستظل الأمور على هذه الحال ، وقد رويت سيوفنا وسيوفكم من الدماء ، فلترد ما اخذته منا من البلاد ولا سيما بيت المقدس مقرديننا الذي تركنا اوطاننا من أجله فإن قبلت ذلك غادرنا الى أوطاننا تاركين كل شيء فتستريح ، فأجاب صلاح قائلا : ان هذه البلاد كانت فيما سبق لليونان لالكم ، وقد أخذها العرب منهم وعندما ضعف العرب أخذتموها منهم ، ونحن الآن نسترد بلادنا منكم ، وأما القدس التي تعدونها مقام دينكم ، فهي ايضا مقر ديننا ، ونحن نقدسها أكثر منكم ، وهذا ماأوصانا به الله في القرآن .

ثم أرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين مرة ثانية ، وقال : أرغب في أن يصاهرني العادل أخوك ، فأزف له شقيقتي التي جاءت معي لتسجد في بيت المقدس واذا ما اكتفيت أنت بالقلاع والمدن ، وبقيت القرى بيد الرهبان الداوية والاسبتارية ، وتخليت لأخيك العادل عن المدن الساحلية ، عند ذلك يتم الزواج ، وسأستعمل أختي على كل المدن التي بحوزة الفرنجة الآن ، وسيكون مركزها بيت المقدس ، فأبى صلاح الدين ذلك في حين كلف أخوه بشقيقة الملك الانكليزي ، وطلب الى القواد والأعيان ان يقنعوا أخاه صلاح الدين بعرض ذلك الملك ، فتشبث صلاح الدين برأيه ، لكن هؤلاء القادة قالوا له نحن متأكدون من أن هذا الزواج لن يكون ، فابنة الملك الكبير تأنف الزواج من عربي ، ولعل الملك عرض عليك ذلك مازحا كعادته ، ولهذا كله يحسن الا تخجل اخاك ، فوافق صلاح الدين وبعث سفيرا الى ملك الانكليز ليخبره بذلك فاقام السفير ثلاثة أيام ، ثم قال له الملك : استغرقت ثلاثة أيام في سبيل ان أقنع أختي بهذا الزواج ، فلم تقنع بذلك الا اذا تنصر العادل ، فعاد السفير خائبا .

وفي هذه الايام توفي تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وهو في طريقه الى خلاط لمحاربتها ، فحمل الى ميافارقين حيث دفن ، وكان تقي الدين هذا شديد الكراهية للمسيحيين ولهذا كان يبطش بالفلاحين الأرمن بلا رحمة في جبل جور ، وكان مع تقي الدين المتوفى ابنه الملك المنصور فاعتصم بميافارقين،وأرسل لصلاح الدين قائلا ان اخذت مني بلاد أبي تقي الدين تحالفت مع بكتمر صاحب خلاط ، فأذعن له صلاح الدين قليلا ، ثم جعل العادل واليا على بلاد ابيه ، في حين نصب الملك المنصور على سميساط وحران والرها .

وبعد يوم واحد من رحيل العرب والفرنجة عن عسقلان كمن العرب للفرنجة وهم يقطعون الحطب خارج المعسكر ، ولكن الفرنجة اكتشفوا أمرهم فامتطوا جيادهم ، وبطشوا بثلاثة من قواد صلاح الدين في حين أسر العرب فارسين من الفرنجة ، فوجه ملك الانكليز الى الملك العادل سفيرا يعاتبه على ذلك الكمين ، وأبدى رغبته في أن يجتمع بأخيه السلطان صلاح الدين في تلك الخيمة ولكن صلاح الدين رفض ذلك لامرين أحدهما الخوف ، وثانيهما أنه لم ير ذلك مقبولا قبل ان يعقد بينهما صلح وهذا مالم يكن ، وعلى افتراض حصول مثل ذلك الاتفاق فان احدهما لايفهم لغة الآخر الا بمترجم فليكن اذن المترجم سفيرا ، وذلك يغني عن الاجتماع المباشر ، وعندما حل الشتاء ارتحل صلاح الدين الى بيت المقدس وارتحل الملك الانكليزي الى عكا ، ثم ارسل صلاح الدين للملك اربعة وعشرين ألف دينار ذهبي من أجل أن يفرج عن الأسرى العرب .

وفي مستهل عام ٥٨٨ للعرب (١١٩٢ م) سار الفرنجة الى عسقلان وبدأوا بترميم ابنيتها ، وكان قد نشب خلاف بين المركيز صاحب صور وبين ملك الانكليز ، فقد طمع المركيز ان يستقل بهذه المدينة عن الملك ، فحاول الملك أن ينزعه عنها ، فأرسل المركيز الى صلاح الدين يخبره بالتحالف معه لمحاربة أبناء جلدته الفرنجة ، وبينما كان سفير المركيز عند صلاح الدين تسلل اليه

رجلان اسماعيليان تنكرا بلباس الرهبان ، فطعنه أحدهما بسكينة ، وفر الثاني الى كنيسة مجاورة كان قد نقل اليها سفير المركيز ، وعندما سمعه هذا الاسماعيلي الثاني يتكلم هجم عليه ضمن الكنيسة وطعنه ثانية فأجهز عليه فألقى الفرنجة القبض على هذين الرجلين وعذبوهما فزعما أن ملك انكلترا هو الذي بعث بهما ، فصدق الفرنجة ذلك لما بينه وبين المركيز من خلاف ، ولكن تبين فيما بعد أن (سنان) زعيم الاسماعيليين هو الذي أرسلهما ليغتالا سفير المركيز ، واثر ذلك جعل الملك الانكليزي الكونت هنري واليا على مدينة صور ، فتزوج امرأة المركيز وجامعها وهي حامل مخالفا بذلك الناموس .

وفي هذه الغضون زحف الفرنجة الى الداروم ، وأخذوها من المسلمين وبطشوا بأهلها ، كما اعترض الفرنجة قافلة كبيرة للمسلمين آتية من مصر تحمل ذهبا لصلاح الدين ، أضف الى ذلك أن معلومات وردت اليه تفيد أن الفرنجة يستعدون للهجوم على القدس فجهز جيوشه لمنازلتهم ، وأحكم تحصين أسوار المدينة وخرب كل القنوات خارج السور ، وعندما علم ملك انكلترا بذلك أوعز الى الفرنجة بالتوقف عن الزحف الى بيت المقدس قائلا : لم يعد في ضواحي المدينة ماء ، فالعرب قد خربوا قنوات المياه وأما النهر فبعيد عنها مسافة تزيد على الفرسخ ، ولاتظنوا أن بيت المقدس مثل عكا التي لولا البحر لما استطعنا أن نحاصرها أكثر من يومين ، فأخذ الفرنجة برأي الملك وتحولوا الى غزة ، ففرح صلاح الدين بذلك ، لكن الملك عاد فأوفد اليه سفيرا ليقول له : لاتظن أني أعرض عن غزو بيت المقدس ضعفا وجبنا ، فإن الكبش لايرجع القهقرى الا لكي ينطح الرأس ، فإن رأيت أن نتهادن على ماتريد ، فهذا أفضل لك ، وبعد عدة مراسلات تهادن الطرفان على أن تبقى بلاد الفرنج للفرنج ، وهي : يافا وضاحيتها ، وطرابلس وأنطاكية وعكة ، وحيفا وقيسارية وأرسوف ، وتظل سائر البلاد تحت سلطان العرب ماعدا عسقلان التي يجب أن تمسي خرابا على أن يدفع صلاح الدين للفرنجة ماأنفقوه من أجل إعادة

بنائها ، وافسح المجال أمام جماهير الفرنجة لزيارة القدس ، وقد غالى صلاح الدين في إكرام هؤلاء الزوار وأجزل لهم العطاء كما قدم لهم خيولا ليركبوها ، ويقال ان ملك الانكليز بعث الى صلاح الدين يقول ان كل فرنجي لايحمل علامتي لاتسمح له أن يدخل بيت المقدس ، فاستفسر صلاح الدين من بعض العقلاء عن هذه العلامة ، فقيل له ان العبادة هي الدافع الأسمى الذي يحمل الفرنجة على المجيء الى بيت المقدس ، فاذا ماحجوا ورجعوا الى أوطانهم لم يعد لديهم مايحملهم على العودة الى المشرق ، وعليه اذا مااحتاج الملك العودة ثانية الى المشرق لايمكنه أن يلزمهم بمرافقته ، وعندما فهم صلاح الدين ذلك ، بعث للملك يقول : ان هؤلاء الناس هم غرباء لايحسن بي ان اضايقهم ، وأما أنت فبوسعك أن تمنعهم من المجيء الى هنا .

واثر احتلال الفرنجة لعكة قبضوا على زعيمين عربيين ، وهما ابن المشطوب ، وقرقوش الحاجب الرومي الأصل الذي بعثه صلاح الدين الى افريقية ، وفتح مدنا عدة ، ومن ثم رجع الى مصر حيث اشاد سورا مايزال يعرف باسمه الى اليوم،وقد عهد اليه فيما بعد بقيادة الجيش في عكا ، وقد طالبه الفرنجة بثمانية آلاف دينار للافراج عنه ، فقال لهم:كم دفع ابن المشطوب حتى أفرجتم عنه؟ فقالوا دفع ثلاثين الف دينار ، فقال :ليس من الانصاف أن يدفع هو ثلاثين الف وانا ثمانية آلاف ، فضحك الفرنج وقبضوا منه ثلاثين الف ،ولقرقوش حكايات طريفة مثل هذه ، من ذلك أن أحد الشعراء نظم فيه ديوانا تاما لم يظهره الا بعد ان توفي ذلك الشاعر .

وبعدما عقد الصلح بين العرب والفرنجة ذهب صلاح الدين الى بيروت ، حيث زاره البرنس بوهيموند صاحب انطاكية فغالى في اكرامه وضيافته ووشحه كما وشح الأعيان الأربعة عشر الذين حضروا معه حللا ملكية ، ومنحه نصف غلة انطاكية التي كان العرب قد احتلوها من قبل ، وقد أعجب صلاح الدين بمجيء البرنس

اليه بهذه الثقة وتلك الطمأنينة ، ولهذا بالغ في إكرامه وأجزل عطاءه وأحسن توديعه ، ومـن ثـم رحـل صـلاح الدين عن بيروت الى دمشق .

أما ملك انكلترا فقـد استعمل على عكا ابـن اختـه القمص هنري ، ومن ثم عاد الى وطنه ويظـن انه مـات قبـل ان يصـل اليه (٢٥)

وفاة السلطان قلج ارسلان

في آب مـن سـنة ١٥٠٣ لليونان ، ١١٩٢ م تـوفي في قـونية السلطان قلج أرسلان الذي كان يتحلى بشجاعة وذكاء تمـكن بهمـا من طرد اليونان من عدة مواضع ، وعندما تقدمت بـه السـن قسـم مملكتـه على ابنائه ، ويبـدو أن هؤلاء الأبناء لم يكونوا يبـرون بأبيهم ، فقد كان اذا حضر عند أحدهم للغذاء ـ مثلا ـ ملة فاضطر للتحول الى ابن آخر ، الى أن زار ابنه صاحب مدينة بـروغلو غياث الدين كيخسرو فرحب به وأحسـن وفـادته ، ثـم جيش جيوشـه واصطحب اباه وتوجه الاثنان الى قونية فانتزعها مـن اخيه قـطب الدين ،ثم سارا الى أقصر حيث مرض الأب الشيخ هناك فأعاده ابنه كيخسرو الى قـونية وتـوفي هناك وكانت مثـواه الأخير ، وبقـي كيخسرو متوليا أمر قونية ، الى ان اخرجه منها أخوه ركن الدين ، وسنوضح ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى ، والجدير بالذكر ان مدة حكم السلطان قلج أرسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سـليمان ابن قتلمش بن يبغو بن سلجوق بن دقاق قد استمرت ثمانية وثلاثين عاما وقد كان أبا لاثني عشر ملكا (٢٦)

- ٢٣٨٠ -

وفاة صلاح الدين

وفي هذه الآونة ابتلي صلاح الدين بحمى شديدة مات على اثـرها في دمشـــق ليلة الأربعـــــاء ٢٧ صـــــفر مـــــن سنة ٥٨٩ للعرب (٤ آذار ١١٩٣ م) وقد خلف سـبعة عشر ولدا بين ذكر وانثى ، وقد كان جوادا معطاء ، ولهـذا مـات ولم يكن في خزانته سوى دينار وستة وثلاثين فلسا ، وقد كان كرمه من عوامـل نجاحه الاساسية في إدارة شـؤون البـلاد ، ويحـكى انه لما احتـل دمشق ووضع امامه مافي خزانتها من الدنانير والدراهم ، أوعز الى ابن المقدم ان يعطي كل واحد من الزعمـاء والفـرسان والعبيد حفنة من هذه الأموال ، فصار ابن المقدم لايمـلأ حفنتـه جيدا ، فنهـره وقال : املأ حفنتك ، فضحك ابن المقـدم ولما سـأله عن سـبب ذلك قال : أذكر ان نور الدين كان يوما في مكانك واحضرت له علبة مـن جيد الزبيب ، فقال لي وزع بحفنتك على الاعيان ، ولما لاحـظ اني املأ حفنتـي جيدا ، همس قـائلا : ان وزعت هـكذا فلن يكفـي الجميع ، فضحك صلاح الدين وقال:ان البخـل لايوائم الملوك ، بـل يوائم التجار ولن توزع بعد الآن بيد واحدة ، بل بكلتا يديك ، وقـد قال أحد الحاضرين ان الحفنة التي اصابته كانت مـائة وخمسـين دينارا .

ومما يحكى عن صلاح الدين أنه بينما كان يحاصر عكا ركب يوما مع قاضي المعسـكر واذ بيهـودي يقـول اني أتـظلم الى الشرع العربي ، فسئل عن خصمه وعمن أكل حقه قـال ان خصـمي هـو السلطان ، لأن عبيده تعدوا علي ، فلم يغضـب صـلاح الدين بـل استدعى هذا اليهودي وأجلسه الى جانبه ، فقال اليهودي أنا تاجر من دمشق أتيت من الاسكندرية ومعي عشرين حمـلا مـن السـكر وعندما حللت في مرفأ عكا ، نهب عبيدك مـابحوزتي مـن السـكر وأخذوه الى الخزانة بـدعوى انني كافـر ومـالي يجـب ان يكون للسلطان ، وعندما تبين صلاح الدين صدق ما قـاله اليهـودي أوعز الى خزنته ، فدفعوا الى اليهودي ثمن سكره .

ومما يحكى عن صلاح الدين ايضـا انه كان يومـا جـالسا مـع الزعماء ، وكان العبيد يلعبـون على مقـربة منه ، فـرمى أحـدهم صاحبه بحذاء فسقط قرب ركبة صلاح الدين ، فالتفت الى الجـانب الآخر وشرع يحدث جليسه موهما بأنه لم ير ماحدث ، ويحكى ايضا أنه عطش يوما فطلب ماء فجعل العبيد كل منهم يأمر صـاحبه بـأن يحضر الماء دون أن يأتوا بشيء ، فـطلب صـلاح الدين الماء ثـانية وثـالثة ورابعـة وخـامسة الى ان أحضر له الماء ، فشرب بـدون تذمر ، ودخل يوما الحمام فعطش فطلب مـاء بـاردا فعندمـا أتـي تساقطت قطرات منه على جسمه فارتعدت فرائصه لما كان بـه مـن مرض ، فرفض ان يشرب فازداد عطشـه فـاضطر ان يطلب ثـانية وعندما أتي بـالماء اندلق الماء كله على جسـمه فـارتعد ارتعـادا شديدا ، ثم قال للخادم : هل تنوي ان تقتلني ، ولم يزد .

وقد سر بكتمر صـاحب خـلاط بمـوت صـلاح الدين سرورا بـالغا ، واعد جنده ليغير على ميافـارقين ، فـوثب عليه صـهره هزارديناري ، عبد شاه أرمن وقتله وحل محله ، ورعى ولده محمدا الصغير رعاية الأب لولده (٢٧)

وممن ماتوا في هذا العام سـنان امـام الاسـماعيلية (شـيخ الجبل) في مصيات ، وقام مقامه ابنه الناصر الفارسي ، وقـد كان سنان هذا مهيبا لدى الملوك العرب والفرنجة ، فقد صـنع سـكاكين عدة صك على كل واحدة منها اسم أحد الملوك ، وكان على من تهدى اليه إحدى هذه السكاكين ، ان ينجز مايطلبه منه سـنان ولو كلفـه ذلك حياته ، وقد نهـل هـذا الزعيم الاسـماعيلي مـن جميع العلوم ، واعتنق مبـدأ تناسـخ الأرواح الذي ينسـب الى افلاطون ، وقد علم اتباعه هذا المبدأ ، ولهذا كانوا لايبالون بـالموت ظنا منهم أنهم سيبقون أحياء بعد أن يموتوا ، وقد اختفى سـنان في حياته غيرمرة ، وكان يشاع في كل مرة أنه قد مات ، ولكنه مـايلبث ان يظهر ثانية ، وهذا ماجعل اتباعه يعتقـدون أنه حـي يرزق بعـد موته .

وفي ١٥٠٤ لليونان (١١٩٣ م) تمكن لاون صاحب قيليقية من خداع البرنس بوهيموند صاحب انطاكية ، واعتقله وسبب ذلك ان بغراس كانت بيد لاون ، فعندما تركها العرب استعادها لاون وأوعز الى واليها الأرمني أن يسر الى البرنس أنه يرغب في الايقاع بمولاه لاون ، كما يرغب في أن يتخلى له - اي للبرنس - عن القلعة ويعود الى انطاكية للاقامة هناك ، فبعث هذا الحاكم بذلك الى البرنس ووعده بأنه سيسلمه قلعة بغراس ، فانطلت الحيلة على البرنس وصدق كلام الحاكم ، فسار هو وامرأته وابنه متظاهرين بأنهم يصطادون،وعندما بلغوا عين ماء بظاهر البلد دلى لهم الحاكم طعاما وخمرا ، ونصحهم الا يدخلوا القلعة نهارا وأن عليهم الانتظار الى أن يخيم الظلام ، فيقبلوا على القلعة حيث يجدوا أبوابها مفتوحة فيدخلوها سرا ، كما نصحهم بألا يصطحبوا معهم شيئا من الفرسان والأسلحة ، لئلا يتنبه حراس القلعة فيفتضح الأمر ، فانطلت على البرنس الحيلة كلها ، فترك عين الماء التي كان يخيم عندها موهما بأنه يقصد أنطاكية ، حتى اذا جن الليل ، ارتد هو وابنه وزوجته وخدمه ، الى باب القلعة ، فوجدوه مشرعا فولجوه بسرور بالغ حيث استقبلهم الحاكم قائلا : لتخلدوا الآن الى الراحة وفي صباح الغد نستدعي فرسانكم شيئا فشيئا ونقبض على حراس القلعة ، فأطمأن البرنس وصحبه الى كلام الحاكم الذي مالبث أن أبلغ لاون ، فأقبل مع عدد من الأرمن فاعتقل البرنس وامرأته وابنه وأوثقهم بالقيود ، ونكل بالبرنس تنكيلا شديدا انتقاما منه لانه سلف ونكل بروفين اخي لاون ، وبقي البرنس معتقلا لدى لاون الى أن قدم هنري ابن أخت ملك انكلترا فافرج عنه بالوعد والوعيد ، وقويت شوكة لاون ، بعد أن مات السلطان قلج ارسلان ، فقد بسط نفوذه على اثنين وسبعين حصنا ، بعضها كان بحوزة الاتراك وبعضها كان بحوزة اليونان ، وكان منتصرا في معاركه كلها .

وما أن بلغ نبأ وفاة صلاح الدين الى صاحب الموصل عز الدين بدأت الاحلام تراوده باحتلال سورية ، فاستنفر قوى اخيه عماد

الدين صاحب سنجار ونصيبين ، وقوى ابن اخيه صاحب الجزيرة ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربيل وهياهم جميعا للاستيلاء على مابحوزة آل صلاح الدين من البلاد ، ولكن الملك الافضل ، وهو الابن الأكبر لصلاح الدين ، والذي خلف أباه في ولاية دمشق استقدم عمه العادل الذي كان في دمشق ، وأرغمه على قيادة الجيش ، ومن ثم راح يجيش جيوش نويه من الولاة ، فقد استدعى أخاه الملك العزيز من مصر ، وأخاه الظاهر من حلب ، وابن عمه المنصور صاحب حماة ، وابن عم أبيه الملك المجاهد بن ناصر الدين منحمص ، ثم جعل جيوش هؤلاء جميعا جيشا واحدا ، ووجهه بقيادة عمه العادل الى مرج الريحان بضواحي الرها ، فما أن علم بذلك عماد الدين صاحب الموصل حتى توجه بجيوشه الى نصيبين حيث أصيب باسهال حمله على العودة الى بلاده ، ومالبث ان توفي هناك ، وقد كان هذا الحاكم طيب الطوية خير النزعة ، كريم اليد واللسان ، وقد حل محله في ولاية الموصل ابنه نور الدين ارسلان شاه الذي كان وصيه مجاهد الدين قايماز(٢٨)

وفي عام ٥٩٠ للعرب ، ١٥٠٤ يونانية (١١٩٣م) ، توجه علاء الدين تكش خوارزمشاه بجيشه الى خراسان فاشتبك مع طغرل قرب الري ، فقتل طغرل وقطع رأسه وارسله الى بغداد حيث رفع على قصبة ووضع بباب قصر الخليفة ، وملك خوارزمشاه همذان وسائر البلدان وعين عليها نائبا يدعى قتلغ اينانج بن البهلوان ، سلطان همذان السالف ، فاستحضر خوارزمشاه عندما هرب طغرل من سجنه ، واخذ منه مقاليد الحكم في البلاد ، وقد كان طغرل هذا اخر حكام الدولة السلجوقية في خراسان ، وظلت دولتهم في بلاد الروم ، وهو ابن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ارسلان بن داود بك بن ميخائيل بن سلجوق بن تقاق .

وفي هذا العام زحف صاحب مصر الملك العزيز الى دمشق ليخرج اخاه الملك الافضل منها ، فتدخل عمهما الملك العادل فأصلح بينهما بأن تظل القدس للعزيز واللاذقية وجبلة لصاحب حلب الملك

الظاهر ، وبعض قرى مصر للملك العادل ، ومن ثم عقدوا هدنة فيما بينهم وعاد كل منهم الى بلده .

وفي عام ٥٩١ للعرب ١٥٠٥ يونانية (١١٩٤ م) وجه الخليفة الناصر جيوشا بامرة سيف الدين طغرل أحد قادته الى اصفهان ، ففتح الاهالي له أبواب المدينة لبغضهم الشديد للخوارزميين الطغاة الذين قهروهم .

وفي هذا العام ايضا استعد صاحب مصر العزيز للقدوم الى دمشق وانتزاعها من أخيه الأفضل ، ولما علم الأفضل توجه بنفسه الى قلعة جعبر يطلب نجدة العادل وأخيه الظاهر ، فذهبا معه الى دمشق في حين كان العزيز قد قدم اليها ، ثم بعثوا الى العادل والأفضل يقولون هلم الينا نسلمكما اياه ، فأحس العزيز بمكيدة تعد له ، فأسرع بالعودة الى مصر فلحقه الأفضل والعادل وبلغا بلبيس ، وكان بمقدورهما أن يحتلا مصر لولا ان العادل طلب الى الأفضل أن يتريث ، وأصلح بينهما ، فعاد الأفضل الى دمشق وتولى القدس ايضا ، وأما العادل فقد أقام في مصر يسوس مملكة العزيز .

وفي عام ٥٩٢ للعرب (١١٩٥ م) زحف الملك العادل والملك العزيز من مصر الى دمشق ليأخذاها من الملك الأفضل فتأهب الأفضل لمواجهتهما ، ووزع قواده على الأسوار والأبراج والابواب ، فخانه حارس الباب الشرقي واسمه عز الدين الحمصي ،وادخل العادل الى دمشق ، فنزل في دار عمه أسد الدين شيركوه ، ثم تبعه الملك العزيز ، وأخذا دمشق من الأفضل ، ثم ولياه امر قلعة صرخد ، فذهب اليها ، وأما الملك العزيز ، فقد رجع الى مصر وبقي العادل في دمشق كأنه نائب يقوم مقام العزيز وكانت السياسة كلها بيده والاسم للملك العزيز وقد بعث الملك الظاهر مرارا من حلب الى الملك الأفضل يقول له : لاتصدق العادل ، فلن يجديك نفعا ، وأنا أعرفه أكثر منك ، فأنا ابن أخيه وصهره ، ولو كان

يشفق علينا لعاملني افضل مــن معــاملته لك ، فــأجابه الأفضـــل قائلا : لقد ساء ظنك فيمن هــو بمقــام ابينا ، ومــن لا يمــكن أن يؤذينا .

وفي العام ٥٩٣ للعرب ١٥٠٧ لليونان (١١٩٦ م) هاجم الملك العادل الفرنج زاعما أن الصلح ، قد اصبح لاغيا بوفاة صلاح الدين وملك انكلترا ، ولهذا زحــف الى يافــا ودخلهــا عنوة ، فــاستنجد الفرنجة الذين كانوا في الساحل بأصحابهم صارخين انجــدونا والا احتل العرب كل السواحل ، فأنجدوهم بجيوش جرارة يقودها رجل يدعى(شذسلير) (٢٨) وهو مــن رجــال الكهنة فحــاصرت الجيوش تبنين طويلا وكادت أن تقتحمهــا لولا ان ذاع خبــر ســقوط هنري صاحب عكا من مكان مرتفع وموته ، ولهذا توقفت الجيوش عن القتال ، لأنه لم يبق لهم ملك ، فاستحضروا ملك قبــرص وزفــوا له زوجة هنري ، وعندما علم الملك العادل بذلك بعث الى الفرنجة يرغب في مصالحتهم ، فاصطلح الطــرفان على أن تــكون بيروت للفــرنج وتبنين للعرب ، ولهذا غادرها الفرنجة وذهبوا .

وفاة ملكشاه وطغتكين بن أيوب وعماد الدين زنكي

وفي هذا العام (١١٩٦ م)مات ملكشــاه بــن خــوارزمشاه في نيسابور ، فحل محله قطب الدين محمــد علمــا ان المملكة بحســب وصية ابيه كان يجب ان تؤول الى ابنه هندوخان ، كما مات في هــذا العام سيف دين الاسلام طغتــكين بــن أيوب أخــو صــــلاح الدين ، صاحب بلاد اليمن ، فخلفه ابنه اسماعيل ، ولكن اسماعيل هذا لم يكن مؤدبا ، فثار عليه الزعماء وقتلوه .

وفي عام ٥٩٤ للعرب (١١٩٧ م) مات عماد الدين بن زنكي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار ونصيبين والرقة فخلفه ابنه قطب الدين محمد ، وكان وصي محمد هذا عبد ابيه مجاهد الدين يقش .

هجوم نور الدين ارسلان على نصيبين

وفي هذا العام سار نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل الى نصيبين واخذها من ابن عمه قطب الدين محمد ، ذلك أن محمدا كان قد تمادى على قرى مابين النهرين على حدود الموصل فعمل نور الدين على اخراج محمد منها فأبى ، فوجه اليه جيوشا طردته الى حران ، فاستعان محمد بالعادل ، وأما نور الدين ، فبعد ان مكث أياما في نصيبين التي كان قد انتزعها حديثا من ابن عمه محمد فقد استشرى المرض بجنده ، فمات ستة من أشهر زعماء الموصل ، منهم حاجب نور الدين ، مجاهد الدين قايماز ، مما حمل نور الدين على العودة الى الموصل ، فارتد قطب الدين واستعاد نصيبين .

خوارزمشاه ينتزع بخارى من الصينيين

وفي هذا العام زحف خوارزمشاه الى بخارى ، وأخذها من الصينيين الذين كان العرب البخاريون ينعمون معهم بدفء المحبة والسلام على اختلاف اديانهم ، مما دفعهم الى الوقوف في وجه خوارزمشاه ، فقد تصدوا له على الأسوار وقاتلوه أشد مايكون القتال ، والبسوا كلبا ثوب خوارزمشاه ، وطرحوه بين الأهالي وهم يقولون لهم هذا هو ملككم ، ومع ذلك احسن خوارزمشاه معاملتهم بعد أن دخل بخارى ، فقد صفح عنهم وعاهدهم وأعطاهم ذهبا .

الملك العادل يستولي على ماردين

وفي هذا العام ايضا استولى الملك العادل على ماردين بعد أن قاتل صاحبها حسام الدين قتالا شديدا ، وقد كان حسام الدين هذا

فتى وكان نظام الدين بن يقش وصيا عليه ، وقد خدع أهالي ماردين بالملك العادل ، فسلموه المدينة ، فما ان دخلها جنده حتى سلبوا مافيها وبطشوا بأهلها وحاصروا قلعتها .

وفاة العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر وتولي أخيه الأفضل .

وفي عام ٥٩٥ للعرب (١١٩٨ م) توفي صاحب مصر الملك العزيز ابن صلاح الدين ، فقد سقط عن حصانه بينما كان يطارد ذئبا في رحلة صيد ، فألمت به حمى شديدة وعاد الى مصر فمات فيها ، فاختلف الزعماء فيمن سيخلفه من ذويه ، فقد رأى بعضهم أن يخلفه ابنه الصغير الملك المنصور ، في حين رأى آخرون أن يخلفه الملك العادل ، ورأى غيرهم أن يكون الملك الافضل خلفا للملك العزيز ، وقد رجحت كفة هؤلاء ، فاستدعي الملك الأفضل من صرخد وجعل ملكا ، ففر أعداؤه في مصر الى بيت المقدس واحتلوها ، وأما الملك الأفضل ، فقد جيش جيوش مصر وسار بها الى دمشق يريد احتلالها ، فأعلم الدماشقة الملك العادل الذي كان بماردين بذلك ، فترك فيها ابنه الملك الكامل محمدا ، وتوجه هو الى دمشق التي كان الملك الأفضل قد سبقه اليها ، ولكن جيوشه انقسمت على أنفسها فارتد الى مصر دون ان يفيد شيئا من مجيئه الى دمشق .

وأما الملك الكامل بن الملك العادل ، فقد بقي في ماردين يضغط على من كان في قلعتها الى ان نفدت ذخائرهم ، واستشرت بهم الأمراض ، فرأى نظام الدين الذي كان وصيا على الطفل حسام الدين ان يسلم هذه القلعة ، وهذا ماأثار صاحب الموصل نور الدين وولدي عمه صاحب سنجار وصاحب الجزيرة ، وقال بعضهم لبعض . اذا ماتمكن أتباع العادل من ماردين ، فسيتمكنون من احتلال بلادنا كلها ثم اتحدوا وزحفوا جميعا الى دنيسر (٢٩) ، فنزل الملك الكامل الى البرية حيث لاقاه المواصلة ، ففر هو واتباعه الى ماردين ، فوجدوا أن حماة قلعتها قد نزلوا عنها الى المدينة ، فنهبوا

خيامه ، وهذا ماحمل الكامل علي أن يعود في تلك الليلة الى حـران ومن ثم تحول الى دمشق حيث ابوه الملك العـادل ، ويروى بعضـهم أنه لو لم ينزل أصحاب الكامل عن الجبل الى البرية ، لصـعب على المواصـلة ان يخـرجوهم مـن مـاردين ، ولما كادوا يحتلوا القلعة ، ولكن الله ــ جلت حكمته ــ يفعل مايشاء .

الملك العادل يرحل إلى مصر

في سنة ٥٩٦ للعرب (١١٩٩ م) جمـع الملك العـادل جيوشـه وسار باتجاه مصر ، وعلم الأفضل بذلك فهيأ جيوشه واستعد لقتال عمه ولكنه هزم واضطر للعودة إلى القاهرة ليلا ، مما جعل العـادل يتابع طريقه إلى القاهرة ويحاصرها بقصـد اخـذها وهنا اقتـرح الأقطاب على الأفضل ان يلجأ إلى الهـدنة ويطلب المصـالحة لعـدم مقدرته على القتال ، وقد اقتنع الأفضل بهذا الرأي ، ورضي أن تؤول إليه ولاية دمشق أو الرها وحران بدلا من مصر ، إلا أن الملك العادل رفض طلبه هذا ، ولكنه وافق على تـوليته على ميافـارقين وحـاني وجبل جور وأقسم كل منهما للآخر وتوجه الأفضل إلى صرخد وبعث أتباعه ليتسلموا ميافارقين ، ولكنه فوجيء بابن الملك العـادل نجـم الدين أيوب يرفض تسليمه الولاية فشكاه إلى والده الذي أجابه بأن ابنه متمرد عليه ، وعلم الأفضل أن هذا اتفاق بين العـادل وابنه فلم يفكر بإرسال وسيط بينه وبين العادل .

وفاة خوارزمشاه صاحب خوارزم

وفي السنة نفسها توفي خوارزمشاه تكش بن الب أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان كالري وجزء من بلاد الجبل ، فتولى مكانه محمد بن قطب الدين الذي سمي علاء الدين باسم ابيه .

وفي السنة نفسها مات القاضي الفاضل الفقيه المصري وحيد عصره في مصر .

إلغاء العادل الخطبةللملك المنصور

في عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م قام العادل بإلغاء الخطبة للملك المنصور الفتى ابن الملك العزيز مما أزعج الاقطاب ، وجعلهم يكتبون إلى الملك الأفضل في صرخد وإلى أخيه الملك الظاهر في حلب يطلبون منهما القدوم إلى دمشق وأبدوا استعدادهم لاعتقال العادل إذا مابرز إليهما،ولكن الأنباء تسربت إلى العادل فأرسل إلى ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى الذي كان في دمشق وطلب منه أن يسرع إلى صرخد لحبس الأفضل في قلعتها ، فهرب الأفضل إلى أخيه الظاهر في حلب وتوجها معا إلى منبج واحتلاها ، ثم تابعا فاحتلا قلعة نجم ثم سارا إلى حماة حيث قدم لهما ناصر الدين بن تقي الدين ثلاثين الف دينار صوري فتركاها وتوجها إلى دمشق عن طريق بعلبك ، واتفق الاثنان على أنهما إذا احتلا دمشق فإنها تبقى للأفضل إلى أن يسترد مصر فعندها تصبح مصر للأفضل ويرد دمشق للظاهر ، إلا أن الخلاف وقع بينهما عندما احتلا دمشق فقد طلب الظاهر أن تكون دمشق له على أن يرسل مع أخيه الأفضل جنوده لاحتلال مصر ولكن الأفضل قال له : إن أمي وأهلي ضيوف في حمص ، ولذا أرغب وقد أتيت بهم من صرخد إلى حمص وأعطيتها إلى زين الدين قراجا عبد أبي حتى يساندني فأرجو أن تترك لي دمشق لتمكث فيها النساء ، وتدافع أنت عنهن حتى تستولي على مصر ، ولكن الظاهر ظل مصرا على رأيه حتى علم الناس بذلك فانصرف قسم من زعمائهم إلى العادل وقسم آخر إلى دمشق إلا أن الأخوين اتفقا بعد ذلك ، وطلبا الصلح من عمهما العادل ، وقد استجاب العادل لهما ومنح الملك الظاهر منبج وأفامية وكفرطاب وبعض المعرة إضافة إلى حلب ، وأعطى الملك الأفضل سميساط

وسروج ورأس العين وجملين ، ودخل الملك العادل إلى دمشق وانصرف كل واحد إلى شأنه .

محاولة انتزاع مابين النهرين من آل العادل

وفي الوقت الذي كان فيه الأفضل والظاهر يحاصران دمشق قام نور الدين بجمع جيوشه واصطحب ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار وصاحب ماردين ، وتوجهوا جميعا ليستردوا مابين النهرين من آل العادل ، ولكن المرض تفشى بينهم عندما وصلوا إلى رأس العين وكان ذلك في الصيف ، وقد أرسل الملك الفائز بن العادل الذي كان في حران إلى نور الدين يطلب الهدنة ، فوافق الأخير ولاسيما أن نبأ اتفاق الأفضل والظاهر والعادل قد وصل إليه مع نبأ المرض وهكذا عاد نور الدين إلى الموصل ، وعاد كل واحد إلى مركزه •

ركن الدين بن قلج أرسلان يأخذ ملطيه

وفي ذلك العام كان معز الدين قيصر شاه واليا على ملطيه ، فزحف أخوه ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان وحاصرها واستطاع أخذها منه في حزيران ١٥١١ لليونان (١٢٠٠ م) ، وفر الملك معز الدين يطلب العون من حميه الملك العادل الذي بعثه إلى الرها ومنحه مساعدة ، فيما كان ركن الدين يتابع طريقه من ملطيه إلى ارضروم التي كان يتولاها ابن الملك محمد بن صلتق وهو من الأسرة المالكة في المدينة،وقد خرج إلى ركن الدين مظهرا الود والطاعة إلا أن ركن الدين لم يعبأ بهذا بل سجنه ودخل المدينة ، ثم أخذ قونية من غياث الدين كيخسرو أخيه . وقد فر غياث إلى سورية وقصد الملك الظاهر صاحب حلب وأخبره بما حدث طالبا نجدته ، ولكنه قوبل بالرفض فترك حلب وجعل يتنقل بين البلاد حتى وصل إلى قسطنطينية التي أكرمه ملكها وزوجه إحدى بنات بطارقته

العظام ، وبقي غياث هناك حتى وصل الفرنج إلى هناك حيث غادرها غياث يريد حميه وكان صاحب إحدى القلاع فرحب به وقال له : يكفيني هذا البلد ويكفيك إلى أن يقضي الله امره ، واقام هناك إلى حين وفاة أخيه .

كوارث طبيعية

وفي تلك السنة قلت مياه النيل ولم يفض فحدث ارتفاع شديد في الاسعار ، واكل الناس في مصر جثث الحيوانات والبشر ، وانتشر الطاعون ، ثم حدث زلزال هدم الأسوار والأبنية في دمشق وحمص وحماه وطرابلس وصور وعكا والسامرة ، واصاب الزلزال بلاد الروم إلا انه لم يكن قويا في بلاد المشرق .

خوارزمشاه محمد بن تكش ينتزع مرو ونيسابور

سار خوارزمشاه محمد بن تكش سنة ٥٩٨ للعرب (١٢٠١ م) إلى خراسان ، وانتزع مرو ونيسابور من غياث الدين واخيه شهاب الدين فقد كانت لهما،ولما رجع إلى خوارزم بسبب موت أبيه أخذهما غياث الدين فبعث إليه قائلا : كنت اظن انك تساعدني وتحارب الصين معي ، ولكنك ابيت إلا أن تضرني ، ولكن غياث الدين لم يعد إليه المدينتين مما اضطره للسير إليه وأخذهما عنوة ولم يستطع غياث الدين أن يقف في وجهه بسبب داء النقرس الذي أصابه . وكان أخوه شهاب الدين يقاتل الهنود يومئذ .

محاولة الملك العادل الاستيلاء على ماردين

في سنة ٥٩٩ للعرب (١٢٢٠ م) ارسل الملك العادل ابو بكر بن ايوب حاكم مصر ودمشق جيشا كبيرا مع ابنه الملك الأشرف موسى

إلى ماردين وهناك حاصر هذا الجيش المدينة ، وسيطر على بعض المناطق والقرى ، فتدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب بين الطرفين وعقد هدنة تقضي بأن يدفع صاحب ماردين إلى الملك العادل مائة وخمسين ألف دينار ، قيمة كل دينار منها ستة دراهم فضة وأن يدعو له على المنابر ويكتب اسمه على الدراهم والدنانير ، وقد تسلم الملك الظاهر عشرين ألف دينار من ذلك المبلغ وأخذ منه قرية قرادي في شبختان وتركه وانصرف .

وأثناء الأحداث السالفة كان التركمان يعيثون في البلاد فسادا ويسلبون وينهبون حتى صار الناس يخشون السفر دون حماية الجند .

العادل ينتزع سروج ورأس العين

وفي تلك السنة انتزع العادل من أخيه الأفضل سروج ورأس العين وجملين ، وانتزع منه أخوه الظاهر صاحب حلب قلعة نجم ، ولم يتبق له إلا سميساط ، ولما وجد الأفضل أن عمه وأخاه قد ظلماه راسل ركن الدين سليمان بن الملك قلج أرسلان صاحب ملطية وقونية وأبدى له إذعانه واستسلامه له وخطب له ، وسك الدراهم باسمه وأصبح بمثابة واحد من الأمراء في بلاد الروم ، ثم أرسل إلى أمه فذهبت إلى الملك العادل ورجته أن يرد لابنها ماأخذه من يده ، إلا أن العادل رفض رجاءها ليلقى آل صلاح الدين العقاب نفسه الذي عوقب به آل أتابك عندما بعث أمه وابنة عمه فرفض توسلهما .

وفي هذه السنة أرغم الملك العادل الملك المنصور ابن الملك العزيز على ترك مصر وجعل إقامته في الرها إلى جانب أمه وأخوته وذلك خشية من أن يبايعه المصريون .

انتزاع الفرنج القسطنطنية من اليونان

في نيسان سنة ٦٠٠ للعرب (١٥١٥ لليونان / ١٢٠٤ م) أخذ الفرنج القسطنطينية من اليونان وألغوا دولتهم منها ، وكان ملك اليونان قد تزوج أخت الملك فرنسيس ورزق منها طفلا ، وكان لملك اليونان أخ تمرد عليه وفقأ عينه وأماته في السجن ، فهرب ابن الملك المقتول وقصد خاله الملك فرنسيس ، فتحمس وحشد جنوده ، وسار الى محاصرة القسطنطينية ، وكان الاهالي حاقدين على ملكهم فأشعلوا المدينة بالنار ، وساعدوا الافرنج على دخول المدينة والقضاء على الملك الظالم ، ومن ثم سلموا عرش المملكة للفتى شكليا فيما تولوا الأمر عمليا ، وراحوا يرهقون الأهالي بالضرائب الباهظة ، وسلبوا الكنائس الأمتعة والصلبان والأناجيل والمذهبات ..

ولما رأى الأهالي القسوة والنهب ، هبوا على ملكهم وقتلوه وطردوا الفرنج وأغلقوا الأبواب في وجههم ، واستمر الفرنج في قتالهم على الأسوار حتى مل الأهالي وضعفوا فاستنجدوا بالسلطان ركن الدين صاحب قونية الذي لم يستطع مساعدتهم مما أدى الى ثورة التجار الفرنج وعددهم نحو ثلاثين ألفا ، وقاموا بإضرام النار في المدينة حتى أحرقت ربعها ، ثم فتحوا ابوابها للفرنج الذين قتلوا أعداد كبيرة من اليونان ولاذ العديد بكنيسة اياصوفيا حتى اضطر الرهبان والأساقفة للخروج وهم يحملون الصلبان والأناجيل يرجون منهم أن يكفوا اذاهم ، ولكن الفرنج لم يهتموا بما سمعوه منهم وتابعوا فتكهم وقتلوا الكهنة وسرقوا الكنيسة وكان للفرنجة ثلاثة قواد هم : دوقس البنادقة الضرير ، وقد ركبوا في سفنه والثاني المركيس مقدم الافرنسيس وثالثهم غوندفلند ، وقد اختير الأخير لملك قسطنطينية بالقرعة فيما أخذ الأول أقريطش ورودس وغيرهما ، وتولى المركيس البلاد الواقعة شرقي الخليج المار في بنطش مثل لوذقية ونيقية وفيلادلفيا

وغيرها الا انها لم تبـق له فقـد تغلب عليه الاشـكري الامبـراطور اليوناني واستطاع انتزاعها منه.

محاولة نور الدين شاه الاستيلاء على نصيبين

كان الاتفاق سائدا بين نور الدين شاه حاكم الموصل وقطب الدين محمد بن زنكي ابن عمه حاكم سنجار ، إلا أن العادل أوقـع الفتنة بينهما ، فهاجم نور الدين نصيبين وهي لابن عمه ، وكادت تقـع في يده لولا الخبر الذي جاءه من الموصل والذي مفـاده أن مـظفر الدين كوكبري صاحب إربيل زحف الى نينوى وعاث فيهـا فسـادا ، ولذا عاد نور الدين الى مدينة بلد ، ولكن نمي اليه أن مـظفر الدين رجـع الى اربيل فسار هو الى تل أعفر ، وأخذه عنوة ويومهـا كان الملك الاشرف في حران فجـاء الى رأس العين واتفـق مـع مـظفر الدين صـاحب اربيل ومـع حـاكم آمـد وحصن كيفا ، ومع حاكم الجزيرة ليمنعوا صـاحب الموصـل مـن احتلال شيء من صاحب سنجار وقد اجتمعوا في نصيبين ثم زحفـوا الى باعر بايا ، وتوجه نور الدين الى كفر زمار ثم الى بوشذه وأقام مع جنده حتى يسـتعيدوا قـوتهم ، فتـوجه اليهـم الأشرف بجنوده ، وقاتلوهم وخسر نور الدين المعركة وهرب مع أربعـة مـن رجاله الى الموصل ، أما خصـومه فقـد زحفـوا الى ضـواحيها فاستأسروا وأحرقوا وافسدوا ولا سيما في بلد.

مصادفة غريبة

وسمعت إحدى النساء ـ وكانت تطبخ ـ بما يحدث فخشيت من السبي وكان في معصمها ذهب فأخفته تحت الموقـد ، فـدخل أحـد الفرسان ونزلها يفتش عن طعام فوجد بيضة فشـواها على الموقـد وعندما حاول تقليب النار وجد ذلك الذهب

- ٢٣٩٥ -

دخول الفرنج الى حماة

بعد احتلال الفرنج قسطنطينة استجمعوا قوتهم ، وساروا الى قونيه وسبوا حتى الأردن وقضوا على كثير من العرب ، ودخلوا حماة فخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب ولكنه هزم وفر الى حماة ، وخرج أهل حماه لقتال الفرنج فهلكوا جميعا ، فبعث الملك العادل ومنح الفرنج الناصرة وبقية البلدان التى كانت اموالها تقسم بين العرب والفرنج وعقدت الهدنة بين الطرفين.

استرداد أنقرة

وفي هذه السنة استرد السلطان ركن الدين حكم ملطية وقونية ومدينة انقرة من اخيه بعد حصار دام سنين ، ونفى اخاه وأولاده الى قلعة خارجية ، ولكنه أختبأ لهم في الطريق مع رجاله وفتك بهم ، بيد انه اصيب بداء المفاصل بعدها بخمسة ايام ومات ليخلفه ابنه قلج ارسلان الذي كان شابا.

وقد عرف ركن الدين بالدهاء والانتظام في أفعاله وميله الى رأي الفلاسفة الخارجين،ولكنه لم يظهر ذلك.

وفي تلك السنة حدث زلزال عنيف دمر سور مدينة صور وأبنية كثيرة في مصر وفلسطين وما بين النهرين والموصل وقبرص وصقلية.

أفعال خصوم نور الدين

وراح خصوم نور الدين يعيثون في الضواحي فسادا واسترجعوا تل أعفر ومنحوه لابن عمه وعقدوا الصلح ، وتشتت الجند.

- ٢٣٩٦ -

خلاف بين سلاجقة الروم

في سنة ٦٠١ للعرب(١٢٠٤ م) نشأ خلاف بين زعماء بلاد الروم ، وبعث أحُد أمراء اوج ببلاد التركمان المجاورة لليونان يطلب غياث الدين كيخسرو الذي سلف له وفر الى اليونان وجمع لأجل ذلك جيشا كبيرا وجهه الى قونيه ، فخرج أهلها وجندها اليهم وهزموهم ، وحار غياث الدين بأمره فلاذ بمدينة صغيرة مجاورة لقونية هي ابجرام ، ثم عطف عليه أهالي أقصرا فطردوا حاكمهم وولوه عليهم ، وكذلك فعل أهل قونيه فاعتقل قلج أرسلان ابن اخيه وخضعت له البلاد كافة ، فجاد عليه بذهب كثير وجعله يعود الى الرها ولم يبقه عنده.

وتوجه السلطان غياث الدين الى قيسارية ، وأتى الى زيارته الملك الأفضل ابن صلاح الدين صاحب سميساط ونظام الدين صاحب حصن زياد وخضعا له ، فشهره ذلك..

ناصر الدين والأشرف يستردان حصن زياد

وفي السنة نفسها توجه ناصر الدين محمود بن قرا أرسلان حاكم آمد الى الملك الأشرف طالبا منه أن يمده بالعون لاستعادة حصن زياد ، ولبى الأشرف هذه الدعوة وجهز جنودا من سورية والموصل وسنجار والجزيرة وسار واحتل المدينة وأخذ الجمعان يقاتلان في القلعة ، وحين ذلك طلب صاحب حصن زياد من السُلطان غياث الدين المعونة ، فأرسل اليه ستة آلاف فارس بقيادة الملك الأفضل صاحب سميساط ، وعلم الأشرف ناصر الدين بهذه المساعدة فغيروا جبهة القتال ، ودخلوا القلعة وعينوا فيها حراُسا.

- ٢٣٩٧ -

زحف الكرج الى أذربيجان

وفي عام ١٥١٦ لليونان (١٢٠٥ م) قام الكرج بـالزحف الى أذربيجان فبـطشوا بـأناس عديدن ، وغنمـوا كثيرا ، وبعـد ذالك ساروا الى خلاط وارضروم ، فسار صاحب خلاط ابن قلج ارسلان صاحب ارضروم واخذ جيشا من عنده ، وعاد لمقاتلة الكرج ، وقتـل في المعركة القائد الكرجي زكري الصغير ، وفـر أهـل امـكرج الى بلدهم.

حوادث طريفة

وفي تلك السنة أنجبت امرأة طفلا له رأسان وأربعة أرجل وأربعة ايد ومات في اليوم نفسه.

ودخل اثنان من العميان مسجدا في بغداد وقتلا أعمى ثالثا ليأخذا امواله ، وفي الصباح هما بالفرار الى الموصل فرآهما أحد الحراس فقال ممازحا : هذان الأعميان قتلا ذلك الأعمى لأنه لا يقتل الأعمـى إلا مثله ، فراح كل منهما يحلف أنه لم يقتل الرجل بل قتله صـاحبه فقبض عليهما الحارس واعترفا بفعلتهما بأن احدهما قد امسكه ثـم خنقه الثاني بحبل ، فأصدر الحاكم أمرا بقتلها.

أكراد مخربون

وفي سنة ٦٠٢ للعرب (١٢٠٥ م) ظهـر جمـاعة مـن الأكراد التيرهانية من جبـال حـاداي وأحـدثوا دمـارا كبيرا في تلك البلاد[1]، فلاقاهم العجم وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وهؤلاء الأكراد لم يسلموا بـل ظلوا على وتنيتهـم ، وكانوا ينكلون بـالمسلمين أشـد التنكيل ويقتلونهم ، وكان من عادة هؤلاء أنه إذا ما ولدت لهم فتـاة

وقف أبوها في باب منزله وصاح : من يخطب هذه الفتاة ، فإن خطبها أحد تركها حية وإلا قتلها ، ولهذا قل عدد نسائهم ، وربما كان ينكح المرأة الواحدة كل رجال البيت.

وإذا دخل عليها أحدهم جعل حذاءه خارجا على الباب حتى لا يدخل سواه ، حتى يخرج هو فيأذن للثاني بالدخول ، ويكون المولود ابنا لأكبرهم سنا.

احتلال أنطالية

وفي عام ٦٠٣ للعرب (١٢٠٦ م) زحف الكرج مرة ثانية الى خلاط ، ففعلوا فيها ما فعلوا من سبي وقتل وحرق ، وفي شهر شعبان احتل غياث الدين كيخسرو أنطالية التي على ساحل البحر ، بعد أن كان قد وجه اليها الجيوش في العام المنصرم ، فما كان من أهالي اليونان إلا أن استنجدوا بالفرنج في قبرص ، واستدعى السلطان جيوشه من المدينة ، وجعلهم في الجبال ، حتى إذا خرج من المدينة أحد قبضوا عليه ، وبقيت الحال على هذا النحو حتى سلمت المدينة الى السلطان ، أما اليونانيون والأتراك فقد اتفقوا معا وحاربوا الفرنج وانتزع السلطان القلعة وأسر من فيها من الفرنج ، كما احتل كوتاس أيضا.

تسليم مدينة خلاط

وفي العام نفسه قوي أمر سلطان خلاط محمد بن بكتمر فقضى على صهره هزار ديناري الذي قتل أباه وعاش في بذخ كبير منذ أن كان طفلا حتى كرهه الخلاطيون ، وثار عليه بلبان أحد عبيد شاه أرمن في منازكرد ، وبعث بعض الخلاطيين الى ناصر الدين أرتق ابن ايلغازي بن البي بن تمرتاش بن

ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين يحرضونه على ابن خال أبيه ويدعونه لاستلام المدينة ، فما كان منه إلا أن زحف بجيوش أتراك ومعديين وقد استعدوا للقتال ، ولكن الذي جرى أن بلبان أرسل الى صاحب ماردين يطلب منه ترك خلاط ليتدبر أمرها هو زاعما ان أهل خلاط ينفرون من المعديين ، وعندما لم يقبل بذلك هدده بلبان إذا لم يعد الى بلده ، ولكنه خاف بعد أن وجد جيوشه قليلة ، فعاد ليرى أن بلده قد غزاه الملك الأشرف ، وأقام الأشرف في دينسر وجمع منها أموالا طائلة ثم مالبث أن تركها وعاد الى حران.

محاولة الملك الأوحد احتلال خلاط

وقام بلبان بالزحف الى خلاط بعد أن حشد الجنود ، ولكنه لم يستطع احتلالها ، فجعل يعطي لأهل خلاط الوعود والمواثيق على انه لن يؤذي أحدا منهم ، حتى سلموه المدينة فقام بسجن ابن بكتمر في حصن من الحصون ، واستفحل أمره ، وفي هذه الأثناء احتل الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل قلعة موش ومدينتها ، وتوجه الى خلاط ، ولكن بلبان سد الثغور ، وقضى على عدد كبير من أعوانه ، وأفلت الأوحد وعادا الى بلده ميافارقين مع نفر من المصابين.

كيف تم الأمر للملك الأوحد

وقام الكرج باحتلال مدينة القرص بولاية خلاط في العام نفسه بعد أن قاموا بمحاصرتها عدة أعوام قاطعين عنها الذخيرة،وفي عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م طلب الملك الأوحد نجدة من أبيه الملك العادل حتى يزحف الى خلاط

فبعث الملك الأشرف جيشا كبيرا قبع قرب المدينة ، وحاول بلبان

محاربته ولكنه عجـز عن ذلك وعاد الى خـلاط ليبعـث رسـولا الى صاحب ارضروم مغيث الدين بن قلج أرسلان ليستنجده ، فاستجاب له واقبل ليحارب مع بلبان الملك الاوحد مـع أخيه حتـى تـم النصر لهما ، فزحفا الى موش لاحتلالها.

ولكن مغيث الدين خان بلبان وقتله ليستولي على خلاط ، وعندما توجه إلى المدينة ليتولاها وجد أبوابها مغلقة في وجهه ، فتحـول الى منازكرد ، ولكن اهلها قاوموه ايضا ممـا جعله ييأس ويجـر ذيول الخيبة الى بلده ، ثم إن أهل خلاط استدعوا الملك الأوحد وسـلموه المدينة ليتولاها.

اضطرابات في خلاط

وكان الولاة العرب المجـاورين يتخـوفون مـن الملك العـادل فلم يرضهم ان يتولى ابنه المدينة فراحوا لذلك يغزون الخلاطيين وخاصة الكرج ، فقام بعض الأمراء الخلاطيين بانقلاب على الأوحد ، واحتل اهم قلعة هناك وهي قلعـة (وان) اضـافة الى أرجيش ، وبعـد تدخل الأشرف أخي الملك الأوحد استطاع هذا الأخير أن يسـترجع قلعة وان ، ولكنه لما خرج فيما بعد الى منازكرد لينظمهـا كمـا يريد ثار الخلاطيون من زعماء الصفوف وكانوا قد استاءوا لتسليم المدينة الى اصحاب العادل فـطردوهم مـن المدينة وقـاموا بمحـاصرة القلعة ، فما كان من الملك الأوحد الا أن جاء الى خـلاط في جيوش مابين النهرين واحتل المدينة بعد أن دب خلاف بين أهلها وفتك بعدد كبير منهم ، واعتقل العديد ونفاهم الى ميافـارقين ، وهـكذا تـم اخماد حركة زعماء الصفوف الذين كانت أمور العـزل والتـولية في أيديهم .

موت كيخسرو

وفي هذه السنة مات غياث الدين كيسخرو فخلفه ولده عز الدين كيكاوس،الذي قام باعتقال اخيه علاء الدين كيقباذ في قلعة مسارا بأسفل دير مار أهرون في الجبل المبارك قرب ملاطية .

الفرنج في حمص

وفي هذه السنة ايضا قام الفرنج بالزحف الى حمص قادمين من طرابلس فعاثوا الفساد في أرجائها ولم يستطع صاحب حمص أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه الكبير أن يكفهم عن ذلك،وقام القبارصة ايضا بالاستيلاء على بعض السفن العربية واعتقال أصحابها،مما جعل الملك العادل يسير في جيوشه من مصر ليكف الفرنج .

موت صاحب مراغة

وفي السنة ذاتها مات صاحب مراغة علاء الدين بن قرا سنقر ، فخلفه ابنه الصغير ، ولكنه مالبث ان مات أيضا فأقبل صاحب تبريز نصر الدين أبو بكر بن البهلوان واحتل المدينة دون أن يتمكن من قلعة راوند التي قاومه فيها مربي الغلام المتوفى .

زحف الكرج الى مدينة أرجيش

في عام ٦٠٥ للعرب (١٢٠٨) م زحف جيش عرمرم من الكرج الى مدينة أرجيش من ضواحي خلاط فقاموا باحتلالها ونهبها والفتك بأهلها شيبا وشبابا وأسر نسائها وأطفالها ، ولم يتركوها الا خرابا ، ولم يتمكن نجم الدين الأوحد الذي كان في خلاط أن

يقاومهم لكثرتهم ، ولعدم ثقته بالأهالي الذين فتك بهم فيما سلف ، وكان يظن انه لو ترك المدينة لسلمها أهلها الى الكرج .

زلزال في نيسابور

وفي هذه السنة أصاب نيسابور زلزال قوي ، فهرب على أثره جميع السكان متوجهين الى البرية فبقوا عدة ايام حتى ينتهي الزلزال فيعودوا ، كما أنه حصل زلزال آخر في خراسان ، ولكنه لم يكن بالقوة نفسها لزلزال نيسابور .

اتفاق نور الدين ارسلان مع الملك العادل

وفي عام ٦٠٦ للعرب (١٢٠٩) م زوج نور الدين ارسلان صاحب الموصل ابنته لأحد ابناء الملك العادل بعد أن تم الصلح بينهما ، واتفقا على انتزاع مدينة سنجار من صاحبها قطب الدين ليتولاها العادل ، كما اتفقا على احتلال جزيرة قردو (٣١) من صاحبها ابن سنجر شاه ليتولاها نور الدين ارسلان ، ولكن نور الدين بعد ان فكر مليا ندم على ماخطط لانه ايقن انه سينتزع منه سنجار والجزيرة ان احتلهما بل وينتزع منه الموصل ايضا ، وعندما شاور اصحاب الرأي لاموه جميعا ، اذ لم يطلعهم على اتفاقه السري مع الملك العادل ، ونصحوه بأن ينجز وعده للعادل كيلا يعد ذلك نقضا للعهود فيقيم عليه الحجة ، وبينما كان نور الدين في حيرته هذه ويتظاهر بتهيئة جيش ليرسله الى نصرة الملك العادل أتاه ليلا رسول من صاحب اربيل مظفر الدين كوكبري يعده بأنه سيوافي اليه بجيوشه ليتفقا معا على الملك العادل ويحولا دون تمكنه من تلك البلاد ، فرضي بذلك نور الدين مبتهجا وعاهد على ذلك فعاد الى الخليفة يحثه على تعنيف العادل بسبب طمعه ، كما بعث رسولا الى صاحب حلب الملك الظافر بن صلاح الدين والى السلطان عز الدين كيكاوس ووعدهم بالمعونة ، اضافة الى أن أصحاب العادل لم

يحاربوا سنجار بشدة وخاصة أسد الدين صاحب حمص الذي كان يبعث علنا الى المدينة مؤنا مختلفة ، وتشجع صاحب سنجار على التشبث بمدينته بعد أن كان مستعدا لتسليمها ، وأخذ بدلا منها ، ثم جاء الى الملك العادل رسول الخليفة الناصر فوبخ العادل على طمعه مما جعله يعقد الصلح ويكتفي بالخابور ونصيبين ويعود الى سورية

مظفر الدين والملك العادل

وكان صاحب إربيل مظفر الدين وقتئذ في الموصل فقام بتزويج ابنتيه الى ابني نور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي ، على أنه فيما سلف ، كان مظفر الدين يساند أصحابه العادل ، لكن الحال تغيرت بعد ان ارسل اليه صاحب سنجار ابنه راجيا أن يراجع العادل ليدعه في مركزه ، فكتب اليه في هذا الشأن وكله ثقة أن طلبه لن يخيب عند العادل مهما كان ولكن العادل غض طرفا عن طلبه مما دعا مظفر الدين أن يرتاب وينضم الى نور الدين على الرغم من المشادة التي كانت بينهما ...

وفاة نور الدين ارسلان

وفي السنة ذاتها توفي صاحب الموصل نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر ، وكان قويا عادلا تخافه رعيته ، وسلاطين عصره ، ولما حانت وفاته استحلف زعماءه من أجل ابنه الكبير الملك القاهر عز الدين مسعود ، وولى ابنه الصغير عماد الدين زنكي قلعتي العقر وشوش مع اصقاعهما ، وجعل لهما وصيا مملوكه (بدر الدين لؤلؤ) وكان رجلا حكيما ذا هيبة يستحق هذا المنصب،وعندما استفحل المرض على نور الدين اقترح عليه الأطباء ان يسبح في عين دير القديس زينا في سواحل دجلة (٣٢)

فذهب مع بدر الدين وسبح هناك الا انه لم يستفد من ذلك اذ كان مرضه مميتا ، وماكاد بدر الدين يركبه في السفينة ليرجعه الى الموصل حتى سبقته المنية وكان معهما مملوكان فحسب ، فحملوه في الليل الى بيته دون اشعار احد ، وبقي بدر الدين طوال النهار مشغولا بتصريف الامور الضرورية حتى الساعة التاسعة وعندها اعلن نبأ وفاته ، فشيعوه ليلا ودفنوه في قبر اعد من قبل تجاه منزله ، وخلفه ابنه الملك القاهر ، وامست ازمة أمور الولاية بيد بدر الدين.

وفي عامي ٦٠٨ ـ ٦٠٩ للعرب (١٢١٢ ـ ١٢١٣ م) لم نجد اي خبر هو أهل لأن يذكر

الحواشي والهوامش

حواشي المؤرخ الرهاوي المجهول .
١ - أي السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) .
٢ - أمير الجيوش الافضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي ثاني الملوك الارمن الذين تحكموا بالخلافة الفاطمية في مصر ، اغتيل سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م .
٣ - من كبار قادة التركمان الذين دخلوا الشام ، تعاون مع تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق ، واستقر فترة في القدس ، وبعد استرداد الفاطميين للقدس ، ترك الشام إلى الجزيرة حيث أسس أولاده عددا من الامارات ، وكان تاريخ الامارات الارتقية موضوع إطروحة للدكتور عماد الدين خليل ، نشرت في بيروت ١٩٨٠ .
٤ - أي الخلافة الفاطمية مع من دان لها بالطاعة والولاء
٥ - الرها هي إديسا في السريانية ، وهي أورفا الحالية داخل الاراضي التركية مقابل الحدود السورية ، تمتعت بمكانة تاريخية كبيرة ، ويشير المؤرخ هنا إلى حملة السلطان ألب أرسلان عليها ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م . انظر كتابي « مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ط دمشق ١٩٧٥ ص ١٤٠ - ١٤١ .
٦ - يريد به الامبراطور البيزنطي
٧ - حول أول التفاصيل عن علاقات الامبراطور الكسيوس بقادة الحملة الأولى انظر ما كتبته الاميرة آنا كومينا
٨ - فراغ بالأصل السرياني المخطوط
٩ - يشير هنا إلى ما حل بالقوات التي قادها بطرس الناسك .
١٠ - كانت نيقية غير بعيدة عن القسطنطينية ، وكانت حاضرة دولة سلاجقة الروم ، انظر حول سقوطها وما جرى من مشاكل تاريخ الحروب الصليبية تأليف ستيفن رنسمان - ترجمة عربية ط ٠ بيروت ١٩٦٧ ، ١ / ٢٤٩ - ٢٥٩ .
١١ - دخل في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م السلطان ملكشاه مدينة انطاكية حيث الحقها بأملاكه ، وقبل مغادرته لها عين واحدا من ضباطه واسمه يغي سيان ، وهو الذي حاول التصدي للحملة الأولى انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ٢٣٧ - ٢٤٢
١٢ - الحقيقة أن هذا حدث قبل وصول الحملة إلى أنطاكية انظر رنسمان ١ / ٢٨٧ - ٢٩١ .
١٣ - بياض بالأصل .
١٤ - انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٢٣٧ - ٢٤٢
١٥ - انظر المصدر السابق
١٦ - حدث خلاف بين الفرنجة حول انطاكية وادارتها انتهى بتولية بوهيموند - انظر رنسمان ١ / ٣٣٥ - ٣٣٦
١٧ - بلدة قُرَيْبَة من حران من ديار مضر - معجم البلدان
١٨ - تبعد عن البيرة قليلا إلى الشمال ، والبيرة عند ياقوت في معجم بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع .
١٩ - قرية مستطيلة من أعمال سميساط ، ولها عرض صالح ، وفيها سوق ودكاكين وافرة وفيها حصن كبير على قلعة .معجم البلدان .

٢٠ ـ مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم ، وهي قلعة تحت جبل . معجم البلدان .
٢١ ـ كذا والاصح « سليمان بن ملك غازي » كمشتكين بن دانشمند .
٢٢ ـ مدينة على شاطيء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شرق منها يسكنها الارمن . معجم البلدان .
٢٣ ـ مرعش مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق ، والجبل الاسود قريب منها ـ معجم البلدان .
٢٤ ـ عين زربة بلد بالثغور الشامية من ناحية المصيصة ـ معجم البلدان .
٢٥ ـ ماتزال معروفة بهذا الاسم في الجنوب الغربي من تركية على مقربة من الاراضي السورية .
٢٦ ـ هي اضنة حاليا داخل الاراضي التركية على مقربة من الحدود السورية .
٢٧ ـ كذا أي (١١٠٢ م) وهو خطأ والمفروض أن يقول : « ١٤٠٦ » أي ١٠٩٩ م ، ثم القدس لم تسلم بل سقطت عسكريا واقتحمت اقتحاما وتم قتل كل من كان فيها . انظر النصوص المقبلة ، هذا ويلاحظ أن سمة الاختصار واضحة هنا .
٢٨ ـ كان لقيام مملكة القدس اهمية قصوى في تاريخ الحروب الصليبية ، فقد عدت أكبر ممالك الفرنجة في الشرق ، وهددت بنشاطاتها كل من دمشق ومصر ، وظلت هكذا حتى سقطت لصلاح الدين إثر معركة حطين .
٢٩ ـ بني الحصن المذكور على تلة واقعة على الضفة اليسرى لنهر قاديشا كانت تعرف باسم تلة الحجاج ، واسمها الآن تلة أبي سمرة . انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للدكتور سيد عبد العزيز سالم ط الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٨٨ ـ ٩٥ .
٣٠ ـ كذا ومرت أعمال حصار طرابلس بعدة مراحل ، وسقطت لبرتراند بن صنجيل سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ٨٨ ـ ١٢١ .
٣١ ـ انظر زبدة الحلب ٢ / ١٤٣ ـ ١٥١ .
٣٢ ـ انظر زبدة الحلب ٢ / ٢١٠ .
٣٣ ـ عين السلطان ملكشاه بوزان في منصبه ، وقد قتل بوزان من قبل تتش بن ألب ارسلان ، انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٠٤
٣٤ ـ كان هذا سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٠ م . انظر زبدة الحلب ٢ / ١٤٥ .
٣٥ ـ كذا ويعتمد في هذا المقام ما جاء في النصوص الاغريقية واللاتينية والعربية
٣٦ ـ هو وليم التاسع صاحب بوتو .
٣٧ ـ يعرف الآن باسم تل باجر في محافظة حلب .
٣٨ ـ مقدر انها سقطت سنة ١١٠٣ م ، وقد تعرض ابن العبري لهذه الحادثة في تاريخه الكبير بالسريانية ، انظر الترجمة الانكليزية ص ٤٦٣ .
٣٩ ـ ذكر ياقوت سروج وقال عنها هي بلدة قريبة من حران من ديار مضر ، هي الآن داخل الحدود التركية قريبة من الاراضي السورية .
٤٠ ـ سيرد ذكر بلك مرارا في نصوص كتابنا هذا ، وهو نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق مات سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م أمام أسوار منبج .
٤١ ـ توفي سكمان سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . انظر حوله الامارات الارتقية في الجزيرة والشام لعماد الدين خليل . ط بيروت ١٩٨٠ ص : ٢٠٦ ـ ٢١٩ .
٤٢ ـ كان هذا سنة ١١٠١ م
٤٣ ـ في الاصل قربوقاد ، وهو تصحيف زاد به الناسخ حرف « الدال » .
٤٤ ـ هو شمس الدين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر . انظر الكامل لابن الاثير ٨ / ٢١٠ .
٤٥ ـ لم يتحدث مصدر آخر عن هذه الغارة التي قام بها جكرمش على الرها ، ولعل هذه العملية جاءت مقدمة لمعركة البليخ سنة ١١٠٥ م .

٤٦ ـ كركر حصن بين سميساط وحصن زياد ـ خرتبرت أو خربوط ـ معجم البلدان .

٤٧ ـ هو قسطنطين عند ابن العبري .

٤٨ ـ أي سنة ١١٠٧ م .

٤٩ ـ رأس عين الخليل عند نبع نهر البليخ حاليا .

٥٠ ـ في السابع من أيار ١١٠٤ م .

٥١ ـ اعتمد الفرنجة على الفرسان الثقال ، بينما اعتمد التركمان على الفرسان النبالة ، وكان يسددون رماياتهم على مطايا الفرسان الفرنجة ، لهذا عمدوا إلى استخدام ستارة من الرجالة ، وقام تكتيك التركمان الآن على فصل المشاة عن الفرسان والايقاع بكل قوة على حدة ، وأحيل القارىء هنا على التفاصيل التي أوردتها في كتابي « حطين ـ مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس » ط . دمشق ١٩٨٤ .

٥٢ ـ ذكر ابن العديم هذه الحادثة بين وقائع سنة ٥١٧ هـ ، انظر زبدة الحلب . ٢ / ٢١٠ ـ ٢١١ ، وأيضا ذكرها ابن القلانسي . ٢٣٢ ، وعنده وقعت المعركة قرب قنطرة سنجة ، وفي معجم البلدان : سنجة نهر عظيم لايتهيأ خوضه لان قراره رمل سيال كلما وطئه انسان برجله سال به فغرقه ، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة هي إحدى عجائب الدنيا ، وهي طاق واحد من الشط إلى الشط .

٥٣ ـ هو ابن أخ لبوهيموند .

٥٤ ـ نجم الدولة سالم بن مالك العقيلي ، أول من تسلم قلعة جعبر توفي سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م انظر ترجمته في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية . ٤٠٥ ـ ٤٠٧ .

٥٥ ـ نسبة إلى ميخائيل امبراطور بيزنطة .

٥٦ ـ جاولي سقاوة اقطعة السلطان السلجوقي محمد الموصل في محرم سنة ٥٠٠ هـ انظر الكامل لابن الاثير . ٨ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

٥٧ ـ سنة ١١٠٨ م .

٥٨ ـ في الاصل بين كيرهاز ودليك ، والقرية الاولى هي بالعربية كلز ، ذكرها ياقوت وبين أنها قرية « من نواحي عزاز بين حلب وانطاكية ، ودلوك عند ياقوت « بلدة من نواحي حلب بالعواصم » وهي تقع بين كلز وعين تاب .

٥٩ ـ بدأ الحصار في شهر أيار ١١١٠ ، وكان هناك باب في الرها يدعى باب كاساس .

٦٠ ـ كان رجال الفرنجة خاصة الفرسان منهم هواة حرب ، يندفعون إلى المعركة بشكل جنوني دونما مراعاة للنظام والعمل الجماعي ، فجندهم تشكل من مجموعات اقطاعية ، وكان الفارس من بينهم ما أن يمتطي حصانه ويتقلد رمحه حتى يحرك مطيته ويندفع نحو خصومه بشكل صاعق ، وهنا توجب على خصوم الفرنجة الابتعاد من طريقهم حتى تتبدد طاقات الهجوم ، وخير من تنبه لهذا الموضوع وعالجه في العصور الوسطى الامبراطور البيزنطي ليون في كتابه حول التكتيك حيث يقول « يعتقد الفرنجي ان الانسحاب عملا غير مشرف مهما كانت الظروف ، وهو مستعد للقتال متى ما عرضت عليه ذاك ، لذلك يتوجب عليك الا تشتبك به حتى تضمن لنفسك جميع أسباب النجاح ، فالفارس الفرنجي ينقض كالصاعقة ورمحه الطويل مسلط وبيده ترسه الطويل ، وهنا عليك أن تتحاماه ، وإذا أمكن استدرجه نحو الاماكن المرتفعة ، فالفارس الفرنجي أقل فعالية في الهضاب منه في المنبسطات ، وإذا ما عسكرت أمامك جيوش للفرنجة طاولها ولاتشتبك معها ، فقد يمل جندها خلال اسابيع ويركب كل جندي مطيته وينطلق عائدا نحو موطنه ... إنك ستجد الفرنجة لايعتنون بالحراسة والاستطلاع ؛ لهذا سيكون من السهل عليك الايقاع ببعض فئاتهم عن طريق الكمائن أو مهاجمة معسكراتهم ، ولاتعرف قوات الفرنجة أي نوع من الانظمة وكل ما يربطهم لايتعدى يمين الولاء ، والفرنجة يفرقون عادة في لجة من الفوضى فور شروعهم بالحملة على خصومهم ، وعليك هنا التظاهر بالفرار (الفر) ثم الارتداد عليهم ، ومهما يكن الحال إنك ستجد على العموم من الاسهل والاقل كلفة اتعاب قوات الفرنجة وانهاكها بالمناوشات والعمليات

الدفاعية ، ومن ثم محاولة تدميرها بضربة حاسمة » . انظر تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى تأليف أومان ـ ط . نيويورك ١٩٥٣ ص ٣٤ (بالانكليزية).

٦١ ـ هذا هو الحصار الثاني للرها من نيسان حتى حزيران لسنة ١١١٢ .

٦٢ ـ سنة ١١١٣ م .

٦٣ ـ جرى اغتياله في مسجد دمشق في يوم الجمعة الاخيرة من ربيع الاخر سنة ٥٠٧ هـ / ١٥ تشرين الاول ١١١٣ م وكان مغتاله من الحشيشية ، ولربما كان لكل من رضوان بن تتش وطغتكين دور في ذلك . انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٢٩٨ ـ ٩٩ ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٦٤ ـ في كانون أول عام ١١١٣ م .

٦٥ ـ كان هذا سنة ٥١١ هـ / ١١١٨ م . انظر زبدة الحلب . ٢ / ١٨١ ـ ١٨٦ .

٦٦ ـ هي « مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم » معجم البلدان .

٦٧ ـ كان هذا سنة ١١١٣م .

٦٨ ـ ١٠ كانون أول سنة ١١١٣ ، انظر ترجمته بين نصوص كتابنا هذا .

٦٩ ـ سنة ١١١٤ م ، وللبرسقي ترجمة مطولة بين نصوص كتابنا هذا .

٧٠ ـ في أيلول سنة ١١١٥ م ، وكان قائد المسلمين في هذه السنة برسق بن برسق انظر الكامل : ٨ / ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

٧١ ـ ذكرها ياقوت في معجمه وقال عنها « بلد قرب سمسياط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع .

٧٢ ـ اي سنة ١١١٨ م .

٧٣ ـ أراد امتلاك مصر ، بلغ حتى تنيس » وسبح في النيل وانتقض جرح كان به » ابن الاثير : ٨ / ٢٨٤ .

٧٤ ـ هنزيط عند ياقوت من الثغور الرومية ، وخرتبرت اسم ارمني لحصن زياد في أقصى ديار بكر « بينه وبين ملطية مسيرة يومين ، وبينهما الفرات » . معجم البلدان

٧٥ ـ معروفة حتى الآن بهذا الاسم من أعمال حلب .

٧٦ ـ اي عام ١١١٩ م .

٧٧ ـ سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م . انظر تاريخ دمشق ٣١٩ ـ ٣٢٠ ، الكامل لابن الاثير : ٨ / ٢٨٨ ـ ٢٨٩ . زبدة الحلب : ٢ / ١٨٧ ـ ١٩٠ • الامارات الارتقية : ٢٤٣ .

٧٨ ـ كان هذا في آب سنة ١١١٩ م .

٧٩ ـ في سنة ١١٢٠ .

٨٠ ـ في أيار سنة ١١٢٠ م .

٨١ ـ كذا في الاصل ، والمقصود هنا الكرج ، لكن المؤلف استخدم هنا المصطلح على أساس خضوع شعوب ما وراء أرمينية سابقا إلى امبراطورية الخزر التي اعتنق ملوكها اليهودية ، وقد اتى المؤرخون المسلمون على ذكر هذه الواقعة وافضل تفاصيل حولها في الجزء غير المنشور من تاريخ ميافارقين ، وقد اثبت رواية هذا الكتاب في حاشية تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٣٢٦ ـ ٣٢٨ فلتنظر .

٨٢ ـ انظر تاريخ دمشق . ٣٣٠ ـ ٣٣١ حيث ـ في الحاشية ـ رواية صاحب تاريخ ميافارقين .

٨٣ ـ جرى حذف هنا فقرتين تختصان بالشؤون الاغريقية .

٨٤ ـ المشار إليه هنا قلج أرسلان الاول من سلاجقة الروم

٨٥ ـ كانون أول عام ١١٢٤ م .

٨٦ ـ قرب بحيرة وان في تركيا حاليا ماتزال تحمل الاسم نفسه.

٨٧ ـ آب ١١٢٣ م .

٨٨ ـ في زبدة الحلب ٢ / ٢١٣ « وسيرهم الى حران وحبسهم بها » .
٨٩ ـ من المفيد مقارنة معلومات المؤرخ المجهول مع ما أورده ابن العديم في زبدة الحلب ٢ / ٢١٤ ـ ٢١٥ .
٩٠ ـ عام ١١٢٤ م
٩١ ـ إن ما أورده ابن العديم في زبدة الحلب . ٢ / ٢١٦ ـ ٢١٩ حول ملابسات مصرع بلك أوضح وأكثر تفصيلا
٩٢ ـ من المفيد العودة الى رواية ابن القلانسي بين نصوص كتابنا هنا ، وكان هذا كله عام ١١٢٤ م .
٩٣ ـ ذكر ابن العديم في الزبدة ٢ / ٢١٧ ان بلك نقل الاسرى من سجن حران إلى سجن حلب
٩٤ ـ نحيل القارىء هنا على ترجمة البرسقي بين نصوص كتابنا هذا ، انظر أيضا زبدة الحلب . ٢ / ٢٣٥ ، هذا ويلاحظ ان الفقرة وضعت في غير مكانها فقد توجب تأخيرها إلى ما بعد الحديث عن حصار حلب .
٩٦ ـ كذا ويمزج المؤلف هنا بين وفاة اق سنقر البرسقي التي سبق له أن ذكرها وبين وفاة ابنة مسعود في الرحبة ، انظر زبدة الحلب ٢ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧
٩٧ ـ نهاية عام ١١٢٦ م .
٩٨ ـ ذكرها ياقوت فقال عنها : « قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب ، وفي منطقة جرابلس التابعة الآن لمحافظة حلب قرية اسمها أعزن
٩٩ ـ الياغسياني من كبار رجال دولة زنكي ، له ذكر كبير أيامه وفي أيام نور الدين من بعده
١٠٠ ـ هذا وهم فقد مات مسعود صاحب أصفهان سنة ١١٥٢ ، ولم يتسلم اخوه سليمان السلطة إلا عام ١١٥٩ .
١٠١ ـ أي السن عند ملتقى الزاب الأدنى بنهر الفرات ، وكان ذلك سنة ١١٢٩ م .
١٠٢ ـ عملية الحصار تمت ضد رفنية (أو بعرين أو بارين) وليس ضد حصن الاكراد ، انظر الباهر في الدولة الاتابكية لابن الأثير ٠ ٥٩ ـ ٦١
١٠٣ ـ لعل ذلك كان ١١٣٦ م
١٠٤ ـ عين الدولة بن غازي ، وقد أولد فرعا من فروع أسرة الدانشمند في ملاطية توفي سنة ١١٥١ م .
١٠٥ ـ أي الثغر ، وهي تسمية اطلقت في المشرق على الاراضي المجاورة للاراضي البيزنطية
١٠٦ ـ جيش السلطان مسعود ، سلطان قونية سنة ١١٣٧ م .
١٠٧ ـ عام ١١٣٨ م .
١٠٨ ـ العام نفسه ١١٣٨ م .
١٠٩ ـ الياغسياني .
١١٠ ـ هو محمد بن دبيس ، ذلك أن دبيس سبق أن قتل عام ١١٢٩ .
١١١ ـ كان هذا هو المطران المسؤول .
١١٢ ـ هو جقر بن يعقوب ، انظر تفاصيل المؤامرة في الموصل في الباهر ٧١ ـ ٧٢ ، تاريخ دمشق لابن القلانسي ٠ ٤٣٧ ـ ٤٤٠ .
١١٣ ـ حذفت هنا قصة البئر .
١١٤ ـ اقليم ميديا هو اقليم الجبل عند العرب ، وقاعدته همذان
١١٥ ـ نهر مراد صو شرقي الفرات .
١١٦ ـ في أراضي مستنقعات العمق شرقي نقطة اتصال قره صوبها ، بجوار دربساك ، ويلاحظ أن المؤرخين العرب ـ فيما عدا ابن القلانسي ـ يجعلون هذه المعركة نصرا لنور الدين ، انظر تاريخ دمشق : ٤٧٠ ، زبدة الحلب : ٢ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ، الكامل لابن الاثير : ٩ / ٣٢ ، الروضتين . ١ / ٥٥ ، الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبه : ١٣٠ .

١١٧ ـ ترد في بعض النصوص شيخ الدير ، وهي الآن قرية كردية اسمها شادر . انظر زبدة الحلب : ٢ / ١٣٥ .

١١٨ ـ يحسن مقارنة هذه الرواية بما أورده ابن العديم في زبدة الحلب : ٢ / ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

١١٩ ـ كذا والاسم الصحيح ريناله أوف شاتيلون (أرناط) ، وقد تزوج في عام ١١٥٣ من كونستانس ابنة بوهيموند ، أرملة ريموند بواتيو (بيتابين) .

انظر تاريخ وليم الصوري (ترجمة انكليزية) : ٢ / ١٩٨ ـ ٢٠٠ . ابن القلانسي : ٣٧٢ ـ ٣٧٣ . الباهر لابن الأثير : ٩٨ ـ ١٠٠ .

١٢٠ ـ هو بوهيموند الثالث ابن ريموند بواتيو .

١٢١ ـ في الاصل أرنلد وهو الرسم الارمني لريناله.

١٢٢ ـ من أجل تفاصيل موازية انظر الباهر : ١٢٢ ـ ٣١ب . زبدة الحلب ٢ / ٣١٨ ـ ٣٢١ والمراد ببانياس هنا بانياس دمشق .

١٢٣ ـ مقارنة عامة مع مواد تاريخ ابن العبري المطول بالسريانية اعتمادا على الترجمة الانكليزية .

١٢٤ ـلم يستعمل ابن العبري كتاب المؤرخ المجهول ، فهو يتحدث عن الرشوة التي أعطيت الى ملك القدس على يد أهالي دمشق ، ويضيف إنني لم أجد هذه الرواية في خمسة كتب عربية مختلفة ، ولكن وجدتها في كتاب ميخائيل فقط ، وحتى عندما يتفق مع ما قاله المؤرخ السرياني المجهول نراه يضيف تفاصيل .

حواشي ميخائيل السوري ·

١ ـ كذا بالاصل وتضبط المدد والتواريخ وتصحح على ما جاء بالاصول الاخرى المعتمدة خاصة رواية أنا كومنا والمؤرخ الفرنجي المجهول صاحب اليوميات حول الحملة الاولى .

٢ ـ كتب مترجم أو ناسخ مخطوطة صدد هذه الحاشية : « فان لزام اليوم اسمها عين العروس ، وهي قبلي حران باربع ساعات ، ونهر بليخا يطلع منها ويسموه البليخ ، وفي وسط الماء يصير زهر اصفر اسمه نيلوفر » .

٣ ـ مزج المصنف هنا بينهم وبين الاسبتارية .

٤ ـ كذا وهو وهم صوابه ايلغازي بن أرتق .

٥ ـ هو فخر الدولة أبو المظفر بن نظام الملك ، اغتيل عام ٥٠٠ ، انظر المنتظم لابن الجوزي · ٩ / ١٤٨ .

٦ ـ في ابن الاثير : ٨ / ٢٤٨ ـ حوادث ٥٠١ ـ « وعبر عسكر السلطان دجلة ولم يعبر هو فصاروا مع صدقة على أرض واحدة بينهما نهر » . وفي مرآة الزمان ـ ط . حيدر أباد ١٩٥١ : ١ / ١٦ : « وفي موضع يقال له يغانيا » .

٧ ـ نقل السوري هذه الاخبار بايجاز وتداخل ، وامكن التقويم على ما أورده ابن الاثير في الكامل · ٨ / ٢٦١ (حوادث سنة أربع وخمسمائة) حيث التشابه كبير .

٨ ـ هو سكمان القطبي ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي . ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ .

٩ ـ اغتيل سنة ٥٠٧ ـ انظر ابن القلانسي . ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

١٠ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير · ٨ / ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ـ حوادث سنة ثمان وخمسمائة

١١ ـ انظر لمزيد من التفاصيل ابن الاثير : ٨ / ٢٦٦ ـ ٣٠٨ ، وكانت وفاة ايلغازي سنة ٥١٦هـ ·

١٢ ـ تساوي سنة ١٤٣٦ يونانية سنة ١١٢٥ م ، وكان المستظهر قد توفي سنة ١١١٨ م ·

١٣ ـ كذا بالاصل وكان صدقة قد قتل سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م وخلفه ابن دبيس بن صدقة وهو المقصود هنا .

١٤ ـ كذا والصحيح الموصل ، وحدث هذا كما اسلفنا سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، ويلاحظ قلة الدقة لدى السرياني في ضبط تواريخ الاحداث .

١٥ ـ لاتتوافق تفاصيل هذه الرواية مع ما أورده ابن الاثير في الكامل ٨٠ / ٣٢٤ ـ حوادث سنة ٥٢١ هـ ـ

١٦ ـ يلاحظ ان السرياني يكرر رواياته .

١٧ ـ هذه الرواية تنقصها الدقة والتفصيل قارنها برواية زبدة الحلب · ٢ / ٢٤١ ـ ٢٤٢ ·

١٨ ـ لم يوضح السرياني اسم هذه القلعة او اسم صاحبها ، ومعروف أن زنكي قد تزوج من ابنة رضوان بن تتش ، وكان رضوان صاحب قلعة حلب ·

١٩ ـ ابو علي طاهر بن سعد المزدقاني ، وتفاصيل الواقعة رواها ابن القلانسي في تاريخ دمشق ٣٥٠ ـ ٣٥٦ وحدث ذلك سنة ٥٢٢ هـ ، وفي هذا مثال جديد على عدم تقيد السرياني بدقة التواريخ .

٢٠ ـ لايمكن الركون إلى هذه الرواية لامن حيث التفاصيل ولامن حيث التاريخ قارن للتدقيق الكامل لابن الاثير : ٨ / ٣٥٦ ـ ٣٥٧ . ابن القلانسي : ٤٨ . اتعاظ الحنفا للمقريزي · ٣ / ١٥٥ ـ ١٦١ .

٢١ ـ لمزيد من التفاصيل والضبط انظر الباهر لابن الاثير فيمايلي بين نصوص موسوعتنا .

٢٢ ـ تضبط هذه الرواية على ترجمة دبيس بن صدقة في كتابنا هذا وعلى ماأوردت ابن القلانسي ٣٦٦ ـ ٣٦٨ .

٢٣ ـ انظر الباهر ايضا
٢٤ ـ لمزيد من التفاصيل والضبط انظر ابن القلانسي : ٤٠٨ ـ ٤١٠ .والباهر ايضا .
٢٥ ـ كان بظاهر مدينة ديار بكر ، قامت مكانه قرية يقال لها قره كليسيا . انظر اللؤلؤ المنثور لاغنا طيوس افرام الاول . ط . دمشق ١٩٨٧ ص ٥١٢ .
٢٦ ـ بلده داثرة كان موقعها الشمالي بيرة جيل (البيرة) على نهر قرزمان احد فروع نهر الفرات ويقال له موزيمان . اللؤلؤ المنثور : ٥١٧ .
٢٧ ـ حدث هذا سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ . انظر التفاصيل عند ابن القلانسي ٤٢١ ـ ٤٢٢ .
٢٨ ـ إلى الشمال الشرقي من ماردين على بعد مرحلة منها اللؤلؤ المنثور ٥١٧
٢٩ ـ اشار ابن الاثير في الباهر إلى نشاط زنكي في ديار بكر سنة ٥٣٨ وأوضح انه فتح عدة بلاد منها . مدينة طنزة واسعرد ، وملك مدينة المعدن التي يعمل منه النحاس من ارمينية ومدينة حيزان وملك ايضا حصن الزرق وحصن فطليس وحصن باتاسا ، حصن ذي القرنين ، وورد هذه الاسماء في الكامل : ٩ / ٧ بشكل مخالف ، فتعذر على هذا امكانية ضبط الاسماء هذه .
٣٠ اوفده البابا انوسنت الذي جاء بعد هونيروس انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري بترجمتي ـ ط بيروت ١٩٩٠ ٢٠ / ٧١٦ ـ ٧٢١ .
٣١ ـ في ارض كرر ـ هنا ماأوضحه المؤرخ السرياني المجهول .
٣٢ ـ إلى الجنوب من جبل سمعان . اللؤلؤ المنثور ٥١٠ .
٣٣ ـ اشهر ديرة طور عبدين . اللؤلؤ المنثور . ٥١٢ .
٣٤ ـ طور عبدين جبل مشرف على نصيبين ، وكورة كثيرة الديرة والصوامع قصبتها بلدة مديات . اللؤلؤ المنثور . ٥١٧ .
٣٥ ـ كونراد ملك النمسا ، وانظر المزيد من التفاصيل في النصوص المقبلة
٣٦ ـ لويس السابع ١١٣٣ ـ ١١٨١ .
٣٧ ـ مدينة في نواحي ملطية اللؤلؤ المنثور . ٥١٨ . وارجح انها قلونية ، وقلونية اسم حصن كان بقرب ملطية ـ المرجع نفسه ص ٥١٨ .
٣٨ ـ عند ابن العبري : زوجته
٣٩ ـ سقط في مطلع الخبر .
٤٠ ـ سقط بالاصل الم بمطلع رواية الاتفاق بين عموري ملك القدس وشاور
٤١ ـ عز الدولة نصر بن نيسان انظر خبره في قطعة اخبار الاراتقة من تاريخ ميافارقين لابن الازرق ، واكل من قرن ماردين معجم البلدان
٤٢ . سقط بالاصل .
٤٣ ـ من المدهش صدور هذا كله عن ميخائيل السوري ، والمثير هنا ليس تعصبه بقدر جهله بالاسلام وعزوه اشياء الى القران الكريم والصاق دعوى النبوة بذور الدين .
٤٤ ـ سقط بالاصل .
٤٥ ـ اي رئيس الشمامسة
٤٦ ـ سقط بالاصل
٧ ـ اي كونت فلاندر انظر تفاصيل الخبر في تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ، ترجمتي ـ ط بيروت ١٩٩٠ ٢٠ ص ١٠٠٥ ـ ١٠٠٧
٤٨ ـ انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ج ٢ ص ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨ .
٤٩ ـ ترجم له صاحب اللؤلؤ المنثور ص ٣٢٩ ـ ٣٣١ واوضح انه توفي سنة ٨١٧ م .
٥٠ ـ ارزون مدينة كبيرة كانت على مقربة من بدليس اللؤلؤ المنثور ٥٠٤
٥١ ـ في جبل سنجار . اللؤلؤ المنثور ٥١٠
٥٢ ـ انظر ترجمته في اللؤلؤ المنثور ٣٨٢ ـ ٣٩١
٥٣ ـ مجلد او مجموع عام يتضمن صلوات وادعية .

٥٤ ـ لمزيد من الايضاح انظر اللؤلؤ المنثور ٤٩٤ ـ ٣٩٧ .

٥٥ ـ بظاهر مدينة ديار بكر مسيرة ساعة ونصف الساعة عنها ، اطلالة الان قرب قرية تدعى قره كاسيا . اللؤلؤ المنثور ٥١٣

٥٦ ـ للتدقيق الزمني لهذه الهزيمة التي الحقهاقلج ارسلان بالامبراطور مدويل ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ٩٨٧ ـ ٩٨٨ .

٥٧ ـ بقرب تل موزل . اللؤلؤ المنثور ٥١٢

٥٨ ـ على مقربة من تل غرب اللؤلؤ المنثور ٥٠٥

٥٩ ـ تحدثت المصادر العربية عن صراع مع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وعن انتزاع تقي الدين لمدينة حاني انظر الكامل لابن الاثير ٩/ ٢١٢ ـ ٢١٣ (حوادث سنة ٥٨٧ هـ) مفرج الكروب ٢ / ٣٧٥ ، ٣٧٦

حواشي تاريخ ابن العبري:

١ ـ كذا بالأصل ، وكان الفرنجة قد استولوا على طرسوس والمصيصة وأذنة قبل الاستيلاء على انطاكية ولعل هناك تصحيف صوابه · طرطوس وبانياس واللاذقية .

٢ ـ لم يحتلها هو بل ابنه برتراند في سنة ٥٠٢ هـ . انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للسيد عبد العزيز سالم . ط . الاسكندرية ١٩٦٧ ص ١١٣ ، ١٢٣ .

٣ ـ في الموصل .

٤ ـ بلد غناء بين حلب وانطاكية . معجم البلدان .

٥ ـ كان ابو الفرج الملطي من اتباع المؤمنين بالطبيعة الواحدة ، مثله مثل برصوم هذا ، وكان المجمع الخلقيدوني المسكوني المنعقد عام ٤٥١ م . بحضور ستمائة وستة وثلاثين أسقفا قد أصدر أمرا بحرمان برصوما .

٦ ـ بلدة في كورة كركر (جرجر) إلى الجنوب الغربي من ديار بكر وبينهما يومان اللؤلؤ المنثور : ٥١٧ .

٧ ـ كان على ضفة الفرات اليمنى بقرب كركر . اللؤلؤ المنثور ص ٥٠٧ .

٨ ـ مدينة في نواحي ملطية . اللؤلؤ المنثور : ٥١٨ .

٩ ـ بلد من نواحي ديار ربيعة ثم من شبختان شمالي غربي ماردين ـ اللؤلؤ المنثور : ٥٠٥ .

١٠ ـ قلعة وبليدة شمالي ميافارقين . اللؤلؤ المنثور ، ٥٢٠ .

١١ ـ على ضفة الفرات بالقرب من خربوط (حصن زياد) اللؤلؤ المنثور · ٥٠٥ .

١٢ ـ كونراد ملك الالمان وامبراطورهم .

١٣ ـ لويس السابع (١١٣٣ ـ ١١٨١) .

١٤ ـ من أبيرة كورة مرعش . اللؤلؤ المنثور : ٥١٣ .

١٥ ـ جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني وزير الاتابكة بالموصل . انظر الباهر لابن الاثير · ١١٨ .

١١٦ ـ انظر حول نسب الأسرة الايوبية كتاب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد بن ابراهيم الحنبلي ط بغداد ١٩٧٨ ص ٢١ ـ ٢٣ .

١٧ ـ لني قلعة حصينة ، ومدينة بأرض ارمينية بين خلاط وكنجة . معجم البلدان .

١٨ ـ انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري · ٢ ص ١٠٠٨ ـ ١٠١١ .

١٩ ـ فرقة من الجند التركمان .

٢٠ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري : ١٠٣٠ ـ١٠٣٦ . ونصوصنا المقبلة عن الحملة الرابعة

٢١ ـ تل بسمة بلدة في نواحي ديار ربيعة على مقربة من شبختان شمالي غربي ماردين . اللؤلؤ المنثور . ٥٠٥ .

٢٢ ـ ايزابيل اخت بلدوين الرابع ووالدة بلدوين الخامس تزوجت بغي اوزنفنان وجعلت منه ملكا على القدس . انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ص ١٠٧٢ ـ ١٠٧٦ .

٢٣ ـ هنا وهم فزوجة ريموند صاحب طرابلس هي التي كانت في طبرية .

٢٤ ـ هذا الظن قائم على وهم ، انظر ماسيأتي من مواد عن الحملة الثالثة ، لا سيما ذيل تاريخ وليم الصوري .

٢٥ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير ٩ /٢٢٢ ـ ٢٢٣ ـ حوادث سنة ٥٨٨ هـ

٢٦ ـ لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الاثير ٩ / ٢٢٨ ـ ٢٢٩ (حوادث سنة ٥٨٩) .

٢٧ ـ انظر الكامل لابن الأثير : ٩ / ٢٢٨ ـ حوادث سنة ٥٨٩ .

٢٨ ـ اي المستشار الألماني . انظر ما سيأتي حول الحملة الثالثة .

٢٩ ـ جنوبي ماردين بينهما فرسخان ، كانت فيما مضى مدينة عظيمة اما هي الآن فمجرد قرية اسمها قوج حصار . اللؤلؤ المنثور . ٥١٦

٣٠ - أي جزيرة ابن عمر .

٣١ - في الكامل لابن الأثير : ٩ / ٣٠٤ (حوادث سنة ٦٠٧ هـ) ، أمره الأطباء بالانحدار إلى الحامة المعروفة بعين القيارة ، وهي بالقرب من الموصل » .

المحتوى